



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



ارسلنا
عليكم يا صابغ
الرماد

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

آية الله العظمى شهاب الدين محمد

تكملة التلخيص

شرح مختصر على شرح التلخيص

مكتبة دار الفقه
إصدار المجلس العلمي

الجزء ١-١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٣٤	نفتح الولايه (شرح عصرى جامع لنهج البلاغه)
١٣٤	اشاره
١٣٥	المجلد ١
١٣٥	اشاره
١٣٩	الدافع الرئيسى لتأليف هذا الكتاب
١٤٣	السيد الرضى جامع نهج البلاغه
١٤٣	اشاره
١٤٣	أساتذه السيد الرضى
١٤٤	تلامذه السيد الرضى
١٤٥	كتب ومؤلفات السيد الرضى
١٤٥	السيد الرضى والشعر
١٤٦	القابه ومناصبه
١٤٧	وفاه السيد الرضى
١٤٩	كلام بشأن نهج البلاغه وصاحبه
١٤٩	اشاره
١٥١	١- فصاحه النهج وبلاغته
١٥٧	٢- المضامين الرصينه الشامله لنهج البلاغه
١٥٧	اشاره
١٥٩	مصدق لقوله تعالى: «وتوا الكتاب» «فصل الخطاب»
١٦١	٣- جاذبه نهج البلاغه الخارقه
١٦١	اشاره
١٦٣	أقوال العظماء بشأن جاذبيه نهج البلاغه
١٦٥	أسناد نهج البلاغه

١٦٨	شروح نهج البلاغه
١٧١	مقدمه السيد الشريف الرضى رحمه الله
١٧١	لماذا جمعت نهج البلاغه
١٧٥	الخطبه الاولى
١٧٥	اشاره
١٧٥	نظرة إلى الخطبه
١٧٧	القسم الأول: بعد العقول عن معرفه الذات الإلهيه!
١٨٣	القسم الثانى: توحيد الذات والصفات
١٩١	القسم الثالث: ليس كمثل شىء
١٩١	اشاره
١٩٥	تأملات
١٩٥	اشاره
١٩٥	١ - علاقه الخلق بالخالق ومسأله «وحده الوجود»!
١٩٨	٢ - انحراف الجهال عن حقيقه صفات الله
٢٠٠	٣ - نفي الحدوث الذاتى والزمانى للذات القدسيه
٢٠١	٤ - هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟
٢٠٣	القسم الرابع: تصدر الكلام بشأن خلق العالم
٢٠٣	اشاره
٢٠٧	الهدايه الفطريه والتكوينييه لكافه موجودات العالم
٢٠٨	تأملان
٢٠٨	١ - هل يصطلح بالعارف على الله؟
٢٠٩	٢ - كيفيه علم الله بالموجودات قبل ايجادها
٢١٣	القسم الخامس: كيفيه بدايه خلقه العالم
٢١٣	اشاره
٢١٤	تأمل: هل العالم المادى حادث؟
٢١٧	القسم السادس: الماء كان أول مخلوق

- القسم السابع: دور العواصف في انبثاق الخلقه ٢٢١
- اشاره ٢٢١
- تأملات ٢٢٣
- ١ - دراسه العبارة على ضوء الفرضيات المعاصره ٢٢٣
- ٢ - كيفيه ظهور العالم ٢٢٥
- ٣ - الفرضيات السائده بشأن العالم أبان نزول القرآن ٢٢٦
- ٤ - ما المراد بالسموات السبع؟ ٢٢٨
- ٥ - كيفيه علم الإمام عليه السلام بهذه الأمور ٢٣٠
- القسم الثامن: عالم الملائكه ٢٣١
- اشاره ٢٣١
- تأملات ٢٣٦
- ١ - ماهيه الملائكه! ٢٣٦
- ٢ - أصناف الملائكه ٢٣٨
- ٣ - العرش وحملته ٢٣٩
- ٤ - عصمه الملائكه ٢٤١
- ٥ - مقام معرفه حمله العرش ٢٤٢
- القسم التاسع: خلق آدم عليه السلام ٢٤٣
- اشاره ٢٤٣
- مراحل خلقه آدم عليه السلام من الناحيه الجسميه والروحيه ٢٤٤
- تأملات ٢٤٨
- ١ - خلق آدم عليه السلام ٢٤٨
- ٢ - التركيب المزدوج للجسم والروح ٢٥٠
- ٣ - الإنسان، أعجوبه عالم الكون ٢٥١
- القسم العاشر: بدايه انحراف ابليس ٢٥٢
- اشاره ٢٥٢
- تأملات ٢٥٦

- ٢٥٦ - عظمه مقام الإنسان ١
- ٢٥٦ - كيف كان السجود لآدم؟ ٢
- ٢٥٧ - أسئلته واستفسارات بشأن خلق الشيطان ٣
- ٢٦٠ - تبريرات جوفاء ٤
- ٢٦٣ - القسم الحادى عشر: عاقبه آدم القسم الحادى عشر: عاقبه آدم
- ٢٦٣ - اشاره اشاره
- ٢٦٦ - تأملات تأملات
- ٢٦٦ - ١ - ما كانت جثته آدم؟ ١
- ٢٦٧ - ٢ - هل اقترف آدم معصيه؟ ٢
- ٢٦٩ - ٣ - ما حقيقه الشجره المحظوره؟ ٣
- ٢٧٠ - ٤ - الكلمات التى تاب الله بها على آدم عليه السلام. ٤
- ٢٧٣ - القسم الثانى عشر: بعثه الأنبياء وعظم مسؤوليتهم القسم الثانى عشر: بعثه الأنبياء وعظم مسؤوليتهم
- ٢٧٣ - اشاره اشاره
- ٢٧٨ - تأملات تأملات
- ٢٧٨ - ١ - الأنبياء بمثابه المزارعين ١
- ٢٧٨ - ٢ - حوادث الاعتبار واليقظه ٢
- ٢٧٩ - ٣ - دور الدين فى الحياه ٣
- ٢٨٠ - ٤ - لا تخلو الأرض من حجه ٤
- ٢٨١ - ٥ - مميزات الأنبياء ٥
- ٢٨٣ - القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام
- ٢٨٣ - اشاره اشاره
- ٢٨٥ - تأملان تأملان
- ٢٨٥ - ١ - الأديان قبل البعثة البنيه ١
- ٢٨٨ - ٢ - آفاق الأنبياء المستقبليه ٢
- ٢٨٩ - القسم الرابع عشر: خصائص القرآن القسم الرابع عشر: خصائص القرآن
- ٢٨٩ - اشاره اشاره

تأملات - ٢٩٥

١ - شموليه القرآن ٢٩٥

٢ - من عنده علم الكتاب؟ ٢٩٥

٣ - معيار التمييز بين الكبار والصغار ٢٩٧

٤ - الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما ٢٩٧

٥ - تاريخ الأمم الماضيه والأمثال القرآنيه ٢٩٨

القسم الخامس عشر: أهميه فريضه الحج ٣٠١

اشاره ٣٠١

تأملان ٣٠٤

اشاره ٣٠٤

١ - نبذه تاريخيه عن الكعبه ٣٠٤

٢ - فلسفه الحج ٣٠٤

الخطبه الثانيه ٣٠٩

اشاره ٣٠٩

القسم الأول ٣٠٩

اشاره ٣٠٩

نظره إلى الخطبه ٣١٠

ظروف وملابسات الخطبه ٣١٠

الركنان الأساسيان فى الإسلام ٣١٢

تأملان ٣١٥

١- التوحيد ركيزه الصالحات ٣١٥

٢- التوحيد الخالص الذى طبع حياه أميرالمؤمنين عليه السلام ٣١٧

القسم الثانى: العصر الجاهلى ٣١٩

اشاره ٣١٩

صوره الحياه الميته فى العصر الجاهلى ٣٢٥

القسم الثالث: المنزله الساميه لآل محمد صلى الله عليه و آله ٣٢٩

٣٢٩ اشاره

٣٣٢ تأملات

٣٣٢ ١- آل النبي صلى الله عليه و آله كهف الأمة الإسلامية

٣٣٣ ٢- من هم آل النبي صلى الله عليه و آله؟

٣٣٥ القسم الرابع: لا يقاس بأل محمد أحد من الناس

٣٣٥ اشاره

٣٣٩ تأملات

٣٣٩ ١- مكانه أهل البيت في القرآن والرويات

٣٤١ ٢- تبريرات واهيه

٣٤٣ الخطبه الثالثه

٣٤٣ اشاره

٣٤٣ القسم الأول

٣٤٣ اشاره

٣٤٣ نظره إلى الخطبه

٣٤٤ مضمون الخطبه

٣٤٧ تحليل مهم لمسأله الخلافه

٣٥١ تأملات

٣٥١ ١- لم أتر الإمام عليه السلام الصبر؟

٣٥٣ ٢- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافه؟

٣٥٣ ٣- الإمام عليه السلام جليس البيت

٣٥٤ ٤- لماذا تعرض الإمام عليه السلام لقضيه الخلافه؟

٣٥٧ القسم الثاني: عصر الخليفه الثاني

٣٥٧ اشاره

٣٦٠ إجابته على إستفسار

٣٦٥ تأملات

٣٦٥ ١- نماذج الفضاضه الأخلاقيه على عهد الخليفه الثاني

٣٦٦ - العثار والاعتذار ٢

٣٦٧ - رد على سوال ٣

٣٧٠ - القسم الثالث: عصر الخليفة الثالث القسم الثالث: عصر الخليفة الثالث

٣٧٠ - اشاره اشاره

٣٧٥ - تأملات تأملات

٣٧٥ - ١- كيفية انتخاب خليفه الثانى والثالث ١- كيفية انتخاب خليفه الثانى والثالث

٣٧٦ - ٢- الشورى وحكومته عثمان ٢- الشورى وحكومته عثمان

٣٧٩ - ٣- أسباب الخروج على عثمان ٣- أسباب الخروج على عثمان

٣٨١ - ٤- هل سار جميع الصحابه على نهج النبى صلى الله عليه و آله ٤- هل سار جميع الصحابه على نهج النبى صلى الله عليه و آله

٣٨٤ - القسم الرابع القسم الرابع

٣٨٤ - اشاره اشاره

٣٨٩ - تأملات تأملات

٣٨٩ - ١- البيعه الشعبيه لأمير المؤمنين عليه السلام ١- البيعه الشعبيه لأمير المؤمنين عليه السلام

٣٩٠ - ٢- مصدر الانحرافات الاجتماعيه ٢- مصدر الانحرافات الاجتماعيه

٣٩١ - ٣- المعارك الثلاث على عهد الإمام على عليه السلام ٣- المعارك الثلاث على عهد الإمام على عليه السلام

٣٩٦ - القسم الخامس: قبول البيعه والخلافه القسم الخامس: قبول البيعه والخلافه

٣٩٦ - اشاره اشاره

٣٩٩ - تأملات تأملات

٣٩٩ - ١- الرد على سؤال ١- الرد على سؤال

٤٠٠ - ٢- المسائل التى تضمنها الكتاب ٢- المسائل التى تضمنها الكتاب

٤٠٢ - ٣- مميزات الخطبه الشقشقيه ٣- مميزات الخطبه الشقشقيه

٤٠٤ - الخطبه الرابعه الخطبه الرابعه

٤٠٤ - اشاره اشاره

٤٠٤ - نظره إلى الخطبه نظره إلى الخطبه

٤٠٦ - القسم الأول: التحلى بالوعى واليقظه القسم الأول: التحلى بالوعى واليقظه

٤٠٦ - اشاره اشاره

- ٤٠٨ ملاحظه
- ٤٠٨ الهدايه فى ظل أهل البيت عليهم السلام
- ٤١٠ القسم الثانى: كنت أتوقع غدركم، ولكن... .
- ٤١٠ اشاره
- ٤١٢ تأملان
- ٤١٢ ١ - البصيره
- ٤١٣ ٢ - ستر عيوب الناس
- ٤١٤ القسم الثالث: اليوم أكشف الحجاب
- ٤١٤ اشاره
- ٤١٨ الصراع بين الحق والباطل
- ٤٢٠ الخطبه الخامسه
- ٤٢٠ اشاره
- ٤٢٠ نظره إلى الخطبه
- ٤٢٢ القسم الأول: احذروا مثيرى الفتنة
- ٤٢٢ اشاره
- ٤٢٥ سكوت الإمام عليه السلام بعد النبى صلى الله عليه و آله
- ٤٢٨ القسم الثانى: ترى ما العمل مع المتربصين؟ !
- ٤٢٨ اشاره
- ٤٢٩ تأملات
- ٤٢٩ ١ - سوابق الإمام عليه السلام
- ٤٣٠ ٢ - لم أخاف الموت؟ !
- ٤٣١ ٣ - لم السكوت؟
- ٤٣٢ الخطبه السادسه
- ٤٣٢ اشاره
- ٤٣٢ نظره إلى الخطبه
- ٤٣٣ الحيطه والحذر تجاه الأعداء

- ٤٣٥ تأمل: رساله إلى جميع المسؤولين
- ٤٣٦ الخطبه السابعه -
- ٤٣٦ اشاره
- ٤٣٦ أتباع الشيطان
- ٤٣٩ تأمل: خطط الشياطين
- ٤٤٢ الخطبه الثامنه -
- ٤٤٢ اشاره
- ٤٤٢ نظره إلى الخطبه
- ٤٤٣ عذر أقبح من ذنب
- ٤٤٤ الخطبه التاسعه -
- ٤٤٤ اشاره
- ٤٤٤ ضجه فارغه
- ٤٤٧ تأملان
- ٤٤٧ ١ - رجل العمل
- ٤٤٨ ٢ - الفارق بين الدعايه والاعلام الفعال
- ٤٥٠ الخطبه العاشره -
- ٤٥٠ اشاره
- ٤٥٠ نظره إلى الخطبه
- ٤٥٠ تحذير المسلمين ثانيه
- ٤٥٣ تأمل: جند الشيطان
- ٤٥٤ الخطبه الحاديه عشر
- ٤٥٤ اشاره
- ٤٥٤ نظره إلى الخطبه
- ٤٥٥ كن كالجبل
- ٤٥٧ تأملان
- ٤٥٧ ١ - محمد بن الحنفيه ونسبه وبعض أخباره

- ٤٥٨ ٢ - الشرط المهم في النصر على الأعداء
- ٤٦٠ الخطبه الثانيه عشره
- ٤٦٠ اشاره
- ٤٦٠ نظره إلى الخطبه
- ٤٦١ اللحمه العقائديه
- ٤٦٢ تأمل: الرابطه الحق
- ٤٦٤ الخطبه الثالثه عشره
- ٤٦٤ اشاره
- ٤٦٤ نظره إلى الخطبه
- ٤٦٥ خصائص أهل الجمل
- ٤٦٩ تأملات
- ٤٦٩ ١ - نبوءه النبي صلى الله عليه و آله بشأن موقعه الجمل
- ٤٧٠ ٢- ذم أهل البصره
- ٤٧١ ٣ - المحيط والاخلاق
- ٤٧٢ الخطبه الرابعه عشره
- ٤٧٢ اشاره
- ٤٧٢ نظره إلى الخطبه
- ٤٧٢ ذم أهل البصره ثانيه
- ٤٧٦ الخطبه الخامسه عشره
- ٤٧٦ اشاره
- ٤٧٦ نظره إلى الخطبه
- ٤٧٧ القسم على إعاده الأموال المغصوبه
- ٤٧٨ تأملات
- ٤٧٨ ١ - معطيات العدالة في المجتمعات البشريه
- ٤٧٩ ٢ - اسراف عثمان
- ٤٨٠ ٣ - الإجابيه عن سؤال مهم

- ٤٨٢ الخطبه السادسة عشره
- ٤٨٢ اشاره
- ٤٨٢ القسم الأول
- ٤٨٢ اشاره
- ٤٨٢ نظره إلى الخطبه
- ٤٨٣ اليقظه والوعى فى الامتحان
- ٤٨٦ تأملان
- ٤٨٦ ١ - التأريخ يعيد نفسه
- ٤٨٧ ٢ - بيان الحقيقه أم رعايه المصلحه
- ٤٨٨ القسم الثانى: الذنوب شماس كالخيل
- ٤٩٢ القسم الثالث: سبيل النجاه
- ٤٩٢ اشاره
- ٤٩٧ تأملان
- ٤٩٧ ١ - الجاهل من جهل قدر نفسه
- ٤٩٨ ٢ - الاعتدال هو الصراط المستقيم
- ٥٠٠ الخطبه السابعه عشره
- ٥٠٠ اشاره
- ٥٠٠ القسم الأول
- ٥٠٠ اشاره
- ٥٠٠ نظره إلى الخطبه
- ٥٠١ أبغض الخلائق
- ٥٠٤ تأملان
- ٥٠٤ ١ - ما البدعه ومن المبتدع؟
- ٥٠٥ ٢ - أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين
- ٥٠٨ القسم الثانى: الجاهل المتشبهه بالعالم
- ٥٠٨ اشاره

- ٥١٦ - تأملات -
- ٥١٦ - آفات علماء السوء - ١
- ٥١٧ - علم كخيطة العنكبوت - ٢
- ٥١٧ - اطراء المتملقين - ٣
- ٥٢٠ - القسم الثالث
- ٥٢٠ - اشاره
- ٥٢١ - التفسير بالرأى وقلب الحقائق
- ٥٢٤ - الخطبه الثامنه عشره
- ٥٢٤ - اشاره
- ٥٢٤ - القسم الأول
- ٥٢٤ - اشاره
- ٥٢٥ - نظره إلى الخطبه
- ٥٢٥ - ما علّه كل هذا الاختلاف؟
- ٥٢٧ - تأملات
- ٥٢٧ - ١ - مسأله التصويب ونشأتها
- ٥٣٢ - ٢ - نتائج القول بالتصويب وعلق باب الاجتهاد
- ٥٣٤ - ٣-الهرج والمرج الفقهي والقضائي
- ٥٣٦ - القسم الثاني: الاختلافات غير المبرره
- ٥٣٦ - اشاره
- ٥٣٩ - شموليه القرآن
- ٥٤٢ - القسم الثالث: أنافه القرآن وعمقه
- ٥٤٢ - اشاره
- ٥٤٤ - تأملان
- ٥٤٤ - ١- القرآن والمسائل المستحدثه
- ٥٤٥ - ٢- لم لا تنقض عجائب القرآن
- ٥٤٦ - الخطبه التاسعه عشره

٥٤٦	اشاره
٥٤٧	الاصطدام بمنافق طائش
٥٥٠	تأملان
٥٥٠	١- عله هذا الاصطدام العنيف
٥٥١	٢- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق
٥٥٢	الخطبه العشرون
٥٥٢	اشاره
٥٥٢	طرح الحجب قريباً
٥٥٥	ملاحظه: عالم ما بعد الموت
٥٥٧	المجلد ٢
٥٥٧	اشاره
٥٥٨	اشاره
٥٦٢	الخطبه الحادى والعشرون
٥٦٢	اشاره
٥٦٢	شرح الخطبه
٥٦٢	تخففوا تلحقوا!
٥٦٥	عاقبه المثقلين!
٥٦٨	الخطبه الثانيه و العشرون
٥٦٨	اشاره
٥٦٨	القسم الأول: أضواء على الخطبه
٥٦٨	اشاره
٥٦٩	وقعه الجمل
٥٧١	حزب الله وحزب الشيطان
٥٧٤	القسم الثانى
٥٧٤	اشاره
٥٧٤	المعدّرون المفتضحون!

٥٧٨	القسم الثالث: تهديد على عليه السلام
٥٧٨	اشاره
٥٨٠	الرجال الأشداء
٥٨٢	الخطبه الثالثه والعشرون
٥٨٢	اشاره
٥٨٢	القسم الأول
٥٨٢	اشاره
٥٨٣	نظره إلى الخطبه
٥٨٣	الرضا والتسليم أمام إرادة الله
٥٨٧	الرضى والتسليم إلى جانب السعى والعمل
٥٩٠	القسم الثاني: سبيل بلوغ مقامات الصالحين
٥٩٠	اشاره
٥٩٢	فصل في أنّ الاخلاص أساس العمل
٥٩٤	القسم الثالث: السند الشعبى
٥٩٤	اشاره
٥٩٦	فصل في حسن الثناء (لسان الصدق)
٥٩٨	القسم الرابع: الإعتضاد بالعشيره
٥٩٨	اشاره
٥٩٩	فصل في بركات التعاضد بالقرايه
٦٠٢	الخطبه الرابعه والعشرون
٦٠٢	اشاره
٦٠٢	نظره إلى الخطبه
٦٠٣	المساومه والمصناعه
٦٠٦	فصل في الضعف والمساومه
٦٠٨	الخطبه الخامسه و العشرون
٦٠٨	اشاره

٦٠٨	القسم الأول
٦٠٨	اشاره
٦٠٨	نظره إلى الخطبه
٦٠٩	النفاق والعصيان ودور الإمام
٦١٠	تأملان
٦١٠	١ - الكوفه على وجهين
٦١٢	٢ - أهل الكوفه والإمام عليه السلام
٦١٤	القسم الثاني: سز الانهيار
٦١٤	اشاره
٦١٦	تأملات
٦١٦	١ - بسر بن أرطاه القائد السفاح لمعاويه
٦٢٠	٢ - مقومات النصر وهزيمه الأمم
٦٢٢	القسم الثالث: السئم والملل
٦٢٢	اشاره
٦٢٤	بنو فراس بن غنم
٦٢٤	الخطبه السادسه والعشرون
٦٢٤	اشاره
٦٢٤	نظره إلى الخطبه
٦٢٨	القسم الأول: العرب فى الجاهليه
٦٢٨	اشاره
٦٣١	تأملات
٦٣١	١- آفاق العصر الجاهلى
٦٣٣	٢- شر دار أم خيرها
٦٣٤	القسم الثاني: الصبر المرير
٦٣٤	اشاره
٦٣٥	تأملات

٦٣٥ - الأحدث المريره بعد رسول الله صلى الله عليه و آله

٦٣٧ - هل بايع الإمام عليه السلام الخليفه الأول؟

٦٣٨ - القسم الثالث: المساومه السياسيه المفضوحه -

٦٣٨ - اشاره

٦٤١ - تأملات -

٦٤١ - ١ - السياسات الدينويه لا تعترف بالأصول الأخلاقيه -

٦٤١ - ٢ - باعه الدين بالدنيا! -

٦٤٢ - ٣ - علاقه النصر بالثبات -

٦٤٤ - الخطبه السابعه والعشرون -

٦٤٤ - اشاره

٦٤٤ - سند الخطبه وزمانها ومكانها -

٦٤٤ - اشاره

٦٤٧ - نظره إلى الخطبه -

٦٤٨ - القسم الأول: الجهاد باب من أبواب الجته -

٦٤٨ - اشاره

٦٥٢ - تأملان -

٦٥٢ - ١ - الجهاد سر رفعه الشعوب وعزتها -

٦٥٤ - ٢ - هل الجهاد الإسلامى دفاعى فقط؟ ! -

٦٥٦ - القسم الثانى: الموت كمدأ -

٦٥٦ - اشاره

٦٥٩ - تأملات -

٦٥٩ - ١ - معادلات الهزيمة والانتصار -

٦٥٩ - ٢ - حمايه الأقليات الدينيه -

٦٦٠ - ٣ - الغيره الدينيه -

٦٦٢ - القسم الثالث: الاجتماع على الباطل والفرقه عن الحق -

٦٦٢ - اشاره

- ٦٦٥ تأمل: عله هذا الذم
- ٦٦٦ القسم الرابع: إدماء القلب
- ٦٦٦ اشاره
- ٦٦٨ تأملات
- ٦٦٨ ١ - الاتباع الطلحاء والقاده الأكفاء
- ٦٧٠ ٢ - الإجابة على سؤال
- ٦٧٠ ٣ - سؤال آخر
- ٦٧١ ٤ - الخاتمه المريه للواقعه
- ٦٧٤ الخطبه الثامنه والعشرون
- ٦٧٤ اشاره
- ٦٧٤ نظره إلى الخطبه
- ٦٧٦ القسم الأول: الدنيا والآخرة عند الإمام على عليه السلام
- ٦٧٦ اشاره
- ٦٧٩ تأملات
- ٦٧٩ ١ - الدنيا والآخرة فى الأحاديث
- ٦٨١ ٢ - الخساره العظمى
- ٦٨٢ القسم الثانى: الرحيل الوشيك
- ٦٨٢ اشاره
- ٦٨٦ تأملان
- ٦٨٦ ١ - خير الزاد
- ٦٨٨ ٢ - اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان
- ٦٨٨ اشاره
- ٦٩٠ تكمله
- ٦٩٢ الخطبه التاسعه والعشرون
- ٦٩٢ اشاره
- ٦٩٢ نظره إلى الخطبه

القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفة - - - - - ٦٩٤

القسم الثاني - - - - - ٦٩٨

اشاره - - - - - ٦٩٨

تأملان - - - - - ٦٩٩

١ - الحق يؤخذ ولا يُعطى - - - - - ٦٩٩

٢ - الدفاع عن الوطن - - - - - ٧٠١

القسم الثالث: اليأس من القوم - - - - - ٧٠٤

اشاره - - - - - ٧٠٤

أسباب الهزيمة والفشل - - - - - ٧٠٥

الخطبه الثلاثون - - - - - ٧٠٨

اشاره - - - - - ٧٠٨

نظرة إلى الخطبه - - - - - ٧٠٨

عوامل قتل عثمان - - - - - ٧١٠

الخطبه الحاديه والثلاثون - - - - - ٧١٤

اشاره - - - - - ٧١٤

السعي لانقاذ الخاطئين - - - - - ٧١٤

تأملات - - - - - ٧١٧

١- رد فعل الزبير تجاه رساله الإمام عليه السلام - - - - - ٧١٧

٢- قطوف من سيره طلحه والزبير - - - - - ٧١٧

٣- شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - - - - - ٧٢٠

الخطبه الثانيه و الثلاثون - - - - - ٧٢٢

اشاره - - - - - ٧٢٢

نظرة إلى الخطبه - - - - - ٧٢٢

القسم الأول: الدهر وضياع القيم - - - - - ٧٢٤

اشاره - - - - - ٧٢٤

تأملان - - - - - ٧٢٤

- ٧٢٦ - ما مفهوم فساد الزمان؟
- ٧٢٦ - التنكر للقيم
- ٧٣١ - القسم الثاني: الناس أربعة أصناف
- ٧٣١ - اشاره
- ٧٣٦ - الأصناف الأربعة في كل مجتمع.
- ٧٣٧ - القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله
- ٧٤١ - القسم الرابع: الاتعاظ بالماضين
- ٧٤٥ - الخطبه الثلاثه و الثلاثون
- ٧٤٥ - اشاره
- ٧٤٥ - نظره إلى الخطبه.
- ٧٤٧ - القسم الأول: دحر الباطل
- ٧٤٧ - اشاره
- ٧٥٠ - تأملات
- ٧٥٠ - ١ - من أخبار يوم ذي قار
- ٧٥١ - ٢ - جاهليه العرب
- ٧٥٢ - ٣ - حديث خاصف النعل
- ٧٥٥ - القسم الثاني: مالى ولقريش؟
- ٧٥٥ - اشاره
- ٧٥٨ - الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعى
- ٧٦١ - الخطبه الرابعه والثلاثون
- ٧٦١ - اشاره
- ٧٦١ - مناسبه الخطبه
- ٧٦٢ - نظره إلى الخطبه
- ٧٦٣ - القسم الأول: لم الخشيه من الشهاده؟
- ٧٦٣ - اشاره
- ٧٦٥ - جدوى الذم واللوم

٧٦٧	القسم الثاني: يقظه العدو وسيات النصير
٧٦٧	اشاره
٧٦٩	عوامل أخرى للضعف والهزيمة
٧٧١	القسم الثالث: الانفراد في مجابهه العدو
٧٧١	اشاره
٧٧٤	العزم النهائي للزعيم الشجاع
٧٧٧	القسم الرابع: حقى عليكم وحققكم على
٧٧٧	اشاره
٧٨١	تأقلاق
٧٨١	١- الحقوق المتبادلله للإمام والأمة
٧٨٢	٢- تعارض الحق والمصلحه!
٧٨٥	الخطبه الخامسه و الثلاثون
٧٨٥	اشاره
٧٨٥	نظره إلى الخطبه: نتيجته العصيان
٧٩٠	تأقلاق
٧٩٠	١- قصة التحكيم
٧٩١	٢- الاستفاده من آراء الآخرين
٧٩٣	الخطبه السادسه و الثلاثون
٧٩٣	اشاره
٧٩٣	نظره إلى الخطبه
٧٩٤	إتمام الحجه على الخوارج
٧٩٤	قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج
٧٩٩	الخطبه السابعه و الثلاثون
٧٩٩	اشاره
٧٩٩	نظره إلى الخطبه
٨٠١	القسم الأول: الصمود أمام العواصف

- ٨٠٥ القسم الثاني: القوى عندى ضعيف
- ٨٠٥ اشاره
- ٨٠٦ نصره المظلوم ومجابهه الظالم
- ٨٠٩ القسم الثالث: أول من أسلم
- ٨٠٩ اشاره
- ٨١١ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام
- ٨١٣ الخطبه: الثامنه و الثلاثون
- ٨١٣ اشاره
- ٨١٣ نظره إلى الخطبه
- ٨١٥ النجاه من الشبهه
- ٨١٧ تأثير الشبهه فى تحريف الحقائق
- ٨١٨ عبثه الخوف من الموت
- ٨٢١ الخطبه : التاسعه والثلاثون
- ٨٢١ اشاره
- ٨٢١ نظره إلى الخطبه
- ٨٢١ أمر النعمان بن بشير مع على ومالك بن كعب الأرحبي
- ٨٢٣ القسم الأول: سكوت الإمام عليه السلام
- ٨٢٧ القسم الثاني: الضعف أمام العدو
- ٨٢٧ اشاره
- ٨٢٨ عاقبه الضعف أمام العدو
- ٨٢٩ سؤال
- ٨٣١ الخطبه الاربعون
- ٨٣١ اشاره
- ٨٣١ نظره إلى الخطبه
- ٨٣٧ تأملان
- ٨٣٧ ١ - بلاء التحريف

- ٢ - ضروره تشكيل الحكومه ٨٣٨
- اشاره ٨٣٨
- خطأ ابن أبي الحديد ٨٤٠
- الخطبه الحاديه و الاربعون ٨٤٣
- اشاره ٨٤٣
- نظره إلى الخطبه ٨٤٣
- السياسه الإلهيه والشيطانيه ٨٤٨
- الخطبه الثانيه و الاربعون ٨٥١
- اشاره ٨٥١
- نظره إلى الخطبه ٨٥١
- القسم الأول ٨٥٣
- القسم الثاني ٨٥٥
- اشاره ٨٥٥
- الموت يعنى إغلاق صحيفه الأعمال ٨٥٧
- الخطبه الثالثه الاربعون ٨٥٩
- اشاره ٨٥٩
- نظره إلى الخطبه ٨٥٩
- القسم الأول: رجل الحرب والسلام ٨٦١
- اشاره ٨٦١
- الهدف من الدعوه إلى الصلح والبيعه ٨٦٢
- القسم الثاني ٨٦٥
- اشاره ٨٦٥
- أعمال عثمان وأسباب قتله ٨٦٦
- الخطبه الرابعه و الاربعون ٨٦٩
- اشاره ٨٦٩
- قصه الخريت بن راشد الناجي وخروجه على علي عليه السلام ٨٦٩

٨٧١	فرار العبيد
٨٧٢	تأملان
٨٧٢	١ - من بين الأسئلة التي تطرح بشأن هذه الخطبه
٨٧٤	٢ - فلسفه الحزم
٨٧٥	الخطبه الخامسه و الأربعون
٨٧٥	اشاره
٨٧٥	نظره إلى الخطبه
٨٧٧	القسم الأول: الرحمه اللامتناهيه
٨٧٩	القسم الثاني: الدنيا دار المنى
٨٧٩	اشاره
٨٨٠	الكفاف والعفاف
٨٨٣	الخطبه السادسه و الاربعون
٨٨٣	اشاره
٨٨٣	نظره إلى الخطبه
٨٨٥	الاستعاذه بالله من وعشاء السفر
٨٨٦	فلسفه الدعاء
٨٨٩	الخطبه السابعه و الاربعون
٨٨٩	اشاره
٨٨٩	نظره إلى الخطبه
٨٩١	نبوءه عن مستقبل الكوفه
٨٩٢	رأيان في الكوفه
٨٩٥	الخطبه الثامنه و الاربعون
٨٩٥	اشاره
٨٩٥	نظره إلى الخطبه
٨٩٧	القسم الأول: استحقاق الله للحمد والثناء
٨٩٩	القسم الثاني: تعبئه القوى لمواجهه العدو

- ٨٩٩ اشاره
- ٩٠٠ أخبار على عليه السلام فى جيشه وهو فى طريقه إلى صفين
- ٩٠٤ نزول على بكرىلاء
- ٩٠٤ الخطبه التاسعه والاربعون
- ٩٠٤ اشاره
- ٩٠٤ نظره إلى الخطبه
- ٩٠٨ المنزه عن الظن والخيال
- ٩١٢ وجوده ظاهر وكنه ذاته خفى
- ٩١٤ الخطبه الخمسون
- ٩١٤ اشاره
- ٩١٤ نظره إلى الخطبه
- ٩١٨ تأملات
- ٩١٨ ١ - أساس الفتن
- ٩١٩ ٢ - السياسات الشيطانيه
- ٩٢٢ الخطبه الحاديه و الخمسون
- ٩٢٢ اشاره
- ٩٢٢ نظره إلى الخطبه
- ٩٢٤ أقبروا هذه الفتنة الخبيثه
- ٩٢٧ تأملات
- ٩٢٧ ١ - ضروره العيش فى ظل العزه والكرامه
- ٩٢٨ ٢ - غسل أدمغه المغفلين
- ٩٢٩ ٣ - المروءه والشهامه
- ٩٣٠ الخطبه الثانيه و الخمسون
- ٩٣٠ اشاره
- ٩٣٠ نظره إلى الخطبه
- ٩٣٢ القسم الأول: الدنيا الغرور

- القسم الثاني: السعي القليل وإن كثر ٩٣٦
- القسم الثالث: عظمه وسعه النعم الإلهيه ٩٣٨
- الخطبه الثالثه والخمسون ٩٤٠
- اشاره ٩٤٠
- تمام الأضحيه ٩٤٠
- عليه سلامه الأضحيه من النقص والعييب ٩٤١
- الخطبه الرابعه و الخمسون ٩٤٢
- اشاره ٩٤٢
- نظره إلى الخطبه ٩٤٢
- ليس هنالك سوى القتال ٩٤٤
- تأملان ٩٤٤
- ١ - البيعه الفريده للإمام عليه السلام ٩٤٤
- ٢ - الحرب والسلام، والكفر والإيمان ٩٤٤
- الخطبه الخامسه والخمسون ٩٤٨
- اشاره ٩٤٨
- نظره إلى الخطبه ٩٤٨
- تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال ٩٥٠
- الخطبه السادسه والخمسون ٩٥٤
- اشاره ٩٥٤
- نظره إلى الخطبه ٩٥٤
- الوقوف المشرف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه و آله ٩٥٦
- تأملان ٩٥٩
- ١ - ثاني فتن البصره ٩٥٩
- ٢ - خصائص المسلمين الاوائل ٩٦٢
- الخطبه السابعه والخمسون ٩٦٤
- اشاره ٩٦٤

- نظره إلى الخطبه ٩٦٤
- إحذروا العدو ٩٦٦
- تأملات ٩٧٠
- ١ - عله عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبه ٩٧٠
- ٢ - لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاويه؟ ٩٧٠
- ٣ - تأريخ سب الإمام على عليه السلام ٩٧٢
- ٤ - التقيه وسيله دفاعيه ٩٧٣
- الخطبه الثامنه و الخمسون ٩٧٦
- اشاره ٩٧٦
- نظره إلى الخطبه ٩٧٦
- فضاعه مظلوميه الإمام عليه السلام ٩٧٨
- الخطبه التاسعه والخمسون ٩٨٠
- اشاره ٩٨٠
- هل من سبيل لعلم الغيب ٩٨٠
- الخطبه الستون ٩٨٢
- اشاره ٩٨٢
- مصير الخوارج ٩٨٢
- تأملات ٩٨٣
- ١ - الخوارج ظاهره لافرقه ٩٨٣
- ٢ - الخوارج لصوصا سلابين ٩٨٥
- المجلد ٣ ٩٨٧
- اشاره ٩٨٧
- اشاره ٩٨٨
- الخطبه الحاديه والستون ٩٩٢
- اشاره ٩٩٢
- الفارق بين الخوارج وأهل الشام ٩٩٢

- ٩٩٤ تأملان
- ٩٩٤ ١ - أضل من الخوارج
- ٩٩٤ ٢ - جهل اتباع الحق وعلم اتباع الباطل
- ٩٩٨ الخطبه الثانيه و الستون
- ٩٩٨ اشاره
- ٩٩٨ لماذا أخشى الموت؟
- ١٠٠٢ الخطبه الثالثه والستون
- ١٠٠٢ اشاره
- ١٠٠٢ نظره إلى الخطبه
- ١٠٠٤ الدنيا ظل زائل
- ١٠٠٨ الخطبه الرابعه و الستون
- ١٠٠٨ اشاره
- ١٠٠٨ نظره إلى الخطبه
- ١٠١٠ القسم الأول: الموت يلقى بظلاله على الجميع
- ١٠١٥ القسم الثاني: التزود قدر المستطاع
- ١٠١٩ القسم الثالث: الإنسان والغفله
- ١٠١٩ اشاره
- ١٠٢١ تأملات
- ١٠٢١ ١ - فلسفه خفاء الموت
- ١٠٢١ ٢ - الاغترار بالامانى
- ١٠٢٢ ٣ - تزيين الشيطان
- ١٠٢٣ ٤ - عمر الإنسان حجّه عليه
- ١٠٢٣ ٥ - سكر النعم
- ١٠٢٥ الخطبه الخامسه و الستون
- ١٠٢٥ اشاره
- ١٠٢٥ نظره إلى الخطبه

- القسم الأول: الحمد والثناء ١٠٢٧
- القسم الثاني: تجليات جلال الله وجماله ١٠٣٥
- اشاره ١٠٣٥
- نقطه مهمه: الآثار التربويه لمعرفة الله ١٠٣٨
- الخطبه السادسه و الستون ١٠٤١
- اشاره ١٠٤١
- نظره إلى الخطبه ١٠٤١
- القسم الأول: طائفه من الفنون القتاليه ١٠٤٣
- اشاره ١٠٤٣
- تأمل: الفنون القتاليه في الماضى والحاضر ١٠٤٥
- القسم الثاني: الثبات والمقاومه ١٠٤٧
- الخطبه السابعه و الستون ١٠٥١
- اشاره ١٠٥١
- نظره إلى الخطبه ١٠٥١
- الاستدلال المنطقى على الخلافه ١٠٥٣
- تأمل: الخلافه وقصه سقيفه بنى ساعده ١٠٥٤
- أضواء على السقيفه ١٠٥٦
- الخطبه الثامنه و الستون ١٠٥٩
- اشاره ١٠٥٩
- نظره إلى الخطبه ١٠٥٩
- محمد بن أبى بكر وحكومته مصر ١٠٦١
- تأملان ١٠٦٢
- ١- من هو هاشم المرقال؟ ١٠٦٢
- ٢- محمد بن أبى بكر ١٠٦٤
- الخطبه التاسعه و الستون ١٠٦٥
- اشاره ١٠٦٥

- نظرة إلى الخطبة ١٠٦٥
- عظم الشكوى من الاصحاب الضعفاء ١٠٦٧
- الخطبة السبعون ١٠٧٣
- اشاره ١٠٧٣
- رؤيه رسول ﷺ صلى الله عليه و آله ١٠٧٣
- تأملان ١٠٧٥
- ١ - أصحاب على عليه السلام ١٠٧٥
- ٢ - الأفراد الملعونون ١٠٧٧
- الخطبة الحادية و السبعون ١٠٨١
- اشاره ١٠٨١
- نظرة إلى الخطبة ١٠٨١
- الشكوى من الاتباع الجهلاء ١٠٨٣
- تأملان ١٠٨٦
- ١ - على عليه السلام أول من أسلم ١٠٨٦
- ٢ - إجابته عن سؤال ١٠٨٧
- الخطبة الثانية و السبعون ١٠٩١
- اشاره ١٠٩١
- نظرة إلى الخطبة ١٠٩١
- القسم الأول: ربّ السموات ١٠٩٣
- القسم الثاني: آلاف التحية و السلام على النبي صل الله عليه و آله ١٠٩٥
- القسم الثالث: الحشر مع النبي صلى الله عليه و آله ١٠٩٩
- اشاره ١٠٩٩
- تأمل: معطيات الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله ١١٠٠
- اشاره ١١٠٠
- الاجابه على بعض الأسئلة ١١٠٣
- ١- ما سرّ هذه الاهميه للصلوات على النبي ١١٠٣

- ٢ - آثار الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله ١١٠٣
- ٣ - الفاظ الصلوات على النبي صلى الله عليه و آله ١١٠٤
- ٤ - الصلاة على النبي واجبه أم مستحبه؟ ١١٠٥
- ٥ - المفهوم الحقيقي للصلاه على النبي صلى الله عليه و آله ١١٠٦
- الخطبه الثالثه و السبعون ١١٠٧
- اشاره ١١٠٧
- نظره إلى الخطبه ١١٠٧
- الغنى عن بيعه مروان ١١٠٩
- تأمل: قصه غريبه من حياه مروان بن الحكم ١١١١
- الخطبه الرابعه و السبعون ١١١٣
- اشاره ١١١٣
- نظره إلى الخطبه ١١١٣
- علم الجميع باحقيتى من غيرى ١١١٥
- الإجاباه عن بعض الأسئلة ١١١٦
- الخطبه الخامسه و السبعون ١١١٩
- اشاره ١١١٩
- نظره إلى الخطبه ١١١٩
- العدو اللدود للمنحرفين ١١٢١
- الخطبه السادسه و السبعون ١١٢٥
- اشاره ١١٢٥
- نظره إلى الخطبه ١١٢٥
- عشرون كلمه قيمه ١١٢٧
- تأمل: الصبر واغتنام الفرصه ١١٣٠
- الخطبه السابعه و السبعون ١١٣٣
- اشاره ١١٣٣
- نظره إلى الخطبه ١١٣٣

- ١١٣٥ ----- غيظ من فيض جنایات بنی ﷖ أمیه
- ١١٣٥ ----- اشاره
- ١١٣٦ ----- تأملان
- ١١٣٦ ----- ١ - من هو سعيد بن العاص؟
- ١١٣٧ ----- ٢ - بنی أمیه
- ١١٣٧ ----- اشاره
- ١١٣٧ ----- الف) بنی أمیه فی القرآن الکریم
- ١١٣٨ ----- ب) بنی أمیه فی أحاديث العامه
- ١١٣٨ ----- ج) بنی أمیه فی نهج البلاغه
- ١١٣٨ ----- د) مفسد حکومه بنی أمیه
- ١١٣٨ ----- ١ - انحراف الخلفه عن مسارها الصحيح واستبدالها بالسلطه
- ١١٣٩ ----- ٢ - مسخ وتحريف الحقائق والمعارف الإسلاميه
- ١١٤١ ----- الخطبه الثامنه و السبعون
- ١١٤١ ----- اشاره
- ١١٤١ ----- نظره إلى الخطبه
- ١١٤٣ ----- من الأدعيه التربويه للإمام على عليه السلام
- ١١٤٧ ----- فصل في الدعاء ودوره في حياه الإنسان
- ١١٤٩ ----- الخطبه التاسعه و السبعون
- ١١٤٩ ----- اشاره
- ١١٤٩ ----- نظره إلى الخطبه
- ١١٥١ ----- القسم الأول: خطأ المنجمين
- ١١٥٣ ----- القسم الثاني: اجتناب نبوءات المنجمين
- ١١٥٣ ----- اشاره
- ١١٥٤ ----- تأملات
- ١١٥٤ ----- ١ - ما هو علم النجوم؟ وما المحذور منه؟
- ١١٥٥ ----- ٢ - الكهان والكفر

- ١١٥٨ - - - - - ٣ - كيفية ظهور التكهنات النجومية
- ١١٤١ - - - - - الخطبه : الثمانون
- ١١٤١ - - - - - اشاره
- ١١٤١ - - - - - نظره إلى الخطبه - - - - -
- ١١٤٣ - - - - - مكانه المرأة في المجتمعات البشريه - - - - -
- ١١٤٣ - - - - - اشاره - - - - -
- ١١٤٧ - - - - - تأملان - - - - -
- ١١٤٧ - - - - - ١ - الفوارق والمساواه بين الجنسين - - - - -
- ١١٧٠ - - - - - ٢ - أخبار عائشه - - - - -
- ١١٧٣ - - - - - الخطبه الحاديه والثمانون - - - - -
- ١١٧٣ - - - - - اشاره - - - - -
- ١١٧٣ - - - - - نظره إلى الخطبه - - - - -
- ١١٧٥ - - - - - حقيقه الزهد - - - - -
- ١١٧٧ - - - - - تأمل: الزاهد أمير لأسير - - - - -
- ١١٧٩ - - - - - الخطبه : الثانيه والثمانون - - - - -
- ١١٧٩ - - - - - اشاره - - - - -
- ١١٧٩ - - - - - نظره إلى الخطبه - - - - -
- ١١٨١ - - - - - الدنيا وسيله لأهدف - - - - -
- ١١٨١ - - - - - اشاره - - - - -
- ١١٨٥ - - - - - تأملان - - - - -
- ١١٨٥ - - - - - ١ - كيفية الحساب في الآخره - - - - -
- ١١٨٨ - - - - - ٢ - المذموم عباده الدنيا لانيلها - - - - -
- ١١٨٩ - - - - - الخطبه الثالثه و الثمانون - - - - -
- ١١٨٩ - - - - - اشاره - - - - -
- ١١٨٩ - - - - - نظره إلى الخطبه - - - - -
- ١١٩١ - - - - - القسم الأول: البعيد القريب والعالى الدانى - - - - -

- القسم الثاني: دور التقوى في تقرير مصير الإنسان ١١٩٣
- اشاره ١١٩٣
- التقوى في كل زمان ومكان ١١٩٧
- القسم الثالث: حقيقه الدنيا ١١٩٩
- اشاره ١١٩٩
- تقلب الدنيا ١٢٠٣
- القسم الرابع: أهوال المحشر ١٢٠٥
- اشاره ١٢٠٥
- تأملات ١٢٠٨
- ١ - أضواء على المعاد الجسماني ١٢٠٨
- ٢ - شبهه الأكل والمأكل المعروفه ١٢٠٩
- ٣ - بعث من فى القبور ١٢١٠
- القسم الخامس: الإنسان، من أين وإلى أين؟ ١٢١١
- اشاره ١٢١١
- تأمل: الدنيا دار إمتحان ١٢١٣
- القسم السادس: مواعظ شافيه ١٢١٥
- اشاره ١٢١٥
- شعب التقوى ١٢١٨
- القسم السابع: الجميع يدين له بالفضل ١٢١٩
- القسم الثامن: الحذر، فالنعم إلى زوال ١٢٢٥
- القسم التاسع: عاقبه الغضاضه الذبول ١٢٢٧
- القسم العاشر: مواجهه الأهويل ١٢٣٠
- اشاره ١٢٣٠
- تأملان ١٢٣٣
- ١ - كيف نجتاز الصراط بسهوله؟! ١٢٣٣
- ٢ - صلاه الليل شرف المؤمن ١٢٣٥

١٢٣٧	القسم الحادى عشر: المانع الآخر وساوس الشيطان
١٢٣٧	اشاره
١٢٣٩	مكائد الشيطان
١٢٤١	القسم الثانى عشر: بدايه حياه الإنسان ونهايتها
١٢٤١	اشاره
١٢٤٣	النعم والجحود
١٢٤٥	القسم الثالث عشر: الموت المفاجئ
١٢٤٦	القسم الرابع عشر: حوادث مابعد الموت
١٢٤٦	اشاره
١٢٥٠	تأملان
١٢٥٠	١ - وداع الأحياء للأموات
١٢٥٠	٢ - سؤال القبر
١٢٥٤	القسم الخامس عشر: القبر روضه من رياض الجتّه أو حفره من النار
١٢٥٨	القسم السادس عشر: مصير الجاحدين من أصحاب السطوه
١٢٦٠	القسم السابع عشر: الحذر الحذر
١٢٦٢	القسم الثامن عشر: حسن الختام
١٢٦٦	الخطبه : الرابعه و الثمانون
١٢٦٦	اشاره
١٢٦٦	نظره إلى الخطبه
١٢٦٨	ابن النابغه الكاذب
١٢٦٨	اشاره
١٢٧٣	تأملان
١٢٧٣	١ - نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره
١٢٧٤	٢ - المزاح فى الإسلام
١٢٧٨	الخطبه : الخامسه و الثمانون
١٢٧٨	اشاره

- نظره إلى الخطبه ----- ١٢٧٨
- القسم الأول: معرفه الله ----- ١٢٨٠
- اشاره ----- ١٢٨٠
- تأمل: كيفيه معرفه الإنسان بالذات المقدسه ----- ١٢٨٣
- القسم الثانى: الاعتاظ والاعتبار ----- ١٢٨٦
- القسم الثالث ----- ١٢٩٠
- اشاره ----- ١٢٩٠
- درجات الجته ----- ١٢٩٠
- الخطبه السادسه و الثمانون ----- ١٢٩٣
- اشاره ----- ١٢٩٣
- نظره إلى الخطبه ----- ١٢٩٣
- القسم الأول: العالم بالخفايا والاسرار ----- ١٢٩٤
- القسم الثانى: الزاد إلى المعاد ----- ١٢٩٦
- القسم الثالث: الكتاب الجامع ----- ١٢٩٨
- اشاره ----- ١٢٩٨
- جامعيه القرآن والسنه ----- ١٢٩٨
- إجابه عن سؤال ----- ١٣٠٠
- القسم الرابع: إغتنام الفرصه ----- ١٣٠٢
- اشاره ----- ١٣٠٢
- طرق نفوذ الشيطان ----- ١٣٠٤
- القسم الخامس: من هو السعيد؟ ----- ١٣٠٦
- اشاره ----- ١٣٠٦
- مواطن السعاده لدى الإنسان ----- ١٣٠٨
- القسم السادس: الصفات والذميجه ----- ١٣١٠
- اشاره ----- ١٣١٠
- المواعظ البالغه ----- ١٣١٢

- الخطبه السابعه و الثمانون ١٣١٤
- اشاره ١٣١٤
- نظره إلى الخطبه ١٣١٤
- القسم الأول: أحب العباد إلى الله ١٣١٤
- اشاره ١٣١٤
- أفضل النعم ١٣١٩
- القسم الثاني: خصائص المخلصين ١٣٢٢
- اشاره ١٣٢٢
- تأملان ١٣٢٥
- ١ - فتح باب الاجتهاد ١٣٢٥
- ٢ - شموليه القرآن ١٣٢٦
- القسم الثالث: العلماء المخلصون والعلماء المتشبهون ١٣٢٨
- اشاره ١٣٢٨
- تأملات ١٣٣١
- ١ - علماء الضلاله ١٣٣١
- ٢ - التفسير بالرأى، فخ الشيطان الأكبر ١٣٣٢
- ٣ - البدع ماده الانحراف ١٣٣٤
- القسم الرابع: لم الضلال، والعتره بين الاظهر؟ ١٣٣٤
- اشاره ١٣٣٤
- منزله أهل البيت عليهم السلام ١٣٣٨
- القسم الخامس: أعلام الهدى ١٣٤٠
- القسم السادس: زوال حكومه بنى ❖ أميه ١٣٤٤
- اشاره ١٣٤٤
- تأملان ١٣٤٤
- حكومه بنى اميه الفاشله ١٣٤٤
- اشاره ١٣٤٤

- ١٣٤٦----- (أ) قيام الخوارج ضد بنى أميه
- ١٣٤٧----- (ب) قيام سائر الناس ضد بنى أميه
- ١٣٥٠----- الخطبه : الثامنه والثمانون
- ١٣٥٠----- اشاره
- ١٣٥٠----- نظره إلى الخطبه
- ١٣٥٢----- القسم الأول: هل من عين باصره واذن سامعه؟
- ١٣٥٢----- اشاره
- ١٣٥٤----- مصير الجبابره
- ١٣٥٦----- القسم الثاني: الاستبداد ماده الاختلاف
- ١٣٥٦----- اشاره
- ١٣٥٩----- المستبدون الظالون
- ١٣٦٠----- الخطبه التاسعه والثمانون
- ١٣٦٠----- اشاره
- ١٣٦٠----- نظره إلى الخطبه
- ١٣٦٢----- القسم الأول: العالم على أعتاب الدعوه
- ١٣٦٢----- اشاره
- ١٣٦٦----- الجاهليه المعاصره
- ١٣٦٨----- القسم الثاني: كلکم مسؤول
- ١٣٧٢----- الخطبه التسعون
- ١٣٧٢----- اشاره
- ١٣٧٢----- نظره إلى الخطبه
- ١٣٧٤----- القسم الأول: كان ولم يكن أحد سواه
- ١٣٧٨----- القسم الثاني: العالم بالخفايا والأسرار
- ١٣٨٠----- القسم الثالث: ليس كمثلہ شیء
- ١٣٨٢----- القسم الرابع: محاسبه النفس
- ١٣٨٢----- اشاره

١٣٨٣	تأملان
١٣٨٣	١ - الوزن والحساب في المحشر
١٣٨٤	٢ - الواعظ الباطنى
١٣٨٤	المجلد ٤
١٣٨٤	اشاره
١٣٨٧	اشاره
١٣٩١	الخطبه الحاديه و التسعون
١٣٩١	اشاره
١٣٩١	نظره إلى الخطبه
١٣٩٥	القسم الأول: جوده لا ينضب
١٣٩٥	اشاره
١٤٠٠	تأمل: شمول النعم الإلهيه
١٤٠٣	القسم الثانى: معرفه الله عن الله
١٤٠٣	اشاره
١٤٠٤	تأمل: الراسخون فى العلم وتفسير المتشابهات
١٤٠٩	القسم الثالث: العالى على الخيال والقياس والظن والوهم
١٤١٣	القسم الرابع: الحديث عن تدبيره
١٤١٧	القسم الخامس: انت المنزه عن الشبيهه والتميل
١٤١٧	اشاره
١٤١٩	تأمل: من هم المجسمه؟
١٤٢٣	القسم السادس: الممتنع على احاطه العقول
١٤٢٥	القسم السابع: كلى شىء يستند إلى اراده الله
١٤٢٧	القسم الثامن: سر الخلق
١٤٢٧	اشاره
١٤٢٩	تأمل: أوضح طريق إلى معرفه الله
١٤٣١	القسم التاسع: خلق السموات

- ١٤٣١ - - - - - اشارة
- ١٤٣٦ - - - - - تأمل: خصائص السماوات
- ١٤٣٧ - - - - - القسم العاشر: خلق الشمس والقمر والشهب والكواكب
- ١٤٣٧ - - - - - اشارة
- ١٤٣٩ - - - - - تأملات
- ١٤٣٩ - - - - - ١- الكواكب الثابتة والسياره
- ١٤٤٠ - - - - - ٢- خصائص الكواكب
- ١٤٤٠ - - - - - ٣- سعد ونحس الكواكب
- ١٤٤٣ - - - - - القسم الحادى عشر: خلق الملائكه
- ١٤٤٧ - - - - - القسم الثانى عشر: وظائف الملائكه
- ١٤٤٧ - - - - - اشارة
- ١٤٥٠ - - - - - تأمل: لم الملائكه واسطه الوحى؟
- ١٤٥١ - - - - - القسم الثالث عشر: الانقطاع إلى الله
- ١٤٥٣ - - - - - القسم الرابع عشر: مدبرات الأمور
- ١٤٥٧ - - - - - القسم الخامس عشر: خصائص الملائكه
- ١٤٥٧ - - - - - اشارة
- ١٤٦٠ - - - - - تأمل: الناس والملائكه
- ١٤٦١ - - - - - القسم السادس عشر: عودا على بدء فى صفات الملائكه
- ١٤٦١ - - - - - اشارة
- ١٤٦٥ - - - - - تأمل: الناس والملائكه ثانيه
- ١٤٦٩ - - - - - القسم السابع عشر: ظهور اليابسه و استقرار البحار
- ١٤٧٣ - - - - - القسم الثامن عشر: ظهور الجبال والعيون
- ١٤٧٣ - - - - - اشارة
- ١٤٧٥ - - - - - تأمل: أسرار خلق الجبال
- ١٤٧٧ - - - - - القسم التاسع عشر: إحياء الأرض الميتة بالسحب الممطره
- ١٤٧٧ - - - - - اشارة

- ١٤٨١ - تأمل: سعه قاعده اللطف فى التكوين والتشريع
- ١٤٨٣ - القسم العشرون: خلق آدم وبعثه الأنبياء
- ١٤٨٧ - القسم الحادى والعشرون: الرزق وسيله الامتحان
- ١٤٨٧ - اشاره
- ١٤٨٩ - تأمل: هل رزق كل إنسان مقدر؟
- ١٤٩٣ - القسم الثانى والعشرون: العالم بكل شىء
- ١٤٩٣ - اشاره
- ١٤٩٦ - تأمل: تنوع الكائنات
- ١٤٩٩ - القسم الثالث والعشرون: شموليه العلم الإلهى
- ١٤٩٩ - اشاره
- ١٥٠٢ - تأملات
- ١٥٠٢ - ١ - العلم الكامل
- ١٥٠٢ - ٢ - علم الله بكافه الخفايا
- ١٥٠٣ - ٣ - ابن أبى الحديد فى شرح هذه الخطبه.
- ١٥٠٥ - القسم الرابع والعشرون: إليك الملاذ و أنت الرجاء
- ١٥٠٥ - اشاره
- ١٥٠٧ - تأمل: فى اعجاز البيان.
- ١٥٠٩ - الخطبه الثانيه و التسعون
- ١٥٠٩ - اشاره
- ١٥٠٩ - نظره إلى الخطبه
- ١٥١١ - دعونى و التمسوا غيرى
- ١٥١٤ - تأملات
- ١٥١٤ - ١ - لم قال دعونى؟
- ١٥١٦ - ٢ - لم لا يتحملوا عداله على عليه السلام؟
- ١٥١٧ - ٣ - لم وزارته عليه السلام خير من إمارته؟
- ١٥١٩ - الخطبه الثالثه و التسعون

- ١٥١٩ - اشارة
- ١٥٢١ - القسم الاول: أنا فقأت عين الفتنة
- ١٥٢٧ - القسم الثاني: فتنة بنى أميه
- ١٥٢٧ - اشارة
- ١٥٣١ - تأملات
- ١٥٣١ - ١ - مميزات الفتنة
- ١٥٣٢ - ٢ - حكومه بنى أميه
- ١٥٣٥ - القسم الثالث: انتقام الله من بنى أميه
- ١٥٣٥ - اشارة
- ١٥٣٧ - تأملان
- ١٥٣٧ - ١ - ضربه الفرار من الحق
- ١٥٣٨ - ٢ - عاقبه بنى أميه
- ١٥٤١ - الخطبه الرابعه والتسعون
- ١٥٤١ - اشارة
- ١٥٤١ - نظره إلى الخطبه
- ١٥٤٣ - القسم الأول: عجز الفكر عن معرفته
- ١٥٤٥ - القسم الثاني: (ومنها فى وصف الأنبياء) : المكانه الرفيعه للأنبياء
- ١٥٤٧ - القسم الثالث: فضائل النبي صلى الله عليه و آله
- ١٥٤٧ - اشارة
- ١٥٥١ - تأملان
- ١٥٥١ - ١ - منزله النبي صلى الله عليه و آله لدى الآخرين
- ١٥٥١ - ٢ - أسره النبي صلى الله عليه و آله
- ١٥٥٣ - القسم الرابع: اعملوا ما استطعتم
- ١٥٥٥ - الخطبه الخامسه والتسعون
- ١٥٥٥ - اشارة
- ١٥٥٥ - نظره إلى الخطبه

- النور الذي كشف الظلمه ----- ١٥٥٧
- الخطبه السادسه و التسعون ----- ١٥٦١
- اشاره ----- ١٥٦١
- نظره إلى الخطبه ----- ١٥٦١
- القسم الأول: الأول والآخر ----- ١٥٦٣
- القسم الثاني: كلامه بيان وصمته لسان ----- ١٥٦٥
- الخطبه السابعه و التسعون ----- ١٥٦٩
- اشاره ----- ١٥٦٩
- نظره إلى الخطبه ----- ١٥٦٩
- القسم الأول: عبيد كآرباب ----- ١٥٧١
- القسم الثاني: شهود الابدان وغياب العقول ----- ١٥٧٧
- القسم الثالث: العمل بالتكليف ----- ١٥٧٩
- اشاره ----- ١٥٧٩
- تأمل: مقارنه بين أهل العراق والشام ----- ١٥٨١
- القسم الرابع: صحب النبي صلى الله عليه و آله ----- ١٥٨٥
- اشاره ----- ١٥٨٥
- تأملات ----- ١٥٨٨
- ١ - ولايه أهل البيت وعصمتهم ----- ١٥٨٨
- ٢ - مميزات أهل الكوفه والشام ----- ١٥٨٩
- ٣ - حقيقه الصحابه ----- ١٥٨٩
- الخطبه الثامنه و التسعون ----- ١٥٩٣
- اشاره ----- ١٥٩٣
- نظره إلى الخطبه ----- ١٥٩٣
- مظالم بنى أميه ----- ١٥٩٥
- تأمل: بدع بنى أميه ----- ١٥٩٧
- الخطبه التاسعه و التسعون ----- ١٦٠٢

- ١٦٠٢ اشارة
- ١٦٠٢ نظره إلى الخطبه
- ١٦٠٤ القسم اول: السلامه فى الدين والبدن
- ١٦٠٦ القسم الثانى: سرعه زوال الدنيا
- ١٦١٠ القسم الثالث: دروس الدنيا وعبرها
- ١٦١٢ القسم الرابع: هادم اللذات
- ١٦١٢ اشارة
- ١٦١٣ تأملان
- ١٦١٣ ١ - خداع الدنيا محدود
- ١٦١٤ ٢ - أكيس الناس
- ١٦١٦ الخطبه مأه
- ١٦١٦ اشارة
- ١٦١٦ نظره إلى الخطبه
- ١٦١٨ القسم الأول: رايه الحق
- ١٦١٨ اشارة
- ١٦٢٤ تأملان
- ١٦٢٤ ١ - أولياء الله
- ١٦٢٤ ٢ - الفشل فنطره النجاح
- ١٦٢٦ القسم الثانى: هدى آل محمد صلى الله عليه و آله
- ١٦٢٦ اشارة
- ١٦٢٧ تأملان
- ١٦٢٧ ١ - حديث النجوم
- ١٦٢٨ ٢ - آخر مراحل تكامل النعم الإلهيه
- ١٦٣٠ الخطبه المأه وواحد
- ١٦٣٠ اشارة
- ١٦٣٠ نظره إلى الخطبه

- القسم الأول: الشهاده المطلقه ١٦٣٢
- القسم الثاني: الحق ما أقول ١٦٣٤
- القسم الثالث: فتنه ضليل الشام ١٦٣٦
- اشاره ١٦٣٦
- تأملان ١٦٣٨
- ١ - الملاحم ١٦٣٨
- ٢ - الكوفه مركز الازمات والعواصف ١٦٣٩
- الخطبه المأه واثنان ١٦٤٠
- اشاره ١٦٤٠
- نظره إلى الخطبه ١٦٤٠
- القسم الأول: هول المحشر ١٦٤٢
- القسم الثاني: فتنه البصره ١٦٤٤
- الخطبه المأه و ثلاث ١٦٤٨
- اشاره ١٦٤٨
- نظره إلى الخطبه ١٦٤٨
- القسم الأول: الدنيا الفانيه ١٦٥٠
- اشاره ١٦٥٠
- تأمل: الزهد في الدنيا ١٦٥٢
- القسم الثاني: سرعه العمر ١٦٥٤
- اشاره ١٦٥٤
- تأمل: في الاعتبار ١٦٥٥
- القسم الثالث: العلماء والمتشبهون بهم ١٦٥٨
- اشاره ١٦٥٨
- تأمل: العلماء الحقيقيون ١٦٦٠
- القسم الرابع: علامات آخر الزمان ١٦٦٢
- اشاره ١٦٦٢

- ١٦٦٥ تأمل: الفساد في آخر الزمان
- ١٦٦٦ الخطبه المأه واربع
- ١٦٦٦ اشاره
- ١٦٦٦ نظره إلى الخطبه
- ١٦٦٨ القسم الأول: النهضه التغييريه للنبي عليه السلام
- ١٦٦٨ اشاره
- ١٦٦٩ تأملان
- ١٦٦٩ ١ - هل بعث نبي من العرب؟
- ١٦٧٠ ٢ - القوه في الدين
- ١٦٧٢ القسم الثاني: بقر الباطل واخراج الحق
- ١٦٧٤ الخطبه المأه و خمس
- ١٦٧٤ اشاره
- ١٦٧٤ نظره إلى الخطبه
- ١٦٧٦ القسم الأول: صفات النبي صلى الله عليه و آله
- ١٦٧٨ القسم الثاني: زوال حكومه بنى أميه
- ١٦٨٢ القسم الثالث: التمسك بالإمام
- ١٦٨٤ القسم الرابع: وظائف الإمام والأئمه
- ١٦٨٨ الخطبه المأه وست
- ١٦٨٨ اشاره
- ١٦٨٨ نظره إلى الخطبه
- ١٦٩٠ القسم الأول: خصائص الإسلام
- ١٦٩٠ اشاره
- ١٦٩٤ تأملان
- ١٦٩٤ ١ - منزله الدنيا والآخره في النظره الإسلاميه
- ١٦٩٦ ٢ - الشريعه السمحاء
- ١٦٩٨ القسم الثاني: صفات النبي صلى الله عليه و آله ومقاماته

- ١٦٩٨ اشاره
- ١٧٠١ تأمل: إعراف مهم
- ١٧٠٢ القسم الثالث: تضييع النعم
- ١٧٠٦ الخطبه المأه و سبع
- ١٧٠٦ اشاره
- ١٧٠٦ نظره إلى الخطبه
- ١٧٠٨ أتلتجتم صدرى
- ١٧١١ الخطبه المأه و ثمان
- ١٧١١ اشاره
- ١٧١١ نظره إلى الخطبه
- ١٧١٢ القسم الأول: تجلى الله للعباد
- ١٧١٢ اشاره
- ١٧١٤ تأمل: فى سعه علم الله
- ١٧١٦ القسم الثانى: وصف النبى صلى الله عليه و آله
- ١٧١٨ القسم الثالث: طيب سيار
- ١٧٢٢ القسم الرابع: اشباح بلا أرواح
- ١٧٢٢ اشاره
- ١٧٢٤ تأمل: الوجود الباهت كالعدم
- ١٧٢٦ القسم الخامس: طغاه بنى أميه يأتون على الأخضر و اليبس
- ١٧٢٦ اشاره
- ١٧٢٨ تأمل: الحكومات المستبده
- ١٧٣٠ القسم السادس: احذروا المستقبل المشؤوم
- ١٧٣٤ القسم السابع: الانقلاب رأس على عقب
- ١٧٣٤ اشاره
- ١٧٣٧ تأمل: آثار سلطه الأوباش
- ١٧٤٠ الخطبه المأه و تسع

- ١٧٤٠ - اشارة
- ١٧٤٠ - نظره إلى الخطبه
- ١٧٤٢ - القسم الأول: الصفات الكماله لله
- ١٧٤٨ - القسم الثاني: عبوديه الملائكه
- ١٧٥٢ - القسم الثالث: عالم الآخرة
- ١٧٥٢ - اشارة
- ١٧٥٥ - تأمل: العشق المقدس واليهجين
- ١٧٦٠ - القسم الرابع: سكرات الموت
- ١٧٦٠ - اشارة
- ١٧٦٣ - تأمل: سكره الموت والاحتضار
- ١٧٦٦ - القسم الخامس: قيامه الناس
- ١٧٧٠ - القسم السادس: الثواب والعقاب
- ١٧٧٠ - اشارة
- ١٧٧٣ - تأمل: أسلوب الهدايه
- ١٧٧٤ - القسم السابع: زهد النبي صلى الله عليه و آله
- ١٧٧٤ - اشارة
- ١٧٧٥ - تأمل: الشرط الاصلى فى الزعامه
- ١٧٧٨ - القسم الثامن: أهل البيت عليهم السلام
- ١٧٨٠ - الخطبه المأه و عشر
- ١٧٨٠ - اشارة
- ١٧٨٠ - نظره إلى الخطبه
- ١٧٨٢ - القسم الأول: فرائض الإسلام
- ١٧٨٢ - اشارة
- ١٧٨٨ - فلسفه الأحكام
- ١٧٩٠ - القسم الثاني: القرآن والسنة
- ١٧٩٠ - اشارة

١٧٩٣	تأمل: عاقبه العالم غير العامل
١٧٩٦	المجلد ٥
١٧٩٦	اشاره
١٧٩٧	اشاره
١٨٠١	الخطبه المأه وإحدى عشره
١٨٠١	اشاره
١٨٠١	نظره إلى الخطبه
١٨٠٣	القسم الأول: الدنيا الغراره!
١٨٠٧	القسم الثاني: الدنيا كل يوم بلباس
١٨١١	القسم الثالث: الدنيا سند هش خاوى!
١٨١٥	القسم الرابع: تأملوا الماضى قليلاً
١٨٢١	القسم الخامس: الاعتبار بالموتى
١٨٢١	اشاره
١٨٢٦	تأملان
١٨٢٦	١ - سبل مواجهه التعلق بالدنيا
١٨٢٨	٢ - الردّ على سؤال
١٨٢٩	الخطبه المأه وإثنتا عشره
١٨٢٩	اشاره
١٨٢٩	نظره إلى الخطبه
١٨٣١	أينما تكونوا يدر ككم الموت
١٨٣٢	تأملات
١٨٣٢	١ - ملك الموت أم ملانكه الموت
١٨٣٣	٢ - كيفيه قبض الأرواح
١٨٣٥	الخطبه المأه ثلاثه عشره
١٨٣٥	اشاره
١٨٣٥	نظره إلى الخطبه

- ١٨٣٧ ----- القسم الأول: التحذير من الدنيا
- ١٨٤١ ----- القسم الثاني: صفات الزهاد في الدنيا
- ١٨٤٥ ----- القسم الثالث: العود على ذم أصحاب الدنيا
- ١٨٤٩ ----- الخطبه المأه وأربه عشره
- ١٨٤٩ ----- اشاره
- ١٨٤٩ ----- نظره إلى الخطبه
- ١٨٥١ ----- القسم الأول: الثقة القيمه
- ١٨٥١ ----- اشاره
- ١٨٥٤ ----- تأمل
- ١٨٥٤ ----- أسس الموفقيه والنجاه
- ١٨٥٥ ----- القسم الثاني: أعظم الفضائل
- ١٨٥٩ ----- القسم الثالث: العبر والاعتبار
- ١٨٦٥ ----- القسم الرابع: الحرص على الدنيا
- ١٨٦٥ ----- اشاره
- ١٨٧١ ----- تأملات
- ١٨٧١ ----- ١ - غرور عن بعد ورعب من قرب
- ١٨٧٢ ----- ٢ - الدنيا وآراء الناس
- ١٨٧٣ ----- ٣ - كيف نبحت عن سعاده الآخره في الدنيا؟
- ١٨٧٥ ----- الخطبه المأه و خمسه عشره
- ١٨٧٥ ----- اشاره
- ١٨٧٥ ----- نظره إلى الخطبه
- ١٨٧٧ ----- القسم الأول: الأمل بالله في القحط والجفاف
- ١٨٨١ ----- القسم الثاني: اللهم أمطرنا بوابل رحمتك
- ١٨٨١ ----- اشاره
- ١٨٨٤ ----- تفسير ما في هذه الخطبه من الغريب
- ١٨٨٥ ----- تأملان

- ١٨٨٥ - - - - - ١ - صلاة الاستسقاء
- ١٨٨٦ - - - - - ٢ - الذنب وزوال البركه
- ١٨٨٩ - - - - - الخطبه المأه و سادسه عشره
- ١٨٨٩ - - - - - اشاره
- ١٨٨٩ - - - - - نظره إلى الخطبه
- ١٨٩١ - - - - - القسم الاؤل: عدم التواني في الجهاد
- ١٨٩٣ - - - - - القسم الثاني: الآفات المظلمه من ورائكم
- ١٨٩٣ - - - - - اشاره
- ١٨٩٥ - - - - - مظلوميه أمير المؤمنين على عليه السلام
- ١٨٩٧ - - - - - القسم الثالث: الانتقام الإلهي
- ١٨٩٧ - - - - - اشاره
- ١٨٩٩ - - - - - من هو الحجاج؟
- ١٩٠١ - - - - - الخطبه المأه و سبعة عشره
- ١٩٠١ - - - - - اشاره
- ١٩٠١ - - - - - نظره إلى الخطبه
- ١٩٠٣ - - - - - الفكر والاعتبار
- ١٩٠٥ - - - - - الخطبه المأه و ثامنه عشره
- ١٩٠٥ - - - - - اشاره
- ١٩٠٥ - - - - - نظره إلى الخطبه
- ١٩٠٧ - - - - - الأصحاب الأوفياء
- ١٩٠٨ - - - - - الثناء على الأصحاب
- ١٩١١ - - - - - الخطبه المأه و تاسعه عشره
- ١٩١١ - - - - - اشاره
- ١٩١١ - - - - - نظره إلى الخطبه
- ١٩١٣ - - - - - القسم الأؤل: المخلفون الضعفاء والجهال
- ١٩١٧ - - - - - القسم الثاني: لولا رجاء الشهاده

- ١٩١٧ - اشارة
- ١٩١٩ - القلوب الواعيه
- ١٩٢١ - الخطبه المأه و عشرون
- ١٩٢١ - اشارة
- ١٩٢١ - نظره إلى الخطبه
- ١٩٢٣ - المواعظ القيمه
- ١٩٢٩ - الخطبه المأه والحادى العشرون
- ١٩٢٩ - اشارة
- ١٩٢٩ - نظره إلى الخطبه
- ١٩٣١ - القسم الأول: الداء وليس الدواء
- ١٩٣٥ - القسم الثانى: إخوتى فى الجهاد
- ١٩٣٩ - القسم الثالث: الحذار من وساوس الشيطان
- ١٩٤١ - الخطبه والثانيه والعشرون
- ١٩٤١ - اشارة
- ١٩٤١ - نظره إلى الخطبه
- ١٩٤٣ - القسم الأول: كيف وقعتم فى فخ العدو
- ١٩٤٣ - اشارة
- ١٩٤٧ - نبذه عن شخصيه معاويه
- ١٩٤٩ - القسم الثانى: بذلنا ما فى الوسع من أجل الوحده
- ١٩٥١ - الخطبه المائه والثلاثه والعشرون
- ١٩٥١ - اشارة
- ١٩٥١ - نظره إلى الخطبه
- ١٩٥٣ - القسم أول: شكر القدره
- ١٩٥٣ - اشارة
- ١٩٥٥ - الشهاده عرس الأبطال
- ١٩٥٧ - القسم الثانى: عاقبه السوء

- الخطبه المأه و الرابعه والعشرون ١٩٥٩
- اشاره ١٩٥٩
- نظره إلى الخطبه ١٩٥٩
- القسم الأول: سبع وصايا في فنون القتال ١٩٦١
- القسم الثاني: الجته تحت ظلال السيوف ١٩٦٧
- القسم الثالث: القضاء على آخر معاقل العدو ١٩٧١
- الخطبه المأه والخامسه والعشرون ١٩٧٥
- اشاره ١٩٧٥
- نظره إلى الخطبه ١٩٧٥
- القسم الأول: الرد على الخوارج ١٩٧٧
- اشاره ١٩٧٧
- قضيه التحكيم ١٩٧٩
- القسم الثاني: لستم من أهل الجهاد ١٩٨٣
- اشاره ١٩٨٣
- تأملان ١٩٨٧
- ١ - عهد صفين ١٩٨٧
- ٢ - حوار الإمام عليه السلام مع الخوارج ١٩٨٧
- الخطبه المأه والسادسه والعشرون ١٩٩١
- اشاره ١٩٩١
- نظره إلى الخطبه ١٩٩١
- المنصب والعداله ١٩٩٣
- بحث في اسلوب تقسيم العطاء ١٩٩٥
- الخطبه المأه والسابعه والعشرون ١٩٩٩
- اشاره ١٩٩٩
- نظره إلى الخطبه ١٩٩٩
- القسم الأول: العنف الهمجي للخوارج ٢٠٠١

٢٠٠١ -..... اشاره

٢٠٠٣ -..... تأملات

٢٠٠٣ -..... ١ - الخوارج وتكفير أهل الذنوب

٢٠٠٤ -..... ٢ - جانب من جنایات الخوارج

٢٠٠٥ -..... ٣ - الردّ على سؤال

٢٠٠٧ -..... القسم الثانی: شر الناس

٢٠٠٧ -..... اشاره

٢٠١٠ -..... تأملات

٢٠١٠ -..... ١ - الحذر من الإفراط والتفريط

٢٠١١ -..... ٢ - يد الله مع الجماعة

٢٠١١ -..... ٣ - شرار الخلق

٢٠١٦ -..... القسم الثالث: انحراف الحكمين

٢٠١٦ -..... اشاره

٢٠١٨ -..... تأمل

٢٠١٨ -..... دروس التحكيم

٢٠٢٠ -..... الخطبه المأه والثامنه والعشرون

٢٠٢٠ -..... اشاره

٢٠٢٠ -..... نظره إلى الخطبه

٢٠٢٢ -..... القسم الأول: الفتنة المرعبه بالمرصاد

٢٠٢٢ -..... اشاره

٢٠٢٤ -..... تأمل: قيام صاحب الزنج

٢٠٢٨ -..... القسم الثانی: نبوءه أخرى

٢٠٢٨ -..... اشاره

٢٠٣٠ -..... فتنة المغول

٢٠٣٢ -..... القسم الثالث: الغيب لله ولكن...

٢٠٣٢ -..... اشاره

- ٢٠٣٤ ----- وهنا لابد من طرح هذه الأسئلة -
- ٢٠٣٥ ----- علم الغيب في الآيات والروايات
- ٢٠٣٨ ----- الخطبه المأه والتاسعه والعشرون
- ٢٠٣٨ ----- اشاره
- ٢٠٣٨ ----- نظره إلى الخطبه
- ٢٠٤٠ ----- القسم الأول: التحذير من الفساد الاجتماعى
- ٢٠٤٤ ----- القسم الثانى: أين الأخيار؟
- ٢٠٤٤ ----- اشاره
- ٢٠٤٧ ----- شكوى أهل الزمان
- ٢٠٤٨ ----- الخطبه المأه والثلاثون
- ٢٠٤٨ ----- اشاره
- ٢٠٤٨ ----- نظره إلى الخطبه
- ٢٠٥٠ ----- القسم الأول: أبو ذر رحمه الله بطل مقارعه الفساد
- ٢٠٥٠ ----- اشاره
- ٢٠٥٢ ----- تأملات
- ٢٠٥٢ ----- ١ - من هو أبو ذر رحمه الله
- ٢٠٥٥ ----- ٢ - أبو ذر رحمه الله والاشتراكيه
- ٢٠٥٧ ----- ٣ - العاقبه المريره لأبى ذر
- ٢٠٥٨ ----- ٤ - كلمات المؤدعين لأبى ذر
- ٢٠٦٠ ----- الخطبه المأه والحاديه والثلاثون
- ٢٠٦٠ ----- اشاره
- ٢٠٦٠ ----- نظره إلى الخطبه
- ٢٠٦٢ ----- القسم الأول: لستم من الأصحاب الأخيار
- ٢٠٦٢ ----- اشاره
- ٢٠٦٤ ----- العوامل الرئيسيه للفشل
- ٢٠٦٦ ----- القسم الثانى: الهدف هو إقامه الحق وبسط العدل

- القسم الثالث: شرائط حكام العدل ٢٠٧٠
- اشاره ٢٠٧٠
- آفه الحكومات ٢٠٧٢
- الخطبه المأه والثانيه والثلاثون ٢٠٧٤
- اشاره ٢٠٧٤
- نظره إلى الخطبه ٢٠٧٤
- القسم الأول: صفات الله الخاصه ٢٠٧٦
- القسم الثاني: نزول الموت؟ ٢٠٧٨
- القسم الثالث: ممر يعرف باسم الدنيا ٢٠٨٢
- اشاره ٢٠٨٢
- نتيجه الخطبه ٢٠٨٣
- الخطبه المأه والثالثه والثلاثون ٢٠٨٦
- اشاره ٢٠٨٦
- نظره إلى الخطبه ٢٠٨٦
- القسم الأول: انقياد ما فى الدنيا لله ٢٠٨٨
- اشاره ٢٠٨٨
- اسجام الآيات والروايات ٢٠٨٩
- القسم الثاني: إعجاز القرآن ٢٠٩٢
- اشاره ٢٠٩٢
- القرآن الناطق ٢٠٩٣
- القسم الثالث: رساله خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله ٢٠٩٤
- القسم الرابع: الدنيا غايه بصر الأعمى ٢٠٩٦
- اشاره ٢٠٩٦
- التعامل مع الدنيا ٢٠٩٧
- القسم الخامس: أهميه القرآن و دور عباده الدنيا فى الصراعات ٢١٠٠
- الخطبه المأه والرابعه والثلاثون ٢١٠٨

- ٢١٠٨ - اشارة
- ٢١٠٨ - نظره إلى الخطبه
- ٢١١٠ - الحضور الخطير
- ٢١١٢ - تأملات
- ٢١١٢ - ١ - الرد على سؤال
- ٢١١٣ - ٢ - شبهه أخرى
- ٢١١٣ - ٣ - الأمانة في الاستشاره
- ٢١١٤ - ٤ - إستنتاج خاطيء
- ٢١١٦ - الخطبه المأه والخامسه والثلاثون
- ٢١١٦ - اشارة
- ٢١١٦ - نظره إلى الخطبه
- ٢١١٨ - أنت عاجز
- ٢١١٩ - سلوك الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق
- ٢١٢٠ - الخطبه المأه والسادسه والثلاثون
- ٢١٢٠ - اشارة
- ٢١٢٠ - نظره إلى الخطبه
- ٢١٢٢ - أنصف المظلوم من الظالم
- ٢١٢٤ - الخطبه المأه والسابعه والثلاثون
- ٢١٢٤ - اشارة
- ٢١٢٤ - نظره إلى الخطبه
- ٢١٢٦ - القسم الأول: الحاقدون الظالمون
- ٢١٣٠ - القسم الثاني: إصراركم على البيعه
- ٢١٣٠ - اشارة
- ٢١٣١ - القاتل يطالب بالتأر
- ٢١٣٤ - الخطبه المأه والرابعه والثلاثون
- ٢١٣٤ - اشارة

٢١٣٤	نظرة إلى الخطبه
٢١٣٦	القسم الأول: خصائص الإمام المهدي عليه السلام
٢١٣٨	القسم الثاني: جانب من الحوادث المرعبه آخر الزمان
٢١٤٠	القسم الثالث: خصائص ذلك الحاكم الدموي
٢١٤٤	الخطبه المأه والتاسعه والثلاثون
٢١٤٤	اشاره
٢١٤٤	نظرة إلى الخطبه
٢١٤٦	تحذير من الحوادث المستقبلية
٢١٤٨	جذور الفساد
٢١٥٠	الخطبه المأه والأربعون
٢١٥٠	اشاره
٢١٥٠	نظرة إلى الخطبه
٢١٥٢	القسم الأول: التغابي عن عيوب الذات
٢١٥٤	القسم الثاني: اقتفاء العيوب جحود عظيم
٢١٥٤	اشاره
٢١٥٥	الغيبه والبحث عن العيوب آفه المجتمعات الإنسانيه
٢١٦٠	الخطبه المأه والحاديه والأربعون
٢١٦٠	اشاره
٢١٦٠	نظرة إلى الخطبه
٢١٦٢	المسافه بين الحق الباطل
٢١٦٤	درس أخلاقي رفيع
٢١٦٦	الخطبه المأه والحاديه والأربعون
٢١٦٦	اشاره
٢١٦٦	نظرة إلى الخطبه
٢١٦٨	القسم الأول: المعروف في موضعه
٢١٧٠	القسم الثاني

- الخطبه المأه والثلاثه والاربعون ٢١٧٤
- اشاره ٢١٧٤
- نظره إلى الخطبه ٢١٧٤
- القسم الأول: درس فى التوحيد والأخلاق ٢١٧٤
- القسم الثانى: الذنب وقلة البركه ٢١٧٨
- اشاره ٢١٧٨
- جانب من فلسفه البلاء ٢١٧٩
- القسم الثالث: إلهى أمطرنا مطراً مباركاً ٢١٨٢
- اشاره ٢١٨٢
- سل الله كل شىء ٢١٨٥
- الخطبه المأه والرابعه والاربعون ٢١٨٤
- اشاره ٢١٨٤
- نظره إلى الخطبه ٢١٨٤
- القسم الأول: فلسفه الإمتحان الإلهى ٢١٨٨
- القسم الثانى: منزله الولايه ٢١٩٢
- اشاره ٢١٩٢
- قبسات من علم على عليه السلام ٢١٩٣
- روايه أن الأئمه من قريش ٢١٩٥
- منزله بنى هاشم فى الإسلام ٢١٩٤
- القسم الثالث: هؤلاء الجفاه يحرقون الأخضر واليابس ٢١٩٨
- القسم الرابع: دعاه الحق و أتباع الشيطان ٢٢٠٠
- الخطبه المأه والخامسه و الأربعون ٢٢٠٢
- اشاره ٢٢٠٢
- نظره إلى الخطبه ٢٢٠٢
- القسم الأول: تضارب نعم الدنيا ٢٢٠٤
- القسم الثانى: موت السنن بظهور البدع ٢٢٠٨

- الخطبه المأه والساده والأربعون ٢٢١٢
- اشاره ٢٢١٢
- نظره إلى الخطبه ٢٢١٢
- القسم الأول: الالتصاق بمركز الدوله ٢٢١٤
- اشاره ٢٢١٤
- فائده ٢٢١٧
- القسم الثاني: الكثره لا تسبب النصر ٢٢١٨
- اشاره ٢٢١٨
- معركه القادسيه ونهاوند ٢٢١٩
- الخطبه المأه والسابعه والأربعون ٢٢٢٢
- اشاره ٢٢٢٢
- نظره إلى الخطبه ٢٢٢٢
- القسم الأول: تجلى الله لعباده فى القرآن ٢٢٢٤
- اشاره ٢٢٢٤
- كيفيه تجلى الله فى القرآن ٢٢٢٤
- القسم الثاني: لا يبقى من القرآن سوى اسمه ٢٢٢٨
- اشاره ٢٢٢٨
- تأملان ٢٢٣١
- ١- أبشع عصور الإسلام ٢٢٣١
- ٢- التاريخ يعيد نفسه ٢٢٣٣
- القسم الثالث: أسباب شقاء الإنسان ٢٢٣٤
- القسم الرابع: سبيل النجاه ٢٢٣٤
- اشاره ٢٢٣٤
- تأمل: معرفه الأشياء بأضدادها ٢٢٣٩
- الخطبه المأه والثامنه والأربعون ٢٢٤٠
- اشاره ٢٢٤٠

- ٢٢٤٠ - نظره إلى الخطبه
- ٢٢٤٢ - الإتحاد الظاهري والعداء الباطني
- ٢٢٤٥ - تأمل: أصدقاء أمس وأعداء اليوم
- ٢٢٤٦ - الخطبه المأه والتاسعه والأربعون
- ٢٢٤٦ - اشاره
- ٢٢٤٦ - نظره إلى الخطبه
- ٢٢٤٨ - القسم الأول: إستحاله الهروب من الموت
- ٢٢٥٠ - القسم الثاني: وصيته الإمام عليه السلام
- ٢٢٥٤ - القسم الثالث: معرفتي بعد موتي
- ٢٢٥٨ - الخطبه المأه والخمسون
- ٢٢٥٨ - اشاره
- ٢٢٥٨ - نظره إلى الخطبه
- ٢٢٦٠ - القسم الأول: إنتظام كل شيء في ظل وجوده
- ٢٢٦٠ - اشاره
- ٢٢٦٣ - تأمل: قطعيه قيام المهدي الموعود عليه السلام
- ٢٢٦٤ - القسم الثاني: خصائص أنصار النبي صلى الله عليه وآله
- ٢٢٦٦ - القسم الثالث: العوده إلى القيم الجاهليه
- ٢٢٦٦ - اشاره
- ٢٢٦٨ - تأمل: مصير جاحدوا الولايه
- ٢٢٧٠ - حسن الختام
- ٢٢٧١ - المجلد ٦
- ٢٢٧١ - اشاره
- ٢٢٧٢ - اشاره
- ٢٢٧٦ - الخطبه ١٥١
- ٢٢٧٦ - اشاره
- ٢٢٧٦ - نظره إلى الخطبه

٢٢٧٨	القسم الأول
٢٢٧٨	الشرح والتفسير: الشمس التي أشرقت في الظلام
٢٢٨٢	القسم الثاني
٢٢٨٢	الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة
٢٢٨٥	تأمل: مميزات الحكام اتباع الهوى
٢٢٨٦	القسم الثالث
٢٢٨٦	الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنة الكبرى
٢٢٩٠	القسم الرابع
٢٢٩٠	الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنة
٢٢٩٤	الخطبه ١٥٢
٢٢٩٤	اشاره
٢٢٩٤	نظره إلى الخطبه
٢٢٩٦	القسم الأول
٢٢٩٦	الشرح والتفسير: شمه من صفات الله الجماليه والجلاليه
٢٣٠٢	القسم الثاني
٢٣٠٢	الشرح والتفسير: إنتظار الفرج
٢٣١٠	الخطبه ١٥٣
٢٣١٠	اشاره
٢٣١٠	نظره إلى الخطبه
٢٣١٢	القسم الأول
٢٣١٢	الشرح والتفسير
٢٣١٤	القسم الثاني
٢٣١٤	الشرح والتفسير: الموعظه البالغه
٢٣١٨	القسم الثالث
٢٣١٨	الشرح والتفسير: الحذر الحذر
٢٣٢٢	القسم الرابع

٢٣٢٢	الشرح والتفسير: الموبقات الخمس
٢٣٢٤	الخطبه ١٥٤
٢٣٢٤	اشاره
٢٣٢٤	نظره إلى الخطبه
٢٣٢٨	القسم الأول
٢٣٢٨	الشرح والتفسير: أبواب علم النبي
٢٣٣٠	تأملان
٢٣٣٠	١. الفارق بين العجب والتعريف بالذات
٢٣٣١	٢. الفضل ما شهدت به الاعداء
٢٣٣٤	القسم الثاني
٢٣٣٤	الشرح والتفسير: خصائص دعاه الحق
٢٣٣٨	القسم الثالث
٢٣٣٨	الشرح والتفسير: معرفه المحسن والمسيء
٢٣٤٢	الخطبه ١٥٥
٢٣٤٢	اشاره
٢٣٤٢	نظره إلى الخطبه
٢٣٤٤	القسم الأول
٢٣٤٤	الشرح والتفسير: درس في معرفه الله
٢٣٤٨	القسم الثاني
٢٣٤٨	الشرح والتفسير: الطائر العجيب
٢٣٥٢	القسم الثالث
٢٣٥٢	الشرح والتفسير: عجائب الخفاش
٢٣٥٣	تأمل
٢٣٥٣	خلقه الخفاش العجيبه
٢٣٥٤	الخطبه ١٥٦
٢٣٥٤	اشاره

٢٣٥٦	نظرة إلى الخطبه
٢٣٥٨	القسم الأول
٢٣٥٨	الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهيه
٢٣٦٢	القسم الثاني
٢٣٦٢	الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاه
٢٣٦٦	القسم الثالث
٢٣٦٦	الشرح والتفسير: عوامل النجاه فى القيامه
٢٣٧٢	القسم الرابع
٢٣٧٢	الشرح والتفسير: الفتنة الكبرى
٢٣٧٣	تأملان
٢٣٧٣	١. الرد على بعض الأسئلة
٢٣٧٥	٢. الشهاده مفخره لا مصيبه
٢٣٧٦	القسم الخامس
٢٣٧٦	الشرح والتفسير: الحيل الشرعيه فى استحلال المحرمات
٢٣٧٨	تأمل: الحرام لا يحلل بالزيف
٢٣٨٠	الخطبه ١٥٧
٢٣٨٠	اشاره
٢٣٨٠	نظرة إلى الخطبه
٢٣٨٢	القسم الأول
٢٣٨٢	الشرح والتفسير: انعطافه على المبدأ والمعاد
٢٣٨٥	تأمل: كيف يعيد التاريخ نفسه
٢٣٨٨	القسم الثاني
٢٣٨٨	الشرح والتفسير: تقلب الدنيا
٢٣٩٤	القسم الثالث
٢٣٩٤	الشرح والتفسير: حضور المحكمه الإلهيه
٢٣٩٨	تأملان

- ٢٣٩٨ ١. الشهود على الأعمال
- ٢٤٠٠ ٢. ثلاث عبارات عميقه المعنى
- ٢٤٠٣ الخطبه ١٥٨
- ٢٤٠٣ اشاره
- ٢٤٠٣ نظره إلى الخطبه
- ٢٤٠٥ القسم الأول
- ٢٤٠٥ الشرح والتفسير: الكتاب الذى استوعب كل شىء
- ٢٤٠٩ القسم الثانى
- ٢٤٠٩ الشرح والتفسير: حكومه الظلم ودوله الطغيان
- ٢٤١١ تأملان
- ٢٤١١ ١. وظيفه الحاكم والرعيه
- ٢٤١٢ ٢. فاجعه نهايه دوله بنى اميه
- ٢٤١٥ الخطبه ١٥٩
- ٢٤١٥ اشاره
- ٢٤١٥ نظره إلى الخطبه
- ٢٤١٧ الشرح والتفسير
- ٢٤١٧ الدعم المطلق
- ٢٤٢١ الخطبه ١٦٠
- ٢٤٢١ نظره إلى الخطبه
- ٢٤٢٣ القسم الأول
- ٢٤٢٣ الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمه الله
- ٢٤٢٩ القسم الثانى
- ٢٤٢٩ الشرح والتفسير
- ٢٤٢٩ عبيد الدنيا
- ٢٤٣٢ تأمل
- ٢٤٣٢ الخوف والرجاء

٢٤٣٦	القسم الثالث
٢٤٣٦	الشرح والتفسير: التأسي بالنبي صلى الله عليه و آله
٢٤٤٠	القسم الرابع
٢٤٤٠	الشرح والتفسير: زهد الأنبياء
٢٤٤٣	تأملات
٢٤٤٣	١. مزامير داود
٢٤٤٤	٢. الصوت الداودي
٢٤٤٤	٣. زهد الأنبياء
٢٤٤٤	القسم الخامس
٢٤٤٤	الشرح والتفسير: سيره النبي صلى الله عليه و آله إزاء عبده الدنيا
٢٤٥٠	القسم السادس
٢٤٥٠	الشرح والتفسير
٢٤٥٠	زهد النبي صلى الله عليه و آله
٢٤٥٤	القسم السابع
٢٤٥٤	الشرح والتفسير: لم التأسي بالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله
٢٤٥٧	تأمل
٢٤٦٠	الخطبة ١٦١
٢٤٦٠	إشاره
٢٤٦٠	نظره إلى الخطبه
٢٤٦٢	القسم الأول
٢٤٦٢	الشرح والتفسير: صفات النبي صلى الله عليه و آله
٢٤٦٥	تأمل
٢٤٦٥	من قال أم ما قال ؟
٢٤٦٨	القسم الثاني
٢٤٦٨	الشرح والتفسير: الاعتبار بالامم السابقه
٢٤٧٤	الخطبه ١٦٢

٢٤٧٤	اشاره
٢٤٧٤	نظرة إلى الخطبه
٢٤٧٤	القسم الأول
٢٤٧٤	الشرح والتفسير: عله غصب الخلافه العلويه
٢٤٨٠	القسم الثاني
٢٤٨٠	الشرح والتفسير
٢٤٨٣	تأملات
٢٤٨٣	١. حق السؤال
٢٤٨٥	٢. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبه
٢٤٨٧	٣. بنى اميه ومؤامره القضاء على الإسلام
٢٤٨٩	الخطبه ١٦٣
٢٤٨٩	نظرة إلى الخطبه
٢٤٩١	القسم الأول
٢٤٩١	الشرح والتفسير: حادثه مهمته
٢٤٩٧	تأمل: الله حقيقه مطلقه
٢٤٩٩	القسم الثاني
٢٤٩٩	الشرح والتفسير: العلم الإلهى المطلق
٢٥٠٠	تأمل: دور الإيمان بعلم الله على العمل
٢٥٠٣	القسم الثالث
٢٥٠٣	الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم
٢٥٠٧	تأمل
٢٥٠٧	الدوره الجينييه المذهله
٢٥١٠	الخطبه ١٦٤
٢٥١٠	اشاره
٢٥١٠	نظرة إلى الخطبه
٢٥١٢	القسم الأول

- ٢٥١٢ الشرح والتفسير: إتمام الحججه على عثمان
- ٢٥١٥ تأمل
- ٢٥١٥ سبيل نفوذ الكلام فى الآخرين
- ٢٥١٦ القسم الثانى
- ٢٥١٦ الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم
- ٢٥٢١ أضواء على حادثه قتل عثمان
- ٢٥٢٤ الخطبه ١٦٥
- ٢٥٢٤ اشاره
- ٢٥٢٤ نظره إلى الخطبه
- ٢٥٢٦ القسم الأول
- ٢٥٢٦ الشرح والتفسير: خلق الطيور
- ٢٥٣٠ تأمل: عجائب عالم الطيور
- ٢٥٣٤ القسم الثانى
- ٢٥٣٤ الشرح والتفسير: أعجب طير فى العالم
- ٢٥٣٩ القسم الثالث
- ٢٥٣٩ الشرح والتفسير: صورته رائعته لجناح الطاووس
- ٢٥٤٣ القسم الرابع
- ٢٥٤٣ الشرح والتفسير: صورته دقيقه عن جمال الطاووس
- ٢٥٤٨ القسم الخامس
- ٢٥٤٨ الشرح والتفسير: حيره العقول فى الوصف
- ٢٥٥٠ تأمل
- ٢٥٥٠ غرائب الطاووس
- ٢٥٥٢ القسم السادس
- ٢٥٥٢ الشرح والتفسير: الديدان والفيله والحيتان
- ٢٥٥٣ تأمل: غيض من عجائب الحيتان والفيله
- ٢٥٥٣ الحيتان

- ٢٥٥٤ الفيله
- ٢٥٥٦ القسم السابع
- ٢٥٥٦ الشرح والتفسير: نعم الجثه ومفاتها
- ٢٥٥٩ تأمل: أيها أجمل ؟
- ٢٥٦٣ الخطبه ١٦٦
- ٢٥٦٣ نظره إلى الخطبه
- ٢٥٦٥ القسم الأول
- ٢٥٦٥ الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقيه
- ٢٥٦٧ القسم الثاني
- ٢٥٦٧ الشرح والتفسير: المصير الأسود لبنى أميه
- ٢٥٦٩ تأمل: ثورات داميه ضد بنى أميه
- ٢٥٧٣ القسم الثالث
- ٢٥٧٣ الشرح والتفسير: عامل التخلف
- ٢٥٧٤ تأمل: بنو اسرائيل
- ٢٥٧٥ الخطبه ١٥٦
- ٢٥٧٥ اشاره
- ٢٥٧٥ نظره إلى الخطبه
- ٢٥٧٧ القسم الأول
- ٢٥٧٧ الشرح والتفسير: معرفه سبيل الحق
- ٢٥٨١ القسم الثاني
- ٢٥٨١ الشرح والتفسير: المسؤوليه الشامله
- ٢٥٨٣ تأمل: سلامه البيئه وحمايه الحيوانات فى الإسلام
- ٢٥٨٥ الخطبه ١٦٨
- ٢٥٨٥ اشاره
- ٢٥٨٥ نظره إلى الخطبه
- ٢٥٨٧ القسم الأول

٢٥٨٧	الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبه قتله عثمان
٢٥٩٠	تأملان
٢٥٩٠	١. معوقات العدالة
٢٥٩٠	٢. إشكال الثوار
٢٥٩٣	الخطبه ١٦٩
٢٥٩٣	اشاره
٢٥٩٣	نظره إلى الخطبه
٢٥٩٥	القسم الأول
٢٥٩٥	الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومه الإسلاميه
٢٥٩٧	القسم الثاني
٢٥٩٧	الشرح والتفسير: الصبر على الفتنه
٢٥٩٩	الخطبه ١٧٠
٢٥٩٩	اشاره
٢٥٩٩	نظره إلى الخطبه
٢٦٠١	القسم الأول
٢٦٠١	الشرح والتفسير: لماذا لاتبايع
٢٦٠٣	تأمل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام
٢٦٠٥	الخطبه ١٧١
٢٦٠٥	اشاره
٢٦٠٥	نظره إلى الخطبه
٢٦٠٧	القسم الأول
٢٦٠٧	الشرح والتفسير: الجنّه أمامكم
٢٦١١	تأمل
٢٦١٣	الخطبه ١٧٢
٢٦١٣	نظره إلى الخطبه
٢٦١٥	القسم الأول

٢٦١٥	الشرح والتفسير: قريش والخلافه
٢٦١٨	تأملان
٢٦١٨	١. العيون المعصوبه ازاء الحقائق
٢٦١٩	٢. هل ينبغى التنازل عن بعض الحق
٢٦٢١	القسم الثانى
٢٦٢١	الشرح والتفسير
٢٦٢١	فضيحه أصحاب الجمل
٢٦٢٤	سؤال آخر:
٢٦٢٥	الخطبه ١٧٣
٢٦٢٥	اشاره
٢٦٢٥	نظره إلى الخطبه
٢٦٢٧	القسم الأول
٢٦٢٧	الشرح والتفسير: أجدر الأفراد بزعامه الأئمه
٢٦٢٨	سؤال:
٢٦٢٨	الجواب:
٢٦٣٠	سؤال:
٢٦٣٠	الجواب:
٢٦٣١	القسم الثانى
٢٦٣١	الشرح والتفسير
٢٦٣١	تعليمات عسكريه
٢٦٣٣	تأمل: حوار مع عمار بن ياسر فى صفين
٢٦٣٥	القسم الثالث
٢٦٣٥	الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم
٢٦٣٩	الخطبه ١٧٤
٢٦٣٩	اشاره
٢٦٣٩	نظره إلى الخطبه

٢٦٤١	القسم الأول
٢٦٤١	الشرح والتفسير: تناقض طلحه دليل فضيحه
٢٦٤٥	الخطبه ١٧٥
٢٦٤٥	اشاره
٢٦٤٥	نظره إلى الخطبه
٢٦٤٧	القسم الأول
٢٦٤٧	الشرح والتفسير: الغفله التامه
٢٦٤٩	القسم الثاني
٢٦٤٩	الشرح والتفسير: علمنى رسول الله صلى الله عليه و آله كل شىء
٢٦٥٣	الخطبه ١٧٦
٢٦٥٣	اشاره
٢٦٥٣	نظره إلى الخطبه
٢٦٥٥	القسم الأول
٢٦٥٥	الشرح والتفسير: حفت الجته بالمكاره والنار بالشهوات
٢٦٥٧	تأمل: عشق الطاعه
٢٦٥٩	القسم الثاني
٢٦٥٩	الشرح والتفسير: نقد الذات
٢٦٦٠	وصايا ضروريه
٢٦٦٣	القسم الثالث
٢٦٦٣	الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء
٢٦٦٥	تأمل
٢٦٦٥	القرآن والشفاء
٢٦٦٧	القسم الرابع
٢٦٦٧	الشرح والتفسير: القرآن شفيع القيامه
٢٦٦٩	القسم الخامس
٢٦٦٩	الشرح والتفسير: الدفاع المشروط

٢٦٧٣	القسم السادس
٢٦٧٣	الشرح والتفسير
٢٦٧٥	تأمل: الإستقامه فى مسار الولاية
٢٦٧٧	القسم السابع
٢٦٧٧	الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق فى إصلاح اللسان
٢٦٨١	تأملان
٢٦٨١	١. اللسان اعجب اعضاء البدن
٢٦٨٢	٢. رصيد الإنسان
٢٦٨٥	القسم الثامن
٢٦٨٥	الشرح والتفسير: أخطار البدع
٢٦٨٨	تأمل
٢٦٨٨	البدعه
٢٦٩١	القسم التاسع
٢٦٩١	الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم
٢٦٩٥	القسم العاشر
٢٦٩٥	الشرح والتفسير: إصلاح النفس
٢٦٩٨	تأمل: العيش بصوره جماعيه أم الإنزواء
٢٧٠٢	الخطبه ١٧٧
٢٧٠٢	اشاره
٢٧٠٢	نظره إلى الخطبه
٢٧٠٤	القسم الأول
٢٧٠٤	الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكمين
٢٧٠٦	تأمل: توَلَّى الحكمين عن القرآن
٢٧٠٨	الخطبه ١٧٨
٢٧٠٨	اشاره
٢٧٠٨	نظره إلى الخطبه

٢٧١٠	القسم الأول
٢٧١٠	الشرح والتفسير: عظمه الله وكرامه نبيه صلى الله عليه و آله
٢٧١٣	تأملان
٢٧١٣	١. مشكله الصفات
٢٧١٤	٢. أهداف بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله
٢٧١٦	القسم الثاني
٢٧١٦	الشرح والتفسير: صدق النيه مع الله
٢٧٢٠	الخطبه ١٧٩
٢٧٢٠	اشاره
٢٧٢٠	نظره إلى الخطبه
٢٧٢٢	القسم الأول
٢٧٢٢	الشرح والتفسير: هل رأيت الله ؟
٢٧٢٨	الخطبه ١٨٠
٢٧٢٨	اشاره
٢٧٢٨	نظره إلى الخطبه وسبب الورود
٢٧٣٠	القسم الأول
٢٧٣٠	الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار
٢٧٣٥	القسم الثاني
٢٧٣٥	الشرح والتفسير
٢٧٣٨	تأملان
٢٧٣٨	١. الفرق بين المعونه والعطاء
٢٧٣٩	٢. الخدمات الثقافيه الأربع للإمام عليه السلام
٢٧٤٠	المجلد ٧
٢٧٤٠	اشاره
٢٧٤١	اشاره
٢٧٤٥	الخطبه ١٨١

- ٢٧٤٥ اشارة
- ٢٧٤٥ نظره إلى الخطبه
- ٢٧٤٧ الشرح والتفسير: مصير المشككين الجهال
- ٢٧٥١ الخطبه ١٨٢
- ٢٧٥١ اشارة
- ٢٧٥١ نظره إلى الخطبه
- ٢٧٥٣ القسم الاوّل
- ٢٧٥٣ اشارة
- ٢٧٥٣ الشرح والتفسير: هو من يستحق الشكر
- ٢٧٥٧ القسم الثاني
- ٢٧٥٧ اشارة
- ٢٧٥٧ الشرح والتفسير: دلالة السماء على الله
- ٢٧٦١ القسم الثالث
- ٢٧٦١ اشارة
- ٢٧٦١ الشرح والتفسير: احاطته العلميه بكلّ شيء
- ٢٧٦٤ تأمل
- ٢٧٦٤ ما الأنواء؟
- ٢٧٦٧ القسم الرابع
- ٢٧٦٧ اشارة
- ٢٧٦٧ الشرح والتفسير: عجزنا عن إدراك صفاته
- ٢٧٧٣ تأملان
- ٢٧٧٣ ١. سرّ صعوبه معرفه صفات الله
- ٢٧٧٤ ٢. العرش والكرسى
- ٢٧٧٦ القسم الخامس
- ٢٧٧٦ اشارة
- ٢٧٧٦ الشرح والتفسير: أين الفراغه والعمالقه؟

تأملات ٢٧٧٩

١. شوكة سليمان عليه السلام وموته ٢٧٧٩

٢. من هم العمالقة؟ ٢٧٨٠

٣. فراعنه مصر ٢٧٨١

٤. أصحاب الرث ٢٧٨١

القسم السادس ٢٧٨٤

اشاره ٢٧٨٤

الشرح والتفسير: خصائص ذلك الولي ٢٧٨٤

تأمل ٢٧٨٧

إشارات لنهضة الإمام المهدي عليه السلام ٢٧٨٧

القسم السابع ٢٧٨٨

اشاره ٢٧٨٨

الشرح والتفسير: التذكير بما يلزم! ٢٧٨٨

القسم الثامن ٢٧٩٢

اشاره ٢٧٩٢

الشرح والتفسير: النفير العام للجهاد ٢٧٩٢

تأمل ٢٧٩٤

صحاب الإمام عليه السلام الميامين ٢٧٩٤

اشاره ٢٧٩٤

١. عمار بن ياسر ٢٧٩٤

٢. ابن التيهان ٢٧٩٥

٣. ذو الشهادتين ٢٧٩٦

٤. قيس بن سعد بن عباده ٢٧٩٦

٥. أبو أيوب الأنصاري ٢٧٩٧

الخطبه ١٨٣ ٢٧٩٨

اشاره ٢٧٩٨

٢٧٩٨	نظرة إلى الخطبه
٢٨٠٠	القسم الأول
٢٨٠٠	اشاره
٢٨٠٠	الشرح والتفسير: دور الأنبياء عليهم السلام في هدايه الأمم
٢٨٠٤	القسم الثاني
٢٨٠٤	اشاره
٢٨٠٤	الشرح والتفسير: الهدى في ظل القرآن
٢٨٠٨	تأملان
٢٨٠٨	١. وحده حكم الله في الأولين والآخرين
٢٨٠٩	٢. القرآن ناطق أم صامت؟
٢٨١٢	القسم الثالث
٢٨١٢	اشاره
٢٨١٢	الشرح والتفسير: منزله التقوى
٢٨١٩	القسم الرابع
٢٨١٩	اشاره
٢٨١٩	الشرح والتفسير: العذاب الشديد يوم القيامة
٢٨٢٣	القسم الخامس
٢٨٢٣	اشاره
٢٨٢٣	الشرح والتفسير: الامتحان الإلهي
٢٨٢٨	القسم السادس
٢٨٢٨	اشاره
٢٨٢٨	الشرح والتفسير: الانتقال إلى جيران الله
٢٨٣٠	تأمل
٢٨٣٠	طريق السير والسلوك إلى الله
٢٨٣٢	الخطبه ١٨٤
٢٨٣٢	اشاره

- ٢٨٣٢ نظره إلى الخطبه
- ٢٨٣٤ الشرح والتفسير: صه يا أحمق
- ٢٨٣٥ تأمل
- ٢٨٣٥ من هو بُرج بن مُسهر؟
- ٢٨٣٦ الخطبه ١٨٥
- ٢٨٣٦ اشاره
- ٢٨٣٦ نظره إلى الخطبه
- ٢٨٣٨ القسم الاوّل
- ٢٨٣٨ اشاره
- ٢٨٣٨ الشرح والتفسير: معرفه الله الحقيقيه
- ٢٨٤٤ القسم الثاني
- ٢٨٤٤ اشاره
- ٢٨٤٤ الشرح والتفسير: الأبعاد الوجوديه للتبى الأكرم صلى الله عليه و آله
- ٢٨٥٠ القسم الثالث
- ٢٨٥٠ اشاره
- ٢٨٥٠ الشرح والتفسير: قدرته المطلقه فى خلق الكائنات
- ٢٨٥٤ تأمل
- ٢٨٥٤ حياه النمل العجيبه
- ٢٨٦٠ القسم الرابع
- ٢٨٦٠ اشاره
- ٢٨٦٠ الشرح والتفسير: نظره إلى كائنات السموات والأرض
- ٢٨٦٤ تأمل
- ٢٨٦٤ قبسات من برهان النظم
- ٢٨٦٤ القسم الخامس
- ٢٨٦٤ اشاره
- ٢٨٦٤ الشرح والتفسير: صنع الجراده

٢٨٤٨	تأمل
٢٨٤٨	عجائب الجرده
٢٨٧٠	القسم السادس
٢٨٧٠	اشاره
٢٨٧٠	الشرح والتفسير: الله العظيم
٢٨٧٤	تأمل
٢٨٧٤	دروس عظيمه بعبارات قصيره
٢٨٧٤	الخطبه ١٨٤
٢٨٧٤	اشاره
٢٨٧٤	نظره إلى الخطبه
٢٨٧٨	القسم الأول
٢٨٧٨	اشاره
٢٨٧٨	الشرح والتفسير: أضواء مهتمه في صفات الله
٢٨٨٥	تأمل
٢٨٨٥	كيفية الجمع بين الضدين
٢٨٨٨	القسم الثاني
٢٨٨٨	اشاره
٢٨٨٨	الشرح والتفسير
٢٨٩٥	القسم الثالث
٢٨٩٥	اشاره
٢٨٩٥	الشرح والتفسير: جانب من صفاته المطلقه
٢٩٠١	القسم الرابع
٢٩٠١	اشاره
٢٩٠١	الشرح والتفسير: صفات أخرى في الجمال والجلال
٢٩٠٧	القسم الخامس
٢٩٠٧	اشاره

٢٩٠٧	الشرح والتفسير: العجز عن خلق بعبوضه
٢٩٠٩	تأملان
٢٩٠٩	١. المعاد الجسماني واعاده المعدوم
٢٩١٠	٢. الخلقه العجيبه للبعوض!
٢٩١٣	القسم السادس
٢٩١٣	اشاره
٢٩١٣	الشرح والتفسير: الغنى عن الخلق
٢٩١٧	تأمل
٢٩١٧	هل هناك زمان دون مخلوق
٢٩٢٠	القسم السابع
٢٩٢٠	اشاره
٢٩٢٠	الشرح والتفسير: دوام الخلقه والفناء
٢٩٢٤	الخطبه ١٨٧
٢٩٢٤	اشاره
٢٩٢٤	نظره إلى الخطبه
٢٩٢٤	القسم الأول
٢٩٢٤	اشاره
٢٩٢٤	الشرح والتفسير: الحوادث المرعبه
٢٩٣٠	تأمل
٢٩٣٠	الحوادث الأليمه آخر الزمان
٢٩٣٢	القسم الثاني
٢٩٣٢	اشاره
٢٩٣٢	الشرح والتفسير: وصايا للنجاه من الفتنه
٢٩٣٤	تأمل
٢٩٣٤	الانسحاب من الفتن
٢٩٣٤	الخطبه ١٨٨

٢٩٣٦	اشاره
٢٩٣٦	نظرة إلى الخطبه
٢٩٣٨	القسم الأول
٢٩٣٨	اشاره
٢٩٣٨	الشرح والتفسير: التوضيح بالتقوى والحمد
٢٩٤٠	القسم الثاني
٢٩٤٠	اشاره
٢٩٤٠	الشرح والتفسير: أفضل الوعظ
٢٩٤٣	تأمل
٢٩٤٣	ذكر الموت
٢٩٤٥	القسم الثالث
٢٩٤٥	اشاره
٢٩٤٥	الشرح والتفسير: سبيل النجاه
٢٩٥٠	الخطبه ١٨٩
٢٩٥٠	اشاره
٢٩٥٠	نظرة إلى الخطبه
٢٩٥٢	القسم الأول
٢٩٥٢	اشاره
٢٩٥٢	الشرح والتفسير: الإيمان الثابت والأجوف
٢٩٥٣	تأمل
٢٩٥٣	عناصر ثبات الإيمان
٢٩٥٦	القسم الثاني
٢٩٥٦	اشاره
٢٩٥٦	الشرح والتفسير: سلونى قبل أن تفقدونى
٢٩٦٢	تأمل
٢٩٦٢	الهجره فى الإسلام

٢٩٦٥	الخطبه ١٩٠
٢٩٦٥	اشاره
٢٩٦٥	نظره إلى الخطبه
٢٩٦٧	القسم الأوّل
٢٩٦٧	اشاره
٢٩٦٧	الشرح والتفسير: نبى الرحمه والجهاد
٢٩٧١	القسم الثانى
٢٩٧١	اشاره
٢٩٧١	الشرح والتفسير: الأهوال القادمه
٢٩٧٥	القسم الثالث
٢٩٧٥	اشاره
٢٩٧٥	الشرح والتفسير: أهوال المحشر!
٢٩٨٢	القسم الرابع
٢٩٨٢	اشاره
٢٩٨٢	الشرح والتفسير: الاستعداد للرحيل
٢٩٨٤	القسم الخامس
٢٩٨٤	اشاره
٢٩٨٤	الشرح والتفسير: لكلّ شىء أجل ومدّه
٢٩٨٥	تأمل
٢٩٨٥	الثورات المتعجله
٢٩٨٨	الخطبه ١٩١
٢٩٨٨	اشاره
٢٩٨٨	نظره إلى الخطبه
٢٩٩٠	القسم الأوّل
٢٩٩٠	اشاره
٢٩٩٠	الشرح والتفسير: بديع خلق الله

القسم الثاني ٢٩٩٦

اشاره ٢٩٩٦

الشرح والتفسير: التقوى كهف في الدنيا ونور في الآخرة ٢٩٩٦

القسم الثالث ٣٠٠٠

اشاره ٣٠٠٠

الشرح والتفسير: سماع نداء التقوى ٣٠٠٠

القسم الرابع ٣٠٠٧

اشاره ٣٠٠٧

الشرح والتفسير: عاقبه أصحاب الدنيا ٣٠٠٧

الخطبه ١٩٢ ٣٠١٤

اشاره ٣٠١٤

نظره إلى الخطبه ٣٠١٤

القسم الأول ٣٠١٨

اشاره ٣٠١٨

الشرح والتفسير: الشيطان رأس العصبية ٣٠١٨

القسم الثاني ٣٠٢٢

اشاره ٣٠٢٢

الشرح والتفسير: الاعتبار بعاقبه إبليس ٣٠٢٢

تأملات ٣٠٢٥

١. حبط الأعمال ٣٠٢٥

٢. هل إبليس من الملائكة؟ ٣٠٢٦

٣. كبر إبليس أساس كفره ٣٠٢٦

٤. وحده حكم الله في الجميع ٣٠٢٧

القسم الثالث ٣٠٢٨

اشاره ٣٠٢٨

الشرح والتفسير: أعدى أعداء الإنسان ٣٠٢٨

القسم الرابع	٣٠٣٥
اشاره	٣٠٣٥
الشرح والتفسير: التحذير من التشبه بالشيطان أو قابيل	٣٠٣٥
القسم الخامس	٣٠٤١
اشاره	٣٠٤١
الشرح والتفسير: اجتناب تبعيه المتكبرين	٣٠٤١
تأمل	٣٠٤٨
التكبر والعصبيه	٣٠٤٨
القسم السادس	٣٠٥١
اشاره	٣٠٥١
الشرح والتفسير: آفه التكبر	٣٠٥١
تأمل	٣٠٥٥
تصحيح خطأ	٣٠٥٥
القسم السابع	٣٠٥٧
اشاره	٣٠٥٧
الشرح والتفسير: درس وعبره فى قصه موسى عليه السلام	٣٠٥٧
القسم الثامن	٣٠٦١
اشاره	٣٠٦١
الشرح والتفسير: زهد الأنبياء	٣٠٦١
القسم التاسع	٣٠٦٥
اشاره	٣٠٦٥
الشرح والتفسير: الدروس والعبر فى بيت الله	٣٠٦٥
القسم العاشر	٣٠٧١
اشاره	٣٠٧١
الشرح والتفسير: الكعبه المقدسه	٣٠٧١
تأمل	٣٠٧٤

٣٠٧٤ «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا!»

٣٠٧٧ القسم الحادى عشر

٣٠٧٧ اشاره

٣٠٧٧ الشرح والتفسير: آفه الكبر والغرور

٣٠٨٢ تأمل

٣٠٨٢ فلسفه العبادات

٣٠٨٤ القسم الثانى عشر

٣٠٨٤ اشاره

٣٠٨٤ الشرح والتفسير: العصبية الطائشه

٣٠٨٨ القسم الثالث عشر

٣٠٨٨ اشاره

٣٠٨٨ الشرح والتفسير: العصبية الممدوحه

٣٠٩٠ تأمل

٣٠٩٠ العصبية الإيجابية والسلبية

٣٠٩٤ القسم الرابع عشر

٣٠٩٤ اشاره

٣٠٩٤ الشرح والتفسير: الاعتبار بالماضين

٣٠٩٨ القسم الخامس عشر

٣٠٩٨ اشاره

٣٠٩٨ الشرح والتفسير: عناصر انتصار المؤمنين الأوائل

٣١٠٢ القسم السادس عشر

٣١٠٢ اشاره

٣١٠٢ الشرح والتفسير: الوحده والفرقه، والنصر والهزيمة

٣١٠٦ القسم السابع عشر

٣١٠٦ اشاره

٣١٠٦ الشرح والتفسير: الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق

- ٣١٠٩ تأمل
- ٣١٠٩ القطره والبحر
- ٣١١٢ القسم الثامن عشر
- ٣١١٢ اشاره
- ٣١١٢ الشرح والتفسير: عزتكم بالاسلام
- ٣١١٦ القسم التاسع عشر
- ٣١١٦ اشاره
- ٣١١٧ الشرح والتفسير: اجتناب الفرقة
- ٣١٢٥ القسم العشرون
- ٣١٢٥ اشاره
- ٣١٢٥ الشرح والتفسير: تكليفي في قتال المفسدين
- ٣١٢٧ تأمل
- ٣١٢٧ من هو ذو الثدييه؟
- ٣١٣١ القسم الحادى والعشرون
- ٣١٣١ اشاره
- ٣١٣١ الشرح والتفسير: الترييه في كنف التبي صلى الله عليه و آله
- ٣١٣٧ تأملات
- ٣١٣٧ ١. العلاقه الحميمه بين على عليه السلام والتبي صلى الله عليه و آله
- ٣١٣٨ ٢. غار حراء
- ٣١٣٩ ٣. التبي الأكرم صلى الله عليه و آله قبل البعثه
- ٣١٤١ القسم الثانى والعشرون
- ٣١٤١ اشاره
- ٣١٤٢ الشرح والتفسير: معجزه حركه الشجره
- ٣١٤٥ تأملن:
- ٣١٤٥ ١. معجزه الشجره في الروايات الإسلاميه
- ٣١٤٦ ٢. الفارق بين السحر والمعجزه

القسم الثالث والعشرون - - - - - ٣١٤٩

اشاره - - - - - ٣١٤٩

الشرح والتفسير: أولياء الله - - - - - ٣١٤٩

الخطبه ١٩٣ - - - - - ٣١٥٣

اشاره - - - - - ٣١٥٣

نظره إلى الخطبه - - - - - ٣١٥٣

إجابه عن سؤال - - - - - ٣١٥٤

القسم الأوّل - - - - - ٣١٥٧

اشاره - - - - - ٣١٥٧

الشرح والتفسير: صفات المتّقين - - - - - ٣١٥٧

تأمل - - - - - ٣١٧٠

محاور هذا الجانب من الخطبه - - - - - ٣١٧٠

القسم الثاني - - - - - ٣١٧٢

اشاره - - - - - ٣١٧٢

الشرح والتفسير: ليل المتّقين - - - - - ٣١٧٢

تأمل - - - - - ٣١٧٥

القسم الثالث - - - - - ٣١٧٦

اشاره - - - - - ٣١٧٦

الشرح والتفسير: نهار المتّقين - - - - - ٣١٧٦

تأمل - - - - - ٣١٨٠

إشفاق المتّقين من أعمالهم - - - - - ٣١٨٠

القسم الرابع - - - - - ٣١٨٢

اشاره - - - - - ٣١٨٢

شرح وتفسير - - - - - ٣١٨٢

اثنتا عشره صفه أخرى - - - - - ٣١٨٢

القسم الخامس - - - - - ٣١٩٢

٣١٩٢	اشاره
٣١٩٢	الشرح والتفسير: تسع صفات أخرى
٣١٩٢	اشاره
٣٢٠٣	مصير همام بعد سماع الخطبه
٣٢٠٧	تأمل
٣٢٠٧	نظرة أخرى لخطبه همام
٣٢١٠	الخطبه ١٩٤
٣٢١٠	اشاره
٣٢١٠	نظرة إلى الخطبه
٣٢١٢	القسم الأول
٣٢١٢	اشاره
٣٢١٢	الشرح والتفسير: محن الرساله
٣٢١٧	القسم الثاني
٣٢١٧	اشاره
٣٢١٧	الشرح والتفسير: خطر المنافقين
٣٢٢٣	القسم الثالث
٣٢٢٣	اشاره
٣٢٢٣	الشرح والتفسير: التخطيط الدقيق للمنافقين
٣٢٢٥	تأمل
٣٢٢٥	النفاق والمنافقون طيله التاريخ
٣٢٢٩	الخطبه ١٩٥
٣٢٢٩	اشاره
٣٢٢٩	نظرة إلى الخطبه
٣٢٣١	القسم الأول
٣٢٣١	اشاره
٣٢٣١	الشرح والتفسير: البعته النبويه والظروف الصعبه

القسم الثاني	٣٢٣٥
اشاره	٣٢٣٥
الشرح والتفسير: الموائد الإلهيه المطلقه	٣٢٣٥
القسم الثالث	٣٢٤١
اشاره	٣٢٤١
الشرح والتفسير: أهوال القيامه	٣٢٤١
الخطبه ١٩٦	٣٢٤٧
نظره إلى الخطبه	٣٢٤٧
القسم الأوّل	٣٢٤٩
اشاره	٣٢٤٩
الشرح والتفسير: أهوال الدنيا	٣٢٤٩
القسم الثاني	٣٢٥٣
اشاره	٣٢٥٣
الشرح والتفسير: اغتنام الفرصه	٣٢٥٣
الخطبه ١٩٧	٣٢٥٥
اشاره	٣٢٥٥
نظره إلى الخطبه	٣٢٥٥
القسم الأوّل	٣٢٥٧
اشاره	٣٢٥٧
الشرح والتفسير: طاعتى المطلقه	٣٢٥٧
القسم الثاني	٣٢٦١
اشاره	٣٢٦١
الشرح والتفسير: أولى الناس بالتبى صلى الله عليه و آله	٣٢٦١
اشاره	٣٢٦١
الحوادث الأليمه إبان وفاه التبى صلى الله عليه و آله وبعدها	٣٢٦٥
الخطبه ١٩٨	٣٢٧٠

٣٢٧٠	اشاره
٣٢٧٠	نظرة إلى الخطبه
٣٢٧٢	القسم الأول
٣٢٧٢	اشاره
٣٢٧٢	الشرح والتفسير: احاطه الله العلميه
٣٢٧٦	القسم الثاني
٣٢٧٦	اشاره
٣٢٧٦	الشرح والتفسير: التقوى مصدر الخيرات
٣٢٨٤	القسم الثالث
٣٢٨٤	اشاره
٣٢٨٤	الشرح والتفسير: فضل الإسلام
٣٢٩٤	القسم الرابع
٣٢٩٤	اشاره
٣٢٩٤	الشرح والتفسير: ربيع الإسلام
٣٢٩٤	اشاره
٣٢٩٤	اجابه عن سؤال
٣٢٩٧	تأمل
٣٢٩٧	ربيع النبوه
٣٣٠٠	القسم الخامس
٣٣٠٠	اشاره
٣٣٠٠	الشرح والتفسير: خصائص القرآن الكريم
٣٣٠٩	تأملان
٣٣٠٩	١. عظمه القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام
٣٣١١	٢. العلماء الأجانب والقرآن
٣٣١٤	الخطبه ١٩٩
٣٣١٤	اشاره

نظرة إلى الخطبه ٣٣١٤

القسم الأول ٣٣١٤

اشاره ٣٣١٤

الشرح والتفسير: الأهميه القصوى للصلاه ٣٣١٤

اشاره ٣٣١٤

تأمل ٣٣٢١

دور الصلاه فى تربيته الإنسان ٣٣٢١

القسم الثانى ٣٣٢٤

اشاره ٣٣٢٤

الشرح والتفسير: بركات الزكاه ٣٣٢٤

تأمل ٣٣٢٤

الزكاه؛ ركن مهم فى المجتمع الإسلامى ٣٣٢٤

القسم الثالث ٣٣٢٨

اشاره ٣٣٢٨

الشرح والتفسير: أداء الأمانه ٣٣٢٨

تأملان ٣٣٣٠

١. نقطه مهمته ٣٣٣٠

٢. أفضل علامات الإيمان ٣٣٣١

القسم الرابع ٣٣٣٤

اشاره ٣٣٣٤

الشرح والتفسير: عالم الغيب والشهاده ٣٣٣٤

الخطبه ٢٠٠ ٣٣٣٤

اشاره ٣٣٣٤

نظرة إلى الخطبه ٣٣٣٤

الشرح والتفسير: السياسه الأئمه ٣٣٣٨

تأمل ٣٣٤٠

٣٣٤٠	السياسه الإنسانيه والسياسه الشيطانيه
٣٣٤٤	المجلد ٨
٣٣٤٤	اشاره
٣٣٤٥	اشاره
٣٣٤٩	الخطبه ٢٠١
٣٣٤٩	اشاره
٣٣٤٩	نظره إلى الخطبه
٣٣٥١	الشرح والتفسير: سبيل النجاه
٣٣٥٧	الخطبه ٢٠٢
٣٣٥٧	اشاره
٣٣٥٧	نظره إلى الخطبه
٣٣٥٩	الشرح والتفسير: لوعه على عليه السلام عند قبر الزهراء عليها السلام
٣٣٤٥	تأملات
٣٣٤٥	اشاره
٣٣٤٥	١. فاطمه الزهراء عليها السلام على لسان رسول الله صلى الله عليه و آله
٣٣٤٦	٢. حرمه بيت الزهراء عليها السلام فى القرآن والسنة
٣٣٤٦	٣. انتهاك حرمه بيت الزهراء عليها السلام
٣٣٧٤	٤. القبر الطاهر لفاطمه الزهراء عليها السلام
٣٣٧٥	٥. زمان شهاده بضعه النبى
٣٣٧٧	الخطبه ٢٠٣
٣٣٧٧	اشاره
٣٣٧٧	نظره إلى الخطبه
٣٣٧٩	الشرح والتفسير الدنيا ممر
٣٣٨٣	تأمل: الإكثار من هذه العبارة
٣٣٨٥	الخطبه ٢٠٤
٣٣٨٥	اشاره

٣٣٨٥	نظرة إلى الخطبة
٣٣٨٧	الشرح والتفسير: الابتعاد عن طلب الدنيا
٣٣٩٣	الخطبة ٢٠٥
٣٣٩٣	اشاره
٣٣٩٣	نظرة إلى الخطبة
٣٣٩٥	القسم الأول
٣٣٩٥	الشرح والتفسير: حجج طلحه والزبير
٣٣٩٩	القسم الثاني
٣٣٩٩	الشرح والتفسير: حكم الله
٣٤٠١	تأملات
٣٤٠١	١. علة التسوية في العطاء
٣٤٠٨	٢. مكانه المشوره
٣٤٠٩	٣. طلحه وحلم الخلفه
٣٤١١	الخطبة ٢٠٦
٣٤١١	اشاره
٣٤١١	نظرة إلى الخطبة
٣٤١٣	الشرح والتفسير: الدعاء بدل السب!
٣٤١٥	تأمل: السب واللعن
٣٤١٧	الخطبة ٢٠٧
٣٤١٧	اشاره
٣٤١٧	نظرة إلى الخطبة
٣٤١٩	الشرح والتفسير: حفظ نسل النبي صلى الله عليه و آله
٣٤٢٠	تأمل: شبهات وردود
٣٤٢٣	الخطبة ٢٠٨
٣٤٢٣	اشاره
٣٤٢٣	نظرة إلى الخطبة

٣٤٢٥	الشرح والتفسير: رفاق السلاح الجّهال
٣٤٢٦	تأمل: التضحية بالفرصة الكبرى
٣٤٢٩	الخطبة ٢٠٩
٣٤٢٩	اشاره
٣٤٢٩	نظره إلى الخطبه
٣٤٣١	القسم الأوّل
٣٤٣١	اشاره
٣٤٣١	الشرح والتفسير: الدار الواسعه
٣٤٣٢	تأمل: الدار الواسعه فى الروايات
٣٤٣٥	القسم الثانى
٣٤٣٥	اشاره
٣٤٣٥	الشرح والتفسير: ذم الهروب من الدنيا
٣٤٣٧	تأملات
٣٤٣٧	١. ذم عموم الافراط والتفريط
٣٤٣٨	٢. التصوف ونتائجه
٣٤٤٢	٣. الانتفاع بالطيبات
٣٤٤٥	الخطبة ٢١٠
٣٤٤٥	اشاره
٣٤٤٥	نظره إلى الخطبه
٣٤٤٧	القسم الأوّل
٣٤٤٧	اشاره
٣٤٤٧	الشرح والتفسير: نقد الروايات
٣٤٥١	القسم الثانى
٣٤٥١	اشاره
٣٤٥١	الشرح والتفسير: وضع المنافقين للحديث
٣٤٥٤	تأملات

٣٤٥٤	١. المنافقون على عهد النبي صلى الله عليه وآله
٣٤٥٤	٢. المنافقون بعد النبي صلى الله عليه وآله
٣٤٥٦	٣. عداله الصحابه
٣٤٥٩	القسم الثالث
٣٤٥٩	اشاره
٣٤٥٩	الشرح والتفسير: أحاديث الناسخ والمنسوخ
٣٤٦٢	تأمل: النسخ في أحكام الشرع
٣٤٦٥	القسم الرابع
٣٤٦٥	اشاره
٣٤٦٥	الشرح والتفسير: حفظه الحديث
٣٤٦٩	الخطبه ٢١١
٣٤٦٩	اشاره
٣٤٦٩	نظره إلى الخطبه
٣٤٧١	القسم الأول
٣٤٧١	اشاره
٣٤٧١	الشرح والتفسير: بدايه خلق الكون
٣٤٧٥	القسم الثاني
٣٤٧٥	اشاره
٣٤٧٥	الشرح والتفسير: خلق الجبال
٣٤٧٩	الخطبه ٢١٢
٣٤٧٩	اشاره
٣٤٧٩	نظره إلى الخطبه
٣٤٨١	الشرح والتفسير: جزاء المتخلفين
٣٤٨٥	الخطبه ٢١٣
٣٤٨٥	اشاره
٣٤٨٥	نظره إلى الخطبه

- الشرح والتفسير: قبسات من صفات الله ورسوله ٣٤٨٧
- الخطبه ٢١٤ ٣٤٩٣
- اشاره ٣٤٩٣
- نظره إلى الخطبه ٣٤٩٣
- القسم الأول ٣٤٩٥
- اشاره ٣٤٩٥
- الشرح والتفسير: النسب الطاهر للنبي صلى الله عليه و آله ٣٤٩٥
- القسم الثاني ٣٤٩٩
- اشاره ٣٤٩٩
- الشرح والتفسير: حفظه علم الله ٣٤٩٩
- القسم الثالث ٣٥٠٣
- اشاره ٣٥٠٣
- الشرح والتفسير: المهتدون ٣٥٠٣
- تأمل: الحاجه إلى المرشد فى السير والسلوك ٣٥٠٤
- الخطبه ٢١٥ ٣٥٠٩
- اشاره ٣٥٠٩
- نظره إلى الخطبه ٣٥٠٩
- القسم الأول ٣٥١١
- اشاره ٣٥١١
- الشرح والتفسير: اللهم كلّ شيء لك ٣٥١١
- القسم الثاني ٣٥١٥
- اشاره ٣٥١٥
- الشرح والتفسير: النعم المكمله ٣٥١٥
- الخطبه ٢١٦ ٣٥١٩
- اشاره ٣٥١٩
- نظره إلى الخطبه ٣٥١٩

٣٥٢١	القسم الأول
٣٥٢١	اشاره
٣٥٢١	الشرح والتفسير: سعه حجم الحقوق
٣٥٢٤	تأمل: الثواب استحقاق أم تفضّل؟
٣٥٢٧	القسم الثاني
٣٥٢٧	اشاره
٣٥٢٧	الشرح والتفسير: حق الوالى والرعيه
٣٥٣٣	القسم الثالث
٣٥٣٣	اشاره
٣٥٣٣	الشرح والتفسير: ضروره التعاون فى أداء الحقوق
٣٥٣٦	تأمل: الحكومات الشعبيه
٣٥٤٠	القسم الرابع
٣٥٤٠	اشاره
٣٥٤٠	الشرح والتفسير: الشكر على الواجب
٣٥٤٣	تأملان
٣٥٤٣	١. المدح والثناء
٣٥٤٤	٢. ألسنه التملق
٣٥٤٦	القسم الخامس
٣٥٤٦	اشاره
٣٥٤٦	الشرح والتفسير: لا تتملقوا أمامى
٣٥٥٠	الخطبه ٢١٧
٣٥٥٠	اشاره
٣٥٥٠	نظره إلى الخطبه
٣٥٥٢	الشرح والتفسير: تحمل الصعاب
٣٥٥٦	الخطبه ٢١٨
٣٥٥٦	اشاره

٣٥٥٦	نظرة إلى الخطبه
٣٥٥٨	الشرح والتفسير: جنایات أصحاب الجمل فی البصره
٣٥٦٠	الخطبه ٢١٩
٣٥٦٠	اشاره
٣٥٦٠	نظرة إلى الخطبه
٣٥٦٢	الشرح والتفسير: المشهد المروع بعد الجمل
٣٥٦٤	تأملان
٣٥٦٤	١. حبّ دنيا وعواقبه المشؤمه
٣٥٦٥	٢. الكفاءه الشرط الاوّل لكل عمل
٣٥٦٨	الخطبه ٢٢٠
٣٥٦٨	اشاره
٣٥٦٨	نظرة إلى الخطبه
٣٥٧٠	الشرح والتفسير: سالک طريق الحق
٣٥٧٢	تأمل: مقامات السير والسلوك
٣٥٧٦	الخطبه ٢٢١
٣٥٧٦	اشاره
٣٥٧٦	نظرة إلى الخطبه
٣٥٧٨	القسم الأوّل
٣٥٧٨	اشاره
٣٥٧٨	الشرح والتفسير: التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!
٣٥٨٤	القسم الثاني
٣٥٨٤	اشاره
٣٥٨٤	الشرح والتفسير: العالم العجيب بعد الموت
٣٥٩٠	القسم الثالث
٣٥٩٠	اشاره
٣٥٩٠	الشرح والتفسير: أحوال الأموات!

القسم الرابع - - - - - ٣٥٩٤

اشاره - - - - - ٣٥٩٤

الشرح والتفسير: عقبات الموت لاتستوعب في الالفاظ - - - - - ٣٥٩٥

تأمل: ممز يرده الجميع - - - - - ٣٥٩٩

الخطبه ٢٢٢ - - - - - ٣٦٠٢

اشاره - - - - - ٣٦٠٢

نظره إلى الخطبه - - - - - ٣٦٠٢

القسم الأوّل - - - - - ٣٦٠٤

اشاره - - - - - ٣٦٠٤

الشرح والتفسير: أدله السائرين على الطريق - - - - - ٣٦٠٤

تأملان - - - - - ٣٦٠٧

١. ما المراد من أيتام الله؟ - - - - - ٣٦٠٧

٢. الإلهامات الغيبية - - - - - ٣٦٠٨

القسم الثاني - - - - - ٣٦١٠

اشاره - - - - - ٣٦١٠

الشرح والتفسير: أولياء الله وأهل الذكر - - - - - ٣٦١٠

القسم الثالث - - - - - ٣٦١٤

اشاره - - - - - ٣٦١٤

الشرح والتفسير: مصير السائرين على الصراط - - - - - ٣٦١٤

تأمل: ذكر الله والذاكرون - - - - - ٣٦١٧

الخطبه ٢٢٣ - - - - - ٣٦٢٠

اشاره - - - - - ٣٦٢٠

نظره إلى الخطبه - - - - - ٣٦٢٠

القسم الأوّل - - - - - ٣٦٢٢

اشاره - - - - - ٣٦٢٢

الشرح والتفسير: الرحمه بالنفس؟ - - - - - ٣٦٢٢

القسم الثاني ٣٦٢٦

اشاره ٣٦٢٦

الشرح والتفسير: رحمه الله ومعصيه العبد؟! ٣٦٢٦

القسم الثالث ٣٦٣٠

اشاره ٣٦٣٠

الشرح والتفسير: الدنيا أعظم واعظ ٣٦٣٠

تأمل: الدنيا الممدوحه والمذمومه ٣٦٣٢

القسم الرابع ٣٦٣٤

اشاره ٣٦٣٤

الشرح والتفسير: الاستعداد لسفر الآخرة ٣٦٣٤

الخطبه ٢٢٤ ٣٦٣٨

اشاره ٣٦٣٨

نظرة إلى الخطبه ٣٦٣٨

القسم الأول ٣٦٤٠

اشاره ٣٦٤٠

الشرح والتفسير: إرتكاب الظلم ٣٦٤٠

القسم الثاني ٣٦٤٤

اشاره ٣٦٤٤

الشرح والتفسير: قصة الحديده المحماه ٣٦٤٤

تأملان ٣٦٤٧

١. نظره إلى شخصيه عقيل ٣٦٤٧

٢. التسويه بين المسلمين في بيت المال ٣٦٤٨

القسم الثالث ٣٦٥٠

اشاره ٣٦٥٠

الشرح والتفسير: قصة المنافق الأشعث بن قيس ٣٦٥٠

تأمل: من هو الأشعث بن قيس؟ ٣٦٥٥

الخطبه ٢٢٥	٣٦٥٦
اشاره	٣٦٥٦
نظره إلى الخطبه (الدعاء)	٣٦٥٦
الشرح والتفسير: الغنى عن شرار الخلق!	٣٦٥٨
تأمل: الآثار السيئه للفقير	٣٦٥٩
الخطبه ٢٢٦	٣٦٦٤
اشاره	٣٦٦٤
نظره إلى الخطبه	٣٦٦٤
القسم الأول	٣٦٦٦
اشاره	٣٦٦٦
الشرح والتفسير: تقلب احوال الدنيا	٣٦٦٦
تأمل: دار محفوفه بالبلاء	٣٦٦٨
القسم الثانى	٣٦٧٠
اشاره	٣٦٧٠
الشرح والتفسير: جيران متباعدون	٣٦٧٠
تأمل: عاقبه الإنسان بعد الموت	٣٦٧٣
القسم الثالث	٣٦٧٦
اشاره	٣٦٧٦
الشرح والتفسير: المصير المحتوم	٣٦٧٦
الخطبه ٢٢٧	٣٦٧٨
اشاره	٣٦٧٨
نظره إلى الخطبه (الدعاء)	٣٦٧٨
القسم الأول	٣٦٨٠
اشاره	٣٦٨٠
الشرح والتفسير: انس العباد	٣٦٨٠
القسم الثانى	٣٦٨٢

٣٦٨٢	اشاره
٣٦٨٢	الشرح والتفسير: الله كهف الورى
٣٦٨٣	تأمل: أدعيه المعصومين عليهم السلام المهذبه
٣٦٨٦	الخطبه ٢٢٨
٣٦٨٦	اشاره
٣٦٨٦	نظره إلى الخطبه
٣٦٨٨	الشرح والتفسير: مالك الأشتر
٣٦٩٢	الخطبه ٢٢٩
٣٦٩٢	اشاره
٣٦٩٢	نظره إلى الخطبه
٣٦٩٤	الشرح والتفسير: الإندفاع العجيب لبيعه الإمام عليه السلام
٣٦٩٦	تأمل: البيعه الفريده المطلقه
٣٦٩٨	الخطبه ٢٣٠
٣٦٩٨	اشاره
٣٦٩٨	نظره إلى الخطبه
٣٧٠٠	القسم الأول
٣٧٠٠	اشاره
٣٧٠٠	الشرح والتفسير: سز السعاده والفلاح
٣٧٠٢	القسم الثانى
٣٧٠٢	اشاره
٣٧٠٢	الشرح والتفسير: المعبر الذى لا مفر منه
٣٧٠٨	القسم الثالث
٣٧٠٨	اشاره
٣٧٠٨	الشرح والتفسير: الدنيا الغراره!
٣٧١٤	القسم الرابع
٣٧١٤	اشاره

٣٧١٤	الشرح والتفسير: الزهاد الحقيقيون
٣٧١٤	الخطبه ٢٢١
٣٧١٤	اشاره
٣٧١٤	نظرة إلى الخطبه
٣٧١٨	الشرح والتفسير: النبي صلى الله عليه و آله حصد العدا من الصدور
٣٧٢٠	الخطبه ٢٢٢
٣٧٢٠	اشاره
٣٧٢٠	نظرة إلى الخطبه
٣٧٢٢	الشرح والتفسير: غنائم المقاتلين
٣٧٢٤	الخطبه ٢٢٣
٣٧٢٤	اشاره
٣٧٢٤	نظرة إلى الخطبه
٣٧٢٤	القسم الأول
٣٧٢٤	اشاره
٣٧٢٤	الشرح والتفسير: نحن امراء الكلام
٣٧٢٨	تأملان
٣٧٢٨	١. عجائب اللسان
٣٧٢٩	٢. امراء الكلام
٣٧٣٢	القسم الثاني
٣٧٣٢	اشاره
٣٧٣٢	الشرح والتفسير: خصائص البيئه الملوته
٣٧٣٤	الخطبه ٢٣٤
٣٧٣٤	اشاره
٣٧٣٤	نظرة إلى الخطبه
٣٧٣٨	الشرح والتفسير: أساس الاختلاف
٣٧٤٢	تأملان

- ٣٧٤٢ ١. صلة الروح بالجسم
- ٣٧٤٣ ٢. الاختيار وصله الروح بالجسد
- ٣٧٤٤ الخطبه ٢٣٥
- ٣٧٤٤ اشاره
- ٣٧٤٤ نظره إلى الخطبه
- ٣٧٤٤ الشرح والتفسير: عظم مصيبه رحيل النبي صلى الله عليه وآله
- ٣٧٤٩ تأملان
- ٣٧٤٩ ١. البكاء على الأعزّه
- ٣٧٥٠ ٢. تجهيز النبي صلى الله عليه وآله
- ٣٧٥٢ الخطبه ٢٣٦
- ٣٧٥٢ اشاره
- ٣٧٥٢ نظره إلى الخطبه
- ٣٧٥٤ الشرح والتفسير: ذكر الحبيب
- ٣٧٥٥ تأمل: قصة الهجره
- ٣٧٥٨ الخطبه ٢٣٧
- ٣٧٥٨ اشاره
- ٣٧٥٨ نظره إلى الخطبه
- ٣٧٦٠ القسم الأول
- ٣٧٦٠ اشاره
- ٣٧٦٠ الشرح والتفسير: اغتنام الفرصه
- ٣٧٦٢ القسم الثاني
- ٣٧٦٢ اشاره
- ٣٧٦٢ الشرح والتفسير: كيفيه اغتنام الفرصه
- ٣٧٦٦ الخطبه ٢٣٨
- ٣٧٦٦ اشاره
- ٣٧٦٦ نظره إلى الخطبه

القسم أوّل	٣٧٤٨
اشاره	٣٧٤٨
الشرح والتفسير: أتباع معاويه	٣٧٤٨
تأمل: جهل أهل الشام	٣٧٤٩
القسم الثاني	٣٧٧٢
اشاره	٣٧٧٢
الشرح والتفسير: أفضل اختيار وأسوأه	٣٧٧٢
الخطبه ٢٣٩	٣٧٧٤
اشاره	٣٧٧٤
نظره إلى الخطبه	٣٧٧٤
الشرح والتفسير: آل محمد أركان الدين	٣٧٧٨
الخطبه ٢٤٠	٣٧٨٢
اشاره	٣٧٨٢
نظره إلى الخطبه	٣٧٨٢
الشرح والتفسير: خطأ آخر من أخطاء عثمان	٣٧٨٤
الخطبه ٢٤١	٣٧٨٨
اشاره	٣٧٨٨
نظره إلى الخطبه	٣٧٨٨
الشرح والتفسير: شقروا واستعدوا للجهاد	٣٧٩٠
تأمل: آفات النهيم والترف	٣٧٩٢
خصائص هذا الشرح	٣٧٩٤
المجلد ٩	٣٧٩٤
اشاره	٣٧٩٤
اشاره	٣٧٩٧
مقدمه	٣٨٠١
الرساله ١: إلى أهل الكوفه، عند مسيره من المدينه إلى البصره	٣٨٠٥

- ٣٨٠٥ - اشارة
- ٣٨٠٥ - نظره إلى الرساله -
- ٣٨٠٧ - القسم الأول
- ٣٨٠٧ - اشارة
- ٣٨٠٧ - الشرح والتفسير: حقيقه ما وقع في حادثه قتل عثمان -
- ٣٨١٠ - تأملان
- ٣٨١٠ - ١. حكاية أبي موسى وتعبته أهل الكوفه لنصره الإمام عليه السلام -
- ٣٨١٢ - ٢. عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان
- ٣٨١٥ - القسم الثاني
- ٣٨١٥ - اشارة
- ٣٨١٥ - الشرح والتفسير -
- ٣٨١٦ - تأمل: مصير الناكثين
- ٣٨١٩ - الرساله ٢: إنيهم، بَعْدَ فَتْحِ البُضْرَةِ -
- ٣٨١٩ - اشارة
- ٣٨١٩ - نظره إلى الرساله -
- ٣٨٢١ - الشرح والتفسير: إظهار الإمام عليه السلام رضاه عن أهل الكوفه
- ٣٨٢٢ - تأمل: النصّ الكامل لرساله الإمام عليه السلام لأهل الكوفه
- ٣٨٢٥ - الرساله ٣: لشريح بن الحارث قاضيه -
- ٣٨٢٥ - اشارة
- ٣٨٢٥ - نظره إلى الرساله -
- ٣٨٢٧ - القسم الأول
- ٣٨٢٧ - اشارة
- ٣٨٢٧ - الشرح والتفسير: من أين لك هذه الدار؟! -
- ٣٨٣١ - القسم الثاني
- ٣٨٣١ - اشارة
- ٣٨٣١ - الشرح والتفسير: وثيقه عديمه النظير -

تأملان ----- ٣٨٣٧

١. الباعث لكتابه السند ----- ٣٨٣٧

٢. من هو شريح؟ ----- ٣٨٣٨

الرسالة ٤: إلى بَعْضِ أَمْراءِ جَيْشِهِ ----- ٣٨٤٣

اشاره ----- ٣٨٤٣

نظرة إلى الرسالة ----- ٣٨٤٣

الشرح والتفسير: يجب إقاله الضعفاء ----- ٣٨٤٥

تأملان ----- ٣٨٤٧

١. جرائم الناكثين في معركة الجمل ----- ٣٨٤٧

٢. على من يمكن الاعتماد؟ ----- ٣٨٤٩

الرسالة ٥: إلى الأَشْعَثِ بْنِ قَيْسِ عَامِلِ أَدْرَبِيْجَانَ ----- ٣٨٥١

اشاره ----- ٣٨٥١

نظرة إلى الرسالة ----- ٣٨٥١

الشرح والتفسير: المناصب الحكوميه في الإسلام أمانه إلهيته ----- ٣٨٥٣

تأملات ----- ٣٨٥٦

١. دستور كامل ----- ٣٨٥٦

٢. من هو الأشعث بن قيس؟ ----- ٣٨٥٧

٣. آذربايجان في خارطة البلاد الإسلاميه سابقاً ----- ٣٨٥٩

الرسالة ٦: إلى مُعَاوِيَةَ ----- ٣٨٦١

اشاره ----- ٣٨٦١

نظرة إلى الرسالة ----- ٣٨٦١

الشرح والتفسير ----- ٣٨٦٣

تأمل: لماذا استدلل الإمام عليه السلام بالشورى والبيعه؟ ----- ٣٨٦٦

الرسالة ٧: إِلَيْهِ أَيْضاً (مُعَاوِيَةَ) ----- ٣٨٦٩

اشاره ----- ٣٨٦٩

نظرة إلى الرسالة ----- ٣٨٦٩

- ٣٨٧١ الشرح والتفسير: موعظه الضالين!
- ٣٨٧٤ تأمل: رساله معاويه لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام
- ٣٨٧٩ الرساله ٨: إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاويه
- ٣٨٧٩ اشاره
- ٣٨٧٩ نظره إلى الرساله
- ٣٨٨١ الشرح والتفسير: حلّ المشكل بآيات الصلح
- ٣٨٨٢ تأمل: من هو جرير بن عبدالله؟
- ٣٨٨٥ الرساله ٩: إلى معاويه
- ٣٨٨٥ اشاره
- ٣٨٨٥ نظره إلى الرساله
- ٣٨٨٩ القسم الأول
- ٣٨٨٩ اشاره
- ٣٨٨٩ الشرح والتفسير: بنو هاشم حماه الإسلام الأوائل
- ٣٨٩٥ القسم الثاني
- ٣٨٩٥ اشاره
- ٣٨٩٥ الشرح والتفسير: حماه الإسلام الأوائل
- ٣٩٠٣ القسم الثالث
- ٣٩٠٣ اشاره
- ٣٩٠٣ الشرح والتفسير: ما أنت وقتله عثمان!؟
- ٣٩٠٦ تأمل: كلام عن قتله عثمان
- ٣٩١١ الرساله ١٠: إلى معاويه
- ٣٩١١ اشاره
- ٣٩١١ نظره إلى الرساله
- ٣٩١٣ القسم الأول
- ٣٩١٣ اشاره
- ٣٩١٣ الشرح والتفسير: نظره إلى الأفق الغائم

القسم الثاني ٣٩١٧

اشاره ٣٩١٧

الشرح والتفسير: حذارٍ من الغفلة ٣٩١٧

القسم الثالث ٣٩٢١

اشاره ٣٩٢١

الشرح والتفسير: أنا أتحرّك دوماً في خطّ الحقّ والهدايه ٣٩٢١

تأملان ٣٩٢٤

١. مقارنة شجاعه الإمام عليه السلام بالأعداء ٣٩٢٤

٢. هل كان معاويه حاضراً في معركة بدر؟ ٣٩٢٥

القسم الرابع ٣٩٢٧

اشاره ٣٩٢٧

الشرح والتفسير: المستقبل المظلم والأفق المشؤوم للعدوا! ٣٩٢٧

تأمل: التنبؤات الواقعه ٣٩٢٩

الرساله ١١: وَصَى بِهَا جَيْشاً بَعَثَهُ إِلَى الْعُدُوِّ ٣٩٣١

اشاره ٣٩٣١

نظره إلى الرساله ٣٩٣١

الشرح والتفسير: الاستعداد الصحيح للجيش ٣٩٣٣

الرساله ١٢: وَصَى بِهَا مَعْقِلَ بْنِ قَيْسِ الرِّيَاحِي حِينَ أَنْفَذَهُ إِلَى الشَّامِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مَقَدَّمَهُ لَهُ ٣٩٣٩

اشاره ٣٩٣٩

نظره إلى الرساله ٣٩٣٩

الشرح والتفسير: تعليمات ضروريه قبل التوجه إلى الميدان ٣٩٤١

تأمل: من هو معقل بن قيس؟ ٣٩٤٥

الرساله ١٣: إِلَى أَمِيرَيْنِ مِنْ أَمْراءِ جَيْشِهِ ٣٩٤٧

اشاره ٣٩٤٧

نظره إلى الرساله ٣٩٤٧

الشرح والتفسير: مالك الأشتر القائد الفدّ ٣٩٤٩

- تأملان ٣٩٥٠
١. مالک الأشر المديرو والمدببر الشجاع ٣٩٥٠
٢. شريح بن هانىء الحارثى وزيد بن النضر ٣٩٥٢
- الرسالة ١٤: لِعَشْكِرِهِ قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ بِصَيِّقِينَ ٣٩٥٥
- اشاره ٣٩٥٥
- نظره إلى الرسالة ٣٩٥٥
- الشرح والتفسير: فصل آخر من القيم الأخلاقية فى الحرب ٣٩٥٧
- تأملان ٣٩٦١
١. مكانه المرأه فى نهج البلاغه ٣٩٦١
٢. الخلق الإسلامى فى مقابل العدو ٣٩٦٣
- الرسالة ١٥: كَانَ يَقُولُ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ مُحَارِبًا ٣٩٦٧
- اشاره ٣٩٦٧
- نظره إلى الرسالة ٣٩٦٧
- الشرح والتفسير: دعاء جامع فى ساحه القتال ٣٩٦٩
- الرسالة ١٦: لِأَضْحَاهِ عِنْدَ الْحَرْبِ ٣٩٧٣
- اشاره ٣٩٧٣
- نظره إلى الرسالة ٣٩٧٣
- الشرح والتفسير: تقويه عزائم الجند ٣٩٧٥
- تأملان ٣٩٨٠
١. شواهد حيه على عقائد بنى اميه الواقعيه ٣٩٨٠
٢. فضائل الامام على عليه السلام على لسان أعدائه ٣٩٨٣
- الرسالة ١٧: إِلَى مُعَاوِيَةَ جَوَابًا عَنْ كِتَابٍ مِنْهُ إِلَيْهِ ٣٩٨٥
- اشاره ٣٩٨٥
- نظره إلى الرسالة ٣٩٨٥
- القسم الأول ٣٩٨٧
- اشاره ٣٩٨٧

- ٣٩٨٧ الشرح والتفسير: المدين في هيئته الدائن
- ٣٩٩٣ القسم الثاني
- ٣٩٩٣ اشاره
- ٣٩٩٣ الشرح والتفسير: النبوه افتخار كبير
- ٣٩٩٥ تأمل: أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله
- ٣٩٩٩ الرساله ١٨: إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصره
- ٣٩٩٩ اشاره
- ٣٩٩٩ نظره إلى الرساله
- ٤٠٠١ الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة بماء المداراه
- ٤٠٠٥ تأمل: خصائص أهل البصره
- ٤٠٠٧ الرساله ١٩: إلى بعض عماله
- ٤٠٠٧ اشاره
- ٤٠٠٧ نظره إلى الرساله
- ٤٠٠٩ الشرح والتفسير: شمول الرؤفه الإسلاميه لجميع الناس
- ٤٠١٢ تأمل: الإسلام وأهل الذمه
- ٤٠١٥ الرساله ٢٠: إلى زياد بن أبيه
- ٤٠١٥ اشاره
- ٤٠١٥ نظره إلى الرساله
- ٤٠١٧ الشرح والتفسير: إنذار شديد للمتخلفين
- ٤٠١٩ تأمل: لماذا اختار الإمام عليه السلام زياداً لهذا المنصب
- ٤٠٢١ الرساله ٢١: إلى زياد بن أبيه
- ٤٠٢١ اشاره
- ٤٠٢١ نظره إلى الرساله
- ٤٠٢٣ الشرح والتفسير: الإمام عليه السلام يحذر «زياد» مره أخرى
- ٤٠٢٧ تأملان
- ٤٠٢٧ ١. العلاقه بين الأعمال والجزاء

٢. زياد ابن أبيه الانتهازي ٤٠٢٨
- الرسالة ٢٢: إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ٤٠٢٩
- اشاره ٤٠٢٩
- نظرة إلى الرسالة ٤٠٢٩
- الشرح والتفسير: السرور والحزن الموهومان ٤٠٣١
- تأملان ٤٠٣٣
١. الجواب عن سؤال ٤٠٣٣
٢. الإنسان فاعل مختار ٤٠٣٤
- الرسالة ٢٣: قَالَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْوَصِيَّةِ لَمَا ضَرَبَتْهُ ابْنُ مَلْجَمٍ لَعْنَةُ اللَّهِ ٤٠٣٧
- اشاره ٤٠٣٧
- الوصية في نظره عامه ٤٠٣٧
- الشرح والتفسير: وصايا مهمته ٤٠٣٩
- تأملان ٤٠٤٤
١. القصص أو العفو؟ ٤٠٤٤
٢. معنى «لَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ» ٤٠٤٥
- الرسالة ٢٤: بِمَا يُعْمَلُ فِي أَمْوَالِهِ، كَتَبَهَا بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ صَفِّينَ ٤٠٤٧
- اشاره ٤٠٤٧
- نظرة إلى الرسالة ٤٠٤٧
- الشرح والتفسير: توصيات مدرسه لإداره الموقوفات ٤٠٤٩
- تأملان ٤٠٥٧
١. الجواب عن سؤالين ٤٠٥٧
٢. أهميته الوقف في الإسلام ٤٠٥٨
- الرسالة ٢٥: كَانَ يَكْتُبُهَا لِمَنْ يَشْتَعِلُهُ عَلَى الصَّدَقَاتِ ٤٠٦١
- اشاره ٤٠٦١
- نظرة إلى الرسالة ٤٠٦١
- القسم الأول ٤٠٦٣

- ٤٠٦٣ - اشارة
- ٤٠٦٣ - الشرح والتفسير: الثقة بالجمهور في جمع الضرائب الإسلاميه
- ٤٠٦٨ - تأمل: آداب جمع الزكاه وحقوق بيت المال
- ٤٠٧١ - القسم الثاني
- ٤٠٧١ - اشارة
- ٤٠٧١ - الشرح والتفسير: غايه الاحترام لمطالب الدافعين للزكاه
- ٤٠٧٧ - القسم الثالث
- ٤٠٧٧ - اشارة
- ٤٠٧٧ - الشرح والتفسير: الرأفه الإسلاميه بالحيوانات
- ٤٠٨١ - تأملان
- ٤٠٨١ - ١. التأكيد على إيصال أموال الزكاه إلى المحرومين
- ٤٠٨٢ - ٢. حمايه الحيوانات في الإسلام
- ٤٠٨٥ - الرساله ٢٦: إلى بغضِ عَمَالِهِ وَقَدْ بَعَثَهُ عَلَى الصَّدَقَةِ
- ٤٠٨٥ - اشارة
- ٤٠٨٥ - نظره إلى الرساله
- ٤٠٨٧ - القسم الأول
- ٤٠٨٧ - اشارة
- ٤٠٨٧ - الشرح والتفسير: التعامل الحسن مع دافعي الضرائب الإسلاميه
- ٤٠٩١ - القسم الثاني
- ٤٠٩١ - اشارة
- ٤٠٩١ - الشرح والتفسير: اعمل بحيث لا يشكوك المحرومون يوم القيامه
- ٤٠٩٥ - تأملان
- ٤٠٩٥ - ١. الأصناف الثمانيه لمستحقّي الزكاه
- ٤٠٩٦ - ٢. الأمانه، أصل القيم الأخلاقيه في الإسلام
- ٤٠٩٩ - الرساله ٢٧: إلى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَ قَلَدَهُ مِضْرَ
- ٤٠٩٩ - اشارة

٤٠٩٩	نظرة إلى الرسالة
٤١٠٣	القسم الأول
٤١٠٣	اشاره
٤١٠٣	الشرح والتفسير: حسن الخلق مع جميع الأفراد
٤١٠٧	القسم الثاني
٤١٠٧	اشاره
٤١٠٧	الشرح والتفسير: الدنيا والآخرة لمن يعيش البساطه والزهد
٤١١١	القسم الثالث
٤١١١	اشاره
٤١١١	الشرح والتفسير: تحذيرات متواليه
٤١١٨	تأمل: التعادل بين الخوف والرجاء
٤١٢١	القسم الرابع
٤١٢١	اشاره
٤١٢١	الشرح والتفسير: المهمه الثقيله
٤١٢٥	القسم الخامس
٤١٢٥	اشاره
٤١٢٥	الشرح والتفسير: الخوف على الأمم من فئه معينه
٤١٢٧	تأملان
٤١٢٧	١. خطر المنافقين
٤١٢٨	٢. رساله غريبه من المعتضد العباسى
٤١٣٧	الرساله ٢٨: إلى مُعاوِيَةَ جَواباً
٤١٣٧	اشاره
٤١٣٧	نظرة إلى الرسالة
٤١٤١	القسم الأول
٤١٤١	اشاره
٤١٤١	الشرح والتفسير: كيف يجلس المحكوم للحكم والقضاء؟

القسم الثاني ٤١٤٩

اشاره ٤١٤٩

الشرح والتفسير: الامتيازات النادره ٤١٤٩

تأملان: فضائل حمزه سيد الشهداء ٤١٥٣

المرتبه الساميه لجعفر بن أبي طالب ٤١٥٥

القسم الثالث ٤١٥٩

اشاره ٤١٥٩

الشرح والتفسير: نقاط مهمه أخرى في فضائل أهل البيت عليهم السلام ٤١٥٩

تأملان ٤١٦٥

١. قِصّه السقيفه المثيره! ٤١٦٥

٢. فضائل بني هاشم في عصر الجاهليه والإسلام ٤١٦٦

القسم الرابع ٤١٦٩

اشاره ٤١٦٩

الشرح والتفسير: هذه الأمور لا تخضك! ٤١٦٩

القسم الخامس ٤١٧٣

اشاره ٤١٧٣

الشرح والتفسير: المقصر الأصلي في قتل عثمان ٤١٧٣

القسم السادس ٤١٨١

اشاره ٤١٨١

الشرح والتفسير: تهديدني بالحرب! ٤١٨١

تأمل: مدين في لباس دائن! ٤١٨٥

الرساله ٢٩: إلى أهل البُصره ٤١٨٨

اشاره ٤١٨٨

نظره إلى الرساله ٤١٨٨

الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة في البصره ٤١٩٠

الرساله ٣٠: إلى مُعاويه ٤١٩٥

- ٤١٩٥ اشارة
- ٤١٩٥ نظره إلى الرساله
- ٤١٩٧ الشرح والتفسير: ينبغي أن تفكر بعاقبه أمرك!
- ٤٢٠٣ الرساله ٣١: لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كَتَبْتُهَا إِلَيْهِ «بِحَاضِرَيْنِ»
- ٤٢٠٣ اشارة
- ٤٢٠٣ نظره إلى الرساله
- ٤٢٠٧ القسم الأول
- ٤٢٠٧ اشارة
- ٤٢٠٧ الشرح والتفسير: هذه الوصيه ممن وإلى من؟
- ٤٢١٣ القسم الثاني
- ٤٢١٣ اشارة
- ٤٢١٣ الشرح والتفسير: علّه كتابه هذه الوصيه
- ٤٢١٧ القسم الثالث
- ٤٢١٧ اشارة
- ٤٢١٧ الشرح والتفسير: أوثق وسيله للنجاه
- ٤٢٢١ القسم الرابع
- ٤٢٢١ اشارة
- ٤٢٢١ الشرح والتفسير: أحى قلبك بالموعظه
- ٤٢٢٥ تأملان
- ٤٢٢٥ ١. الحياه وإعمار القلب
- ٤٢٢٧ ٢. الوعاظ الكثيرون
- ٤٢٣١ القسم الخامس
- ٤٢٣١ اشارة
- ٤٢٣١ الشرح والتفسير: الاستقامه سبب تحقيق النصر والنجاح
- ٤٢٣٦ تأملان
- ٤٢٣٦ ١. رعايه الاحتياط عند الإحساس بالخطر

٢. الطريق لنيل الفضائل الأخلاقية ٤٢٣٧

القسم السادس ٤٢٤٠

اشاره ٤٢٤٠

الشرح والتفسير: لا تتساهل في هذه الوصية ٤٢٤٠

تأمل: العلوم النافعه وغير النافعه ٤٢٤٣

القسم السابع ٤٢٤٤

اشاره ٤٢٤٤

الشرح والتفسير: الباعث لكتابه هذه الوصيه ٤٢٤٤

تأمل: معطيات التربيه في سنّ الشباب ٤٢٥٠

القسم الثامن ٤٢٥١

اشاره ٤٢٥١

الشرح والتفسير: تجارب الآخرين وإطاله عمر اللاحقين ٤٢٥١

تأملان ٤٢٥٥

١. تشكيله منسجمه من أسرار التاريخ ٤٢٥٥

٢. كيف توصل الإمام عليه السلام لتاريخ الأقسام الماضيه؟ ٤٢٥٧

القسم التاسع ٤٢٥٩

اشاره ٤٢٥٩

الشرح والتفسير ٤٢٥٩

القسم العاشر ٤٢٦٣

اشاره ٤٢٦٣

الشرح والتفسير: الحذر من سلوك الطرق المشكوكه ٤٢٦٣

القسم الحادى عشر ٤٢٦٩

اشاره ٤٢٦٩

الشرح والتفسير: كلّ شيء من الله ٤٢٦٩

تأمل: المقارنه بين علم الإنسان وجهله ٤٢٧٢

القسم الثانى عشر ٤٢٧٥

٤٢٧٥ اشارة

٤٢٧٥ الشرح والتفسير: اجعل من النبي الأكرم صلى الله عليه و آله مرشداً لك

٤٢٧٩ القسم الثالث عشر

٤٢٧٩ اشارة

٤٢٧٩ الشرح والتفسير: الإيمان بالواحد الأحد

٤٢٨٣ تأملان

٤٢٨٣ ١. العلاقة بين الأيديولوجيه والرؤيه الكونيه

٤٢٨٥ ٢. بدايه الخلقه ودوام الفيض

٤٢٨٧ القسم الرابع عشر

٤٢٨٧ اشارة

٤٢٨٧ الشرح والتفسير: السالكون طريق الآخره

٤٢٩١ القسم الخامس عشر

٤٢٩١ اشارة

٤٢٩١ الشرح والتفسير: نظره واحده لمصلحه الفرد والجماعه

٤٢٩٥ القسم السادس عشر

٤٢٩٥ اشارة

٤٢٩٥ الشرح والتفسير: لا تكن خازناً لغيرك

٤٢٩٩ القسم السابع عشر

٤٢٩٩ اشارة

٤٢٩٩ الشرح والتفسير: الآخرون يحملون متاعك إلى الآخره!

٤٣٠٣ القسم الثامن عشر

٤٣٠٣ اشارة

٤٣٠٣ الشرح والتفسير: ضع عن كتفك همّ يومك!

٤٣٠٧ القسم التاسع عشر

٤٣٠٧ اشارة

٤٣٠٨ الشرح والتفسير: فتح أبواب التوبه والدعاء أمام الإنسان

- ٤٣١٨ ----- تأمل: شروط استجابته الدعاء
- ٤٣٢١ ----- القسم العشرون
- ٤٣٢١ ----- اشاره
- ٤٣٢١ ----- الشرح والتفسير: الغايه من الخلق
- ٤٣٢٧ ----- القسم الحادى والعشرون
- ٤٣٢٧ ----- اشاره
- ٤٣٢٧ ----- الشرح والتفسير: الدنيا الخداعه وأهلها
- ٤٣٣٣ ----- القسم الثانى والعشرون
- ٤٣٣٣ ----- اشاره
- ٤٣٣٣ ----- الشرح والتفسير: السائرون بمركب الليل والنهار
- ٤٣٣٥ ----- تأمل: السالكون إلى العالم الآخر!
- ٤٣٣٧ ----- القسم الثالث والعشرون
- ٤٣٣٧ ----- اشاره
- ٤٣٣٧ ----- الشرح والتفسير: لا تذلل نفسك أبداً
- ٤٣٤٧ ----- القسم الرابع والعشرون
- ٤٣٤٧ ----- اشاره
- ٤٣٤٧ ----- الشرح والتفسير: سبع وعشرون موعظه ثمينه
- ٤٣٤١ ----- القسم الخامس والعشرون
- ٤٣٤١ ----- اشاره
- ٤٣٤١ ----- الشرح والتفسير: الإحسان فى مقابل الإساءه!
- ٤٣٧١ ----- القسم السادس والعشرون
- ٤٣٧١ ----- اشاره
- ٤٣٧١ ----- الشرح والتفسير: لا تضيع حقّ الصديق
- ٤٣٧٧ ----- القسم السابع والعشرون
- ٤٣٧٧ ----- اشاره
- ٤٣٧٨ ----- الشرح والتفسير: ثمان وعشرون موعظه أخرى

٤٣٩٩	القسم الثامن والعشرون
٤٣٩٩	اشاره
٤٣٩٩	الشرح والتفسير: السلوك العادل والحكيم مع المرأة
٤٤٠٣	تأمل: مكانه المرأة في المجتمع
٤٤٠٩	القسم التاسع والعشرون
٤٤٠٩	اشاره
٤٤٠٩	الشرح والتفسير: تقسيم المسؤوليات
٤٤١٣	القسم الثلاثون (القسم الأخير)
٤٤١٣	اشاره
٤٤١٣	الشرح والتفسير: ضع كلّ وديعه عند الله
٤٤١٥	المجلد ١٠
٤٤١٥	اشاره
٤٤١٦	اشاره
٤٤٢٠	الرساله ٣٢: إلى معاويه
٤٤٢٠	اشاره
٤٤٢٠	نظرة عامته للرساله
٤٤٢٢	الشرح والتفسير: لا تهلك نفسك ولا الناس
٤٤٢٢	اشاره
٤٤٢٦	تأمل
٤٤٢٦	رسائل متواليه
٤٤٢٩	الرساله ٣٣: إلى قُتَيْبِ بْنِ الْعَبَّاسِ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى مَكَّةَ
٤٤٢٩	اشاره
٤٤٢٩	نظرة عامته للرساله
٤٤٣١	الشرح والتفسير: راقب أوضاع مَكَّةَ بدقه
٤٤٣١	اشاره
٤٤٣٥	تأمل

- ٤٤٣٥ من هو قثم بن العباس؟
- الرسالة ٣٤: إلى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ٤٤٣٧
- اشاره ٤٤٣٧
- نظرة عاتقه للرسالة ٤٤٣٧
- الشرح والتفسير: تطيب خاطر محمد بن أبي بكر ٤٤٣٩
- تأمل ٤٤٤٣
- من هو محمد بن أبي بكر؟ ٤٤٤٣
- الرسالة ٣٥: إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، بَعْدَ مَقْتَلِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ٤٤٤٥
- اشاره ٤٤٤٥
- نظرة عاتقه للرسالة ٤٤٤٥
- الشرح والتفسير: شكوى من الأتباع الضعفاء ٤٤٤٧
- تأمل ٤٤٥١
- روعه البلاغه في هذه الرسالة ٤٤٥١
- الرسالة ٣٦: إلى أخيه عقيل بن أبي طالب ٤٤٥٥
- اشاره ٤٤٥٥
- نظرة عاتقه للرسالة ٤٤٥٥
- القسم الأول ٤٤٥٩
- اشاره ٤٤٥٩
- الشرح والتفسير: قصة الضحاک بن قيس ٤٤٥٩
- القسم الثاني ٤٤٦٥
- اشاره ٤٤٦٥
- الشرح والتفسير: لا أكف عن مقارعه الخائنين ٤٤٦٥
- الرسالة ٣٧: إلى معاوية ٤٤٦٩
- اشاره ٤٤٦٩
- نظرة عاتقه للرسالة ٤٤٦٩
- الشرح والتفسير: ما أنت والطلب بدم عثمان ؟ ٤٤٧١

- ٤٤٧١ - اشاره
- ٤٤٧٤ - تأمل
- ٤٤٧٤ - رساله معاويه إلى ابن عباس وجوابه
- ٤٤٧٧ - الرسالة ٣٨: إلى أهل مِصْرَ لَمَّا وَلِيَ عَلَيْهِمُ الْأَشْتَرُ
- ٤٤٧٧ - اشاره
- ٤٤٧٧ - نظره عاتقه للرساله
- ٤٤٧٩ - القسم الأول
- ٤٤٧٩ - اشاره
- ٤٤٧٩ - الشرح والتفسير: المصريون الذين غضبوا لله
- ٤٤٨٣ - القسم الثاني
- ٤٤٨٣ - اشاره
- ٤٤٨٣ - الشرح والتفسير: نصبت عليكم والياً مقتدرأً وبصيراً بالأموار
- ٤٤٨٩ - الرسالة ٣٩: إلى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ
- ٤٤٨٩ - اشاره
- ٤٤٨٩ - نظره عاتقه للرساله
- ٤٤٩١ - الشرح والتفسير: لقد بعت دينك بدنيا غيرك!
- ٤٤٩٥ - تأملان
- ٤٤٩٥ - ١. عمرو بن العاص في الجاهليته والإسلام
- ٤٤٩٥ - ٢. بعض أعمال معاويه
- ٤٤٩٧ - الرسالة ٤٠: إلى بَعْضِ عُمَاةِ
- ٤٤٩٧ - اشاره
- ٤٤٩٧ - نظره عاتقه للرساله
- ٤٤٩٩ - الشرح والتفسير: سخط الله وعصيان الإمام
- ٤٥٠٣ - الرسالة ٤١: إلى بَعْضِ عُمَاةِ
- ٤٥٠٣ - اشاره
- ٤٥٠٣ - نظره عاتقه للرساله

القسم الأول ----- ٤٥٠٥

اشاره ----- ٤٥٠٥

الشرح والتفسير: ألا تؤمن بالمعاد؟! ----- ٤٥٠٥

القسم الثاني ----- ٤٥١٢

اشاره ----- ٤٥١٢

الشرح والتفسير: لا أنسامح في بيت المال حتى مع أولادى ----- ٤٥١٢

تأمل ----- ٤٥١٦

من هو ابن عباس؟ ----- ٤٥١٦

الرسالة ٤٢: إلى عُمرِ بنِ أبي سَلْمَةَ المَخْزُومِي ----- ٤٥٢٤

اشاره ----- ٤٥٢٤

نظرة عاقه للرسالة ----- ٤٥٢٤

الشرح والتفسير: أحسنت! لقد أدت الأمانة ----- ٤٥٢٤

اشاره ----- ٤٥٢٤

تأمل ----- ٤٥٢٧

التعرّف على عمر بن أبي سلمة المخزومي والنعمان بن عجلان؟ ----- ٤٥٢٧

الرسالة ٤٣: إلى مَضَقَلَةَ بنِ هُبَيْرَةَ الشَّيْبَانِي ----- ٤٥٣٠

اشاره ----- ٤٥٣٠

نظرة عاقه للرسالة ----- ٤٥٣٠

الشرح والتفسير: جميع المسلمين سواسيه في بيت المال ----- ٤٥٣٢

اشاره ----- ٤٥٣٢

تأمل ----- ٤٥٣٧

جواب مصقله للإمام عليه السلام ----- ٤٥٣٧

الرسالة ٤٤: إلى زَيْدِ ابْنِ أَبِيهِ ----- ٤٥٣٨

اشاره ----- ٤٥٣٨

نظرة عاقه للرسالة ----- ٤٥٣٨

الشرح والتفسير: إحذر من أغوائهم! ----- ٤٥٤٠

- ٤٥٤٠ - اشاره
- ٤٥٤٥ - تأمل
- ٤٥٤٥ - قسه نسب زياد المعقده
- ٤٥٥٢ - الرساله ٤٥: إلى عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيِّ
- ٤٥٥٢ - اشاره
- ٤٥٥٢ - نظره عاتمه للرساله
- ٤٥٥٦ - القسم الأول
- ٤٥٥٦ - اشاره
- ٤٥٥٦ - الشرح والتفسير: دعوه الوالى إلى مأدبه فاخره!
- ٤٥٥٦ - اشاره
- ٤٥٥٨ - تأمل
- ٤٥٥٨ - من هو عثمان بن حنيف؟
- ٤٥٦٠ - القسم الثانى
- ٤٥٦٠ - اشاره
- ٤٥٦٠ - الشرح والتفسير: لم أَدخِر من الدنيا شيئاً لنفسى
- ٤٥٦٤ - القسم الثالث
- ٤٥٦٤ - اشاره
- ٤٥٦٤ - الشرح والتفسير: كيف أكون أمير المؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر؟
- ٤٥٦٤ - اشاره
- ٤٥٧٢ - تأمل
- ٤٥٧٢ - قسه فدك المحزنه
- ٤٥٧٧ - القسم الرابع
- ٤٥٧٧ - اشاره
- ٤٥٧٧ - الشرح والتفسير: لست كالبهيمة المربوطه!
- ٤٥٨٥ - القسم الخامس
- ٤٥٨٥ - اشاره

الشرح والتفسير: أيتها الدنيا ابتعدى عني! - ٤٥٨٥

اشاره - ٤٥٨٥

تأمل - ٤٥٩٣

طلاق الدنيا - ٤٥٩٣

القسم السادس - ٤٥٩٦

اشاره - ٤٥٩٦

الشرح والتفسير: هل الغرض الأكل والنوم فقط؟ - ٤٥٩٦

اشاره - ٤٥٩٦

تأمل - ٤٥٩٨

الرياضه المشروعه وغير المشروعه - ٤٥٩٨

القسم السابع - ٤٦٠٥

اشاره - ٤٦٠٥

الشرح والتفسير: أيتها الوالى! إحذر المشاركه فى مثل هذه الضيافه! - ٤٦٠٥

اشاره - ٤٦٠٥

تأملان - ٤٦٠٨

١. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهيه - ٤٦٠٨

٢. من هم حزب الله؟ - ٤٦١١

الرساله ٤٦: إلى بغض عَمَالِهِ - ٤٦١٣

اشاره - ٤٦١٣

نظرة عاتمه للرساله - ٤٦١٣

الشرح والتفسير: عامل الناس بالرفق! - ٤٦١٥

الرساله ٤٧: لِلْحَسَنِ وَالْأَحْسَنِ عَلَيْهِمَا السَّلَام لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعْنَهُ اللَّهُ - ٤٦٢٢

اشاره - ٤٦٢٢

نظرة عاتمه للرساله - ٤٦٢٢

القسم الأول - ٤٦٢٤

اشاره - ٤٦٢٤

الشرح والتفسير: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً! ٤٦٢٤

القسم الثاني ٤٦٣٠

اشاره ٤٦٣٠

الشرح والتفسير: أفضل الأعمال صلاح ذات البين! ٤٦٣٠

القسم الثالث ٤٦٣٤

اشاره ٤٦٣٤

الشرح والتفسير: وصايا هاتمه على فراش الشهاده! ٤٦٣٤

اشاره ٤٦٣٤

تأمل ٤٦٤٥

أهتبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٦٤٥

القسم الرابع ٤٦٤٨

اشاره ٤٦٤٨

الشرح والتفسير: توصيه الإمام عليه السلام المؤكده حول قاتله! ٤٦٤٨

الرساله ٤٨: إلى مُعَاوِيَةَ ٤٦٥٢

اشاره ٤٦٥٢

نظرة عاتمه للرساله ٤٦٥٢

الشرح والتفسير: نصيحه جامعه لمعاويه ٤٦٥٤

الرساله ٤٩: إلى مُعَاوِيَةَ ٤٦٥٨

اشاره ٤٦٥٨

نظرة عاتمه للرساله ٤٦٥٨

الشرح والتفسير: الحرص على الدنيا لا يوصلك إلى شيء! ٤٦٦٠

الرساله ٥٠: إلى أُمِّرَائِهِ عَلَى الْجَيْشِ ٤٦٦٨

اشاره ٤٦٦٨

نظرة عاتمه للرساله ٤٦٦٨

القسم الأول ٤٦٧٠

اشاره ٤٦٧٠

- ٤٦٧٠ الشرح والتفسير: لا يبعدنكم المقام عن الناس!
- ٤٦٧٢ القسم الثاني
- ٤٦٧٢ اشاره
- ٤٦٧٢ الشرح والتفسير: حقوق الإمام وحقوق القاده
- ٤٦٨٠ الرسالة ٥١: إلى عماله على الخراج
- ٤٦٨٠ اشاره
- ٤٦٨٠ نظره عاتمه للرساله
- ٤٦٨٢ القسم الأول
- ٤٦٨٢ اشاره
- ٤٦٨٢ الشرح والتفسير: حذار من ظلم الناس!
- ٤٦٨٢ اشاره
- ٤٦٨٤ تأمل
- ٤٦٨٤ ماذا يعنى الخراج؟
- ٤٦٨٦ القسم الثاني
- ٤٦٨٦ اشاره
- ٤٦٨٦ الشرح والتفسير: رعايه إنصاف فى أخذ الخراج
- ٤٦٩٢ الرسالة ٥٢: إلى أمراء البلاد فى معنى الصلاه
- ٤٦٩٢ اشاره
- ٤٦٩٢ نظره عاتمه للرساله
- ٤٦٩٤ الشرح والتفسير: آداب الصلاه وأوقاتها!
- ٤٦٩٤ اشاره
- ٤٦٩٨ تأمل
- ٤٦٩٨ أداء الصلوات الخمس فى ثلاثه أوقات
- ٤٧٠٥ الرسالة ٥٣: كتبه للبأشتر التّجعى
- ٤٧٠٥ اشاره
- ٤٧٠٥ نظره عاتمه للرساله

- ٤٧٠٥ خمسون نكته مهتمه فى عهد واحد
- ٤٧١٦ القسم الأول
- ٤٧١٦ اشاره
- ٤٧١٦ الشرح والتفسير: التوضيه الأولى: التقوى وجهاد النفس
- ٤٧١٦ اشاره
- ٤٧٢٠ تأمل
- ٤٧٢٠ أخطار النفس الأماره
- ٤٧٢٢ أهميته بلاد مصر
- ٤٧٢٦ القسم الثانى
- ٤٧٢٦ اشاره
- ٤٧٢٦ الشرح والتفسير: احترام حقوق جميع المواطنين!
- ٤٧٣٤ القسم الثالث
- ٤٧٣٤ اشاره
- ٤٧٣٤ الشرح والتفسير: لا تكن مغروراً أبداً!
- ٤٧٤٢ القسم الرابع
- ٤٧٤٢ اشاره
- ٤٧٤٢ الشرح والتفسير: إحذر من لعنه المظلومين!
- ٤٧٤٦ القسم الخامس
- ٤٧٤٦ اشاره
- ٤٧٤٦ الشرح والتفسير: كن مع جمهور الناس!
- ٤٧٥٢ تأمل
- ٤٧٥٢ أنواع الحكومات
- ٤٧٥٤ القسم السادس
- ٤٧٥٤ اشاره
- ٤٧٥٤ الشرح والتفسير: عليك بستر العيوب!
- ٤٧٥٤ اشاره

٤٧٥٩ - تأمل

٤٧٥٩ - موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس

٤٧٤١ - القسم السابع

٤٧٤١ - اشاره

٤٧٤١ - الشرح والتفسير: إحذر هؤلاء المستشارين!

٤٧٤١ - اشاره

٤٧٤٣ - تأمل

٤٧٤٣ - أهميته المشوره في حياه الإنسان

٤٧٤٧ - القسم الثامن

٤٧٤٧ - اشاره

٤٧٤٧ - الشرح والتفسير: الوزير الجيد والوزير السيء!

٤٧٧٣ - القسم التاسع

٤٧٧٣ - اشاره

٤٧٧٣ - الشرح والتفسير: إحيى السنن الحسنه

٤٧٧٩ - تأمل

٤٧٧٩ - سبب ظهور السنن

٤٧٨١ - القسم العاشر

٤٧٨١ - اشاره

٤٧٨١ - الشرح والتفسير: الطبقات الاجتماعيه المختلفه

٤٧٨١ - اشاره

٤٧٨٤ - تأمل

٤٧٨٤ - الشرائح الاجتماعيه

٤٧٨٧ - القسم الحادى عشر

٤٧٨٧ - اشاره

٤٧٨٧ - الشرح والتفسير: الأواصر بين الطبقات الاجتماعيه

٤٧٩٧ - القسم الثانى عشر

٤٧٩٧ اشارة

٤٧٩٧ الشرح والتفسير: شروط قادة الجيش

٤٨٠٤ القسم الثالث عشر

٤٨٠٤ اشارة

٤٨٠٤ الشرح والتفسير: أفضل قادة الجيش

٤٨١١ القسم الرابع عشر

٤٨١١ اشارة

٤٨١١ الشرح والتفسير: طرق حلّ المشكلات

٤٨١١ اشارة

٤٨١٣ تأمل

٤٨١٣ من هم اولوا الأمر؟

٤٨١٧ القسم الخامس عشر

٤٨١٧ اشارة

٤٨١٧ الشرح والتفسير: يجب أن يتصف القضاة بهذه الصفات الاثني عشر!

٤٨٢٩ تعريف مركز

عنوان و نام پديد آور: نفحات الولاية: شرح عصري جامع لنهج البلاغه المجلد ۱ / ناصر مكارم شيرازي، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمداني.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام علي ابن ابى طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهري: ۱۰ ج.

شابك: ۳۰۰۰۰ ريال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳.

يادداشت: عربي.

يادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ق. = ۱۳۹۰).

يادداشت: كتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الى ۱۸۰. ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الى ۲۰۰. ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الى ۲۴۱. ج. ۹. من رساله ۱ الى ۳۱. ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الى ۵۳

موضوع: علي بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه ها

موضوع: علي بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- كلمات قصار

موضوع: علي بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه ها

موضوع: علي بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حميراني، عبدالرحيم

شناسه افزوده: علي بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: BP۳۸/۰۲/م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۴۰۳۴۷-۸۴

ص: ۱

المجلد ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ١

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

لم يحظ كتاب بالعنايه والرعايه - بعد القرآن الكريم - كما حظى نهج البلاغه ولم يتيسر لغيره مثل هذه المنزله الساميه الناميه.

فما أكثر البحوث والدراسات فى تصويره الفنى وفصاحته وبلاغته وصياغته حتى أضحى مؤثلاً ومنهلاً وأساساً ونبراساً للدراسات الإسلاميه ومعيناً ثرا للمعارف الإنسانيه. وهل رأينا كانهج يرغب المؤلفون بشرحه والتعرف عليه والاقتباس منه والاستشهاد به وحفظ ولو بعض حكمه ومواعظه. إنّه كتاب المعانى الروحيه، والعداله الاجتماعيه، والتربيه الرساليه، والقيم الخلقيه، والأدله والكمال والنقاء، ونابض بكل مفيد وسديد ورشيد، ورافض لكل ألوان الشرور والفجور والغرور ومهما استجدت من أفكار وآراء ونظريات واكتشافات خلال هذه القرون المتطاووله فلا تزيد إلتسديداً وتأييداً وتخليداً، ولا يزداد المفكرون والباحثون نحوه إلتانسجاماً واحتراماً، لأنّه الكتاب الزاهر بالحجج البالغه والزاهر بالموارد السائغه والجامع بين جلال البلاغه وجمال الصياغه، وبين إصالة المعانى وجزاله المبانى وبين دقه التصوير ورقه التعبير.

لقد عكفت كأغلب الأفراد الشغفين بنهج البلاغه على مطالعه بعض أجزاءه. بحسبما كانت تتطلبه الضروره والحاجه، حتى لاحت بوادر الخامس عشر من خرداد عام ١٩٦٣ م فألقى القبض على برفقه طائفه من كبار العلماء والمفكرين فإودعنا السجن. كانت ظروف السجن عصيبه جداً فى الأيام الأولى حيث عمدت جلاوزه النظام الشاهنشاهى البائد إلى حظر أغلب الأشياء عن الوصول إلينا، غير أنّ الضغوط التى مارسها الرأى العام دفعت بذلك النظام

إلى التخفيف من وطأته والتنازل عن بعض المحظورات الثقافية؛ الأمر الذى جعلنا نطلب من أصدقائنا وذوينا إتياننا ببعض الكتب إلى السجن. أما أنا فقد ناشدتهم كتاب نهج البلاغه لأستغل تلك الفرصه المناسبه وأتفرغ فيها للتأمل فى هذا الكتاب العظيم، وقد منّ الله علىّ ووفّقنى للتدبير والتحقيق فى دراسه القسم الثانى من هذا الكتاب والذى يشمل الرسائل والوصايا السياسيه والأخلاقيه، آنذاك أيقنت بأن نهج البلاغه لأعظم وأكبر ممّا كنّا نفكر فيه ونتصوره عنه. فقد رأيت نفسى حينها أمام بحر زاخر من العلوم والمعارف التى تعالج أهم قضايا الإنسان فى كافه أبعاده المعنويه والماديه، كما يمد الإنسان بمختلف المواهب المعنويه التى تمكنها من بلوغ شأطى الامان فى هذه الدنيا المحفوفه بالمكاره.

آنذاك أدركت عمق خيبه وخسران أولئك الذين ولّوا ظهورهم لهذا الكثر الفتيّاض والمنهل العذب وجعلوا يسيلون لعابهم لموائد الأجانب بما يعجزون عن الإتيان بمثل قطره من بحره المتلاطم!

من عجائب هذا الكتاب الذى اقتفى آثا القرآن حتى طبع بصفاته وسماته إنّه وخلافاً للمدارس الفكرية والأخلاقية والسياسيه التى يبليها الزمان فأنّه يحمل فى طياته صفات العصرنه والتجدد وكأنّ خطب أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه وتوجيهاته تفرع سمع المعاصر وتجعله يعيش أجواء مسجد الكوفه. وما أجدر عشاق الحق والحقيقه والمتعطين لمعرفه العلوم الربانيه والمتطلعين لعيش الحياه الحره الكريمه أن يقصدوا كل يوم ضريح هذا العالم الفذ السيد الشريف الرضى (جامع نهج البلاغه) فيؤدوا له طقوس الاجلال والاكبار ويقرأوا الفاتحه على روحه الطاهره بفضل الجهود المضمنيه التى بذلها من أجل جمع كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام فزود بها البشريه جمعاء فضلاً عن المجتمعات الإسلاميه.

وماذا بوسعى أن أقول بشأن نهج البلاغه الذى حار فى وصفه البلغاء وعجز عن تصويره الفصحاء وعيت عن الاحاطه بكنهه العلماء، وعليه لا- أرى من جدوى فى الاستغراق فى هذا الموضوع، وأخوض فى الغرض والدافع من هذا الكتاب. فقد أقبل العلماء والأدباء على هذا الكتاب النفيس - نهج البلاغه - بين حافظ وناسخ وشارح، حيث بلغ عدد شرّاحه فى العصر القديم والحديث ما جاوز الخمسين شارحاً الذين بذلوا ما بوسعهم لسبر أغواره واستخراج

كنوزه وجواهره حتى قدموا خدمه جليله لطلاب المعرفه والحكمه، إلماً أنّ الانصاف هو أنّ هذا الكتاب ما يزال يعيش مظلوميه كبرى وغربه عظمى، وليس هناك من سبيل لازالتها سوى فى تضافر الجهود وتعبئه الأفكار والطاقات من أجل إعادة النظر والاسهاب فى تفاصيل وجزئيات هذا الكتاب الثر، ولا سيما فى عصرنا الراهن الذى تشهد فيه المجتمعات الإنسانيه ذروه المشاكل والمطبات التى تعترض حياتها اليوميه، إلى جانب ظهور المذاهب والمدارس الفكرية المختلفه والحملات الشعواء التى تمارسها الأجهزة الاستكباريه والدوائر النفعيه الغارقه فى الأهواء والشهوات وحب الدنيا والخلود إليها ضد العقائد والأخلاق والفضيله والتقوى بغيه تحقيق أهدافها المشؤومه فى ضمان مصالحها ونهب خيرات البشرية وتجريدها من هويتها الإنسانيه. أجل فالعصر الحاضر يجعل نهج البلاغه يتطلب جهوداً أكثر وأنشطه أوسع وأشمل من شأنها التوصل إلى الطرق والأساليب التى تذلل الصعاب الماديه والمعنويه والفرديه والاجتماعيه، إلى جانب التصدى إلى النزعات الفكرية الهدامه التى تستهدف الدين والأخلاق. وعلى هذا الأساس وما أن فرغنا من نشاطنا القرآنى فى التفسير الذى دوناه - التفسير الأمثل - وكتابنا رساله القرآن والتى حظيت باقبال المحافل العلميه والأوساط التحقيقيه حتى آلىنا على أنفسنا أن نواصل نفس هذه الجهود وبمعونه الاخوه الفضلاء من العلماء بخصوص نهج البلاغه على غرار الجهود والأساليب التحقيقيه التى إعتدناها فى التفسير القرآنى - الأمثل - بل إنّ التجارب السابقه قد جعلت هذا الجهد المتواضع أقرب من غيره إلى الاتقان والاكمال. نعم لقد عزمنا على مباشره هذا العمل رغم كثره المشاكل والعراقيل وسعه حجم المسؤوليات مستلهمين العزم والامداد من البارئ سبحانه وعبداه الخالص ريبب النبى صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين على بن أبى طالب عليه السلام وبعد أن وعدنا الاخوه الذين وقفوا إلى جانبنا فى التفسير القرآنى بتقديم كافه أشكال الدعم والعون فى هذا المجال لكى نعد شرحاً جديداً جامعاً لهذا الكتاب من شأنه تلبية حاجات العصر ووضع الحلول الوافيه الشافيه للمعضلات الفكرية والاجتماعيه، كما استعنا فى بعض المواقع بما أورده المفسرون والشارحون القدماء والمعاصرون من أجل إغناء كافه جوانب المواضيع، إلى جانب اعتماد الأفكار والاطروحات الحديثه المعاصره.

لقد باشرنا هذا العمل غره الثالث عشر من شهر رجب المرجب لعام ١٤١٣ هـ الميلاذ الميمون لأمير المؤمنين عليه السلام وسار بخطوات بطيئه هادئه حتى استغرق إعداد المجلد الأول - رغم الجهود الجماعيه المشتركه - ما يقارب الثلاث سنوات (ومن الطبيعي أن لا تشوب الأعمال العجله فى بدايتها) . حتى اتسقت لنا الأمور فأخذنا نحث السير وننهض سريعاً بهذا العمل، رغم يقيننا بأننا مازلنا نحوم فى هذا المحيط المتلاطم والبحر العميق؛ الأمر الذى لايد ويسيراً قط. والأفضل ألا أخوض فى التفاصيل التى اعتمدت فى هذا الشرح وأترك ذلك للاخوه القراء، ويسرنى هنا أن أناشد كاهه الاخوه الفضلاء أن يتحفونا بأرائهم بما يقرب هذا العمل من أهدافه ومقاصده، إلى جانب النظر بعين العفو والصفح إلى الخطأ والزلل.

وأخيراً أسأل الله أن يتفضل علينا باتمام هذا الجهد المتواضع بغيه التزود من مائده نهج البلاغه لنا ولكافه جياح الفكر والعقيده، إنه نعم المولى ونعم المجيب، وما توفيقى إلّابالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قم - الحوزه العلميه ناصر مكارم الشيرازى ٣ ربيع الثانى ١٤١٧ هـ ٢٠ / تموز / ١٩٩٦ م

هو أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى، ولد فى بغداد سنه تسع وخمسن وثلاثمائه للهجره. أمه فاطمه بنت الحسين بن أبى محمد الحسن الاطروش بن على بن الحسن بن على بن عمر بن على بن أبى طالب عليه السلام، وهى إمراه فاضله عرفت بالورع والتقوى والبصيره الثاقبه، فقد قال فيها السيد الرضى (ره): لَوْ كَانَ مِثْلَكَ كُلُّ أُمَّ بَرَّهَ غَنَى الْبُنُونَ بِهَا عَنِ الْآبَاءِ

كما يتصل نسب جدّه بالإمام موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام وهو أبو أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن الإمام أبى إبراهيم موسى الكاظم عليه السلام. وقد كانت له منزله عظيمه فى الدوله العباسيه والدوله البويهيه، حتى لقبه أبو نصر بهاء الدين بالطاهر الأوحد.

أقبل السيد الرضى على العلم والفقّه والأدب حتى بات أبداع أبناء زمانه، وقد خلف أبيه عام ٣٨٨ بتولى نقابه الطالبين فى حياته، وعهد إليه بالنظر فى المظالم والحج بالناس. إبتدأ ينظم الشعر وله من العمر عشر سنين أوتزید قليلاً، حكم بعض النقاد بأنّه أشعر الطالبين، وإلى جانب ذلك فقد كان كاتباً بليغاً مترسلاً، أما المرحوم العلّامة الامينى فقد صرّح بشأن السيد الشريف الرضى قائلاً: «وسيدنا الشريف الرضى هو مفخره من مفاخر العتره الطاهره، وإمام العلم والحديث والإدب، وبطل من أبطال الدين والعلم والمذهب، ومهما تشدق الكاتب فان فى البيان قصوراً عن بلوغ مداه». (١)

أساتذه السيد الرضى

لقد ذكر العلّامة الأمينى إسم أربعة عشر من أساتذه السيد الرضى ومنهم:

ص:٩

١ - أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن مرزبان النحوى المعروف بالسيرافى المتوفى عام ٣٦٨هـ فقد درس السيد الرضى عليه النحو ولما يبلغ العاشره من عمره.

٢ - النحوى المعروف أبو على الحسن بن أحمد الفارسى المتوفى عام ٣٧٧هـ.

٣ - هارون بن موسى.

٤ - الخطيب المشهور أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد المعروف بابن نباته المتوفى عام ٣٩٤هـ.

٥ - القاضى عبد الجبار، العالم الشافعى المعتزلى.

٦ - الفقيه والمحدث والمتكلم الشيعى الكبير الشيخ المفيد والذى يعدّ من أعظم أساتذته السيد الرضى. وهناك قصه رائعه جديره بالسماع بشأن كيفيه تتلمذه وأخيه السيد المرتضى على يد الشيخ المفيد. فقد قال مؤلف كتاب «الدرجات الرفيعه»: رأى المفيد أبو عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الإمام فى منامه، كأنّ فاطمه بنت رسول الله صلى الله عليه وآله دخلت عليه وهو فى مسجده بالكرك ومعه والداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين فسلمتهما إليه، (وقالت له: علمهما الفقه). فانتبه متعجباً من ذلك، فلمّا تعالى النهار فى صبيحه تلك الليله التى رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمه بنت الناصر، وحولها جواريتها وبين يديها ابناها محمد الرضى وعلى المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلّم عليها. فقالت له: أيها الشيخ هذان ولدائى، قد أحضرتهما لتعلمهما الفقه.

فبكى أبو عبد الله - الشيخ المفيد - وقصّ عليها المنام وتولى تعليمهما الفقه، وأنعم الله عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما فى آفاق الدنيا؛ وهو باق ما بقى الدهر «وردت هذه القصة فى شرح ابن أبى الحديد، ج ١ / ٤١» .

تلامذه السيد الرضى

روى كبار علماء الفريقين أنّ العلماء الأئمينى ذكر تسعه من تلامذه السيد الرضى، ويمكن الإشارة هنا إلى أبرز من روى عنه ومنهم شقيقه السيد المرتضى وشيخ الطائفه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى كانت للسيد الرضى همه كبيره جعلته يؤسس مدرسه لطلاب العلوم

الدينيه أسماها «دار العلم» ولعلها أول مدرسه يتلقى فيها الطلاب الدروس صباحاً بينما يخلدون إلى الراحة والسكن مساءً في نفس المدرسه، وهى على غرار مدرسه أخيه السيد المرتضى، وقد كان الشيخ الطوسى والقاضى عبد العزيز بن براج من تلاميذها وسبقت مدرسته «المدرسه النظاميه» ببغداد بحوالى ٨٠ سنه وربما كانت تقليداً لها (١).

كتب ومؤلفات السيد الرضى

ذكر العلامة الأمينى أنّ السيد الرضى خلف أكثر من تسعه عشر كتاباً، أهمها أثره الخالد نهج البلاغه الذى يضم خطب ورسائل وكلمات الإمام على عليه السلام. ثم يورد الشيخ الأمينى أسماء واحد وثمانين كتاباً زمان السيد تعرضت لشرح نهج البلاغه أ وترجمته.

ومن أهم الكتب التى ألفها السيد الرضى:

١ - خصائص الأئمه، والذى أشار إليه المؤلف فى مقدمه نهج البلاغه.

٢ - مجازات الآثار النبويه، والذى طبع عام ١٣٢٨ هـ فى بغداد.

٣ - الرسائل العلميه فى ثلاثه مجلدات.

٤ - معانى القرآن.

٥ - حقائق التأويل فى متشابه التنزيل والذى عبر عنه الكشى بحقائق التنزيل.

السيد الرضى والشعر

كان السيد الرضى نابغه فى الشعر، علماً أنّ الشعر لم يصف شيئاً لشخصيته العظيمه، ورغم ذلك فقد جادت قريحته الشعريه بمختلف الفنون والآداب والصنوف الشعريه التى تكشف عن مدى قدرته فى نظم الشعر. يذكر أنّ السيد الرضى قد أنشد قصيده غزاه كشف فيها النقاب عن علو نسبه ولما يبلغ العاشره من عمره ولذلك عدّه بعض الأدباء أشعر شعراء قريش، وربما رجّح شعره على المتنبي، وهناك رسائل ومبادلات بينه وبين الصاحب بن عباد وأبى اسحاق

ص: ١١

الصابي، وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه قائلاً: سمعت محمد بن عبد الله الكاتب أنه قال عند أبي الحسين بن محفوظ قال: سمعت من فريق من الأدباء أنهم قالوا: السيد الرضى أشعر شعراء قریش. فردّ ابن محفوظ قائلاً: نعم، هذا كلام صحيح، ثم أضاف: كان هناك بعض الأفراد الذين يحسنون الشعر في قریش إلا أنهم قليلوا النظم للشعر، ولم يكن سوى السيد الرضى يكثر إنشاد الشعر إلى جانب إتصافه بالعدوبه والجمال.

القابه ومناصبه

لقبه بهاء الدوله سنة ٣٨٨ بالشريف الأجل، وفي سنة ٣٩٢ بذي المنقبتين، وفي سنة ٣٨٩ بالرضى ذى الحسين، وفي سنة ٤٠١ أمر أن تكون مخاطباته ومكاتباته بعنوان الشريف الرضى أن المناصب والولايات كانت منكثره على عهد سيدنا الشريف من الوزاره التنفيذيه والتفويضييه والاماره على البلاد بقسميها العامه والخاصه، تولى الشريف نقابه الطالبين واماره الحاج والنظر فى المظالم سنة ٣٨٠ وهو ابن ٢١ عاما على عهد الطائع، ثم عهد إليه فى ١٦ محرم سنة ٤٠٣ بولاية أمور الطالبين فى جميع البلاد فدعى «نقيب النقباء». (١)

ص: ١٢

١ - ١) النقابه: موضوعه على صيانه ذوى الأنساب الشريفه عن ولايه ولا- يكافئهم فى النسب ولا يساويهم فى الشرف، ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى وهى على ضربين: خاصه وعامه، وأمّا الخاصه فهو أن يقتصر بنظره على مجرد النقابه من غير تجاوز لها إلى حكم وإقامه حد فلا يكون العلم معتبراً فى شروطها ويلزمه فى النقابه على أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقاً: ١- حفظ أنسابهم من داخل فيها وليس هو منها، أ وخارج عنها. ٢- تمييز بطونهم ومعرفه أنسابهم حتى لا يخفى عليه منه يتوأب. ٣- معرفه من ولد منهم من ذكر أوانثى فيثبته. ٤- أن يأخذهم من الاداب بما يضافى شرف أنسابهم وكرم محتدهم لتكون حشمتهم فى النفوس موقوره وحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم محضوره. ٥- أن يتزههم عن المكاسب الدنيئه ويمنعهم من المطالب الخبيثه. ٦- أن يكفهم عن ارتكاب المآثم. ٧- أن يمنعهم من التسلط على العامه لشرفهم. ٨- أن يكون عوناً لهم فى استيفاء الحقوق. ٩- أن ينوب عنهم فى المطالبه بحقوقهم العامه. ١٠- أن يمنع أمائهم أن يتزوجن إلّامن الأكفاء. ١١- أن يقوم ذوى الهفوات منهم فيما سوى الحدود. ١٢- مراعاة وقوفهم بحفظ اصولها وتنميه فروعها.

توفى السيد الرضى رحمه الله فى السادس من شهر محرم الحرام من سنه ست وأربعمائه - وله من العمر ما يناهز السابعة والأربعين -، وحضر جنازته الوزير فخر الملك، وجميع الأعيان والأشراف والقضاة والصلاة عليه، وقد أقيمت مراسم العزاء فى داره فى الكرخ.

روى أغلب المؤرخين أنّ جسده الطاهر قد حمل إلى كربلاء فدفن إلى جوار قبر جدّه، والذي يفهم من بعض النقول التاريخيه أن قبره فى مقدمه الحائر الحسينى. ومضى أخوه المرتضى من جزعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليه السلام؛ لأنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه وصلى عليه فخر الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمى، فألزمه بالعود إلى داره. (١)

رثاه الكثير من الأدباء والشعراء وفى مقدمتهم أخيه السيد المرتضى الذى أنشده قائلاً: يا للرجال لفجعه جذمت يدي

ص: ١٣

١- ١) أغلب ما أوردناه بالنسبه لحياه السيد الرضى قد اقتبسناه من كتاب الغدير ٤ / ١٨١ - ٢١١، [١] إضافه إلى شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، [٢] عبقرية الشريف الرضى، سفينة البحار [٣] ومذكرات العلامة الشريف الرضى. [٤]

يعد الحديث عن على عليه السلام أو نهج البلاغه عملاً سهلاً وفي نفس الوقت وليس سهلاً! فهو ليس سهلاً بالنسبه لمن يروم الغوص في أعماق على عليه السلام والوقوف على كنهه وحقيقته والاحاطه بكافه جوانبه الفكرية وسعه إيمانه وقوه صبره وعظم فضائله وملكاته، أو أن يتعرف على نهج البلاغه كما هو في حقيقته. ولكن من السهل الوقوف على بعض قبسات هذين النبراسين العظيمين والقمرين الزاهرين. لا تخفى شخصيه على عليه السلام على مسلم، فكل من له أدنى معرفه بعلى عليه السلام وتاريخه وسيره حياته سيوقن بأنه الإنسان الكامل - بعد رسول الله صلى الله عليه وآله - وأنه آيه من آيات الحق جل وعلا وان كتابه نهج البلاغه ليس إلا شعاعاً من شمس المنيره. فنهج البلاغه بحر من العلم ومحيط من الحكمه وكثر لا ينضب وحديقه غناء بالزهور وسماء مزينه بالنجوم ومصدر لسعاده الإنسان في مسيرته الدنيويه.

ومما لاشك فيه أنّ من يروم إقتحام هذا الميدان عليه أن يعدّ الكتب والمجلدات علّه يحصى بعض حقائق الأمور، بينما لا نهدف - في هذه المقدمه - إلّا إلى التطرق إلى بعض الإشارات المقتضبه من أجل التمهيد للخوض في شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام والتي نراها أفضل طريقه للتعريف به، وهل الجو المشمس إلّادليل على وجود الشمس.

وهنا أود أن ألفت إنتباه الاخوه القراء إلى أنّ عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والزعماء - ولا سيما من غير المسلمين - قد تناولوا بالبحث والدرس كتاب نهج البلاغه فأروا أعظم ممّا ظنوا وتصوروا فأطلقوا عباراتهم المعروفه بشأن نهج البلاغه بما يكشف عن مدى تأثيرهم والذهول الذي أصابهم فلم يتمالكوا أنفسهم ويعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم وعواطفهم.

ويبدو أن كل واحد من هؤلاء قد تأثر بجانب معين من نهج البلاغه، وربما أمكننا إيجاز هذه الجوانب في المحاور الرئيسيه
الثلاث الآتيه:

١ - فصاحه وبلاغه نهج البلاغه.

٢ - المضامين العميقه لنهج البلاغه.

٣ - الجاذبيه الخارقه لنهج البلاغه.

ص: ١٦

لابد في هذا الأمر من الاستشهاد بأقوال البلغاء والفصحاء والأدباء والشراح والكتّاب الذين سيروا - حسب قدرتهم - أغوار نهج البلاغه فتأثروا بما لمسوه من حلاوه وطلاوه في فصاحته وبلاغته وسحر بيانه بما لم يعهدوه، فأطلقوا عباراتهم بشأنه ومنهم:

١ - وما أحرانا أن نتجه بادئ ذي بدء صوب جامع نهج البلاغه والذي يعتبر من جهابذه الفصاحه والبلاغه الذي احتل الصداره من بين فصحاء العرب وبلغائها وقد أفنى عمره في جمع خطب نهج البلاغه، ألا وهو السيد الرضى الذي وصفه الكاتب المصرى المعروف الدكتور «زكى مبارك» فى كتابه «عبقريه الشريف الرضى» قائلاً: «هو اليوم أبداع أبناء الزمان، وأنجب ساده العراق، يتحلى بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق» .

يقول الشريف الرضى فى مقدمته الرائعه لنهج البلاغه: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَشْرِعَ الْفَصَاحَةِ وَمَوْرِدَهَا وَمَنْشَأَ الْبَلَاغَةِ وَمَوْلِدَهَا وَمِنْهُ ظَهَرَ مَكْنُونُهَا وَعَنْهُ أُخِذَتْ قَوَانِينُهَا وَعَلَى أُمَّثَلَتِهِ خِذَا كُلُّ قَائِلٍ خَطِيبٍ وَبِكَلَامِهِ اشْتَبَعَانَ كُلُّ وَعَظٍ بَلِيغٍ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ سَبَقَ وَقَصَّرُوا وَقَدْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرُوا» ، ثم يفسر هذا الكلام فيقول: «لأن كلامه عليه السلام الكلام الذى عليه مسحه من العلم الإلهى وفيه عقبه من الكلام النبوى» .

٢ - الشارح المعروف الذى أفنى عمراً فى شرح وتفسير نهج البلاغه وتحدث بشغف وإعجاب عن على عليه السلام وهو عز الدين عبد الحميد ابن أبى الحديد المعتزلى الذى يعدّ من أشهر علماء العامه للقرن السابع الهجرى (١).

ص: ١٧

١-١) يقع شرحه فى عشرين مجلداً وقد استغرق فى تأليفه أقل بقليل من خمس سنوات وهى مدّه خلافه على عليه السلام على حد تعبيره.

فقد تحدث مراراً وكراراً بهذا الشأن في شرحه وأذعن لعظمه فصاحه وبلاغه النهج. فقد قال على سبيل المثال بشأن الخطبه ٢٢١ التي أوردها على عليه السلام - بشأن البرزخ - «وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبه في مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى ابن الرقاع: قلم أصاب من الدواه مداها. . . فلم قيل لهم في ذلك قالوا إنا نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن» (١).

ثم قال في موضع آخر حين عرض للمقارنه بين كلام أمير المؤمنين على عليه السلام وكلام «ابن نباته» (٢) الخطيب المعروف الذي عاش في القرن الهجري الرابع: «فليتأمل أهل المعرفة بعلم الفصاحه والبيان هذا الكلام بعين الانصاف ليعلموا أنّ سطرأ واحداً من كلام نهج البلاغه يساوى ألف سطر منه بل يزيد ويربى على ذلك» (٣). وينقل أيضاً إحدى خطب ابن نباته في الجهاد والتي تمثل قمه الفصاحه وقد ضمنها عبارات أمير المؤمنين عليه السلام الوارده في الجهاد «ما غزى قوم في عقر دارهم إلّاذلوا» فيقول: «فانظر إلى هذه العبارة كيف تصيح من بين الخطبه صياحاً وتنادى على نفسها نداءً فصيحاً، وتعلم سامعها أنّها ليست من المعدن الذي خرج باقى الكلام منه، ولا من الخاطر الذي صدر ذلك السجج عنه، ولعمر الله، لقد جمّلت الخطبه وحسنتها وزانتها وما مثلها فيها إلّا كآيه من الكتاب العزيز يتمثل بها في رساله أو خطبه، فإنّها تكون كاللؤلؤه المضيئه تزهر وتنير، وتقوم بنفسها، وتكتسى الرساله بها رونقاً، وتكتسب بها ديباجه» (٤).

وأخيراً نختتم كلامه بما أورده في مقدمه شرحه للنهج حيث قال: «وأما الفصاحه فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين ومنه تعلم الناس الخطابه والكتابه» (٥).

٣ - «جورج جرداق» الكاتب المسيحي اللبناني المعروف الذي ألف كتابه المشهور

ص: ١٨

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١١ / ١٥٣. [١]

٢- ٢) هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباته المتوفى عام ٣٧٤.

٣- ٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧ / ٢١٤. [٢]

٤- ٤) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٨٤. [٣]

٥- ٥) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٢٤. [٤]

«الإمام على صوت العدالة الإنسانية» حيث أفرد فصلاً من كتابه لبيان خصائص الإمام على عليه السلام فقال بخصوص نهج البلاغه: «أما في البلاغه، فهو فوق البلاغات، كلام ضم جميع جمالات اللغة العربية في الماضي والمستقبل، حتى قيل عنه: كلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين» (١).

٤ - «الجاحظ» الذى عاش مطلع القرن الهجرى الثالث ويعدّ من أبرز أدباء العرب ونوابغهم، حيث أورد بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام فى كتابه المعروف «البيان والتبيين» فجعل يثنى عليه. ومن ذلك قال فى المجلد الأول من كتابه المذكور حين طالعه كلمته عليه السلام: «قيمة كل امرء ما يحسنه» (٢)؛ لو لم تكن فى كل هذا الكتاب إلهذه الجملة لكفت، بل وزادت، فأفضل الحديث ما كان قليلاً ومفهوماً ظاهر جلى ويغنيك عن الكثير، وكأنّ الله كساه ثوباً من الجلال والعظمة وحجاباً من نور الحكمة بما يتناسب وطهر قائله وعلو فكره وشده تقواه.

٥ - «أمير يحيى العلوى» مؤلف كتاب «الطراز» حيث أورد فى كتابه عبارته عن الجاحظ أنّه قال: «إنّ الرجل الذى لا يجارى فى الفصاحة ولا يبارى فى البلاغه، وفى كلامه قيل دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، ولم يطرّق سمعى كلام بعد كلام الله ورسوله سوى كلمات أمير المؤمنين كرم الله وجهه من قبيل قصار كلماته «ما هلك امرء عرف قدره» و «من عرف نفسه عرف ربه» و «المرء عدو ما جهل» و «استغن عن شئت تكن نظيره واحسن إلى من شئت تكن أميره واحتج إلى من شئت تكن أسيره». وعليه فليس من العبث أن يعرب هذا الأديب الزيدى «صاحب كتاب الطراز» عن دهشته لاستناد كبار علماء المعانى والبيان بدواوين شعراء العرب وأدبائهم بغيه السبيل إلى الفصاحة والبلاغه بعد كلام الله وكلام النّبى صلى الله عليه وآله وولوا ظهورهم لكلمات الإمام على عليه السلام، بينما كانوا يعلمون أنّه يمثل قمة الفصاحة والبلاغه وفى كتاب نهج البلاغه كل ما يريدون من فنون أدبيه من قبيل الاستعاره والتمثيل والكنايه والمجاز والمعانى و. . .» (٣).

ص: ١٩

١-١) على صوت العدالة الإنسانية ١ / ٤٧.

٢-٢) نهج البلاغه، قصار الكلمات ٨١.

٣-٣) الطراز ١ / ١٦٥ - ١٦٨.

٦ - الكاتب المشهور «محمد الغزالي» الذي نقل في كتابه «نظرات في القرآن» عن اليازجي أنه أوصى ولده قائلاً: «إذا شئت أن تفوق أقرانك في العلم والأدب وصنعه الانشاء فعليك بحفظ القرآن ونهج البلاغه». (١)

٧ - المفسر المعروف «شهاب الدين الألوسي» الذي قال - حين بلغ اسم نهج البلاغه -: «إنّ انتخاب هذا الاسم لهذا الكتاب نابع من كونه يشتمل على كلام فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق المتعال، وهو كلام يقترب من الاعجاز يضم البدائع في الحقيقه والمجاز» (٢)

٨ - الاستاذ «محمد محيي الدين عبد الحميد» الذي قال في وصفه لنهج البلاغه: «كلّ هذه المزايا مجتمعه، وتلك الصفات متآزره متناصره؛ وما صاحبها من نفع إلهي وإفهام قدسي، مكنت للإمام عليّ من وجوه البيان، وملكته أعنته الكلام، وألهمته أسمى المعاني وأكرمها، وهيأت له أشرف المواقف وأعزها، فجرت على لسانه الخطب الرائعه والرسائل الجامعه والوصايا النافعه» (٣)

٩ - أحد شراح نهج البلاغه «الشيخ محمد عبده» إمام العامه والكاتب العربي المعروف، الذي قال بشأن النهج في مقدمته عليه - بعد أن اعترف بأنه تعرف مصادفه على هذا الكتاب الشريف - ويبدو أنّ هذه قضيه جديره بالتأمل -: «حين تصفحت نهج البلاغه وتأملت موضوعاته بدا لي وكأنّ هذا الكتاب عباره عن معارك عظيمه، الحكومه فيها للبلاغه والقوه للفصاحه وقد حملت من كل حذب وصوب على جنود الظنون الباطله وسلاحها الأدله القويّه والبراهين الساطعه».

١٠ - «السبط بن الجوزي» أحد أبرز الخطباء والمؤرخين والمفسرين المعروفين العامه، الذي صرّح في «تذكره الخواص» قائلاً: «وقد جمع الله له بين الحلاوه والملاحه والطلاوه والفصاحه لم يسقط منه كلمه ولا بادت له حجه، أعجز الناطقين وحاز قصب السبق في السابقين الفاظ يشرق عليها نور النبوه ويحير الافهام والألباب». (٤)

ص: ٢٠

١-١) نظرات في القرآن / ١٥٤، طبق نهج البلاغه ١ / ٩١.

٢-٢) نقلاً عن كتاب (الجريده الغيبية) عن مصادر نهج البلاغه / ١. [١]

٣-٣) مصادر نهج البلاغه ١/٩٦.

٤-٤) تذكره الخواص، الباب السادس / ١٢٨. [٢]

١١ و ١٢ - ونختتم هذا الفصل بقولين لأديب مسيحي معروف وهو الكاتب والمفكر العربي المشهور «ميخائيل نعيمة» الذي قال: لو كان علي مقتصراً على الإسلام لم يتعرض شخص مسيحي (يشير إلى الكاتب والمفكر المسيحي اللبناني جورج جرداق صاحب كتاب الإمام على صوت العدالة الإنسانية) لسيرته وحياته ويتابع الأحداث التي واجهته فيترنم بشجاعته التي أصابته بالدهشه والذهول؛ ولم تقتصر شجاعه الإمام وبسالته على ميدان الحرب، فقد كان رائداً في البلاغه وسحر البيان والاخلاق الفاضله وعلو الهمة وعمق الإيمان ونصره المظلومين واتباع الحق وبسط العدل. ثم قال في موضع آخر بأن ما قاله وفعله هذا النابغه ما لم تره عين وتسمعه أذن، وأنه لأعظم من أن يسع المؤرخ بيانه بقلمه ولسانه. وأخيراً فقد قال فيه ابن أبي الحديد: وأما الشجاعه فانه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهوره يضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة؛ وهو الشجاع الذي مافز قط، ولا ارتاع من كتيبه، ولا بارز أحداً إلّا قتله، ولا ضرب ضربه قط فاحتاجت الاولي إلى ثانيه، وأما السخاء والجود ففيه يضرب المثل فيهما، فكان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده، وقال الشعبي: كان أسخى الناس؛ كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال (لا) لسائل قط. وأما الحلم والصفح: فكان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسيء؛ وقد ظهر صحه ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم - وكان أعدى الناس له وأشدّهم بغضا - فصفح عنه، وأمّا الفصاحه فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء، ومنه تعلم الناس الخطابه والكتابه، ولما قال محفن بن أبي محفن لمعاويه: جئتك من عند أعيان الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيان الناس! فوالله ما سن الفصاحه لقريش غيره.

اشاره

من المميزات التي يتصف بها نهج البلاغه التي تلفت انتباه القارئ إذا ما أقبل عليه إنَّما تكمن في شموليته وتنوع مضامينه الرصينه، بحيث «تجعله يصدق أنَّ هذه الأقوال المتقنه الدقيقه التي تعالج أمور شتى تصل إلى حدِّ التضارب إنَّما تصدر من عين واحده، ومن المسلم به أنَّ هذا الأمر لا يصدر إلَّا من أمير المؤمنين على عليه السلام الذي أودع قلباً حافظاً وروحاً ساميه تفيض علوماً ومعارفاً إلهيه حقه وأسراً جمه لا يسعها سوى ذلك القلب. ويسرنا هنا أن نستشهد بالأقوال التي ساقها كبار العلماء والمفكرين بهذا الخصوص.»

١ - ونستهل ذلك بما أروده العالم المعروف «محمد عبده» إمام العامه، فقد رسم صورته رائعه عن حاله وهو يطالع لأول مره نهج البلاغه وما اشتمل عليه من خطب ورسائل وكلمات قصار عجزت العقول أن تجود بمثله فصاحه وصياغه وبلاغه، فقال: «وكان لطيف الحس، نقى الجوهر، وضاء النفس؛ سليم الذوق، مستقيم الرأي، حسن الطريقه سريع البديهه، حاضر الخاطر؛ حوَّلاً قلباً؛ عارفاً بمهّمات الأمور إصداراً وإيراداً.»

٣ - نقل «الشيخ البهائي» في «كشكوله» عن كتاب «الجواهر» ان «أبو عبيده» قال: قال على عليه السلام تسع جمل عجزت بلغاء العرب عن الإتيان بواحد منها؛ ثلاث في المناجاة، وثلاث في العلوم، وثلاث في الادب. (١) ثم خاض في شرح هذه العبارات التي وردت ضمن كلماته في نهج البلاغه وسائر أحاديثه.

٤ - الدكتور «زكى مبارك» الذي صرّح في كتابه «عبقريه الشريف الرضى» قائلاً: «أعتقد أنَّ دراسه نهج البلاغه تمنح الإنسان المروءه والشهامه وسمو الروح، ولا عجب فهو ينبع من نفس عظيمه واجهت الوقائع والحوادث بشجاعه الأسود» (٢).

ص: ٢٣

١- ١) كشكول الشيخ البهائي ٣ / ٣٩٧.

٢- ٢) عبقرية الشريف الرضى ١ / ٣٩٦.

فالكلام هنا لا يتناول سعه المعلومات وكسب المعارف والعلوم، بل قصره على استشعار الهمه والمروءه وسمو النفس فى ظل التمعن بالنهج.

٥ - «ابن أبى الحديد» هو الآخر أعطى الكلام حقه فقال: ولم تحصل العدالة الكامله لأحد من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إله هذا الرجل، ومن أنصف علم صحه ذلك، فان شجاعته وجوده وعفته وقناعته وزهده يضرب بها الأمثال. وأمّا الحكمه والبحث فى الأمور الإلهيه، فلم يكن من فن أحد من العرب، وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمه ينفر دون به، وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام ولهذا تجد المباحث الدقيقه فى العدل والتوحيد مبثوثه عنه فى فرش كلامه وخطبه، ولا تجد فى كلام أحد من الصحابه والتابعين كلمه واحده من ذلك. (١)

٦ - أورد «المرحوم السيد الرضى» بعض العبارات المقتضيه العميقه المعنى فى كتابه الشريف بشأن مضامين نهج البلاغه، وهى جديره بالتأمل والاهتمام، من ذلك ما ذكره ذيل الخطبه «٢١» حيث قال:

«إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً». أمّا الخطبه «٢١» فهى:

«فإنّ الغايه أمامكم وإنّ وراءكم الساعه تحدوكم، تخففوا تلحقوا فأنما ينتظر بأولكم آخركم». كما أورد مثل هذا المعنى ذيل الحكمه «٨١» من كلماته القصار فقال: «وهى الكلمه التى لا تصاب لها قيمه ولا توزن بها حكمه، ولا تقرن إليها كلمه».

٧ - ونطلق الحديث هنا للكاتب المصرى المعروف «عباس محمود العقاد» الذى يعدّ من كبار الأدباء المعاصرين لنرى مدى اعجاب به بنهج البلاغه، فقد أورد بعض العبارات الجزيله فى مواضع من كتاب «عبقريه الإمام على عليه السلام» التى تبين عمق معرفته بشخصيه الإمام ومدى تأثيره بكلماته، فقد قال: «إن نهج البلاغه عين متدققه بآيات التوحيد والحكمه الإلهيه التى توسع معارف الباحثين فى العقائد والتوحيد والمعارف الإلهيه» (٢).

ص: ٢٤

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١٤٦/١٦. [١]

٢- ٢) العبقريات ٢/١٣٨ (طبعه دارالكتاب اللبنانى).

وقال فى موضع آخر: «إن كل نموذج من كلماته شهاده؟»

على قدرته الإلهيه بيان الحقائق، أنه لا شك من أبناء آدم الذى علم الأسماء، فهو

مصداق لقوله تعالى: «اتوا الكتاب» «فصل الخطاب» .

(١)

وقال أيضاً: «إن كلماته عليه السلام تمثل قمه الحكمة والفصاحة والبلاغه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «علماء أمتى كأنبيا بني اسرائيل». فهذا الحديث يصدق على على عليه السلام قبل غيره، فكلماته الحكيمه فى مصاف كلمات الأنبياء عليهم السلام (٢).

٨ - وقال الكاتب والأديب المعاصر «محمد أمين النوى» يصف نهج البلاغه: «إنه الكتاب الذى جعله الله حجه واضحه وقد ضمنه على عليه السلام الأمثال القرآنيه والحكم الربانيه بفصاحه وبلاغه قل نظيرها». (٣)

٩ - وهذا الأديب المصرى المعروف «طه حسين» الذى يعتبر عميد الأدب العربى، فقد قال بعد أن تعرض لردّ على عليه السلام على السائل الذى كان شاكاً فى حرب الجمل: «إنى لم أر ولم أعرف جواباً بعد الوحي وكلام الله أعظم وأروع من هذا الجواب» (٤).

١٠ - المرحوم «ثقه الإسلام الكلىنى» الذى نقل فى الجلد الأول من كتابه الكافى إحدى خطبه عليه السلام فى التوحيد، فقال: «هذه من خطبه المعروفه ولو اجتمعت الانس والجن لبيان حقائق التوحيد لعجزت عمياً بينه على عليه السلام ولولاه لما عرف الناس سبيل الوحدانيه». (٥)

١١ - ونختتم البحث بما أورده العلامه الفقيه آيه الله الخوئى، إذ قال: «حين يرد الإمام عليه السلام بحثاً فى خطبه من نهج البلاغه فانه لا يترك مجالاً بعده للحديث حتى يخيل لأولئك الذين لا علم لهم بسيره أمير المؤمنين عليه السلام أنه قضى عمره فى ذلك الموضوع» (٦).

ص: ٢٥

١-١) العبقريات ٢ / ١٤٤.

٢-٢) العبقريات ٢ / ١٤٥.

٣-٣) مصادر نهج البلاغه ١ / ٩٠.

٤-٤) جوله فى نهج البلاغه / ١٨ و ١٩.

٥-٥) أصول الكافى ١/١٣٦.

٦-٦) البيان / ٩٠. [١]

لقد شعر جميع من تعامل مع نهج البلاغه - من قبل أشياع على عليه السلام أو سائر العلماء والأدباء المسلمين ومن سائر الأديان - دون استثناء بوجود قوه كامنه تشدهم إليه وتجعلهم يتأثرون به ويتكهربون بأجوائه.

والحق إن مثل هذه الجاذبه التي اتسمت بها كافة خطبه ورسائله وكلماته هي التي دفعت بفريق من العلماء لتناول هذا الكتاب النفيس بالشرح والتفسير وتدوين المقالات والأبحاث والاستغراق في مختلف جوانب شخصيه الإمام على عليه السلام. بدورنا نرى أن هذه الجاذبه تختزن عدّه دوافع، يمكن إيجاز أهمها في ما يلي:

١ - لقد شحن نهج البلاغه بالأقوال التي تصرح بمواساه الطبقات المحرومه والمستضعفه، إلى جانب الحديث عن مجابهه الظلم والطغيان ومقارعه حكام الجور والطواغيت. فقد تعرض في عهده الذي عهده إلى مالك الأشر حين ولاه مصر إلى الخطط والبرامج التي ينبغي اعتمادها في كيفية إداره شؤون البلاد. يتحدث عليه السلام في هذا العهد عن حقوق ووظائف الطبقات الاجتماعيه السبع، حتى إذا بلغ الطبقة المحرومه من الناس أفصح عن مكروبات نفسه وسيرته في التعامل معها فيوصي عامله قائلاً له: «اللّٰه اللّٰه في الطبقة السفلى من الذين لا حيله لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى...»، ثم يؤكد عليه: «فلا يشغلنك عنهم بطر فأنك لا- تعذر بتضييعك التافه لاحكامه الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا تصغر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال» ولم تقتصر وصاياها عليه السلام بهذا المجال في هذا العهد فحسب، بل لم ينفك يؤكد ذلك في كل خطبه وموعظه من مواعظه لعماله وولاته.

٢ - لقد سلك نهج البلاغه سبيل تحرير الإنسان من أسر الهوى والشهوات التي تؤدي به

إلى البؤس والشقاء، وكذلك تحريره من قيود الطواغيت والظلمه، فهو يستفيد من كل فرصه لتحقيق هذا الهدف المقدس، إلى جانب تأكيده على أنه ما جاع فقير إلأبما متع به غنى، وأن تراكم الثروه يفيد تضييع الحقوق وعدم العمل بالأحكام الشرعيه. (١)

ويصرح الإمام عليه السلام: «أما والذي فلق الحبه، وبرأ النسمه، لولا حضور الحاضر وقيام الحججه بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظه ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألقيتم دنياكم هذه أزهده عندى من عفته عنز!» فهو يؤكد على شده تنمره فى إعاده روح الحريه والعداله والمساواه التى لا يعرف المهادهنه فيها، بل أبعد من ذلك فى أنه لا يرى الامر والحكومه سوى وسيله ووظيفه لتحقيق هذه الاهداف (٢). ويخطىء كل من يظن أنّ علياً عليه السلام يمكنه أن يتهاون فى هذا الأمر، ولم يعرف عمق شخصيه على؛ الأمر الذى أكده فى رسالته إلى عثمان بن حنيف (٣).

٣ - النفحات العرفانيه التى ينبض بها نهج البلاغه إنّما تناغم الأرواح المتعطشه للحكمه فتسقيها الشراب الطهور الذى يسكرها بالعلم والمعرفه!

فلا يرى القارئ لخطبه فى الله وصفاته الجماليه والجلاليه سوى أنه يحلق مع الملائكه ليخترق حجب المعرفه والكمال (٤)أما إذا تحدث عن أهوال القيامة وسكرات الموت والعاقبه التى تنتظر الإنسان فلا تراه إلأو كأنه أمسك بقبضه الغافلين وأخذ يسوقهم نحو المصير الذى منه يهربون والعاقبه التى عنها لاهون. (٥)

٤ - قوه الجاذبيه الأخرى التى يختزنها نهج البلاغه والتى أشرنا إليها سابقاً أنه عليه السلام أمير الكلام فى كل موضوع يطرقه بما يجعلك تتصور أنه بارع فى هذا الموضوع وقد أفنى عمره فى بيان عناصره ومقوماته وسائر جوانبه، ولا يحسن شيئاً آخر سواه وسرعان ما يتبدد هذا التصور حين تطالعه وقد تحدث فى موضوع آخر - فاذا تناول - على سبيل المثال - قضيه

ص: ٢٨

-
- ١-١) الإمام على صوت العداله الإنسانيه ٣/١٧٧.
 - ٢-٢) الخطبه الشقشقيه (الخطبه ٣) .
 - ٣-٣) الرساله رقم ٤٥.
 - ٤-٤) الخطبه الاولى وخطبه الأشباح / ٩١ وسائر الخطب بهذا الشأن.
 - ٥-٥) الخطب ١٠٩ - ١١١ - ١١٣ وما شابهها.

التوحيد وشرح أسماء الله وصفات الجلال، خيل إليك أنه فيلسوف رباني سبر أغوار التوحيد وانهمك فيه لسنوات متماديه وليس له مثل هذا العمق فيما سواه؛ فليس للتجسم من سبيل إلى حديثه، ولا من سبيل إلى سلبه الصفات، بل يقدم صورته عن التوحيد تجعل الإنسان يرى ربه ببصيرته في كافة السموات والأرضين حاضر فيها وفي نفسه فيمتلئ قلبه حباً لله ومعرفته به. بينما لا تكاد العين تقع على خطبته في الجهاد، حتى لا- تغيب عنها صورته كآمر شجاع ومقاتل باسل مغوار قد ارتدى بزته العسكريه وأخذ يستعرض أساليب الحرب وفنون القتال وستراتيجه الدفاع والهجوم، وكأنه أفنى عمره في ميادين الوغى وساحات القتال ولم تدعه يفكر في ما سواها.

فاذا تصفحنا نهج البلاغه وطالعتنا خطبه ووصاياہ لعماله وولاته حين أخذ بزمام الأمور وتزعم قياده الأمة، رأيناہ يكشف النقاب عن عناصر تألق الحضارات وازدهارها وأسباب سقوطها وانهارها، إلى جانب استعراض مصير الأتوام الظالمه والأمم المستبده بالاضافه إلى الاسس والمبادئ التي من شأنها ضمان سلامه الأنظمه الاجتماعيه والسياسيه الحاكمه، بما يجعلك تظن بأنه عكف عمراً على هذه الأمور ويختص بها دون الاهتمام بسائر ميادين الحياه ونواحيها. ثم نقلب صفحات النهج لنراه زعيماً أخلاقياً هادياً البشريه نحو تهذيب النفس ومكارم الأخلاق. يلتقيه أحد الأصفياء من أصحابه ويدعى «همام» الذي يسأله أن يصف له المتقين. فيعدد له عليه السلام ما يقارب المئه من صفاتهم بعبارات أحكم صياغتها وبلاغتها كأنه جلس عمراً لدروس الأخلاق والتهذيب وتربيہ النفوس حتى يصعق همام صعقه كانت نفسه فيها. حقاً إن هذه الأبحاث العميقه الفريده المتنوعه التي شحنت بها نهج البلاغه تعدّ من الخصائص والمميزات التي اتصف بها هذا الكتاب العجيب.

أقوال العظماء بشأن جاذبيہ نهج البلاغه

الأقوال التي ساقها كبار جهابذه العلماء بخصوص الجاذبيہ الكامنه في نهج البلاغه تعتبر من الشواهد التي تعزز ما أوردناه سابقاً بهذا الشأن:

فالسيد الرضى جامع نهج البلاغه الرائد الذي يعدّ من مشاهير الأدباء العرب يصرح

أحياناً حين نقله لبعض الخطب ببعض العبارات التي تكشف عن عمق افتتانه بما يورد وعدم تمالكه لنفسه تجاه قوه سبك عبارات صاحب النهج. ومن ذلك أنه قال إثر نقله للخطبه رقم «٨٣» من نهج البلاغه «وفى الخبر أنه لما خطب بهذه الخطبه اقشعرت له الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب» ونقرأ فى خطبه المتقين - حين سأله ذلك العارف «همام» عن صفات المتقين - أنه حين بلغ ذلك الموضوع من الخطبه، صعق همام صعقه كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أما والله لقد خفتها عليه، هكذا تفعل المواعظ البالغه فى أهلها» .

كما علق السيد الرضى على الخطبه رقم «٢٨» ليعرب عن عمق أثرها فى روحه وعقله فقال: «إنه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلى الزهد فى الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخره لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار. . .» وأضاف: «ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا إن اليوم المضمار وغدا السباق، والسبقه الجنّه والغايه النار» فان فيه مع فخامه اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل وواقع التشبيه سراً عجبياً ومعنى لطيفاً. . . فتأمل ذلك فان باطن كلامه عجيب، وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه عليه السلام» .

وقال ذيل الخطبه «١٦»: «إنّ فى هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان مالا تبلغه مواقع الاستحسان، وان حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به» . وفيه - مع الحال التى وصفنا - زوائد من الفصاحه لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّا من ضرب فى هذه الصناعه بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلّا العالمون» .

وهكذا نقل ما أورده المفسر والمحدث المعروف «ابن عباس» حين ألقى الإمام خطبته الشقشقيه حين قام إليه رجل من أهل السواد فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت. فقال: «هيها يابن عباس! تلك شقشقه هدرت ثم قرت» . قال ابن عباس: «فو الله ما أسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد» .

فقد قال ابن أبى الحديد: «هو سيد المجاهدين وأبلغ الواعظين ورئيس الفقهاء والمفسرين وإمام أهل العدل والموحدين» . (١)

ص: ٣٠

مامن شك فى أنّ خطب ورسائل نهج البلاغه وكلماته القصار وردت (على ضوء جمعها من قبل المرحوم السيد الرضى) على نحو الروايات المرسله؛ أى لم تذكر أسانيدھا بما يجعلھا متصله بالمعصومين، وقد أدى هذه بدوره إلى تشكيك البعض أحياناً، ولا سيما بالنسبه لأولئك الذين ظنوا بأن نهج البلاغه وبفضل مضامينه العظيمه قد يكون سنداً لا يثبت حقانيه مذهب الشيعه وأفضليه على عليه السلام على جميع الصحابه؛ فاتخذوا ذلك ذريعه لفرض طوق من العزله على هذا الكتاب فى أوساط الرأى العام الإسلامى. وإن كانت هذه الزوبعه - ولحسن الحظ - لم يكن لها أدنى تأثير فى أفكار علماء وأدباء الفريقين الذين كسروا حاجز الصمت وكالوا له المديح والثناء وخاضوا فى شرحه وتفسيره، وقد مرت علينا نماذج من ذلك، مع ذلك نرى من الضرورى الخوض فى قضيه أسناد النهج بغيه إزاله الشك وإماطه اللثام عن حقيقه هذا الكتاب وهنا لا بدّ من الالتفات إلى أمرين:

١ - أنّ أغلب خطب نهج البلاغه ورسائله وكلماته القصار - إذا لم نقل جميعها سوى معشاره - إنّما هى من قبيل المطالب المستدله المبرهنه أو ذات الاستدلال المنطقى، بعبارة أخرى من قبيل «القضايا التى قياساتها معها». وعليه فهى ليست بحاجة إلى سلسله السند بصفتها مباحث تعبيديه، فالأعم الأغلب من المضامين وردت بشأن المعارف العقائديه من قبيل: المبدأ والمعاد والصفات وأدله عظمه القرآن ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وما شاكل ذلك. كما وردت بعض المضامين كمواظب ونصائح ودروس وعبر بشأن حياه الأمم السابقيه ونظم إداره شؤون البلاد والحياه الاجتماعيه والآداب ومسائل الجهاد وما إلى ذلك من المباحث المنطقيه الاستدلاليه الخاضعه للدليل والبرهان.

ولما كانت نتاجات كبار الفلاسفه وعلماء العلوم المختلفه وحتى النتاجات الأدبيه الشعريه

لفطاحل الشعراء تؤخذ دون الحاجة إلى سلسلة الأسانيد، فإن هذا الأمر يجرى على مضامين نهج البلاغه بما يجعله غنياً عن تلك السلسلة، وحقيقه الأمر أنها تحمل أدلتها معها «قضايا قياساتها معها». نعم هناك محور صغير في النهج قد عنى ببعض الأحكام الفرعية التعديديه، فإن كان من حديث عن السند، أمكن إقتصاره على هذا المحور والذي لا يشكل قطعاً عشر كتاب نهج البلاغه. ونخلص من هذا إلى عدم جدوى هذه الضجه المفتعله بشأن أسانيد النهج، وهى زوبعه جوفاء عديمه الأثر.

٢ - بغض النظر عمّا سبق، فإننا لا نرى من عقبه فى هذا الأمر حتى وإن اعتمدنا المعايير المتعارفه لحجيه السند بالنسبه لنهج البلاغه؛ وذلك لأنّ المعيار الأصلي لقبول الحديث والروايه - على ضوء ما فرغ منه فى علم الأصول وبرهن فى محله - إنّما يتأتى الوثوق بها من طرق مختلفه؛ فأحياناً يحصل الوثوق بالروايه من خلال سلسله السند وثقه الرواه، كما يحصل أحياناً أخرى مثل هذا الوثوق بواسطه كثره الرواه - وفى الكتب المشهوره والمعتبره -، وأخيراً قد يكون مضمون الروايه على درجه من العمق والرصانه على أنّه إنّما صدر من النبى صلى الله عليه و آله أو الإمام المعصوم؛ الأمر الذى يجعلنا نثق بهذه الروايه وهذا ما ذكروه بالنسبه لزبور آل محمد صلى الله عليه و آله الصحيفه السجاديه (إلى جانب الاسناد المعتبره التى أوردتها بهذا الشأن)، بفضلها ضمت أذعيه رفيعه ساميه ذات مضامين عميقه صدرت عن الإمام السجاد على بن الحسين زين العابدين عليه السلام. ولا شبهه ولا ريب أن من يتمعن فى خطب نهج البلاغه ويتدبر مضامينها ويتأمل أسرارها، فأنّه لا يملك سوى الاذعان بأنّ مثل هذه الكلمات محاله الصدور عن الإنسان العادى وأنّها لم تصدر سوى عن النبى صلى الله عليه و آله أو امتداده الإمام المعصوم عليه السلام.

وعلى حد تعبير كبار علماء الفريقين: «إنّ كلامه فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق».

وبناءً على هذا وعلى ضوء بزوغ الشمس دليل على وجودها، فإن مضمون نهج البلاغه دليل على اعتبار سنده وصدوره عن المعصوم عليه السلام، واننا لنوقن بذلك على أنّه لم ينسب لمعصوم سوى لعلى عليه السلام. فمن ذا الذى يحتمل أنّه صدر من فرد عادى ثم نسبه لعلى عليه السلام؟! إذا كان مثل هذا الابداع أو حتى عشر من أعشاره فلم لا ينسبه لنفسه ويفوز بهذا الشرف؟ وناهيك عمّا تقدم وعلى ضوء ما نعرفه عن شخصيه «السيد الرضى» ووثاقته وعلو مقامه، فإننا نقطع بأنّه لم

ينسبه إلى على عليه السلام مالم يكن قد رأى مصادره المعبره، فهو لا يقول روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال كذا، بل اعتاد القول «ومن خطبه عليه السلام ومن رسائله ومن كلماته القصار». فكيف وأنى لهذا العملاق أن يتحدث بهذه الثقة والقطع وينسب الكلمات لإمامه المعصوم دون أن يستند إلى أسناد معتبره وردت بهذا الشأن؟! أضف إلى ذلك فقد دونت عدّه مصنفات قبل «السيد الرضى» ضمت أغلب خطب ورسائل نهج البلاغه والكلمات القصار؛ الأمر الذى يثبت أنّ هذه الكلمات كانت متداوله أيضاً - قبل السيد الرضى - ومعروفه بين العلماء والمحدثين والرواه وأحياناً بين عوام الناس.

ومن شأن هذه الشهره أن تغنينا عن الاسناد. بل ذهب بعض كبار المؤرخين أنّ الخطب التى اشتهرت بين الناس كانت أكثر بكثير من هذا المقدار الذى جمعه «السيد الرضى» فى نهج البلاغه، والواقع هو أنّ النهج عبقات من تلك الخطب. ومنهم المؤرخ المعروف «المسعودى» الذى عاش لقرن قبل «السيد الرضى»، الذى صرّح فى كتابه «مروج الذهب» بشأن خطب الإمام على عليه السلام قائلاً: «والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربع مائه ونيف وثمانون خطبه» (١)، والحال لا يضم النهج أكثر من مئتين وأربعين خطبه. ونقل العالم المعروف «السبط بن الجوزى» فى كتابه «تذكرة الخواص» عن «السيد المرتضى» أنه قال: «بلغتني أربعم خطبه من خطب الإمام على» (٢). وقال صاحب «البيان والتبيين» العالم المعروف: «كانت خطب الإمام على عليه السلام مدونه ومحفوظه ومشهوره» (٣). وقال «ابن واضح» فى كتابه «مشاكله الناس لزمانهم»: «لقد حفظ الناس الكثير من خطب الإمام على عليه السلام، فقد ألقى أربعمته خطبه حفظها الناس، وهى هذه الخطب المتداوله بيننا» (٤).

وهنا لابدّ من القول بأن جمعاً من العلماء المعاصرين والفضلاء ألقوا كتباً كمصادر وأسناد لنهج البلاغه، حيث استخرجوا أسانيد الخطب من الكتب التى صنفت قبل «السيد الرضى» وصرحوا بها فى كتبهم، من قبيل كتاب «مصادر نهج البلاغه وأسانيده» تأليف العالم المحقق

ص: ٣٣

١-١) مروج الذهب ٢ / ٤١٩، طبعه دار [١] الهجره قم.

٢-٢) تذكرة الخواص / ١٢٨. [٢]

٣-٣) البيان والتبيين ١ / ٨٣.

٤-٤) مشاكله الناس لزمانهم / ١٥. [٣]

«السيد عبد الزهراء الحسينى الخطيب» الذى يجعل الباحث يقف على هذه الحقيقه، وهى أنّ السيد الرضى لم ينفرد قط بنقله لهذه الخطب.

يذكر أنّ هذا الكتاب يفيد بأنّ نهج البلاغه قد جمع من مئه وأربعه عشر كتاباً، وأنّ أكثر من عشرين منها قد دونت من قبل علماء كانوا يعيشون قبل السيد الرضى. ومن أراد المزيد فليراجع الكتاب المذكور حيث لا نرى المقام يسع للاستغراق أكثر من هذه العجالة. والذى تجدر الإشارة إليه هنا أنّ السيد الرضى قد استفاد من خمس عشر كتاباً - ذكرها خلال بعض تعليقاته على كلمات نهج البلاغه - فى جمعه لنهج البلاغه. (1)

ونستنتج ممّا مرّ معنا خواء الشكوك التى نشأت من عدم وجود الأسانيد.

شرح نهج البلاغه

حديثنا الأخير فى هذه المقدمه، كلام مختصر بشأن الشروح والتراجم التى أوردها علماء المسلمين بخصوص هذا الكتاب منذ عصر السيد الرضى حتى عصرنا الحاضر، ويبدو أن هذه الشروح إنّما تتضاعف وتزداد كلما ابتعدنا أكثر عن عصر السيد الرضى، والسبب فى ذلك يعود إلى تنامي المعرفه بهذا الكنز النفيس كل يوم، وما هذه المؤتمرات والندوات التى أقيمت وما

ص: ٣٤

١ - ١) - البيان والتبيين للجاحظ. ٢ - تاريخ الطبرى. ٣ - الجمل للواقدي. ٤ - المغازى لسعيد بن يحيى الاموى. ٥ - المقامات لأبى جعفر الاسكافى. ٦ - المقتضب للمبرد. ٧ - حكايه أبى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام. ٨ - حكايه ثعلب عن ابن الاعرابى. ٩ - خبر ضرار الضبابى. ١٠ - روايه أبى جحيفه. ١١ - روايه كميل بن زياد النخعى. ١٢ - روايه مسعده بن صدقه لخطبه الاشباح عن الصادق جعفر بن محمد. ١٣ - روايه نوف البكالى. ١٤ - ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام من غريب الحديث. ١٥ - ما وجد بخط هشام بن الكلبي.

زالت تقام بخصوص نهج البلاغه إالشهادة حيه أخرى على صحه ما أوردناه. فقد أشار المرحوم العلامة الأمينى فى المجلد الرابع من كتابه الغدير فى ترجمته لحياء المرحوم السيد الرضى إلى هذه المسأله وقال: «لقد كتب أكثر من خمسين شرحاً على نهج البلاغه منذ عصر المرحوم السيد الرضى لحد الآن. . .» ثم خاض فى ذكر هذه الشروح، إلى جانب ذكر مؤلفيها وتاريخ وفاتهم، وبإضافه التراجم التى ظهرت فى هذه الأواخر، فقد أحصى ما يقارب الحادى والثمانين ترجمه وشرحاً (1) وبالطبع فان كل شرح من هذه الشروح (كتفاسير القرآن) قد سلط الضوء على جانب من جوانب نهج البلاغه، فقد خاض البعض فى جانبه الأدبى بينما تناول البعض الآخر أبعاده التاريخيه أو الفلسفيه أو القضايا التربويه والاجتماعيه وما إلى ذلك.

هذا وقد ذكر مؤلف كتاب «مصادر نهج البلاغه» أكثر من مئه وعشره شروح وتفسير لنهج البلاغه، بينما ذكر بعض الفضلاء فى كتبهم أسماء ثلاثمائه وسبعين كتاباً ألفت فى شرح نهج البلاغه وترجمته وتفسيره (2). وبالرغم من ذلك لابد من الاعتراف بأن هذا الكتاب ما زال لم يظفر ببغيته من سبر أغواره والغوص فى أعماقه من أجل استخراج كنهه معانيه لتعالج متطلبات العصر والزمان وأنين البشرى، كيف لا وأبعاده كأبعاد شخصيه على عليه السلام التى لا يحيطها الكلام ولا يلم بتفاصيلها القلم والبيان. وهنا لابد من القول بأن الشروح والتراجم المذكوره ليست واسعه كامله، وأن بعضها قد اكتفى بمحور من محاور نهج البلاغه، ولم يشذ منها سوى النزر القليل من الشروح التى تعاملت بشموليه مع النهج ومنها:

١ - «أعلام نهج البلاغه» والذى اعتبره العلامة الامينى من أقدم شروح نهج البلاغه، ومؤلفه «على بن الناصر» من معاصرى المرحوم السيد الرضى.

٢ - «منهاج البراعه» لمؤلفه سعيد الدين هبه الله القطب الراوندى، وهو من أعلام القرن الهجرى السادس.

٣ - شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد المعتزلى - من أعلام القرن السابع الهجرى - وهو

ص: ٣٥

١-١) الغدير ٤ / ١٨٦ - ١٩٣.

٢-٢) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغه / ١٠ (جدير ذكره أن عدد الشروح التى وردت فى مصادر نهج البلاغه منه وواحد لا مئه وعشره).

من الشروح المشهوره ويقع فى عشرين مجلداً.

٤ - شرح ابن ميثم البحرانى - من علماء القرن السابع - وهو من الشروح الواسعه الرائعه.

٥ - منهاج البراعه للمرحوم الحاج الميرزا حبيب الله الموسوى الخوئى، والمعروف بشرح الخوئى، وهو من علماء القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجرى.

٦ - شرح «الشيخ محمد عبده» من مشاهير علماء العامه الذى عاش فى القرن الثالث عشر الهجرى.

وأخيراً لا يسعنا المقال لأن نذكر أسماء طائفه من الفضلاء المعاصرين الذين صنفوا شروحاً عظيمه لهذا الكتاب النفيس. وما يجدر ذكره هو أنّ صاحب كتاب «الذريعه» الفاضل المرحوم المحدث الطهرانى قد ذكر مئه وأربعين شرحاً للنهج أوردها علماء الشيعة، بينما أحصى ستة عشر شرحاً لعلماء العامه، يعدّ أقدمها شرح الفخر الرازى المتوفى عام ٦٠٦هـ . (١)

ص: ٣٦

أما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمناً لنعمائه، ومعاداً من بلائه، وسبيلاً إلى جنانه، وسبباً لزياده إحسانه، والصلاه على رسوله نبي الرحمة، وإمام الأئمة، وسراج الأئمة، المنتخب من طينه الكرم، وسلاله المجد الأقدم، ومغرس الفخار المعرق، وفرع العلاء المثمر المورق. وعلى أهل بيته مصايح الظلم، وعصم الامم، ومنار الدين الواضح، ومثاقيل الفضل الراجحه صلى الله عليهم أجمعين، صلاه تكون إزاء لفضلهم، ومكافأه لعملهم، وكفاء لطيب قرعهم وأصلهم، ما أنار فجر ساطع، وخوى نجم طالع، فانى كنت فى عنفوان السن، وغضاضه الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب فى خصائص الأئمة عليهم السلام: يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم، حدانى عليه غرض ذكرته فى صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغت من الخصائص التى تخص أمير المؤمنين علياً عليه السلام، وعاقبت عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الأيام، ومماطلات الزمان. وكنت قد بويت ما خرج من ذلك أبوباً، وفصّيته فصولاً، فجاء فى آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير فى المواعظ والحكم والأمثال والآداب؛ دون الخطب الطويله، والكتب المبسوطه. فاستحسن جماعه من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره معجبين ببدائعه، ومتعجبين من نواصحه، وسألونى عند ذلك أن أبتدىء بتأليف كتاب يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنونه، ومتشعبات غصونه: من خطب، وكتب، ومواعظ، وأدب. علماً أنّ ذلك يتضمن من عجائب البلاغه، وغرائب الفصاحه، وجواهر العريه، وثواقب الكلم الدينيه والدنيويه، ما لا يوجد مجتمعاً فى كلام، ولا مجموع الأطراف فى كتاب؛ إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحه

وموردها، ومنشأ البلاغ ومولدها؛ ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها؛ وعلى أمثله هذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذى عليه مسحه من العلم الإلهى وفيه عبقة من الكلام النبوى، فأجبتهم إلى الابتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر، ومذخور الأجر. اعتمدت به أن أبين عن عظيم قدر أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الفضيله، مضافه إلى المحاسن الدرته، والفضائل الجمه. وأنه عليه السلام انفراد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنما يؤثر عنهم منها القليل النادر، والشاذ الشارد فأما كلامه فهو البحر الذى لا يساجل والجم الذى لا يحافل وأردت أن يسوغ لى التمثل فى الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق: أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعنا يا جرير المجامع

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أولها: الخطب والأوامر، وثانيها: الكتب والرسائل، وثالثها: الحكم والمواعظ؛ فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختبار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب. مفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفصلاً فيه أوراقاً، لتكون مقدمه لاستدراك ما عساه يشذ عنى عاجلاً، ويقع إلى آجلاً. وإذا جاء شىء من كلامه عليه السلام الخارج فى أثناء حوار، أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض به، وأشدها ملامحه لغرضه. وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقه، ومحاسن كلم غير منتظمه؛ لأننى أورد النكت واللمع، ولا أقصد التتالى والنسق.

ومن عجائبه، عليه السلام، التى انفراد بها، وأمن المشاركه فيها، أن كلامه الوارد فى الزهد والمواعظ، والتذكير والزواجر، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك فى أنه كلام من لاحظ له فى غير الزهاده، ولا شغل له بغير العباده، قد قبع فى كسر بيت. أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلأحسه، ولا يرى إلأنفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس فى الحرب مصلاً سيفه، فيقط الرقاب، ويجدل الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال وهذه من فضائله العجيبه، وخصائصه اللطيفه، التى جمع بها

بين الأضداد، وألف بين الأشتات، وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهى موضع للعبه بها، والفكره بها.

وربما جاء فى أثناء هذا الاختيار اللفظ المردد، والمعنى المكرر؛ والعذر فى ذلك أنّ روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً: فربما اتفق الكلام المختار فى روايه فنقل على وجهه، ثم وجد بعد ذلك فى روايه أخرى موضوعاً غير موضعه الأول: إمّا بزياده مختاره، أو لفظ أحسن عبارته فتقضى الحال أن يعاد، استظهاراً للاختيار، وغيره على عقائل الكلام. وربما بعد العهد أيضاً بما اختير أولاً فأعيد بعضه سهواً أو نسياناً، لا قصداً واعتماداً. ورأيت من بعد تسميه هذا الكتاب ب «نهج البلاغه» إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليه طلابها، فيه حاجه العالم والمتعلم، وبغيه البليغ والزاهد، ويمضى فى أثنائه من عجب الكلام فى التوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق، ما هو بلال كل غلّه، وشفاء كل عله، وجلاء كل شبهه.

ومن الله سبحانه أستمد التوفيق والعصمه، وأتنجّز التسديد والمعونه، وأستعيذه من خطأ الجنان، قبل خطأ اللسان، ومن زله الكلم، قبل زله القدم؛ وهو حسى ونعم الوكيل.

(١) ومن خطبه له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغه، وما تصدرها النهج إلدلاله واضحه على براعه السيد الرضى فى الاختيار. فالخطبه تتضمن الرؤيه الإسلاميه للصفات الكماليه والجماليه، ثم تشير إلى قضيه خلق العالم بصوره عامه ومن ثم خلق السموات والأرض والملائكه، كما تخوض فى خلق آدم عليه السلام وتعرض لقصه سجود الملائكه وإعتراض إبليس وهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض. ثم يتطرق عليه السلام إلى فلسفه بعثه الأنبياء ولا سيما خاتمهم نبي الإسلام صلى الله عليه وآله إلى جانب التحدث عن عظمه القرآن الكريم وأهميه سنّه النبي صلى الله عليه وآله، كما يتوقف عند مسأله الحج من بين الأحكام الإسلاميه كفرع من فروع الدين بصفته فريضه إلهيه كبرى تختزن بعض الأسرار واللطائف، بالشكل الذى يمد المتتبع لهذه الخطبه برؤيه شموليه لأهم القضايا الإسلاميه، من شأنها تقديم الحلول لكافه المصاعب التى تنطوى عليها والتى تعترض سبيلها.

ص: ٤١

١- ١) وردت هذه الخطبه (ليست بصوره كامله بل بعضها) فى عده كتب قبل السيد الرضى (ره) و بعده. وكان ممن رواها قبله: ١- المرحوم الصدوق فى كتاب التوحيد ٢- المرحوم ابن شعبه الحرانى فى كتاب تحف العقول. أما من نقلها بعده: ١- الواسطى فى كتاب عيون الحكمه والمواعظ ٢- المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج ٣- ابن طلحه فى كتاب مطالب السؤال ٤- القاضى القضاعى فى دستور معالم الحكم ٥- الفخر الرازى فى التفسير الكبير ٦- الزمخشري فى ربيع الأبرار ٧- القطب الراوندى فى منهاج البراعه ٨- المرحوم العلامة المجلسى فى ج ٤، ١١، ١٨، ٥٧، ٧٧، ٩٢ و ٩٩ من بحار الانوار. طبعاً هناك تفاوت بين العبارات التى وردت فى الكتب المذكوره مع ما ورد فى نهج البلاغه.

وأخيراً فالخطبه من وجهه نظر بمثابة فاتحه الكتاب، حيث تقدم صورته كليه عن المسائل التي درج عليها نهج البلاغه والتي وردت في المحاور الرئيسيه لخطبه ورسائله وكلماته القصار.

وقد قسمنا هذه الخطبه إلى خمسة عشر قسماً تناولنا كل قسم منه بالبحث بصوره مستقله لنخلص إلى النتائج الكليه التي يمكن التوصل إليها من الخطبه كوحده كامله.

ص: ٤٢

ومن خطبه له عليه السلام

يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم وفيها ذكر الحج وتحتوى على حمد الله وخلق العالم وخلق الملائكه واختيار الأنبياء ومبعث النبى والقرآن والأحكام الشرعيه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مَدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ وَلَا يُحْصِي نِعْمَاءَهُ الْعَادُونَ وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهَمِّ وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصَفَتِهِ حَيْدٌ مَحْدُودٌ وَلَا نَعْتٌ مُوجُودٌ، وَلَا وَقْتُ مَعْدُودٌ، وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَشَرَ الرِّيَّاحَ بِرَحْمَتِهِ وَوَتَدَّ بِالصُّخُورِ مَيْدَانَ أَرْضِهِ» .

الشرح والتفسير إن نظره عابره إلى مضامين هذه الخطبه تفيد إشاره الإمام على عليه السلام إلى اثنتى عشره صفه من الصفات الإلهيه بتصوير فنى رائع ونظم شاهق:

ففى المرحله الاولى يشير إلى كيفيه عجز العباد عن إظهار المدح والثناء وأداء حق الشكر الإلهى (أشير فى هذه المرحله إلى ثلاثه أوصاف) ويبين فى المرحله الثانيه عجز البشريه من الناحيه الفكرية عن إدراك عظمه الله وكنه ذاته المقدسه (إشاره إلى وصفين فى هذه المرحله) وفى المرحله الثالثه يورد الدليل على ما أشار إليه سابقاً والذي يكمن فى خروج هذه الذات

عن الحدود وعدم تناهى نعمه وآلائه؛ الأمر الذى يستبطن ويعلل عجزنا عن إدراك ذاته القدسيه واستحاله أداء حقه فى الشكر والحمد (وهو يشير فى هذه المرحلة إلى أربعة أوصاف) وأخيراً يشير عليه السلام فى المرحلة الرابعه إلى خلق العالم والكائنات، وكأنه أراد أن يكشف النقاب عن هذه الحقيقه وهى أن معرفه الذات الإلهيه إنما تقتصر على هذا السبيل، والذى يمثل منتهى قدرتنا واستطاعتنا (ويشير فى هذه المرحلة إلى ثلاث من صفاته الفعلية).

وفى هذا الأمر أنّ الدقه والنظام هى الأسس التى استندت إليها هذه العبارات الرفيعه التى تضمنتها الخطبه التى أوردتها هذا المعلم الربانى.

الآن وبعد هذه النظرة العامه نعود إلى بحث وتفسير هذه الأوصاف الاثني عشر التى اشتملت عليها الخطبه:

فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه مع التصريح بالعجز عن أداء حق الحمد، فقال عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مَدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ». (١)

وذلك لأنّ أوصافه «الكماليه» و «الجماليه» لا تعرف الحدود، فما يؤديه الملائكه والناس من حمد ومدح إنّما يتوقف على مقدار معرفتهم بالذات المطلقه لا بمقدار كمالاته جل وعلا. وأنى لسائر الأفراد بزعم المعرفه وهذا النبى الكريم الذى يمثل أعظم أنبياء الله يظهر عجزه عن معرفه الخالق المتعال فيصرح قائلاً: «ما عرفناك حق معرفتك» (٢). فاذا عجز الإنسان عن معرفته فكيف يسعه حمده ومدحه؟ وعليه فان ذروه حمدنا، ما أورده الإمام عليه السلام؛ أى إظهار العجز عن حمده وثنائه والاعتراف باستحاله بلوغ هذه الدرجه على جميع مخلوقاته سبحانه.

فقد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام أن اشكرنى

ص: ٤٤

١- ١) كثر الكلام بين اللغوين ومفسرى القرآن ونهج البلاغه [١] بشأن معنى الحمد والمدح والشكر، غير أنّ المشهور بينهم أنّ الحمد هو كل مدح إزاء الأعمال الحسنه الاختياريه؛ بينما ينطوى المدح على مفهوم أوسع يشمل الأعمال الاختياريه وغير الاختياريه، أمّا الشكر فأخص من المدح ويقتصر على إيصال أحدهم نعمه إلى آخر فيشكره على تلك النعمه. (من أراد المزيد فليراجع مجمع البحرين، لسان العرب، المفردات، شرح ابن الهيثم وشرح العلامة الخوئى). بينما صرح بعض مفسرى القرآن ونهج البلاغه [٢] كالزمخشري فى الكشاف وابن أبى الحديد فى شرحه أنّ «الحمد والمدح أخوان، لا فرق بينهما»، ويبدو أنّ التفسير الأول أصح.

٢- ٢) أورد العلماءه المجلسى ضمن توضيحه لبعض الأخبار فى البحار، تعليقاً على كلام المحقق الطوسى هذا الحديث «ما عبدناك حق عبادتك وما عرفناك حق معرفتك» دون ذكر سنده. بحار الانوار ٢٣١/ ٦٨. [٣]

حق شكرى. قال عليه السلام: إلهى! كيف أودى حق شكرك، وشكرك نعمه تحتاج إلى شكر (وهكذا يكون التوفيق إلى الشكر نعمه اخرى تستحق الشكر). فقال: «يا موسى الآن شكرتني حين علمت أن ذلك منى» (١).

وهنا لابد من القول بأن الإنسان إذا ما قال: الحمد لله، فانه أتى به كاملاً دون نقيصه، إلا أن يكون في حق الله، ولذلك جاء في الخبر أن الإمام الصادق عليه السلام خرج من المسجد ولم يظفر بدابته، فقال عليه السلام، إن أعادها لى الله شكرته حق شكره، فلم تمض مدّه حتى أتى بها إليه فقال عليه السلام: الحمد لله. فقيل له: جعلت فداك ألم تقل أشكره حق شكره؟ فقال عليه السلام: ألم تسمع قولى الحمد لله. (٢)

أمّا فى الوصف الثانى فقد قال: «ولا يحصى نعمائه العادون». وذلك لأنّ نعمه الماديه والمعنويه والظاهريه والباطنيه والفرديه والجماعيه لأكثر وأعظم من أن تعدّ وتحصى. فبدن الإنسان - على سبيل المثال - مؤلف ممّا لا يحصى من الخلايا والأنسجه (يبلغ متوسطها عشره مليارات) التى تشكل كل وحده منها كائناً حياً ومركباً معقداً ونعمه من نعمه سبحانه والتى يتعذر إحصاء عددها فى عشرات الآلاف من السنين، فاذا عجز الإنسان عن إحصاء نعم الله فى هذا الجانب اليسير فقط، فكيف يسعه أن يحصى جميع هذه النعم والآلاء على المستويات الماديه أو المعنويه؟ فى الواقع ليس لدينا من علم بكافه نعمه ليتسنى لنا عدّها أو إحصائها. فأغلب نعمه قد أغرقت كيانتنا وأحاطت بوجودنا، وحيث لم نسلبها قط فقد غفلنا عنها ولم نحط بها (فلا يشعر بالنعمه إلّا بعد فقدانها)، أضف إلى ذلك فان ظفر الإنسان بالنعم والآلاء إنّما يتناسب طردياً واتساع مدى علمه ومعرفته؛ الأمر الذى يؤدى إلى الازعان - وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام - بهذه الحقيقه «ولا يحصى نعمائه العادون». ويمكن لهذه العبارة أن تكون عله للعبارة السابقه «لا يبلغ مدحته القائلون» إذ كيف يمكن حمد الله والثناء عليه فى ظل العجز عن إحصاء نعمه! ويبدو أن هذه النعم ما زالت لا تعرف الحدود رغم الحاله المؤسفه فى قيام بعض الظلمه والفئات النفعيه باحتكار أغلب النعم أو تضييعها من خلال البذخ

ص: ٤٥

١-١) اصول الكافى ٢ / ٩٨، ح ٢٧. [١]

٢-٢) المصدر السابق / ٩٧، ح ١٨. [٢]

والاسراف والتبذير، وتعريض طبقات المجتمع للتعب والارهاق. ويقول عليه السلام في الوصف الثالث: «ولا- يؤدى حقه المجتهدون». وهذه الجملة فى الحقيقة استنتاج ترتب على العبارة السابقة، فاذا تعذر إحصاء النعم فكيف يمكن أداء حقها؟ بعبارة أخرى فإن حقه بقدر عظمه ذاته القدسيه، فى حين شكرنا وحمدنا بقدر قدرتنا الزهيدة، فأين هذا الحمد من ذلك الحق! ولا يقتصر هذا المدح والثناء وأداء الحق على العجز فى الجانب العملى فحسب بل هو قائم حتى من الناحية الفكرية.

ولذلك أردف عليه السلام - وفى إطار بيانه لوصفين آخرين - قائلاً: «الذى لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن (١)». وكأنّ التعبير ببعده الهمم وغوص الفطن إشاره إلى حقيقة مؤداها أنّ الأفكار الخارقه مهما انطلقت فى قوس الصعود والفظن المتوهجه فى قوس النزول فأنها تبقى عاجزه عن إدراك كنه ذاته المقدسه. ولا- يترك الإمام الاقرار بهذا العجز دون تقديم الدليل، فيقول: «الذى ليس لصفته حد محدود، ولا نعت (٢) موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود».

أى أنى لنا الاحاطه بكنه ذاته، والحال أن فكرنا بل جميع كياننا محدوداً لا يحسن سوى إدراك الأشياء المحدوده، بينما لا تعرف الذات الإلهيه من حدود من جميع النواحي، فليس هنالك من حد أو وصف قابل للإدراك لصفاته المطلقه من الازل إلى الأبد والتي تأبى الاوليّه والاخرويّه والبدايه والنهايه. ولا يقتصر هذا الأمر على الذات، فصفاته هى الأخرى ليس لها من حدود، فعلمه لا يعرف الحدود، وقدرته لا متناهيه، ولا غرو فصفاته عين ذاته التى ليس لها حد محدود.

بعبارة أخرى فإنّ الله وجود مطلق ليس له أى قيد وشرط، ولو كان لقيد أو شرط وحد من الحدود من سبيل إلى ذاته لأصبح مركباً، فى حين نعلم بأن المركب - كما يقول الفلاسفه -

ص: ٤٤

١- (١) «همم» جمع همه تعنى فى الأصل الذويان والجريان والحركه ولهذا يطلق الهم حيث بسبب ذويان الجسم الإنسان وروحه، ثم أطلق على كل أمر مهم أو ما يشغل فكر الإنسان (ورد شبه ذلك فى المفردات). «غوص» تعنى فى الأصل الغمس فى الماء، ثم أطلقت على الدخول فى كل عمل مهم. «فطن» جمع فطنه على وزن فتنه الفهم و الذكاء حسب لسان العرب.
٢- (٢) «الأجل» بمعنى انتهاء الشئ كعمر الإنسان وما إلى ذلك كالعقود والعهود.

ممکن الوجود لا- واجب الوجود - وعلیه فواجب الوجود ذات مطلقه غیر محدودہ فی کافہ أبعادها، ولذلك كان سبحانه وترأ واحداً ليس له كفوؤاً ولا- شبيهاً، لاستحاله قيام وجودين مطلقين من جميع الجهات، وذلك لأنّ هذا التناقض إنّما يؤدي إلى محدوديه الطرفين، فهذا فاقد لوجود ذلك، وذاك أيضاً فاقد لوجود هذا (تأمل هذا الموضوع) .

وبعد أن تعرض الإمام عليه السلام لصفات الجمال والجلال (الصفات الثبوتيه والسلبيه) ، أشار عليه السلام إلى جانب من صفاته الفعلية سبحانه، فقال: «فطر (١) الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد (٢) بالصخور (٣) ميدان (٤) أرضه» . لقد استوحيت هذه التعبيرات من بعض الآيات القرآنيه، فالعباره «فطر الخلائق بقدرته» مستوحاه من الآيه الشريفه «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» التي وردت في عدّه سور قرآنيه من قبيل: سوره يوسف / ١٠١ وسوره إبراهيم / ١٠٠ وسوره فاطر / ٣٥ وسائر السور المباركه.

والعباره «نشر الرياح برحمته» من الآيه الشريفه «وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» . (٥)

والعباره «وتد بالصخور ميدان أرضه» من الآيه ١٥ من سوره النمل «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» . (٦)

وبالالتفات إلى ما ذكرنا من معنى «فطر» فانه شبه الخلق بشق الحجاب الظلماني للعدم؛ الحجاب المتسق والمنسجم الذي لا شق فيه، غير أن قدرته المطلقه تشقه وتخرج منه المخلوقات، وليس من شأن أيه قدره سوى قدرته أن تفعل هذا. فقد اتفقت كلمه الفلاسفه والمفكرين على استحاله استحداثنا لشيء من العدم، أو تحويلنا من وجود إلى عدم، وكل

ص: ٤٧

١-١) «فطر» من ماده «فطر» على وزن بمعنى شق الشيء من الطول ومنه الافطار في الصوم

٢-٢) «وتد» من ماده «وند» (على وزن وقت) بمعنى إثبات الشيء ولذلك يطلق الوند على المسمار الذي يثبت في الأشياء ويمنحها الثبات أيضاً، وأحياناً يطلق «الوند» على وزن «الوقت» .

٣-٣) «الصخور» جمع «صخره» ، وقال صاحب لسان العرب تعنى الحجر الكبير الصلب.

٤-٤) «ميدان» من ماده «ميد» على وزن (صيد) بمعنى الحركة والاضطراب وميدان على وزن (ضربان) بهذا المعنى أيضاً و«ميدان» على وزن (حيران) وجمعه ميادين بمعنى الفضاء الواسع.

٥-٥) سوره الأعراف / ٥٧. [١]

٦-٦) سوره النحل / ١٥. [٢]

مامن شأن قدرتنا فعله هو تغيير شكل الموجودات من شكل إلى آخر ولا غير!

أمّا التعبير بالرحمة عن حركة الرياح فهو تعبير عذب رائع ينسجم ولطافه النسيم وهبوب الرياح وآثاره المختلفه من قبيل حركة السحب والغيوم نحو الأراضى القفار وتلقيح الأزهار ونمو النباتات واعتدال الجو وحركة السفن والفلك في البحر وانخفاض درجات الحرارة وسائر الخيرات والبركات المكنونه في هذه الحركة. أمّا عن كيفية توتيد الأرض بهذه الجبال والصخور، فالحق لا يمكن الآن قبول النظريات والاطروحات التي أوردها قدماء العلماء بهذا الشأن إثر قولهم بسكون الأرض وعدم حركتها، حتى جاءت النظريات الحديثه التي تنسجم مع الحقائق العلميه من جهه وتتفق والآيات القرآنيه والروايات الوارده بهذا الخصوص من جهه أخرى، وذلك لأنه:

١ - أنّ وجود الجبال على سطح الكره الأرضيه يؤدي إلى الحد من آثار ظاهره المد والجزر التي تشهدها اليابسه بفعل جاذبيه الشمس والقمر. فلو اجتاحت الأراضى الرخوه سطح الأرض لأصبح المد والجزر كالبهار والأنهار بما يجعل من المتعذر العيش على هذه الأرض.

٢ - أنّ جذور الجبال متصله مع بعضها تحت القشره الأرضيه وكأنّها درع قد أحاط بالأرض، ولولاها لماجت الأرض وعاشت الحركة باستمرار وفقدت استقرارها بفعل الضغط الداخلى الذى تفرزه الغازات الداخليه والمواد المذابه. وما الزلازل التي تقع إلّالنتيجه طبيعيه لمثل هذا الضغط الذى يتجاوز الحدود المعينه، ولولا هذه الجبال لتواصلت هذه الزلزله دون انقطاع.

وبناءً على ما تقدم فان هذه الصخور (الجبال) إنّما توتد الأرض وتحول دون فقدانها لاستقرارها، وناهيك عمّا تقدم فإنّ الجبال تعدّ من أهم مصادر الحياه الجوفيه للإنسان، وأنّ كافه العيون والأنهار إنّما تنبع من مصادر الجبال الجوفيه وتلك التي على سطح الأرض.

ويّتضح ممّا ذكرنا سابقاً بشأن الدور الحيوى الذى تلعبه الرياح والجبال فى حياه الإنسان وسائر الكائنات الحيه، عله تأكيد الإمام على عليه السلام هذين الأمرين بعيد الإشاره إلى مسأله الخلق والخليقه.

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمُوصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهَلَهُ وَمَنْ جَهَلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ عَدَّهُ» .

الشرح والتفسير

تمثل هذه العبارات دوره تربويه تامه فى المعرفه الإلهيه. فقد اعتمد أمير المؤمنين عليه السلام عبارات مقتضيه عميقه المعنى بحيث قدم صورته عن الحق تبارك وتعالى لا- يمكن الإتيان بأحسن منها حتى ولو جمعنا كافة دروس التوحيد والمعارف إليها وجعلنا بعضها إلى جانب البعض الآخر، فإنها تعجز عن رسم مثل تلك الصوره.

فقد ذكر عليه السلام فى هذا الجانب من خطبته خمس مراحل لمعرفة الله يمكن ايجازها فى مايلى:

١ - المعرفه الإجماليه والناقصه

٢ - المعرفه التفصيليه

٣ - توحيد الذات والصفات

٤ - الإخلاص

٥ - نفى التشبيه

فقد قال عليه السلام مبتدأ «أول الدين معرفته». لا شك أن الدين هنا يعنى مجموعه العقائد

والواجبات والوظائف والأخلاق، ومن المعلوم أنّ دعامتها الأساسيه هي «معرفة الله»، وعليه فمعرفة الله تمثل الخطوه الاولى على الطريق من جانب والمحور الرئيسي لكافه أصول الدين وفروعه، وليس لهذا الدين من حيويه دون هذه المعرفة - أمّا أولئك الذين يعتقدون بأنّ هناك شيئاً آخر قبل معرفة الله، إلّا وهو النظر في طريق معرفة الله والتحقيق بشأن الدين ووجوب المطالعه، فهم على خطأ كبير. وذلك لأنّ وجوب التحقيق يمثل أول الواجبات، بينما تمثل معرفة الله أول دعامه للدين، أو بعبارة أخرى فان التحقيق مقدمه ومعرفة الله أولى مراحل ذى المقدمه. (١)

والنقطه الأخرى المفروغ منها هي أنّ المعرفة الإجماليه قد أودعت فطره الإنسان ولا تتطلب أدنى تبليغ بهذا الشأن، وإنما بعث الأنبياء لاستبدال هذه المعرفة الإجماليه بتلك المعرفة التفصيليه الكامله المتقنه وإغناء جوانبها وتطهير الفكر البشرى من أدران الشرك وأرجاسه.

ثم قال عليه السلام: «وكمال معرفته التصديق به». هنالك عدّه تفاسير للفارق بين التصديق والمعرفة. بادئ ذى بدء المراد هنا بالمعرفة هي المعرفة الفطريه، والمقصود بالتصديق المعرفة العلميه والاستدلاليه. أو أنّ المراد بالمعرفة هنا المعرفة الإجماليه، والمقصود بالتصديق المعرفة التفصيليه. أو أنّ المعرفة تشير إلى العلم بالله، والتصديق يشير إلى الإيمان، لأنّ العلم لا يفارق الإيمان، فالإنسان قد يوقن بشيء إلّا أنّه لا يؤمن به قليلاً - بمعنى التسليم له والاذعان به قلبياً، أو بتعبير آخر الاعتقاد به - وأحياناً يضرب الفضلاء مثلاً لانفصال هذين الأمرين عن بعضهما، فيقولون: إنّ أغلب الأفراد يشعرون بالهلع ولا سيما فى الليله المظلمه حين البقاء إلى جانب ميت فى غرفه خاليه، رغم علمهم بانه ميت، لكن كأن العلم لم ينفذ إلى أعماقهم ويتسلل إلى قلوبهم، فلم يحصل ذلك الإيمان المطلوب وبالتالي فقد تمخض عن هذا الهلع والخشيه.

وبعبارة أخرى فإنّ العلم هو تلك المعرفة القطعيه بالشىء، إلّا أنّها قد تكتسب صبغه

ص: ٥٠

١ - ١) لقد ذهب المرحوم العلّامه المعروف «محمد جواد مغنيه» فى كتابه «فى ظلال نهج البلاغه» إلى أنّ هذه المعرفة تعنى الطاعه والانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهذا هو المعنى الذى اختاره من قبله الشارح الخوئى - رضوان الله عليه، فان كان مرادهما الطاعه بالمعنى الشامل للكلمه بما فيها الأمور العقائديه صح ذلك، وإن اقتصر على الجوانب العمليه فقط يرد عليهما ما أوردناه سابقاً.

سطحيه فلا تنفذ إلى أعماق وجود الإنسان وروحه، فاذا نفذت إلى أعماقه وبلغت مرحلة اليقين بحيث أذعن الإنسان بذلك قليلاً، فإن ذلك العلم يكتسب صفه الإيمان. ثم قال عليه السلام في المرحلة الثالثة «وكمال التصديق به توحيده». فمما لا شك فيه أن الإنسان لم يبلغ مرحلة التوحيد الكامل على أساس معرفته التفصيليه لله أو بتعبير آخر بالمعرفه القائمه على أساس الدليل والبرهان. فالتوحيد التام في أن ينزه الذات الإلهيه عن كل شبهه ومثيل ونظير. وذلك لأن من جعل له شبيهه وصنو لم يعرفه، فالله وجود مطلق غنى بالذات عمّا سواه وليس كمثلته شيء، ومن طبيعه الاشياء التي لها أشباه وأمثال أن تكون محدوده، لأن أي من الشبيهين منفصل عن الآخر وفاقد لكمالاته.

إذن فالإنسان لا يبلغ مرحلة الكمال إلا بالتصديق بذاته المنزهه في أنه واحد؛ واحد لا عن عدد، بل واحد بمعنى خلوه من الشبيهه والمثيل.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى المرحلة الرابعه وهي مرحله الاخلاص فيقول: «وكمال توحيده الاخلاص له». والاخلاص من ماده الخلوص بمعنى تصفيه الشيء عن الغير، بمعنى التصفيه والتنزه. وهناك خلاف بين مفسري نهج البلاغه بشأن هذا الاخلاص، وهل المراد به الاخلاص العملي أم القلبي أم العقائدي. والمراد بالاخلاص العملي هو أن يعيش الفرد ذروه التوحيد الإلهي فلا يسأل سواه ولا يرى غيره فيما يقوم به من أفعال وأعمال. وهو الأمر الذي تناوله الفقهاء في بحث الاخلاص في العباده، وقد أورد «الشارح الخوئي» (ره) هذا التفسير بصفته أحد الأقوال دون أن يذكر من قال به. (١)

أمّا الاخلاص القلبي والذي عبر عنه «الشارح البحراني ابن ميثم» بالزهد الحقيقي فهو يعني توجه القلب إلى الله وعدم التفكير بما سواه، والانشغال بغيره (٢). إلّا أننا نرى أن الاخلاص

ص: ٥١

١- ١) منهاج البراعه ١ / ٣٢١. وقد نقل الشارح الخوئي بأنّ لصدر الدين الشيرازي مثل هذا الاعتقاد في شرح الكافي.

٢- ٢) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ١ / ١٢٢.

مفهوم عظيم وسامى لا- ينسجم وما أورده الشراح فى هذه العبارات، ومن المستبعد أن يكون هذا هو المراد به. أمّا المفهوم الوحيد الذى يناسبه هو تنزيه الاعتقاد بالله تبارك وتعالى؛ أى تنزيهه فى وحدته عن كل شبيه ومثيل، إلى جانب تقديسه عن التركيب من الأجزاء.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى فى المرحلة الخامسة حين قال: «وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه». وبعبارة اخرى فان الحديث فى المرحلة السابقه قد تناول الاخلاص على نحو الإجمال، فلما بلغ الاخلاص هنا مرحله الكمال غاص فى التفاصيل، ليتضح من ذلك أنّ الاخلاص فى التوحيد يتطلب تنزيهه عن كافة الصفات التى يتصف بها المخلوق، سواء كانت هذه الصفات بمعنى التركيب من الأجزاء أم غيرها، وذلك لأننا نعلم بأنّ جميع الممكنات بما فيها العقول والنفوس المجردة هى فى الواقع مركبه (على الأقل مركبه من الوجود والماهيه) وحتى المجردات؛ أى الموجودات الخارجيه عن الماده هى الأخرى ليست مستثناه من هذا التركيب، أمّا الموجودات الماديه فكلها متركبه من الأجزاء الخارجيه، لكن الذات الإلهيه المقدسه لا تشتمل على الأجزاء الخارجيه ولا- الأجزاء العقليه، لا يمكن تجزأته فى الخارج ولا فى إدراكنا وفهمنا. وكل من غفل عن هذه الحقيقه لم يظفر بالتوحيد الخالص، ومن هنا يتضح بأنّ مراده عليه السلام بقوله «كمال توحيده نفى الصفات عنه» ليس الصفات الكماليه؛ لأنّ كافة الصفات الكماليه من قبيل العلم والقدرة والحياه وما إلى ذلك من الصفات ثابتة له، بل المراد الصفات التى ألفناها وتعرفنا عليها وهى صفات المخلوقين المشوبه بالنقص. فالمخلوقات لها حظ من علم وقدره، غير أنّ علمها وقدرتها محدوده ناقصه مشوبه بالجهل والضعف والعجز، بينما الذات الإلهيه منزّهه عن مثل هذا العلم والقدرة وأفضل دليل على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام فى ذيل هذه الخطبه بشأن الملائكه فوصفهم بقوله: «لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين». أضف إلى ذلك فان صفات المخلوقات منفصله دائماً عن ذواتها، أو بعبارة أخرى فانّ صفاتها زائده على ذواتها. فالإنسان شىء وعلمه وقدرته آخر، وبناءً على هذا فوجوده مركب من هذين الشئيين، والحال أنّ صفات الله عين ذاته وليس هنالك من سبيل لهذا التركيب. والواقع أنّ أعظم عقبه تعترض مسيره التوحيد إنّما تكمن فى قضيه

«القياس» ؛ أى قياس صفات الله بصفات المخلوقات المفعمه بأنواع النقص والعيب، أو الاعتقاد بالصفات الزائده على الذات؛ الورطه التى وقعت فيها الأشاعره «فرقه من المسلمين» . (١)

ولذلك أرف الإمام عليه السلام قائلاً: «لشهاده كل صفه - من الممكنات - أنها غير الموصوف وشهاده كل موصوف - من الممكنات - أنه غير الصفه» .

فكلامه عليه السلام دليل واضح وجلى فى أن الصفات الزائده على الذات تشهد بلسان حالها أنها غير الموصوف، وكل موصوف يشهد بأنه ليس من الصفات، اللهم إلا أن نقول بأن صفاته عين ذاته، ونؤمن بأن الله ذات جميعها علم وجميعها قدره وجميعها حياه وأزليه وأبديه، وإن كان إدراك مثل هذا الاعتقاد متعذر علينا نحن المخلوقات الذين أنسنا بصفات المخلوق فقط ونرى أن الإنسان شىء وعلمه وقدرته شيئاً مضافاً للذات زائداً عليها، لأننا نلد من أمهاتنا وليس لنا من علم وقدره ثم نحصل عليها لاحقاً.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ويرد فيها بعبارة قصيره إلا أنها عميقه المعنى فيقول: «فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله» .

فالواقع أن كلام الإمام عليه السلام يفيد أن اثبات الصفات التى تتصف بها المخلوقات لله يستلزم التركب فى وجوده سبحانه؛ أى كما أن المخلوق - الإنسان - مركب من الذات والصفات فان الله مركب كذلك؛ بينما لا ينسجم هذا المعنى وواجب الوجود، لأن كل مركب يحتاج إلى أجزائه والحاجه تتناقض والغنى المطلق لواجب الوجود.

ص: ٥٣

١-١) الأشاعره هم أتباع «أبو الحسن الأشعري» الذين يؤمنون بالمعاني، والمراد بالمعاني هو أن مفهوم الصفات من قبيل العالميه والغالبية و... كالذات الإلهيه قديمه أزليه، كما أنها فى نفس الوقت غير الذات الإلهيه، وعليه فهم يعتقدون بأزليه بعض الأشياء، بعبارة أخرى يقولون بتعدد القدماء، وهى العقيدته التى تتنافى تماماً والوحدانيه الخالصه، ولذلك ينفى أتباع أهل البيت عليهم السلام - على ضوء ما تلقوه عنهم من تعاليم كالذى جاء فى هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه وكلمات أئمه العصمه عليهم السلام - هذه المعاني التى تمثل الصفات الزائده على الذات، وقد أشارت العبارة «لا شريك له ولا معاني» لهذا الأمر.

وهناك تفسيران آخران ذكرا لهذه العبارة:

الأول: أننا إذا اعتبرنا صفاته سبحانه غير ذاته، فإنّ ذاته ستكون مركبه، لأنّ الذات والصفات على فرض التناقض ستشتملان على جهات مشتركة وتممايزه والذي يعبر عنه «ما به الاشتراك» و «ما به الامتياز». لأنّ كليهما مشترك في الوجود وفي نفس الوقت متميزان عن بعضهما، وفي هذه الحالة لا بدّ أن نعتبر ذاته مركبه من جهتين مختلفتين أيضاً.

الثاني: أن تؤمن بوحده الذات الإلهية، ولا نغنى بها الوحده العديديه، بل يعنى مفهوم الوحده بالنسبه للذات الإلهيه أنّها منزّه عن الشبيه والمثيل والنظير. وبشكل عام فإنّ الوجود المطلق من كل الجهات يأبى أن يكون له شبيه ومثيل، فان قلنا بأنّ صفات الله كذاته أزلية وأبديه ومطلقه، نكون قد حددناه سبحانه من جانب وقلنا بشبيه له من جانب آخر (لابدّ من التأمل في هذا الكلام) وهذا هو المعنى الذى كشف عنه الإمام عليه السلام فى إطار توضيحه للاخلاص، فقال «فمن وصف الله سبحانه» أى وصفه بصفات المخلوقين «فقد قرنه» بالأشياء الأخرى «ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزاه ومن جزاه فقد جهله» لأنّه حين جزاه بمعنى جعل ذاته متركبه من أجزاء وحقاً لم يعرف الله من اعتقد بتركب ذاته؛ وذلك لأنّه تصور كائناً على شاكلته - من حيث التركيب والمحدوديه - وأسماء الله.

ثم يقول عليه السلام: «ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده». ويوجد احتمالان بشأن قوله عليه السلام: «ومن أشار إليه» الأول أن يكون المراد بها الإشاره العقليه، والثانى أن يكون المراد بها الإشاره العقليه والحسيه. وتوضيح ذلك أنّ الإنسان إذا لم يعرف الله بتلك الحقيقه المطلقه اللامتناهيّه فأنّه سيمتلك فى ذهنه مفهوماً محدوداً وخاصاً عنه سبحانه، أو بتعبير آخر فأنّه سيشير إليه بالإشاره العقليه، وبالطبع سيكون محدوداً فى هذه الحاله تصوراً، وذلك لتعذر إدراك وتصوير اللامحدود واللامتناهى على الإنسان المحدود والمتناهى. فالإنسان إنّما يدرك ما يحيط به من أشياء يسعه تجسيمها فى فكره المحدود، وبالطبع فان مثل هذه الموجودات محدوده. وعلى هذا الضوء فان الله سيكون فى مصاف المعدودات والأشياء القابله للعدد، لأنّ من لوازم المحدود هو إمكان تصور موجود آخر فى موضع آخر مثله.

والأول الوحيد الذى ليس له ثان من كان غير محدود من جميع الجهات ولا يسعه العدد. وعلى هذا الأساس فإن مولى الموحدين - على بن أبى طالب عليه السلام - قد عكس حقيقه التوحيد فى هذه العبارة القصيره ذات المعنى العميق، فوصف البارئ سبحانه بما يفوق الخيال والقياس والظن والوهم. وهى ذات الحقيقه التى كشف النقاب عنها الإمام الباقر عليه السلام حين قال: «كل ما ميزتموه باوهامكم فى أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم» (١).

والاحتمال الآخر مازال قائماً بأن يكون المراد «بالإشارة» الإشاره العقلية والإشاره الحسيه أيضاً؛ وذلك لأنّ الله ليس بجسم ولا عرض والاعتقاد بجسميه الله جهل محض، ونتيجه ذلك كون الذات الإلهيه محدوده لأنّ كل مشار إليه فهو محدود، فالمشار إليه لا بدّ أن يكون فى جهه مخصوصه، وكل ما هو فى جهه فله حد وحدود.

سؤال

هنا يبرز سؤال يطرح نفسه: إذا تعذرت حتى الإشاره العقلانيه لله، فإنّ معنى ذلك تعطيل معرفه الله وإغلاق أبواب المعرفه بوجه الإنسان وبالتالي سوف لن يكون هناك من مفهوم لمعرفه الله. وذلك لأننا كلما حاولنا التوجه إلى تلك الذات المقدسه ارتطمنا بمخلوق من نسج أفكارنا، كلما أردنا الاقتراب منه لم نزدد إلاّ بعداً عنه، فما أحرانا والحاله هذه الا نقتحم ميدان المعرفه بغيه عدم الابتلاء بالشرك.

الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال يتضح من خلال الإلتفات إلى نقطه مهمّه - من شأنها أن تحل المشكله هنا وفى سائر الموارد - وهى أنّ المعرفه على نوعين: معرفه إجماليه ومعرفه تفصيليه، أو بتعبير آخر معرفه كنه الذات ومعرفه مبدأ الأفعال. فاننا حين نتأمل عالم الوجود بما يضم من العجائب والغرائب والكائنات بتلك الروعه والجمال والعظمه، بما فى ذلك وجودنا نحن الأفراد لنشعر بأنّ هنالك خالقاً ومدبراً لهذا الكون وهذا هو العلم الإجمالى الذى يمثل ذروه معرفه الإنسان بالله (غايه مافى الأمر أننا كلما تعرفنا أكثر على أسرار الوجود وقفنا بصوره

ص: ٥٥

أعمق على عظمته وتعززت به معرفتنا الإجمالية أكثر فأكثر) إلّا أننا حين نعود بالسؤال لأنفسنا عن ماهيته وكيفيته ونحاول الاقتراب من حقيقته ذاته المقدسه لا- نحظى سوى بالحيره والغموض؛ الأمر الذى يجعلنا نقول بأنّ السبيل إليه مفتوح على مصراعيه وفى نفس الوقت مؤصد ومغلق تماماً.

وهنا يمكننا إيضاح هذه المسأله بمثال بسيط. فالكل يعلم بوجود قوه الجاذبيه؛ لأنّ كل جسم يترك فى الهواء يسقط إلى الأرض بفعل جاذبيتها، ولولا هذه الجاذبيه لانعدم استقرار الأجسام على سطح الكره الأرضيه. ولا تقتصر معرفه الجاذبيه والعلم بوجودها على العلماء، بل يدركها حتى الصبيه والأطفال؛ ولكن ماهى حقيقه الجاذبيه، هل هى أمواج لا مرأيه أم ذرات مجهوله أم قوه أُخرى؟ والعجيب أنّ قوه الجاذبيه وخلافاً لكل ما نعرفه من قوانين عالم الماده، يبدو أنّها لا تحتاج من زمان للانتقال من نقطه إلى أُخرى، بل على خلاف الضوء الذى يمثل أسرع حركه فى عالم الماده، فى حين قد يحتاج إلى مدّه زمانيه تصل إلى ملايين السنين الضوئيه للانتقال فى الفضاء من نقطه معينه إلى نقطه أُخرى. إمّا قوه الجذب فتنقل فى لحظه من أيه نقطه فى العالم إلى أُخرى، أو أنّها تمتلك حد أقل من السرعه يفوق ما سمعناه لحد الآن. فما هذه القوه التى تمتلك مثل هذه الآثار؟ وما حقيقه كنه هذه القوه؟ ليس هنالك من يسعه تقديم جواب شاف لهذه الاسئله. فإذا كان علمنا ومعرفتنا بشأن القوه الجاذبه - التى تعتبر أحد المخلوقات - تقتصر على المعرفه الإجماليه دون المعرفه التفصيليه، فأنى لنا توقع المعرفه بكنه الذات المقدسه لخالق عالم الماده وما ورائها من وجودات لا- متناهيه؟ ! لكن مع ذلك فاننا نراه حاضراً وناظراً فى كل مكان ومقارناً لكل وجود فى العالم. إمّا العبارة «ومن حده فقد عمده» فهى إشاره إلى أمر مهم يتضح من الكلام السابق وهو أنّ من حد الله وجب عليه أن يراه معدوداً، وبعبارة أُخرى فانه يعتقد بإمكانيه وجود الشريك له. لأنّ المطلق من جميع الجهات فقط هو الذى يأبى الشبيه والمثيل والشريك؛ بينما إن كان محدوداً (مهما كانت عظمته وقدرته) كان له شبيهاً ومثيلاً خارج ذاته، وتعبير آخر فليس هناك من ضير فى تصور موجودين محدودين أو أكثر (مهما بلغ كبرهما) ، بينما يستحيل تصور وجود ثان للمطلق من كل الجهات؛ وذلك لأنّ كل ما يتصور إنّما يعود إلى ذاته.

إشارة

«وَمَنْ قَالَ «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ «عَلَامٌ»؟ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كَائِنٌ لَا عَنْ حَدِيثٍ، مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْأَلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَيِّكُنَ يَشْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ» .

الشرح والتفسير لقد تعرض الإمام عليه السلام في هذا القسم من خطبه إلى عدّة نقاط حساسه ودقيقه بشأن مباحث التوحيد بكلمات قليلة ومعان عميقه يمكن إيجازها في خمس:

١ - كون الذات الإلهيه المطلقه منزّهه عن المكان، فقد قال عليه السلام: «ومن قال فيم؟ فقد ضمنه» . فالكلمه (في) إنّما تستعمل بشأن المكان الذي يحوى الشىء ويحيط به، من قبيل قولنا فلان فى الدار، والورد فى البستان وما إلى ذلك، ونتيجه ما تقدم هو محدوديه ذاته سبحانه، بينما أشرنا سابقاً إلى أنّ كافه أدله التوحيد تفيد كون الذات المقدسه مطلقه من جميع الجهات.

وهكذا من سأل «علام» بشأن الله؟ (على العرش، على الكرسي، على السموات) فقد حده لأنه أخلى منه سائر المواضع «ومن قال علام؟ فقد أخلى منه» . فمثل هذه الأسئلة تستلزم كون الذات القدسيه محدوده، وهذا مالا ينسجم وكونه واجب الوجود. وبناءً على هذا فكل من تصوره على العرش أو على السموات أو أى مكان آخر فقد جرد نفسه من التوحيد الخالص، وفى الواقع فأنه يعبد مخلوقاً من نسج خياله الفكرى ويسميه الله. فقد ذهب بعض الجهال إلى

أَنَّ الشريفة «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» (١) دليل على جسميه الله وأنه على العرش، بينما تفيد كلمة «استوى» معنى السيطره على الشىء ولا تقتصر على معنى التربع على الشىء أو الاستقرار عليه، بل هناك تعبير كئائى معروف ومتداول بشأن تزعم الأمور والأخذ بزمامها فى مقابل اعتزال السلطه وانفلات القدره، فىقال «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» فى مقابل «ثل عرشه» ولا يراد كسر عرش السلطه أو التربع عليه. وعليه فالذى تفيد الآيه الكريمة «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» هو استقرار حكومته وسلطته سبحانه على العرش. على كل حال يبدو من السداجه والسخرية الاستدلال بهذه الآيه على جسميته سبحانه.

٢ - يشرح الإمام عليه السلام فى هذه العبارة «كائن لا عن حدث» أزلته سبحانه وكون ذاته غنيه عن الحدود من ناحيه الزمان، ثم يقول عليه السلام: «موجود لا عن عدم» وهذا هو الفارق بينه وبين جميع المخلوقات المسبوقة بالعدم والحدث، بينما لم تسبق الذات الإلهيه بمثل ذلك العدم والحدث. بل لا يمكن وصفه بصفتى «الكائن» و «الموجود» دون تنقيه مفهومها من صفات المخلوقات المسبوقة بالعدم. (٢)

٣ - العبارة الأخرى تضمنت إشاره رائعه إلى كيفية الرابطه السائده بين المخلوقات والخالق والممكنات بواجب الوجود، حيث قال عليه السلام: «مع كل شىء لا بمقارنه وغير كل شىء لا بمزايله». لقد ذهب أغلب الناس وحتى أغلب الفلاسفه والعلماء إلى أَنَّ الرابطه التى

ص: ٥٨

١- ١) سورة طه / ٥. [١]

٢- ٢) لقد ذهب بعض شراح النهج إلى أَنَّ العبارة المذكورتين إنَّما تبيينان موضوعاً واحداً، بينما اعتبر البعض الآخر - مثل ابن أبى الحديد - أن قوله عليه السلام: «كائن لا عن حدث» إشاره إلى الحدوث الزمانى فى العبارة الاولى، ولم ينف حدوثه الذاتى الا فى كلمته الثانیه بغض النظر عن الزمان لأنه واجب الوجود. (شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٧٩). [٢] فى حين ذهب آخرون إلى عكس ذلك ففسروا العبارة الاولى بنفى الحدوث الذاتى أو الذاتى والزمانى، والعبارة الثانیه بنفى الحدوث الزمانى. (شرح نهج البلاغه لابن ميثم، ١ / ١٢٧). [٣] ولكن لم يقيم دليل واضح على أى من هذا التفاوت، لأن مفرد الحدوث عادة ما تطلق على الحدوث الزمانى، كما يمكن حملها على الحدوث الذاتى أيضاً، وهكذا يمكن إطلاق نقطه العدم على العدم الذاتى والتى غالباً ما تطلق على العدم الزمانى. وعليه تبدو هاتان العبارةتان متأكدتان فى معناهما وهو نفي الحدوث الزمانى والذاتى؛ على أنَّهما تنفيان أى حدوث وعدم عن الذات الإلهيه سواءً بالنسبه للذات والزمان.

تسود المخلوقات بالله، هي رابطة بين وجودين مستقلين في أن أحدهما مخلوق للآخر، كوجود الشعلة العظيمة والشمعه الصغيره التي نوقدها من تلك الشعلة، في حين الحقيقه شيء آخر تماماً. فالفارق بين المخلوق والخالق هو ليس من قبيل الفارق بين وجود ضعيف وقوى قط، بل الفارق هو فارق بين وجود مستقل من جميع الجهات ووجود تابع. فعالم الوجود برتمه تابع له ويتغذى في كل آن من نور وجوده عليه. فالله سبحانه ليس منفصلاً عن عالم الوجود كما أنه ليس عين الموجودات (كما ذهب إلى ذلك الصوفيه التي تقول بوحده الوجود والموجود)، وأن التوحيد الواقعي إنما يتوقف على إدراك هذه الحقيقه. ويمكن إيضاح هذه الحقيقه بهذا المثال (رغم النقص الذي يشوب مثل هذه الأمثله). فشعاع الشمس رغم وجوده وكونه غير قرص الشمس، إلماً أنه متصل بها تابع لها، هو غيرها لكن لا على نحو المغايره وبمعنى الانفصال والاستقلال، ومعها ولكن ليس بمعنى الالتحام والاتحاد. وهما لاشك فيه أن ارتباط موجودات هذا العالم بالذات الإلهيه المقدسه أكثر قرباً وتبعيه ممّا صدره هذا المثال، والحق لا- يمكن العثور على مثال دقيق في هذا العالم لتصوير عمق هذه التبعيه والوحده وفي نفس الوقت الثنائيه (أى الوحده في الكثره). رغم أن الأمثله ومنها المثال المذكور - أو كالتصورات الذهنيه للإنسان التابعه من روحه وغير المنفصله عنها وفي نفس الوقت تابعه لها وليس لها من مفهوم دونها - يمكنها أن توضح إلى حد ما هذا الموضوع.

٤ - تناول الإمام عليه السلام صفه أخرى من صفات الذات الإلهيه المقدسه، فقد قال عليه السلام: «فاعل لا بمعنى الحركات والآله». لقد جرت المحاورات اليوميه عاده على الاصطلاح بالفاعل على الفرد الذي يقوم ببعض الأعمال من خلال حركات اليد والرجل أو الرأس والرقبه وسائر الأعضاء، ولما كانت قدره الإنسان وسائر الكائنات محدوده وتعذر الإتيان بكافه الأفعال والأعمال على هذه الأعضاء، فأنه يستعين ببعض الوسائل والأدوات ليسد بها ذلك النقص الذي يشوب قدرته، فهو يستعين بالمطرقة لدق المسمار، وبالممنشار لنشر الخشب وبالمكائن والآلات الضخمه لنقل الأحمال الثقليه من مكان إلى آخر، وكل هذه الأمور هي من آثار الأجسام والجسمانيات.

ولما كان الله منزهاً عن الجسميه، وقدرته غنيه مطلقه خارجه عن الحد والحدود فان فاعليته لا تعنى القيام بالحركات أبداً، كما أن قدرته المطلقه أغنته عن الاستعانه بالأدوات والآلات. فالله سبحانه فاعل قبل أن تخلق الآله ولو كان محتاجاً للآله لعجز عن خلقه لاولى

الأشياء، وبعبارة أخرى فإن فعله إبداع. نعم فهو قادر على خلق عالم الوجود أو اعدامه في طرفه عين أو أقرب بإرادته وقوله (كن) ، كما له خلقه تدريجياً أو في أية مدّة نبتغيها إرادته. والذي يجدر الالتفات إليه هنا هو أننا حين نصفه سبحانه بأنه فاعل فلا ينبغي أن نقارن فاعليته بذواتنا وأنها تستعين بالادوات والآلات. وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يعنى أن ليس لله من ملائكة تتولى تدبير الأمر والتي وصفها القرآن «... فَاَلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» .

فقد جرت عادته على ايجاد الحوادث عن طريق الأسباب، لان إرادته شاءت ذلك لامحتاج لها.

٥ - ثم قال الإمام عليه السلام: «بصير إذ لا منظور إليه من خلقه» .

صحيح أن مفردة بصير مشتقه من ماده البصر، إلّا أنّها تطلق بالمعنى المجازى على الله سبحانه لا الحقيقى. فكونه بصيراً يعنى عليمًا بجميع الأشياء القابلة للرؤية وحتى الأشياء التى ترى ولم تخلق بعد. وبناءً على هذا فان بصيرته تعود إلى علمه اللامتناهى، حيث نعلم جميعاً بأنّ علمه أزلى. وأخيراً فقد تحدث الإمام عليه السلام عن وحدانيته سبحانه فى غناه عن الأنيس فقال: «متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده» (١)

وتوضيح ذلك هو أنّ الناس وسائر الكائنات الحيه وبحكم كون قدرتها محدوده فى نيل المنافع ودفع الاضرار فإنّها مضطره للاستعانه ببنى جنسها ومن غيرها لتشعر بالأمن تجاه بعض الأخطار التى تهددها. وهنا يتفاقم شعور الإنسان بالاستيحاش لوحده، بينما يأنس بوجود سائر الأفراد إلى جانبه ولاسيما أثناء تعرضه للأخطار والآفات والبلايا والأمراض والأوبئه. وأحياناً يندفع الإنسان الضيق النظر ليقارن الله بنفسه فيشعر بالدهشه والذهول كيف يكون الله وحيداً قبل ايجاده لهذه المخلوقات، وكيف لا يكون له من أنيس يسكن إليه، وأخيراً كيف يشعر بالاستئناس بهذه الوحده؟! غافلاً عن أنّه وجود مطلق لا يحتاج الاستعانه

ص: ٦٠

١ - ١) هناك احتمالان بشأن «إذ» الوارده فى العبارة؛ الاحتمال الأول: هل هى ظرفيه تشير إلى عدم وجود شىء خلق فى الأزل ولم تكن سوى ذاته المقدسه ليأنس بها ويستوحش لفقدها؟ أم إن «إذ» هنا بمقام التعليل، يعنى كان وما زال واحداً لأنّه لم يكن هناك من وجود، حيث لا- يحتاج إلى أحد؟ يبدو أنّ الاحتمال الثانى هو الأقوى. كما إن «لا» فى قوله «لا يستوحش» زائده وردت للتأكيد، بينما ذهب البعض إلى أنّها جملة استثنائية.

بأحد، وليس له من خشيه لعدو ليستعين عليه بظهير، كما ليس له من صنو يستأنس به. ولذلك كان وسيكون متوحداً.

ويتضح ممّا ذكرنا سابقاً أن لمفردة «المتوحد» مفهوم يختلف عن مفهوم «الواحد» و «الأحد» .

تأملات

إشارة

لقد تضمنت هذه العبارات العميقة المعاني والعظيمه المضامين عدّه معطيات ودروس قيمه من شأنها حل أغلب المشاكل العقائديه على مستوى «معرفة الله وأسمائه وصفاته» ومنها:

١ - علاقة الخلق بالخالق ومسأله «وحده الوجود»!

لقد كثر الكلام فى أوساط الفلاسفه والعلماء بشأن كيفية الرابطة بين الخالق والمخلوق، فقد أفرط البعض منهم حتى اعتقد بأن الخالق هو عين المخلوق إثر رؤيتهم القائمه على أساس وحده الوجود والموجود. فهم يقولون ليس هنالك أثر من وجود شخصى واحد فى عالم الوجود وكل ماسواه ترشحات من ذاته، أو بتعبير آخر: هناك شىء واحد فقط أمّا الكثره والتعدد فهى خيالات وظنون وسراب يحسبه الظمان ماء. أحياناً يستعيضون عن الوحده والاتحاد بقولهم بالحلول على أنه ذات حلت فى كافه الأشياء وتتخذ لها شكلاً فى كل وقت بينما يشعر الجهال بالازدواج والحال ليس الكل إلأشياء واحد لا غير. (١) وزبده القول أنهم يرون عالم الوجود بمشابه بحر وقطراته سائر الموجودات. وبعبارة أخرى فان أى ازدواجيه فى هذا العالم ليست سوى ضرباً من الخيال والوهم. بل يعتقد البعض منهم أن الفرد لا يعدّ صوفياً

ص: ٦١

١- ١) هذه هى عقيدته أغلب المتصوفه، وشاهد ذلك العبارة المشهوره التى يطلقها زعماء هذه الفرقة «إنى أنا الله» وأعظم من ذلك ما يرددوه من قولهم «سبحانى ما أعظم شأنى»، أمّا البعض الآخر فقد نظم أبياتاً من الشعر وصرح فيها بقوله «أن الصنميه والوثنيه هى ذات العبوديه»! كما ورد فى الأشعار الطائشه للمولوى التى تصور الله بشكل صنم عيّار (وهو عبارة عن موجود مشكوك) يتلبس يوماً بهيئه آدم! ويوماً بهيئه نوح وآخر موسى وعيسى! وأخيراً بشكل محمد صلى الله عليه وآله كما يتلبس بهيئه على وسيفه ذو الفقار! وبالتالي بشكل منصور الذى اعتلى أعواد المشنقه! (نقلًا بتلخيص عن العارف الصوفى وماذا يقولان / ١١٧).

حقيقياً ما لم يؤمن بوحده الوجود والموجود، وذلك لأنَّ وحده الوجود تشكل الركيزه الأصلية لقضيه التصوف!

وبالطبع فإنَّ بعض كلماتهم يمكن حملها على المعانى الصحيحه والصائبه من قبيل أنَّ الوجود الحقيقى القائم بالذات فى العالم واحد وكل ما سواه تابع له مستمد وجوده منه (كما أوردنا ذلك سابقاً فى التشبيه بالمعانى الأسميه والحرفيه) أو كل ما عدا الذات الإلهيه المقدسه - الوجود المطلق من جميع الجهات - يمثل موجودات صغيره ضئيله ليس لها شأنٌ يذكر ولكن لا يعنى ذلك أنَّها لا- تمتلك وجوداً واقعياً حقيقياً. ولكن الذى لا شك فيه هو أنَّ بعض أقوالهم وعقائدهم لا يمكن تبريرها والتماس التفسير الصائب لها، فهم يصرحون بأن ليس فى عالم الوجود أكثر من وجود واحد وكل ما سواه سراب وخيال، وأبعد من ذلك تصريحهم بأنَّ الوثنيه وعباده الأصنام لو خرجت عن شكلها المحدود فهى عين عباده الله، لأنَّ كل العالم هو، وهو كل العالم. فهذا الكلام يستتبع لوازم فاسده ليست بخافيه على أحد على ضوء العقائد والتعاليم الإسلاميه، ناهيك عن تعارضها والوجدان بل البديهيات وانكارها للعله والمعلول والخالق والمخلوق والعايد والمعبود، وذلك لأنَّه لم يعد هناك من مفهوم للفارق بين المعبود والعبد والشارع والمكلف، بل حتى الجنَّه والنار وأهلها، فكلها واحده وكلها عين ذاته وما هذه الكثره والتعدد الا وهم وخيال ولو أزيلت هذه الغشاوه عن أبصارنا فسوف لا نرى إلَّا وجوده سبحانه! إلى جانب ذلك فان من لوازم ذلك القول بجسميه الله والحلول وما إلى ذلك. وعليه فعقائدهم لا تنسجم مع الوجدانيات والأدله العقليه ولا تتفق مع العقائد الإسلاميه وتعاليم القرآن الكريم، ومن هنا انبرى المرحوم المحقق اليزدى (ره) - الفقيه المعروف - ليكتب فى عروته الوثقى فى مبحث الكفار: «لا إشكال فى نجاسه الغلاسه (١) والخوارج والنواصب وأمّا المجسّمه والمجبرّه والقائلين بوحده الوجود من الصوفيه إذا التزموا بأحكام الإسلام فالأقوى عدم نجاستهم إلّا مع العلم بالتزامهم بلوازم مذهبهم من المفاسد» (٢).

ص: ٦٢

١ - ١) «الغلاسه» هم المغالون فى الأئمه عليهم السلام ولا سيما على عليه السلام فعده هو الله أو أنه اتحد به. و «الخوارج» هم أصحاب النهروان الذين أسماهم النبى صلى الله عليه و آله بالمارقين وقد قتلهم الإمام شر قتله فى النهروان. وأمّا «النواصب» فهم أعداء أهل البيت عليهم السلام.

٢ - ٢) العروه الوثقى، [١] بحث نجاسه الكافر، المسأله ٢.

وتتضمن المسأله أمرين مهمين يجدر الإلتفات إليهما: أحدهما عطف أصحاب عقيدته وحده الوجود على المجبره والمجسمه وجعل الجميع بمنزله واحده، والآخر بان عقائدهم تنطوى على مفسد دينيه إذا التزموا بها خرجوا من ربه الإسلام وإن لم يلتزموا بها فهم مسلمون. فالكلام يفيد بما لا يقبل الشك أنّ مذهب هؤلاء يتصف ببعض المفسد التي يؤدي الإلتزام بها إلى الخروج عن صف المسلمين. أمّا الجدير بالذكر هو أنّ كافه العلماء الذين كتبوا حاشيه على العروه الوثقى - حيث جرت عاده العلماء الكشف عن اجتهادهم وقدره استنباطهم للأحكام الشرعيه من مصادرها المقرره على كتابه تعليقه على العروه الوثقى - قد أقرّوا بما أورده صاحب العروه أو أضافوا لما ذكره بعض القيود (من قبيل قولهم بما لا يوجب إنكار التوحيد والرساله) (١).

وللوقوف على عمق المفسد التي انطوت عليها هذه المسأله، نرى من الضروري هنا الإشاره إلى نموذج ورد في الدفتر الرابع للشاعر المثنوى حين نقل قصه طويله بشأن قول «بايزيد» سبحانه ما أعظم شأنى، فقد واجه اعتراضاً من صحبه، فقال لهم: «لا إله إلّا أنا فاعبدون» فقالوا له ما تقول؟! قال: سأقول ذلك ثانيه فاحملوا السكاكين واطعنونى بها. فشهّر صحبه سكاكينهم وجعلوا يطعنونه، إلّا أنّهم شعروا بأن كل طعنه كانت تمزق أجسادهم لا جسده. فهذه الاسطوره الخرافيه من شأنها الإشاره إلى مدى الاندفاع والته الذى بلغه أصحاب هذا المسلك.

وأخيراً نختتم هذا الموضوع بما أورده أحد المعاصرين من شراح نهج البلاغه إذ قال بهذا الخصوص: أنّ هذا المذهب (القائل بوحده الوجود بمعنى وحده الموجود) إنّما يتنكر لكافه القوانين العقليه والأسس الوجدانيه وروح الأديان الإلهيه، ويرفع من شأن عالم الوجود ليبلغ به المرتبه الوجوديه الإلهيه أو ينزل بالوجود الإلهي إلى الحضيض فيسويه بسائر مخلوقاته، ويبدو أنّ مثل هذا المذهب إلى الأذهان والأذواق والهروب من الإشكالات أقرب منه إلى التعقل والالمام بالواقعيات. (٢)

ص: ٦٣

١- ١) للوقف على المزيد راجع الكتاب مصباح الهدى ١/٤١٠ للمرحوم آيه الله الشيخ محمد تقى الآملى (الفقيه والفيلسوف المعروف) و كذلك تقارير المرحوم آيه الله الخوئى ٣/٨١-٨٢.
٢- ٢) ترجمه و تفسير نهج البلاغه، الاستاذ الجعفرى ٢/٦٤.

لو تأملنا بدقه وأجلنا الفكر فى كلماته عليه السلام لاكتشفنا مدى قطعه الطريق أمام أى انحراف عن مبدأ التوحيد وحقيقه صفات الله، واتضح لدينا المفهوم الحقيقى لقوله سبحانه وتعالى «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١) و«وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ» (٢) و«وَمَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ» (٣) و«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (٤) و«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» (٥) وما إلى ذلك من المضامين القرآنيه الشريفه.

فهذه المسأله وإضافه لاكمالها الأبحاث المتعلقة بوحده الوجود - بمعناها الصحيح - من شأنها أن تقف حائلاً أمام أى انحراف فى فهم الصفات الإلهيه. إلا أن أصحاب الضلاله قد وطأوا وادياً لا يجر عليهم سوى الخجل والخيبه، ومنهم طائفه «المجسمه» التى أضفت صفات الممكنات على الله تبارك وتعالى فصوروه كجسم من الأجسام وقد انطوى على بعض الأعضاء من قبيل الجسم واليد والرجل والشعر المجعد ومن باب أولى أن يحدوه بالمكان والزمان فذهب البعض إلى إمكانيه رؤيته سبحانه فى الدنيا، بينما اقتصر بها البعض الآخر على الآخره.

فقد قال المحقق الدوانى - من مشاهير الفلاسفه - طبق نقل بحار الأنوار - أن: «المشبهه منهم من قال: إنه جسم حقيقه، ثم افترقوا فقال بعضهم: إنه مركب من لحم ودم وقال بعضهم: هو نور متألئء كالسبيكه البيضاء، طوله سبعة أشبار بشبر نفسه، ومنهم من قال: إنه على صورته إنسان، فمنهم من يقول: إنه شاب أمرد جعد ققط، ومنهم من قال: إنه شيخ أشمط الرأس». (٦)

والأدهى من ذلك أنهم قالوا ببعض الصفات الجسميه لله سبحانه من خلال ما نقلوه من

ص: ٦٤

١-١ (١) سورة ق / ١٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة الحديد / ٤. [٢]

٣-٣ (٣) سورة المجادله / ٧. [٣]

٤-٤ (٤) سورة النور / ٣٦. [٤]

٥-٥ (٥) سورة الانفال / ٢٤. [٥]

٦-٦ (٦) بحار الأنوار ٣/٢٨٩. [٦]

روايات عن النبي صلى الله عليه وآله - وهي روايات موضوعه بالطبع - وصحيحه. ومن ذلك أنه سئل ابن عباس: هل رأى محمد صلى الله عليه وآله ربه؟ قال: بلى، فسئل: كيف رآه؟ قال: رآه على كرسي ذهبي مفروش بالذهب ويحمله أربعة من الملائكة في حديقته خضراء (١).

وبغض النظر عما سبق فقد شحن «صحيح البخاري» و«سنن ابن ماجه» وغيرها بالروايات التي صرّحت بأنّ الله سيرى في يوم القيامة (٢)، حتى أنّ بعض الروايات صرّحت بأنّ أهل الجّنه سيرونه كما يرى القمر بدرأ (٣) والحق أنّ مثل هذه الروايات دفعت بالكثير من علماء العامه للاعتقاد برؤيه الله يوم القيامة والاستماتة في الدفاع عن هذه العقيدة. بينما هذا القرآن يهتف آناء الليل والنهار «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» (٤) وقد خاطب سبحانه كلمه موسى عليه السلام قائلاً «لَنْ تَرَانِي» (٥) ونعلم بأنّ «لن» نافية أبديه. وقد تصدى الإمام على عليه السلام لبیان هذه المسأله في خطبه الأشباح، فقال عليه السلام: «والرّادع أناسى الأبصار عن أن تناله أو تدركه أو تبصره» (٦). كما قال عليه السلام في خطبه أخرى ببلاغته وفصاحته الجليه: «الحمد لله الذى لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر» (٧). وناهيك عما تقدم فان هذه العقائد تمثل مخالفه صريحه لما يحكم به العقل؛ وذلك لأنّ الرؤيه لو كانت جائزه على الله لكان جسماً له مكان وجهه، الأمر الذى يعنى محدوديته وتغيره وبالتالي سلبه وجوب الوجود وجعله من ممكناته. وهنا يأتى دور عبارات أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام ومنها العبارة السابقه لتكون كالشمس فى رابعه النهار فتميط اللثام عن الحقائق وتسحق العقائد الباطله والخرافيه وتستعرض الدروس القيمه فى التوحيد ومعرفه الصفات الإلهيه. ولما جرت العاده أن يقابل

ص: ٦٥

١-١) توحيد ابن خزيمه / ٢١٧ ([١] طبق نقل بحوث فى الممل والنحل) ١ / ١٤٥.

٢-٢) صحيح البخارى / ٦ / ٥٦. تفسير سوره النساء؛ سنن ابن ماجه ج ١ مقدمه الباب ١٣ ح ١٧٧.

٣-٣) للوقوف على هذه الروايات الموضوعه يقيناً وكذلك تفنيد هذه الروايات واستعراض الأدله التى تضمنتها الآيات والروايات المعتمده التى صرّحت باستحاله رؤيه الله فى الدنيا والآخرة، راجع من التفسير الموضوعى للقرآن نفحات القرآن ٢٤١/٤ - ٢٥١. [٢]

٤-٤) سوره الانعام / ١٠٣. [٣]

٥-٥) سوره الاعراف / ١٤٣. [٤]

٦-٦) نهج البلاغه، الخطبه ٩١. [٥]

٧-٧) نهج البلاغه، الخطبه ١٨٥. [٦]

كل إفراط بتفريط فقد انبرت طائفه بوجه المجسمه التي نزلت بالله سبحانه إلى مرتبه الجسم فاعتمدت عقيدته التعطيل لتقول باستحاله معرفه الله لا- على مستوى كنه ذاته ولا- أوصافه، ولا تحسن سوى المفاهيم السلبيه من صفات الله، فكل ما نفهمه من قولنا أنه عالم هو أنه ليس بجاهل، أمّا عالميته المطلقة فهي خافيه علينا تماماً، وعليه فمن مواضع فخر الإنسان أن يودع مسأله معرفه الله بوتفه النسيان ولا- يقترب من هذا الوادى الذى ينطوى على ظلمات دامسه ويتناقض والتعاليم القرآنيه المسلمه التي تقودنا إلى معرفه الله.

ونختتم بحثنا بعبارات أخرى أوردها الإمام عليه السلام فى نهج البلاغه بهذا الخصوص فقال: «لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الذى تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذى الجحود تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً» (١).

فالحق أنّ هذا التعبير هو الخط المعتدل الفاصل بين الإفراط والتفريط (المشبهه والمعتله) فى معرفه الله. هذا وقد شحن نهج البلاغه بالكلمات البليغه الرائعه التي تضمنتها خطبه عليه السلام بشأن صفات الله والسبيل الصحيح لتوحيده سبحانه، وسنتعرض فى أبحاثنا القادمه لخطبه عليه السلام بهذا الخصوص.

٣ - نفى الحدوث الذاتى والزمانى للذات القدسيه

تفيد عباراته عليه السلام بهذا الشأن أنّ الذات الإلهيه منزّهه عن الحدوث الذاتى والحدوث الزمانى. والمراد بالحدوث الزمانى هو وجود الشىء فى الزمان، أو بتعبير آخر مرور المده الزمانيه على شىء لم يكن موجوداً ثم يوجد. وهذا هو المعنى المتصور بعد خلقه عالم الماده؛ لأنّ الزمان انبثق من خلال خلقه العالم المادى بحيث أصبح هناك مفهوم للحدوث والعدم الزمانى. أمّا الحدوث الذاتى فالمراد به الشىء الحادث فى ذاته بغض النظر عن ظهور عالم الماده، أو

ص: ٦٦

[١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ٤٩. [١]

بتعبير آخر لا- يترشح وجوده من باطن ذاته، بل يكون تابعاً ومعلولاً- لوجود آخر، ومن المسلم به أن ليس من سبيل لهذين الحدوثين إلى الذات المقدسه الواجبه الوجود فى الماضى والمستقبل، بل وجوده هو الوجود الاصلى (عليك بالدقه والتأمل).

٤ - هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟

هل يمكن اطلاق لفظ «الموجود» على الله؟ يبدو من تعبيره عليه السلام: «موجود لا عن عدم» إمكانية اطلاق هذا اللفظ على الذات الإلهيه المقدسه، ولكن من المسلم به أن المفهوم الأصلى لهذا اللفظ الذى ورد بصيغه اسم المفعول والذى يعنى أن الآخر هو الذى منحه الوجود، لا يصدق على ذاته المقدسه، فالموجود هنا يشتمل على مفهوم آخر وهو يتضمن معنى ذى الوجود؛ وهو المعنى الذى صرّح به فى بعض شروح نهج البلاغه، بحيث يطلق الموجود تاره على الماهيات الممكنه التى اتصفت بالوجود، كما يطلق تاره أخرى ويراد به أصل الوجود (١). وقد ورد هذا التعبير (الموجود) فى بعض روايات أصول الكافى أيضاً. (٢).

ص: ٦٧

١-١) مفتاح السعاده فى شرح نهج البلاغه ١ / ١٣٩. [١]

٢-٢) أصول الكافى ١/ باب أدنى المعرفه، ح ١؛ أيضا ١، باب النهى عن الصفه، ح ١؛ أيضاً ١، باب جوامع التوحيد، ح ٤.

«أَنْشَأَ الْخُلُقَ إِِنْشَاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلا رَوِيَّهِ أَجَالَهَا وَلَا تَجْرِبِيهِ اسْتِفَادَهَا وَلَا حَرَكَهَ أَحَدَثَهَا وَلَا هَمَامَهَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا وَلَا مَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وَعَرَزَ غَرَائِزَهَا وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَأَنْتَهَائِهَا عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَأَخْنَائِهَا»

الشرح والتفسير لقد تضمنت بدايه هذه الخطبه المهمه إشارات دقيقه عميقه المعانى إلى معرفه الله وصفاته والتي تمثل أولى مراحل المعرفه الإنسانيه، ثم طرق عليه السلام بعد ذلك إلى خلق العالم وكيفيه ابتداء الخلق والعجائب التي انطوت عليها السماء والأرض، وإن كانت مكمله للأبحاث السابقه بشأن صفات الله. فقد قال عليه السلام: «أنشأ (١) الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً بلا رويه (٢) أجالها (٣) ولا تجربه استفادها ولا حرکه أحدثه ولا همامه (٤) نفس اضطرب فيها.

ص: ٦٩

١- ١) «أنشأ» من ماده «إنشاء» بمعنى الایجاد وان ذكروا لها عدّه معان.

٢- ٢) «رويه» بمعنى الرى من الماء كما ورد فى مقاييس اللغة، الا أنّها تستعمل بمعنى التفكير المصحوب بالدقه. وكأنه يروى فكره بشأن تلك المسأله، أو رى تلك المسأله بفكره واداء حق التفكير.

٣- ٣) «أجال» من ماده جولان بمعنى الحرکه والتجوال.

٤- ٤) «همامه»: لقد ذكر شراح ومفسروا نهج البلاغه [١]لهذه المفرده عدّه معان. فقد عاناها البعض بالرغبه القطعيه الباطنيه بالشىء بحيث ينزعج لفقدانها (شرح ابن ميثم البحرانى ١ / ١٣٢). [٢] بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّها تعنى الترديد فى القيام بعمل (منهاج البراعه ١ / ٥١). [٣] وقال آخرون أنّها تعنى الاهتمام بالشىء (شرح مغنيه ١/٢٧). [٤] وقال ابن أبى الحديد فى شرحه المعروف لنهج البلاغه: وقوله عليه السلام: «ولا همامه نفس اضطرب فيها» فيه رد على المجوس والثنويه القائلين بالهمامه الذين يعتقدون بأنّ النور الأعظم حين هم بمجابهه الظلمه بدا عليه الشك والترديد فخرج من ذاته بشىء يسمى بالهمامه. أمّا فى اللغة - كما ورد فى لسان العرب - فالهمامه تعنى الضعف والوهن والفتور ولذلك يطلق على كل رجل أو امرأه عجزوا اسم «هم» و «همه». ويبدو ممّا ذكر أنّ «الهمامه» الوارده فى العبارة إنّما تعنى الضعف والعجز فى العزم والإراداه بحيث يتعذر على الشخص اتخاذ القرار، أو أنّه يتخذ القرار بصعوبه.

فالإمام عليه السلام يبين البون الشاسع بين الخلق الإلهي والأعمال والأفعال التي تصدر عن المخلوقات. فالإنسان مثلاً إذا أراد أن يقوم بعمل ولم يكن لهذا العمل من سابقه وظن فكره وتأمله لينطلق إليه، وإن كان له سابقه احتذى بتجربته وتجارب الآخرين كما يعمد إلى خزينه الذهني والفكري بشأن ترتيب مقدمات العمل بغيه التوصل إلى نتائجه وكيفيه أدائه، وأحياناً يتيه في ترديده وحيrote بحيث يحكم رأيه ويقوم بالعمل على أساسه. وليس هنالك من سبيل لأى من هذه الحالات والاحتمالات للذات الإلهيه المقدسه، فما من حاجه إلى الفكر والتأمل ولا إلى التجارب السابقه ولا الحركه الفكرية استناداً إلى ترتيب المقدمات والحصول على النتائج ولا التردد والاضطراب فى الأعمال والقرارات. فليس وجود الشيء إلا إرادته «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (١). بعبارة اخرى فان هذه الاحتمالات الأربع إنما تتعلق بحصيله أعمال الأفراد الذين له حظ محدود من العلم والقدرة، ولازمه ذلك الحاجه وأفكار الآخرين وتجاربهم والشعور بالاضطراب والقلق. ولا سبيل لهذه الحالات إلى من خرج علمه وقدرته عن الحدود حين الخلق.

ويُتضح بجلاء ممّا قيل أنّ المراد بالحركه فى العبارة المذكوره إنّما هى حركه الفكر فى باطن النفس. ولكن هناك معنى آخر ساقه بعض المفسرون للحركه على أنّ المراد بها الحركه الجسميه الخارجيه التى تعدّ من لوازم الأجسام والله أعظم وأجل وأسمى من الجسم والجسمانيات. ويبدو أن المعنى الأول أنسب من الثانى؛ لأنّ الحالات الثلاث الأخرى التى وردت قبل وبعد العبارة المذكوره كلها مرتبطه باتخاذ القرار والتفكر والتأمل قبل الإتيان بالعمل.

وزبده الكلام أنّ أفعال الله ليست من جنس أفعال العباد وتختلف عنها تماماً، وذلك لأنّ

ص: ٧٠

أفعاله سبحانه تستند إلى علمه المطلق بمصالح الأشياء ومفاسدها ومعرفته الكامله بالنظام الأحسن للخلقه والقدره التامه على جميع الأشياء، وإرادته قاطعه تامه لا لبس فيها ولا ترديد ولا تأمل وتفكير فى إفاضه الوجود على الموجودات، وإرادته كانت وما زالت نافذه فى الخلق.

ثم أشار عليه السلام إلى كيفية خلق الموجودات والتدبير الإلهي فى ظهور الأشياء طبق الخطط والبرامج المنظمه فقال عليه السلام: «أحال الأشياء لأوقاتها» أى أنّ الله جعل لخلق كل موجود وقتاً معيناً (وذلك لأنّ خلقه قائم على أساس التدريج والتخطيط الزماني بغيه إيضاح عظمه تدبيره وقدرته الفريده الفائقه). فلما فرغ من الإشاره إلى التصنيف الزماني لخلقه الموجودات، تطرق عليه السلام إلى نظامها الخاص الداخلى والتركيبي فقال عليه السلام: «ولام (١) بين مختلفاتها». وهذا من عجائب عالم الخلقه، فقد ألف الله سبحانه بين مختلف الموجودات لتبدو متنسقه وكأنّها شىء واحد، فقد لائم بين البارد والحار والظلمه والنور والموت والحياه والماء والنار. لقد خلق النار من الشجر الأخضر وخلق الإنسان والحيوان والنبات مركباً من مواد تامه الاختلاف ذات طبائع متنوعه.

وأبعد من ذلك فقد أوجد رابطة عميقه محكمه بين الروح والجسم وهما ينتميان إلى عالمين مختلفين تماماً؛ أحدهما مجرّد ونوراني وشفاف للغايه والآخر مادي وظلماني وخشن للغايه. ثم قال عليه السلام: «وغرز (٢) غرائرها».

فقد أودعها الله سبحانه طبائعها ثم جعل لكل موجود طبيعته والهمه غريزته. وهذا فى الحقيقه من الحكمه الإلهيه البالغه التى أودعت كل موجود صورته الطبيعيه المنبعثه منه دون الحاجه إلى محرك خارجي، ولولا الدوافع الذاتيه لهذه الموجودات لانقطعت استمراريه

ص: ٧١

١- ١) «لام» و «لائم» من ماده «لام» بمعنى الجمع والإصلاح وضم شىء إلى شىء آخر والملائمه بينهما، ومن هنا اطلق على الدرع اسم «لامه» على وزن «رحمه» لالتحام حلقاتها وتداخلها مع بعضها.

٢- ٢) «غرز» من ماده «غرز» على وزن «قرص» تعنى فى الأصل غرس الأبره أو الجعل والادخال، ثم اطلقت فيما بعد على الطبائع التى أودعت الإنسان أو سائر الكائنات الحيه، وكأنّ هذه الطبائع بمثابة البذور التى غرست فى أرض الوجود الإنسانى.

الأشياء ولسادها الاضطراب والفوضى. وهناك اليوم تعبيران مختلفان بشأن هذه الدوافع الذاتية في الإنسان أو سائر الموجودات، فأحياناً يطلق عليها اسم الفطره وأن معرفه الله مودعه في الفطره الإنسانيه. . وأحياناً أخرى يعبر عنها بالغريره. فمثلاً- يقولون أنّ للإنسان غريزه جنسيه، أو يقولون بأن لحركات الحيوانات عموماً صبغه غريزيه. وهذا في الواقع اصطلاح استعمله العلماء بهذا الشأن. أحدهما بشأن الدوافع التي تتسم بالبعد الفكري (الفطره) والآخر بخصوص تلك التي ليس لها بعداً فكرياً أو لها بعد عاطفي (الغريره). إلّا أنّ كليهما يعني الخلقه على أساس المعنى اللغوي.

ثم قال عليه السلام: «الزمها (١) أشباحها». وقد تضاربت أقوال المفسرين - لنهج البلاغه - بشأن هذه العبارة، فذهب البعض ومنهم ابن أبي الحديد الذي قال ان الضمير المنصوب في «الزمها» عائد إلى الغرائز؛ أي ألزم الغرائز أشباحها، أي أشخاصها لأنّ كلاً مطبوع على غريزه لانزومه، وبالنتيجه فان العبارة تأكيد على ثبوت غرائز الموجودات. بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بالعبارة وجود التشخيصات الخاصه لكل موجود، أي أنّ الله سبحانه قد وهب كل موجود بعض الخصائص والمميزات، وبعد أن كان لها بعداً كلياً في علم الله فقد تبلورت في الخارج على هيئه جزئيات وأشخاص وعلى ضوء هذا التفسير فان الضمير في ألزمها يعود إلى (الإشياء) كما ذكر البعض كلا التفسيرين على نحو الاحتمال. ولكن لما كان التفسير الأول لا يتضمن انسجام الضمير وما ذهب إليه، إضافة إلى كون العبارة تتخذ طابع التأكيد لا بيان موضوع جديد، فإنّ الذي يبدو أنّ التفسير الثاني أصح وأصوب من التفسير الأول. وتوضيح ذلك أن الله تبارك وتعالى قد وهب كل موجود نوعين من الخصائص. الخصائص التي أودعت باطن ذاتها والتي عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرائر، والخصائص في الجوانب الظاهريه من قبيل الزمان والمكان وسائر الجزئيات والتي عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله «ألزمها أشباحها» وعلى هذا

ص: ٧٢

١ - (١) «أشباح» جمع «شبح» طبق ما أورده أغلب أرباب اللغة بمعنى الشخص في الأصل، كما وردت بمعنى ظهور الشيء واتضاحه، ومن هنا يطلق الشبح اليوم على الموجود الذي يتراءى ظله ثم يظهر فجأه.

الأساس يكون الحق واستناداً لحكمته البالغه في افاضته للخصائص الباطنيه والظاهرية لكل موجود ليقوم بوظائفه الخاصه به على ما يرام ويتميز عن سائر الموجودات.

تنبيه

الهدايه الفطريه والتكوينيّه لكافه موجودات العالم

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشاره لنقطه مهمه طالما ورد التأكيد عليها كراراً في القرآن: وهي أنّ لكافه موجودات عالم الخلقه والماده تصنيف زمانى خاص وفي نفس الوقت الذى يحكمها التضاد والاختلاف إلا أنّها منسجمه مع بعضها البعض ومكمله لها وأنّها مهديه على الدوام طبق نظمها الذاتى الباطنى والظاهرى وأنّها تنطلق كقافله منتظمه ومنسجمه نحو هدفها النهائى دون أى تعثر وانحراف، بل تسير إليه على نحو الدقه دون أن تخطأه. فتفتح الزهور وتحمل أوراق الأشجار للفاكهه والثمار فى فصلى الربيع، ذبولها وجفافها وتساقطها فى فصلى الخريف والشتاء، حركه الشمس فى الابراج الاثنى عشر، تعاقب الليل والنهار، دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وما اودع الإنسان من قوى باطنيه وظاهرية كلها شواهد على الهدايه التكوينيّه الإلهيه، والتي صرّح بها القرآن على لسان موسى عليه السلام: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» (١) وقال: «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» (٢) و «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ». (٣)

وهذا فى الحقيقه يمثل آيه من آياته سبحانه فى عالم الوجود التى تجعل الإنسان أكثر معرفه بالهدايه التكوينيّه والنظم والتصنيف الزمانى والتأليف بين الاضداد والمختلفات كلما تعمق فى التفكير بهذا العالم.

ص: ٧٣

١-١) سورة طه / ٥٠. [١]

٢-٢) سورة الروم / ٣٠. [٢]

٣-٣) سورة الحجر / ٢١. [٣]

ثم قال عليه السلام: «عالمًا بها قبل ابتدائها محيطًا بحدودها وانتهاؤها عارفًا بقرائنها (١) وأحنائها (٢)» (٣).

والواقع أنّ هذه العبارات الثلاث قد جاءت بمثابة دليل أو إيضاح للعبارات السابقة، وذلك لأنّ من أراد أن يخلق موجوداً في وقته المناسب ويلائم بين الأشياء المختلفه ويودعها غرائزها الباطنيه ولوازمها الظاهرية فانه يحتاج إلى علم جامع كامل من جانب وإلى إحاطه وقدره تامه وشامله من جانب آخر. ولذلك قال عليه السلام: «عالمًا بها قبل ابتدائها. . .» ولا يقتصر علمه على ابتدائها وانتهاؤها فحسب، بل هو عالم محيط بلوازمها وعللها وآثارها أيضاً. ومن المفروغ منه أن من كان عالمًا بهذه الأمور قادراً على الإتيان بها، فان له أن يضع كل شيء في موضعه ومكانه ويفيض على كل منها لوازمه ويسوقه في مسيرته الوجودية إلى كماله المنشود.

تأملان

١ - هل يصطلح بالعارف على الله؟

لقد تحفظ بعض مفسري نهج البلاغه على وصف الله سبحانه بالعارف. ويبدو أنّ هذا التردد ينبع من أمرين: الأول ما أورده «الراغب» في «المفردات» من أنّ المعرفة والعرفان تعني إدراك الشيء من خلال التفكير والتأمل والتدبر في آثاره، أو بتعبير آخر إنّما يطلق اسم المعرفة على العلم المحدود الذي يتأتى عن طريق التفكير، ومن المسلم به أنّ العلم الإلهي ليس كذلك. والثاني الحديث الذي روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أنّ له (تعالى) تسعه وتسعين

ص: ٧٤

١ - ١) «قرائن» جمع «قرينه» بمعنى المصاحب والرفيق، ولذلك يقال لزوجه الرجل قرينته (الصحاح والقاموس وسائر الكتب اللغويه)، بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغه [١] كابن أبي الحديد إلى أنّ القرائن جمع قرونه (على وزن معونه) وهي النفس ولكن يبدو المعنى الأول أنسب بالاستناد إلى التعبيرات التي وردت في الجمله.

٢ - ٢) «أحناء» جمع «حنو» على وزن فعل «وحنو» على وزن حرف وتطلق على كل شيء فيه اعوجاج وانحناء - على ضوء ماورد في المقاييس ولسان العرب - كعظم الفك والاضلاع. ثم وردت بمعنى الجوانب أيضاً (وذلك لأن جوانب وأطراف الأشياء غالباً ما تشتمل على انحناءات).

٣ - ٣) لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الضمائر التي وردت في هذه العبارات إنّما تعود إلى الأشياء لا الغرائز كما صرح بذلك بعض شراح نهج البلاغه؛ [٢] وذلك لعدم وجود الانسجام بين الاحتمال الثاني ومضمون الجمله.

اسماً من أحصاها دخل الجنة» حيث يجمع العلماء على أنّ اسم العارف لم تكن وارده ضمن هذه التسعة والتسعين إسماً (١) إلا أن الدراسة الإجمالية تفيد أنّ هذا الوصف قد اطلق كراراً على الله في الروايات الإسلاميه، وبالإضافه إلى نهج البلاغه الذى تعرض هنا لهذا الأمر بصورة وصفيه وفي موضع آخر بصورة فعليه، فقد ورد هذا الوصف كثيراً فى الروايات التى نقلها أصول الكافى. (٢)

ويشير هذا الأمر إلى أنّ مفردة المعرفه وان كانت فى الأصل تعنى المحدوديه أو الحاجه إلى التفكير والتدبر، غير أنّها اتسعت أثر كثره الاستعمال حتى صارت تطلق على كل نوع من العلم والمعرفه، وإن لم تكن وليده الفكر والتدبر.

أمّا بشأن الروايات المرتبطه بالتسع وتسعين اسماً لله، فينبغى القول أنّ هذه الروايه لا تقصر الأسماء على تسعه وتسعين أبداً، بل هى تشير فى الحقيقه إلى صفات الله وأسمائه الحسنى، ولذلك صرّحت بعض الروايات بألف اسم للبارئ سبحانه، وأخيراً أى دليل أعظم من أن يستفيد الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه من هذا الاسم أو مشتقاته بالنسبه لله وهو الأعراف والأعلم أكثر من غيره بخصوص أسماء الله وصفاته.

٢ - كيفية علم الله بالموجودات قبل ايجادها

إنّ أحد أعقد المباحث الفلسفيه والعقائديه هو بحث «علم الله بالموجودات قبل ايجادها». فاننا نعلم بأنّ الله سبحانه عالم بالحوادث التى ستقع، وهذا ما ورد التأكيد عليه فى الآيات القرآنيه الشريفه، وهو ما ورد فى العبارة المذكوره، ومن جانب آخر فان علم الله ليس من قبيل «العلم الحصولى»؛ أى ليس هنالك من انعكاس للصوره الذهنيه للأشياء فى ذاته؛ وذلك لأنه ليس له من «ذهن» كالمخلوقات، فعلمه لا يتأتى من خلال انعكاس صور الموجودات، بل

ص: ٧٥

١- ١) لقد أورد ابن ميثم هذا الموضوع بصيغه اشكال ثم أجاب عنه بان أسماء الله أكثر من هذا العدد وقد ذكر عدّه شواهد على مدعاه (شرح نهج البلاغه، لابن ميثم ١ / ١٣٧). جدير بالذكر ان هذا الحديث قد ورد فى الدر المنثور عن صحيح البخارى وصحيح مسلم ومسنده أحمد وسنن الترمذى وسائر المصادر الروائيه ٣ / ١٤٧ (نفحات القرآن ٤ / ٤٦).

٢- ٢) أصول الكافى ١ / ٩١، باب النسبه، ح ٢ وص ١١٣، باب حدوث الأسماء، ح ٢.

علمه «علم حضوري»؛ أي أنّ المخلوقات حاضره عنده، ونعلم أن ليس هناك من معنى للعلم الحضوري بشأن الأشياء التي لم تظهر للوجود؛ بل هذا الإشكال وارد حتى بخصوص الموجودات التي زالت وانعدمت في الماضي؛ فان كان لنا من علم بها بفضل صورها الذهنيه التي تبلورت في أعماقنا وأفكارنا. ولكن كيف لمن ليس له ذهن وصور باطنيه وليس من سبيل للحوادث إلى ذاته المقدسه أن يحيط بها؟! على سبيل المثال: لقد زالت صورته فرعون ورهطه وانقطع تأريخهم، وليس لنا سوى استحضار صورتهم في أذهاننا، ولكن ما كيفيه علم الله به وهو ليس من قبيل علمنا؟ فهل يمكن القول بأنه ليس عالماً بالماضي؟ أم ليس له من علم بالمستقبل؟ أبداً لا يمكن ذلك! إذن إن كان عليماً فما كيفيه هذا العلم؟

لقد أثارت هذه المسأله الجدل في أوساط الفلاسفه والعلماء فقدموا عدّه أجوبه بهذا الشأن، سنقتصر هنا على الإشاره إلى بعضها:

١ - إنّ الله كان ومازال عالماً بكافه الأشياء بذاته التي تعتبر عله لجمعها، وبعبارة أخرى فإنّ لذاته أعظم الحضور لدى لذاته، وهذا العلم بذاته هو علم إجمالي بكافه حوادث العالم وموجوداته قبل الایجاد وبعده. وتوضیح ذلك أننا لو علمنا على نحو الدقه بعله الأشياء فان مثل هذا العلم سيقود بالنتیجه إلى العلم بنتائجها ومعلولاتها؛ وذلك لأنّ كل عله تشتمل على كافه كمالات المعلول وزياده، ولما كان الله عله جميع الأشياء ويعلمها بذاته ويحيط بها، وفي الواقع فان هذا نوع من الكشف التفصيلی تجاه جميع الأشياء من خلال العلم الاجمالي. ويمكن توضیح هذا الكلام بالقول: إنّ الحوادث الماضيه لم تنعدم بالمره أبداً وإنما لها وجود وحضور في عمق حادث الحاضر. كما أنّ الحوادث المستقبلیه ليست معزوله عن الحوادث الحاضره فهي مرتبطه بها ونابعه منها. وعلى هذا الأساس فإنّ الماضي والحاضر والمستقبل إنّما يوجد سلسله من العلل والمعاليل بحيث أنّ العلم باحدى حلقاتها إنّما يعنى العلم بما قبلها وما بعدها من حلقات. على سبيل المثال لو علمنا بدقه الأوضاع الجويه للكره الأرضيه والعوامل المؤديه لظهور الأجواء الفعلیه وأحطنا بكافه جزئيات وروابط عللها ومعاليلها، فاننا سنستطيع التعرف بدقه على أوضاع الأجواء لما قبل أو بعد آلاف السنين؛ وذلك لأنّ ملف حوادث الماضي والمستقبل موجوده في الحاضر. فالیوم یحمل انعكاساً دقيقاً عن الأمس،

والغد عن اليوم والعلم التام بجزئيات اليوم بمعنى العلم التام بالحوادث الماضية والمستقبلية. فاذا التفتنا إلى هذه الحقيقة وهو أنّ الله سبحانه المصدر الأصلي لجميع حوادث الأمس واليوم والغد وأنّ له العلم بذاته المقدسه، فان علينا أن نقر بأنّه عالم أيضاً بحوادث المستقبل والحاضر والماضى. وبالطبع فان آثار كل موجود مهما كان إنّما تتبع إرادته الله وأمره، إلّا أنّ سنته جرت في منح الموجودات قدره على القيام بفعاليتها، فاذا شاء جردها منها. (١)

٢ - الإجابة الثانية التي يمكن إيرادها في هذا المجال أنّه يمكن لعلنا تصور الأمس واليوم والغد، وذلك لأننا موجودات محدوده. أما بالنسبة لله الذي لا حدد لذاته فليس هنالك من مفهوم للأمس واليوم والغد لديه، بل إنّ كافة الأشياء والحوادث حاضره عنده بجميع جزئياتها وخصوصياتها.

ويمكننا الاستشهاد بمثال على هذا الكلام:

افرض أنّ هناك فرداً في زنانه مظلّمه ليس لها سوى نافذه صغيره على الخارج. فاذا مرت قافله من الجمال من هذه النافذه فانه سيشاهد في بدايه الأمر رأس وعنق جمل واحد ثم يرى رجليه وذنبه ومن ثم سائر الجمال في هذه القافله. فصغر النافذه هو الذي يشكل السبب الذي يجعله يعيش حاله من الماضي والحاضر والمستقبل، بينما يختلف هذا الموضوع تماماً بالنسبه لذلك الفرد الواقف على سطح في محيط مكشوف خارج تلك الزنانه وينظر إلى الصحراء، فهو يرى قافله الجمال معاً خلال حركتها.

ص: ٧٧

١ - ١) إنّ من أورد هذا الجواب لحل الإشكال المذكور قد واجه هذا السؤال: وهو أنّ لازمه هذا الكلام أنّ ليس لله من علم بكثره الموجودات بوصف الكثره قبل وجودها، لأنّه ليس هنالك من كثره في ذاته، أو بتعبير آخر، أنّ علمه متفاوت بالموجودات قبل وجودها وبعده: فقد كان سابقاً على نحو العلم الإجمالي، ولاحقاً على نحو العلم التفصيلي، والعجيب أنّ بعضهم قد اعترف بهذا التفاوت.

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتَقَّ الْأَجْوَاءَ وَشَقَّ الْأَرْجَاءَ وَسَكَّائِكَ الْهَوَاءَ» .

الشرح والتفسير لقد تناول الإمام عليه السلام بدايه انبثاق الخلق فقال عليه السلام: «ثم أنشأ سبحانه فتق (١) الأجواء (٢)» وهو يشير إلى شق الطبقات الجويه، ثم فتح جوانبها وأطرافها «وشق (٣) الأرجاء (٤)» وأوجد الفضاء والهواء «وسكائك (٥) الهواء (٦)» . فقد أشير إلى فتق الأجواء ثم ايجاد أطرافها وجوانبها

ص: ٧٩

١ - ١) «فتق» على وزن مشق بمعنى الشق والضجوه بين شيئين وهى ضد الرق (كما أورد ذلك الراغب فى مفرداته) . ويقال للصبح «فتيق» ، لأنه يشق الافق ويظهر، وقال صاحب لسان العرب أنه يطلق «فتيق اللسان» على الفرد الخطيب والفصيح اللسان، لأنه يتحلى بلسان طلق ذرب.

٢ - ٢) «أجواء» جمع «جو» بمعنى - حسب قول المفردات ولسان العرب - الفضاء الحاصل بين السماء والأرض.

٣ - ٣) «شق» بمعنى الفتحة فى الشىء، ومن هنا اطلق الشقاق على الاختلاف الذى يحدث بين الناس ويفصلهم عن بعضهم البعض الآخر.

٤ - ٤) «أرجاء» جمع «رجا» (دون همزه) تعنى حسب «مقاييس اللغه» أطراف البئر أو أطراف أى شىء آخر، الرجاء بالهمزه فيعنى الأمل. بينما يعتقد البعض من قبيل كاتب «التحقيق» أن معناها الأصلى الشىء الذى يرجى وقوعه فى الجوانب الأطراف، ولذلك يطلق على هذه الجوانب والأطراف المرجوه «رجا» دون همزه.

٥ - ٥) «سكائك» جمع «سكاكه» على وزن خلاصه، قال صاحب لسان العرب أنها تعنى الفضاء الواقع بين السماء الأرض، وقال ابن أبى الحديد هى أعلى الفضاء.

٦ - ٦) «الهواء» بمعنى الخالى والساقط، ولذلك يطلق لفظ الهواء على كل شىء خالٍ، ومن ذلك الفضاء بين السماء والأرض. وأمّا سبب إطلاق لفظه «الهوى» على الشهوات والنزوات النفسيه فهى أنها تشكل مصدر سقوط الإنسان فى الدنيا والآخرة (مقاييس اللغه، مفردات الراغب، لسان العرب) . ويبدو ان اطلاق هذه المفرده على الغاز اللامرئى المركب من الاوكسجين والاوزون إنما هو من الاستعمالات الجديده والذى يناسب أيضاً المعنى الأصلى، لأنه يبدو موضعاً خالياً (وإن ورد بهذا المعنى فى بعض الروايات أيضاً) .

ومن ثم طبقاتها. وتشير العبارة بأجمعها إلى أنّ الخلق الأول في عالم المادة كان خلق فضاء العالم، الفضاء الذي يسعه استيعاب الكرات السماويه والمنظومات وما إلى ذلك، بالضبط كالصفحة الورقيه التي يعدها الرسام الماهر مسبقاً لرسم ما يشاء. ومن هنا يتضح أنّ كلمه «ثم» في العبارة لا- تفيد معنى الترتيب التكويني، بل تفيد الترتيب والتأخير البياني؛ لأنّه قد أشير في العبارات السابقه إلى خلق أنواع الموجودات والكائنات، ومن المتيقن ألا تكون قد أعقبت بخلق الفضاء ثم كريات السماء والأرض. وفي الواقع فقد تضمنت العبارات السابقه أبحاثاً بشأن خلق الموجودات بينما تكفلت هذه العبارة شرح تلك الأبحاث وتفصيلها. على كل حال فإنّ ظاهر هذه العبارة تفيد أن الفضاء أول مخلوق في عالم المادة، غير أنّ هناك ترديد لدى بعض الفلاسفه والمتكلمين بشأن الفضاء في أنّه أمر وجودي أم عدمي؟ فهناك من يعتقد كما أنّ الزمان قد ظهر بعد انبثاق الموجودات وحركتها (لأنّ الزمان هو وحده الحركة) فإن المكان هو الآخر قد حصل بعد ظهور الأجسام المختلفه ومقارنتها مع بعضها. والحال يتعذر علينا تصور عدم وجود مكان مطلق إثر ظهور أول جسم إلى الوجود. فلو أردنا أن نبني عماره ذات عدّه طبقات فاننا نحتاج إلى فضاء تشغله تلك العماره كحاجتنا إلى مكان على الأرض نبنينا عليه، وإذا أردنا أن نبني عماره أكبر فأنها ستحتاج إلى فضاء أوسع. والخلاصه فاننا نؤمن بما أورده الإمام عليه السلام بقوله «ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء» ونوكل الاستغراق في هذا البحث إلى محله.

تأمل: هل العالم المادي حادث؟

هناك كلام كثير يدور بين الفلاسفه والعلماء بشأن العالم فهل العالم المادي حادث أم قديم أزلي؟ فالبعض يرى أنّه قديم أزلي بينما يعتقد الأعم الأغلب أنّه حادث. أمّا دليل القائلين بالأزليه والقدم فانما يستند إلى الذات الإلهيه المقدسه القديمه وكل ما سواها فهو حادث ومخلوق وتابع لذاته المقدسه. وأمّا أنصار عقيدته حدوث العالم فأحياناً يستدلون بالأدله الفلسفيه على مدعاهم وأحياناً أخرى بالأدله العلميه. فبرهان الحركة والسكون من الأدله

الفلسفيه المعروفه التى تقول بأن عالم الماده دائماً فى حاله حركه وسكون، والحركه والسكون من «الأمور الحادته» وما كان معروضاً للحركه والسكون فهو حادث أيضاً. ويمكن ايراد هذا الدليل بتعبير أوسع وأشمل وهو أنّ عالم الماده دائماً فى حاله تغيير، والتغيير والتبدل علامه على الحدوث، لأنه لو كان أزلياً وهو مسرح على الدوام للتغيير والتبدل فان ذلك سيكون جمع بين الحدوث والقدم، أى لا بدّ أن نرى التغييرات وهى من الأمور الحادته أزليه، وهذا تناقض صريح. ويتضح هنا أكثر فأكثر اقرار هذا الدليل للحركه الجوهرية التى تقول بأنّ الحركه كامنه فى ذات الأشياء، بل هى عين ذاتها؛ لأنّ وجود الحركه هذا الأمر الحادث فى الأزل لا معنى له. ونترك دراسه وتحليل هذا الدليل إلى الأبحاث الفلسفيه الوارده بهذا الشأن. الدليل العلمى فهو الدليل الذى يقول بأنّ العالم فى حاله تآكل دائميه وقد قامت الأدله والبراهين العلميه التى تثبت ذلك، ويصدق هذا الأمر على التيارات والثوابت والأرض وما كان على سطحها. فالتآكل المستمر دليل على أن هناك نهايه وخاتمه لعالم الماده. لأنّ التآكل لا يمكن أن يستمر إلى ما لا- نهايه، فاذا قبلنا أنّ للعالم المادى نهايه، يجب أن نذعن بأن له بدايه. لأن الشىء لا يكون أزلياً مالم يكن أبدياً. فالأبديه تعنى اللانهايه، والشىء اللامنتهى ليس بمحدود، وإذا كان ليس بمحدود فلا بدايه له، وعليه فالشىء إذا لم يكن أبدياً سوف لن يكون أزلياً. ويمكن ايراد هذه الكلمه بصيغه أخرى وهى أنّ العالم لو كان أزلياً وفى حاله تآكل، فلا بدّ أن يكون هذا التآكل قد أنهى عمر العالم لأنّ تناهى التآكل يساوى العدم. وبتعبير آخر على ضوء آخر النظريات العلميه أنّ العالم المادى يسير نحو الروتينيه. فالذرات تتلاشى تدريجياً وتتحول إلى طاقه، والطاقه تسير نحو الروتينيه (بالضبط كشمعه النار التى توقدها فى غرفه فتتحول ماده النار إلى حراره فتنشر هذه الحراره تدريجياً فى وسط الغرفه حتى تكون بالتالى شيئاً روتينياً لا أثر له). وكما مرت لا نهايه الزمان على العالم ستحصل هذه الحاله؛ أى تحول كافه المواد إلى طاقه وبالتالى تتحول هذه الطاقه الفعاله إلى طاقه روتينيه وباهته.

لكن لا- يعنى هذا الكلام أنّ زماناً قد مرّ ولم يكن لله من خلق وأنّ ذاته الفياضه قد توقفت عن هذا الفيض، بل بالعكس فان عمليه الخلق مستمره، إلّا أنّ المخلوقات كانت دائماً تشهد حاله التغيير والتبدل وأنّ جميع هذه المخلوقات تابعه لذاته المقدسه، أو بتعبير آخر كان له

حدوثاً ذاتياً لا زمانياً. وذلك لعدم إمكانية تصور الحدوث الزماني للجميع. وما ورد في الرواية التي قالت: «كان الله ولا شيء معه» (١) إنما يراد بها أنه لم يكن شيء مصاحباً لذاته بل مخلوقاً لها (لابد من التأمل).

ص: ٨٢

١-١) توحيد الصدوق / ٦٦، كما ورد شبيه هذا المضمون في / ١٤٥ - ٢٢٦.

«فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاظِمًا تَيَّارُهُ مُتْرَاكِمًا زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفِ مَهْ وَالرَّعْزَعِ الْقَاصِ مَهْ فَأَمَرَهَا بِرُدِّهِ، وَسَيَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَّنَهَا إِلَى حَدِّهِ، الْهَوَاءَ مِنْ تَحْتِهَا فَتَيَّقُ وَالْمَاءَ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقُ» .

الشرح والتفسير ما يستفاد من كلمات أمير المؤمنين على عليه السلام ولاسيما في هذه العبارات وما سيتبعها في توضيح كيفية خلق العالم هو أن الله سبحانه قد خلق ابتداءً الماء - أو بتعبير آخر - مائعاً يشبه الماء ثم حمله على ريح عاتيه شديده، وقد أمرت هذه الريح أن تحفظ هذا المائع وتحول دون تشتته وتفرقه. ثم هبت ريح شديده أخرى بهدف ايجاد أمواج في ذلك المائع العظيم والواسع فجعلت الريح تلك الأمواج أعظم وأشد ثم دكتها على بعضها، ثم تموج ذلك المائع تمويجاً شديداً حتى ارتفع في الفضاء، فخلق منه السموات السبع. جدير بالذكر أن الماء والريح والعاصفه وما شابه ذلك - في ذلك الوقت الذي لم يكن فيه ماء ولا ريح ولا عاصفه - كناية عن موجودات شبيهه بما نراه اليوم من ماء وريح وهواء، وذلك لأنّ واضعي المفردات قد جعلوا هذه الكلمات لمثل هذه الأمور، فلم يضعوا أيه مفرده لما حدث أوائل خلقه العالم. وان أدنى تأمل يجعل من الممكن تفسير ما ورد من عباراته عليه السلام على ضوء آخر الفرضيات والنظريات التي طرحها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، ولا نقول إنّ هذا هو مراد الإمام عليه السلام على سبيل القطع، بل نحتمل أن يكون تفسيره كذلك.

فآخر الفرضيات التي توصل إليها العلماء بشأن بدايه ظهور العالم، هو أنّ العالم برمته في

البدايه كان بهيئه كتله غازيه عظيمه شبيهه بالمائع، كما يمكن الاصطلاح عليها باسم «الدخان»، أو بتعبير آخر كانت الطبقات العليا من العالم دخاناً، وكان هذا الدخان يتخذ شكل المائع بفعل حاله الضغط كلما إقترب من مركز العالم.

أمّا الشيء الذى تكفل بحفظ تلك الكتله العظيمه للغايه إنّما تمثل بالجاذبيه التى تحكّم جميع ذرات العالم، وقد سلطت هذه الجاذبيه على ذلك الغاز المائع فشده وحالت دون خروجه من حدوده. ثم ابتدأت هذه الكتله العظيمه بالدوران حول نفسها (أو أنّها كانت تدور حول نفسها منذ البدايه) وهنا ظهرت قوه الطرد المركزيه. (1)وقد أدت قوه الطرد المركزيه هذه بتلك الكتله العظيمه من ذلك الغاز المضغوط أن تقذف فى الفضاء الخالى، وعلى حد تعبير نهج البلاغه كما سيأتى فى العبارات التاليه من هذه الخطبه «فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثاره موج البحر فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء» ثم ظهرت منها المنظومات والكواكب والكرات الصغيره والكبيره للعالم؛ الأمر الذى نعته القرآن ونهج البلاغه بالسموات السبع. طبعاً كل ما نريد أن نقوله - دون الاصرار على هذا الموضوع - هو الانسجام القائم بين عبارته عليه السلام والفرضيات والنظريات العلميه الوارده بذات الشأن، حيث يمكن استيعاب كلام الإمام على عليه السلام على ضوء النظريات والاطروحات العلميه المعاصره بخصوص ظهور السموات والارضين والكواكب والاجرام السماويه وسائر الكرات. ومنتقل الآن إلى أصل عبارته، فقد قال الإمام عليه السلام: «فاجرى فيها ماء متلاطماً (2) تياره (3)». .

«التلاطم» بمعنى اصدام الأمواج ببعضها، والتيار يعنى الموج، ولا سيما الأمواج التى يقذفها الماء خارجاً، أفليس هذا الماء المتلاطم والمتدفق هو تلك الغازات الأوليه المضغوطه التى تمثل الماده الأوليه للعالم على ضوء نظريات العلماء واطروحاتهم؟ ثم أكد الإمام على عليه السلام على شده

ص: ٨٤

١- ١) كل شىء يدور حول نفسه إنّما يتعرض إلى قوه تحاول طرده من المركز، كالشعله التى ندورها بايدينا فاذا تركناها فجأه قذفت إلى نقطه بعيده، وما هذا إلّا لوجود قوه الطرد المركزيه، وكلما تضاعفت هذه القوه فان شده القذف خارجاً تتناسب طردياً وازدياد تلك القوه.

٢- ٢) «متلاطم» من ماده «لطم» على وزن ختم بمعنى صفع الوجه باليد، ثم استخدمت هذه المفرده لاحقاً بمعنى اصطدام الأمواج مع بعضها.

٣- ٣) «التيار» بمعنى أمواج البحر التى يقذف بها الماء، وقد أطلقها البعض (مقاييس اللغه ولسان العرب) على كل نوع من الأمواج.

تدقق ذلك الماء وعظم تلاطمه فقال: «متراكم (١) زخاره (٢)» .

ثم أضاف عليه السلام: «حمله على متن الريح العاصفه (٣) والززع (٤) القاصفه (٥)» .

فالعاصف بمعنى الضاربه والكاسره والززع بمعنى الضطربه والشديده الهبوب وكذلك القاصفه التى تهلك الناس بشده هبوبها، وكأن كل هذه المفردات تأكيدات متتاليه لبيان قوه تلك الريح وسعتها وشموليتها. ثم أمرت هذه العاصفه العظيمة المرعبه بحفظ أجزاء الماء مع بعضها البعض ضمن حدودها «فأمرها برده، وسلطها على شده (٦)»، وقرنا إلى حده». أو ليست هذه العاصفه العظيمة والشديده إشارة إلى أمواج الجاذبيه التى سلطها الله على جميع ذرات عالم المادة التى كانت سبباً لتمامك أجزائها وعدم تشتتها وتناثرها، وتقييدها بالحركه فى إطار حدودها؟ فهل هناك من تعبير أروع وأدق من الريح العاصفه القاصفه لتبيين الأمواج العظيمة للجاذبيه فى ظل تلك الأجواء.

وقد حصلت كل هذه الأمور و «الهواء من تحتها فتق (٧) والماء من فوقها دفيق (٨)» والفتيق من ماده فتق بمعنى المفتوق؛ المفتوح، ودفيق من ماده دقق بمعنى الحركه السريعه.

ص: ٨٥

١- ١) «متراكم» من ماده «ركم» على وزن رزم بمعنى تراكم شىء والتقاء بعضه على بعض، وتطلق على الغيوم والرمال والمياه وحتى الجموع الغفيره من الناس التى تتجمع فى موضع (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغه) .

٢- ٢) «زخار» من ماده «زخر» و «زخور» بمعنى الامتداد والارتفاع، كما يطلق على امتلاء البحر وتلاطمه.

٣- ٣) «عاصفه» من ماده «عصف» على وزن عصر بمعنى الخفه والسرعه، ومن هنا يطلق العصف على قشور الحبوب التى تكسر بسرعه، كما يقال «عاصف» و «معصف» للشىء الذى يحطم سائر الأشياء وينعمها (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغه) .

٤- ٤) «ززع» على وزن زمزم بمعنى الحركه والاضطراب والاهتزاز، كما تستعمل بمعنى الشديد (مقاييس اللغه ولسان العرب) .

٥- ٥) «قاصفه» من ماده «قصف» على وزن حذف بمعنى كسر الشىء، ومن هنا يطلق القاصف على العواصف الشديده التى تكسر السفن فى البحار وكذلك الرعد والبرق الشديد الكاسر (المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغه) .

٦- ٦) «شد» على وزن مدّ بمعنى قوه الشىء وقدرته، ولذلك يصطلح بالشديد على الفرد القوى (ولا سيما القوى فى الحرب) . كما تستعمل هذه المفرده بمعنى ربط العقده وأحكام وثاقها (سواء كانت فى البدن أو فى القوى الباطنيه والروحيه أو فى المصيبه والعذاب) . (لسان العرب، المفردات ومقاييس اللغه) .

٧- ٧) «فتيق» من ماده «فتق» ذكرناها سابقاً.

٨- ٨) «دفيق» من ماده «دقق» على وزن دقن بمعنى دفع الشىء إلى الإمام، كما تستعمل بمعنى السرعه. ولذلك يطلق «الادقق» على الناقه السريعه.

نعم إن هذه الأمواج المتدفقه إنما تحد بواسطة تلك الرياح العاصفه، فتحول دنها ودون تجاوزها لحدودها - وهنا يبرز هذا السؤال: كيف تظهر تلك الأمواج المتدفقه على سطح الماء رغم وجود تلك الرياح العاصفه الحائله والمانعه، فالمعروف أن تلك الأمواج عاده ما تظهر بفعل حركه الرياح والعواصف، رغم أن الرياح هنا تلعب دور المانع والحائل لتلك الأمواج، إذن ما العامل الذى يقف وراء حركه الأمواج.

يبدو أن العامل الذى يقف وراء ظهور هذه الأمواج هو شىء كامن فى باطنها بحيث يجعله يتلاطم على الدوام. ولكن ليست لدينا رؤيه واضحه لماهيه هذا العامل، إلّا أنه ينسجم تماماً والنظريات التى أوردها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، فهم يقولون أن انفجارات نوويه متواصله وقعت فى جوف الغازات الاولى ذات الطبيعه المائعيه، وهى هذه الانفجارات التى تحدث اليوم فى الشمس. فهذه الانفجارات العظيمة قضت على سكون واستقرار هذه الغازات المائعيه وأوجدت تلك التلاطمات فى أمواجها المتدفقه.

ولابد لنا من متابعه المقطع الآخر لاكمال هذا القسم فنقف على الصوره الدقيقه التى رسمها الإمام عليه السلام لإنبثاق الخليقه.

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبَهَا وَأَدَامَ مُرَبِّهَا وَأَعَصَفَ مَجْرَاهَا وَأَبْعَدَ مَنَشَأَهَا فَأَمَرَهَا بِتَضْيِيقِ الْمَاءِ الزَّخَارِ وَإِثَارِهِ مَوْجِ الْبِحَارِ فَمَخَضَتْهُ مَخَضَ السَّقَاءِ وَعَصَيْتْ بِهِ عَضِيْفَهَا بِالْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ وَرَمَى بِالزَّبِيدِ رُكَامَهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِحٍ وَجَوٍّ مُنْفَهَقٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَسَمَكًا مَرْفُوعًا بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعُمُهَا وَلَا- دِسَارٍ يَنْظُمُهَا ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثَّوَابِقِ وَأَجْرَى فِيهَا سَرَاجًا مُسْتَطِيرًا وَقَمَرًا مُنِيرًا فِي فَلَكِكِ دَائِرٍ وَسَقْفٍ سَائِرٍ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ» .

الشرح والتفسير كما أوردنا فإن هذه الكلمات امتداد لعباراته السابقة ونتجه بادئ ذي بدء إلى فهم التعبيرات الدقيقة والعميقة في كلام الإمام عليه السلام دون اصدار حكم بشأنها، ثم نتحدث بعد ذلك عن مدى انسجامها مع آراء ونظريات العلماء المعاصرين بخصوص مسأله خلق العالم. فالإمام يشير في كلامه إلى عدّه مراحل. فقال عليه السلام: «ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم (١) مهبتها (٢)» .

فالريح العقيم هي الريح الخاليه من السحب التي تؤدي إلى نزول المطر، وبالتالي فهي لا

ص: ٨٧

- ١- ١) «اعتقم» من ماده «عقم» على وزن قفل بمعنى الجفاف المانع من قبول الأثر، ويطلق العقيم على المرأه التي لا تتقبل نطفه الرجل، كما تأتي بمعنى الضيق أيضاً كما ورد في المفردات ولسان العرب ومقاييس اللغه.
- ٢- ٢) مهبتها من الهبوب على وزن السجود الحركه بالنسبه للسيف والاضطراب ومن هنا تطلق على هبوب الرياح.

تلقيح سحاباً ولا شجراً. ثم وصفها عليه السلام بملازمتها للماء وعدم انفصالها عنه فقال: «وأدام مربّها (١)» خلافاً للرياح العاديه التي تهب أحياناً وتسكن أحياناً أخرى؛ ريح شديده عاتيه (تختلف كلياً عن الرياح والعواصف الاعتياديه) فقال عليه السلام: «وأعصف (٢)مجريها». وهى ریح تهب من مكان سحيق وليست على غرار الريح الاعتياديه التي تنطلق من أماكن قريبه (وأبعد منشاها).

ثم أشار في المرحله الثانيه إلى مهمّه هذه الرياح «فامرّها بتصفيق (٣)الماء الزخار، واثاره موج البحار» فقامت هذه الريح العاتيه العظيمه بمخض الماء كقرب السقاء «فمخضته (٤)مخض السقاء». «وعصفت به عصفها بالفضاء» ثم قال عليه السلام: «ترد أوله إلى آخره وساجيه (٥)إلى مائره (٦)».

وقال عليه السلام في المرحله الثالثه بشأن تراكم المياه وارتفاعها «حتى عب عبا (٧)» بمعنى ارتفع أعلاه «ورمى بالزبد ركامه (٨)» . ثم قال عليه السلام في المرحله الرابعه: «رفعه في هواء منفق وجو منفق (٩)» فخلق منها تبارك وتعالى السموات السبع «فسوى منه سبع سموات» حيث جعل الأقسام السفلى، كالأموج المكفوفه الممسوكه والطبقات العليا كالسقف المحفوظ «جعل

ص: ٨٨

١ - ١) «مرب» من ماده «ربّ» التي تعنى في الأصل الترييه، وتطلق الرب على المربي والمالك والخالق (وهو مصدر له معنى الفاعليه) ويفيد معنى الاستمرار والملازمه إذا جاء من باب الأفعال (إرباب) لأنّ الترييه متعذره دون الاستمرار). وبناءً على هذا فإنّ «مربّ» مصدر ميمي بمعنى الدوام والبقاء.

٢ - ٢) «أعصف» من ماده «عصف» على وزن عصر، بمعنى السرعة والحركه والشده كما ذكرنا.

٣ - ٣) «تصفيق» من ماده «صفق» على وزن سقق بمعنى تقيب الشىء بعضه على بعض بحيث يصاحبه الصوت، ومن هنا اطلق التصفيق على ضرب الكفين - وهى هنا بمعنى تحريك المياه وتقليبها على بعضها (لسان العرب، مقاييس اللغه، شرح محمد عبده).

٤ - ٤) «مَخَضَ» من ماده «مخض» على وزن قرض بمعنى تحريك الموائع في ظروفها، ولذلك يستعمل هذا التعبير أثناء تحريك اللبن في القربه لفصل الزبده عنه.

٥ - ٥) «ساجي» من ماده «سجو» على وزن سهو بمعنى السكون والهدوء.

٦ - ٦) «مائره» من ماده «مور» على وزن فور بمعنى الحركه السريعه، وتطلق هذه المفرده على الجاده أيضاً لأنّ الناس يتحركون عليها ذهاباً وإياباً.

٧ - ٧) «عباب» من ماده «عب» بمعنى شرب الماء سريعاً دون تريث، ومن هنا اطلق العباب على الماء الكثير والمطر الغزير والسيل العظيم، وهى هنا بمعنى تراكم المياه على بعضها.

٨ - ٨) «ركام» أشرنا إلى معناها سابقاً (ما تراكم منه بعضه على بعض).

٩ - ٩) «منفحق» من ماده «فحق» على وزن فرق بمعنى المفتوح الواسع، ولذلك يصطلح بالمنفحق على الجزء الواسع من الوادى والوعاء المملوء بالماء.

سفلاهن موجاً مكفوفاً (١) وعلياهن سقفا محفوظاً وسمكاً (٢) مرفوعاً .

ثم أشار عليه السلام إلى عدم وجود الأعمده التي تحملها ولا المسامير التي تحكم وثاقها فقال: «بغير عمد (٣) يدعمها (٤) ولا دسار ينظمها (٥)» وأخيراً تأتي المرحلة الأخيره - الخامسة - «ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب (٦)» . ثم أشار عليه السلام إلى القمر والشمس وتحرك كل منهما ضمن مداره «واجرى فيها سراجاً مستطيراً (٧) وقمرأ منيراً في فللك دائر وسقف سائر ورقيم (٨) مائر» .

تأملات

١ - دراسته العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة

للعلماء المعاصرين نظريات متعددة لا- تتجاوز حدود الفرضيات بشأن خلق العالم؛ حيث لم يكن هناك مخلوق قبل مليارات السنين ليشهد كيفية ظهور العالم، مع ذلك هناك بعض الشواهد والقرائن التي تؤيد صحة بعض هذه الفرضيات. أما العبارات التي ساقها الإمام عليه السلام فهي تنطبق تماماً على بعض الفرضيات المعروفة، سنتعرض لها الآن دون الاصرار على أن الإمام عليه السلام إنما أراد هذه الفرضيات. فكما أسلفنا في الأبحاث السابقة أن العالم كان في البدايه كتله ضخمة من الغازات المتراكمة الكثيره الشبه بالمائعات بحيث يصح نعتها بالماء، كما يصح

ص: ٨٩

- ١- ١) «مكفوف» من ماده «كف» على وزن سد بمعنى قبض الشيء وجمعه، ولذلك اطلق على راحه اليد الكف لأنها سبب قبض اليد، كما يطلق المكفوف على الأعمى لقبض بصره.
- ٢- ٢) «سمك» بمعنى الارتفاع ولهذا يسمى السقف بالسمك لارتفاعه.
- ٣- ٣) «عمد» على وزن سبد وعمد كلاهما جمع «عمود» بمعنى الدعامة.
- ٤- ٤) «يدعم» من ماده «دعم» على وزن فهم بمعنى دعامة الشيء ودعام بمعنى الخشب الذى يحمل الأشياء ويشدها، وتطلق على الشيء والشخص الداعم.
- ٥- ٥) «دسار» بمعنى المسمار والحبل الذى يربط به الشيء.
- ٦- ٦) «ثواقب» من ماده «ثقب» على وزن سقف بمعنى الشيء؛ ثقب الشيء واخترقه ومن هنا اطلق الثواقب على الكواكب المضيئه المنيره، فكأن نورها يثقب البصر وينفذ فيه، أو أن نورها يخترق السماء ليصلنا.
- ٧- ٧) «مستطير» من ماده «طير» بمعنى انتشار الشيء فى الهواء، ثم استعمل كل شىء سريع وكذلك الطيور. ومستطير بمعنى واسع ومنتشر. ومن هنا يقال استطار الفجر، أى انتشر ضوءه.
- ٨- ٨) «رقيم» من ماده «رقم» بمعنى الخط والكتابه، كما وردت هذه المفردة بمعنى الكتاب. وهو اسم من أسماء الفلك وسمى به لأنه مرقوم بالكواكب.

الاصطلاح عليها بالدخان على ضوء التصريحات القرآنيه. وقد سلط خالق العالم عليه قوتين عظيمتين، حيث عبر عنهما في العبارة المذكوره بالريح:

قوه الجاذبيه التى حفظته متماسكاً وحاله دون تشتته وزواله، والقوه الدافعه التى تدفعه إلى الخارج إثر الحركه الدورانيه حول نفسه وبفعل قوه الطرد المركزيه، وهذه هى الريح والعاصفه الثانيه. فاذا أقررنا بالحركه الدورانيه للعالم الأول على أنها كانت متذبذبه تشتتد أحياناً وتنخفض أحياناً أخرى فمن الطبيعى أن تكون قد ظهرت تلك الأمواج العظيمه فى تلك الكتله الغازيه العظيمه الشبيهه بالمائع بحث تراكمت تلك الأمواج على الدوام ثم أخذت بالتساقط. وفى الختام فان الطبقات الأكثر خفه والأقل وزناً - والتى ورد التعبير عنها بالزبد من قبل الإمام عليه السلام - قد قذف بها نحو الفضاء الخارجى (أن مفرد «الزبد» تطلق على ما يطفو من الماء، وكذلك على الزبده التى تطفو لخفتها على سطح محتويات القربه).

وبهذا فقد اشتدت الحركه الدورانيه، فانفصلت أجزاء كبيره من هذه الكتله العظيمه وانطلقت إلى الفضاء، فما كان منها أكثر شده بلغ نقاطاً مرتفعه وأما ما كان منها أقل شده فقد بلغ نقاطاً أوطى. لكن الأجزاء التى بلغت نقاطاً مرتفعه أصبحت على هيئه سقف محفوظ وذلك بفعل قوه الجاذبيه التى لم تدعها تفلت تماماً، بينما أصبحت الأجزاء السفلى الأقل ضغطاً موجاً مكفوفاً حسب تعبير الإمام عليه السلام.

ثم ظهرت فى ذلك الفضاء المترامى السموات السبع (التى ستتاولها بالحديث لاحقاً) دون أن تكون هناك عمد ترفعها ومسامير تنظمها وتحكم وثاقها، ولم تستقر فى مواقعها وتترن فى حركتها ضمن مداراتها سوى من خلال تعادل القوتين الجاذبه والدافعه. كان الفضاء آنذاك مملوءاً بالكرات الصغيره والكبيره، فانطلقت قطع متناثره من هذه الأمواج إلى الخارج، وقد انجذبت القطع الصغيره تدريجياً نحو الكرات الكبيره بحكم الجاذبيه فأصبح الفضاء وأضاءت النجوم وزينت بالكواكب وأشرقت الشمس واضىء القمر وأخذت الأجرام تتحرك ضمن أغلفتها ومداراتها.

لقد ورد فى بعض الفرضيات بشأن ظهور العالم أنّ العامل الذى أدى إلى انفصال المنظومات والكرات السماويه عن الكتله الاولى إنما يعزى إلى الانفجار الداخلى العظيم والذى

ظل سببه مجهولاً غامضاً لحد الآن. فالقى الانفجار المذكور بأجزاء عظيمه من الكتله الغازيه الاولى الشبيهه بالمائع إلى الفضاء وكون الكرات والمنظومات ولعل قوله عليه السلام: «ثم انشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها وأدام مربها وأعصف مجراها وأبعد منشأها فامرها بتصفيق الماء الزخار. . .» إشاره إلى هذا الانفجار العظيم الذى انطلق من أعماق ماده الاولى. لكن وكما قلنا سابقاً فان الهدف من هذا الكلام هو ايضاح مدى انسجام عبارات الخطبه مع الفرضيات الوارده بشأن ظهور العالم ولا يمثل إصدار حكم بهذا الشأن أبداً.

٢ - كيفيه ظهور العالم

تعد مسأله كيفيه ظهور العالم من أعقد المسائل التى واجهها العلماء والمفكرون. فالمسأله المذكوره تعود إلى ما قبل مليارات السنوات، ولعلها القضيه التى لم تطرق فكر أحد؛ الأمر الذى حير كبار العلماء والمفكرين رغم الجهود المفيده والتحقيقات والفرضيات الضخمه التى توصلوا إليها فى هذا المجال وبالتالى لم يكن أمامهم سوى الاعتراف بالعجز عن سير تحور هذه المسأله. إلا أن روح حب الاستطلاع والتعرف على المجهول التى تسود الفكر البشرى لم تدعه يقف مكتوف الايدى حيال هذه القضيه والصمت إزائها. فالواقع أن لسان حال العلماء هو إننا وإن عجزنا عن بلوغ كنه هذا الموضوع، غير أننا نرغب برسم صورته فى أذهاننا من شأنها إشباع حب تطلعنا واقتحامنا لهذا الأمر. وبالطبع فإن الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه قد اكتفت بإشارات مقتضيه بالنسبه لهذا الموضوع؛ الأمر الذى لا يؤدي إلا إلى رسم صورته باهته فى الذهن لا ترقى إلى إماطه اللثام عن طبيعتها وكنه حقيقتها. على كل حال فان العبارات الوارده فى هذه الخطبه أنما تتناغم وما ورد فى خطبته رقم ٢١١ التى قال فيها عليه السلام: «وكان من اقتدار جيروته وبيديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف ييساً جامداً ثم فطر منه اطباقاً ففتقها سبع سموات، بعد ارتاقها» .

من جانب آخر فقد شحنت الروايات الإسلاميه بعده أبحاث بهذا الشأن، والواضح أن أغلب هذه الروايات تنسجم وخطب نهج البلاغه الوارده بهذا الخصوص مع فارق جاء فى

أغلبها وهو تصرّيحها بأنّ الزبد أول شيء ظهر على الماء ثم انبعث منه البخار أو الدخان الذي كوّن السموات. (١)

ولكن وكما أوردنا آنفاً فإنه ليس هنالك من تضارب بين هذه العبارات، لأنّ المادة الاولى على الأقوى كانت عبارته عن غازات مائعيه مضغوطة يصدق عليها وصف الماء والبخار والدخان بالنظر لمراحلها المختلفه. والجدير بالكذّر هنا هو أنّه ليس هناك من تضاد بين الروايات التي صرّحت بأنّ أول ما خلق الله الماء، أو الشيء الأول الذي خلقه الله كان نور النبي صلى الله عليه وآله أو العقل؛ وذلك لأنّ بعض الروايات تحدّثت عن خلق عالم المادة بينما تحدّث البعض الآخر عن خلق عالم المجردات والأرواح. كما يتبيّن عدم وجود التناقض بين ما أوردناه من مضامين الروايات وما صرّحت به الآية ١١ من سورة فصلت التي قالت: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» .

٣ - الفرضيات السائدة بشأن العالم أبان نزول القرآن

الطريف أنّه كانت هناك نظريتين بشأن ظهور العالم في الوسط الذي نزل فيه القرآن - أو بعبارته أدق في العصر الذي نزل فيه القرآن -: الاولى نظريه «ببليموس» التي سادت المحافل العلميه لخمسه عشر قرناً واستمرت حتى أواخر القرون الوسطى. وعلى ضوء هذه النظرية فإنّ الأرض كانت مركز العالم وتدور حولها تسعة أفلاك؛ وهي أفلاك تشبه الأغطيه البصليه وشفافه وبلوريه ومتراكمه بعضها، وكان كل كوكب سيّار (عطارد، الزهره، المريخ، المشتري وزحل) في فلك، كما كان لكل من الشمس والقمر فلكهما. واضافه إلى هذه الأفلاك السبع، هناك فلك يرتبط بالكواكب الثابته (المراد بالكواكب الثابته هي تلك الكواكب التي تطلع معاً وتغرب معاً دون أن تغير مواقعها في السماء بخلاف الكواكب الخمس التي ذكرناها). وبعد الفلك الثامن؛ أي فلك الثوابت هناك فلك الاطلس الذي ليس له أي كوكب، اما مهمته فهي

ص: ٩٢

١- ١) للوقوف على هذه الروايات، انظر ٣ / ١٠ و ٥٧ من بحار الأنوار، طبعه بيروت. وردت أغلب الأحاديث في ج ٥٧.

سوق العالم العلوى للدوران حول الأرض، وهو الفلك الذى يسمى أيضاً بفلك الأفلاك.

أما الفرضيه الأخرى فهى الفرضيه التى تستمد قوتها من فرضيه بطليموس بشأن العالم وتفسره على أساس العقول العشره.

وعلى ضوء هذه النظرية التى طرحها جمع من الفلاسفه اليونانيين فان الله لم يخلق بادئ ذى بدء سوى شىء واحد هو العقل (الملك أو الروح العظيمه والمجرده التى اصطلح عليها بالعقل). وقد خلق هذا العقل شيئين هما العقل الثانى والفلك التاسع، ثم خلق العقل الثانى العقل الثالث والفلك الثامن، وهكذا خلق عشره عقول وتسعه أفلاك، ثم قام العقل العاشر بخلق موجودات هذا العالم. والواقع ليس هنالك من دليل على هذه السلسله من الفرضيات، وهكذا هو الحال بالنسبه لفرضيه بطليموس رغم ذلك فقد كانت هذه الفرضيات هى السائده لقرون. أما القرآن والروايات الإسلاميه فقد رفضت الفرضيه الاولى - فرضيه بطليموس - كما رفضت الفرضيه الثانيه - فرضيه العقول العشره -؛ وذلك لأننا لم نر أثر لهما فى الآيات والروايات المعروفه - ولا سيما فى نهج البلاغه -، وهذا بدوره يمثل أحد الأدله والشواهد على استقلاله القرآن وعظمه الأخبار الإسلاميه واستنادها إلى الوحي لا إلى الأفكار البشريه، وإلا لاصطبغت بصبغتها. (١)

وقد رأينا الانسجام التام بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الروايات الإسلاميه بشأن ظهور العالم. فالمحور الأصلى فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه إنما كان الحديث عن السموات السبع لا الأفلاك التسع ولا العقول العشره، وستناول لاحقاً تفسير السموات السبع.

لكن من المؤسف أن قدماء شراح نهج البلاغه - ممن تأثروا بفرضيه العقول العشره ونظريه بطليموس بشأن ظهور العالم - قد سحبوها هذه الفرضيات على شرح نهج البلاغه

ص: ٩٣

١- ١) لقد أشارت بعض الآيات القرآنيه إلى حركه الأرض من قبيل الآيه ٨٨ من سوره النمل « [١] وترى الجبال تحسبها جامده وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء» والآيه ٢٥ من سوره المرسلات « [٢] ألم نجعل الأرض كفاتا». (وطبق بعض التفاسير فان الآيه ٤٠ من سوره يس « [٣] لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» تدل على أن الشمس والقمر يسبحان فى الفضاء العلوى. للوقوف أكثر على التفاصيل. انظر تفسير الأمثل. [٤]

فسعوا جاهدين لحمل الخطبه المذكوره عليها دونما ايه ضروره أو حاجه إلى ذلك؛ فهي لم تكن سوى فرضيات وقد ثبت بطلانها اليوم.

فقد أثبتت التحقيقات والمشاهدات العلميه وتجارب علماء الفلك عدم وجود فلك بالمعنى الذى ذهب إليه بطليموس، وأن الكواكب الثابته والسياره والتي يفوق عددها بكثير ممّا ظنه القدماء وأنها تدور فى فضاء خال (وَأَنَّ السَّيَّارَاتِ إِنَّمَا تَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ لَا حَوْلَ الْأَرْضِ وَالثَّوَابِتِ عَلَى الْمَحَاوِرِ الْأُخْرَى) وَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْتَ مَرْكَزًا لِلْعَالَمِ فَحَسَبَ، بل هي سياره صغيره من سيارات المنظومه الشمسيه وهذه الأخرى منظومه صغيره من بين ملايين بل مليارات منظومات العالم العلوى. أما أنصار فرضيه العقول العشره ورغم تأثرها بفرضيه بطليموس - التى سلم اليوم ببطلانها - إلّا أنّهم يستندون إلى قاعدته من القواعد العقلية «والتي تصرّح بان الواحد لا يصدر منه إلّا واحد» لإثبات صحه فرضيتهم ولا نرى هنا من ضروره للاستغراق فى شرح هذه القاعدته.

ولما كانت هذه القاعدته تفتقر إلى الدليل من وجهه نظر أغلب العلماء، فإنّ أسسها تعتبر جوفاء لا قيمه لها. (١)

٤ - ما المراد بالسموات السبع؟

لم يقتصر الحديث عن السموات السبع على نهج البلاغه - فى هذه الخطبه والخطبه ٢١١ - فحسب بل سبقه القرآن الكريم للحديث عن هذا الموضوع (٢).

وهناك عدّه تفاسير أوردتها العلماء القدماء بشأن السموات السبع، ولا نروح الخوض فيها

ص: ٩٤

١ - ١) لقد أشار المرحوم «الخواجه نصير الدين الطوسى» فى كتابه «تجريد الاعتقاد» إلى الأدله الخمسه لفرضيه العقول العشره فيفندها جميعاً ويقول فى عبارته قصيره «وأدله وجوده مدخوله». وللوقوف أكثر على هذا الموضوع راجع كلام الخواجه والعلّامه الحلّى بهذا الشأن.

٢ - ٢) الطريف أنّ القرآن أشار إلى السموات السبع فى سبع من آياته، وهى الآيه ٢٩ من سوره البقره، ٤٤ من سوره الاسراء، الآيه ٨٦ من سوره المؤمنون، الآيه ١٢ من سوره فصلت، الآيه ١٢ من سوره الطلاق، الآيه ٣ من سوره الملك والآيه ١٥ من سوره نوح. كما وردت بعض الآيات التى أشارت بعبارات أخرى إلى هذا الأمر.

جميعاً؛ الا ان التفسير الوحيد الذى يبدو صحيحاً من بينها هو ذلك الذى قال بأن المراد بالسموات السبع هو المعنى الواقعى لهذه الكلمه؛ فالسماه هى مجموعه من الكواكب والنجوم فى العالم العلوى، والسبع هو العدد سبعة المعروف ولا يراد به الكثره، غايه مافى الأمر أنّ الذى نفهمه من الآيات القرآنيه هو أن ما نشاهده من كواكب وسيارات ثابتة ومتحركه كلها مرتبطه بالسماه الاولى. وبناءً على هذا فان وراء هذه السماه العظيمه سته سموات عظيمه آخر لم يتسنى لحد الآن للعلم البشرى التوصل إلى معرفتها.

والآيه السادسه من سوره الصافات تؤيد هذا المعنى: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ»، كما ورد هذا المعنى فى الآيه ١٢ من سوره فصلت «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ»، وجاء فى الآيه الخامسه من سوره الملك «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ». والطريف فى الأمر أنّ المرحوم العلامه المجلسى قد ذكر هذا التفسير - فى بحار الانوار - على أنّه احتمال اقتدح فى ذهنه، أو استنتاجه من الآيات والروايات كما يعبر عن ذلك اليوم. (١)

وهنا لابدّ من القول بأنّ الأجهزه العلميه لم تتمكن حتى اليوم من إماطه اللثام عن هذه العوالم الست، إلّا أنّ الدليل لم يقم على نفيها علمياً، ولعل العلم يكشف أسرار هذا الموضوع مستقبلاً، بل أفادت كشوف العلماء الفلكيين أنّ هناك أشباحاً ترى من بعيد تفيد وجود عوالم أخرى، على سبيل أوردت بعض المجلات الفضائيه نقلاً عن المراصد الجويه المعروفه «بالومار» قولها: لقد تمكن ناظور مرصد بالومار من كشف ملايين المجرات التى يبعد بعضها عنا ألف مليون سنه ضوئيه. لكن هناك فضاء عظيم ومهيب مظلم بعد تلك المسافه البالغه ألف مليون سنه ضوئيه، غير أنّه يتعذر رؤيه مافيه من أشياء. ومما لاشك فيه أنّ ذلك الفضاء المهيب والمظلم يضم مئات الملايين من المجرات بحيث تكفلت جاذبيتها بحفظ البسيطه التى نعيش على وجهها. وما هذه الدنيا العظيمه التى تغص بمئات آلاف الملايين من المجرات إلّا ذره تافهه لا قيمه لها مقارنة بدنيا أعظم وأوسع ولسنا متأكدين لحد الآن من وجود دنيا أخرى

ص: ٩٥

عظيمه فيما وراء هذه الدنيا. (١) ونخلص ممّا سبق إلى أنّ العوالم التي تمّ كشفها من قبل البشريه ورغم عظمتها وما تنطوى عليه من أسرار وأعاجيب ليست إلّجزءاً ضئيلاً من عالم ضخم عملاق، ولعل المستقبل سيكشف النقاب عن العوالم الست الأخرى.

٥ - كيفية علم الإمام عليه السلام بهذه الأمور

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ عبارات الإمام عليه السلام بشأن ظهور العالم لم ترد بصيغه فرضيه واحتمال أبداً، بل صورها عليه السلام وكأنّه يشهد ذلك الظهور، وهذا دليل على استناد علمه إلى خزانه علم الغيب الإلهي أو تعليمات النبي صلى الله عليه وآله - التي تستند إلى الوحي حتى تحدث ابن أبي الحديد بهذا الشأن فقال: «إنّ أمير المؤمنين على عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام (٢)». وكيف لا يكون الإمام عليه السلام كذلك وهو القائل: «أنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض». (٣)

ص: ٩٦

١-١) مجله الفضاء ٥٦ / آذار عام ١٩٧٢ م.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٨٠. [١]

٣-٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٨٩. [٢]

«ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سِجُودٌ لَا يَزْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُونَ لَا يَتَزَايِلُونَ، وَمُسَيِّبُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعَيْنِ، وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ وَلَا فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ وَلَا غَفْلَةُ النَّشِيَانِ وَمِنْهُمْ أَمْنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ، وَاللَّسَنَةُ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمْ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جَنَانِهِ، وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ السُّفْلَى أقدامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ وَالخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ نَاكِسَهُ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ، لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمُصْنُوعِينَ وَلَا يَحْدُونَهُ بِالْأَمَاكِنِ وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ» .

الشرح والتفسير يواصل الإمام عليه السلام خطبته التي تطرق فيها إلى خلق السموات وكيفيه ظهور العالم، فيتحدث عن خلق الموجودات السماويه وملائكته العالم العلوى فيشير بعبارات قصيره بليغه إلى أصناف الملائكة وصفاتهم وخصائصهم وطبيعه أنشطتهم ومهامهم وعظم خلقتهم ومدى علو معرفتهم، فالواقع هو أن هذا القسم من الخطبه يختص بالتعريف بالملائكة. فاستهل كلامه

قائلاً: «ثم فتق ما بين السموات العلا» (١) فالذى يستفاد من هذا التعبير أنه كانت هناك فواصل بين السموات وقد التحمت في البدايه ثم ما لبثت أن انفصلت، وهذا بالضبط على الخلاف مما تضمنته نظريه بطليموس في أن السموات كأغطيه البصل مترامه على بعضها دون وجود أيه فجوه. ثم قال الإمام عليه السلام: «فملاهن أطواراً (٢) من ملائكته (٣)». وقد ورد نظير هذه العبارة في الخطبه رقم ٩١ المعروفه بخطبه الأشباح حيث قال: «وملاهم بهم فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها» كما ورد في موضع آخر من هذه الخطبه قوله: «وليس في أطباق السماء موضع اهاب إلا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد».

ثم يتطرق عليه السلام إلى أصناف، أو بعبارة أدق أطوار الملائكه فيقسمهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أرباب العباده، ثم يقسم هؤلاء إلى أقسام، فمنهم من هو ساجد أبداً لم يقم من سجوده ليركع «منهم سجود (٤) لا يركعون»، ومنهم من هو راعع أبداً لم ينتصب قط «وركوع لا ينتصبون» ومنهم الصافون في الصلاه بين يدي خالقهم لا يترايلون «وصافون (٥) لا يترايلون». ذهب البعض إلى أن «صافون» هنا بمعنى الصف في العباده، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن معناها فتح أجنحتهم في السماء بدليل الآيه القرآنيه القائله: «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ (٦)». وهناك احتمال آخر أن يكون المراد بها الوقوف في صفوف منظمه والاستعداد لطاعه أوامر الله وامثالها.

إلماً أن الاحتمال الأول أكثر انسجاماً مع الجمل السابقه واللاحقه، والواقع أنهم يمارسون الحالات الثلاث لعبادتنا في القيام والركوع والسجود. فالتعبير بصافين إمّا أنه إشاره للصفوف

ص: ٩٨

١-١ «العلا» جمع «عليا» بمعنى الأعلى والأشرف.

٢-٢ «أطوار» جمع «طور» على وزن قول بمعنى الصنف، كما تعنى الحد والحاله أيضاً.

٣-٣ ان الضمير «هن» في العبارة كما يشير ظاهرها يعود إلى السموات، إلماً أن المراد الفواصل بين السموات بدليل قوله «ثم فتق». . . وفاء التفریع فی «فملاهن» .

٤-٤ «سجود» جمع «ساجد»، كالركوع جمع راعع.

٥-٥ «صافون» جمع «صاف» على وزن حاد من ماده «صف» بمعنى المساواه وقد اقتبست في الأصل من «صفف» بمعنى الأرض المستويه.

٦-٦ (٦) سورة الملك / ١٩. [١]

المنظمه للملائكه، أو القيام المنظم لكل منها. وهذا عين ما ورد في خطبته عليه السلام في وصف المتقين لهمام «أمياً الليل فصافون أقدامهم تالين لاجزاء القرآن» (١). وأخيراً المسبحون الذين لا يملون التسييح والتحميد له سبحانه «ومسبحون لا يسأمون». فظاهر هذه الجملة يفيد أن هؤلاء طائفه أخرى غير الطوائف الثلاث القائمه والراكعه والساجده (و ان ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن المسبحين هم الطوائف المذكوره سابقاً، حيث يمكن الاستشهاد ببعض الروايات التي تؤيد ما ذهبوا إليه. فقد روى أنه سئل النبي صلى الله عليه وآله: كيف صلاه الملائكه؟ فأطرق رسول الله صلى الله عليه وآله حتى نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال له: «أن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون سبحان ذى الملك والملكوت وأهل السماء الثانيه ركوع إلى يوم القيامة يقولون سبحانه ذى العزه وأهل الجبروت وأهل السماء الثالثه قيام إلى يوم القيامة يقولون سبحان الحى الذى لا يموت» (٢).

لكن هل المراد بهذا السجود والركوع والقيام ذات أعمالنا فى السجود والركوع والقيام أم إشاره إلى درجات خضوع الملائكه وعبادتهم حسب مراتبهم ومقاماتهم، المسأله محل بحث ونقاش. فاذا اعتبرنا الملائكه أجساماً لطيفه ولهم أيدي وأرجل ووجوه وجبهات فان المعنى الأول أنسب، وإن نفينا عنهم الأجسام، أو أقررنا بأن لهم جسم غير أنه ليس على غرار أجسامنا فان المعنى الثانى هو الأنسب (وستحدث فى الأبحاث القادمه عن هذا الأمر).

على كل حال فإن هذه المجموعه من الملائكه منهمكه فى عباده الله وتسييحه وتقديسه وكأن مهمتهم مقتصره على العباده فقط. والواقع هو أن هذه آيه بينه من آياته سبحانه وعظمه مقامه وعلو شأنه وعدم حاجته إلى عباده العباد، وعباره أخرى فإن المحتمل أن فلسفه خلقه هؤلاء الملائكه هو عدم اغترار العباد من الناس بعبادتهم وليعلموا على فرض المحال أنه لو كان بحاجة إلى العباده فإن هناك الملائكه المنهمكين بالعباده فلا ينبغى أن يتصور عباد الله فى الأرض ان عبادتهم أو عدمها ليست لها أدنى تأثير على كبرياء الله وعظمته، ولو كفروا جميعاً لما ضره ذلك ذره «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ» (٣). ثم أشار عليه السلام إلى صفات هؤلاء الملائكه

ص: ٩٩

١-١ (١) نهج البلاغه، الخطبه ١٩٣. [١]

٢-٢ (٢) بحار الانوار ٥٩ / ١٩٨. [٢]

٣-٣ (٣) سوره الزمر / ٧. [٣]

فقال عليه السلام: «لا- يغشاهم نوم العيون ولا- سهو العقول ولا فتره الأبدان ولا غفله النسيان». على العكس من الناس الذين يشعرون تدريجياً بالفتور من جراء تكرار العبادة فيخالطهم النعاس فيصاب الجسم بالوهن والضعف ويعرض لهم السهو والنسيان.

إلّا أنّ الملائكة بعيدون كل البعد عن هذه الحالات والعوارض. فهم على درجه من العشق للعبادة والاستغراق في المناجاة والتسبيح بحيث لا يعرض عليهم النوم والغفلة والفتور قط. وبعبارة أخرى فان الفتور في إداء الوظائف إنّما يستند إلى أمور ليست لها من سبيل إلى الملائكة أبداً. فأحياناً تتمثل تلك الأمور بالتعب وغفو العين وسهو العقول وضعف البدن وأحياناً أخرى بالغفلة والنسيان ولما كانت أي من هذه الأمور ليست لها من سبيل إلى الملائكة، فإنهم لا يفترؤ في عبادتهم قط.

ثم يعرض عليه السلام إلى القسم الثاني من الملائكة وهم السفراء بينه تعالى وبين المكلفين من البشر بتحمل الوحي الإلهي إلى الرسل «ومنهم أمناء على وحيه والسنه إلى رسله ومختلفون بقضائه وأمره» فهم في الواقع الواسطه بين الله والأنبياء. ونفهم من هذه العبارة أنّ السفاره الإلهي لا تقتصر على جبرئيل عليه السلام، بل هو في الحقيقة زعيم سفراء الله، القرآن بدوره أشار إلى هذا الصنف من الملائكة: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» (١)، وقال في آيه أخرى: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» (٢)، كما أشار أحياناً إلى الملائكة من حملة الوحي فقال: «يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» (٣).

كما أشارت بعض الروايات الإسلاميه وسائر خطب نهج البلاغه إلى هذا المعنى أيضاً. وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ المراد بالقضاء والأمر الإلهي الوارد في العبارة التي نخوض فيها هو الأحكام والأوامر الدينيه الشرعيه، لا القضاء والأوامر التكوينيّه التي احتملها البعض

ص: ١٠٠

١-١ (١) سورة النحل / ١٠٢. [١]

٢-٢ (٢) سورة البقره / ٩٧. [٢]

٣-٣ (٣) سورة النحل / ٢. [٣]

من شارحى نهج البلاغه؛ وذلك لعدم انسجام هذا الاحتمال والعبارات السابقه - التي طرحت مسأله أمناء الوحي -، أما مختلفون هنا فقد جاءت من ماده الاختلاف بمعنى الذهاب والاياب والتردد على الأماكن.

ثم أشار عليه السلام إلى القسم الثالث من الملائكه «ومنهم الحفظه لعباده والسدنه (١) لأبواب جنانه». «حفظه» جمع حافظ بمعنى الحارس، ويمكن أن يكون لها هنا معنيان: أحدهما حفظهما للعباد بمراقبه أعمالهم واحصائها وتسجيلها، كما أشارت إلى ذلك الآيه الرابعه من سوره الطارق القائله «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ» وضرب آخر من هؤلاء الملائكه الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات والبلاء، ولولا ذلك لكان الإنسان مسرّحاً للفناء والزوال والاعطاب، وهذا ما صرّحت به الآيه الحاديه عشره من سوره الرعد: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ يَّتِيَنَّ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ».

ولكن يبدو أنّ المعنى الأول أنسب بالالتفات إلى العبارات السابقه التي تحدثت عن الوحي والتكاليف الشرعيه، والعباره اللاحقه التي أشارت إلى الجنّه وجزاء الأعمال، وإن لم يستبعد الجمع بين المعنيين عن مفهوم العبارة.

أما مفرد سدنه فهي جمع سادن بمعنى البواب، وحنان على وزن كتاب واحداً جنه، والذي يستفاد من هذه العبارة إنّ لله عدّه جنان، ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّها ثمانية كما وصفها القرآن وهي «جنّه النعيم، جنّه الفردوس، جنّه الخلد، جنّه المأوى، جنّه عدن، دار السلام، دار القرار وحنّه عرضها السموات والأرض» (٢).

أما فائده وجود الملائكه الذين يحفظون أعمال العباد، فقد قيل بأنّ الإنسان يشعر بالمسؤوليه أكثر لوجودهم ويكون أعظم مراقبه لنفسه وأحرص في سلوكه وتعامله، وذلك لأنّ الهدف الأسمى هو تربيته الإنسان وتهذيبه وإبعاده عن الرذيله والانحراف.

وأما القسم الرابع من الملائكه فهم حملة العرش، الذين وصفهم عليه السلام بقوله «ومنهم الثابته

ص: ١٠١

١-١) «سدنه» جمع «سادن» بمعنى الخادم والبواب.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ١ / ١٥٨ وشرح نهج البلاغه للمرحوم الميرزا حبيب الله الخوئي ٢ / ٢٦.

فى الأرضين السفلى أقدامهم والمارقه من السماء العيا أعناقهم والخارجه من الأقطار أركانهم والمناسبه لقوائم العرش أكتافهم ناكسه (١)دونه أبصارهم متلفعون (٢)تحتة بأجنحتهم مضروبه بينهم وبين من دونهم حجب العزه وأستار القدره» ثم يستغرق عليه السلام أكثر فى التعرض لصفاتهم فيقول: «لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين ولا يحدونه بالاماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر» (٣). أجل فقدرتهم ليست قدره جسمانيه، بل يتمتعون بقدره روحانيه خارقه متعذره على الإنسان، ومن هنا أوكلت لهم مهمه حمل العرش. والواقع أنهم بلغوا أعظم مقامات التوحيد بحيث أصبحوا قدوه فى التوحيد لكافه عباد الله ولا سيما أولياء الله البارزين من الناس. فهم لا يرون من مثيل وشبيه ونظير لله قط، كما لا يرون من حدود لذاته وصفاته سبحانه، حتى أنهم يرونه أعظم من الخيال والقياس والظن والوهم؛ وذلك لأن كل ما يتصوره الإنسان أو الملك إنما هو مخلوق لله والله أعظم من أن يكون مخلوقاً. أما المراد بالعرش وحمله العرش وماهيه وظائفهم والمفاهيم التى وردت فى هذه العبارات، فهذا ما سنتناوله فى هذه الأبحاث.

تأملات

١ - ماهيه الملائكه!

هنالك عدّه أبحاث تضمنتها الآيات القرآنيه بشأن الملائكه وصفاتهم وخصائصهم وأفعالهم والمهام المختلفه الموكله إليهم. كما شحنت الروايات الإسلاميه بالأخبار التى تتحدث عن الملائكه ومقاماتهم وصفاتهم وأعمالهم، غير أنه لم يرد البحث فى التحدث عن ماهيتهم، ومن هنا كثر الكلام بين العلماء والمتكلمين بهذا الشأن. فيرى علماء الكلام، بل أغلب علماء الإسلام أنّ الملائكه موجودات ذات أجسام لطيفه.

ص: ١٠٢

١ - ١) «ناكسه» من ماده «نكس» على وزن عكس بمعنى الانقلاب رأساً على عقب ولذلك يطلق المنكوس على الوليد الذى يسقط على رجليه.

٢ - ٢) «متلفعون» من ماده «لفع» على وزن نفع بمعنى الاشتمال على الشىء والالتفاف به، ومن هنا يقال للمرأة حين تلف عليها عباءها «تلفعت المرأه» .

٣ - ٣) «نظائر» جمع «نظير» بمعنى المثل.

كما وردت بعض العبارات التي أشارت إلى النور على أنه المادة الأصلية لخلق الملائكة، فقد وردت العبارة المعروفة بشأنهم في أغلب المصادر الإسلامية التي وصفتهم قائلة: «الملك جسم نوري. . .». أما المرحوم العلامة المجلسي فقد قال: «تري الإماميه بل جميع المسلمين سوى طائفه قليله من الفلاسفه أنّ الملائكه هم أجسام لطيفه نورانيه ولها أن تأتي بأشكال مختلفه. . . وأنّ الأنبياء والأوصياء العصومين كانوا يرونهم» (١). وبعبارة أخرى فإنّ الملائكة أجسام نورية والجن أجسام نارية والانس أجسام كثيفه. أما ما عليه جمع من الفلاسفه فهو أنّ الملائكة مجردون من الجسم والجسمانيات وأنّ لهم أوصاف لا يستوعبها الجسم. وقد نقل المرحوم «الشارح الخوئي» في «منهاج البراعه» عدّه أقوال بهذا الخصوص بلغت ستة أقوال، إلّا أنّ أصحاب هذه الأقوال هم قله قليله جداً.

لاشك أنّ وجود الملائكة - ولا سيما بالالتفات إلى تلك الصفات والمقامات والأعمال التي ذكرها القرآن - لمن الأمور الغيبية التي لا يمكن إثباتها وبتلك الخصائص والصفات إلّا من خلال الأدله النقلية.

فالقرآن يصف خصائصهم على أنّهم:

١ - موجودات عاقله ذات شعور.

٢ - لا يعصون الله وهم بأمره يعملون.

٣ - إنّ الله قد أوكل لهم عدّه وظائف ومهام. فمنهم حمله العرش، ومدبرات الأمر، والمأموره بقبض الأرواح، حفظه أعمال البشر، حفظه الإنسان من المهالك والأخطار، المدد الإلهي لنصره المؤمنين في المعارك، عذاب الأقسام الظالمه والطاغية ومبلغى الوحي إلى الأنبياء.

٤ - اختلاف مقامات الملائكة وتفاوتهم في الدرجات.

٥ - المداومه على تسبيح الله وتقديسه وتمجيده.

٦ - تمثلهم أحياناً بهيئه البشر وما شاكل ذلك للأنبياء وبعض العباد الصالحين كمریم عليها السلام.

وما إلى ذلك من أوصاف يتعذر إحصائها في هذا البحث. وبحث ماهية الملائكة في أنّها

ص: ١٠٣

مجرده عن الجسم أو غير مجردة ليس من ورائه طائل، إلما أنّ ظاهر الآيات والروايات - إذا لم نطرح لها توجيهها وتفسيراً خاصاً - هو أنّ الملائكة ليس من قبيل المواد الكثيفه والعناصر الخشنه، مع ذلك فهم ليسوا مجردات مطلقه، لتضافر الروايات والآيات التي صرّحت بعروض الزمان والمكان والأوصاف الأخرى الملازمه للأجسام عليهم. وهذا ما تؤكد عبارات الإمام عليه السلام في هذا القسم من خطبته وكذلك ما ورد في خطبته المعروفه بالأشباح. ولكن على كل حال فإنّ الإيمان بالملائكة على نحو الإجمال لمن الأمور التي أكد عليها القرآن الكريم، فقد ورد في الآية ٢٨٥ من سورة البقره قوله تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ». (١)

الجدير بالذكر هنا هو أنّ بعض المغفلين وارضاءً لأولئك الذين ينكرون عوالم الغيب فقد عمدوا إلى تفسير الملائكة بالقوى والطاقات التي تختزنها الطبيعه الإنسانيه وسائر الموجودات والكائنات، والحال أنّ أدنى تأمل ونظره إجماليه للآيات القرآنيه تفيد رفض هذه الفكره تماماً؛ كيف لا وقد ثبتت بعض الصفات للملائكة من قبيل العقل والشعور والإيمان والاخلاص والعصمه.

٢ - أصناف الملائكة

الملائكة على أصناف وأقسام عديده على ضوء ما أشارت الآيات والروايات، وقد وردت في هذه الخطبه الأصناف الأربعة الرئيسييه منهم «أرباب العباده والسفراء وحفظه العباد كالكرام الكاتبين ومنهم سدنه الجنان وحمله العرش». ولكن وكما ذكرنا سابقاً فإنّ الآيات القرآنيه قد أشارت إلى الأصناف الأخرى من الملائكة، ومنهم الموكلون بعذاب الاعمّ الطاغيه الظالمه، والموكلون بالامدادات الغيبية ونصره المؤمنين ومدبرات الأمر وقبضه الأرواح، غير أنّه يمكن اختصار جميع هذه الطوائف في مدبرات الأمر التي تتولى إداره شؤون

ص: ١٠٤

العالم. فقد اقتضت السنه الإلهيه وجرت بغيه اظهار قدرته وعظمته وتحقق أهدافه وأغراضه أن تسند إداره شؤون العالم إلى الملائكه المأتمرين بأوامر الله والبعيدين كل البعد عن الوهن والضعف والفتور والسهو والنسيان والتباطؤ في الطاعه ولكل صنف من أصناف الملائكه وظيفته المختصة به.

والحق أنّ الإنسان إذا تأمل أقسام وأصناف الملائكه وسعه وعظمه الوظائف الموكله إليها يشعر بالتصاغر والحقاره ويتساءل من أكون في خضم هذا العالم الواسع الملىء بعمال الله وجنوده الذين لا يفترون عن عبادته وطاعته وامثال أوامره؟ واين تكون عبادتى وطاعتى من هذه العباده والطاعه التى تؤديها الملائكه؟ وما قيمه قوتى وقدرتى مقارنة بقوه الملائكه وقدرتها؟ والخلاصه فانه يقف على عظمه هذا العالم والأعظم منه خالقه من جانب وحقارته ودنو موضعه من جانب آخر، وهذه إحدى حكم وفلسفه وجود الملائكه.

٣ - العرش وحملته

لقد أشارت الآيات القرآنيه عشرين مره إلى العرش الإلهي، كما كثرت الأبحاث التى تضمنتها الروايات الإسلاميه الوارده بهذا الشأن، وعلى ضوء بعض هذه الروايات فإنّ عظمه العرش متعذره على التصور البشرى، حتى قيل بهذا الخصوص: ما السموات والأرضين وما فيها مقابل العرش إلأحلقه فى صحراء عظيمه.

كما صرّحت بعض الروايات بأنّ أعظم ملائكه الله يعجزون عن بلوغ ساق العرش وإنّ أسرعوا فى تحليقهم إلى يوم القيامه. كما جاء فى الخبر أنّ الله خلق للعرش ألف لسان وضمنه صوره جميع مخلوقاته فى الصحارى والبحار.

كما روى أنّ الله حين خلق العرش، أمر الملائكه بحمله، فما استطاعوا أن يحملوه، فخلق ملائكه، فعجزوا عن حمله، فحمله الله بقدرته، ثم أمر سبحانه ثمان من الملائكه المأمورين بحمل العرش أن يحملوه.

فقالوا: وهل يسعنا حمله وقد عجزت الملائكه. فأمروا بذكر الله والقول «لا حول ولا قوه

إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ» والصلوات على محمد وآله، فلما فعلوا سهل عليهم حمله. (١)

وتشير كل هذه الكنايات إلى عظمه عرشه سبحانه، أمّا ماهيه العرش، فهي من الأمور التي كثر البحث فيها بين العلماء، ونرى ان الاستغراق في شرح هذا الأمر إنّما يبعدنا عن الهدف الأصلي، ولذلك نكتفي بإشاره مختصره إلى هذا الموضوع:

فقد كان للملوك والسلاطين عرشان، أحدهما منخفض يعتلونه في الأيام الاعتيادية ويسيرون شؤون الحكم ودفه أمور البلاد، وآخر مرتفع يرتقونه في الأيام الخاصه والمرام المهمه والكبيره. وقد اصطلحت الآداب العربيه على الأول بالكرسى والثانى بالعرش، وقد درجت هذه الآداب على التعبير بالعرش كناية عن قدره والسلطه وإن افتقر العرش للدعامات المرتفعه، كما هناك المعنى الكنائى الآخر الذى يشير إلى فقدان السلطه والذى جسده العباره المشهوره «ثل عرشه». ولله هذان العرشان فى الامره والحكومه كونه سلطان عالم الوجود (وبالطبع لما كان الله ليس بجسم ولا فى زمرة الجسمانيات فالمفهوم الكنائى هو المراد هنا من العرش والكرسى).

على كل حال يبرز هذا السؤال: ما كنه هذا العرش الإلهي؟ ومن التفاسير التي يمكن ايرادها بهذا الشأن هو أنّ عالم الماده والسموات والأرضين والمنظومات والمجرات كلها بمثابة الكرسي وعرشه المنخفض كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»، والمراد بالعرش هو العالم الكامن وراء عالم الماده (الماده الكثيفه والغليظه)، التي لا تحيط بعالم الماده فحسب، بل ليس عالم الماده أمامه سوى مقدار تافه لا أهميه له. أمّا حمله العرش فمما لاشك فيه أنهم ليسوا ملائكه غلاظ الهيكل وأقوياء الجسم والبنيه بحيث يحملون على أكتافهم دعائم العرش الذى استوى عليه الرحمن؛ لأنّ للعرش - كما أشرنا سابقاً - معنى كنائى والقرائن العقلية التي تفيد تنزه الله عن الجسم والجسمانيه إنّما تؤيد صحه هذا المعنى، وعليه فحمله العرش ملائكه عظام ذوى مقامات رفيعه وليس لهم من شبيهه أو نظير ولهم تدبير عالم ما وراء الطبيعه وتنفيذ أوامره سبحانه فى كل مكان، أمّا التعبيرات

ص: ١٠٦

١ - ١) منهاج البراعه فى شرح نهج البلاغه ٢ / ٣٢ - ٣٥، وقد أورد المرحوم العلّامة المجلسى الروايات المرتبطه بالعرش والكرسى فى المجلد ٥٥ من بحار الأنوار، ومنها الروايات السابقه فى ص ٥، ١٧ و ٥٥.

التي ساقها الإمام في أوصافهم بقوله «الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم» فكل هذه تفسد مدى قدرتهم في تدبير شؤون العالم. طبعاً يجب علينا أن نحمل الألفاظ أينما وردت على معانيها الحقيقية، إلا أنه يتعذر علينا ذلك الحمل ولا يبقى أمامنا سوى المعنى الكنائى كالذى أوردناه بشأن الآيه القرآنيه المباركه «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» إذا كانت هناك القرائن العقليه المسلمه. نعم لقد نهض هؤلاء الملائكه بالقيام بهذه الأمور بالاستناد إلى قوتهم وقدرتهم، بل بحول الله وقوته، كما ينهضون بالتسبيح والتقديس وعدم الفتور عن ذكر الله، وهذا ما صورته الآيه السابعه من سوره المؤمن التي أكدت إلى جانب ذلك على دعائهم واستغفارهم للمؤمنين «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» .

٤ - عصمه الملائكه

يتمتع الملائكه بصفات جمه وقد تكفلت عباراته المذكوره (الوارده بشأن الطائفه من الملائكه المشغوله بالعباده) ببيان بعض هذه الصفات: «لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فتره الأبدان» . كما أشار القرآن إلى تنزههم عن الذنوب والمعاصي «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (١)، ووصف الموكلين بالعذاب منهم «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ» (٢).

طبعاً يتصور البعض أنه ليس هنالك من مفهوم لعصمه الملائكه من عدمها، إلماً هذا التصور لا يبدو صحيحاً؛ صحيح أن الملائكه لا تنطوى على دوافع الذنب والمعصيه من قبيل الشهوه والغضب (أو أنها ضعيفه جداً فيهم) ، ولكن لا ينبغي الغفله عن أنهم فاعلون ومختارون ولهم القدره على ارتكاب المخالفه، بل إن الآيات القرآنيه تصرح بمدى خشيتهم من

ص: ١٠٧

١-١ (١) سوره الأنبياء / ٢٦ - ٢٧. [١]

٢-٢ (٢) سوره التحريم / ٦. [٢]

العقاب الإلهي «وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ» [١]، فالآيه الشريفه تكشف عن عصمتهم وطهارتهم من المعاصي في ذات الوقت الذي يسعهم ارتكابها. ومن هنا تتضح مغازى بعض الروايات التي صرحت بتباطؤ بعض الملائكه في امتثال أوامر الحق وعقابهم على هذا التباطؤ بصفته يمثل ترك الاولی الذي يصدق على الأنبياء، ونعلم جميعاً بأن ترك الاولی لا يعدّ ذنباً قط، بل قد يكون عملاً مستحباً، إلّا أنه يعتبر ترك الاولی مقارنة بعمل يفوقه، ونوكل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع إلى أبحاثه المختصة به.

٥ - مقام معرفه حمله العرش

يفهم من العبارات الوارده بهذا الشأن أنّ العامل الذي جعل حمله العرش مؤهلين للقيام بهذه المسؤوليه الخطيره لا يقتصر على قوتهم وقدرتهم، بل يمتد ذلك إلى سعه وسمو مستوى معرفتهم بالله تبارك وتعالى. فقد بلغوا أعظم مقامات التوحيد ونفى كافه أشكال الشرك والشبيه والمثيل للحق تعالى، ومن هنا استحقوا أهليه تحمل تلك المهمه العظيمة؛ الأمر الذي يعتبر درساً لا بدّ أن يتعلمه العباد وذوى المعرفه بالله.

ص: ١٠٨

«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزَنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَيْبِهَا، تَزْبَهُ سَيْنَهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلَا طَهَا بِالْبَلِّ حَتَّى لَزِبَتْ فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةَ ذَاتِ أَعْضَاءٍ وَوُضُوءٍ، وَأَعْضَاءٍ وَفُضُولٍ، أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَمَدَهَا حَتَّى صَلَّصَتْ لَوْقَتِ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ، فَمَثَلَتْ إِنْسَانًا ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكْرٍ يَنْصَيِّرُ بِهَا، وَجَوَارِحٍ يَخْتَدِمُهَا وَأَدْوَاتٍ يُقَلِّبُهَا وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَيِّقِ وَالْبَاطِلِ وَالْمَأْذُوقِ وَالْمَشَامِّ وَالْمَلُوانِ وَالْأَجْناسِ، مَعْجُونًا بِطِينِهِ الْمَلُوانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبُرْدِ وَالْبَلِّ وَالْجُمُودِ» .

الشرح والتفسير بعد الإشارات البليغة التي وردت في الأقسام السابقة من هذه الخطبة العميقة المضامين بشأن خلق العالم والسموات والأرض تناولت خطبه الإمام عليه السلام هنا خلق العالم والسموات ثم عرجت هنا إلى سائر مخلوقات هذا العالم ومن بينها خلق الإنسان ومراحله المختلفه والتي قسمها عليه السلام إلى خمس مراحل تكتنف تمام مسيره حياته وهى:

١ - خلقه آدم من ناحيه الجسم والروح (يعنى فى مرحلتين) .

٢ - سجود الملائكه لآدم وتمرد ابليس.

٣ - إسكان آدم الجنه ثم بيان ترك الاولى الذى صدر من آدم عليه السلام وندمه وتوبته وأخيراً قبول توبته واخراجه من الجنه والهبوط إلى الأرض.

٤ - لقد أصبح لآدم ذرية ثم تكاثرت هذه الذرية فكونت المجتمعات البشرية ثم بعث الله أنبيائه عليهم السلام بكتبه السماوية المقدسة من أجل هداية الناس وتنظيم شؤون المجتمعات البشرية والأخذ بأيديها إلى حيث السمو الروحي والرفعه والكمال.

٥ - المجتمعات البشرية من جانبها خطت خطوات عريضة نحو التكامل حتى تأهلت لتقبل الدين الخاتم حيث اصطفى الله رسوله محمد صلى الله عليه وآله فبعثه بالقرآن الكريم لهداية الإنسانية وانقاذها من خلال اطروحة التي تتضمن السعادة والفلاح، ثم تحدث الإمام عليه السلام عن القرآن.

مراحل خلقه آدم عليه السلام من الناحية الجسمية والروحية

قال الإمام عليه السلام بشأن خلق جسم آدم عليه السلام: «ثم جمع سبحانه من حزن (١) الأرض وسهلها وعذبها (٢) وسبخها (٣) تربيه». فالعبارة تشير إلى خلق الإنسان من التراب من جهه، كما تشير من جهه أخرى أن ذلك التراب مركب من جميع المواد المختلفه على وجه الأرض لتتطوى على مختلف الاستعدادات وتشمل التنوعات والتقلبات التي تحتاجها المجتمعات البشرية في مختلف مجالات حياتها، ثم أشارت إلى ماده أخرى هي الماء والتي اختلطت بالتراب فقال عليه السلام بهذا الشأن «سناها (٤) بالماء حتى خلصت ولاطها (٥) بالبله حتى لزبت (٦)».

فالواقع أنّ دور الماء هو خلط تلك الأجزاء المختلفه مع بعضها وتخليصها من شوائبها وارساء الوشيجه والرابطه بين هذه الأجزاء. ثم أشار عليه السلام إلى مسأله تبلور خلقه الإنسان من ذلك التراب والطين فقال عليه السلام: «فجبل منها صوره ذات أحناء (٧) ووصول وأعضاء وفصول». في الواقع «أحنا» جمع «حنو» إشارة إلى انحناءات البدن من قبيل انحناء الأضلاع

ص: ١١٠

١-١ «حزَن» على وزن «وزن» بمعنى المواضع الوعره على الأرض، كما يطلق الحُزَن أو الحَزَن على الهم والغم، لأنه نوع وعوره في روح الإنسان.

٢-٢ «عذب» على وزن «جذب» بمعنى الماء الطاهر والحلو الصالح للشرب.

٣-٣ «سبخ» وجمعها سباخ بمعنى ما ملح من الأرض.

٤-٤ «سَن» من ماده «سن» على وزن ظن بمعنى صب الماء على شيء، كما تأتي بمعنى نعومه الشيء.

٥-٥ «لاط» من ماده «لوط» على وزن صوت بمعنى خلط الشيء وعجنه.

٦-٦ «لزبت» من ماده «لزوب» على وزن سكوت بمعنى التصق وثبت واشتد.

٧-٧ «أحنا» جمع «حنو» على وزن حرص بمعنى الانحناء والجوانب والأطراف.

والفك العلوى والسفلى وراحه القدم بحيث يتكيف البدن للقيام بمختلف الأعمال والفعاليات، وذلك لتعذر قيامه بمثل هذه الأفعال التي يمارسها اليوم لو كان البدن على هيئته جسم هندسى مكعب أو ما شابه ذلك. أما العبارة «وأعضاء وفصول» فهي تشير إلى الأعضاء المختلفه التي ترتبط مع بعضها من خلال المفاصل؛ الأمر الذى أكسب البدن القدره العمليه على ممارسه مختلف الانشطه فلو كانت يد الإنسان على سبيل المثال مستويه ذات عضو واحد وعظم واحدا تقوى على أداء الفعاليات التي تؤديها الآن، بينما نعلم أنّ البارئ سبحانه جعلها عدّه عظام وغضاريف وعدّه أعضاء متصله مع بعضها البعض الآخر؛ الأمر الذى جعل كل اصبع بل كل سلاميه من أصابعه واضافه لليد تتمتع بعملية خاصه وهذه بدورها تعدّ آيه من آيات حكمته وعظمته سبحانه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحله لاحقه فقال: «اجمدها حتى استمسكت واصلدها (١) حتى صلصت (٢)» وبذلك فقد أعد الإنسان إعداداً تاماً من الناحه البدنيه بحيث يسير إلى الغايه المعينه المرسومه له «لوقت معدود وأجل معلوم (٣)». فقد روى فى بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أن هذه الحاله دامت أربعين سنه، فكان جسد آدم ملقى فى موضع والملائكه تمر به وتقول لأى أمر خلقت؟ (٤)

ولعل هذه المدّه الزمانيه - كما صرّح بذلك بعض المحققين - كانت اختباراً للملائكه أو إرشاداً وتعليماً للناس بالتأنى فى الأمور وعدم الاستعجال فيها. وهنا جاءت المرحله الثانيه؛ مرحله نفخ الروح فى الجسد ليتحول إلى هذه الطبيعه الإنسانيه التى زود فيها الإنسان بقوى العقل والإدراك التى تسوقه لممارسه الأعمال: «ثم نفخ فيها من روحه فمثلت (٥) إنساناً ذا أذهان يجيلها» (٦). العبارة «ذا أذهان يجيلها» إشاره إلى مختلف القوى العقليه والذهنيه التى

ص: ١١١

-
- ١-١) «أصلد» من ماده «صلد» على وزن صبر بمعنى أحكم وجعل الشىء صلباً أصلتاً.
- ٢-٢) «صلصل» من ماده «صلصله» بمعنى اليبوسه والجفاف بحيث تخرج منها الأصوات بمجرّد ملامستها لشىء، كما وردت بمعنى الجاف والمحكم.
- ٣-٣) اللام فى «لوقت معدود» بمعنى إلى. ذهب البعض إلى أنّها لام التعليل، بينما احتمل البعض أنّ المراد بهذه العبارة هو أنّ هذا الوضع سيستمر إلى قيام الساعه ثم تتفكك بعد ذلك أعضاء البدن تماماً، إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً للغايه، لأنّه من المراحل المختلفه لخلق الإنسان ولم تطرح لحد الآن قضيه نفخ الروح.
- ٤-٤) «فبقى أربعين سنه ملقى تمر به الملائكه فتقول لأمر ما خلقت؟». منهاج البراعه ٢ / ٤٤.
- ٥-٥) «مثلت» من ماده «مثول» على وزن حصول بمعنى استوت وقامت.
- ٦-٦) «يجيل» من ماده «اجاله» (مصدر باب أفعال من جول وجولان بمعنى يدور).

زود بها الإنسان ويوظف كلاً منها في مجال من مجالات حياته بحيث يلائم بينها جميعاً في مسيرته نحو الهدف المنشود (والقوى المذكوره عباره عن قوه الإدراك وقوه الحفظ وقوه الخيال و. . .). وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الذهن في الأصل يعنى القوه، ثم استعمل بمعنى العقل والفهم والدرايه وسائر القوى العقلانيه، فالعباره تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام قد عنى مختلف هذه القوى معتبراً كل واحده منها نعمه وعنايه من العناية الإلهيه ثم قال عليه السلام: «وفكر يتصرف بها». قد يتصور أحياناً أنّ هذا التعبير من قبيل العطف التفسيري والتعبير الآخر لمفهوم العبارة السابقه، غير أنّ الظاهر هو أنّ كل عباره من العبارتين تشير إلى حقيقه: فالعباره «ذا أذهان يجيلها» إشاره إلى مراحل المعرفه والتصور والتصديق وفهم وإدراك الحقائق، وأمّا العبارة «وفكر يتصرف بها» فهى إشاره إلى الأفكار التى تخضع لمرحلة التطبيق ويتصرف الإنسان بواسطتها فى مختلف الأشياء (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الفكر فى الأصل يعنى الحركة الفكرية وتوظيف الذهن). على كل حال فقد جاءت مفردة «فكر» بصيغه الجمع (كالأذهان بصيغه الجمع) لتفيدان القوى العقلية والأفكار الإنسانية كثيره للغاية ومتنوعه، وهذه نقطه مهمه أكدها كبار الفلاسفه والمفكرين وعلماء النفس، وإليها تعزى الفوارق فى الاستعدادات الفكرية لافراد البشرية. فربما كان هناك الأفراد الأقوى فى قسم منها وأضعف فى القسم الآخر بينما هنالك العكس، فالمسأله تنطوى على أسرار ورموز عجيبة للغاية، وكلما غاص الإنسان فى كنهها تعرف أكثر على عظمه الحق خالق هذه القوى الذهنيه والفكرية. ثم يتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى شيئين يسهمان فى إيصال الإنسان إلى هدفه المطلوب وهما الجوارح والأدوات التى زوده بها الله سبحانه لتسه له تحقيق ما يصبو إليه «وجوارح يخدمها (1) وأدوات يقلبها». فالواقع هو أنه يجتاز أربع مراحل لبلوغ الهدف: تمثلت المرحلة الاولى بالمعرفه والإدراك والتصور والتصديق ومرحلة الفكر ومن ثم ائتمار الأعضاء والجوارح، وأخيراً الاستعانه بالأدوات المختلفه التى خلقها الله فى هذا العالم حين لا تجدى الأعضاء والجوارح بمفردها نفعاً، كما أنّ كل مرحله من هذه المراحل الأربع متنوعه تتفرع منها عدّه فروع. ولما

ص: ١١٢

(١ - ١) «يخدم» من ماده «اختدام» بمعنى الاستخدام.

كان بلوغ الأهداف المرسومه يتطلب تشخيصاً وتميزاً للحق من الباطل والصواب من عدمه وكافه المحسوسات المختلفه، فإنه يتحدث عن إحدى قوى النفس المهمه والتي تعتبر في الواقع المرحله الخامسه، ألا- وهي قوه التمييز ولا- يراد بها سوى المعرفه «ومعرفه يفرق بها بين الحق والباطل». كما يتمكن بواسطه هذه القوه من تمييز المحسوسات من قبيل الأذواق والأطعمه والأذواق . . . «والأذواق والمشام والألوان والأجناس» (١). والواقع ان قدره التمييز والتشخيص والمعرفه لمن أهم قوى الإنسان العقلية التي تشمل الأمور المعنويه كالحق والباطل كما تشمل الأمور الماديه المحسوسه كالألوان والمشام والأذواق. فهل قوه التمييز هذه هي قوه مستقله، أم داخله في مفهوم الذهن والفكر في العبارة السابقه؟ يبدو من كلامه عليه السلام أنها قوه مستقله، جدير بالذكر أن الحديث تطرق لأربعة أصناف من الأمور الماديه والمحسوسه وهي: الأذواق، المشام، الألوان والأجناس التي تشير هنا إلى مختلف أنواع الموجودات (٢). من قبيل مختلف أنواع النباتات، الطيور والحيوانات وما إلى ذلك، أما عدم الإشاره إلى المسموعات (الأصوات) والملموسات فلأن بيان الأقسام الثلاث كان على نحو المثال، فذهن كل مستمع سينتقل إلى بقيه ذلك من خلال الأقسام الثلاث المذكوره. ثم ينتقل الإمام على عليه السلام ليشير إلى أهم خصائص الإنسان التي تشكل المصدر الرئيسي لأغلب ظواهر حياته فيقول: «معجوناً (٣) بطينه الألوان المختلفه». ولعل هذه العبارة إشاره إلى اختلاف ألوان الناس وأعراقهم المتفاوته، أو اختلاف لون أجزاء البدن حيث إن بعضها تام البياض (كبياض العين والعظام) والآخر تام السواد (كالشعر) وسائر الألوان التي يكسبه خلطها جمالاً- خاصاً، كما يمكن أن يكون المراد بها معنى أوسع بحيث يشمل سائر الاستعدادات والغرائز المختلفه. ثم أضاف الإمام عليه السلام قائلاً: «والأشبه المؤتلفه» من قبيل الأورده والشرابين والأعصاب

ص: ١١٣

١ - ١) أن العبارة «والأذواق والمشام والألوان والأجناس» هي عطف على عبارة الحق والباطل، بينما عدها البعض عطفاً على المعرفه. في حين يفيد التأمل في كلامه عليه السلام أن المعنى الأول هو الأنسب. وعلى ضوء المعنى الأول فان قوه التمييز المعرفه ستشمل كل هذه الأمور، أما على أساس المعنى الثاني فان المعرفه تعدّ من النعم الإلهيه، كما أن قوه الشامه والباصره والذائقه هي نعمه أخرى (لا بدّ من التأمل هنا).

٢ - ٢) «الجنس» في اللغه بمعنى الأقسام والأنواع المختلفه، وهناك القرائن الوارده في خطب نهج البلاغه التي تدل على هذا المعنى ومنها الخطبه رقم ٩١.

٣ - ٣) «معجوناً» حال للإنسان الذي ورد في العبارة السابقه.

والعظام التي تشبه إلى حدّ بعيد بعضها البعض الآخر، وفي نفس الوقت تقوم بعده وظائف ومهام. وأخيراً قال عليه السلام: «والأضداد المتعاديه والأخلاق المتباينه من الحر والبرد والبله والجمود» (١). والعبارة إشارة إلى الطبائع الرباعية المعروفة في الطب التقليدي، والأطباء المعاصرون وأن تنكروا لهذه الطبائع لفظاً، غير أنهم اوردوها بتعابير أخرى من قبيل الاستعاضه عن الحرارة والبروده بارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، كما يصطلحون بزياده ماء الجسم وقتله بدلاً من البله والجمود.

على كل حال فان عبارات الإمام عليه السلام آنفه الذكر إنما تشير إلى قضيه مهمّه في أنّ الله سبحانه قد خلق جسم الإنسان (بل جسمه وروحه) مركباً من مواد مختلفه وكيفيات متنوعه واستعدادات وغرائز متباينه، وأنّ هذه الفوارق والتباينات شكلت أساس التفاوت في أساليب التفكير لدى أفراد الجنس البشري؛ الأمر الذي أدى في خاتمه المطاف إلى تلبيه مختلف حاجات الجماعات البشريه واشغال المناصب الاجتماعيه على ضوء تلك الاستعدادات بحيث تنتظم الأمور ويوضع كل شيء في موضعه فيتنسق النظام العام، ولا يسع المقام الخوض أكثر في تفاصيل هذا الموضوع.

تأملات

١ - خلق آدم عليه السلام

نفهم من العبارات التي تضمنتها خطبه الإمام عليه السلام أنّ خلق آدم عليه السلام قد تمّ بصوره مستقله متكامله على هذه الصوره التي نحن عليها اليوم دون أن يطوى مراحل النشوء والارتقاء من الكائنات الحيه المتسافله؛ الأمر الذي أكدّه القرآن كراراً على لسان آياته الشريفه. طبعاً كلنا نعلم بأن «القرآن الكريم» وكذلك «نهج البلاغه» ليسا من قبيل كتب العلوم الطبيعیه، بل هما كتابان تكفلا بهدايه الإنسان وتهذيبه بالدرجه الأساس إلى جانب الإشاره حسب المقام وما

ص: ١١٤

(١-١) يمكن أن تكون جملة «من الحر والبرد» بياناً للاخلاق المتباينه، أو للأضداد والأخلاق معاً.

يتناسب وأبحاثه العقائديه والتربويه إلى بعض مسائل العلوم الطبيعیه. أمّا النظریه السائده اليوم فی الأوساط العلمیه بشأن خلق الإنسان فهی نظریه «تکامل الأنواع». ويرى أنصار هذه النظریه أنّ کافه أنواع الکائنات الحیه لم تكن سابقاً کما هی علیه اليوم، بل كانت موجودات بسیطه أحاديه الخلیه ثم تکاملت بعد أن سبحت فی میاه المحيطات وغاصت فی أعماق البحار لتکامل تدريجياً فتغيرت من نوع إلى آخر من خلال تغييرها لأشکالها فانتقلت من البحار إلى الصحارى. والإنسان هو أحد هذه الکائنات الذی قطع مسيرته التکاملیه بعد أن اجتاز تلك المرحله التي كان فیها قرداً بشکل إنسان، وعليه فقد انحدر الإنسان من تلك الکائنات المتسافله. وبالطبع فإن أنصار هذه الفرضیه قد انقسموا إلى عدّه طوائف، فمنها اتباع «لامارک» و «داروين» و «الداروينيه الحديثه» وطائفه «موتاسيون» (نظریه الطفره) وما إلى ذلك من الطوائف التي تقدم کل منها أدلتها على صحه نظریتها بهذا الشأن.

ويقف مقابل هؤلاء، أتباع ثبوت الأنواع حیث يقولون بأنّ أنواع الکائنات الحیه قد ظهر کل منها بصوره منفصله منذ البدايه بهذه الهيئه الحاضره، کما أقاموا أدلتهم وبراهینهم التي تعرض بالنقد للأدله التي اعتمدها نظریه التطور والتکامل، ولا یسعدنا الخوض فی تفاصيل هذه النظریه. ونکتفی هنا بالإشاره بصوره مقتضبه للمواضيع التاليه:

١ - يستفاد من القرآن الکریم وكذلك خطب نهج البلاغه مسأله ثبوت الأنواع على الأقل بالنسبه للإنسان، بينما لم ترد مثل هذه التصريحات بشأن سائر أنواع الکائنات - رغم أنّ بعض أنصار فرضیه التطور والتکامل التي تشمل الإنسان بشکل عام یصرون على توجيه الآيات القرآنيه وعبارات خطب نهج البلاغه بحيث تنسجم ونظریه النشوء والارتقاء، حتى ذهبوا إلى أنّ هذه الآيات والخطب أدله على مزاعمهم. إلّا أنّ المتتبع المحايد یذعن بأنّ هذه المزاعم تنطوى على تکلفات وحرص لا یمكن قبولها إلّا من خلاله.

٢ - إنّ قضیه التکامل والارتقاء أو ثبوت الأنواع لیست من قبیل القضايا التي یمكن إثباتها من خلال التجربه والأدله الحسیه والعقلیه، وذلك لأنّ جذورها قد امتدت لملايين السنین السابقه، وعليه فإن کل ما یورده أنصارها أو مخالفوها إنّما هی فرضیات وأدلتها لیست سوى

أدله ظنيّه، وبناءً على ماتقوم فانه يتعذر القول بنفى آيات خلقه الإنسان وعبارات نهج البلاغه وفقاً لأقوال هؤلاء.

وبعبارة أخرى: ان العلوم تجدد سبيلها وتعتمد معاييرها فى مثل هذه الفرضيات دون أن تقدر فى التعاليم الدينيه، ومن هنا كانت الفرضيات العلميه تشهد التغيير والتحول على الدوام، فلعل الغد يفرز كشف قرائن جديده بحيث تحظى فرضيه ثبوت الأنواع بأنصار أكثر. على سبيل المثال فقد طالعنا الصحافه فى هذه الأواخر بخبر يفيد العثور على جماجم بشريه تعود لما قبل مليونى سنه وهى لا- تفرق كثيراً مع الإنسان المعاصر؛ الأمر الذى زعزع مرتكزات فرضيه التكامل، وذلك لأن أصحاب هذه الفرضيه يزعمون أنّ الإنسان الذى كان يعيش قبل مئات الآلاف من السنين لم يكن بهذه الصوره التى عليها الإنسان اليوم أبداً. فالنتيجه التى يمكن أن نخلص إليها ممّا سبق أنّ هذه الفرضيات ليس لها من صمود واستقرار وغالباً ما تتزلزل أسسها ودعائمها بفعل الاكتشافات والاختراعات الحديثه، ولكن حيث ليس من سبيل سوى هذا فى العلوم الطبيعه بصفته دعامه يعتمد عليها حتى تأتى فرضيه أخرى فتطرد سابقتها وتقتحم الميدان. والخلاصه فإنّ التعامل مع الفرضيات يختلف عنه تماماً مع المسائل العلميه القطعيه؛ فالمسائل العلميه القطعيه من قبيل تركيب الماء من ذرتين أو كسجين وذره هيدروجين هى من أمور الحس والتجربه والتى يمكن البرهنه عليها من خلال الأدله القطعيه، أما الفرضيات فهى حدسيات تبرهن بسلسله من القرائن الظنيه، وهى تحظى بالقبول والتأييد مالم تقم القرائن العلميه المخالفه لها، دون أن يدعى أحد قطعيتها (١).

٢ - التركيب المزدوج للجسم والروح

يستفاد ممّا مرّ معنا فى هذه الخطبه المسنجمه والآيات القرآنيه أنّ الإنسان خلق من عنصرين: العنصر المادى المركب من الماء والتراب (أبسط مواد العالم) والعنصر الآخر هو الروح الإلهيه الساميه، وهذا هو سر التضاد الباطنى للإنسان حيث تتنازعه الدوافع التى

ص: ١١٦

١-١) راجع من أجل الوقوف بصوره أعمق كتاب «الداروينيه وآخر فرضيات التكامل». كما استعرضنا ذلك بصوره مقتضبه فى تفسيرنا الأمثل ١١ / الآيه ذيل الآيات ٢٦ حتى ٤٤ من سوره الحجر.

تسوقه إلى العالم المادى وتلك التى تدفعه إلى العالم الملائكى. فهو يتصف بالخلق والطبيعه الحيوانيه من جانب ويتحلى بالطبيعه الملكوتيه والروحانيه من جانب آخر. ولهذا أيضاً فهو يتمتع بقوس صعودى ونزولى تكاملى غايه فى العظمه بحيث زود بالملكات والاستعدادات التى تبلغ به فى قوس الصعود درجه «أعلى عليين» بينما يهبط فى النزول والانحطاط إلى «أسفل السفالين» وليت هناك مثل هذه الميزه فى الكائنات سوى للإنسان ولا تمنح سوى للمطهرين من الأفراد فتكسيهم قيمه ومنزله رفيه، ولا- غرو فقد تماسك وحفظ نفسه مقابل جميع عوامل الانحطاط وعناصر التسافل والانسياق نحو ماده والماديه وقد اجتاز كافه العقبات والمطبات. ولعل الملائكه عجزت عن إدراك ذلك الأمر قبل خلق آدم فظنت التكرار فى هذا الخلق دون حصول جديد، فحسبوا أنّ هذه الخلقه تحصيل حاصل من خلال تسيحهم وتقديسهم. والمهم فى الأمر هو أنّ الله سبحانه قد نسب الروح التى نفخها فى آدم إليه سبحانه فقال: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (١). ونعرف على نحو البدايه أن ليس لله من جسم ولا روح، وأنه يهدف إلى بيان عظمه الأشياء التى يضيفها إلى نفسه من قبيل «بيت الله» و «شهر الله» فالهدف هو أن هذه الروح الأدميه تتمتع بآثار من صفات الله كالعلم والقدره والخلاقه والابداع. والواقع هو أنّ الله قد نفخ فى آدم أشرف وأفضل روح، ولذلك نعت نفسه سبحانه بأحسن الخالقين فقال: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (٢) ويالها من مصيبه أليمه ومفجعته أن يحث الإنسان الخطى نحو السقوط بحيث يتحول إلى ما يجعله أسوأ من الانعام «أولئك - كالأنعام يَلْهُمْ أَضَلُّ» (٣) فى حين يمتلك مثل هذه الاستعدادات والقدرات والإمكانات التى تبلغ به الكمال والمقام الذى ينتظره ويؤهله لأن يتميز على كافه المخلوقات فيرتدى التاج العظيم الذى يكرمه على من سواه «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا...» .

٣ - الإنسان، أعجوبه عالم الكون

يعتبر الإنسان - فى الحقيقه - من أعجب ظواهر عالم الوجود، وقد تضمن كلام الإمام عليه السلام

ص: ١١٧

١-١) سورة الحجر / ٢٩. [١]

٢-٢) سورة المؤمنون / ١٤. [٢]

٣-٣) سورة الأعراف / ١٧٩. [٣]

إشاره إلى غيظ من فيض أسرار الوجود: الاشتمال على الجوارح والأعضاء المتنوعه والقوى المختلفه والقدرات المتفاوته، والتركيب من العناصر المتضاده والتشكل من عدّه عوامل عجت بصوره بالغه التعقيد بحيث جمع فيه كل شيء، حتى أصبح في الواقع نموذج مصغر لجميع عالم الوجود، وعالم صغير يضاهاى العالم الكبير. أتزعم أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهذه الميزه التى يتحلى بها الإنسان تجعلنا نتعرف بصوره أعمق على أهميه خلقه من جانب، كما تلفت انتباهنا إلى مدى عظمه خالقه من جانب آخر، فمراد الإمام عليه السلام من هذه الميزه الفريده للإنسان إنّما يكمن فى الإشاره إلى عظمه الخالق وعظمه المخلوق.

ص: ١١٨

«وَاسْتَأْذَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةُ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِي الْإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَعَلَبَتْ عَلَيْهِ الشَّقْوَةَ وَتَعَزَّزَ بِخَلْقِهِ النَّارِ وَاسْتَتَوَهَّنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ النَّظْرَةَ اسْتِحْقَاقًا لِلشُّخْطِ وَاسْتِثْمَامًا لِلْبَيْتِهِ وَإِنْجَازًا لِلْعَدَةِ فَقَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» .

الشرح والتفسير ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لقضيه خلق آدم حتى تطرق إلى موضوع آخر ذا صلة وثيقه به مستخلصاً منه الدروس والعبر التي يمكن أن تحتذيها البشرية جمعاء في مسيرتها إلى الله، فقال عليه السلام: «واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الاذعان بالسجود له والخنوع (١) لتكريمته فقال سبحانه اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس» فالذي تفيد العبارة أن الله قد أخذ عهد الملائكة مسبقاً بالسجود لآدم حين خلقه؛ الأمر الذي وردت الإشارات إليه في القرآن الكريم ومنها الآية ٧٠ و٧١ من سورة ص: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» . (٢) فقد كانت الملائكة تدرك أن الوفاء بذلك العهد إنما يحصل حين خلق آدم وتكامله بهذه

ص: ١١٩

١- ١) «خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع حسب «المقاييس» وأورد الآخرون ما يشبه هذا المعنى أيضاً.

٢- ٢) سورة ص / ٧٠-٧١. [١]

الصورة الإنسانية، ولذلك أمرهم الله سبحانه لما أتم خلقه بالسجود «اشْجُدُوا لِلَّهِ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» (١).

ذهب بعض شراح نهج البلاغه أنّ هذا الأمر قد يكون مستغرباً لدى الملائكة ويثير اندهاشهم ولعلمهم يتساهلون في امتثاله لولا تلك المقدمه بذلك العهد الذى أخذ عليهم، ولذلك أعدهم الله سبحانه لهذا الأمر مسبقاً ليعلم أنّ مثل هذه المقدمات ضروريه فى الأوامر المهمه. ثم يتطرق عليه السلام إلى الدوافع التى وقفت وراء تمرد ابليس فقال عليه السلام: «اعترته الحميه (٢) وغلبت عليه الشقوه وتعزز بخلقه النار واستوهن خلق الصلصال». فالواقع أنّ العامل الأصلي لتمرده إنّما كان تلوثه الباطنى والذى عبر عنه بالشقوه إلى جانب الكبر والغرور والحميه والأنانيه التى تفرزها طبيعه ذلك الدنس الباطنى والذى غلب على فكره وأعمى بصيرته ليصده عن رؤيه الواقع فيغتر بخلقه النار ويراهما أعظم شأناً من خلقه الطين والتراب؛ التراب الذى يعتبر مصدر جميع الخيرات والبركات والمنافع والفوائد، بالتالى حسب أن علمه ومعرفته إنّما تفوق حكمه الله - طبعاً لا يبدو هذا الحكم غريباً من الأفراد الذين يغرقون فى مثل هذا الحجب؛ فالإنسان الأنانى المضروب عليه بحجاب الغرور قد يرى القبه حبه والحبه قبه أحياناً، فعباقره الفكر وجهابذه العلم إذا ما ابتلوا بالغرور والأنانيه وحب الذات ربما يرتكبون أفضع الأخطاء والزلات. فالمراد بالشقاوه هنا تلك الموانع الباطنيه والصفات الرذيله التى كانت لدى الشيطان، وهى الموانع والصفات الاختياريه النابعه من أفعاله السابقه وهى ليست شقوه ذاتيه وغير اختياريه؛ لأنّ الشقاوه تقابل السعاده. وتعنى السعاده توفير الإمكانيات وتمهيد السبيل من أجل الحركه نحو الصلاح والشقاوه تعنى المطبات والصعوبات التى تعترض هذا السبيل؛ والمهم أنّ كل هذه الأمور إنّما تنبع من ذات أفعال الإنسان وسائر الموجودات المختاره لا- أنّها تستند إلى العوامل الجبريه والقهريه. على كل حال فان ابليس قد ارتكب هذه المعصيه الكبرى والخطأ الجسيم ليسقط

ص: ١٢٠

١- ١) سورة البقره / ٣٤. [١]

٢- ٢) «الحميه» من ماده «حمى» على وزن نهى معناها الأصلي الحراره التى تنتج من الشمس والنار والمواد الأخرى أو من داخل جسم الإنسان، كما يعبر أحياناً بالحميه عن القوه الغضبيه حيث إنّ حاله الإنسان تشتعل آنذاك، ويطلق الحمى على حراره البدن حين الارتفاع.

بالمرة فيطرد من حظيره القرب الإلهي حتى أصبح من ألن خلق الله وأبعدهم عن رحمته بفعل تلك المعصيه الخطيره؛ غير أن هذه اللعنه والطرده من الرحمه لم تكن لتوقظه فتمادى فى غيه وغروره واستناداً لسيره المغرورين والمتعصيين من ذوى الأنفه والحميه فقد باشر عملاً قبيحاً آخر تمثل بتوعده باغواء آدم وذريته، ثم سأل الله ويدافع اشباع غريزه غضبه وحسده النظره إلى يوم القيامه ليرتكب معصيه أخرى أفدح من سابقتها «قال رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (١). فاستجاب الله له لثلاث؛ استحقاقاً للغضب، وإكمالاً لابتلاء العباد وتمحيصهم وأخيراً انجاز ما وعده به «فأعطاها الله النظره استحقاقاً للسخطه واستتماماً للبلية وانجازاً للعهده»، ولكن ليس على ضوء ما سأل، بل جعل لذلك أجلاً معيناً «فقال أنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» (٢). أما ما المراد بيوم الوقت المعلوم فهناك كلام واختلاف بين مفسرى القرآن ونهج البلاغه.

فذهب البعض إلى أن المراد بذلك انتهاء العالم وانقطاع مدّه التكليف (وعلى ضوء هذا المعنى فقد كانت الموافقه على بعض سؤال ابليس، لأنه سأل النظره إلى يوم القيامه بينما أوجب بالنظره إلى ختام الدنيا). بينما ذهب البعض الآخر أن المراد بذلك زمان معين وهو انقطاع عمر ابليس؛ الأمر الذى لا يعلمه إلّا الله؛ وإلّا لو أعلنه آنذاك لكان إغراءً لابليس بالتمرد وارتكاب المعاصى. وأخيراً فقد احتمل البعض أن المراد يوم القيامه؛ لأن الآيه الخمسين من سوره الواقعه عبرت باليوم المعلوم عن يوم القيامه «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ». إلّا أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً، لأنه وعلى ضوء هذا التفسير قد استجيب لجميع طلباته، فى حين يفيد ظاهر الآيات القرآنيه أنه لم يستجب إلّا لبعض طلباته، أضف إلى ذلك فإن الآيه التى وردت فى البحث قالت «يوم الوقت المعلوم» بينما قالت الآيه الوارده فى سوره الواقعه «يَوْمٍ مَّعْلُومٍ» فالآيتان متفاوتتان، وعليه فالتفسير الصحيح هو التفسير الأول أو الثانى. من جانب آخر فقد جاء فى الحديث أن المراد بيوم الوقت المعلوم هو زمان ظهور إمام العصر والزمان المهدي (عج) والذى ينهى بدوره عمر ابليس (٣). وبالطبع

ص: ١٢١

١-١) سوره الحجر / ٣٦. [١]

٢-٢) إشاره إلى آيه ٣٧ و ٣٨ من سوره الحجر « [٢] قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ».

٣-٣) تفسير نور الثقلين ٣ / ١٤ ح ٤٦.

فان هذا لن يؤدي إلى اجتثاث جذور الذنب والمعصية عن العالم بالمره وتنتفى قضيه الطاعه والامتحان الإلهي؛ لأنّ العامل الأصلي إنّما يكمن في هوى النفس الذى يبقى سائداً في الإنسان، بل حتى عامل انحراف الشيطان إنّما يعزى إلى هوى نفسه.

(١)

تأملات

١ - عظمه مقام الإنسان

إنّ الآيات القرآنيه التى تناولت قضيه سجود الملائكه للإنسان فى عدّه سور لتشكّل أحد الأدله المهمّه على أن الإنسان يمثل أفضل موجود فى عالم الخلقه وأشرف مخلوقات الله سبحانه (٢)، كما تشير هذه الآيات إلى سجود جميع الملائكه دون استثناء وخضوعها لآدم عليه السلام، وهذا بدوره دليل واضح على أفضليته عليه السلام حتى على الملائكه، ويبدو أنّ الهدف من هذه التأكيدات القرآنيه المستمره الفات انتباه الإنسان إلى عظم شخصيته الإلهيه والمعنويه؛ الأمر الذى يلعب دوراً مهماً فى تربيته النفس البشريه وتهذيبها وهدايتها.

٢ - كيف كان السجود لآدم؟

هناك عدّه أبحاث لدى المفسرين بشأن كيفيه السجود، وهل يجوز السجود لغير الله تعالى. يرى البعض أنّ ذلك السجود لم يكن إلّا لله تعالى، غير أنّه حصل أمام آدم بينما كان معلولاً- لخلق هذا الكائن العجيب؛ فى حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ السجود كان لآدم، إلّا أنّه لم يكن سجود العباده المختص بالله تبارك وتعالى، بل كان سجود خضوع واکرام واحترام. وجاء فى كتاب عيون الأخبار عن كتاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «كان سجودهم لله تعالى عبوديهً ولآدم إكراماً وطاعه لكوننا فى صلبه» (٣). فالذى يستفاد من هذا الحديث أن

ص: ١٢٢

١- ١) لقد تكفلت المناجاة الثانيه من المناجاة الخمسه عشر للإمام على بن الحسين عليهما السلام ببيان كيفيه تأثير هوى النفس وكذلك تأثير الشيطان فى انحراف الإنسان بصوره مفصله.

٢- ٢) سورة البقره / ٣٤ وسوره الاعراف / ١١ وسوره الاسراء / ٦١ وسوره الكهف / ٥٠ وسوره طه / ١١٦.

٣- ٣) نور الثقلين ١ / ٥٨. [١]

السجده كانت تنطوي على بعدين؛ أحدهما عباه الله والآخر تكريم آدم عليه السلام. وشييه ما ذكر سابقاً هو ماورد في الآيه ١٠٠ من سوره يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا». فقد جاء في الحديث الذي روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام بشأن الآيه السابقه أنه قال: «أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف وإنما كان من يعقوب وولده طاعه لله وتحيه ليوسف كما كان السجود من الملائكه لآدم».

٣ - أسئله واستفسارات بشأن خلق الشيطان

هنالك عدّه أسئله واستفسارات بشأن خلق الشيطان وسوابقه وتمرده على الأوامر الإلهيه ومن ثم امهاله حتى الزمان المعلوم، وبالطبع فإنّ المقام لا يسع الاسهاب والوقوف على التفاصيل، ولذلك سنقتصر على التعرض بأطناب لهذه المواضيع.

سؤال:

مهل ابليس من الملائكه؟ إنّ كان الجواب بالإيجاب فلم ارتكب تلك المعصيه الخطيره مع أن الملائكه معصومون، وإن كان الجواب بالنفي في أنه لم يكن من الملائكه، فما عله ذكره في عداد الملائكه على لسان الآيات القرآنيه؟

جواب:

يقيناً لم يكن من الملائكه، فقد صرّح القرآن قائلًا: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (١)، إلّا أنه قد اصطف مع الملائكه أثر جهوده في الطاعه والعبوديه ولذلك عد واحد منهم، ولهذا السبب أيضاً وردت بعض خطب نهج البلاغه بما فيها الخطبه رقم ١٩٢ المسماه بالقاصعه التي عبرت بالملك عن ابليس؛ وناهيك عن ذلك فقد صرّح نفسه قائلًا: «خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ» (٢) ونعلم جميعاً بأنّ الجن قد خلقوا من النار لا الملائكه، وهذا ما صرّحت به الآيه الخامسه عشره من سوره الرحمن «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»، وقد أشارت بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى أيضاً (٣). أضف إلى ذلك فقد أشار القرآن إلى ذريه ابليس وولده

ص: ١٢٣

١-١) سوره الكهف / ٥٠. [١]

٢-٢) سوره ص / ٧٦. [٢]

٣-٣) مجمع البيان ١ / ٨٢، ذيل الآيه ٣٤ من سوره البقره. [٣]

«أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ» (١) بينما ليست للملائكة من ذريه.

سؤال:

كيف جاز على الله سبحانه أن يسلط إبليس على الناس حتى أنهم سلبوا قدره الدفاع؟ أضف إلى ذلك فما الضروره في الاغواء والضلال؟ ومنحه تلك المدّة الطويله من العمر والمهله ليسعى سعيه في اغواء بني آدم وتوظيف كافه إمكانياته في سبيل تحقيق هذا الهدف؟ جواب:

أولاً: أنّ الشيطان قد خلق طاهراً عفيفاً وقد جدّ لسنوات من أجل صون قدسيته وطهره حتى قادته طاعته وعبوديته لأن يكون في مصاف الملائكة، إلّا أنّه في نهايه الأمر وأثر حبه لذاته وكبره وغروره واستغلاله لحرته قد سلك سبيل الضلال فسقط إلى الحضيض.

ثانياً: من الضروري الالتفات إلى نقطه مهمه وهى أنّ نفوذ الوسواس الشيطانيه إلى باطن الإنسان ليس نفوذاً عبثياً وإجبارياً؛ بل إنّ الإنسان هو الذى يفسح المجال بإرادته واختياره لهذا النفوذ سيجعله يستحوذ على نفسه، حيث يمنح الشيطان تأشيرته الدخول إلى حدود قلبه وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» (٢).

وقال فى موضع آخر «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ». (٣)

ثالثاً: لقد تضمنت عبارات الإمام على عليه السلام رداً لطيفاً رائعاً على السؤال المذكور حيث قال: «فأعطاه الله النظره استحقاقاً لسخطه واستتماماً للبلية وانجازاً للعهده»؛ أى أنّ الله قد أجزل عقابه بمنحه هذه المهله من جانب؛ لأنّ الآيات القرآنيه تفيد التحذير الإلهى الشديد والمتكرر لأولئك الذين يسيرون باتجاه الذنوب والمعاصى؛ فاذا فاد التحذير وأثر بهم ورجعوا عن غيرهم كان ذلك خيراً وإلّا أمهلهم ووكلمهم إلى أنفسهم ليكون عذابهم أشد: «وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

ص: ١٢٤

١-١) سورة الكهف / ٥٠. [١]

٢-٢) سورة الحجر / ٤٢. [٢]

٣-٣) سورة الحجر / ١٠٠. [٣]

«مُهَيِّنٌ» (١)، ومن جانب آخر فإن وجود الشيطان يشكل اختباراً وامتحاناً ضخماً للناس، وبعبارة أخرى فإنه يمثل جسر الأفراد المؤمنين نحو السمو والتكامل - لأن وجود هذا العدو المقتدر بالنسبة للمؤمنين الذين يرومون انتهاز سبيل الحق ليس فقط لا يستبطن أى ضرر فحسب، بل سيكون وسيله للتسامى والتكامل؛ حيث إننا نعلم بأن السمو والتكامل إنما يتم عادة فى ظل التضاد وإذا ما رأى الإنسان نفسه أمام عدو شرس فانه سيوظف كافة طاقاته وقدراته ونبوغاته، وبعبارة أخرى فان وجود هذا العدو القوى سيؤدى بالإنسان إلى ممارسه مزيد من الحركة والجهد؛ الأمر الذى يقوده بالتالى إلى السمو والرقى والتكامل. بينما لايزيد هذا الأمر مرضى القلوب والآثمين المنحرفين سوى انحرافاً وبؤساً وشقاءً، والحق أنهم استحقوا ذلك بما كسبت أيديهم: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» فالهدف هو أن الله يختبر أولئك القاسيه قلوبهم وفيها مرض بالقاءات الشيطان، «وَلِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» (٢).

سؤال:

كيف كانت شبهه ابليس بالتعزز بخلقه النار فيرى نفسه أفضل من آدم وبالتالي يعترض على حكمه الله؟ ونقول فى الجواب أن حب الذات والغرور تعدد من أضخم الحجب التى تحول دون رؤيه الحقائق والواقعيات؛ وهذا ما حصل لابليس، فلم يدفعه ذلك إلى التمرد والعصيان فحسب، بل اعترض على الحكمه الإلهيه ليجعل ذلك حجه احتج بها فى شرف عنصره على عنصر آدم، فكيف أسجد لهذا الموجود الذى خلقته من طين بينما خلقتنى من النار، فقد ذهبت به الظنون إلى أفضليه النار على التراب، بينما لا- يخفى أن التراب ينبوع مختلف الخيرات والبركات ومصدر جميع المواد الحيويه والمهمه والوسيله الرئيسيه لمواصله الحياه، كما يضم فى طياته أنواع المعادن والفلزات والجواهر وليس النار كذلك. صحيح أن النار والحراره تعتبر من سائر الوسائل

ص: ١٢٥

١- ١) سورة آل عمران / ١٧٨؛ [١]سوره الروم / ٤١. [٢]

٢- ٢) سورة الحج / ٥٣ - ٥٤. [٣]

الحياتيه الضروريه، لكن ممّا لاشك فيه أن الدور الأساسى إنّما تقوم به المواد الموجوده فى التراب والنار ليست سوى وسيله من أجل تكامل هذه المواد.

لقد صرّحت بعض الروايات (١) أنّ وحده من أكاذيب ابليس هو زعمه بأنّ النار أفضل من التراب، والحال إنّنا نعلم بأنّ النار عاده ما تتولد من احتكاك الأشجار أو من المواد الدهنيه وأنّ أصل الأشجار هو التراب، كما أنّ الدهون النباتيه والحيوانيه إنّما تستخرج بواسطه من الأرض. أضف إلى ذلك أنّ امتياز آدم لم يقتصر على أفضله عنصر التراب؛ بل تكرمته إنّما استندت إلى عامل أصلى تمثل بتلك الروح العظيمه التى نفخت فيه «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي». ولنفترض جدلاً أنّ الماده الاولى فى خلقه الشيطان كانت أفضل من مثيلتها لدى آدم، فان هذا الأمر هو الآخر لا يقوى دليلاً على تمرده وعدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم بفضل تلك الروح الإلهيه التى حلت فيه واكسبته ذلك المقام العظيم، ولعل الشيطان كان يعلم بكل هذه الأمور إلّا أنّ الكبر والغرور والعجب وحب الذات أعمى بصره وبصيرته عن الاذعان للحق.

٤ - تبريرات جوفاء

لقد حاول بعض الفلاسفه - كما نقل ذلك ابن ميثم البحرانى رحمه الله فى شرحه لنهج البلاغه - أن يبرروا ويأولوا كافه تفاصيل قصه خلق آدم وسجود الملائكه وتمرد ابليس وعدم امتثاله لأمر الله ليحملوها على مفاهيم لا تنسجم وظواهر تلك القصه. ومن ذلك أنّهم قالوا أنّ المراد بالملائكه الذين أمروا بالسجود لآدم هو القوى البدنيه المأموره بالخضوع أمام النفس العاقله (الروح البشريه)، والمراد بابليس القوه الوهميه وجنود ابليس هى القوى النابعه من الوهم وهوى النفس التى تتعارض والقوى العقلية، أمّا المقصود بالجنّه التى طرد منها آدم فأنّما يراد بها المعارف الحقه وأنوار الكبرياء الإلهيه! وما إلى ذلك من التأويلات الجوفاء التى لا أساس لها من الصحه. (٢)

ص: ١٢٤

١-١) تفسير نور الثقلين ٤ / ٤٧٢ ح ٩٣.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ١ / ١٩٠ فصاعداً.

هذا نموذج من التفسير بالرأى الذى ورد النهى عنه فى الأحاديث والروايات على أنه سبب السقوط والابتعاد عن الله سبحانه.

فكلنا نعلم بأنّ التفسير بالرأى وتحميل الأحكام الذهنيه المسبقه على الآيات والروايات يعدّ على الدوام من أهم الوسائل التى تمسك بها المحرفون والمتصنعون المتلبسون بالدين الذين لا يألون جهداً فى توجيه الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه بما ينسجم ورجباتهم ونزعاتهم، كما نعلم بأنّ الباب لو فتح أمام تفسير الآيات والروايات بالرأى فسوف لن يبقى هناك من أصول مسلمه ومبانى وأحكام قانونيه ثابتة وسيصبح كل شىء تابع للأفكار الخاطئه والأهواء الضاله لهذا وذاك، بل سيهجر الكتاب والسنة ويصبحان طينه بيد المنحرفين والمعرضين يصنعون منها ما شاءت أهوائهم ورجباتهم. ومن هنا طالعنا إصرار كبار محققى الإسلام والباحثين بضروره استخدام القواعد المسلمه لباى الألفاظ فى فهم معانى الكتاب والسنة. فالألفاظ لا بدّ أن تحمل على معانيها الحقيقيه، اللهم إلّا أن تكون هناك قرائن جليه تدعو لحملها على المعانى المجازيه؛ ويراد بها القرائن المقبوله لدى العرف والعقلاء الذين يستندون إليها فى إقامه أدلتهم وبراهينهم (١).

وأخيراً فان ذكر قصه ابليس وعاقبته كما وردت فى عبارات الإمام على عليه السلام لتتطوى على الدروس والعبر التى ينبغى أن تحتذيتها البشريه فى مسيرتها فينظروا بعين الاعتبار إلى نتائج الكبر والغرور وحب الذات والحميه والعاقبه المشؤومه لابليس وطرده من ماقم القرب لتلاحقه اللعنات والشقاء الأبدى، فتكون على حذر من سلوك هذا الطريق الخطير. ونختتم الحديث بما أورده العالم الجليل المرحوم مغنيه فى شرحه لنهج البلاغه فقد خلص إلى عدّه دروس من قصه ابليس منها:

١ - من حسد صاحب فضيله أو عادى إنساناً لرياسته وعمله فأنه على دين ابليس ومن رهطه يوم القيامة.

٢ - ليس هنالك من سبيل لمعرفة الدين والأخلاق الحميده سوى سبيل واحد وهو

ص: ١٢٧

(١-١) راجع كتاب التفسير بالرأى لآيه الله مكارم الشيرازى بشأن هذا الموضوع.

التسليم للحق والثبات عليه مهما كانت النتيجة.

٣ - أنّ أغلب الناس يصرون على الباطل لا على أساس عدم معرفتهم به، بل بسبب العناد واللجاجه ضد مخالفينهم، وهذا الاصرار الخاطيء إنّما ينتهى بهم إلى أسوأ العواقب. فلو تاب ابليس ورجع عن خطأه لقبول الله توبته وقد كان له مثل هذا الاستعداد، إلّا أنّه كان يعتقد بشرط وهو ألا يأمره الله بالسجود لآدم ثانيه بينما اشترط الله قبول توبته بذلك الشرط. (١)

ص: ١٢٨

١-١) في ظلال نهج البلاغه ١ / ٥١. [١]

«ثُمَّ أُسْكِنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْضَعَدَ فِيهَا عَيْشُهُ وَأَمَّنَ فِيهَا مَحَلَّتُهُ وَحَدَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعِيدَاوَتَهُ فَاغْتَرَّهُ عِدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِمَدَارِ الْمَقَامِ وَمُرَافَقِهِ الْمَأْبُرَارِ فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ وَاسْتَبَدَلَ بِالْحَرِذِلِ وَجَلًّا وَبِالْغَاغِرَارِ نَدَمًا ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ وَلَقَاءَهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ وَوَعْدَهُ الْمَرَدِّ إِلَى جَنَّتِهِ وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وَتَنَاسَلَ الدُّرِّيَّةُ» .

الشرح والتفسير كان الحديث فى مامضى عن اختبار الملائكه وتمرد ابليس، بينما تطرق الحديث هنا عن امتحان آدم والنتيجه التى تمخض عنها هذا الامتحان. ونقول هنا ما تفيده بعض الآيات القرآنيه هو أنّ آدم قد خلق للعيش فى الأرض. فقد قال سبحانه وتعالى فى الآيه ٣٠ من سوره البقره «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» ، كما أشارت الآيه ٣٦ من نفس السوره إلى المراد بالأرض موضع غير الجنّه (الجنّه بأى معنى كانت): «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» .

على كل حال كان لابدّ لآدم من دوره تدريبيه وامتحان إلهى يمدّه بتجربه ليتعرف على المفاهيم من قبيل الأمر والنهى والتكليف والطاعه والمعصيه والندم والتوبه ويتعرف عن قرب على عدوه، ومن هنا أسكنه الله الجنّه وأباح له التمتع بنعيمها ولم يحظر عليه سوى الاقتراب من تلك الشجره، إلّا أنّ وساوس الشيطان ومكره وحيله قد أثرت فى آدم ودفعته إلى ترك الاولى، فتناول من تلك الشجره ويهبط من الجنّه؛ الأمر الذى أدى بالتالى إلى يقظته وعودته

إلى الله في التوبه والإنابه، فاحفه الله بلطفه وعنايته فالهمه كيفيه التوبه، فتاب الله عليه ووعدته بالعوده إلى الجنه، فكان من الآثار الوضعيه لفعل آدم أن يحرم من تلك النعم والدعه في الجنه لأن يهبط إلى الأرض فيمارس الحياه المليه بالتعب والمشقه. ما مر معنا لحد الآن نظره كليه عامه إلى خطبه الإمام بشأن قصه آدم عليه السلام، ونخوض الآن في شرح تفاصيل الخطبه.

قال عليه السلام: «ثم اسكن سبحانه آدم داراً أرغد (1) فيها عيشه» ثم قال عليه السلام: «وآمن فيها محلته» في إشاره واضحه إلى أنّ البارئ سبحانه قد أفاض عليه ركنين رئيسيين من الأركان المهمه للحياه وهما: الأمن ووفور النعمه. والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد استوحى ذلك المعنى من الآيه ٣٥ من سوره البقره: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا». كما حذر الله سبحانه آدم عليه السلام من عدوه ابليس «وحذره ابليس عداوته» وبذلك فقد أرشده إلى سبيل السعاده والفلاح، كما أتم عليه الحجه بابانته لطرق البؤس والشقاء. وهذا ما صرحت به الآيه ١٧ من سوره طه إذ قالت: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» واتماماً للحجه أكثر فقد دل على الشجره التي لا ينبغي إليه الاقتراب منها، بينما أباح له التمتع بثمار كافه أشجار الجنه، غير أنّ آدم عليه السلام وبسبب عدم امتلاكه التجربه الكافيه بشأن مكائد الشيطان وحبائله قد آل أمره إلى الوقوع في مصيده الشيطان، فأشار الإمام عليه السلام إلى هذه المسأله بقوله: «فاغتره عدوه نفاسه (2) عليه بدار المقام ومرافقه الأبرار». ويبدو أن هذه هي الوظيفه التي نهض بها الشيطان، حيث يسعى للاقتراب من الصالحين والخيرين ليوسوس لهم ويسلبهم النعم والإلهيه ويقودهم نحو البؤس والشقاء. ثم أشار عليه السلام إلى الأمر الرئيسي في خطأ آدم عليه السلام: «فباع اليقين بشكه» كما ضعف تجاه الوسوس

ص: ١٣٠

١ - ١) «أرغد» من ماده «الرغد» بمعنى الحياه الرغيده الوادعه، كما ترد بمعنى النعمه الوافره بالنسبه للإنسان والحيوان أيضاً (المفردات ومقاييس اللغه).

٢ - ٢) «نفاسه» من ماده «النفس» على وزن «حبس» بمعنى الروح، ولما كان التنفس مصدر الحياه فقد استخدمت هذه المفرده لذلك المعنى، ثم وردت «المنافسه» بمعنى السعى من أجل الوصول إلى مكانه مهمه، لأنّ الإنسان يجهد نفسه في ذلك السعى، ومن هنا استعملت «النفاسه» بمعنى الحسد والبخل (المفردات ومقاييس اللغه ولسان العرب).

الشیطانيه التي كان ينبغي له مجابتهها بعزمه الراسخ «والعزيمه بوهنه» (١) والعبارة إشاره لآيه ١١٥ من سوره طه «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْدَأَ لَهُ عَزْمًا». (٢) نعم صحيح أن الشيطان أقسم لهما بأنه لا يريد بهما إلا النصيحة والخير «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ» (٣) ولكن هل كان على آدم أن يثق بوعد الله القائم على اليقين أم يصغى إلى كلام الشيطان القائم على أساس الشك والوهم؟ لاشك إن نسيان هذه الحقيقه وإغفالها جعلت آدم يقدم على تلك المعامله التي لا تنطوى سوى على الغبن والضرر فضعف عزيمته في طاعه الله. وهذا بحد ذاته درس وعبره لكافه بنى آدم في ضروره الاستناد إلى عوامل اليقين في جميع معاملاتهم واجتناب طرق الشك والغموض والابهام في مراعاة الاحتياط وعدم اقتحام أى ميدان دون دراسه ظروفه وملابساته، وذلك لأن الشياطين درجت على تنميق سبلها المفسده بما يكسبها ظاهراً أنيقاً في حين لا تستبطن سوى النار المستعرة التي أوقدها لبنى آدم. أجل هنالك الدروس والعبر القيمه في قصه آدم والتي لا بد للبشريه من وضعها نصب عينها في حياتها حتى قيام الساعه.

ثم تطرق عليه السلام إلى النتائج المريره التي أفرزتها تلك المعامله فقال: «واستبدل بالجدل» (٤) و«بالاغترار ندماً». وهنا نسأل ماهى الحوادث التي دفعت بآدم للالتفات إلى خطأه وبالتالي حسرتة وندمه

ص: ١٣١

١- ١) هناك احتمالان حول رجوع الضمير فى «شكه» و «وهنه»، فقد صرح أغلب شراح نهج البلاغه بأن الضمير يعود إلى آدم؛ أى أن آدم عليه السلام باع يقينه بشكه وعزمه بوهنه وضعفه. بينما الاحتمال الآخر أن يكون الضمير عائداً إلى إبليس فى المفردتين وذلك لأنه هو الذى أوجد هذا الشك والوهن، ففى الواقع هو اضافه إلى السبب لا مفعول. لكن يبدو الاحتمال الأول أصوب من الثانى.

٢- ٢) سوره طه / ١١٥. [١]

٣- ٣) سوره الاعراف / ٢١. [٢]

٤- ٤) «الجدل» على وزن الجدل بمعنى الفرح والسرور كما وردت فى صحاح اللغه، وقال صاحب المقاييس أن الجدل على وزن الجسم بمعنى جذر الشجره الذى يقومها ويمنحها الاستقامه، ومن هنا كانت قامه الفرحان مستويه بينما كانت قامه المغموم منحنيه، كما تطلق أحياناً على الأرض اللزجه، إلا أنها استعملت بمعنى الفرح.

٥- ٥) «وجل» على وزن أجل بمعنى الخوف والخشيه.

على ما فرط منه؟ يبدو أنّ الإمام عليه السلام أجمل عبارته بهذا الشأن، بينما تصدى القرآن الكريم في أكثر من آية لشرح التفاصيل: فحين استسلم آدم لوساوس الشيطان وأكل من تلك الشجرة المحظورة، لم تمر عليه مدّة حتى نزع عنه لباس الجنّة وبدت سوائته التي قدر لها أن تخفى، فشعر بالخجل من الملائكة وطفق يخصف عليها من ورق الجنّة، ثم أعقب ذلك ما تلقاه من أمر بالهبوط من الجنّة على أنّه يمثل جزاء كل من يولى ظهره لأوامر الله ويستجيب لوساوس الشيطان. إلّا أنّ آدم عليه السلام وخلافاً لسلوك الشيطان وتجربته الخاطئة، لم يصر على خطأه ويركب رأسه ويواصل معصيته، فأقبل فوراً على الله سائله بلطفه ورحمته أن يتوب عليه، فعلمه كيفيه التوبه ثم وعده العوده ثانيه إلى الجنّة «ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقاه كلمه رحمته ووعدّه المرد إلى جنّته» (١). على كل حال فإن قبول التوبه لم يبق على آدم في الجنّة، حيث لم يعدّ هنالك من مبرر لمواصله حياته فيها، فقد تعلم ما كان ينبغي عليه تعلمه وجرب ما كان لا بدّ له من تجربته. ولذلك أهبطه الله إلى دار الدنيا - الامتحان -؛ دار التزواج والذريه «وأهبطه إلى دار البليه وتناسل الذريه». فالذى يستشف بوضوح من هذه العبارة أنّ الدنيا دار البلاء والامتحان، وما مر في الجنّة كان تحضيراً لخوض هذا الامتحان، كما لا مكان في الجنّة للتزواج والتناسل، بل ذلك من مختصات الدنيا.

تأملات

١ - ما كانت جنّ آدم؟

ذهب جماعه إلى أنّ الجنّة التي سكنها آدم عليه السلام كانت جنّ الخلد التي وعد الله عباده

ص: ١٣٢

١- ١) هناك كلام في الضمير «جنّته» هل يعود إلى الله أم إلى آدم. فلو كان عائداً إلى آدم، فإن ظاهر العبارة يفيد إرجاعه إلى الجنّة [١] التي كان فيها عليه السلام، وإن عاد الضمير إلى الله فلا لزوم أن تكون تلك الجنّة [٢] التي كان فيها آدم، ويمكن أن تكون جنّ آدم جنّ دنيويه أو الجنّة [٣] التي سيعود إليها وهي الجنّة [٤] الأخرويه كجنّ الخلد، لكن الظاهر أن الضمير يرجع إلى لفظ الجلاله بقريته الضمير في توبته ورحمته، رغم أنّ ظاهر كلمه (مردّ) يفيد العوده لتلك الجنّة، [٥] ويمكن أن تكون مطلق الجنّة، [٦] بعبارة أخرى ليس هنالك من منافاه بين نوع الجنّة [٧] مع المفرده «مردّ» .

الصالحين، بينما ذهبت جماعه أخرى إلى أنها كانت جنّه دنيويه غنيه بحدائقها وبساتينها، وقد استدلت هذه الجماعه ببعض الأدله فيما اعتقدت:

بادئ ذى بدء أنّ الجنّه الموعوده بعد القيامه هي جنّه خالده لا يعترىها الخروج. وقد يقال فاذا كانت كذلك فأنى لابلوس الذى يفيض كفرأ وعنادأ وطغيانأ أن يدخل هذه الروضه المقدسه؟

فاذا قيل بأن إبليس لم يوسوس لآدم فى الجنّه قط، بل وسوس له وقد وقف خارجأ على بابها، قلنا بأن ذلك لا ينسجم وما صرّحت به الآيه ٣٦ من سوره البقره التى قالت: «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» التى تشمل آدم وحواء وابلوس معأ.

أضف إلى ذلك فقد صرّحت الروايات الكثيره الوارده عن أئمه أهل البيت عليهم السلام أنّ تلك الجنّه كانت من جنان الدنيا.

فقد جاء عن حسين بن بشار أنّه قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن جنّه آدم، فقال عليه السلام: «جنّه من جنان الدنيا يطلع عليها الشمس والقمر ولو كانت من جنان الخلد ما خرج منها أبداً» (١).

كما أورد المرحوم الكلينى فى الكافى عن حسين بن ميسر مثل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام (٢) - اما الإشكال الوحيد الذى يرد على هذا الكلام فانما يكمن فى العبارة السابقه من هذه الخطبه «نفاسه عليه بدار المقام»، لكن من الممكن أن يكون معنى هذه العبارة هو أنّه لو لم يرتكب هذه المخالفه لبقى مدّه طويله فى هذه الجنّه ثم يهبط إلى الأرض، إلّا أنّه تركه للاولى أسرع فى إخراجه من الجنّه وهبوطه إلى الأرض، أو أن يقال أنّه أراد سبحانه أن يحرم آدم من جنّه الخلد، فلو كان آدم مطيعأ لأوامر الله لالتمس طريقه إلى تلك الجنّه.

٢ - هل اقترف آدم معصيه؟

يرى أولئك الذين يجوزون ارتكاب الذنب على الأنبياء - ولاسيما فى مثل هذه الأمور - أنّ

ص: ١٣٣

١-١) بحار الانوار ١١ / ١٤٣، ح ١٢. [١]

٢-٢) الكافى ٣ / ٢٤٧، باب جنّه الدنيا، ح ٢.

آدم عليه السلام قد ارتكب المعصية، بينما لا يرى أتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام الذين يؤمنون بعصمه الأنبياء عن كل خطأ وزلل - سواء في باب العقائد وتبليغ الأحكام الشرعيه أو في باب الأعمال والأفعال اليوميه قبل النبوه وبعدها - (١).

أن آدم عليه السلام قد قارف أيه معصيه وأن نهى الله لآدم عليه السلام عن تلك الشجره المحظوره لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان فعلاً مكروهاً، ولما كان مقام الأنبياء ولاسيما آدم عليه السلام الذي سجدت له الملائكه لمن العلو والرفعه بحيث لا يتوقع ارتكابهم للمكروه، فان فعلوا ذلك آخذهم الحق سبحانه فحسانت الأبرار سيئات المقربين - وبعباره أخرى الذنوب على قسمين: ذنوب مطلقه وذنوب نسبيه. الذنوب المطلقه هي الذنوب لدى الجميع من قبيل الكذب والسرقة وشرب الخمر، أمّا الذنوب النسبيه فهي ليست بذنوب لدى عامه الناس، بل قد تكون مستحبه لدى البعض من الناس، بينما نفس هذه الأعمال المستحبه والمباحه قد يطلق عليها اسم المعصيه فيما إذا صدرت من المقربين الذين يستبعد أن يقوموا بمثل هذه الأفعال، إلّا أنّها ليست من قبيل الذنوب المطلقه بل الذنوب النسبيه والمراد بها هنا «ترك الاولى». كما ذهبت جماعه إلى النهي عن تلك الشجره المحظوره على آدم عليه السلام كان نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً، على غرار نصائح الطيب وإرشاداته حين ينصح مريضه بعدم تناول الطعام الفلاني خشيه من استفحال المرض وازدياد مدته. فمن البديهي أنّ مخالفه نصائح الطيب لا تعتبر اهانته له ولا تعدّ معصيه لأوامره، بل ستجر تلك المخالفه على صاحبها مزيداً من الألم والمعاناه.

وهذا هو المعنى الذي أشارت إليه بعض الآيات القرآنيه بشأن قصه آدم عليه السلام: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» (٢).

وقد ورد في بعض الروايات أنّ آدم عليه السلام لم يتناول من تلك الشجره المحظوره، بل أكل من شجره مشابهه لها، ولذلك قال لهما الشيطان في ضمن وساوسه إنّ الله لم ينهكما عن هذه الشجره

ص: ١٣٤

١ - ١) قال ابن أبي الحديد: تعتقد الإماميه لا يجوز على الله أن يبعث نبياً وقد ارتكب المعاصي قبل نبوته سواء الكبيره أو الصغيره، عمداً أو سهواً؛ وتختص هذه العقيدته بالإماميه، أمّا أصحابنا فلا يرون امتناع الكبائر على النبي قبل نبوته. وأضاف ابن أبي الحديد وهذا ما يعتقده الإماميه بالنسبه لأئمتهم الاثني عشر حيث يرون لهم عصمه مطلقه كعصمه الأنبياء (شرح نهج البلاغه

لابن أبي الحديد ٧ / ١٠). [١]

٢ - ٢) سورة طه / ١١٧. [٢]

«وَقَالَ مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ» (١). أضف إلى ذلك فهناك نقطه مهمه لابد من الالتفات لها والتي تكمن في قسم الشيطان لاثبات حسن نيته في دعوتهما للأكل من تلك الشجره «وَقَامَتَا فِيهَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» (٢) ولم يكن آدم وحواء آنذاك سمعا من يقسم كاذباً؛ الأمر الذي جعلهما يصغيان إلى وساوس الشيطان.

بالطبع لو تأملا قليلاً لاكتشفا كذب الشيطان؛ لأنّ الله سبحانه قد حذرهما سابقاً مكائده وأنه عدو لهما، ومن الواضح أنّه لا يمكن الوثوق بكلام العدو وإن عززه بالإيمان المغلظه.

٣ - ما حقيقه الشجره المحظوره؟

اختلفت أقوال المفسرين بشأن الشجره المحظوره على آدم عليه السلام هل كانت شجره خارجيه اعتياديه أم مسأله معنويه أخلاقيه، وإن كانت ماديه أو معنويه فما هي هذه الشجره؟

نتناول هذه القضية بالبحث المقتضب رغم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يتعرض في خطبته لتلك الشجره حيث وردت الإشارات فيها إلى قصه إبليس ووساوسه لآدم عليه السلام.

فقد أشار القرآن الكريم في سته مواضع إلى تلك الشجره المحظوره دون الخوض في ماهيه تلك الشجره، غير أنّ الأخبار والروايات الإسلاميه وكلمات المفسرين قد تضمنت أبحاثاً مسهبه بهذا الخصوص - حيث فسرها البعض بشجره الحنطه (وهنا لابد من الالتفات إلى أنّ الشجره تطلق على النبات أيضاً، وهذا ما صرّحت به الآيه ١٤٦ من سوره يونس: «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» . في حين فسرها البعض الآخر بشجره العنب والنخيل والكافور أيضاً. (٣)

وأخيراً فسرها البعض معنوياً على أنّ تلك الشجره كانت علم آل محمد صلى الله عليه وآله وقيل بل العلم بصوره مطلقه كما قيل كانت الحسد. وقد ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حين سئل عن عله اختلاف الروايات بهذا الشأن أنّه قال: «كله صحيح، لأنّ اشجار الجنان ليست من

ص: ١٣٥

١-١) تفسير نور الثقلين ٢ / ١١ ح ٣٤؛ [١] سوره الاعراف / ٢٠. [٢]

٢-٢) سوره الأعراف / ٢١. [٣]

٣-٣) انظر تفسير نور الثقلين ١ / ٦٠؛ [٤] الدر المنثور ١ / ٥٢ و ٥٣ و ذيل الآيه ٣٥ من سوره البقره.

قبييل أشجار الدنيا. فشجره الجنة تحمل أنواع الثمار. ولما كرم الله آدم عليه السلام واسجد له الملائكة واسكنه الجنة حدث نفسه: هل خلق الله خلقاً أكرم منى؟ فأراه الله مقام محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله فتمنى أن يبلغ مقامهم» (١). جدير بالذكر أن التوراه صرّحت بأن الشجرة المحظوره كانت شجرة العلم والمعرفه (معرفه الحسن من القبيح) وشجرة الحياه الخالده وقد نهى الله آدم وحواء من تناول من تلك الشجرة فيحصل على المعرفه ويصبحا خالدين كالله. (٢).

وتكفى هذه العبارة لوحدها فى إثبات تحريف التوراه الفعلية عن التوراه الحقيقيه، حيث تثبت أنها من وضع الأفراد والجهال الذين يرون العلم والمعرفه مثله على آدم وأنه استحق الطرد من الجنة بسبب هذا الذنب. وكأن الجنة لا تسع ذوى العلم والمعرفه، وهنا لابد من الإشاره إلى أن بعض الروايات التى ذهبت إلى أن الشجرة المحظوره كانت شجرة العلم والمعرفه إنما هى روايات موضوعه أخذت عن التوراه المحرفه.

٤ - الكلمات التى تاب الله بها على آدم عليه السلام.

لقد تحدث الإمام عليه السلام فى الخطبه عن تلقى آدم عليه السلام لكلمه الرحمه من الله سبحانه دون الدخول فى تفاصيل هذه الكلمه. القرآن من جانبه أيضاً أشار من بعيد إلى هذه المسأله دون الحديث عن ماهيتها وكنهها. إلّا أن الذى يفهم من هذه التعابير أن تلك الكلمات كانت تتضمن مسائل مهمه، فقد صرّح البعض بأن المراد بالكلمات هو الاعتراف بالخطأ، وهذا ما أشارت إليه الآيه ٢٣ من سوره الأعراف: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». كما استدل البعض الآخر على هذا الاعتراف بالتقصير وطلب المغفره بالعبارة: «لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى أنك خير الغافرين» (٣) وقد ورد مثل هذا المعنى فى بعض الروايات عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام. (٤)

بينما صرّحت أغلب الروايات بأن تلك الكلمات كانت أسماء محمد وعلى وفاطمه والحسن

ص: ١٣٦

١-١) نور الثقلين ١ / ٦٠ ([١] بتلخيص).

٢-٢) التوراه، سفر التكوين، الفصل الثانى، رقم ١٧.

٣-٣) بحار الأنوار ١١ / ١٨١. [٢]

٤-٤) تفسير نور الثقلين ١ / ٦٧. [٣]

والحسين عليهم السلام. فقد جاء في كتاب الخصال أن ابن عباس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فقال صلى الله عليه وآله: «سأله بحق محمد وعلى وفاطمه والحسن والحسين إلمأبت عليه فتأب الله عليه إنه هو التواب الرحيم» (١).

جدير ذكره أن هذا المعنى مع فارق طفيف قد ورد في «الدر المنثور» التفسير الروائي المشهور لدى العامة. (٢) كما جاء في روايه أخرى عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام أن آدم عليه السلام حين ارتكب الخطيئه وطلب المغفره من الله، سأله أن يقبل توبته بعد أن اعترف بذنبه. فقال له الحق سبحانه ألم أعلمك أن تدعوني بمحمد وآل محمد لكل شدة نزلت بك؟ فقال آدم عليه السلام: اللهم بلى. فقال الله: ادعني بهؤلاء محمد وعلى وفاطمه والحسن والحسين عليهم السلام لأقبل عذرك وأعطيك ما تريد. (٣)

وفي حديث آخر عن عائشه عن النبي صلى الله عليه وآله أن الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام هي: «اللهم إنك تعلم سري وعلايتي فأقبل معذرتي وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنبي اللهم أني أسألك ايماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلأما كتبت لي وارضى بما قسمت لي» (٤)

ونرى هنا أن ليس هناك من تضارب في هذه الروايات، فلعل آدم عليه السلام قد تضرع بهذا الدعاء إلى جانب توسله بالنبي وعلى وفاطمه والحسن والحسين عليهم السلام.

وأخيراً فقد فسرها البعض بالحاله المعنويه لآدم عليه السلام ومدى انشداده لله سبحانه؛ الأمر الذي رافق توسله بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وبالطبع فليس هنالك من منافاه بين عدم علم آدم عليه السلام بهذه الكلمات قبل التعليم الإلهي مع علمه بالأسماء، لأن الاحتمال القوي هو أن العلم بالأسماء يعنى العلم والالمام بأسرار الخليقه وهذا غير المقوله الأخرى التي تتناول سبل تركيه النفس وتهذيبها وتدارك التقصير والسير إلى الله تبارك وتعالى.

ص: ١٣٧

١-١) كتاب الخصال نقلاً عن تفسير الثقلين ١ / ٦٨.

٢-٢) تفسير الدر المنثور ١ / ٦٠ (ذيل الآية ٣٧ من سورة البقره).

٣-٣) شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئي ٢ / ١١٨.

٤-٤) تفسير الدر المنثور ١ / ٥٩. [١]

«وَاضِطَّي سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَحَدَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ لَمَا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ وَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْذِنُوا مِنْهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مَنْ سَقَفَ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعًا وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعًا وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ وَأَجَالَ تُقْنِيهِمْ وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَخْدِثَاتٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُخَلِّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ. رُسُلٌ لَا تُقْصَرُ بِهِمْ قَلَّةُ عِدَدِهِمْ وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سَابِقِ سُمِّيَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَوْ غَابِرِ عَرَفَهُ مَنْ قَبْلَهُ. عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَّتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الْأَبَاءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاءُ».

الشرح والتفسير لقد تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبته عن قضية بعث الأنبياء. وهي المرحلة التي أعقبت مرحلة خلق آدم وممارسه للحياه على الأرض، وقد تطرق الإمام عليه السلام بادئ ذي بدء إلى عله بعث الأنبياء وارسال الرسل، ثم أشار إلى ماهيه مضمون دعوات الأنبياء ورسالاتهم، إلى جانب استعراض الخطوط الرئيسيه لتعاليمهم وإرشاداتهم، وأخيراً خصائص الأنبياء وصمودهم أمام الصعاب والمشاكل والأطوار العام الذي كان يحكم علاقاتهم فيما بينهم وكيفيه

إرتباط بعضهم مع البعض الآخر. فقد استهل كلامه عليه السلام بهذا الشأن قائلاً: «واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم (١) وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم» .

وعلى هذا الأساس فإنّ الأنبياء قد عاهدوا الله منذ بدايه الوحي برعايته وايصاله إلى الناس على أنّه أمانه وعهد في أعناقهم.

نعم لقد تقبل الأنبياء عليهم السلام هذه المسؤوليه العظيمه فجّدوا واجتهدوا في حملها وايصالها إلى الناس كأمانه ووديعه الهيه. أمّا الحديث بشأن بعض الأمور من قبيل: كيف اختار الله هذه الصفوه من الأنبياء، وما حقيقه الوحي، وكيف يوحي للبعض بينما لا يوحي للبعض الآخر منهم، فنوكله إلى موضعه (٢).

والواقع هو أنّ العبارة المذكوره إشاره للآيه: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً» (٣).

ثم أشار عليه السلام إلى السبب الرئيسي لبعثه الأنبياء فقال: «لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقّه واتخذوا الأنداد (٤) معه واجتالتهم (٥) الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته» .

فالواقع لقد كانت إنعدام معرفه هؤلاء بالله سبحانه سبباً لأنّ يهووا في أوديه الشرك الرهيبه ومن ثم تتلفهم الشياطين فتصدهم عن طاعه الله وعبادته. أمّا بشأن المراد بهذه العده وماهيه العهد الإلهي، فقد أشار أغلب المفسرين وشراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد به ميثاق عالم الذر، ويمكن اعتبار ذلك إشاره إلى الفطره (٦) التي تطرق لها الإمام عليه السلام في عباراته اللاحقه.

ص: ١٤٠

١-١) «الميثاق» كما ورد في صحاح اللغه من ماده «الوثوق» بمعنى الاعتماد على أمانه الشخص. ومن هنا أطلق على الميثاق اسم العهد، لأنّه يدعو إلى الاطمئنان والوثوق (طبعاً كان الأصل موثاق ثم بدلت الواو بالياء) .

٢-٢) انظر التفسير الموضوعي «نفحات القرآن» ٣١٧ / ٧.

٣-٣) سوره الأحزاب / ٧. [١]

٤-٤) «أنداد» جمع «ند» على (وزن) ضد بمعنى المثل، وأراد هنا المعبودين من دونه سبحانه وتعالى، بينما قال صاحب المقاييس أنّها تعنى الانفصال والهروب والمخالفه. ولهذا قال اللغويون بأنّ الند لا يطلق على كل مثل، بل تطلق على المثل الذي يتخذ مساراً يخالف آخر في أعماله وأفعاله كالفرد الذي يماثل آخر إلّا أنّه يحاربه.

٥-٥) «اجتال» من ماده «جولان» بمعنى العصر، إلّا أنّها اقترنت بالحرف (عن) في عبارة الإمام عليه السلام فعنت الانصراف عن الشئ، ومعناها هنا صرفتهم عن قصدهم.

٦-٦) لقد ذكر هذا الاحتمال في الأبحاث المتعلقه بعالم الذر، حيث يمكن أن يكون تفسيرها بالمسائل الفطريه والاستعدادات الإلهيه التي أودعها الله الذات الإنسانية. وللوقوف أكثر على هذا الموضوع، راجع تفسير الأمثل ٧ / ٤. [٢]

ويعباره أخرى فإن الله قد خلق الإنسان على هذه الفطره الطاهره التي تجعله يتعرف على حقيقه التوحيد فى باطنه ويتطلع إلى الخير وينبذ الشر. ولو بقيت هذه الفطره السليمه على حالها لحفت العنايةات الإلهيه الإنسانيه جمعاء ولهدتها إلى السمو والكمال ولسهل لهم الأنبياء السبل إلى ذلك الكمال ولقل حجم المسئوليه التي نهض بعثها هؤلاء العظام، غير أن الانحراف عن الفطره سواء على مستوى المعارف التوحيديه لينتهى بالزروع نحو الشرك والوثنيه وعلى المستوى العملى ليقود الاستسلام إلى الأهواء والشياطين، قد أدى إلى موآتره بعث الله للأنبياء وتحملهم لتلك المسئوليات الخطيره بغيه إعاده البشريه إلى فطرتها الأصلية، وهذا ما تطرق له الإمام عليه السلام فى العبارات اللاحقه من الخطبه والتي أشار فيها إلى عظم مسئوليات الأنبياء وما اتصفوا به من خصال عمليه ومكارم أخلاقيه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى فلسفه بعثه الأنبياء فقال: «فبعث فيهم رسله وواتر (١) إليهم أنبياءه ليستادوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسى نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويشيروا لهم دفائن العقول» .

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة أهداف رئيسيه تقف وراء بعث الأنبياء. أولها: طلب أداء ميثاق الفطره فقد ذكرنا أنّ الله سبحانه قد أودع المعارف التوحيديه فطره الإنسان التي تقوده بصوره طبيعيه - مالم تدنس وتلوث وتتعرف على الانحراف ودون نشأه صاحبها وولادته على الشرك بفعل انحداره من والدين مشركين - إلى عباده الواحد الأحد وسوف يتطلع إلى الصالحات ويعشق الحق والعدل فى ظل هذه الفطره السليمه الموحد، فقد جاء الأنبياء ليعيدوا الأفراد المنحرفين إلى هذه الفطره التوحيديه المودعه لديهم.

الهدف الثانى: لتذكير الناس بنعم الله التي اعترتها الغفله والنسيان، فالإنسان ينطوى على نعم ماديه ومعنويه جمه ولو استغلها كما ينبغى فإنه سيشيد صروح سعادته وفلاحه فى حين سيفقد مثل هذه السعاه إذا ما نساها وتجاهل استعمالها واستغلالها. ومثله كمثل الفلاح

ص: ١٤١

١-١) «واتر» من ماده «وتر» بمعنى الفرد فى مقابل الشفع بمعنى الزوج، وجاءت هنا بمعنى الواحد؛ أى أنّ الأنبياء قد أتوا الواحد تلو الآخر من أجل هدايه الناس. وقال البعض معناها الموالاه مع الفاصله، كأن يقال «واتر ما عليه من الصوم» ؛ أى صام يوماً وأفطر آخر، فى قبال «متدارك» الذى يعنى الموالاه دون تخلل الفاصله.

الذى لا يستفيد من المياه لسقى أشجار حديقته ولا يقطف ثمار أشجاره حين الحصاد. فإذا ما جاء أحدهم وذكره بهذه النعم المنسيه فانه يكون قد أسدى له أعظم خدمه، وهذا ما ينهض به الأنبياء.

الهدف الثالث: اتمام الحجه على الناس من خلال الأدله العقليه - إلى جانب المسائل الفطريه - وإرشادهم إلى الكمال فى ظل التعاليم السماويه والأوامر والأحكام الشرعيه.

الهدف الرابع: «يثيروا لهم دفائن العقول» ليكشفوا للناس كنوز العلوم والمعارف الكامنه فى عقولهم، فقد أودع الله هذه العقول كنوزاً عظيمه قيمه لو ظهرت واستغلت لشهدت العلوم والمعارف نهضه عظيمه وجباره، غير أن هذه الكنوز اختفت واستترت اثر هذه الغفله والتعاليم الفاسده والذنوب والمعاصى والتلوث الأخلاقى، ومن هنا فان إحدى وظائف الأنبياء تكمن فى ازاله هذه الحجب واثاره تلك الكنوز المفعمه بالعلوم والمعارف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الهدف الخامس فى استعراض الآيات الإلهيه للناس فى عالم الخلقه فقال عليه السلام: «ويروهم آيات المقدره» ثم يشير عليه السلام إلى هذه الآيات فيقول: «من سقف فوقهم مرفوع ومهاد تحتهم موضوع ومعاش تحييمهم وآجال تفيهم وأوصاب (١) تهرمهم (٢) وأحداث تتابع عليهم» .

والواقع هى أنّ هذه الأمور تمثل سلسله من أسرار الخلقه فى السماء والأرض وعوامل الحياه وأسباب الفناء والألم والعناء والذى تذكر كل واحده منها الإنسان بالله سبحانه وتعالى إضافة إلى الحوادث والوقائع التى تدعو الإنسان إلى اليقظه والاعتبار، وعليه فان الأنبياء يحملون إلى الناس تعاليم ساميه ومفاهيم نبيله من شأن كل منها رفع المستوى العلمى والمعرفى لدى الإنسان أو ايقاظه من غفلته وجعله يتحلى بالفطنه والذكاء. ثم قال عليه السلام: «ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجه لازمه أو محجه قائمه» . فالعباره

ص: ١٤٢

١-١) «أوصاب» من ماده «وصب» بمعنى مرض مزمن، والواصب يطلق على الشىء الموجود دائماً حسب المفردات، وجاءت هنا بمعنى المتاعب والمشاكل والمعاناه.

٢-٢) «تهرمهم» من ماده «هرم» على وزن حرم بمعنى الكهوله والعجز.

تشير إلى أربعه مواضع لا يعدم الوجود بعضها طرفه عين أبدا؛ الأمر الذى يتمّ الحججه على الناس.

١ - وجود الأنبياء - سواء من كان له كتاب سماوى أم لم يكن - الذى يتضمن هدايه البشريه وانتشالها من غفلتها واتمام الحججه عليها.

٢ - الكتب السماويه المتداوله بين الأمم رغم وفاه الأنبياء الذين أتوا بها.

٣ - الأوصياء وأئمه العصمه والذين عبر عنهم الإمام عليه السلام بقوله «حججه لانزله». وهناك من احتمل أن المراد بالحججه اللازمه دليل العقل، لكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً لأنه لا يكفى فى هدايه الناس، ولا مانع من الجمع بينهما فى هذه العبارة.

٤ - سنه الأنبياء والأوصياء والأئمه والتي عبر عنها بالمحججه القائمه، حيث عنوا المحججه بالطريق الواضح والمستقيم - سواء الظاهرى أو الباطنى - الذى يوصل الإنسان إلى هدفه المنشود (١) وبهذا فان الحق سبحانه قد أتم حجته على كافه الأمم والمجتمعات البشريه فى جميع الأعصار والأمصار وأمدهم بأسباب الهدايه، ثم تطرق عليه السلام لخصائص هؤلاء الأنبياء فقال: «رسل لا تقصر بهم قله عددهم ولا كثره المكذبين لهم». أجل كانوا مثلاً فى الرجوله والأقدام والشجاعه بحيث كان أحدهم يصمد بوجه الآلاف من خصوم الدعوه فيلقى بالنار فتشملة عنايه الله ورحمته ليخرج منها سالماً مرفوع الرأس، ويحطم الآخر الاصنام ثم يحتج بالأدله القاطعه التى تفند عقائدهم الباطله وتثبت صحه دعواه. كما كان البعض يحاصر من قبل جموع الكفر والشرك بيد عزلاء وقد شهر خصومهم سيوفهم فلم يضعفوا ويهنوا ووقفوا بكل صمود وشموخ. والجدير بالذكر فى خصائص الأنبياء التأكيد هنا على صمودهم وشهامتهم. ثم يواصل عليه السلام حديثه عن الأنبياء وكيفيه ارتباط بعضهم ببعض الآخر ووحده رسالتهم وهدفهم فقال: «من سابق سمى له من بعده أو غابر (٢) عرفه من قبله». فقد حدد عليه السلام فى هذه العبارة اسلوب من أساليب التعرف على الأنبياء فى أن يقوم نبي ببشاره قومه

ص: ١٤٣

١-١) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ماده الحج.

٢-٢) «غابر» من ماده «غبار» و «غبور» بمعنى الشئ المتبقى، ومن هنا يطلق على الحليب المتبقى فى الثدي اسم الغبره، كما يطلق الغبار على التراب المتبقى فى الهواء، ويقال الغابر للأشخاص والأزمه الماضيه (راجع المقاييس والمفردات ولسان العرب).

بالنبي الذي يأتي من بعده وبهذا يعرف النبي من خلال البشاره به. (١)

ثم يشير عليه السلام إلى ثبوت هذه السنه قائلاً: «على ذلك نسلت (٢) القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلقت الأبناء» .

تأملات

١ - الأنبياء بمنابه المزارعين

ما تفيده عباره أمير المؤمنين عليه السلام أنّ القدره الإلهيه المطلقه قد أودعت الذات الإنسانيه قابليه كافه أسباب الخير والصلاح والفلاح، وقد نشرت كافه البذور والرياحين العطره ساحه قلب الإنسانيه الخصبه. والأنبياء من جانبهم يقومون برى هذه البذور لتنت أشجاراً محمله بالثمار والفاكهه فيستثيروا هذه الكنوز الكامنه فى النفس البشريه «ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسى نعمته. . . ويثيروا لهم دفائن العقول» واستناداً لهذا فان الأنبياء لا- يمنحون الإنسان شيئاً خارجاً عن وجوده، بل ينمون ما لديه ويظهروا له مكنونه، حتى ذهب البعض إلى أنّ التعاليم والمفاهيم التى تلقى على الإنسان إنّما تمثل تذكيراً له، فالعلوم والمعارف قد اودعت النفس البشريه وما وظيفه المعلمين - سواء الأنبياء أو امتداداتهم - سوى إثارة هذه المعارف من خلال تعاليمهم، وكأنّ هذه المعارف مصادر مياه جوفيه تشق طريقها إلى سطح الأرض بعد الحفر والتنقيب ولعل التعبير بالتذكير الذى ورد على لسان الآيات القرآنيه «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» و «وَدَكَّرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» شاهداً على صحه المعنى الذى أوردناه. والواقع أن هذا البحث متشعب وشامل لا يسعنا استيعابه فى هذه العجله.

٢ - حوادث الاعتبار واليقظه

لقد تضمنت العباره المذكوره إشاره إلى حقيقه وهى أنّ الأنبياء وإلى جانب تعليمهم

ص: ١٤٤

١ - ١) لقد ورد الفعل «سمى» بصيغه المجهول فى بعض نسخ نهج البلاغه وما ذكرناه سابقاً يتفق وهذه النسخه، أمّا إذا ذكر بصيغه المعلوم تصبح العباره بهذا الشكل «من سابق سمي له من بعده» إلّا أنّ الاحتمال الأول أنسب.

٢ - ٢) «نسلت» القرون من ماده «نسل» بمعنى تكاثر الأولاد، والعباره كناية رائعه عن توالى القرون وكأن كل قرن قد ولد من القرن السابق.

الناس المعارف الإلهيه الحقه وبيان آيات القدره وعظمه خالق الوجود، فانهم يلفتون انتباه الناس إلى الحوادث ذات الدروس والعبر من قبيل حلول الأجل وانتهاء العمر وآجال النعم الماديه واستعراض المحن والخطوب والوقائع الشديده. فالعبارات الوارده فى الخطبه إشاره أخرى لفلسفه الأحداث الخطيره التى تنطوى عليها الحياه البشريه، بحيث لولا هذه الأحداث لغطت البشريه فى سبات عميق وحجاب من الغفله يتعذر معه صحوتها وافاقتها من سيادتها. (١)

٣ - دور الدين فى الحياه

الدرس الآخر الذى تعرضت له الخطبه هو دور الدين فى حياه الإنسان ولولا الأنبياء لتاهت البشريه فى غياهب الشرك والوثنيه وعباده الأصنام ولاستحوذت عليها الشياطين وحالت دون عبوديتها ومعرفتها بالله، وذلك لأنّ العقل بمفرده لا يسعه الأخذ بيد الإنسان إلى السعاده بعد تجاوز موانع الطريق ومعوقاته.

صحيح أنّ العقل نور خالد إلّا أنّ شعاعه باهت خافت مالم يستند إلى ضياء الوحي الذى يخترق المكان ولا يقف عند حدود فيهديه فى اجتياز ظلمات الطريق. ومن هنا تتضح جسامه الخطأ الذى أصاب البراهمه الذين تنكروا لبعثه الأنبياء وارسال الرسل. ولو كان العقل يدرك كافه أسرار الإنسان الباطنيه والظاهرية ويحيط بالعلاقه التى تحكم الماضى والحاضر والمستقبل ولا يخطئ فى تشخيصه للأحداث لأمكن القول بالاكْتفاء بإدراكه وفهمه لكافه وقائع الحياه فى هذا العالم والعالم الآخر، غير أنّ محدوديه هذا الفهم والإدراك وضآله المعاليم مقارنة بالمجاهيل (وهى المعاليم التى تتسم بالسعه والشموليه) لا تجعل من الصواب الاستناد إليها بمفردها.

طبعاً لا ننكر أنّ العقل هو حجه الله؛ الأمر الذى أكدّه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه، بل تواترت الروايات التى صرّحت بأنّه «الرسول الباطنى» حيث ورد فى الحديث المروى عن الإمام

ص: ١٤٥

(١-١) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع، انظر كتاب نفحات القرآن ٤ / ٤٤٠ فصاعداً.

الكاظم عليه السلام أنه قال: «إِنَّ لَّهٗ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حُجَّةَ ظَاهِرِهِ وَحُجَّةَ بَاطِنِهِ، فَأَمَّا الْحُجَّةُ الظَّاهِرَةُ فَالرَّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ» (١). مع ذلك فرساله هذا الرسول الباطن محدوده، بينما ليست كذلك رساله الرسول الظاهر الذى يستند إلى الوحي والعلم الإلهي المطلق. وبناءً على ما تقدم فقد اتضح الرد على البراهمه السوفسطائيين الذين يقولون: ما يأتي به الأنبياء لا- يخرج عن حالتين: أما أن يدرك العقول ما يقوله أو لا يدرك، فإن أدركه العقل فلا حاجة للأنبياء، وإن لم يدركه فو ليس بمعقول ولا- يمكن قبوله لأن الإنسان لا يقبل قبط ما لا يعقل. والإشكال الذى يرد على هذا الاستدلال هو أن هؤلاء لم يفرقوا بين اللامعقول والمجهول، وكأنهم تصوروا أن العقل يدرك جميع الأشياء، والحال لدينا تصنيف ثلاثي بشأن المواضيع المطروحه. فالمواضيع التى تعرض علينا إما أن تكن موافقه لحكم العقل أو مخالفه له أو مجهوله. ولا يسعنا هنا إلا أن نقول بكل تأكيد أن أغلب الموضوعات من قبيل القسم الثالث؛ أى هى من قبيل المجاهيل التى كرس رساله الأنبياء وظيفتها فى هذا المجال. أضف إلى ذلك فغالينا ما يعترينا هاجس الخطأ والزلل فى إدراكاتنا العقلية؛ ومن هنا برزت حاجتنا الملحه للأنبياء، وبعبارة أخرى إلى تأييد العقل بالنقل الذى يسعه منحنا السكينه والاطمئنان فى إدراكاتنا العقلية ويزيل الوسوس والهواجس ويأخذ بأيدينا إلى السبيل القويم.

٤ - لا تخلو الأرض من حجه

لقد أكد الإمام على عليه السلام على حقيقه أخرى وهى عدم خلو الأرض من الحجه الإلهيه الظاهرية أو الباطنيه «ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجه لازمه أو محجه قائمه» والطريف فى كلام الإمام عليه السلام أنه قرن الكتب السماويه بالأنبياء والحجج الإلهيه والسيره المعبره. نعم وراء كل كتاب سماوى نبي من أنبياء الله يكشف أسراره ويوضح معالمه ويبين أحكامه إلى جانب إجراء وتنفيذ مفاهيمه، كما يواصل نهجه بواسطه سنته

ص: ١٤٦

واستخلافه للوصى والإمام من بعده ليحفظ رسالته ويواصل نهجه. وهذه من أهم عقائدنا في هذا المجال، حيث ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام أنه قال: «لو لم يبق في الأرض إلّا اثنان لكان أحدهما الحجّة» (١). وهو الأمر الذى أكده أمير المؤمنين عليه السلام فى قصار كلماته: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحججه إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيئاته» (٢).

٥ - مميزات الأنبياء

إنّ الأنبياء الذين يبعثهم الله من أجل هداية الخلق ليسوا من قبيل الأفراد العاديين، بل يتصفون بجميع الخصال والمميزات اللازمة لقيامهم بوظيفتهم الرسالية الخطيرة ومنها البسالة والشجاعه الفائقه فى ابلاغ الرساله والصمود بوجه خصوم الدعوه من الأقوام الجاهله والمعانده والذود عن هذه الرساله إلى حد الاستماتة والشهادة فى سبيل تحقيق أهداف الرساله. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى تصدى الأنبياء لخصومهم والمكذبين والمستهزئين من أعدائهم؛ الأمر الذى يشاهد بوضوح فى تاريخ الأنبياء ولاسيما خاتمهم المصطفى صلى الله عليه وآله: «رسل لا تقصر بهم قلبه عددهم ولا كثره المكذبين لهم». كما أكد القرآن الكريم على تحلى الأنبياء بصفاتهم مبلغى الرسالات بهذه الصفة: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ» (٣).

والذى يفهم من عبارته الإمام عليه السلام - كما صرح بذلك صاحب منهاج البراعة - أن التقيه لا تجوز على الأنبياء، ومن هنا يتضح بطلان ما نسبته الفخر الرازى للشيعة الإماميه من أنها لا تجوز على الأنبياء حتى إظهار الكفر تقيه. (٤) بل الأمر أبعد من ذلك لأنّ التقيه حرام على الأئمة بل وحتى الأفراد العاديين فى الحالات التى يتعرض فيها الدين للخطر، بعبارته أخرى قد تكون التقيه واجباً وقد تكون حراماً. فإذا كان تركها يؤدى إلى سفك الدماء دون حلها فهى واجبه،

ص: ١٤٧

١-١ (١) الكافي ١ / ١٧٩. [١]

٢-٢ (٢) نهج البلاغه، [٢] الكلمات القصار، ١٤٧.

٣-٣ (٣) سورة الأحزاب / ٣٩. [٣]

٤-٤ (٤) منهاج البراعة ٢ / ١٦٠.

كأن تقع جماعه من المسلمين فى يد الأعداء بحيث يراق دمهم إذا أظهروا إسلامهم، فهنا يجب عليهم اخفاء دينهم كى لا يمكنوا العدو من قتلهم، فى حين قد يؤدى اخفاء الدين والافصاح عن العقيدة أحياناً إلى ضعف المسلمين وذلتهم، ففى هذه الحاله يحرم على الأفراد كتم دينهم وعليهم أن يكشفوا عنها بكل شجاعه مهما كلف الأمر (وما واقعه كربلاء عنك ببعيد التى جسد فيها الإمام الحسين وصحبه الكرام حرمة التقيه حفظاً للدين).

ولما كان كتم الأنبياء لمعتقداتهم يهدد أصل رسالتهم كانت وظيفتهم ترك التقيه. جدير ذكره أن التقيه ليست من المفاهيم التى تقتصر على الشيعة أو المسلمين فحسب، بل مفهوم من المفاهيم العقلانيه الذى يدعو الإنسان إلى حفظ نفسه وعدم هدر دمه إذا لم يكن هناك من جدوى لابتداء عقيدته. (1)

ص: ١٤٨

١ - ١) راجع كتاب القواعد الفقيهيه ١ / ٣٨٣، قاعدته التقيه للوقوف بصوره أشمل على مفهوم التقيه وتقسيمها إلى الأحكام الخمسه (الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح) والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن.

«إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ وَإِتْمَامِ بُيُوتِهِ مِمَّا أَخُوذًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ مَشْهُورَةً سِمَاتِهِ، كَرِيمًا مِيلَادُهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مَلَأَ مُتَفَرِّقَهُ وَأَهْوَاءَ مُنْتَشِرَةً وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةً، بَيْنَ مُشَبَّهِهِ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشَبِّهِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ ثُمَّ اخْتَارَ سَيِّدَنَا لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِقَاءَهُ وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنِ دَارِ الدُّنْيَا وَرَغِبَ بِهِ عَنِ مَقَامِ الْبُلُوَى فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيمًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَلَفَ فِيكُمْ مَا خَلَفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَّمِهَا إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بَغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ وَلَا عِلْمٍ قَائِمٍ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى أربعة أمور:

- ١ - قضيه بعثه نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وبعض خصائصه وصفاته وفضائله وعلائم نبوته.
- ٢ - الوضع الذي كانت تعيشه الأمة أبان انبثاق الدعوه الإسلاميه من حيث الانحرافات الدينيه والعقائديه وانقاذها من تلك الظلمات بنور رساله النبي صلى الله عليه وآله.
- ٣ - رحيل النبي صلى الله عليه وآله من الدنيا.
- ٤ - الارث الذي خلفه النبي صلى الله عليه وآله للأمة (القرآن الكريم) .

فقد قال عليه السلام: «إلى أن بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله لانجاز (١) عدته و اتمام نبوته (٢)» .

ثم أشار إلى شمه من فضائله والميثاق الذى أخذ من النبيين من قبله بالبشاره به «مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهوره سماته (٣)»، كريماً ميلاده» ولعل العبارة الأخيرة إشاره إلى كرامه آبائه وأجداده، أو بركات ولادته التى عمت أرجاء العالم، فقد صرحت بعض السير التاريخية بتهاوى أوثان الكعبة وانطفاء نار المجوس وجفاف بحيره ساوه التى كانت تحظى بعباده بعض الناس وتهدم قصور بعض الجبابره تزامناً مع الولادة الميمونه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكل هذه الأحداث دلالة واضحة على بدايه عصر جديد بانطلاقه شراره التوحيد والوقوف بوجه كافه مظاهر الشرك والالحاد. ثم قال عليه السلام: «وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقه وأهواء منتشرة وطرائف متشتته بين مشبه لله بخلقه أو ملحد فى اسمه أو مشير إلى غيره» .

«ملحد» من ماده «لحد» على وزن مهد بمعنى الحفره الواقعه على جانب ومن هنا اطلق على مثل هذه الحفره اسم اللحد، كما أطلق الالحاد على كل عمل يخرج عن حاله الاعتدال ويجنح نحو الإفراط والتفريط، ومن هنا نعت الوثنيه والشرك بالالحاد. وعليه فالمراد بقوله عليه السلام: «ملحد فى اسمه» هو ما أشرنا إليه سابقاً من نعت الأصنام بأسماء الله، على سبيل المثال كانوا يسمون أحد الأصنام باللات والآخر بالعزى والثالث بمناء، وهى الأسماء التى اشتقت على التوالى من أسماء الله العزيز والمنان، أو أن يكون المراد منها اصفاء صفات الله على المخلوقين، ولا- مانع من الجمع بين التفسيرين. ثم قال عليه السلام: «فهداهم به من الضلاله وانقدهم بمكانه من الجهاله، ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقائه، ورضى له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا ورغب به عن مقام البلوى» (٤).

ص: ١٥٠

١-١) «انجاز» من ماده «نجز» على وزن رجز بمعنى الانتهاء وتحقيق الشىء.

٢-٢) الضمير فى (نبوته) يعود إلى النبي، أما الضمير فى (عدته) ففيه احتمالان: أن يكون عائداً على الله أو عائداً على النبي، إلماً أن الأول أنسب، وذلك لأن بعثه النبي كانت وعداً إلهياً وعد بها نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء، كما يحتمل أن يكون الضميران عائدين لله سبحانه.

٣-٣) «سماته» جمع «سمه» بمعنى العلامه.

٤-٤) إذا تعدت رغب بحرف فى عنت الرغبه فى الشىء والاقبال عليه، بينما تعنى العزوف عن الشىء والانصراف عنه، حيث يكون معنى العبارة أن الله لم يرد لنبيه أن يعيش صعاب الدنيا أكثر من هذا الحد، فقبضه من هذا العالم الدنى ليضمه إلى جواره فى العالم العلوى.

أجل فقد قبضه إليه قبض اختيار وكرامه «فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله» وقد ورث أمته ما ورثت الأنبياء من قبله أممها «وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها» - فالأنبياء لم يتركوا أممهم من بعدهم سدى، بل أضاءوا له معالم الطريق ونصبوا عليهم الحجج «إذ لم يتركوهم هملاً» (١) بغير طريق واضح ولا علم قائم. من البدايه أن يكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة ما ورد في حديث الثقلين الذي تواترت الروايات بشأنه حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً وقد نبأني اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض». (٢)

وبالطبع فإن الإمام عليه السلام واصل حديثه في بحث جامع عن كتاب الله (القرآن الكريم) إلّا أنه لم يتطرق إلى العتره، حيث تعرض بصورة مفصلة - كما سنشير لاحقاً - إلى العتره في عدّه خطب من نهج البلاغه. ولعل عبارته عليه السلام: «علم قائم» في آخر كلامه إشاره إلى الأوصياء. على كل حال فإن حرص الأنبياء على أممهم لم يقتصر على حياتهم، بل كانوا قلقين على مستقبلهم إلى حد يفوق قلق الوالد الشفيق حال احتضاره على ولده الصغير؛ ومن هنا يتعذر تصور ترك الأنبياء لاممهم دون استخلافهم لأوصياءهم عليهم لكي لا تذهب مساعيهم في إرشاد الأمه وهدايتها أدراج الرياح.

تأملان

١ - الأديان قبل البعثه النبويه

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشارات مقتضبه عميقه المعنى بشأن أديان العرب وغير العرب في العصر الجاهلي وقبل البعثه النبويه. بحيث صرح المؤرخون والمحققون بأن العرب وعلى غرار سائر الأقوام كانت تعيش عدّه أديان ومذاهب لا يحصى عددها إلى جانب الانحرافات والخرافات الجمه. وقد قال ابن أبي الحديد - الشارح المعروف لنهج البلاغه - بشأن أديان

ص: ١٥١

١-١) «هملاً» من ماده «همل» على وزن حمل بمعنى ترك الشيء إلى جانب اهماله وعدم الاهتمام به.

٢-٢) راجع كتاب «نفحات القرآن» المجلد التاسع [١] للوقوف على أسناد حديث الثقلين [٢] وتواتره عند علماء الفريقين.

العرب في الجاهلية: فَأَمَّا الْأَمَّةُ الَّتِي بَعَثَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيهَا فَهِيَ الْعَرَبُ، وَكَانُوا أَصْنَافًا شَتَّى، فَمِنْهُمْ مَعْطَلُهُ وَمِنْهُمْ غَيْرُ مَعْطَلُهُ، فَأَمَّا الْمَعْطَلُهُ مِنْهُمْ، فَبَعْضُهُمْ أَنْكَرُ الْخَالِقِ وَالْبَعْثُ وَالْإِعَادَةُ، وَقَالُوا مَا قَالَ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ عَنْهُمْ: «مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» (١) فَجَعَلُوا الْجَامِعَ لَهُمُ الطَّبِيعَ، وَالْمَهْلِكُ لَهُمُ الدَّهْرُ. وَبَعْضُهُمْ اعْتَرَفَ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَأَنْكَرَ الْبَعْثَ. وَهَمُّ الَّذِينَ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» (٢).

وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُطَلِّقُ عَلَيْهَا لَفْظَ الشَّرِيكِ، وَيَجْعَلُهَا وَسَائِلَ وَذَرَائِعَ إِلَى الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَهَمُّ الَّذِينَ قَالُوا: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» (٣). وَكَانَ فِي الْعَرَبِ مَشْبَهُهُ وَمَجْسَمُهُ، مِنْهُمْ أَمِيَّةُ بِنِ الصَّلْتِ، وَهُوَ الْقَائِلُ:

مَنْ فَوْقَ عَرْشِ جَالِسٍ قَدْ حَطَّ رَجْلِيهِ إِلَى كَرْسِيهِ مَنْصُوبٌ وَذَهَبَ بَعْضُ مَتَكَلَّمِي الْمَجْسَمِ إِلَى أَنَّ الْبَارِيَّ تَعَالَى مَرْكَبٌ مِنْ أَعْضَاءِ عَلَى حُرُوفِ الْمَعْجَمِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَى حِمَارٍ فِي صُورِهِ غِلَامٌ أَمْرَدٌ، فِي رَجْلِيهِ نَعْلَانٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَعَلَى وَجْهِهِ فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ يَتَطَّيَّرُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ فِي صُورِهِ غِلَامٌ أَمْرَدٌ صَبِيحُ الْوَجْهِ، عَلَيْهِ كِسَاءٌ أَسْوَدٌ، مَلْتَحِفٌ بِهِ. (٤)

وَأَمَّا الَّذِينَ لَيْسُوا بِمَعْطَلُهُ مِنَ الْعَرَبِ؛ فَالْقَلِيلُ مِنْهُمْ، وَهَمُّ الْمُتَأَلِّهُونَ أَصْحَابَ الْوَرَعِ وَالتَّحَرُّجِ عَنِ الْقَبَائِحِ كَعَبْدِ اللَّهِ، وَعَبْدِ الْمَطْلَبِ وَابْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ، وَقَسِ بْنِ سَاعِدَةَ الْإِبَادِيِّ، وَعَامِرِ بْنِ الظَّرْبِ الْعِدْوَانِيِّ وَجَمَاعِهِ غَيْرِ هَؤُلَاءِ. (٥) أَمَّا الْبَعْضُ الْآخِرُ مِنْ شَرَّاحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ فَقَدْ صَنَفُوا عِلْمَاءَ الْعَرَبِ إِلَى عِدَّةِ طَوَائِفٍ مِنْهُمْ الْعَارِفِينَ بِالْإِنْسَابِ، وَمُفَسِّرِي الْأَحْلَامِ وَمُتَخَصِّصِينَ فِي عِلْمِ الْأَنْوَاءِ (نَوْعٍ مِنَ التَّنْجِيمِ الْمَشُوبِ بِالْخِرَافَاتِ) وَالْكُهْنَةَ الَّذِينَ يُوحُونَ إِلَى النَّاسِ بِأَنَّهُمْ يَخْبُرُونَ عَنِ مَغِيْبَاتِ الْمُسْتَقْبَلِ. أَمَّا مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ كَانَ الْبِرَاهِمَةُ الَّذِينَ عَاشُوا فِي الْهِنْدِ يَنْكُرُونَ كَافَهُ الْأَدْيَانَ وَلَا يُؤْمِنُونَ سِوَى بِالْأَحْكَامِ الْعَقْلِيَّةِ. وَطَائِفُهُ أُخْرَى مِنْ عِبْدَةِ الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الَّتِي تَمَثَّلُ أَنْوَاعًا مِنَ الْوَثْنِيَّةِ (٦).

ص: ١٥٢

١-١ (١) سورة الجاثية / ٢٤. [١]

٢-٢ (٢) سورة يس / ٧٨. [٢]

٣-٣ (٣) سورة الزمر / ٣. [٣]

٤-٤ (٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ / ٢٢٧. [٤]

٥-٥ (٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١١٧. [٥]

٦-٦ (٦) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ١/٢٠٥.

وإلى جانب هذه الطائفة هناك اليهود والنصارى والمجوس. وقد شهدت كل طائفة منهم انحرافاً عقائدياً، فالمجوس قالت بآله الخير والشر. وقد انطوت المجوسيه - التي قد تكون في بدايتها منسوبة لبعض الأنبياء - على خرافات جمه حتى ذهب بعض المحققين إلى أنهم يعتقدون بآله الخير وآله الشر الذين تقاطلا حتى تدخلت الملائكة فأصلحت ذات بينهما بشرط تفويض العالم السفلى لآله الشر مدّه سبعة آلاف سنة (ويفوض العالم العلوى لآله الخير). (١)

بينما ابتليت النصرانية بالتثليث (الأقانيم الثلاث) كما حرفت اليهود كتاب التوراه وشحنته بالانحرافات والخرافات التي لا يسعنا الخوض فيها في هذه الابحاث. فقد أوجز الإمام جميع هذه الطوائف في ثلاث: الاولى: المشبهه التي جعلت لله شريكاً، كالمجوس والنصارى، أو أولئك الذين يجعلون لله صفات المخلوقين كاليهود. الثانيه: أولئك الذين عدلوا باسمه إلى غيره كأغلب الوثنيين الذين أسموا أوثانهم بأسماء الله سبحانه فجعلوهم شفعاثهم عند الله. الثالثه: أولئك الذين عبدوا غير الله كالدهرية التي تعتقد بأنّ الطبيعه هي خالقه الوجود، أو عبده الأصنام والكواكب والشمس والقمر التي ترى الاصاله للكواكب والأصنام؛ أي تراها هي الله.

أجل لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وآله في ظل هذه الأوضاع ليحمل مشعل الهدايه ويضيء الظلمات بنور القرآن. لقد أتى رسول الله صلى الله عليه وآله تلك الأمم بأسمى مفاهيم التوحيد وأعظم المعارف والعلوم وأرصن الصفات الإلهيه، حيث جاءهم بالحنيفيه السمحاء الخاليه من الأساطير والخرافات والانحرافات التي سادت سائر الأديان، ولم تهدف قوانينه وتعاليمه سوى إلى حمايه المحرومين والمستضعفين وبسط العدل والقسط وحتى أوجز القرآن الكريم وظيفته في انقاذ الأمه من الضلال الميين وتعليمها الحكمة وتهذيب نفوس أبناءها: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٢).

ص: ١٥٣

١-١ شرح نهج البلاغه لابن ميثم، ١ / ٢٠٦.

٢-٢ سورة الجمعة / ٢. [١]

نعم لقد ظهرت معالم الدين الحق بظهور هذا النبي الكريم وانهارت الأساطير والخرافات لتشهد البشرية عصرها الجديد؛ الحقيقه التي أذعن لها الأعداء فضلاً عن الأصدقاء والفضل ما شهدت به الأعداء. فقد تناول الكاتب الانجليزى المعروف «برناردشو» هذا الأمر ليصف دين محمد بأنه الدين الوحيد الذى يصلح لقياده البشرىه ويتكيف مع حياتها على مدى التاريخ بحيث يسعه استقطاب جميع الشعوب والأقوام، كما ذهب إلى القول بأن محمد منقذ البشرىه جمعاء ولو قدر لزعيم على غراره أن ينهض بقياده العالم اليوم لتغلب على كافه المشاكل التي تعاني منها الإنسانيه ولقادها إلى السعاده والسلام، فمحمد أكمل إنسان عرفه الماضى والحاضر ولا يتصور أن وجود الزمان بمثله فى المستقبل. (١)

٢ - آفاق الأنبياء المستقبلية

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه أن تفكير الأنبياء والرسل لا يقتصر على عصرهم، بل يفكرون بمستقبل الأُمَّه ومصيرها بعد وفاتهم، ومن هنا جهدوا فى تبين كل مامن شأنه هدايتهم فى المستقبل، فلم يألوا جهداً فى إضائه معالم الطريق وبيان سبل النجاه. ولا شك أن نبي الإسلام لم يكن بدعا من الرسل فى هذا الشأن. أو يمكن تصور تركه للأُمَّه بعد رحيلها عنها؟ أفكان يسعه وداع الأُمَّه وايقالها إلى نفسها دون دليل على الطريق؟ أو ليس حديث الثقلين المتواتر لدى الشيعة والسنة والذى قال فيه: «إئني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى أهل بيتي» نموذج من نماذج إضائه الطريق للأُمَّه من بعده و صونها من اللبس والانحراف؟

ص: ١٥٤

«كِتَابِ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيَّنًّا حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ وَنَاسِيحَهُ وَمَنْسُوحَهُ وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ وَعَجَبَهُ وَأَمْنَالَهُ وَمُرْسَلَهُ وَمَخْرُودَهُ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، مُفَسَّرًا مُجْمَلَهُ وَمُبَيَّنًّا غَوَامِضَهُ، بَيْنَ مَا أُخُوذَ مِيثَاقُ عِلْمِهِ وَمُوسِعَ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ وَبَيْنَ مُثَبَّتٍ فِي الْكِتَابِ فَرُضُهُ وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَنِ نَسِيحَهُ وَوَاجِبٍ فِي السُّنَنِ أَخْذُهُ وَمُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَمُبَايِنٍ بَيْنَ مَحَارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ أَوْ صَغِيرٍ أَرَصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَذْنَاهُ مُوسِعٍ فِي أَقْصَاهُ» .

الشرح والتفسير لقد بحث أهميه القرآن الكريم وعظمته كراراً ومراراً في خطب نهج البلاغه بحيث تناولت كل خطبه جانباً من الجوانب القرآنيه.

وقد أشار الإمام عليه السلام بشكل جامع إلى شموليه القرآن وخطوطه العريضة في هذه العبارات، فقد هدف الإمام عليه السلام لبيان حقيقه مهمه وهى أن رسول الله صلى الله عليه وآله رحل عن الأمة بعد أن ورثها كتاب الله الذى نظم جميع شؤون حياه الأمة الماديه والمعنويه؛ الفرديه والاجتماعيه فى كافه الميادين والمجالات؛ فقد قال عليه السلام: «كتاب ربكم فيكم» (1) ثم أشار عليه السلام إلى أربعة عشر نقطه بشأن شموليه القرآن وخصائصه:

ص: ١٥٥

١- ١) كتاب منصوب بصفته عطف بيان للحرف مافى الجملة (خلف فيكم ما خلفت الأنبياء) أو أنه مفعول لفعل تقديره (خلف) أو (أعنى).

١ - اتضح الحلال والحرام والواجب والمستحب «مبيناً لحلاله وحرامه وفرائضه وفضائله». والعبارة إشارة إلى الأحكام الإسلامية الخمس المعروفة، فالفرائض إلى تشير الواجبات، والفضائل إلى المستحبات، والحرام إلى المحرمات وأخيراً الحلال الذي يشمل المباحة والمكروهات. (١)

٢ - بيان الناسخ والمنسوخ «وناسخه ومنسوخه» .

المراد بالناسخ والمنسوخ الأحكام الجديدة التي تزيل الأحكام القديمة والتي تقتصر على عصر الرسالة حين نزول الوحي الذي كان يعنى إمكانه تغيير الأحكام. فبعض الأحكام وإن كانت مطلقة في ظاهرها، غير أنها مقيدة باطنياً ومختصة بزمان معين، فإذا انتهى ذلك الزمان نفذ حكمها بحكم جديد آخر يطلق عليه اسم الناسخ من قبيل التصديق قبل مناجاة النبي صلى الله عليه وآله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدْقَهُ» (٢). فقد كان هذا الأمر امتحاناً للمسلمين لم يعمل به سوى أمير المؤمنين عليه السلام حتى نسخ بقوله تعالى: «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (٣).

٣ - «ورخصه وعزائمه». فلعل هذه العبارة إشارة إلى ما تعارف اليوم في علم الفقه والأصول بأن حكم الواجب أو الحرام إذا رفع قد يستبدل بحكم الإباحة كقوله: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» (٤). فمن المسلم به أن الصيد ليس واجباً بعد الخروج من الاحرام، بل مباح، وأحياناً يستبدل بحكم ضده، كقوله: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ» (٥) ومعلوم أن صلاة القصر في السفر واجبه ليست مباحه، فيقال للاولى

ص: ١٥٦

١ - ١) وردت كلمه «مبيناً» بصيغه اسم الفاعل وهى حال لفاعل خلق (أى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله) والضمير فى حلاله وحرامه و. . يعود على القرآن بينما ذهب بعض شراح النهج إلى أن مبيناً وسائر الأوصاف التى وردت لاحقاً من قبيل مفسراً هى حال لكتاب الله، والضمائر فى حلاله وحرامه و. . تعود إلى كتاب الله أو ربكم، إلّا أنّ القول الأول أنسب.

٢-٢) سورة المجادلة / ١٢. [١]

٣-٣) سورة المجادلة / ١٣. [٢]

٤-٤) سورة المائدة / ٢. [٣]

٥-٥) سورة النساء / ١٠١. [٤]

رخصه وذلك لجواز طرفى العمل ويقال للثانيه عزمه حيث يجب على المكلف جزم عزمه بالعمل. وهنالك احتمال آخر فى تفسير هاتين المفردتين، كأن يكون المراد بالرخص الأحكام الواجبه أو المحرمه التى استثنيت فى بعض الموارد من قبيل قوله: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» (١). أمّا العزائم فهى الأحكام التى لا سبيل إلى الاستثناء إليها، كقوله: «وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» (٢).

٤ - «وخاصه وعامه» ، فالخاص هو الحكم الذى لا يشمل كاهه المسلمين كحكم الحج الذى يختص بمن له الاستطاعه «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» (٣) والعام هو الحكم الذى يشمل جميع المسلمين كاقامه الصلاه «وأقيموا الصلاه» . وقيل أيضاً بأ المراد بالخاص الآيات التى لها ظاهر عام غير أنّ المراد بها حاله خاصه كآيه الولايه: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» (٤). حيث نعلم بوجود مصداق واحد لهذه الآيه فقط وهو أمير المؤمنين على عليه السلام.

أمّا العام فيراد به الآيات ذات العموم التى تشمل الجميع كقوله عز وجل: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» (٥).

٥ - «وعبره وأمثاله» ، عبر من ماده عبره وقد اشتقت من العبور، ولذلك يصطلح بالعبره على الحادثه التى تعرض للإنسان ويتخطاها، والقرآن الكريم ملئ بالدروس والعبر بشأن تواريخ الأنبياء والأئم السالفه حيث تتضمن كل حادثه من تلك الحوادث المعانى والدروس للقيمه التى تستفيدها البشريه فى مسيرتها الحياتيه.

أمّا الأمثال فقد تكون إشاره إلى الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم بتلك الكثره من قبيل: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ» (٦)، كما يمكن أن تكون إشاره إلى بعض

ص: ١٥٧

١-١) سورة البقره / ١٧٣. [١]

٢-٢) سورة النساء / ٣٦. [٢]

٣-٣) سورة آل عمران / ٩٧. [٣]

٤-٤) سورة المائده / ٥٥. [٤]

٥-٥) سورة المائده / ٣٨. [٥]

٦-٦) سورة إبراهيم / ٢٤. [٦]

الأفراد الذين أصبحت سيرتهم وحياتهم مثلاً يحتذى به كقوله عز من قائل: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِزَعُونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِزَعُونَ وَعَمَلِي وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (١).

٦ - كما بين القرآن أحكام المطلق والمقيّد «ومرسله ومحدوده» فالمطلق الأحكام التي بينت دون قيد أو شرط كقوله سبحانه: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ» (٢) وأما المقيّد فهو الحكم الذي وضعت له بعض القيود والحدود كقوله: «تِجَارَةٌ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ» (٣).

ومن الواضح أنّ الجمع بين المطلق والمقيّد يتطلب منا تقييد المطلق بواسطة المقيّد، ففي المثال المذكور لا تصح المعاملة إلّا بتراضى الطرفين. ويمكن أن يكون المراد بالمطلق الأحكام الخالية من القيود والشروط، في حين الأحكام المقيّده هي الأحكام المحدّده بالقيود والشروط من قبيل كفاره القسم التي جاء فيها «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» (٤)، بينما جاء في كفاره القتل الخطأ «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» (٥).

٧ - «ومحكمه ومتشابهه». فالمراد بالمحكم الآيات الواضحة الدلالة التي لا تحتل سوى وجه واحد كقوله سبحانه: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» بينما تحتل الآيات المتشابهه عدّه وجوه، وإن أمكن بيانها من خلال سائر الآيات القرآنيه كقوله: «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» (٦) حيث يزال ابهام هذه الآيه وغموضها من خلال الآيات التي نزهت الله عن المكان والزمان والجهه والجسم والرؤيه وما إلى ذلك كقوله: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» (٧).

٨ - من الخصائص الأخرى هي بيان لمجمل القرآن وغوامضه من خلال السنّه النبويه «مفسراً مجمله ومبيناً غوامضه». فالمجمل الآيات التي تأمر باقامه الصلاه ولم تشر إلى أركانها وعدد ركعاتها فيقوم النبي صلى الله عليه وآله بشرحها، أمّا المراد بالغوامض الحروف القرآنيه المقطعه

ص: ١٥٨

[١-١] سورة التحريم / ١١. [١]

[٢-٢] سورة البقره / ٢٧٥. [٢]

[٣-٣] سورة النساء / ٢٩. [٣]

[٤-٤] سورة المائده / ٨٩. [٤]

[٥-٥] سورة النساء / ٩٢. [٥]

[٦-٦] سورة القيامه / ٢٣. [٦]

[٧-٧] سورة الانعام / ١٠٣. [٧]

والتي يَبْتِن بواسطه الأحاديث النبويه. ولعل الفارق بين الغوامض والمتشابهات هو أن المتشابهات تنطوى على معان ومفاهيم لوهله الاولى بينما يكتنف الاولى الابهام كالمثال السابق.

٩ - هناك بعض الحقائق القرآنيه التي أخذ الميثاق على معرفتها ولا يعذر أحد بجهلها في حين يعذر في بعضها الآخر: «بين مأخوذ ميثاق علمه وموسع على العباد في جهله» فالحقائق التي لا يعذر أحد بجهلها من قبيل آيات التوحيد والصفات الإلهيه التي تجب معرفتها على جميع المؤمنين، والثانيه من قبيل الذات الإلهيه التي ليس لأحد من سبيل إلى معرفتها وكذلك مسأله المعاد والقيامه التي ينبغى الإيمان بها، في حين ليست هنالك من ضروره للإلمام بالتفاصيل المتعلقة بالجنه والنار.

١٠ - وهناك بعض الأحكام القرآنيه المختصه بزمان معين والتي نسختها السنه النبويه «وبين مثبت في الكتاب فرضه ومعلوم في السنه نسخه» من قبيل عقاب المرأه المحصنه بالحبس المؤبد إذا ارتكبت فاحشه الزنا «وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّهَا فَاحِشَةٌ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا» (١) ثم نسخت السنه النبويه هذا الحكم بالأحاديث التي وردت في باب رجم المحصنه.

١١ - الآيات الناسخه للسنه بشأن بعض الأحكام التي صرحت السنه بالعمل بها بينما أجازت الآيات القرآنيه تركها «وواجب في السنه أخذه ومرخص في الكتاب تركه» من قبيل حكم الصوم في بدايه التشريع حيث لم يكن يسع الصائم الافطار سوى أوائل الليل، فاذا نام وأفاق لم يجز له تناول شىء من المفطرات، غير أن هذه السنه النبويه نسخت فيما بعد بالآيه القرآنيه الشريفه: «... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ» (٢).

١٢ - الأحكام الواجبه لبعض الأوقات «وبين واجب بوقته وزائل في مستقبله»

ص: ١٥٩

[١-١] سورة النساء / ١٥. [١]

[٢-٢] سورة البقره / ١٧٨. [٢]

فالعباره تشير إلى الواجب المؤقت وغير المؤقت؛ الواجب المؤقت من قبيل صوم شهر رمضان وارتفاعه في غير هذا الشهر، خلافاً للتكاليف الدائمية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامه الحق والعدل الواجبه على الدوام (١). وذهب البعض إلى أن العباره تشير إلى بعض الواجبات كالحج الذي يجب على المكلف لمره واحده في العمر ثم يزول، واستدلوا على ذلك بالهجره التي وجبت على المسلمين في بدايه انبثاق الدعوه الإسلاميه - حيث كان المسلمون يعيشون حاله من المحدوديه - ثم زال هذا الوجوب بعد فتح مكه، وإن كانت الهجره على حالها إلى يومنا هذا في المناطق التي تشهد حاله المكيه قبل الهجره.

١٣ - فرز أنواع المحرمات عن بعضها وبيان كل واحده منها في إشاره إلى الكبائر التي توعد الله مرتكبيها والصغائر التي وعد بمغفرتها «ومباين (٢) بين محارمه من كبير أو وعد عليه نيرانه أو صغير أرصد له غفرانه» فالكبائر من قبيل الشرك وقتل النفس التي صرحت الآيات القرآنيه بتوعد مرتكبيها بالعذاب، فقد ورد في الآيه ٧٢ من سوره المائده بخصوص الشرك «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ» وفي الآيه ٩٣ من سوره النساء بشأن قتل النفس «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا» وأما الصغائر فمن قبيل اللطم الوارده في الآيه ٣٢ من سوره النجم «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ» حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد باللمم انعقاد النيه على المعصيه دون الإتيان بها أو المعاصي عديمه الأهميه.

١٤ - الأعمال التي يقبل القليل منها وورد الحث على كثيرها «وبين مقبول في أدناه، موسع في أقصاه». فالعباره تشير إلى الأعمال التي ورد التأكيد على الإتيان بقليلها وللأتمه الاتيان بالمزيد.

وقد استدل بعض شراح نهج البلاغه على ذلك بتلاوه القرآن «فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» (٣). فقراءه اليسير من القرآن مؤكده وترك للناس قراءه الكثير (وهذا ما نلمسه

ص: ١٦٠

١- ١) هناك محذوف في هذه العباره، ففي حاله الثانيه يكون تقدير العباره كالاتى: «وبين ما يكون واجباً دائماً». .
٢- ٢) مباين خبر لمبتدأ محذوف تقدير الجملة هو مباين، والضمير هو يعود إلى الكتاب، وهنالك احتمال آخر إلّا أن الذى أوردناه هو الأنسب.

٣- ٣) سوره المزمل / ٢٠. [١]

بوضوح فى أواخر سورة المزمل) . وبالمقابل هنالك الأحكام الإلزامية التى لا يسير ولا كثير فيها من قبيل صوم شهر رمضان، حيث يلزم المكلف بصوم شهر معين دون زياده أو نقيصه (الآيات ١٨٣ إلى ١٨٥ من سورة البقره) .

تأملات

١ - شموليه القرآن

المسأله الاولى التى تطالعنا فى كلام الإمام عليه السلام شموليه القرآن الكريم، أو بعبارة أخرى اعجاز القرآن من حيث المضمون؛ لأن خاض من خلال النقاط الأربعة عشر بشأن القرآن فى تفاصيله الدقيقة وتنوع مضامينه على جميع المستويات فى إطار تلبية لمتطلبات الإنسان و احتياجاته من حيث الأمور العقائديه والقضايا العلميه والأخلاقية والأحكام الواجبه والمحرمه والعلاقه القائمه بين القرآن والسنة والأحكام الثابته والمؤقتة والعام والخاص والمطلق والمقيّد والناسخ والمنسوخ، حيث يفيد تأمل هذه الأمور مدى حساسيه المضامين القرآنيه المدروسه والتى تنسجم ومتطلبات الإنسانيه. فالمضامين الرصينه الدقيقه والعميقه المتنوعه والشامله - كما أشرنا إلى ذلك فى بحث اعجاز القرآن - تمثل أحد أبعاد اعجاز القرآن فأدنى لإنسان أُمى تربى فى وسط الجهل والظلام أن يأتى بمثل هذا الكتاب مكتفياً بما يمليه عليه فكره دون الاستناد إلى فيوضات الغيب والوحي؛ الكتاب الذى غص بالدروس والعبر والأمثال الرائعه البليغه والأحكام الجامعه والمعارف الجمه العميقه. والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام بهذا البيان القصير قد استعرض دوره جامع فى الأصول الفقهيّه وأشار إلى موضوعات واسع لم تتكامل فى علم الأصول إلّا بعد قرون طويله، ثم فصل الأحكام عن بعضها البعض ليميط اللثام عن القواعد المتعلقة بالحلال والحرام والناسخ والمنسوخ والرخصه والعزيمه والخاص والعام والمطلق والمقيّد والمحكم والمتشابه والمجمل والمبين والمؤقت وغير المؤقت والواجب والمستحب المؤكد والمستحب غير المؤكد.

٢ - من عنده علم الكتاب؟

يفهم من عباراته عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله موظف بتبيين بعض مجملات القرآن الكريم وإزاله

غوامضه بما لا يدع لأحد من مجال للشك، ولهذا قال القرآن المجيد: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» (١). قد يقتدح في الأذهان سؤالاً: كيف يحتاج القرآن إلى تفسير مجمله وإزاله غوامضه وتبيين مبهمه وقد نزل هدايه للناس ولا بدّ للعامه من فهمه وإدراكه؟

وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى أمرين:

الأول: إن القرآن بفضلته يتضمن سلسله من القوانين والأحكام الإسلاميه لا يسعه أن يخوض في التفاصيل، فهو يشير إلى هذه القوانين على نحو العموم بينما يفوض شرحها والخوض في تفاصيلها إلى النبي صلى الله عليه وآله. على سبيل المثال فقد وردت أحكام الصلاه والحج والصوم وبعض كلياتها في القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أنّ هذه العبادات تشتمل على شرائط واركاب وفروع كثيره يحتاج شرح كل ركن منها إلى كتاب مستقل، بل هناك الأمور التي تتطلب عدّه مجلدات من قبيل الأمور المرتبطه بالمعاملات والقضاء والحدود والشهادات والسياسات الإسلاميه بصوره عامه.

الثاني: أنّ حاجه الأّمه للنبي صلى الله عليه وآله في تبيين المبهمات وتفسير المجملات تؤدي إلى تعزيز إرتباطها بالسّنّه النبويه؛ الارتباط الذي يهديها وينير معالم طريقها في جميع الميادين، وبعبارة أخرى فإن القرآن ليس بدعاً من الكتب التي يتطلب فهم بعض مواضيعها من قبل الطلاب وجود المعلم، الذي يسعه ايضاح الحقائق لتلامذته من خلال الرابطة السائده بينهما. وهنا يبدو هذا السؤال: هل يوجد مثل هذا المعلم الإلهي في الوسط الإسلامى بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله أم لا؟ لا شك. لابدّ أن يستمر وجود مثل هذا المعلم وإلا بقيت المشاكل على حالها دون حل وبيان. ومن هنا اعتقدت الشيعة بوجود الإمام المعصوم في كل عصر والذي لديه علم الكتاب، وهذا ما يراد بالعترة الوارده في حديث الثقلين المتواتر المروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، والتي أشار إلى امتناع مفارقتها للكتاب إلى يوم القيامة، فقال صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» (٢).

ص: ١٦٢

١- ١) سورة الحشر / ٧. [١]

٢- ٢) لقد ورد هذا الحديث بعده تعابير في مصادر الشيعة والسّنّه، فراجع احقاق الحق، ٩ / ٣٠٩ - ٣٧٥؛ [٢] بحار الانوار ٢٣ /

١١٨، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٥؛ رساله الثقلين ٩. [٣]

٣ - معيار التمييز بين الكبائر والصغائر

هناك اختلاف بين العلماء بشأن الكبائر والصغائر. فقد اعتبرهما البعض من قبيل الأمور النسبية التي تخضع للمقارنه في أهميتها، فما كانت أهميتها كبيره فهي من الكبائر وما كانت أهميتها صغيره فهي من الصغائر (وقد نسب المرحوم الطبرسي في مجمع البيان هذا القول إلى الشيعة، ويبدو أنه أراد بعض علماء الشيعة، لأن أغلبهم يرى غير ذلك كما سنشير لاحقاً). وقال البعض الآخر أن الكبيره كما يتضح من اسمها هي المعصيه الكبيره حقاً والتي تحظى بأهميه لدى الشرع والعقل كقتل النفس وغصب حقوق الآخرين والزنا - ولعل هذا هو الدليل الذي جعل الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السلام تصرح بأن المعيار في الكبائر هو الوعيد بالعذاب الإلهي على ارتكابها، فقد جاء في الحديث المعروف الذي روى عن الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «الكبائر التي أوجب الله عز وجل عليها النار» (١) ويتضح ممّا مر معنا أن الصغائر ما ليست لها مثل هذه الأهميه. وقد وردت بعض الأحاديث التي أشارت إلى أن الكبائر سبع وقيل عشرون.

٤ - الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما

لعل هذين الحكمين يثيران الجدل والذهول لدى أغلب الناس وتعجبهم من كيفية اشتمال القرآن على الآيات الناسخه والمنسوخه (فالمراد باناسخ والمنسوخ هو الحكم الذي يلغى حكماً آخر من قبيل استقبال الكعبه في الصلاه التي نسخت حكم استقبال بيت المقدس في الصلاه). وقد تزول هذه الدهشه والذهول بالنسبه للناسخ والمنسوخ في القوانين الوضعيه التي يشرعها أفراد البشر؛ لأهم قد يسنون اليوم قانوناً ويكتشفون غداً بعض أخطائه فيعمدون إلى نسخه، ولكن ما بال القوانين التي يشرعها الحكيم سبحانه؟

يمكن خلاصه الإجابة على السؤال المذكور في جملة واحده وهي أن علم الله المطلق لا يعتره التغيير قط، غير أن بعض الموضوعات تتغير بمرور الزمان. على سبيل المثال قد يكون

ص: ١٤٣

١-١) تفسير نور الثقلين ١ / ٤٧٣. [١]

هناك دواء هو شفاء لمرض اليوم، إلا أنه قد يصبح خطراً ومضاعفاً لذلك المرض بعيد مدّه من الزمان. فالطبيب ينصح المريض باستعمال ذلك الدواء إلا أنه ينسخه فيما بعد ويحظر استعماله على المريض. ويصدق هذا الكلام في الأمور الدينيه على القبله مثلاً- فقد تنطوى الصلاه إلى بيت المقدس يوماً على منافع ومصالح معينه إذا كانت الكعبه بؤره للأصنام والأوثان واتخذت لنفسها بعداً قومياً بحيث يدعو استقبالها في الصلاه أبان انبثاق الدعوه الإسلاميه إلى بعض المشاكل، في حين تنتفى هذه المشاكل بالصلاه ثلاث عشره سنه إلى بيت المقدس. بينما تتحول الكعبه إلى مركز للتوحيد بعيد الهجره إلى المدينه فتنطوى الصلاه إلى جانبها على مصالح جمه وتنعدم الأضرار.

فالواقع هو أنّ أغلب أحكام النسخ من هذا القبيل؛ وبالطبع فإنّ مباحث النسخ واسعه جداً لا يسعها المقام ولذلك نكتفى بهذه الإشاره العابره إلى فلسفه النسخ. (١)

٥ - تأريخ الأمم الماضيه والأمثال القرآنيه

يشغل تأريخ الأمم السابقيه ولا- سيما أنبياء الله حيزاً مهماً من القرآن الكريم المفعم بالدروس والعبر والتجارب القيمه التي تحذيرها البشريه في كل عصر ومصر؛ الأمر الذي جعل القرآن يتابع حركه الأنبياء في مختلف السور ويسلط الضوء على تأريخ أحدهم أحياناً (كسرده لوقائع النبي إبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليهم السلام) ويكرر قصته في أكثر من سوره، وبالطبع لا نرى كلمه التكرار مناسبه هنا حيث إنّ القرآن يعرض لزوايه من زوايا هذه القصص في كل مره، فقد قال عز من قائل: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ» (٢). وأحياناً أبعد من ذلك واضافه إلى التأريخ يدعو البشريه لتأمل آثار الأقبام السابقيه والذي يعتبر بحد ذاته نوعاً من أنواع التأريخ التكويني والحي «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ» (٣).

ص: ١٦٤

١-١) راجع تفسير الأمثل ١ / ٣٩٠ ذيل الآيه ١٠٦ من سوره البقره.

٢-٢) سوره يوسف / ١١١. [١]

٣-٣) سوره الروم / ٤٢. [٢]

وإلى جانب القصص والتأريخ فقد درج القرآن على استعمال الأمثال بغيه هداية الناس؛ وقد تكون هذه الأمثال نماذج حيه واقعيه مستقاه من حياه بعض الأفراد تاره، وتاره أخرى تشبيهات بالأمر الطبعيه فى عالم النبات والحيوان وما شاكل ذلك. وقد انطوت هذه الأمثال على جماليه وروعته فى الدقه والتصوير بحيث غدت من معاجز القرآن التى يقود التأمل فيها والتدبر إلى العوده إلى العقل والرشد «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (١).

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه إلى شموليه القرآن الكريم مؤكداً على تدبر قصصه وأمثاله.

ص: ١٦٥

١-١) سورة الزمر / ٢٧. [١]

«وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ يَرُدُّونَهُ وُزُودَ الأَنْعَامِ وَيَأْتُونَ إِلَيْهِ وُلُجَّةَ الْحَمَامِ وَجَعَلَهُ سُجْحَانَهُ عَلَامَةً لَتَوَاضَعُ لَهُمْ لِعَظَمَتِهِ وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَاعًا أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَوَفَّقُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحْرِزُونَ الأَرْبَاعَ فِي مَتَجَرِّ عِبَادَتِهِ وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ جَعَلَهُ سُجْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسْلَامِ عَلَمًا وَلِلْعَالَمِينَ حَرَمًا فَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ حَجَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وَفَادَتَهُ فَقَالَ سُجْحَانَهُ: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» .

الشرح والتفسير

لا- يعلم أى الأحكام الدينيه أشار إليها الإمام عليه السلام بعد بيانه لخصائص القرآن، لأننا نعلم بأن السيد الرضى - جامع نهج البلاغه - لم يروم ذكر خطبه عليه السلام بصوره كامله بقدر ما كان يختار منها بعض القطوف، مع ذلك فان التأكيد على فريضه الحج من بين سائر الفرائض الإسلاميه المختلفه والفرديه وفى خطبه تكفلت بالحديث عن بدايه نشوء الخليقه والمراحل المختلفه لسير الإنسان منذ انطلاقة حتى انبثاق الدعوه الإسلاميه بظهور خاتم الأنبياء محمد المصطفى صلى الله عليه وآله إنما يتضمن معنًا ومفهومًا خاصًا، كما يفيد أن حج بيت الله الحرام يمثل عصاره الفكر الإسلامى وشموليته للمسائل المهمه الفرديه والاجتماعيه والتربويه والأخلاقية والسياسيه، وهذا ما سنتطرق إليه فى آخر البحث. ونخوض الآن فى تفسير هذا القسم من الخطبه:

فقد أشار الإمام عليه السلام في البدايه إلى مسأله وجوب الحج، حيث اعتمد عبارات في غاية الروعه واللطافه بغيه حث المسلمين على أداء هذه الفريضة الإلهيه العظيمه، فقال عليه السلام: «فرض عليكم حج بيته الحرام» ثم كشف عن صفه هذا البيت بقوله «الذى جعله قبله للأنام» (١) فهى القبلة التى يتجه إليها المسلمون فى صلواتهم اليوميه على أنها رمز وحده جميع المسلمين الذين ينظمون صفوفهم فى الاتجاه إليها. ثم يتطرق عليه السلام إلى وصف الشعائر والمراسم التى يؤديها عشاق الحق فيشبههم عليه السلام بالعطاش الذين يردون على الماء العذب والطيور التى تبحث عن الملاذ «يردونه (٢) وورود الانعام ويألهون (٣) إليه ولوه الحمام (٤)» .

حقاً أنّ من أدرك معنى الحج فأنه يرد البيت على هذه الشاكلة فتكاد روحه وقلبه تسبقه إلى البيت فيعيش الوفاده عليه بكل كيانه ويستعيد به من شر الشياطين وأهواء النفس وتبعات الذنوب فيلبى دعوه الحبيب ويسعى بين الصفا والمروه ويحلق فى أجواء الكعبه التى تفيض بالمعنويات. أمّا التشبيه بالانعام فلعله إشاره إلى التواضع المطلق الذى يستشعره الحجاج تجاه بيت الله أو حاله الاضطراب حين الاقبال على الكعبه والطواف، أمّا التعبير بالحمام فذلك لأنه يرمز إلى الحب والسلام والوئام.

جدير بالذكر أنّ مراسم الحج تستهل بالاحرام والتلبيه التى تفيد اجابه الدعوه الإلهيه، فالله سبحانه قد دعى زوار بيته الحرام للضيافه وقد تقاطر عليه الضيوف بقلوب مفعمه بالعشق لتعيش القرب الإلهي وهم يلمسون معانى الورع والتقوى والانس بالمحبوب. ثم

ص: ١٦٨

١-١) «أنام» فسرها البعض بالناس، والبعض الآخر بالموجودات العاقله التى تعيش على الأرض من الإنس والجن. وعلى ضوء التفسير الأول يصبح مفهوم عبارته اختصاص القبلة بالناس، بينما تكون قبله الانس والجن حسب التفسير الثانى. وقيل هى مشتقه من ماده ونام بمعنى الصوت ثم اطلقت فيما بعد على جميع الكائنات الحيه ولا سيما الانس والجن (تاج العروس، ماده أنم).

٢-٢) «يردون» من ماده «ورود» بمعنى دخول الحيوانات على حياضها عند عطشها ثم اطلق على كل دخول لمكان.

٣-٣) «يألهون» من ماده «أله، ألوهاً» بمعنى العباده. بناءً على هذا يألهون بمعنى يعبدون، كما قيل إنّ مادته تعنى الحيره؛ لأنّ الإنسان يتحير حين يفكر فى ذات الله وصفاته. وقيل أصله (وله) وقد استدلّت واوه بالهمزه (ويؤيد هذا المعنى ورود كلمه الولوه فى عبارته بصيغه المفعول المطلق) والوله بمعنى التضرع بلهفه.

٤-٤) «الحمام» بالفتح بمعنى الطيور والحمام بالكسر بمعنى الموت، وقد أريد المعنى الأول فى عبارته (أى الحمام بالفتح).

خاض عليه السلام في جانب من الجوانب الفلسفيه لشعيه الحج فقال: «وجعله سبحانه علامه لتواضعهم لعظمته واذعانهم لعزته». فأعمال الحج من مناسك ومراسم إنما تشتمل على أفعال غايه في التواضع لعظمه الله قلما نجد نظيرها في سائر الشعائر العباديه. وهذا ما يتجسد بوضوح في الاحرام والتخلي عن اللباس الفاخر والاكتفاء بثياب الاحرام البيضاء غير الموصوله والطواف في الكعبه والسعي بين الصفا والمروه والوقوف على جبل عرفه والتوقف في منى والمشعر الحرام ورمى الجمرات والتقشير ما إلى ذلك من الأعمال التي تحطم ما تعيشه النفس البشريه من غرور وكبر. ثم يشير عليه السلام إلى أنّ الوقوف في تلك المشاهد المشرفه والوفاده على البيت لمن المفاخر الكبرى والنعم الجزيله التي يمن الله بها على بعض عبادہ فيقول عليه السلام: «واختار من خلقه سماعاً (١) أجابوا إليه (٢) دعوته وصدقوا كلمته».

فقد ورد في بعض الأحاديث الإسلاميه أنّ الله أمر خليله إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبه بدعوه الناس إلى الحج.

فقال عليه السلام: إنّ صوتي لا يبلغهم. فجاءه الخطاب: إنّما عليك دعوتهم وعلينا الابلاغ. فارتقى الخليل عليه السلام المقام الذي كان ملاصقاً للكعبه آنذاك فجعل اصبعيه في أذنيه وقد استقبل الشرق والغرب فنادى بأعلى صوته: «أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم» فناداه من خلف البحار السبع ما بين المشرق والمغرب بل حتى النطف في قرارات النساء وأصلاّب الرجال ممن سمع صوته «ولبيك اللهم لبيك» (٣). كما ورد في الروايات أن من لبي حج بعدد تليته ومن لم يلب لم يحج (٤) ثم يواصل الإمام عليه السلام حديثه عن فلسفه الحج وآثاره وبركاته فيقول: «ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه».

ولعل التعبير بمواقف الأنبياء يشير إلى كثرة الأنبياء من بعد إبراهيم بل حتى قبله طبقاً لبعض الروايات ممن حجوا البيت (٥) أما العبارة التي صرّحت بتشبههم بالملائكة المطيفين

ص: ١٦٩

١-١) «سماع» على وزن طلاب جمع «سامع» كطلاب جمع طالب.

٢-٢) ليس هنالك من فارق يذكر بشأن الضمير في (إليه) ان كان عائداً لبيت الله أو إلى لفظ الجلاله.

٣-٣) نور الثقلين ٣ / ٤٨٨، ح ٧٤. [١]

٤-٤) شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئي ٢ / ٢٤٩ نقلاً عن الكافي؛ بحار الانوار ٩٦ / ١٨٧. [٢]

٥-٥) ورد في الأحاديث أنّ من الأنبياء الذين حجوا البيت هم آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويونس وعيسى وسليمان ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله (شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئي ٢ / ٢٥٢).

بعرشه، فقد جاء في الخبر الصحيح أن في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت. (١) ثم قال عليه السلام: «يحرزون (٢) الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته» ويالها من تجاره عظيمه مريحه تلك التي يتطهر فيها الإنسان من جميع ذنوبه إذا أتى بالعمل على وجه الصحة؛ بل ورد أنه يعود كيوم ولدته أمه ولا ذنب عليه كما صرحت بذلك بعض الأحاديث الإسلامية.

ثم قال عليه السلام: «جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً وللعائدين حرماً».

فالواقع هو أن الكعبة تمثل الراية الإسلامية الخفاقة على الدوام؛ الراية التي يتمحور حولها المسلمون من أجل تحقيق استقلالهم ومجدهم وعزتهم. وكل عام تنفخ روح جديدة بمشاهدتها في جسد المسلمين ويجرى دم جديد في عروقهم. وما إن يفرغ الإمام عليه السلام من ذكر هذه الفضائل حتى يشير إلى وجوب حج البيت فيقول: «فرض حقه وأوجب حجه وكتب عليكم وفادته (٣) فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ».

تأملان

إشارة

هنالك عدّة مسائل ومباحث متعلقة بالحج لا يمكن استيعابها في هذا البحث، وعليه سنكتفي بالإشارة إلى بعض الأمور التي تتمتع بأهميه كبيره:

١ - نبذه تاريخيه عن الكعبه

للكعبه - التي يطلق عليها اسم بيت الله الحرام أيضاً - تاريخ عريق يعود إلى زمان آدم عليه السلام

ص: ١٧٠

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١/١٢٤. [١]

٢- ٢) «يحرزون» من ماده «الاحراز» بمعنى الحفظ والادخار والخزن. ومن هنا يطلق الحرز على الموضع المحفوظ كالصندوق والمخزن وما شابه ذلك.

٣- ٣) «وفاده» بمعنى البزوغ والطلع، ثم أصبحت بمعنى النزول والدخول، كما يصطلح بالوفد على الهيئه والجماعه التي ترد على دوله أو زعيم أو فئه ذات مكانه.

حسب ما أشارت الروايات (١) فأدم عليه السلام هو أول من بناها وطاف حولها، ثم اندرست في الطوفان الذي عم الأرض زمان نبي الله نوح عليه السلام، ثم أعاد بنائها إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل - على ضوء صريح الآيات القرآنية كقوله سبحانه: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ.». (٢) - فأديا مراسم الحج حيث أصبحت الكعبة أول مركز للتوحيد للإنسانية: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا» (٣). وكما أشرنا سابقاً وعلى ضوء بعض الروايات الصحيحة أن في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت، وأن البيت أول من عتق من الماء (٤) كما ورد هذا المعنى في قصة دحو الأرض. وقد تظافرت الروايات - في نهج البلاغه وغيره من المصادر الإسلامية - التي كشفت عن عظمة الكعبة ومدى أهميتها، ومنها ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ما خلق الله عز وجل بقعه في الأرض أحب إليه منها - ثم أوما بيده نحو الكعبة - ولا أكرم على الله عز وجل منها» بل ورد في مقدمه هذا الحديث أن النظر إليها عباده (٥) فالكعبة هي رمز الوحدانية الإسلامية التي تتطلع إليها الجماعة الإسلامية في العالم أجمع. جدير ذكره بشأن أهمية البيت أن زراره - من كبار صحابه الإمام الباقر والصادق عليهما السلام - دخل على الإمام الصادق عليه السلام فقال: (جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتينى). فرد الإمام قائلاً: «يا زراره بيت يحج إليه قبل آدم بألفى عام تريد أن تفتى مسائله في أربعين عاماً» (٦). فالذي يستفاد من هذا الحديث أن الملائكة والمخلوقات التي عاشت على الأرض قبل آدم عليه السلام كانت تحج البيت. ففي الحديث أن آدم لما قضى مناسكه وطاف بالبيت لقيته الملائكة، فقالت: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام.

ص: ١٧١

١-١) بحار الأنوار ١٢ / ٨٦.

٢-٢) سورة البقرة / ١٢٧. [١]

٣-٣) سورة آل عمران / ٩٦. [٢]

٤-٤) شرح نهج البلاغه للخوئي ٢ / ٢٣٥.

٥-٥) فروع الكافي ٤ / ٢٤٠ (باب فضل النظر إلى الكعبة). [٣]

٦-٦) وسائل الشيعة ٧ / ٨ (باب وجوبه على كل مكلف مستطيع). [٤]

لقد تضمنت عبارات الإمام عليه السلام إشارات عميقة لفلسفه الحج وما ينطوى عليه من أسرار. إلى جانب ذلك فقد وردت الروايات التي صرّحت بمثل هذا المعنى، والذي يخلص إليه من مجموعها أنّ هذه المناسك العظيمة تشتمل على أربعة جوانب هي:

الجانب الأخلاقي والعبادي، الجانب السياسي والاجتماعي، الجانب الثقافي والجانب الاقتصادي.

أمّا الجانب الأخلاقي والعبادي الذي يمثل أهم جوانب فلسفه الحج بفضل تنبيهه لتربية النفس وتهذب الأخلاق والتحلي بالورع والتقوى والاخلاص. حيث صرّحت الروايات الإسلامية بشأن من يحج البيت «يخرج من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمه» (١). والرواية بدورها دليل واضح على مدى التأثير الذي يلعبه الحج في النفس الإنسانية وتنقيتها من الذنوب والمعاصي التي دنست عفتها طيله العمر وهذه أعظم فائده يصيبها الوافد على بيت الله. ولو التفت الحاج إلى أسرار المناسك التي يؤديها والشعائر التي يؤتى بها فإن كل خطوه ستجعله أكثر قرباً من الله ليرى مولاه حاضراً في كل مكان فهو معبوده الحق الذي لا يفارقه طرفه عين. أجل سيعود إلى الحياه من جديد كيوم ولدته أمه.

ولا غرو فمن أدرك الحج بمعناه الحقيقي سيشعر بأثاره الروحيه والمعنويه إلى آخر عمره، ولعل هذا هو السبب في وجوب الحج مره واحده طيله العمر.

وأما على صعيد الجانب السياسي والاجتماعي فإنّ الإتيان بمراسم الحج على ضوء التعاليم الإسلامية والحج الإبراهيمي الذي دعى الناس لامتثاله إنّما يؤدي إلى عزه المسلمين وتحكيم دعائم الدين وارساء أسس الأخاء والوحده وتنامي شوكة الدين وصلابته والوقوف بوجه الأعداء والمستكبرين وعلان البراءه من المشركين والملحدين. كما يمنح هذا المؤتمر الإلهي العظيم الذي يعقد كل عام في البيت العتيق المسلمين الفرصه الذهبيه في إعادته بناء أنفسهم وتقويه أو اصر الاخوه فيما بينهم وحرص صفوفهم بما يحبط مؤامرات أعداء الدين وافشال

ص: ١٧٢

خطط الشياطين، وما يؤسف له أن المسلمين لم يقفوا لحد الآن على عظمه الحج ويدركوا كنهه وإلا لتمكنوا - في ظل هذه الشعيره - من إسداء أعظم الخدمات للإسلام وتسييد أوجع الضربات إلى ركائز الشرك والكفر؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح في الروايات الإسلامية ولاسيما تلك التي وصفته: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة» (١). وكأن أعداء الإسلام أدركوا الدور العظيم الذي يلعبه الحج على صعيد المسائل السياسيـه فمارسوا أقصى ردود الفعل تجاهه بغية الحؤول دون تحقيق أهدافه. فهذا «غلاستون» - رئيس وزراء بريطانيا - يخاطب مجلس العموم بأن المسيحيه مهدده بالخطر وسنعجز عن إصلاح العالم (طبعاً ليس الإصلاح من وجهه نظرهم سوى الاستعمار) مادام اسم محمد يذكر صباح مساء من على المآذن والقرآن هو دستور حياه المسلمين، الذين يقيمون مراسم الحج كل عام بهذا الشكل (٢). بل قيل أن غلاستون اختتم خطابه لمجلس العموم بقوله: يجب عليكم يا ساسه المسيحيه أن تزيلوا اسم محمد من آذان المسلمين فتنسونهم ذكره وتحرقون القرآن وتخربون الكعبة. وهناك جمله أخرى معروفه أطلقها أحد زعماء النصرانيه في الغرب قائلاً: «الويل للمسلمين إن غفلوا عن معنى الحج، الويل لمن سواهم إن فهموا معناه». وبالبداهه أنهم لا- ينون من هذا الا-حراق ظاهر القرآن، كما أنهم لن ينجحوا في تخريب الكعبة، غير أنهم يستطيعون وفي ظل غفله المسلمين من تحقيق مآربهم بالقضاء على أحكام الدين وافراغ الحج من محتواه الأصيل.

وأما بالنسبه للجانب الثقافى وعلى ضوء الأخبار الإسلاميه فان هذه المراسم سوف تؤدى إلى التعريف بالثراء الجم لرسول الله صلى الله عليه وآله والأئمه المعصومين عليهم السلام وستكون الفرصه مؤاتيه بفضل حضور علماء المسلمين ومفكريهم ومن كافه الاصقاع - بما فيهم كبار علماء الدين وكبار الأدباء والفنانين والمثقفين والكتاب الذين يتوافدون على البيت كل عام - لتبادل الأفكار والثقافات والانفتاح على تجارب الآخرين بما يسهم فى إحياء مفاهيم الدين ونشر تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله والهداء الميامين من آله الطيبين الطاهرين.

وأخيراً الجانب الرابع الذى يشير إلى الفلسفه الاقتصاديه للحج. فقد وردت الروايات

ص: ١٧٣

١- (١) فروع الكافى ٤ / ٢٧١ (باب أنه لو ترك الناس الحج لجاؤهم العذاب). [١]

٢- (٢) دليل الحرمين الشريفين ١ / ٥٤ (نقلاً عن قول القمر).

والأخبار التي تفيد أن من معطيات الحج تفعيل قدره الاقتصادي للمسلمين وانقاذهم من الأزمات الماليه التي تعصف بحياتهم وحياه مجتمعاتهم. ولعل البعض لا يرى من رباطه من قريب أو بعيد بالجانب الاقتصادي، إلّا أنّ أدنى تأمل لهذه القضية سيكشف بوضوح بأنّ الخطر العظيم الذي يهدد كيان المسلمين إنّما يتمثل اليوم بالتبعيه الاقتصاديه للأجانب، فما الضير في اقامه المؤتمرات والندوات الاقتصاديه من قبل المعنيين والمتخصصين في تلك الديار المقدسه بصفتها مراسم عباديه تهدف إلى انتشار المسلمين من مخالبا الفقر والتبعيه وطرح المشاريع والبرامج الاقتصاديه التي من شأنها معالجه الأوضاع المزريه؟ ولا نرى لهذه القضية من طابع فردي لتعالى الأصوات بالانشغال بزخارف الدنيا وحطامها الزائل، بل الهدف أنبل وأسمى حيث يكمن في خدمه الإسلام والمسلمين في هذا الجانب الحيوى. (١) ويتضح من قوله عليه السلام: «وقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته» مدى الأهميه التي أولاها الإمام عليه السلام لحج بيت الله الحرام؛ ولا عجب فهي عبادته اجتماعيه عامه تقسم في طياتها الدنيا والآخره والأخلاق والمعنويات وعزه المسلمين وتنامى شوكتهم.

طبعاً واسع وشامل البحث المتعلق بالحج وأبعد ممّا ذكرنا إلّا أنّنا سنستغرق أكثر في هذا الموضوع حين شرحنا لسائر خطب الإمام عليه السلام الوارده بهذا الشأن، ونكتفى هنا بهذا المقدار المتواضع.

ص: ١٧٤

١ - ١) لقد أشارت الروايه التي نقلها هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام بصوره إجماليه إلى فلسفه هذه الجوانب الأربعة للحج (وسائل الشيعه ٨ / ٩) [١] كما يمكن لمن أراد المزيد أن يراجع التفسير الأمثل / ١٤ بشأن فلسفه الحج.

ومن خطبه له عليه السلام

بعد انصرافه من صفين وفيها حال الناس قبل البعثة وصفه آل النبي صلى الله عليه وآله ثم صفه قوم آخرين.

القسم الأول

«أَحْمَدُهُ اسْتِثْمَامًا لِنِعْمَتِهِ وَاسْتِشْلَامًا لِعِزَّتِهِ وَاسْتِعْصَامًا مِنْ مَعْصِيَتِهِ. وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَهُ إِلَى كِفَايَتِهِ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ وَلَا يَتَلُ مِنْ عَادَاهُ وَلَا- يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ مُمْتَحِنًا إِخْلَاصِيهَا مُعْتَقِدًا مُصَاصِيهَا نَتَمَسَّكَ بِهَا أَبَدًا مَا أَبْقَانَا، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَائِلِ مَا يَلْقَانَا فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ، وَمَرْضَاهُ الرَّحْمَنِ، وَمَيِّدُ حَرِّ الشَّيْطَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْمَدِينِ الْمَشْهُورِ وَالْعِلْمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمُسَيِّطُورِ، وَالنُّورِ الشَّاطِعِ وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَهُ لِلشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ وَتَخْوِيفًا بِالْمَثَلَاتِ» .

تشتمل هذه الخطبة على خمسة مضامين (تبحث في أربعة أقسام) :

المضمون الأول في حمد الله والثناء عليه والملاذ بفضلله وكرمه ورحمته، والثاني في الشهادة لله بالوحدانية ومعطيات الإيمان بالتوحيد، والثالث في الشهادة بالنبوه والعبودية إلى جانب التذكير بفضائل النبي صلى الله عليه وآله وواضع العصر الجاهلي والملمات والخطوب التي شهدها المجتمع الإسلامي آنذاك والجهود التي بذلها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله من أجل مجابهة تلك الخطوب وتحمل المصاعب والويلات بهذا الشأن، والرابع في منزله أهل البيت وعلو مقامهم وسمو مكانتهم واللجوء إليهم في أمور الدين، والمضمون الأخير الذي يواصل فيه المعنى المذكور بصيغته أخرى محذراً الأمة من مقارنه أنفسها بهم، متطرقاً إلى عدم إمكانه تشبه أي من الأفراد بهم ومستعرضاً لفضائلهم والاعراب عن الارتياح لعوده الحق السليب لأهله.

ظروف وملابس الخطبة

كما مر علينا سابقاً فقد صرح المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد انصرافه من صفين.

ومضامين الخطبة ومعانيها تبدو منسجمة والمعنى المذكور؛ الحقيقة التي تجسدت في استعراض حياه الأمة في العصر الجاهلي حيث يحذرنا من مغبه تكرار الجاهلية الاولى والحؤول دون تمكن من تبقى من رواد تلك الجاهلية الذين كانوا يشكلون غالبية معسكر الشام في صفين من تحقيق أطماعهم ومآربهم. كما يؤكد عليه السلام على ضروره تمسك الأمة بأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله بغية التحصن من الأخطار التي كانت تهدد الإسلام آنذاك، فهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» فالنجاه بالتمسك بالكتاب والعترة معاً.

ومن هنا يتضح بطلان ماذهب إليه ابن أبي الحديد بشأن صدور الخطبة حيث قال: واعلم أنّ هذه الكلمات وهي قوله عليه السلام: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله» إلى آخرها يبعد عندي أن

تكون مقوله عقيب انصرافه عليه السلام من صفين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطرب الأمر، منتشر الحبل، بواقعه التحكيم، ومكيد ابن العاص، وما تم لمعاويه عليه من الاستظهار، وما شاهد في عسكره من الخذلان، وهذه الكلمات لا تقال في مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تكون قيلت في ابتداء بيعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصره، وأن الرضى رحمه الله تعالى نقل ما وجد، وحكى ماسم والغلط من غيره، والوهم سابق له، وما ذكرناه واضح. (١)

وقد صرح بعض العلماء بأن هذا الكلام ينبغي ألا يقال بشأن فرد يعتبر علماً في العلم وبحراً من الوقار واسطوره في الجهاد والمقاومه. فإن فرداً مثل على عليه السلام لا تهزه هذه الحادته وأنى للاضطراب والقلق من سبيل إلى هذه الروح الملحميه والأفكار الربانيه التي كان يتحلى بها على عليه السلام. بل بالعكس وكما أوردنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام يحذر - في هذه الخطبه - الأمة من الاستسلام إلى الدعايات السامه والمشاريع الشيطانيه التي كان يمارسها ولاه الشام ومن مغبه العوده القهقرى إلى العصر الجاهلى والصمود فى الذود عن الحق بعد أن عاد إلى أهله. وعليه فلا يبدو رأى ابن أبى الحديد صائباً فى أن معاويه هو الذى انتصر فى الميدان ولا سيما قول الإمام عليه السلام: «الآن إذا راجع الحق إلى اهله» وذلك للأسباب التاليه:

أولاً: أن معاويه لم يكسب تلك المعركه قط، غايه مافى الأمر أنه نجى من هزيمه منكره بفعل خدعه عمرو بن العاص فما زال الإمام عليه السلام يرى الحق (هو وأهل بيته) ويحذر الأمة من التغابى عنه إلى جانب الذود عنه وعدم زحزحته عن أهله.

ثانياً: إن التحكيم الغادر لعمرو بن العاص - وخلافاً لما يراه الكثيرون - لم يحصل فى صفين بحضور الإمام عليه السلام بل وقع بعيد بضعه أشهر، والطريف أن ابن أبى الحديد قد صرح بهذا المعنى فى موضع آخر من شرحه. ونخلص ممّا سبق إلى أن الدليل الذى حاول أن يتمسك به ابن أبى الحديد والذى تمثل بالجملة الأخيره فى الخطبه لإثبات صحه مدعاه فى أن الخطبه صدرت بعد موقعه صفين، هو دليل باطل وشاهد عارى من الصحه.

ص: ١٧٧

الركنان الأساسيان في الإسلام

استهل الإمام عليه السلام الخطبه - كسائر خطبه - بحمد الله والثناء عليه، إلّا أنّه يكشف عن الدوافع الثلاث لهذا الحمد والثناء:

الأول الاستزاده من النعم الإلهيه، واطهار الاستسلام والخضوع للعزه الإلهيه والقدره المطلقه، وأخيراً الاعتصام بالطافه من المعاصي. فقد قال عليه السلام: «أحمده استتماماً (١) لنعمته واستسلاماً (٢) لعزته واستعصاماً (٣) من معصيته». لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ مفهوم الحمد أشمل من الشكر، وبعبارة أخرى فإنّ الشكر ممزوج بالمدح وهذا يدعو من جانب لاستزاده النعم الإلهيه كما قال سبحانه: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (٤) ويشكل القيام بوظيفه العبوديه من جانب آخر وهذا هو التسليم مقابل عزه الله وأخيراً يوجب عنايات الله والطافه الغيبيه في حفظ الإنسان وعصمته من الذنوب والمعاصي. ثم يستعين عليه السلام بالله بعد حمده والثناء عليه موعزاً ذلك إلى حاجته إليه سبحانه وعدم غناه عنه «واستعينه فاقه إلى كفايته». أجل إذا رأى العبد نفسه محتاجاً لتلك الذات الغنيه وصاحب الكمال المطلق فانه يلجأ إلى الحق سبحانه ليشمله بفضله ورحمته ويعينه في كفه شؤون حياته. آنذاك يشير إلى دليل آخر لهذه الاستعانه فيقول: «أنّه لا يضل من هداه ولا يثل (٥) من عاداه ولا يفتقر من كفاه». نعم فقدرتة على درجه من القوه والعظمه بحيث لا يسع أحد الوقوف أمامها، وإن علمه ثاقب ليس للخطأ من سبيل إليه. وهناك احتمال أيضاً أنّ الدوافع الثلاث دليل آخر على الحمد والثناء ودليل على الاستعانه أيضاً.

ثم يشير في آخر العبارة إلى دليل آخر يوجب الحمد لله والثناء عليه «فانه أرجح ما وزن

ص: ١٧٨

-
- ١-١ «استتمام» قد تعنى الاتمام أو المطالبه بالاتمام، وقد أريد بها هنا المعنى الثانى ويؤيد ذلك الجملة اللاحقه.
 ٢-٢ «استسلام» بمعنى الانقياد والتسليم، وعناها بعض اللغويين بموافقه الظاهر للباطن بالنسبه للشئء والانقياد من لوازمها.
 ٣-٣ «استعصام» بمعنى المطالبه والحفظ ودفع الأمور المكروهه.
 ٤-٤ سورة إبراهيم / ٧. [١]
 ٥-٥ «يثل» من ماده «وأل» على وزن وعد بمعنى النجاه واللجوء والعوده.

وأفضل ما خزن». والواقع هو أنّ الفوائد والآثار التي وردت في العبارات السابقة إنّما تتعلق بهذا العالم، بينما ترتبط الفوائد الواردة في العبارتين الأخيرتين بالعالم الآخر وزاد المعاد يوم القيامة، وهكذا يكون حمد الله والثناء عليه سبب النجاة في الدنيا والآخرة، وما أروع عبارات الإمام عليه السلام المقتضيه التي تضمنت تلك المعاني العميقه. فلا يبدو من العبث أن يصرح ابن أبي الحديد حين يتناول بالشرح هذه الخطبه فيذهل للكنايات والبديع وعذوبه التعبير الذي تضمنته عبارات الإمام عليه السلام قائلاً: «فسبحان من خصه بالفضائل التي لا تنتهي السنه الفقهاء إلى وصفها وجعله إمام كل ذي علم وقدوه كل صاحب خصيه» .

ثم يتطرق عليه السلام إلى الشهاده بالوحدانيه بصفته تشكل مصدر جميع الفضائل والكمالات: «واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وتمسك الإمام عليه السلام بالتوحيد على أنه دعامة كافه العقائد والأفكار الطاهره والأعمال الصالحه من جانب، ومن جانب آخر ليلتفت من يرى الوهيته عليه السلام إلى خطأ إعتقاده. ثم يضيف الإمام عليه السلام بأنّ شهادته هذه شهاده حقيقه تستند إلى الاخلاص والتقوى وليست لقلقه لسان «شهاده ممتحن (1) اخلاصها معتقداً مصاصها (2)» .

فهى شهاده حقه دائمه مادامت الحياه مدخره حيث الأهوال والخطوب «نتمسك بها أبداً ما أبقانا وندخرها لاهويل (3) ما يلقانا» .

فالإمام عليه السلام يعلن عن عمق إيمانه وإذعانه بحقيقه التوحيد فى كافه شؤون الحياه وعلى جميع المستويات؛ الحقيقه التي تجسدت فى سيرته عليه السلام والمشهوده فى كافه جوانب حياته حتى لم يتطرق الشرك إليه طرفه عين، فلم يسجد لصنم قط وكانت سكناته وحركاته فى ظل التوحيد البعيد عن أدنى شرك خفى. ثم يذكر عليه السلام أربعة دعائم لهذا الركن الركين فى الإسلام «فانها عزيمه الإيمان وفتاحه الاحسان ومرضاه الرحمن ومدخره (4) الشيطان» .

ص: ١٧٩

١-١) «ممتحن» من ماده «محن» على وزن وهن بمعنى الاختبار والامتحان، إلّا أنّ بعض أرباب اللغه قالوا أصلها استخراج التراب حين حفر البئر.

٢-٢) «مصاص» من ماده «مص» على وزن نص بمعنى التذوق والامتصاص ومن هنا اصطلح بالمصاص على عصاره الشىء الممتص حين وروده بدن الإنسان.

٣-٣) «الأهويل» جمع أهوال «وهول» بمعنى الخشيه والخوف.

٤-٤) «مدخره» من ماده «دحر» بمعنى الطرد والابعاد.

سنرى فى الأبحاث القادمة أنّ الإيمان بأى من أصول الدين إنّما هو إيمان أجوف مالم يستند إلى التوحيد، كما أنّ الصالحات بأجمعها إنّما تستقى من حقيقته التوحيد، ومن هنا كان مرضاه لله ومدخره للشيطان، لأنّ الوسيله المهّمّه الهدامه للشيطان إنّما تتمثل بالشرك سواء كان جلياً واضحاً أم مخفياً مستتراً.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بفاتحه الاحسان هو الأجر والثواب الإلهى الذى التوحيد مفتاحه، غير أن التفسير الذى ذكرناه يبدو أكثر صحه من هذا. وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذه الشهاده الخالصه الحقه حتى يردفها بتمتمتها التى تتمثل بالشهاده بالنبوه: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». نعم فهو عبد الله قبل أن يكون رسوله، فليس من مجال لبلوغ مقام النبوه دون العبوديه، وفى هذا رد على أولئك الذين قد يبالغون فى مقام الرسول ليلغوا درجه الإلوهيه. آنذاك يصف رساله ووظيفه النبى فيقول:

«أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور (١) والكتاب المسطور والنور الساطع (٢) والضياء اللامع والأمر الصادع (٣). والواقع هنالك عدّه تفاسير بشأن هذه العبارات الست العميقه المعانى والأمور التى تشير إليها. منها أنّ المراد بالدين المشهور هو الإسلام الحنيف والعلم المأثور المعجزات والكتاب المسطور القرآن الكريم والنور الساطع علوم النبى صلى الله عليه وآله والضياء اللامع سنته صلى الله عليه وآله والأمر الصادع - بقرينه الآيه الشريفه ٩٤ من سوره الحجر «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» (٤) - ترك التقيه واطهار التوحيد فى مقابل المشركين والكافرين. كما يحتمل أن يكون المراد بالضياء اللامع والنور الساطع تبين القرآن الكريم، فالقرآن مصدر اشعاع أفكار المجتمعات الإنسانيه. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى الهدف النهائى لرساله النبى صلى الله عليه وآله والقرآن والمعجزات والقوانين والأحكام الشرعيه، فيوضح أهداف النبى صلى الله عليه وآله فى ثلاث محاور: ازاله

ص: ١٨٠

-
- ١-١) «المأثور» من ماده «أثر» بمعنى العلامه الباقيه من الشىء ولذلك يطلق على العلوم المتبقيه من الماضين «علم المأثور».
 - ٢-٢) «الساطع» من ماده «سطوع» بمعنى الانتشار، فالنور الساطع هو النور الواسع المنتشر كما ورد بمعنى المرتفع.
 - ٣-٣) «صادع» من ماده «صدع» بمعنى الشق فى الجسم الصلب والمحكم ثم أطلق على كل شىء قاطع.
 - ٤-٤) سوره حجر / ٩٤. [١]

الشبهات بالأدله والبراهين واستقطاب الخصوم من خلال إرشادها بالآيات البيّنات وتحذيرهم من العقاب الأليم ان هم تمادوا في غيهم وعصيانهم «إزاحه (١) للشبهات واحتجاجاً بالبيّنات وتحذيراً بالآيات وتخويفاً بالمثلثات (٢)» .

يمكن أن يكون المراد من قوله «إزاحه الشبهات» الحقائق التي تعززها البراهين والأدله الربانيه والتي لا تدع مجالاً لشك أو شبهه، «واحتجاجاً بالبيّنات» المعجزات الحسيه بالنسبه لأولئك الذين لا يسلمون سوى للاستدلالات العقلية والتي من شأنها سوقهم نحو الإيمان واليقين، «تحذيراً بالآيات» الوعيد بالعذاب الأخرى «تخويف بالمثلثات» الوعيد بالعذاب الدنيوى كما ورد ذلك فى بعض الآيات القرآنيه كقوله سبحانه وتعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ» . (٣)

تأملان

١- التوحيد ركيزه المالحات

تعتبر الشهاده لله بالواحدانيه من الأصول العقائديه المسلمه بالنسبه لسائر الاصول؛ إلا أنّ هذا استنتاج ساذج لهذا الأصل الإسلامى المهم. فالتمعن فى المصادر الإسلاميه والتحليلات العقلية يدل على أن التوحيد أصل جار على سائر الأصول والفروع، بعبارة أخرى فان كفه أصول الإسلام وفروعه تشكل بلوره لمفهوم التوحيد؛ ولا يقتصر هذا الأمر على المباحث العقائديه والعباديه فى المسائل الاجتماعيه والسياسيه والأخلاقية بل تسرى روح التوحيد لتحكم جميع المجالات.

فالتوحيد على مستوى الذات والصفات والافعال والعبوديه لمن الأمور المسلمه الواضحه ولا تقتصر به على نبينا دون سائر الأنبياء بحكم الآيه الشريفه «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (٤)

ص: ١٨١

١- ١) «إزاحه» من ماده «زيج» على وزن زيد بمعنى الأبعاد والاقضاء.

٢- ٢) «مثلثات» جمع «مثلثه» على وزن عضله بمعنى البلاء والمصاب الذى يحل بالإنسان فيصبح مثلاً وعبره للآخرين (مفردات الراغب، تحقيق، الصحاح ومجمع البحرين) .

٣- ٣) سورة الرعد / ٦. [١]

٤- ٤) سورة البقره / ٢٨٥. [٢]

وعليه فاننا نؤمن بأن جميع الأنبياء والمرسلين إنما يتفقون في أهدافهم ووحده رسالتهم وبرامجهم رغم أن بعض الأحكام والمشاريع والبرامج التي تلبس حلا جديدة وتتخذ طابعا حديثا بفعل تطور المجتمعات البشرية وتقدم مسيرتها.

أما بالنسبة للمعاد وعلى ضوء الآيه الشريفه «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا» (١) فإنّ الجميع سيقف بمفرده يوماً في محكمه العدل الإلهي لينالوا جزائهم من ثواب أو عقاب يتناسب مع طبيعه أعمالهم وفقاً لمعايير إلهيه واحده.

فالمجتمعات البشريه تنتمي إلى جذور واحده تحكمها أصول ثابتة ومعينه، بل تحكم جميع عالم الوجود. والواقع صحيح أنّ هنالك تفاوتاً في القوانين الإلهيه في الأديان السماويه من حيث آلياتها وتفرعاتها، إلّا أنّ مستقاهما واحده، ومن هنا فاننا نؤمن بوحده دعوه الأنبياء للمجتمع العالمى الموحد، وأنّ العالم برمته سيشهد في خاتمه المطاف حكمه العدل الإلهي.

أمّا على صعيد المسائل الأخلاقيه فليس هنالك من يتردد في أنّ الفضائل الأخلاقيه إنّما تنبع من التوحيد بينما تنبع الرذائل من الشرك.

و عاده ما يتورط بالشرك الأفراد المرئين وأولئك الذين يصابون بأمراض الحسد والبخل و الحرص والتكبر، وإلّا فالفرد الذى يعيش توحيد الأفعال بكل كيانه وفى أعماقه ويؤمن بأنّ العزه والذله والرزق والحياه والممات والنصر والغلبه لله بيده وحده لا يرى من مسوغ لان يستشعر قلبه معانى الرياء والحرص والبخل والحسد.

و زبده الكلام فإنّ التوحيد ليس بمثابه حبه مسبحه بالنسبه لسائر الحبات، بل هو بمثابه الخيط الذى يشد الحبات إلى بعضها البعض الآخر.

و من هنا يتضح عمق كلمات الإمام عليه السلام بالنسبه لمفهوم التوحيد - فى الخطبه -، فالتوحيد هو الدعاه الرئيسيه للإيمان وانطلاقه الأعمال الصالحه ويستبطن رضى الرحمن وطرده

ص: ١٨٢

الشیطان، وإذا ما أشرقت شمس التوحید على جسم المجتمع البشرى وروحه فإنه سیتخذ طابعا متبلورا فى ظل أشعته الزاهره. وإذا رأينا أمير المؤمنین ومولى المتقین على علیه السلام الذى یمثل بدوره روح التوحید لا ینفك عن تکرار التعرض للتوحید - فى خطب نهج البلاغه - وتعلیم أتباع مدرسه أهل البیت الاخلاص فى التوحید فإنما یعزى ذلك إلى ضروره الابقاء على جذوه هذه الشعلة الخالده متقدمه فى القلوب وری أرض الحیاه بهذه المیاه العذبه لتورق ثمار أشجارها وتنضح فى ظل صبغه التوحید الإلهیه. و ممّا لا شك فيه أنّ الشهاده بالنبوه والالتفات إلى وظائفها ومسؤولياتها وكتبها السماویه إنّما یعدّ أفضل أرضیه خصبه لبلوره حقیقه التوحید فى أعماق کیان الإنسانیه.

٢- التوحید الخالص الذى طبع حیاه أمير المؤمنین علیه السلام

كان على علیه السلام مجسمه التوحید ومظهره التام قبل أن يدعو الآخرين لهذه الحقیقه الخالصه.

لم یسجد لصنم طرفه عین طيله حیاته قط لیلوث صفو روحه غبار الشرك. كان لا یفعل شیئا إلّا ویرى الله فيه وقبله ومعه لایروم سوى رضاه.

كما وقف كالطود الشامخ یشد أزره ویذود عنه بغیه استتباب التوحید والعبودیه. ولا یخفى على أحد موقفه فى الخندق ومبارزته لعمر بن العاص، فقد صرعه الإمام علیه السلام وأو شك أن یقتله؛ وقد أصیب جيش الإسلام بالذهول حین رأى الإمام علیه السلام قد انصرف عن قتله (و لعله نهض من عنده وتركه لمدّه بعد أن تجول فى الميدان) ثم عاد إليه وقتله.

فلما سسئل عن عله ذلك قال علیه السلام: «قد كان شتم أمى وتفل فى وجهى فخشیت أن أضربه لحظ نفسى فترکته حتى سکن ما بى ثم قتله فى الله» (١) وقد وقف بكل قوه تجاه بعض أصحابه الذین اعترضوا علیه بالتسویه فى العطاء من بیت المال قال: «أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فیمن ولیت علیه! والله لا أطور به ما سمر سمیر، وما أم نجم فى السماء نجماً! لو كان المال لى لسویت بینهم، فكیف وإئما المال مال الله». (٢) ولما كان یقف للصلاه كان یستغرق فى صفات الله وجلاله وجماله بحيث لم یکن یرى سوى الله ولا یفکر فى سواه، حتى ورد فى الأخبار أن سهما أصاب رجله فى موقعه أحد وكان یصعب سله من رجله فأمر

ص: ١٨٣

١- (١) مناقب ابن شهر آشوب، ٢ / ١١٥ ([١] مستدرک الوسائل؛ ١٨ / ٢٨ [٢] وبحار الانوار، ٤١ / ٥١). [٣]

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٦. [٤]

رسول الله صلى الله عليه وآله سسله حين يقف للصلاه. فلما فرغ عليه السلام من صلاته قال لم أشعر بالسهم حين الصلاه. (١) وما أكثر هذه التماذج التوحيديه فى حياه الإمام عليه السلام.

ص: ١٨٤

١-١) كتاب «المناقب المرترضويه» تأليف المولى محمد صالح الكشفى الحنفى / ٣٦٤، طبعه يومباى (مطابق نقل احقاق الحق ٨ / ٦٠٢).

«وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجِدَ مَنْ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعَزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَشَّتِ الْأُمُرُ وَضَاقَ الْمَخْرُجُ وَعَمِيَ الْمَصِيدُ فَالْهُدَى خَامِلٌ وَالْعَمَى شَامِلٌ عُصَبِي الرَّحْمَنِ وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ وَخُدِلَ الْإِيمَانُ فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُكُهُ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ، وَقَامَ لِمَاؤُهُ، فِي فِتْنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطَّئَتْهُمْ بِأَطْلَافِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَيْنَابِكِهَا، فَهَمُّ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِزُونَ جَاهِلُونَ مَقْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ نَوْمُهُمْ سِيَهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضِ عَالِمِهَا مُلَجِّمٌ وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ» .

الشرح والتفسير

يصور الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيره والبلغه أوضاع العصر الجاهلي وكأن السامع يشهد عن قرب تلك الأوضاع ويرى نفسه في خضم ذلك العصر ليلمس الفوضى والبؤس والشقاء الذي كان عليه الناس. ولا نرى أنفسنا نبالغ إذا ما قلنا بأن الإمام عليه السلام قد اختصر كتابا ضخما بهذه العبارات الموجزه؛ الأمر الذي يعدّ دلاله أخرى على مدى رصانه بيانه وعمق الفصاحه والبلاغه والروعه في التصوير والدقه في التعبير التي تشتمل عليها كلماته وخطبه عليه السلام. (1)

ص: ١٨٥

١- ١) طبقا لما ورد آنفا فإن الواو في قوله «و الناس في فتن...» حاله أي أنّ الله سبحانه بعث النبي صلى الله عليه وآله حين كان الناس على هذه الحالة، إلّا أنّ بعض شراح نهج البلاغه احتملوا أن الواو ابتدائية والعبارات رسمت صورته عن أوضاع الناس في عصر الإمام عليه السلام، غير أنّ هذا الاحتمال لا يبدو صحيحا والحق هو الاحتمال الأول، رغم أنّ هذه العبارات يمكن أن تكون تحذيرا للأمة في عصره من العوده إلى عصر الجاهليه بفعل أمراض حب الذات واطاعه الاهواء.

ومن البديهي إلتئضح عظمه رساله النبي صلى الله عليه وآله وسمو الخدمات التي أسداها إلى البشريه وحلاوه الإيمان التي حملها الدين الحنيف ما لم تكن هناك صوره واضحه عن الأوضاع السائده لدى الأقوام السابقه التي سبقت عصر الرساله وانبثاق الدعوه الإسلاميه.

فمن شأن هذه المقارنه أن تميز عظمه مشاريع الأنبياء وبرامج الأولياء والعباقره على مدى التاريخ. فقد أشار عليه السلام إلى الفتن التي كانت تعصف بالأمه آنذاك بحيث تصدعت عرى الدين وتزعزعت أعمده الإيمان وتلوث الفطره وتغيرت القيم وسادت الفرقه بين الناس، فغدوا حيارى قد ضلوا المخرج «والناس في فتن إنجذم (١) فيها حبل الدين وتزعزعت (٢) سواري (٣) اليقين واختلف النجر (٤) وتشتت الأمر وضاق المخرج وعمى المصدر» .

فقد تقطعت حبال الدين وغابت المعارف الدينيه الحقه إثر فتن الشياطين ووساوس عبده الأهواء من جانب، ومن جانب آخر فان الفوضى عمت الأمه وتصاعدت بين أوساطها حده الفرقه والاختلاف؛ والانكى من ذلك وفي ظل هذه الظروف لم يكن هناك من سبيل للخروج من المأزق ولا من كهف يؤى إليه؛ الأمر الذي اضطر الناس للبقاء على الانحراف والدنس الذي ساد ذلك المحيط والعموم في مستنقع العفن. والعباره «حبل الدين» - التي وردت بصيغه المفرد - إشارة إلى وحده الدين الحق ووحد المصدر الذي تستقى منه كاهه أصول وتعاليم الأنبياء وإن شهدت هذه الأصول والتعاليم بعض الفوارق التي تفرزها طبيعه تقادم الزمان، وهذا ما يجوزه القرآن الكريم على لسان المؤمنين الصادقين بقوله: «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (٥) وقوله عليه السلام «إختلف النجر» لا يشير إلى الاختلافات التي شهدها العصر

ص: ١٨٤

١-١) «إنجذم» من ماده «الانجذام» بمعنى إنقطع وإنفصل ومن هنا يطلق اسم الجذام على ذلك المرض الذي يصيب الجسم فيؤدى إلى انفصال الأعضاء.

٢-٢) «تزعزعت» من ماده «زعزع» بمعنى تحركت واضطربت، فيقال على سبيل المثال: زعزع الريح الشجره.

٣-٣) «سواري» جمع ساريه العمود و الدعامة.

٤-٤) «نجر» على وزن فجر يعنى الاصل، كما يعنى الاصلاح والشكل والهيئه ومنه اطلق اسم النجار. وقد وردت هذه المفرده فى العبارة بالمعنى الأول.

٥-٥) سورة البقره / ٢٨٥ [١]

الجاهلى على أنّها إختلافات صوريه فى تفرعاتها واطيافها فحسب، بل كانت إختلافات أصوليه وأساسيه جذريه.

بل يمكن القول إنّ العبارة إشاره إلى معنى يتضمن تزلزل حتى أركان الفطره الإنسانيه والأصول الفطريه التى جبل عليها الإنسان من قبيل التوحيد وعشق الأعمال الصالحه والخيره؛ أو تغير قيم المجتمع الإنسانى وتنكرها حتى عاد لكل معاييره الخاصه للتعامل مع القضايا؛ الأمر الذى أدى إلى تلك الحاله من الفرقه والتشتت و «تشتت الأمر» يمكن أن تكون إشاره إلى شدة الخلافات الدينيه القسوى آنذاك (على أساس أنّ المراد بهذا الأمر هو أمر الدين) أو إشاره إلى الفرقه والشقاق فى كافه الأمور الاجتماعيه، سواء الأمور الدينيه والدينيه والمسائل المرتبطه بالمجتمع والاسره أو القضايا الاقتصاديه أو الأخلاقيه.

ويبدو أنّ المعنى الثانى أكثر إنسجاما والعصر الجاهلى؛ وهنا تكمن الطامه الكبرى حيث يغط الإنسان فى هاله من الشك والترديد وإنعدام الإيمان وأنواع الاختلافات والشقاقت والفساد والانحراف وليس هنالك من سبيل أمامه للخروج من هذا المأزق حتى يعيش اليأس والقنوط من رأسه إلى أخمص قدمه. وهذه هى الصوره الحقيقيه التى رسمها الإمام عليه السلام لذلك العصر.

ثم يتطرق عليه السلام إلى المعطيات السلبيه التى أفرزتها تلك الأوضاع المزريه آنذاك فوصفها عليه السلام قائلاً: «فالهدى خامل (1) والعمى شامل، عصى الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان» .

من الطبيعى أن يتطلب سبيل طاعه الله نور الهدايه من جانب والبصيره التى تهتدى إلى ذلك النور من جانب آخر؛ فالأمة تتحول إلى رعيلى شيطانى تتكالب على الفواحش والرذائل شاءت أم أبت إذا إنعدم فى وسطها ذلك النور وفقدت تلك البصيره.

والجدير بالذكر فى العبارة «عصى الرحمن» أن الإمام عليه السلام قد إختار هنا اسم الرحمن من بين أسماء الله الحسنى فى إشاره إلى أنه ورغم الرحمه الإلهيه التى عمت الجميع دون إستثناء وأن طاعته أمر فطرى وبديهى جبلت عليه النفس البشريه إلّا أنّ هؤلاء العمى البصائر فى العصر

ص: ١٨٧

(١ - ١) «خامل» بمعنى الشىء المنسى الذى لاقيمه له.

الجاهلى قد صموا أبصارهم حتى عن رؤيه هذه الحقيقه القائمه. ثم يؤكد هذه النتائج المره التى أصيوا بها آنذاك فيلخصها عليه السلام قائلاً: «فإنهارة (1) دعائمه وتنكرت معالمه ودرست (2) سبله و عفت شرکه (3)» و لعل التعبير بالدعائم إشاره إلى أولياء الله ورواد سبيل الحق أو التعليمات الاصوليه للأنبياء.

وقوله إنهارة تعود إلى القضاء على هذه الدعائم أو التعليمات؛ والمعالم ممكن أن تكون إشاره إلى الكتب السماويه السابقه أو التعاليم النبويه، كما أنّ المراد بالسبل والشرك طرق المعرفه سواء الطرق العقلاييه والفطريه أو طريق الوحي والتعاليم السماويه.

النقطه الجديره بالذكر هنا هي أنّ «الشرك» كما أشرنا سابقاً بمعنى الطريق الرئيسي. فالطرق الصغيره قد تكون عرضه للاهمال والنسيان فى حين ليس الطريق الرئيسي كذلك، مع ذلك ففى مثل هذا المجتمع وحتى الطرق الرئيسييه قد فقدت وزالت غايتها فى إرشاد الماره.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى أنّ الأسمه وفى ظل هذه الشرائط والأوضاع قد وقعت فى حبال الشيطان واسلست له قيادها «أطاعوا الشيطان فسلخوا مسالكه ووردوا مناهله (4)» .

ولم تكن نتيجة ذلك سوى ما قاله الإمام عليه السلام: «بهم سارت (5) اعلامه، وقام لواؤه» . ثم قال عليه السلام: «فى فتن داستهم (6) باخفافها (7) ووطنتهم باظلافها (8) وقامت على سنايكها (9)» . (10)

و السؤال المطروح هنا: هل هذه الفتن هي تلك التى أشير لها سابقاً أم هي فتن أخرى؛ يبدو أنّها الفتن المذكوره آنفاً، غير أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى تفاصيلها الاخرى، حيث يشبه الإمام عليه السلام

ص: ١٨٨

١-١) «إنهارة» من ماده «الانهار» بمعنى الاندراس والزوال.

٢-٢) «درست» من ماده «دروس» بمعنى إندثار آثار الشىء وزوالها.

٣-٣) «شرك» جمع «شركه» على وزن حسنه، وقال البعض جمع أشراك بمعنى الطرق العامه.

٤-٤) «مناهل» جمع «منهل» بمعنى مورد النهى.

٥-٥) «سارت» من ماده «سور» بمعنى الرفع والاعلاء.

٦-٦) «داست» من ماده «دوس» و «دياس» بمعنى الهضم.

٧-٧) «أخفاف» جمع «خف» وهو للبعير كالأقدام للإنسان.

٨-٨) «أظلاف» جمع «ظلف» بالكسر للبقر والشاء وشبههما كالخف للبعير والأقدام للإنسان.

٩-٩) «سنايك» جمع «سنيك» على وزن قنغد بمعنى طرف الحافر.

١٠-١٠) يمكن أن تكون جمله «فى فتن داستهم» متعلقه بمحذوف تقديره لا والناس فى فتن داستهم، كما إحتمل البعض أنّ الجار والمجرور متعلق بسارت فى الجملة السابقه ويبدو الاحتمال الأول أقوى.

فتن الجاهليه بالحيوان الوحشى الذى ير كل صاحبه بحافره. والذى يقف على رجله ليدوس بها أدنى حركه تبدو أمامه.

أمّا تعبيره عليه السلام بالسنايك التى تعنى طرف الحافر فهى إشاره لطيفه إلى حقيقه مفادها أنّ هذه الفتن لا تعرف الانكسار وهى باقيه فى إلقاء ضلالها الوخيمه على الناس (لأن مثل هذه الحيوانات حين تقف على أطراف حوافرها إنّما تعلن عن تأهبها لابتداء ردود الفعل العنيفه تجاه كل من يقف أمامها) .

و عليه فقد كانت الأوضاع فى ذلك الزمان على درجه من التعقيد والوخامه بحيث لم يعدّ هنالك من أمل فى التغلب عليها. وهذا بالذات ما جعل الإمام عليه السلام يخلص إلى هذه النتيجة بالنسبه لما عليه الناس فى ظل تلك الفتن «فهم فيها تائهون (١)حائرون جاهلون مفتونون» .

تائهون إشاره إلى أنّهم قد ضلوا سبيل الحق بالمره حتى نسوا أنفسهم وخسروا ذاتهم. حائرون إشاره إلى الحيره التى سيطرت عليهم فسلبتهم حتى القدره على اتخاذ القرار الذى من شأنه إنقاذهم من تلك الفتنه. جاهلون أى أنّهم وعلى فرض عزمهم على إتخاذ القرار لنجاتهم فإنّ الجهل والتخبط سوف لن يدعمهم يبلغون السبيل السليم.

مفتونون إشاره إلى الأوهام والخيالات وإلّا لا عيب والحيل التى استهوتهم فجعلتهم يرون السراب ماءً والمجاز حقيقه. وقد حصل كل هذا حين كان الناس فى خير أرض (فى جوار بيت الله الحرام وديار الأنبياء العظام) واسوأ جيران «فى خير دار وشر جيران» (٢)وأثر ذلك فقد أصبح «نومهم سهود (٣)وكحلهم دموع» . والأدهى من ذلك أنّهم يعيشون فى مجتمع لا يقيم زنا للعالم بما جعله يفقد قدرته على هدايتهم وإرشادهم بينما يخطى الجاهل فى ذلك المجتمع بمكانه لا- يحلم بها «بارض عالمها ملجم وجاهلها مكرم» هنالك أربعة تفاسير أوردتها شراح نهج البلاغه بشأنه قوله عليه السلام «فى خير دار» فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بها مكه (بيت الله

ص: ١٨٩

١-١) تائهون جمع تائه بمعنى الضائع.

٢-٢) ذهب البعض إلى أنّ الجار والمجرور فى قوله «فى خير دار» يتعلق بمفتونين، والحال أن الانسب أن يكون خير لمبتدأ محذوف تقديره «و الناس فى خير دار» والجمله حال لعصر الجاهليه والواو فى قوله وشر جيران هى واو المعيه.

٣-٣) سهود مصدر بمعنى الارق وقله النوم (الصحاح، المفردات، لسان العرب والمقاييس) .

الحرام) (و على هذا الضوء فان العبارات المذكوره وصف لعصر الجاهليه) بينما قال البعض الآخر أريد بها الشام حيث كانت من الأراضي المقدسه ومهبط الأنبياء وأهلها شر جيران؛ أى أصحاب معاويه (إذا اعتبرنا عبارات الإمام عليه السلام وارده بشأن عصره) .

الاحتمال الثالث أن يراد بقوله خيردار الكوفه التي كان يقيم فيها الإمام عليه السلام بينما كان أهلها ومن يحيط بها من شر الجيران من قبيل المنافقين والناكثين الذين لا يلتزمون بالعهود. وأخيراً الاحتمال الرابع أن يكون المراد بها دار الدنيا التي يسكنها أغلب الطالحين والاثمين ويبدو التفسير الأول هو الأنسب والأصوب حيث ينسجم والعبارات المذكوره سابقاً.

و على ضوء هذا التفسير فان قوله عليه السلام «نومهم سهود» إشاره إلى الفوضى والاضطراب وإنعدام الأمن والمصائب التي عمت عصر الجاهليه، والعلماء أولئك الصلحاء الذين تمحوروا حول رسول الله صلى الله عليه وآله والجهال أولئك المفسدون من قريش ومن لف لفهم؛ أما على ضوء سائر التفاسير فان المراد الفوضى وإنعدام الأمن فى زمان معاويه والمشاكل التي برزت بين العراق والشام آنذاك، وقد ألمحنا سابقاً إلى عدم انسجام هذه التفاسير وروح الخطبه.

والشاهد على ذلك إضافه لما ذكر، ما أورده ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه حيث قال: أنه عليه السلام لم يخرج من صفه أهل الجاهليه وقوله «فى خير دار» يعنى مكه و «شر جيران» يعنى قريشا، وهذا لفظ النبى صلى الله عليه وآله حين حكى بالمدينه حاله كانت فى مبدأ البعثه فقال «كنت فى خير دار وشر جيران» (١).

أما قوله عليه السلام «نومهم سهود وكحلهم دموع» فهو إشاره لطيفه إلى تفاقم الفوضى والاضطراب ومصائب ذلك الزمان بحيث إذا خلدوا ليلا إلى النوم كان نومهم مضطربا مشوبا بالخوف والرعب والسهاد، وقد إتسعت هوه الفتن بحيث إكتحلت عيونهم بالدموع التي تحرق أجفانها بدلاً من تزيينها بالكحل.

و من الطبيعى وفى ظل هذه الاجواء وفى تلك الديار والمجتمعات أن يغيب دور العلماء وتهمل مكانتهم وبالمقابل يبرز الجهال الذين كانوا يمثلون زعماء قريش وكبرائها ليحظوا

ص: ١٩٠

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ١٣٧. [١]

باحترام الآخرين وتقديرهم بعد أن قلبت الموازين وضاعت القيم.

و أخيراً فهناك احتمال آخر أن يكون المراد بالعلماء هم ذلك النفر القليل من الموحددين قبل بعثه النبي محمد صلى الله عليه و آله من قبيل عبدالمطلب وأبوطالب وقس بن ساعدّه وليبد بن ربيعه وأمثالهم.

صورة الحياه الميته فى العصر الجاهلى

لقد قدم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيره والعميقه المضامين صورته دقيقه حيه عن الأوضاع التى عاشها العرب فى العصر الجاهلى بحيث يجد كل من تأملها نفسه فى خضم ذلك العصر ليرى بأى عينه كل تلك الفوضى والقبايح والردائل.

فقد عكس الإمام عليه السلام عظمه مقام النبي صلى الله عليه و آله و سمو منزلته من جانب حيث تتضح شدة النور و عمق خطفه للابصار كلما كان الظلام دامسا والعتمة شديده، الأمر الذى يكشف عن عظمه خدمات نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و نجاعه دينه فى خلق المجتمع. ولا- غرو فان استبدال ذلك المجتمع - بالمواصفات المذكوره - إلى ذلك المجتمع الذى إلتف حول الرسول لم يكن يبدو أمراً ممكناً، وليس ذلك سوى للاعجاز والوحي وعظمه التعاليم الإسلاميه التى تمكنت من انتشار ذلك المجتمع وطبعه بهذه الصفات العالیه.

من جانب آخر فهى إشاره إلى تجديد الأفكار والأداب والسنن الجاهليه فى عصر النبي صلى الله عليه و آله التى ظهرت فى عصر الخلافه الراشده إثر انحراف الأُمّه عن تعاليم النبي صلى الله عليه و آله.

فالإمام عليه السلام يحذر الأُمّه فى زمانه من الأخطار التى تتهددها من جراء إحياء سنن الجاهليه والعادات والتقاليد الباليه التى تفتك بالمجتمع. الجدير بالذكر هنا هو أنّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبه بعد إنصرافه من صفين حيث أراد الفات نظر أصحابه إلى العناصر التى أدت إلى تلك النتيجة بأسلوب بليغ يعرف ب «إياك أعنى واسمعى باجاره» .

لاشك أنّ عبارات الإمام عليه السلام تستبطن الدروس والعبر التى ينبغى أن نحتذئها نحن المسلمون فى العصر الحاضر الذى يتصف بالمدينه والتطور والتقدم، فهى تحذير جدى لنا؛ فعباراته تنطبق تماما على الأوضاع التى يشهدها عصرنا الراهن حيث غاصت الأُمّه اليوم فى هاله من الفتن وتزعزعت عرى الإيمان واليقين واندرست سبل معرفه الحق بفعل تفاقم سعه

حجم الدعايات المسمومه وانتشار الرذيله والفساد وتفرق الناس أيدى سبأ وكثرت الأهواء وتعذرت طرق النجاه وقد استفحل الضلال وإنعدام الهدى واستشرت الذنوب والمعاصي وخلي الميدان للشياطين والمستكرين.

نعم لقد شهد عصر الإمام عليه السلام تلك الغفله فعادت الأمة وأقبلت على سنن الجاهليه، والعجيب أن الأمة آنذاك قد خلدت إلى السبات والكسل بحيث لم يعد يؤثر فيها صراخ حتى هذا الولي الرباني وأخذوا يتهافتون على احياء سنن الجاهليه حتى آل الأمر إلى تحول الحكومه الإسلاميه إلى حكومه وراثيه تلاقفها بنو اميه وبنو العباس، فلم تتعثر المسيره الإسلاميه آنذاك فحسيت، بل وجهت إليها ضربات موجعه جعلتها تعلق جراحها لحد الآن! ونرى هنا ضروره تسليط الضوء على أوضاع الناس في العصر الجاهلي من مختلف الجوانب ودراسه ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الشأن لنقف بوضوح على تفاصيل هذا الموضوع.

فجاهليه العرب - وهكذا الجاهليه التي كانت تعيشها سائر الأقوام - إنما تشير إلى سلسله من العقائد الباطله والخرافات والأساطير والسنن الخاطئه والقيحه المخجله إلى أحيانا، جانب الأفعال العبيثه والسلوكيه العنيفه القائمه على الظلم والاضطهاد والانحرافات الفكرية من قبيل نحت الأوثان من الخشب والحجر والاعتكاف على عبادتها واللجوء إليها عند حدوث الخطوب والمصائب حيث جعلوها شفعايمهم إلى الله بعد أن اعتقدوا بقدرتها المطلقه وأن الخير والشر بيدها.

و لم تقتصر أفعالهم الطائشه على وأد البنات كدفاع عن العرض والشرف أو أنهن يجلبن عليهم الخزي والعار فحسب، بل كانوا يعمدون لقتل أولادهم تحت ذرائع شتى منها تقديمهم إياهم كقرايين إلى آلهتهم أو بدافع الفقر «وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلُوا أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ» (١) و «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ» (٢) و «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» (٣).

ص: ١٩٢

١-١) سورة الانعام / ١٣٧. [١]

٢-٢) سورة الاسراء / ٣١. [٢]

٣-٣) سورة التكوير / ٨. [٣]

و لم يعيشوا أى هاجس من قلق لفظاعه هذه الجرائم، بل أبعد من ذلك كانوا يتفاخرون بها على أنها من العناصر المشرفه فى حياه الاسره التى كانت تعمد لارتكاب مثل تلك الجنایات المهورله.

أميا المراسم العباديه فى البيت فلم تكن سوى المكاء والتصديه والعرى التى كانت عليه النساء حين العباده وهن يظفن حول الكعبه «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءاً وتصديه» (١) كانوا يتفاخرون بالحروب وسفك الدماء والسلب والنهب، كما لم يكونوا يقيموا أدنى وزن للمرأة فهى ليست سوى سلعه رخيصه فلا تتمتع بأدنى حقوق بل كانوا أحيانا يقامرون بها.

كانوا يرون الملائكه بنات الله - وكما أشرنا سابقاً فانهم كانوا يرون فى البنت العار والفضيحه - «ويجعلون لله البنات سجانة ولهم ما يشتتون» (٢) و «أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون» (٣) أما على مستوى الخرافات والاساطير التى كانت سائده لديهم فقد كانت عجيبه مذهله ومنها ما وصفه القرآن الكريم «وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميثه فهم فيه شركاء» (٤).

إذا غضب أحدهم على امرأته وأراد أن يوبخها كفاه وأن يخاطبها «أنت على كظهر أمى» فهم يعتقدون أن هذا القول يكفى أن تحرم عليه لأنها عادت كامه دون إجراء حكم الطلاق عليها، الأمر الذى شجبه القرآن ولم يقره: «وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم» (٥)، «إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم و إنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً» (٦) أما الطابع السائد الذى كان يميز العصر الجاهلى فانما يكمن فى شن الحروب والغارات التى

ص: ١٩٣

١ - ١) سورة الانفال / ٣٥. [١] أميا المشهور بالنسبه لسبب نزول سورة التوبه ومن الأمور التى أمر أمير المؤمنين عليه السلام بابلاغها المشركين «و لا يطوفن يا لبيت عريانا». نور اليقلين، ٢ / ١٧٩-١٨١ ح ١٤ و ١٧ و ١٨ و ٢٠ ومجمع البيان، ٣ / ٥.

٢ - ٢) سورة النحل / ٥٧. [٢]

٣ - ٣) سورة الصافات / ١٥٠. [٣]

٤ - ٤) سورة الانعام / ١٣٩. [٤]

٥ - ٥) سورة الاحزاب / ٤. [٥]

٦ - ٦) سورة المجادله / ٢. [٦]

تستبطن سفك الدماء وتأجيج الأحقاد والأضغان التي توارثتها الأقوام أبا عن جد، الأمر الذى شبهه القرآن بشفا حفره من النار، فقال «وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ» (١).

الخرافه الأخرى التى كانت تسود فى الأذهان هو الاعتقاد بالرابطة القائمه بين نزول المطر وبزوغ واختفاء بعض الكواكب، والتفؤل بالطيور والإيمان بالغول الصحراوى والعفاريث وما شابه ذلك؛ الأمر الذى عبر عنه القرآن الكريم فى أكثر من آيه بالضلال المبين. «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٢).

نعم هذه صورته مقتضبه من الحاله التى كانت عليها العرب فى الجاهليه - بل هذه مميزات سائر الأقوام فى الجاهليه التى تعددت أشكالها واتفقت مضامينها.

و من هنا يمكن الوقوف على عظمه الإسلام والقرآن وحامل رسالتها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، الأمر الذى توصل إليه أحد أعلام الغرب ويدعى توماس كارل فى أن الله هدى العرب من الظلمات إلى النور بالإسلام ومن أمه راكمه متعاسه لاصوت فيها ولاحركه إلى أمه ذات شهره ومن الضعف والوهن إلى اليقظه والقوه، ومن الضعه إلى العزه ومن العجز إلى القدره. فقد شع نور الإسلام على العالم من جهاته الأربع ولم يمضى عليه أكثر من قرن فبلغ المسلمون الهند الأندلس، بل استطاع الإسلام أن يبسط نوره على تصف المعموره بهذه المده القصيره. (٣)

ص: ١٩٤

١-١) سورة آل عمران / ١٠٣ [١]

٢-٢) سورة الجمعة / ٢. [٢]

٣-٣) عذر التقصير لدى محمد والقرآن، ص ٧٧ (نقلا عن تفسير الامثل، ٣ / ٣١).

و منها يعنى آل النبي عليه الصلاه والسلام

«هُم مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبُهُ عِلْمُهُ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ»

الشرح والتفسير

يصف الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه الأئمه من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله بعبارات قصيره عميقه المعانى، حيث يتطرق إلى مكائنتهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله على ضوء ماورد فى الأحاديث النبويه الشريفه من قبيل حديث الثقلين وسفينه نوح والنجوم. (١)

فقد وصفهم فى عباراته الست الاولى بقوله عليه السلام: «هم موضع سره، ولجأ (٢) أمره، وعيبه (٣) علمه، وموئل (٤) حكمه، وكهوف (٥) كتبه وجبال دينه» (٦) أن كل عباره من هذه العبارات تشير

ص: ١٩٥

١- ١) فقد تصدت هذه الأحاديث التى روتها مصادر الفريقين لبيان مكانه أهل البيت عليه السلام. فقد صرح حديث الثقلين بأن أهل البيت عليه السلام هم عدل القرآن الذين لا يفترون عنه حتى يردا على النبي صلى الله عليه وآله حوضه. أما الحديث الثانى فقد شبههم بسفينه نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق. وأخيراً حديث صلى الله عليه وآله الذى قال فيه: «مثل أهل بيتى فيكم كمثل النجوم باى إقتديتم إهتديتم وإن النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض» .

٢- ٢) «لجأ» و «ملجأ» بمعنى الملاذ.

٣- ٣) «عيبه» بمعنى الوعاء والصندوق أو الشيئ الذى تحفظ فيه الأشياء وقد أشقت فى الواقع من العيب وقد استعمل بالمعنى المذكور لأن العيوب عاده ما تستر.

٤- ٤) «موئل» من ماده «وأل» على وزن سهل بمعنى المرجع والملاذ وموضع النجاه.

٥- ٥) «كهوف» جمع «كهف» بمعنى الغار، إلماً أن البعض قال الكهف هو الغار الواسع، ولما كان الناس يلجأون إلى الغيران فى أغلب الأوقات فقد احتمل أن يكون بمعنى الملاذ والموضع الذى يحفظ الأشياء.

٦- ٦) اعلم ان هنالك اختلافاً بين الشراح بشأن الضمير فى هذه العبارات الست. فقد ذهب البعض إلى أنها ترجع جميعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله و آله بينما تفيد القرائن أن الضمير فيها يعود إلى الله سبحانه (و لا يسما بالالتفات إلى قوله وكهوف كتبه) بينما يعود الضمير فى عبارته الأخيره إلى الدين كما سيأتى توضيح ذلك لاحقاً.

إلى أمر معين رغم ما ذهب إليه بعض العلماء والشراح من ترادف العبارات وأنها شبيهة لبعضها البعض الآخر.

فقد أشارت العبارة الأولى إلى حقيقته مؤادها أنّ الأسرار الإلهية مودعه لديهم. وبالبداهة أن يلم بجميع الأسرار من ينهض بمسؤولية زعامه الدين؛ حيث لا ينتظم أمرهم في هداية الناس وتدبير شؤون حياتهم دون الانطواء على ذلك العلم، ولا سيما أنّ زعامتهم لا تختص بزمان دون آخر بل تتعلق بجميع البشرية على مدى العصور والدهور (وقد ذكرنا في مبحث علم غيب الأنبياء والأوصياء المعصومين أنّ إحدى مقومات زعامتهم تستند إلى علمهم بالغيب وإلا لانطوت زعامتهم على العيب والنقص).

ثم أشار في العبارة الثانية إلى أنّهم ملجأ أمر الله. والسؤال الذى يبرز هنا هل يقتصر هذا الأمر على الأوامر التشريعية أم يشمل الأوامر التكوينية أيضاً؟ يبدو من ظاهر العبارات السابقة واللاحقة أن الأوامر تقتصر على التشريعية منها حيث يجب على الأمة أن ترجع إلى أئمة العصمة فى تلقى أوامرهم وإمتثال تعاليمهم.

أمّا العبارة الثالثة فقد اعتبرتهم عليه السلام عيبه علوم الله سبحانه، ولا يقتصر ذلك على الأسرار والأوامر، بل يشمل جميع العلوم اللازمة لهداية الناس أو ذات الصلة بهذه الهداية فهى مودعه لديهم مخزونه عندهم. وفى العبارة الرابعة يتضح أنّهم المرجع فى الأحكام الإلهية التى يجب على الأمة الرجوع إليهم فى الاختلافات على المستوى الفكرى أو القضائى ليزيلوا عنهم الفرقة والاختلاف ويهدوهم سواء الصراط.

وإذا اعتبرنا «موتل حكمه» على وزن إرم جمع حكمه فإنّ فارق هذه العبارة مع العبارات السابقة سيتضح تماماً، لأنّ الكلام هنا سيكون فى فلسفه وحكمه الأحكام الإلهية التى تؤلف جزءاً من علوم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

أمّا قوله عليه السلام «و كهوف كتبه» فيكشف اللثام عن هذه الحقيقة وهى أنّ مضامين جميع الكتب السماوية موجودة عندهم. وهذا يشبه إلى حدّ بعيد ما قاله على عليه السلام: «أما والله لو ثبت

لى الوساده فجلست عليها لأفتيت أهل التوراه بتوراتهم... وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم...» (١).

و أخيراً فقد وصفهم عليه السلام بأنهم جبال دينه، ولعل العبارة إشارة واضحه إلى ما أورده القرآن الكريم فى عدد من آياته الشريفه بشأن خصائص الجبال ودورها فى حفظ إستقرار ونزول البركات والخيرات فقد صرّحت الآية ١٥ من سوره النحل قائله «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَانْحَاراً وَسَبِيلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» فالواقع أنّ الجبال - كما ورد فى تفسير هذه الآية وسائر الآيات المشابهه - تقوم من جانب باحتواء الضغوط المسلطه على الأرض من باطنها وظاهرها، ومن جانب آخر فهى مصادر عظيمه للأنهار والأبار وعيون الماء.

و بالتالى فهى معين لا ينضب من المعادن النفيسه القيمه. ووجه الشبه هو أنّ أئمه العصمه عليه السلام مصدر لسكينه الأفكار ورى القلوب واغناء الأئمه بما يختزنونه من معادن نفيسه. (٢) ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه إثر ذكره لهذه الصفات فيقول «بهم أقام انحناء ظهره وأذهب إرتعاد (٣) فرائضه (٤)».

أمّا انحناء الظهر فهى كناية رائعه لشده العضلات التى طالت الدين من من قبل الأعداء العلماء والأصدقاء الجهلاء فانبرى لها هؤلاء الكرام ليقبوا على الدين شامخاً لايناله تحريف المحرفين ولا- فتن المبطلين. والتعبير «ارتعاد الفرائض» ارتعاد اللحمه التى تغطى القلب بين الجنب والكتف وهى كناية لطيفه عن الاضطراب والاختلال الذى يطيل الدين من قبل المدارس الالحاديه والانحرافات الدينيه والتى يقف بوجهها أئمه الهدى فيقضوا عليها فيعيدوا للدين صبغته الحقيقه الناصعه.

ص: ١٩٧

١-١ (١) بحار الانوار ١٠ / ١١٨، ح ١. [١]

٢-٢ (٢) راجع التفسير الامثل، ذيل آيه ١٥ من سوره النحل.

٣-٣ (٣) «إرتعاد» من ماده «رعده» بمعنى الاهتزاز، ومن هنا يطلق الرعد على الصوت العظيم الذى تحدثه السحب والغيوم.

٤-٤ (٤) «فرائض» جمع «فريضه» هى اللحمه بين الجنب والكتف التى ترعد حين الخوف ولذلك كانت (ارتعاد الفرائض) كناية عن الخشيه والاضطراب، ومن هنا كانت الفرصه تطلق على المده الزمانيه للقيام بعمل (المقاييس، المفردات ولسان العرب).

١- آل النبي صلى الله عليه وآله كهف الأمة الإسلامية

ما ورد في عباراته عليه السلام يمثل الحقائق البعيده عن أيه مبالغه والتي تشهد عليها سيره أئمه العصمه عليه السلام ولا سيما عصر أمير المؤمنين والإمام الباقر والصادق والرضا عليه السلام وكيف وقف هؤلاء العظام بوجه المدارس المنحرفه التي ظهرت إثر إتساع رقعه الإسلام وورود الأفكار المنحرفه للمناطق الإسلاميه إلى جانب الخرافات والأساطير والعقائد الفاسده والتفاسير الخاطئه المشبوهه التي أوردها الغلاه والقلاه للنيل من الإسلام المحمدي الأصيل.

فقد أفاد التاريخ أنهم لم يعجزوا عن جواب أي سؤال، بل كانوا يجيبون بما يثلج صدر الصديق ويغيب العدو. من جانب آخر فقد شهد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والعواصف الهوجاء التي تكاد تغرق السفينه الإسلاميه لولا هذه الصفوه الطاهره، وقد تنوعت أدوارهم واتحدت أهدافهم فتاره يزود عن الدين بما يظهر من علمه ومعرفته وتبيينه لحقائق الإسلام، وأخرى بدمه الشريف إن تطلب حفظ الدين ذلك وهذا ما تمثل بحركه الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الميامين الذين زادوا بمهجم دون حياض الدين وبيضه الإسلام.

و لو تأملنا الانحرافات العقائديه والأفكار العجيبه التي سطرها كتب الملل والنحل وقارناها مع المعارف والعقائد التي حمل رايتها أئمه أهل البيت عليه السلام - ونموذج ذلك نهج البلاغه والصحيفه السجديه «زبور آل محمد» - والروايات الواردة عنهم عليه السلام في الكتب من قبيل توحيد الصدوق والمصادر المشابهه لا تضح لنا الحقيقه التي ذكرت سابقاً في صفاتهم عليه السلام.

و أخيراً هؤلاء هم الذين وصفهم الإمام عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغه لكميل بن زياد فقال: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجه أمياً ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لثلاث تبطل حجج الله وبيئاته. . . يحفظ الله بهم حججه وبيئاته حتى يودعوها نظرائهم يزرعوها في قلوب أشباههم» (١).

وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل

ص: ١٩٨

(١- ١) نهج البلاغه، [١]الكلمات قصار، ١٤٧. [٢]

بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما» . (١)

٢- من هم آل النبي صلى الله عليه وآله؟

ما يفهم ممّا مرعنا سابقاً أنّ المراد بأهل البيت الأئمة المعصومين عليهم السلام؛ لا ما ذهب إليه بعض المفسرين لنهج البلاغه من أنّ المراد بأهل البيت أولئك الذين حفظوا الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مثل حمزه والعباس وجعفر. طبعاً لا يخفى الدور الذى لعبه هؤلاء فى الذود عن بيضة الإسلام، غير أن مضمون العبارات السابقة يبدو أبعد من ذلك ولا يراد بهؤلاء سوى أئمة العصمة عليه السلام.

ص: ١٩٩

(١-١) راجع الى تفسير نفحات القرآن، ج ٩. [١]

«زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبُورَ، لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَدًا. هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ إِلَيْهِمْ يَفَىءُ الْغَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ: الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُتَّقِلِهِ!».

الشرح والتفسير

يبدو أنّ الضمائر في العبارات الثلاث الاولى - بالاستناد إلى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه حين إنصرافه من صفين - تعود إلى القاسطين (أصحاب معاويه) والخوارج المارقين؛ كما ذهب البعض إلى أنّها تعود إلى المنافقين، أو جميع أولئك الذين خالفوا الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله.

على كل حال فقد شبههم عليه السلام تشبيه دقيق فقال عليه السلام: «زرعوا الفجور (1) وسقوه الغرور (2) وحصدوا الثبور (3)».

ثم يعود عليه السلام لبيان أوصاف آل محمد صلى الله عليه وآله بعبارات أكثر صراحة ووضوح ضمن إشارته - كعادته في قله الألفاظ وسعه المعاني - إلى منزلتهم الرفيعه وحقوقهم السليبه فيقول:

ص: ٢٠١

١- ١) «فجور» من ماده «فجر» بمعنى الشق في الشى ومن هنا يطلق الفجر على طلوع الصبح وكأن ضياء الصبح يشق حجاب الليل المظلم، كما يصطلح على الأعمال غير المشروعه بالفجور لأنها تخترق حجب الدين.

٢- ٢) «الغرور» بمعنى الغفله فى اليقظه، ووردت بمعنى المكر والحيله، والغرور بفتح الغين بمعنى الشىء الذى يخدع الإنسان ويستغفله، كما فسر بمعنى الشيطان، لانه يخدع الناس بوعوده الكاذبه.

٣- ٣) «الثبور» من ماده «ثر» على وزن صبر بمعنى الحبس والهلاك والفساد الذى يصد الإنسان عن بلوغ الهدف.

«لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد» ودليل ذلك لا نقاش فيه، لأنهم وعلى ضوء صريح الحديث النبوي الشريف حديث الثقلين الذي نقلته جميع مصادر الفريقين عدل القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أن ليس هنالك من الأمة أحد من قرن بالقرآن، أضف إلى ذلك فهناك الآيات القرآنية التي تؤيد هذا المعنى من قبيل آية التطهير التي تصرح بعصمتهم وآية المباهلة التي عدت البعض منهم كنفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسائر الآيات والروايات.

و بغض النظر عما تقدم فإن علومهم ومعارفهم التي رويت عنهم هي الأخرى لا يمكن مقارنتها بعلوم الناس ومعارفهم.

فهل روى الآخرون عشر معشار ما ورد في نهج البلاغة؟ وهل هناك من يقوى على الإتيان بدعاء من أدعيه الصحيفه السجديه. وما بالك في الأحكام الشاملة الواسعه التي رويت عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام بشأن جزئيات المسائل الدينيه، والمناظرات التي عقدها الإمام الرضا عليه السلام مع سائر زعماء الأديان حول مختلف المسائل العقائديه والأبواب الفقيهيه؟ آنذاك يتحدث عن دليل عبارته السابقه: «ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا» و أي نعمه أعظم من تلك النعمه!

فلو لا- تضحيات على عليه السلام لما ذاق الآخرون طعم الإسلام. فسيره على عليه السلام منذ ليله المبيت ومرورا بموقعه بدر وأحد والخندق وخيبر وغزوات الإسلام كلها شواهد على المعنى المذكور وقد بلغت منزلته من السمو والرفعه بحيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله «ضربه على يوم الخندق أفضل من عباده الثقلين» وفي عبارته أخرى «لمبارزه على عليه السلام لعمرو بن عبدود أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة» (١).

لقد فدى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه حين بات على فراشه، وهو الذي قلع باب خيبر ودك حصونها حين عجز من سواه. وهو الذي وقف صامدا في المواقف التي تنكص فيها الأبطال وفي مقدمتها موقعه أحد حين إنفرج المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يبق معه إلا على بن أبي طالب عليه السلام حيث كان رسول الله صلى الله عليه وآله كلما حمل عليه العدو ناداه ردها يا بن أبي طالب.

ص: ٢٠٢

١- (١) انظر إحقاق الحق ٦ / ٤؛ ١٦ / ٤٠٢ [١] واعيان الشيعة ١ / ٢٦٤ [٢]

أضف إلى ذلك سائر مواقف المشهوره في تاريخ الإسلام سواء في عصر النبي صلى الله عليه وآله أو ما تلاه من العصور ودافع فيها بعلمه وعمله عن الإسلام. أما في عصر الخلافة الراشده والعصر المظلم لبنى أميه وبنى العباس لم يكن سوى هولاء الأطنهار من أهل البيت عليهم السلام الذين أضاءوا تلك الظلمات بنور علمهم ومعرفتهم حتى أنقذوا المسلمين من تلك الحملات الثقافيه المسعوره التي تبنت إحياء سنن الجاهليه وإطفاء السنن الإلهيه ولا نرى هذا الدور خافيا على أحد رغم الجهود المضيئه التي، بذلها أعدائهم لاطفاء نورهم وطمس فضائلهم.

و الطريف في الأمر أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن نعمه وجود أهل البيت بشكل دائمى مستمر و خالد دون اقتصارهم على عصر دون آخر، ولا غرو فثمار الشجره الإسلاميه المباركه التي نقطضها إنّما زرعها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام: «لا- يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأئمه أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا». ثم يتعرض عليه السلام إلى أمرين آخرين ينبعان من الأمر السابق فيقول: «هم أساس الدين وعماد اليقين». نعم فقد نزل الوحي في بيتهم وتربوا في أحضانهم وما عندهم من علوم ومعارف إنّما أخذوها عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولما كانت العلوم والأسرار الإلهيه مودعه لديهم فهم أئمه الإيمان ودعاه اليقين. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة: «إليهم يفيء الغالى، وبهم يلحق التالى» وكيف لا- يكونوا كذلك و هم الصراط المستقيم (١) والأئمه الوسطى (٢) وعندهم المعارف الإلهيه الحقه والعقائد الإسلاميه الأصيله البعيده عن كل إفراط وتفريط.

و لو تصفحنا تاريخ الفرق والمذاهب الإسلاميه البعيده عن مدرسه أهل البيت عليهم السلام لرأينا الانحراف العقائدى الخطير من قبيل السقوط فى حبال الجبر والتفويض والتشبيه والالحاد فى أسماء الله وصفاته، بل غالى البعض فى أسماء الله وصفاته حتى قالوا بتعطيل الصفات الإلهيه أن ليس هناك من سبيل لمعرفة سبحانه (سواء المعرفة الإجماليه أو المعرفة التفصيليه)، وبالمقابل هناك الفرق التي هبطت بالذات الإلهيه المقدسه إلى الحضيض فوصفته سبحانه بأنه رجل أمرد صبيح الوجه عليه كساء أسود ملتحف به.

ص: ٢٠٣

١-١) تفسير نور الثقلين ١ / ٢٠-٢١.

٢-٢) تفسير نور الثقلين ١ / ١٣٤.

أمّا بشأن مسأله الجبر والتفويض، فقد ذهبت الجبريه - فرقه من الفرق الضاله - إلى أنّ الإنسان كائن مسلوب الإراده والاختيار وأنّه مجبر على أفعاله المقدره عليه على ضوء القضاء والقدر الإلهي فإنّ قدر له الكفر كفر وإن قدر له الإيمان آمن.

بينما وقفت المفوضه التي رأت للإنسان استقلالاً تاماً إزاء الذات الإلهيه المقدسه، فاعتقدت بأنّ جميع الأفعال مفوضه للإنسان، وهكذا هوت في وادي الشرك.

بينما تبنت مدرسه أهل البيت عليهم السلام إطروحه «الأمر بين الأمرين» لتنفي مسأله الجبر والتفويض وتحذر المسلمين من الإفراط والتفريط الذي يقود إلى الكفر والشرك، ومن هنا يتضح معنى كلام الإمام عليه السلام: «إليهم يفيئ الغالي، وبهم يلحق التالي» فالعبارة تشبيه لطيف كأن هنالك قافله يقودها عدد من الرواد الماهرين، تقسم بعض الأفراد الذين يندفعون أكثر من غيرهم قدما فيضلون في الصحراء، بينما يهن الآخرون ويتخلفون عن الركب فيصبحوا طعمه لذئاب الصحراء.

ثم يقول عليه السلام: «و لهم خصائص الولايه». وتصدر الجمله بلهم تفيد إقتصار هذه المزيه عليهم عليه السلام. وكيف لا يكونوا أصلح من الجميع وهم دعائم الدين واركان اليقين الذين يمثلون الإسلام الأصيل الذي لا يعرف الإفراط والتفريط، وهم النعمه الجاريه على أفراد الأُمّه إلى يوم القيامه. ولذلك قال عليه السلام: «و فيهم الوصيه والوراثه».

نستنتج ممّا سبق أنّ وصيه النبي صلى الله عليه وآله بهم واستخلافهم من بعده إنّما تستند لما مرّ معنأ سابقاً، لا على أساس القرابه والنسب. ولا يخفى أنّ المراد بالوصيه والوراثه هنا الخلافه والنبوه، بل حتى لو افترضنا أنّ الوراثه هنا هي وراثه علوم النبي صلى الله عليه وآله - كما ذهب إلى ذلك البعض - فإنّ الأمر سيقود بالتالي إلى جدارتهم باحراز هذا المقام؛ لأنّ خليفه النبي وإمام الخلق لا بدّ أن يكون وارثاً لعلوم النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ خليفته هو وصيه؛ فوراثه الأموال - كما نعلم - ليست بذات قيمه والوصيه في الأمور الشخصيه والاعتياديه لا تحظى بأيه أهميه، ولا شك أنّ أولئك الذين سعوا جاهدين لتفسير الوصيه والوراثه بمثل هذه المعاني إنّما يكشفون عن مدى تعصبهم استنادهم إلى العناد والأفكار المسبقه.

فليس هنالك من مسأله مهمّه تنسجم وقوله عليه السلام: «أساس الدين وعماد اليقين

وخصائص حق الولاية» سوى مسأله خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله. وأخيراً يخاطب عليه السلام الأئمة فى زمانه وكأنهم قد تنكروا لبعض النعم ولا يسما عوده الحق السليب «الآن إذا رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منقله». (١)

يتضح ممّا قيل بشأن الوصيه والوارثه أنّ المراد بالحق هنا هو الولاية والخلافه التى لا تليق سوى بأهل البيت عليهم السلام وأنّ محلهم من الخلافه محل القطب من الرحى.

تأملان

١- مكانه أهل البيت فى القرآن والرويات

لقد صرّحت أغلب الآيات القرآنيه والرويات الإسلاميه بفضل أهل البيت عليهم السلام بما لا يبقى معه مجال للشك فى سمو مكانتهم وعلو منزلتهم. فأيه التطهير واضحه فى طهاره أهل البيت عليهم السلام من كل رين وعصمتهم من كل رجس «إنّما يُريدُ الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً». (٢)

وآيه المباهله التى وصفت نفس على عليه السلام بأنّها نفس النبى صلى الله عليه وآله وأنّ أقرب المقربين لله ورسوله صلى الله عليه وآله والمجاين الدعوه لديه هم الزهراء والحسن والحسين عليه السلام: «قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ...». (٣)

وآيه التبليغ التى اعتبرت وظيفه النبى صلى الله عليه وآله فى إبلاغ ولايه على عليه السلام من أخطر الوظائف وأنّ عدم الإبلاغ بمشابه عدم إبلاغ الرساله: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...». (٤). إلى جانب ما لا يحصى من الآيات التى لا يسعنا الخوض فيها فى هذه العجاله، ويضاف إلى ذلك مصادر الفريقين التى صرّحت بتواتر وصحه الأخبار الوارده فى فضائل أهل البيت عليهم السلام. (٥)

ص: ٢٠٥

١-١) هنالك محذوف فى الجملة تقديره: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله لم لا تؤدون حقه». وقد ورد تقدير ذلك فى مصادر نهج البلاغه: «الآن إذا رجع الحق إلى أهله من أهل بيت البنوه يجرى ما يجرى من الحوادث ويقع ما يقع من الاختلاف؟». (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٣٠٢) [١] وكلا النتيجتين واحده.

٢-٢) سوره الاحزاب / ٣٣. [٢]

٣-٣) سوره آل عمران / ٦١. [٣]

٤-٤) سوره المائده / ٦٧. [٤]

٥-٥) لقد أشرنا فى ذيل كل آيه وارده بهذا الشأن فى التفسير الأمثل إلى المصادر؛ ومن أراد الوقوف على ٢ التفاصيل فليراجع احقاق الحق، ج ٣ [٥] ورساله القرآن، ج ٩.

أمّا الروايات الإسلامية الواردة في الصحاح الستة فقد نقلت من فضائل أهل البيت ومناقبهم بما لا يمكن تصوره، بل أوجز بعض علماء العامه تلك الفضائل في عدّه مجلدات (١)، بينما ألقت عشرات المجلدات من علماء العامه في جمع الروايات والأخبار الواردة بشأن فضائل أهل البيت. (٢)

غير أنّ الموسف ما قامت به الأيدي الآثيمه إبان الحكومات الظالمه بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله والتي جهدت على طمس فضائلهم ومناقبهم لينأوا بالأئمّه بعيداً عن الخط الرسالي الأصيل المتمثل بأهل البيت عليهم السلام أمناء الوحي وحماه العقيدته. فاونلك الذين صدوا أهل البيت عليهم السلام عن حقهم بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله هم الذين سعوا جاهدين لطمس فضائلهم، وأدهى من ذلك ما مارسه خلفاء بني أميه والعباس الذين كموا الأفواه عن التحدث بفضائلهم حتى عد ذلك جرماً يعاقب عليه بالسجن أو الأعدام.

و لولا- لطف الله وعنايته لما بقيت من آثارهم شيئاً ولا خفت فضائلهم ومناقبهم ولا يسعنا هنا إلّا أن نورد ما ذكره شارح نهج البلاغه ابن أبي الحديد المعتزلى بهذا الشأن فقد قال:

فأمّا فضائله عليه السلام؛ فأنّها قد بلغت من العظم والجلاله والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمح معه التعرض لذكرها، والتصدي لتفصيلها؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل: رأيتني فيما أتعاط من وصف فضلك، كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، الذي لا يخفى على الناظر، فأيقنت أني حيث إنتهى بي القول منسوب إلى الدعاء لك، ووكلت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وما أقول في رجل أقر له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جحد مناقبه، ولا كتمان فضائله، فقد علمت أنه استولى بنو أميه على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، وإجتهدوا بكل حيله في اطفاء نوره، والتحريض عليه، ووضع المعاييب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا ماد حيه، بل حبسوهم قتلوهم، ومنعوا من روايه حديث يتضمن له فضيله، أو يرفع له ذكراً، حتى حظروا

ص: ٢٠٦

١-١) كتاب فضائل الخمسه من الصحاح الستة للمرحوم المحقق الفيروز آبادي.

٢-٢) عبقات الأنوار للسيد حامد حسين الهندي.

أن يسمى أحد باسمه؛ فما زاده ذلك إلأرفعه وسموا؛ وكان كالمسك كلما ستر إنتشر عرفه، وكلما كتم توضع نشره؛ وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عين واحده، أدركته عيون كثيره. (١)

وقد نقل مثل هذا المعنى فى بعض المصادر، حيث صرّح الشافعى: عجباً لرجل أخفى أعداؤه فضائله حسداً وأولياؤه خوفاً فظهر بين هذا وذلك ما ملئ الخافقين. (٢)

وقد روى مثل هذا المضمون أيضاً عن عامر بن عبدالله بن الزبير (٣).

٢- تبريرات واهيه

جدير ذكره أن ابن أبى الحديد حين يصل عبارته الإمام عليه السلام «الآن إذا رجعت الحق إلى أهله...» فى شرحه لنهج البلاغه يقول: لقد ذكر الإمام عليه السلام أن الحق رجعت الآن إلى أهله؛ وهذا يقتضى أن يكون فيما قبل فى غير أهله، ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الاماميه، ونقول: إنه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحق، لا على وجه النص، بل على وجه الأفضليه، فإنه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأحق بالخلافه من جميع المسلمين، لكنه ترك حقه لما علمه من المصلحه، وما تفرس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام، وانتشار الكلمه، لحسد العرب له وضعفهم عليه وجائز لمن كان أولى بشى فتركه ثم استرجعه أن يقول: قد رجعت الأمر إلى أهله (٤).

حقاً أن الأحكام المسبقه هى التى تحول دون الاقرار بمفهوم هذه العبارة الواضحه، فلو أراد الإمام عليه السلام أن يقول: لم يودع الحق أهله قبل هذا والآن رجعت الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله فله أن يذهب إلى ما ذهب إليه، هذا من جانب ومن جانب آخر فاننا نعلم بأن القول: ان العرب تحسده وتكن له البغض والعداء إنما هو قول أجوف لا أساس له. نعم كانت هذه الحاله تسود فئه قليله ممن تبقى من أعقاب المشركين والكافرين، وبعبارة أخرى فإنّ العداء كان يعيش فى

ص: ٢٠٧

١-١ (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ١٧. [١]

٢-٢ (٢) على فى الكتاب والسنة ١ / ١٠.

٣-٣ (٣) الغدير ١٠ / ٢٧١.

٤-٤ (٤) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ١٤٠. [٢]

قلوب زعماء قريش وأحبار اليهود وكبار المنافقين الذين تلقوا من الإمام عليه السلام الضربات المهلكة والموجعه في المعارك من قبيل بدر وخيبر وحنين، بينما كانت الأئمة بابنائها تحب علياً عليه السلام ولذلك ورد في الحديث النبوي المعروف الذي نقلته المصادر الإسلامية معتبره أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «لا يبغضك إلا منافق» (١).

وجاء في صحيح الترمذى - أحد الصحاح الستة المعتمده لدى أبناء العامه - عن أبي سعيد الخدرى قال: «إنا كنا لنعرف المنافقين ببغضهم على بن أبي طالب» (٢).

فهل يرضى ابن أبي الحديد أن تكون الأكثرية الساحقه من المسلمين آنذاك منافقه؟ ومن هنا نرى مدى الفرح والسرور الذى عم أوساط المسلمين حين توليه الخلافه بما لا يمكن مقارنته وسائر الخلفاء، والحال أن أغلب معاصريه وممن مد له يد البيعه هم من صحابه النبى صلى الله عليه وآله أو أبنائهم.

و عليه فتبريره واهى لا- يصمد إمام الحقائق والواقعيات. وأما قوله: إنه كان أولى بالأمر وأحق لاعلى وجه النص، فهو الآخر كلام أجوف يجانب الحق وسنثبت بطلانه فى محله. (٣)

ص: ٢٠٨

١-١ (١) شواهد التنزيل ١ / ٣٢٩.

٢-٢ (٢) صحيح الترمذى، ١٣ / ١٦٨، طبع الصاوى [١] مصر (٥ / ٦٣٥ طبع دار احياء التراث العربى).

٣-٣ (٣) انظر «رساله القرآن» / ٩.

و من خطبه له عليه السلام وهى المعروفه بالشقشقيه وتشتمل على الشكوى من أمر الخلافه ثم ترجيح صبره عنها ثم مبايعه الناس له.

«أما والله لقد تَقَمَّصَ بها فُلاَنٌ وإِنَّه لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى. يَنْحِدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَزْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَيَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا. وَطَفِقْتُ أَرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدِ جَدَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيهِ عَمِيَاءَ، يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحَجِّي، فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا، أَرَى تُرَائِي نَهْبًا».

تعتبر هذه الخطبه من أهم خطب نهج البلاغه حيث تتكفل بشرح مسأله الخلافه بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله. وهنالكَ بعض الأمور التي تضمنتها هذه الخطبه بما لم يرد شبيهها في سائر خطب نهج البلاغه، ورغم قله عباراتها، إلّا أنّها أوجزت عصر الخلافه الراشده التي

نهضت بالأمر بعيد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله. إلى جانب ذلك هناك التحليلات الدقيقة والرائعة التي تلفت إليها إنتباه المحققين والباحثين. ونرى هنا أن نشير إلى بعض الأمور قبل أن نخوض في شرح وتفسير هذه الخطبه:

١- اسم الخطبه: لقد أقتبس اسم الخطبه من عبارتها الأخيره التي أطلقها الإمام عليه السلام حين قاطع أحدهم الإمام عليه السلام فتوقف، فناشده ابن عباس مواصلة الخطبه فقال له عليه السلام: «تلك شقشقه هدرت ثم قرت» وهكذا رفض عليه السلام طلب ابن عباس، حيث تغير الجو الذي كان سائداً لاطلاق الإمام عليه السلام تلك العبارات الحماسيه الخطيره، فقد قام أحد الأفراد من بين الناس وسلم الإمام عليه السلام كتابا (قيل ان فيه مسائل كان يريد الاجابه عنها) فانصرف ذهن الإمام عليه السلام إلى أمور أخرى.

٢- زمان صدور الخطبه: هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه بشأن زمان صدور هذه الخطبه. فيعتقد البعض - كالمحقق الخوئي - أن الإمام عليه السلام وبالاستناد إلى مضامين الخطبه وطرق أسنادها وروايتها أنه أوردتها أواخر عمره الشريف بعيد موقعه الجمل وصفين والنهروان حين قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين (١). والحق أن مضمون الخطبه يؤيد هذا الرأي.

٣- مكان الخطبه: لقد سكت جمع من شراح نهج البلاغه عن مكان صدور الخطبه، بينما يعتقد البعض أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه حين ارتقى المنبر في مسجد الكوفه، وقال ابن عباس:

لقد ألقى الإمام عليه السلام هذه الخطبه في الرحبه (٢) حين وقع الكلام عن الخلافه.

٤- سند الخطبه: هناك بحث في سند الخطبه أيضا. قال البعض: هذه الخطبه من الخطب المتواتره بينما صرح البعض الآخر بعكس ذلك ولم ينسب هذه الخطبه لعلي عليه السلام وإنه لم يشكوك قط من الخلافه وإنما ذلك من وضع الشريف الرضى. أما الشارح المعروف ابن ميثم البحراني فقد قال: الادعاء ان المذكوران باطلان وفيهما إفراط وتفريط. فسند الخطبه لم يبلغ حد

ص: ٢١٠

١- ١) منهاج البراعه في شرح نهج البلاغه، ٣ / ٣٢.

٢- ٢) «الرحبه» بمعنى المكان الواسع، ويعتقد البعض أنها اسم موضع في الكوفه، بينما يرى البعض الآخر هي موضع يبعد ثمانية فراسخ عن الكوفه (مجمع البحرين ومراصد الاطلاع).

التواتر، ولا أساس للزعم القائل أنها من وضع الشريف الرضى، والحق أنها صدرت من الإمام عليه السلام (١).

و يبدو أنّ الإشكالات الواردة على الخطبه لم تتأتى من ضعفها أو ركاكتها أو تفاوتها من حيث الاعتبار مع سائر خطب نهج البلاغه، بل بالعكس وكما سيأتى خلال البحث أنّ الخطبه تشتمل على عدّه أسناد يتعذر وجود مثلها فى سائر بعض خطب نهج البلاغه.

أمّا السبب الوحيد الذى يمكن إسناد الإشكال إليه إنّما يكمن فى عدم إنسجام مضامين الخطبه والذهنيه السائده لبعض الأفراد الذين ينتمون إلى عدد من الفرق والمذاهب. فهولاء وبدلاً من اتهام ذهنيهم وبلورتها على أساس مضمون الخطبه جهدوا فى القدح باسنادها بغية الإبقاء على ما يسود أذهانهم من أفكار منحرفه وعقائد باطله. أمّا الاسناد التى ذكرت للخطبه من غير نهج البلاغه فهى كالاتى:

أ - قال ابن الجوزى فى تذكره الخواص: لقد أورد الإمام على عليه السلام هذه الخطبه حين صعد المنبر جواباً لمن سأله: «ما الذى أبطأ بك إلى الآن» (٢). وهذا يدل على أن ابن الجوزى كان يملك سندا آخر لهذه الخطبه؛ لأن هذا السؤال لم يرد فى نهج البلاغه، وعليه فقد كان له طريقاً آخر.

ب - قال الشارح المعروف ابن ميثم البحرانى: لقد عثرت على هذه الخطبه فى كتابين ألفا قبل ولاده الشريف الرضى:

الأول كتاب الانصاف لأبى جعفر ابن قبه تلميذ الكعبى أحد كبار المعتزله الذى توفى قبل ولاده الشريف الرضى. والثانى النسخه التى كتب عليها بخط أبو الحسن على بن محمد بن فرات وزير المقتدر بالله، وقد توفى لستين سنه ونيف قبل ولاده الشريف الرضى، ثم يضيف: يقوى ظنى أنّ تلك النسخه كتبت منذمده قبل ولاده ابن فرات (٣).

وقال ابن أبى الحديد: قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب دعابه وهزل، قال: فقلت له: أتقول أنّها منحوله! فقال: لا والله، وإنّى لاعلم أنّها كلامه، كما أعلم أنّك مصدق.

ص: ٢١١

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ١ / ٢٥١.

٢- ٢) تذكره الخواص / ١٢٤.

٣- ٣) شرح ابن ميثم بحراني ١ / ٢٥٢. [١]

قال: فقلت له: إن كثيراً من الناس يقولون أنها من كلام الرضى رحمه الله تعالى. فقال: أنى للرضى ولغير الرضى هذا النفس وهذا الأسلوب! قد وقفنا على رسائل الرضى، وعرفنا طريقته وفنه فى الكلام المنشور، وما يقع مع هذا الكلام فى خل ولاخمر: ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبه فى كتب صنفت قبل أن يخلق الرضى بمائتى سنه، ولقد وجدتْها مسطوره.

بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الادب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضى. قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبه فى تصانيف شيخنا أبى القاسم البلخى إمام البغداديين من المتعزله، وكان فى دوله المقتدر قبل أن يخلق الرضى بمدته طويله. ووجدت كثيراً منها فى كتاب أبى جعفر بن قبه أحد متكلمى الإماميه وهو الكتاب المشهور والمعروف بكتاب «الانصاف» وكان أبو جعفر هذا من تلامذه الشيخ أبى القاسم البخلى رحمه الله تعالى، ومات فى ذلك العصر قبل أن يكون الرضى رحمه الله تعالى موجوداً (١).

أما العلامة الأمينى فقد نقل هذه الخطبه فى المجلد السابع من كتابه الغدير على أنها نقلت فى ثمانيه وعشرين كتاباً.

مضمون الخطبه

ذكرنا سابقاً أن الخطبه تتعرض بجميع نصوصها إلى مسأله الخلافه بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والمشاكل التى أفرزها عصر الخلفاء ممن سبقوه ثم يتطرق صراحه إلى أحقيته بالخلافه من الجميع معرباً عن أسفه وابتئاسه لخروج الخلافه عن محورها الأصلى الذى خطط له الإسلام والنبي. وأخيراً يتحدث عن قضيه مبايعه الأئمه والأهداف الكامنه وراء قبول البيعه بعبارات قصيره غايه الروعه والبيان.

ص: ٢١٢

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٢٠٥ [١]

تحليل مهم لمسألة الخلافه

تشير الخطبه - كما ذكرنا سابقاً - إلى العواصف العنيفه والخطيره التي هزت الأُمّة الإسلاميه وحرفت خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله بعيد وفاته عن مسارها السليم، كما تتعرض لاصح الأفراد وأجدرهم بالأخذ بزمام شؤون الأُمّة وزعامتها على ضوء المنطق والدليل والبرهان، كما تعرج الخطبه على وخامه المعضلات التي أفرزها تقاعس المسلمين عن الالتزام بنصوص النبي صلى الله عليه وآله الوارده بشأن زعامه المسلمين.

فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بشكواه ممّا آلت إليه الخلافه فقال: «أما والله لقد تقمصها (١) فلان وإنّه ليعلم أنّ محلى منها محل القطب من الرحا (٢)» .

لا شك ولا إشكال في أنّ الضمير في «تقمصها» يعود إلى الخلافه، ولعل التعبير بالقميص إشاره إلى أمر وهو أنّ فلاناً قد استغل مسأله الخلافه كقميص يزين به نفسه، والحال أنّ هذه الرحا تتطلب محوراً قوياً يحفظ نظامها في الحركه ويحول دون إنحراف مسارها وتعثر بفعل المطبات التي تواجهها وتسيرها بما يضمن مصالح الإسلام والمسلمين. أجل فالخلافه ليست قميصاً، بل هي رحي الجامعه، وليس للخلافه من غنى عن المحور.

هي ليست ثوباً يرتدى. ثم يستدل عليه السلام بدليل واضح على المعنى المذكور ليكشف عن مدى علمه وسمو مقامه «ينحدر (٣) عنى السيل ولا يرقى الى الطير». فقوله عليه السلام «ينحدر عنى السيل» يعنى رفعه منزلته عليه السلام كأنه في ذروه جبل أو يقاع مشرف، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان، وقوله عليه السلام «ولا يرقى إلى الطير» هذه أعظم في الرفعه والعلو من التي قبلها، لأن السيل ينحدر عن الرايبه والهضبه، وأمّا تعذر رقى الطير فر بما يكون للقالل الشاهقه جدا، بل ما هو أعلى من قلال الجبال، كأنه يقول: إننى لعلو منزلتى كمن في السماء التي يستحيل أن يرقى الطير إليها.

ص: ٢١٣

١- ١) «تقمص» من ماده قميص بمعنى لبسها كالقميص.

٢- ٢) «الرحا» بمعنى الطاحونه، وقد استعملت مادتها بصوره ناقص واوى وناقص يائى.

٣- ٣) «ينحدر» من ماده إنحدار بمعنى الانهمار والسقوط على وجه الكثره.

والتشبيه المذكور ينسجم وما ورد في القرآن الكريم بشأن دور الجبال في إستقرار الأرض «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (١). أجل لولا هذه السلسلة العظيمه من الجبال لسلبت السكينه والاستقرار من الناس بفعل الضغوط الجوفيه لباطن الأرض من جانب وتأثير جاذبيه الشمس والقمر وجزر ومد القشره الأرضيه من جانب آخر وأخيراً هبوب العواصف، ولا نعدمت المياه التي تنهمر من السماء فتصب في البحار والمحيطات وتشكل مصادر الأنهار والأبار والعيون. فوجود الإمام المعصوم والعالم العارف يشكل معين الخير البركه والسكينه لكل أمة.

إلى جانب كون تعبير الإمام عليه السلام يشير إلى تعذر سبر أغوار أفكار الإمام عليه السلام والوقوف على كنه شخصيته وذروه علمه ومعرفته، ولا يتيسر ذلك إلا للمعلم الإمام نبي الإسلام محمد المصطفى صلى الله عليه وآله. حتى صحابه الإمام عليه السلام كانوا ينتهلون حسب إستعدادهم من منهله العذب ويحيطوا بظاهره على قدر معرفتهم وعلمهم (٢).

النقطه الأخرى الجديده بالذكر تكمن في الاستفاده من الأنهار في حركة الرحي وتنبع هذه الأنهار من الجبال كما أنها تفصل هذه الرحي عن الجبال. ولعل العبارة المذكوره إشاره إلى هذا المعنى، أى أنا المحور والرحي والقوه المحركه المليئه بالعلم والمعرفه. وكما أشرنا آنفاً فان قمم الجبال تختزن بركات السماء كحبات ثلج ثم تفيض بها على الأرض الهامده المتعطشه للماء، ويمكن أن تكون العبارة إشاره إلى قرب الإمام عليه السلام من الوحي والاعتراف من كوثر النبي صلى الله عليه وآله.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن المراد بالسيل في العبارة هو علم الإمام عليه السلام الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «أنا مدينه العلم وعلى بابها» (٣) كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه فسر «ماء معين» الوارده في الآية ٣٠ من سوره الملك «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ» بعلم الإمام عليه السلام (٤).

ص: ٢١٤

١- ١) سوره النحل / ١١. [١]

٢- ٢) للوقوف على حقيقه التعبيرات الوارده بشأن أمير المؤمنين على عليه السلام وأفضليته المطلقه على من سواه من أفراد الأمة، نكتفى بالايضاحات التي وردت في مقدمه الكتاب بشأن فضائله ومناقبه عليه السلام.

٣- ٣) للوقوف على إسناد هذا الحديث المعروف في مصادر العامه، انظر إحقاق الحق ٥ / ٤٦٨-٥٠١.

٤- ٤) تفسير نور الثقلين ٥ / ٣٨٦ [٢] وليس هنالك من منافاه بين هذا التفسير وذلك الذي فسره بالماء الجارى، ٢ ولا التفسير الذي ورد في بعض الروايات من أن المراد بالماء المعين أصل وجود الإمام عليه السلام، وذلك لإمكانيه جمع هذه المعانى في مفهوم الآية.

و هنا تطرح بعض الأسئلة نفسها من قبيل:

الأول: لم مدح الإمام عليه السلام نفسه والحال ورد الدم على ذلك كقوله «تركه المرء لنفسه قبيح». وللإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك فارق بين مدح النفس والتعريف بها. فقد تكون الأمه أحيانا جاهله بشخصيه فرد؛ الأمر الذي لا يجعلها تستفيد منه ومن طاقاته كما ينبغي فالتعريف بالشخص هنا سواء من قبله أو من قبل الآخرين ليس فقط لا- ضير فيه فحسب، بل هو عين الصواب والسبيل الصحيح للنجاه وهو بالضبط من قبيل تعريف الطبيب بمجال تخصصه الذي يضعه على الوصفه الطبيه، الأمر الذي يهدف إلى إرشاد المرضى في مراجعته ولا ينطوى على أى مديح للشخص.

السؤال الثانى: قوله عليه السلام: «ينحدر عنى السبيل ولا يرقى إلى الطير» هو زعم منه عليه السلام ليس أكثر فهل قام الدليل عليه؟

يبدو أنّ الإجابة على هذا هى أوضح منها على السؤال الأول؟ لأن المقام العلمى الذى أختص به أمير المؤمنين على عليه السلام ليس بخاف على من له أدنى إطلاع بتاريخ الإسلام والمسلمين. فنا هيك عن تواتر الأحاديث النبويه الجمه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه و آله فى فضل علمه وتصريحات العلماء الأعلام فى أنه مصدر كافة العلوم والمعارف الإسلاميه وزعيمها (1)، إلى جانب تصديه لأعقد المسائل التى كان يعجز عنها من سبقه من الخلفاء فان أدنى مطالعه لرسائله خطبه وقصار كلماته التى جمعت فى نهج البلاغه لكافيه فى الوقوف على هذه الحقيقه. فلو تصفح كل إنسان منصفٍ - مسلما كان أم غير مسلم - نهج البلاغه لخضع متواضعا لعظمه الإمام ولعاش عملياً مفهوم قوله عليه السلام: «ينحدر عنى السبيل ولا يرقى إلى الطير».

السؤال الثالث: كيف يشكو عليه السلام الحوادث المرتبطه بالخلافه بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله، ألا يتنافى ذلك ومفهوم الصبر والرضا والتسليم؟

تبدو الإجابة على هذا السؤال سهله يسيره. فالصبر والرضا والتسليم موضوع، وتبين

ص: ٢١٥

١- ١) لقد ذكر ابن أبى الحديد بحثاً مفصلاً بهذا الشأن فى شرحه لنهج البلاغه، ثم تطرق إلى العلوم الإسلاميه وشرح كيفيه إرتباطها بعلم الإمام عليه السلام من الناحيه التاريخيه (شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١/١٧-٢٠).

الحقائق ليدونها التاريخ ويلم بها أبناء الأمة في الحاضر والمستقبل موضوع آخر، بحيث لا يتضمن الأمر أية منافاه فحسب، بل هو من أوجب الواجبات، وما القضايا المتعلقة بالخلافه إلأنموذج حى من هذه النماذج. ففي الحقيقه والواقع أن مصالح المجتمع الإسلامى والاجيال الإسلاميه القادمه هى التى تحتم تبين هذه الحقائق كى لا تودع بوقته النسيان.

ثم قال عليه السلام: «فسدلت (١) دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً (٢)» .

تفيد هذه العبارة بوضوح أن رد فعل الإمام عليه السلام حيال تلك الحادثه لم يكن يتضمن الاستعداد والتأهب لخوض الصراع والاشتباك مع الآخرين، بل تجاهل بكل بساله وزهد ذلك الأمر لاسباب سنتطرق إلى ذكرها.

ولكن من جانب آخر فان بعض الأفكار كانت تمارس ضغطها عليه لتجعله يتساءل: ما الذى ينبغى فعله تجاه هذا الانحراف الخطير وكيف ينهض بمسئوليته التاريخيه بالنسبه لهذا الأمر؟ ومن هنا أردف قائلاً: «وظفقت أرتئى بين أن أصول بيد جذاء (٣)، أو أصبر على طخيه (٤) عمياء» .

فالإمام عليه السلام يكشف فى هذه العبارة عن حقيقه وهى: أننى لم أنس طرفه عين مسئوليتى تجاه الأمة والوظيفه التى وضعها الله ورسوله صلى الله عليه و آله على عاتقى، ولكن لىت شعرى ما أنا فاعل وهناك محذوران: المحذور الأول: هل أنهض بالأمر وأخوض الصراع مع الغاصبين، والحال لا أملك العده والعدد من جانب، ومن جانب آخر فان من شأن هذه النهضه أن تشق عصا المسلمين وتفرق صفوفهم وتتلج صدور الأعداء والمنافقين الذين يتربصون بالمسلمين مثل هذه الفرصه ليجهزوا على الإسلام.

المحذور الثانى: أن ألتزم الصبر والصمت حيال هذه الحادثه فى ظل هذه الأجواء الدامسه الظلام. والتعبير بالطخيه العمياء ينطوى على روعه فى الدقه والبيان فالطخيه تعنى الظلام،

ص: ٢١٤

١ - ١) «سدلت» من ماده «سدل» على وزن عدل بمعنى نزول الشىء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يغطى، وعليه فان مفهوم سدلت هنا تركتها وارخيت عليها شيئاً.

٢ - ٢) «كشح» على وزن فتح بمعنى الضلع و «طوى عنه كشحه» كناية عن عدم الاهتمام بشىء والانصراف عنه.

٣ - ٣) «جذاء» بمعنى القطع والكسر.

٤ - ٤) «طخيه» بمعنى الظلمه وتأتى بمعنى السحب الخفيفه و «الطخياء» بمعنى الليله الظلماء.

وأحيانا يمكن إختراق الظلمه - إذا لم تكن شديده - لمشاهده شيخ ما خلالها، غير أنّ هذه الظلمه من الشده والعتمه بحيث أطلق عليها العمياء لتعذر رؤيه أى شىء من خلالها. ثم يتحدث الإمام عليه السلام عن خصائص تلك الظلمه والفتنه ليوجزها فى عبارات ثلاث عميقه المعنى فيقول: «يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح (1) فيها مومن حتى يلقى ربه» .

و يفهم من هذه العبارة أنّ المعاناه ستعم الجميع. فهى تشيب الصغير وتهرم الكبير بينما ستتضاعف معاناه المؤمنين بفعل تصاعد حده المشاكل التى سيشهدها المجتمع الإسلامى والاطار التى تهدد كيانه بما يجعلهم يعيشون هاله من الغم والحزن على مصير الإسلام. فلم تمض مدّه حتى تبلورت تلك الاخطار لتشهد ولاده العصر الاموى الذى تمكن خلال مدّه قياسيه من القضاء على الصرح الإسلامى الذى شيده رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه بجهودهم المضنيه ومساعدتهم العظيمه.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ليعلن عن موقفه تجاه القضية وعزمه على التحلى بالصبر: «فرأيت أن الصبر على هاتا (2) أحجى (3)». ثم يصف عليه السلام طبيعه ذلك الصبر فيقول: «فصبرت وفى العين قذى (4) وفى الحلق شجا» . (5)

فالعبارة صوره واضحه عن ذروه إستياء الإمام عليه السلام وتذمره فى تلك السنوات من المحنه والمصيبه، بحيث لم يكن يسعه أن يغمض عينه عن تلك الأحداث أو يفتحها، كما لم يكن يسعه أن يرفع صوته ويعلن عن مدى حرقتة، وكيف لا- يكون كذلك «أرى تراثى نهبا» .

تأملات

١- لم آثر الإمام عليه السلام الصبر؟

يشهد التاريخ أنّ المنافقين وخصوم الدعوه كانوا يتربصون بالنبي صلى الله عليه وآله ورحيله عن دار

ص: ٢١٧

- ١- ١) «يكدح» من ماده «كدح» بمعنى السعى المصحوب بالتعب.
- ٢- ٢) الهاء فى هاتا علامه تنبيه والتاء إسم إشاره مونث، إشاره إلى «طخيه» «الظلمه» التى وردت فى العبارة السابقه. واعتبر البعض أن المشار إليه الحاله المستفاده من العبارة فيكون المعنى «فرأيت أنّ الصبر على هذه الحاله أحجى» .
- ٣- ٣) «أحجى» من ماده «حجا» بمعنى العقل، وعليه أحجى تعنى الاعقل.
- ٤- ٤) «قذى» بمعنى التلوث.
- ٥- ٥) «الشجى» بمعنى الهم والغم والشده والألم، وتعنى أيضا ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه.

الدنيا لتفتت وحده المسلمين ويتصدع كيانهم ليمهد أمامهم السبيل من الانقضاء على الدين وأهله وبالتالي كسر شوكتة والقضاء عليه؛ فلو نهض الإمام عليه السلام بالأمر في ظل هذه الظروف من أجل نيل حقه أو بعبارة أخرى بغية اعاده المسلمين إلى المسار الإسلامى الصحيح لعصر النبي صلى الله عليه وآله وبالالتفات إلى القرارات التى أتخذت سلفا باقصاء الإمام عليه السلام عن الخلافة فإنّ قتالاً سينشب لتعم الفوضى والاضطراب فى صفوف المجتمع الإسلامى بما يمهدّ السبيل أمام المنافقين والمتربصين لنيل أطماعهم وما ربهم، والشاهد الحى على ذلك تمرد المرتدين عقيب وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله الذين هبوا للوقوف بوجه الحكومه الإسلاميه، ولم يكتب لهم النجاح بفعل المقاومه التى أبدتها الأئمة تجاههم.

فقد صرّحت بعض السير التاريخيه بهذا المجال: «لما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله إرتدت العرب واشرأبت اليهوديه والنصرانيه ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيره فى الليله الشاتيه» (١).

هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فان نهوض الإمام عليه السلام بالأمر قد لا تبدو فيه بارقه أمل بالنصر بفعل غياب العدّه والعدد من أنصار الحق، ولعل قيام الإمام عليه السلام بالأمر لا يفسر من أغلب الجهال كانتصار للدين والعقيده بل يعزوه إلى قضايا شخصيه محضه.

غير أنّ الخسائر التى تكبدها المسلمون على مرور الزمان إثر انحراف مسار الخلافة عن محورها قد صورها الإمام عليه السلام بمثابه القذى فى العين والشجا فى الحلق. وهذا درس كبير لكافه المسلمين على مدى التاريخ وهو أنّ إحقاق الحق إذا استلزم توجيه ضربه إلى دعائم الدين وجب التحفظ عنه وعدم المبادره إليه، لان حفظ الدين مقدم على كل ماسواه، وليس هنالك من سبيل فى مثل هذه الحاله سوى التحلى بالصبر والتحمل. وقد ورد شبيه هذا المعنى فى الخطبه رقم ٦٠ حيث قال عليه السلام: «فنظرت فاذا ليس لى معين إلّا أهل بيتى... وأغضيت على القذى وشربت على الشجى».

ص: ٢١٨

٢- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافة؟

لقد قال الإمام عليه السلام: «أرى تراثي نهبا» وهنا يبرز هذا السؤال: لم عبر الإمام عليه السلام عن الخلافة بالارث؟!

و تتضح الإجابة على هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن الخلافة إرث معنوي وإلهي ينتقل من النبي صلى الله عليه وآله إلى أوصيائه المعصومين عليه السلام فهو ليس من قبيل الارث الشخصى والمادى والحكومى الظاهريه. وقد ورد شبهه هذا المعنى فى الآيات القرآنيه بشأن «زكريا» الذى سأل الله من يرثه ويرث آل يعقوب «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» (١).

و الحق أن هذا الارث يتعلق بجميع الأئمة إلمّا أنّ الإمام خليفه النبي صلى الله عليه وآله هو الذى ينهض به. ونقرأ بشأن وراثته الكتاب السماوى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» (٢).

وعلى غرار ذلك ورد الحديث النبوى المشهور «العلماء ورثه الأنبياء» (٣).

وشاهدنا على مامرّ معنا سيره الإمام عليه السلام وحياته التى أفادت عدم تعلقه من قريب أو بعيد بمال الدنيا وحطامها والخلافه - إلّا أنّ ينهض بوظيفته فى إحقاق حق أو ازهاق باطل - التى لم تكن تعدل عنده عفته عز أو قيمه نعليه. لكن والحال هذه كيف يصف صبره على فقدان الخلافة بالقذى فى العين والشجى فى الحلق؟ لقد ذهب البعض إلى أنّ مراده بالتراث المنهوب هو فدك التى ورثها رسول الله صلى الله عليه وآله بنته الزهراء عليه السلام، وقد اعتبر ذلك أرثه لمال الزوجه بحكم مال الزوج (٤)، غير أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعدا لأنّ الخطبه بجميع مضامينها تعالج قضيه الخلافه.

٣- الإمام عليه السلام جليس البيت

لا أحد يسعه إنكار الخسائر الفادحة التى تكبدها العالم الإسلامى إثر إقصاء على عليه السلام

ص: ٢١٩

١-١ (١) سورة مريم / ٥ - ٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة فاطر / ٣٢. [٢]

٣-٣ (٣) اصول الكافى ١ / ٣٢-٣٤.

٤-٤ (٤) منهاج البراعه ٣ / ٤٥.

وجلوسه فى داره، فلو قصرنا نظرنا على البعد العلمى حين تصفحنا لنهـج البلاغه الذى ىمـثل جزءا من خطبه ورسائله وكلماته القصار التى أوردها خلال تلك المده القصيره من حكومته رغم ما انطوت عليه من أحداث مريره وحروب داميه، لا كتشفنا بيسر مدى العلوم والمعارف والخيرات والبركات التى كانت ستعم العالم الإسلامى بل الدنيا برمتها لولا تلك المده المديده - ٢٥ سنه - التى اضطر فيها الإمام عليه السلام للجلوس فى بيته. لا- شك أنّ حرمان المجتمع من فيوض الإمام عليه السلام قد جر عليها الولايات والدمار. ولكن ما العمل يا ترى وقد سلبت الأمه هذا الفيض العظيم لتبدو خسائره واضحه على مدى التاريخ.

٤- لماذا تعرض الإمام عليه السلام لقضيه الخلافه؟

يتساءل البعض: ألم يكن من الأفضل أن يسدل الإمام عليه السلام الستار على الماضى ولا يتطرق إلى مسأله الخلافه؛ الأمر الذى قد يثير الفرقه والتشتت فى صفوف المسلمين ويشق وحدتهم؟

ولا- عجب فاننا نرى اليوم البعض ممن يردد هذا الكلام، فما أن تطرح قضيه الخلافه وأنّ الإمام أحق بها واولى من غيره حتى تتعالى الأصوات مطالبه بالصمت ونسيان الماضى تحت ذريعه الحفاظ على الوحده الإسلاميه وأننا نواجه اليوم أعداء الإسلام والمخاطر الكبرى ومن شأن إثارة هذه الأحاديث أن تضعف المسلمين فى مجابهه أعدائهم؛ بل هل من جدوى لمثل هذه الأحاديث والحال أن أتباع كل مذهب يواصلون مسيرتهم دون الإكتراث لهذا الصوت أو ذاك، وعليه فمن المستبعد أن تلعب هذه الأمور أى دور على مستوى إخوه المسلمين ووحدتهم.

وللإجابه على هذا التساؤل لابدّ من التذكير بأمرين:

أ - إنّ الوقائع الموجوده لا يمكنها إخفاء الحقائق البته. فهذه حقيقه قائمه وهى أنّ النبى صلى الله عليه وآله. قد أكد فى أكثر من مناسبه على إستخلافه. فما الذى حدث لتشوه هذه الحقيقه وينصح بعدم إثارتها بعد تأكيدها من قبل النبى صلى الله عليه وآله وبناءً على ما تقدم فإنّ علياً عليه السلام الذى يتبنى الحق حيثما كان له الحق فى التصدى للوقائع القائمه التى لا تنسجم والحقيقه، فيتعرض للحقائق المرتبطه بالخلافه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليتسنى للمحققين أن يصدروا أحكامهم بهذا الشأن ولو بعد

قرون مديده ليعرفوا الحق وأهله والباطل وأهله فيسلوكوا سبيل الحق على ضوء دراساتهم وتحقيقاتهم. على كل حال لا يمكن منع إنسان عن بيان الحقيقه، ولو افترضنا قدرتنا على ذلك فاننا لا نمتلك الحق فى منعه، لما يتضمنه المنع من خسائر فادحه، وذلك لأن الواقع القائم غالباً ما يختلف والحقيقه وقد يتعد عنها مسافه شاسعه. فالوضع القائم لا يعنى أبداً أن يكون هو السائد على الدوام حيث يلهمنا الإسلام أن نسعى لا قتفاء ما ينبغى أن يكون، ومما لا شك فيه أن مسأله الخلافه والامامه بعد النبي صلى الله عليه وآله لمن المباحث الدينيه الرئيسيه؛ سواء كانت جزءاً من أصول الدين كما يعتقد بذلك أتباع مدرسه أهل البيت عليه السلام، أو جزءاً من فروع الدين. مهما كان فهى مسأله مصيريه من وجهه النظر الدينيه ولا تنطوى على أيه صيغه شخصيه، خلافاً لما يزعمه البعض من الجهال والغافلين فهى ليست مبحثاً تاريخياً يتعلق بالماضى قد أكل عليه الدهر وشرب؛ بل هى قضيه تنطوى على عدّه معطيات مؤثره فى حاضر المسلمين ومستقبلهم، كما لا يخفى أثرها فى العديد من المسائل الإسلاميه المرتبطه بأصول الدين وفروعه؛ وهذا هو الأمر الذى يقف وراء إثارة الإمام عليه السلام لمسأله الخلافه كراراً ومراراً.

ب - إنَّ الأبحاث العقيمه والجدل الفارغ القائم على أساس التعصب والجمود هى التى تشكل الخطر الأساس على وحده الأُمَّه الإسلاميه وشق صفوفها؛ أمّا الأبحاث العلميه والمنطقيه التى يراعى فيها أطراف الحوار والبحث الحدود والموازن العلميه والمنطقيه فليست بذات خطر على الوحده الإسلاميه فحسب، بل من شأنها أن تساعد فى إرسالها وتوثيق دعائمها. طبعاً هذا ليس ضرباً من الخيال الفكرى بل عشنه على مستوى الواقع والتجربه. فقد أقيمت أخيراً ندوه فى إحدى المدن بمناسبه أسبوع الوحده حضرها كبار العلماء والمفكرين من الفريقين نوقشت خلالها أغلب القضايا الخلافيه وقد تمخضت عن عدّه نتائج طيبه حيث قربت وجهات النظر وضغطت حده الخلافات، بما جعل الجميع يوقنون بأنّ مثل هذه الأبحاث والحوارات يمكنها أن تقضى على الفجوه بين المذاهب الإسلاميه وتوطيد أواصر الاخوه بما يخدم وحده المسلمين (١).

ص: ٢٢١

١- ١) انظر مجله رساله الحوزه للوقوف على المباحث المهمه التى طرحت فى تلك الندوه والتقارب الذى حصل بين الأفراد.

بل أبعد من ذلك أننا نرى الحوار بشأن الأديان السماويه هو الآخر من شأنه أن يتمخض عن نتائج مفيده بما يقلل من هوه الخلاف، وليعلم أولئك الذين يقفون بوجه هذه الحوارات البناء أنهم يساهمون بشكل أو بآخر فى مضاعفه الخلافات وتعميق الفجوه بين الأديان والمذاهب.

ص: ٢٢٢

حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلَانٍ بَعْدَهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْمَشِيِّ: «شَتَانًا مَا يُؤْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمَ حَيَاتَانِ أَخِي جَابِرٍ

فِيَا عَجَبًا! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِأَخْرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ - لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا - فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزِهِ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا وَيَكْثُرُ الْعَثَارُ فِيهَا وَالْإِعْتِدَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاحِبِ الصَّعْبِهِ إِنَّ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَفَحَّحَمَ، فَمُنَى النَّاسُ - لَعَمْرُ اللَّهِ - بِخَبْطِ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوْنٍ وَاعْتِرَاضٍ فَصَبَّرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِخْنَةِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام علي عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى عهد الخليفة الثاني فقال: «حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده» . (١) أدلى من ماله دلو وهي تستعمل في سحب الماء من البئر بالحبل والدلو كما تستعمل بمعنى الجائزه والأجره والرشوه في الحكم، فقد قال القرآن بهذا المجال: «وَتَدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ» (٢).

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: وعمر هو الذي شد بيعه أبي بكر، ورغم المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لما جرده، ودفع في صدر المقداد، ووطيء في السقيفه سعد بن عباد، وقال: اقتلوا

ص: ٢٢٣

١- ١) توفي في العام الثالث عشر من الهجره بعد أن تولى الخلافه لمدته سنتين وثلاثه أشهر. «مروج الذهب ٢/٣٠٤ الطبعة الرابعه»

٢- ٢) سوره بقره / ١٨٨. [١]

سعداً، قتل الله سعداً. وحطم أنف الخباب بن المنذر الذي قال يوم السقيفه: أنا جذيلها المحك، و غذيقتها المرجب.

و توعده من لجأ إلى دار فاطمه عليه السلام من الها شميين، وأخرجهم منها، ولولاه لما يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمه (١).

و من هنا تتضح روعه تعبيره عليه السلام بأدلى، ثم تمثل بقول الأعشى: شتان ما يومى على كورها ويوم حيان أخى جابر (٢).

حيث أراد الإمام عليه السلام أن يقول كنت أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله وأعظمهم منزله وحرمة بل كنت نفس رسول الله صلى الله عليه وآله غير أنهم أقصوني بعده وأخذوا يتلاقفون الخلافة التي لا تصلح إلغالى فيرمون بها لمن يشاؤون.

وذهب البعض إلى أنه أراد أن يقارن بين خلافته - من تمثله بهذا الشعر - وخلافه من سبقوه ممن كانوا في نعمه ورخاء بينما حفل عهده لا بتعاده عن عصر رسول الله صلى الله عليه وآله بالويلات و المصائب «بالطبع هذا إذا كان الأعشى أراد مقارنة حاله بحال حيان». (٣)

ثم يعبر الإمام عليه السلام عن اندهاشه وذهوله لما يحصل «فيا عجباً! بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته».

الواقع هو أن هذه العبارة إشارة إلى حديث معروف نقل عن أبي بكر خاطب به الناس أوائل خلافته حيث قال: «أقبلوني فلست بخير كم». ورواه البعض الآخر «و ليتكم ولست بخير كم». (٤)

ص: ٢٢٤

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ١٧٤. [١]

٢- ٢) الأعشى من أبرز شعراء الجاهليه. سئل يونس النحوى: من أشعر الشعراء؟ قال: لا أعلم أشعر هم إلأ أنى أقول إمراء القيس فارسا والتابعه حين الخوف وزهير عند الحب وإلأ عشى عند الطرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، لقب بالأعشى لضعف بصره وقد عمى آخر عمره واسمه ميمون بن قيس، وأراد بشعره السابق الزمان الذى كان يجالس فيه حيان أخو جابر أحد أشرف اليمامة حين كان يعيش الأعشى آنذاك في نعمه موفوره فيقارنها مع عيشه الآن في صحارى مكه والمدينه فيقول أين تلك الحياه من هذه!

٣- ٣) شرح ابن ميثم البحرانى ١ / ٢٥٧.

٤- ٤) لقد استفاضت مصادر الفريقين التى روت هذا الحديث، وقد أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه، ١ / ١٦٩. و صرح العالم المصرى الكبير الشيخ محمد عبده في شرحه لنهج البلاغه قائلاً: روى البعض أن أبابكر لما تمت له البيعه قال: «أقبلوني فلست بخير كم» لكن أغلب العلماء رووا الحديث أنه قال: «و ليتكم ولست بخير كم» (شرح نهج البلاغه لمحمد عبده، ص ٨٦ ذيل هذه الخطبه). وجاء في حاشيه إحقاق الحق عن ابن حنويه المحدث الحنفى الموصلى في كتابه «در بحر المناقب» حديثاً مفصلاً أن أبابكر قال: «أقبلوني فلست بخير كم وعلى فيكم» (إحقاق الحق ٨ / ٢٤٠). [٢] وروى الطبرى في تأريخه لما بويج أبى بكر فى السقيفه قال: «أياها الناس فأنى قد وليت عليكم ولست بخير كم» (تأريخ الطبرى ٢ / ٤٥٠ طبع بيروت [٣] مؤسسه

الأعلمى). وروى ابن قتيبه الدينورى فى الإمامه والسياسه أن أبابكر خطب الناس باكياً فقال: «لا حاجه لى فى بيعتكم أقيلونى بيعتى» (الإمامه والسياسه ١ / ٢٠).

و كيفا كان مضمون الروايه فهى تشير إلى عدم رغبته بقبول الخلافه أو كما ذهب البعض لم يكن يكثر لها أو أنه لم يكن يرى نفسه جديراً بالخلافه مع وجود على عليه السلام، ورغم ذلك فإن هذا الكلام لا ينسجم وما فعله أو آخر عمره؛ الأمر الذى أثار دهشه الإمام عليه السلام فى كيفية تفويض الخلافه دون الرجوع إلى آراء الأئمه: ثم قال عليه السلام «لشد ما تشطر ضرعيها» الضرع بمعنى الثدى وتشطرا من ماده شطر بمعنى جزء من الشىء.

فالعباره تشبيه رائع بالنسبه للافراد الذى يستفيدون من شىء على وجه التناوب فالمراد بتشطر ضرعيها: إنهما إقتسما فائدتها ونفعها، والضمير للخلافه، وسمى القادمين معاً ضرعاً وسمى الآخرين معاً ضرعا لما كان لتجاورهما، ولكونها لا يحلبان إلامعاً، كشىء واحد فالعباره بصوره عامه تشير إلى مشروع معد ومبرمج مسبقاً ولم يكن من قبيل الصدفه أبداً.

إجابه على إستفسار

لقد قال البعض بأن أبابكر قال: أقيلونى فلست بخيركم، وقد ورد مثل هذا الكلام عن على عليه السلام فى نهج البلاغه بعد مقتل عثمان حيث قال: «دعونى والتمسوا غيرى... وان تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيراً لكم منى أميراً» فما تقولون؟

للرد على ذلك نقول لابن أبى الحديد كلام بهذا الشأن ولنا كلام، فقد قال ابن أبى الحديد: قالت الإماميه هذا غير لازم والفرق بين الموضوعين ظاهر لأنّ علياً عليه السلام لم يقل: إنى لا أصلح، ولكنه كره الفتنة، وأبوبكر قال كلاماً معناه: إنى لا أصلح لها، لقوله «لست بخيركم»، ومن نفى

عن نفسه صلاحيته للإمامه، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره - واعلم أنّ الكلام في هذا الموضوع مبنى على أن الأفضليه هل هي شرط في الإمامه أم لا؟ (في إشارة إلى أنه يمكن القول بعدم اشتراط الأفضليه في الإمامه؛ الكلام الذي لا يقره أى منطق وعقل ولا يدعو سوى الخجل) (١).

إلّا أننا نرى القضية أعمق من ذلك. فلو تأملنا الخطبه رقم ٩٢ التي استدلوها بها والتفتنا إلى بعض عباراتها التي لم يستشهد بها عند الاستدلال لا تضح لنا تماماً مراد الإمام عليه السلام. فقد صرّح ضمن الخطبه المذكوره قائلاً: «فأنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول» (إشارة إلى مدى التغييرات التي طالت الأحكام الشرعيه والتعاليم النبويه، عليه فلا بدّ لى من القيام ببعض الإصلاحات الثوريه والتي ستودي لاعتراض البعض منكم وبالتالي نشوب المواجهه).

ثم أضاف عليه السلام: «و ان الافاق قد أغامت والمحجه قد تنكرت»، ثم يشير عليه السلام إلى كبد الحقيقه فيقول: «واعلموا أنّي إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب».

أمّا الشاهد على أنّ الإمام عليه السلام يرى وجوب الأفضليه كشرط في الخلافه ما أورده عليه السلام في الخطبه ١٧٣ من نهج البلاغه إذ قال عليه السلام: «أيها الناس إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه و أعلمهم بأمر الله فيه». (٢) ونخلص ممّا سبق إلى أنّ المقارنه بين كلام الإمام على عليه السلام وأبي بكر هو «قياس مع الفارق» لانعدام أى تشابه بين الكلامين.

و نختم هذا الكلام بما أورده ابن أبي الحديد حين حاول تبرير حديث الخليفه الأول حيث قال: واحتج بذلك من لم يشترط الأفضليه في الإمامه.

و من رواها إعتذر لأبي بكر فقال: إنّما قال: أقيوني، ليثور ما في نفوس الناس من بيعته، ويخبر ما عندهم من ولايته، فيعلم مريدهم و كارهم، ومحبههم ومبغضهم. فلما رأى النفوس إليه ساكنه، والقلوب لبيعه مدعنه، استمر على امارته، وحكم حكم الخلفاء في رعيته، ولم

ص: ٢٢٤

[١-١] شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ١٦٩. [١]

[٢-٢] نهج البلاغه، خطبه ١٧٣. [٢]

يكن منكرًا منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته (١).

ولا يخفى على أحد خواء هذه التبريرات، لأنَّ إقرار كل فرد ينبغي أن يحمل على معناه الواقعي، وصرف اللفظ عن معناه الحقيقي إنما يحتاج إلى قرينه ليست متوفره هنا. بعبارة أخرى إنَّ هذا الاعتراف قانوني يؤخذ به في كل محكمه وليس من عذر لهذا الاعتراف فهو إقرار جائز عقلاً.

ثم يصف الإمام عليه السلام شخصيه الخليفه الثاني وما انطوت عليه من خصائص ومميزات فقال عليه السلام: «فصيرها في حوزة (٢) خشتاء يغلظ كلمها (٣) ويخشن مسها ويكثر العثار (٤) فيها، الاعتذار منها»

المراد بالحوزه هنا أخلاق الخليفه الثاني وصفاته فالواقع قد ذكر له أربعة صفات، الأولى خشونته وعنفه التي عبر عنها بقوله «يغلظ كلمها» في إشاره إلى الجروح الروحيه والجسميه التي يفرزها الاصطدام به. الصفه الثانيه الشده في التعامل «ويخشن مسها» وعليه فالحوزه الخشنة قد فسرت بالعبارتين اللاحقتين التين أشارتا إلى العنف في الكلام والعنف في المعامله. الصفه الثالثه هي كثره الأخطاء والرابعه الاعتذار من تلك الأخطاء «ويكثر العثار فيها الاعتذار منها».

أمَّا بشأن كثره أخطاء الخليفه الثاني ولا سيما أخطائه في بيان الأحكام واقارره بتلك الأخطاء والاعتذار منها والعنف في المعامله فقد حفلت بها السير التاريخيه بل أفرد لها علماء العامه عدداً من الكتب وسنكتفي لاحقاً بالإشاره إلى نماذج منها.

ثم قال عليه السلام: «فصاحبها كراكب الصعبه (٥) إن أشنق (٦) لها خرم (٧) وإن أسلس (٨) لها تقحم (٩)».

ص: ٢٢٧

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ١٦٩. [١]

٢- ٢) «حوزه» بمعنى الناحيه والطبيعه، من ماده «حيازه» بمعنى الجمع والاحاطه.

٣- ٣) «الكلم» في الأصل بمعنى الجرح، واطلق لفظ الكلام لاثره القاطع في المقابل.

٤- ٤) «العتار بمعنى السقوط والكبوه.

٥- ٥) «الصعبه» بمعنى الانسان أو الحيوان الطائش، ما ليست بذلول و أريد بالصعبه هنا الناقه الجامحه.

٦- ٦) «أشنق» بمعنى سحب زمام الناقه و «شناق» على وزن كتاب يطلق على الجبل الذي تربط به القربه.

٧- ٧) «خرم» من ماده «خرم» بمعنى القطع.

٨- ٨) «أسلس من» ماده «سلس» على وزن قضص و سلاسه بمعنى السهوله و عليه فان أسلس بمعنى أرخى.

٩- ٩) «تقحم» من ماده «قحوم» على وزن شعور بمعنى رمى النفس في الهلكه دون إجاله الفكر.

فالإمام عليه السلام يشرح بهذه العبارة حاله وحال فريق من المؤمنين على عهد خلفه الخليفة الثاني، بحيث إذا أراد أحدهم أن يصطدم بالخليفة - واستناداً إلى صفاته المذكورة سابقاً - فقد يؤدي ذلك إلى بروز الاختلافات والمشاجرات بين أوساط المسلمين أو الاخطار التي سيتعرض إليها من جانب الخليفة، وإن فضل الصمت برزت الاخطار التي تهدد الكيان الإسلامي والخلافه الإسلامي، فالواقع هناك خطران لا ينفصلان: خطر الاصطدام بالخليفة يخطر فقدان المصالح الإسلامي ولهذا يشكو الإمام عليه السلام ما ألم به وبالمؤمنين آنذاك يعرض للمشاكل المتفاقمة التي أصابت المسلمين.

كما إحتمل بعضى شراح نهج البلاغه أنّ الضمير في (صاحبها) يعود إلى مطلق الخلافه؛ أي أنّ طبيعه الخلافه تختزن دائماً أحد هذين الخطرين، فلو أراد الحاكم - الخليفة - أن يتعامل بخرم مع كل شيء كانت هنالك ردود الفعل الحاده والعنيفه، ولو أراد التعامل على أساس الرفق واللين برز خطر السقوط في وادي الانحراف والخطا وزوال القيم الإسلاميه. لكن تشير القرائن إلّا أنّ المعنى الأول هو المراد بالعبارة وهذا ما يتضح بجلاء من خلال التأمل في العبارات اللاحقه (1). ثم قال عليه السلام: «فمنى (2) الناس لعمر الله بخبط (3) وشماس (4) وتلون (5) واعتراض (6)».

فقد تضمنت العبارة إشاره إلى أربع ظواهر نفسيه للأئمّه في عهد الخليفة الثاني كأنّها تقتبس من رئيس الحكومه، لأنّ لسلك الحاكم إنعكاس واسع على نفوس أبناء الأئمّه وقد قيل سابقاً «الناس على دين ملوكهم».

الاولى: أنّ أتشظتهم وقراراتهم الطائشه سبب ظهور الفوضى في المجتمع.

ص: ٢٢٨

١ - ١) هنالك إحتمال ثالث ذكرهنا في أنّ المراد الخلافه على عهد الإمام على عليه السلام، حيث شهدت الأوضاع بروز خطرين، ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً.

٢ - ٢) «منى» من ماده «منو» بمعنى ابتلى واصيب.

٣ - ٣) «خبط» بمعنى «ضرب» الناقه للأرض، وارىد بها السير على غير هدى.

٤ - ٤) «شماس» بمعنى الابهاء والطيش (إباء ظهر الفرس عن الركوب).

٥ - ٥) «تلون» بمعنى تغيير الحال أو اللون.

٦ - ٦) «إعتراض» بمعنى السير على غير خط مستقيم، كأنّه يسير عرضاً في حال سيره طولاً.

الثانية: أنهم خارجون على القوانين الشرعية والنظم الاجتماعيه.

الثالثه: التلون المستمر وركوب الموجه والتخبط والانسلاخ من فئه والاتحاق بأخرى وعدم امتلاك الهدف المعين فى الحياه.

الرابعه: الانحراف عن مسار الحق والسير على سبيل غير الهدى.

وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ - وكما سنتعرض إلى ذلك بالتفصيل لاحقاً - أنَّ السياسة الخارجيه فى عصر الخليفه الثانى والفتوحات الإسلاميه والامتداد خارج الحجاز قد خلقت ذهنيه للناس بشأن شكل الحكومه فى أنها موفقه على جميع الأصعبه فيقل إهتمامهم بالمشاكل الداخليه التى يعانى منها المجتمع الإسلامى، والحال كما أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات أنَّ طائفه من المسلمين قد شهدت حاله من التخبط على مستوى العقائد والعمل والقضايا الأخلاقيه والابتعاد تدريجياً عن الإسلام الأصيل بفعل الأخطاء والاجتهادات فى مقابل النصوص القرآنيه والأحاديث النبويه؛ الأمر الذى أدى فى خاتمه المطاف إلى تلك الثوره العارمه على الخليفه الثالث وبما مهد السبيل أمام ظهور الحكومه الاستبداديه فى العصر الأموى والعباسى التى تفتقر لادنى شبه بالحكومه الإسلاميه على عهد النبى صلى الله عليه و آله.

والمفروغ منه أنَّ هذه الحاله العشوائيه لم تكن وليده ساعتها، بل ظهرت إثر تصاعد حده الأخطاء المتواصله طيله عصر الخلافه. ثم قال الإمام عليه السلام: «فصبرت على طول المده، وشده المحنه» .

فقد عانى عليه السلام من ذات الظروف والتحمل التى كانت أبان عهد الخليفه الأول، غير أنَّ المحنه التى عاناها الإمام عليه السلام كانت أشد وأعظم بفعل تلك الظروف الاقهر والمده الأطول.

قال بعض شراح نهج البلاغه إنَّ الإمام عليه السلام أشار إلى قضيتين كان لهما الأثر البالغ فى إستياء الإمام عليه السلام: الاولى ازدياد مده الابتعاد عن محور الخلافه، والثانيه الاستياء والتذمر الذى أفرزته ظاهره انشقاق الخلافه عن مسارها الأصلى فى عدم سياده النظم الصحيحه بالنسبه لشؤون الناس الدينيه. لكن على كل حال فقد كانت هناك المصالح المهمه التى تتطلب سكوت الإمام عليه السلام والتضحيه بالأمر الثانويه من أجل الأهداف الاسمى. فقد استمر هذا الوضع حتى إنتهى عصر الخليفه الثانى.

١- نماذج الفضاذه الأخلاقية على عهد الخليفة الثانى

لقد ألفت عدّه كتب - سواء كتب الحديث والتاريخ - من قبل علماء العامه بشأن الخليفة الثانى ولا- سيما إبان خلافته التى تكشف عن مدى دقه عبارات الإمام عليه السلام فى وصف خصائصه. و ممّا لا- شك فيه أنّ خروقاته فى هذا المجال كثيره نكتفى ببعضى نماذجها:

١- روى المرحوم العلامة الأمينى فى المجلد السادس من كتاب الغدير عن مصادر العامه المعروفه من قبيل سنن الدارمى وتأريخ ابن عساكر وتفسير ابن كثير واتقان السيوطى والدر المنثور وفتح البارىء عدّه قصص مروعه بشأن الخليفة الثانى والرجل الذى يدعى «صبيغ العراقى». فالذى تفيده السير التاريخيه أنّه كان رجل بحاثه كثيرا ما يسأل عن الآيات القرآنيه، غير أنّ عمر كان يجابهه بكل عنف بما يدعو للدهشه والعجب ومن ذلك.

فعن سلمان بن يسار إنّ رجلاً- يقال له صبيغ قدم المدينه فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال: من أنت؟ قال أنا عبدالله صبيغ: فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه وقال: أنا عبدالله عمر. فجعل له ضرباً حتى دمی رأسه فقال: يا أميرالمؤمنين حسبك قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى. وعن نافع مولى عبدالله: إنّ صبيغ العراقى جعل يسأل عن أشياء من القرآن فى أجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه قال: أين الرجل فقال: فى الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك منى العقوبه الموجهه. فأتاه به فقال عمر: تسأل محدثه؟ فارسل عمر إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دبره، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود له قال: صبيغ إن كنت تريد قتلى فقتلنى قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداوينى فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبى موسى الأشعري، أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حسنت توبته، فكتب عمر: أن يأذن الناس بمجالسته. وعن السائب بن يزيد قال: أتى عمر بن الخطاب فقيل: يا أميرالمؤمنين! إنا لقينا رجلاً يسأل عن تأويل مشكل القرآن. فقال عمر: اللهم مكنى منه، فبينما عمر ذات يوم جالساً يغدى الناس إذ جاء

الرجل وعليه ثياب وعمامة صفدى حتى إذا فرغ قال: يا امير المؤمنين والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فقال عمر أنت هو؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته فقال: والذى نفس عمر بيده لو وجدتكم مخلوقاً لضربت رأسك ألبسوه ثياباً واحملوه على قتب وأخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقيم خطيب ثم يقول: إن صبيغاً ابتغى العلم فأخطأ فلم يزل وضيعاً فى قومه حتى هلك وكان سيد قومه. (١) وأول من ضرب عمر بالدرة أم فروه بنت أبى قحافه، مات أبوبكر ففاح النساء عليه، وفيهن أخته أم فروه، فنهاهن عمر مراراً، وهن يعاودن، فأخرج أم فروه من بينهن، وعلاها بالدرة، فهربن وتفزقن.

كان يقال: درّه عمر أهيب من سيف الحجاج. وفى الصحيح أنّ نسوة كنّ عند رسول الله صلى الله عليه وآله قد كثر لغطهنّ، فجاء عمر فهربنّ هيبه له، فقال لهنّ: يا عديّات أنفسهن! أتتهبّنى ولا تهبنّ رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ. (٢)

٢- العثار والاعتذار

قال ابن الحديد: ومّر يوماً بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاها، فجدع له ماء بعسل فلم يشربه، وقال: إنّ الله تعالى يقول: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا» فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنّها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة، اقرأ ما قبلها: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا» فقال عمر: كلّ الناس أفاقه من عمر!

وقيل: إنّ عمر كان يعس بالليل، فسمع صوت رجل وامرأة فى بيت، فارتاب فتسوّر الحائط، فوجد امرأة ورجلاً، وعندهما زقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله، أكنت ترى أنّ الله يسترک وأنت على معصيته! قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخطأت فى واحده فقط أخطأت فى ثلاث، قال الله تعالى: «وَلَا تَجَسَّوْا»، وقد تجسّست. وقال: «وَأْتُوا النُّبُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا»، وقد تسوّرت، وقال: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا»، وما سلّمت! (٣)

ص: ٢٣١

[١- (١) الغدير ٦ / ٢٩٠. [١]

[٢- (٢) شرح نهج [٢] بلاغه لابن أبى الحديد ١ / ١٨١.

[٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ١٨٢. [٣]

وأخرج الحافظان الدراقتني وابن عساكر: إن رجلين أتيا عمر بن الخطاب وسألاه عن طلاق الأُمّة فقام معهما فمش حتى أتى حلقة في المسجد فيها رجل أصلع فقال: أيها الأصلع! ما ترى في طلاق الأُمّة؟ فرفع إليه رأسه ثم أومىء إليه بالسبابه والوسطى فقال لهما عمر: تطليقتان، فقال أحدهما: سبحان الله جئناك وأنت أمير المؤمنين فمشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومىء إليك، وأتى عمر بن الخطاب بامرأه حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها فتلقاها على فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر عمر برجمها فردها على وقال: قد كان ذلك. قال أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا أحد على معترف بعد بلاء، أنه من قيد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له، فخلا سبيلها ثم قال: عجزت النساء أن تلدن مثل على بن أبي طالب، لولا على لهلك عمر. وأخرج ابن مبارك قال: حدثنا الأشعث عن الشعبي عن مسروق قال: بلغ عمر أن امرأه من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها فأرسل إليهما ففرق بينهما وعاقبهما وقال: لا ينكحها أبداً وجعل الصداق في بيت المال وفشا ذلك بين الناس فبلغ علياً كرم الله وجهه فقال: ما بال الصداق وبيت المال؟ إنهما جهلا فينبغي للإمام أن يردهما إلى السنه قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال لها الصداق بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدتها من الأول ثم تكمل العدّة من الآخر، ثم يكون خاطباً. فبلغ ذلك عمر فقال: يا أيها الناس ردوا الجهالات إلى السنه. (١)

٣- رد على سوال

لعل الصورة التي رسمها الإمام عليه السلام في الخطبه عن مشاكل المسلمين والفوضى التي سادتهم على عهد الخليفه الثاني تتنافى والذهنيه السائده لدى البعض في أن عهده كان مشرقاً حافلاً بالانتصارات والمكتسبات؛ الأمر الذي يثير السؤال الآتي: كيف يمكن التوفيق بين تلك الصورة والوقائع التي عكسها التاريخ الإسلامى؟

و الالتفات إلى هذه القضية من شأنه أن يقدم الجواب الشافى لهذا السؤال، فما لا شك فيه -

ص: ٢٣٢

كما أشرنا سابقاً أنّ عهد الخليفة الثاني كان عصر الانتصارات والفتوحات على صعيد السياسة الخارجيه للبلاد؛ لأنّ المسلمين وعلى ضوء التعاليم الإسلاميه والآيات القرآنيه التي تدعو إلى الجهاد قد مارسوا هذه الفريضة بشكل واسع بحيث لم تمض مدّه حتى حققوا الفتوحات الإسلاميه الباهره خارج البلاد الإسلاميه فتم لهم نيل ما لا يحصى من الغنائم الماديه، الأمر الذي جعل هذه الفتوحات تغطى على ضعف الجبهه الداخليه والفوضى التي كانت سائده آنذاك، وهو المعنى الذي نلمسه اليوم بوضوح في السياسة المتبعه في العصر الراهن، فقد يؤدي الانتصار الذي تحرزه الدوله على صعيد السياسة الخارجيه إلى التغطيه على كل شيء ولا سيما المشاكل والمعضلات التي تعيشها على مستوى الداخل، ومن هنا نرى ساسه الاستكبار الذين يحاولون التغطيه على مشاكلهم الداخليه باخماد فورتها من خلال اللجوء إلى عدّه أنشطه - بما فيها شن الحروب - خارجيه.

وزيده الكلام فإنّ الإمام عليه السلام إنّما تحدث عن مدى العنف والاضطهاد والأخطاء الفادحه وسعه حجم المشاكل الداخليه إبان عهد الخليفة الثاني؛ الأمر الذي تم التعامل معه بمعزل عن مسأله الفتوحات.

«حَتَّى إِذَا مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لَللَّهِ وَلِلشُّورَىٰ مَتَىٰ اعْتَرَضَ الرَّبُّ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ صَدَرْتُ أُقْرَنُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَشْفَقْتُ إِذْ أَسْفُؤًا، وَطَرْتُ إِذْ طَارُوا: فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ الْأَخْرَ لِيَصْهَرَهُ مَعَ هُنَّ وَهَنَ، إِلَىٰ أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجًا حِضْنِيهِ بَيْنَ نَشِيلِهِ وَمُعْتَلِفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَىٰ أَنْ انْتَكَتْ عَلَيْهِ قَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بَطْنَتُهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا القسم من خطبته - إلى انتهاء عصر الخليفة الثاني والأحداث التي مهدت السبيل أمام عثمان للاستيلاء على الخلافة بعد أن أطمأنت اللثام عن التفاصيل التاريخية والأسرار التي إنطوت عليها هذه القضية ويعلن موقفه من ذلك، ثم عرج على المشاكل والفتن التي عاشتها الأمة الإسلامية على عهد عثمان والاتفاضة الشعبية العارمة التي أدت إلى قتله بعبارات مقتضبه عميقه المعنى من خلال الكنايات والاستعارات والتشبيهات البلاغية الرائعة التي طبعت كلماته وخطبه عليه السلام.

فقد قال عليه السلام: «حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم» .

ولعل قوله عليه السلام «زعم أني أحدهم» تشير إلى معنيين: الأول: أنه جعلني ظاهرياً أحد أعضاء هذه الشورى بينما كان يعلم باطنياً بالنتيجة التي ستمخض عنها ومن يفوز بالأمر.

الثاني: أنه أراد أن يجعلني ظاهرياً في مصاف هؤلاء الخمسه، والحال كان يعلم باطنياً عدم إمكانيه مقارنة بأى منهم (١).

و العبارة تشير إلى الزمان الذي جرح فيه عمر جرحاً بليغاً من قبل ذلك الرجل الذي يدعى فيروز والمكنى بأبي لؤلؤه بعد أن رأى نفسه على فراش الموت. فقد حضره جمع من الصحابه وأشاروا عليه باستخلاف من يرضاه، فما كان منه إلا أن خطب خطبه - سنشير إلى مضامينها لاحقاً - واقترح الشورى وهم:

على عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحه والزبير وسعد بن أبي وقاص، على أن يجتمعوا لثلاثة أيام ويختاروا من بينهم الخليفة، فاجتمعوا لثلاثين نتيجه الاجتماع عن إختيار عثمان.

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذه الشورى قائلاً: «فيا لله وللشورى» (٢)، ثم يتطرق عليه السلام إلى اولى نقاط ضعف هذه الشورى وهي أنه متى كان هناك من شك وترديد في أرجحيته على الخليفة الأول فضلاً عن إقتراانه بهذه النظائر «متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر». فالعبارة تكشف عن قمه أسي الإمام عليه السلام على هضم الحقوق الذي تعرض له، ويشير إلى حقيقه وهي أنهم ينبغي أن يختاروني لو أخذوا بنظر الاعتبار استحقاق الخلافه والجداره والأحقية بها.

غير أن المؤسف له أنه كانت هناك أهداف أخرى أدت إلى جعل من كان بمنزله رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينه علمه والعالم بالكتاب والسنة والعارف بأسرار المسائل الإسلاميه وبطل التوحيد الذي تربي في حجر النبي صلى الله عليه وآله في مصاف عبدالرحمن بن عوف وسعد بن وقاص وامثالهما.

ثم أضاف عليه السلام: «لكني اسففت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا» (٣) قالواقع هذه كناية بشأن

ص: ٢٣٦

١- ١) ورد في مقاييس اللغة أن «الزعم» عبارة عن الكلام الذي لا واقعيه له وصاحبه ليس متأكداً منه.

٢- ٢) اللام في لفظ الجلاله مفتوحه للاستغاثه واللام في الشورى مكسوره وللمستغاث منه.

٣- ٣) «أسففت» من ماده «إسفاف» بمعنى إقتراب شيء من آخر ويستعمل هذا اللفظ في الطائر إذا دنا من الأرض، كما يستعمل في نسج الحصير لان خيوطه تقترب من بعضها البعض الآخر، كما وردت بمعنى شدة النظر (راجع مقاييس اللغة ولسان العرب).

الطيور التي تطير عى هيئه أسراب فتحلق أحيانا وتنخضض أخرى إلى الأرض وفي الحركتين تكون معاً. ومن الواضح أنّ الأوضاع المزريه فى زمان الخلفاء - لا- سيما إذا ابعد الخليفه وأقصى - تتطلب الابتعاد عن كافه أشكال الفرقة والتشتت حذراً من إستغلالها من قبل خصوم الدعوه والتأهب للاجهاض عليها. هنالك إحتمال آخر أيضا بشأن تفسير هذه العبارة فى أنّ مراده منها: أنى أدور حيث مدار الحق والهث خلفه لكنى طلبت الأمر وهو موسوم بالاصاغر منهم، كما طلبته أولاً وهو موسوم بأكابرههم، أى هو حقى فلا أستتكف من طلبه، إن كان المنازغ فيه جليل القدر أو صغير المنزله ثم أشار عليه السلام إلى نتيجه تلك الشورى وأعمالها المريبه حيث تحرك أحدهم بدافع من حقه وضغينه بينما إندفع الآخر بوحي من قرابته ونسبه لينتهى الأمر إلى عثمان: «فصغا (١) رجل منهم لضغنه (٢) ومال الآخر لصهره، مع هن (٣) وهن» .

فقد قصد الإمام عليه السلام بالعبارة الاولى «سعد بن أبى وقاص» الذى كان ينتمى من طرف أمه إلى بنى أميه وقد قتل أخواله وأقربائه على يد على عليه السلام فى المعارك الإسلاميه ضد الكفر والشرك، ولذلك لم يكن مستعداً لمبايعه على عليه السلام حتى فى خلافته.

و عمر بن سعد ذلك المجرم الجبار الذى قتل الحسين عليه السلام وصحبه فى كربلاء هو ابنه. وعليه فقد كانت ضغينه لعلى عليه السلام أشهر من نار على علم وهى التى جعلته لا يصوت لصالح الإمام عليه السلام، وهذا ما أدى إلى فوز عثمان بعد أن منحه رأيه بواسطة عبدالرحمن بن عوف. وقال البعض المراد به «طلحه» المفروغ من كراهيته للإمام عليه السلام وهو الذى أشعل إلى جانب الزبير حرب الجمل التى أدت حسب قول المؤرخين إلى قتل سبعة عشر ألف.

وقد قوى هذا الاحتمال ابن أبى الحديد، بينما يرى بعض شراح نهج البلاغه أنّ طلحه وإن رشح للشورى من قبل عمر إلّا أنه لم يكن فى المدينة ولم يوفق لحضور جلسه الشورى (٤).

أمّا الفرد الذى مال إلى صهره فهو عبدالرحمن بن عوف زوج أم كلثوم بنت عثمان.

ص: ٢٣٧

١-١) «صغا» من ماده «صغو» بمعنى الميل.

٢-٢) «ضغن» على وزن ضمن بمعنى البغض والعداوه.

٣-٣) «هن» سيأتى التفسير لا حقا.

٤-٤) نقل الخوئى فى شرحه عن الطبرى عدم حضور طلحه فى الشورى بل فى المدينة (شرح الخوئى، ٣ / ٧٣) .

وقوله عليه السلام: «مع هن وهن» (١)، استنادا إلى أنّ المفردة «هن» كناية عن أعمال قبيحه يكره ذكرها، فالعبارة يمكن أن تكون إشارة إلى الاغراض الأخرى التي كان يطمع بها عبدالرحمن بن عوف من خلال تصويته لصالح عثمان من قبيل مد إليه إلى بيت مال المسلمين أو التسلط على الناس أو الاستيلاء على الخلافة بعد عثمان أو جميع هذه الأمور. فالذي نستفيدة من هذا الكلام أنّ الشورى قد عقدت في أجواء متوتره، والشئ المغيب فيها إنّما كان المصالح الإسلاميه، وعليه فمن الطبيعي الأتّوى لضمان مصالح المسلمين، وقد أثبتت الحوادث التي وقعت على عهد عثمان مدى الخسائر الفادحة التي تكبدها المسلمون.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى النتيجة النهائيه للشورى فقال: «إلى أن قام ثالث القوم نافجا (٢) حضيئه (٣) بين نثله (٤) ومعتلفه (٥)». ولم يقتصر هذا الأمر على عثمان بل سار معه في هذا النهج قرابته وبطانته «و قام معه بنو أبيه يخضمون (٦) مال الله خضمه الابل نبتة الربيع».

أمّا التعبير بنبتة الربيع للإشارة إلى أنّها نبتة سائغه وطعمه سهله للحيوان فيتنا ولها بكل شره ووله. والعبارة «يخضمون مال الله. . .» وبالالتفات إلى المعنى اللغوى لخضم - تفيد أنّ بنى أميه قد اقتحمت الميدان بكل ثقلها لتنهب بيت المال فتبتلع منه ما شاءت. وقال ابن أبي الحديد لقد سلط الخليفة الثالث - عثمان - بنى اميه على رقاب الناس وأغدق عليهم الأموال فقد أعطى عبد الله بن خالد أربعمائة ألف درهم، وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقيه بالمغرب، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، واعطى الحارث بن الحكم - زوج بنت، عائشه - مائة ألف من بيت المال، واعطى طلحه ثلاثمائة واثنين وعشرين ألف، والزيبر خمسمائة وثمانيه وتسعين ديناراً، حتى بلغ ما أغدقه من

ص: ٢٣٨

- ١-١) صرّح علماء اللغة بان «هن» تعنى فلان وتقال حين يريد الإنسان الإشاره من بعيد إلى شىء لقباحته أو لأسباب أخرى، وعاده ما تستعمل هذه المفردة فى الصفات السيئه والقبيحه ولا تستعمل فى الأمور الحسنه.
- ٢-٢) «نافجا» من ماده «نفج» على وزن رفع بمعنى رافعا.
- ٣-٣) «الحضن» ما بين الابط والكشح ونافجاً حضيئه تقال للمتكبر ولمن إمتلأ بطنه طعاماً.
- ٤-٤) «نثيل» من ماده «نثل» على وزن نسل بمعنى غائط الإنسان وروث الحيوان.
- ٥-٥) «معتلف» من ماده «علف» بمعنى موضع العلف، وقد أراد بالعبارة الشخص الذى همه جمع الأموال وملىء البطن وافراغها.
- ٦-٦) «الخضم» أكل الشىء الرطب بتمام الفم وهى تقابل القضم التى تعنى الأكل بأطراف الأسنان، وقال البعض الخضم بمعنى أكل العلف الطرى والقضم بمعنى أكل العلف الجاف.

بيت المال مئة وستة وعشرين مليون وسبعمأة دينار.

و الأعجب من ذلك الدنانير التي أغدقها على بنى أميه فقد منح مروان بن الحكم خمسمأة الف دينار، ويعلى بن أميه خمسمأة الف دينار، وعبد الرحمن بن عوف مليونين وخمسمأة وستين الف دينار والمجموع أربعة ملايين وثلاثمأة وعشره دنانير (١). وهنا يتضح عمق المعنى لقوله عليه السلام: «يخضمون مال الله خضمه الابل نبتة الربيع». وبالطبع فان هذا الوضع لم يكن ليستمر لمده طويله حيث لا يسع المسلمون تحمل مثل هذه الظروف ولذلك لم تمض مده حتى انطلقت تلك النهضة ضد عثمان لتطيح به فى خاتمه المطاف وتقتله بمرأى ومسمع من الأمة دون أن يهب أحد من المسلمين لنصرتة وهذا بعينه ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين قال: «إلى أن انتكث (٢) عليه فتله (٣) وأجهز (٤) عليه عمله، وكبت (٥) به بطنته (٦)» .

و الواقع أن الإمام عليه السلام رسم بثلاث عبارات صورته واضحه كامله عن وضع الخليفه الثالث و انتهاء أمره وقتله. فقد صور فى العبارة الاولى إزالته لكافه مظاهر القدسيه والزهد التى عرفها عنه الناس ليقفوا على مدى تكالبه على الدنيا.

كما يصور فى العبارة الثانيه سوء أعماله التى وجهت له الضربه القاصمه، وأخيراً تخمته وامتلاء جوفه بالطعام بالشكل الذى لم يتمكن معه من الوقوف على قدميه حتى كب على وجهه على الأرض. فقد بين الإمام على عليه السلام بهذه العبارات الدروس والعبر التى ينبغى أن يقتدى بها ساسه البلدان ويضعوها نصب أعينهم بحيث إذا إستغلوا مكانتهم وأقبلوا يتهافتون على الدنيا فإن ذلك سيؤدى إلى زوال سوابقهم الحسنه بما يعيب الرأى العام ضدهم وبالتالى الاطاحه بهم وبحكومتهم.

جدير بالذكر أن العوامل التى بلوره ظهور وانبثاق خلافه عثمان هى ذاتها التى أدت إلى القضاء عليه، فقد دفع حب المال والثروه بعض الأفراد من قبيل سعد بن أبى وقاص

ص: ٢٣٩

١-١ (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ١٩٨. [١]

٢-٢ (٢) «انتكث» من ماده «نكث» على وزن عكس بمعنى النقض والكسر ومن هنا يقال لعدم الالتزام بالعهد نقضه.

٣-٣ (٣) «فتل» بمعنى اللف، ومقتول وفتيله من هذا الباب.

٤-٤ (٤) «أجهز» من ماده «إجهاز»، تطلق على المجروح وتفيد التسريع فى الموت واتمام العمل.

٥-٥ (٥) «كيت» من ماده «كبو» بمعنى السقوط والوقوع على الوجه، ومن هنا يقال كبابه الجواد إذ سقط لوجهه.

٦-٦ (٦) «بطنته» من ماده «بطن» بمعنى التخمه (ملء الجوف الطعام أو النهم فى الأكل).

وعبدالرحمن بن عوف وطلحه (بناء اعلى كونه حاضرا فى الشورى) لأن يضموا أصواتهم لعثمان واختياره للخلافه، وهكذا إتسعت هذه المسأله واستفحلت حتى فقد عثمان مكانته لدى الرأى العام والذى أدى بالتالى إلى ثوره الأُمّه وإطاحتها به. أمّا بعض شرّاح نهج البلاغه فقد ذهبوا إلى أنّ المراد بقوله «إنتكث عليه فتله» انهيار الاجراءات والتدابير التى مارسها لتوطيد حكومته، ولعل تفويضه بعض الأعمال والمناصب لبطانته وقرايته قد كانت ضمن تلك الاجراءات المتخذة، لكن نفس هذا الأمر قد أعطى نتائج معكوسه أسهمت فى تفويض حكومه عثمان.

تأملات

١ - كيفية انتخاب خليفه الثانى والثالث

نعلم أنّ الخليفه الثانى قد نصب من قبل أبى بكر الذى عهد إليه بالخلافه فى وصيته حين نزل به الموت. فقد جاء فى بعض التواريخ أنّ أبابكر أحضر عثمان - وهو وجود بنفسه - فأمره أن يكتب عهدا، وقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبوبكر إلى المسلمين، ثم أمّيا بعد، ثم أغمى عليه، فكتب عثمان: «أما بعد فانى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب لم آلكم خيرا». (١)

و أفاق أبوبكر فقال: إقرأ فقرأه، فكبر أبوبكر وسرب وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت فى غشيتى! قال عثمان: نعم، قال: جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله (٢).

يتضح بجلاء من هذا الخبر أن عثمان قد خاط هذا القميص - الخلافه - لقامه عمر، ولو افترض عدم إفاقه أبى بكر لنشرت هذه الوصيه على أنّها وصيه أبى بكر. وعليه فلم هنالك من مجال للتعجب فى إقتراح عمر لتلك الشورى وبذلك التركيب الذى سوف لن يؤدى إلّا إلى استخلاف عثمان.

ص: ٢٤٠

١- ١) «آلكم» من ماده «الا» يألو بمعنى التقصير، وعلى هذا الاساس فان «لم آلكم» يعنى لم أقصر فى حقكم. «لسان العرب» .

٢- ٢) الكامل لابن أثير ٢ / ٤٢٥. [١]

و هو ذات الأسلوب الذى إتبعه الخليفة الثانى فى السقيفه حين مهد السبيل أمام خلافه أبى بكر، لكى يسارع هذا الأخير فيعوضه عما قدمه له. ويفهم ضمناً أنّ الحيلولة دون إختلاف الأئمّه و فرقتها هى التى تقف وراء تعجيل أبى بكر و عثمان فى تعيين الخليفه. فاذا كان الأمر كذلك، فما بالك برسول الله صلى الله عليه و آله؟ ! ألم يكن من الواجب على النبي صلى الله عليه و آله أن يتكهن بهذا الأمر بالنسبه لأئمته مع وجود تلك النزاعات والصراعات التى كشفت عن نفسها فى السقيفه؟ كيف يمكن الاعتقاد بأنّ النبي صلى الله عليه و آله قد فوض للأئمّه مسأله إنتخاب الخليفه، بينما لا يرعى هذا الأمر فى خلافه الثانى والثالث، حتى أنّ خوف الفتنة منع من تفويض الأمر للأئمّه؟ ! هذه هى الاسئله التى ينبغى لكل محقق الرد عليها.

٢- الشورى و حكمه عثمان

وصوره هذه الواقعه أنّ عمر لما طعنه أبو لؤلؤه، وعلم أنّه ميت، استشار فيمن يولّيه الأمر بعده، فأشير عليه بابنه عبد الله، فقال: لاها الله إذا! لا ليها رجلاين من و لمد الخطاب! حسب عمر ما حُمّل! حسب عمرأ احتقب، لاها الله! لا أتحمّلها حياً وميتاً! ثم قال: إنّ رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش: على، و عثمان و طلحه، و الزبير، و سعد، و عبد الرحمن بن عوف؛ وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى يعنى أبابكر وإن أترك فقد ترك من هو خير منى يعنى رسول الله صلى الله عليه و آله و قال: ادعوهم لى، فدعوهم، فدخلوا عليه وهو مُلقى على فراشه وجود بنفسه.

فنظر إليهم، فقال: أكلكم يطمع فى الخلافه بعدى! فوجموا، فقال لهم ثانيه، فأجابه الزبير وقال: وما الذى يُبعدنا منها! وليتها أنت فقت بها، ولسنا دونك فى قريش و لافى السابقه ولا فى القرايه.

قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لولا علمه أنّ عمر يموت فى مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمه، ولا أن تنفّس منه بلفظه.

فقال عمر: أفلا- أخبركم عن أنفسكم! قال: قل، فإننا لو استعفيناك لم تُعفنا. فقال: أما أنت يا زبير فوقع لقس، مؤمن الرضا كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضت

إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير! أفرأيت إن أفضت إليك، فليت شعري، من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة، وأنت على هذه الصفة.

ثم أقبل على طلحه وكان له مبغضاً منذ قال لأبي بكر يوم وفاته ما قال في عمر فقال له: أقول أم أسكت: قال: قل، فإنك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أما إني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أخذ وائبا بالذي حدث لك، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب.

ثم أقبل على علي عليه السلام، فقال: لله أنت لولا- دُعابه فيك! أميَا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والمحجبه البيضاء.

ثم أقبل على عثمان، فقال: هيهأ إليك! كآني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بنى أميه وبنى أبي مُعيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفىء، فسارت إليك عصابه من ذوبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً. والله لئن فعلوا لتفعلن فعلت ليفعلن، ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذا كر قولي؛ فإنه كائن.

ثم قال: ادعوا إلى أبا طلحه الأنصارى، فدعوه له فقال: انظر يا أبا طلحه، إذ عدتم من حُفرتي، فكن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملي سيوفكم، فخذ هؤلاء نفر بامضاء الأمر وتعجيله، واجمعهم في بيت، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة، فانظر الثلاثة التي فيها عبدالرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمر، فاضرب أعناق الستة، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

فلما دُفن عمر، جمَع أبو طلحه، ووقف على باب البيت بالسيف في خمسين من الأنصار، حاملي سيوفهم، ثم تكلم القوم وتنازعوا، فأول ما عمل طلحه أنه أشدهم على نفسه أنه قد وهب حقه من الشورى لعثمان، وذلك لعامه أن الناس لا يعدلون به علياً وعثمان، وأن الخلاف لا تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقويه أمر عثمان وإضعاف جانب علي عليه السلام، بهبه أمر لا انتفاع له به، ولا تمكُّن له منه.

فقال الزبير في معارضته: وأنا أشهدكم على نفسي أنني قد وهبتُ حقي من الشورى لعلّي، وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى عليًا قد ضعف وانخزل بهيه طلحه حقه لعثمان، دخلته حميه النسب، لأنه ابن عمه أمير المؤمنين عليه السلام، وهي صفيه بنت عبدالمطلب، وأبو طالب خاله. وإنما مال طلحه إلى عثمان لانحرافه عن علي عليه السلام، باعتبار أنه تيمى وابن عم أبي بكر، وقد كان حصل في نفوس بني هاشم من بني تيم حنق شديد لأجل الخلافه، وكذلك صار في صدور تيم علي بنى هاشم.

فمما لا شك فيه هنالك عدّه اسئله لا بدّ من طرحها بشأن هذه الشورى ومنها:

أولاً: لو كانت الضابطه فى الخلافه تكمن فى آراء الأّمه فلم لا يرجع إليها؟ وإن كانت الخلافه قائمه على أساس التعيين فما معنى الشورى المركبه من سته أعضاء وما بال إهمال سائر الشخصيات المعروفه وعدم إشراكها فى الشورى؟

ثانياً: لقد قيل أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش، فكيف التوفيق بين هذا وما صرح بأن رسول الله صلى الله عليه و آله مات وهو ساخط على طلحه بالثلمه التى قالها يوم أنزلت آيه الحجاب (1)؟

ثالثاً: لو افترض عدم تمكنهم من القيام بوظيفتهم فكيف يؤمر بضرب أعناقهم؟

رابعاً: لو كانت الشورى حقا فما معنى الوصيه بعثمان وذكره صراحه؟ ولو كان يخشى على الأّمه الإسلاميه من خلافته للزم عدم جعله أحد أعضاء تلك الشورى ليأتى آخر غيره؟

خامساً: إذا إنقسمت الشورى إلى قسمين فلم لا ترجح الكفه التى فيها على عليه السلام والذى قال له عمر: أمّا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والحجه البيضاء. وليس له من إشكال عليه سوى قوله «لولا دعا به فيك» .

سادساً: وهل للدعا به من أثر سلبي على الخلافه وهل يرقى هذا الإشكال إلى الإشكال على عثمان بأنه إذا ولى الخلافه وسيسلط بنى أميه على رقاب المسلمين فيتخذون عباد الله

ص: ٢٤٣

١ - ١) المراد بآيه الحجاب قوله سبحانه: «فاسئلوهم من وراء حجاب» الذى نزل فى نساء النبى صلى الله عليه و آله والكلمه المذكوره أن طلحه لما أنزلت آيه الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله: ما الذى يعنيه حجابهن اليوم، وسيموت غدا فنكحنهن.

هذه هي الاسئلة والاستفسارات التي ليست لها من إجابته.

٣- أسباب الخروج على عثمان

و يجب أن نذكر في هذا الموضوع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قُتل.

و أصح ما ذكر في ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في «التاريخ» (١).

و خلاصه ذلك أن عثمان أحدث أحداثاً مشهوره نَقَمَهَا النَّاسُ عَلَيْهِ، من تأمير بنى أميّه، ولا سيّما الفساق منهم وأربابُ السّفه وقلة الدّين، واخراج مال الفىء إليهم، وما جرى في أمر عمّار وأبى ذر وعبدالله بن مسعود، وغير ذلك من الأمور التي جرت في أواخر خلافته. ثم اتفق إن الوليد بن عُقبه لَمّا كان عامله على الكوفه وشهد عليه بشرب الخمر، صرفه وولّى سعيد بن العاص مكانه، فقدم سعيد الكوفه، استخلص من أهلها قوماً يسمرون عنده، فقال سعيد يوماً: إن السواد بستان لُقريش وبنى أميه. فقال الأشر النخعي: وتزعم أن السواد الذى أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك لقومك! فقال صاحب شرطته: أتردّ على الأمير مقالته! وأغلظ له، فقال الأشر لمن كان حوله من النّخع وغيرهم من أشراف الكوفه: ألا تسمعون! فوثبوا عليه بحضره سعيد فوطئوه وطأ عنيفاً، وجرّول برجله، فغلظ ذلك على سعيد، أبعد سُمّاره فلم يأذن بعد لهم، فجعلوا يشتمون سعيداً فى مجالسهم، ثم تعدّوا ذلك إلى عثمان فى أمرهم، فكتب إليه أن يسيرهم إلى الشام؛ لثلاثٍ يفسدوا أهل الكوفه، وكتب إلى معاويه وهو وإلى الشام: إن نفراً من أهل الكوفه قد همّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتهم إليك، فانهم؛ فإن آنت منهم رشداً فأحسن إليهم، ورددهم إلى بلادهم.

ثم إن سعيد بن العاص قدم على عثمان سنه إحدى عشره من خلافته. فلما دخل المدينه اجتمع قومٌ من الصحابه، فذكروا سعيداً وأعماله، وذكروا قرابات عثمان وما سَوّغهم من مال المسلمين، وعابوا أفعال عثمان، فأرسلو إليه عامر بن عبد القيس وكان متألهاً (٢)، واسم أبيه

ص: ٢٤٤

١- ١) فى حوادث ٣٣ ٣٥، مع تصرف واختصار فى جميع ما أورده فى هذا الفصل (٩ نهج ٢).

٢- ٢) المتألّه: المتعبد المتنسك.

عبدالله، وهو من تميم، ثم من بنى العنبر فدخل على عثمان، فقال له: إن ناساً من الصحابه اجتمعوا ونظروا فى أعمالك، فوجدوك قد ركبت أموراً عظماً، فاتق الله وتب إليه.

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبدالله بن سعد بن أبى سرح، وإلى معاويه وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبيدالله بن عامر وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم فشاورهم، وقال: إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقئى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم.

فقال عبدالله بن عامر: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلو لك، ولا تكون همهم أحدهم إلا فى نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته.

فقال عثمان: إن هذا لهو الرأى لولا ما فيه.

ثم كاتب عماله واستقدمهم، فلما قدموا عليه جمعهم، وقال: ما شكايه الناس منكم؟ إنى لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا الأمر إلا بى. فقالوا له: والله ما صدق من رفع إليك ولا بر، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً. فقال عثمان: فأشيروا على، فقال سعيد بن العاص: هذه أمور مصنوعه تلقى فى السر فيتحدث بها الناس، ودواء ذلك السيف.

وروى محمد بن عمر الواقدى رحمه الله تعالى، قال: لما أجلب الناس على عثمان، وكثرت الفاله فيه، خرج ناس من مصر؛ منهم عبدالرحمن عديس البوى، وكنانه بن بشر الليثى، وسودان بن حمران السكونى، وقتيره بن وهب السكسكى؛ وعليهم جميعاً أبو حرب الغافقى، وكانوا فى ألفين. وخرج ناس من الكوفه، منهم زيد بن صوحان العبدى، ومالك الأشتر النخعى، وزيد بن النضر الحارثى، وعبدالله بن الأصم الغامدى، فى ألفين. وخرج ناس من أهل البصره. منهم حكيم بن جبله العبدى، وجماعه من أمرائهم، وعليهم حرقوص بن زهير السعدى؛ وذلك فى شوال من سنه خمس وثلاثين، وأظهروا أنهم يريدون الحج. فلما كانوا من المدينه على ثلاث، تقدم أهل البصره، فنزلوا ذاخشب وكان هواهم فى طلحه. وتقدم أهل الكوفه، فنزلوا الأعوص وكان هواهم فى الزبير. وجاء أهل مصر فنزلوا المروه وكان هواهم فى على عليه السلام. ودخل ناس منهم إلى المدينه يخبرون ما فى قلوب الناس لعثمان، فلقوا جماعه من المهاجرين والأنصار، ولقوا أزواج النبى صلى الله عليه وآله، وقالوا: إنما نريد الحج، ونستعفى

من عمالنا.

وخرج عثمان يوم الجمعة، فصلى بالناس، وقام على المنبر، فقال: يا هؤلاء، الله الله؛ فوالله إن أهل المدينة يعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه، فامحوا الخطأ بالصواب.

وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه؛ فأدخل داره؛ واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان؛ منهم سعد بن أبي وقاص، والحسن بن علي عليه السلام، وزيد بن ثابت، وأبو هريره؛ فأرسل إليهم عثمان: عزمت عليكم أن تنصرفوا؛ فانصرفوا.

وأقبل علي وطلحه والزبير، فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعته، ويشكون إليه ما يجدون لأجله؛ وعند عثمان نفر من بين أميه، منهم مروان بن الحكم، فقالوا لعلي عليه السلام: أهلكتنا وصنعت هذا الذي صنعت! والله إن بلغت هذا الأمر الذي تريده لتمرن عليك الدنيا؛ فقام مغضباً، وخرج الجماعه الذين حضروا معه إلى منازلهم.

وروى المدائني، قال: كان عثمان محصوراً محاطاً به، وهو يصلى بالناس في المسجد، وأهل مصر والكوفه والبصره الحاضرون له يصلون خلفه، وهم أدق في عينه من التراب.

وروى الكلبي والواقدي والمدائني: أن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفه كانا بمصر يحرضان الناس على عثمان، فسار محمد بن أبي بكر مع من سار إلى عثمان، وأرقام محمد بن أبي حذيفه بمصر، ثم غلب عليها لما سار عبدالله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان عنها إلى المدينة في أثر المصريين، بإذن عثمان له، فلما كان بأيله، بلغه أن المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول، وأن محمد بن أبي حذيفه قد غلب على مصر، فعاد عبدالله إلى مصر، فمنع عنها، فأتى فلسطين، فأقام بها حتى قتل عثمان.

(١)

٤- هل سار جميع الصحابه على نهج النبي صلى الله عليه وآله

المعروف بين أوساط الاخوه من أبناء العامه أنّ لصحابه رسول الله صلى الله عليه وآله - دون إستثناء - قدسيه وعداله وأنّ أحدا منهم لم يؤتى بما يخالف ما أمر به الله في الكتاب والسنة، بينما تعتقد الشيعة من أتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام أنّ الصحابه ليست سواسيه ولها رأى بكل صحابي بما

ص: ٢٤٦

ينسجم وسلوكه سواء على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أو بعد وفاته.

ولاشك أنّ الاعتقاد السائد لدى الاخوه السنه بشأن الصحابه قد قادهم إلى مشاكل كثيره؛ وذلك لأنّ هنالك من الصحابه ممن اختلفوا فيما بينهم إلى حد الاقتتال. فيكف يمكن تبرير تلك العقيده التي تتضمن عدالتهم وقدسيتهم. على سبيل المثال موقعه صفين التي قام فيها معاويه ضد إمام زمانه بما أدى إلى اراقه تلك الدماء، فهل هناك مورخ نزيه يمكنه توجيه ذلك العمل؟! أو الدماء التي سفكت في معركة الجمل التي قادها طلحه والزبير ضد الإمام على عليه السلام بعد أن نكثا بيعته حتى قيل أن عدد القتلى بلغ أكثر من سبعة عشر الف قتيل، فهل لهما من عداله بعد تلك الفجائع التي ارتكبت بحق المسلمين وخروجها على الإمام عليه السلام؟!!

أمّا بشأن عثمان وكما مرّ معنا وعلى ضوء إجماع كافه مؤرخى الإسلام فإننا نصطدم بموضوعين مهمين: الأول اغداقه المناصب الحساسه على بنى أميه وتسليطهم على رقاب المسلمين ومن أولئك الذين عرفوا بفسقهم ومجونهم حتى تعالت عليهم أصوات المسلمين من كل حدب وصوب، والآخر نهب أموال بيت المال واغداقها دون حساب على هذا وذاك بالشكل الذى آثار حفيظه الأئمّه وأجج مشاعرهما للغضب والثوره عليه.

فهل من إنسجام بين هذه الأعمال والخطوط العامه للقداسه وتنزيه الصحابه؟! فلو كان هنالك من تبرير لمثل هذه الأعمال فهل ستبقى هنالك من أعمال يمكن إدانتها؟!!

لقد ذكرنى هذا الكلام بقصه عجيبيه وقعت لى ولا يسعنى نسيانها أبدا. فقد تشرفت احدى السنوات بزياره مكه لاداء العمره وقد سنحت لى الفرصه لائن ألتقى بعض علماء العامه - ولا سيما أثناء الليالى فى المسجد الحرام وبين صلاتى المغرب والعشاء التي كانت فرصه مناسبه - فى احدى الليالى (طبعا كان البعض منهم من مشاهير علماء العامه) .

وفى المسجد الحرام وسعينا لان نبقى على الأبحاث تعيش أجواء المنطق والعلم والاستدلال والبرهان وابعادها عن عناصر العداة والكراهيه وجرح المشاعر. وقد جرنا الكلام إلى الحديث عن «تنزيه الصحابه وعدالتهم» فكانوا يعتقدون جميعهم بعدم إمكانية جراه أحد على توجيه أدنى تهمة إليهم. فسألت أحدهم: «لو شهدت صفين حيث معسكر على عليه السلام معسكر معاويه، فمع من كنت تقاتل»؟ فاجاب من فوره: مع معسكر على عليه السلام.

فقلت: لو أعطاك علياً عليه السلام سيفاً وقال لك: «خذ هذا واقتل معاوية فهل كنت تمتثل أمره؟» هنا أجاب إجابته عجيبة لا أظنكم تتصورنها، فقد قال: «كنت أقتله ولا أذكره بسوء» نعم قضيه تنزيه الصحابه قصه ذات شجون ولا يسعني الخوض في كاهه تفاصيلها.

ص: ٢٤٨

«فَمَا رَاعِنِي إِلَّا- وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْتَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْتُ وُطِيءَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضِهِ الْغَنَمِ فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخِرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» ، بَلَى! وَاللَّهِ لَقَدْتُ سَمْعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلَيْتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرُجُهَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى عصر خلافته ولا سيما أبان البيعة التي شهدت حضوراً خارقاً للامة في مبايعته والوقوف إلى جانبه، البيعة الفريدة التي لم يعرف التاريخ الإسلامي لها من نظير، غير أن عدداً كثيراً لما جوبه بعداله الإمام عليه السلام وتممره في الحق قد إنفرجوا عنه وهبوا لمخالفته وبالتالي أججوا نيران الحرب «الجملة وصفين والنهروان» وشقوا صفوف المسلمين وحالوا دون ترويج جهود الإمام عليه السلام ومساعدية في النهوض بالمجتمع الإسلامي والأخذ بيده إلى السمو والتكامل.

فقد وصف عليه السلام بادية ذي بدء كيفية إقبال الناس عليه وهجومهم من أجل البيعة قائلاً: «فما راغني (1) إلأوالناس كعرف (2) الضبع (3) إلى ينثالون (4) على من كل جانب» فالتعبير بعرف

ص: ٢٤٩

١- ١) «راغني» من ماده «روح» على وزن نوع بمعنى الخوف و الخشية و الفلق كما وردت بمعنى الدهشه والذهول.

٢- ٢) «عرف» بمعنى الكثرة والازدهام و من هنا يطلق على شعر عنق الضبع.

٣- ٣) «ضبع» له ثلاثة معان، الحيوان المعروف و أحدا أعضاء الانسان (العضد) والثالث أنه أحد صفات الناقه. و قد تكون كناية عن سنين القحط التي تهجم على الانسان.

٤- ٤) «ينثالون» من ماده «ثول» على وزن قول بمعنى ازدحام زنابير العسل حين تجتمع و تروح و تجيبىء ثم اطلقت على كل ازدحام يتخلله ذهاب و اياب (مقاييس اللغة و الصحاح و لسان العرب) .

الضبح إشارة إلى الازدحام الشديد للناس واندفاعهم لمبايعة الإمام عليه السلام فهو مثل يضرب للكثرة والازدحام.

أمّا قلقه من الهجوم المفاجيء للناس من أجل البيعة فلعله يعزى إلى أنّ مثل هذه البيعة الحماسية من شأنها أن تقلد الإمام عليه السلام مسؤوليه جديده ولا سيما أنّه كان يتوقع نقض البيعة من قبل أولئك الذين يتهافتون على الدنيا وحطامها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بوضوح فى الخطبه ٩٢ حيث قال: «دعوني والتمسوا غيرى، فانا مستقبلون أمراله وجوه وألوان، لاتقوم له القلوب، ولا- تثبت عيه العقول، وان الافاق قد أغامت والمحجه قد تنكرت، واعلموا أنّى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً» .

أضف إلى ذلك كان يشعر بالقلق من جهه أخرى وهى أن تشير إليه أصابع الاتهام من قبل المنافقين وخصوم الدعوه بقتل عثمان. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى عمق ذلك الازدحام والانهيال عليه بالبيعة فقال عليه السلام: «حتى لقد وطىء الحسنان، وشق عطفائى، مجتمعين حولى كربيضه الغنم» .

و يرى أغلب شراح نهج البلاغه أنّ المراد بالحسنين هما الإمام الحسن والحسين عليهما السلام. فقد كان الإمامان عليهما السلام فى عنفوان شبابهما إلّم أنّ الهجوم الشعبى العام قد جعلهما فى موقع حرج فى الحفاظ على والدهما. بينما ذكر بعض الشراح احتمالين آخرين؛ الأول أن يكون المراد اصبعى الرجل البارزين - كما روى ذلك عن الشريف الرضى رحمه الله - نقلا عن بعض اللغويين (أبى عمر) وقد استدلوا على ذلك باشعار العرب، إلّا أنّ هذا المعنى يبدو مستبعداً لأنّ وطىء اصبعى الرجل قضيه عاديه تحصل عند أدنى زحام ولا يمكنها أن تعكس ذلك الهجوم العظيم.

والأبعد من ذلك التفسير الثالث الذى أورده البعض على أنّ المراد بها عظمى اليد وذلك

لتعذر وطىء إصبعى اليد عاده سواء عظمى العضد أو الساعد، ولا يوطئان إلّاحين يقع الإنسان على الأرض.

أمّا تشبيههم بربيضه الغنم فهو لا- يرمز إلى جهل الناس كما فسره بعض الشارحين، بل يتضمن إشاره إلى ما أورده سابقاً حيث يرمز إلى لو إذ الغنم بالرعى كلواذاها بالمرعى حين تتعرض لهجوم الذئب.

فالمسلمون الذين تفرقوا هنا وهناك إثر الهجوم الذى تعرضوا له من قبل ذؤبان عصر الخليفة الثالث وتفككت عرى الوحده بينهم قد رأوا فى الإمام عليه السلام حلقة الوصل فاندفعوا إليه بلهفه ليتجمهروا حوله ويشعروا بالسكينه والاستقرار. غير أنّ المؤسف هو أنّ الاندفاع لم يكتب له الدوام حين عرضوا للاختبار لتفشل فيه طوائف من المسلمين، وهذا ما صوره الإمام على عليه السلام إذ قال: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفه، ومرقت (١) أخرى، وقسط (٢) آخرون» .

وقد أجمع أغلب شراح نهج البلاغه على أنّ المراد بهم أصحاب الجمل والنهروان وصفين فقد ذكروا أنّ أصحاب معركة الجمل (هم طلحه والزبير الذين استغلا وجود عائشه لتأليب الناس ضد أمير المؤمنين) الذين نقضوا البيعه هم «الناكثين» فقد بايعا علياً عليه السلام وهما يطمعان بالخلاصه فلما لم يتمّ لهما ذلك قدما البصره وبثا بذور الشقاق والفرقه.

و «المارقين» هم أصحاب النهروان ويراد بهم الخوارج الذى خرجوا على الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله بعد قضيه التحكيم فى صفين. وهم من وصفوا بالمروق عن الدين كمروق السهم من الرميّه. فى إشاره إلى أنّهم قد كانوا على الحق إلّا أنّ تعصبهم الأعمى وجهلهم وحبهم لذاتهم قد أمرقهم من ذلك الحق. و «القاسطين» هم أهل الشام جيش معاويه، حيث وردت مفردة

ص: ٢٥١

١- ١) «مروق» من ماده «مروق» على وزن غروب بمعنى الخروج من الشىء حيث تستعمل فى خروج السهم - ويقول صاحب صحاح اللغه ولسان العرب - المراد به المرور من الهدف واصابه طرفه ومن هنا سمي الخوارج ب «المارقين» لانهم كانوا جماعه مفرطه متعصبه رأّت نفسها أكثر إسلاميه من أمير المؤمنين على عليه السلام.

٢- ٢) «قسط»، وردت أحيانا بمعنى الظلم والعدول عن الحق ولذلك يقال قسط على وزن فقط للأفراد الذين إعوجت أرجلهم، كما وردت بمعنى العدل. قال الراغب فى المفردات القسط بمعنى السهم والنصيب فاذا أخذ سهم شخصى قيل له قسط وهذا مصداق الظلم، واقساط تعنى دفع سهم الآخر وهذا عين العدالة. وعليه فالمعنيان يعودان الى ماده واحده فقد صرح صاحب لسان العرب أنّه جاء فى حديث على عليه السلام قال: «أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» واضاف صاحب لسان العرب «و القاسطون أهل صفين» .

القسط بمعنى العدل إلى جانب ورودها بمعنى الظلم والطغيان والفسق.

و الجدير بالذكر هنا أنّ هذه التسميات لهذه الفئات الثلاث - وعلى ضوء المصادر الإسلامية - ممّا صرّحت بها الأحاديث النبويه الشريفه.

فقد روى الحاكم النيسابورى فى مستدرک الصحيحين عن أبى أيوب الأنصارى أنّه قال: «أمر رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبى طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» (١).

كما ورد هذا المعنى فى تلخيص المستدرک للذهبي (٢). ووردت هذه الروايه فى كتاب أسد الغابه فى شرح سيره الإمام على عليه السلام (٣).

بينما وردت هذه الروايه مفصله فى تاريخ بغداد، حيث جاء عن أبى أيوب الانصارى أنّه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فى ركاب على عليه السلام. أمّا الناكثين فقد قاتلناهم وهم - أصحاب الجمل - طلحه والزبير، وأمّا القاسطين فهم من عدنا الآن من عندهم؛ أى معاويه وعمرو بن العاص (لقد قال ذلك حين عاد من صفين) وأمّا المارقين فهم أصحاب النهروان، والله لا أعلم أين هم إلّا أننى أعلم بأناسقاتلهم» (٤).

و الحق أنّ هذا جواب قاطع لأولئك الجهال الذين لم تحسم لديهم الحروب التى وقعت إبان خلافه على عليه السلام.

نعم فأولئك الذين تهافتوا فى بادى الأمر على على عليه السلام من أجل البيعه لم يطبقوا تحمل عدالته وشدته فى الحق؛ ولا سيما ممارسته للعداله التى أوشكت أن تموت بعد تلك المده الطويله التى شهدت إنعدامها وقد تمثل ابسط مظاهرها فى التناول على بيت المال وسلبه ونهبه الذى أقدم عليه الكثيرون فانى لهم بتحملها، ولذلك لم تصمد معه إلّا ثله معدوده التزمت بعهودها بينما إنفرج عنه الأعم الأغلب ممن بايعوه؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام على عليه السلام فى خطبته فقال: «كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً

ص: ٢٥٢

١- ١) مستدرک الصحيحين ٣ / ١٣٩ (طبعه دار المعرفه) .

٢- ٢) لقد طبع هذا الكتاب فى ذيل المستدرک (المجلد السابق والصفحه السابقه) .

٣- ٣) اسد الغابه ٤ / ٣٣.

٤- ٤) تاريخ بغداد ١٣ / ١٨٧ [١] (طبعه دار الكفر) .

ثم أضاف عليه السلام: «والله لقد سمعوها ووعوها (٢) ولكنهم حليت الدنيا فى أعينهم، وراقهم (٣) زبرجها (٤)» (٥).

فالإمام عليه السلام يشبههم فى البدايه بالجهال الذين دفعهم جهلهم لمخالفته، ثم ينتقل فى المرحله اللاحقه ليصفهم بأنهم سمعوا هذه الأخبار والحقائق ووعوها وهى ليست خافيه عليهم، إلّا أنّ حب الدنيا والتكالب على حطامها والاعتزاز بزبرجها - ولا سيما بعد الفتوحات الإسلاميه الكبرى التى جرت عليهم ما لا يحصى من الغنائم النفيسه والتعود على الحياه الوادعه المرفهه خاصه تلك التى ظهرت أبان خلافه عثمان - جعلتهم يؤثرون الدنيا على الدين ويبيعون الحقيقه بالخرافه ويضحون بالدار الآخره ويزهدون فيها.

فالعبارات التى أوردها الإمام عليه السلام هى فى الواقع عصاره التحليلات بشأن نشوب المعارك الثلاث فى عهد الإمام عليه السلام؛ الأمر الذى يعتبر درساً لجميع المسلمين على مدى التاريخ فى أنّهم يعيشون الفرقه والتشتت وتمزق عرى الوحده كلما أقبلوا على الدنيا واغتروا بزخارفها وزبرجها، فليس لهم من سبيل سوى الورع والتقوى والزهد بغيه الثبات على الطريق. ونشاهد اليوم بكل وضوح أنّ الاختلافات السائده فى أوساط المسلمين إنّما تعزى لما بينه الإمام عليه السلام وأو جزته الآيه القرآنيه الشريفه: «تلك الدار الآخره نجعلها للذين لا يريدون علواً

ص: ٢٥٣

(١-١) سورة القصص / ٨٣. [١]

(٢-٢) «وعوها» من ماده «وعى» على وزن نعى، قال صاحب المقاييس تغنى صنم الشىء إلى آخر، وقال صاحب المفردات تعنى حفظ الحديث وما شابه ذلك (وكلاهما بمعنى واحد).

(٣-٣) «راق» من ماده «روق» -حسب المقاييس -بمعنى تقدم شىء على آخر و تأتى أحياناً بمعنى الحسن والجمال ومن هنا يصطلح بالرواق على مقدمه البيت أو الاضرحه المقدسه وقد جاءت هنا بمعنى الحسن والجمال.

(٤-٤) «زبرج» بمعنى الزينه والذهب كما تأتى بمعنى نقوش القماش.

(٥-٥) يتضح بجلاء أنّ الضمائر فى هذه العبارة والعبارات السابقه إنّما يعود إلى الفرق الثلاث الناكثين والمارقين والقاسطين التى أشير إليها فى العبارة السابقه، بينما يرجح المرحوم العلّامه المجلسى فى البحار أنّ هذه الضمائر إنّما تعود إلى الخلفاء الثلاث، غير أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً. ولعل هذا هو الذى دفع المرحوم المجلسى لان يختتم كلامه باحتمال رجوع الضمائر إلى كافه من أشارت إليهم الخطبه.

فى الأرض ولا فسادا والعاقبه للمتقين» .

فالعلو فى الأرض والفساد والتكالب على الدنيا وحطامها هما أساس الفرقة والاختلاف و التشتت فى المجتمعات الإسلاميه.

تأملات

١- البيعه الشعبيه لأمير المؤمنين عليه السلام

إنها البيعه التى لا يمكن مقارنتها بتلك التى حدثت مع الخلفاء الثلاث.

كانت بيعه عفويه شعبيه عامه بعيده عن البرمجه والتخطيط، بل نابعه من أعماق الأمة المستضعفه التى ذقت الظلم والاضطهاد، فهى ليست كبيعه السقيفه التى مثل إتخاذ القرار فيها بعض الأفراد لترى الأمة نفسها أمام نتيجة حسمت سابقاً، وهى ليست كبيعه عمر التى أسندت بطولتها لفرد واحد هو الخليفه الأول، وأخيراً ليست كبيعه عثمان التى استندت للشورى السداسيه وعلى ضوء التركيبيه التى شكلها عمر.

بل هى بيعه واقعيه وحقيقته جردت ماسواها من إنتحال هذا الاسم بعد أن برمجت وخططت بهذه الكيفيه.

فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغه أن الثوار الذين أودوا بحياه عثمان إتجهوا صوب الإمام على عليه السلام ليبايعوه على الخلافه، فلم يجبهم فلما أصرروا عليه، خاطبهم قائلاً: «أنا لكم وزيراً خير منى اميراً» .

حيث كان يعلم عليه السلام بأن سبقت هؤلاء فى البيعه سيثير تهمه مفادها أن عثمان قتل مع سبق الاصرار والترصد طبق خطه مدروسه.

أضف إلى ذلك فلو بايعوه، لزعم البعض أن قتله عثمان فقط هم الذين بسطوا له أيديهم بالبيعه، وناهيك عما تقدم فإن الإمام عليه السلام كان يتوسم فيهم عدم القدره على احتمال الحق؛ نعم فالحق ثقيل وبيىء، إلا أن الإمام عليه السلام فوجيء بتقاطر المهاجرين والانصار الذين اصرروا عليه بقبول الخلافه.

فلم يكن له من سبيل سوى قبولها، فارتقى المنبر عليه السلام لتندفع إليه الأمة زرافات ووحदानا وهى تعلن بيعتها له، ولم يشذ منها سوى النزر اليسير من قبيل سعد بن أبى وقاص وعبدالله

بن عمر ولم يجبر هم الإمام عليه السلام على مبايعته (١).

إننا نعتقد وعلى ضوء المصادر الإسلامية المعتبرة أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد إستخلف علياً عليه السلام بأمر الله، ولم يقتصر ذلك على «غدِير خم» بل أكدّه النبي صلى الله عليه وآله في عدّه مواضع ومناسبات، ورغم مخالفه البعض - لاسباب لايسعنا المجال إلى الخوض في تفاصيلها - بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله مع ذلك فما أن قتل عثمان حتى تدفقت الأُمّة بشكل عجيب على الإمام عليه السلام وهي تعلن عن تظامنها ودعمها واسنادها للإمام عليه السلام؛ الدعم الذي لم تشهده النظم الديمقراطيّه طيله تجاربها، بل قل نظيرها سوى بعض النماذج التي حصلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كبيعة الشجره.

و ممّا لا شك فيه أنّ تلك البيعه إنّما كانت تنبع من معرفه الأُمّة بمنزله على عليه السلام وسعه علومه ومعارفه ومدى ورعه وتقواه وزهده وادارته الناجعه التي لم يكن فيها من مكان للتيارات والتحزبات، فقد كانت من العفويه والإنسيابه بحيث سلبت زمام المبادرة من الخصوم لتجعلهم يعيشون حاله الدهشه أمام عمل تم ولا سبيل إلى الرجعه منه، ولو تركوا الأُمّة وحالها وتخلوا عن مؤامراتهم وغدرهم لنهض ذلك المجتمع نهضات ولعاش الاطروحه التي حملها له القرآن والمتمثله بقيام مجتمع الحريه والعداله.

و سنرى لاحقاً أنّ هذه العناصر المشبوهه العثمانيه التي تناولت على بيت أموال المسلمين وردت الميدان السياسي لتعبث الناس وتتلاب بمشاعرها الدينيه وتقودها في خاتمه المطاف إلى إشعال نيران الجمل وصفين والنهروان وتسدد تلك الضربات الموجعه للإسلام والمسيره الإسلاميه.

٢- مصدر الانحرافات الاجتماعيه

يعتبر الإمام عليه السلام - في هذه الخطبه - أنّ العامل الأصلي الذي يقف وراء الانحراف عن الحق في عصره (و في كل العصور) إنّما يكمن في حب الدنيا والاعتزاز بزخرفها وزبرجها الذي أجج نار حروب الجمل وصفين والنهروان، ثم يؤكد عليه السلام على الآيه الشريفه التي تصرح بأن الآخره

ص: ٢٥٥

من نصيب أولئك الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. فهذه العبارات القصيره إنما تكشف عن حقائق مهمه تلمس آثارها على مدى التاريخ.

فالاطماع هي أساس الحروب والنزاعات الدمويه، والاهواء والفساد في الأرض هو العنصر الرئيسي الذي يقف وراء الفوضى والهرج والمرج ومن هنا فاذا لم تجابه هذه العادات الشيطانيه بالإيمان والاعتقاد الراسخ فلا مناص من نشوب هذه الحروب الفتاكه وانعدام العداله وسياده الفوضى والقلق والاضطراب، بل ستبرز هناك العناصر التي تتلاعب بالقيم الإنسانيه والمفاهيم الأخلاقيه وسائر الأصول من قبيل الحريه وحقوق الإنسان لتسخرها من أجل تحقيق أهدافها وأطماعها.

والذي يجدر ذكره أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن أولئك الذين تتضارب عقائدهم مع أعمالهم، ويبدو أنّهم مسلمون حيث سمعوا الآيات القرآنيه ومنها «تلك الدار الآخرة. . .» .

و آمنوا بها، غير أنّ دعائم إيمانهم قد تزعزعت وتفككت بفعل دوافعهم التي شدتهم إلى الدنيا والتكالب على زخارفها والاعتزاز بزبرجها، وهذه هي النتيجة الطبيعيه لكل أولئك الذين يؤثرون دنياهم على دينهم.

٣- المعارك الثلاث على عهد الإمام عليه السلام

لقد تضمنت خطبته عليه السلام إشاره إلى المعارك الثلاث: الجمل، وصفين والنهروان التي أشعلت من قبل الناكثين والقاسطين والمارقين. وسنشير هنا إلى هذه المعارك بصوره مختصره:

أ - معركة الجمل

لم تمر على بيعه امير المؤمنين عليه السلام أكثر من ثلاثه أشهر حتى ضاقت طوائف من المستكبرين ذرعاً بعداله الإمام عليه السلام ولم تطق تحمله فهبت لمخالفته. معاويه من جانبه أعلن في الشام عن عدم استعداده لمبايعه علي عليه السلام ثم تأهب للقتال. فكتب الإمام عليه السلام رسائل إلى ولايه على الكوفه بالبصره ومصر ليجهزوا الجيش من أجل مقاتله معاويه. . . في هذه الاثناء هم طلحها لزيير بالسفر إلى مكه بذريعه أداء العمرة.

فالتقيا في مكه عائشه التي كانت متذمره من مبايعه علي عليه السلام فانضمت إليهما واتجهوا إلى

البصره لنصره عثمان. وبالطبع فإنّ كافه القرائن تشير إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا يطالبون بدم عثمان، ولم يكن لهم من تعصب للإسلام؛ قتله عثمان لم يكونوا فى البصره، أضف إلى ذلك فان نصره عثمان لا تسلّتم مخالفه أمير المؤمنين على عليه السلام، ناهيك عن أنّ طلحه من قادة الثوره على عثمان.

و واضح أنّ هدف هؤلاء من نقض بيعتهم لعلّى عليه السلام هو عدم حصولهم على المناصب التى كانوا يحلمون بها. وأخيراً تمكن طلحه والزبير مع عائشه فى شهر ربيع الثانى عام ٣٦ هـ بالمكر و الخداع من الاستيلاء على البصره ثم أخذوا لأنفسهم البيعه من الناس حيث سدّدوا أولى ضرباتهم لوحده الأّمه الإسلاميه.

الإمام عليه السلام بدوره لما كان عالماً بهذا الأمر أنفذ جيشه الذى جهزه لقتال معاويه نحو البصره ثم كتب رساله لعامله على الكوفه «أبو موسى الأشعري» يطلب منه تعزيز الجيش - ورغم أنّ أبا موسى لم يرد بالايجاب على رساله الإمام إلّا أنّه انفذ جيشاً قوامه تسعه آلاف مقاتل إلى الكوفه - وفى جمادى الآخره التحم الجيشان، وطبق نقل «تاريخ يعقوبى» فإنّ المعركه استغرقت أربع ساعات هزم فيها جيش طلحه والزبير، فانبرت عائشه لتعبئه أهل البصره فركبت الجمل ومن هنا سميت هذه المعركه بمعركه الجمل؛ وقد أبدى الجيش الذى تمحور حول الجمل مقاومه عنيفه.

فنادى الإمام عليه السلام: «إعقروا الجمل» فلما عقر الجمل إنتهت المعركه حيث قتل طلحه والزبير (فقد قتل طلحه فى الميدان على يد مروان، بينما فر الزبير ليقتل خارج ميدان المعركه) فسرح الإمام عليه السلام عائشه بكلّ إحترام على أنّها زوج النّبى صلى الله عليه و آله إلى المدينه.

وقيل أنّ عدد القتلى فى الجمل قد بلغ عشره آلاف وقيل سبعة عشر ألفاً، وهكذا حسمت المعركه لصالح الإمام عليه السلام واخذت تلك الفتنه. (١)

ب - معركه صفين

عاد الإمام عليه السلام إلى الكوفه بعد الجمل، فكتب لمعاويه كتابا طالبه بالبيعه. فلم يجبه معاويه

ص: ٢٥٧

١- ١) ما ورد أعلاه، أُقتبس من «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير ج ٣ مع تلخيص.

وأخذ يدعو الناس للطلب بدم عثمان حتى أمر البعض بان يعلنوا على الناس أنّ قاتل عثمان هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

و بعد مضي مدّة كتب رساله لعلي عليه السلام يعلن فيه الحرب بعد أن جيش جيوش الشام.

فجهز الإمام عليه السلام أهل الكوفة لينفذ جيشه إلى صفين وقد أجابه أغلب الناس إلّا القليل منهم.

فجعل الإمام عليه السلام جيشه طوائف وجعل لكل طائفه أمير. وصل الإمام عليه السلام صفين لثمان بقين من محرم عام ٣٧ هـ ليلتقى جيش معاويه هناك. حاول بعض أصحاب الإمام عليه السلام البدو بالقتال، فكتب معاويه رساله للإمام عليه السلام يناشده عدم التعجيل بالقتال.

الإمام عليه السلام من جانبه كان يسعى جاهدا للحيلولة دون نشوب القتال فكان يرسل الرسائل و الأفراد يناشده جيش معاويه الالتحاق بصفوف المسلمين حتى مرت عدّه شهور ولم يأذن الإمام عليه السلام بالقتال رغم اصرار أصحابه عليه. إلّا أنّ كل هذه الأمور لم تكن تجدى نفعاً، حتى نشبت المعركة في شهر ذى الحجه عام ٣٧ هـ ووقع بين الطرفين قتال شديد، ثم توقف القتال بحلول شهر محرم الحرام، ثم أخذ الإمام عليه السلام يرسل رسائله ويبعث بأصحابه، وما ان انتهى شهر محرم حتى نشب القتال ثانيه حتى زحف جيش الإمام ومنى جيش الشام بالفشل.

و أخيراً شعر معاويه بهزيمة جيشه فعمد إلى الجيش بحمل المصاحف، فحدث انشقاق في جيش الإمام عليه السلام بعد أن تعالت أصوات المنافقين بالكف عن القتال ثم انتهى الأمر إلى التحكيم الذي فرض على الإمام.

فاختاروا أبا موسى الأشعري المعروف بسداجته ممثلاً عن الإمام عليه السلام وعمرو بن العاص عن معاويه بعد أن اتفقا على أن يخلع كل صاحبه.

فقام أبو موسى الأشعري وخاطب الناس أنّي خلعت علياً عليه السلام كما أخلع خاتمي، بينما خدعه عمرو بن العاص ولم يخلع معاويه. وهكذا ضاعت أعظم فرصه كادت أن تقضى على بني أميه و تغير وجه التاريخ فندم جيش الإمام عليه السلام حيث لا ينفع الندم.

ج - معركة النهروان

يفهم من أحداث معركة صفين أنّ الخوارج فئه أفرزتها تلك المعركة بعد مسأله التحكيم.

حيث أصرّوا على الإمام عليه السلام بقبول التحكيم فلما قاد إلى تلك النتيجة ندموا ندماً شديداً ليعتبروا التحكيم مخالفة صريحه للقرآن وأنه الكفر بعينه، وقد بلغت بهم الوقاحة أن طالبوا الإمام عليه السلام بالتوبه وإلّا هبوا لقتاله. فلما رأى الإمام عليه السلام الاختلاف قد دب بين جيشه (ولاحظ عناصر النفاق التي كانت تحاول إثارة الفتنة) أصدر أمره بالعوده إلى الكوفه.

فلما عاد الجيش إلى الكوفه، انشق منه اثنا عشر ألف من الأفراد المتعصين ليلجأوا إلى الحروراء - قريه تبعد ميلين عن الكوفه - ومن هنا اطلق عليهم إسم الخوارج الحروريه، وأخيراً استعدوا للقتال بعد أن تجمعوا في النهروان قرب الحروراء.

و الغريب في الأمر كان البعض منهم من أصحاب البرانس من الحفاظ. إلّا أنّهم كانوا يعرفون بالجهل والتعصب والالتزام بظواهر الدين دون باطنه ومن هنا استحقوا إسم «المارقين» .

سعى الإمام عليه السلام بادية ذى بدء إلى نصحهم والاعذار إليهم فبعث لهم الواحد تلو الآخر، فكان من ذلك أن استجاب عدد منهم وهم ينادون «التوبه التوبه يا أمير المؤمنين» حيث قيل إنّ ثمانيه آلاف منهم قد رجعوا وتابوا (تفيد الروايات أنّ الإمام عليه السلام قد جعل رايه في الميدان وأمر التوابين بالانضواء تحتها) ، مع ذلك لم ياذن الإمام عليه السلام بمقاتلتهم أملاً بعوده من تبقى منهم.

حتى بعث لهم من يحاججهم فقتلوه ثم نشب القتال، فقاتل عليه السلام قتالاً شديداً بعد أن أخبر أصحابه بأن مصارعهم دون النطفه ولن ينجو منهم عشره ولن يهلك من جيشه عشره. فكان الأمر كما أخبر عليه السلام. (١)

وقعت هذه الحرب في اليوم التاسع من شهر صفر عام ٣٨ أو ٣٩ هجرى، ولم تدم اكثر من ساعه. (٢)

ص: ٢٥٩

١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ٥٩. [١]

٢- ٢) «الكامل في التاريخ» لابن الاثير، شرح نهج البلاغه للخوئي، تاريخ الطبرى، ج ٤، نور الولايه، مروج الذهب، ج ٢ «مع التلخيص والاختصار» .

«أما وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْ لَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُوا عَلَى كِظِّهِ ظَالِمٍ، وَلَا سِيَّغِ مَظْلُومٍ، لِأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوْلِهَا، وَلَا لَفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَيْدَهُ أَزْهَيْدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطِهِ عَنزٍ» .

الشرح والتفسير

يبين الإمام عليه السلام الأسباب التي دعت إلى قبول البيعه والأهداف التي يتوخاها من الخلافه، كما يشير إلى أن هذه الخلافه والامر لا تعدل عنده شيء لولا تلك الأهداف الكبرى.

فقال عليه السلام «أما والذي فلق الحبه وبرأ النسمة، (1) لولا حضور الحاضر (2)، وقيام الحجبه بوجود الناصر، وما أخذ الله على العماء أن لا يقاروا (3) على كظه (4) ظالم، ولا سغب (5) مظلوم، لا لقيت حبلها على غاربها (6)، ولسقيت آخرها بكأس أولها» .

ص: ٢٤١

١- ١) «نَسَمَهُ» في الأصل بمعنى هبوب الرياح بشكل هادئ، وتستعمل أحيانا للاشاره إلى التنفس، ويُطلق أحيانا على الانسان، فيقال «نَسَمَهُ، أما المقصود بها في بحثنا هذا فهو «الانسان» أو «الروح» .

٢- ٢) «حاضر» بمعنى حضور الشخص أو الشئ، وقال أرباب اللغه أنها تأتي بمعنى القبيله والطائفه الكبيره، ولعلها وردت هنا بهذين المعنيين.

٣- ٣) «لا يقاروا» من ماده «قرار» بمعنى السكون، وعليه فالمراد بالعباره أن لا يسكتوا ولا يسكنوا.

٤- ٤) كظه ما يعترى الاكل من الثقل والكره عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استثثار الظالم بالحقوق.

٥- ٥) «سغب» تعنى الجوع، و لذلك يقال «ذو مسغبه على القحط» و ورد في القرآن «أو اطعام في يوم ذى مستغبه» و جاءت في كلام الامام عليه السلام كناية عن هضم حقوق المظلومين.

٦- ٦) «غارب»، الكاهل والكلام تمثيل للترك وارسال الأمر.

ف قوله عليه السلام «والذى فلق الحبه» إشاره لما ورد فى القرآن الكرىم بشأن الذات الإلهيه المقدسه «فالق الحب والنوى» (١) التى تتضمن أهم خلق الله سبحانه ألا- وهو خلق الحياه. وقوله عليه السلام «برء النسمه» إشاره لخلق الإنسان والروح الذى أشار له القرآن الكرىم بقوله «فتبارك الله أحسن الخالقين» (٢) فهو يتضمن القسم باهم أعمال خالق الوجود للدلاله على أهميه الأمر الذى يريد التحدث عنه.

و قوله عليه السلام «لولا حضور الحاضر» فى إشاره إلى حضور الحاضرين بالبيعه له، وإن ذهب البعض إلى أنّ المراد بالحاضر ذات البيعه والذى لا يختلف كثيرا والمعنى الأول.

أمّا القول بأنّ المراد حضور الله أو حضور الزمان الذى تنبئ به الرسول الكرىم صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام فهو مستبعد جداً، وإن أوردته بعض الفضلاء كتفسير لتلك العبارة. على كل حال فان هذه العبارة تتحد فى المعنى مع قوله عليه السلام: «و قيام الحججه بوجود الناصر» لتشير كلاهما لاتمام الحججه عليه عليه السلام فى أن ينهض بالأمر بعد توفر العده من الأصحاب والبيعه أمّا قوله عليه السلام «لالقيت حلها على غاربها» فهو كناية عن الانصراف عن الشىء، حيث جرت العاده أن يطرح زمام الناقه على ظهرها إذا لم يكن هناك من حاجه إليها فى عمل.

و قوله عليه السلام: «لسقيت آخرها بكأس أولها» كناية عن الصير على الأمر وتركه كما صبر عليه ازاء الخلفاء الثلاثة (٣). إلّا أنّ الإمام عليه السلام يرى نفسه ملزما بالنهوض بالأمر والتصدى للخلافه لسيين: أحدهما وجود الناصر الذى يتم الحججه عليه بالقيام من جانب، والثانى العهد الذى أخذه الله على العلماء بالقيام بالأمر إذا ما غيبت العداله واستفحل الظلم وضيعت الحقوق «لولا حضور الحاضر وقيام الحججه بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظه ظالم ولا سغب مظلوم» .

ص: ٢٤٢

١- ١) سورة الانعام / ٩٥. [١]

٢- ٢) سورة المومنون / ١٤. [٢]

٣- ٣) والشاهد على ذلك الشعر الذى تمثل به عليه السلام فى قضيه مخالفه طلحه والزبير والتمهيد لنشوب معركة الجمل. حيث قال: فتن تحل بهم وهن شوارع تسقى آواخرها بكأس الأول بحار الانوار، ٣٢ / ١١٨. [٣]

فالواقع أنّ كلام الإمام عليه السلام تحذير لكافه علماء في ممارسه مسؤوليتهم في تشكيل الحكومه وبسط العدل والقسط في ربوع المجتمع وعدم السكوت والتخاذل في حاله توفر هذه الأسباب. ويخطىء كل أولئك الذين يرون وظيفتهم إنّما تقتصر على إقامه الشعائر العباديه كالصوم والصلاه والحج والزكاه إلى جانب الإتيان بالمستحبات. فبسط العدل والقسط والدفاع عن المظلوم والقيام بوجه الظالم تعدّ من جوهر الوظائف الإسلاميه لهؤلاء العلماء.

ثم يقول عليه السلام: «و لا لفيتم (١) ديناكم هذه أزهّد عندي من عفته (٢) عنز» .

وبالالتفات إلى ما ورد في صحاح اللغه من أن العفته تعنى الماء الذى يترشح من أنف الشاه (أو العنز حين العطسه) تتضح مدى تفاهه الدنيا - التى تحظى بفائق الأهميه لدى أهلها - عند على عليه السلام، فما قيمه العنز فضلا عن ماء أنفها والحق ان مثل هذه التعبيرات قد تبدو غريبه بالنسبه لأولئك الذين لا يعرفون شخصيه على عليه السلام؛ إلّا أنّ هذه الغرابه ربّما تزول بأدنى نظره إلى سيرته عليه السلام وحياته التى عاشها.

قال السيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبه.

«قالوا وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه هذا الموضوع من خطبته فناوله كتاباً - قيل أنّ فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها - فاقبل ينظر فيه (فلما فرغ من قرائته) قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت.

فقال: «هيهات يا بن عباس تلك شقشقه هدرت ثم قرّت» قال ابن عباس فو الله ما أسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام إلا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث يريد» .

أمّا التعبير بأهل السواد فهو إشاره إلى المناطق الغنيه بالزراع والأشجار التى تبدو من بعيد سوداء، لأنّ اللون الأخضر يتركز من بعيد ليميل إلى السواد، ولما كان هل الحجاز ألغوا الأرض اليابسه الخاليه التى يصطلح عليها بالبياض فأنهم إذا ما انطلقوا نحو العراق المخضر بفضل

ص: ٢٤٣

١- ١) «ألفيتم» من ماده «الفاء»، بمعنى وجدتم ورأيتم.

٢- ٢) عفته العنز: ما تنثره من أنفها، واكثر ما يستعمل ذلك فى النعمه وإن كان الأشهر فى الاستعمال بالنون «النقطه» .

نهرية دجله والفرات وتلوح أشجاره وزرعه من بعيد يبدو أسوداً فيصطلحون عليه بأرض السواد كما يطلقوا على أهله اسم أهل السواد.

أما مضمون الكتاب والمسائل التي فيه فقد تطرق إليها بعض شراح نهج البلاغه وسنعرض لها في البحث القادم.

وقد روى ابن أبي الحديد بهذا الشأن عن استاذة مصدق بن شبيب أنه قال: قرأت على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما إنتهيت إلى هذا الموضع، قال لي: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمك أمر لم يبلغه فوالله ما رجعت عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بقي في نفسه أحد لم يذكره إله رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال مصدق: وكان ابن الخشات صاحب دعاية وهزل، قال: فقلت له: أتقول إنها منحولة. فقال: لا والله وإنى لأعلم أنها كلامه، كما أعلم أنك مصدق. (١)

قال الشريف الرضى رحمه الله: قوله عليه السلام «كراكب الصعبة إن اشتق لها خرم وإن أسلس لها تقحم» يريد أنه إذا شدد عليها في جذب الزمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها يقال «أشلق الناقه» إذا جذب رأسها بالزمام فرفعها و«شنتها» أيضاً، ذكر ذلك «ابن السكيت» في اصلاح المنطق وإثما قال «اشتق لها» ولم يقل «اشتقها» لأنه جعله في مقابلة قوله «أسلس لها» فكانه عليه السلام قال: إن رفع رأسها بمعنى أمسكه عليها بالزمام).

تأملات

١- الرد على سؤال

قد يقال: تعتقد الإمامية واتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام أن الإمام ينصب من قبل الله تعالى بواسطة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لا على أساس إنتخابه من قبل الأمة، بينما صرح الإمام عليه السلام في هذه

ص: ٢٦٤

(١-١) شرح نهج [١] الباغه ابن أبي الحديد ٢٠٥ / ١ [٢]

الخطبه قائلاً: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجبه بوجود الناصر و... لالقيت جيلها على غاربها» فكيف التوفيق بينهما؟

و نقول في الردّ على هذا السؤال أنّ للامامه والخلافه واقع ومقام ظهور وبروز فواقعها أنّها تعين من قيل الله بواسطه نبيّه صلى الله عليه وآله، أمّا ظهورها وبروزها والتصرف في شؤون المسلمين والمجتمع الإسلامي إنّما يتوقف على الأئمه ونهوض أبنائها في توفير الدعم والاسناد؛ الأمر الذي لا يتأتى إلّا من خلال بيعه الأئمه.

و من هنا أصبح الإمام عليه السلام جليس الدار إبان خلافه الخلفاء الثلاثة - طيله خمس وعشرين سنه - ولم يتدخل في شؤون الخلافه، والحال لم تكن هنالك من ثلمه في إمامته المنصوص عليها من جانب الله بواسطه النبي صلى الله عليه وآله ويصدق هذا الكلام على بعض أئمه العصمه والطهاره، فقد إقترح أبو مسلم الخلافه على الإمام الصادق عليه السلام، ولعلمه عليه السلام بالمؤامره لم يجيبه.

بل كان البعض يطالب الأئمه بالقيام وتولى الخلافه. فيجيبون باننا لا نملك ما يكفى من الأنصار (1).

٢- المسائل التي تضمنها الكتاب

روى المرحوم «الشارح البحراني» في كتابه عن أبي الحسن الكيدري أنّ الكتاب الذي سلم إلى علي عليه السلام آخر الخطبه كان يقسم عشره أسئله هي:

١- الذي خرج من بطن وليس له بولد؟

قال عليه السلام: يونس عليه السلام الذي خرج من بطن الحوت.

٢- ما كان قليله مباح وكثيره حرام؟

قال عليه السلام: نهر طالوت.

٣- العباده التي يعاقب على الإتيان بها أو تركها؟

قال عليه السلام: الصلاه في السكر.

ص: ٢٤٥

١- (١) اصول الكافي ٢ / ٢٤٢ كتاب الإيمان والكفر، باب قله عدد المؤمنين، ح ٤.

٤- الطائر الذى ليس له أصل (أم)؟

قال عليه السلام: الطائر الذى خلقه عيسى عليه السلام باذن الله.

٥- رجل مدين الف درهم وله الف درهم وضمنه آخر وكان له الف درهم، وقد مضى عليه عام، فالزكاه على أى من المالين؟

قال عليه السلام: إذا فعل الضامن ذلك باذن المدين فلا زكاه عليه، وإن فعله بدون إذنه وجبت عليه الزكاه.

٦- حج جماعه فنزلوا بيتاً فى مكة وأغلق أحدهم باب البيت فكان فيه طيور فماتت عطشا، فعلى من تجب الكفاره؟

قال عليه السلام: على من أغلق الباب ولم يخرج الطيور ولم يسقيها.

٧- شهد أربعة على رجل بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه (لأنه كان محصناً) فرجمه أحدهم وساعده جماعه وامتنع الثلاث. ثم رجع

عن شهادته (وأقر بكذبه) ولم يمت المتهم. ثم مات وبعد موته رجع الثلاث عن شهادتهم. على من تجب دينه؟

قال عليه السلام: على ذلك الرجل والجماعه الذين ساعدوه (١).

٨- هل تقبل شهاده يهوديين لثالث باعتناق الإسلام؟

قال عليه السلام: لا تقبل شهادتهما؛ لأنهم يحرفون كلام الله ويجوزون الشهاده بالباطل.

٩- هل تقبل شهاده نصرانيين لنصرانى أو يهودى أو مجوسى بالإسلام؟

قال عليه السلام: تقبل لقوله سبحانه: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» (٢).

١٠- قطع شخص يد آخر، فشهد أربعة عند الإمام قطعت يده وقد زنا بمحصنه، فاراد الإمام أن يرحمه فتوفى قبل الرجم، فما

حكمه؟

ص: ٢٦٦

١- ١) هذا إذا أخطأ الشهود فان كان عن عمد فحكمهم القصاص كما ورد فى كتاب القصاص. والنقطه الجديره بالذكر للشهود الذين حصل الرجم لشهادتهم أن يرجعوا وما دفع يؤخذ من الأربعة بالتساوى وللوقوف أكثر راجع كتاب الجواهر، ٤١ / ٢٢٥، ولا بد من الالتفات هنا إلى وجود بعض التفاوت بين ما ورد فى هذا الحديث وما جاء فى الكتب الفقيهه.

٢- ٢) سوره المائده / ٨٢. [١]

قال عليه السلام: تجب الديه على من قطع يده، لكن ان شهدوا أنه سرق بحد النصاب فلا تجب الديه على القاطع (١). طبعاً ما ذكر هو مضمون روايه مرسله رويت عن الكيدري ولم تثبت صحه سند الحديث، ولذلك هناك أبحاث كثيره من وجهه النظر الفقيهه بشأن بعض الفروع المذكوره فى هذا الحديث.

٣- مميزات الخطبه الشقشقيه

إن نظره عامه إلى خطب نهج البلاغه تفيد أن الخطبه الشقشقيه هى من الخطب التى قل نظيرها إن لم نقل لا نظير لها فى نهج البلاغه؛ الأمر الذى يثبت أن الإمام عليه السلام قد أوردتها فى ظروف خاصه للحيلولة دون نسيان الحقائق المتعلقة بالخلافه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لتخلد فى التاريخ ومن هنا أطلق عباراته بصراحه تامه. فقد أوضح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه عدّه أمور منها:

١- أحقيته وجدارته بالخلافه التى بينها بوضوح وهذه هى الحقيقه التى إتفق عليها تقريباً كافه المحققين المسلمين وغير المسلمين، حتى إعترف معاويه أعدى أعداء الإمام عليه السلام بافضليته (٢).

٢- مظلوميته عليه السلام رغم أحقيته وكفائته.

٣- يفيد كلام الإمام عليه السلام عدم وجود مرجع واضح لانتخاب أى من الخلفاء الثلاثة، اضافته إلى المعايير المتعدده التى حكمت ذلك الانتخاب، فقد كانت خلافه أحدهم تستند إلى رأى واحد، وآخر لنصف من شورى سداسيه وثالث لعدد من الآراء.

٤- ابتعاد الأمه فى عصر الخلفاء عن تعاليم النبى الأكرام صلى الله عليه وآله وتفاقم الازمات على مرور الزمان، بحيث كانت من أبلغ الصعوبات التى واجهت الإمام عليه السلام حين تولى الخلافه تكمن فى

ص: ٢٦٧

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحرانى ١ / ٢٦٩، المتسدر ك ٧ / ٥٥.

٢- ٢) ورد هذا المعنى فى الرساله التى كتبها معاويه وبعث بها لمحمد بن أبى بكر والثى نقلتها أغلب المصادر الإسلاميه ومنها مروج الذهب، فقد قال فيها أنى وأبيك نقر بفضل على وحقه علينا... إلأ أن أبيك وفاروقه (عمر) هما أول من خالفه بعد وفاه النبى صلى الله عليه وآله. وقال اليعقوبى فى تاريخه: وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون فى على عليه السلام. (تاريخ اليعقوبى

[١]. (٢/١٢٤).

إعادته الأُمَّه إلى القيم الإسلاميه التي كانت سائده على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله.

٥- أنّ التهافت على الدنيا والاغترار بزخرفها هو العامل الذى يقف وراء الفوضى والاضطراب والحروب التي نشبت على عهد الإمام على عليه السلام.

٦- أنّ ما حصل للإمام على عليه السلام هو البيعه الحقيقيه بعينها، غير أنّ عداله على عليه السلام وشدته فى الحق أثارت حفيظه بعض زعماء المجتمع لينقضوا البيعه ويقسط ويمرق آخرون.

٧- لم يكن للإمام عليه السلام أيه رغبه بالخلافه ولم يراها هدفاً قط، بل هي وسيله لاحقاق الحق ابطال الباطل وبسط العدل والقسط.

٨- كانت الانتفاضات التي حدثت فى زمان عثمان والتي أدت بالتالى إلى قتله طبيعياً جداً ونتيجته لسلوكة وبطانته من بنى أميه الذين سلطهم على رقاب المسلمين فجعلهم عمالاً وولاه على بعض المناطق فعبثوا ببيت المال واسرفوا فى تبذيره حتى تارت الأُمَّه بعد أن انطلقت شراره الرفض من المناطق البعيده عن مركز الخلافه كمصر والبصره والكوفه.

٩- كانت المعارك الثلاث - الجمل وصفين والنهروان - قد فرضت على الإمام عليه السلام من قبل الأفراد الذين لم يطبقوا عدله عليه السلام إلى جانب أولئك الذين يبحثون عن الجاه والمنصب.

١٠- عدم انسجام عقيدته تنزيه الصحابه وعدالتهم لمجرد صحبتهم مع أى من المعايير والوقائع التاريخيه؛ وهو الاعتقاد الذى يقود إلى التناقض، فاصحاب فتنه الجمل هما إثنان من الصحابه وصاحب صفين من الصحابه أيضاً بينما كانت طائفه من الصحابه من مشعلى نار النهروان وقد خرج جميع هولاء على إمام زمانهم فاختراروا سبيل البغى وشق عصا الأُمَّه الإسلاميه وبث الفرقة والاختلاف فى صفوفها. فكيف والحال هذه نقول على عليه السلام.

على الحق وطلحه والزيير ومعاويه كذلك؟! ! أمّا الاستدلال بالاجتهاد فى هذه الأمور فهو توجيه يفتقر إلى المنطق ومدعاه حتى لارتكاب الكبائر.

ومن خطبه له عليه السلام

و هي من أفصح كلامه عليه السلام وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم ويقال:

«إنّه خطبها بعد قتل طلحه والزبير»

نظره إلى الخطبه

يمكن أن تكون هذه الخطبه كما يفهم من عنوانها قد وردت بعد أحداث معركة الجمل وقتل طلحه والزبير فهي تتحدث عن وقائع المعركه والدروس والعبر التي ينبغي أن يتعلمها المسلمون. حيث يمكن خلاصه الخطبه في محاور رئيسيه ثلاث:

١ - التصريح بهذه الحقيقه وهي هدايه الأّمه من الظلمات بواسطه أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله حتى بلغت ذروه تكاملها ورفيها، وعليه فعليها أن تعيرهم آذانا صاغيه وتتفاعل مع مواظهم ونصائحهم.

٢ - إنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بالخيانه ونقض العهود والتمرد، إلّا أنّ جلباب الدين لم يدعه يكشف تلك الحقائق.

٣ - يشير الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من الخطبه إلى أنّ اليوم لم يعدّ يوم التستر على الحقائق؛ لابدّ من إعلان هذه الحقائق وإلّا يخشى على الأّمه من الضلال وهذا بذاته ما يجعل الإمام عليه السلام يعيش هاجس القلق.

«بنا اهتديتم فى الظلماء، وتسنتم ذروه العلياء، وبنا أفجرتم عن السرار وقز سمع لم يفقه الواعيه، وكيف يرعى النبأ من أصمته الصيحه؟ ربط جنان لم يفارقه الحفان» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى بدايه الخطبه إلى النعم الجمه التى تمتع بها المسلمون - ولا- سيما فى صدر الإسلام - فى ظل الإسلام، حيث وضع هذا الأمر ثلاث عبارات قصيره ذات تشبيهات رائعه فقال عليه السلام: «بنا إهتديتم (1) فى الظلماء (2) وتسنتم (3) ذروه (4) العلياء، وبنا افجرتم (5) عن السرار (6)». فالإمام عليه السلام يشير فى العبارة الأول إلى ظروف الجاهليه التى خيم فيها الظلام والجهل والفساد والجريمه على كافة الأماكن حتى تبددت هذه الظلمات بظهور النبى صلى الله عليه وآله

ص: ٢٧١

١- ١) «اهتديتم» من «الاهتداء» تستعمل - حسب قول بعض شراح نهج البلاغه وارباب اللغه - حيث يميل الإنسان بإرادته للهدايه وهكذا جاءت فى العبارة.

٢- ٢) «ظلماء» على وزن صحراء بمعنى ظلمه أول الليل أو بعبارة أخرى النور بعد الظلمه؛ خلافا للظلمه بمفهومها العام ولعل الإمام عليه السلام أراد بها عصر الجاهليه الذى يعتبر فى الواقع ظلمه بعد النور؛ أى دعوه الأنبياء أولى العزم.

٣- ٣) «تسنتم» من ماده سنم على وزن قلم بمعنى العلو ومن هنا يطلق على ذروه الجمل إسم سنام.

٤- ٤) «ذروه» من ماده «ذرو»، لها معنيان: أحدهما إشراف شىء على آخر ومن هنا تطلق الذروه على قمه الجبل، والآخر تفتت الشىء وتفرقه.

٥- ٥) «أفجرتم» من ماده «فجر» بمعنى الفجوه الواسعه فى الشىء ومن هنا اطلق الفجر على الصباح الذى يشق عتمه الليل، وأفجرتم بمعنى دخول الفجر.

٦- ٦) «سرار» من ماده «سر» بمعنى الخفاء وما يقابل العن، وتطلق مفرده السرار عاده على الليالى الأخيره للشهر حيث يكون الجو ظلاما دامساً.

وانبثاق الدعوه الإسلاميه ليهتدى الناس إلى الصراط المستقيم ويتجهون نحو الهدف المنشود. ويشبه فى العبارة الثانيه حركه الرقى والتكامل والازدهار بالجمل ذى السنم (حيث اقتبست المفرده تسنم من ماده سنم أعلى قمه فى الجمل) فقال عليه السلام لقد بلغت هذه الذروه وقطعتم مسيره الرقى والتكامل فى ظل الإسلام؛ الحقيقه التى إذعن لها جميع مؤرخى الشرق والغرب فى كتبهم التى تعرضوا فيها للمدنيه الإسلاميه وحضارتها. ثم شبه فى العبارة الثالثه أوضاع المجتمع الجاهلى بليالى الشهر الظلماء والمحاق (حيث تعنى السرار الليالى التى لايزغ فيها القمر أبداً) فقال عليه السلام: «و بنا أفجرتم عن السرار». والواقع هو أن هذه التعبيرات إنما تنبع من القرآن الذى شبه الإسلام والإيمان والوحى بالنور، فقال: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» (١) وقال فى موضع آخر: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ» (٢) وقال: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ» (٣) - ثم يذم عليه السلام الأفراد الذين صخت آذانهم عن سماع الحق بينما يثنى على غيرهم من ذوى الاسماع فقال عليه السلام: «وقر سمع لم يفقه الواعيه». تستعمل مفرده «الوقر» بشأن الصمم كما تستعمل فى ثقل السمع، والمراد بالواعيه الأصوات المرتفعه، وهى إشاره لآيات القرآن التى تفرع الاسماع بشأن المسائل المهمه العقائديه والعملية والأخلاقية وكذلك السنه النبويه الشريفه. أما التعبير «لم يفقه» بدلاً من «لم يسمع» تفيد عدم جدوى السمع مالم يصحبه الإدراك والفهم. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال: «وكيف يراعى النباه (٤) من أصمته الصيحه» (٥). والمراد كيف يصغى لى ويستمع قولى من لا يراعى أو امر الله ونيبه صلى الله عليه و آله فقد شبه

ص: ٢٧٢

١-١ (١) سورة البقره / ٢٥٧. [١]

٢-٢ (٢) سورة المائده / ١٥ - ١٦. [٢]

٣-٣ (٣) سورة الزخرف / ٤٤. [٣]

٤-٤ (٤) «النبأ» من ماده «نبأ» بمعنى القدوم من مكان إلى آخر ومن هنا اطلق النبأ على الخبر الذى ينتقل من مكان إلى آخر والنبأ بمعنى الصوت الخفى لأن الصوت ينتقل من مكان إلى آخر (مقاييس اللغه).

٥-٥ (٥) قال بعضى شراح نهج البلاغه [٤] أن قوله «أصمته الصيحه» ليس معناه أن الصيحه كانت عله لصممه، بل معناه أنهم كانوا صمما عن سماع صوت الوحى، كقوله سبحانه «أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون» (سوره يونس / ٤٢). [٥]

ذلك بمن أصمته الصيحه القويه فانه محال أن يراعى بعد ذلك الصوت الضعيف. ولما كانت هنالك الفئه الأخرى المتعصبه للحق فقد قال عليه السلام: «ربط جنان (١) لم يفارق الخفقان (٢)».

ملاحظه

الهدايه فى ظل أهل البيت عليهم السلام

ما مر معنا فى هذا القسم من الخطبه هو إشاره إلى واقعه تاريخيه مهمه تتضح من خلال مقارنه عصر العرب الجاهليه بعصر التطور والازدهار الذى أعقب بزوغ شمس الإسلام، كيف كان عرب الجاهليه من حيث العقائد الدينيه والقضايا المتعلقة بالمبدأ والمعاد والنظام الاجتماعى ونظام الاسره والأخلاق والتقوى والأوضاع الاقتصاديه وكيف أصبحت هذه الأمور أبان انبثاق الدعوه الإسلاميه ونزول القرآن الكريم. والحق أن التفاوت بينهما إلى درجه من المدى والعمق بحيث لايمكن سوى نعته بالمعجزه الكبرى وإلما تعذر تصور ذلك التفاوت. فما صوره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه لم يكن سوى الظلام المطلق الذى القى بظلاله على جميع المجتمع، ولم يكد ينبثق الإسلام حتى تبددت هذه الظلمه بفجر الإسلام ليأخذ بيد المجتمع إلى العلم والمعرفه والثقافه والحضاره والمدنيه. ولم تكن سوى إشاره قصيره ولا يمكن الالمام بتفاصيلها إلا بالرجوع إلى الكتب التى ألفت بشأن الحضاره الإسلاميه. كما وردت بعض التفاصيل فى سائر خطبه عليه السلام فى نهج البلاغه.

ص: ٢٧٣

١-١) «جنان» بمعنى القلب لأنه فى صدر الإنسان وقد اشتقت هذه المفرده من جن (على وزن فن) بمعنى الاستتار ومن هنا يطلق جنّه على الحديقه الغناء والأرض المغطاه بالأشجار، ويطلق الجنين على الطفل المستتر فى بطن أمّه كما تطلق مفرده الجن لأنهم استجنوا فلا يروا والمجنون تطلق على من ستر عقله.

٢-٢) «خفقان» بمعنى الاضطراب، ويستعمل للخوف والخشيه لأنها تدعو للاضطراب والمراد بها فى العبارة خوف الله.

إشاره

«ما زلت أنتظر بكم عواقب الغدر وأتوسمكم بحليته المغترين، حتى سترني عنكم جلباب الدين، وبصرتيكم صدق الله أقمت لكم على سنن الحق في جواد المصله، حيث تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميؤون» .

الشرح والتفسير

لقد خاطب الإمام على عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه - سليلي أصحاب الجمل من تبقى منهم قائلاً: «مازلت أنتظر بكم عواقب الغدر، واتوسمكم (1) بحليته المغترين (2)». فقد روى أنه لما بويع على عليه السلام كتب إلى معاويه: أما بعد فإن الناس قتلوا عثمان عن غير مشوره مني وبايعوني عن مشوره منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايع لي، وأوفد إلى أشرف أهل الشام قبلك.

فلما قدم رسوله على معاويه، وقرأ كتابه، بعث رجلاً من بنى عميس، وكتب معه كتاباً إلى الزبير بن العوام، وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاويه بن أبي سفيان:

سلام عليك، أما بعد، فإنني قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفه والبصره، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين

ص: ٢٧٥

١- ١) «أتوسمكم» من ماده «وسم» على وزن ولم أتفرس فيكم، الأثر والعلامة؛ أى كنت أرى فيكم علائم الغدر منذ البدايه.

٢- ٢) «مغترين» من ماده «غرور» بمعنى مخدوعين.

المصريين، وقد بايعت لطلحه بن عبيدالله من بعدك، فأظهر الطلب بدم ثمان، وادْعُوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجَدِّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوئكما! فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سَيَّر به، وأعلم به طلحه وأقرأه إياه، فلم يشكاً في النصح لهما من قبل معاويه، وأجمعا عند ذلك على خلاف على عليه السلام.

جاء الزبير وطلحه إلى على عليه السلام بعد البيعه بأيام، فقالا له: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كُنَّا فيه من الجفوه في ولايه عثمان كلها، وعلمت رأى عثمان كان في بنى أميه، وقد ولَّك الله الخلافه من بعده، فولَّنا بعض أعمالك، فقال لهما: ارضيا بقسم الله لكما، حتى أرى رأيي، واعلما أنني لا أشرك في أمانتي إلا من أرضى بدينه وأمانته من أصحابي، ومن قد عرفت دخيلته، فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس، فاستأذناه في العمره.

طلب طلحه والزبير من على عليه السلام أن يولِّيهما المصريين: البصره والكوفه، فقال حتى أنظر. ثم استشار المغيره بن شعبه، فقال له: أرى أن تولِّيتهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ماترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الكوفه والبصره عَيْن الخلافه، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحه والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولست آمنهما إن وُلِّيتهما أن يُخدنا أمراً. فأخذ على عليه السلام برأى ابن عباس.

لما خرج الزبير وطلحه من المدينه إلى مكَّه لم يلقيا أحداً إلا وقالوا له: ليس لعلى في أعناقنا بيعه، وإنَّما بايعناه مكرهين. فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أبعدهما الله وأغرب دارهما، أما والله لقد علمت أنَّهما سيقتلان أنفسهما أخبث مقتل، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم، والله ما العُمرة يريدان، ولقد أتاني بوجهي فاجرئين، ورجعا بوجهي غادرين ناكثين، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلا في كتيبه خشاء، يقتلان فيها أنفسهما، فُبُعِدَا لهما وسحقاً. (١)

ثم أضاف عليه السلام أن لباس الدين وجليابه هو الذي يجعلني أغض الطرف عنكم (ولا أهتك سريرتكم): «حتى سترني عنكم جلاب (٢) الدين، وبصرتكم صدق التيه». والواقع هو أن عباره الإمام عليه السلام إجابته عن سؤالين هما: أولاً: لو كان الإمام عليه السلام يتوقع نقضهم للعهد ويتوسم

ص: ٢٧٦

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٢٣٠ و ٢٣١. [١]

٢-٢) «جلباب» بمعنى الثوب والستر.

ذلك فيهم فلم لم يعلن ذلك على الملاء؟ وثانياً: من أين له هذا العلم بباطن هؤلاء؟ فقد رد الإمام عليه السلام على السؤال بقوله: «سترني عنكم جلباب الدين» ورد على السؤال الثاني بقوله «وبصرتكم صدق النبي». بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى تفسير العبارة الاولى بأنكم لم تعرفوني، وما ذلك إلا لسوء فهمكم للدين، أو أن تديني منعكم من معرفتي؛ إلا أن هذا المعنى يبدو مستبعداً لما ينطوي عليه من تكلف إلى جانب عدم إنسجامه والعبارة السابقة، فالمعنى الأول هو الأنسب. ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول: «أقمت لكم على سنن الحق في جواد (١) المضله (٢) حيث تلتقون ولادليل، وتحتقرون ولا تميهون» (٣) يشبه الإمام على عليه السلام الناس في عصر عثمان ولا سيما أواخر عمره بالرحاله الذين ضلوا الطريق وساروا على غير هدى فهم يتضوون عطشاً وهم يحفرون الأرض موضعاً موضعاً من أجل الوصول إلى الماء فلا يحصلون عليه؛ فيهب الإمام عليه السلام لنجدهم فيهديهم إلى الصراط المستقيم فينتهلون من منهله العذب. ثم يلفت إنتباههم إلى عظم الفتن الدينيه والدينيه التي كانت ستلتهمهم في ذلك العصر المظلم لولا وجوده عليه السلام.

تأملان

١ - البصيره

لقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضيه مهمه وهى أنّ صفاء النفس وصدق النيه من العناصر التي تكمن وراء البصيره والفراسه. فالمؤمنون الأصفياء الباطن يرون ما لا يرى غيرهم، وهى الحقيقه التي صرّح بها القرآن الكريم وأكدتها الروايات الإسلاميه. فقد جاء في القرآن: «ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً» (٤). وورد في الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إتقوا فراسه المؤمن فإنه ينظر بنور الله» (٥) وقال الإمام الرضا عليه السلام: «ما من مؤمن إلا وله فراسه ينظر

ص: ٢٧٧

١-١) «جواد» جمع «جاده» بمعنى الطرق الكبيره و الواسعه.

٢-٢) «مضله» من ماده «ضلال» الموضع الذي يضل سالكه وعليه فمعنى جواد المضله طرق الضلال.

٣-٣) «تميهون» من ماده «موه» على وزن نوع بمعنى تجدون ماءً، ومنه أخذت مفرده الماء وأماه بمعنى بلغ الماء. عليه فمعنى لاتميهون لا تبلغون الماء (وإن أجهدتم أنفسكم في حفر الآبار).

٤-٤) سورة الانفال / ٢٩. [١]

٥-٥) اصول الكافي ١ / ٢١٨. [٢]

بنور الله على قدر إيمانه ومبلغ إستبصاره وعلمه وقد جمع الله للائمه منّا ما فرقه في جميع المؤمنين وقال عز وجل في كتابه: إن في ذلك لآيات للمتوسمين. وإن أول المتوسمين رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أمير المؤمنين عليه السلام وبعده الحسن والحسين عليهما السلام والائمة عليهم السلام من ولد الحسين إلى يوم القيامة» (١) جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام جواباً لمن سأله: كيف تعلمون بباطن الناس وتخبرون عمّا في أنفسهم. والحق ليس هنالك من حجاب مضروب على حقائق العالم، وليس ذلك سوى حجاب الهوى والهوس الشيطاني الذي يغشى بصيرتنا فيحول دون رؤيتنا للحقائق، ولو إستشعرنا قلوبنا الورع والتقوى والإيمان واليقين فإن هذه الحجب سترفع ونرى كل شيء على حقيقته، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لولا أنّ الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت» (٢).

٢ - ستر عيوب الناس

غالبا ما يتصف الأفراد بالعيوب الخفيه التي قد يطلع عليها الإنسان من خلال الطرق العاديه أو إستناداً إلى الفراسه والإيمان؛ فإذا إطلع عليها فإنّ الواجب يحتم عليه - ولاسيما إذا إطلع ذلك ولاه الأئمه وقاده المجتمع - أن يسعى جاهداً لسترها وعدم هتك حجابها مادامت لا تشكل خطراً يتهدد المجتمع؛ وذلك لأن هتك سريره الآخرين وكشف عيوبهم يجردهم من حرمتهم من جانب ويفسح المجال أمامهم لارتكاب المعاصي والجرأه على مقارفتها من جانب آخر؛ فالفرد يبقى محتاطاً مادام عيبه مستور، فإنّ هتكه وافتضح أمره فلا- يراع شيئاً، وناهيك عن كل ذلك فإن هتك العيوب مدعاه لاشاعه الفاحشه في المجتمع وتلوث الآخرين بارتكاب الذنب. ومن هنا ورد التأكيد في الروايات والأحاديث على كتم السر على أنه حق من حقوق المؤمنين على بعضهم البعض الآخر. فقد جاء في الحديث: «واكتم سره وعيبه واطهر منه الحسن» (٣). وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من ستر على مؤمن عوره يخافها ستر الله

ص: ٢٧٨

١-١) بحار الانوار ٢٤ / ١٢٨ ح ١٣. [١]

٢-٢) بحار الانوار ٦٧ / ٥٩ (باب القلب وصلاحه). [٢]

٣-٣) أصول الكافي ٢ / ٢٤٩ ح ٣ (باب ان المؤمن صنفان). [٣]

عليه سبعين عوره من عورات الدنيا والآخرة» (١) فقد أشار الإمام على عليه السلام إلى هذه الوصيه الإسلاميه وأعلن طاعته وامتناله لها، وبالطبع فقد قلنا إنّما يكون ذلك ما لم تقود تلك العيوب التي يراد سترها إلى بعض المشاكل الاجتماعيه التي تهدد كيان المجتمع، وإلا فالوظيفه تقتضى إعلان الحقائق. ولكن لا ينبغي التذرع بهذا الاستثناء من أجل هتك عيوب الناس وأسرارهم.

ص: ٢٧٩

١-١) اصول الكافي ٢ / ٢٠٠، ح ٥. [١]

«الْيَوْمَ أَنْطِقُ لَكُمْ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ! عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي! مَا شَكَّكَتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أَرَيْتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْفَةً عَلَيَّ نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلْبِهِ الْجُهَالِ وَدَوَلِ الضَّلَالِ الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَيَّ سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ» .

الشرح والتفسير

لقد تضمن هذا القسم من الخطبه عدّه عبارات أشارت لعدّه أمور مهمّه، ويبدو أنّ هنالك عدّه جمل تخللت هذه العبارات قد أسقطها السيد الرضى رحمه الله حين التلخيص، فقد كانت عاده السيد فى إختيار مقتطفات من الخطب وحذف بعض العبارات، على كل حال فإنّ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام هنا هو قوله: «اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان». والعجماء البهيمة التى لا نطق لها، إلّا أنّها تطلق أحيانا على الحوادث والقضايا الصماء التى ليست لها قابليه على النطق. ومن هنا يرى أغلب شراح نهج البلاغه أنّ المراد بالعجماء الحوادث التى تنطوى على العبر والدروس التى حدثت على عهد الإمام عليه السلام أو العهود الماضيه وكل حادثه مع غموضها وخفائها فكأنّها تنطق لأولى الألباب. فالإمام عليه السلام يتعرض لبيان عبرها ودروسها التى ينبغى أن يتعظ بها المسلمون. كما ذهب البعض إلى أنّ المراد بها صفاته الكماليه عليه السلام أو الأوامر الإلهيه فكأنّها هى الأخرى صامته والإمام عليه السلام يكشف عن منطقتها. ثم قال عليه السلام فى العبارة الثانيه: «عزب رأى امرئ تخلف عنى، ما شككت فى الحق مذ أريته» فى الواقع يبدو صدر وذيل هذه العبارة من قبيل العله والمعلول أو الدليل والمدعى، وإذا أخذ بنظر الاعتبار تربيته الإمام عليه السلام فى

حُضِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى الْحَقِّ وَالِاسْتِقَامَةِ وَبِفَضْلِهِ كَاتَبَ الْوَحْيَ وَشَاهَدَ الْمَعَاجِزَ وَالْأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ كَوْنَهُ بَابَ مَدِينَةِ عِلْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى جَانِبِ عِلْمِهِ بِالشَّهَادَةِ إِضَافَةً لِعِلْمِهِ بِالظَّاهِرِ فَإِنَّ كَلَامَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى لِلْإِعْرَاقِ وَالْمِبَالِغَةِ قَطُّ. وَاحْتِمَلُ بَعْضُ الشَّرَاحِ أَنَّ جَمْلَهُ «عَزَبَ رَأْيَ إِمْرِي...» مِنْ قَبِيلِ الدَّعَاءِ؛ أَيْ بَعْدًا وَتَرْحًا لِمَنْ تَخَلَّفَ عَنِ أَوْامِرِي. وَيَبْدُو الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَنْسَبَ، أَمَّا الْعِبَارَةُ الثَّلَاثَةُ فَقَدْ أُورِدَ فِيهَا الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَدًّا عَلَى سَأَلٍ قَدْ يُقْتَدَحُ فِي ذَهْنِ الْبَعْضِ بَعْدَ مَوْقِعِهِ الْجَمَلِ وَهُوَ: لِمَ كَانَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَلْقًا مِنْ أَحْدَاثِ تِلْكَ الْمَوْقِعِ؟ فَالْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجِبُ بَأَنَّ هَذَا الْقَلْقَ لَيْسَ عَلَى نَفْسِهِ قَطُّ، بَلْ خَشِيَهُ مِنْ تَسْرِبِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ إِلَى قُلُوبِ عَوَامِ النَّاسِ بِفِعْلِ إِقْتِحَامِ الْمِيدَانِ مِنْ قَبْلِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَعْضِ الصَّحَابَةِ مِنْ قَبِيلِ طَلْحَةَ وَالزَّبِيرِ وَارْتِفَاعِ الْأَصْوَاتِ الْمَطَالِبَةِ بِدَمِ عَثْمَانَ؛ كَالْقَلْقِ الَّذِي عَاشَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ وَاجَهَهُ السِّحْرَ بِسِحْرِهِمْ خَشِيَهُ غَلْبَتَهُمْ وَاضْلَالَ النَّاسِ «لَمْ يَوْجِسْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْفَهُ عَلَى نَفْسِهِ بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلْبَةِ الْجَهَالِ وَدَوَلِ الضَّلَالِ». وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي سُورَةِ طه بِشَأْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسِّحْرِ «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصْوَاهُمْ يُخْتَلُّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنْهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى» (١). أَمَّا فِي الْعِبَارَةِ الرَّابِعَةِ فَيَحْذَرُ مِنْ تَبْقَى مِنْ مَثْبُورِ فَتْنَةِ الْجَمَلِ فِي أَنَا وَإِيَّاكُمْ قَدْ وَقَفْنَا عَلَى مَفْتَرِقِ طَرِيقٍ نَتَجَّهُ فِيهِ إِلَى الْحَقِّ بَيْنَمَا تَتَجَهَّوْنَ نَحْوَ الْبَاطِلِ «الْيَوْمَ تَوَافَقْنَا (٢) عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ». كَأَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامَ يَقُولُ لَهُمْ، افْتَحُوا أَعْيُنَكُمْ وَانظُرُوا إِلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فَانْظُرُوا إِنْ مَا خَرَجْتُمْ عَلَى إِمَامِ زَمَانِكُمْ! لَقَدْ نَكْتُمُ الْبَيْعَةَ وَلَمْ تَقِيمُوا حَرَمَهُ لِلْمَوَاطِقِ! لَقَدْ شَقَقْتُمْ عَصَا الْمُسْلِمِينَ وَفَرَقْتُمْ صَفُوفَهُمْ! وَسَفَكْتُمْ دِمَاءَ غَزِيرِهِ! وَقَلَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مَسْئُولِيهِ كَبْرَى سَتِطِيلُ وَقُوفَكُمْ أَمَامَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! ارْجِعُوا إِلَى رِشْدِكُمْ وَاعِيدُوا النَّظْرَةَ فِي أَوْضَاعِكُمْ!. وَأَخِيرًا يَخْتَمُّ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُطْبَتَهُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْلَمْ» مَرَادُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ وَعَظُ وَقَائِدُ مَوْثُوقٍ لَا يَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ الشُّكُّ وَالتَّرْدِيدُ وَالْوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِيَّةُ وَالْقَلْقُ وَالِاضْطْرَابُ وَإِنْعِدَامُ الثِّقَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ عَلَى جَرَفِ مَاءِ الْمَعْرِفَةِ الْفِرَاتِ الْعَذْبِ وَيَلُودُ بِأَمَامِهِ عِنْدَ الْفِرْعِ فَيَأْتِمُرُ بِأَوْامِرِهِ

ص: ٢٨٢

١-١ (١) سورة طه / ٦٥ - ٦٧. [١]

٢-٢ (٢) «توافقنا» من مادة «الوقوف» والقاف مقدمه على الفاء.

والاستضاءه بنور علمه. وأنتم كذلك لو عرفتم زعيمكم ووثقتم به فاعلموا أنكم سائرون على الحق وآمنون من كافه أشكال الشكوك و الأهواء النفسيه والوساوس الشيطانيه.

الصراع بين الحق والباطل

لقد شبه الإمام عليه السلام الحق والباطل بطريقين سلك فريق أحدهما والآخر الثاني، وإذا أردنا تفسير هاتين المفردتين باختصار، فلا بد أن نقول بأن الحق هو الواقع والباطل هو الخيال والسراب الذي يحسبه الظمان ماء. ومن هنا فان الذات الإلهيه المقدسه التي تعدّ أعظم من كل واقع اكتسبت أول اسم وهو الحق، وغيره على الحق بقدر إرتباطه به وكلما ابتعد عنه فهو على الباطل. فعالم الإمكان لانتمائه لله فهو حق، وهو باطل لامتزاجه ببعض جوانب العدم. فالعالم ميدان لصراع الحق والباطل وقد صور القرآن الكريم أبعاد هذا الصراع وعاقبته نتائجه بمثال رائع في سوره الرعد حيث قال: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيِّهِ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ» (١).

ص: ٢٨٣

١-١) سوره الرعد / ١٧. [١] للوقوف على تفاصيل هذا المثل القرآني راجع تفسير الأمثل / ١٠ [٢] ذيل هذه الآيه.

ومن خطبه له عليه السلام

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاطبه العباس وابوسفیان بن حرب فى أن يبایعا له بالخلافه (و ذلك بعد أن تمت البيعه لأبى بكر فى السقيفه وفيها ينهى عن الفتنه ويبين عن خُلقه وعلمه) (١).

نظره إلى الخطبه

هذه واحده من الخطب التى نقلت عن الإمام عليه السلام فى أنّها خطبها قبل خلافته. والذى يستفاد من هذه الخطبه والمقدمه التى أوردها الشريف الرضى (ره) عليها أن أباسفيان والعباس إنطلقا إلى على عليه السلام بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله (و لعل أباسفيان دفع العباس إلى ذلك) واقترحا على الإمام عليه السلام النهوض بالأمر والبيعه له على أنه خليفه رسول الله صلى الله عليه وآله. إلّا أنّ الإمام عليه السلام الذى كان يحرص على بيضه الإسلام واستناداً إلى علمه التام بالظروف التى كانت تهدد الدين آنذاك وضروره قبر المؤامرات والفتن فى مهدها ليس فقط لم يجبهم لتلك البيعه نحسب، بل حذرهما بكل صرامه من مغبه هذا العمل ونصحهما بالابتعاد عنه. ولما كان عليه السلام

ص: ٢٨٥

١ - ١) لقد نقلت هذه الخطبه من سائر المصادر الأخرى غير نهج البلاغه. [١] ومن بين مصادر نهج البلاغه ما روى عن كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى، ٢ / ١٣٩، تذكره الخواص للسبط الجوزى والاحتجاج للطبرسى ١/١٢٧ [٢] كما يستفاد من كلمات ابن أبى الحديد أنّه نقل هذه الخطبه من طرق أخرى.

عالمًا ببعض المغرضين أو الجهال الذين قد يشكلون على سكوتهم فقد رد عليه السلام على هذا الإشكال، ثم إختتم كلامه ببيان مدى عشقه للموت وانطوائه على العلم الذي لا يسع الآخرين سماعه فضلًا عن احتمالته. ولم يأذن له في الكشف عن أسرارته.

ص: ٢٨٦

«أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاهِ، وَعَرَّجُوا عَن طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تَيْجَانَ الْمُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوْ اسْتَسَلَّمَ فَأَرَّاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلَقْمَةٌ يَغْصُّ بِهَا أَكْلُهَا. وَمُجْتَنَى الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتٍ إِنْبَاعِهَا كَالزَّرَاعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ» .

الشرح والتفسير

إنَّ سبب هذه الخطبه هو: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله واشتغل على عليه السلام بغسله ودفنه وبويع أبو بكر في سقيفه بنى ساعده، خلا الزبير وأبوسفيان بالعباس عم النبي صلى الله عليه وآله وقال: أما والله إنى لأرى عجاجه لا يطفئها إلا الدم، يا لعبد مناف، فيم أبو بكر من أمركم، مابال هذا فى أقل حى من قريش. ثم قال لعلى عليه السلام أبسط يدك أبايعك، فوالله إن شئت لأملأنها على أبى فضيل - يعنى أبا بكر - خيلاً - ورجلاً، فامتنع على عليه السلام حيث كان يعلم الإمام عليه السلام بأنه لا ينشد سوى الفساد والفتنه ومن هنا خطب هذه الخطبه. (١) واورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى كتابه الكامل أنّ علياً عليه السلام ردّ على أبى سفيان بأنك تريد الفتنة ولا تضرر للإسلام سوى الشر فلا حاجه لنا بنصحك. (٢) ومن هنا تتضح أجواء الخطبه وسهوله تفسير ماورد فيها من عبارات. فقد أشار عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبه إلى أربعه مواضع مهمه. فقال عليه السلام: «أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاه وعرجوا (٣) عن طريق المنافره (٤)، وضعوا تيجان المفاخره» .

ص: ٢٨٧

١-١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ١ / ٢٧٦.

٢-٢) الكامل لابن أثير ٢ / ٣٢٦. [١]

٣-٣) «عرجوا» من ماده «تعريج» بمعنى الرغبه أو الترغيب وهى هنا بمعنى الاعتزال.

٤-٤) «المنافره» حسب قول صاحب مقاييس اللغه تعنى التحاكم لدى القاضى ومن لوازمها النزاع والمخاصمه.

قوله عليه السلام أيها الناس يفيد حضور عدد كبير من الناس فضلاً عن ذانك الفردين. ويؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة بهذا الشأن. والنقطة الجديده بالذكر أنّ الإمام عليه السلام شبه الفتن بالأمواج العاتيه الكاسحه والتي يوصى بمجابهتها من خلال الاعتصام بسفن النجاه. والمراد بسفن النجاه تلك السفن العملاقه التي تشق عباب البحر ولا تصمد أمامها الرياح العواتي فتبلغ بركابها شاطئ الأمان، ويراد بهم هنا الزعماء الربانيين ولاسيما أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله (١)، أى إسمعوا وأطيعوا لما نقول لا لما تريدون، وللتأكيد على هذا المعنى فقد شبه عليه السلام التفاخر القبلي والفئوى بالطريق الخطير المرعب الذى ينبغى إجتنابه (لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ المعنى الأصلي للمنافره هو أن يذكر كل واحد من الرجلين مفاخره وفضائله، ثم يتحاكما إلى ثالث) - فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد بهذا الكلام القيم أن يركز على العامل الأصلي لآلام البشريه ومعاناتها، التي تفرزها على الدوام الحروب الدمويه والاختلافات والنزاعات والاقتتالات التي تستند إلى التفاخر؛ فاذا ما حطم هذا الصنم أمكن حل كافه مشاكل المجتمعات البشريه وعاد إلى الدنيا الأمن والصلح والسلام. طبعاً صحيح أنّ طلاب القدره والمنصب إنّما يتقنعون بالدفاع عن حقوق المجتمع وحفظ القيم والمثل، ولكن ليس هنا لك من يشك في أنّهم إنّما يتظاهرون بهذه الشعارات من أجل تحقيق أغراضهم ومآربهم بغيه التفاخر على الآخرين. ثم قال عليه السلام: «أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فاراح» (٢). فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطه أساسيه هي أنّ القيام بالحق تتطلب بعض الشرائط؛ فلو توفرت هذه الشرائط لما ترددت في القيام بالأمر، أمّا إذا لم تتوفر فالعقل والمنطق والدين لا يحكم بأنّ القيام ليس بمجدٍ فحسب، بل من شأنه أن يثير الفرقة والاختلاف والاذى والمعاناه للآخرين كما يؤدي إلى القضاء على القوى الناهضه بالحق، وهذا أصل من الأصول الثابته التي ينبغى رعايتها في كافه الانشطه الاجتماعيه ولاسيما في النهضات والثورات السياسيه. أمّا النقطه الأخرى التي تطرق إليها الإمام عليه السلام فأنّما تكمن في

ص: ٢٨٨

١ - ١) جاء في الروايه المشهوره عن النبي صلى الله عليه وآله: «مثل أهل بيتي كسفينه نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق». أمّا قول ابن أبي الحديد أن هذا الحديث صحيح الا ان أهل البيت عليه السلام لم يرادوا بهذه اللفظه فهو خاطئ. فقد أراد الإمام عليه السلام بهذه العبارة أن اسمعوا لما أمركم به وأطيعوا ولا تتبعوا ما تمليه عليه إرادتكم.

٢ - ٢) لا بدّ من الالتفات هنا ألى الفعل (أراح) قد يأتي لازماً أحياناً ومتعدياً أحياناً أخرى، ومفهومه على ضوء المعنى الأول أراح نفسه بينما معناه أراح الآخرين متعدياً.

مسأله الخلافه والأخذ بزمام أمور الأئمه التي جعلها البعضى شماعه ليجيزوا حتى الوسائل غير المشروعه من أجل الوصول إليها فقال عليه السلام: «هذا ماء آجن (1)، ولقمه يغص (2) بها آكلها». فحياء الإنسان متقومه بالماء والغذاء، ولكن أى ماء وغذاء؟ طبعاً الماء النقى والغذاء الزكى، فالإمام عليه السلام شبه هنا طبيعه الحكومه بالماء المتعفن والغذاء الغصه. والحق كما صوره الإمام عليه السلام، فالإنسان كلما إقرب من حياه الحكام والساسه إكتشف مدى عظم مشاكلهم وشده إستيائهم ووخامه أوضاعهم، فليس لهم من هدوء ولاسكينه كما ليس لهم من أمن أو إستقرار. وليس لهم سوى المظاهر الكاذبه الفارغه التي لا تنطلى سوى على بعض السذج. وبالطبع فان أولياء الله يسارعون لاحتواء هذه المشاكل ويتحملون كافه الصعاب والمعضلات كما يضحون بهدوءهم واستقرارهم خدمه لدين الله وعباده. كما ذهب البعض إلى أن اسم الإشاره (هذا) يشير إلى نوع الحكومه التي إقترحها أبوسفیان. على كل حال صحيح أن الحكومه كالماء الذى يعدّ قوام حياه الامم، إلّا أنّها كانت ومازالت مطمع أهل الدنيا الذين هبوا بكل قوه لمنازعه أولياء الله على تلك الحكومه فلوثوا هذا الماء كما جعلوا طعام الحياه غصصاً؛ الأمر الذى جعل الأولياء يترفعون عنها ويعلنوها صراحه «لولا حضور الحاضر وقيام الحجه. . . لألقيت حبلها على غاربها ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندى من عفته عز». أمّا فى النقطه الرابعه فيشير إلى أحد أبعاد هذه المسأله وهو أن من أراد القيام بالأمر لتشكيل الحكومه الإسلاميه فلا بدّ أن تكون المقدمات والظروف معده لذلك أو أن يتولى هو تهيئه هذه الظروف وإلّا فليست هنالك من قيمه أو أثر لهذا القيام ولا يتمخض سوى عن الهزيمه والفشل - فقد قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن: «و مجتنى الثمره لغير وقت إيناعها (3) كالزراع بغير ارضه». وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ الضمير فى (بغير ارضه) يعود إلى الزارع ومفهوم العبارة: كمن زرع فى غير ارضه ولا ينتفع بذلك الزرع بل يعود ثمره على الآخرين؛ إلّا أنّ

ص: ٢٨٩

١- ١) «آجن» من ماده «أجن» على وزن ضرب واجون المتعفن المتغير اللون والطعم وقد وردت هنا كإشاره للخلافه.

٢- ٢) «يغص» من ماده «غصص» على وزن هوس بمعنى صعبه الابتلاع.

٣- ٣) «ايناع» من ماده «ينع» على وزن منع بمعنى النضج والبلوغ، وعاده ما تستعمل هذه المفرده بشأن نضج الثمار، كما تأتى بهذا المعنى أيضاً إذا جاءت من باب الافعال.

ضعف هذا التفسير يبدو واضحاً من خلال كلام الإمام عليه السلام الذي قرن ذلك بجنى الثمار غير الناضجه. وهنا لا بدّ من القول بأنّ هذه العبارات قد تناولت الأصول الأساسيه والدروس القيمه المعتمده فى تشكيل الحكومات الإلهيه؛ الأمر الذى يدعو دعاه الحق وعشاق العدالة لعدم الانفعال بالعواطف والاحاسيس العابره والاقتصار على الدراسات المحدوده من أجل ممارسه أنشطتهم وعليهم أن يتربصوا بكلّ أناه وتحسب للوقوف على توفّر الشروط وتأهب القوى وإنّ إحتاج هذا الأمر لمده من الزمان، على غرار المزارعين الذين لا يقصدون قطف الثمار غير الناضجه رغم حاجته القصوى لهذه الثمار من أجل توفير قوته أو تسويقها وبيعها بغية تغطيه حاجاته الأساسيه، أضف إلى ذلك فإنّ المزارع الماهر لا يغرس بذوره فى أرض ليست خصبه أبداً، بل يتأنى قبل ذلك بحرث الأرض وسقيها بالماء ثم ينثر بذره.

سكوت الإمام عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله

يتساءل الكثيرون لماذا لم ينهض الإمام على عليه السلام بالأمر بدلاً من السكوت رغم كونه الأجدر والأحق بخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جانب تأكيدات النبي صلى الله عليه وآله على استخلافه بما يثبت أنّ الخلافة من حقوقه المسلمه بل من حقوق الأُمَّه الإسلاميه؟

ويبدو أنّ الإجابة على هذا السؤال قد وردت فى العبارات القصيره البعيده المعنى فى هذه الخطبه، حيث ذكر بعض الأسباب التى دعت له عدم القيام والنهوض بالأمر. أولها عدم إنطواء الأفراد - كابي سفیان - على حسن النيه فى اقتراح النهوض بالأمر والتصدى للخلافه، أو أنّهم - كالعباس - كانوا ممن دفعوا من أصحاب الاغراض السيئه؛ الأمر الذى جعل الإمام عليه السلام يتعامل مع هذه الاقتراحات كفتن وبلا بل تستهدف القضاء على المسيره ولم يكن معه الا القليل، وهذا ما صرّح به الإمام عليه السلام: «فنظرت فاذا ليس لى معين إلّا أهل بيتى، فضننت بهم عن الموت، وأغضيت على القذى. وشربت على الشجا، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمرٍ أمرٍ من طعم العلقم» (1) وناهيك عن كل ذلك فإنّ الخلافة والحكومه لم تكن هدفا بالنسبه

ص: ٢٩٠

للإمام عليه السلام حيث كان يراها الإمام عليه السلام كالماء الآسن المتعفن والطعام المنغص؛ بل يراها وسيله لاحقاق الحق وإبطال الباطل «قال عبدالله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله. فقال لي: ما قيمه هذا النعل؟ فقلت: لا- قيمه لها! فقال عليه السلام: والله لهي أحب إلي من إمرتكم، إلا أن أقيم حقاً، أو أدفع باطلاً» (١). إلا أن الإمام عليه السلام حين يرى هذا القيام لا يؤدي إلى تحقيق الهدف، بل بالعكس إنما يثير الخلاف والشقاق والفرقة في صفوف المسلمين ولعله يتيح الفرصه للمنافقين الذين يتربصون بالاسلام الدوائر فلا يرى هناك من سبيل سوى الصمت والسكوت. وقد أورد ابن أبي الحديد أن فاطمه عليها السلام حدثت الإمام عليه السلام بالنهوض بالأمر، فلما ارتفع صوت المؤذن «أشهد أن محمداً رسول الله» إلتفت إليها قائلاً: أيسرك زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا. قال: فلا بد من الصبر والسكوت (٢). وبغض النظر عما تقدم فان كل عمل - ولاسيما النهضات الاجتماعيه الإسلاميه - يتطلب بعض المقدمات ولا بد من توفر كافه الشروط اللازمه، وإلا فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل والخذلان وهدر طاقات الأمة وتبديد قواها، وهذا الأمر أشبه بقطف الثمار غير الناضجه أو نثر البذور في الأرض المالحه. ومن هنا كان الإمام عليه السلام قيامه يكمن في السكوت والصمت.

ص: ٢٩١

١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٣٣. [١]

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١١ / ١١٣. [٢]

إشاره

«فَإِنْ أَقْبَلَ يَقُولُوا: حَرَّصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتَ يَقُولُوا جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهَاتَ بَعِيدَ اللَّتِيَا وَالَّتِي! وَاللَّهِ لَا بُدَّ لَأَبِي طَالِبٍ أَنْسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجَتْ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحِثَ بِهِ لاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرَشِيِّهِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدِهِ» .

الشرح والتفسير

يتعرض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه إلى الحجج والذرائع الواهيه المتضاربه التى يردھا الجهال والحساد على الإمام عليه السلام. فيقول الإمام عليه السلام إن هذه القلوب العمى والبصائر الخافته لا تنفك تعترض على فى كل موقف اتخذه، فان اتحدث عن أحقيتى بالخلافه وعدم صلاحيه الآخرين لها، فالبى دعوه الأمه يتخرصون بأنى حريص على الحكومه، وأن آثرت الصمت والسكوت صوروه خوفا من الموت: «فان أقل يقولوا: حرص على الملك وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت». نعم فهذا هو الاسلوب الرخيص الذى ينتهجه الجهال والمتخرصين ليعترضوا على أولياء الله فى كل حركه وسكنه وموقف يمارسونه، وهم لا يتحفظون حتى عن التناقض والتضارب فى هذا المجال، فان قاموا أشكلوا عليهم وإن قعدوا أشكلوا كذلك. ومن هنا فان المؤمنين لا يعيرون هذه التناقضات أيه آذان صاغيه. ويبدو أن هذا هو الأمر الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث المروى عنه أنه قال: «إن رضى الناس لا يملك

وألستهم لا تضبط» (١). كما ورد شبيه هذا المعنى في الخطبه ١٧٢ من نهج البلاغه: «وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا ابن أبى طالب حريص، فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد، أنا أخص وأقرب، وإنما حليت حقاً لى وأنتم تحولون بينى وبينه، وتضربون وجهى دونه، فلما قرعته بالحجه فى أعلا- الحاضرين هب كأنه بهت لا يدرى ما يجينى به» ثم يواصل كلامه عليه السلام فى إطار ردّه على من فسّر سكوته بالخوف من الموت متعجباً من ذلك وهو الذى ثبت حين نكصت الأبطال فى بدر وأحد وحنين والاحزاب وخبير التى أثبتت مدى ولهه وشغفه بالشهاده وله الرضيع بثدى أمه: «هيهات بعد اللتيا والتى! والله لابن أبى طالب أنس بالموت من الطفل بثدى أمه». غير أن سكوتى يستند إلى علم بخفايا الأمور لاتطبقون سماعه «بل إندمجت (٢) على مكنون علم لو بحت (٣) به لاضطربتم اضطراب الارشيه (٤) فى الطوى (٥) البعيده».

تأملات

١ - سوابق الإمام عليه السلام

يشير الإمام عليه السلام باختصار إلى الشجاعه والبساله التى أبداها فى الغزوات والمعارك الإسلاميه وفى بعض المواضع الخطيره كميته على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وما إلى ذلك ليذكر أولئك المرضى الذين يشكلون عليه بأنه لا يخشى أیه حادثه مروعه وقد خرج مرفوع الرأس من كل تلك الاختيارات والتمحيصات، وعليه فسكوتى لا يقوى دليلاً على ضعفى قط؛ وليس

ص: ٢٩٤

١- (١) بحار الانوار ٦٧ / ٢؛ [١] تفسير نور الثقلين ١ / ٤٠٥. [٢]

٢- (٢) «اندمجت» من ماده «اندماج» الانطواء وهى هنا إشاره للاسرار المودعه قلب الإمام عليه السلام.

٣- (٣) «بحت» من ماده «بوح» على وزن لوح بمعنى الاعلان وترك الكتمان ومن هنا يطلق «الباحه» على المحيط الواسع و «المباح» على الأعمال الجائزه.

٤- (٤) «أرشيه» جمع «رشاء» على وزن رضاء بمعنى الجبل الطويل، ومن هنا سميت الرشوه لأنها كالجبال التى تتصل بالدلو ليسحب الماء من البئر.

٥- (٥) «طوى» من ماده «طى» وهى البئر العميقه البعيده.

وراء هذا السكوت سوى مصالح الإسلام والمسلمين، ثم يستشهد على ذلك بالمثل العربي المعروف فيقول «بعد اللتيا والنتي» .

وقصه هذا المثل أنّ رجلاً تزوج من إمراه كانت قصيره القامه وصغيره وسيئه الخلق فذاق منها الأمرين حتى طلقها. ثم تزوج من إمراه طويله القامه فأذته كسابقته حتى اضطر لطلاقها، فلما عرضى عليه الزواج قال: «بعد اللتيا والنتي لا أتزوج أبداً» فصار ذلك مثلاً يضرب من أجل الحوادث الكبيره والصغيره، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنه اجتاز كل تلك الحوادث والخطوب فهل من سبيل إلى الخوف والخشيه.

٢ - لم أخاف الموت؟!!

القضيه الأخرى التى أشار إليها الإمام عليه السلام قوله: «لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه» . فالثدى ولبن الأم أساس حياه الطفل، ومن هنا فان هذا الطفل يعيش حاله من الجزع والالين والصراخ إذا ما جرد من هذا الثدي وكأنه سلب الدنيا برمتها، فإذا عاد إليه سكن وقر وشعر بالفرح والسرور وكأنه نال الدنيا بما فيها؛ إلّا أنّ هذه العلاقه مهما كانت فهى تستند إلى الغريزه؛ أمّا علاقه الإمام عليه السلام والعرفاء بالموت ولقاء الله (و لا سيما الشهاده فى سبيل الله) فهى علاقه قائمه على أساس العقل والمنطق والعشق. فهم لا يرون الموت سوى إنطلاقه الحياه الجديده فى ذلك العالم الأوسع والأشمل. يرون الموت نافذه على عالم البقاء والخلود والخلاص من هذا السجن وتحطيم قيوده وأغلاله والتخليق نحو العالم العلوى ومجاوره الرحمن. فهل من عاقل يتردد فى التحرر من قضيان السجن والخلاص من هذه القيود والانحلال (١). نعم إنّما يخشى الموت من يراه فاتحه لكل شىء وبدايه للعذاب الذى ينتظره بفعل ما قارفه من رذائل وفواحش. فأنى للإمام عليه السلام بالخوف من الموت وهو ما عليه من المعارف والعلوم والسمو والرفعه؟ ومن هنا يقسم عليه السلام بأنه آنس بالموت من الطفل بثدى أمه. كما قال فى موضع آخر: «فوالله ما أبالى دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى» (٢). بل هذا ماجسده عمليا حين ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه فصرخ قائلاً: «فزت وربّ الكعبه» (٣).

ص: ٢٩٥

١ - ١) لقد تناول أحد الشعراء المعروفين هذه الحاله ليشبها بنوعين من الأفراد، طائفه قليله المعرفه فهى كالثمار الخام التى تلتصق بشده فى الشجره، وأخرى عارفه وهى كالثمار الناضجه التى تتساقط بيسر وسهوله من الشجره.

٢ - ٢) نهج البلاغه، الخطبه ٥٥. [١]

٣ - ٣) بحار الانوار ٤٢ / ٢٣٩. [٢]

قال الإمام عليه السلام: «بل انطويت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشيه فى الطوى البعيده». ومن الواضح أنّ الآبار كلما كانت أعمق كان اضطراب الجبال فيها أكثر. ولكن ماهو المراد بهذه الأسرار والعلم الذى إنطوى عليه الإمام عليه السلام؟ يبدو أنّ هنالك احتمالات كثيره أوردها شراح نهج البلاغه بهذا الشأن. فمنهم من فسّره بوصيه النبي صلى الله عليه وآله له بالسكوت وعدم النهوض بالأمر والاشتباك مع الجماعه. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعواقب الأمور ومصالح ومفاسد المجتمع الإسلامى والذى دعاه لاتخاذ موقف السكوت. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعالم الآخره؛ أى أنى لأعلم بمسائل الآخره بما لو بحث لكم به لما وسعكم الاستقرار ولعشتم الاضطراب. وهناك من فسّره بالقضاء والقدر الذى قدر لهذه الأمه. ولكن لا يبدو أى من هذه التفاسير منسجم ومضامين الخطبه وماورد قبلها وبعدها من عبارات، ونرى الصحيح بأن تفسر هذه العبارة بالأحداث والتغيرات التى وقعت إبان الصحابه وادعاء الإسلام بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله وأولئك الذين كانت تراهم الأمه على الحق وهم باطل وضلال، وأولئك الذين اندفعوا بالأمس خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وشهروا سيوفهم بوجه الكفر والشرك بينما تخندقوا اليوم فى صفوف المنافقين وقد باعوا دينهم بدنياهم ولو عرفهم الناس لتعجبوا وذهلوا. «بل اندمجت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشيه فى الطوى البعيده». فمن يصدق أنّ طلحه والزبير الذين قاتلا فى ركاب رسول الله صلى الله عليه وآله سيشعلان يوما نار حرب الجمل؟ ومن يصدق أن أحد أزواج النبي صلى الله عليه وآله وأم المؤمنين - عائشه - ستكون يوماً وسيله بيد المنافقين فتقود معركة يروح ضحيتها أكثر من عشره آلاف شخص؟ وعدد لا يحصى من قبيل هذه الأسئلة. فإذا كان الأمر كذلك فكيف استند إلى مثل هؤلاء الأفراد وأنهض بالأمر.

ومن كلام له عليه السلام

لما أشير عليه بالأب يتبع طلحه والزبير ولا يرصد لهما القتال

وفيه يبين عن صفته بأنه عليه السلام لا يخدع (١).

نظره إلى الخطبه

حين نكث طلحه والزبير البيعه وقصدا عائشه في البصره واستوليا عليها، إعتقد البعض بأن الإمام عليه السلام لن يصطدم بهما وسيتركهما ريثماً يوطد دعائم خلافته فلا تمرّ مدّه حتى يعلننا إستسلامها. فالإمام عليه السلام يستهل خطبته بأنّ هذا الكلام خطأ محض وأنى لن أقف مكتوف الأيدي لتشتد قوه العدو فيباغتني. ثم يبين عليه السلام عزمه الراسخ على مقاتله هؤلاء والزحف إليهم بجنده المطيع، ثم يعلن أنّ هذا هو الاسلوب الذي سيتبعه إلى آخر حياته. وأخيراً يختتم الخطبه بالإشاره إلى هذه الحقيقه فى أنّ هذه المخالفه والاعتراض ليست بالشىء الجديد وأنّ جذورها تمتد إلى زمان رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وما زالت مستمره ليومنا هذا.

«وَاللّٰهُ لَا أَكُوْنُ كَالضَّبْعِ تَنَامَ عَلَى طَوْلِ الدَّمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتَلِهَا رَاصِدُهَا، وَلَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمَقْبَلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرِ عَنْهُ، وَبِالسَّامِعِ الْمَطِيْعِ الْعَاصِيِ

ص: ٢٩٧

١- ١) كثر الكلام بين الشراح والمفسرين بشأن من أشار بهذا على الإمام عليه السلام. فقد نسبة المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل إلى إسامه بن زيد، بينما نسبة بعض المؤرخين والشراح من غير الإماميه للإمام الحسن عليه السلام، ولكن لا يبدو هذا التفسير صحيحاً بالاستناد إلى الرابطه التى كانت قائمه بين الإمام الحسن عليه السلام وأبيه عليه السلام. الاحتمال الأخير فهو أنّ هذه الإشاره لم تكن من قبل فرد بل من قبل طائفه ضاله خلدت إلى الراحه والدعه.

المريب أبدا، حتى يأتي على يومى. فوالله ما زلت مدفوعا عن حقى، مستأثرا على، منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا.» (١)

الشرح والتفسير

الحيطة والحذر تجاه الأعداء

لقد رد الإمام عليه السلام على أولئك الذين يقترحون عدم مطاردته طلحه والزبير الذين نقضا بيعتهما، فقال عليه السلام: «والله لأكون كالضبع (٢) تنام على طول اللدم (٣) حتى يصل إليها طالبها، ويختلها (٤) راصدها (٥) ويبدو أن المثل يضرب بالضبع على أنه حيوان أبله يمكن صيده بكل سهوله؛ حيث يقوم الصياد بدق قطعه من الحجر أو العصا أمام عش الضبع فاذا نام تقدم إليه الصياد ليصيده بسهوله. وقد سطرت الخرافات والأساطير بهذا الشأن ومن ذلك أن يخاطب الصياد الضبع فيقول له: يا ضبع نم فى عشك، ثم يكرر ذلك عدّه مرات، فيتجه الضبع إلى أقصى غاره وينام. فينادى الصياد: الضبع ليس فى العش، الضبع نائم، ثم يدخل عليه العش فيربطه بحبل ويخرجه من عشه ومن هنا شبه الأفراد الذين يعيشون الغفلة تجاه العدو بالضبع. أمّا الوقائع التاريخية آنذاك فهى تشير إلى سداجه الاقتراح القاضى بعدم مطاردته طلحه والزبير؛ وذلك لأن خطتهما كانت تستهدف السيطرة على البصره والكوفه ثم يبايعهما معاويه ويأخذ لهما البيعه من أهل الشام فتخضع أغلب المناطق الإسلاميه لسيطرتهما فلا يبقى لعلى عليه السلام سوى المدينه. أضف إلى ذلك فان هؤلاء استطاعوا أن يؤلبوا أكثر عدد ممكن من الناس من خلال

ص: ٢٩٨

- ١- ١) أشار مؤلف كتاب «مصادر نهج البلاغه» [١] إلى المصادر الأخرى التى نقلت هذه الخطبه ومنها «تاريخ الطبرى، أمالى الشيخ الطوسى، [٢] صحاح اللغه وغريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام».
- ٢- ٢) «ضبع» على وزن سبع، يطلق أحيانا على القحط والجفاف لأنه يأكل كل شىء ويقضى عليه.
- ٣- ٣) «اللدم» حسب ما صرح به بعضى أرباب اللغه هو صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباً غير شديد، ومن الطبيعى أن مثل هذا الصوت إذا تكرر يمكنه أن يؤدى إلى النوم.
- ٤- ٤) «يختلها» من ماده «ختل» على وزن ختم بمعنى الخداع والمخاتله بمعنى المشى بهدوء نحو الصيد بحيث لا يهرب.
- ٥- ٥) «الراصد» من ماده «الرصده» بمعنى المترقب ومن هنا يطلق على مراقبه المنجمين اسم الرصد كما يطلق على موضع الرصد اسم المرصد.

الشعار الذى يطالب بدم عثمان حتى رسخ فى أذهان الناس أن قاتل عثمان هو على عليه السلام. ومن الواضح أن تلك الخطه كادت أن ترد الميدان عمليا لولا مبادره الإمام عليه السلام وتسريعه بمواجهه الفتنة حتى استطاع أن يقبر تلك المؤامره فى مهدها فتمكن من إنقاذ البصره والكوفه بل والعراق بأجمعه، ولولا المعارضه التى أبداها الجهال تجاه الإمام عليه السلام فى إطار تعامله مع ظلمه الشام لاراح المسلمون وإلى الأبد من شرهم ولعاد العالم الإسلامى برمته وحده واحده؛ غير أن المؤسف له - وكما أشير إلى ذلك فى ذيل الخطبه الشقشقيه - تعالت أصوات الجهال المغرضين الذين انطلت عليهم الدعايات ليوقفوا تلك المعركه التى كان النصر فيها للإمام عليه السلام قاب قوسين أو أدنى. ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول: «ولكنى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصى المريب أبداً، حتى يأتى على يومى» .

طبعى أن المجتمع لا يتبنى الحق بجميع أفراده؛ فهناك ضعاف الإيمان وعبداه الأهواء وأصحاب الجاه والمناصب الذين لا يروق لهم إمام عادل حيث يهدد منافعهم اللامشروعه فيلجأون إلى أساليب الدعايه والخداع والكذب والزيغ وإثاره الشائعات؛ الأمر الذى يدعو الساسه والحكام إلى الاجهاض على هذه العناصر الفاسده وإجتثاثها من المجتمع بصفتها غده سرطانيه يمكنها أن تلوث المجتمع، أو السعى للحد من نشاطهم وفعاليتهم ألم تكن مخاطرهم شديده، كما ينبغى على دعاه الحق أن يكونوا على أهبه الاستعداد على الدوام للانقضاض على هذه العناصر والقضاء عليها. وأخيراً يصف الإمام عليه السلام هذه المعوقات بأنها ليست جديده وإنما لها جذورها التى تمتد إلى زمان رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله: «فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقى، مستأثراً على، منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا» فى إشاره إلى قضيه طلحه والزيبر فى إنها تأتى فى إطار حلقة مستمره منذ وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله وما زالت قائمه حتى اليوم. أما تعبيره بمدفوعاً ومستأثراً فهى إشاره إلى المقاومه التى أبداها الأعداء حيال الإمام عليه السلام لزحزحته عن حقه وتقديمه الآخرين عليه، لأنهم لا يطيقون عدله وشدته. أمّا قوله عليه السلام: «حتى يوم الناس هذا» - بالالتفات إلى إضافه اليوم إلى الناس - يمكن أن يكون إشاره إلى ذلك اليوم الذى كنت فيه وحيداً وقد غضبوا حقى، واليوم قد ذهب البعض لمخافتى رغم وجود هذه الأمه التى بايعتنى. والجدير بالذكر أن المرحوم الشيخ المفيد أورد فى إرشاده

عن الإمام على عليه السلام أنه قال: « هذا طلحه والزبير ليسا من أهل النبوه ولا من ذريه رسول الله صلى الله عليه وآله حين رأيا أن الله قد رد علينا حقنا بعد أعصر فلم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقى ويفرقا جماعه المسلمين عنى» (١).

تأمل: رساله إلى جميع المسؤولين

لقد لَقِّن الإمام عليه السلام بهذه العبارات التاريخية كافة الزعماء من أهل اليقظه والإيمان وساسه البلدان الإسلاميه درساً بليغاً فى التأهب لمواجهة الأعداء، ولا ينبغى التخلّى عن الفرصه بكل سهوله وعدم الاستسلام للحلول والاقتراحات التى يتقدم بها من يؤثر السكون ويخلد إلى الراحة والدعه. فقد شبه الإمام عليه السلام من ينخدع بهذه الاقتراحات ويفقد زمام المبادرة فى تلك اللحظات الحساسه بالضبع، ويكمن وجه الشبه فى عدّه أمور منها:

١ - أن الضبع يشعر بوجود العدو إلّا أنّه ينام لسماع بعضى الأصوات التى يرددّها؛ النوم الذى يؤدى به فى خاتمه المطاف إلى الأسر والموت.

٢ - أن الضبع يصطاد فى غاره.

٣ - لا يبدى الضبع أدنى مقاومه للذب عن نفسه وإتّما يقع فى مخالبه بكل سهوله.

فالأفراد الذين لا يتعاملون بحزم تجاه العدو ويبدون حاله من الضعف والوهن إزائه فهم كالضباع التى تنام فى مخادعها وتستسلم للقتل دون مقاومه.

و أخيراً فلا يعنى هذا أن يقدم الإنسان على عمل دون التأنى والتأمل والاستشاره والوقوف على كافه جوانبه؛ بل لابدّ من إستشاره ذوى الحجى والشجاعه واتخاذ القرار قبل فوات الأوان والأقدام فى الوقت المناسب.

ص: ٣٠٠

ومن خطبه له عليه السلام يذم فيها اتباع الشيطان

اتباع الشيطان

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مَلَكَاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَابْضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَانظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَزَكَبَ بِهِمُ الزَّلَّلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطْلَ فَعَلَّ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ». (١)

الشرح والتفسير

إنَّ الخطبه رغم قصرها تصور بدقه اتباع الشيطان وكيفيه نفوذهم إليهم، ومن ثم تبين الآثار الوخيمه والعواقب المشؤومه والطرق التي يسلكها الشيطان في التغلغل إلى الإنسان واللقاء به في شباكه وحبائله، فيتلاعب به كيفما يشاء. والحق أنَّها تخدير جدى لاتباع الحق في ضروره توفى الحيطه والحذر من تسلل الشيطان والوقوف بوجهه حال الشعور بأدنى آثاره. والخطبه وإن تحدثت عن بعض الأفراد من قبيل طلحه والزبير أو معاويه وأهل الشام

ص: ٣٠١

١- ١) جاء في «مصادر نهج البلاغه» [١] أن هذه الخطبه وردت في ربيع الأبرار للزمخشري، ١ / ١٠٩ والنهايه لابن أثير في غريب الحديث ٢ / ٥٠.

أو أصحاب النهروان الذين سقطوا في فخ الشيطان، إلا أنها لا تقتصر عليهم البتة، بل هي رساله واضحه (لكافه الأفراد من أجل مراقبه الشيطان وعدم فسح المجال أمامه).

فقد تكفّلت الخطبه بتبيين المراحل التي يعقبها تسلل الشيطان في أتباعه، حيث شرحها الإمام عليه السلام بما عرف عنه من فصاحه وبلاغه وتشبيه رائع بحيث لا يمكن تقديم صورته فيه أروع من تلك التي رسمها الإمام عليه السلام. فقد أشار في المرحله الاولى إلى أنّ هذا التسلل والنفوذ إلى الإنسان إختيارى ولا يمت بصله إلى الاجبار. فالإنسان هو الذى يعطيه الضوء الأخضر ويدعه يلججه ويتصرف بوجوده حتى يجعله ملاكاً ومعياراً لنشاطاته وفعالياته «إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً». فملاك من ماده ملكك بمعنى أساس الشىء ودعامته، كأن يقال القلب ملاك البدن، أى أن أساس وقوام البدن هو القلب وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح على لسان آياته «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» (١). بناءً على هذا فالعباره المذكوره كآليات القرآنيه بمثابة رد على أولئك الذين يتساءلون عن سلطه الشيطان على بنى آدم فيقولون: كيف سلط الله سبحانه هذا المخلوق الخطير على الإنسان ثم طالبه بعدم إتباعه. فالعباره تقول أنّ الشيطان لا يخرق الجدران غيله، بل يأتى من الباب ويطرقها فان فتح له ولج وإلا عاد من حيث أتى. صحيح أنه يصر على طرق الباب دون الشعور بالكلل والملل، لكن بالمقابل هنالك الملائكه الذين يهبون لنجده الإنسان ويحذروه من مغبه فتح الباب. ثم أشار في المرحله الثانيه إلى الانتخاب الذى يتولاه الشيطان بعد ذلك الانتخاب حيث يصطفى هؤلاء كاعوان وشركاء «واتخذهم له اشراكاً» (٢) ثم وضع عليه السلام ذلك بقوله: «فباض وفرخ فى صدورهم» (٣). فالإمام عليه السلام يشبه صدور تبعه الشيطان بعش إبليس الذى يبض فيه ويفرخ. ثم قال عليه السلام: «و دب ودرج فى حجورهم». صرح بعض شراح نهج البلاغه بان دب من ماده الديب بمعنى الحركه البطيئه الضعيفه، والدرج الحركه الأقوى منها كحركات الطفل فى حضن

ص: ٣٠٢

١-١ (١) سورة النحل / ٩٩ - ١٠٠. [١]

٢-٢ (٢) «اشراك» جمع «شريك» و «شرك» بمعنى افتح ويحتمل المعنيين فى العباره المذكوره، وقد اختار كل شارح من شراح نهج البلاغه أحد هذين المعنيين.

٣-٣ (٣) لقد استهلّت العباره بفاء التفريع لبيان شرحها للعباره السابقه.

أمه. ولعل التعبير بدرج إشاره إلى حقيقه وهي أنّ الأفكار والعادات الشيطانيه ليست طارئه ومفاجئه على الإنسان؛ بل تتجذر فيه بصوره تدريجيه؛ كما عبر عنه في حذر المؤمنين منها حيث يتسنى له اقتياد الإنسان خطوه خطوه نحو الفساد والضلال والكفر.

(١)

فقال: «فنظر باعينهم، ونطق بالسنتهم». أي أنّ هذه البيوض والفراخ الشيطانيه ستنمو وتترعرع حتى تتبدل إلى شياطين تتحد معهم بحيث تنفذ في جميع أعضائهم وجوارحهم حتى يعيشون الأزواج في شخصياتهم، فهم من جانب إنسان، ومن آخر شيطان، ظاهرهم إنسانى أما باطنهم شيطانى. عيونهم وآذانهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم أدوات تأتمر بأوامر الشيطان، فمن الطبيعى أن يروا جميع الاشياء بصيغه شيطانيه كما أنّ آذانهم تطرب لسماع الانغام الشيطانيه. أمّا في المرحله الرابعه فيتناول عليه السلام النتيجة النهائيه لهذه المسيره التدريجيه المنحرفه فيقول: «فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل» (٢) ويشبه هذا الكلام ما أورده الإمام عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغه «إلّا وأنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها» (٣). ثم قال عليه السلام في المرحله الأخيره «فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه» (٤). إشاره إلى أنّ أعمال هؤلاء تدل بوضوح على أنّ الشيطان استحوذ عليهم فتصرف فيهم كيف يشاء. فحديثهم حديث الشيطان ونظرهم نظر الشيطان وبالنتيجه فان بصمات الشيطان متجسمه فيهم، والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد في هذه المرحله أن يعرف هؤلاء الأفراد من خلال أعمالهم الشيطانيه. ويبدو أنّ مراده عليه السلام بعض الأفراد كطلحه والزبير وانصارهما وأصحاب معاويه والخوارج ومن كان على شاكلتهم، رغم أنّ الكتب المعروفه لشرح نهج البلاغه وأسانيدها لم تتعرض إلى الأفراد أو الطوائف المراده بكلام الإمام عليه السلام. مع

ص: ٣٠٣

١-١) سورة البقره / ١٦٨ و ٢٠٨؛ سورة الانعام / ١٤٢؛ سورة النور / ٢١.

٢-٢) هذا التفسير على أساس أنّ حرف الباء في بهم للتعديه، اما إذا فسرت بالاستعانه فانّ مفهوم الجمله سيصبح أنّ الشيطان بالاستعانه بهؤلاء سيركب الخطأ والزلل؟ ولكن بالالتفات إلى العبارة «وزين لهم الخطل» وفاء التفریع في فركب يبدو التفسير الأول أنسب.

٣-٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٦. [١]

٤-٤) كلمه «فعل» يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره «فعلوا ذلك فعل..» كما يمكن أن تكون مفعولاً مطلقاً لما سبق (نظر، نطق، ركب وزين) وسيصبح مفهوم الجمله أن أفعال هؤلاء أفعال من شرك الشيطان في عمله.

ذلك فالكلام دقيق وعميق ولا يختص بطائفه معينه، بل يشمل كل من وضع رجله على مسار الشيطان وخضع لسيطرته وامتلأ أوامرته.

تأمل: خطط الشياطين

شائك وشامل هو البحث بشأن الشيطان وفلسفه خلقه وكيفيه نفوذه إلى الإنسان وطول عمره وقصته مع آدم وجنوده وأعدائه من الجن والانس وما إلى ذلك من الأمور التي لايسع المجال شرحها والغوص في أعماقها. وسنكتفى ببعض الإشارات التي يمكنها أن تغنى البحث بما ينسجم وما ورد في الخطبه المذكوره.

فالذى تفيدته الآيات القرآنيه أنّ الشيطان لم يخلق كموجود شرير منذ بدايه الخليقه، بل خلق طاهرا حتى اصطف مع الملائكه (و إن لم يكن ملكاً). غير أنّ حب الذات والكبر دفعه للتمرد على أمر الله والامتناع عن السجود لآدم عليه السلام، فلم يرتكب المعصيه فحسب، بل إتهم علم الباري سبحانه وحكمته ليهوى في وادى الشرك والضلال. لقد سأل الله النظره إلى يوم القيامه فأجابته الله بالنظره إلى يوم الوقت المعلوم ليتم تمحيص العباد، أو بعبارة أخرى فكما أنّ وجود الشهوات المركبه في الإنسان البشريه ومقاومه العقل والإيمان تجاه القوى المخالفه إنّما تضاعف قدره الإنسان في مسار الطاعه لله؛ فإنّ الوسوس الشيطانيه الخارجيه ومجابتها من قبل الإنسان إنّما تقوده إلى السمو والتكامل؛ وذلك لأن وجود العدو إنّما يشكل العامل الذى يقف وراء حركه الإنسان وقوته وتطوره وتكامله. إلّا أنّ هذا لايعنى أنّ للشيطان نفوذ إجبارى في الإنسان، بل الإنسان هو الذى يمهد لهذا النفوذ، فقد صرّح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» (١)، وقال فى موضع آخر «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (٢) كما صرّحت إحدى الآيات القرآنيه على لسان الشيطان أنّه قال: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ». (٣)

ص: ٣٠٤

١-١) سورة الاسراء / ٦٥. [١]

٢-٢) سورة النحل / ٩٩. [٢]

٣-٣) سورة إبراهيم / ٢٢. [٣]

الجدير بالذكر أنّ الله سبحانه قد خلق جنوداً للقضاء على وساوس الشيطان ومخططاته، ومنها العقل والفطره والأنبياء والملائكة التي تتولى حفظ المؤمنين وطردهم وساوس الشيطان عنهم. فكل من سار على درب هذه الجنود حظى بدعمها وإسنادها وأبعد عنه وساوس الشيطان، ومن سار على درب الشياطين وأقام على العناد واللجاجه رفعوا أيديهم عنه. القضية الأخرى الجديره بالاهتمام هي أنّ الشيطان يسعى للنفوذ في أعماق النفس البشريه ليؤثر من هناك على أعماله، كما أشير لهذا في الخطبه المذكوره وكأنه باض وفرخ في الصدور فتكاملت الفروخ شياطين إتحدت معه حتى عاد نظره وسمعه وقوله ويده ورجله شيطانياً. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في غرر الحكم أنّه قال: «احذروا عدوا نفذ في الصدور خفياً ونفث في الأذان نجياً» كما ورد شبيه هذا المعنى - مع فارق طفيف - في الخطبه ٨٣ من نهج البلاغه. كما قال عليه السلام في الخطبه ١٢١ من نهج البلاغه: «إنّ الشيطان يسنى لكم طرقه ويريد أن يحل لكم دينكم عقده عقده». على كل حال فان الغرض من الخطبه هو تحذير الإنسان من عدوره اللدود الشيطان الذي تعود جذور عداؤه منذ خلق آدم عليه السلام. وضروره التوكل على الله والاتكاء على العقل والفطره والوجدان والاستضاءه بارشادات الأنبياء وتعاليمهم والاستمداد من الملائكة بغيه حفظ الإنسان لنفسه من وساوس الشيطان.

وأخيراً فالنقطه التي أرى ضروره التعرض لها وعلى ضوء صريح بعض الآيات القرآنيه أنّ الشياطين ليست منحصره بابليس وجنوده السريين، بل هناك مجموعه من الانس التي تشملها الشياطين، فأعمالهم هي أعمال الشياطين بعينها «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» (١).

نعم لا بد من الحذار من وساوسهم.

ص: ٣٠٥

ومن كلام له عليه السلام

يعنى به الزبير فى حال إقتضت ذلك ويدعوه فى الدخول فى البيعه، ثانياً.

نظره إلى الخطبة

دخل الزبير وطلحه على على عليه السلام، فاستأذناه فى العمره، فقال: ما العمره تريدان، فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمره، فقال لهما: ما العمره تريدان، وإنما تريدان الغدره ونكث البيعه، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعه يريدان، وما رأيهما غير العمره. قال لهما: فأعيدا البيعه لى ثانيه، فأعادها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: والله لا ترونهما إلأى فى فتنه يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمر بردهما عليك، قال: ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. (١) أما الزبير فقد حاول أن يتذرع بما يبرر له نكث البيعه، ويقول ليس لعلى فى عنقى بيعه حيث بايعته مكرها. فالقى الإمام عليه السلام هذه الخطبه (جدير بالذكر أن البعض قد نسب هذا الكلام للإمام الحسن عليه السلام وقد القاها بأمر من أبيه فى يوم الجمل بعد خطبه عبد الله بن الزبير، لكن لا يستبعد أن يكون الإمام عليه السلام قد أورده مسبقاً رداً على إدعاءات الزبير ثم استشهد بها الإمام الحسن عليه السلام فى الجمل. (٢)

«يزعم أنه قد بايع بيده، ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعه، وادعى الوليجه، فليأت عليها بأمر يعرف، وإلّا فليدخل فيما خرج منه» .

ص: ٣٠٧

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٢٣٢. [١]

٢- ٢) كتاب مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٣٤ - ٣٣٥. [٢]

كما أوردنا آنفاً فإن الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبة كرد على الزبير الذى حاول تبرير نكته للبيعه بأنه بايع مكرها بيده دون قلبه؛ لأن معاويه بعث له بكتاب قال فيه: أمّا بعد، فأتى قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب فدونك الكوفه والبصره، لا يسبقك إليها ابن أبى طالب فانه لاشيء بعد هذين المصرين. (١)

فما كان من طلحه والزبير الذين كانا يطمعان بالمنصب إلّا أنّ نكثا بيعتهما للإمام على عليه السلام. أمّا الإمام عليه السلام فقد رد على زعم الزبير ردّاً حقوقياً يحظى بكافه التبعات المتعارفه اليوم فى القوانين القضائيه، فقد قال عليه السلام: «يزعم أنه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقر بالبيعه، وادعى الوليجه» (٢) فالواقع أنّ كلامه مركب من إقرار وإدعاء، فأقراره مسموع ومقبول، أمّا إدعائه فيحتاج إلى إقامه دليل. ولذلك طالبه الإمام عليه السلام باقامه الدليل (ليثبت أن بيعته قد حصلت من خلال الاكراه) وإلّا وجب عليه الالتزام بلوازم البيعه: «فليات عليها بأمر يعرف، وإلّا فليدخل فيما خرج منه» لقد رأى أغلب الناس الزبير وطلحه قد دخلا على الإمام عليه السلام وبايعاه طائعين؛ فقد كانا من أوائل من بايعه فى المسجد، فالبيعه ملزمه، ومن إدعى خلاف ذلك عليه أن يأتى بالدليل، أضف إلى ذلك فالكل يعلم بعدم وجود الاكراه والإجبار فى بيعه على عليه السلام، فقد كان هنالك من لم يبايع، ولم يضطروهم الإمام عليه السلام إلى البيعه، وعليه فليس هنالك من مبرر لنكث البيعه. وكما ذكرنا سابقاً فإنّ هذا من الأصول الأساسيه فى كافه المحافل الحقوقيه والقضائيه، فى أنّ من أبرم عقداً راجباً بالظاهر فقد وجب عليه الالتزام به ولا يقبل منه إدعاء الاكراه الاجبار وعدم تأييد القلب لما فعله باليد، وإلّا لأمكن لكل واحد أن يقوض ما أبرمه بهذه الذريعه. فالمشترى والبائع والزوج والواقف و... إذا أبرم عقداً ولم يرى فيه من مصلحه لاحقاً أمكنه أن يدعى بأنه أبرمه لساناً ولم يكن قلباً موافقاً عليه. وإذا كان الأمر

ص: ٣٠٨

١- ١) شرح ابن أبى الحديد ١ / ٢٣١. [١]

٢- ٢) «وليجه» من ماده «ولوج» بمعنى الدخول، كما تعنى الدخول الخفى ويقال وليجه لما يضمم فى القلب ويكتم، وقد جاءت هنا بمعنى الأمر الخفى.

كذلك فقد عرضت كافة النظم والعقود والمواثيق الفرديه والدوليه للتصدع والانهيـار وهذا مالا يقـره عقل أو منطق؛ والحق أنّ الزبير كان يعلم جيدا بهذا الأمر إلّا أنّه استهدف تضليل الرأى العام الذى قد يسأله لم نكثت البيعه؟

جدير بالذكر أنّ كل هذا نابع من كون العرب آنذاك كانت تولى البيعه أهميه فائقه ولم تكن تتساهل فى نقضها وعدم الالتزام بها، وترى ذلك خطيئه كبيره.

ص: ٣٠٩

ومن كلام له عليه السلام

فِي صِفَتِهِ وَصِفَةِ خُصُومِهِ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي أَصْحَابِ الْجَمَلِ

«وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفِشْلُ وَلَسْنَا نُرْعَدُ حَتَّى نُوقِعَ وَلَا نُسِيلُ حَتَّى نُمَطِّرَ». (١)

الشرح والتفسير

ضجّه فارغه

يستفاد من كلامه عليه السلام أنه أوردته بعد انتهاء معركة الجمل كإشاره للضجّه الفارغه التي إفتعلها طلحه والزبير ورهطهما في بدايه موقعه الجمل، غير أنه لم يجدهم نفعا حيث هزم «طلحه والزبير» شر هزيمة حتى قتلا. فقد قال عليه السلام: «وقد ارعدوا وابرقوا، ومع هذين الأمرين الفشل». فهو تشبيه رائع بالسحب التي تتخللها ظاهره الرعد والبرق كبشاره للناس بالأمطار التي تجلب عليهم الخير والبركه، إلّا أنّها سرعان ما تتبدد دون أن تحمل قطره من المطر. ثم قال عليه السلام: «ولسنا نرعد حتى نوقع، ولانسيل حتى نمطر» يريد عليه السلام أننا لن نرعد

ص: ٣١١

١- ١) قال صاحب «مصادر نهج البلاغه» علاوه على نقل الشريف الرضى لهذا الكلام فى نهج البلاغه، فقد رواه الواقدى ضمن إحدى خطبه عليه السلام يوم الجمل. كما نقله المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل (ص ١٧٧) [١] عن كتاب الجمل للواقدى. وأخيراً ذكره ابن عثم الكوفى فى كتاب الفتوحات.

ونزید مالم نسدد ضربات موجهه إلى العدو، ولسنا من أهل الضجيج حتى نقتحم الميدان ونقهر الخصم. فالواقع هو أنّ العبارتين رغم قصرهما تشيران إلى مدرستين لكل منهما أسسهما في الأنشطة الاجتماعيه والعسكريه والسياسيه؛ مدرسه تتبنى الكلام والضجيج حين ترد الميدان؛ إلّا أنّها لاتستبطن سوى الضعف والعجز والفشل حين العمل. أمّا المدرسه الأخرى فهى المعروفه بالسلوك والعمل، قليل كلامها كثير عملها. هى مدرسه صامته هادئه إلّا أنّها بطله باسله فى الميدان وبالطبع فإنّ الأنبياء والأولياء وأتباع الحق ينتمون للمدرسه الثانيه، بينما ينتمى أتباع الباطل وجنود الشيطان إلى المدرسه الاولى.

و هنا نقطه مهمّه يجب الالتفات إليها وهى أنّ الرعد والبرق قبل المطر ثم يأتى السيل، غير أنّ هناك البعض الذى يردد ويرق دون المطر، والأسوأ من ذلك البعض الآخر الذى يتوعد بالسيول رغم إنعدام قطره مطر، أى أنّهم يتشددون بالنصر والغلبه والنجاح حتى بعد الهزائم المنكره التى يمنون بها، فالطائفه الاولى كاذبه فى مزاعمها وإدعاءاتها، أمّا الثانيه باطله عديمه الحياء. فالذى تفيده بعض الروايات أنّ الإمام على عليه السلام بعث برسله يدعون إلى الالتزام بالبيعه و عدم شق الصف الإسلامى والعوده إلى إحضان الحكومه الإسلاميه، فعادوا يحملون رسائل الحرب حيث تضمنت رسائلهم التهديد بشن الحرب، فردّ الإمام عليه السلام ذلك الرد الحاسم «فإنّ أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من الباطل، وناصروا للحق! ومن العجب بعثهم إلى أن ابرز للطعان وأن أصبر للجلاذ، هبّلتهم الهبول، لقد كنت وما أهدد بالحرب، ولا أُرهب بالضرب، وإنى لعلى يقين من ربّى، وغير شبهه من دينى» (١).

تأملان

١ - رجل العمل

ما تضمنه كلامه عليه السلام - كما أشرنا سابقاً - بعض الصفات البارزه لأساليب الإدارة لأولياء الله، فهم ليسوا من أهل الكلام والضجيج، بل بالعكس كلامهم العمل والتنفيذ. وقد تجسد

ص: ٣١٢

نموذج ذلك في معركة بدر حين ذهل أبوسفیان للنفر القليل الذى كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله فبعث عمير ليرى هل هناك من جند خلف الميدان، فعاد إلى أبى سفيان وقال له: «مالهم من كمين ولامدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت النافع امياً ترونهم خرساً لايتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعى، مالهم ملجأ إلاسيوفهم، ما أراهم يولون حتى يقتلوا ولايقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارأوا رأيكم. فقال له أبو جهل: كذبت وجبت.» (١)

بالتالى أتبتت موقعه بدر أن الحق ماذهب إليه عمير لا ما قاله أبو جهل. وبالطبع فليس هناك من منافاه بين هذا الكلام والاستفاده من الأساليب النفسيه فى ميدان الحرب والرجز وممارسه الحماس وامطار العدو بوابل التبليغات وزرع الرعب فى صفوفه. فالمشكله إنما تكمن فى خلاصه كل شىء فى الكلام والتهديد والوعيد. فالعمل هو الأساس والمحور والكلام ترجمه لذلك العمل. فنموذج الفريق الأول طلحه والزبير ورهطهما، ونموذج الفريق الثانى على عليه السلام واتباعه. فقد وردت عبارات واضحه للإمام عليه السلام - فى الخطبه ١٢٤ من نهج البلاغه - بهذا الشأن، ففى الوقت الذى يحث اتباعه وجنده على الثبات فى الميدان والشده فى الضرب يوصيهم قائلاً: «أमितوا الاصوات فانه أطردهم للفشل» .

٢ - الفارق بين الدعايه والاعلام الفعال

لعل الفارق بين هذين الأمرين صعب التمييز على البعض، حيث ورد النهى عن القول بلاعمل واتخاذ الصمت والهدوء كمفهوم صحيح من جانب: ومن جانب آخر فإن الأحاديث التى تستبطن الأساليب التبليغيه التى تشد قوى الحق من الناحيه النفسيه وتضعف معنويات العدو قد عدت من الوسائل الحربيه اللازمه، إلى جانب الحث على الرجز والحماس فى ميدان المعركه والذى تجسد فى غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله ومعارك أمير المؤمنين على عليه السلام وسائر الأئمه المعصومين عليه السلام كالرجز الذى شهدته كربلاء، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الواقع هنالك فارق واضح بين هذين الأمرين. فالنهى إنما جاء بشأن الكلام الفارغ الذى

ص: ٣١٣

ينطوى على الرعد والبرق الكاذب والذى تصطلح عليه بالبلف حيث تفيد القرائن والشواهد بعدم وجود أى عمل خلف ذلك الكلام. ولا- شك أنّ مثل هذا bluff والكلام الفارغ أنّما هو ديدن الشيطان واتباعه من الأفراد عديمى المنطق. أمّا الترغيب والترهيب الذى يتبع ذلك والعمل والنشاط الذى يخرج الكلام من دائرته ليزج به فى ميدان العمل الذى ينتهجه الفريق الثانى فإنّه ليس فقط غير مدموم فحسب، بل إنّما يأتى فى نطاق الحرب النفسىة التى تفعل فعلها فى الواقع. وبالطبع فان التذكير بهذه النقطة ضرورى وهى أنّ الانهماك بالرجز والخطابه أثناء المعركة إنّما يشغل قسما من طاقات الإنسان ويحد من الأثر المطلوب لصولاته وحملاته، ومن هنا ورد النهى عن ذلك.

ومن خطبه له عليه السلام

يريد الشيطان أو يكنى به عن قوم

نظره إلى الخطبه

تشير هذه الخطبه إلى موقعه الجمل والحوادث الاليمه التي تخللتها؛ حيث يصف الإمام عليه السلام اعوان طلحه والزبير بانهم جنود الشيطان، ثم يشير إلى خصائصه في الميدان، كما يتطرق إلى تبين خطته المستقبلية بهذا الشأن في عبارات قصيره وقارعه مشوبه بتوعد العدو مع تكهن بما ستؤول إليه هذه المعركة.

«أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ وَاسْتَجَلَبَ خَيْلَهُ وَرَجَلَهُ وَإِنَّ مَعِيَ لَبِصَةً يَرْتَبِي: مَا لَبَسْتُ عَلَى نَفْسِي، وَلَا لُبْسَ عَلَيَّ. وَإِيْمَ اللّٰهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَاتِحُهُ! لَا يَصُدُّوْنَ عَنْهُ وَلَا يَعُوْدُونَ إِلَيْهِ». (١)

الشرح والتفسير

تحذير المسلمين ثانيه

كما ذكرنا سابقاً فإنّ خطبه الإمام عليه السلام تعالج القضايا المرتبطه بموقعه الجمل، واستنادا إلى

ص: ٣١٥

(١-١) جاء في مصادر نهج البلاغه [١] أنّ المرحوم المفيد نقل هذه الخطبه في الإرشاد / ١٨٨.

العلاقة الوثيقة بين هذه الخطبه والخطبه الثانيه والعشرين وأبعد من ذلك إرتباطها بالخطبه ١٧٣، والواقع هو أنّ هذه الخطبه قد استوعبت في تلك الخطبه وأصبحت جزءاً منها، فلا يبقى هنالك من مجال للشك والترديد في أنّ الهدف من هذه الخطبه هو الإشاره لموقعه الجمل، وكأني بأولئك الذين فسّروها بالإشاره إلى موقعه صفين وأهل الشام قد أهملوا تلك العلاقه. فالمحور الأول لهذه الخطبه هو تشبيه أعوان طلحه والزبير بجنود الشيطان فقال عليه السلام: «ألا وان الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله» .

و كيف لا يكونوا جنود الشيطان وقد نقضوا عهدهم مع الإمام عليه السلام وقد دفعهم الحرص على المناصب لبث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الأئمه الإسلاميه واشعال فتيل الحرب الذي أودى بحياه الكثيرين حتى احترقوا بتلك النيران. أمّا التعبير بالحزب فهو إشاره إلى الانسجام بين أهداف هؤلاء وأهداف الشيطان، وأمّا التعبير بالخيل والرجل فهو إشاره لتنوع الجنود. القرآن الكريم من جانبه أشار إلى حزب الشيطان بقوله: «إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ» (١)، ويشير في موضع آخر إلى حزبه من الراجله والخياله الذين يختبر بهم بنى آدم «وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ» (٢). ولاشك أن تتابع هذه التنبهات إنّما تستهدف تحلى المؤمنين باليقظه والوعى والحذار من الوقوع فى حبال الشيطان والانضمام إلى حزبه والاتحاق بجنوده، غير أنّ هذا المصير المشؤوم قد طال طلحه والزبير وأعوانها ومن سار على نهجهما قد دفعهم حب الجاه والمنصب لأن يكون لقمه سائغه للشيطان.

ثم تناول عليه السلام المحور الثانى الذى بين فيه سماته وعمق بصيرته بما لايجعل للشبهه والشك من سبيل إليه «وإنّ معى لبصيرتى ما لبست على نفسى، ولا لبس على». الحق أنّ مصدر ضلال أى فرد إنّما يمكن فى أحد ثلاث: الأول ألا يمتلك البصيره والمعرفه اللازمه بالعمل الذى يقدم عليه، فيرد الميدان جهلا فيتصرف بما لايرضى الله. والثانى قد يتمتع بالمعرفه إلّا أنّ حجب هوى النفس وحب الذات إنّما تحول دون رؤيته للحق وتسوقه للخطأ والزلل، وما أكثر الأفراد الذين يعلمون ببشاعه الذنب إلّا أنّهم يصطنعون لأنفسهم الاعذار الناشئه من

ص: ٣١٤

١-١) سورة فاطر / ٦. [١]

٢-٢) سورة الاسراء / ٦٤. [٢]

وساوس النفس والدوافع الشيطانية التي تسول لأنفسهم عد تلك الذنوب من الفرائض، وكما صورهم القرآن الكريم «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (١). والثالث أن يمنع شياطين الجن والانس الاذن بالنفوذ إلى قلبه ويشوهوا عليه الحقيقه. ولم يكن لأى من هذه المحاور الثلاث من سبيل إلى الإمام عليه السلام؛ وذلك لأنه أوصد كافة الأبواب الباطنيه والظاهره للخطأ والانحراف بوجه الوسواس والأهواء وتحلى بتقوى وورع وبصيره جعلته يرى الحقيقه كما هي.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد يقول عليه السلام: «إِنَّ مَعِيَ لَبِصِرَتِي»، أنّ البصيره التي كانت معي في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله في كافة الأحداث المهمه التي وقعت على عهده مازالت معي ولم تتغير. والعبارة إشاره إلى الآيه الشريفه «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» (٢). بينما يرى البعض الآخر أن قوله عليه السلام: «ما لبست على نفسي، ولا لبس على» هو تفسير لقوله «وإنّ معي لبصيرتي» إلّا أنّ ما ذكر سابقاً أنسب.

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام قال: ما لبست على نفسي، ثم قال: ولا لبس على؛ الأمر الذي يكشف عن ترتيب طبيعي ينبغي فيه ألاّ يخدع الإنسان من قبل نفسه أولاً- ثم يأمن مكر الآخرين وخداعهم. ثم خاض في المحور الثالث ليكشف عمّا ستؤول إليه نتيجة موقعه الجمل محذرا خصومه بشده «و آيم (٣) الله لأفرطن (٤) لهم حوضاً أنا ماتحه (٥)! لا يصدرون عنه ولا يعودون إليه». والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام شبه ميدان القتال بالحوض الذي يريد ملأه بالماء بحيث لا يبقى معه من مجال؛ أراد عليه السلام لأملأن لهم حياض الحرب التي هي دربتي وأنا مجرب لها، ثم يشير عليه السلام إلى النتيجة التي سيؤول إليها أهل الجمل وهي لن تكون سوى القتل وإزهاق

ص: ٣١٧

١-١ (١) سورة الكهف / ١٠٤. [١]

٢-٢ (٢) سورة يوسف / ١٠٨. [٢]

٣-٣ (٣) يرى بعض أرباب اللغة أن «آيم» جمع «يمين» بمعنى القسم وقد سقطت النون وهي مبتدأ لخبر محذوف تقديره (وأيمن الله قسماً).

٤-٤ (٤) «أفرطن» من ماده «إفراط» بمعنى تجاوز الحد (ما يقابل التقريط)، كما تأتي بمعنى ملأ الشيء حتى يفيض، وقد جاءت بهذا المعنى في العبارة.

٥-٥ (٥) «ماتح» بمعنى امتداد الشيء ثم اطلقت على المستسقى الذي يدلى بدلوه لاستخراج الماء من البئر. وقيل إنّ الماتح لمن يستسقى الماء من أعلى البئر، بينما المايح من تحته.

الأنفس، وإن كان هنالك من سبيل إلى الفرار فإنّ الفار لن يعود إلى الميدان ثانية.

وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ قوله عليه السلام: «لأفرطن» لا تعنى أنّى سأفرط فى هذا السبيل، بل المراد أنّى سأبذل قصارى جهدى لسد جميع الطرق على العدو (لابدّ من الدقه هنا). وهذا بعينه ما جعل عائشه تعتبر من تلك المعركه ولم تشترك فى المعارك اللاحقه.

تأمل: جند الشيطان

ما نستفيدة من الخطبه المذكوره أنّ الشيطان لا يمارس وظيفته فى الاغواء والاضلال لوحده؛ بل له جنوده وأعوانه والذين عبر عنهم فى الخطبه بالخياله والرجال (خيل ورجل) كماله اتباعه وانصاره الذين عبر عنهم بالحزب، وكما ذكرنا فان القرآن هو الذى أورد هذين التعبيرين (لابدّ من الالتفات إلى الخيل تعنى أحيانا الفارس وهذا هو المراد فى العبارة لأنفس الفرس). وبالطبع لا يراد بحزب الشيطان ورجالته ما يتعارف اليوم فى المجتمعات المعاصره وتشكيلات الجيوش؛ إلّا أننا نعلم بأنّ له مساعدوه من بنى جنسه ومن جنس بنى آدم الذين ينشطون فى إغواء الناس وإضلالهم، بل حتى الأحزاب القائمه اليوم والجنود الذين أصبحوا آله بيد السلطان الظالمه والمستبده إنّما هى جنود الشيطان وأحزابه. فما كان من الجنود أشد وأقوى فهو من خيله وما كان أضعف وأصغر فهو من رجله. بل هناك من يرى نفسه فى صفوف حزب الله وهو فى زمره حزب الشيطان. أمّا أتباع الحق فان عليهم أن يتكلموا على الله وينضوا تحت ولايته ليكونوا مصداقا لقوله: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» ليحفظوا بعنايه الله ولطفه ويفوزوا بمضمون «إلهى لا تكنى إلى نفسى طرفه عين أبداً». أمّا شرط الوصول إلى هذا المقام فهو ما ذكره الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره، أى لابدّ من التحلى بالبصيره والمعرفه والحذر من خداع النفس، إلى جانب الحذر من الوقوع فريسه لجبائل خداع الآخرين ومكرهم.

ومن كلام له عليه السلام

لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الرايه يوم الجمل

«تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُّ! عَضَّ عَلَى نَاجِدِكَ. أَعْرَى اللَّهُ جُمُوعَتَيْكَ. تَسُدُّ فِي الْمَأْرُضِ قَدَمَكَ. ازْمِ بِبَصِيرَةِ رِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَعُضَّ بِصَرَكَ، وَأَعْلَمَ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ» .

نظرة إلى الخطبه

ما تفيده الروايات هو أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام كان شديد الحرص على عدم نشوب معركة الجمل بغيه الحيلولة دون سفك دماء المسلمين، كما ورد أنّه سلم الرايه يوم الجمل ابنه محمد بن الحنفية، فاستغل الفرصه من الصباح حتى الظهر ليدعوهم إلى الصلح والالتزام بالبيعه، ثم خاطب عائشه قائلاً: اتق الله وعود إلى بيتك فقد أمركن الله سبحانه «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» . ثم التفت إلى طلحه والزبير وقال لهم: صنتم نساءكم وبرزتم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم خرجتم تطالبون بدم عثمان بعد أن آلت الخلافة إلى الشورى (وقد انتخب الناس أمير المؤمنين وقد مددتما إليه يد البيعه). ثم قال للزبير أتذكر كنا نتحدث يوماً في المدينة فسألك رسول الله صلى الله عليه وآله: أتحب على؟ فقلت: كيف لأحبه وهو قرابتي وإني لأحبه في الله. فقال لك رسول الله صلى الله عليه وآله فاعلم إنك ستقاتله وأنت له ظالم! فقلت أعوذ بالله من ذلك اليوم. ثم واصل

الإمام على عليه السلام نصحهم ووعظهم حتى قال اللهم إشهد أنى نصحت لهم وأمهلتهم، ثم تناول القرآن وقال من يحاججهم بالقرآن فيقرأ عليهم الآيه «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» (١) وهو مقطوع يمينه وشماله ومقتول؟ فتناوله مسلم المجاشعي فاقترب من العدو وحمل القرآن بيمينه وتلى عليهم الآيه، فحملوا عليه وقطعوا يمينه، فتناول القرآن بشماله فقطعوها أيضاً، فاخذ القرآن بأسنانه فقتلوه. فقال على عليه السلام: أحل لى الآن قتالهم عن آخرهم. ثم إلتفت إلى محمد بن الحنفية وخطبه بتلك الكلمات. (٢) على كل حال فان الإمام عليه السلام يسلط الضوء على الفنون القتاليه المهمه والمسائل ذات الاثر من الناحيه النفسيه والجسديه فى الجندى المسلم والتي تعده للتأهب والاستبسال فى ساحه المعركه. والكلام يشتمل على سبع جمل: تضمنت الجمله الاولى الأوامر الكليه بشأن المقاومه والصمود فى ميدان الحرب، بينما أشارت الجمل الخمس الأخرى إلى الجزئيات والأمر التي تلعب دوراً فى الصمود وتحقيق النصر. أما الجمله السابعه والأخيريه فهى تؤكد على الإتكال على الله وأن النصر من عنده سبحانه ليتمكن من خلال ذلك وبقوه الإيمان تحمل المشاق والصعاب والتحدى بالروحيه العالیه من أجل الصمود أمام العدو ومقاتلته.

الشرح والتفسير

كن كالجبل

كما أشرنا سابقاً فإن الخطبه تعالج مجريات موقعه الجمل حيث أعطى الإمام عليه السلام الرايه ولده الشجاع محمد بن الحنفية، وقد أوصاه عدّه وصايا مهمه بشأن القتال وتحقيق النصر منها:

أنه قال: «تزول الجبال ولا تزول» (٣). فالواقع إن أهم مسأله فى ميدان القتال هى الاستقامه والصمود التى لايمكن تحقيق النصر بدونها، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام فى بدايه الأمر. ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لمضمون الروايه المعروفه «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه

ص: ٣٢٠

١- ١) سورة الحجرات / ٩. [١]

٢- ٢) منهاج البراعه للخوئى ٣ / ١٦٧ - ١٦٩.

٣- ٣) قال بعض شراح نهج البلاغه أن هذه العبارة جملة شرطيه من حيث المعنى، فقد يرها لوزالت الجبال لا تزول (شرح ابن ميثم

١ / ٢٨٧). [٢]

العواصف» كما ورد عن النبي الاكرم صلى الله عليه و آله أنه قال: «المؤمن أشد في دينه من الجبال الراسيه وذلك أن الجبل قد ينحت منه والمؤمن لا يقدر أحد على أن ينحت من دينه شيئاً» (١)؛ ثم تناول عليه السلام ما من شأنه أن يؤثر في مسيره المعركه فقال: «عض على ناجذك». فالناجذ قد يعنى أقصى الضرس، كما فسّر بسن العقل، وقيل بل جميع الإنسان. وقيل أن العض على النواجذ يتضمن فائدتين: الاولى أنه يزيل الخوف والقلق والاضطراب ومن هنا يعض الإنسان على أسنانه في مواطن الخوف ليهدأ وتسكن فورته، والثانيه أنهم ذكروا أن العاض على نواجذه ينبو السيف عن دماغه، لأن عظام الرأس تشتد وتصلب؛ وقد جاء في كلامه عليه السلام هذا مشروحاً في موضع آخر وهو قوله عليه السلام: «وعضوا على النواجذ، فإنه أنبي للصوارم عن الهام» (٢). أمّا في الجمله الثالثه فقد قال عليه السلام: «أعر الله جمجتك» تعنى إستعد للتضحيه والفداء والشهاده في سبيل الله فان هذا الاستعداد أساس الشجاعه والاستبسال. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه أن في العبارة إشعار له أنه لا يقتل في تلك الحرب، لأن العاريه مردوده، ولو قال له: بع الله جمجتك، لكان ذلك إشعار له بالشهاده. ثم قال عليه السلام في الجمله الرابعه: «تد في الأرض قدمك». في إشاره واضحه إلى الثبات في المعركه ورباطه الجأش في مقابل العدو وعدم التفكير قط بالانسحاب أو الفرار من الميدان؛ الأمر الذى أوصى به القرآن الكريم المؤمنين من قبل: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فُئَّةً فَانصَبُوا» (٣). ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة الاولى، هو أن الجمله الاولى تحدثت عن عدم التزلزل في الفكر والمعنويات بينما أشارت العبارة الأخيره إلى عدم التزلزل الظاهري والبدني وعدم الانسحاب والتراجع وفي الجمله الخامسه قال عليه السلام: «ارم ببصرك أقصى القوم» فمثل هذه النظرة تجعله يحيط بالميدان والعدو والسيطره على حركه الجنود بحيث يتعرف على نقاط الضعف والقوه فيصيب في الدفاع والهجوم والكر والفر. ثم قال عليه السلام: «و غص ببصرك». ليس هنالك من تناقض بين قوله «ارم ببصرك» قوله «غص ببصرك» وذلك لأنه في الاولى أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه، ويحذق إلى أقصى القوم

ص: ٣٢١

١-١) سفينه البحار، [١] ماده أمن.

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٤. [٢]

٣-٣) سوره الانفال / ٤٥. [٣]

بصره، فعل الشجاع المقدام غير المكترث ولا المبالى، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره ولا يرتفع طرفه ولا يمتد عنقه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف. وفي الثانيه أمره أن يغض بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لئلا يبرق بصره ويدهش ويستشعر خوفاً. والشاهد على ذلك ما أورده عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغه بهذا الشأن إذ قال: «و غصوا الأبصار فانه أربط للجأش وأسكن للقلوب» (١). أمّا في الجملة السابعه والأخيره فقد أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه وأساسيه تنطوى على أبعاد روحيه معنويه تطمئن النفوس وتحدها بالتطلع إلى الله «و اعلم أن النصر من عند الله سبحانه» فالنصر لا يستند إلى الأسباب والمقدمات الظاهريه، بل المهم إرادته الله سبحانه ونصره، فتوكل على الله وثق به واسأله الغلبه فهو القادر على كل شىء وهو الرحمن الرحيم بعباده المؤمنين المجاهدين «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (٢). والطريف فى الأمر أن القرآن الكريم تحدث عن نصره الملائكه إلا أنه حث المؤمنين بالتضرع إلى الله بنزول النصر لا الملائكه «بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسه آلاف من الملائكه مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم وتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» .

تأملان

١ - محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره

هو أحد أبناء أمير المؤمنين على عليه السلام و «حنفيه» لقب أمه واسمها خوله بنت أحد أشراف قبيله «بنى حنيفه» وقد اسرت فى أحد المعارك الإسلاميه وأرادوا بيعها، فأعتقها عليه السلام وتزوجها. ورث محمد الشجاعه من على عليه السلام وقيل كان يشق الدرع بيده لقوته. ومن هنا سلمه عليه السلام الرايه يوم الجمل، كما أسند إليه مع محمد بن أبى بكر وهاشم المرقال ميسره جيشه فى صفين. وكان شديد التواضع للحسن والحسين عليهما السلام.

ص: ٣٢٢

١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٤. [١]

٢- ٢) سوره آل عمران / ١٢٦. [٢]

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلى محمد ابنه عليه السلام، وقد استوت الصفوف، وقال له: احمل، فتوقف قليلاً، فقال له: احمل، فقال يا أمير المؤمنين، أما ترى السيّهام كأنّها شايب المطر! فدفع في صدره، فقال: أدركك عزق من أمك، ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصره. قيل لمحمد لِمَ يُغزَّرُ بك أبوك في الحرب ولا يغزّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنّهما عيناها وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينه بيمينه.

إتهم البعض محمد بن الحنفية بأنه ادعى الإمامه بعد الإمام الحسين عليه السلام، بل قيل ادعى المهديوه، إلا أن الشيخ المفيد أبطل ذلك وقال لم يدع الإمامه (بل نسب الآخرون ذلك إليه وهم من ادعى الإمامه والمهدويه من الكيسانيه. توفي بن الحنفية عام ٥٨١ هـ - و اختلف في محل دفنه، فقيل توفي في الطائف ودفن فيها. وقيل في البقيع، كما قيل في الجبل الرضوى قرب المدينه.

أما إحد الشواهد الحيه على رفعه مكانته وعلو منزلته فهو أنّ الإمام الحسين عليه السلام حين أراد الخروج من المدينه إلى مكه جعله خليفته ووصيه في المدينه ليطلعه على الأخبار، كما أودعه وصيته طبق لنقل أرباب المقاتل.

٢ - الشرط المهم في النصر على الأعداء

تفيد الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه أنّ العنصر الرئيسي الذي يقف وراء النصر والغلبه إنّما يكمن في الصبر والمقاومه والثبات. فالقرآن يصف الفئه القليله الصابره بانها هي المنتصره في مقابل الفئه المعاديه الكثيره العدد والعدد: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» (١). كما ورد تأكيده عليه السلام على الصبر في سائر خطبه في نهج البلاغه ومن ذلك قوله عليه السلام: «و عليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس معه ولا في إيمان لا صبر معه» (٢).

ص: ٣٢٣

١- (١) سورة الانفال / ٦٥. [١]

٢- (٢) نهج البلاغه، [٢]الكلمات قصار / ٨٢. [٣]

و هو المعنى الذى ورد التأكيد عليه كرارا فى الخطبه التى نحن بصددھا، فقد قال عليه السلام كإشاره لمواطن الصبر «تزل الجبال ولا تزل» وقال: «تد فى الأرض قدمك» ، وهكذا سائر عباراته من قبيل العض على النواجذ واعاره الله الجمجمه والإيمان بانّ النصره والغلبه من الله سبحانه، حيث من شأن كل هذه الأمور أن تلهم الإنسان الصمود والثبات والمقاومه التى تستبطن النصر، وهذا بعينه ما جعل المسلمين ينتصرون على خصومهم حتى فى المعارك التى لم تكن متكافئه، وهذا ما ينبغى أن يؤمن به ويستشعره جيلنا الإسلامى الجديد ليحقق الانتصارات الباهره على الأعداء.

ومن كلام له عليه السلام

لما أظفره الله بأصحاب الجمل وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: وَدِدْتُ أَنْ أَخِي فَلَانًا كَانَ شَاهِدَنَا لِيُرَى مَا نَصَرَكَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَعْدَائِكَ «فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَهُ أَهْوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ فَقَدْ شَهِدْنَا، وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسِيكِرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْيَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ». (١)

نظرة إلى الخطبة

يتضح ممّا قاله السيد الرضى بشأن الخطبة أنّها متعلّقه بأحداث الجمل والنصر المبين الذى حققه الإمام عليه السلام حيث إلتفت إليه أحد أصحابه وكان شديد الحب لأخيه فقال له: ليت أخى كان معنا ليشهد ما نحن فيه من النصر والغلبة على هؤلاء البغاه. فأورد الإمام عليه السلام هذه الكلمات الرائعة ليطمئنه بالحضور المعنوى لأخيه وكل من سار على نهجه عليه السلام من حماه العقيدة، فالإسلام يرى الرابطة الدينية تفوق كافة الروابط العرقية والسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك. فقد تظافت الروايات الإسلامية التى صرّحت بأنّ من أحبّ عمل قوم حشر فيه معهم

ص: ٣٢٥

١ - ١) سند هذه الخطبة هو ماورد فى كلام الشريف الرضى، وقد ورد شبيه هذا الكلام فى كتاب مصابيح الظلم من كتب المحاسن البرقى. أنّ أحد أصحاب الإمام عليه السلام قال بعد أنّ أظفر الله الإمام عليه السلام بالخوارج فى النهروان، طوبى لنا قاتلنا بين يديك فقتلنا الخوارج، فرد الإمام عليه السلام بعبارات شبيهه بما ورد فى هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٣٩).

[١]

و الراضى بفعل قوم كالدخل فيه معهم. وبعبارة أخرى فان الإمام عليه السلام أشار في هذه الخطبه إلى أنه قد شهد في عسكره وشركه في نصره كاه الأفراد الذين يقيمون اليوم في كاه أصقاع العالم والذين لم يشهدوا - لأسباب - ميادين القتال إلا أنهم وبسبب تعاطفهم العقائدي وكذلك الأفراد الذين مازالوا نطف في أصلاب الرجال وقرارات الفساد.

الشرح والتفسير

اللحمه العقائديه

يتضح ممّا مر معنا أنّ الإمام عليه السلام اورد هذا الكلام في إطار ردّه على أحد أصحابه الذي أعرب عن تمنيه في أن يكون أخيه قد حضر معه في تلك المعركة ويشهد النصر المؤزر الذي من الله به على جيش الإمام عليه السلام فالتفت إليه الإمام عليه السلام: «فقال له: أهوى أخيك معنا؟»، «فقال: نعم»، فرد عليه الإمام عليه السلام: «فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في اصلاب الرجال وارجام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان». (1)

أجل من كان على عقيدتنا أينما كان فهو معنا وإن لم يكتب لهم الله الحضور الفعلي في الميدان. أمّا قوله عليه السلام سيرعف بهم الزمان فهي إشارة إلى أنّ الدم وان جرى مستتراً في عروق الإنسان إلا أنه يظهر في أيه لحظه وينتشر بكل سهوله، فهؤلاء مستترون في باطن هذا العالم إلا أنهم سيظهرون تدريجياً طبق التصنيف الزماني الإلهي ومن خصائصهم «و يقوى بهم الإيمان» فهم يتحركون باتجاه الحق؛ الأمر الذي يسهم في تقويه أواصر الدين والإيمان. هذا وقد كثر الكلام بين سراح نهج البلاغه بشأن طريقه هذا الشهود والحضور للغائبين فهل هو حضور روعي؟ أي هل أرواحهم حاضره في ذلك المكان قبل أن تخلق الأبدان، أم هو حضور بالقوه؟ أي هم حاضرون وان غابوا عن الميدان ظاهرياً؟ يبدو أنّ مراد الإمام عليه السلام بهذا الحضور هو شركتهم في الثواب والحسنات والنتائج؛ أي أنّ هؤلاء الذين قلوبهم معنا وهم على خطنا وحركتنا (حزب الله) فهم شركاءنا في الأجر والثواب، وعليه فلهم حضورهم الروحي الفعلي في كاه ميادين صراع الحق ضد الباطل. فالواقع هو أنّ المسار واحد والحركة واحده والجميع كتله

ص: ٣٢٦

واحدہ إن تعا نقت عقائدهم وأهدافهم وليس للزمان أن يفصل بعضهم عن البعض الآخر. وهذا يصدق أيضاً على خط الباطل، فالكل سائر على طريق الشيطان ويحمل نفس العقائد الفاسده ويعيش حاله الظلم والعدوان ومقارفة الذنوب والمعاصي فالمتأخر شريك للمتقدم في الجزاء والعقاب.

تأمل: الرابطه الحق

ما ورد في الخطبه يكشف عن حقيقه معنويه ليس للمعادلات الدنيويه الماديه من سبيل إلى الوقوف على كنهها والاحاطه بها. فالإمام عليه السلام يرى أن أهم رابطه تحكم المؤمنين هي رابطه الدين والعقيده التي لاتضاهيها رابطه (من قبيل رابطته الدم والجنس واللون والعرق واللغه والحزب والطائفة والقبيله وما إلى ذلك) فهي أروع وأقوى وأعظم، ومن شأن هذه الرابطه أن تشمل كافه الأزمنه والأمكنه وجميع أفراد البشر في الماضي والحاضر والمستقبل ليصهرها في بوتقه الهيه واحده. فقد قال عليه السلام «لقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وارجام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان» فالمعركه ليست صراع شخصي من أجل السيطره، بل هي معركه بين الحق والباطل، وهما صفان متقابلان خالدان حتى ينفخ في الصور، وأن المؤمنين سيهبون لمجابهه الباطل والذود عن الحق مازالت هنالك آثار للباطل، وكل من كان على الحق فهو شريك في كل ما يترتب على هذه المجابهه من أجر وثواب. والدليل واضح على ذلك حيث الحقيقه واحده لاينشد أتباع الحق سواها فهم يتحركون بهذا الاتجاه ويشهرون سيوفهم من أجل تحقيق هذا الهدف. وعلى أساس هذا الاصل الأساسي تكون قد حلت أكثر المسائل الوارده في القرآن والأحاديث والتي قد تبدو مستغربه للبعض. فقد صرح القرآن الكريم بشأن قوم ثمود قائلاً: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا» (١). بينما صرحت التواريخ أن الذي عقر الناقه كان واحداً منهم، في حين نسب الله العقر للجميع بفعل تضامنهم العقائدي معه فشمّلوا جميعاً بالعذاب. وهذا هو

ص: ٣٢٧

المفهوم الذى أوضحه الإمام عليه السلام بقوله: «أيها الناس أنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقه ثمود رجل واحد منهم فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا» (١) وقوله عليه السلام: «الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم وعلى كل راض بالاثم ذنبان؛ ذنب الرضى به وذنب العمل به». وورد فى زيارة الأربعين لجابر بن عبد الله الانصارى أنه انكب على قبر الحسين عليه السلام وجعل يزوره بهذه العبارة: «أشهد أنك أقمّت الصلاة وآتيت الزكاه وأمرت بالمعروف نهيت عن المنكر وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين، والذى بعث محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دختلم فيه» فلما سمعه صاحبه عطيه تعجب من قوله قائلاً: كيف ذاك ولم نهيط وادياً وقد قاتل القوم دون الحسين عليه السلام فطاحت رؤوسهم وترملت نسائهم ويتمت أولادهم فقال جابر: سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من أحبّ قوماً حشر معهم ومن أحبّ عمل قوم أشرك فى عملهم، أما الذى بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالنبوّه لنتينا نيه الحسين عليه السلام وأصحابه» (٢) القرآن من جانبه خاطب كراراً يهود المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وبخهم على الأعمال التى أتى به أصحابهم على عهد نبي الله موسى عليه السلام؛ بينما كانت هنالك عدّه قرون بين القومين، فجعلهم القرآن كأولئك لانتهاجهم مسيرتهم ورضاهم باعمالهم، ومن ذلك قوله «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (٣). وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى ذيل هذه الآية أن الله إعتبر هؤلاء - ممن عاصر النبي صلى الله عليه وآله من اليهود - قتله الأنبياء السابقين رغم عدم ارتكابهم لجريمه القتل ولكن حيث كانوا على عقيدته أولئك القتله وراضين بفعلهم فقد عدّهم قتله» (٤). وقد روى المحدث الكبير عدّه روايات فى المجلد الحادى عشر من وسائل الشيعة بهذا المضمون فى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. (٥)

ومن شأن هذا اللون من التفكير أن يفتح أمامنا آفاقاً واسعة ويجعلنا نقف على مضمون الآيات والروايات ويساعدنا فى سلوك طريق الحق.

ص: ٣٢٨

١-١ (١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠١. [١]

٢-٢ (٢) بحار الانوار ٦٥ / ١٣١. [٢]

٣-٣ (٣) سوره آل عمران / ١٨٣. [٣]

٤-٤ (٤) بحار الانوار ٩٧ / ٩٤. [٤]

٥-٥ (٥) وسائل الشيعة / ١١، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٥.

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم أهل البصره بعد وقعه الجمل.

«كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبُهَيْمَةِ؛ رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعَقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلَافُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاحِصُ عَنْكُمْ مُتْدَارِكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤُجُؤٍ سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا، وَعَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا». (١)

نظره إلى الخطبه

الخطبه كبعض الخطب السابقه واللاحقه وارده بشأن موقعه الجمل، وقد ذم الإمام على عليه السلام أهل البصره الذين أسلسلوا قيادهم لطلحه والزبير وفرقوا صفوف المسلمين، ثم توعدهم بعذاب الله سبحانه، ليعتبر من إعتبر فلا يقارف أعمالهم.

ص: ٣٢٩

١ - ١) قال المرحوم المحقق الخوئي أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه بعد انتهاء معركة الجمل، ورواها - مع بعض الاختلاف - المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج وعلى بن إبراهيم القمى والمحدث البحرانى، كما نقلها - حسب كتاب مصادر نهج البلاغه - [١] عدد من العلماء من عاشوا قبل الشريف الرضى كالدينورى فى الأخبار الطوال والمسعودى فى مروج الذهب وابن قتيبه فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد (مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٤٤). [٢]

خصائص أهل الجمل

لقد أشار عليه السلام في هذه الخطبه إلى الصفات الذميمة التي إتصف بها مؤججى البصره ليجمعها في سبع صفات. فقد قال عليه السلام في البدايه «كنتم جند المرأه». صحيح أن مؤججى نار الجمل هما طلحه والزبير، كما تشير الشواهد التأريخيه إلى الدور المشبوه الذى لعبه معاويه فى هذا الشأن، ولكن الذى لاشك فيه أن حضور عائشه وكونها زوج النبى صلى الله عليه وآله كان الدافع الأعظم الذى ساق الناس لقتال الإمام عليه السلام والانخراط فى صفوف أصحاب الجمل، ولا سيما أن كنيته بأمر المؤمنين كان له أبلغ الأثر فى نخوه الناس للدفاع عن أمهم، ومن هنا خاطب الإمام عليه السلام أهل البصره. بجند المرأه. الصفه الثانيه لهم: «و اتباع البهيمه»، ثم يوضح عليه السلام سبب استحقاتهم لهذه الصفه إثر تحزيبهم واجابتهم حين كانت ترغى وهروبهم وتشتهتهم حين عقرت «رغا (1) فاجبتم، وعقر (2) فهربتم». فقد صرح بعض المؤرخين أن جمل عائشه - فى معركة الجمل - كان بمثابة رايه عسكر البصره، حيث كان الجنود يلتفون حوله ويضربون دونه حتى قتلوا كما تقتل الرجال تحت راياتها. وجاء فى بعض الروايات أن سبعين ألفا قد أخذوا بزمام الجمل وكانوا يقتلون الواحد تلو الآخر، وكان أكثر من إلتف حول الجمل والدفاع عنه من قبيلتى بنى ضبه والأزد، لقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والايدي تطيح من المعاصم وأفتاب البطن تندلق من الاجواف وهم حول الجمل كالجراد الثابته لا تتحلحل ولا تتزلزل، حتى لقد صرخ على عليه السلام بأعلى صوته: «ويلكم أعقروا الجمل، فانه شيطان» ثم قال: إعقروه والافيت العرب. لا يزال السيف قائما وراكعا حتى يهوى هذا البصير إلى الأرض، فعمدوا له حتى عقروه فسقط و له رغاء شديد، فلما برك كانت الهزيمة. كما ورد فى بعض الروايات أن أميرالمؤمنين أمر بحرق الجمل وذر رماده فى الرياح وقال: لعنه الله من دابه ما أشبهه بعجل السامرى، ثم تلى «وَأَنْظُرْ إِلَى إِلِهَيْكَ الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا» (3) والطريف فى

ص: ٣٣٠

١- ١) «رغا» من ماده «رغاء» على وزن دعاء صوت الجمل كما يطلق على صوت الضبع أيضاً.
٢- ٢) «عقر» من ماده «عقر» على وزن فقر بمعنى الأصل والجذر، وتعنى الجرح والقطع إذا استعملت للناقه كما تأتى بمعنى الهلاك.

موقعه الجمل أن عائشه أخذت كفا من حصى، فحصبته به أصحاب الإمام عليه السلام وصاحت بأعلى صوتها: شأهت الوجوه كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر. فقال لها قائل: وما رميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى. (١) فقد كان حسب رسول الله صلى الله عليه وآله للمشركين أحد العوامل الاعجازيه التي أدت إلى إنهياف عسكر الكفر، بينما انتهت معركة الجمل بهزيمه منكروه منى بها أعداء الإمام عليه السلام. أما الصفه الثالثه والرابعه والخامسه فهى تعالج أوضاعهم الأخلاقيه حيث قال عليه السلام: «أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق» دقاق من ماده دقت بمعنى الدينئه هنا، يصف بها أهل البصره من عبده الأهواء الذين نكثوا البيعه والتحقوا بصفوف الأعداء، أما نفاقهم فهو ناشئ من كون ظاهرهم هو الإسلام والدفاع عن زوج النبى صلى الله عليه وآله وباطنهم القيام ضد الحكومه الإسلاميه ووصى رسول الله صلى الله عليه وآله و التخذق فى صفوف أهل الشام. ثم أشار عليه السلام إلى صفتهم السادسه «و ماؤكم زعاق». ومن المعلوم إن مثل هذا الماء وإضافه إلى ملوحته ومرارته فانه ينطوى على كل عناصر التلوث بسبب مجاورته لشاطئ البحر؛ فهو مضر بالنسبه لسلامه البدن، وهو يا لتالى مضر بروح الإنسان وفكره بفعل الرابطه القائمه بين الروح والبدن. وعليه فان ذم ماؤهم هو فى الواقع نوع ذم لأخلاقهم. ثم تطرق إلى صفتهم السابعه فقال: «و المقيم بين أظهركم (٢) مرتهن بذنبه والشاخص (٣) عنكم متدارك برحمه من ربّه». والعباره إشاره إلى ما ورد فى عدّه روايات، ومنها الحديث المعروف الذى نقله المرحوم الكلينى فى الكافى عن أبى الحسن الإمام الهادى عليه السلام حين قال لأحد أصحابه ويدعى جعفر: مالى أراك تغشى عبدالرحمن بن يعقوب (و كان منحرفاً فى عقائده)، ألا تعلم أنه ينسب الله إلى صفات المخلوقين ثم نصحه عليه السلام بتركهم ومجالسه أعدائهم أو العكس، فرد جعفر على الإمام عليه السلام

ص: ٣٣١

-
- ١- ١) شرح نهج البلاغه لإبن أبى الحديد ١ / ٢٥٢ - ٢٦٦ [١] إلّا أنه كتب حين خطأ بدلاً من بدر.
- ٢- ٢) «بين أظهركم» بمعنى بينكم، وأظهر جمع ظهر بمعنى الخلف وهو خلاف الباطن، ويستعمل هذا اللفظ للشخص الذى يعيش بين مجموعته تسانده و تحميه، وأحياناً يستعمل هذا اللفظ للعيش فى مجموعته يؤيدونه ويحمونه أو لا- يحمونه. «لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ أولاً يحمونه. «لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ لابن الاثير».
- ٣- ٣) «شاخص» من ماده «شخص» بمعنى المرتفع واطلقت على قامه الإنسان حين تلوح من بعيد، ومن هنا اطلق على الشخص المسافر اسم الشاخص، وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة المذكوره.

فليقل ما يقل في إشاره إلى أنه لا يتفق معه في العقيدة فلا يضره. فقال عليه السلام: «أما تخاف أن تنزل به نقمه فتصييكم جميعاً» (١) ومن هنا وجبت الهجره على المسلمين في صدر الإسلام حين عم الفساد كل شيء - ولا سيما الفساد العقائدي - ولم يسعهم القضاء عليه، بل كان يخشى تأثرهم به. وقوله عليه السلام: «مرتتهن بذنبه» إشاره إلى أن الذنب يأسر الإنسان وكأنه يجعله رهينه فلا يطلقه، وهو مستوحى من قول القرآن الكريم «كل نفس بما كسبت رهينه» (٢) والذي نخلص إليه من هذه العبارة هو التأثير الذي يلعبه المحيط والوسط على أخلاق الناس، فاما يغير هذا الإنسان المحيط بالفساد والملوث أو يهجره. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى العذاب الدنيوي الذي ينتظر أهل البصره فقال: «كأنى بمسجدكم كجؤجؤ سفينه قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها، وغرق من في ضمنها». وأما إخباره عليه السلام أن البصره تغرق عدا المسجد الجامع بها، «فقد رأيت من يذكر أن كتب الملاحم تدل على أن البصره تهلك بالماء الأسود ينفجر من أرضها، فتغرق ويبقى مسجدها. والصحيح أن المخبر به قد وقع، فان البصره غرقت مرتين، مره في أيام القادر بالله (٣) ومره في أيام القائم بأمر الله (٤) غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب ما أخير به أمير المؤمنين عليه السلام، جاءها الماء من بحر فارس (٥) من جهة الموضع المعروف الآن بجزيره الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخرت دورها وغرق كل ما في ضمنها، وهلك كثير من أهلها» (٦) أخبارها تين الحادتين معروفه عند أهل البصره يتناقله خلفهم عن سلفهم.

ثم نقل السيد الرضى آخر هذه الخطبه ثلاث روايات بشأن العبارات الواردة في آخرها:

الروايه الاولى: «و آيم الله لتغرقن بلدتكم حتى كأنى انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينه أو نعامه جائمه» .

ص: ٣٣٢

١- ١) اصول الكافي ٢ / ٣٧٥، باب مجالسه أهل المعاصي، [١] وقد وردت في هذا الباب عدّه روايات بهذا المضمون.

٢- ٢) سورة المدثر / ٣٨. [٢]

٣- ٣) الذي تولى الخلافة عام ٣٨١ هـ (الكامل في التاريخ ١/٨٠). [٣]

٤- ٤) «القائم بأمر الله»، من خلفاء الدوله العباسيه، اصبح خليفه عام ٤٢٢ هجرى «الكامل في التاريخ ٩/٤١٧». [٤]

٥- ٥) من النقاط التي تسترعى الانتباه إن ابن أبي الحديد كان من الذين عاشوا في القرن السابع الهجرى وكان يُطلق على الخليج الفارسي اسم «بحر الفرس» .

٦- ٦) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٢٥٣. [٥]

الروايه الثانيه: «كجؤجؤ طير فى لجه بحر» .

الروايه الثالثه: «بلادكم أنتن بلاد الله تربه: أقربها من الماء، وأبعدها من السماء، وبها تسعها عشر الشر، المحتبس فيها بذنبه، والخارج بعفو الله. كأتى أنظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء، حتى ما يرى منها الاشراف المسجد، كانه جؤجؤ طير فى لجه بحر» .

لابد من الالتفات إلى عدم وجود تفاوت يذكر بين ماورد فى الخطبه المذكوره والروايه الاولى. فكلاهما قد استهلته بالقسم وتحدثتا علانيه عن غرق هذه المدينه، ثم اضافت تشبيه آخر لماورد سابقاً بشأن المسجد بالقول «و ايم الله لتغرقن بلد تكم حتى كأتى انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينه أو نعامه جائمه» (1).

أمّا فى الروايه الثانيه فهناك تفاوت طفيف جداً حيث استبدل تشبيه جؤجؤ السفينه بقولها «كجؤجؤ طير فى لجه (2) بحر» .

بينما هنالك تفاوت كبير بين الخطبه الثالثه والخطبه الأصليه. فقد أشير فى هذه الروايه إلى ثلاث أمور فى ذم أهل البصره «بلادكم أنتن بلاد الله تربه اقربها من الماء، وأبعدها من السماء» والصفه الثانيه «و بها تسعه أعشار الشر» ولعل هذا الأمر ينبع من الخصائص الأخلافيه لناس تلك المنطقه أو بسبب كونها ميناءً يكون مركزاً لتردد مختلف الأفراد وهجوم الثقافات الأجنبيه والتلوث الخلقى الذى يفرض عليها من الخارج. ولذلك كانت هذه المنطقه مسرحاً للأحداث الأليمه للقرون الإسلاميه الاولى. أمّا الصفه الثالثه فهى «المحتبس فيها بذنبه، الخارج بعفو الله» . (3) ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى شبيه ماورد فى الروايات المذكوره بقوله:

ص: ٣٣٣

١- ١) «جائمه» من ماده «جثوم» بمعنى الجمع والجثم بالصدر على الأرض، وتطلق هذه المفرده على الأفراد الذين يخلدون إلى الأرض وليس لهم من حركه سوى الكسل والنعاس.

٢- ٢) «لجه» بمعنى الموجه والماء الواسع العميق، وتعنى فى الأصل ذهاب واياب الشىء ومن هنا يطلق لجه على البحر المائج، كما يطلق اللجوح على الأفراد الذين يصرون على شىء، كما تطلق على موج البحر.

٣- ٣) هذا التفسير يصدق فى حال كون الباء فى «بذنبه» والباء فى «بعفو الله» باء السببيه، ولكن اذا كانت الباء للالصاق فيكون مفهوم الجملة: الشخص الذى تلوث وابتلى بالذنوب، وبقي بعيداً عن الناجين، ولكن العفو الالهى يشمل هذا الشخص فيصبح من الناجين. لكن المعنى الأول هو الارجح طبق المقاييس الأدبيه.

«كأنّي انظر إلى قريبتكم هذه قد طبقتها الماء، حتى ما يرى منها الاشرف (١) المسجد، كانه جَوْجُو طير في لجه بحر». ويبدو أن اختلاف العبارات يستند إلى رواه الحديث الذين قد نقلوا بعضها من حيث المعنى، أو أنهم أخطأوا في تدوين الحديث، ويبعد الاحتمال على أن الإمام عليه السلام قد كرر هذا الكلام في أكثر من موضع وقال فيه ما يناسبه.

تأملات

١ - نبوءه النبي صلى الله عليه وآله بشأن موقعه الجمل

الجدير بالذكر أن عده روايات صرحت بإخبار النبي صلى الله عليه وآله عن يوم الجمل وخروج عائشه وتحذيره لها. ومن ذلك لما عازمت عائشه على الخروج إلى البصره طلبوا لها بعيراً أَيْدِئاً يحمل هُوْدَجَهَا، فجاءهم يعلى بن أميه ببعيره المسمى عَشِيْكَرًا، وكان عظيم الخلق شديداً، فلما رأته أعجبتها، وأنشأ الجَمَّال يحدثها بقوته وشدته، ويقول في أثناء كلامه: «عسكر»، فلما سمعت هذه اللفظه، واسترجعت، وقالت: ردّوه لا- حاجه لى فيه، وذكرت حيث سئلت أن رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه، وأمرت أن يطلب لها غيره فلم يوجد لها ما يشبهه، فعير لها بجلال غير جلاله، وقيل لها: قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً، وأشدّ قوه، وأتيت به فرضيت.

وأرسلت إلى حفصه تسألها الخروج والمسير معها، فبلغ ذلك عبدالله بن عمر، فأنى أخته فعزم عليها فأقامت وحطت الرحال بعد ما هممت.

كتب الأشر من المدينه إلى عائشه وهى بمكه، أمّا بعد: فَإِنَّكَ ظَعِينَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَقَدْ أَمْرَكَ أَنْ تَقْرَى فِي بَيْتِكَ، فَإِنْ فَعَلْتِ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَإِنْ أَبَيْتِ إِلْمَانَ تَأْخِذِي مِّنْسَأَتِكَ، وَتُلْقِي جَلْبَابِكَ، وَتَبْدِي لِلنَّاسِ شَعِيرَاتِكَ، قَاتَلْتُكَ حَتَّى أَرُدَّكَ إِلَى بَيْتِكَ، وَالْمَوْضِعَ الَّذِي يَرْضَاهُ لَكَ رَبُّكَ.

فكتبت إليه في الجواب: أمّا بعد، فَإِنَّكَ أَوْلُ الْعَرَبِ شَبَّ الْفِتْنَةِ، وَدَعَا إِلَى الْفِرْقَةِ وَخَالَفَ

ص: ٣٣٤

الأئمه، وسعى في قتل الخليفه، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمه ينتصر بها منك للخليفه المظلوم، وقد جاءني كتابك، وفهمت ما فيه؛ وسيكفينك الله؛ وكل من أصبح مماثلاً لك في ضلالك وغيبك، إن شاء الله.

وقال أبو محنف: لما انتهت عائشه في مسيرها إلى الحوآب، وهو ماء لبني عامر بن صعصعه، نبحتها الكلاب؛ حتى نفرت صعباب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألا ترون، ما أكثر كلاب الحوآب، وما أشد بُباحها! فأمسكت زمام بعيرها، وقالت: وإنها لكلاب الحوآب! ردوني ردوني؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول... وذكرت الخبر، فقال لها قائل: مهلاً يرحمك الله! فقد جُرنا ماء الحوآب؛ فقالت: فهل من شاهد؟ فلفقوا لها خمسين أعرابياً، جعلوا لهم جُعلاً، فحلفوا لها: إن هذا ليس بماء الحوآب، فسارت لوجهها. (١)

والعجيب أن مثل هذه الروايات كانت سبباً لتردد عائشه، بينما لم تكن كل تلك الروايات الصحاح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد روت أكثرها سبباً لترددتها وإنصرافها. وهذا لعمري من العجائب. كما يفهم من هذه الحكايات أنها سرعان ما كانت تخدع وتغير رأيها.

٢- ذم أهل البصره

ما ورد من ذم للبصره في الخطبه المذكوره يتعلق بعضه بتأثير المناخ وموقع المدينه وأوضاعها الاجتماعيه (حيث كانت ميناء وموضعا لإستقطاب أنواع الثقافات والأفكار والأخلاق الملوته والتي كانت هناك ومازالت في مثيلاتها) إلا أن البعض الآخر يرتبط بروحيه وصفات سكنتها، والذي لا يلزم أن يكون كذلك في كل عصر ومصر، بل هو إشاره لاولئك الناس في ذلك العصر والزمان والذين كانوا يستسلمون لمحظطات طلحه والزبير القبيحه فينقضوا البيعه ويريقوا تلك الدماء. وعليه فلا منع من أن يسود تلك المنطقه الأخيار في سائر العصور. ولذلك وردت بعض الأخيار التي تقيد مدح هذه المنطقه، ومن ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام حين إخباره منه... فقراؤهم أفضل القراء وزهادهم أفضل الزهاد وعيادهم

ص: ٣٣٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦/٢٢٥. [١]

أفضل العباد وتجارهم أصدق التجار. . . ونساؤهم خير النساء. (١)

فلا منافاه أبدا أن يجد قوم ويجتهدوا في طريق تهذيب النفس وتزكيتها فيتطهروا من الرذائل الأخلاقية وينطلقوا صوب السمو والكمال، سيما إن كانت رذائلهم الأخلاقية من قبيل معرکه الجمل وما ترتب عليها من نتائج هزّتهم وأعادتهم إلى رشدهم.

٣ - المحيط والاخلاق

تتضح مسألتان من عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبه:

الاولى الأثر الذى بلعبه المحيط الطبيعى والجغرافى فى خلق ومزاج الإنسان، حيث قال عليه السلام: «ماؤكم زعاق. . . بلادكم انتن بلادالله تربه أقربها من الماء وأبعدها من السماء». والأخرى تأثير المحيط الاجتماعى فى أخلاق الناس: «والمقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه».

ولكن من المسلم به أنّ هذا التأثير يقتصر على تمهيد السبيل وتوفير الأرضيه ولا يرقى لأن يكون عله تامه قط؛ ولذلك هناك الأفراد الأخيار الذين يعيشون فى هذه الأوساط. بل على العكس فهنا لك الأفراد المعروفون بالفساد والانحراف والسيره الخبيثه والشريه وهم يعيشون فى المناطق التى تتمتع بالمناخ المناسب من أجل تعالى الأخلاق وبلوره المزاج.

ص: ٣٣٦

١-١) بحار الأنوار ٣٢ / ٢٥٦ (مضمون الروايه).

ومن كلام له عليه السلام فى مثل ذلك

«أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لِأَكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ» .

(١)

نظرة إلى الخطبة

هذه خطبة أخرى أوردها الإمام عليه السلام بعد الجمل ولعلها تشكل مع سابقتها خطبه واحده ثم فصلها الشريف الرضى رحمه الله. على كل حال فإن الإمام عليه السلام يعرض بالذم ثانية لأهل البصره ويتحدث عن خوائهم الفكرى الذى جعلهم يتحولون إلى إعبوه بيد المنافقين من أصحاب المطامع، وأخيراً يحذرهم عليه السلام من مغبه مواصله هذا الطريق الضال.

الشرح والتفسير

ذم أهل البصره ثانيه

كما أشرنا سابقاً فإن هذا الكلام هو قسم آخر من تلك الخطبه التى أوردها الإمام عليه السلام فى ذم

ص: ٣٣٧

١ - ١) جاء فى مصادر نهج البلاغه [١] أن المرحوم الشيخ المفيد نقل فى كتاب الجمل / ٢١٧ [٢] عن الواقدى أن علياً عليه السلام حين انتصر فى المعركه ووزع الغنائم على الجنود ألقى هذه الخطبه: كما وردت مع إختلاف طفيف فى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفه الدينورى وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبه (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٣٤٨). [٣]

أهل البصره بعد موقعه الجمل حيث ضمته عليه السلام سبع صفات قبيحه إتصفوا بها. فقد وصفهم فى العبارة الاولى والثانية «أرضكم قريه من الماء، بعيده من السماء». يمكن أن تكون العبارة إشاره إلى الجوانب الماديه فى أن هذه المنطقه قريه من ماء البحر والشط وهى بعيده عن السماء، أو إشاره إلى الجوانب المعنويه كأن يكون المراد أن أرض قلوبكم ورغم قربها من ماء الحياه بفعل وجود الإمام، إلا أنها بعيده عن سماء رحمه الله ومغفرته. أو أن تكون هذه العبارة وارده فى المسائل الماديه والعبارة الأخرى فى المسائل المعنويه هناك نقاش وبحث بين الشراح فى هذا الشأن، غير أن ظاهر العبارة - بالالتفات إلى المعنى الحقيقى للأرض والسماء - فإن المراد المعنى الأول، فليس هنالك من خلاف فى أن أرضهم قريه من الماء ولها المشاكل التى تنطوى عليها الحياه عند ساحل البحر، ولا سيما البصره التى يمر بها ذلك الشط الكبير ويصب فى البحر ممّا يجعلها عرضه لظاهرة المد والجزر؛ أما كيفيه إبتعادها عن السماء، فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغه أن أرباب علم الهيئه وصناعه التنجيم يذكرون أن أبعد موضع فى الأرض عن السماء «الابله» وذلك موافق لقوله عليه السلام - ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض فى المعموره عن دائره معدل النهار والبقاع، والبلاد تختلف فى ذلك. وقد دلت الارصاد والآلات النجوميه على أن أبعد موضع فى المعموره عن دائره معدل النهار هو الابله والابله هى قصبه البصره. وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أخبر عن أمر لاتعرفه العرب، لاتهدى إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء، وهذا من أسراره وغرائبه البديعه.

ولكن لا يبدو هذا الكلام مقبولا لدى العلماء المعاصرين، لأن البصره كسائر الموانئ العالميه المساويه لسطح ماء البحر، ونعلم أن مياه بحيرات العالم متصله مع بعضها وتقع فى مستوى واحد؛ والحال هنالك عدّه مناطق على سطح الكره الأرضيه وهى أوطى من سطح البحار. لكن يحتمل ألا تكون المقارنه بالنسبه لجميع المناطق على سطح الكره الأرضيه، بل مع بعض البلدان والمناطق الإسلاميه المتعارفه آنذاك.

ثم قال عليه السلام فى العبارة الثالثه والرابعه «خفت عقولكم، وسفهت حلومكم» والدليل الواضح على هذا ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطب السابقه من انقيادهم السهل واستسلامهم لأهواء

طلحه والزبير وتقديمتهم التضحيات الجسام ذودا عن جمل عائشه وبالتالي هزيمتهم وفضيحتهم المنكره التي جرت عليهم الندم والحسره. عقول جمع عقل وحلوم جمع حلم، ويبدو أن (الحُلْم والحِلْم) من آثار العقل بعبارة أخرى فإنّ العقل هو القوه المدركه لدى الإنسان والفكر واعلم واجاله الرأى فى الأعمال من نتائجه، ولما كانت عقول أهل البصره خفيفه فإنّ أفكارهم كانت ضعيفه تثار بسرعه إثر الدعايات السيئه التي يمارسها ذوى الأهواء والمطامع. ومن هنا قال الإمام عليه السلام فى العبارة الخامسه والسادسه والسابعه: «فأنتم غرض (١) لنا بل (٢)، وأكله لأكل، وفريسه (٣) لصائل (٤)» .

و من البد يهى أن يقع الأفراد السذج من ذوى الأفكار السطحيه الهشه لقمه سائغه فى شباك صيادى الدين والإيمان والمتعطين إلى الشراء والمال والجاه والمنصب؛ ومن هنا فإنّ العنصر الذى يمكنه ضمان المجتمعات الإنسانيه إزاء هؤلاء المكره المخادعين، إنّما يكمن فى رفع المستوى الثقافى لدى الرأى العام وایقاف الأمه على مختلف القضايا الاجتماعيه والسياسيه؛ الأمر الذى أكدّه الإسلام، وهذا هو أحد الأهداف التى تستبطنها خطب صلاه الجمعه. فلو إستدرك أهل البصره وعادوا إلى أنفسهم وأفكارهم وألموا بشرائط الزمان والمكان لما أصبحوا العوبه بيد طلحه والزبير الذين نقضنا بيعه الإمام عليه السلام وتظاهرا عليه وألبوا الناس على قتاله فسالت تلك الدماء وحتى إنتهى الأمر إلى قتلها. والسؤال المطروح هنا: هل هناك معنى واحد للعبارات الثلاث «فأنتم غرض لنا بل» «و اكله لأكل» «و فريسه لصائل» أم لها معانى متعدده؟ لايبعد أن تكون كل عبارة إشاره إلى جانب من جوانب المسأله. فالعبارة الاولى تبين الاستهداف من بعيد فى أنّ الساسه يسعون لرميكم بسهامكم وایقاعكم فى شباكهم ولو من بعيد. والعبارة الثالثه تبين هذا الاستهداف من قريب بينما تبين العبارة الثانيه النتيجة

ص: ٣٣٩

١ - ١) «غرض» بمعنى الهدف وهو ما ينصب ليرمى بالسهام، ثم اطلق على كل هدف، كما ذكر له معان أخرى من قبيل الملل والشوق.

٢ - ٢) «نابل» من ماده «نبل» بمعنى الضارب بالنبل.

٣ - ٣) «فريسه» من ماده «فرس» على وزن فرض بمعنى الضرب، ولما كان الحيوان الوحشى يضرب فريسه بالأرض اطلق عليه المفترس، كما اطلق اسم الفرس على الحصان لضربه الأرض برجله.

٤ - ٤) «صائل» من ماده «صول» و «صوله» بمعنى الحمله والقهر والغلبه.

النهائيه لهذا الاستهداف والصيد. وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الدم إنّما يرد بشأن أولئك الذين أصبحوا آله رخيصة بيد المنافقين، وإلّا فالبصره آنذاك وما تبعه من أزمان قد حفلت بالأفراد الأخيار الذين أثنى عليهم الإمام عليه السلام كما ورد في شرح الخطبه السابقه.

ص: ٣٤٠

ومن كلام له عليه السلام

فيما رده على المسلمين من قطائع (١) عثمان

«وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ وَمَلَكَ بِهِ الْإِمَاءَ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعُدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعُدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقٌ». (٢)

نظره إلى الخطبه

هذه من الخطب التي أوردها الإمام عليه السلام بعد أن بايعه الناس في المدينة حيث توعد فيها كافة الأفراد الذين تناولوا على بيت المال إبان عهد عثمان إلى جانب بطانته وقرابته ممن حذوهم، ويطالبهم باعادتها إلى بيت المال وإلا سيقف بوجههم بكل قوه. وهكذا يضع الإمام عليه السلام حداً لأطماع الطامعين، ثم يختتمها بعبارات قصيره بعيده المعنى بشأن العداله وقيمتها في المجتمع.

ص: ٣٤١

١- ١) «القطائع» ما يقطعه الإمام بعض الرعيه من أرض بيت المال ذات الخراج، ويسقط عنه خراجه، ويجعل عليه ضريبه يسيره عوضاً عن الخراج، وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بنى أميه وغير هم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصوره، وقد كان عمر أقطع قطائع، ولكن لأرباب الغناء في الحرب والآثار المشهوره في الجهاد؛ عثمان أقطع القطائع صله لرحمه وميلاً إلى أصحابه من غير عناء في الحرب ولا أثر.

٢- ٢) جاء في مصادر نهج البلاغه [١] أن هذه الخطبه قد ذكرت في كتاب الاوائل لأبي هلال العسكري وكذلك كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان المصري وإثبات الوصيه للمسعودي مع بعض الاختلاف (مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٥٠). [٢]

القسم على إعادة الأموال المنصوبه

كما يفهم من مضمون الخطبه فأنها وردت في بدايه الخلافه الظاهريه لأميرالمؤمنين على عليه السلام. وقال ابن أبى الحديد إن هذه الخطبه ذكرها الكلبي مرويه مرفوعه إلى أبى صالح عن ابن عباس رحمه الله أنّ علياً عليه السلام خطبها في اليوم الثاني من بيعته بالمدينه. والحق أنّ هذه الكلمات كانت كالماء البارد الذي سكب على ألسنه اللهب والنار المتقدّه في صدور الأمّه؛ فقد سادت السكينه والهدوء قلوب أولئك الذين كانوا يأنون من إنعدام العدله على زمن عثمان إلى جانب أولئك الذين شعروا بها جس القلق على النظام الإسلامى وقوانينه الحقّه، فاستبشروا بعوده الإسلام الأصيل والحكومّه الإسلاميه التى كانت تتطلع لها الفطره الإسلاميه، ولولا هذه السياسه التى أعلنتها الإمام عليه السلام بهذه العبارات لما هدأت المدينه ولتكررت هجمات أبناء الأمّه على دار عثمان ولسفكت الدماء واهدرت الأموال. فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقسم بارجاع كافه الأموال التى نهبت من بيت المال مهما فعل بها «و الله لو وجدته قد تزوج به النساء، ملك به الاماء، لرددته». ثم أضاف عليه السلام مذكراً بأنّ إجراء العدله قد يثير غضب البعض إلّا أنّ ذلك خطأ فادح، لأن العدل أساس راحه المجتمع ومن ضاق صدره من العدل فأنّه سيكون أضيّق إذا ماساد الجور والظلم «فان فى العدل سعه ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيّق». فقد بيّن الإمام عليه السلام فى البدايه عزمه الراسخ على إعادة الأموال التى أخذت ظلماً وعدواناً من بيت المال وإن تزوج بتلك الأموال أو تملك بها الإماء، فلا بدّ أن تعاد إلى بيت مال المسلمين، لتعلم الأمّه بأنّ القانون الذى سادها سابقاً لم يكن قانون الإسلام فهو ليس النموذج الإسلامى الذى يحتذى به فى المسيره السياسيه. ثم عزز هذا العزم بالمنطق والدليل «فانّ فى العدل سعه». و أخيراً يعرض بالنصح لأولئك الذين مد أيديهم إلى بيت المال وظنوا بأنّ عزم الإمام عليه السلام هذا سيتضمن ضررهم، فى أنّ الأمر بالعكس سيكون بنفعهم؛ لأن من ضاق عليه العدل فالظلم عليه أضيّق، فالعداله تمنحه الأموال الحلال ولا تسلبه سوى الأموال المحرمه اللامشروع، ولكن إذا لم يستجب للعدل وعاش الظلم والجور، فأنّه سيخاطر بجميع أمواله المحلله منها المحرمه. صحيح أنّ الظلم ممكن أن يجر نفعاً على الظالم خلال مدّه قصيره، إلّا أنّه

ليس كذلك على المدى البعيد، وقد أثبت التاريخ كيفية تحطم الظلمه بنفس هذه القوانين الظالمه التي شرعوها وفرضوها على الناس بقوه الحديد والنار؛ حتى خانهم أقرب مقربهم وطعنوهم من خلفهم. قال الكلبي: ثم أمر عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان في داره؛ تقوى به على المسلمين فقبض، و أمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقه، فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألا- يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين، وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره، وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها. فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بأيله من أرض الشام، أتاها حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاويه: ما كنت صانع فاصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاها. هذا وقد إختلفت أقوال المفسرين وشراح نهج البلاغه بشأن مراده بقوله «من ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق» وأحد التفاسير هو ما ذكرناه سابقاً. التفسير الآخر هو أن بسط العدالة فيه رضی الله وخلقه والانسجام مع نظام الوجود، بينما يوجب الظلم غضب الله وخلقته ويؤدي إلى ضيق الدنيا والآخرة. وتفسير آخر هو أن سلب الإنسان شيء بالعدل قد يشق عليه، إلّا أنّ سلبه ظلماً سيكون عليه أشق وأصعب. وأخيراً أنّ الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره في مظنه أن يمنع ويصد عن جوره. وإذا لم يطق الإنسان العدل والانصاف فأنتى له بتحمل الظلم والجور. ولانرى من ضير في جمع كل هذه التفاسير كمراد لمفهوم تلك العبارة.

تأملات

١ - معطيات العدالة في المجتمعات البشريه

لقد ورد التأكيد كراراً في نهج البلاغه على مسأله العدل والانصاف، بل المعروف أنّ الإمام على عليه السلام من كبار باسطى العدل في المجتمع الإنساني، حتى أسماه المفكر المسيحي المشهور جورج جرداق الإمام على صوت العدالة الإنسانيه. وقد تظافت الروايات الإسلاميه - وعلى غرار كلمات الإمام على عليه السلام في نهج البلاغه - الوارده بهذا الشأن وبعبارات غايه في الروعه واللطافه، منها ما ورد عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «العدل أحلى من

الماء يصيبه الظمان» (١). وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «العدل أحلى من الشهد وألين من الزبد وأطيب ريحاً من المسك» (٢). وقال أمير المؤمنين على عليه السلام: «العدل أساس به قوام العالم» (٣)، كما قال عليه السلام: «ما عمرت البلدان بمثل العدل» (٤). فالحق أنّ أساس العالم قد شيد على العدل، والعدل بمفهومه الجامع يعنى وضع الأشياء فى مواضعها، فالسما والأرض والمجرات والمنظومات الشمسيه إنّما تتحرك حسب القانون والنظام والمواضع المخصصه لها، كما أن الالكترونات والبروتونات وسائر أجزاء الذره ومداراتها إنّما تتحرك هى الأخرى ضمن مواقعها المحدده لها. وإنّ أدنى خروج عن حاله الاعتدال والالتزان فى بنيه الإنسان أو أى من أجهزته فان ذلك سيؤدى إلى مرضه أو موته، وهذا ما يصدق تماماً على عالم الحيوان والنبات، وقد أثبت العلماء أن استقرار الحياه على وجه الكره الأرضيه إنّما هو نتيجة لمجموعه معقده من الأنظمه التى تحكمها بحيث تضعف هذه الحياه وربما تضمحل وتنهيار إذا ما تغيرت هذه الأنظمه، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوى المعروف «بالعدل قامت السموات والأرض» (٥). وهنا نتساءل هل يسع الإنسان الذى يعدّ جزءاً صغيراً من هذا العالم العملاق أن يمارس حياته بعيداً عن النظام والعداله؟ وهل يسعه أن ينشق عن هذه المسيره ويواصل حياته بمعزل عن الآخرين؟ نعم قد يستطيع الظلم تلبيه مصالح فرد أو بلد خلال مدّه قصيره، إلّا أنّ آثاره المميته على المدى البعيد ليست بخافيه على أحد.

٢ - اسراف عثمان

ورد فى التواريخ أنّه أعاد الحكم بن أبى العاص، بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وآله، قد سيّره ثم لم يردّه أبوبكر ولا عمر، وأعطاه مائه ألف درهم.

وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمه عليها السلام طلبتها بعد وفاه أبيها صلوات الله

ص: ٣٤٤

[١-١] بحار الأنوار ٧٢ / ٣٦. [١]

[٢-٢] بحار الأنوار ٧٢ / ٣٩. [٢]

[٣-٣] بحار الأنوار ٧٥ / ٨٣. [٣]

[٤-٤] مستدرک الوسائل ١١ / ٣٢٠. [٤]

[٥-٥] تفسير الصافى، سوره الرحمن / ٧.

عليه، تارةً بالميراث، وتارةً بالنَّحْلِه فُدِّعَتْ عنها.

وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيته بالمغرب؛ وهى من طرابلس الغرب إلى طنجه من غير أن يَشْرَكَه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أباسفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، فى المال، فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائه ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمى! وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليله، فقسمها كلها فى بنى أمية. وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشه، فأعطاه مائه ألف من بيت المال أيضا بعد صرّه زيد بن أرقم عن خزنه.

وانضم إلى هذه الأمور أخرى نقمها عليه المسلمون، كتسيير أبى ذر رحمه الله تعالى إلى الرّبذه؛ وصرّب عبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقه عمر فى إقامة الحدود، وردّ المظالم، وكفّ الأيدي العاديه والانتصاب لسياسه الرعيه، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاويه يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين. (1)

ومن هنا يتضح أمران: الأول: عله قيام الناس ضد عثمان، والثانى السبب الذى دفع ببعض الأفراد من قبيل طلحه والزبير ومعاويه وسائر كبار مكه والمدينه. أو لايمكن خلاصه ذلك فيما ورد فى خطبته عليه السلام من قوله: «والله لو وجدتته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته، فان فى العدل سعه - ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيّق» .

٣ - الإجابة عن سؤال مهم

يتساءل البعض ألم يكن من الأفضل أن يتجاوز الإمام عليه السلام الماضى - عفا الله عمّا سلف - ويستأنف فى زمان خلافته مسيره العداله ليجتث جذور الحقد والبغضاء من صدور العناصر الانتهازيه والنفعيه؟ ويمكن العثور على جواب هذا السؤال فى كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، فقد

ص: ٣٤٥

[١- ١] شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ١٩٩. [١]

ورد في بعض الروايات والقسم الآخر من هذه الخطبه أنه قال عليه السلام: «الآن كل قطيعه أقطعها عثمان وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فان الحق القديم لا يبطله شيء ولو وجدته. . .» (١).

ومن البديهي أن الناس لو رأوا ناهبي بيت المال يتقلبون في البلاد بكل حريه ويسخرون عملياً من جرحهم لمشاعر الآخرين وأنّ العدالة ليست بصدد الماضي فأنهم لن يطبقوا مثل هذه العدالة ولا يرونها تنسجم وأي منطق وعقل حيث ينعم لصوص الأمس بالحريه والراحه بينما لا- تطال العدالة سوى لصوص اليوم؛ فهذا الازدواج من شأنه أن يدخل اليأس في قلوب الناس من بسط العدالة. الفقه الإسلامي هو الآخر نص على وجوب عوده الأموال المغصوبه إلى أصحابها وليس هنالك من فارق بين الأمس واليوم، أمّا مسأله تقادم الزمان المطروحه هذا اليوم فبغض النظر عن اهمالها في الفقه الإسلامي، فأنها إنما ترتبط بالدعاوى لا بالأموال المغصوبه.

ص: ٣٤٦

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٢٦٩. [١]

ومن كلام له عليه السلام

لما بويع في المدينه وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم وفيها يقسمهم إلى اقسام

القسم الأول

«ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَهُ. وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ إِنَّ مَنْ صَيَّرَ حَتَّ لَه الْعَبْرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمُثَلَاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقْحُمِ الشُّبُهَاتِ أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتَبْلُغَنَّ بَلْبَلَهُ وَتَعْرَبُلَنَّ عَرَبْلَهُ وَتَسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسَدُكُمْ أَعْلَا-كُمْ وَأَعْلَاكُمْ، أَسَدُكُمْ وَلَيْسَ بِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصْرُوا، وَلَيَقْصُرَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا سَبَقُوا. وَاللَّهِ مَا كُنْتُ وَشَمَهُ، وَلَا كَذَبْتُ كَذْبَهُ وَلَقَدْ بُنْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ وَهَذَا الْيَوْمِ». (١)

نظره إلى الخطبه

الخطبه من أولى خطبه عليه السلام بعد مقتل عثمان وتوليه عليه السلام الخلافه في المدينه، ويبدو تفسيرها

ص: ٣٤٧

- ١-١) لقد نقلت هذه الخطبه في عدّه كتب منها: ١- الشيخ الطوسي، تلخيص الشافى ٣ / ٥٣، ٢- الجاحظ، البيان والتبيين ٣ / ٤٤،
- ٣- العقد الفريد ٤ / ١٣٢، ٤- إرشاد المفيد، ٥- كتاب الجمل، ٦- عيون الأخبار، ٧- المسعودى، اثبات الوصيه، ٨- كنز العمال،
- ٩- الكليني، روضه الكافى / ٦٧، ١٠- تاريخ اليعقوبى، ج ١١- المجلسى، بحار الأنوار. [١]

سهلاً بالالتفات إلى موقعها وزمان صدورها، وهي تدور حول أربعة محاور:

المحور الأول: الفات انتباه الأمة إلى الامتحان الذي ستمر به وتشبيه ذلك الزمان بزمان رسول الله صلى الله عليه وآله واننهضته كنهضه النبي صلى الله عليه وآله التي طفرت بالأمة من عصر الجاهلية والظلمة إلى عصر الهداية والنور، وإن كان احتمال هذه النهضة صعب ثقيل على البعض وكون الامتحان شاق. فالانحرافات التي أعقبت رحيل النبي صلى الله عليه وآله والتي أدت إلى التمييز في عطاء بيت المال وسلب ونهب ثروات الأمة واغداق المناصب الحساسه على من تبقى من رجالات الجاهلية إنما تتطلب ثوره إصلاحيه قام بها الإمام على عليه السلام. ثم يذكر الإمام عليه السلام الناس بضروره العوده إلى الإسلام الأصيل والاعتبار بعاقبه ومصير الأقبوام الماضيه.

المحور الثاني: يقارن عليه السلام بين المعصيه والذنب والورع والتقوى ثم يبين كل منهما وكيف تصعب السيطرة على المعاصي بينما يتيسر نهج التقوى ويحذر الأمة من المخاطر التي تترصص بمصيرها.

المحور الثالث: إشاره مقتضبه عميقه المعنى لمسأله الحق والباطل محذراً الأمة من عدم الاستيحاش من الحق رغم قله سالكيه والاستئناس بالباطل لكثره سالكيه، والعمل بالحق الذي لا يقود سوى للغلبه والنصره الإلهيه.

المحور الرابع: الذي يشمل سلسله من النصائح والمواعظ التي تعدد كل واحده منها ركن مهم من الأركان التي ينبغى الالتفات إليها في الحياه من قبيل الوعظ بالابتعاد عن الإفراط والتفريط والتمسك بالقرآن والسنة وضروره معرفه الذات والدعوه إلى الآءء والاتحاد وإصلاح ذات البين والتوبه من المعاصي والثوق بأن البركه والخير منه سبحانه.

الشرح والتفسير

اليقظه والوعى فى الامتحان

تعتبر هذه الخطبه - كما أشرنا سابقاً وعلى ضوء ما صرح به بعض شراح نهج البلاغه مثل ابن أبى الحديد - من الخطب المهمه التي أوردتها عليه السلام لما تمت له البيعه بالخلافه، فحذر الأمة مما ينتظرها وأبان لها المخاطر والانحرافات التي تترصص بها.

ص: ٣٤٨

فقد قال بادئ ذي بدء: «ذمتي بما أقول رهينه وأنا به زعيم» (١) في إشارة إلى صدق القول وحقانيته ووجود الضمانات القائمة عليه، ولذلك ينبغي عليكم تلقيه دون نقاش إلى جانب الالتزام به والعمل بمقتضاه. أما المغزى الذي ينطوي عليه هذا التعبير فإنما يكمن في إلفات نظر السامع إلى أهميه وخطوره المضمون الذي يختزنه الكلام والتعامل مع أهدافه.

ثم خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل هذا المضمون في أن من استشعر الورع والتقوى وخشى العواقب نأى بنفسه بعيداً عن الشبهات ومامن شأنه تعريضه لتلك العواقب «ان من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثالات (٢) حجزته (٣) التقوى عن تقحم الشبهات». ارجعوا إلى التأريخ وتأملوا ما أصاب الأقسام الماضية من عقوبات بفعل الانحراف عن الحق والتلوث بالمعاصي والذنوب واستفحال الهوى والشهوات وحب الذات! ارجعوا إلى زمان انبثاق الدعوه وقيام النبي صلى الله عليه وآله وتدارسوا المؤامرات التي حاكتها الأقسام الجاهليه ضده ثم انظروا كيف كانت عواقبهم ومصائرهم لتتضح لكم معالم الطريق فتجوبوا الظلمه بنور التقوى والهداياه؛ الكهف الحصين الذي يأمنكم من الضربات الموجهه التي يمكن أن تسدها لكم النفس الاماره وتزينها الشياطين. ثم يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن الواقع الخطير الذي يعيشونه ويطلعهم على صعوبه الامتحان «ألا وإن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله». اعلّموا أنّ أمامكم امتحان لا ينحج فيه سوى من استشعر نفسه كمال التقوى والاخلاص. فالإمام عليه السلام يميّط اللثام عن هذه الحقيقه في أنّ الأمّه في عصر الخليفه الثالث ولا سيما أواخر عمره قد عاشت البذخ في بيت المال والمناصب التي فوضت لغير أهلها من الأفراد الصالحين والمفاسد التي اجتاحت المجتمع الإسلامي والاختلافات التي عصفت بوحدتها وكآتها عادت القهقري إلى عهد الجاهليه وكأن بيعته كبيعه رسول الله صلى الله عليه وآله التي تطالبه بنهضه تجديده كتلك التي أسسها النبي صلى الله عليه وآله؛ تلك النهضه المعطاء التي صهرت الأمّه في الإسلام الأصيل.

ص: ٣٤٩

١- ١) «زعيم» من ماده «زعم» بمعنى بيان الكلام الذي يحتمل فيه الخلاف، ثم أطلق الزعيم على من يكفل شخصاً ويضمّنه لأنّه يكون عرضه للتهمه، وقد جاءت هذه المفرده في العبارة بمعنى الضامن والكفيل، كما يطلق الزعيم على القائد الذي يتولى زمام الأمور لأنّه يتكفل بالأعمال المهمّه.

٢- ٢) «مثالات» جمع «مثله» على وزن عضله بمعنى مقارنه شيء بآخر، ثم أطلقت على العذاب الإلهي والعقوبه التي تحذر الإنسان من ارتكاب ما يوجبها.

٣- ٣) «حجز» من «حجز» على وزن عجز بمعنى الحائل بين شيئين وقد وردت بهذا المعنى في العبارة، فالتقوى تحول دون الوقوع في الشبهات.

ومن الطبيعي أن تهب بعض الفئات التي تعرض مصالحتهم اللامشروعة للخطر لابتداء ردود الفعل واطهار المقاومه؛ الأمر الذي يعقد الامتحان بما يجعل الحاكم الخبير كالإمام على عليه السلام يوقظ الأمة وينبهاها إلى الأخطار المتربصه بها وهنا لابد من الالتفات إلى أن البعض فسّر البليه بالبلاء والمشاكل، في حين نراها تعنى الامتحان والاختبار ويؤيد ذلك سائر عباراته الواردة في الخطبه. ثم خاض عليه السلام في تفاصيل هذا الامتحان الإلهي الكبير ليوضحه بمثالين، فقد ذكر أولاً «والذي بعثه بالحق لتبليبن بلبه (١) ولتغربلن غربله» (٢) وهذه هي الطبعه التي تسود كل نهضه ربانيه في غربله المجتمع حين تتويج مسيرتها بالنصر. فهناك إقصاء لأصحاب السطوه الخونه واستبدالهم بالمجموعه الصالحه المستضعفه، وهذا بعينه ما مارسه رسول الله صلى الله عليه وآله بعيد انتصار ثورته المباركه. فقد نحى أبو سفيان ومن لف لفه من طغمه الفساد ليفسح المجال لصهيب والخباب وبلال. أضف إلى ذلك فقد نحيت الشخصيات المستبده التي استندت إلى منطق القوه على عهد عثمان بعد بيعه أمير المؤمنين على عليه السلام لتخلفها القوي الشعبيه المخلصه.

وثانياً «ولتساطن سوط (٣) القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم». نعم فطبعه كل ثوره أن تضع في النهضات الربانيه التي تنبثق في المجتمعات الفاسده فأنها تطيح بالمفسدين وترفع المستضعفين ليمارسوا دورهم في السلطه.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «وليسبقن سابقون كانوا قصروا، وليقصرن سابقون كانوا سبقوا» والعباره الثانيه إشاره إلى بعض الأفراد كطلحه والزبير الذين كانا يوماً في الصفوف الاولى بينما دفعتهم بعض العوامل للتراجع عن تلك الصفوف، بينما تشير العباره الاولى إلى بعض الأفراد كصاحب الإمام عليه السلام وأتباعه الذين أصبحوا يوماً جلساء الدار، بينما سنحت لهم الفرصه على عهد الإمام ليتقدموا ويسبقوا كما احتمل البعض أن يكون المراد المستقبل الذي سيشهد تردى الأوضاع فيتقدم بنو أميه ويتصدرون الأمور ويتأخر السابقون

ص: ٣٥٠

- ١-١) «بلبله»، ذكر أرباب اللغة عدّه معان لهذه المفرده منها الاختلاط وهذا هو المعنى المناسب لها في هذه العباره.
- ٢-٢) «غربله»، لها معنيان أحدهما فصل الخيث من الطيب بالغريال (بكسر الغين وضمها) والآخر القطع والفصل.
- ٣-٣) «سوط» أي كما تختلط الابزار ونحوها في القدر عند غليانه فينقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، وكل ذلك حكايه عمّا يؤولون إليه من الاختلاف وتقطع الأرحام وفساد النظام.

فى الإسلام فتعود الجاهليه بأقطابها ليتسلموا زمام الامور، ولكن لما كانت هذه الخطبه قد أوردت إثر مبايعه الإمام عليه السلام مباشره فان المعنى الأول يبدو هو الأنسب. ثم يؤكد الإمام عليه السلام هذا الأمر بقسم آخر «والله ما كتمت وشمه (1) ولا كذبت كذبه، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم» .

وما كل هذه الأمور إلّاليفيق الناس ولا يستسلمون للمؤامرات كمؤامره الجمل وصفين والنهروان ويعلموا أنّهم أمام امتحان صعب فيلتفتوا إلى أنفسهم، إلّما أنّ المؤسف له هو أنّهم لم يعيروا نصح الإمام عليه السلام أيه آذان صاغيه ولم يتدبروا الأمر فكان من ذلك أن فشلوا فى الامتحان أيما فشل.

يبدو أنّ مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو المغيبات التى أطلعه عليها رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما ذكرنا فى حينه - فى مبحث علم غيب النبى صلى الله عليه وآله والإمام - أنّ الأئمة المعصومين هم قادة الأئمة على مدى العصور والدهور ولا يمكن لهذه القياده إلّما تنطوى على علم الغيب والاحاطه بأسرار الماضى والمستقبل؛ وذلك لأنّ هناك رابطه وثيقه بين حوادث اليوم والأمس والغد، ومن هنا كانوا يطلعون أصحابهم على جانب ممّا ينتظرهم فى المستقبل أو يعلنوا ذلك للناس ليكونوا أكثر حزمًا ووعياً فى التعامل مع الأحداث وينأوا بأنفسهم بعيداً عن حبال الشيطان وشراكه. وهذا ما نلمسه بوضوح كراراً ومراراً فى سيره الإمام على عليه السلام وكيف أنّه حذر الأئمة ولفت انتباهها إلى الأخطار التى تتربص بها. ومن الطبيعى أن يتعظ البعض ويتمرد البعض الآخر.

تأملان

١ - التاريخ يعيد نفسه

من المعروف أن الأحداث التاريخيه سلسله من الوقائع المتكرره التى تتخذ أشكال مختلفه، ومن هنا فان الأفراد الذين يتأملون بعمق الماضى التاريخى يتمكنون من التعامل بمعرفه أفضل مع الحوادث الراهنه والآتيه، ومن هنا رأينا القرآن الكريم مشحوناً بقصص

ص: ٣٥١

١ - ١) «الوشمه» فى الأصل بمعنى الخال الذى يوخز بالابره ثم يطلى بماده ملونه تحت الجلد، كما أطلقت على الأشياء الصغيره كقطره ماء المطر أو الحديث القصير، وقد وردت هنا بالمعنى الأخير.

الأنبياء والأقوام السالفه التي تعكس بجلاء أحداث اليوم والمستقبل. الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه - أشار إلى هذه النقطه المهمه: «ان من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثالات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات» ثم قال عليه السلام: «الا- وان بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله. ذات الفئات المناهضه للحق، والانحرافات والضلال والمؤامرات والفتن. فافيقوا وانطلقوا خلف إمامكم مخافه ان تضلوا - ولو أمعنا النظر وقارنا حوادث عصر الإمام عليه السلام بعصر النبي صلى الله عليه وآله لوجدنا شبيهاً كبيراً، وليس هذا إلّا أنّ المنافقين ومن تبقى من عصر الجاهليه سعوا وبشتى الطرق للقضاء تدريجياً على تعاليم النبي صلى الله عليه وآله؛ ولا- سيما أنّهم سعوا لا- ختراق مراكز القوه لممارسه دور أكبر في تشويه الثقافه الإسلاميه واستبدالها بثقافه جاهليه؛ الأمر الذي لمسنا آثاره بوضوح في العصر الأموى.

فالحق أنّ بعض الظواهر الإسلاميه كانت قائمه في عصر الخليفه الثالث، إلّا أنّ هذه الظواهر لم يبق منها إلّا قشورها في العصر الاموى. على غرار الشعائر الإسلاميه كالصوم والصلاه والحج التي كانت سائده على عهد بنى أميه ولكن أيه صلاه وصوم وحج؟ !

٢ - بيان الحقيقه أم رعايه المصلحه

كثير هم الذين يعتقدون بأنّ المصلحه تكمن في كتمان الحقائق عن الناس، حذراً من ابداء ردود الفعل الطائشه، والحال ليست مصلحه الزعماء ومصلح عموم الأمم - باستثناء بعض الحالات الخاصه - سوى اطلاع الناس على الحقائق وفسح المجال أمامهم لاقتحام الميدان عن علم ومعرفه. فالتعظيم الخبرى وتغيب الأمم عن الأحداث يمثل الاسلوب الذى يعتمد الطغاه والجبابره الذين لا- يفكرون سوى فى تحقيق أطماعهم ومآربهم، على العكس من الزعماء الربانيين وأئمه المسلمين الذين يكرسون جهودهم لنجاه الأمم من مشاكلها الماديه والمعنويه، فهم يسعون باخلاص لكشف الحقائق والواقعيات لأنهم يستنصرون الأمم ويرومون دعمها واسنادها. والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام لا يكتفم الوقائع عن الأمم - كما ورد فى هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه - فحسب، بل يطلعها حتى على الحوادث المستقبلية التى سمعها من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيقول لهم لا أبخل عليكم حتى بالأخبار عن الكلمه الواحده التى من شأنها أن تنبهم إلى الأخطار المحدقه بكم حرصاً على عدم الاغترار بوساوس الشيطان والوقوع فى شباكه.

«ألا- وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حَمَلٌ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ لُجْمُهَا، فَتَفَحَّحَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ، أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلٌّ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأَعْطُوا أَرْمَتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمْ الْجَنَّةَ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلِّ أَهْلٍ، فَلَيْتَنُ أَمَرَ الْبَاطِلَ لَقَدِيمًا فَعَلَ، وَلَيْتَنُ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ» .

قال السيد الشريف: وأقول: إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإن حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به. وفيه - مع الحال التي وصفنا - زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطالع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعات بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلا العالمون» .

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام البحث السابق بشأن الأوضاع المتأزمه بعد بيعه الإمام عليه السلام والتي تمثل ثوره تصحيحه في العالم الإسلامي، حيث يتطرق إلى نقطه غايه في الأهميه من خلال تشبيه رائع، وهي ضروره السيطرة على الذنب منذ بدايته حيث إذا ترك له العنان وتمادى في مقارفه شبيهه، جذبه إليه وسيطر على كيانه وسلبه زمام المبادره وأوقعه في واد سحيق فقد وصف عليه السلام الذنوب والمعاصي بالخيل الجامحه التي يصعب السيطرة عليها «ألا وإن الخطايا خيل شمس (1)»

ص: ٣٥٣

١-١) «شمس» من ماده «شموس» و «شماس» على وزن فتوح وكتاب بمعنى التغيير وعدم الاستقرار ومن هنا اطلق اسم الشمس، حيث تتحرك على الدوام، وشمس التي وردت في العبارة جمع شمس بمعنى الفرس الجموح الذي يمنع ظهره من الركوب.

حمل عليها أهلها، وخلعت نجمها، فتقحمت بهم في النار» ياله من تشبيه رائع، فركوب الفرس الجامح خطير، وتشتد خطوره إذا فقد لجامها الذي يلجم عنانها، ثم تتضاعف هذه الخطوره أكثر من ذي قبل إذا كان هذا الجموح في أرض تشتعل على بعض المطيات. وهذا هو التصوير الواقعي للذنب، فارتكاب الذنب يقود الإنسان إلى ذنب آخر وهكذا، على سبيل المثال قد يرتكب الإنسان خيانه فيكتمها، وإذا استجوب حال مالا- يحصى من الأكاذيب للتغطية على خيانه كما يقسم كاذباً أو يلجأ إلى اتهام الآخرين، فاذا لم يجد ذلك نفعاً ربما لا يتورع عن سفك دم من يعلم بخيانه، بغية عدم افتضاح أمره وهكذا يصبح أرضيه خصبه لمقارفه ما شاء من الذنوب؛ ولا غرو فقد أصبح كالخيل الشموس التي خلع لجامها فهي تقذف بصاحبها إلى الهاويه.

ثم ذهب عليه السلام إلى الصورة المعاكسه التي شبه فيها التقوى بالخيل الذلول فأوصلت راجبها الموضع الذي يريد «ألا وإن التقوى مطايا ذلل (1) حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمته، فأوردتهم الجنة» نعم فالأعمال الصالحه سلسله متعاقبه الحلقات، فالعمل الصالح يكون سبباً لآخر وهكذا الإتيان بسائر الأعمال الصالحه. على سبيل المثال إذا ربى أحدهم ولده تربيته صالحه فسيعده للإتيان بالخيرات والبركات، وسيكون له تأثيره البالغ في وسطه بما يحث رفاقه وأصحابه على القيام بمثل هذه الأعمال، وهكذا يسير المجتمع نحو السعاده والصلاح والفلاح. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبر عن الذنوب بالخيل الشمس وعن التقوى بالمطايا الذل، فالخيل من ماده خيال، فيطلق «المختال» على الفرد المغرور والمتكبر الذي يعيش الخيالات، ومن هنا اصطلاح على الفرس بالخيل لأنه عاده ما يدعو راكبه إلى الغرور والفخر. على العكس من المطايا جمع مطيه من ماده المطو على وزن العطف بمعنى الجد والنجاه في السير؛ وبناءً على هذا فان المطيه دابه هنيئه سريعه تسير قدماً نحو الإمام عليه السلام بكل هدوء دون أن تجتمع بصاحبها وتقحمه في المتاهات - ومن هنا تتضح ذروه فصاحته وبلاغته في كلماته عليه السلام

ص: ٣٥٤

حتى تلك الكلمات القصيره والعبارات الصغيره. ثم يحذر الإمام عليه السلام من صعوبه الامتحان الإلهي في ظل حكومته وطيله حياتهم مواصلاً البحث السابق بشأن الذنب والتقوى فقال عليه السلام: «حق وباطل، ولكل أهل» .

أجل فالحياء البشريه ومنذ بدء الخليقه كانت وما زالت مسرحاً للصراع بين هذين الاتجاهين ويختصر الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى مسأله حساسه وهى أنّ الباطل إذا قدر له أن يحكم فلا عجب في ذلك فهذا ما حصل منذ قديم الزمان: «فلئن أمر الباطل لقديماً فعل». وإن قل الحق وأتباعه فلا داعى للقلق ولعله يزداد فيهزم الكفر في عقر داره «ولئن قل الحق فلربما ولعل» أنّ قصه الصراع بين الحق والباطل وما تخلله من وسائل وأدوات وما تمخض عنه من نتائج طيله التاريخ الإنسانى قصه ذات شجون وستتطرق إلى هذه التفاصيل فى الأبحاث القادمه بما يتناسب وسائر الخطب الوارده بهذا المجال.

أمّا القضييه الجديره بالذكر والتي حظت باهتمام الإمام عليه السلام هى ضروره عدم الاستيحاش من الحق لقله سالكيه والاستثناس بالباطل لكثره سالكيه؛ لأنّ التاريخ يشهد على الدوام بكثره أتباع الباطل وقله أتباع الحق، وكثيراً ما كانت تحسم المعارك والصراعات لصالح الحق؛ وهذا ما صرّح به القرآن الكريم على لسان طالوت: «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» (١). وهو المعنى الذى أشارت إليه الآيه القرآنيه الكريمه بالقول: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» (٢). كما ورد هذا المعنى فى الخطبه ١ - ٢ من نهج البلاغه «أيها الناس لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقله أهله». أما المسأله التى ينبغى الالتفات إليها هى أنّ هذه الكثره ليست دليلاً على الأحقيه ولا النصر، بل يرى المنطق القرآنى والروائى بل ومنطق الربانيين أنّ الملايكه إنّما يكمن فى الكيفيه لا الكميّه، ومن هنا فان زوال حكومات الباطل يستتبع زوال كافه آثارها فلا يبقى لها سوى الخزى والعار، بينما تبقى آثار حكومات الحق باقيه خالده.

على كل حال فان الصراع بين الحق والباطل وكثره جند الباطل إنّما هى فى الواقع امتحان إلهى يهدف إلى تمحيص طلاب الحق.

ص: ٣٥٥

١-١) سورة البقره / ٢٤٩. [١]

٢-٢) سورة المائده / ١٠٠. [٢]

والنقطة الثانية التي يؤكد عليها الإمام عليه السلام قوله: «ولقلما أدبر شىء فاقبل». طبعاً يؤمن جميع المسلمين - من سنه وشيعه وسائر الفرق - أن الحق سينتصر يوماً حين ظهور المهدي الموعود (عج) وسيدحر الباطل وإلى الأبد وستسود العالم برمته حكومه العدل الإلهي.

وعلى ضوء بعض الروايات فقد نقلت ذيل هذه الخطبه عبارته عن الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «وبنا فتح لا بكم ومنا نختم لا بكم». وقد صرح ابن أبي الحديد بعد ذكره لهذه العبارة قائلاً: إشارته إلى المهدي الذي يظهر في آخر الزمان، وأكثر المحدثين على أنه من ولد فاطمه عليها السلام وأصحابنا المعتزله لا ينكرونه» (1).

نعم العبارة ترشد إلى عدم فقدان الفرصه والآن وقد تمهدت جميع السبل من أجل بسط العدالة وإقامه حكومه الحق في ربوع المجتمع الإسلامي فالحدار من وساوس شياطين الانس والجن ومؤامرات أولئك الذين تبددت مصالحهم اللامشروع وخابت ظنونهم وآمالهم، فاذا ضاعت هذه الفرصه فان عودتها لا تبدو سهله، وهذا مادلت عليه حياه الإمام عليه السلام حيث لم تنعظ الأُمَّه بوصاياه ومواعظه ففقدت زمام المبادرة وأضاعت الفرصه؛ فقد أوشك جيش الشام على الانهيار المطلق وأصبح القضاء على طاغية بنى أميه يكون قاب قوسين أو أدنى فعمد ابن العاص لتلك الخدعه التي انطلقت على الأُمَّه، فأبقت على تلك الحكومه الجائره لتخلف من بعدها بنى مروان وبنى العباس والحجاج و...

الطريف في الأمر ما أورده السيد الرضى بشأن الخطبه إذ قال: إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإن حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به. وفيه - مع الحال التي وصفنا - زوائد من الفصاحه لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصنائه بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلا العالمون».

ص: ٣٥٦

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٢٨١. [١]

«شُغِلَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ! سَاعَ سَيْرٍ نَجَا، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى. الِئْمِينُ وَالشَّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوَسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَأَثَارُ التُّبُوهُ، وَمِنْهَا مَنْفَعُ الشُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ هَلَكٌ. مَنْ ادَّعَى، وَخَابَ مَنْ افْتَرَى. مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكٌ. كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لَا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِتْرٌ أَصْلٌ، وَلَا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعٌ قَوْمٌ. فَاسْتَبْرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وِرَائِكُمْ، وَلَا يَحْمَدُ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَلْمُ لَائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ» .

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من التحدث عن صعوبه الامتحان بعد بيعته وحذر الأئمة من وبال الذنوب والمعاصي مشيراً إلى الحق والباطل، عرج هنا بالإشارة إلى سبيل النجاه من مخالب الهوى والهوس وبلوغ السعادة ونيل الفلاح، ليكشف عن الحقائق الواردة بهذا المجال. فقد صنّف الناس في مسيرتهم إلى السعادة والنجاه إلى ثلاث طوائف، فمن شغل بالجنّة والنار «وآمن بهما اعتزل كل ما يصده عن ذلك» وانهمك بالتفكير بالعاقبه (على ثلاث)، منهم من حث السير وبلغ الهدف سريعاً فهو ناجي. ومنهم من تباطأ في السير فهو مؤمل للنجاه أيضاً. أمّا الأخير من قصر في السير فهوى في النار «شغل من الجنّة والنار أمامه! ساع سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى» .

يرى البعض أنّ هذه الطوائف هي تلك التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة فاطر بقوله:

«ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ اضْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ» (١). وقيل بل هم من أشارت لهم الآيه القرآنيه الشريفه فى سوره الواقعه: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» (٢). على كل حال فان هذه الطوائف الثلاث مطروحه على الدوام فى المجتمع الإنسانى وإذا ما اشتد الامتحان (كالذى عليه الحال إبان خلافه الإمام على عليه السلام) تمايزت هذه الطوائف عن بعضها البعض؛ فهناك طائفه (وإن كانت غالباً قليله) تتبع الحق دون أدنى ترديد أو تراجع وهى تحت الخطى سريعه نحو الهدف. وطائفه أخرى أضعف إيماناً من سابقتها فهى تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأحياناً تحت الخطى وتسير بوثوق نحو الهدف فتعمل الصالحات بينما تتأخر أحياناً فتتقارف الطالحات فتخلط العمل الصالح بالسئء إلا أنها تؤمل بأن يشملها لطف الله وفضله فيبلغ بها الهدف المطلوب.

وأخيراً الطائفه الثالثه التى فارقت الإيمان والتقوى وغلبت عليها الشقوه وهوى النفس فضاغوا وضيّعوا أنفسهم حتى وقعوا فى الهاويه. فالعباره المذكوره تبين بوضوح أنّ الإيمان بالمعاد فقط من شأنه أن يصون الإنسان من الفساد والانحراف والذنب. وتتناسب هذه الصيانه والحصانه من الذنب طردياً ودرجه الإيمان. وقد ذهب البعض إلى أنّ العبارة: «شغل من الجنّه والنار أمامه» جملة خيريه تفيد معنى الإنشاء؛ أى أنّ من يرى الجنّه والنار أمامه عليه أن يغيض الطرف عن زخارف الدنيا وزبرجها! ولكن ليس هنالك من ضير فى تفسير هذه الجملة بصوره الأخبار - على نحو الجملة الخيره - أى أن مثل هؤلاء المؤمنون سيغضون طرفهم عن زخارف الدنيا. ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خصائص الطوائف الثلاث، أخذ يدعو الأمه إلى انتهاج السبيل القويم والابتعاد عن سبل الانحراف مبيناً علامات كل منهما فقال: «اليمن والشمال مضله (٣) والطرق الوسطى هى الجاده» .

ص: ٣٥٨

١- ١) سوره فاطر / ٣٢. [١]

٢- ٢) سوره الواقعه / ٧ - ١١. [٢]

٣- ٣) «مضله» على وزن «مفعله» قال أرباب اللغه أنّها تعنى كثره وجود الشئ فى المكان وعليه فمفهوم العبارة أنّ الانحراف إلى اليمن واليسار يدعو إلى ضلال عظيم.

فالعباره إشاره للمسأله المعروفه لدينا بأن السبل المنحرفه التى تقود الإنسان إلى الضلال. ولعل المراد باليمين والشمال هو الإفراط والتفريط الذين لا يوصلان إلى الهدف الذى لا سبيل إليه سوى الصراط المستقيم الذى يمثل الاعتدال بين الإفراط والتفريط، ومن هنا صرّح القرآن الكريم بقوله: «وَكَذَلِكَ لِنُكِّدَ لِرَبِّكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيَّطًا» (١). وقد صرّح كبار علماء الأخلاق بأن كافه الصفات الفضلى إنّما هى الاعتدال بين الصفات الرذيله التى تقع على طرفى الإفراط والتفريط.

وذهب بعض مفسّرى نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالطريق الوسطى مسأله الإمامه وولايه الأئمه المعصومين التى يقود الإفراط والتفريط فيها إلى الضلال. ولا نرى من ضير فى ان تخترن هذه العباره كافه المعانى فتشمل قضيه الولايه كما تشمل سائر المسائل العقائديه والعملية والأخلاقية.

أمّا بشأن معرفه الله فقد وقعت طائفه فى مصيده التشبيه فتشبهت الخالق بمخلوقاته، بينما ذهبت أخرى إلى تعطيل معرفته على أن ذات الخالق وصفاته متعذره على البشر حتى معرفه الإجماليه، وهناك الحد الوسط بين التشبيه والتعطيل والذى يعنى معرفه الله عن طريق أفعاله دون كنه الذات. وبالنسبه لأفعال العباد فليس الجبر صحيحاً ولا التفويض، والطريق الوسط هو الأمر بين الأمرين، وهكذا القول بشأن الولايه لا الغلو صحيح ولا التقصير، وهذا ما يصدق على الأخلاقيات والأعمال، فمثلاً فى الانفاق الصحيح هو الحد الوسط بين البخل والاسراف.

والطريف أنّ الفرق التى وقفت بوجه الإمام عليه السلام لم تخرج من تلك الحالتين، ففرقه الخوارج سلكت الافراط، بينما انتهج أهل الشام التفريط، وقد ضلت الفئتان فى معرفه الإمام عليه السلام. ثم خاض عليه السلام فى خصائص الجاده الوسطى المعتدله «عليها باقى الكتاب وآثار النبوه، ومنها منفذ السنّه، وإليها مصير العاقبه». هناك تفسيران لقوله عليه السلام: «عليها باقى الكتاب»: أحدهما المراد القرآن الكريم؛ الكتاب الخالد والذى انفرد بالمعارف والقوانين والأحكام التى

ص: ٣٥٩

يتعذر العثور عليها في ما سواه. والآخر المراد بالكتاب الخالد الإمام المعصوم الحافظ لكتاب الله، وهو عدل القرآن كما صرح بذلك حديث الثقلين المعروف، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب، ولا سيما أن آثار النبوه التي أعقبت العبارة يمكن تفسيرها بالآثار الباقيه لدى الأئمه.

كما أوردت عدّه تفاسير بهذا الشأن لا تبدو صائبه.

وقوله عليه السلام: «منها منفذ السنّه» فبالالتفات إلى كلمه منفذ يبدو أنّ المراد هو أنّ الطريق الوسطى فقط التي يمكن من خلالها الوقوف على السنه النبويه والتعرف على جوهر الدعوه، ومن هنا يتضح الفارق في هذه الملل الاربعه.

فقد أشار عليه السلام إلى أنّ الكتاب على هذه الجاده، ثم قال عليه السلام وعليها آثار النبوه، ثم أضاف ومنها منفذ السنه، وأخيراً قال وإليها مصير العاقبه من خلال هذه الجاده لا غير؛ كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (١).

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى مصير من يزعم الإمامه وولايه الناس بالباطل، حيث يصفهم في أربع عبارات: الاولى هلاك من يدعى الإمامه بغير حق فهو ضال مضل «هلك من ادعى» والثانيه أنّ من يطلب هذا المقام كذباً وافتراءً على رسول الله صلى الله عليه وآله لم يظفر بما طلب «وخاب (٢) من افتري» .

والثالثه هلاك من يقف بوجه الحق: «من أبدى صفحته (٣) للحق هلك» .

والأخيره يكفى الإنسان جهل أنه لا يعرف قدره فيتمدد أكثر من حجمه «وكفى بالمرء جهلاً- الا يعرف قدره» . طبعاً هناك احتمال قائم في ألا تكون هذه العبارات الأربع تعالج مسأله الإمامه التي تعرضت لها هذه الخطبه؛ بل تشمل معنا أوسع وهو كل ادعاء باطل سواء في مجال الإمامه أو سائر المجالات.

فالواقع هي تحذير لأهل الباطل من مغبه التمادى في غيهم بما لا يجلب عليهم سوى البؤس والشقاء والهلاك.

ص: ٣٦٠

١- ١) سورة الأعراف / ١٢٨. [١]

٢- ٢) «خاب» من ماده «خيبه» بمعنى الفشل والحرمان وعدم الظفر بالشىء.

٣- ٣) «صفحه» بمعنى عرض الشىء وقد يراد بها الوجه ومنها المصافحه.

أما قوله عليه السلام: «من أبدى صفحته للحق هلك» فقد فسره بعض شراح نهج البلاغه أنّ من أبدى صفحته لنصره الحق غلبه أهل الجهل، لأنهم العامه، وفيهم الكثره، فهلك.

فهذا الكلام وان كان واقعياً إلاّ أنّه لا يمكن أن يكون تفسيراً للعبارة المذكوره وذلك لأنّه لا ينسجم والعبارات السابقه بشأن أدعياء الباطل، كما لا يتفق والعبارة اللاحقه بشأن الأفراد الجهال الذين لا يعرفون قدر أنفسهم. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام هذه العبارات يعرض بالنصح والموعظه التي من شأنها تخليصهم من مخالب المنافقين وأدعياء الباطل، فقد دعاهم في البدايه إلى التحلى بالورع والتقوى التي تعدّ الركن الركين لكل حركة وعمل صالح، فقال عليه السلام: «لا- يهلك على التقوى سنخ (1) اصل، ولا- يظماً عليها زرع قوم» فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد شبه - بهذه العبارة العميقه المعنى - التقوى بالأرض الخصبه ذات المناخ المناسب التي لا تجف فيها جذور الأشجار ولا يموت فيها الزرع من قله الماء؛ أرض خصبه صالحه للزراعه ذات أنهار وآبار تمد الزرع بما يحتاج، ففي الحقيقه أنّ كافه الأعمال كالبذور والحبوب التي ينبغي أن تنثر في أرض خصبه وتسقى بالمياه؛ وليست هذه الأرض والمياه سوى التقوى، ثم قال في الموعظه الثانيه: «فاستروا في بيوتكم» فالإمام عليه السلام وبنظرته الثاقبه يعلم بأنّ حكومته ستضيق الخناق على أولئك الذين عملوا إبان عهد عثمان على سلب ونهب بيت مال المسلمين ونشروا الظلم في ربوع المجتمع الإسلامى، وعليه فهم سوف لن يسكتوا وسيسعون إلى تأليب الناس واستقطاب الجهال، وهذا هو الوقت الذى يتطلب من الإنسان أن يلزم بيته لا حين العمل والجهاد.

وعلى حد قول بعض شراح نهج البلاغه فان أفضل حركه فى المجتمع الذى يضره العدل والحق هى السكون والصمت والسكوت.

والموعظه الثالثه بشأن الأخاء والوحده بين صفوف أتباع الحق ونبذ كافه مظاهر الفرقة والشقاق بهدف ملاحقه الباطل والقضاء عليه، فقد قال عليه السلام: «وأصلحوا ذات بينكم». وأخيراً

ص: ٣٤١

١- ١) «سنخ» بمعنى الأصل والجذر، وكذلك محل غرس الشجر، وهو المكان الذى تثبت فيه جذور وأصل الشجره. ويستعمل هذا اللفظ أحياناً بمعنى الرسوخ فى شىء، وكل هذه المعانى مقاربه لبعضها، وفى العبارة أعلاه تشير إلى جذور العلوم والمعارف والاعمال الصالحه والتي رسخت فى أرضيه التقوى والتي لا يمكن أن تُجثّت جذورها.

يعرض بالنصح لمن اتسخ قلبه بالذنوب على عهد الحكومه السابقه أن يغسلها بماء التوبه «والتوبه من وراء كم (1)» .

ثم يقول عليه السلام: «ولا يحمد حامد إلهه ولا يلم لائم إلهه» إشاره إلى أنّ كافه النعم من عند الله وما يصيب الإنسان من توفيق وسعاده فبلطفه وفضله، وعليه فلا ينبغي الاغترار بالطاعه، كما أنّ مرجع الذنوب والمعاصي تقصير الإنسان فلا ينبغي أن يلوم الإنسان إلهه ولا ينسب أخطائه إلى الآخرين أو يبررها بالقضاء والقدر، بل عليه أن يسارع إلى التوبه.

تأملان

١ - الجاهل من جهل قدر نفسه

إنّ أغلب المشاكل الاجتماعيه إنّما تنبع من الطموحات الطائشه، أو تجاوز الإنسان لحدوده الطبيعيه والطمع بالمنصب الذى لا يستحقه أو لا يمتلك الجداره اللازمه للنهوض به؛ ولا شك أنّ كل هذا إنّما تفرزه قضيه مهمه تكمن فى جهل الإنسان بقدره وعدم تقيمه له بصوره صحيحه، وما ذلك إله الحب الذات والمبالغه فى نقاط القوه وعدم الالتفات إلى نقاط الضعف. ولا شك أنّ اضرار هذا الأمر لا تقتصر على الإنسان لوحده فحسب، بل تنسحب على المجتمع بأسره، ولربما استطاع الفرد أن يشغل منصباً فيقوم بوظيفته على أحسن وجه بما يضمن له السعاده وإلى المجتمع الرفاه والأمن، غير أنّه وإثر جهله بنفسه وطمعه بما لا يستحقه يبدد طاقاته عبثاً ويكبد نفسه والمجتمع مالا يحصى من الخسائر والأضرار. وياليت الجميع كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم أعادوا النظر فى هذا الأمر الحيوى واقصوا عن أنفسهم الحجب التى تحول دون معرفتهم لذواتهم ليجدوا من أجل تحقيق أهدافهم وسعاده مجتمعاتهم. ومن هنا ورد التأكيد كراراً فى نهج البلاغه على هذه المسأله، ومن ذلك ما ورد فى الخطبه ١٠٣ «العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلاً الا يعرف قدره». كما ورد فى الرساله ٣١ من نهج

ص: ٣٤٢

١-١) «وراء» من ماده «ورى» على وزن «وزن» وفى الأصل بمعنى الاستتار، وأحياناً يطلق على الشىء الذى حُجب عن الانظار بواسطه حاجز فاصح غير منظور باعتباره خلف الشىء أو وراءه. وفى العبارة أعلاه جاءت هذه الكلمه بمعنى، الخلف أو الورا.

البلاغه التي يعظ فيها ولده الحسن عليه السلام أنه قال: «ومن اقتصر على قدره كان ابقى له» وجاء في الكلمه ١٤٩ من قصار الحكم «هلك امرء لم يعرف قدره». كما ورد في الروايه أن شخصاً قال للإمام الكاظم عليه السلام مررت بالسوق فاذا هو يقول أنا من شيعة محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وهو يبيع الثياب بأكثر من ثمنها. فقال الإمام عليه السلام: «ما جهل ولا ضاع امرء عرف قدر نفسه». (١)

هناك احتمال آخر بالمراد من معرفد قدر النفس فى العبارة المذكوره وهو ألا ينسى الإنسان طبيعه خلقته فيقتصر بها على الجانب المادى المتعلق بالجسم دون الاهتمام بالمسائل المعنويه فيبيع نفسه ببعض الأمور الماديه التي تفتقر إلى القيمه الحقيقيه. فالإنسان يتمتع بالروح التي تنتمى إلى عالم السمو والرفعه، أنه خليفه الله فى الأرض. أنه كائن ملكوتى لا موجود ترأبى وإن تقولب مدّه معينه فى هذا القفص المادى من أجل نيل الكمال. وعليه فالعالم من عرف نفسه ووقف على قدرها ومنزلتها، ويلتفت إلى تكريم الله سبحانه له على من سواه، والجاهل من جهل قدر نفسه فقذف بها فى مستنقع الأهواء والشهوات. بالكن بالالتفات إلى قوله «من اقتصر على قدره كان ابقى له» وكذلك العبارة المعروفه لدى العلماء استنباطاً من الأحاديث المشهوره «العالم من عرف قدره ولم يتجاوز حده» يبدو أن الأنسب هو المعنى الأول، ويؤيده مضمون الخطبه الذى يتناول قصه طلحه والزبير وآمالهم الزائفه.

٢ - الاعتدال هو الصراط المستقيم

إن أدنى نظره إلى عالم الخلقه تفيده أن بقاء العالم إنما يستند إلى مسأله الاعتدال والتوازن فى القوى. فالمنظومات السماويه العظيمه إنما حفظت بتوازن القوى الجاذبه مع القوى الدافعه، فلو تقدمت أحدهما على الأخرى أو ابتعدت لما بقى أثر لتلك المنظومات، ولو اقتربتا وتصادمتا لأدّيا إلى انفجار هائل يقود إلى إنعدامها. والقانون المذكور الذى يحكم ذلك العالم الكبير كما يصدق على العالم الصغير أى عالم الإنسان، حيث تكون سلامه حياته ورمز بقائها مرهونه بحاله الاتزان التي تسود مختلف قواه الروحيه والجسديه، من قبيل العناصر الداخله فى

ص: ٣٤٣

١- ١) بحار الأنوار ٦٥/١٥٧ « [١] مع قليل من التخليص والإيجاز» .

تركيب الدم وتوازن حركات الأعصاب السمبثاوية والباراسمبثاوية وضربات القلب ووزن الجسم وضغط الدم وتوازن أجهزه الجسم كالجهاز التنفسي والجهاز الهضمي وبالتالي فإن كفه أجهزته تمارس وظائفها بكل اعتدال واتزان بما يحفظ سلامه الإنسان ويكفل بقائه، ولو انحرفت هذه الأجهزه ذره عن خط الاتزان وجنحت نحو الإفراط او التفريط لانعكس ذلك سلباً على سلامه جسم الإنسان وروحه.

القرآن من جانبه أثنى على الأمة الإسلامية بصفتهما الأمة الوسط، ومن هنا جعلها حجه على سائر الأمم. وهذه هي المسأله التي أكدها الإمام عليه السلام فى أن الجاده الوسطى هى الطريق وعليها باقى الكتاب وآثار النبوه ومنها منفذ السنه. وإليها مصير العاقبه. أمياً فى المجال الاقتصادى فإن الإفراط والتفريط قد أدى إلى ظهور النزعه الرأسماليه المقيته التى بالغت فى الملكيه الشخصيه بينما بالغت النزعه الاشتراكيه فى الملكيه العامه ليعيش المجتمع ذلك التمايز الطبقي الفاحش بوجود الطبقات المرفهه الثريه والأخرى المعدمه الفقيره.

وأمياً على المستويات الأخرى - العقائديه والسياسيه والاجتماعيه - فإن الإفراط والتفريط هو الذى يقف وراء كل هذا البؤس والشقاء الذى تعيشه البشريه.

ومن كلام له عليه السلام

فى صفه من يتصدى للحكم بين الامه وليس لذلك باهل وفيها:

أبغض الخلاق إلى الله صنفان:

القسم الأول

«الصنف الأول: إنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ رَجُلَانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ فَهُوَ جَائِرٌ عَنِ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بَدْعِهِ، وَدُعَاءِ ضَلَالِهِ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ افْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هَيْدِي مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مُضِلُّ لِمَنْ افْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ». (١)

نظره إلى الخطبه

وردت الخطبه - كما يتضح من عنوانها - فى صفات من يتصدى للقضاء وهو ليس له باهل

ص: ٣٦٥

١- ١) نقل صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغه» [١] هذه الخطبه عن طائفه من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضى ومنهم: ١ - الكلىنى فى الكافى [٢] بطريقين ٢ - ابن قتيبه فى كتاب غريب الحديث ٣ - أبو طالب المكى فى قوت القلوب ٤ - الهروى فى الجمع بين الغريبين ٥ - القاضى النعمان فى كتاب اصول المذهب. كما نقلها عن طائفه أخرى من العلماء بعد السيد الرضى كالطوسى فى الأمالى [٣] والطبرسى فى الاحتجاج [٤] والمفيد فى الإرشاد. [٥]

فيسوق الأمة إلى الضلال والهاوية.

فقد صنف الإمام عليه السلام هؤلاء الأفراد إلى صنفين:

الصنف الأول: من يشق طريق الضلال عن علم ويحكم هوى النفس وابتدع فى الدين فهو ضال لنفسه مضل لغيره.

الصنف الثانى: الجاهل المتشبه بالعالم ويجهل بجهله فهو يعيش الجهل المركب؛ وليس له ذره مما يؤهله للتصدى للقضاء، فهو فريسه للخطأ والزلل والشبهات، يخرج الحق بالباطل ويريق دماء الأبرياء بغير حلها ويهدر الأموال لغير أصحابها. ويحتمل أن يكون المراد بالصنف الأول حكام الظلم والجور والبدعه والضلاله، والصنف الثانى القضاء الجهال. وعليه فكلمه الحكم الوارده فى الخطبه ذات معنى عام واسع تشمل القضاء والحكوم.

ويختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى الله من هؤلاء الأفراد الذين ولوا ظهورهم للقرآن وحسبوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وبناءً على ما تقدم فالخطبه على ثلاثه أقسام، يختص الأول والثانى منها بوصف هذين الصنفين والثالث بالشكوى إلى الله منهم ومن كان على شاكلتهم.

الشرح والتفسير

أبغض الخلائق

استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصنيف أبغض الخلائق إلى صنفين «إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان» ومن البديهي أن للحب والبغض بالنسبة لله مفهوم يختلف عمّا هو عليه بالنسبة للإنسان؛ لأنّ الحب والبغض من قبيل الحالات والتغيرات التى تطرأ على روح الإنسان إثر رغبته واشمئزازه تجاه بعض الأشياء؛ بينما يكتسب الحب بالنسبة لله معنى الشمول بالرحمه والبغض معنى الطرد منها. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى صفات الصنف الأول؛ أى أصحاب الأهواء من الحكام، فيشير قبل أى شىء إلى أصل بؤسهم وشقائهم، فقال عليه السلام: «رجل وكله الله إلى نفسه». فروح الإنسان حيه بالتوكل على الله والثوق بما عنده؛ أى أنه يسعى سعيه وينذل

ص: ٣٦٦

قصارى جهده من أجل النهوض بعمله وتطوير حياته، مع ذلك لا بد أن يعلم بأن الذات الإلهية هي مصدر كل خير وبركه ونعمه وعطاء. إلّا أن الغرور والكبر وحب الذات قد يجعل الإنسان غافلاً عن هذه الحقيقة فيرى نفسه مستقلاً في مقابل الله فتتشوه بنظره جميع الأشياء. هذا الانقطاع عن الله هو ايكال الإنسان إلى نفسه؛ وهو أساس بؤس الإنسان وشقائه. ومن هنا ترى رسول الله صلى الله عليه وآله لا ينفك عن التضرع إلى ربه منادياً:

«اللهم... لا تكني إلى نفسي طرفه عين أبداً» (١) وهو ذات المعنى الذي صرح به أمير المؤمنين على عليه السلام: «إلهي كفى بي عزا أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً» (٢) كما ورد ذلك عن المعصوم عليه السلام قوله: «إنك ان وكنتني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدي من الخير» (٣).

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان السبب الرئيسي لشقوه هؤلاء حتى يتطرق إلى افرازات ذلك الشقاء ليوجزها في ثمانية ارتبطت مع بعضها برباط العله والمعلول فقال عليه السلام: «فهو حائر عن قصد السبيل» والمراد بقصد السبيل هو الحد الوسط الفاصل بين الإفراط والتفريط والذي يوصل الإنسان إلى الله؛ الأمر الذي أشار له القرآن الكريم بالقول «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» (٤) ومن البديهي أنّ الإنسان إنّما يستطيع تمييز السبيل - الذي صورته الروايات بأنه أرفع من الشعره وأحد من السيف - من بين آلاف السبل الانحرافية إذا شملته الألفاف والعنايات الإلهية؛ أما إذا انفصل عن الله ووكل إلى نفسه فانه سيعيش الحيره والقلق التي تنتهي به إلى الضلال والسقوط في الهاويه.

الافراز الثاني «مشغوف بكلام بدعه» ومن هنا ينطلق نحو الافراز الثالث «ودعاء ضلاله». شغف من ماده شغاف على وزن كلاف بمعنى المولع بالشىء حتى بلغ حبه شغاف قلبه، وهو غلافه؛ وهو التعبير الذي أورده القرآن الكريم بشأن حب زليخا لنبى الله يوسف عليه السلام على لسان طائفه من نساء مصر «قد شغفها حباً»، فالعبارة إشاره إلى أنّ مثل هؤلاء الأفراد

ص: ٣٦٧

١-١) بحار الأنوار ٨٣ / ١٥٣.

٢-٢) بحار الأنوار ٩١ / ٩٤. [١]

٣-٣) بحار الأنوار ٨٣ / ١٥٢. [٢]

٤-٤) سورة النحل / ٩. [٣]

من ذوى حَبِّ الذات يتعلقون بشده بأحاديثهم المبتدعه؛ التعلق الذى يودى إلى دعوه الآخرين إلى الضلال والانحراف.

القرآن أيضاً يقول: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» (١)، وستتطرق فى الأبحاث القادمه - تأملات - إلى حقيقه البدعه ودوافعها وتناججها. أمّا الوصف الرابع «فهو فتنه لمن افتتن به» .

وفى الصفه الخامسه والسادسه «ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به فى حياته وبعد وفاته». المراد بمن كان قبله الأنبياء وأوصيائهم بالحق؛ فى إشاره إلى اتضاح سبيل الهدايه مسبقاً بما لا يدع من مجال لسلوك طريق الضلال؛ مع ذلك فقد ولى ظهره لسبيل الهدايه والقى بنفسه فى ظلمات الضلال. والأنكى من ذلك أن اضلال هؤلاء الأفراد للآخرين لا يقتصر على حياتهم فهم مدعاه للضلاله حتى بعد وفاتهم، فهم شركاء فى هذه الضلاله، حيث ورد فى الحديث النبوى المشهور: «من سنَّ سنَّه حسنه عمل بها من بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنَّ سنَّه سيئه فعمل بها بعده كان عليه وزره ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» (٢).

فالعباره تحذير حاد لأولئك الذين يحثون الخطى نحو البدع ويشيدون صروح الضلاله، فى أن شقائهم وبؤسهم سوف لن يقتصر على حياتهم بل قد يتجاوز حتى مماتهم بآلاف السنين وعليهم أن يدفعوا كفاره تلك البدع ويستعدوا لتحمل تبعاتها. كما ورد عن الإمام على عليه السلام تحذير شديد آخر فى الخطبه ١٦٤ حيث قال: «وإنَّ شرَّ الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأمات سنه مأخوذه واحيى بدعه متروكه» وأمّا الوصفان الأخيران المترتبان على الصفات السابقه فهما «حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته» فالعباره ليست كلاماً تعبدياً؛ بل هى منطقيه تماماً. وذلك لأنَّ أى معونه ومساعدته فى ارتكاب الذنب تعدُّ شركه فيه؛ ولما كان أتباع هؤلاء المضلين يقارفون الذنوب بمحض إرادتهم فلا ينقص من ذنبهم شيئاً، وهذا ما أشار له القرآن الكريم صراحه فى الآيه ٢٥ من سوره النحل إذ قال «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً

ص: ٣٦٨

١-١ (١) سوره رعد / ١٤. [١]

٢-٢ (٢) ميزان الحكمه ٤ / ٥٦٦، كما ورد مضمون هذا الحديث فى عدّه روايات نقلتها أغلب الكتب.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ». (١) والتعبير الآخر الذى اعتمده القرآن بشأن ارتهان الإنسان بذنبه هو تعبير غايه فى الروعه والدقه «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (٢).

فكما أنّ المحجوز لا يطلق من العذاب ما لم يكفر عن ذنوبه؛ كما أنّ التعبير باكمال بالنسبه لذنوب الآخرين هو الآخر تعبير عميق، كأن الذنوب (كما يفهم من كلمه وزر) حمل عظيم بثقل صاحبها ومن أسس لها وتصده عن القرب الإلهي وتلقى به فى قعر جهنم. ومن هنا تتضح مدى خطوره الوادى الذى يسقط فيه من وكله الله إلى نفسه، وأى مصير مشؤوم ينتظره.

تأملان

١ - ما البدعه ومن المبتدع؟

لقد ورد الظم فى هذه الخطبه للبدعه والمبتدع الذى يسوق الناس إلى الضلال؛ كما تضافرت الروايات الإسلاميه - إلى جانب سائر خطب نهج البلاغه - التى تظم البدعه وأصحابها، ومن ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «كل بدعه ضلاله وكل ضلاله فى النار» (٣). كما ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «أبى الله لصاحب البدعه بالتوبه قيل يا رسول الله وكيف ذاك؟ قال: إنه قد أشرب قلبه حينها» (٤).

والبدعه فى اللغه بمعنى الإتيان بشيء لا سابقه له، أما فقهاء الإسلام فقد عرفوها باضافه شيء إلى الدين أو نقصانه دون قيام دليل معتبر على ذلك؛ ولما كانت المعارف والأحكام الإلهيه واجبه الثبوت عن طريق الوحي والأدله المعتمده، فان البدعه من الكبائر، وهى أساس

ص: ٣٤٩

١-١ (١) سورة نحل / ٢٥. [١]

٢-٢ (٢) سورة المدثر / ٣٨. [٢]

٣-٣ (٣) شرح نهج البلاغه للمحقق الخوئى ٣ / ٢٥١.

٤-٤ (٤) اصول الكافى ١ / ٥٤، باب البدع. [٣]

الفساد والانحراف، ولو لم تمنع البدع لأضاف الأفراد بعقولهم القاصره إلى الدين ما شاءوا وانقصوا منه ما أرادوا، فلا يبقى من الدين شيئاً وتمحى آثاره؛ ولا شك أن قانون تحريم البدع هو الذى صان القرآن والإسلام وحفظه من تلاعب الجهال وأصحاب الأهواء. والذى ينبغى أن نخلص إليه ممّا سبق وعلى ضوء التعاريف الفهقيه هو أن البدع لا تشمل الاختراعات والابداعات العلميه والفنون الطبيعیه والطبيه والصناعيه، كما لا تشمل التجديد فى الثقافه والأدب والسنن والعادات والتقاليد. فالبدع ما أحلت حراماً أو حرمت حلالاً. وأضافت دين الله أو انقصت منه ممّا ليس فيه دون قيام دليل معتبر على تلك الاضافه أو النقصان، أو الإتيان بدين جديد ودعوه الناس إليه دون الاستناد إلى الوحي أو الدليل، هذه هي البدع، وهى من الكبائر التى توعده الله عليها بالعذاب. ومن هنا نقف على خواء الوهابيه التى اعترضت حتى على ركوب الدراجة على أنها مركب الشيطان أو ما قام به بعض الاتباع ممن عمد إلى خطوط الهواتف فقطعها على أنها بدعه فمما لاشك فيه أن مثل هذه الأعمال تعد ممارسات حمقاء ليس لها أدنى صله بمفهوم البدع كما صورها الفقهاء، ومما يؤسف له أن تأريخ هذه الحركة ملئء بمثل هذه الممارسات الشائته. ويمائلهم أولئك الذين سلكوا سبيل الإفراط تجاه هذه الحركة ليقولوا بعدم وجود أية ثوابت فى الدين؛ الأمر الذى يهدد كافه قيم الدين ومثله ويعرضها للزوال، حيث يمهدون السبيل أمام هذا وذلك للدس فى الدين ما شاءوا. ونختتم بحثنا هذا بما قاله أمير المؤمنين عليه السلام - فى كلماته القصار، الكلمه ١٢٣: «طوبى لمن ذل فى نفسه. . . وعزل عن الناس شره ووسعته السنه ولم ينسب إلى البدع». فقد ورد السنه فى الإمام مقابل البدع، فمن أطاع الله واستن بسنه رسوله صلى الله عليه وآله فارق البدع، أما من عصى الله وفارق سنه نبيه صلى الله عليه وآله فهو على البدع، وهو ضال لنفسه مضل لغيره.

٢ - أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرين

تقتصر أغلب الذنوب على المسؤوليه الفرديه وإن كانت من قبيل الكبائر كالأفعال المنافيه للعفه وشرب الخمر وسائر المحرمات، غير أن أخطر الذنوب هى تلك التى تدعو الآخرين لمقارفتها بحيث يبوء صاحبها بوزر تلك الذنوب من دون أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، وهذا ما يصدق على أئمه الظلم والفساد من أهل البدع الأمرون بالمنكر والناهون عن المعروف. وأحياناً تطالهم تبعه الذنب بل وتطال نسلهم لقرون بعد مماتهم، وعلى الآثم أن يدفع

ثمن ذنوب هؤلاء بأجمعها (كما أنّ العمل الصالح كذلك قد تشمله بركاته لقرون) .

وقد صور القرآن الكريم وضع هؤلاء الأثمة بقوله «وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (١). وأعظم خطر تختزنه هذه الذنوب فى الغالب عدم صدق التوبه عليها؛ وذلك لأنّ من شروط التوبه إزاله آثار الذنب؛ فأنى للإنسان بإزاله آثار مثل هذه الذنوب التى قد تتخذ أبعاداً واسعة لتشمل منطقه بأكملها، أو موت الكثير من الأفراد على هذه الذنوب التى ساقهم لارتكابها، أو ظهور الجيل الجديد الذى يعمل بهذه الذنوب بعد وفاته؟

بالتالى لابدّ لهذا الإنسان من التأنى فى حركته، حذراً من مقارفة مثل هذه الذنوب التى لا سبيل للتخلص من تبعاتها «حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته» .

ص: ٣٧١

«الصنف الثاني: وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا، مُوضِعٌ فِي جُهَالِ الْأُمَّةِ، عَادٍ فِي أَعْبَاشِ الْفِتْنَةِ عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ؛ قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِمًا وَلَيْسَ بِهِ، بَكَرٌ فَاسْتَكْتَرُ مِنْ جَمْعٍ؛ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ مَاءِ آجِنٍ، وَاکْتَتَرَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِيًا ضَامِنًا لِتَخْلِيصِ مَا التَّبَسَّ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِخْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّا لَهَا حَشْوًا رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسِجِ الْعَنْكَبُوتِ: لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ: فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ - جَاهِلٌ خَبَّاطٌ جَهَالَاتٍ، عَاشَ رَكَّابٌ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعْضْ عَلَى الْعِلْمِ بِضُرْسٍ قَاطِعٍ، يَذُرُّو الرُّوَايَاتِ ذُرُورَ الرِّيحِ الْهَشِيمِ. لَا مَلِيٍّ وَاللَّهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ وَلَا أَهْلٌ لِمَا قُرِّظَ بِهِ، لَا يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلَا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَدَّهَا لِعَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَغْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَضْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدَّمَاءِ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ» .

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان الصنف الأول بشكل جامع، تطرق إلى صفات الصنف الثاني ليتحدث عن ذلك الشخص الذي يغط في هاله من الجهل والتخبط في حين يرى نفسه عالماً دون الاستناد إلى ركن وثيق من علم أو عالم. فبيّن بادي ذي بدء خمس صفات لمثل هؤلاء الأفراد. الأولى «ورجل قمش جهلاً» فاستناداً إلى ما أورده أرباب اللغة بشأن مفردة

القمش التي تعنى جمع الأشياء المتناثره دون تناسب وكذلك بمعنى الأشياء التي لا قيمه لها، فان الذى يفهم من كلام الإمام عليه السلام أنّ هؤلاء الجهال المتشبهون بالعلماء إنّما يتجهون صوب خواء من العلم الذى يفتقر إلى القيمه كما يفتقر إلى النسبه المنطقيه. وقد علق المرحوم العلّامة الخوئى فى شرحه لهذا الكلام على أنّهم يحصلون على المعلومات من فم هذا وذاك ومن الروايات الضعيفه غير المعبره وعن طريق القياس والاستحسان والمصادر من هذا القبيل (ذات الحجم الكبير والقيمه القليله أو المعدومه).

الصفه الثانيه أنّه يهرع بسرعه فى أوساط الجهال من عوام الأّمه ليجمع له بعض الأنصار: «موضع (1) فى جهال الأّمه» ومن الطبيعى ألا يهب لنصره هؤلاء ويتمحور حولهم سوى تلك الطائفه من الجهال، وليس لهؤلاء من مكان بين العقال. فهدفهم هو لفت انتباه الجهال إليهم والنفوذ فى أوساطهم لأنهم يعيشون اليأس من اقتحام دنيا العقلاء.

الصفه الثالثه «عاد (2) فى أغباش الفتنه» بالالتفات إلى أنّ بعض أرباب اللغه (3) قد عنى غبش من ماده أغباش بشدّه الظلمه أو ظلمه آخر الليل التي تعتبر أفضل فتره للسارقين واللصوص، يتضح أنّ مثل هؤلاء الأفراد يفكرون دائماً فى الاصطياد من ماء الفتن. فهم يهربون دائماً من النور والضياء ويلوذون بالظلمه وعتمه الليل كفرصه مناسبه من أجل خداع الجهال؛ ولا غرو فلو تددت ظلمه الفتنه وبزغت شمس العلم والمعرفه لانكشف النقاب عن صورتهم الحقيقيه ولافتضحوا أمام القاصى والدانى.

وأشار عليه السلام إلى الصفه الرابعه من صفات تعاسه هؤلاء الأفراد «عم بما فى عقد الهدنه» (4). ومن الواضح أنّه ليس المراد بالهدنه هنا الصلح بين المسلمين وغير المسلمين، لأنّ الكلام وبشهاده العبارات اللاحقه وارد بشأن القاضى بين الناس. وبناءً على هذا فالمراد بالهدنه الصلح بين الناس وحل المنازعات بالطرق السلميه؛ وبعبارة أخرى فإنّ الهدنه هنا تقابل

ص: ٣٧٤

١-١) «موضع» من ماده «ايضاع» بمعنى السرعه فى الحركه (وهو يعطى معنى اللازم لا المتعدى رغم أنّه من باب الافعال) وهو هنا إشاره لحركه الجهال المتشبهين بالعلماء السريعه بين الجهال.

٢-٢) «عاد» من ماده «العدو» بمعنى الركض.

٣-٣) مقاييس اللغه، الجوهري، لسان العرب.

٤-٤) «هدنه» بمعنى الصلح والمسالمة بين الناس.

الفتنه التي ذكرت في العبارة السابقة. وبصوره عامه فإن مثل هؤلاء الأفراد إنما ينشدون تعميق هوه الاختلافات وتشديدها ليتسنى لهم تحقيق أطماعهم ومآربهم الخبيثة، والحال لو علموا أن الصلح والسلام بين الناس إنما يعود بالنفع على جميع الأفراد، وليس هنالك من ينتفع بالنزاع والشقاق، لما اتجهوا إلى مثل هذه الامور. نعم ان هؤلاء الأفراد عمى عن مشاهدته الحقيقه فضلاً عن ادراكها.

وقال عليه السلام في صفتهم الخامسة «قد سماه اشباه الناس عالماً وليس به» يبدو أن قوه الجاذبيه التي تربط ذرات هذا العالم في الأرض والسماء بحيث يميل كل موجود وينجذب إلى شبيهه، فإن هذه القوه تحكم هذه الفئات والأفراد أيضاً. وما أروع تعبيره عليه السلام عن أتباع من تشبه بالعلماء بأشباه الناس، في إشاره واضحه إلى أن أشباه الناس هم خدمه أشباه العلماء. ومن البديهي أن شباهه هؤلاء بالناس كشباهه أئمتهم الجهال بالعلماء إنما هي شباهه صوريه ليس أكثر، وغالباً ما يستعمل هذا التعبير بشأن الموارد ذات الشبه الصوري كقوله عليه السلام في الخطبه ٢٧ من نهج البلاغه «يا أشباه الرجال ولا رجال» .

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفاتهم حتى تطرق إلى جانب من أفعالهم القبيحه النابعه بصوره مباشره من تلك الصفات ونقاط الضعف التي تحكم كيانهم، فقال عليه السلام: «بكر (١) فاستكثر من جمع؛ ما قل منه خير ممّا كثر» (٢). يمكن ان تكون هذه العبارة إشاره إلى الإمكانات الماديه والدينيه التي تؤدي كثرتها إلى الغفله والتكبر والانهماك الدائم بالماديات والابتعاد عن المعنويات؛ وغلباً ما يكون قليلها أفضل من كثيرها وأن الكفاف والعفاف أقرب إلى السعاده والفلاح من التكاثر والتفاخر. أو إشاره إلى فضول الكلام والمسائل العلميه التي لا طائل من وراءها على حساب الأصول والمبادئ وذهب البعض إلى أن المراد بها الآراء الباطله والعقائد الفاسده، ولكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً؛ لأنّ القليل من هذه الآراء والعقائد فيه الضرر

ص: ٣٧٥

١ - ١) «بكر» من ماده ((بكره على وزن لقمه بمعنى أول النهار ثم أطلقت على كل بدايه وانطلاقه، وهى هنا إشاره إلى أن الجهال المشبهين بالعلماء إنما يلهثون خلف الأعمال العابثه من أول النهار حتى الليل.

٢ - ٢) يمكن أن تكون الجملة (ما قل منه خير ممّا كثر) صفه لجمع مفهومه: يجمع شيئاً قليله خير من كثيره، كما قيل يمكن أن تكون مضافه، وفي هذه الحاله تتطلب تقديراً؛ أى من جمع شيء ما قل منه خير ممّا كثر، ولكن ليس هنالك من فارق في المعنى.

أيضاً، وإن كان هذا التفسير لا ينسجم وبعض العبارات القادمة. ثم قال عليه السلام: «حتى إذا ارتوى من ماء آجن (١) واكثر من غير طائل (٢)، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره» .

أجل أنّ هذا الفرد الجاهل والفضال المتشبهه بالعالم الذى يتمتع برصيد علمى مشوه مفعم بالأخطاء وله روح ونفس ولعه بعالم المادة شغفه بزخارف الدنيا وزبرجها، إنّما وضع نفسه فى موضع لا يتصدره سوى نبي أو وصى، كما ورد ذلك فى الحديث المعروف عن الإمام على عليه السلام حين خاطب شريح القاضى قائلاً: «يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلانبي أو وصى نبي أو شقى» (٣)، والأدهى من ذلك يزعم أنّ هنالك حقائق، ولا غرو فهذه هى المزاعم والادعاءات الفارغه التى يتشدد بها كافه الجهال المتشبهين بالعلماء.

والآن بعد أن تصدى هذا الجاهل للقضاء فما عساه أن يفعل، قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن: «فان نزلت به احدى المبهمات هيا لها حشوا رثامن رأيه، ثم قطع به» .

الحشو بمعنى الكلام الزائد الذى لا فائده فيه، والرث بمعنى الخلق القديم ضد الجديد، فقله عليه السلام: «حشوا رثامن رأيه» كأنها إشاره إلى أنّه ليس من أهل الخلاقه والمبادره، كما ليس له ذهنيه متفتحه، وأخيراً لا يمكنه أن يجمع الأدله المقيده التى تعينه على اصدار الحكم. فليس له رصيد سوى حفته من الأفكار الزائده التى لا- طائل من وراءها وهى رثه قديمه أكل الدهر عليها وشرب، وهذا هو اسلوبه وديدهن ويقينه فى الحكم.

ومن الطبيعى أن لا تؤدى هذه المقدمات الباطله والفايده إلى أى يقين، فهو يخدع الناس متظاهراً لهم باليقين، وعلى فرض كونه وصل إلى اليقين فانه ليس معذوراً عند الله لأنّه سلك الخطأ والتقصير فى المقدمات. فالمشاكل القضائيه كسائر المشاكل العلميه والاجتماعيه والسياسيه إنّما تعالج دائماً عن طريق دراسه المقدمات الصحيحه والمنطقيه؛ فذلك الذى ليست لديه أدنى معرفه بهذه المقدمات الصحيحه وقد تعلقت أفكاره بالمسائل الباطله فأنه ليس

ص: ٣٧٦

١-١) «آجن» بمعنى الماء العفن.

٢-٢) «طائل» من ماده «طول» على وزن قول بمعنى الفائده والامتداد، ومن غير طائل تعنى دون فائده.

٣-٣) الوسائل الشيعه ١٧ / ٣٧ ([١] واضح أن وصى النبي هنا تنطوى على مفهوم واسع يشمل العلماء العدول من أتباع النبي) .

فقط لا يتوصل إلى النتيجة الصائبة فحسب، بل سيغبط في هاله من الحيره والتخبط والضلال كما سيسوق الآخرين إلى الضلال؛ والانكى من ذلك أنه كلما تقدم أكثر في هذا المجال ابتعد أكثر عن الوقائع والحقائق.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه «فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت (1)». وقد اختلفت أقوال الشراح بشأن التشبيه الذى استعمله الإمام عليه السلام في هذه العبارة، فوردوا بعض التفاسير التى لا تخلو من التكلف والتقدير والتغيير فى العبارة - أما التفسير الذى يبدو مناسباً هو أنّ الإمام عليه السلام شبه هؤلاء الأفراد الجهال المغرورين ضعيفى الفكر بالعنكبوت حيث ينسج لنفسه خيوطاً تكون حرزاً لبيته كما تكون فخاً لصيده، أما بيته فهو أوهن البيوت ولا يمكن الوثوق به أبداً، كما أنّ فخه لا يطيل سوى الحشرات الضعيفه العاجزه.

نعم هذا الجاهل أيضاً ليس لفخه من دور سوى صيد أمثاله من الجهال الحمقى. وعليه فهو كالعنكبوت وأفكاره كخيوطه وهميه ضعيفه وحيده يقتصر على المغفلين عديمى العلم والمعرفه. «لا يدري أصاب أم أخطأ، فان أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وان أخطأ رجا أن يكون قد أصاب». هذا هو حال الأفراد الجهال الذين يتصدون إلى المناصب الهامه التى لا يمتلكون الجداره لممارستها. فهم على شك وترديد دائماً، حتى أنّ اتجهه صوب الصواب فحيث لا يؤمن بذلك فهو متزلزل يطلق سهمه فى الظلام دائماً عله يصيب الهدف. ويتصور بعض شراح نهج البلاغه أنّ الجملة الأخيره تناقض والعبارة «ثم قطع به» لأنّ تلك العبارة تحدثت عن القطع واليقين بينما تحدثت هذه العبارة عن الشك والترديد. والحال أنّ العبارة «ثم قطع به» تعنى الحكم القاطع لا قطع القاضى و يقينه، فالواقع أنّه يحكم فقط ويتخذ لنفسه صيغه القطع، بينما يفيض باطنه بعاصفه من الشك والترديد. نعم مصيبتة الكبرى فى دينه، فان أصاب الواقع مصادفه شعر بالتزلزل لأنّه لا يملك الإيمان واليقين، وان هذا التزلزل يؤرقه ولا يجعله قادراً على اتخاذ القرار؛ وان أخطأ فان سبيل الرجوع مغلق بوجهه لأنّه ليس واقفاً على خطأه. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى صفه أخرى ليصور حال هؤلاء الأفراد بتعبيرات قارعه

ص: ٣٧٧

١-١) «العنكبوت» هى الحشره المعروفه، وهناك اختلاف فى أصلها من ماده عكب أن عنكب، وقيل اقتبست من ماده «عكوب» بمعنى الغبار لأنّ خيوطه تشبه الغبار.

وتشبهات غايه فى البلاغه والجمال فقال عليه السلام: «جاهل خباط (١) جهالات»، فهو كالأعمى فى الظلمات المليئه بالمخاطر «عاش ركاب عشوات» (٢) فالإمام عليه السلام لا يكتفى بوصفه بالجاهل، بل يؤكد ذلك ليصفه بأنه يغط دائماً فى هاله من الجهل، كما لا يكتفى الإمام عليه السلام بعشوته وعماه بل يصوره بأنه يمتطى الظلمه والعتمه ويحث السير دون أن يعلم أين يسير وإلى أين سينتهى به هذا المسير. المفرده عاش من ماده عشا، فسرت بالعمى المطلق، كما فسرت يضعف الرؤيه وقيل أيضا يراد به عشوه الليل، ومهما كانت فإن المراد هو أن صاحبها لا يستطيع رؤيه ما حوله من الأشياء، فإذا ما تحرك سقط فى الهاويه، بل قاداته حركته إلى الجحيم، وهذا هو حال من يتصدى للقضاء بين الناس دون الاستناد إلى العلم والمعرفه ويزج بنفسه فى هذا الطريق الشائك المليء بالمخاطر، فكلما مر عليه يوم من حياته كثر بؤسه وشقائه لنفسه وللناس حتى ينتهى به المطاف إلى السقوط فى وادى الكفر والضلال، والأُنكى من كل ذلك أن مثل هذا الفرد يرى نفسه عالماً ضالماً بموازين القضاء والحق والعدل فلا يسع أحد احصاء خطاياهم وذنوبهم!

ثم ينتقل الإمام عليه السلام لبيان صفه أخرى من صفات هذا الجاهل المتخبط «لم يعرض على العلم بضرر قاطع»، فقد شبهه الإمام عليه السلام بمن يتناول الطعام دون المضغ بحيث لا يسع الجسم هضمه. ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن المراد بالضرر هنا سن العقل الذى يظهر فى مرحله تكامل العقل، وكأن هؤلاء الجهال ليس لهم سن عقل، فهم لا يقيمون القضايا بشكل سليم، وبالمقابل هنالك الأفراد العلماء الحلما الذين يتحدثون بالضرر القاطع؛ أى أن حديثهم يستند إلى أسس العقل والمنطق السليم.

وقال عليه السلام فى صفتهم الثالثه أنهم كالريح العاصف التى تهلك الحرث والزرع فهى تهب هوجاء دون هدف وهذا حال تعامل الجاهل مع الروايات الإسلاميه «يذرو (٣) الروايات ذرو الريح الهشيم (٤)». إشاره إلى أنه يطالع ظاهرياً الموضوعات التى تصدت لبيانها الروايات

ص: ٣٧٨

١-١) «خباط» من ماده «خبط»، صيغه مبالغه من خبط الليل إذ سار فيه على غير هدى، ومن هنا يطلق خباط أو ضابط على الفرد المجنون او الذى لا يستطيع توازنه.

٢-٢) «عشوات» جمع «عشوه» بمعنى الظلمه.

٣-٣) «يذرو» من ماده «ذرو» على وزن ضرب بمعنى ينثر (وقد وردت هذه المفرده بهيئه ناقص واوى وناقص يائى).

٤-٤) «هشيم» من ماده «هشم» بمعنى ما يبس من النبات وتهشم وتفتت.

والسنه النبويه، ولكن ما جدوى ذلك وهو يفتقر إلى تقييمها الصحيح، فهو لا يمتلك العلم بمضمونها ولا بقوه سندها من ضعفه، كما لا يعرف الجمع بين الروايات المتعارضه ولا يميز المحكمه من المتشابهه. فهو بالضبط كالريح الهشيم التي تذرو النباتات هنا وهناك. فالنباتات الجافه (الهشيم) قد لا تكون لها أيه فائده، بينما قد تفيد إذا جمعت، أمّا الريح الهوجاء تزيل حتى هذه الفائده الضئيله من خلال ذروها وتفريقها، وهذا ما عليه الحال بالنسبه للأفراد الجهال الذين يتعاملون مع الروايات دوتن أن تكون لهم معرفه صحيحه بغشها من سمينها وصحيحها من سقيمها.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى صفتهم الرابعه، ليقسم بأنّ هؤلاء الجهال ليسوا حريين بحل ما ترد عليهم من قضايا ولا جديرين بأدنى مدح واطراء يمارسه المتلمقون تجاههم «لاملى - والله - باصدار (1) ما ورد عليه، ولا أهل لما قرظ (2) به» .

مما لا شك فيه أنّ الفصل فى الخصومات القضائيه والذى يصطلح عليه الفقهاء برد الفروع إلى الأصول إنّما يتطلب رصيذاً علمياً ثراً لا يتحلى به هؤلاء الجهال المغرورون، وهذه الضحاله العلميه تفحمهم وتجعلهم يصلون سبل التعامل مع القضايا فلا يميزوا كيفيه الدخول فيها أو الخروج منها (المراد بالدخول والخروج هنا ما تعارف بشأن الموضوعات المطروحه على العلماء فيقال أن فلاناً يعلم كيف يرد هذه المسائل وكيف يخرج منها، والفرد الجاهل يفتقر بالمره لهذه المسأله) .

أمّا إحدى مشاكل هؤلاء الأفراد هي إطاحتهم بثله من المتملقين الذين يهدفون إلى تحقيق مطامعهم الدنيويه فيطرونهم بمختلف ألوان المدح والثناء ويضفون عليهم ما لا يستحقونه من الصفات، فيطرب هؤلاء الجهال لمثل هذه الأكاذيب والنعوت الفارغه رغم علمهم بكذبها وزيفها إلا أنّهم وبمرور الزمان يظنون أنّهم كذلك وهذه قمه البؤس والشقاء التي يبلغونها بحيث تغلق أمامهم كافه سبل النجاه. (3)

ص: ٣٧٩

١- ١) «اصدار» من ماده «صدور» ضد الدخول.

٢- ٢) «قرظ» بمنى مدح.

٣- ٣) ذكر بعض شراح نهج البلاغه [١] هنا المفرده «فرط» من ماده التفريط و «فوض» من ماده التفويض بدلاد من «قرظ» من ماده «التقريط» بمعنى المدح و الثناء. و حيث آلتنا على أنفسنا ألأنجرى خلف اختلاف نسخ نهج البلاغه و [٢] نكتفى بالنسخه المعروفه المتداوله اليوم، لذلك نغض الطرف عن الخوض فى ما ذكروه.

وقال عليه السلام في صفتهم الخامسة «لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهباً لغيره». والواقع أن هذا من لوازم الضحالة الفكرية وضيق العلم والمعرفة حيث يرى الإنسان نفسه هو العلم الكامل فينكر كل ما ورثه فلا يرى من حرمه لأفكار الآخرين وعلومهم، بينما لا يرى العالم الحق في العلم والمعرفة سوى الاعتراف بالجهل، فيسوقه ذلك إلى التواضع للآخرين والاستماع إلى أقوالهم «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» (١) فهم يستمعون إلى الآخرين ويصطفون أحسن ما يرد في كلامهم، في حين يطالعك الجاهل المغرور الذي يتحدث على سبيل القطع وهو ليس على شيء.

وصفته السادسة التي ذكرها الإمام عليه السلام: «وان أظلم عليه أمر اكنتم به لما يعلم من جهل نفسه» هذا هو الفارق والحد الفاصل بين العالم والجاهل، فالعالم إذا عرض له أمر مبهم كرس له اهتمامه فان صعب عليه حله وإزاله ابهامه استشار من حوله واستفاد من أفكارهم وانفتح على تجاربهم، بينما يهمله الجاهل ويمر عليه مروراً عابراً، لأن يعلم بأن التعامل معه والتفكير فيه لا تزیده سوى فضيحه. وزبده الكلام فهو يعمل على الخلاف ممّا ورد في الروايات الإسلامية بعدم الحياء من قول لا أدري إذا عرض عليه ما لا يعلمه ولا ينبغي أن يستنكف عن تعلمه «ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه» (٢). والواقع هو أن عدم الالتزام بمضمون هذه الرواية إنما يقود إلى اضرار فادحة تطيل الشخص والمجتمع الذي يعيش كواحد من أفراده.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى حصيلة عمل هؤلاء القضاة الجهال عديمي الورع والتقوى بقوله: «تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج (٣) منه المواريث». أجل فما أكثر الدماء التي تسفك والأموال التي تهدر وهي تضح بصراخها من الأحكام المجحفة التي يصدرها هؤلاء القضاة الجهال، فيطرق هذا الصراخ ضمير السامع فيهز أعماقه، بينما يعيش هذا الجاهل نشوه الغرور

ص: ٣٨٠

١-١) سورة الزمر / ١٧ - ١٨. [١]

٢-٢) نهج البلاغه، [٢] الكلمات قصار، الكلمة ٨٢.

٣-٣) «تعج» من مادة «عج» و «عجيج» بمعنى ارتفاع الصوت وهنا بمعنى الصراخ.

فلا يسمع ولا يرى ما حوله. اّمّا تعبيره عليه السلام بـ «تصرخ» و «تعج» فهو تعبير في منتهى الروعه والجمال، حيث عبر عن الدماء التي تراق من غير حلها بالصراخ و كأن لهذه الدماء علم وشعور وإدراك، في حين ليس لهذا الجاهل المغرور مثل هذه المعاني فهو يعيش في جهل مطلق. ومن هنا نعتقد بأنّ ما ذكره بعض الشراخ من أنّ في الجملة تقدير ينسبون من خلاله هذه الصراخ إلى أولياء الدم وأصحاب الأموال إنّما يقضى على هذه اللطافه والروعه في التعبير. على كل حال فان رساله القضاء والقضاء التي تهدف إلى حفظ دماء الناس وأموالهم إنّما تضيع في ظل تصدى هؤلاء الجهال لمسند القضاء؛ الأمر الذي يقود بالتالى إلى تغييب أمن المجتمع وسياده الفوضى.

والكلام شبيه ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في روايه «أبو ولاد» حين سمع عليه السلام اصدار بعض الأحكام القضائية الظالمه فقال: «في مثل هذا القضاء وشبهه تحبس السماء ماءها وتمنع الأرض بركاتها» (١).

تأملات

١ - آفات علماء السوء

لقد أشار الإمام عليه السلام في الخطبه إلى الآفات الخطيره للجهال المتشبهين بالعلماء وعلماء السوء الذين يشقون أنفسهم وقومهم. وقد تتسبب بعض هذه الأخطار والآفات في سفك دماء الأبرياء وهضم حقوق المظلومين المستضعفين، فتصرخ تلك الدماء من الأحكام الظالمه كما فأن الأموال المهדרه من القضاء الجائر. فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح» (٢) كما قال صلى الله عليه وآله: «من أفتى الناس بغير علم وهو لا يعلم الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك» (٣).

والعجيب أن هؤلاء الأفراد كلما عملوا أكثر كان ضررهم أعظم، وهذا ما أشار إليه الإمام

ص: ٣٨١

١-١) وسائل الشيعة ١٣ / ٢٥٦. [١]

٢-٢) اصول الكافي ١ / ٤٤. [٢]

٣-٣) اصول الكافي ١ / ٤٣. [٣]

الصادق عليه السلام: «العالم على غير بصيره كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعه السير إلّا بعداً» (١).

٢ - علم كخيوط العنكبوت

لقد شبه عليه السلام علم هؤلاء الجهال المتلبسين بزى العلماء بخيوط العنكبوت؛ وهو التشبيه الذى اقتبس فى الواقع من القرآن الكريم - سورة العنكبوت - الذى شبه أولياء المشركين ببيت العنكبوت «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». والعنكبوت ينطوى على بعض خصائص العجائب فى الخلقه. فالعنكبوت تنسج خيوطها من قطره لزجه غايه فى الصغر فى بطنها تلصقها فى الخارج بمساعدته مخلبها؛ حيث لهذا المانع تركيب خاص يتصلب وينجمد بمجرد ملامسته للهواء، ويعتقد بعض العلماء أن للعنكبوت القدره على نسج ما يعادل خمسمئه متر من هذه الخيوط بالاستفاده من تلك ماده اللزجه الصغيره. وهذه الخيوط هى التى تشكل بيت العنكبوت وفخه، إلّا أن القرآن أشار إلى أن أوهن البيوت هو بيت العنكبوت، فأيه ريح مهما كانت خفيفه تحطم هذا البيت، كما أن قطره الماء تخترقه، وأدنى شعله نار تخربه، بل ليس له قابليه استقطاب التراب والغبار فهى الأخرى تقضى عليه، وهذه هى الصوره الحقيقيه لأولياء الشرك وعلم الجهال. فالعلماء الذين يستندون فى علمهم إلى القياس والاستحسان وما إلى ذلك إنما علمهم كبيت العنكبوت أجوف هزيل لا يصمد أمام شىء وليس من شأنه فعل شىء.

كما يفهم من هذا التشبيه بشأن هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء أن فرائسهم كفرائس العنكبوت حيث ينحصر فى الأفراد الضحلين الذين لا قيمه لهم كفرائس العنكبوت من الحشرات التافهه.

٣ - اطراء المتملقين

لقد تطرق الإمام عليه السلام فى الخطبه إلى عدم استحقاق هؤلاء إلى المدح والثناء الذى يكيه لهم

ص: ٣٨٢

المتملقون من أشباه الرجال؛ وهو الأمر الذى يستبطن البلاء الذى يعود على هؤلاء الجهال إلى الاعتقاد بالتدريج أنّ لديهم العلم والمعرفه والجداره والأهليه، فيرون فى أنفسهم الكفاءه فى التصدى لهذا المنصب الخطير الذى يؤدى بالتالى إلى هلاكهم واهلاكهم. فضرر هؤلاء المتملقين الذين يحيطون بهؤلاء الجهال ويسوقونهم للتصدي للقضاء لا يقل عن خطر هؤلاء الجهال فى التصدي إن لم يكن أعظم وأفدح؟ الأمر الذى ذمه القرآن الكريم إلى جانب الروايات الإسلاميه. ومن ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا مدح الفاجر اهتز العرش وغضب الرب» (1) وقال صلى الله عليه وآله: «من مدح سلطاناً جائراً وتخفف وتضعف له طمعاً فيه كان قرينه إلى النار» (2). ومن هنا ورد التحذير من مطلق المدح والاطراء لتنبه إلى ذلك حتى الأفراد من أهل الورع والتقوى إلى الأخطار التى ينطوى عليها هذا المديح، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «احثوا فى وجوه المداحين التراب» (3) وهذا ما حذر منه أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشرى فى عهده الذى عهده إليه حين ولاه مصر بعد أن دعاه إلى مجالسه أهل الورع والتقوى والصدق: «ثم رضهم على ألا- يطروك ولا يجحوك بباطل لم تفعله فان كثره الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزه» (4).

ص: ٣٨٣

-
- ١-١) بحار الأنوار ٧٤ / ١٥٠. [١]
 - ٢-٢) بحار الأنوار ٧٢ / ٣٦٩. [٢]
 - ٣-٣) بحار الأنوار ٧٠ / ٢٩٤. [٣]
 - ٤-٤) نهج البلاغه، الرساله ٥٣. [٤]

«إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَالًا، وَيَمُوتُونَ ضَلَالًا، لَيْسَ فِيهِمْ سَلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا سَلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعًا وَلَا أَعْلَى ثَمَنًا مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى الله بقلب كسير وأنين متواصل من مثل هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء والقضاة من عبده الأهواء والشهوات الذين مردوا على الغرور وحب الذات، فقال عليه السلام: «إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً». والواقع هو أن الإمام عليه السلام ينعته بصفات أخرى استمراراً لما وصفهم به في السابق، فحياتهم بأكملها جهل في جهل فلم يكن موتهم سوى ضلال في ضلال (ففي الحقيقة ان العبارة الثانية نتيجة حتمية للعبارة الاولى) فكيف لا يموت على الضلال من يفنى عمره في الجهل.

أما الصفة الأخرى لهم والتي تعدّ علامه فارقه للتعرف عليهم هي: «ليس فيهم سلعه (1) أبور (2) من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا سلعه أنفق (3) بيعاً ولا أعلى ثمناً من الكتاب إذا

ص: ٣٨٥

١ - ١) «سلعه» على وزن فرقه، المتاع والبضائع التجاربه، وفي الأصل جاءت من ماده «سَلَع» بمعنى الفتحه أو الفرجه أو الشق، وتطلق على ثغره الجبل أو شق الجبل، وبما أن البضائع التجاربه توضع بشكل علني في منظر ومرآى العيون، لذلك سميت «سلعه» .

٢ - ٢) «أبور» من ماده «بَوْر» على وزن غَوْر بمعنى الهلاك والفساد، ومن هنا يطلق هذا اللفظ على الركود في السوق لانه يتسبب في أضرار لرؤوس المال.

٣ - ٣) «أنفق» من ماده «نفاق ونفوق»، وفي الأصل بمعنى الزوال والانعدام، ومن هنا يقال للعطاء والصراف «انفاق»، والظاهر بان ذلك يطلق على الاموال التي تصرف أو تنفق، أى التي تخرج من اليد، واذا استفيد من اللفظ في موضوع الانفاق والعطاء فيكون معناها، البذل والمساعده، حيث يقصد بها الاموال التي يتم انفاقها. ويطلق أيضا على رواج الأمتع في السوق «نفاق» على وزن «طلاق» وذلك لانها تُسْتَرى بسرعه من قبل الناس، وبذلك تخرج من السوق.

صرف عن مواضعه». إنهم يريدون قرآناً ينسجم مع أهوائهم وأغراضهم الفاسده ونياتهم السيئه، ولما كان القرآن بتفسيره الحق لا ينسجم مع تطلعاتهم، فهم يبنذوه ويعمدون إلى تحريفه وتفسيره برأيهم وما تمليه عليهم خيالاتهم.

والنقطه الجديره بالذكر هنا هي أنهم يعيشون في وسط يكن للقرآن منتهى القدسيه والاجلال والاكبار على أنه وحى الله الذى أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذى يدفع بهم ولتحقيق أغراضهم ومآربهم إلى التظاهر بالانضواء تحت رايته فيسعون جاهدين لاضفاء الصيغه القرآنيه على تحريفاتهم وتفسيراتهم الخاطئه، فيعود هذا الكتاب السماوى الذى يفيض نوراً وهدايه إلى وسيله لاضلال الناس.

أما الصفه الأخيره التى ينعتهها بهم الإمام عليه السلام فهى «ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر».

ملاحظه

التفسير بالرأى وقلب الحقائق

إن أعظم فارق بين المؤمنين المتقين وعديمى التقوى إنما يكمن فى كون الفريق الأول يتعامل مع القرآن الكريم والأحكام الشرعيه كأصل ثابت ويسعى لتكليف إرادته وشؤونه على ضوئه، فان شعروا بأنهم أخطأوا أو خرجوا من دائره تلك الأحكام ندموا وتضرعوا إلى الله وطلبوا منه العفو والمغفره «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ».

أمّا الفريق الثانى الأنانى المغرور فهو يمنح هذه الأصاله لإرادته وأهوائه الطائشه التى لا تعرف القيود والحدود، فهو يسعى لتكليف الآيات القرآنيه مع أهوائه ورغباته؛ ولا عجب

ص: ٣٨٤

فهو يرى نفسه الأصل والقرآن الفرع، فالأحكام الإلهية محترمه لديه ما كانت منسجمه مع هواه وهوسه، فان لم تكن كذلك ضربها عرض الجدار. ومن هنا وصفه القرآن بالازدواج في التعامل مع الآيات القرآنية «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ» فهو مصداق بارز لقوله سبحانه «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ». أما الاسلوب الآخر الذي درج عليه هذا الفريق فأنما يكمن في التحريف المعنوي للقرآن وتفسيره برأيه، ولا ينشد من ذلك سوى خداع الناس أحياناً أو خداع نفسه أحياناً أخرى، وهذا ما ذمته بشده الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. فقد أشار القرآن الكريم إلى اليهود التي مارست هذا الاسلوب بالقول: «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعِيدٍ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (١) ومن المسلم به أن مثل هؤلاء الأفراد لا يسلمون لأية حقيقته تطرح عليهم، أنهم كخفافيش الليل التي تعادى الشمس الحقه، وفوق ذلك أنهم لم يؤمنوا بالله طرفه عين؛ ولذلك ورد في الحديث النبوي الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «قال الله جل جلاله: ما آمن بي من فسر برأيه كلامي» (٢).

كما قال صلى الله عليه وآله: «أشد ما يتخوف على أمتي ثلاث: زله عالم، أو جدال منافق بالقرآن، أو دنيا تقطع رقابكم» (٣).

أما الحديث عن التفسير بالرأى ومفهومه والأخطار المترتبة عليه فهذا ما سنعرض له في محله في الأبحاث القادمة إن شاء الله.

ص: ٣٨٧

١-١) سورة البقره / ٧٥. [١]

٢-٢) بحار الأنوار / ٨٩ / ١٠٧. [٢]

٣-٣) بحار الأنوار / ٨٩ / ١٠٨. [٣]

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم اختلاف العلماء فى الفتيا وفيه يذم أهل الرأى ويكل أمر الحكم فى أمور الدين للقرآن. (١)

«تَرَدُّ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرَدُّ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقَضَاءُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي اسْتَفْضَاهُمْ فَيَصُوبُ آرَاءُهُمْ جَمِيعاً، وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ! وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ! وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ!» .

ص: ٣٨٩

١- ١) طبق ماورد فى مصادر نهج البلاغه [١] بشأن سند الخطبه، رواها محمد بن طلحه الشافعى فى كتاب مطالب السؤال ١ / ١٤١ وصرح بأن محمد بن طلحه وان عاش بعد الشريف الرضى إلا أن روايه هذه الخطبه مع بعض الاختلاف الطفيف دليل على وجود مصدر آخر لديه غير نهج البلاغه، [٢] ثم أضاف: يستفاد من روايه القاضى نعمان المصرى فى «دعائم الإسلام» الذى عاش قبل الشريف الرضى أن هذه الخطبه كانت معروفه عند الشيعة. والذى يستفاد من كلام محمد بن طلحه أن هذا الكلام هو جزء من الخطبه السابقه، والواقع أنهما خطبه واحده مع سابقتها فهى مرتبطه بها تماماً، ولذلك يبرز هنا هذا السؤال: لم فصلهما الشريف الرضى عن بعضهما؟ ذهب صاحب مصادر نهج البلاغه [٣] إلى احتمالين: الأول أن يكون الشريف الرضى نقلهما من مصدرين، والآخر أنه كتب حقاً: ومن هذا الكلام؛ أى أن هذا الكلام جزء من الخطبه السابقه، إلا أن نساخ نهج البلاغه [٤] التبس عليهم الأمر فكتبوا «ومن كلام له عليه السلام الذى يفيد كونه كلاماً مستقلاً». (مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٦٢ [٥] مع شىء من التوضيح). [٦]

نظرة إلى الخطبة

يعتقد بعض المحققين - كما ذكرنا سابقاً - أنّ هذه الخطبة هي جزء من الخطبة السابقة وقد فككها الشريف الرضى (ره)؛ الأمر الذى يؤيده مضمون الخطبة ومحتواها؛ فالخطبة السابقة تحدثت عن القضاء والجهال المنحرفين الذين يصدر عن الأحكام الجائرة فى قضائهم بما يهدد بالصميم أمن الأمة وصيانته عرضها وأموالها وأنفسها وبالتالى استشراف الفوضى والفساد فى صفوف المجتمع.

كما تحدثت هذه الخطبة هى الأخرى عن القضاء الذين يستندون فى أحكامهم إلى الأدلة الواهية الضعيفة من قبيل القياس والرأى والاستحسان فتوصلهم إلى نتائج خاطئة، والأنكى من ذلك يصبو رئيسهم كل هذه الأحكام المتناقضة ويرى فيها أحكام الله المطابقة للواقع. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى ابطال نظريه التصويب (النظريه التى ترى أن آراء القضاء وفتيا الفقهاء تمثل الأحكام الإلهيه الواقعيه رغم تضادها وتضاربها مع بعضها)، على أساس الأدله المنطقيه التى تفند مثل هذه العقيدته، ثم يكشف النقاب عن السبيل الذى يقود إلى الحق فى هذه القضايا الإسلاميه التى ضل فيها الكثيرون.

والخطبه على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: فى الحديث عن الاسلوب الذى اعتمده القضاء فى تعاملهم مع القضايا التى تستبطن الأحكام المتناقضه التى تخالف أحكام الله.

والقسم الثانى: فى ابطال النظريه التى تصرح بصواب الجميع.

وأخيراً القسم الثالث الذى يتحدث فى الإمام عليه السلام عن عظمه القرآن وكونه المرجع الفصل فى حل جميع الاختلافات.

الشرح والتفسير

ما علّه كل هذا الاختلاف؟

يستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «ترد على أحدهم القضيّه فى حكم من الأحكام فيحكم

ص: ٣٩٠

فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله» ثم أردفه عليه السلام بالقول «ثم يجتمع القضاء بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلهمم واحد أو نبيهم واحد! وكتابهم واحد» .

ولعل هذه المسألة تبدو عيجه للأعم الأغلب من الناس صعبه التصديق لديهم في أنّ تصادق جميع الآراء المتضاربه والمتناقضه على أنّها أحكام الله؛ إلّا أنّها واقع قائم تبلور بشكل عقيدته لدى طائفته إسلاميه من أبناء العامه. ولو تأملنا العلل والدوافع التي ساقته هذه الطائفه إلى هذا الاعتقاد - والذي ستتطرق إلى تفاصيله في الأبحاث القادمه - سنكتشف أنّهم جعلوا أنفسهم في زاويه ضيقه حرجه لم يبق أمامهم من سبيل للخروج من هذا المأزق سوى اللجوء إلى عقيدته التصويب.

إلّا أنّ الإمام عليه السلام يوجه ضربه قاصمه إلى دعائم هذه العقيدته المنحرفه بقوله «والههمم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد» .

فمما لا شك فيه لا يصدر من الله الواحد في مسأله واحده سوى حكم واحد، فهو العالم بكافه الحقائق المحيط بجميع الأشياء فيحكم فيها بحكم واحد على ضوء المصالح والمفاسد.

فلا يخطئ في هذا الحكم ولا من سبيل للنسيان إلى ذاته المقدسه ليختلف الحكم ولا يندم ولا ينكشف له بمرور الزمان ما كان مجهولاً - إذن فلا يمكن تصور الاختلاف من جانب الله أبداً.

أضف إلى ذلك فإنّ نبيهم واحد، وهو معصوم في اصدار الأحكام، فيبين الحكم الإلهي دون زياده أو نقيصه، وعليه فليس هنالك اختلافاً من جانبه أيضاً. وأخيراً كتابهم واحد؛ الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس للتحريف من سبيل إليه، فهو يستند إلى الوحي الإلهي الذي يأبى الاختلاف والتضاد؛ فهو كتاب الله «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا» (١).

إذن فليس هنالك اختلافاً من جانب الكتاب. فهذه العبارات في الواقع مقدمه لما سيأتي

ص: ٣٩١

من كلام فى أنّ هذا الاختلاف إنّما ينبع من أفكارهم القاصره وعجزهم العلمى، وبعبارة أخرى فإنّ هذه العبارات اجابه ورد على مسأله التصويب التى تعرض لها الإمام عليه السلام بصورة مفصله لاحقاً.

والواقع هو أنّ الاعتقاد بالتصويب وصحة الآراء المتناقضه إنّما هو انحراف عن أصل التوحيد ونزوع نحو نوع من الشرك. فالتوحيد الإلهى يعنى أنّ الله واحد، وتوحيد النبوه يرى أنّ نبوه أولى العزم واحده فى كل عصر، وتوحيد الشريعة فى أن الكتاب السماوى واحد.

وعليه فالميل نحو تعدد الأحكام الواقعيه ليس سوى الشرك الذى يتقاطع صراحه وأصل التوحيد.

تأملات

١ - مسألة التصويب ونشأتها

تعتبر هذه المسأله من أهم المسائل الإسلاميه ذات الصله الحميمه بمسأله «الاجتهاد» و «الرأى» و «القياس» و «الاستحسان» وما إلى ذلك، كما ترتبط بالأحداث السياسيه والتاريخيه التى أعقبت وفاه النبى صلى الله عليه وآله. وإليك شرحها باختصار بعيداً عن الاطاله والخروج عن أسلوب البحث:

١ - أنّ عصر الرساله كان مفعماً بالأحداث المعقده الاجتماعيه والسياسيه والعسكريه بحيث لم تدع للمسلمين من مجال للوقوف على كافه الأحكام، وإن بينت اصولها الاساسيه فى القرآن.

٢ - لقد اتسعت رقعه الدوله الإسلاميه بعد النبى صلى الله عليه وآله بحيث كانت تظهر مسائل جديده كل يوم فى الأحكام الفقهيّه الإسلاميه حتى رأى المسلمون أنفسهم أمام كم هائل من المسائل المستحدثه ولم يروا أجوبتها فى الأحاديث النبويه الشريفه.

أضف إلى ذلك منع بعض الخلفاء (عمر) الصحابه من تدوين السنّه (١) مخافه أن تختلط

ص: ٣٩٢

١ - ١) المرحوم العلامة الأمينى ذكر فى المجلد السادس من الغدير الأدله على هذه المسأله من أهم مصادر العامه من قبيل سنن ابن ماجه وسنن الدارمى ومستدرک الحاكم فى تذكره الحفاظ وكنز العمال وغيرها تحت عنوان «نهى الخليفه عن الحديث» وبين كيف ان عمر نهى عن تدوين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وهدد بالحبس والنفى كل من رواها.

بالقرآن، حتى اندثرت أغلب أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله، فأصبح هناك نقصاً حاداً في المصادر الإسلامية، حتى رأى الفقهاء ولا سيما الخلفاء الذين كانوا يشهدون كل يوم هجوم المسائل الفقهية الجديده أنهم يعيشون حرجاً شديداً، بحيث إذا زعموا أنّ الإسلام لا يمتلك الردود تجاه مختلف القضايا الحقوقية والجزائية والفردية والاجتماعية، فند زعمهم بالآيه القرآنيه «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (١).

فالدين الخاتم الذي لا يعرف معنى للمكان والزمان بل يتصف بالعالمية والخلود لا بدّ أن يلبي كافة الحاجات على مدى الدهور والعصور إلى نهايه الدنيا، ولكن كيف بذلك مع هذه الأحاديث القليله التي نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأنّ هذا المأزق الحرج إنّما نشأ من تجاهل وصيه رسول الله صلى الله عليه وآله وحديثه المعروف بحديث الثقلين الذي قرن فيه العتره الطاهره من أهل بيته بالقرآن الكريم وأنّ الأمه ان تمسكت بهما معاً فإنها لن تضل بعده أبداً (٢). فلو عمل المسلمون بهذه الوصيه وتلقوا أحاديث الأئمه المعصومين التي تمثل الامتداد الطبيعي لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّ مشكله لم تكن لتحدث قط ولم يشهد المسلمون هذه المعضله التي عصفت بالفرق الإسلاميه، وهذا بعينه ما جعل أتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام لا يشعرون بنقص تجاه أيه مسأله من المسائل الفقهيه، وقد نقلت الآلاف المؤلفه من أحاديث هذه العتره لتمكن فقهاء الإماميه من التعامل مع كافة القضايا الفقهيه على ضوء النظره الإسلاميه.

٣ - أخيراً وبهدف خروج فقهاء العامه من هذا المأزق والطريق المسدود لم يكن لهم من سبيل سواء اللجوء إلى القياس والاستحسان والاجتهاد بالمعنى الأخص وتشريع القوانين والأحكام من الفقهاء - فانبروا ليقسموا المسائل إلى قسمين: مسائل منصوصه ومسائل لا نص فيها (أي المسائل التي ورد بشأنها حكم في الكتاب والسنة والمسائل التي لم يرد فيها نص في

ص: ٣٩٣

(١-١) سورة المائده / ٣. [١]

(٢-٢) لقد تحدثنا بالتفصيل في كتاب نفحات القرآن ج ٩ بحث «الولاية والإمامه العامه في السنّه» عن حديث الثقلين وتواتره في المصادر الروائيه للفريقين ومصادره المعروفة في صحيح مسلم والترمذي والدارمي ومسنده أحمد وخصائص النسائي ومستدرک الصحيحين وسنن البيهقي وغيرها من المصادر.

الكتاب ولا السنه). فافتوا في المسائل المنصوصه طبق ماورد في النص. وأما المسائل التي لم يرد فيها نص فقالوا: حل المشكله يكمن في أنه إن كان له شبيه ونظير في الأحكام الإسلاميه قاسوا عليه، مثلاً إذا ورد في باب الصلاه حكم قاسوا الصوم بذلك الحكم، ان ورد حكم في الحج قاسوا عليه أحكام العمره، وإذا لم يكن هناك من شبيه في الأحكام الإسلاميه يجتمع الفقهاء ويتدارسوا مصالح ومفاسد ذلك الأمر ثم يتخذوا بشأنه حكماً وهذا ما أسموه بالاجتهاد (بالمعنى الأخص).

وبعبارة أخرى فان هناك من قال صراحه: ما لم يرد فيه النص ليس له في الإسلام قانون خاص، وهذه وظيفه الفقهاء في أن يضعوا له حكماً من خلال الظن وتخفيف ثقل المصالح والمفاسد وما يروونه أقرب إلى المصلحه. وهكذا أصبح الاجتهاد بمعنى حق الفقيه في التشريع متداولاً بينهم. (1)

وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ للاجتهاد معنيان مختلفان إذا لم يميز بينهما فان ذلك يؤدي إلى عدّه نتائج سيئه:

المعنى الأول للاجتهاد هو الاجتهاد العام والذي يعنى استنباط الأحكام من الكتاب والسنه وسائر الأدله الشرعيه. وهذا هو الاجتهاد الذي يعتقد به كاه علماء الشيعه، وهو الاجتهاد الذي أنكره الأخباريون قولاً واعتقدوا به عملاً، لأنّ كبار الأخباريين يستدلون بالكتاب والسنه لاثبات الأحكام الشرعيه كما يراعون أحكام العام والخاص والمطلق والمقيد وأمثال ذلك.

المعنى الثاني للاجتهاد هو الاجتهاد الخاص وهو الاجتهاد في المسائل التي لم يرد فيها نص في الكتاب أو السنه، فيلجأ على ضوئه إلى التشريع وسن الأحكام مع الأخذ بنظر الاعتبار المصالح والمفاسد والتشابه والتناظر. وهذا النوع من الاجتهاد يختص بجمع كثير من علماء العامه وهو ما يصطلحون عليه بالاجتهاد بالمعنى الأخص. وأما ما ذكرنا آنفاً بعدم وجود مثل هذا الاجتهاد لدى علماء الشيعه إنّما يعزى إلى الثر الهائل الذي لديهم من أحاديث الأئمه

ص: ٣٩٤

المعصومين عليهم السلام كما يرون أنّ الموارد التي لا- نص فيها قليله جداً ولا- تتطلب الاجتهاد بالمعنى الثانى، وذلك لأنهم يلجأون فى مثل هذه الحالات إلى القواعد الكليه أو ما اصطلاحوا عليه ب «الاصول اللفظيه» و «العمليه» التي تبيّن حكم المسأله والعجيب أن طائفه من علماء العامه تعتقد بأنّ الموارد التي لانص فيها أنّه لا حكم لها «مالا نص فيه لا حكم فيه» وهذه وظيفه العلماء فى وضع الأحكام لمثل هذه الحوادث (والالتفات إلى هذه المسأله يعدّ ضروره لفهم الكلمات القادمه فى الخطبه)؛ الأمر الذى يتنافى تماماً وإكمال الشريعه.

٤ - إذا ما اعطى حق التشريع ووضع الأحكام فى «مالا نص فيه» للفقيه وبالتفات إلى كثره عدد الفقهاء ولكل منهم الحق فى التشريع، وليس هنالك من الزام فى جمعهم فى شورى لتصوب حكماً واحداً فإنّ ذلك سيؤدى إلى اختلاف الآراء وربما تناقضها فى المسأله الواحده وهنا يبرز مأزقاً آخر وهو: هل يمكن قبول جميع هذه الآراء المختلفه على أنّها حكم الله، أم هناك حكم واحد حق والبقية باطل؟ ولما لم يكن هناك من تفاوت بين هذه الآراء لأنّها صادره من الفقهاء؛ وليس هنالك من حكم واقعى لله ليكون معياراً فى تمييز الصحيح من السقيم فسوف لن يبقى هنالك من سبيل سوى التمسك بعقيده التصويب، أو بعبارة أفضل فقد سقطوا فى وادى التصويب وقالوا كل هذه الآراء تمثل الحكم الواقعى! ويعزز ذلك أنّهم يقولون بعداله الصحابه وأحياناً عدم خطأهم فى الرأى، ومن هنا كانت هناك آراء متعدده بعدد المجتهدين فى الموضوع الواحد، وكلها تعتبر الحكم الواقعى للمسأله.

فهم حين اعتقدوا بأنّ المرجع فى تعيين الخلافه رغم خطورتها إنّما وكل إلى أهل الحل والعقد (العلماء) فما المانع فى أن يوكل للعلماء الحق فى سن القوانين والأحكام فى المسائل الفرعيه التي لم يرد نص بحقها - ومن هنا ظهرت عقيده التصويب بكل نتائجها وأخطارها بين طائفه من المسلمين إثر عدم العمل بوصيه الرسول صلى الله عليه وآله والالتزام بحديث الثقلين.

٥ - غلق باب الاجتهاد: فقد أدت هذه المسأله إلى تنامي الآراء والعقائد المختلفه والمتضاربه فى المجتمع الإسلامى وبين فقهاء المسلمين، لتتخذ صبغه خطيره، كما كانت السبب فى ترديد الأمه فى مسائلها الدينيه واثاحه الفرصه لأعداء الإسلام بالتفوه ضد الإسلام والمسلمين والأحكام الإسلاميه وهنا انبرت طائفه من المسلمين لتوضع حداً لهذا الوضع

المؤسف فارتكبت عملاً قبيحاً تجسد في غلق باب الاجتهاد. فقد صرحوا بأن هذا الحد يكفى ولا يحق لأحد بعد هذا ممارسه الاجتهاد! وحيث اختلفت الأمم طوائف في الأحكام الشرعيه وذهبت كل طائفه لاتباع عالم. فاخترتوا أربعة من هؤلاء الفقهاء ممن لهم أتباع كثيرون (وهم أبو حنيفه ومالك ومحمد بن ادريس الشافعي وأحمد بن حنبل) ثم الزموا الناس بتقليد أحد هؤلاء الأربعة وأبطلوا سائر الآراء والعقائد للحيلولة دون الاختلاف والتمزق؛ بينما لا نرى هنالك من دليل في الكتاب أو السنه على إمامه هؤلاء الفقهاء الأربعة، وليس لهم أدنى امتياز على من سواهم سوى كثره أتباعهم، كما لم يرق الدليل على غلق باب الاجتهاد وحصره بهؤلاء الأربعة لكل عصر ومصر! وكما أشار الإمام عليه السلام في الخطبه رقم ١٦ «ألا وأن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها، فتقحمت بهم في النار». فإن هذه الهفوات العظيمه إنما افرزتها الزلات الاولى حتى تبلورت كسلسله ارتبطت حلقاتها لتؤدي بالتالي بأصحابها إلى النار. لقد خلق غلق باب الاجتهاد اليوم مشاكل عويصه لفقهاء العامه وعلمائهم؛ وذلك لأنهم يرون أنفسهم اليوم أمام سيل جارف من المسائل المستحدثه التي ليس لها من حكم في المذاهب الأربعة؛ ومن هنا انبرت جماعه منهم علانيه وأخرى خفيه تطالب بفتح باب الاجتهاد بوجه الفقهاء والخروج من حاله التوقع والانطواء على المذاهب الأربعة، كما خاضوا في ضروره الافتاء في المسائل المستحدثه وإعادة النظر في المسائل السابقه وهم يتساءلون عن عليه حصر الاجتهاد في المذاهب المذكوره، مع العلم قد ظهر العلماء الذين فاقوهم، وحتى على فرض عدم تفوقهم على أسلافهم، فمثل هذا السؤال يبقى مطروحاً، إذا أغلق باب الاجتهاد فمن يتصدى للإجابة على المسائل المطروحه اليوم؟

أمّا أتباع أهل البيت عليهم السلام فقد بقوا في أمان من هذه العاصفه الهوجاء، فهم لم يعتقدوا بغلق باب الاجتهاد (طبعاً الاجتهاد بالمعنى الأول لا الثاني) طرفه عين أبداً، وقد منحوا فقهاءهم وعلمائهم حق استنباط الأحكام الشرعيه من أدلتها المعروفه، في ذات الوقت الذي حظروا فيه الاجتهاد بالمعنى الثاني على كائن من كان.

سؤال:

هنا سؤال يطرح نفسه: الاجتهاد بالمعنى الأول هو الآخر يقود إلى الاختلاف وعليه

ص: ٣٩٦

فليس هنالك من فارق بين الاجتهاد بالمعنى الأول أو الثاني؟

جواب:

إنّ الالتفات إلى نقطه قد يوضح الجواب على السؤال المذكور، وهي أنّ الاجتهاد بالمعنى الأول يعنى استنباط الأحكام من الكتاب والسنة، وعليه فالمحور الأصلي للاجتهاد هو نصوص الكتاب والسنة التي يجمع عليها الفقهاء، فهناك الوحده التي تجمع هؤلاء الفقهاء، وإن كان هنالك بعض الاختلاف في الاستنتاجات؛ إلّا أنّ هذه الاختلافات طفيفة عادة، ومن هنا نرى وحده آراء الفقهاء في غالبه المسائل المشهوره، ولا يوجد سوى اختلاف بسيط في بعض تفاصيل المسائل.

أمّا الاجتهاد بالمعنى الثاني فهو لا ينطوي على محور معين يجتمع حوله الفقهاء، بل المعيار لدى كل فقيه فكره ورأيه، ومن هنا كانت الخلافات لاتعد ولا تحصى، فقد تطالعنا عدّه آراء في المسألة الواحد؛ الأمر الذي يشوه سمعه الشريعة الإسلاميه ويسىء إلى كيانها. أضف إلى ذلك فإنّ أنصار الاجتهاد بالمعنى الأول الذي يعنى استنباط الحكم من القرآن والسنة يقولون: إنّ دين الله لم ولن يكون ناقصاً، وليس هنالك من واقعه - بالأمس واليوم والغد - ألا ولله فيها حكم قد ورد في العمومات والاطلاقات أو الأدله الخاصه للكتاب والسنة وهي واضحه لدى أئمه العصمه عليهم السلام. فمن بلغ باجتهاده ذلك الحكم فقد أصاب، ومن لم يبلغه فقد أخطأ، فان لم يقصر في مقدمات الاجتهاد واستفرغ مافي وسعه كان معذوراً عند الله ومأجوراً. وهذا هو الاعتقاد بالتخطئه في مقابل الاعتقاد بالتصويب ولذلك يقول أصحاب هذا الاعتقاد «للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد» بينما زعم أنصار الاجتهاد بالمعنى الثاني أن «كل مجتهد مصيب» أي أنّ كافه الأحكام المتناقضه للمجتهدين والتي تمثل آرائهم هي أحكام إلهيه واقعيه حقه (لابدّ من الالتفات والتأمل في هذا الأمر).

٢ - نتائج القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد

نشير بصوره مختصره إلى المفاصد التي ترتبت على القول بالتصويب وغلق باب الاجتهاد:

ص: ٣٩٧

١ - الاعتراف بنقصان الدين (والعياذ بالله) من حيث الأحكام والاعتماد على آراء الفقهاء وأفكار الأفراد غير المعصومين من الخطأ في إكمال أحكام الشريعة وسد النقص.

٢ - غلق باب الاجتهاد يعنى الاعتقاد بعدم أحقيه أى فرد فى الاجتهاد بعد الفقهاء الأربعة من العامه! لأن فتح هذا الباب قد يؤدى أحياناً إلى ظهور عشرات الآراء والفتاوى المختلفه فى المسأله الواحده؛ كما نعلم أنّ غلق باب الاجتهاد، يغلق الطريق على فقهاء الإسلام فى التصدى للرد على المسائل المستحدثه فيزج بمسلمى العالم بمأزق خانق لا- يمكنه النجاه منه بالنسبه للأحكام الشرعيه.

فالاقتصار على المذاهب بأربعة تأريخ خطير ذا شجون، كما دل على أنّ هذه البدعه فى الإسلام وبسلبها لاستقلاله الفقهاء قد جرت الويلات. وعلى ضوء ما أورده المقرئى فى كتاب الخطط المقرئيه وكذلك ابن الفوطى وآخرين أنه لم تكن هناك من ضابطه معينه فى انتخاب هذه المذاهب الأربعة سوى أنّ كثره المذاهب قد اربعت ولاه البلدان الإسلاميه المختلفه وأدت إلى ظهور موجه من الفوضى والهرج والمرج من جانب، ومن جانب آخر أنّ العلل السياسيه والاجتماعيه هى التى أدت إلى انتشار هذه المذاهب فى كافه بلدان العالم الإسلامى؛ وعليه فلم يكن بالإمكان اسقاطها. ولذلك تواطئ الفقهاء والحكام آنذاك بالوقوف بحزم بوجه كل من يتفوه بما لم يرد فى المذاهب الأربعة المذكوره، والعجيب أنّ هذه المسأله قد حدثت فى القرن السابع عشر. فقد انطلقت فى مصر عام ٦٦٥ وفى بغداد ٦٣١ بحيث قرر أساتذه المدرسه المستنصريه المعروفه فى عام ٦٤٥ عدم قبول أى طالب ينتمى إلى غير هذه المذاهب.

وهكذا فقد اغلق باب الاجتهاد بعد مرور سبعة قرون على ظهور الإسلام وبلوغ الاجتهاد ذروته، ليصبح كافه الفقهاء مقلدين لهؤلاء الأئمه الأربع ففقدوا استقلاليتهم الفقيهيه. وما هذا إلا نتيجة طبيعيه لذلك الانحراف الذى وقع فى القرن الأول. فقد أقصيت العتره الطاهره عدل القرآن الكريم وأحد الثقلين وفتح باب القياس والاستحسان والاجتهاد بالرأى وظهرت هذه الآراء المتناقضه التى جرت الفوضى، فكان كل رأى حكم الله، والمؤسف له هو

أن مدرسه أهل البيت عليهم السلام لم تتخذ مكانها حتى في مصاف المذاهب الأربعة. (١)

فالحق أن ذلك الانحراف الأول هو سبب ظهور هذه البدعه، البدعه التي لم يكن هنالك من سبيل سواها.

٣- الهرج والمرج الفقهي والقضائي

الذى أفرزته الآراء المتعدده والمتناقضه التي قد يصل عددها أحياناً إلى عدد المجتهدين؛ ومما لاشك فيه أن المشاكل آنذاك تفوق مشاكل المجالس التشريعيه في عصرنا الحاضر بكثير، وذلك لأن مجالس العصر تشهد على الأقل حضور الوكلاء لبلد أو منطقته من العالم في مكان واحد فيتخذ القرارات على أساس أكثرية الآراء التي تتمتع بالوحده كحد أدنى بالنسبه لمنطقه معينه؛ أما الاجتهاد بالرأى والتصويب فهو يسمح لكل مجتهد من المجتهدين أن يشرع بمفرده، والأعجب من ذلك كل ما يتوصل إليه من حكم فهو حكم الله الواقعي، وخلافاً لمجالسنا المعاصره التي تكون أحكامها أحكاماً وضعيه بشريه، فإن أحكام المجتهدين آنذاك تمثل الأحكام الإلهيه التي يلزم الناس باتباعها.

وأخيراً لا نروم الخروج من بحثنا في الشرح والتفسير ولذلك نوكل من أراد المزيد بهذا الشأن إلى المصادر المعروفة. (٢)

ص: ٣٩٩

١- (١) للوقوف على التفاصيل انظر كتاب «توضيح الرشاد في تاريخ عصر الاجتهاد» للمحدث المحقق المرحوم الحاج الشيخ آقا بزرك الطهراني.

٢- (٢) أنوار الأصول ٢ / ٥١٩ - ٥٤٣ و ٣ / ٦٣٢ - ٦٥٨، المستصفي للغزالي ٢ / ٢٣٤، الأصول العامه للفقه المقارن / ٣٠٥ و ٦١٧.

اشاره

«أَفَأَمْرُهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْإِخْتِلَافِ فَاطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تَامِيًّا فَقَصَرَ الرَّسُولُ صِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» وَفِيهِ تَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصِide دَقُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَنَّهُ لَا إِخْتِلَافَ فِيهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا».

الشرح والتفسير

يفند الإمام عليه السلام في هذا الكلام بالأدلة المحكمه مسأله الاجتهاد بالرأى وتصويب آراء المجتهدين وبالتالي حق الفقهاء في اصدار الأحكام، ثم يصنف الإمام عليه السلام ذلك إلى خمس أسس ويغلق كافة الطرق على هؤلاء، ثم يبين بجلاء تام خطأ هذا اللون من التفكير.

فقد قال عليه السلام بعد أن تساءل على نحو الاستنكار عن السب الذي يقف وراء هذا الاختلاف في المسائل الفقهيّه «أفامرهم الله سبحانه بالاختلاف فاطاعوه».

حقاً لا يمكن قبول هذا الامر، فالله واحد أحد يدعو إلى الوحده ويحذر من الاختلاف والفرق فهو القائل: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» (١) وبناء على هذا فان

ص: ٤٠١

الاختلاف تابع من موضع آخر، رام الإمام عليه السلام الإشارة إليه «أم نهاهم عنه فعصوه» فالحق أنّ هذا الأمر يشكل أحد مصادر الاختلاف؛ غير أن القضاء الذين يوردون عدّه آراء بشأن مسأله واحده لا يسعهم الاقرار بمثل هذا الاحتمال!

و عليه فان ردّهم على هذا السؤال سيكون بالسلب. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الاحتمال الثالث فقال عليه السلام: «أم انزل الله سبحانه ديننا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه». من المسلم به أنّه ليس هنالك مسلم يقول بنقصان دين الله وإن الله استعان بالعباد لا- كماله، بل بالعكس قد صرحت الآيات القرآنيه باكمال هذا الدين من جميع الجهات «اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (١).

ثم يورد الإمام عليه السلام الاحتمال الآخر الذي يبدو بطلانه واضحا وضوح الشمس في رابعه النهار لا أم كانوا شركاء له، قلمهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى» فمن البداهه أنّ من قال يتعدد الآلهه فأنه عليه أن يؤمن بأن لكل منهم سهم في التشريع واصدار الأحكام؛ فهل للمسلم الذي ينطلق في عقيدته من التوحيد أن يعتقد بوجود الشركاء ويرى في الفقهاء والقضاء شركاء لله؟ وبعبارة أخرى فان أحد فروع التوحيد (بعد توحيد الذات والصفات) هو توحيد الأفعال، أحد تفرعات توحيد الأفعال هو توحيد الحاكميه والتشريع؛ وعلى ضوء ذلك فإنّ الحكمه لله وحده وتنتهي إليه، فلا حكم إلّا حكمه ولا أمر إلّا أمره!

و لو لم يكن الأمر كذلك لاختفى الحق سبحانه بقسم من التشريع ثم يفوض القسم الآخر منه للعقول البشريه العاخره.

و هل لغيره من إحاطه قامه بمصالح الأحكام ومفاسدها! أو يجوز على الله أن يفوض زمام أمور عباه لمشرعين يصدر كل منهم حكماً وقانوناً على ضوء ظنه ورأيه القاصر بحيث يعيش العباد في هاله من الفوضى والقلق والحيره في ظل الآراء المتناقضه المتضاربه!

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى آخر احتمال فيقول: «أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه». لا شك ولا شبهه أنّه ليس هنالك من ينسب

ص: ٤٠٢

مثل هذا القول إلى النبي صلى الله عليه وآله؛ وذلك لأنّ حتى أولئك الذين لا يقرون بمسأله العصمه بصوره مطلقه ويظنون بعدم وجود الدليل على عصمه النبي صلى الله عليه وآله في كافه الميادين، فإنّ الحد الأدنى أنّهم يسلمون بعصمته في التبليغ وأداء الوحي، حيث لا يبقى من مفهوم للنبوه والرساله دون الاعتقاد بالمعنى المذكور.

آنذاك يعود الإمام عليه السلام إلى أصل المسأله فيكشف النقاب عن هذه الحقيقه وهى أنّ الإسلام قد شرع كل ما من شأنه تلبية حاجات البشرى ومتطلباتها، وعليه فالإمام عليه السلام يصادر ما أوردوه من قولهم «ما لا نص فيه لاحكم فيه» بالاستناد إلى قوله «و الله سبحانه يقول: «ما فرطنا في الكتاب من شيء وفيه تبيان لكل شيء» (١) فالآيتان دليلان واضحا على أن الله لم ينزل ديناً ناقصاً عولهم يستعن باحد لا كماله؛ بل جاء في القرآن كل ما يحتاج إليه، بعضها في العمومات وبعضها الآخر في الأحكام الخاصه التي سيأتي الحديث عنها إن شاء الله في مبحث التأمّلات ولم ينس الإمام عليه السلام أن يسلب حربه التناقض من القضاء الذين يستشهد كل منهم بآيه يتباين مفهوماً وسائر الآيات فقال عليه السلام: «و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنّه لا إختلاف فيه» ثم يعزز الإمام عليه السلام دعوى عدم الاختيارات في الآيات القرآنيه متشهدا بالقرآن «فقال سبحانه! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً» (٢).

فالواقع أنّ علم الإنسان محدود، وأنّ تقادم الزمان أو تغيير المكان وكشف الظواهر الجديده إنّما يدعوه إلى تغيير أفكاره باستمرار، ومن هنا فقد يورد كاتب بعض الموضوعات المتناقضه خلال حياته، وليس ذلك بعجيب، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن رصيد الإنسان النسيان، فلعه يتحدث اليوم عن شيء فينساه بعد شهر أو سنه ليتحدث عن خلافه. إلّا أنّ هذه الأمور لا تصدق على البارئ سبحانه العالم بكل شيء «و ما كان وما يكون» والعالم بالمحال لو كان كيف يكون، فليس لمرور الزمان من أثر على ذاته المقدسه؛ فهو فوق الزمان والمكان، وناهيك عن هذا فليس هنالك من مفهوم للنسيان بالنسبه لله سبحانه،

ص: ٤٠٣

١- (١) لا بدّ من الالتفات إلى أن قوله «ما فرطنا في الكتاب من شيء» هو نص الآية ٣٨ من سورة الانعام، [١] أمّا قوله «فيه تبيان لكل شيء» فهو مضمون الآية ٨٩ من سورة النحل [٢] لا عينها «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء» .

٢- (٢) سورة النساء / ٨٢. [٣]

فكيف الحال هذه ان يصدر عنه أدنى إختلاف أو تناقض.

وزيده الكلام أنّ الإمام عليه السلام قد قند بيان واضح بليغ عقيدته التصويب والتمسك بالقياس والاستمسان والاجتهاد بالرأى، فالله سبحانه أنل ديناً كاملاً وقرآناً جامعاً يلبي كافة حاجات البشرية، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يتوانى فى تبليغ الرساله، كما أنّ الله لم يقبل للأمة الإسلاميه أى إختلاف ودعا الممه مرارا إلى الاخاء والوحده. وبناءً على ما تقدم فما تفسير الاعتقاد بصحة الآراء المتناقضه وتصويب الفتاوى المختلفه على أنّها جميع حكم الله المطابق للواقع، سوى الانحراف والضلال.

شموليه القرآن

لقد تضمن القرآن الكريم الآيات الصريحه التى تبين كافه أمور المسلمين ومتطلباتهم وحاجاتهم إلى يوم القيامة. كما صرحت الروايات الإسلاميه بهذا الأمر، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ان الله تبارك وتعالى انزل فى القرآن بيان كل شىء حتى والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل فى القرآن، إلّا وقد أنزل الله فيه» (1) ولكن هنا يبرز هذا السؤال: إننا نرى أحكاماً مختلفه لم ترد فى القرآن الكريم وهذا الأمر لا ينسجم وشموليه القرآن الكريم؛ مثلاً لم يرد فى القرآن شىء بشأن عدد ركعات الصلاه والسلع التى تجب عليها الزكاه وتصاب الزكاه وبعض مناسك الحج وعدد اشواط السعى بين الصفا والمروه والطواف ومسائل أخرى فى القصاص والحدود والديات وآداب القضاء وشرائط المعاملات وأنواع المعاملات المستحدثه وما شاكل ذلك من الموضوعات الشرعيه. وللإجابة على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى ثلاثه أمور:

الأول: أنّ القرآن يشتمل على الأحكام الكليه والقواعد العامه والعمومات والاطلاقات التى يتم حل أغلب المشكلات على ضوءها. فمثلاً الآيه «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» (2) فى المعاملات والايه

ص: ٤٠٤

١- ١) تفسير نور الثقلين، ٣ / ٧٤، [١] اصول الكافى، ١ / ٥٩ ([٢] هناك احتمالان بشأن هذه الروايه: الأول أنّ «لو» شرطيه، والآخر أنّها حرف تمنى و«إلّا» احياناً للإستثناء واخرى للتنبيه، راجع مرآه العقول، ١ / ٢٠٢. [٣]
٢- ٢) سورة المائده / ١. [٤]

«وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» (١) في أبواب العبادات و «لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ» (٢) في حقوق الوالدين وسائر الآيات من هذا القبيل التي من شأنها الإجابة على أغلب الأسئلة والمسائل المستحدثة أضف إلى ذلك فإن القرآن الكريم صرح بأن السنه النبويه تمثل إحدى المصادر الرئيسيه للأحكام الشرعيه والمعارف الإسلاميه «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (٣) كما وصفه في آيه أخرى بأنه مبين القرآن ومفسره «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (٤).

النبى صلى الله عليه و آله من جانبه وعلى ضوء حديث الثقلين فقد جعل أهل بيته وعترته عليه السلام من مصادر الأحكام الشرعيه والمعارف الإسلاميه، ولو التزم المسلمون بوصيه القرآن والنبى الأكرام صلى الله عليه و آله بما بقى هناك سؤال فى مجال الأحكام دون إجابته.

و أخيراً يستفاد من الروايات الإسلاميه المختلفه أنّ للقرآن ظاهر وباطن، وظاهره المعانى والمفاهيم المعلومه لدى الجميع ويعملون على ضوئها، أمّا باطنه فهو معانى ومفاهيم أخرى ليس لاحد من سبيل إليها سوى النبى صلى الله عليه و آله والأئمه المعصومين عليهم السلام، الذين يتعاملون مع الآيات وفق رويه وإدراك آخر.

و بناءً على هذا لو إصطف الثقلان (القرآن وأهل البيت) ولم يفصلهما المسلمون عن بعضهما، لا استفادوا من هذا العدل القرآنى الذى يحل أغلب معضلاتهم.

فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «أنا اعلم كتاب الله وفيه بدء الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة وفيه خير السماء وخير الأرض وخير الجنّه وخبر النار وخبر ما كان وما هو كائن، اعلم ذلك كما أنظر إلى كفى ان الله يقول فيه تبيان كل شىء» (٥) وجاء فى نهج البلاغه

ص: ٤٠٥

١-١) سورة الحج / ٧٨. [١]

٢-٢) سورة البقره / ٢٣٣. [٢]

٣-٣) سورة الحشر / ٧. [٣]

٤-٤) سورة النحل / ٤٤. [٤]

٥-٥) اصول الكافى، ١ / ٦١ ([٥] كما نقل المرحوم الكلينى فى هذا الباب عدّه روايات) .

«و في القرآن نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم» (١) وقال عليه السلام في موضع آخر بشأن القرآن «إلّا أنّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دوائكم ونظم ما بينكم» (٢) ولم يقتصر نقل هذه الأحاديث على أهل البيت عليهم السلام، بل نقلت من طرق العامه أيضا، فقد روى السيوطي في الدر المنثور عن الصحابي المعروف ابن مسعود «أنّ فيه علم الأولين والآخرين». وروى عن الاوزاعي في تفسير الآيه «و نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء. قال: بالسنة» (٣). وقد روى السيوطي في كتاب الاتقان هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه و آله أنّه قال: «في كتاب الله نبأ ما قبلكم وخبر ما يعدكم وحكم ما بينكم» (٤) ثم قال: وقد أورده الترمذي وغيره.

ص: ٤٠٦

-
- ١-١) نهج البلاغه، [١]الكلمات قصار، الحكمه ٣١٣. [٢]
 - ٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٥٨. [٣]
 - ٣-٣) الدر المنثور ٤ / ١٢٧ - ١٢٨.
 - ٤-٤) الاتقان، نوع ٦٥ من العلوم المستفاده من القرآن.

«وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْقُضِي غَرَائِبُهُ، وَلَا تُكْشِفُ الظُّلْمَاتُ إِلَّا بِهِ» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته - في القسم الثالث - يوصف القرآن الكريم بخمس صفات تنطوي على حقائق عظيمة بشأن أهميه القرآن، مشيراً إلى ضروره عدم غفله القضاة والفقهاء عن هذا القرآن والاستضاءه بنور حقائقه ومعارفه، إلى جانب الشعور بأنّ القرآن يغنيهم عمّا سواه من المصادر الأخرى سوى السنه التي تستند القرآن يغنيهم عمّا سواه من المصادر الأخرى سوى السنه التي تستند إلى القرآن وتفسير مضامينه. فقد قال في صفته الاولى «وإنّ القرآن ظاهره أنيق» (١).

فالعباره إشاره إلى فصاحه القرآن وبلاغته، الفاضله موزونه وعباراته رصينه وآياته وقع و نغمه خاصه لا تجعل الإنسان يشعر بالكلل أو الملل مهما تلاها، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى نتركها لعدم الخروج من اصل البحث (٢).

وأما صفته الثانيه «و باطنه عميق». غالباً ما يتعد الإنسان عن رصانه المعنى إذا ما خاض في جمال الظاهر، والعكس صحيح أيضاً فعاده ما يتعذر على الإنسان حسن إختيار الألفاظ إذا

ص: ٤٠٧

١-١) «أنيق» من ماده «اتق» على وزن رفق بمعنى الشىء الجميل.

٢-٢) للوقوف على المزيد راجع كتاب نفحات القرآن، ٨ / ١١٤ بحث «اعجاز القرآن من حيث الفصاحه والبلاغه» .

رام الدقه فى أداء المعنى، والخلاصه تبدو عمليه الجمع بين المعنى واللفظ ليست بالهينه؛ الحقيقه التى يمكن مشاهدتها بوضوح فى القرآن الكريم الذى جمع العمق فى المعنى إلى جانب الرصانه والسبك فى اللفظ.

أمّا عمق القرآن فقد تلاشت على سطحه كافه الأفكار وتصاغت أمامه جهايزه العقول، و كيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الثاب من ذاته المقدسه المطلقه، ولعل المتبع يشعر بحقيقه هذه الكلمات ارا ما طالع أى من السور القرآنيه لتتجسد أمامه بوضوح الصفتين التين أوردها الإمام عليه السلام بشأن القرآن.

وأمّا الصفه والرابعه للقرآن فهى «لا- تفنى عجائبه، ولا- تنقضى غرائبه». ولعل الفارق بين هاتين العبارتين هو أنّ العباره الاولى تتحدث عن خلود العجائب والحقائق القرآنيه الساميه، و ذلك لأننا الكثير من الكتب والمؤلفات والمصنفات التى كانت أعجوبه فى زمانها، إلّا أنّ تقادم الزمان قد سلبها تلك الميزه وجردها من أعجوبتها، والقرآن ليس كذلك، فلا يزداد قارىء القرآن ومعبده إلّالذو وحلاوه وطلاوه، بل إنّ قراءته قد تشكف له كل يوم ما كان غائباً عنه بالأمس؛ فتظل لألفاظه ومعانيه مواقع السحر فى النفس.

وأمّا العباره الثانيه فهى تتحدث عن أسرار القرآن التى تتكشف يوماً بعد آخر.

أمّا الصفه الأخيره للقرآن فهى «و لا- تكشف الظلمات إلّاب» ليس فقط ظلمه الجهل وظلمه الكفر وإنعدام الإيمان والتقوى، بل ليس لظلمات الحياه الاجتماعيه والسياسيه والاقتصاديه دون التعاليم القرآنيه. فاليوم وإن ازدهر العالم من حيث الصناعه وقطع أشواطاً فى الرقى التطور، مع ذلك فهناك الظلمات الهائله التى ألقّت بظلالها المشؤومه على المجتمعات البشريه التى فأن من المعارك والاقبال وسفك الدماء واستضحال أنواع الظلم والجور والاضطهاد والفقر والحرمان، والأنكى من كل ذلك إنعدام الا من والاستقرار وسياده الفوض والقلق والاضطراب، وما ذلك إلّامنتيجه مباشره لغياب معانى الإيمان والتقوى والفقر الاخلاقى والمعنوى، وليس هنالك من سبيل للخروج من هذه المآزق سوى بالتمسك بالقرآن بل الأدهى من ذلك هجر القرآن واللجوء إلى الآراء الظنيه والأفكار البشريه القاصره على مستوى الأحكام من قبل قطاعات واسعه من المسلمين.

١- القرآن والمسائل المستحدثة

هنالك سؤال يقترح في الأذهان وهو: أن المجتمع البشرى في حاله حركه وتطور مستمر بحيث تستجد يوميا عدّه مسائل على الساحة، فكيف للقرآن أن يواكب هذه الحركه في حين تتصف أحكامه بالثبات وعدم التغيير؟ وكيف يسعه الردّ على المسائل المستحدثة؟

و للإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك نوعان من الأحكام في القرآن الكريم هما: الأحكام الجزئية والأحكام الكليه. فلاحكام الجزئية من قبيل الأحكام التي ذكرت للصلاه ككيفية الوضوء والغسل والتيمم وسائر المسائل كالمقبله وعدد الصلوات وما شابه ذلك.

وأما الأحكام الكليه فيراد بها القواعد العامه الوارده في القرآن والتي تتصف بالسعه والشموليه، كقاعده وجوب الوفاء بالعقود والمعاهدات «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» [١] وقاعده «لا- حرج» «و ما جعل عليكم في الدين من حرج» [٢] وقاعده «لا ضرر ولا ضرار» التي استفيدت من بعض الآيات القرآنيه، وهى القواعد التي تلبى المتطلبات الإنسانيه في اضفنا إلى القرآن الأصول والقواعد الكليه التي صرّح بها الائمة عليهم السلام في كلماتهم. بعبارة أخرى: الموضوعات في حاله تغيير مستمر، أما الأصول الكليه فهى ثابتة لا يعتربها التغيير، وتغيير الموضوعات لا- يعنى سوى تبدل أحكامها حيث تخرج من حكم وتنضوى تحت حكم آخر، وعليه فاننا نستطيع اليوم وبالاستناد إلى القواعد الكليه أن نستنبط كافه الإجابات على المسائل المستحدثة التي لم يرد ذكرها على وجه الخصوص في الكتاب والسنة، فجعلها في كتاب نطلق عليه اسم المسائل المستحدثة، ويقال أن أفضل دليل على إمكان الشىء وقوعه (في إشاره إلى وجود مثل هذه الكتب وبكثره لاغلب فقهاء الشيعة والتي تصدت للإجابة على كافه المسائل المسجده اليوم على الساحة).

و من أراد المزيد فليراجع كتب العلماء بشأن المسائل المستحدثة.

ص: ٤٠٩

١-١) سورة المائده / ١. [١]

٢-٢) سورة الحج / ٧٨. [٢]

لقد صرح الإمام عليه السلام فى عبارته الأخرى بشأن القرآن قائلاً: «لا تنفى عجائبه ولا تنقضى غرائبه». فكلما تقادم الزمان واجال العلماء والمفكرون أفكارهم فى أسرار القرآن، كشفوا حقائق جديدة كانت خافية عليهم، أضف إلى ذلك فإنّ حلاوه القرآن وطلاوته حقيقته خالده لا تعرف معنى للزمان، وهى الحقيقة التى ثبتت لدينا بالتجربة فما أكثر ما قرأنا القرآن وتلونا ولا نزداد تجاهه سوى حيويه دون أن نشعر بأدنى ملل أو تعب؛ ولا غرو فالقرآن كلام الله، وكلام الله كذاته مطلق لا يقيد بالحدود، فهو ليس كلام المخلوق ليكتسب صفات عقله فكره المعروف بالحدود والزمان والمكان، أضف إلى ذلك فإنّ الخطاب القرآنى متواصل إلى يوم القيامة، فودعه الله من الأسرار التى تتجدد على مدى الزمان.

و نختتم البحث بحديث الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لا يزداد على الدرس والنشر إلّا غضاظه» فقال الإمام عليه السلام لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو فى كل زمان جديد عند كل يوم غض إلى يوم القيامة». (١)

ص: ٤١٠

ومن كلام له عليه السلام

قال للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفه يخطب فمضى فى بعض كلامه شىء اعترضه الأشعث فيه فقال يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال:

«ما يُدْرِيكَ ما عَلَيَّ مِمَّا لِي، عَلَيَّكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ! حَائِكُ ابْنِ حَائِكٍ! مُنَافِقُ ابْنِ كَافِرٍ! وَاللَّهِ لَقَدْ أُسِيرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى! فَمَا فِدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلَا حَسْبُكَ! وَإِنَّ أَمْرًا دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ!

لَحْرِيٌّ أَنْ يَمَقَّتَهُ الْأَقْرَبُ، وَلَا يَأْمَنُهُ الْأَبْعَدُ». (١)

قال السيد الشريف: يريد عليه السلام أنه اسرى الكفر مره وفى الإسلام مره واما قوله: دل على قومه السيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة، غر فيه قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد وكان قومه بعد ذلك يسمونه «عرف النار» وهو اسم للغادر عندهم.

ص: ٤١١

١ - ١) جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغه عدم وجود الاختلاف بين العلماء فى نقل هذه الخطبه، قد نقلها من عاش قبل السيد الرضى، كأبى الفرج الاصفهاني فى كتاب الاغانى، وقد توفى الاصفهاني قبل نشر نهج البلاغه ٤٤ [١] سنه (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٣٦٩). [٢]

الاصطدام بمنافق طائش

لابد من الإشارة إلى نقطتين قبل الخوض في شرح هذه الخطبه:

١ - جاء في التاريخ بشأن الأشعث أنّ اسمه الأشعث معدى كرب، وأبوه قيس الأشجّ سمي الأشجّ؛ لأنّه شجّ في بعض حروبهم بن معدى كرب بن معاويه. وأمّ الأشعث كبشه بنت يزيد بن شريحيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك. كان الأشعث أبداً أشعث الرأس، فسُمّي الأشعث، وغلب عليه حتى نُسِي اسمه.

٢ - أمّا بشأن المناسبه التي دعت الإمام عليه السلام لمخاطبه الأشعث بهذه الكلمات فهناك إختلاف بين العلماء فقد ورد في روايه أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استوى جالساً على منبر الكوفه فاخرج كتاباً فيه كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «المسلمون تتكافؤ دماؤهم وهم يد على من سواهم من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والناس أجمعين» (١).

فانبرى الأشعث بن قيس المنافق قائلاً: «هذا والله عليك لا لك» فخفض الإمام عليه السلام إليه بصره فخاطبه بهذه الكلمات أمام الملاء. ولعل مراد الأشعث بن قيس إذا كانت دماء المسلمين متكافئه وهم يد على من سواهم، فما معنى قتالك لطائفه من المسلمين؟ (و الحال أن المنافقين الذين أوقدوا نار الجمل وصفين والنهروان كانوا يرون الإمام عليه السلام خليفه رسول الله صلى الله عليه وآله فبالاضافه إلى نص النبي صلى الله عليه وآله على خلافته فقد بايعه الناس).

نعود الآن إلى شرح الخطبه، فقد رد الإمام عليه السلام على الأشعث بن قيس حين اعترضه بقوله «يا أمير المؤمنين هذا عليك لا لك» فقال: «ما يدريك ما على ممالي» .

حيث أراد الإمام عليه السلام أنّك لم تفهم كلامي وما أريد أن أقول. فمرادى هو دعوه المسلمين إلى الوحده وانبههم إلى خطاهم في مسأله التحكيم ليرعوا عن تكرار مثل هذه الاخطاء، إلّا أنّك فهمت الكلام بالعكس. ثم اغلظ عليه عليه السلام فقال: «عليك لعنة الله ولعنه اللاعنين» .

و يشهد تاريخ الأشعث وسيرته الخبيثه أنّه كان مستحقاً لمثل هذه اللعنه وعلى حد قول ابن أبي الحديد فإنّ كل فساد في خلافه على عليه السلام وكل اضطراب حدث فاصله الأشعث (٢) ثم

ص: ٤١٢

١ - ١) ورد في عدّه روايات ان المراد بقوله «من أحدث حدثاً» القتل وسفك الدماء وهو المعنى الانسب لهذه العبارة، راجع وسائل [١] الشعيه، ١٩ / ١١-١٩ ابواب القصاص، الباب ٤ و٨.

٢ - ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٢٧٩. [٢]

قال عليه السلام «حائكك بن حائكك، منافق بن كافر» .

إختلفت أقول الشرح بشأن المراد من «حائكك» فقد حملها البعض على المعنى الظاهري على أنّ الحياكة كانت شغلاً للأشعث وأبيه وقد كانت مهنة تمارس من الطبقة الوضيعة في المجتمع آنذاك البعيدة عن معاني المعارف الدينية والاداب الاجتماعيه والمدنيه، غير أنّ هذا المعنى لا ينسجم وما ورد في ترجمه الأشعث وأبيه؛ لأنهما لم يكونا يعملان بهذه المهنة.

و ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بها الإنسان المتكبر والأناى لأنّ احد معاني «حائكك» بمعنى الشخص الذى يتبختر فى مشيه ويتكبر (1) وأخيراً قيل بأنّ المراد بها المعنى الكنائى وهو حياكة الأباطيل والأكاذيب وهذا ما كانت عليه سيره الأشعث وأبيه؛ ولا تقتصر هذه الكنايه على اللغة العربيه فحسب بل وردت فى سائر اللغات أيضاً.

والجدير بالذكر فإنّ هناك روايه أشارت بوضوح إلى هذا المعنى، فقد ورد الكلام عن الحائك عن الإمام الصادق عليه السلام فقال عليه السلام: «أنه ملعون، الحائك ملعون» ثم قال عليه السلام فى تفسير ذلك «إنّما ذلك الذى يحوك الكذب على الله وعلى رسوله» (2).

إمّا أنّ الإمام عليه السلام عدّه منافقاً فذلك ممّا لا نقاش فيه لأنّ أفعاله فى زمان حكمه الإمام عليه السلام إنّما تشير إلى أنّه كان من رؤوس النفاق، فقد كان يشكل أحد العوامل التى أدت إلى شهاده أمير المؤمنين على عليه السلام وفشل المسلمين فى معركة صفين ونشوب معركة النهروان وبروز مسأله التحكيم، وقد كان فى أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن أبى بن سلول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كل واحد منهما رأس النفاق فى زمانه. (3) وزيده الكلام فإنّ نفاقه أشهر من نار على علم، وأما التعبير بالكفار عن أبيه فذلك من مسلمات التاريخ حيث كان من المشركين وقد قتل فى الجاهليه إثر خلافات قبله.

ثم قال عليه السلام: «والله لقد أسرك الكفر مره والإسلام أخرى! فما فداك من واحده منهما مالك ولا حسبك» . فقد أورد ابن أبى الحديد: فأما الأسر الذى أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام إليه فى

ص: ٤١٣

١-١) «حائكك»: وتأتى أحيانا من ماده «حوك» بمعنى الحياكة والنسيج، وتأتى أحيانا من «حيك» بمعنى التكبر والخيلاء أثناء المشى.

٢-٢) وسائل الشيعه، ١٢ / ١٠١، الباب ٢٣، من أبواب ما يكتسب به، الحديث ٢. [١]

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٢٩٦. [٢]

الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبي في «جهرة النسب» فقال: إن مُراداً لما قتلت قيساً الأشجج، خرج الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كنده مُتساندين على ثلاثه ألويه: على أحد الأولويه كئيب ابن هاني بن سُرخييل بن الحارث بن عدى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين ويعرف هاني بالمطلع، لأنه كان يغزو فيقول: اطلعتُ بنى فلان، فسُمي المُطلع، وعلى أحدها القشعم أبو جبر بن يزيد الأرقم. وعلى أحدها الأشعث أبو جبر، وأسر الأشعث، ففُدى بثلاثة آلاف بعير، لم يفد بها عربى بعده ولا قبله، وأما الأسر الثاني في الإسلام، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما قدمت كنده حججاً قبل الهجرة، عرض رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه عليهم، كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب، فدفعه بنو وليع، من بنى عمرو بن معاوية ولم يقبلوه، فلما هاجر صلى الله عليه وآله وتمهدت دعوته، وجاءته وفود العرب، جاءه وفد كنده، فيهم الأشعث وبنو وليع فأسلموا فأطعم رسول الله صلى الله عليه وآله وآله بنى وليع طعمه من صدقات حُضَرَ موت، وكان قد استعمل على حُضَرَ موت زياد بن لبيد البياضى الأنصارى، فدفعها زياد إليهم، فأبوا أخذها، وقالوا: لا ظهر لنا، فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك، فأبى زياد، وحَدَث بينهم وبين زياد شر، كاد يكون حرباً، فرجع منهم قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم.

وفى هذه الواقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لبنى وليع: «لَتَتَّهَّنَ يا بنى وليع، أولاً بعثنَّ عليكم رجلاً- عديل نفسى، يقتل مُقاتلتكم، وبشئ ذراريتكم». قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الإماره إلأيوئئذ، وجعلت أنصب له صدرى رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد على عليه السلام، وقال: «هو هذا».

ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله و آله إلى زياد، فوصولاً إليه الكتاب، وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب، فارتدت بنو وليع، وغنث بغاياهم، وخَضَبَن له أيدِيَهُنَّ.

وقال محمد بن حبيب: كان إسلام بنى وليع ضعيفاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم ذلك منهم. ولما حج رسول الله صلى الله عليه وآله و آله حجة الوداع، وانتهى إلى فم الشعب دخل أسامه بن زيد ليبول، فانتظره رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان أسامه أسوه أفتس، فقال بنو وليع: هذا الحبشى حَبَسنا! فكانت الرده فى أنفسهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير: فأمر أبو بكر زياداً على حُضَرَ موت، وأمره بأخذ البيعه على أهلها واستيفاء صدقاتهم، فبايعوه إلأبنى وليع، فلما خرج ليقبض الصدقات من بنى عمرو بن معاوية، أخذ ناقه لغلाम منهم يعرف بشيطان بن حُجر، وكانت صفية نفسه، اسمها شذره، فمنعه

الغلام عنها، وقال: خذ غيرها، فأبى زياد ذلك ولجّ، فاستغاث شيطان بأخيه العداء بن حُجر، فقال لزياد: دَعها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك، وَلَجَّ الغلامان في أخذها ولجّ زياد وقال لهما: لا تكوننّ شذره عليكما كالبسوس، فهتف الغلامان: يالعمرو! أنضمام ونُضطهد! إنّ الدليل مَنْ أَكَلَ في داره. وهتفا بمسروق بن معدى كرب، فقال مسروق لزياد أطلقها.

ثم قام فأطلقها، فاجتمع إلى زياد بن لبيد أصحابه، واجتمع بنو وليعه، وأظهروا أمرهم، فبیتهم زياد وهم غارون، فقتل منهم جمعا كثير، ونهب وسبى، ولحق فُلهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: لا أنصرکم حتى تملكونى عليكم. فملكوه فخرج إلى زياد في جمع كثيف، وكتب أبو بكر إلى المهاجر ابن أبي أميه وهو على صنعاء، أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقوا الأشعث فهزموه وقُتل مسروق، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُجَيْر. فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا، ونزل ليلاً إلى المهاجر وزياد، فسألها الأمان على نفسه، حتى قدما به على أبي بكر فيرى فيه رأيه؛ على أن يفتح لهم الحصن ويُسلم إليهم من فيه. فحملوا الأشعث إلى أبي بكر مؤثقا في الحديد، فعفى عنه وزوجه، أخته أم فروه بنت أبي قحافه وكانت عمياء فولدت للأشعث محمداً وإسماعيل وإسحاق.

تأملان

١- عله هذا الاصطدام العنيف

لعل هنالك من يصاب بالذهول ممن لا يعرف مدى نفاق الأشعث بن قيس لهذا الاصطدام العنيف الذي اتبعه الإمام إزائه حتى خاطبه بلعنه الله والناس أجمعين، ثم وصفه بتلك الصفات الشائنة كقوله: «حائك بن حائك، منافق بن كافر، والله لقد أسرك الكفر مره والإسلام أُخرى! فما فداك من واحده منهما مالك ولا حسبك! وإن إمرأ دَلَّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف! لحرى أن يمقته الأقرب، ولا- يأمنه الأبعد» ألا أنّ أدنى نظره إلى التاريخ الاسود الذي حفلت به حياه هذا المنافق لتكشف عن مدى فساده وفساده للوسط الإسلامى، بل كان منقوتا حتى فى الجاهليه، إلى جانب كونه اليد الخبيثه فى تأجيج نار الحروب حتى اشتهر بلقب «عرف النار» .

نعم، ليس هنالك ما يثير الدهشه والعجب فى مخاطبته بهذه الكلمات من قبل الإمام عليه السلام.

والواقع لم يرد فى كلام الإمام عليه السلام سوى بعض صفاته الشنيعه التى تحتم على القائد الحكيم فى ظل بعض الظروف أن يعرى بعض الأفراد المتآمرين أمام أعين الأمة وانظارها لكى لا تنطلى عليها حيله والأعيبه، ولا سيما طائفه الشباب من المجتمع التى قد لا- تمتلك الاطلاع الكافى عن حياه وماضى أولئك الأفراد، اذن فقد كانت كلماته من قبل التعريف به للأمة، لأنها إنطلقت بدافع الإساءه والسب والشتم.

٢- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق

لعل ما ورد فى الخطبه المذكوره يثير لدى البعض هذا السؤال:

إذا كانت للأشعث بن قيس مثل هذه السابقيه فى الغدر والنفاق واثاره القلاقل والمفاسد، لم صبر عليه الإمام عليه السلام ولم يأمر بقتله؟ والجواب على هذا السؤال هو أن تعامل أئمه المسلمين مع عناصر النفاق ينطوى على شىء من التعقيد؛ فقد كانت عناصر النفاق تعيش الازدواج فى تظاهرها بالاسلام وأدائها لشعائره من قبيل الصوم والصلاه وقراءه القرآن، واضمارها للكفر والتآمر والخيانه والفساد وعليه فالاصطدام بهم قد يؤدى إلى إثارة بعض التوترات وتعالى أصوات الرأى العام فى قتل المسلمين من أهل القبله دون التورع فى سفك دمائهم، ولا سيما بالنسبه للأشعث الذى كان ينتمى إلى قوم وقبيله؛ الأمر الذى يصعد من حده التوتر لا محاله.

وقد شهد الرسول صلى الله عليه وآله مثل هذه المشكله، بل كانت أعظم حده ممّا هى عليه فى عهد أمير المؤمنين عليه السلام حتى ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «لولا- أنى أكره أنّ يقال ان محمداً صلى الله عليه وآله استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدوه فتلهم لضربت أعناق قوم كثير». (١)

أجل فقد كانت هنالك طوائف من المنافقين التى إندست بين صفوف المسلمين، بل كانت تشهد حتى الغزوات إلى جانبهم، ولعل الاصطدام بهم كان يعنى أن الإسلام لا يقيم وزناً لدماء المسلمين، ومن هنا لم نسمع بان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل أحدهم طيله حياته المباركه، إلا أنّ ذلك لم يكن ليمنع الرسول صلى الله عليه وآله بل القرآن فى التصدى لهم وتعريتهم أمام الأمة.

ص: ٤١٦

ومن كلام له عليه السلام

وفيه ينفر من الغفله وينبه إلى الفرار لله

«فَأَنْتُمْ لَوْ قَدْ عَايَيْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزَعْتُمْ وَوَهَلْتُمْ، وَسَيِّعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ! وَلَقَدْ بَصَّرْتُمْ إِنْ أَبْصِرْتُمْ، وَأَسَيِّعْتُمْ إِنْ سَيِّعْتُمْ، وَهَيِّدْتُمْ إِنْ اهْتَيْدَيْتُمْ، وَبِحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرْتُمْ الْعَبْرَ، وَزَجَرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَرُ». (١)

الشرح والتفسير

طرح الحجب قريباً

لقد حذر الإمام عليه السلام الأئمة من الغفله ودعاها للتخلي باليقظة وتدارك ما فاتها من خلال العبودية والطاعة خشية من الأحداث التي تنتظرها في المستقبل القريب. فقد استهل

ص: ٤١٧

١ - ١) أورد المرحوم الكليني في كتاب الكافي في باب «ما يجب من حق الإمام على الرعية» بعض هذه الخطبة في ذيل روايه (راجع كتاب الكافي، ١ / ٤٠٥ ح ٣، باب ما يجب من حق الإمام على الرعية). [١]

كلامه عليه السلام بالقول «فأنكم لو قد عايتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم (١) وسمعتهم واطعتم» .

والذى يستفاد من الروايات أنّ الإمام عليه السلام قد القى هذه الخطبة فى الجمعه الاولى بعد البيعه، وقد حذر الأئمّه - طبق روايه الكافى - من خيانه ائمتها ودعاها إلى الوحده وحرص الصفوف واجتناب الاختلاف والفرقه، ثم أورد هذه الكلمات لتأكيد المعنى المذكور. أمّا ما هى المواضع التى سيشهدها الإنسان فى عالم ما بعد الموت بعد أن تطرح عنه الحجب فيسوده القلق والاضطراب والجزع، فهذا ممّا اختلفت فيه أقوال العلماء، لكن المسلم به أن هناك موضوعين مهمين: أحدهما أنّه سيرى نتائج أعماله وما ينتظره من جزاء وعقاب عليها، والثانى مدى الحسره والأسف الذى سيشعر به تجاه تقصيراته التى صدرت منه فى حياته الدنيا، الإمكانيات التى كان من شأن إستثمارها أن تبلغ به السعاده والفلاح والفوز بالقرب الإلهى ومجاوره الرحمن، غير أنه ضيع كل تلك الفرص، والادهى من ذلك لاسبيل إلى الرجوع إلى الحياه ثانيه.

ثم قال عليه السلام: «ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب» نعم أنّ هذه الحجب هى التى جعلتكم تغطون فى هذه الغفله وتتعلقون بالدنيا وتغترون بها، ولكن اعلموا إنّ هذه الحجب آيله إلى الزوال وسترون الاشياء والحقائق كما هى حيث لا ينفع حينها القلق والجزع والفرع، كما ليس هنا لك من مجال للتوبه.

وهنا يبرز هذا السؤال: لم لا يطرح البارىء سبحانه هذه الحجب عن الإنسان فى الحياه الدنيا لينتبه إلى نفسه ولا يعيش السكر والغفله؟ يبدو أنّ الآيات القرآنيه قد تكفّلت بالإجاباه على هذا السؤال: فلو طرحت هذه الحجب ورأى الناس الحقائق على صورتها فإنّ أدنى تمرد سيؤدى إلى مواجهتهم للعذاب الشديد حيث لم يعدّ هنالك من عذر للتقصير.

فقد صرّحت الآيه الثامنه من سوره الانعام و «ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون» .

ص: ٤١٨

١ - ١) «وهلتم» من ماده «وهل» على وزن «وهب» بمعنى فقد صبره فى مقابل الحوادث الصعبه، وتأتى بمعنى الخوف واحيانا بمعنى التأوه والأئين.

و بغض النظر عن هذا الأمر فإنّ الإيمان من جراء مشاهدته الحقائق المترتبة على ما بعد الموت سوف لن يكون مدعاه للعبوديه والطاعه وسيكون نوعاً من الاجبار والاضطرار، كما نشاهد ذلك في الأفراد - حتى الصبيه منهم - حين يبدون ردود فعلهم المباشره إذا ما إقتربت أيديهم من النار، فاجتناب المعصيه على هذا الضوء سوف لن يكون بدافع من الورع والتقوى و العبوديه أبداً.

أمّا قوله عليه السلام «قريب ما يطرح الحجاب» فعمر الإنسان مهما كان ليس سوى لحظات عابره مقارنة بعمر الدنيا وزمان الآخره. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مسأله مهمه بهذا الشأن وهى أنّكم وإن لم تروا عالم ما بعد الموت، إلّا أنّ الأدله عليه قائمه لديكم ومعالمه واضحه أمامكم «ولقد بصرتم ان ابصرتم، وسمعتم ان سمعتم، وهديتم إن اهتديتم» .

وعليه فليس هنالك من عذر لمن ضل السبيل وأخطأ المسيره، فالحقائق المرتبطه بعالم الآخره وان حجت عنكم، إلّا أنّكم على علم بها من خلال ثلاثه طرق: الأول من الاعتبار بما تشاهدونه فى هذا العالم، فآثار الفراعنه وقبور الأسلاف لأدله واضحه على العاقبه المريره التى تنتهى إليها مسيره الأقبام الظالمه التى تشير إلى أنّ الله بالمرصاد، كما لديكم الكتب السماويه و الرسائل النبويه، أضف إلى ذلك فإنّ الأدله العقليه ليست بالقليله وهى تقودكم بكل بساطه إلى المعاد واليوم الآخر.

و عليه فعبارته عليه السلام إنّما تشير إلى الأدله الحسيه والنقله والعقله.

كما يحتمل أن تكون الجمله الاولى إشاره إلى الأدله الحسيه والعقله (لأنّ البصيره تطلق على الإدراك العقلى أيضاً) والجمله الثانيه تلمح إلى الأدله النقليه، بينما تشير الجمله الثالثه الهدايه الناجعه من هذه الادله. ثم قال عليه السلام: «وبحق أقول لكم: لقد جاهرتمكم العبر»

فالعالم مليء بحوادث العبره والاعتبار التى لا تخفى على أحد، فتلك آثار الفراعنه والأقاصره والأكاسره التى تخبر عن أحوال من كان من الأمم السالفه. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (١)

وقال ايضا: «كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ» . وقال فى موضع آخر «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» (٢).

ص: ٤١٩

١- ١) سورة الصافات / ١٣٧-١٣٨. [١]

٢- ٢) سورة الدخان / ٢٥-٢٩. [٢]

فقد شحن القرآن بهذه الآيات إلى جانب الروايات الإسلامية التي أكدت هذا المعنى. الأدباء والشعراء تعرضوا لهذه الحوادث في نتاجاتهم مما يثبت حقيقته قوله عليه السلام: «لقد جاهرتمكم العبر». ثم قال عليه السلام: «و زجرتم بما فيه مزدجر» (١). ولعل هذا الزجر يستند إلى لسان التكوين الذي ينطلق من أعماق التاريخ واخبار الماضين كما صور ذلك القرآن الكريم «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجْرٌ» (٢).

أو عن طريق لسان التشريع والوحي الذي ورد في الكتب السماوية. وعليه فقد تمت الحجة تكويناً وتشريعاً ولم يعد هنالك من عذر. ثم قال عليه السلام: «و ما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلّا البشر». فما هذا الانتظار؟ أتتوقعون أن تهيط عليكم الملائكة ويتلون عليكم الآيات؟ فقد تشدق بذلك الكفار على عهد النبي صلى الله عليه وآله قائلين: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ» (٣). فرد عليهم القرآن بالقول: «مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ» (٤) وخلاصه القول فان الله قد أتم حجته عن طريق المشاهدات الحسية لآثار الأمم السابقة ومن خلال العقل وأخيراً الوحي، وليس لاحد أن يخرج عن سبيل الطاعة بحجة «لولا أنزل علينا الملائكة».

ملاحظه: عالم ما بعد الموت

صحيح أنّ هنالك الاغشيه الغليظه التي تحول بيننا وبين ذلك العالم وأنّ الحجب الظلمانيه لا تدعنا نرى حوادث عالم البرزخ (و ينبغي أن يكون الأمر كذلك؛ فلو طرحت الحجب لفقد الامتحان حرارته ولا نطلق الجميع في حاله شبه اضطرابيه نحو الحق فلم يعد هنالك من معيار لتمييز المطيع من العاصي)، غير أنّ الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه الوارده عن أئمه

ص: ٤٢٠

١- ١) «زجرتم» و «مزدجر» من ماده «زجر» بمعنى الصدعن عمل بصوت عال، ثم اطلق على كل منع صدر كما يستعمل في التهي عن الذنوب.

٢- ٢) سوره القمر / ٤. [١]

٣- ٣) سوره الحجر / ٧. [٢]

٤- ٤) سوره الحجر / ٨. [٣]

العصمه عليه السلام قد أشارت إلى طبيعه هذا العالم المرعب، كما بينت مدى الهلع الذى يعترى الإنسان حين مشاهدته لملك الموت وحين يرى ما عمل حاضراً أمامه، فينطلق صوته «ربّ ارجعون لعلّى أعمل صالحاً فيما تركت» (١) فيأتيه الجواب بالسلب، فليس هنالك من سبيل إلى الرجوع كاستحاله عوده الجنين إلى رحم أمّه.

وقد أشار الإمام على عليه السلام فى بعض خطبه فى نهج البلاغه إلى هذا الأمر، من ذلك أنّه قال: «يفكر فيم أفنى عمره وفيه أذهب دهره ويتذكر أموالاً جمعها اغمض فى مطالبها... وأشرف على فراقها تبقى لمن ورائه» (٢) أجل أنّ كل هذا الجزع والفرع من جراء مشاهدته ذلك العالم الخطير ورؤيه ملك الموت. وقد أسمعنا أولياء الله من ائمه الدين ما ينبغى سماعه عن تلك المنازل المرعبه، إن كانت لنا آذاناً صاغيه.

«اللهم رزقنا عيناً بصيره واذناً سميعة وقلباً حافظاً، لتتزوج لتلك الدار قبل وفاتنا وفوات الأوان، فنحلق إلى ذلك العالم بقلب مطمئن ونفس واثقه ونفوز بقرب اوليائك من الشهداء والصديقين «و حسن أولئك رفيقا» .

اللهم تقبل منّا هذا الجهد المتواضع ومن علينا باكماله بفضلك ورحمتك.

الختم

النصف من شهر رمضان المبارك

الولاده الميمونه للإمام المجتبى عليه السلام

سنه ١٤١٦ الموافق ٧/٣/١٩٩٥ م

ص: ٤٢١

١-١) سوره مؤمنون / ٩٩ - ١٠٠. [١]

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٠٩. [٢]

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه المجلد ۲ / ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام على ابن ابى طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى: ۱۰ ج.

شابك: ۳۰۰۰۰ ريال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳.

يادداشت: عربى.

يادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ق. = ۱۳۹۰).

يادداشت: كتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الى ۱۸۰. ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الى ۲۰۰. ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الى ۲۴۱. ج. ۹. من رساله ۱ الى ۳۱. ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الى ۵۳

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- كلمات قصار

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٢

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

ومن خطبه له عليه السلام

«وهى كلمه جامعه للعظمه والحكمه»

«فإن الغايه أمامكم، وإن وراءكم الساعه تحذوكم. تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم».

قال السيد الشريف الرضى: أقول: إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً، وبز على سابقاً فأماً قوله عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً وما أبعد غورها من كلمه! وأنقع نطفتها من حكمه! وقد نبهنا فى كتاب «الخصائص» على عظم قدرها وشرف جوهرها.

شرح الخطبه

تخففوا تلحقوا!

ورد هذا الكلام ضمن سياق الخطبه ١٦٧، حيث تضمنت تلك الخطبه مثل هذه العبارات مع بعض الفوارق الطفيفه.

ص: ٥

١- ١) نقل كتاب مصادر نهج البلاغه هذه الخطبه التى أوردها السيد الرضى رضى الله عنه فى الخصائص / ٨٧ وأضاف فى ذيل الخطبه ١٦٧ - التى تعد هذه الخطبه جزءاً منها - قائلاً: (رواها «الطبرى» فى تاريخه ضمن حوادث سنة ٣٥ هـ (مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٧١ و ٢ / ٤٠٣). [١] ويتبين من الرجوع إلى تاريخ الطبرى أن الأئمه بايعت علياً عليه السلام يوم الجمعة لخمس بقين من شهر ذى الحجه وأنها أول خطبه أوردها على عليه السلام ضمن خطبته ١٦٧. تاريخ الطبرى ٣ / ٤٥٧.

والذى يفهم من كلام المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام قد ألقى هذه الخطبه أوائل ما آلت إليه الخلافه، بينما يفهم من كتاب «مطالب السؤل» (1) أنّ هذه الخطبه هي إمتداد للخطبه السابقه وتعرض لذات المطالب.

وهناك احتمال آخر في أنّ الخطب الثلاث قد صدرت معاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في موضع واحد، ثم صنفت ثلاثه أقسام.

على كل حال فإنّ هذا القسم من الخطبه - والذى لا يتجاوز بضعه عبارات - وعلى حد تعبير السيد الرضى لو وزن بعد كلام الله وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله لمال به راجحاً! والحق ان الأمر كذلك حقاً ماهذه الفصاحه والبلاغه في كلمات قصار تتعرض لمثل هذه الحقائق الساميه!

فالإمام ينبّه أبناء الأُمّة بادئ الأمر إلى مفهوم المعاد ومحكمه العدل الإلهي ليلفت إنتباههم من خلال ذلك إلى عظم المسؤوليات والوظائف التي ينبغى لهم أن ينهضوا بها في خلافته، ويحذّره من كافه ألوان النفاق والتشتت والفرقه والنكوص عن إداء الواجبات. وأخيراً يذكرهم بالعاقبه التي تنتظرهم بعد العرض على الله يوم القيامة، فأما الجنّه وأما النار «فإن الغايه أمامكم، وإن وراءكم الساعه تحدوكم» .

والتعبير ب «الغايه» (عاقبه الأمر) بشأن القيامة والجنّه والنار لأنّ الحياه في الدنيا إنّما هي مقدمه للحياه الأبدية في العالم الآخر.

فقوله عليه السلام: «فان الغايه أمامكم» يعنى عدم وجود الشك والريب في أن مآل الأمور هناك وليس لأحد الفرار عن ذلك المآب.

وأما التعبير ب «الساعه» فقد صرّح بعض شارحي نهج البلاغه بأنّه إشاره إلى القيامة الصغرى؛ أى الموت. فقوله عليه السلام: «وراءكم» يفيد أنّ عوامل الموت إنّما تكمن وراء الإنسان، فهي تسوق الإنسان من الطفوله إلى الشباب ومن الشباب إلى الكهوله والشيخوخه وأخيراً من الشيخوخه إلى انقطاع الحياه. في حين صرّح البعض الآخر بأنّ المراد ب «الساعه» هو ساعات

ص: ٦

الليل والنهار وكأنّها الأمر الصارم الذى كمن خلف الإنسان ويسوقه إلى حتفه. وليس هناك من فوارق تذكر بين هذين التفسيرين حيث مؤداهما واحد. وبالاستناد إلى أن كلمه «تحدوكم» المشتقه من ماده «حدو» بمعنى «السوق والدفع نحو الشيء». .

فإنّ الذى يتبادر إلى الذهن هو أن تقلب الليل والنهار والشهر والسنه رغم تقريبا الإنسان من وصول أجله وانقطاع حياته، غير أنّها تشكل عوامل غفلته بفعل اختلاطها بزخارف الدنيا وزبرجها. فالواقع هو أنّ هذه العبارة التى تصدرت الكلام رغم قصرها قد أشارت إلى القيامة الكبرى إلى جانب إشارتها إلى القيامة الصغرى؛ الأمر الذى يعدّ المستمع للاصغاء إلى المرحلة اللاحقة.

فأورد عليه السلام هذه الجملة المقتضبه العميقه المعنى: «تخففوا تلحقوا» عادة إذا ما انطلقت قافله من الناس إلى مكان وواجهت هذه القافله بعض المنعطفات التى لا يمكن اجتيازها بسهولة فإنّ أولئك الأفراد المثقلين بالأحمال غالباً ما يتخلفون عن القافله التى لا يسعها الوقوف من أجل فرد أو بضعة أفراد فلا يكون أمامها سوى تجاوز ذلك الفرد ومواصله السير والحركة. أمّا ذلك الفرد الذى تخلف عن القافله فإنّه سيكون لقمه سائغه لقطاع الطرق واللصوص وذئاب الصحراء، بينما يشقّ المخفون طريقهم بسرعه تجعلهم يصلون إلى هدفهم أسرع من الجميع. وهذا هو حال بنى آدم فى هذه الدنيا، فهم مسافرون وقد شدّوا الرحال إلى الحياه الأبدية التى تعقب الموت. فمن ثقل حملة من متاع الدنيا وحطامها كان لقمه سائغه للشيطان، أمّا أهل الورع والزهد والتقوى فإنّهم سيحثون الخطى سريعاً لينالوا سعاده الآخرة والفوز بالخلود.

وقد أكّد الإمام عليه السلام هذا المعنى - فى الخطبه ٢٠٤ - حين نادى أصحابه: «تجهّزوا - رحمكم الله - فقد نودى فيكم بالرحيل وأقلّوا العُرجه على الدنيا. . . فإنّ أمامكم عقبه كؤودا ومنازل مخوفه مهوله» .

وقد شبه بعض شراح النهج الإنسان بالمسافر الذى يجوب البحر وهو يواجه أمواجه العاتيه حيث سيكون الغرق مصيره الحتمى إذا لم يخف مؤونه سفينته.

وقد شبهوا قلب الإنسان بهذه السفينه، التى ستواجه الغرق لا محاله إذا ما أثقل ذلك القلب بحبّ الدنيا والانغماس فى الشهوات.

(١)

ص:٧

وأخيراً يختم الإمام على عليه السلام خطبته بقوله: «فانما ينتظر بأولكم آخركم». وتدل هذه العبارة بوضوح على أنّ عالم البشريه بحكم القافله الواحده التى تشتمل على المقدمه - التى سبقت بالحركه - والوسط والمؤخره؛ وهى تواصل مسيرتها لتلتحق مؤخرتها بمقدمتها، وبعبارة أخرى فإنّ قانون الموت لا يعرف الحصر والاستثناء وهو المحطه التى سيتوقف عندها الجميع. وبناءً على ما تقدّم فإنّ عاقبه الأولين نذير مبين للآخرين.

عاقبه المثقلين!

إنّ أهم عامل يقف وراء خسران طائفه من الناس والذى تضمنته كلمات الإمام عليه السلام فى خطبته إنّما يكمن فى إقبال كاهلها بالتكالب على متاع الدنيا الزائد عن حاجتها فى حياتها الدنيويه المتواضعه.

ولكى أن تفرض أنّ فرداً ينطلق للسفر ليوم واحد وقد حمل مقداراً من الخبز والماء والفاكهه لما يكفيه لذلك اليوم، بينما حمل الآخر عدّه حقائق وقد ملأها بمختلف الأطعمة والأشربه والفاكهه وانطلق إلى سفره. فمن البدايه أن ينطلق الأول بكل هدوء وخفه وخطى واثقه وحثيئه دون أن يشعر بالكلل والتعب، فى حين سينقطع نفس الثانى ولا يسعه مواصله السير والحركه. وهذا هو المصير الذى ينتظر أولئك الأفراد الذين جعلوا همهم فى الدنيا ومتاعها الزائل وجعلوا يفكّرون ليل نهار فى كيفيه حفظ هذه الأموال، حتى أنستهم ذكر الله، ولم يكتفوا بذلك ففقدوا حتى السكينه والطمأنينه فى حياتهم الدنيا.

هذا وقد تطرق بعض شرّاح نهج البلاغه إلى قصه الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضى الله عنه كشاهد حى ونموذج لقول الإمام على عليه السلام «تخففوا تلحقوا» وذلك حين نصب والياً على منطقته المدائن فركب دابته وانطلق بمفرده إليها.

فاتصل بالمدائن خبر قدومه، فاستقبله أصناف الناس على طبقاتهم، فلما رأوه قالوا: أيها الشيخ أين خلفت أميرنا؟ قال: ومن أميركم؟ قالوا: الأمير سلمان الفارسى صاحب رسول الله صلى الله عليه و آله.

قال: لا أعرف الأمير، وأنا سلمان.

فترجلوا له وقادوا اليه المراكب والجنائب. فقال: إنَّ حمارى هذا خير لى وأوفق. فلما دخل البلد أرادوا أن ينزلوه دارالاماره قال: ولست بأمير. فنزل على حانوت فى السوق وقال إدعوا إلى صاحب الحانوت فاستأجر منه. وكان معه وطاء يجلس عليه ومطهره يتطهر بها للصلاه وعكازه يعتمد عليها فى المشى. فاتفق أن سيلا وقع فى البلد فارتفع صياح الناس بالويل والعيويل يقولون: وا أهلاه وا ولداه و وا ماله، فقام سلمان ووضع وطاءه فى عاتقه وأخذ مطهرته وعكازته بيده وارتفع على صعيد وقال: هكذا ينجو المخفّفون يوم القيامة. (١)

والطريف فى الأمر ما ذكره السيد الرضى رضى الله عنه من أنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً. ولاسيما قوله عليه السلام: تخففوا تلحقوا.

فما أبعد غورها وأعظمها من حكمه وموعظه رغم قصرها؛ الأمر الذى دفع بالسيد الرضى رضى الله عنه إلى الإسهاب فى الخوض فى تفاصيلها فى كتابه «الخصائص» .

ج ج

ص: ٩

ومن خطبه له عليه السلام (١)

حينَ بَلَغَهُ خَبْرُ النَّاكِثِينَ بِيَعْتِهِ.

وفيها يذمُّ عملَهم ويلزمهم دمَ عثمانَ ويتهدّدُهم بالحرب.

القسم الأول: أضواء على الخطبة

«ألا وإنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ وَاسْتَجَلَبَ جَلْبَهُ لِيُعَوِّدَ الْجَوْرَ إِلَى أوطانِهِ وَيَرْجِعَ الْبَاطِلَ إِلَى نِصابِهِ، وَاللَّهِ! ما أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، ولا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِيفًا» .

١- ١) لقد أورد هذه الخطبة وشرحها كل من المرحوم «الشيخ المفيد» في «الإرشاد» في الفصل ٢٢ من كلمات الإمام على عليه السلام، والكليني في «الكافي» ٥ / ٥٣ كتاب الجهاد إلى جانب بعض الخطب الأخرى، والمرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٣٢ / ١٩٣. [١] كما ذكرها ابن أثير في عدة مواضع من كتابه النهاية بتناسب مفردات الخطبة. ويضيف مؤلف مصادر نهج البلاغه قائلاً: لقد أقتبست هذه الخطبة من سائر خطبه عليه السلام، فهو يعتقد بأنها مرتبطة بالخطبة ٢٦، كما يرى بأن هذه الخطبة ذات إرتباط بالخطبة ١٧٢ - مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٧٣. [٢]

وردت هذه الخطبه - كما يفهم من عنوانها - بشأن طلحه والزبير بعد نقضهما البيعه وما تلاها من أحداث مريره تمثلت إحداها بمعركة الجمل، كما تشير إلى قضيه المطالبه بدم عثمان التي تمسك بها أصحاب الجمل والتي استغلت فيما بعد من قبل أهل الشام.

وأخيراً تتضمن مذمتهم وتقريعهم من جانب الإمام عليه السلام والرد الحاسم على تهديداتهم وتخريصاتهم. وتبدو مضامين هذه الخطبه أكثر شبيهاً بخطبه ١٠، ٢٦ و ١٧٢؛ الأمر الذي جعل من المحتمل أن تكون كل خطبه من هذه الخطب جزءاً من خطبه واحده وقد قام السيد الرضى رضى الله عنه بتجزأتها على ضوء ما يناسب المقام.

الطريف فى الأمر أنّ بعض الروايات صرّحت بأنّ عمرو بن العاص قال يوماً لعائشه: «لوددت أنّك قتلت يوم الجمل!». فردت عائشه متعجبه: «ولم؟ لا أباً لك!». فأجابها بن العاص: «كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنّه ونجعلك أكبر التشنيع على على» (١).

يرى بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ هذه من الخطب المتعلقة بمعركة صفين، وقد عنت عباراتها معاويه (٢)، إلّا أنّ الذى استفاد من عنوان الخطبه الذى اعتمده السيد الرضى رضى الله عنه وكلام ابن أبى الحديد (٣) وسائر الشرّاح أنّ هذه الخطبه إنّما تناول ناكثى البيعه من أصحاب الجمل، وإن كانت مضامينها تتناسب وحال الطائفتين؛ الجمل وصفين.

الشرح والتفسير

وقعه الجمل

أشرنا سابقاً إلى أنّ الخطبه وردت بخصوص أولئك الذين أججوا نيران فتنة الجمل؛ أى طلحه والزبير ورهطهما. فقد كان كل من طلحه والزبير يطمع فى الحكومه ولما صرفها الإمام عليه السلام عنهما ولم يكن مستعداً لتقليدهما أيّه مسؤوليه فى حكومته، ثارت نائرتهم وقادهما

ص: ١٢

١- (١) بحار الأنوار ٣٢ / ٢٦٧ ح ٢٠٦ [١] نقلاً عن الاحتجاج للطبرسى.

٢- (٢) شرح القطب الراوندى ١ / ١٨٨.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٣٠٥.

هوى أنفسهما لنقض البيعه، وأخذوا بجيشان الجيوش بما فيها عائشه - زوج النبي صلى الله عليه وآله - ويهيا لقتال على عليه السلام بذريعه الطلب بدم عثمان (١)، وقد إختاروا البصره - التي كانت ممهده آنذاك لمثل هذه الفتنة - مركزاً لمؤامراتهم الدنيئه على الإمام عليه السلام.

فالإمام عليه السلام يتطرق فى بدايه الخطبه إلى هذه المؤامره فقال: «ألا وإنّ الشيطان قد ذمر (٢) حزبه واستجلب جلبه (٣) ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه» .

فهو يشير عليه السلام إلى الانحرافات والاضطرابات التى أعقت قتل عثمان ومبايعه الأئمه لعلى عليه السلام بالخلافه. والمراد بحزب الشيطان - فى الخطبه - أولئك الذين تسلطوا على بيت مال المسلمين أبان حكمه عثمان وتولوا بعض المناصب الخطيره، كما كانوا يتطلعون للسيطره على الخلافه، فالإمام عليه السلام يحذر الأئمه من هؤلاء الشياطين الذين يتربصون بها الدوائر وإنهم يحيكون المؤامرات من أجل الاستحواذ ثانيه على بيت المال وممارسه الظلم والجور بحق المسلمين والحيلولة دون قيام الإمام عليه السلام بوظيفته فى إصلاح المجتمع الإسلامى وإجتثاث جذور الفساد والانحراف التى برزت واستفحلت فى خلافه عثمان.

وأخيراً يصرح الإمام عليه السلام بعدم وجود أى دليل أو منطق يسوغ لهؤلاء الوقوف بوجه الإمام وقتاله «والله ما أنكروا على منكرأ ولا جعلوا بينى وبينهم نصفاً» .

فهو يشير عليه السلام إلى طلحه والزبير والطائفه التى نكثت البيعه، كما يتطرق عليه السلام إلى حجتهم الواهيه المتمثله بقتل عثمان. ثم يورد عليه السلام أقسى العبارات بحقهما.

ص: ١٣

١ - ١) لم تكن قضيه المطالبه بدم عثمان شعار أهل الشام وذريعتهم لإشعال فتيل صفيين، بل استغلت كذلك من قبل طلحه والزبير وعائشه لتنتهى بنشوب معركة الجمل. وقد ذكر ابن أثير - المورخ المعروف - فى «الكامل» أن عائشه حين قدمت إلى المدينه من مكه سمعت أثناء الطريق بقتل عثمان واجتماع الأئمه على على عليه السلام، فاعتمت وقالت: ليت السماء أطبقت على الأرض ولم يقع هذا، ثم أمرت باعادتها إلى مكه. فقالت «إنّ عثمان قُتل والله مظلوماً» فقام إليها من قال لها: إنك أول من تحدثت ضد عثمان واسميته نعتلاً. (قيل أن نعتلاً رجل يهودى كثر اللحيه، وقال صاحب «لسان العرب» أن نعتلاً تعنى العجوز الأحمق) وأنت قلت: إقتلوا نعتلاً فقد كفر (الكامل ٣ / ٢٠٦). [١]

٢ - ٢) ذمر من ماده «ذمر» بمعنى «التشجيع والحث» وقيل بمعنى التحريك المقرون بالذم والعتاب، ومن هنا كان الذمر على وزن «الذهن» يعنى الرجل الشجاع والمتحرك.

٣ - ٣) جلب تعنى فى الأصل السوق والانتقال ويقال الجلب بالنسبه للأفراد الذين يجمعون بسهولة. استجلب هنا بمعنى الاجتماع.

نعم لقد تنكرت كافه المصادر الإسلاميه والكتب التاريخيه لنسب قتل عثمان إلى الإمام على عليه السلام، بينما تصرّح بأن الإمام سعى أكثر من غيره لإخماد نار الفتنة، فهو القائل عليه السلام «والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً» فلم يتبع الناكثون في هذه الأحكام المتسرّعه، العدل والانصاف بقدر ما تشبّثوا بالكذب والتهمه والظنه. ولا يبدو من الغرابه اللجوء إلى مثل هذه الأساليب بالنسبه لأولئك الذين يسعون إلى ضمان مصالحهم وتحقيق أهدافهم. وما أكثر ما نشاهده في عصرنا الراهن من الساسه الظلمه الذين لا يتحفظون عن أبشع الأساليب الدنيئه من أجل ضمان مصالحهم اللامشروع.

حزب الله وحزب الشيطان

لقد تضمّنت خطبه الإمام عليه السلام إشاره لطيفه إلى ما أورده القرآن الكريم في آخر سوره المجادله، حيث صنفت الآيه القرآنيه المباركه الناس إلى حزبين هما: «حزب الله» و «حزب الشيطان»، كما أشارت إلى الميزه الرئيسيه التي يتّصف بها حزب الله وهي صفة الحب في الله والبغض في الله «لا- تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ - كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ - حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١).

وفي مقابل ذلك هناك حزب يهم بحفظ مصالحه ويعتمد أسلوب النفاق والخداع ولا يتورع عن موالاه أعداء الله وإظهار الموده لهم إلى جانب بث بذور الظلم والفساد بين صفوف العباد، فيصفهم القرآن قائلا: «إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ - حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (٢).

والحزبان المذكوران لا- يختصان بزمان نزول القرآن وعصر صدر الإسلام، بل تتعدد صورهما وأشكالهما في كافه العصور والدهور. ولو ألقينا نظره عابره على عالمنا المعاصر / ٢٢.

ص: ١٤

١- (١) سوره المجادله

٢- (٢) سوره المجادله / ١٩. [١]

لشاهدنا بوضوح هذين التيارين وقد كمن أحدهما مقابل الآخر، فعاده ما يستند حزب الشيطان إلى منطق القوه الغاشم والخطرته والأموال والثروه والتآمر وممارسه الظلم والجور وبث بذور النفاق والفرقه وإشاعه الفساد والانحراف، بينما يستند حزب الله إلى القيم والمثل والمبادئ الحقه ولا- يتوانى فى التصدى لزعماء الحزب المذكور. يتربص حزب الشيطان عاده لاستغلال الفرص المناسبه ومنها الثورات والانقلابات التى تطيح بحكومته وتأتى بأخرى. وأفضل شاهد على ذلك ما شهدته حكومه الإمام على عليه السلام أوائل تشكيلها. فقد اتفقت كلمه ما تبقى من فلول الجاهليه الذين برزوا للوجود فى خلافه عثمان على مواجهه ربيب الإسلام وتلميذ النبى صلى الله عليه وآله الإمام على عليه السلام، فأشعلوا نيران الفتن التى كان من المقدر للإمام إخمادها والتغلب عليها، فعاشوا فى الأرض فساداً بما لم يدع للإمام من سبيل سوى الوقوف بوجههم ومقاتلتهم.

فالإمام عليه السلام يحذر الأمة ومنذ اليوم الأول لحكومته من مكايد حزب الشيطان وعدم الانخداع بأساليبه والأعبيه القدره.

وأخيراً يفهم من عباراته عليه السلام أنّ للظلم والجور وطن وأنه يستند إلى أسس ودعائم! نعم وطن الجور والظلم هو الموضع الذى يتجحفل فيه عسكر الشيطان، كما أنّ المبادئ التى ينتهجها حزب الشيطان لهى الأسس والدعائم التى يرتكز عليها الظلم والجور.

ج ج

ص: ١٥

«وَأِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ! فَلَيْتَن كُنْتُ شَرِيكُهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيْبَهُمْ مِنْهُ وَلَيْتَن كَانُوا وَلَوْهُ دُونِي فَمَا التَّبِعَهُ إِلَّا عِنْدَهُمْ وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَزْتَضِعُونَ أَمَّا قَدْ فَطَمْتُ وَيُحْيُونَ بِدَعَا قَدْ أُمِيتَتْ.

يا حَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلَامٌ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّتِهِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَعَلِمَهُ فِيهِمْ» .

الشرح والتفسير

المعذرون المفتضحون!

يشرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه ما أورده في بدايتها، ثم يعرض الأدله القاطعه التي تدين ناكثي البيعه ومؤججي نار الحرب ويفضحهم أمام المسلمين. فقد أشار عليه السلام إلى الذريعه الأصلية التي تمسك بها طلحه والزبير وأعوانهما؛ أى المطالبه بدم عثمان، فقال عليه السلام: «وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه» - روى المؤرخ المعروف الطبرى في تاريخه عن أحد أصحاب عثمان أنّ علياً عليه السلام كان فى ماله بخير لما حصر عثمان، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحه، وكان لطلحه فى حصار عثمان أثر، فلما قدم على عليه السلام أتاه عثمان، وقال له: أمّا بعد؛ فإنّ لى حق الإسلام وحق الأخا والقرابه والصهر، ولو لم يكن من ذلك شىء وكنا فى جاهليه، لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم - يعنى طلحه - فقال له على عليه السلام: أنا أكفيك، فاذهب أنت. ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامه بن زيد، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحه وهى مملوءه من الناس، فقال له: يا طلحه، ما هذا الأمر الذى صنعت

بعثمان؟ فقال: يا أبا الحسن، أبعده أن مس الخرام الطيبين! فانصرف على عليه السلام حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب، وفرق مافيه على الناس؛ فانصرف الناس من عند طلحه حتى بقي وحده، وسرّ عثمان بذلك؛ وجاء طلحه فدخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنني أردت أمراً فحال الله بيني وبينه، وقد جئتك تائباً - فقال: والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً؛ الله حسيبك يا طلحه. (١) ثم ذكر الطبري في موضع آخر من تأريخه أن عثمان حين قتل، خرج من عنده «سودان بن حمران» وهو يقول «أين طلحه؟ فقد قتلنا عثمان» (٢).

فالذي يستفاد من هذه الشواهد وسائر القرائن التأريخية أن طلحه كان من المخططين الرئيسيين لقتل عثمان. أمّا جملة عائشه بشأن عثمان فهي معروفة مشهوره للجميع فقد كانت تنادى صراحه «اقتلوا نعثلاً! قتل الله نعثلاً» وكانت تقصد بنعث عثمان.

ابن أبي الحديد يصرح في شرحه لاحدى خطب نهج البلاغه بشأن موقعه الجمل فيقول: يعترف جميع المؤرخين المسلمين بأنّ عائشه كانت من أعدى أعداء عثمان وهي التي أخرجت قميص رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت تقول «هذا قميصه لم يبيل وقد أبلى عثمان سنته»، وقيل أنّ أول من دعا عثمان نعثلاً عائشه، وكانت تقول: «أقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً» (٣). فالعجيب ورغم ذلك قد خرج هؤلاء للمطالبة بدم عثمان! ويبدو أنّ هذه المسائل ليست عجيبة في عالم السياسة (السياسة التي تفتقر إلى الإيمان والتقوى والورع) في أن يتآمر بعض الأفراد ثم يهبون للوقوف بوجه هذه المؤامرات من باب الدفاع! ثم قال الإمام عليه السلام: «فلئن كنت شريكهم فيه فان لهم لنصيبهم منه ولئن كانوا ولوه دوني فما التبعه إلا عندهم».

فالمراد أنّ الجميع يعلم بأنّ هؤلاء شركاء في قتل عثمان، ولو افترض بانّي شريك أيضاً في هذا الدم (والحال أنّي لست غير شريك فحسب، بل بذلت قصارى جهدى لاطفاء نيران هذه الفتنة) فإنّ التهمة ثابتة بحقهم، فان كانوا هم النواه الأصلية في هذا العمل فان عليهم أن يتحملوا مسؤوليه عملهم! وإذا كان الأمر كذلك فما أوقحهم في قيامهم ومطالبتهم إياي بدم عثمان.

ص: ١٨

١-١) تأريخ الطبري ٣ / ٤٥٣. [١]

٢-٢) تأريخ الطبري ٣ / ٤١١. [٢]

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦ / ٢١٥. [٣]

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «وإن أعظم حجتهم لعلى أنفسهم». حيث يميظ اللثام عن الدافع الرئيسي وهو أن هؤلاء كانوا يرغبون باستمرار الأوضاع التي كانت سائده على عهد عثمان، فتجعل لهم بعض الامتيازات فى بيت المال، غير أن ذلك العهد ولى واندرس وليس هنالك من سبيل إلى عودته إلى مسرح الأحداث ثانية: «يرتضعون أما قد فطمت ويحيون بدعه قد أميتت» .

كما وردت عده تفاسير لقوله عليه السلام: «أما قد فطمت» منها أن يكون المراد تلك السنن الجاهليه والبدع والعصبيه التى كانت سائده قبل الإسلام، حيث يتشبثون بكل الوسائل الأخلاقية من أجل الحكومه، فأمير المؤمنين يصف ذلك العهد بالأم التى فطمت فلم تعد هنالك من وسيله لتحقيق المطامع» (١).

ويبدو أن هذا التفسير يناسب العبارة الثانية «ويحيون بدعه قد أميتت» لا- العبارة الاولى، كما أن جمع العبارتين بمعنى واحد يخالف ظاهر اللفظ. فى حين ذهب البعض إلى أن المراد أنهم بمطالبتهم بدم عثمان إنما يريدون احياء أيام حكومته، رغم أن هؤلاء المطالبون بدمه هم من بين الأفراد الذين ثاروا عليه وسببوا قتله ومن هنا أرادوا أن يرتضعوا أما قد فطمت. وبالطبع فانه يمكن الجمع بين كل هذه المعانى، وإن بدأ المعنى الأول أنسب. فالنتيجة التى سستمخض عنها حركة هؤلاء الافراء سوف لن تكون سوى الفشل الذريع؛ الأمر الذى عبر عنه الإمام عليه السلام بالقول «يا خيبة الداعى! وإلام أُجيب» (٢). والواقع انهذه العبارة تكهن بالنتيجة التى ستؤول إليها معركه الجمل. فالإمام عليه السلام يعلن أن عاقبتهم ستكون الفشل والهزيمة؛ عاقبه الغدره الذين خططوا لقتل عثمان ثم انبروا للمطالبه بدمه ففرقوا صفوف المسلمين فضلوا طائفه من الناس وخسروا الدنيا والآخره. ثم قال الإمام عليه السلام: «وإئى لراض بحجه الله عليهم وعلمه فيهم» ولعل مراده بحجه الله، ما ورد فى الآيه القرآنيه بشأن البغاه «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي

ص: ١٩

١-١) منهاج البراعه ٣ / ٣١٠.

٢-٢) «الخبية» بمعنى اليأس، والمراد بالداعى هنا طلحه والزبير الذين دعوا الناس للخروج على عثمان. وقوله إلام أُجيب، تحقيراً لاولئك الذين اتبعوهما دون دليل.

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» (١). أمّا قوله عليه السلام: «علمه فيهم» فقد تكون إشارة للحديث المشهور عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن علي عليه السلام «قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين». فلما سألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الفرق الثلاث قال: الناكثين أهل الجمل، والقاسطين أهل الشام والمارقين أصحاب النهروان» (٢).

ولما كان الإمام عليه السلام راضى برضا الله وعالم بما ستؤول إليه الأحداث من يأس العدو وهزيمته فان روحه مفعمه بالرضى والهدوء والسكينه.

ج ج

ص: ٢٠

١-١) سورة الحجرات / ٩. [١]

٢-٢) إحقاق الحق ٤ / ٩٩ [٢] نقلاً عن ينابيع الموده.

«فَإِنْ أَبَوْا أُعْطِيَتْهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِيًا مِنَ الْبَاطِلِ وَنَاصِرًا لِلْحَقِّ! وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أُبْرَزَ لِلطَّعَانِ! وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجَلَادِ هَبْلَتْهُمْ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهْدَدُ بِالْحَزْبِ وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وَعَظِيمِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي» .

الشرح والتفسير

لقد تقدم الإمام عليه السلام بتحذير تلك العناصر من مغبه مواصله الغوايه وضروره الوقوف على جسامه الأخطاء وهجر سبيل الشيطان والوفاء ببيعتهم للإمام عليه السلام والكف عن إثارة الفتن وتأجيج نار الحرب. وهنا - فى القسم الأخير من الخطبه - يحذره من أن عدم الارعواء ومنح الأذان الصاغيه للنصح سوف يضطره للتكلم معهم بلغه السيف، السيف الذى كفى به شافياً فى الرد على عبده الأهواء والشهوات من أصحاب المنطق الغاشم.

فقد قال عليه السلام: «فان أبوا أعطيتهم حد السيف» العلاج الأفضل للباطل «وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق» . فما يقال أن رسول الله صلى الله عليه وآله حمل القرآن الكريم بيد والسيف بأخرى إنما يكشف عن حقيقه واقعيه مسلمه فى الحكومات الإلهيه. فالجهود التى بذلها الأنبياء من أجل إصلاح المجتمعات واجتثاث جذور الفساد والانحراف إنما تركزت بالأساليب المنطقيه والعقليه واسداء النصائح والمواعظ بغيه إلفات إنتباه الخاطئين إلى أخطائهم، ولكن من المسلم به أن هناك طائفه قد جعلت عقلها وضميرها آله طيعه بيد أهوائها وشهواتها، فهى لا تعرف سوى لغه السيف والقوه؛ الأمر الذى يضطر زعماء الأئمه

الربانيين إلى شهر السيف بوجه هذه الطائفه الطائشه والاطاحه برؤوسها العفنه، وهذا هو آخر الدواء حيال تلك الأمراض المستعصيه إذا ما عجزت غيره من الأدوية عن شفاء تلك الأمراض «إن آخر الدواء الكلى» (١) والواقع هو أن قوله عليه السلام: «شافياً من الباطل» وقوله: «ناصرًا للحق» من قبيل اللازم والملزوم؛ وذلك لأن علاج الباطل يؤدي إلى نصره الحق ونصره الحق تؤدي إلى اضمحلال الباطل. ثم يعرب الإمام عليه السلام عن فائق دهشته إلى أن هؤلاء قد أعلنوا عليه الحرب ودعوه إلى الطعان والصمود أمام سيوفهم وهو الذى تشهد له ساحات الوغى وميادين القتال فى المواقع التى تنكص فيها الأبطال «ومن العجب بعثهم إلى أن أبرز للطعان (٢) وأن أصبر للجلاد» (٣).

فالعباره تكشف بجلاء أن ناكثى البيعه هم الذين بادروا إلى نشوب المعركه، حيث هدوا الإمام عليه السلام بكل وقاحه بإعداد نفسه لمواجهه سيوفهم وحرابهم، وهذا ما توه إليه ابن أبى الحديد عن المؤرخ المعروف أبو مخنف قوله: رجع رسل على عليه السلام من عند طلحه والزبير وعائشه يؤذنونه بالحرب. (٤)

على كل حال فإن هذا التهديد يكشف عن مدى تعامى مؤججى فتنه الجمل عن رؤيه الحقائق والوقائع، وقد أعمى حب المناصب والمقامات بصيرتهم وبصائرهم حتى لم يعودوا يروا الحقيقه المطلقه التى تهتف بانديتهم ليل نهار، ألا وهى شجاعه وبساله على عليه السلام التى رأوها مراراً وكراراً فى الغزوات الإسلاميه على عهد النبى صلى الله عليه وآله. ثم عاود الإمام عليه السلام مواصله حديثه فى الاستغراب من ذلك التهديد الفارغ ليقدم الدليل القاطع على رفضه لما أوردوه فقال عليه السلام: «هبلتهم الهبول! لقد كنت وما أهدد بالحرب ولا- أُرهب بالضرب! وإنى لعلى يقين من ربى وغبر شبهه من دينى»، قوله عليه السلام «هبلتهم الهبول» (٥) - بالاستناد إلى مفهوم الهبل بمعنى الثكل

ص: ٢٢

١- ١) العباره مثل عربى معروف وقد أشير إليه فى بعض الروايات الإسلاميه ومنها الخطبه ١٦٨ من خطب نهج البلاغه.

٢- ٢) «طعان» بمعنى الضرب بآله وتستعمل عادة للرمح ويقال لذرب اللسان طعن أيضاً.

٣- ٣) «جلاد» من ماده «جلد» بمعنى الضرب بالعصا أو السيف أو السوط وهو هنا كناية عن الحرب.

٤- ٤) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٣٠٦. [١]

٥- ٥) «هبلتهم» بمعنى ثكلتهم، والهبول بفتح الهاء المرأه التى لا يبقى لها ولد، وهو دعاء عليهم بالموت.

بالولد - يريد به أنكم لا- تستحقون الحياة والبقاء وليس لكم سوى الموت، ثكلتكم أمهاتكم على هذه الأخطاء الشنيعة والانحراف الفكري الذي أوصلكم إلى هذه الحالة. وقد ورد شبيه هذه العبارة الذي يعطى ذات المعنى وهو قولهم «ثكلتهم الثواكل» والتي استعملها الإمام عليه السلام لهذا الغرض في سائر خطبه من نهج البلاغة.

على العموم فإن الإمام عليه السلام قد أشار في هذه العبارات إلى سابقته العريقة وتاريخه المشرق ليشير كناية، إنما يعرفني حتى مشركى العرب ولم يجرأ أحد على تهديدي بالحرب والمبارزة طيله حياتي، وقد عشت معي وزعمتم أنكم من المسلمين. المسألة الأخرى التي أشار إليها الإمام عليه السلام هي أن من يخشى الحرب يخشى القتل والشهادة، ومن يخشى القتل والشهادة فليس له من إيمان ويقين بالله سبحانه وأن طريقه مليء بالشكوك والشبهات؛ لأن من آمن وأيقن بسلامه طريقه ووثق بما عند الله فإنه يعلم أن قتال أعداء الحق وخصوم الدعوة لا- يكتنفه أى فشل أو هزيمة ولن ينطوى سوى على إحدى نتيجتين إما النصر وإما الشهادة؛ الأمر الذي صرحت به الآية الشريفة ٥٢ من سورة التوبة: «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ» وأما قوله عليه السلام: «فانى لعلى يقين من ربي، وغير شبهه من ديني» فقد اعتبره بعض شراح نهج البلاغة أنه يعطى مفهوماً واحداً ويؤكد بعضه البعض، إلماً أن الصحيح هو أن العبارتين من قبيل بيان العام بعد الخاص، وهى تشتمل على مفهومين. فالعبارة الاولى تشير إلى مقام اليقين لدى الإمام عليه السلام والذي ورد التعبير به عن الإمام عليه السلام قائلاً: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» (١).

والعبارة الثانية تشير إلى الوظائف الدينيه التي كشفت له عن كافة معالم الطريق دون الشعور بأدنى شك أو ريب، ولا سيما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قال له: «يا على ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين» (أصحاب الجمل وصفين والنهروان).

الرجال الأشداء

هنالك عدد من الأفراد أو الفئات التي تطالعنا في سوح الوغى طيله الصراع المرير بين

ص: ٢٣

١- ١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم لمئه كلمه مختاره من الجاحظ، الكلمه الاولى.

الحق والباطل وهم يتمتعون بالتفوق الكبير على خصومهم. على سبيل المثال فقد انتصر جند الإسلام على الجيوش الساسانية الجراه - التي كانت تفوقهم بعشره أضعاف من حيث العدد والعدة ومن حيث التجهيزات والوسائل الحربية التي لا يمكن مقارنتها بنظيرها لدى المسلمين - بل تميزت العسكريه الإسلاميه من حيث التعبئه والقتال على قيام مجموعات المستضعفين الحافه العزل من السلاح إلامن نور الإسلام والإيمان والمفاهيم القرآنيه والتعاليم الإسلاميه باقتحام الميدان وتحطيم اسطوره توازن القوى، لتحقيق الانتصارات تلو الانتصارات على أكبر الجيوش وأقواها. ولا غرو فانما ينبع ذلك من «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِخْدَى الْحُسِيِّينَ» فقد كانوا يرون أنفسهم منتصرين مهما كانت نتيجة الحرب، سواء انتهت المعركه بهزيمه الأعداء أو نيل الشهاده، فكلا النتيجتان سعادته كبرى.

وقد لمسنا هذا المعنى بوضوح فى الحرب المفروضه التى شنها النظام الصدامى ضد الجمهوريه الإسلاميه الفتيه، حيث وقفت كافه قوى العالم من الشرق والغرب خلفه لتقدم له كافه ألوان الدعم والاسناد، غير أنّ شبابنا المؤمن من قوات التعبئه والحرس الثورى والجيوش الذين تربوا فى أحضان القرآن ومدرسه أهل البيت عليهم السلام قد أركعوا هذا العدو الشرس وجرعوه مراره الهزيمه. نعم هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه ليعلن للأعداء من عبده الأهواء، لست أنا الذى يهدد بالحرب! لست أخشى الضرب فى سبيل الله، فقلبي قد غمر بنور الإيمان واليقين، بل أنا ربيب الإسلام والمدرسه النبويه التى ترى النصر حليفها بغض النظر عن النتيجة، وما عساها تكون سوى هزيمه العدو أو الفوز بالشهاده. وهذه هى الروحيه التى ينبغى أن يستشعرها المسلمون تجاه أعدائهم ولا يولون أدنى أهميه لهذا التفوق المادى الكاذب الذى قد يكون مؤثراً إلا أنه لن يحسم المعركه لصالح الباطل أبداً.

ومن خطبه له عليه السلام

وتشتمل على تهذيب الفقراء بالزهد وتأديب الأغنياء بالشفقة

القسم الأول

«أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطْرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قَسِمَ لَهَا، مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلِ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلَا تُكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً! فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ ذَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِثَامِ النَّاسِ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزِهِ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَعْرَمُ. وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيُّ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا دَاعِيَ اللَّهِ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ، وَإِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَزْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَزْثُ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ» .

١ - ١) أورد المرحوم الكليني عن الإمام الحسن عليه السلام قسماً من هذه الخطبة في كتاب الكافي ٥ / ٥٦، كما أورد قسمها الآخر - حسب صاحب مصادر نهج البلاغه - [١] نصر بن مزاحم في صفين وابن عبد ربه في العقد الفريد والزمخشري في ربيع الأبرار.

استهل الإمام عليه السلام خطبته بتقسيم رزق الإنسان وما قسم له على ضوء التقدير والتدبير الإلهي، ثم أوصى عليه السلام بأن من رأى لأخيه نعمه فلا ينبغي أن يكن له البغض أو الحسد (كما لا ينبغي أن يغتر إن جنى ثروه فيضحى بدينه وإيمانه من أجلها) آنذاك دعا عليه السلام الناس إلى الإخلاص والورع والتقوى وصفاء النية وصلاح العمل بعيداً عن الرياء والعجب والفخر. أما في القسم الأخير من الخطبه فقد أشار عليه السلام إلى بعض المسائل الاجتماعيه الحساسه من قبيل تقويه أواصر القرابه وضروره التعاضد والتعاون بين أفراد القبيله والأئمه الإسلاميه الواحده بغيه التغلب على المصاعب والمشاكل، مؤكداً على عدم فقدان الانتماء إلى العشيره من خلال اعتماد البخل والإمساك؛ فإنَّ ضرر هذا الفقدان عليه سيكون أعظم وأشدَّ ممَّا هو عليه بالنسبه للعشيره، فانه إنَّما يمسك يده بينما بالمقابل تمسك عنه أيدي كثيره.

الشرح والتفسير

الرضا والتسليم أمام إرادة الله

أشار الإمام عليه السلام - في هذه الخطبه - إلى مسأله مهمه ذات أثر عظيم في تهذيب النفوس والحد من جموح الفرد والمجتمع. وهي ممَّا لا شك فيه أنَّ الحياه الاجتماعيه البشريه تعد الأساس لبركات وثمرات عظيمه، بحيث يمكن أن نقول إنَّ القسم الأعظم من النجاحات والمكتسبات الباهره في كافه المجالات والميادين العلميه والصناعيه والاجتماعيه إنَّما حققتها البشريه في ظل هذه الحياه الاجتماعيه. وإلى جانب تلك الثمار والمعطيات والبركات كانت هنالك المشاكل الخطيره التي تهدد بالفناء جميع الآثار الايجابيه لهذه الحركه مالم تجد الحلول الشافيه.

ومن ذلك، وجود الفوارق بين بنى البشر من حيث الاستعداد والقابليات الجسميه والروحيه على المستوى الفردي والاجتماعي؛ الأمر الذي أدَّى إلى التفاوت الفاحش في الإمكانيات الماديه والماليه. ومن هنا بدت ردود الفعل السلبيه للأفراد الذين تخلفوا عن هذه المسيره، أو سعوا بتخبط للخلط بين الحلال والحرام ليزجوا بأنفسهم في هذا السباق غير المتكافئ والمجهول النهايه في مصاف من تقدّم عليهم من حيث الجوانب الماديه ولم يكن أمامهم

سوى سيئين، إِمَّا الشعور بالإحباط واليأس والانسحاب من ميدان العمل والنشاط والتفوق على الذات، أو اشتعال نيران الحسد والبغض فى قلوبهم تجاه أولئك والهم بالانتقام منهم. من جانب آخر فإنَّ البعض الذى يتمتع بالإمكانات قد يصاب بالغرور والكبر والعجب والفخر فيندفع نحو الطغيان والفساد والانحراف.

الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بدورها ودرءاً لهذه المفاصد والحيلولة دون ظهورها قد لفتت أنظار الجميع إلى حقيقته مفادها أنّ هذه الفوارق والزيادة والنقصان ليست مسأله عبثه بقدر ما هي واقع يستند إلى الحكمة الإلهية التي تنظم شؤون العباد على أساس ما يصلحهم ويقوم حياتهم. ولعل الأسرار التي يختزنها هذا التصنيف خافية علينا نحن العباد فى أغلب الأمور، إلّا أنّ مجرد علمنا بأنّ الله حكيم ورحمن ورحيم هو الذى ينظم الأمور وتشعر قلوبنا الرضى والتسليم لهذا التنظيم والتخطيط؛ فإنّ القضية ستتغير وتخرج من شكلها الظاهري، آنذاك ستسود السكينه والطمأنينه قلوبنا وأرواحنا وستزول كافة تلك العواقب السلبية التي بدت لنا لأول وهله. ومن هنا تواتر التأكيد على الرضى والتسليم ولاسيما بالنسبه للرزق فى الآيات والروايات.

نعود الآن بعد هذه المقدمة المختصره إلى تفسير الخطبه، فقد تطرق الإمام عليه السلام فى بدايه خطبته عن تهذيب النفوس ووضع حدّ للمفاصد الاجتماعيه، فقد قال عليه السلام: «أمّا بعد: فان الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها، من زياده أو نقصان» فالتشبيه بقطرات المطر تشبيه غايه فى الروعه؛ لأنّ قطرات المطر تنزل بصوره مختلفه على الأرض وفقاً للإراداه الإلهيه والحكمه الربانيه، والأرزاق الإلهيه تسقط على هذه الشاكله من السماء إلى البشريه على الأرض بفضل الله ورحمته. فقد ينزل المطر بغزاره على بعض المناطق حتى تسيل أنهاراً عظيمه بينما قد تشهد مناطق أخرى زخات خفيفه من المطر طيله السنه. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة التي ينبغى أن يستحضرها الناس: «فاذا رأى أحدكم لأخيه غفيره (1) فى أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنه» .

ص: ٢٧

١-١) «غفيره» من ماده «غفر» بمعنى الستر ومن هنا اطلقت المغفره على ستر الذنوب كما تطلق على المال الكثير لتغطيته جزءاً واسعاً من الحياه، حتّى أنّه يستر العيوب أحياناً، ولذلك يقال للكثرة والزياده غفيره.

لعل غفيره تشير إلى أنّ الأموال والثروات لمن دوافع الغفله وستر عيوب الإنسان حتى عن نفسه، وإن وردت غفيره هنا بمعنى المال الكثير.

مايجدر ذكره أنّ الفتنه هنا لا تعنى الامتحان، وإن وردت عادة بهذا المعنى فى الأعم الأغلب، بل المراد بها ما يدعو إلى الفساد والخداع وردود الأفعال السلبيه من قبيل الحسد والعداوه والبغضاء التى يمارسها الفقراء المعدومون حيال أصحاب الأموال والثراء. ثم قال عليه السلام: «فان المرء المسلم مالم يغش دناءه تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام الناس، كان كالفالج (1) الياسر (2) الذى ينتظر أول فوره من قداحه (3) توجب له المغنم، ويرفع بها عنه المغرم». كما أنّ المسلمين البعيدين عن الخيانه إنّما ينتظرون من الحق سبحانه أمرين: أمّا حلول الأجل الإلهى (وقد أفنى عمره بطيب السمع وحسن العاقبه) فما عند الله خير له وأبقى. وأمّا أنّ يوسّع الله عليه رزقه فى هذه الدنيا ويؤمن عليه بالصاحبه والأهل والولد فى سلامه من دينه وصون لعزته وكرامته «وكذلك المرء المسلم البرىء من الخيانه ينتظر من الله إحدى الحسنين: إمّا داعى الله فما عند الله خير له، وإمّا رزق الله فاذا هو ذو أهل ومال، ومعه دينه وحسبه». ولكن لا بدّ من الإذعان إلى الفارق الكبير بينهما فأحدهما من قبيل زرع الدنيا كالمال والولد، والآخر من زرع الآخرة وهو العمل الصالح «وإنّ المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة». وقد يجمع الله سبحانه نعم الدنيا والآخرة لبعض الأفراد «وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام».

والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد كشف بهذه العبارات عن حقيقه مهمّه ومصيريه فى حياه الإنسان تكمن فى ضروره عدم تلوثه بالذنوب والمعاصى والإرجاس التى لا تجر عليهم سوى الخزى والعار والسقوط من أعين الناس والحد من شخصيته لديهم.

ص: ٢٨

١- ١) «الفالج» من ماده «فالج»، قال صاحب مقاييس اللغه لها معنيان؛ الأول النصر والغلبه، والآخر المسافه بين شيئين. وفسّره صحاح اللغه بالظفر والفوز، وقد ورد هنا بهذا المعنى.

٢- ٢) «الياسر» من ماده «يسر» بمعنى السهوله، وميسر ويسار حسب قول الراغب فى المفردات [١] بمعنى الغنى والثروه. وأطلق على المقامر الذى يلعب بقداح الميسر وقد وردت فى العبارة بمعنى اللاعب بالقداح المحفوظ منها.

٣- ٣) «قداح» جمع «قدح» على وزن فعل بمعنى السهم. وهى فى الأصل بمعنى كسر الشىء وعييه.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ هناك أحد مصيرين رفيعين بانتظار الفرد الذى يعيش النقاء والعفّة فى حياته، أن يقضى حياته معزلاً مكرماً ليحث السير نحو رحمه الله ومغفرته وأجره وثوابه. أو أن يفيض الله عليه من نعم الدنيا فى هذه الحياه الدنيا ويجمع له خير الدارين.

القضية المهمّة التى حظيت باهتمام شرّاح نهج البلاغه هى أنّ الإمام على عليه السلام شبّه المؤمن الذى يتمتع بالغلبه والسعاده والفوز بلطف الله ورحمته المقامر الماهر الذى يفوز بالتضارب بالقداح، وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: كيف يشبه الإمام عليه السلام المؤمنين الذين يعيشون الرضى والتسليم تجاه رزق الله وقسمه بهذا الفرد المقامر الأثيم المقارف لهذه الكبيره من الكبائر؟

يتّضح من التأمل فى عبارات الإمام عليه السلام من قبيل «فوزه» و «قداح» و «مغنم» و «مغرم» أنّ الياسر ليس المراد به القمار، بل أراد به نوعاً خاصاً من الاقتراع كانت تمارسه العرب، حيث كانوا يأتون بعشره سهام لكل واحد منها اسم، ويشترون جملاً فيذبحوه ويقسّموه عشره أقسام، ثم يجعلون السهام مع بعضها ليقوم من يثقون به باستخراجها واحداً واحداً، ثم يكون الفائز على أساس ترتيب السهام حسب أسمائها الأول والثانى إلى السابع والسهم الأول فيها يسمى «مُعَلَى» - والسهام الأخرى إذا خرجت باسم أحدهم فهو الذى يدفع قيمه الجمل، أمّا الفائزون فيعطون سهامهم للفقراء دون أن يأكلوا منها شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك العمل. (١)

طبعاً لا يجوز هذا العمل شرعياً، إلّا أنّه لا يشتمل على معايب وفواجع القمار. فالإمام عليه السلام أراد أن المؤمنين من أهل الرضى والتسليم يشبهون الأفراد الذين يفوزون بسهم المُعَلَى فى ذلك الاقتراع، ووجه الشبه أنّه يفوز بأكبر نصيب دون أدنى عناء. والتعبير بالقداح وأول فوزه والغنيمه والنجاه من الخساره كلّها تناسب هذا المعنى؛ وهذا ليس متعارفاً فى القمار حيث لا يترك المقامر المقامره لمجرد غلبه فى الوهله الاولى، بل يواصل قماره حتّى لا تعرف النتيجة التى سيؤول إليها. وبالطبع فإنّنا لا ننكر أنّ المفردة مفهوم واسع يشمل الاقتراع وألعاب الحظ، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى أنّ القمار بمعناه الحقيقى يختلف تماماً عن ذلك النوع من الاقتراع، ولا سيما أنّ القرآن قد عبر ب «الألزلام» - الميسر وإن ورد الظم عليهما معاً «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...» (٢).

ص: ٢٩

١ - ١) شرح نهج البلاغه، المحقق الخوئى، ٣ / ٣١٩ (بتلخيص). وقد وردت إشارة مختصره إلى هذا المطلب فى كتاب معارج نهج البلاغه وهو من أقدم شروح هذا الكتاب، معارج نهج البلاغه، ص ١١٠.

٢ - ٢) سورة المائده / ٩٠. [١]

لعل هنالك من يقول بأنّ روح الرضى والتسليم لأمر الله في الرزق وفي المنافع المادية بصوره عامّه إنّما تهدأ النفس البشرية وتحدّ من جماحها وتحوّل دون الإنسان والارتقاء في ميادين الحرص والطمع وجباية الأموال واللهث وراء الثروة والانغماس في المحرمات كما تصدّه عن استشعار معنى الحسد والبغض، إلّا أنّ مثل هذا الشعور قد يقتل عند الإنسان روح السعى والمثابرة بحيث يتشبّث كلّ فرد بذريعه من الذرائع من قبيل أنّ الأرزاق مقسّمه وكلّ قد سمى الله له رزقه ونصيبه فيخلد إلى السكون والدعة والكف عن العمل، فما جدوى ذلك والأرزاق قد قسمت؛ الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى تخلف الأمتّه في المجال الاقتصادي والتطور المادي واجتثاث جذور الفقر والحرمان.

إلّا أنّ هذا الإشكال قد يزول إذا ما ألتفت إلى أمرين: الأول هو أنّ هذه التعاليم الإسلامية والوصايا الأخلاقية إنّما توخّحت الحد من تهافت الإنسان على الماديات وتناسيه لكل ما سواها، بعبارة أخرى فإنّ الإنسان يمتلك الدوافع التي تسوقه نحو الماديات والنهوض بحياته الاقتصادية، ولو لم تكن هنالك من كوابح لهذه الدوافع فإنّه سينطلق بسرعه هوجاء نحو الحرص والتسابق في جنى الأموال والثروة بحيث يحطم كافة الحدود والقيود الأخلاقية والقيم المعنوية. وبعد هذا هو المعنى الذي أشار له الإمام على بن الحسين عليهما السلام حين قال: «معاشر أصحابي! أوصيكم بالآخرة ولست أوصيكم بالدنيا! فإنّكم بها مستوصون وعليها حريصون وبها متمسّكون» (١). والأمر الثاني يكمن ضروره جمع كافة الآيات والروايات الواردة بهذا الشأن من أجل التوصل إلى النتيجة النهائية بخصوص التعاليم الإسلامية؛ لأنّ القضايا الإسلامية المحورية لا تبدو واضحة المعالم من خلال آيه واحده أو حديث واحد. ففي مجال تحصيل الرزق والقناعة به وضروره السعى والحركة هنالك الآيات والروايات التي أشارت من جهه إلى مسأله الرضى والتسليم تجاه التقديرات الإلهية، وهنالك من جهه أخرى

ص: ٣٠

الآيات والروايات التي وردت في الحث على السعى والعمل، بحيث يفهم من مجموع الطائفتين من الآيات والروايات أن الضعف والوهن في هذا المجال ليس صحيحاً كما أن الحركة الحريصة والممزوجة بالذنب والمعصية التي تفرزها طبيعته تجاهل التقدير الإلهي والتوكّل على الله هي الأخرى ليست صحيحة أيضاً. وبعبارة أخرى، صحيح أن الرزق قد قسم من جانب الله، غير أن ذلك مشروط بشرط السعى والجهد المقرون بالخلق والتقوى والورع.

ونختتم البحث بما ورد في الحديث النبوي الشريف بشأن مقام الرضى والتسليم في أن طائفة من المسلمين تطير من قبورها يوم القيامة إلى الجنّة لتتنعم بنعيمها دون أن تشهد الحساب فتسألهم الملائكة عن الحساب والجواز على الصراط، فتجيب أنها لم تر الحساب والصراط. وتسألهم عن جهنم، فجيّبوا بعدم رؤيتها. فيسألون من أيّ أمتم أنتم؟ فتقول من أمّه محمد صلى الله عليه وآله فتقسم عليهم الملائكة عن أعمالهم التي أدت بهم إلى هذه الكرامة، فيقولون: «كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير ممّا قسّم لنا» فتقول لهم الملائكة: «حقّ لكم هذا» (١).

ج ج

ص: ٣١

«فَاخِذُوا مِنَ اللَّهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ! وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ يَكِلْهُ اللَّهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَمُعَايِشَةَ السُّعَدَاءِ وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ» .

الشرح والتفسير

يوصل الإمام عليه السلام خطبته بعدد من الوصايا الأخلاقية فيقول عليه السلام: «فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه» ولعلّ العبارة إشارة إلى الآيه الشريفه: «فَلْيَخِذْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (١) أو إلى الآيه: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (٢). ثم حثّ عليه السلام على خشيته وتقواه بحيث لا تكون هناك من حاجه لالتماس الأعذار الواهيه «واخشوه خشيه ليست بتعذير» (٣)، لأنّه العالم بباطن كل فرد وأسراره وأعداره الصحيحه من السقيمه. جدير بالذكر أنّ العبارة السابقه تحدثت عن الحذر من الله، ثم أردفت بالحديث عن الخشيه، وقد صرح اللغويين أنّ الخشيه تتضمن الخوف المقرون بدرك العظمه، ومن هنا صرح القرآن الكريم «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» (٤)، أمّا الحذر فيقال حين يحتاط الإنسان من خطر قطعي أو محتمل. ثم أشار عليه السلام في وصيته الثالثه إلى الإخلاص في التيه وتنقيه الأعمال من الرياء والسمعه لأنّ من عمل لله

ص: ٣٣

١-١) سورة النور / ٦٣. [١]

٢-٢) سورة آل عمران / ٢٨. [٢]

٣-٣) «تعذير» من ماده «عذر» وهنا بمعنى عدم العذر الصحيح.

٤-٤) سورة فاطر / ٢٨. [٣]

وشرك معه آخر وكله الله إلى ذلك الآخر وقال له خذ أجرك منه فانك لم تعمل لى «واعملوا فى غير رياء ولا سمعه، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له» .

نعم خشيه الله وخشيه مقارفة الذنوب والمعاصى لا تكفى لوحدها، بل لابد من الإتيان بالأعمال الصالحة البعيده عن كافه أشكال الرياء والسمعه، والرياء يعنى مرأاه الآخرين ولفت أنظارهم لما يقوم به الإنسان من أعمال، والسمعه أن يقوم بالعمل لله، إلا أنه يسعى لإسماعه الآخرين، بحيث يجلب انتباههم إليه، و إلا يفعل ذلك يسر لسماع الآخرين فيثنون عليه ويظرونه.

والمعروف بين العلماء أن السمعه لا تبطل العمل، إلا أنها مذمومه خلقاً ومدعاه لانحطاط الإنسان الروحى والمعنوى، ولعلها تؤدى إلى زوال الأجر والثواب. وقد استدلل الإمام عليه السلام فى تحذيره من السمعه والرياء بأن الله سبحانه لا يقبل إلا العمل الخالص لوجهه فإن شرك العبد معه أحد آخر وكله الله إليه ليأخذ منه أجره، وبالطبع فإنه لا يملك القدره على إعطاء الأجر والثواب. والعبارة هى مضمون حديث قدسى معروف نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الحق سبحانه قال: «أنا خير شريك ومن أشرك معى شريكاً فى عمله، فهو لشريكى دونى، لأنى لا أقبل إلا ما خلص لى» (١).

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «نساء الله منازل الشهداء ومعاشه السعداء ومرافقه الأنبياء» . حيث يهدف الإمام عليه السلام إلى تعريف الأمة بالقيم الإلهيه الحقه من قبيل الشهاده ومرافقه الأنبياء وهى الأمور التى لا تنال بسهولة كما لا تمنح للإنسان بالمجان «ومن يطع الله ومن يطع الله والرسل فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً» (٢).

فالمراحل الثلاث - الشهاده والسعاده ورفقه الأنبياء - التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام يمكن أن تكون من قبيل العله والمعلول، فالشهاده سبب السعاده، والسعاده سبب مرافقه الأنبياء. كما يمكن أن يكون الكلام إشاره لطيفه إلى حوادث المستقبل وشهاده الإمام عليه السلام.

ص: ٣٤

١-١) منهاج البراعه ٣ / ٣٢٤ كما ورد هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام فى بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٣. [١]

٢-٢) سورة النساء / ٦٩ - ٧٠. [٢]

للشرك والوثنيه شعب، من أهمها الرياء والسمعه. والرياء من ماله الرؤيه بمعنى التظاهر وإفاته نظر الآخريه إليه من خلال التظاهر بالعباده والأعمال الحسنه. وهذا الفرد فى الواقع مشرك، لأنه يرى عزته وكرامته بيد الآخريه لا بيد الله، ولذلك يقوم بأعماله بدافع من لفت انتباه الآخريه إليه.

أما بشأن السمعه فهناك تفسيران: أحدهما أن السمعه هو أن يقوم الفرد بالعمل قربه إلى الله، فتخالطه الأفكار بأطلاع الآخريه وإسماعهم بعمله ليحظى بمدحهم وثنائهم. وهو الأمر الذى لا يوجب بطلان العمل حسبما صرح بذلك الفقهاء، لأنه قد حصل بعد الإتيان بالعمل، إلا أنها تقلل من ثواب العمل أو تقضى عليه، والآخريه أن تكون خالطته فكره إسماع الآخريه منذ بدايه العمل ليثنوا عليه ويكيلوا له المدح والثناء. وليس هنالك من فارق بين السمعه بهذا المعنى والرياء، سوى أن المرأى يقوم بالعمل ليراه الآخريه بينما يقوم الآخريه بالعمل ليسمعه الآخريه، وعليه فالعملان ليسا بخالصين.

على كل حال فإن الرياء والسمعه من أكبر آفات الأعمال العباديه. ولما كان نفوذ الرياء والسمعه إلى الأعمال الإنسانيه غايه فى التعقيد والدقه فقد تواتر التحذير منه كرارا فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه. وأعظم مفسده لهذا العمل هو أنه يقضى على روح التوحيد ويقذف بصاحبه فى وادى الشرك والازدواجيه فى العباده، لأن توحيد الأفعال يعلمنا الإيمان والإذعان بأن كل شىء بيد الله وأن الأجر والثواب والعزه والكرامه والرزق . . . تابعه لإرادته الله مآتمره بأوامره، إلا أن المرأى إنما يلتمسون هذه الأمور من الآخريه، وهذا شرك علنى. وقد ورد فى الروايات يقال يوم القيامه للمرأى: «يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خلاص لك اليوم» (1). هذا من جانب، ومن جانب آخريه فإن الرياء والسمعه مصدر كافه الاختلالات الاجتماعيه، فالمرأى إنما يهتم بظاهر العمل دون الإكتراث إلى باطنه، فالظاهر جميل والباطن فاسد.

المؤسّسات والدوائر تتمتع بظاهر أنيق بينما تستبطن الخواء والفساد من الداخل، الأفكار سطحية ساذجه خاليه من أى عمق وجدور فالهدف فى المجتمعات المرائيه إنّما يولى للكميّه لا للكيّفِيّه. ومن البديهي أنّ مثل هذه المجتمعات إنّما تحت الخطى نحو الانحطاط والاضمحلال والانهيّار. وبالطبع على العكس من ذلك فهنالكَ اليوم البلدان التى أولت أهميه قصوى للقطاعات الصناعيه والزراعيه والاقتصاديّه وحتت الخطى من أجل خدمه المجتمع ورفاهه فقد سارت نحو الرقى والتطور والازدهار.

نكتفى بهذا المقدار بشأن الرياء والسمعه وتترك الخوض فى التفاصيل أكثر إلى الأبحاث القادمه بما يتناسب والموضوع.

ج ج

ص: ٣٦

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَسْتَعْنَى الرَّجُلُ - وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ - عَنْ عِترته، وَدَفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَأَكْثَرُهُمْ لَشَعْنِهِ وَأَعْظَمُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلِهِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسَانُ الصُّدْقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرًا لَهُ مِنَ الْمَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ» .

الشرح والتفسير

لَمَّا فَرَّغَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ وَصَايَاهُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَعْدُمِينَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ وَإِلَّا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْإِنْحِرَافِ الْأَخْلَاقِي بِسَبَبِ سُوءِ الْأَوْضَاعِ وَصَعُوبَةِ الْعَيْشِ الَّتِي يَعَانُونَ مِنْهَا، وَأَصْلُ خُطْبَتِهِ لِيَخَاطِبَ هُنَا الْأَغْنِيَاءَ وَالْمَرْفَهِيَّ بِمَا يَحْفَظُ التَّوَازِينَ فِي الْمَجْتَمَعِ. فَقَدْ حَثَّمَ بَادِيَّ ذِي بَدءٍ إِلَى مَدِّ يَدِ الْعَوْنِ وَالْمُسَاعَدَةِ إِلَى بَطَانَتِهِمْ وَأَقْرَبَائِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ، وَيَلْفَتُ نَظْرَهُمْ إِلَى غَضِّ الطَّرْفِ عَنِ الْأَمْوَالِ وَالثَّرْوَةِ الَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَجْعَلَ الْإِنْسَانَ غَنِيًّا عَنْ قَرَابَتِهِ «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَسْتَعْنَى الرَّجُلُ - وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ - عَنْ عِترته (١)، وَدَفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ». فَالْوَاقِعُ أَنََّّهُمْ أَكْثَرُ سُنْدٍ يُوَفِّرُ لَهُ الْحَمَايَةَ وَالِدَعْمَ وَيُزِيلُ عَنْهُ الْمَشَاكِلَ وَالْمَخَاطِرَ، وَإِذَا مَا تَعَرَّضَ لِبَعْضِ الظُّرُوفِ الصَّعْبَةِ وَالْحَوَادِثِ الْخَطِيرَةِ، كَانَتْ عِترته أَشْفَقَ مِنَ الْآخِرِينَ بِهِ وَأَحْرَصَهُمْ

ص: ٣٧

١- ١) «عِترته» قَالَ أَرْبَابُ اللُّغَةِ تَعْنَى أَصْلِ الشَّيْءِ وَأَسَاسِهِ، كَمَا قِيلَ أَنَّ هَذِهِ الْمَفْرُودَةَ أَقْتَبَسَتْ مِنْ عِتر (عَلَى وَزْنِ فِطْرٍ) نَبَاتٍ مَعْطَرٍ كَثِيرٍ الْغُصُونِ وَالْأَوْرَاقِ وَتَشِيرُ إِلَى فُرُوعِ الْقَرَابَةِ. وَقِيلَ تَطَلَّقَ الْعِترَةُ عَلَى الْأَوْلَادِ فَقَطْ. وَعَلَيْهِ فَعِترَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هُمْ وَوَلَدُ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ الْحَدِيثُ الْمَعْرُوفُ «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أَهْلَ بَيْتِي (لسان العرب، الصحاح، مقاييس اللغة) .

عليه «وهم أعظم الناس حيطة (١) من ورائه وألمهم (٢) لشعته (٣) وأعطفهم عليه عند نازله إذا نزلت به». نعم فالحياه مليئه بالمخاطر والمطبات والعواصف الهوجاء والأحداث المريره التي لا- يسع الإنسان التغلب عليها بمفرده، ومن هنا فإنّ العقل والحكمه تتطلب من الإنسان التفكير في مثل هذه الأحداث. وما أروع أن تكون لهذا الإنسان قرابه تهب لدعمه وحمايته في مثل هذه الظروف. ولكن، هل يمكن الحصول على دعم القرابه ومساندتها دون الإحسان إليها وتفقد أمورها وإحاطتها بالحب والرعايه وإغاثتها مالياً ومعنوياً؟ قطعاً، لا. فما أحرى كل إنسان أن يوطد أواصر مودّته لقرابته من خلال بعض البذل المادى حتّى لا- يبقى وحده حين تعصف به الأحداث والمصائب. طبعاً الإحسان إلى الآخرين ممّا ورد الندب إليه ولا تخفى آثاره «الإنسان عبيد الإحسان» إلّا أنّ الأولويه في هذا الأمر للقرابه «الأقربون أولى بالمعروف» حيث تمهد الأجواء أمام تعميق أواصر الاخاء والمحبه. وبغضّ النظر عما سبق فإنّ هذا الأمر لو طبق في المجتمع كما ينبغي فقد لا تبقى هنالك من آثار للفقر والحرمان في المجتمع، كيف لا وفي كلّ قبيله عدد من الأفراد المتمكنين الذين لو مدّوا يد العون إلى سائر أفراد قبيلتهم لما ظل هنالك من يعانى من الحرمان. وقد أوصى الإمام عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام بهذا الأمر مبيّناً فوائد إكرام العشيره ومعالجه مشاكلهم إذ قال عليه السلام: «وأكرم عشيرتك! فإنّهم جناحك الذى به تطير وأصلك الذى إليه تصير ويدك التى بها تصول» (٤). ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل الآخر فى إطار حثه الأفراد المتمكنين على مساعده قرابتهم فيقول: «ولسان الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال يرثه غيره» . . وقد ورد فى هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلك قول عمر لابنه هرم: ما الذى أعطى أبوك زهيراً؟ قالت: أعطاه مالاً يفنى، وثياباً تبلى. قال: لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر، ولا يفنيه الزمان. إذا أتت أعطيت الغنى ثم لم تجد بفضل الغنى ألفيت مالك حامد

ص: ٣٨

١- ١) «حيطة» اسم مصدر من ماده «حوط» بمعنى الاحاطه، وهى هنا بمعنى الرعايه والكلاءه. وقال البعض الحيطة بفتح الحاء بمعنى المراقبه وبكسرهما بمعنى الحفظ.

٢- ٢) «الم» من ماده «لمم» بمعنى الجمع والاصلاح.

٣- ٣) شعث بالتحريك بمعنى التفرق والانتشار.

٤- ٤) نهج البلاغه، [١] آخر الرساله رقم ٣.

وقل غناء عنك مال جمعته إذا كان ميراثاً وواراك لاحد

نعم لا يحمل الإنسان شيئاً من الأموال معه في قبره، إلا أنه يحمل العمل الصالح والذكر الحسن لدى الناس، فلا يكفد يذكر اسمه حتى يترحم عليه الناس ويسألون الله له المغفرة والعفو والرحمة.

هذا هو رأس المال المعنوي والمادى الخالد الذى يمكن نيّله من خلال الإنفاق فى سبيل الله وبذل الإحسان إلى عباد الرحمن. وزبده الكلام فإنّ الأغنياء قد دعوا إلى مدد يد العون إلى فقراء المجتمع ومساعدتهم من خلال دافعين؛ الأول بغية الحصول على الأيعوان والأنصار وتوظيفهم لصالحهم حين بروز النوائب والشدائد التى تواجههم فى حياتهم، والثانى بهدف الحصول على السمعه الحسنه والذكر الطيب بعد الموت بما يجعل الآخرين يترحمون عليهم ويسألون الله لهم العفو والمغفره. وما أعظم هذه التجاره بهذا المتاع الدنيوى الزائل من أجل الحصول على السنين المذكورين.

فصل فى حسن الثناء (لسان الصدق)

لقد ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه أنّ لسان الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال يورثه غيره. ولسان الصدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويثنى عليه به، قال سبحانه: «وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» (١) وهو دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. كما أشار البارئ سبحانه فى إطار ثنائه على طائفه من الأنبياء «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» (٢). واللسان فى الآيه بمعنى ذكر الإنسان بالخير. ومما لا شك فيه أنّ هذه القضية ليست من قبيل القضايا الروتينية الجوفاء، بل تنطوى على عدّه معطيات على مستوى الفرد والمجتمع، فهى:

أولاً: أنّها لمن دواعى الفخر والاعتزاز الخالد، بينما نرى أنّ الأموال والثروات الماديه إنّما توزّع فى لحظه وقد لا يبقى لها من أثر.

ثانياً: إنّ حسن الثناء والذكر الحسن إنّما يسوق الآخرين للدعاء لهؤلاء الأفراد وطلب

ص: ٣٩

١-١) سورة الشعراء / ٨٤. [١]

٢-٢) سورة مريم / ٥٠. [٢]

الرحمه والمغفره لهم من الله؛ الأمر الذى لا تخفى آثاره المعنويه.

ثالثاً: إنّ هذا الأمر له تأثيره البالغ فى نفوس أبناء المجتمع فى الاقتداء بولئك الأفراد وإحياء القيم العليا فى المجتمع والقضاء على ما يخالفها، فقد جاء فى الروايه المعروفه «من سنّ سنّه حسنه كان له مثل أجر من عمل بها» (١).

وأخيراً أنّ ذلك من مدعاه العزه والرفعه والكرامه لدى نسل أولئك الأفراد المحسنين، فما أكثر من نعرف من الأفراد الذين نكن لهم الحب والاحترام لانحدارهم من أولئك الأفراد. هذه طائفه من الآثار المعنويه الفرديه والاجتماعيه للسان الصدق وطيب الاحدوثه.

ج ج

ص: ٤٠

١- ١) لقد ورد هذا المضمون فى عدّه روايات ومنها كتاب وسائل الشيعه ١١ / الباب ١٦ من أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. [١]

ومنها: «ألا- لا- يعيدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذى لا يزيدُهُ إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه؛ ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما تُقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيدي كثيرة ومن تلبن حاشيته يستدم من قومه المودة» .

الشرح والتفسير

بعد أن قرظ الإمام عليه السلام الثناء والذكر الجميل وفضله على المال، أمر بمواساة الأهل وصله الرحم وإن قل ما يواسى به، حيث أكد هذا الأمر بثلاث عبارات فقال عليه السلام: «ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة (1) أن يسدها بالذى لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه» . يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لأحد معنيين؛ الأول إلى البعد المعنوي لهذا العمل في أن حرمان القرابة مِمَّا يتمتع به الإنسان من إمكانات و ثروات من شأنه أن يسلب بركة مال الإنسان وحياته ويحول دون نمائه وزيادته، وعلى العكس من ذلك فإنَّ معونه القرابة ومساعدتها تنطوي على عده بركات من شأنها أن تدرك هذا النقص الظاهري بتفضلات الله وألطافه؛ أو أن يكون إشاره إلى بعده الظاهري والمادى، لأنَّ مشاكل القرابة إنّما تنتقل بشكل أو بآخر إلى الإنسان وتورق فكره وتشغل روحه وتعرض سمعته وشخصيته للخطر وبالتالي تضاعف من مشاكله ومعاناته، وعليه فما أحراه أن يهب لمساعدتهم ومعونتهم ليظفر بثواب

ص: ٤١

١- ١) «الخصاصة» هي الفقر والحاجة الشديده وهي مصدر خص الرجل بمعنى احتاج وافتقر، وقال صاحب مقاييس اللغة تعنى الثلمه ومن هنا أطلقت على الفقر والحاجة لأنها ثلمه فى حياه الإنسان.

الآخره وبركات الدنيا وينال الذكر الطيب والاحدوثة الحسنه. فقد جاء فى الحديث أن الإمام على عليه السلام قال: «البركه فى مال من آتى الزكاه وآسى المؤمنين ووصل الأقرين» (١) ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى الأضرار الفادحة التى يتكبدها الإنسان إذا أمسك يده عن قرابته ولم يقدم العون والمساعده، ومن ذلك إنه إنما يقطع عنهم يده بينما يقطعون عنه أيديهم التى لا غنى له عنها «ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما تقبض منه عنهم يد واحده وتقبض منهم عنه أيد كثيره». فالحق ليس هنالك من عاقل مستعد للتضحيه بكل هذه المنافع من أجل التنازل عن بعض منافعه الشخصيه الضئيله، ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول «ومن تلى حاشيته يستدم من قومه الموؤده». يمكن أن تنطوى مفرده «حاشيته» على معنيين؛ الأول صفات الإنسان وروحياته، والآخر أن تكون إشاره إلى البطانه وبناءً على هذا، فإن مفهوم الجملة هو تمحور قوم الإنسان حوله إذا حسن سلوكه بطانته تجاه الناس. فقد رأينا الكثير من الأفراد الصالحين الذين انفرجوا عنهم الناس رغم صلاحهم بسبب سوء تصرف بطانتهم ومن حولهم.

فصل فى بركات التعاضد بالقرابه

إنّ مسأله صله الرحم وتوطيد أواصر المحبّه بالقرابه وإن كانت وظيفه إلهيه ورد التأكيد عليها فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه، إلّا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ القيام بهذه الوظيفه الدينيه والإنسانيه إنّما ينطوى على بركات جمه تعرض لها الإمام عليه السلام أواخر هذه الخطبه والمهم أن يعزز الإنسان هذه الأصره ولا يمارس كلّ ما من شأنه الإساءه إليها أو قطعها. ولا بدّ من الإحسان إلى القربى حين شعور الإنسان بوفور النعمه، لتهد للوقوف إلى جانبه إذا ما واجهته بعض المحن والخطوب. وقد دلّ الواقع بما لا يقبل الشك أنّ التفوق على المشاكل لا يتأتى من خلال الجهود الفرديه، بل يتطلب مؤازره الآخرين وتكافئ جهودهم، وما أحرى أن تكون الأولويه فى هذه الرابطه للقرابه والعشيريه حيث يعرف كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفى الذى يشدّ كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفى الذى يشدّ كلّ منهما للآخر،

ص: ٤٢

غير أن المؤسف له أن أغلب الأفراد إنما يضربون هذه الأمور عرض الجدار بمجرد نيلهم بعض الثراء والنعمة فيبتعد عن قرابته ويحرم نفسه من كل هذه الطاقات التي يمكنها معالجته مصاعبه ومشاكله، وهذا هو المعنى الذي تناولته أغلب الروايات الواردة بهذا الشأن. فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «صَلِّمَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ، يُعْمَرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ» (١). وقال الإمام الباقر عليه السلام: «صَلِّمَةُ الْأَرْحَامِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ، زِيَادَةٌ فِي الْأَمْوَالِ» (٢). كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «صَلِّمَةُ الْأَرْحَامِ تُرَكِّي الْأَعْمَالَ وَتُنَجِّي الْأَمْوَالَ وَتَرْفَعُ الْبُلُوبَ وَتَيْسِّرُ الْحِسَابَ وَتُنْسِي فِي الْأَجْلِ» (٣). وبالمقابل فإن قطع الرحم ينطوي على آثار خطيرة على حياة الإنسان في الدنيا وسوء العذاب في الآخرة. فقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أَخْبَرَنِي جِبْرِئِيلُ إِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ تُوَجَّدُ مِنْ مَسِيرِهِ أَلْفَ عَامٍ مَا يَجِدُهَا عَاقٌ وَلَا قَاطِعٌ رَحِمٍ وَلَا شَيْخُ زَانٍ» . (٤)

ولعل هنالك من يسأل: ما المراد بصله الرحم؟ المراد هو تعميق أواصر المحبة والنجدة في حل المشاكل وعدم الغفلة وتفقد الأحوال في كافة الظروف، وقد تحفظ هذه الصلة حتى بالسلام والارتباط عن طريق الهاتف. فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالتَّسْلِيمِ» (٥) وسنتكلم في الأبحاث القادمة عن صلة الرحم ومعطياتها المادية والمعنوية بما يتناسب والمواضيع الواردة في الخطب. هذا وقد قال السيد الرضى (ره) في آخر هذه الخطبة:

«الغفيرة هاهنا الزيادة والكثرة؛ من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى عفوه من أهل أو مال» .

والعفوه: الخيار من الشيء. يقال: «أكلت عفوه الطعام» أى خياره. وما أحسن المعنى الذى أراه عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته. . .» إلى تمام الكلام؛ فإن الممسك خيره عن عشيرته إنما يمسك نفع يد واحده، فاذا احتاج إلى نصرتهم، واضطر إلى

ص: ٤٣

١-١) بحار الأنوار ٧١ / ١٢٠. [١]

٢-٢) بحار الأنوار ٧١ / ٩٧. [٢]

٣-٣) بحار الأنوار ٧١ / ٢١١. [٣]

٤-٤) معانى الأخبار نقلاً عن بحار الأنوار ٧١ / ٩٥ ح ٢٦. [٤]

٥-٥) اصول الكافي نقلاً عن بحار الأنوار ٧١ / ١٢٦.

مرافدتهم، قعدوا عن نصره، وتناقلوا عن صوته، فمئع ترافد الأيدى الكئيره، وتناهض الأقدام الجمه.

ص: ٤٤

ومن خطبه له عليه السلام

وهي كلمه جامع له، فيها تسويغ قتال المخالف والدعوه إلى طاعه الله، والترقى فيها لضمان الفوز «وَلَعَمْرِي! مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالٍ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَخَابَ طِطَ الْعَيِّ، مِنْ إِذْهَانٍ وَلَا إِيهَانٍ. فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَامْضُوا فِي الدِّي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلَيْ ضَامِنٍ لِفَلْجِكُمْ آجِلًا، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلًا» .

نظرة إلى الخطبة

يهدد الإمام عليه السلام في هذه الخطبة مخالفه بشده ويعرب عن عزمه الراسخ في التصدي لهم وقتالهم بعد أن يقنطهم من أدنى موادعه أو مصالحه على حساب العدل والحق، ثم يوصي صحبه بمواكبته في هذا الطريق والتأهب لمواجهه أعداء الدين. ويرى البعض أنّ الخطبه في الواقع ردّ على أولئك الذين يشكلون على الإمام عليه السلام في مساومه الأعداء واضطرارهم للاستسلام من خلال استمالتهم بالرشوه و... فالإمام عليه السلام يكشف أنّه ليس من أهل المساومه والخداع. (١)

ص: ٤٥

استهّل الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «ولعمري (١) ما على من قتال من خالف الحق وخابط (٢) الغي، من إدهان (٣) ولا إيهان (٤)» .

يبدو أنّ هنالك فارق بين العبارتين «خالف الحق» و «خابط الغي» - هو أنّ العبارة الاولى إلى الفرد الذى يشق عن علم سبيل مخالفه الحق، بينما تشير الثانيه إلى من يختار ذلك الطريق ويسبح فى بحر من الضلال جهلاً وخطأ ودون أدنى تأمل ومطالعه. أمّا تعبيره عليه السلام بالادهان (المجامله والمداهنه) والايهان (الضعف) فهو تحديد إلى أنّ الكف عن القتال والمواجهه إنّما يستند إلى أحد سببين؛ إمّا المجامله والمداهنه لأعداء الحق، أو الضعف والعجز، وحيث لم يكن لأى من هذا السببين من سبيل إلى كيان على عليه السلام فإنّ مواجهته لمخالفى الحق عنيفه لا هواده فيها.

وقد ورد تقريباً شبه هذا المعنى فى سائر كلمات الإمام عليه السلام فى إطار حديثه عن الإطار العام الذى يتحرّك ضمن دائرته زعماء المسلمين وأئمتهم فقد قال عليه السلام: «لا يُقِيمُ أمرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لا يُصَانِعُ ولا يُضَارِعُ ولا يَتَّبِعُ المَطامِعَ» (٥). كما وصف نفسه عليه السلام فى موضع آخر فقال: «وَأَيُّمُ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحِذَائِهَا واستَوَسَّيْتُ فى قِيادِهَا، ما ضَعُفْتُ ولا جُبُنْتُ ولا خُنْتُ ولا وَهَنْتُ» (٦).

ص: ٤٦

١- ١) «لعمري» و «عمر» و «عمر» و «عمر» بمعنى مده الحياه ويقال حين القسم لعمري بفتح العين. وهى هنا مبتدأ لخبر محذوف تقديره «لعمري قسمي» وقد ورد سؤال فى مجمع البحرين كيف بهذا القسم وهو لا يجوز بغير الذات الإلهيه المقدسه؟ وأجيب بأنّ هذا القسم ليس حقيقه بل بصوره قسم، وتقديره «بواهب عمري وعمرك» .

٢- ٢) «خابط» من ماده «خبط» وخابط الغي بمعنى صارع الفساد، وأصل الخبط اليسر فى الظلام، وتستعمل للناقه حين تخبط فى مشيها.

٣- ٣) «الادهان» من ماده «دهن» بمعنى المنافقه والمصناعه ولا تخلو من مخالفه الباطن للظاهر، كما تستعمل كناية عن المجامله والمداهنه.

٤- ٤) «الايهان» من ماده «وهن» بمعنى الضعف سواء فى الخلقه أو الأخلاق، والايهان والتوهين بمعنى الاضعاف.

٥- ٥) نهج البلاغه، [١]الكلمات قصار، ١١٠. [٢]

٦- ٦) نهج البلاغه، الخطبه ١٠٤. [٣]

ثم أبدى عليه السلام نصائحه ووصاياه وفي مقدمتها مراعاة الورع والتقوى فقال عليه السلام: «فاتقوا الله عباد الله». فالتقوى - التي تعنى خشية الله فى الباطن وعدم مقارفة الذنوب والمعاصى والعمل على طاعة الله - هى أساس الأعمال الصالحة والباقيات الصالحات، ومن هنا ورد التأكيد عليها بصفتها مقدمه لسائر الوصايا الأخلاقية والدينية. ثم أوصى عليه السلام بالفرار من معصية الله إلى طاعته وغضبه وسخطه إلى رضاه وعذابه إلى رحمته ونعمته إلى نعمته «وفزوا إلى الله من الله» فالعبارة إشارة لطيفة إلى مسأله توحيد الأفعال، لأنَّ أیه مشكله تواجه الإنسان فى هذا العالم إنَّما تفرزها طبيعه أعماله والآثار التى أودعها الله هذه الأعمال. وعليه فمشاكله من ذاته وعقابه ممَّا تفرزه أعماله، وعليه فليس أمامه من سبيل لحل مشاكله سوى الفرار إلى الله واللجوء إليه إذ «لا مؤثر فى الوجود إلَّا الله» وكل خير وبركه ونجاه تفاض على الإنسان من الله سبحانه - القرآن من جانبه تحدث عن طائفه من العصاة الذين استحقوا سخط الله وغضبه ولم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى الله سبحانه «وَوَطُّنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» (١) الطريف فى الأمر أنَّ الإنسان إذا شعر بخوف من أحد لاذ بآخر، إلَّا أنَّ ذلك ليس كذلك بالنسبة لله سبحانه، فإذا ما خافه الإنسان وخشى عذابه، لجأ إليه، وهل هناك من هو أرحم بالإنسان منه؟! هذا هو الدرس الذى ينبغى أن تتعلمه من التوحيد الأفعالى فى أنَّ الله هو مصدر كل خير وحركه وبركه. فله الأسماء والصفات التى تدعونا للجوء إلى الله على كل حال وفى كل الظروف.

فان خشينا سخطه وغضبه لذنا بعفوه ورحمته، وإن خفنا عدله لجأنا إلى فضله وكرمه. وأخيراً يبدو أنَّ هذه العبارة مقتبسه من قوله سبحانه على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (٢). ثم قال عليه السلام فى الوصيه الثالثه «وامضوا فى الذى نهجه لكم» ثم أوصى عليه السلام قائلاً: «وقوموا عصبه (٣) بكم». والواقع أنَّ الإمام عليه السلام قد سنَّ بهذه العبارات

ص: ٤٧

١-١ (١) سورة التوبه / ١١٨. [١]

٢-٢ (٢) سورة الذاريات / ١٥١. [٢]

٣-٣ (٣) «عصب» من ماده «عصب» على وزن ضَرَبَ الذى يربط العظام والعضلات، أى كلفكم به وألزمكم أدائه.

قانوناً جامعاً يشتمل على أربعة بنود من شأنها ضمان السعادة النجاة:

الأول: مراعاة التقوى وخشيته الله.

الثاني: الحركة نحو الله من خلال الفرار منه إليه سبحانه.

الثالث: الثبات على النهج الإيماني وسلوك السبيل الصحيح نحو الله.

الرابع: العمل بالتكاليف والوظائف الدينية التي أمر بها الشارع المقدس.

قد يقال أنّ الوصايا الأربعة استهلكت بقاء التفرغ فيما علاقتها بصدر الخطبه الذي تحدث عن العزم الراسخ في مجابهة مخالفي الحق وقتالهم؟ والجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ قتال هذه الطائفة المنحرفة الجائره إنّما يتطلب جنوداً أشداء مؤمنين من ذوى العزم والإرادة، وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن يعدّ أصحابه للوقوف بوجه أصحاب الباطل. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبّر عن التكاليف بقوله «ما عصيه بكم» (التكاليف التي كلفتم بها وأمركم بأدائها) ، ومفهوم العبارة هو أنّ الوظائف الإلهيه ليست من الأمور التي يستطيع الإنسان إهمالها وعدم الإكتراث لها، بل هي طوق في رقبتة ودين في ذمته لا بدّ له من أدائه.

يذكر أنّ هذه التعبيرات قد وردت في أغلب الآيات والروايات التي تشير إلى أنّ الإنسان إنّما يتحرر من القيود إذا ما أدى هذه التكاليف والوظائف. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بضمانه النصر والغلبه والعاقبه الحسنه لأصحابه في خوضهم القتال ضد تلك الطائفة الضاله عن الحق، النصر الذي سيفوزون به في الدار الآخرة لا محاله إذا تعذر في دار الدنيا «فعلني ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً». وهذا هو المنطق القوي والرصين الذي اعتمده القرآن في مخاطبته لأتباعه في تصديهم لأعداء الحق بأنهم منتصرون غالبون مهما كانت نتيجة القتال: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» (١) ومعلوم أنّ الجنود الذين يرون أنفسهم منتصرين في جميع الأحوال وأنّ عدوهم مهزوم، إنّما يقاتلون بمعنويات عاليه دون أن يشعروا بأدنى خوف أو خطر ممّا ستفرزه أحداث القتال. فيرى أغلب العلماء والمفكرين أنّ الإيمان بهذا المبدأ - النصر أو الشهاده - هو العامل الرئيسي الذي يقف وراء

ص: ٤٨

الانتصار الذى يشعر به المسلمون فى جبهات القتال رغم عدم الموازنه فى القوى والتكافئ فى العده والعدد مع جيوش الأعداء. وهذا هو المبدأ الذى ينبغى أن يجعله العالم الإسلامى اليوم نصب عينيه فى مجابهته لعالم الكفر فلا ينهر بإمكاناته وتجهيزاته الزائفه.

والحق أنّ هذا المبدأ لا يحصل إلّا فى ظل الإيمان والورع والتقوى وخوف الله.

فصل فى الضعف والمساومه

إنّ من الفوارق الأساسيه بين الساسه الربانيين والساسه العاديين إنّما يكمن فى أنّ ساسه الدنيا لا يتورعون عن أيّ وسيله من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم الشخصيه، وغالباً ما يساومون العدو على المبادئ الإنسانيه ومصالح مجتمعاتهم ويتجاهلون الحق والعداله، بغيه حفظ مواقعهم السياسيه والاجتماعيه، فى حين ليست هنالك من مساومه فى قاموس الساسه الربانيين، بل غالباً ما يضحى هؤلاء بمواقعهم الحساسه حرصاً على حفظ المبادئ ورعايه للحق والعدل والقسط؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى سيره الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتلميذه أمير المؤمنين على عليه السلام. فما أكثر الأفراد الذين اعترضوا على سياسه على عليه السلام من قبيل استماله الآخرين عن طريق التمييز فى العطاء من بيت مال المسلمين: أو الإبقاء على معاويه فى حكمه الشام، دون أن يحدثوا أنفسهم بالأساليب التى يتبعها معاويه فى حكومته للناس أو المبادئ التى سيعبر عليها فى هذه الحكومه! أو الاقتراح الذى طرحه عليه عبد الرحمن بن عوف فى الشورى بتسليمه مقاليد الأمور شريطه العمل بسياسه الشيخين، أو تفويض طلحه والزبير ولايه البصره والكوفه. وقد اقترح من قبل، على رسول الله صلى الله عليه وآله بعض الاقتراحات من قبيل اقتضاء المصلحه لطرده الضعفاء والمستضعفين. فأولئك وإن كانوا يفيضون إيماناً بالله ورسوله، إلّا أنّ المصلحه تقتضى استقطاب الأغنياء وتعبئتهم ضدّ العدو رغم خلو قلوبهم من الإيمان! ويبدو أنّ اختلاف الرؤيه (على ضوء السياسه الإلهيه والسياسه الشيطانيه) واختلاف المصلحه من الواقع هى التى دفعت بأولئك الأفراد والفئات الدينويه للاعتراض على السياسه النبويه والعلويه.

والإمام عليه السلام يوضح فى هذه الخطبه السياسه التى سيتبعها وأنّه ليس من أولئك الساسه

الذين يرون للمجامله والمداهنه من مكان فى سياسته وتعامله مع المارقين عن الحق والعداله، وليس لديه من وسائل سوى التقوى وامثال التكاليف الشرعيه دون الإكتراث لهذا أو ذاك من المساومين والمعترضين، ونوكل المزيد من الكلام فى هذا الموضوع إلى محلّه.

ج ج

ص: ٥٠

ومن خطبه له عليه السلام

وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن - وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران - لَمَّا غلب عليهما بسر بن أبي أرتاه فقام عليه السلام على المنبر ضجرا بتناقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له فى الرأى، فقال:

القسم الأول

«ما هى إلا الكوفة أقبضها وأبسطها، إن لم تكونى إلا أنت تهب أعاصيرك، فقبحك الله وتمثل بقول الشاعر: لَعَمْرُ أَيْبِكَ الْخَيْرِ يا عَمْرُو إِنَّنِي عَلَى وَضْرٍ مِنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلٍ»

نظره إلى الخطبه

يعتقد بعض شراح نهج البلاغه كابن أبى الحديد أنّ الخطبه بعد صفين والتحكيم والخوارج، حيث ألقاها عليه السلام أواخر عمره الشريف (٢). ويفهم من مقدمه الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه حين تواترت عليه الأخبار بشأن استيلاء أصحاب معاوية على

١-١) جاء فى مصادر نهج البلاغه [١] أنّ المسعودى أورد هذه الخطبه مع اختلاف طفيف فى مروج الذهب قبل المرحوم السيد الرضى، ثم قال: وقد أشار إليها العقد الفريد وابن عساكر فى تاريخ دمشق.
٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، آخر الخطبه.

البلاد الإسلامية، حيث بلغه عاملاه على اليمين فأطلعاه على غلبه بسر بن أرطاه لهما على تلك المنطقه. فقد كان بعض أتباع عثمان فى صنعاء وكانوا قد بايعوا علياً عليه السلام مكرراً وخديعه. وكان عبيد الله بن عباس آنذاك عامل على عليه السلام على اليمن وقائد الجيش كان سعيد بن نمران. وقد شنت الغارات تلو الغارات من قبل أهل الشام على المناطق الإسلامية بعد قتل محمد بن أبى بكر الذى نصبه الإمام عليه السلام والياً على مصر. قام أتباع عثمان - فى اليمن - بدعوه الناس للمطالبه بدم عثمان، فتصدى لهم عبيد الله بن عباس وأمر بسجنهم. فكتبوا من السجن إلى بعض أصحابهم فى الجيش لعزل سعيد بن نمران والخروج عليه. ففعلوا والتحق بهم طائفه من اليمن ثم امتنعوا عن دفع الزكاه. فكتب عبيد الله وسعيد كتاباً للإمام عليه السلام. فكتب الإمام عليه السلام كتاباً لأهل اليمن ودعاهم للعمل بوظائفهم وحذرهم من العصيان والتمرد. فردوا عليه بالترامهم بطاعه الإمام عليه السلام بشرط عزل هذين الشخصين. ثم كتبوا لمعاويه. فبعث معاويه بسراً إلى اليمن فى جيش كثيف وأمره أن يقتل كل من كان فى طاعه على عليه السلام، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فى من قتل فى مكه داود وسليمان، إبنى عبيد الله بن عباس كما قتل فى الطائف صهر عبيد الله. ثم بلغ اليمن بعد أن خرج منها عبيد الله وسعيد، واستخلف علياً عبد الله بن عمرو الثقفى، فحمل بسر عليه فقتله ثم استولى على صنعاء مركز اليمن. فلما دخل عبيد الله وسعيد على الإمام عليه السلام فى الكوفه ذمهما عليه السلام لتركهما مكانهما، ثم صعد المنبر وألقى هذه الخطبه.

على كل حال فإن الخطبه قد أوردت حين اشتدت حملات أهل الشام على مختلف مناطق البلاد الإسلامية وضعف المقاومه التى أبداها أصحاب الإمام عليه السلام حيث كان الإمام عليه السلام فى غايه التذمر والاستياء، فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى من قله الأفراد المطيعين، ثم تعرّض عليه السلام إلى الواقعه الأليمه لحملات بسر بن أرطاه وغلبته على اليمن، ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى لله من هؤلاء القوم الذين مردوا على النفاق والمعصيه فيدعوا عليهم ويسأل الله أبدالهم بشر منه وإبداله من هو خير منهم.

الشرح والتفسير

النفاق والعصيان ودور الإمام

تبدو عبارات الإمام عليه السلام واضحه بالالتفات إلى سبب ورود الخطبه والأجواء التى كانت

حاكمه آنذاك، فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أنه لم تبق لديه سوى الكوفة بعد ذلك التمرد والعصيان «ما هي (١) إلّا الكوفة، أقبضها وأبسّطها». والسؤال المطروح هنا: ما هي العلل والعوامل التي جعلت جيش الإمام عليه السلام يعيش هذه الحالة الخطيرة في العراق وسائر المناطق الإسلامية؟ نترك الإجابة على هذا السؤال إلى البحث الذي سنخوض فيه في موضوع تأملات.

أمّا المسألة المهمّة فهي أنّ رجلاً ربانياً مثل علي عليه السلام وبتلك الشجاعه والبطوله والحنكه في التدبير إنّما عاش تلك الحالة تجاه أعداء الإسلام أثر عدم وجود القوى المخلصه والشجاعه المواليه للحق والمواكبه لحركه الإمام عليه السلام. فقد أشار الإمام عليه السلام بقوله «أقبضها وأبسّطها» بشأن الكوفة إلى خروج سائر المناطق عن حكومته وإن كانت خاضعه لها ظاهرياً. ثم قال عليه السلام: «ان لم تكوني إلّا أنت تهبّ أعاصيرك (٢) فقبحك الله» في إشاره إلى أنّ الكوفة وإن كانت مركز حكومه الإمام عليه السلام إلّا أنّها لم تكن خاليه من التمرد والنفاق، بحيث لم يكن الإمام عليه السلام يحسب لأهلها ذلك الحساب. وما أعظم معاناته عليه السلام وهو بذلك العلم والحلم والحكمه والشجاعه إلّا أنّه يفتقر إلى المخلصين من الأتباع.

ثم تمثل عليه السلام بقول الشاعر: لعمر أبيك الخير يا عمرو إنني على وضر من ذا الإناء قليل

«وضر» سواء كان بمعنى بقيه الدسم في الإناء، أو بقيه قطرات الماء في الإناء، أو الرائحه الباقية في إناء الطعام، فهي إشاره إلى أنّ الكوفة لم تكن سوى ذره زهيدة آنذاك بالنسبه للعالم الإسلامي الواسع، ولا- يسع أيّ زعيم بالاعتماد على أهل هذه المنطقه مهما كان من حفظ بيضه الإسلام والدفاع عن البلاد الإسلاميه والوقوف بوجه هذه الذئاب الكاسره المتعطشه للدماء.

الشرح والتفسير

تأملان

١ - الكوفة على وجهين

تعتبر الكوفة من المناطق الإسلاميه المشهوره في التاريخ والتي كانت مسرحاً لعدّه

ص: ٥٣

١- ١) الضمير «هي» يعود إلى الحكومه أو البلاد فمفهوم العبارة «ما الحكومه والمملكه التي تحت سيطرتي إلّا الكوفة». .
٢- ٢) «أعاصير» جمع «إعصار» وهي ريح تهب وتمتد من الأرض نحو السماء كالعمود كما تطلق كناية على الأمور الاجتماعيه وهي تعني الفوضى التي كانت سائده في الكوفة طول التاريخ.

حوادث حتى إقترن تأريخ الإسلام بتلك المنطقه ويعتقد البعض أن إسمها مشتق من شكلها الذى يشبه الدائره، حيث كانت تصطلح العرب على المنطقه الرملية المدوره بإسم «كوفان»، وقال البعض سميت بذلك الإسم لاجتماع الناس هناك؛ لأن أحد معانى هذه المفرده هو الاجتماع والتجمع كما ذكروا عدّه وجوه أخرى للتسميه لايسع المقام الخوض فى تفاصيلها. وقيل بنيت عام ١٧ هـ على عهد الخليفه الثانى على يد سعد بن أبى وقاص، وكانت أكبر مدن العراق التى تشد إليها الرحال. وسميت «قبه الإسلام». وقيل أن سعد بن أبى وقاص قد نزل المدائن بعد فتح العراق وغلبه الساسانيين فبعث رسله ليشّر الخليفه الثانى بالفتوحات، فلما رأى الخليفه رسل سعد وقد شحبت وجوههم سألهم السبب، فذكروا له سوء مناخ مدن العراق، فأمر ببناء مدينه تتناسب ومزاج العسكر فاختر سعد الكوفه. ولم تمض مده حتى إشتعلت فيها النار فاحترقت - ثم بنيت من اللبنات. وقد خيّر سعد المسلمين بنزول المدائن أو الكوفه. فاختر فريق منهم الكوفه واستعادوا صحتهم. (١)

وهناك عدّه روايات صرّحت بعضها بدم الكوفه فى حين صرّح البعض الآخر بمدحها، ويبدو أن الروايات قد وردت بشأن مختلف عصور الكوفه والأقوام التى سكنت فيها. فقد فسرت بعض الروايات قوله سبحانه «وَطُورِ سَيْنِينَ» (٢) الوارده فى الآيه بالكوفه.

وجاء فى روايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الْكُوفَةُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»، كما ورد فى ذيل هذه الروايه أن فيه قبر نوح وإبراهيم وقبر سيد الأوصياء الإمام على عليه السلام وقبور ثلاثمأه وسبعين نبياً وستمأه وصياً. وروى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِلَدٍّ مِنْ الْبِلْدَانِ وَمِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ، أَكْثَرُ مُحِبًّا لَنَا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ» (٣). مع ذلك فقد شهدت الكوفه عدّه عصور تسلط عليها الأعداء ولاسيما أعداء أهل البيت عليهم السلام بحيث أصبحت من الأوكار المناهضه للإسلام وأهل بيت النبى صلى الله عليه وآله.

ص: ٥٤

١-١) معجم البلدان، ماده «كوفه»، التأريخ الكامل ٢ / ٥٢٧، قاموس (ماده كوفه).

٢-٢) سورة التين / ٢. [١]

٣-٣) سفينه البحار، [٢] ماده «كوفه».

كلّنا نعلم بأنّ إحدى مشاكل حكومه الإمام على عليه السلام تكمن في أهل العراق ولاسيما أهل الكوفة الذين يتّصفون بالتمرد وعدم الطاعة؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يتعرّض له في عدّه خطب ليعرب عن إستيائه منهم وشكواه، في حين كانت روحه أهل الشام وطاعتهم تمثّل أحد عوامل تفوّق معاويه في أعماله.

وقد نظر بعض المؤرّخين إلى هذا الموضوع نظره إيجابيه فذهبوا إلى أنّ العله في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعه أهل الشام، أنّ أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبه، ومع الفطنه والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتميز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء، وأهل الشام ذوو بلاهه وتقليد وجمود على رأى واحد، لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال ومازال العراق موصوفاً أهله بقله الطاعه، والشقاق على أولى الرئاسه. (١)

إلّا أنّ المرحوم مغنيه يرى أنّ هذا الكلام أجوف لا- أساس له. فأى عيب كان يسع أهل العراق أن يرّدوه على حكومه العدل العلويه حتّى مارسوا ذلك الشقاق والنفاق (أيه فطنه ثاقبه تدفع بالأفراد إلى العصيان والتمرد والذي أدّى إلى تلك الذلّه والخنوع أمام العدو؟!) والحق كما ذكره المؤرّخون ومنهم طه حسين في كتابه (على وبنوه) أنّ سياسه معاويه كانت قائمه على المكر والخداع وشراء دين الناس بينما اعتمد الإمام على عليه السلام على الحق والعدل، ولعلّ الشاهد على ذلك ما رد به الإمام عليه السلام حين قال: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟! والله لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً» (٢). ثم ردّ عليه السلام على أولئك الذين قارنوا بين سياسته وسياسه معاويه قائلاً: «والله ما معاويه بأدهى منّي لكنّه يغدر ويفجر ولولا كراهيه الغدر لكنت من أدهى الناس» (٣). وهو الأمر الذي نلمسه اليوم بوضوح في عصرنا الراهن حيث يرى بعض الأفراد وضمن تحليلاتهم الاجتماعيه أن الساسه

ص: ٥٥

١- ١) نقل هذا الكلام ابن أبي الحديد عن الجاحظ (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٣٤٣). [١]

٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٦. [٢]

٣- ٣) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٠. [٣]

الأفذاذ هم أولئك الذين يعتمدون أساليب التضليل والخداع والذين لا يتورعون عن التشبث بأخس الوسائل من أجل تحقيق أهدافهم وأطماعهم، في حين لا يرون من كفاءه وجداره لأولئك الأفراد من أهل الإيمان والورع والتقوى الذين لا يساومون على القيم والمبادئ، نعم للأسف مازال هذا الخطأ الفاحش هو الذى يسود بعض العقول والأفكار، وقد أدى إلى سلسله من المفاسد السياسيه والاجتماعيه، بل ما أعظم الدماء البريئه التى سفكت على مدى التاريخ بسبب هذه النظرة الخاطئه على كل حال فإنّ الواقع هو غير ما ذكر، فالعراق ولاسيما منطقته الكوفه إنّما سكنت من عدّه فئات وبمختلف الثقافات وقد تأثروا إلى حد بعيد بسياسه عثمان بما دفعهم للتكالب على الدنيا والاعتزاز بها وقد أصبحت السنن الخاطئه آنذاك من مفردات حياتهم اليوميه (بما فى ذلك التمييز فى العطاء من بيت المال) حتّى كان أغلب زعماء القبائل يتوقعون المناصب والأموال الطائله؛ الأمر الذى جعل معاويه ينجح فى إستمالتهم فكانوا يتقاطرون على معاويه، الواحد تلو الآخر.

أضف إلى ذلك فقد كانت هنالك بعض الفوارق بين روحيه أهل العراق والشام، منها أنّ أهل الشام كانوا يعرفون بالعمل، بينما كان العراقيون أهل كلام كما كان الشاميون يتحلّون بالانضباط الاجتماعى ولم يكن مثل هذا الانضباط سائداً لدى أهل العراق. وأخيراً كان أهل الشام أوفياء، بينما يمتاز أهل العراق بالغدر ونكث العهود.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا ينسحب على أهل العراق فى أىّ عصر وزمان غير زمان الإمام على عليه السلام كعصر الإمام الحسن أو الحسين عليهما السلام. ومن هنا وردت روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام التى تشيد بأهل العراق والكوفه. ولا غرابه أن تتّصف أمّه ببعض الصفات السلبيه فى عصر من العصور، ثم تنسلخ عنها فتتحلى بصفات إيجابيه.

ج ج

ص: ٥٦

إشارة

ثم قال عليه السلام:

«أُنْبِتُ بُسِيراً قَدْ اطَّاعَ الْيَمَنَ وَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَأُظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُيَدُّونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيَّ بِاطْلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنِّي حَقُّكُمْ وَبِمَعَصَةِ بَيْتِكُمْ إِمَامِكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ وَبِأَدَائِهِمُ الْأَمَانَةَ إِلَيَّ صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ وَبِصَيِّدِ لِحَاهِمِ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوْ ائْتَمَنْتُمْ أَحَدَكُمْ عَلَيَّ قَعْبٍ، لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبة - إلى قصة بسر بن ارطاه ذلك الجبار الشامي الفضي وغلبته على اليمن، ثم تطرق عليه السلام إلى مصير أهل العراق والمستقبل المظلم الذي ينتظرهم مع ذكر الأسباب والعلل التي ستفضي إلى ذلك المستقبل. فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغه أنّ معاوية وجه بسراً إلى المدينة وأمره بقتل شيعه على عليه السلام وإرعاب أهل المدينة التي هبت لنصره رسول الله صلى الله عليه وآله وقاتلت أبي سفيان، فدخل المدينة وشم أهلها وهددهم وتوعدهم، ثم دعا الناس إلى بيعه معاوية فباعوه، وأحرق دوراً كثيرة. ثم قصد اليمن فاستباح أهلها وقد قتل ولدى حاكم اليمن آنذاك عبد الله بن عباس. (1) وقد ذكر ابن أثير أنّ هذين الطفلين لا إذا بأعرابي من بني كنانة، فلما أراد بسر أن يقتلها، قال له الكناني: دعهما فلا ذنب لهما، فإن كنت قاتلها

ص: ٥٧

فاقتلني معهما، حيث كان يعتبر ذلك الأعرابي أن قتلها يعني تقصيره في أداء الأمانة. فما كان من بسر إلا أن قتلها وقتل هذا الأعرابي. (١)

على كل حال إطلع أمير المؤمنين على عليه السلام على هذه الأخبار الأليمة فساء ذلك فقال: «أنبتت بسرًا قد أطلع (٢) اليمن وإني والله لأظن أنّ هؤلاء القوم سيدالون (٣) منكم»، ثم تطرق عليه السلام إلى علل هذه الدولة لسلط الضوء على أربعه عناصر مهمّة تقف وراء النصر، فقال عليه السلام: «باجتماعهم على باطلهم، وتفريقكم عن حقكم». فالاتحاد دعاهم النصر ولاسيما إذا سادت الوحدة أتباع الحق. ولكن يالها من مصيبة أن يتفرق دعاه الحق عن حقهم ويجمع دعاه الباطل ويتحدون على باطلهم! رغم أنّ الباطل مصدر الخلاف والتشتت وأنّ الحق مركز الاخاء والوحده. نعم فإنّ الوفاق والاتحاد لمن دوعى النصر والنجاح فى كل عمل وإنّ الشقاق والفرقة لمن دوعى الهزيمة والفشل.

أمّا العنصر الثانى فيخلص فى الطاعة وإمثال الأوامر التى كانت سائده لأصحاب الباطل وعدم طاعه أهل الحق لإمامهم: «وبمعصيتكم إمامكم فى الحق، وطاعتهم إمامهم فى الباطل». أجل فالانضباط والطاعة حيثما كانت إنّما تقود إلى النصر والغلبه. وليس لجيش ولا-لأمة أن تبلغ ما تريد دون رعايتها للانضباط وطاعتها لآمرها وزعيمها، ومن هنا ورد التأكيد فى كافه الدوائر والمؤسسات اليوم على مسأله الانضباط والالتزام بالمقررات.

العنصر الثالث يتمثل بالأمانه والوفاء بالعهد والتى تقابلها الخيانه ونقض العهود ولاسيما حيال الرؤساء والزعماء «وبادائهم الأمانه إلى صاحبهم وحيانتكم» فأمانتهم إنّما دفعت بهم لتعبئه كافه الإمكانيات والطاقات ضد أعدائهم، فى حين بددت خيانتكم هذه الطاقات وذهبت بها أدرج الرياح، وهل من مصير ينتظر من ضيع طاقاته وبدد إمكانياته سوى الهزيمة

ص: ٥٨

١-١) الكامل لابن أثير ٣/٣٨٣؛ [١] تاريخ الطبرى ٤ / ١٠٦، ١٠٨. [٢]

٢-٢) اطلع، تعنى فى الأصل النظر من الأعلى، واستعملت كناية عن النصر والغلبه المفاجاه، ماده «طلوع» بمعنى الظهور.

٣-٣) «يدالون» (فعل مضارع مجهول من باب الأفعال) من مده دوله بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر. ومن هنا اطلقت الدوله على المال والثروه التى تتداول بين الناس، والمراد بها فى هذه العبارة سيغلبونكم وتكون لهم الدوله بدللكم.

والفشل. لقد فسّر بعض شراح نهج البلاغه الأمانه هنا بالبيعه، غير أنّ التفسير الذى أوردناه سابقاً واستناداً إلى سائر عبارات الخطبه يبدو أنسب من هذا التفسير، أضف إلى ذلك فإن كانت البيعه بمعنى الطاعه فقد ذكرت سابقاً ولا داعى للتكرار.

وأخيراً «وبصلاحهم فى بلادهم وفسادكم» وعليه فقد أوجز الإمام عليه السلام عوامل نصرهم وفشل إتباعه فى اتّحادهم وانضباطهم وأمانتهم وصلاحهم فى بلادهم، فى حين عاش أتباعه الفرقة والاختلاف والغدر والخيانه والفساد. فأساليب الإدارة والحكّه فى الحكومه وإداره شؤون البلاد مهما كانت قويّه فإنّها لن تؤدّى إلى نتائج مرضيه فى ظلّ هؤلاء الأفراد الذين يمثّلون أذرع الحاكم وعناصره فى الدوله.

أجل فالحق ضعيف مهضوم إذا ما فسد أتباعه، والباطل قوى فى ظلّ اتّحاد أتباعه.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فلو اتّمنت أحدكم على قعب (١) لخشيت أن يذهب بعلاقته (٢)».

فهل من مجال للوثوق بمثل هؤلاء الأفراد الذين لا يؤتمنون على أتفه الأشياء، فضلاً عن القيام بإداره شؤون الحكومه الإسلاميه ومسائل الصلح والقتال وبيت المال وامثال ذلك.

تأملات

١ – بسر بن أرطاه القائد السفاح لمعاويه

فأمّياً خبرٌ بُسِرَ بن أرطاه العامرى؛ من بنى عامر بن لؤى بن غالب، وبعث معاويه له ليغيّر على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام، وما عمّله من سيفك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذى هاج معاويه على تسريح بُسِرِ ابن أرطاه - ويقال ابن أبى أرطاه - إلى الحجاز واليمن، أنّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعه عثمان، يُعظّمون قتله، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعلّى عليه السلام على ما فى أنفسهم؛ وعامل على عليه السلام على صنعاء يومئذ

ص: ٥٩

١-١) «قعب»، قال بعض أرباب اللغه بمعنى قدح خشبى وقال البعض الآخر قدح كبير ضخم.

٢-٢) «علاقه» إذا استعملت مفتوحه العين عنت الرابطة المعنويه وإن كسرت كانت بهذا المعنى أو بمعنى الروابط الماديه، وقد وردت هنا بمعنى ما يعلق بالظرف من ليف أو نحوه.

عُبَيْدَ اللَّهِ بن عباس؛ وعامله على الجند سعيد بن نمران.

ووجه الكتاب مع رجل من هَمْدَانَ، فقدم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خير، فقال لهم: إني تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليكم يزيد بن قيس الأرحبي، في جيش كثيف، فلم يمنعه إلا -انتظاراً جوابكم. فقالوا: نحن سامعون مطيعون، إن عزّل عنا هذين الرجلين: عُبَيْدَ اللَّهِ وسعيداً.

فرجع الهمداني من عندهم إلى علي عليه السلام فأخبره خبر القوم.

فلما قدم كتابهم، دعا بُشَيْرَ بن أبي أراطه، وكان قاسى القلب فظاً سفاكاً للدماء، لا رأفة عنده ولا رحمه، فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهي إلى اليمن، وقال له: لا تنزل على بلد أهله على طاعه علي إلا بسطت عليهم لسانك؛ حتى يروا أنهم لا نجا لهم، وأنتك محيط بهم. ثم اكفف عنهم، وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبي فاقتله، واقتل شيعه علي حيث كانوا.

ج ج

وروى إبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب "الغارات" عن يزيد بن جابر الأزدي، قال:

سمعت عبد الرحمن بن مسعده الفزاري يحدث في خلافة عبد الملك، قال: لما دخلت سنة أربعين، تحدث الناس بالشام أن علياً عليه السلام يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفت أهواؤهم، ووقعت الفرقة بينهم، قال: فقامت في نفر من أهل الشام إلى الوليد بن عتبة، فقلنا له: إن الناس لا يشكون في اختلاف الناس على علي عليه السلام بالعراق، فادخل إلى صاحبك فمره فليستر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره. فقال: بلى، لقد قولته في ذلك وراجعتة وعاتبته، حتى لقد برم بي، واستثقل طلعتي، وإيم الله على ذلك ما أدع أن أبلغه ما مشيتم إلي فيه.

فدخل عليه فخبّره بمجيئنا إليه، ومقاتلنا له، فأذن لنا، فدخلنا عليه، فقال: ما هذا الخبر الذي جاءني به عنكم الوليد؟ فقلنا: هذا خبر في الناس سائر، فشمّر للحرب، وناهض الأعداء، واهتبل الفرصه، واغتنم الغره، فإنك لا تدري متى تقدّر على عدوك على مثل حالهم التي هم عليها، وأن تسيّر إلى عدوك أعز لك من أن يسيروا إليك. واعلم والله أنه تفرق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك. فقال لنا: ما أستغني عن رأيكم ومشورتكم، ومتى أحتج إلي

ص: ٦٠

ذلك منكم أذعكم. إن هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبه، واختلاف أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكون أطمع في استئصالهم واجتياحهم، وأن أسير إليهم خاطراً بجندي، لا أدري على تكون الدائره أم لى! فإياكم واستبطائى، فإنى آخذ بهم فى وجهه هو أرفق بكم.

وبعث معاويه عند خروجنا من عنده إلى بسربن أبى أرتاه، فبعثه فى ثلاثه آلاف، وقال: سر حتى تمر بالمدينه، فاطرد الناس، وأخف من مررت به، انهب أموال كل من أصبت له مالاً؛ ممن لم يكن دخل فى طاعتنا، فإذا دخلت المدينه، فأرهم أنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أنه لا براءه لهم عندك ولا عذر؛ حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم، ثم ستر حتى تدخل مكه، ولا تعرض فيها لأحد، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينه ومكه، واجعلها شردات؛ تأتى صنعاء والجند، فإن لنا بهما شيعه، وقد جاءنى كتابهم.

ج ج

أن بسراً لما أشيقط من أسقط من جيشه، سار بمن تخلف معه، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبل أهل ذلك الماء فركبوا، وقادوا خيولهم حتى يردوا الماء الآخر، فيردون تلك الإبل، ويركبون إبل هؤلاء، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينه.

قال: وقد روى أن قضاعه استقبلتهم ينحرون لهم الجزر، حتى دخلوا المدينه. قال: فدخلوها، وعامل على عليه السلام عليها أبو أيوب الأنصارى، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج عنها هارباً، ودعا الناس إلى بيعه معاويه فبايعوه. ونزل فأحرق دوار كثيره.

ج ج

قال إبراهيم: وقد روى عوانه عن الكلبى أن بسيراً لما خرج من المدينه إلى مكه قتل فى طريقه رجالاً، وأخذ أموالاً، وبلغ أهل مكه خبره، فتنحى عنها عامه أهلها، وتراضى الناس بشييه بن عثمان أميراً لما خرج قثم بن العباس عنها، وخرج إلى بسر قوم من قريش، فتلقوه، فشتهم، ثم قال: أما والله لو تركت ورأى فىكم لترككم وما فىكم روح تمشى على الأرض، فقالوا: ننشدك الله فى أهلك وعترتك!

ج ج

ص: ٦١

قال إبراهيم: وروى علي بن مجاهد، عن ابن إسحاق، أن أهل مكة لما بلغهم ما صنع بُسْر، خافوا وهربوا، فخرج بنا عبيد الله بن العباس، وهما سليمان وداود، وأمهما جُوَيْرِيَه ابنة خالد بن قَرْظ الكنانيه، وتُكْنَى أُم حَكِيم، وهم حلفاء بني زُهره، وهما غلامان مع أهل مكة، فأضلوها عند بئر ميمون بن الحضرمي.

وخرج بُسر من الطائف، فأتى نَجْران، ثم جمعهم وقام فيهم، وقال يا أهل نجران، يا معشر النصارى وإخوان القروء: أما والله إن بلغني عنكم ما أكره لأعودنَّ عليكم بالتي تقطع النَّسل، وتُهْلِكُ الحرث، وتخزب الديار!

وتهددهم طويلاً، ثم سار حتى أَرْحَب، فقتل أبا كرب - وكان يتشيع - ويقال إنه سيّد مَنْ كان بالباديه من هَمْدان، فقدمه فقتله.

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس، وسعيد بن نمران، وقد استخلف عبيد الله عليها عمرو بن أراكه الثقفي، فمنع بُسراً من دخولها وقتاله، فقتله بُسر، ودخل صنعاء، فقتل منها قوماً، أتاه وفد مأرب فقتلهم، فلم ينجُ منهم إلّا رجل واحد، ورجع إلى قومه، فقال لهم: «أنعى قتلاًنا، شيوخاً وشباناً».

فندب علي عليه السلام أصحابه لبعث سرّيه في إثر بُر، فتناقلوا، وأجابوا جاريه بن قدامه السعدي، فبعثه في ألفين، فشخص إلى البصره، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدم اليمن، وسأل عن بُسر ف قيل: أخذ في بلاد بني تميم، فقال: أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم. وبلغ بُسراً مسيراً جاريه، فأنحدر إلى اليمامة، أخذ جاريه بن قدامه السير، ما يلتفت إلى مدينه مرّ بها ولا أهل حصن، ولا يعرج على شيء إلّا أن يُزْمَلَ بعض أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته أو يسقط بعير رجل، أو تحفّي دابته، فيأمر أصحابه بأن يُعقبوه، حتى انتهوا إلى أرض اليمن، فهربت شيعه عثمان حتى لحقوا بالجبال، وأتبعهم شيعه علي عليه السلام، وتداعت عليهم من كلّ جانب، أصابوا منهم، وصيّم نحو بُسر، وبسر بين يديه يفرّ من جهه إلى جهه أخرى، حتى أخرجه من أعمال علي عليه السلام كلّها.

وقال بُسر: أحمد الله يا أمير المؤمنين أني سرت في هذا لاجيش أقتل عدوك ذاهباً جائياً لم يُنكب رجل منهم نكبه، فقال معاويه الله قد فعل ذلك لا أنت.

ج ج

ص: ٦٢

قال: ودعا علي عليه السلام على بُشَيْر، فقال: اللَّهُمَّ إِنَّ بُسْرًا بَاعَ دِينَهُ بِالدُّنْيَا، وَانْتَهَكَ مَحَارِمَكَ، وَكَانَتْ طَاعُهُ مَخْلُوقٍ فَاجِرٍ آثَرَ عِنْدَهُ مِمَّا عِنْدَكَ. اللَّهُمَّ فَلَا تُمِثَّهُ حَتَّى تَسْلُبَهُ عَقْلَهُ، وَلَا تُوَجِّبْ لَهُ رَحْمَتَكَ وَلَا سَاعَهُ مِنْ نَهَارٍ. اللَّهُمَّ أَلْعَن بُسْرًا وَعَمْرًا وَمَعَاوِيَةَ، وَلِيَحْلَعْ عَلَيْهِمْ غَضَبُكَ، وَلِتَنْزِلَ بِهِمْ نِقْمَتُكَ وَلِيَصْبَهُمْ بِأُسْكَ وَرِجْزِكَ الَّذِي لَا تَرُدُّهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ.

فلم يلبث بُشَيْرٌ بعد ذلك إلیسیراً حتى وسوس وذهب عقله، فكان يهذى بالسيف، ويقول: اعطوني سيفاً أقتل به، لا يزال يردد ذلك حتى اتَّخَذَ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقه، فلا يزال يضربها حتى يُغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

قال المسعودی فی مروج الذهب بعد نقل هذه القصة أن بسراً كان يقول للناس: انظروا كيف يطعمني هذان الغلامان إنا عبدا لله - الذان قتلا مظلومان بيدي - وكان ربما شدت يده إلى الورا منعا من لعبه بحزئه والناس تمنعه من ذلك. (١)

٢ - مقومات النصر وهزيمة الأمم

لقد شرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بعباراتها القصيره ذات المعاني العميقه المقومات التي تمنى بها الأمم والشعوب، ولا يقتصر هذا الأمر على أهل العراق والحجاز واليمن وقضيه والى من الولاه كمعاويه وقائد عسكره بسر بن ارطاه، بل يشمل كافة العصور والدهور. فقد تحدت الإمام عليه السلام في بادئ الأمر عن وحده الكلمه التي تعدد السبب الرئيسي في تضامن القوى وتعبئه طاقتها في مواجهه الأعداء. وممّا لاشك فيه أن أهم العوامل التي أدت إلى انتصار جنود الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله على أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عدده وعدداً إنما يكمن في وحده الكلمه. فكم من فئه قليله هزمت عدوها بفضل الاتحاد والإخاء. القرآن من جانبه اعتبر وحده كلمه المسلمين من معاجز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنُصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ» (٢)، كما اعتبر الوحده الإسلاميه التي سادت المسلمين أبان عصر الرساله من النعم الإلهيه الكبرى على الأمة الإسلاميه «وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ

ص: ٦٣

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٣ - ١٨؛ مروج الذهب ٣ / ١٦٣ ([١] بحث ذكر أيام الوليد بن عبد الملك).

٢- ٢) سورة الأنفال / ٦٢ - ٦٣. [٢]

أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصِيبَتْكُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» (١)، في حين قرن الفرقه والشقاق بالعذاب الدنيوى والأخروى «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا» (٢). كما أشار الإمام عليه السلام إلى مسأله الانضباط وحنكه القيادة على أَنَّها العامل الآخر المكمل لعنصر الاتحاد والإخاء والتضامن. والحق رأينا عدّه ثورات فى عصرنا الراهن قد كتب لها النجاح بينما لم توفّق غيرها لهذه النتيجة، ولعلّ العامل الرئيسى فى ذلك النجاح إنّما يستند إلى وحده القيادة، بينما تعاني غيرها من التشتت وتعدد مراكز القرار.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأمانه بفضلها العامل الثالث من عوامل النصر. فمما لاشكّ فيه أنّ أيّه أمه من الأمم لن تزدق طعم النصر والسعاده مالم تستثمر طاقاتها وثرواتها بالشكل الصحيح. ولا يتيسر هذا الأمر إلّا إذا كانت الأمانه هى التى تحكم أفراد الأمه وتدفعها لصون إمكاناتها الاجتماعيه.

أمّا العامل الأخير الدخيل فى النصر فإنّما يكمن فى صلاح أفراد المجتمع، وبعبارة أخرى فإنّ أفراد الأمه لن يتخلّوا على مشاكلهم ويتخلّصوا من مخالف الأعداء مالم يأخذوا بنظر الاعتبار مصالح المجتمع ويضحوا بمنافعهم الشخصيه ويجدوا ويجتهدوا فى إصلاح مجتمعهم، وليعلم أولئك الذين يهّمون بمنافعهم الشخصيه ولو أدّت إلى فساد المجتمع إنّهم إنّما يقضون على المجتمع وبالتالي يقضون على أنفسهم.

ص: ٦٤

١-١) سورة آل عمران / ١٠٣. [١]

٢-٢) سورة الانعام / ٦٥. [٢]

إشاره

«اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَيِّئْتُهُمْ وَسَيِّئُمُونِي (١) فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي! اللَّهُمَّ مِثَّ (٢) قُلُوبِهِمْ كَمَا يُمَاتُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، أَمَا وَاللَّهِ - لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ بِنِ عَنَمٍ. هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتُ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسٌ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ» .

ثم نزل عليه السلام من المنبر.

الشرح والتفسير

يتضرع الإمام عليه السلام في آخر الخطبه إلى الله بقلب مفعم بالهم والحزن فيدعو على أولئك الأتباع، غير أن دعائه عليهم يحمل تحذيراً جدياً لمن كان له أدنى صحوه من ضمير، حيث يسعى الإمام عليه السلام عن هذا الطريق إلى تنبيه أهل الضلاله وإعادتهم إلى الصراط المستقيم، فقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَيِّئْتُهُمْ وَسَيِّئُمُونِي» ومن الطبيعي ألا يكون هناك من وقع لنصائح الإمام العادل والقائد الشجاع في قلوب عبده الدنيا والأهواء من أهل الجهل والعجز والذل إذا ما تباينت أهداف القائد ومبادئه وخلقه مع أهداف الرعيه

ص: ٦٥

١- ١) «سئمتهم» من ماده «سأم» بمعنى الملل والتعب من الشيء.

٢- ٢) «مِثَّ» من ماده «مِثَّ» بمعنى حل الشيء في الماء، ويطلق على المطر الذي يذيب تراب الأرض، كما يطلق على الحوادث المريره التي تذيب عقل الإنسان وتصدع قلبه.

وأخلاقها، الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تعب الطرفين وسئم كل منهما الآخر. وإذا كان النبى صلى الله عليه وآله قد استطاع النهوض بزعامه الأقسام الجاهليه، فأنما ذلك لأنهم أقروا بأهدافه ومبادئه فى التريه وقد كيفوا أنفسهم مع سننه وخلقه. ومن هنا فإن الأنبياء الذين لم يوفقوا فى هذا الأمر ملوا أتباعهم، كما أن أقوامهم هى الأخرى لم تكن تطيق تحملهم. ولا يفوتنا هنا ضيق ذرع قوم لوط بنبيهم لطهارته وعفته «أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ». (١)

ثم دعا عليهم قائلاً: «فابدلنى بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شراً منى» .

فهم ليسوا أتباعاً جديرين بهذا الإمام، ولم يعد إماماً مناسباً لهم، فالحكمه الإلهيه تقتضى أن يخرجوا مسودى الوجوه من هذا الامتحان بعد أن تسلب منهم هذه النعمه الإلهيه فيعيشوا أنواع الهوان والذل. وما أسرع ما استجيب دعاء الإمام عليه السلام، فقد تسلط عليهم بنو اميه ليرتكبوا بحقهم ما قل نظيره أو انعدم فى التأريخ والعجيب ماورد فى بعض التواريخ الإسلاميه من أن الحجاج قد ولد (٢) آنذاك، وبالطبع فإن أهل العراق والكوفه قد دفعوا ثمن جرائمهم وتخاذلهم قبل ذلك، إلا أنها بلغت ذروتها على عهد الحجاج.

طبعاً ليس المراد بالعباره «أبدلهم بى شراً منى» أنى سىء ولكن سلط عليهم من هو أسوأ منى. بل هى مقارنه تطلق على الخير المطلق والشر المطلق، فقد جاء فى القرآن سوره الفرقان بعد أن أشار إلى شده عذاب جهنم قائلاً: «قُلْ أَذْ لِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ». وبعباره أخرى لم يكن أهل العراق والكوفه آنذاك أختيار ليسأل الإمام عليه السلام الله أخير منهم، ولا الإمام عليه السلام - والعياذ بالله - كان سيئاً ليلسلط الله عليهم من هو أسوأ منه، ففى مثل هذه الموارد تفقد صيغه أفعال التفضيل مفهومها العادى وترد للمقارنه بين شيئين متضادين. ويبدو أن هذا الدعاء شبيه الدعاء الذى ابتهل به نبى الله نوح عليه السلام على قومه بعد أن يئس من صلاحهم «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا» (٣). ثم قال عليه السلام: «اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح

ص: ٦٦

١-١ (١) سوره الأعراف / ٨٢. [١]

٢-٢ (٢) منهاج البراعه ٣ / ٣٥٨. صرح المسعودى - من المؤرخين المشهورين - أن الحجاج ولد عام ٤١ هـ وتوفى عام ٩٥ وله من العمر ٥٤ سنه.

٣-٣ (٣) سوره نوح / ٢٦. [٢]

فى الماء». لعل المراد بموٲ قلوبهم (بمعنى ذوبانها) هو هجوم الهموم والغموم عليها بحيث تجرح عواطفهم الإنسانية إلى درجه يقال ذاب القلب، فقد ورد شبه هذا المعنى فى خطبه الجهاد رقم ٢٧ إذ قال عليه السلام: «والله، يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم». ومن الواضح أنّ المراد بذبوان القلب ضياع العقل والفتنه والدرايه والحكمه. فمفهوم العبارة: خذ عقولهم وحكمتهم لهذا النفاق والعصيان فيعيشوا الحيره والاضطراب فى حياتهم. وقد ورد التعبير عن القلب بمعنى العقل والحكمه أو وعاء العقل والحكمه فى عده آيات وروايات، ومن ذلك ماورد فى الآيه ٢٥ من سوره الانعام: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ». والواقع أن من أعظم العقوبات الإلهيه - التى أوردتها القرآن الكريم والروايات بالنسبه للأفراد من أهل النفاق والمعصيه - هى الا يرى الإنسان الحقائق ولا يدركها كما هى، فيعيش القلق والحيره والضلال. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «أما - والله - لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس بن غنم. ثم تمثل بقول الشاعر: هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل أرميه الحميم

ثم نزل الإمام عليه السلام من المنبر:

قال السيد الشريف: أقول: «الارميه» جمع «رمى» وهو السحاب والحميم، هاهنا وقت الصيف. وإنّما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولاً - ولا أسرع خفوفاً؛ لأنه لا ماء فيه. وإنّما يكون السحاب ثقيل السير لامتلأه بالماء، وذلك لا يكون فى الأ-كثر إلّازمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعه إذا دعوا، ولا إغائه إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

بنو فراس بن غنم

هم بنو فراس بن غنم بن ثعلبه بن مالك بن كنانه، حى مشهور بالشجاعه، منهم علقمه بن فراس وهو جذل الطعان. ومنهم ربيعه بن مكدم بن حرثان بن جذيمه بن علقمه بن فراس الشجاع المشهور، حامى الظعن حياً وميتاً، ولم يحم الحریم وهو ميت أحد غيره؛ عرض له فرسان من بنى سليم، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده، فطاعتهم، فرماه نبيشه بن حبيب

بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه في الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل. وأشار إلى الطعائن بالرواح، فسرنا حتى بلغن بيوت الحى، وابن سليم قيام إزاءه لا- يقدمون عليه، ويظنون حياً؛ حتى قال قائل منهم: إني لا أراه إلاميتاً، ولو كان حياً لتحرك؛ إنه والله لماثل راتب على هنيهة واحدة، لا يرفع يده، ولا يحرك رأسه. فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه، حتى رموا فرسه بسهم، فشب من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الطعائن. (١)

وجاء في كتاب بلوغ الأدب أن شجاع كل فرد من أبناء هذه القبيلة بعشره من شجعان سائر القبائل، وهم أشجع قبائل العرب. (٢)

والطريف في الأمر أن جيش الإمام عليه السلام في الكوفة قد بلغ عشرات الآلاف، بل بلغ طبق روايه منه ألف جندي (٣)، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يتمنى استبدال كل هذا الجيش بألف من فرسان بني فراس؛ الأمر الذي يدل على مدى ضعف جيش الكوفة وعجزه، ومدى شجاعه أبناء قبيله بني فراس، فقد تضاعفت شجاعتهم الذاتية في ظل الإسلام والإيمان. كما جاء في القرآن الكريم: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ». (٤)

ص: ٦٨

١-١ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٣٤١. [١]

٢-٢ بلوغ الأدب ٢ / ١٢٥.

٣-٣ المصدر السابق.

٤-٤ سورة البقره / ٢٤٩. [٢]

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف العرب قبل البعثه ثم يصف حاله قبل البيعه له نظره إلى الخطبه.

نظره إلى الخطبه

يرى بعض المحققين أنّ الدافع من هذه الخطبه (أو بتعبير آخر كتابه هذه الرساله) أنّه سأل البعض علياً عليه السلام عن رأيه بمن سبقه من الخلفاء بعد أن استولى أصحاب معاويه على مصر وقتلوا محمد بن أبي بكر. فاستنكر عليهم الإمام عليه السلام ذلك بعد أن استولى معاويه على مصر وقتل شيعته، فكتب الإمام عليه السلام هذا الكتاب. (1) ويتصور أحياناً بأنّ الخطبه اختتمت بالدعوه إلى الجهاد وهذا ما يتنافى وما ذكر، حيث يدل ذلك على أنّ الكلام صدر عن الإمام عليه السلام قبل معركة صفين، لكن يمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى معركة أراد الإمام عليه السلام أن يعب الناس لها قبل شهادته، غير أنّ شهادته عليه السلام حالت دون ذلك. على كل حال فالخطبه على ثلاثة أقسام: القسم الأول في وضع العرب في الجاهليه وعلى أعتاب انبثاق الدعوه الإسلاميه وبعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي أنقذتهم ممّا لا يمكن تصوره من البؤس والشقاء.

والقسم الثاني في الحوادث التي أعقبت رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وكيفيه غضب حق الإمام عليه السلام في الخلافه، وسكوته حفظاً للإسلام والقرآن بينما كان يعيش حاله من التذمر والاستياء.

ص: ٦٩

والقسم الثالث إشاره إلى البيعه المشروطه لعمر و بن العاص على معاويه والتي أدت إلى تلك الويلايت والمصائب والأضرار الفادحه فى الأرواح والأموال، ثم يختتم الخطبه بحث أتباعه بالتأهب للقتال.

ص: ٧٠

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ - مَعْشَرَ الْعَرَبِ - عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيحُونَ بَيْنَ حِجَارِهِ حُشْنٌ وَحَيَاتٍ صُمٌّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْرِفُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقَطِّعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْدَانُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْأَثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ» .

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى أوضاع العرب في الجاهلية في رسم صورته واضحه الملامح عن حياتهم من خلال الأبعاد الفكرية والعاطفيه والاقتصادي والاجتماعيه، بحيث لا تتوصل لهذه الصوره التي رسمها الإمام عليه السلام ولو طالعنا كافه المؤلفات التي صنفت بشأن العرب في العصر الجاهلي. ويبدو أنّ الإمام عليه السلام استهل الخطبه بهذا الكلام ليذكرهم بالعصر الجاهلي الذي سبق الإسلام فيقارنونه بما بعد البعثه النبويه الشريفه فيقفوا على قيمه الإسلام ولا يضحوا بهذه القيمه والنعمة من خلال هذه الفرقه والاختلاف وأتباع الأهواء والشهوات، ولا غرو فقيمه النعم تبقى مجهوله ولا يعرف قدرها إلا إذا فقدت فقد قال عليه السلام: «إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل» .

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أكد على جانب الانذار في رساله النبي صلى الله عليه وآله، بينما نعلم أنّ الانذار قد قرن بالبياره، كما ورد ذلك في عده آيات قرآنيه، كآيئه الشريفه «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» (١) وسائر الآيات القرآنيه. (٢) غير أنّ الانذار بالعقاب

ص: ٧١

١-١) سورة الأحزاب / ٤٥. [١]

٢-٢) سورة سبأ / ٢٨؛ [٢] سورة فاطر / ٢٤؛ [٣] سورة الفتح / ٨ [٤] وسورة البقره / ١١٩. [٥]

والتهديد بالعذاب غالباً ما يكون الدافع لحركة الأمانة نحو القيام بوظائفها والتحفظ عن تركها كان التأكيد أكثر على مسألة الانذار، ومن هنا ورد التأكيد في أغلب الآيات القرآنية على الانذار بشأن رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء، ولم تطالعنا أى من الآيات التى اقتصر على البشارة. وهذا هو الأسلوب الذى اعتمدته القوانين المعاصرة، حيث ركزت على جانب العقوبة بصفتها الضمانه الإجرائيه الناجحه، ونادراً ما يعتمد الحث والتشجيع من أجل تحقيق الغرض المذكور. بصورة عامه فإن الهدف النهائى للانذار هو إثارة الشعور بالمسؤوليه تجاه الوظائف والتكاليف الملقاه على عاتق الإنسان. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأن انذار النبي صلى الله عليه وآله يشمل كافة الكائنات؛ الأمر الذى يدل على عالميه الدين الإسلامى وخلوده، لأن للعالمين مفهوم واسع يشمل كافة أفراد البشرى فى كل عصر ومصر. قوله عليه السلام: «أميناً على التنزيل» تلويح ضمنى بعصمه رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو صائن لكتاب الله ومبلغه للعالم دون أدنى تغيير. ثم تطرق عليه السلام لأوضاع العرب زمان الجاهليه فى عشره عبارات مقتضبه عظيمه المعانى تشير إلى أبعده محاور، فقال: «وأنتم معشر العرب على شر دين» وأى دين أسوأ من الوثنيه؟ أن ينحت عاقل قطعه من الحجر أو الخشب بيده ثم يسجد لها ويعبدها ويرى مقدراته بيدها ويلوذ بها فى حل المشاكل التى تواجهه فى حياته، أو أن يصنع صنماً من التمر يتخذه إلهاً فاذا جاع أكله. أضف إلى ذلك الانحراف الخطير فان طقوس هؤلاء القوم مملوءه بالخرافات والعقائد السخيفه البعيده عن المنطق التى سطرته كتب تاريخ العرب فى العصر الجاهلى، وسنعرض لجانب منها لاحقاً.

هذا على مستوى العقائد والأفكار. ثم تطرق عليه السلام إلى أوضاعهم الاقتصاديه المزريه فقال عليه السلام: «وفى شر دار منيخون» (1) بين حجاره خشن وحيات صم، تشربون الكدروتأكلون الجشب». (2)

تعبيره عليه السلام «شر دار» بالنسبه لمحل إقامه عرب الجاهليه، رغم أن أغلبهم (ولاسيما من

ص: ٧٢

١- ١) «منيخون» من ماده «نوخ» بمعنى تنويم الجمل، ومن البديهي أن يكون موضع استراحه الأفراد هو ذلك الموضع الذى ينومون فيه الجمال بين حجاره خشن.

٢- ٢) «الجشب» على وزن «خشن» بمعنى الطعام الغليظ أو ما يكون منه بغير آدم.

خاطبهم الإمام عليه السلام بهذه الكلمات) كانوا يقطنون في مكة أو المدينة يفيد أن هاتين المنطقتين قد فقدتا قدسيتهما ومكانتهما المعنوية إثر تبدلتهما إلى مركز للأصنام والأوثان والفساد والانحراف. وقد أحاطت بهم عواصف الرمل والرياح المحرقة في تلك الصحارى الجرداء، بحيث إذا تمكن أحدهم من العثور على بقية ماء في بعض البرك والآبار فانه كان على درجه من التلوث والتعفن بسبب هبوب الرياح أو تلويثه من قبل بعض الأفراد حتى ليشعر شاربه بالغثيان، غير أن هؤلاء كانوا مضطرين لشربه، ولم يكن طعامهم بأفضل ممّا عليه الشراب.

نقل أحد شراح نهج البلاغه أنّ إعرابياً سئل: «أى الحيوانات تأكلون في البادية؟» قال: «نأكل كل ما دبّ ودرج الا أم جبين». (١)

أمّا التعبير بالحيات الصم، هو أن الحيه الصماء أخطر من غيرها لأنها صماء لا تنزجر بالصوت، أو لعل سمها أخطر.

أما المحور الثالث فقد أشار فيه الإمام عليه السلام إلى أوضاعهم الاجتماعيه المزريه وإنعدام الأمن والاستقرار فقال عليه السلام: «وتسفكون دمائكم» والتعبير بالمضارع «تسفكون دمائكم» كسائر الأفعال في عبارات الخطبه يفيد استمرار هذه الأوضاع المتفاقمه. والواقع لا- تحتاج قضيه سفك الدماء المتعارفه بينهم إلى دليل، فسوفهم تشهر لا-تفه الأسباب ليخوضوا أعنف المعارك وأشرسها لشهور بل لسنوات - ولعل نظره عابره إلى معاركهم المعروفه بحرب الفجار والتي ستشير إليها لاحقاً تفيد أنّ أولئك الجهال كانوا يخوضون أشرس القتال من أجل أهون الأشياء. وأخيراً أشار عليه السلام إلى المحور الرابع المتمثل بأوضاعهم العاطفيه المترديه «وتقطعون أرحامكم» ولعل العبارة إشاره إلى قضيه وأد البنات ودفنهن أحياء، حيث كانوا يرون البنت تجر عليهم الخزي والعار، فكان أحدهم يتوارى عن الأنظار خجلاً إذا ولدت له بنت، وهذا ما أشارت إليه الآيه ٥٨ و ٥٩ من سورة النحل «وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي

ص: ٧٣

١ - ١) شرح نهج البلاغه، ابن ميثم ٢ / ٢٤ أما كيف ضبطت مفرده (أم جبين) فقييل بيائين وقيل باء وياء وقيل بالجيم كما قيل بالماء (أم جبين) و (أم حبين) ، كما كثر الكلام بشأن هذا الحيوان فقييل هو نوع من العضايا وتنفر منه عرب البادية لأنه سام عند الأكل.

التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» وقد لا يكتفى البعض بالاعتصار على هذا القتل على البنات فيعمد إلى قتل ولده خشية الفقر؛ الأمر الذى نهى القرآن عنه بشدّه، فقد نهت عن ذلك الآية ٣١ من سورة الاسراء «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» بل كان الوالد يقتل ولده والولد والده والأخ أخيه عبثاً، فقد عاشت الرحم فاجعه لم يشهد لها التاريخ مثيل.

ويختتم الإمام عليه السلام كلامه بخلاصه مفاسدهم المعنويه والماديه بالقول «الأصنام فيكم منصوبه والآثام بكم معصوبه». وكأن تعبيره (منصوبه) إلى أنّهم كانوا يفتخرون بهذه الأصنام فينصبونها فى كل مكان فضلاً عن عبادتها والسجود لها. ومعصوبه من ماده عصب (مايربط العضلات بالعظام) إشاره إلى أنواع المعاصى من قبيل سفك الدماء وقتل النفس وقطع الرحم والتعرض للنواميس ونهب الأموال وشرب الخمر والقمار و... التى اجتاحت عرب الجاهليه وعليه فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى انحرافاتهم العقائديه والأخلاقية وأزماتهم الاقتصادية والعاطفيه ومدى الانحطاط والسقوط الذى بلغوه على هذه المستويات.

تأملات

١- آفاق العصر الجاهلى

ضرورى هو البحث حول العصر الجاهلى والمسائل المختلفه المرتبطه به من أجل التعرف على الإسلام وعظمه النبى صلى الله عليه وآله، فقد سعى المؤرخون لإحصاء المسائل المتعلقة بذلك العصر، وقد أشرنا إلى هذه المسأله فى شرح الخطبه الثانيه، وحيث أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبه إلى ذلك الموضوع فإننا نرى ضروره الإشاره إلى بعض الأمور:

أ الحديث طويل فى عقائدهم الخرافيه فالوثنيه كانت هى الحاكمه والمنصوبه فى جوف الكعبه فهناك أوثان القبيله والاسره، ولبعضها أشكال وأخرى دون شكل. من عقائدهم أن الملائكه بنات الله، فى حين ينفرون أنفسهم بشده من البنات. وينكرون القيامه ويشاورون أصنامهم فى الأمور المهمه، وطريقه ذلك أنهم يكتبون على السهام «افعل» و «لا تفعل»

فيجعلونها مع بعضها ويخرجون واحد منها على أنه الأمر الذى أصدره الوشن. ومن خرافاتهم العقائديه الإيمان بالغيلان وطيور الشؤم والبركه وما إلى ذلك.

ب - على الصعيد الإقتصادى فقد كان يدفعهم الفقر وعلاوه على وأد البنات إلى قتل الأولاد. وأغلب دخلهم كان عن طريق السلب والنهبت، وكان الأ-غلب وبسوء الوضع الإقتصادى يعيش حافيا شبه عريان، وإن كان لأحدهم لباس متواضع دعا، ذلك للفخر فينشد: من يك ذابت فهذا بتى مقيظ مصيّف مشّت!

ج - على المستوى العاطفى فكفاهم أنهم لم يرحموا أى شىء وذلك بسبب طبيعتهم الوحشيه كما يقول ابن خلدون حيث يميلون إلى السلب والتهب ولذتهم بذلك وفخرهم بالقتل - روى أن أحدهم سمع قول النبى صلى الله عليه وآله فى وصف الجنه ونعمها، فسأل هل فيها قتال - قيل: لا- قال إذن لا خير فيها. قيل فى بعض التواريخ أن الحروب التى نشيت بين عرب الجاهليه بلغت ١٧٠٠ حرب دام لبعضها مئه عام وتعاقبت عليها الأجيال، وما أكثر الحروب التى كانت تنشب لأتفه الأسباب.

ى - أما على الصعيد الإجتماعى فقد كانت أوضاعهم مزريه بفضل إنتشار الفساد والخمر حتى كان الشراب هو المتبادر إلى الأذهان من التجاره والشجاعه تعنى القتل والغيره والعفه تعنى وأد البنات - كانوا يعشقون ثلاث: المرأه والخمر والقتال حتى قال شاعرهم: إذا مت فادفنى إلى جنب كرمه

كانوا يعتقدون بوجوب نصره الصديق على الحق كان أم الباطل. كما كان القمار بارزا عندهم حتى أنهم كانوا يخسرون فيها نسائهم. كان الزنا منتشرًا بينهم حتى إشتهر عندهم الزانيات من أصحاب الرايات، وهكذا سائر المفاصد التى لا مجال لإحصائها.

(١)

نعم هكذا كان العرب وقد أتقدمهم الله بالإسلام، فلم ينجو من الخرافات والوثنيه

ص: ٧٥

١- ١) للوقوف على المزيد راجع بلوغ الأدب والإسلام والجاهليه والتأريخ الكامل (ج ١) وسيد المرسلين وشرح العلامه الخوئى لنهج البلاغه.

والعقائد المنحطه، بل تغيرت حتى أوضاعهم الإجماعيه والإقتصاديه والعاطفيه وقد صنع من إنسانهم المتوحش مثال الفرد المتحضر الأسوه كمن على شاكلة أبي ذر والمقداد وعمار وبلال. وتتضح عظمه الإسلام ورساله النبي صلى الله عليه و آله من هذه المقارنه، أما ظهور آثار الجاهليه فى عصرنا باشكالها الأوسع والأقسى - بسبب الإبتعاد عن تعاليم الأنبياء سيما تعاليم نبي الإسلام صلى الله عليه و آله لهي شهاده أخرى على عظمه هذه الرساله.

٢- شر دار أم خيرها

النقطه الجديده بالذكر فى الخطبه المذكوره وصفه لموضع سكن عرب الجاهليه بشر دار، بينما وصف ذلك العصر فى الخطبه الثانيه بالقول «خير دار وشر جيران» ولما كان المراد فى العبارتين أرض مكه فيبدو هناك تناقضاً، إلا أنّ أدنى تأمل يفيد عدم وجود أى تناقض - فأرض مكه ذاتاً مركزاً لأفضل دار يعنى الشعبه، ولكن بالعرض فإن جميع هذه الأرض المقدسه حتى بيت الله فقد لوثت بالشرك والوثنيه والمفاسد الأخلاقية. وعليه فهى شر دار باعتبار وخير دار باعتبار آخر.

ج ج

ص: ٧٦

إشاره

«فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظْمِ، وَعَلَى أَمْرٍ مِنْ طَعْمِ الْعَلَقَمِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه - إلى الحوادث التي أعقبت رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله ولاسيما حادثه الخلافه، ويتطرق إلى السبب الذي دعاه إلى السكوت وعدم المطالبه بحقه المسلم في الخلافه، أى خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله - والتي كانت في الواقع حق المسلمين - فقال عليه السلام: «فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي». من الواضح أنّ القيام بالأمر تجاه تلك الطائفه المتحزبه - التي تشهد التواريخ بأنّها خططت للالتفاف على الخلافه قبل وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله - لا - ينسجم وأى منطق؛ لأنّ مثل هذا القيام ليس فقط لا يتمخض عن نتيجته، بل سيؤدي ذلك القيام إلى قتل طائفه من صفوه أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، أضف إلى ذلك فان هذه المواجهه قد تقود إلى شق صفوف المسلمين بما يعود بالنفع للمنافقين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين مثل هذه الحوادث بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يفضل الصمت والسكوت ومن هنا واصل الإمام عليه السلام خطبته بهذا الشأن فقال: «وأغضيت (1) على

ص: ٧٧

١ - ١) «أغضيت» من ماده «غضى» تعنى السكوت على مضمض، كما تعنى اغماض العين - ومن هنا تطلق الليالى الغاضيه على الليالى الظلماء.

القذى (١) وشربت على الشجا (٢)، وصبرت على أخذ الكظم (٣) وعلى أمر من طعم العلقم (٤) .

تأملات

١ - الأحداث المريرة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله

تشبه هذه العبارات تلك التي وردت في الخطبه الثالثه المعروفه بالخطبه الشقشقيه، بل هي أشد وقعاً منها، وتفيد أنّ الإمام عليه السلام قد قضى ساعات ولحظات غايه في المراره إبان تلك السنين - ما يقارب خمس وعشرين سنه - التي قضاها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله جليس الدار حين دفع عن حقه في الخلافه.

ولم يكن تدمر الإمام عليه السلام كونه لم يتزعم الحكومه، فقد أعلن صراحه عن عدم إكترائه لهذا الأمر وأشار كراراً إلى أن هذه الخلافه لا تساوى عنده شىء إلا أن يقيم حقاً أو يدحض باطلاً، فهي مسؤوليه إلهيه وليست وسيله للفخر والمباهاه، وإنما كان تدمره لأنه كان يشهد تنصل الأئمه شيئاً فشيئاً عن الإسلام وابتعادها عن القيم وحياتها لسنن الجاهليه حتى حدث ما كان يخشى منه، فقد تسلم معاويه زمام أمور الدوله الإسلاميه وأصبحت خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله ملكيه وراثيه ليرثها من بعده ولده يزيد الذى ارتكب أفظع الجرائم والجنايات بحق المسلمين وتكشف عبارات الإمام عليه السلام عن مدى الدعايات الشديده التي مارسها القائمين على شؤون الحكومه من جهه وتهديد الأئمه وارعابها من جهه أخرى فى إقصاءه عن حقه المسلم فى الخلافه بحيث لم يكن معه من ينهض بالأمر سوى أهل بيته، فقد نقل المؤرخون عن الإمام عليه السلام أنه قال: «لو وجدت أربعين ذوى عزم لقاتلت» (٥) والذى يستوحى من عباراته عليه السلام أنّ

ص: ٧٨

١-١) «قذى» على وزن قضا الصفاء والاخلاص، ومن هنا يطلق القذى على الشىء الذى يقع فى الماء فيلوته، كما يطلق على ما يقع فى العين.

٢-٢) «شجا» من ماده «شجو» ما يعترض فى الحلق من عظم أو نحوه، كما يطلق على الشده والهم والغم.

٣-٣) «كظم» على وزن غضب من ماده «كظم». قال الراغب فى المفردات الكظم بمعنى مخرج النفس، والكظوم بمعنى الاختناق وحبس النفس، كما تستعمل بمعنى ربط القربه بعد ملئها بالماء، ومعنى العبارة صبرت على الخناق رغم الضغط الذى مارسه العدو.

٤-٤) «العلقم»، قال صاحب مجمع البحرين هي شجره شديده المراره، وتسمى الحنظل أيضاً، كما جاءت علقمه بمعنى المره.

٥-٥) رواها نصر بن مزاحم عن الإمام عليه السلام؛ شرح نهج البلاغه، ابن ميثم ٢ / ٢٦، شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ /

٢٢. [١]

المتحمسين لغضب الخلفه لم يكونوا يتورعون حتى عن سفك دماء أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «فضنت بهم عن الموت»؛ الأمر الذى يبدو عجباً ورهيباً للغاية، وان كانت مثل هذه الأمور الأخلاقية ليست عجيبة فى عالم السياسة والحكومة! كما يحتمل أن يكون أولئك المتعصبين للخلفه يتربصون الدوائر بذريه الإمام عليه السلام التى كانوا يرون أنها ستتصدى للخلفه مستقبلاً، فهم يهمون بقتلهم لكى لا تبقى لأهل البيت من باقيه تنهض بمسؤوليه الخلفه.

أمّا السؤال عن مدى لوعه الإمام عليه السلام وشده تلك الأيام التى كانت تمر عليه وهو جليس الدار، يتطلع بذهول لتلك الأفعال التى ارتكبت باسم الحكومه الإسلاميه من قبيل تحريف العقائد والانحراف فى فهم النصوص والأحكام الإسلاميه وتضييع العدالة وبالتالى استبدال الحكومه الإسلاميه بالملكيه الوراثيه كحكومته فرعون وقيصر وكسرى، فالإجابة عليه قد وردت فى الخطبه الثانيه والستين من نهج البلاغه التى قال فيها الإمام عليه السلام: «أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين، ومهيماً على المرسلين، فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كن يلقى فى روعى ولا يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عنى من بعده! فما راعنى إلا انشغال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعه الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام، وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولا يتكلم التى إنما هى متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب؛ فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه» فالإمام عليه السلام كان يشهد آنذاك مشكلتين خطيرتين؛ الاولى ذهاب حقه المسلم فى الخلفه؛ الحق الذى أدى زواله إلى انحرافات عظيمه برزت على الساحة الإسلاميه، والثانيه تكمن فى الخطر الذى كان محدقاً بالإسلام، والفرصه التى كان ينتظرها تيار النفاق من أجل الاجهاز عليه، فما كان منه عليه السلام إلا أن يعمل بالقاعده المنطقية العقلانيه والشرعيه فى تقديم الأهم على المهم عند التزاحم، فسكت على مضض عن حقه فى الخلفه حفاظاً على بيضه الإسلام.

كثر الكلام بين المؤرخين والمحدثين بشأن موقف الإمام على عليه السلام من خلافه الأول والبيعه التي تمت له في سقيفه بنى ساعده. وليس هنالك من اتفاق بين علماء الشيعة والسنة بهذا المجال، فقد صرح الشارح البحراني أنّ أغلب علماء الشيعة يعتقدون أنّ الإمام على عليه السلام امتنع عن مبايعه الخليفة الأول، وقد انضم إليه عدد من بني هاشم، إلّا أنّهم اضطروا آخر الأمر لبيعته بعد أن أُجبروا عليها. وقيل أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام لازم البيت ولم يخرج، فلما رأوا أنّه وحيد تركوه ولم يحملوه على البيعه. أما محدثوا العامه فقد ذهبوا إلى أنّ الإمام عليه السلام قد امتنع عن البيعه ستة أشهر حتى توفت الزهراء عليها السلام فبايع طوعاً. وللمرحوم العلّامة السيد شرف الدين صاحب المراجعات تحليل رائع بهذا الشأن، خلاصته أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يؤكد حقه المسلم في الخلافة ونص النبي صلى الله عليه وآله بالوصيه عليه من جانب، ومن جانب آخر أراد أن يفوت الفرصه على المنافقين - الذين كانوا يتربصون الدوائر بالإسلام ويرون السبيل قد تمهد أمام أطماعهم بالقضاء على الدين من خلال الاختلافات بين الأنصار والمهاجرين - فامتنع عن البيعه مده (ليعلن عن حقه في الخلافة)، ثم بايع حفظاً للإسلام ودرءاً لخطر المنافقين والمتربصين بالدين. (١) وقد وردت بعض العبارات التي تشير إلى هذا المعنى في الخطبه ٦٢ من نهج البلاغه «.. فأمسكت يدي حتى رأيت راجعه الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه تلمأً أو هدماً، تكون المصيبه به على أعظم من فوت ولايتكم..».

وستحدث إن شاء الله بما يناسب المقام حين شرحنا للخطب والرسائل المرتبطه بهذا البحث.

ص: ٨٠

ومنها: «وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعِ ثَمَنًا، فَلَا ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ، وَخَزِيَّتْ أَمَانُهُ الْمُبْتَاعِ، فَخُذُوا لِلْحَزْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا فَقَدْ شَبَّ لَهَا، وَعَلَا سَنَاها، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى المساومه الفاضحه التي اشترطها عمرو بن العاص على معاويه كثمن للبيعه، فقال: «ولم يبايع حتى شرط أن يؤتية على البيعه ثمناً». فقد ذكر المؤرخون: لما نزل على عليه السلام الكوفه بعد فراغه من أمر البصره، كتب إلى معاويه كتاباً يدعوه إلى البيعه، أرسل فيه جرير بن عبدالله البجلي. فقدم عليه به الشام، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وطاول جرير بالجواب عن الكتاب، حتى كلم قوماً من أهل الشام في الطلب بدم عثمان، فأجابوه ووثقوا له، وأحب الزياده في الاستظهار، فاستشار بأخيه عتبه بن أبي سفيان، فقال له: استعن بعمرو بن العاص فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشد اعتزلاً؛ إلّا أن يثمن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا. فكتب إليه معاويه «أما بعد، فانه كان من أمر على وطلحه والزبير ماقد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصره، وقدم علينا جرير بن عبدالله في بيعه على، وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أذاكرك أموراً لا تعدم صلاح مغبتها، إن شاء الله» - فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنه: عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبدالله: قر في منزلك فلست مجعولاً خليفه، ولا تزيد على أن تكون حاشيه لمعاويه على دنيا قليله. أما ولده

الآخر فقال: الحق بجماعه أهل الشام فلما دخل عمرو بن العاص الأشم، خاطبه معاوية قائلاً: «يا أبا عبد الله أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصى المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعه وقطع الرحم» (١). فقال له عمرو: من هو؟ قال: علي. فقال عمرو بن العاص: «والله ما أنت وعلى بجملى بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه». ووالله إن له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لأحد غيره، ولكنى قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً؛ فما تجعل لى إن شايعتك على حربيه، وأنت تعلم مافيه من الغرر والخطر؟ قال معاوية: حكمك، فقال عمرو: مصر. فتلکأ عليه معاوية وقال: يا أبا عبد الله إنى أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا، قال عمرو: دعنى عنك. فأشار عليه عتبه بأن يجيب عمرو، فأجابه وأعطاه مصر. (٢) جدير بالذكر إن مصر كانت فى نفس عمرو بن العاص لأنه هو الذى فتحها فى سنه تسع عشره من الهجره فى خلافه عمر، فكان لعظمها فى نفسه وجلالته فى صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعه الدنيا، لا- يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه. أضف إلى ذلك فقد ولاها أربع سنوات على عهد الخليفة الثانى، وأربع أخرى على عهد عثمان حتى عزله. ثم قال الإمام عليه السلام: «فلا ظفرت يد المبايع، وخزيت أمانه المبتاع» (٣). فالواقع كلامه عليه السلام يتضمن الدعوه ضد المشتري والبائع. نعم صحيح أن معاوية قد وفى له بوعده وأعطاه مصر، إلا أنه لم يحكمها مده طويله بعد أن وافاه الأجل، إلى جانب ما نقل عنه أواخر عمره عن مدى خشيته من عاقبته ومصيره، فلم يذق طعم النصر الذى كان يحلم به. كما أن معاوية وإن وطد دعائم حكومته بهذا العمل إلا أنها آلت إلى الانهيار المخزى بعد أن انفرج عنه كافة الصحابه من المهاجرين والأنصار والأفراد المشهورين بحسن السمع من أهل الورع والتقوى ولم يتمحور حوله سوى تلك الثله التى ورثت العداء للإسلام وسليلى زعماء الجاهليه، فكانوا أعوانه الذين يبطش بواسطتهم الناس ويجرعونهم أبشع غصص القتل والارعاب والتهديد والوعيد. كما يحتمل ألا تكون العبارة من

ص: ٨٢

١-١) يقصد قرابه عثمان من بنى هاشم.

٢-٢) «المبتاع» بمعنى المشتري والمراد به هنا معاوية والبائع عمرو بن العاص.

٣-٣) انظر أسد الغابه فى معرفه الصحابه (عمرو بن العاص).

قبيل الدعاء، بل هي جملة خبريه؛ أي أن بيع الدين بالدنيا لا- يقود إلى النصر أبداً، بل ستكون الخساره من نصيب البائع والمشتري؛ الأمر الذي أشارت إليه بعض الآيات القرآنيه «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّالَّةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» (١) والآيه «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَّرُونَ» (٢). وتعبير الإمام عليه السلام بالأمانه عن حكومه مصر و حقوق أهلها من المسلمين إشاره صريحه إلى أن حكومه الأمه وإداره شؤونها إنما هي أمانه إلهيه لا بد أن ينهض بعينها الأخيار الصالحين بغيه ضمان مصالح الأمه، وأما أولئك الذين يتخذون هذه الحكومه وسيله لتحقيق مآربهم وأغراضهم الشخصيه إنما يخونون هذه الأمانه الإلهيه وهذا ما سيؤدي في آخر الأمر إلى فضيحتهم وزوال حكمهم. ومن هنا صرح أغلب المفسرين بأن المصداق الوحيد أو المصداق البارز للأمانه الوارده في الآيه الشريفه «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» (٣) إنما هي الحكومه والولايه. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بحث الأمه على الاستعداد والتأهب لِمنازله العدو «فخذوا للحرب أهبتها» (٤)، وأعدوا لها عدتها فقد شب (٥) لظاها (٦) وعلا سناها (٧). فالعبارة تفيد أن الإمام عليه السلام قد اعتمد كافة الطرق السلميه من أجل وضع حد لذلك النفاق والعداء ولاسيما غدر أهل الشام وحكامهم إلّا أن كل ذلك لم يجد نفعاً، فكان حجم التآمر والفساد يزداد كل يوم، فما كان منه عليه السلام إلّا أن أمر بالتأهب للقاء العدو؛ فقد شب لظي نيران الأعداء وتصاعدت ألسنتها، ولا بد من مواجهتها والعمل على اطفائها. كما يشير التاريخ الإسلامي إلى أن أعداء الإمام عليه السلام كانوا يسارعون للاستعداد للقتال وقد بعثوا بكتبهم ورسائلهم إلى طلحه والزبير. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام بالإشاره إلى الصبر بفضل أحدهم مقومات النصر فقال «واستشعروا

ص: ٨٣

[١-١] سورة البقره / ١٦. [١]

[٢-٢] سورة البقره / ٨٦. [٢]

[٣-٣] سورة النساء / ٥٨. [٣]

[٤-٤] «أهبه» على وزن لقمه بمعنى العده والتأهب والاستعداد للقيام بعمل وإهاب على وزن كتاب بمعنى الجلد الذي لم يدبغ وقد أعد للدباغه.

[٥-٥] «شب» من ماده «شبب الشباب»، ويستعمل في شب النار.

[٦-٦] «لظا» بمعنى شعله النار كما تطلق على نفس النار (الراغب في المفردات).

[٧-٧] «سنا»، قال صاحب المقاييس تتضمن العلو والارتفاع وقد وردت في العبارة بمعنى تصاعد ألسنه النيران.

الصبر فإنه أدعى إلى النصر». واستناداً إلى مفردة الاستشعار من ماده (ش ع ر) التي تعنى الثياب الداخليه (فى مقابل الدثار بمعنى الثياب الخارجيه) يتضح أنّ الصبر والاستقامه لا يبدّ أن تسود باطن الإنسان وتمد الإنسان بمعانى الصمود إزاء الحوادث المريره.

تأملات

١ - السياسات الدينويه لا تعترف بالأصول الأخلاقيه

هناك عباره ما انفكت الألسن ترددها حتى صارت مثلاً، وهى قولهم «الملك عقيم» التى تفيد تنكر السياسه الماديه - القائمه على أساس القيم الدينويه والأنايه والأطماع الشخصيه - حتى للقرايه بما فيها الزوجه والولد والوالدين والتضحيه بها من أجل تحقيق أهدافها وأغراضها؛ ولا- غرو فالساسة لا- يرون من قيمه تفوق حفظ مواقعهم، وعليه فمن الطبيعى أن يضحون بالغالى والنفيس ويضربون كل قيمه عرض الحائط من أجل حفظ مصالحهم. وقوله عليه السلام: «فضنت بهم عن الموت» تشير إلى أنّ المتعطين للخلافه كانوا مستعدين حتى لقتل أهل البيت من بنى هاشم فيما لو استعان بهم الإمام عليه السلام ونهض بالأمر للمطالبه بحقه فى الخلافه. والحديث النبوى المعروف «حَبَّكَ للشىء يعمى ويصم» (١) لأصدق على الرغبه بالجاء والمقام منه على سائر الأمور، ونموذج ذلك ماورد فى الخطبه التى نحن بصدددها. ويحفل التاريخ بسير أولئك الذين عبروا على كل شىء وسحقوه من أجل الظفر بأهدافهم فى السلطه والرئاسه.

٢ - باعه الدين بالدنيا!

تعرضنا إلى حد ما فى البحث السابق إلى مسأله بيه الدين والقيم والمثل المعنويه بالمنافع الماديه الرخيصه، ولمسنا نموذج ذلك فى شخصيه عمرو بن العاص الذى أشارت إليه الخطبه المذكوره، حيث صرحت بأنّه ومن أجل حكومه مصر ولو لمدّه قصيره قد باع دينه وقيمه،

ص: ٨٤

وقد أعرب آخر عمره كما أورد ذلك المؤرخون عن مدى ندمه، ولكن حيث لم ينفع الندم وقد أغلقت كاهه سبل العوده.

القرآن الكريم من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته أحد العوامل الرئيسيّه المؤديه إلى الانحراف ولاسيما بالنسبه للعلماء من عبده الدنيا. ومن ذلك ما أورده القرآن بشأن فريقاً من علماء بنى اسرائيل - الذين كانوا يبشرون بظهور النبي قبيل انبثاق دعوته على ضوء العلم الذى كان لديهم والأخبار الوارده فى كتبهم (التوراه والانجيل) إلاً أنّهم حرفوا الكلم حين تعرضت بعض مصالحيهم الماديه للخطر - فقد صرحت الآيه ١٨٧ من سوره آل عمران قائله: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ» .

فمن الواضح أنّ القرآن الكريم يذمهم من أجل أنّهم حرصوا على متاع قليل، بل المراد أنّ المتاع المادى - وأن تضمن أرفع المقامات وأكثر الثروات - يبقى قليلاً مقارنة بالمتاع المعنوى «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (١).

على العموم فإنّ كاهه الأفراد الذين يقدمون طاعه المخلوق على طاعه الخالق ويؤثرون أطماعهم ومنافعهم على الآخره ويضربون الأحكام الشرعيه عرض الحائط ولا- يكثرثون للحلال والحرام من أجل تحقيق أهوائهم الشخصيّه إنّما هم فى زمره باعه الدين بالدنيا. ويقابلهم اولئك الأفراد الذين لا يرون فى أعمالهم سوى رضى الله والتسليم لإرادته، وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن بحزب الله الذين لا يرون حتى فى الأهل والقرايه من عائق أمام رضى الله «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...» (٢).

٣ - علاقه النصر بالثبات

إن كان النصر يقوم على عده عوامل، فإنّ أحد أهم هذه العوامل هو الصبر، وتبدو الرابطه

ص: ٨٥

١- ١) سوره التوبه / ٣٨. [١]

٢- ٢) سوره المجادله / ٢٢. [٢]

بين النصر والصبر على درجه من الوضوح بحيث إن الأدباء ومنذ قديم الزمان قد قرنوا الظفر بالصبر «من صبر ظفر». وقد أشار القرآن الكريم صراحه إلى هذه الحقيقه حتى اعتبر أنّ النصر حليف جند الإسلام مهما كان عدد وعده العدو إذا ما تحلوا بالصبر والاستقامه «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثِّيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا» (١). وهذا هو السبب الذى يكمن وراء انتصار المسلمين فى كافه الغزوات رغم عدم الموازنه والتفاوت الفاحش بين ما عليه الأعداء من عده وعدد ومعدات وما عليه المسلمين، حيث كانوا يتحلون بالصبر النابع من إيمانهم بالله واليوم الآخر.

وهذا ما أكدّه الإمام عليه السلام فى خطبته اذ قال: «واستشعروا الصبر فانه أدعى إلى النصر». ولا يسعنا هنا إلّا أن نكتفى بهذا المقدار ونوكل المزيد من الكلام إلى الأبحاث القادمه. أما المسأله الجديره بالذكر فهى أن استشعار الصبر - بمعنى نفوذته إلى عمق النفس البشريه - أو دثاره - بمعنى التحلى به على مستوى الظاهر؛ الأمر الذى يدخل الرعب إلى قلوب الأعداء - إنّما يقود إلى النصر وهزيمة العدو.

ص: ٨٦

اشاره

ومن خطبه له عليه السلام

وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خبر غزو الانبار بجيش معاويه فلم ينهضوا. وفيها يذكر فضل الجهاد ويستنهض الناس ويذكر علمه بالحرب ويلقى عليهم التبعه لعدم طاعته.

سند الخطبه وزمانها ومكانها

اشاره

قال ابن ابي الحديد هذه الخطبه من مشاهير خطبه عليه السلام؛ قد ذكرها كثير من المحققين والمحدثين (غير المرحوم الشريف الرضى) ورواها أبو العباس المبرد في أول (الكامل) وأسقط من هذه الروايه ألفاظاً وزاد فيها ألفاظاً، وقال في أولها: إنه انتهى إلى على عليه السلام أنّ خيلاً وردت الأنبار (١) لمعاويه، فقتلوا عاملاً له يقال له: حسان بن حسان، فخرج مغضباً يجر رداءه، حتى أتى النخيله، وأتبعه الناس، فرقى رباوه في الأرض، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه صلى الله عليه وآله ثم قال: أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنّه، فمن تركه رغبه عنه، ألبسه الله الذل وسيم الخسف» (٢).

كما أوردها المرحوم الكليني في كتابه الكافي في بحث الجهاد. (٣)

ص: ٨٧

١- ١) الانبار محافظه من محافظات العراق التي تقع غرب بغداد.

٢- ٢) شرح نهج البلاغه لابن ابي الحديد ٢ / ٧٥. [١]

٣- ٣) الكافي ٤ / ٥.

ونقلها صاحب مصادر نهج البلاغه عن عشره مصادر معروفه قبل المرحوم السيد الرضى ومنها: «البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبه والأخبار الطوال للدينورى والغارات للثقفى والعقد الفريد لابن عبد ربّه والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى. . .» (١)

وعليه فإنّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبه فى النخيله حين أخبر عليه السلام بهجوم سفيان بن عوف الغامدى - والذى عبّر عنه الإمام عليه السلام ب (أخو غامد) - على الأنبار وقتل عامله عليها حسان بن حسان وطائفه من المسلمين وقد نهبوا أموالهم وخرّبوا بيوتهم دون أن يواجهوا أدنى مقاومه ثم عادوا إلى الشام سالمين. فأما أخو غامد الذى وردت خيله الأنبار فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى؛ وغامد قبيله من اليمن، وهى من الأزدي، أزد شنوءه - واسم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد - وسمى غامداً لأنه كان بين قومه شر فأصلحه وتغمدهم بذلك. قال سفيان بن عوف الغامدى، قال: دعانى معاويه، فقال: إني باعثك فى جيش كثيف، ذى أداه وجلاده، فألزم جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فان وجدت بها جنداً فأغر عليهم وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فان لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل فى المدائن؛ ثم أقبل إلى واتق أن تقرب الكوفه. واعلم انك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنتك أغرت على الكوفه؛ إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو الينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب. قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاويه فى الناس فخطبهم، فقال: أيها الناس، انتدبوا مع سفيان بن عوف، فإنه وجه عظيم فيه أجر، سريعه فيه أوبتكم إن شاء الله - ثم نزل. قال: فوالذى لا إله غيره ما مرت ثالته حتى خرجت فى سته آلاف، ثم لزمت شاطئ الفرات، فأغذذت السير حتى أمر بهيت، فبلغهم أنى قد غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عريب، كأنها لم تحلل قط، فوطئتها حتى أمر بصند وداء، ففروا فلم ألق بها أحداً، فأمضى حتى أفتتح الأنبار،

ص: ٨٨

وقد نذروا بى، فخرج صاحب المسلحه إلى، فوقف لى فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية. فقلت لهم: أخبرونى كم بالأنبار من أصحاب على عليه السلام؟ قالوا: عدّه رجال المسلحه خمسمائه، ولكنهم قد تبددوا ورجعوا إلى الكوفه؛ ولا ندرى الذى يكون فيها، قد يكون مائتى رجل، فنزلت فكتبت أصحابى كتائب، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبه بعد كتيبه، فيقاتلهم والله ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه فى الأزقه، فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فملا حملت عليهم الخيل وأمامها ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان فى الأنبار من الأموال؛ ثم انصرفت، فو الله ما غزوت غزاه كانت أسلم ولا أقر للعيون، ولا أسر للنفوس منها. وبلغنى والله أنها أرعبت الناس، فلما عدت إلى معاويه، حدثته الحديث على وجهه، فقال: كنت عند ظنى بك، لا تنزل فى بلد من بلدانى إلّا قضيت فيه مثل ما يقضى فيه أميره، وإن أحببت توليته وليتك، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دونى، قال فو الله ما لبثنا إلّا يسيراً، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الابل هرباً من عسكر على عليه السلام. وكان اسم عامل على عليه السلام على مسلحه الأنبار أشرس بن حسان البكرى. قال ابراهيم بن عبد الله بن قيس كنت مع أشرس بن حسان البكرى بالأنبار على مسلحتها، إذ صبحنا سفيان بن عوف فى كتائب تلمع الأبصار منها، فها لونا والله، وعلمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقه بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا، وايم الله لقد قاتلناهم فأحسننا قتالهم؛ حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا، وهو يتلو قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا». ثم قال لنا: من كان لا يريد لقاء الله، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية مادمننا نقاتلهم، فان قاتلنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار، ثم نزل فى ثلاثين رجلاً، فهمت بالنزول معه، ثم أبت نفسى، واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله، وانصرفنا نحن منهزمين. (١)

ص: ٨٩

كما ذكرنا سابقاً فإن هذه الخطبة - المعروفة بخطبة الجهاد - من أشهر خطب أمير المؤمنين عليه السلام التي تدور حول محور الجهاد. فقد استهل الخطبة بشرح أهميه الجهاد ومعنياته والعواقب الوخيمه التي تنتظر الأمة في حاله تركه. ثم عرض باللوم لأهل الكوفه بعد أن تعرض لحمله «سفيان الغامدي» على مدينه الأنبار وشهاده «حسان بن حسان» - العامل الوفي والأمين لأمير المؤمنين عليه السلام على الأنبار - والجرائم التي ارتكبها أهل الشام في سلب الأموال وهدم البيوت - وفي القسم الثالث من الخطبة إلى ذم أهل العراق آنذاك ثانياً والتعلل ببعض الأمور بهدف التقاعس عن الجهاد - وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته ببيان استعداداه التام لجهاد العدو وسوابقه المشرقه بهذا الخصوص وفي الختام فهي خطبه ذات تأثير بليغ في نفوس السامعين، حتى قال الشارح المعروف ابن أبي الحديد بهذا المجال: واعلم أنّ التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثر، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فمن جيد ذلك ما قاله ابن بناته الخطيب بشأن الجهاد « . . . فإنّ الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان. » ثم أضاف: فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الانصاف، تجدها بالنسبه إليها كمخث بالنسبه إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالاضافه إلى سيف من حديد. (1)

ج ج

ص: ٩٠

«أَمَّا بَعِيدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصِّهِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِيَّةِ يَنْهَى، وَجَنَّتَهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الدُّلِّ، وَشَجَلَهُ الْبَلَاءُ، وَدَيَّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءِ، وَضْرَبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيَمَ الْخُسْفَ، وَمُنِعَ النَّصْفَ» .

الشرح والتفسير

لقد تعرضت الخطبه إلى فلسفه الجهاد وبركاته فى عبارات قصيره ذات عده معان، إلى جانب الآثار السيئه لترك الجهاد، فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه «أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنّة» وبالطبع هناك عده أسباب وردت فى الأحاديث بصفتها «أبواب الجنّة» التى تؤدى إلى نيل الرحمه والفوز بالرضوان والجنّة يكمن أهمها فى الجهاد، فقد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «للجنّة باب يقال له «باب الجهاد» يمضون إليه فاذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم، والجمع فى الموقف، والملائكته ترحب بهم» (١). ونعلم أنّ الجهاد فى الإسلام على نوعين: جهاد العدو وجهاد النفس. وقد اصطلح على الأول بالجهاد الأصغر وعلى الثانى بالجهاد الأكبر، وكل منهما باب من أبواب الجنّة.

ص: ٩١

ولا يتيسر لقاء الله دون الجهاد الأكبر كما تتعذر العزه والرفعه فى الدنيا والآخرة دون الجهاد الأصغر. ثم قال عليه السلام «فتحته الله لخاصه أوليائه». صحيح أن جهاد العدو والنفس يعد وظيفه جميع المسلمين، إلا أن أولياء الله فقط الذين يسعهم خوض غمارهما حتى النهايه على أساس الاخلاص والنيه الحسنه، بينما قد تكون نيات الآخرين مشوبه بالطمع ونيل الغنام أو الحصول على الحياه والمنصب والشهره وبالتالي فهم لا يواصلون المسيره إلى آخرها. فأولياء الله فقط الذين يقتحمون الميدان ويصبرون على الأذى فى حركتهم الجهاديه فيركعون كافة قوى الشر والظلام.

ونخلص مّياً سبق إلى عدم ورود الإشكال على الإمام عليه السلام فى أنه خص باب الجهاد بخاصه أولياء الله بينما كتب على جميع المسلمين. كما نفهم من قوله عليه السلام أن من طوى مسيره الجهاد الأصغر والأكبر فهو من خاصه أولياء الله سبحانه. ثم يصف عليه السلام الجهاد فيقول «وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينه، وجنته الوثيقه» ونعلم أن اللباس زينه للإنسان وجمال له من جانب، ومن جانب آخر فانه حافظ لبدنه من شدة الحراره والبروده التى تؤذيه فيما لو كان عرياناً، كما يشكل أساس عزه الأقوم والشعوب ودرعها من أنواع المخاطر والآفات؛ الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى عباراته اللاحقه.

وأخيراً فالجسد العارى عرضه لأنواع الأذى موصوفاً بالقبح والشناعه، وعليه فالأمه التى تولى ظهرها للجهاد هى أمه ذليله مهدده بكافه عناصر الزوال والانهييار. أمياً عليه إضافه اللباس للتقوى فى العبارة فلعل ذلك يفيد تعذر حفظ أصول التقوى دون توفر الأمن، كما يتعذر الأمن دون الجهاد. كما يحتمل تفسيرها على أنها اشاره إلى الآيه ٢٦ من سوره الأعراف التى عدت التقوى نعمه الهيه بعد ذكر اللباس الظاهر «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ». .

وبناءً على هذا فالمراد هو أن لباس التقوى الذى ورد فى القرآن إنما مصداقه الكامل هو الجهاد الذى يجعل المجتمع يعيش الأمن والأمان على كافه المستويات (١) وهو مصدر الحسن والجمال.

ص: ٩٢

١- ١) لا بدّ من الالتفات إلى أن الاضافه (لباس التقوى) فى التفسير الأول من قبيل الإضافه اللاميه وفى التفسير الثانى إضافه بيانیه.

ثم شبه الإمام عليه السلام الجهاد بالدرع الحصينه والجنه الوثيقه، والوسيلتان من المعدات الدفاعيه فى القتال، حيث لم يكن من أمان لاولئك الذين يخوضون المعارك سابقاً ولم يتدرعوا، وهذا هو حال الأُمه التى تترك الجهاد فهى ضعيفه خاويه تجاه ضربات العدو. ولعل هذه العبارة تشير إلى حقيقه وهى أنّ الجهاد لا يراد به الهجوم على الآخرين ومن أجل التوسع والسيطره ونهب الأموال والثروات وفرض الأفكار والعقائد، لأننا نؤمن بأن الإسلام والقرآن إنّما يستند إلى منطق قوى يغنيه عن شهر السيف بوجه المقابل. وعليه فأنما شرع الجهاد من أجل حفظ المجتمع الإسلامى وإزالة الموانع التى تعترض أساليب التبليغ والقضاء على الموانع التى تحول دون حريه البيان.

أمّا الحروب المعاصره فهى وإن نحت الدروع القديمه إلّا أنّها تعتمد اليوم الوسائل التى تفوقها فى الدفاع من قبيل المدرعات والمصفحات والمواقع المحصنه، كما تلجأ إلى بعض الملابس الخاصه بغيه مواجهه الهجمات الكيميائيه بحيث لا تتأثر من قريب أو بعيد بخطر هذه الأسلحه.

جدير بالذكر أن ما ذكر بشأن تفسير عباره الجهاد الأصغر (العدو الخارجى) يصدق تماماً على الجهاد الأكبر (جهاد النفس)؛ حيث لا طاقه للإنسان بهجمات الشيطان دون جهاده لنفسه. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الآثار السلبيه التى يتمخض عنها ترك الجهاد ليوجزها فى سبع نقاط، فقال: «فمن تركه رغبه عنه ألبسه الله ثوب الذل» وقوله عليه السلام (رغبه عنه) إشاره إلى استثناء الأفراد من هذا الحكم ممن يمتلكون الأعذار الموجهه التى لا تجعلهم قادرين على خوض الجهاد من قبيل العجز والمرض ونحو ذلك؛ الأمر الذى أكدته بعض الآيات القرآنيه. (١) الأثر السلبي الثانى لترك الجهاد «وشمله البلاء» فمثل هذا الفرد أو الأُمه إنّما يعتكف فى موضع أعزل يجعله عرضه لحملات الحيوانات المفترسه بحيث تدخل عليه دون أدنى مقاومه، والجهاد وحده هو الذى يشكل السد الحديدي إزاء مثل هذا البلاء فينأى بالإنسان بعيداً عن هذه الحيوانات. أمّا الأثر السلبي الثالث فقد أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله «وديث (٢) بالصغار (٣)

ص: ٩٣

١- ١) سورة التوبه / ٩١- ٩٢.

٢- ٢) «ديث» من ماده «ديث» بمعنى الذله والهوان، ومن هنا يصطلح بالديوث على من لا يكثرث لعفه أهله، كأنه قد ذلل حتى صار كذلك.

٣- ٣) «صغار» بمعنى الذله.

والقماءه (١)» وكيف لا يعيش الذل والهوان والضعه من ضيع هذا السند العظيم؛ أى الجهاد. وصحيح أن العبارتين قريبتان من بعضهما بالمعنى، إلّا أنّ هناك فارقاً طفيفاً، حيث كان الكلام هناك عن الذله وهنا عن الحقاره والضعه. فالمفهومان مختلفان إلّا أنّها من قبيل اللازم والملزوم. وأمّا المصيبه الأخرى التى تطيل تارك الجهاد فهى «وضرب على قلبه بالأسهاب» (٢) فالأفراد الضعفاء والعجزه والمهزومون إنّما يعانون من الأوهام على الدوام فلا يسعهم تقييم الحقائق كما هى. فخشيته العدو تجعلهم يعيشون فى هاله من الخيالات المرعبه، أو أنّهم يلجأون إلى بعض الخرافات من أجل تحقيق النصر كأن يتخلوا عن السيف والمقاومه ويلوذوا بالسحره والكهنه.

وقد حفل التأريخ بنماذج حيّه لمثل هؤلاء الأفراد، الذين لا يكشفون بذلك سوى عن ضعفهم وعجزهم، بينما يتنزه المجاهدون الشجعان عن مثل هذه السفاسف.

ثم ذكر الأثر السلبي الخامس بقوله عليه السلام «وأدبيل (٣) الحق منه بتضييع الجهاد»، وذلك لأنّ الحق - كما ورد فى المثل المعروف - يؤخذ ولا يعطى. فالطواغيت وأصحاب المنطق الغاشم والمستبدون لا يفوضون الحق لأصحابه أبداً، ولا بدّ من التحلى بالقوه من أجل انتزاع الحق من برائن اولئك الطغاه؛ الأمر الذى نوه له الإمام عليه السلام فى الخطبه التاسعه والعشرين بقوله «لا يدرك الحق الا بالجد» وأمّا الأثر السلبي السادس «وسيم الخسف» وبالالتفات إلى اطلاق الخسف والخسوف على زوال نور القمر والاختفاء فى الأرض، وان «سيم» من ماده «سوم» بمعنى الحركه إثر شىء فان مفهوم الجمله سيكون: أنّ تاركى الجهاد فى الواقع إنّما يسيرون باتجاه الزوال والانقراض؛ الأمر الذى لاحظناه بوضوح فى الأمم والبلدان التى آلت إلى السقوط والانهيال إثر تقاعسها عن الجهاد. (٤)

ص: ٩٤

١-١) «القماءه» بمعنى الصغار و الذل.

٢-٢) الأسهاب ذهاب العقل أو كثره الكلام، أى حيل بينه و بين الخير بكثره الكلام بلافائده، و قدورت بهذا المعنى فى الخطبه.
٣-٣) «أدبيل» من ماده «دوله»، قال صاحب المقاييس لها معنيين؛ الأول التحول و الانتقال، والآخر الضعف، وارىد بها هنا المعنى الأول.

٤-٤) فسرّها جمع من شراح نهج البلاغه بالذله والهوان على أنّها من قبيل تكرار وتأكيد العبارات السابقه، أمّا ما أوردته فى المتن فانه ورغم انسجامه مع المتون اللغويه الا أنه ينطوى على معنى جديد يأبى التكرار، وعليه يبدو هو التفسير الأنسب.

ثم قال عليه السلام فى إطار ذكره للآثر السلبي السابع «ومنع النصف» (1) ودليل ذلك واضح؛ لأنّ أتباع العدالة عادة ما يشكلون الأقلية، ولو لم يكونوا كذلك كميّه فهم أقلية من حيث الكيفيه والقدره.

ومن هنا فان أصحاب السطوه يندفعون بكل ما أوتوا من قوه لهضم حقوق الشعوب المظلومه ويسعون لمضاعفه ثرائهم وأموالهم. وليس لهذه الشعوب من وسيله لاستعادة حقوقها وخلصها من براثن الظلم والاضطهاد وتحقيق العدالة الاجتماعيه سوى فى خوض غمار الجهاد. وهنا تكمن أهميه العبارات التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه بشأن الجهاد وفلسفته ومعطياته الايجابيه والسلبيه فيما لو تخلت عنه الشعوب والأمم.

كما يتضح ممّا أوردنا أنّ الجهاد لم يندب بفعل الثواب المعنوى المترتب عليه، بل بسبب الآثار والمعطيات الكبيره التى يفضى إليها فى هذه الحياه الدينويه. فهل هناك من يطلب الذل والهوان ويرضى بغصب الحقوق وتضييعها وبالتالي يحث الخطى نحو الزوال والفساء؟! فان كان الجواب بالسلب، كان علينا أن نشدد حيازيمنا ونهب لخوض الجهاد والتحلّى بالصبر والاستقامه من أجل درك معطياته العظيمه فى الدنيا والآخره وتحمل كفه الآلام والمصاعب كاحتمال المريض لمراره الدواء من أجل التماثل للعافيه والشفاء.

تأملان

١ - الجهاد سر رفعه الشعوب وعزتها

كثر الكلام بشأن الجهاد، ولدينا المزيد من الكلام بهذا الخصوص طالما تواتت خطبه عليه السلام فى نهج البلاغه فى الحديث عن هذه المسأله.

أمّا الشىء المهم الذى نود التطرق إليه بصفته مبدأ حيويًا هو أنّ الجهاد قانون الحياه الذى يمنحها الدوام والبقاء وأنّ الإنسان وكل كائن ينبض بالحياه مازال مقبلاً على الجهاد وبخلافه

ص: ٩٥

١-١) النصف والانصاف من ماده واحده بمعنى العدل.

يبدأ عده العكسى فى الموت والفناء. فالنبات يواجه عده آفات يسعى للتغلب عليها من أجل البقاء حياً، وجذور الأشجار هى الأخرى تغوص فى أعماق الأرض من أجل امتصاص الماء والأملاح فإذا ما اعترضت بعض الموانع كالصخور سعت لاختراقها ومواصلة تغلغلها فى أعماق التربه وإن عجزت عن ذلك فتشت عن طريق آخر واستمرت فى مسيرتها. وهكذا الحال بالنسبه للحشرات والحيوانات التى تواجه الأخطار التى تهدد كيانها باستمرار فتبدى مقاومتها من أجل مواصلة حياتها. فهناك بعض الطيور التى تهاجر إلى مسافات شاسعه قد تنطلق من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى مقاومه كافة الظروف المحيطه بغيه مواصلة حياتها. أما الإنسان فيعيش حركه جهاديه مريه على مستوى أعضائه الداخليه ودورته الدمويه، فالجنود التى تدافع عن البدن - التى يصطلح عليها بكريات الدم البيض - طيله عمر الإنسان إنما تتصدى ببسالة لكافة الأعداء المتمثلين بالمكروبات والفايروسات التى تحاول اختراق بدن الإنسان عن طريق الماء والغذاء والهواء والشقوق التى تحدث فى الجلد.

وقد الهمت هذه الكريات سبل الصمود بوجه كافة الأسلحه الكيمائيه والفيزيائيه بحيث تبيدها وتبقى على البدن سالمأً صحيحاً. فإذا ضعفت هذه الجنود لأى سبب من الأسباب وتقاوست فى وظيفتها هجمت جميع الأمراض على الإنسان، وما المرض الخطير الذى يطلق عليه «الايذز» إلمانتيجه طبيعيه لاختلال عمل هذه الكريات وتوقفها عن العمل، ومن هنا فإن المصابين بهذا المرض الخطير إنما يكونون عرضه للاصابه بأخطر الأمراض. وزبده الكلام فان الجهاد رمز الحياه وسر السعاده والسبب الرئيسى للنصر والغلبه وعامل الرفعه والعزه، لكن ليس ذلك سوى الجهاد من أجل تحقيق الحق والعدل وإلّا فليس ذلك سوى الجريمه والظلم والعدوان.

ومن هنا تظافرت الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه بما فيها الخطبه المذكوره التى أكدت على قضيه الجهاد بما لم تول مثل هذه الأهميه لغيره من المفاهيم، ولاسيما الجهاد بالمعنى الأشمل الذى يتضمن الوقوف بوجه العدو الخارجى والداخلى. فقد جاء فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً فى نفسه وفقراً فى معيشته

ومحققاً في دينه» (١) ويستفاد من هذا الحديث أن ترك الجهاد إنّما يهدد بالخطر الحياه المعنويه للإنسان فضلاً عن حياته الماديه. وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إغزوا تورثوا أبنائكم مجداً» (٢) كما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام في قصار حكمه في نهج البلاغه ضمن إطار بيانه لفلسفه الأحكام الشرعيه فقال: «والجهاد عزاً للإسلام» (٣). وأخيراً فهناك عده خطب شحن بها نهج البلاغه بشأن الجهاد سنعرض لها في الأبحاث القادمه.

٢ - هل الجهاد الإسلامي دفاعي فقط؟! !

منذ سنوات وقد شغل هذا السؤال أذهان الأوساط الإسلاميه بما فيها العلماء، فقد ذهبت طائفه إلى أنّ كافه غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله كانت دفاعيه حذراً من اتهام الإسلام من أنّه قد انتشر بالسيف ورهبه السلاح! أو بعبارة أخرى خشيه اتهام الإسلام بالروح السلطويه والفتوحات العسكريه. وبالمقابل هناك طائفه أخرى ترى أنّ الغزوات الإسلاميه على قسمين؛ بعضها هجوميه وبعضها دفاعيه، وترى أنّ هذين القسمين حق ثابت للمسلمين اليوم، وتعتقد أنّ الإسلام موظف بتحرير المسلمين الذين يرزحون تحت نير السلطات الظالمه؛ الأمر الذي يدخل ضمن الجهاد الهجومى، كما ترى أنّ الإسلام مكلف بتمهيد السبيل أمام ممارسه الاعلام المنطقى وإزاله كافه العوائق التى تعترض هذا السبيل ولو اضطر للجوء للقوه وهذا نوع آخر من الجهاد الهجومى. كما هنالك رأى ثالث يقول أنّ طبيعه القتال فى الإسلام هى طبيعه دفاعيه، إلّا أنّ المسائل الدفاعيه قد تجعل الهجوم ضروره. مثلاً الدفاع عن المظلومين، أو بعبارة أخرى التدخل الإنسانى وإن كان يبدو ظاهرياً هجوماً إلّا أنّه فى

ص: ٩٧

١-١ (١) بحار الأنوار ٩٨ / ٩. [١]

٢-٢ (٢) اصول الكافي ٨ / ٥.

٣-٣ (٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٢٥٢.

الواقع دفاع عن قوم يرضحون تحت الظلم والاضطهاد، وعليه فالدفاع عنهم ضرورى بالنسبه لكافه الأفراد من أهل الإيمان. والهجوم بالمعنى الثانى - يعنى تمهيد السبيل أمام حرية الأعلام المنطقى وممارسه التبليغات - هو الآخر دفاع تجاه بعض الموانع، فإنّ الإسلام يأذن بقتال العدو إذا ما خلق بعض الموانع والعراقيل.

أمّا العبارات التى وردت فى بدايه هذه الخطبه إنّما هى دليل واضح على دفاعيه طبيعه الجهاد؛ فقد شبه فى موضع باللباس وفى آخر بالدرع وفى ثالث بالجنه، ونعلم بأنّ جميع هذه الأمور من قبيل الوسائل الدفاعيه. وأمّا العبارات القادمه فقد تضمنت إشارات إلى الهجوم الذى يختزن بعداً دفاعياً، ومن ذلك قوله عليه السلام: «قلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم». ويمكن أن يكون هناك استثناء واحد لهذا القانون الكلى وهو الجهاد والقتال من أجل إزالة الصنميه والوثنيه؛ وذلك لأنّ الإسلام يرى فى الوثنيه أكبر خطر يهدد المجتمع البشرى من الناحيه المعنويه والماديه، فيصرح بالجهاد من أجل القضاء على الوثنيه فى حاله عدم جدوى التبليغ.

لاشك أنّ بعض الطغاه والجباره سيستغلون مسأله الدفاع عن المظلومين أو مواجهه الانحطاط الفكرى والثقافى كوسيله للتغويه على أهدافهم العدوانيه والتوسعيه، إلّا أنّ ذلك لا يحد من قيمه هذه المفاهيم أبداً. فاستغلال هذه المفاهيم المقدسه ليس بالشىء الجديد. وللوقوف على أهداف الجهاد فى الإسلام يمكن مراجعه المجلد الثانى من تفسير الأمثل، الآيه ١٩٣ من سوره البقره.

إشارة

«ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم اغزؤهم قبل أن يغزؤكم، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا. فتواكلتم وتخاذلتهم حتى شنت عليكم الغارات ومليكت عليكم الأوطان».

وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مساحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأه المسيلمه، والمأخرى المعاهدته فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعتها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترجام ثم انصيرفوا وافرین ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرأ مسيلمًا مات من بعيد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمه المقتضبه، تطرق إلى نموذج بارز من الافرازات المشؤومه لترك الجهاد فقال عليه السلام: «ألا- وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم: اغزؤهم قبل أن يغزؤكم» يذكر الإمام عليه السلام بأنه أشار إلى طبيعه هؤلاء الظلمه المرده الذين ينطون على الروح العدائيه التي تبرز على السطح إذا ما سنحت الفرصه فلا- يتورعون عن قتل الأبرياء وسبى النساء ونهب الأموال والثروات، وعليه فان العقل والشرع يجيز الوقوف بوجه هؤلاء الطغاه وقبر مؤامراتهم في مهدها وكسر شوكتهم

وإخماد فتنهم قبل أن يتأهبوا للقتال والعدوان.

ثم يعرض عليه السلام الدليل على ما أورده فقال: «فوالله ما غزى قوم في عقر (١) دارهم إلا ذلولاً». ومن الواضح أن من يتعرض للهجوم في عقر داره إنما يفقد معنوياته ويشعر بالهزيمة والفشل في نهايه الأمر من جانب آخر فإن المهاجم الذي يتعرض إلى قوم في عقر دارهم لا يفكر أبداً في حفظ حرمه الدار، بل يدمر كل شيء فيها، أضف إلى ذلك فإن مثل هذه الدار تصبح مسرحاً للقتال؛ الأمر الذي يؤدي إلى سفك دماء من فيها بما فيهم الصبية والنساء، وعليه فإن مثل هذه الأمور تشكل بمجموعها العناصر التي تؤدي إلى هزيمة القوم الذين يتعرضون للهجوم في عقر دارهم. ومن هنا ورد التأكيد على المقاتلين في كافة الغزوات الإسلامية (باستثناء بعض الغزوات والمعارك التي اكتفتها بعض الظروف والملابسات كمعركة الأحزاب) بترك المدن والتصدي للأعداء خارجها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «فتواكلتم (٢) وتخاذلتم حتى شنت (٣) عليكم الغارات وملكتم عليكم الأوطان». التواكل يعني إيكال كل فرد عمله إلى آخر، بعبارة أخرى هو تخلى الفرد عن مسؤوليته والقائها على عاتق الآخرين بحيث تخلو الساحة. والتخاذل يعني عدم مد يد العون إلى الآخرين، بما يؤدي في خاتمه المطاف إلى تصدع عرى الاتحاد، بحيث لا يشعر العدو بأي رادع أو مانع يحول دون شنه لهجماته، وهذه أحد أشنع الصفات التي تسود المجتمعات البشرية بحيث يتقاعس كل فرد عن مسؤوليته ويقلدها ربه الآخرين وينهمك كل في شؤونه الشخصية دون أن يوفر الدعم والإسناد لأخيه إذا ما تعرض لحملات الأعداء المسعوره، فلا يؤدي ذلك سوى إلى تلك النتيجة التي خلص إليها الإمام عليه السلام في أن العدو سيرى الميدان مفتوحاً أمامه فيشن حملاته - لتسقط المدينة تلو الأخرى دون أن يجابه بأدنى مقاومه. ثم يستشهد الإمام عليه السلام بمثال حي متطرقاً إلى واقعه الغامدى فيقول: «وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكرى وأزال خيلكم عن

ص: ١٠٠

١ - ١) «عقر» على وزن ظُهر بمعنى أساس الشيء وأصله ومنه عقر الناقة، وذلك لزوال أساس الناقة بحيث تفقد توازنها وتقع على الأرض.

٢ - ٢) «تواكلتم» من مادة «وكل»، وكل كل منكم الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد منكم، بل أحاله كل على الآخر.

٣ - ٣) «شنت» من مادة «شن»، وشنت الغارات مزقت عليكم من كل جانب كما يشن الماء متفرقاً دفعه بعد دفعه. والعبارة إشارة إلى الغارات المتواليه التي كان يشنها عليهم الشام.

مسالحها». ويبدو أنّ الأنبار كانت منطقته حدوديه عراقيه متاخمه للشام، لأنّ مسالح جمع مسلحه تعنى الحدود والثغور - وذلك لأنّ الأسلحه تجمع هناك لتستخدم فى الدفاع عن الحدود - وقوله عليه السلام: «أزال خيلكم عن مسالحها» تفيد اجتياز الحدود لهذه الحدود دون مقاومه وقد مرّ علينا شرح ذلك. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الجنایات التي ارتكبتها الغامدى بحق أهل الأنبار من المسلمين والمجاهدين من أهل الكتاب الذين ينبغى الدفاع عنهم من قبل الدوله الإسلاميه، فقال عليه السلام: «ولقد بلغنى أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأه المسلمه، والأخرى المعاهده فينتزع حجلها (١) وقلبها (٢) وقلاندها (٣) ورعشها (٤) ما تمتنع منه إلّما بالاسترجاع والاسترحام»، فالإمام عليه السلام أشار بوضوح إلى أنّ أحداً من المسلمين لم يهب للدفاع عن هذه النسوه المسلمات أو تلك المعاهدات. أمّا الاسترجاع فقد فسّره بعض شراح نهج البلاغه بالبكاء المصحوب بالعويل فى حين فسره البعض الآخر بكلمه «إنا لله وإنا إليه راجعون» التي تقال عاده عند النوائب والشدائد التي يتعرض لها الإنسان. ثم قال عليه السلام «ثم انصرفوا وافرین مانال رجلاً منهم كلم ولا أريق لهم دم» آنذاك يخلص عليه السلام إلى هذه النتيجة «فلو أن أمراً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندى جديراً» فقد كشف الإمام عليه السلام عن عمق اللوعه التي كانت تعتلج فى صدره مستغرباً ما حدث، كيف يضعف المسلمون إلى هذه الدرجه ولا تهتز لهم قصبه تجاه هذه الحملات المروعته التي أهلكت الحرث والنسل وقد طالت الأموال والأنفس والأعراض، وقد رجع المهاجمون غانمين سالمين دون أن يتكبدوا أیه خساره! أجل لا يسع المسلم الغيور تحمل مثل هذه الحادثه المأساويه قط، بل لو مات كمداً من جرائمها لما كانت عليه من لائمه. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يفرق بين المرأه المسلمه والمعاهده لما تعرضت له من انتهاك الحرمه والتطاول على حليها ووسائلها، كما يكشف عن مدى ضروره التزام الدوله الإسلاميه بالدفاع عن حقوق الأقليات الدينيه التي تعيش ضمن المجتمع الإسلامى، مع ذلك فان غرض الإمام عليه السلام كان يكمن فى تصوير عمق

ص: ١٠١

-
- ١-١) «حجل» على وزن فعل و «حجل» على وزن فصل بمعنى الخلل التي تزين به النساء العربيات أرجلهن.
 - ٢-٢) «قلب» بضمّين جمع قلب بالضم فسكون بمعنى السوار المصمت وتعنى فى الأصل التغيير.
 - ٣-٣) «قلانده» جمع «قلاده» على وزن اجاره، تطلق على كل شىء يحيط بآخر.
 - ٤-٤) «رعش» بضم الراء والعين جمع «رعش» على وزن رأس ما تعلقه المرأه [١] من الزينه فى أذنها.

الفاجعه المأساويه. وبالطبع فان هذا الكلام لا يختص بزمان دون آخر، كما لا يقتصر على هجوم جيش معاويه على الأنبار، بل يتضمن قاعده كليه يجب أن تسود الحياه الإسلاميه على الدوام. وكأئى بالإمام عليه السلام قد خاطب بهذه العبارات كافه المسلمين الذين يتعرضون اليوم لأبشع هجمات الشرق والغرب التى تنوى السيطره على أموالهم وثرواتهم ومسخ قيمهم وضروره التصدى لهم والدفاع عن حياض بلدانهم، بحيث لو مات أحدهم غصه وكمداً لما يرتكبه العدو الطامع من جرائم وجنایات لما كان ملوماً بل كان جديراً.

تأملات

١ - معادلات الهزيمة والانتصار

لقد أشار الإمام عليه السلام من خلال بصيرته الثاقبه وروحه الساميه وخبرته الوافيه فى ميادين الحرب والقتال إلى العناصر المهمه التى تقف وراء الهزيمة والانتصار والتى ينبغى أن يجعلها المسلمون نصب أعينهم من أجل دحر الأعداء والحفاظ على بيضه الإسلام. فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى أخلاء الساحة أمام العدو ومنحه الفرصه بشن هجماته بفضلها تشكل أحد عوامل الفشل والانهازم؛ الأمر الذى لا يختلف عليه إثنان وقد خضنا فى تفاصيله سابقاً.

العامل الآخر التواكل (بمعنى وكل كل الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد بل أحاله كل على الآخر). فلو قام كل فرد فى المجتمع بوظيفته ولم يحمل الآخرين مسؤوليه أعماله لما كان هناك من مجال للفشل والهزيمة، بينما ليس هنالك من سبيل للهروب من الفشل والهزيمة المنكره أمام العدو اذا ما تخلى كل فرد عن مسؤولياته ووظائفه وأكلها إلى الآخرين من أفراد المجتمع.

العامل الثالث التخاذل بمعنى ترك الآخرين ومشاكلهم دون معونتهم ومساعدتهم، فاذا تعرضت منطقه إلى غاره أو غزوه لم تنجدها سائر المناطق. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبه ١٦٦ «أيا الناس! لو لم تتخاذلوا عن نصره الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقو من قوى عليكم».

٢ - حمايه الأقليات الدينيه

لعل البعض يتصور أن قضيه احترام الأقليات الدينيه التي تعيش في كنف الإسلام وتكفل بحفظ أموالها وأرواحها إنما هي شعار لا- يرقى إلى العمل والتطبيق، إلماً أنّ أدنى نظره إلى الفقه الإسلامي في كيفية تعامله مع أهل الذمه وكلمات المعصومين عليهم السلام بما فيها كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبه، تكشف بجلاء أنّ الإسلام يرى نفسه السند والدعم الحقيقي لهم ما دامهم لم ينقضوا العهود ويشهروا السلاح ضد الإسلام والمسلمين، وعليه فأموالهم وأرواحهم محترمه ومحفوظه. فقد أعرب الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عن بالغ حزنه وأسفه لما تعرضت له المرأه اليهوديه أو النصرانيه التي تعيش كمواطنه في المجتمع الإسلامي ولم يفرق بينها وبين المرأه المسلمه قط، ثم ذم أهل العراق ووبخهم على ما أبدوه من ضعف وعجز حيال العدو وعدم الدفاع عن هذه النساء.

٣ - الغيره الدينيه

المراد بالغيره الدينيه الحساسيه تجاه أى خروج عن مسار الحق والعدل وتجاهل الأحكام الشرعيه والتعامل بشده وصرامه مع هذه الحاله بما يتناسب وحجمها والابتعاد عن اللامبالاه، ويفتقر لهذه الغيره كل من تعامل ببرود مع هذه الأمور ولم يبد أيه حساسيه تجاهها. وقد صرح القرآن الكريم بخصوص بعض المقاتلين المؤمنين الذين لا يمتلكون المعدات التي تؤهلهم للاشتراك في المعارك قائلاً: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» (١).

فالآيه تشير إلى مسأله تجعل الأفراد الذين لا- يمتلكون الوسائل المطلوبه في القتال وتحول دون التحاقهم بصفوف المقاتلين يتحولون إلى دموع غزيره؛ القضيه لا يمكن تفسيرها سوى بالغيره الدينيه. وقد أشارت الخطبه إلى أحد مظاهر هذه الغيره، حين قال عليه السلام: «فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً». فالغيره تشكل أحد العوامل المهمه من أجل الدفاع عن حريم القوانين الإسلاميه وإحياء الأمر بالمعروف

ص: ١٠٣

والنهي عن المنكر. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن بعض أصحابه قال: إنَّ الله بعث ملكين إلى أهل المدينة ليقلباها على أهلها فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلاً يدعو الله ويتضرع إليه، فقال أحدهما للآخر: أما ترى هذا الداعي فقال: قد رأيته ولكن أمضى لما أمرني به ربي فقال: ولكني لا أحدث شيئاً حتى أرجع إلى ربي، فعاد إلى الله تبارك وتعالى فقال: يا ربّ إني إنتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرع إليك فقال: إمض لما أمرتك فان ذلك رجل لم يتغيّر وجهه غضباً لي قط. (١)

ج ج

ص: ١٠٤

«يَا عَجَبًا! عَجَبًا - وَاللَّهِ - يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنْ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَفُتِنًا لَكُمْ وَتَرَحًا، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى: يُعَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيَّرُونَ وَلَا تُغْزَوْنَ، وَلَا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضُونَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حِمَارُهُ الْقَيْظُ؛ أَمْهَلْنَا يَسْرِبْحَ عَنَّا الْحَرُّ. وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ، قُلْتُمْ: «هَذِهِ صَيْبَارُهُ الْقَرُّ أَمْهَلْنَا يَنْسَلِخَ عَنَّا الْبَرْدُ! كُلُّ هَذَا فِرَارًا مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ تَفِرُّونَ؛ فَأَنْتُمْ - وَاللَّهِ - مِنَ السَّيْفِ أَفْرًا!» .

الشرح والتفسير

يتناول الإمام عليه السلام بالتحليل العوامل الأخرى لتفهم أهل الكوفة وتراجعهم إلى جانب ذمهم ولومهم، بما يوقظ ضمائرهم ويدفع بهم باتجاه الصمود بوجه العدو والحؤول دون تسلمه إلى البلاد، فقد قال عليه السلام «يا عجباً (١) عجباً - وَاللَّهِ - يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم» . إنَّما يكون التعجب والاندھاش حيث الأمور التي تخرج عن المسار الطبيعي أو تكتنفها العوامل المجهولة أو غير المألوفة؛ الأمر الذي يطالب أنصار الحق ويوازن من إيمانهم القوى بالدفاع والصمود والمقاومه، بينما يقف أتباع الباطل

ص: ١٠٥

١ - ١) يا عجباً عجباً، قال بعض شراح نهج البلاغه أن العبارة «يا عجباً عجباً» أصلها «عجبت عجباً. . .» ؛ أي منصوبه على أنها مفعول مطلق. كما احتمال أن تكون عجباً الأولى من قبيل المفعول المطلق والثانيه للتكرار والتأكيد (شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٢ / ٣٦) [١] وقال البعض تقديرها «يا عجبى احضر» (شرح نهج البلاغه للعلامه الخوئى ٣ / ٣٩٢) ويبدو هنا التفسير أنسب لأن تكون «عجباً» منادى.

مكتوفى الأيدى وعدم الدفاع عن الحق لافتقارهم للدوافع التي تؤدي إلى ذلك الدفاع، ومن هنا فإذا شوهد أصحاب الحق يعيشون الفرقة والاختلاف وضعف الإرادة، بينما تحكم الوحده والأخاء أتباع الباطل، فان ذلك مدعاه للذهول والعجب. فإمام أهل العراق هو على بن أبي طالب عليه السلام الذى نص رسول الله صلى الله عليه وآله على ولايته إلى جانب مبايعته من قبل أهل المدينة ومكة من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين من المناطق الإسلاميه، كما كانت دلائل أحقيته من زهد وعلم وفضيله وعداله واضحه للجميع، بينما كان إمام الشام معاويه المعروف بطغواه وحبه للجاه والمنصب وسوابقه المشينه فى الإسلام والجاهليه والتي لم تكن خافيه على أحد، أفليس من العجب أن يهب أهل الشام لنصره باطلهم ويقفون بوجه الحق، وينفرج أهل الحق عن الإمام عليه السلام فينقضون ميثاقهم وينكثون بيعتهم؟! ومن هنا اشتد استياء الإمام عليه السلام عليهم فجعل يذمهم ويلومهم، بعد أن جعلوا أنفسهم فى هذه الحاله المزريه «فقبحاً لكم وترحاً (١) حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون». فالواقع يوجز الإمام عليه السلام ما يدعوه لذمهم فى أمر واحد يكمن فى الضعف والتواكل والخذلان إلى الحد الذى يمنح الأعداء الجراء فى شن الحملات تلو الحملات والغارات تلو الغارات فيسفكون دماء الأبرياء، وليس لهؤلاء من ردود فعل سوى الصمت والسكوت تجاه هذه المجازر المروع!

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل آخر دعاه لدم هؤلاء والذى أدى بهم إلى ذلك الضعف والذى يكمن فى التعلل بحر الجو وبرودته التى لا تلعب دوراً فى القتال، فقال عليه السلام: «فاذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحرق لتم هذه حماره (٢) القيط (٣)؛ أمهلنا يسبخ (٤) عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء، قلتهم: هذه صباره (٥) القر، أمهلنا ينسلخ (٦) عنا البرد؛ كل

ص: ١٠٦

- ١-١) «ترحاً» تعنى الحزن والغم فقد دعا عليهم الإمام عليه السلام بهذه العبارة بالحزن والهم.
- ٢-٢) «حماره» من ماده «حمر» بمعنى اللون الأحمر، ويطلق على شدة حراره الصيف المحرقه، وكأن شدة الحراره كحمره النار.
- ٣-٣) «قيظ» على وزن فيض بمعنى الحراره الشديده للصيف، وعليه فاضافه حماره إلى قيظ تأكيد للحراره.
- ٤-٤) «يسبخ» من ماده «سبخ» بمعنى التخفيف والتسكين.
- ٥-٥) «صباره» من ماده «صبر» بمعنى حبس الشئ وحفظه، وتطلق الصباره على شدة البروده.
- ٦-٦) «ينسلخ» من ماده «سلخ» بمعنى إزاله القشر ومن هنا يطلق السلخ على من يزيل جلد الحيوان، ثم اطلقت على كل فصل وإزاله.

هذا فراراً من الحر والقر (١)، فاذا كنتم من الحر تفرون، فأنتم - والله - من السيف أفر!». .

وكأنّ الميدان لا يصلح للقتال إلّا في أيام الربيع وفي ظل الأرض المخضرة والحشائش النظرة والطيور المغردة والمياه المتدفقة، فيدحر الجند أعدائهم بعضاً سحريه دون الحاجة إلى العده والعدد.

وكان هؤلاء الجهال قد تناسوا تاريخ الإسلام رغم عدم مرور فتره عليه بحيث زحف النبي صلى الله عليه وآله بصحبه من المدينه إلى تبوك بعد أن قطعوا تلك المسافه الشاسعه خلال الصحراء الجرداء وفي ظل حراره الشمس المحرقه على تلك الرمضاء ولم يكن لديهم ما يكفى من الماء والغذاء، وهكذا تحملوا سائر الصعاب والمعضلات فى الحروب والغزوات ليقفوا كالليوث أمام الأعداء من خصوم الدعوه، ولو كانوا يأتون ما أتى جيش الكوفه ويتعللون بما تعللوا به لما نمت شجره الإسلام ولا اخضر لها عوداً، بل لم يكتب النصر لأى جيش فى العالم حين يعيش الجنود حاله من الضعف والوهن والجبن، ولم يكن نصيبهم سوى الفشل والهزيمه والذله والهوان. والواقع أنّ كلام هؤلاء ليشبه ما قاله الكفار والمنافقون من قبل فى صدر الإسلام «لا تنفروا فى الحر» فرد عليهم القرآن بالقول «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» (٢). فأهل الكوفه كانوا يريدون بهذه الأعداء الواهيه التهرب من مواجهه العدو وقتاله، حيث تسرب إليهم النفاق بفعل ضعف ايمانهم بمبادئ الإسلام وإمامهم على بن أبى طالب عليه السلام.

على كل حال فإنّ المجاهدين الحقيقيين الذين يقتحمون الميدان ويخوضون غمار الجهاد ويسطرون الانتصارات إنّما هم أولئك الذين لا- يبالون بمصاعب الطقس والمناخ ولا يكثرثون إلى مشاكل الطريق وتحمل العناء فى هذا المجال، وممّا لاشك فيه ان العدو اذا شعر بأنّ خصمه يتحفظ عن القتال بسبب بعض المشاكل الطبيعيه من قبيل حراره الجو وبرودته فأنّه سيستغل هذا الأمر كنقطه ضعف ويوظفها لصالحه بشن الحرب أملاً بتحقيق الانتصار.

ص: ١٠٧

١ - ١) قر له معنيان؛ الأول البرد والثانى الاستقرار فى مكان، ولا يبعد أن يعود المعنى الأول إلى الثانى، لأنّ البرد الشديد يصد الإنسان عن العمل.

٢ - ٢) سورة التوبه / ٨١. [١]

إن أدنى نظره إلى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام في هذه الخطبه تثير السؤال التالي: لم كل هذا الدم من الإمام عليه السلام لأهل الكوفه حتى خاطبهم لاحقاً «لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفه والله جرت ندماً وأعقت سدماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحتم صدرى غيظاً وجر عتمونى نغب التهام أنفاساً، وأفسدتم على رأىي...». ولعل أدنى نظره إلى تاريخ الكوفه وأهلها ونقض المواثيق ونكث البيعه والنفاق والضعف والوهن الذى سادها تفسر لنا فلسفه هذا الدم القاسى والشديد. وكأن الإمام عليه السلام سلك السبيل الأخير الذى من شأنه علاج مرضهم العضال حيث لم تعد لهم حساسيه تجاه أى شىء، فقد لجأ الإمام عليه السلام إلى هذا الأسلوب لعله يثير ما تبقى لديهم من مشاعر وأحاسيس تجاه عدوهم، وقد أثبتت الدراسات أن هذا الأسلوب عملى جداً تجاه بعض الأفراد من الناحيه النفسيه. فهذه الكلمات فى الواقع تشير إلى مدى اليأس من تلك العناصر الضعيفه الهزيله التى لم تجد معها النصائح والمواعظ أى فائده. بل الأعجب من ذلك أن كل هذه الكلمات اللاذعه لم تتمكن من إثارة يقظه وجدانهم، بحيث لم يلتحق به إلا النفر القليل حين تجهز للقاء الأعداء، مما اضطره إلى دعوه أولئك الأفراد الذين كانوا يقطنون القرى والمناطق المتاخمه لأطراف الفرات ويعبئها للقاء العدو. ولعل حاله أهل الكوفه تشبه إلى حد بعيد تلك الحاله التى سادت بنى اسرائيل حين حرضهم نبىهم موسى عليه السلام على قتال عدوهم وتحرير بيت المقدس، فقد ردوا عليه بالقول: «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون... فاذهب أنت وربك فقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ» (١)

ج ج

ص: ١٠٨

«يا أشباه الرجال ولا رجال! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رِبَاتِ الحِجَالِ! لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفُكُمْ مَعْرِفَةً - وَاللَّهِ - جَرَّتْ نَدْمًا، وَأَعْقَبَتْ سِدْمًا، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي فَيْحًا وَشَحْنَةً صَدْرِي غَيْظًا وَجَرَّعْتُمُونِي نَعْبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِضْيَانِ وَالْحِذْلَانِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ. لِلَّهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي؟ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ العِشْرِينَ، وَهَذَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَفْتُ عَلَى السِّتِينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ!». .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بصب جام غضبه على أولئك الأفراد الضعاف الذين تواكلوا وتقاوسوا عن إداء وظائفهم عليه يثير حفيظتهم فيلتفتوا إلى عظم المخاطر التي كانت تترصد بهم، ولاسيما أهل الشام الذين كانوا يشنون عليهم الغارات تلو الغارات دون أن يتورعوا عن سفك دمائهم وانتهاك حرمتهم وسلب أموالهم، حيث بالغ عليه السلام هذه المره في ذمهم فخاطبهم قائلاً: «يا أشباه الرجال ولا-رجال» يامن يعيشون آمال الأطفال فيسرع فيهم الخداع «حُلوم (١)الأطفال» ويامن يحملون عقول ربات الحجال من العرائس اللائى لا يفكرن سوى برغد العيش ووسائل الزينه «وعقول ربات (٢)الحجال (٣)» فقد وبخهم الإمام عليه السلام فى العبارة

ص: ١٠٩

١-١) «حُلوم» من ماده «حلم» بمعنى ضبط النفس وقد وردت هنا بمعنى الآمال الفارغه الشبيهه بأحلام الأطفال.

٢-٢) «ربات» جمع «ربه» صاحب الشىء ومالكه، واستناداً إلى تاء التأنيث فأنها تستعمل فى المؤنث.

٣-٣) «حجال» جمع «حجله» وصحيحه حجله على وزن عجله وهى القبه، موضع يزين بالستور، والمراد بربات الحجال النساء.

الأولى بعدم امتلاكهم الشجاعه والحميه والغيره والمروءه والرجوله التى كانوا يتمتعون بها ظاهرياً ولم يكن لهم من معانيها شيئاً على مستوى العمل. ثم اندفع فى ذمهم أكثر ليخاطبهم بقوله: «لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفه - واللّه - جرت ندماً وأعقت سدماً». فالتأريخ يشهد بأن ثمره علاقته أهل الكوفه والعراق بالإمام عليه السلام طيله فتره خلافته لم تكن سوى الهم والغم الذى تمخض عن ضعفهم ونقضهم العهود وتفرقهم عن الحق وتلبسهم بالنفاق والرياء، فكان من الطبيعى أن يتمنى الإمام عليه السلام عدم رؤيتهم والتعرف عليهم، حتى دعا عليهم «قاتلكم الله (١) فقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وقد جرعتونى الهموم غصه بعد غصه، فجعلتمونى غرضاً لسهام الأعداء، حتى ذهبت بهم المذاهب أنى رجل شجاع، بينما ليست لى من درايه بالحرب «قاتلكم الله لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وجرعتونى نغب (٢) التهمام (٣) أنفاساً، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب». عاده ما تعزى الأمم والشعوب ضعفها وتخلفها وفشلها إلى قلّه تدبير زعمائها، بينما قد تكون القضية بالعكس؛ أى أنّ الزعيم شخصيه كفوءه بينما تعيش الأمه حاله من التخلف الفكرى والثقافى والاجتماعى؛ الأمر الذى يعتبر مأساه حقيقه بالنسبه للزعيم والقائد الناجح الذى يتلى بمثل هذه الجماعه المسلوبه الإراده، ومما يؤسف له أنّ مسؤوليه النتائج المريره التى تفرزها طبيعه هذه المسيره قد يلقبها الناس على عاتق ذلك الزعيم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالرد على قريش التى تخرصت بعدم علم الإمام عليه السلام بفنون القتال والحرب رغم شجاعته وبسالته:

«لله (٤) أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً (٥) وأقدم فيها مقاماً منى». فقد اقتحمت

ص: ١١٠

١ - ١) لا بد من الالتفات هنا الى ان التعبير بقتالكم الى انهم كانوا فى مقام محاربه الله و احكامه، و انهم لا- محاله ملعونين مطرودين من رحمه الله و من هنا فان اغلب المفسرين ذهبوا الى ان الايه ٣٠ من سوره التوبه ([١] قاتلهم الله) تعنى الطرد من رحمه الله (انظر المفردات للراغب و نشر طوبى للمرحوم العلامة الشعرانى).

٢ - ٢) «نغب» جمع «نغب» على وزن لقمه بمعنى شربه الماء كجرعه و جرعه و قد شبه هنا الحزن بالماء المر الذى شربه الامام جرعه جرعه.

٣ - ٣) «التهمام» من ماده «همم» بمعنى الهم، و يستعمل هدا الوزن عاده بمعنى المصدر مثل تكرار و تذكار.

٤ - ٤) «لله ابوهم» تقال هذه العبارة للمدح، كما تطلق فى بعض الاحيان للتعجب، و مفهومها رحم الله والديهم.

٥ - ٥) «مراساً» و «ممارسه» بمعنى واحد، أى عالجه وزاوله وعاناه.

ميادين الحرب وأنا ابن العشرين وها أنا ذا أخوض غمارها وقد ناهزت الستين من عمري (وعليه فقد مارست تجربته ضخمه في الحروب كقائد لمدّه أربعين سنه) ولكن ماذا عساني أن أفعل وليس هنالك من يطبع «لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت (1) على الستين! ولكن لا رأى لمن لا يطاع» .

تأملات

١ - الاتباع الطلحاء والقاده الأكفاء

لاشك أنّ معادلات الهزيمة والانتصار ليست عبثيه، وأنّ اولئك الذين ينسبون النصر أو الهزيمة إلى بعض الأسباب المجهوله والعوامل الغامضه من قبيل المصادفه والحظ إنّما يسعون للقرار من الحقائق المريره والابتعاد عن تحليلها والوقوف على كنهها. وعاده ما تذهب التحليلات إلى أنّ العامل الأصلي الذي يكمن وراء النصر والهزيمة إنّما يتمثل بقدره القيادة وحكمتها في إداره شؤون الأمم، بينما تكون القضية معكوسه في بعض الحالات، فقد تتحلى القيادة بالقوه والافتدار وارتفاع المعنويه والاحاطه بفنون الإداره والتعامل مع الاحداث؛ الأمر الذي يفيد بما لا يقبل الشك أنّ العنصر الذي يقف وراء الهزيمة إنّما يتمثل بالاتباع الضعفاء الذين لا يتحلون بالاراده إلى جانب سذاجتهم وقله تجربتهم بما يجعل من المتعذر عليهم مواكبه قيادتهم في ادراك الأهداف فضلاً عن تطبيقها في الواقع، وهنا تتلاشى قدره الزعيم الكفوء في ظل فساد وانحراف مثل هؤلاء الأتباع؛ الأمر الذي يؤرق فكر القائد ويقض مضجعه. وهذا هو السر في تلك الكلمات الشديده التي أطلقها الإمام عليه السلام بحق أهل الكوفه، فقد بلغت الفرقه والشقاق والنفاق حدّاً جعل حتى أصحاب الإمام عليه السلام - فضلاً عن أعدائه - من أولئك الذين شهدوا بطولات الإمام عليه السلام وصولاً-ته في الغزوات الإسلاميه يتهمونه بعدم العلم بفنون القتال! فما كان منه عليه السلام إلّا أن ذكرهم بتاريخه المشرق ومواقفه المشهوره التي تنكفي فيها

ص: ١١١

١-١) «ذرفت» من ماده «ذرف» بمعنى سيل الدمع، وقد وردت هنا بمعنى زدت على الستين.

الأبطال؛ لقد نهضت بأمر القتال ولم أبلغ العشرين وقد ذرفت الآن على الستين، فكيف أتهم بعدم العلم بالحرب؟ نعم قد بليت باتباع بعيدين عن الانضباط من أهل الهوى والطيش الذين يتصرفون على ضوء ما تمليه عليهم أهوائهم، وعليه فليست هنالك من نتيجته سوى الهزيمة والفشل. وأفضل شاهد على ذلك النتيجة المريره لمعركة صفين والخدعة التي عمد إليها معاويه وعمرو بن العاص في حمل المصاحف على أسننه الرماح، والأنكى من كل ذلك قضيه التحكيم وترشيح أبى موسى الأشعري وفرضه على الإمام عليه السلام. فيكاد يجمع الجميع اليوم بما فيهم المحققون وغيرهم أن النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى في صفين لولا حاله النفاق والفرقه والعصيان التي دبت في جيش الإمام عليه السلام ولما وقعت تلك الأحداث التي سود بها الأمويون وجه التاريخ ومن هنا تعتبر موقعه صفين من أقسى الأحداث التي شهدها التاريخ الإسلامى وبالذات سيره الإمام على عليه السلام. وليت ذلك الأمر اقتصر على زمان على عليه السلام، بل مازال هنالك اليوم الكثير من الجهال الذين يشككون في سياسته الحريه لأمر المؤمنين عليه السلام وكيفيه إداره شؤون البلاد، وما هذا إللادليل صارخ على عمق مظلوميه الإمام عليه السلام، الإمام عليه السلام الذى جعل التاريخ يدين بالفضل لذلك العهد العظيم الذى عهده لعامله على مصر مالک الأشر في كيفيه إداره شؤون البلاد، فما زالت مبادئه وأسسائه قائمه فاعله رغم مرور أربعة عشر قرناً عليه، ليكون ذلك العهد مصداقاً لقوله سبحانه «كَشَجَرِهِ طَيِّبِهِ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» (١). فقد أذعن العدو والصدىق لعمق الأصول والتعاليم التي أوردتها الإمام عليه السلام في نهج البلاغه والتي تمثل عمق سياسته الإمام عليه السلام، مع ذلك ينبرى هذا وذاك من الحين إلى الآخر لاتهام الإمام عليه السلام. وقد أشار الإمام عليه السلام في عده مواضع إلى هذه الحقيقه المريره المتمثله بالغدر والخيانه ونقض العهود والمواثيق. فقد خطبهم عليه السلام بعد حادثه الأنبار وغارت أهل الشام قائلاً: «والله ما تكفوننى أنفسكم فكيف تكفوننى غيركم إن كانت الرعايا قبلى لتشكوا حيف رعاتها واننى اليوم لأشكو حيف رعيتى كأننى المقود وهم القاده أو الموزوع وهم الوزعه» (٢). كما قال عليه السلام في موضع آخر: «أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى»، ثم شكاهم عليه السلام بالقول: «اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى وكتلت النزعه بأشطان

ص: ١١٢

١-١) سورة ابراهيم / ٢٤ - ٢٥. [١]

٢-٢) نهج البلاغه، [٢] الكلمات القصار / ٢٦١.

الركى! أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها» (١).

٢ - الإجابة على سؤال

لقد أثار بعض شرّاح نهج البلاغه سؤالاً وهو: هل كانت تلك السياسة التي انتهجها الإمام عليه السلام ازاء الأئمة (بتلك الشده والحده من الذم واللوم) صائبه؟ ألم تكن تدعو تلك الكلمات الأفراد إلى النفرة والشعور بالغربه والعزله؟ ويبدو هذا الإشكال أعمق وأرسخ إذا أخذنا بنظر الاعتبار مدى صبر الإمام عليه السلام وحلمه وعفوه وصفحه، فكيف ارتضى الإمام عليه السلام مخاطبتهم بتلك الكلمات؟ ويتضح الجواب على هذا السؤال من خلال ما ذكرناه سابقاً من أن ذلك الاسلوب كان يمثل الوسيله الأخيره التي من شأنها إثارة عواطف الأئمة وتفعيل حركتها ونشاطها واخراجها من حاله الضعف والوهن التي كانت تسيطر عليها، ولعل ذلك الأسلوب يشبه ما تعارف لدى عوام الناس حين تعجز عن اصلاح أحدهم فتقول لا بدّ من العمل بما يثير غيرته ويوقظ ضميره. وعليه فان تلك الكلمات تكشف بدورها عن بلاغه الإمام عليه السلام في ايراده الكلام الذى ينطبق ومقتضى الحال. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأنّ الإمام عليه السلام عمد إلى ذلك الاسلوب بعد أن مارس كافه الطرق من قبيل حثهم على الجهاد وتذكيرهم بالقيم والمبادئ، واطرائهم والثناء عليهم - وعليه يبدو من المستبعد رأى بعض شرّاح نهج البلاغه (٢)، من أن الإمام عليه السلام أورد ذلك الكلام على ضوء «لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزه ولا تفرقهم عنى وحشه»؛ لأنّ الكثره المقتدره فى الحروب والمعارك مطلوبه ولا يسع أحد بمفرده أن يهب القتال جيش جرار طمعاً بتحقيق النصر.

٣ - سؤال آخر

لقد قال الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره «لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا

ص: ١١٣

١- (١) نهج البلاغه، الخطبه ١٢١. [١]

٢- (٢) فى ظلال نهج البلاغه ١ / ١٩٢. [٢]

قد ذرفت على الستين» فيقتدح إلى الذهن هذا السؤال: كان لعلي عليه السلام على الأقل ثلاث وعشرين عاماً حين الهجرة، واننا نعلم بأنّ المعارك الإسلاميه وقعت بعد الهجرة، فكيف ينسجم هذا الأمر وما ذكره الإمام عليه السلام ونقول في الجواب صحيح أنّ الحروب والمعارك وقعت فعلياً بعد الهجرة، إلّا أنّ السنوات الأخيره من الدعوه في مكه قد شهدت تصعيداً في مجابهه النبي صلى الله عليه وآله بما لا يقل شيئاً عن إعلان حاله الحرب. ونموذج ذلك محاصره بيت النبي صلى الله عليه وآله من قبل كافه رجالات قريش حين بات الإمام عليه السلام على فراشه لينجو رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه، كما صرحت بعض التواريخ بأنّ المشركين كانوا قد أعدوا قبل ذلك بعض الخطط لقتل النبي صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي كان يثير قلق أبي طالب. حتى أورد صاحب البحار أنّ صبيه المشركين كانوا يرمون رسول الله صلى الله عليه وآله بالحجاره حين يخرج من بيته في مكه، فكان على عليه السلام يدافع عنه وينقض عليهم فيولون هاربين (١).

فالواقع تشير مثل هذه الأحداث وما شابهها أنّ العهد المكي كان يعيش حاله الحرب رغم عدم نشوبها بصورة فعليه حيث كان المسلمون يشهدون أذى الكفار باستمرار، الأمر الذي كان يتطلب بعض التدبير والتفكير من أجل كسب المعركه.

ولعل قوله عليه السلام: «نهضت فيها وما بلغت العشرين» - الذي ورد في الخطبه - إشاره إلى التأهب للحرب لا لنشوب الحرب.

٤ - الخاتمه المريه للواقعه

ذكر بعض شراح نهج البلاغه أن علياً عليه السلام حين أخبر عن غاره أهل الشام وقتلهم لعامله فخطب الناس.

ثم سكت عنهم رجاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينبس أحدٌ منهم بكلمه، فلما رأى صَتهم نزل، وخرج يمشى راجلاً حتى أتى النُخَيْله، والناس يمشون خَلْفَه حتى أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: ارجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تَكْفُونِي وَلَا تُفُون

ص: ١١٤

أنفسكم. فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله، فرجع وهو اجم كئيب، ودعا سعيد بن قيس الهَمْدَانِيَّ، فبعثه من التَّخِيلَة في ثمانيه آلاف، وذلك أنه أخبر أن القوم جاءوا في جمع كثير.

فخرج سعيد بن قيس على شاطئ الفُرات في طلب سفيان بن عوف؛ حتى إذا بلغ عانات، سرح أمامه هاني بن الخطاب الهَمْدَانِيَّ، فاتبع آثارهم حتى دخل أدانِيَّ أرض قنسرين وقد فاتوه، فانصرف.

وأتاه قوم يعتذرون، فقام حُجْر بن عدِي الكندي وسعيد بن قيس الهَمْدَانِيَّ، فقالا: لا يسوءك الله يا أمير المؤمنين، مُزْنَا بأمرك نتبعه، فوالله ما نَعْظَم جَزَعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنَا إن قُتِلتْ في طاعتك. فقال: تجهَّزوا للمسير إلى عدونا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: أشيروا عليَّ برجل صليب ناصح، يحشر الناس من السواد. فقال له: سعيد بن قيس: يا أمير المؤمنين، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب، معقل بن قيس التميمي، قال: نعم.

ثم دعاه فوجهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام (١).

ص: ١١٥

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٨٨ - ٩٠. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

وهو فصل من الخطبة التي «الحمد لله غير مقنوط من رحمه»

وفيه احد عشر تنبيها

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب المعروفة لأئمة المؤمنين على عليه السلام، وهي كما ذهب الشيخ المفيد في الإرشاد من خطبه الخالده التي حفظها أرباب الفهم والعقل، أو كما قال السيد الرضى: إنّه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاعتاض والازدجار. فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيره - والتي يراها بعض المحققين جزءاً من الخطبة الخامسة والعشرين - إلى عشره جوانب مهمه بشأن الآخرة والزهد في الدنيا وعدم الاغترار بنعم الدنيا وزبرجها والاستعداد والتأهب للدار الآخرة، والتحذير من الأخطار التي تهدد سعادة الإنسان - فالحق أنّ الخطبة من الخطب العظيمة التي تسوق الإنسان إلى الزهد في الدنيا وعدم الإكتراث لزخرفها والانتباه إلى الآخرة، وقد انطوت على عبارات واضحة صريحة توقظ الإنسان من غفلته ورقدته.

ص: ١١٧

١ - ١) تعتبر هذه الخطبة من الخطب المهمة لأئمة المؤمنين على عليه السلام التي رواها كبار علماء الفريقين في كتبهم ومؤلفاتهم، ومنهم ١ - الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ١ / ١٧١؛ ٢ - الباقلاني في كتاب إعجاز القرآن / ٢٢٢؛ ٣ - الحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول؛ ٤ - ابن عبد ربه في العقد الفريد ٢ / ٣٦٥؛ ٥ - ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ - ٢٣٥؛ ٦ - المسعودي في مروج الذهب ٣ / ٣٦٥؛ كما رواها المرحوم العلامة المجلسي في البحار عن كتاب مطالب السؤل لمحمد بن طلحه الشافعي وكتاب الإرشاد للمفيد مع بعض الاختلاف.

إشاره

«أَمَا بَعِيدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ، وَأَذْنَتْ بِوَدَاعٍ وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَدًا السَّبَاقَ وَالسَّبَقَهُ الْجَنَّةَ وَالْغَايَةَ النَّارَ؛ أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَمَاتِهِ أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ! أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ. فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ وَلَمْ يَضُرُّهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وَضُرَّهُ أَجَلُهُ» .

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أنّ الإمام عليه السلام تطرق إلى عشره أمور مهمّة في هذه الخطبة الغزاة لدفع الناس باتجاه الزهد وعدم الاغترار بزخارف الدنيا؛ فقد ورد في الأخبار - كما أثبتت ذلك تجربته طيله التأريخ - أنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئته، وعليه فإنّ عدم الإكتران لهذه الدنيا والزهد فيها يمثل الخطوة الاولى المهمه لإصلاح النفوس ومواجهه الفساد الفردى والاجتماعى.

فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصدر الدنيا ووداعها لأهلها «أما بعد فان الدنيا قد أدبرت، وأذنت (1) بوداع». وهنا يطرح هذا السؤال: كيف آذنت الدنيا بالأدبار والوداع؟ هناك الشواهد والأدلة الحية على هذا الأمر ومن ذلك قبور الماضين التي تضم بقايا رفات وعظام الملوك والسلاطين والحكام والأمراء والكهول والفتيان والصبيان، والأظهر المحدود به للكهول

ص: ١١٩

(١ - ١) «آذنت» من ماده «اذن» بمعنى الاعلان، ومنه الاذان الذى يعلن وقت دخول الصلاة.

واشتعال الرأس شيئاً والأمراض الفتاكة التي تودي بحياه الأفراد، حقاً لقد أصيبت الدنيا بالصمت والسكوت، إلّا أنه مازالت تتحدث بلسان العبره! وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في احدى خطبه «فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للعالم عماراً وكان الآخرة لم تنزل لهم داراً». (١)

ثم أشار عليه السلام في النقطة الثانيه إلى موضوع إقبال الآخرة «وإن الآخرة قد أقبلت، وأشرفت باطلاع» (٢). إنّ الموت يعد المنزل الأول من منازل الآخرة والذي يبتلع أبناء الدنيا، وهذا بدوره من علامات إقبال الآخرة. ومن هنا فقد أوصى الإمام عليه السلام الجميع بالاستعداد إلى الآخرة ومغادره الدنيا والتزود لتلك الدار المحفوفه بالخطر قبل فوات الأوان. وذكر عليه السلام في النقطة الثالثه بالرابطه القائمه بين دارى الدنيا والآخرة فقال «ألا وإن اليوم المضممار (٣) وغدا السباق (٤) والسبقه الجنّه والغايه النار» فقد شبه عليه السلام بهذه العبارة الرائعه الإنسان بالخيال الذى يخوض السباق، فمن الواضح أنّ مثل هذا الإنسان وعلى غرار الخيال يحتاج إلى التمارين والتدريبات المسبقه، حيث تصطحح العرب بالمضممار على الموضوع أو الزمان الذى يضم فيه الحيوان، بل يطلق على الحيوان الذى ينحف إثر التمارين لا على كل حيوان كما صرح الراغب فى المفردات. آنذاك يبدأ السباق الذى يتضمن الفوز والخساره وتسلم الجوائز من قبل الفائزين. فالإمام عليه السلام يرى الدنيا ميدان التأهب والاستعداد والآخرة ميدان السباق والجوائز، وسوف تكون جائزه الفائزين الجنّه ونصيب الخاسرين النار. ومن البديهي أنّ أحداً لا يسعه التمرين فى ميدان السباق، بل عليه أن يتمرن ويعد نفسه قبل السباق؛ وهكذا الحال فى المحشر،

ص: ١٢٠

١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ١٨٨. [١]

٢- ٢) «اطلاع» من ماده «طلع» بمعنى الظهور، وطلوع الشمس بمعنى ظهورها، ويرى البعض أنّها تطلق على العلم المفاجئ، وأشرفت باطلاع، أقبلت بغيره.

٣- ٣) «المضممار»: الموضوع والزمن الذى تضم فيه الخيل، وتضمير الخيل أن تربط ويكثر علقها وماؤها حتى تسمن، ثم يقلل علفها وماؤها وتجري فى الميدان حتى تهزل، ثم ترد إلى القوت، والمدّه أربعون يوماً، وقد يطلق التضمير على العمل الأول أو الثانى، واطلاقه على الأول لأنّه مقدمه للثانى وإلّا فحقيقه التضمير احداث الضمور وهو الهزل وخفه اللحم، وإنّما يفعل ذلك بالخيل لتخف فى الجرى يوم السباق.

٤- ٤) «السباق» من ماده «سبق» ومسابقه من باب مفاعله ولسباق نفس المعنى. وسبقه بمعنى الهدف المطلوب الذى يتسابق من أجله أو بمعنى الجائزه.

فليس هنالك من مجال للحسنات والتوبه من السيئات وتهذيب النفوس وتطهيرها، ولا بدّ من إعداد هذه الأمور في الحياه الدنيا. وعليه فلا ينبغي أن ينسى الأفراد هذه الحقيقه وهى إن عدم التزود فى الدار الدنيا والتأهب الروحى والمعنوى فإنّ النتيجة النهائيه للسباق فى الآخره لن تكون سوى الفشل والخيبه والخسران التى تعنى هناك نار جهنم. والجدير بالذكر هنا أنّ الفائزين هناك يتفاوتون فى الدرجات، فهناك الفائز الأول والثانى والثالث وهكذا؛ الأمر الذى يتجسد بوضوح فى عالم الآخره ودرجاتها. فيتضح ممّا تقدم أنّ السباق بمعنى المسابقه والسبقه بمعنى الهدف والغايه التى ينبغى للمتسابق أن يصل إليها، والسبقه على وزن لقمه بمعنى الجائزه وقد علق المرحوم السيد الرضى (ره) - فى ذيل هذه الخطبه كما سيأتى - على تعبير الإمام عليه السلام: «والسبقه الجنّه والغايه النار» فقال: لم يقل عليه السلام السابقه النار كما قال السابقه الجنّه؛ لأنّ الاستباق إنّما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفه الجنّه وليس هذا العنى موجوداً فى النار، فخالف الإمام عليه السلام بين اللفظين لاختلاف المعنيين. ولا يبدو هنالك من تعارض بين كلامه عليه السلام والآيه الشريفه «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (١)؛ لأنّ «سابقوا» لا تعنى السباق فى هذا العالم، بل تعنى التأهب من أجل سباق الآخره، والدليل على ذلك أنّها جعلت الجنّه هى الهدف النهائى لهذه المسابقه، بعبارة أخرى فان السباق هنا نحو الخيرات والصالحات، أمّا السباق هناك نحو الجنّه التى تمثل حصيله الأعمال. ثم أشار عليه السلام فى النقطة الرابعه إلى واحده من أهم أمتعته السفر الأخرى الخطير وهى التوبه فقال: «أفلا- تائب من خطيئته قبل مبيته (٢)، ألا- عامل لنفسه قبل يوم يؤسه» فهذه التعبيرات - التى تهدف إلى إثارة العارفين والعمل على تشجيعهم إلى جانب تنيبه الغافلين وإيقاظهم - هى فى الواقع تمثل النتيجة المنطقيه للعبارات السابقه، وذلك إذا كانت الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع وإنّ الآخره قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق والسبقه الجنّه والغايه النار فلم لا يتوب أهل الحجى والعقل وينيبوا إلى

ص: ١٢١

(١-١) سورة الحديد / ٢١. [١]

(٢-٢) «منيه» من ماده «منى» على وزن نقى، قال صاحب مقاييس اللغه بمعنى تقدير الشىء، ثم أطلقت على الموت والأجل، لأنّ الموت أمر مقدر، وتطلق المنى على الأمانى التى تدور فى خلد الإنسان.

اللّٰه ويغتتموا الفرصه بالأعمال الصالحه ويستعدوا لسفر الآخره؟ ولعل هذا هو الذى أشار له الإمام عليه السلام فى خطبه أخرى «فاعملوا وأنتم فى نفس البقاء، والصحف منشوره والتوبه مبسوطه» (١).

أما تعبیره عليه السلام عن يوم القيامه بيوم البؤس فلما يكتنفه من أحداث مهوله وعذاب شديد وهلع وخوف عظيم. وقد أشارت أغب الآيات القرآنيه لذلك العذاب لتحذر الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصه والتزود لذلك اليوم العصيب الملىء بالمخاطر التى لا ينجى منها سوى العمل الصالح. أمّا فى النقطه الخامسه فقد أشار عليه السلام إلى الفرص التى تمر مرّ السحاب والتى يقود عدم اغتنامها إلى الندم «ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرره أجله» ويخسر بالمقابل من يقصر فى العمل، كما أنّ أجله يصبح عليه وبال «ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه أجله». وتعبيره عن الحياه الدنيا بأزّيام الأمل لهو تعبیر لطيف يشير إلى قصر وإيجابيه عالم الدنيا؛ لأنّ دقائق عمر الإنسان تمثل أعظم فرصه من أجل بلوغ السعاده والفوز بالفلاح الأخرى الخالد.

فعلل التوبه فى لحظه من اللحظات تطفئ بحاراً من نيران جهنم كانت تتربص بهذا الإنسان، ولعل العمل الصالح الخالص فى ساعه من عمره ينتهى به إلى جنان الخلود والرضوان.

تأملات

١ - الدنيا والآخره فى الأحاديث

يرى الدين الإسلامى الحنيف وجميع الأديان السماويه أنّ الدنيا دار طارئه متبدله جعلت ليتزود منها الإنسان ويكسب فيها السمو والكمال والمعرفه التى تحلق بها إلى عالم الخلود، ومن هنا فإنّ اللّٰه يبتلى العباد فيها بأنواع البلاء والامتحان من خلال العبادات والطاعات وترك الشهوات وتحمل المصائب والمشكلات التى من شأنها تربيّه الإنسان وصقل شخصيته

ص: ١٢٢

(١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٣٧. [١]

وتهيئته لعالم الآخرة المفعم بالخير والبركه. وقد تضافرت الروايات التي تعرضت لبيان حقيقه الدنيا بعده تعبيرات مختلفه رائعه، ومن ذلك الخطبه التي نحن بصدددها والتي شبّه فيها الإمام عليه السلام الدنيا بالدوره التدريبيه التي يستعد فيها الإنسان لسباق الآخرة، الذي يحصل فيه الغالب على الجنّه والخاسر النار. وقد جاء في الحديث أن «الدنيا مزرعه الآخرة» (١) ومن الواضح أنّ المزرعه ليست مكاناً للحياه والاستقرار بل هي مكان للتزود من أجل مكان آخر، وقد عبّر عنها بالمتجر ودار الموعظه والمصلى، كما أورد ذلك الإمام على عليه السلام في نهج البلاغه فقال «إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها. . . ودار موعظه لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله ومصلى ملائكه الله ومهبط وحى الله ومتجر أولياء الله» (٢). وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنّ المسيح عليه السلام قال للحواريين: «إنّما الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها» (٣). كما عبر عنها الإمام على عليه السلام بأنّها «دار ممر» (٤) و«دار مجاز» (٥). وأخيراً فقد وصفها الإمام الهادى عليه السلام بالسوق الذي يتضمن الربح والخساره «الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون» (٦). والخلاصه فإنّ كل هذه العباره ترشد إلى عدم النظر إلى الدنيا على أنّها هي الهدف النهائى، بل هي وسيله لادخار العمل الصالح وكسب المعارف من أجل الظفر بالدار الآخرة. ولعل البعض يرى أنّ هذا الموضوع ساذج، إلّا أنّ الواقع هو أنّ أهم مسأله مصيريه فى حياه الإنسان فى أنّه كيف يتعامل مع الإمكانيات الماديه التى زود بها فى هذه الحياه وكيف ينظر إلى هذه الدار، هل يراها وسيله وأداه من أجل الوصول إلى هدف معيّن، أم يراها هي الهدف النهائى وليس وراءها شىء. والواقع أنّ تأكيد الإمام عليه السلام فى بدايه الخطبه على أنّ الدنيا ميدان الإستعداد لسباق الآخرة إنّما يشكل الدعامه الأساسيه الراسخه لسائر المواعظ المهمه التى وردت فى هذه الخطبه.

ص: ١٢٣

١-١) ورد هذا الحديث النبوى فى غوالى اللثالى ١ / ٢٦٧.

٢-٢) نهج البلاغه، [١] الكلمات القصار / ١٣١.

٣-٣) بحار الأنوار ١٤ / ٣١٩ ح ٢١. [٢]

٤-٤) نهج البلاغه، الكلمات القصار / ١٣٣.

٥-٥) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٣. [٣]

٦-٦) بحار الأنوار ٧٥ / ٣٦٦، [٤] مواعظ الإمام الهادى [٥] عليه السلام

النقطه التى تعرضت لها الخطبه والتى ينبغى الالتفات إليها، إنّما تكمن فى عدم إمكانية تدارك الخسران الذى يطيل الإنسان فى هذه الحياه وفقدانه للفرص التى كان من شأنها أن تجعله يفوز بالدار الآخرة، والواقع إنّ السباق الذى ينتظر الإنسان إنّما يقام لمره واحده فقط، فهناك ميدان للتمرين وآخر للسياق ليس للتكرار إليه من سبيل، ومن خسر فليس أمامه من فرصه لتدارك خسارته، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله». أما الندم فلا يداوى جرحاً ولا يصلح فاسداً هناك فليصرخ الصارخون: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ» (١) فيأتى الجواب «كَلَّا» .

ص: ١٢٤

«ألا- فاعملوا في الرغبه كما تعملون في الرهبه! ألا وإني لم أر كالجنه نام طالبيها، ولا كالتار نام هاربيها، ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجز به الضلال إلى الردى. ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الراد وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحزرون به أنفسكم غداً» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى مسأله مهمه ربما غفل عنها أغلب الناس: «ألا فاعملوا في الرغبه كما تعملون في الرهبه» فعباده الله وطاعته لا- تعنى الفرع إليه فى الشده والبلاء والتولى عنه فى اليسر والرخاء؛ ولو كان الأمر كذلك لكان مشركوا الجاهليه من خلص العباد، فقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: «فإذا ركبوا فى الفلك دعو الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يُشركون» (١) ثم خاطبهم فى آيه أخرى «وإذا مسككم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً» (٢). والواقع أن العبره ليست فى الاقبال على الله عند الفرع، بل العبره أن يقبل العبد عليه حين الرخاء والرفاه والشعور بالقوه والاعتدار، فما كان مع الله فى هذه الظروف كان الله معه فى الظروف العصيبه. فعلامه الإيمان الخالص أن يتوجه العبد إلى الله ويذكره على كل حال فى العافيه والسقم والفتوه

ص: ١٢٥

١-١) سورة العنكبوت / ٦٥. [١]

٢-٢) سورة الاسراء / ٦٧. [٢]

والكحول والفقر والغنى والهزيمه والانتصار والحريه والسجن وما إلى ذلك. ومن هنا نرى الأنبياء والأوصياء والأولياء لا ينفكون في حال من الأحوال عن التضرع إلى الله والتوجه إليه. فالمتتبع لسيره الإمام على عليه السلام لا يرى في عبادته من تفاوت بين جلوسه في البيت حين زحزت عنه الخلافة ونهوضه بالأمر وإدارته لشؤون البلاد الإسلاميه، فالزهد والتهجد وإعانه الضعفاء والفقراء وطلاق الدنيا إلى غير رجعه كان من المعاني الواضحه في عبادته الإمام عليه السلام: ثم قال عليه السلام: «ألا وإني لم أر كالجنه نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها». لقد رأينا عدّه أفراد من الذين يعيشون الأرق ليالي حين يهتمون ببعض الأسفار القريبه التي تدر عليهم بعض الأرباح والفوائد، فكيف ينال طالب الجنّه الباقيه - النعمه التي لا تفوقها نعمه أو الخائف من نار جهنم التي لا يتصور عذابها وأن رؤيته غير سماعه - ولا يكثرث لهذه الأمور؟! ولعل ذلك يعزى إلى ضعف ايمان الفرد بالعالم الآخر، أو إلى سكر النعم والمنافع التي يتمتع بها في حياته، ومهما كان السبب فإنّ الغفله عن الآخره لمن الظواهر الأساسيه الاليمه التي ينبغي للإنسان التوقف عندها ومعالجتها. ولاشك أنّ من وظائف أئمه الدين وزعماء المسلمين ايقاظ الناس من غفلتهم وترسيخ دعائم ايمانهم ولفت أنظارهم إلى الدار الآخره وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا والذوبان فيها. وفي النقطه الثامنه يشير الإمام عليه السلام إلى مسأله ذات صلّه بهذا الموضوع فيقول: «ألا وإنّه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى». طبعاً لا يتضح عمق هذا الكلام مالم نقف على التعريف الصحيح للحق والباطل. فالحق عباره عن الواقعيات، سواء كان هذا الحق تكوينياً أم تشريعياً. ويراد بالحق التكويني واقعيات عالم الوجود، ويقابل ذلك الباطل المتمثل بالخيال والسراب الذي لا واقع له ولا وجود سوى في عالم التصور والوهم. أما الحق التشريعي فيتمثل بالقوانين والتعاليم الإلهيه التي شرعت من أجل الفرد أو مجموعه الأفراد على ضوء المصالح والكفاءات الذاتيه أو الاكتسابيه، ويقابله الباطل الذي يتجسد بعرقله القوانين والتمرد عليها باسم القانون وتضييع العدالة وسلب الحريات وذبحها بمرأى ومسمع من الناس. ومن البديهي أنّ من يولى ظهره للحق سواء على مستوى التشريع أو التكوين فإنّه يقع في حبال الباطل من قبل الوهم والخيال والسراب الذي يحسبه الظمآن ماء؛ الأمر الذي لا يرتقى بالإنسان إلى الشىء،

والواقعيات هي التي تبلغ بالإنسان الهدف لا الوهم والخيال الذي لا يجر على الإنسان سوى الخذلان والخسران. ولعل الإنسان يستطيع عن طريق الباطل اغفال الآخرين مدّه من الزمان، إلّا أنّ مصيره المحتوم إنّما يؤول إلى البؤس والشقاء لا محاله في خاتمه المطاف وعليه فان قوله عليه السلام: «ألا وإنّه من لا ينفعه الحق، يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى» إنّما يمثل حقيقه واقعيه واضحه. طبعاً صحيح أن الاقرار بالحق واقتفاء آثاره إنّما يقترن غالباً بتحمل الشدائد المريره، إلّا أنّ هذه المراره تبدو كمراره الدواء التي تجعل السقيم يتماثل للشفاء، ولا يجنى من تلك المراره سوى السلامه والصحه والعافيه من المرض الذي ربّما يؤدى بصاحبه إلى الموت. ويتضح ممّا تقدم أنّ الحق والباطل ليسا من قبيل الوجودات الاصطناعيه والأمر الاعتباريه؛ فالحق في عالم التكوين هو ذلك الوجود العيني وفي عالم التشريع هو عبارته عن الواجبات والمحظورات التي تستند إلى المصالح والمفاسد والتي تمثل بدورها واقعيات عينيه، وستتناول هذا الموضوع بالشرح في الأبحاث القادمه.

على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام هدف بهذه العبارة إلى إفهام الآخرين - علاوه على تنبيههم إلى أصل كلى له بالغ الأثر في مصير الناس - بأنّهم اذا لم يلتزموا بوصايا المنسجمه والحق والعدل فإنّهم سيقعون في مخالبا الظلم والجور والاضطهاد وإن أضرار الباطل ستجتاح حياتهم؛ الأمر الذي شهدوه في حياتهم ومسيرتهم. ثم تعرض الإمام عليه السلام - في النقطة التاسعه - إلى موضوع مهم يحكم حياه البشريه شاءت أم أبت «ألا- وإنكم قد أمرتم بالظعن (1) ودللتم على الزاد». والأمر بالظعن هو قانون الموت الذي يحكم حياه الناس، فالأطفال يسيرون نحو الشباب، والشباب يتجهون نحو الكهوله وهذه الأخيره إنّما تنتهى بالموت. فهو قانون شامل جارى لا- يعرف الاستثناء والشواذ، كما أنّه قانون لا يقوى أحد على تجاوزه مهما كانت قوته وقدرته وعلمه ومعرفته فهو القانون الذي شرعته يد القدره الإلهيه لسمو الإنسانيه وتكاملها وقد تعرضت أغلب آيات كتاب التشريع.

ص: ١٢٧

١ - ١) «ظعن» على وزن «ظعن» بمعنى الرحيل من مكان إلى آخر ومن هنا اطلقت الظعينه على اليهودج لأنّه من وسائل السفر، وتستخدم أحياناً كنايةً عن النساء، لأنّهم غالباً مايركبن اليهودج.

لهذا الأمر التكويني كآلآيه: «كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (١) والآيه: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» (٢). وقد خوطب بهذا الأمر رسول الله صلى الله عليه وآله الذى يمثل أشرف كائنات عالم الخلقه «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» (٣) والآيه: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» (٤).

كما يحتمل أن يكون المراد بقوله عليه السلام «أمرتم بالظعن» الأمر بالاستعداد للرحيل من الدنيا، كما ورد ذلك فى الخطبه ٢٠٤ «تجهزوا رحمكم الله فقد نودى فيكم بالرحيل» (٥). وأما الأمر بالتجهز والتزود فإنه يمثل رساله جميع الأنبياء إلى البشرىه وتنبيهها إلى الطريق الخطير الذى ينتظرها؛ وهو طريق طويل يشمل الفاصله بين الدنيا والآخره ولا يمكن السير عليه دون حمل الزاد، ولا معنى للزاد هنا سوى الإيمان والتقوى والورع والعمل الصالح «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٦) ولا ينفع فى الآخره سوى القلب السليم المفعم بالإيمان وحب الله «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (٧).

وعليه فلا ينبغي أن يلتفت سالكوا هذا الطريق إلى الدنيا وما فيها وينخدعوا بزخارفها، بل عليهم الهم بالعمل الصالح الذى لا يبلغ بهم الهدف المنشود سواء «المالُ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً» (٨).

ص: ١٢٨

[١-١] سورة آل عمران / ١٨٥. [١]

[٢-٢] سورة النساء / ٧٨. [٢]

[٣-٣] سورة الزمر / ٣٠. [٣]

[٤-٤] سورة القصص / ٨٨. [٤]

[٥-٥] على ضوء المعنى الأول فإن الأمر فى قوله «أمرتم بالظعن» هو أمر تكوينى وأجل الهى ولكن ليس فى الجملة من تقدير، وهو أمر تشريعى على ضوء المعنى الثانى وفى عبارته تقدير هو التجهز والاستعداد، أو الظعن بالمعنى المجازى.

[٦-٦] سورة البقره / ١٩٧. [٥]

[٧-٧] سورة الشعراء / ٨٨ - ٨٩. [٦]

[٨-٨] سورة الكهف / ٤٦. [٧]

وأخيراً بعد أن لفت انتباه الأمة إلى الآخرة وزهداها في الدنيا وأوصاها بالتزود لتلك الدار وحذرهما من ذلك الطريق الخطير الذى ينتهى سالكه إلى السعادة والقرب الإلهى إذا سار عليه بعمله الصالح وورعه وتقواه، عاد عليه السلام ليحذر من عقبتين خطيرتين تصدان الإنسان عن السعادة والفلاح «وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتياع الهوى، وطول الأمل» وهو المعنى الذى ورد فى الخطبه ٤٢ بعد أن تناوله الإمام عليه السلام بشيء من التوضيح فقال: «أيها الناس وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتياع الهوى وطول الأمل، فأما إتياع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة». وتفيد الأحاديث النبويه والأخبار والروايات أنّ هذه التعاليم قد احتذاها أمير المؤمنين عليه السلام من معلمه الأول الأكرم صلى الله عليه وآله؛ فقد وردت هذه المعانى فى بحار الأنوار نقلاً عن النبى صلى الله عليه وآله (١).

والواقع هو أنّ هذين المرضين يعدان من أعظم عوامل الذنوب والمعاصى، لأنّ إتياع الهوى لا يعرف معنى للحدود والقيود، فإذا سيطر على الإنسان أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه بحيث لا يطيق سماع الحق من النبى صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام ولا تعد لديه قدره على رؤيه الحقائق التى تحيط به، وعليه فهو يعيش حياته الدنيا كالصم البكم العمى الذين لا يفقهون؛ الأمر الذى يجعله عرضه للسقوط فى الهاويه. أمّا طول الأمل فأنّه يزين الدنيا بما ينسى الآخرة ويقتصر بهمه الإنسان على الدنيا التى يرى فيها مقامه الأخير وهدفه النهائى. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بقوله «تزدوا فى الدنيا من الدنيا ما تحرزون (٢) به أنفسكم غداً» نعم فهناك سفر طويل على الأبواب، سفر يتطلب المتاع والزاد الكثير، وعليه فينبغى للعاقل أن يلتفت إلى نفسه ويجهزها بما يجعلها تجتاز ذلك السفر الطويل قبل فوات الأوان، ويتعد عن الأخطار والمطبات التى يمكنها عرقله هذه السفر، فيطويه بكل إيمان وثبات ليصل إلى هدفه المنشود.

تأملان

١ - خير الزاد

لا نرانا نبالغ إذا شبهنا الناس بالمسافرين الذين يغادرون منطقته صغيره ملوثة نحو عالم

ص: ١٢٩

١- ١) بحار الأنوار ٧٠ / ٩١. [١] فقد روى هذه الحديث جابر بن عبد الله الأنصارى عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى باب حب الدنيا.

٢- ٢) «تحرزون» من ماده «حرز» بمعنى الحفظ، و«الحرز» على وزن الحرص بمعنى الموضع الآمن لحفظ الأشياء.

كبير مفعم بالطهر والخير والعطاء، بل هذا هو السفر الواقعي والحقيقي الذي ينقل الإنسان من هذا العالم السفلى والتمهات للدينا إلى عالم الآخرة العلوى والسامى الخالد، كما أنّ لوازم السفر التى يهيتها المسافر، هى الأخرى لا بد أن توفر فى هذا السفر الشاق من قبيل الزاد والمتاع والمركب ومعرفة نقطه الانطلاق والغايه ومطبات الطريق والمخاطر التى تعترض السبيل والتى ينبغى دراسه كل واحه منها بصوره مستقله - فقد صرح القرآن الكريم بأنّ زاد هذا السفر إنّما يكمن فى الورع والتقوى فى اجتناب المعاصى وطاعه أوامر الله والإتيان بالأعمال الصالحه. وهو المعنى الذى أكده أمير المؤمنين على عليه السلام كراراً فى نهج البلاغه، ومن ذلك ماورد فى الخطبه ١٨٣ حيث قال عليه السلام: «وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم وقد أؤذنتم منها بالارتحال وأمرتم فيها بالزاد» وهن يبرز هذا السؤال: إنّما يستفاد من الزاد والمتاع طيله السفر لا- فى المقصد والغايه، والحال إنّ الورع والتقوى تستفاد فى الآخرة وتشكل مفتاح أبواب الجنان، فكيف اعتبرت التقوى هى الزاد والمتاع؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بد من القول بأنّ مبدأ هذا السفر طويل يبتدأ من لحظه الموت وسكراته ويستمر حتى عالم البرزخ وما يتخلله من مواقف القيامة ومنازل السؤال والحساب والصراط - والتى تتسم بتعدها وهول مطلعها - حتى تنتهى بالجنان. ومما لا شك فيه أنّ التقوى هى زاد فى عالم البرزخ كما أنّها الزاد والمتاع فى مواقف القيامة ومنازلها قبل الدخول إلى الجنّه - نعم فإنّ زاد التقوى هو الذى يجعل الإنسان يجتاز هذه المنازل الخطيره بسلام ويقوده إلى منزله الأخير المتمثل بالجنه.

جدير بالذكر أنّ الآيه الشريفه «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» جعلت التقوى هى المعيار الرئيسى لكرامه الإنسان وقيمته؛ الأمر الذى يؤكد المعنى المذكور فى أنّ السبيل الوحيد للنجاه غداً إنّما يكمن فى التقوى والتى عبّر عنه أحياناً بالزاد وأحياناً أخرى بصفتها تمثل ملاك الكرامه الإنسانيه. وهذا ما وضحته بعض العبارات الوارده فى الخطبه ٢٠٤ من نهج البلاغه «وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فإنّ أمامكم عقبه كؤودا ومنازل مخوفه مهوله لا بدّ من الورود عليها والوقوف عندها». نسال الله سبحانه أن يوفقنا لتوفير هذا الزاد القيم قبل فوات الأوان، فلا نرد ذلك السفر بأيدى خاليه، والحق أنّها خاليه مقارنة بما عليه تلك الدار.

لابد من التعامل بصورة جاده مع التحذير الذى أختتمت به الخطبه بشأن الأخطار الكبرى التى يفرزها إتباع الهوى وطول الأمل؛ فهما مكنم الخطر والمأساه التى تصيب الإنسان. فاتباع الهوى يعد أعظم عقبه تعترض سبيل سعادته الإنسان. فالاستسلام المطلق للشهوات والأهواء النفسيه يعد العدو اللدود لسعادته البشريه. القرآن الكريم من جانبه حذر حتى الأنبياء من هذا العدو الفتاك، ومنهم نبي الله داود عليه السلام الذى قال بشأنه «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (١) كما صور هوى النفس فى موضع آخر بالصنم الذى يعبد من دون الله «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (٢). والحق أن إتباع الهوى ليعمى البصيره ويصم السمع ويختم على العقل والفكر ويحول دون الإنسان وتميز بديهيات الحياه، فهل هنالك من خطر أعظم وأفدح منه؟! ومن هنا اقتصر القرآن بوعدته الجنّه لأولئك الذين يخشون الله ويسيطرون على أهوائهم «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» (٣).

طول الأمل هو الآخر من أسوأ وأخطر العقبات التى تعترض سبيل السعاده الإنسانيه؛ فقد دلت التجارب على مدى التأريخ أنّ آمال الإنسان الخياليه لا تقف عند حدود، فلا يزداد نحوها إلّا تعطشاً. ومن الطبيعى أنّ مثل هذه الآمال تشل حركه الإنسان وتسلبه جميع طاقاته الفكرية والبدنيه ولا تبقى له شيئاً يشده نحو الآخره. فاننا نعرف بعض الأفراد الذين عاشوا هذه الآمال الكاذبه حتى اللحظات الأخيره من حياتهم دون أن يلتفتوا حتى لتربيته فلذات أكبادهم. ومن عجائب هذه الآمال، أنّ الإنسان كلما تقدم أكثر كانت هذه الآمال أكذب بحيث تضاعف غرور الإنسان وتصدّه عن الواقع. وهذا هو الوضع السائد لدى الكفّار والذى أشار إليه القرآن فى خطابه لرسول الله صلى الله عليه و آله «ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

ص: ١٣١

١-١ (١) سورة ص / ٢٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة الجاثيه / ٢٣. [٢]

٣-٣ (٣) سورة النازعات / ٤٠ - ٤١. [٣]

يَعْلَمُونَ» (١)، المعنى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى قصار كلماته فى نهج البلاغه «من أطال الأمل أساء العمل» (٢).

ويبدو أن تلك الآمال متعذره النيل من خلال الأسباب المشروعه، وهى لا تيسر إلّا من خلال خلط الحلال بالحرام وهضم حقوق الآخرين ونسيان الله والآخره. ومن هنا حذر الإمام عليه السلام فى الخطبه ٨٦ من نهج البلاغه أولئك الذين ينشدون السعاده بالقول «واعلموا أنّ الأمل يسهى العقل وينسى الذكر فأكذبوا الأمل فانه غرور وصاحبه مغرور» ويبدو قصر الأمل على درجه من الأهميه بحيث اعتبره الإمام عليه السلام الركن الأصلى للزهد، وهذا ما أورده فى الخطبه ٨١ من نهج البلاغه «أيها الناس، الزهاده قصر الأمل والشكر عند المنعم والتورع عند المحارم». وآمال الإنسان كانت ومازالت أبعد وأطول من عمر الإنسان وإمكاناته وقدراته؛ الأمر الذى لا يجعل أهل الهوى وطلاب الدنيا يحققون تلك الآمال ويظفروا بها أبداً، وغالباً ما يودعون الدنيا بمنتهى الانزجار والاستياء فى لحظات نزع أرواحهم. وبالطبع لا- ينبغى الغفله عن الأمل بشكل الدافع الأساس لسعى الإنسان وجهده وانطلاقته فى هذه الحياه، وعليه فالأمل حسن وليس بقبيح ولا يمكن مواصله الحياه من دونه، إلّا أنّ المذموم إساءته وطوله وبعده عن الواقع واستناده إلى الوهم والخيال. ومن هنا ورد فى الحديث «الأمل رحمه لامتى ولولا الأمل ما رضعت والده ولدها ولا غرس غارس شجراً» (٣).

وبناءً على ما تقدم فان وظيفه أساتذه الأخلاق خطيره ثقيله؛ وذلك لأنهم لابد أن يضيئوا نور الأمل فى قلوب الناس من جهه ومن جهه أخرى ينبغى أن يبقوا عليه متوازنًا بعيداً عن الإفراط. والآمال المنطقيه هى تلك التى تنسجم ومتطلبات الإنسان وقدراته الواقعيه بحيث لا تبعده عن هدفه المنشود. وبالطبع فإنّ الإسلام لا يعارض التخطيط والبرمجه من أجل المستقبل والتطلع إلى الغد ولا سيما بالنسبه للأنشطه الاجتماعيه التى تعود بالنفع على المجتمع الإسلامى وتضع حداً للتبعيه لأعداء الإسلام، فإنّ مثل هذه الأنشطه ليست مذمومه فحسب،

ص: ١٣٢

١-١ (١) سورة الحجر / ٣. [١]

٢-٢ (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار / ٣٦.

٣-٣ (٣) بحار الأنوار / ٧٤ / ١٧٣. [٢]

بل تعتبر عباده والمذموم في الإسلام أن الإنسان يغرق في هاله من الآمال الفارغه التي تنسى الآخرة، وبالتالي لا يظفر الإنسان بها مهما جند طاقته وإمكاناته.

وفي الحياه الفرديه مطلوب هو التفكير في العاقبه والذي إصطلحت عليه الروايات بالحزم. والمذموم في الإسلام أن يغرق الإنسان في الأمل حتى ينسى الآخرة، ويفنى كل طاقته وقواه في ذلك الأمل الذي لن يبلغه قط.

تكملة

قال السيد الشرف (رض) وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالاعتاق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاعتاظ والازدجار ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا وإنَّ اليوم المضمار وغداً السَّباق، والسَّبقه الجنَّة والغايه النَّار»، فإن فيه - مع فخامه اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سرّاً عجيباً ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسَّبقه الجنَّة، والغايه النَّار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ولم يقل: «السَّبقه النَّار». كما قال، «السَّبقه الجنَّة»؛ لأن الاستباق إنما يكون إلى امر محبوبٍ وغرضٍ مطلوبٍ وهذه صفه الجنَّة وليس هذا المعنى موجوداً في النار، نعوذ بالله منها...!

ومن خطبه له عليه السلام

بعد غاره الضحاك بين قيس - صاحب معاويه - على الحاج بعد قصه الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه لما حدث في الأطراف.

نظرة إلى الخطبه

كما ورد في أسناد الخطبه فان بعض المحققين يرون أن هذه الخطبه جزء من الخطبه السابعه والعشرين؛ ويبدو أنها كذلك، لأنّ مضامينها واحده تفيد مدى ضعف أهل الكوفه والعراق تجاه حملات معاويه وأهل الشام، وكأنّهم لم يشعروا بما كان يدور حولهم والجرائم البشعه التي كان يرتكبها الشاميون. فقد جعل الإمام عليه السلام يمطرهم بوابل الدم والتشنيع لعلهم يفيقون إلى أنفسهم وينتبهوا إلى الأخطار التي كانت محدقه بهم. فقد قال ابن أبي الحديد:

ص: ١٣٥

١-١) قال صاحب مصادر نهج البلاغه هذه من الخطب المعروفة التي رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم: ١ - الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ١٧٠. ٢ - ابن قتيبه الدينورى في الإمامه والسياسه ١ / ١٥٠. ٣ - ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ / ٧١. ٤ - البلاذرى في كتاب أنساب الأشراف (في شرح سيره على عليه السلام) ٥ / ٣٨٠. ٥ - القاضى نعمان المصرى في دعائم الإسلام ١ / ٣٩١ (مع اختلاف وما ورد في النهج وقال الشارح الخوئى يستفاد من بحار الأنوار والاحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبه جزء من الخطبه ٢٧ (شرح نهج البلاغه، الخوئى ٤ / ٢١).

كانت غاره الضحاك بن قيس بعد الحكمين، قبل قتال النهروان، وذلك أن معاوية لمّا بلغه أنّ عليّاً عليه السلام بعد واقعه الحكمين تحيّل إليه مُقبلاً هاله ذلك، فخرج من دمشق معسكراً، وبعث إلى كور الشام، فصاح بها: إنّ عليّاً قد سار إليكم. وكتب إليهم نسخه واحده، فقرئت على الناس:

ج ج

فعند ذلك دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري، وقال له: سرّ حتى تمرّ بناحية الكوفه وترتفع عنها ما استطعت، فمنّ وجدتّه من الأعراب في طاعه عليّ عليه السلام فأغز عليه، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغز عليها، وإذا أصبحت في بلده فأمس في أخرى، ولا تُقيمّن لخيّل بلغك أنّها فقد سرّحت إليك لتلقاها فتقاتلها. فسرحه فيما بين ثلاثه آلاف إلى أربعة آلاف.

فأقبل الضحاك، فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب، حتى مر بالشُعبيّ فأغار على الحاج، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقى عمرو بن عميس بن مسعود الدُّهليّ، وهو ابن أخ عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقتله في طريق الحاج عند القططانه. وقتل معه ناساً من أصحابه.

استصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناس عُقيب غاره الضحك بن قيس الفهري على أطراف أعماله، فتقاعدوا عنه، فخطبهم. (١)

ص: ١٣٦

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١٣ / ١١٧. [١]

«أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أُبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلَفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ! كَلَامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصَّلَابِ، وَفَعْلُكُمْ يُطْمَعُ فِيكُمْ الْأَعْدَاءُ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَمَاذَا حِجَاءُ الْقِتَالِ قُلْتُمْ: حَيْدَى حَيَادٍ! مَا عَزَّتْ دَعْوُهُ مِنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَاخَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ أَضَالِيلٍ وَسَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ، دَفَعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطْوِيلَ» .

الشرح والتفسير

ذكرنا سابقاً أنّ الخطبة أُلقيت في ظروف عصيبة جداً، حيث شنت الغارات تلو الغارات على أهل العراق، جعلت الإمام عليه السلام يسعى جاهداً لا عداد الناس، إلّا أنّ الضعف والوهن كان قد بلغ مبلغه منهم بحيث لم تعد لهم من قوه تذكر، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل سوى اللجوء إلى آخر حربه من أجل تعبئتهم واستنفار طاقاتهم وهي توبيخهم ودمهم عليهم يلتفتون إلى أنفسهم ويبصروا الأخطار التي كانت تترص بهم.

فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالتعرض إلى العامل الرئيسي الذي يقف وراء ذلك الضعف والذلة والهوان والذي يعزى إلى عدم الانسجام بين الأقوال والأفعال الذي يستند إلى ضعف الاعتقاد الباطني بالأهداف المقدسه النبيله فقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أُبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلَفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ» ، أمّا كلامهم فقد كان شديد يخرق الصخور، أمّا أعمالهم فقد كانت هزيلة لا تنسجم وذلك الكلام «كلامكم يوهي (١) الصم (٢) الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء» .

ص: ١٣٧

١- ١) «يوهي» من ماده «وهي» ، عنها صاحب المقاييس بالضعف ومن هنا يصطلح على الكلام الضعيف بالواهي. فالعبارة تعنى أن كلامكم يضعف ويفتت.

٢- ٢) «الصم» جمع «أصم» وهو من الحجارة الصلب المصمت، و «الصلاب» جمع صليب، والصليب الشديد.

أجل إن ذلكم وهوانكم إنما أفرزه شقاقكم وفرقتكم. إنكم متحدون ظاهراً، مختلفون باطناً، وهذا ما أدى بكم إلى الاكتفاء بالأقوال الطنانه الرنانه بدلاً من الأفعال والأعمال؛ الأمر الذى يؤدى إلى تآكل المجتمعات وانهارها إذا ما عاشت هذه الحالة «تقولون فى المجالس: كيت وكيت (١)، فإذا جاء القتال قلت: حيدى حيد (٢)» .

فالواقع هذه بعض الصفات البارزة للمناققين والأفراد الضعاف النفس المسلوبى الإراده الذين يكثرون الحديث فى المجالس الخاصه والعامه ويستعرضون معانى الشجاعه والبساله والعزم والإراداه الراسخه، وكأن قدره هؤلاء لا تتجاوز هذه الأحاديث، فإذا وردوا ميدان القتال استحوذ عليهم الخوف والهلع وكأنتهم يصرخون، إليك عتاً أيها القتال فارقنا وابتعد، بل هم مرعبون من ميدان الحرب والقتال ويختلفون مختلف الأعدار للفرار من الميدان. والعباره «حيدى حيد» من ماده حيد بمعنى الميل والانحراف عن الشىء وتقابلها العبارة «فيحى فياح» بمعنى الرغبه فى الشىء. ولعل المخاطب بالعباره «حيدى حيد» الجنود والمقاتلون الذين تدعوهم عناصر النفاق والانزهاج إلى اعتزال الميدان، وعلى العكس من ذلك دعوه عناصر القوه والاعتدال إلى القتال بقولها «فيحى فياح» . كما يحتمل أن يكون المراد قولهم للمعركه ابتعدى عنا؛ الأمر الذى يكشف عمق خوفهم من قتال العدو، كما يمكن أن يكون المراد أنهم كانوا يخاطبون أنفسهم بهذه العبارة بغية الاسراع فى الابتعاد والاعتزال. وما أشبه هذه الطائفة المنافقه بمنافقى عصر الرساله الذين صورتهم سوره الأحزاب: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّهٗ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّهٗ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْتُكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

ص: ١٣٨

- ١ - ١) «كيت وكيت» من ماده «تكييت» بمعنى اعداد جهاز الناقه أو ملاء ظرف الماء، إلّا أنّ العبارة كيت وكيت تستعمل حيث يريد الفرد عمل كل شىء عن طريق الكلام، وهما كلمتان لا تستعملان إلّا مكررتين ككنايه عن الحديث.
- ٢ - ٢) «حيدى حيد»: صيغه فعل أمر من ماده «حيود» كترال بمعنى أنزل، وهى كلمه يقولها الهارب عند الفرار والكتمان تأكيد لاحداهما الأخرى حيث تعنى الميل والانحراف عن الشىء.

أَعْمَالُهُمْ وَكَانَ ذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» (١). لقد كانت هناك عدّة معدوده على هذه الشاكلة على عهد النبي صلى الله عليه وآله، غير أنّه من المؤسف أنّ الأكثرية الساحقه لأهل الكوفه - التي كانت تمثل جيش الإمام عليه السلام - كانت كذلك. ثم قال عليه السلام: «ما عزت دعوه من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم» يبدون أنّ هذه العبارة تشكل رداً على أولئك الذين يشكلون على مثل هذه الخطب في أنّ الإمام عليه السلام لم يكتف بالموعظه ولا يمارس الضغوط من أجل حشدهم للجهاد؛ الأمر المتعارف لدى الحكام في كافه أرجاء المعموره؟ فالإمام عليه السلام يقول: لو تركتكم وحالكم أحراراً ودعوتكم للجهاد لم تلبوا دعوتي، ولو شددت عليكم في هذه الدعوه فأنتم كذلك، وما ذلك منكم بعجيب فأنتم أفراد ضعاف النفس والإراده ولستم إلّا إلباً لأعدائكم على أوليائكم. وقد أثبت التاريخ أن هؤلاء الأفراد أصبحوا جنوداً مجنده لبنى أميه ومن كان على شاكلة ابن زياد والحجاج إثر خشيتهم من التهديدات التي تطيل أموالهم وأعراضهم، ولكن ليس لحكام العدل ولا سيما على عليه السلام من اتباع هذا الاسلوب في تعبئه الأفراد. ثم قال عليه السلام «أعاليل بأضاليل (٢)» كل ذلك قعوداً عن الجهاد ودفعاً بي إلى تأخيره، كالمدين الذي يناشد الدائن تمديد الأجل «وسألتموني التطويل دفاع ذى الدين المطول» نعم هذا هو حال الأفراد الضعاف من أهل المزاعم والإدعاءات دون الأفعال، ليس لهم من هم سوى خلق الأعذار والتشبث بالذرائع من أجل التهرب من المسؤوليه، القرآن من جانبه صور حاله المنافقين على عهد النبي صلى الله عليه وآله الذين كانوا يحاولون بشتى الطرق التملص من خوض القتال فعزى ذلك إلى حبهم للدنيا وإيثارها على الآخره «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (٣).

ص: ١٣٩

١-١) سورة الاحزاب / ٢٨.

٢-٢) «أعاليل» جمع اعلوله، ما يتعلل به و «أضاليل» جمع اضلوله بمعنى أسباب الضلاله، أى انكم تتشبثون بأسباب واهيه من أجل إضلال أنفسكم والآخرين.

٣-٣) سورة التوبه / ٣٨. [١]

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: لم كل هذا الضعف الذى ساد أهل الكوفة مع وجود ذلك الإمام العادل والحكيم المعروف والمجرب فى ساحات الوغى، فى حين كان أهل الشام أكثر قوه وفاعليه منهم والحال كان حاكمهم معاويه؟ ويبدو أنّ الجواب على هذا السؤال كما أشرنا سابقاً يكمن فى الآليه الاجتماعيه التى كانت عليها الناس آنذاك. فالكوفه لم تكن تتمتع بسابقه تاريخيه تذكر، بل كانت منطقته حديثه ضمت أقواماً مختلفه ذات ثقافات متنوعه، عاشت حاله من التنافس الظاهري والباطنى، خلافاً لأهل الشام الذين كانوا يتمتعون بالوحده واللحمه. أضف إلى ذلك فإنّ أغلب خصوم الدعوه من منافقى المدينه وسائر المناطق كانوا قد اتجهوا صوب الكوفه وأخذوا يمارسون دعاياتهم المغرضه التى تهدف إلى شق الصفوف وزرع بذور الفرقة والاختلاف فى صفوف أهل الكوفه، إلى جانب العمل على إضعافهم فى مجابهه العدو. من جانب آخر فإن الفتوحات الإسلاميه آنذاك قد جرت ثروات طائله، ولا يخفى أن طبيعه الثروه إنّما تختزن الدعوه والرفاه والعافيه؛ الطبيعه التى لا تنسجم وروح القتال والجهاد.

ومن هنا كان أهل الكوفه يقتنصون الأعدار التى تمكنهم من أداء وظيفتهم الجهاديه حتى فى أحلك الظروف التى شنت عليهم الغارات وجرعوا فيها غصص الذل والهوان من قبل بنى أميه وجيوش الشام. نعم إنّ الأمه كانت تلهث وراء الحكام الذين عبثوا ببيت المال وأغدقوا مافيه على الرعيه، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام مستعداً للتفريط بصاع من بيت مال المسلمين لأقرب المقربين كائناً من كان. وهذه هى العله الأخرى التى ساقها أمير المؤمنين فى كشفه النقاب عن روحيه الأمه «وإنى لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكنى لا أرى صلاحكم بافساد نفسى» (١).

ص: ١٤٠

«لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الدَّلِيلُ وَلَا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ! أَيُّ دَارٍ بَعِيدَةٍ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ - وَاللَّهِ - مَنْ غَرَزَتْهُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ، فَقَدْ فَازَ - وَاللَّهِ - بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقٍ نَاصِلٍ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى ركن مهم في الحياة الإنسانية فقال «لا يمنع الضيم (1) الدليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد» ما أجدر أن تكتب هذه العبارة بماء الذهب وتتلّى صباح مساء في أفنيه مستضعفى العالم حتى تصبح جزءاً من ثقافتهم وترسخ في أعماقهم. نعم إن الطغاة جرّعوا الأذلاء والعجزه صنوف العذاب والظلم والاضطهاد ولم ينصفوهم ويمنحوهم حقوقهم، فالحق يؤخذ بالقوه إستناداً لمعانى العمل والسعى الدؤوب والاثرة وحمل السلاح وخوض غمار القتال، فالطغاة الجبابرة لا يفهمون سوى لغة الحديد والنار ولا يبدّ من مجابتههم بالقوه. ويبدو أنّ طبيعه العالم كذلك فى أن سبيل بلوغ الأهداف العليا المادية والمعنوية إنّما عبد بالمطبات والعقبات الكؤود، ولا يظفر بهذه الأهداف من لم يقاوم هذه العقبات. ثم يقطع الإمام عليه السلام كافة الأعذار على هؤلاء فيخاطبهم ماذا تنتظرون، وعن أى دار تدافعون، ومع من تقاتلون وأنا بين أظهركم «أى دار بعد داركم تمنعون ومع أى إمام بعدى تقاتلون؟». نعم لن يسعكم الدفاع عن أى دار طالما تخاذلتم فى الدفاع عن داركم بصفتها دار الإسلام، وإذا لم تلتحقوا بى فى القتال

ص: ١٤١

(١ - ١) «الضيم» يعنى الظلم والاضطهاد.

فلن يسعكم القتال مع أى أحد بعدى. وعليه فليس أمامكم سوى الأسر والعبودية للعدو فيسلبوكم الإرادة والاختيار - فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أراد حثهم على القتال من خلال بعض المعانى التى تثير فى نفوسهم الحميه والغيره، فالوطن لا يسلم دون الدفاع عنه، وإن كانت لهم أدنى رابطة بإمامهم فهم مطالبون بالقتال فما عسى أن يكون الإمام من بعده والذى يسعهم القتال معه. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى عدم إمكانية خوض القتال بمثل هذه العناصر الضعيفه الهزيله التى فقدت مقومات المقاومه والثبات «المغرور - والله - من غرتموه» (١).

فالمحتال الخادع قد يتلاعب ببعض ممتلكات الناس ويمدّ يده إلى بعض حاجاتهم، أما أنتم فقد سلبتموني كل شىء وقد وليتم ظهوركم للعدل والطهر والتقوى والعزه والرفعه فضيعتم حقوق المسلمين ولاسيما المستضعفين والمحرومين. ثم قال عليه السلام: «ومن فاز بكم، فقد فاز - والله - بالسهم الأخبى» (٢). إشاره إلى أن مساعدتكم ونصرتكم ليست بشىء، ومن يعتمد عليكم كمن يشترك فى اقتراح لا تنطوى نتيجته سوى على الخسران.

فالإمام عليه السلام يرى فى نصره أهل الكوفه الهزيمه الفشل وقد شبهها تشبيه رائع فى أن الفوز بهم كالفوز بالسهم الأخبى الخاسر. ثم أورد شبهاً آخر فقال عليه السلام: «ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل» فى إشاره إلى أن أهل الكوفه فاقدون لكافه مقومات الهجوم على العدو من قبيل قوه الإيمان التقوى والشجاعه، وقد فقدوا كافه القيم إثر تعلقهم بالحياه الدنيا والاعتزاز بزخارفها وزبرجها.

تأملان

١ - الحق يؤخذ ولا يعطى

ما نفهمه من قوله عليه السلام «لا يدرك الحق إلا بالجد» أن الحق يؤخذ ولا يعطى؛ أى لا يمكن التطلع إلى الحصول على الحق فى ظل الحكومات الغاشمه التى تعتمد اسلوب القوه وتمارس الظلم والاضطهاد بحق الطبقات المحرومه والمستضعفه؛ ولا غرو فأساس قوتهم وقدرتهم إنما

ص: ١٤٢

١-١) ان تقديم المغمور - الخبر للمبتدأ - يفيد الحصر، أى المغرور الواقعى هو هذا الفرد.

٢-٢) «أخبى» من ماده «خبى» بمعنى فقدان الشىء.

تكنم في غضبهم لحقوق الآخرين، وعليه فلا تعنى إعادة هذه الحقوق المغتصبه سوى تجريدهم من هذه القوه؛ الأمر الذى لن يحدث قط. وهنا يحث الإمام عليه السلام كافة المحرومين والمستضعفين على الوحده وحرص الصفوف لاستعادته حقوقهم السلبيه من الظلمه والطواغيت وأنهم غالبون لا محاله، فالطغاه ليسوا مستعدين للتضحيه، بينما يضحى المستضعفون بالغالى والنفيس من أجل إحقاق حقوقهم. طبعاً ملئت الدنيا اليوم بالشعارات التى تتبنى حقوق الإنسان وتطالب بإعادة حقوق المحرومين، غير أن التجربه أثبتت بالأدله القاطعه أن هذه الشعارات لاتعد كونها مصائد تهدف اغفال الطبقات المسحوقه والمعدمه والاستسلام إلى اراده الأقوياء؛ الأمر الذى يثبت أن الحق يؤخذ ولا يعطى. فالمؤمنون لا يسعهم الوقوف مكتوفى الأيدى حيال الظالمين الذين يتلاعبون بمقدراتهم. وعليهم أن يتعلموا الدروس والعبر التى لَقَّنها الإمام الحسين عليه السلام البشريه جمعاء فى الصبر والتضحيه والفداء، فما زالت صرخاته تدوى فى الاسماع «ألا وإنّ الدعى ابن الدعى قد تركنى بين السله والذله! وهيهات له ذلك! هيهات منى الذله! أبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحدود طهرت وحجور طابت، أن نؤثر طاعه اللثام على مصارع الكرام» (١). كما أكد القرآن الكريم على جانب الصبر والصمود والمقاومه لدى المؤمنين، ومن ذلك الآيه ٢١٤ من سوره البقره «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصِيرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصِيرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». وهى الحقيقه التى نلمسها بوضوح فى كافه الغزوات الإسلاميه من قبيل بدر وأحد والأحزاب وتبوك وحنين، التى كان ينتصر فيها المسلمون بسلاح الإيمان والصبر، صحيح أن النصر من عند الله، إلا أن الامداد الغيبى والعنايه الإلهيه كانت مكمله للأسباب الظاهريه والعدده والعدد التى كان عليها المسلمون. فهذا أحد القوانين التاريخيه الثابته، فلا يقتصر على صحب النبى صلى الله عليه و آله والإمام الحسين عليه السلام، كما لا يرتبط بالأمس واليوم، بل يشمل المستقبل كالماضى على حد سواء.

ص: ١٤٣

لقد لجأ الإمام على عليه السلام إلى مختلف الأساليب من أجل إثارة مشاعر أهل الكوفة وتعبئتهم لقتال العدو، ومن ذلك تأكيد على مسأله الدفاع عن الوطن «أى دار بعد داركم تمنعون»؟ فى إشاره واضحه إلى علاقته كل فرد بوطنه وأنه يهب للدفاع عن هذا الوطن إذا تعرض للخطر مهما كانت المدرسه والفكره التى يؤمن بها وينتمى إليها، إلّا أنّ المؤسف له أنّ هذه الروح هى الاخرى قد ماتت فيهم. وهنا يبرز هذا السؤال: هل حرمة الوطن فى الإسلام بصفته يمثل دار الإسلام أم هناك شىء آخر؟ أى البلد الإسلامى يكتسب حرمة كونه بلداً إسلامياً، أم هناك حرمة ذاتيه لكل بلد بحيث تتضاعف هذه الحرمة لو أصبح جزءاً من دار الإسلام؟ يمكن العثور على أجوبه هذه الاسئله فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه؛ الأمر الذى يؤكده العقل أيضاً. فقد توالى الآيات التى ذهبت إلى أنّ الاخراج من الوطن إنّما يضاد القيم الإنسانيه؛ الأمر الذى يعنى حرمة الوطن الذاتيه، وهذا ما نلمسه بوضوح فى الآيات القرآنيه الثامنه والتاسعه من سوره الممتحنه «لا- يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» فقد اعتبرت الآيتين الكريمتين الاخراج من الوطن بمثابه المقاتله فى الدين، الأمر الذى يؤكده قيمه الوطن كما صرحت بذلك الآيه ٢٤٦ من سوره البقره على لسان بنى اسرائيل «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا» فهى تدل على أنّ دافعهم الجهادى إلى جانب حفظ الدين ينطوى على انقاذ الوطن، وقد أقر نبيهم هذا الدافع دون أن يعترض عليه، ونوكل الحديث فى الآيات الأخرى الوارده بهذا المجال إلى محلها.

رسول الله صلى الله عليه وآله كان شديد التأثر اثر هجرته من مكه، طبعاً صحيح أنّ مكه كانت تمثل قيمه دينيه كبيره، إلّا أنّها كانت تعنى إلى جانب ذلك بالنسبه للنبي صلى الله عليه وآله وطنه ومسقط رأسه، ومن هنا خفف عنه القرآن بقوله «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ» (١).

ص: ١٤٤

وورد في الحديث عن علي عليه السلام: «عمرت البلدان بحب الاوطان» (١) وقال أيضاً «من كرم المرء بكائه على ما مضى من زمانه وحنينه إلى أوطانه» (٢).

وجاء في الحديث المعروف «حبّ الوطن من الإيمان» (٣).

فالذي نخلص إليه أنّ حبّ الوطن والتعلق به يستند إلى جذور قرآنيه ونبويه إلى جانب تأييد العقل والمنطق. الا ان هذا لا يعنى تعلق الفرد بوطنه بصوره مطلقه بحيث لا- يتركه طلب العلم والتكامل ونيل المنافع المعنويه والقيم الإلهيه ومن هنا ورد الحديث عن علي عليه السلام: «ليس بلد بأحق بك من بلد، خير البلاد ما حملك» (٤). وأخيراً فان الوطن يكتسب قيمه مضاعفه إذا ما انضمت إليه الجوانب المعنويه علاموه على الجوانب الماديّه، فيصبح دار الإسلام، فيهب الفرد بكل ما أوتى من قوه للدفاع عنه والذود عن كيانه.

ص: ١٤٥

١-١) بحار الأنوار ٧٥ / ٤٥. [١]

٢-٢) بحار الأنوار ٧ / ٢٦٤. [٢]

٣-٣) سفينه البحار، ماده وطن.

٤-٤) نهج البلاغه، [٣] الكلمات القصار، ٤٤٢.

«أَصِيْبِحْتُ وَاللَّهِ لَا- أَصِدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا- أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوْعِدُ الْعِدُوَّ بِكُمْ. مَا بِالْكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ أَقْوَالًا بَغَيْرِ عِلْمٍ؟ وَعَقْلُهُ مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ؟! وَطَمَعًا فِي غَيْرِ حَقٍّ؟»

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام هذه الخطبه - التي تعدّ من الخطب الأليمه للإمام عليه السلام بمعاوده ذم أولئك القوم الذين ماتت أرواحهم عليهم فييقون قليلاً فيعبثوا أنفسهم ويستغلوا إمكاناتهم ويهبوا للقاء عدوهم فيريحوا الأمه الإسلاميه من شر أهل الشام الذين يمثلون حنالات زمان الجاهليه، فقد قال عليه السلام: «أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أواعد العدو بكم» .

نعم إن الإداره الناجعه تتطلب ثقه متبادله بين الأمه والقائد، وإنّ ثقه القائد بالأمه والعمل على تشجيعها ورض الطرف عن أخطائها وتذكيرها بنقاط قوتها من شأنه أن امال القائد وأحلامه قد تبدد من جراد الأمه التي تعيش الخواء الروحي والضعف والتشتت والتمزق والجهل بحيث لا يعد للتشجيع والثقه من دور في إثاوتها وحشد طاقاتها، بحيث يستفعل مرضها بما يجعل من الصعقه الاسلوب الامثل للشقاء.

- فالعباره وإن كانت تصور الأوضاع المزريه لأهل الكوفه، إلّا أنّها تشير إلى مدى عمق المشاكل التي إستنزفت أميرالمؤمنين على عليه السلام في ذلك الزمان، فقد كان محقاً في اعلانه عدم الوثوق بهم، فقد خالفوا كراراً وعودهم ونقضوا محارم عهودهم ونكثوا بيعتهم.

لم يكونوا يحسنون سوى الكلام في المجالس وإطلاق الشعارات الرنانه والكلمات

الحساسه، فاذا دقت ساعه القتال ولوا زحفاً إلى مخادعهم وهربروا هرب الشاه من الذئب.

ثم قال عليه السلام: «ما بالكم؟ مادواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم» .

أو تعتقدون أن أهل الشام خلقوا من غير طينتكم، أم لهم بقيه جسميه وروحيه تختلف عنكم؟ كلا.

اللهم الافارق واحد بينكما هو الاخلاق والمعنويات.

فهم يعملون ماذا يلزمهم من أجل القتال، إلّا أنكم لستم كذلك رعم النعمه العظيمه التي من الله بها عليكم بان جعل لكم إماماً عادلاً مقتدرًا. . . لقد أرعبتكم إمكاناتهم حتى انتهى بكم ذلك إلى الذل والهوان.

يا للاسف أن يتلى زعيم مثلى برعيه مثلكم.

نعم دواؤهم كان فيهم كما ورد ذلك في الشعر الذي يتسب إلى الإمام عليه السلام: دواؤك فيك وما تبصر ودواؤك منك وما تشعر

ثم يختتم عليه السلام خطبته بالقول «أقولاً بغير علم؟ وغفله من غير ورع؟ وطمعا في غير حق؟» .

أجل هذه هي العناصر التي تقف وراء بؤسكم وتعاستكم، فأنتم ترسلون الكلام على عوايته دون أن تستندوا إلى علم أو معرفته، ثم وليتم ظهوركم للورع والتقوى وانهمكتم في الدنيا وغفلتم عن الآخرة، وأخيرا فإنكم تحلمون بالنصر دون أن تعدوا له عدته.

هذه هي العوامل الثلاث (القول دون العمل والجهل المشوب بعدم التقوى والأمل بالنصر دون إعداد مقدماته) التي تهدد بالفشل والهزيمه كل أمه وقوم.

أسباب الهزيمه والفشل

لاشك أن جيش الإمام عليه السلام وبفضل زعيمه الرباني المعروف بالجهاد والشجاعه في ميدان الحرب كان يمتلك كافه أسباب الانتصار على العدو من جميع النواحي، إلّا أنه وللأسف قد شهد حاله من الضعف سلبيته زمام المبادره وزعزعت عوامل النصر، والمفروغ منه ان ذلك الضعف والوهن إذا دبّ في أمه فإنها لن تنتظر مصيراً أحسن من ذلك المصير الذي ساد جيش الكوفه.

وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه التي نحن بصدرها إلى عناصر هذا الضعف والتي كان في مقدمتها تركهم للعمل وتمسكهم بالقول.

فقد كانت مجالسهم عامره بالكلام ولا سيما عن القتال والحرب دون أن يعدوا العده اللازمه و يأخذوا للحرب اهبتها، يكثرون من الكلام خلف الجبهات دون أن يجراً أحدهم على الاقتراب من الخطوط الأماميه.

وكأن قدره الأفراد الضعاف العجزه تتركز عاده في الأقوال والمزاعم، ولعل الإمام عليه السلام أشار إلى هذا المعنى بقوله: «أقوالاً بغير علم؟» سواء كان هذا العلم يعنى المعرفة أو الاعتقاد أو العمل، فالنتيجه واحده لكل من هذه التفاسير الثلاثه، لأنّ المعرفة بالشىء والاعتقاد به تدعو إلى العمل، أما ضعف العمل فانما يستند إلى عدم المعرفة والاعتقاد، الأمر الذى صرح به الإمام عليه السلام بقوله «العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل» (١).

العامل الآخر هو الغفله وفقدان الورع، وبعبارة أخرى فإنّ عدم الالتفات إلى الحقائق والواقعيات - الذى تفرزه حاله عدم التقوى.

إنّما يؤدى إلى إختراق الصفوف من قبل العدو، فى حين لا تصيب سهام هذا العدو اذا ما تحلت الأمه بالفطنه والذكاء المشوب بالتقوى بدلاً من الغفله والتحلل من الورع والتقوى.

والعامل الاخير هو الطمع فى ما لا يستحقون، أو بعبارة أخرى الطمع فى الشىء دون توفير أسبابه.

فاننا نعلم بأنّ هنالك الأسباب التى ينبغى توفرها لتحقيق بعض الأهداف.

فقانون العله والمعلول إلى جانب الإراده الإلهيه هى التى تحكم الوجود برتمته، وإن ظن بعض الجهال بيعض الاوهام والخيالات والمعادلات الساذجه كمقدمه لتحقيق الاهداف.

وقوله عليه السلام «طمعاً فى غير حق» يمكن أن يكون إشاره إلى هذا المعنى، فإنّهم كانوا يطمعون فى شىء لا يستحقونه، إلّا أنّ بعض شرّاح نهج البلاغه ذهبوا إلى أنّ المراد بهذه العبارة أنّهم كانوا يطمعون بالمزيد من عطائهم فى بيت المال، ويتمنون على الإمام عليه السلام أن يعطيهم من بيت

ص: ١٤٩

المال أكثر من إستحقاقهم، فلما لم يلب الإمام عليه السلام طلبهم غير المشروع صابهم الضعف والوهن فى القتال.

ومن الطبيعى أن يكون هذا التفكير المادى أينما كان عاملاً من عوامل الفشل والهزيمة، كما فشل الجيش الإسلامى فى معركة أحد إثر انهماك الجنود فى جمع الغنائم واهتمامهم بالجوانب الماديه فى ذلك الميدان الجهادى العظيم.

على كل حال فإنّ هذه العوامل التى تؤدى إلى الهزيمة والفشل لا تقتصر على جيش الكوفه فحسب، بل تهدد بالفشل كافة الجيوش على مدى الدهور والعصور وأخيراً فالخطبه تصور مدى لوعه الإمام عليه السلام.

وذروه إستيائه، وهى كافيه فى توضيح عمق الظروف العصبيه التى عاشها الإمام عليه السلام.

ص: ١٥٠

ومن كلام له عليه السلام

فى معنى قتل عثمان وهو حكم له على عثمان وعليه وعلى الناس بما فعلوا وبراءه له من دمه.

نظره إلى الخطبه

نعلم بأن الآراء قد اختلفت فى قتل عثمان، فهناك من ذهب إلى تقصير عثمان وأنه كان مستحقاً للقتل؛ فقد سلط بطانته على بيت المال وأغدق عليهم المناصب الحساسه فى الحكومه، حتى قام الناس ضده دون أن يهب أحد من المسلمين لنجدته فكان الجميع راضياً بقتله.

بينما هناك من يعتقد بعدم صوابه قتله وكان ينبغى أن يمنح فرصه التوبه ليتدارك بعدها ما فرط منه، وإن كان ولا بدّ يخلعونه من الخلافه، أمّا قتله بتلك الصوره العلنيه إنّما هو بدعه، أضف إلى ذلك فإنّ قتله أصبح ذريعه للمنافقين من أجل بث الفرقة والشقاق فى صفوف المسلمين.

و أخيراً هناك طائفه ضيقه النظر ممن لا تكلف نفسها عناء التحقيق والتفكير فى سيره

ص: ١٥١

١- ١) جاء فى مصادر نهج البلاغه أن هذه الخطبه جزء من رساله كتبها الإمام عليه السلام حين خلافته، ثم ضمنها الحوادث التى أعقبت وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أمر عليه السلام بقراءتها على الناس من أجل وحده الرأى العام بهذا الشأن، كما احتمال أن تكون الخطب ٢٦، ٥٤، ٧٨ هى الأخرى جزء من هذه الرساله. ثم صرح بأنّ هذه الخطبه وردت مع بعض التغييرات فى كتاب أنساب الاشراف (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٠٨).

الخليفه الثالث تراه الخليفه المظلموم الذي قتل شهيداً، كما تنزه ساحته من كل نقص و عيب.

الإمام عليه السلام من جانبه وفي خضم هذه الآراء المتضاربه يكشف النقاب عن الحقيقه ويعرض بالتحليل للمسائل المرتبطه بقتل عثمان.

ص: ١٥٢

«لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلًا أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، لَكُنْتُ نَاصِرًا، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «حَدَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» وَمَنْ حَدَلَهُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «نَصِرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي» وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرُهُ، اسْتَتَأْتَرُ فَأَسِيَاءُ الْأَثَرَةِ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمْ الْجَزَعَ وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَقَعَ فِي الْمُسْتَأْتَرِ وَالْجَزَاعِ».

الشرح والتفسير

عوامل قتل عثمان

كما ذكر في بدايه الخطبه فأنها تعالج قضيه قتل عثمان والتعرض إلى العوامل التي دفعت إلى هذا القتل. فكلنا نعلم بان لقتل عثمان جذور معلومه نابعه من طبيعه أعماله وأفعاله، فقد أجمع المحققون على أنّ سوء تدبير عثمان في ادارته دفعه الحكم وتبديل الحكومه بموروث قبلي والتطاول على بيت المال والظلم والاضطهاد الذي مارسه أقربائه وبطانته بحق الناس قد أدى إلى غضب عام حتى انبرت طائفه مؤلفه من بضعه مئات لتحصره في داره وتهجم عليه وتقتله، وقد وقف ذلك الجيش الجرار الذي فتح مصر وبلاد الروم متفرجاً دون أن يحرك ساكناً؛ فقد كان ذلك الجيش ساخطاً عليه ويرى ضروره قتله، غير أنّ الناس إنقسموا طائفتين بعد قتله:

طائفه - لعلها كانت تشكل الاكثريه - كانت راضيه بهذا القتل أو على الأقل غير مكترثه له بينما ترى الطائفه الثانيه أنه قتل مظلوماً.

وفي ظل هذه الظروف إنتهز المنافقون الفرصه لبث بذور الفرقة في صفوف المسلمين وحرف مسير الخلافه عن محورها الأصيل أمير المؤمنين على عليه السلام - والذي كان يخطى بتأييد كافه أفراد الأمه - واستغلوا قضيه قتل عثمان كذريعه لتحقيق أطماعهم ومآربهم، وبعبارة أخرى فأنهم أحالوا قميص عثمان إلى مناوره سياسيه هدفها إغفال الأمه وصدّها عن الحق.

ص: ١٥٣

وبالطبع فإنّ أفراد من كلا الطائفتين كانوا من ضمن صحب الإمام عليه السلام واتباعه، وإن كانت الطائفة الثانية وعلى ضوء تصريحات بعضى المؤرخين تشكل الأقلية، وعليه فمن الطبيعي أن تكثر هذه الطائفة من سوالها لعلى عليه السلام عن قتل عثمان، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من بد سوى الاجابه التى تتضمن عكس الحقائق التاريخيه من جانبه وعدم منح هذا وذاك الفرصه بغيه إستغلالها ضد الدين.

فالخطيه رد على مثل هذه الاسئله الذى يتطرق فيه الإمام عليه السلام إلى بيان الحقائق التاريخيه دون منح العناصر الفاسده الحجج والذرائع فقد قال عليه السلام: «لو أمرت به، لكنت قاتلاً، أو نهيت عنه، لكنت ناصراً» .

فمفهوم هذه العبارة هى أنى كنت محايداً فلم أطح يدي بدمه ولم أدافع عن زلاته، فالأمران ينطويان على محاذير.

و هنا يبرز هذا السؤال: كيف يمكن التوفيق بين مضمون هذه العبارة والوقائع التاريخيه؟

لأننا نعلم جميعاً (و قد ذكر ذلك أغلب المؤرخين) أنّ الإمام عليه السلام نهى الناس عن قتل عثمان و قد بعث بالحسن والحسين عليه السلام إلى دار عثمان ليحولوا- دون زحف المعترضين، بل دخل عليه الإمام عليه السلام بالماء حين منعه منه. وقد أورد الشراح جوابين على السؤال المذكور:

فقال البعض المراد من عدم النهى هو النهى العملى؛ أى أننى لم أشهر السيف عملياً ولم أقتحم الميدان دفاعاً عنه، وهذا لا يتنافى ونهيه اللفظى عليه السلام وبعثه بالحسين عليه السلام هناك.

بينما يرى البعض لآخر أنّ هذا الكلام يفيد أن الإمام عليه السلام لم يأمر قط بقتل عثمان، وإن كان يراه مستحقاً للعقاب على أعماله، وعليه وبغيه عدم تردى الاوضاع لأسوأ ممّا كانت عليه فقد دعا الناس إلى ضبط النفس والتخلى عن العنف، إلّا أنّه لم يفعل ما من شأنه توفير الدعم الصريح لعثمان وأعماله وما يدر منه؛ وذلك لأنّه كما أن سفك دمّه يخلق بعض المشاكل فى المجتمع الإسلامى، فإنّ توفير الدعم له والدفاع عن أعماله هو الآخر يسبب مشاكل لا تقل عن سابقتها، وعليه فإنّ الإمام عليه السلام لم ير فى أى من الأمرين (الأمر بالقتل والنهى عنه) ممّا تمليه عليه وظيفته الإسلاميه.

وقد أراد الإمام عليه السلام أن يعلن موقفه الصريح ويحول دون تفاقم الخلافات بشأن قتل عثمان من قبل الطائفتين التى تذهب إحداهما لضروره قتله وتلك التى لاتراه مستحقاً للقتل.

ثم قال عليه السلام: «غير أن من نصره، لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني»،

فالعبارتان تبيان موضوعاً واحداً وهو إتفاق الجميع على أن حماه عثمان آنذاك كانوا من طلحاء الأمة، بينما كان الأفراد الذين لم يمدوا له يد العون من كبار الصحابه من المهاجرين والأنصار.

فالشواهد التاريخية تفيد تواجد كبار صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار حين هجم الناس على بيت عثمان، ولو كانوا يرتضون عثمان وأعماله لحالوا دون وصول الناس إليه، الأمر الذى يدل على تخليهم عنه وعدم تقديم أى دعم أو إسناد له.

أمّا الأفراد الذين هبوا للدفاع عن عثمان آنذاك فقد كانوا يمثلون أراذل المجتمع الإسلامى، و ما ذلك الدفاع إلّا لمنافعهم اللامشروعه التى كانوا يحظون بها آنذاك.

وعليه فقد كانت هذه المسأله واضحه فى أنّ حماه عثمان من أمثال مروان لم يجرأوا على الزعم أنّهم خير من المهاجرين والأنصار الذين لم يدعموا عثمان.

ومن المسلم به أن أولئك الذين تخلوا عن دعم عثمان لم يكونوا يرووا أن حاشيه عثمان وبطانته أفضل منهم، ومن هنا فقد إتفقت الآراء على أن حماه عثمان لم يكونوا من أختيار الأمة.

فالعباره غايه فى الروعه وقد أماطت اللثام عن أعمال عثمان بالشكل الذى أثار حفيظه كافه المسلمين.

ومن ذلك توزيعه أموال بيت المال على قرابته وبطانته وتسليطهم على رقاب الناس إلى جانب الظلم والجور والاضطهاد وتضييع العدل والقسط.

وقد صرح بعض شراح نهج البلاغه (1) بان الكلام هو ردّ الإمام عليه السلام على من قال بحضرته أنّ الفتنة من أولئك الذين لم ينصروا عثمان، فلو نصره كبار الصحابه لما إجتراً جهال الأمة على سفك دمه، ولو رأى كبار الصحابه وجوب قتله لكان عليهم إعلان ذلك وإزاله الشبهات عن أذهان الأمة.

فعلم الإمام عليه السلام أنه المقصور بذلك الكلام، فورد هذه الكلمات.

ص: ١٥٥

على كل حال فإنّ الخطبه تبين أنّ الإمام عليه السلام إذا لم ينصر عثمان فانه لم يكن وحيداً في هذا الأمر، بل كان هذا موقف كبار الصحابه، فلم الإشكال على الإمام عليه السلام؟ ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بتحليل دقيق عن قتل عثمان، فقال عليه السلام: «و أنا جامع لكم أمره، استأثر (1) فأساء الاثره، و جزعتم فأسأتم الجزع، والله حكم واقع في المستأثر والجازع» .

لقد صرح أحد الادباء العرب المشهورين بأنّ عبارات الإمام عليه السلام إتصفت بقله الألفاظ وسعه المعانى، فالعبارة على قلبه لفظها جامع شامله حيث أوضح الإمام عليه السلام فيها أنّ عثمان إرتكب خطأ جسيماً وأنتم كذلك.

فقد انتهج اسلوب الاستبداد والحكم الفردى وسلط بنى أميه على رقاب الناس وأغدق عليهم بيت المال فلما تعالت أصوات المعارضه وقام المسلمون لم يعرهم آذاناً صاغيه، فحاصروه وهجموا عليه فتركه كبار الصحابه من الأنصار والمهاجرون، من جانب آخر فإنّ الناس لم يكتفوا بهذا الحد، وبدلاً من خلعه من الخلافه وطرده أزالاه من مواقع الحكومه عمدوا إلى اراقه دمه فخلقوا فتنه إمتدت لسنوات فى التاريخ الإسلامى، إلى جانب استغلالها من جانب المنافقين الذين تذرعوا بالمطالبه بدم عثمان ليسفكوا كثيراً من الدماء.

وبناءً على ما تقدم فإنّ الفريقين قد سلكوا الافراط، وعليه فإنّ الله جازى كل منها بأعماله.

لقد كثر الكلام بشأن خلافه عثمان وآثارها: إلّا أنّ كلام الإمام عليه السلام ورغم قصر عباراته إلّا أنه أوجز كبد الحقيقه إلى جانب اصداره الحكم العادل بشأنه وشأن الجماهير التى قتلته.

كما يستفاد من العبارة أن الاستبداد - رغم إنّه سيئ مهمما كان - على أنواع بعضها أسوأ من البعضى الآخر، واستبداد عثمان كان من النوع الاخير.

كما أنّ التعبير بالجزع عن الناس يشير إلى مدى الغضب والاستياء الذى سيطر على الناس إثر الأعمال الشائنه لعثمان وبطانته.

ج ج

ص: ١٥٦

١-١) «إستأثر» من ماده «أثر» ، بمعنى الاستبداد كما صرح بذلك القاموس ومنه الحكومه الاستبداديه لأنها حكومه فرديه، يستعبد فيها الفرد سائر الناس.

ومن كلام له عليه السلام

لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل.

«لَا تَلْقَيْنَ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلَقْتَهُ تَجِدُهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصًا قَرْنَهُ، يَزَكِبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ «هُوَ الذَّلُولُ» وَلَكِنَّ الْقَاصِدَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلَيْنُ عَرِيكَهُ فَقُلْ لَهُ: «يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ» .

الشرح والتفسير

السعي لانقاذ الخاطئين

نعلم أنّ المعركة الاولى التي فرضت على أمير المؤمنين عليه السلام كانت معركة الجمل، حيث إتحد أنصار عثمان ومعارضيه بعد أن إصطحبوا معهم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله عائشه فنقضوا البيعه واشعلوا فتيل واقعه الجمل طمعاً في الخلافة.

ثم انتهت المعركة بهزيمتهم وقتل مؤججي تلك النار طلحه والزبير.

وتفيد كافة الشواهد التاريخيه أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً على عدم وقوع القتال ليس في

ص: ١٥٧

١ - ١) قال صاحب مصادر نهج البلاغه [١] نقل هذا الكلام طائفة من العلماء ممن سبقوا المرحوم السيد الرضى، منهم الزبير بن بكار (طبق نقل ابن أبي الحديد والجاحظ... .) وابن قتيبه في عيون الأخبار وابن عبد ربّه في العقد الفريد. والطريف، نقله حتى ابن خلكان في وفيات الأعيان وشهد بصحته وهو من رفع رايه مخالفه نهج البلاغه. [٢] مصادر نهج البلاغه ١ / ٤١٨. [٣]

الجمال فحسب، بل في صفين والنهروان، وكان يسعى جاهدا لاطفاء نار الحرب.

والخطبه التي نحن بصددھا تعد أحد تلك الشواهد، فقد بعث الإمام عليه السلام قبل نشوب القتال برسوله عبد الله بن عباس إلى الزبير بهذه الكلمات، فأثرت عليه وانسحب من المعركة، حتى أدركه ابن جرموز في صحراء البصره فقتله.

فقد خاطب الإمام عليه السلام ابن عباس قائلاً: «لاتلقين طلحه فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً (١)قرنه، يركب الصعب ويقول: هو الذلول» .

تشبيهه لطلحه بالثور الذي يعقص قرنه إما أن يكون أراد به طغيانه وسوء خلقه، أو عدم سماعه للحق بفعل طاعته لهوى نفسه.

فالواقع أنّ العبارة تفيد تحليله لنفسيه لطلحه ويأسه من تأثير الكلام فيه بشأن الكف عن القتال وإلّا فانسحاب من المعركة، إلّا أنّه لم يقطع أمله من الزبير (وقد دلت الحوادث اللاحقه أنّ الإمام عليه السلام كان محققاً في أمله) فأضاف عليه السلام قائلاً: «ولكن الق الزبير فأنّه ألين عريكه» . (٢)

فالعباره: «ألين عريكه» واستنادا إلى «عريكه» التي تعني الطبعه، تفيد تسليم الزبير للحق إذا سمعه، ولا سيما إذا كان قد صدر من رسول الله صلى الله عليه وآله، على العكس من طلحه الذي كان يتصف بالأثانيه واللجاجه والطغوى وحبّ الجاه والمقام الذي أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه عن سماع الحق.

ومن هنا ذكر المؤرخون أنّ الزبير أخذته رعبه شديده حين دخل البصره وعلم أنّ عمار في جيش الإمام عليه السلام حيث تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله لعمار:

«ويحك يا بن سميّه تقتلك الفئه الباغيه» .

فخشى أن يقتل عمار في المعركة، فيكون هو جزءاً من الفئه الباغيه.

على كل حال قال الإمام عليه السلام لابن عباس: «فقل له يقول لك ابن خالك: عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق؟ فما عدا ممّا بدأ؟» .

ص: ١٥٨

١- ١) «عاقصاً» من ماده «عقص» بمعنى التوى قرناه على أذنيه

٢- ٢) «عريكه» من ماده «عرك» بمعنى الطبعه، ولين العريكه بمعنى السلس، كما تأتي بمعنى إشتباك الشئ ومن هنا أطلقت المعركة على إشتباك الأفراد.

فالعباره إشاره إلى التأريخ الجهادى العظيم للإمام على عليه السلام على عهد النبى صلى الله عليه و آله والذى لم يكن خافياً على أحد بما فيهم الزبير الذى كان يقاتل إلى جانب رسول الله صلى الله عليه و آله.

فقد ورد فى الاخبار أنّ علياً عليه السلام برز بين الصفين حاسراً، وقال: ليرز الئى الزبير، فبرز إليه مدججاً، فقبل لعائشه: قد برز الزبير إلى على عليه السلام، فصاحت: وزيراها!

فقبل لها: لا بأس عليه منه، إنّه حاسر والزبير دارع.

فقال له عليه السلام: ما حملك يا أبا عبدالله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحه وليتماه، وإنما نوبتك من ذلك أن تقيد به نفسك وتسلمها إلى ورثته، ثم قال له: نشدتك الله أتذكر يوم مرت بي ورسول الله صلى الله عليه و آله متكى على يدك، وهو جاء من بنى عمرو بن عوف، فسلم عليّ وضحك فى وجهى، فضحكت إليه، لم أزد على ذلك، فقلت: لا يترك ابن أبى طالب يا رسول الله زهوه!

فقال لك «مه إنه ليس بذى زهوه، أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم»

فقال الزبير: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد كان كذلك، ولكن الدهر أنسانيه، ولانصرفن عنك. فانصرف من المعركه (1).

فالعباره السابقه قد تكون إشاره إلى هذا الأمر. جدير بالذكر أن الزبير كان من محبى على عليه السلام وقد هب للدفاع عنه حتى فى حادثه السقيفه وشهر سيفه، فقام له القوم وكسروا سيفه، إلى جانب ذلك فقد منح رأيه لعلى عليه السلام فى الشورى التى شكلها عمر لانتخاب الخليفه من بعده.

على كل حال فان هذه العبارة أثرت فى الزبير وكان شكه يتزايد يوماً بعد آخر.

بمشروعيه الطريق الذى سلكه حتى إتخذ قراره باعتزال القتال فاتجه الصحراء ليكمن له أحد الظلمه - ابن جرموز - فارداه قتيلاً ولم يسعه تدارك ما فرط منه.

أمّا قوله عليه السلام: «ابن خالك» فهو تعبير لطيف جدا، وهو من باب الاستماله والاذكار بالنسب والرحم، فقد كان الزبير ابن صفيه أخت أبى طالب، وعليه فالزبير ابن عمه على عليه السلام وعلى عليه السلام ابن خاله.

ص: ١٥٩

[١-١] شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ١٦٧. [١]

والعبارة تهدف إلى بيان كافة الأمور التي سمعها الزبير من رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن علي عليه السلام ومن هنا فقد كان شديد الحب لعلي، إلّا أنّ حب الجاه - الذي كان الدافع الرئيسي لحرب الجمل - كالحجاب الذي حال دون رويته لتلك الحقائق، فكان لهذه العبارة فعلها في نفسه حيث أزالته عنه ذلك الحجاب وجعلته يعود إلى الحق.

قال المرحوم السيد الرضى فى ذيل هذه الخطبه: «وهو عليه السلام أول من سمعت منه هذه الثلمه؛ أعنى فما عدا ممّا بدا» .

وهى عبارة بعينه المعنى، تشير إلى مسأله وهى: ما الذى صرفك عن الحق بعد أن اتضح لديك إلى الباطل (١). والعبارة من الروعه واللفافه بحيث أصبحت مثلاً فى الادب العربى.

تأملات

١- رد فعل الزبير تجاه رساله الإمام عليه السلام

ورد فى بعض الروايات أنّ ابن عباس قال: حين أبلغت الزبير رساله الإمام عليه السلام أجابنى: قل لعلي عليه السلام إننى أريد ما تريد. (٢)

أى إنك تبتغى الحكومه، فلم لا أطلبها أنا. فقد بلغ به الطمع وحبّ الجاه درجه جعلته يعتقد بأنّ علياً عليه السلام إنّما نهض بالأمر طلباً للحكومه - ولكن وكما أوردنا سابقاً فإنّ الزبير لم يستطع الوقوف بوجه الحق، فما كان منه إلّا أنّ إعتزل القتال وانصرف وإن كانت خطوته متأخره.

٢- قطف من سيره طلحه والزبير

طلحه من قريش وأبوه عبدالله بن عثمان من السابقين فى الإسلام وقد شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يشهد يدرا حيث وجهه رسول الله صلى الله عليه وآله حينها إلى الشام فلما عاد طالب بسهمه من الغنائم.

ص: ١٦٠

١- (١) «عدا» به معنى الصرف والاعاده، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى ما، ويحتمل أن تكون من فى ممّا بمعنى عن، و بدا من ماده بدو بمعنى الظهور.

٢- (٢) مصادر نهج البلاغه ١ / ٤١١. [١]

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: لك سهمك وأجرك. وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة بين طلحه و الزبير، وآخى بين طلحه وأبي أيوب في المدينة. وروى عن طلحه أن النبي صلى الله عليه وآله أسماه يوم أحد طلحه الخير. أما قتاله مع رسول الله صلى الله عليه وآله في حروبه فمما لا شك فيه مع ذلك فقد كان محباً للجاء والمقام حتى تغيير نهجه بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله، كما كانت تسمع منه بعض الكلمات ومن ذلك قوله أن رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر بنات أعمامنا بالاحتجاب منا، ويتزوج بنسائنا بعد إنفصالهن عنا: فما الذي يغنيه حجابهن اليوم وسيموت غدا فنكحهن، وهنا نزلت آية التحريم بالزواج من نساء النبي صلى الله عليه وآله (١) فقد ذكر الفخر الرازي في سبب نزول الآية أن طلحه قال: «سأتزوج من عائشه إذا مات رسول الله صلى الله عليه وآله». فنزلت آية تحريم الزواج من نساء النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته. (٢)

وورد في قصة الشورى التي شكلها عمر أنه أقبل على طلحه وقال: أقول أم أسكت؟ فقال طلحه: قل، فأتك لا تقول من الخير شيئاً. فقال عمر: لقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب. (٣)

على كل حال كان من أشد الناقمين على عثمان، ومن هنا كان يراه مروان من قتله عثمان، وقد رماه بسهم في الجمل فقتله، وقال: الآن أدركت دم عثمان من طلحه. وقد دفعه حب الجاه لاشعال فتيل الجمل وسفك دماء المسلمين ولم يظفر بالخلافه حتى قتل في معركة الجمل. وذكر البعض أن الإمام عليه السلام حدثه ببعض الكلمات على غرار الزبير فندم وانصرف من المعركة فرماه مروان بسهم فقتله. إلا أن الخطبه تفند هذا الكلام، فهي تفيد بأس الإمام عليه السلام من هدايته وعودته إلى الحق. وفي روايه أن أمير المؤمنين عليه السلام مر يقتلى الجمل فقال بشأن طلحه هذا من نكث بيعتى وأشعل نار الفتنة وألب الناس على قتلى وأهل بيتي» ثم خاطبه عليه السلام: يا طلحه إنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً فهل وجدت ما وعد ربك حقاً، ثم انصرف. فقال له بعض أصحابه: أتكلمه بعد الموت يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام والله لقد سمعنى كما سمع الكفار كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وهم قتلى فى قلب يدرك. (٤)

ص: ١٤١

١-١) سورة الاحزاب / ٥٣؛ الدر المنثور / ٥ / ٢١٤.

٢-٢) تفسير الفخر الرازي / ٢٥ / ٢٢٥.

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد / ١ / ١٨٤. [١]

٤-٤) الاحتجاج للطبرسى، نقلا عن سفينه البحار، ماده (طلح).

وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يثنى أحياناً على طلحه، حتى ذهب البعض إلى أنّه من العشره المبشره بالجنّه، فكيف يصح هذا الثناء؟ ونقول في الجواب على فرض أنّ هذا الكلام صحيح، فإنّ الإنسان يعيش بعض المراحل المتألقه في سنى حياته بحيث يكون يوماً إلى جانب الحق ويستحق الجنّه، ويوماً يخرج من هذا الحق ويلتحق في صفوف الباطل فيستحق غضب الله وسخطه. فالتأريخ الإسلامى حافل بالأفراد الذين كانوا على الحق وهجروه إلى الباطل أو بالعكس، وإلّا فمن يسعه القول بأحقية من أجاج نار الحرب ضد إمام زمانه وسفك كل هذه الدماء؟ فهل من انسجام بين هذا الكلام والمنطق؟ والشاهد على ما قلنا ما صرح به القرآن الكريم بشأن السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار والتابعين، الذين وعدهم بالجنّه «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». (١)

فالآيه تشمل جميع المهاجرين والأنصار، بينما نعلم هنالك من انحرف منهم عن الحق كعبد الله بن أبى سرح (٢) وثعلبه ابن حاطب الأنصارى (٣) فاستحقوا غضب الله وسخطه، وقد كانوا من المهاجرين والأنصار الذين وقفوا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ كما نعلم أن بعض المنافقين الذين ذمهم القرآن بشدّه كانوا من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله. وعلى هذا الضوء فلا بدّ من تقييم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على ضوء أعمالهم حتى آخر أعمارهم، وإلّا شهدنا حاله من التناقض لا- يمكن الخروج منها بتبرير وأما الزبير فهو الزبير بن العوام وأمّه صفيه عمه رسول الله صلى الله عليه وآله اسلم فى الخامسة عشره من عمره وهو رابع أو خامس من أسلم، هاجر إلى الحبشه ثم قدم

ص: ١٦٢

١- ١) سورة التوبه / ١٠٠. [١]

٢- ٢) ورد ذمه فى تفسير الآيه ٩٣ من سورة الانعام فى الدر المنثور (الدر المنثور ٣ / ٣٠) [٢] وذكر صاحب أسد الغابه أنه كان من كتاب الوحي ثم ارتد فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتله (اسد الغابه، شرح أخبار عبد الله بن سعد بن أبى سرح).
٣- ٣) جاء فى أسد الغايه فى معرفه الصحابه فى أخبار هذا الرجل أن النبي صلى الله عليه وآله طرده، كما طردها الخلقاء الثلاثة (ابوبكر وعمر وعثمان) ولم يقبلوا زكاته، رغم قوله أنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى توفى فى خلافة عثمان.

المدينه، وقد أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وبينه وبين عبدالله بن مسعود. شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله في بدر وأحد والخندق وحنين وقد أبلى فيها بلاءً حسناً حتى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان أحد أعضاء الشورى الذى بايع علياً عليه السلام ولم يبايعه طلحه. وللأسف فإن حب الجاه وتأثير طلحه قد دفعه للانحراف عن الحق فاشترك مع طلحه فى تأجيج نار الجمل التى فرقت صفوف المسلمين وأراقت دمائهم بعد أن نقض البيعه. وقد ذكر المؤرخون انه إستمع لمواعظ على عليه السلام قبل بدء المعركة فعاد إلى الحق وانسحب من الميدان فاتجه صوب صحراء تعرف باسم «وادي السباع» فلما وقف للصلاه تقدم نحوه ابن جرموز فقتله حين الصلاه وانتزع خاتمه وسيفه فاتى بها إلى الإمام عليه السلام.

فاستاء الإمام عليه السلام وقال: «هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله» وقيل إن الإمام عليه السلام لم يأذن لابن جرموز بالدخول عليه وقال: «بشر قاتل ابن صفيه بالنار» وقال البعض أن ابن جرموز غضب غضباً شديداً فقتل نفسه. وقد صرحت بعض المصادر التاريخية أن معاوية هو الذى شجع طلحه والزبير على نقض البيعه والقيام ضد على عليه السلام (1).

لا- شك إن قضية طلحه والزبير ينبغى أن تكون لنا درساً وعبره فلا نغتر بأعمالنا، وكيف أن الإنسان يعيش مع الحق ويجاهد فى سبيله ثم يستل حب الدنيا والحياء إلى قلبه فيقوده إلى الباطل اللهم إجعل عاقبه أمرنا خيراً.

٣- شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد تضمنت رساله الإمام عليه السلام الإشاره إلى أحد الشروط المهمه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا وهو احتمال التأثير.

فقد قال عليه السلام: «لا تلقين طلحه فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، ولكن إلق الزبير فانه ألين عريكه» فمن الطبيعى أن طاقه الإنسان وقدرته محدوده ولا بد له من استهلاكها فى محلها الذى يتوقع فيه التأثير.

فاذا أحتمل عدم التأثير فلا ينبغى له أن يصرف جهده عبثاً، وبالطبع فقد قلنا احتمال التأثير وليس اليقين فيتعلل بعدم الأمر لعدم وجود اليقين فى التأثير! كلا إلى جانب ذلك

ص: ١٤٣

ينبغي معرفه المعروف والمنكر وعدم وجود الخطر آنذاك تبرز وظيفه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويفهم من رساله الإمام عليه السلام أنّ لبعض الناس طباع كطباع الحيوانات فالبعض كالثعلب أو الذئب وبعضهم شجاع كالأسد وآخر من أهل الشهوات كالخنزير وبعضهم جاهل كالبقرة... وقد شبه الإمام عليه السلام طلحه بالبقرة العاقص القرن حيث يستكبر في التسليم إلى الحق ويخطئ في إدراك الواقع وتمييزه، وإذا اتجه صوب الأعمال العصيه ظنها سهله حتى تؤدي به إلى الفشل.

ص: ١٦٤

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف زمانه بالجور، ويقسم الناس فيه خمسه أصناف، ثم يزهد في الدنيا.

نظره إلى الخطبه

تألف الخطبه من أربعة أقسام:

القسم الأول يتحدث عن الوضع المأساوي للمجتمع على عهد الإمام عليه السلام والمشاكل التي كانت تعترض سبيل الصلحاء والأتقياء. ويصنف الإمام عليه السلام الناس في القسم الثاني آنذاك (ولعله في كل عصر ومصر) إلى أربعة أصناف:

أ - الصنف الأول من يقعد به عن طلب الإمرة قلبه ماله، وحقارته في نفسه. فهو مغتم في الواقع لعدم إمتلاكه الامكانيات.

ب - الصنف الثاني من يشمر ويطلب الاماره ويفسد في الأرض ويكاشف

ج - الصنف الثالث من يتظاهر بالدين ويطلب به الدنيا لا الآخرة

د - الصنف الرابع من لامال له أصلاً، ولا يكاشف، ويطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالرياء والناموس، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعه، ويتحلى بحليه الزهاده في اللذات الدنيويه، لاطلباً للدنيا، بل عجزاً عن الحركه فيها، وليس بزاهد على الحقيقه.

ص: ١٦٥

١ - ١) نقل هذه الخطبه محمد بن طلحه الشافعي في كتاب مطالب السئول وأضاف أن الإمام عليه السلام خطبها في مسجد الكوفه، ويتضح من هذا أن له سند غير نهج البلاغه، لأن نهج البلاغه لم يشر إلى موضع الخطبه. كما رواها الجاحظ في البيان والتبيين، وأن أخطأ في البدايه حيث نسبها إلى معاويه إلا أنه يعترف أخيراً بأنها لاتشبه كلام معاويه وهي من كلمات علي بن أبي طالب. مصادر نهج البلاغه ١ / ٤١٧.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص كل صنف من هذه الأصناف الأربعة - التي تعيش في كل مجتمع، ويتحدث القسم الثالث عن صنف آخر ذكره الإمام عليه السلام بصورة مستقلة وهم الأبرار الأتقياء الذين أراق دموعهم خوف الآخرة.

ثم يقسمهم الإمام عليه السلام إلى عدّة أقسام ويذكر صفات كل قسم منهم، أمّا القسم الرابع والأخير من الخطبه فيدعو فيه الإمام عليه السلام الناس إلى الزهد وعدم الاغترار بالدنيا الذي يقود إلى الذنوب والمعاصي. وقد بين حق الكلام بعبارات قصيره.

ج ج

ص: ١٦٦

إشاره

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَضَيْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عُنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسَيِّئًا وَيَزِدُّهُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوًّا. لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلَّمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَهُ حَتَّى تَحُلَّ بِنَا» .

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام الكلام بخطاب عامه الناس ثم أشار الإمام عليه السلام في الخطبه إلى الزمن الذي كان عليه الناس فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عُنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ» .

طبعاً ليس المراد بالزمن الأيام واليالي والشهور والسنين بحيث توصف بالقبح والحسن والبغض والتنكر، بل أهل العصر والزمان الذين يتصفون بهذه الصفات، فاذا ما ذكر الزمان بالحسن والقبح فالمراد الناس، وإلّا فليس هنالك من تغيير في شروق الشمس أو القمر ولا في حركة القمر حول نفسه أو حول الشمس.

فالشمس تشرق والمطر ينزل والأرض تخرج بركاتها للبشر ولا من تغيير، إلّا أنّ الناس هم الذين يوصفون بسوء الأعمال وحسنها.

فقد عاش الإمام عليه السلام في عصر لم يسع أغلب أفراده - سوى النزر اليسير - إدراك عظمه روحه وسعه فكره والاحاطه بفضائله ومناقبه، وقد أدت بهم الثروات العظيمه التي أفرزتها الفتوحات الإسلاميه واتساع رقعه البلاد إلى التكالب على الدنيا والتهافت على زينتها والحرص على جمع الأموال وحب الجاه والمقام وتناسي القيم والمبادئ.

ثم تناول الإمام عليه السلام بعض خصائص الزمان آنذاك والذي يتصف بعناد الناس وجحودهم ليصفه في خمس عبارات فقال: «يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوا» أو يمكن أن يتهم المحسن بالاثم ويشنى على الظالم؟ بلى إذا تغيرت قيم المجتمع عد المحسن مسيئاً والمسيء محسناً.

فإذا كان المال والثراء والقوه هي القيم ومعايير الشخصيه، فستكون الصداره في ذلك المجتمع للظلمه والطغاه والجباره، بينما تميم في هذا المجتمع شخصيه المحسنين الذين يمدون يد العون إلى الفقراء والضعفاء وينفقون عليهم الأموال وينعتونهم بالحقاه والبلاهه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض نماذج الفساد الذي طال المجتمعات البشرية بفعل فساد التعامل مع القيم والتكر لها ومن ذلك ما أورده بشأن قوم لوط الذين عزموا على إخراج نبيهم ومن معه من المؤمنين الصالحين ولا- ذنب لهم سوى الطهر والعفاف «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (١).

كما اعتبر الظلمه من قوم نوح تلك الثله الخيره التي آمنت بالله والنبي بأنها من أراذل القوم والسذج الذين ليس لهم من مزيه على من سواهم «مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» (٢).

نعم إذا فسد الناس وازداد حجم الظلم والاضطهاد تغير وجه المجتمع وغيبت فيه القيم، وازداد الظالم طغياناً وتجبراً وعدّ المحسن مجرماً فيقصي من ذلك المجتمع.

وليس هنالك من نتيجة سوى ما أشار إليها الإمام عليه السلام: «لانتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا» .

والواقع أنّ هذه أسوأ حاله يعيشها الفرد أو المجتمع، أي أنّه لا يستثمر علومه ومعارفه في حل مشاكله ولا يهتم بالقضاء على الجهل والاقبال على العلم، وليس هنالك من نتيجة لهذين الأمرين سوى العوم في بحر الجهل والجريمه، وهذا هو حال كافة الأفراد الذين يغضون الطرف عن مفاسد المجتمع ولا يرون لأنفسهم من مسؤوليه في ردعها سواء من خلال اليأس من

ص: ١٤٨

١-١ (١) سورة النمل / ٥٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة هود / ٢٧. [٢]

الإصلاح أو التعود على هذا الفساد والتكيف معه.

ثم قال: «ولا- نتخوف قارعه حتى تحل بنا.» الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد العبارات الأخيره بصيغه التكلم مع الغير وينسبها إلى نفسه ومن حوله؛ مع القطع بأنّه مبرأ من ذلك بفضل عصمته وورعه وتقواه، ولعل العبارة تهدف عدم جرح مشاعرهم وإثاره حفيظتهم فيجعل نفسه كأحدهم في مثل هذه الأمور.

تأملان

١- ما مفهوم فساد الزمان؟

ذكرنا آنفا أنّ الزمان لا يراد به هنا المدة الزمنية لحركة الشمس والقمر (أو دوران الأرض حول نفسها والشمس) فالأزمنة متشابهة ذاتاً، والأشخاص هم الذين يتغيرون والحوادث والوقائع التي تجعل العصر والحياه حلوه أو مره.

و عليه فاذا قيل بفساد الزمان فالمراد فساد الناس.

ويصدق هذا الأمر على المكان أيضاً، فاذا قيل أنّ المنطقه الفلانيه أو البلد الفلاني فاسد فالمقصود فساد أهل تلك المنطقه أو ذلك البلد.

وبالطبع فان هنالك من يحاول استغلال هذه العبارات ليجعل من فساد الزمان أو المكان ذريعه لفساده وانحطاطه.

فاذا سئل عن سبب فساد وانحرافه، إنبرى للجواب: وماذا أفعل فقد فسد العصر أو البيئه التي أعيش فيها، والحال هو ومن حوله مصدر الفساد. ولعلنا نلمس هذا المعنى في الاشعار التي تنسب إلى عبدالمطلب جد النبي صلى الله عليه و آله حيث أنشد قائلاً: و يعيب الناس كلهم زمانا

و من البديهي أنّ زوال فساد الزمان مرهون بتغيير الناس فيشمولوا بلطف الله وعنايته «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (١). وبذلك فالإنسان هو المقصر الأصلي على كل حال.

٢- التنكر للقيم

المسألة التي تلعب دوراً مهماً في مصير المجتمعات البشريه والتي قد يغفل عنها الأعم الأغلب من الناس إنّما تتمثل بنظام القيم والمبادئ التي تسود المجتمع.

فالمجتمع إنّما ينطلق في مسيرته نحو المثل والقيم التي يلهمها لأفراده والمقره من قبلهم، وعليه فالمجتمع يتجه نحو التآكل والزوال إذا ما شهد تغييب القيم والمبادئ.

ونقصد بالمجتمع حركه جميع أفرادہ ولا يقتصر ذلك على بعض الأفراد الذين يتحلون بالایمان والتقوى فيقفون دائماً ضد حالات الفساد والانحراف.

وبناءً على ما تقدم فإنّ القيم المقره فى المجتمع إذا كانت تتجسد فى المال والثروه فإنّ كافة الأفراد سيتجهون نحو الثراء كهدف دون الإكتراث لمسائل الحلال والحرام.

والإنسان يتجه بوحى من طبعه إلى صنع الشخصيه ولا يأل جهداً فى السعى لتحقيق هذا الأمر، فاذا كانت القيم السائده تتمثل بالشخصيه الكاذبه فان الأفراد سيتحركون لامحاله لمثل هذه الشخصيه.

والشباب عاده يلهثون خلف السمعه والشهره ويعشقون الابطال، و عليه فلا يبدو غريباً تقليد الشباب لهؤلاء الابطال حتى فى الثياب واسلوب المشى، ولو كان هؤلاء الابطال هم العلماء والمفكرين فمن الطبيعى أن ينطلق الشباب نحو العلم والمعرفه.

بالمناسبه هنالك قصه طريقه مشهوره بشأن العلامه الكبير الشيخ البهائى، حيث قرر الشاه عباس الصفوى مكافئه جهوده العلميه وخدماته العمرانيه بتقديم هديه تليق بشأنه، فطلب الشيخ أن يستقل مركبه الخاص ويمشى الشاه خلفه لمسافه معينه فى الشوارع والازمه -

ص: ١٦٩

و من البديهي أن زوال فساد الزمان مرهون بتغيير الناس فيشملوا بلطف الله وعنايته «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١)» وبذلك فالإنسان هو المقصر الأصلي على كل حال.

٢- التنكر للقيم

المسألة التي تلعب دورا مهما في مصير المجتمعات البشريه والتي قد يغفل عنها الأعم الأغلب من الناس إنما تتمثل بنظام القيم والمبادئ التي تسود المجتمع.

فالمجتمع إنما ينطلق في مسيرته نحو المثل والقيم التي يلهمها لأفراده والمقره من قبلهم، وعليه فالمجتمع يتجه نحو التآكل والزوال إذا ما شهد تغييب القيم والمبادئ.

ونقصد بالمجتمع حركه جميع أفراده ولا يقتصر ذلك على بعض الأفراد الذين يتحلون بالامان والتقوى فيقفون دائما ضد حالات الفساد والانحراف

وبناء على ما تقدم فإن القيم المقره في المجتمع إذا كانت تتجسد في المال والثروه فإن كانه الأفراد سيتجهون نحو الشراء كهدف دون الإكتراث لمسائل الحلال والحرام والإنسان يتجه بوحى من طبعه إلى صنع الشخصيه ولايأل جهدا في السعى لتحقيق هذا الأمر، فإذا كانت القيم السائده تتمثل بالشخصيه الكاذبه فإن الأفراد سيتحركون لامحاله لمثل هذه الشخصيه.

والشباب عاده يلهثون خلف السمعه والشهره ويعشقون الأبطال، و عليه فلا يبدو غريبه تقليد الشباب لهؤلاء الأبطال حتى في الثياب واسلوب المشى، ولو كان هؤلاء الأبطال هم العلماء والمفكرين فمن الطبيعي أن ينطلق الشباب نحو العلم والمعرفه.

بالمناسبه هنالك قصه طريفه مشهوره بشأن العلامه الكبير الشيخ البهائي، حيث قرر الشاه عباس الصفوى مكافئه جهوده العلميه وخدماته العمرانيه بتقديم هديه تليق بشأنه، فطلب الشيخ أن يستقل مركبه الخاص ويشى الشأه خلفه لمسافه معينه في الشوارع والازمه

ص: ١٧٠

فالواقع أراد الشيخ بهذا العمل أن يثبت بأن القيم والمثل التي تسود المجتمع ينبغي أن تتمحور حول العلم والمعرفة.

وقد قيل أنّ إقبالاً منقطع النظر قد حدث للعلم بما لم يشهده أبداً في السابق. جدير بالذكر أنّ القيم والمثل التي كانت تحكم المجتمع الجاهلي قبل الإسلام مصداقاً لقوله عليه السلام: «بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم» . (١)

حيث أبطالها هم أبوسفیان وأبوجهل وأمثالهما، حتى انبثق الإسلام ليرفع شعار التقوى «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» فيقضى على اولئك الابطال الكاذبين ويستبدلها بالابطال من قبل أبي ذر وأمثاله. ومما يؤسف له أن هناك بعض الأعمال الخاطئة التي وقعت في عصر الخلافة الراشدة فادت إلى تغييب تلك القيم الإسلاميه المثلى لتعود النعرة الجاهليه من جديد فتصدر المجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدلاً من مالك الاشر وأبي ذر وعمار بن ياسر؛ الأمر الذي كان يدمى قلب الإمام عليه السلام، وأدنى ذلك ما أورده عليه السلام بقوله «يعد فيه المحسن، مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتواً» .

ومن هنا كان هدف الإمام عليه السلام في أغلب خطبه في نهج البلاغه يكمن في إحياء القيم والمثل التي كانت سائده في صدر الإسلام.

ج ج

ص: ١٧١

إشاره

«فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةٍ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةً نَفْسِهِ، وَكَالَالَهُ حَيْدِهِ، وَنَضَّ يَضُّ وَفَرِهِ. وَمِنْهُمْ الْمُضَيَّبَةُ لِسَيْفِهِ، وَالْمُعَلَّنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجَلَّبُ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحَطَامِ يَنْتَهَزُهُ، أَوْ مِقْنَبِ يَقُودُهُ، أَوْ مِئْبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلِبَسِ الْمَتَجَرِّ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عَوْضًا!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنِ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤْلُهُ نَفْسِهِ، وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ فَقَصَصَ رِثَتَهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقِنَاعَةِ، وَتَرَيَنَّ بِلِبَاسِ أَهْلِ الرَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَعْدَى» .

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام - في هذا القسم من الخطبه - بالتحليل لطلاب الدنيا الذين يصنفهم في أربعة أصناف وبالطبع فإن هذه الأصناف لا تختص بمجتمع دون آخر ولا زمان دون آخر بل هي عامه شامله فقال عليه السلام:

«فالناس على أربعة أصناف، منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانته نفسه،

وكلاله (١) حده ونضيض (٢) وفره» .

فالمشكلة فى عدم وجود الماء والا فهم سباحون ماهرون، فباطنهم مفعم بالشر والفساد الا أنهم يفتقرون للاله التى يمارسون بها الظلم والفساد، ومن الطبيعى أن مثل هولاء الأفراد إنما يترصبون بظواهرهم الوديع الذى لا يشوبه أذى.

كما يتوجب على قادة المجتمع إذا ما تعرفوا على هولاء الأفراد الحذار من تزويدهم بالا مكانات فيعيشوا فى الأرض فسادا، وقد أشار القرآن إلى ذلك «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلْمُدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» . (٣)

ثم تطرق عليه السلام إلى الصنف الثانى «و منهم المصلت (٤) لسيفه والمعلن بشره والمجلب بخيله ورجله» فقد أعد هذا الصنف من الناس باطنه للظلم والفساد ومحق دينه «قد أشرط (٥) نفسه وأوبق (٦) دينه» .

ولكن ما هدف هولاء؟ لا شك أن هدفهم ما أشار إليه الإمام عليه السلام وليس ذاك سوى الحصول على شى من متاع الدنيا أو الأمره على بعض الأفراد او إرتقاء المنبر ليظهر نفسه للناس بمظهر الخطيب الواعظ «لحطام (٧) ينتهزه (٨)، أو مقتب (٩) يقوده، أو منبر يفرعه (١٠)» .

ص: ١٧٤

١-١) «كلاله» على وزن ضلاله بمعنى ضعف السلاح عن القطع فيقال كل السيف إذا لم يقطع.

٢-٢) «نضيض» بمعنى قليل، والنضيض وفره، بمعنى القليل ماله.

٣-٣) سورة البقره ٢٠٤-٢٠٥. [١]

٤-٤) «مصلت» من ماده «صلت» بمعنى الاظهار و السيف الصلت بمعنى السيف المشهور المصقول، ويقال المصلت لمن شهر سيفه.

٥-٥) أشرط من ماده شرط بمعنى العلامه، و معنى عباره أنه أعد نفسه للفساد و الاهلاك، و كانه ميز نفسه بهذا الامر.

٦-٦) «اوبق» من ماده «وبق» بمعنى الهلاك، أى اهلكك نفسه.

٧-٧) «الحطام» على وزن الغلام بمعنى المتكسر الذى لا قيمه له، و من هنا يطلق على المال حطام الدنيا لزهاده قيمته.

٨-٨) «ينتتهزه» من ماده «نهز» بمعنى الحرکه من أجل القيام بعمل، كما وردت بمعنى الحرکه من أجل نيل غنيمه، و عليه ينتتهز بمعنى يغتمه.

٩-٩) «مقتب» على وزن محور تعنى طائفه من الخيل، وقد وردت فى عباره بمعنى طائفه من الناس، ولعل عباره أشاره لجهلهم وعدم علمهم.

١٠-١٠) «يفرع» من ماده «فرع» أعلى الشئ وقد وردت هنا بمعنى علا المنبر وارتقاءه.

فالعبارة رغم قصرها فقد أشارت إلى أعمالهم الظاهرية إلى جانب فسادهم الباطني واهدافهم الرخيصة، فهؤلاء الأفراد يستفرون ما في وسعهم ليصبحوا على غرار فرعون أو قارون أو السامري. وما أولئك الذين أججوا نيران الجمل وصفين إلامصاديق بارزه لذلك الصنف من الأفراد، فالبفض اندفع من أجل المال وآخر من أجل المقام والمنصب والآخر من أجل الخلافه. ثم تطرق عليه السلام إلى نتيجة أعمال هؤلاء فقال «و لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، وممالك عند الله عوضا»، ومن الطبيعي أن هذا الصنف من الناس الفاسد والشرير - الذي يخطط خبطا عشواء من أجل الظفر بالمال والمقام - لا يقيم لأحكام الله وزنا ولا يصغى لصوت الضمير والوجدان ولا ينقاد لدليل العقل، فقد باع هذا الخزين الثمين بذلك الثمن البخس، باع الدين بالدنيا «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (١).

بينما تضافرت الروايات التي تؤكد على قيمة الإنسان وأنه لا ينبغي له بيع نفسه إلابثمنها وثمرتها الجنّه. كما صرحت الآيه القرآنيه بأن بيع النفس بغير الجنّه ورضى الله لا يستبطن سوى الخسران المبين «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاهِ اللَّهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ» (٢).

فالآيه تفيد أن بعض الناس (كعلى عليه السلام الذي نام على فراش رسول الله صلى الله عليه و آله ليله الهجره) يبيعون أنفسهم من أجل رضى الله سبحانه. وقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «إنه ليس لأنفسكم ثمن إلابالجنّه فلا تبيعوها إلابها» (٣).

ثم تعرض عليه السلام للصنف الثالث الذى يتصف بالتزوير - وأوضح صفاته «و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخره، ولا يطلب الآخره بعمل الدنيا» .

فهدف هذا الصنف هو ذات الهدف الذى ينشده الصنف الثانى المذكور مع فارق بسيط هو أن أولئك يجنون حطام الدنيا من خلال المنطق الغاشم والظالم والجور، بينما يعتمد هؤلاء على التزوير والخداع والغرور.

ص: ١٧٥

١-١) سورة البقره / ١٦. [١]

٢-٢) سورة البقره / ٢٠٧. [٢]

٣-٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار ٤٥٦.

فالصنفان وإن كانا ضالين ظالمين وخاطئين، إلّا أنّ حال هذا الصنف أسوأ من الصنف الذى سبقه؛ وذلك لأنه جعل دين الله جسراً لدنياه، وعليه فقد أهلكوا دنيا الآخرين إلى جانب إهلاك دينهم.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام فى صفات هذا الصنف «قد طامن (١) من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر (٢) من ثوبه، وزخرف من نفسه للامانه، واتخذ ستر الله ذريعه إلى المعصيه.»

فالعباره تشير إلى ظاهر متواضع وسكين ووقار وعدم إلتفات إلى الدنيا وحطامها والتزين بشعار الصالحين واستغلال ستر الله سبحانه للعيوب فى حين هنالك حركه نحو الذنب والمعصيه.

وقد يؤمن هذا الصنف بالله واليوم الآخر على مستوى الظاهر، إلّا أنّ هذا الإيمان يقتصر على الظاهر ولم يخترق قلوبهم أبداً، وإلّا فكيف إرتضوا لأنفسهم هذه المعامله المجحفه بحيث باعوا آخرتهم بدنياهم ومن هنا وردت الروايات التى تصرح بأنّ هؤلاء الخاسرين يوم القيامه - حين تطرح الحجب وتوضح حقيقه كل فرد كما هى - ينادون يا كافر!

يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! وينادون «حبط عملك وبطل أجرك فلا خلاص لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له» (٣).

ومما لاشك فيه أن هذا الصنف - كسائر الأصناف الأربعة - لا يقتصر فى وجوده على عصر الإمام عليه السلام، بل هو موجود فى كل عصر و مصر وأنه لأعظم خطراً من سائر الأصناف على دين المجتمع ودنياه.

وعليه فلا بدّ لاتباع الحق من مراقبه هؤلاء والحذار من الوقوع فى فخهم ولحسن الحظ فإنّ أغلب هؤلاء الأفراد يفتضحون عملياً فاذا بلغوا مفترق طرق بين الدين والدنيا ولوا ظهورهم للدين وتهافتوا على الدنيا وآثروا سخط الله على رضى خلقه طمعاً فى الدنيا

ص: ١٧٦

١ - ١) «طامن» و «اطمينان» من ماده واحده بمعنى السكينه والهدوء، وهى تشير فى العباره إلى الوقار والتواضع الصورى والظاهرى.

٢ - ٢) «شمر» من ماده «شمر» بمعنى الترتيب والاعداد.

٣ - ٣) وسائل الشيعه ١ / ٥١. [١]

وحطامها، فأفكارهم منحطه وهمتهم وضيعه وروحهم ملوثه وباطنهم قبيح والازدواج هو الغالب على شخصيتهم.

وأخيرا يتعرض الإمام عليه السلام للصنف الرابع - أهل التقى الكاذب والزهد الفارغ - فيقول «ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤوله (١) نفسه، وإنقطاع سببه فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعه، وتزين بلباس أهل الزهاده وليس من ذلك فى مراح (٢) ولا مغدى». (٣)

فهم أفراد ضعفاء عجزه لا- كفاءه لهم يحاولون التستر بالزهد للتغطية على عجزهم وانعدام جدارتهم والتظاهر بالقوه لاخفاء ضعفهم، والحال ليس لديهم شمه من الزهد والقناعه باطنهم وهم على قسمين: فمنهم من يتستر لخداع النفس ومنهم يخدع نفسه محاولاً إقناع نفسه بأنه من أهل الزهد والتقوى لا الضعف والعجز يدفعه للتظاهر بذلك. أمّا المراح والمغدى فقد ذهب أغلب أرباب اللغه وشراح نهج البلاغه إلى أنها اسم مكان لاستقرار الماشيه فى الصباح والمساء بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها اسم زمان بمعنى الذهاب والاياب ليل نهار.

كيفما كان فان المفردتين تعبران عن حماقه هؤلاء الأفراد وبلاهم التي تجعلهم بهيئه الزهد والقناعه. هناك كلام كثير بين المفسرين بشأن فارق الصنف الرابع والأول من جهه والصنف الرابع والثالث من جهه أخرى.

ويبدو أنّ الصنف الأول الذى ينشد الدنيا قد قبع فى زاويه إثر ضعفه وعجزه ولم ينطلق نحو المال والحياه والمقام، وهو لا يصر على ابراز ضعفه وعجزه على أنه قوه وإقتدار، فى حين يحاول الصنف الرابع أستغلال ضعفه وعجزه بغيه الظفر بمكائنه فى المجتمع على أنّ ذلك الضعف زهد وقناعه. أمّا فارق الصنف الرابع مع الصنف الثالث هو أنّ الصنف الثالث يعتمد النفاق والتزوير لتحقيق أطماعه ومآربه، بعبارة أخرى ما يجنيه الظلمه من حطام الدنيا بواسطه الظلم والجور يحصل عليه هؤلاء من خلال الرياء وخداع الناس.

ص: ١٧٧

١-١) «ضؤوله» بمعنى الضعف والعجز.

٢-٢) «مراح» من ماده «روح» مصدر ميمى من راح إذا ذهب فى العشى

٣-٣) «مغدى» من ماده «غدو» مصدر ميمى من غدا إذا ذهب فى الصباح، وقيل مكان الحيوانات فى النهار فى مقابل المراح فى الليل.

فهم يبيعون دينهم بدنياهم ويحصلون على الدنيا ومتاعها من خلال الدين، أمّا الصنف الرابع فهو لا يحصل على جاه ومقام، ويكتفى بأن المجتمع ينظر إليه كزاهد قانع.

وأخيراً يشترك الصنف الأول والرابع فى أنه ليس أقل تكالبا من الصنفين الآخرين إذا ما توفرت الأرضيه الخصبه أمامهما للظلم والفساد.

الأصناف الأربعة فى كل مجتمع.

لقد أماط اللثام عن حقيقه هذه الأصناف الأربعة ولقت إنتباه المجتمع إلى الأخطار التى تفرزها حركتها فى المجتمع بفعل فسادها وظلمها وريائها وزهداها الكاذب، ثم خاض عليه السلام فى صفات كل صنف ليتعرف عليه أفراد المجتمع فلا يقعوا فى شباكههم.

وتشترك هذه الأصناف جميعاً فى الفساد العقائدى والتعلق بالدنيا والجاه والمقام، إلّا أنّها تختلف فى إعداد الأسباب والمقدمات التى تمكنها من الوصول إلى أهدافها، وبعبارة أخرى فإنّ الأصناف الأربعة يمكن تقسيمها إلى طائقتين:

طائفه تحقق أهدافها الرخيصه عن طريق الرياء والتزوير: وطائفه لا تحقق أهدافها إلّا أنّها تخفى هذا الفشل فى الزهد والقناعه، ولو تأملنا التاريخ لرأينا هذه الأصناف فى كل عصر ومصر.

ومما يؤسف له اليوم أنّ المجتمعات الإسلاميه هى الأخرى تشهد تغلغل هذه الأصناف؛ الأمر الذى جر عليها الويلات والمصائب. والحق ليس هنالك من وسيله للحد من أخطار هذه النماذج سوى فى اتباع كلام الإمام عليه السلام وتشخيص هؤلاء الأفراد وفضح مخططاتهم وموامرتهم وتحذير الأمه من الوقوع فى شباكههم أو الاغترار بزهدهم الكاذب.

«وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرَ الْمَرْجِعِ وَأَرَاقَ دُمُوعِهِمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ وَسَاكِتٍ مَكْنُومٍ وَدَاعٍ مُخْلِصٍ وَتَكْلَانٍ مُوجِعٍ قَدْ أَحْمَلَتْهُمْ التَّقِيَّةُ وَشَمِلَتْهُمْ الدَّلَّةُ فَهُمْ فِي بَحْرِ أُجَاجٍ أَفْوَاهُهُمْ ضَامِرَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِيحَةٌ، قَدْ وَعْظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقَهَرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقَتَلُوا حَتَّى قَلُّوا» .

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من ذكر الأصناف الأربعة، تطرق إلى الصنف الخامس، وهم أولياء الله وجنود الحق وأخيار الأمة الذين اقتصوا عن المجتمع وعادوا غرباء فيه بفعل تسلّم زمام الأمور من قبل الأصناف الأربعة المذكورة.

وقد لفت الانتباه إلى عظمتهم بالتعبير عنهم بالرجال، بينما عبر عن الأصناف الأربعة بالناس.

والحق أنّ الإمام عليه السلام يرى الصنف الخامس هو محور المجتمع ويحث أتباعه لأن يكونوا ضمن هذا الصنف. فقد قال عليه السلام: «وبقى رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر» .

وقوله: «غضّ أبصارهم» لا يراد به إغماض العين، بل النظره الشمولية والشعور بمسؤوليتهم تجاه الله سبحانه ويوم القيامة، الشعور الذي إرعش قلوبهم وأراق دموعهم.

فليس هنالك أكثر خشية من ذلك اليوم لمن آمن بالله واليوم الآخر ومحكمه العدل الإلهي،

كيف لا وهو اليوم الذى تطرح فيه الحجب وتبلى فيه السرائر وتتمثل الأعمال التى صدرت من الإنسان طيله عمره فتنظر الحساب والجزاء.

ويرى بعض شراح نهج البلاغه (١) أن المرجع فى العبارة المذكوره بمعنى القبر والمحشر القيامة، ولكن بالاستناد إلى التعبيرات القرآنيه فان المفردتين وردتا بمعنى واحد، وعليه فيبدو الفارق فى عدم تكرار اللفظ لا المعنى.

والواقع أن هذه التعبيرات قد اقتبست من الآيه القرآنيه الشريفه «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ». (٢)

ثم تطرق عليه السلام إلى مصير هذا الصنف فى المجتمعات التى تسودها الأصناف الأربعة، بحيث لا ينجو كل فرد فيه من خمس: النزوح من البلد والتشريد والتغريب، الخوف واللواذ فى زاويه، السكوت والصمت، الاشتباك بفعل عدم إعارتهم الاذان الصاغيه وسماع كلماتهم الحق أو الدعوه إلى الله باخلاص بعيون باكيه وقلوب حرى أملا- فى التأثير «فهم بين شريد (٣) ناد (٤) وخائف مقموع (٥) وساكت مكعوم (٦) وداع مخلص وثكلان (٧) مومج».

وبالالتفات إلى «شريد» وناد من ماده فد بمعنى المنفرد الهارب من الجماعه إلى الوحده (٨) فإن العبارات المذكوره إشاره إلى أن هؤلاء الأفراد ليسوا مع بعضهم حتى فى المنفى، وكل واحد منهم قد قذف فى بقعه؛ فالطغاه يخشون حتى اجتماعهم فى المهجر والعبارة «خائف مقموع» إشاره إلى أن الطغاه لا يكتفون بتهديد هؤلاء الأفراد وإرعابهم، بل لا يتورعون عن التضيق

ص: ١٨٠

١- ١) فى ظلال نهج البلاغه، الخطبه المذكوره.

٢- ٢) سورة النور / ٣٧. [١]

٣- ٣) «شريد» من ماده «شرد» بمعنى هروب الناقه، ثم اطلقت على كل من يهرب من قومه.

٤- ٤) «ناد» من ماده «ند» بمعنى المنفرد الهارب من الجماعه إلى الوحده.

٥- ٥) «مقموع» من ماده «قمع» بمعنى المقهور والمغلوب، وتعنى الاقتلاع أيضاً.

٦- ٦) «مكعوم» من ماده «كعم» ، كعم البعير بمعنى شد فاه، ثم اتسعت لتطلق على كل فم يشد.

٧- ٧) «ثكلان» من ماده «ثكل» بمعنى فقد الاحبه، كما وردت بالنسبه للإنسان الذى يعيش العزاء بمعنى الشخص الباكي الحزين.

٨- ٨) شرح نهج البلاغه محمد عبده والعلامه الخوئى وابن أبى الحديد.

عليهم واستئصال شأفتهم واجتثاث جذورهم.

والعبارة «ساكت مكعوم» أنّ الظلمه لا-يقتنعون بصمت هؤلاء الأفراد وسكوتهم، بل يسعون دائماً لكم أفواههم دون أن ينسوا بنت شفاه.

والعبارة «داع مخلص» لا تفيد دعوه الناس من أجل نيل المقام والثروه أو ليست هي دعوه دنيويه، بل الدافع من هذه الدعوه هو رضى الله وقيل بل المراد بالعبارة والداعى المخلص من يدعو الناس إلى الله والارتقاء بالمجتمع.

وأخيراً تشير العبارة «ثكلان موجع» إلى أنّ الحزن والآسى، يخترق ظاهرهم ليعيشوه فى قلوبهم وأرواحهم. ثم عرض عليه السلام إلى سائر صفاتهم بعبارات قصيره بعيده المعانى يتخللها الآسى والأسف فقال عليه السلام: «قد أحملتهم (١) التقيه» .

فهؤلاء وإن كانوا مجاهدين أشداء، ولكن لما كان جهادهم لاينطوى سوى على أبادتهم فلم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى التقيه؛ التقيه التى تؤدى بهم فى خاتمه المطاف إلى العزله والانطواء ليراهم الأعداء على أنهم أفراد جنباء، كما يراهم الأصدقاء حاملين ليسوا بذات قيمه، والحال أنّ الظروف تجعل من تقيتهم جهاداً ونهوضاً بالوظيفه «وشملتهم الذله» هم أعزه عند الله وفى أنفسهم إلّا أنّ غياب القيم والمثل فى المجتمع جعله يراهم ضعفاء أذله «فهم فى بحر أجاج» . (٢)

كيف لايعومون فى بحر مالح لايسعهم شرب ماء والأّمه لم تقف إلى جانبهم وتدعم نهضتهم «أفواههم ضامزه (٣)، وقلوبهم قرحه» .

ليس هنالك من قلق لدى الأفراد الذين يعيشون اللأباليه فى مثل هذه المجتمعات، ولايقلقهم سوى منافعهم الشخصيه، أمّا المجاهدون الذين تكف أفواههم بالقوه، إنّما يتحرقون الماً وقلوبهم تشعر عمق الفاجعه ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه (٤) إلى أنّ المراد بقلوبهم قرحه أنّها تخاف الله، بينما تشير قرينه الكلام إلى أنّ قروح قلوبهم إنّما تعزى الى الفساد الذى

ص: ١٨١

١-١) «أخمل» من ماده «خمل» بمعنى أسقط ذكره حتى لم يعد له بين الناس نباهه.

٢-٢) «أجاج» من ماده «أجج» بمعنى الملوحة والمراره.

٣-٣) «ضامزه» من ماده «ضمز» بمعنى السكوت والتحفظ عن الكلام

٤-٤) شرح نهج البلاغه لابن ميثم، والعلّامه الخوئى وفى ظلال نهج البلاغه لمحمد عبده.

لا يستطيعون القضاء عليه ولعل هناك من ينسب هذه المفردات من قبيل الضعف والعجز والسكوت والتقية إليهم كنتيجة لأعمالهم وعدم قيامهم فى الوقت المطلوب، ومن هنا نبه الإمام عليه السلام إلى إزالة هذا الظن فقال عليه السلام: «قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قتلوا» .

فقد خاضوا الجهاد على كافة المستويات وبشتى الطرق والأساليب، من خلال الوعظ باللسان إلى جانب النهضة المسلحة وتقديم الضحايا حتى كثر القتل فى صفوفهم فقل عددهم، وذلك لأنه لم يكن لهم نصير و لم يكن هنالك من توازن فى القوى مع أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعدة. فقد قاتلوا على أمل تحقيق النصر وإجتثاث جذور الفساد ولم تبق منهم إلّا قلة لم يكن أمامها سوى التقية حفظا لنفسها ودينها.

والعبارة «قتلوا حتى قتلوا» لا- تعنى أنهم وتروا ولم يبق منهم إلّا القليل، بل تعنى أستشهد فريق منهم وبقى فريق آخر، والعبارة من قبيل إسناد أوصاف الجزء إلى الكل.

وهنا يطرح هذا السؤال: الاستضعاف المذكور يتعلق بأى زمان، والإمام عليه السلام كان هو الذى يحكم المجتمع؟ وتأمل تأريخ عصر الإمام عليه السلام يوضح الاجابه على هذا السؤال، كما ورد ذلك فى بعض كلماته من أنّ الفساد الاجتماعى كلمه فى عصره بلغ درجه بحيث خفت شعاع شمس حكومه الإمام عليه السلام فى الكوفه وأطرافها، وقد اجتمعت لكه سائر المناطق من قبيل الشام ومصر التى عاشت ذروه الشر والفساد والانحراف على إقصاء الصالحين عن مرح الأحداث.

«فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالِهِ الْقَرِظِ وَقُرَاضِهِ الْجَلْمِ وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْزُقُوهَا دَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ» .

الشرح والتفسير

يدعو الإمام عليه السلام الناس في ختام هذه الخطبة بعبارات مقتضبه بعيده المعاني إلى الزهد في الدنيا بصفته مفتاح سعادته الإنسان بعد أن ذكر صفات الأصناف الأربعة الأثيمة والصنف الخامس الذي يمثل الاتقياء من أولياء الله، مؤكدا على أن البؤس والشقاء الذي طال الأصناف الأربعة إنما يستند إلى حب الدنيا والتعلق بزخارفها.

فقال عليه السلام: «فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثاله (١) القرظ وقراضه (٢) الجلم (٣)» .

والتشبيهات رائعه غايه في الدقه، فالقرظ (على وزن مرض) بمعنى ورق الأشجار الذي يستفاد منه لدبج الجلود حتى يشدها ويجعلها أكثر فائده، وبالطبع فإن الحثاله التي تطرح بعد الاستفاده تكون قذره ومتعفنه ومدعاه للنفره، وكذلك حين تقص أصواف الحيوانات تطرح بعض القطعات الصغيره منه على الأرض دون أن يكون لها أدنى فائده. فالتشبيه الأول

ص: ١٨٣

١ - ١) «حثاله» بالضم: القشاوه وما لاخير فيه، وأصله ما يسقط من كل ذى قشر، ومن هنا تطلق الحثاله على حشاشه الدهن المتساقطه.

٢ - ٢) «قراضه» من ماده «قراض» بمعنى قطف الشى وتطلق على القطع الصغيره المتناثره من المقراض ومن هنا يطلق المقراض على المقص.

٣ - ٣) «جلم» على وزن قلم بمعنى المقراض.

استبطن النفره والثاني التفاهه وعدم القيمه والاعتبار، والإمام عليه السلام يوصى بأن تكون الدنيا أهون من هذا في الأعين، الدنيا التي أدى عشق أموالها إلى ظهور القوارين، وعشق مناصبها إلى ظهور الفراعنه والطواغيت الظلمه، وأن حبها رأس كل خطيئه.

من جانب آخر فقد أشار عليه السلام إلى قصر مده الدنيا وضروره الاتعاظ بها «واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم» .

لقد جمعوا لها وجهدوا من أجلها وانصرفوا، ولم تعد قصورهم الخاويه وتيجانهم الباليه وقدرتهم الجوفاء التي خلفوها هنا وهناك سوى عبره لمن اعتبر، فان اعتبر بها فهو المطلوب، وإلّا ستكونون أنتم عبره يعتبر بكم من يأتي بعدكم.

القرآن الكريم من جانبه لم ينفك عن دعوها للناس للاعتبار بالماضين، فقد أورد عبارات توقظ الضمير وتهز الاعماق بشأن الفراعنه وضروره الاتعاظ بهم «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» . (١)

غير أنه من المؤسف أن بنى إسرائيل لم يعتبروا بهذه الدروس حتى أصبح مصيرهم عبره لغيرهم.

ثم قال عليه السلام: وارضوها ذميمه، فإنها قد رفضت من كان أشغف (٢) بها منكم» .

ومن الطبيعي أن يكون مراد الإمام عليه السلام بهذه الدنيا المذمومه هي الدنيا التي تقود صاحبها إلى الظلم والطغيان والهوى والفساد لا الدنيا التي تشكل الجسر لعبور أولياء الله إلى الآخرة.

كلام السيد الرضى

قال الشريف الرضى: وهذه الخطبه ربما نسبها من لاعلم له إلى معاويه، وهى كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذى لا يشك فيه، وأين الذهب من الرغام، وأين العذب من الاجاج! وقد دل على ذلك الدليل الخريت ونقده الناقد الباصر عمرو بن بحر الجاحظ، فإنه ذكر هذه الخطبه

ص: ١٨٤

١-١) سورة الدخان / ٢٥ - ٢٩. [١]

٢-٢) «أشغف» من ماده «شغف» بمعنى أكثر تعلق بالدنيا وحبها. وقد أخذت فى الأصل من شغاف وهو الغلاف الذى يضم القلب، كما تستعمل فى العشق الشديد الذى يجتاح القلب وينفذ إلى أعماقه.

فى كتاب البيان والتبيين وذكر من نسبها إلى معاويه، ثم تكلم من بعدها بكلام فى معناها، جملة أنه قال: وهذا الكلام بكلام على عليه السلام أشيه، ويمذهبه فى تصنيف الناس، وفى الأخبار عما هم عليه من القهر والاذلال، ومن التقية والخوف، أليق. قال: ومتى وجدنا معاويه فى حال من الأحوال يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ومذهب العباد.

الدنيا فى عين أولياء الله.

ماورد فى الخطبه بشأن الأصناف الخمسه فى عصر الإمام عليه السلام (من يقعد به عن طلب الإمرة قلّه ماله، ومن يطلب الاماره ويفسد فى الأرض، ومن يظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا، ومن لامال له أصلاً ويطلب الملك ولايطلب الدنيا، وأولياء الله الاتقياء الأبرار) لا يقتصر على عصر الإمام عليه السلام وزمانه، وهم متواجدون فى كافه المجتمعات الماضيه والمعاصره والآتيه، وإن كافه المشاكل التى تعانى منها المجتمعات إنّما تنشأ من الأصناف الأربعة المذكوره، التى سفكت الدماء وأحرقت الاخضر واليابس وجرعت اتباع الحق صنفوف الأذى والعذاب.

مع ذلك فان الدنيا لم تف لهم وقد أتت عليهم حتى آخرهم ليكونوا عبره لمن بعدهم.

أما العبارات التى أوردتها الإمام عليه السلام بشأن كل صنف وعلاماته وصفاته جعلت من اليسير التعرف عليهم.

ولما كان حبّ الدنيا والتعلق بحطامها هو مصدر الشر والفساد الذى سلكته هذه الأصناف، فإنّ الإمام عليه السلام إختتم خطبته بتصوير حقيقته الدنيا بما يجعل العاقل لا يعيرها أدنى أهميه، فقد وصفها بادی ذى بدء بانها اتفه من حثاله القرظ (و هو ما يسقط من ورق السلم أو ثمر السط يدبغ به ممّا لاخير فيه ولا قيمته له)، ثم أشار إلى تقلب حال الدنيا وعدم دوامها وكيف قضت على الماضين وجعلتهم عبره للآخرين.

فقد ورد فى حديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله مر بجثه حيوان متعفن ملقاه على الطريق فأوماً إليها قائلاً: أترون هذه هنيه على أهلها؟ فو الله الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها» ثم واصل صلى الله عليه وآله حديثه عن الدنيا قائلاً: الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وشهواتها يطلب من لافهم له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له» (1).

ص: ١٨٥

وجاء فى حدِيث أن الدنيا مثلت للمسيح عليه السلام كعجوز شماء فسألها: كم تزوجت.

قالت: كثير. كلهم طلقتم. قالت: بل كلهم قتلتم. قال عليه السلام: يا ويح أزواجك الباقين، ألا يتعظون بأزواجك الماضين (١)». .

ص: ١٨٦

(١ - ١) منهاج البراعه ٤ / ٥٨؛ بحار الانوار ١٤ / ٣٢٨. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

عند خروجه لقتال أهل البصره، وفيها حكمه مبعث الرسل، ثم يذكر فضله ويذم الخارجين. قال عبد الله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف (٢) نعله فقال لي: «ما قيمه هذا النعل؟» .

فقلت: «لا- قيمه لها!» فقال عليه السلام: «و الله لهي أحب إلي من أمرتكم (٣) إلما أنت أقيم حقا أو أدفع باطلاً» . ثم خرج فخطب الناس.

نظرة إلى الخطبه.

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه في ظل ظروف دعا فيها أصحابه للتعبئه وإطفاء نار الفتنة التي

ص: ١٨٧

١- ١) روى السيد الرضى (ره) هذه الخطبه في موضعين من نهج البلاغه: [١] مره هنا و أخرى في الخطبه ١٠٤ حيث قال هناك: وقد مر جانب من هذه الخطبه (إشاره إلى هذه الخطبه ٣٣) وقد ذكرتها ثانيه بسبب إختلاف بعض العبارات. قال صاحب مصادر نهج البلاغه: [٢] ومن هنا يتضح مدى إحتياط السيد الرضى في نقل كلمات أمير المؤمنين عليه السلام. ثم قال: يفهم من روايه الشيخ المفيد في الإرشاد [٣] أن الإمام عليه السلام خطبها في الربذه حيث توقف هناك جمع من حجاج بيت الله وقد تجمعوا حين سمعوا بالإمام عليه السلام ليصغوا إلى كلامه ولم يكن الإمام عليه السلام قد خرج من خيمته. قال ابن عباس دخلت الخيمه فرأيت الإمام عليه السلام يخصف نعله. فقال: يابن عباس: ما قيمه هذا النعل؟ فقلت: لا قيمه لها. قال: قل. قلت: أقل من درهم. قال: والله، لهي أحب إلي من إمرتكم، إلا- أن أقيم حقا أو أدفع باطلا. فقلت: لقد إجتمع حجاج بيت الله ليسمعوا ما تقول. هلا أذنت لي أن أخطبهم؟ قال عليه السلام: لا أنا أحدّتهم. فخرج من الخيمه فخطب بهذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٢١ -

٤٢٢). [٤] قال صاحب المستدرک ومدارك نهج البلاغه رواها الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد، المستدرک، ص ٢٤٢. [٥]

٢- ٢) «يخصف» من ماده «خصف» بمعنى وصل الأشياء ورقعها.

٣- ٣) «إمره» على وزن فطره بمعنى الحكومه.

أشعلها طلحه والزبير في البصره.

وقد أطلق الإمام عليه السلام - قبل إيراد الخطبه - تلك العبارات التاريخيه الخالده لابن عباس؛ العبارات التي تتحدث عن سمو روح الإمام عليه السلام ومقامه الشامخ ومدى معرفته بالله سبحانه، فقد قال عليه السلام «والله لهي - النعل - أحب إلى من إمرتكم الا أن أقيم حقا أو أدفع باطلاً» .

هذه هي أهداف الإمام عليه السلام من الامر والخلافه. ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص العصر الجاهلي وانبثاق الدعوه الإسلاميه، في اشاره إلى بروز مبادئ العصر الجاهلي ثانيه وانه لابد أن يقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه وآله ويقتدى بهديه فيقبر الفتن ويبقر الباطل ليخرج منه الحق.

ثم إختتم عليه السلام الخطبه بدم طائفه من قريش ممن أشعلوا نار الجمل ولم تكن دوافعهم من تلك المعركه سوى الحسد والبغض وحب الدنيا.

ص: ١٨٨

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَوَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةَ فَسَاقِ النَّاسِ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنَاجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ وَأَطَمَ أَنْتَ صَيْفَاتُهُمْ - أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحِذَائِهَا مَا عَجَزْتُ وَلَا جَبُنْتُ وَإِنْ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا: فَلَا تُقْبَنَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - كما ذكرنا - إلى بعثه النبي الإكرم صلى الله عليه وآله وظهور الدعوه الإسلاميه فى الجزيره العربيه وكيف كانت حياه الناس فى العصر الجاهلى وكيف أصبحت إبان انطلاقه الدعوه، ومدى السعاده التى ظفروا بها، فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَوَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةَ» .

أثار بعض شراح نهج البلاغه هذا السؤال: كيف يقال لم يكن لاحد من العرب كتاباً سماوياً ولم يكونوا يتبعون نبياً من الأنبياء، والحال كانت طائفه من اليهود والنصارى تعيش هناك ولديها التوراه والانجيل؟ ثم أجابوا على السؤال من خلال الاشاره إلى تحريف التوراه والانجيل، وعليه فلم يكن لديهم كتاباً بالحق، كما أن اليهود والنصارى كانوا أتباعاً كاذبين، ثم إستدلوا على ذلك بالايه الكريمه «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا» . (١)

ص: ١٨٩

كما إحتمل البعض أن يكون المراد بذلك العرب الذين كانوا يشكلون الأكتريه وكانوا على الشرك والوثنيه.

الإجاباه الأخرى التى يمكن الرد بها على ذلك السؤال أنّ اليهود لم يكونوا من سكنه الجزيره العربيه بمعنى المواطنه، بل تفيد السير التاريخيه أنّهم حين قرأوا فى كتابهم البشاره بظهور نبي الإسلام وأنّ ظهوره بات وشيكا قدموا هناك لدركه، وإن شعروا فى ما بعد بالخطر على مصالحهم فسلكوا سبيل النفاق وعادوا النبي صلى الله عليه و آله، النصارى أيضاً كانوا من المهاجرين ويشكلون الاقليه هناك.

على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام أشار إلى إبتعاد الأقوام الجاهليه عن أجواء الوحي والنبوه، الأمر الذى يصور مدى غرقهم فى وحل الشرك والفساد.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأوضاع التى بلغوها فى ظل إنبثاق الدعوه والاستضاءه بنور الوحي وبزوغ شمس الإسلام «فساق الناس حتى بوأهم محلثهم وبلغهم منجاتهم» (١) فهو لم يخلصهم من الشرك والكفر والانحراف العقائدى وينقذهم من الفساد الأخلاقى والظلم والجور وسوء العدل فحسب، بل أخذ بيدهم إلى حيث القوه والعزه والحكومه والحضاره والمدنيه، ومن هنا قال عليه السلام «استقامت قناتهم (٢) واطمأنت صفاتهم (٣)» .

وعليه فقد ظفروا بالنصر المعنوى إلى جانب شمولهم بالنعم الماديه و ما ذلك إلأببركه النبي صلى الله عليه و آله ونزول القرآن الكريم والتعبير بمحلثهم إشاره إلى المنزل الراقيه التى ينبغى أن يبلغها الإنسان الفاضل، ومنجاتهم إشاره إلى نقطه النجاه التى ليس معها خوف وخشيه ولا قستبطن سوى الفلاح والصلاح.

والعباره «إستقامت قناتهم» وعلى اضواء الاستقامه التى تعنى الاستواء والثبات والقناه بمعنى الرمح تعنى القوه والقدرة والانتصار على العدو.

ص: ١٩٠

١- ١) «بوأ» من ماده «بوء» بمعنى تعبيد المكان ضد النبوه بمعنى المرتفع وغير المعبد، وقد وردت هنا بمعنى تنظيم وترتيب موقع الاستقرار.

٢- ٢) «قنات» من ماده «قنو» بمعنى جذع الشجره، كما تغنى العود والرمح، والمراد بها هنا القوه والغلبه والدوله، وقوله إستقامت قناتهم تمثيل لاستقامه أحوالهم.

٣- ٣) «صفات» ، حجر مستوى وكبير ومحكم وواسع.

أمّا بعض شراح نهج البلاغه فقد ذهب إلى أنّ الاستقامه هنا تشير إلى الرمح كناية عن أنتظام الأمور ونظم الحكومه والدوله والمجتمع والقوه والمنعه، ولكن لما كان الرمح عاده مستقيم وإذا أعوج كسر ولا يمكن تسويته (لأنّه يصنع عاده من الخشب لا الفزات)، فإنّ العبارة يمكن أن تكون إشاره إلى اطمينان البال واستقرار الذهن؛ لأنّ الجنود يغرسون حراهم في الأرض وتبقى مستويه مستقيمه حين الهدوء والاستقرار؛ الأمر الذي يفيد أنّهم كانوا آمنين من حملات العدو.

أمّا العبارة «إطمأنت صفاتهم» فهي تشير إلى إستحكام منزلتهم في ظل ظهور الإسلام ونهضة رسول الله صلى الله عليه وآله بحيث إستقرت حياتهم الفرديه والاجتماعيه.

فالصحارى التي كانت تردد عليها العرب، كانت مليئه بالرمال والحصى المتحرکه بحيث يصعب اجتيازها، بينما تسهل حرکته وذهابه وإيابه وجلوسه إذا إستقر على حجر كبير واسع ومحکم ومستقيم.

ثم قال عليه السلام: «أما والله إن كنت لفي ساققتها (١) حتى تولت بحذا فيرها (٢)» .

ففي الاوضاع التي يكون فيها الجيش مستجد أو العدو قوى بحيث يحتمل التقهقر والانسحاب، فان أمر الجيش يجعل بعض مساعديه الشجعان في المؤخره ليسوقوا الجيش إلى الإمام ويحثونهم على التقدم كما يحولوا دون تراجعهم.

وكانّ الإمام عليه السلام أشار إلى هذه المسأله في أن النبي صلى الله عليه وآله قلدني مسؤوليه في سوق الجيش إلى الإمام وتجاوز المخاطر والمشاكل التي تواجهه، أو المراد أنّي والنبي صلى الله عليه وآله في مؤخره هذا الجيش ونسوقه إلى الإمام وقرينه ذلك قوله فساق الناس» على كل حال فإنّ كل هذه إشارات إلى عصر نهضة النبي الإكرم صلى الله عليه وآله والدور الهام الذي لعبه الإمام على عليه السلام في إنتصار الجيش الإسلامى على معسكر الكفر والشرك.

ص: ١٩١

١- ١) «ساقه» من ماده «سوق» جمع سائق، واصلها سوقه واصحب ساق بيت الاعلال.

٢- ٢) «حذا فير» جمع حذ فور بمعنى الشريف والجمع الكثير، وقد جاءت هنا بمعنى جميع جوانب الموضوع. وهنا ينبغي الالتفات إلى أن ضمير الهاء في ساققتها يعود إلى الناس في عصر الجاهليه الذين إعتنقوا الإسلام، ويمكن أن يكون الضمير في تولت وحذا فيرها عائدا إلى أعداء الإسلام الذين تقهقروا ابان نصر الإسلام، كما يمكن أن يعود إلى أهل الجاهليه الذين أقبلوا على الإسلام.

وفى إشاره إلى قيامه بوظيفته على أحسن وجه وبلائه الحسن قال «ما عجزت ولا جبت» فمن البديهي أن الانسحاب إنما يستند إلى الضعف والعجز أو الخوف والرعب، فقله عليه السلام «ما عجزت ولا جبت» يتضمن نفيه لعوامل الضعف والتقهقر.

ثم يربط عليه السلام هذه المقدمه بذي المقدمه فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطه مهمه وهى أنّ الأمه الإسلاميه آنذاك بدأت تعود إلى الافكار والسنن الجاهليه وهى تبتعد كل يوم أكثر من ذى قبل عن مسيره النبي صلى الله عليه وآله والقرآن والإسلام، ونموذج ذلك الحركه الظالمه لمشعلى نار الجمل من أجل الحصول على المناصب من خلال نكث البيعه وسفك دماء المسلمين.

فقد أراد الإمام عليه السلام الوقوف بوجه هذه العوده إلى الجاهليه وتجديد رسالته ووظيفته التاريخيه فى الحفاظ على المسيره الإسلاميه.

ومن هنا قال «فلا نقب (١) الباطل حتى يخرج الحق من جنبه.» وبالالتفات إلى أن «أنقبن» من ماده «نقب» بمعنى ثقب الشئ وشقه، فإنّ العبارة تشير إلى حقيقه هى أنّ الحق لا يظهر ما لم تتبدد حجب الباطل، بعبارة أخرى فإنّ الباطل يسعى على الدوام ليغطى على الحق وبكتمه، فاذا شقت حجب الباطل، تنفس نور الحق واتضح عياناً للجميع. ويمكن أن تكون العبارة إشاره الى قيام أساس العالم على الحق، وإنّ الحق كامن فى باطن كل موجود، ولاسيما فى الفطره البشريه، بينما الباطل أمر عارض طارىء على الإنسان.

فاذا زال هذا العارض ظهر الحق من باطن الأشياء. وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبه ١٠٤ «وآيم الله لابقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته» .

تأملات

١ - من أخبار يوم ذى قار

كما ورد فى شرح الخطبه فان «ذى قار» موضع بين البصره والكوفه شهد معركة قبل

ص: ١٩٢

١-١) «أنقبن» من ماده «نقب» بمعنى الثقب والشق ويطلق النقب على الآبار تحت الأرض وذلك لأنها تنقب الأرض - ومنه البحث والتنقيب حين تأمل المطالب وإظهار الحقائق والتنقيب العالم بحال القوم.

الإسلام بين العرب والجيش الساساني الذي هزم في المعركة وانتصر فيها العرب. (١) وقيل في تسميته أنه كان فيها بئراً مأوّه أسود كالتقير.

عن ابن عباس، قال: لما نزلنا مع عليّ عليه السلام ذا قار، قلتُ: يا أمير المؤمنين، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ! فقال: والله ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائه وستون رجلاً؛ لا يزيدون ولا ينقصون.

قال ابن عباس: فدخلني والله من ذلك شكٌّ شديد في قوله، وقلت في نفسي: والله إن قدموا لأعدّتهم.

ثم نفر إلى عليّ عليه السلام إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبرّ ستة آلاف وخمسمائه وستون رجلاً. أقام عليّ بذي قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله. قال: فلما سار بهم منقله، قال ابنُ عباس: والله لأعدّتهم، فإن كانوا كما قال، وإلّا أتممتهم من غيرهم؛ فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلاً، ولا ينقصون رجلاً، فقلت: الله أكبر! صدق الله ورسوله! ثم سرنا.

لعل كلام ابن عباس إشاره إلى أن الإمام عليه السلام سمع هذه الأمور من رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أخبر بها.

قال ابن أبي الحديد بعد ذلك: فلما قدم أهل الكوفة على عليّ عليه السلام، سلّموا عليه، وقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين، الذي اختصنا بموازرتك، وأكرمنا بِنصرتك؛ قد أجبناك طائعين غير مكرهين، فمَرنا بأمرك.

قال: فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال:

مرحباً بأهل الكوفة، بيوتات العرب ووجوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشدّ العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه ولأهل بيته.

(٢)

٢- جاهليه العرب

مهما قيل ويقال بشأن عظمه الإسلام وانبثاقه وسط أمة متخلفه ومتعصبه فهو قليل. فقد

ص: ١٩٣

١- (١) الكامل لابن أثير ١/٤٨٢.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢/ ١٨٧ - ١٨٨ ([١] بتصرف).

إنطوت الأُمّة في العصر الجاهلي على سلسله من الانحرافات والصفات الرذيله، ونكتفى هنا بالاشاره فقط إلى التعصب الذى كان سائدا آنذاك والذى لم يكن يسمح لأفكار الآخرين باختراقه.

ويعتقد أحد المحققين المسيحيين بالارتباط الوثيق بين التعصب الجاهلي ومناخ الحجاز، فيقول: «تتصف تلك المنطقه بالجفاف، فكانت طبيعه الناس هي الاخرى الصلابه والشده، وكان من الاعجاز تسلل الأفكار الإسلاميه إليه» .

وإذا أضفنا إلى ذلك الجهل والابتعاد عن العلم وهبوط المستوى الفكرى والضحاله الثقافيه والتلوث بأنواع الخرافات التى تدعو إلى التعصب والعناد لأدركنا حجم الاعجاز فى هدايتهم وانتشالهم من تلك الدوامه.

وقد تعرض القرآن الكريم إلى جانب من تلك العصبيه، ومن ذلك قوله «سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ» (١) وقوله «وَ إِذِ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّا كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً . . .» (٢) .

وتشير أسباب نزول مثل هذه الآيات إلى عمق التعصب الذى كان يحكمهم بحيث كانوا مستعدين للتضحيه بانفسهم تعصبا حقا إن هدايه مثل هذه الاقوام تبدو من المعاجز الكبرى؛ الأمر الذى أشيرله فى الخطبه المذكوره، وإن عادت تلك الأُمّة للأسف بعد رحيل النبى الإ-كرم صلى الله عليه و آله بمدّه قصيره إلى جاهليتها الاولى وتسلمت بعض المناصب الحساسه فى الحكومه الإسلاميه لتذهب جهود النبى صلى الله عليه و آله أدارج الرياح، ومن هنا فقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لاعاده الأُمّة إلى عصر الرساله.

٣- حديث خاصف النعل

لقد ورد فى بدايه الخطبه عبارته «يخصف نعله» التى تذكرنا بحديث النبى صلى الله عليه و آله بشأن فضائل على عليه السلام خاصف النعل. حيث جاء فى سنن الترمذى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله كان يكلم

ص: ١٩٤

[١-١] سورة المعارج / ١. [١]

[٢-٢] سورة الانفال / ٣. [٢]

مشركى قريش فخطبهم قائلاً: «لتنتهن أو ليعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد إمتحن الله قلبه للايمان» فسأله من حضر: ومن ذاك؟ وسأله أبوبكر: من هو؟ وسأله عمر: ومن هو؟ فقال صلى الله عليه و آله: هو خاصف النعل: حيث كان على عليه السلام يخصف نعلى رسول الله صلى الله عليه و آله. . . ثم نقل الترمذى عن أبى عيسى أنه حديث صحيح. (١)

ومن الطبيعى أنّ ذلك العمل الذى صدر من الإمام عليه السلام على عهده وعهد النبى صلى الله عليه و آله إنّما يفيد تواضع الإمام عليه السلام للناس وانصرافه عن الدنيا.

ج ج

ص: ١٩٥

١-١) صحيح الترمذى ٥/٦٣٤ (طبعه دار إحياء التراث العربى) كما ورد هذا الحديث فى كتاب ينابيع الموده/٥٩. [١] وورد فى كتب أعلام الشيعة ومنها بحار الانوار، ٣٢/٣٠٠ [٢] وإحقاق الحق، ٦/٤٢٥. [٣]

«ما لى ولقریش؟ واللہ لقد قاتلتہم کافرین ولاقاتلنہم مفتونین وإنی لصاحبہم بالأمس كما أنا صاحبہم اليوم! واللہ ما تنقم منا قریش إلا أن اللہ اختارنا علیہم، فأدخلناہم فی حیرنا فکانوا كما قال الأول: أدمت لعمری شربک المخص صابحاً

الشرح والتفسیر

يشير الإمام عليه السلام هنا إلى طبيعه علاقته فى السابق والحاضر بقریش، لأنه أورد هذه الخطبه على هامش موقعه الجمل: حيث نعلم بأن مؤججى نار الجمل هم طلحه والزبير وسائر الأفراد من قریش الذين خططوا لهذه المعركه بدافع من أحقادهم تجاه الإمام عليه السلام. فقد كانوا يديرون هذه المعركه علانيه أو خفيه ومن هنا فإن كلمات الإمام عليه السلام تضمنت تحذير الأئمه من عدم الوقوع فى شباكهم إلى جانب تنبيهها إلى الدوافع الأصلية لهذه المعركه، فاستهل عليه السلام كلامه قائلاً: «مالى ولقریش؟ واللہ لقد قاتلتهم کافرین ولا قاتلتهم مفتونین (١)» نعم فهؤلاء كانوا على الشرك، وقد التحقوا بالمسلمين بسيف على عليه السلام ودعوه النبی صلی الله عليه و آله، إلا أنهم وبعد وفاه النبی صلی الله عليه و آله وبدافع من حب الجاه قد إبتعدوا عن الحق حتى هبوا لقتال وصی رسول الله صلی الله عليه و آله بعد أن بايعوه طواعيه.

ص: ١٩٧

١ - ١) «مفتونين» من ماده «فتنه» بمعنى الامتحان والابتلاء كما جاءت بمعنى العذاب والخداع والضلال، وقد وردت هنا بمعنى الضلال.

مفتون من ماده فتن بمعنى الانحراف كما تأتي بمعنى الشرك والكفر، ولعلها تشير فى العبارة إلى انحرافهم عن الإسلام نحو الكفر وقد ورد فى الروايه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلى عليه السلام: «يا على حربك حربى وسلمك سلمى» (١). وعلى ضوء هذا الحديث فقد خرج من ربه الإسلام من قاتل علياً عليه السلام فى الجمل وصفين ونهروان؛ لأن مما لاشك فيه هو كفر من قاتل النبي صلى الله عليه وآله. وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: لو كان الأمر كذلك لوجب على جيش على عليه السلام فى الجمل أن يأسر من هب لقتاله ويستولى على أموالهم كغنائم، بينما لم يعاملهم الإمام عليه السلام كذلك؟ قيل فى الجواب لقد كان للإماماً عليه السلام الحق فى أن يفعل هكذا، إلماً أن بعض الأمور من قبيل شرائط الزمان والمكان جعلته ينصرف عن هذا الأمر. أضف إلى ذلك فإنه ليس هنالك من ضروره فى تكافى أحكام جميع الكفار، فممكن أن يستثنى من حكم الأسر ومصادره الأموال كغنائم حريه هذه الطائفه من المسلمين التى خرجت على إمام زمانها ودخلت الكفر. فقد جاء فى بعض الروايات أن مروان بن الحكم.

قال: إنَّ علياً عليه السلام أعاد الأموال إلى أهلها لما غلبنا فى البصره، فكان يعيد أموال كل من أقام البينه أو يأتى بالشهود، ويحلف من ليس له بينه. ولما سئل عن توزيع الغنائم سكت ثم قال: أيكم يأخذ أمه فى سهمه (٢).

وتفيد بعض الروايات أنه عفى عن أهل البصره كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله حين فتح مكه. كما يستفاد أنه لم يرد أن تكون هذه المسئله سنه، لأنه كان يعلم بان شيعته ستخضع لضغوط الظلمه ولعلها تعاملهم بهذه المعامله (٣).

ص: ١٩٨

١- ١) رواها ابن المغازلى الشافعى فى كتاب مناقب أمير المؤمنين وابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه والمحقق الكركى فى نفحات اللاهوت لاحقاق الحق (٦ / ٤٤٠). وقد قال ابن أبى الحديد فى شرحه للرساله ٦٥ من نهج البلاغه [١] لو فرضنا أن النبي صلى الله عليه وآله لم يوص بعلى عليه السلام - كما تقول الإماميه - ولكن ألا- يعلم معاويه وغيره من الصحابه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ألف مره فى على عليه السلام: «أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت» وقال «اللهم عاد من عاداه ووال من والاه» وقال «أنت مع الحق والحق معك» (شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١٨ / ٢٤). [٢]

٢- ٢) وسائل الشيعه ١١ / الباب ٢٥ من أبواب جهاد العدو، ح ٧، [٣] وللوقوف بصوره أعمق راجع كتاب أنوار الفقاهه، كتاب الخمس والانفال / ٧٠. [٤]

٣- ٣) وللوقوف أكثر على هذه الروايات راجع أنوار الفقاهه (كتاب الخمس والانفال) / ٧٥.

على كل حال فان مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنه لا يكن أى بغض أو عداة لقريش، أما بذور حسدهم للإمام عليه السلام فسببها وقوف الإمام عليه السلام بوجههم فى ميادين صراع الحق ضد الباطل إبان إنبثاق الدعوة الإسلاميه، ولم يكن ذلك سوى إمتثالاً لأوامر الله. ثم قال عليه السلام:

«وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم» فما زال السيف الذى جندلت به الابطال فى بدر وأحد والاحزاب بيدي، فالواقع هذا تهديد صريح لمؤججى نار الجمل. وتساءل البعض أن مثل هذا الكلام يصدق على معاويه و عمرو بن العاص و مروان وأمثالهم الذين هبوا لقتال رسول الله صلى الله عليه و آله، إلّا أنه لا يصدق على طلحه والزبير، فقد وقفا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه و آله فى معاركه. وقد أجيب على هذا السؤال بأن الإمام عليه السلام لم يرد شخصاً معيناً، إلّا أنّ الهدف بيان حقيقه أنه كان يقاتل فى سبيل الحق ضد الباطل على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله ومازال بعد النبى صلى الله عليه و آله يقاتل فى هذا السبيل (ونعلم أن قريشاً كانت تقاتل آنذاك ضد المسلمين). أضف إلى ذلك صحيح أنّ طلحه والزبير كانا مع رسول الله صلى الله عليه و آله، إلّا أنّ أغلب أصحابه الجمل ومنهم مروان كانوا من قريش. ثم أشار عليه السلام إلى أحد دوافع أصحاب الجمل فقال «والله ما تنقم منا قريش إلّا أنّ الله إختارنا عليهم، فأدخلناهم فى حيزنا» ثم وصفهم بأنهم أصبحوا كما قال الشاعر (١). أدمت لعمري شربك المحض (٢) صابحا وأكلك بالزبد (٣) المقشره (٤) البجرا (٥) ونحن وهبناك العلاء ولم تكن عليا وحننا حولك الجرد (٦) والسمرا (٧)

نعم فهؤلاء يحسدوننا ويبغون علينا، إلّا أنّ إرادته الله هى التى إختارتنا للنبوه والإمامه،

ص: ١٩٩

١- ١) لم يرد فى شروح نهج البلاغه شئ بشأن الأول هل يقابل الثانى، أم أنّها إشاره إلى أحد الشعراء الأوائل، أم المراد به اسم شاعر غير معروف. ويبدو الإحتمال الأول أنسب.

٢- ٢) «المحض» بمعنى اللين الخالص بلا رغو الذى لم يخالطه ماء، ثم إطلاق على كل شئ خال ص.

٣- ٣) «زبد» من ماده «زبد» بمعنى استخراج شئ من آخر، ومن هنا يطلق الزبد على ما يستخرج من الحليب.

٤- ٤) «مقشره» من ماده «قشر» وتطلق على التمره بعد نزع نواتها.

٥- ٥) «بجر» على وزن برج من ماده «بجر» بمعنى ظهور السره، كما وردت بمعنى التهم فى الأكل، ويطلق الأبجر على صاحب البطن والحريص.

٦- ٦) «جرد» من ماده «جرد» بمعنى الخيول الصغيره قليله الشعر

٧- ٧) «سمراء» من ماده «سمر» بمعنى السهره والسامر تقال لمن يقضى الليل صاحيا لسهره أو حراسه أو هدف آخر.

مع ذلك لم نعاملهم بالمثل فقد عفونا عن أخطائهم وحفظنا هم من الاعداء، إلاً أنهم لم يتنكروا لهذه النعمة فحسب، بل شهروا سيوفهم علينا وهبوا لقتالنا، فقد قطعوا الرحم وقابلوا الاحسان بالجحود وأشعلوا نار حرب الجمل فسفكوا الدماء وزرعوا الفرقة فى صفوف المسلمين.

فقرىش تشبه بعملها هذا ذلك الحسود الذى يعترض على حكمه الله، فقد قال سبحانه «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» (١).

وقال «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» (٢).

وقال «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٣).

ومن الطبيعى أن الإنسان المؤمن بالمفاهيم القرآنيه والاصول الإسلاميه لا يشعر بالحسد تجاه من يشمله الله على ضوء حكمته بالنبوه والإمامه، فلا يرى نفسه سوى مسلمهم لهذه الحكمه.

الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعى

قلما نجد صفه رذيله كالحسد كانت السبب وراء هذه الأحداث الأليمه والفتائج المأساويه التى شهدتها المجتمعات البشره طيله التاريخ. فأغلب الناس إثر قلله العلم وهبوط المستوى الثقافى وضعف الإيمان وعدم الثقه بالنفس ما إن يرى بعض النجاحات التى يحققها أقرانه أو أمثاله حتى تشتعل فى قلبه فتائل الحسد فلا يهتم سوى فى كيفيه تحطيم نفسه المقابل عن طريق الاتهام والتحقير والذم ومحاولة الانتقاص أو إيجاد بعض الموانع والمعوقات فى طريقه، بدلاً من الشعور بالفرح والسرور والاحتذاء به من أجل تحقيق النجاح والتغلب على الصعاب

ص: ٢٠٠

١-١) سورة الانعام / ١٢٤. [١]

٢-٢) سورة النساء / ٥٤. [٢]

٣-٣) سورة آل عمران / ٢٦. [٣]

والانفتاح على تجاربه وارشاداته. وقد يشتد هذا الحسد حتى يبلغ درجه تدعو إلى إراقه دم المحسود من قبل الحاسد. ولا ننسى هنا أنّ أول دم إريق كان سببه الحسد، الذى دفع بقايل لقتل أخيه هايبيل حيث قبل قربان الثانى ولم يقبل قربان الأول، الأمر الذى تكرر كثيرا فى التاريخ حتى قتل الأخ أخاه والابن أباه وبالعكس.

وهكذا تعود أغلب الحوادث الأليمه التى وقعت فى صدر الإسلام ولا سيما فى عصر خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام إلى الحسد؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه. وقد تعرضت أغلب الروايات إلى ذم هذه الرذيله التى لا تجر سوى الفساد على المجتمع، فقد قال على عليه السلام: «إذا أمطر التحاسد نبت التفاسد» (١). أما النقطه المهمه التى أرشدت إليها الخطبه فتكمن فى ضروره عدم مقابله المحسود للحاسد بالمثل، بل يسعى جاهدا لاطفاء نار الحسد من قلبه من خلال شكر النعمه ومداراه الحاسد وإطفاء حسده بمعاملته بالحب والإحسان، وما أحسن ما قال الشاعر: إصبر على حسد الحسود فان صبرك قاتله النار تاكل نفسها إن لم تجد ما تأكله (٢).

ص: ٢٠١

١-١) غر الحكم، الرقم ٥٢٤٢

٢-٢) بحار الانوار ٧٠ / ٢٥٨. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

فى إستنفار الناس الى أهل الشام بعد فراغه من أمر الخوارج. وفيها يتأفف بالناس، وينصح لهم بطريق السداد.

مناسبة الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة كما ورد آنفا بعد فراغه من معركة النهروان. ويستفاد من ظاهر كلام ابن أبى الحديد أن الإمام عليه السلام خطبها فى النهروان، بينما نقل عن نصر بن مزاحم أنها أول خطبة خطبها بعد قدومه من النهروان لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعه النهروان، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة، فلما رأى ذلك دخل الكوفة فخطبهم (٢).

وصرح البعض من شراح نهج البلاغه أن الإمام عليه السلام كان حريص فى النهروان على الحركة إلى الشام دون ضياع الفرصة، لأنّه كان يرى أنّ العوده إلى الكوفة تعنى إسترخاء الجيش وصعوبه تجهزه ثانية، إلّا أنّهم كانوا يتعللون بسروده الجو ووجود الجرحى وعدم كفايه الأسلحة فلم يطيعوا أوامر الإمام عليه السلام. فاضطر الإمام عليه السلام إلى دخول الكوفة ليجهزهم للقاء

ص: ٢٠٣

١- ١) رواها الطبرى فى تاريخه ٦ / ٥١ وابن قتيبه فى الإمامه والسياسة ١ / ١٥٠ والبلاذرى فى أنساب الاشراف / ٣٨٠، وكذلك المرحوم الشيخ المفيد فى الامالى (المجلس ١٨) بصوره أكثر إختصارا ممّا وردت فى نهج البلاغه ([١] مصادر نهج البلاغه ١ / ٤٢٥) ورواها المرحوم العلامه المجلسى فى بحار الانوار عن مطالب السئول محمد بن طلحه الشافعى (بحار الانوار ٧٤ / ٣٣٣).

[٢]

٢- ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ١٩٢. [٣]

العدو، ولكن (وكما تكهن سابقاً) تشبثوا بالحجج، فتأثر الإمام عليه السلام وخطب الناس بهذه الخطبه (١).

نظرة إلى الخطبه

تعالج هذه الخطبه ثلاثه مواضع وهى:

١- التأكيد على جهاد العدو والعواقب الوخيمه لترك الجهاد. والذى يمثل أطول جانب من الخطبه فالإمام عليه السلام يعرض باللوم لأهل الكوفه - فى هذا القسم من الخطبه الذى يشكل معظمها - ويذمهم بمختلف العبارات الشديده القسوه. وبالطبع فإن ذلك جاء بعد عدم جدوى كافه الأساليب عن طريق الاستدلال والبرهان والمنطق والمحبه لتعيثهم للجهاد ومواجهه العدو، فلم يكن أمامه سوى هذا الاسلوب، فقد كان يشبههم أحياناً بالمجانين الذين فقدوا شعورهم وأحاسيسهم فلم يعودوا يدركوا ما يضرهم وينفعهم، وأحياناً أخرى يشبههم بالابل التى ضل رعاتها، ثم يسعى لتعبثهم من خلال تبييهم إلى قسوه عدوهم.

٢- عزمه الراسخ فى مجابهه العدو سواء كان هناك من يهب لنصرته أم لم يكن.

٣- الحقوق المتبادله بين الإمام والأمة، فيعرض بادية ذى بدء إلى حقوق الأمة على الإمام، فيلخصها فى أربع عبارات، ثم يبين باريح عبارات أخرى حقوق الإمام على الأمة. وكأن الإمام عليه السلام أراد أن يختم الخطبه بما يحيل مراره ذمه حلاوه عل ذلك يجدى نفعاً فى علاج ضعفهم وتقاعسهم.

ص: ٢٠٤

«أَفَّ لَكُمْ لَقَدْ سَيِّئْتُ عِتَابَكُمْ! أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضًا وَبِالذَّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلْفًا؟ إِذَا دَعَوْتُمْ إِلَى جِهَادٍ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي عَمْرِهِ وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَيِّكْرِهِ يُزْتَجُّ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ! مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلَا زَوَافِرٍ عِزٌّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ» .

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بامطار أهل الكوفة بوابل عتابه ولومه وذمه لتجاهلهم المخاطر التي كانت تهدد البلد الإسلامي وعدم إكترائهم لها، لعل قصبتهم تهتز فيحولوا دون تفاقم تلك المخاطر. فقد كان أهل الشام يشنون الغارة تلو الغارة على مختلف المناطق الإسلامية ويسفكون دماء المسلمين وينهبون أموالهم وثوراتهم. فقد قال الإمام عليه السلام «أف لكم (1) لقد سئمت (2) عتابكم» ودليل ذلك واضح، فالعتاب ولاسيما من شخص كعلي عليه السلام لا بد أن يكون له تأثيراً واضحاً في نفس المعاتبين ودفعهم لاعادة النظر في أعمالهم الطالحة، إمّا إذا لم يحصل هذا

ص: ٢٠٥

١ - ١) قال الراغب في المفردت «أف» في الأصل تعني كل شئ قدر وهي كلمه تضجر تطلق للمهانه والاستحقار. فمثلاً يقال «أفت بكذا» أي تضجرت منه واستقدرته. وقال البعض «أف» تعني ما يجتمع من الأوساخ تحت الأظافر وقال البعض أن التراب والغبار إذا علق ببدن الإنسان فان نفخه يشبه القول «أوف» أو «أف» ثم استخدمت هذه المفردة بمعنى اظهار التضجر والنفره ولا سيما من الاشياء الصغيره. ونخلص ممّا ذكر ومن بعض القرائن إلى أن هذه المفردة كانت في الاصل إسم صوت.

٢ - ٢) «سئمت» من ماده «سئم» بمعنى الملل، التي تتعدى أحيانا بحرف من وأحيانا أخرى بدونها، وسئمته وسئمت منه. بمعنى واحد، وعليه سئمت عتابكم بمعنى سئمت من عتابكم.

التأثير بسبب غفله المقابل فان تكراره لا ينطوى سوى على الملل والتعب. ثم قال عليه السلام: «أرضيتم بالحياه الدنيا من الآخره عوضاً؟ وبالذل من العز خلفاً؟» إن هذا سكوتكم المميت وفراركم من الجهاد يدل على أنكم أويقتم آخر تكم واستبدلتموها ببيضه أيام من الدنيا من جانب، ومن جانب آخر فقد أفريتم دنياكم، وذلك لانكم استبدلتم العزه والرفعه بالذله والضعه؟ والحال إن موتاً بعزه أشرف بكثير من حياه بذله؛ الرساله التي لقتها أولياء الله والزعماء الربانيين أتباعهم على مدى العصور والدهور. فقد قال على عليه السلام فى نهج البلاغه «فالموت فى حياتكم مقهورين والحياه فى موتكم قاهرين» (1) وقال سيد الشهداء «ألا وإنّ الدعى بن الدعى قد ركزنى بين إثنين بين السله والذله وهيهات منا الذله» ثم خاطب جيش الكوفه «إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخشون المعاد فكونوا أحراراً فى دنياكم» فالواقع أنّ عبارات الإمام عليه السلام كانت تمثل دليل سئمه عتابهم وكأنّهم عقدوا العزم على إيثار الذله والحقاره وغضب الله على العزه والشرف ورضى الله، ومن هنا لم يعد للعتاب من أثر عليهم، حتى سئم الإمام عليه السلام عتابهم. أمّا فى العبارة اللاحقه فيشير الإمام عليه السلام إلى ضعفهم ليلتفتوا إلى أنفسهم فيزيلوا ذلك الضعف فقال عليه السلام: «إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم، فأنتكم من الموت فى غمره (2) ومن الدهول فى سكره. يرتج عليكم حوارى (3) فتعمهون (4)». قوله عليه السلام «يرتج عليكم حوارى» - بالنظر إلى الحوار الذى يعنى الكلام المكرر ويرتج من ماده (رت ج) بمعنى يغلق - له معنيان: الأول ما ذكر سابقاً، أى أنّ كلامى المكرر لا يؤثر فيكم فأنتكم لا تدركوه، لأنّ باب الفهم أغلق بوجوهكم. والثانى أنّ لسانكم عقد عن جوابى، وذلك لأنّكم لا تمتلكون الرد المنطقى على كلامى - على كل حال فإنّ نتيجة المعنيين واحده تضمنتها العبارة اللاحقه وهى حيرتهم وضلالهم «وكان قلوبكم مألوسه (5) فانتم لا تعقلون».

ص: ٢٠٦

(١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٥١. [١]

(٢-٢) «غمره» الواحد من غمر وهو الستر، وغمره الموت الشده التى ينتهى إليها المحتضر، وهى الحاله التى كان يعيشها جيش الكوفه.

(٣-٣) «حوار» من ماده «حور» بمعنى الرجوع وتطلق على المحادثه بين الأفراد التى يصطلىح عليها بالمحاوره، وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة.

(٤-٤) «تعمهون» من ماده «عمه» بمعنى تتحIRON وتتردون.

(٥-٥) «المألوسه» من ماده «ألس» تعنى فقدان العقل، ومن هنا تستعمل حيث الخدعه التى تسلب عقل المقابل، وهى تعنى المخلوطه بمس الجنون.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «ما أنتم لى بثقه سجيس (١) اللبالي». وبالنظر إلى أن سجيس اللبالي»

تعنى ظلمه الليل فإنّ معنى العبارة مادامت اللبالي بظلامها فليس لى من ثقه بكم، وهى كناية عن الأبدية والخلود، لأن الظلمه لا تفارق الليل أبداً. أما اختيار ظلمه الليل فينطوى على منتهى البلاغه إستنادا إلى أفكار أهل الكوفه وأعمالهم السوداء المظلمه. ثم أكد ذلك بقوله «وما أنتم بركن يمال بكم ولا زوافر (٢) عز يفتقر إليكم» وهكذا أعلن الإمام عليه السلام بهذه العبارات عدم ثقته واعتماده على هذه العناصر الضعيفه بعد أن تطرق لنقاط ضعفهم، أملا فى إثارتهم وتعبثهم لتوحيد الصف ومجابه العدو. ودخولهم الميدان بكل قوه وشجاعه.

جدوى الذم واللوم

نرى أنفسنا مضطرين مره أخرى لملاحقه هذا السؤال: لم كل هذا العتاب واللوم من قبل الإمام عليه السلام - وهو ما هو عليه من العلم والحكمه فى إداره شؤون الناس - لأهل الكوفه وامطارهم بوابل من الكلمات القاسيه العنيفه؟ أفلا يؤدى هذا الكلام الذى ينطوى على العتاب والذم وانعدام الثقه إلى نفرتهم وشده تعصبيهم وابتعادهم عن الحق؟ ولابد من القول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام قد خبر نفسه وروحيه أهل الكوفه، وقد أثبت التأريخ أن اهل الكوفه لم يكونوا يتحركون إلما إذا داهمهم الخطر وعرضهم للزوال بالمره، بعبارة أخرى فإنّ العتاب لايجدى معهم نفعا ما لم يجرح مشاعرهم ويشير أحاسيسهم.

ويبدو أنّ المجتمعات البشريه إنّما تشتمل دائما على طائفه - وإن كانت ضئيله - لا تفيق إلى نفسها ما لم تتلق ضربات موجعه متتاليه.

ولا يفهم من كلام الإمام عليه السلام إننا ينبغى أن نعتمد هذا الاسلوب تجاه من عاش الغفله وتخلي عن وظيفته ومسؤوليته؛ لأنّ الأفراد على أنواع: بعضهم يعود إلى نفسه بأدنى إشاره فيستقيم

ص: ٢٠٧

١- ١) «سجيس» من ماده «سجس» بمعنى تغيير لون الماء وتكدره، ومن هنا أطلقت «سجيس اللبالي» على ظلمهالليل وكأنّ أصل الاستعمال ما دامت اللبالي بظلامها، وهكذا وردت فى العبارة.

٢- ٢) «زوافر» جمع زافره من ماده «زفر» بمعنى التنهد وهو التنفس بصوت. كما يطلق الزفير على صوت النار، والزافره بمعنى الأنصار والأقوام والعشيره.

على الطريق، وبعضهم لا يتحرك ما لم توخره بابه.

وبناءً على هذا فان ذلك الاسلوب إنما يختص بتلك الجماعه بفضلها العلاج الأخير لدائهم.

وقد أثبت التاريخ أن ذلك الاسلوب كان قد أثر في أغلب أهل الكوفه فاندفعوا إلى النخيله وتأهبوا لقتال أهل الشام، غير أن شهاده أمير المؤمنين عليه السلام على يد عبدالرحمن بن ملجم أشقى الآخرين حالت دون ذلك.

والشاهد الآخر على ذلك أن الإمام عليه السلام كان كثيراً ما يثنى على أهل الكوفه أوائل حكومته (1)، إلا أنهم حين ضعفوا واستقوى عليهم أهل الشام فكانوا يهجمون كل يوم على منطقه من مناطق البلاد الإسلاميه، لم ير عليه السلام بدأ من مخاطبتهم بهذا الاسلوب.

ص: ٢٠٨

١-١) على سبيل المثال راجع نهج البلاغه، الخطبه ١٠٧ و١١٨

إشاره

«ما أنتم إلا- كإبل ضلّ رعاتها فكلّمها جمعت من حياض إنتشرت من آخر لبئس لعمر الله سيهر نار الحرب أنتم! تكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون!»

لا- ينام عنكم وأنتم في غفله ساهون، غلب والله المتخاذلون! وإيم الله إنني لأظن بكم أن لو حمس الوغى، واسيححر الموت، قد انفرجت عن ابن أبي طالب انفراج الرأس» .

الشرح والتفسير

يوصل الإمام عليه السلام عتابه وذمه لعسكر الكوفه «ما أنتم إلا كابل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب إنتشرت من آخر» فالمراد أن إرادتكم ضعيفه وأفكاركم مشتته ولا- تميزون مصالحكم، فقد شبههم عليه السلام بالابل لضيق أفقهم وضحاله أفكارهم، وقوله «ضل رعاتها» اشاره إلى عدم طاعتهم لائمتهم وأوليائهم.

ومن البديهي أن هؤلاء الأفراد لايسعهم أن يكونوا قوه أمام العدو ولذلك قال عليه السلام: «لبئس لعمر (1) الله سعر (2) نار الحرب أنتم» .

فالحرب ظاهره ممجوجه غير محبيه وآثارها خراب البلدان وقتل الإنسان والفقير والجهل

ص: ٢٠٩

١- (١) لعمر الله، مفهوم هذه العلمة القسم بالعمر ومدته الحياه، ولما لم يكن للعمر من معنى بالنسبه لله فانّ المعنى هنا «قسماً بالله» وقد تقدم شرح هذه العبارة في الخطبه الرابعه والعشرين.

٢- (٢) «سعر» جمع ساعر من ماده «سعر» بمعنى أوقد النار وسعر بمعنى شعله النار، والمراد لبئس موقدو الحرب أنتم.

والبؤس والشقاء والتخلف، إلّا أنّ نفس ظاهره اللوم هذه قد تكون دواءً حيويًا للمجتمع وذلك حين ينهض العدو ليهضم حقوق الأُمّة وينشر في ربوعها الذعر والفساد والانحراف.

فلا- يمكن إعادة الأمن والسلام والعدل إلى المجتمع إلّامن خلال الحرب. ومن هنا صرح القرآن الكريم قائلاً: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير» (١) وقال في موضع آخر «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (٢).

وعليه فإنّ الإمام عليه السلام إذا أشار إلى الحرب، فإنّما ذلك لتكرّر إعتداءات وحملات أهل الشام وسفكهم للدماء ونهبهم للأموال بل هبوا في الواقع لمحاربه وصى رسول الله صلى الله عليه و آله من بايعته الأُمّة برمتها.

ومن هنا خاطبهم «تكادون ولا تكيدون، وتنقض أطرافكم فلا تمتعضون، (٣) لا ينام عنكم وأنتم في غفله ساهون» .

ومن الواضح أنّ من لا يستعد لمواجهة العدو ويتأهب لخطئه التدميريّه فإنّ قراه ومدنه الحدوديه إنّما تكون على الدوام مسرحاً لعمليات العدو ليمارس بحق أهلها القتل والدمار ونهب خيراتهم و ثرواتهم، وليس هنالك من مصير بافضل من هذا المصير ينتظر أولئك الذين يعيشون الغفله عن عدوهم.

وما أعظم قساوه إصدار الأحكام بشأن الإمام على عليه السلام واتهامه بالضعف وقلة التدبير في الحروب إذا لم يحط بحقيقه أهل الكوفة والضعف والوهن الذي كان سائدا لديهم إلى جانب عدم الطاعة والتمرد الذي طبعت عليه سجيتهم.

بعد ذلك يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أعمالهم فيقول «غلب والله المتخاذلون» نعم فالفشل والهزيمة لا تقتصر على هؤلاء الذين تصدعت وحدتهم وتخلوا عن مجابهة العدو، بل الهزيمة من القوانين الثابته التي يمني بها كل من يعيش هذه المفردات من قبيل الفرقة والنفاق والضعف والوهن وعدم الطاعة.

ص: ٢١٠

١-١) سورة الحج / ٣٩. [١]

٢-٢) سورة البقره / ١٩٠. [٢]

٣-٣) «تمتعضون» من ماده معنى «معض» الابتئاس والغضب.

ثم قال عليه السلام: «وآيم الله (١) انى لاظن بكم أن لو حمس (٢) الوغى (٣) واستحر (٤) الموت، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب إنفراج الرأس» .

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّه أمور بهذا التشبيه: الأول إنّ مكانته وإن كانت بمثابة الرأس من الجسد، ولكن هل للرأس - الذى يعتبر مركز الفكر ويضم العين والاذن واللسان - أن يفعل شيئاً دون سائر الاعضاء؟ والثانى: هل من حياه ووجود لهذا الجسد إن فصل عنه الرأس، وإن كان فيه فهل له فعل شئ دون معونه العقل والفكر والسمع والبصر.

وأخيراً يتعذر الثام الرأس بالجسد إذا ما فصل عنه، بينما ليست هنالك مثل هذه الصعوبه فى إلتئام سائر أعضاء البدن.

وعليه فان مراد الإمام عليه السلام هو أنكم تنفرون عنى وليس لكم العوده إلى اذا حمى الوطيس وأخذكم الخوف فهربتم منى كما احتمال بعض الشراح أنّ المراد بقوله: «أنفراج الرأس» هو فلق الرأس بضربه السيف التى تأبى الالئام. (٥)

عوامل أخرى للضعف والهزيمة

يتطرق الإمام عليه السلام بفضله زعيماً إنسانياً وسياسياً وعسكرياً - فى هذا القسم من الخطبه - إلى العوامل التى تقف وراء الضعف والفشل والهزيمة، فيجملها بعبارات قصيره بعيده المعانى وفى مقدمتها التشتت والفرقه وعدم إمتلاك الزعيم الأوحد، الأمر الذى يشاهد بوضوح اليوم فى

ص: ٢١١

١- ١) أوردنا شرحاً وافياً فى المجلد الأول ذيل الخطبه رقم ١٠ لعباره «وآيم الله» التى تفيد مفهوم القسم.

٢- ٢) «حمس» من ماده (ح م س) بمعنى إشتد وصلب، والحماسه والتحمس بمعنى التشديد والتشدد ولاسيما فى الحرب ويقال الاحمس للرجل الشجاع الذى يقف بصلابه بوجه العدو.

٣- ٣) «الوغى» بمعنى الضجيج والصوت والجلبه فى ميدان القتال، كما يقال لنفس الحرب الوغى، وهكذا وردت فى العبارة.

٤- ٤) «إستحر» من ماده «حرر» بمعنى اشتداد الحر، وهو إشاره لا يثار الفرار على الثبات فى المعركه إذا إشتد القتال وبلغ حدته.

٥- ٥) يبدو هذا الاحتمال مستبعدا لوجود التقدير فى الجملة، لان العبارة «قد انفرجتم عن ابن أبي طالب» تتطلب أن يكون تقدير العبارة «إنفراج الرأس» هو «إنفراج الرأس عن الجسد» أو «إنفراج الجسد عن الرأس» كما ورد مثل هذا التعبير فى الخطبه ٩٧ «انفرجتم عن على بن أبى طالب انفراج المرأه عن قبلها». والعجيب ما اورده شراح نهج البلاغه [١] من تفاسير غريبه لهذه العبارة، حتى ذكروا ثمانيه وجوه أو أكثر لانرى ضروره للخوض فيها.

البلدان الإسلاميه، حيث تؤدي الفرقه والانقسام إلى هذه الفوضى والانفلات في صفوف الأمه.

والطريف في الأمر أن الجميع يتحدث عن الوحده، بينما يسهم كل حسب قدرته بتأجيج نيران الفرقه والاختلاف.

والثاني عدم وجود الخطط والمشاريع الصحيحه التي يمكنها مواجهه مخططات العدو الخبيثه والتي أشير إليها بالعبارة «تكادون ولا- تكيّدون». الثالث استهانته ببعض الحوادث الصغيره - وهي كبيره في الواقع - والتي تعرض لها الإمام عليه السلام بقوله «وتنتقص أطرافكم فلا- تمتعضون» فاعلب الحوادث الصغيره تكشف عن عمق بعض المسائل المهمه الخفيه، فتغيير بسيط في البدن قد يعكس حاله مستعصيه في باطنه، وهذا ما عليه الحال بالنسبه للقضايا الاجتماعيه والسياسيه والعسكريه.

فاذا رأينا العدو قد هجم على منطقه حدوديه صغيره، أو إغتال شخصيه من البلد، لابدّ أن نعلم بأنّه إنّما يعدّ نفسه لمعركه أكبر وأعنف، وإلّا لما تجاسر وارتكب ذلك العمل.

وعليه لابدّ من الالتفات إلى الأعمال في بداياتها وعدم الغغله عن القضايا العضال التي تستبطنها وتختزنها. الرابع يقظه العدو وغفلتنا، فالعدو منهمك على الدوام في إعداد العده والعده، بينما ننظر بكل سداجه إلى الاوضاع القائمه على أنها تمثل السلام العادل والمشرف، فاذا قدر لنا أن نفيق من غفلتنا، رأينا زمام المبادره قد سلبت من أيدينا. الخامس خوف الموت والفرار من الشهاده في سبيل الله والتي أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله «وآيم الله! اني لأظن. . .». والواقع إن الإنسان ليغفل عن حقيقه مفادها أن خشيه الموت سبب الموت: والاستعداد للتضحيه والفداء يعد من أسباب حفظ النفس.

كانت هذه بعض النقاط المهمه المرتبطه بالضعف والهزيمه التي أوردها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه وستتابع تفاصيل هذه المسأله في الابحاث القادمه ذات الصله. فقد تطرق الإمام عليه السلام في الخطبه الخامسه والعشرين إلى سائر عوامل الضعف والفشل والهزيمه.

«وَاللَّهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَغْرُقُ لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ وَيَفْرِى جِلْدَهُ لِعَظِيمِ عَجْزِهِ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ فَأَمَّا أَنَا، فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرَبْتُ بِالْمَشْرِفِيهِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشُ الْهَامِ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ» .

الشرح والتفسير

يتحدث الإمام عليه السلام عن العناصر الضعيفه والهزيله التي تمكن عدوها من نفسها فيقول «والله إن امرء يمكن عدوه من نفسه يعرق (١) لحمه ويهشم (٢) عظمه و يفري (٣) جلده لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح (٤) صدره»

فالعباره تبين بصراحه أنّ الضعف والوهن بلغ ذروته في جيش الكوفه بحيث اندفع العدو يكل ما أوتى من قوه ليسدد له الضربات التي تحز اللحم وتطحن العظام، وهى أروع عباره تجسد تسلط العدو وتحكمه فى مصير الضعفاء العجزه، كما تضمنت قمه الفصاحه

ص: ٢١٣

١-١) «يعرق» من ماده «عرق» بمعنى فصل اللحم عن العظم، كما ورد بمعنى فصل اللحم عن العظم بالأسنان وأكله.

٢-٢) «يهشم» من ماده «هشم» بمعنى كسر الشئ اليابس كما ورد بمعنى كسر مطلق العظام، أو عظام الرأى و الوجه.

٣-٣) «يفرى» من ماده «فرى» بمعنيشق الشئ و تمزيقه.

٤-٤) «جوانح» جمع «جانحه»، وهى الضلوع تحت الترائب، اصلها من ماده «جنع» بمعنى الميل و الانحراف، و قد اطلقت على الاضلاع لأنها ليست بشكل مستقيم.

والبلاغه بحيث تكفى لا ثاره من بقى لديه ثمه إحساس وشعور.

نعم هكذا كانت سيطره أهل الشام ومعاملتهم لأهل العراق، لم يرعوا إلّاولا ذمه فى أحد، فكانوا يقتلون الأبرياء ولا يرحمون الضعفاء وينهبون الأموال والثروات ويخربون البيوت. فالواقع عمل هؤلاء أشبه بفعل القصاب بالذبيحه يسلخ جلدها ويحز لحمها عن عظمها ويعدها لقمه سائغه للأكل. أما بعض المفسرين فقد ذهبوا إلى أنّ كل عباره من هذه الجمل الثلاث مستقله، فقوله «يعرق لحمه» تعنى نهب الأموال و «يهشم عظمه» قتل الناس و «يفرى جلده» إشاره إلى الاخلاص بنظام المجتمع (١)، وبالطبع ليست هنالك من قرينه واضحه على هذا التفسير. أمّا الشيخ المرحوم مغنيه قد علق فى شرحه على هذه العباره فى أننا سمعنا كثيراً عن المقاومه السلبيه تجاه الطواغيت والظلمه كأن ينتحر الفرد أو يحرق نفسه إلّااننا لم نسمع من يستسلم للعدو إلى الحد الذى يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده دون أن يدافع عن نفسه، فليس هنالك أربع وأشنع من هذا الخوف بحيث يلقى الجبان الضعيف بنفسه إلى قصابى البشريه ليذبحوه بهذه الطريقه ويجعلوه لقمه سائغه لهم (٢).

كما يحتمل إلّا تكون العبارات الثلاث المذكوره بشأن فرد واحد، بل يفعل العدو هذه الأمور بشأن عدّه أفراد كأن يعرق لحم البعض ويهشم عظم الآخر ويفرى جلد الثالث وعلى ضوى هذا التفسير يمكن حل السؤال الوارد بشأن ترتيب العبارات فى أنّ الإمام عليه السلام لم جعل فرى اللحم فى آخر العباره. فكأنّ جواب الإمام عليه السلام أنّ جنائيات العدو تجاهكم فى مرحله هى فصل اللحم عن العظم، ثم يتقدم فى مرحله أخرى ليهشم العظم وأخيراً لا- يبقى أمامه سوى فرى جلد البدن. وذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذه العبارات إشارات إلى بعض الحوادث التى وقعت بعد شهادته عليه السلام وسيطره معاويه وأهل الشام على العراق ولم يرحموا صغيراً ولا- كبيراً ولا- صحيحاً ولا- مريضاً ولا فقيراً ولا غنياً ولا رجلاً ولا نساءً (٣). ولكن يبدو أنّها ليست مختصه بذلك الزمان، وإن كانت أشد وأقسى آنذاك.

ص: ٢١٤

١-١ شرح نهج البلاغه ابن ميثم البحرانى ٢ / ٨١.

٢-٢ فى ظلال نهج البلاغه / ٢٢٨.

٣-٣ مفتاح السعاده ٦ / ٨٢.

أمّا العبارة «ما ضمت عليه جوانح صدره» - بالالتفات إلى أن الجوانح جمع جانحه بمعنى الاضلاع - فالمراد بها القلب، وهدف الإمام من قوله «ما ضمت عليه جوانح صدره» بيان روحه جيش الكوفه ومدى عجزه. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمه وأساسيه يكشف فيها عن إتخاذه القرار الحاسم بشأن المستقبل وما يحمله من أحداث «أنت فكن ذاك إن شئت فأما أنا فوالله دون أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفيه تطير منه قرأش (١) الهام، وتطيح (٢) السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء»

وأمّا من المخاطب بقوله عليه السلام أنت فكن ذاك؟ هنالك احتمالان: الأول أن إنّما خاطب من يمكن عدود من نفسه كائنا من كان، غير معين ولا- مخصص، والاحتمال الاخر أنّه خاطب بذلك الأشعث بن قيس، فإنّه روى أنّه عليه السلام قال وهو يخطب ويلوم الناس على تشيبتهم وتقاعدهم:

هلاًّ- فعلت فعل ابن عفان! فقال له: «إن امرأ مكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده. أنت فكن ذاك. . .» فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام فصل نفسه عنهم بعد أن يأس منهم، فافهمهم أنكم إن آثرتم الاستسلام للعدو فسبيلي غير سبيلكم وليس للعدو عندى إلما السيف وسأقاتله بمفردى، فلكل وظيفه وليس أنا من يتقاعس عن إداء وظيفته، فان تخليتم عن وظيفتكم ورضيتم لأنفسكم الذل والهوان والاستسلام للعدو وعرضتم البلد الإسلامى للدمار والابتزاز وخليتم وأهل الشام لينهبوا الأموال ويعتدوا على الاعراض، فليس لى إلّا أن أقاتلهم وحدى وأنا مستعد للشهاده التى لا أوتر عليها شيئاً ولن أشعر بالضعف أبداً. وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن بهذه الكلمات أن يشد أزر ذلك النزر اليسير من الأفراد الشجعان الذين لا يخلو منهم جيش الكوفه، كما يزيل الشك عن قلوب بعض المترددين ليلتحقوا به، ويرشد التاريخ إلى مدى الأثر الذى لعبه كلام الإمام عليه السلام فيهم. فقد شعروا بقوتهم من جديد وتأهبوا لمنازله العدو.

ص: ٢١٥

١- ١) «قراش» جمع «قراشه» بمعنى العظام الرقيقه التى تلى القحف أو عظام الجبهه والرأس، وهام جمع هامه بمعنى الرأس كما تطلق على زعيم القبيله.

٢- ٢) «تطيح» من ماده «طوح» بمعنى الهلاك أو الاشراف على الهلاك. ولما كان فصل اليد والرجل يشكل القضاء عليهم فقد أطلقت بهذا المعنى فى العبارة المذكوره.

قد تشهد الحياه الاجتماعيه والسياسيه بعض اللحظات الحساسه التى تجعل الزعماء فى موضع لا يحسدون عليه، وتتفعل هذه اللحظات حين يشتد الضعف والخلاف والترديد فى إتخاذ القرار؛ الأمر الذى يمنح العدو بعض عناصر القوه فى المباغته.

وهنا لابد أن ينبرى الزعيم الشجاع ليعلن قراره الحاسم بهذا الشأن ليفهم الجميع بأنه مستعد للقتال وخوض غمار الحرب بمفرده سواءً كان هناك من يقف إلى جانبه أم لا، فليس هنالك سوى الشهاده التى تأبى المقارنه بالخضوع والاستسلام. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبه، وقد وقفنا على مثيله من أبى الضيم والأحرار الإمام الحسين عليه السلام. فقد إتفقت كلمه الأصحاب ليله عاشوراء فى مواكبه إمامهم عليه السلام ولا- سيما حين رفع الإمام عليه السلام بيعته عن الجميع وأذن لهم بالانصراف، حيث انصرف أغلب الضعفاء والعجزه وانفرجوا عن الإمام عليه السلام وهربوا من خوض الجهاد، ولم يبق معه إلآقله قليله، لينهض كل واحد منها ويعبر عن موقفه ومساندته للإمام عليه السلام وان قتل سبعين قتله، وآخر قال لو أقتل وأحرق ثم أقتل ويفعل بى ذلك سبعين مره لما تركتك، وما شابه ذلك من المواقف التى عبر عنها صحبه الاوفياء (١).

وقد أشار أمير المؤمنين على عليه السلام - فى رساله ٣٦ من رسائله فى نهج البلاغه - إلى هذا المعنى، حيث قال لأخيه عقيل «وأما ما سألت عنه من رأيى فى القتال: فان رأيى قتال المحلين حتى ألقى الله لا يزيدنى كثره الناس حولى عزه ولا تفرقهم عنى وحشه ولا تحسبن ابن أبيك - ولو أسلمه الناس - متضرعاً متخشعاً ولا مقرأً للضيم واهناً». كما نصطدم فى قصه موسى عليه السلام بقومه الذين أعربوا عن خوفهم من مجابهه العمالقه لما بلغوا بوابه بيت المقدس فضعفت إرادتهم وترددوا فى إتخاذ القرار، حتى تمردوا على نبيهم موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام واعلنوا موقفهم.

المخزى بكل صراحه «قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ» (٢).

ص: ٢١٦

١- (١) للوقوف على خطبه الإمام عليه السلام ليله عاشوراء وما قاله صحبه الاوفياء راجع بحار الانوار ٤٤ / ٣٩٢.

٢- (٢) سورة المائده / ٢٤. [١]

فما كان من موسى عليه السلام إلّا أن أعلن موقفه منهم وانفصاله عنهم «قال ربّ إنّي لا أملك إلّا نفسي وأخي فأفرّق بيننا وبين القوم الفاسقين» (١).

وهذا هو موقف نبي الله نوح عليه السلام «وا تُلّ عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبرّ عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم أقضوا إلّى ولا تنظرون» (٢).

ولا شك إنّ لهذا الموقف الصادم الذى يتخذه الزعيم أثره الكبير فى نفوس أتباعه، حيث يشعر الأفراد بارتفاع معنوياتهم وقوه شوكتهم إلى جانب عوده الضعفاء إلى الحق والشعور بالقوه والافتدار ويضطرها لاتخاذ ذات الموقف.

وأدنى معطيات ذلك الموقف أنه يشكل وثيقه تأريخيه حيه فى سيره هؤلاء الزعماء الابطال والذى يلهم الأجيال العزم والإرادة والقوه، وهذا ما نلمسه بوضوح فى الملحمة الحسينيه فى كربلاء التى مازالت تلهم الامم والشعوب كل عناصر القوه والافتدار فى مواجهه الظلم والاضطهاد والطغيان.

ج ج

ص: ٢١٧

١-١) سورة المائدة / ٢٥. [١]

٢-٢) سورة يونس / ٧١. [٢]

إشاره

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالْنَّصِيحَةُ بِحَقِّكُمْ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا- تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالْوَفَاءُ بِالنَّبِيِّ وَالنَّصِيحَةُ بِحَقِّهِ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ أَمُرُّكُمْ» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتعرض لاهم القضايا المرتبطة بالحكومة والتي تكمن فى حق الإمام على الأمة وحق الأمة على الإمام، فيوجزها بعبارات مقتضيه عظيمه المعاني، حيث يشير إلى أربعة متبادله لكل منهما. فقد تحدث بادی زى بدء عن حقوق الأمة، ومن شأن تقديم حقوق الأمة على الإمام على العكس، أنه مدعاه للتأثير فى نفوس السامعين، إلى جانب كشفه عن البعد الشعبى والجماهيرى للحكومة الإسلاميه، كما يفيد عمق فارق هذه الحكومه مع الحكومات المستبده الغاشمه والحكام الطغاه الذين يرون أنفسهم ما لكى رقاب الأمة فيعاملونها معامله المالك والمملوك أو الاقطاع والمزارع.

فقد قال عليه السلام: «أيها الناس إن لي عليكم حقًا، ولكم على حق» .

والحق وإن ذكر بصوره مفرده إلمائه يفيد معنى جنس الحق الذى ينطوى على مفهوم عام، أما تنكيره فيشير إلى عظمه هذه الحقوق، لأن الاتيان بالنكره قد يفيد التعظيم أحياناً.

فيتطرق الإمام عليه السلام إلى الحق الأول للأمة فيقول «فأما حقكم على: فالنصيحه لكم» .

النصيحه تعنى الخلوص ومن هنا يصطلح على العسل الخالص بالناصح.

كما وردت بمعنى الخياطه، ولذلك يطلق الناصح على الخياط، ثم اطلقت على كل عمل خير خالص خال من الغل والغش.

وتستعمل هذه المفرده بشأن الله والنبي والقرآن وأفراد الأئمة والإمام والأئمة، حيث تتمتع بالإشاره إلى أحد مصاديقها الواسعه حسب مقتضى الحال ومورد الاستعمال.

وقد ورد فى بعض المصادر اللغويه أنّ النصيحة تشتمل على معان متفرقه، فمثلاً النصيحة لله تعنى الاعتقاد بوحدانيته واخلاص التيه له فى العباده ونصره الحق، والنصحية للقرآن تعنى التصديق به والعمل بأحكامه والدفاع عن آياته، تجاه تأويل الجهلاء وتحريف الغلاء، والنصحية للنبي هى التصديق بنبوته ورسالته وطاعه أوامره.

ومن هنا يبدو أنّ المراد بالنصيحة فى العبارة العمل من أجل الارتقاء بالجوانب الماديه والمعنويه للأئمة من خلال البرامج والمشاريع الصححيه، حيث تشكل هذه المشاريع الخطوه الاولى لتحقيق خير الأئمة، وعليه فلا بدّ أن يكون للإمام والولى والزعيم مشروعاً صحيحاً وجامعاً يتضمن تأمين المصالح الماديه والمعنويه لأفراد الأئمة ويأخذ بايديهم إلى الكمال المنشود.

والحق إن هذه المسأله لمن المسائده الحيويه المهمه فى عالمنا المعاصر والتي تحظى بأهميه فائقه، حيث يعتقد أغلب العلماء والمنكرين أن العراقيل التى تنطوى عليها المسيره الاجتماعيه إنّما أفرزتها بالدرجه الأساس مشكله عدم وجود المشاريع والخطط الصححيه.

ثم يشير عليه السلام إلى الحق الثانى - ذات الصله بالجانب الاقتصادى - فيقول «وتوفير فيئكم عليكم».

فالعداله الاجتماعيه فى المجال الاقتصادى تعد من أهم مشاكل المجتمعات البشريه، فأغلب الحروب والنزاعات الدمويه ومعظم المفاسد الاجتماعيه إنّما تعزى إلى تغييب العداله الاجتماعيه.

ومن هنا فإنّ إعادته الأمن والسلام والنظام والاستقرار والوقوف بوجه المفاسد الاخلاقيه ومختلف الانحرافات إنّما تتطلب بادية ذى بدء إحياء العداله الاجتماعيه وتفعيلها فى المجتمع.

وإستناد إلى أنّ المفرده «فىء» حسب أرباب اللغه أنّها العوده والرجوع إلى حاله الخير

والاحسان، فإنها تطلق أيضاً على الظل حين يرجع من طرف الغرب إلى الشرق.

وتطلق هذه المفردة في الآيات القرآنية والاحاديث النبويه على الأموال التي تصل المسلمين من الكفار، فقد تطلق على الأموال التي تصل دون القتال، وحتى على مثل هذه الأموال والانفال التي تعنى الثروات الطبيعیه للحكومہ الإسلاميه التي ليست لها ملكيه شخصيه.

والفيء في العبارات المذكوره تعنى جميع أموال بيت المال، فقوله عليه السلام توفير فيئكم تعنى أن وظيفه الحاكم الإسلامى تعنى إداء الأموال العامه إلى المحتاجين والمعوزين وأصحاب الحق، أى تنظيم الأمور الاقتصادية والمعاشيه للأمة أما الحق الثالث الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فيرتبط بالتعليم والشؤون الثقافيه «وتعليمكم كيلا تجهلوا» .

نعم فالإمام لا بد أن يعتمد الاسلوب التعليمى الصحيح ويهب لمكافحه الجهل والأمية ويرفع المستوى الثقافى لدى الناس ويستأصل جذور الجهل التي تقود الأمة إلى التخلف والانحطاط. وأما الحق الرابع والأخير فهو «وتأديبكم كيما تعلموا» . فالواقع أن الإمام عليه السلام أوجز الحقوق المهمه للأمة فى أربع هي:

١- المشاريع والخطط الصحيحه

٢- العدالة الاجتماعيه فى المجال الاقتصادى

٣- التعليم

٤- التريبه والتهديب والقضاء على الفساد الاخلاقى

جدير بالذكر أن الإمام عبر عن الحق الثالث بقوله «وتعليمكم كيلا تجهلوا» والحق الرابع «وتأديبكم كيما تعلموا» .

والحال أن نتيجة التعليم هي العلم والمعرفه، بينما يقود التأديب إلى تربيته الخصال الأخلاقيه لا العلم والمعرفه، إلّا أن مراد الإمام عليه السلام:

لا بد أن تقفوا على آثار الفضائل وأضرار الرذائل، لتتحلوا بالاولى وتواجهوا الثانيه - فالحق الثالث يشير فى الواقع إلى العقل النظرى بينما يشير الحق الرابع إلى العقل العملى ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حقوق الإمام على الأمة الإسلاميه وأجزها هي الأخرى فى أربع

ص: ٢٢١

فقال عليه السلام: «وأما حقى عليكم: فالوفاء بالبيعه» .

والبيعه هى العهد بين الأُمَّه والإمام؛ العهد الموثق الذى يجب العمل به، وعلى ضوء هذا العهد فإنَّ الإمام والحاكم لابدَّ أن يأخذ بنظر الاعتبار مصالحه الأُمَّه ويرسى دعائم الأمن والاستقرار ويقاوم العدو ويمهد السبيل أمام الأُمَّه للسمو والتكامل، كما يجب على الأُمَّه أن تشد أزره وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأنه تشد أزره وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأنه المساس بهذا العهد والميثاق الحق الثانى الذى ذكره الإمام عليه السلام: «والنصيحه فى المشهد والمغيب» فلا يكونوا منافقين يظهرون المحبّه والاخلاص فى حضوره، فان غاب عاثوا الفساد وسلكوا الخيانه.

فقد لا يكون الإمام حاضراً بينهم على الدوام، إلّا أنّ الله حاضراً لا يخفى عليه شئ ولا ينبغى أن يعيش المومن الغفله عن هذا الأمر أمّياً الحق الثالث الذى ذكره الإمام عليه السلام: «والإجابة حين أدعوكم» فلا ينبغى أن تتعللوا ببعض الذرائع فراراً من مواكبتى، لابدَّ أن تطيعوا أوامرى وتقتفوا أثرى، والحق الرابع والايخير «والطاعه حين آمركم» ففعل البعض يلبى دعوه الإمام، إلّا أنّه لا يطيع ما يصدره من أوامر، وعليه فاجابه الدعوه لابدَّ أن تكمل بطاعه الاوامر.

وبالطبع فإنَّ حقوق الإمام على الأُمَّه إنّما تعود بالنفع مباشره على الأُمَّه، وعليه فلا ينبغى لهم أن يمتنعوا على الإمام، بل الإمام يمتنع على الأُمَّه بانه يعتمد هذه الحقوق لاعاده الأمن والاستقرار إلى الأُمَّه واعمار بلادها. وقد صرح بعض شراح نهج البلاغه بأنَّ هذه الحقوق المتبادله إنّما تختص بالإمام العادل المنسوب من جانب الله سبحانه، لا لكل إمام صالح كان أم طالح، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «إنّ لى عليكم حقاً» (١).

لكن يبدو أنّ عبارته الإمام شامله عامه وهذا ما يفهم من قوله عليه السلام «لابدَّ الناس من أمير بر أو فاجر» (٢) فكل من تزعم أمور المجتمع وأراد أن ينهض بالأُمَّه لابدَّ أن يحترم الحقوق الأربع التى ينبغى أن تتمتع بها الأُمَّه والتى أشار إليها الإمام عليه السلام ويبدو أنّ العقل والمنطق يرشد إلى ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه.

ص: ٢٢٢

١-١) مفتاح السعاده ٦ / ٨٤ - ٨٥. [١]

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ٤٠.

١- الحقوق المتبادله للإمام والأمة

إنَّ الحكومه رابطة بين الإمام والأمة على غرار رابطة الرأس بالجسد، حيث يتعذر القيام بالوظائف دون تظافر جميع الجهود، بعبارة أخرى فإنَّ أولياء الله فى الوقت الذى يكونون فيه خلفاء الله فى الخلق، فهم خلفاء الأمة من أجل ضمان مصالحها، ومن هنا كانت الحقوق المتبادله بين الإمام والأمة من أثقل الحقوق وأعظمها.

وقد وردت الأبحاث المسهبه فى الروايات بشأن هذه الحقوق، والتى تفيد مدى إهتمام الإسلام بهذا الموضوع الحيوى.

فقد افرد المرحوم الكلينى باباً فى المجلد الأول من كتابه أصول الكافى بهذا الخصوص وقد نقل أول حديث فيه عن أبى حمزه انه سأل الإمام الباقر عليه السلام: «ما حق الإمام على الناس»؟

قال عليه السلام: «حقه عليهم أن يسمعوا له ويطيعوه» قال فقلت له: «وما حقهم عليه» .

قال: «يقسم بينهم بالسويه ويعدل فى الرعيه» .

ولا يستبعد أن تكون الجملة الاولى إشاره إلى المسائل الاقتصادية والثانيه إلى القضايا الاجتماعيه والسياسيه. ثم قال عليه السلام آخر الحديث: «فاذا كان ذاك فى الناس فلا يبالي من أخذ هاهنا وهاهنا» (١) فى إشاره إلى أن الناس على كل حال إنما يحصلون على حقهم. سواء كان مصداقه هنا أم هناك.

حقاً أن سيره أمير المؤمنين عليه السلام انموذج مهم لا بدّ من اعتماده كقدوة فى الحكومه الإسلاميه. فقد كان عليه السلام شديداً فى أمر العدالة حتى وقف نفسه وضحى بها من أجلها. قال ابن أبى الحديد:

روى على بن محمد بن أبى يوسف المدائنى عن فضيل بن الجعد، قال: آكدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال، فإنه لم يكن يُفْضَلُ شريفاً على مشروف، ولا عربياً على عجمي، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل، كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه. وكان معاويه بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاويه؛ فشكى على

عليه السلام إلى الأشر تخذل أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاويه، فقال الأشر: يا أمير المؤمنين؛ إنا قاتلنا أهل البصره بأهل البصره وأهل الكوفه، ورأى الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، و وضعفت التيه، وقل العدد، وأنت تأخذهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتُصِفِ الوضيع من الشريف؛ فليس للشريف عندك فضلٌ منزله على الوضيع، فضجت طائفه ممن معك من الحق إذ عموا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاويه عند أهل الغناء والشرف، فتاقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقل من ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يجتوى الحق ويشترى الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجال، وتصف نصيحتهم لك، وتشي تخليص ودهم؛ صنع الله لك يا أمير المؤمنين! وكبت أعداءك، وفض جمعهم، أوهن كيدهم، وشئت أمورهم، إنه بما يعملون خبير.

فقال علي عليه السلام: أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل؛ فإن الله عز وجل يقول: «مَنْ عَمِلْ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»؛ وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف.

وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عدل، ولم يلتمسوا إلادنيا زائله عنهم كان قد فارقوها؛ وليسألن يوم القيامة: ألدنيا أرادوا أم لله عملوا؟

وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال؛ فإنه لا يسعنا أن نوتى أمراً من الفياء أكثر من حقه، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»، وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله؛ فكثره بعد القله، وأعز فتته بعد الذله؛ وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذل لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عز وجل رضاً؛ وأنت من آمن الناس عندي، وأنصحهم لي، أوثقهم في نفسي إن شاء الله.

٢- تعارض الحق والمصلحه!

عاده ما يحدث تعارض بين الحق والمصلحه ليكون أحدهما مقابل الآخر. وغالباً ما يميل

ساسه الدنيا فى هذه الحاله إلى المصلحه ويقدمونها على الحق. والتأريخ مليء بنماذج هذا التعارض وما أكثره فى عصرنا الراهن حيث نشاهده كل يوم - أما أولياء الله والقاده الربانيين فهم لا- يترددون فى إثارة الحق. وفى مقدمتهم أمير المؤمنين على عليه السلام الذى سلك الحق مع أعدائه فضلاً عن أصحابه فقد قيل بأن العدل فى تقسيم بيت المال حقاً لكنه لا يتفق مع المصلحه ولا بد من تقديم الأشراف والأثرياء على غيرهم فى مقابل الحد من سهم الضعفاء، بينما كان الإمام عليه السلام لا يتهاون فى إجراء العدل وإن شقَّ على صحبه وإنفروا عنه وإلتحقوا بعدوه، ولعلنا نلمس ذلك فى هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه. ولعل أغلب هذه المشاكل لم تكن لتظهر على السطح لو تسلم الإمام عليه السلام ذمام الأمور بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله كما أمر الله ورسوله بذلك، إلا أن قضيه التمييز فى العطاء قد ظهرت على عهد الخلفاء وبلغت ذروتها على عهد عثمان الذى كان ينفق المال على بطائنه وقرابته دون حساب، حتى طبعوا على هذه الإمتيازات فصعب إعادتهم إلى الحق وجاده الصواب. أضف إلى ذلك فإن إزدیاد حجم الغنائم وكثره أموال بيت المال هى الأخرى كانت سبباً لأن يضحى البعض كطلحه والزبير - وهما من السابقين إلى الإسلام وصحابه رسول الله صلى الله عليه وآله - بالحق من أجل مصالحهم الشخصيه، ومن هنا تعقدت المشاكل التى إعترضت حكومه الإمام عليه السلام - إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام ورغم علمه بظهور ما لا يحصى من المشاكل إن هو آشر الحق على المصلحه، لكنه لم يتخل عن سياسته المعهوده لعلمه بأن الهزيمه والخذلان تكمنان فى إثارة المصلحه على الحق، ناهيك عن كون نفس هذا الإيثارة يعنى تعطيل أحد القيم الإسلاميه، فى حين إحيائها ونقلها للأجيال المستقبليه يفوق أهميه تحقيق بعض الإنتصارات الوقتيه ولعل هذا الأمر يشكل رداً على أكثر الأسئلة التى تطرح بشأن حكومه على عليه السلام - وهذا ما سنتحدث عنه فى حينه فى الأبحاث القادمه إن شاء الله.

ومن خطبه له عليه السلام

بعد التحكيم وما بلغه من أمر الحكيمين وفيها حمد الله على بلائه، ثم بيان سبب البلوى.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَا بَعِيدٌ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ
الْمُجَرَّبِ تُوْرثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقَبُ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمْرُتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ
لِقَصِيرٍ أَمْرًا!

فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالَفِينَ الْجُفَاءِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعَصَاهِ حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصِيحِهِ، وَضَنَّ الزُّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ
أَخُو هَوَازِنَ: أَمْرُتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النَّصِيحَ إِلَّا ضَحَى الْعَدِي»

نظرة إلى الخطبة: نتيجته العصيان

كما ذكرنا سابقا فقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد إنتهاء قضيه التحكيم. فقد كانت نتيجته

ص: ٢٢٧

١ - ١) وردت هذه الخطبة مع اختلاف طفيف في مروج الذهب للمسعودي والكامل لابن أثير وأنساب الأشراف للبلاذري
وتاريخ الطبري والإمامه والسياسة لابن قتيبة الدينوري وصفين لنصر بن مزاحم، كما رواها البسط بن الجوزي في تذكره الخواص
وأبوالفرج الإصفهاني في الأغاني (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٥٩). [١]

التحكيم شاقه على العالم الإسلامي. وقد دلت على أن الإمام عليه السلام نهى عن التحكيم وحث على مواصلة القتال خشية تلك النتيجة - ومن هنا شدد الإمام عليه السلام في ذمه لأهل الكوفة وحملهم مسؤوليه تلك النتيجة بسبب تمردهم وعدم طاعتهم.

الشرح والتفسير

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة في ظل ظروف عصيبة ومأساه عظيمه، فقد أثمرت مؤامره معاويه وعمرو بن العاص إثر استغلال جهل أبو موسى الأشعري ومن وقف إلى جانبه، فقد تمكن ابن العاص من حسم التحكيم لصالحه، ظاناً أنه عزل الإمام على عليه السلام عن الخلافة ونصب معاويه مكانه!

طبعاً الإمام عليه السلام كان قد شعر ببالغ الآسى والحزن لأنه تكهن بهذه النتيجة وقد أطلع أهل الكوفة عليها، إلّا أنّ الجهل والعصبيه والأنانيه والتخاذل حال دون الاتعاظ بإرشادات الإمام عليه السلام ومواعظه الحكيمه.

على كل حال إستهل الإمام عليه السلام الخطبه - كما درج عليه في سائر الخطب - بحمد الله والثناء عليه، الحمد والثناء الذى يستبطن نكهه خاصه، فقد أورد الإمام عليه السلام حتى في ظل هذه الحادته الأليمه والبلاء العظيم «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب (١) الفادح (٢) والحدث الجليل» .

فالطريف أنّ الإمام عليه السلام أولاً يحمده الله على هذه الحادته ليعلم أنّ حمد الله والثناء عليه لا يقتصر على الحوادث المسره والتوفيقات والنجاحات والقيوضات المعنويه والماديه، بل يجب حمده على كل حال في السراء والضراء والعافيه والبلاء والغلبه والفشل، حتى الحوادث المريره تشتمل على فلسفه لو سير غورها لتبين أنّها جزء من النعم الإلهيه.

ص: ٢٢٨

١- ١) «خطب» على وزن ختم العمل المهم بين الإنسان والآخرين ومن هنا يصطلح بالمخاطبه على الحوار الذى يدور بين فرد وآخر.

٢- ٢) «فادح» بمعنى ثقيل ومن هنا يقال أفدحه الدين لمن أثقل كاهله.

ثانياً: أنه ينسب هذه الحادثة المريره إلى الدهر، ونعلم أن الدهر لا يعنى سوى أهله، وإلا فيزوغ الشمس والقمر وهطول المطر وهبوب الرياح وسائر الظواهر الطبيعیه ليست على شئ حتى تخلق مثل هذه الحوادث فالناس وبفعل أعمالهم الشائنه هم الذين يكونون السبب لمثل هذه الحوادث!

ولا شك إن هذه الحادثة لم تكن لتقع لو طاع أهل العراق الإمام عليه السلام والتفتوا إلى تحذيراته واتعظوا بنصائحه. والمراد بالخطب الفادح قضيه التحكيم التي جرت الولايات على العالم الإسلامي.

صحيح أن قضيه التحكيم - كما سيمر علينا في البحث القادم - لم تغير من حقيقه الأمر شيئاً، الا أنها كانت ذريعه كبرى لمعاويه ورهطه من أجل إغواء الجهال وتحريف الأفكار، كما أدت إلى ظهور البدع في العالم الإسلامي.

وقوله عليه السلام «حدث جليل» هو تأكيد آخر لآثار سوء لتلك البدعه المشؤومه.

ثم يردف عليه السلام الحمد والثناء بالشهادة لله بالوحدانيه ولمحمد صلى الله عليه وآله بالعبوديه والنبوه «وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله» فالإتيان بالشهادتين في مطلع الخطبه وأن تضمن التأكيد من جديد على لزوم تقويه دعائم التكامل الإنساني وإحياء الاصول العقائديه الإسلاميه، إلا أن يشير إلى قضيه الحكمين، وذلك أن الأمة قد جاوزت أصل التوحيد واتجهت صوب أفعال الشرك وتجاهلت التأسى برسول الله صلى الله عليه وآله فاستسلمت لاهوائها.

ثم تطرق عليه السلام إلى الهدف الأصلي من الخطبه «أما بعد، فان معصيه الناصح الشفيق العالم المجرب (1) تورث الحسره وتعقب الندامه». فالعبارة بمنزله الكبرى وبيان قاعده كليه في أن المستشار إذا تحلى بأربع صفات فإن مخالفته توجب الندامه والحسره لا محاله. الاولى صفه النصح واراذه الخير ومقتضى ذلك السعى لاحقاق الحق.

الثانيه القلب المفعم بالعطوفه والرأفه والحب وإراذه السعاده والخير النابعه من أعماق

ص: ٢٢٩

١ - ١) «مجبرب» على وزن محقق ممن يتمتع بمعرفه عظيمه بفعل كثره التجارب إنما أن العرب تلفظه مجرب بالفتح على وزن مقرب.

القلب لمن يطلب الاستشارة. الثالثه العلم والوقوف على كافه جوانب الأمر وتحليل جميع الملابسات ودراسه الحوادث والنتائج المتمخضه عنها الرابعه تجربه الكافيه فى القضايا الفرديه والاجتماعيه المهمه؛ أى التحلى بالعقل العملى إلى جانب العقل النظرى فاذا كان هنالك مثل هذا الفرد يتمتع بمثل هذه الصفات فإنه يبلغ بالإنسان واقع الأمر لا محاله، كما أن مخالفته لا تقود سوى إلى الحيره والضلال والندم والخسران الذى يفرزه الجهل والغرور.

وما إن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الكبرى (القاعده الكليه) حتى يتطرق إلى الصغرى والمصداق المطلوب فيقول «وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومه أمرى، ونخلت (١) لكم مخزون رأى، لو كان يطاع لقصير أمرا!» فقد كشف الإمام عليه السلام عن مخالفته لاصل التحكيم فضلا عن كفيته والطريقه التى تم فيها.

ولقد أخيرهم عن آثار هذه القضيه المشؤومه، إلّا أنّ تعصبهم ولجاجتهم حالت دون سماعهم لرأى الإمام عليه السلام فاصروا على باطلهم والآن يجنون ثمار جهلهم والعباره «لو كان يطاع لقصير أمر» مثل مشهور عند العرب، فهو قصير صاحب جذيمه، وحديثه مع جذيمه ومع الزياء مشهور فضرب المثل لكل ناصح يعصى بقصير، ويطلق على الأفراد الذين لا يصغون إلى الناصح المجرب الشفيق والذى لا يعقب سوى الندم.

فالإمام عليه السلام يشبه نفسه بقصير وأهل الكوفه بجزيمه الجاهل ومستشاريه البلهاء، حتى وقعوا فى شباك عمرو بن العاص ومعاويه. ثم قال عليه السلام: «فأبيتم على إباء المخالفين الجفاه والمنابذين (٢) العصاه، حتى إرتاب الناصح بنصحته، وضمن (٣) الزند (٤) بقده (٥)» .

لقد حذرتكم من أن رفع المصاحف على الحراب مكر وخديعه، فقد بلغ القتال مرحله

ص: ٢٣٠

١-١) «نخلت» من ماده «نخل» بمعنى تنقيه الشئى، واستعمال هذه المفرده فى الخطبه تشير إلى الرأى الصائب الذى طرحه الإمام عليه السلام على أصحابه بشأن التحكيم.

٢-٢) «منابذين» من ماده «نبد» بمعنى الابعاد، وتستعمل هذه المفرده فى نقض العهد، وذلك لان ناقض العهد إنّما يطرح العهد بعيدا عنه.

٣-٣) «ضمن» من ماده «ضمن» بمعنى البخل والامساک.

٤-٤) «زند» بمعنى الخشب الذى يشعلون به النار (حيث كانوا يولدون النار سابقا بضرب خشبتين ببعضهما، ثم اطلق على كل وسيله لاشعال النار ومنه الزناد).

٥-٥) «قدح» ومنه القداحه ما يخرج منه النار.

خطيره وأوشك على نهايته وقد لاحت بوادر النصر، إلّا أنّكم لم تسمعوا كلامي وتركتم القتال وإذ عنتم للتحكيم. وقد قلت لكم إن كان ولا بدّ فابعثوا ابن عباس حكماً، فلم تقبلوا، ثم أشرت عليكم بما لك الأشر فلم تستجيبوا وأبتم إلّا أبى موسى الأشعري الاحمق الجاهل الذي لا يقوى على ابن العاص فلم تكن النتيجة سوى خيبتكم وخسرانكم وندمكم (١).

والعبارة «المخالفين الجهاه» ان مخالفتكم لى لم تقتصر على سوء تشخيصكم، بل كان ذلك بدافع من جفائكم وعصيانكم وطغيانكم. وقد أكد هذا المعنى بقوله «المنابذين العصاه» .

وأما قوله «ضمن الزند بقدحه» فهو مثل أيضاً يقال لمن يكف عن الافصاح بالحقايق لعدم وجود من يسمع، فقد إراد عليه السلام خالفتموني حتى ظننت أنّ النصح الذي نصحتكم به غير نصح، لا طباقكم واجماعكم على خلافي، وتعنى العبارة الأخيره أنّه لم يقدر لى بعد ذلك رأى صالح لشده ما لقيت منكم من الابهاء والخلاف والعصيان. ثم قال عليه السلام فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن: أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلّا ضحى الغد

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دريد بن الصمه، وأبياته مذكوره فى الحماسه. وكان من خير هذا الشعر أنّ عبد الله وهو اسم آخر لعارض وهو أخو دريد - كان أسود إخوته، فغزا ببني جشم وبني نصر إبنى معاويه بن بكر بن هوازن؛ وغنم مالا عظيماً بمنعرج اللوى؛ فمنعه دريد عن اللبث، وقال: إنّ غطفان ليست بغافلها عنا، فحلف أنّه لا يريم حتى يقسم، وأوقعوا بعبد الله وقتلوه فهرب دريد بعد أن نجى منهم، فانشد هذا البيت الذى إستشهد به الإمام عليه السلام فى الخطبه (٢).

ص: ٢٣١

١-١) راجع مروج الذهب ٢ / ٢٩٠ وسترده بعض الايضاحات لهذه الخطبه لاحقاً.

٢-٢) الاغانى لآبى الفرج الاصفهاني ١٠ / ٣، شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئى ٤ / ٨٨، شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ /

إن الذى دعا إليه طلب أهل الشام له وإعتصامهم به من سيوف أهل العراق، فقد كانت أمارات القهر والغلبة لاحت، ودلائل النصر والظفر وضحت. وفى هذه الأثناء رفع أهل الشام المصاحف على الرماح. فسأل مالك الإمام عليه السلام مواصلة القتال. فقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال - فقال عليه السلام: هذا أمر ينظر فيه.

فنادى الناس من كل جانب: الموادعه. فقال عليه السلام: أيها الناس إنى أحق من أجب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وصحبهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنى أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شر صغار وشر رجال، ويحكم إنهم كلمه حق يراد بها باطل، إنهم ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيده، أعيرونى سواعدكم وجماجكم ساعه واحده، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا. فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين فى الحديد، شاكى سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود فنادوه باسمه لا بأمر المؤمنين: يا على أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم. فقال لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجب إليه. إنى إنما قاتلتهم ليدنوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكنى أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وإنهم ليس العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فإبعث إلى الأشتر ليأتينك - فقال الأشتر: قل لعلى عليه السلام ليس هذه بالساعه التى ينبغى لك أن تزيلنى عن موقفى. فارتفع وهج القوم وعلت الأصوات وقالوا لعلى عليه السلام: والله ما نراك أمرته إلا بالقتال، فإبعث إليه يأتيك وإلا فوالله إعتزلناك. فبعث له الإمام عليه السلام ثانيه. فقال الأشتر: أرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم. قال: ألا ترى إلى الفتح. ثم أقبل الأشتر حتى إنتهى إليهم فصاح فيهم أمهلونى فواقا فإنى قد أحسست بالفتح. فلم يجيبوه. فلما إنتهى الأمر إلى الحكيم قال عليه السلام هذا ابن عباس أولئيه ذلك فهو لابن العاص. فلم يوافق الأشعث ورهطه. فقال عليه السلام: فإنى أجعل الأشتر. فقال الأشعث:

وهل سَعَرَ الأرض علينا إلا الأشر. ثم إضطر الإمام عليه السلام لقبول أبو موسى. فاتفق معه عمرو بن العاص على أن يخلع كل صاحبه ويدعون الناس للشورى. فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس أجمع رأيي ورأى صاحبي على خلع عليّ ومعاويه ويكون الأمر شورى بين المسلمين. فقام عمرو بن العاص وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاويه في الخلافة، فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه. (١)

٢- الاستفادة من آراء الآخرين

لاشك أن الشورى تشكل أحد أسس التعاليم الإسلامية التي حظت بأهميه فائقة في الآيات القرآنية والروايات والأخبار. فالقرآن يرى أن المشورة من علامات الإيمان، ويجعلها في مصاف الصلاة والزكاة - التي تعد من أركان الإسلام - «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ». (٢)

كما أمر الله سبحانه صراحه باستشاره المؤمنين في الأمور المهمه، رغم إتصال رسول الله صلى الله عليه وآله بالوحي وكونه العقل الكامل «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» (٣) والمهم في قضيه المشوره إنتخاب المستشار الذي يتحلى ببعض خصائص الصفات التي وردت في الخطبه التي نحن بصددھا: «الناصح الشفيق العالم المجرب»، والحق أن مخالفه الفرد الذي يتصف بهذه الصفات لا تفضى سوى إلى الحسره والندامه.

صحيح أن المتعصبين في صفيين لم يستشروا الإمام عليه السلام إلا أن الإمام عليه السلام أبدى رأيه الذي يمثل رأى الناصح الشفيق والعالم المجرب، إلما أنهم وللأسف الشديد لم يستجيبوا لرأى الإمام عليه السلام وهبوا لمجابهته وهددوه بالقتل، فلم تتمخض النتيجة سوى عن ندمهم التاريخى الذى جر الويلات على العالم الإسلامى.

ص: ٢٣٣

١- ١) إقتباس وتلخيص لما ورد فى شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢/٢٠٦ - ٢٥٦. [١]

٢- ٢) سورة الشورى / ٣٨ [٢]

٣- ٣) سورة آل عمران / ١٥٩. [٣]

ومن خطبه له عليه السلام

في تخويف أهل النهروان

«فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُضَيَّ بِحُورٍ صَيْرَعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ، عَلَى غَيْرِ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَا سَيْلَانَ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمْ الدَّارُ وَاحْتَبَلَكُمْ الْمِقْدَارُ. وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صَيَّرْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمُ وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخْفَاءِ الْهَامِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ؛ وَلَمْ آتِ - لَا أَبَا لَكُمْ - بُجْرًا وَلَا أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرًّا» .

نظرة إلى الخطبة

واضح أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة في النهروان جنب النهر في يوم القتال عام ٣٧ هـ. وقد أشار عليه السلام ألى ثلاثه أمور:

١- عدم خوض القتال دون قيام الدليل الشرعى والبينه من الله، وإلّا فأنهم يقضون على أنفسهم.

ص: ٢٣٥

١- ١) وردت هذه الخطبة أو بعضها مسنده أو مرسله من قبل المؤرخين والمحدثين. م - قال ابن أبي الحديد (٢/٢٨٣) [١] نقلها ابن حبيب البغدادي (المتوفى عام ٢٥٤). ب - ابن قتيبة الدينوري في الامامه والسياسه، ١/١٢٧. ج - البلاذرى في أنساب الأشراف، ٢/٣٧١. [٢] - الطبرى فى تاريخ الرسل والملوك، ٦/٣٣٧٧. [٣]

٢- أن القوم تذرعوا بقضيه التحكيم، والحال أن الإمام عليه السلام كان يرفضها منذ البدايه.

٣- أنهم يقاتلون الإمام عليه السلام دون أن يصدر عنه ما يدعو لذلك من معصيه، فإن كان هنالك من خلاف فقد صدر منهم ومن بعض الأفراد، ومن الجهل تحميل الإمام عليه السلام مسؤوليه ذلك الخلاف، وهكذا أتم عليهم الإمام عليه السلام الحجه.

الشرح والتفسير

إتمام الحجه على الخوارج

كما أشرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام خطبها قبل بدأ معركة النهروان التي أفرزتها قضيه التحكيم. فقد خرجت تلك الطائفة الجاهله على الإمام بعد التحكيم لتعتبره هو المسؤول عنه، في حين كان الإمام عليه السلام يعارض أصل التحكيم من الأساس إلى جانب رفضه الحكم. فالواقع أن الخطبه إتمام الحجه عليهم. فقد إستهل خطبته بالقول «نحن أهل بيت النبوه وموضع الرساله ومختلف الملائكه وعنصر الرحمه ومعدن العلم والحكمه - نحن أفق الحجاز، بنا يلحق البطيء وإلينا يرجع التائب» (١) ثم خاطبهم قائلاً: «فانا نذير لكم أن تصبحوا صرعى (٢) بإثناء هذا النهر، وبأهضام (٣) هذا الغائط (٤) على غير بينه من ربكم، ولا سلطان مبين معكم». فعباراه الإمام عليه السلام نبوءه صريحه بشأن عاقبه معركة النهروان حيث أخبرهم بأنهم سيصرعون دون النهر، والافضع من ذلك موقفهم العسير يوم القيامه واسوداد وجوههم، حيث ليس لهم من دافع للقتال سوى العصيه والجهل دون وجود أيه بينه.

شرعيه يمكنهم الاستناد إليها وعليه فهم يهلكون أنفسهم في الحياه الدنيا وليس لهم في الآخره إلا النار. ثم قال عليه السلام «قد طوحت (٥) بكم. الدار وأحتبلكم (٦) المقدار» والمفرده (دار) إشاره

ص: ٢٣٦

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٢٨٣. [١]

٢- ٢) «صرعى» جمع «صريع» من ماده «صرع» بمعنى طريح، وتعنى الجنازه أو المقتول الملقى على الأرض؛ كما يطلق على من يسقط على الأرض فى المصارعه، و من هنا يطلق مرض الصرع على من يغمى عليه و يقع على الأرض.

٣- ٣) «أهضام» جمع هضم وهو المطمئن من الوادى وتعنى الكسر والضغط.

٤- ٤) الغائط ما سفلى من الأرض والمراد هنا المنخفضات.

٥- ٥) «طوحت» من ماده «طوح» بمعنى السقوط والهلكه، وإذا ورد من باب التفعيل كما ورد فى الخطبه فإنه بمعنى القذف فى المتاهه والمضله.

٦- ٦) «أحتبل» من ماده «حبل»، أوقعكم فى حباله، والمقدار القدر الإلهى.

إلى دار الدنيا أو بعبارة أخرى الاغترار بالدنيا والعبودية لها و «احتيل» من ماله حيل بمعنى الفسخ، والمراد بالمقدار حسب بعض شراح نهج البلاغه الفكر الخاطيء والتحليل العبثى لمختلف الحوادث، وقال البعض الآخر تعنى القدر الإلهى. وإذا تأملنا تأريخ الحادثه سيتضح لدينا الأثر البالغ الذى لعبه كلام الإمام عليه السلام فى هذه الطائفه، فقد كانت طائفه متعصبه لجوجه جاهله هزيله. ثم أشار عليه السلام إلى قضيه التحكيم فقال «وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومه فايتم على إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأبى إلى هواكم» إنكم لتحملونى مسؤوليه عمل أنتم إرتكبتموه، بل أبعد من ذلك جعلتم تهددونى بالقتل على قبوله، والآن بعد أن تبين لكم فداحه خطأ العمل وتحاولون إلقاء تبعته على «وأنتم معاشر أخفاء الهام (1) سفهاء الأحلام». يمكن أن تكون هذه العبارة تأكيد لسفاهه وبلاجه أصحاب النهروان.

كما يمكن أن تكون العبارد السابقه - كما ذكر ذلك بعض شراح نهج البلاغه - إشاره إلى خفه أهل النهروان الذين تتغير أفكارهم وحركتهم لأذنى شىء، فهم يتعصبون يوماً للتحكيم، وآخر يعادونه أشد العداة، أمّا العبارة الأخيره فهى تشير إلى ضحاله فكرهم، وذلك لأن مؤامرات العدو كانت تتكشف يوماً بعد آخر ولم تكن خافيه على أهل البصائر إلّا أنهم لم يكونوا يرونها أو يدركونها؛ الأمر الذى جعلهم يخذعون أكثر من مره بحيل معاويه وبطانته، فيرتكبون ما يؤدى إلى بؤسهم وشقائهم وجر الولايات والمصائب على المسلمين. ثم يختم الإمام عليه السلام خطبته بالتأكيد على هذه الحقيقه بأن كل ما يصيبكم من بلاء ممّا إرتكبته أيديكم ولست طرفا فيه أبداً، بل خالفتمونى وشهرتم سيوفكم لتهددونى بالقتل «ولم آت - لا أبا لكم! - بجرا ولا أردت لكم ضرراً». العبارة لا- أبا لكم يمكن أن تكون سباً ولعناً، تشير إلى أنكم لم تحظوا بتربيته أسريه إسلاميه صحيحه، ومن هنا فأنكم تفعلون الأفعال الشائنه وتنسبونها إلى الآخريين، ويمكن أن تكون دعاء عليهم؛ أى أمات الله آبائكم وهى فى الواقع كناية عن ذلتهم وهوانهم؛ لأن فقدان الأب فى ريعان الشباب تدعو إلى الذله والهوان.

ص: ٢٣٧

(١- ١) «الهام» جمع هامه رأس الإنسان أو سائر الكائنات الحيه، واخفاء الهام تغنى ضعاف الفعل.

ذكرنا حين شرحنا للخطبة الشقشقيه فى المجلد الأول أنّ الخوارج فئه متعصبه وجاهله قد ظهرت من بطن صفيين وقضيه التحكيم. فقد أقرت مسأله التحكيم (عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري) وفرضوها على الإمام عليه السلام. ولم يصفوا إلى قول الإمام عليه السلام أنها خدعه ولم يبق إلا القليل على ختم فتنه أهل الشام وزعيمهم معاويه. لكنهم تدموا بعد نتيجة التحكيم وتابوا لكنهم أفرطوا هذه المره حيث حكموا يكفر قبول التحكيم وشعارهم الحكم لله فلا بد أن يتوب على عليه السلام من هذه المعصيته. قال الإمام عليه السلام أن التحكيم ليس كفرا، فقد أشار القرآن إلى هذه المسأله فى حل الخلافات العائليه «فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» وفى كفاره الإحرام «يحكم به ذوا عدل منكم» لكن التحكيم الذى أقرتموه كان خاطئا - على كل حال إقتنع هؤلاء - وكان من بينهم بعض المتظاهرين بالعباده والإتيان بالمستحبات - بقشور الإسلام وتركوا جوهره فاجتمعوا ضد أمير المؤمنين عليه السلام فى منطقه قرب الكوفه تدعى الحروراء قرب النهروان. فبالغ الإمام عليه السلام فى وعظهم ونصحهم حتى عاد أكثرهم إلى رشده بينما بقى أربعة آلاف منهم فلما تثبت المعركه صرعوا جنب النهر ولم ينج منهم إلا القليل كما أخبر الإمام عليه السلام.

وقد شهدت حياه الخوارج وسيرتهم العديد من التناقضات العجيبه ومن ذلك:

١- لقيهم عبدالله بن الخباب فى عنقه مصحف، على حمار، ومعه إمراة وهى حامل، فقالوا له: إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياء القرآن فأحيوه،

وما أماته فأميته، فوثب رحيل منهم على رطبه سقطت من نخله فوضعها فى فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعا. وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد فى الأرض، ثم قالوا لابن الخباب: حدثنا عن أبيك. فقال: إني سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ستكون بعدى فتنه يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا، فكن عبدالله المقتول ولا تكن القاتل - قالوا: فما تقول فى على بعد التحكيم والحكوم؟ قال: إن عليا أعلم بالله وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيره - فقالوا: إنك لست تتبع الهدى، ثم قربوه إلى شاطئ النهر فأضجعوه فذبوه. (١)

ص: ٢٣٨

(١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢/٢٨١ و [١] تاريخ الطبرى ٢/٦٠ - ٦١، [٢] حوادث عام ٣٧.

٢- قال قيس بن سعد بن عباده: إستنطقهم الإمام عليه السلام بقتل عبدالله بن الخباب فأقروا به، فقال: إنفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبه كتيبه. فأقرا جميعا بقتله. فقال على عليه السلام: «والله لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم». (١)

٣- حين هجم الخوارج على جيش الإمام عليه السلام إلتفت إلى أصحابه فقال: والله لا ينجو منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة. والعجيب أنه لم يقتل من أصحاب الإمام عليه السلام سوى تسعة ولم ينج من الخوارج إلا ثمانية.

٤- كانت قضيه الخوارج قد فعلت فعلها فى الإمام عليه السلام وقد إنعكست سلبا على الوسط الإسلامى، فكان عليه السلام لا ينفك عن التحدث عنها ليبين للناس كيفيه إنحرافهم فيعتبروا بهم، ولا غرو فمثل هذا التفكير السطحي المشوب بالجهل والعناد لا يخلو منه عصر ومصر. والخطب التي تحدث فيها الإمام عليه السلام عن الخوارج هي الخطبه: ٤٠، ٥٩، ٦٠، ٦١، ١٢١، ١٢٢، ١٢٧، ١٨٤، والرساله ٧٧، ٧٨ والتي سنعرض لشرحها جميعا إن شاء الله.

الجدير بالذكر أن خط الخوارج - كما ذكرنا - تيار يتواجد على مدى التاريخ ولا يقتصر على عهد على عليه السلام - فهم فئه لا تعرف من الدين سوى ظاهره ولا تعتد إلا بأفعالها وأعمالها وترى إنحراف كل من سواها وقد ملئت سيرتها بالتناقضات، فهي بلاء وآفه تصيب المجتمع. والغريب فى الأمر أن الإمام عليه السلام أشار إلى هذه الفئه كظاهرة فوصفهم فى الخطبه ٦٠ قائلا: «كلا والله، إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين.

ص: ٢٣٩

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢/٢٧١ - ٢٨٢. [١]

ومن كلام له عليه السلام

يجرى مجرى الخطبه وفيه يذكر فضائله عليه السلام قاله بعد وقعه النهروان.

نظره إلى الخطبه

بناءً على ما ذكره ابن أبي الحديد فإن هذه الخطبه تشتمل على أربعة فصول لا يمتزج بعضها ببعض:

الفصل الأول: يشير فيه الإمام عليه السلام إلى خدماته الجليله التي أسداها للإسلام إبان انبثاق الدعوه الإسلاميه فقد أوجز ذلك بقوله: «فقد قمت بالأمر حين فشلوا وتطلعت حين تقبعوا ونطقت حين تعتعوا ومضيت بنور الله حين وقفوا، كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز» .

ص: ٢٤١

١ - ١) قال صاحب مصادر نهج البلاغه هذه من الخطب المعروفه التي رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم: ١ - الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ١٧٠. ٢ - ابن قتيبه الدينوري في الإمامه والسياسه ١ / ١٥٠. ٣ - ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ / ٧١. ٤ - البلاذري في كتاب أنساب الأشراف (في شرح سيره على عليه السلام) / ٣٨٠. ٥ - القاضي نعمان المصري في دعائم الإسلام ١ / ٣٩١ (مع اختلاف وما ورد في النهج وقال الشارح الخوئي يستفاد من بحار الأنوار والإحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبه جزء من الخطبه ٢٧ (شرح نهج البلاغه، الخوئي ٤ / ٢١).

الفصل الثانى يشير إلى وقوفه الصلب على الدوام بوجه الظلمه من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

الفصل الثالث يشير إلى إستحاله الكذب عليم لأنه أول من صدق بالنبى صلى الله عليه وآله وعليه فلا ينبغى أن يستسرب الشك إلى إخباره عن المغيبات التى أخبره بها رسول الله صلى الله عليه وآله.

الفصل الرابع يختتم الخطبه بعذرته فى البيعه لمن سبقه من الخلفاء، وأنه فعل ذلك طاعه لرسول الله صلى الله عليه وآله وخشيته الفرقة والتشتت فى صفوف المسلمين واستغلال ذلك من قبل خصوم الدعوه الإسلاميه.

ج ج

ص: ٢٤٢

«فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشَلُّوا وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا - وَكُنْتُ أَحْفَضَهُمْ صَوْتًا وَأَعْلَاهُمْ فَوْتًا فَطَرْتُ بَعْنَانَهَا وَاسْتَبَدَّدْتُ بَرِهَانَهَا، كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَعْمَزٌ» .

الشرح والتفسير

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ الفصل الأول من الخطبه يتضمن ذكر الإمام عليه السلام لمقاماته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيام أحداث عثمان، وكون المهاجرين والأنصار كلهم لم ينكروا ولم يواجهوا عثمان بما كان يواجهه به وينهاه عنه إلّا أنّ سياق الكلام يشير إلى الحوادث التي وقعت على عهد النبي صلى الله عليه وآله ولا سيما في بدايه انطلاق الدعوه الإسلاميه. فقال عليه السلام «فقمتم بالأمر حين فشلوا وتطلعت (١) حين تقبعوا (٢) ونطقت حين تعتعوا (٣) ومضيت بنور الله حين وقفوا. وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً (٤)» ثم أضاف عليه السلام أنّه تألق تلك المده وحاز السبق على الآخرين «فطرت بعنانها واستبددت برهانها (٥)، كالجبل لا تحركه

ص: ٢٤٣

١- ١) «تطلعت» من ماده «طلع» بمعنى مد العنق بحثاً عن شىء، وأصلها طلوع بمعنى الظهور والبروز.

٢- ٢) «تقبعوا» من ماده «قبع» بمعنى الاختباء، وأصله قبع القنفذ إذا أدخل رأسه في جلده.

٣- ٣) «تعتعوا» من ماده «عتع» بمعنى تلثم اللسان، والمراد ترددوا في كلامهم.

٤- ٤) فوت تعنى فقدان الشىء، وتطلق على التفاوت بين شيئين وابتعادهما عن بعضهما بحيث لا يدرك أحدهما الآخر، ومن هنا تطلق هذه المفردة على من يسبق الآخرين، وهذا هو الذى اريد بها فى العبارة.

٥- ٥) «الرهان» من ماده «رهن» بمعنى جعل الشىء عند الآخر، ومن هنا يطلق الرهن على وثيقه الدين، كما يطلق الرهان على جوائز المسابقات، والمراد بقوله «استبددت برهانها» إنفردت بجائزه هذه المسابقه الإلهيه.

القواصف ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحد في مهمز (١) ولا لقائل في مغمز (٢) .

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أمور هي: -

الأول: أن الآخرين كانوا آنذاك يعانون من الضعف والعجز، وأنا الذي نهضت بالأمر وقمت بوظيفتي.

الثاني: أن الخوف دفع الآخرين آنذاك لأن يقبوعوا في جحورهم وأنا الذي إنبريت للأمر وكنت أتطلع إلى العدو.

الثالث: أنا الذي نطق لساني بالحق وبيان الحقائق الدينيه والتعاليم الإسلاميه حين عجز الآخرون عن الكلام.

الرابع: لم يعتريني الشك آنذاك كما إعتري الآخرين فواصلت سبيلي على هدى من ربي ونور إيماني ويقيني بالوحي.

ورغم كل ما تقدم لم أكن لأتفاخر على أحد «كنت أخفضهم صوتاً» ثم يخلص عليه السلام من كل ذلك إلى نتیجه مؤداها «فطرت بعنانها واستددت برهانها» . ثم يعود عليه السلام للتأكيد على ما مضى من حوادث وكيف واجهها فقال «كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف» مع ذلك فقد خضت ما خضت و «لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز» .

كما أوردنا آنفاً فإن المراد بهذه العبارات ما حدث في بدايه إنبثاق الدعوه الإسلاميه؛ لأننا نعلم جميعاً بأنّ علياً عليه السلام كان أول من أسلم حين كان الإسلام غريباً ولم يكن هناك من يهب للدفاع عن الإسلام والقرآن والنبى صلى الله عليه وآله؛ المعنى الذي يلمس بوضوح في يوم الدار حين انطلقت الدعوه الإسلاميه للعلن بعد ثلاث سنوات من الدعوه السريه.

ولم يجب النبي صلى الله عليه وآله ويعلن دعمه له ووقوفه إلى جانبه سوى على عليه السلام وفي ليله المبيت نام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله لينجو من مؤامره قريش التي استهدفت قتله، ناهيك عن فتح خيبر حين عجز الآخرون، وبرزه لعمر بن عبدود العامري في الأحزاب حين لم يكن غيره من انبرى لقتاله.

ص: ٢٤٤

١-١) لم يكن في مهمز من الهمز يعني لم يكن في عيب أعاب به.

٢-٢) «الغمز» بمعنى الطعن والغماز من يبحث عن العيوب ويطعن بالناس، وهذا هو المراد بالعباره.

كما يحتمل أن يكون المراد بالقيام بالأمر والجمل اللاحقه الدفاع عن الإسلام على عهد الخلفاء، لأن أغلب المؤرخين المسلمين يقرون بان علياً عليه السلام كان المفزع في حل المشاكل والمعضلات التي تواجه المسلمين.

فقد وردت العبارة المعروفة عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب «اللهم لا تبغى لمعضله ليس لها أبو الحسن» (1).

أو ما تناقلته كتب الفريقين والتي تؤكد هذا المعنى، حتى صرح بعض أرباب اللغة أنّ العبارة «مشكله ليس لها أبو الحسن» أصبحت مثلاً لدى العرب. وهناك احتمال ثالث في أن يكون المراد قيامه عليه السلام بأمر الخلافه بعد انهيار حكومه عثمان وإثر تلك العواصف التي عصفت بالمسلمين بعد مقتل الخليفة الثالث، فقد تصدعت آنذاك عرى المجتمع الإسلامي، وقد تأهبت عناصر النفاق ومن تبقى من أسلاف الجاهليه ومشركي العرب، فلم يكن للأئمة من أمل سوى على عليه السلام، أجل لقد نهض الإمام عليه السلام بالأمر في ظل تلك الظروف وحفظ وحده المسلمين.

أما قوله «كنت أخفضهم صوتاً» فلعله إشارة إلى تواضع الإمام عليه السلام إلى جانب كل تلك الانتصارات والنجاحات، أو إشاره إلى أن الإمام عليه السلام لم يكن من أهل التظاهر وإثاره الصخب والضوضاء فهذه معاني الأفراد الضعفاء العجزه.

ومن هنا أردفها بقوله «وأعلاهم فوتاً» التي تعنى السبق على الآخرين، السبق في الإيمان والهجره، والسبق بالجهاد والقتال، وأخيراً السبق في كافة الفضائل الأخلاقية.

وقوله عليه السلام «فطرت بعنائها واستبددت برهانها» هو الآخر تأكيد لهذا الأمر، ولا سيما أن فاء التفريع وردت في البدايه كنتيجه للبرامج السابقه، أى أنّي ركبت مركب النصر وسبقت الآخرين، وذلك لأنني لم أشعر بالضعف طرفه عين ولم أهب الحوادث المرعيه وأفقد الفرص المواتية، ومع ذلك لم أثير أيه ضجه أو صخب وضوضاء.

ثم يشبه نفسه عليه السلام بالجبل العظيم الذي لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. والطريف في الأمر أن الإمام عليه السلام ذكر القواصف ثم أردفها بالعواصف، وذلك لان القواصف تعنى الرياح

ص: ٢٤٥

١- ١) ورد هذا الحديث بعده تعبيرات في أغلب مصادر العامه، ومن أراد الوقوف على المزيد فليراجع الغدير ٣/ ٩٧. [١]

العاتيه الكاسره، والعواصف الرياح السريعه الجارفه، فى اشاره الى أنّ الحادثه كانت من الشده بحيث تقضى على الإنسان فى موضعه، وأحياناً تكون أكثر شده فتجرفه كما تجرف أوراق الشجر وتقذف به فى مكان سحيق.

ثم قال عليه السلام: «ولم يكن لأحد فى مهمز ولا لقائل فى مغمز». فالمعروف أنّ من يعمل يخطى ومن يرد الميدان الاجتماعى ويمارس الأنشطة والفعاليات فإنّه يتعرض إلى بعض الانتقادات من هنا وهناك، فما ظنك بالإمام عليه السلام الذى كان سباقاً فى كل الميادين. وبالطبع فإنّ العيوب والمطاعن فى غيره لم تحص رغم ندره إقتحامه للميدان الاجتماعى. (1)

ص: ٢٤٦

١-١) لقد أوردنا توضيحات مسهبه بهذا الشأن فى شرح الخطبه الشقشقيه.

«الدليل عندى عزيز حتى أخذ الحق له والقوى عندى ضعيف حتى أخذ الحق منه، رضيينا عن الله قضاءه وسلمنا لله أمره» .

الشرح والتفسير

لما كانت عداله الإمام عليه السلام هى السبب الذى يقف وراء أغلب الحوادث الأليمه والحروب الداميه، واعتياد الناس لسنوات على الظلم والجور والاضطهاد على عهد الخلفاء الثلاث ولاسيما عصر عثمان، فإنهم لم يكونوا مستعدين بهذه السهوله لقبول منطق المساواه أمام القانون وفى العطاء من بيت المال.

فالإمام عليه السلام يؤكد فى هذه الخطبه أنى سأواصل سيرتى فى العدل وإحقاق الحق وانتزاعه من القوى، بل هذا هو هدفى من الحكومه، وبناءً عليه فالقوى عندى ضعيف حتى أخذ الحق منه والضعيف قوى حتى أخذ الحق له «الدليل عندى عزيز حتى أخذ الحق له والقوى عندى ضعيف حتى أخذ الحق منه» ومن هنا كان لاينفك عليه السلام عن تأكيده على الحديث المعروف عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذى ضمنه عهده إلى مالِك بعد أن أوصاه قائلاً: واجعل لذوى الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذى خلقك. . . فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لن تقدس أمه لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتبع» . (١)

ص: ٢٤٧

كان الإمام عليه السلام شديد الحرص على العدالة لا يؤثر عليها أى شى وقد وردت عدة أحاديث بهذا الشأن فى أن الإمام عليه السلام كان يقسم عطاء بيت المال فقدم رجل من الأنصار فاعطاه ثلاثه دنا نير، ثم دخل عليه عبد أسود فاعطاه ثلاثه أيضاً، فقال له الأنصارى، يا أميرالمؤمنين سويت بينى وبين عبدى الذى عتقته بالأمس. فقال عليه السلام لم أرفى الكتاب فضلاً لولد اسماعيل على ولد اسحاق «إن آدم لم يلد عبداً ولا أمه إن الناس كلهم أحرار» (١).

ثم قال عليه السلام: «رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره» تنطوى هذه العبارة على معنيين: الأول أن الله أمرنا بنصره المظلوم ومقاتله الظالم، وإنى مسلم لهذا الأمر ولا بد من التسليم والرضى قبل الآخرين شاءوا أم أبوا.

نصره المظلوم ومجاوبه الظالم

لقد شحن نهج البلاغه بوصاياهم عليه السلام التى تؤكد على الحكومه الإسلاميه فى أن تكون للمظلوم عوناً وللظالم خصماً. ومن ذلك ماورد فى خطبته المعروفه بالشقشقيه من أن الحكومه وسيله للاتصاف للمظلوم «وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظه ظالم ولا سغب مظلوم»، أما آخر وصيه لولده الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً». (٢)

وقال فى موضع آخر من نهج البلاغه «وآيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامتة حتى أوردته منهل الحق وإن كان كارهاً» (٣).

ولا غرابه فالقرآن الكريم قد أكد هذا الأمر ليحث المؤمنين على نصره المظلومين ولو تطلب ذلك القتال «وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا» (٤).

ص: ٢٤٨

١- ١) روضه الكافى / ٦٩ ح ٢٦.

٢- ٢) نهج البلاغه، الرساله ٤٧. [١]

٣- ٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٣٦. [٢]

٤- ٤) سوره النساء / ٧٥. [٣]

جدير بالذكر أنّ الفلسفه الأصلية لتشكيل الحكومه وتشريع القوانين (سواء القوانين الإلهيه أو الوضعيه التي تسنها الأنظمه البشريه) هو حفظ حقوق الضعفاء وتوفير الدعم والاسناد لهم، لأنّ الطغاه والجبايره يعتمدون منطلق القوه الغاشم من أجل هضم حقوق الآخرين، وعليه فلو تخلت الحكومه والقانون عن دعم المظلومين والمستضعفين فإنها ستفقد فلسفه وجودها لتتحول إلى وسيله بيد الظلمه لتبرير ظلمهم وجورهم. ومن هنا كان قبول الإمام عليه السلام للحكومه كما ذكر ذلك في خطبته الشقشقيه يكمن في الوقوف إلى جانب المظلوم ومجاوبه الظالم.

ومن هنا أيضا فإن القانون يعطى نتيجته معكوسه في المجتمعات التي تغير مسار القانون بالرشوه، لأن الراشى هو الظالم لا المظلوم - وفي هذه المجتمعات يتحول القانون إلى مصدر دخل غير مشروع للظلمه وأداه لتوجيه ظلم الآخريين. لكن ينبغي العلم بأن تحمل العدل ومجاوبه الظلم ودعم المظلوم إنما يشق على الأعم الأغلب. فمن الصعب قبول العدل من قبل من يرى مراعاته تشكل خطرا على مصالحه اللا- مشروعه، أو الأسوأ من ذلك من يرى لنفسه إمتيازاً في المجتمع ولا- يمكنهم أن يتساوى مع الآخريين ويرى أن من الإساده إليه أن يتساوى معهم، فيعمد إلى عرقله مسيره الحكومه العادله ولا- يتورع عن ممارسه أبشع الأعمال. وهؤلاء هم الأفراد الذين وقفوا بوجه الإمام عليه السلام وأثاروا الفتن والإضطرابات وحرفوا الوسط الإسلامى.

وأخيرا فقد ورد أنّ سبب إنفراج العرب عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام إنّما يكمن في الأموال وكيفيه توزيعها، فلم يكن عليه السلام يرى من فضل لشريف على غير شريف أو عربى على أعجمى، كما لم يكن يستن بسنه السلاطين في معامله زعماء القبائل، ولم يستميل أحدا عن طريق المال أبداً، بينما كان معاويه يمارس العكس تماماً. (1)

ص: ٢٤٩

«أَتْرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟ وَاللَّهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَظَرْتُ فِي أَمْرِي. فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي» .

الشرح والتفسير

كما أشرنا سابقاً يبدو أنّ ما ورد في هذه الخطبه فصول مختلفه من خطبه طويله فصلها السيد الرضى (ره) عن بعضها البعض، ولذلك قد لا- يكون هناك من ترابط وثيق بين هذه الفصول. على كل حال فإنّ هذا الفصل من الخطبه يتناول أمرين: الأول إخباره عليه السلام عن الحوادث الآتية مصرحاً بأنّ ذلك ممّا علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن ذلك إخباره عن وقائع الجمل وصفين والنهروان، أمّا بعض ضعاف الإيمان كانوا يشككون في أخبار الإمام عليه السلام، فرد عليهم بالقول «أترانى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ والله لأنا أول من صدقه! فلا أكون أول من كذب عليه» . لقد صدقته حين كذبه الناس، وكنت أول من صدق به فشمرت في الدفاع عنه، كنت أقيه بنفسى في الحروب والمواقف التى تنكص فيها الابطال، أفيمكن أن أنحرف عن طريقتى وأكذب عليه محال ذلك. الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول: بايعت من سبقنى من الخلفاء لا لأنهم أجدر بها منى، بل دفعاً للخلاف والفرقه فى صفوف المسلمين طاعه لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، أفترون أنى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الكلام، أم تعتقدون أنّى أنقض وصيه النبى صلى الله عليه وآله؟ وعليه فقد بايعت من بايعت وتنازلت عن

حقى طاعه لرسول الله صلى الله عليه وآله. ويبدو أنّ هذا التفسير هو الأنسب لأنّه ينسجم والعبارة اللاحقه. ثم قال عليه السلام: «فنظرت فى أمرى، فاذا طاعنى قد سبقت بيعتى وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى» والتفاسير وإن اختلفت بشأن هذه العبارة - التى تعد من عبارة نهج البلاغه المعقده - إلا أنّ التفسير الذى أوردناه آنفا هو الأنسب من جميع التفاسير وكأنّ العبارة تجيب على سؤال قد يقتدح إلى الأذهان فى أنّ الإمام عليه السلام لم يبايع الخلفاء الثلاث وهو يرى أنه أجدر بالخلافه منهم وقد نص رسول الله صلى الله عليه وآله على إمامته؟ وجواب الإمام عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلى السكوت حفظاً للإسلام إن خالفنى القوم، ولا بدّ لى من البيعه من أجل حفظ المصالح التى يجب على مراعاتها. وعليه فقد جعلت طاعنى لرسول الله صلى الله عليه وآله أولى من بيعتى، كانت عهداً من النبى صلى الله عليه وآله فى عنقى وليس أمامى سوى الوفاء بالعهد، كما ذهب بعض شراح نهج البلاغه، كما أوردنا سابقاً إلى أنّ المراد أنّ طاعه النبى صلى الله عليه وآله مقدمه لدى على بيعه الخلفاء، لقد عهد إلى النبى صلى الله عليه وآله بالسكوت فى ظل مثل هذه الظروف، وذكر بعض الشراح إنّ المراد بقوله «فنظرت فى أمرى. .» أنّ هذه الكلمات مقطوعه من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه كان معهوداً إليه ألا ينازع فى الأمر، ولا يثير فتنه، بل يطلبه بالرفق، فان حصل له وإلا أمسك، فالمراد: فنظرت فاذا طاعنى لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ أى وجوب طاعنى، قد سبقت بيعتى للقوم، أى وجوب طاعه رسول الله صلى الله عليه وآله وامتنال أمره سابق على بيعتى للقوم، فلا سبيل إلى الامتناع من البيعه لأنّه صلى الله عليه وآله أمرنى بها، «وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى» أى رسول الله صلى الله عليه وآله وأله أخذ على الميثاق بترك الشقاق والمنازعه، فلم يحل لى أن أتعدى أمره، أو أخالف نهيه. (١) وقال البعض أنّ العبارة تنسجم وما قال الإمام عليه السلام فى الخطبه الشقشقيه «أما والذى فلق الحبه وبرأ النسمه لولا حضور الحاضر. . . لألقيت حبلها على غاربها». ويبدو أنّ هذا التفسير هو الآخر مستبعداً، لأنّ القوم تمردوا على طاعه الإمام عليه السلام قبل البيعه، واعلنوا بيعتهم فلم يكن هناك من ميثاق، إلا أن نفس الميثاق مجازياً.

ص: ٢٥٢

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ٢٩٦؛ [١] محمد عبده الشارح المعروف والعلامة الخوئى إختاروا هذا المعنى أيضاً.

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى العهد الذى عهدته إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ويفهم من العبارة أنّ النبى صلى الله عليه وآله عهد لعلى عليه السلام بمماشاه الخلفاء، وإن لم تستند حكومتهم إلى الموازين الشرعيه. وقد صرحت بعض الروايات بمضمون ذلك العهد، ومنها ما أورده المرحوم السيد ابن طاووس فى كشف المحجّه فى روايه عن على عليه السلام: «وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلى عهداً، فقال: «يا بن أبى طالب! لك ولاء أمتى. فان ولو ك فى عافيه واجمعوا عليك بالرضا فقم بأمرهم وإن إختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه فانّ الله سيجعل لك مخرجاً». فالواقع أنّ الإنسان قد يقف أحياناً على مفترق طرق كلاهما مريّر، إلّا أن أحدهما أمر من الآخر، فالعقل فى مثل هذه الحاله يحكم باجتناّب الأمر وتقبل المريّر؛ القاعده التى يصطلىح عليها فى الفقه بقاعده الأهم والمهم، كما يعبر عنها أحياناً بدفع الأفسد بالفاسد، وهذا ما سلكه أمير المؤمنين عليه السلام بعيد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد كان أمامه عليه السلام سبيلان لاثالث لهما، إمّا إن يترك حقه المسلم فى الخلافه حفظاً للإسلام والمصالح الإسلاميه، أو أن ينهض بالأمر فيطالب بحقه، دون الإكتراث لوحده المسلمين وتربص الاحزاب الجاهليه بالإسلام والفرصه التى كان ينتظرها المنافقون بفارغ الصبر أملا فى إقتتال المسلمين وتسليهم إلى الحكومه، الأمر الذى تكهن به رسول الله صلى الله عليه وآله فعهد لعلى عليه السلام ذلك العهد، ولم يكن من على الذى أوقف نفسه للإسلام سوى الالتزام بذلك العهد.

ومن كلام له عليه السلام

وفيها علهُ تسميه الشُّبهه شبههُ ثُمَّ بيانُ حالِ النَّاسِ فيها. (١)

نظره إلى الخطبه

إنَّ أدنى تأملٍ للخطبه سيفيد أنَّ هذا الكلام فصل من كلام طويلٍ إختاره السيد الرضى (ره)، ومن هنا نرى الكلام عبارته عن فصلين، أحدهما غير منسجم مع الآخر، بل مبتور عنه. أمّا الفصل الأول فهو الكلام في الشبهه ولماذا سميت شبهه، وسبيل الخلاص من الشبهات. والفصل الثاني بيان حال الناس إزاء الموت، حيث لا ينجو منه من خافه، ولا يمنح البقاء من طلبه فكلاهما ميت. وتدل القرائن على أن الرضى (ره) كان يلتقط الكلام إلتقاطاً، ومراده أن يأتي بفصيح كلامه عليه السلام وما يجرى مجرى الخطابه والكتابه، ويؤيد هذا العبارة «من كلام له» و «من خطبه له» ونعرف أنَّ من هنا تبعيضيه، فلم يقل ومن خطبته أو ومن كلماته، فقد أراد أن ما ورد هنا جزء من خطبته عليه السلام. على كل حال فإنَّ الخطبه ورغم قصرها تتناول موضوعين أحدهما؛ الشبهه والآخر الموت.

ج ج

ص: ٢٥٥

١- ١) نقل هذه الخطبه الامدى فى غررالحكم مع إختلاف طفيف وما ورد فى نهج البلاغه، ويفهم من هذا أن الامدى قد روى هذه الخطبه من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ١ / ٤٣٥).

«وَإِنَّمَا سُمِّيتِ الشُّبُهَةُ شُبُهَةً لِأَنَّهَا تُشَبِّهُ الحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضَرَّ يَأْوُهُمْ فِيهَا اليَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمَتُ الِهُدَى وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَدَعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلَالُ وَدَلِيلُهُمُ العَمَى، فَمَا يُنْجُو مِنَ المَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلَا يُعْطَى البَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ» .

الشرح والتفسير

النجاه من الشبهه

يستفاد من بعض المصادر أنّ هذا الفصل من الخطبه يتعلق بقصه طلحه والزبير ومعركه الجمل؛ لأنّهما خلقا شبهه لدى الناس ودعوهم لنكث البيعه والقيام ضد الحق. ومن عناصر تلك الشبهه زج زوج النبي صلى الله عليه وآله في تلك المعركه والمطالبه بدم عثمان وما شا كل ذلك. قد تحدث الإمام عليه السلام عن الشبهه قائلا: «وَإِنَّمَا سُمِّيتِ الشُّبُهَةُ شُبُهَةً لِأَنَّهَا تُشَبِّهُ الحَقَّ» ومن هنا كانت سببا لخداع السذج وذريعه بيد الشياطين للفرار من الحق. فالواقع أنّ الأمور التي تواجه الإنسان في حياته الفرديه والاجتماعيه لا تخرج عن ثلاث؛ فقد يكون الحق ظاهراً جلياً كأن نقول من يعمل الخير يحصد الخير ومن يعمل الشر يحصد الشر؛ أو يكون الباطل واضحاً، كأن نقول الفوضى وغياب القانون أفضل من النظام وسياده القانون، فمن البداهه القول ببطلان هذا الأمر. غير أن هنالك بعض الحالات التي ليست من قبيل القسم الأول ولا الثاني، حيث يتلبس الباطل أحياناً بثوب الحق، أمر ظاهره حق وباطنه باطل، كتلك الأمور الجوفاء التي تمسك بها أصحاب الجمل وصفين من أجل إشعال نيران تلك المعارك. ويبدو أنّ هذه هي مشكله المجتمعات البشريه، وقد إتسعت في مجتمعاتنا المعاصره، حيث نرى أغلب الأهداف الباطله والسلطه الخبيثه التي تلبست ثياب حقوق الإنسان والدفاع عن الحريه والديمقراطيه وحفظ القانون وإعادة السلام والاستقرار إلى المنطقه. ثم أشار عليه السلام إلى طرق النجاه من

ص: ٢٥٧

الشبهات التي يعتمدها أولياء الله «فأما أولياء الله فضيأؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت (١) الهدى». فالعبارة قد تكون إشاره لأحد أمرين: الأول أنّ أولياء الله الذين يؤمنون بالله والغيب إنّما يلوذون بالقرآن وكلمات أئمه العصمه لمواجهة ظلم الشبهات والخلاص منها بدافع من يقينهم بالوحي، وعليه فاليقين في العبارة هو الإيمان بالله ورسوله «وسمت الهدى» إشاره إلى هدى الوحي، كما قال القرآن «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَازِبٌ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» (٢). وقيل المراد باليقين الاستفاده من المقدمات القطعيه والأُمور اليقنيه التي من شأنها إناره الطريق والقضاء على الشبهه، وعبارة أخرى فإنّ أولياء الله الذين لا يكثرثون للأهواء ويحكمون العقل إنّما يسعهم في ظل هذا لعقل أن يجتازوا الشبهات ويهتدوا إلى السبيل، ولو كان للأهواء من سبيل إلى العقل لما وسع هذا الفرد تمييز الحق من الباطل إذا إلتبس عليه الأمر. والتفسيران لا يتعارضان، ويمكن الجمع بينهما في مفهوم العبارة المذكوره. قد يقال أنّ بعض الآيات والروايات قد اشتملت على المشتبه الذي يتضمن مختلف التفاسير، فما العمل في هذا الحاله؟ لقد أجاب القرآن الكريم صراحة عن هذا السؤال وذلك بالرجوع إلى الآيات المحكمه والروايات الصريحه التي تفسر تلك المتشابهه حتى يتمكن الفرد من اجتياز هذا الامتحان الإلهي بالآيات والروايات المتشابهه. والحياه الإنسانيه على غرار الآيات القرآنيه قد تنطوي على محكمات ومتشابهات، فقد ترى مثلاً حركه مرييه من أحد الأصدقاء تحتل الوجهين في التفسير، وقد أرشدت مختلف الحوادث إلى نزاهته وعفته خلال كل هذه المسيره، فلا شك أنّ حسن السيره هذا من المحكمات وتلك الحركه المرييه من المتشابهات التي يمكن تفسيرها من خلال المحكمات. ثم تطرق الإمام عليه السلام لأعداء الله في كيفية التعامل مع الشبهات فقال: «وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى» فكل سبيل يتطلب دافعاً ودليلاً من أجل الحركه، وهنا يفترق الأفراد إلى أولياء الله وأعدائه، فليس لأولياء الله من دافع سوى اليقين بالله واليوم الآخر ودليل سوى الوحي والنبوه، بينما دافع أعداء ودليلهم الضلال وهوى

ص: ٢٥٨

١-١) سمت بمعنى الطريق أو الجاده، كما تطلق مشكل المحسنين، والتسميت هو الدعاء لمن يعطس حيث يسأل الله له السلامه، فالعطسه من علامات السلامه.

٢-٢) سورة البقره / ٢. [١]

النفس ووساوس شياطين الانس والجن وعمى البصر والبصيره. ومن هنا فإن الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة هى مصير الطائفة الأولى «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». . . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» (١) بينما ليس لأعداء الله سوى الظلمات «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَيَّحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» (٢). أمّا ما ورد فى خطبه الإمام عليه السلام فهو صادق على الحياه الفرديه وكذلك الحياه الاجتماعيه، بل إنَّ أبعاده لأعظم وأخطر فى الجانب الاجتماعى وقد تجسد النموذج الكامل لذلك فى الطائفة الثانيه (أعداء الله) من قبيل الفرق الثلاث التى خاضت معركة الجمل وصفين والنهروان من خلال الشبهات الواهيه والادله الجوفاء الأضعف من بيت العنكبوت لتهدب لقتال الإمام عليه السلام وتوجه ضرباتها الماحقه لكيان الإسلام والمسلمين. جدير بالذكر ما أورده صحيح البخارى عن أبى بكره - أحد صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله - أنه قال سمعت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله نفعنى أيام الجمل، فقد كدت أن ألتحق بمعسكر أصحاب الجمل، حيث بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أن طائفه من الإيرانيين قد ولوا عليهم بنت كسرى فقال صلى الله عليه وآله «لن يفلح قوم ولو أمرهم إمرأه». (٣)

تأثير الشبهه فى تحريف الحقائق

لو ظهر الباطل كما هو لما خفى على أحد، ولما قبله الوجدان والطبع السليم، ولا يستجيب له سوى مرضى القلوب ومنحرفى الأفكار إلّا أنّ المشكله تتعقد حين يتزين الباطل بلباس الحق، فيقبل عليه بعض طلاب الحق بعد أن يغترون بحسن ظاهره، وهذه فى الواقع إحدى شعب الشبهه. الشعبه الأخرى أن يمزج مقدار من الحق بمقدار من الباطل فتختفى صورته الباطل القبيحه فى ظل الحق. وأخيراً فقد يزيّف الباطل ويجمّل حتى يبدو بصوره حق دون أن

ص: ٢٥٩

١- ١) سوره يونس / ٦٢ - ٦٤. [١]

٢- ٢) سوره النور / ٤٠. [٢]

٣- ٣) صحيح البخارى ٦ / ١٠ باب كتاب النبى صلى الله عليه وآله إلى كسرى وقيصر.

يمتزج به. وقد حفل تأريخ البشريه بما لا يحصى من الفتن والويلات التى طالته من خلال الشبهات والوساوس الشيطانيه، حتى مارس الطغاه والمخادعون سلطتهم على الناس بواسطه تلك الشبهات. وأفضل نموذج على ذلك الممارك الثلاث المعروفه - الجمل وصفين والنهروان - التى أودت بحياه تلك الجماعه العظيمه من المسلمين وما ذلك إلا من خلال الشبهات التى إعتدتها أصحاب الباطل من أجل تحقيق أطماعهم ومآربهم؛ فالبكاء ليل نهار على قتل الخليفه المظلوم (عثمان) والطواف بقميصه الملطخ بالدم من أجل تعبئه الناس، حتى من قبل أولئك الذين ساهموا فى قتله وتلطخت أيديهم بدمه، ومن ثم الإتيان بأمر المؤمنين وركوبها الجمل و... كلها نماذج حيه من الشبهه. رفع المصاحف على أسنه الرماح وشعار التسليم الحكم القرآن والحيولوه دون إراقه دماء المسلمين هى الاخرى من شبهات معركه صفين. بل أبشع صورته للشبهه فى محاوله تحميل الإمام على عليه السلام مسؤوليه قتل عمار بن ياسر فى معركه صفين حيث إحتج الإمام عليه السلام بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عمار تقتلك الفئة الباغيه»، فاحتج عليه بأنّ الفئة الباغيه من أتت بعمار إلى المعركه. أما أصحاب النهروان ممن كانوا يتظاهرون بصلاه الليل وقراءه القرآن التى لا تتجاوز تراقيهم، فقد رفعوا شعارهم المعروف «لا حكم إلا لله» وقد انطوت هذه الشبهه على فئه عظيمه من الناس والتى أدت فى الختام إلى قتلهم وخلودهم فى جهنم وبئس المصير. ويشهد عالمنا المعاصر اليوم أسوأ أنواع الشبهات، فما أكثر الشعارات البراقه الساحره، من قبيل شعار الحريه والديمقراطيه والمساواه وتفعيل حقوق الإنسان والحضاره والمدنيه وتطوير البشريه والتى ترتكب باسمها أعتى الجنايات وأقبح الجرائم. وسنسلط مزيداً من الضوء على هذا الموضوع حين نصل إلى الخطبه الاربعين والخمسين الوارده بهذا الشأن، كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر فى الحكمه ١٩٨ من قصار كلماته فى نهج البلاغه.

عشيه الخوف من الموت

يرى أغلب شراح نهج البلاغه عدم وجود آيه رابطه لقوله عليه السلام: «فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه» وما ورد فى أول الخطبه، وأنّ السيد الرضى (ره) إنّما يلتقط

كلام الإمام عليه السلام من أكثر من خطبه. ولعلنا نستطيع تصور رباطه بين الفصلين من الخطبه وذلك أنّ الأفراد قد يستسلمون للشبهات خوفاً من الموت، فأشار عليه السلام إلى أنّ خوف الموت لا ينجي من الموت أبداً. على كل حال فإن هذا الفصل من الخطبه يشتمل على عبارتين تعالج كل منها قضيه الموت. فقد قال عليه السلام «فما ينجو من الموت من خافه»، بل إنّ هذا الخوف قد يكون من العناصر المقربه للموت. فالموت هو القلاده التي خطت على جيد ابن آدم وسائر الكائنات الحيه والقانون الذى لا يعرف الشواذ والاستثناء، فليس هنا لك من خلود سوى لله سبحانه. فجميع الكائنات محدوده وأنها ستنتهى لامحاله وتؤول إلى الفناء. وليس من بقاء سوى للذات الإلهيه المقدسه، وعليه فخوف الموت لن يغير من حقيقته شيئاً، كما أن السعى من أجل البقاء والحياه الخالده لن يكلل بالنجاح أبداً. ومن هنا قال الإمام عليه السلام فى العبارة الثانيه «ولا يعطى البقاء من أحبه». قد تطول مداه الحياه أو تقصر إلّا أنّها سائره للزوال فى خاتمه المطاف ومن الوهم الساذج والباطل التفكير بالبقاء والخلود. فقد صرح القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» وقال «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ». والعبيره هنا فى أن يستعد الإنسان للموت ويتزود له، فالموت لا- يعنى الفناء المطلق بقدر ما يعنى الانتقال من دار صغيره محدوده إلى أخرى كبيره واسعه تشتمل على مختلف النعم واللذائذ، وإذا أصلحنا عملنا فليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من الموت.

ومن خطبه له عليه السلام

خطبها عند علمه بغزوه النعمان بن بشير، صاحب معاويه لعين التمر، وفيها يبدى عذره ويستنهض الناس لنصرته.

نظره إلى الخطبه

أمر النعمان بن بشير مع عليّ ومالك بن كعب الأرحبيّ

وردت هذه الخطبه كما ذكرنا سابقا حين غزا النعمان بن بشير عين التمر الموضع المعروف في العراق.

وقد كان معاويه قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثه: أما من رجل أبعثُ به بجريده خيل؛ حتى يُغَيِّرَ علي شاطئ الفرات! فإنَّ الله يُرْعِبُ بها أهلَ العراق! فقال له النعمان: فابعثني؛ فإنَّ لي في قتالهم نيه وهوى - وكان النعمان عثمانياً: قال: فانتدب علي اسم الله، فانتدبَ وندبَ معه ألفي رجل، وأوصاه أن يتجنَّبَ المدن والجماعات، وألا يُغَيِّرَ إلأعلى مَسْلَحَه، وأن يعجِّلَ الرجوع.

فأقبلَ النعمانُ بن بشير؛ حتى دنا من عين التَّمَر، وبها مالك بن كعب الأرحبيّ الذي جرى له معه ما جرى، ومع مالك ألف رجل؛ وقد أذن لهم، فرجعوا إلى الكوفه، فلم يبق معه إلامائه أو

ص: ٢٤٣

١ - ١) وردت هذه الخطبه في ثلاثه مصادر على الأقل قبل السيد الرضى وهى: الغارات لابراهيم بن هلال الثقفى (٢٨٣) وأنساب الاشراف للبلاذرى الذى أورد بعضها وتاريخ الطبرى الذى روى بعض أقسامها، وكذلك مصادر نهج البلاغه ١ / ٤٣٨.

نحوها، فكتب مالك إلى عليّ عليه السلام: أما بعد؛ فإنّ النعمان بن بشير، قد نزل بي في جمع كَثِيف، فَرَأَيْكَ، سدّدك الله تعالى وثبتك. والسلام. فوصل الكتابُ إلى عليّ عليه السلام؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم، فإنّ النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام؛ ليس بالكثير، فانهضوا إلى إخوانكم، لعلّ الله يقطع بكم من الكافرين طَرَفًا. ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسل إلى وُجُوهم وكُبرائهم، فأمرهم أن ينهضوا ويحثوا الناس على المسير، فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أو دونها، فقام عليه السلام، فخطب الخطبه. (١)

ص: ٢٤٤

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١/٤٣٧. [١]

«مَنِيتُ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَيْتُ، لَا أَبَالُكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبِّكُمْ؟ أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ وَلَا حَمِيَّةَ تُحْمِسُكُمْ؟ أَقَوْمٌ فِيكُمْ مُسْتَضِيرٌ خَاً وَأُنَادِيكُمْ مُنْعَوِّثًا، فَلَا تَسْتَمْعُونَ لِي قَوْلًا، وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْرًا، حَتَّى تَكْشِفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءِ، فَمَا يُدْرِكُ بِكُمْ ثَارٌ، وَلَا يُبَلِّغُ بِكُمْ مَرَامٌ» .

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين بعث معاويه النعمان بن بشير ليرعب إحدى مناطق العراق ويضعف معنويات أهلها، فدعا الإمام عليه السلام الناس لقتالهم، غير أن عجز أهل العراق وضعفهم جعلهم يردون بالسلب على دعوه الإمام عليه السلام، فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه لغرضين: الأول: تحميل أهل العراق المسئوليه التامه للمصائب والويلات التي تتعرض لها البلاد بفعل هذا الضعف والذله تجاه العدو، الثاني: لعل هذه الكلمات تؤثر في تلك الأرواح الهامده فتلفت إلى عظم الأخطار التي كانت تترصد بها فتهم بموا جبتها. فقد قال عليه السلام: «منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت» فمن الطبيعي أن أعظم القاده والأمرء وأشجعهم لايسعهم فعل شيء إذا ما ابتلوا بمثل هؤلاء الأفراد، وما من فشل أو هزيمه تصيبهم إلا ويتحملون مسئوليتها كامله. ثم قال عليه السلام: «لا أبا لكم: ما تنظرون بنصركم ربكم»؟ إن جميع الظروف متوفره لديكم من أجل القتال، فعندكم العده والعدد، كما تعلمون مؤامرات عدوكم وقد أحدق الخطر بكم، فماذا تنتظرون؟ أتتطلعون لقتلكم بهذه الذله والهوان؟ وقد

أشرنا سابقاً إلى أن قوله عليه السلام: «لا أبا لكم» إما يفيد عدم تربيتهم التربيـه الأسريـه الإسلاميـه الصحيحه بحيث يبدون كل هذا الضعف والعجز، أو أنه دعاء عليهم بان يميت الله آبائهم، وهو الآخر كناية عن الذله والهوان الذى يستشعره الإنسان لفقد والده. ثم قال عليه السلام: «أما دين يجمعكم ولا حميه تحمشمكم» (١)؟ فالواقع من شأن أى من هذين الأمرين دواء دائهم، فالدين حلقة إتصال يمكنها إستقطاب الفئات والطوائف المختلفه حول هدف مركزى واحد، فاذا غاب الدين الذى يجمعهم، فإنّ الغيره الاجتماعيه وحبّ الاهل والوطن إنّما تسوقهم للاتحاد أمام العدو ومواجهته، غير أنّ المؤسف له هو أنّ أهل العراق آنذاك قد فقدوا هذين الدافعين، فلم يكن دينهم محكماً راسخاً، كما لم تكن لهم حميه تجعلهم يغضبون ويواجهون العدو. ولا شك أن مثل هؤلاء القوم يعتبرون عقبه كؤوداً فى طريق الحاكم. ومن هنا خاطبهم الإمام عليه السلام مصوراً حجم ضعفهم والذل الذى سيطر عليهم «أريد أن أداوى بكم وانتم دائى كناقش الشوكه بالشوكه». (٢)

ومن هنا قال عليه السلام: «أقوم فيكم مستصرخاً (٣) وأناديكم متغوّثاً، (٤) فلا تسمعون لى قولاً، ولا تطيعون لى أمراً، حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءه» (٥) فهل هناك أعظم من هذه المأساه، فى أن يبتلى مثل هذا الإمام عليه السلام الشجاع العالم العادل المجرب بمثل هؤلاء القوم الذين لا يكثرثون لصراخه ولا يطيعون أوامره. ويفيد التأريخ أنّ هذا الأمر لم يقتصر على أمير المؤمنين عليه السلام وقد مارست الأُمّه نفس هذا الموقف مع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فقد وقعت حادثه كربلاء ليقتل الإمام وصحبه بتلك الشاعه، آنذاك ندم أهل الكوفه وهبوا للمطالبه بدم الحسين عليه السلام ولكن بعد أن وقع ما لم يكن ينبغى أن يقع، فقد تخلوا آنذاك عن دعم

ص: ٢٦٦

- ١- ١) «تحمش» من ماده «حمش»، قال صاحب المقاييس لها معنيين الغضب والنحافه، وقد وردت هنا بمعنى الغضب؛ أى أليس لكم حميه تغضبكم على عدوكم.
- ٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢١. [١]
- ٣- ٣) «مستصرخ» من ماده «صرخ»، الصراخ حين الخوف أو المصاب وطلب النصره.
- ٤- ٤) «متغوّث» من ماده «غوّث» بمعنى النصره حين الشده، وعليه يطلق المتغوّث على من يطلب نصره الآخرين عند الشدائد.
- ٥- ٥) «المساءه» مصدر ماده «سوء»، بمعنى فقد ان النعم الماديه أو المعنويه الدنيويه أو الاخرويّه، البدنيه أو غيرالبدنيه.

سفير الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل ونكثوا بيعته ولزموا بيوتهم، فبقى مسلم وحده يقاتل الأعداء حتى استشهد. وأخيراً
خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «فما يدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام» .

ص: ٢٦٧

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَزَّجَزْتُمْ جَزَّجَزَهُ (١) الْجَمَلِ الْأَسْرَّ (٢) وَتَنَاقَلْتُمْ تَنَاقَلَ النَّضْوِ (٣) الْأَدْبِرِ (٤) تُعَمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ (٥) مُتْدَائِبٌ (٦) ضَعِيفٌ «كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام ذمه لأهل الكوفه على ما أبدوه من ضعف وعجز تجاه الهجمات المبرمجه للعدو فقال عليه السلام: «دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجررتهم جرجره الجمل الأسر، وتناقلتم تناقل النضو الادبر» أي أنكم أعريتم عن عجزكم في الكلام كما فعلتم ما يفشلكم في الدنيا والآخرة ويمكن العدو من تكبيدكم الخسائر في أموالكم وأرواحكم، فقد دعوتكم لنصر أخوانكم (مالك بن كعب وصحبه ممن تعرضوا لغارات اهل الشام في منطقه عين التمر) فكانت حركتكم كحركه الجمل وتناقل النضو الادبر «دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجررتهم

ص: ٢٤٩

- ١- ١) «جرجره» صوت يردده البعير في حنجرتة عند عسفه، وقيل من ماده «الجرر» بمعنى الجر، واطلق الجرر لتكراره.
- ٢- ٢) «أسر» من ماده «سرر» المصاب بداء السرر، وهو مرض في كركره البعير أي زوره ينشأ من الدبره والقرحه.
- ٣- ٣) «النضو» المهزول من الابل، والأدبر المدبور، أي المجروح المصاب بالدبره، وهي العقر والجرح من القتب ونحوه.
- ٤- ٤) «أدبر» من ماده «دبر» بمعنى الجرح الذي يتعرض له الحيوان إثر ضغط السراج.
- ٥- ٥) جنيد مصغر جند.
- ٦- ٦) «متدائب» بمعنى مضطرب، من قولهم تذاءبت الريح أي اضطرب هبوها ومنه سمى الذئب ذئباً لاضطراب مشيته.

جرجره الجمل الأسر، وتناقلتم تناقل النضو الأدبر» ولعل تشبيهم بالحيوانات المريضة إشاره إلى ضعفهم الفكري وعجزهم في إتخاذ القرار، لأنّ الإنسان العاقل لا يدع العدو يهجم عليه بهذه الطريقه بحيث يضرب أينما شاء دون وازع أو رادع. ثم أشار عليه السلام إلى تلك الفئه القليله التي لبت دعوته، بينما كان الخوف والهلع يسيطر عليهم «ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون». وقد أورد السيد الرضى (ره) في آخر الخطبه قائلاً: قوله عليه السلام متذائب؛ أى مضطرب، من قولهم: تذائبت الريح، أى اضطراب هبوبها. ومنه سمي الذئب ذئباً، لاضطراب مشيته. ومن هنا فإنّ هذه الفئه القليله لم تكن مصداقاً لقوله سبحانه «كم من فئه قليله غلبت فئه كثيره» بل كانت فئه ضعيفه قلقه مضطربه كأنهم يساقون إلى المذبح وهم ينظرون إلى موتهم، فهى فئه عدمها خير من وجودها والثوق بها مخجل، فما أعظم محنته الإمام عليه السلام وابتلائه بهؤلاء القوم طبعاً قوله عليه السلام كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. إنّما اقتبسه عليه السلام من الآيه السادسه من سوره الانفال التي وردت بشأن بعض المؤمنين الضعفاء على عهد النبي صلى الله عليه و آله الذين كانوا يتشبثون بمختلف الذرائع والحجج للفرار من الجهاد إلى جانب جدالهم للنبي صلى الله عليه و آله حول موقعه بدر، غير أنّ حوادث بدر أثبتت لا حقاً مدى خطأهم وتزايد خوفهم عبثاً حتى إنتهت الموقعه بالنصر المؤزر للمسلمين، والعجيب أنّ هؤلاء كانوا من المعترضين على كيفية توزيع الغنائم بعد انتهاء المعركه. ولعل المراد بالعباره أن هذه الفئه القليله لو كانت تمتلك العزم الراسخ والقوه والصلابه من شأنها الانتصار على العدو، غير أن المؤسف...

عاقبه الضعف أمام العدو

رغم أن التعاليم الإسلاميه تستند إلى ارساء قواعد السلام مع كافه الأمم والشعوب - باستثناء تلك الحالات التي يشهر فيها السلاح ضد الإسلام والمسلمين - إلّا أنّها توصى بالشده والصلابه فى بعض الحالات الطارئه، ونموذج ذلك ما ورد فى هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه بشأن العتاه المرده من أهل الشام من جيش معاويه. فقد كان معاويه يستغل الفرص من أجل إضعاف أهل العراق وزعزعه وروحياتهم، فقد كان يجهز بعض الجماعات

ويعبئها لشن غاراتها على بعض المناطق الإسلاميه فتنتشر فيها الذعر والخراب والدمار وتذبح من فيها دون الإكتراث للشيوخ والنساء والصبيان إلى جانب نهب الأموال والثروات وقد تكررت مثل هذه الحادته لأكثر من مره على عهد الإمام عليه السلام، فكان الإمام عليه السلام يستصرخ أهل الكوفه لمواجهه هذه الأخطار فكانوا يردون عليه بكل ضعف وفتور وكأنهم لم يعلموا بما يجرى حولهم وقد غطوا في نوم عميق: الأمر الذي جعل إعتداءات أهل شام تتصاعد يوماً بعد آخر، حتى أصبح العراق بعيد شهاده الإمام عليه السلام لقمه سائغه لمعاويه ورهطه بحيث لم يتمكن الإمام الحسن عليه السلام من الوقوف بوجه ذلك الظالم، ولا عجب في الأمر فلم تكن لديه القوه الكافيه من الأفراد التي يستطيع بواسطتها قتال معاويه. ونلمس اليوم هذه الحقيقه بوضوح في عالمنا المعاصر، وإذا لم نلتفت إلى تحرشات العدو وتقبرها في المهدي فأنها ستتسع شيئاً فشيئاً، آنذاك لم يمكن مواجهه والصمود. وعليه فلا بد من الانتباه إلى أدنى حركه عسكريه أو إعلاميه أو إقتصاديّه والتعامل معها فوراً بمنتهى الصلابه ليضطر العدو للدفاع بدلاً من الهجوم. فعاده ما تحاول العناصر الضعيفه التي تميل إلى الدعه والراحه لحمل مثل هذه الحركات على البراءه بعيد عن حملها محمل الجد وإساءه الظن بها، والحال أنها إنما تبدر من العدو الذي لا ينبغي الغفله عن إتهامه ريثما تتكشف الحقائق. ونختتم البحث بالعبارات الوارده في خطبه الجهاد حيث قال عليه السلام: «ألا وإنني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وأعلاناً وقلت لكم: إغزوهم قبل أن يغزوكم: فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلّا ذلوا». (1)

سؤال

لعل هنالك من يتساءل لم كل هذه الشده من الإمام عليه السلام مع أصحابه ومخاطبتهم بهذه اللكمات وتحقيرهم إلى هذا الحد، أفليس من الأفضل أن يرفق بهم ويتلطف معهم؟

الجواب: بينا الإجابة على ذلك كراراً في الخطب السابقه، وقلنا أنّ ذلك يمثل آخر الدواء، وكأنه عمليه لاستئصال مرض عضال.

ص: ٢٧١

ومن كلام له عليه السلام

فى الخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم الا لله»

نظره إلى الخطبه

خطبها عليه السلام بعد موقعه صفيين حين إعترض عليه الخوارج بقبول التحكيم وانتخاب ممثلين أحدهما من أصحاب الإمام والآخر من أصحاب معاويه لهذا الأمر ليحكما بشأن عاقبه موقعه صفيين وخلافه المسلمين، بينما يصرح القران «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» (١) فاقتبسوا من الآيه قولهم «لا حكم إلا لله» ليحتجوا بها على الإمام عليه السلام، وبالطبع فان هنالك مغالطه كبرى وقعوا فيها ولم يدركوا حقيقه الامر. فلما سمع الإمام عليه السلام هذا الشعار، رد بهذه الخطبه وأشار فيها إلى أربعة أمور:

الأول: كشف النقاب عن مغالطتهم فى هذا الشعار، وأنّ القول «لا حكم إلا لله» كلمه حق يريدون بها باطلاً.

الثانى: حاجه الأئمه إلى الحاكم، وبعبارة أخرى ضروره الحكومه.

الثالث: شرح وظائف الحاكم العادل وايجازها فى سبع.

الرابع: نتيجته وجود الحكومه العادله.

وقد نقل المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبه نفس هذا المضمون طبق روايه أخرى بعبارات أقصر.

ص: ٢٧٣

«قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَلِمَةٌ حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ إِلَّا لِلَّهِ، وَإِنَّهُ لَا يُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتَعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبْلَغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَاخَ مِنْ فَاجِرٍ.»

فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ تَحْكِيمَهُمْ قَالَ: حُكْمَ اللَّهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ. وَقَالَ: أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَيِّتُهُ.»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى الشعار الذي رفعه الخوارج «لاحكم إلّا لله» بقوله «كلمه حق يراد بها باطل» ثم بين عليه السلام بطلان ما أَرَادَهُ الخوارج من تحريفهم لهذا الكلام الحق بقوله «نعم إنه لاحكم إلّا لله ولكن هؤلاء يقولون: لا إمره إلّا لله» خطأ الخوارج في هذا الشعار الحق الذي إقتبسوه من القرآن أنهم أرادوا به أن الحكومه بين الناس لله، ومن هنا فقد إعترضوا على مسأله التحكيم ورأوها نوعاً من الشرك، وذلك لأنها منحت الحكومه لغير الله من الأفراد! فمن البديهي أن يكون الحاكم بين الناس هو الله إذا كان الحكم مقتصراً على الله، وعليه لا بدّ من إزاله أصل الحكومه، كما وعليه من إزاله القضاء والمحاكم بالتبع فهي من قبيل الحكومه التي يمارسها الأفراد. لقد خيل لتلك الفئه أنها تريد أن تعيش توحيد الله على مستوى الحاكميه والتخلص من الشرك في هذا المجال، إلّا أنهم إثر جهلهم وتعصبهم سقطوا في مستنقع الفوضى والهرج والمرج ورفض الحكومه في أوساط المجتمعات البشريه، واصيبوا بالهلوسه التي

جعلتهم يعتقدون بأن رعايه التوحيد تتطلب نفى كافه ألوان الحكومه والامر، غير أنهم سرعان ما وقفوا على بطلان مذهبهم فى الحكومه لما شعروا بحاجتهم إلى من يتزعمهم ويحكم بينهم، رغم عنادهم الذى أفرزه جهلهم والذى لم يدعهم يفتقون إلى أنفسهم. مع ذلك فقد قضت كلمات الإمام عليه السلام مضاجعهم واستطاعت أن تفعل فعلها فى ميدان القتال فجعلت الكثير منهم يعودون إلى رشدهم فعلنوا توبتهم بعد أن وقفوا على عمق إنحرافهم، على كل حال فإن الإمام عليه السلام يؤكد فى هذه الخطبه أن الحاكم والمشرع الاصلى هو الله سبحانه؛ حتى الحكم بين الناس لابد أن يستند إلى تخويل منه، إلا أن هذا لا يعنى أن الله ينبغى أن يحضر بنفسه فى المحاكم ليقضى ويحكم بين الناس، أو أن يأخذ بزمام الأمور فيمارس وظيفته كرئيس للبلاد أو والياً وعاملاً على منطقته، أو أن يوكل هذه المهمه إلى الملائكه فيبعثهم إلى الأرض. فهذا كلام عبثى ولغو فارغ لا يرتضيه من كان له أدنى فهم وإدراك، إلا أن المؤسف هو أن هذه الفكره كانت متأصله فى أفكار الخوارج، ومن هنا خالفوا أمير المؤمنين عليه السلام واعترضوا عليه: لم قبلت التحكيم؟! وصرح بعض شراح نهج البلاغه بأن الخوارج يزعمون أن الحكم يتطلب الاذن الإلهى ولا بد أن يصرح القرآن بهذا الأمر، بينما لم يأذن القرآن لأحد. ولعل هذا هو الذى دفع بعض الاعلام (١) لأن يستدلون على نفى عقيدته الخوارج بالآيه القرآنيه الشريفه الوارده بشأن الحكم فى الاختلافات العائليه «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا» (٢). فاذا كانت هذه المسأله الصغيره تحتاج إلى الحكم فما ظنك بالمسائل المهمه التى يدعو الاختلاف فيها إلى تفشى الهرج والمرج فى صفوف المجتمع، أفلا ينبغى فصل هذه الاختلافات وحلها عن طريق الحكم؟! ومن هنا يرى البعض أن الإمام عليه السلام لم يكن مخالفاً لمسأله التحكيم فى بعض الحالات، إلا أنه لم يكن يوافق شخص الحكيمين وكان يعترض عليهما بشده.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى ضروره تشكيل الحكومه، لأن الخوارج. كما أشرنا سابقاً - لم

ص: ٢٧٤

١ - ١) العلماءه الخوئى ٤ / ١٨٣ من شرح نهج البلاغه قد أشار إلى هذا المعنى، ويستفاد من التأريخ الكامل لابن أثير أن ابن

عباس احتج على الخوارج بهذه الآيه (الكامل ٣ / ٣٢٧). [١]

٢ - ٢) سورة النساء / ٣٥. [٢]

يخالفوا مسأله التحكيم فى صفتين فحسب، بل شككوا فى أصل الحكومه وزعموا عدم الحاجه إلى الحاكم، إلّا أنّهم رجعوا عن ذلك لما أمروا عليهم عبدالله بن وهب الراسبى (١). ثم علل الإمام عليه السلام ضروره تشكيل الحكومه والحاكم «وإنّه لا بدّ للناس من أمير بر أو فاجر» ليذكر سبعة فوائد تترتب على قيام الحكومه بعضها يتصل بالجانب المعنوى والبعض الآخر بالجانب المادى وهى: أولاً: «يعمل فى إمرته (٢) المؤمن». (٣)

ثانياً: «ويستمتع فيها الكافر»، ثالثاً: «ويبلغ الله فيها الاجل»، رابعاً: «ويجمع به الفئى»، خامساً: «ويقاتل به العدو» سادساً: «وتأمن به السبل» سابعاً: «ويؤخذ به للضعيف من القوى». ثم تفضى هذه الوظائف السبع إلى هذه النتيجة النهائيه المترتبه على الحكومه «حتى يستريح بر ويستراح من فاجر». ويدل التاريخ السياسى أنّ فته قليله جداً فى الماضى وحتى فى الوقت الراهن هى التى لاترى ضروره تشكيل الحكومه - مستدله ببعض الأدله الجوفاء التى سنشير لها فى البحث القادم - والخوارج مصداق لهذه الفئه. وقد رد التاريخ بصراحه على هذه الفكره الساذجه فقد رأينا بأمر أعيننا وسمعنا بملئ آذاننا مدى الأخطار الجسام التى يواجهها المجتمع إبان إنهيار الحكومه ولو لساعات من قبيل قتل الأنفس وإراقه الدماء وعمليات السرقة والسلب والنهب التى تتعرض لها المؤسسات بل حتى بيوت الناس وانتهاك الاعراض والنواميس وانعدام الامن والاستقرار وسياده الفوضى والهرج والمرج الاضطراب وشل حركه كافه النشاطات الاجتماعيه؛ كما تصبح البلاد لقمه سائغه للاعداء الذين يعيشون فى الأرض فساداً فلا يسلم المؤمن من شرهم ولا الكافر فتهضم جميع الحقوق ويعيش الناس الخوف والذعر فمما لاشك فيه أن الف باء الحياه إنّما يكمن فى إستتباب الأمن والنظام، ثم وجود العناصر المقتدره التى تقف كالطود الشامخ بوجه العدو الخارجى وعملائه فى الداخل، ولا يتيسر مثل هذا الأمر إلّا فى ظل الحكومه. وهنا يبرز هذا السؤال: هل يسع الحاكم الفاجر أن يقوم بالوظائف السبع الماره الذكر التى يقوم بها الحاكم البر والعادل؟ فقد

ص: ٢٧٧

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ٣٠٨. [١]

٢-٢) «إمره» على وزن عبره مصدر أو إسم مصدر من ماده «أمر»، و «الامر» هنا بمعنى الحكومه.

٣-٣) واضح ان الضمير فى إمرته يعود إلى مطلق الامير سواء البر أو الفاجر وكذلك ضمير فيها، وليس صحيح ما اورده بعض شراح نهج البلاغه من أنّ الأول يعود إلى البر والثانى إلى الفاجر، أو كلاهما للفاجر.

ذكرها الإمام عليه السلام لكليهما، بحيث يقوم كل منهما بهذه الوظائف. وللإجابة على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن الحاكم البر إنما يقوم قطعاً بمثل هذه الوظائف، إلا أنها ليست كذلك بالنسبة للفاجر بصورة مطلقه نعم يمارسها بصورة نسبية، فهو مضطر لاستمرار حكومته أن يراعى النظام، ويقف بوجه العدو الخارجى ويحول نسيباً دون ظلم الظلمه، وان كان فى حد ذاته ظالماً؛ والأفان الناس ستخرج عليه وتترزل دعائم حكومته فيطيح به الأعداء، ومن هنا فإن أغلب الحكومات مهما كان تتسعى فهي جاهده للقيام بتلك الوظائف المذكوره. ونخلص ممّا سبق أنّ أيه حكومه تتساهل فى الوظائف المذكوره إنّما تكون قد مهدت السبيل إلى تصدع كيانها وإنهارها. السؤال الآخر هو أنّ الإمام عليه السلام قد فرق بين المؤمن والكافر. فقال عليه السلام بشأن المؤمن «يعمل» والكافر (يستمتع) فما عله ذلك؟ والجواب هو أنّ المؤمن لا يهدف فى حياته إلى الاستفاده من الامكانيات المتاحة من أجل التمتع العابر، بل هدفه الأسمى الفوز برضى الله، وما إستفادته من متع الدنيا إلا بالتبع وكونها مطلوباً ثانوياً، وليس الحال كذلك بالنسبه للكافر، فهو ليس فقط لا ينشد رضى الله، بل يقصر همه على هذه الحياه الدنيا ليتمتع فيها وإن كان ذلك من خلال الحرام والطرق اللامشروعه، ومن هنا صرح الإمام عليه السلام بأنّ الحكومه ضروره للطرفين المؤمن والكافر، يعمل فيها هذا ويتمتع فيها ذاك، ولولا الحكومه لما وسع المؤمن العمل ولا الكافر الاستقرار والتمتع.

ج ج

قال السيد الرضى (ره) فى ذيل هذه الخطبه، وفى روايه أخرى أنّ الإمام عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال: «حكم الله أنتظر فيكم» فالعباره يمكن أن تكون إقتباساً من كلامهم للرد عليهم فأنتم تقولون الحكم لله، وأنا أنتظر هذا الحكم فيكم، فأنه سيحكم فيكم بالعقاب الشديد لهذه اللجاجه والجهل وتفريق صفوف المؤمنين. أو أنى انتظر اتمام الحججه عليكم فمن بقى على جهله وتعصبه أجريت عليه حكم الله. ثم أضاف السيد الرضى (ره) - على ضوء هذه الروايه - وقال عليه السلام «أما الامر البره فيعمل فيها التقى، وأما الامر الفاجره فيتمتع فيها الشقى، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته». ولكن بالاستناد إلى مفهوم هذه العبارة فى أن الفجار يحرمون من التمتع المباح فى حكومه البر، ولا يستشعر المؤمنون الاستقرار والسكنيه فى

ص: ٢٧٨

ظل حكمه الفاجر (وهذا يتناقض وهدف الخطبه في أنّ الحكومه ضروره بره كانت أم فاجره) يبدو أنّ الروايه الاولى أصح وأنسب وأدق.

هذا وقد ورد في شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ما يوضح العبارة المذكوره «حكم الله أنتظر فيكم»: لما رجع على عليه السلام من صفين إلى الكوفه، أقام الخوارج حتى جموا (جموا بمعنى إستراحوا وكثروا) ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفه تسمى حروراء، فنادوا: لا حكم إلّا لله ولو كره المشركون: ألا أنّ علياً ومعاويه أشركا في حكم الله. فدخل واحد منهم على علي عليه السلام بالمسجد، والناس حوله، فصاح: لا حكم إلّا لله ولو كره المشركون، فتلفت الناس فنادى: لا حكم إلّا لله ولو كره المتلفتون، فرفع على عليه السلام رأسه إليه. فقال: لا- حكم إلّا لله ولو كره أبو حسن. فقال على عليه السلام: إنّ أبا الحسن لا يكره أن يكون الحكم لله، ثم قال: حكم الله أنتظر فيكم. فقال له الناس: هلا ملت يا أمير المؤمنين على هؤلاء فأفنيتمهم! فقال: إنهم لا يفنون، إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة. (1)

تأملان

١ - بلاء التحريف

لم يقتصر تأويل الحقائق وتحريف الآيات القرآنيه على الخوارج بغيه الوصول إلى مآربهم وأهدافهم المشبوهه، بل إذا تصفحنا تأريخ البشريه لوجدنا قضيه تحريف الحقائق من الحراب والوسائل الفعاله التي إعتمدها الظلمه والطواغيت على مر العصور. فقد مارس هؤلاء أبشع تحريف لكلام الله وكلام الأنبياء والأولياء وفسروها حسب أهوائهم وهم ينشدون هدفين: الهدف الأول خداع الناس والآخر خداع أنفسهم. وما قضيه النمروود مع نبي الله إبراهيم عليه السلام وفرعون مع موسى عليه السلام والتي تطرقت لها أغلب الآيات القرآنيه في سوره البقره وطه وسائر السور منك ببعيد فقد كانوا يقولون كلمات حق ولا يريدون بها سوى الباطل من أجل خداع من حولهم والتغريب بهم. ونشاهد اليوم أبشع صور هذا التحريف وكلمات الحق التي يراد بها

ص: ٢٧٩

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٣١٠. [١]

الباطل من قبيل كلماتهم فى الحريره والديمقراطيه والكرامه الإنسانيه وحقوق الإنسان والثقافه والحضاره والمدنيه ومكافحه الارهاب وما إلى ذلك من الشعارات التى تقلق بها ألسنه الطواغيت والجبابره، ولا يريدون بها سوى الباطل، بل هنالك منافسه كبرى بين هؤلاء الطغاه فى إنتخاب الشعارات البراقه الأكثر تأثيراً وخداعاً من أجل نيل أهدافهم المشؤومه. ومن هنا تشتد وظيفه العلماء الاعلام فى ضروره تنبيه الأُمّه إلى عظم الأخطار المحدقه وضروره التحلى باليقظه والوعى وعدم الانزلاق وراء هذه الشعارات الزائفه ليرفعوا من مستوى الأُمّه الثقافى فلا تنطلى عليها خدع الاستكبار والأعبيه.

٢ - ضروره تشكيل الحكومه

اشاره

إنّ مسأله تشكيل الحكومه تعد من المسائل التى كثر الحديث فيها الأوساط العمليه على المستوى النظرى دون أن يتسرب الشك إليها على المستوى العملى قط. فقد شهدت البشريه طيله التأريخ قيام الحكومه سواء كانت قبيله يتزعمها رئيس القبيله أو هذه الحكومات الطبيعه التى يترأسها الملك والسلطان والحاكم، حتى تجلت اليوم بهذا الشكل الجماهيرى فأصبح يقودها رئيس الجمهوريه، ولا- يحتاج قيامها إلى دليل فالمجتمع مهما كان حجمه إنّما يحتاج إلى الأمن والاستقرار ورعايه الحقوق والحيلوله دون نشوب النزاعات والخلافات، ولا تيسر مثل هذه الأمور إلّافى ظل الحكومه ووجود الحاكم. وقد أوضحت هذه المسأله اليوم أكثر فى المجتمعات المعاصره، فهنالك الفعاليات والأنشطه الثقافيه والاقتصاديه والسياسيه التى لا يكتب لها النجاح لولا الاشراف المباشر من قبل الحكومه، بل الحكومه هى تبلور هذه الأنشطة والثقافيه والاقتصاديه والسياسيه التى لا يكتب لها النجاح لولا الاشراف الأفراد والنزعات فى الماضى والحاضر التى تتبنى شعار غياب الحكومه وعدم الحاجه إليها وأنّ الشعب قادر على إداره شؤونه دون قيام الدوله، بل ذهب الماركسيون أبعد من ذلك ليصرحوا بأنّ فلسفه قيام الدوله إنّما تنبع من فكره حفظ المصالح الطبقيه! والرأسماليون هم الذين ينهضون بهذه المهمه، فاذا ما أزيلت الفوارق الطبقيه فإنّ فلسفه تشكيل الحكومه ستنتفى ولا تعد هناك ضروره لقيامها، إلّأنّ الماركسيه وسائر النزعات عجزت حتى الآن عن طرح

نموذجها العملى فى الميدان؛ الأمر الذى يؤكد خواء هذه النزعات وإقتصارها على الجوانب النظرية، لقد تناسى أصحاب هذه النظريات أنّ وظيفه الدولة والحكومته - ولو سلنا لما ذكره - لا تقتصر على حفظ المصالح الطبقيه، بل هنا لك سلسله من البرامج الاجتماعيه والمشاريع والمخططات المرتبطه بكافه الأفراد فى جميع المجالات والتي تنهض بعينها الدولة. فالتربيه والتعليم ضروريه لجميع الطبقات، فهل يمكن القيام بهذه الوظيفه دون برمجته وإختيار من ينهض بمسؤوليه هذا العمل؟ الأمور الاقتصاديه فى المجتمع فى القطاع الزراعى والصناعى والتجارى والتي يتطلب كل حقل منها تخطيط شامل وكامل وتحتاج إلى إداره صحيحه ووزير، قطاع الصحه المرتبط بكافه أبناء الشعب والذى يحتاج بدوره إلى مشاريع وبرامج تخصصيه وإشراف تام، فهل يمكن قيام مثل هذه الأمور فى حاله غياب الدوله ناهيك عن النزاعات والخصومات والحاجه إلى البت فى الدعاوى من قبيل الجهاز القضائى والمحاكم، وكل هذه الأمور هى الاخرى لا تحقق إلأى ظل تشكيل الحكومه، والتي تقوم برئيس الوزراء أو رئيس الجمهوريه وما شابه ذلك. ومن هنا كانت الأمم والشعوب رغم اختلاف أفكارها وعقائدها، إلأأنها تتبنى نوعاً من أنواع الحكومه. وهذا هو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبه كما تطرق إلى ذكر الوظائف الملقاه على عاتق الحاكم، كما قال فى موضع آخر بهذا الشأن «سلطان ظلوم خير من فتنه تدوم» (١) حيث أشرنا سابقاً إلى أنّ الحكومات مهما كانت ظالمه متجبره الا أنها تسعى لأن تراعى جانب الأمن والعدل وما إلى ذلك، مع العلم أنّها قد تظلم إلأأنها على الأقل لا تدع الآخرين يمارسون الظلم، فالحكومته عادله كانت أم ظالمه لن تدوم فى ظل الفوضى والاضطراب، وأنها تؤول لا محاله إلى السقوط الانهيار، ومن هنا فإن كافه الحكومات تسعى للحيوله دون الهرج والمرج وتقدم مشاريعها من أجل البناء والعمران، ولعل هذا المعنى يتجسد فى ما أشار إليه الحديث المعروف «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم» .

ص: ٢٨١

قال ابن أبي الحديد فى تعليقه على هذه الخطبه: هذا نص صريح منه عليه السلام بأن الإمامه واجبه وقد اختلف الناس فى هذه المسأله فقال المتكلمون: كلمه الإمامه واجبه؛ إلأما يحكى عن أبى بكر الأصم من قدماء أصحابنا أنها غير واجبه؛ إذا تناصفت الأئمه؛ ولم تتظالم.

وقال المتأخرون من أصحابنا: إن هذا القول منه غير مخالف لما عليه الأئمه؛ لأنه إذا كان لا يجوز فى العاده أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس يحكم بينهم؛ فقد قال بوجود الرئاسة على كل حال؛ اللهم إلأأن يقول: إنه يجوز أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس؛ وهذا بعيد أن يقوله: فأما طريق وجوب الإمامه ما هى؟ فإن مشايخنا البصريين رحمهم الله يقولون طريق وجوبها الشرع، وليس فى العقل ما يدل على وجوبها.

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين، وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى: إن العقل يدل على وجوب الرياسه؛ وهو قول الإماميه، إلأأن الوجه الذى منه يوجب أصحابنا الرئاسة غير الوجه الذى توجب الإماميه منه الرئاسة، وذاك أن أصحابنا يوجبون الرئاسة على المكلفين، من حيث كان فى الرياسه مصالح دنيويه، ودفع مضار دنيويه. والإماميه يوجبون الرئاسة على الله تعالى، من حيث كان فى الرئاسة لطف وبعث للمكلفين عن مواقعه القبائح العقلية.

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابق ما يقوله أصحابنا، ألا تراه كيف علل قوله: «لا بد للناس من أمير»، فقال فى تعليقه: يُجمع به الفىء، ويقاتل به العدو وتؤمن به السُّبل، ويؤخذ للضعيف من القوى! وهذه كلها من مصالح الدنيا.

فإن قيل: ذكرتم أن الناس كافه قالوا بوجوب الإمام، فكيف بقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنهم يقولون: «لا إمره» .

قيل: إنهم كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي.

ويبدو أن خطأ ابن ابى لاحديد نابع من حصره الوظائف السبع التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام كهدف للحكومه بالمصالح الماديه، والحال أن العبارة «يعمل فى إمرته المؤمن»

إنّما تعالج المسائل المعنوية، لأنّ عمل المؤمن يهدف الآخره - على كل حال وعلى فرض أنّ لكافه هذه الأمور صبغه ماديه، فإنّ كلام الإمام عليه السلام يدور حول محور إماره الناس وحكومتهم التي تشكل أحد الأبعاد الوجوديه للإمام المعصوم، لأنّ عقيدته علماء الإماميه ومتكلميه في الإمام إنّه الحاكم في أمور الدين والدنيا والهادي إلى الله ومفسّر القرآن ومبين أحكامه وأعماله حجه على الناس، ومن هنا لا بدّ أن يكون معصوماً، ومعلوم أن المعصوم لا يعرف سوى الله، ولذلك يعتقدون أن الإمام ينصب من جانب الله وقد أجاب بعض شرّاح نهج البلاغه على كلام ابن أبي الحديد بأنّ الخطبه تعالج قضيه نصب الأمير وليست لها صلته بنصب الإمام من الله ولذلك قال عليه السلام «لا بدّ للناس من أمير بر أو فاجر» ونعلم أن الامير الفاجر لا يمكن أن يكون إماماً. الا- ان ما أوردناه هو الجواب في أن الاماره جزء من مسؤوليات الإمام (لا بدّ من الدقه في الأمر)، والشاهد على ذلك أن متكلمينا ذكروا في كتبهم العقائديه المصالح الدنيويه وما ورد في هذه الخطبه حين ذكرهم لأدله وجوب نصب الإمام. بعبارة أخرى فان الشيعة لا ترى الامر منفصله عن الإمامه، أما الاذعان لامره الفاجر فليست على أساس أنّها هدف نهائي، بل يدفع إليها الاضطرار حين تتعذر حكومه الإمام المعصوم.

ج ج

ص: ٢٨٣

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها ينهى عن الغدر ويحذر منه

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى ثلاثه أمور مهمه: الأول: أهميه الوفاء وصدق الحديث، ودم ناقضى العهد، الثانى: أنّ الخداع والغدر والخيانه ليست من العقل والذكاء كما يظن ذلك الغدره الفجره. والعقل والفطنه فى الصدق والوفاء بالعهد.

الثالث: ضروره إغتنام الفرص من أجل المبادره إلى الآخره والوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق.

ج ج

ص: ٢٨٥

١-١) رواها ابن طلحه الشافعى فى مطالب السئوال، صحيح أنّ ابن طلحه الشافعى عاش بعد السيد الرضى إلّا أنّ روايه ابن طلحه تفيد أنّه عثر عليها فى مصدر غير نهج البلاغه. ورواها الجاحظ فى رساله المعاش والمعاد وقال فى مطلع الخطبه «الصدق والوفاء تؤامان» وهذا يدل على أنّه رأى فى المصادر التى صنفت قبل الرضى (لأن الجاحظ عاش أوائل القرن الثالث بينما يعتبر السيد الرضى من كبار علماء أواخر القرن الرابع) مصادر نهج البلاغه ١ / ٤٤٠.

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعِ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدْ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْعُدْرَ كَيْسًا وَنَسِيَ بِهِمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلِ. مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ! قَدْ يَرَى الْحَوْلُ الْقَلْبُ وَجَهَ الْحِيلَةَ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدْعُهَا رَأَى عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِي فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيحَةَ لَهُ فِي الدِّينِ».

الشرح والتفسير

لم يذكر شرّاح نهج البلاغه - حسب علمنا - سبب إيراد هذه الخطبة، إلّا أنّ الرابطة المعنوية بين هذه الخطبة والخطبة رقم ٣٥ وسائر القرائن تشير إلى أنّ هذه الخطبة ناظرة لمعركة صفين وقضية التحكيم، لأنّ مسأله التحكيم المأساوية إتخذت أبعاداً واسعة في البحث والنقاش بين صفوف المسلمين - ولعل بعض الجهال نسب مكر عمرو بن العاص وخيانتته وغدره إلى الكياسه والفتنه؛ الأمر الذي قد يشجع الآخرين لممارسه مثل هذه الأعمال الشائنة البعيده عن الإسلام وتعاليمه الحقّه، ومن هنا خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة ليقبر هذه الأفكار المنحرفه ويحد من شياعها بين الناس، ثم عرض بالذم إلى المكرو والخديعه ونقض الميثاق وأشار إلى العواقب الوخيمه التي تفضى إليها هذه الأعمال ثم أثنى على الوفاء والصدق فقد إستهل الخطبه بخطاب الجميع «أيها الناس إن الوفاء توأم (١)الصدق». التوأم بمعنى الذي يولد مع الآخر في حمل واحد، ويستعمل بشأن كل شيئين يرتبطان معا برابطه وثيقه، ومن هنا فقد شبه الإمام عليه السلام فضيلتي الوفاء والصدق بالتوأم ولعل التمعن في مفهوم هاتين الصفتين ومصدرهما الفكري

ص: ٢٨٧

١- ١) «توأم» من ماده «وئام» بمعنى الموافقه حسبما صرح بعض أرباب اللغه، بينما ذهب البعض كصاحب المقاييس إلى أنّ التاء أصلية، واتّام (مصدر باب إفعال) بمعنى ولاده أحد مع الآخر من حمل واحد.

الروحي يفيد أنّ الأمر كذلك، فالوفاء يعنى الالتزام بالعهد، وهو فى الواقع نوع من الصدق، كما أنّ الصدق نوع من الوفاء. والصدق ذو معنى واسع وشامل لا يقتصر على الحديث، بل يشمل العمل أيضاً، ومن هنا صرح القرآن قائلاً: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» (١) فمن الواضح أنّ المراد بصدق العهد فى الآيه هو الصدق فى العمل، ولذلك أردفت بالقول «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ». ومن هنا تتضح عمق الرابطه بين الوفاء والصدق، فلو أبرم شخص عهداً ونقض عهده فقد كذب، ومن هنا يمكن اعتبار ناقض العهد كاذباً، ولما كان حسن الصدق وقبح الكذب ظاهر لكافة الناس، فإنّ الإمام عليه السلام قرن بهما الوفاء بالعهد ونقضه ليتضح حسنهما وقبحهما. ثم تطرق الإمام إلى الآثار الايجابيه للوفاء بالعهد فقال: «ولا أعلم جنه (٢) أوقى منه»، فهذه فى الواقع من أهم آثار الوفاء بالعهد وبركاته الدنيويه فى أنّه جنّه وثيقه؛ لأنّ أساس الحياه الاجتماعيه يتمثل بالتعاون والتكافل والثقه المتبادله والالتزام بالعهود والمواثيق الفرديه والاجتماعيه، بعبارة أخرى فإنّ الثقه المتبادله تذلل كثيراً من المصاعب، بينما يتعذر حل هذه المصاعب إذا ما انعدمت الثقه وسلب الاعتماد بين الناس، ولذلك كانت الدعاه الاصليه للدين تتجسد فى الوفاء بالعهود والمواثيق، حتى ورد فى الحديث النبوى المعروف «لادين لمن لا عهد له» (٣) كما ورد أيضاً «إذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم» (٤) جدير بالذكر أنّ الجنّه بمعنى الدرع الذى يقى أخطار العدو فى ميدان القتال. تشبيه الوفاء بهذا الدرع يفيد كونه يشكل الوسيله الدفاعيه تجاه الأخطار الاجتماعيه التى تفرزها حاله الفوضى وعرقله القوانين والمقررات. ثم أشار عليه السلام إلى أبعاده المعنويه والأخرويه فقال «وما يغدر من علم كيف المرجع»؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى نهج البلاغه بقوله «لولا كراهيه الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجره، وكل فجره كفره ولكل

ص: ٢٨٨

١-١ (١) سورة الأحزاب / ٢٣. [١]

٢-٢ «جنه» على وزن «غصه» بمعنى الدرع واشتقت فى الأصل من ماده جن على وزن فن بمعنى الستر ومنه المجنون، كما تطلق الجنه على البستان كأنه تغطى بالأشجار، ومنه الجنين المغطى برحم الأم وإطلاق الجن على تلك الجماعه لخفائها.

٣-٣ (٣) نوادر الرواندى / ٥.

٤-٤ (٤) بحار الأنوار ٩٧ / ٤٦. [٢]

غادر لواء يعرف به يوم القيامة» (١). ولما كان انحراف المجتمع عن المبادئ الأخلاقية يقود إلى تنكر القيم وتبديلها، حتى يعد العهد والمكر والخداع كياسه والالتزام بالعهود سذاجه وبلاجه فقد قال الإمام عليه السلام «ولقد أصبحنا في زمان قد إتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحليه»! نعم فإنّ قيم المجتمع إذا تنكرت بفضلها المعيار والمحك للحسن من القبيح فإنّ ظهور مثل هذا الخلل لا يبدو مستغرباً، فمن الطبيعي أن يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والملك شيطاناً والشيطان ملكاً وقديساً. ومما يؤسف له أنّ هذه الظاهرة قد تفتت وبشكل واسع في عالمنا المعاصر فقد ينظر إلى الثعالب المكره في سياسته العالميه على أنهم الساسه المهرة، بينها يرمون بالسذاجه وانعدام تجربته من يلتزم بالعهود والمواثيق ويراعون القيم الإنسانيه والإلهيه في سياستهم، وما أصعب العيش في مثل هذا العالم، وبالطبع فإنّ نقض العهود واعتماد الكذب والخداع قد يجر على صاحبه بعض المنافع على المدى القريب ويحظى بمديح هذا وثناء ذاك، إلّا أنّ المفروغ منه أن عرى المجتمع إنّما تؤول إلى التصدع والانهيار على المدى البعيد. ومن هنا فان الأفراد من أهل الإيمان والوفاء إنّما يسعون لتحسين أموالهم وحفظ ثرواتهم من خلال الامانه وإحترام العهد في المعامله، والدوله هي الأخرى مدعوه لرعايه هذا الأمر من أجل كسب ثقته سائر البلدان واستقطابها لضمان مصالح البلاد الاقتصاديه. ومن هنا صرحت الروايه «الأمانه تجلب الغنى والخيانه تجلب الفقر». (٢) ولا شك أنّ هناك رابطه حميمه بين الأمانه والوفاء، رغم كونهما مفهومين منفصلين، ولذلك قال أميرالمؤمنين على عليه السلام: «الأمانه والوفاء صدق الأفعال» (٣). قال أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعى عبدالرحمن بن سبابه: ساءت حالى بعد وفاه أبى فلما حججت البيت رأيت الإمام الصادق عليه السلام فقال لى: أعظك؟ قلت بلى جعلت فداك، قال: «عليك بصدق الحديث وأداء الامانه تشرك الناس فى أموالهم هكذا - وجمع بين أصابعه - قال فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاثمائه ألف درهم». (٤)

ص: ٢٨٩

١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٠. [١]

٢-٢) بحارالانوار ٧٢ / ١١٤. [٢]

٣-٣) غرر الحكم ح ٨٣ - ٢.

٤-٤) فروع الكافي ٥ / ١٢٤. [٣]

ثم رد عليه السلام على من إتهمه بعدم العلم بالسياسة فقال: «ما لهم قاتلهم الله قد يرى الحول (١) القلب وجه الحيله ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأى العين بعد القدره عليها» أمّا ذلك الذى لا يتورع عن الذنب والمعصيه وعدم الإكتراث للدين فأنّه ينتهز الفرصه ليفعل ما يشاء فيراه البلهاء سياسيا ناجحا «وينتهز (٢) فرصتها من لاجريجه (٣) له فى الدين» فالإمام عليه السلام يقول إنّ عدم استغلالى للفرص الغدره من أجل التفوق على العدو لايعنى عدم علمى بالأمر، بل ذلك يعنى أنى أخاف الله، وإننى لا عتمد الورع والتقوى والعدل حتى مع أعدى أعدائى، ولا أرى الغايه تبرر الوسيله، بل لا أومن بالنصر كيفما كانت قيمته وثمرته، إلما أنّ أعدائى لا- يراعون أى من هذه المبادئ، فهم يقارفون كل جنايه ولا يتورعون عن أيه جريمه، فلا يقيمون وزناً لدماء الأبرياء، ولا- يتخرجون من الظلم والعدوان، ولا- يلتزمون بالعهود والمواثيق، نعم ليس لهم من هم سوى تحقيق أهدافهم اللامشروعه بأيه وسيله. فاذا رأى الناس تصرفاتهم وتخرجى عدوهم ساسه أكفاء، والحال ما هم ساسه وأنهم لحفنه من الظلمه الذين يفتقرون إلى الورع والتقوى.

السياسه الإلهيه والشيطانيه

إن الاختلاف فى الاساليب السياسيه إنّما تفرزه الرؤى بشأن الحكومه، فالسياسه التى ينتهجها أولئك الذين ينشدون الحكومه من أجل ضمان مصالحهم الشخصيه أو الفئويه، تختلف عن السياسه التى يتبعها أولئك الذين لا يرون فى الحكومه سوى وسيله لحفظ القيم والمثل. فالحكومات السابقيه كانت تتصف بالدكتاتوريه المقيته التى تنكسر فى فرد واحد مستبد غاشم يسعى جاهداً لتحقيق مآربه وإشباع رغباته وضمن مصالح بطانته معتمداً منطلق القوه والعنف من أجل ترسيخ دعائم حكومته فلا يرى من حرمه لقيم ومثل سوى تلك التى تخدم

ص: ٢٩٠

-
- ١- ١) - الحول القلب بضم الاول وتشديد الثانى هو البصير بتحويل الأمور وتقليبها.
٢- ٢) «ينتهز» من ماده «إنتهاز» بمعنى الإقدام على عمل، كما يعنى الاستفاده التامه من الفرصه.
٣- ٣) «حريجه» من ماده «حرج» بمعنى التحرج والتحرز من الآثام، ويأتى الحرج أحياناً بمعنى الذنب.

مصالحه أمّياً اليوم فالحكومات وإن تغيّرت شكلاً، إلماً أنّ جوهرها وماهيتها لم تختلف كثيراً عن تلك التي كانت سائده في الماضي، وإن كان المعروف عن هذه الحكومات إقتحامها الميدان كفتات وأحزاب. على سبيل المثال فإنّ الأحزاب هي التي تمسك بزمام الأمور في البلدان الصناعيه المعاصره، بحيث يسعى كل حزب لضمان مصالح فئه معينه، ثم يعتمد كافه الوسائل من أجل الحصول على أكثر عدد من الآراء بغيه الوصول إلى الحكومه، فإذا تسلّموا الحكومه، أتوا بالأفراد الذين يعملون على ترسيخ دعائم حكومته وبالطبع فإنّ مثل هذه الحكومات قد تتبنى بعض الشعارات من قبيل حقوق الإنسان وحرية المرأه وأحياناً يطرحون بعض المسائل الأخلاقيه، إلماً أنّهم يعلمون كما يعلم الآخرون أنّهم ليسوا جادين في ما يقولون، فاصواتهم عاده ما تتعالى بحجه أن البلد الفلاني - إذا كان من أعدائهم - قد إنتهك حقوق الإنسان، وإن كان من أصدقائهم فقد يحظى بتأييدهم ودعمهم وإن إنتهك تلك الحقوق الف مره كل يوم - وفي مقابل هذه الحكومات، هنالك حكومه الأنبياء والأولياء التي لا تعرف المصالح الفرديه ولا- الفتويه، وهي قائمه على أساس القيم والمثل. فالحكومات السابقه تصرّح علناً بتعذر الجمع بين السياسه والأخلاق، وعليه فالحاكم الذي يراعى المبادئ الاخلاقيه إنّما يفتقر في الواقع حسب ظنهم إلى العقل السياسى؛ وسوف لن يكتب لحكومته الدوام والاستمرار، فالغايه تبرر الوسيله، وكل ما يقرب من الهدف فهو حسن ومطلوب. بينما ترى الحكومه الأخيره ان شعارها يتكرس في «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (١) أو «لو لا- . . ما أخذ الله على العلماء أن لايقاروا على كظه ظالم ولا سغب مظلوم. . .» (٢) أو «وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمه جدى صلى الله عليه و آله» (٣) ومن الطبيعي أن يكون هناك بوناً شاسعاً بين سياسه الحكومات بالمعنى الأول والحكومات الإلهيه، بل هناك تعارض وتضارب بينهما فالطائفه الاولى تضحي بكل القيم وتذبجها من أجل الوصول إلى دفعه الحكم، بينما تخلت الطائفه الثانيه بشهادته التاريخ عن الحكومه من أجل الحفاظ على القيم والمثل. وهذا ما وضحه الإمام عليه السلام في الخطبه «والله ما معاويه بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهيه الغدر لكنت من

ص: ٢٩١

١-١) كثر العمال ٣ / ١٦ ح ٥٢١٧.

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ٣. [١]

٣-٣) بحار الانوار ٤٤ / ٣٢٩. [٢]

أدهى الناس» (١) وقال عليه السلام: «تأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؛ واللّه لا أطور به، ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً» (٢) والاختلاف بين هاتين الرؤيتين في السياسة الإلهية والسياسة الشيطانية هو الذى يجعل بعض الأفراد يشكلون أحياناً على الساسة الربانيين ويحملون أعمالهم على السذاجه وعدم معرفه بفنون السياسة، بينما يغفلون عن حقيقه كبرى وهى أنّ هؤلاء الأفراد إنّما يحثون السير إلى عالم آخر لا تجيز مبادئه وضوابطه التشبث بأى أسلوب وطريقه. فمثلاً لما غلب معاويه أهل العراق على الماء منعهم منه، فلما حمل أهل العراق إنكشاف أهل الشام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعه - فقال أصحاب على عليه السلام: أمنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك - فقال: «لا خلوا بينهم وبينه، لا- أفعل ما فعله الجاهلون. (٣) والآ عجب من ذلك عدم إلتفات رسول الله صلى الله عليه و آله إلى أصحابه الذين أشاروا عليه بمنع اليهود الماء حين محاصره قلاع خيبر فلم يجبههم صلى الله عليه و آله» (٤) ويتعجب أولئك الغافلون حين يسمعون مسلم بن عقيل وقد إمتنع عن قتل ابن زياد غيله فى دار هانئ بن عروه قائلاً: «الإيمان قيد الفتك» (٥). أضف إلى ذلك فإنّ علياً عليه السلام إمتنع عن قتل عمرو بن العاص فى صفين حين كشف عن عورته. فكل هذه الأمور لا يرونها تنسجم والسياسة، بل السياسى الفذ فى نظرهم من يدافع عن العهدو والمواثيق ويلتزم بالمبادئ إذا كانت تجرى لصالحه، وإلّا فلا يبدّ أن يضربها جميعاً عرض الحائط. فالسياسى الورع والمتقى يرى النصر على الأعداء إنّما يحتل الدرجة الثانيه، والدرجة الاولى تتمثل بحفظ المبادئ ورعايه القيم والمثل. والجدير بالذكر ما أورده ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه حين تحدث عن مروءه ووفاء أحد أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو إبراهيم بن عبدالله فقال: «وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبى طالب من هذا النوع أخبار كثيره، وكان القوم أصحاب دين ليسوا من الدنيا بسبيل، وإنّما يطلبونها لقيموا عمود الدين بالامر فيها، فلم يستقم لهم، والدنيا إلى أهلها أميل» .

ص: ٢٩٢

-
- ١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٠، [١] وروى عنه عليه السلام أنّه قال: «لولا التقى - أو لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب» .
 شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٢٨. [٢]
 ٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٦. [٣]
 ٣- ٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٥٦٩. [٤]
 ٤- ٤) سيد المرسلين ٢ / ٤٠٨ تقلاً عن السيره الحلبيه ٣ / ٤٠. [٥]
 ٥- ٥) بحار الانوار ٤٤ / ٣٤٤. [٦]

ومن كلام له عليه السلام

وفيه يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل فى الدنيا.

نظره إلى الخطبه

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه على ضوء نقل نصر بن مزاحم فى كتاب صفين بعد موقعه الجمل حين ورد عليه السلام الكوفه، وهى تعالج غرور الأفراد وطمعهم بعد تحقيق النصر ولا سيما إن كانت هناك غنائم؛ الأمر الذى يثير حفيظه البعض للتكالب على الدنيا وبالتبع يتطلع إلى المزيد من كان له دور أكبر فى المعركه والحصول على الغنائم. فهدف الإمام عليه السلام تحذير الناس وتذكيرهم بالأهداف المعنويه التى قاتلوا من أجلها، كما يحذرهم من رذيلتى إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخره. ثم يؤكد الإمام عليه السلام على قصر عمر الدنيا وضروره إغتنام الفرص فيها من أجل العمل الصالح والتزود للآخره، حيث يوجز هذا الأمر الحيوى بعبارات قصيره بليغه المعنى.

ج ج

ص: ٢٩٣

١ - ١) سند الخطبه: وردت هذه الخطبه بعده أسناد. رواها قبل السيد الرضى (ره) نصر بن مزاحم فى كتاب صفين والشيخ المفيد فى المجالس والمسعودى فى مروج الذهب. وقال نصر بن مزاحم دخل الإمام عليه السلام الكوفه بعد معركه الجمل فأسرع قراء الكوفه وأشرفها لإستقباله. فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم خطب الخطبه.

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصِيدُ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ» .

الشرح والتفسير

أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام خطبها بعد الجمل حين ورد الكوفة، بهدف الحد من الغرور الذي تفرزه طبيعته النصر والتنافس على غنائم المعركة، فقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصِيدُ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ» . والعبارة الآخيره مهمه ذات أثر بالغ في مصير الأمم، بحيث ورد التأكيد عليها في أحاديث النبي صلى الله عليه وآله، كما أشار إليه الإمام عليه السلام سابقاً في الخطبه الثامنه والعشرين . (1) ويتضح من معنى مفرد الهوى التي تشير إلى أهواء ورغبات النفس الأماره باللذات الدنيويه دون الحدود والقيود مدى صدها الإنسان عن الحق ومنعه من بلوغه، لأنّ الهوى حجاب على العقل يحول دون إدراك الحقائق ومشاهدتها، بينهما يزين له هذا الهوى الباطل ليبيديه له أنصع من الحق، في حين يشوه له الحق ويظهره له كإباحة صورته للباطل، وقد لمست هذه الحقيقه كثيراً خلال تجربتي ومطالعتي لسيره الماضين في كيفية تبرير أتباع الهوى لبعض صور الحق والباطل وتغيير هويتهما. وأما طول الأمل فيستقطب جميع طاقات الإنسان وقواه حتى ينسيه الآخره، ولما كانت قوى الإنسان محدوده فأنّه يستهلكها في الآمال الكاذبه اللامتناهيه بحيث لا يبقى لنفسه من قوه يدخرها للآخره، ولا سيما أنّ الامال لا تعرف للنهايه

ص: ٢٩٥

١-١) بحار الانوار ٧٤ / ١٨٨ (مع اختلاف طفيف) وبحار الانوار ٧٠ / ٩٠ - ٩١ مع فارق ضئيل جداً.

من معنى، وتقتضى طبيعتها أن يتجه الإنسان إلى الأخرى فور ظفره بالاولى حتى يجند نفسه على الدوام بغية الظفر بها جميعاً، بل إن تحقيقه لأمل ربما يدفعه لآخر، لأن الآمال عادة مترابطة مع بعضها البعض، وعلى هذا الضوء فسوف لن يبقى لديه من وقت كما لا تبقى له من قوه، وبالتالي سوف لن يمتلك الدفاع نحو الآخرة. وبالطبع فإنه لن يفيق من غفلته حتى يصفعه الموت، وقد ولى العمر وتصرمت أيامه وفرصه فلم يظفر بأماله ولم يدرك آخرته. وما أروع ما قال أبو العتاهيه حين دعى لإنشاد الشعر بحضرة هارون حين أراد أن يفتتح له قصراً جديداً فى مصر:

عش ما بدا لك سالمأ فى ظل شاهقه القصور يهدى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفى الكبور حتى إذا تزعزت النفوس ودحرجت فهناك تعلم موقناً ما كنت إلأفى غرور. (١)

فشعر من حول هارون بالامتعاظ من هذه الأبيات على أنها لا تنسجم والمناسبه، إلأأن هارون مدحه وأثنى عليه.

وقد علق بعض شراح نهج البلاغه على أن طول الأمل ينسى الآخرة وذلك لأن هذا الفرد يغتر بمظاهر الدنيا ويرى فى الموت الوسيله التى تقطعه عن هذه الدنيا، فينسى المعاد ويوم القيامة جدير بالذكر أن للأمل دور إيجابى فى حياه الإنسان والذى عبر عنه القرآن بالرجاء، ولاسيما إذا كان مقرونا بالتوكل على الله.

ص: ٢٩٦

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حِذَاءَ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صِبَابُهُ كَصَبِ بَابِهِ الْإِنَاءِ اضْطَبَّهَا صَابُهَا. أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلِّ مِنْهُمَا بُنُونَ. فَكُونُوا مِنْ أُنْبَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أُنْبَاءِ الدُّنْيَا. فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَعَدَا حِسَابٍ وَلَا عَمَلٍ» .

الشرح والتفسير

واصل عليه السلام خطبته التي ابتدأها بدم إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخرة، وبالتالي يحولان دون سعادته الإنسان وفلاحه، ليقدم تحليلاً رائعاً عن أوضاع الدنيا والآخرة فقال «ألا وإن الدنيا قد ولت حذاء (1)»، فلم يبق منها إلا صبابه كصابه (2) الإناء اصطبها صابها» .

فقد شبهت الدنيا هنا بالكائن الذي يعود بسرعة إلى مسيرته، الأمر الذي يفيد حقيقة الحركة السريعة لعمر الإنسان، الحركة الخارجة عن إرادته الإنسان وتشمل كافة الكائنات الحية سوى الذات الإلهية المطلقة، ولا يستثنى من تلك الحركة الكواكب والمجرات والسماوات والأرضين لتنتهي إلى الفناء والزوال الدنيوي ليكون نافذه على عالم الخلود والبقاء. فالطفولة تتحرك نحو الفتوة والشباب، والفتوة تنطلق نحو الكهولة التي تنتهي بالموت، هذا إذا جرت الأمور وفق القانون الطبيعي والاقدر يتساقط بعض الاطفال والشباب من هذه القافلة لتنتهي

ص: ٢٩٧

١ - ١) «حذاء» كما ورد في تفسير السيد الرضى (ره) وشرّاح نهج البلاغه بمعنى السريع، من ماده حذ على وزن حظ بمعنى القطع، أو القطع السريع، ثم اطلقت على كل حركة سريعة، وحذا مؤنث إحدأ.

٢ - ٢) «صابه» بالضم البقيه من الماء واللبن فى الإناء، والضمير فى اصطبها وصابها يعود إلى الصبابه، لأنّ الإناء مذكر والضمير المؤنث لا يعود إليه.

أعمارهم دون بلوغ الكهولة. فالإمام عليه السلام يقول أن عمر الإنسان قصير قليل كبقية الماء واللبن في الإناء التي تعلق به عند قلبه، أو عبارته أخرى فإن الإنسان حين يقلب إناءً مملوءاً بسائل ثم يعيد الإناء إلى وضعه الأصلي إنما يتبقى فيه مقدار من الماء يطلق عليه الصبابة وهذه في الحقيقة هي عمر الإنسان ثم قال عليه السلام «ألا وإن الآخرة قد أقبلت» فكلما قصر عمر الدنيا اقتربت الآخرة، فالواقع إننا نركب قطار الزمان الذي يسير بسرعة نحو الآخرة، والدقائق والساعات والأيام والأسابيع والأشهر والسنوات إنما تكشف عن سرعه مسيره قطار الإنسانية بأجمعها، ثم أوضح عليه السلام وظيفه الناس «ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة» نعم هناك خيطان: خط عبده الدنيا وخط عشاق الآخرة، وإن كانت هنالك بعض الجماعات المتدبذبة بين الخطين. ولا يعرف أبناء الدنيا سوى النوم والأكل والشرب والشهوه والطرب والعيش والملذات، فهم متعلقون بظاهر الدنيا دون أن يكفوا أنفسهم عناء التفكير في الآخرة، بل هم عنها عمون «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» (١). فكأنهم مخلصون في الدنيا وليس هنا لك من آخرة، فوثقوا بأموالهم وثرواتهم على أنها تخلد لهم في دنياهم «يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ». أما أبناء الآخرة فقد نظروا بعين العقل والبصيرة إلى الدنيا وأدركوا أنهم مفارقوها ومرتحلون عنها فلم يطمأنوا إليها. لقد طلقوها كما طلقها الإمام عليه السلام ثلاثه لارجعه فيها. فقد إتعضوا بالقرآن الذي أوقفهم على طبيعته خسرانها «وَالْعَصِيرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسِيرٍ * إِلْمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». أما التعبير عن عبده الدنيا بأبناء الدنيا وعن المؤمنين الصالحين بأبناء الآخرة، وذلك لأن الأبناء إنما يشبهون إلى حد كبير آبائهم وأمهاتهم بفعل الصفات الوراثية التي تنتقل إليهم عن طريق الجينات، وهو الشبه الذي يدعو إلى المحبة والإرتباط. نعم عبده الدنيا أبنائها، ومن هنا أحاط حب الدنيا بقلوبهم بحيث أصبحوا لا يرون سوى الدنيا ولا يجنون سواها، وشعارهم فيها «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا» (٢) وإن كانوا ظاهرا يحملون الإسلام. أما أبناء الآخرة فقد سيطر حب الله على

ص: ٢٩٨

١-١) سورة الروم / ٧. [١]

٢-٢) سورة الجاثية / ٢٤. [٢]

قلوبهم، فهم يتزودون من الدنيا إلى الآخرة دون أن يغرقوا فيها.

وقال بعض شراح نهج البلاغه أنّ المراد بالعباره هو أن المؤمنين سيكونون في الآخرة بمثابة الأبناء الذين يرتمون بأحضان آبائهم، بينما سيكون أبناء الدنيا كاليتامى. إلّا أنّ هذا التفسير لا ينسجم والعباره «إن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»، بل يفيد هذا التعبير أن الحياه الدنيا الماديه ليست سوى الجحيم الذى يرتمى فيه أبناء الدنيا إذا افتقرت إلى الإيمان والتقوى، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله «فَأُمَّهُ هَٰوِيَةٌ». (١)

أمّا إن كانت هذه الحياه مقرونه بالإيمان والتقوى والصبغه الآخرويه فتتجسم يوم القيامة على هيئة جنّه سيرتمى فى أحضانها المؤمنون. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلا: «وإنّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» فالعباره تفيد من جهه وجود الفرصه من أجل إستزاده العمل الصالح، وإذا ما شوهده المحسنون والمسيئون، والصالحون والظالمون، واولياء الله وأعداء الله، وحزب الله وحزب الشيطان إلى جانب بعضهم البعض الآخر فى هذه الحياه الدنيا فذلك لأنّ الدنيا دار عمل لا حساب فيها ولا جزاء وعقاب. ومن جهه أخرى تحذير بأنّ نهايه العمر فى الدنيا تعنى إغلاق صحيفه الأعمال وليس هنالك من سبيل للعوده والعمل وتدارك ما فرط، كما ليس للندم من أثر أو فائده، فقد قال على عليه السلام «لا عن قبيح يستطيعون إنتقالاً ولا فى حسن يستطيعون إزدياداً» (٢) كما ليس هناك من جدوى لصراخهم «رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحًا» (٣) كما لا تفيدهم الآمال والأمانى «فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». (٤)

الموت يعنى إغلاق صحيفه الأعمال

ص: ٢٩٩

١-١) سورة القارعه / ٩. [١]

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٨٨. [٢]

٣-٣) سورة المؤمنون / ٩٩ - ١٠٠. [٣]

٤-٤) سورة الشعراء / ١٠٢. [٤]

ما ورد في الخطبه بهذا الخصوص ممّا أكدته الآيات القرآنيه، حتى صرحت بعض الآيات أنّ أبواب التوبه تغلق حين نزول عذاب الاستئصال (من قبيل العذاب الذى إستهدف إجتماع جذور الأقوام السابقه حين طغت فى الأرض) بحيث لم يعد هناك من مجال لتدراك الأعمال، لأنّ الإنسان فى ظل هذه الظروف إنّما يودع الدنيا وينتقل إلى الآخره مروراً بالبرزخ، ومن ذلك قوله سبحانه: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّهُ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» . (١). كما نعلم بأنّ فرعون لما أدركه الغرق وشعر بالموت أظهر الإيمان ولكن أغلقت بوجهه كافه أبواب التوبه فاتاه النداء «الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (٢). ونستج من هذه الآيات وسائر الايات الوارده بهذا الشأن أنّ هناك سنه إلهيه تفيد إغلاق صحيفه الإنسان وانقطاع أعماله حين يكون على أبواب الموت المحتم، فليس هنالك من سبيل للعوده والإصلاح. وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ أغلب الروايات صرحت بأنّ آثار الأعمال الحسنه والسيئه تصل الإنسان بعد موته بحيث تثقل صحيفه أعماله خيرا أم شرا، فقد ورد فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «سبعه أسباباً يكتب للعبد ثوابها بعد وفاته، رجل غرس نخلاً أو حفر بئراً أو أجرى نهراً أو بنى مسجداً أو كتب مصحفاً أو ورث علماً أو خلف ولداً صالحاً يستغفر له بعد وفاته» (٣) ومن الواضح أنّ ما جاء فى هذا الحديث نموذج باراز لأعمال الخير، أفلا- يتنافى هذا الأمر وما ذكر سابقاً؟ والجواب على هذا السؤال واضح فليس هنالك من عمل جديد يقوم به الإنسان بعد الموت، لا- إنّ آثار الأعمال السابقه لا تصل إليه. نعم صحيفه الأعمال الجديده مغلقه ولا يضاف إليها شيئاً، أما صحيفه أعماله السابقه قبل الموت فهى مفتوحه دائماً وإن الإنسان يقطف ثمار عمله الصالح فى البرزخ ويوم القيامه، وتصله حتى الأعمال الصالحه فيما إذا خلف ولداً صالحاً يدعو له ويستغفر له.

ص: ٣٠٠

١-١) سورة المؤمنون / ٨٤ - ٨٥. [١]

٢-٢) سورة يونس / ٩١. [٢]

٣-٣) «تنبيه الخواطر»، ([٣] طبق نقل ميزان الحكمه، ٣ / ٢٣ - ٢٤ ماده عمل). .

من كلام له عليه السلام

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله جرير بن عبدالله البجلي إلى معاويه ولم ينزل معاويه على بيعته.

نظرة إلى الخطبه

تشتمل الخطبه على قسمين يختلف كل منهما عن الآخر، ويبدو أن كل منهما قد ورد مستقلاً في موضعه، إلا أن السيد الرضى (ره) جمعهما لمناسبه - فالقسم الأول يتعلق يقضيه جرير بن عبدالله البجلي الذي كان عاملاً لعثمان على ثغر همدان. فأما خبر جرير بن عبدالله البجلي وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاويه، فقد ورد في الأخبار: لما قدم عليه السلام الكوفه بعد إنقضاء أمر الجمل، كاتب العمال، فكتب إلى جرير بن عبدالله البجلي. فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال: أيها الناس، هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقه بها. فقال الناس سمعاً وطاعة. فكتب جرير إلى على عليه السلام جواب كتابه بالطاعة وكتب على عليه السلام إلى الأشعث وكان عامل عثمان على أذربيجان يدعوه إلى البيعه والطاعة. وكتب جرير بن عبدالله البجلي إلى الأشعث يحضه على طاعة أمير المؤمنين على عليه السلام وقبول كتابه. فقبل

ص: ٣٠١

١ - ١) وردت هذه الخطبه في كتابين قبل نهج البلاغه، الأول كتاب صفين لنصر بن مزاحم والآخر كتاب الإمامه والسياسه مع فارق طفيف. أما القسم الثاني فقد رواه ابن عبد ربه في العقد الفريد. مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٤٦. [١]

الأشعث البيعه وسمع وأطاع، وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد على عليه السلام الكوفة فبايعه. ولما أراد على عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً قال له جرير: إبعثنى يا أمير المؤمنين إليه؛ وأدعوا أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فجلهم قومي وأهل بلادي وقد رجوت ألا يعصوني. فبعثه على عليه السلام. فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية ودفع إليه كتاب على عليه السلام. فقال معاوية أنظر وتنظر؛ واستطلع رأى أهل الشام. فكتب له الإمام عليه السلام: إنَّما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعه، وأراد أن يريثك ويبطئك، فان بايعك الرجل، وألّا فاقبل. قيل ولما أبطأ جرير عند معاوية إتهمه الناس، فلما سمع جرير ذلك فارق علياً عليه السلام فلحق بقرقيسياء (بلد بالخابور عند مصبه) ولحق به ناس من قسر من قومه، واقام فيها حتى توفي. (١) على كل حال مكث جرير عدّه شهور في الشام، حتى اقترح أصحاب الإمام عليه السلام عليه قتال أهل الشام، إلّا أنّ الإمام عليه السلام لم يجبههم إلى ذلك وجرير هناك، وأنه قد وقت وقتاً لجرير، فلا بدّ من إنتهاء، ذلك الوقت ومعرفة النتيجة.

القسم الثاني يتناول إصرار الإمام عليه السلام على قتال أهل الشام، حيث اورد نصر بن مزاحم في كتاب صفين أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما كلمه أحد جنود الشام اثناء معركة صفين بالهدنه وترك القتال على أن يرجع أهل العراق إلى العراق وأهل الشام إلى الشام، فردّ عليه الإمام عليه السلام رداً قاطعاً بمواصله القتال ثم تطرق إلى أسباب ذلك.

وأخيراً فالقسمان يوضحان بجلاء أن الإمام عليه السلام رجل الصلح والسلام في ظروف الأمن والاستقرار، فاذا نشبت الحرب كان بطلها المجرب وليثها الغاضب.

ونتجه بعد هذه المقدمة إلى شرح الخطبه.

ص: ٣٠٢

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٣ / ٧٠ - ١١٨ [١] بتلخيص.

«إِنَّ اسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٍ عِنْدَهُمْ، إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ وَصَيْرُفٌ لِأَهْلِهِ عَن خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ. وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتْ لِحَرْبِي وَقْتًا لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعًا أَوْ عَاصِيًا. وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ الْأَنَاهِ فَارُودُوا وَلَا أَكْرَهُ لَكُمْ الْإِعْدَادَ» .

الشرح والتفسير

كما أوردنا سابقاً فإن الخطبه بشأن قضيه جرير بن عبدالله حين كان عاملاً لعثمان على همدان، ثم قدم الكوفه فوجهه الإمام عليه السلام إلى الشام لأخذ البيعه من معاويه، إلّا أنّ فجاج مهمه جرير كان يبدو ضعيفاً، ومن هنا رأى أصحاب الإمام عليه السلام قتالهم. فأجابهم الإمام عليه السلام قائلاً «إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم، إغلاق (1) للشام وصرف لأهله عن خير إن أرادوه» فالعبارة تفيد أنّ الإمام عليه السلام بصفته زعيم الدوله الإسلاميه لا يرى في الحرب والقتال من وسيله صحيحه لحل الاختلافات، ولا بدّ من إبقاء باب السلام مفتوحاً لاتمام الحججه، فان لم تجد نفعاً، آنذاك تكون الحرب هي العلاج. والطريف في الأمر أنّ الإمام عليه السلام لا يابه بمعاويه وإنما يفكر بأهل الشام، فقال «إغلاق للشام» ، ثم أضاف قائلاً «وصرف لأهله عن خير إن أرادوه» في إشاره إلى عبثيه جر أهل الشام للقتال وصدّهم عن الصلح والسلام وإن كانت لكبيره على بعض الأفراد المتحمسين، إلّا أنّ الزعيم العالم لا ينبغي أن تستميله العواطف والأحاسيس، فلا يتصرف إلّا من خلال ضبط النفس والعقل والمنطق بما يرتضيه الحق

ص: ٣٠٣

(١- ١) إغلاق مصدر من باب إفعال يستعمل عاده في الأبواب.

سبحانه وتعالى. ثم أزال الإمام عليه السلام الإبهام الذى قد يتسرب إلى عقول هؤلاء الأفراد باستمرار هذه الحالة القلقه فقال «ولكن قد وقت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً» فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام عين مده بغيه الحفاظ على مصالح المسلمين وعدم فوات الآوان ومرور الفرصه، فقد كان يعلم أنّ معاويه قد يماطل فى الوقت ويشغل جرير، وأقصى ذلك هو الاهبه والاستعداد للقتال، ثم يرد بالسلب على دعوه الإمام عليه السلام بالبيعه فى الوقت الذى تسلب الفرصه والمبادره من الإمام عليه السلام وصحبه. إما لماذا حصر الإمام عليه السلام بقاء جرير عند معاويه باحتمالين؛ الخداع أو العصيان، بينما يمكن أن تكون عرضت له بعض الوقائع من قبيل المرض وما شاكل ذلك، وذلك لأنّ سائر الاحتمالات تبدو ضعيفه لا يكثرث بها إزاء هذين الاحتمالين، أو على حد تعبير علماء الاصول أنّ الاصل فى مثل هذه الأمور السلامه، فلا ينبغى ترتيب الأثر على سائر الاحتمالات. ثم حاول تهدأه خواطر صحبه والتسكين من روعهم فقال «والرأى عندى مع الأناه (١) فأرودوا (٢)». من جانب آخر فإنّ الإمام عليه السلام بغيه عدم غفله أصحابه فى ظل تلك الظروف الحساسه المصيريه، وضروره الابقاء على عزمهم الشديد والراسخ فى مجابهه العدو وعدم إطفاء جذوه الحماس للقتال فقال عليه السلام: «ولا أكره لكم الإعداد»؛ أى أنى لا أعلن حاله التأهب فهذا الأمر يتعارض والصلح والسلام. وفى نفس الوقت لا أحول دون وظيفتكم فى التعبئه الطواعيه، والحق أنّ هذا لأعظم وأنجع اسلوب منطقى وعقلائى فى مثل تلك الظروف العصييه؟ أى لا- تغلق أبواب السلام، ولا- يعيش الجميع حاله الانفعال والغضب، ولا ينبغى أن تقع بعض الأعمال التى تفرزها طبيعه النفاق، وأخيراً لا ينبغى فوات الفرص دون جدوى!

الهدف من الدعوه إلى الصلح والبيعه

إن الإمام عليه السلام وخلافاً لما يعتقدده البعض لم يقاتل معاويه، إلّا حين أتم الحجه عليه من كافة الجهات، بحيث لم يكن يلجأ إلى القتال إلّا حين يكون السبيل الأخير الذى أغلقت جميع السبل

ص: ٣٠٤

١-١) «اناه» بمعين التثبت والتأنى والصبر.

٢-٢) «أرودوا» من ماده «رود» على وزن فوت بمعنى طلب الشئ بالرفق والمداراه، ومنه الإراده.

دونه. تفيد هذه الخطبه أنّ علياً عليه السلام لم يستجب للضغوط التي مارسها أصحابه من أجل شروع القتال، وأنه بذل قصارى جهده بهدف إرساء الصلح والسلام. والرسالة التي بعثها الإمام عليه السلام إلى معاوية بواسطة جرير لتؤكد هذا المعنى. فقد جاء فيها: «إنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان إجتمعا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى، فان خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعه ردوه إلى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى. ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبر الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنى كنت فى عزله عنه إلاماً أن تتجنى، فتجن ما بدالك». (1) والواقع كان معاوية يعتمد ذريعتين لترك البيعه، الأولى أنه كان غائباً حين تمت البيعه لعلى عليه السلام، والثانية أن الإمام عليه السلام مطالب بدم عثمان، فلا يمكن مبايعته، إلا أن الإمام عليه السلام فند هاتين الذريعتين بالدليل والبرهان فى رساله المذكوره، فلم يستجب معاوية بغيه تحقيق أهدافه وأطماعه. على كل حال وكما ذكرنا أنفاً فان جرير عامل عثمان على همدان أعلن بيعته للإمام عليه السلام ومعه الناس إثر وصول كتاب الإمام عليه السلام. ثم ورد الكوفه وطلب من الإمام عليه السلام أن يوجهه إلى الشام لأخذ بيعه معاوية، لأنّ جل أهل الشام كانوا من قومه وأهل بلده ويطمع إلامعصون أمره. فاعترض الأشر وقال للإمام عليه السلام: لا تبعته ولا تصدقه، فوالله إننى لأظن هواه هواهم، وبيته بيتهم. إلا أن الإمام عليه السلام إختاره لقول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه: «إنك من خير ذى يمن» كما لم يبدر منه خلافاً حتى ذلك الحين، ولعله لم يكن هناك من هو أفضل منه. فدفع إليه الإمام عليه السلام كتابه، وقال له: «إئت معاوية بكتابى، فان دخل فى ما دخل فيه المسلمون، وإلا فانبد إليه واعلمه أننى لا أرى به أمراً، وأن العامه لا ترضى به خليفه». فانطلق جرير حتى أتى الشام، ونزل بمعاوية وأخبره باجتماع مسلمى أهل الحرمين وأهل المصرين والحجاز واليمن ومصر وأهل العروض على بيعه الإمام عليه السلام ثم قال: فلم يبق إلا هذه الحصون التى أنت فيها فبايع لعلى عليه السلام. ثم سلمه كتاب الإمام عليه السلام. فلم يستجب معاوية الذى كان شغفاً بالحكمه

ص: ٣٠٥

فقام فخطب الناس مطالباً بدم عثمان وأخذ البيعه من أهل الشام للقيام والمطالبة بدم عثمان. فاستحثه جرير بالبيعه. فقال: يا جرير، إنَّها ليست بخلسه، وإنه أمر له ما بعده فابلعني ريقى. فأشار عليه أخوه بعمر و ابن العاص. وقد وعده النصيحة بعد أن اشترط عليه ولايه مصر. ثم دخل شرحبيل - رئيس اليمينيه و شيخها والمقدم عليها - فتحدث إلى جرير، فأقنعه جرير باتباع عليّ عليه السلام. إلماً أنّ معاويه كتب له كتاباً ودس إليه الرجال يغرونه بعلي عليه السلام ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان، حتى ملئوا صدره وقلبه حقداً وتره وإحنه على علي عليه السلام وأصحابه، ثم دعاه في الكتاب لمطالبه بدم عثمان. فتاهب شرحبيل للطلب بدم عثمان، ثم وجهه معاويه إلى الشام لدعوه الناس للمطالبة بدم عثمان وجعل لا يأتي على قوم إلّاقبلوا ما أتاهم به وهنا شعر جرير باليأس من معاويه، ثم إلتفت معاويه إلى جرير فقال له: إنّي قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال: أكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جبايه، فاذا حضرته الوفاه لم يجعل لأحد بعده فى عنقى بيعه، وأسلم له هذا الأمر، وأكتب إليه بالخلافه. فقال جرير: اكتب ما أردت أكتب معك. فكتب الإمام عليه السلام إلى جرير: إذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاويه على الفصل، ثم خيره وخذه بالجواب بين حرب مخزيه أو سلم محظيه «ولم يكن الله ليرانى اتخذ المضلين عضداً» فتأخر جرير مدّه ولعله كان يطمع فى عوده معاويه إلى رشده، فكثر فيه الكلام. (1)

ص: ٣٠٤

«وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرِ لِي فِيهِ إِلَّا الْقِتَالَ أَوْ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ وَالِ أَحَدَثَ أَحْدَاثًا، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالًا، فَقَالُوا ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا» .

الشرح والتفسير

يقابل هذا القسم من الخطبه القسم المذكور تماما، أو بعبارة أخرى يمثل المرحله الثانيه من مراحل المجابهه. فقد كان الإمام عليه السلام يؤكد في القسم المذكور على ضروره ضبط النفس واجتناب القتال، واللجوء إلى منطق السلام والصبر والتحمل. بينما يتحدث هذا القسم بصوره قاطعه حاده عن القتال واللجوء إلى القوه؛ ولا غرو فقد أغلقت جميع السبل والأساليب، وثبت بالضرر القاطع أنّ معاويه لا- يستسيغ أى منطق واستدلال، ولا- يفهم سوى تحقيق مطامعه فى الحكومه التى يضحى من أجلها بالغالى والنفيس. ومن الطبيعى ألا يكون هنالك من سبيل لمواجهه هذا الشخص سوى الاستسلام وتفويض المقدرات الإسلاميه إليه، أو شهر السلاح بوجهه وقتاله. ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لى إلّا القتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه وآله». العبارة «ضربت أنف هذا الأمر وعينه» مثل تقوله العرب فى الاستقصاء فى البحث والتأمل والفكر. والعبارة «وقلبت ظهره وبطنه» هى الأخرى كناية عن دراسته كافه جوانب الموضوع: لأنّ الإنسان إذا أراد أن يشتري بضاعه قلب ظهرها وبطنها ليتعرف على كافه مميزاتها. أما قوله عليه السلام «فلم أر لى إلّا القتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه وآله» فذلك لأنّ الإمام عليه السلام إذا سكت وترك الأمّة لحالها لقاد ذلك إلى انحراف الناس عن الإسلام واستتباب الحكومه الجاهليه الأمويه والسفيانيه وإحياء

مبادئ الشرك والوثنيه، وهذا يعنى تجاهل كافه القيم والمثل التى جهد رسول الله صلى الله عليه وآله مده ثلاث وعشرين سنه فى إرسائها وتحمل صنوف العذاب من أجل ترسيخها، وأصبح على عليه السلام خمسه وعشرين عاماً جليس البيت من أجل الحفاظ عليها، وعليه فلم يبق من سبيل أمام الإمام عليه السلام سوى القتال بصفته الأمين على الإسلام وقيمته، وهذا هو الرد الصريح على كافه من يشكك فى قتاله عليه السلام لمعاويه. ثم أشار عليه السلام إلى مسئله قتل عثمان واستغلالها من قبل معاويه وزبانيته بغيه الوصول إلى أغراضه ومآربه، فقال «إنه قد كان على الأئمه وال أحدث أحداثاً، وأوجد الناس مقالاً، فقالوا ثم نعموا فغيروا» فمراد الإمام عليه السلام أن العامل الرئيسى لقتل عثمان هو نفس عثمان، الذى أتى بالأعمال المخالفه للعدل والسنة النبويه، والتى أوجت غضب الناس فحاصروه ثم قتلوه، ولذلك لم يتحرك أى من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله للدفاع عنه، حتى قتل وبقي ثلاثاً على الأرض لم يدفنه أحد من المسلمين (١) وهذا بدوره يكشف عن مدى غضب الأئمه ونقمتها عليه. وعليه فقتل عثمان لم يكن ذريعه تدعو للخروج على أمير المؤمنين عليه السلام. وبالطبع فان أصحاب تلك الذريعه كانوا يعلمون هذا الأمر أكثر من غيرهم، إلّا أنهم لم يروا أفضل من هذه الذريعه لتعبئه أهل الشام ضد أمير المؤمنين عليه السلام.

أعمال عثمان وأسباب قتله.

ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أن عثمان أحدث أحداثاً مشهوره نقمها الناس عليه وأهم هذه الأحداث:

١- تأمير بنى أميه ولاه سيمما الفساق منهم وأرباب السفه وقله الدين ومنهم الوليد الفاسق وشارب الخمر الذى ولاه الكوفه. (٢) وقرب الحكم بن أبى العاص عمه الذى طرده رسول الله صلى الله عليه وآله فألبسه جبه من الخز وأعطاه زكاه قبيله قضاعه التى بلغت ثلاثمئه درهم - وذكر ابن قتيبه وابن عبد ربه والذهبي - من مشاهير علماء العامه - أن من الأحداث التى نقمها الناس

ص: ٣٠٨

(١-١) الكامل لابن أثير ٣ / ١٨٠. [١]

(٢-٢) يتفق الفريقان على نزول الآيه «وإن جئكم فاسق بنبأ فتبينوا» (الايه ٦ من سوره الحجرات) [٢] كان فى الوليد. بل نقل العلامه المجلسى فى الغدير ٨/٢٧٦ [٣] الإجماع على ذلك.

على عثمان تقرّبه للحكم بن أبي العاص الذي لم يقربه أبوبكر ولا عمر في خلافتهما. (١) كما عين ابن عمه مروان بن الحكم مستشارا له وأعطاه غنائم أفريقيا التي بلغت خمسمئة ألف درهم.

٢- أذاه لكبار صحابه النبي صلى الله عليه وآله كأبي ذر الذي نفاه للربذه حين كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعترض على أعماله. (٢) وضربه الشديد للصحابي الجليل عمار بن ياسر ولم يكن ذنبه سوى مواجهه عثمان باعتراضات الناس. (٣) وما فعله بالصحابي عبدالله بن مسعود بسبب إعتراضه على التناول على بيت المال فجعل يضربه حتى كسر ربايعيته. (٤)

سئل الصحابي زيد بن أرقم كيف حكمت بكفر عثمان؟ قال: لثلاث: تقسيمه لأموال بيت المال بين الأغنياء ومحاربتة لصحابه النبي صلى الله عليه وآله وعمله بغير كتاب الله. (٥)

٣- توزيعه لأموال بيت المال على بطانته وقرابته دون حساب وحرمان المؤمنين منها. وللمؤرخين والمحدثين شروحا وافيه بالنسبه لهذه الأمور لايسعها المقام. كل ذلك أرى إلى نقمه الأنصار والمهاجرين ولا سيما صحابه النبي صلى الله عليه وآله على عثمان فلم يروه خليفه لرسول الله صلى الله عليه وآله كما قدم الناقمون من مصر والكوفه والبصره، وحيث لم يكثرث لهم، بينما لم ينصره أهل المدينه وهذا يدل على نقتهم عليه أيضا. أما معاويه الذي كان واقفا على كل هذه الأمور فقد إستغلها ليحرض أهل الشام ضد أمير المؤمنين على عليه السلام بحجه المطالبه بدم عثمان.

ص: ٣٠٩

١- (١) الغدير ٨/٢٤١.

٢- (٢) الغدير ٨/٢٤١.

٣- (٣) نقل هذه القصة أغلب المؤرخين ومنهم البلاذري في أنساب الأشراف ٥/٢٩.

٤- (٤) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٣/٤٣ وتأريخ يعقوبى ٢/١٧٠. [١]

٥- (٥) شرح نهج البلاغه طبق نهج الحق ٢٩٧/ [٢]

ومن كلام له عليه السلام

لما هرب مصقله بن هبيرة الشيباني إلى معاويه، وكان قد إبتاع سبي بنى ناجيه من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام.

سبب الخطبه

قصة الخريت بن راشد الناجي وخروجه على علي عليه السلام

كما ورد سابقا فالكلام يرتبط بقصة قبيله بنى ناجيه: كان الخريت بن راشد الناجي، أحد بنى ناجيه، قد شهد مع علي عليه السلام صفين، فجاء إلى علي عليه السلام بعد انقضاء صفين، وبعد تحكيم الحكيمين في ثلاثين في أصحابه، يمشى بينهم حتى قام بين يديه، فقال: لا- والله لا- أطع أمرك، ولا- أصلي خلفك، وإنى غداً لمفارق لك؛ فقال له: ثكلتك أمك! إذا تنقض عهدك، وتعضي ربك، ولا تضرر إلفسك، أخبرني لم تفعل ذلك! قال: لأنك حكمت في الكتاب، وضعت عن الحق إذ جد الجد، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد، وعليهم ناقد، ولكم جميعا مباين.

فقال له علي عليه السلام: وَيَحْك! هلم إلي أدارشك وأناظرك في السنن، وأفاتحك أموراً من

ص: ٣١١

١- ١) سند الخطبه: أوردها عدد من المؤرخين ممن عاشوا قبل السيد الرضى في كتبهم ورووا قصه بنى ناجيه، ومنهم الطبرى فى تاريخه المعروف فى وقائع عام ٣٨ هـ وابراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب الغارات والبلاذرى فى أنساب الاشراف والمسعودى فى كتاب مروج الذهب. مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٥١. [١]

الحق أنا أعلم بها منك؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتُبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل، فقال الخريت: فإني غاد عليك غداً. فقال علي عليه السلام: اغد ولا يستهوينك الشيطان، ولا يتقحمن بك رأى السوء، ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون؛ فوالله إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مني لأهدينك سبيل الرشاد.

فخرج الخريت من عنده مُنصرفاً إلى أهله.

قال عبدالله بن قُعين: فعجلت في أثره مُشريعاً، وكان لي من بني عمّه صديق، فأردت أن ألقى ابن عمه في ذلك، فأعلمه بما كان من قوله لأمير المؤمنين، وأمر ابن عمه أن يشتد بلسانه عليه، وأن يأمره بطاعه أمير المؤمنين ومُناصحته، ويخبره أن ذك خير له في عاجل الدنيا وأجل الآخرة. ثم بعث عليه السلام بمعقل بن قيس فقاتل الخريت حتى قتل وأسر أصحابه، فأطلق من كان منهم مسلماً وبقي غير المسلمين، وحين ورد الأسرى الكوفة إشتري مصقله الأسرى بخمسمئة درهم من معقل وأعتقهم. فدفع مئتي درهم وعجز عن دفع الباقي فخاف وهرب. فخطب الإمام عليه السلام بهذه الخطبه. (١)

ص: ٣١٢

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٣/١٢٨ [١] بتصرف.

«فَبَحَّ اللَّهُ مَصِيْقَلَهُ! فَعَلَّ السَّادَهُ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ! فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسِيْكْتَهُ، وَلَا صَيَّدَقَ وَاصِمَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ، وَلَوْ أَقَامَ لِأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ وَانْتَبَرْنَا بِمَالِهِ وَفُورَهُ» .

الشرح والتفسير

فرار العبيد

قال الإمام عليه السلام بعد أن سمع خبر فرار مصقله - عامل الإمام على منطقه أردشير حرّه من مناطق فارس - «قبح الله مصقله فعل فعل الساده، وفر فرار العبيد». لقد قام مصقله بعمل إنسانى كبير وذلك حين إشتري أسرى بنى ناجيه وأعتقهم فلما طولب بالمال وإعادته إلى بيت مال المسلمين وبدلاً من سؤال المهله للتسديد هرب بالمال إلى الشام حيث معاويه الذى عرف بخداعه للناس واستعبادهم وظاهر القضية أن مصقله وخشيه دينه لبيت المال هرب إلى الشام، بينما يبدو أنه كان مستعد مسبقاً لهذه الخيانه العظمى، فلعله كان يخشى الفضيحه من بعض الأعمال الأخرى التى قارفها، ولعل شده على عليه السلام فى العدل والاصرار على إسترداد حقوق بيت المال قد شقت عليه كما شقت على الآخرين. ويؤيد ذلك ما قاله صاحب مصقله ذهل بن حارث أنّ مصقله قال لم أكن لأعتم لو كنت مديناً لعثمان أو معاويه، فهما يتسامحان فى بيت المال، وقد فعلا ذلك بحق الالاف المؤلفه، الا أن عليا عليه السلام شديد التعامل مع بيت المال. مع ذلك فليس هنالك من مبرر لفعل مصقله، ولا سيما إثر ذلك التناقض الواضح، فقد تكرم من جانب ليقوم بذلك العمل الإنسانى، ومن جانب آخر قام بتلك الخيانه وهرب! لذلك قال عليه السلام:

ص: ٣١٣

«فما أنطلق مادحه حتى أسكتته، ولا صدق واصفه حتى بكته» (١) فقد فعل ما يدعو إلى مدحه من قبل كل من يسمعه، إلّا أنّ خبر عتقه لسبايا بني ناجيه لم يكفد ينتشر بين الناس حتى إنتشر قبله نبأ فراره إلى الشام، فاصاب الجميع بالدهشه والذهول، فكيف يلجأ إلى معاويه من يقوم بهذا العمل النجيب، فيؤثر مجاوره معاويه والوقوف إلى جانبه على على عليه السلام؟ نعم لايسع الجميع تحمل العدل! ثم إختتم كلامه بالقول «ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره» أجل هذا منطوق القرآن الكريم «وَإِنْ كَانَ دُوْ عُسْرِهِ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرِهِ» (٢). ليس هنالك من يعتقد بأنّ علياً عليه السلام سيعامله على خلاف القرآن وأحكامه، وعليه فلا يقبل عذره في خشيته من الإمام عليه السلام في تسديد ما بذمته لبيت المال. وهنا يبرز هذا السؤال لم لم يهبه الإمام عليه السلام ذلك المال تقديراً لعمله الإنساني، فمصقله لم يكن ليتحمل بذلك الدين لمصالحه الشخصيه بل كان نتيجة طبيعه لذلك العمل الجبار الذي قام به؟ ونقول في الجواب على هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام لو فعل ذلك لأصبحت سنه في المستقبل، بحيث يقوم كل عامل وآمر بالطلاق سراح الأسرى؛ الأمر الذي يفرز بعض المخاطر التي تهدد كيان المجتمع الإسلامي بينما يحظى الأمر بمدح الناس وثنائهم. أضف إلى ذلك فإنّ مثل هذا البذل يززع أسس ودعائم بيت المال ويعيد إلى الأذهان سياسه البذخ والاسراف التي إتبعها عثمان تجاهه، بينما كان الإمام عليه السلام قد وعد الأُمّه بأنّه سيتسرجع كل ما أخذ من بيت المال بغير حق وإن تزوج به النساء.

تأملان

١ - من بين الأسئلة التي تطرح بشأن هذه الخطبه

ص: ٣١٤

١ - ١) «بكته» من ماده «بكت» على وزن بخت بمعنى الضرب بالعصا، كما تعنى التوبيخ والغلبه على الآخرين عن طريق الاستدلال.

٢- ٢) سورة البقره / ٢٨٠. [١]

أو ليس بنى ناجيه مسلمين، فكيف يسبون ويفادون؟ ويبدو أنّ الجواب قد ورد في قصه سبيهم، حيث خرج الخريت بن راشد الناجي ضد أمير المؤمنين عليه السلام واجتمع مع عدد من الأفراد، فلما بلغ الخبر الإمام عليه السلام. فوجه الإمام عليه السلام أحد أصحابه «معقل بن قيس» لقتال الخريت بن راشد فقتله وقتل جمعاً من أصحابه وأسر آخرين من مسلمين وغير مسلمين من النصارى ومانعى الصدقه، فجعل مسلميهم يمنه والنصارى ومانعى الصدقه يسره، ثم خلى سبيل من كان مسلماً وأخذ بيعته، ومن كان إردتد عرض عليه الرجوع إلى الإسلام أو القتل. فلما أتى بالأسرى إلى الإمام عليه السلام في منطقه أردشير حرّه التي كان مصقله عاملها، فبكى إليه النساء والصبيان وتصايح الرجال. فقال مصقله: أقسم بالله لأصدقن عليهم، فاشترهم بخمسائه ألف درهم فاعتقهم. فبعث مصقله بمقدار من المال وبقي آخر. وانتظر على عليه السلام مصقله أن يبعث المال فابطأ به فبعث إليه الإمام، فقدم الكوفه، فسأله الإمام عليه السلام المال، فأدى إليه مائتي ألف درهم وعجز عن الباقي، على أن يهبه الإمام عليه السلام ذلك، فلم يقبل الإمام عليه السلام، ولو وافقه الإمام عليه السلام لكان ذلك الأمر بدعه بحيث يشتري الآخرون الأسرى ثم يعتقونهم ولا- يؤدون المال إلى بيت مال المسلمين، إلى جانب كون تلك الموافقه تشيّر تداعيات سياسه عثمان إزاء بيت المال بحيث يساء الظن بحزم الإمام عليه السلام بالنسبه لبيت مال المسلمين. والعجيب أنّ أحد أصحابه قال له: لو شئت لم يمض عليك جمعه حتى تجمع هذا المال، فقال: ما كنت لأحملها قومي، ولا أطلب فيها إلى أحد. ثم قال: واللّه لو أنّ ابن هند مطالبى بها، أو ابن عفان، لتركها لى. فهذه الأمور تشير إلى أنّه قد يكون منذ البدايه قد عزم على عدم أدائها، كما تفيد الرساله الثالثه والأربعون من نهج البلاغه أنّه كان عثمانياً، ولذلك كان قد بذل بعض أموال بيت المال لبطانته وقومه، وخلاصه القول فان بنيت الفكريه والعملية كانت قائمه على نهج معاويه لا أمير المؤمنين عليه السلام. ولعله كان رجلاً صالحاً قبل وصوله إلى الحكومه إلّا أنّ حب الدنيا والاغترار بالجاه قد غلب عليه. ومن هنا شقت عليه عداله الإمام عليه السلام حتى إلتحق فى خاتمه المطاف بمعاويه. فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه واختتمها بقوله «ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره». (١)

ويتضح ممّا ذكرنا أنّ الاسرى المذكورين لم يكونوا من المسلمين.

ص: ٣١٥

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ١٢٨ - ١٥٠ [١] بتصرف.

السؤال الآخر الذى يمكن طرحه هنا: ما عله كل هذا الحزم من الإمام عليه السلام فى هذه الحالات؟

ونقول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام لم يتشدد فى هذا الأمر، بل كان قد أمهله لتسديد الدين عند المقدره أولاً، وثانياً لم يكن ذلك حقاً للإمام عليه السلام بحيث يهبه أموال بيت المال، بل هو حق المسلمین الذى لا يفرط فيه أميرالمؤمنین عليه السلام قط. ورغم حزمه فى هذا الأمر إلا أنه أبقى باب الرفق مفتوحاً، ومن ذلك إقترح البعض على الإمام عليه السلام بعد فرار مصقله إعادة السبايا والأسرى، فلم يوافق الإمام عليه السلام على أنّ مصقله قد إبتاعهم واعتقهم، فالمدين مصقله لا هؤلاء. (١)

ص: ٣١٦

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣/١٢٨ - ١٥٠ بتصرف.

ومن خطبه له عليه السلام

وهو بعض خطبه طويله خطبها يوم الفطر، وفيها يحمده الله ويذم الدنيا

نظره إلى الخطبه

تشتمل الخطبه على فصلين من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام: أحدهما حمد الله والثناء عليه، والآخر ذم الدنيا وحث الناس على التزود للآخرة. ويبدو أنّ الرضى (ره) لم يذكر الخطبه كلها فهي طويله جداً، ومن هنا لا يرى هناك من إرتباط بين هذين الفصلين، إلا أنّها رغم قصرهما يشيران إلى معان ضخمة مهمّة.

ج ج

ص: ٣١٧

١ - ١) سند الخطبه: قال أغلب شراح نهج البلاغه أنّ هذه الخطبه والخطبه رقم ٢٨ كلاهما فصل من خطبه طويله روى السيد الرضى قسماً منها هنا وآخر في الخطبه المذكوره (كما ترك القسم الثالث) ويفيد هذا الأمر مره أخرى أنّ السيد الرضى (ره) لم يرد نقل كافة خطب الإمام عليه السلام في نهج البلاغه، بل كان يلتقط كلامه عليه السلام إلتقاطاً لأنّ غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير. على كل حال نقل هذه الخطبه قبل السيد الرضى (ره) المرحوم الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه، والمرحوم الشيخ الطوسي (بعد الرضى) في مصباح المتعجب. (مصادر نهج البلاغه، ٢/١٠ - ١١).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوفٌ مِنْ نِعْمَتِهِ وَلَا مَأْيُوسٌ مِنْ مَغْفِرَتِهِ وَلَا مُسْتَنْكَفٌ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لَا تَبْرُحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ» .

الشرح والتفسير

تناول هذا الفصل حمد الله والثناء عليه، ثم أشار إلى ست من النعم الإلهية التي تستحق الحمد والشكر، فقال عليه السلام «الحمد لله غير مقنوط (١) من رحمته». كيف اليأس من رحمة الله الواسعة وهو القائل سبحانه «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» (٢) كما قال على لسان نبيه يعقوب عليه السلام «لا- ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» (٣) وعلى لسان خليله إبراهيم عليه السلام «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» (٤) وعليه فلا بد للإنسان من الانابه إلى الله مهما كانت ذنوبه ومعاصيه، ولا ينبغي له اليأس من رحمة الله، بل إن هذا اليأس كفر وضلاله وهو من أعظم الذنوب ثم قال عليه السلام «ولا مخلو من نعمته». كما ورد في القرآن الكريم «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً» (٥) وأضاف عليه السلام «ولا مأیوس من مغفرتة» كيف لا وهو القائل «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى

ص: ٣١٩

١- ١) «مقنوط» من ماده «قنوط» على وزن قنوت بمعنى اليأس من الخير والرحمة، والقنوط على وزن بلوطصيغه مبالغه.

٢- ٢) سوره الاعراف / ١٥٦. [١]

٣- ٣) سوره يوسف / ٨٧. [٢]

٤- ٤) سوره الحجر / ٥٦. [٣]

٥- ٥) سوره لقمان / ٢٠. [٤]

أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (١). بل ورد في الحديث النبوي الشريف أن هذه الرحمة لمن السعة بحيث يتناول عليها ويطمع بها حتى إبليس «ليغفر الله يوم القيامة مغفره ما خطرت على قلب أحد حتى إبليس يتناول إليها» (٢) كما جاء في الرواية: «أن لله منه رحمه وقد أنزل واحده منها إلى الأرض وقسمها بين مخلوقاته، وإستأثر بتسع وتسعين إدخرها لعباده يوم القيامة» (٣). ولما كانت هذه الأمور تسوق الناس إلى العباده، قال عليه السلام: «ولا مستنكف (٤) عن عبادته» وذلك لأن الاستنكاف عن العباده لا- يؤدي سوى إلى العذاب، فقد قال القرآن بهذا الخصوص «وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» (٥). ثم عد نعمتين أخريين عليه السلام فقال «الذين لا تبرج منه رحمه، ولا تفقد له نعمه» فقد تكررت الرحمة والنعمه وكأن السابقه أشارت إلى أصل الرحمة والنعمه الإلهيه، بينما تحدثت العبارة اللاحقه عن دوام هذه النعمه وعدم إنقطاعها، وهذا ما ورد تأكيده في القرآن «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» (٦). والطريف في الأمر أن هذين الوصفين في الواقع ذكرا كدليل على عدم استنكاف الناس عن عباده الله؛ الأمر الذي تناوله علم الكلام تحت عنوان «شكر المنعم من دوافع معرفه الله». أما المفردات الرحمة والمغفره والنعمه فهي وإن كانت مرتبطه مع بعضها إلا أن مفاهيمها مستقله، فللرحمة معنى واسع يشمل كل فضل ولطف من الله للعباد سواء عن طريق إفاضه النعم أو مغفره الذنوب، وبعبارة أخرى فإن نسبة الرحمة إلى النعمه والمغفره هي نسبة العموم والخصصوص المطلق، بينما لكل من النعمه والمغفره مفهوم منفصل عن الآخر، فالنعمه تختص بالإمكانات الوجوديه التي تأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال، أما المغفره فهي إزالة آثار الذنب وتعييد الطريق بعد إزاله العراقيل.

ص: ٣٢٠

١-١) سورة الزمر / ٥٣. [١]

٢-٢) في ظلال نهج البلاغه ١ / ٢٢٦. [٢]

٣-٣) مجمع البيان ذيل تفسر بسم الله الرحمن الرحيم من سورة الفاتحه.

٤-٤) «إستنكاف» من ماده «نكف» على وزن نظم بمعنى الابعاد، والانتكاف بمعنى الخروج من أرض إلى أخرى، والاستنكاف بمعنى الآباء والاعراض عن الشيء.

٥-٥) سورة النساء / ١٧٣. [٣]

٦-٦) سورة النحل / ١٨. [٤]

«وَالدُّنْيَا دَارٌ مِّنِي لَهَا الْفَنَاءُ وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ، وَقَدْ عَجَلْتُ لِلطَّالِبِ وَالتَّبَسُّتُ بِقَلْبِ النَّاطِرِ، فَارْتَحَلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بَخَصَرْتَكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكِفَافِ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ» .

الشرح والتفسير

لقد عرض الإمام عليه السلام هنا بدم الدنيا على أن حبها والتعلق بها يعد من أعظم آفات سبيل سعادته الإنسانية. كما أن الاغترار بزخارفها وزينتها أساس الذنوب والمعاصي، فقال عليه السلام «والدنيا دار منى لها الفناء» (١). نعم فدعائم الكون تحكى آثار الزوال والفناء، فالأشجار التى تتفتح فى الربيع وتحمل الثمار إنما تدبل فى فصل الخريف لتجف ثم تتساقط أوراقها على الأرض فتعثر بها الرياح هنا وهناك، وكأن حياه هذه الاشجار لم تشهد الربيع ولم تحمل الثمار. وهكذا حال الإنسان فالفتى القوى بالأمس، هو العجوز الهرم اليوم، والكهل العجوز اليوم سيكون عظاما نخره غداً! ثم قال عليه السلام «ولأهلها منها الجلاء» (٢) فكافه الأفراد دون إستثناء سيودعون عاجلاً أم آجلاً هذه الدنيا الفانيه ليتجهوا نحو تلك الحياه الخالده فى عالم الآخره. فهذا قانون إلهى مطلق لا يسع أحد إنكاره والخروج عليه. ومن هنا عبرت بعض الآيات القرآنيه عن

ص: ٣٢١

١- ١) منى لها الفناء، أى قدر لها لها الفناء. وتطلق على الآمال التى يخطط لها الإنسان فالمراد أن الفناء مقدر فى طبيعه الدنيا.
٢- ٢) «الجلاء» بمعنى الظهور، ومنه الجلاء عن الوطن بمعنى الخروج منه، وكأن الإنسان كان مستخفياً وقد ظهر بعد أن خرج من وطنه.

الموت باليقين، وذلك لأنه يوقن به حتى من أنكر المعاد والحساب. ثم قال عليه السلام «وهي حلوه خضره» وتختص الحلوه بالذائقه بينما ترتبط الخضره بالباصره، فخضره الدنيا وجمالها تخطف بصر الفرد الغافل وتشده إليها، بينما تسوق حلاوتها ذلك الإنسان إلى المعصيه والخطيئه، ومن المعلوم أنّ خداع الدنيا لا يقتصر على هذين الأمرين، بل لكل حاسه من حواس الإنسان ما يجذبها ويربطها بالدنيا. وأضاف عليه السلام «وقد عجلت للطالب والتبست (١) بقلب الناظر» فطبيعه الدنيا خيرها العاجل ومنافعها المبكره، وإذا أتت الإنسان فإنّها تنفذ إلى قلبه حتى تكون جزءاً منه لأنّها جميله للناظر، كما أنّها حلوه للمذاق، ولذلك كان التحرر منها صعباً. وما ان فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفات الدنيا لتتطلع القلوب إلى أوامر السماء حتى قال «فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ» (٢). لا ينبغي أن ينسى الإنسان أنّه مسافر قد أقام هنا بصورة مؤقتة، والمسافر الفطن إنّما ينهمك باعداد الزاد والمتاع في مثل هذا المنزل، فهو يتزود بأحسن الأمتعه والأشياء ولا يثقل كاهله بالردى منها أبداً «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ» (٣). فالتقوى أفضل زاد الدنيا إلى جانب الحذر من نوم الغفله.

الكفاف والعفاف

لقد تضمنت الخطبه إشارات إلى مختلف أبعاد الحياه الدنيا رغم قله عباراتها وألفاظها. فقد أشارت إلى طبيعه الحياه الدنيا والتي تكمن في الفناء والزوال ورحيل أهلها عنها شاءوا أم أبوا. كما تطرقت إلى ظاهرها الأنيق الذي يشد الأنظار إليه، ومن هنا يتجه نحوها من يخدع بالمظاهر، بينما يحذرهما من يتمعن في العواقب. وتناولت حب الدنيا الذي يقود بالتدريج إلى تربعها في قلب الإنسان حتى تصبح جزءاً من كيانه؛ الأمر الذي يجعل من المتعذر عليه نزع

ص: ٣٢٢

١-١ - مادة «الالتباس» إن تعدت بحرف الباء عنت الاختلاط والامتزاج، وإن تعدت بحرف على عنت الاشتباه، ومن هنا يتضح أنّ المراد بالعباره هنا الاشتباه.

٢-٢ «البلاغ» بمعنى الوصول إلى الشئ، ومنه البلوغ الذي يصل فيه الإنسان مرحله خاصه. والمراد بها هنا ما يتبلغ به، أي يقتات به مده الحياه.

٣-٣ (٣) سورة البقره / ١٩٧. [١]

حبها من قلبه ثم أرشدت إلى النجاه من أخطارها وآفاتهما بالقناعه بالكفاف والعفاف، والمراد بالكفاف (١) والعفاف (أو العفاف والكفاف) أن يقنع الإنسان في الدنيا بقدر حاجته إليها ويدع الرغبة بالمزيد جانباً ويغض طرفه عن جمع الأموال؛ الأمر الذي يجعله يعيش الاستقرار والسكينه في حياته الدنيا ويحد من حمله في حياته الأخرويه، وذلك لأن طامه الإنسان في الحرص والطمع وعدم القناعه. طبعاً إذا كان تطلعه للمزيد من أجل إغائه الضعفاء والمحرومين فإن ذلك ليس فقط لا يتنافى والعفاف والكفاف فحسب، بل من شأنه أن يقود الآخرين إلى الكفاف. فقد ورد في القرآن الكريم: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (٢)، كما ورد هذا المعنى في الروايات الإسلاميه، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم أرزق محمداً وآل محمد وأحب محمداً وآل محمد العفاف والكفاف» (٣). وعن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «قليل يكفى خير من كثير يردى» (٤) فالفرد إذا قنع باللائم من حياته كان ذلك زينه له من الذنب وتحلى بالكفاف والعفاف: «من اقتنع بالكفاف أده إلى العفاف» (٥) أضف إلى ذلك وبغض النظر عن الجوانب المعنويه والأخلاقية للقناعه بالضرورى في الحياه فانما مدعاه للسكينه والاستقرار الروحى والنفسى في الحياه الدنيا، فقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «ومن إقتصر على بلغه الكفاف فقد إنتظم الراحة وتبوأ خفض الدعاه» (٦). وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله على شخص فدعا له قائلاً: «اللهم أرزقه الكفاف» كما قال رسول الله: «إنّ ما قلّ وكفى خير ممّا أكثر وألهى؛ اللهم أرزق محمداً وآل محمد الكفاف» .

ص: ٣٢٣

١ - ١) الكفاف من ماده كف بمعنى كف اليد، ولما كان الإنسان يبعد الشىء عنه بكفه فقد وردت هذه المفرده بمعنى المنع والسلب، ومنه المكفوف لمن سلب بصره، ويقال للجماعه كافه لأنها تمنع العدو.

٢ - ٢) سوره المائده / ٨٧. [١]

٣ - ٣) اصول الكافى ٢ / ١٤٠. [٢]

٤ - ٤) غرر الحكم، ح ٢٣٤.

٥ - ٥) غرر الحكم، ح ٢٨٦. [٣]

٦ - ٦) نهج البلاغه / ٣٧١. [٤]

ومن كلام له عليه السلام

عند عزمه على المسير إلى الشام وهو دعاء دعا به ربّه عند وضع رجله في الركاب.

نظره إلى الخطبه

تتضمن هذه الخطبه أو هذا الدعاء عدّه أمور عميقه ومهمّه، فقد بين الإمام عليه السلام جميع المشاكل المتوقعه في السفر في ثلاث، ثم إستعاذ منها بالله. ثم وصف الحق سبحانه بأنه الصاحب في السفر والخليفه في الأهل توكيداً لحضوره الذاتي المطلق لدى جميع الكائنات.

ج ج

ص: ٣٢٥

١ - ١) سند الخطبه رواه بعض المحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم نصر بن مزاحم في كتاب صفين، وذكر بعض المؤرخين أنّ الإمام عليه السلام دعا بهذا الدعاء عند ما وضع رجله في الركاب وعزم على المسير إلى الشام لقتال معاويه. وقال السيد الرضى وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قفاه أمير المؤمنين على عليه السلام. ورواه أئتم الكوفى في كتاب الفتوح، ما اورده مع بعض الاضافات القاضى نعمان المصرى في كتاب دعائم الإسلام، وقال: إنّ الإمام عليه السلام كان يدعوا بهذا الدعاء عند كل سفر، مصادر نهج البلاغه، ١٢ / ٢.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ، لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَضْحَبًا، وَالْمُسْتَضْحَبُ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا» .

الشرح والتفسير

الاستعاذه بالله من وعثاء السفر

لا شك أنّ أولياء الله يعيشون التضرع إلى الله في جميع الأحوال إلّا أنّهم يكونون أكثر تضرعاً حين إشتداد المحن والخطوب، فيستأنفون أعمالهم بدعاء الله والتوسل إليه ليفرج عنهم ويلهمهم القوه والصلابه والثقه بالنفس. الإمام عليه السلام من جانبه لما عزم على المسير لصفين تضرع بهذا الدعاء «اللهم إنّي أعوذ بك من وعثاء (١) السفر وكآبه (٢) المنقلب (٣) وسوء المنظر في الأهل والمال والولد» فالواقع أنّ ما يشغل ذهن المسافر من جراء السفر أوجزه الإمام عليه السلام في ثلاث؛ الأول (وعثاء السفر) والثاني كيفية العوده (وكآبه المنقلب) والثالث القلق على الأهل (سوء المنظر في الأهل والولد). ويستعيد الإمام عليه السلام بالله من هذه الأمور المقلقه ويسأله تذليلها، ثم قال عليه السلام: «اللهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل، ولا يجمعها غيرك» نعم الذات الإلهيه فقط المنزهه عن الزمان والمكان، فهي محيطه بجميع الأمكنه والأزمه، فليس هنالك من مكان أقرب إليها من آخر، ومن هنا فان الله معنا في السفر ومع

ص: ٣٢٧

١- ١) «وعثاء» من ماده «وعث» على وزن درس تعنى المشقه، وأصله المكان المتعب لكثره رمله وغوص الأرجل فيه ومن هنا يطلق الوعثه على المرأه المترهله لأنها لا تستطيع الحركه بسهولة.

٢- ٢) «كآبه» بمعنى الإنزعاج وسوء الحال وتصدع البال ومن هنا يقال الكئيب للفرد غير مرتاح البال.

٣- ٣) «منقلب» من ماده «قلب» مصدر بمعنى الرجوع، كما يمكن أن تكون إسم مصدر، واسم مكان وزمان، وهى هنا إسم مصدر أنسب منها مصدر.

أهلنا وولدنا في الحضر، وما أروع أن نودع زمام أمور حياتنا إلى من يحيط بكل شى ولا يحيط به شى. ثم يقدم الدليل على ما قال: «لأنَّ المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً» فالمكان يسود ويحكم جميع الكائنات المادية، ومن هنا فان وجودها في مكان يعنى خلو الاخر منها، وما ذلك إلا لوجودها المحدود، وليس هنالك من وجود لا محدود سوى الله سبحانه الذى لا يعرف المكان ولا الزمان ولا البعد ولا القرب، وهو كما قال: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ» (١) وقال: «فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» (٢).

قال السيد الرضى (ره) آخر الكلام: وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد قفاه أمير المؤمنين على عليه السلام بأبلغ كلام وتممه بأحسن تمام من قوله «لا يجمعهما غيرك» إلى آخر الفصل.

فلسفه الدعاء

من يتصفح المصادر الإسلامية يدرك أنَّ للدعاء مكانه خاصه في التعاليم الإسلامية، حتى عد الدعاء مخ العباده. فقد جاء في الحديث النبوى الشريف «أفرعوا إلى الله عزوجل في حوائجكم، والجاؤوا إليه في مللماتكم، وتضرعاً إليه، فانَّ الدعاء مخ العباده» (٣). بينما وصفه حديث آخر بسلاح المؤمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السموات والأرض» (٤)، وقال أمير المؤمنين على عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح» (٥) والدعاء على درجه من الأهميه بحيث قال القرآن الكريم: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» (٦). مع ذلك هنا لك من إستشكل على الدعاء ولا سيما أولئك الذين غفلوا عن فلسفته:

١ - فهم يقولون أحياناً: لا ينسجم الدعاء وروح الرضا والتسليم لإرادته الله، فالذى يجب

ص: ٣٢٨

١-١ (١) سورة الحديد / ٤. [١]

٢-٢ (٢) سورة البقره / ١١٥. [٢]

٣-٣ (٣) بحار الانوار ٩٠ / ٣٠٢. [٣]

٤-٤ (٤) اصول الكافي ٢ / ٤٦٨ ح ١. [٤]

٥-٥ (٥) بحار الانوار ٩٠ / ٣٤١؛ [٥] أصول الكافي ٢ / ٤٨٦. [٦]

٦-٦ (٦) سورة الفرقان / ٧٧. [٧]

علينا هو التسليم لإرادة الله والرضى بما يرتضى!

٢ - إن الدعاء يعدّ أحد العوامل المخدرة للإنسان فيصده عن السعى والعمل والنشاط، حيث ينصرف الإنسان عن هذه الأمور ويلوذ بالدعاء لتأمين حاجياته.

٣ - ناهيك عن كل ما تقدم، كيف يسعنا تغيير المقدرات الإلهية بواسطة الدعاء، فلو قدر الله أمراً، فإنّ ذلك الأمر سوف لن يغيره دعاؤنا، وبعبارة أخرى فإنّ الدعاء نوع من أنواع الفضول والتطفل على أفعال الله، فالله لا يفعل إلّما فيه المصلحه ولا داعى للدعاء.

ولكن لا- ترى هذا الكلام سليم إذا ما وقفنا على فلسفه الدعاء ومفهومه الواقعى. فالمفهوم الواقعى للدعاء هو أننا نعمل ما فى وسعنا ونجهد أنفسنا وما فاق ذلك نوكله إلى الله ولطفه، ونتضرع إليه بالدعاء لحل المشاكل، وعلى ضوء «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمَضْطَّرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ الشُّوْءَ» (١)نطرق بابه ونسأله بعد أن سعينا سعياً ولم يبق إلّالتوفيقه. ومن هنا صرحت بعض الروايات الإسلاميه بعدم إستجابته دعاء من قصر فى العلم وخلد إلى الكسل والراحه. فالله لا يستجيب دعاء من سأله الرزق وهو جالس فى بيته دون أن يسعى ويعمل، كما لا يستجاب دعاء من أقرض مالاً ولم يكتبه ثم أنكر عليه المدين ولم يعطه ماله! والخلاصه فإنّ الكسل والتعاس لا ينسجم واستجابته الدعاء. وعلى ضوء ما تقدم فإنّ الدعاء لا يعتبر عاملاً مخدراً، بقدر ما بعد عاملاً محرراً. أمّا ما يقال من أن الدعاء لا يغير التقدير، فجواب ذلك واضح، وهو أنّ الدعاء سبب زياده استحقاق الإنسان لأنّه يتجه إلى الله وينور قلبه بمعرفه الله يتوب إليه من ذنوبه؛ لأنّ التوبه من شروط قبول الدعاء، وبذلك يتأهب أكثر لتلقى الفيض الإلهى والعنايه الربانيه، لأنّ الله قدر المزيد من لطفه وفضله لمن كان أكثر إستعداداً وجداره، بعبارة أخرى فإنّ لله نعم وخيرات وبركات للعباد مشروطه ببعض الشرائط، فى مقدمتها التوجه إليه ودعاؤه والتقرب إليه. وبناءً على هذا فإنّ رحمهاالله ولطفه متوقفه على الدعاء. ومن هنا يتضح الجواب على الإشكال الذى يفيد عدم انسجام الدعاء وروح الرضا والتسليم؛ لأنّ الدعاء تأكيد للتسليم والرضا، فالحق سبحانه أراد لعباده أن يعيشوا القرب منه بالدعاء، فاذا عاشوا القرب شملهم الله برحمته وفضله، الأمر الذى أكد الدعاء فى أغلب الآيات والروايات. وزبده الكلام فإنّ للدعاء آثاره التربويه الجمه على حياه الإنسان، أدناها أنّه يطهر قلبه

ص: ٣٢٩

وروحه من الأدران ويزيل عنه صداً الماديات ويوصله بمصدر الخير والاحسان والعطاء، كما يشكل السبيل للاستزاده من فضل الله ولطفه. ومن هنا فإن أولياء الله لا يستغنون في قضاء حوائجهم عن الدعاء، وبالدعاء يشعر العبد بالقوه، كما يشعر بالسكينه إثر التوكل على الله فيهب لمواجهة المشاكل وقلبه مفعم بالأمل في التغلب عليها، ولا- غرو فهو يعلم بأنها مذلله لإرادته الله تابعه لمشيئه وقدرته. كما تتأتى الحاجه إلى للدعاء في الأسفار المخيفه المحفوفه بالمخاطر، أما دعاء الإمام عليه السلام حين عزمه على السير إلى صفين فقد إقتدى به بالنبي صلى الله عليه وآله ومن سبقه من الأنبياء العظام. فقد كلف نوح عليه السلام بالتضرع إلى الله حين ركب السفينه في ذلك الطوفان الهائل لينجيه الله من تلك المخاطر «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ» (١) كما دعا موسى عليه السلام لما فر من أزلام فرعون حين خرج من مصر متوجهاً إلى مدين «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» (٢). وقال حين لقي لبنات شعيب «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» (٣). النبي الأ-كرم صلى الله عليه وآله حين هاجر من مكة إلى المدينه في ظل تلك الأخطار، كان يشعر بالتذمر لمفارقة مكة وبيت الله، وكان يتمنى الرجوع إليها فاتته البشاره «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ» (٤) وكان النبي صلى الله عليه وآله دعا الله أو كان يعيش حاله الدعاء فاستجيب له. ومن هنا حثت الروايات على الدعاء في السفر. (٥) وتختتم البحث بما ورد عن على عليه السلام حين إنطلق من الكوفه إلى الشام، حيث وضع رجله على الركاب فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما استوى على دابته قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» (٦) ثم دعا بهذا الدعاء الذي فرغنا من شرحه.

ص: ٣٣٠

١-١) سورة المؤمنون / ٢٨ - ٢٩. [١]

٢-٢) سورة القصص / ٢٢. [٢]

٣-٣) سورة القصص / ٢٤. [٣]

٤-٤) سورة القصص / ٨٥. [٤]

٥-٥) الوسائل الشيعه ٨ / ٢٧٥ - ٢٨١.

٦-٦) سورة الزخرف / ١٣ - ١٤. [٥]

من كلام له عليه السلام

فى ذكر الكوفه

نظره إلى الخطبه

كلام الإمام عليه السلام يمثل نبوتين بشأن الكوفه، أو الكوفه والبصره: الاولى الحوادث المريره التى تعصف بالكوفه وأهلها من قبل الطواغيت الظلمه، والثانيه العاقبه السيئه لأولئك الظلمه وعقابهم بما إقترفته أيديهم.

ج ج

ص: ٣٣١

١ - ١) سند الخطبه: من جمله من رواها قبل السيد الرضى (ره) ابن الفقيه فى كتاب البلدان، إلا أنه صرح أن أمير المؤمنين عليه السلام خاطب بهذا الكلام أهل البصره والكوفه ولا يغير ذلك شيئاً. ونقلها بعد السيد الرضى (ره) الزمخشري فى ربيع الأبرار [١] فى باب البلاد والديار. مصادر نهج البلاغه، ٢ / ١٥. [٢]

«كَأَنِّي بِبِكِّ يَا كُوفَةَ تُمَدِّينَ مِيدَ الْأَدِيمِ الْعُكَاطِيَّ تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ وَتُزَكِّينَ بِالرَّزَازِلِ وَإِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكَ جَبَّارٌ سُوءًا إِلَّا ابْتِلَاءُ اللَّهِ بِشَاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ» .

الشرح والتفسير

نبوءه عن مستقبل الكوفة

ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام خاطب بهذا الكلام الكوفة (وقيل البصره والكوفه) فقال «كأنى بك يا كوفه تمدين مد الأديم (١) العكاظي» «عكاظ» (٢) اسم سوق قرب مكه (وقال البعض بين مكه والطائف) تجتمع فيه العرب كل عام من مختلف المناطق لمدّه عشرين يوماً كما صرح بذلك البعض، فكانوا يعرضون متاعهم، كما كانوا ينشدون الشعر وتتفاخر كل قبيله على الأخرى، وبالطبع كان هناك كثيراً من المفاسد؛ الأمر الذى جعل الإسلام يردم ذلك السوق.

أما هل المراد بهذه العبارة الحوادث الأليمه التى ستقع فى الكوفه، أم كبر الكوفه وإتساعها. فقد صرح أغلب شراح نهج البلاغه بالتفسير الأول، بينما قال القليل منهم بالتفسير الثانى، ويبدو أنّ التفسير الثانى هو الأنسب، لأنّ دبع الجلد العكاظى لا يبدو منسجماً وكون العبارة كناية عن الحوادث الأليمه والمأساويه، بينما يمكنه أن يكون كناية عن إزدياد رقعه الكوفه وإتساع مساحتها. جدير بالذكر أنّ الجلد العكاظى واسع وجميل ومن أرغب الجلود لدى العرب، ولعل فى هذا إشاره إلى جمال الكوفه وعمرانها فى الأزمنه القادمه مقارنة بما عليها فى

ص: ٣٣٣

١- ١) «أديم» بمعنى ظاهر الشئى وغالباً ما يطلق على الجلد، كما يسمى وجه الأرض ب (أدمه الأرض)، وقيل هذا هو السبب فى تسميه آدم لأنه خلق من أديم الأرض.

٢- ٢) «عكاظ» كما ذكرنا سابقاً سوق كانت تقيمها العرب فى العصر الجاهلى قرب مكه فى صحراء بيت نخله والطائف يجتمعون إليه ليتعاطوا؛ أى يتفاخروا، وكان تفاخرهم قبلى عاده ما يقود إلى الحروب الداميه.

زمان الإمام عليه السلام. وذكر البعض أنّ العبارة إشارة إلى مستقبل الكوفة وتقسيمها إلى أجزاء متعددة، على غرار تقسيم الجلد العكاظي ودبغته وتوسيعه. ثم قال عليه السلام «تعركين (١) بالنوازل (٢) وتركيين بالزلازل» وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبه ١٠٨ بقوله: «تعرككم عرك الأديم» أى يسلط عليكم بنى أميه فيسومونكم سوء العذاب. ونبوءته الثانيه التي تمثلت بقوله عليه السلام: «إني لأعلم أنه ما أراد بك جبار سوءاً إلا ابتلاه الله بشاغل ورماه بقاتل». ويمكن أن تكون العبارة «ابتلاه الله بشاغل» إشارة إلى الأمراض العضال والالام التي تشغل الظلمه وتصرفهم عن الناس، كما أنّ «ورماه بقاتل» الحوادث التي تهجم على الإنسان من الخارج فتقتله وتقضى عليه.

والحق أنّ ما تكهن به الإمام عليه السلام بشأن الكوفة قد حدث، حيث إتسعت إتساعاً كبيراً بعد الإمام عليه السلام وكانت على الدوام مركزاً للفتن والحوادث المريره، وقد هب أغلب الجبابره للسيطره عليها، إلّا أنّ الله كان يبتليهم بأنواع البلاء ويدفع شرهم عنها، ولعل ذلك يعزى لكون الكوفة تشكل مركز استقطاب خلص المؤمنين من الشيعة الأوفياء لعلى بن أبى طالب عليه السلام وإن كان بينهم بعض المنافقين. ومن هنا صرحت بعض الروايات بفضل الكوفة. أمّا من بين الأفراد الذين هموا بالكوفة بعد أمير المؤمنين عليه السلام زياد بن أبيه. فقد ورد فى بعض الروايات أنّ زيادا لما حصبه أهل الكوفة، وهو يخطب على المنبر، فقطع أيدي ثمانين منهم، وهم أن يخرّب دورهم، ويجمر نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبه، يعرضهم على البراءه من على عليه السلام؛ وعلم أنّهم سيمتنعون فيحتج بذلك على استئصالهم وإخرا ببلدهم. فخرج خارج من القصر فقال: إنصرفوا، فإنّ الأمير يقول لكم: إني عنكم اليوم مشغول؛ وإذا بالطاعون قد ضربه، فكان يقول: إني لأجد فى النصف من جسدى حر النار حتى مات. (٣)

رأيان فى الكوفه

وردت عده عبارات فى نهج البلاغه بشأن الكوفه وأهلها، ومن ذلك الخطبه المذكوره التي

ص: ٣٣٤

١-١) «تعركين» من ماده «عرك» على وزن درك، من عركت القوم الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم.

٢-٢) «نوازل» جمع نازله بمعنى الحوادث الشديده.

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ١٩٨. [١]

أشارت إلى المكانة المقدسه للكوفه وأنها ستشهد حوادثاً مريه وأليمه، وأن الله حافظها من كل جبار عنيد. بينما وردت بعض الخطب التي تذم الكوفه، ومن ذلك الخطبه ٢٥ حيث خاطب الإمام عليه السلام الكوفه قائلاً: «إنّ لم تكوني إلمأنت تهب أعاصيرك فقبحك الله». الروايات هي الأخرى صرحت بمدح الكوفه، فقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال بشأن الكوفه «هذه مدينتنا ومحلتنا ومقر شيعتنا» (١)، كما جاء في روايه أنّ الإمام الصادق عليه السلام دعا للكوفه قائلاً: «اللهم ارم من رماها وعاد من عادها» وللجمع بين الروايات نقول إنّ الكوفه ذاتا مقدسه وأهلها من خلص شيعه أهل البيت عليهم السلام ممن يتحلون بالورع والتقوى، إلمأ أنّ أجواء الكوفه تلوثت بفعل سيطره بنى أميه ودس العيون والجواسيس فيها وأعان الظلمه وتسليط الفساق عليها وايداع بيت المال إلى عبده الأهواء. فاذا مدحت الكوفه فالمراد أولئك النجباء من الشيعة، وان ذمت فلذلك الفساد الذى طالها من قبل بنى أميه. ونكتفى بهذا القدر على أن نخوض فى جوانب هذا الموضوع فى الابحاث القادمه ذات الصله.

ص: ٣٣٥

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ١٩٨. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

عند المسير إلى الشام، قيل: إنه خطب بها وهو بالنخيله خارجاً من الكوفه إلى صفين.

نظره إلى الخطبه

تشتمل هذه الخطبه على قسمين: الأول وجريا على عادته في خطبه عليه السلام في الحمد والثناء والشكر للنعم الإلهيه على العباد، والثاني يطلع الجيش على خطته فيمن بعثهم من مقدمه ويصف لهم المسير ليلتحقوا بهم، وتعبه عدداً من القبائل التي كانت تسكن أطراف دجله وتسيرهم لمقاتله العدو، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يذكر اتباعه في النخيله الذين لم يكونوا كثيراً بانهم ليسوا وحدهم في صفين وأنه سيعبئ من كان في مسيرهم للقتال ليزدادوا عدداً وعدة.

ج ج

ص: ٣٣٧

١ - ١) سند الخطبه: كما ذكر سابقاً فإنّ الإمام خطبها بالنخيله حين تجهز لصفين خارجاً من الكوفه. وقد جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه أنّه خطبها في الخامس والعشرين من شوال سنة ٣٧ هـ وهو بالنخيله خارجاً من الكوفه، وأضاف طبقاً لنقل ابن أبي الحديد أنّه ذكرها جماعه من أصحاب السير وزاد وفيها، ومنهم نصر بن مزاحم في كتاب صفين (مصادر نهج البلاغه ٢ / ١٦).

[١]

«الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَعَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ، وَلَا مُكَافِئِ الْإِفْضَالِ» .

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام لله بالحمد والثناء في القسم الأول هذه الخطبه بعبارات جديده عظيمه المعانى وقد أشار إلى قضايا جديده فقال «الحمد لله كلما وقب (١) ليل وعسق (٢)، والحمد لله كلما لاح (٣) نجم وخفق» (٤) فالعبارة تشير إلى نقطتين: الأولى أنّ حمدنا وثنائنا دائمى باقى مادام الليل والنهار متعاقبين دائمين، وهكذا هو مستمر إستمرار طلوع الكواكب وغروبها، النقطه الأخرى هى أنّ ظلمه الليل وطلوع الكواكب وغروبها من النعم الإلهيه الكبرى، فظلمه الليل تهب الإنسان الهدوء والسكينه بعد تعب النهار وعناء العمل فيه، فطبيعته الليل والظلمه تختزن الراحة والخلود إلى النوم ومن هنا كانت الليالى الظلماء الخاليه من المصاييح تعد أفضل الأوقات للنوم؛ الأمر الذى أشارت إليه الآية ٧٢ من سوره القصص «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

ص: ٣٣٩

١-١) «وقب» من ماده «وقب» الحفره فى الأرض أو الجبل، ويقال للشى وقب إذا دخل الحفره أو الظلام، ومن هنا كان المعنى دخل الليل.

٢-٢) «عسق» يعنى شده الظلمه، ولما كانت الليل يشتد ظلمه كلما اقترب من منتصفه فإنّ العسق كناية عن منتصف الليل أيضاً ومن هنا قال المفسرون: «أقم الصلوه لدلوك الشمس إلى عسق الليل» إشاره إلى الصلوات الأربع الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاه الصبح (سوره الاسراء / ٧٨) . [١]

٣-٣) «لايح» من ماده «لوح» بمعنى الظهور والبزوغ. وتستخدم فى كل وجود مضيء ويطلق اللوح على الصفيحه البيضاء التى تصنع من الخشب أو الفلز.

٤-٤) «خفق» من ماده «خفق» و «خفوق» بمعنى الغياب والتزلزل والحركه، ومن هنا تستعمل حين يغرب القمر أو الشمس أو كوكب.

عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سِرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهَ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» وقال «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١) وقد ورد هذا المعنى في عدة آيات قرآنية، كما دلت الأبحاث العلمية على أن اليقظة في الليل والنوم في النهار يشكل خطراً جدياً على صحة الإنسان، أما فائده طلوع الكواكب وغروبها فليست بخافية على أحد وذلك لمعرفة الأوقات والاهتداء في البحار والصحارى بواسطة هذه النجوم والكواكب «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ» (٢) وجاء في القرآن أيضاً «وَبِالنُّجُومِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (٣). أمّا الروايات التي شبهت أهل البيت عليهم السلام بالنجوم فواضح من أنهم وسيله الهداية في الظلمات والتمتات وعدم الانحراف عن الصراط المستقيم، ولعل إشاره الإمام على عليه السلام إلى ظلمه الليل وطلوع النجوم وغروبها من دون سائر النعم تهدف إلى بيان حقيقته وهي أن خروج أهل الشام على الإمام عليه السلام يمثل حلول عصر الظلمة التي لا يمكن النجاة منها إلا بزوغ كوكب الولاية ثم خاض الإمام عليه السلام في نوع آخر من النعم التي تستلزم الحمد، فقال «والحمد لله غير مفقود الانعام، ولا مكافئ الإفضال» (٤) فالعبارة الأولى تعني أن النعم الإلهية غير قابلة للاحصاء، أما الثانية فهي تشير إلى عجز العباد عن مكافئته هذه النعم وذلك لأنه أولاً عنى عمن يكافئ نعمه، وثانياً: أن القدره على شكره وحمده بحد ذاتها نعمه أخرى، لأن الشكر نعمه توجب المزيد، فقد ورد في مناجاه الشاكرين للإمام على بن الحسين عليه السلام: «كيف لي بتحصيل الشكر؟ وشكري إياك يفتقر إلى شكر! فكلمنا قلت لك الحمد، وجب على لذلك أن أقول لك الحمد» (٥). ومن هنا فإن أعظم شكرنا هو إذعاننا بالعجز عن الشكر. فقد ورد في حديث عن الصادق عليه السلام أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام ان اشكرني! فقال عليه السلام كيف أشكرك وشكري نعمه تحتاج إلى شكر. فجاءه الخطاب الآن أدت شكرى. (٦)

ص: ٣٤٠

١-١) سورة القصص / ٧٣. [١]

٢-٢) سورة الانعام / ٩٧. [٢]

٣-٣) سورة النحل / ١٦. [٣]

٤-٤) «افضال» من ماده «فضل» بمعنى الإحسان.

٥-٥) المناجاة الخمسه عشر، مناجاه الشاكرين، بحار الانوار ٩١ / ١٤٦. [٤]

٦-٦) بحار الانوار ١٣ / ٣٥١ ح ٤١. [٥]

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شَرْدَمِهِ مِنْكُمْ مُوْطِنِينَ أَكْنُافَ دِجْلَهَ، فَأُنْهَضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى برنامج وخطه حربيه فقال «أما بعد فقد بعثت مقدمتي (1) وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط (2) حتى يأتيهم أمرى» فنهر الفرات يقع غرب دجله، فيكون دجله شرقه، وعليه فان مقدمه جيش الكوفه تتحرك من جانب الفرات إلى الشمال باتجاه الجانب الغربى للفرات، وقد أمر الإمام عليه السلام بمواصله هذا السير من قبل الجيش، بينما إتجه عليه السلام من الفرات إلى الشرق نحو المدائن لتعبئه أكبر عدد ممكن من الناس، ثم قال عليه السلام «وقد رأيت أن أقطع هذه النطفه (3) إلى شردمه (4) منكم موطينين أكناف (5) دجله، فأنهضهم معكم إلى عدوكم وأجعلهم

ص: ٣٤١

١-١) «مقدمه» بكسر الدل بمعنى المتقدم و بفتح الدال المبعوث مسبقا و تطلق المفردتان على طليعه الجيش يعنى الطائفه التى تتحرك أمام العسكر لتطلعه على ما يواجهه من أحداث.

٢-٢) كما ذكرنا سابقا فإن ملطاط اقتبست من ماده «لط» «لطط» و ميمها زائده، و تعنى هذه ماده الإقتراب و المرافقه، و من هنا يقال «لط» للقاده لأنها ترافق العنق دائما، كما يقال الملطاط لشاطيء النهر و البحر، بينما أعتبرها البعض الآخر من أرباب اللغه من ماده «ملط» على وزن «شرط» و ليس هناك من فارق مع سابقتها من حيث المعنى و إن تفاوت اللفظ.

٣-٣) «نطفه» الماء الصافى القليل أم الكثير، و يطلق أحيانا بمعنى كل ماء جار و مائع سيال.

٤-٤) «شردمه» تعنى فى الأصل الجماعه القليله و ما يتبقى من الشىء، و يقال الشردمه لما يفصل عن الثمره.

٥-٥) «أكناف» جمع «كنف» على وزن «هدف» بمعنى أطراف الشىء، و حيث تكون أطراف الأشياء سببا لستر الاقسام الباطنيه فانه يقال «الكنيف» للجدران الأربعه التى يستتر فيها الإنسان، و كذلك يطلق على الواقى و الدرع الذى يحفظ الإنسان من ضربات الأعداء.

من أمداد القوه لكم». وهكذا ورد الإمام عليه السلام شرق العراق والمدائن، وبينما كانت مقدمه جيش الإمام عليه السلام تواصل زحفها في غرب الفرات، ولما بلغهم قدوم معاويه نحوهم بجيش عظيم، عبروا الفرات واتجهوا إلى الشرق صوب الإمام عليه السلام حذراً من محاصرتهم من قبل العدو ولم يستعدوا بعد لخوض القتال، فاستحسن ذلك منهم الإمام عليه السلام فلما اكتمل الجيش سار به الإمام عليه السلام لمواجهة العدو. جدير بالذكر أنّ مفردة «ملطاط» من ماده ملط أو لط هنا بمعنى شاطئ الفرات - نعم فقد دلهم الإمام عليه السلام المسير ليتقدموا من جانب شاطئ الفرات لأنّ الشام كانت في جهه الشمال، والفرات ينحدر من الشمال إلى الجنوب، وهكذا لا يكون الجيش في مشقه من حيث الماء والهواء وظلال الأشجار، ولا يضلون الطريق، إلى جانب سهوله الالتحاق بهم، وعليه فهذا المسير ينطوي على عدّه فوائد والتعبير بالنظفه عن ماء الفرات حسب ما قال السيد الرضى (ره) هو من غريب العبارات وعجيبها، فالمفردة على ضوء ما صرح به جمع من أرباب اللغه تعنى الماء الخالص، وقيل الماء الجارى، وكيفما كان فهي إشاره إلى عذوبه ماء الفرات وخلوه من الاملاح، وإن كان ظاهره قليل الكدوره.

قال السيد الرضى (ره): يعنى عليه السلام بالملطاط ها هنا السمت الذى أمرهم بلزومه، وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك أيضا لشاطئ البحر، وأصله ما استوى من الأرض، ويعنى بالنظفه ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

أخبار على عليه السلام فى جيشه وهو فى طريقه إلى صفين

ذكر بعض شراح نهج البلاغه فى ذيل هذه الخطبه بعض القضايا التاريخيه التى نشير إليها هنا:

١- فى قصر كسرى

سار عليه السلام حتى انتهى إلى المدائن وقصر كسرى وإذ رجل من أصحابه أنشد: جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد!

فقال له عليه السلام: ألا قلت:

«كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَابِ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامِ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» (١)

٢- فى الأنبار

مرّ عليه السلام بالأنبار (أحد المدن الغربيه فى العراق) فتقدم دهاقتها إليه فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاءوا يشتدون معه، وبين يديه ومعهم براذين قد أوقفوها فى طريقه، فقال: ما هذه الدوابّ التى معكم؟ وما أردتم بهذا الذى صنعتهم؟ قالوا: أمّا هذا الذى صنعتنا فهو خُلِقَ مِنَّا نَعْظُمُ به الأمراء؛ وأمّا هذه البراذين فهديّه لك، وقد صنعتنا للمسلمين طعاماً، وهيّا لنا لدوابكم علفاً كثيراً.

فقال عليه السلام: أمّا هذا الذى زعمتم أنّه فيكم خُلِقَ تعظّمون به الأمراء فو الله ما ينفع ذلك الأمراء؛ وإنكم لتشققون به على

أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوائكم هذه؛ فإن أحببتم أن آخذها منكم، وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم. وأما طعامكم الذى صنعتم لنا؛ فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بئس.

٣- قرب الدير

على عليه السلام فى مسيره إلى الشام؛ حتى إذا كنا بظهر الكوفه من جانب هذا السواد، عطش الناس احتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا على عليه السلام حتى أتى بنا إلى صخره صُرْس فى الأرض؛ كأنها رُبْصُه عنز؛ فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه، وارتوؤا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلاً، قال عليه السلام: أمينكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فانطلقوا إليه، فانطلق منّا رجالٌ ركبناً ومشاه، فاقترضنا الطريق إليه؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شىء، حتى إذا عيّل علينا انطلقنا إلى دِيرٍ قريبٍ منّا، فسألناهم: أين هذا الماء الذى عندكم؟ قالوا: ليس قُرْبنا ماء، فقلنا: بلى إننا شربنا منه، قالوا: أنتم شربتم

ص: ٣٤٢

فقال له عليه السلام: ألا قلت:

«كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (١١)»

٢- في الأنبار

مر لا بالأنبار (أحد المدن الغربية في العراق) فتقدم دهاقنتها إليه فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاءوا يشتدون معه، وبين يديه ومعهم براذين قد أوقفوها في طريقه. فقال: ما هذه الدوات التي معكم؟ وما أردتم بهذا الذي صنعته؟ قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خلق مئنا نعم به الأمراء؛ وأما هذه البراذين فهديه لك، وقد صنعنا للمسلمين طعامه، وهيانا لدوابكم علفا كثيره.

فقال عليه السلام: أما هذا الذي زعمتم أنه فيكم حق تعظمون به الأمراء فو الله ما ينفع ذلك الأمراء؛ وإنكم لتشققون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه؛ فإن أحببتم أن أخذها منكم، وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم. وأنا طعامكم الذي صنعتم لنا؛ فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بئمن. اسدى

٣- قرب الدير

على عليه السلام في مسيره إلى الشام؛ حتى إذا كنا بظهر الكوفة من جانب هذا السوادء عطش الناس احتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا على عليه السلام حتى أتى بنا إلى صحره ضرس في الأرض؛ كأنها ربيضة عنز؛ فأمرنا فاقتلناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه، وارتووا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلا. قال عليه السلام: أمنكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فانطلقوا إليه، فانطلقوا يا رجال ركباننا ومشاه، فاقترضنا الطريق إليه؛ حتى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شيء، حتى إذا عيل علينا انطلقنا إلى دير قريب متا، فسألناهم أين هذا الماء الذي عندكم؟ قالوا: ليس تربنا ماء، فقلنا: بلى إنا شربنا منه، قالوا: أنتم شربتم

ص: ٣٤٣

منه! قلنا: نعم، فقال صاحب الدَيْر: والله ما بُني هذا الدير إلَّا بذلك الماء، وما استخرجه إلَّا نبيُّ أو وصيُّ نبيِّ.

قال العلامة المجلسيُّ فما كان من الراهب إلا أن أتى الإمام عليه السلام وأعلن إسلامه ولازم الإمام عليه السلام حتى إستشهد ليله الهرير فصلى الإمام عليه السلام عليه وأنزله القبر وقال: والله إنى لأرى موضعه فى الجنة.

٤- فى الرقه

ثم سار حتى أتى الرِّقَه - وجلَّ أهلها عثمانيه، فزوا من الكوفه إلى معاويه - فأغلقوا أبوابها دونه، وتحصنوا، وكان أميرهم سماك بن مخرقه الأسدى فى طاعه معاويه، وقد كان فارق علياً عليه السلام فى نحو من مائه رجل من بنى أسد، ثم كاتب معاويه، وأقام بالرِّقَه حتى لحق به سبعمائه رجل.

قال نصر: فروى حَبه أن علياً عليه السلام لما نزل على الرِّقَه، نزل بموضع يقال له البليخ على جانب الفرات، فنزل راهب هناك من صومعته، فقال لعلى عليه السلام: إنَّ عندنا كتاباً توارثناه عن آباءنا، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم، أعرضه عليك؟ قال: نعم، فقرأ الراهب الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. الذين قضى فيما قضى، وسَطَّر فيما كتب: أنه باعثٌ فى الأميين رسولاً منهم؛ يعلمهم الكتابَ والحكمه، ويدلِّهم على سبيل الله، لا فظُّ ولا غليظ؛ ولا صَيْحَابٌ فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئه السيئه، بل يعفوا ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل نشر، وفى كل صعود وهبوط، تذلُّ ألسنتهم بالتكبير والتهليل، والتسبيح؛ وينصره الله على من ناوأه؛ فإذا توفاه الله، اختلف أمته من بعده؛ ثم اجتمعت، فلبث ما شاء الله، ثم اختلفت، فيمرَّ رجل من أمته بشاطيء هذا الفرات، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقضِّى بالحقِّ ولا يركس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرماد فى يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شرب الماء على الضمآن. يخاف الله فى السرِّ، وينصح له فى العلانيه، لا يخاف فى الله لومه لائم؛ فمن أدرك ذلك النبيِّ من أهل هذه البلاد فأمن به كان ثوابه رضوانى والجنه، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره، فإنَّ القتل معه شهاده.

ص: ٣٤٤

ثم قال له: أنا مصاحبك، فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك. فبكى عليه السلام، ثم قال: الحمد لله الذي لم أكن عنده منسيًا، الحمد لله الذي ذكرني عنده في كُتُب الأبرار.

فمضى الراهب معه، فكان فيما ذكروا يتغدى مع أمير المؤمنين ويتعشى، حتى أصيب يوم صفين؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه السلام: اطلبوه، فلما وجده صلى عليه ودفنه. وقال: هذا من أهل البيت، واستغفر له مراراً. (١)

نزول علي بكربلاء

فلما نزل بكربلاء صلى بنا، فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال: واها لك يا تربة! ليحسرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب. ثم قال «هي هنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثم أوما بيده إلى مكان آخر وقال: هي هنا مراق دمائهم».

ص: ٣٤٥

(١-١) وردت هذه القضايا التاريخية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/٢٨٨. [١]

ومن كلام له عليه السلام

وفيه جمله من صفات الربوبيه والعلم الإلهي

نظره إلى الخطبه

تدور الخطبه حول صفات الربوبيه والعلم الإلهي - كما ورد سابقاً - وتتضمن إشارات عميقه المعاني إلى جوانب من صفات الجلال والجمال وتنزيه الذات الإلهيه المقدسه من مزاعم الملحدين والمشبهه التي تشبه الله بالمخلوقات

ص: ٣٤٧

١-١) سند الخطبه: رواها جمع ممن عاش بعد السيد الرضى (ره) ومنهم العلامه المجلسي في روضه البحار وعلی بن محمد بن شاکر الواسطی فی کتاب عیون الحکم والمواعظ (مصادر نهج البلاغه، ٢/١٨).

«الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ البَصِيرِ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَتْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ وَقَرَّبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ فَلَا اسْتِغْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاهِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيرًا!»

الشرح والتفسير

المنزه عن الظن والخيال

ذكرنا سابقاً أن الخطبه وارده في صفات الجلال والجمال، حيث أشارت إلى عدد من أسماء الله الحسنی بعبارات قصيره بعيده المعنى، فقد استهل الخطبه بذكر خمس صفات من صفاته التي توضح كل واحده منها الأخرى فقال «الحمد لله الذي بطن (1) خفيات الأمور ودلت عليه أعلام الظهور» وليس للعين من سبيل إلى رؤيته «وامتنع على عين البصير» ومن هنا «فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أتته يبصره». وقد أورد شراح نهج البلاغه عدّه تفسيرات لقوله عليه السلام «الذي بطن خفيات الأمور» فقال البعض: بطن هنا بمعنى علم، وقيل بطن هنا بمعنى الخفاء؛ أي الله الذي خفيت به الأسرار، إلّا أنّ التفسير الذي ذكرناه أنسب وهو أن

ص: ٣٤٩

١-١) «بطن» من ماده «بطن» على وزن متن تستعمل للأشياء الخفيه، ويقال بطنت الأمر بمعنى علمت ببواطنها أسرارها. ولما كان داخل البطن خفى فقد استعملت هذه المفرده بشأن كل شيء خفى، وباطن الأشياء بمعنى داخلها، وله معنى الفعل اللانزم والمتعدى.

بطن بمعنى الخفاء ومفهوم العبارة أنّ الله مخفى فى الأسرار، وعبارة أخرى فإنّ ذاته أعظم خفاءً من الخفاء، وزبده الكلام فان مفهوم العبارة ما أنشده الفيلسوف فى شعره: وجوده من أظهر الأشياء وكنهه فى غاية الخفاء

أمّا العبارة «دلت عليه أعلام الظهور» فتعنى أنّ آياته ظاهره جليه فى كل مكان، فى السموات والنجوم والمجرات والمنظومات وفى الأرض فى الصحارى والبحارى والجبال والأنهار وعلى جبين كافة الكائنات الحيه فى أوراق الأشجار والبراعم والثمار وفى باطن الذرات والجزئيات. وبالطبع كلما تقدم العلم وكشفت الأسرار ازدادت الأدله والآيات على قدره الذات الإلهيه وعلمها المطلق. والعبارة الثالثه «وامتنع على عين البصير» تفيد تعذر رؤيه جماله سبحانه على أحد العيون، وذلك لأنّ المشاهده الحسيه إنّما تختص بالجسم والجسمانيات ذات الجهه والمكان، بينما ذاته المطلقه ليست بجسم ولا- جسمانيه وليس لها من جهه أو مكان، بل هى مطلقه منزّهه عن كل هذه العوارض والنقائص «لا تُدرِكُهُ الأبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (١). ولما سأل موسى عليه السلام من جانب بنى إسرائيل ربّه «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» الشهود الحسى، خوطب «لَنْ تَرَانِي» (٢) ثم شاهد موسى عليه السلام قبسات من تجليات الله التى دكت الجبل فصعق موسى ومن معه فلما أفاق قال «سُبْحَانَكَ - تَبَّتْ إِلَيْكَ - وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» والعبارة «فلا عين من لم يره. . .» نتيجته طبيعه تشير إلى أنّ العاقل لا يسعه إنكار الذات الإلهيه المقدسه بفعل وجود هذه الأدله والآيات، رغم تعذر المشاهده الحسيه، أما المؤمنون بالله فلا ينبغى لهم أن يعتقدوا بمشاهدته حتى قلبياً، وبالطبع يمكن رؤيته قلباً كما ورد عنه عليه السلام «لا تدركه العيون بمشاهده العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» (٣)، غير أنّ هذه المشاهده تتعلق بالأسماء والصفات لا مشاهده كنه الذات، وهنا يصدق حتى أولياء الله فضلاً عن عامه المخلوقات «ما عرفناك حق معرفتك» ثم قال عليه السلام: «سبق فى العلو فلا شىء أعلى منه وقرب فى الدنو فلا شىء أقرب منه» ثم يخلص على عليه السلام

ص: ٣٥٠

١-١) سورة الانعام / ١٠٣. [١]

٢-٢) سورة الاعراف / ١٤٣. [٢]

٣-٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٧٩. [٣]

إلى هذه النتيجة «فلا استعلاؤه (١) باعده عن شىء من خلقه ولا قربه ساواهم فى المكان به» لعله يتصور بأن هذه الصفات تناقض مع بعضها فكيف يكون الشىء بعيداً عالياً وفى نفس الوقت قريباً ملازماً؟ كيف يكون بعيداً فى القرب وقريباً فى البعد؟ نعم إذا كان المقياس هو المخلوقات التى من حولنا فهناك تناقض، غير أن الالتفات إلى هذه النقطة يزيل مثل هذا التناقض ويرشد إلى معرفه صفات الله، وهى أن وجوده سبحانه لا ينتهى وغنى ومطلق من جميع الجهات، وهو الوجود الذى لا يشوبه أية محدوديه من حيث الزمان والمكان والعلم والقدره، بل هو فوق الزمان والمكان فهو فى كل مكان وكل زمان وفى نفس الوقت ليس له مكان ولا زمان. ومثل هذا الوجود قريب من جميع الأشياء وهو بعيد عنها جميعاً لأنه لا يشبهها، هو أظهر من كل شىء، لأن كل شىء متقوم بوجوده، وهو ابطن من كل شىء لأنه لا يشبه المخلوقات والكائنات التى نعرفها ونألفها. وبناء على هذا فالمراد بالعلو فى العبارة المذكوره فوقيته للوجود وعلوه عليه لا- علوه فى المكان، والمراد بالقرب قربه فى الاحاطه الوجوديه لا- القرب فى المكان. وهنا لابد من الاذعان إلى أن فهم وإدراك هذه الصفات ليس سهلاً علينا بفعل تعاملنا مع صفات الممكنات؛ إلا أنه يمكن تقريبها إلى الأذهان من خلال التأمل والاستعانه ببعض الأمثله وإن كانت ناقصه قاصره. على سبيل المثال للرد على السؤال الذى يقول كيف يكون له وجود فى كل مكان وزمان ولا يحويه مكان وزمان، يمكننا أن نستعين ببعض الأمثله الناقصه من قبيل بعض المعادلات والقوانين الرياضيه، فكلنا نعلم بأن $(٢ + ٢ = ٤)$ فهى صادقه فى كل زمان ومكان فى السماء والأرض، وفى نفس الوقت ليس لها من زمان أو مكان. فقله عليه السلام: «فلا استعلاؤه باعده عن شىء من خلقه ولا قربه ساواهم فى المكان به» نتيجة واضحه لتلك الحقيقه المذكوره، فقد قال بعض شراح نهج البلاغه بعد أن إستعانوا بمثال ناقص إلا أنه مناسب، فى أن أمواج الضوء تنعكس على الزجاج وتنفذ إلى داخله فتضيئها، وهى فى نفس الوقت أقرب إليها من كل شىء، وهى ليست مثلها، بل هى وجود لطيف وأعلى وأرفع، ولعل هذا المعنى هو المراد بالآيه «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» (٢) ثم

ص: ٣٥١

١- ١) الاستعلاء قد يكون بمعنى الافضليه واريد بها هنا هذا المعنى.

٢- ٢) سورة النور / ٣٥. [١]

أشار عليه السلام إلى صفة أخرى: «لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته» فكنه ذاته ليس واضح لأحد ولا حقيقته صفاته، لأنّ ذاته وصفاته لا متناهيه، فأنى لعقل الإنسان المتناهي والمحدود أن يحيط باللامتناهي واللامحدود مع ذلك فإنّ آثاره الوجودية التي تجلت في كفاه الوجودات جعلت الإنسان يلم على سبيل الإجمال بذاته وصفاته وإليك هذا المثال الناقص: كلنا نعلم بوجود الروح، وأنّ الزمان حقيقه واقعه، إلّا أنّ إدارك حقيقه الروح والزمان ليس بالامر إلهين. وكلنا نعرف الفارق بين الكائن الحي والميت، ولكن ما كنه حقيقه الحياه؟ يبدو فهم ذلك صعباً، بعبارة أخرى لنا علم إجمالي بهذه الأمور لاتفصيلي (١) ثم قال عليه السلام «فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود (٢)» الواقع أن جاحدى الله إنّما يجحدوه لساناً بينما يقرون به قلباً «وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * . . . وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (٣). كيف يمكن إنكار وجود الله وكل شى يهتف باسمه ويتقوم بوجوده. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول «تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً» والمشبهه على نوعين: من يشبه الله بعباده فيرى له جسماً ويداً ورجلاً، والآخر من يشبه الآخرين به فيرى له شريكاً وشبيهاً فيعبده ويسجد له بدلاً من الله. وقد ذهب بعض الشراح إلى المعنى الأول هو المراد من العبارة، فى حين ذهب البعض الآخر إلى المعنى الثانى، ويبدو المعنى الثانى أصح إستناداً لقوله «المشبهون به» وان كانت الطائفتان على خطأ، لأنّه لا يشتمل على صفات المخلوقين بحيث تتخلل الحوادث ذاته المقدسه، ولا يمكن لمخلوق أن يشمل مكانه لأنّه لا يتحلى بأى من صفاته.

ص: ٣٥٢

-
- ١-١) للوقوف على المزيد بهذا الشأن راجع المجلد الأول من الشرح، الخطبه الاولى.
٢-٢) «جحود» و «جحد» بمعنى الإنكار الممزوج بالعلم - وقال الراغب فى المفردات تعنى نفى ما ثبت فى القلب، أو إثبات ما نفاه القلب - وعليه ففى مفهوم الجحود نوع من التعصب والعداء الخفى ضد الحق.
٣-٣) سوره العنكبوت / ٦١ - ٦٣.

لقد تضمنت الخطبه بعض الاشارات إلى عدّه جوانب فى مجال أسماء الله وصفاته: الاولى خفاء وكنه ذات الله فى نفس ظهور وجوده فى جميع عالم الوجود بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر وجوده، بينما لا يستطيع أيضاً الاحاطه بكنه ذاته المطهره. وهذا فى الواقع أحد الآثار اللامتناهيه لوجوده المطلق، حيث كلما خطونا خطوه نحو معرفه ذاته تقهقرنا خطوات عن درك كنه هذه الذات، وكلما حلقتنا فى سماء معرفه صفاته إحترقت أجنحتنا وسقطنا فى عالم الجهل وعلى قول ابن أبى الحديد فى شعره: فيك يا اعجوبه الكون

وبالمقابل فإن آثاره قد تجلت فى كافه دقائق عالم الوجود، بحيث لا يسع من يلمس هذه الآثار أينما حلّ إلا أن يمزج مع نفسه بدعاء الإمام الحسين عليه السلام فى عرفه «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك، أو يكون لغيرك من الوجود ما ليس لك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقه عبد لم تجعل لها من حبك نصيباً» .

والثانيه الحديث عن قرب الله وبعده إلى جانب قربه وبعده منا، وأنه أبعد ما يكون عنا فى غايه قربيه، وأقرب ما يكون فى غايه بعده، وهذا الأمر هو الآخر من آثار ذاته المطلقة اللامتناهيه، وذلك لأن مثل هذه الذات فى كل مكان ولا يخلو منها مكان، وإلا كانت محدوده. والثالثه نفى صفات المخلوقات والشبهه عن ذاته المقدسه، وهذا أيضاً من آثار الذات اللامتناهيه، لأن جميع المخلوقات محدوده ناقصه، وجودها متناهى وصفاتها مشوبه بالنقص والعدم، فاذا شبهناه بأحد مخلوقاته وقلنا بالشريك والشبيهه وتصورنا له صفات المخلوقين نكون قد أخرجناه من حاله اللاتناهى وكونه واجب الوجود وجعلناه فى عداد الممكنات المحدوده وستعرض إلى هذه الأمور فى الخطب القادمه إن شاء الله.

ومن كلام له عليه السلام

وفيه بيان لما يخرب العالم به من الفتن وبيان هذه الفتن

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى أهم عوامل فساد المجتمعات البشريه ولاسيما الانحراف الذى عصف بالمجتمع الإسلامى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم بين عليه السلام كيف تخلط الشياطين الحق بالباطل وتزينه للإنسان. فلو طرح الحق كما هو لا غلقت طرق نفوذ الشياطين، كما لو عرض الباطل على هيئته لما قبله أحد، ومن هنا فان الشياطين تخلط الحق بالباطل لاغواء الناس وإضلالهم. نعم فهؤلاء يدسون السم المهلك فى كل طعام لذيذ ليحثوا المغنلين على تناوله. فهم يخفون الباطل فى الحق دائما ليضلوا الناس عن طريق ذلك.

ج ج

ص: ٣٥٥

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه عدد ممن عاش قبل السيد الرضى (ره)، كالمرحوم الكلينى فى الكافى فى باب البدع والرأى والمقاييس (١ / ٥٤) وأحمد بن محمد بن خالد البرقى فى كتاب المحاسن (١ / ٢٠٨) واليعقوبى فى تأريخه (٢ / ١٣٦) وابوجبان التوحيدى فى البصائر والذخائر / ٣٢، وآخرون ممن عاشوا بعد الرضى ولا حاجه لذكرهم. مصادر نهج البلاغه ٢ / ١٩.

«إِنَّمَا يَدُوعُ وَقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامُ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخَفَ عَلَى الْمُؤْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَاذِمِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِعْفٌ وَمِنْ هَذَا ضِعْفٌ فَيُمَزَّجَانِ فَهَذَا لِكَيْ يَسْتَوْلِيَ الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيُنْجُو «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى»

الشرح والتفسير

هناك كلام بين المفسرين والشرّاح بشأن زمان الخطبه والظروف التي رافقتها، فيرى البعض أنه خطبها بعد ستة أيام من خلافته، بينما يرى البعض الآخر أنه خطبها بعد التحكيم، وبالطبع فإن الخطبه تنسجم والاحتمالين؛ أى أن تكون الخطبه فى بدايه الخلافه أو بعد التحكيم. فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى سبب ظهور الفتن فى المجتمعات الإسلاميه التى تشمل ما بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه و آله وبعض الحوادث كالجمل وصفين والنهروان فقال: «إِنَّمَا بَدَأَ وَقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تَتَّبَعُ وَأَحْكَامُ تَبْتَدَعُ (1) يخالف فيها كتاب الله». نعم أساس الفتن أمرين: اتباع أهواء النفس والاحكام الموضوعه المخالفه لكتاب الله والسنة، فمما لا شك فيه أن الفتن ستقبر لو كانت التعاليم الإسلاميه والاحكام القرآنيه هى السائده وحفظت هذه القوانين والاحكام ومنعت البدع وابتعد عن الأهواء فى إجراء الأحكام الشرعيه؛ وذلك لأن هذه القوانين تهدف بسط العدل والقسط وتضمن حقوق الناس وتعين وظائفهم. فالفتنه تفرزها

ص: ٣٥٧

١-١) «تبتدع» من ماده «بدعه» بمعنى حديثه الظهور، وتستعمل بشأن الاحكام المخالفه لكتاب الله والسنه النبويه.

الأهواء وتحريف القوانين لصالح الأطماع الشخصية وغياب العدل وتضييع الوظائف والاقبال على البدع. فاصحاب الفتن يلجأون تارة إلى التحريف والتفسير الخاطيء لاشباع أهوائهم ورغباتهم، وإذا تطلب الأمر وضع بعض الاحكام الجديده، أقبلوا على البدع، صحيح أن تلك البدع تفرزها الأهواء، إلا أن الأهواء والرغبات الشيطانيه قد تتبلور أحياناً كتفسير وإجراء للأحكام الشريعه وأخرى كبدع واحكام موضوعه، ومن هنا فصلاً عن بعضها في كلام الإمام عليه السلام. على سبيل المثال يمكن الاشاره هنا إلى فتنه بنى أميه التي تعد من أكبر الفتن التي شهدها الإسلام فقد إستولى معاويه بواسطه المكر والخداع على الحكمه ثم ابتدع توريشها في ولده، وادعى أن زياد ابن أبى سفيان وأخذ البيعه ليزيد في حياته، وسن سب أمير المؤمنين على عليه السلام من على المناير ثم اتهمه بقتل عثمان وطالب بدمه. (١) ثم قال عليه السلام «ويتولى (٢) عليها رجال رجالاً - على غير دين الله» ثم أشار في العبارة اللاحقه إلى وسائل هذا العمل، التي استغلت من قبل الجناه والطواغيت طيله التأريخ حتى أصبحت سنه، وهى أنهم يمزجون الحق بالباطل من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم «فلو أن الباطل خالص من مزاج الحق لم يحف على المرتادين (٣)، ولو أن الحق خالص من لبس الباطل إنقطعت عنه السن المعاندين» فما أروع هذه العبارة، لو خالص الباطل من مزاج الحق لما كان هناك من يتبعه، ولو خالص الحق من لبس الباطل لخرست ألسن المتخربين، ولذلك فمن البديهي ألا يحل الحق الخالص مشاكل عبده الأهواء، لأن منافعهم كامنه فى الباطل، ولا الباطل الخالص يحقق لهم أغراضهم، لأن الناس لا يقفون إلى جانبهم، وهنا يتجهون صوب خلط الحق بالباطل؛ الأمر الذى يجسد كافه السياسات المخربه فى العالم. ثم قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن «ولكن يؤخذ من هذا ضغث (٤) و من هذا ضغث فيمزجان فهالك يستولى الشيطان على أوليائه، وينجو «الَّذِينَ سَبَقَتْ

ص: ٣٥٨

١-١) راجع كتاب الغدير / ١٠.

٢-٢) «يتولى» من ماده «تولى» بمعنى الاتباع. وتأتى أحيانا بمعنى الإقتراب والسيطره على المقام والمنصب إلا أن المراد هنا المعنى الأول.

٣-٣) «مرتادين» من ماده «ارتاد»، الطالبين للحقيقه.

٤-٤) «ضغث» على وزن حرص قبضه من حشيش مختلط فيها الرطب باليابس، كما يطلق الضغث على الاحلام المزعجه، وقد وردت فى العبارة بمعنى بعض من الشئ.

لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى». فالعبارة تفيد أنّ خلط الحق والباطل لا يمنع من معرفه الباطل وان تطلب ذلك قدرا من البحث والتحري والرجوع إلى الآخرين، ومن هنا قال الإمام عليه السلام بأنّ خلط الحق بالباطل لا يؤثر في أولياء الله، بينما يؤثر على أولياء الشيطان فيقودهم إلى الغواية والظلال. فالواقع هو أنّ مزج الحق بالباطل بمثابة الضوء الأخضر لعبده الأهواء وذريعه لاتباع الشيطان لخداع أنفسهم فيستدلوا على الآخرين بأننا سلكنا هذا الطريق لأننا إعتمدنا الدليل الفلاني (الذي يمثل الحق الممزوج بالباطل). نعم يمكن أن يقع بعض المستضعفين الفكريين والسذج جهلاً في حائل الشيطان، والحال لو كان لهم زعيم ومرشد لما شهدوا مثل هذا المصير وعليه فالإمامه إزاء مزج الحق بالباطل على ثلاثة طوائف:

الطائفة الاولى «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى» (1) وبعبارته أخرى المخلصون من اتباع الحق ينجون بلطف الله من هذه الفتنة. الطائفة الثانية عبده الأهواء أتباع الحجج والذرائع الذين يقتحمون الباطل بذريعه الحق فيتجهون عن شبه علم إلى حائل الشيطان. الطائفة الثالثة السذج من الأفراد الذين يتعذر عليهم تمييز الحق من الباطل في ظل هذا المزج الخطير فيسقطون جهلاً في مصائد الشيطان، إلماً أن يركنوا إلى زعيم عالم. وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبه ٣٨ حين عرض الإمام عليه السلام للشبهه وسبيل النجاه منها فقال عليه السلام «وإنما سميت الشبهه شبهه لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضيأؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعأؤهم فيها الضلال. . .».

تأملات

١ - أساس الفتن

إنّ التاريخ الإسلامي ولا سيما إبان القرن الأول والثاني ملئ بالفتن الغريبه والأليمه التي كادت تقضى على جهود النبي صلى الله عليه وآله وصحبه الميامين، ولو لا تلك الفتن التي عصفت بالإسلام لما

ص: ٣٥٩

١-١) العبارة إقتباس من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء « [١] إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» التي وردت بعد الحديث عن جهنم، في اشاره إلى أنّ هذه الطائفة ناجيه من النار، ولما كانت فتن الدنيا هي جهنمها، فقد استثنى عليه السلام هذه الطائفة من هذه الفتن.

كنا نعيش مثل هذا العالم، والأنكى من ذلك الفتن التي وقعت بعد خمس وعشرين سنة من رحيل النبي صلى الله عليه وآله حين وصلت الخلافة عام ٣٥ هـ فاستهدفت تلك الفتن إعادة الإسلام إلى الجاهلية؛ أما السنوات الأخيرة لخلافه عثمان فقد شهدت غياب جميع القيم والمثل الإسلامية، في حين تجددت سنن الجاهلية وأعرافها المقيته وانبرت طلائع الشرك والنفاق للتسلم موقعاً حساسه في الحكومه؛ الأمر الذى كان يعقد وظيفه الإمام عليه السلام. صحيح أن الإمام عليه السلام تمكن بجهاده المرير أن يحيى القيم والمثل الإسلامية، ولكن المؤسف أن الفتن لم تسكن حتى أدت في خاتمه المطاف إلى قتل الإمام عليه السلام في محرابه من قبل تلك الطغمة الضاله. ثم إتسع حجم هذه الفتن على عهد معاوية ويزيد وسائر الشجره الأمويه الخبيثه، فقد سفكت الدماء، واستفاحت البدع، وسادت الأهواء، لتبلغ ذروتها على عهد بنى العباس حتى مثل الإسلام وجفت عروقه. فلو نظرنا إلى هذه الفتن لوقفنا على عمق خطبه الإمام عليه السلام التي حصرت أساس الفتن فى أمرين إتباع الهوى والبدع فى دين الله؛ الأمران الذان يشاهدان فى كل مكان، فقد تمسكت طائفه من أصحاب الفتن بالأمر الأول بينما لاذت طائفه أخرى بالأمر الثانى. ولا نرى البحث يسع الخوض فى هذه التفاصيل ونوكلها إلى مكان آخر.

٢ - السياسات الشيطانيه

من عجائب الدهر أن مبادئ السياسه الاستبداديه تقريباً متكافئه طيله التاريخ. فقد إعتمد فرعون قبل ألف سنه - على ضوء المنطق القرآنى - سياسه فرق تسد «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا» (١) وما زال هذا المبدأ باق على قوته فى كافه نقاط العالم الاستكبارى، فالحكومات تلجأ إلى أفذر الوسائل من أجل تفرقه الصفوف. ولما كانت السياسه الشيطانيه آخذة فى التعقيد فى عصرنا الراهن أكثر من سائر العصور، فقد تعقد تبعاً لذلك مزج الحق بالباطل، حيث يمزج بعض الساسه الحق بالباطل بالشكل الذى يصعب تمييزه على الناس، وأدنى ذلك خداع الرأى العام ببعض العناوين كحقوق الإنسان والرفق

ص: ٣٦٠

بالحىوان وىوم العامل وأطباء بلا- حدود ومنظمه العفو الدوليه وتأسيس المراكز الخيره وإعانه المحرومين ومنح حق اللجوء السياسى لعدد من النازحين، فهم يتحدثون عنها بالشكل الذى قد يسيل له لعاب حتى بعض اليقظين والواعين. وناهيك عن كل ما سبق فالحكومات الاستكباريه تشدق بالديمقراطيه وضروره الرجوع إلى آراء الشعب فاذا تم ذلك وجرت الأمور خلافاً لمصالحها اللامشروعه عمدت إلى الانقلاب أو أثاره الفتن؛ الأمر الذى لمسناه بوضوح فى التجربه الجزائريه، فابقوا على تلك الحكومه التى فشلت فى تلك التجربه لأنها تضمن مصالحها. بينما تغض النظر عن الحكومات التى تعيش عقليه القرون الوسطى وتمد لها يد العون والمساعده لأنها تحفظ مصالحها.

نعم هذه هى حقيقه عالم السياسه التى يتضح منها عمق كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه فى أن أصحاب الفتن إنما يمزجون الحق بالباطل لخداع عوام الناس.

ج ج

ص: ٣٤١

ومن خطبه له عليه السلام

لما غلب أصحاب معاويه أصحابه عليه عليه السلام على شريعه الفرات بصفين ومنعوهم الماء.

نظره إلى الخطبه

روى ابن أبي الحديد في إطار شرحه لهذه الخطبه أنّ نصر بن مزاحم قال: كان أبو الأعور السلمى على مقدمه جيش معاويه، وكان قد ناوش مقدمه جيش على عليه السلام وعليها الأشر النخعي مناوشه ليست بالعظيمه، فانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين - موضع في الشام - إلى جانب صفين، فحال جيشه بين ماء الفرات وأهل العراق. فلما بلغ أمير المؤمنين على عليه السلام الخبر دعا صعصعه بن صوحان فقال: إئت معاويه وقل له: إنا سرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كره لقتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن ممن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك؛ فحل بين الماء والناس حتى ننظر فيما بيننا وبينكم؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له؛ وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا. فمضى صعصعه بالرساله إلى معاويه، فقال معاويه لأصحابه: ما ترون؟ فأشار عليه بعض أصحابه بمنعهم الماء، غير أنّ عمرو بن العاص أشار عليه قائلاً: خل بين القوم وبين

ص: ٣٤٣

١ - ١) لقد نقل هذه الخطبه «نصر بن مزاحم» في كتاب صفين عن جابر عن أمير المؤمنين على عليه السلام (مع بعض الفوارق الطفيفه) (مصادر نهج البلاغه ٢ / ٢٠). [١]

الماء فيأنهم لن يعطشوا وأنت ريان. بينما كان معاويه يرجح الرأى القائل بمنع جيش الإمام على عليه السلام من الماء. فمكث أصحاب الإمام عليه السلام بغير ماء فاغتم عليه السلام فألقي هذه الخطبه التي تفيض عدويه وفصاحه وبلاغه، شاحداً همم أصحابه فكشفوا أصحاب معاويه عن الماء.

جدير بالذكر أنّ القسم الأول من هذه الخطبه يشير إلى هذه الحقيقه وهى أنّ الإنسان إذا لم يقدم بكل شجاعه لأخذ حقه لم يكن أمامه سوى الذل والاستسلام للظلم والجور. أمّا القسم الثانى من الخطبه فيصور خداع معاويه ومكره فى تأليب الجهال وزجهم فى المعركه بما يجعلهم يستमितون من أجل الباطل!!

ج ج

ص: ٣٦٤

«قَدْ اسْتَطَعْمُوكُمُ الْقِتَالَ فَأَقْرُوا عَلَيَّ مِذْلَهُ وَتَأَخِّرِ مَحَلَّهُ أَوْ رَوْوَا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَزَوُّوا مِنَ الْمَاءِ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاءُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَهُ مِنَ الْغَوَاهِ وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاصَ الْمَيْتَةِ» .

الشرح والتفسير

أقبروا هذه الفتنه الخبيثه

أشرنا سابقاً إلى أنّ الإمام علي عليه السلام ألقى هذه الخطبه في ظل تلك الظروف العصيبه التي ألمت بصحبه. وقد إختار الإمام -الذي يمثل مصدر البلاغه والفصاحه - هذه العبارات الحماسيه من أجل تحقيق الهدف المنشود والذي جعل أصحابه يهبون مسرعين لطرده عن الشام ومردتها عن شريعه الفرات.

نعم ما زالت هذه العبارات - ورغم تقادم الزمان عليها - تفرع أسماع الجميع وتلهمهم الصمود والتصدي للأعداد إذا ما شكلوا خطراً على عزتهم وشرفهم. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «قد استطعموكم القتال». وهي كلمه مجازيه تعنى: طلبوا القتال منكم، وهي تستعمل حيث يطلب أحدهم الطعام من آخر، وكأنّ الحرب والقتال طعام يطلبونه من أصحاب الإمام عليه السلام. وما أشبه هذا الكلام بما تناقله ألسنه عوام الناس في حياتهم اليوميه من قبيل تعبيرهم «هذا الفرد يحكه جلده» في إشاره واضحه إلى أنه يأتي بالأفعال التي ستؤدى إلى ضربه. والحق أنّ هذا أبلغ تعبير أوردته الإمام عليه السلام بشأن منع أهل الشام للماء عن أصحابه عليه السلام. ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته بأن ليس أمامكم سوى سيبلين لا ثالث لهما تجاه

ص: ٣٦٥

خسه هذا العمل الذى ارتكبه أهل الشام؛ فإمّا السله وإمّا الذله «فأقروا على مذلّه وتأخير محله (١) أو رووا (٢) السيوف من الدماء ترووا من الماء» .

أجل لم يكن لهم من سبيل ثالث، فلو وهنوا أمام العدو وغلب عليهم العطش بحيث أمات رهطاً من جندهم لكان ذلك وصمه عار فى جبينهم ولفقدوا مكائنتهم ومنزلتهم لدى العدو والصدىق، إلمأنتهم حين نهضوا بالأمر وحملوا على العدو قد حظوا بمكائنتهم ومنزلتهم لدى العدو والصدىق، كما كشفوا عن مروءتهم وعظمه خلقهم حين لبوا طلب مولاهم بالابقاء على شريعته الماء مفتوحه بوجه جيش الشام؛ الأمر الذى جعل جيش معاويه يشعر بخسه عمله، وهذا ما أدى بدوره إلى ارتفاع معنويات أصحاب الإمام على عليه السلام وضعف روحه جيش الشام فى معركة صفين ولا سيما فى أوائل تلك المعركه حين شهدت هذه الوقعه.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى مفهوم كلى ودائى على أنه السر فى انتصار وعزه ورفع كل أمه، فىخاطب جنده قائلاً: «الموت فى حياتكم مقهورين والحياء فى موتكم قاهرين» .

نعم ليس هناك من قيمه لهذه الحياه الماديه فى قاموس الأفراد الصالحين، كما لا يعتبر الموت مناهضاً لهذه القيمه، بل القيمه فى نظر الأحرار إنمّا تكمن فى الحياه التى تسودها العزه والكرامه، ولذلك تراهم يؤثرون الموت مع العزه على الحياه مع الذله، وهذا هو السر فى انتصار الفئه الإسلاميه القليله فى عصر النبى صلى الله عليه وآله - وما تلاه من عصور - على الفئه الضاله الكثيره العدد والعهده. أجل فالعزه فى المجتمع الإسلامى مقدمه على كل ما سواها؛ ولا يتوانى مثل هذا المجتمع فى التضحيه بالغالى والنفيس من أجل تحقيقها. وهذا المعنى قد تجلى بأروع صورته فى كلمات شبل على عليه السلام الإمام الحسين عليه السلام فى حادثه كربلاء الدمويه، فقد كان عليه السلام لا ينفك ينادى: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبيد» (٣). ثم رد على الحر بن يزيد الرياحى - بعد أن جعجع بالحسين عليه السلام فى طريقه إلى كربلاء وسقاهم الحسين عليه السلام بعظمته المعروفه الماء

ص: ٣٦٦

١- ١) «محله» تستعمل بمعنى المكانه والمنزله الاجتماعيه.

٢- ٢) «رووا» من ماده «الترويه» بمعنى الارتواء من الماء، ولهذا يصطلح على اليوم الثامن من شهر ذى الحجه ب «يوم الترويه» حيث كان الحجيج فى السابق يتزودون بالماء حين الذهاب إلى عرفه ومنى والمشعر الحرام، كما قد تستعمل هذه المفرده ويراد بها المعنى الكنائى كإرواء السيوف الذى ورد فى هذه الخطبه.

٣- ٣) بحار الأنوار ٧ / ٤٥ [١]

ورشف خيولهم - حين نصحه بعدم مقاتله يزيد حفظاً لنفسه قائلاً: أفيالموت تخوفني. ثم تمثل عليه السلام بالشعر الذي أنشده شاعر الأوس حين حذره ابن عمه من نصره النبي صلى الله عليه و آله فقال: سأمضى فما بالموت عار على الفتى

ولا غرو فهذا هو المعنى الذي أكده القرآن الكريم «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» (١).

ثم يشير أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته إلى مكر معاوية وسداجه أهل الشام. الذين انطلقت عليه الأعيب معاويه وحيه فقال عليه السلام: «ألا وإن معاوية قاد لمه من الغواه وعمس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنيه» (٢).

فالإمام عليه السلام يصور في هذه العبارات حكمه معاويه التي تستند إلى الحيله والمكر والخداع واستغلال السذج من الناس، إلى جانب تصويره إلى أهل الشام الذين بلغوا حداً من الضلال والغواية ما جعلهم يضحون بأنفسهم باطلاً من أجل تحقيق مآرب معاويه وأهدافه المشؤومه.

ولعل العبارة الواه في الخطبه تمثل إجابته على السؤال الذى قد يتبادر إلى أذهان أصحاب الإمام عليه السلام عن عله دفاع أهل الشام عن مطامع معاويه إلى حد الاستماته. فالإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقه وهى أن مكر معاويه فى تزوير الواقع من جانب وجهل أهل الشام وغفلتهم من جانب آخر قد جعلتهم يظنون بأنهم يقاتلون فى سبيل الله ونيل الشهاده. نعم لقد كان للدعايه الواسعه والأساليب النفسيه التى إعتمدها معاويه وعمرو بن العاص بالغ الأثر فى صفوف أهل الشام إلى درجه أن البعض منهم أيقن بأن عثمان قد قتل مظلوماً وإن قاتله هو الإمام على عليه السلام.

ص: ٣٦٧

١-٢) سورة التوبه / ٥٢. [١]

٢-٣) «لمه» من ماده «لمى يلمو لمو» بمعنى أخذ الشىء بأكملة و (لمه) بضم اللام وفتح الميم بدون التشديد» بمعنى الجماعه القليله، (غواه) جمع غاوى بمعنى الضال، والعمس بمعنى محو الأثر وعدم العلم بالشىء، ومن هنا أطلق العميس على الظلام الدامس، فيقال ليل عماس؛ أى مظلم.

وقد نهض معاويه للطلب بدمه إلى جانب الدفاع عن القرآن والإسلام وخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله، وعليه فليس القتل في هذا السبيل سوى الجئه والشهاده التي يتعطش إليها كل مسلم غيور!

طبعاً حبل الكذب والخداع مهما طال قصير ولا يمكن للشمس أن تحجبها الغربان وسرعان ما تتضح الحقائق، غير أن ذلك لا يكون إلا بعد انجلاء الغبره وإزهاق الأرواح ولات حين مناص.

تأملات

١ - ضرورة العيش في ظل العزه والكرامه

تتميز المدرسه الإسلاميه عن سائر المدارس والمذاهب بمبادئها وركائزها الحيويه الأصليه، ومنها المبدأ الذي ورد في الخطبه المذكوره والذي يكمن في ترجيح الموت الشريف على الحياه الوضيعه، وبعبارة أخرى ففي الوقت الذي تحذر فيه المدرسه الإسلاميه عن ممارسه الظلم والجور فانها تؤكد على عدم الركون إلى الظلمه والاستسلام للطواغيت، وقد تجسد هذا المعنى في رجالات الإسلام الذين استحقوا بحق لقب «أباه الضيم» (١). والواقع أن القرآن هو الذي أكد هذا المبدأ «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» (٢).

وكذلك تضافرت روايات أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه» (٣). وقال الإمام الحسين عليه السلام: «موت في عز خير من حياه في ذل» (٤)، كما قال عليه السلام: «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد تركني بين السله والذله وهيئات له ذلك، هيئات مني الذله أبي الله ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طهرت وحجور طابت أن تؤثر طاعه اللثام على مصارع الكرام» (٥).

ص: ٣٤٨

١- ١) «أباه» جمع أبي بمعنى الرفض والامتناع والضميم بمعنى الظلم، وهو ما يطلق على أولئك الذين لا يستسلمون للظلم والجور.

٢- ٢) سوره المنافقون / ٨. [١]

٣- ٣) الكافي ٥ / ٦٣. [٢]

٤- ٤) بحار الأنوار ٤٤ / ١٩٢. [٣]

٥- ٥) بحار الأنوار ٤٥ / ٨٣. [٤]

وأورد ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه: «سيد أهل الآباء الذي علم الناس الحميه والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنيا أبو عبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل» .

ثم تطرق إلى كلماته الحماسيه في يوم عاشوراء «ألا وان الدعى ابن الدعى . . .» وأنها على غرار ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام في خطبته المعروفه - ٣٤ - «إن امرء يمكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه، ويفرى جلده، ويهشتم عظمه، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه صدره، فأما أنا فدون أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفيه . . .» قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذريه رسول الله صلى الله عليه وآله؟! فقال: عضضت بالجنديل؛ إنك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابه أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضاريه تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقى أنفسها على الموت؛ لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنيه، أو الاستيلاء على الملك؛ فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها؛ فما كنا فاعلين لا أم لك (١)!

٢ - غسل أدمغه المغفلين

النقطه المهمه الأخرى التي تضمنتها خطبه أمير المؤمنين عليه السلام، أن أئمه الباطل قد ينمقون كلامهم بالمكر والخداع بما يجعلهم ينفذون إلى أعماق أفكار السذج من الناس، وكأنهم يسوقونهم إلى الشهاده، حيث يقبلون على القتال بكل شده وصرامه، في حين لا يزيدهم ذلك القتال سوى الطر من الرحمه والتغلغل في الدررك الأسفل من النار، وهذه طامه كبرى. ولم يكن معاويه يدعا من أولئك الطواغيت الذين ساروا على هذا النهج في غسل أدمغه أتباعهم وسوقهم للدفاع عن أهدافهم ومآربهم المشؤومه، فقد سبقه وتلاه الكثير من الظلمه الذين اعتمدوا هذا الاسلوب. فعمر بن سعد قائد عسكر يزيد في كربلاء حين دفع بأهل الكوفه للهجوم على الإمام الحسين عليه السلام نادى بأعلى صوته: «يا خيل الله اركبي، وبالجنه ابشري!» (٢).

ص: ٣٦٩

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٣/٢٦٣. [١]

(٢-٢) بحار الأنوار ٤٤ / ٣٩١. [٢]

كما كانت أجهزه الدعايه الفرعونيّه تصور موسى وهارون عليهما السلام ممن يسعى للسيطره على مصر وإشاعه الفساد فيها، في حين تصف فرعون بالمدافع عن هذه الأرض وعزه واستقلال أهلها، فيخاطب الأُمّه قائلاً: «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا» (١). وما زال هذا هو المنطق الغاشم الذي يمارسه الظلمه على مر العصور والدهور.

٣ - المروءه والشهامه

قال نصر - في كتاب صفين - إنّ عمرو بن العاص قال لمعاويه لما ملك أهل العراق: ما ظنك يا معاويه بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس؟ أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه؟ ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءه. ويبدو أن عمرو كان بصدد تقرير معاويه ولومه على عدم قبول إقتراح ابن العاص بعدم منع أهل العراق من الماء. فقال معاويه: دع عنك ما مضى، فما ظنك بعلى؟ قال: ظنى أنه لا يستحل منك ما استحلت منه، وأن الذى جاء له غير الماء. فهو يعلم بخلق على عليه السلام وليس لاغلاق شريعه الفرات من انسجام وذلك الخلق. (٢)

وهذا هو الخلق الذى ورثه ابنه الحسين عليه السلام الذى سقى الحر بن يزيد الرياحى وجنده الماء فى تلك الصحراء القافره بينما كان خلق أعدائه أن ذبحوه عطشاناً إلى جانب شط الفرات، وليتهم اكتفوا بذلك فقد منعوا الماء حتى عن رضيعه. ملكنا فكان العفو مناسبه

ص: ٣٧٠

[١-١] (١) سورة طه / ٦٣. [١]

[٢-٢] (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ٣٣٠. [٢]

ومن خطبه له عليه السلام

وهى فى الترهيد فى الدنيا وثواب الله للزاهد، ونعم الله على الخلق

نظره إلى الخطبه

تشتمل الخطبه فى الواقع على ثلاثه أقسام: القسم الأول فى الزهد وعدم التعلق بالدنيا وأن نعم الدنيا إلى زوال، وعلى المؤمنين أن يستعدوا لسفر الآخرة من خلال العمل الصالح، القسم الثانى ثواب الزهاد والأعمال الصالحه، والقسم الثالث الاقرار بعجز العباد عن إداء حق شكر المنعم، ولا سيما أعظم هذه النعم الإيمان.

ج ج

ص: ٣٧١

١ - ١) سند الخطبه: روى أن الإمام عليه السلام خطبها فى عيد الأضحى وبدايتها «الله أكبر الله أكبر لا اله إلا الله والله أكبر والله الحمد الحمد لله على ما هدانا. .» ورواها المرحوم الصدوق (ره) فى كتابه من لا يحضره الفقيه ١ / ٢٢٩ والشيخ الطوسى (ره) فى كتاب المصباح / ٢٦١ وقال: نقل أبو مخنف عن عبدالرحمن بن جندب عن أبيه أن علياً عليه السلام خطب الناس فى الأضحى وقد أورد السيد الرضى (ره) بعضها فى نهج البلاغه، كما روى الشيخ المفيد قسماً منها فى المجلس العشرين من الامالى. مصادر نهج البلاغه ٢ / ٢٢ [١] وقد مضى شبيه هذا المضمون فى الخطبه ٢٨.

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَيَّرَ مَتًّا، وَآذَنْتَ بِانْقِضَائِهِ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَذْبَرَتْ حَيْدَاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ شَيْكَانَهَا وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا وَقَدْ أَمَّرَ فِيهَا مَا كَانَ حُلُوعًا، وَكَدِيرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَيْفُوعًا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَيْمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصُّدَيَانُ لَمْ يَنْقَعِ، فَأَزْمَعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنِ هَيْدِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالِ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا الْأَمَدُ» .

الشرح والتفسير

لقد تواترت خطبه عليه السلام في نهج البلاغه التي توصى بالزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها والتزود منها إلى الدار الآخرة، إلى جانب التحذير من مخاطرها وأنها متقلبه سريعه الزوال،

رغم أن الإنسان يطمح بالحياه مادامه في الدنيا ولا بد أن يعيش بعزه ورفعه ويصرف شؤون حياته الماديه دون التبعيه للآخرين وأن الإنسان لا بد أن يتأهب فيها إلى السفر الشاق الذي ينتظره، ومن هنا ورد التأكيد في هذا الخطبه على الزهد في عشر عبارات رائعه في الدقه والمعنى، فقال في العباره الاولى: «ألا وإن الدنيا قد تصرمت، (١) و آذنت (٢) بانقضاء» فالعباره قد تكون إشاره إلى عمر الدنيا الايل للانقطاع والانتهاء، ومن هنا يسمى زماننا آخرالزمان، أو إشاره إلى الحياه الدنيا لكل فرد من الأفراد في كل عصر وزمان في أنه قصير سريع الزوال، والمعنى الاخير أنسب. فمفهوم العباره هو أن عمر الإنسان من القصر في هذه الحياه الدنيا وكأنه يخاطب بالاستعداد للرحيل منذ ولادته. فقوله عليه السلام: «ألا وإن الدنيا قد تصرمت» يتناول باطن الدنيا، بينما تناول قوله عليه السلام: «وآذنت بانقضاء» ظاهرها، وبعبارة أخرى فإن الدنيا فانيه ذاتا،

ص: ٣٧٣

١ - ١) «تصرمت» من ماده «صرم» بمعنى انقطعت وفنيت، ومن هنا يطلق الصارم على السيف القاطع، وتصرم الدنيا يعنى انقطاع أجلها.

٢ - ٢) «آذنت» من ماده إيذان أعلمت وأخبرت.

كما أنّ مختلف ملامحها في الحياه الإنسانيه هي الأخرى قد أخبرت عن هذا الفناء، وبالتالي فلا- ينبغي للإنسان أن يغتر بها ويعيش الخسران.

وهي كما صورها الشاعر: هي الدنيا تقول بمل فيها

ثم قال عليه السلام: «وتنكر معروفها وأدبرت حذاء» (١) كيف لا وغضاضه الشباب وطراوه الفتوه ونظاره الوجه آيله إلى الكهوله والعجز والشحوب، ثم وصف الدنيا عليه السلام بقوله: «فهي تحفز (٢) بالفناء سكانها وتحذوا بالموت جيرانها» فالعبارة تفيد حركه الإنسان نحو أجله ومصيره المحتوم شاء ذلك أم أبى. والحدى الصوت الذى يردد لتعجيل حركه الناقه، فما أروع هذا التعبير الذى يفيد توفر جميع العوامل التى تدعو الإنسان لحث الخطى والسرعه فى الحركه إلى الزوال والفناء. أمّا التعبير بالجيران بعد السكان فكأنه يفيد أنّ محل سكن الإنسان ليس فى هذا العالم، فهو جاره وليس بصاحبه، أى أنّه مفارقه لامحاله! ثم قال عليه السلام: «وقد أمر (٣) منها ما كان حلوا وكدر منها ما كان صفوا». فَمَا أُسْرِعَ نَهايه مرحله الطفوله والشباب الحلوه العذبه لتستبدل بمراره الشيخوخه والكهوله فيعد الاستقرار إضطراباً والحصه سقمًا والراحه تعبًا، وقيل فى تفسير هذه العبارة إنّها إشاره إلى اختلاف ظاهر الدنيا وباطنها، فظاهرها حلو وباطنها مرّ، ظاهرها عذب وباطنها علقم، غير أن التمعن فى العبارات السابقه يفيد أنّ التفسير الأول أنسب. ثم يختتم عليه السلام حديثه عن الدنيا بالقول «فلم يبق منها الاسمله كسمله (٤) الاداوه (٥) أو جرعه كجرعه المقله لو تمززاها (٦) الصديان لم ينقع» فالعبارة إشاره إلى حياه كل فرد من

ص: ٣٧٤

١- ١) «حذاء» من ماده «حذ» على وزن حظ بمعنى السريعه الذهاب، ومن هنا يطلق الحذاء على الدابه السريعه، والمراد هنا سرعه أجل الدنيا.

٢- ٢) «تحفز» من ماده «حفز» على وزن حبس بمعنى تعجلهم وتسوقهم، وقد ورد فى الحديث الشريف أن حفز الموت من علامات القيامة. قيل وما حفز الموت. قال صلى الله عليه وآله: موت الفجأه (لسان العرب).

٣- ٣) «مر» على وزن «شر» بمعنى المضى والعبور ومر على وزن حر ضد الحلو، وأمر» من ماده «مر» بمعنى مضى الزمان يجعل حلاوه الدنيا مراره.

٤- ٤) «سمله» من ماده «سمل» على وزن حمل بمعنى البقيه من الماء تبقى فى الإناء، ومن هنا كان الاسمال بمعنى الإصلاح لأنّه يزيل ما بقى من الأحقاد والأضغان.

٥- ٥) «إدواه» على وزن إداره القربه الصغيره من الجلد.

٦- ٦) «تمرز» من ماده «مز» على وزن حز بمعنى التذوق والامتصاص والأكل وقال صاحب مقاييس اللغهامتصاص الماء تدريجياً وبيطئ.

الأفراد وانها تقترب بمرور الزمان من نهايتها، وقد كان تعبيره بمنتهى الروعه لتصوير قصر عمر الدنيا وسرعه زوالها، فالسمله تعنى الشى الزهيد الذى لا يقيم له، وتطلق على ما يتبقى من الماء فى الاناء، و «جرعه المقله» تطلق على المسافر الذى يشكو من قلّه الماء فيسعى للحصول على الماء لادخاره، أجل فعمر الدنيا قصير إلى درجه أنه لا يروى ظمأ من تعلق به، فما أحرى العاقل أن يفيق إلى نفسه وينأى بها بعيداً عن الاغترار به، فينهمك بالآخره ويسرع فى السير إليها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى النتيجة الواضحه «فازمعا (١) عباد الله الرحيل عن هذه لدار المقذور على أهلها الزوال ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد» (٢). إن الإنسان راحل عن هذه الدنيا شاء أم أبى، ومراد الإمام عليه السلام إرحلوا بعلم وعبره واغتنموا الفرصه وسيروا على النهج بالعمل الصالح والخلق الرفيع والمعرفه بالله لتنالوا سعادته الآخره والخلود فى نعيمها. فقد نبه عليه السلام إلى الخطرين الكامنين فى الطريق فقال: «ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد»؛ الأمر الذى أرشد القرآن الكريم إليه بقوله: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» (٣) ونؤكد مره أخرى أن العبارات لا تفيد ترك الدنيا والرهبانیه فيها وعدم الإكتراث إلى الحياه، بل تفيد عدم التعلق بزخا رف الدنيا والاعترار بها، وبعبارة أخرى فالمراد التعامل مع الدنيا كما هى، لا على أساس الوهم والخيال وما تمليه علينا أهوائنا وشهواتنا.

لا أحد يعتقد بالخلود فى هذه الدنيا، فهى آيله إلى الزوال والفناء وأن الإنسان سيودعها يوماً ليودع خده التراب فى تلك الحفره، إلا أن زينه الدنيا وزبرجها قد تلقى بحجابها على هذا الواقع بحيث قد ينسى الإنسان الموت بالمره، أو يتناسى تلك الحقيقه المره، فينطلق فى نشاطاته

ص: ٣٧٥

١- ١) «أزمعوا» من ماده «زمع» بمعنى العزم على الشىء، ولذلك قيل ان هذه المفرده قلبت من عزم أى نقلت فيها حرفى الزاء والميم من مكان إلى آخر، وقيل كانت فى الأصل جمع ثم بدلت إلى زاء، والمفردات الثلاث (عزم وزمع وجمع) بمعنى واحد وهو التصميم والعزم على الشىء.

٢- ٢) «أمد» على وزن صمد أجل الشىء وتأتى بمعنى الغضب، لأن صبر الإنسان ينفد حين الغضب.

٣- ٣) سورة الحديد / ١٦. [١]

وفعالياته وكأنه مخلد في الحياه الدنيا. وقد يطرح هذا الحجاب مؤقتاً إذا ما مات أحدهم واشتركنا في مراسم تشييعه ودفنه لتتضح أمامنا الدنيا على حقيقتها، فإذا عدنا إلى حياتنا نسينا كل شى وعاد ذلك الحجاب، وكأنّ الموت لم يكتب علينا، وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يصدق على أولياء الله، فهم أرفع من أن تبعدهم هذه الحجب عن حقيقه الحياه والموت، فهم لا يرون الدنيا سوى قنطره إلى الآخرة. والحق أنّ تحذير الإمام عليه السلام في هذه الخطبه من الدنيا لا يعنى أبداً أنه يحث الناس على مقاطعه الدنيا وتركها، كيف وهو يراها مقدمه للآخرة «الدنيا مزرعه الآخرة». والطريف أنّ بعض الشعراء من أولياء الله قد صوروا هذه الحقيقه في أشعارهم، ولا بأس هنا بالتعرض لهذه القضيه.

فقد ورد في الحديث المعروف: سعى إلى المتوكل بعلى الهادى عليه السلام أنّ في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم، وأنّه عازم على الوثوب بالدوله، فبعث إليه جماعه من الأتراك، فهجموا على داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً ووجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعه من صوف، وهو جالس على الرمل والحصى هو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبله، وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب، فدخل عليه والكأس في يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التى كانت في يده فقال: والله ما يخامر لحمى ودمى قط، فاعفنى فاعفاه، فقال: أنشدنى شعراً، فقال عليه السلام: إنى قليل الروايه للشعر، فقال: لا بدّ، فأنشده عليه السلام: باتوا على قلل الاجبال تحرسهم

«فَوَاللَّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوَالِدِ الْعِجَالِ وَدَعَوْتُمْ بِهَيْدِيلِ الْحَمَامِ وَجِيَأْرْتُمْ جُؤَارَ مَتَبَتَّلِي الرَّهْيَانِ وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمَأْمُولِ وَالْأَوْلَادِ التَّمَسَّاسِ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجِهِ عِنْدَهُ أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئِهِ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ» .

الشرح والتفسير

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من تصوير حقيقه الدنيا وسرعه زوالها حتى تطرق إلى الثواب والعقاب في الآخرة ومصير الإنسان هناك على أنها تمثل الهدف لهذه الدنيا. وبعبارة أخرى كان القسم الأول من كلامه مقدمه لهذا القسم الذى يشير فيه إلى الهدف الغائى وهو القرب من الله ونيل ثوابه واجتناب عقابه فقال عليه السلام: «فو الله لو حننتم (١) حنين الولد (٢) العجال (٣) ودعوتم

ص: ٣٧٧

١- ١) «حنين» بمعنى الشفقة والرأفة والرحمة وتقال عادة مقترنه بالأنين والألم، و«أستن حنانه» تطلق على العمود الخشبي الذى ورد فى الروايه أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يستند إليه ويخطب الناس، ثم استبدل بالمنبر فكان ذلك العمود يتأوه لفراق النبي صلى الله عليه وآله.

٢- ٢) «وله» جمع «واله» و «والهه» من ماده «وله» على وزن ولع بمعنى شده الهم الذى يذهب بالعقل ويفقد التمييز.

٣- ٣) «عجال» جمع «عجول» من ماده «عجله» بمعنى السرعه فى العمل، كما تطلق على المرأه التى تشكل بولدها.

بهديل (١) الحمام وجأرتهم جوار (٢) متبتلى (٣) الرهبان (٤) وخرجتم إلى الله من الأموال والاولاد إلتماس القربه إليه في إرتفاع درجه عنده أو غفران سيئه أحصتها كتبه وحفظتها رسله لكان قليلاً- فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه» فقد إستعار الإمام عليه السلام ثلاثه تشبيهات للتضرع إلى الله واستفراغ الجهد في الانقطاع إليه، التشبيه الأول: الصوت الذى تخرجه النوق الوالهه الفاقده لأولادها، وهو الصوت الحزين الذى يرق له القلب حين سماعه، التشبيه الثانى: هديل الحمام حين إجتماعها، والهديل يطلق على فرخ الحمام كما يطلق على صوتها، وتعتقد العرب أن الهديل حمامه على عهد نوح عليه السلام بقيت وحدها وماتت عطشاً، ومنذ ذلك اليوم والحمام ينوح عليها، التشبيه الثالث: بكاء الرهبان المنقطعين عن الدنيا القابعين فى صومعاتهم، والذين ينوحون عند الطقوس الدينيه وقد إشتد نياحهم بفعل إنقطاعهم عن الدنيا. ولم يكتف الإمام عليه السلام بهذا التضرع والنوح والبكاء فقال: «وخرجتم إلى الله من الأموال والاولاد» أى ولو تركتم أموالكم وأولادكم من أجل القرب إلى الله كان قليلاً. والدليل واضح على ذلك فالدنيا وما فيها لاتعدل جناح بعوضه من الآخره، وهى ليست سوى قطره إلى بحر، ومن الطبيعى أن الإنسان لا يخرج من ماله وولده ما لم يقف على هذا المعنى. وقد وردت هذه المقارنه بين الدنيا والآخره فى خطبه المتقين بقوله عليه السلام: «صبروا أياما قصيره أعقبتهم راحه طويله» (٥).

ج ج

ص: ٣٧٨

- ١- ١) «هديل» يطلق على الحمام كما يطلق أحياناً على نوحه وهو من الهدل على وزن العدل بمعنى الصوت العذب.
- ٢- ٢) جوار له معنى مصدرى وهو الصوت المرتفع المشوب بالتضرع والنجده.
- ٣- ٣) متبتل من ماده تبتل بمعنى الإنفصال والإعتزال وتطلق على الرهبان الذين يعتزلون المجتمع وينهمكون بالعباده. ومن ألقاب الزهراء عليها السلام البتول لإنقطاعها إلى الله وأفضليتها على سائر النساء فى الفضل والعلم والمعرفه. وورد فى بعض الروايات أن التبتل هو رفع اليد بالدعا.
- ٤- ٤) «رهبان» جمع «راهب» من ماده «رهب» على وزن رحم بمعنى الخوف، الخوف مع ضبط النفس والرهبانيه تعنى شده العبوديه وترك الدنيا، وهى بدعه ابتدعها طائفه من النصارى، حيث يقاطع الفتى أو الفتاه الزواج ويقبع فى زاويه من الدير وينهمك بالعباده، وقد ورد النهى عنها فى الاسلام، فقد قال صلى الله عليه وآله: «لا رهبانيه فى الاسلام».
- ٥- ٥) نهج البلاغه، الخطبه ١٩٣. [١]

«وَتَاللَّهِ لَوْ أَنَّمَا تَتَّ قُلُوبُكُمْ أَنَّمِيَاثًا، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبِهِ إِلَيْهِ أَوْ رَهَبِهِ مِنْهُ دَمًا، ثُمَّ عَمَّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةً، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ - وَلَوْ لَمْ تُتَّبِقُوا شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعَمَهُ عَلَيْكُمْ الْعِظَامَ، وَهَدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلإِيمَانِ» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن عظمه النعم الإلهيه التي أفاضها الله على البشرية لإثاره حس الشكر لديه والتوجه إلى ربه بما يقوده إلى السمو والرفعه والكمال والقرب من الله. فقال عليه السلام: « وتالله لو إنماتت قلوبكم انميأثاً (1)، وسالت عيونكم من رغبه إليه ورهبه منه دمًا، ثم عمرتم في الدنيا، ما الدنيا باقيه، ما جزت أعمالكم عنكم - ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم - أنعمه عليكم العظام، وهدها إياكم للإيمان» فقد شرح الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغه أقصى جهود الإنسان كما وكيفاً في طاعه الله، فمن ناحيه الكيفيه أنه لو ذاب في طاعه الله واصطرخت كافة ذرات جسمه وحلقت روحه في سماء العبوديه، ومن الناحيه الكمييه لو دام هذا العمل طيله حياه ابن آدم، فمع ذلك لايسعه أن يؤدي حق شكر النعم الإلهيه، بل شكر نعمه واحده، حيث صرحت بعض الروايات بان ذات الشكر نعمه ينبغى للإنسان الشكر عليها. وما أروع ما قال الشاعر:

ص: ٣٧٩

١- ١) «انميأث» من ماده «موث» على وزن موت بمعنى الذوبان، وانميأث من باب الانفعال، ويعنى فى العبارهبذل قصارى الجهد فى سبيل الله.

شكر الاله نعمته موجه لشكره وكيف شكرى بره وشكره من بره (١).

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أشار بتلك العبارة إلى عدم محدودية النعم الإلهية. وهو كالتعبير القرآني في الآية ٢٧ من سوره لقمان بشأن علم الله: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ». نعم ليس للعبء سوى الاعراب عن ضعفه وعجزه أمام النعم الإلهية. الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام يؤكد على نعمه الإيمان «وهده إِيَّاكُمْ للإيمان» من قبيل ذكر الخاص بعد العام. فقد أشار في العبارة السابقة إلى الأنعم الإلهية ثم خص هنا منها نعمه الإيمان على غرار ما جاء في القرآن الكريم: «يَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ» (٢). ولا- تتأتى أهميه الإيمان من كونها مفتاح سعادته البشر وجواز سفره إلى الجنّة فحسب، بل لأنها الدافع لكافة الفضائل والأعمال الصالحة والرادع من الرذائل والأعمال السيئه، فالواقع هي أساس الدين والملفت للنظر في العبارة أنّه عليه السلام نسب الهدايه لله، وان حصل عليها الإنسان باختياره وإرادته؛ وذلك لتعذرهما على الإنسان بمفرده ما لم تشمله العناية الإلهية ويرشده الأنبياء والأولياء والكتب الإلهية إليها، ومن هنا نسأل الله في صلواتنا اليوميه ليل نهار الهدايه.

ويبدو من الأهميه في نهايه الخطبه الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن القسم الأول لها بعد المقدمه حيث يعد القلوب من خلال تنبيهها إلى تقلب أحوال الدنيا وزوالها، بينما يوجهها في القسم الثاني والثالث إلى طاعه الله وكسب الفضائل ودفع الرذائل. مع هذا الفارق في تأكيد القسم الثاني على أهميه القرب من الله ومطلوبيه كل سعى وجهد للوصول إلى هذا الهدف، أما القسم الثالث فيرد ساحه القدس الربوبي صاحب الفضل عن طريق مسأله شكر المنعم، فالوجدان هو الذي يشهد بضروره هذا الشكر.

ج ج

ص: ٣٨٠

١- ١) بيت الشعر إقتباس من حديث عن الإمام السجاد والصادق عليهما السلام، بحار الانوار، ١٣ / ٣٥١ المناجاه الخمسه عشر
مناجاه الشاكرين.

٢- ٢) سوره الحجرات / ١٧. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

«في ذكرى يوم النحر وصفه الأضحيه»

«وَمِنْ تَمَامِ الْأُضْحِيَّةِ اسْتَشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلَامُهُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الْأُضْحِيَّةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى الْمُنْسَكِ».

الشرح والتفسير

تمام الأضحيه

أشار الإمام عليه السلام في هذا الفصل من الخطبه إلى تفاصيل وجزئيات الأضحيه، وقال: «ومن تمام الأضحيه (٢) استشراف (٣) أذنها وسلامه عينها، فاذا سلمت الاذان والعين سلمت

ص: ٣٨١

١-١) سند الخطبه: ورد في كتاب مصادر نهج البلاغه أن هذه ليست خطبه مستقلة (بل هي جزء من الخطبه السابقه التي خطبها في الأضحى) ومن هنا عدتها نسخه ابن أبي الحديد التي تعتبر النسخ جزءاً من الخطبه السابقه، اما أنها وردت مستقلة في سائر النسخ فهذا من خطأ الرواه، والشاهد على ذلك أنها وردت جزءاً من الخطبه في كتاب من لا يحضره الفقيه (١ / ٤٦١) ومصباح المتهدد / ٤٢٩. [١] جدير ذكره أن العبارة التي وردت في كتاب من لا يحضره الفقيه بعد «تجر رجلها إلى المنسك» «فلا تجزى» الذي يغير العبارة تماماً. ولا يبدو ذلك مستبعداً، وان درجنا على السير في نهج البلاغه [٢] حسب تصنيف صبحي الصالح. مصادر نهج البلاغه، ٢ / ٢٣. [٣]

٢-٢) «الأضحيه»: الشاه التي طلب الشارع ذبحها بعد شروق الشمس من عيد الأضحى.

٣-٣) «استشراف» من ماده «شرف» بمعنى علو المقام، والمراد باستشراف الاذان تفقدها حتى لا تكون مجدوعه أو مشقوقه غير سالمه.

الأضحيه وتمت» ثم أضاف عليه السلام: «ولو كانت عضباء (١) القرن تجر رجلها إلى المنسك» ولا- يتتافى هذا الكلام مع ما تعارف بين الفقهاء وما ورد في سائر روايات المعصومين عليهم السلام من أنّ الأضحيه يجب أن تكون سالمه الرأس، لأنّ عضب قرنها الداخلى يضر بسلامتها لا قرنها الخارجى، كما لا يضر العرج البسيط الذى لا يعيقها عن الحركه. وجاء فى بعض النسخ قوله: «فلا تجزى» بعد العبارة «تجر رجلها إلى المنسك» وعليه يصبح مفهوم العبارة عدم أجزاء الأضحيه إن كسر قرنها وكانت تجر رجلها على الأرض (٢). قال السيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبه: «والمنسك هاهنا المذبح».

عليه سلامه الأضحيه من النقص والعيب

رغم أنّ الهدف من الضحيه هو إستفاده بعض المحتاجين منها كما صرح بذلك القرآن الكريم: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٣) ومن المسلم به عدم وجود أى تأثير على هذا المعنى سواء كان قرنها سالمًا أم لا، ولكن الأضحيه شعيره إسلاميه وعباده، ولا- يليق بالساحه القدسيه للربّ سبحانه إختيار الشاه المعيبه والمريضه، ولا بدّ من تقديم الخالصه فإنّ ذلك نوع من الادب والاحترام؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى صلاه المرأه بكامل الحجاب، وارتداء الثياب النظيفه حين الصلاه، والتعطر عند العباده وغسل الميت وتكفينه وتحنيطه وما إلى ذلك من الأمور.

ص: ٣٨٢

١- ١) «عضباء» من ماده «عضب» على وزن عزم بمعنى القطع أو الكسر، وعضباء القرن بمعنى مكسوره القرن، كما يطلق على الناقه إذا شقوا اذنها ناقه عضباء.

٢- ٢) وردت العبارة «فلا تجزى» فى كتاب من لا يحضره الفقيه ١ / ١٦٨ باب صلاه العيدين، ح ١٤٨٧.

٣- ٣) سورة الحج / ٣٦. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام.

نظره إلى الخطبة

هناك خلاف بين الشراح بشأن زمان الخطبة، فقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغه أنّ جماعه سألوا الإمام عليه السلام عن رأيه بمن سبقوه بالخلافه لما غلب عمرو بن العاص على مصر وقتل عامل الإمام عليه السلام عليها محمد بن أبي بكر. فأجابهم عليه السلام وهل خمدت فتنة ابن العاص لتسألوا هذا السؤال وقد غلبكم على مصر وقتلوا صحبي، ثم قال: سأكتب كتاباً وأجيب على أسئلتكم. بينما ذهب البعض إلى أن بدايه الخطبه مرتبط بزمان البيعه وذيلها بواقعه صفين. كما احتمل أن تكون في البيعه وموقعه الجمل إلّا أنّ كل هذه الاحتمالات بعيدة، والظاهر أنّ الخطبه وارده بشأن صفين حين هم صحبه بالقتال، ويؤيد ذلك ما أورده المرحوم البحراني والشارح الخوئي من أنّها ناظره إلى حال أصحاب الإمام عليه السلام في صفين حين منعهم من قتال أهل الشام. (٢) وزبده الكلام فإنّ الإمام عليه السلام قال لما استبطأ أصحابه القتال: «وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى

ص: ٣٨٣

١-١) سند الخطبة: يرى صاحب مصادر نهج البلاغه أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة ٢٦ و ٣٠ و ٥٤ و ٧٨، خطبها عليه السلام في بيته بحضور الناس ليدونوها وينقلوها إلى الآخرين. وقال في ذيل الخطبة ٢٦ رواها قبل السيد الرضى (ره) الثقفى في الغارات والطبرى في المسترشد والمرحوم الكليني في الرسائل نقلاً عن كشف المحججه للسيد ابن طاووس وابن قتيبه في الإمامه والسياسه (مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٩٠).

٢-٢) منهاج البراعه ٤ / ٣٢٦؛ شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحراني ٢ / ١٤٤. [١]

منعنى النوم، فما وجدتنى يسعنى إلقائهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله، فكانت معالجه القتال أهون على من معالجه العقاب، وموتات الدنيا أهون على من موتات الآخرة» .

ص: ٣٨٤

«فَتَدَاكُوا عَلَيَّ تَدَاكُ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا وَقَدْ أُرْسِلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِي أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلْبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنُهُ وَظَهْرُهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَحَدَّثَنِي يَسِّرَعْنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ وَمَوَاتَاتِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوَاتَاتِ الْآخِرَةِ» .

الشرح والتفسير

ليس هنالك سوى القتال

بغض النظر عن كون الخطبه بشأن بيعه الناس للإمام عليه السلام أو المسائل المرتبطه بصفين، فإنه استهلها عليه السلام بعدم انطلاقه نحو الناس بل الناس هم الذين إندفعوا إليّ: «فتداكوا (١) عليّ تداك الابل إهيم (٢) يوم وردها (٣) وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثنائها» (٤).

ثم أضاف عليه السلام: «حتى ظننت أنهم قاتلي أو بعضهم قاتل بعض لذي» تتضمن هذه العبارة عدّه أمور:

ص: ٣٨٥

- ١- ١) «تداكوا» من ماده «دك» على وزن فكك، قال الراغب في المفردات أنها تعنى الأرض المستويه الرخوه، بينما صرحت سائر كتب اللغه بعكس ذلك وان الدك يعنى الضرب. ومعنى العبارة فى الخطبه أنهم تراحموا عليه لبياعوه رغبه فيه.
- ٢- ٢) «هيم» جمع «أهيم» و «هيماء» صفة مشبهه بمعنى شده العطش التى تجعل الحيوان أو الإنسان يروح ويجيئ، ويقال الهيمان للعاشق. والهيم العطاش من الابل.
- ٣- ٣) «ورد» اسم مصدر بمعنى الورد، وقيل مصدر كتأكيد لمعنى الفاعليه، وتعنى الجمع أيضاً. يوم وردها يوم سشربها للماء.
- ٤- ٤) «مثنى» جمع مثناه بالفتح ومثناه بالكسر وهو حبل من صوف أو شعر يعقل به البعير. وهى فى الأصل من ماده ثنى بمعنى التكرار واعاده جزء من الشى إلى الآخر.

١ - كيفية هجوم الناس عليه من أجل البيعه أو حين الاصرار على شروع موقعه صفيين إنما تفيد تغير الناس آنذاك، وهنا لابد من الالتفات إلى أن معنى المفردة تداكوا هو الضرب وقد أشارت في العبارة إلى شدة عطش الابل التي تضرب بعضها بعضاً لتبلغ أسرع من غيرها الماء، والهيم شدة العطش التي تجعل الإنسان أو الحيوان مضطرباً. فلو تركت هذه الابل العطاش لحالها دون الراعى فما عساها تفعل. أجل هكذا كانت حال الناس في تلك اللحظات الحساسة حتى كان يخشى عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً. نعم هذا هو حال الناس حين يعشقون شيئاً ويعبرون عنه بعواطفهم، إلا أنه من المؤسف أن هؤلاء الناس سرعان ما يتخلون عن موقفهم إذا واجهتهم بعض المصاعب.

٢ - يمكن أن تكون حاله إندفاعهم نابعه من عدم عمق مشاعرهم وقلة علمهم ومعرفتهم.

٣ - تشتمل هذه العبارات على بعض الكنايات التي تفيد صعوبه السيطرة عليهم حين تأخذهم الحرارة والحماس، كما يصعب إثارتهم حين تلفهم البروده والانتكاس.

ثم قال عليه السلام: «وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعى النوم فما وجدتنى يسعنى إلما قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله فكانت معالجه القتال أهون على من معالجه العقاب وموتات الدنيا أهون على من موتات الآخرة» .

فتفيد هذه العبارات:

أولاً: أن الإمام عليه السلام لا يرضخ لضغوط الناس، فلا يتخذ القرار حتى يدرس جميع جوانب الموضوع، وهذا ما ينبغى أن تكون عليه سياسه الزعماء الربانيين بعيده عن العواطف والأحاسيس مستنده إلى مصالح لأمه الواقعيه.

ثانياً: عاده ما يصل الإنسان في حياته الفرديه أو القاده في حياتهم الاجتماعيه إلى مفترق طرق، فلا بد هنا من الشجاعه والاقدام على إنتخاب الاصلح، فان كان القتال هو الأصلح لا ينبغى للدعه والراحه أن تحول دون خوضه بحجه حفظ دماء المسلمين دون الإكتراث إلى المصالح العليا.

ثالثاً: المهم بالنسبه للإمام عليه السلام رضى الله وإداء التكليف ومن هنا أثر رضى الله سواءً تضمن رضى الناس أم لا.

رابعاً: واضح أنّ قتال الإمام عليه السلام كان قتال الإيمان للكفر والإسلام للجاهلية. بناءً على ما تقدم فقد كان عليه السلام يرى رضى الله قبل الاستجابة لرغبات الناس، وبالطبع قد يمكن الجمع بين الاثنين إذا كانت رغبات الأمة وتطلعاتها مشروعته تهدف نشر القيم والمبادئ السماوية.

تأملان

١ - البيعة الفريده للإمام عليه السلام

تفيد خطب نهج البلاغه الوارده بهذا الشأن، أنّ البيعه كانت من الحوادث العجيبه التى شهدتها خلافه الإمام عليه السلام بحيث خرجت عن المتعارف فى البيعات العاديه، وقد بلغ الزحام درجه كان يخشى معها وقوع البعض وانحساره بين تلك الجماعات العظيمه. وهنا يطرح هذا السؤال: ما سبب ذلك الهجوم العظيم على الإمام عليه السلام من أجل البيعه؟ يبدو أنّ غضب الناس بلغ ذروته إبان من سبق الإمام عليه السلام من الخلفاء ولا سيما على عهد الخليفه الثالث الذى شهد غياب العدل وضياع القيم والمثل والتداول على بيت المال والاساءه إلى الشخصيات الإسلاميه وتسليط عصابه من البطانه على رقاب الناس، بحيث لم يكن أمام الناس سوى اللجوء إلى ذلك الفرد العادل الذى من شأنه اعاده الإسلام إلى مسيرته الأصلية. نعم كانوا متعطشين للعداله، للإسلام الأصيل والمعارف القرآنيه الحقه الخاليه من الخرافات والأساطير؛ الأمور التى جمعت فى أمير المؤمنين على عليه السلام، فما حيله العطشان إذا رأى الماء الزلال سوى الهجوم عليه والتزود منه، فالهجوم المذكور يفيد عظمه مقام الإمام عليه السلام من جانب ومدى إستياء الناس من الاوضاع السابقه من جانب آخر، والأمران يحتاجان إلى ابحاث تاريخيه مسهبه. (١)

٢ - الحرب والسلام، والكفر والإيمان

رأينا فى آخر الخطبه أنّ الإمام عليه السلام وقف أمام سبيلين لا ثالث لهما؛ إما الحرب أو الكفر بما جاء به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وما ذاك إلّا أنّ الحرب ورغم ما يكتنفها من خراب ودمار وويلات،

ص: ٣٨٧

(١-١) من أراد المزيد يمكنه مراجعه الخطبه الشقشقيه.

غير أنها قد تكون السبيل الوحيد لمجابهة الظلم والاضطهاد وعدم العدل كما تشكل الوسيله الناجعه لاستئصال جذور الفساد والانحراف ومن هنا كانت إحدى غايات القتال، كما صرح بذلك القرآن القضاء على الفتنه واخلاد نيرانها واعاده الأمور إلى مجاريها الطبيعيه «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» (١) وقال «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَيْثُ تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللّٰهِ» (٢) وهنا يغلق أولياء الله أبواب الراحه والدعه ويهبوا لخوض القتال وتحمل عنائه وشدائده، ولا عجب فالتضحيه بحطام الدنيا لا يؤثر على سعادته الاخرى.

ص: ٣٨٨

١-١) سورة الانفال / ٣٩. [١]

٢-٢) سورة الحجرات / ٩. [٢]

ومن كلام له عليه السلام

وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

نظره إلى الخطبة

يبدو من تناسب مضمون هذه الخطبة مع الخطبة السابقة أنها خطبه واحده، أو خطبتان وردتا في زمان متقارب قال ابن أبي الحديد في ذيل هذه الخطبة: لما ملك أمير المؤمنين علي عليه السلام الماء بصفين ثم سَمَحَ لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يطفوا إليه، واستماله لقلوبهم وإظهارا للعدالة وحسن السير فيهم، مكث أياماً لا يُرسل إلى معاوية، ولا يأتيه من عند معاوية أحد، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم في القتال، وقالوا: يا أمير المؤمنين، خَلَفْنَا ذراريْنَا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لتتخذها وطناً، ائذن لنا في القتال، فإن الناس قد قالوا. قال لهم عليه السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إن الناس يظنون أنك تكره الحرب كراهية للموت، وإن من الناس من يظن أنك في شك من قتال أهل الشام. فقال عليه السلام: ومَتَى كنتُ كارها للحرب قط! إن من العجب حُبِّي لها غلاماً وَيَفْعاً، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاذ العمر وقرب الوقت! وأما شكِّي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل

ص: ٣٨٩

١ - ١) سند الخطبة: لم يشر صاحب مصادر نهج البلاغه إلى سند خاص لهذه الخطبة، إلا أن لابن أبي الحديد فصل ذيل هذه الخطبة تحت عنوان من أخبار يوم صفين يفيد أن ما أورده هنا السيد الرضى (ره) بمعنى آخر ينسجم وما جاء في التواريخ. شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٤ / ١٣. [١]

البصره، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعني إلّا القتال أو أن أعصى الله ورسوله، ولكنني أستأني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي يوم خيبر: «لأنّ يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس» .

ص: ٣٩٠

«أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكَلْتُ ذَلِكَ كِرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي، دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجْتُ إِلَى الْمَوْتِ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكَّا فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعُشُوا إِلَيَّ صَوْنِي، وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَيَّ ضَالًّا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا» .

الشرح والتفسير

تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال

كما ذكرنا فإنَّ الخطبه جواباً لأصحابه عليه السلام الذين استبطنوا إذنه لهم بالقتال في صيفين، فقد قال عليه السلام «أما قولكم: أكل (1) ذلك كراهيه الموت؟ فوالله ما أبالي، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي». نعم إذا كان هنالك هدفا مقدساً كرضى الله فإنَّ الفرد المؤمن لا بد أن يسارع إلى الشهاده ولا ينتظرها، فما أسمى أن يهب الإنسان نفسه ويضحى بها من أجل معشوقه ومعبوده. أضف إلى ذلك فسابقه الإمام عليه السلام في الغزوات الإسلاميه لأشهر من نار على علم وليست بخافيه على أحد ولا سيما صولاته في بدر وأحد والأحزاب وخيبر وحنين وذوده عن رسول الله صلى الله عليه وآله واستماتته من أجل نيل الشهاده، فكيف وهذا الحال يمكن توجيه هذه التهمه الباطله لهذا الإنسان بتأخير القتال خوف الشهاده. وقد تحدث الإمام عليه السلام عن مثل هذا المعنى في الخطبه الخامسه والخطبه منه وثلاث وعشرين حيث قال: «والله لابن أبي طالب آنس

ص: ٣٩١

١ - ١) هنالك احتمال بشأن إعراب هذه الجملة: أحدهما أن كل منصوبه على أنها مفعول لفعل تقديره «أنفعل كل ذلك»، والآخر انها مرفوعه كمبتدأ وتقدير الجملة «أكل ذلك ناشئ من كراهيه الموت». على كل حال فإنَّ الجملة «كراهيه المت» مفعول لأجله.

بالموت من الطفل بشدى أمه» وقال: «والذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربه بالسيف أهون على من ميته على الفراش فى غير طاعه الله» .

وتشهد سيره الإمام عليه السلام أنه مارس هذا المعنى عملياً فى حياته وما أجهل تلك الجماعة من جيش أهل العراق التى وجهت مثل تلك التهمة للإمام عليه السلام وخشيته من الشهاده فى سبيل الله. قد يقال أن أولئك لم يكونوا أدركوا اولى الغزوات الإسلاميه. فنقول فهل يسعهم نسيان موقعه الجمل؟ الموقعه التى كان ينقض فيها الإمام عليه السلام كالليث الضارى على جنود الأعداء فيمزق جموعهم وينزل حمم غضبه على رؤوسهم. بل كيف يمكن إتهامه وهو الذى يمثل الإيمان كله فى مقابل الشرك كله، أوليس هو القائل: «لقد كنت وما اهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وإنى لعلى يقين من ربى وغير شبهه من دينى» . وقوله عليه السلام: «فو الله ما أبالى» إشاره إلى هذه الحقيقه وهى أن الأفراد العاديين ممن لا هدف لهم، هم الذين يخشون الاتجاه نحو الموت، بل ينتظرون قدوم الموت إليهم آخر عمرهم؛ بينما ليس هنالك من فارق بين الخروج إلى الموت أو قدوم الموت حسب الأجل المقدر بالنسبه لأهل الإيمان والورع والتقوى ولعل الموت يمكن تشبيهه هنا بالاسد المفترس، فالفرد العادى لا يتجه إليه أبداً، أما الشجاع فيقدم على مواجهته دون أن يشعر بخوف أو هلع، فالمؤمن الشجاع حين يرى فى الموت الشهاده فى سبيل الله ونيل رضوانه يستقبله بكل رحابه صدر، فلو قدر لهذا الموت أن يسلبهم ما تبقى من عمرهم، فأنهم سيستبدلون بذلك الخلود والبقاء. ثم تناول الإمام عليه السلام الاحتمال الثانى الذى أوردته تلك الجماعة بشأن تأخير القتال فقال: «وأما قولكم شكاً فى أهل الشام فو الله ما دفعت الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفه فتهتدى بى، وتعشوا (١) إلى ضوئى» ثم برر ذلك بقوله عليه السلام «وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء (٢) بآثامها» . فالإمام عليه السلام يؤكد هنا على أن القتال لا يمثل هدفاً ولا السبيل الأول لحل الخصومات من وجهه نظر أولياء الله، بل هو العلاج الأخير إذا ما عجزت كل السبل والاساليب، فهم يسعون جاهدين للتريث

ص: ٣٩٢

١- ١) «تعشوا» فى الأصل من ماده «عشو» على وزن ضرب بمعنى الظلمه وعدم وضوح الشىء ومنه صلاهاالعشاء لأنها أول الظلمه وعشى بمعنى آخر اليوم الذى يظلم فيه الجو تدريجياً ويقال الأعشى لضعيف البصر.

٢- ٢) «تبوء» من ماده «بوء» على وزن نوع بمعنى الرجوع والعوده وقيل أصلها يعنى الصافى والمسطح وارىد بها هنا الرجوع.

والاناه أماً في رجوع ولو فرد واحد إلى الحق فيزداد أهل الحق ويقل أهل الباطل، بينما ينظر السذج من الناس إلى هذا الأمر بنوع من الشك والريبه، فإنّ أولياء الله يفتحون ذراعهم باستقبال النادمين والتائبين وقد أثبت التاريخ - ولا سيما موقعه صفين - صحه حسن ظن الإمام عليه السلام، وذلك لأنّ فئه كبيره قد فاءت إلى الحق بينما انسحبت طائفه من المعركه وذلك بفضل تراث الإمام عليه السلام واناته في القتال.

ص: ٣٩٣

ومن كلام له عليه السلام

يصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح

نظره إلى الخطبه

هناك رأيان بشأن زمان الخطبه: فالبعض يعتقد أنه ورد بشأن فتنه ابن الحضرمي بعد أن استشهد محمد بن أبي بكر على يد عمرو بن العاص فقد البصره من قبل معاويه ليخرجها من حكمه الإمام على عليه السلام حيث استولى عليها بمعونه جماعه من المنافقين. فلما بلغ الإمام عليه السلام ذلك من قبل ابن عباس يعزیه بمحمد بن أبي بكر خطب الخطبه، ثم بعث بجاريه ابن قلامه السعدى المعروف بشجاعته فحاصر ابن الحضرمي مع سبعين من صحبه وقضى عليهم جمعياً. والرأى الآخر أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى صفين، حين اقترح على الإمام عليه السلام الصلح وقد ضغطوا على الإمام عليه السلام لقبوله. على كل حال فإن الإمام عليه السلام خطب الناس لا متثال أوامره، ثم تطرق لا خلاص المسلمين فى صدر الإسلام وأنّ سبب النصر يكمن فى الانضباط والتسليم لأوامر النبى صلى الله عليه وآله، فى إشاره إلى النصر سيكون حليفهم لو إستتوا بهذه السنه وطاعوا الأوامر، وألا ليس إمامهم سوى الفشل والهزيمة إذا عاشوا الفرقة والتشتت وعدم طاعه الاوامر.

ج ج

ص: ٣٩٥

١ - ١) سند الخطبه: نقل ابن أبى الحديد هذا الكلام عن الواقدى ابن هلال قبل المرحوم السيد الرضى (ره) ورواها الزمخشري فى ربيع الأبرار فى الجزء الرابع من باب القتل والشهادة. وأضاف صاحب مصادر نهج البلاغه بعد ما اورد هذا الكلام انه من كلامه المعروف فى مصادر العلماء السابقين وبعد السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه ٢ / ٢٩) .

«وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلْمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ؛ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسُدِّي صَاحِبَهُ كَأَسِّ الْمُنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عِيدُونَا وَمَرَّةً لِعِيدُونَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ وَمُتَّبِعًا أَوْطَانَهُ. وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُمُودٌ. وَإِيْمَ اللَّهُ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا، وَلَتَتَّبِعَنَّهَا نَدْمًا!»

الشرح والتفسير

الوقوف المشرف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله

أشار ابن ميثم البحراني في شرحه إلى بعض الخطبه الذي لم يرد في كلام السيد الرضى (ره) والذي له تأثير على فهم مضمون هذه الخطبه، فقال: روى البعض أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين أراد الناس الصلح مع جيش معاويه (بينما كان الإمام عليه السلام مخالف ذلك ولو لا اصرار البعض منهم لما وافق) فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «إن هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحق ولا- ليجيبوا إلى كلمه سواء حتى يرموا بالمناشر تتبعها العساكر، وحتى يرجموا بالكتاب تقفوها الجلائب، وحتى يجر ببلاده الخميس يتلوه الخميس، وحتى تدعق الخيول فى نواحي أراضيهم، وبأعناء مشاربهم ومسارحهم، حتى تشن عليهم الغارات من كل فج عميق، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر، ولا يزيدهم هلاك من هلك من

ص: ٣٩٧

قتلاهم وموتاهم فى سبيل الله إلا جذا فى طاعه الله وحرصاً على لقاء الله. ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله الفصل»
 (١)وعليه فإنّ مصالحه هؤلاء القوم الجفاه لا تنطوى سوى على الاحباط والفشل، وذلك لأنهم لا يفهون منطق الصلح ولا يمكنهم التعايش مع الآخرين بسلام ولا يدركون سوى منطق القوه، وهذا ما كشفت عنه أحداث صفين. على كل حال واصل الإمام عليه السلام خطبته ليتحدث عن مقومات النصر وعوامل الفشل والهزيمه فقال عليه السلام: «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وابناءنا واخوننا واعماننا» فى إشاره إلى ضروره عدم الالتفات إلى قرابه كائن من كان إذا وقف كعقبه أمام المسيره، الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»
 (٢)ثم قال عليه السلام: «ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم» (٣)وصبراً على مضمض (٤)الالم وجدا على جهاد العدو» فما أشار إليه الإمام عليه السلام بهذه العبارة إنما يمثل واقعه تأريخيه، فقد مثل أمام المسلمين فى أغلب المعارك ولا سيما معركة بدر قرابتهم وعشيرتهم، فما كان من المسلمين إلا أن قاتلوهم بكل بساله دون أن يكثرثوا لتلك القرابه رغم احترام العرب المنقطع النظير للروابط القبليه. ثم قال عليه السلام: «ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان (٥)تصاول الفحلين يتخالسان (٦)أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون، فمره لنا من عدونا ومره لعدونا منا» فى إشاره إلى أنه ليس من الضروري أن ينتصر الحق على الباطل فى كافه المعارك وطيله المجابهه، فقد يتغلب الباطل على الحق أحياناً إلا أن الحق وعلى ضوء الوعد الإلهى منتصر فى خاتمه المطاف - وعليه فلا تتوقعوا عدم بروز المشاكل خلال مجابهه أهل الشام، كما أن هذه المشاكل لا ينبغى أن تقود إلى

ص: ٣٩٨

١-١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٢ / ١٤٦.

٢-٢) سورة التوبه / ٢٤. [١]

٣-٣) «لقم»: قال بعض أرباب اللغه وشرّاح نهج البلاغه تعنى معظم الطريق أو جادته، واصلها من اللقم على وزن العفو بمعنى السرعه فى الأكل.

٤-٤) «مضمض» على وزن «مرض» بمعنى تجذر الهم فى القلب مع الحرقة.

٥-٥) التصاول من صول على وزن قول أن يحمل كل واحد من الندين على الآخر.

٦-٦) «تخالس» من ماده «خلس» على وزن درس كل واحد منها يطلب اختلاس روح الآخر.

التمرد على أوامر الإمام عليه السلام، ما سيره النبي صلى الله عليه وآله وصحبه إلهادليل واضح على هذا الأمر، ومن هنا قال عليه السلام: «فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت (١) وأنزل علينا النصر، حتى إستقر الإسلام ملقياً جرانه (٢) ومتوثاً أوطانه» فالإمام عليه السلام أشار هنا إلى العامل الرئيسي لانتصار المسلمين الأوائل ويلوح إلى عناصر فشل أهل الكوفة، فقد نسب العامل الرئيسي للانتصار إلى صدق النبي التي تمثل الدافع الأصلي للصمود والمقاومة أمام العدو والطاعة التامة للزعامة الربانية. ولو تلوثت هذا النبي وسيطرت الأنانية على الإنسان، آنذاك ستكون إرادته وقراره مستنداً لاهوائه وطيشه وغروره؛ الأمر الذي يقود إلى الهزيمة والفشل. ومن الطبيعي ألا تشمل عنايات الله وألطفه ونصره مثل هؤلاء الأفراد، ثم خالص الإمام عليه السلام لهذه النتيجة: «ولعمري لو كنا نأتى ما أتيتم، ما قام للدين عمود ولا إخضر للإيمان عود» فهل تعلمون من قوم فى أى عصر ومصر إنتصروا ويفرقتهم واختلافاتهم، فإذا رجعت قليلاً إلى الورا لرايتم أن النصر الخاطف الذى حققه رسول الله صلى الله عليه وآله خلال تلك المده القصيره حتى ترسخت دعائم الدين واتسع نطاق الإسلام ليشع بنوره على ظلمات الشرق والغرب فإن ذلك كان بفضل الإيمان والطاعة والجهاد، بينما تمارسون الآن عكس ذلك وتحلمون بالنصر. وأخيراً يحذرهم عليه السلام بالقول: «وأيم الله لتحتلبنها دمًا، ولتتبعنها ندمًا» .

فقد تضمنت العبارات الاخيره للإمام عليه السلام ثلاثه تشبيهات: الأول: تشبيه الإسلام بالخيمه واعمدته الجهاد. حيث نعلم بأن الخيمه موضع الأمن والراحه من الحراره المحرقه والبروده القارسه، الإسلام هو الآخر موضع أمن البشرىه ووسيله نجاتها من العواصف القاتله. الثانى: تشبيه الإيمان بالشجره التى إخضرت غصونها بدماء المؤمنين فى صدر الإسلام. والثالث: تشبيه الحكومه بالناقه التى تحتلب الدم بدلاً من اللبن بسبب تعفن ضرعها أو العبث والإفراط فى إحتلابها، أى أنها، أعطت نتيجه معكوسه، فاللبن من أفضل طعام الإنسان ومواده الغذائيه، أما الدم فهو ليس بغذاء، بل ماده سامه مفسده. وأخيراً فقد تحققت نبوءات الإمام عليه السلام بشأن تلك الطائفه الطاغيه، حيث تسلط عليهم الظلمه الذين ساموهم سوء العذاب.

ص: ٣٩٩

١- ١) «كبت» على وزن ثبت بمعنى الاذلال.

٢- ٢) جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره، القاء الجران كناية عن التمكن، فالعبارة كناية عن إتساع رقعهالإسلام ونصر المسلمين واستقرار الإسلام فى مختلف بقاع العالم.

١ - ثانی فنن البصره

كانت البصره أحد المراكز الإسلاميه المهمه والبوابه إلى العالم الخارجى ومن هنا كانت السيطرة عليها قضيه مهمه. ولذلك كان يسعى معاويه للسيطره عليها كما ورد فى ورود الخطبه. ويرى البعض أن الإمام عليه السلام خطبها لإخماد فتنه أخرى فى البصره. فقد طمع معاويه بالبصره بعد قتل عامل على عليه السلام فيها محمد بن أبى بكر، فكتب كتابا إلى أنصاره فى البصره وذكرهم الوقعه التى أهلكتهم وقد إنتخب «ابن الحضرمى» واليا على البصره فحث الناس للقيام على خليفه عامل الإمام عليه السلام عليها «زياد بن عبيد» فاستجاب له البعض ومنهم الخوارج فسيطروا على أجزاء من البصره وقتلوا سفير الإمام عليه السلام «أعين بن صبيعه» فلما بلغ ذلك الإمام عليه السلام بعث بجاريه بن قدامه إلى البصره ليقرا عليهم كتاب الإمام عليه السلام.

سلام عليكم: أميا بعد فإنّ الله حليم ذو أناه، لا يعجل بالعقوبه قبل البيئه، ولا يأخذ المذنب عند أول وهله، ولكنه يقبل التوبه، ويستديم الأناه، ويرضى بالإنايه؛ ليكون أعظم للحجه، وأبلغ فى المعذره، وقد كان من شقاق جلكم أيها الناس ما استحققتم أن تعاقبوا عليه، فعفوت عن مجرمكم، ورفع السيف عن مديركم، وقبلت من مقبلكم، وأخذت بيعتكم، فإن توفوا ببيعتى، وتقبلوا نصيحتى، وتستقيموا على طاعتى، أعمل فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق، وأقم فيكم سبيل الهدى، فوالله ما أعلم أن واليا بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلم بذلك منى، ولا أعمل بقولى. أقول قولى هذا صادقا، غير دام لمن مضى، ولا منتقضا لأعمالهم، وإن خبطت بكم الأهواء المرديه، وسفه الرأى الجائر إلى منابذتى، تريدون خلافى! فها أنا ذا قرت جيادى، وزحلت ركابى، وإيم الله لئن ألجأتمونى إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعه، لا يكون الجمل عندها إلا كلعقه لاعق، وإنى لظان ألا تجعلوا - إن شاء الله - على أنفسكم سيلا. وقد قدمت هذا الكتاب إليكم حجه عليكم، ولن أكتب إليكم من بعده كتابا، إن أنتم استغشتم نصيحتى، وناذتم رسولى، حتى أكون أنا الشاخص نحوكم، إن شاء الله تعالى. والسلام.

فلما قرأها عليهم تأثروا تأثرا شديدا، بينما واصل البعض منهم عناده، فواجهوا ابن

الحضرمي وهزموه، فلاد مع سبعين من صحبه بدار ولم يكن امام جاريه من سبيل سوى إحراق الدار فقتلوا فيها جميعا. (١)

ج ج

قال: وروى كعب بن قعين أن علياً عليه السلام كتب مع جاريه كتاباً، وقال: اقرأه علي أصحابك، قال: فمضينا معه، فلما دخلنا البصره، بدأ بزياد، فرحب به وأجلسه إلى جانبه، وناجاه ساعه وساءله، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أن قال: احذر علي نفسك، واتق أن تلقى ما تلقى صاحبك القادم قبلك.

وخرج جاريه من عنده، فقام في الأزد، فقال: جزاكم الله من حى خيراً! ما أعظم غناءكم، وأحسن بلاءكم، أطوعكم لأمركم! لقد عرفتم الحق إذ ضيعة من أنكره، ودعوتم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه. ثم قرأ عليهم على من كان معه من شيعه علي عليه السلام وغيرهم - كتاب علي عليه السلام، فإذا فيه:

من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابي هذا من ساكني البصره من المؤمنين والمسلمين:

قال: فلما قرئ الكتاب على الناس قام صبره بن شيمان، فقال: سمعنا وأطعنا ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب، ولمن سالم سلم؛ إن كفييت يا جاريه قومك بقومك فذاك، وإن أحببت أن ننصرك نصرناك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحد منهم أن يسير معه، ومضى نحو بني تميم.

فقام زياد في الأزد، فقال:

يا معشر الأزد، إن هؤلاء كانوا أمس سَلماً، فأصبحوا اليوم حرباً، إنكم كنتم حزباً فأصبحتم سلماً، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربة، ولا أقت فيكم إلا على الأمل، فما رضيتم أن أجرتموني، حتى نصبتم لي منبراً وسريراً، وجعلتم لي شرطاً وأعواناً، منادياً وجمعه،

ص: ٤٠١

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٤/٣٤ [١] باختصار شديد.

فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلا هذا الدرهم، لا أجيئه اليوم، فإن لم أجيئه اليوم أجيئه غداً إن شاء الله. وأعلموا أنّ حربكم اليوم معاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس عليّاً، وقد قدم عليكم جاريه بن قدامه، وإنما أرسله عليّ ليصدع أمر قومه، والله ما هو بالأمر المطاع، ولو أدرك أمله في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لكان لي تبعاً، وأنتم الهامه العظمى، والجزمره الحاميه، فقدّموه إلى قومه، فإضطر إلى نصركم فسيروا إليه، إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبره شيمان فقال: يا زياد، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل، رجوتُ ألا يقاتلوا عليّاً، وقد مضى الأمرُ با فيه. وهو يوم بيوم، أمر بأمر، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسيء، والتوبه مع الحق، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنه لدعونا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الأمور، ولكنها جماعه دماؤها حرام، وجرؤها قصاص، ونحن معك نحب ما أحببت.

فعجب زياد من كلامه، وقال: ما أظنُّ في الناس مثل هذا.

ثم قام صبره ابنه، فقال: إنا والله ما أصبنا بمصيبه في دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل، وانا لارجوا اليوم أن نُمحص ذلك بطاعه الله وطاعه أمير المؤمنين، وأمّا أنت يا زياد، فوالله ما أدركت أملك فينا، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك، ونحن رادوك إليها غداً إن شاء الله تعالى، فإذا فعلنا فلا يكن أحداً أولى بك منا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنا والله نخاف من حرب عليّ في الآخرة، مالا نخاف من حرب معاوية في الدنيا، فقدّم هواك وأخر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنقر الحمانى، فقال: أيها الأمير، إنك لو رضيت منا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سربنا إلى القوم إن شئت، وإيم الله مالقينا قوماً قط إلا اكتفينا بعفونا دون جهدنا؛ إلا ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأمرًا جاريه، فإنه كلم قومه فلم يجيئوه، وخرج إليه منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتمه أسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزد، يستصرخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه، فسارت الأزد بزياد، وخرج إليهم ابن الحضرمي، على خيله عبدالله بن خازم السلمى، فاقتتلوا ساعه، أقبل شريك بن الأعور الحارثي - وكان من شيعة عليّ عليه السلام، وصديقاً لجاريه بن

قدامه - فقال: ألا أقاتل معك عدوك؟ فقال: بلى؛ فما لبثت بنو تميم أن هزموهم واضطروهم إلى دار سننيل السعدى؛ فحصرُوا ابنَ الحضرمي وحُدُّوه، فأتى رجل من بنى تميم، ومعه عبدالله بن خازم السلمى، فجاءت أمى وهى سوداء جشيه اسمها عجلى، فنادتة، فأشرف عليها، فقالت: يا بُنى، انزل إلى، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قناعها، وسألته النزول فأبى، فقالت: والله لتنزلن أو لأتعرين، وأهوت بيدها إلى ثيابها، فلما رأى ذلك نزل، فذهبت به، وأحاط جاريه وزياى بالدار، وقال جاريه: على بالنار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق بالنار فى شىء؛ وهم قومك وأنت أعلم، فحرق جاريه الدار عليهم، فهلك ابن الحضرمي فى سبعين رجلاً؛ أحدهم عبدالرحمن بن عمير بن عثمان القرشى التيمى؛ وسُمي جاريه منذ ذلك اليم محرِّقاً؛ وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة؛ ومعه بيت المال، وقالت له: هل بقى علينا من جوارك شىء؟ قال: لا، قالوا: فيرئنا منه؟ فقال: نعم؛ فانصرفوا عنه. وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أما بعد، فإن جاريه بن قدامه العبد الصالح قدِم من عندك، فناهضَ جَمعَ ابن الحضرمي بمن نصره وأعانه من الأزد، ففضّه واضطره إلى دارٍ من دور البصره فى عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما، فقتل ابن الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق بالنار؛ ومنهم من ألقى عليه جدار؛ ومنهم من هُدم عليه البيت من أعلاه؛ ومنهم من قُتل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته.

٢ - خصائص المسلمين الأوائل

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه إلى خصائص مسلمي صدر الإسلام فى أنهم كانوا مطيعين لرسول الله صلى الله عليه و آله ولم يأبهاوا بابائهم و اخوانهم و ابناءهم فى ميادين القتال، فكانوا يصابونهم ليجرعوهم القتل من أجل تحقيق الاهداف الإسلاميه المقدسه. كانوا يتحلون بالاخلاص وصدق النيه؛ الأمر الذى جعل الله يؤيدهم بنصره و يفيض عليهم من لطفه وفضله حتى إنتشر الدين و اضاء نور الحق و اليقين فى أنحاء العالم. و الحق لو أن المسلمين الأوائل كانوا على

غرار أهل الكوفه لما تنفس الإسلام وتنهنه حتى فى مكه والمدينه، ولو كانت إرادتهم الفرديه هى الحاكمه وتمردوا على أوامر قيادتهم الربانيه لما اخضر عود شجره الإسلام ولانهارت أعمده خيمه الإيمان. وبالطبع فإنّ كثيراً من أولئك كانوا ممن أدرك عصر النبى صلى الله عليه و آله أو رأى أصحابه، إلّا أنّ إرادتهم ضعفت ووهنت إثر تلك الأحداث التى أعقبت رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله، ولا سيما على عهد الخليفه الثالث واقبال الناس على الدنيا والاعتزاز بزخارفها والخلود إلى الراحة والدعه بعد تنامى الأموال والثروات بفعل الفتوحات الإسلاميه، إلى جانب الدعايه الواسعه التى كان يمارسها المنافقون وأعداء الدين.

ومن كلام له عليه السلام

فى صفه رجل مذموم، ثم فى فضله هو عليه السلام

نظره إلى الخطبه

هناك أبحاث بين شراح نهج البلاغه بشأن المقصود بكلام الإمام عليه السلام إلّا أن المشهور أنّ المراد به معاويه. فقد ذكر ابن أبى الحديد فى شرحه: وكثير من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عنى زياداً، وكثيراً منهم يقول إنّّه عنى الحجاج أو المغيره، والأشبه عندى أنه عنى معاويه، لأنّه كان موصوفاً بالهم وكثره الأكل، وكان بطيناً، يقعد بطنه إذا جلس على فخذه. (٢)

وروى أبو عثمان الجاحظ فى كتاب السفينيه أنّ أباذر قال لمعاويه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا ولى الأّمه الاعمين الواسع البلعوم الذى يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأّمه حذرهما منه»، كما أورد عدّه روايات من المصادر المعروفة من قبيل تأريخ الطبرى وتأريخ الخطيب وكتاب صفين عن أبى سعيد الخدرى وعبدالله بن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا رأيتم معاويه على منبرى فاقتلوه، أو فاضربوا عنقه» (٣) فالعبارات الوارده فى الروايه والتي تشبهه

ص: ٤٠٥

١-١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه لقد روى هذا الكلام عن أمير المؤمنين عليه السلام كراراً من المحدثين قبل السيد الرضى (ره). وروى إبراهيم الثقفى فى كتاب الغارات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام عليه السلام صعد منبر الكوفه فقال: «سيعرض عليكم سبى...». كما روى هذا الكلام الكلينى فى الكافى والبلاذرى فى أنساب الاشراف والحاكم فى المستدرک وشيخ الطائفه الطوسى فى الامالى (مصادر نهج البلاغه ٢ / ٣٣).

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٤ / ٥٤. [١]

٣-٣) مصادر نهج البلاغه، [٢] ذيل الخطبه.

عبارات الخطبه تفيد أنها بشأن معاويه. والشاهد الآخر موضوع السب الذى ورد آخر الخطبه، حيث نعلم جميعاً بان معاويه كان يحرض الناس على سب أمير المؤمنين عليه السلام من على المنابر، فهل من داع للتحري عن فرد آخر وردت بشأنه الخطبه سوى التعصب والعناد؟! على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام تحدث في هذه الخطبه عن حاكم نهم أكل مندحق البطن يأمر الناس بسبه والبراءه منه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفه الأُمّه حيال ذلك. وقد أثبت التأريخ صحه نبوءه الإمام عليه السلام التى تحققت فى عهد معاويه.

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام إلى بعض فضائله فى آخر الخطبه.

ص: ٤٠٦

«أَمَّا إِنَّهُ سَيُظْهِرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ إِلَّا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِيٍّ وَالْبِرَاءَةَ مِنِّي، فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّنِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ وَأَمَّا الْبِرَاءَةُ فَلَا تَتَّبِعُوا مِنِّي، فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ» .

الشرح والتفسير

إحذروا العدو

كما أوردنا سابقا على ضوء الأحاديث والروايات أن الإمام عليه السلام تنبىء بحكومته معاويه وما تفضى إليه هذه الحكومه من مفساد فقال: «أما إنَّه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب، البلعوم (١)، مندحق (٢) البطن، ياكل ما يجد ويطلب ما لا يجد». يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى وضعه الظاهري، حيث تفيد بعض الروايات أنه كان بهذه الصفات، ومن هنا كان أكله، ويمكن أن تكون كناية عن حالته الروحية والنفسية في ظل الحكومه، في أنه حريص وتوسعي ولا يشعبه شيئا من الحكومه، ولا يبعد أن يكون المراد كلا المعنيين الروحي والجسمي أو الحقيقي والكنائي، وذلك لانه جمع النوعين من هذه الصفات.

ثم قال عليه السلام: «فاقتلوه ولن تقتلوه» قطعاً أنّ مخاطب الإمام عليه السلام بهذه العبارة هم أهل العراق، وكان يعلم الإمام عليه السلام بعدم قدرتهم على ذلك بسبب ضعفهم ووهن ارادتهم في إتخاذ القرار، أو أنهم قد يستطيعون قتله إلا أنهم لا يمتلكون الشجاعه والإرادة التي ترفعهم إلى ذلك. أما لماذا

ص: ٤٠٧

١-١) «بلعوم» على وزن «حلقوم» موضع مرور الطعام، ورحب البلعوم واسعه، أو كناية لكثرة أكله.

٢-٢) «مندحق» من ماده «دحق» على وزن قطع بمعنى الدفع والابعاد وطرح الشى بعيداً، ولما كان كبر البطن يؤدي إلى بروزها وكأنها تطرح بعضها خارجا أطلق على الشخص البطنين مندحق البطن.

حكم الإمام عليه السلام بقتله، فأوضح بسبب هو ذلك الفساد الذي أشاعه بين المسلمين ليكون مصداقاً بارزاً للمفسد في الأرض إلى جانب سلبه لأمن البلاد الإسلامية وأخيراً إثارته المعارك التي سفكت فيها دماء المسلمين. وناهيك عما سبق فقد ابتدع تلك البدع العظيمة التي غيرت معالم الدين إضافة إلى أمره بسبب أمير المؤمنين على عليه السلام الذي قال بحقه رسول الله صلى الله عليه وآله «من سب علياً فقد سبني» (١). ثم تنبئ الإمام عليه السلام بهذه المسألة فقال: «إلّا وإنّه سيأمركم بسبى والبراءه منى» وهذا بدوره يكشف عن مدى الحقد والضغينه التي كان يكتنحها معاويه لعلى عليه السلام رغم علمه بفضائله التي صرح بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسمعتها القاصي والداني والتي تثبت بطلان حكومته، ومن هنا سعى جاهداً ليحول دون اطلاع أهل الشام على هذه الاحاديث تمهيداً إلى منعها بالمره وتحريفها. ثم أصدر أوامره بسب على عليه السلام من على المنابر وفي خطب صلاه الجمعة، حتى كان ينبرى أحدهم ليقول خير ما نختم به خطبتنا سب أبى تراب، وبالطبع فإنّ إشاعه السب تعنى عدم إمكانية التحدث بالفضائل، وهذه أسوأ بدعه ابتدعها معاويه يتعذر تبريرها على أى متعصب حقود، وما أروع ما قال الشاعر بهذا الشأن: أعلى المنابر تعلنون بسبه وبسيفه نصبت لكم أعوادها (٢).

الجدير بالذكر أنّ بعض بطانه معاويه أذعن إلى أنّ السب بدعه ظالمه لترسيخ دعائم حكومه معاويه، ومنهم مروان بن الحكم، إلّا أنّه لما سئل عن عله السب، أجاب: «إنّه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك» (٣). ثم أوصى الإمام عليه السلام بكيفية التعامل مع هذه البدعه فقال «فأمّا السب ففسبوني، فانه لى زكاه ولكم نجاه وأما البراءه فلا تتبرأ وامنى، فانى ولدت على الفطره وسبقت إلى الإيمان والهجره». . ويبدو من هذه العبارة أنّ السب أمر واجب الزامى لا-إباحى لأنّه يتضمن حفظ دماء الشيعة وايصال مبادئ مدرسه أهل البيت عليهم السلام. إلّا ان هذا الأمر قد يكتسب صفه الاباحه كما عبر عن ذلك علماء الاصول حيث أمر الوجوب يقتصر على احتمال المنع لتوهم الخطر، ومن هنا فان بعض تلامذه الإمام عليه السلام كرشيد الهجرى وميثم

ص: ٤٠٨

١-١) رواه الحاكم فى كتاب مستدرک الصحيحين ١ / ١٢١ طبعه حيدر آباد.

٢-٢) بحار الانوار ٤٥ / ١٣٧. [١]

٣-٣) الغدير ١٠ / ٢٤٤. [٢]

التمار وقنبر وسعيد بن الجبير الذين صمدوا وأبوا سبوا على حتى قتلوا فأنهم لم يرتكبو أى خلاف، بل أتوا بعمل عظيم أهلهم للشهادة. ويتضح ممّا سبق بأنّ المؤمن إذا عرض للإساءة من قبل العدو أو دفع الناس لانتهاك حرمة فانّ ذلك ليس فقط لا يحط من قدره فحسب، بل يزيده عزه وكرامه. وهنا يبرز هذا السؤال: ما الفرق بين السب والبراءة بحيث أذن الإمام عليه السلام بالسب ولم يأذن بالبراءة لثلاث: أولاً: أنّه ولد على فطره الإسلام والإيمان، ثانياً: أنّه كان من السابقين للإسلام والتصديق بالنبى صلى الله عليه وآله، والثالث: سبقه إلى الهجره من مكة إلى المدينة؟ فقد كثر الكلام بين المفسرين بشأن الفارق بين السب والبراءة، لا- يخلو بعضه من التكلف وعدم الاقتناع، ويبدو أنّ الاقرب فى الفارق بينهما أحد أمرين: الأول أنّ سب الإنسان قد يكون إشارة إلى سوءه ولا- يعطى مفهوم الكفر والشرك، أمّا البراءة فتعنى التبرى من دينه ومعتقداته كما ورد ذلك فى الآيه الاولى من سوره التوبه: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» وعليه فمفهوم البراءة من الإمام عليه السلام هو البراءة من الدين والإسلام، ومن هنا منع الإمام عليه السلام حتى من البراءة منه باللسان، فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أذن بالإساءة إلى شخصه لكنه لم يأذن بالإساءة إلى دينه ولو لفظياً - والآخر أنّ أغلب الناس يتصورون أنّهم إذا إجبروا على كلام لا يمكنهم الاقتناع بالألفاظ ولا بدّ من أن ترافقه التّيه، ومن هنا فمن أجبر على إجراء صيغه الطلاق فانه لا بدّ أن يقصد اللفظ والمعنى حين الصيغه، ان كان طلاق المكره باطلاً إلّا أنّه يتضمن قصد الانشاء ولذلك لا يستدل الفقهاء على بطلان هذا الطلاق بعدم قصد المعنى، بل يستندون فى بطلانه على الاكراه، ويصدق هذا الأمر على السب، فقصد السب سيئ، الا أنّ قصد البراءة أسوأ، لأنّ الأول يهدف نفي حرمة الإنسان، أمّا الثانى فيهدف البراءة من دينه ومعتقده؛ أى إسلامه وليس هنالك من مسلم مستعد لهذا العمل. والدليل على ذلك الأمور الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام فى نهيه عن البراءة:

الأمر الأول: «فأنتى ولدت على الفطره». أما كيف علّل نهيه لهم على البراءة منه عليه السلام، بقوله: «فأنتى ولدت على الفطره»؛ فإنّ هذا التعليل لا يختص به عليه السلام، لأنّ كلّ أحدٍ يولد على الفطره؛ فقد قال النبى صلى الله عليه وآله: «كلّ مولدٍ يولد على الفطره؛ وإنّما أبواه يهودّانه وينصرّانه».

والجواب، أنه عليه السلام علَّل نهيهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل؛ وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة؛ ولم يعلل بآحاد هذا المجموع، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل؛ والنبي صلى الله عليه وآله أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وآله مكث قبل رسالته سنين عشرين عشرين يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد؛ وكان ذلك إرهاباً لرسالته عليه السلام فحُكِمَ تلك السنين العشر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله؛ فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولَّى لربيته مولود في أيام كأيام النبوة، وليس بمولود في جاهلية محضه، ففارقت حاله حال مَنْ يدعى له من الصحابة ممثالته في الفضل. وقد روى أن السنَّة التي ولد فيها عليُّ عليه السلام هي السنَّة التي بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأسمع الهُتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً؛ ولم يخاطب فيها بشيء. وهذه السنَّة هي السنَّة التي ابتدأ فيها بالتبئيل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل به حتى كُوشِفَ بالرسالة، وأنزل عليه الوحي، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمن بتلك السنَّة وبولادة عليِّ عليه السلام فيها، ويسمِّيها سنَّة الخير وسنَّة البركة؛ وقال لأهله ليله ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً: «لقد وُلد لنا الليلة مولود يفتُحُ الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة»، وكان كما قال صلوات الله عليه، فإنه عليه السلام كان ناصره والمحمي عنه وكاشف الغم عن وجهه؛ وبسيفه ثبت دينُ الإسلام، ورست دعائمُه، وتمهّدت قواعده عليه السلام.

الأمر الثاني «وسبقت إلى الإيمان» فقد أجمعت الأمة الإسلامية على أن أول من أسلم بعد خديجه الكبرى على بن أبي طالب عليه السلام. وتسلم الفريقان على أن علي عليه السلام أول من أسلم. وقال ابن أبي الحديد لم يتردد في ذلك أحد من علماء الإسلام. (١)

الأمر الثالث: «والهجرة» كيف قال: «إنَّه سبق إنِّي الهجره» ومعلوم أن جماعه من

ص: ٤١٠

المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره؛ وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر في صحبه النبي صلى الله عليه وآله؛ وتخلف علي عليه السلام عنهما، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ومكث أياماً يرذ الودع التي كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟

والجواب، أنه عليه السلام لم يقل: «وسبقت كل الناس إلى الهجره»؛ وإنما قال: «وسبقت» فقط؛ ولا يدل ذلك على سبقة للناس كافة؛ ولا شبهه أنه سبق معظم المهاجرين إلى الهجره، ولم يهاجر قبله أحد إلا نفر يسير جداً.

وأيضاً فقد قلنا إنه علل أفضليته وتحريم البراءه منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفطره، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سبقه إلى الهجره؛ وهذه الأمور الثلاثه لم تجتمع لأحد غيره؛ فكان مجموعها متميزاً عن كل أحد من الناس.

تأملات

١ - عله عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبه

أوردنا سابقاً أن كافة القرائن تدل على أن المراد بالشخص الذي بين الإمام عليه السلام صفاته هو معاويه، وذلك لانطباق كافة الاوصاف عليه إلى جانب كونه هو الذي سن سب الإمام عليه السلام ولم يبتدع هذا الأمر أحد غيره، ولعل عدم التصريح به يستند إلى رعايه متانته البيان، أو إثارة حس الاطلاع لدى الأمة لتقف بصورة أعمق على هذا المطلب ولا سيما بالاستناد إلى هذه الصفات، أضف إلى ذلك فإن الخطبه حيث تضمنت بعض النبوءات الصريحه فإن الإمام عليه السلام لم يشئ الافصاح أكثر عن هذه الموضوع.

٢ - لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاويه؟

لقد صرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بقتل من إشتمل على هذه الصفات، كما قال ولن تقتلوه. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لم هدر الإمام عليه السلام دمه؟ والجواب واضح لدى العلماء والفقهاء، لأن من يخرج على الإمام المعصوم فهو ناصبي خارج من ربه الإسلام، وقد خرج على إمام ثبتت إمامته بنص رسول الله صلى الله عليه وآله وعن طريق بيعه الأمة. أضف إلى ذلك فقد رسخ

معاويه أساس الفساد فى الأرض وبابشع وأوسع صورته، وقد جيش الجيوش ضد الإمام عليه السلام حتى سالت أنهاراً من الدماء فى تلك المعارك. إلى جانب بعته ببعض أشقيائه لشن الغارات تلو الغارات على مناطق العراق المعروفه وأخيراً قتله لمحمد بن أبى بكر ومالك الأشر وسائر كبار صحابه الإمام عليه السلام لتجعله فى مصاف المفسدين فى الأرض والذى حكم القرآن بهدر دمهم. فإذا كان هناك بعض الأفراد المتعصبين الذين لا يكثر ثون لكل هذه الأعمال ويبرونها باسم الاجتهاد فلنا كلام آخر. فقد ورد فى الحديث الشريف أن النبى صلى الله عليه وآله قال: «يا على حربك حربى وسلمك سلمى» (١) وكلنا نعلم بأن حرب رسول الله صلى الله عليه وآله تجب الكفر حيث يصطلح على من يحاربه بالكافر الحربى الذى يباح دمه. وورد فى حديث آخر أن ابن عباس كان قد كف بصره فمر بجماعه يتحدثون فسأل دليته ماذا يقولون: أجاوب: يسبون علياً عليه السلام. قال فاحملنى إليهم ثم سألتهم: لم تسبون الله؟ قالوا سبحان الله من سب الله فقد كفر، قال: فمن منكم سب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا سبحان الله من سب رسول الله صلى الله عليه وآله فهو كافر. قال فمن سب علياً عليه السلام؟ قالوا: نعم نحن سبناه. قال ابن عباس فأتى أشهد الله أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال «من سب علياً فقد سبنى ومن سبنى فقد سب الله عزوجل ومن سب الله أكبه الله على منخرية فى النار. ثم التفت ابن عباس إلى دليته وقال له: كيف رأيتهم. فانشد يقول: نظروا إليك باعين محمره نظر التيوس إلى شفار الجارز

قال ابن عباس: فداك أبوك زدنى. فقال: خزر العيون نواكس أبصارهم

ومن الطبيعى أن الحكم المذكور إذا كان السب يستند إلى الإراده والاختيار ويستثنى منه الاكراه والتهديد والاجبار.

جدير بالذكر أن ابن أبى الحديد قال، لو إفتراضاً أن النبى صلى الله عليه وآله لم ينص على خلافه على عليه السلام

ص: ٤١٢

أفلم يسمع معاوية قوله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام: «أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت» وقوله: «حربك حربى وسلمك سلمى» (١) ومن الطبيعي أن من يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله يهدر دمه، وعليه فالذى يحارب الإمام عليه السلام يهدر دمه.

٣ - تأريخ سب الإمام على عليه السلام

قوله عليه السلام: «يأمركم بسبى والبراءه منى»، فنقول: إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسب على عليه السلام والبراءه منه.

وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة فى أيام بنى أميه إلى أن قام عمر بن عبدالعزيز رضى الله تعالى عنه فأزاله. وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول فى آخر خطبه الجمعة: اللهم إن أبا تراب ألحد فى دينك، وصد عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر؛ إلى خلافه عمر بن عبدالعزيز.

وذكر أبو عثمان أيضاً أن هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم، فقام إليه إنسان، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبى تراب، فقال: اكفف، فما لهذا جئنا.

وذكر المبرّد فى "الكامل" أن خالد بن عبد الله القسرى لما كان أمير العراق فى خلافه هشام، كان يلعن علياً عليه السلام على المنبر، فيقول: اللهم العن على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، صهر رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته، وأبالحسن والحسين! ثم يقبل على الناس، فيقول هل كُنيت!

وروى أبو عثمان أيضاً أن قوماً من بنى أميه قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أمّلت، فلو كفت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكراً فضلاً!

ص: ٤١٣

قال محمد بن الحنفية في علي عليه السلام: كان يد الله على أعداء الله، وصاعقه من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقه، فقتلهم بكفرهم فشنوه وأبغضوه، وأضمرُوا له الشنف والحسد، وابن عمه صلى الله عليه وسلم حتى بعد لم يمت؛ فلما نقله الله إلى جواره، وأحب له ما عنده، أظهرت له رجال أحقادها، وشفّت أضغانها، فمنهم من ابتز حقه، ومنهم من ائتمر به ليقتله، ومنهم من شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لذريته وناصرى دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفر على أجسادهم؛ والأبدان منهم يومئذ باليه، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذل رقابهم، فيكون الله عز اسمه قد عذبهم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشفنا صدورنا منهم؛ إنه والله ما يشتم علياً إلا كافر يُسَيَّر شتم رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن يوح به، فيكنى بشتم علي عليه السلام عنه. ما إنه قد تحطت المنية منكم من امتد عمره، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يُبغضك إلا منافق، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

٤ - التقيه وسيله دفاعيه

تطرق بعض شراح نهج البلاغه هنا إلى موضوع التقيه وشرعيتها، ولا بأس أن نتعرض إليها هنا بصورة مختصرة ونوكل الخوض في التفاصيل إلى محلها. فالتقيه بالمعنى اللغوى إجتنب الشىء بينما ذكروا لها عدة تعاريف اصطلاحيه، أهمها إخفاء العقيدة أو الدين خوف الضرر أو لمصلحه من المصالح ومنها حفظ الوحده وإجتنب الاختلاف أمام الأعداء. ويستند هذا المعنى إلى القرآن الذى تحدث عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حين كانوا قله: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء» ثم قال: «إلا أن تتفوا منهم تقاء» (١)، فقد تحدثت الآية صراحة عن التقيه بما لا يبقى من مجال للشك فيها. أما قصه تقيه عمار ونطقه ببعض الكلمات ضد الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله أمام المشركين

ص: ٤١٤

فهي مشهوره معروفه، فقد إضطر لتلك الكلمات، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله باكياً خشيه فساد دينه وإيمانه، فهداه رسول الله صلى الله عليه وآله في أن الاكراه هو الذى دفعه إلى ذلك فلا ضرر على دينه وأن الله أنزل بحقه قرآناً: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» (١) «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَيْدراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (٢) النموذج الآخر للتقيه ما ورد في سوره غافر بشأن مؤمن آل فرعون: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» (٣) فالقرآن يثنى على هذا المؤمن ويستحسن كلامه ويصرح برضى الله بتقيته. كما تظافت الروايات الإسلاميه التى أكدت على أهميه التقيه لتصفها بأنها تقي المؤمن مخاطر الأعداء وتحفظ دمه وأن التقي من الدين، ومن لا تقيه له لا دين له، والإيمان بلا تقيه كالجسد بلا رأس، وأنها من أفضل الأعمال، ولا نرى البحث يتسع للخوض فى التفاصيل، ومن أراد المزيد فليرجع إلى القاعده السابعه من المجلد الأول لكتاب القواعد الفقيهيه. أضف إلى ذلك فإن فلسفه التقيه واضحه، وهى أن اظهار العقيدته الباطنيه أحياناً قد يسبب بعض الأخطار على النفس والعرض والمال دون أن تترتب عليه أيه فائده، فالعقل يحكم بضروره عدم إهدار القوى والطاقات عبثاً، ولا بد من حفظها بواسطه التقيه واستثمارها فى المواقع المطلوبه. ولعل هذا هو المعنى المراد بوصفها بترس المؤمن أو جنه المؤمن. فالواقع هو أن التقيه لا تعنى الفرار من المسؤوليه، بل هى أشبه بالتكتيك الحربى عن طريق الاستتار وإعادة تنظيم القوه واللجوء إليها فى الوقت المناسب.

ج ج

ص: ٤١٥

١ - ١) - أجمع مفسرون الفريقين أن هذه الآيه نزلت فى عمار، وصحيح أن عمار اجبر على الكفر إلمائه تظاهراً تكلم من خلال الاعتقاد بذلك وأنه رجع عن دين محمد ليركوه ويحفظ دمه.

٢ - ٢) سوره النحل / ١٠٦. [١]

٣ - ٣) سوره غافر / ٢٨. [٢]

ومن كلام له عليه السلام

كلم به الخوارج حين اعتزلوا الحكومه وتنادوا:

لا حكم إلا الله

نظره إلى الخطبه

تفيد عبارات هذه الخطبه أنّ الخوارج ذهبوا إلى أنّ الحكم لله بعد أن فرضوا التحكيم على الإمام عليه السلام ورجعوا عنه، وأن من ينكر ذلك الشعار قد خرج من الدين، ثم إندفعوا أبعد من ذلك ليتهموا على عليه السلام بالخروج من الإسلام لقبوله التحكيم وعليه أن يتوب. والحال أنّ التحكيم فرض على الإمام عليه السلام، ولو فرضنا ان الإمام عليه السلام إقترح ذلك فاصل التحكيم لا يخالف الإسلام، وانحرف في صفيين واستغل من قبل معاويه. على كل حال فان الإمام عليه السلام يدعو عليهم ويذكرهم بسوء مقاتلتهم، ثم يخبر عن المستقبل المظلم للخوارج والذل الهوان الذي ينتظرهم.

ج ج

ص: ٤١٧

١-١) سند الخطبه: اورد بعض هذه الخطبه قبل السيد الرضى (ره) ابن قتيبه في كتاب الإمامه والسياسه وابن الجوزى في تذكره الخواص والطبرى فى المسترشد، كما نقل ابن أثير فى كتاب النهايه عدّه احتمالات وردت بشأن بعض مفردات الخطبه وهذا يشير أنّه حصل عليها من عدّه نسخ (مصادر نهج البلاغه، ٢ / ٣٦).

«أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آثَرٌ، أَبْعِدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» فَأُوبُوا شَرَّ مَا بٍ وَارْجِعُوا عَلَى آثَرِ الْأَعْقَابِ، أَمَا إِنَّكُمْ سَيَتَلَقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا وَسَيَيْفًا قَاطِعًا وَآثَرَهُ يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً» .

الشرح والتفسير

فضاعه مظلوميه الإمام عليه السلام

كما ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين رأى الخوارج التحكيم فى صفتين ثم رجعوا عنه ورفعوا شعار «لا حكم إلّالله» وطالبوا الإمام عليه السلام بالتوبه لقبوله التحكيم ليلتحقوا به فيقاتلوا أهل الشام، فقال عليه السلام: «أصابكم حاصب، ولابقى منكم آثر، أبعد إيماني بالله و جهادى مع رسول الله صلى الله عليه وآله أشهد على نفسى بالكفر، لقد ظلمت إذا وما أنا من المهتدين» .

يالها من مصيبه أن بيتلى بهؤلاء الحمقى فرد مثل على عليه السلام أول من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وآله ووقف إلى جانبه فى جميع الغزوات - ألا فى البعض التى استخلفه فيها رسول الله صلى الله عليه وآله - وثبت فى المواقع التى تنكص فيها الابطال ليسقى شجره الإسلام والتوحيد بلسانه وسيفه، فيطالبه أولئك الحمقى بالاعتراف بالكفر والتوبه. ولعل تأريخ الإسلام لم يشهد مثل هذه الحادئه المروعه، ومن هنا نقول بأنّ مظلوميه الإمام عليه السلام كانت وما زالت تفوق من سواه. وكما صرح عليه السلام فى الخطبه السابقه: «فأنى ولدت على الفطره وسبقت إلى الإيمان والهجره»؛ الأمر الذى أكده علماء الفريقين وأنه لم يشرك بالله طرفه عين أبداً أنه خاض غمار الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى كافه الغزوات سوى تبوك حين كلفه النبى صلى الله عليه وآله بحفظ المدينه، العبارة «أصابكم حاصب» وبالالتفات إلى أنّ المراد بالحاصب الريح الشديده التى تثير الحصباء بحيث قد تدفن أحياناً قافله، تفيد الدعاء عليهم فى أن يرسل الله عليهم العذاب السماوى، كما يمكن

أن تكون كناية عن المشاكل الاجتماعية التي تعصف بحياتهم والعبارة «ولا- بقى منكم آثر» واستناد إلى أن المقصود بالأثر الشخص الذى يَأثر الحديث، أى يرويه، فكأنه قال عليه السلام لا بقى منكم مخبر وهلكتم بأجمعكم (طبعاً نقلت هذه المفردة بعده صور ذات معانٍ مختلفة سنعرض لها فى شرح كلام السيد الرضى آخر الخطبة». ثم تساءل الإمام عليه السلام باستغراب عن ذلك الطلب المشين وهو من روى شجره الإسلام بجهاده العظيم ومواقفه المشهودة وشده أزر رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو أول من آمن وأسلم وهاجر، فهل لمثل هذا الفرد أن يضل وينحرف عن السبيل. ثم أشار عليه السلام إلى موضوعين، الأول دعاؤه عليهم «فأبوا (1) شرمآب وارجعوا على أثر الاعقاب» (2) فقد دعا عليهم فى العبارة الأولى سائلاً الله لهم الذلة والهوان فى الدنيا والآخرة، وفى العبارة الثانية سأل الله أن يبتليهم بما ابتلى به مشركى الجاهلية الذى كانوا على غرار الخوارج يرون آيات الله ثم يجحدونها. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن قوله: «ارجعوا...» أراد به توبوا، بينما تفيد قرينه هذا القول انه استمرار للدعاء السابق. والثانى نبوءته بمستقبلهم «أما ارنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً وأثره يتخذها الظالمون فيكم سنه» جدير بالذكر أن نبوء الإمام عليه السلام بحق الخوارج قد تحققت حيث ابيدوا فى مختلف الحروب وتجرعوا الذل والهوان. وقد أفرد ابن أبى الحديد فصلاً أسماه أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم ليخوض فى تفاصيل أحداث زعمائهم وسنتطرق إلى ذلك فى الأبحاث القادمة.

قال السيد الرضى (ره) شارحاً بعض مفردات الخطبة: قوله عليه السلام «ولا بقى منكم آبر» يروى على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون كما ذكرناه: آبر بالراء، من قولهم للذى يأبر النخل - أى يصلحه - ويروى «آثر» وهو الذى يَأثر الحديث ويرويه أى يحكيه، وهو أصح الوجوه عندى، كأنه قال: لا- بقى منكم مخبراً، ويروى آبز - بالزاي المعجمه - وهو الواثب. والهالك أيضاً يقال له «آبز» .

ج ج

اثره اسم مصدر من ماده استئثار بمعنى الاستبداد.

ص: ٤٢٠

١- ١) «أبوا» من ماده «أوب» على وزن قوم بمعنى الرجوع، كما تطلق هذه المفردة على السحاب والرياح بسبب الرجوع فيها.
٢- ٢) أعقاب جمع عقب بمعنى كعب الرجل، كما تطلق على الأثر الذى يتركه على الأرض، وهى هنا كناية عن الأجيال السابقة.

وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج، وقيل له: إنَّ القوم عبروا جسر النهروان.

«مَصَارِعُهُمْ دُونَ النَّظْفَةِ وَاللَّهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشْرَةٌ».

الشرح والتفسير

هل من سبيل لعلم الغيب

لاشك ولا ريب أنَّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وائمة العصمه عليه السلام قد أخبروا كراراً عن الأمور الغيبية، وبعبارة أخرى لهم علم بالغيب، القرآن تحدث عن المسيح عليه السلام في أنَّ العلم بالغيب كان يمثل إحدى معجزاته فقال «وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» (٢) كما يختتم هذه الآية بان ذلك من آيات الله وصدق دعوى نبوته.

وقد حفل نهج البلاغه ومنه هذا الكلام بالأخبار عن المغيبات. أمّا أنى للإمام عليه السلام بعلم الغيب؟ ما حدود علم المعصوم بالغيب؟ وما تفسير الآيات التي حصرت على الغيب بالله؟ وكيف تفسر الروايات الواردة بشأن إثبات هذا العلم للمعصومين؟ وما إلى ذلك من أسئلة واستفسارات فقد أوكلنا الإجابة عليها في شرح الخطبة ١٢٨.

ص: ٤٢١

١- ١) سيأتى سند هذا الكلام ذيل الخطبة رقم ٦٠ فهى تشير إلى نفس الموضوع.

٢- ٢) سورة آل عمران / ٤٩. [١]

و قال عليه السلام

لما قتل الخوارج ف قيل له: يا أمير المؤمنين هللك القوم بأجمعهم

«كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ نَطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصًا سَلَّابِينَ.»

الشرح والتفسير

مصير الخوارج

هذا الكلام إستمرار لما ورد فى الأبحاث السابقه بشأن الخوارج. وهنا أشار الإمام عليه السلام إلى بعض النبوءات بشأن الخوارج؛ الأمر الذى يمكن اعتباره من معاجزه عليه السلام فقد إستهل كلامه بالرد على بعض أصحابه ممن قال له: يا أمير المؤمنين هللك القوم بأجمعهم فقال: «كلا والله، إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات (٢) النساء» فحتى لو قتل هؤلاء، فهناك النطف التى

ص: ٤٢٣

١- ١) سند الخطبه: قال صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه بعد أن جمع الخطبه ٥٩ و ٦٠ بشأن هذا الكلام رواه المبرد فى الكامل (والمبرد من علماء القرن الثالث الهجرى) ونقل بعضه البيهقى فى المحاسن والمساوى والمسعودى فى مروج الذهب ثم مدح ابن أبى الحديد فى انه قال: هذا من الأخبار المشهوره القريبه من التواتر ومن معجزاته الغيبه عليه السلام. مصادر نهج البلاغه، ٢ / ٣٧.

[١]

٢- ٢) «قرارات» من ماده «قرار»، وقرارات النساء أرحامهن حيث تنعقد النطفه لمدته فى الرحم فتقر هناك، وقال القرآن «ثُمَّ جَعَلْنَا نُطْفَةَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ»، سورة المؤمنون / ١٣. [٢]

ستلد في المستقبل وتقتفى آثار الخوارج، وهذا ما حصل بالفعل حيث ظهر مثل هؤلاء الأفراد بعد سنوات، بل قرون لينتهجوا ذات السبيل الذي سلكه أوائلهم. أضف إلى ذلك وكما أشير سابقاً فقد نجى تسعة أفراد من أصحاب النهروان وفروا إلى مختلف المناطق ليرموا هذه المدرسه الفاسده ويعيدوا بنائها ممن جانب آخر فاننا نعلم بأن من حضر النهروان لم يكونوا جميع الخوارج، بل الخوارج. ثم اماط اللثام عن تبوءه أخرى فقال عليه السلام: «كلما نجم (١) منهم قرن قطع» فالعبارة إشاره إلى وحشيه الخوارج من جهة وأنهم كالحيوان الذي له قرن لا ذى الآخرين، ومن جهة أخرى يشير إلى الانتكاسات المتتاليه والهزائم المتتابعه التي يمني بها الخوارج طيله حياتهم المقيته؛ الأمر الذي تحقق تاريخياً وستعرض له في البحث القادم. ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «حتى يكون آخرهم لصوصا سلايين» وهذا هو الأمر الآخر الذي ثبت تحققة تاريخياً، حيث تعرض أرباب التأريخ إلى عدد من مشهورى الخوارج ممن تحولوا إلى لصوص خطرين، وسنعرض لهذا الأمر بالتفصيل لاحقاً.

تأملات

١ - الخوارج ظاهره لافرقه

يستفاد من كلام الإمام عليه السلام أنّ الخوارج لم يكونوا فرقه معينه، يقدر ما كان يراهم الإمام عليه السلام ظاهره حيه طيله التأريخ الإسلامى، حتى أنّ القرائن تفيد أن هذه الظاهره كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد أورد المفسر الجليل المرحوم الطبرسى عن أبى سعيد الخدرى فى ذيل الآيه «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ . . .» (٢) أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حين قسم غنائم قبيله هوازن على المسلمين يوم حنين قام إليه حرقوص بن زهير وقال: اعدل يا محمد! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فمن ذا يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: دعنى أضرب عنقه يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وآله: «دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمي» وأضاف المرحوم الطبرسى وجاء فى حديث آخر أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال:

ص: ٤٢٤

١-١) «نجم» من ماده «نجم» على وزن حجم بمعنى الطلوع، كما يطلق على كل ظهور وطلوع مفاجىء.

٢-٢) سورة التوبه / ٥٨. [١]

«فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم» فترلت الآية المذكورة: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَشِيخُطُونَ». فالواقع أن هذه الكلمات تفيدها إمتداد الجذور الفكرية للخوارج إلى عصر النبي صلى الله عليه وآله وأنهم لم يكونوا يتورعون حتى عن مجابهة النبي صلى الله عليه وآله إذا تعرضت مصالحهم للخطر. ونقل ابن أبي الحديد عن مسند أحمد بن حنبل أن عائشة سألت مسروق: هل عندك علم من المخدج (أحد زعماء الخوارج)؟ فقلت: نعم، قتله علي بن أبي طالب على نهر قالت عائشة: إبغى على ذلك بينه. فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك. قال فقلت لها: سألتك بصاحب القبر، ما الذى سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله فى فيه؟ فقالت: نعم سمعته يقول: «إنهم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة وأقربهم عند الله وسيله» (١). هذا ويمكن ايجاز مميزات الخوارج فيما يلى: إنهم طائفه تعنى كثيراً بظواهر العبادات وحتى المستحبات والمكروهات البسيطة وهذا ما جعلهم يعيشون الغرور ويشعرون بالعجب، وبالمقابل كانوا أفراد جاهلين متعصبين خارجين عن حدود الأدب والخلق، ولا يتورعون عن أقذر الأساليب من أجل تحقيق مآربهم، وأفضل نموذج على ذلك سوء خلق «ذو الخويصره» (حرقوص) وفضاضته تجاه النبي صلى الله عليه وآله. صحيح أن الخوارج ظهروا فى صفيين بعد التحكيم إلّا أن هذا لا يعنى عدم وجود إمتداداتهم الفكرية لما قبل عصر الإمام عليه السلام ومازلنا إلى اليوم نلمس ثقافتهم وأفكارهم المنحطه لدى بعض طبقات وفتات مختلف المجتمعات البشرية، ولعل أغلب الوهابيين ينتمون إلى هذه الزمره، لأنهم يتصفون بصفاتهم. كما نرى فى أوساطنا بعض الأفراد الشديدي الالتزام بقشور الدين بينما يرون إنحراف كبار علماء الدين عن الصراط المستقيم ويسعون جاهدين لاثاره البلابل والفتن. ولا يبدو القتال علاجاً لمرض هذه الفئه الضلاله، بل علاجها يكمن فى رفع المستوى الثقافى للأئمه وافتتاحها على المسائل الدينيه والعقائديه؛ الأمر الذى صرح به الإمام عليه السلام فى الخطبه القادمه. وقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه السادسه والثلاثين إلى مدى جهل هؤلاء الأفراد فقال «وأنتم معاشر أخفاء الهام، سفهاء الاحلام ولم آت - لا أبالكم - بجرا ولا أردت

ص: ٤٢٥

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ٢٤٧. [١]

لكم ضرراً». وكفى هذه الفرقة ضلاله وانحرافاً وفضاضه ما فعلته بصحابي النبي صلى الله عليه وآله بن الخباب المعروف بورعه وتقواه وزوجته الحامله حيث قتلتها بتلك الطريقه البشعه وبقرت بطن زوجته لأنهما لم يتنكراً لعلى عليه السلام بينما كانت تستشكل قتل اليهودى، بل كانت لا ترى جواز قتل الخنزير. بل كانوا يشكلون على أحدهم إذا تناول تمره مهمله تحت شجره دون إذن صاحبها، بينما لا يتورعون عن سفك دماء كبار صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام. كان هنالك تناقضاً واضحاً بين ظاهرهم وباطنهم وأقوالهم وأفعالهم، حتى إمتد ذلك التناقض إلى عقائدهم الفقيهه والكلاميه، فكانوا يرون وجوب قتل مرتكب الكبيره، بينما يعتقدون بعدم الحاجه إلى الحاكم رغم الفوضى والهرج والمرج الذى يسود المجتمع. وتفيد القرائن أنهم كانوا مفرطين فى المسائل الجنسيه وغارقين فى الشهوات، ولعل هذا ما جعلهم يجوزون العقد على تسع نساء، ولا يرون الرجم عقوبه لمن زنا وهو محصن. ومن الطبيعى أن تتفرع هذه الفرقة عده فروع بفعل ذلك الجهل والتعصب والحمق، ومن هنا لم تمض عليها مده حتى انقسمت فرقا لكل منها زعيم من قبيل الازارقه والنجدات والصفريه والعجارده والثعالبه وما تشابه ذلك. لعلنا نلمس هذه الفرقة اليوم فى الوهابيه التى تعيش التمسك بظاهر العبادات وتتخرج فى المكروهات والمباحات وتؤدى المستحبات، بينما تكفر أغلب المسلمين من السنه والشيعه وتبيح دمائهم، ورغم ضحالتهم الفكرية وجمودهم إلا أنهم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، فهم كالخوارج يرون أنفسهم الحق المطلق وما سواهم باطلاً.

٢ - الخوارج لصوصا سلايين

يشهد التاريخ بتحقيق ما أخبر به الإمام عليه السلام عن الخوارج من أن آخرهم لصوصاً سلايين. فمن بين الأفراد الذين ذكرهم ابن أبى الحديد الذى آل أمرهم إلى السرقة والسلب: الوليد بن طريق الشيبانى على عهد هارون الرشيد. فبعث له هارون بيزيد بن مزيد هو من بنى شيبان فقتله وأتاه برأسه وابن عمرو الخثعمى على عهد المتوكل العباسى الذى عرف بقطعه للطرق، فبعث له بأبى سعيد محمد بن يوسف الطائى، إلا أنه هرب بينما قتل جمع كثير من صحبه وأسر آخرون. ثم ظهرت جماعه منهم فى منطقه كرمان وعمان فكانوا مفسدين فى الأرض ومحاربين،

أما أسماؤهم فقد أحصاها أبو اسحاق الصابى فى كتاب التاجى. (١)

تم المجلد الثانى لشرح نهج البلاغه

لقد إنتهى المجلد الثانى من الشرح باختتام الخطبه الستين، ولا يسعنى هنا إلا أن ابتهل إلى الله بفائق الشكر لما وفقنى من القيام بهذا العمل المتواضع سائلاً إياه الاخذ بيدي إلى إتمام هذا العلم، كما أسأله أن يوفقنا لأن نعيش هذه الكلمات على مستوى القلب والعمل فتقودنا إلى سعادته الدنيا والآخرة. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السابع من صفر عام ١٤١٩

الولاده الميمونه للإمام الكاظم عليه السلام

ص: ٤٢٧

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٥ / ٧٣ - ٧٦. [١]

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه المجلد ۳ / ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام على ابن ابى طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى: ۱۰ ج.

شابك: ۳۰۰۰۰ ريال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۱۱۳-۹۱۷-۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۵-۹۴۱-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳:

يادداشت: عربى.

يادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ق. = ۱۳۹۰).

يادداشت: كتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الى ۱۸۰. ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الى ۲۰۰. ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الى ۲۴۱. ج. ۹. من رساله ۱ الى ۳۱. ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الى ۵۳

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- كلمات قصار

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٣

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

وقال عليه السلام

«لَا تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ» .

الشرح والتفسير

الفارق بين الخوارج وأهل الشام

تعرضت بعض الخطب السابقة للخوارج، فقد أشارت بعضها إلى الأمور المهمة في سيرتهم ومواقفهم وما آل إليه مصيرهم. ويتضمن كلامه عليه السلام هنا الإشارة إلى الأسلوب الذي يتم من خلاله التعامل مع الخوارج بعده عليه السلام فيقول «لاتقاتلوا الخوارج بعدى». استناداً إلى صراعه المرير عليه السلام الذي خاضه ضد الخوارج، ولا سيما في النهروان التي وجه فيها ضرباته الماحقه إلى فلولهم، وكونهم يشكلون أعدى أعداء الإسلام حتى قتل على يدهم، فإنّ مثل هذا الكلام يبدو مستغرباً في عدم التعرض لهم ومقاتلتهم، إلا أنّ الإمام عليه السلام يقدم دليله بهذا الشأن فيقول «فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» وقد صرح السيد الرضى (ره) بأنّ مراد الإمام عليه السلام «يعنى معاويه وأصحابه». فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يجنب أصحابه فتح جبهتين وأن يكرسوا قوتهم تجاه عدو واحد كان يتمثل آنذاك بمعاويه وحزب بنى أميه المقيت ورهطهم وأعوانهم من أهل الشام. فمما لاشك فيه أنّ أصحاب الإمام عليه السلام لن

ص: ٥

١ - ١) سند الخطبة: جاء هذا الكلام في المحاسن للبيهقي ومروج الذهب للمسعودي وعلل [١] الشرائع للصدوق والتهذيب للشيخ الطوسي (مصادر نهج البلاغه ٢/٤٠). [٢]

يصبحوا بعده كما لو كان عليه السلام بينهم، أضف إلى ذلك، ليس لديهم القدره على التحرك ضمن جبهتين، ومن هنا أوصاهم بلم الشمل وتعبئه قواهم وطاقاتهم ضد عدو واحد. ولا سيما أنّ الخوارج كانوا من الناقمين على حكومه معاويه، ولعلمهم يقفون إلى جانب المؤمنين في قتالهم لأهل الشام. وناهيك عما سبق فإنّ الخوارج كانوا في مركز حكومه أمير المؤمنين عليه السلام ويشكلون جزءاً من الجبهه الداخليه، وعليه فقد كاسعهم زعره هذه الجبهه وتصديق الحاله الأمنيّه دون أدنى عناء؛ الأمر الذي دفع بالإمام عليه السلام لأنّ يوصى بالكف عن مقاتلتهم بعده. وهكذا يتضح الرد على ذلك التساؤل المعروف الذي عجز البعض من شرّاح نهج البلاغه عن الرد عليه. فقد أثاروا هذا السؤال: لم قاتل الإمام عليه السلام الخوارج بنفسه بينما نهى أصحابه عن مقاتلتهم بعده؟ لم شهر سيفه بوجههم بينما نصح أصحابه بغمد السيوف وعدم التعرض لهم؟

ونقول في الجواب على هذا السؤال أنّ الظروف التي كانت سائده على عهد الإمام عليه السلام تختلف كلياً عنها بعده عليه السلام، والقائد الحكيم ينبغي أن يأخذ بنظر الاعتبار هذه الظروف كل يوم، بل كل ساعه فلا يعيش الجمود ويكتفى بأسلوب واحد في المجابهه والصراع.

وبغض النظر عما تقدم فإنّ الإمام عليه السلام ينكر السبب الذي يقف وراء هذا الأسلوب في المجابهه فيقول «فإنّ من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدركه». فهناك فارق واضح بين الفريقين؛ فالخوارج حفته من الجهال ظنت أنّها خرجت من أجل الحق، إلا أنّ تعصبها وجهلها إنتهى بها إلى الحيره والضلال، أمّا معاويه ورهطه فإنّهم يتجهون عن علم نحو الباطل. وبناءاً على هذا فماذا يسع الإنسان أن يقاتل من هذين الفريقين إذا كان لا بدّ له من القتال ويتعذر عليه عملياً مواجهه الفريقين؟

قطعاً سيرجح قتال الفريق الثاني، فإذا فرغ منه وتمكن من دحره، آنذاك سيقف بوجه الفريق الأول. ولعل الحديث الذي نقله المبرد في الكامل يشير إلى هذا المعنى من أنّ قتال معاويه وأهل الشام كان أولى من قتال الخوارج، فقد جاء في الحديث أنّ الخوارج قاموا على معاويه بعد شهاده أمير المؤمنين على عليه السلام حين كان في الكوفه، فبعث معاويه برسوله إلى الإمام الحسن عليه السلام في الكوفه - وهم بالخروج إلى المدينه - لأن يتصدى للخوارج، فأجابه عليه السلام بأنّه كف عن قتاله حقناً لدماء المسلمين، فهل يقاتل الخوارج نيابه عنه وهو يرى أنّه أحق منهم بالقتل. (1)

ص: ٤٠

الجدير بالذكر أن الخوارج قد إرتكبوا أعظم جنايه عرفها العالم الإسلامى والتي تمثلت بقتلهم لعلى عليه السلام؛ الأمر الذى أخبر عنه الإمام عليه السلام فى عصره، مع ذلك لم يفكر الإمام عليه السلام فى الثأر منهم، بل نهى من بعده حتى عن قتالهم، وهذا نموذج آخر من نماذج ذروه عدالته التى لا يرى مثلها فى تأريخ القاده والزعماء. وأخيراً نقول أنّ وصيه الإمام عليه السلام نافذه مادام الخوارج لم يمارسوا علياتهم الإجراميه فى البلاد الإسلاميه؛ وإلاّ فاذا إرتكبوا مثل هذه الأعمال كان لابدّ من معاملتهم على أنّهم محاربون مفسدون فى الأرض.

تأملان

١ - أصل من الخوارج

لاشك أنّ الخوارج - وبلاستناد إلى ممارستهم وصفاتهم آنفه الذكر وما ذكره المؤرخون عن عقائدهم وآرائهم - فرقه ضاله ومنحرفه تشكل خطراً جدياً على الإسلام، إلاّ أنّ الإمام عليه السلام وعلى ضوء هذه الخطبه يرى فى معاويه ورهطه أنهم أضل من تلك الفرقة سبيلاً، ثم يوصى أصحابه بأنّ الأولويه فى القتال إنّما تتجه صوب معاويه وأهل الشام لا الخوارج. وقد علق ابن أبى الحديد على هذا الأمر فقال: وقد طعن كثير من أصحابنا فى دين معاويه، ولم يقتصروا على تفسيقه، وقالوا عنه إنّ كان ملجداً لا يعتقد النبوه، ونقلوا عنه فى فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدلّ على ذلك.

و روى الزبير بن بكار فى "الموفقيات" - وهو غير متّهم على معاويه، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبه على عليه السلام، والانحراف عنه -:

قال المطرف بن المغيره بن شعبه: دخلت مع أبى على معاويه، وكان أبى يأتيه، فيتحدّث معه، ثم ينصرف إلىّ فيذكر معاويه وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليله، فأمسك عن العشاء، ورأيتّه مغتّمًا فانتظرتّه ساعه، وظننت أنّه لأمرٍ حدث فينا، فقلت: ما لى أراك مغتّمًا منذ الليله؟ فقال يا بُنى، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوتُ به: إنّك قد بلغت سنًا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنّك قد

ص:٧

كبرت؛ ولو نظرت إلى إختوتك من بنى هاشم، فوصلت أرحامهم فو الله ما عندهم اليوم شىء تخافه، وإن ذلك ممّا يَبقى لك ذكره وثوابه؛ فقال: هيهات هيهات! أى ذِكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم فعَدَل، وفعل مافعل، فما عدا أن هَلَك حتى هلك ذُكره؛ إلا أن يقول قائل: أوبىكر؛ ثم ملك أخو عدى، فاجتهد وشمّر عشر سنين؛ فما عدا أن هلك حتى هلك ذُكره؛ إلا أن يقول قائل: عمر؛ وإن ابن أبى كبشه (١) ليصاح به كل يوم خمس مرات: «أشهد أن محمّداً رسول الله»، فأى عملى يبقى؟ وأى ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلا دفناً دفناً. (٢)

«فقد أثر هذا الكلام حتى فى المغيره بن شعبه المعروف بفساده وانحرافه، فلم يذهب إلى تكفير معاويه فحسب، بل رآه من أكفر الناس وأخبثهم» ثم خاض ابن أبى الحديد فى أفعال معاويه وحياته الطاغوتيه وتصرفاته المجانبه للعدل والمروءه؛ الأمر الذى يؤكد عمق ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره. فقال ابن أبى الحديد:

و أما أفعاله المجانبه للعداله الظاهره من بُسه الحرير، وشربه فى آنيه الذهب والفضه؛ حتى أنكر عليه ذلك أبو الدرداء، فقال له: إنى سمعت رسول الله ص يقول؛ «إنّ الشارب فيها ليُجزجر فى جوفه نار جهنم»، وقال معاويه: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: مَنْ عذيرى من معاويه! أنا أخبره عن الرسول صلى الله عليه وآله؛ وهو يخبرنى عن رأيه! لا أساكنك بأرض أبداً.

نقل هذا الخبر المحدّثون والفقهاء فى كتبهم فى باب الاحتجاج على أنّ خبر الواحد معمول به فى الشرع؛ وهذا الخبر يقدح فى عدالته، كما يقدح أيضاً فى عقيدته، لأنّ مَنْ قال فى مقابله خَبِرَ قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أما أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وآله، ليس بصحيح العقيدَه ومن المعلوم أيضاً من حاله استنثاره بمال الفىء، وضربه مَنْ لا حدّ عليه، وإسقاط الحدّ عمّن يستحقّ إقامة الحدّ عليه، وحكمه برأيه فى الرّعيه وفى دين الله، واستلحاقه زيادا؛ وهو يعلم قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحَجْر»، وقتله حُجْر بن عدى أصحابه ولم

ص: ٨

١ - ١) العلامه المجلسى فى «بحار الانوار» فى معرض شرحه لهذا الموضوع، وهو لماذا كان معاويه بن أبى سفيان يدعو الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله بابن أبى كبشه، عند ذكره إياه، فيقول: إن مشركى العرب كانوا أيضا يدعون الرسول بهذا الاسم، وذلك لان «ابن أبى كبشه» هو من قبيله «خزاعه» والتي كانت على اختلاف مع قبيله قريش، حول مسأله عباده الاصنام، فابن أبى كبشه كان من مخالفى عباده الاوثان. «بحار الانوار ١٨/٢١٣». [١]

٢ - ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٥/١٢٩. [٢]

يجب عليهم القتل، ومهانتة لأبى ذر الغفارى وجبّه وشتمه إشخاصه إلى المدينة على قتب بعير وطاء لإنكاره عليه، ولعنه علياً وحسناً وحسيناً وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام، وعهده بالخلافه إلى ابنه يزيد، مع ظهور فسقه وشربه المسكر جهاراً، ولعبه بالنرد، ونومه بين القيان المغنّيات، اصطباحه معهنّ، ولعبه بالطنبور بينهنّ، وتطريقه بنى أميه للوثوب على مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته، حتى أفضت إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، المفتضحين الفاسقين: صاحب حبابه وسلامه؛ والآخر رامى المصحف بالسّهام وصاحب الأشعار فى الزندقه والإلحاد.

ولا- ريب أنّ الخوارج إنّما برىء أهل الدين والحقّ منهم، لأنّهم فارقوا علياً برئوا منه، وما عدا ذلك من عقائدهم، نحو القول بتخليد الفاسق فى النار، القول بالخروج على أمراء الجور؛ وغير ذلك من أقاويلهم؛ فإنّ أصحابنا يقولون بها، ويذهبون إليها، فلم يبق ما يقتضى البراءه منهم إلا براءتهم من عليّ؛ قد كان معاويه يلعبه على رؤوس الأشهاد وعلى المنابر فى الجمع والأعياد، فى المدينة ومكه وفى سائر مدن الإسلام؛ فقد شارك الخوارج فى الأمر المكروه منهم؛ وامتازوا عليه بإظهار الدين والتلزم بقوانين الشريعة، والاجتهاد فى العباده، وإنكار المنكرات، وكانوا أحقّ بأن يُنصّروا عليه من أن يُنصّر عليهم، فوضح بذلك قول أمير المؤمنين: «لا تقاتلوا الخوارج بعدى»، يعنى فى ملك معاويه.

٢ - جهل اتباع الحق وعلم اتباع الباطل

يتضح من كلام الإمام عليه السلام أنّه رجح الخوارج على أهل الشام من أتباع معاويه واستدل على ذلك بقوله: «فليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» ولا تقتصر هذه المقارنه على عصر الإمام عليه السلام؛ بل لا يخلو عصر ومصر من هاتين الفرقتين، فمازلنا نرى اليوم بعض الفئات المعاديه للإسلام التى تحت الخطى نحو الباطل وقد شمردت عن سواعدها للقضاء على الإسلام والمسلمين؛ فى حين هنالك الفئات الأخرى التى تنشدهم الحق إلّا أنّها لن تبلغه، وهى الأخرى معاديه للإسلام والمسلمين. ولا- ينبغى للمسلمين أن ينظروا ذات النظره لهاتين الفئتين، بل عليهم أن يمنحوا الأولويه فى الصراع للفئه الأولى، وذلك لعدم وجود سبيل إزاء الفئه الأولى - التى تنهج الفساد والباطل عن علم - سوى الصراع المسلح، بينما تحتاج الفئه

الثانيه إلى قدر من الوعظ والإرشاد والانفتاح على التعاليم الإسلاميه الحقه.

وقد أثبت هذا الأسلوب جدواه في موقعه النهروان بتوبه أغلب الخوارج وانابتهم إلى الحق بعد سماعهم لمواعظ أميرالمؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، فقد جاء في الأخبار أنّ ثمانيه آلاف منهم قد رجعوا عن ضلالتهم ولم يبق سوى أربعه آلاف منهم.

ص: ١٠

ومن كلام له عليه السلام

لما خوف من الغيله (٢)

«وَإِنَّ عَلِيَّ مِنَ اللَّهِ جُنَّةً حَصِينَةً فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي انْفَرَجَتْ عَنِّي أَسْلَمْتَنِي فَحِينِيذٍ لَا يَطِيشُ السَّهْمُ وَلَا يَبْرَأُ الْكَلْمُ» .

الشرح والتفسير

لماذا أخشى الموت؟

قيل فى سبب هذا الكلام أنّ أصحاب الإمام عليه السلام كانوا يخبرونه عن سوء نيه ابن ملجم، وقد قامت عدّه قرائن واضحه تكشف عن سوء نيته، حتى ذكروا أنّ الإمام عليه السلام كان يخطب الناس يوماً فجلس ابن ملجم أمام المنبر وهو يقول: «و الله لأريحنهم منك» فلما إنتهى الإمام عليه السلام من خطبته. أمسكه البعض ممن سمعه وأتوا به إلى الإمام عليه السلام. فقال عليه السلام: دعوه، ثم قال، وإنّ عليّ من

ص: ١١

١- ١) سند الخطبه: روى مقدمه هذا الكلام ابن كثير فى البدايه والنهايه نقلا عن كتاب أبى داود، وتوفى أبى داود لمئه وثلاثين سنه قبل السيد الرضى (ره)، ورواها الزمخشري فى ربيع الابرار مع إختلاف يفيد أنه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغه. [١] ورواها الآمدى [٢] فى غرر الحكم فى حرف الالف (مصادر نهج البلاغه ٢/٤٢). [٣] كما وردت فى كتاب صفين لنصرين مزاحم الذى عاش فى القرن الهجرى الثانى (نهج البلاغه [٤] طبعه. جماعه مدرسى الحوزه العلميه).

٢- ٢) «غيله» على غره بغير شعور من المقتول كيف يأتية القاتل، كما ورد «الاغتيال» بمعنى القتل الحيله، ومن مصاديقه أيضاً بعض الأذى الذى يتعرض له البدن دون القتل.

اللّه. . . (١) نعم قال الإمام عليه السلام: «و إن على من الله جنه حصينه، فإذا جاء يومى انفرجت عني وأسلمتني؛ فحينئذ لا يطيش (٢) السهم (٣) ولا يبرأ (٤) الكلم (٥)». والعبارة إشارة إلى سنه كونه ثابتة، وهى أن الإنسان لا يغادر هذه الدنيا ما لم يحن أجله، وعليه فأجل الإنسان بيد الله، ومفهوم ذلك أن إرادته هى التى إقتضت أن يبقى فلان إلى الوقت الفلانى، ومما لا شك فيه أن أحداً لا يسعه الوقوف بوجه هذه الإرادة، ومن هنا يمكن إعتبار الأجل الإلهى جنه حصينه إزاء بعض الحوادث؛ المعنى الذى ورد كراراً فى نهج البلاغه، ومن ذلك قوله عليه السلام: «إن الأجل جنه حصينه». (٦)

كما قال فى موضع آخر «كفى بالأجل حارساً» (٧) بل يمكن القول بأن هذا المعنى قد ورد فى الآيه الحاديه عشره من سوره الرعد: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» وجاء فى تفسير الآيه أن الإمام الباقر عليه السلام قال: «يقول: بأمر الله من أن يقع فى ركبي أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان بالنهار يتعاقبانه» (٨). وهنا يبرز هذه السؤال وهو لو كان الأمر كذلك، فليس هنالك من ضروره فى حفظنا لأنفسنا من المخاطر ونسعى لأن نقيها بعض الحوادث من قبيل الزلازل والأعاصير والأمراض وحوادث الدهس

ص: ١٢

- ١- ١) مصادر نهج البلاغه ٢/٤٢ - ٤٣، [١] كما رواه المرحوم ابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغه ٢/١٥٧.
- ٢- ٢) «يطيش» من ماده «طيش» على وزن عيش بمعنى خفه العقل وتستعمل للسهم حين يخطئ الهدف وكأن السهم لم يعمل على ضوء العقل، وفسره البعض بكل خفه (كتاب العين ومقاييس اللغه ولسان العرب).
- ٣- ٣) «سهم»، وهو فى الأصل واحد النبل، والمركب من النصل والنبل، والجمع، أسهم وسهام، ومن هنا يستعمل أحياناً لتعيين النصيب والفائده، ويستعمل للقرعه. ويطلق اصطلاح السهم على النصيب والحظ والفائده، «والمساهمه» تأتى بمعنى القرعه، ومن هنا وفى حال إجراء القرعه فان أسماء المقترعين تكتب على نصل السهم، ثم تخلط فيما بينها، ثم تتم عمليه انتخاب احد السهام، فيكون الاسم المكتوب عليه هو الفائز بالقرعه.
- ٤- ٤) «يبرأ» من ماده «برء» على وزن قرب بمعنى التحسن من المرض «وبرء» بمعنى الخلق، ومنه «البارئ» بمعنى الخالق.
- ٥- ٥) «الكلم» بالفتح على وزن نظم بمعنى الجرح. ومن هنا يقال للحديث الذى يترك أثراً على القلوب بالكلام.
- ٦- ٦) نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٢٠٢.
- ٧- ٧) نهج البلاغه، الكلمات قصار، ٦ - ٣.
- ٨- ٨) تفسير البرهان ٢/٢٨٣. [٢]

والاصطدام، بل يجب علينا أن نندفع بكل قوه وعدم مبالاه واكثرات وخشيه من هذه الحوادث؟! وللإجابة على هذا السؤال ينبغي الألتفات إلى أن أجل الإنسان على نوعين: أجل حتمى وأجل غير حتمى، والأجل الحتمى هو الأجل الذى لارجعه فيه، من قبيل مقدار نبض قلب الإنسان الذى قدر له العمل إلى اللحظة الفلانيه، بالضبط كالساعه التى تعمل إلى أجل معين يتعلق بوجود البطاريه فيها، فمتى ما نفذت قوه البطاريه توقفت الساعه عن العمل. أما الأجل غير الحتمى فهو الأجل الذى يمكن إجتنابه؛ وهو على قسمين: قسم تحت تصرف الإنسان بحيث يسعه إجتنابه من خلال رعايه الموازين العقلانيه من قبيل التترس والتدرع وإرتداء الخوذه فى ساحه القتال التى تحول عاده دون اغلب حالات القتل، فقد وكل للإنسان التعامل بحذر مع مثل هذه الأمور، وهو المسؤول عن هذه الحوادث، أما القسم الآخر فهو الأجل غير القطعى الخارج عن إراداه الإنسان من قبيل بعض حوادث المرور أو عدم التحسب من الوقوع فى البئر أو إنهيار الجبل وما إلى ذلك من الأمور التى لا يمكن التكهن بوقوعها. وهنا يأتى دور الملائكه الحفظه الذين يحفظون الإنسان من هذه الحوادث ما لم يصل أجله الحتمى، فاذا بلغ أجله تركوه وتلك الحوادث. وبالطبع فإن هذا القسم الأخير هو الآخر يمكن تقسيمه إلى نوعين: مشروط وغير مشروط والمشروط ما تتولى فيه الملائكه حفظ الإنسان شريطه قيامه ببعض الاعمال من قبيل التصدق والدعاء وصله الرحم وما إلى ذلك من المندوبات، بينما لايشترط مثل هذه الأعمال فى غير المشروط. والخلاصه ليس هنالك من تخلف فى الأجل المحتوم بينما يمكن تغيير الأجل المشروط أو المعلق من خلال التدبير والاحتياط أحياناً، والقيام ببعض الاعمال المندوبه من قبيل التصدق والدعاء وصله الرحم أحياناً أخرى، كما يمكن ذلك من خلال الملائكه الموكله بحفظ الإنسان من الأخطار غير المحتومه. ومن هنا يتبين عدم التعارض بين الآيات القرآنيه من قبيل: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» (١) والآيه الشريفه «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا» (٢) مع الآيه المباركه: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ. . .»، ولا مع الروايات التى

ص: ١٣

١-١) سورة الاعراف / ٣٤. [١]

٢-٢) سورة المنافقون / ١١. [٢]

صرح بتأخير أجل الإنسان إثر التصدق والدعاء، وهكذا يتضح الجمع بين كافة هذه الآيات والروايات على ضوء التقسيم
الثلاثي أو الرباعي الذي ذكرنا للأجل. (١)

ص: ١٤

١-١) لقد ورودت هذه الأقسام بالتفصيل في التفسير نمونه ١٨/٢٠٧ في ذيل الآيه ١١ من سوره فاطر.

ومن خطبه له عليه السلام

يحذر من فتنه الدنيا

نظره إلى الخطبه

الخطبه كما يفهم من عنوانها تحذير للجميع من فتنه الدنيا، حيث يشير الإمام عليه السلام فيها إلى موضوعين مهمين: الأول أنّ الدنيا قد تكون مصدر شقاء الإنسان أو سعادته؛ الأمر الذي يتوقف على طبيعته النظره إلى الدنيا والتعامل معهما. فالدنيا مذمومه وهي مصدر بؤس وشقاء إن كانت هدفاً وإنشدت الأنظار إلى زخارفها وأموالها وثرواتها، في حين ممدوحه هي الدنيا ومصدر سعادته الإنسان وفلاحه إذا كانت وسيله ومزرعه الآخره وأداه للوصول إلى القيم والمثل الإنسانية. الموضوع الآخر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام هو فناء الدنيا وتقلب أحوالها، وتشبيهها بفضة الظل الذي يلجأ إليه الإنسان للراحه وسرعان ما يزول.

ص: ١٥

١ - ١) سند الخطبه: كتب صاحب مصادر نهج البلاغه في سند هذه الخطبه: لا ترديد في أنّ ما ورد في هذه الخطبه قسم من خطبه طويله إختار السيد الرضى (ره) بعضها، وأضاف لقد أوردت هنا ما أورده الآمدى في غرر الحكم في حرف الالف، أما التفاوت في بعض العبارات والاضافات في نقل الآمدى تفيد أنّه استقى هذه الخطبه من مصدر آخر غير نهج البلاغه (لابد من الالتفات هنا إلى أنّ الآمدى صاحب غرر الحكم من علماء القرن الهجرى السادس، بينما عاش السيد الرضى في القرن الهجرى الرابع ٢/٤٤).

«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسَلِّمُ مِنْهَا، إِلَّا فِيهَا وَلَا يُنَجِّي بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا: ابْتَلَى النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً، فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أَخْرَجُوا مِنْهُ وَحُسْبُوا، عَلَيْهِ وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِعَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَىءِ الظِّلِّ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغًا حَتَّى قَلَصَ، وَزَائِدًا حَتَّى نَقَصَ.» .

الشرح والتفسير

الدنيا ظل زائل

لما كانت زخارف الدنيا وزينتها تدعوا إلى المبالغة في التعلق بها؛ الأمر الذي يفضى إلى مقارفة الذنوب والمعاصي والانحراف عن الصراط المستقيم والسقوط في هاوية الضلال فإنَّ القاده الربانيين لا ينفكون عن تحذير أتباعهم منها، وهذا ما نلمسه بوضوح في معظم نهج البلاغه الذي أورد التحذير تلو التحذير على لسان خطبه ورسائله وقصار كلماته. والخطبه التي نحن بصدددها هي نموذج من هذا التحذير الذي ضمنه الإمام عليه السلام سته أمور مهمه، فقد إستهل ذلك قائلاً: «أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يَسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا» والدليل واضح لانقاش فيه؛ لأنَّ من أهم أسباب السلامه هو كسب الفضائل الأخلاقية والتحلى بالقيم والمثل المعنويه وعبوديه الله وطاعته، والتي لا تتسنى إلأى هذه الدنيا، وليس للإنسان من فرصه سوى في هذا العالم دون العوالم الأخرى، ومن هنا قال الإمام عليه السلام لاتنال السلامه من الدنيا إلأىها. ثم قال عليه السلام: «و لاينجى بشيءٍ كان لها» أى إن كانت الدنيا هي دافع نشاطات الإنسان وغايه أعماله وأفعاله وحتى إتيانه بالعبادات إذا كان ينطوى على هدف دنيوى ويشوبه الرياء والسمعه فإنها لن تكن سببا لنجاته، بل ستفضى إلى هلاكه وشقائه. ثم أشار فى الأمر الثالث إلى كونها ميدان إمتحان: «ابتلى النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً» ؛ فالدنيا مليئه بالنعم إلى جانب المشاكل

والمصائب؛ فالنعمه وسيله للإمتحان، كما المصيبه إمتحان من نوع آخر. فهل تطغى النعمه الإنسان أم تشده إلى الله، وهل يؤدى شكر النعم عملاً فضلاً عن شكرها لساناً؟ وهل يستشعر قلبه اليأس حين المصيبه ويشكو ربه، أم يصبر عند المصاب ويشكر؟ فالإنسان يعيش الإمتحان فى هذين الأمرين كل يوم طيله حياته فى الدنيا، وهذا قانون خالد انبثق منذ خلق آدم عليه السلام وسيستمر إلى يوم القيامة، فقد قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ». (١) ثم قال عليه السلام فى الأمر الرابع: «فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه». ثم واصل كلمه قائلاً: «و ما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه، وأقاموا فيه» والعبارة إشارة إلى النظرتين المعروفتين فى نهج البلاغه، النظرة إلى الدنيا كوسيله والأخرى كغايه؛ فان كانت إمكانات هذه الدنيا والأموال والثروات والنعم والمقام والجاه وسيله لنيل السعادة والحياه الأخرويه الهنيئه فليس هناك أفضل منها، وإن كانت صنماً يسجد له الإنسان فليس هناك أسوأ منها. فالنظرة الاولى تسوق الإنسان إلى الورع والتقوى والطهر والعفاف بينما تدعوه النظرة الثانيه إلى الحرص والطمع والظلم والذله والهوان. والنظرة الاولى تحيل النعم الدنيويه الفانيه إلى نعم أخرويه باقيه، فى حين تكون النظرة الثانيه سبباً لزوال النعم وبقاء التبعات. ومن هنا تتضح عليه مدح الدنيا فى أغلب الآيات والروايات، إلى جانب ذمها فى البعض الآخر. فلعل البعض يفسر ذلك بالتناقض للوهله الاولى، بينما كل واحده منها صحيحه فى مكانها وكأنّ الواحده منها مكمله للأخرى، فالمدح يرتبط بالدنيا الوسيله، والذم بالدنيا الهدف والغايه. وسنعرض لهذا الموضوع بالتفصيل فى الأبحاث القادمه ذات الصله. وأخيراً يكشف الأمام عليه السلام اللثام عن حقيقه الدنيا ليشبهها بفى الظل الذى يمر سريعاً فقال: «فإنها عند ذوى العقول كفىء الظلّ، بينا تراه سابغاً (٢) حتى قلص، (٣) وزائداً حتى نقص»

ص: ١٨

(١-١) سورة العنكبوت / ٢ - ٣. [١]

(٢-٢) «سابغ» من ماده «سبوغ» بمعنى الامتداد، ونعمه سابغه تطلق على النعم الدائمه الممتده، واسباغ الضوء مواصلته بالماء دون الاسراف.

(٣-٣) «قلص» من ماده «قلوص» على وزن خلوص بمعنى إنقبض وارتفع، وفى الخطبه بمعنى زوال الظل بحلول عتمه الليل.

فقد ورد الظل بمعناه المطلق سواء ظل الأشياء قبل الزوال أو بعده، وبطلق أحياناً على ما قبل الظهر خاصة الذى تزيله الشمس تدريجياً، أما «فى» فهى تعنى الظل بعد الزوال (لأن مفهوم هذه المفردة يتضمن الرجوع والعودة) الذى يتسع كلما إقتربت الشمس من أفق المغرب ويزول إثر غروب الشمس وحلول الظلمه. وكأنَّ الإمام عليه السلام أشار إلى حقيقه مهمه وهى أن أصحاب الدنيا يجمعون الأموال والثروات كل يوم بحيث تزداد كلما إقترب عمرهم من نهايته، إلّا أنّها تزول وتنعدم من الوجود بغروب شمس العمر، وتنتهى كل هذه الثروات بحلول ظلمه الموت. ونختتم تفسير هذه الخطبه بالقول أنّ الإمام عليه السلام دائم التحذير من مغبه التعلق بالدنيا والاعتزاز بها وفضحها بمختلف الطرائف والأمثال وذلك للأسباب التاليه: أولاً: أنّ حبّ الدنيا والاعتزاز بها يمثل ماده الذنوب والمعاصى؛ الأمر الذى يجعل القائد الربانى محذراً أتباعه وملفتاً إنتباههم إلى عظم هذا الخطر على الدوام، وثانياً: شهد عصر الإمام عليه السلام وما سبقه بعض الفتوحات الإسلاميه التى درت على المجتمع الإسلامى ما لا يحصى من الغنائم والثروات والإمكانات؛ الأمر الذى جعل أفراد الأُمّه تعيش حاله من السباق للتكالب على هذا الحطام، وهذا ما أفرز حاله من الانحراف والاختلاف والتشتت والابتعاد عن التواضع فى الحياه والاقبال على الراحة والدعه والضعف أمام العدو من خلال التقاعس عن الجهاد، ومن هنا كان الإمام عليه السلام لا يرى أدنى فرصه إلّا واغتتمها من أجل إعادة الأُمّه إلى مسارها الإسلامى الصحيح. وقد وعظهم بسيرته وحياته قبل وعظهم بلسانه.

ومن خطبه له عليه السلام

فى المبادره إلى صالح الاعمال

نظره إلى الخطبه

جرى الحديث فى هذه الخطبه - كما فى الخطبه السابقه - عن تقلب أحوال الدنيا وضروره الزهد فيها، داعياً الناس إلى الاستعداد والتأهب للآخره. ثم صور الدنيا بهذه الصوره «وما بين احدكم وبين الجنة أو النار الا الموت أن ينزل به، وإن غايه تنقصها اللحظه وتهدمها الساعه، لجديره بقصره لمدته، وأنّ غائباً يحدوه (٢) الجديدان: الليل والنهار، لحرى بسرعه الأوبه». ثم يختتم عليه السلام خطبته بدعوه الناس إلى التوبه والإنابه إلى الله ويحذر من الغفله عن الموت والاعتزاز بالأمل الذى يصد عن الآخره، فاذا باغت الإنسان الموت وكان غارقاً فى شهواته ومعاصيه صعب عليه مفارقه الدنيا.

ص: ٢١

١ - ١) سند الخطبه: ورد بعض هذه الخطبه فى كتاب الغرر والدرر للآمدى مع بعض الاختلاف عما ورد فى نهج البلاغه، مما يشير إلى أنه إقتبسها من غير مصدر نهج البلاغه، كما نقل بعضها السبطين الجوزى فى تذكره الخواص بالاضافه إلى ما ورد فى نهج البلاغه، وهذا يعنى أنه استقاه من مصدر آخر غير نهج البلاغه، وصرح فى كتابه بأنه يذكر عبارات أمير المؤمنين عليه السلام المتصله السند (مصادر نهج البلاغه ٢/٤٧ - ٤٨).

٢ - ٢) «يحدو» من ماده «حدو» على وزن ضرب، و «حدا» على وزن دعا، وفى الاصل بمعنى، الغناء للابل أثناء سوقها بصوت خاص، وذلك عندما يريد سائق الابل الاسراع فى السير، والصحيح «حدا» وفى لسان عامه الناس يُقال «حدى».

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَخَلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظْلَكُكُمْ، وَكُونُوا قَوْمًا صٰحِحِ بِهَمِّ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بَدَارٍ فَاسْتَبَدَّلُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُجَاهِنُهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً» .

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بتحذير الجميع من الدنيا والالتفات إلى سرعه زوالها والهدف من خلق الإنسان فيها، والاستغراق في الغايه التي ينبغي أن ينشدها في هذه الحياه. فقد قال عليه السلام: «فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ» كل مالديكم من الله وقد أمطركم بوابل نعمه وآلائه فانتم عباده ولا يصح لكم الخروج على أوامره وعصيانه. أما التأكيد على التقوى في هذه الخطبه وسائر الخطب مما لا يحتاج إلى أدنى إيضاح كون التقوى تشكل اللبنة الأساس للمؤمن والعمل الصالح، الأمر الذي ورد التأكيد عليه كراراً في القرآن حتى عد الوسيله للتفاضل «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (١) وهي خير الزاد «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٢). ثم قال عليه السلام: «و بادروا آجالكم بأعمالكم»، وكان السباق قد بلغ ذروته بين الإنسان والموت، فلو طبع حياته بالعمل الصالح فإنه سيصل غايته قبل أن يحل به الموت فيحول دون بلوغ تلك الغايه. والواقع أن غايه الإنسان تتمثل بالعباده والسمو والتكامل والقرب الإلهي؛ الأمور التي يمكن

ص: ٢٣

١-١) سورة الحجرات / ١٣. [١]

٢-٢) سورة البقره / ١٩٧. [٢]

للإنسان بلوغها إذا تحلى بالورع والتقوى والعمل الصالح قبل حلول أجله وانتهاء عمره، وإلا سيفاجئه الموت دون الظفر بغايته وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم: «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» (١) ثم اتبع ذلك بالقول: «و لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها» أى ليست هناك من استجابته لمثل هذه الطلبات هناك. ثم قال عليه السلام: «و ابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم» فالدنيا ومتاعها ونعمها إلى زوال وتبدل وعدم إستقرار، بينما تتصف نعم الآخرة بالدوام والخلود، فهل من عاقل يتردد فى مثل هذه الصفقه وذلك بان يشتري ذلك المتاع الخالد بهذا المتاع الفانى؟ ابتاعوا من ماله ابتاع بمعنى الشراء، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى عدة آيات، منها «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِندَهُ عِلْمٌ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (٢) فهذه الآية - التى شرحت المقايضه المعنويه والإلهيه للناس مع الله باروع بيان وضمن عشره تأكيدات - إنما تشمل كافه ميادين الحياه البشريه وإن وردت بشأن الجهاد؛ لأنَّ الجهاد جزء من مفردات هذه الحياه، وقد جاء شبيه هذا المعنى فى الآية العاشره من سوره الصف «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. . .» فهل هناك أعظم وأريح من هذه التجاره التى يمثل طرف الإنسان فيها الله سبحانه الكريم الغفور الرحيم من جانب، ومن جانب آخر يرضى الله بهذه المعامله لأن يبادل الإنسان بهذا المتاع الفانى والزائل الذى يفقده الإنسان شاء أم أبى بذلك المتاع الخالد الذى يأبى الزوال والفناء؟ ! ثم قال عليه السلام: «و ترحلوا (٣) فقد جد (٤) بكم» فى إشاره إلى أن الرحيل من الدنيا ليس بالهزل ولا السهل اليسير، بل أمر جدى بالغ الصعوبه فلسان حال كافه أعضائنا الباطنيه والظاهريه هو الرحيل، ويعاضد ذلك

ص: ٢٤

١-١ (١) سوره المنافقون / ١٠. [١]

٢-٢ (٢) سوره التوبه / ١١١. [٢]

٣-٣ (٣) «ترحلوا» من ماله «رحله» بمعنى السفر والرحيل من مكان إلى آخر.

٤-٤ (٤) «جد بكم» من ماله «جد» بمعنى حثتم وازعجتم إلى الرحيل، كما تأتى بمعنى الأهميه، ويراد بها أيضاً الأسفار السريعه.

إستزاف القوى الجسمانيه، إلى جانب الآفات والأحداث والبلاءات وأنواع الأمراض التي تدفع بالإنسان إلى الرحيل.

ثم أمر الإمام عليه السلام واستناد لما مر بالتجهز والتأهب فقال: «واستعدّوا للموت فقد أظلكم» وبالطبع ليس المراد بالتأهب والاستعداد للموت أن يكف الإنسان عن السعى والعمل ويقاطع الدنيا ويقبع في زاويه من داره ينتظر الموت، بل المراد الاكثار من الأعمال الصالحه وتهذيب النفس وتزكيتها والتحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق والمسارعه في «الباقيات الصالحات»، وبعبارة أخرى التزود للدار الآخرة والقدوم عليها بما ينجى الإنسان من عقباتها. أمّا العبارة «فقد أظلكم» فهي تفيد قرب الموت؛ لأنّ الأشياء القريبه فقط هي التي تظل الإنسان. والواقع ليست هنالك من مسافه بين الإنسان والموت، فقد يستسلم للموت أقوى الأقياء إثر حادثه بسيطه تحيل كيانه عظاماً ولحماً خاوياً، كما قد يموت رغم عنفوان شبابه بفعل سكتة قلبيه، بل قد تخنقه اللقمه الصغيره فتميته، وزبده القول لولا الغفله التي طغت على الناس بتناسى الموت لما استطاع البشر ممارسه الحياه بهدوء وسكينه ولو للحظات. ثم قال عليه السلام: «و كونوا قوماً صيحيهم فانتبهوا، وعلموا أنّ الدّنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا». (١)

ولعل المراد بمن يصيح في الناس ويوقظهم من نوم الغفله، هو ذلك الملك الذي أشار إليه الإمام الباقر عليه السلام مروياً عن أمير المؤمنين عليه السلام: «له ملكٌ ينادى كلَّ يومٍ! لدوا للموت وابنوا للخراب!» (٢)

أو المراد به العناصر الداخليه في جسم الإنسان والتي تؤدي بالتدريج إلى ضعف الجسم وكأنّها تهتف به إلى الرحيل. وقد وردت عدّه أشعار في الديوان المنسوب للإمام عليه السلام بهذا الشأن، نرى من الجفاء عدم التعرض لها، فقد قال: إلى م تجرّ أذيال التصابي

وأخيراً اختتم كلامه الذي أشار فيه إلى الدنيا وتقلب أحوالها وضروره الاستعداد فيها إلى سفر الآخرة بعبارة أوردها بمنزله الدليل والبرهان على ما قال: «فإنّ الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدّى» ٢ والعبارة في الواقع إشاره إلى برهان المعاد المعروف (برهان الحكمة) الذي يصرح بأنّ هدف خلق الإنسان إذا اقتصر على هذه الحياه القصيره وما يكتنفها من أيام المطعم والملبس والنوم فانما هو العبث بعينه، فلا يمكن أن يكون هذا هو الهدف من هذا الخلق العظيم وهذه السموات والأرضيين وما يكتنفهما من العجائب والغرائب وهذه البنيه العجيبه لخلق الإنسان بهذا التعقيد والدقه والنظام، فجميع القرائن الموجوده في عالم خلقه الإنسان والأكوان تشير إلى عظم الهدف الذي قام من أجله الخلق، وهو الهدف العظيم الذي خلق الحكيم من أجله الإنسان والعالم، والذي يكمن في تكامل الإنسان وقربه من الله ونيله سعادته الدارين.

ص: ٢٥

١ - ١) تفيد القرائن الوارده في الخطبه ان «فاستبدلوا» وردت بصيغه الماضي كالمفرده «فاتبهوا» لأنّ كليهما نتيجته للعبارة السابقه، فالانتباه نتيجته صراخ اليقظه وتبديل الدنيا بالآخرة نتيجته العلم بموضعيهما، والعجيب أن أغلب شراح نهج البلاغه [١] صرحوا بأن «فاستبدلوا» فعل أمر؛ الأمر الذي يغير مفهوم هذه العبارة والعبارات اللاحقه.

٢ - ٢) منهج البراهه للعلامة الخوئي ٤/٣٣٩؛ [٢] وقد ورد هذا المعنى في الكلمه ١٣٢ من قصار كلمات نهج البلاغه حيث قال عليه السلام: «إن لله ملكاً ينادى في كل يوم: لدوا للموت، واجمعوا للفناء وابنوا للخراب» .

الشأن، نرى من الجفاء عدم التعرض لها، فقد قال:

إلى متجر أذيال التصابي

وشيبك قد نضا برد الشباب

بلال الشيب فى فوديك نادى

بأعلى الصوت حى على الذهاب

خلقت من التراب وعن قريب

تغيب تحت أطباق التراب

طمعت إقامه فى دار ظعن

فلا تطمع فرجل فى الركاب

و أرخيت الحجاب فسوف يأتى

رسول ليس يحجب بالحجاب

أعامر قصر ك المرفوع؟ أقصر!

فإنك ساكن القبر الخراب!^(١)

وأخيرا إختتم كلامه الذى أشار فيه إلى الدنيا و تقلب أحوالها و ضروره الاستعداد فيها إلى سفر الآخرة بعبارة أوردها بمنزله الدليل والبرهان على ما قال: «فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى»^(٢). والعبارة فى الواقع إشارة إلى برهان المعاد المعروف (برهان الحكمة) الذى يصرح بأن هدف خلق الإنسان إذا اقتصر على هذه الحياه القصيره وما يكتنفها من أيام المطعم والملبس والنوم فانما هو العبث بعينه، فلا يمكن أن يكون هذا هو الهدف من هذا الخلق العظيم وهذه السموات والأرضيين وما يكتنفهما من العجائب والغرائب وهذه البنيه العجيبه الحلقه الإنسان بهذا التعقيد والدقه والنظام، فجميع القرائن الموجوده فى عالم خلقه الإنسان والأكوان تشير إلى عظم الهدف الذى قام من أجله الخلق، وهو الهدف العظيم الذى خلق الحكيم من أجله الإنسان والعالم، والذى يكمن فى تكامل الإنسان وقربه من الله ونبيله سعادته الدارين.

ص: ٢٦

٢- «سدى» من ماده «سدو» على وزن سرو بمعنى الإهمال والعبث، ومن هنا تطلق العرب «سدى»، على الأبل التي لاراعى لها وترعن كيفما تشاء، والعباره بمعنى تعنى أن الله لم يخلقكم عبثا دون هدف.

«وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ، وَإِنَّ غَايَةَ تَنْقِصِهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِيمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصْرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غَايَةَ يَحْيَاؤُهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لِحَرِيٍّ بِسُرْعَةٍ الْأَوْبَةِ، وَإِنَّ قَادِمًا يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوْ الشَّقْوَةِ لِمُسْتَحَقٍّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدًا» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى ثلاثه أمور مهمه: الأول «و ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلالموت أن ينزل به» أى إن كنت حذرتكم من الدنيا ودعوتكم إلى التزود للآخرة بالتقوى والعمل الصالح ومبادره الأجل، فذلك لقصر المسافه بينكم وبين الجنة أو النار، فما أسرع أن تروا أنفسكم فى الجنة أو النار إذا حل الموت بنايديكم. فالمؤمن الفطن ليقف على مدى قصر هذه المسافه ويراهها على ضوء الآيه القرآنيه: «إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ» ، (١)خاطفه من حيث الزمان، كما يراها كذلك على مستوى المكان على ضوء الآيه الشريفه: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا» (٢)وبالطبع فالآيه إشاره إلى القيامه الصغرى لا الكبرى، وتفسير ذلك أن للإنسان قيامتان: ١ - القيامه الكبرى التى يحشر فيها جميع الأولين والآخرين ليحاسبوا على أعمالهم. فالمحسنون إلى الجنة والآثمون إلى النار. ٢ - القيامه الصغرى

ص: ٢٧

١-١ (١) سورة القمر / ١. [١]

٢-٢ (٢) سورة المعارج / ٦. [٢]

التي تحل بالفرد عند موته فتقطع علاقته بالدنيا وتغلق صحيفه أعماله فتكون حفره قبره روضه من رياض الجنه أو حفره من حفر النار. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «إنَّ للقبر كلاماً في كلِّ يوم يقول: أنا بيت الغربه. . . أنا روضه من رياض الجنه أو حفره من حفر النار» (١). طبعاً يراد بهذه الجنه والنار البرزخيه لا جنه القيامة ونارها. على كل حال فإنَّ الإمام عليه السلام تحدث عن قرب القيامة وسرعه ثوابها وعقابها وإن رآها عبيد الدنيا بعيدة ثم قال عليه السلام: «وإنَّ غايه تنقصها اللحظه، وتهدمها الساعه، لجديره بقصر المده» والمراد بالغايه هنا عمر الإنسان أو إختتام هذا العمر حيث يأخذ بالتناقص كل يوم، ويتحطم ركن منه بمرور كل ساعه ولحظه، فالعمر ليس سوى هذه الساعات واللحظات وهي الحقيقه التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: «وَالْعَصِيرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ»، كما أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله: «إنَّ الإنسان لفي خُسْرٍ» (٢). ومن العجب العجيب أن تسأل أحدهم عن قيمه عمره فلا تراه مستعداً لاستبداله بأى شى بينما يقضى أغلب أوقاته لاهياً عابثاً دون أن يحترم الوقت، والحال ليس العمر سوى هذه الأوقات. ولا بأس هنا بذكر هذه الطريفه التي أوردها المحقق النراقي أحد كبار الفقهاء فى كتابه الفكاهى الواعظ طاقديس الذى ذكر فيه تلك المواعظ على هيئه الشعر. فقال أن طراراً ذهب إلى بقال وسأله ما ثمن الجوز؟ قال: كل ألف جوزه بعشره دراهم. سأل: فما ثمن المئه؟ قال: درهم واحد. سأل: ما ثمن العشره؟ قال: عشر الدرهم. حتى سأله عن ثمن الجوزه الواحد. فقال: لا قيمه لها. قال الطرار: فان كان كذلك فاعطني واحده. فأعطاه. ثم عاد وطلب واحده. فأعطاه ثم عاد ثالثه وسأله واحده. وهنا إلتفت إليه البقال وسأله: من أين أنت؟ أجاب: من بلده فلان. فقال: أيها الماكر، إذهب واخذع غيرى (أتريد أن تقتنى متاعى بالمكر والخداع) وهكذا يقوم بعض الجهال من أهل الغفله بهدم ساعات عمرهم ولحظاته بالمكر والخداع وبالطبع فهم لا يخذعون سوى أنفسهم فيضيعون هذا العمر الذى لا تعدله قيمه. ثم قال عليه السلام: «وإنَّ غائباً يحدوه الجديدان: الليل والنهار،

ص: ٢٨

١-١ (١) الكافي ٣/٢٤٢. [١]

٢-٢ (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار /٧٤.

لحرى بسرعه الأوبه» (١) والمراد بالغائب هنا الأجل، وكأنه الناقه السريعه الجاده فى الحركه حيث يجذبها الجديدان الليل والنهار وهما بمثابه الراعى الذى يحدوها إلى الحركه، ومن الطبيعى أن هذه الناقه - الأجل - ستصل بسرعه إلى هذا الإنسان، أما التعبير بالجديدين عن الليل والنهار وذلك لتجددهما على الدوام واستبدال أحدهما بالآخر، والتعبير بالاوبه التى تعنى الرجوع، واستناداً إلى القرآن الكريم والأدله الحسيه واليقينيه فى أن الإنسان كان فى البدايه ماده خاليه من الحياه، ثم دبت فيه هذه الحياه، وأخيراً سيعود إلى ما كان حين الموت، ثم يبعث وتدب فيه الحياه من جديد باذن الله: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (٢) وقد ورد هذا المعنى فى قصار حكم نهج البلاغه «إذا كنت فى إدارٍ والموت فى إقبالٍ فما أسرع الملتقى» (٣). هذا وقد فسر بعض شراح نهج البلاغه الغائب فى العبارة بالإنسان لأنه غاب عن وطنه ومنزله الأصلي الآخره التى يجب عليه الرجوع إليها، والليل والنهار يسوقانه سريعاً إلى ذلك المنزل. ويبدو أن هذا التفسير ينسجم والقول: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» (٤) وما ورد فى وصيه أميرالمؤمنين عليه السلام لولده الحسن: «و اعلم يا بنى أن من كانت مطيته الليل والنهار، فإنه يساربه وإن كان واقفاً، ويقطع المسافه وإن كان مقيماً وادعاً» (٥). ألا أن الذى يبعد هذا التفسير هو عدم خلوه من التكلف فى تفسير الغائب بالإنسان، أما تفسيره بالأجل يبدو أقرب وأنسب ثم قال عليه السلام:

ص: ٢٩

١-١) أوبه له معنى مصدرى واياى بمعنى الرجوع والإنايه.

٢-٢) سورة البقره / ٢٨. [١]

٣-٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٨.

٤-٤) سورة البقره / ١٥٦. [٢]

٥-٥) نهج البلاغه، الرساله ٣١. [٣]

«وإنَّ قادمًا يقدم بالفوز أو الشَّقْوَه لمستحقِّ لأفضلِ العَدَّةِ» ومن الواضح أنَّ المراد بالقادم هنا الإنسان الذي ينطلق في حركته من الدنيا إلى الآخرة ولا- يحمل سوى السعادة أو الشقاء، فما أحرأه أن يتزود بخير العده وأفضل الزاد ليفوز بسعاده تلك الدار. وذهب بعض الشراح إلى أنَّ المراد بالقادم هنا الموت وأجل الإنسان وأنَّه يرد بالسعادة أو الشقاء، فعليه أن يتأهب كأفضل ما ينبغي له ليفوز بالسعادة. ويرجح هذا التفسير على سابقه لأنه ينسجم ومفهوم العبارة السابقة «وإنَّ غائبًا. . .» والمراد بأفضل العَدَّة التقوى، التي أشار إليها القرآن بفضلها خير الزاد «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (١). ومن هنا خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً» في إشاره إلى أنَّ ما في الدنيا يمكنه أن يكون تلك المعنوية في الآخرة، وهى المعنويات هناك سوى الاعمال الصالحة هنا والتقوى والورع التي عدت خيرا الزاد، فكما أنَّ الزاد الدنيوى يقى المسافرين من خطرات الموت والجوع وآفات السفر، فكذلك زاد التقوى بالنسبة لآخرة وهذا ما ورد التأكيد عليه فى الروايات، فقد جاء فى الحديث أنَّ علياً عليه السلام قال: «التَّقْوَى حِرْزٌ لِمَنْ عَمِلَ بِهَا» (٢) وقال فى موضع آخر: «التَّقْوَى حِصْنٌ حَصِينٌ لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهَا» (٣) وقال: «إلجأوا إلى التَّقْوَى فَإِنَّهُ جَنَّةٌ مَنِعَةٌ» (٤).

ص: ٣٠

١-١ (١) سورة البقره / ١٩٧. [١]

٢-٢ (٢) غرر الحكم، ح ١١٢٨.

٣-٣ (٣) غرر الحكم، ح ١٥٥٨.

٤-٤ (٤) غرر الحكم، ح ٢٥٥٣. [٢]

إشارة

«فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَ مَسِيئَتِهِ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيُرَكَّبَهَا، وَيُؤَمِّنِيهِ التَّوْبَةَ لِيَسُوِّفَهَا، إِذَا هَجَمَتْ مَيِّتُهُ عَلَيْهِ أَغْضَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا؛ فَيَا لَهَا حَسِيرَةً عَلَى كُلِّ ذِي عَقْلٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ! نَسِئُ أَلَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ وَلَا تُقْصِرُ تَقْتَصِرُوا بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةً وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةً وَلَا كَابَةً» .

الشرح والتفسير

قال الإمام عليه السلام مستهلاً قوله بفاء التفرغ كنتيجة لما سبق: «فاتقى عبداً ربّه، نصح نفسه، وقدم توبته، وغلب شهوته» (1) فقد أوصى عليه السلام بالتقوى كتوضيح لقوله عليه السلام: «فتروّدا في الدنيا»؛ لأنها خير الزاد إلى المعاد، ثم خاض في التفاصيل بثلاث عبارات: الأولى نصح النفس ومن ثم التوبه وأخيراً غلبه الشهوة والتي تمثل بمجموعها وصفه كامله لسعاده البشريه؛ البشريه التي قد تغفل عن نصح نفسها ولا تفكر في التوبه وتدارك ما فرط منها؛ الأمر الذي يجعلها أسيره أهوائها وشهواتها. ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع يمثل الدليل على ما ورد سابقاً «فإنّ أجله مستورٌ عنه، وأمله خادعٌ له، والشيطان موكلٌ به، يزین له المعصية ليركبها، يمينه

ص: ٣١

(١-١) إنّ الأفعال وإن وردت بصيغ الماضي إلّا أنّها تفيد معنى الأمر. وكان السامع على درجه من الطاعه بحيث يمتثل الاوامر قبل سماعها.

التوبه ليسوفها (١) إذا هجمت مئته عليه أغفل ما يكون عنها» واستناد إلى أن جملة «أغفل ما يكون عنها» حاله فمفهوم العبارة هو أن مثل هذا الإنسان الأسير للشهوات والوساوس الشيطانية يكون في أشد مراحل الغفلة إذا هجم عليه الموت، فان فتح عينه وأفاق إلى نفسه لا يرى أمامه إلا الأجل وقد سبق السيف العدل. كما يحتمل إلتاكون إذا شرطيه في العبارة وتفيد المفاجئه والمباغته، فيكون مفهوم العبارة «يباغته الموت، وهو في أشد حالات الغفلة» وبالطبع فان نتيجة كلا التعبيرين واحده وهى حلول الموت دون الاستعداد له. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فيا لها حسرة على كل ذى غفله أن يكون عمره عليه حجة، وأن تؤذيه أيامه إلى الشقوه!». أجل ليس هناك رأس مال أعظم من ساعات عمر الإنسان وأيامه، فلعل ساعه من الساعات تقود الإنسان إلى ذروه الكمال والعظمة والمجد فيخرج الإنسان فيها على غرار الحرين يزيد الرياحى من زمره الأشقياء ليلتحق بصفوف الصالحين والشهداء. أو يغتنم لحظه فيسدد ضربه موجهه لجسد الكفر بحيث يكون ثوابها أفضل من عباده الثقلين، (كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن ضربه على عليه السلام يوم الخندق)، أو يبيت ليله على فراش ليكسب تجاره عظيمه الريح والفائده، كالليله التى بات فيها أمير المؤمنين على عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليله الهجره. فلو غفل الإنسان عن قيمه هذه الساعات واللحظات فى حياته ولم يستشمرها بما يعادلها، أفلا يدعو ذلك إلى الاسى والحزن، ومن هنا أعرب الإمام عليه السلام عن أسفه وعمق حسرته على مثل هذا الإنسان وأخيراً يختم الإمام عليه السلام خطبته بهذا الدعاء العظيم: «نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره (٢) نعمته ولا تقصير به عن طاعه ربّه غاية، ولاتحلّ به بعد الموت ندامه ولا كاتبه (٣)».

فالإمام عليه السلام يعلم الجميع ثلاثة دروس بهذه العبارات التى أوردها بصيغته الدعاء: الأول

ص: ٣٢

١- ١) «يسوفها» من «التسويق» بمعنى التأخير فى العمل واصل العبارة «سوف أفعل كذا».

٢- ٢) «تبطر» من ماده «بطر» على وزن نظر بمعنى بقر الشئ ومنه «البيطار» الذى يبقر بطن الحيوان، ثم أطلق على كل طغيان وتجاوز للحد فى السرور عند إقبال النعم، ويمكن القول بان البطر السكر والغرور الذى تفرزه النعمه، فالعبارة تعنى لاتطغيه ولا تسدل على بصيرته حجاب الغفله عما هو صائر إليه.

٣- ٣) «كآبه» على وزن خرابه لها معنى المصدر وإسم المصدر وتعنى الامتعاض والانكسار من الهم والحزن، وقيل تطلق على الامتعاض من الحزن الظاهر على الوجه.

الحذر من الغرور والسكر عند النعمة، الثانى الحذر من الأهداف المادية التى تصد عن طاعه الله والثالث التحذير من عدم التزود للأخره والشعور بالندم والخيبه والخسران حين حلول الأجل.

تأملات

١ - فلسفه خفاء الموت

لقد أشارت الخطبه إلى أحد الأسرار المهمه للخلق والذى يكمن فى خفاء الموت «فإنَّ أجله مستورٌ عنه» ؛ فلا أحد يعلم هل سيبقى حياً إلى ساعه أخرى أم سيموت؟ فهو اليوم مخبر وغدا يخبر عنه، وهو اليوم فى مجلس عزاء صاحبه، وغدا صحبه فى مجلس العزاء الذى يقام على روحه. ومما لاشك فيه أنَّ عمر الإنسان إذا إتضح لصاحبه جرماً لا يخفى من المفاسد؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى توحيد مفضل المعروف: تأمل الان يا مفضل ماسترى الإنسان علمه عن مده حياته فأنه لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزله من قد فنى ماله أو قارب الفناء فقد استشعر الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر، على أنَّ الذى يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال لأنَّ من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر إستحكم عليه اليأس وإن كان طويل العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك فى اللذات والمعاصى وعل على أنه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب فى آخر عمره، وهذا مذهب لا- يرضاه الله من عباده ولا يقبله (ومن هنا حجب الإنسان عن معرفه العمر ليعيش دائماً بين الخوف والرجاء). (١)

٢ - الاغترار بالامانى

أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه إلى الآمال والاغترار بها فقال عليه السلام: «و أمله خادعٌ له». والسؤال

ص: ٣٣

الذى يطرح نفسه هنا: لماذا وكيف تخدع المال الإنسان فيعيش أفضل ساعات عمره في الوهم والخيال الفارغ؟ ونقول في الجواب أن دائره الآمال ليست محدوده قط، فالكثير يعتقد أنه سينام مطمئن البال من ناحيه السكن على الدوام إذا ما حصل على دار متواضعه، فلا تمر عليه مدّه حتى يراها صغيره ضيقه، فإذا إنتقل إلى دار أوسع رآها هي الأخرى لا تتناسب وشأنه، بل هنالك الكثير من الأفراد الذين يمتلكون القصور ولم تظماً جذوه عطشهم المتقدّه دائماً فما زالوا يطمحون إلى قصر أفخم وأعظم. وزبده الكلام فلو أعطى الإنسان جبلين من ذهب لا يبتغى لهما ثالثاً. وبالطبع لا تقتصر هذه الامال على مجال دون آخر، بل هي عامه وشامله لا تدع صاحبها يستريح ولو لبرهه فتهدر جميع طاقاته وتبدد قواه وتشدها إليه، والحال ليست هذه الآمال سوى خيالات موهومه كاذبه والتي وصفها الإمام عليه السلام بالخادعه.

٣- تزيين الشيطان

من النقاط المهمه التي أشارت إليها الخطبه تزيين الشيطان للذنوب والمعاصي، وهذا ما نوه إليه القرآن الكريم في الآيه الثالثه والاربعين من سوره الانعام بشأن الأمم السابقه: «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (١). كما ورد في سوره الحجر على لسان الشيطان حين لعنه الله وطرده من رحمته وتصدى لمعاداه بنى آدم وإغوائهم: «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (٢). ويحصل هذا التزيين الشيطاني الباطل والوسوسه لمقارفه اللذات واضفاء طابع الحلاوه على بعض الخطايا وهنا يبدأ إمتحان الإنسان في كيفية التعامل مع هذه الملذات العابره التي تنتهى لذتها وتبقى تبعثها. وهنا يبرز هذا السؤال وهو أن بعض الآيات القرآنيه نسبت إلى الله تزيين هذه الأعمال، فكيف التوفيق بين هذه الآيات وتلك التي ذكرت سابقاً؟ يتضح الجواب على هذا السؤال من الآيه الرابعه من سوره النمل التي قالت: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَهْمُونَ». فالآيه تشير إلى أن هذا التزيين الإلهي يمثل نوعاً من العقاب لأولئك الأفراد

ص: ٣٤

١-١) سوره الحجر / ٣٩ - ٤٠. [١]

٢-٢) سوره الحجر / ٣٩ - ٤٠. [٢]

المنحرفين المجانبيين للإيمان، وبعبارة أخرى فإن أعمالهم كانت مدعاه لأن يتركهم الله ليقعوا في مخالاب الشيطان فلا يوليهم دعمه وإسناده. وبناءً على ذلك فإن الطائفتين من الآيات تشيران إلى حقيقه واحده، ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «و الشيطان موكلُّ به، يزین له المعصيه ليركبها».

٤ - عمر الإنسان حجّه عليه

حجّيه العمر واحده من الأمور التى أشارت إليها خطبه الإمام عليه السلام. فكيف يكون عمر الإنسان حجّه عليه؟ يبدو أنّ الله سبحانه وتعالى يلحق الإنسان طيله عمره مجموعه كافيه من العبر والدروس والحوادث التى تثير لديه حس الوعى واليقظه، إلى جانب الوصايا والتعاليم التى يحملها إليه أنبياء الله وأوصيائهم. ومن هنا صرح القرآن الكريم بأن أصحاب النار حين يصطرخون إلى الله بأخراجهم من النار ليعملوا صالحاً: «وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنّا نعمل» يخاطبون: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ». (١)

٥ - سكر النعم

المسألة الأخيره التى تعرضت لها الخطبه، هى تلك الظاهره التى تعتري بعض الأفراد الضحليين من جراء وفور النعمه والتى عبرت عنها الخطبه بالبطر؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن فى الآيه السابعه والأربعين من سوره الانفال: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ» وكما ذكرنا آنفاً فإن المراد بالبطر هنا طغيان الإنسان إثر وفور النعم بما يجعله يهتك حجاب الورع والتقوى وطاعه الحق سبحانه، وهى الحاله التى غالباً ما يعيشها الأفراد من أصحاب النعمه البعيدين عن معانى الإيمان والاتزان فى الشخصيه؛ فيعيش حاله من الغرور والسكر بما يجعل من المتعذر عليه السيطرة على نفسه والحد من طغيانها وجماحها،

ص: ٣٥

وهذا ما يؤدي به في خاتمه المطاف إلى الذلة والهوان، ومن هنا جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ينبغي للعاقل أن يحترز من سكر المال وسكر القدره وسكر العلم وسكر المدح وسكر الشَّباب» ثم يختتم هذا الحديث بقوله: «فإنَّ لكلِّ ذلك رياحاً خبيثَةً تسلب العقل وتستخفِّف الوقار» (١). نعم سكر هذه الأمور أثقل من سكر الخمره وأصعب إفاقه منه، فسكر الخمره قد لا يستغرق أكثر من ليله، بينما قد يمتد سكر الأمور الآنفه الذكر طيله عمر الإنسان.

ص: ٣٦

١-١) غرر الحكم، ح ١٠٩٤٨. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها مباحث لطيفه من العلم الإلهي

نظره إلى الخطبه

لما كان ذكر الله والتوجه إلى الله بأسمائه وصفاته يلهم الإنسان القوه والصمود ويدعوه إلى ممارسه مسؤوليته في جهاد العدو، فإن الإمام عليه السلام لا ينفك قبل القتال وخلال له من توجيه الأُمَّه نحو الله وصفاته الجلاله والجماليه، ومن ذلك هذه الخطبه التي خطبها الإمام عليه السلام على أعتاب قتاله لمعاويه ورهطه من أهل الشام، والتي يذكر فيها صفات الله عامه ولا سيما بشأن العلم والقدره بهدف تفعيل قوه الأُمَّه وتعبئه طاقاتها في ظل الالتفات إلى هذه الصفات.

ص: ٣٧

١-١) سند الخطبه: نقل الصدوق (ره) هذه الخطبه مع بعض الاختلاف في كتابه التوحيد وأضاف: أن الإمام عليه السلام خطبها حين جهز الجيش ثانيه لقتال معاويه. ومن بين المحدثين الذين نقلوا هذه الخطبه المرحوم الآمدي في غرر الحكم، وإن عاش بعد السيد الرضى. إلا أن اختلاف عباراته مع عبارات السيد الرضى (ره) يفيد أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٥٠).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا، فَيَكُونُ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِرًا، يَكُونُ ظَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِنًا، كُلُّ مَسْمِيٍّ بِالْوَحْدِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرُهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرُهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرُهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرُهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرُهُ يَقْدِرُ وَيَعْجِزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَصَمُّ عَنِ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ، وَيُصَمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعْدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَغْمَى عَنِ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرُهُ بَاطِنٌ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ ظَاهِرٌ» .

الشرح والتفسير

لابد من الالتفات إلى مسأله في بحث الصفات حيث تقود الغفله عنها إلى الغوايه والضلال وهي أن صفات جمال الله وجلاله ليست لها أي شبه بصفات المخلوقات. فمن صفاته العلم والقدرة إلأنها ليست من قبيل علمنا وقدرتنا، إنه سميع وبصير ولكن ليس كسمعنا وبصرنا، وذلك لأن ذاته لامتناهيه من جميع الجهات وهي تفوق الجسم والعوارض الجسمانيه، ومن هنا تطالعنا الاعاجيب حين نرد بحث الصفات الربويه، ومن ذلك على سبيل المثال أن الصفات المتضاده في عالم المخلوقات، تكون إلى جانب بعضها البعض الاخر في العالم الربوي. فالأول في عالم المخلوقات مثلاً ليس آخر، والآخر ليس أول، والظاهر ليس باطن، والباطن ليس ظاهر، بينما تتصف الذات الإلهيه المقدسه بأنها ظاهره وباطنه وأولى وآخره. أضف إلى ذلك فالصفات في عالم المخلوقات تظهر الواحده بعد الأخرى بالتدرج ثم تتبلور وتتكامل، أما الصفات

الإلهية فلا تعرف المسيره التدريجيه ولا التقدم والتأخر. فقد إستهل عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى هذا الأمر «الحمد لله الذى لم تسبق له حالٌ حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً» ومن هنا فليس هنا لك من وجود قبله ولا بعده، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» ، (١) كما قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» (٢). فالحق أن الوجود الأزلى والأبدى ليس له من أول ولا آخر، ولا يعنى نعته بالأول والآخر سوى أن جميع المخلوقات متوقفه فى وجودها عليه سواء فى بدايه ظهورها أو فى إستمرار حياتها. أما وصفه بالظاهر والباطن فيعنى أن أصل وجوده وصفاته أظهر من كل شىء، وذلك لأن الأدله على وجوده وصفاته تصل إلى عدد النجوم والكواكب والكائنات الحيه وأوراق الأشجار وحصى الصحارى، بل بعدد ذرات العالم التى يعجز عن علمها وتصورها أحد غيره؛ ولكن لما كانت الذات الإلهيه لامتناهيه ولا يسع أحد تصورهما كما هى: «لاستحاله احاطه المحدود باللامحدود» فإن هذه الذات خفيه على جميع الناس بما فيهم الأنبياء والأوصياء والأولياء، وحيث إن الناس يتعرفون بادئ ذى بدء على آثاره فى دائره الوجود ثم يلتفتون إلى ذاته المقدسه فإنه يمكن القول: إنه ظاهر قبل أن يكون باطن، وحسب تعبير بعض الفلاسفه المسلمين: «خفاؤه لشده ظهوره». أوليست الشمس التى تمثل إحدى مخلوقاته خفيه لشده ظهورها؟ وهل من السهل على الإنسان النظر إلى قرص الشمس. ثم إنتقل الإمام عليه السلام إلى المقارنه بين عشر من صفات الكمال والجمال مع شبيهاتها لدى المخلوقات ليثبت عمق الفارق بينها وأن حقيقه الكمال مقتصره على ذاته، وكل ما سواه رصيده العيب والنقص فقال عليه السلام: «كل مسمى بالوحده غير قليل» فالعباره اشاره إلى نقطه مهمه وظريفه فى باب توحيد الصفات والذات، لأن وحدته تفيد كون ذاته وصفاته لامتناهيه، وتعنى عدم وجود الند والشبيه، أما الوحده فى المخلوقات فهى وحده عدديه وتطلق فى مقابل الكثره، وبالطبع فإن هذه الوحده تفيد القله، بينما تشير وحدته إلى عظم وجوده الذى يتجاوز حدود الزمان والمكان وفى نفس الوقت هو فى كل زمان ومكان، وهذا ما

ص: ٤٠

١-١) سورة الحديد / ٣. [١]

٢-٢) سورة القصص / ٨٨. [٢]

أشارت إليه الخطبه من أن أوصافه غير أوصاف مخلوقاته، فاذا كانت الوحده بالنسبه للمخلوقات تفيد القله، فهي تفيد الكثره والعظمه بالنسبه لله. فقد جاء في توحيد الصدوق: إن إعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إن الله واحد؟ قال فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام دعوه فإنّ الذي يريد الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال: يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوزان على الله عزوجل، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الاعداد فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أمّا ترى أنّه كفر من قال ثالث ثلاثه، وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنه تشبيه وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا، (١) وقول القائل: إنّه عزوجلّ أحدى المعنى يعنى به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عزوجلّ ثم قال عليه السلام في بيان الصفه الثانيه: «وكل عزيز غيره ذليل» فالعزّه سواء كانت بمعنى القدره القاهره أو الحرمة والعظمه فهي لا تليق سوى بذاته المقدسه، ولأنّ غيره من الملوك وإن كان عزيزاً فهو ذليل في قبضه قوانين عالم الخلقه والقضاء والقدر، أضف إلى ذلك فالجميع محتاج إلى الذات الإلهيه، كما أن عزته ذاتيه وعزه من سواه عرضيه متوقفه على تلك الذات، ومن هنا فليس لأحد من الموجودات إمكانيه الوقوف أمام هذه العزّه، ولكل عزته بمقدار قربه من تلك العزّه المطلقه؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بالقول: «أَيَّتُّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (٢)، والآيه العاشره من سوره فاطر: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً». ثم قال في الصفه الثالثه: «وكل قوى غيره ضعيف» لأنّ القوه في عالم المخلوقات نسبيه؛ فكل كائن قوى إذا ما قورن بمن دونه وضعيف بالنسبه لمن فوقه، وهكذا الأمر حتى ننتهي إلى الذات المقدسه، فهناك القوه اللامتناهيه التي

ص: ٤١

١- ١) توحيد الصدوق، [١] بحسب ما نقله عن بحار الانوار ٣/٢٠٦، ح ١. [٢] ومن أجل التوضيح أكثر حول حقيقه التوحيد، [٣]

ووحديته الله سبحانه وتعالى، يرجى مراجعته كتاب «نفحات القرآن ٣/٢٦٠ و ما بعد». [٤]

٢- ٢) سوره النساء / ١٣٩. [٥]

لا يتصور قوه أعظم منها لتقارن بها. ومن هنا فإن أقوى الأفراد قد يهزم أمام أضعف المخلوقات من قبيل الذبابه أو النمله أو حتى المكروب الذى تصعب مشاهدته بالعين المجرده بحيث يمرض الإنسان بمرض يعيى الأطباء عن علاجه، وعليه فوصف ما سوى الله بالقوه إنّما هو وصف مجازى والقوى بالمعنى الحقيقى هو الله. وهذا ما أكدته الآيه ١٦٥ من سوره البقره: «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» وقال فى الصفه الرابعه: «وكل مالك غيره مملوك» لأنّ الملكيه الحقيقه تنبع من الخلقه؛ فالمالك الحقيقى من خلق كافه الكائنات التى لا تحتاج إليه فى بدايه خلقها فحسب، بل تحتاج إليه فى بقائها واستمرار حياتها. ومن هنا فان ملكيه غير الله اعتباريه ومجازيه، وبعبارة أخرى: إذا ملكنا شيئاً فإنّ الله هو الذى ملكناه، وإلّا فلا يملك أحد حتى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله شيئاً، ومن هنا قال: «لا أملكك لنفسى ضرراً ولا نفعاً إلّا ما شاء الله» (١)، كما صرحت الآيه ٦، من سوره آل عمران: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

وقال فى الصفه الخامسه «وكل عالم غيره متعلم» لأنّ علمه سبحانه ذاتى وهو الذى يفيض العلوم على النفوس، وعليه فلم يسبق بجهل ليعلم وليس لعمله من حدود، بل علمه عين ذاته لامتناهى؛ بينما لكل ما سواه علم مبسوق بجهل. فلم يكن للإنسان علم حين لم يكن موجوداً، فلم وجد أودع الله فطرته بعض العلوم، كما حصل على بعض العلوم أيضاً عن طريق الحس والتجربه، كما تعلم على يد الآخرين، والأنواع الثلاثه تشكل نوعاً من أنواع التعلم، وعليه فجميع العلماء - سوى الله - متعلمون، والذات الإلهيه فقط الموصوفه بالعلم الازلى اللامتناهى. القرآن الكريم من جنبه قال: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٢) وقال فى الصفه السادسه: «وكل قادر غيره يقدر ويعجز» ودليل ذلك عدم تناهى ذاته ومحدوديه ماسواه، فلما كانت قدرته عين ذاته فهى مطلقه لامتناهيه، أمّا غيره فقدترته محدوده مهما كان، وعليه فهو يقدر على بعض الأشياء ويعجز من غيرها، بل قد يقوى على القيام بأمر فى ظروف ويعجز عن

ص: ٤٢

١-١) سوره الاعراف / ١٨٨. [١]

٢-٢) سوره النحل / ٧٨. [٢]

القيام به فى أُخرى. ومن هنا نقف على زيف المغالطه التى تتساءل إذا كانت قدره الله مطلقه إلى هذا الحد فهل يسعه أن يحصر هذا العالم فى بيضه دون أن يصغر شئ من العالم أو تكبر البيضه، فالسؤال خاطئ، لأنّ مفهومه هل يستطيع الله أن يكبر الدنيا وتكون البيضه بهذا الحجم ويكبرها لتسع الدنيا، بعبارة أُخرى كأن السؤال هل أنّ الله قادر على أن يصغر الدنيا ولا يصغرها فى نفس الوقت ويجعل البيضه بقدر الدنيا وفى نفس الوقت لا يجعلها كذلك؟ ومن الطبيعى ألا يكون هناك جواباً للسؤال الخاطئ. ويبدو أنّ مثل هذا السؤال قد طرح على أمير المؤمنين عليه السلام: «هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا فى بيضه من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضه؟ فقال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز والذى ذكرت لا يكون» (1) وزبده الكلام فإنّ قدره الله ذاته وغير محدوده وأزليه وأبدية، وكل ما لغيره منه، وليس له من قدره سوى ما يفيضها عليه.

وقال فى الصفه السابعه: «وكلّ سميعٍ غيره، يصمّ عن لطيف الأصوات ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها» فالسمع لدى الإنسان إنّما يحصل عن طريق إنتقال الأمواج والذبذبات بواسطه الاذن الخارجيه والداخليه والصيوان وطبله الاذن وسائر أعضائها، ولما كانت هذه الأعضاء محدوده، فإنّ سمعه هو الآخر محدود لا يسعه إلتقاط كافه الأصوات، وكما صرح بعض العلماء من ذوى الاختصاص بان الاذن لا يسعها سماع سوى الاصوات التى تتراوح أطوالها الموجيه بى سته عشر إلى عشرين ألف ذبذبه فى الثانيه، أى لا يسع الإنسان إدراك ما قلّ عن ست عشره ذبذبه فى الثانيه، كما لا يسعه إدراك ما تجاوز العشرين الف ذبذبه فى الثانيه. طبعاً هذه الذبذبات ليست واحده لدى جميع الكائنات، فهناك بعض الحيوانات التى لها سمع يفوق نيره لدى الإنسان، فهى تسمع حتى الأصوات ذات الأطوال الموجيه الأقصر، مع ذلك لا يسعها سماع جميع الأصوات. أضف إلى ما تقدم فإنّ الأطوال الموجيه إذا بلغت حداً فإنّها قد تشق غشاء الاذن وتقضى على حس السمع لديه،

ص: ٤٣

١ - ١) بحار الانوار، ٤/١٤٣ ح ١٠، [١] وورد مثل هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام فى الكافى، ١/٧٩ ح ٤، [٢] كما جاء فى بحار الانوار [٣] أنّ الشيطان سأل المسيح عيسى عليه السلام هذا الجواب فأجابه بهذا السؤال (بحار الانوار، ١٤/٢٧١ ح ٣).

[٤]

ومن هنا نرى بعض العسكريين يضعون أصابعهم في آذنهـم ويبتعدون عن الأماكن التي يفجرون فيها الأسلحة حذراً على سمعهم. وأخيراً فإنّ سمع الإنسان يـضعف كلما إبتعد عن مصدر الصوت مهما كان عظيماً، ومن هنا يوصف السمع بالعجز، فالواقع هنالك ما لا يحصى من الاصوات التي تحيط بنا إلّا أنا نعجز عن سماعها. أمّا سمع الحق سبحانه فلا يحتاج إلى واسطه ووسيله، وسمعه جزء من علمه، أى أنّه عليم بجميع الأصوات، فلا يحجزه سمع صوت عن آخر، ولا يؤذيه صوت ولا يبتعد عنه آخر، وكلها لديه على السواء: «قال رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (١). وقال في الصفه الثامنه: «وكلّ بصيرٍ غيره يعمى عن خفىّ الالوان ولطيف الاجسام» فالباصره لدى الإنسان وسائر الكائنات تحصل بواسطه العين التي تتشكل من عدّه طبقات لكل منها وظيفه خاصه من قبيل الشبكيه والقزحيه والبؤبؤ التي تتعاقد جميعاً لرؤيه الصور في الخارج، مع ذلك فهناك أنواع من الاشعه التي يتعذر على العين رؤيتها، ناهيك عن إنعدام الرؤيه لديها في الظلام، في حين لا يخفى على الله شىء وهو محيط بجميع الأشياء «أليس كمثله شىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (٢) فالسمع والبصر الحقيقي إنّما يختص بالذات الإلهيه المقدسه وقال في الصفتين الأخيرتين: «وكلّ ظاهرٍ غيره باطنٌ، وكلّ باطنٍ غيره غير ظاهرٍ» وهذه الصفات تستند في الواقع إلى ذاته اللامتناهيه ومحدوديه ذوات ما سواه، فلما كانت ذاته القدسيه لامتناهيه فان آثاره شملت جميع عالم الوجود وساد ظهوره المطلق كل زمان ومكان، أمّا سائر الكائنات فمهما كان لها من ظهور فهو محدود، ومن هنا يمكن القول بأنّها توصف بالظهور والخفاء، فهناك الكواكب والمجرات التي تفوق بحجمها الشمس وتفوقها نوراً وضوءاً، إلّا- أنا لانرى لها أى أثر، والعكس صحيح فاذا تجاوزنا قليلاً دائره المنظومه الشمسيه لبدت لنا الشمس باهته حتى تنعدم بالمره إضافه إلى ذلك، فإنّ كل هناك من ظهور لشيء - مهما كان نسيباً ومحدوداً - فان ذلك بيركه وجود الله، وإلّا فجميع الممكنات مظلمه وقاتمه في ذاتها، ونور الله هو الذي يمنحها هذا الظهور، هو بالضبط كذرات الغبار المعلقه في الهواء المعدومه الرؤيه إلّا أنّها تبدو للعيان وتظهر إذا ما

ص: ٤٤

١-١) سورة الأنبياء / ٤. [١]

٢-٢) سورة الشورى / ١١. [٢]

إخترقت أشعه الشمس ادنى ثقب في الغرّفه. أمّا ما قاله الإمام عليه السلام: «وكل باطن غيره غير ظاهر» إشاره إلى هذه الحقيقه وهى أنّ الذات الإلهيه الخافيه على جميع الكائنات بما فيها الأنبياء والأولياء والخارجيه حتى عن حدود العقل، إلّا أنّ آثارها قد سادت جميع الوجود بما جعلها ظاهره، بينما تفتقر سائر الوجودات للظهور إذا كانت خافيه باطنه، ولو كانت ظاهره لما كانت باطنه، فالإنسان مثلاً ليس عارياً إذا كان مستوراً، كما أنّ العارى ليس مستوراً، والذات الإلهيه فقط المستوره فى عريها والعاريه فى سترها. (1) وقد قال القرآن الكريم فى الآيه الثالثه من سوره الحديد «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» .

ص: ٤٥

١ - ١) لقد وردت العبارة المذكوره فى أغلب نسخ نهج البلاغه بهذه الصوره «وكل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن غيره غير ظاهر» وذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى وجوب إشمال العبارة على «غير» فى العبارة «... غير باطن... غير ظاهر» أو حذفها، حتى زعم البعض خطأ نسخه صحى الصالح التى لم تتضمن غير فى العبارة الاولى، بينما وردت فى العبارة الثانيه، وبالطبع فان هذا ما يقتضيه سياق العبارة، ولكن وما ورد سابقاً لا يمكن الزعم بان هذه النسخه خاطئه، ويمكن توجيه العبارة بما أوردناه من تفسير.

«لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانِهِ، وَلَا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، وَلَا اسْتِعَانِهِ عَلَى نَدِّ مُثَاوِرٍ، وَلَا شَرِيكِكَ مُكَاثِرٍ، وَلَا ضِدِّ مُنَافِرٍ، وَلَكِنْ خَلَقَهُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ، لَمْ يَخْلُقْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ: هُوَ كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالُ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ، لَمْ يُوَدِّهِ خَلْقٌ مَا ابْتَدَأَ، وَلَا تَدَبَّرَ مَا ذَرَأَ وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبُهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتَقَنٌّ، عِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ، الْمَأْمُولُ مَعَ النَّعْمِ الْمَرْهُوبُ مَعَ النَّعْمِ» .

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام حديثه عن الصفات الإلهية ذات الأثر التربوي في حياة الإنسان فقال عليه السلام «لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخويف من عواقب زمان، ولا استعانه على ندد (1) مثاور، (2) ولا شريك مكاثر، (3) ولا ضد منافر (4)»، إننا غالباً ما نرتكب بعض الأخطاء بحق صفات الجلال والكمال من جراء مقارنتنا للأشياء بوجودنا وصفاتنا وأفعالنا، فنعتقد مثلاً بأن أفعال الله على غرار أفعالنا تهدف النفع وقضاء الحاجة، والحال أن وجوده مطلق

ص: ٤٧

١-١) «ند» على وزن ضد بكسر النون النظير والمثيل ولا يكون إلّا مخالفاً، ومن هنا فسر «بالضد» أحياناً.

٢-٢) «مثاور» من ماده «ثور» جاءت بمعنى الحركة والانبعات والاثاره، ومن هنا فان «إثاره» تعنى تفرق الشىء، و «مثاوره» تأتى بمعنى وثوب شخصين ليقف أحدهما فى وجه الآخر، ويقال أيضاً لكل ضدين، ومن هنا يأتى معناها بمعنى المحاربه.

٣-٣) «مكاثر» من ماده «كثره» بمعنى الزيادة، ويطلق على الشخص الذى لديه رغبه فى الزيادة، والذى يتفاخر بالمال والسلطه والجاه بالمكاثر.

٤-٤) «منافر» من ماده «نفره» بمعنى الابتعاد والامتعاض من الشىء.

غنى من جميع الجهات ومن هنا كان جامعاً لجميع الكمالات وليس للنقص والحاجه من سبيل إلى ذاته المقدسه. وبناءً على ما تقدم فإن أفعاله ليست من قبيل أفعالنا، ولما كان الله فاعلاً حكيماً، فإن أفعاله منزّهه من العبث ولايبد من تحرى أهداف أفعاله خارج وجوده وبالنظر إلى عبادته. والوصف الذى تضمنته العبارة قد أشار إلى هذا الأمر، حيث ينفى عن أفعال الحق سبحانه كفه الأهداف التى تستبطن رفع الحاجه والنقص. فهدفنا من أغلب أفعالنا هو مضاعفه قدراتنا واستزاده قوتنا، وأحياناً هدفنا التحسب لبعض المساوئ والعقبات التى قد تلوح فى آفاق مستقبلنا، وقد يكون اللهم بالغلبه على من ينشدون ضعفناً أو يهبون لمواجهتنا من نظرائنا، وقد يكن الوقوف بوجه من ينافسنا من الأفراد الذين يعيشون من حولنا، وأخيراً فقد نهدف إلى ازاله بعض العقبات التى تعترض طريقنا، ومن هنا فان كفه أفعالنا إنّما تفرزها طبيعه مثل هذه الأهداف. أما الوصف الذى أورده الإمام عليه السلام بشأن الله سبحانه إنّما يشير إلى أنّ أفعاله لا تستند لأى من هذه الأهداف. فليس هنالك من ضعف فى قدره الله ولا يخشى من أحداث المستقبل، وليس له من شبيه أو نظير يسعه منافسته، وليس له من يطمع فيه من شريك وأخيراً ليس هنالك من موانع أو عقبات تعترض طريقه، وليس لهذه الأمور من سبيل إلى ذاته، بل وجودنا الناقص بالذات إنّما يصاب بهذه الأمور. وهنا يبرز هذا السؤال وهو إذا كانت جميع هذه الأمور منتفیه على الله سبحانه، فما هدفه من الخلقه؟ ورد الرد على هذا السؤال فى العبارة اللاحقه من الخطبه «و لكن خلائق مربوبون، وعباد داخرون» (١) نعم فليس هدف الله من الخلق تحقيق نفع، بل هدفه الجود على العباد؛ الأمر الذى أكدته التعبير «مربوبون» فى العبارة الذى يعطى معنى التربيه والتكامل، كما أشير إلى المعنى المذكور أيضاً بقوله «عباد داخرون»، وذلك لأنّ تكامل الإنسان إنّما يمر عبر عبوديته. وبناءً على هذا فان العباد والمخلوقات ليست شبيهه ومضاده لله فقط، بل هى تستفيض من رحمه الله ولطفه وفضله. ثم قال عليه السلام: «لم يحلل فى الأشياء فيقال: هو كائن، (٢) ولم ينأ (٣) عنها فيقال: هو منها

ص: ٤٨

١ - ١) «داخرون» من ماده «دخور» على وزن حضور بمعنى الذله والصغر، تستعمل فى الامور السلبيه كما تستعمل فى الامور الايجابيه حينما يوصف عبادالله بصفه «داخر» فيعنى ذلك التسليم والتواضع أمام الحق.

٢ - ٢) فى الكثير من نسخ نهج البلاغه [١] التى تعرض لشرحها الشارحون جاءت هذه الجملة التى وردت أعلاه بهذه الصوره «يقال: هو فيها كائن» ولا ريب فى أن مفهوم هذه الجملة التى جاءت فى هذه النسخه هى أوضح، وفى النسخه التى دون النص منها، فان كلمه «فيها» جاءت مقدره.

٣ - ٣) «ينأ» من ماده «نأى» على وزن رأى بمعنى ابتعد، والبعض فسرها بمعنى الابتعاد عن الشىء والاتجاه إلى نقطه بعيده.

بائن» ، وبالنظر إلى أنّ الذات اللهيّة منزّهة عن المكان والزمان فإن هذين الوصفين يعدان من النتائج الحتمية. فليس هنالك من موضع يحتاج إليه ويحل فيه من تنزهت ذاته وفاقت الزمان والمكان، ومن هنا يتعدّر تصور البعد والقرب عليه سبحانه، فكل هذه الأمور إنما تصدق على الأشياء المحدوده، فإذا حلت في مكان قربت من شيء وبعدت عن آخر، أما الذات الإلهية المقدسه فهي مطلقه لامتناهيه حاضره في كل مكان وهي قريبه من كل شيء ولا يحويها مكان؛ الأمر الذي ورد في القرآن: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (١) وجاء فيه أيضاً «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (٢) وكذلك «وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمُهُ» (٣). ومن الواضح أن لهذه الصفات الكماله أثرها البالغ في تربيته الإنسان، حيث يرى الله سبحانه معه أينما كان فيتخرج من مقارفة الذنب والمجاهره بالمعصيه. ثم قال عليه السلام: «لم يؤده خلق ما ابتداء، ولا تدبير ماذراً، ولا-وقف به عجز عمّا خلق» فقد أشارت العبارة إلى بعض الأمور المهمه التي تعود جميعاً الى قدرته الازليه. الأول أنّ الخلق الأول الذي يتطلب قدره أكثر لم يشق عليه سبحانه (لم يؤده من ماده أود على وزن عود بالفتح يعنى الثقل) ، والاخر أنّ ربوبيه الخلق وتدبير شؤونه لم يخلق له أيه صعوبه أو مشكله، وأخيراً أن قدرته لم تنفذ من جراء خلقه لكل هذا الخلق، بل له أن يخلق مالا-نهايه من العوالم بقوله: «كن» «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» (٤). ويمكن أن يكون للعبارة الأخيره معنى آخر وهو أن خلق هذه المخلوقات لم يعجزه عن إدارتها؛ وتكون العبارة في هذه الحاله تأكيد لما ورد في العبارة السابقه. وهذه الصفات هي الأخرى نابعه من ذاته اللامتناهيه؛ لأنّ العجز والتعب والثقل إنّما يصدق على الذات المحدوده القدره التي تسعى للقيام بما يفوق

ص: ٤٩

١-١ (١) سورة الحديد / ٤. [١]

٢-٢ (٢) سورة ق / ١٦. [٢]

٣-٣ (٣) سورة البقره / ١١٥. [٣]

٤-٤ (٤) سورة يس / ٨٢. [٤]

قدرتها؛ وليس هنالك من مفهوم للصغير والكبير والثقيل والخفيف والسهل والصعب على الذات اللامتناهيه القدره - ثم قال عليه السلام: «ولا ولجت عليه شبهه فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم» فالإنسان وبعلمه المحدود قد يتخذ قرارا مهما وحاسما إلا أن تكشف بعض الحقائق قد تثنيه عن ذلك القرار، كما يقف أحياناً على عمق خطأه فلا يواصل الطريق الذى ابتدأه. أمياً من كان علمه أزلى ولا يخفى عليه شئ فى عالم الوجود ولا تتكشف له حقائق جديدته، وله إحاطه تامه وكل زمان ومكان حاضر عنده، فليس من سبيل للشبهه والشك إلى تدبيره وعزمه وتقديره. ونقول مره أخرى أن هذه الصفه تستند إلى كون الذات والصفات الإلهيه لامتناهيته. ثم يختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالقول: «المأمول مع النقم، المرهوب مع النعم» وهذا ما أشار إليه القرآن مرارا وكرارا ومن ذلك قوله: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» (١) وقوله «أَفَأَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يُأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يُأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ» (٢). نعم فان المشاكل مهما بدت معقده أمكن حلها بلطف الله وفضله، والنعم مهما كانت واسعه شامله فان قبضها ليس صعب على الإراده الإلهيه. وعليه فلا يمكن اليأس عند البلاء والشده، ولا الغفله عند الرفاه والنعمه ومن هنا فان المؤمن يعيش الخوف والرجاء على الدوام فى حياته. والصفتان الأخيرتان تستندان أيضاً إلى الذات والصفات اللامتناهيته، فلما كانت قدرته لامتناهيته فان حل الصعاب سهل يسير عليه سبحانه كما يسهل عليه سلب النعم ممن يكفرها. فأدنى زلزال يمكنه أن يقضى على منطقته برمتها، كما أن مرضاً خطيراً يمكنه أن يودى بحياه الالاف بل الملايين من الأفراد، أو أن بروده أو حراره يمكنها أن تميت الالاف الأشخاص.

نقطه مهمه: الآثار التربويه لمعرفة الله

مما لا ريب فيه ان معرفه الله سبحانه وتعالى، والاحاطه باسمائه وصفاته، لها أهميه كبيره،

ص: ٥٠

١-١ (١) سورة الانشراح / ٥ - ٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة الاعراف / ٩٧ - ٩٨. [٢]

وكل أحد يجب أن يستفيد أتم الفائدة من هذه المعرفة، وبتعبير آخر «إن نفس المعرفه تمثل الطريق إلى التكامل والقرب من الله سبحانه وتعالى»، ولكن، وفي هذه الحاله يجب أن لا ننسى بأن الاهتمام بصفات الجمال والكمال لها تأثير مهم في تربيته النفوس الانسانيه والاتجاه إلى الكمال المطلق، وتسوق الانسان إلى مرحله الوصول إلى المثل، ولو كان بدرجات متدنيه جداً.

وبعباره أوضح: عندما نقول بان الله عالم وقادر ومهيمن ونحده لقدرته ونثنى عليه لهيمنه وملكوته، فكيف نرتضى لانفسنا ان نعيش في جهل مطلق وضعف وعدم مقدره كامله؟

ان حمدنا وتقديرنا لله من شأنه أن يزيد في عزتنا وكمالنا واقتدارنا، ويدعونا إلى الرفعه والمنزله العالیه، وهذا كله في باب «صفات الذات» .

أما عن «صفات الافعال»، فعندما نحمد الله لرحمانيته ورحيميته، ونقول «رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»، بل لقول: ان رحمته الخاصه بالرغم من كونها تختص بعباده من أهل التقوى والايمان، الا أن رحمته العامه، تشمل العدو والصدیق وان مائده رحمته ونعمته اللامتناهيه وسعت كل شيء.

فكيف يمكننا ان نستفيد من هذه الصفه الرفيعه والساميه، لكننا لا نرحم صديقنا ولا عدونا، بل ان قلوبنا في بعض الاحيان خاليه من أى نوع من الرحمه؟

ومن هنا فان الاهتمام بكافه الصفات الكمالیه، سواءً صفات الذات أو صفات الافعال، وهى «الجود والسخاء والمغفره والعزه والعفو والاحسان، وامثالها» والتي بإمكانها ان تكون شعاعاً ينعكس في وجودنا فيجذبنا اليه.

ومن كلام له عليه السلام

فى تعليم الحرب والمقاتله

والمشهور أنه قاله لأصحابه ليلى الهرير، (٢) أو أول اللقاء بصفين

نظره إلى الخطبه

بين الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه أساليب الحرب وفنون القتال بعبارات جزله واضحه إلى جانب التأكيد على القيم الروحيه والمثل المعنويه التى تشكل الدافع للقتال وتسوق المقاتل إلى التضحيه فى سبيل الله، كما أشار ضمناً إلى أحداث معركة صفين والوظائف التى ينبغى أن يمارسها المؤمنون فى تلك الوقعه وقد اختلفت أقوال الشراح بشأن زمان الخطبه، فذهب ابن أبى الحديد إلى أن الإمام عليه السلام خطبها - حسب أغلب الروايات - ليلى الهرير، بينما ذكر نصر بن مزاحم أنه خطبها أول صفين فى شهر صفر عام ٣٧ هـ وروى مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغه عن الطبرى صاحب كتاب بشاره المصطفى - من علماء القرن السادس للهجره - أن ابن عباس قال: عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، ما كشفت النساء ذبولهن

ص: ٥٣

١ - ١) سند الخطبه: رواها جمع كثير من المؤرخين والمحدثين قبل السيد الرضى وبعده ومنهم نصر بن مزاحم فى كتاب صفين والحافظ فى البيان والتبيين وقرات بن ابراهيم الذى عاش على عهد الإمام الرضا عليه السلام فى تفسيره المعروف والمسعودى فى مروج الذهب (مصادر نهج البلاغه ٢/٥٢).

٢ - ٢) «ليلى الهرير»: والمقصود به نباح وعواء الكلاب ليلاً من شدة البرد. و «هرير»: وتعنى فى الأصل صوت الكلب المنخفض، وهو دون النباح، والذى يطلقه من قله صبره على البرد. وليلى الهرير هنا، هى الليلى المعروفه، من ليالى حرب صفين المملوءه بالحوادث، حيث استمرت فيها الحرب من النهار إلى طوال الليل، وكانت ليلى قارصه البرد مملوءه بالخوف والمخاطر، حيث هلك فى هذه الليلى عدد كبير من جيش معاويه على يد ابطال جيش الإمام امير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام.

عن مثله، لا- والله ما رأيت فارساً يوزن به لرأيته يوماً ونحن معه بصفين، وعلى رأسه عمامه سوداء، وكان عينيه سراجاً سليط. تتوقدان من تحتها، يقف على شردمه شردمه يخطبهم، حتى إنتهى إلى نفرأنا فيهم، وطلعت خيل لمعاويه تدعى بالكتيبه الشهباء، عشره الالف دارع على عشره آلاف أشهب، فاقشعر لها الناس لما رأوها، وانحاز بعضهم إلى بعض، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: فيما الخنع والنخع - يا أهل العراق - هل هي إلا أشخاص مائله فيها قلوب طائره لو مستها سيوف أهل الحق لرأيتموها كجراد بقيعه سفته الريح في يوم عاصف، ألا- فاستعشروا الخشيه، وتجليبوا السكينه، ادرعوا الصبر، وغضوا الأصوات، وقلقلوا الأسياف في الأغمداد قبل السله... (١)

ص: ٥٤

١-١) مصادر نهج البلاغه ٢/٥٣. ([١] مع تلخيص)

«مَعَاشِرَ الْمُشْرِئِينَ اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلَّبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِدِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ. وَأَكْمَلُوا اللَّأَمَةَ، وَقَلَقُوا السُّيُوفَ فِي أَعْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا، وَالْحُظُّوا الْخَزْرَ، وَاطْعُنُوا الشَّرَرَ، وَنَافِحُوا بِالطُّبَى، وَصَلُّوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى تسعه من أساليب وفنون القتال العمليه في ساحه المعركه فقال عليه السلام: «معاشر المسلمين استشعروا الخشيته، وتجلببوا السكينه» إستشعروا من ماده شعار من الثياب ما يكون دون الدثار وهو يلي الجلد، أى اجعلوا الخوف من الله تعالى شعاركم، وتجلببا من ماده جلباب الثوب المشتمل على البدن وعاده ما يطلق على الثوب الذى تستر به المرأه رأسها وعنقها وبعض صدرها وظهرها، وهو أطول من الخمار وأقصر من الرداء. فالأمر الأول الذى يؤكد الإمام عليه السلام وجوب اختلاطه بروح المقاتل وقلبه هو خوف الله وخشيته والشعور بالمسؤوليه تجاه أوامر الله فى طاعتها وإمتثالها، ولعل هذا أهم الدوافع التى ينبغى أن يتحلى به المقاتل المؤمن فيمنحه الثبات والصمود تجاه العدو. الأمر الثانى الذى أكده الإمام عليه السلام هو أن يتحلى المقاتل بالسكينه والحلم والوقار، وذلك لأن أدنى إضطراب فى ميدان القتال أمام العدو إنما يكشف عن الضعف والعجز، وهذا ما يجعل العدو فى مطمع من إقتحام الميدان واللجوء إلى الهجوم. والواقع أن الأفراد الأقوياء والشجعان يتصفون دائما بالتماسك وضبط النفس، بينما يعيش الضعفاء والجنباء حاله من الاضطراب والقلق على الدوام. وقد قال

القرآن الكريم بشأن السكينه وأهميتها: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» (١) وهذه السكينه كانت هي العامل الذي وقف وراء إنتصار المسلمين في كافه الغزوات التي خاضوها ضد معسكر الكفر والشرك، وهي التي شدت أزر النبي صلى الله عليه وآله أثناء تلك الشدائد كدخوله صلى الله عليه وآله إلى غار جبل ثور وكان العدو يقف على باب الغار بحثاً عنه. ثم قال عليه السلام: «وَعَضُّوا عَلَى التَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى (٢) لِلسَّيُوفِ عَنِ الْهَامِ (٣)» قوله عليه السلام «عضوا على التواجذ» جمع ناجذ وهو أقصى الاضراس، وللإنسان أربعة نواجذ في كل شق، ويسمى الناجذ ضرس الحلم، لأنه ينبت بعد لبلوغ وكمال العقل، ويقال إن العاض على نواجذه ينبو السيف عن هامته نبوأمًا، وهذا ممَّا يساعد التعليل الطبيعي عليه، وذلك أنه إذا عض على ناجذه تصلبت الأعصاب والعضلات المتصله بدماعه، وزال عنها الاسترخاء، فكانت على مقاومه السيف أقدر، وكان تأثير السيف فيها أقل وصرح بعض شراح البلاغه قائلاً: هذا كلام ليس على حقيقته، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلب وترك اضطرابه واستيلاء الرعده عليه. ثم قال عليه السلام: «وَأَكْمَلُوا اللَّأْمَةَ (٤)»، اللَّأْمَةُ بالهمزه الدرع، وإكمالها أن يزداد عليها البيضه والسواعد ونحوها، ويجوز أن يعبر باللأمه عن جميع أداء الحرب، كالدرع والرمح والسيف، وأراد الإمام عليه السلام بهذه العبارة: أكمل السلاح الذي تحاربون العدو به. ثم قال عليه السلام: «وَقَلَقُوا (٥) السَّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا (٦) قَبْلَ سَلِّهَا» فالعبارة تنطوي على أهميه قصوى وان بدت صغيره للوهله الاولى، وذلك لئلا يدوم

ص: ٥٦

١- ١) سورة الفتح / ٤. [١]

٢- ٢) «أنبى» من ماده «نبو» على وزن نبض بمعنى ارتقاع شىء عن شىء آخر والابتعاد عنه، وبهذا الدليل يستعمل هذا الاصطلاح عندما تعجز السيوف عن أداء دورها، حيث تبعد السيوف عن تحقيق الهدف.

٣- ٣) «الهام» جمع «الهامة» بمعنى مطلق الرأس وهو كائن ذاروح، واحيانا يستفاد من هذا الاصطلاح بشكل مطلق.

٤- ٤) «لأمه» على وزن رحمه، وهي فى الأصل بمعنى الاجتماع والاتفاق، ومن هنا، فعندما يلتحم الجرح ويشفى، فيقال له «التيام» و«لأمه» تأتي بمعنى الدرع، ولعل تسميتها بهذا الاسم جاء من قرب حلقاتها واجتماعها وارتباطها، وأحياناً يطلق هذا الاصطلاح على أى سلاح.

٥- ٥) «قلقوا» السيوف من ماده «قلقله» على وزن مرجمه بمعنى حركوا السيوف.

٦- ٦) «أغماد» جمع «غمد» على وزن رند بمعنى بيت السيف، ومن هنا تطلق على بعض النباتات التي تختفى أشواكها فى حواف أوراقها.

مكثها في الاجفان فيصعب سلها وقت الحاجه إليها، الأمر الذي قد يؤدي إلى بعض الأخطار التي لا يمكن معالجتها في ساحه الحرب. ثم قال عليه السلام: «و الحظوا الخزر، واطعنوا الشّزر» الخزر أن ينظر الإنسان بعينه، وكأنّه ينظر بمؤخرها وهي أماره الغضب، كما تستعمل أحياناً حين عدم الإكتراث، وقائده مثل هذا الأسلوب في ميدان القتال أولاً: إشعال وتأجيج نيران الغضب في الباطن بحيث تشحذ كافه القوى الداخليه وتتضاعف طاقه الإنسان وقدرته، والآخر أن النظر بكامل العين يدل على الخوف والوهن والعجز، الأمر الذي يجعل العدو أكثر جرأه وجساره. وشزر على وزن نذر بمعنى الشنت وأكثر ما تستعمل لفظه الشزر في الطعن عن اليمين والشمال، ولعل الإمام عليه السلام أراد سلب إحساس العدو بالأمن فيما إذا تركت ضربات المجاهدين على جانب واحد، كما يتأهبوا لتسديد الضربات الاجهاضيه. فالواقع إنّ مثل هذه العبارات تكشف مدى خبره الإمام عليه السلام بفنون القتال وخطط الحرب. ثم إختتم وصاياه بالقول: «ونافحوا بالطّبا، وصلوا السيوف بالخطا» نافحوا من النفح على وزن الفتح بمعنى النفخ كناية عن شدة الاقتراب من العدو، والطبا طرف السيف وحده، والمراد كافحوا وضاربوا. والمراد بقوله عليه السلام: «صلوا السيوف بالخطا» أنّ اليد قد لا تكفى أحياناً لضرب العدو بالسيف ولا بدّ من التقدّم بضع خطوات والضرب بالسيف.

تأمل: الفنون القتاليه في الماضي والحاضر

تمثل الفنون القتاليه في الوقت الراهن علماً من العلوم المهمّه التي ينبغي تدريسها في الكليات العسكريه وتعلمها على مدى سنوات وممارستها في ساحات التدريب، فالواقع أنّ تجاهل مثل هذه الفنون لا يجعل أعظم الجيوش أن تتقدم في ميادين القتال وإن جهز بأحدث الاسلحه المتطوره. ومن هنا كان أتباع المدرسه الإسلاميه مطالبين بتعلم كافه هذه الفنون من أجل الدفاع عن مبادئ الدين ومصالح البلاد، ولعل ذلك يمثل واجباً كفائياً، بل واجباً عينياً. فمما لاشك فيه أن الاسلحه لم تكن بهذا التعقيد كما لم تكن الفنون والخطط الحربيه بهذه الدقه

التي هي عليها اليوم، مع ذلك فقد كانت لتلك الحروب أساليبها وقوانينها التي عرض الإمام عليه السلام بالشرح إليها، والتي تكشف عن مدى خبره الإمام عليه السلام ومراسه للحرب. ولعل هنالك من يقول أن تعلم فنون القتال إنما يؤدي إلى سفك المزيد من الدماء، الأمر الذي أكد عكسه في الوصايا والتعاليم الإسلامية ولا سيما الأوامر الحربية، حيث تحرص هذه التعاليم على الدماء وتدعو إلى الحد قدر المستطاع من سفك الدماء. والجواب إن ماورد في هذه الخطبه أمّا يمثل الامتداد الطبيعي لتلك التعاليم، لأنّ المقاتل إذا ألم بأساليب القتال وفنونه أمكنه تحقيق النصر الخاطف السريع على العدو بأقل التضحيات. أضف إلى ذلك فان العدو إذا وقف على قدره الخصم ومهارته في فنون القتال واستماتته من أجل الأهداف الإسلامية قد يركع ويستسلم فيرجح السلام على الحرب، الأمر الذي يحسم المعركة ويقلل من سفك الدماء.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَعِينِ اللَّهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَعَاوَدُوا الْكُرَّ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإِنَّهُ عَارٌّ فِي الْأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ وَطَبِئُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْسًا، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْيًا سَاجِدًا، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ، وَالرُّوَاقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا تَبَجَّهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَدًا، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلًا. فَصَيِّ مَدًّا صَيِّ مَدًّا حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ «وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَالُكُمْ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه برفع معنويات جنده وأوصاهم بالثبات في القتال بغيه إستئصال شأفه العدو فقال لهم: «و اعلموا أنكم بعين الله» فاذا علم الإنسان أنه بعين سيده القادر على كل شئ والمحيط به فانه يستلهم منه العزم والقوه وعدم الشعور بالوحده من جانب، ومن جانب آخر يلفت نظره إلى عظم المسؤوليه والوظيفه التي ينبغي أن ينهض بعينها. وقد ورد هذا المعنى في قصه نوح عليه السلام حين أمر بصنع السفينه «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا» (١) في إشاره إلى أن العدو قد يحاول أن يعيقك عن القيام بهذا العمل من خلال السخرية والاستهزاء، أو من خلال ممارسه الحرب الدعائيه والضغط النفسيه، فلا تكثر لهذه الأمور ولا تخف فانك تعمل وفق المشيئه الإلهيه الغالبه. وهو ذات المعنى الذي ألمحت إليه

ص: ٥٩

الآية الشريفة: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» (١) في إطار رباطه جأش النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيال تكالب الأعداء. ثم قال عليه السلام: «و مع ابن عم رسول الله» ابن عمه الموصوف باخوته ووصيه ومن كان يتبعه اتباع الفصيل إثر أمه. وعليه فلا ينبغي أن تشعروا بأدنى شك وترديد في مسيرتكم فاندفعوا بكل ما أوتيتم من قوه لقتال عدوكم، هذا في الوقت الذي يمثل فيه عدوكم سلاله أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله، فوالد معاويه هو أبو سفيان الذي كان أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه فهو غاصب للخلافه لا بد من مقاتلته وإعادته إلى الحق. أمّا تأكيد الإمام عليه السلام على قرابته من النبي صلى الله عليه وآله ورغم كونه أمراً متعارفاً لدى العقلاء - الذين يرون قرابه الشخص أعلمهم بما جاء مالم يقيم الدليل على خلافه - إلا أنه يمكن أن يكون إشاره إلى حديث الثقلين الذي جعل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أهل بيته في مصاف القرآن ودعا الأئمة إلى وصيتين هما في الواقع بمثابة اللازم والملزوم، فقال: «فعاودوا الكرّ، واستحيوا من الفرّ، فإنه عارٌ في الأُعقاب، ونارٌ يوم الحساب» فالعدو قد لا ينهار من كره واحده ولا بد من الكره تلو الكره لضعاف العدو والقضاء عليه من جانب، من جانب آخر لا تحدثوا أنفسكم أبداً بالفرار من جبهات القتال، فإن ذلك عار يوصم به جبينكم كما تجروه على أعقابكم من بعدكم فان الابناء يعيرون بفرار آبائهم (٢)، وبغض النظر عن ذلك فان هذا الفرار سيكون وبالاً عليكم يوم الحساب فتردون النار، لأن الفرار من الزحف يعد من الكبائر، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر بقوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأُدْبَارَ* وَمَنْ يُوَلَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَصَدَّ بَاءَ بَعْضٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (٣). ثم يؤكد عليه السلام الجهاد بأمرين من قبيل اللازم والملزوم أيضاً فيقول: «و طيبوا عن أنفسكم نفساً (٤) وامشوا إلى الموت مشياً سجحاً» سجح على وزن صحف

ص: ٦٠

١- ١) سورة طه / ٤٨.

٢- ٢) لا بد من الالتفات هنا إلى أنّ هذا التفسير على أساس أنّ «أعقاب» جمع «عقب» على وزن نسب بمعنى الأولاد، وان كان عقب على وزن قفل بمعنى العاقبه وما يؤول إليه الأمر فإن مفهوم العبارة سيكون «إنّ الفرار من الجهاد عار في عاقبه أمركم» إلا أنّ التفسير الأول أنسب.

٣- ٣) سورة الانفال / ١٥ - ١٦. [١]

٤- ٤) جملة «طيبوا نفساً»، تستعمل كتعبير عندما يستقبل الانسان شيئاً بالرضا وطيب خاطر، وفي هذه الموارد تأتي بعنوان تمييز منصوب.

تعنى المستقيم وهى تستعمل بشأن الطرق المستويه والمستقيمه، ولما كان المشى سهلاً فى مثل هذه الطرق فأنها تطلق على السهل أيضاً. ومن هنا ورد فى المثل العربى المعروف «ملكى فاسجج». فالإمام عليه السلام يرى أن الشهاده فى سبيل الله ضاله أهل الإيمان، فيؤكد عليهم عدم الاكتفاء برفض الخشيهِ والخوف من الشهاده، بل لابد من إستقبالها بكل رحابه صدر، فطريقها سهل يسير ولا يبد من ركوبه لمعانقتها. وقد كان الإمام عليه السلام نموذجاً بارزاً لهذا الكلام حتى أقسم قائلاً: «والله لا ين أبى طالب آنس بالموت من الطفل بئدى أمه» (١) وهو الذى صرح عند ما ضربه ابن ملجم: «فرت ورب الكعبه».

ثم قال عليه السلام فى إشاره إلى مركز تجمع جيش الشام والخيمه التى تربع داخلها معاويه: «وعليكم بهذا السواد الأعظم، والزواق المطب، فاضربوا ثبجه» فقد يطمع العدو وتشتد شوكته لو حمل عليه من هنا هناك مع مراعاة الحذر والاحتياط، وعلى العكس من ذلك لو كانت الحمله مصوبه إلى قلب عسكر العدو لانهارت روحه العدو وتحطمت معنوياته، فإن الهجوم على المركز يكشف عن مدى القوه والاقتدار، ومن هنا إستفاد الإمام عليه السلام هذه القضية النفية ليأمر جيشه بالهجوم على قلب العدو ومركز قيادته. والسواد الأعظم كناية عن التجمع الكبير الذى يبدو أسوداً من بعيد، والمراد به هنا عسكر الشام. الرواق على وزن كتاب غراب الفسطاط، وهو هنا إشاره إلى الخيمه الكبيره المضروبه لمعاويه، المطب المشدود بالأطناب جمع طناب بضمين وهو جبل يشد به سرادق البيت والتبج بالتحريك الوسط وقوله عليه السلام: «فاضربوا ثبجه» تعنى الهجوم على قلب جيش الشام وخيمه معاويه. ثم أورد الإمام عليه السلام الدليل على ما قال: «فإن الشيطان كامن فى كسره» (٢) وقد قدّم للوثبه (٣) يداً، وأخر للنكوص (٤) رجلاً، والمراد بالشيطان هنا معاويه حيث جمع الأفكار والأعمال الشيطانيه بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنه أراد بالشيطان عمرو بن العاص، كما قيل قد يراد به الشيطان الحقيقى «ابليس» الذى كان يتلاعب بمعاويه وعسكره آنذاك. وقد صور الإمام عليه السلام بهذه العبارة روحه معاويه الذى كان يعد نفسه للهجوم من جهه وهو يهجم بالنكوص والفرار من جهه

ص: ٦١

١- ١) للوقوف بصوره أعمق على هذا الموضوع راجع الخطبه الخامسه من المجلد الأول.

٢- ٢) «كسر» على وزن مصر شقه الأسفل، كناية عن الجوانب التى يفر إليها المنهزمون.

٣- ٣) «وثبه» من ماده «وثب» على وزن نصر بمعنى الظفر والنصر، كما تعنى القفز للاستيلاء على الشئ.

٤- ٤) «نكوص» بمعنى الانسحاب والتراجع عن القيام بعمل، وعاده ما تستعمل بشأن التراجع عن أعمال الخير.

أخرى؛ ولا غرو فهذه هو الاسلوب المتبع لدى الساسه الماديين، فليس لهم من هدف مقدس يقاتلون من أجله، ومن هنا يهرون هروب الشاه من الذئب إذا ما جابهتهم ثله من المؤمنين. فقد صرح القرآن الكريم بشأن أعوان الشيطان فى مجابهتهم للمؤمنين وكيفيه تخلى الشيطان عنهم قائلاً: «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (١) ولا يقتصر هذا الأمر على الشيطان - ابليس - فهذا هو ديدن شياطين الانس الذين يزجون باتباعهم فى الأحداث الساخنه ثم يخذلونهم فى الظروف الحرجه. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً: «فصمداً صمداً! (٢) حتى ينجلي لكم عمود الحقّ «وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالُكُمْ» فالواقع إنّ هذه العبارة تمثل نتيجه لما أورده الإمام عليه السلام ودعا إليه صحبه؛ أى أنكم قد وقفتم الآن على التعليمات الكافيه والفنون القتاليه وكيفيه الهجوم على مركز تجمع العدو، فما عليكم إلّا الثبات والصمود والمقاومه لاندحار الباطل وانتصار الحق. ثم يعدهم بالنصر استناداً إلى البشاره التى تضمنتها الآيه ٣٥ من سوره محمد صلى الله عليه وآله: «وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالُكُمْ». وعليه فالخطبه تمثل دروساً عظيمه فى التعرف على أساليب القتال وعناصر النصر دون أن تقتصر على زمان الإمام عليه السلام. ويشير التأريخ إلى مدى التأثير الذى لعبته كلمات الإمام عليه السلام حتى ورد فى كتاب صفين لنصرين مزاحم أنّ الإمام عليه السلام حين أورد هذه الكلمات ودعا صحبه أثناء صفين للهجوم على أهل الشام انطلق أكثر من عشره الاف خلف الإمام عليه السلام ووثبوا إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم فانقضوا على جند معاويه حتى إقتربوا من خيمته فكاد يقضى عليه لو لا تلك الخدعه التى عمد إليها ابن العاص فى رفع المصاحف على أسنه الرماح. (٣)

ص: ٦٢

(١ - ١) سوره الانفال / ٤٨. [١]

(٢ - ٢) «صمد» على وزن حمد، وجاء على معنيين، أحدهما «القصده» والثانى «الاستحكام والصلابه» وليس مستبعد ان يكون يرجع أصل المعنيين إلى أصل واحد، لان القصده يحصل اذا كان هناك استحكام وصلابه خاصه. و «صمد» على وزن سبب، بمعنى الشخص الذى يقصده المحتاجون، وتعنى: المكان الرفيع والسامى، وكذلك يأتى بمعنى الشىء المحلوه، وكل هذه المعانى لها تناسب مع المعنى الاصلى لهذا الاصطلاح. وقد ورد فى الجملة اعلاه كتعبير عن المقاومه والصمودُ البصر والتحمل فى مواجهه العدو.

(٣ - ٣) شرح نهج البلاغه للمرحوم تسترى ١٣/٥٤٣.

ومن كلام له عليه السلام

قالوا: لما إنتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفه بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله قال عليه السلام: ما قالت الانصار؟ قالوا: قالت: منا أمير، ومنكم أمير؛ قال عليه السلام:

نظره إلى الخطبه

الخطبه تمثل ردًا حاسمًا على زعمين بشأن خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله. الأول وهو اجتماع طائفه من الناس في سقيفه بنى ساعده لتعيين الخلافه دون الالتفات إلى وصيه النبي صلى الله عليه وآله بهذا الشأن فطالبت الأنصار بالشورى وأن ينتخب منهم أمير وآخر من المهاجرين. ففند الإمام عليه السلام هذا الزعم بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله. والثاني إستدلال المهاجرين على الأنصار بأحقيتهم بالخلافه. فاستدل عليهم الإمام عليه السلام بنفس إستدلالهم في أحقيه أهل البيت عليه السلام بالخلافه إن كان إستدلالهم صحيحاً.

ص: ٦٣

١- ١) سند الخطبه: تعتبر هذه الخطبه من الخطب المعروفه لأمير المؤمنين على عليه السلام والتي روتها عده مصادر من قبيل نهايه الارب للتويرى وتأريخ الطبرى وتأريخ ابن الأثير فى حوادث سنه ١١ هـ وكتاب السقيفه لأبى بكر الجوهري، كما ورد بعضها فى صحيح البخارى وصحيح مسلم، مصادر نهج البلاغه ٢/٥٨-٦٠. [١]

«فَهَلَّا احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِيهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِيهِمْ؟ قَالُوا: وَمَا فِي هَذَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ كَانَ الْإِمَامَةُ الْإِمَارَةَ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ قَالُوا احْتَجَجْتَ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ» .

الشرح والتفسير

الاستدلال المنطقي على الخلافه

أوردنا سابقا أنّ الإمام خطب بهذه الخطبه لما إنتهت إليه أبناء السقيفه وأنّ الأنصار قالت للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، فقال عليه السلام: «فهلّا احتججتم عليهم بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وصّى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم؟» (1) فاستفسره الحاضرون «قالوا: وما في هذا من الحججه عليهم؟» فردّ عليهم الإمام عليه السلام: «فقال: لو كانت الإمامه فيهم لم تكن الوصيه بهم» فمن الواضح أنّ وصيه أحد بآخر تفيد أنّ تصريف الأمور بيد الموصى إليه، لا بيد ذلك الذي أوصى به. بالضبط كالأب الذي يسافر فيوصى ولده الأكبر قائلاً: أوصيك باخوانك خيراً. فمفهوم ذلك أنّي فوضتك القيام بالأعمال وأودعتك إخوانتك. وعليه فالذي يستفاد من حديث النبي صلى الله عليه وآله أنّ الحكومه ليست للأنصار، إلّا أنّ أصحاب السقيفه لم يلتفتوا لهذا الأمر وانحوا الأنصار بالقوه عن الخلافه. وقد استدل

ص: ٦٥

١- ١) روى هذا الحديث في صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابه باب فضائل الأنصار، أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الأنصار كرشى وعيبتى... فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم». صحيح مسلم، ٤/١٩٤٩ طبع دار إحياء التراث العربى.

المتأخرون بمثل هذا الكلام على إثبات صحه دعواهم، ومن ذلك ما رواه ابن أبي الحديد قائلاً: حين توفى سعيد بن العاص، دخل ابنه عمرو بن سعيد على معاوية، فسأله معاوية: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال عمرو: لقد أوصى إليّ ولم يوص بي. فتعجب معاوية من جوابه وقال: «إنّ هذا الغلام لاشدق» فعرف منذ ذلك الحين بين الناس بالاشدق أى الخطيب البليغ. ثم طرح الإمام عليه السلام سؤالاً آخر بهذا الشأن: «ثم قال: فماذا قالت قريش؟» فردوا عليه: «قالوا: احتجّت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم» فذهب الإمام عليه السلام إلى أنّ ذلك حجه عليهم «فقال: احتجّوا بالشجرة، وأضاعوا الثمره». فاذا كانت الشجرة ذات أثر كان ثمرها أعظم أثراً. والعجيب ما أورده الشارح البحراني الذي أورد احتمالين بشأن المراد بالثمره فى هذه العبارة: أحدهما على وأولاده، والآخر السنه النبويه التى توجب استحقاق على عليه السلام للخلافه والولاية. فمن الواضح أنّ الاحتمال الثانى مستبعد رغم موافقته للاحتمال الأول، فاذا كانت الشجرة ترمز للقرب فان ثمرها يكون أكثر قرباً، وعليه فليس المراد بهذه الثمره سوى أهل البيت عليه السلام.

تأمل: الخلافة وقصه سقيفه بنى ساعده

روى أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما قبض، اجتمعت الأنصار فى سقيفه بنى ساعده، فقالوا: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد قبض، فقال سعد بن عباد لابنه قيس - أو لبعض بنيه: إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامى لمرضى؛ ولكن تلقّ منى قولى فأسمعهم. فكان سعد يتكلم، ويستمع ابنه ويرفع به صوته لئسمع قومه.

قال الطبرى ثم خاطب سعد الانصار وذكرهم بسبقهم إلى الاسلام حين عادته العرب وقد لبث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشره سنه فى مكه فلم يجبه إلا القليل، حتى انبريتم للدفاع عن الاسلام ونصره النبي صلى الله عليه وآله ووقفتم إلى جانب الحق، إلى أن قبض النبي صلى الله عليه وآله وهو راض عنكم فانتم أولى بالخلافه من غيركم.

فحدّثه الحديث، ففرع أبو بكر أشدّ الفرع، وخرجا مسرعين إلى سقيفه بنى ساعده؛ وفيها

رجالاً من أشرف الأنصار؛ ومعهم سعد بن عباده فقام أبو بكر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما بُعث على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخالقوه وشاققوه، وخصَّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه الإيمان به والمواساه له، والصَّبر معه على شدِّه أذى قومه، ولم يستوحشوا لكثرة عدوِّهم؛ فهم أول مَنْ عَبَدَ الله في الأرض، وهم أول مَنْ آمَنَ برسول الله، وهم أولياؤه عثرته، وأحقَّ الناس بالأمر بعده، لا ينازعهم فيه إلَّا ظالم؛ وليس أحدٌ بعد المهاجرين فضلاً وقَدَمًا في الإسلام مثلكم؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نمتاز دونكم بمشوره، ولا نقضى دونكم الأمور.

فقام الحُباب، وقال:

يا معشر الأنصار، لا تسمعوا مقاله هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر، فإن أبوا عليكم ما أعطيتموهم فأجلوهم عن بلادكم، وتولَّوا هذا الأمر عليهم، فأنتم أولى الناس بهذا الأمر، إنَّه دَانَ لهذا الأمر بأسيافكم مَنْ لم يكن يدين له. أنا جَدِّيُّهَا المحكَّك، وعَدِّيُّهَا المرَجَّب، إن شئتم لنعيدنَّها جَدِّعه، والله لا يزد أحدٌ عليَّ ما أقول إلَّا حَطَّمْتُ أنفه بالسَّيف.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع سَيْفان في غمْد؛ إنَّ العرب لا ترضى أن تؤمَّركم ونبيُّها من غيركم.

قال: فلما رأى بشير بن سعد الخزرجيَّ ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمير سعد بن عباده - وكان حاسداً له وكان من سادة الخزرج - قام فقال:

أيُّها الأنصار، إنا وإن كُنَّا ذوى سابقه، فإنَّا لم نُردِّ بجهادنا وإسلامنا إلَّا رِضاً رَبَّنَا وطاعه نبيِّنا، ولا ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به عَوْضاً من الدُّنيا، إن محمداً صلى الله عليه وآله رجلٌ من قريش؛ وقومه أحقُّ بميراثِ أمره، وإيِّم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر؛ فاتَّقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم.

فقام أبو بكر، وقال: هذا عمر وأبو عبيده، بايعوا أيُّهما شئتم؛ فقالا: والله لا نتولَّى هذا الأمر عليك.

ولما رأت الأوس أنَّ رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع، قام أُسَيْيد بن حُضَيْر - وهو رئيس الأوس - فبايع حسداً لسعد أيضاً، ومنافسه له أن يلىَّ الأمر، فبايعت الأوس كلها لِمَا بايع

أُسَيْد، وأراد عمر ان يقتل سعدا إن لم يبايع، إلا أنه خشى من تهديد سعد بعد أن نصحه ابوبكر بالكف عنه.

و فسد الأمر فتركوه، فكان لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع بجماعتهم، ولا يقضى بقضائهم؛ (١) ولو وجد أعوانا لصار بهم، فلم يزل كذلك حتى مات أبوبكر، ثم لقي عمر في خلافته؛ وهو على فرس، وعمر على بعير، فقال له عمر: هيهات يا سعد! فقال سعد: هيهات يا عمر! فقال: أنت صاحب من أنت صاحبه؟ قال: نعم أنا ذاك؛ ثم قال لعمر: والله ما جاؤرنى أحداً هو أبغض إليّ جواراً منك، قال عمر: فإنه من كره جوار رجل انتقل عنه؛ فقال سعد: إني لأرجو أن أخليها لك عاجلاً إلى جوار من هو أحب إليّ جواراً منك ومن أصحابك؛ فلم يلبث سعد بعد ذلك إلّا قليلاً حتى خرج إلى الشام، فمات بحوران ولم يبايع لأحد؛ لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما. (٢) والمعروف ان سعد قد قتل بيد خالد بن الوليد بأمر عمر حيث كمن له في الليل ورماه بسهمين ثم القى جسده في بئر وشاع بين الناس ان الجن قتلت سعد بن عباد. والطريف ما نقل عن مؤمن الطاق (محمد بن النعمان الاحول) المعروف بدفاعه عن أهل البيت حيث سئل لم لم ينازع على ابابكر على الخلافة قال: خشى ان تقتله الجن. (٣)

وقال المرحوم العلامة الاميني بهذا الخصوص «وكان من حشدهم اللهامة رجال من الجن رموا سعد بن عباده أمير الخزرج». (٤)

وحين حج عمر سمع من يقول «إن مات عمر بايع فلانا» (٥) فغضب عمر وصعد المنبر ثم قال: لا يقول أحد ذلك انما كانت بيعه أبي بكر فتنه وتمت. . . ولكن الله وقى شرها.

أضواء على السقيفة

١ - يتبين مما مر معنا سابقاً أن الشورى التي عقدت في السقيفة لم تكن شرعية منتخبة من

ص: ٦٨

١-١) تاريخ الطبرى ٢/٤٥٥ (بتلخيص).

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد ١٠/٦٠. [١]

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد ١٧ / ٢٢٣ ([٢] ذكر ذلك على أنه أحد اعتراضات الشيعة على ابى بكر حيث يعتقد البعض أنه أمر بقتل سعدا).

٤-٤) الغدير ٩/٣٧٩ ([٣] لهام بمعنى الجيش العظيم).

٥-٥) يبدو المقصود هو على عليه السلام (شرح البخارى للقسطلانى ١١/٣٥٢، نقلا عن البلاذرى فى أنساب الاشراف).

قبل الأئمة كما أراد أن يصورها البعض، بل حضرها بعض الأنصار على أمل تحقيق أهدافهم، ثم التحق بهم بعض المهاجرين لينافسونهم على الخلافة، حتى آلت الأمور إلى تنصيب أبي بكر.

٢ - تفتقر السقيفة إلى الشرعيه من الناحيه الدينيه، كما تفتقر إليها من الناحيه السياسيه على ضوء الاعراف والقوانين الحاكمه فى الأنظمه السياسيه، وذلك لأنها لو كانت ممثله لجميع الأئمه لوجب أن يحضر ممثلاً عن الأنصار وآخر عن المهاجرين، بينما نعلم أن قرابه رسول الله صلى الله عليه وآله المتمثله بأهل بيته لم تحضر ذلك الاجتماع.

٣ - تفيد أحداث السقيفه أن انتخاب الأصلح لم يكن هو المعيار المعمول به فى الخلافه، وكأنهم اعتمدوا الميراث أسلوباً فى التعامل معها بحيث كان كل يدعى سهم معيناً فيها، ومن الواضح أن من لديه هكذا نظره إلى الخلافه، لا يسعه أن ينتخب الأصلح لابناء الأئمه.

٤ - لم تتطرق السقيفه من قريب أو بعيد إلى وصايا النبي صلى الله عليه وآله بالخلافه، رغم علم الجميع بأن النبي صلى الله عليه وآله و آله أوصى الأئمه قائلاً: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي؛ ما أن تمسكنم بهما لن تضلوا بعدى أبداً». أفلم يكن يدعو هذا الحديث الشريف الذى روته أغلب مصادر الفريقين حتى عد متواتراً والذى صرح به الرسول صلى الله عليه وآله فى عده مناسبات، من حضر السقيفه إلى الرجوع إلى القرآن وأهل البيت عليه السلام قبل أن يفرضوا أهدافهم على الأئمه ويتحكموا فى مصيرها؟ (١) أو لم يكن حديث الغدير المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله مانعاً لأهل السقيفه مما أقدموا عليه بشأن الخلافه؟ أو لم يسمعوا بحديث يوم الدار حين نص رسول الله صلى الله عليه وآله منذ أوائل دعوته على خلافه على عليه السلام ووصايته، أو ما أورده آخر ساعات عمره الشريف وقوله إتوني بقلم ودواه؟!

طبعاً قد يبدو ذلك عجبياً منذ الوهلة الأولى، إلا أنه سرعان ما يزول، حيث النبي صلى الله عليه وآله على فراش الموت ودعى بقلم ودواه فمنعوا من ذلك وتفوهوا باشنع الكلمات ضد أطهر الكائنات من بنى آدم رسول الله صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذى يكشف عن وجود خطه مسبقه بشأن الخلافه، بحيث لم يكن ليحول دونها حتى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصاياهم. وما ذلك إلا الطمع فى الخلافه

ص: ٦٩

١ - ١) روى هذا الحديث ثلاثه وعشرين صحابياً على الأقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وللقوف على أسمائهم و العبارات المختلفه التى وردت فى رواياتهم يمكن الرجوع إلى المجلد التاسع من رساله القرآن ٦٢/ - ٧٩ أو خلاصه عبقات الانوار ٢/١٠٥ - ٢٤٢ وإحقاق الحق ٤/٤٣٨ والسيره الحلبيه ومستدرک الحاكم والصواعق واسد الغابه وسنن البيهقى.

وحب الجاه والمنصب التي تجعل الإنسان يتجاهل كل القيم والحقائق التي لا يشوبها أدنى شك أو ريب. (١) وهنا يتضح عمق كلام أمير المؤمنين عليه السلام «احتجوا بالشجره، وأضاعوا الثمره» .

ص: ٧٠

١- ١) حديث «القلم والدواه» أو «القلم والقرطاس» من الأحاديث العجيبه فى أمر الخلافه، وقد روته أشهر مصادر العامه صحيح البخارى. فقد ورد فى هذا الكتاب فى باب مرض النبى صلى الله عليه و آله عن سعيد بن الجبير عن ابن عباس قال: لما حضرت رسول الله صلى الله عليه و آله الوفاه قال: هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده. فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فاختلف من فى البيت واختصموا فمن قائل يقول: القول ما قال رسول الله صلى الله عليه و آله ومن قائل يقول: القول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغظ واللغو والاختلاف، غضب رسول الله صلى الله عليه و آله فقال: قوموا، إنه لا ينبغي لنبى أن يختلف عنده هكذا فقاموا، فمات رسول الله صلى الله عليه و آله فى ذلك اليوم. فكان ابن عباس يقول: إن الرزیه كل الرزیه ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه و آله، يعنى الاختلاف واللغظ. (صحيح مسلم ٣/١٢٥١ كتاب الوصيه، باب ٥ طبع دار إحياء التراث العربى). كما نقل هذا الحديث صحيح البخارى بطرق مختلفه (صحيح البخارى، المجلد السادس، باب مرض النبى صلى الله عليه و آله ووفاته، ص ١٢ دارالجيل بيروت) .

ومن كلام له عليه السلام

لما قلد محمد بن أبى بكر مصر، فملكه عليه وقتل

نظره إلى الخطبه

كان عليه السلام قد ولى محمد بن أبى بكر مصر، فلما اضطرب الأمر عليه بعد صفين وقوى أمر معاويه طمع فى مصر. وقد كان عمرو بن العاص بايعه على أن يكون معه فى قتال على، وتكون مصر له طعمه، فبعثه إليها بعد صفين فى ستة آلاف فارس، وقد كان فيها جماعه عظيمه ممن يطلب بدم عثمان وكانوا يزعمون أن محمداً قتله فانضافوا إلى عمرو، وكان معاويه كتب إلى وجوه مصر، أما إلى شيعته فبالترغيب، وأما إلى أعدائه فبالترهيب، وكتب محمد بن أبى بكر إلى على عليه السلام بالقصه يستمده بالمال والرجال، فكتب إليه يشته ويعدده بذلك بأسرع ما يمكن، فجعل محمد يدعو أهل مصر إلى قتال عمرو، فانتدب معه أربعة آلاف رجل، فوجه ألفين مع كنانه ابن بشر لاستقبال عمرو، وبقي هو فى ألفين، فابلى كنانه فى ذلك اليوم بلاءً حسناً وقتل من عسكر عمرو خلقاً كثيراً، ولم يزل يقاتل حتى قتل، فلما قتل تفرق الناس عن محمد. وأقبل عمرو يطلب محمداً فهرب منه مختفياً، فدخل عمرو فسطاطه. وخرج معاويه بن خديج الكندى، وكان من امراء جيش عمرو، فى طلب محمد فظفر به، وقد كاد يموت عطشاً، فقدمه فضرب عنقه، ثم أخذ جثته فحشاها فى جوف حمار ميت وأحرقه. وقد كان على عليه السلام وجه لنصرته مع مالك بن كعب إلى مصر نحو ألفى رجل، فسار بهم خمس ليال، ورود الخبر إلى

على عليه السلام بقتله وأخذ مصر فجزع عليه السلام جزعاً ظهر أثره في وجهه ثم قال: رحم الله محمداً كان غلاماً حدثاً وقد أردت... (١).

ص: ٧٢

١-١ مصادر نهج البلاغه ٢/٤١. [١]

«وَقَدْ أَرَدْتُ تَوَلِّيَهُ مِصْرَ هَاشِمِ بْنِ عَثْبَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَّا خَلَى لَهُمُ الْعُرْصَةَ، وَلَا- أَنَهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بَلَا ذَمٌّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيبًا، وَكَانَ لِي رَبِيبًا» .

الشرح والتفسير

محمد بن أبي بكر وحكومته مصر

كما ورد في شأن الخطبة فإنها ناظرة إلى حمله جيش معاوية على مصر وقتل عامل أمير المؤمنين علي عليه السلام محمد بن أبي بكر. فقد استهل الإمام عليه السلام ببعض الكلمات التي تشتم منها رائحة الدم لبعض أصحابه فقال: «وقد أردت توليه مصر هاشم بن عتبة، ولو ولَّيته إيَّاهَا لَمَّا خَلَى لَهُمُ الْعُرْصَةَ، (١) وَلَا أَنَهَزَهُمُ (٢) الْفُرْصَةَ» فالعبارة تفيد أنّ الإمام عليه السلام ورغم محبته لمحمد بن أبي بكر وثقته به وما يتصف به من إيمان وصدق، إلّا أنه كان يرجح توليه هاشم بن عتبة المعروف بالمرقال الذي كان أشجع من محمد وأقوى وأعظم تجربه، ويبدو أن طائفه من أصحاب الإمام عليه السلام كانت ترى ضروره ولايه مصر من قبل محمد كونه ابن أبي بكر وأكثر معرفه بمصر وأهلها، ومن هنا كان له نحو هيمنه على الرأي العام المصرى وقبولاً لديه. أمّا الإمام عليه السلام فلم يكن يرى فيه مقومات الصمود المتوفره في هاشم بفعل صغر سنه وقلة تجربته، رغم إتصافه بما لا يخفى من الصفات بيد أنّ تلك الطائفه مارست ضغوطها كتلك التي مارستها بشأن التحكيم فلم يكن من الإمام عليه السلام سوى الاستجابة. فالإمام عليه السلام وبخ بهذه الكلمات تلك

ص: ٧٣

-
- ١-١) «عرصه» من ماده «عرض» على وزن غرس كل بقعه واسعه بين الدور، والمراد ما جعل لهم مجالاً للمغالبة، وأراد بالعرصه عرصه مصر، وكان محمد قد فر من عدوه ظنا منه أنه ينجو بنفسه، فأدركوه وقتلوه.
- ٢-٢) «انهز» من ماده «نهز» على وزن نبض بمعنى القيام والحركة وانهزاز الفرصه إغتمامها.

الطائفه، ولو فسحوا المجال ليتصرف كما أراد لما ضاعت مصر بهذه السهوله. ولكن وبغية الحيلولة لما قد يقتدح إلى الأذهان من أن كلامه عليه السلام يستبطن ذم محمد بن أبي بكر، فقد أردف كلامه بالقول: «بلا ذمّ لمحمد بن أبي بكر، فلقد كان إليّ حبيباً، وكان لي ربيباً» فالواقع أن محمداً لم يقصر في وظيفته وقد بذل كل ما بوسعه ولكن كان هذا أقصى طاقته. جدير بالذكر أن الإمام عليه السلام لما أخبر بقتل محمد بن أبي بكر قال «رحم الله محمداً! كان غلاماً حدثاً، لقد كنت أردت أن أولى المرقال هاشم بن عتبة مصر، فإنه لو ولاها لما خلا لابن العاص وأعانه العرصه، ولا قتل الا وسيفه في يده بلازم لمحمد، فلقد أجهد نفسه فقضى ما عليه» (١). أمّا قوله: «فقد كان لي حبيباً، وكان لي ربيباً» فلأنّ الإمام عليه السلام تزوج من أسماء أم محمد بن أبي بكر بعد وفاه أبيه فتربى محمد في أحضان الإمام عليه السلام فسار على هديه حتى أنّه كان يرى الإمام عليه السلام أبيه، وهكذا كان يرى الإمام عليه السلام فيه ابنه الحبيب.

تأملان

١- من هو هاشم المرقال؟

«هاشم» ابن «عتبه ابن أبي وقاص»، وكان أبوه عتبه من ألد أعداء الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله ولكن ابنه هاشم كان من المسلمين الغيارى، ومن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وأصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وله حديث مشهور يخاطب به أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: والله، لو أعطوني كل ما على الارض وتحت السماء على أن أحب أحداً من اعدائك، أو أبعض أحداً من مجيئك لما فعلت.

كان في حرب «صفين» مع علي عليه السلام وكان يرجو أن ينال وسام الشهاده في طريق الله ومع علي بن أبي طالب عليه السلام فحارب بشجاعه منقطعه النظير، وكان يدعى «المرقال»، بمعنى سريع الحركة، واخيراً، نال ما يريد، فبعد حرب طاحنه خاضها في ميدان صفين تقلد وسام الشهاده، وقد حزن لشهادته الإمام علي عليه السلام وجيشه باجمعهم.

ص: ٧٤

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢/٩٣. [١]

وبعد ذلك حمل الرايه ابنه وهاجم جيش معاويه، وحارب بشجاعه منقطعه النظير، وبعدها وقع فى الأسر، وعندما أخذوه أسيراً إلى معاويه، فكان له حديث مع معاويه وعمرو بن العاص، دافع فيه بعنف عن على بن أبى طالب عليه السلام مما حدى بمعاويه إلى أن يسجنه فى احدى سجونہ. (١)

ورد عن أحوال هاشم عندما كان يحارب فى صفين، حيث قاتل قتالاً شديداً فبينما هو فى أصحابه اذ خرج عليهم فتى شاب وشد يضرب بسيفه ويلعن ويشتم، فقال له هاشم: ان هذا الكلام بعده الخصام، وان هذا القتال بعده الحساب، فاتق الله فانك راجع إلى ربك فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به، قال: فانى أقاتلكم لان صاحبكم لا يصلى كما ذكر لى وأنكم لا تصلون، وأقاتلكم لان صاحبكم قتل خليفتنا وانتم وازرتموه على قتله، فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان؟ إنما قتله أصحاب النبی صلی الله عليه و آله وقرأه الناس حين أحدث إحداثاً وخالف حكم الكتاب، وأصحاب محمد صلی الله عليه و آله هم أصحاب الدين و أولى بالنظر فى أمور المسلمين، وأما قولك صاحبنا لا يصلى فهو أول من صلی الله مع رسول الله وأفقه فى دين الله، وأما من ترى معه فكلهم قارىء الكتاب لا ينام الليل تهجداً، فلا يغروك عن دينك الاشقياء المغرورون، قال الفتى: يا عبدالله أنى لا ظنك أمراً صالحاً أخبرنى هل تجد لى من توبه؟

قال: نعم، تُب إلى الله يتب عليك.

قال الراوى: فذهب الفتى راجعاً.

فقال رجل من أهل الشام: خدعك العراقى.

قال: لا ولكن نصحنى.

أجل، كان أصحاب على عليه السلام مثل الإمام على عليه السلام فى ميدان الوغى، يحاربون ويتصحون ويهدون اهل الضلاله من اعدائهم، ولم يكن همهم قتال الاعداء بل كان سعيهم هدايتهم وارشادهم. و على أى حال فان «هاشم» و «عمار» قاتلا فى صفين بشجاعه وبساله منقطعه النظير و نالا وسام الشهاده وقد حزن لشهادتهما الإمام على عليه السلام واصحابه. (٢)

ص: ٧٥

١-١) مصادر نهج البلاغه ٢/٦١ بتصرف.

٢-٢) سفينه البحار ومصادر نهج البلاغه ٢/٦١ [١] فما بعد ومصادر اخرى.

أم محمد بن أبي بكر أسماء بنت عميس، كانت تحت جعفر بن أبي طالب، وهاجرت معه إلى الحبشه، فولدت له هناك عبدالله بن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مؤتة، فخلف عليها أبو بكر الصديق، فأولدها محمداً، ثم مات عنها، فخلف عليها علي بن أبي طالب، وكان محمد ربيبه وخريجه، وجارياً عنده مجرى أولاده، رضع الولاء والتشيع منذ الصبا، فنشأ عليه، فلم يكن يعرف له أبا غير علي، ولا يعتقد لأحد فضيله غيره، حتى قال عليه السلام: محمد إبنى من صلب أبي بكر. ومن الأمور المهمه فى حياه محمد بن أبي بكر أنه كتب إلى الإمام عليه السلام حين ولاه مصر أنه لا علم لى بالسنة، فكتب إليه كتاباً، كان ينظر فيه ويتأدب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر فى هذا الكتاب ويتعجب منه، فقال الوليد بن عقبه وهو عند معاوية وقد رأى إعجابه به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاوية: مه، لا رأى لك! فقال الوليد: أفمن رأى أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها! قال معاوية: ويحك! أتأمرنى أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقائله؟ فقال: لو لا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثم سكت هنيهة، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنا لانقول إن هذه من كتب على بن أبي طالب، ولكن نقول: هذه من كتب أبي بكر كانت عند ابنه محمد، فنحن ننظر فيها، ونأخذ منها. (١)

ومن كلام له عليه السلام

في توبيخ بعض أصحابه

نظره إلى الخطبه

تعتبر هذه الخطبه من الخطب التي تعبر عن لوعه الإمام عليه السلام بعد الغارات والحملات التي كان يشنها أهل الشام على البلاد الإسلاميه وتجابه بكل برود من قبل أتباعه. فقد تضمنت أشد الذم لتلك الجماعه من الكوفه الموسومه بالضعف والهوان والتي جعلت الإمام عليه السلام يشعر بياسها من عدوها، ويبدو أن الإمام عليه السلام لجأ إلى هذه العبارات أملاً في إثارتهم وتعبئتهم ضد أهل الشام.

ص: ٧٧

١-١) سند الخطبه: نقلها بعض المحدثين قبل السيد الرضى (ره) كالبلادزى (المتوفى عام ٢٧٩ هـ) في أنساب الاشراف واليعقوبى (المتوفى عام ٢٨٤) في تاريخه. ويفهم من روايه اليعقوبى أنّ الإمام عليه السلام خطبها بعد غاره النعمان بن بشير على عين التمر (مصادر نهج البلاغه ٢/٦٠). [١]

«كَمْ أَدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبَكَارُ الْعَمِدَةُ، وَالثِّيَابُ الْمَتَدَاعِيَةُ، كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهْتَكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّمَا أُطْلَ عَلَيْكُمْ مَنْسَرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَأَنْجَحَرَ أَنْجِحَارَ الضَّبِّ فِي جُحْرِهَا وَالضَّبِيعِ فِي وَجَارِهَا، الدَّلِيلُ وَاللَّهُ مَنْ نَصَرَ زُتْمُوهُ وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقِ نَاصِتِ، إِنَّكُمْ وَاللَّهُ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ، قَلِيلٌ تَحْتَ الزِّيَاةِ. وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصِيبُكُمْ، وَ يُقِيمُ أَوْدَكُمْ وَلَكِنِّي لَا أَرَى إِضْإِحْكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي أَضْرَعَ اللَّهُ خُدُودَكُمْ، أَتَعَسَ جُدُودَكُمْ! لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَا عَرَفْتُمْ الْبَاطِلَ وَلَا تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ، كَمَا بَطَلْتُمْ الْحَقَّ».

الشرح والتفسير

عظم الشكوى من الاصحاب الضعفاء

يفهم من مضمون الخطبه مدى معاناه الإمام عليه السلام بصفته قائداً لتلك العصابه التي طبعت على العصيان والتمرد والتي مهدت السبيل أمام العدو لتسديد ضرباته الماحقه إليهم، فيعرض لها بالتوبيخ والذم، عليها تعود إلى رشدتها وتفريق إلى نفسها فتوحده صفوفها وتهب للوقوف بوجه عدوها. وتكشف عبارات الخطبه - وخلافاً لما يظنه بعض الجهال - مدى مداراه الإمام عليه السلام لهذه الجماعه الضعيفه المشتته حتى سئم من مداراتهم وشعر بالتعب فقال عليه السلام: «كم أداريكم كما

ص: ٧٩

تدارى البكار (١) العمده، (٢) والثياب المتداعيه، (٣) كلما حيصت (٤) من جانب تهتكت من آخر» فالتشبيهاً التي أوردتها من قبيل التشبيهاً الغايه فى الروعه والصدقه التي تكشف النقاب عن طبيعه أهل الكوفه، فالتأريخ يشير إلى مدى الضعف والوهن الذى ساد عسكر الإمام عليه السلام بعيد موقعه صفيين بفعل ما كانوا عليه من جهل وذل وهوان. فقد كان جلهم من الأفراد الذين خلدوا إلى الدعه والرحه وعدم التمتع بالآفاق والأفكار التي تجعلهم يتعرفون على ما حولهم من الأحداث. فلم تكن تهتز لهم قصبه رغم الحملات والغارات المباغته التي كان يشنها أهل الشام على هذه المنطقه أو تلك من مناطق البلاد الإسلاميه، وهم يرتكبون أفضغ الجنايات وأبشع الجرائم إلى جانب سلبهم الأموال واخراهم للدور. فقد شبههم الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء بالنوق الفتيه التي أعدت حديثاً للركوب وقد يجرح أحياناً سنامها. ومن الواضح أن هذا هو حال النوق فى بدايه عهدنا وأن عليها أن تتحمل حتى يشد ظهرها ويستحكم سنامها. أما تلك الجماعه فلم تتعرض إلى ذلك الحمل الخفيف فى موقعه صفيين حتى جثت على ركبتيها، مع ذلك فإن الإمام عليه السلام عاملها بمنتهى المداره عليها تنهض وتستعيد قوتها وشجاعتها. وفى التشبيه الثانى شبههم بالاسمال الخلقه الباليه التي تشق بأدنى حركه، فاذا خيبت من جانب شقت وتمزقت من آخر. نعم فهؤلاء قد فقدوا كل عناصر الصمود والثبات إثر ضعفهم وخلودهم إلى الراحة والنكوص عن القتال، فكانوا كلما جمعوا من جانب تفرقوا من آخر، فما أعظمها من مشكله أن يتلى قائد شجاع وحكيم بمثل هذا الجيش المهزوم. حقا كان الإمام عليه السلام يعيش حاله

ص: ٨٠

١-١) «البكار» جمع «بكر» على وزن مكر من ماده «بكور»، الفتى من الابل، ولا بد من لالتفات إلى أنها تستعمل بشأن الإنسان أيضاً وجمعها أبكار. و «بكر» على وزن مكر، ويطلق على الصغير من أنثى الابل وجمعها «أبكار» .
٢-٢) «عمده» من ماده «عمد» على وزن حمد بمعنى إقامه الشئ بالعمود، وتطلق على الدابه التي انفتح داخل سنامها من الركوب وظاهره سليم.

٣-٣) «متداعيه» من ماده «دعوت»، وهذا الاصطلاح يستعمل للاشخاص يدعون بعضهم الآخر إلى شئ معين، ومن هنا يطلق على قطعه القماش الباليه والتي عندما تتمزق إحدى زواياها كأنما تدعوا لزوايه الاخرى لتكون مثلها، يطلق على هذه القطعه الباليه «المتداعيه» .

٤-٤) «حيصت» من ماده «حيص» على وزن حوض بمعنى خيبت.

مذهله من الألم والمعاناة والاحباط، وهذه قمة المظلوميه التي شهدها الإمام عليه السلام. ثم أشار عليه السلام إلى مدى ضعفهم وذلتهم عليهم يصلحون أنفسهم: «كَلَّمَا أَطَلَّ (١) عَلَيْكُمْ مَنْسَرٌ (٢) مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِأَبِيهِ، وَأَنْجَحَرَ (٣) أَنْجَحَارَ الضَّبِّهِ (٤) فِي جِحْرَهَا، وَالضَّبِيعَ (٥) فِي وَجَارِهَا (٦)» والتشبيه بالضبيه ينطوي على عده أمور منها أن الضبيه تعرف بالحماقه إلى درجه أنها قد تفضل حتى جحرها فتعمد إلى جعل جحرها قرب صخره بغيه الاهتداء إليه، أضف إلى ذلك فهي تتصف بانعدام العاطفه بحيث تأكل أحياناً صغارها، وأخيراً شبههم بانثى الضباب الضبيه مبالغه في وصفهم بالجبن والفرار، لأن الانثى أجبن وأذل من الذكر. كما شبههم بالضبيع لحماقتهم وسائر الصفات التي أوردناها في الخطبه السادسه ومنها أنها تنام رغم تهديدها من العدو الذي يمكن في كهفها فيجعلها تخلد إلى النوم حتى يمسك بها دون أن تبدي أدنى مقاومه والواقع أن أحداث صفين تعد شاهداً حياً على ما اورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بشأن أهل الكوفه وكيف كانت حماقته تجعله يفقد الفرصه وزمام المبادرة بماجر الويلات عليهم وعلى إمامهم عليه السلام وعلى كافه المسلمين. ثم أماط الإمام عليه السلام اللثام عن مدى ضعفهم فقال: «الدليل والله من نصرتموه! ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل (٧)» والسهم الافوق الناصل المكسور الفوق، المنزوع الفصل، والفوق موضع الوتر من السهم، وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لاينجده. ثم قال عليه السلام: «إنكم والله لكثير في الباحات (٨) قليل تحت الرايات» فقد

ص: ٨١

-
- ١-١) «أطل» من ماده «طل» على وزن حل بمعنى الاشراف على شئ وهى هنا إشاره إلى إقتراب جيش الشام.
- ٢-٢) «منسر» على وزن منزل من ماده «نسر» القطعه من الجيش البالغ عددها مئه إلى مئتين والتي تمر أمام جيش كثير.
- ٣-٣) «انجحر» من ماده «جحر» على وزن جهل بمعنى دخل الجحر.
- ٤-٤) . «ضبيه» على وزن دبه بمعنى أنثى الضب، وفي الاصل جاءت من ماده «ضبت» بمعنى إنسياب الماء بشكل بطيء وأمثال ذلك.
- ٥-٥) «ضبيع» ، يطلق على نوع من السباع.
- ٦-٦) «وجار» من ماده «وجر» على وزن فجر بمعنى صب الدواء فى الحلق، ومن هنا فان زحف الضبيع فى حجره له شبه بذلك، ويقال لجحر الضب والحيوانات الاخرى «وجار» .
- ٧-٧) وهنا فان الفعل «رُمى» جاء بصوره فعل مجهول، فى حين إن هذا الفعل تكرر فى الخطبه ٢٩ بهذا التعبير ولكن جاء بصيغه فعل معلوم، وبما انهما يعطيان معنى واحداً فى كلا الحالتين، لذا فلا مانع من الاستفاده من التعبيرين فى ترجمه.
- ٨-٨) «باحات» من ماده «بوح» بمعنى الاتساع والظهور، ويراد بها ساحه الدار. ومن هنا فانه يطلق على الساحه الواسعه والظاهره للعيان، ب «الباحه» .

إعتادوا على الراحة والرفاه ولذذ العيش، وهذا هو سبب ذلهم وهوانهم وجراه العدو عليهم. ثم قال عليه السلام «وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم، (١) ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي». فقد ذكر الشراح تفسيرين لهذه العبارة لا يتناهيان مع بعضهما، ولعل كلاهما صادق: الأول أنه أستطيع أن أفعل ما يفعله معاويه ويستعمل زعماء القبائل والناس بأموال بيت مال المسلمين، الا- أني لا- أفعل ما يسخط الله، ولا أقيم دعائم حكومتي على حساب الفقراء والضعفاء وهضمهم حقوقهم، والثاني يمكنني أن أفعل ما يفعله الآخرون من حملكم بالقوه على قتال العدو. فقد جاء في كتاب الغارات أن الإمام عليه السلام خاطب أهل الكوفة قائلاً: «و الله لقد ضربتكم بالدره التي أعظ بها السيفاء فما أراكم تنتهون، ولقد ضربتكم بالسياط التي أقيم بها الحدود فما أراكم ترعون، فما بقي إلا سيفي! وإني لا علم الذي يقومكم بإذن الله و لكني لا أحب أن آتي تلك منكم» (٢). ونموذج ذلك قد تمثل بالحجاج حين هجم جيش المهلب (أحد زعماء الخوارج) وسدد ضرباته القاصمه لحكومته بني أميه، فبعث الحجاج من نادى بالكوفه من تخلف عن قتال جيش المهلب اخربت داره على رأسه وضربت عنقه بالسيف، ولم يستثن من ذلك حتى الكهول والمرضى. وبالطبع فقد عمل بذلك عدد من المستبدين من قبل الحجاج وبعده. فالإمام عليه السلام يشير إلى سهوله اللجوء إلى هذا الاسلوب، إلا أنه لا يليق بشأنه وعلو منزلته، وأنه لا يفعل ذلك لأنه يفسد دينه. وهنا يطرح هذا السؤال: أو ليس الدفاع عن الحكومه الإسلاميه و قتال أعدائها واجباً؟ فلم لا يحمل الناس قهراً على القتال؟ والجواب على هذا السؤال يتضح من خلال ذكر هذه المسأله، وهى أن أصل هذا العمل صحيح، وللحكومه الإسلاميه أن تلجأ إلى القوه فى مثل هذه الحاله، إلا أن هذا الأمر يستلزم عدّه تبعات قد تكون فى نهايه الأمر مخالفه لأحكام الشرع، ونموذج ذلك واضح فى قضيه الحجاج الذى كان يضرب بالسيف البرى والمذنب على حد سواء. أضف إلى ذلك فإن هذا العمل قد يستبطن بعض ردود الفعل السلبيه من البعض واساءتها لفهم القوانين الإسلاميه، وذلك لعدم قبول هذا العمل من قبل الجميع، ولعل بعض الضغوط تدعو البعض إلى الرده والتمرد على أحكام الدين والقرآن.

ص: ٨٢

١- ١) «أود» من ماه «أود» على وزن قول بمعنى العوج. و «أود» على وزن سند، ويطلق على الاعوجاج ب «الأود» .

٢- ٢) الغارات ١/٤٢. [١]

ومن هنا لم يلجأ النبي صلى الله عليه وآله قط إلى مثل هذا الأسلوب، بل لم يعمل به أى من الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وآله. وعليه فقد درج الإمام عليه السلام وعلى غرار ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله من اعتماد الترغيب والترهيب فى تعبئه الأمة لخوض غمار الجهاد. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالدعاء عليهم جزاءً لأعمالهم: «أضرع (١) الله خدودكم، وأتعس (٢) جدودكم! (٣) لا- تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل، ولا- تبطلون الباطل كإبطالكم الحق!» فالواقع أن دعاء الإمام عليه السلام لم يكن سوى نتيجة أعمالهم، فمن ترك الجهاد لا يذيق سوى الذل والهوان، وما ذلك إلا لجهلهم بالحق وعدم نهوضهم به واقبالهم على الباطل. وهذا هو البؤس والشقاء الذى يحتاج اليوم مجتمعاتنا الإسلاميه. فهذه المجتمعات تعرف الباطل، مع ذلك تقلده وتفتى آثاره، بينما تجهل الحق واتباعه، والأنكى من ذلك هناك من هم للوقوف بوجه الحق رافعا رايه الباطل والضلال. والحال إن هذه الطاقات والإمكانات لا بد أن تجند فى سبيل الله وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

ص: ٨٣

-
- ١-١) «أضرع» من ماده «ضرع» بمعنى الرضاع «وضع الثدي فى الفم» ، ويأتى معناها أيضا بمعنى المناسب فى الاشياء، ومن هنا فان هذا المصطلح يستعمل للتعبير عن الدوله.
- ٢-٢) «أتعس» من ماده «تعس» على وزن «ترس» بمعنى الهفوه والسهو والزله وكذلك يأتى بمعنى السقوط، و «اتعاس» من باب افعال بمعنى الهلكه.
- ٣-٣) «جدود» جمع «جد» وفى الأصل بمعنى أب الأيب أو أب الام، وتأتى بمعنى الرزق والموفقيه الاجتماعيه، وأحيانا بمعنى الفائده، حيث أتت هنا بهذا المعنى.

وقال عليه السلام

في سحره اليوم الذي ضرب فيه

«مَلَكْتَنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ فَسَيَّحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوْدِ وَاللَّدَدِ فَقَالَ اذْعُ عَلَيْهِمْ فَقُلْتُ أَبَدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَبَدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي» .

الشرح والتفسير

رؤيه رسول ﷺ صلى الله عليه و آله

روى محمد بن حبيب البغدادي في كتاب المغتالين عن أبي عبدالرحمن السلمى أنه قال: عدت أمير المؤمنين على عليه السلام فقال: ادن مني (كأنه لم يرد إسماع الآخريين) ، بينما كانت النسوة تبكي. فقال عليه السلام: «ملكنتي عيني وأنا جالس فسبح (٢) لي رسول الله صلى الله عليه و آله. . .» . على كل حال

ص: ٨٥

١-١) سند الخطبه: نقله كثير من المحدثين قبل السيد الرضى (ره) ومنهم ابن سعد فى الطبقات وأبو الفرج الاصفهاني فى مقاتل الطالبين وابن عبد ربه فى العقد الفريد وابن قتيبه فى الإمامه والسياسه والمرحوم السيد المرتضى فى الغرر والدرر والشيخ المفيد فى الإرشاد. مصادر نهج البلاغه ٢/٦٤. [١]

٢-٢) «سنح» من ماده «سنوح» على وزن حضور، بمعنى العبور السريع لشيء فى مقابل الانسان، وكذلك تأتى بمعنى عرض الشيء أمام الانسان. وقد فسر عدد من أرباب اللغة لفظ «سانح» ، بحركه الشيء من اليسار إلى اليمين وفى مقابل الانسان، وعلى القاعده فان ذلك يعتبر طالع أو فال خير، ويقابل ذلك اصطلاح «بارح» وهى الحركه من اليمين إلى اليسار، وهو طالع غير مبارك وغير حسن.

فإنّ هذا الكلام يعبر عن مدى الأذى الذى تعرض له عليه السلام من تلك الجماعة. وبالطبع فهذه ليست المره الاولى التى يشكو فيها الإمام عليه السلام بل ورد ذلك فى أكثر من خطبه من خطبه نهج البلاغه والتى تفيد بأجمعها عدم معرفه مقامه عليه السلام ورعايه حرمة الى جانب الأذى والألم الذى جرعه إياه. فقد إستهل كلامه عليه السلام بالقول: «ملكتنى عينى وأنا جالس» فالعبارة «ملكتنى عينى» من فصيح الكلام الذى أراد به عليه السلام غلبنى النوم، لأنّ العين هى العضو الأول الذى تظهر عليه آثار النوم، ومن هنا استعملت كناية عن مفهوم النوم. ثم قال عليه السلام: «فسمح لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: يا رسول الله! ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟». لعلنا لا نرى نظيراً للإمام عليه السلام من أولياء الله طليه التأريخ ممن جوبهوا بمثل هذا العداء والتمرد العصيان والأذى. ولم يقتصر ذلك على تلك المده التى حكم فيها، بل إمتد ليشمل حتى تلك الفتره التى أصبح فيها جليس الدار مده خمس وعشرين سنه، فقد تعرض لمثل ذلك الأذى طيله الخلافه الراشده ولا سيما إبان خلافه عثمان حين ضاق ذرعاً بالممارسات الخطيره التى طالت بيت مال المسلمين فحاول الإصلاح لإعاده الأمور إلى مجاريها، فجوبه بسخط واسع ونقمه عامه، الأمر الذى بلغ ذروته حين آلت إليه الخلافه. وعليه فلا يبدو من العجيب أن يشكو الإمام عليه السلام الأئمّه إلى النبی صلى الله عليه وآله رغم ما وصف به من الصبر والتحمل، فهو الذى صبر وفى العين قذى وفى الحلق شجى. ولنرى جواب النبی صلى الله عليه وآله لعلی عليه السلام: «فقال: «أدع عليهم»، فقال الإمام عليه السلام: «فقلت: أبدلنى الله بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شراً لهم منى». والسؤال الذى يقتدح إلى الذهن: لم أمر الرسول صلى الله عليه وآله بالدعاء عليهم وهو الموصوف بأنه «رحمه للعالمين»؟ ونقول فى الجواب أنّ طغيان طائفه من الناس وتمردھا قد يصل درجه تغلق معها كافه منافذ الرحمه بوجهها فلا تبقى لنفسها سوى العذاب وسلب النعمه، وهكذا نرى الأنبياء الذين يمثلون ذروه الصبر والتحمل والحكمه واللطف والرحمه يرون هذه المفردات إنّما تتجسد فى الدعاء على أقوامهم بعد وصولهم إلى مرحله لا يرجى بعدها هدايتهم. فهذا نبى الله نوح عليه السلام قد جهد تسعمائه وخمسين سنه فى تبليغ رساله ربه وتحمل ذلك الأذى فى سبيل هدايه قومه، ولما

لم ير

من سبيل سوى الدعاء عليهم تضرع إلى الله سبحانه قائلاً: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» (١) فاغرقوا جميعاً بالطوفان. على كل حال فان سيره الإمام عليه السلام تجسدت في مداراه الأعداء فضلاً عن الأصدقاء، حتى أوصى مالكاً حين ولاه مصر باستشعار قلبه رحمه لكافه الناس بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم: «فالناس صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» ومن هنا كان لا بد من تصور مدى الاذى والتمرد الذي واجهه الإمام عليه السلام حتى إضطر إلى الدعاء عليهم. جدير بالذكر الادب الذي تحلى به الإمام عليه السلام حيال رسول الله صلى الله عليه وآله حيث لم يقدم على الدعاء عليهم إلا- بعد أن أذن له النبي صلى الله عليه وآله. مضمون الدعاء هو الآخر جدير بالتأمل حيث سأله أولاً النجاه من هؤلاء المردة ثم سأل الله أن يسلبهم نعمه وجوده ويسلط عليهم حاكماً ظالماً ليجرعههم مراره أعمالهم. اما العبارة «أبدلهم بى شرّاً لهم منى» لا تعنى أن الإمام عليه السلام كان والعياذ بالله سيئاً وقد سأل الله أن يسلب عليهم أسوأ منه، لأن مفردتى الخير والشر فى الادب العربيه لا تقتضى جزءاً معانى صيغه التفضيل، وهكذا العبارة «ابدلنى الله بهم خيراً منهم» فاولئك كانوا نفاقاً وشرّاً ولم يكونوا من الاخير. والشاهد على ذلك عده آيات قرآنيه كآليه الخامسه عشره من سوره الفرقان: «قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ» والآيه السادسه والعشرون من سوره الصافات: «أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ» .

على كل حال استجيب دعاء الإمام عليه السلام ليستشهد الإمام عليه السلام بعد أن ضرب فى محرابه ففاز بقاء الله وجوار رسوله صلى الله عليه وآله، بينما تسلط من بعده معاويه ويزيد والحجاج على أهل العراق ليجرعوهم الموت غصه بعد غصه.

وقال السيد الرضى (ره) آخر الخطبه «يعنى بالأود: الأوغاج، وباللدد: الخصام. وهذا من أفصح الكلام» .

تأملان

١ - أصحاب على عليه السلام

لاشبهه ولا ريب أن أتباع الإمام على عليه السلام على ثلاث طوائف: الطائفة الاولى الخلف

ص: ٨٧

الأوفياء الذين كانوا يدورون حول الإمام عليه السلام كيفما دار ويضحون من أجله بالغالى والنفيس من قبيل مالك الأشر وعمار بن ياسر ورشيد الهجرى وميثم التمار وكميل بن زياد وأمثالهم. الطائفة الثانية الجهال الذين لم يعرفوا مقام الإمام عليه السلام ولم يدركوا شرائط الزمان والمكان، ولم يقفوا على أخطار معاويه وحكومته فى الشام، كما لم يكونوا يحضرون فى ميدان القتال، وهم أفراد سدج متلونون لا يعتمد عليهم فى أى عمل من الأعمال والطائفة الثالثة هى الزمره الحاقده التى إعتادت العبث بأموال المسلمين على عهد عثمان، الأمر الذى طالبوا به علياً عليه السلام ولم يكونوا يفكرون سوى فى الأموال والمناصب - بغض النظر عن الطرق المؤديه إليها - إلى جانب كون أكثر يشكلون جواسيس معاويه عيونه فى الكوفه. مع ذلك كان الإمام عليه السلام يعامل الجميع بالرفق والمداراه حفظاً على مصالح المجتمع الإسلامى، بينما يضطر أحياناً لدمهم وتوبيخهم عليهم يفيقون إلى أنفسهم أما شكواه وأئنه منهم فيمكن الوقوف عليه فى هذه الخطب:

١ - قال فى الخطبه الخامسه والعشرين: «و إني والله لأظنّ أنّ هؤلاء القوم سيّدالونّ منكم باجتماعهم على باطلهم وتفترقكم عن حقّكم. . . اللهم إني قد مللتهم وملّوني وسئمتهم وسئموني» .

٢ - قال فى الخطبه السابعه والعشرين: «فيا عجباً عجباً! - والله - يميت القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفترقكم عن حقّكم! فقبجاً لكم وترحاً. . . يا أشباه الرّجال ولا رجال! حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال، لوددت أنّى لم أركم ولم أعرفكم» .

٣ - قال فى الخطبه التاسعه والعشرين: «أيها النّاس! المجتمعه أبدانهم، المختلفه أهواؤهم، كلامكم يوهى الصّمّ الصّلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء! تقولون فى المجالس: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلت: حيدى حيا» .

٤ - قال فى الخطبه التاسعه والستون: «كم أداريكم كما تدارى البكار العمده، والثّياب الم تداعيه! كلّما حيصت من جانب تهتكت من آخر» .

٥ - قال فى الخطبه السابعه والتسعين: «أيها القوم الشّاهده أبدانهم، الغائبه عنهم عقولهم، المختلفه أهواؤهم المبتلى بهم أمراؤهم. . . يا أهل الكوفه! منيت منكم بثلاثٍ واثنتين: صمّ ذوو أسمعٍ وبكمّ ذوو كلامٍ وعمى ذوو أبصارٍ، لا أحرار صدقٍ عند اللّقاء، ولا إخوان ثقّه عند البلاء» .

٦ - قال في الخطبه المئه وتسعه عشر: «ما بالكم أمخرسون أنتم؟! . . . ما بالكم لا سدّتم لرشدٍ ولا هديتم لقصدٍ» .

٧ - قال في الخطبه المئه والحاديه والعشرين: «أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى كناقش الشوكه بالشوكه وهو يعلم أنّ ضلعها معها! اللهمّ قد ملّت أطباء هذا الداء الدوىّ» .

٨ - قال في الخطبه المئه والثالثه والعشرين: «و كأنّى أنظر إليكم تكشّون كشيخ الصّب لا تأخذون حقّاً ولا تمنعون ضيماً» .

٩ - قال في الخطبه المئه والخامسه والعشرين «أفّ لكم! لقد لقيت منكم برحاً، يوماً أناديكم ويوماً أناجيكم، فلا أحرار صدقٍ عند النداء ولا إخوان ثقّه عند النّجاء» .

١٠ - قال في الخطبه المئه والحاديه والثلاثين: «أيتها النفوس المختلفه والقلوب المتشثته، الشاهده أبدانهم، والغائبه عنهم عقولهم، أظأركم على الحقّ وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوعه الأسد» .

٢ - الأفراد الملعونون

كما مر معنا فى شرح الخطبه فانّ الأنبياء والأوصياء قد إجتهدوا فى إصلاح أقوامهم ودعوتهم إلى الحق بالحكمه والمواعظه الحسنه وتحملوا كافه المشاق والصعاب بكل صبر وجلد، إلّاأنهم كانوا يرون أحياناً كافه أبواب الأمل قد أغلقتها تلك الأتوام بوجهها بحيث لم يعد هنالك من أمل فى هدايتها، فلم يكن أمامهم من سبيل سوى الدعاء عليها؛ أملاً فى إجتثا أولئك الفسده واستبدالهم بآخرين. وإننا لنلمس نماذج من ذلك الدعاء فى السيره المفعمه بالعفو والرحمه لرسول الله صلى الله عليه و آله ومنها:

١ - جاء فى الأخبار أن الحكم بن العاص عم عثمان كان كثيراً ما يسخر من رسول الله صلى الله عليه و آله ويؤذيه من خلال مشيه خلفه وإتيانه ببعض الحركات حيث كان يحرك كتفيه ويكسر يديه خلف رسول الله صلى الله عليه و آله إستهزاءً منه بمشيته النبى صلى الله عليه و آله حتى إلتفت إليه النبى صلى الله عليه و آله وقال له: هكذا كن

فبقى الحكم على تلك الحال من تحريك أكتافه وتكسر يديه، ثم نفاه رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة ولعنه. (١)

٢ - روى أن ابن مسعود قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله في ظل الكعبة وناس من قريش وأبوجهل نحروا جزوراً في ناحية مكة فبعثوا وجاءوا بسلاها فطرحه بين كتفيه، فجاءت فاطمة عليها السلام فطرحته عنه، فلما انصرف قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسنى يوسف» قال: عبدالله: ولقد رأيتهم قتلى في قلب بدر. (٢)

٣ - ومن ذلك أنه دعا على مضر فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم كسنى يوسف، فاصابهم سنون، فاتاه رجل فقال: فو الله ما أتيتك حتى لا يخطر لنا فحل ولا يتردد رايح (٣)، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم العنهما واركسهما في الفتنة ركساً ودعهما في النار دعاً» فما قام حتى ملأ كل شيء، ودام عليهم جمعه، فأتوه فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنقطعت سبلنا وأسواقنا، فقال النبي صلى الله عليه وآله: حوالينا ولا علينا، فانجابت السحابة عن المدينة وصار فيما حولها وأمطروا أشهراً. (٤)

٤ - وورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما مر بعمر بن العاص والوليد بن عقبة بن أبي معيط وهما في حائط يشربان ويغنيان بهذا البيت في حمزه بن عبدالمطلب حين قتل: كم من حوارى تلوح عظامه ورآء الحرب عندنا يجر فيقبرا

فقال النبي صلى الله عليه وآله: اللهم العنهما واركسهما في الفتنة ركساً ودعهما في النار دعاً. (٥)

٥ - وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ يوم بدر كفاً من حصى فرمى به في وجوه قريش وقال: «شاهت الوجوه» فبعث الله رياحاً تضرب وجوه قريش فكانت الهزيمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم لا يفتن فرعون هذه الأمة أبوجهل بن هشام. فقتل منهم سبعون، وأسر

ص: ٩٠

[١ - ١] بحار الأنوار ١٨/٥٩. [١]

[٢ - ٢] بحار الأنوار ١٨/٥٧. [٢]

[٣ - ٣] بحار الأنوار ١٧/٢٣٠. [٣]

[٤ - ٤] بحار الأنوار ١٧/٢٣٠. [٤]

[٥ - ٥] بحار الأنوار ٢٠/٧٦. [٥]

منهم سبعون (١). وبالطبع فان دعاء النبي صلى الله عليه و آله ولعنه لم يقتصر على هؤلاء؛ الأمر الذى يشير إلى أن أولياء الله ورغم تحملهم كل عناء المواجهه مع الاعداء، الا أنهم كانوا لا يرون من أمل فى المقابل فيضطرون للدعاء عليه، وهذا ما ورد فى خطبه الإمام عليه السلام اقتداءً برسول الله صلى الله عليه و آله.

ص: ٩١

١-١) بحار الأنوار ١٩/٢٥٧. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

فى ذم أهل العراق

وفىها يوبخهم على ترك القتال والنصر يكاد يتم، ثم تكذيبهم له

نظره إلى الخطبه

ورد فى بعض الروايات خطب على عليه السلام فقال: «لو كُسرَتْ لى الوساده لحكمتُ بين أهل التوراه بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، وما مِنْ آيه فى كتاب الله أنزلت فى سهلٍ أو جبلٍ إلا وأنا عالمٌ متى أنزلت، وفيمن أنزلت» .

فقال رجل من القُعود تحت منبره: ياالله وللدَّعوى الكاذبه! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله رب العالمين! (فقد كان احدهما مفرطاً والاخر مفرطاً) .

و روى المدائنى أيضاً قال: خطب على عليه السلام، فذكر الملاحم، فقال: «سلونى قبل أن تفقدونى، أما والله لتشغرنَّ الفتنة الصماء برجلها، وتطأ فى خظامها» .

يا لها من فتنة شُبَّت نارها بالحطب الجزل، مقبله من شرق الأرض رافعه ذيلها، داعيه

ص: ٩٣

١- ١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه هذا مختار من خطبه خطب بها عليه السلام بعد صفين وقد روى طرفاً منها ابن دأب المعاصر لموسى الهادى الخليفه العباسى فى كتابه الاختصاص. ورواها المفيد فى الارشاد. وقال ابن أبى الحديد: وقد روى هذا الكلام «ما أتيتكم إختياراً». «على وجه آخر «ما أتيتكم إختياراً ولا جئتكم سوقاً»، والظاهر من كلامه أنها روايه غير النهج وأنها خطبه واحده مع الخطبه ٩٧ التى فصلها السيد الرضى (ره). مصادر نهج البلاغه ٢/٦٦. [١]

ويَلِّها، بدجله أو حولها. ذاك إذا استدارَ الفلّك، وقتلتم: مات أو هلك، بأى واد سلك!

فقال قوم تحت منبره: لله أبوه! ما أفصحه كاذباً!

على كل حال فإنّ الخطبه قد وردت بعد واقعه صفين حيث يعرض بالدم لجيشه الذى أوشك على تحقيق النصر النهائى والقضاء على فتنه بنى أميه. ومن هنا شبههم الإمام عليه السلام بالمرأه الحامل التى أوشكت على وضع الحمل أسقطت جنينها، فمات قيمها وطال تأيمها وورثها أبعدها، فأصبحت بئسه شقيه. ثم إختتم الخطبه بالرد على من كذب حديثه وتجاهل ما أخبر به الإمام عليه السلام من حقائق بسبب الجهل والحمق. فالخطبه هى الأخرى تكشف عن مدى مظلوميه الإمام عليه السلام.

ص: ٩٤

«أُمِّيَا بَعِيدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلْتِ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قَيْمُهَا، وَطَالَ تَأْيِمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعِيدُهَا. أَمَا وَاللَّهِ! مَا أَتَيْتُكُمْ اخْتِيَارًا، وَلَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ (اتَيْتُكُمْ) سَوْقًا. وَلَقَدْ بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَقُولُونَ: عَلَيَّ يَكْذِبُ، قَاتِلُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ؟ أَعَلَى اللَّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! كَلَّا- وَاللَّهِ. لَكِنَّهَا لَهَجَتْ غِبْتُمْ عَنْهَا، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا. وَيَلُ أُمُّهُ كَيْلًا بَغَيْرِ ثَمَنِ! لَوْ كَانَ لَهُ وَعَاءٌ «وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ» .»

الشرح والتفسير

الشكوى من الاتباع الجهلاء

كما أشرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد موقعه صفين، حيث بات النصر الحاسم وشيكاً، بينما إنشقت طائفته من جيش الإمام عليه السلام إثر حيله معاوية وعمرو بن العاص ففقدت فرصه النصر، وأنكى من ذلك أحداثت شقاً وخلافاً في جيش الإمام عليه السلام، الخلافة الذي بلغ ذروته حتى أدى إلى وقوع تلك الحرب الأهلية. فالإمام عليه السلام وبفعل هذه الحادثة المروعة الأليمة يذم أهل العراق ويقول: «أما بعد يا أهل العراق، فإنما أنتم كالمراة الحامل، حملت فلما أتمت أملصت (١) ومات قيمها، وطال تأيمها، (٢) وورثها أبعدها» فالعبارة تتضمن عدّه تشبيهات: الأولى شبه أهل العراق بالمرأه حيث لم يدافعوا برجوله عن عزتهم وشرفهم، ثم لم يكتف بهذا التشبيه ليضيف إليه الحمل حيث كان باستطاعتهم وبطاعتهم للإمام عليه السلام أن

ص: ٩٥

١- (١) «أملصت» من ماده «ملص» ، أسقطت وألقت ولدها ميتاً، كما تعنى فقد ان الشئ سريعاً.

٢- (٢) «تأيم» من ماده «أيم» على وزن زيد فقدان الزوج وتستعمل بشأن الزوج والزوجه.

يلدوا ذلك النصر المبارك الذى يضع حدا لغارت أهل الشام وتناولهم على حرمه الإسلام والمسلمين، إلّا أنّهم أسقطوا ذلك النصر فى آخر اللحظات بفعل جهلهم. فقد خدع القوم بحيله عمرو بن العاص حين رفع المصاحف على أسننه الرماح، فتعالت الأصوات بالرجوع إلى القرآن، حتى هدد الإمام عليه السلام بالقتل إذا لم يرجع مالك الأشر ويكف عن القتال ولم يكن سوى بضع خطوات بينه وبين معاويه. فمثل هذه المرأه إذا فقدت زوجها ولم تحظ بزواج مناسب وماتت غصه فى هذه الدنيا، فمن الطبيعى أن يرثها الأبعد، فليس لها من ولد يكون لها إمتداداً، وليس لها زوج يكيها (على فرض أن ليس لها أب وأم). وذهب البعض إلّا أن هذا الكلام إشاره إلى نبوءات على ما سيصيب أهل العراق من جراء سوء تدبيرهم فى صفين، حيث سيفقدون إمامهم لجهلهم وتمردهم فيسلط عليهم البعداء فيسومونهم سوء العذاب، وهذا ما وقع بالفعل، ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى هجرته من المدينه إلى الكوفه التى إستندت إلى الاضطراب وليس فيهم ما يجعل الإمام عليه السلام يهاجر إليهم، على العكس من أهل المدينه الذين إندفع إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كانوا أهلاً لحب رسول الله صلى الله عليه وآله وإقباله عليهم. فقال: «أما والله ما أتيكم اختياراً؛ ولكن جئت إليكم سوقاً». والتأريخ يشير إلى هذه الحقيقه وهى لولا موقعه الجمل لما إنطلق الإمام عليه السلام إلى البصره، ولو كان لأهل الحجاز أن يقضوا على فتنه الناكثين لما إستنجد بأهل الكوفه، ولولا خطر معاويه الذى كان يهدد البلاد الإسلاميه لما إستقر الإمام عليه السلام فى الكوفه وهجر المدينه وغادر قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدته النساء. والواقع أن العبارة رداً على إشكال فى عله قدوم الإمام عليه السلام إلى الكوفه وهى بهذه الصفات الذميه، فقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الإمام عليه السلام أتى مجبراً لا مختاراً. ثم قال عليه السلام «و لقد بلغنى أنكم تقولون: علىّ يكذب، قاتلكم الله تعالى! فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به! أم على نبيّه؟ فأنا أول من صدّقه» فالحقيقه التى لا غبار عليها هى أن الإمام عليه السلام أول من آمن من الرجال بالله، كما تشير حياته إلى أنه لم يسجد لصنم ولم يعبد سوى الله وأنه أول من صدق برسول الله صلى الله عليه وآله ووقف إلى جانبه طيله الدعوه. ولعل الكلام يشير إلى بعض إخباره بالمغيبات والحوادث التى كانت خافيه على أولئك الناس، وقد انطلق ذلك التكذيب من قبل تلك الفرقة المنافقه التى كانت متغلغله فى صفوف أهل الكوفه والتى كانت تنسب الإمام عليه السلام إلى الكذب كلما أخبر عن

وقوع بعض الحوادث بصفته «تعلّم من ذى علم». كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى الأحكام والمعارف الإسلاميه التي تعلمها الإمام عليه السلام من القرآن الكريم أو من النبي صلى الله عليه وآله وعجزت أفكار المنافقين عن إدراكها وفهمها. وقد صرح ابن أبي الحديد قائلاً: وإذا تأملت أحواله في خلافته كلها وجدتها هي مختصره من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، كأنها نسخه منتسخه منها في حربه وسلمه وسيرته وأخلاقه وكثره شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره، وإذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً فاقراً سورة «براء» ففيها الجمل الغفير من المعنى الذى أشرنا إليه (١). ومن الواضح أنّ أول موحد ومؤمن بالله ومصدق بالنبي صلى الله عليه وآله لا يكذب قط ولا يتكلم بما لا يعلم إنما يفترى الكذب من لا يؤمن بالله ولا يعرف للورع والتقوى من معنى. بعبارة أخرى: فإن كاهل معارف الإمام عليه السلام حتى الأخبار الغيبية التي كان يحدث عنها إنما كانت دروساً تعلمها من النبي صلى الله عليه وآله، فهل من سبيل إلى الكذب لهذه الأخبار من قبل تلميذ النبي صلى الله عليه وآله وربيه الوفي على عليه السلام؟ إلمأ أنّ المنافقين عمى الابصار والبصائر لا يرون سوى منافعهم، من هنا كانوا حريصين على تشويه سمعة الإمام عليه السلام. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً: «كلّا والله! لكنّها لهجّة (٢) غبتم عنها، ولم تكونوا من أهلها ويل أمّه (٣) كيلاً- بغير ثمن! لو كان له وعاء، ولتعلمنّ نبأه بعد حين» والمراد بالعبارة «لكنّها لهجّة غبتم عنها» - وبالالتفات إلى أنّ اللهجة هنا تعنى الحقائق الغائبة عنهم - أنّ تكذبيكم وإنكاركم إنّما يستند إلى جهلكم وضحاله أفكاركم وعدم علمكم بالأسرار التي تعلمتها من رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن، ولاعجب ف «الناس أعداء ما جهلوا» .

أمّا العبارة «ويل أمّه» - التي تفيد الترحم والتعجب كما ترد أحياناً للدعاء بالشر - فلها

ص: ٩٧

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦/١٢٩. [١]

٢- ٢) «لهجته» من ماده «لهج» على وزن فلج، ويأتى معنى هذا اللفظ أحياناً بمعنى الملازمه وأحياناً بمعنى الاختلاط والمعاشرة وأحياناً بمعنى العلاقة الشديده بالشىء، وكذلك فإن اللهجه ملازمه للغه الانسان، وتطلق على مجموعه مختلطه من الامور، أما فى الجمله أعلاه فالاصطلاح جاء بمعنى الاسرار والمفاهيم الخاصه.

٣- ٣) «ويل امه»: عبارة مركبه من (ويل) التي تأتي للدعاء أو التعجب وأمّه مضافه إلى ويل إن كان مبتدأ، كما يمكن أن تكون مبتدأ وخبرها محذوف وتقدير العبارة «ويل أمه ثابت أو كائن» فإن قرأت منصوبه فهى منادى وأصلها (يا ويل أمه) وقد وردت بكلمه واحده فى بعض النسخ ولا يفرق ذلك فى المعنى.

معنيان لدى الشراح؛ المعنى الأول: تأسفه عليه السلام من الجهود التي بذلها بحق أولئك المردده، والثاني: لعن المنافقين الذين دأبوا على الفساد والانحراف أبان حكومته عليه السلام، ويبدو المعنى الثاني أنسب.

تأملان

١ - علي عليه السلام أول من أسلم

لقد صرحت هذه الخطبه وعلى غرار سائر خطب نهج البلاغه أنّ علياً عليه السلام هو أول من آمن بالنبى صلى الله عليه وآله من الرجال (لأنّ خديجه هي الصديقه الاولى بالنبى صلى الله عليه وآله من النساء). وبالطبع فقد سعى بعض المتعصبين من أبناء العامه كصاحب البدايه والنهايه للمساس بهذه الحقيقه المسلمه تاريخياً وروائياً من خلال بعض الذرائع الواهيه، ولكن كما أشرنا آنفاً فإن هذه الحقيقه ثابتة على متوى التأريخ والروايات. فقد نقل العلامة الاميني في المجلد الثالث من غديره حدود مئه حديث بهذا الشأن عن مصادر العامه، والتي ورود بعضها عن رسول الله صلى الله عليه وآله والبعض الاخر عن الصحابه والتابعين، ومنها:

١ - عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال «أولكم وارداً عليّ الحوض أولكم إسلاماً عليّ بن أبي طالب». (١)

٢ - وقال علي عليه السلام: «أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصيّد الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذبٌ مفترٌ، ولقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أول من صلى معه». (٢)

٣ - وروى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أول من صلى معي عليّ». (٣)

٤ - كان من بين الاسئله التي طرحها الحسن المجتبي عليه السلام في مجلس معاويه: «أنشدكم بالله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً». (٤)

ص: ٩٨

١-١) رواه الحاكم في المستدرک ٣/١٣٦ والخطيب البغدادي في تاريخه ٢/٨١، كما رواه آخرون.

٢-٢) رواه عدد كثير من كبار علماء العامه باسناد معتبره ومنهم: النسائي في الخصائص ص ٣ والحاكم في المستدرک ٣/١١٢ وابن ماجه في السنن ١/٥٧ والطبري في تاريخه ٢/٢١٣، وجمع آخرون المحدثين.

٣-٣) ورد هذا لاحديث في الباب ٤٧ من فرائد السمطين بأربعة طرق.

٤-٤) أورده ابن أبي الحديد في المجلد الثاني ص ١٠١.

٥ - روت أغلب المصادر المعتمده عن خادم النبى صلى الله عليه وآله أنس بن مالك قال «نبىء النبى يوم الإثنين وأسلم علىّ يوم الثلاثاء» (١).

٦ - قال ابن عباس كنت عند عمر فجرى الكلام عن السبق فى الإسلام، فقال عمر: ثلاث لعلى بن أبى طالب عليه السلام لو كانت لى واحده منها لكانت خيراً لى ممّا طلعت عليه الشمس: فقد ربت رسول الله صلى الله عليه وآله على كتف على عليه السلام وقال: «يا علىّ! أنت أول المسلمين إسلاماً وأنت أول المؤمنين إيماناً، وأنت منى بمنزله هارون من موسى». (٢).

٧ - روى أحمد بن حبل - أحد الائمة الأربعة - فى مسنده أنّ علياً عليه السلام قال: «لقد صلّيت قبل أن يصلّى أحدٌ، سبعاً» (٣) فالأحاديث الواردة بهذا الشأن كثيره لايسع المقام ذكرها. وقد صنف المرحوم العلامة الامينى هذه الأحاديث (أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله، أحاديث على عليه السلام، أحاديث الإمام الحسين عليه السلام وأحاديث الصحابه والتابعين والاشعار التى انشدت بهذا الخصوص) إلى جنب شهاده المؤرخين كالطبرى فى التأريخ وابن الأثير فى الكامل ونصر بن مزاحم فى صفين (ومن أراد المزيد فليراجع المجلد من كتاب الغدير ص ٢١٨ فصاعداً). كما نقل ابن أبى الحديد طائفه من هذه الأحاديث عن مصادر العامه فى شرحه لهج البلاغه. (٤).

٢ - إجابته عن سؤال

الجدير بالذكر أنّ بعض المتعصيين الذين لم يسعهم التنكر لهذه الفضيله من وجهه النظر التأريخيه والروائيه، تشبشوا ببعض الذرائع للحد من قيمتها، وأهم تلك الذرائع:

يزعمون أنّ علياً عليه السلام لما أسلم كان له من العمر عشر سنوات والإسلام لا يقر إسلام الصبيان؛ وقد إتسعت حده هذه الذريعه الجوفاء فى الاوساط المعاديه للإمام عليه السلام لتظن بتعذر الاجابه على هذا الأشكال، والحال:

ص: ٩٩

١ - ١) رواه الترمذى فى الجامع ٢/٢١٤ والحاكم فى المستدرک ٣/١١٢ كما نقله آخرون.

٢ - ٢) بحار الأنوار ٣٧/٢٦٨. [١]

٣ - ٣) مسند أحمد ١/٩٩ طبع دار [٢] الصادق.

٤ - ٤) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٤/١١٦. [٣]

أولاً: من المناسب أن نذكر الحوار الذي دار بين المأمون الخليفة العباسي مع فقيه العامه اسحق. قال المأمون: يا إسحاق أى الأعمال كان أفضل يوم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قلت: الاخلاص بالشهادة. قال: أليس سبق إلى الإسلام؟ قلت: نعم. قال: فهل علمت أحداً أسبق علياً عليه السلام إلى الإسلام؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إن علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم. قال: فأخبرني عن إسلام علي حين أسلم؟ لا يخلو من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاما من الله. فاطرق اسحاق ولم يجب. (١)

وأضاف المرحوم العلامة الأميني بعد نقله لهذه المحاوره: وقال أبو جعفر الاسكافي المعتزلي المتوفى ٢٤٠ في رسالته: قد روى الناس كافة إفتخار علي عليه السلام بالسبق إلى الإسلام، وإن النبي صلى الله عليه وآله استنبي يوم الاثنين وأسلم على عليه السلام يوم الثلاثاء. وإنه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين وإنه مازال يقول: أنا أول من أسلم. ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه وما دحوه وشيعته في عصره وبعد وفاته، والأمر في ذلك أشهر من كل شهر، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا إستخف بإسلام علي عليه السلام ولا تهاون به، ولا زعم أنه أسلم إسلام حدث نحريير وطفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزه ينتظران أبا طالب وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه على ابنه لغير رغبه ولا رهبه يؤثر القله على الكثره، والذل على العزه من غير علم ولا معرفه بالعاقبه (٢). وروى في الخبر الصحيح أنه لكفه في مبدأ الدعوه قبل ظهور كلمه الإسلام وانتشارها بمكه أن يصنع له طعاما وأن يدعو له بنى عبدالمطلب، فصنع له الطعام ودعاهم ثلاثا، ثم كلمهم صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدين ثم ضمن لم يوازره منهم وينصره على قوله أن يجعله أخاه في الدين ووصيه بعد موته وخليفته من بعده فامسكوا كلهم وأجابه هو وحده وقال: أنا أنصرك على ما جئت به واوازرك وأبايعك، فنصبه وصيه وخليفته، فضحك القوم وقالوا لأبي طالب: أطمع إبنك فقد أمره عليك.

وزبده القول فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قبل إسلام علي عليه السلام، فمن قال بعدم إعتبار إسلامه بسبب عمره، في الواقع يشكل على النبي صلى الله عليه وآله.

ثانياً: جاء في الروايات المشهوره لقصه يوم الدار إن النبي صلى الله عليه وآله أعدّ طعاما ودعا إليه قرابته

ص: ١٠٠

١- (١) العقد الفريد ٣/٤٣ [١] بتصرف.

٢- (٢) الغدير ٣/٢٣٧. [٢]

من قريش فدعاهم إلى الإسلام وأن من يجب دعوته ويقف إلى جانبه في الدفاع عن الإسلام سيكون وحيه وخليفته، فلم يجبه إلماعلى بن أبي طالب عليه السلام الذى قال: أنا يا رسول الله صلى الله عليه و آله، فقال النبى صلى الله عليه و آله: أنت أختى ووصيى وخليفتى. (١) فهل هناك من يعقل أن النبى صلى الله عليه و آله جعل علياً عليه السلام أخيه ووصيه وخليفته ودعا الآخرين إلى طاعته بحيث يسخر منه زعماء الكفر والشكر ويقولون لأبى طالب عليك أن تسمع لولدك وتطيع، ولم يكن إسلامه مقبولاً؟! لا- شك أن سن البلوغ ليس شرطاً لقبول الإسلام، فكل فتى له عقل وتميز كاف ويعتق الإسلام وعلى فرض أن أباه ليس مسلماً فإنه يصبح فى زمره المسلمين إذا انفصل عنه.

ثالثاً: يستفاد من القرآن أن البلوغ ليس شرطاً حتى فى النبوه، حيث بلغ النبوه حتى من كان صبياً، فقد صرح القرآن بشأن نبى الله يحيى عليه السلام بقوله: «وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» (٢). كما ورد بشأن عيسى عليه السلام أنه قال «إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً» (٣). وإلا بعد من كل هذا فان النبى صلى الله عليه و آله قد قبل الإمام على عليه السلام، كما ذكرنا ذلك وأن النبى صلى الله عليه و آله صرح يوم الدار بانه أخوه ووصيه وخليفته.

على كل حال فان الروايات التى صرحت بأن علياً عليه السلام هو أول من لبي دعوه النبى صلى الله عليه و آله وأسلم، إنما تنطوى على فضيله لاتضاهيها فضيله لعلى عليه السلام، فلا يرقى أحد لأن يكون فى مصافه عليه السلام، ومن هنا كان عليه السلام أنسب فرد من هذه الامه بخلافه رسول الله صلى الله عليه و آله.

ص: ١٠١

١- (١) ذكرنا اسناد هذه الروايه بالتفصيل ذيل حديث يوم الدار فى رساله القرآن ٩/٣٢٦.

٢- (٢) سوره مريم / ١٢. [١]

٣- (٣) سوره مريم / ٣٠. [٢]

ومن خطبه له عليه السلام

علم فيها الناس الصلاه على النبي صلى الله عليه و آله وفيها بيان صفات الله سبحانه

وصفه النبي والدعاء له

نظره إلى الخطبه

تتالف هذه الخطبه فى الواقع من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: قصير جداً يتحدث عن صفات الله سبحانه كمقدمه لاستئزال رحمه والصلوات على النبي صلى الله عليه و آله.

القسم الثانى: تعليم كيفية الصلاه على النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، كما تطرق إلى ذكر العديد من صفاته وخدماته الجليله إلى البشريه ومبادئ الحق، والتي تستلزم أشرف الصلوات.

القسم الثالث: يتضمن مجموعه من الأدعيه العظيمه بشأن النبي صلى الله عليه و آله، كما ورد فيه سؤال البارئ سبحانه تعزيز رابطته الأفراد بالنبي صلى الله عليه و آله ومرافقته فى الجنه.

ص: ١٠٣

١ - ١) سند الخطبه: رواها الكثير ممن عاش قبل السيد الرضى (ره)، فقد وردت فى الصحيفه العلويه والتذكره لابن الجوزى والامالى للبيهدادى وغريب الحديث لابن قتيبه والغارات للثقفى، كما فسر عبارتها ابن أثير فى النهايه والزمخشري فى الفائق وابن منظور فى لسان العرب (مصادر نهج البلاغه ٢/٧٠). [١]

«اللَّهُمَّ داحِي الْمَدْحُوتِ، ودَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا: شَقِيَّهَا وَسَعِيدِهَا» .

الشرح والتفسير

يثني الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه على الله سبحانه بثلاث من صفاته: «اللَّهُمَّ داحِي (١) المدحُوتِ، وداعم (٢) المسموكاتِ، (٣) وجابل (٤) القلوب على فطرتها: شقيها وسعيدها» فالعباره الاولى اشاره إلى بدايه خلق السموات والأرض، حيث تشير النظريات إلى أنّ الكون والكرات والأجرام السماويه كانت كتله واحده ثم انفصلت عن بعضها لعدّه عوامل حتى إتسعت إلى ما هي عليه اليوم. كما كانت الأرض مطموره تحت الماء، ثم ظهرت اليابسه شيئاً فشيئاً بعد أن نفذت المياه إلى المناطق العميقه والشقوق الأرضيه، ثم إتسعت بمرور الزمان، حتى تكونت المناطق اليابسه والبحار، وأخيراً أصبحت الأرض أكثر إتساعاً بفعل جاذبيه الأحجار السماويه، فقد صرح القرآن بهذا لاشأن قائلاً: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ» (٥). والعباره «داعم المسموكات» تعنى

ص: ١٠٥

١ - ١) «داحي» من ماده «دحو» بمعنى البسط، و «دحو الأرض» إشارة إلى الزمان الذي خرجت فيه اليابسه تدريجياً من الماء وانتشرت.

٢ - ٢) «داعم» من ماده «دعم» على وزن فهم بمعنى تسويه الاعوجاج، ومنه «الدعامه» بمعنى العمود.

٣ - ٣) «المسموكات» من ماده «سمك» على وزن سقف بعنى رفع، والمسموكات المرفوعات وهى السموات.

٤ - ٤) «جابل» من ماده «جبل» على وزن جبر بمعنى خالق.

٥ - ٥) سورة الذاريات / ٤٧ - ٤٨. [١]

حافظ السموات بما فيها السيارات والثوابت والمجرات بواسطة القوى الجاذبيه اللامرئيه؛ وهى القوى التى تحفظها بحيث لا تتغير المسافه بين كرات المنظومه الشمسيه رغم مرور ملايين السنين؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» (١). أما العبارة «و جابل القلوب» فهى إشاره إلى العلوم الفطريه والإلهيه والغرائز والرغبات النافعه التى أودعها الله باطن الإنسان؛ العلوم والغرائز والرغبات التى تمثل الوسائل التى يوظفها الإنسان فى مسيرته نحو السمو والتكامل والسير إلى الله إلى جانب الرقى المادى والمعنوى. ولعل هنالك من يعتقد أن الله أودع الشقاء والسعاده ذات الإنسان، بحيث هناك السعده ذاتاً والأشقياء ذاتاً، والحال لانفيذ العبارة الوارده فى الخطبه مثل هذا المعنى، بل تصرح العبارة بأن الله أودع هذه العلوم كافه أفراد البشر من آل أمره إلى السعاده أو الشقاء، وان إعتددها البعض ووظفها من أجل السعاده وتجاهلها البعض الآخر ليزج بنفسه فى وادى البؤس والشقاء؛ ولعل الحديث المعروف «كل مولود يولد على الفطره. . .» (٢) يشير إلى هذا المعنى. فمن الواضح أن السعاده والشقاء لو كانا ذاتيين وكل فرد مجبر على سلوك السبيل الذى عين له سبقاً، أن يكون من العبث بعث الأنبياء وانزال الكتب السماويه والتكاليف والمسؤوليات والأحكام الشرعيه والثواب والعقاب، وبكلمه واحده كافه المسائل المرتبطه بالتربيه والتعليم وآثارها ومعطياتها؛ الأمر الذى لا يقره العقل ولا الشرع. قال القرآن: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» (٣). كما قال فى موضع آخر: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» (٤). فالواقع هو أن الحق سبحانه أُرشد الإنسان إلى طرق السعاده والشقاء دون أن يجبره على شئ، فهو مختار فى أى سبيل سلك، ومن هنا كان مسؤولاً أمام الله وضميره.

ص: ١٠٦

١-١ (١) سورة فاطر / ٤١. [١]

٢-٢ (٢) ورد مضمون هذا الحديث فى عدده روايات تناهز العشرين، رواها المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار ٣/٢٧٦ - ٢٨١، كتاب التوحيد.

٣-٣ (٣) سورة الدهر / ٣. [٢]

٤-٤ (٤) سورة الشمس / ٧ - ٨. [٣]

«اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِي بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعَلِّمِ الْحَقِّ بِالْحَقِّ، وَالِدَافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَالِدَامِغِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، قَائِمًا بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِرًا فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدْمٍ، وَلَا- وَاهِ فِي عَزْمٍ، وَاعِيًا لَوْحِيَّتِكَ، حَافِظًا لِعَهْدِكَ، مَاضِيًا عَلَى نَفَازِ أَمْرِكَ؛ حَتَّى أُوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، أَضَاءَ الطَّرِيقِ لِلْخَابِطِ، وَهَيْدِيَّتِ بِهِ الْقُلُوبُ بَعِيدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ الْأَثَامِ، وَأَقَامَ بِمَوْضِعَاتِ الْأَعْلَامِ، وَنَبْرَاتِ الْأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ» .

الشرح والتفسير

يصلى الإمام عليه السلام أفضل الصلوات وأزكاها على النبي صلى الله عليه و آله ذاكراً أكثر من عشرين صفة من صفاته البارزة صلى الله عليه و آله التى تستلزم أطهر الصلوات عليه «اجعل شرائف (١) صلواتك ونوامي (٢) بركاتك على محمّد عبدك ورسولك» فالصلوات هى رحمه الله، والبركات نعمه سبحانه كما تطرق الإمام عليه السلام إلى صفتين بارزتين مهمتين من صفاته صلى الله عليه و آله: الاولى العبوديه، والثانيه الرساله. فالعبوديه تشكل إحدى إفتخارات الإنسان المسلم لله سبحانه، فيرى كل شئ لله حتى امواله

ص: ١٠٧

١-١) «شرائف» جمع «شريفه» بمعنى ذاقيمه.

٢-٢) «نوامي» جمع «ناميه» من ماده «نمو» بمعنى التوسعه والزياده والتطور.

التي يملكها بالظاهر فهي، فقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال «إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي ربياً» (١) ثم أشار إلى ختمه للأنبياء في الصفه الثالثه فقال: «الخاتم لما سبق» فان كانت ما تعود إلى العاقل فالعبارة تفيد الأنبياء السابقين وخاتمهم رسول الله صلى الله عليه وآله. وان كانت لغير العاقل عنت اختتام الشرائع السابقه بشريعه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله. ثم قال عليه السلام «والفاتح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق» والمراد بالعبارة «الفتاح لما انغلق» أبواب العلوم والمعارف والمسائل الإنسانية الإخلاقية والاجتماعية المعقدة التي فتحتها رسول الله صلى الله عليه وآله بوجه البشريه بدينه ونوره وهدايته، والعبارة «المعلن الحق بالحق» يمكن أن تكون إشاره إلى المعجزات التي تبين أحقيه النبي صلى الله عليه وآله، كما يمكن أن يراد بها منطقه الذي يكشف النقاب عن الحقائق، أو المعارك والغزوات التي أقصت خصوم الدعوه لترى الأمة الحقائق، أو توضيح الحقائق بقرائن بعضها البعض الآخر من قبيل تفسير بعض الآيات القرآنيه ببعضها الآخر، وأخيراً يمكن أن تكون جميع هذه المعاني مراده بالعبارة.

ثم قال عليه السلام «والدافع جيشات (٢) الابطال، والدماغ (٣) صولات (٤) الاضاليل» والجدير بالذكر في العبارة التعبير عن الباطل بالجيشات وعن عوامل الضلال بالصولات حيث تصور كل منهما عمق ما تختزنه هذه المفردات فالباطل ملء بالصخب والضجيج، كما أنّ عناصر الضلال غالباً ما تهجم على العزل من الناس. ثم قال عليه السلام في مقام بيان عله الدعوه لهذه الصلوات الوافره «كما حمل فاضطلع» (٥) فكما هنا بمنزله التعليل وتفيد معنى لأنه، والواقع أنّ قبول هذه المسؤوليه العظمى وتحمل كافه تبعاتها بعد من أهم خصائص النبي صلى الله عليه وآله التي تجعله يستحق

ص: ١٠٨

١-١) بحار الأنوار ٧٤/٤٠٠. [١]

٢-٢) «جيشات» جمع «جيشه» من ماده «جيش» على وزن عيش من جاشت القدر إذ ارتفع غليانها، ومنه الجيش لحركته.

٣-٣) «دماغ» من ماده «دمغ» على وزن ضرب إذا شجه حتى بلغت الشجه دماغه.

٤-٤) «صولات» جمع «صوله» بمعنى الحمله من أجل الغلبه. ويستعمل هذا الاصطلاح أيضا في التعبير عن عضه البعير.

٥-٥) «اضطلع» من ماده «اضطلاع» بمعنى القوه والقدره على القيام بالعمل. وفي الأصل من ماده «ضلع» على وزن جسم، بمعنى الضلع، وهو العظم المقاوم في مقابل الحوادث، وكذلك يطلق على اصطلاح «ضلع» وهو على وزن «منع» بمعنى القوه والقدره.

الشكر والثناء. وقال عليه السلام «قائماً بأمرك، مستوفزاً (١) في مرضاتك» فالقيام بالأمر إشاره إلى جديده الأوامر الإلهيه لأنَّ الإنسان ينهض من أجل القيام بالأعمال الجاده. فالتعبيران لايشيران إلى مدى إمتثال النبي صلى الله عليه وآله لأحكام السماء فحسب، بل كان يسارع إلى الاتيان بكل ما يرضى الله سبحانه وان لم تصدر إليه الأوامر. ثم قال عليه السلام: «غير ناكل (٢) عن قدم، (٣) ولاواه في عزم» فكثير هم الجديون في قرارتهم والانطلاق في أعمالهم، إلّا أنّهم يضعفون في الاستمرار والمواصله، والمهم أن يواصل الإنسان نشاطه وعمله. ويفيد التأريخ أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم ينكل أو يضعف أمام الوساس والضغوط، كما لم يكن يلين تجاه أى مبادره منحرفه، ومن ذلك قوله «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله او أهلك دونه» (٤). ثم قال عليه السلام: «واعياً (٥) لوحيدك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك». ثم اشار الإمام عليه السلام إلى النتيجة التي تمخضت عنها جهود النبي صلى الله عليه وآله وتضحيتة «حتى أورى (٦) قبس (٧) القابس، وأضاء الطريق للخابط، (٨) وهديت به القلوب بعد خوضات (٩) الفتن والأثام».

والعبارة تلمح إلى سرعه إنتشار الإسلام واشراقه شبه الجزيره العربيه التي كانت مهد الكفر والشرك ومركز الجهل والجريمه، ولا يشك في هذه الحقيقه من كان له أدنى إلمام بالتأريخ الإسلامى؛ الأمر الذي إعترف به حتى خصوم الدعوه. ثم قال عليه السلام: «و أقام بموضحات الأعلام، و تيرات الأحكام». فالواقع وبغيه الحيلولة دون تلكؤ أصحاب الحق في

ص: ١٠٩

١- (١) «مستوفز» من ماده «استيفاز» بمعنى المساعد المستعجل.

٢- (٢) «ناكل» من ماده «نكول» بمعنى الناكص والمتأخر.

٣- (٣) «القدم» بضمّتين المشبى إلى الحرب ومضى قدما سار ولم يخرج.

٤- (٤) الكامل لابن اثير ١/٤٨٩ ([١] كما ورد هذا الكلام فى سيره ابن هشام [٢] وتاريخ الطبرى). [٣]

٥- (٥) «واعياً» أى حافظاً وفاهماً، وعيت الحديث فهمته وحفظته.

٦- (٦) «أورى» من ماده «ورى» على وزن نفى بمعنى اشعال النيران وعليه فان (اورى) فعل متعدى.

٧- (٧) «القابس» على وزن قفص بمعنى شعله من النار.

٨- (٨) «خابط» من ماده «خبط» على وزن ضبط بمعنى الحركه فى طريق غير صحيح، وكذلك تأتي بمعنى عدم التعادل أثناء المسير أو القيام.

٩- (٩) «خوضات» جمع «خوضه» من ماده «خوض» على وزن حوض، وفى الاصل يأتى بمعنى الدخول التدريجى فى الماء، والسير والسباحه فى الماء، وكذلك يأتى كناية عن معنى الدخول أو البدء بعمل أو خطاب سىء وغير مطلوب.

مسيرتهم، لا بدّ من نصب العلامات الداله على الطريق واضاءت كافه ظلماته، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله حين أضاء كل معالم الطريق ونصب الأدلاء عليه. ومن ذلك الأحكام المتعلقة بالصلوات اليومية وصلاحه الجمعة - وبمراسمها الخاصه - وحج بيت الله الحرام التي من شأنها هدايه أتباع الحق وصددهم عن الحيره والضلال، إلى جانب بيانه للأحكام ذات الصله بالقضايا الاجتماعيه والتربويه والسياسيه والاقتصاديّه. ثم يختتم عليه السلام هذا الفصل من الخطبه بخمس صفات أخرى للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، بعيشك بالحق، ورسولك إلى الخلق» فبعض هذه الصفات مقدمه وبعضها الآخر نتيجته. فكونه أمين الله وخازن علمه إنّما هي مقدمه من أجل الرساله إلى الخلق والبعث بالحق، كما أنّ شهادته يوم القيامة إنّما تمثل نتيجه هذه الرساله. أمّا قوله عليه السلام: «أمين مأمون» هو تأكيد لمدى أمانته صلى الله عليه وآله و آله و اشاره إلى العصمه المشروطه فى النبوه. وأمّا قوله عليه السلام: «خازن علمك المخزون» ، فالمراد به علمه صلى الله عليه وآله بأسرار الغيب، وقد أشرنا إلى ذلك فى حينه إلى تعذر قيام الأنبياء والأئمه بوظيفتهم بصورة تامه دون العلم بتلك الاسرار والخفايا، وقد أشار القرآن بهذا الشأن: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ» (١) والعباره «شهادك يوم الدين» مستوحاه من الآيه ١٤٣ من سوره البقره: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» والآيه ٨٩ من سوره النحل: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ. . .» التى تشير إلى شهاده النبي صلى الله عليه وآله على أعمال الأئمه وشهادته على شهداء سائر الأمم. ولما كانت الشهاده من فروع العلم، فان هذه التعبيرات تشكل دليلاً آخر على علمه صلى الله عليه وآله بأسرار الغيب.

ص: ١١٠

«اللَّهُمَّ افسَحْ لَهُ مَفْسِحًا فِي ظِلِّكَ؛ واجزِهِ مِضَاعِفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَيَّ بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لِمَدْيِكَ مَنزِلَتَهُ، وَأَتِمِّمْ لَهُ نُورَهُ، واجزِهِ مِنْ ائْتِعَائِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، حُطْبِهِ فَضْلٍ. اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النُّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَاتِ، وَرِخَاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطَّمَأِينَةِ، وَتُحْفِ الْكِرَامَةِ» .

الشرح والتفسير

يتضرع الإمام عليه السلام بدعاء جامع بحق النبي صلى الله عليه وآله، ليعلمنا في الواقع كيفية الدعاء للنبي صلى الله عليه وآله، فقد سأل الله للنبي صلى الله عليه وآله و آله سته أشياء: «اللَّهُمَّ افسَحْ (١) له مفسحاً في ظلك» فالظل هنا قد يراد به المعنى الكنائى، كما يمكن أن يراد به ظل لطف الله وكرمه وجوده، أو أن يقصد به المعنى الحقيقى ليعنى ظلال الجنان فى المحشر، فقد ورد فى الحديث: «أنَّ فى الجَنَّةِ شجره يسير الراكب فى ظلها مائه سنة لا يقطعها» (٢). ثم قال عليه السلام: «واجزه مضاعفات الخير من فضلك» ومن الواضح أنَّ الثواب الإلهى هو الضعف على الدوام، ولاغرو فذلك نابع من فضله وجوده وكرمه التى لا ترى مكافئته الأعمال بمثلها دون زياده، مع ذلك فقد سأل الله المزيد لئيبه صلى الله عليه وآله. ثم قال عليه السلام:

ص: ١١١

١-١) «افسح» من ماده «فسح» على وزن فسح بمعنى المكان الواسع. ومن هنا فان هذه الماده تأتى بمعنى التوسعه.

٢-٢) مجمع البيان، ١٠ - ٩/٢١٨ ذيل الآيه ٣٠ من سوره الواقعه.

«اللَّهُمَّ وأعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك منزلته» والمراد بالبناء هنا إمام دين النبي صلى الله عليه وآله الذي سأل الله إظهاره وعلوه على سائر الأديان، وإمام مقامه صلى الله عليه وآله وعلوه على من سواه. وتضرع عليه السلام قائلاً: «و أتم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهاده، ومرضى مقاله، ذا منطق عدل، وخطبه فصل» والجدير بالذكر فى هذا الدعاء أنه عد شفاعة النبي صلى الله عليه وآله للأمة جزاء تبليغه الرساله؛ الأمر الذى تعود بركته على الأمة وهذا ما يمثل قمه لطفه وكرمه عليه السلام. كما أشارت العبارة إلى أن شهادته وشفاعته صلى الله عليه وآله ليست إعتباطيه فمنطقه العدل وحديثه الفرقان بين الحق والباطل، فاذا شفع لشخص أو جماعه فقد توسم فيهم الشفاعة، وهذا ما أوردناه فى بحث الشفاعة، فى أنها خاضعه لقانون وليست عبثيه، بل للشفاعة مقدماتها التى تكمن فى الأهليه والاستحقاق، وبعبارة أخرى لابد أن تكون هنالك رابطة معنويه قائمه بين الشفيع والمشفع فيه، وإلا فمن قطع هذه الرابطة فهو لا يستحق الشفاعة، ولعل هذه الشفاعة هى المقام الذى أشارت إليه الآيه القرآنيه: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا». (١)

ثم يختم الإمام عليه السلام خطبته بالدعاء له وصحبه: «اللَّهُمَّ اجمع بيننا وبينه فى برد العيش قرار النعمه، ومنى الشهوات، وأهواء اللذات، ورخاء الدعاه، (٢) ومنتهى الطمأنينه، وتحف الكرامه» ويبدو أن هذه هى خصائص الجنه من قبيل السكينه والكرامه الإلهيه والنعم الطيبه والمعنويه والماديه إلى جانب البقاء والخلود.

تأمل: معطيات الصلاه على النبي صلى الله عليه وآله

إشاره

لقد تضمنت الخطبه أركى الصلوات والتحيات على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذى ينبهنا إلى عظم هذه المسأله التى صرحت بها التعاليم الإسلاميه. فالواقع هو أن الروايات الإسلاميه

ص: ١١٢

١- ١) سورة الاسراء / ٧٩. [١]

٢- ٢) «دعه» من ماده «وداع» بمعنى الانفصال والترك وتخليه السبيل، ومن هنا يطلق هذا الاصطلاح على كل شىء يتركه الانسان، ويبقى بدون حركه وبحاله من الهدوء. وهذا الاصطلاح يأتى أحيانا بمعنى الهدوء، وقد جاء فى الخطبه اعلاه بهذا المعنى.

أكدت الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله ومدى الأجر والثواب الذي أشارت إليه مصادر الفريقين إزاء هذا العمل بما يفوق التصور ويدعو إلى الدهشه والذهول، ومن هنا فقد إقتطفنا بعض الروايات الواردة بهذا الشأن والتي نلفت إليها إهتمام القراء الأعزاء ثم نسلط الضوء على ما ورد فيها:

١ - فقد جاء في الحديث أن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «الصَّيْلَاهُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ أَمْحَقٌ لِلْخَطَايَا مِنَ الْمَاءِ إِلَى النَّارِ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ أَفْضَلُ مِنْ عَتَقِ رِقَابٍ». (١)

٢ - وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِذَا ذَكَرَ النَّبِيَّ فَأَكْثَرُوا الصَّيْلَاهُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مِنْ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَلْفَ صَلَاةٍ فِي أَلْفِ صَفٍّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ إِلَّا صَلَّى عَلَى ذَلِكَ الْعَبْدِ لَصَلَاةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَصَلَاةِ مَلَائِكَتِهِ فَمَنْ لَمْ يَرْغَبْ فِي هَذَا فَهُوَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ قَدْ بَرَى اللَّهَ مِنْهُ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ». (٢)

٣ - عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كُلُّ دَعَاءٍ مَحْجُوبٌ حَتَّى يَصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ». (٣)

٤ - وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً قال: «الصَّلَاةُ عَلَيَّ نُورٌ عَلَى الصِّرَاطِ». (٤)

٥ - وروى عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام انه قال: «مَا فِي الْمِيزَانِ شَيْءٌ أَثْقَلُ مِنَ الصَّيْلَاهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَتَوْضِعَ أَعْمَالُهُ فِي الْمِيزَانِ فَتَمِيلُ بِهِ فَيُخْرَجُ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ فَيُضَعُّهَا فِي مِيزَانِهِ فَتَرْجِحُ». (٥)

٦ - كما روى عنه صلى الله عليه وآله قال: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ بَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَةً مَعَهُمْ صَحُفًّا مِنْ فُضَّةٍ وَأَقْلَامًا مِنْ ذَهَبٍ يَكْتُبُونَ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَيَّ صَلَاةً». (٦)

٧ - وعنه صلى الله عليه وآله قال: «صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ عَلَيَّ زَكَاةٌ لَكُمْ». (٧)

٨ - عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «أَلَا أُبَشِّرُكَ؟ قَالَ: بَلَى يَا أَبَتِي

ص: ١١٣

١-١) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق / ١٨٥.

٢-٢) بحار الأنوار ١٧/٣٠. [١]

٣-٣) كنز العمال ١/٤٩٠، ح ٢١٥٣.

٤-٤) كنز العمال ١/٤٩٠، ح ٢١٤٩.

٥-٥) وسائل الشيعة ٤/١٢١٠ الباب ٣٤ من ابواب الذكر. [٢]

٦-٦) كنز العمال ١/ ح ٢١٧٧.

٧-٧) كنز العمال ١/٤٩٤، ح ٢١٨٢.

أنت وأمتي فإنك لم تزل مبشراً بكل خير. فقال: أخبرني جبرئيل أنفاً بالعجب. فقال أمير المؤمنين: وما الذي أخبرك يا رسول الله؟ قال: أخبرني أن الرجل من أمتي إذا صلى عليّ فأتبع بالصلاة على أهل بيتي فتحت له أبواب السماء وصلت عليه الملائكة سبعين صلاةً وأنه إن كان من المذنبين تحات عنه الذنوب كما تحات الورق من الشجر». (١)

٩ - وروى عنه صلى الله عليه وآله قال: «أكثرُوا الصَّلاةَ عليَّ فإنَّ اللهَ وكلَّ بي ملكاً عند قبري فإذا صَلَّى عليَّ رجلٌ من أمتي قال ذلك الملك يا محمَّد: إنَّ فلان بن فلانٍ صَلَّى عليك السَّاعة». (٢)

١٠ - وروى الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من صَلَّى عليَّ إيماناً واحتساباً إستأنف العمل». (٣)

١١ - ولم يقتصر وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله عند ذكر اسمه فحسب، بل تأكد ذلك حتى حين الكتابه، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من صَلَّى عليَّ في كتابٍ لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمي في ذلك الكتاب». (٤)

١٢ - روت عائشه عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من سرَّه أن يلقى الله غداً راضياً فليكثر الصَّلاة، عليَّ». (٥)

وزيده الكلام قد تظافت الروايات بهذا الشأن والتي تفيد مدى أهميه الصلوات والسلام على النبي وآله، بحيث تضمنت مثل هذا الأجر والثواب لهذا العمل، وما أوردناه في السابق هو غيض من فيض تلك الروايات.

ص: ١١٤

١-١) شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي ٥/٢١٤ - ٢١٥.

٢-٢) كنز العمال ١/٤٩٤، ح ٢١٨١.

٣-٣) وسائل الشيعة ٤/١٢١٣ ([١] الباب ٣٤ من أبواب الذكر).

٤-٤) كنز العمال ١/٥٠٧، ح ٢٢٤٣.

٥-٥) كنز العمال ١/٥٠٤، ح ٢٢٢٩.

١- ما سرّ هذه الأهميه للصلوات على النبي

قبل كل شى يبرز هنا هذا السؤال وهو ما سر كل هذه الأهميه للصلوات؟ وما الأمر الذى تختزنه الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله؟ ويمكن القول فى الاجابه على هذا السؤال هو عدم نسيان مكانه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومقامه الجليل، ويستلزم ذلك عدم هجر الإسلام وتعاليم الحقه، ومن هنا كانت الصلوات على النبي رمزاً لبقاء الإسلام وديمومه مسيرته. أضف إلى ذلك فإنّ الصلوات تدعونا للتعرف بصورة أعمق على مقامه صلى الله عليه وآله والافتداء باخلاقه وصفاته، ومن هنا وردت بعض التعبيرات التى تفيد أنّ الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله تؤدى إلى طهاره الأخلاق ونقاء الاعمال وتساقط الذنوب، ومن ذلك ما جاء فى الزياره الجامعه: «و جعل صلاتنا عليكم وما خصّينا به من ولايتكم طيباً لخلقنا وطهاره لأنفسنا وتزكيه لنا وكفاره لذنوبنا». (١) كما أشير فى عده روايات إلى تحات الذنوب حين الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله. من جانب آخر فان الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله وآله إنّما تمطر أرواحهم الطاهره بوابل من رحمه الله، ولما كانوا عليه السلام وسائط الفيض فإنّ تلك الرحمه وبركاتهما إنّما تنحدر منهم إلى الأمه. وعليه فالصلوات والرحمه عليهم فى الواقع هى صلوات علينا ورحمه لنا. أضف إلى ذلك فإنّ الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله إنّما يمثل نوعاً من الشكر والتقدير للجهود التى بذلها من أجل هدايه الأمه، ومما لاشك فيه أن هنالك أجر وثواب لهذا الشكر ومعرفه الجميل.

٢- آثار الصلاه على النبي صلى الله عليه وآله

السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو أنّ الصلاه على النبي صلى الله عليه وآله هل لها من دور على منزلته ومقامه صلى الله عليه وآله وآله؟ لعل هنالك من يقول بعدم وجود أى دور لهذه الصلاه فالنبي وآله قد بلغوا المقام الذى يريدون؟ إلّا أنّ خواء هذا الكلام يتضح من خلال الالتفات إلى أنّ المسيره التكاملية للإنسان إنّما تنطلق من المتناهى إلى اللامتناهى، وعليه فهى مسيره مفتوحه ليست

ص: ١١٥

محدده باطر و حدود، ومن هنا ورد في بعض الأدعية وبضمنها التشهد القول بحق النبي صلى الله عليه وآله «وارفع درجته» (١) وإلى ذلك أشار القرآن: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (٢) والفعل المضارع (يصلون) يفيد استمرار هذه الرحمة، ومن الواضح أن كل مسلم ينطق بالتوحيد والإسلام إنما يمثل رحمه متجدده لمشيد دعائم هذا الدين، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله صاحب الفضل في سن هذه السنه الحسنه.

٣ - الفاظ الصلوات على النبي صلى الله عليه وآله

السؤال الآخر الذي يطرح نفسه بهذا الشأن يكمن في الصيغه التي ترد بها الصلاه على النبي صلى الله عليه وآله. فقد وردت روايات عن طريق الفريقين التي أكدت إقتران آل النبي صلى الله عليه وآله به حين الصلاه. ونكتفى هنا بالإشارة إلى بعض هذه الروايات:

روى في الدر المنثور عن صحيح البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن مردويه عن كعب بن عجره أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وآله: «أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاه عليك؟» قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على ابراهيم إنك حميد مجيد» .

وإضافه إلى الحديث المذكور فقد نقل صاحب تفسير الدر المنثور ثمانية عشر حديثاً صرحت جميعها بوجوب ذكر آل محمد حين الصلاه عليه، وقد نقلت هذه الأحاديث في المصادر المشهوره والمعروفه لدى العامه عن طريق الصحابه ومنهم: ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو هريره وطلحه وأبومسعود الأنصارى وبريده وابن مسعود وكعب بن عجره وأمير المؤمنين على عليه السلام. (٣) وقد روى صحيح البخارى (٤)، عده روايات بهذا الخصوص، كما

ص: ١١٦

١-١) وسائل الشيعة ٤/٩٨٩ باب كيفية التشهد.

٢-٢) سورة الأحزاب / ٥٦. [١]

٣-٣) تفسير الدر المنثور ٥/٢١٦ ذيل الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

٤-٤) صحيح البخارى ٦/١٥١ فى تفسير سورة الأحزاب.

جاءت روايتان في صحيح مسلم (١)، والغريب هو أنّ العنوان الذي ورد في صحيح مسلم باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (دون ذكر آله) رغم إقتران الآل بالنبي صلى الله عليه وآله في الأحاديث المذكوره. والجدير بالذكر هنا أن بعض روايات العامه وأغلب روايات الشيعة لم تفصل بين محمد وآل محمد بحرف على، والصيغه الوارده هي «اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد». ونختتم البحث بهذا الحديث الذي ورد في صواعق ابن حجر (٢) ان النبي صلى الله عليه وآله قال: «لا تصلوا على الصلاة البتراء! فقالوا: وما الصّلاه البتراء؟ قال: يقولون: اللهم صلّ على محمّد، وتمسكون؛ بل قولوا: اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد» أضف إلى ذلك فقد وردت عدة أحاديث بهذا المجال في المجلد الأول من كنز العمال.

٤ - الصلاة على النبي واجبه أم مستحبه؟

هنا يبرز هذا السؤال: هل الصلاة على النبي واجبه أم مستحبه؟ ظاهر الآيه السادسه والخمسون من سوره الأحزاب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...» هو الوجوب؛ لأننا نعلم أن صيغه الأمر تفيد الوجوب، إلّا أن تكون هناك قرينه على خلافه، وقد أمر الله في هذه الآيه بالصلاة على النبي، فأقل ما يلزم الصلاة عليه ولو لمره واحده. أضف إلى ذلك فإن مشهور فقهاء الشيعة وجمع من فقهاء العامه يعتقد بوجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله في التشهد. فقد صرح فقيه العامه ابن قدامه في كتاب المغنى بوجوب الصلاة على النبي في التشهد الأول وقال: «اللهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم... وهي واجبه في صحيح المذهب وهو قول الشافعي واسحاق...» ثم نقل عن ابن راهويه (أحد فقهاء العامه) «لو أنّ رجلاً ترك الصّلاه على النبي صلى الله عليه وآله في التشهد بطلت صلاته».

وأضاف: (وظاهر مذهب أحمد أحد الائمة الأربعة لدى العامه) هو الوجوب أيضاً. (٣)

ص: ١١٧

١-١) صحيح مسلم ١/٣٠٥ باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله.

٢-٢) الصواعق لابن حجر ١٤٤/ [١]

٣-٣) المغنى ١/٥٧٩.

وصرح الشيخ منصور على ناصف صاحب كتاب الجامع للاصول ذيل الآية السادسة والخمسين من سورة الأحزاب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...» أن ظاهر الآية هو وجوب الصلاة على النبي وعليه إتفاق العلماء. (١)

٥ - المفهوم الحقيقي للصلاة على النبي صلى الله عليه وآله

السؤال الأخير الذى يطرح نفسه هنا: ما مفهوم هذه الصلوات؟ يتفق العلماء على أن صلاة الله على العبد تعنى الرحمة، وصلاة الملائكة والناس تعنى طلب العفو والرحمة، أو حسب الرواية الواردة عن الإمام الكاظم عليه السلام حين سئل عن معنى صلوات الله والملائكة والمؤمنين فى الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» قال: صلاة الله رحمة وصلاة المؤمنين تقديسهم للنبي صلى الله عليه وآله وصلاة المؤمنين طلبهم الرحمة للنبي صلى الله عليه وآله. (٢) ويرى البعض أن جمعى هذه ارسال الرحمة أو التقديس وطلب المغفرة بحيث يردّها كل أحد على ضوء مقتضى حاله. (٣) ولما كان الأصل اللغوى لهذه المفردة صلى على وزن سعى بمعنى القذف فى النار أو الاشتغال بهما، فإنّ البعض يرى أن الصلوات تعنى إبعاد نار العذاب الأخرى، ونتيجته الرحمة أو طلبها؛ إلّا أنّ البعض فرق بين الصلوة الناقص الواوى والصلوى الناقص الياى، على أنّ المعنى الأخير يتعلق بصلوى بينما ترتبط المعانى السابقه بالصلو (لا بدّ من التأمل).

على كل حال فان ما ورد يشير إلى أنّ كل صلاة وسلام على النبي صلى الله عليه وآله يمثل رحمة متجدده على روحه الطاهره، ولا يستبعد أن تطول تلك الرحه التى تستند لتلك العين الإلهيه الفياضه الأّمّه وترفرف عليها، ومن هنا كانت الصلوات والسلاام على النبي صلى الله عليه وآله مصدر رحمة للإنسان وغفران ذنوبه. أما بشأن المراد بآل محمد صلى الله عليه وآله هل هم أهل البيت من ولده، فهذا ما سنعرض إليه فى الخطبه ٢٣٩. وقد أشرنا فى الخطبه الثانيه من المجلد الأول لهذا الأمر.

ص: ١١٨

١- ١) التاج الجامع للاصول ٥/١٤٣.

٢- ٢) تفسير نورالتقلين ٤/٣٠٢، رقم ٢١١ ([١] ذيل الآية ٥٦ من سورة الأحزاب). [٢]

٣- ٣) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ماده صلو (باقتباس ونقل بالمعنى).

ومن كلام له عليه السلام

قاله لمروان بن الحكم بالبصره

قَالُوا: أَخَذَ مَرْوَانُ بِنُ الْحَكَمِ أَسِيرًا يَوْمَ الْجَمَلِ، فَاسْتَشْفَعَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَلَّمَاهُ فِيهِ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ فَقَالَا لَهُ: يُبَايِعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

نظرة إلى الخطبة

يشير كلامه عليه السلام في هذه الخطبة إلى عذر مروان وبنى مروان من جانب ويشبه خيانتة بخيانته اليهود الذين وقفوا بوجه الدعوه منذ انبثاقها إلى يومنا هذا. كما يخبر عليه السلام عن حكمه بنى مروان وهذه الشجره الخبيثه ومدى المصائب والويلات التى طالت المسلمين من تلك الحكومه. وتكشف هذه النبوءه عن إحاطته عليه السلام بالحوادث المستقبلية.

ص: ١١٩

١ - ١) سند الخطبه روى طرفا من هذا الكلام قبل الرضى ابن سعد فى الطبقات ج ١ فى ترجمه مروان، والبلاذرى فى أنساب الاشراف بترجمه أميرالمؤمنين، ورواه بعد الزمخشري فى ربيع الأبرار والسبط ابن الجوزى فى تذكره الخواص باختلاف يسير، وجاء فى النهايه فى غريب الحديث لابن الأثير. وقال ابن أبى الحديد فى ٦/١٤٦ من شرحه لنهج البلاغه: وقد روى هذا الخبر من طرق كثيره ورويت فيه زياده لم يذكرها صاحب نهج البلاغه، [١] فترى ابن أبى الحديد هنا ينص على تواتر هذا الخبر وكثره طرقه. مصادر نهج البلاغه ٢/٧٢. [٢]

«أَوْ لَمْ يُبَايَعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ؟ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ إِنَّهَا كَفُّ يَهُودِيَّةٍ، لَوْ بَايَعْنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسَيِّئَتِهِ. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعَقَهُ الْكَلْبُ أَنْفَهُ، هُوَ أَبُو الْأَكْبَشِ الْأَرْبَعِي، وَسَتَلَقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْمًا مَوْتًا أَحْمَرَ» .

الشرح والتفسير

الغنى عن بيعه مروان

كما أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما استشفع إليه الحسن والحسين عليه السلام في العفو عن مروان بن الحكم لما أسر يوم الجمل، ثم إقترحا على الإمام عليه السلام بيعته، فقال «أَوْ لَمْ يُبَايَعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ؟ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفُّ يَهُودِيَّةٍ، لَوْ بَايَعْنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسَيِّئَتِهِ» . (١)

وتشبيه يده باليد اليهودية تعد إشارة واضحة إلى خيانه مروان وغدره الذي ورثه في الواقع من أبيه الحكم، عم عثمان بن عفان الذي كان يتجسس على رسول الله صلى الله عليه وآله لصالح الكفار والمشركين والمنافقين إلى جانب سخريته واستهزائه بالنبي صلى الله عليه وآله فنفاه صلى الله عليه وآله إلى الطائف، ولم يشفع رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان في رده إلى المدينة فلما ولي عثمان الخلافة كان أحد أسوأ أعماله التي دعت الناس للقيام عليه إعادة الحكم بن أبي العاص إلى المدينة. ومن الطبيعي ألا يكون هناك من اعتبار لبيعه هذا الرجل الذي بايع علياً عليه السلام ثم نقض بيعته ولم يبق لها وزناً، رغم أنّ البيعه كانت محترمة حتى في الجاهلية. فقد نقض بيعته وأجج نار الجمل، فلو بايع ثانيه لنقض هذه البيعه

ص: ١٢١

١-١) «سبه» على وزن غده تعنى الطعنه فى موضع واصلها من سب كما ترد كناية عن مخرج الإنسان، وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة المذكوره، ومعنى الكلام محمول على وجهين: أحدهما أن يكون ذكر السبه إهانته له وغلظه عليه، والعرب تسلك مثل ذلك فى خطبها وكلامها، والثانى أن يريد بالكلام حقيقه لامجازاً، وذلك لأنّ الغادر من العرب كان إذا عزم على الغدر بعد عهد قد عاهده أو عقد قد عقده، قبل إستهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والعهد، وسخرية وتهكماً. (شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١٤٧/٦). [١]

متى تسنح له الفرصه، فقد كان تبعاً لهواه، ولم يك للعزه والشرف والالتزام الأخلاقي والشرعي من أهميه لديه. ثم أخبر الإمام عليه السلام عن ثلاثه أمور غيبية بشأن مروان، يكمن الأول فيها في إستيلائه على الخلافه لمدته قصيره: «أما إن له إمراً كلعقه (١) الكلب أنفه» فالكلب حين يزعج برأسه في جيفه ليتناول ممّا فيها، يعلق مقداراً من بقايا تلك الجيفه على أنفه فيمد لها لسانه بغيه تناوله وتنظيف ما علق بأنفه. ويمثل هذا التعبير بشأن قصر حكمه مروان منتهى البلاغه والفصاحه، وهو من قبيل: «المقال المطابق لمقتضى الحال». نعم فهو كالكلب الذى إنقض على جيفه الحكومه اللامشروع لآل أميه، ولمدته قصيره رآها بعض المؤرخين أربعه أشهر وعشره أيام وقيل سته أشهر، وأكثر مدته صرح بها المؤرخون هي تسعه أشهر، وهكذا تحققت نبوءه الإمام عليه السلام بشأنه حتى قتل على يد زوجته كما سنعرض لذلك فى البحث القادم. الأمر الثانى الذى تنبأ به الإمام عليه السلام: «و هو أبو الأ-كبش (٢) الأربعه» والأ-كبش جمع كبش الحيوان الهائج المعروف حيث يشترك معه ولد مروان بهذه. وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالأكبش الأربعه من ولد مروان هم: عبد الملك الذى ولى الخلافه بعده وعبد العزيز الذى ولى مصر وبشر فى العراق وأمّا محمد فولى الجزيره، وقد ورث كل منهم الشر عن أبيه. وبالطبع فإنّ أولاد مروان كثيرون، إلّا أنّ هؤلاء الأربعه قد ولوا الحكومه واليهام أشار الإمام عليه السلام بكلامه. بينما ذهب البعض الآخر من الشراح إلى أنّ المراد بالأكبش الأربعه حفده مروان من ولد عبد الملك وهم: الوليد وسليمان ويزيد وهشام، ولم يل الخلافه من بنى أميه ولا من غيرهم أربعه إخوه إلّا هؤلاء. ومن هنا فقد رجح البعض القول الثانى لانسجامه والنبوءه الثالثه التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام: «وستلقى الأمه منه ومن ولده يوماً أحمر» وهذه النبوءه هى الأخرى تحققت، وقد ولى هؤلاء الأكبش الخلافه الواحد بعد الآخر فارقوا الدماء وقتلوا طائفه عظيمه من الأبرياء، لتحقق نبوءه الإمام عليه السلام بقوله: «يوماً أحمر» من خلال تلك الفضائع والجرائم التى ارتكبوها، وفضل شاهد على ذلك الجنايات التى اقترفها والى الكوفه على عهد عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفى.

ص: ١٢٢

-
- ١-١) «لعقه» من ماده «لحق» على وزن لعب بمعنى لحسه و «العقه» اسم مره «يعنى لعق أو لحس مره واحده» .
- ٢-٢) «أكبش» جمع «كبش» بمعنى مذكر الغنم أو الخروف بأى عمر كان تطلق العرب هذه المفرده على رئيس القوم وزعيمهم فيقال: كبش القوم وكبش الكتيبه.

كان مروان بن الحكم من أعدى أعداء أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقصته تمثل محور الخطبه والتي من شأنها توضيح أغلب الحقائق ذات الصله بتاريخ صدر الإسلام. أبوه الحكم الذي نفاه رسول الله صلى الله عليه وآله، إلى الطائف وخاطبه صلى الله عليه وآله قائلاً: «لعنك الله ولعن ما في صلبك» وكان ذلك قبل ولاده مروان. وقيل نفى مع أبيه إلى الطائف وكان طفلاً لا يعقل، وإنه لم ير رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يزل في الطائف ولم يجرأ الخليفه الأول ولا الثاني على الشفاعة لدى رسول الله صلى الله عليه وآله لردّه إلى المدينة، حتى ولي عثمان فردّه إلى المدينة، وكان ذلك من الأعمال التي نقمها عليه الناس، والأعجب من ذلك قربه إليه وأغدق عليه أموالاً طائلة من بيت المال؛ ومن هنا إمتنع بعض صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله من الصلاه خلف عثمان. بايع مروان علياً عليه السلام بعد قتل عثمان، ثم نقض بيعته وقدم البصره وأجج نار الجمل، ثم أسر بعد أن قتل طلحه والزبير وهزم عسكر الجمل، وكما ورد في الخطبه فقد إستشفع الحسن والحسين عليه السلام إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وقيل ابن عباس فخلي عليه السلام سبيله. إلا أنه بايع معاويه والتحق بصفين. وجاء في الخبر أن معاويه كان يخشى علي حكومه يزيد من أربع من بينهم مروان، فعهد إلى ابنه بأن يصلى عليه، فاذا أتم الصلاه قتله، فلما اطلع مروان الخبر لم يكذ يتم الصلاه حتى هرب.

و أما وفاه مروان، والسبب فيها أنه كان قد استقرّ الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاويه على ما قدّمنا ذكره، فلما استوثق له الأمر، أحبّ أن يبايع لعبد الملك عبدالعزيز ابنه، فاستشار في ذلك، فأشير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد، وهي ابنه أبي هاشم بن عتب بن ربيعه ليصغر شأنه فلا يرشح للخلافه، فتزوجها. ثم قال لخالد يوماً في كلام دار بينهما والمجلس غاص بأهله: اسكت يا ابن الرطبه، فقال خالد: أنت لعمرى مؤتمن وخبير.

ثم قام باكياً من مجلسه - وكان غلاماً حينئذ - فدخل على أمه، فأخبرها، فقالت له: لا يعرفنّ ذلك فيك، واسكت فأنا أكفيك أمره. فلما دخل عليها مروان، قال لها: ما قال لك خالد؟ قالت وما عساه يقول؟ قال: ألم يشكني إليك؟ قالت: إن خالداً أشدّ إعظماً لك من أن يشتكيك، فصدّقها. ثم مكثت أياماً، فنام عندها وقد واعدت جواريتها، وقُمنَ إليه، فجعلن الوسائد

والبراذع عليه، وجلسن عليه حتى خنقه، وذلك بدمشق في شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة، في قول الواقدي.

ومما قيل في مروان أنّ أمه كانت من أصحاب الرايات في الجاهلية قبل أن تتزوج من الحكم، حيث نصبت الراية علناً على باب بيتها وكانت تدعوا الرجال إليها. وكما أشرنا سابقاً فإنّ حكمه مروان لم تدم أكثر من بضعة شهور، وقدم جاء في الخبر أنّه رأى في المنام قد بال أربع مرات في محراب رسول الله صلى الله عليه وآله فلما سأل ابن سيرين عن رؤياه، أخبره بأنّ أربعة من بنيه يلون الحكمه فيعملون على هدم الإسلام وهذا ما وقع (طبعاً أربعة من أحفاده من ولد عبدالملك) فقد حكم الوليد بن عبدالملك (٨٦ - ٩٦) وسليمان بن عبدالملك (٩٦ - ٩٩) ويزيد بن عبدالملك (١٠١ - ١٠٥) وهشام بن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥)، وقد تخلل المده القصيره بين حكمه الأولين والآخرين حكمه عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١) وهو من أحفاد مروان. ثم انتهت حكمه آل مروان أسوأ خلفاء بني أميه. (١)

ص: ١٢٤

١-١) اقتطفنا سيره حياه مروان من تاريخ الطبرى وسفينه البحار وشرح النهج لابن أبى الحديد. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

لما عزموا على بيعه عثمان

نظره إلى الخطبة

و نحن نذكر في هذا الموضوع ما استفاض في الروايات من مناشدته أصحاب الشورى، وتعيده فضائله وخصائصه التي بأن بها منهم ومن غيرهم قد روى الناس ذلك فأكثرُوا؛ والذي صحَّ عندنا أنه لم يكن الأمر كما روى من تلك التعديلات الطويلة؛ ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبد الرحمن والحاضرون عثمان، وتلكاً هو عليه السلام عن البيعه: إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال الشرى؛ في كلام قد ذكره أهل السيره؛ وقد أوردنا بعضه فيما تقدم، ثم قال لهم: أنشدكم الله! أفيكم أخيدٌ أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وبينه وبين نفسه؛ حيث آخى بين بعض المسلمين وبعض غيري؟ فقالوا: لا؛ فقال أفيكم أحدٌ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ كنت مولاه فهذا مولاه» غيري؟ فقالوا: لا، فقال: أفيكم أحد؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنت منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» غيري؟ قالوا: لا، قال: أفيكم من أو تمن على سوره براءه، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل

ص: ١٢٥

١-١) سند الخطبة: لقد استفاد بعض شراح نهج البلاغه من كلام ابن أبي الحديد أن لديه خطبه طويله لأمير المؤمنين على عليه السلام بعد بيعه عبد الرحمن بن عوف لعثمان وما ورد في هذه الخطبه طرفاً منها، حيث أشار الإمام عليه السلام إلى فضائله وسوابقه ثم قال: «إني أحق بها من غيري ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا على خاصه» (شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي ٥/٢٢٣).

مِنِي غَيْرِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَزُّوا عَنْهُ فِي مَاقِطِ الْحَرْبِ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ، وَمَا فَرَرْتَ قَطُّ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَلَا- تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوَّلُ النَّاسِ إِسْلَامًا؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَأَيُّنَا أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَسَبًا؟ قَالُوا: أَنْتَ. فَقَطَعَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ كَلَامَهُ، وَقَالَ: يَا عَلِيُّ؛ قَدْ أَبَى النَّاسُ إِلَّا عَلِيَّ عُثْمَانَ، فَلَا تَجْعَلَنَّ عَلِيَّ نَفْسَكَ سَبِيلًا ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا الَّذِي أَمْرَكَ بِهِ عَمْرٌ؟ قَالَ: أَنْ أُقْتَلَ مِنْ شَقِّ عَصَا الْجَمَاعَةِ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِعَلِيِّ: بَايِعْ إِذْنًا؛ وَإِلَّا كُنْتَ مَتَّبَعًا غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْفَذْنَا فِيكَ مَا أَمَرْنَا بِهِ. فَقَالَ: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَاللَّهِ لِأَسْلِمَنَّ...» الْفَصْلُ إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَبَايَعَ. (١)

ص: ١٢٦

١- ١) اقتباس من شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦/١٦٧، وللإطلاع أكثر حول المؤامره التي حدثت في قضيه الشورى من أجل اقضاء الإمام على عليه السلام من الخلافه وماذا عمل هؤلاء من أجل تأمين مصالحهم الماديه، فما عليك الا الرجوع إلى «شرح نهج البلاغه» تأليف «محمد عبده» أحد علماء مصر، وقد أورد ذلك في ذيل الخطبه التي يدور بحثنا حولها.

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَوَاللَّهِ لَأَسْلِمَنَّ مَا سَلِمْتَ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً التَّمَا ساً لَأَجْرٍ ذَلِكَ فَضْلُهُ وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ (١) مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرَجِهِ» .

الشرح والتفسير

علم الجميع باحقيتي من غيري

أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام حين أمر عمر بتشكيل الشورى من أجل إنتخاب عثمان، والشورى هم: على عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص. وقد أمر جماعه بامهالهم ثلاثة أيام ليتخبوا من بينهم خليفه، فاختاروا عثمان خليفه بعد أن رفض على عليه السلام ما اشترط عليه لقبول الخلافه، فرأى الإمام عليه السلام نفسه أمام عمل قد وقع، فاورد هذه الكلمات «لقد علمتم أنني أحق الناس بها من غيري» في إشاره إلى أن سكوته عليه السلام لايعنى أدنى شك وريب في جدارته بالخلافه، فتطرق عليه السلام إلى الدافع الذي يكمن وراء ذلك السكوت فقال: «ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين؛ ولم يكن فيها جورٌ إلأعلى خاصه». نعم مصالح المسلمين هي الدافع لذلك السكوت، حذرا من شق صفوف المسلمين؛ الأمر الذي كان ينتظره أعداء الإسلام في الداخل والخارج بفارغ الصبر بغيه تنفيذ مؤامراتهم التي تهدف إطفاء نور الإسلام، أو حرصاً على دماء المسلمين والحيلولة دون إراقتها، ثم يصرح بأنه مستعد للتنازل عن حقه إذا إقتصر الظلم عليه ولم تمارسه هذه الخلافه بحق الإسلام والمسلمين. ثم أتبعه عليه السلام بالدافع الثاني «التماساً لأجر ذلك وفضله» وإلى جانب ذلك «وزهداً

ص: ١٢٧

١- (١) «تنافستموه» من ماده «منافسه» للحصول على شىء يعد نفيساً (وإن لم يكن فى الواقع كذلك) ومن هنا يصطلح «بالنفيس» على الأشياء المرغوبه التى يخاطر الإنسان بنفسه من أجلها.

فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه» (١). فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة القصيره إلى ثلاث حقائق مهمه هي:

أولاً: أنه أحق من كافه الأفراد بخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله وأن أولئك الذين صدوه عن حقه بدافع من مصالحهم الشخصيه أو حسداً وبغضاً إنما ظلموه كما ظلموا الأمة لأنهم حرموها من هذا الزعيم الكفوء.

ثانياً: أن سكوت الإمام عليه السلام لم يكن إعتباطياً خالياً من القيود والشروط، بل قيده عليه السلام بانتظام أعمال المسلمين دون أن يتعرضوا لأى ظلم وجور.

ثالثاً: إن الإمام عليه السلام طلب أجر الله وثوابه بهذا السكوت المرير والملى بالمعاناه، كما أراد أن يثبت عدم قيمه ما يتنافس عليه الآخرون من زبرج الدنيا وزخرفها ويحرقون من أجلها الأخضر واليابس، ولا يقيم له الإمام عليه السلام من وزن.

الإجابة عن بعض الأسئلة

هنالك عدة أسئلة تطرح نفسها، الأول: ألا يفهم من كلام الإمام عليه السلام أن سكوته في عهد الخليفة الأول والثاني دليل على عدم خروجهما عن مسار الحق والعدل؟ وإلا لقام الإمام عليه السلام واعترض عليهما.

والجواب على هذا السؤال هو أن الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بذلك الوضع قطعاً؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح بما ورد فى الخطبه الشقشقيه وغيرها من الخطب التى صرح فيها برفضه لذلك الوضع ليعلمه الجميع، فقد قال كل ما كان يجب قوله من خلال إمتناعه عن بيعه الخليفة الأول واعتراضه على ما ورد فى السقيفه (كما مر علينا فى شرح الخطبه ٦٧) ولما استتبت لهم الأمور وترسخت دعائم حكومتهم ولم يعد الاعتراض مجد يا سكت الإمام عليه السلام حذراً من خلخله الأوضاع ونشوب النزاع داخل الحكومه الإسلاميه مما يؤدى إلى إضعافها وإنهارها. ومن

ص: ١٢٨

١ - ١) «زخرفه» و «زبرجه» أصل الزخرف الذهب وكذلك الزبرج، ثم أطلق على كل مموه مزور، وأغلب ما يقال الزبرج على الزينه من وشى أو جوهر.

هنا تتضح الإجابة على هذا السؤال: لماذا لم يعترض الإمام عليه السلام على عثمان، والحال أن أخطائه في التطاول على بيت مال المسلمين واغداقه أمواله على قرابته وبطانته وتسليطه لأولئك الأفراد على رقاب المسلمين ليست بخافية على أحد، فهل يعنى ذلك السكوت رضاه عليه السلام بأعمال عثمان عليه السلام؟ فمما لاشك فيه أن الإمام عليه السلام لم يسكت على عثمان ولم يرض بأعماله، فاعتراضه على نفي أبي ذر إلى الربيعة وسائر أفعال عثمان تدل على أن الإمام عليه السلام كان شاجباً لأعمال عثمان، ومن الشواهد على ذلك ما روى عن الإمام عليه السلام أواخر عمر عثمان حيث نزل القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون، وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل على عليه السلام فدخل وقال: يا بن عم: إن لك عند الناس قدر وهم يسمعون منك، وأحب أن تترك إليهم فتردهم عني، فان في دخولهم على وهنا لأمرى وجرأه على. فقال عليه السلام: على أى شئ أردهم؟ قال: على أن أصير إلى ما أشرت به، ورأيت لى. فقال عليه السلام: إنى قد كلمتك مره بعد أخرى، فكل ذلك تخرج وتقول وتعد ثم ترجع، وهذا من فعل مروان ومعاويه وابن عامر وعبدالله بن سعد، فانك أطعتهم وعصيتنى. قال عثمان: فأنى أعصيتهم وأطيعك. فأمر على عليه السلام الناس أن يركبوا معه، فركب ثلاثون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فأتوا المصريين فكلموهم، فسمعوا منهم ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر (١).

ثم قام عثمان بعده أعمال شائنه مرت علينا فى شرحنا للخطبه الشقشقيه تحت عنوان «دوافع القيام ضد عثمان» بحيث أدت تلك الأعمال إلى إحباط سعى الإمام عليه السلام من أجل إطفاء الفتنة. فالكلام يفيد بما لا يقبل الشك مدى إعتراض الإمام عليه السلام على أعمال عثمان مرات وكرات وقد أخذ عهده على إصلاح وضعه، إلا أنه عجز عن ذلك الإصلاح حتى على مستوى الظاهر بفعل ضغوط مروان ومعاويه.

كما ورد فى الخطبه ١٦٤ من نهج البلاغه شرح مفصل بهذا الشأن.

ص: ١٢٩

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢/١٢٩. [١]

ومن كلام له عليه السلام

لما بلغه اتهام بنى أميه له بالمشاركه فى دم عثمان

نظره إلى الخطبه

يعرض الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه بالذم لخصومه البعيدين عن المنطق فى توجيه بعض التهم إليه التى لايمكنها أن تطل ساحتها المقدسه بفعل سوابقه المشرقه وأهدافه العظيمة التى لا تخفى على أحد.

ص: ١٣١

١-١) سند الخطبه: لم يذكر الرواه سندا خاصا لهذا الكلام سوى ماورد فى نهج البلاغه، إلّا أنّ صاحب مصادر نهج البلاغه نقل بعض هذا الكلام فى ماده قرف عن ابن أثير فى النهاية والطريحي فى مجمع البحرين. مصادر نهج البلاغه ٢/٧٦. [١]

«أَوْلَمَ يَنْهَ بَيْنِي أُمِّيَّ عَلِمَهَا بِي عَنْ قَرْفِي أَوْ مَا وَزَعَ الْجُهَالِ سَابِقَتِي عَنْ تَهْمَتِي وَلَمَّا وَعَظَهُمُ اللَّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي أَنَا حَجِيحُ
الْمَارِقِينَ خَصِيمَ النَّاكِثِينَ الْمُزْتَابِينَ وَعَلَى كِتَابِ اللَّهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ وَبِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادُ» .

الشرح والتفسير

العدو اللدود للمنحرفين

يعتبر قتل عثمان - إثر البذخ والتطاول على بيت مال المسلمين والظلم والجور الذي تعرضت له الأمة منه ومن بطانته والذي أثار نقمه أغلب أفراد الأمة للقيام عليه - بؤره أفضت إلى حوادث مريره في التأريخ الإسلامي، إلّا أنّ هنالك جماعه من الناس كانت ترى عثمان مقصراً ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله مستحقاً للموت، ومن هنا لم يرق لبعضهم قتله ولم يكونوا راضين بذلك، الأمر الذي مهد السبيل أما بعض الفئات المنحرفة لتستغل قتله لتحقيق أهدافها السياسيّة والقضاء على خصومها، وهكذا أصبح قتل عثمان وسيله لتصفية الحسابات السياسيّة. فبنى أميه وفي مقدمتهم معاويه كان ساكناً لما هجم القوم على دار عثمان، بينما كان يتمثل موقف على عليه السلام بتوبيخ عثمان على أعماله إلى جانب الحيلولة دون قتله، فقد ذب عنه حتى بعث بالحسن وبالحسين عليه السلام ليصدوا الناس عن الهجوم على داره. مع ذلك ما أن قتل عثمان حتى هب بنى أميه للطلب بثأره ليكون هذا الأمر مقدمه للوصول إلى الخلافة، ولا سيما معاويه الذي إستغل هذا الأمر إستغلالاً بشعاً في الشام البعيده عن المدينه لتحقيق أطماعه، حتى تمكن من خداع أهل الشام واقناعهم بأنّه المدافع عن عثمان والطالب بدمه من على عليه السلام. وقصه قميص عثمان معروفه، فقد علق معاويه قميص عثمان (أو قميصاً يشبهه) على بوابه الشام

ص: ١٣٣

ليعبئ الأمة ضد على عليه السلام، كما وظف طائفه من كهول الشام التي كانت تقيم مراسم العزاء وتبكي عثمان في المسجد بما يثير مشاعر الناس. فقد قال الإمام عليه السلام في إطار ردّه لمزاعم بنى أميه: «أولم ينه بنى أميه علمها بى عن قرفى؟ (١) أو ما وزع (٢) الجهّال سابقتي عن تهمتي! (٣)» فبنى أميه وإن جانبوا الحق والانصاف، إلّا أنّهم كانوا ينبغي أن يعلموا صفات الإمام عليه السلام وأنه لا يظلم أحداً ولا يلطخ يده بدماء الآخرين عبثاً، كما يعلمون جيداً سوابقه وفضائله ومنها أنّ النبي صلى الله عليه وآله خاطبه بأخيه وناداه أنت منى بمنزله هارون من موسى، وفيه وفي أهل بيته نزلت آية التطهير وقد فوض إليه النبي صلى الله عليه وآله وأله أغلب أعماله سرية، فهذه التهم رخيصة، فالإمام عليه السلام لم يشترك في قتله ولا قتل غيره، كما بالغ في الدفاع عنه وإن كان يراه مقصراً، لكن دون حد القتل. فقد وعظه الإمام عليه السلام وحذره من مغبه أفعاله، كما دعى تلك الجماعة التي قامت ضده إلى التحلى بالصبر والحلم واعتماد الأساليب السلمية في حل النزاع، بينما بقيت بنى أميه ساكته دون ان تحرك ساكناً. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «و لما وعظهم الله به أبلغ من لسانى» أولم يقرأوا قوله سبحانه في كتابه العزيز: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» (٤) أو لم يسمعوا قوله سبحانه: «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا» (٥). ثم أشار عليه السلام إلى فضيله أخرى من فضائله فقال: «أنا حجيج (٦) المارقين، وخصيم الناكثين المرتابين»، وقد اختلفت أقوال المفسرين فى محاجته عليه السلام للمارقين فى الدنيا أم الآخرة. أشار ابن أبى الحديد (٧) أنه أراد يوم القيامة حيث روى عنه عليه السلام أنه

ص: ١٣٤

- ١ - ١) «قرف» على وزن حرف تعنى فى الأصل فصل قشره الشئ كقشره الشجره، ولما كان تحرى العيوب يؤدى إلى ضياع شخصيه الأفراد، فإن هذه الكلمه تستعمل بمعنى الاتهام.
- ٢ - ٢) «وزع» من ماده «وزع» على وزن وضع بمعنى المنع، كما وردت بمعنى الجمع. لأنّ جمع الشئ يتطلب منع تشتت افراده، ولعل «التوزيع» بمعنى التقسيم، لأنّ تقسيم الشئ يتطلب جمعه ثم تقسيمه.
- ٣ - ٣) «تهمه» من ماده «وهم» تعنى فى الأصل الظن السيئ (وقد وردت هذه المفردة بفتح الهاء وضمها)، كما تعنى التهمه البهتان، وهذا هو معناها فى العبارة الوارده فى الخطبه.
- ٤ - ٤) سورة الحجرات / ١٢. [١]
- ٥ - ٥) سورة النساء / ١١٢. [٢]
- ٦ - ٦) «حجيج» من ماده «حجج» بمعنى قصد الشئ، ومنه «المحاجه» لمن يحاور العدو بقصد التغلب عليه، وحجيج المارقين خصيمهم، والمارقون هم الخارجون من الدين.
- ٧ - ٧) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٦/١٧٠.

قال: «أنا أوّل من يجتو للحكومه بين يدى الله تعالى»، والحال لا ينسجم ظاهر الخطبه وهذا المعنى أو لا يقتصر عليه، بل الظاهر أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول بأنّي كنت وما أزال أقف بوجه الناكثين الذى ينقضون العهد ولا يقيمون وزناً لتعاليم الدين، والشاهد على ذلك قتاله عليه السلام للناكثين (أصحاب الجمل) والمارقين (الخوارج) والقاسطين (أهل الشام)، وبعبارة أخرى فإنّ الإمام عليه السلام يقول بمخالفته لمن يخالف حقه، فان رأوا ذلك عيباً، فليعيبوه به. ثم إختتم كلامه عليه السلام بقوله «و على كتاب الله تعرض الأمثال، (١)وبما فى الصدور تجازى العباد»، فقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ العبارة إشارة إلى الآيه ١٩ من سوره الحج «هَذَا نَحْضٌ مَّا نِ اخْتَصَيْ مُمَا فِي رَبِّهِمْ» حيث روى النبی صلى الله عليه وآله إنها فى علي عليه السلام وحمزه وعبيده، وعتبه وشيبه والوليد، وكانت حادثتهم أول حادثه وقعت فيها مبارزه أهل الإيمان لأهل الشرك وكان المقتول الأول بالمبارزه الوليد قتله على عليه السلام، فتجدرت ضغينه بنى أميه وكانت تستغل الفرص لدرك ثأرها، فنزلت الآيه لتكشف عن مصير الفريقين، فليس لمشركى بنى أميه سوى الجحيم والعذاب الأليم. وأمّا المسلمون ففي جنات النعيم. والحق أنّ العبارة لا يمكن أن تقتصر على الإشارة لهذه الآيه، بل ترشد إلى عرض المسائل المبهمة على شبيهاتها فى القرآن ليميز الحق من الباطل ولا سيما هنا فى قضيه قتل عثمان وسعى الآخرين لتوجيه أصابع الاتهام إلى هذا وذاك بهدف تحقيق الأغراض السياسيه، ولا سيما من قبل أولئك الذين سكتوا لتقع تلك الحادثه، فاذا ما عرض هذا الأمر على القرآن، رأينا آياته تخالف ما قلتم، فهى تفند البهتان والتهمه وسوء الظن واشاعه الفاحشه.

والعبارة الأخيره إشارة إلى هذه الحقيقه وهى أنّ الله عالم بنياتكم وأنّ هدفكم ليس الدفاع عن عثمان ولا إصلاح ذات بين المسلمين، بل تريدون إستغلال الصغيره والكبيره من أجل تحقيق أهدافكم وبكل وسيله رخيصه من أجل الاستيلاء على الحكومه وممارسه الظلم والجور بحق المسلمين، فالله عالم وسيجاز يكم بذلك.

ص: ١٣٥

١ - ١) «الامثال» جمع «مثل» يراد بها هنا متشابهات الأعمال والحوادث تعرض على القرآن فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو الباطل، وقد جرى عليه السلام على حكم الله فى أعماله فليس للغامز أن يشير بمطعن.

ومن خطبه له عليه السلام

في الحث على العمل الصالح

نظره إلى الخطبه

قال الكراجكى صاحب كنز الفوائد وهو من معاصري السيد الرضى (ره) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «تلكم أمير المؤمنين صلوات الله عليه باربع وعشرين كلمه قيمه كل كلمه منها وزن السموات والأرض». ثم روى هذه الخطبه (٢).

تشتمل هذه الخطبه حسب ما ورد في نهج البلاغه على عشرين صفه من صفات المؤمنين المخلصين، والجملات الأربع التى وردت في نقل المرحوم الكراجكى في هذه الخطبه هي «حذر أملاً» «ورتب عملاً» «يظهر دون ما يكتم» «ويكتفى بأقل مما يعلم» (٣) وبالطبع هناك بعض الاختلاف الطفيف في عبارات الخطبه. على كل حال فإنّ هذه الخطبه ورغم قصرها إلّا أنها عميقه المعانى ورضينه المضمون، والإمام عليه السلام يسأل الله الرحمه للمؤمن الذى يتحلى بهذه الصفات العشرين، ليحث الناس ويرغبهم في هذه الصفات، وزبده الكلام فإنّ هذه الخطبه خلاصه للفضائل الأخلاقيه ومجمعه كامله للسير والسلوك إلى الله.

ص: ١٣٧

١ - ١) سند الخطبه: هذه الخطبه رواها قبل الرضى الحرانى في التحف والكراجكى في كنز الفوائد مع تفاوت يسير يفيد أنّه لم ينقل عن نهج البلاغه. ورواها من بعد السيد الرضى الزمخشري في ربيع الأبرار والسبط بن الجوزى في تذكره الخواص ومحمد بن طلحه الشافعى في مطالب السؤل (مصادر نهج البلاغه ٢/٧٧). [١]

٢ - ٢) مصادر نهج البلاغه ٢/٧٨. [٢]

٣ - ٣) بحار الأنوار ٦٤/٤٠٨. [٣]

«رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً عَبْدًا سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى، وَدُعَى إِلَى رِشَادٍ فَدَنَا، وَأَخَذَ بِحُجْرَتِهِ هَادٍ فَنَجَا. رَاقِبَ رَبَّهُ، وَخَافَ ذَنْبَهُ، فَدَمَّ خَالِصًا، وَعَمَلَ صَالِحًا. اكْتَسَبَ مِذْحُورًا، وَاجْتَنَبَ مَحْذُورًا، وَرَمَى غَرَضًا، وَأَحْرَزَ عَوْضًا. كَابَرَ هَوَاهُ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ. جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ، وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ. رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغُرَاءَ، وَلَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ. اغْتَنَمَ الْمَهْلَ، وَبَادَرَ الْأَجَلَ، تَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ» .

الشرح والتفسير

عشرون كلمة قيمه

إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بقوله: «رحم الله امرأً عبداً سمع حكماً (١) فوعى (٢) ودعى إلى رشادٍ فدنا، وأخذ بحجزه (٣) هادٍ فنجا. راقب ربّه، وخاف ذنبه» .

لقد بين الإمام عليه السلام في هذه العبارة بهذه الصفات الخمس مقدمه طريقه رواد القرب إلى الله وسالكي مسيره التقوى وتهذيب النفس، فأول الطريق ضروره توفر الاذن السامعه التي تصغى إلى الحقائق وتستوعبها ومن ثم الاتجاه نحو الداعى الإلهى لمزيد من الفهم والإدراك، آنذاك اللجوء إلى الهادى وانتخاب القائد والدليل، وأخيراً الشعور بالحضور الدائم لله سبحانه وشهوده للأعمال بغيه الورع والتقوى من الذنب. فمن تحلى بهذه الفضائل الخمس يكون قد أعد زاده للسفر إلى الله والحركه نحوه. طبعاً صحيح أنّ الله قد خلق الإنسان على الفطره وزوده بالعقل كمصباح يضيئ له الطريق، إلّا أنّ المفروغ منه هو أنّ اجتياز هذا الطريق

ص: ١٣٩

١-١) «حكم» هنا بمعنى الحكمة.

٢-٢) «وعى» من ماده «وعى» على وزن سعى بمعنى الحفظ وفهم المراد و «أذن واعيه» كناية عن سماع الشخص للمطالب وفهمها بصوره جيده.

٣-٣) «الحجزه» بالضم معقد الازار والمراد بها هنا الاقتداء والتمسك.

يتعذر بالاختصار على العقل والفظرة، ولا يتوج ذلك إلبتوفر الداعى الإلهى والمرشد والدليل. ومن الواضح أن المراد بالدليل والمنقذ الذين أشير إليهما فى العبارة هم النبى وأئمة العصمة عليهم السلام ومن يتحدث عنهم ويهذى إليهم؛ لا الأفراد المبتدعين ممن تسموا بشيوخ التصوف الذين يغطون فى هاله من الظلمه الدامسه ويزعمون أنهم يهدون إلى النور ولا يخفى على أحد مدى الدور الذى يلعبه الشعور بالمراقبه الإلهيه والورع عن الذنب فى كبح جماع النفس وصمودها أمام الأهواء والشهوات. فاذا ما توفرت هذه المقدمه اللانزمه لذلك السفر، آنذاك يأتى دور البرامج العلميه فقال عليه السلام: «قدم خالصاً، وعمل صالحاً. اكتسب مذخوراً، واجتنب محذوراً، ورمى غرضاً (١) وأحرز عوضاً. كابر (٢) هواه، وكذب مناه». فقد أكد الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء على العمل الخالص والصالح، كما ورد تعريفه عن الإمام الصادق عليه السلام: «العمل الخالص العذى لا تريد أن يمدحك عليه أحدٌ إلا الله» (٣) وإليه أشارت الآيه الكريمه: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» (٤).

وهناك تفاسير أخرى للاخلاص تبدو من قبيل اللانزم والملزوم، فقالوا: الاخلاص إخفاء العمل عن الخلاق وتطهيره من العلائق، وقيل: حقيقه الاخلاص ألا ينتظر الإنسان أجراً دنيوياً أو أخروياً على عمله، بل يقوم به حباً لله. وقيل: الاخلاص إخراج الخلق من معامله الخلاق. ولعلنا نلمس قمه الاخلاص فى الحديث الوارد عن أمير المؤمنين على عليه السلام حين قال: «إلهى ما عبدتك طمعاً فى جنتك ولا خوفاً من نارك ولكن وجدتك أهلاً للعباده فعبدتك» (٥). ثم اتبع الاخلاص والعمل الصالح بالحديث عن المذخور والذخيره ليوم القيامه والواقع هو أن أعظم ذخيره إنما تتمثل بالأعمال الخالصه والصالحه.

ولما كانت الأعمال الصالحه والخالصه للإنسان عرضه للاجباط بفعل الذنوب والمعاصى،

ص: ١٤٠

١ - ١) «غرض» على وزن مرض بمعنى الهدف الذى يسدد نحوه السهم، كما يعنى المقصود والحاجه، إلبأنه ورد فى روايه «عرض» بمعنى المتاع الدنيوى الزائل.

٢ - ٢) «كابر» من ماده «مكابره» بمعنى المنازعه والمبارزه، كما يطلق على المنازعات العلميه التى تهدف الغلبه على الطرف المقابل لتحقيق الحق، وقد ارد بها هنا المعنى الأول.

٣ - ٣) الكافى ٢/١٦. [١]

٤ - ٤) سوره البينه ٥. [٢]

٥ - ٥) بحار الأنوار ٦٩٠/٢٧٨. [٣]

فقد ورد الحض على إجتناّب هذه الذنوب والتورع عن ارتكابها ليقدم الفرد على ربّه يوم القيامة بتلك الأعمال. وطالماً كان الاقبال على الدنيا يصد الإنسان عن ذخيره الأعمال الصالحه، واتباع هوى النفس الذى يعد من أهم موانع الطريق وعقبته الكؤود طول الأمل، فقد ورد الحديث عن ترك زخارف الدنيا وعدم الاغترار بها ومقاومه هوى النفس وتكذيب طول الأمل وإجتناّبه؛ الآفات المهلكه التى ورد الحديث عنها عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «يقول الله تعالى: وعزّتى وجلالى... لا يؤثر عبداً هواه على هواى إلّاستحفظته ملائكتى وكفّلت السموات والأرضين رزقه» (١). ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بسبع صفات للمؤمن الصالح فقال: «جعل الصبر مطيّه (٢) نجاته، والتقوى عدّه وفاته (٣) ركب الطّريقه الغراء، لزم المحجّه (٤) البيضاء. اغتتم المهل، (٥) وبادر الأجل، وتزوّد من العمل». فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه الصفات السبع - والتى تبدأ بالصفه الرابعه عشره وانتهت بالعشرين - إلى شرائط والوسائل المتعلقة بالسالكين إلى الله الذين يحثون الخطفى لنيل القرب من الله. ويحتاج هؤلاء السالكون قبل كل شىء إلى مركب يوصلهم إلى شاطئ النجاه وشق عباب هذا الطريق المحفوف بالمخاطر والعقبات، وما أعظم الصبر بصفته المنقذ فى كل موضع ومهما كانت الظروف. من جانب آخر فان كل مسافر لابد أن يحمل معه بعض الوسائل والأدوات التى تلبى حاجاته طيله هذا الطريق، ويشير الإمام عليه السلام إلى أنّ هذه الوسائل تتمثل بالورع والتقوى بصفته الزاد إلى الوفاء. ثم تأتي المرحله الضروريه الأخرى المتمثله بمعرفه الطريق ومواصله السير عليه فقال عليه السلام «ركب الطّريقه الغراء ولزم المحجّه البيضاء» فالعباره الاولى تشير إلى انتخاب

ص: ١٤١

١-١ (١) الكافي ٢/٣٣٥. [١]

٢-٢ «مطيّه» المركب السريع الذى لا يجمع بصاحبه.

٣-٣ «غراء» مؤنث «أغر» كل شىء أبيض والطريقه الغراء النيره الواضحه.

٤-٤ «المحجّه» من ماده «حج» تعنى فى الأصل القصد، ثم أطلقت على جاده الطريق التى توصل الإنسان إلى مقصوده.

٥-٥ «مهل» جاء بصيغه اسم المصدر وبمعنى الرفق والمداراه، ومن هنا فان الفرص تمثل الارضيه للرفق والمداراه، وهذا الاصطلاح أستعمل بمعنى الفرصه وفى الخطبه أعلاه، جاء بعنوان الاشاره إلى الفرص التى اعطاها الله سبحانه وتعالى لعباده من اجل اصلاح اعمالهم والاتبان بالاعمال الصالحه، والتى يجب أن يغتنمها الناس.

الطريق والثانيه إلى السير عليه ومواصلته دون الانحراف عنه طيله المسيره. من جانب آخر ليس هنالك من منازل يمكن السالك التزود فيها لسفره الطويل، ومن هنا لفت الإمام عليه السلام إنتباه السالكين إلى إغتنام الفرص واحترام الوقت الذي قد يكون وبالاعلى صاحبه إذا لم يستفد منه: «اغتنم المهل وبادر الأجل» .

واخيرا اختتم كلامه بالحديث عن التزود للاحره ومبادره العمل الصالح خلال مده العمر القصيره.

تأمل: الصبر واغتنام الفرصه

الصبر حاله نفسانيه يعتمده الإنسان لمواجهه ما يعترض مسيرته من صعاب ومشاكل، وتاره يكون هذا الصبر صبر الطاعه إذا تضمن الوقوف بوجه الصعاب من أجل إمتثال الأوامر الشرعيه، وتاره أخرى يكون الصبر على المعصيه إذا تضمن كبح جماح النفس والحد من طغيانها وكسر شهوتها، وأخيراً هناك الصبر على النوائب إثر مجابهه المصائب والويلات والأمراض ومطبات الحياه وعقباتها الكؤود. والواقع أنّ هذه الصفه تأخذ بيد الإنسان إلى التقوى حتى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد» (١) وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال «سيأتي على الناس زمانٌ لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبّه إلا باستخراج الدين واتباع الهوى؛ فمن أدرك ذلك الزمان وصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضه وهو يقدر على المحبّه، وصبر على الدلّ وهو يقدر على العزّ، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممّن صدّق بي» (٢). وأخيرا فقد أكد الإمام عليه السلام في هذه الخطبه على إغتنام الفرصه والتأهب للأجل، وذلك لأنّ الفرص تمرّ مر السحاب، وهناك عده أخطار تتهدد أعمال الخير، حيث

ص: ١٤٢

١-١ (١) كلمات القصار / ٨٢.

٢-٢ (٢) أصول الكافي ٢/٩١. [١]

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا هممت بخير فبادر فإنه ما تدرى ما يحدث» (١) وقال عليه السلام أيضاً: «إذا هم أحدكم بخير أو صلّه فإنّ عن يمينه وشماله شيطانين فليبادر لا يكفّاه عن ذلك» . (٢)

ص: ١٤٣

١-١) أصول الكافي ٢/١٤٢. [١]

٢-٢) أصول الكافي ٢/١٤٣. [٢]

ومن كلام له عليه السلام

وذلك حين منعه سعيد بن العاص حقه

نظره إلى الخطبه

ورد هذا الكلام عن الإمام عليه السلام حين ولي عثمان الخلفه واستولت بطانته على بيت مال المسلمين فعاشت به فسادا لتمامس أشع أنواع الأسرار إلى جانب تسليطه لبني أميه على رقاب الناس من خلال إغداق المناصب الحكوميه الحساسه. ومن ذلك أنه ولي سعيد بن العاص الكوفه فبعث مع ابن أبي عائشه مولاة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام بصله وأوصى مولاة (الحارث بن جيش) يبلغ عليا عليه السلام أنه لم يبعث لأحد أكثر من هذه الصله سوى لعثمان، وكأنه أراد أن يمتن على الإمام عليه السلام، فقال عليه السلام: والله لا يزال غلام من غلمان بني أميه يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة؛ والله لئن بقيت لأنفضنها نفص اللحام الودام التربه.

ص: ١٤٥

١-١) سند الخطبه: روى هذا الكلام أبو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغانى باسناد رفعه إلى الحارث بن جيش قال: بعثنى سعيد بن العاص بهدايا إلى المدينه، وبعثنى إلى علي عليه السلام وكتب إليه: إننى لم أبعث إلى أحد بأكثر مما بعثت به إليك. قال فأتيت علياً عليه السلام فأخبرته فقال: الخطبه (طبعا هناك تفاوت بين ما أورده أبو الفرج وما جاء في نهج البلاغه إلا أن المضمون واحد). وقد روى هذا الكلام الأزهرى في تهذيب اللغه وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث وابن دريد في المؤتلف والمختلف وأبوموسى محمد بن أبى المدينى الاصبهاني في مستدركاتى على الجمع بين الغريبين (مصادر نهج البلاغه ٢/٧٩ -

«إِنَّ بَنِي أُمِّيَّةَ لَيَفُوقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيْقًا، اللَّهُ لِيُنَّ بَقِيَّتَ لَهُمْ لِأَنفُسِنَهُمْ نَفْصَ اللَّحَامِ الْوِدَامِ التَّرْبَةِ!»

الشرح والتفسير

غيض من فيض جنایات بنی أمیه

إشارة

لقد تسالم ساسه العالم ومنذ القديم على ممارسه الضغوط الاقتصادية على معارضيههم لينشغلوا بأوضاعهم دون الانتباه إلى ما يجرى من حولهم، بل لا يتخلون عن هذا الأسلوب حتى في حاله جنوحهم إلى التعايش السلمى معهم فلا يزودونهم إلابادى العطاء. فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر بقوله: «إِنَّ بَنِي أُمِّيَّةَ لَيَفُوقُونَنِي (1) تراث محمد صلى الله عليه وآله تفويقاً». تتضمن المفردة ليفوقوننى - من ماده فواق الناقه يعنى حلبها لمره واحده - إشاره لطيفه رائعه إلى زهد العطاء، وكأن الخلافه بمتابه الناقه الحلوب التى تكالبت عليها بنى أميه ولا تفيض منها على الإمام عليه السلام سوى بهذا الفواق الزهيد. أما قوله: «تراث محمد» فقد يكون المراد به فدك وما شابه ذلك، كما يمكن أن يكون المراد به الإسلام بكامله الذى يشمل التراث بمعناه الواسع؛ لأن إزدهار الاقتصاد الإسلامى إنما حصل ببركه دين النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والجهود المضنيه التى بذلها صلى الله عليه وآله من أجل نشره، وعليه فكل ما فى أيديهم من تراث محمد صلى الله عليه وآله، ولعل على السلام السهم الأوفى فى هذا التراث، ليس لقربته من النبى صلى الله عليه وآله فحسب، بل لتضحياته من أجل الإسلام. صحيح أن الإمام عليه السلام كان أسوه الزهد فى حياته؛ إلا أنه كان يحصل على عطائه من الغنائم على عهد

ص: ١٤٧

١- ١) «ليفوقوننى» من ماده «فواق» على وزن رواق المده المتخلله بين رضعتين حسب قول أغلب أرباب اللغه، بينما ذهب البعض إلى أنها تعنى المده المتخلله بين فتح الضرع وغلقه حين الحلب، ولما كان الثدى يخلد إلى الراحه بعد الحلب فقد استعملت بمعنى الهدوء والراحه ومنها إفاقه المريض وإفاقه المجنون. وجاءت فى العبارة بمعنى المال الزهيد الذى كان يعطيه بنى أميه الإمام عليه السلام من بيت مال المسلمين.

رسول الله صلى الله عليه وآله ويصل بها الفقراء والمحتاجين. ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «و الله لئن بقيت لهم لأن فضنهم (١) نفض اللّحم الوذام التّربه!» تشبيهه عليه السلام لبنى أميه بالوذام التّربه التي تعنى الحزّه من الكرش أو الكبد والمعدّه وسائر ما فى بطن الحيوان التي تقع فى التراب إشاره إلى ذروه تلوث بنى أميه وضعتهم فهؤلاء - وبشهاده أعمالهم على عهد عثمان - بلغوا مرحله من الدنس بما جعل عامه المسلمين تنقم عليهم وتفكر فى إجتثات جذور هذه الشجره الخبيثه من أصولها وطرده هذه العناصر الفاسده من المجتمع الإسلامى وانقاذ بيت المال من أيديهم الآثمه.

قال المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبه: ويروى التراب الوذمه وهو على القلب. قال الشريف: وقوله عليه السلام: «ليفوّقونى» أى يعطوننى من المال قليلاً كفواق الناقيه. وهو الحلبه الواحده من لبنها. والوذام: جمع وذمه، وهى الحزّه من الكرش، أو الكبد تقع فى التراب فتتلف. وجاء فى بعض الروايات «التراب الوذمه» بدلاً من «الوذام التّربه»، والمفهوم واحد وكلاهما بمعنى الأشياء الزهیده التي قد تتلوث أحياناً ويجب تطهيرها.

تأملان

١ - من هو سعيد بن العاص؟

كما أوردنا سابقاً فإنّ الخطبه وردت بشأن سعيد بن العاص لما بعث بغلامه وهو يومئذ أمير الكوفه من قبل عثمان وقد بعث بهدايا إلى المدينه، ثم بعدت بعديه إلى على عليه السلام وكتب إليه إننى لم أبعث إلى أحد أكثر مما بعثت به إليك إلّا عثمان، وكأنّه قد إمتن على الإمام عليه السلام بذلك المقدار فأجابه الإمام عليه السلام بهذا الكلام. سعيد من طائفه بنى أميه من قبيله قريش، أدرك النبى صلى الله عليه وآله وكان من أمراء جيش المسلمين، وقد تربى فى حضان عمر بن الخطاب، وقد ولاه عثمان الكوفه، فلما قدم الكوفه خطب أهلها واتهمهم بالتمرد والعصيان. فشكاه أهل الكوفه إلى عثمان، فاعاده إلى المدينه فمكث فيها حتى خرج الناس على عثمان فجعل يدافع عنه ويواجه الثوار حتى قتل عثمان، فاضطر للذهاب إلى مكه وبقي فيها. فلما ولى معاويه الخلفه، جعله معاويه أميراً على

ص: ١٤٨

١ - ١) «لأنفضنهم» من «ماده» نفض على وزن نبض تحريك الشى لتخليصه ممّا علق به ومن هنا يصطلح بالنفوض على المرأه الولود، كما تستعمل هذه المفرده فى طرح الثمره من الشجره.

المدينه حتى توفي فيها. لم يلتحق بالجمل ولا صفين، ويتصف بالكبر والعنف والفضاضه، كما كان خطيباً متكلماً. بنى له قصرًا كبيراً في المدينه، وتوفي سنه ٥٣ أو ٥٩ هـ في المدينه. (١)

٢ - بنى أميه

اشاره

بنى أميه من قبيله قريش وينسبون إلى أميه بن عبد شمس بن عبدمناف وقد بدأت حكومتهم منذ تولى معاويه بن أبي سفيان الخلافه عام ٤١ هـ حتى عصر مروان الحمار أو مروان الثاني الخليفه الرابع عشر الذي توفي سنه ١٣٢ هـ والحكومه الأمويه وإن انقرضت عام ١٣٢ هـ إلا أن أحد أفرادها حكم فيما بعد الأندلس، حيث فتحت الأندلس من قبل المسلمين عام ٩١ حتى ٩٣ هـ ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٣٨ هـ كانت تحكم كسائر الممالك الإسلاميه من قبل الخلفاء المسلمين. وفي عام ١٣٨ هـ حكمها عبدالرحمن الأول من أحفاد هشام بن عبدالملك الحاكم الأموي العاشر الذي نجى من العباسيين، وقد حكمها ونسله لمدته قرنين، حتى قام الناس في القرن الخامس لتسقط هذه الحكومه. (٢)

الف) بنى أميه في القرآن الكريم

«وَإِذْ قُلْنَا لِمَكَ إِنَّ رَبِّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا». (٣). أجمع مفسرو الفريقين أن هذه الرؤيا حتى رأى النبي الاكرم صلى الله عليه و آله بنى أميه ينزرون على منبره إنزواء القردة فنزل عليه جبرئيل بالآيه ليطلعه على حكومتهم، فلم ير رسول الله صلى الله عليه و آله بعد ذلك ضاحكاً. وقد نقل المفسر المعروف الفخر الرازي في تفسيره روايه بهذا المضمون عن ابن عباس. كما روى عن عائشه أنها قالت لمروان: «لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنه الله» (٤). إضافة إلى الآيه المذكوره فقد فسرت الشجره الخبيثه في الآيه ٢٦ من سوره إبراهيم على ضوء بعض الروايات ببني أميه. (٥)

ص: ١٤٩

١-١) الاعلام للزركلي ٣/٩٦. [١]

٢-٢) سيد مصطفى الحسيني الدشتي، المعارف والمعاريف، ج ٣ ذيل المفرده بنى أميه.

٣-٣) سوره الاسراء / ٦٠. [٢]

٤-٤) تفسير الفخر الرازي ٢٠/٢٣٧. [٣]

٥-٥) راجع تفسير الأمثل [٤] للمؤلف ١٠/٣٤١ و ١٢/١٧٢.

ب) بنى أميه فى أحاديث العامه

جاء فى كتاب كنز العمال من مصادر العامه عن سعيد بن عامر قال: أغلظ أبوبكر يوماً لأبى سفيان فقال له: يا أبابكر لأبى سفيان تقول هذه المقاله. قال يا أبت إن الله رفع بالإسلام بيوتاً ووضع فكان بيتى فيما رفع وبيت أبى سفيان فيما وضع. (١)

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: إن أول من يبدل سنتى رجل من بنى أميه. (٢) وقال صلى الله عليه وآله: إن أهل بيتى سيلقون من بعدى من أمتى قتلاً وتشريداً، وإن أشد قومنا لنا بغضاً بنو أميه وبنو المغيره وبنو مخزوم. (٣)

وعن على عليه السلام قال: لكل أمه آفه وآفه هذه الأمه بنو أميه. (٤)

ج) بنى أميه فى نهج البلاغه

تعرض أمير المؤمنين على عليه السلام فى عدّه خطب من نهج البلاغه لبنى أميه والمفاسد التى كبدوها الإسلام والمسلمين، ومن ذلك ما أورده فى الخطبه ٧٧ و٩٣ و٩٨. فقد وصف عليه السلام حكمه بنى أميه باكب وأبشع الفتن على الأمه الإسلاميه فقال عليه السلام: «ألا وإن أخوف الفتن عندى عليكم فتنه بنى أميه فإنها فتنه عمياء مظلمه...» .

د) مفاسد حكمه بنى أميه

كثيره هى المفاسد والجنايات التى إرتكبتها حكمه بنى أميه فى التاريخ الإسلامى، بحيث لا يسع المقام الخوض فى تفاصيلها، وعليه نكتفى بالإشاره هنا إلى بعضها:

١ – انحراف الخلافه عن مسارها الصحيح واستبدالها بالسلطه

ص: ١٥٠

١-١) كنز العمال ١/٢٩٩.

٢-٢) كنز العمال، ح ٣١٠٦٢.

٣-٣) كنز العمال، ح ٣١٠٧٤.

٤-٤) كنز العمال، ح ٣١٧٥٥.

فقد صرح معاوية بأنه استولى على الخلافة بالسيف لامن خلال محبة الناس أو رضاهم عن حكومته. (١) وقال الجاحظ أن معاوية أسمى العام الذي ولي فيه الخلافة بعام الجماعة والحال كان ذلك العام، عام الفرقة والقهر والغلبة، العام الذي أصبحت الخلافة فيه وراثه على غرار حكومه كسرى وقيصر (٢). وقد دفعت حياه الترف والبذخ لمعاوية ونهجه في الخلافة لئن يخاطبه سعد بن أبي وقاص بالملك حين كان يرد عليه. (٣) وقد عد المؤرخون معاوية أول ملك. (٤)

٢ - مسخ وتحريف الحقائق والمعارف الإسلامية

مثل:

١ - سب أمير المؤمنين على عليه السلام ووضع الأحاديث في ذمه ومدح معاوية. وروى أن قوماً من بنى أمية قالوا لمعاوية: إنك قد بلغت ما أملت، فلو كفت عن لعن هذا الرجل فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذكراً فضلاً. (٥) ولما سئل مروان عن ذلك أجاب: لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك. (٦) وذكر ابن أبي الحديد أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على روايه أخبار قبيحه في على عليه السلام تقتضى الطعن فيه والبراءه منه؛ وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلفوا ما أراضاه، منهم أبوهريره وعمرو و بن العاص والمغيره بن شعبه ومن التابعين عروه بن الزبير (٧).

٢ - إشاعه مذهب الجبر بين المسلمين، فقد صرح معاوية أن لافائده من السعى والعمل فكافه الأمور بيد الله (٨)، ولا يقصد معاوية من هذا الكلام المسائل العقائديه، بل يهدف إلى فرض خلافته على الناس، حيث قال: «هذه الخلافة أمرٌ من أمر الله وقضاءٌ من قضاء الله» (٩)؛ الأمر الذي جعل زياد بن أبيه والى معاوية على البصره والكوفه يخاطب الناس بأنه

ص: ١٥١

١-١) العقد الفريد ٤/٨١ - ٨٢.

٢-٢) رساله الجاحظ في بنى أمية ١٢٤/ تم نقله من التاريخ السياسى للإسلام ٢/٣٩٦.

٣-٣) مختصر تاريخ دمشق ٨/٢١٠ وتاريخ يعقوبى ٢/٢١٧.

٤-٤) تاريخ الخلفاء ٢٢٢/ [١].

٥-٥) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٤/٥٧. [٢].

٦-٦) أنساب الاشراف ١/١٨٤ نقلاً عن التأريخ السياسى للإسلام ٢/٤٠٩.

٧-٧) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٤/٦٣. [٣].

٨-٨) حياه الصحابه ٣/٥٢٩ نقلاً عن التأريخ السياسى للإسلام ٢/٤١٠.

٩-٩) مختصر تاريخ دمشق ٩/٨٥.

يدافع عنهم من خلال السلطنة التي منحهم الله إياها. (١)

٣ - قتل كبار الشخصيات الإسلامية وأئمة الدين كالإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وزيد بن علي بن الحسين عليه السلام وحجر بن عدي.

٤ - قصف الكعبة والمسجد الحرام بالمنجنيق على عهد يزيد.

٥ - سلب الأمة أمنها واستقرارها. فقد شاع على عهد زياد بن أبيه الد عبد الله في العراق المثل المعروف: «أنح سعد فقد هلك سعيد» الذي يرمز إلى سفك دماء الأبرياء بدون حق. (٢)

٦ - تعذيب أبناء الأمة الإسلامية وممارسه ألوان الاهانة من قبيل كوى وجه وعتق بعض الشيعة، وهذا ما فعله الحجاج بن يوسف بأئس بن مالك وسهل بن سعد وجابر بن عبد الله الانصارى لحبهم لعلى عليه السلام. (٣) وخلاصه القول فإن جنایات ومفاسد بنى أمية أكثر من أن تحصى، وما مر معنا غيض من فيض جرائم بنى أمية، ولانرانا نبالغ إذا قلنا أنها تتطلب عدّه كتب ومجلدات. والعجيب أن بعض المغفلين والجهال يرون هذه الحكومه من قبيل الحكومات الإسلامية؛ الأمر الذى يكشف عن ضحاله أفكارهم وعدم إطلاعهم على السلوكيه المنحرفه لبنى أمية.

ص: ١٥٢

١-١) تاريخ الطبرى ٥/٢٢٠ نقلا عن التأريخ السياسى للإسلام ٢/٤١٠.

٢-٢) نقلا عن: الحسين النفس المطمئنه، ص ١٠.

٣-٣) المصدر السابق.

ومن دعاء له عليه السلام

من كلمات كان عليه السلام يدعو بها

نظره إلى الخطبه

يشتمل كلامه عليه السلام على أربعة أدعيه عظيمه، تفيد بعض القرائن أنّ الإمام عليه السلام كان يتلوا كراراً هذه الأدعيه ويتضرع بها إلى الله سبحانه وتعالى. طبعاً صحيح أن الإمام عليه السلام معصوم ولا يصدر عنه أى ذنب أو معصيه علانيه أو خفيه، فى الباطن أو الظاهر باللسان أو بالعين، إلّا أنّ مقامه لدى الحق سبحانه يجعله يخشى الغفله عن أدنى مصداق لترك الاولى، فيسأل الله الرحمه على الدوام. أضف إلى ذلك فإنّ كلماته تعليميه لعموم الأُمّه لتتعرف على كيفيه الاسلوب الذى تناجى به خالقها، كما تفيض عليها بعض المعارف والعلوم والمضامين الإسلاميه.

ص: ١٥٣

١- ١) سند الخطبه: السند الوحيد لهذا الدعاء ما أورده قبل السيد الرضى (ره) الجاحظ فى كتاب المائه المختاره، والذى يرتبط بالعبارات التى اختتم بها الدعاء: «اللهم اغفرلى رمزات الألاحظ. . .» .

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَائْتُ مِنْ نَفْسِي وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاطِ وَسَيَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ» .

الشرح والتفسير

من الأدعية التربوية للإمام علي عليه السلام

أوردنا سابقاً أنّ الإمام علي عليه السلام يسأل الله سبحانه العفو والمغفرة من أربعة أشياء والتي يشكل كل واحد منها في الواقع مشكلاً من المشالك الأخلاقية المهمة والعقبات المعنوية التي تعترض سبيل الإنسان ومما لا شك فيه أنّ الإنسان إذا تغلب على هذه العقبات فإنه سيبلغ شاطئ الأمان وينال الفلاح والسعادة. فقد استهل دعائه عليه السلام بالقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ» فرصيد الإنسان هو النسيان فيقارن الكثير من الذنوب والمعاصي إلى درجة نسيانها وعدم الاعتذار إلى الله منها وطلب العفو والمغفرة، أو الإصرار عليها وعدم الكف عنها دون الالتفات إليها حتى تثقل كاهله. وهنا ينبغي التضرع إلى الله سبحانه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ» كما ينبغي استحضار الذنوب والمعاصي وسؤال الله العفو والصفح. ومما لا شك فيه أنّ هذا النسيان آفة سعادته الإنسان، بحيث يؤدي إلى بعض المشاكل التي يتعذر على الإنسان حلها، ومن هنا يتوجب على الإنسان الاستعاذه بالله من هذا النسيان، وسؤال الله العافية من الذنوب المنسية، وقد أبلغ القرآن في التعبير عن مثل هذه الذنوب فقال: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً

ص: ١٥٥

فَيَبْتَنُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (١). أما بعض شراح نهج البلاغه فقد ذهبوا إلى أن المراد بالعباره الذنوب التي يجهل الإنسان كونها ذنوباً، أو إذا علم بها فان علمه باهت لا يكثر له بهذا الشأن. ويرد على أصحاب هذا التفسير أن الذنوب التي يقارفها الإنسان جهلاً مغفوره فلا حازه لسؤال الله المغفره عليها، إلا أنهم أجابوا عن ذلك بقولهم إن كان هذا الجهل نابغاً من القصو وكان الجاهل قاصر فالأمر كذلك، أما إذا كان ذلك الجهل يستند إلى التقصير وكان الجاهل مقصراً ولم يجد نفسه في الالمام بالعلم فإن العقاب واللوم والتوبيخ يطال مثل هذا الجاهل، ومن هنا عليه أن يسأل الله الفعو والصفح عن ذنوبه أو أن يكون المراد الذنوب التي ينسى الإنسان كونها ذنوباً أو يخطئ في تشخيصها بحيث يجب عليه طلب المغفره إن كان ذلك النسيان هذا الخطأ وليد التقصير؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» (٢) والواقع هو أن التفسير الذي أوردناه في البدايه يعود إلى نسيان. موضوع الذنب، بينما يعود التفسير الثاني إلى حكمه. إلا أن التفسير الأول أنسب من التفسير الثاني، وإن قال جمع من الشراح بالتفسير الثاني. وأخيراً يبقى احتمال الجمع قائماً وقد سأل الإمام عليه السلام الله العفو عنها جميعاً. أما الدعاء الثاني فقد تضمن الاشاره إلى موضوع مهم آخر والذي يكمن في عدم وفاء الإنسان بالعهود والمواثيق التي يقطعها على نفسه أو مع ربه فقال عليه السلام: «اللهم اغفر لي ما وأيت من نفسي، ولم تجد له وفاءً عندي» (٣) قد تتكون العباره «ما وأيت من نفسي» اشاره إلى العهود والمواثيق التي يتمثل طرفيها بنفس الإنسان، كأن يعاهد نفسه، ومما لاشك فيه أن الالتزام بهذه العهود والعمل بمضامينها يكشف عن شخصيه الإنسان عزمه على ممارسه الانشطه والفعاليات، بينما يفيد

ص: ١٥٦

١-١) سورة المجادله / ٦. [١]

٢-٢) سورة البقره / ٢٨٧. [٢]

٣-٣) «وأيت» من ماده و «أى» على وزن رأى بمعنى العزم على الشى مع قصد الوفاء به، وبعباره أخرى الموعد التي يقطعها الإنسان على نفسه، وقد يعنى الوأى والوعد بشأن الذات والآخرين.

نقضها ضعف إرادته فيتوجب عليه الاستعاذه بالله منه. أو يمكن أن يكون طرفها الأول الإنسان والطرف الآخر الله سبحانه تعالى بحيث يكون هذا المعنى مقدرًا في العبارة السابقة (١)، وعلى وهذا الضوء فهي إشارة إلى جميع العهود والمواثيق الشرعية التي يعاهد الإنسان فيها الله سبحانه ولا يلتزم بها. وذلك لأن الكثير من الأفراد يعاهدون الله في الشدائد والنوائب فإذا ما كشفت عنهم نسوا تلك العهود؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم قائلًا: «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخُلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» (٢). أما في الدعاء الثالث فالإمام عليه السلام يستعيد بالله من الرياء والنفاق ويسأل الله العفو والمغفرة فيقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي» فالتظاهر بالأعمال الحسنة - من خلال اللسان أو الرياء في العبادات وسائر الطاعات - يعد من أخطر شعب الشرك، الأمر الذي أكد التحذير منه في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، غير أن الذي يؤسف له هو أن الرياء والنفاق من الأعمال الشائعه التي تكبد الإنسان أضرارًا تفوق التصور، حيث يفيد هذا الأمر أن مثل هذا الإنسان لا يؤمن في الواقع بتوحيد الله على مستوى الأفعال، ولا غرو فهو يرى العزه والذله بيد الناس ويؤثر ولايه الناس ومحبتهم على ولايه الله ومحبهه. بينما إذا علم هذا الإنسان بأن العزه والذله بيد الله، يعز من يشاء ويذل من يشاء وأن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء، فإنه لا يسأل سوى الله ولا يعمل إلا لله سبحانه. ولا يقتصر التناقض بين القول والنيه بالنسبه للرياء، بل إن كل تناقض إنما يشمل الظاهر والباطن، فكل ما ينطق به الإنسان ولا يلتزم به حين العمل، أو أن يعزم على خلافه إنما يشير إلى تناقض الظاهر مع الباطن، وإن لم يكن قد قصد الرياء. فقد صرح القرآن الكريم بهذا الخصوص قائلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» (٣) أننا لئناجي الحق سبحانه وتعالى في صلواتنا اليوميه «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» والحال قد تعيش قلوبنا عباه أخرى وإستعاذه ثانيه، كما نتشهد في صلواتنا بالوحدانيه لله «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»

ص: ١٥٧

١-١) وتقدير العبارة: «وأيت من نفسى مع ربى» .

٢-٢) سورة التوبه / ٧٥ - ٧٦. [١]

٣-٣) سورة الصف / ٢ - ٣. [٢]

بينما نعيش الشرك في إيماننا ومن ذلك الشيطان المتمثل بهوى النفس الذى يلقي بظلاله على جميع زوايا الحياه البشريه، والدعاء الوارد في الخطبه من الدروس القيمه التى تحذر من هذا الخطر العظيم. وأخيراً يستغفر الله سبحانه من أربعة أشياء ويستعيذ بالله منها «اللهم اغفر لى رمزات (١) الألفاظ، (٢) وسقطات (٣) الألفاظ، وشهوات الجنان، وهفوات (٤) اللسان» فالعباره إشاره إلى ذنوب العين والقلب واللسان التى قد تكون من أخطر الذنوب والمعاصى. فنظرات الازدراء للمؤمنين والإشارات المشوبه بالغرور والاستخفاف، وارسال الكلام على عواهنه دون إجماله الفكر والذى قد يقود إلى الاضغان والاحقاد وإثاره الخلافات والتوترات وارقاه ماء وجه الآخرين إلى جانب النزوع نحو الشهوات والرغبات التى تقذف بالإنسان فى أوديه الخطيئه والاثم ومقارفه بعض المعاصى التى تفرزها حاله العبيثه فى الحديث والتى تؤدى إلى عدّه مفسد، كل هذه الأمور من أعدى أعداء سعادة الإنسان وفلاحه، والإمام عليه السلام حين يسأل الله العفو عن هذه الأمور إنّما يهدف التحذير العملى من مغبه هذه الأمور الأربعة وعدم الاستخفاف بمدى خطوره ذنوبها. وأما الفارق بين رمزات الالفاظ وشهوات الجنان فهو واضح، غير أنّ هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه بشأن الفارق بين «سقطات الالفاظ» و«هنوات اللسان». فقد ذهب المرحوم مغنيه إلى أنّ المراد واحد، بينما ذهب المرحوم الشارح الخوئى إلى أنّ المراد بسقطات الالفاظ هو الالفاظ التى لا تترتب عليها فائده فى الآخره سواء كانت محرمة أم لم تكن كذلك، أمّا هفوات اللسان فهى الكلام الحرام من قبيل الغيبه والنميمه والبهتان والاستهزاء والسب والشتم والتهمه. ولكن إستناداً إلى أنّ سقطات جمع سقط بمعنى الشئ التافه الذى لا قيمه له، يبدو أن العباره «سقطات الالفاظ» إشاره إلى الكلام العبثى واللغو والركيك أحياناً الذى يصدر من الأفراد اللابالين الجاهل؛ أمّا هفوات اللسان وبالاستناد إلى مفهوم الهفوه الذى يعنى الزله، فان العباره تشير إلى ما يجرى

ص: ١٥٨

- ١- ١) «رمزات» جمع «رمزه» على وزن غمزه الإشاره بالعين والحجاب وأحياناً بالشفه، وقال البعض الرمز فى الأصل بمعنى حركه الشفاه لبيان مطلب دون أن يتخلله الصوت، كما تأتى بمعنى الإشاره بالعين والحجاب.
- ٢- ٢) «الالفاظ» جمع «لحظ» على وزن محض بمعنى النظر بطرف العين الذى يكون أحياناً بقصد الازدراء والتحقيق، كما يراد به الاستهزاء والسخرية أيضاً.
- ٣- ٣) «سقطات» جمع «سقط» على وزن فقط كل وضع لا قيمه له من متاع أو كلام أو فعل وقيل سقطات جمع سقطه بمعنى الزله وسقطات الالفاظ لغوها.
- ٤- ٤) «هفوات» جمع «هفوه» على وزن دفعه بمعنى الزله فى الكلام أو العمل، كما وردت هذه المفرده بمعنى السرعة، ولما كانت السرعة تقود إلى الزله فالمعنيان يعدان إلى ماده واحده.

على لسان الإنسان من كلمات دون التأمل والتفكير، ولعلها تختزن بعض الذنوب الخطيره كالغيبه والتهمه والاستهزاء بالمؤمن (١).

فصل فى الدعاء ودوره فى حياه الإنسان

يلعب الدعاء دورا هاما فى تربيته النفس البشريه وسوقها نحو مدارج السمو والرفعه والكمال، وهى الحقائق التى قد يغفلها أغلب الداعين. والدعاء كمطر الربيع الذى يسقى بغيته أرض القلوب فتفتح أوراق الإيمان والاخلاص والعشق والعبودية والدعاء هو النسيم القدسى الذى يطبع الروح بمعانى الطهر والعفه إلى جانب القوه والقدرة التى تهب العظام الرميم الحياه كدعاء السيد المسيح عليه السلام، ناهيك عما تشتمل عليه بعض الأدعيه من فضائل أخلاقيه ومعارف ربانيه تسبغ بها النفس فتمنحها الهدوء والسكينه فالنفس حيه بالدعاء نابضه بالورع والتقوى ومن هنا فإن الدعاء هو الأكسير العظمى وكيمياء السعاده وماء الحياه وروح العباده، حتى ورد فى الحديث أن «الدعاء مخ العباده» (٢) والجدير بالذكر أن القرآن يرى قيمه الإنسان تكمن فى دعائه وتضرعه إلى الله: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» (٣). وكيف لا يكون الدعاء بهذه الأهميه وهو يدعو الإنسان إلى معرفه الله وعشق والمعبود بغيه نيل رحمته والظفر بعفوه ومغفرته من خلال التوسل باسمائه الحسنى، من جانب آخر فإنه يحث الداعى على التحلى بشرائط الاستجابه وفى مقدمتها التوبه من الذنوب والمعاصى والتعفف عن مقارفتها. أضف إلى ذلك فإن الدعاء يدفع بصاحبه إلى إزالة موانع الاستجابه ويتمثل أبسطها فى المواظبه على الحلال فى المأكول والملبس وإجتنب المال الحرام والسعى لأداء حقوق الآخرين وترك الذنوب والمعاصى من قبيل الغيبه والنميه وشرب الخمر وقطيعه الرحم التى تعدّ من موانع إستجابته الدعاء. ولذلك يمكن القول إن ما يترتب على ذات الدعاء بالنسبه للإنسان يفوق بكثير ما يعود عليه من إستجابته. وناهيك عن كل ما سبق فإن

ص: ١٥٩

١ - ١) العبارة سقطات الألفاظ من قبيل إضافة الصفه إلى الموصوف، تعنى الألفاظ الساقطه، أما العبارة «هفوات اللسان» ليست كذلك.

٢ - ٢) بحار الأنوار ٩٠/٣٠٠ [١]

٣ - ٣) سورة الفرقان / ٧٧ [٢]

المضامين العميقة التي تضمنتها أدعيه أئمه الدين تعدّ دروساً قيّمة والمتاع العظيم الذي يتزود به السالكين إلى الله سبحانه على سبيل المثال إذا ألقينا نظره إلى دعاء يوم الأحد من أدعيه أيام الاسبوع تطالعنا العبارة «و اجعل غدى وما بعده أفضل من ساعتى ويومى» التي ترشدنا إلى أهميه العمر وضروره إغتنام كل لحظاته بحيث تكون اللحظه الحاضره أفضل من الماضيه والقادمه أعظم من الحاضره وهكذا، وبخلافه فمن العبث أن يرى الإنسان لعمره معنى دون أن يستثمر أوقاته. أو تطالعنا هذه العبارة فى دعاء كميل «اللهم اغفرلى الذنوب التى تحبس الدعاء» فنقف على حجاب النفس الذى يحول دون إستجابته الدعاء؛ الأمر الذى يجعلنا نفتش عن مواضع الضعف فى ذاتنا. كما نرى أنفسنا مطالبين باستئناف نهارنا على أساس نور الهدايه ونختتمه بالغلبه على العدو؛ الأمر الذى ورد فى دعاء عرفه «واجعل غناى فى نفسى» أن غنى النفس ليس بالشئ الذى يتحقق فى الخارج بواسطه جمع الثروات الطائله وسكن القصور الفخمه ونيل المناصب الرفيعه، بل لابدّ من البحث عن الغنى فى الذات التى ألا تشيع وتعيش الغنى من ذاتها فأنها تبقى عطشى وان صبت عليها الدنيا بما فيها، فلا تكون سوى كالمصاب بمرض الاستسقاء فيطلب الماء دائماً بينما تستقر روح الإنسان ويكفيها أدنى ما فى هذه الدنيا إذا تنورت بالمعارف الإلهيه. كما نقرأ فى دعاء الندبه: «واجعل صلاتنا به مقبوله وذنوبنا به مغفوره ودعائنا به مستجاباً واجعل ارزقنا به مبسوطه وهمومنا به مكفيه وحوائجنا به مقضيه» فنفهم أن كافه الابواب مغلقة بوجوهنا دون إدراك حقيقه الولايه، فقبول صلاتنا وغفران ذنوبنا واجابه دعائنا وسعه رزقنا وتفريج همنا مرهون بالولايه، يالها من حقيقه عظيمه؟!

وإذا عدنا قليلاً إلى الدعاء الذى نحن بصدده نرى أنّ علياً عليه السلام قد قدم شرحاً وافياً واضحاً للدروس الأخلاقيه والفضائل الانسانيه من خلال هذه العبارات الأربع العميقه المعنى إلى جانب التحذير من الرذائل الأخلاقيه التى تقود الإنسان إلى السقوط. نعم فادعيه المعصومين عليه السلام على الدوام دروس فى التريبه والتهذيب وزاد ومتاع السالكين إلى الله.

ومن كلام له عليه السلام

قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام:

نظره إلى الخطبه

يتضح مما مر معنا أنّ ما ورد في هذه الخطبه ينفي على نحو الاجمال صحه تكهنات المنجمين ويراهنا تتناقض وتوحيد الله، أو بعبارة أخرى فإنّ مزاعم المنجمين في تنجيمهم هي من قبيل المسائل الخرافيه المضاده القرآن وعلى الامه الحذر من التعامل مع هذه الأفكار وأنّ أساس النصر والغلبه يكمن في التوكل على الله وتشتمل الخطبه على قسمين، يخاطب الإمام في القسم الأول المنجمين وفي الثاني الناس.

ص: ١٦١

١-١) سند الخطبه: نقل ذلك قبل الرضى جماعه منهم: إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدث في كتاب صفين والشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا نقله بثلاثه أسانيد، ونقله أيضاً في الامالى في المجلس الرابع والستين، ونقله أيضاً في عيون الجواهر. وأضاف صاحب مصادر نهج البلاغه [١] بعد أن نقل هذا الكلام قائلاً: ولسنا بحاجه إلى ذكر من رواه بعد السيد الرضى فإنه كلام مشتهر دونته الخاصه والعامه بطرق مختلفه وصور شتى لا تختلف عما رواه الرضى إلما في بعض الالفاظ (مصادر نهج البلاغه [٢]. (٢/٨٢)

«أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مِنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مِنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضَّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، وَاسْتَتَعَنَى عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ؛ وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُؤَلِّكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ - بَرَعْمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ وَأَمِنَ الضَّرَّ!»

الشرح والتفسير

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام ردّ بهذا الكلام على من قال له حين عزم على المسير إلى الخوارج: خشيت أن لا تطفر بمرادك من طريق على النجوم إذا خرجت في هذه الساعة. فرفض الإمام عليه السلام ذلك رفضاً قاطعاً، ثم تطرق إلى العواقب الفكرية الوخيمة التي تترتب على مثل هذا التفكير والاعتقاد بالتأثير الذي تلعبه النجوم على مصير الإنسان، فيحذر ذلك المنجم إلى جانب الناس من مغبه هذا الأمر. فقد إستهل كلامه عليه السلام بالقول: «أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء؟ وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق (1) به الضر؟» من الواضح أنّ هذا الاستفهام إستنكارى؛ أي لن يحصل قط مثل هذه المعارف عن طريق علم النجوم. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نتيجتين تترتان على هذا الاعتقاد

ص: ١٤٣

١ - ١) «حاق» من ماده «حقيق» على وزن حيف بمعنى احاط ونزل وعمم، ويستفاد من هذا الاصطلاح في الاشاره الى تأثير ضربات السيف ونزول العذاب وذلك بسبب وجود نوع من الاحاطه والعموميه في نزول العذاب. و «حاق» في الاصل من ماده «حق» بمعنى التحقق وقد اشتقت من كلمه «حق» حيث بدلت القاف الاولى بواو وبعد ذلك بدلت بألف.

السيئ «فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن، واستغنى عن الاستعانه بالله في نيل المحبوب و دفع المكروه» ولا يقتصر الأمر على ذلك بل «و تتغى فى قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه، لأنك - بزعمك - أنت هديته إلى الساعه التى نال فيها النفع، وأمن الضّر!« هاتان النتيجةتان الخطيرتان المترتبان على زعم المنجم أمّيا فغرزهما طبيعه الفارق الكامن - حسب إعتقاد المنجمين الماضين - بين أحوال النجوم وأحكامها. وتوضيح ذلك أنّ علم النجوم كان سائداً بين أفراد البشر منذ قديم الزمان، ولعل أولئك الأفراد الذين عاشوا قبل التأريخ قد كان لهم علم ومعرفه بالنجوم، إلّا أنّ علم النجوم قد تطور تطوراً ملحوظاً كسائر العلوم الأخرى بعد إكتشاف الكتابه، فحصلت الاكتشافات وتمّ التعرف على الأنظمه الخاصه التى تحكم الكواكب السياره والمنظومه الشمسيه والمجرات والثوابت حتى ظهر التقويم الذى يستند إلى حركه النجوم والقمر والشمس. أمّيا إقتران بعض حركات النجوم ببعض الحوادث جعل طائفه من المنجمين تعتقد بالتدريج بأنّ هنالك تأثير لحركه النجوم فى مصير الإنسان، ثمّ إتسع نطاق هذا الاعتقاد حتى قيل بأنّ لكل إنسان كوكب فى السماء وأنّ مصيره يعتمد إلى حد بعيد على حركات هذا الكوكب، حتى ظهر علم جديد يصطلح عليه بأحكام النجوم إلى جانب أحوال النجوم. وأحوال النجوم قائمه على أساس المشاهدات والمحاسبات المتعلقة بحركه الكواكب وشروقها وأفولها؛ أمّيا أحكام النجوم فيراد بها العقائد التى تنسب حوادث الأرض ومصير من يعيش عليها إلى النجوم. ولم تمض مده وانطلاقاً من هذا الاعتقاد إلى عباده النجوم والاستعانه بها من أجل حل المشاكل، وقد ظلت مثل هذه الافكار والعقائد سائده فى أذهان البعض حتى إبان ظهور الدعوه الإسلاميه وشروق شمس التوحيد التى أضاءت ظلمات الشرك، فكان بعض المنجمين يخبرون عن بعض الأحداث الآتية من خلال إستعانتهم بحركات النجوم، ونموذج ذلك ما قاله هذا المنجم لأميرالمؤمنين عليه السلام استناداً لحركه النجوم فى أنّه لا يظفر بمراده إذا تحرك فى تلك الساعه لقتال الخوارج فى النهروان، ففند الإمام عليه السلام ما قاله المنجم ثم خالفه عملياً بأن سار فى تلك الساعه إلى قتال الخوارج فهزمهم هزيمة منكره وانتصر عليهم ذلك النصر الحاسم. نكتفى بهذا المقدار على أن نعرض له بتفصيل أكثر آخر الخطبه فى بحث التأمّلات.

إشاره

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلَّمِ النُّجُومَ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكُهَانَةِ، وَالْمُنَجِّمِ كَالْكَاهِنِ وَالْكَاهِنِ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرِ كَالْكَافِرِ، وَالْكَافِرِ فِي النَّارِ، سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ» .

الشرح والتفسير

يحذر الإمام عليه السلام أفراد الأُمَّه من تعلم النجوم، والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام يفرق أحوال النجوم عن أحكامها، إلى جانب بيان ما تقود إليه من مساوئ «أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلَّمِ النُّجُومَ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ» فعلم النجوم والتعرف عليه والاستفادة من أوضاع النجوم في السماء بغية الاهتداء في البحار والصحارى وسائر الأمور المشابهة القائم على أساس وضع الكواكب ليست ممنوعه فحسب، بل هي جزء من العلوم الضرورية، وذلك لصلتها الوثيقه بنظام المجتمع البشرى. القرآن من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته نعمه إلهيه وآيه من آيات التوحيد فقال: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (١). كما قال في موضع آخر: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (٢) فمثل هذه التعبيرات تفيد حث القرآن للإنسان على الانفتاح على هذا النوع من علم النجوم، أمّا المحذور فما عرف بأحكام النجوم؛ أى كشف بعض الأشياء من أوضاع الكواكب وكيفيه إرتباطها مع بعضها (قربها وبعدها من بعضها البعض الآخر) والأخبار عن بعض الأحداث بالنسبه

ص: ١٦٥

[١-١] سورة النحل / ١٦. [١]

[٢-٢] سورة الانعام / ٩٧. [٢]

للأفراد والمجتمعات البشريه، وبالطبع فان بعضها كلى يتوصل إليه دون النظر إلى أوضاع الكواكب، أو جزئى يبين من خلال الحدس والظن، وغالباً ما يثبت خلافها كما وقفنا على ذلك فى هذه الخطبه. ومن هنا إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «فانها تدعو إلى والكافر فى النار، سيروا على اسم الله». والمراد بالكهانه الأخبار عن الأمور الخفيه وكشف الحوادث المستقبلية وزعم العلم بالأسرار ويقال لمن يزعم هذه الأمور «الكاهن». وقد كان هناك الأفراد الذين يزعمون هذه الأمور فى العصر الجاهلى كشق وسطيح، وكان متعارف بين الكهنه أن يؤدوا كلماتهم الباطله بنوع من السجع والقافيه والألفاظ الطنانه الرنانه لتفعل فعلها فى قلوب الناس، ومن هنا نعت المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله بالكاهن وذلك لا خباره عن الأمور بواسطه الوحي، إضافه إلى أنه كان يتلوا عليهم الآيات القرآنيه التى تمثل ذروه الفصاحه والبلاغه فيتعللون بهذه الترهات إستكباراً عن قبول الحقيقه. وبناءً على ما تقدم فإن علم النجوم (يعنى علم أحكام النجوم) يختزن الكهانه، وعمل الكاهن يشبه إلى حد بعيد عمل الساحر، لأنّ الاثنين يعتمدان الحيله والخدعه لاستغلال السذج من الناس، والساحر كالكافر، لأنه لايعرف للتوكل على الله من معنى بينما يستند إلى أمور أخرى ولا يرى لله من تأثير عملى على مصيره، ويعلق هذا التأثير على أمور أخرى يتطلبها السحر، ومن هنا فان مصير هؤلاء المنحرفين هو النار وبئس المصير.

تأملات

١ - ما هو علم النجوم؟ وما المحذور منه؟

السؤال الأول الذى يطرح نفسه هنا: ما المراد بعلم النجوم الذى عرض أميرالمؤمنين على عليه السلام بدمه بشده فى هذه الخطبه حتى عدّه بمصاف الكفر؟ قطعاً ليس المراد العلم بأحوال النجوم وحركاتها وابتعادها وإقترابها من بعضها؛ لأنه وكما أشرنا سابقاً فان حركات النجوم وأوضاعها فى السموات من الآيات الإلهيه، وقد دعى الناس للاهتداء بها فى ظلمات البحار والصحارى، كما أشير إلى ذلك فى ذيل هذه الخطبه أيضاً. فالوقوف على أسرار عالم الخلقه والتفكر فى خلق السموات والأرض لايستحق الذم فحسب، بل يعد من الأمور التى دعى

أولى الألباب إلى تأملها «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولَى الْأَبَابِ» (١). وعليه فما شدد على ذمه شئ آخر هو العلم بأحكام النجوم، ويراد بها العقائد التي تنسب حياة الإنسان ومصيره في الكره الأرضيه إلى أوضاع النجوم وأحوالها، والإخبار عن بعض الحوادث استنادا إلى حركة الأفلاك، ولا يقتصر هذا الإخبار على المسائل العامه والاجتماعيه، بل يتجاوزها إلى الأمور الشخصيه والجزئيه؛ ومن هنا نرى إستعانه الملوک والسلاطين بالمنجمين الذين يسعون لقراءه أوضاع الكواكب على ضوء رغبات أولئك الملوک، فاذا ما نظروا إلى الكواكب أخبروا بأنها تشير إلى سلامه صاحب السعاده والسمو وتنامي قوته وشوكته، فاذا ما فرغوا من الأخبار الكليه عمدوا إلى بعض الجزئيات التي يمكن إطلاقها حتى من قبل عوام الناس دون تأمل أوضاع الكواكب من قبيل فقدان بعض الشخصيات وبروز الاختلاف في بعض أصقاع العالم وغلاء أسعار بعض الأشياء وإصابه بعض الزرع بالافات وبروده الجو في الشتاء وحرارته في الصيف وما إلى ذلك. وهذه هي التكهانات والأخبارات التي قد تصيب وقد تخطئ وقد ورد ال لزم عليها في الروايات الإسلاميه ولا سيما في هذه الخطبه.

٢ - الكهان والكفر

السؤال الآخر الذى يرد بهذا الشأن وهو فساد الاعتقاد بوجود الإرتباط بين حياتنا والنجوم، بل ليس هنالك من منطق يقر بذلك؛ ولكن ما سبب كل هذا التشدد فى ال لدم وجعل هذه المسأله فى مصاف الكفر؟ ولا تصنح الاجابه على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى هذه النقطه وهى أن أصحاب نظريه الإرتباط (بين الحوادث وحركه الافلاك والنجوم) على عدّه أقسام:

١ - من يعتقد بأزليه وألوهيه الكواكب وأنها ذات تأثير على عالم الوجود وحياه الإنسان والحوادث التى تقع فى الأرض.

ص: ١٦٧

٢ - من يعتقد بتدبير الكواكب وإدارتها لعالم الوجود، وان سلبها الاستقلال وأسند فعلها إلى إذن الله.

٣ - من يعتقد بأن لها تأثير طبيعي على الأرض، وكما أنّ حراره الشمس تؤدي إلى نمو الأشجار وحملها للثمار والفاكهه، فإنّ لوضع الكواكب تأثير في شؤون حياه الإنسان وقد إنكشف لنا بعضه بينما ظل البعض الآخر خافياً علينا.

٤ - من لا يعتقد بتأثيرها في شؤون حياه الإنسان، إلّا أنّها تستطيع أن تخبر عن الحوادث الحاضره والماضيّه وبعباره أخرى: فهي إمارات وعلامات على الحوادث لا- أنّها علل وأسباب. فمما لاشك فيه أنّ الطائفه الاولى في زمرة الكفار وإن اعتقدت بالله سبحانه، لأنّها مشرکه قد جعلت لها إلهاً آخر تعبده.

أمّا الطائفه الثانيه فهي خاطئه من جهتين وان لم تكن كافره: الاولى: أن زعمها لتأثير الكواكب على حياه الإنسان هو زعم فارغ يفتقر إلى المنطق والدليل والبرهان، الثانيه: أنّ هذا الكلام يخالف ظاهر الايات القرآنيه والروايات الإسلاميه القطعيه التي تنفي عن هذه الكواكب أى شعور وحياه وتدبير للخلق، بل تنسب تدبير الخلق والحياه والموت والرزق إلى الحكيم المتعال، ولا تتطرق إلى النجوم والكواكب والأجرام السماويه والشمس والقمر الا بصفتها آيات من آيات الحق، ولو كان لها حقا بعض العلم والحياه والقدرة والتدبير والتصرف في العالم لإشارت الروايات والآيات إلى هذا الأمر. نعم أنّها مسخرات بأمر الله ولكل وظيفته، فالشمس تشع بضياؤها، والقمر يضيئ في الليالي الظلماء . . .

وأمّا الطائفه الثالثه التي تعتقد بالتأثير الطبيعي لهذه الكواكب على أوضاع الأرض، فهو كلام لا يخالف الواقع، إلّا أنّ السؤال المطروح هو ما مدى هذا التأثير واين؟ والحق أنّ ذلك ليس واضحا لدينا. نعم نعلم أن لضوء الشمس تأثير على كل شيء، كما القمر أثره في ظاهره المد والجزر، وأنّ للنجوم تأثير، ولكن هل لهذه الكواكب تأثير في حوادث حياتنا أم لا؟ هل للانفجارات الشمسيه تأثير على الهيجان الفكرى للإنسان على وجه الكره الأرضيه، وهل لها من تأثير في نشوب الحروب والنزاعات أم لا؟ وهكذا سائر المسائل من هذا القبيل التي لانعرف كنهها وليس لدينا رؤيه واضحه عنها، وكل ما نقوله فيها إنّما هو قول بغير علم، وكلام

دون دليل، وعليه فإنّ مثل هذا الكلام لا يجوز شرعاً، إلّا أن تثبت هذه التأثيرات وما شابهها بالأدلة العلميّة والقطعيّة. بعبارة أخرى: لا ممانع من الأخبار عن التأثيرات الطبيعيّة للاوضاع الفلكيّة الثابته في الأرض وحياء الناس، وما لم يثبت يجوز التحدث عنه على مستوى الاحتمال، لا على سبيل الحكم القطعي، عل كل حال فإنّ الاعتقاد بمثل هذا التأثير ليس كفرةً ولا مخالفاً لاحكام الشرع، والروايات التي صرحت بالنهاى عن تعلم علم النجوم ليست ناظره لهذا الأمر البته، كما لم يكن المنجمون السابقون يعنون بهذا الأمر في أحكامهم. والذي يستفاد من كلمات المنجمين السابقين أنّهم كانوا يقولون بالطباع التي تشتمل عليها هذه الكواكب على أن لبعضها طبع حار وأخرى بارد وما شابه ذلك. ومما لا شك فيه ان القول بهذه الطباع للنجوم إنّما نشئ من بعض الاستحسانات والعقائد، فكانوا يصدرن على ضوءها بعض الأحكام ويصرحون بأنّ الكواكب الفلاني سيقترب هذا الشهر من الكوكب الفلاني ولما كانت طبيعتهما كذا وكذا فستشهد الأرض الحادته الفلانيه. وحيث يفتقر هذا الاعتقاد إلى الدليل والحكم القطعي لأنّه يقوم على أساساً الحدس والاستحسان فإنّ المنجمين المسلمين إنّما يذكرون هذه الأمور على سبيل الاحتمال ويصرحون قائلين: يحتمل ظهور مثل هذه الحوادث.

وأخيراً الطائفة الرابعه التي ذهبت إلى أنّ أحوال الكواكب والنجوم علامات على الحوادث التي تقع في المستقبل، أو تقول جرت السنه الإلهيه على وقوع الحادته الفلانيه في الكره الأرضيه إذا حدثت بعض التغييرات في الأفلاك والكواكب، دون أن تعتقد بالالوهيه والربوبيه لهذه الكواكب، وعليه فعقيده لاتوجب الكفر، إلّا أنّ فعلهم حرام، لأنّ كلامهم يفتقر إلى الدليل وهو قول بغير علم ولا يستند سوى إلى الظن والوهم والخيال، وذلك لأننا نعلم أنّ الشرع يحرم كل قول يصدر من الإنسان دون أن يستند إلى علم ويقين ووجه شرعيه «ولا- تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (١) كما صرح القرآن قائلًا: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (٢) وقال بشأن الكفار «وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» (٣). ومن جانب آخر فاننا نعلم أنّ الغيب لله ووحده العالم بحركه الإنسان وما يواجهه

ص: ١٦٩

١-١) سورة الاسراء / ٣٦. [١]

٢-٢) سورة يونس / ٦٨. [٢]

٣-٣) سورة النجم / ٢٨. [٣]

من أحداث وكيف تكون عاقبته ومتى يفارق الدنيا وفي أى أرض يموت. وبالطبع فأنّ لأولياء الله نصيب من العلم ولاسيما بهذه الأمور من خلال تعليم الله لهم، ولكن ليس لديهم مثل هذا العلم ببعض الحوادث من قبيل قيام القيامة أو ظهور المصلح العالمى، وليس لأى أحد من غير المعصومين عليه السلام إدعاء علم الغيب سواء استند هذا الادعاء إلى علم النجوم أو الارتباط بعالم الأرواح أو إخبار الجن وما شاكل ذلك.

ويتضح مما مر معنا لم إعتبر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه علم النجوم على أنه مصدر الكهان، وأنّ المنجم بمنزله الكاهن والكاهن كالمساحر والساحر كالكافر، كما اتضحت كيفيه كون تصديق المنجمين نعى تكذيب القرآن، وكيف أن الاعتماد على أقوال هؤلاء تجعل الإنسان غنياً عن التوكل على الله والاستعانه بذاته المقدسه. والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أورد الكلام بشأن عدّه طوائف من المنجمين التى تعتقد بالتأثير المستقل للنجوم أو تربط الحوادث بأوضاع النجوم وأحوالها وما إلى ذلك من عقائد موهومه. والإسلام من جانبه لا يرى من إعتبار لمثل هذا النوع من علم النجوم الذى لا يستند سوى إلى الوهم والظن، فرفضه وصرح ببطلانه، بينما حث المسلمين ودعاهم إلى تعلم علوم النجوم الذى يهدف إلى الاطلاع والتعرف على أسرار النجوم وسبر أغوارها.

٣ - كيفيه ظهور التكهنات النجوميه

ليس هناك من وضوح فى الدافع الذى يقف وراء ظهور علم النجوم بمعناه الانحرافى لا العلمى؛ إلّا أنّه يمكن اعتبار بعض الأمور المؤثره فى هذا الأمر على نحو الاحتمال، من قبيل:

١ - تصادف إقتران بعض الحوادث على الأرض مع بعض الاوضاع الفلكيه.

٢ - الاستحسانات والخيالات التى استندت إليها التحليلات فى أغلب القضايا الاجتماعيه.

٣ - إصرار البشر - ولا سيما السلاطين وأصحاب السطوه - على الالمام بالحوادث المستقبلية وما يرتبط بها.

٤ - استغلال هذا الأمر لتبرير الاعتقاد بالجبر فيصرحون مثلاً بأنّ ما نواجهه من حوادث

إنما هي معلوله لأوضاع الأفلاك، فهذه الحوادث واقعه شئنا أم أبينا.

٥ - تبرير القضايا السياسية وتوظيفها في محاربه أفكار الخصوم على أنّ ذلك من مقتضيات أوضاع الأفلاك ولا يسع أحد الوقوف بوجهها. وهنا يبرز هذا السؤال: لقد وردت عدّة روايات صرحت بتجنب عقد الزواج والقمر في العقرب، أو ليس هذا دليلاً على الأثر الذي تلعبه أوضاع الأفلاك على حياة الإنسان؟ ولا تبدو الإجابة على هذا السؤال صعبة. فنحن لاننكر التأثير الطبيعي لأوضاع الأفلاك على حياة الناس، لأنّ كافة أجزاء العالم وحده واحده يؤثر كل منها على الآخر. وكل ما قلناه هو أنّ إثبات التأثير الطبيعي لأوضاع الافلاك على حياة الناس في كل حال ودون إستثناء إنّما يتطلب الدليل والبرهان، ولا يمكن للوهم والخيال أن يثبت شيئاً، وعليه فاذا ثبت شئ عن طريق المعصوم عليه السلام فلا مناص من قبوله بتلك الحدود. ونخلص من هذا إلى أنّ روايات «القمر في العقرب» لاتتناقض وما ورد في هذا البحث.

ص: ١٧١

ومن خطبه له عليه السلام

بعد فراغه من حرب الجمل، في ذم النساء ببيان نقصهن

نظره إلى الخطبه

وردت هذه الخطبه بعد الجمل وهزيمه جيش عائشه في الجمل، حيث عرض فيها بالذم للنساء؛ قطعاً النساء اللاتي أوججن نار موقعه الجمل ومن تبعهن واحتذى بأقوالهن، فالإمام عليه السلام يذم هؤلاء بفعل بعض النقائص التي تدعو إلى ارتكاب بعض الأعمال الطائشه ويحذر المؤمنين من التأثر بما يصدر عنهم من سوء.

ص: ١٧٣

١-١) سند الخطبه: أنّ هذا الكلام من جملة كتاب له عليه السلام كتبه بعد احتلال عمرو بن العاص لمصر وقتل محمد بن أبي بكر، استعرض فيه الأحداث من أيام رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليوم الذي حرر فيه ذلك الكتاب وأمر أن يقرأ على الناس، وأنه ليس من البعيد أنه عليه السلام قال هذا الكلام بالخصوص أكثر من مره، منها في ذلك الكتاب ومنها بعد حرب الجمل كما ذكر السيد الشريف في هذا الموضوع. وإنما قلت ذلك إعتماً على نص الشريف هنا وما ذكره السبط بن الجوزي في التذكرة حيث قال: ذكر علماء السير: أنّ علياً عليه السلام لما فرغ من حرب الجمل صعد المنبر بالبصره فخطب الناس وقال: إنّ النساء... بأذني تفاوت عما ذكر الرضى. ومن نقلها قبل السيد الرضى أبو طالب المكي في قوت القلوب والشيخ الكليني في الكافي المجلد الخامس وابراهيم بن هلال الثقفي في الغارات وابن قتيبه في الإمامه والسياسه والطبرى في المسترشد. (مصادر نهج البلاغه ٢/٨٦). [١]

«مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُطُوطِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نَقْصَانُ إِيْمَانِهِنَّ فَمَقْعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضَتِهِنَّ، وَأَمَّا نَقْصَانُ عَقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا نَقْصَانُ حُطُوطِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ. فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعَنَّ فِي الْمُنْكَرِ» .

الشرح والتفسير

مكانه المرأة في المجتمعات البشرية

إشاره

هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه ولا سيما المعاصرين منهم بشأن تفسير هذه الخطبه، ومن هنا نرى ضروره التمهيد قبل الخوض في تفاصيل هذه الخطبه. فقد حفل التاريخ بكثره الكلام والإفراط والتفريط بشأن موقعها وشخصيتها، فقد نزلوا مقامها أحياناً دون مقام الإنسان، بل ترددوا في إنسانيتها بينما ذهب إلى البعض الآخر إلى أنها الجنس الراقي الذي يفوق الواقع حتى إقترح سيادتها للجماعه البشريه، ويمكن اعتبار هذين الرأيين من قبيل الإفراط ورد فعله التفريط. أما اليوم فقد كثر الكلام أيضاً في المجتمعات الغريبه ومن يناغمها في إرساء تجربه الديمقراطيه بشأن المرأه. فالساسة يرون أنفسهم بحاجة إلى رأى النساء اللاتي يشاركن في الانتخابات ويدلين بأصواتهن، كما يحتاجها الرأسماليون لاستخدامها في المعامل والمصانع ولا سيما أنهم يتوقعون مطالبتهن بأجور أقل من الرجال إلى جانب تحليهن ببعض الصفات التي لا تتوفر في الرجال، وأخيراً هناك الجهاز الإعلامي الذي يعد الشريان الرئيسي للميدان السياسي والاقتصادي هو الآخر يرى نفسه بحاجة ماسه إلى المرأه. كل هذه الأمور

ص: ١٧٥

أدت إلى الدفاع المستميت عن حقوق المرأة والسعي الحثيث لرفع شخصيتها إلى أقصى ما يمكن على مستوى الكلام، أما على مستوى العمل فالقضية معكوسه تماماً. فما زالت المرأة تعيش اليوم شتى أنواع الحرمان؛ الأمر الذي كان له أثره على تفسير بعض النصوص الدينية الواردة بشأن المرأة وتأويلها بالشكل الذي يتناسب وطباع أغلب النساء ويشبع رغباتهن وتطلعاتهن وإن كانت فارغه تفوق الخيال. ولم تسلم هذه الخطبه وسائر شبيهاها من الخطب في نهج البلاغه من ذلك التقصير، بل هنالك من يتردد في سند هذه الخطبه، وآخر يتحرج في تفسيرها حذراً من المساس بمقام المرأة والاساءه لها، وإلى جانب هؤلاء فهناك من سلك سبيل التفريط بحق المرأة ليصورها على أنها مجموعه من العيوب والنقص. وهنا نقول لا ينبغي التكرار لأمرين: الأول: أن هذه الخطبه وردت بعد الجمل، ونعلم أن القطب الرئيسي فيها كان زوج النبي صلى الله عليه وآله عائشه التي وردت الميدان إثر التحريض العجيب الذي قام به طلحه والزبير وقد سالت فيها دماء غزيره ذهب البعض إلى أنها خلفت ما يربو على سبعة عشر ألف قتيل، طبعاً صحيح أن تلك المرأة أعربت عن ندمها بعد هزيمه عسكر الجمل، وأن أمير المؤمنين على عليه السلام واحتراماً لرسول الله صلى الله عليه وآله أمر بردها معززه مكرمه إلى المدينه، إلا أن الآثار السيئه لتلك المعركه ظلت باقيه في صفحات التاريخ الإسلامى والثانى إننا نرى أغلب الآيات القرآنيه التى عرضت بالذم للجنس البشرى فقد صرح القرآن قائلًا: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا» (١) وقال: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (٢) وقال: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ» (٣) «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أُن رَأَاهُ اسْتَغْنَى» (٤) وما شابه ذلك من الآيات. فمما لا شك فيه أن الإنسان فى طبيعته ليس «كفور مبين» ولا «ظلوم جهول» ولا «طاغى»، ويبدو أن هذه الأمور تتعلق بأولئك الأفراد الذين لم يترعرعوا فى ظل التريه الدينيه، فهم غارقون فى أهوائهم وذواتهم وليس لهم من مرشد أو دليل. ومن هنا نرى القرآن يكيل المدح والثناء للإنسان الذى يتحلى بالطاعه والورع والتقوى، بل أشار القرآن إلى

ص: ١٧٦

١-١) سورة المعارج / ١٩ - ٢١. [١]

٢-٢) سورة الاحزاب / ٧٢. [٢]

٣-٣) سورة الزخرف / ١٥. [٣]

٤-٤) سورة العلق / ٦ - ٧. [٤]

بنى آدم على أنهم أكرم من فى عالم الوجود «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا هُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» (١). وبصدق ما أوردناه سابقا على جنس المرأة، فهناك المتميزات من بين النساء بما يقل العثور على نظيرهن فى الرجال، وبالعكس هناك النساء المنحرفات اللائى يشكلن بؤره فساد المجتمعات البشرية. والان نخوض بعد هذه المقدمة فى شرح الخطبه، وستشير آخر الخطبه إلى بعض الأمور ذات الصله بهذا الخصوص. كما ذكر سابقاً فإن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه فى الجمل كتحدير لجميع المسلمين من مغبه التعرض لمثل هذه الحوادث فى المستقبل، فقال عليه السلام: «معاشر الناس إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول» ثم قدم عليه السلام الدليل على ما ذهب إليه فقال: «وأما نقصان إيمانهن ففعودهن عن الصلاه والصيام فى أيام حيضهن، وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان حظوظهن فمواريثهن على الأنصاف من موارىث الرجال» ومما لاشك فيه أن لكل نقص دليله ففعود النساء عن الصلاه والصوم حين العاده الشهرية لسببين أحدهما أن المرأة قد تعيش حاله شبه مرضيه زمان العاده فهى بحاجه إلى الراحة، والآخر أن وضعها لا يتناسب وحاله العباده والدعاء. وأما كون شهاده إمرأتين بشهاده رجل واحد فذلك لغلبه الجانب العاطفى عند النساء، وهى تتأثر وتنفعل بهذه العواطف، الأمر الذى قد يدفعها للشهاده لصالح أحد والاضرار بآخر. وأما كون ميراثهن نصف ميراث الرجال فأولاً: إنما يختص هذا الأمر بالبنات والزيجات، بينما الميراث واحد بالنسبه للآباء والأمهات وأولادهما، وهكذا الحال بالنسبه للاخوه والاخوات وأولادهما. بعبارة أخرى فإن المرأة كأم أو أخت تتقاضى سهماً مساوياً لسهم الرجل فى الميراث. وثانياً: تختص النفقه بالرجال، والمرأة ليست فقط لا- تتحمل نفقات الأولاد فحسب، بل يتوجب على الرجل تغطيه نفقاتها وإن حصلت على أموال طائله عن طريق الارث أو غيره. ونخلص من هذا إلى أن هذه الفوارق قد حسبت بمتهى الدقه فى الإسلام، مع ذلك هنالك

ص: ١٧٧

مسأله لاينبغى إنكارها وهى أنّ المرأه ليست مساويه للرجل فى كل الأمور، وأمّا أولئك الذين يرفعون شعار المساواه وأحياناً أفضليه المرأه على الرجل فأنما يتبنون ذلك قولاً- وينا قضونه عملاً. فهل هناك من رئيس جمهوريه - رفع شعار المساواه بين الجنسين - ووزع الحقائق الوزاريه بالتساوى على الرجال والنساء، أم هناك مدير وزع الوظائف الإداريه بهذا التساوى، بل يتعذر ذلك حتى فى البلدان الغربيه وتلك العلمانيه والوطنيه. أمّا الرؤيه الحق التي تستند إلى الواقع وتجانب الشعار والرياء فهى تلك التي تدعو إلى العدل فى التعامل مع الجنسين على أساس الاستعدادات والكفاءات التي أودعت كل منهما، ليتمكن كل طرف من توظيفها بالشكل الصحيح بما يخدم شخصه ومجمعه؛ الأمر الذى سنخوض فى تفاصيله فى مباحث التأمّلات لاحقاً.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجته فيقول: «فاتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر، ولا تطيعوهن فى المعروف حتى لا يطمعن فى المنكر» ومن الطبيعى أنّ عدم طاعتهم فى المعروف لا يعنى مخالفتهم إذا دعين إلى الأمور المعروفه كالصوم والصلاه والعدل والاحسان، بل المراد عدم الاستسلام لمقترحاتهم دون الإكتراث لأى قيد أو شرط، وبعباره أخرى لابدّ من القيام بالمعروف لذاته لا من خلال الاستجاباه المطلقه للزواج، حذراً من تمددهن والمطالبه بالخضوع لكل رغباتهن وطلباتهن. فالعباره الوارده فى نهج البلاغه وان لم تختص بالزيجات وأنّها تقصد عامه النساء، إلا أنّ المفروغ منه هو أنّ هذه الأمور إنّما تحدث عاده بين الأزواج والزيجات. وبناء على هذا فان ما جاء فى هذه الخطبه لا يتنافى والآيات التي توجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يشمل الرجل والمرأه؛ لأنّ لا خطبه لا تقصد ترك المعروف، بل المراد أن العمل لاينبغى أن يحمل صفه الطاعه العمياء بصيدا عن كل قيد وشرط. كأن يرد الزواج على الزوجه حين إقتراحها المعروف، أجل كنت قد فكرت بالقيام بهذا العمل (فى حاله إذا كانت لديه حقانيه القيام به)، أو أن يؤخر العمل لمدته قصيره إن أمكن تأخيره كى لا تشعر الزوجه بأنّه منقاد لها دون حدود وشروط. نعم أنّ النساء المؤمنات الملتزمات الفاضلات مستثناه من هذا الحكم؛ فهناك النساء اللاتي سخطهن سخط الله ورضاهن رضا الله كالزهراء عليها السلام. وهذه النقطة واضحه أيضاً حين قال: «كونوا من خيارهن

على حذر» أنّ المراد الخير النسبي لا الخير المطلق، فالأخيار المطلقين ليس فقط لا ينبغي الحذر منهم، بل لا بدّ من إغتنام الفرصه للتحديث إليهم وسماع وصاياهم. ومن هنا صرحت بعض الآيات القرآنيه بضروره إستشاره النساء، ومن ذلك فطم الطفل عن الرضاعه: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا». (١)

تأملان

١ - الفوارق والمساواه بين الجنسين

هناك عدّه أبحاث في أوساط العلماء بشأن هذا الموضوع: هل يتساوى الرجل والمرأه حقاً من وجهه النظر الحقيقه والخليه أم يتفاوتان. أمّا الاعتقاد السائد فهو القول بالفارق بين الرجل والمرأه على صعيد البنيه البدنيه والجوانب العاطفيه والعقلانيه، دون أن يكون هذا الفارق مدعاه للحد من شخصيه المرأه أو الارتقاء بشخصيه الرجل؛ إلّا أنّ هذا الفارق يمكن أن يكون سبباً لاختلاف المسؤوليات والوظائف التي ينهض بها كل منهما في المجتمع.

أمّا على المستوى الاجتماعى فقد ذهبت جماعه إلى ضروره سياده الرجل، فكان لهذا الأسلوب الافراطى فى التفكير رد فعله التفريطى الذى رأى ضروره سياده المرأه. بينما انتهجت جماعه ثالثه أسلوباً منطقياً يفند الاسلوبين المذكورين ويتمثل بسياده الإنسان. والذى يفهم من المصادر الإسلاميه والمنطق والعقل بهذا الخصوص هو أنّ شخصيه الإنسان تنطوى على ثلاثه أبعاد:

١ - البعد الإنسانى والمعنوى

٢ - البعد العلمى والثقافى

٣ - البعد الاقتصادى

أمّا البعد الأول الذى يتضمن أسمى المثل والقيم الإنسانيه فليس هنالك من فارق بين المرأه والرجل، وهما متساويان فيهما عندالله ولكل منهما أن يواصل مسيره التقرب من الله، وبعباره

ص: ١٧٩

أخرى فان طريق التكامل واحد أمامهما. ولذلك خاطبهما القرآن معا: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (١)

وصرحت الآية القرآنية قائلة: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ . . . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» (٢). من جانب نوع الجنس «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (٣) وهكذا سائر الآيات التي لا يسع المقام ذكرها. ولم يتقصر بيان هذه الحقيقة على الآيات القرآنية، بل تطرقت لها الروايات الإسلامية أيضاً، فقد جاء في الخبر:

إنه اجتمعت عصابة الشيعة بنيسابور و اختاروا محمد بن علي النيسابوري فدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار وخمسين ألف درهم وشقه من الثياب، وأتت شطيطة بدرهم صحيح وشقه خام من غزل يدها تساوى أربعة دراهم فقالت: إن الله لا يستحي من الحق. فلم يقبل الإمام عليه السلام سوى الأموال المتعلقة بشطيطة ورد ما سوى ذلك. (٤)

ويتضح من هذه الرواية أن ليس هنالك من تفاوت في القيمة الإنسانية بين الرجل والمرأة. ومن هنا فان المرأة قد تسبق الرجل أحيانا في هذا المضمار.

الطريف في الأمر أن صحابه النبي صلى الله عليه و آله كانوا يرون الامتياز للرجل، أما النبي صلى الله عليه و آله ليس فقط لم ير له من امتياز فحسب، بل قدم على شخص أخته في الفضل انطلاقاً من المبادئ والقيم الإنسانية الحقة. ولما سئل عن ذلك، أجاب صلى الله عليه و آله: لأنها كانت أبر بوالديها منه. (٥)

أما قصه نسيبه بنت كعب الأنصارية وشجاعتها في ميدان القتال - أحد - وجلبها الماء وتضميد جراح المقاتلين وصمودها بوجه الأعداء حتى أصيبت بثلاثة عشر جرحاً، ثم التحاقها بصفوف المقاتلين المسلمين في اليمامة في قتال مسيلمه حتى نالت الشهادة لهن قصه

ص: ١٨٠

[١- ١] سورة النحل / ٩٧. [١]

[٢- ٢] سورة الاحزاب / ٣٥. [٢]

[٣- ٣] سورة الحجرات / ١٣. [٣]

[٤- ٤] بحار الأنوار / ٤٨ / ٧٣. [٤]

[٥- ٥] الكافي / ٢ / ١٦٢. [٥]

معروفه. وقد جاء في الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوم أحد: «لمقام نسيه بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان». (١)

وأما بالنسبة للبعد العلمي والثقافي فهنا أيضاً لا يوجد فارق بين المرأة والرجل، أي أنّ أبواب العلم مفتحة لهما على السواء والدليل على ذلك ما ورد في الحديث المعروف: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمه» (٢) حتى وإن لم ترد مفردة المسلمة في الحديث، لأنّ المراد بالمسلم هنا النوع الإنساني، كما ورد شبيه ذلك في أغلب الروايات والأحاديث. وعليه فليس هنالك من محدوديه من وجهه النظر الإسلاميه بالنسبة لانفتاح المرأة على العلوم، ولها أن تطوى مسيرتها نحو الكمال أسوة مع أخيها الرجل. وبغض النظر عن كل ما سبق فإنّ التاريخ الإسلامي حافل بكبار الشخصيات النسوية بصفتهم محدثات وراويات للأحاديث والأخبار.

وأخيراً ليس هنالك من فارق بين الجنسين في البعد الاقتصادي فلكل منهما ملكيته المحترمه ولا سيما بالنسبة للأعمال، بل للمرأة استقلال اقتصادي خاص، على الخلاف مما تعارف بين المجتمعات الغربية التي حظرت عليها التصرف في أموالها دون إذن الزوج فجردتها من هذا الاستقلال، بينما ليس هنالك من ضروره لاذن الزوج من أجل تصرف الزوجه بأموالها في الإسلام، ولها أن تتصرف في أموالها حسبما يحلو لها في المصارف المشروعه. ولاننسى هنا إذا أردنا أن ننحى الشعارات جانباً أنّ القدره الانتاجيه للرجل إنّما تفوق نظيرتها لدى المرأة، ويستند ذلك إلى سببين: الأول: أنّ للرجال طاقه أعظم للآتيان بالأعمال الثقيله؛ الأمر الذي يمنحهم بعض التفوق الاقتصادي على النساء. الثاني: ما تفقده المرأة من طاقتها البدنيه بفعل مشاكل الحمل والوضع والرضاع وتربيته الأطفال التي تستغرق مده مديده من عمرها، ولو إفتراضنا أنّ للمرأة على الأقل ثلاثة أولاد وأنّها ترصد مده أربعه

ص: ١٨١

١-١) سفينه البحار، [١] ماده نسب.

٢-٢) ان روايه «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمه» وردت في كتاب بحار الانوار للعلامة المجلسي، نقلها من كتاب «عوالي اللئالي» منقوله عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وكذلك وردت في كتاب ميزان الحكمه منقوله من مجموعه ورام.

سنوات لكل منهم منذ زمان الحمل ومرورا بتلك المراحل حتى يستوى كصبي فأنها ستصرف إثنى عشره سنه من شبابها في هذا الأمر. ولعل هذا هو السبب الذى دفع بكافه المجتمعات حتى تلك التى تتبنى مساواه المرأه بالرجل والتى لا تستند حكوماتها إلى المبادئ الدينيه لأنّ تسند الأعمال الشاقه ذات المسؤوليه الجسيمه إلى الرجال، وأن تختار الرجل أيضاً لمزاولة المهام السياسيه والاقتصاديه والاجتماعيه. وبناءً على ما تقدم فان وجود بعض الفوارق فى المسؤوليات بين الرجل والمرأه من قبيل التصدى لمنصب القضاء أو الاختلاف فى عدد الشهود بينهما أو الاختلاف فى الميراث الذى أوردنا دليله آنفاً، لا يمكنه قط أن ينقض الأُصول الكليه للمساواه بين الجنسين فى البعد المعنوى والإنسانى والبعد العلمى والثقافى وبالتالى البعد الاقتصادى. وعلى كل حال فلا بدّ من الإذعان لوجود التفاوت الطبيعى بين الجنسين وعدم خداع النفس والآخريين بالشعارات البراقه الكاذبه.

٢ - أخبار عائشه

عائشه بنت أبى بكر من قبيله تيم طائفه قريش. أمها «أم الرومان» بنت عامر بن عويمر. ولدت فى العام الرابع من البعثه النبويه، تزوج منها رسول الله صلى الله عليه وآله بعد خديجه. وقفت الى جانب خلفه أبى بكر وعمر وشطرا من خلافه عثمان حتى أصبحت من الناقلين عليه - فلما قتل عثمان ظنت أن ابن عمها «طلحه» سيلي الخلافه ولما انتهى أمر الخلافه إلى على عليه السلام سارعت للمطالبه بدم عثمان، فكان من ذلك معركه الجمل فى البصره. فلما قتل طلحه والزبير وهزم أصحاب الجمل أعادها عليه السلام إلى المدينه. ذكر ابن سعد فى طبقاته ان عمرا جعل عشره الاف دينار لازواج النبى لكن عائشه كانت تأخذ اثنى عشر الف ديناراً ثم قطعها عنها عثمان. وقد اشتد الخلاف بين عائشه وعثمان بشأن الوليد بن عقبه المعروف بفسقه وشربه للخمر وتعرضه لبعض صحابه النبى صلى الله عليه وآله مثل عبد الله بن مسعود وقد شهد عليه الناس بذلك فما كان من عثمان الا أن أقام الحد عليهم حسبما صرح البلاذرى فى أنساب الاشراف. فلما سمعت

عائشه بذلك أخذت بنعلي رسول الله صلى الله عليه وآله وهي تنادى هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبيل وقد أبلى عثمان سنته. فلما قتل عثمان سرت عائشه ولم يدم سرورها بعد أن آلت الخلافة لعلي عليه السلام.

قال الطبرى فى تاريخ الالم والملوك وابن سعد فى الطبقات وابن اثير فى الكامل لما سمعت عائشه بقتل على سجدت وانشدت. فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالأياب المسافر

وابعد من ذلك ثناءها على ابن ملجم، فلما سمعت زينب بنت ام سلمه منها ذلك انكرته عليها فقالت بلغنى الكبر فنسيت ولا أعود لذلك.

ومن عجائب سيره عائشه موقفها تجاه عثمان حيث قال كل من صنف فى السير والاخبار بما فيهم «ابن أبى الحديد» ان عائشه كانت من أشد الناس على عثمان وهى أول من سمى عثمان نعثلا وقالت «اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا» والنعتل الكثير شعر اللحيه كما تعنى العجوز الاحمق وكذلك قيل نعتل فرد يهودى كثيف اللحيه ولا يعلم أى المعانى أرادت عائشه. فلما قتل عثمان وآل الأمر لعلي عليه السلام قالت: «قتلوا ابن عفان مظلوما». واضاف ابن أبى الحديد قائلا: جاءت عائشه إلى أم سلمه تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان. فقالت لها أم سلمه: إنك كنت بالأمى تحرضين على عثمان، وما كان اسمه عندك إلا نعثلا، وانك لتعرفين منزله على عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله أفأذكرك؟ قالت: نعم. فروت لها عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما يؤكد أحقيته بالخلافه فوافقتها عائشه. فسألتها: فأى خروج تخرجين بعد هذا؟ فقالت: انما أخرج للاسلاح بين الناس. (1)

وروى الطبرى قيل لعائشه لما نادى قتل عثمان مظلوماً إنك أول من نقت عليه وقلت اقتلوا نعثلا فقد كفر. فقالت عائشه: نعم لكن قتلوه بعد أن تاب فقتل مظلوماً. (2) وأورد ابن اثير هذا الكلام فى الكامل. (3)

ص: ١٨٣

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٤ / ٢١٥ ([١]بتلخيص). .

٢-٢) تاريخ الطبرى ٣/٤٧٧ ([٢]دار الاعلمى للنشر). .

٣-٣) الكامل لابن اثير ٣/٢٠٦ ([٣]دار صادر للنشر). .

وقد ذكر البخارى فى صحيحه حسد عائشه لخديجه. (١)

ومعروفه هى قصه كلاب الحوئب التى بلغت عائشه فنبحتها فقررت الرجوع بعد أن ذكرت الخبر، فلفقوا لها خمين اعرابيا ان هذا ليس بماء الحوئب. (٢)

توفيت عائشه فى المدينه فى ١٠ شوال عام ٥٧ أو ٥٩ فصلى عليها أبوهريره ودفنت فى البقيع.

ص: ١٨٤

١-١) صحيح البخارى ٥/٤٧، ورد هذا الحديث فى باب تزويج خديجه وفضائلها.

٢-٢) ذكره ابن أبى الحديد ٦/٢٢٥ [١] والعلامه الامينى فى الغدير ٣/١٨٨ عن كتب العامه.

ومن كلام له عليه السلام

فى الزهد

نظره إلى الخطبه

يخوض الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء فى هذه الخطبه فى الزهد ليقدم بشأنه تعريفاً جامعاً رائعاً بثلاث عبارات قصيره، ثم يوصى من يرى نفسه عاجزاً عن بلوغ هذه الحقيقه بالورع عن المحرمات وشكر النعم، فقد أتم الله حجته بالدلائل والبراهين الساطعه.

ص: ١٨٥

١-١) سند الخطبه: روى صدر هذا الكلام - قبل الرضى - الصدوق فى معانى الأخبار وفى الخصال، وروى آخر الكلام البرقى فى المحاسن بتفاوت، ورواه بعد الرضى صاحب غررالحكم بتفاوت يسير جداً، والقتال فى روضه الواعظين ونقله عنه الطبرسى فى مشكاه الانوار. (مصادر نهج البلاغه ٢/٨٨ - ٨٩).

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قَصِيرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ وَلَا تَنْسُوا عِنْدَ النَّعْمِ شُكْرَكُمْ فَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجِّجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ وَكُتُبٍ بَارِزَةٍ الْعُذْرَ وَاضِحَةً» .

الشرح والتفسير

حقيقه الزهد

أشار الإمام عليه السلام إلى حقيقه الزهد فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ (١) قَصِيرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ» .

فعباراته عليه السلام الثلاث بشأن الزهد تشكل الرد على التفاسير الخاطئه الوارده بهذا الخصوص، وما أكثر الأفراد الذين عجزوا عن الوقوف على معنى الزهد ويرون أنفسهم من الزاهدين. فهم يعتقدون بأن الزهد يقتصر علياً رتداء الثياب البسيطة أو عدم ممارسه الوظائف الاجتماعيه واعتزال الناس التوقع في زاويه ومجانبه الفعاليات والأنشطه الاقتصاديه، والحال ليست هذه الأمور من الزهد في شئ. فحقيقه الزهد التي تقف بوجه الرغبه إنما تكمن في عدم الاكتراث إلى ماديات الدنيا وزخارفها، أو بعبارة أخرى عدم التعلق بالدنيا والاعتزاز بمظاهرها وإن زود بكافه الإمكانيات. فمن لم يغتر بالأمور الماديه فقد جنب طول الأمل (فطول الأمل من مميزات أهل الدنيا) وشكر النعمه وهجر الذنب والمعصيه، لأنّ النعم لا تشغله بنفسه وتنسيه ربه. وهناك تفسير آخر للزهد أورده الإمام عليه السلام في قصار كلماته، قد يبدو مختلفاً مع هذا التفسير إلاّ أنّه يتفق معه في المعنى، حيث قال عليه السلام: «الزهد كله بين

ص: ١٨٧

١ - ١) «زهاده» على وزن شهاده تعنى عدم الاعتناء بزخارف الدنيا؛ كما تستعمل هذه المفرده بشأن الأفراد ضيقى النظر أو سيئى الخلق، إلاّ أنّ المعنى الأول هو الأشهر ومن لوازمه قصر الأمل وترك الذنوب وما شابه ذلك.

كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه» (١). فالعبارة تفيد أنّ حقيقه الزهد تعنى ترك التبعية وقطع أغلال الأسر المرتبطه بالماضى والآتى. الركن الثانى من الأركان الثلاث الزهد قوله عليه السلام: «والشكر عند النعم» على أنّ النعم من الله لامن العبد ليتعلق بالخالق ويهجر ذاته. أمّا قوله عليه السلام: «التورع عند المحارم» فيشير إلى أنّ حب الدنيا والتعلق بها هو أساس مقارفة الذنب؛ الأمر الذى عبر عنه الحديث الشريف: «حب الدنيا رأس كل خطيئه» (٢). وبناءً على ما سبق فمن قصر أمله وشكر نعم ربّه وأمسك نفسه عن الذنب فهو الزاهد الحقيقى؛ سواء كان غنياً أم فقيراً، لأنّ الفقر ليس مقياس الزهد قط. ثم قال عليه السلام: «فان عزب (٣) ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله اليكم بحجج مسفره (٤) ظاهره، وكتب بارزه العذر واضحه». فالإمام عليه السلام وإن أكد على ركنين من أركان الزهد فى إختتام الخطبه (ترك الذنب وشكر النعمه) إلّا أنّ عباراته تفيد أن مراده هو أنكم إن لم تؤدوا حق النعمه فى شكرها، فلا تنسوا على الأقل قضيه الشكر، وإن تبلغوا مرتبه من الورع فى هجر الذنوب بحيث تشمل الوقوف عند الشبهات، فلا تجعلوا الحرام يجاوز صبركم فعليكم كحد أدنى التحلى بالتقوى عند هذا الحد. أمّا ما ذكره الإمام عليه السلام من أسس ودعائم للزهد والتقوى فهى من الأمور التى يجب توفرها فى كل فرد، لأنّ الله أتم حجتة وليس لأحد العذر فى مخالفتة. وزبده الكلام فان ترك الذنب وشكر النعم على مرحلتين: الاولى: هى وظيفه كافة المسلمين، وهى فى الواقع شرط الإيمان. والثانيه: أرفع من سابقتها تنطوى على الورع والتقوى من الشبهات وقصر الامل وهذا ما يليق بالزهاد من أهل الإيمان.

ص: ١٨٨

١- ١) نهج البلاغه، [١] الكلمات القصار / ٤٣٩.

٢- ٢) الكافي ٢/١٣١، ح ١١. [٢]

٣- ٣) «عزب» من ماده «عزوب» على وزن غروب بمعنى بعد، ومن هنا وردت بمعنى ترك الزواج، حيث يطلق عله صاحبه إسم الأعزاب.

٤- ٤) «مسفره» من ماده «سفور» على وزن قبور بمعنى الكشف وخلع الحجاب، وعليه فالعبارة تعنى الأدله التى تكشف النقاب عن الحقيقه.

لقد شحن نهج البلاغه بخطب الإمام عليه السلام التي تتناول مفهوم الزهد. إلى جانب ذلك فإن القرآن الكريم قد تناول حقيقته ومفهومه بصورة واسعة وان لم يورد هذه المفردة بكثرة. والزهد من المفاهيم التي تعرضت لها الأديان الإلهية، على أنه يعنى عدم التعلق بماديات الدنيا وحطامها، وبالطبع لا يراد بالزهد حرمان الإنسان من المال والثروه والمقام والإمكانات، وإنما يراد به عدم الانقياد والاستسلام لهذه العناصر والوقوع فى أسرها، بل ينبغى له أن يكون أميراً عليها. ومن هنا نرى أن نبي الله سليمان عليه السلام الذى يضرب المثل بملكه وحكومته كان أميراً لا أسيراً حين رد تلك الهدايا النفيسه التى بعثت بها إليه ملكه سبأ. وقد ورد فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الزهاده فى الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعه المال، ولكن الزهاده فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك أوثق منك بما فى يدالله» (١). ومن هنا يتضح مدى الفارق الشاسع بين الزهد فى الإسلام والرهبانيه فى المسيحيه. فالزهد الإسلامى يعنى البساطه فى الحياه والابتعاد عن التجملات وعدم الوقوع فى مخالف الشبهوات وأغلال الأموال والمقام، بينما تعنى الرهبانيه الانزواء والانعزال عن الحياه الاجتماعيه. فقد ورد فى الحديث أن عثمان بن مظعون حزن حزناً شديداً لما مات ولده واقبل على الزهد فجعل داره مسجداً وانهمك بالعباده، فلما بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا عثمان إن الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانيه، إنما رهبانيه أمتى الجهاد فى سبيل الله. (٢)

فى إشاره إلى أنك إذا أردت أن تقاطع الماديات فلا تسلك السبيل السلبى فى ذلك وعليك تعقيب هذا الهدف من خلال مساره الايجابى الصحيح الذى يكمن فى الجهاد - ثم تطرق رسول الله صلى الله عليه وآله إلى فضيله صلاه الجماعه ليقف على مدى أهميه الجماعه فى الإسلام ورفضه لكافه أشكال الرهبنه والعزله. ويقابل الزهد الرغبه والتنافس على الدنيا؛ أى اللهث وراء الدنيا والتكالب على متاعها الذى ورد الذم عليه فى الإسلام. وللزهد عدو آثار على الحياه الفرديه والاجتماعيه للإنسان، والتى يمكن بواسطتها التعرف عليه وهى: قصر الأمل وشكر

١-١) كنز العمال ٣/١٨١، ح ٦٠٥٩.

٢-٢) بحار الأنوار ٧٠/١١٤. [١]

النعمة والورع عن المحرام وهي الأركان الثلاث التي أشارت إليها الخطبه. وهنا لابد من القول بأن الزهد لايساوى الفقر والحاجه أبدا؛ بل الزهد يعنى الغنى الباطنى واشباع النفس بالمعنويات وترك التعلق بالماديات وعلامه ذلك مقاطعه اللذات وإجتناى التجملات. كتب أحد المفكرين المسلمين (رحمه الله عليه) بشأن دوافع الزهد: إن الزاهد يعيش حياته بمنتهى القناعه دون أى تكلف ليقود الآخرين إلى الهدوء والسكينه، أنه ليشعر باللذه والمتعه فى أن يأكل المحتاجون ويشربون قبل أن يأكل هو ويشرب. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى ما تعارف لدى أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله: «الجار ثم الدار» .

المواساه وتقاسم هموم المحرومين والمعوزين يعد الدافع الآخر من دوافع الزهد، فلما كان المجتمع على قسمين مرفه ومحروم فإن أولياء الله يسعون فى الدرجه الأساس إلى معالجه أوضاع المحرومين، فان لم تكن خهناك الإمكانيات اللازمه، جهداً فى العيش كأدنى الطبقات المرحومه فى المجتمع ليخففوا من معاناه الضعفاء ولايدعوهم يشعرون بالذله والمسكنه بفضل ما يعانون من جشوبه العيش وخشونه الملبس، ولعل هذا هو المعنى الذى أراد أن يجسده أمير المؤمنين على عليه السلام حين سئل عن ثوبه البالى فقال: «يخشع له القلب، وتذل به النفس، ويقتدى به المؤمنون» (١)الدافع الآخر للزهد هو الحريه والخلاص من قيد الحاجه. فالزهد والقناعه تحد من الحاجه وتؤدى بالتالى إلى النجاه من أسر الطمع والحرص على إقتناء الأشياء، من هنا يمكن القول بأن نفس الزهد هو الحريه. فالزاهد شجاع وعالم، ومن هنا نرى الحركا التحرريه العالميه إنما توجه غالباً من قبل الزعماء الذين تسودهم روح الزهد. (٢)ونختتم حديثنا بروايتين عن الزهد. فقد جاء فى الروايه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «يا على إن الله تعالى زينك بزينه لم يزين العباد بزينه هى أحب إليه منها: زهدك فيها وبغضها إليك وحب إليك الفقراء، فرضيت بهم اتباعاً ورضوا بك إماماً. (٣)

وجاء فى الحديث وسأله إعرابى شيئاً فأمرله بألف، فقال الوكيل: من ذهب أو فضه؟ فقال: كلاهما عندى حجران، فاعط الأعرابى أنفعهما له. (٤)

ص: ١٩٠

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار /١٠٣.

٢- (٢) إقتباس من كتاب سير فى نهج البلاغه للشهيد المطهرى /٢١١.

٣- (٣) بحار الأنوار ٤٠/٣٣٠، ح ١٣. [١]

٤- (٤) بحار الأنوار ٤١/٣٢. [٢]

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم صفه الدنيا

نظره إلى الخطبه

قال الميرد فى الكامل أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين كان يخطب فقام له رجل وقال: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا. فقال عليه السلام: ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء. فواصل خطبته ليصف الحياه الدنيا ومشاكلها. ومن تأمل عبارات الخطبه يمكنه أن يقف على حقائق الدنيا والمعيشه فيها، بحيث يمكن القول لم يبق الإمام عليه السلام من شئ فى وصفه للدنيا بهذه العبارات العشر القصيره.

ص: ١٩١

١-١) سند الخطبه: صرح صاحب مصادر نهج البلاغه قائلاً: قد تواترت عنه عليه السلام صفه الدنيا هذه، ومن الكتب التى رويت فيها قبل النهج، الكامل للميرد والامالى للصدوق والمجتنى لابن دريد وتحف العقول لابن شعبه الحرانى والعقد الفريد لابن عبد ربه وبعده النهج الامالى للمرتضى وتذكره الخواص للسبط بن الجوزى ومشكاه الانوار الطبرسى وغررالحكم للآمدى وكنز الفوائد للكراچكى بتفاوت. (مصادر نهج البلاغه ٢/٩٠). [١]

«ما أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوْلَاهَا عَنَاءٌ (١)، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنْ اسْتَتَغَنَى فِيهَا فُتْنًا، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزْنَ وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَرَتَهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ». الشرح والتفسير

الدنيا وسيله لأهدف

إشاره

وصف الإمام عليه السلام الدنيا بعشر عبارات فصيحہ بليغہ، فقال في العبارة الأولى: «ما أصف من دار أولها عفاء» وقال في العبارة الثانية: «وآخرها فناء» فأدنى تأمل لحياء الإنسان في هذا العالم ليكشف أنها مشوبه بالصعاب والمشاق، فهي تبدأ بولادته التي تحمل الألم والمعاناة للطرفين وأقصاها لأمه، حيث يرد الوليد من وعاء مغلق إلى بيئه مفتوحه تتفاوت جذرياً عما كان عليه، إلى جانب ذلك فإن رصيده الضعف والعجز ليس عن دفع أتفه الحشرات بل يتعذر عليه حفظ لعبه في فمه، ولا يؤمن عليه الخطر فيما ذا أغفل عن مراقبته. ثم يجتاز مرحله الرضاع ليواجه مشكله الفطم فيعاني الأمرين، ثم يأخذ بالمشي شيئاً فشيئاً دون أن يكون له أدنى تجربه في الحياه والأخطار تتهدده من كل حذب وصوب، فاذا دب فيه العقل ووضع قدمه على الطريق واجه سيلاً جديداً من المشاكل فعليه أن يخوض معترك الحياه وينافس سائر الأفراد من أبناء الدنيا، وعليه أن يجد اعلم ويحظى بالزوجه ويتحمل كل ما يترتب على ذلك من الالام والمعاناه. فاذا تقدمت به السن وبلغ مرحله الكهوله شاب الرأس وضعفت العين والاذن والقلب والعروف والعظام، نعم هذه صورته مختصره عن حياه الإنسان تشير إلى ما

ص: ١٩٣

١-١) «عناء» بمعنى المشقه ومنها «العانى» يطلق على الأسير لماى واجه من مشقه.

يكتنفها من مشاكل وصعاب. القرآن من جانبه أشار إلى هذه الحقيقة فقال: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ» (١) وكان العناء والمشقة هي الكهف الذي يلجأ إليه الإنسان. وبالطبع لا يستثنى من هذا التعب والمشقة حتى أولئك الذين يعيشون الحياة المرفهة ولكل مشاقه ومعاناته. أجل طبيعه الدنيا تتمثل بالألم والعناء ويخطئ من ظن فيها غير ذلك، ولعلنا نلمس هذه الحقيقة في الشعر الذي أنشده الشاعر المعروف أبو الحسن التهامي إثر موت ولده في شبابه حيث قال: طبع على كدر وأنت تريدها

هذا بشأن عناء الدنيا، أمّا فناؤها فليس بخاف على أحد، فالفناء قد كتب فيها على جميع الأفراد المؤمن والكافر والصغير والكبير، فهذا يموت مبكراً وذاك يموت متأخراً، ولا يستثنى من قانون الموت أحد. ثم قال عليه السلام: «في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب» إشارته إلى أنّ الإنسان إنَّما يتحمل حتى في الآخرة تبعات هذه الدنيا، فهو إمّا عمل فيها بالحلال أو الحرام. فإنَّ عمل بالحلال حوسب عليه يوم القيامة، وإن عمل بالحرام عوقب عليه يوم الجزاء. ومن هنا ورد في الحديث النبوي الشريف: «يدخل الفقراء الجنّة قبل الأغنياء بخمسة مائة عام» (٢) أمّا كيفية الحساب وما يحاسب عليه الإنسان ومن يرد الجنّة دون حساب، فهي أمور نستعرضها إن شاء الله في بحث التأمّلات. ثم قال عليه السلام: «من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن» نعم هذه هي طبيعه الدنيا وانطوائها على سبيلين كلاهما يؤدي إلى المشقة. فإن كان فقيراً عاش في الدنيا مهموماً مغموماً، وإن كان غنياً مرفهاً عاش فيها مشاكل أخرى؛ وأقل ذلك همه في حفظ هذه الثروة وسعيه لصيانتها، ناهيك عن سهام الحسد والطمع والبغض التي تصوب إليه، وفوق كل ذلك ما يتعرض له من إمتحانات إلهية. فالبخل والحرص والطمع من جانب والآفات والبلاء والأخطار من جانب آخر، بل لعل هذا الثراء والغنى يصدّه عن ذكر الله ولا يدع له من مجال للخروج من التفكير فيه، وعليه ستغيب لديه المثل والقيم ولا يرى

ص: ١٩٤

١-١ (١) سورة البلد / ٤. [١]

٢-٢ (٢) بحار الأنوار ٤٨/٦٩. [٢]

لها من معنى سوى فى الأموال. ونختتم الكلام فى قوله عليه السلام: «من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن» بالحديث الذى يؤكد هذا المعنى، فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام. قال: كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مؤمن فقير شديد الحاجة من أهل الصفة، وكان لازماً لرسول الله صلى الله عليه وآله عند مواقيت الصلاة كلها لا يفقده فى شىء منها، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرق له وينظر إلى حاجته وغربته، فيقول: يا سعد لو قد جاءنى شىء لأغنيتك، قال: فابطأ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله فاشتد غم رسول الله صلى الله عليه وآله بسعد، فعلم الله سبحانه ما دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله من الغم بسعد، فأتى أن تغنيه؟ فقال له: نعم، فقال له: فهالك هذين الدرهمين فاعطهما إياه، ومره أن يتجر بهما، قال: فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وآله ثم خرج إلى صلاة الظهر وسعد قائم على باب حجرات رسول الله صلى الله عليه وآله ينتظره، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا سعد أتحسن التجاره؟ فقال له سعد: واللّه ما أصبحت أملك ما أتجر به، فاعطاه النبى صلى الله عليه وآله مع الدرهمين؛ فقال له: اتجر بهما وترف لرق الله، فأخذهما سعد ومضى مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى صلى معه الظهر والعصر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: قم فاطلب الرزق فقد كنت بحالك مغتماً يا سعد، قال فأقبل سعد لا يشتري بالدرهم إلا باعه بدرهمين، ولا يشتري شيئاً بدرهمين إلا باعه بأربعة دراهم، وأقبلت الدنيا على سعد فكثرت متاعه وماله وعظمت تجارتها فاتخذ على باب المسجد موضعاً جلس فيه وجمع تجارته إليه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أقام بلال الصلاة يخرج وسعد مشغول بالدنيا لم يتطهر ولم يتهيأ كما كان يفعل قبل أن ينشغل بالدنيا، فكان النبى صلى الله عليه وآله يقول: يا سعد شغلتك الدنيا عن الصلاة، فيقول: ما أصنع، أضيع مالى هذا رجل قد بعته فأريد أن أستوفى منه، هذا رجل قد اشتريت منه فأريد أن أوفيه قال؛ فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله من أمر سعد غم أشد من غمه بفقره فهبط عليه جبرئيل عليه السلام فقال: أيما أحب إليك، حاله آخرته، فقال له جبرئيل: قل لسعد يرد عليك الدرهمين اللذين دفعتهما إليك، فان يا سعد أما تريد أن ترد على الدرهمين اللذين أعطيتكهما؟ فقال: بلى ومأتين. فقال لها لست أريد منك يا سعد إلا الدرهمين، فاعطاه سعد درهمين، قال: وادبرت الدنيا على سعد حتى ذهب ما كان جمع، وعاد إلى حاله التى كان عليها. (١)

ص: ١٩٥

ثم أورد عليه السلام صفتين للدنيا من شأن الالتفات إليهما إبعاد الإنسان عن الحرص والطمع والسكون إلى الدنيا «ومن ساعاها فاتته، (١) ومن قعد عنها واتته (٢)». .

إشاره إلى الأعم الأغلب من الأفراد الذى يجرون نحو الدنيا ولا يبلغونها، بينما كثيرهم الذين يهجرون الدنيا فتأتيهم صاغره. ولعل المطالعات التأريخيه والوقائع تؤيد هذا الأمر فى أن الجرى خلف الدنيا لا يفضى إلى الغنى، والانصراف عنها لا يؤدى إلى الفقر. ومن الطبيعى ألا يكون المراد بالدنيا هنا المعيشه المشرفه والخاليه من الحاجه إلى الآخرين، بل يراد بها الدنيا المذمومه المشوبه بالجنون. على كل حال فالعباره تهدف إطفاء نيران الحرص على الدنيا والدوبان فيها. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام كلامه فى وصف الدنيا بصفتين أصابت أغلب مفسرى نهج البلاغه ولا سيما المرحوم السيد الرضى (ره) جامع النهج بالدهشه والذهول ليعيشوا نشوه السكر بهذا الشراب الطهور، فقد قال عليه السلام: «من أبصر بها بصرتة، ومن أبصر اليها أعمته». فاذا تأمل المتأمل هذا القول وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا يبلغ غايته ولا يدرك غوره؛ أى أنّ الإنسان إذا جعل الدنيا وسيله لنيل الكمال وأداه للوصول إلى الآخرة وجسراً للسمو والرفعه والتكامل فستطرح عنه كافه الحجب ويرى حقائق الكون كما هى، أمّا ذاك الذى يتعامل مع الدنيا كههدف لاوسيله فإنّ ذلك سيكون حجاباً ضخماً مضروباً على عينيه يحول دون رؤيته لاقرب الأشياء فضلاً عن الحقائق، وأبعد من ذلك سيغرق فى مادياتها ولا يرى لغيرها من وجود. والواقع هذا هو الفارق بين أهل الآخرة وأهل الدنيا، فهؤلاء يرون الدنيا مقدمه للآخرة وأولئك يرون الدنيا غايتهم وهدفهم. فالدنيا كالشمس إن نظرت بها أبصرت وإن نظرت إليها عميت. كما أورد تفسير آخر لهذه العباره وهو أنّ المراد بقوله: «من أبصر بها بصرتة» أنّ النظر إلى الدنيا بكل ما تشتمل عليه من الآيات الربانيه إنّما يزيدنا

ص: ١٩٦

١- ١) «ساعى» من ماده «سعى» تعنى فى الأصل الجرى ومنه السعى بمعنى الجهد وكأنّ الإنسان يجرى نحو الشئ وقد وردت فى العباره بشأن من يجرى خلف الدنيا وكأنه يتسابق مع الآخرين، كما يمكن أن تكون إشاره إلى أولئك الذين يلهثون وراء الدنيا، والدنيا تهرب منهم. أما بعض أرباب اللغه فقد فسروا هذه المفرده بمعنى دعوه الاماء إلى الأعمال المنافيه للعفه. وعليه فالعباره الوارده فى الخطبه تشبه الدنيا بالامه التى يلهث وراءها أهل الدنيا.

٢- ٢) «واتته» من ماده «مؤاتاه» بمعنى طاوعته واستجابت له.

بصيره، فى حين قصر النظر على ماديات الدنيا يحرمننا من البصيره بالآخره بما فيها معرفه الله ونيل القرب منه. وذهب البعض إلى أنّ المقصود بالعباره «أبصر بها» هو النظر إلى عيوب الدنيا وتقلباتها والدروس العبر التي تنطوى عليها، وبقينا أن مثل هذه النظره مدعاه للبصيره والفتنه، أمّا المراد بالعباره «أبصر إليها» التطلع إلى زخارف الدنيا ومظاهرها الخادعه التي تعمى عين الإنسان. وبالطبع لامانع من الجمع بين المعانى الثلاث فى المفهوم الجامع لهاتين العبارتين. ويالها من عبارتين رائعتين عظيمتى المعنى، وكفى بهما عبره فى النجاه من الدنيا والسير نحو الآخره، فالسلام والصلاه على أمير المؤمنين عليه السلام الذى رام تهذيب النفوس وسموها بهاتين العبارتين القصيرتين. وهناك كلمات المعصومين عليهم السلام التي تصور هذا المعنى أيضاً، ومن ذلك أنّ الله أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود احذر القلوب المعلقه بشهوات الدنيا فإنّ عقولها محجوبه عنى» (١).

كما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «لحب الدنيا صمت الاسماع عن سماعه الحكمه وعميت القلوب عن نور البصيره». (٢).

قال المرحوم السيد الرضى (ره) آخر الخطبه:

«وإذا تأمل التأمل قوله عليه السلام «ومن أبصر بها بصرتة» وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد، ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره، لا سيما إذا قرن اليه قوله «ومن أبصر اليها أعمته» فأنه يجد الفرق بين «ابصر بها» و «أبصر إليها» واضحاً نيراً، وعجيباً باهراً، صلوات الله وسلامه عليه» .

تأملان

١ - كيفية الحساب فى الآخره

تعدّ مسأله الحساب فى يوم القيامة الذى تعرضت له الخطبه من المسائل القطعيه فى

ص: ١٩٧

[١-١] بحار الأنوار ١٤/٣٩. [١]

[٢-٢] غرر الحكم، ح ٧٣٦٣. [٢]

الإسلام والتي وردت في أغلب الآيات القرآنية والأخبار المتواترة، ويشمل هذا الحساب جميع أعمال الإنسان من صغيره وكبيره وفعل وكلام بل وحتى الصمت والسكوت، كما تفيد الايات القرآنية الواردة بهذا الشأن دقه حساب الأعمال. فقد صرحت الآية ١٦ من سورة لقمان على لسانه وهو يعظ ابنه: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِرْحِهِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ». والذي نخلص إليه من الأمور المتعلقة بالحساب كما وردت في الآيات والروايات ما يلي: -

الف - عموميه الحساب: وشموليته لكافة الناس من الأولين والآخرين بما فيهم الرسل والأنبياء، وقد إصطلحت الآيات القرآنية على يوم القيامة بيوم الحساب. (١) ولا تقتصر هذه العموميه على الناس فحسب، بل تشمل جميع أعمالهم، كما نلمس ذلك في الآية ٤٧ من سورة الأنبياء: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ». وبالطبع هنالك بعض الأفراد الذين يردون الجحيم دون حساب لعظم أعمالهم الصالحة، كما هناك الأفراد الذين يكبون في النار دون حساب بشاعة أعمالهم السيئه، وبعباره أخرى فإن حسابهم واضح، فقد جاء في الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «اعلموا عبادالله إن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ولا تنشر لهم الدواوين وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً». (٢)

ب - سرعه الحساب: يتضح من الآيات والروايات أنّ الحساب الإلهي يوم القيامة يحصل بصورة سريعة جداً؛ فقد وردت ثمان آيات في القرآن تصف الله سبحانه بأنه سريع الحساب، كما جاء في الحديث الشريف: «إن الله يحاسب الخلائق كلهم في مقدار لمح البصر» (٣)، ودليل السرعه في الحساب واضح، لأنها تتوقف لاينطوي على أيه صعويه، اللهم إلا أن تقتضى حكمته تأخير البعض في الحساب مبالغه لهم في العقاب أو حكمه أخرى. فالحق أنّ أعمالنا لها تأثير على أرواحنا وأجسامنا، التي يتضح حسابها من خلال نظره لها، من جانب

ص: ١٩٨

١-١ (١) سورة ص / ١٦، ٢٦، ٥٣؛ سورة غافر / ٢٧. [١]

٢-٢ (٢) تفسير نورالثقلين ٤/٥٠٧. [٢]

٣-٣ (٣) مجمع البيان ١/٢٩٧.

آخر فأنه يمكن تشبيه أعمال الإنسان بعمل السيارة، بحيث تكفى نظره واحده لعدادها لمعرفة كم كيلومتر قطعت، ولا سيما فى عصر الحاسب الآلى - حيث يزودك بما شئت من المعلومات أحياناً بمجرد ضغطك على زر من أزراره - فمسأله سرعه الحساب لم تعد بالمعقده الفهم والإدراك على العقل البشرى.

ج - الدقه فى الحساب: الميزه الأخرى فى الحساب يوم القيامة استناداً إلى الآيات القرآنيه تكمن فى الدقه من قبيل الإشاره إلى المحاسبه على العمل وإن كان مثقال ذره، أو حبه من خردل.

د - التشديد فى الحساب: الخاصيه الأخرى تكمن فى سوء الحساب حسب تعبير الآيات القرآنيه بالنسبه لأولئك الذين كانوا يتصفون بالتشدد والتعصب فى حياتهم الدنيا تجاه الآخرين وبالطبع فإن سوء الحساب لايعنى كونه الحساب السئ وغير الصحيح، فذلك لا يجوز مطلقاً على الله سبحانه، إنما يراد به التشدد على من كان متشدداً.

ه - اليسر فى الحساب: يستفاد من بعض الآيات القرآنيه وخلافاً للتعامل مع الطائفه المذكوره، فهناك البعض الذى يخضع للحساب اليسير يوم القيامة، والمراد بهذا البعض أولئك الأفراد الذين تعاملوا بالسهوله واليسر فى حياتهم الدنيا مع الآخرين، فكان جزاء أعمالهم أن يسر الله عليهم الحساب يوم القيامة. فقد قال القرآن الكريم: «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا» (١). وجاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته، قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: تعطى من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك» (٢) فالحديث يشير بوضوح إلى أن الحساب اليسير فى يوم القيامة إنما هو إنعكاس لحساب الإنسان اليسير لبنى جنسه فى الدنيا.

و رود الجنة بغير حساب: إضافة إلى الطائفه المتشده فى الحساب والأخرى السهله، هنالك طائفه ثالثه ترد الجنة دون أن تتعرض للحساب، وهى الطائفه التى عاشت ذروه الورع

ص: ١٩٩

١-١ (١) سورة الانشقاق / ٧ - ٩. [١]

٢-٢ (٢) تفسير نورالثقلين ٥/٥٧٣. [٢]

إذا جمع الله عزوجل الأولين والآخريين قام مناد - فنادى يسمع الناس - فيقول: «أين المتحابون في الله؟» فيقوم عنق من الناس فيقال لهم: «اذهبوا إلى الجنة بغير حساب». (١) وقد ورد مثل هذا المعنى بالنسبة للصابرين (٢)، كما ورد مثله في السابقين إلى الإيمان (٣). وبالمقابل هنالك طائفه ترد جهنم بغير حساب، فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ثلاثه يدخلهم الله النار بغير حساب: إمام جائر وتاجر كذوب وشيخ زان» (٤). وبالطبع هناك الطوائف الأخرى التي أشارت إليها الروايات أنها تدخل النار دون حساب. ومن الطبيعي أن تكون الطائفة التي ترد الجنة دون حساب أو تلك التي ترد النار بغير حساب أن تكون قد عملت بحيث أصبح كل وجودها نور أو ظلمه وكانت تمشى بصفته فضيله أو رذيله، ومن هنا لم تعد هناك من حاجه للحساب.

٢ - المذموم عباده الدنيا لانيلها

المسألة الأخرى التي تجدر الإشارة إليها هناك هو أن المذموم من الدنيا يكمن في الخلود إليها والاعتزاز بها وتقديسها، أي التضحية بالغالي والنفيس من القيم والمثل من أجل المنافع المادية الدنيوية الرخيصة، وإلا ليس هنالك من ذم للدنيا المشرفه التي يعيش فيها الإنسان بعز وكرامه ويتمتع بما فيها على ضوء العقل والدين. وسنعرض بالتفصيل لهذا الأمر في المباحث القادمة ذات الصلة بهذا الموضوع إن شاء الله.

ص: ٢٠٠

١-١ (١) الكافي ٢/١٢٦. [١]

٢-٢ (٢) بحار الأنوار ٧٩/١٣٨. [٢]

٣-٣ (٣) كنز العمال، ح ٣١ - ٣.

٤-٤ (٤) خصال الصدوق / ٨٠ الباب ٣، ح ١.

ومن خطبه له عليه السلام

وهي الخطبة العجيبة وتسمى «الغراء»

وفيها نعوت الله جل شأنه، ثم الوصيه بتقواه ثم التنفير من الدنيا، ثم ما يلحق من دخول القيامة، ثم تنبيه الخلق إلى ما هم فيه من الأعراس، ثم فضله عليه السلام في التذكير.

نظرة إلى الخطبة

نقل ابو نعيم الاصفهاني جانبا من هذه الخطبة في حليه الاولياء وقال في سبب ورودها ان الإمام عليه السلام شيع جنازه لما ارتفع صراخ أهله حين وضع في القبر فأقسم الإمام عليه السلام أن الموت لا يذر أحدا ولو شاهدوا ما يشاهد هذا الميت لبكوا على أنفسهم دونه، ثم نهض عليه السلام إثر ذلك فأورد هذه الخطبة.

الخطبة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان بصدد إعداد قلوب الناس وإيقاظهم من غفلتهم، وهي خطبة عظيمه المضمون بعينه المعنى لها فعل السحر في النفس بفضلها تتضمن عدداً من الدروس والعبر التي تصنع الإنسان وتهذبه ويمكن تقسيمها إلى إثني عشر قسماً (٢) كل منها يكمل الآخر:

ص: ٢٠١

١-١) سند الخطبة: هذه الخطبة من خطبه عليه السلام المعروفه وفيها من اللطائف والدقائق ما عده ابن أبي الحديد من معجزاته التي فات بها البلغاء وأخرس الفصحاء، وفي قول الرضى (ره): «ومن الناس من يسمي هذه الخطبة بالغراء» دليل على أنّها كانت معروفه بين الناس. رواها الجاحظ، كما رواها حسن بن شعبه في كتاب تحف العقول والآمدى وابونعيم الإصفهاني وابن أثير على كل حال فإنّ هذه الخطبة أشهر من حاجتها إلى مناقشه الاسناد. (مصادر نهج البلاغه ٢/١٠٧). [١]

٢-٢) لا بدّ من الالتفات هنا إلى ان الخطبة تنقسم على أساس تقسيم كلى إلى إثني عشر قسماً، كما أنّ بعض أقسامها تنقسم فرعياً إلى عدّه أقسام، ومن هنا فانا قسمنا هذه الخطبة في شرحها، وتفسيرها إلى ثمانية عشر قسماً.

القسم الأول: يخوض فيه الإمام عليه السلام بحمد الله والثناء عليه وبيان صفات جلاله وجماله ليهيئى القلوب لسماع المواعظ والنصائح.

القسم الثانى: الوصيه بالتقوى بفضلها رأس المال الأصلى للإنسان فى حياته الماديه والمعنويه.

القسم الثالث: ذم الدنيا بفضلها العقبه الكؤود التى تحول دون التقوى والورع.

القسم الرابع: الحديث عن المعاد والحشر وأهوال يوم القيامة لتكون القلوب منفتحه على الاتعاظ بالزواجر.

القسم الخامس: التعرض لاحوال الإنسان من خلال بيان عاقبته.

القسم السادس: التذكير ثانیه بالورع والتقوى.

القسم السابع: لما كان الالتفات إلى النعم الإلهيه يقود الإنسان إلى معرفه الله وشكره على نعمه وطاعته، تطرق عليه السلام فى هذا القسم إلى النعم التى أفاضها الله سبحانه على الإنسان.

القسم الثامن: المواعظ والإرشادات التى تفتح العقول والقلوب.

القسم التاسع: الحديث عن التقوى ثالثه الإشاره إلى كونها أفضل الزاد والمتاع فى سفر الآخره.

القسم العاشر: الكلام عن خلق الإنسان مذ كونه جنيناً إلى موته وما بعد الموت بعبارات توقظ الضمير البشرى.

القسم الحادى عشر: التحذير من عدم السبيل إلى الرجعه بعد الموت ولا تدارك ما فرط فى الدنيا.

القسم الثانى عشر والأخير: إشاره إلى الدروس والعبر التى يخرتها تاريخ الماضين وبيان أحوال الاقوام بعبارات مشيره وحساسه رائعه؛ الأمر الذى جعل السيد الرضى (ره) يقول: بعد أن خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه إقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ وَدَنَا بِطَوْلِهِ مَا نَزَحَ كُلُّ غَنِيمَةٍ وَفَضَّلَ، وَكَاشَفَ كُلَّ عَظِيمَةٍ وَأَزَلَّ أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَسَوَابِغِ نِعْمِهِ وَأَوْمِنُ بِهِ أَوْلَا بَادِيًا وَأَشْتَهِيهِ قَرِيبًا هَادِيًا وَأَسْتَعِينُهُ قَاهِرًا قَادِرًا أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِيًا نَاصِرًا وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ لِيُنْفِذَ أَمْرَهُ وَإِنْهَاءَ عُذْرِهِ وَتَقْدِيمَ نُذْرِهِ» .

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته المشهورة بالغراء بالحمد والثناء والصلوات على النبي صلى الله عليه وآله ثم يعرج على صفاته سبحانه وتعالى، فيحمده بادئ ذى بدء لأربع صفات من صفاته: «الحمد لله الذى علا بحوله (١)، ودنا بطوله، (٢) مانح (٣) كل غنيمه وفضل، وكاشف كل عظيمه وأزل» (٤) إننا نعلم أنّ صفات الله على خلاف صفات عباده المحدوده؛ فهو قريب وبعيد، وظاهر وباطن، وله صفات أخرى متناقضة لا تجمع فى عباده، إلّا أنّها تجمع فى ذاته اللامتناهيه. فقد أشار الإمام عليه السلام فى العبارة الاولى إلى هذا المعنى فقال: «الحمد لله الذى علا يحوله» فهو قريب

ص: ٢٠٣

١- ١) «حول» بمعنى تغيير الشئ وفصله عن آخر، ومن هنا يطلق «الحائل» على ما يفصل بين شيئين، وإذا استعملت هذه المفردة على الله فانه تعنى قدرته على دفع الخطر عن عباده ومن القول: لاحول ولا قوة إلّا بالله.

٢- ٢) «طول» على وزن «قول» بمعنى النعمه ومن ماده «طول» على وزن نور ما يبين امتداد الشئ، ولما كانت النعم امتداد وجود المنعم فقد اطلقت عليها هذه المفردة.

٣- ٣) «مانح» من ماده «منح» على وزن منح تعنى فى الأصل إعطاء اللبن والصوف وولد الحيوان لشخص، ثم اطلقت على كل عطاء، حتى صرح أرباب اللغة بأن منح تعنى أعطى.

٤- ٤) «الأزل» تعنى الضيق والشده، ثم اطلقت على كل بلاء ومصيبه، كما يصطلح بالأزل على الكذب، وقدوردت فى الخطبه بمعنى المصيبه.

فى علوه، وعلوه معلول لقدرته، بينما قر به معلول لنعمته ومنته. ثم أشار فى العبارة الثانىة إلى أنه مصدر البركات الذى يفىض الغنىمة والفضل على العباد، وفى نفس الوقت يكشف عنهم الكرب والبلاء، وكيف لا يرتجى منه ذلك وهو ما علىه من القدره واللفظ والمحبه. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى الآىة القرآنىة الكرىمة: «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ». (١)

ومن البداهة أن غير الله - لأن قدرته محدوده - لا يسعه أى نعمه أو فضل، كما لا يستطيع أن يدفع أى بلاء أو ضرر، وليس هنالك مثل هذه الاستطاعة والقدره سوى للذات المقدسه. ثم يخوض علىه السلام فى علىه الحمد والثناء، بعبارة أخرى كان الحدىث فى العبارات السابقه عن صفات المنعم، أمىا هنا فقد جرى الحدىث عن النعم: «أحمده على عواطف كرمه، وسواىغ (٢) نعمه» فالواقع هو أن للنعم الإلهىة صفتان وسىعه شامله ودائمه مستمره. وليس هذا سوى لقدرته وكمال لطفه الذى أغرق الإنسان بوابل نعمه ولم يقطعها عنه طرفه عىن، ثم قال علىه السلام: «وأومن به أولاً بادياً (٣)، وأستهديه قرياً هادياً، وأستعینه قاهراً قادراً، وأتوكل علىه كافيأ ناصراً» فالإمام علىه السلام يقرن كل شىء بدلىله، فالإيمان به لكونه سابق كل شىء فى الوجود وهو واجب الوجود وقد عمت آثاره كافه ارجاء العالم، كما يستدل على سؤاله الهدايه لأنه الهداى للعباد وهو قريب منهم قادر على هدايتهم. ولما كان الركن الثانى للإيمان - بعد الاقرار لله بتوحىد - الشهاده بالنبوه قال علىه السلام: «وأشهد أن محمداً - صلى الله علىه وآله - عبده ورسوله». ثم أشار علىه السلام إلى الوظائف الثقيله للنبوه لىوزها بثلاث عبارات: «أرسله لانفاذ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره» (٤). فالعبارة الاولى إشارة إلى قيام النبى صلى الله علىه وآله ودعوته الأمة إلى الإيمان بالله، والعبارة الثانىة إلى اتمام الحججه بواسطه إبلاغ أحكام الله واستعراض الأدله العقلىة والمعجزات، والعبارات الثالثه إشارة إلى بيان العذاب الإلهى فى الدنيا والآخرة لأولئك الذين يعصون أوامر الله سبحانه.

ص: ٢٠٤

١- ١) سورة النحل / ٥٣. [١]

٢- ٢) «سواىغ» جمع «سابغه» بمعنى الواسع والكامل وقد ورد تفسىر هذا الاصطلاح فى شرح الخطبه ٦٣.

٣- ٣) بادياً أى سابقاً كل شىء من الوجود، ظاهراً بذاته مظهراً لغيره، والبادى من بدو بمعنى الظهور والبدايه، فالله بادى الوجود، كما أن آثاره ظاهره عمت السموات والأرض.

٤- ٤) «نذر» جمع «نذير»، وردت هنا بمعنى الايات والأخبار التى تحذر من معصيه الله.

إشاره

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي ضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَوَقَّتْ لَكُمْ الْأَجَالَ وَأَلْبَسَكُمْ الرِّيَاشَ وَأَرْفَعَتْ لَكُمْ الْمَعَاشَ وَأَحَاطَ بِكُمْ الْإِحْصَاءَ وَأَرْصَدَتْ لَكُمْ الْجُزَاءَ وَأَثَرَكُمْ بِالنَّعْمِ السَّوَابِغِ وَالرَّفْدِ الرَّوَافِعِ وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ فَأَحْصَاكُمْ عَدَدًا وَوَضَّفَ لَكُمْ مُدَدًا فِي قَرَارِ خَيْرِهِ وَدَارِ عَيْبِهِ أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا» .

الشرح والتفسير

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من حمد الله والثناء عليه والشهادة لرسول الله بالنبوه في المقطع الاول من الخطبه حتى تطرق عليه السلام إلى أهم مسأله تلعب دورها في تقرير مصير الإنسانه الأوهى التقوى، فيوصى بها الجميع ثم يذكر عشر صفات لله كلها تدعو إلى التقوى. فتارة يتحدث عن النعم الموفوره، وتارة أخرى عن الحساب والجزاء، وأحياناً يشير إلى النذر الإلهيه وإتمام الحجه، كما يتكلم عن محدوديه عمر الإنسان وما يتعرض له من تمحيص واختبار، وكل واحد منها من شأنه أن يسوقه إلى التقوى فقال عليه السلام: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال» فالأمثله والتشبيهات التي وردت في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وكلمات المعصومين عليهم السلام لتقريب الحقائق العقليه إلى الأذهان وتجعلها في متناول الحس، لا- تخرج عن أربع صور هي: تشبيه المحسوس بالمحسوس (بالتطبع المحسوس الثاني لابد أن يكون أوضح من المحسوس الأول) ، تشبيه المعقول بالمحسوس، وتشبيه المحسوس بالمعقول، وأخيراً تشبيه المعقول بالمعقول، والغرض من كل هذه التشبيهات هو الاستئناس بالمسائل التربويه والأوامر

والنواهي الإلهيه بحيث يكون مفهومها قريباً لدى النفس ولا- تبقى ألغاز المفاهيم المعقده. ثم قال عليه السلام: «ووقت لكم الآجال» فلكل عمر وأجل معين وقد خط الموت والفناء على جبين الجميع، سواء كان هذا الأجل هو النهايه القطعيه للحياه؛ أى الأجل المسمى، أو النهايه المشروطه؛ أى الأجل المحتوم. فقد قال سبحانه وتعالى: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» (١) وقال: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» (٢).

ومن البديهى أن يتجه الإنسان نحو التقوى حين يلتفت إلى قلب الحياه الدنيا وقصر العمر. ثم قال عليه السلام: «وألبسكم الرياش (٣) وأرفع (٤) لكم المعاش» حيث طرح الإمام عليه السلام مسأله اللباس من بين جميع النعم ثم أشار إلى كافه نعم الحياه والعيش، ولعل كون اللباس من أهم النعم، الذى لا يقتصر على حفظ الإنسان من البروده والحراره ويصونه من الأخطار والصدمات التى تهدده ويستتر عيوبه فحسب، بل لأنّ القرآن شبه التقوى باللباس فى آياته، ومن هنا كان هنالك تناسب مع أصل الحديث عن التقوى، وهذا ما حدا بالإمام عليه السلام إلى تقديم الخاص قبل العام فى إطار حديثه عن النعم. والجدير بالذكر أنّ وجود هذه النعم الفضيله الواسعه التى عمت حياه الإنسان لهى الدافع لمعرفة الله وبالتالي تقواه. فكيف يعرف الإنسان هذه النعم ولا يجد فى رعايه حرمه وليها. فقد ورد فى القرآن الكريم قوله سبحانه: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» (٥). يذكر أن لريش الطيور ألوان مختلفه وجماليه خاصه، ومن هنا فأنه يعنى الزينه أيضاً، ولما كانت التقوى تستر عيوب الإنسان وتحفظه من وساوس الشيطان وهى زينه له، فإن مفرده اللباس فى الآيه

ص: ٢٠٦

١- ١) سورة الاعراف / ٣٤. [١]

٢- ٢) سورة الرحمن / ٢٦. [٢]

٣- ٣) «الرياش» من ماده «ريش» ظاهر اللباس، كما اطلق على كل نعمه موفوره. وقال بعض شراح نهج البلاغه أنّ الريش لايعنى ظاهر اللباس فقط، فقد ورد فى الآيه ٢٦ من سورة الأعراف: «[٣] يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا» ولكن يبدو أنّ الآيه تدل على عكس مراده لأنّ اللباس على نوعين: لباس يغطى بدن الإنسان مصداق (يوارى سواتكم) ولباس الزينه. وقد أشار القرآن إلى الأمرين، ثم اتبعه بالحديث عن لباس التقوى «ولباس التقوى ذلك خير» .

٤- ٤) «أرفع» من ماده «رفع» على وزن هدف بمعنى أوسع، أوسع عليكم النعم.

٥- ٥) سورة الأعراف / ٢٦. [٤]

الشريفه تشير إلى التقوى (١) ثم قال عليه السلام: «وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد لكم الجزاء» طبعاً إذا التفت الإنسان إلى هذه المسألة وهي أنّ الحساب الإلهي دقيق - وكأنه قلعه محكمه يصعب إختراقها حيث لا يسع أى عمل أو قول صدر من الإنسان أن يفلت من الحساب، كما أنّ كل قول وعمل إنّما يحمل جزائه معه، فان هذا الأمر سيدعوه إلى الورع والتقوى وإجتناّب معصيه أوامر الله سبحانه، والعبارة: «أحاط بكم الاحصاء» المستقاه من الآيه الكريمة: «وَأَحَاطَ بِمَا لَمَدْتَهُمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَيْدًا» (٢) إنّما هي عبارة رائعه تشير إلى أنّ الإنسان قد خضع لدائرته الاحصاء الإلهي بحيث لا يصدر منه شيئاً دون حساب، والعبارة: «أرصد لكم الجزاء» تصور الثواب والعقاب كمرقب كمن للإنسان بحيث لا يغادر أى عمل صدر منه، ثم قال عليه السلام: «وآثركم بالنعم السوابغ، والرغد (٣) الروافغ، (٤) وأنذركم بالحجج البوالغ» الايثار تفضيل الشخص على النفس أم الآخرين، ومنه ماورد في الآيه ٩١ من سوره يوسف: «تَاللّٰهِ لَآءَدُوْا آتْرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا». أما ما تصوره بعض شراح نهج البلاغه من أنّ الايثار تقديم الآخر على الذات، أو فيما يحتاجه المؤثر ليس بمستقيم، ولما لا يمكن تصور أى من هذين المعنيين على الله فليس من الصواب الاتجاه نحو المعنى المجازى. (٥) على كل حال فان المراد بالعبارة هو أنّ الله سبحانه قد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته وأفاض عليه نعمه وكراماته؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَيْنَىٰ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً» (٦). فاذا إنتفت الإنسان إلى هذا النعم الإلهيه بما فيها تفضيله على سائر المخلوقات، سيثار لديه حس الشكر، وكما أوردنا سابقاً فإنه سيتجه

ص: ٢٠٧

١- ١) هنالك خلاف بين مفسرى القرآن وشراح نهج البلاغه بشأن محل إعراب (ريشا) فعدّها البعض عطفاً على لباساً ومن هنا فسروها بشئ أوسع أو مغاير للباس، بينما اعتبرها البعض الآخر (مفعول له) تبين هدف نزول اللباس على الإنسان وهو ستر العيوب ثم الزينه، ويبدو المعنى الأخير أكثر إنسجاماً مع الآيه الشريفه.

٢- ٢) سوره الجن / ٢٨. [١]

٣- ٣) «رغد» جمع «رغد» على وزن دفع بمعنى نصيب، وعطاء وجائزه.

٤- ٤) «روافغ» جمع «رافغه» من ماده «رفع» وكما أشرنا سابقاً فانها تعنى السعه والرفعه. وعلى هذا الاساس فان «الرغد» و «الروافغ» تأتي بمعنى عطايا الله سبحانه وتعالى.

٥- ٥) جاء في مقاييس اللغه أنّ أصل هذه المفرده يعنى تقديم الشئ هذا ما صرح به الراغب في مفرداته. وقال في كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم: «حقيقه الايثار إثبات الفضيله وتقديم صاحب الفضل».

٦- ٦) سوره الاسراء / ٧٠. [٢]

لمعرفه المنعم وبالتالي الامتناع عن مخالفته والتمرد على أوامره والتحلى بالورع والتقوى. أمّا الحجج البوالغ المتمثله بالأنبياء والكتب السماويه والمعجزات والأدله العقليه والنقلية فهي الأخرى من دواعى الورع والتقوى وأما ذكر النعم إلى جانب الحجج فيمكن أن يكون إشاره إلى أنّ الله فى الوقت الذى يغدق كل هذه النعم على الإنسان، إلّا أنّه يحذره من استغلالها وأنّ عليه أن يوظفها بما يقوده إلى الفلاح والسعاده. ثم إختتم عليه السلام كلامه بهذا الشأن قائلاً: «فأحصاكم عدداً، ووظف لكم مدداً، (١) فى قرار خبره (٢)، ودار عبره، أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها» لقد سبق الحديث فى الصفه الثانيه عن أجل الإنسان وفى الصفه الخامسه عن إحصاء الناس وعددهم، ثم كرر عليه السلام هذين الوصفين لأهميتهما وتأثيرهما المباشر فى تجلى حقيقته التقوى فى وجود الإنسان، كما يمكن أن يفيد هذا التكرار معنى آخر، فقد كان الحديث فى العبارات السابقه عن الاحاطه بأعمال الإنسان، ومن هنا أوردف بالكلام عن جزاء الأعمال، أمّا هنا فقد ورد الكلام عن إحصاء الناس بحيث لا يشرّد أحدهم عن مراقبه الله سبحانه، كما صرح بذلك القرآن: «إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا» (٣). ولئن أشار إلى انتهاء الأجل فإنّ ذلك مقدمه للعبارات التاليه (الحياه فى دار الإمتحان والابتلاء) وفى الواقع هى من قبيل البيان الإجمالى والتفصيلى للعباره السابقه. وأمّا قوله عليه السلام: «قرار خبره ودار عبره» فواضح فى أنّ حياه الناس تمثل امتحانهم واختبارهم؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن بالقول: «أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» (٤). والتعبير بالعبره يشير إلى الاعتبار بمصير الظلمه والأقوام الطاغيه والأفراد الذين تلطخت أيديهم بالذنوب والمعاصى، وأنّ العقاب الإلهى لا يقتصر على الآخره بل يطيل

ص: ٢٠٨

١- ١) «مدد» جمع «مده»، أى عين لكم أزمنه تحيون فيها، فالمدّه جزء من الزمان، كما تأتى بمعنى إنتهاء زمان معين.
٢- ٢) «خبره» تفيد معنى المصدر واسم المصدر تعنى العلم والاطلاع، ومن هنا يقال «أهل الخبره» لمن كان لهم العلم الكافى بالشيء، كما تعنى الإمتحان وقد وردت هنا بهذا المعنى؛ أى فى دار ابتلاء واختبار وهى دار الدنيا.

٣- ٣) سوره مريم / ٩٣ - ٩٤. [١]

٤- ٤) سوره العنكبوت / ٢ - ٣. [٢]

الأفراد حتى في الحياه الدنيا. والضمير في العبارة «ومحاسبون عليها» يعود إلى دار الدنيا؛ أى كما أنّ الدنيا دار بلائكم وتمحيصكم فان حسابكم يتعلق بها بما أسلفتم من أعمال وتمتعتم من نعم أفاضها الله عليكم.

التقوى في كل زمان ومكان

كما أوردنا آنفاً فإنّ الإمام عليه السلام أعقب الحمد والثناء بالدعوه إلى الورع والتقوى التى تختزن كفافه مقومات السعاده الإنسانية وتحدد مكانه الإنسان لدى الله وتشكل أفضل الزاد إلى الآخرة. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لا يكتفى بالوصيه بالتقوى بل يشير إلى جميع الأمور التى من شأنها بلوغ التقوى، ومنها النعم الإلهيه المختلفه وقصر عمر الإنسان والاحاطه التامه لله سبحانه بالناس وأعمالهم وأقوالهم والدروس والعبر التى تتضمنها حياه الأقبوام السابقه، بل وحتى الأمم الحاضره، إلى جانب الالتفات إلى هذا المعنى وهو أن هذه الدار الدنيا هى قاعه اختبار وامتحان وأنّ الله واطر أنبيائه ورسله وأنزل معهم الكتب السماويه لانداز العباد، والحق أنّ هذا ذروه الفصاحه والبلاغه فى أن تجمع كل هذه الأمور التى تصور التقوى بمعناها الكبير بهذا العبارات القصيره.

حقاً إنّ تأمل هذه الأمور الوارده فى الخطبه ليقود الإنسان إلى إستشعار الورع والتقوى والاحساس بحضوره سبحانه على الدوام. فأنى للإنسان أن يتمرد على خالفه وقد شعر بفيض نعمه عليه وأيقن بالقيامه والبعث والحساب وآمن بالحجج الإلهيه التى تضمنتها الكتب السماويه وصدحت بها أنبياء الله ورسله والأئمه عليهم السلام، وهو يرى قصر عمره وتقلب أحوال الدنيا والدروس والعبر التى إشتملت عليها حياه سالف الأمم.

«فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنْقٌ مَشْرَبُهَا رَدْعٌ مَشْرَعُهَا، يُوتِقُ مَنْظَرُهَا وَيُوبِقُ مَخْبِرُهَا، غُرُورٌ حَائِلٌ، وَضَوْءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زَائِلٌ، وَسَيْنَادٌ مَائِلٌ، حَتَّى إِذَا أَنْسَ نَافِرُهَا وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا، وَقَنْصَتْ بِأَحْبِلِهَا، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْدِيهِمَا، وَأَعْلَقَتْ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَيْتَةِ قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجِعِ، وَوَحَشَهُ الْمَرْجِعِ، وَمُعَايِنَةَ الْمَخِيلِ وَثَوَابِ الْعَمَلِ، وَكَذَلِكَ الْخَلْفُ بِعَقْبِ السَّلْفِ، لَا تَقْلَعُ الْمَيْتَةُ اخْتِرَامًا، وَلَا يَزْعَوِي الْبَاقُونَ اخْتِرَامًا، يَحْتَدُونَ مِثَالًا، وَيَمْضُونَ أَرْسَالًا، إِلَى غَايَةِ الْإِنْتِهَاءِ، وَصَيُورِ الْفَنَاءِ» .

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بالذم الشديد الدنيا، حيث كان حديثه عن دار الامتحان والعبره، فيشرح هنا خصائص هذه الدار بعبارات روعه في الفصاحه والبلاغه. من جانب آخر خاض الإمام عليه السلام في التقوى، ونعلم أنّ العقبه الكؤود التي تعترض سبيل التقوى إنّما تكمن في حبّ الدنيا والتعلق بمادياتها، ومن هنا ذمها الإمام عليه السلام ليحط من قدرها لدى الناس ويقوى عندهم حس التقوى. فقد أشار عليه السلام إلى ثمان من مميزات الدنيا فقال عليه السلام: «فإنّ الدنيا رنق (1) مشربها، رذغ (2) مشرعها» عاده ما يكون مستوى الأنهار التي يستفيد الإنسان

ص: ٢١١

١- ١) «رتق» صفة مشبهه بمعنى الكدر. وعليه فإنّ العبارة (رتق مشربها) إشارة إلى كدر شرب الدنيا، أمّا روتق فتعني الجمال، وذلك لأنّ اللغة العربية تتضمن أحياناً ماده واحده لمعنيين متضادين.

٢- ٢) «رذغ» من ماده «رذغ» على وزن فتق كثير الطين والوحل. وفي التشبيه الذي ورد أعلاه في الخطبه حيث وصفت الدنيا بمثابه نهر كبير ينتهي جريانه بماء مملوء بالطين والوحل.

من مياهها أكثر إرتفاعاً من سطح الأرض المجاوره لها بحيث يصعب التزود منه، ومن هنا يحفر جزء من ساحل النهر ليتمكن الوصول إلى ماء بسهولة، وتصطلح العرب على هذا الجزء الذى يسهل الوصول إلى الماء بالشرية أو المشرع حيث ينتهى إلى الماء يطلق عليه المشرب؛ فاذا تلوث المشرب بالطين والوحل أو تلوث الماء بحيث يتعذر التزود منه يعمد إلى إحداث شريعه بصوره مناسبه، أو يجعل عليه قنطره لحل تلك المشاكل. الغرض هو أن الإمام عليه السلام شبه نعم الدنيا بالماء، إلّا أن المؤسف له هو أنّ الوصول إلى الماء يمر عبر الوحل ونقطه بلوغ الماء كانت موضعاً يلوث الماء، ومن هنا فإنّ هذا الماء يدعو إليه العطاش من بعيد، إلّا أنّهم حين يصلوه يرون أنفسهم أمام سيل من المشاكل، فلا يتمكنوا من الحصول على الماء العذب، والحق أنّ هذا هو حال متع الدنيا كالمال والمقام وما إلى ذلك؛ وذلك لأنّ نيل الدنيا يحتم على الإنسان الاغماض عن الكثير من الفضائل الأخلاقية واعتياد الكذب والغدر والخيانة والذل، وكل من هذه الرذائل مستنقع يكمن فى طريق الوصول، فاذا وصل اصطدم بأنواع الحسد والطمع؛ الأمر الذى يعكس صفو الماء. ثم قال عليه السلام «يوق (1) منظرها، ويوق (2) مخبرها» لقد ورد هذا التناقض لظاهر الدنيا وباطنها بعدّه صور فى عبارات أئمه العصمه، ومن ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «فإنّما مثل الدنيا مثل الحيه: لين مسها، وقاتل سمها» (3) ويشبهونها أحياناً بالمرأه الجميله التى تقتل أزواجها الواحد تلو الآخر. وبالطبع فإنّ أوصاف الدنيا ليست بالخافيه على الإنسان اللبيب، فظاهرها أنيق ساحر وباطنها خطر قاتل. ثم قال عليه السلام: «غرور حائل (4)، وضوء آفل، (5) وظل زائل، وسناد (6) مائل» ممّا لاشك فيه أنّ الدنيا تنطوى على عناصر الجمال والخداع، إلّا أنّها تنتهى لمجرد أن يريد الإنسان التمتع بها، ومن هنا

ص: ٢١٢

١-١) «يوق» من ماده «آثق» على وزن شفق يعجب، وقوله عليه السلام «يوق منظرها» إشاره إلى المنظر العجيب للدنيا.

٢-٢) «يوق» من ماده «وبوق» يهلك «وموبوق» بمعنى مهلك.

٣-٣) نهج البلاغه، الرساله ٦٨. [١]

٤-٤) «حائل» من ماده «حال» بمعنى التحول والانتقال واطلاق «الحول» على السنه لتحولها. وعليه فالحائل المتغير.

٥-٥) «آفل» من ماده «أقول» بمعنى الغياب ومنه أفول الشمس والقمر غروبهما.

٦-٦) «سناد» بالكسر ما يستند إليه وهو الدعامة، ولما كانت الدنيا دعامة معوجه ولا يمكن الاستناد إليها عبرت عنها خطبه «سناد مائل» .

عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرور الحائل، لأنَّ الغرور بالضم من لوازم الجمال الظاهري، أما الغرور بالفتح تعنى الشخص الخادع ومن هنا أطلق الغرور على الشيطان. ولما كانت أمتعه الدنيا براقه فقد عبر عنها الإمام عليه السلام بالضوء، إلا أنَّ هذا البريق ليس له دوام وسرعان ما يخفت، الأمر الذى جعل الإمام عليه السلام ينعت ذلك الضوء بالآفل. وتتصف بظلمتها الوداع المؤقت كظل شعاع الشمس على الأشجار الذى سرعان ما ينقشع ويزول، ومن هنا فان الظل الزائل الذى تمثله أمتعه الدنيا يمكن أن يكون ركنا يوثق به، غير أنه ركن خاو، ولذلك عبر عنه عليه السلام بالسناد المائل. ثم أشار عليه السلام إلى سائر خصائص الدنيا، وبعبارة أخرى فإنه تعرض للصفات المذكورة بتشبيهات وتعبيرات جديدة فقال عليه السلام: «حتى إذا أنس نفارها، واطمان ناكرها، قمصت (١) بأرجلها، وقنصت (٢) بأحبلها (٣)، وأقصدت بأسمها (٤)» فقد صور الإمام عليه السلام الدنيا ووضعها بثلاثه تشبيهات: الأول شبه الدنيا بمركب طيب الظاهر، إلما أنه سرعان ما يجمع وي طرح راكمه أرضاً. ثم شبهها بالصياد الذى يرمى بشباكته وينثر فيها حبوب فخره فاذا إقرب صيده لم يجدله من سبيل إلى الهرب، وأخيراً شبهها بالصياد الذى يكمن فى الطريق فاذا شاهد صيده صوب إليه سهامه.

والجدير بالذكر فى العبارة «حتى إذا أنس نافرها. . .» انها تشير إلى حقيقته وهى أنّ خداع الدنيا ليس بالشئ إلهين الذى يمكن تجاوزه بسهولة، بل تجر إليها أحياناً حتى الزهاد والعباد لتلقى بهم فى حبالها وشباكها، ومن هنا ينبغى أن يلتفت الجميع إلى مدى خطوره هذه الدنيا الغراره والمداومه على هذا الذكر: «اللهم لا تكننى إلى نفسى طرفه عين أبدا». ثم أشار عليه السلام إلى عاقبه أمر الإنسان فقال: «وأعلقت المرء أوهاق (٥) المنيه قائده له إلى ضنك المضجع (٦)،

ص: ٢١٣

- ١-١) «قمصت» من ماده «قمص» على وزن شمس بمعنى رفع اليدين وطرحهما معاً ومنه قمص الفرس، كما تستعمل هذه المفرده كناية عن الذل بعد العز.
- ٢-٢) «قنصت» من ماده «قنص» بمعنى الصيد والقانص الصياد.
- ٣-٣) «أحبل» جمع حبل.
- ٤-٤) «أسمهم» جمع سهم وجمعه الآخر سهام.
- ٥-٥) «أوهاق» جمع «وهق» على وزن شفق بمعنى الحبل الذى يربط به عنق الإنسان أو الحيوان.
- ٦-٦) «ضنك المضجع»، ضنك يعنى ضيق ومضجع الموضع الذى يضع الإنسان عليه ضلعه، والمراد به فى العبارة القبر.

ووحشه المرجع، ومعاينه المحل، وثواب العمل» لاشك أن طلاب الدنيا أهلها ليسوا مستعدين للتخلي عنها، إلا أنها تلقى بحبل الموت بكل قسوه على أعناقهم، فتخرجهم بالقوه من قصورهم الفارقه ودورهم العامره لتوردهم تلك الحفر المظلمه الموحشه التي تملأه خوفاً واضطراباً، والأنكى من ذلك زوال الحجب عن عينيه ورؤيته لموضعه الذى سيحله، فان كان مستحقاً للعذاب، رأى بأم عينيه نار جهنم فيزداد خشيه لمفارقه لدنيا بما فيها من مال ومقام وزوجه وولد. ثم يختم كلامه عليه السلام بالإشاره إلى هذه الحقيقه وهى أن ما أورده الإمام بشأن الدنيا وأبناءها لا يختص بالماضيين أو بطائفه معينه من الناس، بل يشمل الجميع الذين لا بد لهم أن يشهدوا هذا الامتحان ويذوقوا الموت فما من خلود وبقاء سوى لله سبحانه، حيث قال عليه السلام «وكذلك الخلف بعقب السلف، لا تقلع المنيه اختراماً (١) ولا - يرعوى (٢) الباقون اجتراماً (٣)». نعم فهم يعملون على غرار من سبقهم ويحذون حذوهم «يحتذون (٤) مثلاً، ويمضون أرسالاً، (٥) إلى غايه الانتهاء، وصيور (٦) الفناء». فقد تضمنت العبارة الاشاره إلى أمرين: الأول الحذار من أن يتصور البعض أنه مستثنى من هذا القانون العام فيظنون أنهم مخلصون فى الدنيا باقون فيها. والثانى الاعتبار بالماضيين من خلال النظر إلى آثارهم ليروا أين حلوا، وكيف كانوا: من كان لا يظأ التراب برجله

ص: ٢١٤

-
- ١-١) «أخترام» من ماده «خرم» بمعنى اشق و هى تشير هنا الى الحوادث التى تستأصل عمر الانسان.
- ٢-٢) «يرعوى» من ماده «رعوه» على وزن سهو بمعنى الرجوع و العوده من الجهل إلى العلم و اصلاح النفس و الجمله أعلاه «لا يرعوى الباقون احتراماً» اشاره إلى أن البعض لا يعتبرون من دروس العبره التى تمر بهم و لا يتراجعون و لا يتوبون من الذنوب التى اقترفوها و بالاخير فانهم لا يقدمون على اصلاح انفسهم.
- ٣-٣) «إجترام» من ماده «جرم» الذنب و اقتراف السيئات.
- ٤-٤) «يحتذون» من ماده «حذو» على وزن حذف بمعنى القيام بالأعمال المشابهه، و من هنا وردت بمعنى الاقتداء فى الأعمال، وريد بها فى العبارة يشاكلون بأعمالهم صور أعمال من سبقهم و يقتدون بهم.
- ٥-٥) «ارسال» جمع «رسل» على وزن عسل القطيع من الابل و الغنم و الخيل، اريد بها فى العبارة من يتبع الآخرين دون أدنى فكر و مطالعه.
- ٦-٦) «صيور» على وزن قيوم من ماده «صير» على وزن سيل بمعنى الانتقال من حاله إلى اخرى، و هى هنا صيغه مبالغه اريد بها مصيره و ما يؤول إليه أمره.

أما التعبير بالاخترام وبالالتفات إلى معنى هذه المفردة الذى يفيد القطع والقص (ولذلك فسّر بعض شراح نهج البلاغه الموت المحزوم بالموت الذى يطيل الإنسان قبل مدته الطبيعیه) (١) كأنه يشير إلى حقيقه وهى أن إحدى مشاكل الحياه الدنيا فى أنه قلما يفارق أحد الدنيا بموت طبيعى؛ أى أنه يوظف كافه طاقاته من أجل البقاء بينما يأتيه الموت، بل غالباً ما يخرق عمره بفعل مختلف العوامل سواءاً الداخليه أو الخارجيه، الجسميه أو النفسيه وأخيرا الحوادث الفرديه أو الاجتماعيه، ومن هنا لايسع أى فرد أن يؤمل العيش ولو ليوم أو ساعه. والسؤال المطروح لم رغم كل هذه الأمور والحال «لايرعوى الباقون اجتراما»؟ ليس هنالك من جواب سوى الغفله والجهل ووساوس النفس الاماره والشياطين الذين يحكمون سيطرتهم على الإنسان ويحجبون أبصارهم وبصائرهم عن رؤيه الحقائق. فهو بالضبط كالطير الذى يرى الحبوب دون أن يرى المصيده التى نصبها له الصياد.

تقلب الدنيا

لقد إستفاضت الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه التى كشفت النقاب عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها. وما أروع الصوره التى رسمها القرآن لهذه الدنيا حين شبهها بماء المطر: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْطَلَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا» (٢). الخطبه التى نحن بصدددها هى الأخرى رسمت صوره ناصعه لتفاهه الدنيا بحيث تهز عباراتها ضمير أهل الغفله لتلفت إنتباههم إلى الآخره، وكثيره هى خطب نهج البلاغه التى وردت بشأن الدنيا، ولعل السبب الذى يكمن وراء كل هذه التأكيدات هو أنّ العصر الذى عاشه الإمام عليه السلام قد أعقب تلك الفتوحات الإسلاميه والتى جرت ثروات طائله على البلاد الإسلاميه، حتى كانت آثار السلاطين والملوك النفسيه من بين الغنائم التى كان تحصل عليها الجيوش الإسلاميه؛ الأمر الذى شد أنظار أغلب الأفراد إلى الدنيا، وهذا ما أدى بالتالى إلى فساد المجتمع الإسلامى. فما

ص: ٢١٥

١-١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحرانى ٢/٢٣٦.

٢-٢) سورة الكهف / ٤٥. [١]

كان من الإمام عليه السلام وبغية إعادته الأئمة إلى مسارها الإسلامى الصحيح الذى رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أنّ يعتمد تلك الحياه الزاهده المتواضعه من جهه، ويلقى بكلماته الروحيه ليوقظ تلك القلوب الغافله من جهه أخرى. الادباء والشعراء على مر العصور أنشدوا الشعر فى تصوير غدر الدنيا وعدم وفائها.

والعجيب فى الأمر أنّ كل هذه الآيات والروايات إلى جانب النظم الأدبى البديع لم تتمكن من إيقاظ أهل الدنيا وسلخهم عنها، فواصلوا بكل قوه مسارهم المنحرف دون الإكتراث لهذا الواعظ أو ذاك. نعم فالمؤمنون إنّما يتعظون بهذه العبر ويتفجعون بها ليجدوا ويجتهدوا فى إصلاح أنفسهم ومعادهم.

ص: ٢١٤

«حَتَّىٰ إِذَا تَصَيَّرَ الْمُؤْمِرُ، وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ، وَأَزِفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ صَرَائِحِ الْقُبُورِ، وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ، وَأَوْجِرِهِ السَّبَاعِ، وَمَطَارِحِ الْمَهَالِكِ، سِرَاعًا إِلَىٰ أَمْرِهِ، مُهْطِعِينَ إِلَىٰ مَعَادِهِ، رَعِيلاً صِيْمُوتًا، قِيَامًا صِيْفُوفًا، يَنْفِذُهُمُ الْبَصِيرُ، وَيُسْجِعُهُمُ الدَّاعِي، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الْإِسْتِشْيَامِ وَالذَّلَّةِ، قَدْ ضَلَّتِ الْحَيْلُ، وَأَنْقَطَعَ الْأَمَلُ، وَهَوَّتِ الْأَفئِدَةُ كَاطِمَةً، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيِّمَةً، وَالْجَمَّ الْعَرَقُ، وَعَظَّمَ الشَّقَقُ، وَأَرْعَدَتِ الْأَسْمَاعُ لِرَبِّهِ الدَّاعِي إِلَىٰ فَضْلِ الْخِطَابِ، وَمُقَايَصِهِ الْجَزَاءِ وَنِكَالِ الْعِقَابِ، وَنَوَالِ الثَّوَابِ» .

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام في هذه الخطبه الغراء حقاً من حمدالله والثناء عليه والوصيه بالتقوى وشرح أوضاع الدنيا وغدرها، تطرق عليه السلام إلى المعاد ليصور المحشر وأحوال الخلائق فيه بحيث لا يبقى مجالاً للغفله فقال عليه السلام: «حتى إذا تصرمت الأمور، وتقضت الدهور، وأزف (1)النشور» فالعبارات الثلاث إشاره واضحه لنهايه العالم. حيث تعرضت العبارة الاولى إلى فناء وزوال كل شئ: العمر، القدره والقوه، الأموال والثروه . . . ، والعبارة الثانيه لانتهاه الشهور والسنوات والقرون، والعبارة الثالثه وهى النتيجة لما تقدم إقتراب الساعه والبعث والقيامه. أما بشأن نهايه العالم والأحداث المهيبه التى ستودى إلى ذلك - كما صرح القرآن الكريم - وكيفيه عالم

ص: ٢١٧

١-١) «أزف» من ماده «أزف» على وزن شرف بمعنى الاقتراب.

البرزخ فإن الإمام عليه السلام لم يتطرق إلى ذلك، بل خاض مباشرة في بعث الأموات وخروجهم من القبور والتي تمثل لب المطلوب فقال عليه السلام: «أخرجهم من ضرائح (١) القبور، وأوكار (٢) الطيور، وأوجره (٣) السباع، ومطرح (٤) المهالك». قد يفارق الإنسان الدنيا إثر الموت بصورة طبيعية، وقد يموت في الصحراء لو حده ليكون جسده طعمه للحيوانات المفترسه، وقد يفترسه أحياناً وحشاً ضارياً، ويمكن أن يموت غرقاً في البحر، كما قد تقتله الزلزله فيبقى جسده تحت الانقاض، فالإمام عليه السلام يخبر أن الله سبحانه عليم بمواضع جميع هؤلاء وسينشرهم جميعاً للحشر فيحاسبهم على أعمالهم. كما يشير عليه السلام ضمناً إلى هذه المسأله وهى أن أحدا لا يعرف كيف سيفارق الدنيا، وأى موضع سيحوى جسده، الأمر الذى يدعو إلى الاعتبار فقد قال سبحانه بهذا الخصوص: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» (٥). والآيه كسائر الآيات الشريفه تعرض بصراحه للمعاد الجسمانى؛ لأن ما فى القبور أو أعشاش الطيور وكهوف الوحوش هو تراب البدن وعظامه، وإلا فالقبر لا يضم الروح بعد مفارقتها للبدن، وهذا ما سنتعرض له فى المبحث القادم. ثم قال عليه السلام: «سراعاً إلى أمره، مهطعين (٦) إلى معاده، رعيلاً (٧) صموتاً، قياماً صفوفاً، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعى» فالعباره صورته حيه عن وضع العباد فى عرصه المحشر؛ ويالها من صورته مرعبه مخيفه. وهى العبارة التى ورد شبيهاً فى القرآن بخصوص حركة الإنسان فى المحشر من قبيل المفردة «سراعاً» (٨) و«يَنْسَبِلُونَ» (٩) ويعبر أحياناً أخرى عن مدى سرعته بالقول ويعبر أحياناً أخرى عن مدى سرعته بالقول: «كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِّضُونَ». (١٠)

ص: ٢١٨

- ١-١ «ضرائح» جمع «ضريح» بمعنى القبر، أو الشق وسط القبر.
- ٢-٢ «أوكار» جمع «وكر» على وزن مكر بمعنى عش الطيور.
- ٣-٣ «أوجره» جمع «وجار» الحفر التى تظهر إثر السيول فى الأودية، كما تطلق على كهف الوحوش.
- ٤-٤ «مطرح» جمع «طرح» الموضع الذى تطرح فيه الأشياء.
- ٥-٥ سورة لقمان / ٣٤. [١]
- ٦-٦ «مهطعين» ماده «هطع» على وزن منع بمعنى الرعه المصحوبه بالخوف.
- ٧-٧ «رعيلاً» القطيع من الخيل أو الطيور.
- ٨-٨ سورة المعارج / ٤٣. [٢]
- ٩-٩ سورة يس / ٥١.
- ١٠-١٠ سورة المعارج / ٤٣. [٣]

فحركة الناس جماعيه ووقوفهم فى المحشر على شكل صفوف مختلفه، أو أنّ الناس تفصل عن بعضها البعض البعض الآخر تبعاً لأعمالها بحيث يلتحق كل بنظيره فيكون مصيرهم واحداً، أو أنّهم كانوا جماعه فى قبورهم فينطلقون معاً للحساب. القرآن من جانبه قال بهذا الشأن: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا» (١) ولاشك أنّ سرعه حركتهم تكشف عن مدى خوفهم واضطرابهم من مصيرهم وتوقعهم لما يفجعهم من حوادث. والعبارة: «ينفذهم البصر» أى هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك الله سبحانه وتعالى، وهم مع هذه الكثره أيضاً لا يبقى منهم أحد إلّا إذا دعا داعى الموت سمع دعاءه. ثم إنتقل عليه السلام إلى صورته أخرى من صور الخلائق فى يوم الحشر فقال عليه السلام: «عليهم لبوس الاستكانه، وضرع (٢) الاستسلام والذله، قد ظلت الحيل، وانقطع الأمل، وهوت الافئده كاظمه، وخشعت الاصوات مهيمنه، (٣) وألجم العرق، وعظم الشفق». (٤)

لا تبدو ظهور مثل هذه الحالات حين يغلق باب الرجعه ويحكم الله بين الخلائق وتخضع كافه الأعمال بصغيرها وكبيرها إلى الحساب العسير ويعرف الجزاء ويتجسم العقاب الذى ينتظر أهل الذنوب والمعاصى. وقد تضمن القرآن الكريم هذه الأوصاف، بل ما ورد فى الخطبه إنّما إقتبسه الإمام عليه السلام من القرآن. فقد قال القرآن فى موضع: «مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُتُهُمْ هَوَاءٌ» (٥) وقال فى موضع آخر: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا» (٦). العبارة «ألجم العرق» تعبير رائع عن ذروه بلاء أهل المحشر، فالخوف والاضطراب من جانب، وحراره المحشر من جانب آخر، وتدافع الناس وشده الزحام والارهاق بحيث يغطى العرق أبدانهم حتى إنّ فمهم ليمتلاً عرقاً إذا ما فتحو شفاهم.

ص: ٢١٩

١-١ (١) سورة النبأ / ١٨. [١]

٢-٢ (٢) «ضرع» على وزن طمع الضعف والخضوع والذل.

٣-٣ (٣) «مهيمنه» من ماده «هيمنه» متخافيه، الصوت الخفى.

٤-٤ (٤) «شفق» تعنى فى الأصل إختلاط ضياء النهار بظلمه الليل، كما تطلق على خصوص الخوف وبهذا المعنى وردت فى العبارة.

٥-٥ (٥) سورة ابراهيم / ٤٣. [٢]

٦-٦ (٦) سورة طه / ١٠٨. [٣]

ثم قال عليه السلام: «وارعدت السماع لزبره (١) الداعى إلى فصل الخطاب، ومقايضه (٢) الجزاء، ونكال (٣) العقاب، ونوال (٤) الثواب». والواقع أنّ الخوف إنّما ينبع من عدم معرفه الإنسان لمصيره وما سيؤول إليه أمره وهو يرى نفسه بين الثواب والعقاب والجنّة والنار. كما أنّ سبب الخوف والذعر هو أن الإنسان لا يعلم بمدى إخلاصه فى طاعاته وعباداته، إلى جانب تذكره لبعض زلاته وأخطائه. فالحساب دقيق ولا محاسب هو الشاهد العليم بكل شئ، ولا من سبيل إلى العوده، كما ليس هنالك من سبيل لأنّ يدافع شخص عن آخر.

تأملات

١ - أضواء على المعاد الجسماني

رغم اختلاف الفلاسفه بشأن المعاد وكونه جسمانياً أو روحياً، غير أن الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه صريحه بهذا الخصوص ولا تحمل أى إبهام فى عوده الروح والبدن فى عالم الآخره، وإن المعاد سيكون بالروح والجسم معاً والشاهد على ذلك طائفه من الآيات والروايات، ومنها الآيات التى صرحت بقيام الناس من قبورهم إلى الحساب. (٥) وبالطبع فإنّ القبر إنّما يضم عظام الإنسان وما يتبقى من تراب من جسده. والإمام عليه السلام أشار صراحه إلى هذا الأمر فى الخطبه إذ قال: «أخرجهم من ضرائح القبور، وأو كار الطيور، وأوجره السباع، ومطرح الهالك و...». والواقع أنّ المعاد ينبغى أن يكون كذلك إذا أريد له أن يكون كاملاً عادلاً، وذلك لوجود التأثير المتبادل بين الروح والجسد، وأنهما يتكاملان معاً، فمفارقة أى منهما للآخر يجعل صاحبه ناقصاً، ومن الخطئ ما يردد أنّ الإنسان بروحه، على أنّ ذلك يستند إلى الظن السائد باستقلال الروح الكامل. ويبدو أنّ هذا البحث واسع شامل نكتفى هنا بهذا المقدار ونترك التفاصيل لموضعها. (٦)

ص: ٢٢٠

- ١-١ «زبره» الكلام الشديد و لا يقال زبره إلا إذا كان فيها زجر.
- ٢-٢ «مقايضه» من ماده «قيض» على وزن فيض بمعين المعاوضه.
- ٣-٣ «نكال» بمعنى العذاب.
- ٤-٤ و نوال بمعنى النعمه.
- ٥-٥ أشرنا فى البحث السابق إلى الآيات ذات الصله بهذا الموضوع.
- ٦-٦ راجع نفحات القرآن ٥/٣٠٧ - ٣٥٣.

من بين الشبهات التي أثبتت بشأن المعاد الجسماني والتي جعلت البعض ممن لم يتلق الاجابه الصائبه عليها إلى نفي مثل هذا المعاد هي الشبهه المعروفه بالأكل والمأكل المعقده. والشبهه هي: إذا إفترض أن قحطا أصاب جماعه وتغذى بعض الناس من لحم البعض الاخر، فما تكليف بدن هؤلاء الأفراد الذين أصبح لحمهم جزءاً من بدن أفراد آخرين يوم القيامه والمعاد؟ فإن عاد هذا اللحم إلى الأول أصبح الثاني ناقصاً، وإن حشر مع الثاني كان الأول ناقصاً.

كما يمكن طرح هذه الشبهه بصورة أوسع. فبدن الإنسان عاده ما يستحيل إلى تراب، والنباتات والحيوانات إنما تتغذى على هذا التراب، وبالتالي فإن الإنسان إنما يتغذى على النباتات والحيوانات فتصبح جزءاً من بدنه، وهنا يتكرر السؤال السابق في أن هذه ستلحق أى بدن؟ ولعل ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه: «... من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجره السباع ومطراح الهالك» يثير مثل هذه الاستله أيضاً.

والإجابه على هذا السؤال تبدو طويله نكتفى بخلاصتها. فالآيات والروايات تفيد عوده آخر بدن للإنسان الذى تحول إلى تراب يوم القيامه، وبناءً على هذا فإن هذا البدن الذى أصبح جزءاً من آخر سينفصل عنه ويعود إلى البدن الأول، ومشكله نقصان البدن الثانى يمكن حلها بكل سهوله، وذلك لأنّ سائر أجزاء البدن تعيش حاله النمو وتملاً- المواضع الخاليه؛ الأمر الذى نلمسه باستمرار فى هذا العالم حين يتعرض الجسد لبعض الضربات والصدمات، حيث تأخذ الخلايا بالنمو وتعوض الأجزاء التالفه من البدن، وبالطبع فإنّ هذه الحاله إنما تحصل بصورة أسرع فى ذلك العالم. وأخيراً يشهد عالمنا المعاصر قضيه الاستنساخ البشرى، حيث تؤخذ خليه من بدن كائن حى لتنتج شبيهاً لذلك الكائن، ويبدو حل هذه المسأله سهلاً جداً، وعليه فليس لشبهه الأكل والمأكل أن تعيق المعاد الجسماني. (١)

ص: ٢٢١

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: إذا تغيرت الأرض والسماء عما هى عليه على أعتاب القيامة بحيث يتغير كل شىء، فكيف ستبقى القبور على حالها ويبعث من فيها للحساب؟

ويقال فى الإجابة على هذا السؤال: أن الأرض وعلى ضوء الآيات القرآنية أنها ستشهد زلزه عظيمه: «إِنَّ زَلْزَلَهُ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ» (١)، وعليه فليس هنالك ما يمنع أن تبقى هذه القبور تحت انقراض تلك الزلزه العظيمه.

كما أن السباع والوحوش التى ابتلعت أبدان بعض الناس وقد استحالت تراباً بعد موتها، هى الاخرى تبقى تحت الانقراض بعد الزلزه العظيمه فيخرج الناس منها إلى الحشر يوم القيامة. وخلاصه القول هى أن العالم يتهدم لاينعدم ويزول، وبالطبع فإن تراب الناس وعظامهم يبقى محفوظاً.

ص: ٢٢٢

«عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ أَقْتِدَارًا، وَمَرْبُوبُونَ أَقْتِسَارًا، وَمَقْبُوضُونَ اخْتِضَارًا، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثًا، وَكَائِنُونَ رُفَاتًا، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَادًا، وَمَيِّدُونَ جَزَاءً، وَمُمَيِّزُونَ حِسَابًا، قَدْ أَمْهَلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ، وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ، وَعَمَّرُوا مَهْلَ الْمُسْتَعْتَبِ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدْفُ الرَّيْبِ، وَخُلُوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ وَرَوِيهِ الْإِرْتِيَادِ، وَأَنَاهِ الْمُقْتَبِسِ الْمُتَرَادِ فِي مَدَّةِ الْأَجْلِ، وَمُضْطَرَبِ الْمَهْلِ» .

الشرح والتفسير

يعود الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه من الآخره إلى الدنيا ليشرح أوضاع وأحوال الناس فيها، ليعلموا لم خلقوا واين يتجهوا، وما هي الوسائل والإمكانات التي زودوا بها لينجوا يوم المعاد وكيف ينبغي لهم أن يستفيدوا من هذه الإمكانيات. ويشتمل كلامه عليه السلام على ثلاث عشره عبارته، خمس منها في خلق الإنسان وموته وتبدل جسده إلى تراب، وثلاث في كيفية بعث الخلائق، وخمس آخر في إتمام الحججه الإلهيه والقرص التي زود بها الإنسان في هذا العالم. فقال عليه السلام: «عباد مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، (1) ومقبوضون اختصاراً، ومضمنون أجداثاً، (2) وكائنون رفاتاً» (3). لاشك أن الإنسان مختار حر في أفعاله، ولكن ليس له

ص: ٢٢٣

١-١) «اقتسار» من ماده «قسر» على وزن نصر الغلبه والقهر.

٢-٢) «أجداث» جمع «جدث» على وزن عبث القبر.

٣-٣) «رفات» جمع رفت الحطام.

مثل هذا الاختيار في الخلق والموت. فلا- أحد يعين تأريخ ولادته، ولا أحد يختار زمان موته الطبيعي برغبته، فالحياء والموت خارجه عن دائره إرادتنا إلى جانب تعفن البدن وصيرورته تراباً، وهذا ما حدا بالبعض لتفسير عباره الأمر بين الأمرين بهذا المعنى. على كل حال فإن مسيره الحياه والموت جاريه علينا على حنوء الإراده الإلهيه والقوانين المرسومه شئنا أم أبينا؛ الواقع الذى تقود الغفله عنه إلى جهل الإنسان بنفسه وبخالقه، بينما يمدد الالتفات إليه بعناصر العلم والمعرفه والتأهب. ثم تطرق الإمام عليه السلام فى العبارات الثلاث اللاحقه إلى عمليه بعث الناس الخالرجه هى الأخرى عن الإراده البشريه فقال «ومبعوثون أفراداً، ومدنيون جزاءً، ومميزون حساباً» لاشك أن كل فرد سيخرج من قبره وحيداً، ولايتنافى هذا والتقسيم اللاحق للناس إلى طوائف تبعاً لعقائدهم وأعمالهم، كما عبرت عن ذلك الخطبه فى البحث الماضى بالرعييل، ونعتها القرآن بالافواج. (١) ولعل العباره «مميزون حساباً» إشاره لما ورد فى الآيه الكريمه: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (٢). نعم ليس هنالك من يحمل وزر غيره ويعاقب عليه، ولكل حسابه على ضوء أفعاله، وان كان الرضى بأعمال الآخرين والتقصير فى وظيفه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى إلى نوع من الحساب المشترك. أما العبارات الخمس الأخيره فقد أشار فيها الإمام عليه السلام - كما ذكرنا ذلك آنفاً - إلى الفرص واتمام الحججه التى تتضمن أبعاداً مختلفه، فقال عليه السلام: «قد أمهلوا فى طلب المخرج، وهيدوا سبيل المنهج، وعمروا مهل المستعتب، (٣) وكشفت عنهم سدف (٤) الريب، وخلوا لمضمار الجياد، (٥) ورويه الارتياذ، (٦) وأناه (٧) المقتبس المرتاد، فى مدّه الأجل، ومضطرب المهل» تضمنت هذه العبارات الأبعاد المختلفه لاتمام الحججه الإلهيه وانّ الناس يمتلكون المهله الكافيه للفوز بالرضوان الإلهي أولاً،

ص: ٢٢٤

-
- ١-١ (١) سورة النبأ / ١٨.
- ٢-٢ (٢) سورة فاطر / ١٨. [١]
- ٣-٣ (٣) «مستعتب» من ماده «عتب» على وزن تبت بمعنى الرضى. وذهب بعض أرباب اللغه إلى أنّ أصل هذه المفرده (عتاب) وإعتاب نفى ذلك والاستعتاب طلب نفى العتاب التى وردت بمعنى طلب الرضى.
- ٤-٤ (٤) «سدف» جمع «سدفه» على وزن غرفه بمعنى الظلمه.
- ٥-٥ (٥) «جياد» جمع «جواد»، والجياد من الخيل كرامها.
- ٦-٦ (٦) «إرتياذ» من ماده «رود» على وزن صوت، طلب ما يراد.
- ٧-٧ (٧) «أناه» الهدوء والطمأنينه والوقار والحلم، كما وردت بمعنى الانتظار.

وثانياً: تمهدت أمامهم السبل المؤديه للنجاه بواسطه الكتب السماويه وإرشادات الأنبياء والأولياء وهدايه العقل، ثالثاً: وجود القدره والمهله للتوبه من الذنوب وتدارك ما مضى ونيل رضى الله، رابعاً: ان حجب الظلام التى تغطى قلب الإنسان بفعل الوسوس الشيطانيه والشكوك والشبهات، إنّما تنجلي بنور الله وهدايته سبحانه، خامساً: أن أبواب التوفيق الإلهى لرياضه النفس والاستعانه بالفكر والاستضاءه بنور المعرفه الربانيه إنّما فتحت بوجه الناس لما يكفيهم من المده. ونخلص من كل هذا إلى أنّ الإنسان الذى يضل الهدف ويوغل فى الذنب ويقع فى مخالط الشيطان ووسوسه لاينبغى أن يلوم إلّانفسه التى حالت دونه ودون هذه السعاده والفلاح. وعليه فلم يعد هنالك ما يدعو إلى التعجب والدهشه حين ينادون يوم القيامه: «أَو لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ». (١)

تأمل: الدنيا دار إمتحان

كثيراً ما كانت تنظم قديماً - وهكذا فى الوقت الحاضر - مسابقات للخيل، وكانت تخضع الخيل لتدريبات شاقه بغيه التأهب لخوض المباراه، وعاده ما تصطلح العرب بالمضامر على ميدان التدريب الذى ينحف فيه الفرس ويجهز للسباق، أما الجياد فيراد بها العزيز من الخيل. وقد وردت بعض المتون الإسلاميه التى شبهت الدنيا بذلك الميدان الذى يعد من يردده لخوض السباق، حيث السباق الأكبر يوم القيامه، ذلك هو الميدان الحق. وقد أشارت الخطبه بصوره مقتضبه إلى هذه المسأله، وقد مر على علينا شرحها فى الخطبه الثامنه والعشرين، فهو تشبيه رائع يمكنه أن يكشف عن قيمه الدنيا بالنسبه للاخره.

ص: ٢٢٥

«فيا لها أمثالا صائبه، ومواعظ شافيه، لو صادفت قلوبا زاكيه، وأشيماعا واعيه، وآراء عازمه، وألبابا حازمه، فاتقوا الله تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فازدجر، وأجاب فأناب، راجع فتاب، واقتدى فاختدى، وأرى فرأى، فأسرع طالبا، ونجا هاربا، فأفاد ذخيره، وأطاب سريره، وعمر معادا، واستظهر زادا، ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، وقدم أمامه لدار مقامه. فاتقوا الله عباد الله جهه ما خلقكم له، واحذروا منه كنه ما حذركم من نفسه، استحقوا منه ما أعد لكم بالتجز لصدق ميعاده، والحذر من هول معاده» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه الذي يمثل امتدادا للبحث السابق - إلى المواعظ القيمه المؤثره والأمثال الواضحه والنصائح والإرشادات التي تنتهي بالناس إلى شاطئ الأمان، فقال عليه السلام: «فيا لها أمثالا صائبه، ومواعظ شافيه، لو صادفت قلوبا زاكيه، واسماعا واعيه، وآراء عازمه، وألبابا حازمه» (1) قد تكون هذه العبارة إشارة إلى المواعظ والإرشادات التي وردت في المقاطع السابقه من الخطبه، أو المواعظ التي بلغتنا عن طريق

ص: ٢٢٧

١ - ١) «حازم» من ماده «حزم» على وزن جزم بمعنى التفكير العميق والصائب، ويطلق الحازم على الشخص الواسع الافق، ومنه الحزام الذي يفيد الاستحكام.

الوحي وأولياء الله، وقرينه ذلك عبارات القسم السابق بشأن الهدايه الإلهيه بطرق النجاه وإزاله حجب الشبهات والشكوك والمهله الكافيه للاستعداد والتزود واتمام الحجه على المقصرين. على كل حال فإنّ الهدف هو بيان هذه المسأله وهى كفايه المواعظ والنصائح والمعالم على الطريق لو كانت هنالك آذانا صاغيه وعقولاً متفتحه وقلوباً واعيه، وبعباره أخرى ليس هنالك من نقص فى فاعليه الفاعل، وإن كان هنالك من نقص فى قابليه القابل. والتعبير عن الأمثال بالصائبه يفيد مطابقتها للواقع. وأمّا التعبير بالأسماع الواعيه فيشير إلى أنه بعد سماع كلام لابدّ من حفظه والتأمل فيه؛ لاسماعه من أذن وإخراجه من أخرى، كأنّه لم يسمع شيئاً. وأمّا الفارق بين «الآراء العازمه» و «الألباب الحازمه» فهو أنّ العبارة الاولى إلى القرارات القاطعه، وذلك لأن الإنسان لا يتعظ بنصائح أولياء الله وينتفع بالإرشادات مالم يمتلك العزم القاطع؛ رغم أنه قد يقبلها ولصدق بها إلا أنه لا يمتلك القدره على إتخاذ القرار لضعف إرادته، والألباب الحازمه إشاره إلى الأفكار العميقه التى تشخص عواقب الأعمال، وتتامل جوانب كل مسأله ببعده نظر وسعه أفق. نعم إنّما ينتفع غايه الانتفاع من هذه المواعظ والامثال من كان له فكر عميق وإرادته قويه واذن سامعه وقلب واع. ثم أوصى عليه السلام بالتقوى وبين مظاهرها بعبارات قصيره بعيده المعنى بما يقارب عشرين جمله. والحق أنّ ضاله أرباب السير والسلوك إلى الله إنّما اختصرت فى هذه العبارات، حيث قال عليه السلام: «فاتقوا الله تقيه من سمع فخشع» فإذا أذنب إعترف بذنبه وتاب إلى ربّه (واقترف (1) فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فازدجر، وأجاب فأجاب، وراجع فتاب، واقترى فاحتذى، (2) وأرى فرأى » فقد بينت مظاهر التقوى فى هذه العبارات بأكمل وجه. وبالطبع فان التقوى ليس إدعاءً، ولا تقتصر على إجتناّب الخطايا والارجاس، فالتقوى تبدأ من سماع كلمات دعاه لاحق وخضوع القلب لها، إلى جانب التوبه والإنابه إلى الله والاعتراف بالذنوب وخشيه الله والقيام بالأعمال التى تقرب إليه، وحث الخطفى نحو

ص: ٢٢٨

-
- ١-١) «إقترف» من ماده «قرف» على وزن حرف بمعنى إكتسب وتستعمل إقتراف فى إكتساب الاثم.
- ٢-٢) «إحتذى» من ماده «حذو» على وزن حذف بمعنى فصال الحذاء حسب النموذج والقياس المعين، ثم اطلق الحذو والاحتذاء على مطابقه الشئ لآخر، وقد وردت فى الخطبه بمعنى المتابعه والتبعيه للاسوه فى كل شئ.

درجة اليقين والاعتبار بحوادث الماضي والحذر من المعاصي، واستماع أحسن القول والانتهاز، عن المنكر وإجابه دعوه الحق، والافتداء بأولياء الله والانفتاح على الحقائق ثم قال عليه السلام: «فاسرع طالباً ونجا هارباً» وبالنتيجة «فأفاد ذخيره، وأطاب سريره، وعمر معاداً، واستظهر (١) زاداً، ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقتة، وقدح أمامه لدار مقامه» والواقع أن هذه مظاهر أخرى للتقوى والتي من شأنها جعل الإنسان يسارع إلى الحق وتقتل في نفسه الجنوح إلى الذنب والاثم وتمده بمقدمات الاستعداد للمعاد. ثم واصل الإمام عليه السلام خطبته بالدعوه ثانيه إلى التقوى وخلص إلى نتيجته هي: «فاتقوا الله عباد الله جهه ما خلقكم له». (٢)

حقاً أن لخلق الإنسان هدف «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سَيْدِي» (٣) ولا يمكن بلوغ هذا الهدف دون التقوى، والهدف هو العبودية لله سبحانه ونيل القرب الإلهي وبلوغ السمو والكمال، ولا يتيسر هذا إلا من خلال المعرفة والتقوى. ثم قال عليه السلام: «واحذروا منه كنه (٤) ما حذركم من نفسه» هنالك روعه في قوله عليه السلام كنه التي تفيد عدم الاقتناع بالظواهر فقط حيال الانذارات الإلهيه ولا بد من تأمل هذه الانذارات والعمل على الفوز بالرضوان الإلهي. ثم أشار عليه السلام إلى معطيات التقوى فقال: «واستحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز (٥) لصدق ميعاده، والحذر من حول معاده» فعبارات الإمام عليه السلام اشارات إلى بعض الآيات، كآية التاسعه من سوره المائده: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وما ورد في الآيه الخامسه عشره من سوره آل عمران: «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» والآيه ٦٨ من سوره التوبه: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» .

ص: ٢٢٩

١-١) «استظهر» من ماده «ظهر» على وزن دهر، بمعنى حمل الزاد والمتاع على الظهر أو على ظهر مركب.

٢-٢) قيل جمله (جهه ما خلقكم له) ظرف وقيل مفعول به لفعل مقدر وقيل مفعول لأجله ولعل الاحتمال الأول أنسب الجميع.

٣-٣) سوره القيامه / ٣٦. [١]

٤-٤) «كنه» ، الحقيقه وباطن الشئ، كما تأتي بمعنى العاقبه وأجل الشئ وأريد بها المعنى الأول في العبارة.

٥-٥) «تنجز» من ماده «نجز» على وزن عجز، تستعمل في الوفاء بالعهد، وتنجز الوعد طلب وفائه على عجل.

التقوى شرف العبد ووسيلته العظمى للقرب من الله وهي معيار كرامته، كما أنها زاد السالكين إلى الله ومتاعهم إلى الحبيب، وتشتمل التقوى على أغصان وثمار أشارت لها الخطبه التي تعرضنا لشرحها. وبالطبع فإنّ مادة التقوى تكمن في الاذان الصاغية والقلوب الواعية والإرادات القويه والأفكار النيره التي تعد الإنسان لسلوك سبيل الورع والتقوى؛ الأمر الذي أشير له في بدايه الخطبه. أمّا غصون وثمار شجره التقوى المباركه فتتمثل بالخشوع لله سبحانه والاعتراف بالذنب والتوبه منه والاعتبار والاحسان والافتداء بأولياء الله. فاذا نثرت بذور التقوى في القلب الواع وسقيت بماء المراقبه والمحاسبه، حملت هذه البذور ثمار الخوف والخشيه والخشوع والتوبه والانابه إلى الحق سبحانه.

«جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاءَ لَتَعْبَى مَا عَنَاها، وَأَبْصَاراً لَتَجْلُو عَنْ عَشَاها، أَشْلاءَ جَامِعَةً لِأَعْضَائِها، مُلائِمَةً لِأَحْنائِها، فِي تَرْكِيبِ صُورِها، وَمُدَدِ عُمُرِها، بِأَبْئِدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِها، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِها، فِي مُجَلَّلَاتِ نِعْمِها، مُوجِبَاتٍ مِنْها، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِها. وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرِها عَنْكُمْ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبْرًا مِنْ آثَارِ الْمَاضِيَيْنِ قَبْلُكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلَاقِهم، وَمُسْتَفْسِحِ خَنَاقِهم، أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَيا دُونَ الْأَمالِ، وَشَدَّبَهُمْ عَنها تَحَرُّمُ الْأَجالِ. لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلامَةِ الْأَبْئِدانِ، وَلَمْ يَغْتَبِرُوا فِي أَنْفِ الْأَوانِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبه إلى جانب من النعم الإلهيه التي تثير لدى الإنسان الشعور بالامتنان والشكر، كما تشكل دافعا لمعرفة الله والانفتاح على الورع والتقوى، فقد قال عليه السلام: «جعل لكم أسماعها لتعنى ماعناها، (1) وأبصارا لتجلوا (2) عن عشاها، (3) وأشلاء (4) جامعها لأعضائها، ملائمة لأحنائها، (5) في تركيب صورها، ومدد

ص: ٢٣١

١- ١) «عنا» من ماده «عنايه» بمعنى الاهتمام بالشئ، والضمير فى عناها يمكن أن يرجع إلى الله فيشير إلى الأهداف الإلهيه التي تبلغ الإنسان عن طريق أذنه، أو يرجع إلى الإنسان ليعنى الأهداف التي ينالها الإنسان عن طريق الاذان، أو يعود إلى الحرف ما ليعنى المطالب المهمه السماع للاذن.

٢- ٢) «تجلو» من ماده «جلاء» بمعنى تكشف.

٣- ٣) «عشا» من ماده «عشو» أو «عشى» ضعف البصر وعجزه عن الرؤيه وقيل عدم الابصار ليلاً.

٤- ٤) «أشلاء» جمع «شل» على وزن شكل العضو والجسد، وهنا تعنى الجسد، حيث أردفها بالعباره (جامعه لأعضائها) وقيل قطعه اللحم وهى العضلات ويصدق هذا المعنى على الخطبه المذكوره.

٥- ٥) «أحناء» جمع «حنو» على وزن حلم ما اعوج من البدن، كأغلب العظام.

عمرها». فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار في هذا المقطع من الخطبه إلى النعم لأعضاء البدن الواحد تلوا الآخر، مركزاً على السمع والبصر بفضلها أهم وسيله لإرتباط الإنسان بالعالم الخارجى إلى جانب حصول الانسان على الجانب الأعظم من العلوم والمعارف عن طريقهما، هذا من جهه، ومن جهه أخرى أشار عليه السلام إلى الانسجام القائم بين أعضاء البدن بعضها ببعض الآخر، ومن ذلك تطرق إلى عضلات البدن التى تعمل متناغمه مع كافه الأعضاء وقد تكيفت مع هيئات العظام. فمسأله تناسق وانسجام أعضاء البدن تعد من أروع ظواهر الخلقه ومن أهم النعم الإلهيه، وفي نفس الوقت فان الاستقلال يسود هذه الاعضاء والجوارح، إلّا أنّها تتحد وتتعاقد بما يدعو للدهشه والذهول إذا ما طرأ على الإنسان طارئ. على سبيل المثال لو حدث ما يضطر الإنسان للابتعاد والفرار عن مركز الحادثه بسرعه، فإنّ كافه أعضاء البدن تعبئ نفسها فى لحظه واحده، فدقات القلب تأخذ بالارتفاع، والنفس يصعد وينزل بسرعه ليضخ الدم والأوكسجين الكافى لعضلات الجسم، كما تتصاعد حده اليقظه والوعى، ويحتد السمع والبصر، حتى تذوب موانع الجوع والعطش وتنسى بالمره ليتمكن الإنسان من الهروب سريعاً من مركز الحادث، وبالطبع فإنّ هذا التنسيق لم يحصل استجابته لرغبه الإنسان واختياره، بل بواسطة الأوامر والاياعازات التى يصدرها الدماغ تلقائياً إلى جميع أعضاء البدن. فهذا التنسيق العظيم كاشف عن قدره الله سبحانه وعظمته، كما يفيد سعه نعمه على العباد؛ الأمر الذى أشار له الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه. ولا يقتصر هذا التنسيق على ظاهر الاعضاء فحسب، بل يخترق باطنها وكنهها، حتى يؤثر فى أعمارها، وهذا ما أشار إليه الإمام بالخصوص.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «بأبدان قائمه بأرفاقها (١) وقلوب رائده (٢) لأرزاقها، فى

ص: ٢٣٢

-
- ١-١ «أرفاق» جمع «رفق» على وزن فكر المنفعه أو ما يستعان به عليها، وهذا هو المعنى المراد فى عبارها لخطبه.
 - ٢-٢ «رائده» من ماده «رود» على وزن شوق طلب الماء والمرتع، ثم اطلقت على كل بحث وطلب، كما وردت بمعنى الهادى وذلك لأنّ القوافل كانت تبعث بشخص ليبحث عن مكان مناسب لتوقف القافله حيث يسمى هذا الشخص الرائد.

مجللات (١) نعمه، وموجبات مننه، وحواجز (٢) عافيته. العبارات استمرار لما ورد قبلها من تنسيق بين أعضاء البدن. فمراد الإمام عليه السلام أنّ هذا التنسيق والانسجام لا يقتصر على الأعضاء، بل الروح والفكر أيضاً ينسقان مع هذه الأعضاء بهدف نيل بعض المنافع ودفع بعض الأضرار. ويعتبر هذا التعاضد الروحي والجسمي الذي يحكم جميع كيان الإنسان من بدائع العجائب الذي تتكشف بعض تفاصيل دقته وروعته على مرور الزمان وفقاً لتطور العلم وإزدهاره، حيث تشكل هذه البدائع أعظم نعم الله وأهم آيات عظمتة سبحانه.

العباره «مجللات نعمه» تجلل الناس وتعمهم وهي من باب إضافة الصفه إلى الموصوف بمعنى «نعمه المجلله» التي تشمل الناس بأجمعهم مؤمنهم وكافرهم.

«وحواجز عافيته» بمعنى موانع السلامه والجمله تشتمل على تقدير حيث يكون المراد أنّ الله علم الإنسان طرق دفع الأضرار ومنافع العافيه « ما يمنع حواجز عافيته». ثم أشار عليه السلام إلى نوعين من النعم الإلهيه الكبرى على الإنسان إلى جانب النعم المذكوره فقال: «وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم من مستمتع خلاقهم (٢) ومستفسح خناقهم (٤) أرهقتهم (٥) المنايا دون الآمال شذبهم (٦) عنها تخرّم (٧) الآجال لم يمهدوا في سلامه الأبدان ولم يعتبروا في أنف (٨) الأوان» أمّا النعمه الاولى فهي نعمه العمر التي تعتبر

ص: ٢٣٣

١ - ١) «مجللات» من ماده «جلال». ومجللات نعمه غامرات نعمه، النعم التي تغطى جميع كيان الانسان، فهي تفيد السعه والشموليه.

٢ - ٢) «حواجز» جمع «حاجز» المانع والرادع وحواجز العافيه موانع السلامه.

٣ - ٣) «خلاق» من ماده «خلق» بمعنى تعيين المقدار ومن هنا أطلق الخلاق على السهم والنصيب، والمراد بمستمتع خلاقهم التي وردت في الخطبه النصيب الوافر من الخير واللذات التي تمتعوا بها في الدنيا.

٤ - ٤) «خناق» من ماده «خنق» حبل يخنق به، وخناق بالكسر على وزن كتاب بمعنى الحبل ومستفسح خناقهم النعم التي يتمتع بها الإنسان قبل الموت.

٥ - ٥) «أرهق» من ماده «إرهاق» أخذ الشئ باستعجال، واصلها رهق على وزن شفق بمعنى الظلم.

٦ - ٦) هناك خلاف بين شراح نهج البلاغه [١] في أن «شذبهم» كلمه واحده أم كلمتان. فمن عدّها كلمه واحده «شذب» من ماده تشذيب بمعنى التقشير ومنه تشذيب الشجره، ويناسب هذا المعنى ما ورد في الخطبه، ومن ذهب إلى أنّها كلمتان «شذبهم»، شذ من ماده شذوذ بمعنى الانفصال والانفراد وهو المعنى الذي يتناسب وما ورد في الخطبه أيضاً.

٧ - ٧) «تخرّم» من ماده «خرم» بمعنى الاستصال والاقتطاع.

٨ - ٨) «أنف» بضمّتين مفرد بمعنى بدايه كل شئ، ومن هنا يطلق على المرعى الذي لم يرع فيه الحيوان حتى ذلك الوقت وكذلك الظرف الذي لم يشرب به الماء.

مصدر سعادته الإنسان وتوفيقه وفلاحه، حيث أنّ ليله من ليال العمر التي بات فيها أمير المؤمنين عليه السلام - والتي تعرف بليله المبيت - على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليفديه بنفسه وينجو من مؤامره الكفار فأصابه عليه السلام ما أصابه من الفضل ببركه تلك الليلة. وأما ضربته لعمر بن عبدود العامري في الخندق والتي كانت أفضل من عباده الثقلين، فلم تكن سوى سويعة من عمر الإمام عليه السلام. وأما شهداء الغاضرية الذين صنعوا أكبر ملحمة عرفها التاريخ البشري ليصبحوا كعبه للشوار وطلاب الحق فلم تكن سوى نهاراً من عمرهم المبارك. نعم فنعمة العمر من أعظم نعم الله على الإنسان. وقد إقتضى لطف الله وحكمته أن يخفى مده هذا العمر عن الإنسان، لما ينطوى العلم به من مفسد فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «فالإنسان لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزله من قد فنى ماله أو قارب الفناء، فقد استشعر الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر، على أنّ الذي يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر استحکم عليه اليأس، وإن كان طويل العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك في اللذات والمعاصي وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله ومن هنا حجب الإنسان عن معرفه العمر ليعيش دائماً بين الخوف والرجاء. (١)

ونخلص من هذا إلى أنّ ساعات العمر وأيامه نعمه، وهكذا حجب مقداره عن الإنسان نعمه أخرى.

وأما النعمة الثانية: وتمثل بالاعتبار بالأمم الماضية وما عليه الكبار، وما بقى من القصور والقبور والآثار، فهي نعمه إلهيه كبرى؛ وذلك لأنّ النظر بعين العبره لهذه الآثار يزود الإنسان بالتجربه وكأنه عمر عمراً مديداً ليكون مع تلك الأمم والأقوام وقد تجرع حلاوه الحياه ومرارتها. فتأريخ الامم الماضيه ماده للدروس والعبر، وللإنسان أن يحدد مصيره على ضوء

ص: ٢٣٤

هذا التاريخ من خلال الانفتاح على مقومات النجاح وأسباب الفشل وكيفيه التعامل معهما، والحق أنّ هذه نعمه عظيمه من الله بها على الإنسان. القرآن الكريم صرح بهذا الخصوص قائلاً «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ» (١) وللأسف فما أكثر الذين خططوا لحياتهم وسبحوا في بحر لجمي من الامال والاماني حتى أتاهم الموت بغته فقضى على تلك الامال والحال أنّهم وقفوا على أخبار الماضين وأثارهم، إلّا أنّ أهوائهم وطغيانهم كان حجاباً على أبصارهم وبصائرهم فحال دون رؤيتهم للحقائق، فقدموا على ربهم وقد اعتبر بهم ممن يعدهم دون أن يعتبروا بمن كان قبلهم.

ص: ٢٣٥

١-١) سورة يوسف / ١١١. [١]

«فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضِهِ الشَّبَابَ إِلَّا حَوَانِي الْهَرَمِ؟ وَأَهْلُ غَضَارِهِ الصَّحَّةَ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ؟ وَأَهْلُ مُيَدَةِ الْبُقَاءِ إِلَّا آوَنَهُ الْفَنَاءُ؟ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ، وَأُزُوفِ الْإِنْتِقَالِ وَعَلَزِ الْقَلْقِ، وَالْمِ الْمَضِّضِ، وَعُصَيْصِ الْجَرِّضِ، تَلَفَّتِ الْإِسْتِغَاثَةُ بِنُضِيرِهِ الْحَفَّادَةِ وَالْأَقْرِبَاءِ، وَالْمَاعِزَّةَ وَالْقَرْنَاءِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه - إلى نقطه مهمه أخرى ذات صله بالحياه الدنيا وما فيها من نعم، وأن هذه النعم آيله إلى الزوال، ومن هنا فلا ينبغي الوثوق بها، كما لا يجوز الخلود إليها والتعلق بها، فقال عليه السلام: «فهل ينتظر أهل بضاضه (1) الشباب إلا حواني (2) الهرم؟ (3) وأهل غضاره (4) الصحه إلا نوازل السقم؟ وأهل مده البقاء إلا آونه (5) الفناء» ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «مع قرب الزيال (6) وأزوف (7) الانتقال، وعلز (8) القلق، وألم المضض، (9)

ص: ٢٣٧

-
- ١- (١) «البضاعه» مصدر الرقه والحيويه والنشاط.
 - ٢- (٢) «حواني» تعنى فى الأصل أحوال أضلاع الإنسان وهى إثنان فى كل جانب ومفردها حانيه، وهى هنا كناية عن الهرم الذى يحدودب فيه الإنسان.
 - ٣- (٣) «هرم» بمعنى ذروه الضعف والعجز.
 - ٤- (٤) «غضاره» النعمه والسعه والخصب.
 - ٥- (٥) «آونه» جمع «آوان» بمعنى الزمان.
 - ٦- (٦) «الزيال» مصدر زايله مزايله وزيال بمعنى المفارقة.
 - ٧- (٧) «أزوف» على وزن خضوع بمعنى الدنو والقرب وتطلق الازفه على القيامه لأنها ليست بعيده عن العباد.
 - ٨- (٨) «العلز» على وزن المرض قلق وخفه وهلع يصيب المريض المحتضر.
 - ٩- (٩) «مضض» من ماده «مض» على وزن سد بلوغ الحزن من القلب.

وغصص الجرض، (١) وتلفت (٢) الاستغاثه بنصره الحفده (٣) والاقرباء، والأعزه والقرناء» فمن خصائص هذا العالم تقلب نعمه ولذاته؛ الأمر الذى يدعو الإنسان إلى عدم الاغترار والخلود إلى الدنيا ويضحى بآخرته من أجلها. فالشباب يسرعون نحو الهرم وغضاضه الشباب آيله إلى ذبول الكهوله وربع العمر سينتهى إلى خريف التساقط، وسلامه البدن عرضه للزوال وهجوم الأمراض حتى تلوح علامات الوصول والاقتراب من الآخره وتبدو واضحه للعيان. ورغم كل هذه الخصائص والعلامات، الا أن الذين تعلقوا بالدنيا وإغتروا بها ليسوا بالقليل فلم ينشغلوا فيها سوى ببعض النعم والمتع؛ الأمر الذى يجدر بالتأمل والتوقف عنده! حيث يرى الإنسان كل ملامح فناء الدنيا بأم عينيه ويصر على البقاء. ورد فى تاريخ بغداد أن السفاح نظر إلى المرآه فقال: اللهم لا أقول ما قال سليمان بن عبدالمملك أنى خليفه شاب، لكنى أقول: ارزقنى عمراً طويلاً بعافيه فى طاعتك ولم يكديتم حديثه حتى سمع أحد غلمانه يقول لآخر فى عقد بينهما أن مدته إلى شهرين وخمسه أيام فتطير السفاح من كلامه وكأنه أخبر عما تبقى من عمره، وكان الأمر كذلك (٤). القرآن من جانبه أكد هذا الأمر وكشف النقاب عنه (وان لم يكن هناك من نقاب فى الواقع) فقد أشار كراراً بأمثاله الحيه إلى تقلب أحوال الدنيا، ومن ذلك قوله: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (٥)

ص: ٢٣٨

١-١) «جرض» على وزن «خرج» ابتلاع الريق بمشقه إثر الهم والحزن.

٢-٢) «تلفت» من ماده «لفت» الانصراف عن الشئ.

٣-٣) «حفده» من ماده «حفد» على وزن صغد السرعة فى العمل، كما تطلق على بنات الولد لسرعتهم فى أعمال بيت والدهم ووالدتهم.

٤-٤) تاريخ بغداد ١٠/٤٩.

٥-٥) سورة يونس / ٢٤. [١]

«فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقَارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ، وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلِّهِ الْأَمْوَاتِ رَهِينًا، وَفِي ضَيْقِ الْمَضْجَعِ وَحِيدًا، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ، وَأَبَلَّتِ النَّوَاحِكُ جِدَّتَهُ، وَعَفَّتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَمَحَا الْجِدَثَانُ مَعَالِمَهُ، وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَجَبَةً بَعِيدَ بَصَّيْتِهَا وَالْعِظَامُ نَخْرَةً بَعْدَ قَوْتِهَا، وَالْمَأْرُوحُ مُزْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا، لَا تُسْتَرَاذُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلِّهَا، أَوْ لَسِيْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالْأَبَاءِ، وَإِخْوَانَهُمُ الْأَقْرِبَاءِ؟ تَحْتَرِدُونَ أَمْثَلَتَهُمْ، وَتَرْكَبُونَ قِدَاتَهُمْ، وَتَطْئُونَ جَادَتَهُمْ؟ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا، لَا هَيْبَةَ عَنْ رُشْدِهَا، سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا! كَأَنَّ الْمَعْنَى سِوَاهَا، كَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هذا الرباني الرائد للأخلاق في عالم البشريه وملهمها في هذا المقطع من الخطبه إلى ذلك اليوم الذي يغمض فيه الإنسان عينيه ويودع هذه الدنيا، فليس هنالك من يدفع عنه هذا الموت، ولا تحل مشكلته ببكاء أقرباه وعويلهم، فيستفهم الإمام عليه السلام على سبيل الإنكار قائلاً: «فهل دفعت الأرقاب، أو نفعت النواحب، (1)وقد غودر (2) في محله الأموات

ص: ٢٣٩

- ١- ١) «نواحب» جمع «ناحبه» من ماده «نحب» على وزن نذر والنحيب في الأصل الجد في العمل ثم اطلق على رفع الصوت بالبكاء، وعليه فالنواحب الأفراد الذين يرتفع صوتهم بالبكاء والعويل.
- ٢- ٢) «غودر» من ماده «غدر» على وزن مكر نقض العهد، كما وردت بمعنى الترك، وهذا هو المراد بها في العبارة.

رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً» وكانَّ جداراً سمكه آلاف الامتار قد ضرب بينه وبين قرابته ولا يمكن تخطى ذلك الجدار، ولا يسه البكاء والعيول أن يقدم من شئ سوى التخفيف من ألم الفراق ولوعه الاشتياق، بينما لا يعود بأى نفع على الميت. ثم يبين مصير جسم الإنسان وروحه بعد الموت بعشر عبارات قصيرة فقال عليه السلام: «وقد هتكت الهوام (١) جلدته، وابتلت النواهك (٢) جلدته، (٣) وعفت العواصف (٤) آثاره، ومحا الحدثان (٥) معالمه، وصارت الاجساد شحبه (٦) بعد بضتها، والعظام نخره (٧) بعد قوتها، والارواح مرتنه بثقل اعبائها، (٨) موقفه بغيب أنبائها، لاستتراد من صالح عملها، ولا تستعيب من سيئ زللها» حقاً ليس هنالك تعبير أجمع وأكمل وأبلغ من هذا التعبير الذى صور وضع جسم الإنسان وروحه بعد الموت، فسرعان ما يتفسخ هذا الجسم ويكون لقمه سائغه للحشرات، وتذهب زلائقه لسانه وحده ذكائه أدراج الرياح ولن يتبقى منه سوى حفنه من العظام النخره، والقبور المهدمه. والأنكى من كل ذلك غلق صحيفه الأعمال، فلا من زياده للحسنات ولا نقصان للسيئات، آنذاك لم يعد هنالك من مجال لتلك القطره من الدمع التى يمكنها إطفاء بحار من نيران الذنوب، إن أفرزتها حاله الندم والتوبه والانابه إلى الله. كما ذهبت فرصه القول «لا-اله الا-الله» التى ثوابها شجره فى الجنه، فلا-سبيل إلى العوده، ولا-طريق إلى العمل وقد ختمت صحيفه الأعمال. ثم قال عليه السلام: «أو لستم أبناء القوم والآباء واخوانهم والأقرباء؟» فالآباء عاده ما يموتون قبل أولادهم، كما يمكن أن يتوفى الأبناء قبل آبائهم، وربما يموت بعض الاخوه قبل غيرهم، وعليه فليس

ص: ٢٤٠

- ١-١) «هوام» جمع «هامه» الحشرات المؤذيه وتطلق أحياناً على خاصه الحشرات السامه.
- ٢-٢) «نواهك» جمع «ناهكه» ماينهك البدن، وتطلق على من يلبس الثوب حتى يبلى فيقال نهك الثوب.
- ٣-٣) «جده» من ماده «جديد»، الحديث.
- ٤-٤) «عفت» من ماده «عفو» درست وأزالت ومحت، ومنه العفو الذى يزيل الذنب، وقد وردت فى الخطبه بمعنى محو آثار الإنسان بعد الموت بواسطه الرياح والحدثان تشنيه بكسر النون وتجمع بضمها بمعنى الحوادث الاليمه.
- ٥-٥) «الحدثان» من ماده «حدوث»، تعاقب الليل والنهار.
- ٦-٦) «شحبه» من ماده «شحوب» تغير الجسم وضعفه، تقابل بضه بمعنى النشاط والغضاضه.
- ٧-٧) «نخره» صفه مشبهه من ماده «نخر» على وزن ضرر بمعنى الباليه، وقد وردت فى الخطبه كإشاره إلى العظام بصفتها ممزقه خاويه.
- ٨-٨) «أعباء» جمع «عب» بمعنى الثقل، والأعباء فى الخطبه تعنى المسؤوليات الثقيله.

هنالك من زمان معين لدى الإنسان لحلول أجله وإختتام عمره، والكل سواسيه أمام الموت وليس هنالك من يرجح عيشه لساعه على آخر أو يضمّن أنّه سيعيش لساعه. ثم قال عليه السلام موضحاً المعنى المذكور: «تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدتهم، (١) وتطؤون جادتهم» لعل الإمام عليه السلام أراد توبيخهم بهذه العبارة في أنّكم رأيتم مصير من سبقكم فلم تعتبروا بهم، فافتفتهم آثارهم وأتيتهم بأعمالهم وقارفتهم ما قارفوه من الذنوب والمعاصي، والحال كان ينبغي أن تتعظوا بهم وتعتبروا بمصيرهم وعاقبتهم. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى نتیجه يبيّن من خلالها عله مشاهده الناس لكل هذه الدروس والعبر دون الاعتبار فقال: «فالقلوب قاسية عن حظّها، لاهية عن رشدها، سالكة في غيرم ضمارها! كأنّ المعنى سواها، وكأنّ الرشد في إحراز دنياها». جاء في نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام تبع جنازه فسمع رجلاً يضحك فقال: «كأنّ الموت فيها على غيرها كتب، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وجب، وكأنّ الذي نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون» (٢) نعم إذا قسى قلب الإنسان وسيطرت الظلمة والغفلة على روحه أعمته عن كل هذه الحقائق التي من شأنها إيقاظ كاهه البشريه؛ فما ظنك بهذه الحقائق التي تطالعنا كل يوم! القرآن أشار إلى هؤلاء الأفراد بقوله: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعِيدٍ ذَلِكُمْ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ». (٣)

نعم فالركون إلى الدنيا يقسى القلب، فاذا قسى قلب الإنسان ضل طريق السعادة وسار على غير هدى، بينما يمر على الآيات مر الكرام ليرى المعنى بالوعيد غيره، وهو المعنى بالصالحين الفائزين برضوان الله.

ص: ٢٤١

١ - ١) «قده» من ماده «قد» على وزن سد بمعنى الشق الطولى، وتطلق على الجاده التي تشق المرتفعات و المنخفضات وتسير قدما، وتطلق على الطائفة التي تنفصل عن جماعه، لأنّ طريقتهما تختلف عن تلك الجماعة.

٢ - ٢) نهج البلاغه، [١]الكلمات قصار ١٢٢. [٢]

٣ - ٣) سورة البقره / ٧٤. [٣]

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَجَازِكُمْ عَلَى الصُّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ، تَارَاتِ أَهْوَالِهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، أَنْصَبَ الْخَوْفُ يَدَنَهُ، وَأَشْبَهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ، وَظَلَفَ الزُّهَيْدُ شَهَوَاتِهِ، وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ، وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَن وَضْحِ السَّبِيلِ، وَسَيَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتَلَهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ، ظَافِرًا بِفَرْحِهِ الْبُشْرَى، وَرَاحَهُ التُّعْمَى، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وَآمَنَ يَوْمِهِ، وَقَدَّ عَبْرَ مَعْبَرِ الْعَاجِلِ حَمِيدًا، وَقَدَّمَ زَادَ الْأَجَلِ سَيِّعِيدًا، وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ، أَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغَبَ فِي طَلَبٍ، وَذَهَبَ عَن هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَنَظَرَ قُدَمًا أَمَامَهُ. فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَابًا وَنَوَالًا، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَابًا وَبَلَاءًا، وَكَفَى بِاللَّهِ مُنْتَقِمًا وَنَصِيرًا! وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيحًا وَخَصِيمًا» .

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبته الغراء إلى بعض مواقف الآخرة وأهوالها، وقد شحذ الأمة لتأهب لذلك اليوم وتعد نفسها للعبور من مزلقها الخطيره. فقال عليه السلام: «واعلموا أنّ مجازكم (1) على الصُّرَاطِ، ومزالق (2) دحضه، (3) أهواويل (4) زلله، وتارات (5) أهواله». . يعتبر

ص: ٢٤٢

١-١) «مجاز» من ماده «جواز» مصدر ميمي من جاز يجوز، أى قطع المكان و اجتازه.

٢-٢) «مزالق» جمع «مزاق» موضع الزلل والانزلاق، من ماده «زلق» على وزن دلو.

٣-٣) «دحض» ورد هنا كمصدر أو إسم مصدر هو الانزلاق والسقوط، كما تستعمل أحياناً بشأن زوال الشمس من دائره نصف النهار نحو المغرب.

٤-٤) «أهواويل» جمع «أهوال»، وأهوال جمع هول، وعليه فالأهواويل جمع الجمع و «هول» بمعنى الخوف والخشيه.

٥-٥) «تارات» جمع «تاره» بمعنى الدفعه من ماده «تار» على وزن طرد بمعنى النظر لشخص بحدده، كما تعنى الضرب بالعصا.

الصراط أحد مزالق القيامة الذي ورد التأكيد عليه والاشارة إليه في القرآن وآياته، كما صرحت به الروايات الإسلامية على وجه التفصيل والذي يستفاد من الروايات هو أنّ الصراط قنطره على النار وهي آخر ما يقطعه الإنسان وصولاً إلى الجنّة وأنّ الناس جميعاً كافرهم ومؤمنهم إنّما يردون ذلك الصراط، أمّا المؤمنون الصالحون فيمرون عليه كالبرق ويدخلون الجنّة، بينما يتعذّر على الكافر عبوره فيسقطون في نار جهنم. فاجتياز هذا الصراط إنّما يتوقف على إيمان الإنسان وعمله، حتى أنّ سرعه جوازه تتناسب وتقوى الإنسان وعمله. وبالطبع فإن الصراط يتجسم بأشكال أخرى في الدنيا، بعبارة أخرى الصراط في القيامة هو تجسم صراط الدنيا؛ وذلك لأنه وصف بأنه: «أدق من الشعر، وأحد من السيف» (١) مما لا شك فيه أنّ الحد الفاصل بين الحق والباطل والإيمان والكفر والاخلاص والرياء هو قصد القربة واتباع الهوى وهو على درجه من الدقه والخطوره بحيث يتعذر جوازه الأعلى للمخلصين الصالحين، وهذا ما سنعرض له في البحث القادم. على كل حال فإن هذا الصراط الحاد ينطوى على عده عقبات لا يمكن اجتيازها دون التأهب والتزود، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فاتّقوا الله عباد الله تقية ذى لبّ شغل التّفكّر قلبه، وأنصب (٢) الخوف بدنه، وأسهر (٣) التّهجد غرار (٤) نومه، وأظمأ الرّجاء هواجر (٥) يومه، وظلف (٦) الرّهد شهواته» .

ص: ٢٤٣

(١-١) بحار الأنوار ٨/٦٥ [١]

(٢-٢) «أنصب» من ماده «نصب» على وزن سبب التعب، وعليه فانصب من باب الأفعال بمعنى أتعب.

(٣-٣) «أسهر» من ماده «سهر» على وزن سفر اليقظه في الليل، ولما كانت الحوادث الأليمه تسلب العين نومها وهول المحشر فقد اطلق على الاثنين الساهره.

(٤-٤) «غرار» مصدر واسم مصدر القليل من النوم وغيره، والمراد بالعبارة الواردة في الخطبه أزال قيام الليل نومه القليل.

(٥-٥) «هواجر» جمع «هاجره» نصف النهار عند اشتداد الحرارة، وأصلها من ماده هجر وهجران بمعنى الترك والمفارقة.

(٦-٦) «ظلف» من ماده «ظلف» بفتح وسكون المنع، «وظلف» على وزن «علف» المكان المرتفع، وكأنّه يمنع الإنسان من الوصول إليه.

نعم فالتفكر من أول لوازم التقوى التي تسهل جواز الإنسان على الصراط، حيث يحيى هذا التفكير قلب الإنسان ويجعله يستعشر خشية الله وبالتالي يقوده إلى التهجد وإحياء الليل وصوم أيام الصيف الحاره والتحلى بالزهد والتواضع. التقوى التي تأخذ بيد الإنسان إلى شاطئ الأمان وتجعله يمر كالبرق على ذلك الصراط.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن التقوى ومعطياتها فقال: «وأوجف (1) الذّكر بلسانه، وقدّم الخوف لأمانه، وتنكب (2) المخالجات (3) عن وضح (4) السبيل، وسلكت أقصد المسالك إلى التّهج المطلوب؛ ولم تفتله (5) فاتلات الغرور، ولم تعم عليه مشتبهات الأمور» فقد أشار عليه السلام إلى عشره من أوصاف المتقين - إلى جانب التفكير الدائم - التي تستبطن كل واحده منها عالم من المعانى والتي تجعل الإنسان إذا تحلى بها قدوه يحتذى بها وتمنحه العزه والرفعه فى الدنيا والآخرة وتحقيق النجاحات الباهره فى سيره إلى الله سبحانه وتعالى. وقد إتصفت هذه العبارات بتشبيهات لطيفه وكنايات بليغه بعيدة المعنى بحيث تنفذ إلى أعماق النفس. نعم فالمتقون لا يخذعون بالوساس الشيطانيه ولا يسيرون حيارى على الطريق، بل ويسلكون أقرب السبل إلى الله سبحانه، كما أنّ خوف الله ولهج ألسنتهم بذكر الله يحول دون إنحرافهم عن السبيل القويم. ثم خاض الإمام عليه السلام فى جانب من نتائج هذه الصفات فى الدنيا والآخرة فقال: «ظافراً بفرحه البشرى، وراحه التعمى، (6) فى أنعم نومه، وآمن يومه، قد عبر معبرالعاجله حميداً، وقدّم زاد الأجله سعيداً» فالواقع هو أن السبب الذى يقف وراء راحتهم وسكينتهم واستقرار أفكارهم إنّما يكمن فى إجتيازهم لعقبه الدنيا وتزودهم للدار الآخرة. والشئ المهم هو أن يتمالك الإنسان نفسه حيال هذه المظاهر الكاذبه والخادعه والفساد

ص: ٢٤٤

١ - ١) «أوجف» من ماده «ايجاف» السرعه فى العمل، وأوجف الذكر بلسانه أسرع، كأن الذكر لشده تحريكه اللسان موجف به كما توجف الناقه براكبها.

٢ - ٢) «تنكب» من ماده «نكب» و «نكوب» بمعنى الميل عن الشئ والعدول عنه، ومن هنا يقال للدنيا نكبت أن أدبرت عن الشخص.

٣ - ٣) «مخالجات» جمع «مخالج» من ماده «خالج» على وزن حرج الأمور المختلجه الجاذبه.

٤ - ٤) «وضح» من ماده «وضوح» بمعنى الظهور ووضح السبيل وسط الجاده.

٥ - ٥) «تفتله» من ماده «فتل» على وزن قتل الانصراف عن الشئ، كما وردت بمعنى الشروق ومنه الفتيله.

٦ - ٦) «نعمى» بالضم سعه العيش ونعيمه، وللنعمى مفهوم كالنعمه، حيث هو من المفاهيم الواسعه.

والانحراف ويبقى على نهجه في سلوك الصراط المستقيم. ثم أشار عليه السلام إلى ست صفات أخرى من صفات المتقين فقال: «و بادر من وجل، وأكمش (1) في مهل، ورغب في طلب، وذهب عن هرب، وراقب في يومه غده، ونظر قدماً أمامه» فهو يستثمر كفافه فرص العمر من أجل الفوز بسعاده الدار الآخرة، فهو يقبل على ما ينبغى الاقبال عليه، ويتعد عن كل ما من شأنه إبعاده عن سبيل السعاده والفلاح. أجل هذه هي الصفات التي تنطوي عليها التقوى والتي ينبغى للعباد أن يجعلوها نصب أعينهم ويسعون جاهدين لاكتسابها. ثم يختتم الإمام عليه السلام هذه المقطع من الخطبه بالإشاره إلى النتيجة التي تترتب على التقوى أو عدمها: «كفى بالجنه ثواباً ونوالاً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً، وكفى بالله منتقماً ونصيراً! كفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً» حقاً أن الإمام عليه السلام لمعجز في عباراته القصيره التي تناولت التقوى بالشكل الذي لم يسمع نظيره من أحد، وهي العبارات التي تسوق أضعف الأفراد إلى العمل والسعى والحركه، فما أحرأها أن سميت بالخطبه الغراء.

تأملان

١ - كيف نجتاز الصراط بسهولة؟! !

أشارت الخطبه إلى الصراط؛ الجسر الذي يردده كافه الأفراد يوم القيامة، وقد أسهبت الروايات الإسلاميه في الحديث عنه، وان لم ترد كلمه الصراط بهذا المعنى في القرآن، إلما في موردين ولعل المراد بهما طريق الحق والباطل في الدنيا، بينما وردت تعبيرات أخرى في القرآن الكريم من قبيل المرصاد الذي ذهب جماعه من المفسيرين إلى أن المراد به الصراط. على كل حال كما أسلفنا فإن الذي يستفاد من الروايات هو أن الصراط جسر على جهنم حاد مخيف فمن عبره دخل الجنة، ومن تعثر هوى في نار جهنم، بل صرحت بعض الروايات أن الصراط وسط النار، إلما أن المؤمنين يجتازونه كالبرق على غرار مرورهم من وسط نار الدنيا. وقد ورد في أوصاف الصراط وانه جسر على جهنم ويؤدي إلى الجنة ولا يمكن دخول الجنة إلأبعد

ص: ٢٤٥

١- ١) «أكمش» من ماده «كمش» على وزن عطش أسرع، والمراد بها في العبارة جد السير في مهله الحياه.

عبوره، فهناك طائفه من المؤمنين تمر عليه مسرعه كالبرق وأخرى كالفارس وأخرى كالراجل وأخرى تحبو عليه حبوا وأخيراً هناك من يعجز عن العبور فيهوى في جهنم. (١)

ويمكن فهم مضمون هذا الحديث من خلال الحديث المعروف الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام الصادق عليه السلام هو: «إن على جهنم جسراً أدق من الشعر، أحد من السيف» (٢) وقال الإمام الصادق عليه السلام فى تفسيره لآية الشريفه: «إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ» (٣)، «قنطره على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمه» (٤). إلى جانب ذلك هنا لك بعض الأعمال التى صرحت الروايات الإسلاميه بأنها تسرع عمليه عبور الصراط، من ذلك ما ورد فى الحديث عن النبى الاكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أسبغ الوضوء تمراً على الصراط مَرَّ السحاب» (٥). كما ورد فى حديث آخر أن موسى عليه السلام سأل البارئ سبحانه فى مناجاته إياه: «إلهى ما جزاء من تلا حكمتك سراً وجهراً؟ قال: يا موسى يمر على الصراط كالبرق» (٦). والجدير بالذكر هنا ما ورد فى عدة روايات من أن أهم شرائط عبور الصراط ولايه على بن أبى طالب. وقد نقل كبار محدثى العامه هذه الروايه عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى مصادرهم، ومنهم الحافظ بن سمان الذى نقل فى كتابه الموافقه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا يجوز أحد على الصراط إلا من كتب له على عليه السلام الجواز» (٧)، وجاء فى روايه «إذا جمع الله الأولين والآخريين يوم القيامة ونصب الصراط على جسر جهنم ما جازها أحد حتى كانت معه براءه بولايه على بن أبى طالب» (٨) وقد ورد هذا المضمون مع اختلاف طفيف فى مناقب الخوارزمى ومناقب ابن المغازلى وفرائد السمطين

ص: ٢٤٦

-
- ١- ١) هذا الكلام مضمون حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى كتاب آمالى الصدوق المجلس ٣٣.
 - ٢- ٢) ورد الصراط بدل الجسر فى حديث الإمام الصادق عليه السلام، بحار الأنوار ٨/٦٤ [١] كما روى هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى كنز العمال ١٤/٣٨٦ ح ٣٩٣٦.
 - ٣- ٣) سوره الفجر / ١٤. [٢]
 - ٤- ٤) بحار الأنوار ٨/٦٦ ح ٦. [٣]
 - ٥- ٥) كنز العمال، السابق.
 - ٦- ٦) بحار الأنوار ٨٩/١٩٧ ح ٣. [٤]
 - ٧- ٧) الغدير ٢/٣٢٣. [٥]
 - ٨- ٨) الغدير ٢/٣٢٣ ([٦] نقل هذه الروايات العلامة الأمينى من مصادر العامه مع ذكر صفحاتها، وورد فى شرح الشعر المعروف للعبدى: وإليك الجواز تدخل من شئت جناهاً ومن تشاء جحيماً

وكتاب الرياض النظره. (١) وكما ذكرنا سابقاً في شرحنا للخطبه فإن الصراط في القيامه هو في الواقع تجسم صراط الدنيا وعقبه عبورها وما تنطوى عليه من حده وخطر.

٢ - صلاه الليل شرف المؤمن

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى مسأله إحياء الليل بالتهجد والعباده على أنها من مميزات المتقين السائرين إلى الحق. والتهجد من ماله هجود، قال الراغب في المفردات تعنى فى الأصل النوم، إلا أنه تنتقل من معنى النوم إلى اليقظه حين تستعمل فى باب التفعيل، ولما كان إحياء الليل فى عرف المتقين يتمثل بالدعاء والمناجاة والعباده، فقد استعملت كلمه التهجد بمعنى الصلاه فى جوف الليل، وبالذات نافله الليل. على كل حال فإن لصلاه الليل آدابها الخاصه، وهى الاكسير الأعظم والكيمياء الكبرى التى تحيل تراب الإنسان ذهباً. وقد خاطب الحق سبحانه رسول الكريم صلى الله عليه وآله فى قرآنه الكريم قائلاً: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا». (٢) الذى يفيد أن المقام المحمود الذى بلغه رسول الله صلى الله عليه وآله إنما بلغه بعباده الليل والتهجد فيه. ويكفى فى فضلها وتظافر الروايات فيها، ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلى عليه السلام: «يا على ثلاث فرحات للمؤمن: لقي الاخوان، والافطار من الصيام، والتهجد من آخر الليل» (٤). فالحديث يفيد أن صلاه الليل لمن دواعى سرور المؤمن وسعاده. وجاء فى الحديث أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً إلا لاطعامه الطعام وصلاته بالليل والناس نيام» (٥). وأوصى الصادق عليه السلام أحد أصحابه قائلاً: «لاتدع قيام الليل فان المغبون من غبن قيام الليل» (٦). الجدير بالذكر أن الآيه السادسه من سوره المزمل عبرت عن صلاه الليل بنائشه الليل وهى عظيمه الاهميه والمؤديه إلى

ص: ٢٤٧

(١ - ١)

(٢ - ٢) سوره الاسراء / ٧٩. [١]

(٣ - ٣) بحار الأنوار ٦٦/٣٩٢ ح ٦٨. [٢]

(٤ - ٤) بحار الأنوار ٧١/٣٥٢ ح ٢٢. [٣]

(٥ - ٥) بحار الأنوار ٨٤/١٤٤ ح ١٨. [٤]

(٦ - ٦) بحار الأنوار ٨٠/١٢٧. [٥]

الاستقامه «إن ناشئه الليل هي أشد وطئا أقوم قيلا» وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ المراد بناشئه الليل نشئه الجذبه الروحيه والملكوته التي تحصل للإنسان ببركه هذه العباده. وسبب هذه الأهميه واضح لأنّ روح العباده التي تبلغ بالإنسان المقامات العاليه إنّما تكمن في أمرين: الاخلاص وحضور القلب. وكلاهما حاصل في الليل ولاسيما في آخره بعد تلك الاسترحه والخلود حين يكون الناس نيام وقد إنقطعت الحركه والسعي والعمل المادى فليس هنالك من تفكير في نيل بعض المتع الماديه ولا الشواغل الفكرية الماديه اليوميه التي تشتمل عليها الحياه الإنسانيه، ومن هنا كانت صلاه الليل عباده خالصه متوجه بحضور القلب والمعنويه التامه. ويمكن لكافه الاخوه المؤمنين لمس معطيات هذه العباده من خلال التجربه وتذوق حلاوتها بشغاف القلب فيحرصون على أدائها، فهي الموصوفه لمن أراد الدنيا، وهي كذلك لمن أراد الآخره، وهي باعته الرزق ومطيه الرياح ومبيضه الوجه. نسأل الله أن يوفقنا وإياكم للمواظبه عليها.

إشاره

«أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الّذِى أَعْدَرَ بِمَا أَنْذَرَ، وَاحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ، وَحَدَّرَكُمْ عَدُوًّا نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيًّا، وَنَفَثَ فِي الْأَذَانِ نَجِيًّا، فَأَصْلَ وَأُرْدَى، وَوَعَدَ فَمَنِّي، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعِظَائِمِ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَاسْتَتَلَقَ رَهِيْنَتَهُ، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَحَدَّرَ مَا أَمَّنَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه إلى أحد الأخطار المهمه للغاية التى تهدد سعادته الإنسان، ويتمثل ذلك الخطر بوساوس الشيطان ومكائده التى تعد من أعظم وسائله فى خداع الناس. فقد أوصى الإمام عليه السلام ثالثه بالتقوى مشيراً إلى إتمام الحجج الإلهيه: «أوصيكم بتقوى الله الذى أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج» فمن الواضح أنّ العدل الإلهي لا يمكن بسطه دون إتمام الحجج الكافيه، ومن هنا بين الباري سبحانه وتعالى الحق والباطل من خلال الرسول الظاهر المتمثل بالأنبياء والأوصياء والأولياء، والرسول الباطن وهو عقل الإنسان وفطرته حتى لا يعذر أحد بجهله فى محاوله لتبرير تمرده وخلافه. فالواقع هو أنّ العبارة: «احتج بما نهج» إشاره إلى بيان طريق السعاده، والعبارة: «أعذر بما أنذر» .

تحذير من الاخطار الكامنه فى مسير الإنسان. الجدير بالذكر أنّ الله سبحانه لا يكتفى باتمام الحجج على عباده فحسب، بل يتمها بمنتهى اللطف والرحمه، ولذلك تأكدت آليه العقل الكافيه فى أغلب المراحل لاتمام الحجج بالوحى بواسطه الأنبياء العظام، إلى جانب التحذير من مغبه مقارفه الاثم والذنب: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ» (١) ثم أشار عليه السلام إلى أخطار الشيطان قائلاً: «وَحِذْرُكُمْ عَدُوًّا نَفَّذَ فِي الصَّيْدِ دُورَ خَفِيًّا، وَنَفَثَ فِي الْأَذَانِ نَجِيًّا، فَأُضِلُّ وَأُرْدَى» لاشك أن الصفات الواردة في العبارة تشير بوضوح إلى أن المراد هو الشيطان، وإن لم يرد إسمه صريحاً في هذه العبارة والعبارة اللاحقة. فقد خاطب الحق سبحانه آدم عليه السلام في كتابه العزيز قائلاً: «إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» (٢). وصرح في موضع آخر على نحو العموم قائلاً: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (٣) طبعاً يمكن أن يكون الشيطان وسيله للسمو والتكامل بالنسبة للمؤمنين والسالكين، وذلك لأنهم يزدادون معنوية وقرباً من الحق كلما حاربوه وصمدوا بوجه مكائده وحيله. ثم واصل عليه السلام كلامه بكشف اللثام عن مختلف طرق وساوس الشيطان، فأشار إلى ثلاث منها: «وَعَدَ فَمَنِّي، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجِرَائِمِ، وَهَوَّنَ مَوْبِقَاتِ الْعِظَائِمِ». فالحق أن هذه هي المصائد الثالث والطرق الخطيرة التي ينفذ من خلالها إلى نفس الإنسان، الأولى: أنه يمتنى الإنسان، ويجعله يعيش طول الأمل والخيالات والأوهام بشأن المستقبل، المستقبل الذي قد لا يدركه الإنسان قط فيلبيه به ويستهلك جميع طاقاته من أجله وهكذا يغلق بوجهه سبيل التزكية ويصرفه عن الطاعة. والثانية: يزين له الذنوب والمعاصي التي يأبأها الطبع الإنساني بوحى من ضميره ووجدانه ويجعله يرى التحلل حريه والتفسخ مدنيه ومجالسه أهل الفسوق والخطيئة نوعاً من أنواع التعايش السلمى، والخلاصه فقد أعد عدته لتزيين كل قبيح. والثالثة: يسعى لأن يصغر للإنسان كبائر الذنوب فيبديها له سهله ليست بذات أهميه ويمنيه ببعض التبريرات والمسوغات من قبيل عظمه عفو الله ورحمته وأن ليس هناك من إنسان معصوم وهو عرضه للخطأ والزلل وإن باب التوبه مفتوح وقد إدخرت شفاعه الشافعين ولاسيما النبى وأهل بيته الكرام لمثل هذه الأمور. والحال لا بد أن نرى النتيجة التى تنتهى إليها هذه الوساس والحيل والمكائد الشيطانيه، هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام قائلاً: «حَتَّىٰ إِذَا

ص: ٢٥٠

[١- ١] سورة القصص / ٥٩. [١]

[٢- ٢] سورة طه / ١١٧. [٢]

[٣- ٣] سورة يس / ٦٠. [٣]

استدرج قرينته، واستغلق رهينته، أنكر ما زين، واستعظم ما هون، وحذر ما آمن» فالعباره «إستدرج» تفيد أنّ وساسوس الشيطان عاده ما تتم خطوه فخطوه لتكون أكثر تأثيراً فى الأفراد، فلو كانت هذه الوساسوس دفعيه فإنّ الأفراد وأن تمتعوا بقليل من التقوى لحاربوها ووقفوا بوجهها، ولعل هذا هو المعنى الذى أشارت إليه الآيه القرآنيه الكريمه: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ» (١) وسائر الآيات القرآنيه الوارده بهذا الشأن. أمّا العباره «قرينته» فكأنّها أقتبست من الآيه الشريفه: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» (٢) فالواقع هو أنّ الشيطان على درجه من القرب من أتباعه بحيث لا تنفك مفردات حياتهم عنه وهو مقرون بهم أينما حلوا. وأخيرا تشير العباره «إستغلق رهينته» إلى أنّ الشيطان يرتهن أتباعه ويغلق عليهم باب الرجعه - بالضبط كشياطين الانس الذين يزينون الفساد والانحراف للأفراد فإنّ سقطوا فى هذا الفخ وتلوثوا أغلقوا عليهم كافه طرق الخروج ولم يجدوا أمامهم سوى الاذعان والانقياد. أمّا يوم القيامة حيث تطرح حجب الخداع والمكر والغرور ويظهر ما كان يبطنه كل شخص، فلا يسع الشيطان هناك إلّا الانكار، وأن يكبر ما كان إستضغره، غير أنّ هذا الانكار لا يفيد، كما لا يفيد أتباعه وذلك لأنّ عهد الرجعه والتوبه من الذنوب وتدارك الماضى قد ولى إلى غير رجعه.

مكائد الشيطان

إنّ الإنسان يخوض على الدوام مواجهه تجاه عدوين كبيرين: عدو داخلى يدعى بالنفس الاماره، وعدو خارجى هو الشيطان، ولكل منهما ذات الأعمال المكمله لبعضها البعض الآخر. وعلى الرغم مما ذكرناه من أنّ هذا العدو الداخلى والخارجى بالنسبه لأهل الإيمان مصدراً للسمو والتكامل ومحاربه عناصر الذنب والمعصيه، وبالتالي يوجب تكامل أرواحهم ويزيد من قربهم إلى الله سبحانه، مع ذلك فإنّ وجود مثل هذا العدو الخطير يتطلب مزيدا من الحيظه

ص: ٢٥١

١-١) سورة البقره / ١٦٨ و ٢٠٨؛ [١] سورة الانعام / ١٤٢؛ [٢] سورة النور / ٢١. [٣]

٢-٢) سورة الزخرف / ٣٦، [٤] كما ورد مثل هذا التعبير فى سورة فصلت / ٢٤. [٥]

والحذر، ويضعف من خطورته أنه لا يدعو الإنسان صراحة إلى الذنب، بل يزين الذنوب وينمق المعاصي ويصغر كبائر الذنوب، ويكبر ما صغر من الطاعات، ويريه المصائد جميله، مستغلا كفافه نقاط ضعف الإنسان لينفذ إلى أعماقه فيلقيه في مخالب الشهوات والأموال والمقام والآمال الطويله، ومن هنا فإن الغفله لحظه قد تقود إلى عمر من الشقاء والبؤس والندم. ولذلك وردت التحذيرات التي أكدتها الروايات والأخبار الإسلاميه، ومن ذلك أنه أوحى إلى موسى عليه السلام: «ما لم تسمع بموت ابليس فلا تأمن مكره» (١) وقد خضنا في شرح وساوس الشياطين في المجلد الأول من هذا الكتاب في الخطبه السابعه. (٢)

ص: ٢٥٢

-
- ١-١) بهج الصباغه ١٤/٣٥٠، [١] كما ورد شبه هذا المضمون في بحار الأنوار باختلاف طفيف كأحد الوصايا الأربعه لموسى عليه السلام (بحار الأنوار ١٣/٢٤٤) ([٢] مادمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكره) .
- ٢-٢) نفحات الولاية ١/٤٤٠ - ٤٤٧. [٣]

«أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَشُعْفِ الْأَشْيَاتِ، نُطْفَةَ دِهَاقًا، وَعَلَقَةً مِحَاقًا، وَجَنِينًا وِرَاضَةً عَاءً، وَوَلِيدًا وَيَافِعًا، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْبًا حَافِظًا، لِسَانًا لَافِظًا، وَبَصِيرًا لَاحِظًا، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِرًا، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِرًا، حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ، وَاشْتَوَى مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِرًا، وَخَبَطَ سَادِرًا، مَا تَحَا فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحًا سَيْغِيًا لِدُنْيَاهُ، فِي لَعْدَاتِ طَرَبِهِ، وَيَدَوَاتِ أَرْبِهِ، ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيئَهُ، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيئَهُ؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيرًا، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيرًا أُسِيرًا لَمْ يَفِدْ عَوْضًا غَرَضًا لَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضًا» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه وقد أشرفنا على نهايتها - في أمر مهم آخر وهو خلق الإنسان ومتابعته منذ كونه جنيناً حتى إختتام عمره ومفارقته للدنيا وبعثه في يوم القيامة، اتماماً للأبحاث السابقه حول مكائد الشيطان وضروره إعداد العده والتحلى بالورع والتقوى، وبعباره أخرى ليكون الإنسان على حيظه وحذر فيمارس وظائفه الرئيسيه ويجتنب وساوس الشيطان. فقد قال عليه السلام: «أم (1) هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، وشغف (2)» .

ص: ٢٥٣

١ - ١) هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه بشأن (أم) هل هي إستفهاميه ومتصله أو منقطعه؟ ويبدو من الصعب الحكم في ذلك، لأن ظاهر عبارته المرحوم السيد الرضى (ره) قد اختار كلاماً من هذه الخطبه الطويله ويمكن أن تكون العلاقه بين العبارات خافيه هذه القطوف، وقد فسرناها منقطعه وتقديره العباره «بل أذكركم بحال الإنسان. . .» .

٢ - ٢) «شغف» من ماده «شغاف» على وزن جواب يعنى فى الأصل غلاف القلب، والمفرد هـنا بمعنى الاغلفه المتعدده.

الأستار، نطفه دهاقاً، (١) وعلقه محاقاً، (٢) جنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً (٣). فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار إلى سته مراحل من حياة الإنسان، ترتبط ثلاث منها بالفترة التي يكون فيها جنين وقبل الولاده، وثلاث أخرى تتعلق بما بعد الولاده. وهي المراحل التي تطوى سريعاً وتحفظ كل واحده منها بميزاتها، فبعضها عجيب للغاية والبعض الآخر ينطوى على الدروس والعبر، فالله سبحانه وبقدرته يعد من ماء الرجل الذي يفتقر إلى الصورة والشكل بعد أن يتكامل في ظلمات المشيمه والرحم وبطن الأم إلى علقه فمضغه وعظاماً ولحمياً جنيناً ذا حياه، ليخرج إلى الدنيا، ثم يطوى مراحل الهدايه والتكامل ليبدأ مسيرته إلى الحق. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى ما زود به هذا المخلوق من وسائل وأدوات: «ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، يقصّر مزدجراً» فقد منحه الله العقل ليميز به الحسن من القبيح، واللسان ليستغله في فتح صناديق كنوز العلم بالسؤال والبحث، والعين ليدرك بها الحقائق الحسيه، ويصل إلى أهدافه النهائيه من خلال هذه النعم الثلاثه، ثم يستفيداها في إدراك الأحكام الإلهيه ويعتبر بما حوله ويتعد عما لا يليق بشأنه. فالواقع هو أن مصادر المعرفه الثلاث: العقل واللسان والعين والتي تمثل إدراك وإستيعاب المواضيع الفكرية والنقلية والعينيه والحسيه قد جمعت في هذه العبارة القصيره، وبالتالي فقد أمر الإنسان باعتماده للفوز بالسعاده والرضوان.

ثم قال عليه السلام: «حتّى إذا قام اعتداله، واستوى مثاله، نفر مستكبراً، وخبط سادراً» (٤) طبعاً ليس جميع الناس كذلك، إلّا أنّ كلام الإمام عليه السلام إنّما يتناول الأغلبيه العظمى التي تشاهد في المجتمعات البشريه والتي تولى ظهرها لكل شئ إذا ما شعرت بالقوه والاقْتدار ونالت بعض المناصب، كما تشكل تحذيراً لأهل الإيمان من ضروره مراقبه النفس والسعى لأداء الشكر

ص: ٢٥٤

١ - ١) «دهاق» من ماده «دهق» على وزن دهر بمعنى متتابعاً وشده الضغط، ثم استعملت بمعنى الصب بالقوه والضغط، وأشارت هنا إلى صب النطفه في الرحم.

٢ - ٢) «محاق» من ماده «محق» على وزن محو النقص التدريجي والمحو، ومن هنا يطلق المحاق على القمر في آخره، ووصف العلقه بالمحاق بمعنى خفيت فيها ومحقت حتى زالت صورتها وتبدلت إلى جنين، أو لأنّ لها شكل محو وغير معين ولم تتخذ لها صورته.

٣ - ٣) «يافع» من ماده «يفع» على وزن نفع الغلام راهق العشرين.

٤ - ٤) «سادر» من ماده «سدر» المتحير والمتخبط.

والتحلى بالتقوى. ثم قال عليه السلام «ماتحاً (١) في غرب (٢) هواه» فهم يشقون على أنفسهم من أجل الحصول على الدنيا ويسعون جاهدين للتمتع بلذاتها، ولا يقتدح في ذهنبم شيئاً من أهوائهم النفسية الا أتوه: «كادحاً (٣) سعياً لدنياه، فى لذات طربه، وبدوات (٤) أربه (٥)» فهذه العبارات إشاره إلى أولئك الجهال الذين يوظفون كاهه إمكانياتهم ويستفرغون ما بوسعهم من أجل الحصول على مال الدنيا وحطامها والتنعم بلذاتها الفانيه وأشباع أهوائهم ورغباتهم الجامحه، وكأن هذا هو الهدف الذى خلقوا من أجله، والحال أنهم يرون بأم أعينهم مصائب الدنيا ومحنها وأمراضها بالتالى الموت الذى يزيلها، فكيف تكون هدفا وهذا حالها. إلا أنهم وكما يصفهم الإمام عليه السلام: «ثم لا يحتسب رزيه (٦) ولا يخشع تقيته (٧) فمات فى فتنه غريراً (٨) وعاش فى هفوته (٩) يسيراً لم يقد عوضاً ولم يقض مفترضاً» ويالها من حاله خطيره لمن أصيب بمثل هذا الغرور والغفله؛ فقد ضحى بعمره من أجل التلذذ بضعه أيام، أى لذه، تلك المشوبه بالألم والهم والغم، حتى ودع الدنيا خالى اليدين وقدم على ربّه بذلك السجل الذى يفضحه فى محكمه العدل الإلهى.

النعم والجحود

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه إلى النعم الإلهيه التى أفاضها الرحمن على الإنسان

ص: ٢٥٥

- ١- ١) - ماتح تعنى من ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملاً الدلو، و «الغرب» بمعنى الدلو العظيمه، فتفسير العبارتهلى وردت فى الخطبه هو أنّ بعض الأفراد الذين يسعون لاشباع أهوائهم ورغباتهم وما يحلمون به من أمانى.
- ٢- ٢) - ماتح تعنى من ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملاً الدلو، و «الغرب» بمعنى الدلو العظيمه، فتفسير العبارتهلى وردت فى الخطبه هو أنّ بعض الأفراد الذين يسعون لاشباع أهوائهم ورغباتهم وما يحلمون به من أمانى.
- ٣- ٣) «كادح» من ماده «كدح» على وزن مدح شده السعى، كما تعنى الحرص أيضاً.
- ٤- ٤) - «بدوات» جمع بدأه على وزن «غفله» من ماده «بدو» على وزن دلو بمعنى الظهور، وأدب بمعنى الحاجه والسرور، فالعباره «بدوات أربه» تعنى الحاجات واللذات التى تخطر على ذهن الإنسان.
- ٥- ٥) - «بدوات» جمع بدأه على وزن «غفله» من ماده «بدو» على وزن دلو بمعنى الظهور، وأدب بمعنى الحاجه والسرور، فالعباره «بدوات أربه» تعنى الحاجات واللذات التى تخطر على ذهن الإنسان.
- ٦- ٦) «رزيه» من ماده «رزأ» على وزن عضو بمعنى النقص فى الأصل، كما وردت بمعنى المصيبه.
- ٧- ٧) «تقيه» وردت هنا بمعنى التقوى ومفهوم الجمله أنّ خشوعه إلى الله لا يستند إلى التقوى، وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ تقيه هنا مفعول مطلق للنوع، وقيل مفعول له، وليس هنالك من فارق فى المفهوم.
- ٨- ٨) «غريراً» بمعنى المغرور.
- ٩- ٩) «هفوه» من ماده «هفو» رفع القدم بسرعه، ولما كانت السرعه فى المشى تدعو إلى الزلل فى أغلب الأحيان ولعلها تؤدى إلى الوقوع فان الهفوه تعنى الخطأ والزلل والوقوع على الأرض.

منذ خلقه في رحم أمه حتى ولادته وانتهاءً باجتيازه لمراحل النمو التكاملي، كما تطرق إلى قدرته سبحانه في كيفية متابعه خلقه في الظلمات الثلاث في بطن أمه وصور تكامله، وكيف جهزه بعد خروجه إلى الدنيا بالآلات المعرفه من قبيل منحه القلب الحافظ والعين الباصره واللسان الناطق، غير أن هذا الإنسان الجاحد المنكر للجميل ما أن يشعر بالقوه والقدره حتى ينسى الهدف الذي خلق من أجله، وكأنه يخلص في النوم والأكل والشرب والشهوه واللذه، على غرار الحيوان، وقد تجاهل كل ما يرى من مصائب ومحن والام وبالتالي الموت هادم اللذه، بل لا يرى هذا الموت مكتوباً عليه وكأنه مخلص في الدنيا وليس هنالك من خطر من شأنه القضاء على لذاته ومتعته، فأوامر الله وأحكامه لا تعنيه، وأنبيائه ورسوله لم يبعثوا إليه مع ذلك سرعان ما يحل أجله ويفنى عمره إذ يفاجئه الموت، فيقدم على ربه ولاعمل له فكيف به وقد أغلقت كل الأبواب بوجهه وليس هنالك من سبيل إلى العوده والتوبه.

«دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَيِّتِ فِي عُتْبِرِ جِمَاحِهِ، وَسَيَّنَ مِرَاحِهِ، فَظَلَّ سَادِرًا، وَبَاتَ سَاهِرًا، فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ، بَيْنَ أَخِ شَقِيقٍ، وَوَالِدِ شَفِيقٍ، وَدَاعِيهِ بِالْوَيْلِ جَزَعًا، وَوَالِدِهِ لِلصَّدْرِ قَلْقًا؛ الْمَرْءُ فِي سَيِّئِهِ مُلْهَثٌ، وَغَمْرُهُ كَارِثٌ، وَأَنَّهُ مُوجِعٌ، وَجِدْبَةٌ مُكْرِبَةٌ، وَسَوْفَهُ مُتَعَبٌ» .

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى نهايه عمر هذا الإنسان الغافل المغرور وكيف يقضى لحظاته الاخيره ساعه الاحتضار بين قرابته وبطانته، وقد رسم عليه السلام صورته تهز النفس البشريه وترعبها من جراء ذلك المشهد، فقال: «دهمته (1) فجعات الميته في غبر (2) جماحه (3) وسنن (4) مراحه (5)، فظل سادراً، (6) وبات ساهراً، في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام» وقد تم هذا الأمر الذي يشهده هذا المحتضر وهو: «بين أخ شقيق، ووالد شقيق، وداعيه بالويل جزعاً، ولادمه (7) للصدر قلقاً» . نعم فقد يأس أهله وأقرباؤه من حياته

ص: ٢٥٧

١ - ١) «دهمته» من ماده «دهم» على وزن فهم بمعنى الغشاوه وتغطيه الشئ.

٢ - ٢) «غبر» جمع «غابر» يعنى الباقي.

٣ - ٣) «جماح» من ماده «جمع» على وزن جمع التعنت عن الحق، ومن هنا يطلق الجموح على الحيوان الطائش.

٤ - ٤) «سنن» مفرد بمعنى الطريقه وسنن بالضم جمع سنه.

٥ - ٥) «مراح» من ماده «مرح» على وزن فرح شده السرور المقرونه بالطغوى واستثمار نعم الله فى الباطل.

٦ - ٦) «سادرًا» تعنى الحيره كما تعنى الصلافة، والمعنى الأول أنسب للعبارة، بينما المعنى الثانى أنسب للعبارة الاولى التى مرت فى المقطع السابق.

٧ - ٧) «لادمه» من ماده «لدم» على وزن هدم تعنى فى الأصل الضاربه، ومن هنا تطلق اللادمه على المرأه التى تلطمه وجهها ورأسها حين المصاب.

وأخذوا بالبكاء واللعويل عليه؛ وأنّ هذا الصراخ واللعويل يقض مضجعه كلما خفت عليه غصص الموت وأفاق إلى نفسه، فيتطلع إلى الموت الذى يراه بعينه وهى تدور يميناً وشمالاً من الخوف والرعب: «و المرء فى سكره ملهته، (١) وغمره كارته، (٢) وأنّه موجه، وجذبه مكره، (٣) وسوقه (٤) متعبه». حقاً أنّ الاحتضار وسكرات الموت حاله عجيبه! فهذا الإنسان الذى كان مترعباً بالأمس على عرش السلطه وقد زود بكافه الإمكانيات وثل من كأس الغرور وتفاجر على سائر الكائنات، هو اليوم أسير الأمراض وقد صعبت حالته حتى يئس منه من حوله فتعالت أصواتهم بالبكاء والصراخ، ولكن ما عسى ذلك أن يجيده نفعاً. وقد شحن التاريخ بالدروس والعبر بما تضمنه من قصص أصحاب القدره حين طرحوا على فراش الموت واستسلموا له.

فقد روى أنّ المأمون لما أثقل قال: أخرجونى أشرف على عسكرى، وانظر إلى رجالى، وأتبين ملكى، وذلك فى الليل، فاخرج فاشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقد من النيران، فقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه، ثم رد إلى مرقده وأجلس المعتصم رجلاً يشهده لما ثقل، فرفع الرجل صوته ليقولها، فقال له ابن ماسويه: لاتصح فوالله مايفرق بين ربّه وبين مانى فى هذا الوقت، ففتح المأمون عينيه من ساعته، وبهما من العظم والكبر الأحمرار ما لم ير مثله قط، وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه، ورام مخاطبته، فعجز عن ذلك، فرمى بطرفه نحو السماء، وقد إمتلأت عيناه دموعاً، فانطلق لسانه من ساعته، وقال: يا من لا يموت ارحم من يموت، وقضى من ساعته، وحمل إلى طوس فدفن فيها. (٥) وفيه قال الشاعر: هل رأيت النجوم أغنت عن المأ

القسم الرابع عشر: حوادث ما بعد الموت

إشاره

«تُم أدرج فى أكفانه ملبساً، وجذب منقاداً سلبساً، ثم ألقى على الأعواد رجيع وصب، ونضو سقم، تحمله حفده الولدان، وحشده الإخوان، إلى دار غربته، ومنقطع زورته، ومفرد وحشته، حتى إذا انصرف المشيع، ورجع المتفجع مضجع أفعد فى حفرة نجياً لبهته السؤال، وعثره الإمتحان» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى مصير الإنسان بعد الموت الذى ينطوى على الدروس والعبر، حيث يواصل فيه كلامه بشأن الاحتضار وسكرات الموت. فقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيره صورته جليه مؤثره عن حال الإنسان بعد أن بلغ المرض منه مبلغه وقد توقفت عن العمل كافه أعضائه وجوارحه ولم يبق منه إلا ذلك الجسد الخاوى فأخذ يستعد أهله لغسله وتكفينه ودفنه، الصوره التى يمكن مقارنتها وما كان عليه بالأمس وهو يتمتع بتلك القوه والقدره: «ثم أدرج فى أكفانه ملبساً، او جذب منقاداً سلبساً، ثم ألقى على الأعواد رجيع ٣ وصب ٤ ونضو ٥ سقم، تحمله حفده الولدان، وحشده (٦) الإخوان، إلى دار غربته، ومنقطع

من عوده الاموات.

- ٢-٢) «سلس» من ماده «سلس» على وزن قصص بمعنى السهل.
- ٣-٣) «رجيع»، الرجيع من الدواب ما رجع به من سفر إلى سفر فكل ثم استعملت للإنسان التعب.
- ٤-٤) «وصب» الالم الدائمى والمرض والتعب.
- ٥-٥) «نضو» الناقه أو الحيوان المهزول، ثم اطلقت على الضعيف من الناس.
- ٦-٦) «حشده» جمع حاشد المسارعون فى التعاون.

«ثم أدرج فى أكفانه مبلسا، وجذب منقادا سلسا، ثم ألقى على الأعواد رجيع وصب، ونضوسقم، تحمله حفده الولدان و حشده الإخوان الى دار غربته و منقطع زورته و مفرد وحشته حتى اذا انصرف المشيع و رجع المتفجع [مضجع] أقعد فى حفرة نجيا لبهته السؤال و عثره الامتحان»

الشرح والتفسير

حوادث ما بعد الموت

أشار الإمام إلى مصير الإنسان بعد الموت الذى ينطوى على الدروس والعبر، حيث يواصل فيه كلامه بشأن الاحتضار وسكرات الموت. فقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيره صورته جليه مؤثره عن حال الإنسان بعد أن بلغ المرض منه مبلغه وقد توقفت عن العمل كافة أعضائه وجوارحه ولم يبق منه إلا ذلك الجسد الخاوى فأخذ يستعد أهله لغسله وتكفينه ودفنه، الصورة التى يمكن مقارنتها وما كان عليه بالأمس وهو يتمتع بتلك القوه والقدره: «ثم أدرج فى أكفانه مبلسا، وجذب منقادا سلسا ثم ألقى على الأعواد رجيع وصب ونضوسقم، تحمله حفده الولدان، وحشده الإخوان، إلى دار غربته، ومنقطع

زورته، (١) مفرد وحشته». نعم فاول ما يواجهه هو ذلك اللباس المتواضع الخالى من أناقته ملابس الدنيا التى يجهد الخياطون أنفسهم أياماً وأحياناً أسابيع لخياطتها، فليس هنالك من فصال ولا قياس ولا حاجه لخياط، اللباس الذى لا يعرف من معنى للغنى أو الفقر أو الشريف والوضيع. وأخيراً هو اللباس الذى فضح الدنيا وكشف النقاب لمن كان له بصيره عن تقلب أحوالها وعدم دوامها. أمّا الصورة العنيفه الأخرى التى لها وقعها فى النفس فهى حمله على التابوت والانطلاق به إلى مثواه الأخير، دون أن يكون له أية إرادته واختيار، فهو مستسلم لأنّ يطرح فى حفرة ويوارى فيها التراب. وبالطبع فإنّ هذا الإنسان المناقد اليوم، هو الذى كان بالأمس يأمر وينهى، وربما كانت إشارته كافيه لأنّ يندفع له الاف الأفراد، وكان إذا رضى عفى عن حوله، وإذا غضب أمر بضرب الاعناق وإن كانت بريئه، نعم هذه هى عاقبته ومصيره. وكالمعتاد فقد أسرع الأبناء والأحفاد والأقرباء والأصدقاء والأخوه لحمل التابوت على أكتافهم، إلى أين؟ إلى ذلك المكان الذى طالما كان يخشاه، بل لايجراً على الإتيان باسمه على لسانه، وإذا مر به أشاح بوجهه عنه، المكان الذى لم يبق له من رباطه باهل هذا العالم، أنه بيته الموحش المنسى. ثم قال عليه السلام: «حتى إذا انصرف المشيع، ورجع المتفجع أقعد فى حفرة نجياً لبهته (٢) السؤال، وعثره الامتحان» أجل قصيره هى تلك المده التى يرافقه فيها الأهل والمعزون، فاخر عهدهم به حين ينزلونه القبر، فاذا واروه التراب ودعوه وتركوه لوحده فى حفرة، وسرعان ما يكفكفون دموعهم ويخمد صراخهم حتى ينسوه بالتدريج؛ فى حين يعيش هو أصعب اللحظات وعليه أن يعد إجابات لما ستطرحة عليه الملائكة من أسئلة، وهى الاسئلة التى تبدو إجاباتها واضحة، لكنها تتطلب إستعداداً روحياً وعقائدياً؛ الأمر الذى قد لا يكون الإنسان قد تزود له، ومن هنا كان الامتحان عسيراً.

العباره: «أقعد فى حفرة» إشاره واضحه إلى سؤال القبر الذى سيمر علينا فى البحث

ص: ٢٤٠

١- (١) «زوره» مصدر بمعين الزياره واللقاء.

٢- (٢) «بهته» من ماده بهت الحيره والاضطراب.

القادم. أمّا قوله عليه السلام: «نجيا» فتعنى الصوت الخفى، ولعلها إشارة لمناجاته لرّبّه آنذاك واستغاثته بلطف الله ورحمته، أو الكلام الخفى لعسره الامتحان والخوف من عدم الإجابة على السؤال.

تأملان

١ - وداع الأحياء للأموات

إذا مات الإنسان تغيرت كافه أوضاعه بالمره، فقد كان جزءاً من هذه العالم والجماعه حتى آخر لحظه من حياته، أمّا الآن فلم يعد الأمر كذلك وعليه فالجميع يسعى لتنجيته من هذا العالم ويسرع فى التخلص منه فيودعون ذلك المكان الذى يحول بينه وبين الدنيا ويقطع علاقته مع أهلها. يالها من لحظات معبره! ليس له من إرادته، لا يستطيع أن يأخذ معه شيئاً، لا يسع أحد مساعدته وإن كان من أقرب المقربين. فسرعان ما تحمل جنازته إلى تلك الحفره الموحشه المظلمه فيوسد فيها تحت التراب، وليس معه سوى ذلك الكفن المتواضع، فلم يعد هنالك من مجال لحمل الاسره والتيجان ولاالتزين والتفاخر. هنا يوصى أمير المؤمنين على عليه السلام باستحضار هذه اللحظات الحساسه بغيه الوقوف بوجه طغيان هذه النفس، كيف تغفلون عما ليس بغافل عنكم. كفى بالموت واعظا، الذى ينقلكم من دار الأهل والأنس إلى دار الوحشه والخوف، كفى واعظا بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين، وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً، وكأنّ الآخره لم تزل لهم داراً. أوحشوا ما كانوا يوطنون، وأوطنوا ما كانوا يوحشون، لا عن قبيح يستطيعون إنتقالاً، ولا فى حسن يستطيعون ازدياداً (١). حقاً أنّ لحظه ولاده الإنسان ودخوله الدنيا كخروجه منها عبره لمن إعتبر، فكلاهما يقع بمعزل عن إرادته الإنسان، وليس للإنسان من قدره على شىء فى هاتين الحالتين، ولو تأمل الإنسان هذا الأمر قليلاً لما أصابه مثل ذلك الغرور الطغوى والنسيان. ورد فى الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام: وفى قبض كف الطفل ولاده

٢ - سؤال القبر

تطرت الخطبه إلى سؤال القبر الذى ورد صريحاً فى الروايات الإسلاميه، كما ورد فى

ص: ٢٤١

(١- ١) اقتباس من الخطبه ١٨٨ من نهج البلاغه. [١]

كلمات علماء العقائد. فقد ذكر المحقق الخوئي شارح نهج البلاغه في شرحه المعروف بمنهاج البراعه أنّ المسلمين إتفقوا على أنّ سؤال القبر حق، بل هو من ضروريات الدين، ولم يخالفه إلّا جماعه قليله من الملحدين، حيث روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ليس من شيعتنا من أنكر ثلاثه: المعراج وسؤال القبر والشفاعه» (١) كما وردت الروايات في المصادر الإسلاميه بهذا الشأن، وإنّ الإنسان إذا وضع في قبره، أتاه الملكان فسألاه عن عقائده؛ التوحيد والنبوه وولايه الأئمه عليهم السلام، بل جاء في أغلب الروايات أنّه يسئل عن أربع: عن عمره فيم قضاه، وعن شبابه فيم أفناه، عن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه، فان كان مؤمنا أجاب ليشم برحمه الله وعنايته، وان كان كافراً عجز عن الجواب فيصب عليه العذاب. الجدير بالذكر أنّ بعض القرائن في الروايات المذكوره تفيد أنّ مسأله القبر ليست باليسيره بحيث يجيب عنها الإنسان كيفما شاء، بل إنّ جوابه مما تفرزه عقائد الإنسان وأعماله في الحياه الدنيا، وكأنّ سؤال القبر أول محكمه عدل إلهيه يشهدا الإنسان تؤهله لورود عالم البرزخ. بعباره أخرى فانّ الموت من الحوادث العظيمه التي تهز أعماق الإنسان وتذهله عما في نفسه، فلا يبقى لديه إلّا ما كان حصله على سبيل الملكه وتأصل في روحه وفكره. فقد ذكر العلامه المجلسي أنّ المشهور بين متكلمي الإماميه هو أنّ سؤال القبر ليس عاماً، بل يرتبط بمن محض الإيمان أو الكفر، ولا يشمل الضعفاء والمجانين والصبيان. كما ذكر المرحوم العلامه الخوئي بعد نقله لهذا الكلام أنّ الأخبار الوارده في كتاب الكافي وسائر المصادر إنّما تؤيد هذا المعنى. (٢) والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سي طرح سؤال القبر على هذا البدن الجسماني وهو الذي سيجيب عنه، أم أنّ السؤال والجواب مرتبط بروح الإنسان إلى جانب هذا البدن في عالم البرزخ؟ بعباره أخرى: هل السؤال للروح في قالب المثال، أم لهذا الجسم المادي؟ هناك إختلاف بهذا الخصوص، فالبعض يعتقد بأنّ الروح ستعود بصوره مؤقتة إلى هذا الجسم (بالطبع ليست بصوره كامله بل بالمقدار الذي يسع السؤال والجواب) فتسئل من قبل الملكين وتجب. أما العلامه المجلسي وبعد تحقيقه في الأحاديث الوارده بهذا المجال فقد قال: «المراد بالقبر في أكثر الأخبار ما

ص: ٢٤٢

١- ١) منهاج البراعه ٤٠/٤ - ٤١.

٢- ٢) منهاج البراعه ٤٢/٤.

يكون الروح فيه في عالم البرزخ» (١). ومن هنا تتضح الإجابة على الشبهه التي يثيرها بعض المغفلين من أننا لو وضعنا علامه على فم الميت وجئنا بعد يوم أو يومين ونبشنا قبره لتبين عدم تكلمه خلاله تلك الفتره؛ وذلك لأنّ السؤال والجواب ليسا متعلقين بهذا الفم والبدن المادى، لكى نفتش فيهما. أمّا القرائن التي تؤيد ما ذهب إليه العلامة المجلسى، الآيه القرآنيه الشريفه القائله: «رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» (٢) هذا ما سيورده الأثمون يوم القيامه، والذي يشير إلى أنّ الأحياء لم يحصل أكثر من مرتين؛ أحدهما في الدنيا، والآخرى في القيامه. فلو كان البدن المادى يتولى الاجابه في القبر لوجب أن يعيش الحياه في القبر بصوره مؤقتة أيضاً، ليقود ذلك إلى وجود ثلاث ميئات وثلاث حياتات (الحياه في الدنيا والحياه في القبر والحياه في القيامه، والموت قبل الحياه في الدنيا، والموت في آخر العمر، والموت بعد الحياه في القبر). ومن هنا لاينبغي التردد بأنّ السؤال والجواب مختصان بالروح في قلبها البرزخى، وهو المعنى الذى وردت الإشاره إليه في الخطبه بالعباره «أقعد في قبره»، وإلاّ فإنّ أغلب القبور ولاسيما تلك التي لالحد فيها لاتسع قعود الإنسان.

ص: ٢٤٣

١-١ (١) بحار الأنوار ٦/٢٧١. [١]

٢-٢ (٢) سوره غافر / ١١. [٢]

القسم الخامس عشر: القبر روضه من رياض الجنه أو حفره من النار

«وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةُ نُزُولِ الْحَمِيمِ، وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ، وَفُورَاتُ السَّعِيرِ، وَسُورَاتُ الزَّفِيرِ، لَا فَتْرَةَ مَرِيحِهِ، وَلَا دَعَا مَزِيحِهِ، وَلَا قُوَّةَ حَاجِرَةٍ، وَلَا مَوْتَهُ نَاجِرَةٍ، وَلَا سِنَّةَ مُسَلِّيَتِهِ، بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ! إِنَّا بِاللَّهِ عَائِدُونَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلى الحوادث التي يشهدها العاصون في عالم البرزخ، وذلك لأنَّ الثواب والعقاب لا يقتصران على عالم القيامة، بل يشملان طائفة عظيمة من الناس في عالم البرزخ الذي يمثل الواسطة بين عالم الدنيا وعالم القيامة؛ والحديث الشريف: «القبر روضه من رياض الجنه، أو حفره من حفر النيران» (١) إنما أشار إلى هذا المعنى، وبعبارة أخرى فإن هنالك صورته محدوده في البرزخ لتلك الشامله في عالم القيامة. فقد قال عليه السلام: «وأعظم ما هنالك بليّة نزول الحميم (٢) تصلية (٣) الجحيم، وفورات (٤) السعير، وسورات (٥)

ص: ٢٤٥

١- ١) رواه الترمذى فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وآله (ج ٤، كتاب صفه القيامة، ح ٢٤٦٠) والعلامة المجلسى فى بحار الأنوار (٦/٢١٤ - ٢١٨).

٢- ٢) «حميم» من ماده «حم» على وزن غم فى الأصل الماء الحار وهو المعنى المراد فى العبارة. فقد جاء فى القرآن «فشاربُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ» سورة الواقعة / ٥٤. [١]

٣- ٣) «تصلية» من ماده «صلى» على وزن سعى ويعنى الاحراق، كما تعنى دخول جهنم، أمّا تصلية فيه متعدية وهى تعنى الاحراق فقط.

٤- ٤) «فورات» من ماده «فور» الغليان.

٥- ٥) «سورات» جمع سورة الغضب.

الزفير (١)» فالمراد بالجحيم هنا جحيم البرزخ التي تمثل جانبا من جهنم القيامة، والتي سيردها أصحاب الكبائر. فقد قال سبحانه تعالى في محكم كتابه العزيز بشأن آل فرعون: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (٢) كما يستفاد من العبارة شدة عذاب البرزخ ورهيبته. فناره تضج، والسنتها تتصاعد، وماؤها يشوى البطون حقا أن آلام الإنسان ومعاناته ومصائبه لتزول بالمره حين يفارق هذه الدنيا ويودع روضه من رياض الجنه، غير أن البلاء يشد إذا أودع بعد كل هذا البؤس والشقاء حفره من حفر النار إثر سوء أعماله. طبعاً كلام الإمام عليه السلام مطلق، ولكن من الواضح أن المراد به عباد الدنيا والظلمه والطواغيت وعامه أهل الذنوب والمعاصي؛ وهو الأمر الذي أشير إليه بصراحه في العبارات السابقه، كالعباره: «نفر مستكبراً، وخبط سادراً، ما تحاً في غرب هواه، كادحاً سعياً لدنياه». ثم قال عليه السلام «لا فتره مريحه، ولا دعه (٣) مزيحه، (٤) ولا قوه حاجزه، ولا موته ناجزه، (٥) ولا سنه (٦) مسليه، (٧) بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات! إننا بالله عائدون». تبين هذه العبارات القصيره العظيمة المنال المقتبس من آيات القرآن الكريم أن العذاب الإلهي شديد الألم على هؤلاء الأفراد من جهه، ومن جهه أخرى ليس هنالك من سبيل قط للفرار منه، وذلك لأن صحيفه الأعمال تغلق بموته ولا تشهد أى تغيير تبديل، اللهم إله أن يتطلف الله عليهم برحمته وفضله، مع ذلك فذلك اللطف يستند إلى حكمته سبحانه. فما ورد في هذه الخطبه يتناغم وآيات القرآن الكريم التي تحدثت عن عقاب البرزخ. فقد

ص: ٢٦٦

١-١) «زفير» صوت النار عند توقدها.

٢-٢) سورة غافر / ٤٦. [١]

٣-٣) «دعه» من ماده «ودع» على وزن منع الراحه.

٤-٤) «مزيحه» من ماده «أزاحه» تزيح ما أصابه من التعب.

٥-٥) «ناجزه» من ماده «نجز» منتهيه.

٦-٦) «سنه» بالكسر والتخفيف أوائل النوم.

٧-٧) «مسليه» من ماده «تسليه» النسيان، تشغله عما هو فيه.

صرحت الآية السادسة والسابعة من سورة الملك بشأن نار البرزخ: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ» كما ورد في الآية السادسة عشر من سورة الفرقان: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا». أما حال أهل البرزخ فقد صورته الآية ٧٥ من سورة الزخرف: «لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، بينما تحدثت الآية العاشرة من سورة الطارق عن عدم وجود من يعينهم ويخفف عنهم: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ»، وأخيراً تطرقت الآية ٧٧ من سورة الزخرف عن تمنيمهم الموت الذى يريحهم مما هم فيه من العذاب: «وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ». وهكذا سائر الآيات القرآنية التى تكشف عن حركة الإمام عليه السلام فى حديثه وفعله من خلال الوحي السماوى والجو القرآنى.

«عِبَادَ اللَّهِ، أَيُّنَ الَّذِينَ عَمَّرُوا فَنَعَمُوا، وَعَلَّمُوا فَفَهَّمُوا، وَأَنْظَرُوا فَلَهَّوْا، وَسَلَّمُوا فَسَوَّوْا! أَمَّهَلُوا طَوِيلًا وَمُنَحُوا جَمِيلًا، وَحَدَّرُوا أَلِيمًا، وَوَعَدُوا جَسِيمًا، جَمِيلًا! اخْدَرُوا الذُّنُوبَ الْمُورِطَةَ، وَالْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه والذى يقترب من نهايتها - كافة العباد داعيهم إلى تأمل حياه الأمم السالفه وما حل بها وقد غير مجرى كلامه، فقال عليه السلام: «عباد الله، أين الذين عمروا فنعموا، وعلموا ففهموا، وأنظروا فلهوا، وسلموا فسوا». لو تصفحنا التاريخ، أو فكرنا في حياتنا الماضيه فى ظل هذا العمر القصير وتأملنا الأفراد من ذوى القدره والسطوه الذين حفوا بمختلف النعم، إلّا أنّهم لم يستثمروا هذه النعم الإلهيه ولم يستندوا إلى علم أو معرفه كما لم يفكروا أيام سلامتهم وصحتهم بالمرض، ولا فى إقتدارهم بالضعف والعجز، حتى غادروا هذه الدنيا صفر اليدين اتجهوا صوب مصيرهم الاسود. حقاً لو فكرنا فى هذه الأمور لعشنا حاله اليقظه ولرأينا مستقبلنا من خلال الاعتبار بحياه هؤلاء. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى طول المهله التى منحها هؤلاء والنعم التى حفوا بها وحذروا من عاقبه المعيه ووعدوا بشده العذاب «أمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحذروا أليماً، ووعدوا جسيماً». نعم لم يستفيدوا من تلك المهله الطويله، كما لم توقظ تلك النعم المختلفه ضمائرهم الميته فتشعرها بشكر المنعم، وبالتالي لم يردعهم الوعد بالعذاب الإلهي عن مقارفه الذنوب والمعاصي، ولم يثيرهم الوعد بالثواب الأخرى للحركه من أجل الطاعه. ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«احذروا الذنوب المورّطه، والعيوب المسخّطه». القرآن من جانبه صرح بهذا الشأن قائلاً: «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَافِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَافِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَافِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (١).

فقد دأب أئمة الدين وعلماء الأخلاق على لفت إنتباه العتاه إلى التفكير فى سيره من سبقهم من الأقبام وبتأملوا المصير الذى طال الملوك السلاطين والطواغيت والجبابره والظلمه، وكيف كانت عاقبتهم، وماذا حملوا معهم من هذه الدنيا، وما بقى منهم. فهل هناك سوى القبور الموحشه والعظام النخره والقصور المعطله والأموال والثروات التى آلت لغيرهم، ثم اعتراهم النسيان وكأنهم لم يكونوا من أبناء هذه الدنيا. ناداهم صارخ من بعد ما قبروا

ص: ٢٧٠

«أولى الأبصار والأسماع، والعافية والمتاع، هل من مناص أو خلاص. أو معاذ أو ملاذ، أو فرار أو محار! أم لا؟ «فأني تُوفِّكون» أم أين تُصرفون! أم بماذا تَغْتَرُونَ! وإنما حظُّ أحدكم من الأرض، ذات الطول العريض، قيد قَدِّه، مُتَعَفِّراً عَلَى حَدِّه!». .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام الناس مره أخرى بطريقه تختلف عن سابقتها قائلاً: «أولى الأبصار والأسماع، والعافية والمتاع، هل من مناص (١) أو خلاص. أو معاذ أو ملاذ، (٢) أو فرار أو محار! (٣) أم لا؟» فالمخاطب هنا من كان له عين باصره وآذان سامعه يعيش نعم الدنيا بعافيه وسلامه. فقد بين الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من عاقبه سوى الموت ووداع هذه الدنيا الفانيه، فلا من سبيل للفرار ولا من طريق لخلاص، لا من ملجأ فيلاذ به، ولا من قلعه تنجى من الموت، وأخيراً ليس هنالك من سبيل للرجعه إلى هذه الدنيا، فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد بين سته طرق للفرار من مخالب الموت، مؤكداً على أنها جميعاً مؤصده مغلقة. فهناك مسيره ينبغي أن يسلكها الجميع، ومصير لا يستثنى منه أحد. أما كون المخاطب من أولئك الذين يتمتعون بالسمع والبصر، فذلك لأن من سلبهما لا يستوعب مثل هذه الأمور. والحق أن أدنى تأمل

ص: ٢٧١

-
- ١- (١) «مناص» من ماده «نوص» على وزن قوس الابتعاد والانصال عن الشيء، وقال البعض تعنى الملجأ والمفر.
- ٢- (٢) «ملاذ» من ماده «لوذ» على وزن موز بمعنى الاختفاء واللجوء إلى القلعه، ومن هنا يطلق على الملجأ اسم الملاذ، وتختلف قليلاً عن المعاذ من ماده العوذ على وزن الحوض التي تعنى الالتجاء دون مفهوم الاستتار.
- ٣- (٣) «محار» اسم مكان من ماده «حور» على وزن جور النقص ثم وردت بمعنى المرجع إلى الدنيا بعد فراقها.

للموت الذى يعم الجميع لكاف فى إيقاظنا من سباتنا وهدايتنا للصراط المستقيم، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «فأنى تؤفكون! (١) أم أين تصرفون! أم بما ذا تغترون! وإنما حظّ أحدكم من الأرض، ذات الطول والعرض، قيد قدّه، (٢) متعفراً على خدّه». قد يكون هناك بعض الأفراد الذين يملكون مئات البساتين والمزارع والأراضى الزراعيه وعشرات القصور، إلّا أنّه لا يأخذ منها حين يفارق الدنيا سوى ما يأخذه ذلك المسكين الذى قضى عمره فى الأكواخ؛ أى بقعه من الأرض بقدر قامته، مع كفن يعدّ الحد الأدنى ممّا يستر بدنه العارى. أمّا العبارة: «متعفراً على خدّه» يمكن أن يراد بها أنّ أطف أجزء البدن توارى هناك التراب، أو ليس للإنسان نصيب من هذا التراب حتى بمقدار بدنه؛ لأنّه يطرح على جانبه الأيمن فى القبر، وعاده ما لا يسعه اللحد لأن يضطجع على قفاه.

ص: ٢٧٢

-
- ١-١) «تؤفكون» من ماده «إفك» على وزن فكر بمعنى الانحراف والانقلاب، ثم أريد بها الرجوع.
- ٢-٢) «قيد» بكسر وفتح القاف تأتى بمعنى المقدار، ومن هنا يقال للجبل الذى يربط برجل الانسان أو الحيوان والذى يحد من حركته فى حد معين، يقال له «قيد» و «قدّ» بمعنى الطول.

«الآن عباد الله والخناق مهمل، والزروح مرسل، في فينه الإرشاد، راحه الأجساد، وباحه الاحتشاد، ومهل البقيته، وأنف المشيه، إنظار التوبه، وانفساح الحوبه، قبل الضنك والمضيق، والزروح والزهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وإخذه العزيز المقتدر» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام ثانيه كافه عبادالله، محذرا إياهم من عدم فقدان الفرص قبل حلول الأجل وانتهاء العمر، فقال: «الآن عباد الله والخناق (1) مهمل، والزروح مرسل، في فينه (2) الإرشاد، وراحه الأجساد، وباحه (3) الاحتشاد، (4) ومهل البقيته، وأنف المشيه، وإن ظار التوبه، وانفساح الحوبه، (5) قبل الضنك (6) والمضيق، والزروح الزهوق، (7) وقبل قدوم الغائب المنتظر، وإخذه العزيز المقتدر» فقد أشار الإمام عليه السلام إلى مختلف جوانب

ص: ٢٧٣

١-١ «خناق» من ماده «خنق» الحبل الذى به وضيق الخناق كناية عن شدة المصاب وعظم الضيق.

٢-٢ «فيه» بالفتح الزمان والوقت.

٣-٣ «باحه» من ماده «بوح» على وزن قول الظهور والشهره وباحه بمعنى صحن الدار وساحتها وهذا هوالمعنى المراد فى العبارة.

٤-٤ «إحتشاد» الاجتماع من أجل القيام بعمل مشترك.

٥-٥ «حوبه» على وزن توبه تعنى فى الأصل الحاجه التى تقود الإنسان إلى الذنب ومن هنا وردت فى القرآن وسائر الاستعمالات بمعنى الذنب والمعصيه.

٦-٦ «ضنك» ، الشده ومعيشه ضنك العيش الصعب.

٧-٧ «زهوق» على وزن حقوق، بمعنى الابداه والمحو.

الفرص السانحة للإنسان من قبيل: باقى العمر وسكينة الروح وراحه الجسم وإمكانه نيل الكمال وسهولة الاستشارة وبقاء الفرصه اللازمه للعزم والإرادة والقدره على التوبه والاقلاع عن الذنب. فكل أمر من هذه الأمور يشكل جزءاً من الفرص العظيمه الثمينه التى منحها الإنسان والتي يمكن من خلالها فعل كل شئ ونيل الخير والسعاده؛ والحال يمكن أن يفقد الإنسان جميع هذه الفرص فيقضى على سعاده بنفسه، وبألمهم من بؤساء أولئك الذين لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقه، فيمارسون حياتهم كقطع الغنم الذى ينهمك بأكله وشربه فى مرعاه دون أن تلتفت إلى الذنب الذى ينهشها الواحد تلو الآخره.

قال المرحوم السيد الرضى (ره) فى آخر هذه الخطبه: «وفى الخبر: أنه لما خطب بهذه الخطبه اقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب. ومن الناس من يسمى هذه الخطبه الغراء»

وقد قال ابن أبى الحديد: واعلم أننا لا يخالجننا الشكّ فى أنه عليه السلام أفصح من كلّ ناطق بلغه العرب من الأولين والآخرين، إلا من كلام الله سبحانه، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وذلك لأنّ فضيلته الخطيب والكاتب فى خطابه وتكاتبه تعتمد على أمرين؛ هما: مفردات الألفاظ ومركباتها.

أمّا المفردات فإنّ تكون سهله سلسه غير وحشيّه ولا معقده، وألفاظه عليه السلام كلها كذلك؛ فأما المركبات فحسّن المعنى وسرعه وصوله إلى الأفهام، واشتماله على الصفات التى باعتبارها فضل بعض الكلام على بعض، وتلك الصفات هى الصناعات التى سبّأها المتأخرون البديع، من المقابله، والمطابقه، وحسن التقسيم، وردّ آخر الكلام على صيّدته، والترصيع، والتسهييم، والتوشيح، والمماثله، والاستعاره، ولطافه استعمال المجاز، والموازنه، والتكافؤ، والتشميمط والمشاكله.

ولا شبهه أنّ هذه الصفات كلّها موجوده فى خطبه وكتبه، مبثوثة متفرقه فى فرش كلامه عليه السلام، وليس يوجد هذان الأمران فى كلام أحد غيره فإن كان قد عمّلها وأفكر فيها، وأعمل رويته فى رصيفها ونثرها، فلقد أتى بالعجب العجيب، ووجب أن يكون إمام الناس كلّهم فى ذلك؛ لأنّه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها ابتداءً، وفاضت على لسانه

مرتجله، وجاش بها طبعه بديهه، ومن غير رويّه ولا احتمال، فأعجب وأعجب!

وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره. وبحقّ ماقال معاويه لمحقن الضبّي، لما قال له: جئتك من عند أعيان الناس: يابن اللخناء، ألعليّ تقول هذا؟ وهل سنّ الفصاحه لقريش غيره!

واعلم أن تكلف الاستدلال على أنّ الشمس مضيئه يتعب، وصاحبه منسوب إلى السّفه، وليس جاحد الأمور المعلومه علماً ضرورياً بأشدّ سفهاً ممّن رام الاستدلال بالأدله النظرية عليها. (1)

ص: ٢٧٥

١-١ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦/٢٧٨. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

فى ذكر عمرو بن العاص

نظره إلى الخطبه

كما يفهم من عنوان الخطبه أنّها وردت بشأن عمرو بن العاص الذى كان من مقربى معاويه، بل يمكن القول أنّ استمرار خلافه معاويه وتحقيقه لبضع الانتصارات الظاهريه إنّما تمّ فى ظل مكائد بن العاص ومكره، فالشخص الثانى بل الأول فى تلك الخلافه المنحرفه كان عمرو بن العاص ورغم قصر عبارات الإمام عليه السلام إلّا أنّها رسمت صورته واضحه عن مدى ضلال هذا الفرد المنحرف وإضلاله للأئمه، بحيث يمكن الوقوف على تمام تفاصيل سيرته من خلال هذه الكلمات، إلى جانب ذلك فهى توضيح سر العلاقة بينه وبين معاويه. والجدير بالذكر هو أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين وصفه عمرو بن العاص بأنّه ذو دعابه.

ص: ٢٧٧

١ - ١) سند الخطبه: رواها جمع من مشاهير علماء الإسلام قبل السيد الرضى (ره) ومنهم ابن قتيبه فى عيون الأخبار وأبو حيان التوحيدى فى الامتاع والمؤانسه والبيهقى فى المحاسن والمساوى والبلاذرى فى أنساب الاشراف. ورواها بعد السيد الرضى (ره) الشيخ الطوسى فى الامالى عن محمد بن عمران المرزبانى الذى عاش قبل صدور النهج بسته عشر عاماً وابن عقده والزبير بن بكار وابن أثير فى النهايه (مصادر نهج البلاغه ٢/١١٩). [١]

«عَجَبًا لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَهُ، وَأَنِّي امْرُؤٌ تَلْعَابُهُ: أَعَافِسُ وَأَمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلًا، وَنَطَقَ آثِمًا. أَمَا - وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ - إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُّ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخُلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ، وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَأَمْرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَا خَذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سَبَبَتَهُ. أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نَسْيَانُ الْمَآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ أُتَيْتَهُ، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً».

الشرح والتفسير

ابن النابغه الكاذب

إشاره

استهل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن كذب عمرو بن العاص وتهمته التي وجهها إليه إلى جانب تعريفه بهذا الفرد المنحرف. أما الفريه التي نسبها إلى الإمام عليه السلام فتكمن باتهامه إياه بأن فيه دعابه وإنه من أهل المزاح والفكاهه - والعياذ بالله - ليذرع بها من أجل إثبات عدم صلاحية الإمام عليه السلام لأمر الخلافة. فقد قال عليه السلام: «عجبا لابن النابغه! (1) يزعم لأهل الشام أن في دعابه، (2) وأنى امرؤ تلعبه: (3) أعافس (4) وأمارس! (5)» التعبير عن عمرو بن العاص بابن النابغه

ص: ٢٧٩

١-١) «نابغه» من ماده «نبوغ» الظهور والشهوره وتصطلح العرب بالنابغه على المرأه المشهوره بالفساد، كما تطلق على الافذاذ من الأفراد.

٢-٢) «دعابه» بالضم المزاح واللعب.

٣-٣) «تلعبه» بكسر التاء كثير اللعب الذى يشغل الناس بكلامه وأفعاله.

٤-٤) «أعافس» من ماده «معافسه» شده المزاح.

٥-٥) «أمارس» من ماده «ممارسه» الانهماك بالمزاح.

إشاره إلى فساد أسرته، لأنّ العرب كانت تنسب الولد لأمه إن كانت مشهوره بالشرف والمجد أو بالوضاعة والفساد، كما تعنى مفردة النابغه الظهور والبروز، إلّا أنّها تشير إلى الاشتهار بالفساد إذا أطلقت على المرأة، فقد كانت النابغه أم عمرو بن العاص أمّه لرجل من عتره اسمها الأصلى سلمى أو لىلى، وقد واقعها أبوسفيان فولدت عمرو، فاختلف فيه حيث واقعها أميه بن خلف وهشام بن المغيره والعاص بن وائل السهمى، حيث ادعاه كلهم، فحكمت أمّه فيه فقالت: هو من العاص بن وائل، وذلك لأنّ العاص بن ائل كان ينفق عليها كثيراً. وكان أشبه بأبى سفيان الذى قال عنه: أما إنى لا أشك أنّى وضعتة فى رحم أمّه، فأبت إلّا العاص. (١)

الواقع أنّ الإمام عليه السلام قدم بهذه العبارة لما بعدها، بمعنى لا ينبغي التعجب من مثل هذا الإنسان الذى يكيل التهم للصلحين ويفترى عليهم الكذب. والمفردة دعابه تفيد كثره المزاح، وتلاعبه من يمازح الناس ويهزل معهم، وأعافس وأمارس بمعنى واحد تقريباً وهو معالجه النساء بالمغازله، ثم اتخذت معنى أوسع لتطلق على كل هزل ومزاح. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد اختصر بهذه العبارات كافة التهم التى نسبها عمرو بن العاص للإمام عليه السلام زوراً وبهتاناً، لتكون مقدمه للرد عليه. والجدير بالذكر أنّ أعداء الإمام عليه السلام لم يتورعوا عن التشبث بمثل ما ورد فى الكلام المذكور لما عجزوا عن الطعن فى شخصيه الإمام عليه السلام ولم يروا فيه أدنى ضعف، فهو المعروف بعلمه وتقواه وزهده وورعه وشجاعته وصبره وحلمه، فرموه بتهمه المزاح بهدف إثبات عدم جدارته بالخلافه؛ الأمر الذى يثبت صلاحيته وجدارته بها، فهم فى ذلك كالمثل المعروف: «الغريق يتشبث بكل حشيش»، فعمدوا إلى هذه الذريعه الجوفاء. وبالطبع فاننا سنتحدث فى البحث القادم إن شاء الله عن المزاح متى يكون مباحاً أو مذموماً. ثم ردّ الإمام عليه السلام على كذب بن العاص فى ذلك الاتهام قائلاً: «لقد قال باطلاً، ونطق آثماً. أما - وشرّ القول الكذب»، من يسعه التفكير إلى المزاح اللطيف الذى لا يشوبه الباطل والبعيد عن كل إفراط وتفريط؟ ومن يستطيع تجاهل جديده الإمام عليه السلام فى خطبه ورسائله وقصار كلماته؟! فقد كان أعظم جديده ممن سواه، كما كان ذا إرادته جباره فى زعامته، وان كان يعمد إلى المزاح مع

ص: ٢٨٠

١- ١) ربيع الأبرار للزمخشري، نقلا عن ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه ٦/٢٨٣.

بعض أصحابه بغيه مواساتهم وتخفيف الهم والغم عن قلوبهم؛ الأمر الذى يشاهد بوضوح فى حياه إمامه الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله. أما العدو فهذا ديدنه، فهو لا يكف عن الكذب والدجل والتشبيث بأتفه الذرائع من أجل النيل من الطرف المقابل. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليذكر ست صفات رذيله إتصفت بها سيره عمرو بن العاص: «إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويسأل فييخل، ويسأل فيلحف، (١) ويخون العهد، ويقطع الإل (٢)» لاشك أن كل من يطالع سيره عمرو بن العاص وسجله الأسود يقف بوضوح على هذه الرذائل فى شخصيته.

والخلاصه فقد كان ضيعاً، لا يتورع عن ارتكاب أفضع الرذائل من أجل الدنيا والظفر بحطامها، فهو يعد إذا كانت الأمور لصالحه، بينما يخلف إذا كانت بضرره. فقد كان يضحى بالغالى والنفيس من أجل الحصول على الدنيا، ولا سيما أمام معاويه الذى كان شديد الحاجه إليه، وهذا ما كان يدفعه إلى إعطائه ما يصبو إليه. أمّا نقضه للعهود والمواثيق فحدث ولا حرج، بل كان لا يرحم حتى قرابته ومن له صلته به. وأخيراً دوره فى التحكيم ليس بخاف على أحد. قال بعض المؤرخين أنه عاش تسعين سنه، وذكر يعقوبى (٣) أنه عاش تسعين سنه ولما حضرته الوفاه قال لابنه: لود أبوك أنه مات فى غزات ذات السلاسل، إني قد دخلت فى أمور لا أدري ما حجّتى عند الله فيها. ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته فقال: ياليتته كان بعراً، ياليتنى مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنه، أصلحت لمعاويه دنياه وأفسدت دينى، آثرت دنياى وتركت آخرتى، عمى على رشدى حتى حضرنى أجلى، كأنى بمعاويه قد حوى مالى وأساء فيكم خلافتى.

على كل حال ليس هنالك من لا يعلم بهذه الرذائل التى إنطوت عليها شخصيه عمرو بن العاص. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أرذل الأعمال التى ارتكبتها عمرو بن العاص فى حياته، العمل الذى إنعدم مثيله فى التاريخ، وذلك يوم صفين حين رأى نفسه مقتولاً بيد على عليه السلام فعمد إلى كشف عورته، لأنه كان يعلم بأنّ حياء الإمام عليه السلام لا يدعه ينظر إليه فى تلك الحاله، فاغتنم تلك

ص: ٢٨١

١-١) «يلحف» من ماده «الحاف» بمعنى الاصرار والالاحاح واصلها من اللحاف وهو الغطاء المعروف، ولما كان الشخص المصر يلف من حوله فقد اطلقت عليه هذ المفرده.

٢-٢) «الإل»، العهد، والميثاق، كما تعنى القرابه، والمراد من قطع الال أن يقطع الرحم.

٣-٣) تأريخ يعقوبى ([١] طبق نقل الغدير ٢/١٧٥). [٢]

الفرصة ليهرب من بين يديه. فشاع هذا الأمر بين العرب آنذاك حتى أخذت الناس تضرب به المثل في أن عوره عمرو أنجته من الموت. فقد قال الإمام عليه السلام: «فإذا كان عند الحرب فأبى زاجرٍ وأميرٍ هو! ما لم تأخذ السيوف مآخذها، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم (١) سبته (٢)» فقد قال ابن أبي الحديد: وأما خبر عمرو في صفين واتفائه حمله على عليه السلام، بطرح نفسه على الأرض وإبداء سواته، (٣) فقد ذكره كل من صنّف في السير كتاباً، وخصوصاً الكتب الموضوعه لصفين والقصه كالاتي: قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين قال:

حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي عمرو، وعن عبد الرحمن بن حاطب، قال كان عمرو بن العاص عدواً للحارث بن نصر الخثعمي، وكان من أصحاب عليّ عليه السلام، وكان عليّ عليه السلام قد تهيّته فرسان الشام، وملاً قلوبهم بشجاعته، وامتنع كل منهم من الإقدام عليه. وكان عمرو قلماً جلس مجلساً لئلا ذكر فيه الحارث بن نصر الخثعمي وعابه.

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمراً، فأقسم بالله ليلقين عليّاً ولو مات ألف موته. فلما اختلطت الصفوف لقيه فحمل عليه برمحه، فتقدم عليّ عليه السلام وهو مختطراً سيفاً معتقلاً رمحاً، فلما رهبه همز فرسه ليعلّو عليه، فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه؛ كاشفاً عورته، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستدبراً له، فعُدّ الناس ذلك من مكارمه وسؤدده وضرب بها المثل. (٤)

واوردت التواريخ قال معاوية يوماً بعد استقرار الخلافه له لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لا أراك إلا ويغلبني الضحك؛ قال: بما ذا؟ قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين، فأزريت نفسك فرقاً من شَباً سنانه، وكشفت سواتك له؛ فقال عمرو: أنا منك أشدّ ضحكاً؛ إنني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سَـحْرُك، ورباً لسانك في فمك وغَصَصَتْ بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك؛ فقال معاوية: لم يكن هذا كله وكيف يكون ودوني عكّ

ص: ٢٨٢

١-١ «قرم» المذكر من الجنس، كما وردت بمعنى الشخص العظيم والسيد، وهذا هو المعنى المراد في العبارة، لأن عمرو بن العاص كان يعلم أن أمير المؤمنين علي عليه السلام يصرف وجهه عنه إذا ما كشف عورته.

٢-٢ «سبه» من ماده «سب» على وزن شق الشتم وكل شئ يكره ذكره، وهى هنا إشاره إلى العوره.

٣-٣ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦/٣١٢. [١]

٤-٤ كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم ٢٢٤/ «بحسب ما نقله الغدير، [٢] في ٢/١٥٨.

الأشعريون! قال: إنك لتعلم أن الذى وصفتُ دون ما أصابك، وقد نزل ذلك بك ودونك عكَّ الأشعريون، فكيف كانت حالك لو جمعكما مأقَطُ الحرب! فقال: يا أبا عبد الله، خُصُّ بنا الهزل إلى الجِدِّ، إن الجبن والفرار من على لا عار على أحدٍ فيهما. (١)

ثم قال عليه السلام ردا على إفتراء عمرو بن العاص: «أما والله إنى ليم نعى من اللُّعب ذكر الموت» فالإمام عليه السلام لا يغفل عن الموت طرفه عين، وذلك لأنَّ الموت قانون يشمل جميع الخلائق لا يعرف الاستثناء ولم يعنى له وقت، ويعلم الإمام عليه السلام على وجه اليقين أن الموت هادم اللذات وأنَّ الإنسان يتحول إلى وحش ضارٍ إذا نسى الموت ومحكمه العدل الإلهي. فهل للإمام عليه السلام من فرصه للمزاح واطلاق العنان للهوى وهو ما عليه من الذكر؟ قطعاً لا يجوز ذلك على الإمام عليه السلام، بينما لم يدفع ابن البانغهِ للتفوه بذلك الكلام سوى نسيان الآخرة والغفلة عن الموت: «وإنَّه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة» نعم إذا كذب أو إفتري ولم يتورع عن القيام بأى عمل من أجل تحقيق مطامعه الدنيوية فذلك معلول لنسيانه الموت والآخرة. وما أسلفنا فان من نسى الآخرة وتجاهل العدل الإلهي أصبح كائناً خطيراً يخشى منه، لأنَّه لا يتوانى عن ارتكاب أبشع الأعمال دون أن يكثر حتى لشرفه وحيثته. ثم يستدل عليه السلام على ذلك بقوله: «إنَّه لم يسايح معاويه حتى شرط أن يؤتية أتيه»، (٢) ويرسخ له على ترك الدِّين رضىخه (٣). فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى تلك الواقعة المعروفة بين الناس والتي أشرنا إليها فى الخطبة السادسة والعشرين، والقصة هى: لما نزل على عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصره، كتب إلى معاويه كتاباً يدعوه إلى البيعه أرسل فيه جرير بن عبد الله البجلي، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وأحب الزيادة فى الاستظهار، فاستشار عمرو بن العاص، فكتب له معاويه كتاباً، فسار حتى قدم على معاويه. فقال له معاويه: إنى أدعوك إلى جهاد على بن أبى طالب. قال عمرو: والله يا معاويه ما أنت وعلى حملى بعير، ليس له هجرته

ص: ٢٨٣

١- ١) روى ابن ابى الحديد ذلك عن المؤرخ المشهور الواقدي (شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد ٦ / ٣١٧). [١]

٢- ٢) «الاتيه» بمعنى العطيه من الايتاء بمعنى الاعطاء.

٣- ٣) «رضيخه» من ماده رضىخ، «رضيخ» له رضىحه أعطاه قليلا، والمراد بالعبارة أنّ عمرو بن العاص باع آخرته ودينه بذلك المتاع الزهيد من الدنيا، ولاسيما أنّه لم يتمتع بذلك المقام سوى بضعة سنوات.

ولا- سابقته ولاصحبته ولاجهاده ولافقهه ولاعلمه. ثم قال فما تجعل لى إن شايعتك على حربيه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال: حكمك، فقال: مصر طعمه. فتلكا عليه معاويه، وقال: إني أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إذا دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا، فقال عمرو: دعنى عنك. حتى استجاب له معاويه آخر الأمر. (١) والعجيب أن الدنيا لم تف له حيث لم يحكم مصر سوى بضع سنوات ثم ندم ندماً شديداً أوآخر عمره من فعاله، فكان يلعن نفسه، ولم يكن أمامه من مخرج. (٢)

تأملان

١ - نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره

كلنا نعرف هذا الشخص وقد سمعنا عن مكره ودوره الهدام فى التاريخ الاسلامى، ولعل الجميع يعلم بخدعته فى رفع المصاحف على أسننه الرماح فى معركة صفين حين أو شكك جيش الشام على الهزيمة؛ الامر الذى أثر بشده على بعض السذج من جيش على عليه السلام فاجيروا الإمام عليه السلام على الكف عن القتال والرضوخ للتحكيم. ولد لاربع وثلاثين سنه قبل البعثه. أبوه العاص بن وائل المعروف بعدهائه للاسلام والذى لقبه القرآن الكريم بالابتر «إن شانتك هو الابتر» (٣) لأنه قال لقريش: سيموت هذا الابتر - رسول الله صلى الله عليه و آله - غدا فينقطع ذكره. وأما أمه فقد ذكر المؤرخون فقد وقع عليها خمس فولدت عمروا فادعاه كلهم، فحكمت أمه فيه فقالت: هو من العاص بن وائل لأنه كان ينفق عليها كثيرا، ولحسان بن ثابت أشعار فيه.

وقد توجه إلى الحبشه حين هاجر إليها المسلمون ليكيد جعفر أو يقتله، وقد اعلن اسلامه هناك ليسدد ضربته للاسلام والمسلمين. ويرى البعض أنه قصد الحبشه يوم الخندق وقال لصحبه: ارى أن نذهب إلى الحبشه فان ظهر قومنا عدنا اليهم وان ظهر محمد بقينا فى الحبشه. فدخل الحبشه قبل جعفر وقد حمل الهدايا إلى النجاشى وطلبوا منه أن يأذن لهم بقتل جعفر.

ص: ٢٨٤

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢/٦١ ([١] بتخليص).

٢- ٢) هناك كلام بين المؤرخين بشأن موت عمرو، غير أن العلامه الأمينى ذكر فى غديره وابن أبى الحديد فى شرحه ٦/٣٢١: والصحيح أنه مات فى سنه ثلاث واربعين، فلم تدم حكومته لمصر أكثر من خمس سنوات.

٣- ٣) سورة الكوثر / ٣. [٢]

فلم يجيهم النجاشي الذي أسلم باطنا. فقال عمرو: لم أكن أعلم بمنزله محمد وأنا على دينه الآن. فلما عاد إلى المدينة استقبله النبي صلى الله عليه وآله وأمره وبعثه إلى ذات السلاسل. ثم ولاة النبي عمان (في الشام) فبقى هناك حتى وفاه النبي صلى الله عليه وآله، ثم ولاة عمرو فلسطين والاردن، وحين ولي عمر معاوية على الشام وجه عمرو بن العاص لمصر ففتحها، فولاهها أربع سنوات على عهد عثمان ثم عزله، فنقم عليه وهاجر إلى فلسطين. ولما نهض معاوية في الشام استنجد بعمر وفاشترط عليه ولايه مصر فأجابه. فبقى فيها حتى توفي عام ٤٣ وله تسعون سنة.

قيل عرف بالشجاعه في الجاهليه وان لم ينقذه من القتل في صفيين الا عورته لأنه يعلم بأن عليا عليه السلام لا يقتله. (١)

يرى العلامة الاميني أنه لم يسلم وقد تظاهر بالاسلام وهو مصداق لمن قال فيهم الإمام على عليه السلام: «والذي فلق الحبه وبرأ النسمه، ما أسلموا ولكن استسلموا واسروا الكفر، فلما وجدوا أعوانا، رجعوا إلى عداوتهم منا» (٢).

لم يكن يتورع عن معاداه على عليه السلام حتى قال لعائشه: ليتك قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ قال: لدخلت الجنه وشنعنا بك على بن أبي طالب. (٣)

واخيرا قال ابن ابى الحديد: وكان عمرو أحد من يؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكه ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة؛ لأنه كان صلى الله عليه وآله يخرج من منزله ليلا فيطوف بالشعبه، وكان عمرو يجعل له الحجارة في مسلكه ليعثر بها. وهو أحد القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرجت مهاجرة من مكه إلى المدينة، فروعها حتى أجهضت جنينا ميتا فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله نال منه وشق عليه مشقه شديده ولعنه. (٤)

٢ - المزاح في الإسلام

مما لاشك فيه أن روح الإنسان ترهق من جراء المشاكل؛ فلا بد من ترويحها بالاستجمام

ص: ٢٨٥

١-١ (١) الغدير ٢٠٦/٢؛ [١] شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد ٦/٢٨٢.

٢-٢ (٢) الغدير ٢/١٢٦. [٢]

٣-٣ (٣) شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد ٦/٣٢٢. [٣]

٤-٤ (٤) شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد ٦/٢٨٢. [٤]

وطرائف الحكم، وإلا كسلت وشلت عن النشاط، ومن هنا فان العقل والمنطق والفطره تقتضى أن يلجأ هذا الإنسان إلى المزاح بغية التخفيف من حده المعاناه والتعب والارهاق، فان تم هذا الأمر فى ظل الموازنه والاعتدال فهو ليس مذموماً فحسب، بل من الأمور المطلوبه، وأبعد من ذلك تكتسب درجه الضروره والوجوب، لتعد جزءاً من مكارم الأخلاق والبشاشه وطلاقه الوجه. والذى تفيده سيره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمه الدين عليهم السلام وأولياء الله - بل وكافه العقلاء - أنهم كانوا يلجأون إلى المزاح فى أعمالهم طيله مدّه حياتهم. إلّا أنّ ما يجدر ذكره هو أنّ هذا المزاح إنّما يتحول إلى سخريه واستهزاء لو خرج من حد الاعتدال أو شابه الاثم والغيبه والنمسيه، كما يكون وسيله للثأر وإراقه ماء وجه الآخرين، حيث يتعذر على الإنسان أحياناً إظهار مكنون قلبه من الحقد والضغينه فيلجأ إلى هذا الاسلوب، وهنا يتحول المزاح إلى رذيله بشعه من الرذائل الكاشفه عن سوء الخلق. وهذان هما المعنيان الذان كشفت عنهما بعض الروايات الإسلاميه التى مدحت المزاح من جانب وعدته فضيله، وتلك التى ذمته وعدته رذيله. ولأبأس هنا بذكر بعض الروايات الإسلاميه الوارده بهذا الشأن:

١ - ورد فى الحديث أنّ أحد أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام سأله عن المزاح فقال عليه السلام: «لا بأس ما لم يكن» (أى ما لم يخالطه الاثم) ثم قال: «إن رسول الله كان يأتيه الاعرابى، فيهدى له الهديه ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا! فيضحك رسول الله؛ وكان إذا اغتم، يقول: ما فعل الاعرابى؟ ليته أتاناً». (١)

٢ - وورد عن الإمام الكاظم عليه السلام «المؤمن دعب لعب، والمنافق قطب غضب». (٢)

٣ - عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من مؤمن إلّا وفيه دعا به؛ قلت: وما الدعا به؟ قال: المزاح». (٣)

٤ - بل ورد فى الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمزح، حيث جاء فى الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأمرأه من الأنصار: «الحقى زوجك فإن فى عينه بياضاً» فسعت نحوه مرعوبه، فقال لها:

ص: ٢٨٦

١-١ (١) اصول الكافى ٢/٦٦٣. [١]

٢-٢ (٢) تحف العقول ٤١/ باب مواعظ النبى. [٢]

٣-٣ (٣) اصول الكافى ٢/٦٦٣. [٣]

ما دهاك؟ فأخبرته، فقال: نعم إن في عيني بياضاً لاسوء، فخفضى عليك. فهذا من مزاح رسول الله صلى الله عليه وآله. وأتت عجوز من الأنصار إليه صلى الله عليه وآله، فسألته أن يدعوا الله تعالى لها بالجنه، فقال: «إن الجنه لاتدخلها العجز» (١) فصاحت، فتبسم صلى الله عليه وآله وقال: «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً *فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا» (٢) وهكذا سائر الروايات. . .

وفى نفس الوقت وردت الروايات التي ذمت المزاح، ومن ذلك ما روى عن على عليه السلام أنه قال: «المزاح يورث الضغائن» (٣) وقال: «لكل شئ بذر وبذر العداوه المزاح» (٤) وجاء في الخبر أن المزاح يحد من العقل ويذهب بالهيبة وهو العدو الاصغر (٥). وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يبلغ العبد صريح الإيمان حتى يدع المزاح والكذب» (٦).

ومن الواضح أن ليس هنالك من تضاد بين هاتين الطائفتين من الروايات، لأن الطائفة الاولى تحدثت عن أصل المزاح، بينما تحدثت الطائفة الثانيه عن الإفراط وتجاوز الحد في المزاح. أو بعبارة أخرى: الطائفة الاولى ناظره إلى المزاح الموزون الذي لا يستند إلى أى غرض ومرض وحقده وضغينه، أمّا الطائفة الثانيه فهي ناظره إلى المزاح الباطل، والشاهد على ذلك ما جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إني أمزح ولا أقول إلا حقاً» (٧). والشاهد الآخر أغلب الروايات التي صرحت بدم كثره المزاح. فقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كثره المزاح تذهب البهاء وتوجب الشحناء» (٨). كما عبرت بعض الروايات عن ذلك بالإفراط في المزاح. ويتضح مما أوردنا من الروايات - ولاسيما تلك التي وردت عن على عليه السلام - أن الإمام عليه السلام كان يمزح أحياناً بالحق؛ الأمر الذي يجعله فضيله من فضائله وأنه كان كريم الخلق بشر الوجه، إلا أن العدو كان يندفع بكل همجيه وضغينه ليشوه حتى هذه الصفات الحميده فيه، بهدف

ص: ٢٨٧

-
- ١-١ (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦/٣٣٠. [١]
 - ٢-٢ (٢) سوره الواقعه / ٣٥ - ٣٦. [٢]
 - ٣-٣ (٣) تحف العقول / ٨٦.
 - ٤-٤ (٤) ميزان الحكمه / ٤، ح ١٨٨٦٩.
 - ٥-٥ (٥) ميزان الحكمه / ٤ / باب ذم المزاح.
 - ٦-٦ (٦) ميزان الحكمه / ٤ ح ١٨٨٧٧.
 - ٧-٧ (٧) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦/٣٢٠. [٣]
 - ٨-٨ (٨) غرر الحكم. [٤]

إقصائه من مكانته، ونموذج ذلك ما ورد في هذه الخطبه. فقد نفى عليه السلام في هذه الخطبه عن نفسه كثره المزاح، المزاح الممدوح الذى يهدف إلى جلاء الروح ونشاطها وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

ونختتم الكلام بهذا الحديث:

فقد جاء فى الخبر أنّ يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام، وعيسى مبتسم، فقال يحيى عليه السلام: مالى أراك لاهيا كأنك آمن! فقال عليه السلام: مالى أراك عابساً كأنك آيس؟

فقالا: لانبرح حتى ينزل علينا الوحي. فأوحى الله إليهما: أحبكما إلى الطلق البسام، أحسنكما ظنا بى. (١)

ص: ٢٨٨

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٦/٣٣٣. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها صفات ثمان من صفات الجلال

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى ثلاثه أمور مهمه: الأول ذكره لبعض صفات الجلال والكمال بعبارات قصيره عظيمه المعاني. الثاني دعوه الناس للاعتبار بما تفرزه حوادث الحياه ولاسيما الموت الذي يقف لهذه الحياه بالمرصاد. الثالث التعرض لدرجات أولياء الله والنعم المطلقه الخالده التي يتنعمون بها في الجنّه. أمّا تعبير السيد الرضى (ره) في بدايه الخطبه بالقول «ومنها» يفيد أنه وكديده قد إقتطف هذه العبارات من خطبه طويله.

ص: ٢٨٩

١- ١) سند الخطبه: رواها أبو نعيم الإصفهاني في كتاب حليه الأولياء والسبط بن الجوزى الذى عاش بعد السيد الرضى (ره) فى كتاب تذكره الخواص ومحمد بن طلحه الشافعى فى مطالب السؤل (مصادر نهج البلاغه ٢/١٢٢).

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: الْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ، الْآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ، لَا تَفْعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفِهِ، وَلَا تُعَقِّدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ، وَلَا تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبَعِيضُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ» .

الشرح والتفسير

يقسم علماء العقائد صفات الله إلى قسمين: صفات الجمال وصفات الجلال. وتطلق صفات الجمال على الصفات الثبوتية من قبيل؛ العلم والقدره. وتطلق صفات الجلال على الصفات السلبية من قبيل؛ عدم وجود الشريك والشبيه. ولما كانت الصفات الثمان الواردة في القسم الأول من الخطبه ثبوتيه وسلبيه فإنّ الذى ذكر عنوان لها ليس على ضوء علماء العقائد، بل يراد بالجلال هناك المعنى اللغوى والاشاره إلى عظمه هذه الصفات. على كل حال فإنّ معرفه الله والتعرف على صفات جماله وجلاله، تعد معين كل خير وحسن وأساس جميع الفضائل الأخلاقية والأعمال الصالحه، ومن هنا فقد إستهل الإمام عليه السلام أغلب خطبه بالإشاره إلى جانب من هذه الصفات، ليحمل القلوب نحو عظمته سبحانه وصفات جلاله وجماله. فقد قال عليه السلام: «و أشهد أن لا- إله إلا الله وحده لا- شريك له» فالأوصاف وإن كانت ثلاث وهى نفى الشريك والمعبود وصفه التوحيد، غير أنّها تعد جميعاً إلى حقيقه واحده وهى توحيديه فى الذات والصفات والعبوديه. ولما كان التوحيد أساس صفات الله سبحانه، فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى هذه الصفه قبل كل شىء، وسنرى لاحقاً أنّ سائر الصفات السبع إنّما تنبع من صفه التوحيد. ثم قال عليه السلام فى الصفه الثانيه «الأوّل لا شىء قبله» هذه واحده من الصفات التى

تنزهه عن الشبه؛ لأنه وجود لامتناهى، ومثل هذا الوجود أزلى، والوجود الأزلى قبل كل شئ وبعد كل شئ، فلو كان قبله شئ لانتفت أزليته. ثم قال عليه السلام فى الصفه الثالثه: «و الآخر لا غايه له» كما أشرنا آنفاً فإن هذه نتيجه لعدم تناهيه، وبعباره أخرى إنتفاء نظيره. ومن الواضح أنّ الصفه الثانيه والثالثه ثبوتيه: فأوليته فى الأزل، وآخريته فى الأبد. وقال عليه السلام فى الصفه الرابعه: «لا- تقع الأوهام (1) له على صفه» فنحن نعلم أنّ عقلمنا محدود لايسعه إدراك سوى المحدودات، وعليه فليس للوهم أن يحيط بذاته المقدسه وصفاته المطلقه التى هى عين ذاته، وبعباره أخرى فإن علمنا بصفاته إنما هو من قبيل العلم الإجمالى، وإلا فالعلم التفصيلى بذاته وصفاته متعذر على مخلوقاته. ويتضح مما ذكر أنّ الأوهام هنا بمعنى الأفكار، غير أنّ الفكر حين يعجز يعبر عنه بالوهم. ثم أشار الإمام عليه السلام فى الصفه الخامسه والسادسه إلى نفي الكيفيه والكميه عن الذات الإلهيه المقدسه قائلاً: «ولا تعقد القلوب منه على كفيته، ولا تناله التجزئه التبعض» والكيفيه عباره عن الشكل والهيئه التى تتخذها الأشياء، سواء كانت هذه الهيئه قابله للرؤيه أو السماع أو اللمس. وبالطبع فإن الكيفيه إنّما ترتبط بالامور التى تكون أوصافها زائده على ذاتها، أما من كانت صفاته عين ذاته، وكانت ذاته خاليه من التعدد فليس للكيفيه من سبيل إلى ذاته، بعباره أخرى فإن الكيفيات ناشئه من المحدوديات والذات الإلهيه اللامحدوده لا-كيفيه لها. كما أنّ الاشتمال على الجزء والبعض من خواص الأجسام، ومن هنا فالكميه من عوارض الجسم، ولما كان الله سبحانه منزّه عن الجسميه، لم تجز عليه التجزئه والتبعض، وليس للكميه من سبيل إلى ذاته المقدسه. بعباره أخرى: إنّما تطلق الكميه حيث الزيادة والنقصان، وعليه فليس لله من كميه حيث ليس هنالك من زياده أ ونقصان فى وجوده المطلق اللامتناهى. على ضوء ما مر معنا فإن التجزئه والتبعض لفظان مترادفان يفيدان معنى واحد، ألا أنّ بعض شراح نهج البلاغه احتملوا أنّ التجزئه إشاره إلى الأجزاء العقليه (كالجنس والفصل المنطقيين) والتبعض إشاره إلى الأجزاء الخارجيه. عى كل حال فمفهوم

ص: ٢٩٢

١- ١) «أوهام» جمع «وهم» على وزن فهم تعنى لغويًا ما يخطر على القلب، وقد وردت فى الخطبه بمعنى إجالها الفكر التى لا تبلغ كنه الذات الإلهيه المقدسه وصفاته سبحانه، وبعباره أخرى لا تبلغ كنه ذاته حتى ذروه حركه العقل التى عبر عنها هنا بالوهم.

العباره هو أن الذات الإلهيه ليست مركبه من أجزاء لافى الخارج ولا- فى الذهن، لأنّه لو كان متركباً من أجزاء لاحتاج إليها، والحال أنّه غنى بالذات، والمحتاج ممكن الوجود، لا واجب الوجود. ثم قال عليه السلام فى الصفه السابعه والثامنه: «و لا تحيط به الأبصار والقلوب» أمّا قوله عليه السلام لا تحيطه الابصار، فواضح، لأنّ الإنسان يرى بعينه الالوان والضوء ومن ثم الأجسام، ولما كان اللون من خواص الجسم، وللجسم زمان ومكان وأجزاء، فالنتيجه أنّه محتاج وممكن الوجود، والله أعظم وأجل شأنًا من ذلك وان ذهب بعض علماء العامه استناداً إلى بعض الروايات - المخدوشه السند أو الدلاله - إلى رؤيه الله سبحانه يوم القيامه، الأمر الذى يعتبر من الشرك؛ لأنّ ذلك يستلزم كون الله جسماً له زمان ومكان وجهه ولون، أمّا نحن وعلى ضوء تعاليم أئمتنا عليه السلام نعتقد بأنّ الرؤيه محاله على الله سبحانه، لافى هذا العالم ولا فى عالم الآخره! والأدله العقلية التى أشارت إلى جانب من ذلك فى الخطبه إنّما تثبت هذه الحقيقه، وليس للاستثناء من سبيل إلى الأدله العقلية. (١) أمّا عدم إحاطه العقول بذاته المطهره فلكونها غير محدوده، وليس للعقل المحدود قدره إدراك غير المحدود، ولذلك قلنا سابقاً إن علمنا بذاته وصفاته سبحانه إجمالى لا تفصيلى. والذى يجدر ذكره هو أنّ الإمام عليه السلام عبر بعدم الاحاطه بشأن نفى الرؤيه بواسطه العين وكذلك الرؤيه العقلية، والذى يمثل فى الواقع الدليل على المطلوب، لأنّ الاحاطه بالشئ من لوازم الرؤيه أو المشاهده العقلية، وكيف يحاط وجود مطلق لامتناهى.

وهنا يقتدح هذا السؤال وهو أنّ الإمام عليه السلام قال: «لاتدركه العيون بمشاهده العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» (٢) أفلا يناقض هذا الكلام ما ورد فى الخطبه؟ والجواب على هذا السؤال أنّ المراد من عدم إحاطه العقل بذاته هو نفى إدراك كنه الذات، وبعباره أخرى: العلم التفصيلى؛ أمّا ما ورد فى الخطبه ١٧٩ من رؤيه الله من قبل القلوب يشير إلى العلم الإجمالى. فقد ورد عن الإمام الجواد عليه السلام أنّه قال: «أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التى لم تدخلها ولاتدركها ببصرك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون» (٣). على كل حال فان ما أورده الإمام عليه السلام من

ص: ٢٩٣

١- ١) راجع بهذا الشأن (نفى رؤيه الله) المجلد الأول من هذا الكتاب، وكتاب رساله القرآن ٢٣٢/٤ - ٢٥١.

٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٧٩. [١]

٣- ٣) ميزان الحكمه ٣/١٨٩٣، ح ١٢٣١٦.

صفات في هذه العبارات بشأن الذات المقدسه، إنما يشير إلى ذروه قدره الإنسان على معرفه الله. فليس هنالك من يورد مثل هذه الصفات سوى المعصوم ولاسيما أمير المؤمنين على عليه السلام. ونختتم البحث بما ذكره ابن أبي الحديد بهذا الشأن فقد قال: وإعلم أن التوحيد والعدل والمباحث الشريفه الإلهيه، ما عرفت إلامن كلام هذا الرجل، وأن كلام غيره من أكابر الصحابه لم يتضمن شيئاً من ذلك أصلاً؛ ولا كانوا يتصورونه، ولو تصوروه لذكروه. وهذه الفضيله عندي أعظم فضائله عليه السلام. (١)

تأمل: كيفيه معرفه الإنسان بالذات المقدسه

تعد هذه المسئله من أدق وأعقد المسائل العقائديه والتي تزل فيها الأقدام والأقلام حتى سلكت طائفه الافراط، بينما سلكت أخرى التفريط بهذا الشأن. فقد إبتعدت طائفه عن معرفه الله حتى اصطلاح عليها بالمعطله، حيث زعمت أننا لانعلم أى شئ إيجابى عن ذاته وصفاته سبحانه، وليس لنا سوى إستناد إلى سلسله من الأمور السلبيه، فكل ما نقوله أن الله ليس بمعدوم، ليس عاجز، وليس جاهل، ولو أردنا أن نسلك سبيل الصفات الثبوتيه فإنّ كل الأبواب مقفله بوجهنا. هذه هى الطائفه التي تدعى بالمعطله. أما الطائفه الثانيه فقد ذهبت إلى العكس مما ذهبت إليه الطائفه الاولى حتى جعلت من الله جسماً وصنعت له أعضاء وبدن، وهى الطائفه التي يصطلاح عليها بالمشبهه، حيث شبهت الله بعباده. أما الطائفه الثالثه الوسط التي تخالف إفراط الاولى وتفريط الثانيه - حيث تتصف كلا- الطائفتين بالضلال والتغرب عن القرآن والتعاليم الإسلاميه - وهى التي تقول بالمعرفه الإجماليه لذاته وصفاته سبحانه، دون أن يقف أحد على كنه تلك الذات المقدسه وصفاتها. وبعبارة أوضح: إذا نظرنا إلى عالم الوجود وتأملنا آثار العلم والحكمه وعظم القدره الحاكمه فى كل مكان فاننا سنقف على أن هذه الأنظمه والقوانين المعقده التي تحكم كفه دقائق هذا الوجود إنما تنطلق من مصدر يتصف

ص: ٢٩٤

بالعلم والقدرة المطلقة، الأمر الذى يجعلنا نمتلك معرفه إجماليه بهذه الذات المقدسه. من جانب آخر فإننا إذا فكرنا فى ذاته سبحانه وتساءلنا ما حقيقتها؟ هل هى نور؟ أعظم من النور؟ وجود بسيط وخالص؟ لانفهم على وجه الدقه حقيقه ذاته. وكل ما نعرفه أنّ ذاته تفوق الجسم والجسمانيات، وترفع عن الخيال القياس والظن والوهم، وأنّه أعظم من كل ما رأينا وسمعنا وتصورنا. له علم وقدره مطلقه، ولكن ما كيفيه هذا العلم وهذه القدره، يتعذر علينا الجواب على ذلك. وكلما أردنا أن نحصره فى فكرنا لنقف على حقيقه ذاته، رأينا فكرنا قاصراً عاجزاً، بل إذا إقترنا شبراً من حقيقه ذاته - كما يقول الشاعر - ابتعدنا عنها ميلاً. وكيف لا يكون الأمر كذلك ووجودنا محدود متناهي ووجوده مطلق لامتناهي. فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «فهذه الشمس خلق من خلق الله فان قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول» (١). فقد أراد الإمام عليه السلام أن يعرفنا بمحدوديه قدره باصرتنا وفكرنا إزاء ذاته المنزهه عن الحدود. ومن هنا يتوجب علينا أن نخشع لله سبحانه ونمد أيدينا له بالدعاء لتردد ما قاله الإمام الهادى عليه السلام فى مناجاته للحق سبحانه: «إلهى تاهمت أوهام الموهمين، وقصر طرف الطارفين وتلاشت أوصاف الواصفين، واضمحت أقاويل المبطلين عن الدرر العجيب شأنك، أو الوقوع بالبلوغ إلى علوك، فأنت فى المكان الذى لا يتناهى ولم تقع عليك عيون بإشاره ولا عباره، هيهات ثم هيهات». (٢)

إلّا أنّ هذا لا يعنى أنّ المعرفه الإجماليه متعذره علينا؛ فقد ملأت آثار ذاته وصفاته الوجود بأسره، فضلاعن وجودنا.

ص: ٢٩٥

١- ١) اصول الكافى ١/٩٣. [١]

٢- ٢) توحيد الصدوق / ٦٦. [٢]

ومنها: «فَاتَّعَظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْأَمَى السَّوَاطِعِ، وَازْدَجِرُوا بِالنُّذْرِ الْبَوَالِغِ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ، فَكَأَنَّ قَدْ عَلَقْتُمْ مَخَالِبَ الْمَنِيِّ وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عِلَاقَةُ الْأُمِّيَّةِ، وَدَهَمَتْكُمْ مَقْطَعَاتُ الْأُمُورِ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوَرْدِ الْمَوْرُودِ، فِ «كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا؛ وَشَهِيدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا» .

الشرح والتفسير

لقد واصل الإمام عليه السلام كلامه بحمل مخاطبيه إلى التأمل في سالف التاريخ وحوادثه التي تنطوي على الدروس والعبر بغية توظيفها لما يخدم مصيرهم وعاقبتهم، فقال: «فَاتَّعَظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ» . نعم تذكروا عظماء التاريخ وكبكه الملوك السلاطين والثراء العظيم الذي كان عليه الماضون والحياء المرفهه الوادعه، ثم انظروا كيف أتى الدهر عليها فأحالتها ركاما بعد أن أبادهم عن آخرهم، فلم تبق من قصورهم الشاهقه سوى الاطلال، بل لم يبق من أجسادهم سوى العظام النخره، فقد ذهبوا وأكلهم النسيان. ثم قال عليه السلام: «واعتبروا بالآي السَّوَاطِعِ، [\(1\)](#) ازدجروا بالنُّذْرِ الْبَوَالِغِ» فهي من قبيل التحذيرات التي أثارها القرآن الكريم، فهو يشرح أحيانا العذاب الأليم الذي نزل بالأقوام الطاغية الظالمه الماضيه، وأخرى يتحدث عن شدة العذاب الأخرى، وأخيراً يضطر الإنسان للتفكير بجد في عاقبته، ويحذره من

ص: ٢٩٧

١ - ١) «سواطع» جمع «ساطعه» النور الواسع الظاهر الدلاله، كما تستعمل هذه المفردة في الأمور المعنويه كآيات القرآن المجيد الظاهره أو الشخصيات الإسلاميه البارزه.

مقارفة الذنوب والمعاصي. ثم قال عليه السلام: «و انتفعوا بالذكر والمواعظ» والفارق بين هذه التحذيرات الأربع: ففي التحذير الأول يلفت الإمام عليه السلام انتباه الجميع إلى الحوادث التاريخية الماضية والحاضره التي تنطوي على الدروس والعبر ليتعظ بها، وفي التحذير الثاني أشار إلى دلالاته سبحانه في عالم الوجود أو الآيات القرآنيه التي توقظ الضمير. وفي التحذير الثالث تطرق إلى نذر أولياء الله. وأخيراً تعرض في التحذير الرابع إلى نصائح أولياء الله ومواعظهم، وهي التحذيرات الكافيه لآثاره حيطه وحذر من كان له أدنى إستعداد للتقبل. ثم اصل عليه السلام كلامه بالحديث عن مراره لحظات الموت ومعالجه سكراته فقال: «فكأن قد علقتمكم (١) مخالب (٢) المتيّه، وانقطعت منكم علائق الأمتيّه، ودهمتكم (٣) مفضعات (٤) الأمور، والسّيّاقه إلى الورد المورود، ف «كلّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ»: سائقٌ يسوقها إلى محشرها؛ وشاهدٌ يشهد عليها بعملها». لما كان الموت قد كتب على الجميع ولم يعنى زمانه، بحيث يفاجئ الإنسان، فإنّ الإمام عليه السلام يتحدث عنه كأمر قد وقع، فيصرح كأنّي قد رأيتكم في مخالب الموت وقد أحاطت بكم سكراته وقد قطعت كل أمانيكم وذهبت أدراج الرياح كأنّها ضرب من ضروب الخيال والاحلام، وكأنكم انتقلت من هذه الدنيا إلى الآخره، يقود كما المكان إلى المحشر. وقد ورد عن الإمام شبيه هذا المعنى في الخطبه ٢٠٤ «تجهزوا رحمكم الله! فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقلوا العرجه على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد، فان أمامكم عقبه كؤودا، ومنازل مخوفه مهوله، لا بد من الورد عليها، والوقوف عندها». والعباره «والسّيّاقه إلى الورد المورود» إشاره إلى الآيه ٩٨ من سوره هود: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ

ص: ٢٩٨

- ١- ١) «علقتمكم» من ماده «علق» على وزن فلق تعنى فى الأصل الرابطة الشديده والتعلق بالشئ، كما تستعمل هذه المفرده فى الحيوان المفترس الذى يمسك فريسته بأسنانه ويمتص دماؤها، أو أن يفترسها بمخالبه. وقد شبهت العبارة الموت بهذا الحيوان.
- ٢- ٢) «مخالب» جمع «مخلب» على وزن محور ومادته «خلب».
- ٣- ٣) «دهمتكم» من ماده «دهم» على وزن فهم بمعنى الغشاوه، وتستعمل هذه المفرده حين غلبه شئ على آخر وإحاطته به، هذا هو المراد بها فى العبارة، كما تستعمل فى الظلمه التى تحيط بالأشياء، كما تطلق على الأخضر الفاتح، من قبيل مدهامتان التى وردت فى سوره الرحمن.
- ٤- ٤) «مفضعات» من ماده «فضع» على وزن جزع بمعنى الاخافه ومفضعات الأمر شدته، وتطلق على الحوادث العظيمه التى تخيف الإنسان.

الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ». «ورد» تعنى ما يشقه من طريق بمحاذاة النهر الكبير الذى يتعد ساحله عن الماء، ليتمكن الشخص من الوصول إلى الماء بسهولة، والمورد هو الموضع الذى يرده العطاش، وهى إشاره إلى أن المذنبين محرومون من ماء أنهار الجنة العذبة الزلال فيردون ماء جهنم، الذى يشوى الوجوه والبطون. وقوله عليه السلام: «كُلَّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ». أما المراد بالسائق والشهيد فقد اختلفت فيه أقوال مفسرى القرآن وشرّاح نهج البلاغه. فذهب البعض إلى أن المراد بالسائق الملك الذى يكتب الحسنات، والشهيد من يكتب السيئات، وقيل السائق ملك والشهيد أعضاء بدن الإنسان، أو صحيفه أعماله التى تعلق فى عنقه. وهناك قول آخر أن يكون المراد بالسائق الملك الذى يجمع بين الأمرين، كأنه قال: وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها إلى المحشر ويشهد عليها. وأخيراً قيل السائق هو الأمر الإلهى الذى يسوق الإنسان إلى المحشر من أجل الوقوف للحساب والجزاء، والشاهد الأنبياء والعلماء، أو عقل الإنسان وأعضاؤه. إلّا أن الأظهر فى الأخبار والآثار أنّهما ملكان، أحدهما يسوق الإنسان إلى المحشر، والاخر يشهد على أعماله.

ومنها فى صفه الجنه

«دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِضَاتٌ، وَمَنَازِلٌ مُتَفَاوِتَاتٌ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلَا يَظَعُنُّ مُقِيمُهَا، وَلَا يَهْرَمُ خَالِدُهَا، وَلَا يَبْئَسُ سَاكِنُهَا» .

الشرح والتفسير

درجات الجنه

اختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن نعم الجنه وألطف البارئ سبحانه باهلها ليخلط الانذار بالبشاره جريا على طريقه القرآن فى خلق الشعور بالخوف والرجاء لدى العباد لتدفعهم بالتالى نحو السمو والتكامل والسير إلى الله، فقال: «درجات متفاضلات، ومنازل متفاوتات» فالعبارة تفيد أن الإنسان لا ينبغي أن يقتنع بما عليه من الكمال مهما كانت المرحله التى بلغها، وعليه أن يواصل مسيرته ويجد فى العلم والعمل ويسعى لتهديب نفسه. ومن الواضح أن نصيب الإنسان من النعم الماديه والمعنويه الأخرويه إنما يتوقف على مدى إيمانه وعمله ومعرفته وما تحلى به من أخلاق. وقد أشار القرآن كرارا إلى درجات الجنه كقوله: «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا» (١) وقال: «نَزَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ» (٢)، ثم تعرض لشرح هذه الدرجات: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» (٣) وقال:

ص: ٣٠١

١-١) سورة الانعام / ١٣٢. [١]

٢-٢) سورة الانعام / ٨٣. [٢]

٣-٣) سورة الواقعة / ١٠ - ١٢. [٣]

«وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ» (١) ثم اختتمت سورة الواقعة بالحديث عن هاتين الطائفتين التي تفوق إحداهما الاخرى فقال: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» (٢). كما صرح القرآن بأن مثوى المؤمنين الصالحين «جَنَّاتِ عَدْنٍ» وطائفه «جَنَّاتِ الْمَأْوَى» وأخرى «جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ» وأخرى «جَنَّاتِ النَّعِيمِ» في إشاره إلى مقامات الجنة ودرجاتها. (٣) وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض؛ الفردوس أعلاها درجة، منها تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألتوا الله، فاسألوه الفردوس» (٤) وورد أيضاً «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيُرُونَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ كَمَا يَرَى النُّجُومُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ» (٥) ومن الطبيعي أن تتفاوت مقامات المؤمنين في الجنة على ضوء إيمانهم عملهم، ولعل العدد مئة الوارد في الحديث إشاره إلى الكثرة وأن تفاوت المقامات أكثر بكثير من هذا العدد، كما يمكن أن تكون الدرجات الأصلية للجنة مئة درجة، وتقسم كل واحد منها إلى عدة درجات، ومن هنا ورد في القرآن: «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى» (٦). وورد في حديث الإمام زين العابدين عليه السلام أن درجات الجنة بعدد آيات القرآن، فيقال لقارئ القرآن يوم القيامة اقرأ وارقا. (٧) ثم ذكر عليه السلام أربع صفات للجنة تفوق كل واحد منها الأخرى، فقال عليه السلام: «لا ينقطع نعيمها» أى نعمها ليست من قبيل نعم الدنيا التي تزداد وتنقص وتنعدم، ما ورد ذلك في الآية ٣٥ من سورة الرعد: «أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا»، ثم قال في الصفه الثانيه «و لا يظعن (٨) مقيمها» والصفه الثالثه «و لا يهرم خالدها» وأخيرا الصفه الرابعه «و لا يياس (٩) ساكنها» .

ص: ٣٠٢

١-١ (١) سورة الواقعة / ٢٧. [١]

٢-٢ (٢) سورة الواقعة / ٨٨ - ٩١. [٢]

٣-٣ (٣) انظر نفحات القرآن ٦/٣٤٥ «مقامات الجنة». [٣]

٤-٤ (٤) بحار الأنوار ٨/٨٩. [٤]

٥-٥ (٥) منهاج البراهه ٦/١١٩.

٦-٦ (٦) سورة طه / ٧٥. [٥]

٧-٧ (٧) بحار الأنوار ٨/١٣٣. [٦]

٨-٨ (٨) «يظعن» من ماده «ظعن» على وزن ظعن بمعنى السفر.

٩-٩ (٩) «يياس» من ماده «ياس» بمعنى الفقر وشده الحاجه.

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها بيان صفات الحق جل جلاله، ثم عظه الناس بالتقوى والمشوره (٢)

نظره إلى الخطبه

تتالف هذه الخطبه فى الواقع من خمس أقسام: القسم الأول كما ورد فى أغلب خطب نهج البلاغه فى بيان أوصاف الله سبحانه؛ الصفات ذات الأثر البالغ فى تربيته الإنسان وتصده عن الذنوب والمعاصى وتسوقه إلى الخير والاحسان. القسم الثانى فى وعظ الناس والتزود من هذه الدنيا والتأهب للآخره وعدم نسيان الهدف من خلقتهم. القسم الثالث فى أهميه القرآن واتمام الحجه. القسم الرابع تحذير الناس من نوم الغفله وتدارك ما مضى من العمر فى أواخره والحيطه من مكائد الشيطان. وأخيرا القسم الخامس فى الاشاره إلى بعض الصفات الذميه والتعريف بأفضل الأفراد.

فالخطبه بهذه الأقسام علاج لمرضى القلوب من أهل الغفله.

ص: ٣٠٤

١ - ١) سند الخطبه: رويت هذه الخطبه متفرقه فى الكتب الآتية وكلها سابق نهج البلاغه لأن كل واحد من مؤلفيها أخذ غرضه منها: الأخبار الطوال لأبى حنيفه الدينورى وتحف العقول لابن شعبه الحرانى والمحاسن للبرقى، ما رويت فقرات منها فى المجالس للمفيد والمشكاه للطبرسى والغرر للآمدى (مصادر نهج البلاغه ٢/١٢٧). [١]

٢ - ٢) ورد فى نسخ نهج البلاغه لصبحى الصالح التى اقتبست منها متون هذا الكتاب وهى النسخه الصحيحه نسبيا، ان عنوان الخطبه هو عظه الناس بالتقوى والمشوره، ويبدو أنه هو الذى ذكر لها هذا العنوان، فى حين لم يرد فى الخطبه شيئا بشأن المشوره، فلايستبعد أن يكون الأمر قد اشتبه عليه حيث خلطها باحدى سائر خطب نهج البلاغه.

«قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى خمس من صفات الله سبحانه، يفيد التفاعل معها وتصديقها إلى الانقياد إلى الحق وتهذيب النفس وتركيتها.

الصفة الاولى: «قد علم السرائر» .

الصفة الثانية: «و خبر الضمائر» .

الصفة الثالثة: «له الإحاطه بكلّ شئ» .

الصفة الرابعه: «و الغلبه لكلّ شئ» .

الصفة الخامسه: «و القوه على كلّ شئ» .

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى وحده معنى العبارة الاولى والثانية وعدوها من قبيل المرادفات في أنّ الله عليم بأسرار وخفايا كل فرد. بينما قال البعض: خبر بفتح الباء بمعنى الاختبار وخبر بكسرها بمعنى العلم، فقد وردت الاولى بمعنى الاختبار في موضع آخر من نهج البلاغه «إنّما مثل من خبر الدنيا» (1)ولما كان الأصل في الجملة هو بيانها لمعنى جديد، يبدو أنّ تفسير الخبر بالامتحان أنسب، وإن كان الامتحان سبب العلم، بل قد يكون امتحان الشئ

ص: ٣٠٥

كنايه عن العلم به. على كل حال الهدف هو أن نلتفت إلى أنّ البارئ سبحانه علیم بكافه أسرارنا وما يدور فی خلدنا، حتى أنه أعلم بنا من أنفسنا، فهو يعلم بسوء نياتنا وريائنا وشركنا، وعلمه بظاهرنا وباطننا على حد سواء. والعبارة «له الإحاطه بكلّ شيء» من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأنّ العبارات السابقه تحدثت عن احاطته العلميه سبحانه بباطن الناس، بينما أشارت هذه العبارة إلى علمه بكافه الأشياء، ومن ذلك أيضاً العبارة الرابعه والخامسه التي تحدثت عن قدرته المطلقه سبحانه، مع هذا الفارق وهو أنّ العبارة الرابعه ناظره لغلبته وسيطرته على كل شيء، في حين تبين الخامسه قدرته على الإتيان بكل شيء. وقيل أن الفارق بينهما هو أنّ القوه على كل شيء تعنى القدره على إيجاده، والغلبه تعنى السيطره بعد الإيجاد؛ أي أنّ الأشياء لا تستطيع الخروج من قدرته سبحانه بعد إيجاده. على كل حال فإنّ هذه الصفات الخمس شرح لعلم الله وقدرته المطلقه، ومن شأن استحضارهما مجانبه الخطايا والاندفاع نحو الطاعه والانقياد للحق.

«فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ، قَبِيلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ، وَفِي فَرَاعِهِ قَبِيلَ أَوَانِ شُغْلِهِ، وَفِي مُتَنَفِّسِهِ قَبِيلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظْمِهِ، وَلِيْمَهْدَ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ، لِيَتَزَوَّدَ مِنْ دَارِ طَعْنِهِ لِدارِ إِقامَتِهِ. فَاللَّهُ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا اسْتَحْفَظْتُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَاسْتَوَدَعْتُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَمْ يَتَزَكَّكُمْ سُدىً وَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي جَهَالِهِ وَلَا عَمَى، فَذَسِّمَى آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ»

الشرح والتفسير

لفت الإمام عليه السلام الانتباه سابقاً إلى قدره الله وعلمه بخفايا الكائنات وأسرار الضمائر، وما ذلك إلا مقدمه لما أورده هنا: «فليعمل العامل منكم في أيام مهله (١) قبل إرهاب (٢) أجله، وفي فراغه قبل أوان شغله، وفي متنفسه (٣) قبل أن يؤخذ بكظمه (٤)» ثم بين عليه السلام الهدف من هذا الجهد والعمل فقال: «و ليْمَهْدَ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ، وَلِيَتَزَوَّدَ مِنْ دَارِ طَعْنِهِ لِدارِ إِقامَتِهِ» فالواقع هو أنّ العبارات السابقة تحدثت عن أصل السعي والعمل، بينما عينت الأخيره مساره وجهته. جدير بالذكر أنّ العبارة «أيام مهله» فسّرت بالعبارات الثلاث اللاحقه، فالعبارة الاولى «قبل إرهاب أجله» إشاره إلى أصل نعمه الحياه والعمر، والعبارة الثانيه «وفي فراغه» إشاره إلى

ص: ٣٠٧

١-١) «مهل» على وزن اجل بمعنى المداراه والمهله.

٢-٢) «إرهاب» من ماده «رَهَقَ» على وزن شفق بمعنى الغشيه والتغطيه والسيطره، ومن هنا فان الأجل اذا جاء للانسان فانه يسيطر على كاهه وجوده، وقد استفيد من هذا التعبير في الخطبه أعلاه بمعنى الأجل.

٣-٣) «متنفس» من ماده «تنفس» زمان الاتساع والراحه.

٤-٤) «كظم» على وزن قلم بمعنى المضيق ومجرى التنفس. و «كظم» على وزن هضم، وله معنى مصدرى بمعنى حبس النفس، ويستعمل كناية عن ضبط النفس عند الغضب، وما شابه ذلك.

نعمه الفراغ في مقابل الانشغال والعمل والهم بالزوجه والولد، والعبارة الثالثة «وفي متنفسه» نعمه العافيه والسلامه وعدم وجود الشدائد والمصائب. أمّا العبارة «وليمهد...» فهي تشير إلى التأهب للآخره، في حين تشير «وليتروا» إلى التجهز وكسب الزاد؛ على غرار ما يفعل الإنسان في هذه الدنيا، حيث يعد المنزل وأدواته ثم يتجه صوب الزاد والمتاع. ثم يواصل الإمام عليه السلام تحذيراته فيقول: «فإن الله أيها الناس، فيما استحفظكم من كتابه، واستودعكم من حقوقه». طبعاً المراد من الكتاب القرآن الكريم حيث كلف الناس بصيانتته والالتزام بأحكامه، أمّا المقصود بالحقوق التي استودعها العباد فهي أحكام الحلال والحرام التي ينبغي الالتزام بها وعدم مخالفتها. (١) ثم بين الدليل من هذا الانذار بقوله: «فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدًى (٢) ولم يدعكم في جهاله ولا عمى، قد سمى آثاركم، وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم» فهي عبارات قصيره ذات معان بعيدة تختزن المفاهيم العظيمة المؤيده بالآيات القرآنيه. فقد أشار في المرحله الاولى إلى الهدف من وراء خلق الإنسان، ومن ثم الحديث عن الأمور التي تنطوى عليها الحياه الإنسانيه، والمرحله الثالثه الحديث عن وجود الزعماء والعلم بالأعمال، وتطرق بعد ذلك إلى بيان الوظائف والمسؤوليات وعلم الحق سبحانه بأعمال البشر، وأخيراً الحديث عن قصر عمر الإنسان وحلول أجله. ومن الواضح أنّ الإنسان إذا إلتفت إلى هذه الأمور وصدقها بكل كيانه ووجوده سيجد من أجل حفظ كتاب الله والالتزام بحقوقه. فالمهم أن يستحضر الإنسان هدف الخلق ويستفيد مما زوده به الله سبحانه من إمكانيات، فيؤمن بأنّ الله عالماً بأفعاله وإلّا ينسى بأنّ عمره قصير آيل إلى زوال؛ الأمور التي تلعب دوراً بناءً في خلق شخصيه الإنسان وتهذيب نفسه. فقد قال القرآن بهذا الشأن: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ» (٣) وقال: «فَإِذَا جَاءَ كُمْ بِصَائِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا» (٤) وقال في الآيه ٣٠ من سوره محمد: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» وقال «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». (٥)

ص: ٣٠٨

١-١) يعود الضمير في كتابه وحقوقه إلى الله، ولا يتناسب ارجاع الضمير في حقوقه إلى كتابه وسياق الكلام.
 ٢-٢) «شئى» على وزن شما بمعنى المهمل والذى لا هدف ولا معنى له، وقد استفيد من هذا الاصطلاح هناللتعبير عن البعير الذى لا راعى له، وقد هام فى الصحراء على وجهه، فيرعى من كل مكان يصل اليه.

٣-٣) سوره المؤمنون / ١١٥. [١]

٤-٤) سوره الانعام / ١٠٤. [٢]

٥-٥) سوره الاعراف / ٣٤. [٣]

إشاره

«وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَانًا، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ - فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ - دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛ وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ - عَلَى لِسَانِهِ - مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهِ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ، أَلْقَى إِلَيْكُمْ الْمَعْيِدَةَ، وَأَتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» .

الشرح والتفسير

جامعيه القرآن والسنة

جرى الحديث سابقا عن إتمام الحجة على العباد، وهنا يتوسع الإمام عليه السلام في هذا الموضوع فيقول: «وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَانًا، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ م - فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ - دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ» . نعم فقد أنزل سبحانه ذلك الكتاب الجامع الذي ينطوى على كافة المعارف الإلهية والتعاليم المادية والمعنوية على جميع مستويات الحياه البشريه كما ورد ذلك في الآية ٨٩ من سورة النحل: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» . كما منح نبيه صلى الله عليه و آله الفرصه الكافيه لابلاغ الدين واتمامه؛ الأمر الذي صرحت به الآية الثالثه من سورة المائده: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» . ثم خاض في التفاصيل بغيه توضيح

المطلب فقال عليه السلام: «و أنهى (١) إليكم - على لسانه - محابه (٢) من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأمره، وألقى إليكم المعذره، واتخذ عليكم الحجه، وقدم إليكم بالوعيد، أنذركم بين يدي عذاب شديد» فقد أشار الإمام عليه السلام إلى إنعدام العذر بفضل القرآن وسنه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما تضمنناه من تعاليم ومفاهيم، فليس لأى فرد أن يتفوه ببعض الكلمات من قبيل «لم أكن أعلم» أو «لم أقف على هذه الأمور» أو ما بلغتني الحجه، والحق أن هذه عباره مصداق واضح لقوله سبحانه فى كتابه العزيز: «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ» (٣).

تنطوى عباره «و أنزل عليكم» الكتاب تبياناً لكل شىء» المقتبسه من الآيه ٨٩ من سوره النحل على حقيقه مهمه ينبغى أن يتوقف عندها الجميع. طبعاً ليس المقصود بهذه عباره أن القرآن كتاب موسوعى يضم كافه الفروع والتخصصات العلميه كالرياضيات والجغرافيا والكيمياء والفيزياء إلى جانب العلوم الانسانيه وما انطوت عليه المدارس الفكرية والنزعات الفلسفيه، بل المراد أن القرآن يشتمل على كل ما نزل من أجله وهدف إليه هذا الكتاب السماوى والذى يخلص فى بلوره شخصيه الإنسان وسعادته فى جميع الأصعدة والميادين. فقد بين المعارف الدينيه والحقائق المرتبطه بالمبدأ والمعاد ووظائف الإنسان ومسؤولياته تجاه خالقه وتجاه بنى جنسه، إضافة إلى تبين المسائل الأخلاقيه والقضايا الاجتماعيه والمتطلبات الاقتصاديه، وقد عمد أحياناً إلى بيان كافه الجزئيات والتفاصيل (كبيانه للأحكام المتعلقة بالعقود الماليه ومعاملات الديون التى إستعرضتها الآيه ٢٨٢ من سوره البقره، بينما أشار أحياناً أخرى إلى الأصول الكليه والقواعد العامه من قبيل «باب يفتح منه

ص: ٣١٠

١- ١) «أنهى» من ماده «إنهاء» الاعلام والابلاغ وهذا هو المراد بها فى عباره؛ أى أن الله ابلغكم ما يلزم على لسان نبيه.

٢- ٢) «محاب» جمع «محب» اسم مكان مصدر ميمى مواضع حبه وتقابل المكاره.

٣- ٣) سوره الانعام / ١٤٩. [١]

ألف باب». فالآية القرآنية التي وردت ضمن الخطبه إلى جانب روايات أئمه العصمه عليهم السلام تذكر المسلمين بأن الهدايه والسعاده إنما تكمن في القرآن.

إجابه عن سؤال

يبرز هنا هذا السؤال: ما الحاجه إلى سنه النبي وأقوال المعصومين في ظل وجود القرآن الكريم؟

والجواب على هذا السؤال واضح وهو أن أغلب الآيات تحتاج إلى شرح وتفسير وبيان الشرائط وذكر موارد الاستثناء، أو الآيات المتشابهه التي لا تفسر الا من المعصومين عليهم السلام بردها إلى المحكمات. على سبيل المثال ترد آيه في الزكاه وتتطرق إلى مستحقيها من الاصناف الثمانية دون الإشاره إلى ما يجب فيه الزكاه وحد النصاب والشرائط المرتبطه بمرور الحول والشروط التي ينبغي توفرها في المستحقين، وكيفيه جمع الزكاه وإنفاقها التي تتطلب تفسيراً من المعصومين عليهم السلام. وناهيك عما سبق فان هنالك بعض المستحدثات التي تستجد بفعل تقادم الزمان والتي ينبغي البحث عن جذورها وأصولها في كتاب الله من أجل إستنباط الأحكام، هنا لابد من إرشادات المعصومين عليهم السلام لتفادي الزلل. والجدير بالذكر أن القرآن قد دعى الناس إلى الانفتاح على جميع العلوم والمعارف، وأمر بالرجوع إلى أهل الخيره في كل مسأله من المسائل.

ص: ٣١١

«فاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْعَفْلَةُ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمُوعِظَةِ؛ وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمْ الرُّخْصُ مَذَاهِبَ الظَّلْمَةِ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجَمَ بِكُمْ الْإِذْهَانُ عَلَى الْمُعْصِيَةِ» .

الشرح والتفسير

ما إن فرغ الإمام عليه السلام من الانذار والتحذير واتمام الحججه على الناس حتى خُص إلى هذه النتيجة المهمه «فاستدرِكوا بقيته أَيَّامكم، واصبروا لها أنفسكم» ثم استدل عليه السلام على ذلك بالقول «فإنَّها قليلٌ في كثيرِ الأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْعَفْلَةُ، التَّشَاغُلُ عَنِ الْمُوعِظَةِ» وحقاً أنَّ الأمر كذلك فلو انتبه الإنسان إلى ساعات عمره وأيامه ولياليه لرأها قصيره، وعليه فلا بد من اليقظه في ما بقي من عمره والاستناد إلى سلاح الصبر والاستقامه، وذلك لأنَّ الحيطه والحذر من الغفله تستلزم الصبر، إلى جانب كون الطاعه واجتناب المعصيه هي الأخرى بحاجه إلى الصبر، فقد صرحت بعض الروايات الإسلاميه بأنَّ نسبة الصبر إلى الإيمان كنسبه الرأس إلى الجسد. (1)

والعبارة «تكون منكم فيها الغفله» بالفعل المضارع إشاره إلى أنَّ هذه الغفله لم تصدر منكم في الماضي، فهي كذلك في الحاضر، فجدوا واجتهدوا في المستقبل لتدراك ما فرط منكم في السابق. ثم تطرق عليه السلام إلى نقطتين مهمتين تمثلان في الواقع سبيلين خطرين من سبل نفوذ الشيطان؛ الأول: «و لا ترخِّصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرُّخْصُ مَذَاهِبَ الظَّلْمَةِ» فالتجارب

ص: ٣١٣

(١- ١) قال على عليه السلام: «وعليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد». نهج البلاغه، الكلمات القصار ٨٢.

تفيد أنّ أولئك الذين جاوزوا الحد في المباحات والرخص قد هوى آخر الأمر في مستنقع المحرمات. فقد شبهت بعض الروايات والأخبار المحارم بالغرق والمنطقه المحظوره ذات الحدود المعينه ثم شبهت النفس البشريه بالشاه التي ترعى عند تلك الحدود، حتى يلوح لها العلف فتندفع نحوه. فالإنسان قد يندفع بأقصى ما لديه لممارسه المباحات حتى تخدعه نفسه فاذا هو يقارف الخطيئه والمعصيه. فقد قال الإمام على عليه السلام: «والمعاصي حمى الله، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها» (١). وقد وردت التعبيرات القرآنيه الرائعه التي تحذر من الاقتراب من تلك الحمى كقوله: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ» (٢) و«وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا» (٣) و«وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ» (٤).

فأفضل سبيل لمجانبه الذنب تكمن في عدم الاقتراب منه، فلا يوغل في المباح خشيه من السقوط بما بعده. والسبيل الثانى: «و لا تداهنوا» (٥) فيهجم بكم الإدهان على المعصيه. المراد بالمداهنه هنا مماشاه الإنسان ومرونته لأحل الذنوب والمعاصى و اظهار حاله من النفاق، فإنّ من شأن هذا النفاق أنّ يقود الإنسان إلى مقارفه الذنب. وأحد المصاديق التي يمكن الإشاره إليها هنا ما تعارف بالحيل الشرعيه واللجوء إلى بعض الأساليب التي تعدّ من الحلول الكاذبه لبعض المشاكل، حيث تنتهى بالإنسان في خاتمه المطاف إلى الوقوع في المعصيه علانيه، وهذا بدوره يعد من سبل الشيطان لجر الإنسان إلى الذنب والخطيئه. وأحياناً يخدع الإنسان نفسه ليقارب الذنب، كما يخدع أحياناً من قبل الآخرين للإتيان بالمعصيه، وكلا الأمرين من مصاديق المداهنه. ومن هنا حذر الإمام عليه السلام من هذين السبيلين بغيه غلق الابواب بوجه الشيطان وعدم الوقوع في حباله.

ص: ٣١٤

١-١) وسائل الشيعه ١٨/١١٨ ح ٢٢ الباب ١٢ من أبواب صفات القاضى. [١]

٢-٢) سوره الانعام / ١٥٢. [٢]

٣-٣) سوره الاسراء / ٣٢. [٣]

٤-٤) سوره الانعام / ١٥١. [٤]

٥-٥) «تداهنوا» من ماده «مداهنه» وقد اشتقت من ماده «دهن» التي تعنى المرونه المذمومه والنفاق والمماشاه، كما تعنى إظهار خلاف ما في الطويه.

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى طرق نفوذ الشيطان في قلوب الناس، ليؤكد على موضوعين مهمين بهذا الشأن. الأول المبالغه في الاستفاده من الحريه وممارسه المباحات؛ وذلك لأن بعض المباحات تمثل الحد الأخير لحيز الذنب، بحيث يرد الإنسان هذا الحيز إذا ما اندفع أكثر من اللازم. فالإمام عليه السلام يحذر هنا من الاندفاع وراء هذه المباحات، حيث يخشى على مثل هذا الفرد أن يسلك سبيل الظلمه. ومن هنا نرى الدول والبلدان تعتمد اليوم إلى تعيين حدودها لتشكيل حزامها الامنى، ولا يحق للأفراد أن يقتربوا لبضع كيلومترات من هذه الحدود، لأنّ الوصول إلى النقطة الحدوديه قد يسول للإنسان إذا وصل حد الذنب، قد يبدو له سهلاً فتوسوس له نفسه لمقارفته. والطريق الثانى الذى ينفذ من خلاله الشيطان إلى الإنسان إنّما يكمن فى مداهنه أهل الذنوب والمعاصى ومجايلتهم على أعمالهم، إلى جانب حل بعض المعضلات من خلال الحيل الشرعيه وما شابه ذلك. فعاده أهل المعاصى هى الاستخفاف بالذنب والمعصيه وتصغيرها فى نظر الآخرين، كما أنّ الحيل الشرعيه تقضى على فضاعه الذنب وشدته وتهتك الحجب المصروبه بينه وبين الإنسان، فقد جاء فى الخبر أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «من داهن نفسه هجمت به على المعاصى المحرمه». (1)

ص: ٣١٥

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَإِنَّ أَعْشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَالْمَغْبُوتُ مَنْ غَبِنَ نَفْسَهُ، وَالْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيرِهِ». والشَّقِيُّ مَنْ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام حديثه بالنذر والتطرق لسبل نفوذ الشيطان، ليورد هنا بست عبارات قصيره عظيمه كيفيه العمل والخلاص، فقال بادئ ذى بدء: «عباد الله، إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه» ومعنى هذه العبارة أن لا يخذع الإنسان نفسه ولا يكذب عليها ولا يجعل من نقاط ضعفه عناصر قوه فى شخصيته ولا يسدل استار عيبه ونقصه أمام نفسه، بل يتهم نفسه بكل إخلاص، فمثل هذا الإنسان يتجه لا محاله نحو الطاعه. (١) ثم أشار فى العبارة الثانيه إلى عكس ذلك فقال: «وإن أعشهم (٢) لنفسه أعصاهم لربه». ومن الطبيعى أن الإنسان إذا خدع نفسه وأخفى عنها عيبه، تراءى له الذنب مباحا، بل قد يبدو له أحيانا أمرا واجبا، وهكذا تتوفر لديه الأرضيه الخصبه لمقارفة الاثم والمعصيه. وقال فى العبارة الثالثه: «والمغبون من غبن نفسه» فى إشاره إلى أن بعض الأفراد قد يخذعون هذا الإنسان ويغبنه فيسلبوه ما لديه، كما قد يرتكب الإنسان مثل العمل بحق نفسه فيخذعها فيفقد عناصر القوه

ص: ٣١٧

١-١) لابد من الالتفات هنا إلى «أنصح» من ماده «نصح» تعنى فى الأصل الاخلاص، وهذا هو مفهوم النصيحة.

٢-٢) «أعش» من ماده «عش» تعنى فى الأصل الضعف والعجز، ومن هنا يصطلح بالمغوش على الشى غير الخالص.

التي كان من المفترض أن تقوده نحو الفوز بالآخره ونيل سعادتها وفلاحها. وقال في العبارة الرابعه:

«والمغبوط من سلم له دينه». فالغبطه أن يتمنى الإنسان ماغيره من النعم، وعليه فالمغبوط هو المستحق لتطلع النفوس إليه والرغبه في نيل مثل نعمته، فان جد واجتهد الإنسان وتمكن من الحفاظ على دينه وإيمانه في ظل هذه الدنيا وتقلباتها فقد أحرز أعظم النعم الإلهيه التي يجدر بالآخرين أن يغبطوه عليها. وعلى ضوء القاعده الأدبيه فان تقديم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر، فالعبارة تفيد أن الغبطه لا- تكون سوى تجاه من حفظ دينه وإيمانه ازاء حوادث الدهر ومكاره الدنيا، لاتجاه من ينال بعض المقامات ويجبى الأموال والثروات وسائر الإمكانيات الماديه الآيله إلى الفناء والزوال. وقال في العبارة الخامسه: «والسعيد من وعظ بغيره». فمما لاشك فيه أنّ الحوادث المريره والتجارب القاسيه تعد وسيله لليقظه ومصدرا لنصيحه الإنسان ووعظه، ولكن ما أروع أن يستفيد من تجارب الآخرين ويتعظ بمصيرهم دون أن يرتكب بعض الاخطاء التي قد تلهمه بعض التجربه، فكأنى بهذا الفرد كذلك المنزل الذي جاور حديقه غناء وكان يعمل فيها الآخرين بينما يصله نسيمها ورائحتها الزاكيه. ولما كان مصير الأفراد في حياتهم متشابه في الغالب، وبعباره أخرى «التأريخ يعيد نفسه» فلكل فرد أن يرى جانبا من مصيره في حياه الآخرين. وبناءً على هذا فليس هنالك من يستثنى من هذه العبارة ولايعتبر بحياه الآخرين. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن العبارة «والسعيد من وعظ بغيره» تعد مثلاً- من الأمثال المعروفه في الأدب العربى (1). بينما عدها ابن أبى الحديد من الأمثال النبويه. (2) ثم اختتم الخطبه بما يقابل العبارة السابقه قائلاً: «والشقي من انخدع لهواه وغروره». واضح أنّ الإنسان يلام إذا خدع من قبل الآخرين، إلّاأنه يكون أكثر ملامه إذا انخدع بهوى نفسه، وذلك لأنه أحرق سعادته بنفسه.

ص: ٣١٨

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٢/٢٨٥.

٢- ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٦/٣٦٥، [١] المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار ٢١/٢١١ حيث أوردتها فى تأريخ النبى صلى الله عليه و آله فى باب حوادث غزوه تبوك ضمن خطبه صلى الله عليه و آله.

من ضمن الأهداف التي تضمنتها الخطبه أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أنّ مقومات سعادة الإنسان وفلاحه كامنه في باطنه، لا أن ترد عليه من الخارج. فهو الذي يخدع نفسه، وهو الذي يغبنها وهو الذي يسعه خلق سعادته، وأخيراً هو الذي يفوز بالآخرة بعد أن يتتصر على نفسه ويتغلب على أهوائها وشهواتها. والكلام يصدق على الفرد، كما يصدق على المجتمع؛ فأغلب الأفراد لاسيما في عصرنا الراهن ينسبون عوامل البؤس والشقاء إلى الخارج، فيخدعون أنفسهم ويغلقون عليها سبل النجاه، والحال لا بدّ من إقتفاء آثار هذه الأزمات في الذات والروابط الاجتماعيه والأهواء النفسيه والفرقه والشقاق والنفاق والحسد وسائر الأمراض المقيته. وكفى بهذه الخطبه سبيلاً لسعادة الإنسان حتى لو لم تتضمن سوى هذا الهدف العظيم.

إشاره

«وَاعْلَمُوا أَنَّ «يَسِيرَ الرِّيَاءِ شَرُّكَ» وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنَسَاءٌ لِلإِيمَانِ، وَمَخْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ. جَاءُوا الكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلإِيمَانِ. الصِّدْقُ عَلَى شَفَا مُنْجَاهٍ وَكَرَامَةٍ، وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرَفٍ مَهْوَاهٍ وَمَهَانَةٍ. لَا تَحَاسِدُوا، فَإِنَّ الْحَسِدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ «كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ»؛ «وَ لَا تَبَاغُضُوا فَإِنَّهَا الحَالِقَةُ»؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسِيهِ العَقْلَ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ، فَأَكْذِبُوا الأَمَلَ فَإِنَّهُ عُزُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ»

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتحذير من ست رذائل (الرياء، مجالسه أهل الهوى، الكذب، الحسد، التباغض وطول الأمل)، إلى جانب الإشاره لما تختزنه كل رذيله من أضرار، فقال عليه السلام: «واعلموا أن يسير الرياء شرك» لأن المرائي يقوم بالعمل رضا للعباد وتظاهراً بالاحسان من أجل لفت إنتباه الآخرين، ليطلب العزه من أقرانه الضعفاء العجزه بدلاً من طلبها من منبعها: «وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» (١) وهذا شرك يتناقض وتوحيد الأفعال. وقد تظافت الروايات والأخبار التي صرحت بأن المرائي ينادى يوم القيامة: «يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خالص لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له» (٢) أضف إلى ذلك فإن المرائي ولتناقض ظاهره وباطنه فهو في زمره المنافقين، ولهذا فإن النفاق

ص: ٣٢١

١-١) سورة آل عمران / ٢٦. [١]

٢-٢) وسائل الشيعة، ج ١، الباب ١١ من ابواب مقدمات العباده، ح ١٦. [٢]

يحيل أعماله إلى قشور لالب فيها. فقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إنه قال: «سيأتى على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لا يريدون بها ما عند ربهم، يكون دينهم رياءاً؛ «يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب، فيدعونه دعا الغريق، فلا يستجيب لهم» (١) وبالطبع فإن أفصح الناس إذا وضعت موازين القيامة هم أهل الرياء. ثم أورد الرذيله الثانيه: «ومجالسه أهل الهوى منسأه (٢) للإيمان، ومحضره (٣) للشيطان» لأن الهوى لا يعرف الحدود والقيود فيملاً كيان الإنسان ويستهلك فكره فلا يدع من مجال للإيمان، ومن الطبيعي أن يكون مثل هذا المجلس محضراً الشياطين. ومخالطه الآخريين على درجه من الأهميه بحيث ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «المرء على دين خليله وقرينه» (٤). وجاء في المثل المعروف: «قل لى من تعاشر، أقل لك من أنت» (٥). ثم حذر عليه السلام من رذيله الكذب: «جانبوا الكذب فإنه مجانِبٌ للإيمان» فالمفردة جانبوا تفيد أن الكذب على درجه من الخطوره بحيث يجب على الإنسان أن يتعد عنه ولا يقترب، حذراً من أن تتفادفه الوسوس فتلقيه فى الهاويه. والعباره: «مجانِبٌ للإيمان» لاتفيد أن الكذب لا ينسجم والإيمان فحسب، بل هو شديد البعد عنه، لأن الكاذب إنما يكذب عاده لجلب منفعه أو دفع ضرر أو بدافع من هوى النفس، والحال يعلم المؤمن أن كل هذه الأمور بيد الله، كما يؤمن بأن الهوى نوع من الوثنيه. وشاهد ذلك الجمله اللاحقه التى بينها الإمام عليه السلام تأكيداً للعباره السابقه فقال: «الصّادق على شفا (٦) منجأه وكرامه، والكاذب على شرف مهواه (٧) ومهانته». ثم قال محذراً من الرذيله الرابعه: «ولاتحاسدوا، فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»؛ لأنّ

ص: ٣٢٢

١-١) وسائل الشيعه، ١/١١، ح ٤. [١]

٢-٢) «منسأه» من ماده «نساء» على وزن نصب بمعنى الترك والتأخير.

٣-٣) «محضره» اسم مكان من ماده «حضور» الموضع الذى يحضره الإنسان أو الشئ.

٤-٤) شرح نهج البلاغه للخوئى ٦/١٣٦.

٥-٥) فى ظلال نهج البلاغه ١/٤٢٧. [٢]

٦-٦) «شفا» بمعنى حافه الشئ، وتطلق فى الأصل على حافه البئر أو الخندق، ولعل ذلك هو السبب فى تسميها الشفه.

٧-٧) «مهواه» من ماده «هوى» لميل إلى الشئ، ومهواه اسم مكان المسافه بين جبلين التى شوق الانسان أحياناً إلى السقوط.

الحسود فى الواقع يعترض على نظام الخليقه واغداق الله لنعمه على العباد؛ الأمر الذى لا ينجسم والإيمان، أضف إلى ذلك فليس للحسود أن يرى سعادته فى سلب نعم الآخرين، ولو كان مؤمناً بالله لسأل الله مثل هذه النعم. ثم حذر عليه السلام من البعض والعداء «و لا- تباغض وا فإئنها الحالحه». الحالحه من ماله حلق (وبالنظر إلى حذف متعلقها) تفيد أن الخصومه والتباغض إنما تجتأ أصول الخير والسعاده من جذورها؛ ولا- غرو لأنّ جذور الخير تتمثل بالتعاون والتعااضد بين أفراد المجتمع مع بعضهم البعض الآخر. وأخيراً من الرذيله السادسه المتمثله بطول الأمل فقال عليه السلام: «واعلموا أنّ الأمل يسهى العقل، ينسى الذّكر، فأكذبوا الأمل فإنه غرورٌ، وصاحبه مغرورٌ» فالواقع هو أنّ طول الأمل يغرق الإنسان فى عالم من الوهم والخيال ويجعله يدور حول محور الأمور الماديه، وهذا من أعظم العقبات التى تعترض سبيل السعاده، وقد دلت التجارب على أنّ أغلب الأفراد الذين يرتكبون أشع الجرائم إنما هم ممن ابتلوا بهذه الرذيله - طول الأمل - التى عدها رسول الله صلى الله عليه و آله وأمير المؤمنين عليه السلام فى مصاف عباده الهوى ومن أخطر عقبات السعاده.

المواعظ البالغه

لقد تضمنت هذه الخطبه وعلى الرغم من قله عبارتها العديده من الأمور المعنويه من قبيل مفهوم التوحيد وعبوديه الله والاهتمام بالكتاب - القرآن الكريم - وما ورد فيه من تعاليم قيمه، إلى جانب التحذيرات التى تهدف إلى تنبيه الإنسان إلى مصيره وعاقبته. كما تطرقت إلى المسائل الأخلاقيه المهمه التى تعد الركن الركين لسعاده الإنسان الماديه والمعنويه، كاجتناب الشرك والكذب والحسد والعداوه والبغضاء وطول الأمل، ثم أوورد الدليل والبرهان المنطقى الذى يكشف اللثام عن أضرار كل رذيله من هذه الرذائل. الحق لو تأمل الإنسان هذه الخطبه كل يوم وفكر قليلاً فى عبارتها وعقد العزم على الالتزام بها لبلغ بنفسه شاطئ السلامه والأمان.

ومن خطبه له عليه السلام

وهى فى بيان صفات المتقين وصفات الفساق والتنبيه إلى مكان العتره الطيبه والظن الخاطيء لبعض الناس

نظره إلى الخطبه

تتالف الخطبه فى الواقع من خمسہ أقسام، أربعة منها متصله، بينما ينفصل عنها الجزء الخامس بما له من مفهوم خاص، وهذا ما يفيد أنّ السيد الرضى (ره) قد حذف بعض الأقسام من الخطبه. والأقسام الخمسه هى:

القسم الأول: بيان صفات العلماء العاملين ممن شملتهم العناية الإلهيه فاستشعروا التقوى والورع وابتعدوا عن أنفسهم الأهواء والشهوات واهتدوا إلى ربّهم.

القسم الثانى: بيان صفات علماء السوء الذين اقتبسوا جهلاً من جهالّ وضلالاً من ضلالّ فضلوا وأضلوا.

القسم الثالث: تحذير الناس من الضلال والاتجاه نحو الجهال، والحال فيهم عتره النبي صلى الله عليه وآله منابع العلم ومعادن الحكمة.

ص: ٣٢٥

١- ١) سند الخطبه: من الأدله التى تفيد أنّ الخطبه نقلت من مصادر أخرى غير نهج البلاغه ما قاله ابن ابى الحديد بعد أنّ أكمل شرح هذه الخطبه: وهذه خطبه طويله وقد حذف الرضى (ره) منها كثيرا (ثم نقل أبى الحديد بعض أقسامها)، ورواها الزمخشري فى باب العز والشرف من ربيع الابرار بتفاوت يسير نعرف منه أنه لم ينقلها عن النهج (مصادر نهج البلاغه ٢/١٣٣).

القسم الرابع: الاشارة إلى بعض كلمات النبی صلی الله علیه و آله بشأن أهل البيت علیه السلام، كما يستدل علی کلامه بحديث الثقلین المتواتر المعروف لدى جميع المسلمين.

القسم الخامس: إشاره إلى الظن الباطل بأنّ الدنيا دائمه لبنی أمیه، والأخبار عن سقوط دولتهم وزوال ملكهم، وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذا القسم لاعلاقه له بما سبقه من أقسام، ومن الواضح أنّه هناك بعض الأقسام التي حذفها السيد الرضی (ره) من الخطبه.

ص: ۳۲۶

«عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عِبِدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشَعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلَّبَبَ الْخَوْفَ؛ فَزَهَرَ مِضِيءَ بَاحِ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبُعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ. نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَذَكَّرَ، وَارْتَوَى مِنْ عَذْبِ فُرَاتٍ سَهَّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهْلًا، وَسَيَّلَكَ سَبِيلًا حَيَّدَدًا، قَدْ خَلَعَ سَرَائِبَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلَّا هَمًّا وَاحِدًا انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِقِ أَبْوَابِ الرَّدَى، قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَيَّلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثِقِهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ بِأَمْتِنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ» .

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام خطبته - كما أشرنا إلى ذلك سابقا - بذكر صفات أولياء الله والساكنين إليه، بالشكل الذي جعل ابن أبي الحديد يصرح في شرحه قائلاً: «واعلم أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقه والحقيقه علمهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى» (1). ويرى البعض أن الإمام عليه السلام قد عرف نفسه بهذه العبارات؛ لأنَّ العرفان درجه حال رفيعه شريفه جداً، لاتناسب إلا أمثاله عليه السلام، والأنسب أن يقال بأنَّ بيان الإمام عليه السلام استهدف

ص: ٣٢٧

شرح الصفات الكليه للكاملين من العرفاء وأصحاب السلوك إلى الله، حيث يتمثل مصداقهم به وزوجه والمعصومين من ولده عليه السلام. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يترك جانباً من الجوانب المهمّة لحال الإنسان الكامل حتى ذكر له أربعين صفة. فقد إستهل كلامه قائلاً: «عباد الله! إنّ من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه»، فالعبارة تشير إلى نقطه مهمه وهى أنّ إجتياز هذا الطريق ليس ميسراً لأحد - دون عنايه الله - وذلك لعظم المخاطر والمطبات التى يتعذر على الإنسان عبورها بقوته المتواضعه، فليس أمامه سوى التوكل على الله وتسليم أموره إليه ليستلهم العون من مصدر فيضه ولطفه الذى لا ينضب، وهذا ما أشار إليه القرآن بالقول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا» (١). ومن الواضح أنّ أَلطاف الله سبحانه وتفضلاته ليست قائمه على العيب، بل لا بدّ من نيلها بواسطة التسليم المطلق وحمل القلوب إليه وعدم إسكانها غيره. ثم خاض الإمام عليه السلام فى بيان نتيجته هذا اللطف قائلاً: «فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف» استشعر من ماده شعار مايلى البدن من اللباس، وجعل الحزن بمنزله الشعار يعنى أنّ مثل هؤلاء الأفراد المؤمنين إنّما يعيشون الحزن فى باطنهم على ما مضى من أيام عمرهم ولم يجدوا فيها كما ينبغى لطاعه معبودهم، وبالطبع فأنه حزن بناء يسوقهم نحو العمل والحركه لتدارك مافاتهم. تجلبب من ماده جلباب ما يكون فوق جميع الثياب وتجلبب الخوف إشاره إلى أنّ هؤلاء الأفراد المخلصين يراقبون أنفسهم على الدوام، حذرين من صدور الزلل وما من شأنه أن يخرجهم من زمرة المخلصين والسعداء. كما يحتمل أن يكون حزنهم بسبب فراق المحبوب وخوفهم من عدم الوصال. ثم خاض الإمام عليه السلام فى نتيجته هذا الحزن والخوف البناء: «فزهو مصباح الهدى فى قلبه، وأعدّ القرى (٢) ليومه النازل به» وزهوا مصباح الهدايه إشاره إلى تلاً أنوار المعارف الإلهيه فى قلوبهم يتذوقون بها حلاوه الإيمان: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» (٣) والتعبير بالقرى الذى يعنى الوسيله المعده للضيوف يشير إلى أن يوم الأجل أو القيامه الذى يمثل ذروه الخشيه والخوف لا يعنى لهم سوى

ص: ٣٢٨

١-١ (١) سورة النور / ٢١. [١]

٢-٢ (٢) «قرى» مصدر واسم مصدر ما يهياً للضيف، والمراد به هنا العمل الصالح يهيئه للقاء الموت وحلول الأجل، ومنه «المقراه» التى تطلق على الظرف الكبير الذى يوضع فيه الطعام.

٣-٣ (٣) سورة البقره / ٢٨٢. [٢]

ورود الضيف على المضيف الكريم، وكأنهم كالشهداء ضيوف الرحمن الذين يرتزقون من فضل إحسانه: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» (١). ثم قال عليه السلام: «فقرَّب على نفسه البعيد، وهَوَّن الشَّدِيد» أى يرى قرب الأجل والقيامه التى يحسبها الأعم الأغلب بعيدة، ولذلك سهل عليه تحمل الشدائد وصعوبات الطاعة وترك الذنوب والمعاصى. ثم تطرق عليه السلام إلى خمسهِ أمورٍ يختزن كل واحد منها صفه من صفات هؤلاء العباد من أهل الاخلاص والعرفان فقال عليه السلام: «نظر فأبصر، وذكر فاستذكر، وارتوى (٢) من عذبِ فراتٍ (٣) سهَّلت له موارده، فشرِب نهلاً، (٤) وسلكت سبيلاً جديداً» (٥) فقد تضمنت هذه العبارات القصيره البعيده المعانى الإشاره من جانب إلى أهميه التفكير والنظر إلى عالم الوجود ومسائل الحياه التى تشكل أساس البصيره الكامله ومعرفه الله، كما أشارت من جانب آخر إلى المداومه على ذكر الله التى تؤدى إلى إحياء القلوب وإطمئنانها: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (٦) ثم أشار إلى الارتواء من منبع الوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام ليتزودوا منهم فيسيروا على الطريق ويحثوا الخطفى نحو قرب الحبيب والفوز بوصاله. ثم تطرق عليه السلام إلى سته أوصاف لتهذيب نفس أولئك العباد المخلصين موضحاً معطياتها وآثارها فقال عليه السلام: «قد خلع سراويل الشهوات، وتخلَّى من الهموم، إلا همماً واحداً انفرد به، فخرج من صفه العمى، ومشاركه أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الردى» نعم فان هجر الشهوات وتصويب العين صوب مبدأ عالم الوجود وتنقيه القلب إنما يفتح بصيره الإنسان، فلا يصبح ذلك الإنسان سالكاً لسبيل الحق فحسب، بل يكون دليلاً ورائداً للطريق، ثم يودعه الله مفاتيح الهدايه أقفال الضلاله

ص: ٣٢٩

-
- ١-١) سورة آل عمران / ١٦٩. [١]
- ٢-٢) «ارتوى» من ماده «رى» على وزن طى شرب الماء.
- ٣-٣) «فرات» ، الماء العذب.
- ٤-٤) «نَهَل» بمعنى السقى أو الشراب الأول، ومن عاده العرب، أخذ الابل إلى مكان شرب الماء، وعندما تشرب وترتوى ترجع إلى مكانها، فيقال لها نهلت الابل أو إبلٌ نواهل. وفي المره الثانيه تُعرض على الماء فعندما تشرب، فتسمى «الطَّل» ، وبعد ذلك تذهب الابل للرعى فى المرعى، فاصطلاح «النهل» يستعمل عندما تشرب الابل الشربه الاولى، وهذا الاصطلاح يستعمل دائماً فى الشرب الاول.
- ٥-٥) «الجدد» من جد، الأرض الغليظه الصلبه المستويه.
- ٦-٦) سورة الرعد / ٢٨. [٢]

وأبواب النيران، فيفتح طريق الحق لسالكيه ويغلق باب جهنم بوجه العباد. ثم أشار عليه السلام إلى ست صفات أخرى فقال: «قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره، (١) استمسك من العرى (٢) بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس» فالواقع أن الصفات الست السابقة أكدت على الجوانب العملية، بينما أضيفت لها هنا الجوانب العقائديه، فالخروج من صفه العمى وطرح حجب الهوى والظفر بسبيل الحق وطرق المعرفه وتجاوز بحار الشهوات والتمسك بعرى الهدايه المتمثله بالقرآن الكريم وكلمات المعصومين والراسخين فى العلم، إنما تجعل هذا العبد المخلص يبلغ مقام حق اليقين، فيرى الحقائق بأمر عينه، بل تمثل له كالشمس فى رابعه النهار، وهذه أعظم نعمه يصيبها العبد وأكرم ثواب يمنحه السالكين إلى الله. وقد جرى الكلام سابقا عن سلوك السبيل القويمه المحكمه: «سلك سبيلاً جددا» كما كان هناك الانفتاح على الحقائق: «نظر فأبصر» ثم تكرر هذا الأمران بعبارة أخرى، فقال عليه السلام: «قد أبصر طريقه وسلك سبيله»، ولكن وكما ذكرنا آنفا فقد ورد الحديث فى السابق عن الجوانب العمليه، بينما جاء الكلام هنا عن الأبعاد العلميه؛ أى أن معرفه الطريق وسلوك السبيل المطمئن ضرورى فى المرحلتين.

أفضل النعم

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من خطبته إلى أساس مطلق السعادات ودافع الإنسان إلى كافة الصالحات، وما يسهل عليه تحمل الشدائد والصعاب، ويحيله بالتالى إلى كائن يأبى القهر والانهمام، وقد عبر عنه فى موضع: «فظهر مصباح الهدى فى قلبه»، وفى موضع آخر: «فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس» ألا وهو مقام اليقين؛ وهو على مراتب، صنفتها القرآن الكريم إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وبالطبع فإن حق اليقين تمثل المرحله الأخيره،

ص: ٣٣٠

-
- ١-١) «غمار» من ماده «غمر» على وزن أمر بمعنى التغطيه، ولما كانت المياه الكثيره تغطى الأرض، اطلق عليه الغمار.
٢-٢) «عرى» جمع عروه المقبض.

وهى مرحلة شهود الإنسان الكاملى لعالم الغيب على غرار مشاهدته لضوء الشمس، وهى المرحلة التى بلغها أميرالمؤمنين على عليه السلام حين قال: «لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا» (١)وقد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ألا إن الناس لم يعطوا فى الدنيا شيئا خيراً من اليقين والعافية، فاسئلوهما الله» (٢).

وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام: «ما أعظم سعادته من بوشر قلبه يبرد اليقين» (٣). ومن الطبيعى أن الوصول إلى هذا المقام يتطلب من الإنسان إجتياد طريق صعب شائك بحيث لا يغفل طرفه عين فيه عن اصلاح نفسه وتهذيبها، ويشفع أولياءالله فى نفسه ويلهج قلبه قبل لسانه ببعض ما ورد فى الأدعية الشعبانية: «إلهى هب لى كمال الانقطاع إليك، ونر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تحرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمه، وتصير أرواحنا ملعقه بعز قدسك». كثير وطويل هو الكلام فى اليقين. ونكتفى بحديث عن أميرالمؤمنين على عليه السلام فى كيفية الوصول إلى اليقين، فقد قال عليه السلام: «أين الموقنون؟ الذين خلعوا سراويل الهوى، وقطعوا عنهم علائق الدنيا». (٤).

ص: ٣٣١

١-١) بحار الأنوار ٤٠/١٥٢. [١]

٢-٢) كنز العمال ٣/٤٨٣، ح ٧٣٣٤.

٣-٣) بحار الأنوار ٤٠/١٥٣.

٤-٤) غرر الحكم، ح ٣٩١. [٢]

«قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ، مِصْبَاحِ ظُلُمَاتٍ، كَشَافٍ عَشَوَاتٍ خَشَوَاتٍ مَقْفُتَاتٍ مُهْمَاتٍ، دَفَاعِ مُعْضَلَاتٍ، دَلِيلِ فُلُوتٍ، يَقُولُ فِيهِمْ، يَشْكُتُ فِيهِمْ، قَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ أَوْتَادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَيْدَلِ، فَكَانَ أَوَّلَ عَيْدِلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، لَا يَدْعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أُمَّهَا، وَلَا مَظْنَةً إِلَّا قَصْدَهَا، قَدْ أَمَكَّنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلَهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنَزَلُهُ» .

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى نقطه مهمه مكمله للقسم السابق، وهى أنّ العبد المخلص لله - الذى دار الحديث عنه سابقاً - بعد أن يتم مرحله تهذيب النفس والوصول إلى المقامات العاليه فى العلم والعمل والتقوى يهب لهدايه الخلق ويصبح رائدا على الطريق لينجى الناس من ظلمات الجهل والوهم والضلال. فالواقع أنّ مثل هذا العبد ما إن يجتاز مرحله السير إلى الحق وفى الحق حتى يستأنف مرحله السير إلى الخلق فينهض بعبيّ تبليغ الرساله التى حمل مشعلها الأنبياء. فقد قال عليه السلام: «قد نصب نفسه لله - سبحانه - فى أرفع الأمور» ، آنذاك خاض الإمام عليه السلام فى شرح هذه الوظائف بعبارات قصيره بعيده المعانى فقال: «من إصدار كلّ واردٍ عليه، وتصيير كلّ فرعٍ إلى أصله» ، فالعبارة تشير إلى نقطه مهمه وهى أنّ هذا العبد العالم المخلص قد إنطوى على إحاطه بعلم الدين وأحكامه إلى درجه

جعلته قادراً على الرد على كل ما يطرح من سؤال وإستفسار. كما تتضمن العبارة تلميحاً إلى عدم وجود سؤال في الدين لا يحمل جواباً، كما ليس هنالك من مشكله في المعارف الإلهيه والأحكام الفرعيه دون حلول؛ الأمر الذي أكده رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته المعروفه في حجهالوداع، إذا قال: «يا أيها الناس! والله ما من شئ يقربكم من الجنه، ويباعدكم من النار، إلا وقد أمرتكم به، وما من شئ يقربكم من النار، ويباعدكم من الجنه، إلا وقد نهيتكم عنه» (١)، وهو ما تعارف في فقه الإماميه بعنوان: «ليس هنالك من واقعه إلا والله فيها حكم». والعبارة «تصيير كل فرع إلى أصله» تشير في الواقع إلى التعريف الذي ذكره علماء الدين للاجتهاد والاستنباط، حيث صرحوا بأن حقيقه الاجتهاد هي: «رد الفروع إلى الاصول»؛ أي الاجابه على كل فرع بالاستفاده من القواعد والأصول الكليه المستقاه من الكتاب والسنة ودليل العقل، والمجتهد من يعلم بأنّ الفرع لأي أصل يعود. كما تشير العبارة ضمناً إلى فتح باب الاجتهاد في كل مكان وزمان، وقد بينت شرائط المجتهد من حيث العلم والعمل في الابحاث السابقه. ثم قال عليه السلام: «مصباح ظلمات، كشاف عشوات (٢) مقفحات مبهمات، دفاع معضلات، دليل فلوات» (٣). فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه الصفات الخمس كيف يخترق هذا العبد المخلص الورع والمتقى حجب الجهل الظلمانيه، فيكشف ما خفى من المعارف، ويفتح أقفال الغوامض والمبهمات ويحل مشاكل الناس، كما يهدي الناس إلى الحق والنجاه في صحراء الحياه المليئه بالحيره والضلاله وخشيه الوقوع في مخالب اللصوص وقطاع الطرق. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن خمس صفات أخرى لهذا العالم الرباني فقال: «يقول فيفهم، ويسكت فيسلم». نعم كلامه هادف، وسكوته هو الآخر هادف أيضاً، فهو يتكلم حيث لا بدّ من الكلام، بينما يسكت حين يخشى الذنب والمعصيه من جراء الكلام، فكلامه وسكوته لله ولا يهدف فيها سوى رضاه. فالحق إننا نعرف بعض الأفراد الذين يسعون جاهدين لاحاطه

ص: ٣٣٤

١-١) اصول للكافي ٢/٧٤ ح ٢.

٢-٢) «عشوات» جمع «عشوه» ما يقدم عليه الإنسان من عمل جهلا، ومن الواضح أنّ نتيجته مثل هذا العمل هي الندامه، وكشاف عشوات من يطرح حجب الجهل وينجي أهل الضلاله.

٣-٣) «فلوات» جمع «فلاه» وهي الصحراء الواسعه، مجاز عن مجالات العقول في الوصول إلى الحقائق، ودليل الفلوات العالم بها.

ما يقولون ويكتبون بهاله من التعقيد والابهام ليفهموا الآخريين بمستواهم العلمى، والحال لايجنى القارئ أو المستمع سوى المفاهيم المغلقه التى لاجدوى من ورائها؛ أما العلماء المخلصون فلا يصابون بهذه الأمراض، فهم لا يرومون من كلامهم سوى هدايه الطرف المقابل، أما سكوتهم فلا يستند إلى الهروب من المسؤوليه والخلود إلى الراحة والدعه، بل لا يرومون من سكوتهم سوى السلامه من الخطيئه والاثم ومجانبه الهوى ومعصيه الله. ثم أشار عليه السلام إلى مقام هذا العارف الإلهى فقال: «قد أخلص لله فاستخلصه»، يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى نقطه لطيفه وهى أن الشوائب الأخلاقية للإنسان على قسمين: قسم قابل للرؤيه ويمكن التغلب عليه من خلال الجهاد الأكبر وإصلاح النفس، بينما يتعذر رؤيه القسم الآخر. والله سبحانه فى عون من ينتصر فى مرحله الاولى. وقد صورت الروايات الإسلاميه الشرك بأعظم صورته حيث قالت: «إنَّ الشرك أخفى من ديب النمل، على صفاه سوداء، فى ليله ظلماء» (١). ومن الطبيعى أن تطهير القلب من هذا الشرك لا يبدو سهلاً إلّا فى ظل العناية الإلهيه. ثم أردف الإمام عليه السلام تلك الصفات الثلاث بصفتين فقال: «فهو من معادن، دينه وأوتاد عرضه»، نعم من خلص كيانه من كل الجوانب وكان عمله هو الترييه والتعليم فهو بمنزله المعدن الذى لايفنى والذى تستخرج منه المجوهرات والفلزات الثمينه، وهو كالجبل الراسخ الذى لاتزعزعه عواصف الشرك ورياح الذنوب والمعاصى والوساوس والمكائد الشيطانيه التى تتقاذف الإنسان وتلقى به فى مهالك الردى، وقد عبر عنه القرآن الكريم بوند الأرض الذى يحفظها من الزلازل: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا» (٢) وتشبيه هذا العالم الربانى والعبد المخلص بالجبل الى يمثل وتد الأرض تفيد عظم بركتته على المجتمع الإسلامى. فمثل هذا الفرد هو الذى يحفظ المجتمع الإسلامى من عواصف الانحراف والفساد. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخرى من صفات هذا العالم الربانى فقال: «قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه» فنحن نعلم بأن حقيقه العدل الخلقى أن تكون كافه صفات ومميزات الفرد منسجمه وحد الاعتدال والالتزان، بحيث لاتنطوى

ص: ٣٣٥

١-١) بحار الأنوار ٦٩/٩٣. [١]

٢-٢) سورة النبأ / ٦ - ٧. [٢]

شخصيته على الرغبات المفرطة التي تسوقه إلى الهوى، إلى جانب عدم الانزواء والتفوق عن الدنيا، فلا بد له أن يستسيغ الحلال ويمج الحرام ويسلك خط الاعتدال. فالعبارة «أول عدله. . .» تفيد انطلاقه في العدل من ذاته، والحق أنه ما لم يكن كذلك فليس لكلامه من أثر في الآخرين في الدعوه إلى العداله. ثم قال في الصفه الثانيه «يصف الحق ويعمل به» فان كان نصيراً للحق لم يقتصر ذلك على لقلقه اللسان، بل كانت دعوته ونصرتة للحق على مستوى السلوك والأفعال قبل اللسان والأقوال، وذلك لأن كلامه النابع من إيمانه واعتقاده إنما ينعكس مباشره على سلوكه وتصرفه، ولولا ذلك الانعكاس لأفاد الأمر عدم إيمان ذلك الفرد بما يقول. ثم قال عليه السلام في الصفه الثالثه: «لا يدع للخير غايه إلا أمها، ولا مظنه إلا قصدها» انه طالب كل خير وإحسان وسعاده، بل يقتفى آثار حتى تلك الحالات التي يرتجى من وراءها خيراً، فهو عاشق للخير وكأنه ذلك الفرد الذي يبحث عن ضالته النفيسه، فهو لا ينفك عن مطاردتها هنا وهناك. وقال في الصفه الرابعه «قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحلّ حيث حلّ ثقله، (1) وينزل حيث كان منزله» وهكذا يرى هذا العبد المخلص نفسه مكلفاً بهدايه الناس منطلقاً قبل ذلك من إصلاح نفسه واجتثاث جذور الهوى من أعماقها؛ فلسانه يصدع بالحق دائماً، كما يعمل بهذا الحق إلى جانب سعيه الدؤوب خلف الصالحات وأعمال الخير، والأهم من كل ذلك أنه جعل القرآن إمامه الذي يقوده حيث شاء فقد فوض إليه كافه أموره، فكانت سكناته وحركاته مستنده إلى القرآن.

تأملان

1 - فتح باب الاجتهاد

يرى أتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام أنّ باب الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعيه من

ص: ٣٣٦

١ - ١) «ثقل» على وزن أجل، وله معان مختلفه، ففي بعض الأحيان يأتي بمعنى أمتعته المسافر واحيانا بمعنى الاشياء الثمينه. و «حل» بمعنى نزل في منزل جديد وحل الرحال فيه، والجمله الوارده اعلاه، كناية عن أن المؤمن المخلص والسائر على هدى القرآن الكريم، فان حاله كحال المسافر الذي سار وراء قافله كلما نزلت القافله في مكان وحلت رحالها، فانه يتبع هذه القافله فينزل معها ويحل رحاله معها.

أدلتها المعروفه (الكتاب والسنة والإجماع والعقل) مفتوح على الدوام؛ الأمر الذى رقى بالفقه الإسلامى وأخذ بيده نحو الكمال. بينما نعلم أن فريقاً من المسلمين قد ذهب إلى غلق باب الاجتهاد، ليحصره ويجعله حكراً على الأئمة الأربع! رغم عدم قلّه الأفراد الذين كانوا يفوقونهم علماً فى الأئمة الإسلاميه، فالواقع ليس هنالك من دليل يدعو إلى حصر الاجتهاد فى ذلك العدد المذكور. فى حين تحدث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه عن خصائص المسلم المخلص العالم وفى مقدمتها إجهاده فى أحكام الدين فقال: «قد نصب نفسه لله - سبحانه - فى أرفع الأمور، من إصدار كلِّ واردٍ عليه، وتصيير كلِّ فرعٍ إلى أصله، مصباح ظلماتٍ، كشّافٍ عشوائٍ مقفّاحٍ مبهماتٍ، دَفّاعٍ معضلاتٍ» كما أشار ضمناً فى عده مواضع من هذه الخطبه إلى الشرائط التى ينبغى توفرها فى الفقيه المجتهد، والتى تدل على أن الفقيه لا يتصدى لهذه المسؤوليه الخطيره مالم تكن له رابطه خالصه بالحق سبحانه وتعالى. وهذا وقد تناولنا فى شرحنا للخطبه الثامن عشره فى المجلد الأول أهميه الاجتهاد وفتح بابيه أمام العلماء، إلى جانب الحديث عن الاضرار الفادحه التى أفرزتها فكره الاعتقاد بغلق باب الاجتهاد من قبل فقهاء العامه.

٢ - شموليه القرآن

لقد أشار الإمام عليه السلام كراراً ومراراً فى أغلب خطب نهج البلاغه إلى أهميه القرآن الكريم، فكان يتناول أحد الأبعاد فى كل خطبه. وقد تحدث فى هذه الخطبه عن خصائص العبد المخلص، فكان من بينها تسليمه المطلق لكلام الله، بحيث جعل القرآن قائده وإمامه ليتبعه فى حركاته وسكناته، وبعبارة أخرى فهو ينظر إلى القرآن كمحور لكافه جوانب حياته، لاوسيله لتوجيه عقائده وأفكاره، فهو على العكس من أولئك الذين يتشدقون بتعبتهم للقرآن، بينما يسعون لتكليف القرآن ومتطلباته وآرائهم، ليكونوا مصداقاً لقوله: «وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ» (١). فما لا ينجسهم ورغباتهم نسوه وهجره، ولو كان ظاهره لا يخدمهم عمدوا

ص: ٣٣٧

إلى باطنه على ضوء نزعاتهم، والعكس صحيح فقد يتخلون عن باطن القرآن ويتمسكون بظاهره على ينسجم وأهوائهم. فهم منحرفون لم يؤمنوا بالقرآن قط على أنه دليلهم وإمامهم، بل هم فى الواقع ليسوا عبيد الله، بل عبده الأهواء، والتفسير بالرأى الذى نهت عنه أغلب الروايات إنما هو شعبه من شعب عباده الهوى والشرك الخفى؛ فاين هؤلاء من العلماء المخلصين؟

ص: ٣٣٨

«وَأَخْرَجَ قَدْ تَسَيَّمَى عَالِمًا وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، أَضَالِيلَ مِنْ ضَلَّالٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكًا مِنْ حَبَائِلِ حَبَالِ غُرُورٍ، وَقَوْلٍ زُورٍ؛ قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ رَأْيَهُ؛ وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعِظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفْ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعْ، وَيَقُولُ: أَعْتَرِلْ الْبِدْعَ، وَبَيْنَهَا اضْطَجِعْ، فَالضُّوْرَةُ صُوْرَةُ إِنْسَانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ. لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعُهُ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدُّ عَنْهُ، ذَلِكَ مِثُّ الْأَحْيَاءِ» .

الشرح والتفسير

كان الكلام فى الأبحاث السابقة عن العلماء المخلصين الذين كانوا هداة على الطريق، منهم مصباح ظلمات، وكشاف عشوات ومفتاح مبهمات ودفاع معضلات، وهو ملاذ الضعفاء ومفرج العباد، وقد بين الإمام عليه السلام صفاتهم على أكمل وجه، أما هنا فقد تحدث الإمام عليه السلام عن المتشبهين بالعلماء من أهل الضلال الذين كمنوا للخلق وصدوهم عن الحق بباطلهم ومكرهم واستغلال سذاجتهم من أجل تحقيق أطماعهم المادية. فقد عدَّ الإمام عليه السلام عشر من صفاتهم فقال: «وآخر قد تسمى عالماً وليس به». فالتعبير بالفعل «تسمى» بصيغه المتعدى تفيد أن اليقطين من أبناء الأمة لا يرونهم علماء، وهم ليسوا كذلك أيضاً عند الله، بل يزعم أحدهم أنه عالم، إلى جانب شله من الجهال المتأثره بكذبهم ودجلهم. ثم قال فى الصفه الثانيه: «فاقتبس جهائل من جهالٍ، وأضاليل من ضلالٍ». فالمفرد «إقتبس» التى تعنى هنا التعلم، تفيد أن هذا

العالم المزيف إنما أجهأ هذا الفن فى الخداع والتضليل إثر تعلمه ممن سبقه، فوظف ما تعلم فى هذا الانحراف دون أن يجعل جهاده وسعيه للعلم والعمل فى خدمه الحق، وهذا لعمرى قمه البؤس والشقاء. ولعل الفارق بين «جهائل» و «أضاليل» أن جهائل (جمع جهاله) تعنى الجهل المركب؛ أى أنه جاهل ولا يدرى أنه كذلك (ولا يدرى أنه لا يدرى) أما أضاليل (جمع أضلوله) فهى تعنى الأمور المضله التى يتجه إليها عن علم. ثم قال فى الصفه الثالثه «و نصب للناس أشراكاً (١) من حبال غرور، وقول زور»؛ ياله من تعبير رائع! نعم فهو كالصياد الذى ينشر الحبوب فىجعلها فحاً للطيور والحيوانات البلهاء، فىبيعها ويتغذى على لحومها، وهذا ما يفعله هذا العالم المزيف تجاه السذج من الناس فىجنى أطماعه الماديه ومنافعه الشخصيه. وما أبرز مصاديق هؤلاء على مر التاريخ فى كل عصر ومصر، الذين يسخرون الدين لخدمه دنياهم، فقد جاء فى الخبر أن الإمام عليه السلام وصف عبدالله بن الزبير قائلاً: «ينصب حباله الدين لاصطياد الدنيا» (٢) (وقد قال الإمام عليه السلام ذلك حين لم تتضح شخصيته ويكشف عن مواقفه). ثم قال فى الصفه الرابعه: «قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحق على أهوائه»، بالضبط على عكس العالم الذى طالعنا صفاته فى أنه أمكن الكتاب من زمامه وجعله قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله، فهو تابع للقرآن بكل كيانه. والحق ليس هنالك من وسيله أفضل من هؤلاء المزيفين للتعرف على العلماء العاملين. فذاك الذى جعل القرآن قائده وإمامه هو العالم المخلص، أما هذا الذى يفسر القرآن برأيه ويسعى لتطبيق القرآن على متطلباته ورغباته. لهو عالم سوء مزيف. وقد جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار» (٣). كما عنه صلى الله عليه وآله أن الله سبحانه وتعالى قال: «ما آمن بى من فسر برأيه كلامى» (٤) والدليل واضح فمن آمن بالله علم أن الحق ما كان من الله، فان رأى غيره الحق فهو على خطأ. كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من فسر برأيه

ص: ٣٤٠

١-١) «اشراك» جمع «شرك» بمعنى اشباك الصياد.

٢-٢) الكنى والألقاب ١/٢٩٤. [١]

٣-٣) عوالى اللئالى ٤/١٠٤. [٢]

٤-٤) بحار الأنوار ٨٩/١٠٧ ح ١. [٣]

آيه من كتاب الله فقد كفر» (١). ثم قال في الصفه الخامسه من صفات هذا الذى تشبه بالعلماء: «يؤمن الناس من العظام، ويهون كبير الجرائم» وهكذا فإن الآثمين من الأفراد - الذين يشكلون الأكتريه فى المجتمعات - يسعون لحشد الآراء لصالحهم، وبعبارة أخرى فإن هنالك الأغلبه الساحقه فى المجتمع التى تسعى للتظاهر بالدين، أما فى داخلهم فهم يسعون من خلال ذلك لجمع الأفراد حولهم واستقطابهم بواسطه مماشاتهم وتصغير الكبائر لديهم. ثم قال فى الصفه السادسه واصفا حال هذا العالم المزيف: «يقول: أقف عند الشبهات، وفيها وقع»، فهذا المرائى الماكر يتظاهر أمام الناس بالدين إلى درجه أنه يزعم لهم: (لا أجنب المحرمات فحسب، بل أنا محتاط حتى فى الشبهات) والحال تعج حياته بالشبهات، وأبعد من ذلك المحرمات. وقيل فى تفسير هذه العبارة أن اقتحامه للشبهات نابع من جهله، فمثل هؤلاء الأفراد إنما يعانون عادة من الجهل المركب، فيرون ضلالهم هدى ومعاصيهم تقوى. ومن الواضح أن هؤلاء الجهال يتحلون بهاتين الصفتين، فلا مانع من الجمع بين التفسيرين (لامكانيه استعمال اللفظ فى أكثر من معنى). أما الشبهات فتطلق عادة على الأمور التى لاتعرف بصوره تامه، فهل هى حرام أم حلال؟ بعبارة أخرى فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف: «حلال بين، وحرام بين، وشبهات بين ذلك» (٢)؛ أى أن الشبهات هى حد الحرام. ومن هنا فمن أراد أن يصون نفسه عن الذنب وجب عليه عدم الاقتراب من هذا الحد، وإلا هوى فى مستنقع الذنوب ووصل المعاصى. ولذلك جاء فى آخر الحديث: «فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات، وهلك من حيث لا يعلم».

ثم قال فى الصفه السابعه: «و يقول: أعتزل البدع، وبينها اضطجع (٣)»، يمكن أن يكون هذا

ص: ٣٤١

١-١ (١) تفسير البرهان ١/١٩. [١]

٢-٢ (٢) الكافي ١/٤٨. [٢]

٣-٣ (٣) «اضطجع» من ماده «ضجع» على وزن زجر بمعنى نام ووضع جنبه على الارض.

الادعاء مِمَّا يفرزه المكر والخداع أو الجهل المركب، فاساس نشاط مثل هؤلاء الأفراد قائم على التشبث بالبدع وهجر السنن إرضاءً لاهواء العامه؛ الأمر الذى لا يمكن تحقيقه إلا من خلال البدع والأحداث فى الدين، وحقيقه البدعه إدخال ما ليس من الدين فيه، أو إخراج ما كان من الدين، وعليه فالبدعه حرام، ولا- يعنى هذا رفض أساليب التجدد فى الحياه فى كافه جوانبها العلميه والادبيه والاجتماعيه. فالبدعه أن تحدث شيئاً وتنسبه إلى الدين وهو ليس منه، والعكس صحيح. وما حالات الافراط والتفريط التى يمارسها الجهال الا إفرازات طبيعیه لعدم إدراك حقيقه البدعه. أمّا فى الصفه الثامنه والتاسعه العاشره التى تعد بمثابة نتيجته الصفات السابقه حيث أوردھا الإمام عليه السلام بقاء التفریح فقد قال: «فالصوره صورہ إنسان، والقلب قلب حيوان. لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، وذلك ميث الأحياء». حقا ليس هنالك من تعبير يصور هؤلاء العلماء المزيّفون أبلغ وأدق من هذا التعبير. فصورتهم ومظهرهم صورہ إنسان، بل إنسان كامل ورع وعالم، فى حين يسبح هذا الإنسان - بهذه الصفات - فى بحر من الجهل المركب، فاذا فكر يوما فى الهدايه، ضل الطريق بسبب ذنوبه ومعاصيه، فهو لا يعرف سبيل الحق والهدى ليتهدى إليه، ولا يعرف سبيل الباطل والضلال ليصد عنه، بالتالى فهو ميت يتحرك بين الأحياء، وقد ماتت فيه كل مقومات الحياه الانسانيه. والواقع إنهم مصداق بارز للآيه الشريفه: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» (١)، أو الآيه الكريمه «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ». (٢)

تأملات

١ - علماء الضلاله

لا يخفى على أحد خطر علماء السوء والضلاله، فأغلب الجرائم البشعه التى يرتكبها الجهال، إنمّا تعود جذورها إلى ما يسمى بهؤلاء العلماء، المتطفلين على الدين المفارقين لأحكامه وتعاليمه، أو الذين جعلوا الدين مطيه لديناهم. فقد وصفهم أمير المؤمنين على عليه السلام بأدق وصف، فهم جهال خلطوا الجهل بالضلال، فجعلوا أنفسهم أئمه للقرآن يفسرونه برأيهم ويحملون آياته

ص: ٣٤٢

١-١ (١) سورة النمل / ٨٠. [١]

٢-٢ (٢) سورة الاعراف / ١٧٩. [٢]

على رغباتهم وأهوائهم، فاصبحت حياتهم قائمه على أساس البدع والشبهات والذنوب والمعاصي، إلى جانب تصغيرها في أعين الناس وتزوينها لهم. فلم تبق لهم من الإنسانيه سوى صورتها، أما السيره فهي حيوانيه تماماً. وقد تواترت الأخبار والروايات إلى جانب الآيات القرآنيه التي لفتت إنتباه الأمه إلى أخطارهم، لتحذر الناس من مغبه الاستجابه لهم والسقوط في حبالهم وشباكهم. فقد روى أميرالمؤمنين على عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه»، بل إنّ الندم يصيبه وتعود مثل هذه الأمور بالوبال عليه، ومن هنا ورد في ذيل الحديث السابق: «وإن أشد أهل النار ندامه وحسره، رجل دعا عبداً إلى الله، فاستجاب له، وقبل منه، فأطاع الله، فأدخله الله الجنه، وأدخل الداعي بترك علمه، واتباعه الهوى وطول الأمل» (١). وقال الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله أوحى إلى نبيه داود عليه السلام: «لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدك عن طريق محبتي؛ فان أولئك قطاع طريق عبادي المريرين إلى، إنّ أدنى ما أنا صانع بهم، أن أنزع حلاوه مناجاتي من قلوبهم» (٢). فمن بين العلامات التي صرحت بها الروايات والأخبار بشأن علماء السوء والضلاله، ترك العمل بعلمهم، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً» (٣). أما العلامه البارزه الأخرى فهي اندفاعهم نحو البدع وتوجيه الضلال والانحراف والانغماس في الدنيا، وكثره الزعم والادعاء.

٢ - التفسير بالرأى، فخ الشيطان الأكبر

إنّ من أعظم آفات الدين وعقبات العبوديه طلب الحق والحركه إليه إنّما تتمثل بمعضله «التفسير بالرأى»؛ المعضله التي تهدد الدين بخطرهما العظيم وتقضى على روح أغلب الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه، فتحيلها إلى إلعوبه بيد هذا وذاك لتوجيه أهوائهم وسوء

ص: ٣٤٣

١-١ (١) الكافي ١/٤٤، باب استعمال العلم، ح ١. [١]

٢-٢ (٢) علل الشرايع ٣٩٤/٢. [٢]

٣-٣ (٣) منهاج البراعه ٦/١٨٥.

مقاصدهم، بعبارة أخرى تحيل الآيات والروايات إلى عجيته يصنع منها هذا المفسر ما يشاء ولا يهدف سوى إلى تبرير فساده وإنحرافه وضلاله. وأبسط تعريف للتفسير بالرأى هو إخلاء الآيات والروايات من معناها الحقيقي وصبغها بالطابع المطلوب ومن الواضح أن الآيات والروايات لا تفقد حقيقتها في الهداية على ضوء هذه المعضلة - التفسير بالرأى فحسب، بل تصبح وسيلة لتبرير الضلال والانحراف. ومن هنا أكدت الروايات والأخبار بشده النهى عن التفسير بالرأى، وقد مرّت علينا طائفه من هذه الأخبار والروايات فى الأبحاث السابقه، ثم رأينا كيف أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام يذكر هذه الصفه فى إطار وصفه لعلماء السوء والضلاله على أنّ أهم صفه من صفاتهم تكمن فى التفسير بالرأى. فالعبارة التى تضمنها الحديث المعروف «من فسر برأيه آيه من كتاب الله فقد كفر» (١) تفيد أنّ التفسير بالرأى أرضيه خصبه للنزوع نحو الكفر، وكذلك ما ورد فى الحديث الآخر بهذا الشأن: «من فسر القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر، إن أخطأ خر أبعد من السماء». (٢)

وزبده الكلام فإنّ أخطار التفسير بالرأى كثيره نشير إلى جانب منها:

١ - إيجاد حاله من الفوضى والارباك فى فهم الآيات والروايات.

٢ - إحاله وسائل الهدايه والصلاحي إلى ادوات للضلال والفساد ومضاعفه الأخطاء.

٣ - إيجاد الاختلاف والتشتت والنفاق واثاره التخريب فى القضايا العقائديه والدينيه.

٤ - الهبوط بالكتاب والسنة من مقام الزعامه والإمامه إلى مستوى التابع والمقلد.

٥ - تكييف التعاليم السماويه على ضوء انحرافات الأوساط الموبوءه.

٦ - إحاله المفاهيم الساميه المطلقه المستنده إلى الوحى إلى أفكار الإنسان المحدوده الضيقه.

٧ - تمهيد السبل والذرائع للأفراد الضالين المضلين.

طبعاً ليس هنالك من علاقه بين التفسير بالعقل للآيات والروايات وتفسيرها بالرأى. والمراد بالتفسير بالعقل هو الاستفاده من الأدله والقرائن العقلية من أجل فهم معنى الآيات

ص: ٣٤٤

(١-١) تفسير البرهان ١/١٩. [١]

(٢-٢) وسائل الشيعة ١٨/١٤٩، ح ٦٦ الباب ١٣، أبواب صفات القاضى. [٢]

والروايات. على سبيل المثال فان القرائن العقلية القطعية تصرح بأن المراد باليد فى الآيه الشريفه: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (١) القدره والقوه، لاهذه اليد العضو من أعضاء بدن الإنسان المركبه من اللحم والعظم والجلد. أمّا المراد بالتفسير بالرأى فهو الاستعانه بالقرائن الظنيه أو الوهميه الخاليه دون القرائن لتفسير الآيات والروايات وفقاً للأهواء والرغبات. على كل حال فإنّ هذا العمل نابع من الجهل أو الأهواء الشيطانيه. ويتضح مما مر معنا أنّ أولئك الذين حاولوا توجيه ضلالهم وانحرافهم بواسطه التفسير بالرأى، قد ضلوا حتى فى مسأله التفسير الرأى وفسروها بوحى من رأيهم، ومن هنا نقف على أهميه ما ورد فى الخبر الذى صرح بعدم إثابه من فسر برأيه وإن أصاب. فليس هنالك من ركن يستند إليه فى التفسير بالرأى سوى الفرضيات الجوفاء والآراء الظنيه والوهميه، الأمر الذى يقضى على روح إصاله الوحى وإشاعه جو الفوضى والاضطراب فى بيان المسائل الشرعيه، كما يقدهح فى نوريه القرآن ويهدد بالغرق سفينه النجاه المتمثله بأئمه العصمه عليهم السلام. وإلّا لو كانت هنا لك الفرضيات العلميه المسلمه إلى جانب القرائن العقلية لتعذر تسميه هذا التفسير بالتفسير بالرأى، فهذا تفسير بالعقل. ومما يؤسف له أنّ المنحرفين قد فسروا حتى مسأله التفسير بالرأى برأيهم ليتخذوا من الوحى وسيله لتوجيه انحرافهم وتحقيق أطماعهم وأغراضهم.

٣ - البدع ماده الانحراف

ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه البدع التى تعد من الصفات التى يتصف بها هذا الصنف ممن تسمى بالعلماء، والحال أنّهم يدعون أنّهم بعيدون كل البعد عن البدع، وهم يسبحون فى هاله منها. وكما أشرنا سابقاً فإنّ البدع أن تحدث فى الدين ما ليس منه، أو أن تخرج منه ما هو فيه، وعليه فهى لاتصدق على الابداع والتجديد والخلاقيه فى الميادين السياسه والاجتماعيه والاقتصاديه وشؤون الحياه اليوميه، أو بعباره أخرى قد تكون البدع فى الدين وقد تكون فى

ص: ٣٤٥

غيره، فما كانت في الدين فهي حرام ومضله، وما كانت في غيره فهي ممدوحه مطلوبه مالم تسيء إلى الدين. على سبيل المثال فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أتى بحج التمتع؛ أي خرج من الاحرام بعد أداء العمره ثم أحرم للحج بعد فاصله، كما أجاز الزواج المنقطع، فان انبرى من يقول لا أستسيغ حج التمتع، ولا بد أن يكون الحج والعمره معا، ولا أومن بالزواج المنقطع، فمثل هذا الشخص مبتدع في دين الله، وهو والأمر الذي ذمته الروايات بشده، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أهل البدع شر الخلق والخليقه» (١) كما قال صلى الله عليه وآله: «من تبسم في وجه مبتدع، فقد أعان على هدم دينه» (٢) وما ذلك إلا للأخطار العظيمه الناجمه عن البدع وفي مقدمتها القضاء على إصالة الدين، ولو فتح باب الدين بوجه البدع وتصرف الأفراد في العقائد والمفاهيم كما يحولهم فسوف لن يمر وقت طويل حتى تنعدم آثار الدين ولا يبقى إلا اسمه، وبالتالي سوف لن يكون إلا أداء طبعه بيد المهوسين والمنحرفين المتطفلين على الدين. ومن هنا جاء في الروايه عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه لمن سأله عن أقل ما يتعامل به ذلك الكافر قال «أن يبتدع شيئا، فيتولى عليه، ويبرء ممن خالفه». (٣)

ولو تمعنا في تاريخ الأديان الباطله لرأينا أنها إنما استندت في الغالب إلى البدع.

ص: ٣٤٦

١-١ (١) كنز العمال ١/٢١٨، ح ١٠٩٥.

٢-٢ (٢) بحار الأنوار ٤٧/٢١٧، ح ٤. [١]

٣-٣ (٣) سفينه البحار، ماده «بدع»؛ بحار الأنوار ٦٩/٢٢٠. [٢]

«فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟» «وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ»! والأعلام قائمه، والآيات واضحة، والمنار منصوبه. فَأَيْنَ يَتَأَهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ، وَبَيْنَكُمْ عَتْرَهُ نَبِيِّكُمْ! وَهُمْ أَرْزَمَهُ الْحَقُّ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ، وَالسِّنُّهُ الصِّدْقُ! فَأَنْزَلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُّوهُمْ وَرُودَ الْهَيْمِ الْعِطَاشِ.

الشرح والتفسير

لقد وصف الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من هذه الخطبه العالم المخلص والآخر المزيف، ثم واصل الكلام فى هذا الموضوع من الخطبه بالحديث عن أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله ومكانتهم فى المجتمع الإسلامى، بغيره معرفه الفريق الأول وتمييزه عن الثانى، إلى جانب الاقتداء به، إلما أنه أشار بصوره كليه إلى هذه المسأله فقال: «فأين تذهبون، وأنى تؤفكون (1)، والأعلام قائمه، والآيات واضحة، والمنار منصوبه». فلا يحق لكم القول إننا نعيش فى عصر تتقاذفنا فيه التيارات ولسنا لنا معرفه الحق من الباطل بعد أن إمتزجاً، كلا ليس الأمر كذلك، فكل شئ واضح والموازين جليه بينه، وقد اعذر من انذر. فقد جرت العاده على نصب العلائم فى الطرق بغيره الاهتداء وعدم الضياع، فأحياناً توضع العلامات فى مفترقات الطرق المنعطفات، وأحياناً أخرى توضع المصاييح المضاه على المرتفعات (ولا سيما فى اللبالي الظلماء) ويكفى أى من هذه الطرق لمعرفه السبيل، فاذا إجتمعت هذه الطرق معاً، بلغ الإنسان المطلوب وسارع فى خطاه نحو الهدايه والصواب، فالذى أراد الإمام عليه السلام أن هذه الطرق قد سخرها الله سبحانه لكم. ثم طبق الإمام عليه السلام هذا الكلى على مصداقه فانتقل من العام إلى الخاص، كيلا يقال أن هذه

ص: ٣٤٧

(١ - ١) «تؤفكون» من ماده «إفك» على وزن فكر، الانحراف والميل، ومن هنا يطلق الإفك على الكذب والتهمه.

الكليات لا تحل مشكلتنا، فأعاد قوله عليه السلام مستنكراً عليهم الحيره والضلال، وعتره النبي صلى الله عليه وآله بين أظهرهم: «فأين يتاه (١) بكم! وكيف تعمهون (٢)» نعم لا يرتجى منكم الضلال والحيره وبين أظهركم عتره رسول الله صلى الله عليه وآله مصابيح الهدى وأعلام الورى والعروه الوثقى التى من تمسك بها نجى «وهم أزمه الحق، وأعلام الدين، وألسنه الصدق» فمن أقبل عليهم أخذوا بيده إلى الحق، من إقتدى بهم عن بعد هدى إلى الرشد، بالتالى كل يهتدى بهديهم حسب تبعيته لهم. أما العبارة: «وهم أزمه الحق» فتفيد أن الحق يتحرك حول محورهم؛ المضمون الذى ورد فى الحديث المعروف «على مع الحق، والحق مع على يدور حيثما دار» (٣). والعبارة: «وألسنه الصدق» تعنى أنهم تراجمه الوحى. كما يمكن أن يكون المراد أن لسانهم عليهم السلام لا ينطق سوى بالصدق؛ سواء تحدثوا عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله، أم حدثوا عن أنفسهم، فكل ذلك صدق محض. وبالطبع ليس هنالك من تضاد بين هذين التفسيرين ويمكن الجمع بينهما. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول: «فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم (٤) العطاش» فالقرآن قد يجرى على لسان الإنسان، كما قد يظهر على عمله، وأخيراً قد يشغل حيزاً فى عمق روح الإنسان، وأفضل موضع للقرآن هو الموضوع الأخير من المواضع الثلاثة المذكوره. فالعبارة تصرح بحب أهل البيت النابع من أعماق القلب والروح، كما ينبغى أن يعيش القرآن فى هذه الأعماق. والواقع هو أن هذه العبارة تؤكد حديث الثقلين الذى قرن العتره بالقرآن ودعا الناس كافة إلى اتباعهما والتمسك بها بغيه الأمان من الضلال والفرقه. كما قيل فى تفسير هذه العبارة أنزلوهم أفضل المواضع التى أنزلهم بها القرآن الكريم، ألا وهو مقام الإمامه والولاية الذى أشار إليه القرآن بالقول: «إِنَّمَا وَكَّلْنَا اللَّهُ . . .» (٥) والآيه: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ . . .» (٦) والآيه: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» (٧) وسائر الآيات القرآنيه

ص: ٣٤٨

١- ١) «يتاه» من ماده «تياه» على وزن شئ الضلال والحيره.

٢- ٢) «تعمهون» من ماده «عمه» على وزن فرح الحيره والتخبط، وقيل: أن العمى فى العريبه عمى العين الظاهره والعمه العين الباطنه.

٣- ٣) نقل هذا الحديث العلامة الأمينى باسانيد مختلفه من مصادر العامه (الغدیر ٣/١٧٦). [١]

٤- ٤) «هيم» جمع «أهيم» الابل العطشى، وكذلك يقال للرمال تبتلع الماء، وأحياناً يستعمل هذا الاصطلاح للتعبير عن العطش.

٥- ٥) سورة المائده / ٥٥. [٢]

٦- ٦) سورة المائده / ٧٦. [٣]

٧- ٧) سورة الشورى / ٢٣. [٤]

الوارده بهذا الشأن. (١) ويبدو التفسير الأول أنسب. وأخيراً فإلعباره «الهييم العطاش» تفيد أنهم عليه السلام منبع ماء الحياه، وأنكم بأشد الحاجة إليهم، وعليه يجب عليكم المسارعه إليهم دون أدنى تريث أو ترديد.

منزله أهل البيت عليهم السلام

يتضح بجلاء مما مر معنا في هذا القسم من الخطبه أن وجود أهل البيت من عتره النبي صلى الله عليه وآله بين المسلمين، وتبعيه الأئمه لأقوالهم وأفعالهم إنما تعصمهم من خطر الضلال، فهم أزمه الحق ومصايح الهدى وأعلام الدين وألسنه الصدق وتراجمه الوحي. أميا الروايات والأخبار الواردة من الفريقين في التأكيد على حبهم فذلك لأن حبهم يبعث على إتباعهم، وبالتالي فإن إتباعهم هو أساسا الهدايه والحركه نحو الحق. ومن تلك الروايات ما اورده الفخر الرازى في تفسيره المعروف عن الزمخشري في الكشاف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«من مات على حب آل محمد مات شهيداً» .

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له» .

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً» .

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان» .

«ألا ومن مات على حب آل محمد، بشره ملك الموت بالجنه» .

«ألا- ومن مات على بغض آل محمد، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آئس من رحمه الله» . (٢) وورد في حديث أنه صلى الله عليه وآله قال: «أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، وكتابه وأهل بيتي، ثم أمتي، ثم أسألهم: ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي؟» (٣) هذا غيض من فيض الأحاديث والروايات التي صرحت بمنزله أهل البيت وأكدت على حبهم والتمسك بهم.

ص: ٣٤٩

١- ١) للوقوف بصوره أعمق على هذه الآيات واقوال مفسرى الشيعة والسنة راجع كتاب رساله القرآن، ج ٩.

٢- ٢) تفسير الفخر الرازى ٢٧/١٦٥، الآية ٣٣ [١] من سورة الشورى.

٣- ٣) اصول الكافي ٢/٦٠٠، ح ٤. [٢]

«أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوهَا عَنْ خَاتِمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلَى مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيهَا تُنْكِرُونَ، وَاعْيُذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ - وَهُوَ أَنَا -، أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْمَأْكُوبِ! وَأَتْرُكُ فِيكُمْ الثَّقَلَ الْأَضْيَعْرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ الْحَرَامِ، وَالْبَسِيَّتِ كُمُ الْعَافِيَةِ مِنْ عَيْدَلِي، وَفَرَشْتُكُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، أَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي، فَلَا تَسِيَّعْمَلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصِيرُ، وَلَا تَتَغَلَّظُ إِلَيْهِ الْفِكْرُ» .

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام ما ورد في القسم السابق بشأن عتره النبي صلى الله عليه وآله فاضاف قائلاً: «أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوهَا عَنْ خَاتِمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلَى مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» هناك كلام وخلاف بين شراح نهج البلاغه بشأن عوده الضمير في «خذوها» ولكن يبدو أنه يعد إلى الحقيقة أو الكلام الحق ويعلم ذلك من قرائن الكلام، وان لم ترد في العبارات السابقة، فمفهوم العبارة: خذوا هذا الكلام الحق بشأن أهل البيت عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. أما قوله: إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلَى مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ، فقد حمل على المعنى الحقيقي في أنّ أجساد أولياء الله تبقى غصه طريه في القبور وهم يتمتعون بنوع من الحياه بحيث يسمعون كلام الآخرين ويردون سلامهم، ولهم حياه

الشهداء الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» . (١) وعليه فالعباره «يموت» تعنى الموت الظاهري، والعباره «ليس بميت» تعنى عدم الموت الواقعي، وهكذا عبارتي «يلى» و «ليس ببال» . وقال البعض أنّ المراد بعدم الموت والى هنا المعنى المجازي، أى أن آثارهم وتعاليمهم باقيه بين الناس إلى يوم القيامة، وكأنهم أحياء، ولعلنا نلمس هذا المعنى فى روايه كميل فى آخر نهج البلاغه بشأن العلماء العاملين «أعيانهم مفقوده، وأمثالهم فى القلوب موجوده» (٢). كما احتمال أن يكون المراد بالحياء هنا تلك الحياه البرزخيه التى تكون فيها الروح فى قوالب مثاليه لطيفه، إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً لأنّ مثل هذه الحياه لا تختص بالأئمه والمقربين من أولياء الله. ويبدو الاحتمال الأول هو الأصح، وبالطبع فأنها حياه أرفع من حياه الشهداء، فاننا نناديهم فى الزياره «تسمع كلامى وترد سلامى» (٣). ثم أكد الإمام عليه السلام ذلك قائلاً: «فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإنّ أكثر الحقّ فيما تنكرون» فى إشاره إلى أنّ معلومات الإنسان محدوده جداً وأنّ حقائق العالم عظيمه واسعه. والواقع أنّ العقل يقول فى مثل هذه الحاله «لا ينبغى للإنسان ان يتنكر لكل شئ لا يعرفه» . على سبيل المثال لو لم يكن لديه من علم بشأن حياه أولياء الله، فلا ينبغى له أنّ ينكر ذلك. فليس هذا الأمر الوحيد الذى لا يعلمه أغلب الناس، بل هناك آلاف الالوف وملايين المليونات من الوقائع المتحققه فى الخارج والتى لا ندركها، وحسب تعبير أحد العلماء أنّ وقائع العالم بمنزله كتاب ضخّم بحيث لو جمعت كافه علوم البشريه من أولها إلى آخرها لما أصبحت ورقه فى ذلك الكتاب. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليكشف عن حقيقه مريه صعبه وكذلك مفيده نافعه بعيده المعنى فقال: «و اعذروا من لا- حجّه لكم عليه - هوأنا» أى أنى نهضت بكافه وظائفى الملقاه على عاتقى، فلم أقصر فى وظيفتى طرفه عين وقد أدت تكليفى أمام الله والعباد. وبناءً على هذا فليس هنالك مايسى إلىّ، ومن تفوه على فهو إمّا خاطئ أو مغرض. طبعاً هذا لا يعنى أنّه لا تبدو آرائكم تجاهى وتبخلون

ص: ٣٥٢

١-١) سورة آل عمران / ١٦٩. [١]

٢-٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار ١٤٧، «من حسن المصادفات انه كتب هذا القسم من الخطبه فى الذكرى الحاديه عشره لرحيل الإمام الخمينى (ره)» .

٣-٣) بحار الأنوار ٦٧/٢٩٥. [٢]

بالمشوره، إلمائه يعنى ليس لكم حق الاعتراض على؛ الأمر الذى نلمسه فى قوله لابن عباس: «لك ان تشير على وأرى، فان عصيتك فأطعنى» (١). ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح خدماته التى اسداها للأمة بسبع عبارات، فقال بادئ ذى بدء «ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر» فسيره حياه الإمام عليه السلام ولا سيما زمان حكومته تفيد أن القرآن كان محوره فى كافه أقواله وأفعاله؛ الأمر الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله حين قال: «على مع القرآن، والقرآن مع على» (٢). ثم قال عليه السلام: «وأترك فيكم الثقل الأصغر» وشاهد ذلك الحوادث التى وقعت ابان حياته عليه السلام بحيث كثيراً ما كان يتعرض أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وبقية الثقل الأصغر الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلى الاخطار، بينما كان يسعى الإمام عليه السلام جاهدا للحفاظ عليهما ومن ذلك أنه شاهد الإمام الحسن عليه السلام وهو يسارع إلى الميدان فى معركة صفين فقال: «أملكوا عنى هذا الغلام لا يهدنى، فأننى أنفس بهذين يعنى الحسن والحسين عليهما السلام - على الموت لثلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» (٣). ثم قال فى العبارة الثالثة: «قد ركزت فيكم رايه الإيمان». فكلام على عليه السلام - ومن ذلك خطبه فى نهج البلاغه - بشأن المبدأ والمعاد وأدله نبوه رسول الله صلى الله عليه وآله تفيد أنه كان ينتهز الفرص من أجل تقويه عرى الإيمان فى قلوب الأمة. وقال فى العبارة الرابعة: «ووقفتم على حدود الحلال والحرام» وقد بلغ من تأكيد الإمام عليه السلام على بيان مسائل الحلال والحرام بحيث أنه لم يكن يقتصر على بيانها فى خطبه فى المساجد وسائر الحلقات، بل كان يقوم بذلك كل يوم حين يتفقد السوق ويخاطب التجار والكسبه ويوصيهم بالتفقه بالدين، بل لم يحفل التاريخ بمثل أمير المؤمنين عليه السلام فى بيانه لأحكام الشرع ومسائل الحلال والحرام. فقد جاء فى الخبر أنه كان يطوف بالأسواق وينادى أهلها بالورع التقوى وعدم القسم فى المعامله، فانها تذهب البركه والتاجر فاجر إلماءً يأخذ حقاً ويعطى حقاً، ثم يأتى ثانيه ويخاطبهم بهذه الكلمات (٤). كما كان يطوف فى أسواق القصابين ويناديهم من غشنا ليس منا. (٥)

ص: ٣٥٣

١-١) نهج البلاغه، الكلمات القصار ٣٢١.

٢-٢) ينابيع الموده طبقاً لنقل إحقاق الحق ٩/٣٥٤، [١] وقد نقل هذا الحديث فى عدّه مصادر أخرى من المصادر المعروفة للعامة، وللوقوف أكثر راجع ٥/٦٣٩، من إحقاق الحق. [٢]

٣-٣) نهج البلاغه، خطبه ٢٠٧. [٣]

٤-٤) الغارات، سيره على عليه السلام فى نفسه.

٥-٥) المصدر السابق.

ثم قال عليه السلام في العبارة الخامسة: «و ألبستكم العافية من عدلى» فعداله أمير المؤمنين عليه السلام وتأثيرها في إعاده روح الاستقرار والهدوء إلى المجتمع ليست بخافية على أحد، لم يكف لحظه إبان حكومته عن التأكيد على ضروره بسط العدل والقسط، حتى صرح عليه السلام قائلاً: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته فان في العدل سعه. ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيّق». (١)

ثم قال في العبارة السادسة «و فرشتكم المعروف من قولى وفعلى» فأعمال الخير والاحسان قد تشيع وتتسع رقعتهما في المجتمع عن طريق الوصايا والمواعظ الخطب، كما يمكن أن تنتشر عن طريق عرض النماذج والقنوات العمليه، والحق أن الإمام عليه السلام كان قدوة في الأمرين، وقد شحنت كتب التواريخ ونهج البلاغه بسيرته العمليه وأقواله بشأن أمر الناس بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم قال عليه السلام: «وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسى». فضائله الأخلاقيه عليه السلام وعدالته وايتاره وتضحيته وزهده وورعه وتقواه ونصرتة للمظلومين واليتامى والضعفاء وشجاعته وبسالته ومبارزته للاباطال الظلمه ليست بخافية على أحد، حتى إعترف بها الأعداء كمعاويه وعمرو بن العاص، فضلاً عن الأصدقاء. وقال البعض أن: «كرائم الاخلاق» أسمى من «حسن الاخلاق»؛ فمثلاً- حسن الخلق يوجب مقابله الاحسان بالاحسان، أو الرد عليه بما يربو عليه، أما كرم الخلق فانه يوجب مقابله الإساءه بالاحسان؛ العمل الذى قام به أمير المؤمنين على عليه السلام تجاه عبدالرحمن بن ملجم بعد أن ضربه. ثم اختتم كلامه عليه السلام قائلاً: «فلا تستعملوا الرأى فيما لا يدرك قعره البصر، ولا تغلغل إليه الفكر» فى إشاره إلى أن ما بينه من منزله للثقل الاصغر (عتره النبى) إنما هى من الأمور التى اقرتها الاراده الإلهيه، فاياكم والتشكيك فيها من خلال الوهم والظن والأفكار العاجزه. فهى منزله جباهم بها العزيز الحكيم إلى جانب كونها نعمه عظيمه أنعمها الله على الأمة الإسلاميه. والواقع هو أنّ هذه العبارة تاكيد للعبارة السابقه التى قال فيها عليه السلام: «فلا تقولوا بما لاتعرفون، فان أكثر الحق فيما تنكرون».

ص: ٣٥٤

ومنها: «حَتَّى يَظَنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَتُورِدُهُمْ صِفْوَهَا، وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا، كَذَبَ الظَّانُّ لِدَلِكْ، بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَدِيدِ الْعَيْشِ يَنْطَعَمُونَهَا بُزْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمَّلَةً!». .

الشرح والتفسير

هذا هو ختام الخطبه. ويرى البعض أنه موضوع مستقل ليس له من إرتباط بالأبحاث السابقة. والواقع أن هناك عدة مطالب بين هذا القسم من الخطبه والأقسام السابقة لم يتعرض لها السيد الرضى (ره)، ومن هنا يبدو عدم وجود ارتباط بين هذا القسم وما سبقه من أقسام، مع ذلك لا يستبعد أن تكون هناك رابطة معقوله بين هذين القسمين، أى أن ما حذف منها ليس بالشيء الكثير. وكأن الإمام عليه السلام أشار إلى العبارة الأخيره من البحث السابق حين قال فلا- تقولوا بما لا-تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون. ومن ذلك قوله لاتعتقدوا أن حكومه بنى أميه دائمه خالده، لا- ليس الأمر كذلك، فسرعان ما تؤول حكومتهم إلى زوال وإنهيار. وقد ابتدأ المرحوم السيد الرضى (ره) هذا القسم قائلاً أن القسم الآخر من هذه الخطبه: «حَتَّى يَظَنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ (١) عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، (٢) تُورِدُهُمْ صِفْوَهَا، وَلَا يَرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا»، فالعبارة «معقوله على بنى أميه» كناية عن تسليم الشيء إلى

ص: ٣٥٥

- ١- ١) «معقوله» من ماده «عقال» الجبل الذى تربط به رجل الناقه بعد الانحناء لكى لا يستطيع القيام فتبقى فى مكانها، ثم اطلقت كناية على الأمور المستقره.
- ٢- ٢) «در» تعنى فى الأصل ترشح اللبن من الثدى، ثم اطلقت على سائر السوائل كالمطر وأمثاله، كما اطلقت كناية على مختلف النعم الماديه.

شخص، والعبارة «تمنحهم درها» جرياً على عادة العرب بتشبيه أغلب أمور حياتهم بالناقه، حيث كان لها بالغ الأثر في حياتهم وعليه فهذه التشبيهات محببه إليهم. على كل حال فإن الأفراد السطحيين لا يكادون يرون أحدهم متربعاً على عرش السلطه وقد صفت له الدنيا وقمع معارضيه حتى يظنون بخلود هذه السلطه، والحال لا يعلم ما يخبيء الغدو ليس هنالك من سبيل للتكهنات في المسائل السياسيه، نعم لأولياء الله أن يزودوا الناس ببعض هذه الأخبار المستقبليه إستناداً لعلمهم المستقى من علم الله سبحانه، ومن ذلك هذا الأخبار من الإمام عليه السلام حيث قال مواصله لكلامه: «و كذب الظانّ لذلك، بل هي مجّه (1) من لذيذ العيش يتطعمونها برهه، ثم يلفظونها جملة» ؛ أي سيستحوذون على الحكومه تدريجياً، ثم يفقدونها دفعه احده. فنحن نعلم أنّ حكومه بنى أميه لم تدم أكثر من ثمانين سنه، فكانت أعظم مدتهم على عهد حكومه معاويه بعد شهاده الإمام على عليه السلام وصلحه مع الإمام الحسن عليه السلام بعد أن أقبلت عليه الدنيا. ثم خلفه يزيد الذي اسود عهده بفعل قيام الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده بتلك الطريقه البشعه فلم تدم حكومته أكثر من أربع سنوات، ثم تعاقبت الحكومات التي دام بعضها بضعه أشهر، بل كانت حكومه معاويه بن يزيد أربعين يوماً، ولم تشذ من ذلك سوى حكومه عبدالملك التي استغرقت عشرين سنه، ولعل السبب يعود إلى عدم استجابته لوصايا الحجاج وعدم إراقه دماء بنى هاشم على كل حال وكما أخبر الإمام على عليه السلام فقد كانت حكومتهم قصيره مليئه بالأحداث المريره - أما العبارة «هي مجه» فهي إشاره إلى أن بنى أميه سيدوقون لمدته عابره نعم الدنيا، إلّا أنّ مثلهم كمثل الذي يضع طعاماً لذيذاً في فمه ويتذوق طعمه إلّا أنّه لا يقوى على إبتلاعه، فسرعان ما سيفقدون لذه الحكومه، والتاريخ أفضل شاهد على ذلك في أنّ حكومتهم التي دامت ثمانين سنه - سوى بعضها - كانت مليئه بالمخاطر والنزاعات والحروب والبلابل والاضطرابات.

ص: ٣٥٦

١-١) «مَجّه» من ماده «مَج» على وزن حج، وفي الاصل تعنى قذف الماء أو اللعاب من الضم بعيداً أو قريباً. ويقال لعصير العنب وما يشابهه «مجاج»، على وزن عُقاب، وأيضاً يقال للعسل «مجاج النحل». وهنا جاء هذا الاصطلاح تعبيراً عن النصر والنجاح والموفقيه التي يحصل عليها الانسان ثم يفقدها بسرعه.

صحيح أن بنى أمية حكموا البلاد الإسلامية ما يقارب الثمانين سنة وقد تسلم زمام الأمور أربعة عشر من آل أبي سفيان (١) وآل مروان، حيث حكم بعضهم لشهر أو بضعة أشهر، وكانت أطولها حكومة هشام بن عبد الملك حيث دامت عشرين سنة، فكان متوسط حكمه أحدهم ستة أشهر، إلا أن حكومتهم كانت ملئى بالتزاعات والخلافات؛ أما الحوادث التي وقعت خلال تلك المدة وأحالت عسل حكومتهم علقما فهي:

(أ) قيام الخوارج ضد بنى أمية

شهدت حكومة بنى أمية عدة نهضات للخوارج وهي:

١ - قامت طائفة من الخوارج يبلغ عددها خمسمئة بزعامه فروه بن نوفل بعد حركة الإمام الحسن عليه السلام من الكوفة إلى الحجاز وورود معاوية الكوفة. (٢)

٢ - قيام عروه بن حدير المعروف بعروه بن أديه ضد معاوية وقتله من قبل زياد.

ص: ٣٥٧

١-١) الأربعة عشر هم: ١ - معاوية ٤٠ - ٦١ هـ ق ٢ - يزيد بن معاوية ٦١ - ٦٤ - معاوية بن يزيد ٦٤ - أربعين يوما أو شهرين
٤ - مروان بن الحكم تسعة أشهر من عام ٦٥ - ٦٥ هـ - عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٦٨ هـ - الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦ هـ - سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ - عمر بن عبد الملك ٩٩ - ١٠١ هـ - يزيد بن عبد الملك ١٠١ - ١٠٥ هـ - هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١١٢ هـ - الوليد بن يزيد ١٢٥ - ١٢٦ هـ - يزيد بن الوليد شهرين وعشره أيام من عام ١٢٦ - ١٣١ هـ - إبراهيم بن الوليد سبعين يوما من عام ١٢٦ هـ - مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار ١٢٦ - ١٣٢ هـ

٢-٢) البدايه والنهايه ٨/٢٤. [١]

٣ - نجده بن عويم الحنفى أحد زعماء الخوارج الذى ثار ضد معاويه واستولى على اليمامة والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر.

٤ - قيام مستورد بن سعد الصميمى على المغيره بن شعبه والى معاويه على الكوفه، فبعث له المغيره بمعقل بن قيس وقد قتل معاً. (١)

٥ - قيام حوثره الأسدى ضد معاويه فجهز له معاويه جيشاً من الكوفه فخطبهم حوثره: يا أعداء الله لقد قاتلتكم بالام من أجل القضاء على حكومه معاويه واليوم من أجل تثبيت دعائهما، وقد قتل حوثره فى هذه المعركه وتفرق أصحابه.

٦ - قيام قريب بن مره الأزدي وزحاف الطائي وهما من مجتهدى البصره ضد زياد. (٢)

٧ - قيام نافع بن الأزرق الحنفى ونجده بن عامر وهما من الخوارج وهجومهما على البصره، وقد قتل فى هذه المعركه أمير البصره ابن عبيس ونافع، وتعرف هذه المعركه بمعركه دولاب وهى من المعارك المشهوره للخوارج.

٨ - عبيد الله بن بشير بن ماحوز اليربوعى الذى تزعم الخوارج بعد قتل نافع وواصل القتال.

٩ - قيام الزبير بن على السليطى بعد أن نزل البصره والتحق به أهالى البصره والاهواز.

١٠ - قيام قطرى بن الفجائه المازنى ضد معاويه بعد قتل الزبير بن على. حيث أراد الخوارج أن يتزعمهم عبيده بن هلال إلا أنه قال أن قطرى بن الفجائه خير منى فبايعوه. (٣)

١١ - عبد ربه الصغير الذى بويع على عهد قطرى والذى قتل فى معركته ضد المهلب. (٤)

١٢ - قيام شبيب بن يزيد الشيبانى فى الموصل والجزيره فقاتله الحجاج (٥)، وقد تمكن من قتل عدد كثير من جيش الحجاج.

(ب) قيام سائر الناس ضد بنى أميه

١ - قيام حجر بن عدى على المغيره بن شعبه والى معاويه على الكوفه، حيث خطب

ص: ٣٥٨

١-١ (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٤/١٣٢ - ١٣٤. [١]

٢-٢ (٢) المصدر السابق/١٣٥. [٢]

٣-٣ (٣) المصدر السابق/١٤٤. [٣]

٤-٤ (٤) المصدر السابق/١٦٧.

٥-٥ (٥) البدايه والنهايه ٩/١٧.

الناس فذم على عليه السلام ومدح معاويه، فقام إليه حجر، ثم قتلوه في مرج عذراء بعد أن منحوه الأمان. (١)

٢ - قيام الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد واستشهاده في محرم الحرام عام ٦١ هـ ق. (٢)

٣ - قيام عبدالله بن الزبير في مكة فخلع يزيد ودعى الناس لبيعته، ثم أخرج والى يزيد من مكة. (٣)

٤ - قيام أهل المدينة بزعامه عبدالله بن حنظله والذي يعرف بواقعه الحره، فورد جيش يزيد بزعامه مسلم بن عقبة المدينة فقتل أهلها. (٤)

٥ - قيام التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي عام ٦٥ في عين الورده تحت شعار يالثرات الحسين. (٥)

٦ - قيام المختار بن أبي عبيد الثقفي بعد سليمان بن صرد الخزاعي، حيث وجه ابراهيم بن مالك بن الحارث لقتال عبيدالله بن زياد، فتمكن ابراهيم من قتله، ثم اقتص المختار من قتله الإمام الحسين عليه السلام. (٦)

٧ - قيام مصعب بن الزبير ضد عبيدالله بن زياد، إلا أنه هزم بعد أن غدر به جمع من أهل العراق. (٧)

٨ - قيام عبدالرحمن بن محمد الأشعث في سيستان، حيث كان والى الحجاج عليها، إلا أن الحجاج غضب عليه وهدده، فخلع الحجاج وقاتله في الأهواز عام ٨٣ هـ ق. (٨)

٩ - قيام آل المهلب على يزيد بن عبدالملك عام ١٠٢ حيث بايع يزيد بن المهلب مائه وعشرين الف، فبعث يزيد بن عبدالملك بأخيه مسلمه بن عبدالملك فنشبت بينهما معركة

ص: ٣٥٩

١-١) البدايه والنهايه ٨/٥٤.

٢-٢) تاريخ يعقوبى ٢/٢٤٥.

٣-٣) تاريخ يعقوبى ٢/٢٤٧.

٤-٤) تتمه المنتهى ٥٨/.

٥-٥) البدايه والنهايه ٨/٢٧٦.

٦-٦) تاريخ يعقوبى ٢/٢٥٩. [١]

٧-٧) البدايه والنهايه ٢/٢٥٩.

٨-٨) تاريخ يعقوبى ٢/٢٧٧.

ضاربه هزم في بدايتها أهل الشام. (١)

١٠ - قيام سليمان بن كثير الخزاعي وصحبه عام ١١١ في خراسان وقد دعوا الناس لبيعه بنى هاشم فاستجاب لهم الكثير. (٢)

١١ - قيام زيد بن علي بن الحسين عليه السلام على هشام بن عبد الملك، حيث استشهد أوائل شهر صفر عام ١٢١، وقد بايعه بادئ الأمر جمع من قراء أهل العراق والاشراف، إلا أنهم انفرجوا عنه حين قاتل عامل العراق يوسف بن عمر الثقفي ثم استشهد زيد، فاستخرجوا جسده بعد الدفن وحزوا رأسه ثم حرقوا جسده. (٣)

١٢ - قيام يحيى بن زيد ضد نصر بن سيار فهزم جيشه وقتل قائده، ثم استشهد مع سائر أصحابه. (٤)

١٣ - قيام الضحاک بن قيس الحروري ضد عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز حيث استولى على واسط والموصل ونصيبين وحران، وفي عام ١٢٧ قتل الضحاک وتفرق أصحابه. (٥)

١٤ - قيام أبو حمزه المختار بن عوف الحروري الأزدي واستيلائه على المدينة، ثم انطلق للشام، فاشتبك مع مروان الحمار ثم عاد إلى المدينة. (٦)

١٥ - قيام ابراهيم بن محمد الإمام وابومسلم الخراساني عام ١٢٩. (٧)

ص: ٣٦٠

١-١) البدايه والنهائيه ٩/٢٤٦. [١]

٢-٢) تاريخ اليعقوبى ٢/٣١٩. [٢]

٣-٣) تتمه المنتهى ١٢٤/ - ١٢٧.

٤-٤) البدايه والنهائيه ١٠/٧.

٥-٥) تاريخ اليعقوبى ٢/٣٣٨. [٣]

٦-٦) تاريخ اليعقوبى ٢/٣٣٩. [٤]

٧-٧) البدايه والنهائيه ١٠/٣٢.

ومن خطبه له عليه السلام

وفيه بيان للأسباب التي تهلك الناس

نظره إلى الخطبه

تتألف هذه الخطبه من قسمين؛ القسم الأول في أنّ العذاب الإلهي لا يأتي بغته، بل إنّ الله ليمهل الجابره والظلمه والأقوام الطاغيه والمفسده، وإنّه لا يعجل في المؤاخذه، عليهم يعودون إلى أنفسهم وينيبون إلى الله. بعباره أخرى فان العذاب الإلهي لا يحمل طابع الانتقام، بل يهدف إلى الاعتبار والتريبه، إلّا أنّ المؤسف هو كثره العبر وقلة الاعتبار فلا من أذن تسمع ولا من عين تبصر الحق ولا قلوب تنزع إلى الهدى. أمّا القسم الثاني فيشير إلى الأقوام المنحرفه التي تلجأ إلى أفكارها الناقصه وآرائها الباطله لحل خلافاتها الدينيه بدلاً من الرجوع إلى الوحي والسنة النبويه المطهره، فتكتفى بظنّها؛ الأمر الذي يقودها إلى الهلاك.

ص: ٣٤١

١-١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه بفارق قليل المرحوم الكليني في كتاب روضه الكافي والشيخ المفيد في الإرشاد، كما نقلها ابن كثير في كتاب النهايه في ١/٤٦ عن كتاب اللغه ماده «أزل» .

«أَمَّا بَعِيدٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمِ يَفْصِمِ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعِيدٌ تَمْهِيلِ رَخَاءٍ، وَلَمْ يَجْزِ عَظْمٌ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعِيدٌ أَزَلٍ وَبَلَاءٍ؛ وَفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَثْبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ حَظَبٍ مُعْتَبَرٍ وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بَلِيْبٍ، وَلَا كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيْعٍ، وَلَا كُلُّ نَاطِرٍ بِبَصِيْرٍ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى أمرين مهمين: الأول أن الله يمهل الطواغيت والجباره بغيه يقطه والعدوه. الثاني لانصر دون صعوبات ومعضلات، فقد قال عليه السلام: «أما بعد فإن الله لم يقصم (1) جباري دهر قط إلا بعد تمهيل رخاء» نعم فالله حكيم وحليم وغفور ورحيم، واستناداً لهذه الصفات الحسنی فإنه لا يعجل بالعقوبه، بل يمهل الاثمين والمدننين عليهم يرغبون ويفيدون على اهداء وصواب ويكفون أن الذنوب يرعون والمعاصي، بل أحياناً يشجعهم فيغرقهم بوابل نعمه وآلائه، كما مر علينا ذلك في تاريخ نبي الله نوح وموسى عليه السلام وكذلك فرعون وقوم بني اسرائيل وقوم سبأ. ثم قال عليه السلام: «و لم يجبر (2) عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل (3) وبلاء» ليقدروا النعم فيجدوا في عدم نفاهاها والحفاظ عليها. ثم قال عليه السلام: «و في

ص: ٣٤٣

١-١) «يقصم» من ماده «قصم» على وزن غضب تعنى فى الأصل الكسر بشده وتستعمل كناية بمعنى الهلاك.

٢-٢) «يجبر» من ماده «جبر» تعنى فى الأصل إصلاح الشئ، وجبر العظم طيبه بعد الكسر حتى يعود صحيحاً، كما تطلق على كل قهر وغلبه ولما كان القهر والغلبه ممزوج بالظلم عاده فقد يستعمل الجبار بمعنى الظالم، وأحد أسماء الله الحسنی جابر العظم الكسير.

٣-٣) «الأزل» بفتح الهمزه وسكون الزاى الضيق والشده ومادتها الأصلية أزل على وزن فضل بمعنى الحبس.

دون ما استقبلتم من عتبٍ (١) وما استدبرتم من خطبٍ معتبرٍ». وكان الإمام عليه السلام أراد أن يطيب خواطر صحبه ويرد على تساؤل قد تقترح في أذهانهم بشأن إنتصارات بنى أميه وانزعاجهم من ذلك، في عدم الاستعجال، فلن يدوم ظلم هؤلاء الظلمه، وهنالكَ وقت معلوم للمهله الإلهيه فاذا جاءت حلّ عليهم العذاب. ولا تمتعضوا ممّا يحلّ بكم من خطوب، فتلك سنه إلهيه فى البلاء والاختبار وتحمل الشدائد ومن ثم الفرج واليسر، حتى فى عهد انبثاق الدعوه الاسلاميه وفى الحروب والمعارك فلم يكتب الله للمسلمين النصر فى موقعه الأحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديداً؛ الأمر الذى صورته القرآن بالقول: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ... هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا» (٢). أمّا قوم بنى إسرائيل فقد خاطبوا نبيهم موسى عليه السلام حين إشتد عليهم الاذى «أو ذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا» فردّ عليهم موسى عليه السلام بالقول: «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» (٣).

ونخلص ممّا سبق ان هذه السنه الإلهيه جاريه على الأّمه الإسلاميه كما جرت على الأمم من قبلها، ولم يستثن من ذلك أصحاب الإمام عليه السلام. نعم كل هذه الأمور دروس وعبر، إلّا أنّها تنفع من كانت له عين باصره وأذن سامعه وقلب واع!

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «و ما كلّ ذى قلبٍ بليّبٍ، ولا كلّ ذى سمعٍ بسميعٍ، ولا كلّ ناظرٍ ببصيرٍ» فتأريخ البشريه مفعم باللدروس العبر، قصر عمرنا هو الآخر - لو تأملنا ذلك بدقه - ملئ بالحوادث المعبره، بل قد ملأت العبر أركان كل شئ فى عالم الوجود، إلّا أنّ المؤسف له أنه ينبغي أن يكون هنالك من يسمع ويبصر ويعى ويعتبر، وما أقل هؤلاء، ومن هنا يواصلون طريق الضلاله ويصابون بما أصاب من قبلهم من مصير أسود وعاقبه مريره.

ص: ٣٦٤

١-١) «عتب» على وزن حتم تعنى الامتعاظ الباطنى اريد به هنا عتب الزمان، وعتب عليه إذا وجد عليه.

٢-٢) سورة الأحزاب / ١٠ - ١١. [١]

٣-٣) سورة الأعراف / ١٢٩. [٢]

يعتقد كل من يؤمن بالله وعدله أنّ أساس هذا العالم قائم على العدل والقسط، وأنّ الظلم والجور طارئ على طبيعه عالم الخليقه، ومن هنا يراود البعض هذا السؤال: إذا كان العدل هو الأساس، فما تفسير تسلّم الجابره لمقاليد الأمور ومنحهم فرصه ممارسه نشاطهم وفعاليتهم؟ وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من القول بأنّ هنالك عدّه دوافع تقف وراء ذلك منها: أولاً: فساد الناس ومثل هذه الحكومات هي عذابهم الدنيوي؛ الأمر الذي نلمسه في وصيه الإمام على عليه السلام لمن ترك النهي عن المنكر: «فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلايستجاب لكم». (١)

ثانياً: قد يتحلّى بعض الجابره ببعض الخصال الحسنه التي تستلزم منحهم تلك المهله التي يتقبلوا فيها في البلاد، فقد جاء في الخبر أنّ موسى عليه السلام قال: إلهي أمهلت فرعون أربعمائه سنه وقد إدعى الربوبيه وكذب نبيك وآياتك! فجاءه الخطاب: إنّّه حسن الخلق وسهل الحجاب، (أى لم تكن هناك من صعوبه لدى الناس في الدخول عليه) واني أحب أن أثيبه على هذه الصفات. (٢)

ثالثاً: ما ورد في الخطبه حيث قال الإمام عليه السلام: «أما بعد فإن الله لم يقصم جباري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء» لعلمهم يفيقون من غفلتهم ويكفون عن ظلمهم وعدوانهم.

رابعاً هو أن بعض الجابره قد أغلقوا جميع أبواب الهدايه بوجوههم، فالله يمهلهم إستدراجاً ليزدادوا ذنوباً وآثاماً فيضاعف عليهم العذاب، بالضبط كالذي يصعد شجره وعاقبه السقوط، فكلما تسلق أكثر كان أذاه ومصابه أشد وأعظم. أما القرآن فقد صرح بهذا الشأن قائلاً: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ». (٣)

وبناءً على ما تقدم فلاينبغي أن يتفر إلينا الشك في مسئله العدل إذا ما رأينا ظالماً وقد تحكّم بمصير أمه، وذلك لاختلاف الأسباب المؤديه إلى ذلك والتي أشرنا إلى جانب منها سابقاً.

[١-١] نهج البلاغه، الرساله ٤٧. [١]

[٢-٢] بحار الأنوار ١٣/١٢٩. [٢]

[٣-٣] سوره آل عمران / ١٧٨. [٣]

«يَا عَجَبًا! وما لى لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها! لا يقتضون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيروا في الشهوات. المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفرغهم في المغضلات إلى أنفسهم، وتغويلهم في المهتمات المبهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات وثقات - وموثقات، وأسباب محكمات» .

الشرح والتفسير

لما كانت العبارات الأخيره من القسم السابق من الخطبه بشأن الدروس والعبر في حياه الناس، فإن الإمام عليه السلام أشار هنا إلى إحدى الموارد المهمه لهذه العبر، ألا- وهو اختلاف الأفراد والأقوام إثر هجرهم للأنبياء والأوصياء والعموم في وادي الحيره والضلال، فقال عليه السلام: «ييا عجباً! وما لى لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها! لا يقتضون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون (1) عن عيب»، فقد بان الشقاق والنفاق في أوساط الأمة الإسلاميه على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام وقد ظهرت مختلف

ص: ٣٦٧

١- ١) «يعفون» من ماده «عفاف» على وزن ثواب، وفي الاصل تأتي بمعنى الامتناع عن الاعمال الشائنه والقييحه، ويقال للشخص الذى يجتنب الاعمال القبيحه «العفيف»، وقد جرى العرف على اطلاق هذا الاصطلاح على الذين يجتنبون القيام بالاعمال الجنسيه الغير شرعيه.

المذاهب في الاصول والفروع، إلى جانب إتساع رقعه البلاد الإسلاميه التي أسهمت في انبثاق مختلف الفرق. فالإمام عليه السلام يضم هذا الاختلاف ويعزا ذلك إلى ثائر الاخباء زلات التي اشير إلى عشر منها في هذا الخطبه، أربع منها وردت في الخطبه: الاولى انهم لا يتبعون تعاليم الوحي التي يبلغهم بها الأنبياء. الثانيه أنهم لم يلتزموا ويقتدوا بالأوصياء من بعد الأنبياء. الثالثه عدم الإيمان بالغيب. أما ما المراد بالإيمان بالغيب فهنا لك خلاف بين مفسرى القرآن وشراح نهج البلاغه. فقد ذهب البعض إلى أن المراد بالغيب الذات الالهيه المقدسه، وقيل القيامه وقيل متشابهات القرآن بينما توسع البعض آخر فذهب إلى أن المقصود بالغيب كافه الأمور الخارجه عن دائره حس الإنسان. وعليه فقد يراد بالغيب جميع ما ذكر، ويبدوا المعنى الأخير هو الأنسب. الرابعه عدم التورع عن العيوب وبعبارة أخرى فإن هؤلاء يرتكبون كل ذنب بسهولة بسبب افتقارهم لملكه الافاف التي تحجز الإنسان عن ذنب، وهكذا كانت مباني إيمانهم ضعيفه وأعمالهم خاويه، ومن الطبيعي أن يؤدي التزلزل في الإيمان إلى الفساد في العمل، كما يؤدي الفساد في العمل إلى زعزعه دعائم الإيمان. ثم قال عليه السلام في الصفه الخامسه العشره: «يعملون في الشبهات، ويسرون في الشهوات» العبارة «في الشهوات» إشاره إلى نقطه لطيفه وهي أن هؤلاء يخفون أعمالهم السيئه تحت غطاء الشبهات حتى لا يطلع الناس على قبائحهم. أنهم قلما يتجهون صوب محكمات القرآن والأحاديث، بل بالعكس إنما يسارعون إلى المتشابهات، وكذلك في الموضوعات الخارجيه التي تعتبر من الموضوعات الواضحه، حيث يتعدون عنها ويقتفون آثار الموضوعات المشتبّهة؛ ولا غرو فليس لهم من سبيل القيام بأعمالهم الشائنه إلّا من هذا السبيل. والعبارة «يسرون في الشهوات» تثير إلى أن محور حياتهم إنما يمر عبر الشهوات، لا أن الشهوات طارئه عليهم، أضف إلى ذلك فإن مقارفتهم لهذه الشهوات دائمه متواصل، ويفهم ذلك من خلال العبارة التي تصدرتها الأفعال بصيغه المضارع «يعملون ويسرون». والجدير بالذكر أن أعمالهم إنعكاس لعقائدهم الفاسده، كما يمكن أن تكون مقارفه الشهوات تدفعهم لأن يتجهوا صوب العقائد التي تبرر أفعالهم. (1) ثم

خاض

ص: ٣٦٨

(١ - ١) راجع ذيل الخطبه ٣٨ في المجلد الثاني من هذا الشرح بخصوص الشبهه ومعناها وتأثيرها في تحريف الحقائق. (٢/٤٠٥)

الإمام عليه السلام فى إطار مواصلته لحديثه عن سائر صفات هؤلاء المضلين - الذين قد يكونون أحياناً من العلماء المزيفين - فقال عليه السلام: «المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا». نعم لما قطع هؤلاء رابطتهم بالله والنبي لم يعد الوحي السماوى والسنة النبويه وكلمات المعصومين هى المعيار فى تمييز الصالح من الطالح والحسن من القبيح، بل المعيار هوى النفس والرغبات الباطنيه، أو الافكار الفثويه والتعصبات القبلية والأمر التي تؤمن مصالحهم الماديه، ولو كانوا حقاً من أهل الفكر فأنهم سيقعون فى وادى الضلال أيضاً لعدم إنفتاحهم على تعاليم السماء وإرشادات الأنبياء والمعصومين، ففكر الإنسان عرضه للخطأ والانحراف. ثم قال عليه السلام فى صفتهم التاسعه والعاشره: «مفزعهم فى المعضلات إلى أنفسهم، وتحويلهم فى المهمات على آرائهم» فاساس يؤسهم وشقائهم إنما ينبع من هذه القضيه، وهى أنهم هجروا أولاً تبعيه الوحي وسنه النبي وتعاليم المعصومين، وعليه فكلما تقدموا أكثر إزداد انحرافهم وابتعادهم عن الحق. ومن هنا صرح الإمام عليه السلام كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات وأسباب محكمات، والحال لا ينطوون سوى على أفكار هزليه وتصورات واهيه «وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (١). نعم هذا هو المصير المحتوم الذى ينتظر الأفراد الذين يولون ظهورهم للمعايير الدينيه الصحيحه فى حل خلافاتهم الفكرية والعقائديه وتمييز الحق من الباطل والصراط المستقيم من الطريق السقيم ويعولون على أفكارهم القاصره وآرائهم الباطله، ولذلك وقعوا فى أوديه الشرك والوثنيه المقيته حتى جعلوا لله جسماً ويداً ورجلاً وشعراً مجعداً، بينما خالفهم البعض الآخر تماماً حتى عطل صفاته سبحانه وهبطوا بالفكر إلى الحضيض فى أنه لا يستطيع إدراك صفاته والتطرق إلى ذاته، فذلك التجسيم الأبله وهذا التعطيل الأحمق هو الوليد الطبيعى للاستناد إلى الآراء الناقصه وهجر تعاليم أئمه الدين، فكان منهم الخوارج الذين يحسبون أنهم عابدون وقد سلكوا سبيل النجاه، بينما أنكروا أبسط بديهات الإسلام وشرعه المقدس فى ضروره الحكومه وحاجه الامه الماسه إليها.

ص: ٣٤٩

استفاضت الأحاديث التي تؤكد على أنّ الهوى يصد الإنسان عن الحق؛ الأمر الذي أشارت إليه بصوره جامعه هذه الخطبه، فهؤلاء الذين عجت حياتهم بالشهوات لا يرون معروف الله معروفاً ولا منكره منكراً، فهم لا يستندون إلى أدله العقل، والمعروف ما انسجم وميولهم النفسانيه، وما خالفها فهو المنكر. وإذا ما صادفتهم بعض المسائل المعظله إنّما يلوذون بأفكارهم المنحطه بدلاً من الاستعانه بالعقل والفكر، وأبعد من ذلك الآيات القرآنيه وتعاليم الأئمه ليحلوا مشاكلهم. والعجيب أن هؤلاء الأفراد لا يقبل أحدهم الآخر، بل كل يرى أنه إمام نفسه وأنه مرجعها وملاذها. ومن الطبيعي أنّ لا يقود هذا السلوك سوى إلى الحيره والضلال والسقوط، والاسوأ من كل ذلك يرون أنفسهم مهتدين؛ الأمر الذي صورته القرآن الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (١).

ص: ٣٧٠

ومن خطبه له عليه السلام

فى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وبلاغ الإمام عنه

نظره إلى الخطبه

تحدث الخطبه عن ثلاثه أمور مرتبطه مع بعضها؛ الأول تصوير جامع ورائع عن أوضاع العرب فى الجاهليه تزامنا مع بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله يفيد أنهم كانوا فى أسوأ حاله من الناحيه الماديه والمعنويه؛ حاله التى لا يمكن معها وصفهم بالحياه، بل تشير الخطبه إلى الاوضاع الوخيمه والظلام الدامس الذى كان سائداً حتى خارج الجزيره العربيه. ثم حذر صحبه ومن عاصره من الظن بانقطاع عصر الجاهليه، بل عليهم الاعتبار بحياتهم والحيطه والحذر من العوده إلى الجاهليه. أخيراً صرح بهذه الحقيقه وهى مقارعه الجاهليه وأفكارها المنحرفه، وبينت لكم ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله فى زمانه، حتى أتممت الحججه عليكم. ثم حذرهم عليه السلام من الغرور والغفله والتحلّى باليقظه تجاه الأحداث والمخاطر التى تنتظرهم.

ص: ٣٧١

١-١) سند الخطبه: ورود هذه الخطبه أو بعضها فى كلمات جمع من العلماء ممن عاشوا قبل [١] السيد الرضى (ره)، فقد جاءت فى تفسير على بن إبراهيم [٢] الذى عاش لقرن قبل السيد الرضى، ورواها الكلينى فى أصول الكافى (١/٦٠)، وقد ذكر ابن أبى الحديد فى شرحه اختلاف الروايات فى بعض ألفاظ الخطبه مما يدل على أنها نقلت فى مصادر أخرى غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/١٣٨).

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعِهِ مِنَ الْأُمَمِ، وَاعْتِزَامِ مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارِ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَلَطُّ تَلَطِّي مِنَ الْحُرُوبِ، وَالِدُنْيَا كَاسِفَةِ النُّورِ، ظَاهِرُهُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اضْتِغْرَابِ مِنَ وَرَقِهَا، وَإِيَّاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، اغْوَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَّجِهَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْحَيْفَةُ، شِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِنَارُهَا السَّيْفُ» .

الشرح والتفسير

إن الهدف الغائي للإمام عليه السلام من هذه الخطبه هو إيقاظ الناس من سبات الغفله والغرور، فقد إصطحبهم إلى عصر الجاهليه واستعرض لهم التاريخ، كيف كان الناس، والنقله النوعيه الكبرى التي أحدثتها نهضة النبي صلى الله عليه وآله، ثم حذر من عوده أوضاع الجاهليه، مؤكداً أنه وعلى غرار النبي صلى الله عليه وآله تار من أجل إجتناب جذور الجاهليه بما تنطوى عليه من أفكار وأوهام، ليعودوا إلى أنفسهم قبل فوات الآوان. فقد رسم صوره واضحه للجاهليه بعبارات قصيره عظيمه المعنى فى خمس عشره. جمله بما يعجز الآخرون عن رسم مثل هذه الصوره. فقال عليه السلام «أرسله على حين فتره (1) من الرسل»، وقيل إن هذه الفتره قد استغرقت خمسمائه سنه وقيل ستمئه سنه لم يبعث فيها نبي (2) (وان كان أوصياؤهم بين الناس). ولذلك ساد الناس سبات

ص: ٣٧٣

١ - ١) «فتره» تعنى فى الأصل الهدوء والسكنيه، كما تعنى الضعف، كما تطلق على الزمان بين حركتين أو حدثين، ومن هنا يصطلح بالفتره على الزمان الفاصل بين ظهور الأنبياء.

٢ - ٢) ذكر البعض أن الفتره بين ولاده السيد المسيح عليه السلام هجره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله استغرقت ٦٢١ سنه و١٩٥ يوماً (تفسير ابو الفتوح الرازى ٤/١٥٤، هوامش المرحوم العلامة العشرانى) كما قيل أن النبي صلى الله عليه وآله ولد عام ٥٧٠ م وبعث عام ٦١٠ م (بينات خالده ١/١٢١) .

قاتل، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في العبارة الثانية «و طول هجعه (١) من الأمم» ، ولعل هذه الفتره تستبطن امتحان الله للعباد وللوقوف على قدر الأنبياء ونعمته عليهم. مع ذلك فقد كان هناك أثر مباشر لهذه الفتره في تفعيل حركه شياطين الجن والانس؛ وذلك أن الميدان قد خلائهم فشددوا من حملاتهم على الأمم والشعوب فجرعوها أنواع الانحرافات والأضاليل ثم قال عليه السلام في العبارة الثالثه: «و اعتزام (٢) من الفتن» فقد شبه الإمام عليه السلام الفتن بالإنسان الشرير أو الحيوان الضارى الذى يهجم على الإنسان الأيمن دون مبرر؛ وهذا ما كانت عليه الإمام في فتره الرسل. ثم قال عليه السلام في العبارة الرابعه: «و انتشار من الأمور» يمكن أن يكون المراد بهذه العبارة تشتت فعاليات الجماعه البشريه وانشطتها، وعبارة أخرى ظهور الفوضى والهرج والمرج والاضطراب والتششت في المجتمعات والذى يعد من الفتن والقلاقل. ثم قال عليه السلام: «و تلتظ (٣) من الحروب» ياله من تشبيه رائع، حيث شبه الحرب بلهيب الانار المحرقه التى تأتى على الأخضر واليابس فتحيله رماداً. كما شبه امتداد الحروب بالسنة النيران. ولو رجعنا قليلا إلى الورا لرأينا العالم يرمته ولا سيما جزيره العرب أنه كان مسرحاً للحروب الداميه فقد كانت الحرب قائمه على قدم وساق بين القبائل العربيه ولأتفه الأسباب، إلى جانب معارك الروم وايران، فكانت تسيل أوديه من الدماء. وقال عليه السلام: «والدنيا كاسفه (٤) النور، ظاهره الغرور» فالواقع أن نور البشريه ليس إلأنور الوحي ووجود الانبياء، فاذا كانت هناك ظلمه مطلقه تلقى بعتمتها على كل شئ فتستفحل أمراض الخدع والمكر، وتتسع رقعته المذاهب الزائفه ويتلبس الدجالون لباس المسوح والاصلاح فيجدوا في إستغلال الخلق من أجل تحقيق منافعهم الماديه. ثم شبه الإمام عليه السلام الناس فى الجاهليه بمزرعه قد ذبلت جميع أشجارها

ص: ٣٧٤

-
- ١- ١) «هجعه» من ماده «هجو» نوم الليل شبه به وضع الأقسام الجاهليه بالنسبه للهدايه لعمقه.
 - ٢- ٢) «اعتزام» من ماده «عزم» العزم والقرار وهو هنا فاعل فتنه.
 - ٣- ٣) «تلتظ» من ماده «لظى» بمعنى لهب النار، و «تلتظى» بمعنى النار المشتعله.
 - ٤- ٤) «كاسفه» من ماده «كسوف» ومنه الكسوف والخسوف الذى تتعرض له الشمس والقمر) وهى هنا كناية عن إنطفاء أنوار الهدايه فى العصر الجاهلى.

واصفرت أوراقها (فهى فى حال التساقط) وقد يأس المزارع من ثمرها بعد أن غار ماؤها وجفت عروقها: «على حين اصفرارٍ من ورقها، وإياسٍ (١) من ثمرها، واغورارٍ (٢) من مائها» وذلك لأنّ مزرعه المجتمع البشرى إنّما تتزين بورود الأخلاق والفضائل، وثمارها العدالة والمروءة والمحبة، أمّا ماؤها فيكمن فى الإيمان والورع والتقوى؛ المعانى التى كانت مغيبه تماماً فى العصر الجاهلى. حتى من الناحية المادية فقد شلت الزراعة والتجاره بسبب الحروب وعدم شياع الأمن والاستقرار فكان الفقر قد ساء العالم الجاهلى بالشكل الذى كان يدفعهم إلى قتل أولادهم، وهذا ما أشار إليه القرآن بالقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ» (٣) بغض النظر عن وأدهم البنات خشية الفضيحة والعار. ثم قال عليه السلام فى الصفه التاسعه والعاشره: «قد درست (٤) منار الهدى، وظهرت أعلام الردى» فالمنار موضع النور، حيث كانوا يشعلون فى السابق سراجاً على مرتفع حين الليل فيكون علامه للقرى المدن يشاهدها القاصى والدانى فلا يضل الطريق. فاذا تآلكت هذه المرتفعات وتهدمت لم يعد هناك من سراج فوقها، فالعباره كناية رائعه إلى سراج الكتب السماويه وتعاليم الأنبياء التى تمثل نور الهدايه للجماعه الإنسانيه، وقد انطفئ هذا النور فى العصر الجاهلى اثر غلبه الاهواء، فكان من الطبيعى إذا اطفئ النور أن يعم الظلام الدامس بكل معانى الحيره والظلال والكفر والنفاق وقال عليه السلام فى الصفه الحاديه عشره: «فهى متجهمة (٥) لأهلها، عابسه (٦) فى وجه طالبيها» فالعباره كناية عن شدة العنف والنزاعات وصعوبه المعيش وتعميد الحياه؛ كيف لا والحياه الوادعه الامنه لا تتحقق الا فى ظل العدالة الاجتماعيه والاخاء والمحبه والموده التى لم يكن لها من أثر فى العصر الجاهلى. ثم قال عليه السلام: «ثمرها الفتنه، وطعامها الجيفه (٧)». حقاً ليست هنا لك من ثمره لذلك الوسط بتلك

ص: ٣٧٥

١-١ «إياس» على وزن قياس عدم الأصل.

٢-٢ «اغورار» من ماده «غور» الغوص فى الأرض، وعاده ما يطلق على الماء داخل الأرض وهو هنا كناية عن انقطاع الهدايه.

٣-٣ سورة الاسراء / ٣١. [١]

٤-٤ «درست» من ماده «دروس» زوال الاثار وانعدامها.

٥-٥ «متجهمة» من ماده «جهم» على وزن فهم العنف والغلظه، ويقال متجهم لمن يستقبل الآخرين وينظر إليهم بوجه كريبه.

٦-٦ «عابسه» من ماده «عبوس» على وزن مجوس كناية عن الاسى الشديد للناس فى العصر الجاهلى.

٧-٧ «جيفه» من ماده «جوف»، وتطلق عاده على الميت الذى يفسد جوفه فتهب منه ريح نتنه.

الصفات سوى الفتن وليس له من طعام سوى الميتة؛ والمفردة جيفه قد تكون إشاره إلى الوضع الذي كان عليه الناس في عصر الجاهليه حيث كانت العرب تأكل الميتة من شدة الاضطرار فالميتة متعفنه وتدعو إلى الاشمئزاز والنفره، وقطعا فإن الحياه فى مثل هذه البيئه إنّما تتسم بالتعفن والاشمئزاز، كما كان دخلهم عن طريق شن الغارات ولسراقات وما شابه ذلك من الأمور التي يمجها العقل السليم؛ أمّا الدليل على أكل أهل الجاهليه للميتة هو الآيه القرآنيه التي نهت عن ذلك: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ. . .» (١) وبالطبع فإنّ المراد بالثمره والطعام فى العبارة الجانب الكنائى. فطعام الإنسان عاده أمّا أن يكون من الثمار أو اللحوم، ولم يكن نصيب الناس فى الجاهليه سوى الفتنة والأفكار المتعفنه التي تدعو إلى الاشمئزاز والتقزز؛ ثمراتهم ونعمهم الماديه والمعنويه كانت معجونه بالتعفن والفساد والعار. ثم قال عليه السلام: «وشعارها الخوف، ودثارها السيف» فباللتفات إلى أنّ الشعار يعنى الثوب الذى يلى البدن والدثار الثوب الداخلى يتبين أنّ العبارة كناية راعه ولطيفه مصعمه بالفصاحه والبلاغه لتصوير ظروف ذلك الزمان وسياده الخوف والسيف من الداخلى والخارج، فكل يخشى الآخر، وكل قبيله تتوقع أن تحمل عليها أخرى فتقتل رجالها وتسبى نساءها وتنهب أموالها. فكانت السيوف مشهوره على الدوام بسبب ذلك الخوف والخشيه، ولعمري أنّ هذه العبارة قد أشارت إلى كافه أنواع البؤس والشقاء السائده آنذاك. ومن الطبيعى أن يسود الخوف والرعب أوساط المجتمع الذى تغيب فيه أنوار الهدى وتشع فيه اعلام الضلال والردى ويتعد فيه الافرد عن تعاليم السماء وإرشادات الأنبياء. أمّا الصوره التي رسمها أمير المؤمنين عليه السلام بهذه العبارة التي تعرض إلى خصائص العصر الجاهلى فإنّها لا تقتصر على شبه الجزير العرييه فحسب، بل تشمل كافه مناطق العالم آنذاك وإن بلغت ذروتها بين قبائل العرب. والحق لا يسع خطيب ولا كاتب مهما كانت قدرته على البيان أن يصور فجائع ذلك الزمان وانحرافاتة كما صورها الإمام عليه السلام بهذه العبارات المعجزه وهذا ما سنتعرض إليه فى الحث القادم والمؤسف أن هذه الخصائص إنّما تشاهد اليوم بوضوح فى عصرنا الراهن الذى تحكمه الجاهليات المعاصره.

ص: ٣٧٦

ومن هنا نقف على عظم جهود النبي صلى الله عليه وآله في إخراج تلك الجماعه الممزقه الميته من الظلمات إلى النور وتبديل خوفها أمنا و فقرها غنى ونزاعها و قتالها إلى إخوه و صلح و سلام، كما جعلهم أمه متحضره متمدنه حتى إنتشر الإسلام و رفعت رايته خفاقه في أغلب ربوع المعموره، وقد استسلمت الملوك و السلاطين و الجبابره و الطغاه لجيوش المسلمين الفاتحه التي حملت مشاعل الهدايه و الخير و الصلاح. كما نهض المجتمع الإسلامي نهضات عظيمه ليشهد ذلك التطور و الأزدهار في كافه المجالات العلميه و الاجتماعيه و الاقتصاديه. وحقاً إن هذا لمن معجزات الدين الإسلامي الخالد و لجهود المضنيه التي بذلها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؛ و لا- غرو فإن كافه الحسابات الماديه تشير إلى إن إنقاذ تلك الأمه مما كانت عليه و الأخذ بيدها إلى حيث العزه و الرفعه و السمو و الكمال لا يمكن تحقيقه في ظل المعادلات الطبيعيه و الحسابات الماديه! و كما أوردنا سالفاً فإن هدف الإمام عليه السلام يكمن في تحذير الأمه من مغبه العوده إلى الجاهليه المقيته بثيابها الجديده و إن الإمام عليه السلام سيقف بوجهها كما وقف بوجهها رسول الله صلى الله عليه وآله و اخمدها بجهاده.

الجاهليه المعاصره

لقد وقفنا على الصوره الرائعه التي رسمها الإمام عليه السلام للعصر الجاهلى بتلك العبارات المشحوتة بالفصاحه و البلاغه. و بالطبع فقد أشرنا إلى جانب من مميزات ذلك العصر في الخطبه الثانيه من المجلد الأول و الخطبه السادسه و العشرين من المجلد الثاني. غير أنه لا-يمكن الوقوف على عظمه جهود النبي صلى الله عليه وآله في هدايه تلك الأقوام ما لم يتامل الإنسان بعض تفاصيل حياه العرب في العصر الجاهلى من حيث الحروب و السلام و التقاليد و الأعراف و الخرافات و الأباطيل التي كانت تنظم شؤون حياتهم. و المهم هنا هو أن هذه الجاهليه إنما ترتدى اليوم حله جديده في مجتمعاتنا المعاصره بينما تشترك في مميزاتا و خصائصها و الجاهليه الاولى. فقد كانت القيم الحقه مغيبه في العصر الجاهلى، و دماء الأبرياء العزل تسفك بسهولة، و يدنه غارات الأموال و الثروات و نهبها، و لا-يفرق هذا مع الجاهليه المعاصره التي لا-تفكر سوى في الحصول على الأموال و بارخص الأساليب، أدناها بيع أسلحه الدمار الشامل و التجاره

بالمحدرات وشن الحروب من أجل الاستيلاء على مصادر الطاقه. وان شهد العصر الجاهلى وأد بعض البنات، فالقانون اليوم يبرر للناس حاله الإسقاط والإجهاض، كما شنت الحرب العالميه التي أودت بحياه الالاف المؤلفه من البنين والبنات، فقد ذكر أنّ عدد قتلى الحرب العالميه الاولى والثانيه ليفوق بكثير كافه ضحايا الحروب التي شهدتها البشريه طيله التاريخ، بل كان قتلى مدينتين فى اليابان من جراء قنبلتين نوويتين أكثر من كافه قتلى العصر الجاهلى! وإن كانت بعض النساء من ذوات الأعلام فى الجاهليه، فبعض النسوة اليوم تجاوزت تلك الأعلام لتعلن عن فجورها وفسادها فى أغلب صحف العالم وتنظم لنفسها بعض الاعلانات داعيه الآخرين إليها؛ الأمر الذى دفع بالدول والحكومات إلى فرض بعض الضرائب عليهن، وهذا ما أدى بالتالى إلى توفير الدعم القانونى لهن. بيع البنين والبنات ما زال متواصلاً حيث يقدم الأوربيون والأمريكان على شراء الصبيه من المناطق المعدمه ويبيعونهم إلى الغرب؛ وهذا ما ينشر فى الصحف والمجلات. أمّا الأخلاق فحدث ولا حرج فقد محتها أمواج الفساد والبغى والدعاره، ولو إستعرضنا بعض الجرائم والانحرافات لأدركنا أنّ الجاهليه المعاصره أرهب وأرعب بكثير من تلك الجاهليه. ولعل الآيه ٣٣ من سوره الأحزاب ناظره إلى الجاهليه المعاصره حين خاطبت نساء النبى صلى الله عليه و آله بالقول: «وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى» .

فالتعبير بالجاهليه الاولى يفيد أنّ هناك جاهليه أخرى.

«فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُزْتَهِنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا بِهِمُ الْعُهُودُ، وَلَا خَلَّتْ فِيهَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ وَالْقُرُونُ الدَّهُورُ، وَمَا أَنْتُمْ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمِ كُنْتُمْ فِي أَضْيَالِهِمْ بَعِيدٍ. وَاللَّهُ مَا أَسْمَعَكُمْ الرَّسُولُ شَيْئًا إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا مُسْمِعِكُمُوهُ، وَمَا أَسْمَعُكُمْ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالْأَمْسِ، وَلَا شَقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ، وَلَا جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ الْأَوَانِ. وَاللَّهُ مَا بَصُرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئًا جَهْلُوهُ وَلَا أَضْيَفْتُمْ بِهِ وَحَرَمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمْ الْبَلِيَّةُ جَانِبًا خَطَامُهَا، رِخْوًا بَطَانُهَا فَلَا يَغْرَنُكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام الناس في زمانه محذّره من إمكانيه تكرار أوضاع الجاهليه فتعمكم ما كانت عليه من الفساد والانحراف فعليكم باليقظه والحذر: «فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مَرْت هُنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ» . تيك التي تعنى تلك إشاره شامله إلى كاهه ذنوب وآثام أقوام الجاهليه، وأنّ الله سيحاسبهم عليها، ولم يذكر هنا المشار إليه حيث بين في القسم السابق، وعليه لم تعد هناك من حاجه إلى التكرار. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد باسم الإشاره الدنيا والحياه الدنيويه أو الامانه الإلهيه

التي أشارت إليها الآيه القرآنيه: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ . . .» (١) إلّا أنّ هذا التفسير لا يبدو مستقيماً بالالتفات إلى صدر الخطبه وذيلها. ثم قال عليه السلام: «و لعمري ما تقادمت بكم ولا بهم العهود، ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب (٢) والقرون، وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلاهم ببعيدٍ . بناءً على التفسير المذكور فإنّ العهود هي المواثيق، والعبارة إشاره لما ورد في القرآن الكريم «قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (٣) أمّا البعض من الشراح فقد ذهب إلى أنّ المراد بالعهد هنا العصور وعلى هذا الضوء سيكون المفهوم واحداً مع العبارة القادمه: «و لا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون» ، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مكانته آنذاك والتي تصاف مكانه النبي صلى الله عليه و آله ازاء فجائع زمان الجاهليه فقال: «والله ما أسمعكم (٤) الرسول شيئاً إلّاوها أنا ذا مسمعكموه، وما أسمعكم اليوم بدون أسمعكم بالأمس، ولا شقت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفئده في ذلك الزمان، إلّا وقد أعطيتم مثلها في هذا الزمان» وعليه فانكم تشبهونهم في كل شيء، والحال إنكم تلون رؤوسكم عن الحق الذي كانوا عليه. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار ضمناً إلى حقيقه مريره في عصره - بسبب سوء تدبير سابق الخلفاء والانغماس في الثروات التي ملأت الجزيره العربيه من خلال الفتوحات الإسلاميه التي جرت عليهم هذه الغنائم - وهي بدايه جاهليه أخرى قد أصيب بها الناس. فقد ظهرت الأصنام بصور أخرى، بحيث أصبح الدينار والدرهم صنماً، كما أصبح المنصب والمقام صنماً. فقد أوضح الإمام عليه السلام أنّ رسالته في هذا العصر والزمان هي ذات رساله رسول الله صلى الله عليه و آله، فهو يبين كل ما بينه النبي صلى الله عليه و آله، ثم قال عليه السلام أنّ أسمعكم

ص: ٣٨٠

١- ١) سورة الاحزاب / ٧٢. [١]

٢- ٢) «أحقاب» جمع «حقب» على وزن عنق قيل ثمانون سنه وقيل أكثر وقيل هو الدهر.

٣- ٣) سورة البقره / ٨٠. [٢]

٤- ٤) من الواضح أنّ الضمائر هنا لا ينبغي أن تكون بصيغه المخاطب (كم) بل لابد أن تكون بصيغه الغائب (هم) لأنّها إشاره إلى من عاش في عصر النبي صلى الله عليه و آله. ويبدو أنّ الاشتباه من النسخ، ولذلك قبله الشراح بهذا الشكل.

وابصاركم وأفئدتكم ليست باقل من أسمع وأبصار وأفئده الناس فى عصر الجاهليه الذى نهض فيه رسول الله صلى الله عليه و آله وصدق بالأمر، فلديكم ذات الحس والشعور والإدراك (بل إنكم لتفوقونهم فى ذلك فقد انبثقت الدعوه وانتشرت، فكيف لا تكفون عن سوء الأعمال، ولم ترعون عن الضلال وتعودن إلى الهدى، ولم لا تفيقون من نوم الغفله». ثم حذرهم الإمام قائلاً: «و لقد نزلت بكم البليّه جائلاً (١) خطامها، (٢) رخواً بطانها (٣)» ذهب أغلب الشراح إلى أنّ المراد بهذه البليّه فتنه بنى أميه التى أحرقت الاخضر واليابس وطالت أموال الناس وأعراضهم. والجدير بالذكر هو أنّ الإمام عليه السلام قد شبه هذا البلاء الكاسر بالناقه الجامحه التى إسترخى لجامها فهى تنذر بسقوط راكبها. وعليه فالراكب لا يتمكن من حفظ نفسه فضلاً عن السيطرة على الناقه وصدّها عن الجموح. نعم هكذا كان بلاء بنى أميه حيث لم يسلم أحد منهم.

وأخيراً إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً: «فلا يغترّكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنّما هو ظلّ ممدودٌ إلى أجلٍ معدودٍ» .

ص: ٣٨١

١-١ «جائل» من ماده «جولان»، وفى الاصل بمعنى زوال الشىء من مكانه، لذا يقال للحيوان الذى يتحرر من مكانه الموجود فيه بحيث يستطيع أن يذهب إلى أى مكان، يقال له «جائل» .

٢-٢ «خطام» ما جعل فى أنف البعير لينقاد به وجولان الخطام، حركته وعدم إستقراره، لأنّه غير مشدود.

٣-٣ «بطان» البعير حزام يجعل تحت بطنه، ومتى استرخى كان الراكب على خطر السقوط.

ومن خطبه له عليه السلام

وتشتمل على قدم الخالق وعظم مخلوقاته، ويختمها بالوعظ

نظره إلى الخطبه

تتالف الخطبه من أربعة أقسام:

القسم الأول: الحديث عن إحاطه الله بالعباد وعلمه بخفايا الإنسان.

القسم الثاني: ازليه الحق سبحانه وشرحها بعبارات رائعه واضحه.

القسم الثالث: تهديد أعداء الله بالعذاب الاليم وبشاره أولياء الله بجزيل الأجر والثواب.

القسم الرابع: وعظ عباد الله والنصح لهم، وكأن الاقسام الثلاث كانت مقدمه لهذا الوعظ المؤثر فى الإنسان.

ص: ٣٨٣

١ - ١) سند الخطبه: جاء فى مصادر نهج البلاغه أنه رواها على بن محمد الواسطى فى عيون الحكم والمواعظ، وورد ذيلها فى غررالحكم مما يدل عد انها نقلت من مصدر آخر غير نهج البلاغه، ونقلها ابن أثير فى النهايه (مصادر نهج البلاغه ٢/١٤١).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيِهِ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيِهِ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِمًا قَادِمًا: إِذْ لَا سَمَاءَ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَلَا حُجُبَ ذَاتُ
إِزْتِاجٍ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ، وَلَا بَحْرٌ سَاجٍ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ، وَلَا فَجٌّ ذُو اغْوِجَاجٍ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ، وَلَا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ: ذَلِكَ
مُتَبَدِّعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ، وَإِلَهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ: يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرَّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ» .

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى ثلاث من صفات الله فقال: «الحمد لله المعروف من غير رؤيته» نعم فهو ليس بجسم ولا يحده زمان أو مكان يرى بالعين؛ فالجسميه دليل النقص والحاجه إلى الزمان والمكان، بينما الله منزه عن هذا النقص والحاجه فهو كمال مطلق، مع ذلك فقد ملأت آثاره الآفاق بما يدل على وجود ذاته المقدسه، بما فيها الآيات الآفاقية والنفسيه. فالرؤيه محاله عليه، إلا أنه أوضح الواضحات، فكافه ذرات العالم تسبحه وتقدهه وتشهد له بالوجود. وقال عليه السلام في الصفه الثانيه: «و الخالق من غير رؤيته» (1) فأنما يحتاج إلى الفكر من كان هناك أشياء مجهوله لديه، أما من لم يكن له من شئ مجهول فالفكر محال عليه. كما يحتمل أن يكون المراد يقوله «غير رؤيته» بأن سابقه لم تكن لهذا الخلق الذي خلقه الله، خلافاً لخلاقيه الإنسان التي تحتذى بالتجارب. ثم قال في الصفه الثالثه: «العدى لم يزل قائماً دائماً» فالأزليه والأبديه من مختصات الذات المقدسه التي تعد من لوازم تلك الذات المطلقه

ص: ٣٨٥

١-١) «رويه» من ماده «رى» على وزن حى الفكر وإمعان النظر إذا وردت من باب التفعيل، ولما كان الإنسان يأخذ بنظر الاعتبار سوابق كل الأشياء والأعمال حين التفكير فإن هذه المفرده تطلق كناية على الأمور التي لاسابقه لها.

اللامحدوده. فلو كانت هناك من بدايه لشيء كانت له نهايه فهو محدود قطعاً. أما الذات اللامحدوده واللامتناهيه فهي لا تعرف البدايه ولا النهايه. فهو الوجود الذى كان وكائن إلى الأبد. ثم وضح عليه السلام أزلتيه سبحانه بالقول: «إذ لا سماء ذات أبراج، ولا حجب ذات إرتاج، (١) ولا ليلٌ داج، (٢) ولا بحرٌ ساج، (٣) ولا جبلٌ ذو فجاج، (٤) ولا فجاجٌ ذو اعوجاج، ولا أرضٌ ذات مهادٍ، ولا- خلقٌ ذو اعتمادٍ» يمكن أن تكون العبارة «حجب ذات ارتاج» اشاره إلى ما صرحت به الروايات والأخبار من حجب النور تحت العرش التى لا يسع مخلوق الاقتراب منها، فشدته نورها التى تخيف الأبصار وتحول دون اجتيازها هى بعض مخلوقات الله التى يحتمل أنها وجدت بعد خلق العرش وقد فصلت العرش عن السموات. فقد جاء فى الخبر عن الإمام الكاظم عليه السلام فى فلسفه التكبيرات السبع فى بدايه الصلاه أنه قال: «يا هشام إن الله خلق السماوات سبعا والأرضين سبعا والحجب سبعا. . .» (٥) ثم ورد فى ذيل الحديث أن هذه الحجب كانت تطرح الواحد بعد الآخر أمام رسول الله صلى الله عليه وآله حين المعراج، فكان يكبر الله عند رفع كل حجاب وهذه هى فلسفه التكبيرات السبع (فالمصلى حين يقف بين يدي ربه للصلاه التى تعتبر معراج المؤمن يكبر سبعاً من أجل رفع تلك الحجب عنه. كما تفيد المناجاة الشعبانيه أن هذه الحجب النورانيه قد رفعت عن بعض أولياء الله «إلهى هب لى كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمه. . .» وبالطبع ليس لدينا من إطلاع عن ماهيه هذه الحجب، أما الذى يستفاد من عبارات المناجاة الشعبانيه أن تلك الحجب تشير إلى سلسله من المفاهيم الوراء الطبيعه. وقد تعرض المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار بعد الإشاره إلى موضوع الحجب النوريه الوارده فى الروايات إلى بيان وتفسير الحجب فى أبعادها الجسمانيه والروحانيه أو الماديه والمعنويه.

(٦) العبارة: «و لا ليلٌ داج، ولا بحرٌ ساج» فى الوقت الذى تشير فيه إلى أزلته الله

ص: ٣٨٤

- ١- (١) «ارتاج» مصدر باب إفعال من ماده «رتج» على وزن خرج بمعنى الاغلاق وإذا جاء من باب الأفعال عنى الغلق المحكم.
- ٢- (٢) «داج» اسم فاعل من ماده «دجو» على وزن هجو بمعنى المظلم.
- ٣- (٣) «ساج» اسم فاعل من ماده «سجو» الساكن.
- ٤- (٤) «فجاج» جمع «فجع» الطريق الواسع بين جبلين.
- ٥- (٥) وسائل الشيعه ٤/٧٢٣ ح ٧ من الباب السابع، أبواب تكبيره الإحرام. [١]
- ٦- (٦) راجع بحار الأنوار ٥٥/٤٦.

ووجوده المقدس قبل الخلق العالم، فهي تلمح إلى نعمه سبحانه على الخلق، وذلك لأنّ ظلمه الليل وسكون البحر من نعمه سبحانه، فالأولى تدعو إلى النوم والراحة التي تلعب دوراً بالغاً في بناء البدن والروح، والثانية في الملاحة والصيد واستخراج ما في أعماق البحر من لؤلؤ ومرجان. والعبارة: «جبل ذوفجاج» أي أنّ الجبال لو كانت كالجدران متصله لانفصلت بقاع الأرض عن بعضها واختلت الحركة عليها، بينما إقتضت حكمه الله فصلها لتيسير الحركة والمشى. «فج ذو اعوجاج» يمكن أن يكون المراد بها لولا-انعطاف واعوجاج الأودية لأت السيول بحركتها السريعه فجرفت كل شئ، حيث حال ذلك الاعوجاج دون طغيان السيول وسيطر عليها. «أرض ذات مهاد» إشاره إلى الأراضي الواسعه الساكنه. «خلق ذواعتماد» إشاره إلى القدره الروحيه والجسميه التي منحها الله للإنسان. ثم قال عليه السلام: «ذلك مبتدع الخلق ووارثه»، فكل شئ زائل ولا يبقى سواه «وإله الخلق ورازقه»، وكيف لا يكون إله الخلق ومعبودهم وهو بهذه الصفات والكمالات. أضف إلى ذلك فالرزق بيده وهو يفيضه على العباد. فهو جدير بالعباده لعظمته وهو أولى بها شكراً لنعمه. ثم اختتم كلامه بالإشاره إلى نعمتين تفيدان قدرته وعظمته فقال: «و الشمس والقمر دائبان (١) في مرضاته: ييليان كل جديد، ويقربان كل بعيد» فقد سمى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحده دائماً لا يفترقان ولا يسكنان. فالقمر في حاله حركة دائماً، إلّا أنّ نسب الحركة للشمس يمكن أن يكون إشاره إلى حركتها الظاهريه (وان كانت في الواقع ثابتة والأرض تدور حولها) أو إشاره إلى سائر حركات الشمس، بل جميع المنظومه الشمسيه في المجرات.

والجدير بالذكر أنّ أغلب عبارات الإمام عليه السلام قد اقتبست من آيات القرآن الكريم، ومنها الآيه: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا» (٢) والآيه «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» (٣) والآيه «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ» (٤).

ص: ٣٨٧

١- ١) «دائبان» مثنى «دائب» من ماده «دأب» و «دؤوب» على وزن قلب وقلوب بمعنى الاستمرار على عمل معين وفق عاده وسنه ثابتة. وعلى هذا الاساس، يطلق على الشخص أو الشئ الذي يقوم بعمل أو برنامج معين بصوره مستمره ودائمه وعلى حاله وسنه معينه بالدائب.

٢- ٢) سوره نوح / ١٩ - ٢٠. [١]

٣- ٣) سوره النبأ / ٦. [٢]

٤- ٤) سوره ابراهيم / ٣٣. [٣]

«قَسِيمَ أَرْزَاقِهِمْ، وَأَخْصِي آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعِيدِدْ أَنْفُسَهُمْ، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَتَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ» .

الشرح والتفسير

يتحدث الإمام عليه السلام هنا أيضاً عن صفات الله ذات الصلة بأوضاع الناس ومصائرهم كمقدمه للوعظ والنصح فقال عليه السلام: «قسم أرزاقهم» ، طبعاً المراد بتقسيم الارزاق تقسيمها على ضوء السعي والعمل والاجتهاد، لا أن الله ضمن ايصال رزق كل فرد إلى باب بيته دون حساب، وان حصل الإنسان أحياناً على رزق «مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» إلّا أن هذا ليس أصلاً وقانوناً، والأصل والقانون هو السعي والجد والاجتهاد والعمل والابداع. بعبارة أخرى فإنّ الرزق رزقان؛ يتوقف أحدهما على السعي والعمل وبدونهما يحرم منه، والآخر حتمى يصل إلى الإنسان سعي إليه أم لم يسع. والأساس هو القسم الأول. وقد أشارت بعض الروايات إلى القسمين كقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك» (١) والجدير بالذكر أنّ الأرزاق لا تفسر بالماء والغذاء فقط، بل تشمل كافة النعم المادية والمعنوية. فقد قسم الله سبحانه العلم والإيمان والمقام والجاه والموقع الاجتماعي وما إلى ذلك على ضوء الجهود والحركة، مع ذلك هنالك بعض الحالات التي تتجاوز عالم الأسباب لتشير إلى قدره

ص: ٣٨٩

مسبب الأسباب فتخيب نتيجة هذا السعى وتنجح تلك دون سعى وجهد، إلّا أنّ هذه أمور استثنائية مختصه به سبحانه ثم قال عليه السلام: «و أحصى آثارهم وأعمالهم، وعدد أنفُسهم، وخائنه أعينهم، وما تخفى صدورهم من الضمير» وليس هذا فقط فحسب بل «ومست قرّهم ومس تودعهم من الأرحام والظهور، إلى أن تتناهى بهم الغايات» ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالآثار يعنى آثار وطئهم فى الأرض، كما فسرها البعض الآخر بما يبقى من الإنسان فى العالم. وفسروا عدد الأنفس بعدد الناس فى كل زمان ومكان، كما فسرت بعدد الأنفاس (و يصح هذا التفسير إذا كانت العبارة فى النسخة أنفاس، كما نقل ذلك بعض شراح نهج البلاغه وهو الانسب لما قبل هذه العبارة وما بعدها). أمّا المراد بخيانته العين النظر الحرام، أو غمز الآخرين من أهل العفة والحياء. وأمّا العبارة «وما تخفى صدورهم» فهى إشارة إلى النيات الحسنة والقيحة والطاهرة والفاجرة والعقائد المختلفة. والمستقر رحم المرأة الذى تستقر فيه نطفه الرجل والمستودع صلب الرجل الذى يضم النطفه قبل إنتقالها إلى الرحم. والعبارة: «إلى ان تتناهى بهم الغايات» أى إلى أن يحشروا فى القيامة، ولا يصح ما ذهب إليه بعض الشراح من تفسيرها بالجنة والنار لعدم انسجامها والعبارات السابقة. عل كل حال فالعبارات تشير إلى علمه سبحانه بسبعه أمور عن الإنسان، من قبيل الأعمال والحركات والعيّن والأنفاس والعقائد والنيات ومنذ ظهور النطفه فى صلب الرجل إلى إنتقالها إلى رحم الأم مروراً بالولادة ومراحل الحياه وأخيراً الموت، ليعلم الإنسان بأنّه فى عين الله على كل حال فإلتفت إلى أعماله وحركاته وسكناته. والحق أنّ كلماته عليه السلام إنّما تستد إلى الآيات القرآنيه الكريمة، كالآيه: «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فى إِمَامٍ مُّبِينٍ» (١) والآيه: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ» (٢) والآيه: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فى كِتَابٍ مُّبِينٍ» (٣).

ص: ٣٩٠

١-١) سورة يس / ١٢. [١]

٢-٢) سورة غافر / ١٩. [٢]

٣-٣) سورة هود / ٦. [٣]

«هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ، قَاهِرٌ مَنْ عَاذَهُ، وَمُدمِّرٌ مَنْ شَاقَّهُ، وَمُذِلٌّ مَنْ نَاوَاهُ، وَغَالِبٌ مَنْ عَادَاهُ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أُعْطَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى قدره الله وشده نقمته في ذات رحمته فقال عليه السلام: «هو الذي اشتدت نقمته على أعدائه في سعه رحمته»، ثم قال في الصفه الثانيه: «و اتسع رحمته لأوليايه في شدّه نقمته» فالعبارتان تشيران إلى حقيقه واحده من زاويتين، وهى أنّ الرحمه الإلهيه الواسعه لا تمنع من شده العذاب، كما أن العذاب الشديد لا يحول دون سعه الرحمه. فالواقع هو أنّ الخوف والرجاء العاملين الرئيسان في الحركه نحو الكمال قد تجسداً باروع صوره في هاتين العبارتين، لنظر العباد بعين إلى رحمته وبالأخرى إلى نقمته، فلا- يغفلون ولا- ييأسون، بل يعملوا بين الخوف والرجاء. ثم قال عليه السلام: «قاهر من عاذه، (1) ومدمر (2) من شاقه، (3) ومذل من ناواه، (4) وغالب من عاداه» فالعبارات اشاره إلى حاكميته المطلقه سبحانه لعالم الوجود.

وقد

ص: ٣٩١

١- ١) «عاز» من ماده «معازه» اصلها عزه بمعنى الغلبه والعزيم من يغلب أعدائه، وقد أريد بها هنا من رام مشاركه الله في شئ من عزته.

٢- ٢) «دمر» من ماده «تدمير» واصلها الدمار بمعنى الهلاك.

٣- ٣) «شاق» من ماده «مشاقه» العداء والمراد بها هنا المنازعه.

٤- ٤) «ناواه» خالفه من «نوء» على وزن نوع وتعنى القيام مع المشقه وأريد بها هنا من يقف بوجه الاراده الإلهيه فتذله.

تكررت رحمته الواسعه فى العبارة، مع ذلك فهى لاتعنى سعه الجبابره والظلمه على مقاومه إرادته سبحانه، وأما إمهاله لهم فإن ذلك يستند إلى بعض الأسباب، من قبيل امتحان العباد، أو تسليط بعضهم على البعض الآخر. وبالطبع فإن عبارات الإمام عليه السلام إنما تستند إلى آيات القرآن، كآيائه الواردة بشأن فرعون: «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى» (١) ثم استنتج الإمام عليه السلام بعد ذكر هذه الصفات: «من توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاها، ومن شكره جزاه» فهذه النتائج الأربع المترتبة على الأوصاف السابقه فى أن الشخص الذى حصل على قدره وأصبح صاحب نعمه وفيه لابد أن يكون ملاذاً للمتوكلين ومانحاً للسائلين ومثيباً للمنفيقين والشاكرين. وعليه فمن حرم من رحمه والعطاء والثواب فهو المقصر حيث لم يطرق بابة سبحانه ولم يقرضه ولم يشكر نعمه. ومره أخرى نقول أن أغلب عبارات الإمام عليه السلام مملوءه بالمضامين الدينيه المستوحاه من الآيات القرآنيه، كآيائه: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (٢) والآيه الشريفه: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً» (٣) والآيه: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (٤).

ص: ٣٩٢

١-١) سورة النازعات / ٢٤-٢٥. [١]

٢-٢) سورة الطلاق / ٣. [٢]

٣-٣) سورة البقره / ٢٤٥. [٣]

٤-٤) سورة إبراهيم / ٧. [٤]

إشاره

«عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنْفَسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخِنَاقِ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ، اعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعِنَ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ زَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَاحِظٌ وَلَا وَاعِظٌ» .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذه العبارات التي تمثل الكلام الفصيح النادر اللطيف حسبما ذكر ذلك ابن أبي الحديد (١). فقال عليه السلام: «عباد الله زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا» فقد درج الإنسان في حياته حين المعاملات على زنه المتاع ثم حساب قيمته، وأنه ليفقد رأس ماله إذا التبس عليه الوزن أو الحساب ويصاب بالضرر والخسران، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه في الأمور المعنوية، فعليه أن يزن نفسه ويرى ماهى عليه من الأخلاق والإيمان ثم يحاسبها، فان رأى نقصاً هب لاصلاحه قبل أن يرد حساب الآخرة حيث لاسبيل للاصلاح وتدراك الافراط سوى الحسره والندم. فمما لاشك فيه أن وزن الأعمال في القيامة حق، الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» (٢) كما أن الحساب من المسلمات، ومن هنان كان أحد أسماء يوم القيامة هو يوم الحساب: «وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ» (٣). ثم قال عليه السلام: «و تَنْفَسُوا قَبْلَ

ص: ٣٩٣

١-١ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٦/٣٩٦. [١]

٢-٢ سورة الاعراف / ٨. [٢]

٣-٣ سورة غافر / ٢٧. [٣]

ضيق الخناق» (١) فالتنفس هنا كناية عن مبادره العمل الصالح والعلم وتهذيب النفس والورع والتقوى. أمّا ضيق الخناق فيراد به الموت. فقد جاء في القرآن: «وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» (٢) ثم قال عليه السلام: «وانقادوا قبل عنف السيّاق (٣)» فإذا جاء الموت استسلم أعتى الأفراد كفرعون وهامان ونمرود ومن على شاكلتهم ليصرخ «آمنت لا-إله الا-الله» ولم ينفعهم ذلك الإيمان. كما صرح القرآن بشأن الآثمين الذي يرون ملائكة الموت أنّهم ينادون: «رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» (٤). ثم إختتم عليه السلام خطبته قائلاً: «واعلموا أنّه من لم يعن على نفسه حتّى يكون له منها واعظٌ وزاجرٌ لم يكن له من غيرها لا زاجرٌ ولا-واعظٌ» فالهدايه لا يبدّ أن تنبع من باطن الإنسان، ومادام باطن الإنسان ليس مستعداً فليس هنالك من تأثير للواعظ الخارجى. وعليه فالإنسان يجب أن يعزم بادهى ذى بدء على إحياء ضميره ووجدانه لتحفه العناية الإلهيه، وهنا يستعد الإنسان لاقتفاء آثار الأنبياء والأولياء ويعر آذانه لسماع الحق.

تأملان

١ - الوزن والحساب فى المحشر

تفيد أغلب الآيات والروايات أنّ يوم القيامة هو يوم وزن جميع الأشياء والحساب عليها، ولا يقتصر هذا الوزن على الأعمال فحسب بل يخضع الإنسان للاختبار لمعرفة عقائده ونياته

ص: ٣٩٤

١-١) «خناق» على وزن نفاق بمعنى العنق، ويقال للجبل أو ما يشابهه والذي يُشد على العنق من أجل خنق الشيء «الخَنَاق» .

٢-٢) سورة المنافقون / ١٠. [١]

٣-٣) «سياق» من ماده «سوق» إشارة إلى الموت الذى يسوق الإنسان من هذه الدنيا إلى الآخرة.

٤-٤) سورة المؤمنون / ٩٩ - ١٠٠. [٢]

وأخلاقه. أما البعض فقد تصوروا أنّ موازين يوم القيامة كموازين الدنيا، إلّا أنّها أدق، فاضطروا للاعتقاد بوزن الأعمال المعنوية، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك، فميزان كل شيء بما يناسبه. فالיום تستعمل كلمه الميزان ليقال ميزان الهواء وميزان الحرارة، والحال ليس هنالك مثل هذا الميزان. بل تستعمل الميزان بكثرة في الأعمال المعنوية ولا يراد بها هذا الميزان. والحق أنّ عالم الآخر آخر واسع يتجاوز حدود هذا العالم بحيث يتعذر علينا تصور ابعاده وحدوده وجزئياته وان كان لنا علم إجمالي به. وقد أوصى الإمام عليه السلام بزنه الأعمال قبل وزنها هناك ومحاسبتها قبل الحساب؛ الأمر الذي أكدّه سائر المعصومين عليهم السلام. فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فان عمل خيرا استراد الله منه، وحمد الله عليه، وإن عمل شرا استغفر الله وتاب عليه» (١). وجاء في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأبي ذر: «يا أباذر! حاسب نفسك قبل ان تحاسب، فانه أهون لحسابك غدا، وزن نفسك قبل أن توزن» (٢). كما قال صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «يا أباذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبه الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملسبه، أمن حل ذلك، أم من حرام». (٣)

٢ - الواعظ الباطني

إن النتيجة المطلوبه تتطلب أمرين؛ الموضوع المناسب والتربيه الصحيحه، وبعبارة أخرى: قابليه القابل وفاعليه الفاعل. فالفلاح مهما كان ماهراً والماء مهما كان وافراً، والبذر مهما كان صالحاً، لا يجنى أى ثمر إذا كانت الأرض الزراعيه مالحه غير صالحه للزراعه، وذلك لأنّ إفتقار الموضوع لقابليته يبدد جميع الجهود. ويصدق هذا الأمر على تربيه النفوس البشريه، فما لم يكن للإنسان واعظ من نفسه ونزوعاً نحو الحق والانصاف لم تؤثر فيه أقوى المواعظ من الخارج. ومن هنا شرب أبوجهل وابولهب الصدى وهما يجلسان على ساحل منبع الوحي الفياض، بينما ارتوى أمثال أويس القرني من ذلك المنبع رغم البعد الشاسع عنه. وبالطبع لا يفهم الجبر من هذا الكلام، لأنّ الواعظ الباطني يتبلور أيضاً عن طريق تهذيب النفس وتزكيتها، فشعلته

ص: ٣٩٥

١-١) ميزان الحكمه ١/ ح ٣٨٤٥ (ماده حساب).

٢-٢) المصدر السابق، ح ٣٨٤١.

٣-٣) بحار الأنوار ٧٤/٨٦. [١]

تنطفئ في ظل الأهواء والشهوات، بينما تتقد إثر العفاف والطهارات.

إلى هنا انتهينا بحمد الله من المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع إن شاء الله. ولا يسعني هنا إلا أن أتضرع إلى الباري سبحانه بفائق الشكر والامتنان على ما وفقني إليه، كما أسأله أن يمن علي بمواصله هذا الجهد الزهيد. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٥ جمادى الثانيه ١٤٢١

ص: ٣٩٤

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه المجلد ۴ / ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام على ابن ابى طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى: ۱۰ ج.

شابك: ۳۰۰۰۰ ريال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳.

يادداشت: عربى.

يادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق. = ۱۳۹۰).

يادداشت: كتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الى ۱۸۰. ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الى ۲۰۰. ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الى ۲۴۱. ج. ۹. من رساله ۱ الى ۳۱. ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الى ۵۳

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- خطبه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- كلمات قصار

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- نامه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. . نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٤

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

ومن خطبه له عليه السلام

تعرف بخطبه الأشباح وهي من جلائل خطبه عليه السلام

روى عن مسعده بن صدقه عن الصادق، جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبه على منبر الكوفه، وذلك أن رجلاً أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً لنزداد له حباً وبه معرفه، فغضب ونادى: الصلاه جامع، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال... .

نظرة إلى الخطبه

هذه من الخطب القيمه التي تفيض رقه وفصاحه وبلاغه وعذوبه، وهي شهاده أخرى على

ص: ٥

١-١) سند الخطبه: قد كفانا الرضى (ره) مؤنه البحث عن مصادر هذه الخطبه إذ ذكر أنه نقلها عن مسعده بن صدقه العبدى عن أبى عبد الله عليه السلام ومسعده هذا له كتب منها كتاب (خطب أمير المؤمنين عليه السلام) كما ذكرنا ذلك في أوائل هذا الكتاب تحت عنوان الكتب المؤلفه في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وقلنا هناك إن كتاب مسعده هذا كان باقياً إلى زمن السيد هاشم البحرانى (ره) إذ نقل عنه كثيراً في تفسيره المعروف بالبرهان كما نوه به في مقدمه الكتاب المذكور ثم صار في ضمائر الغيوب. وعلى كل حال ان الخطبه الاشباح هذه من خطب أمير المؤمنين المشهوره رواها العلماء قبل الرضى أيضاً أحمد بن عبد ربّه المالكي في العقد الفريد والشيخ الصدوق في التوحيد باختلاف في بعض الألفاظ وال فقرات مع روايه الرضى. ورواها الزمخشري في ربيع الأبرار وابن الأثير في النهاية. و الخطبه شاهده لنفسها لا تحتاج مع لفظها الباهر، ومعناها الظاهر، إلى اسناد متواتر كما قال السيد ابن طاووس (حيث من المستبعد إن تصدر مثل هذه المضامين من غير المعصوم) (مصادر نهج البلاغه

عظمه أمير المؤمنين على عليه السلام وإرتباطه بالعالم القدسي وانفتاحه على خزائن العلم الإلهي.

قال ابن أبي الحديد في تعليقه على هذه الخطبة: «إذا جاء هذا الكلام الرباني، واللفظ القدسي، بطلت فصاحه العرب، وكانت نسبه الفصيح من كلامها إليه، نسبه التراب إلى النضار الخالص؛ ولو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبه، أو المقاربه لهذه الألفاظ، من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهليه بل الصحابه المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضه السمائيه؛ ليتها لها التعبير عنها أمّا الجاهليه فإنهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم في صفه بعير أو فرس أو حمار وحش، أو ثوره فلاحه، أو صفه جبال أو فلوات؛ ونحو ذلك. وأمّا الصحابه فالمذكورون منهم بفصاحه إنّما كان منتهى فصاحه أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثه، إنّما في موعظه تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا، أو ما يتعلق بحرب وقتال؛ من ترغيب أو ترهيب. . .» .

ثم أضاف ابن أبي الحديد بعد أن أشاد بالخطبة قائلاً: «وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده، ورجف قلبه، واستشعر عظمه الله العظيم في روعه وخلده، وهام نحوه وغلب الوجد عليه وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً؛ وأن يفارق هيكله صباه ووجداً» (1).

على كل حال فإنّ هذه الخطبه تشتمل على عدّه أقسام، يكمل كل واحد منها الآخر. وهي على عشره أقسام:

القسم الأول: في جانب من صفات الله سبحانه وتعالى من أجل إعداد الأفكار لتقبل ما يرد عليها من حقائق.

القسم الثاني: يتضمن إجابته عن سؤال السائل عن صفات الله و يجعل القرآن ميزاناً في دائره أسماء الله و صفاته، و يوصيه بالتمسك بآياته سيّما في هذا البحث.

القسم الثالث: الإشارة إلى عجز الإنسان عن الاحاطه العلميه بكنه الذات و الصفات

ص: ٦

الإلهيه المقدسه وما تنطوى عليه من صفات.

القسم الرابع: بحث القدره الإلهيه فى تدبير عالم الخلقه - الذى يمثل المرآه التى تعكس صفاته سبحانه -.

القسم الخامس: الحديث عن خلق السموات العلى والتى تمثل جانباً من عظمه البارئ سبحانه.

القسم السادس: الحديث عن خلق الملائكه وصفاتهم وخصائصهم.

القسم السابع: لفت انتباه الناس إلى العالم العلوى؛ إلى جانب الحديث عن خلق الأرض.

القسم الثامن: خلق آدم عليه السلام وبعث الأنبياء وارسال الرسل.

القسم التاسع: يتحدث عن علم الله سبحانه بالغيب واحاطته بكافه أسرار وجود الإنسان وخفاياه و ما يضمه من أعمال و أفكار و نيات.

والقسم العاشر: والأخير حيث يختتم الإمام عليه السلام خطبته العميقه المضامين بأدعيه روحيه عظيمه، لتشكل الخطبه بكافه أقسامها لوحه روحيه ساميه تلتف روح الإنسان وتأخذ بيده إلى السير نحو الله واصلاح فكره وأعماله (١).

وأما سبب تسميه هذه الخطبه بالاشباح فهناك اختلاف بين الشراح بهذا الخصوص. فقد ذهب البعض إلى أن «الاشباح» كناية عن الملائكه، حيث تضمنت الخطبه جانباً مهماً فى الحديث عنها ومن هنا سميت هذه الخطبه بالاشباح.

كما رأى البعض الآخر أن مفرده الأشباح ذكرت فى الخطبه، وحيث اعتاد السيد الرضى (ره) على اختيار قطوف من الخطبه، فقد اسقط تلك العبارة والتى احتمل البعض أنها وردت بهذا الشكل فى الخطبه «وكيف يوصف بالاشباح وينعت بالألسن الفصاح». وهى العبارة التى أوردتها المرحوم الشيخ الصدوق فى كتاب التوحيد ضمن خطبه قسما من خطبه الاشباح (٢).

الاحتمال الآخر فى سبب هذه التسميه هو أن الخطبه طويله، وأحد معانى الشيح هو الطول

ص:٧

١-١) لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الخطبه تقسم بشكل عام إلى عشره أقسام، حيث تقسم هذه الأقسام بدورها إلى عدّه أقسام أخرى. ولذلك عمدنا فى النهايه إلى شرحها على أساس جعلها أربعة وعشرين قسماً.

٢-٢) توحيد الصدوق / ٧٩ ح ٣٤.

والامتداد. حيث أورد ابن فارس في مقاييس اللغة في تفسير «الشيخ» قائلاً: «أصل صحيح يدل على إمتداد الشئ في عرض، من ذلك الشيخ» وهو الشخص سمي بذلك، لأنه فيه إمتداد أو عرضاً (١).

وهنا يبرز هذا السؤال: ورد في مقدمه الخطبه أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً لتزداد له حباً وبه معرفه. فغضب ونادى: الصلاه جامعه، فاجتمع الناس فصعد المنبر وخطب بهذه الخطبه. والسؤال مم كان غضب الإمام عليه السلام؟

يبدو أنّ هناك بعض النقاط التي ينبغي الالتفات إليها لتتضح الإجابة على هذا السؤال ومنها: صيغه السؤال تفيد أنّ السائل كان يتوقع لله صفات على غرار صفات مخلوقاته، حيث عبر عن ذلك بالرؤيه «مثلما نراه عياناً»؛ الأمر الذي يكشف عن عقيدته المجسمه الذين كانوا يرون الله جسمًا.

أمّا النقطه الثانيه فلعل غضبه عليه السلام كان لهذا السبب وهو: لم لا يزال بعض المسلمين لا يملكون الرؤيه الواضحه عن صفات الله سبحانه رغم تقادم الزمان على انبثاق الدعوه الإسلاميه وسعه المعارف والعلوم والخزين الديني.

أو تأسفًا على تلك الحادثه التي أقصت الإمام عليه السلام عن الساحه وجعلته رهين الدار مدّه خمس وعشرين سنه ليحول دونه ودون تعليم أبناء الأمه الإسلاميه وتعريفهم بالمفاهيم الإسلاميه الحقه والمعارف الدينيه.

ص: ٨

(١ - ١) ابن فارس، مقاييس اللغة. [١]

«الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَفْرُهُ الْمَنَعُ وَالْجُمُودُ وَلَا يُكْدِيهِ الْإِعْطَاءُ وَالْجُودُ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ وَكُلُّ مَانِعٍ مَيِّدٌ مَوْمٌ مَا خَلَاهُ وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقِسْمِ عِيَالَهُ الْخَلَائِقُ صَ مِنْ أَرْزَاقِهِمْ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ وَلَيْسَ بِمَا شِئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلِ الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلُ فَيَكُونُ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدُ فَيَكُونُ شَيْءٌ بَعْدَهُ وَالرَّادِعُ أَنَا سَيِّ الْأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفُ مِنْهُ الْحَالُ وَلَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَالُ وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ وَصَدَحَتْ عَنْهُ أَصْدَادُ الْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ اللَّجِينِ وَالْعَقِيَانِ وَنَثَرَهُ الدُّرُّ وَحَصَّ يَدَ الْمَرْجَانِ مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَلَا أَنْفَسَدَ سَعَمَهُ مَا عِنْدَهُ وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ دَخَائِرِ الْأَنْعَامِ مَا لَا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الْأَنَامِ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ وَلَا يُعْجِلُهُ إِحْسَاحُ الْمُلْحِحِينَ» .

الشرح والتفسير

أنّ الدافع إيراد من هذه الخطبه كما ورد في مقدمتها هو أنّ شخصاً سأل الإمام عليه السلام قائلاً: صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً؛ الكلام الذي تشتم منه رائحه القول بالتجسم على الله، أو على الأقل الاشتمال على صفات الممكنات. فغضب الإمام عليه السلام غضباً شديداً و تغير وجهه وأورد هذه الكلمات من أجل تهذيب هذه العقائد الفاسده والأفكار المنحرفه وهدايتها إلى الصراط المستقيم من خلال استعراض صفاته الحقه سبحانه ولذلك فقد استهل عليه السلام الخطبه بأدق

صفاته سبحانه التي تشير إلى مباينتها لصفات كافه مخلوقاته. فقد قال عليه السلام بادي ذي بدء: «الحمد لله الذي لا يفره (١) المنع والجمود، ولا يكديه (٢) الاعطاء والوجود». ثم خاض عليه السلام في الدليل على ذلك قائلاً: «إذ كل معط منتقص سواء، وكل مانع مذموم ما خلاه». نعلم جميعاً أنّ أحد الأركان الأصليه لمعرفة صفات الله سبحانه وتعالى يكمن في الاعتقاد بأنّه وجود مطلق من جميع الجهات وليست هناك من حدود لذاته المقدسه وصفاته. فمن الطبيعي أنّ اللامحدود يبقى كذلك مهما أخذ منه؛ أي ليس للنقصان والقله من سبيل إليه. وعلى هذا الضوء فلو وهب كل إنسان عالماً من الماده، لما نفذت خزائن نعمه. ولهذا أيضاً إذا منع أحد شيئاً فلا يذم عليه. لتعذر تصور البخل على الذات المطلقه. فليس هنالك من سبيل سوى إسناد المنع إلى الحكمة والمصلحه. بعبارة أخرى فإنّ عطائه ومنعه يتوقف على الاستعداد والاستحقاق والأهليه، وعليه ينقطع كل كلام ويخرس كل لسان عن الخوض في هذا الموضوع. جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي شيئاً إلّا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر» (٣)، فمن الطبيعي أن لا- يعلق شى من الماء بالأبهره إذا ما القيت فيه سوى بمقدار الرطوبه العالقه بها. وهذا أروع مثال لأدنى نقص يطيل أعظم مصدر ومنبع للماء. فالمثال صورته واضحه لعدم تناهى الخزائن الإلهيه التي لا تزيدنا كثره العطاء إلّا زياده. كما ورد في حديث قدسي آخر: «إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفاقه، ولو أغنيته لأفسده ذلك» (٤)، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن سائر صفاته سبحانه ذات الصله بجموده وكرمه وعطائه فقال: «وهو المنان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم» فاللنفات إلى النعم الإلهيه على أساس أنّ وجدان الإنسان يوجب عليه شكر هذه النعم ويشده إلى الحق سبحانه، نرى الإمام عليه السلام يطرق باديء الأمر هذا المعنى ليعد القلوب لما سيرد عليها من حقائق. والتعبير «منان» من ماده من بمعنى كثير العطاء. أمّا فوائد النعم فتنطوي على مفهوم واسع يشمل كافه النعم الماديه

ص: ١٠

١-١) «يفره» من ماده «وفور» بمعنى الكثره والزياده.

٢-٢) «يكديه» من ماده «كدي» على وزن كسب بمعنى البخل، وهى هنا بمعنى يفره وينفذ خزائنه.

٣-٣) منهاج البراعه ٦/٢٨٨.

٤-٤) بحار الانوار ٦٨/١٤٠ ح ٣١. [١]

والمعنويه. وأما الفارق بين هذه العبارة وقوله: «عوائد المزيد والقسم» فقد وردت بشأنه عدّه احتمالات: الأول: أنّ العبارة الاولى إشاره إلى ضروريات الحياه، والثانيه إلى الرفاه والصدعه وما يدعو إلى الاستقرار واللذّه والراحه؛ أى كماليات الحياه. والاحتمال الثاني: أن يكون المراد بالعبارة الاولى النعم الفرديه، والعبارة الثانيه: «بالنظر إلى مفرده القسم من ماده قسمه» المنافع والنعم الاجتماعيه. والاحتمال الثالث: أن يكون المقصود بفوائد النعم الأرزاق التي تشمل الإنسان من قبيل الماء والهواء ونور الشمس وضياء القمر وبالتالي ما يصله من رزق دون سعى وجهد، والعبارة: «عوائد المزيد والقسم» ناظره إلى الارزاق التي يحصل عليها الإنسان بفعل جده واجتهاده وسعيه ونشاطه وإدارته الصحيحه لشؤون حياته. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بهذا الخصوص فقال: «عياله الخلاق، ضمن أرزاقهم، وقدر أقواتهم» فالتعبير بعيال تشير من جانب إلى محبّه الله ولطفه بعباده، كما أنّها مقدمه لبيان ضمان أرزاقهم من جانب آخر، وذلك لأنّ كل فرد يشعر بعظم مسؤوليته إزاء عياله وأهل بيته. فلا يمكن على الله أن يخلق عبداً دون أن يتكفل برزقه. وأما ما نراه من جوع في عالمنا المعاصر وفيما مضى قدأدى بحياه الناس، فذلك ممّا تفرزه طبيعه الحرص والظلم التي انطوت عليها سيره الطغاه والظلمه والاستغلال الذي يمارسونه بحق الضعفاء والفقراء ونهب أموالهم وخيراتهم. كما لا ينبغي أن ننسى خنوع البعض وعدم السعى الجاد في هذه الحياه والافتقار إلى الإداره الصحيحه. وإلّا فإنّ السفره الإلهيه على درجه من السعه والشمول بحيث تلبى احتياجات كافه العباد إلى يوم القيمه. ثم خاض عليه السلام في النعم المعنويه ليكشف اللثام عن فتح باب الميسره إلى الله والفوز بقربه وجواره فقال عليه السلام: «ونهج سبيل الراغبين إليه، والطالبين ما لديه». وهكذا أبان عليه السلام توفر كافه أسباب سعادته الناس على الصعيد المادى والمعنوى ليهديهم إلى الطريق دون أن يكون هناك من اجبار لنهج هذا السبيل أو ترك ذاك، فلإنسان بمحض إرادته أن يستثمر هذه النعم ويوظفها في الاتجاه الصحيح. ثم اختتم كلامه بشأن هذه النعم حيث تعرض إلى صفه أخرى من صفاته قائلاً: «وليس بما سئل باجود منه بما لم يسأل». فالعبارة تختزن إشاره لطيفه إلى حقيقه وهى أنّ جوده وكرمه على أساس الاستحقاق والاستعداد لا على ضوء الطلب والسؤال، وإن كان الدعاء أحد أسباب نزول النعم الإلهيه

فذلك لأنّ الداعى إذا أعد فى نفسه شرائط الدعاء إنّما يكون قد وسع دائره استحقاقه واستعداده؛ فالدعاء الصحيح يسوق الإنسان إلى التوبه والإنابه وإصلاح الذات وذكر الله، وكل من هذه المعانى يسهم بقدر فى اتساع حجم الاستحقاق.

قال ابن الحديد فى تفسيره للعبارة: «وليس بما سئل بأجود..» فيه معنى لطيف، وذلك لأنّ هذا المعنى ممّا يختص بالبشر: «لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزهم الطلبات، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه. وأما البارئ سبحانه فإنّ جوده ليس على هذا المنهاج، لأنّ جوده عام فى جميع الأحوال» (١).

أضف إلى ذلك فإنّ الناس وإثر نقصهم وحاجتهم إنّما يشحون فى العطاء بما هم إليه أحوج من سائر الأشياء التى لا حاجة لهم فيها؛ الأمر الذى ليس به من سبيل إلى الذات الإلهيه المطلقه المنزهه عن كل نقص وحاجه. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى بيان أربع صفات من صفات الذات فقال: «الأول الذى لم يكن له قبل فيكون شى قبله، والآخر الذى ليس له بعد فيكون شى بعده». فالمفروغ منه هو أنّ الأساس فى معرفه ذات وصفات الله يكمن فى كونه مطلقاً سبحانه لا يعرف القيود والحدود واللامتناهى، و هو الكمال المطلق والوجود الدائم من جميع الجهات، فهو كائن ويكون إلى أبد الأبدين.

فالأول فى عالم الممكنات يقال للشىء بالنسبه لما يليه، وفى نفس الوقت لما سبقه بعض الأشياء لأنّ البدايه والنهائيه فى الممكنات أمر نسبي؛ وتنفرد الذات الإلهيه المطلقه بعدم وجود شى قبلها ولا بعدها. ومن البديهي على هذا الأساس أنّ أوليته وآخرته لا تعنى الأول الزمانى ولا- الآخر الزمانى و ذلك لأنّ الزمان يأتى من حركه الموجودات حيث أن الزمان يمثل مقدار الحركه؛ فلا يطلق عليه البعديه والقبليه كما يطلق على الزمانيات؛ وإنّما لم يكن وجوده زمانياً لأنّه لا يقبل الحركه، والزمان من لواحق الحركه، وإنّما لم تطلق عليه البعديه والقبليه إذا لم يكن زمانياً؛ والحركه إمّا نحو الكمال أو النقصان. ونعلم أنّه كمال مطلق لا يشوبه أى نقص. ثم قال عليه السلام فى الصفه الثالثه: «والرابع أناسى (٢) الأبصار عن أن تناله أو تدركه» فلا العين

ص: ١٢

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٦/٤٠٠. [١]

٢- ٢) «اناسى» جمع «إنسان» و يطلق على أفراد بنى الإنسان كما يطلق هذا اللفظ على بؤبؤ العين، لانعكاس صوره الأفراد فيها.

الظاهره تراه لأنه ليس بجسم فلا- مكان له ولا- جهه، ولا- العين الباطنه يسعها مشاهدته كنه ذاته. فالمحدود يعجز عن رؤيه اللامحدود. فالتعبير بالرادع لا يعنى إن الله تعالى خلق فى الأبصار مانعاً عن إدراكه، بل كنايه عن ذاته أعظم واسمى من أن ترى بالعين الظاهره أو الباطنه. فقد قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» (١) ولما سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام رؤيه الله، جاء الخطاب: «انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَيْعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ - تَبَّتْ إِلَيْكَ - وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» (٢)، ثم قال عليه السلام فى الصفه الرابعه والخامسه المكمله للصفات السابقه: «ما اختلف عليه الدهر فيختلف منه الحال، ولا كان فى مكان فيجوز عليه الانتقال» فالواقع هو أن هاتين الصفتين إنما تشيران إلى نفي الزمان والمكان وعوارضهما عن الذات الإلهيه المقدسه؛ الذات المطلقه التى تأبى الحركه، ومن هنا لم تخضع لسيطره الزمان، ولذلك أيضاً لم يكن للحالات المختلفه والحركه نحو الكمال أو النقصان من سبيل إلى هذه الذات. فالله ليس بجسم ليجتاج إلى مكان. ليس بمحدود ليضمه موضع معين، ومن هنا انعدم تصور المكان عليه سبحانه. ثم عاد الإمام عليه السلام ثانيه إلى وصف جوده وعطائه سبحانه ليحدث عن سعه نعمه استثاره لحس الشكر والحمد لدى العباد والأمل بهذه الذات إلى جانب الإرشاد للمعرفه بصفات الجلال والجمال فقال عليه السلام: «ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين (٣) والعقيان (٤) ونثاره (٥) الدر، وحصيد المرجان، ما أثر ذلك فى جوده، ولا انفذ سعه ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الانعام، مالا تنفده مطالب الأنام، لأنه الجواد الذى لا يغيضه (٦) سؤال السائلين، ولا يبخله الحاح الملحين» .

ص: ١٣

١- ١) سورة الانعام/١٠٣. [١]

٢- ٢) اقتباس من سورة البقره/٢٥٥؛ [٢] سورة الاعراف/١٤٢. [٣]

٣- ٣) «لجين» على وزن حسين بمعنى الفضة.

٤- ٤) «عقيان» الذهب الخالص.

٥- ٥) «نثاره» من ماده «نثر» على وزن نصر التناثر والتشتت، حيث تتشقق أغلفه الأصداف فتتناثر منها حبيبات الدر هنا وهناك.

٦- ٦) «يغيض» من ماده «غيض» على وزن فيض النقصان وذهاب الماء فى الأرض ووردت فى العباره بمعنى عدم نقصان منابع الفيض الإلهى بالعطاء.

حقاً ليس هناك من تعبير أروع وأبلغ من هذا التعبير لوصف جوده وكرمه سبحانه وسعه رحمته وشمول آلائه. فلو صبت الدنيا بما فيها من كنوز ومعادن مستتره في بطون الأرض وأوديتها وجبالها على شخص، لما كان لها تأثير قطره في بحر بالنسبه لعظم خزائنه وسعه بحر جوده وكرمه. كيف لا وقوله «كن» الذى يتبدل إلى «فيكون» يخلق ما لا نهاية من هذه الخزائن في عالم الوجود ومن هنا أيضاً فإن الحاح الملحّين وكثره طلبات السائلين لاتدعوه ال القبض والبخل أو الغضب والغيط، فانما يغضب من كانت مصادر جوده محدوده ينقصها السؤال والعطاء فتشرف على الانتهاء وعليه فاذا كانت لدينا من حاجه لا بدّ من طرحها على الكريم فهو الكريم والجواد الرحيم فى عطائه وكرمه، والتعبير بالتنفس عن معادن الجبال إشاره لطيفه إلى طرحها المعادن من جوفها بفعل تصدعها والزلازل و التعريه التى تصيبها مع مرور الزمان و أما تعبير «ضحك» فهى إشاره إلى الشقوق التى تحدث فى فوهات الصدف ليستخرج منها اللؤلؤ. وهى على غرار الأسنان الناصعه التى تبدو كحيات اللؤلؤ حين يضحك الإنسان ذا الجمال. فاذا ما ضحكت هذه الاصداف بانشقاقها ظهرت حبات لؤلؤها وقذفتها خارجاً.

تأمل: شمول النعم الإلهيه

اشتمل هذا القسم من الخطبه على عدّه أمور مهمّه بشأن سعه نعمه سبحانه وافاضتها على العبيد من معادن الفيض الازلى الجياش؛ ليشير الإمام عليه السلام بذلك أحاسيس السامعين ويوقظ ضمائرهم، فيستشعروا ضروره الشكر بحكم بداهه العقل، وهذا ما يقودهم بالتالى إلى الانفتاح على معرفه الله سبحانه والالمام بصفاته. فقد أشار فى موضع آخر إلى سؤاله عن كل ماتريد ودون سؤال غيره وذلك أنّ كثره الجود والعطاء ليس لها أن تنقص خزائن كرمه ولو مثقال ذره، بل أنّها لتربو على الجود والعطاء. وصرح فى موضع آخر بأنّه على درجه من الجود والكرم بحيث لا يحتاج إلى السؤال كما هى طبيعه الممكنات، فحيثما كان الاستحقاق والاستعداد كان الفيض والعطاء. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى بعض الأدعيه الرجبيه: «يا من

يعطى من سأله، يا من يعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمه» (١)، وقد عبر الإمام عليه السلام عن ذلك بقوله: «وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل»، وأخيراً ما أروع عبارته عليه السلام التي تعرضت لسعه جوده وكرمه وعدم تأثرها من قريب أو بعيد بكثرة السؤال: «ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين والعقيان ونثاره الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذلك في جوده، ولا أنفذ سعه ما عنده ما لا تنفذه مطالب الأنام». والحال ليس الإنسان كذلك مهما كان جوده وكرمه وعطائه، فمثل هذه الأمور تؤثر مباشرة عليه، وليس ذلك إلّا لأن كفاه إمكانياته ومصادره محدوده، ينقصها العطاء. بينما تتصف نعمه سبحانه بالدوام وعدم التناهي والانقطاع فهي كذاته سبحانه مطلقه لاتعرف من معنى للحدود والقيود.

ص: ١٥

١-١) مفاتيح الجنان، [١] أعمال شهر رجب.

«فانظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فأنتم به واستضيئ بنور هدايته وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه فإن ذلك منتهى حق الله عليك وأعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن افتتاح السدد المضروبه دون الغيوب الإقرار بجمله ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اغترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً وسامى تزكهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رُسوخاً فاقصر على ذلك ولا تُقدر عظمه الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام إلى قاعده كلييه مهمه وخالده في فهم صفات الحق سبحانه وتعالى، بحيث لو انطلق الجميع في حركتهم الفكرية من خلالها لما بقي هناك من اختلاف بما يرتبط بصفاته سبحانه، فقال عليه السلام: «فانظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فأنتم به، واستضيئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره؛ فكل عمله إلى الله سبحانه، فان ذلك منتهى حق الله عليك» . فالواقع أن الإمام عليه السلام قد حدد وظيفه الجميع في ضروره معرفه صفات الله بالاستناد إلى القرآن وسنه النبي صلى الله عليه وآله وهدى أئمة العصمه عليهم السلام، والابتعاد تماماً عن الاستبداد

والتمسك بالرأى والتعويل على الأفكار الإنسانية المحدوده بهذا الخصوص، فكل هذه الأمور من وساوس الشيطان ومكائده. لأن صفات الله مطلقه كذاته ليست محدوده من جانب، ومن جانب آخر فإن معارف الإنسان وعلومه إنما تقتصر على المخلوقات، فاذا اتجهوا صوب صفات الله خشى عليهم السقوط في مستنقع التشبيه على غرار صفات مخلوقاته، ومن هنا فإن أغلب من ولى ظهره لهذا الأصل الأساسى المتمثل بالرجوع إلى القرآن والوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام بلى بالانحراف وإجراء صفات المخلوق على الخالق، من جهه أخرى فهذا القرآن يهتف بأنديتنا صباح مساء: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (١) و«وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» (٢) فأنى للإنسان بهذا الفكر القاصر أن يطمع في معرفه ذات الله وصفاته ولا يكتفى بمعرفته الإجماليه على ضوء نور الوحي وهدى العصمه الذى ينأى به بعيدا عن الزلل. فلا يمكن معرفه الله إلّا به، وهو كما عرف نفسه وصفاته. وهنا يبرز هذا السؤال: هل صفات الله توقيفيه؟

يعنى لا يجوز وصفه إلّا من خلال ما ورد فى الكتاب والسنة؟

ونقول فى الإجابة على هذا السؤال نعم هذا ما عليه أغلب المحققين والعلماء الأعلام، إلى جانب ضروره مراعاة الحيطة والحذر فى مبحث صفات الله والانفتاح عليها انطلاقاً من الوحي وكلمات المعصومين عليه السلام. بعبارة أخرى فإن السبيل إلى معرفه الله وصفاته إنما يمر عبر خط مستقيم يقع على جانبيه مطين عظيمين؛ مطب التشبيه ومطب التعطيل.

وتوضيح ذلك: إن مبحث معرفه ذات الله وصفاته كسائر المباحث التى اكتنفها الإفراط والتفريط. فقد شبه البعض صفات الله بصفات مخلوقاته، حتى اعتبروا صفاته سبحانه زائده على ذاته على غرار صفاتنا الزائده على ذاتنا من قبيل العلم والقدرة وسائر الصفات، فقد كنا لانعلم يوماً ثم أصبح لنا علم، ولم نكن أقوياء ثم أصبحنا كذلك، وهكذا اعتقدوا اشتماله سبحانه على هذه الصفات المشوبه بأنواع النقص، ثم اندفعوا أكثر من ذلك ليصوروا له سائر ما لخلقه من جسم وزمان ومكان وجهه، بل ويد ورجل وشعر مجعد وأمثال ذلك.

بينما خالف البعض الآخر هذا الاتجاه تماماً حتى قال بتعطيل معرفه صفات الله، فزعم أننا

ص: ١٨

١-١) سورة الشورى/١١. [١]

٢-٢) سورة طه/١١٠. [٢]

لانعرف شيئاً عن صفات الله ولا يسعنا ادراكها، وكل ذلك حذراً من التورط في مستنقع التشبيه الذي هوى فيه الفريق الأول.

والحق أنّ الفريقين الأول والثاني على خطأ، فهما لم يستضيئاً بنور الوحي وهدى أئمة العصمة عليهم السلام، ومن هنا غرقا في هاله من الظلام الدامس والجهل المطلق. ولو التزما وصيه أمير المؤمنين على عليه السلام لما قالوا بالتعطيل ولا التشبيه، ولا قنعنا بالمعرفة الإجمالية - التي وردت في العبارات القادمة من هذه الخطبة - ولركنا إلى القرآن وكلمات المعصومين عليهم السلام ليصونا أنفسهما من الزلل والانحراف ولاكتفيا بما وردت عنهم عليهم السلام من كلمات في صفاته سبحانه، دون أن يحكموا عقولهم القاصره بهذا المجال فليس للعقل من فعالية تذكر في هذا الخصوص دون الاستناد إلى الوحي ومعادنه الواضحة، فالحق أنّ هذا الوادي خطير فلا ينبغي أن يقتصوه، وأنه بحر لجي لا ينبغي لسهم أن يلجوه. فهي ظلمات بعضها فوق بعض ولا يمكن اختراقها إلا بمعونه من كشفت له.

جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبر عما ورد في القرآن بالفرض وسنه المعصومين عليهم السلام بالأثر، ولعل هذا الاختلاف في التعبير بينها يشير إلى حقيقته وهي لزوم ووجوب التعرف على ما جاء في القرآن في باب صفات الله سبحانه. وما وصل عن المعصومين عليهم السلام إنّما هو مبين ذلك الذي جاء في القرآن.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه بالغه الأهمية وهي هداية الراسخين في العلم عن الانحراف في معرفه الحقائق القرآنية وذلك لتسليمهم وقرارهم بما خفى عنهم، فاذعنوا لعجزهم عن الخوض فيما غاب عن علمهم. فمدح الله سبحانه هذا الاذعان والاعتراف «واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبه دون الغيوب، الاقرار بجمله ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً»، ثم أوصى عليه السلام بالاكْتفاء والقناعه بهذا المقدار دون تحكيم العقل في الاحاطه بعظمه الله؛ الأمر الذي يؤدي إلى الهلاك «فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمه الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين». فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد حذر ذلك السائل الذي سأل عن

صفات الله في أن صفات الله - وعلى غرار كنه ذاته - ليست ميسره لأي من الناس؛ وذلك لأنها غير محدوده، بينما محدود هو الإنسان في وجوده وذاته وعلمه، ليس للمحدود أن يحيط بكنهه وحقيقته الذات والصفات اللامحدوده. وبناءً على ماسبق فالسبيل الوحيد في مثل هذه الأمور هو الاكتفاء بالمعرفه الإجماليه، ونعني بذلك الوقوف على هذا الأمر من خلال آثاره سبحانه التي ملأت عالم الوجود، دون إدعاء معرفه كنه الذات، فنقف على علمه سبحانه وقدرته وسائر صفاته على نحو الإجمال دون الاحاطه بهذا العلم والقدره وما إلى ذلك من الصفات، من خلال تأمل النظام العجيب والمذهل الذي يسود عالم الوجود. ولا بأس هنا بالاستعانه بهذا المثال من عالم المخلوقات؛ فاننا نعلم بوجود ذات وصفات أغلب موجودات وكائنات عالم الخلقه، بينما لانعلم كنهها وحقيقتها. كما نعلم بوجود الزمان والمكان الذان يجريان على حياتنا، ولكن ماحقيقه الزمان والمكان؟ هذا هو الموضوع الذي عجز عن إدراكه كبارالفلاسفه فقدموا لهما عدّه نظريات. كلنا نعلم بوجود الجاذبيه و نلمس آثارها إلّا أنّ أحد لا يعرف ماهي حقيقه الجاذبيه؟ فهل هي أمواج خاصه؟ أم ظاهره مجهوله تؤثر من مسافات بعيدة؟ وأوضح من ذلك أننا ندرك جميع الأشياء بعقولنا، لكن ماحقيقه العقل؟ ليس هناك من إجابة واضحة فالواقع هو أننا نكتفي بالمعرفه الإجماليه في أغلب ظواهر عالم الممكنات دون العلم التفصيلي بها، وعليه فليس من الغرابه أن نتعرف سطحياً على نحو الإجمال على ذات وصفات الحق سبحانه واجب الوجود دون أن يكون لنا علم تفصيل بها.

وعليه فمن الواضح أنّ الاصرار على إدراك كنه هذه الذات والتعمق في الصفات امّا أن تزيد من حيرتنا وذهولنا، أو أن تقذف بنا في متاهات الضلال ومستنقع التشبيه و تشبيه الخالق بالمخلوق؛ و هو الهلاك المعنوي الذي حذر منه الإمام عليه السلام بقوله: «فتكون من الهالكين» .

تأمل: الراسخون في العلم وتفسير المتشابهات

هنا يقتدح إلى الأذهان هذا السؤال: صرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبه قائلاً: «ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبه دون الغيوب، الاقرار بجمله ما

جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً» ونعلم أنّ عبارته عليه السلام إشاره إلى الآيه السابعة من سوره آل عمران «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فتأويل الآيه هو أنّ الله وحده العالم بتأويل آيات القرآن المتشابهه والراسخون في العلم يعربون عن عجزهم إزاء ذلك؛ أى أنّ جملة والراسخون إستثنافيه. إلّا أنّ ما ورد في أغلب روايات الأئمه المعصومين عليهم السلام ولعلها تربو على الثلاثين روايه أنّهم عليهم السلام قالوا: «نحن الراسخون في العلم» معطوفه على الله. والسؤال المطروح: كيف يمكن حل هذا التضارب بين ما ورد في خطب نهج البلاغه وما جاء في الروايات؟ وبعبارة أخرى: هل للراسخين في العلم من معرفه بمتشابهات القرآن واسرار صفات الحق سبحانه وتعالى؟ أم أنّهم استحقوا صفه الرسوخ في العلم بسبب قناعتهم بذلك العلم الإجمالي وعدم التعمق في ما وراء ذلك؟

هناك عدّه روايات ذهبت إلى التصريح بالمعنى الأول، ويصعب تجاهل كل هذه الروايات. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الخطبه التي نحن بصددّها تؤيد المعنى الثاني، وهذا ما أصاب أغلب محققي المسائل الإسلاميه والمفكرين بالحيره والذهول. إلّا أنّ قدراً من الدقه من شأنه أن يجمع بين المعنيين وإزاله ذلك التضارب، ولا يتيسر ذلك من طريق واحد بل من طريقين:

الأول: أنّ الراسخين في العلم مهما كانت منزلتهم وعلو مقامهم حتى الأئمه المعصومين عليهم السلام فليس لهم ذاتاً العلم بمتشابه القرآن وأسرار صفات الحق سبحانه؛ وما علمهم إلّا من ذلك التعليم الإلهي والوحي والالهام الغيبي. وهذا ما ذكرناه مسبقاً في بحث علم الغيب والشفاعه بشأن الآيات القرآنيه النافيه لعلم الغيب عن أولئك الكرام عليهم السلام والآيات المشتهه لهم علم الغيب في أنّهم لا يتمتعون ذاتياً بهذا العلم، وان كان لديهم من علم فبتعليم الله، كما أنّهم لا يمتلكون الشفاعه ذاتاً، ولا يشفعون إلّا بأذنه وإلّا لمن ارتضى له الله.

الثاني: أنّ المتشابهات و أسرار المعارف الدينيه المعقده على نوعين: نوع يعلمه الراسخون في العلم (كتفسير أغلب متشابه القرآن). أمّا النوع الثاني المرتبط بتفسير الآيات القرآنيه ذات الصله بذات الله وصفاته. فالعلم التفصيلي به ليس ميسراً لأي إنسان، وكل ما يسع الإنسان

إدراكه فعلى أساس المعرفة السطحيه والعلم الإجمالي الذى ورد بيانه سابقاً. بعبارة أخرى: فإنّ المشابهات على قسمين؛ قسم يعلمه المعصومين عليهم السلام والراسخون فى العلم، وآخر يتعلق بذات الباري وصفاته لا- يعلمه أحد من الناس، والروايات المذكوره ناظره إلى القسم الأول، بينما التى نشرحها وارده فى القسم الثانى.

والنتيجه فإنّ الواو فى الآيه الشريفه عاطفه، ومفاد الآيه هى علم الله والراسخين فى العلم بتفسير المشابهات، أمّا العبارة الوارده فى الآيه: «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فهى عبارة منفصله تعالج بعض المسائل من قبيل كنه الذات والصفات أو زمان القيامة وأمثال ذلك (1).

ومن هنا يتضح ما تعارف بين العلماء الأعلام من أنّ صفات الله توقيفيه؛ أى لا ينعت سبحانه إلّا بتلك النعوت والأسماء التى وردت فى الكتاب والسنة. وإلّا لو فسح المجال أمام الأفكار البشريه لتأخذ سبيلها إلى أسماء الله وصفاته، لنعته بما لا يليق بشأنه بفعل قصر هذه الأفكار واقتصار تعاملها مع الممكنات المعروفه بالحدود. ومن هنا وردت التحذيرات التى تميط اللثام عن مدى المخاطر التى تعترض هذا السبيل لو سلك دون الاستضاءه بنور الكتاب وهدى السنه المطهره. لذلك ردّ الإمام عليه السلام على السائل عن صفات الحق سبحانه وتعالى بالقول «فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضىء بنور هدايته، . . . إلى أن يقول عليه السلام فاقصر على ذلك، ولا تقدر عظمه الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين» .

ص: ٢٢

١- ١) قال ابن أبى الحديد فى شرح هذه الخطبه يمكن أن تكون جمله يقولون نصباً على أنّه حال من الراسخين، ويمكن أن يكون كلاماً مستأنفاً، أى هؤلاء العالمون بالتأويل، يقولون: آمنّا به (٤/٤٠٤) .

«هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتْ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطِعَ قُدْرَتِهِ وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبْرَأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسْوَاسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ وَتَوَلَّهَتْ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّتِهِ صِفَاتِهِ وَغَمَضَتْ مَدَاخِلَ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلَ عِلْمَ ذَاتِهِ رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِي سَيْدِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجُورِ الْإِعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ أُولَى الرُّؤْيَا خَاطِرَهُ مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه بالتطرق إلى ما أورده سابقاً بشأن عجز العقول البشريه عن إدراك صفات الله سبحانه بعبارات عميقه وورصينه. كاشفاً النقاب عن حقيقه من خلال قضيه شرطيه - بأربع جمل شرطيه معطوفه على بعضها جزائين للشرط - وهي أنّ الإنسان مهما كان عميقاً في تفكيره جاداً عن طريق العقل والشهود لبلوغ كنه صفات الله سبحانه، فإنّ ذلك لن يتكامل بالنجاح ولا- ينبغي أن يكتب له النجاح؛ وذلك لأنّه ذات فوق: «ما لا- يتناهى بما لا يتناهى»، فعقول الناس قاصره من جميع الجهات فقد قال عليه السلام: «هو القادر الذي إذا ارتمت (1)»

ص: ٢٣

١ - ١) «ارتمت» من ماده «رمى» على وزن نهى تعنى اطلاق السهم، ولما كان السهم يتحرك بسرعه فان جمله «ارتمت» تعنى سرعه حركه الأفكار.

الأوهام، لتدرك منقطع (١) قدرته. وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولت (٢) القلوب إليه، لتجرى في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا- تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب (٣) مهاوى (٤) سدف (٥) الغيوب، متخلصه إليه سبحانه. .

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة عوامل للبحث في إطار السعي لمعرفة كنه الصفات؛ الأول: الأفكار العاديه الملوثة، والثاني الأفكار المنزهه عن الوسوس، والثالث: القلوب المفعمه بحب الله والتي تحث الخطى باتجاه الشهود، والرابع: والأخير العقول الحاده والدقيقه التي تعتمد الطرق الاستدلاليه والنظريه في تعاملها مع المسائل، ليصفها الإمام عليه السلام في خاتمه المطاف بالعجز عن إدراك كنه ذاته وصفاته، وأنّ لتلك الذات والصفات أنوار خاطفه تسلب العقول لبها وتردع أصحاب هذا السبيل من الخوص والتقدم. فهو كما قال الشاعر: فيك يا أعجوبه الكون غدا الفكر كليلاً

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ عاقبه حركه هذه العقول والقلوب والأوهام هو العجز، فلا ترى أمامها سوى الاعتراف بسداجه السعي وتفاهه الحركه التي ليس من شأنها الانفتاح على ذاته وصفاته، فعقول البشر قاصره عاجزه ليس لها إدراك ذلك بل لاتخطر عظمته وعزته على أفكار العلماء: «فرجعت إذ جبهت (٦) معترفه بأنّه لاينال بجور الاعتساف (٧) كنه معرفته، ولا

ص: ٢٤

- ١- (١) «منقطع» الشى ما إلح ينتهى حيث يحصل القطع عاده آخر الشى.
- ٢- (٢) «تولت» من ماده «وله» بمعنى العشق و شده حب الشى حتى تجعل الإنسان حيراناً وتصيبه بالذهول.
- ٣- (٣) «تجوب» من ماده «جوب» على وزن ذوب بمعنى القطع والثقب. فقد ورد في الايه التاسعه من سوره الفجر [١] بشأن قوم الثمود «و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد» فى اشاره الى دورهم التى كانوا يبنوها فى الجبال من جراء قطع الحجر والصخر.
- ٤- (٤) «مهاوى» جمع «مهواه» و «مهوى» تعنى فى الأصل الوادى بين جبلين، أو الحفره بين جدارين، و لما كان مثل هذا المكان مطبا، فقد وردت هذه الكلمه بمعنى الهلاك.
- ٥- (٥) «سدف» جمع «سدفه» بمعنى الظلمه.
- ٦- (٦) «جبهت» من ماده «جبهه» بمعنى الجبين با البناء للمجهول ضربت جبهتها والمراد عادت خائبه.
- ٧- (٧) «اعتساف» السلوك على غير جاده، كما وردت بمعنى مطلق الانحراف والعدول عن الشى.

تخطى ببال أولى الرويات (1) خاطره من تقدير جلال عزته». فالعبارة «إرتمت الأوهام» إشاره إلى سرعه حركه الأفكار العاديه للناس من أجل كشف عمق وسعه صفات الله. والعبارة: «حاول الفكر المبرأ...» إشاره إلى أفكار العلماء والمفكرين الذين طهروا أرواحهم من وساوس الشيطان فاصبحت أفئدتهم على درجه من الصفاء بحيث عادت كالمرآه تعكس الحقائق. والعبارة: «تولعت القلوب إليه...» اشتد عشقها حتى أصابها الوله وهو الحيره، فهي دائبه السعى وحث الخطى لمعرفة الله والانفتاح على ذاته وصفاته والعبارة: «وغمضت مدخل العقول...» إشاره إلى العقول المقتدره التي انطوت على أدق السبل النظرية الاستدلاليه. فالإمام عليه السلام أشار إلى أن الإنسان وإن حكم هذه الطرق الأربع فأنها قد تمكنه من إدراك بعض الحقائق. إلّا أن أى من هذه الطرق لا يمكنها إدراك كنه الذات وحقيقه الصفات. والحق أن هذا أروع بيان وأبلغه يصور عجز البشر عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه. طبعاً هذا ليس معلولاً لخفاء ذاته وصفاته سبحانه، بل اشتد ظهوره حتى حارت الأبصار عن الوقوف على كنهه؛ الأمر الذى نلمسه فى تعذر رؤيتنا لقرص الشمس وهل ذاك لظلامها أم لشده نورها وضوئها. فاذا كان هذا وضع الشمس التى تعد كوكباً ضائعاً ضمن ملايين الكواكب والمجرات، فما ظنك بذات الحق؟ وعبارة أخرى: فالإنسان كلما إقترب اكثر غرق فى بحر وهاله من النور والعظمه، لكى لا يجد من سبيل أمامه سوى الاعتراف بالعجز.

وبالطبع فهذا لا يعنى أننا نعتقد بتعطيل صفاته وذاته ونزعم أننا لا نستطيع مطلقاً التعرف على الله، بل ملأت آثار علمه وقدرته وذاته وصفاته عالم الوجود، بحيث نراه فى كل مكان ونستمع لتسبيحه وتنزيهه فى كل موضع؛ وإن كان علمنا على نحو الإجمال لا التفصيل.

ص: ٢٥

«الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ وَلَا مِقْدَارٍ اخْتَدَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتٍ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمَسَاكٍ قُوَّتِهِ مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ فَظَهَرَتْ الْبِدَائِعُ الَّتِي أَخَدَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ خَلْقًا صَامِتًا فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةً وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ» .

الشرح والتفسير

جرى حديث الإمام عليه السلام سابقاً عن التحذير في التعمق في كنه الذات والصفات، وذلك لتعذر إدراكها على العقل البشري مهما كانت إمكاناته. فواصل هنا الكلام وبغية عدم تصور غلق باب معرفه الله فتطرق عليه السلام على نحو الإجمال إلى طرق معرفه ذاته وصفاته ليكشف عن حقيقه فحواها سمو هذه الذات وغناها المطلق عن الحدود. فهو الذى أفاض الوجود على المعدومات دون الاحتذاء بمثال سابق، أو الاستمداد من خالق آخر «الذى ابتدع الخلق على غير مثال امثله ولا مقدار احتذى عليه، من خالق معبود كان قبله». فالعبارات إشاره إلى أزليه ذاته المقدسه سبحانه من جانب، ومن جانب آخر أنّ مخلوقاته قد وجدت دون تجربه وسابقه؛ فهو خلق جديد وتام بكل معنى الكلمه.

وتعتبر مسأله «الابداع» (الخلق دون تجربه) من المسائل المهمه. حيث تتضح هذه الأهميه من خلال العلم بأن كافه الابداعات والاختراعات البشريه إنّما تستند لما قبلها من الأمثله فى

عالم الخلقه. فهي تقتدى أحياناً في عملها بظاهرة من ظواهر مختلفه في ما تقوم به من إبداع، و أحياناً أخرى بظواهر تركيبه و تليفه مختلفه بالضبط كالرسم الماهر الذي يعكس بريشته بعض الصور الرائعه والجميله بالاستناد إلى من سبقه في الرسم والتصوير. فبالطبع لولا وجود هذه الصور والأشياء لما وسع ذلك الرسام هذا الإبداع والجمال. أمّا الحق سبحانه فليس كذلك فعمله الإبداع دون الاقتداء بالمثل وليس ذلك لأحد سواه. وقد مرّ علينا شبيه هذا المعنى البديع في الخطبه الاولى من نهج البلاغه بعبارة عليه السلام «أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً. . .». ثم قال عليه السلام موضحاً ما أورده أن أَرَانَا مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ وَالْآثَارِ الْحَالِيَةِ عَنْ تَنَاهَى حِكْمَتِهِ وَحَاجَةِ كَافَةِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ بِمَا يَدْعُونَا تَلْقَائِيَا إِلَى مَعْرِفَتِهِ: «وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَعَجَائِبِ مَانَطَقَتِ بِهِ آثَارِ حِكْمَتِهِ، وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يَقِيمَهَا بِمَسَاكِ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ» بعبارة أخرى فإنّ الله سبحانه قد أبان آثار قدرته في عالم الوجود وهي تجرى وفقاً لنظام دقيق وقوانين معقده تفيد أنّ الإبقاء عليها يتطلب علمه وتدييره الحكيم. فذرات الكون برمتها محتاجة إليه في خلقها وكذلك في ادامة حياتها واستمرارها، وهي تحكى بكافه تفاصيلها عن تناهى قدرته وحكمته. بما يجعل الإنسان يقر بضعفه وعجزه والاستضاءه بنور معرفته. ثم واصل الإمام عليه السلام قائلاً: «فظهرت البدائع التي أحدثتها آثار صنعته وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجه له، ودليلاً عليه؛ إن كان خلقاً صامتاً، فحجته بالتدبير ناطقه، ودلالته على المبدع قائمه» (١) نعم فقد غصت أرجاء العالم بعلمه وقدرته وشع نور التوحيد من جبين كافه مخلوقاته وكائناته سبحانه. كما عطر فضاء العالم بحمده وتسيحه «سَدِّ نُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (٢).

وهو المعنى الذي عبر عنه أبو العتاهيه حين أنشد قائلاً: (٣) فيا عجا كيف يعصى الاله

ص: ٢٨

١- (١) الضمير في حجته ودلالته يعود إلى الخلق لا الخالق.

٢- (٢) سورة فصلت/٥٣. [١]

٣- (٣) الكنى واللقاب ١/١٢١. [٢]

نعم فاینما ولیت وجهک طالعتک آیات الله، وإذا أعرت أذنک أی کائن طرقت سمعک ألسنه حال التسیح والتقدیس. فما أكثر الأدله والبراهین التي تجعلک تدرك تلك الذات المقدسه، أنها تمتد لتشمل عدد أوراق الأشجار وقطرات المطر والذرات وخلايا البدن ونجوم السموات والمجرات، وبالتالي جميع ذرات وجود هذا العالم.

والعباره «ما دلنا باضطرار قیام الحجه» لا تعنی أننا نذعن علی نحو الإجبار بوجوده المقدس، بل تعنی أنّ الدلائل علی وجوده علی درجه من الظهور بحيث لم یبق معها مجال لانکار. کمثل من أحضر إلی المحکمه وقد نصبت للشهاده علیه الأفلام والأشرطه والشهود والقرائن المختلفه، بحيث لا یسعه التنکر لاعماله وأفعاله. فیعبر هنا بانه مضطر للاقرار، فهذا لا یعنی أنه ارغم علی الاقرار من خلال ممارسه الضغوط والتعذیب، حیث أنّ المسأله علی قدر من الوضوح، بحيث لا یسعه الانکار.

والعباره: «فحجته بالتدبیر ناطقه، ودلالته علی المبدع قائمه» إشاره إلی أنّ تدبیر عالم الوجود دلیل علی علمه المطلق وقدرته، كما أن تنوع موجودات العالم المفعمه بالابداعات المذهله هو الآخر دلیل علی قدرته المطلقه وعلمه.

«فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَيَّائِنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَتَلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِّبِهِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينَ بِأَنَّهُ لَا نَدَّ لَكَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَثْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نَسَّوْكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِحُكْمِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَضْيَانِهِمْ وَنَحَلَّوْكَ حَلِيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَجَزَّوْكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخَلْقِ الْمُخْتَلِفِ الْقَوَى بِفَرَاحِ عُقُولِهِمْ».

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام هنا ثانيه إلى بيان صفات الله سبحانه وتعالى، محذراً من الاقتراب من وادى التشبيه، فلعل دلائل وجود الله في عالم الخلق والبحث عن آثار عظمته في كل موضع من مواضع هذا العالم توسوس للإنسان أن يعتقد ببعض الصفات لله على غرار صفات مخلوقاته، حتى أنه ليستقط في مطب التجسيم على الله، ليراه جسمًا كسائر مخلوقاته.

ومن هنا ابتهل الإمام عليه السلام إلى الله قائلًا: «فأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم (١) حقاك (٢) مفاصلهم المحتجبه لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا- ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من

ص: ٣١

١- (١) «تلاحم» من ماده «لحم» بمعنى الاتصال، شبيه اتصال عضلات الجسم.

٢- (٢) «حقاق» جمع «حقه» وهو رأس العظم عند الفصّل.

المتبوعين إذ يقولون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين» .

فهذه العبارات إشاره واضحه إلى ضلال المجسمه أو المشبهه وشركهم وكفرهم، حيث جعلوا الله جسماً ذا أعضاء ويد ورجل وعين واذن فهووا وافى وادى التشبيه ليروه سبحانه مخلوقاً ضعيفاً وعاجزاً فانياً، حتى عبر عنهم القرآن فى الآيه الشريفه بأنهم على ضلال مبين.

والعباره: «من شبهك بتباين أعضاء خلقك» إشاره إلى من له جسم، وجسمه مركب من أعضاء مختلفه. والعباره: «تلاحم حقاك مفاصلهم» إشاره إلى الارتباط السائد بين الأعضاء وبناء على هذا فإن أعضاء البدن منفصله عن بعضها البعض ومنظمه مع بعضها أيضاً، وهذا من حكمه الله فى خلقه المخلوقات، بحيث لولا- اشتماله على الأعضاء المختلفه لتحددت أعمالها، كما لو كانت منفصله تماماً لتعذر تعاضدها وتعاونها فى القيام بانشطتها وفعاليتها. كما أن البارئ بحكمته ولطفه قد أخفى هذا الارتباط بين الأعضاء تحت طبقات اللحم ليصونها من مختلف الحوادث الخارجيه. ولا يمكن تصور هذا الأمر إلأى عالم الخلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو منزه عن الأجزاء والأعضاء ولا يحتاج إلى الجسم.

فالإمام عليه السلام يشير إلى أن هؤلاء الأفراد الجهال قد إصيبوا بثلاثه انحرافات: الأول: عدم معرفتهم الحقيقه لله، الثانى: عدم اعتقادهم بوحدانيته، الثالث: أنهم لم يسمعوا آيات القرآن ولم يفتحوا على تعليمات هذا الكتاب السماوى، ومن هنا شهدوا على أنفسهم بأنهم «فى ضلال مبين» . أمّا يوم القيامه حين ترفع الحجب وتتضح الحقائق سرعان ما يقفون على خطأهم، فيتبرأ التابع من المتبوع ويلعن بعضهم بعضاً ولا- يملكون سوى الندم والخجل يوم لا ينفع الندم؛ الأمر الذى ورد بشكل صريح فى هذه الخطبه.

الجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام قد نسب كلامه السابق إلى الناس، ثم انتقل هنا إلى الله؛ الأمر الذى ينبه إلى خطوره القضيئه التى حذر منها لأن التأمل فى الكلام يتوقف على درجه ومكانه المخاطب فكيف به إذا صدر من المشفق. ثم واصل عليه السلام الحديث عن طائفه أخرى من المنحرفين - أى المشركين والوثنيين الذين يعدون جزء من المشبهه - فقال «كذب العادلون (١) بك، إذ

ص: ٣٢

١- ١) «عادل» ماده «عدل» على وزن قشر بمعنى المعادل والشبيه والنظير والعاادلون بك الذين عدلوا بك غيرك، أى سووه بك وشبهوك به.

شبهوك بأصنامهم، ونحلوك (١) حليه المخلوقين باوهمهم، وجزأوك تجزئه المجسمات، بخواطرهم، وقدروك على الخلقه المختلفه القوى بقرائح (٢) عقولهم» فقد نفى الإمام عليه السلام بهذه العبارات الرصينه القاطعه - والتي بينت بأربع صور - كافه أنواع الشرك والتشبيه لله سبحانه بمخلوقاته، وتحذر الجميع من السقوط فى مستنقع الشرك والتشبيه، إلى جانب تعيين الحد الفاصل بين توحيد الموحدين وشرك المشركين. ففى العبارة الاولى نفى التشبيه بالأصنام.

والعبارة الثانيه صرحت ببطلان اصفاء صفات الزينه للمخلوقات على الله (من قبيل وصفه من بعض الجهال بأنه فتى جميل أمرد له شعر مجعد) .

والعبارة الثالثه التى تنفى عنه التركب من الأجزاء والأعضاء من قبيل اليد والرجل. والعبارة الرابعه سداجه الاعتقاد باتصافه بمختلف الحواس (التي لمخلوقاته) من قبيل البصره والسامعه والشامه وهكذا تتحطم معاقل الشرك من مختلف الجوانب.

تأمل: من هم المجسمه؟

تطلق المجسمه (بكسر السين) على من نسب الجسميه لله وهم الذين يقولون بأن له يد ورجل واذن وعين، كما يقال لهؤلاء المشبهه بكسر الباء، وذلك أنهم يشبهون الله سبحانه بمخلوقاته الماديه. ويبدو أن مثل هذا الاعتقاد كان سائدا بين أفراد البشر منذ قديم الزمان حيث جعلهم قصر فكرهم يعجزون عن تصور ماوراء هذه الطبيعه الماديه، حتى ألقوا الماديات والجسام فظنوا أن الله سبحانه مثلهم أو كسائر الأجسام الماديه. ومن هنا نشأ الاعتقاد بسائر المعبودات كالشمس والقمر والكواكب وسائر أجسام المشابهه. ويفيد تاريخ اليهود رسوخ عقيدتهم بجسميه الحق سبحانه وتعالى، ومن ذلك مدى اصرارهم على نبيهم موسى عليه السلام فى أن يريهم الله سبحانه جهره ولا تخفى علينا قصه جبل الطور والصاعقه التى

ص: ٣٣

-
- ١- ١) «نحلوا» من ماده «نحل» بمعنى الهبه والعطيه، وحليه المخلوقين صفاتهم الخاصه بهم من الجسمانيه ومايتبعها.
 - ٢- ٢) «قرائح» جمع «قريحه» تعنى فى الأصل أول ماء يسحب من البئر، ثم اطلقت على النتاجات الفكريه الذوقيه للإنسان.

أخذت طائفه من بنى إسرائيل فبعد أن نجى بنى اسرائيل من البحر أتوا موسى عليه السلام وقد مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالو لنيهم موسى عليه السلام اجعل لنا إلهاً كما لأولئك، بل لم يثوبوا إلى رشدهم حتى بعد أن أخذتهم الصاعقه، ثم سارعوا لعباده العجل الذى أخرجه لهم السامرى، حتى ضلت فيه جماعه من بنى اسرائيل. فرجع اليهم موسى عليه السلام غضبان أسفاً وآخذهم بما فعلوا.

تاريخ النصارى أيضاً يشهد بأن عقيدته التثليث (الله والابن والروح القدس) كانت شائعه بين النصارى والتي تفيد القول بالجسميه على الله. فهم يصرحون جهره بأن المسيح عليه السلام ابن الله وأنه أحد الآلهه الثلاث. والحال لم يكن المسيح عليه السلام سوى بشراً من سائر الناس.

ولما نزل القرآن الكريم على صدر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أبطل هذه العقائد الفاسده بما فيها القول بالتجسيم والتشبيه. والشاهد على ذلك الآيات القرآنيه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (١) و: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» (٢) و «لَنْ تَرَانِي» (٣) و «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» (٤) و «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (٥) و «فَأَيْنَمَا تُولُوْنَا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» (٦) التى تنفى جسميه الله سبحانه وتعالى. إلّا أن المؤسف له هو أن بعض الأفكار الانحرافيه الموروته من الأمم الوثنيه واليهوديه والنصرانيه والمجوسيه قد وردت الإسلام لتخترق عقائد بعض السذج من المسلمين الذين اصطلح عليهم بالمجسمه أو المشبهه.

ولعل بعض التعبيرات الكنائسيه التى وردت فى بعض الآيات القرآنيه من قبيل الآيه الكريمه: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (٧) والآيه: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» (٨) قد أصبحت ذريعه لدى بعض المنحرفين من أصحاب النظره القاصره والأفكار الضيقه و المنحرفه ليحثوا الخطى نحو هذه المذاهب المشركه الفاسده؛ والحال من المسلم به أن اليد فى الآيه تعنى القوه

ص: ٣٤

١-١ (١) سورة الشورى/١١ [١]

٢-٢ (٢) سورة الانعام/١٠٣. [٢]

٣-٣ (٣) سورة الأعراف/١٤٣. [٣]

٤-٤ (٤) سورة الحديد/٤. [٤]

٥-٥ (٥) سورة ق/١٦. [٥]

٦-٦ (٦) سورة البقره/١١٥. [٦]

٧-٧ (٧) سورة الفتح/١٠. [٧]

٨-٨ (٨) سورة طه/٥. [٨]

والقدره واستوى بمعنى السلطه والسيطره، لا بمعنى الجلوس والاستقرار على الشىء، وبالطبع فإن هذه الكنايات كانت سائده لدى مختلف الأقوام قبل نزول القرآن وبعده، من قبيل قولهم، ليس له يد على هذا الأمر، وهكذا فإن مفرد الاستواء التى تستعمل بشأن استيلاء سلطان وسيطرته على بلاد.

وناهيك عما سبق فإن الأدله العقلية والمنطقية هى الأخرى تنفى بوضوح أية جسميه عن الله؛ لأن كل جسم محدود وله زمان ومكان واجزاء، وعليه فهو محتاج من مختلف الجهات، ونعلم أن ليس للحاجه والمحدوديه من سبيل إلى ذاته المطلقه سبحانه. والأهم من كل ذلك أن كافه الأجسام يعترئها التغيير بل وحتى الزوال، فى حين ليس لهذا التغيير والزوال أن يدنس ساحه كبريائه وعظمته.

ورغم كل ما مرّ من أدله واضحه، فمما يؤسف له - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - فإن عقيدته الجسميه المنحطه قد طالت جمعاً من جهال المسلمين حتى أوغلوا فى الانحراف والضلال، و حسب ما نقله «المحقق الدوانى» فان البعض يعتقد بأنّه جسم مركب من لحم ودم تنبعث منه أشعه قضيه شفافه وله قامه من سبعة أشبار، كما اعتقد البعض الآخر بانه على هيئه شاب أمرد له شعر مجعد حسب ما ذكره المحقق الدوانى بشأن هذه الفئات الضاله.

فقد أورد العلماءه الحلّى فى كتابه منهاج الكرامه قصه عن بعض المجسمه، لا بأس أن أنقلها. فقد حكى عن بعض المنقطعين التاركين من شيوخ الحشويه أنه اجتاز عليه فى بعض الأيام نفاط ومعه أمرد حسن الصوره ققط الشعر على الصفات التى يصفون ربهم بها. فألح بالنظر إليه ليلاً وكرره، فتوهم منه النفاط أمراً، فجاء إليه ليلاً وقال له: رأيتك تلح بالنظر إلى هذا الغلام وقد أتيتك به، فان كان لك فيه نيه فأنت الحاكم. فرد عليه وقال: إنّما كررت النظر لأنّ مذهبي: أن الله ينزل على صوره هذا الغلام، فتوهمت أنّه الله. فقال له النفاط: والله ما أنا عليه من النفاطه أجود ممّا أنت عليه من الزهد مع هذه المقاله. (١)

ص: ٣٥

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنْزَلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجْجِ بَيِّنَاتِكَ وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَنْهَاهُ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيِّفًا وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونُ مَحْدُودًا مُصَرِّفًا» .

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام هنا مره أخرى إلى قضيه انحراف المشركين والقائلين بالتشبيه، ليشهد عند الله ثانيه بانحرافهم، وما ذلك الا- لسماع المخاطبين وتحذيرهم من الوقوع فى هذا المستنقع التتن. فقد قال عليه السلام: «وأشهد أن من ساواك بشى من خلقك فقد عدل بك، والعاذل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك» .

يبدو أن هناك فارقا بين شهاده الإمام عليه السلام هنا فى انحراف المشركين، وتلك الشهاده السابقه. حيث وردت فى طائفتين. فالشهاده السابقه إنما وردت بشأن الوثنيين الذين شبهوا الله بالأوثان والأصنام واتخذوها أرباباً من دون الله. أى كانوا يسألونها حاجاتهم ومن هنا عبدوها واتخذوها آلهه. أما الشهاده التى وردت هنا فهى ناظره لأولئك الذين سواوا به بعض خلقه فى جميع الجهات، كالثنويه من الوثنيين الذين يعتقدون بوجود إلهين هما إله الخير وإله الشر، والنصارى القائلين بالتثليث (الأب والابن والروح القدس). فقد اعتبر الإمام عليه السلام هؤلاء كافرين بمحكمات القرآن والحجج البينه: «كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك» يمكن ان تكون العبارة «محكمات الآيات» و «الحجج البينات» كلاهما

إشاره إلى آيات تنفى صراحه أى نظير وشبيه لله، من الآيه الشريفه «قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا» (١) والآيه: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٢).

كما يحتمل ان يكون المراد بالآيات المحكمات آيات توحيد صريح القرآن الكريم والحجج البينات الأدله العقليه التى تنفى عن الله سبحانه أى شبيهه ونظير.

ويؤيد هذا الاحتمال العبارات اللاحقه: «وأنتك أنت الله الذى لم تتناه فى العقول، فتكون فى مهب (٣) فكرها مكيفاً، ولا فى روايات خواطرها فتكون محدوداً مصرفاً» .

فقد أشار الإمام عليه السلام فى العبارة الاولى إلى عدم إدراك العقول لكنه ذاته وصفاته سبحانه التى أشير إليها فى بدايه الخطبه. كما أشار فى العبارة الثانيه إلى عدم إحاطه الأفكار بهذه الذات المطهره، وذلك لأن هذه الأفكار لو أحاطت به، لكان محدوداً بالضروره، وما كان محدوداً طراً عليه التغيير والزمان والمكان والجهات الأخرى.

ص: ٣٨

١-١ (١) سورة فصلت / ٩. [١]

٢-٢ (٢) سورة البقره / ٢٢. [٢]

٣-٣ (٣) «مهب» اسم مكان من ماده «هبوب» بمعنى موضع هبوب الرياح، وقد شبهت العبارة المذكور الفكر بالنسيم الذى يهب من موضع؛ إلّا أنّ كنه ذات الله وصفاته سبحانه خارجه عن ذلك الموضع.

ومنها: «قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ وَوَجَّهَهُ لَوَجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ وَلَمْ يَسْتَضِعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ» .

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام هنا مره أخرى بعالم الخليقه والتدبير الإلهى فى تنظيم شؤون الخلق وأن هذا التدبير والنظام إنما يستند إلى جلال الحق وجماله، الذى خلق كل شىء بمقدار واخضعه لتدبيره وهداه إلى سبيله: «قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجه لوجهته» وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد بين المراحل الثلاث «التقدير» و «التدبير» و «التوجيه» . فالتقدير خلق الكائنات بمقدار، والتدبير إداره شؤونها وفق الخطه والمسيره المرسومه لها، والتوحيد تمهيد السبيل وإعداد الظروف اللازمه لهذه الحركه من أجل بلوغ الهدف وتحقيق الغايه، حيث تسير كل هذه المراحل على ضوء برنامج معين منظم غايه فى الدقه بالشكل الذى لم يدع مجالاً لكائن من كان أن يسير بطريق عشوائى، لا- فى انبثاق خلقه ولا فى ديمومته بحيث يشذ عن ذلك النظام والقانون. ومن هنا أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر فى أن أحداً من الموجودات لم يتجاوز حدوده، ولم يقصر فى بلوغ الهدف، ولم ينطلق فى حركته الاعلى أساس اراده الله سبحانه وأنى له التمرد على هذه الإراده التى تستند إليها جميع الإرادات: «فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستعصب إذ أمر بالمضى على إرادته، فكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته؟» . فالواقع هذه العبارات تحول دون التصور بأنه حركات كافه

الكائنات الأرضيه والسماويه بما فيها النباتات والحيوانات والناس والكواكب واجتيازها لمراحل النحو والتكامل يجرى بصورة عشوائيه. فهي تسير بوحي من أمره وإرادته على ضوء الخطه المعده لها سلفاً ولايسعها تخطى تلك الخطه بأى حال من الاحوال. وعليه فعالم الوجود يدار بمنتهى النظام والدقه. و لعلنا نلمس الإشاره إلى المراحل الثلاث المذكوره فى الآيات القرآنيه، ومن ذلك الآيات ٣٨-٤٠ من سوره يس: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذِيكُ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» .

ناهيك عن سائر الآيات القرآنيه التى أشارت إلى هذه الحقيقه وهنا لابد من الالتفات إلى أمرين: الأول هو أنّ ما ورد فى العبارات المذكوره بشأن الأوامر و تبعيه المخلوقات للمشيئه الإلهيه إنما هو إشاره إلى الاوامر التكوينيّه، أو بعباره أخرى: إشاره إلى القوانين التى أوجدها الله سبحانه فى عالم الوجود وسيره على أساسها، بالشكل الذى يحول دون تجاوزها لهذه القوانين. والأمر الثانى أنّ هذا الكلام لا يعنى إجبار الإنسان على أفعاله وذلك لأنّ الله سبحانه جعل صفه الاختيار وحرية الإراده أحد تلك القوانين التى تسير عالم الوجود، وليس للإنسان قط أنّ يسلب نفسه هذه الصفه، وعباره أخرى فإنّ حرية الإنسان أيضاً بأمره سبحانه وتعالى.

«الْمُنَشَى أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلا رَوِيهِ فِكْرِ آلِ إِلِيْهَا، وَلَا قَرِيحِهِ غَرِيْزِهِ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلَا تَجْرِبِهِ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ وَلَا شَرِيكِ أَعَانَهُ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِبَطَانَتِهِ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِطِيِّ، وَلَا أَنَاةُ الْمُتَلَكِّيِّ، فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْدَهَا، وَنَهَجَ حُدُودَهَا، وَلَاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاساً مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالْأَقْدَارِ، وَالْغَرَائِزِ وَالْهَيْئَاتِ، بِدَايَا خَلَائِقِ أَحْكَمَ صُنْعَهَا وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَابْتَدَعَهَا» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه في كيفية خلق الموجودات على أن الله سبحانه وتعالى خلقها من دون حاجه إلى التفكير، أو غريزه مستتره في الباطن، إلى جانب الغنى عن تجارب الماضي وسالف الدهور، وبالتالي دون الحاجه إلى عضيد وشريك «المنشى أصناف الأشياء بلا رويه فكر آل إليها، ولا قريحه (1) غريزه أضمر عليها، ولا تجربه أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور» .

فالواقع هو أن أسس علمنا ومعرفتنا بالحقائق إنما تستند إلى أحد أربع: الفكر والتروى، أو الالهام الباطنى الذى يصطلح عليه بالغريزه، أو التجربة التى يحصل عليها الإنسان من

(١ - ١) قريحه: كما أسلفنا سابقاً فى الأصل، بمعنى أول ماء يخرج من البئر عند ما يحفر، و كذلك يطلق على مايتفتق من أعمال فكر و ذوق الانسان. و يشمل ذلك الغريه التى هى بمعنى الطبيعه، و هو الشىء الذى يحصل عليه الانسان بمساعدته ذوقه و طبعه. و يصح هذا المعنى أيضاً على غير الانسان، فمثلاً أكثر الطيور تقوم ببناء أعشاشها و تربيته فراخها و الهجره الطويله و بشكل جماعى و أمثال ذلك، كل هذا يتم بواسطه القريحه و الغريزه.

خلال تكرار الحوادث، و أخيراً العون الذى يحصل عليه من الاستعانه الخارجيه لأصحاب الفكر الذين يعينونه فى القيام ببعض الأعمال والابداعات. وبالطبع فإنّ الحق سبحانه وتعالى ليس بحاجة لأى من هذه الأسس والمصادر فهو العالم بكل الأشياء، وهى حاضره عنده، وليس هنالك من حقيقه خارجه عن دائره علمه المطلق. فالفكر إنّما يستفیده من كان له معلومات ومجهولات، يروم توظيف معلوماته لكشف أسرار هذه المجهولات. والالهام الغريزى إنّما يعتمد من غابت عنه الحقائق ولا تتضح له إلّا من خلال هذا الالهام. وأمّا التجربه وتكرار العمل للوقوف على النتائج فانما ترتبط بمن يجهل نتائج الأمور وأخيراً فان الاستعانه بافكار الآخرين إنّما يختص بضعف الأفراد وعجزهم إلى جانب قصور فكرهم؛ فما حاجه الذات المطلقة لمثل هذه الأمور وهى بتلك الخصائص والصفات؟

وبغض النظر عما سبق فإنّ العبارات بدورها ترشد الإنسان الجاهل إلى الظفر بمصادر المعرفه، وأنّ هذه المصادر الأربعة تمكنا من حل المشاكل التى تواجهنا فى حياتنا اليوميّه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى بهذا الشأن وهى قطعيه حاكميه قوانين الخلق على كافه الكائنات: «فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، لم يعترض دونه ريث (١) المبطى، ولا أنه (٢) المتلكى» (٣).

فهذا الموضوع إشاره أيضاً إلى قدره الله ونظامه الرصين فى عالم الخلق، حيث تسير كافه هذه الموجودات على ضوء قوانين معينه وهى مؤتمره بأمره، فهى لا تتخلف عن هذه القوانين ولا تتقدم عليها. فقد صرح القرآن الكريم بهذا الخصوص قائلاً: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» (٤).

أضف إلى ذلك فهى تشتمل على رساله واضحه لكافه الناس فى الانسجام وعالم الخلق وتبعيه هذه القوانين الإلهيه، دون التقدم عليها أو التخلف عنها، بهدف بلوغ الغايه والظفر بالفلاح والسعاده.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بالإشاره إلى خمسهِ أمورٍ جديره بالتأمل بشأن نظام الخلق وأسرار عالم

ص: ٤٢

١-١) «الريث» التثاقل عن الامر والقيام بالعمل.

٢-٢) «أنه» بمعنى الوقار المقرون بالفكر حين القيام بالعمل.

٣-٣) «متلكى» من ماده «لكأ» على وزن هدف الوقوف فى مكان، ثم اطلقت على من يتوقف فى مسأله ويفكر فيها.

٤-٤) سورة فصلت/ ١١. [١]

الخلق، الأول: استواء هذه الموجودات دون أى اعوجاج او انحراف: «فأقام من الأشياء أودها» (١) الثاني: أنه عين لها المسار الذى ينبغى لها أن تسلكه «ونهج حدودها». الثالث: تأليفه بين الأشياء المتضاده بقدرته «ولاءم يقدرته بين متضادها». الرابع: ربطها مع نظائرها «ووصل أسباب قرائنها». والخامس: تقسيمها إلى أنواع مختلفه على أساس الحدود والأجناس والمقادير والغرائز والاشكال والهيئات «وفرقتها أجناسا مختلفات فى الحدود والأقذار والغرائز والهيئات» وهكذا تمّ نظام الخلق وتكامل من جميع الجهات ليقوم بوظائفه على اختلاف أنواعه وأجناسه كوحده واحده ضمن قانون واحد. وأبعد من ذلك تعاضدت وتعاونت حتى الأشياء المتضاده لتفرز نتائج باهره، كما إتصلت الأشباه والنظائر، لتشكل بالتالى مجموعته بديعه عجيبة تشير إلى مدى قدرته المطلقة سبحانه وعلمه التام.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالقرائن فى العبارة هى نفوس البشر التى أقرها الله فى الأبدان، حيث يبدو فى الظاهر أنّ هناك تضاد بين البدن الذى ينتمى إلى عالم المادة والنفس التى تنتمى إلى عالم المجردات.

طبعاً وان كان أحد معانى القرينه (وجمعها قرائن) فى اللغة هو النفس الإنسانيه إلّا أننا لا نمتلك الدليل الذى يجعلنا نصرّف المعنى المذكور ليقصر على هذه النفس: بل الهدف هو بيان جمع الأضداد ووصل القرائن والأشباه فى جميع أنحاء عالم الوجود والذى يعد الوجود الإنسانى أحد مصاديقه، وأنّ أصل إطلاق القرينه على نفس الإنسان إنّما يعزى لاقترانها ببدنه.

ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول على أساس الخلوص إلى نتيجته واضحه: «بدايا خلائق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها» (٢).

تأمل: أوضح طريق إلى معرفه الله

يعتبر تأكيد الإمام عليه السلام على التفكير فى عالم الخلق والتأمل فى خلق المخلوقات دون

ص: ٤٣

١- ١) «أود» بمعنى الاعوجاج.

٢- ٢) الجملة من حيث النحو هى أنّ «بدايا» خير لمبتدأ محذوف تقديره هذه، واضافه بدايا إلى الخلائق من قبيل اضافه الصفه إلى الموصوف، التى تعنى فى الأصل خلائق بدايا، وبدايا جمع بديئه المصنوع البديع.

الاستغراق في ذات الله، من الأصول الأساسية في الأبحاث ذات الصلة بمعرفة الله. وذلك لأن الأول يقود الإنسان إلى الإيمان والتوحيد؛ التوحيد المفعم بالعشق والحب والاخلاص، بينما يسوقه الثاني إلى الشرك والتشبيه. أما سائر الأدلة والبراهين في معرفه الله من قبيل برهان الوجوب والإمكان والغنى والفقر التي تدور حول محور الدور والتسلسل، فهي دلائل جافه توصل إلى المعرفه إلا أنها لا تختزن أي حب أو عشق وإخلاص. والحال لم يرق نظام الخلق سوى على هذه المفردات. فقد جاء في الحديث القدسي: «كنت كنتراً مخفياً فأجبت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف». فاذا فكرنا بعظمه السموات والكواكب التي تربو على الملايين في مجرتنا فقط والحال يقول العلماء بوجود مليارات المجرات في هذا العالم. وإذا أمعنا النظر في العالم المذهل لخلايا جسم الإنسان والذي تمتاز كل خليه فيه بان بنيتها قد تنطوي عليه مدينه صناعيه من الخفايا والأسرار. وعندما نتامل التنوع العجيب للنباتات والحيوانات، وأن هناك الملايين من أنواع النباتات والحيوانات التي تعيش في أعماق الغابات والبحار والتي لم يراها أو يتوصل اليها الإنسان لحد الآن، ونقر بأن هذه الموجودات العجيبه إنما تستمد حياتها من موجودين بسيطين هما الماء والتراب. وأخيراً حين نتدبر روعه الورود والأزهار ولطافه الأوراق ودقه نظام دوره الدمويه. وعمل الاورده والشرابين المخ والدماغ وإيعازات الأعصاب، ثم نلتفت إلى أن كل هذا ليس إلا جانباً من عجائب عالم الخلقه، لانملك سوى الالتحاق بقافله هذا العالم ومشاركتها التسبيح والتقديس والحركه نحو الله، ونحن نردد ما يردده الملائه الأعلى «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» (١) و«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا» (٢) وقلوبنا مقعمه بحب الله والإيمان به والخشوع له والتواضع أمام عظمته وجبروته.

وعبارات الإمام عليه السلام الماره الذكر إشاره عميقه إلى هذه الحقائق.

ص: ٤٤

١-١ (١) سورة البقره/٣٢. [١]

٢-٢ (٢) سورة آل عمران/١٩١. [٢]

«وَنَظَمَ بِلَا تَغْلِيْقٍ رَهَوَاتٍ فُرَجِيهَا، وَلَا حَمَّ صِدْعٍ أَنْفِرَاجِيهَا، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِيهَا، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ، حُزُونَهُ مِعْرَاجِيهَا، وَنَادَاهَا بَعِيدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَالْتَحَمَتْ عَرَى أَشْرَاجِيهَا وَقَفَّتْ بَعِيدَ الْإِرْتِنَاقِ صَوَامِتِ أَبْوَابِيهَا، وَأَقَامَ رَصِيداً مِّنَ الشُّهُبِ الثَّوَابِ عَلَى نِقَابِيهَا، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تُمُورَ، فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِيهِ وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة إلى الكليات في تدبير عالم الخلق والقوانين التي تسوده، إلى جانب تنوع الموجودات وكثرتها. ويخوض عليه السلام في هذا الجزء من الخطبة والجزء القادم في جزئيات ذلك. فيتعرض بصورة عميقة بعيدة المعنى لخلق السموات والملائكة والأرض والعالم السفلى وخلق آدم وما إلى ذلك. فقد استهل كلامه بادئ ذي بدء بخلق السموات فقال عليه السلام: «ونظم بلا تعليق رهوات (1) فرجها، ولاحم (2) صدوع (3) انفراجها»

ص: ٤٥

١ - ١) «رهوات» جمع «رهوه»، قال بعض أرباب اللغة (كتاب العين) تعنى المرتفع فوق الجبال، بينما فسرها أغلب أرباب اللغة على أنها من مادة «رهو» على وزن سهو بمعنى المكان الخالي والمفتوح. والانصب أن يكون معناها في الخطبة النقاط المفتوحة. وأخير اعتبرها البعض من الأضداد؛ أي تعنى المكان المرتفع والمنخفض أيضاً.

٢ - ٢) «لاحم» من مادة «لحم» بمعنى ملاء فراغ الشئ، ما يصلح عليه باللحم، ولعل أصلها اللحم الذى يملأ الفاصله بين العظام.

٣ - ٣) «صدوع» جمع «صدع» على وزن حرف بمعنى الشق.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد أشار بالعبارة الأولى إلى ما ورد في القرآن الكريم: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» (١) ويصرح علماء الفلك بأن الكرات السماوية منفصلة عن بعضها وأنّ التوازن القائم بين القوهالجاذبه والطارده هي التي تبقى على كل واحد في موضعها. بينما أشارت العبارة الثانية إلى إرتباط أجزاء كل كره وتماسكها مع بعضها. وعليه فليس هنالك من تضاد بين العبارتين «ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، ولاحم صدوع انفراجها». فالأولى ناظره للكل والآخرى للأجزاء (ووحده الضمائر هنا لا تسبب أى اشكال، لأنهما تعودان إلى السموات، أحدهما إلى المجموع والآخر إلى الجزء) (لايبدّ من الدقه والتمعن هنا).

ثم أشار في العبارة الثالثة إلى الرابطه بين الكرات السماوية القرينه لبعضها، فقال عليه السلام: «وشج (٢) بينها وبين أزواجها» يمكن أن تكون هذه العبارة إشاره إلى منظومات العالم العلوى المتألف من كرات شبيهه لبعضها إلى جانب النظام الذى كل كره (٣) ثم أشار عليه السلام في العبارة الرابعه إلى طرق هبوط وصعود الملائكه إلى السموات: «وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه، حزونه معراجها» (٤).

وهنا يتبادر هذا السؤال: هل الملائكه وجودات ماديه ولها صعود وهبوط مادى من وإلى السموات، أم أنّ المراد بهذا الصعود والهبوط هو الصعود والهبوط المعنوى؟ هنالك عدّه أقوال لشراح نهج البلاغه بهذا الخصوص.

ظاهر هذه العبارات الوارده فى الخطبه وأغلب الروايات والأخبار والآيات القرآنيه، أنّ الملائكه وجودات نوريه لها بعد جسمى رغم لطافتها التى تحول دون قدرتنا على مشاهدتها،

ص: ٤٦

١-١ (١) سورة الرعد/٢. [١]

٢-٢ (٢) «وشج» من ماده «وشج» على وزن نسج أى شبك.

٣-٣ (٣) فسّر البعض «الأزواج» هنا بمعنى الأرواح (النفوس الفلكيه) وترمز إلى عقيدته بعض الفلاسفه الذين يرون لكل فلك روحا مجردة، إلّا أنّ الانصاف هو عدم ثبوت هذه النظرية بدليل واضح، كما لا تدل العبارة المذكور على هذا الأمر.

٤-٤ (٤) «حزونه» (ولها معنى المصدر واسم المصدر) بمعنى الصعوبه، وقدوردت فى الخطبه بمعنى المشاكل والصعاب.

وعلى هذا الأساس يجوز عليها الصعود والنزول والذهاب والاياب. وسنخوض أكثر في هذا الموضوع في المقطع القادم من الخطبه بأذن الله السؤال الآخر الذى يطرح نفسه هنا: هل هناك من مكان يضم الله فى السموات لتهبط منه الملائكه فتوصل الرسالات والأوامر ثم تصعد إليه باعمال العباد؟ قطعاً لا يمكن تصور مثل هذا الأمر على الحق سبحانه الذى يفوق عالم ماده ولا يجرى عليه زمان ولا يحويه مكان ولا يتركب من أجزاء. اذن فما معنى هذا الصعود والهبوط؟ يبدو أنّ الإجابة على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى هذه المسأله الدقيقه وهى: صحيح أنّ السموات والأرضين مخلوقات الله، إلّا أنّ هناك بعض المراكز فى هذا العالم المادى التى تعد من مواضع إنعكاس الأنوار الإلهيه. أو بعبارة أخرى هناك بعض المواضع التى لها قداسه خاصه. على غرار الأرض التى لا تتساوى جميع بقاعها. على سبيل المثال فقد اتجه موسى بن عمران عليه السلام إلى الطور حين أراد أن يأخذ الألواح، كما كان نبي الإسلام صلى الله عليه و آله يتجه قبيل انبثاق الدعوه إلى غار حراء؛ والحال هذان الموضعان ليسا باقرب من غيرهما إلى الله، إلّا أنّ قديسه بعض المواضع تجعلها أعظم اشعاعاً للأنوار الإلهيه كالطور وحراء والمسجد الحرام. وهكذا الأمر بالنسبه للملائكه، فهناك بعض المراكز القدسيه فى العالم العلوى تتسلم فيها الملائكه الأوامر الإلهيه، وهى المراكز التى بلغها رسول الله صلى الله عليه و آله فى معراجه، بل جاوزها لما هو أقرب ليفيض الله عليه من لطفه وعنايته، وهناك تستودع الأعمال الخيره للعباد وتحفظ إلى يوم القيامه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل ما أورده سابقا على نحو الاجمال، حيث عرض بالشرح بخمس عبارات لمراحل خلق السموات. فأشار فى العبارة الاولى إلى أمره (ويراد به الأمر التكوينى لا جتياز مراحل الخلقه والتكامل) السماء حين كانت على هيئه دخان «ونادها بعد إذ هى دخان» فهذه العبارة فى الحقيقة أشارت إلى أولى مراحل خلق العالم التى تعرضت لها الآيه من سوره فصلت «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» (1) وهو الأمر الذى يقره العلم المعاصر فى أنّ العالم برمته كان فى البدايه كتله عظيمه جداً من الغاز. وقال فى العبارة الثانيه (حيث وردت الخلقه مرحله جديده) «فالتحمت عرى أشراجها».

فبالنظر إلى أنّ معنى الالتحام هو الوصل، والعرى جمع عروه بمعنى المقبض، والاشراج جمع

ص: ٤٧

١ - ١) لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ ثم الوارده فى الآيه تعنى التأخير فى البيان لا- الزمان. وعليه فهى لا- تدل على أنّ خلق السموات جاء بعد خلق الأرض (راجع التفسير الأمثل/ ١١ [١] من سوره فصلت).

شرح بمعنى الشق. فإن مفهوم الجملة المذكوره هو أنّ الله ضغط تلك الكتله العظيمه للدخان. ثم أдал الشقوق وربط أطرافها مع بعضها، وكانّ هذه الشقوق كالصناديق التي تغلق مقابضها وتوصل مع بعضها لحفظ ما فيها. والعبارة تتفق و ما توصل إليه العلم الحديث الذى صرح بضغط كتله الغاز بفعل الجاذبيه الداخليه. ثم واصل كلامه عليه السلام حول فصل السموات عن بعضها وفتح أبوابها المؤصده (وقد جعل مسافه بينها) «وفتق بعد الارتقاء صوامت أبوابها». ولعل هذه العبارة إشاره إلى ما توصل إليه العلماء الذين يعتقدون أنّ تلك الكتله الغازيه الهائله قد شهدت انفجارا داخليا عظيما لتتلاشى وتظهر منها الكواكب والمجرات. وعلى ضوء الفرضيه الاخرى فان بعض أجزاءها أخذت بالانفصال عن البعض الآخر إثر حركتها الدورانيه الشديده والقوه الطارده عن المركز، فابتعدت عن بعضها البعض فى هذا الفضاء لتشكل منها الأجرام السماويه. فقد قال القرآن الكريم بهذا شأن «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» (١).

ثم أشار فى العبارة الرابعه إلى خلق الشهب السماويه (التي تشاهد فى السماء على هيئة خطوط من النور تتحرك بسرعه) ثم تنطفئ، فقال عليه السلام: «وأقام رصدنا من الشهب الثواقب على نقابها» (٢).

لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الرصد على وزن الصدف ذات معنى مصدرى فى الأصل وتعنى الاستعداد والتأهب لمراقبه الشى وحراسته. كما تطلق على الفاعل وتستخدم فى المفرد والجمع. ونقاب جمع نقب بمعنى الطريق أو الفاصله بين شيئين. وعليه فالعبارة تعنى أنّ الله زود طرق السموات بهذه الشهب لتحول دون نفوذ الشياطين إلى السموات؛ الأمر الذى أشير إليه كرارا فى عده آيات من القرآن الكريم، ومن ذلك الآيه الثامنه من سوره الصافات «لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصلب إلّا من خطف الخطفه فاتبعه شهاب ثاقب»، فالذى يستفاد إجمالا من هذه الآيات وسائرهما الوارده

ص: ٤٨

١- ١) سوره الأنبياء/٣٠. [١]

٢- ٢) المراد بالرؤيه هنا تلك التي تحصل عن طريق الفكر والتأمل، لا عن طريق المشاهده الحسيه؛ وذلك لأنه لم يكن الإنسان فى ذلك الزمان كما احتمال فى تفسير هذه الآيه ان المراد من رتق السموات عدم وجود المطر ونمو النباتات، والمراد بفتقها هو نزول المطر ونمو النباتات.

بهذا الشأن أنّ هناك أحاديث تدور في العالم العلوي بين الملائكة المأموره من قبل الله سبحانه في إداره شؤون العالم بشأن بعض الأخبار المهمه لهذا العالم، وأنّ الشياطين تحاول أحياناً الاقتراب من السماوات لاستراق السمع، إلّا أنّ الشهب تدفعها عن السماوات.

طبعاً صحيح أنّ الشهب على ضوء العلم الحديث، ليست إلّا صخوراً تائهه تشتعل حين تقترب من الكره الأرضيه وتصطدم بها، إلّا أنّ هذا لا يمنع أن تكون هذه الشهب مأموره بحراسه فضاء السماء من الشياطين؛ وأنّ تعذرت علينا رؤيه الشيطان، وخفيت علينا على وجه الدقه حركات الشهب (للقوف بصوره أعمق على هذا الموضوع المهم، عليك بمراجعته الجلد ١٩ من التفسير الأمثل ذيل الآيات المذكوره) ثم أشار في العبارة الخامسه إلى موضوع مهم آخر ذا صله بنظام كواكب السماء في أن الله سبحانه أمسكها بيد القدره من الحركات الطائشه في الفضاء، وأمرها بالتسليم لأمره: «وامسكها من أن تمور (١) في خرق الهواء بأيده (٢) وأمرها أن تقف مستسلمه لأمره» .

فالعبارة تنجسم تماماً والعلم الحديث الذي صرح بأن الكواكب والمنظومات والمجرات في حاله حرکه حول مداراتها بفعل تاثرها بالقوه الجاذبيه المتناسبه مع كتلتها والقوه الدافعيه التي تظهر فيها من جراء الحرکه وقوه الطرد المركزي، دون أن تستند إلى شى أو ادنى انحراف عن مدارتها. بعبارة أخرى فان التوازن الدقيق للقوه الجاذبيه و الطارديه لاتدعها تبتعد عن بعضها لتصبح كتله واحده. وقد يتضح هذا المطلب من خلال مفرده تمور (الحرکه الطائشه) وخرق الهواء. إلّا أنّ بعض قدماء شراح نهج البلاغه الذين عاشوا أجواء نظريه الهيئه البطليموسيه القائله بالأفلاك التسع كقشور البصل، شهدوا بعض المشاكل في تفسير هذه العبارات، فاضطروا لحمل بعض الألفاظ المذكوره على معناها المجازي، والحال أنّ تفسيرها على ضوء الهيئه المعاصره لم يعد خافياً على أحد.

والعبارة «أمرها» و «لأمره» أشاره إلى معنيين؛ فالأمر في بدايه العبارة الأخيره يعنى الأمر

ص: ٤٩

- ١- ١) «تمور» من ماده «مور» على وزن قول بعدّه معانى في اللغه ومنها الحرکه السريعه والغبار الذى تبعثره الرياح هنا وهناك، والذي يستفاد من تعبيرات أرباب اللغه أنها تعنى الاضطراب في الهواء.
- ٢- ٢) «أيد» على وزن صيد بمعنى القدره والنعمه، وجاء في القرآن ذا الأيد بمعنى صاحب القوه وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبه.

الإلهى التكوينى، والأمر فى آخر الجملة يعنى قوانين الخلق. أى أنّ الله خلقها بهذا الشكل لتكون منقادته مستسلمه لهذه القوانين.

تأمل: خصائص السماوات

لقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات صورته رائعته بليغته عن الخلقه العجيبه للسماوات، فأشار أولاً: إلى بدايه خلقها على أنّها كانت فى البدايه بمثابه كتله غازيه عظيمه.

ثانياً: الانفجار الهائل الذى وقع فى تلك الكتله العظيمه، والانفصال الذى شهدته الكواكب والمجرات عن بعضها البعض.

ثالثاً: تعلق الكواكب فى هذا الفضاء الواسع على أنه آيه من آيات عظيمه وقدرته سبحانه تعالى.

رابعاً: الحركات المنظمه للكرات السماويه حول مداراتها والخالیه من آيه حركات عشوائيه (بفعل توازن قوى الجذب الطرد).

خامساً: حركه الملائكه وصعودها وهبوطها بين الأرض والسما و المراكز المقدسه، حيث تهبط بالوامر وتصعد بأعمال العباد.

سادساً: ارسال الشهب التى ترحم الشياطين حين تحاول الصعود إلى السماء بغيه استراق السمع، حيث بينها الإمام عليه السلام على سبيل الاختصار بعبارات قصيره وبليغه حيث يتطلب كل منها بحثاً مستقلاً.

ولاينبغى أن ننسى هنا أنّ كل ذلك قد حصل فى زمان لم تكن تحكم العقول والأفكار فيه سوى نظريه بطليموس فى الأفلاك والسماوات. ولابدّ من الادعان بأنّ بيان هذه الحقائق فى ذلك الوقت قد يبلغ حدّ الاعجاز، ليدل دلاله واضحه على مدى علم الإمام عليه السلام الذى استقاه من مصادر غير عاديه متعارفه (1).

ص: ٥٠

(١-١) ورد شرح مفصل لهذا الموضوع فى المجلد الأول من هذا الكتاب / ١٠٢ - ١٢٠.

إشاره

«وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوهٌ مِنْ لَيْلِهَا، وَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا، لِيَمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا، وَلِيَعْلَمَ عِدَدُ السِّنِّينَ وَالْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوْهَا فَلَكَّهَا، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا، وَرَمَى مُشْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَذْلالِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا، وَهَبُوطِهَا وَصُعُودِهَا، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى خلق الشمس والقمر والكواكب وفلسفتها الوجوديه، ثم شرح بعبارات بليغه الفوائد والبركات لهذه الكواكب، حيث أشار إلى خلق الشمس وما يختزنه ضياؤها من بركات: «وجعل شمسها آيه مبصره لنهارها» .

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «وقمرها آيه ممحوه من ليلها» .

حيث اختلفت أقوال شراح نهج البلاغه في تفسير هذه العبارة فقال البعض المراد ممحوه بليالى المحاق الليالى الظلماء فى آخر الشهر. وقال البعض الآخر القطع السوداء على سطح القمر. وقيل أيضاً المراد بهوت لون القمر تدريجياً بعد منتصف الليل. ولكن لا يبدو أى من هذه التفاسير تاماً، والمراد بقوله ممحوه هو قلّه ضياء القمر بالنسبه لضياء الشمس. على كل حال فإنّ هذه العبارة تتفق تماماً والآيات القرآنيه التى عدت الليل والنهار من آيات الله:

«وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» (١) ولا تخفى بركات ضياء النهار وأشعه الشمس على حياه البشريه التي يعزى إليها كافه الأنشطة والفعاليات والسعى والحركه من أجل العيش والحياه، كما أنّ الضياء المتواضع واللطيف للقمر في الليالي الظلماء والذي يقود إلى حل أغلب مشاكل الحياه البشريه، كما كان يستعين الإنسان حين الضروره في الطرق بضياء القمر ولاسيما في الصحراء. وفي ذات الوقت فإنه ليس على درجه من القوه بحيث يعيق حركته ونشاطه في النهار، وهذه نعمه أخرى من نعمه سبحانه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حالات الشمس والقمر وفلسفتهما الوجوديه فقال: «واجراهما في مناقل (٢) مجراهما، وقد سيرهما في مدارج درجهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما»، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ»، (٣) فمعلوم إنفصال الليل عن النهار بواسطه الشمس. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الكواكب فقال: «ثم علق في جوها فلكها، وناط (٤) بها زينتها، من خفيات دراريها (٥)، ومصايح كواكبها». فقد أشار عليه السلام إلى نوعين من الكواكب السماويه: الأول الكواكب الصغيره التي عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله خفيات دراريها، والثاني الكواكب الكبيره والتي عبر عنها بالقول مصايح. ونعلم بالطبع أنّ هذا التقسيم للكواكب إلى صغيره وكبير إنما يستند إلى رؤيتنا، وإلا فإنّ أغلب هذه الكواكب الصغيره قد تكون عظيمه الكبر حتى أنّها لتكبر شمسا

ص: ٥٢

١-١) سورة فصلت/٣٧. [١]

٢-٢) «مناقل» جمع «منقل» من ماده «نقل» بمعنى الطريق.

٣-٣) سورة يونس / ٥. [٢]

٤-٤) «ناط» من ماده «نوط» على وزن موت توقف الشى على آخر.

٥-٥) «درارى» جمع «درى» من الدر الكواكب والقمار.

التي تعتبر إحدى الكواكب السماويه المتوسطه إلا أنها تبدو صغيره بسبب بعدها عن أبصارنا، وعلى العكس من ذلك بالنسبه للكواكب التي تبدو لنا كبيره (من قبيل كوكب الزهره) والذي يعدّ جزءاً من سيارات المنظومه الشمسيه، وبسبب قربه يبدو شديد الاشعاع، والحال ليست الزهره إلا كوكب صغير. على كل حال فإنّ هذه الكواكب السماويه لتزين الليل بما يجعله يخطف البصر، فضلاً عن دلالتها على عظمه الحق سبحانه وعدم تناهي قدرته وحكمته.

طبعاً تشكل الكواكب بدورها عالماً مستقلاً، ويرى أغلب العلماء أنّ معظمها قد يكون مأهولاً بالسكان وتسودها الحياه؛ غير أنّه يتعذر علينا تصور كيفيه الحياه عليها، على كل حال فإنّ دور هذه الكواكب في حياتنا لا يقتصر على تزيين السماء ليلاً فحسب، بل يمكن الاهتداء بها في البحار والصحارى؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» (١) و بغض النظر عن ذلك فلعل الجاذبيه بين الكواكب و الأجرام السماويه هي التي ضمنت حفظ و بقاء الكره الأرضيه ثم أشار الإمام عليه السلام إلى ظاهره أخرى من الظواهر السماويه العجيبه وهي الشهب «ورمى مسترقى (٢) السمع بثواقب شهبها». . تحدثنا سابقاً بالقدر الكافي عن الشهب وارجعنا القارئ إلى المصدر الذي اسهب في شرح هذا الموضوع، ولكن يبدو تكرارها في هذا الموضوع من كلام الإمام عليه السلام هو أنّها قد تبدو للناظر في الأرض أحياناً ككوكب متحرك، ومن هنا أشار إليها الإمام عليه السلام إلى جانب تقسيمه للكواكب. ثم تناول الإمام عليه السلام بعض خصائص هذه الكواكب فقال: «وأجراها على أذلال (٣)، تسخيرها من ثبات ثابتها، ومسير سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها وسعدها» و سنخوض في المباحث القادمه في موضوع الكواكب الثابته والسياره والهبوط والصعود وكيفيه نحسها وسعدها.

تأملات

١- الكواكب الثابته والسياره

نعلم أنّ الكواكب التي نراها في السماء تقسم من جهه إلى قسمين: ثابتة و سياره و سيار. والكواكب الثابته هي التي لا تغير أوضاعها في السماء؛ فهي تطلع من جانب وتغيب في آخر دون أن يرى تغيير في مسافتها (طبعاً لها حركه، إلا أنّ هذه الحركه لا تؤثر في المسافات بسبب

ص: ٥٣

١- ١) سورة الانعام/٩٧. [١]

٢- ٢) «مسترقى» جمع «مسترق» بمعنى السارق ومنه استرق السمع، أى سماعه خفيه.

٣- ٣) «أذلال» جمع «ذل» بكسر الذال المجرى والمسير.

بعدها الشاسع عنا) . أما الكواكب السياره فهى عده كواكب ضمن مجموعه المنظومه الشمسيه التى تدور حول الشمس، ولما كانت مسافتها قليله جداً عن الكره الأرضيه بالنسبه لسائر الأجرام السماويه، فإن حركتها فى السماء واضحه تماماً، وهى فى تغيير مستمر لموضعها بالنسبه إلينا.

٢- خصائص الكواكب

هنالك مميزات أخرى للكواكب والنجوم ومنها الهبوط والصعود. فهى تتجه فى حركتها نحو الأعلى صاعده أحياناً وإلى الأسفل نازله أحياناً أخرى. وأوضح نموذج على ذلك الشمس التى تبدأ أوائل الشتاء متألقه فى مدارها لتشهد كل يوم فى موضع أعلى فى السماء، حتى تكون أحياناً فوق الرأس بالضبط وذلك حتى أوائل فصل الصيف حتى تبلغ ذروتها. ثم تبدأ مسيرتها التنازليه منذ شروع الصيف لتصل فى أول الشتاء إلى أدنى نقطه فى الأرض (طبعا هذه التغيرات ليست مرتبطه فى الواقع بالشمس، بل ترتبط بتغيير وضع الأرض فى حركتها المداريه حول الشمس وانحراف محور الأرض بالنسبه لسطح المدار بنسبه ٢٣ درجه) . فهذه العبارات تدل على إحاطه الإمام عليه السلام بالمسائل الفلكيه، حيث أشار إلى هذه المسائل باروع بيان.

٣- سعد ونحو الكواكب

أما بشأن سعد هذه الكواكب ونحوها، فلو أردنا النظر إلى بدايه هذا الأمر فأنها تعود إلى جمع من المنجمين القدماء. حيث كانوا يعتبرون بعضها نحساً، ويعتقدون بان طلوعها وتغيير أوضاعها يؤدى إلى وقوع بعض الحوادث فى الحياه الخاصه لبعض الأفراد (لأنهم يرون لكل فرد كوكباً) ، وبالعكس فإن ظهور أو تغيير أوضاع البعض الآخر من الكواكب علامه على السعاده والتوفيق التى تصيب المجتمع أو الفرد؛ والحال نعلم أن الإسلام لا يرى من تأثير للكواكب على مصير الإنسان. ويعتبر ذلك نوعاً من الشرك. وقد مر علينا فى الخطبه ٧٩ من المجلد الثالث ما قاله أميرالمؤمنين على عليه السلام لذلك المنجم الذى قال له حين عزم على المسير

إلى الخوارج: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم. فغضب عليه السلام ورد كلامه وأن من صدقه فقد كذب القرآن الكريم واستغنى عن الاستعانه بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. ثم نهى الإمام عليه السلام الناس عن تعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر. كما تظافت الروايات والأخبار التي وردتنا عن أئمة العصمة عليهم السلام بدم ذلك العلم من النجوم، لتجعل المنجم في مصاف الكاهن والساحر الذي عد كافراً. ومن ذلك ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من صدق كاهنا أو منجماً فهو كافر بما أنزل على محمد» (١)، وعده أحاديث بهذا الشأن، لاشك أن قدماء المنجمين كانوا على مذاهب بالنسبة لإرتباط الكواكب بمصير الإنسان والتي بينت بصورة تامه في شرح الخطبه ٧٩. ولعله يمكن القول أن هذه الروايات ناظره إلى الأفراد الذين يرون تدبير هذا العالم بيد هذه الكوكب وأن لها نوع من الألوهيه. نعم ليس من الكفر أن يقال للكواكب دلالة فقط على وقوع مثل هذه الحوادث (بأمرالله)؛ ولكن ليس هناك من دليل لاثبات هذا الأمر. فلهذه الكواكب عوالمها، كما للكره الأرضيه وسكانها عالم. ولم يقم أى دليل علمى على الرباطه المذكوره، مثلاً طلوع الكوكب الفلانى وغروب الكوكب الفلانى أو إقتران هذا الكوكب مع ذاك مؤثر فى نشوب الحرب أو السلم؛ كما لايمكن فى نفس الوقت نفى هذا التأثير بصورة قاطعه وإن سمع ذلك من غير المعصوم. طبعاً لايسعنا التنكر لما ورد فى بعض الروايات التى صرحت بكراهيه الزواج والقمر فى العقرب، إلأننا أشرنا فى حينه إلى عدم وجود أى تضارب بهذا الخصوص. ومن هنا فان السعد والنحس الذى ورد فى الخطبه قد يكون إشاره إلى هذه الأمور. كما يحتمل أن تكون لاضاع الكواكب - ولا سيما سيارات المنظومه الشمسيه - فى مداراتها مقارنه مع بعضها البعض الآخر بعض التأثيرات الطبيعيه على الكره الأرضيه. فمثلاً- نعلم أن ظاهره المد والجزر التى تشهدها البحار إنما تنشأ بفعل تأثير جاذبيه القمر (إثر اقتراب الشمس من القمر أوائل الشهر وآخره) ولعل تأثيرها يتجاوز البحار لتؤثر حتى على سطح الأرض ممّا يؤدي إلى تشققها وحدوث بعض الزلازل. كما قد يسبب ذلك التأثير هطول بعض الأمطار الغزيره على الأرض وعليه فقد يكون السعد والنحس للكواكب إشاره إلى هذا التأثير الطبيعى الخاص.

ص: ٥٥

١-١) وسائل الشيعه ١٢/١٠٤. [١] للوقوف على سائر الأحاديث الوارده بهذا الشأن راجع الباب ٢٤ من أبواب ما يكتسب به.

«ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَآوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكَوَتِهِ، خَلَقًا بَدِيعًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَبَيَّنَ فَجَوَاتِ تَلَمَّكَ الْفُرُوجِ زَجْلَ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدُسِ، وَسُتْرَاتِ الْحُجُبِ، وَسِرَادِقَاتِ الْمَجِيدِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِى تَشْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبْحَاتُ نُورٍ تَزْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبه فى خلق الملائكة ومختلف المسؤوليات والوظائف التى يقومون بها، بعبارات تبطل فصاحه العرب وتجعل نسبه التراب إلى النضار الخالص كما صرح بذلك ابن أبى الحديد. فقال عليه السلام: «ثم خلق سبحانه السكان سمواته، وعماره الصفيح (١) الاعلى من ملكوته، خلقا بديعا من ملائكة، وملأ بهم فروج فجاجها، وحشاهم فتوق (٢) أجوائها (٣)» . يمكن ان تكون (ثم) إشاره إلى خلق الملائكة بعد خلق الأرض وما عليها من كائنات، كما يمكن أن تكون وردت للتأخير فى البيان لا الزمان. ويبدو الاحتمال

ص: ٥٧

١- ١) «صفيح» من ماده «صفح» تعنى فى الأصل الانبساط والسعه، وعليه فهى تأتى بمعنى السطح الواسع، وقدوردت هنا بمعنى السماء الواسعه.

٢- ٢) «فتوق» جمع «فتق» بمعنى الشق فى الشى أو الفاصله بين شيئين، والفارق بين «الفروج» جمع فرج بمعنى الشق هو سعه الفتق، كما قد يكون إشاره إلى الشق الذى يفصل بين الشيئين، بينما ليس للفرج مثل هذا الفصل، ولايعنى سوى الشق فى الشى.

٣- ٣) «أجواء» جمع «جو» بمعنى الهواء أو الفاصله بين السماء والأرض.

الأخير أنسب بالالتفات إلى الروايات التي صرحت بخلق السموات قبل خلق الكائنات الأرضية إلى جانب ما جاء في الخطبه الاولى من نهج البلاغه التي مّر شرحها. ثم صرح عليه السلام أنّ أصوات المسبحين قد ملأت أقطار السماء ودوت في حظائر القدس وسترات حجب العظمه: «وبين فجوات (1) تلك الفروج زجل (2) المسبحين منهم في حظائر (3) القدس، وسترات الحجب، وسرادقات (4) المجد». إلّا أن هذا لا يعنى ان الملائكه المقربين استطاعوا أن يبلغوا أوج معرفه سبحانه، ومن هنا أتبع الإمام عليه السلام ذلك بقوله أنّ وراء تلك الصيحات والتسبيحات، سبحات النور التي تردع الأبصار وتوقفها عند حدها «ووراء ذلك الرجيح (5) الذي تستك (6) منه الأسماع سبحات (7) نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئه (8) على حدودها».

طبعاً لا تعنى هذه العبارة أنّ لله سبحانه وتعالى موضع في السموات وقد أحيط من كل جانب بطبقات من الأنوار الشديده، بل المراد أنّ هناك مراكز مقدسه في عالم الوجود تعجز عن مشاهدتها حتى الملائكه. كما يمكن ان يكون المراد من هذه العبارة أنّ ملائكه ورغم قربها من الله وغرقها في العباده والتسبيح، إلّا أنّها عاجزه عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه، وليس لها من نصيب سوى على قدر إدراكها.

بعبارة أخرى لو حملنا هذه العبارات وفسرناها على أساس ظاهرها فإنّها تفيد أنّ في السماء مواضع تتمتع بقديسه خاصه وهاله من النور (وهو المعنى الذي أشارت إليه بعض الروايات والأخبار) (9).

ص: ٥٨

١-١) «فجوات» جمع «فجوه» الموضع الواسع، كما تأتي بمعنى الفراغ بين الشيئين، وردت في قصه أصحاب الكهف في القرآن كإشاره لسعه غار أصحاب الكهف «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ».

٢-٢) «زجل» من ماده «زجل» على وزن حمل بمعنى قذف الشئ، وزجل على وزن عمل بمعنى الصوت المرتفع والمطرب، كما اطلقت على كل صوت مرتفع.

٣-٣) «حظائر» جمع «حظيره» المنطقه الممنوعه ومادتها «حظر» على وزن فرض بمعنى المنع.

٤-٤) «سرادقات» جمع «سرادق» الحجاب والخيمه العظيمه.

٥-٥) «رجيح» من ماده «رج» على وزن حج الزلزله والاضطراب.

٦-٦) «تستك» منه تصم منه الاذان لشدته.

٧-٧) «سبحات» جمع «سبحه» بمعنى النور والعظمه، وازافتها إلى النور في العبارة هي إضافيه بيانيه.

٨-٨) «خاسئه» من ماده «خسأ» على وزن مدح الدفع والطرده مع التحقير.

٩-٩) راجع بهذا الشأن بحار الأنوار، ج ٥٥ كتاب «السماء العالم» الباب ٥ (الحجب والاسرار والسرادقات).

وعلى غرار ذلك فهناك على الأرض بعض المراكز التي تحظى بحرمه وقدسياه تفوق غيرها كالكعبه وبيت المقدس، دون ان تكون موضعا لذاته المقدسه سبحانه. وان حملناها على المعنى الكنائى، فأنها ستكون دليلاً على أن للملائكه حداً لا تتجاوزه رغم قربها و عبادتها و عبادتهم.

ص: ٥٩

«وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ «أُولَى أَجْنَحِهِ» تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ، لَا يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلَا يَدْعُونَ أَنْهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا أَنْفَرَدَ بِهِ «بَيْلُ عِبَادٍ مُكْرَمُونَ» * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» جَعَلَهُمُ اللَّهُ فِيهَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَى مَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِعٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ، وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضِعَ إِحْبَابِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً دُلَّلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا في بيان مختلف صور الملائكة وتقاسمها المسؤوليات و جانباً من منيراتها فقال عليه السلام: «وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ «أُولَى أَجْنَحِهِ» تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ» (١).

حمل بعض شراح نهج البلاغه هذه العبارات على ظاهرها وقالوا: الملائكة أشكال مختلفه واقدار متفاوته ولها أجنحه وهى دائمه التسبيح لله سبحانه. بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ هذه العبارات كناية عن تفاوت مقامات الملائكة ودرجات قوتها و قدرتها. ولما كانت

ص: ٦١

١ - ١) يمكن أن تكون العبارة «تسبح جلال عزته» أشاره إلى تسبيح الملائكة أمام جلال الحق وعزته، والصيغه المؤنثه بسبب مفهومها الجمعى.

الأجنحة وسيله لدى الطيور للتخليق فى السماء وكيفيه تفاوتها فى التخليق تبعاً لكيفيه هذه الأجنحة، فإن هذه العبارة بشأن الملائكة إشاره إلى تفاوتها من حيث القوه والقدره على القيام بالوظائف والمسؤوليات. صحيح أننا مكلفون بحمل جميع الفاظ القرآن الكريم وكلمات الأئمه المعصومين عليهم السلام على معانيها الحقيقه، دون حملها على الكنايه والمجاز ما لم تكن هناك قرينه واضحه فى الكلام، ولكن بالنظر إلى العبارات التى تواصل فيها كلام الخطبه بشأن أوصاف الملائكة، يبدو من المستبعد حمل هذه العبارات على معناها الظاهري، ومن ذلك: «ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى. . .»، وكذلك العبارات التى وردت سابقاً بشأن الملائكة، كالذى ورد فيها فى الخطبه الاولى بشأن الملائكة: «ومنهم الثابتة فى الارضين السفلى أقدامهم، والمارقه من السماء العليا أعناقهم. . .» (١)، فهذه العبارات يمكن أن تكون قرينه واضحه على أن لمثل هذه الأوصاف بعد كنائى ومعنوى لا-ظاهرى ومادى. ثم أشار عليه السلام فى مواصلة كلامه إلى بعض خصائص الملائكة وقال: «لا ينتحلون (٢) ما ظهر فى الخلق من صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه ممّا انفرد به»، ثم اردف عليه السلام كلامه مباشره بما ورد فى القرآن الكريم بشأن التسليم المطلق للملائكة أمام إرادته الله سبحانه وتعالى فقال: «عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (٣)، نعم فهم آذان صاغيه لأوامره سبحانه وانقياد مطلق لإرادته، وهذه أولى خصائص الملائكة التى أشارت إليها الخطبه، كما تشير ضمناً إلى عصمه الملائكة وبعدها عن الذنب والمعصيه والخطأ والزلل، فهى تبطل كافه مزاعم مشركى العرب وغيرهم ممن قال بربوبيتها وألوهيتها، وتصفهم بأنهم عباد مطيعون منقادون وليس لهم أن يكونوا شركاء الله فى الخلق.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفه أخرى من وظائف الملائكة بصفتهم حملة الوحي فقال: «جعلهم الله فيما هنالك أهل الامانه على وحيه، وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره وفهيه، وعصمهم من ريب الشبهات. فما منهم زائغ (٤) عن سبيل مرضاته» فالعبارة وإن

ص: ٦٢

١-١) راجع المجلد الأول من هذا الشرح /١٥٩.

٢-٢) «ينتحلون» من ماده «انتحال» بمعنى إدعاء الشخص شيئاً لصالحه، وهو يتعلق بآخر.

٣-٣) سوره الأنبياء/٢٦ - ٢٧. [١]

٤-٤) «زائغ» من ماده «زيغ» على وزن ميل بمعنى العدول عن الحق.

نسبت ابلاغ الوحي الإلهي إلى جميع الملائكة، إلّا أنّ المفروغ منه هو أنّ المراد طائفه منهم؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم بقوله: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا». (١) كما صرح عليه السلام في الخطبه الاولى من نهج البلاغه بهذا المعنى قائلاً: «ومنهم أمنا على وحيه، وألسنه إلى رسله». و هذا تعبير متداول بشأن الأعمال المهمه التي تصدر من فئه معينه ضمن جماعه لتحسب على أساس تلك الجماعه.

على كل حال فإنّ العبارة تشير إلى مدى أمانه الملائكة في ابلاغ الوحي وايصاله على نحو الدقه دون نقيصه أو زياده والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار بالعبارتين الأخيرتين إلى عصمه الملائكة من الذنب والزلل، حيث أشارت العبارة الاولى إلى عصمتها عن الشبهه والشك والخطئ والثانيه إلى عصمتها عن الذنب والمعصيه وعدم مخالفه الأوامر الإلهيه. كما أشار عليه السلام باربعببارات إلى عناية سبحانه بملائكته الوحي من أجل قيامها بهذه الوظيفه بصوره صحيحه. قال في العبارة الاولى أنّه أمدهم سبحانه بلطفه وعنايته ليقوموا بهذه الوظيفه الخطيره على أكمل وجه «وأمدهم بفوائد المعونه». ثم قال في العبارة الثانيه «وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينه» (٢) كما فتح لهم باب مدحه وتمجيده وسهل لهم ذلك زياده في عصمتهم وعلو مقامهم. وهذا ما أورده في العبارة الثالثه «وفتح لهم أبواباً ذللاً (٣) إلى تماجيده (٤)». ثم قال في العبارة الرابعه «و نصب لهم منارا واضحه على أعلام توحيد» فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات أشكال الملائكته وصورها والفوارق بينها في القوه و القدره، إلى جانب بيان إحدى أهم وظائفها في ابلاغ الوحي و صفات هذه الطائفه المبلّغه للوحي.

ص: ٦٣

١- ١) سورها الحج/٧٥. [١]

٢- ٢) «إخبات» الخضوع والخشوع والتواضع.

٣- ٣) «ذلّل» جمع ذلول السهل.

٤- ٤) «تماجيد» جمع «تمجيد» بيان المجد والشرف والعظمه الشخصيه.

نعلم أنّ الوحي يحصل بعده صور: فقد يكون أحياناً بواسطة الملك الذي يحمل رساله الله من قبيل نزول الوحي على نبي الإسلام بواسطة جبرئيل عليه السلام. كما يكون أحياناً أخرى عن طريق سماع الأمواج الصوتيه التي تحدثها القدره الإلهيه فى الفضاء كنزول الوحي على نبي الله موسى عليه السلام عن هذا الطريق. كما نزل على النبي صلى الله عليه وآله - طبق بعض الروايات - مثل هذا الوحي فى المعراج. كما يحصل عن طريق الإلهام و الإلقاء فى الروح؛ الأمر الذى حصل للنبي صلى الله عليه وآله فى بعض المواقع الضروريه. وهنا يبرز هذا السؤال: مادام هناك طريق للوحي من خلال ايجاد الصوت أو الإلهام، فما الضروره لأن تكون الملائكة واسطه للوحي؟

للإجابة على هذا السؤال المهم، يمكن القول أنّ لنزول الملائكة بعض المزايا منها:

١- لما كانت الملائكة موجودات مجردة، وللإنسان - كائناً من كان - بعد مادي وجسماني وروحاني فإنّ تلقى الوحي عن طريق الملائكة أهون وأسهل على الأنبياء من تلقى الوحي بصورة مباشره. بينما يكون أصعب و أثقل إن كان بصورة مباشره.

٢- أنّ نزول الملك يفيد الاطمئنان أكثر إلى الوحي، إلى جانب الأهميه الفائقه لهذا الأمر، لأنّ الله أمر أعظم ملائكته للقيام بوظيفه ابلاغ الوحي. والجدير بالذكر أنّ بعض الروايات والأخبار صرحت بتشجيع فريق من الملائكة (يصل عددهم أحياناً إلى سبعين ألف ملك) لبعض السور القرآنيه حين نزول جبرئيل بها على النبي صلى الله عليه وآله لتتضح للجميع أهميه ذلك الموضوع، وبالطبع فإنّ هذا الأمر لا يتحقق فى ظل الإلهام أو سماع الصوت. وإن كانت لهذه الأخيره خصائصها ومميزاتها.

«لَمْ تُثْقَلُهُمْ مَوْصِرَاتُ الْآثَامِ، وَلَمْ تَزْتَجِلْهُمْ عُقْبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَلَمْ تَزْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا، عَزِيمَةَ إِيْمَانِهِمْ، وَلَمْ تَغْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاوِدِ يَقِينِهِمْ، وَلَا قَدَحَتْ قَادِحَهُ الْإِحْنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَا سَلَبَتْهُمْ الْحَيْرَةَ مَا لَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بَضَائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبِهِ جَلَالَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمْ الْوَسَاوِسُ فَتَفْتَرَعَ بِرَيْنِهَا عَلَى فِكْرِهِمْ» .

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه ما يكمل كلامه في صفات الملائكه - ولا سيما صفه العصمه عن الذنب والمعصيه - ليوضح ذلك بسبع عبارات قصيره عظيمه المعنى، قال في الاولى أن ثقل الذنوب لم يعجزهم ويقعدهم فهم لا يقارفون الذنب أبداً: «لم تثقلهم موصرات (1) الآثام»، في إشاره إلى أن الذنب عاده ما يثقل كاهل الإنسان في مسيره الطاعه، ولما كانت الملائكه لا ترتكب الذنب قط فهي خفيفه على الدوام ومتأهبه للطاعه، ولذلك لا يبدو صحيحاً ما احتمله بعض شراح نهج البلاغه في تفسيرهم لهذه العباره من أن الذنوب التي يرتكبها الناس لاتجعلهم متقاعسين في عملهم، وذلك لعدم انسجامه وسائر عبارات هذه الخطبه. ثم أشار عليه السلام في العباره الثانيه إلى أن الذهاب والاياب وتعاقب الليل والنهار لم يسق هذه الملائكه إلى الموت (ليستولى عليها الضعف، فهي متأهبه دائماً للطاعه) «ولم ترتحلهم عقب (2) الليالي والأيام»، ياحتمل أن يكون المراد عدم الانتقال من الحياه إلى الموت، بل الانتقال

ص: ٦٥

١- ١) «موصرات» من ماده «اصر» بمعنى الحفظ والسجن، ثم اطلق على كل فعل ثقيل يعيق الانسان عن العمل، وموصرات الآثام مثقلاتها.

٢- ٢) «عقب» جمع «عقبه» على وزن غرفه وجمعها غرف تعنى النوبه. إشاره إلى تعاقب الليل والنهار حسب نوبتهما.

من الطاعة إلى المعصية أى أنّ طول الزمان لم يرهقها قط ولم يبعدها عن طاعة الحق سبحانه وتعالى - وقال عليه السلام فى العبارة الثالثة أن سهام الشك لم تستطع أن ترم عزم إيمانهم: «ولم ترم الشكوك بنوازعها (١) عزيمة إيمانهم» ثم قال عليه السلام فى العبارة الرابعة «ولم تعترك (٢) الظنون على معاهد يقينهم» كما أشار عليه السلام إلى عدم وجود العوامل التى تدعوا إلى إثارة نيران الحقد والعداء والضغينه لديهم (لكى يجد الضعف من سبيل إلى وظائفهم - وعليه فالملائكة تعمل مع بعضها البعض الآخر بكل تنسيق وانسجام دون اختلاف فى القيام بالوظائف الإلهيه) «ولا قدحت قادحه الإحن (٣) فيما بينهم» ، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى أنّ الحيره لم تسلبهم مالديهم من معرفه وانطوت عليه صدورهم من هيبه لله وعظمه: «ولاسلبتهم الحيره ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن عن عظمته وهيبه جلالته فى أثناء صدورهم» يمكن أن يكون المراد بالعبارة أن إيمان الملائكة ومعرفتها بالله وصفات جماله وجلاله على قدر من القوه بحيث لا تختزن أليه أوهام وحيره يمكنها إختراق تلك المعرفه أو الحد منها؛ والحال ليس الأمر كذلك لدى الإنسان، فقد يصطدم بعض المؤمنين ببعض الاوضاع التى تؤدى إلى ذهولهم وحيرتهم وزعزعه دعائم إيمانهم. كما يحتمل أن يكون المراد بالحيره هو عدم بلوغ كنه ذاته وصفاته، إلّا أنّها لا تصدهم عن ذلك الإدراك الإجمالى للذات والصفات فيضطر وعلى غرار بعض الناس وبفعل عدم إدراك كنه الذات إلى تعطيل صفاته. ثم قال فى الصفه الأخيره: «ولم تطمع فيهم الوسوس فتتقرع (٤) برينها (٥) على فكرهم» ، فالذى يستفاد من مجموع هذه الصفات هو عدم تسلل أدنى خطأ وشك وترديد وفتور وتقصير إلى أعمال أمناء الوحي من الملائكة، وهم جاهدون فى ابلاغها إلى الأنبياء والرسل. وضمنا فإنّ هذا الكلام الشريف رساله إلى جميع الأفراد - ولاسيما دعاه الإسلام والكتاب - إلى مراعاة الدقه والامانه والإيمان والتسامى والابتعاد عن كافه ألوان الوسوس وأمراض الحقد والبغضاء والعداء والحسد والشك والترديد فى ابلاغ دعوه الأنبياء ورسالتهم بالشكل الصحيح.

ص: ٦٦

-
- ١- ١) «نوازع» جمع «نازعه» من ماده «نزع» على وزن وضع بمعنى سحبه أو رفعه من مكانه. و فى العبارة اعلاه، تطلق على السهم عند ما يراد اطلاقه من القوس فى حاله سحب وتر الاطلاق إلى الخلف.
- ٢- ٢) «تعترك» من ماده «عرك» الازدحام.
- ٣- ٣) «إحن» جمع «إحنه» بمعنى الحسد والكراهه.
- ٤- ٤) «تقرع» من ماده «قرع» بمعنى الضرب.
- ٥- ٥) «الرين» بفتح الراء الدنس وما يطبع على القلب من حجب الجهاله.

«وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلْحِ، وَفِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشَّمَخِ، وَفِي قَتْرِهِ الظَّلَامِ الْأَيْهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تَحْوِمَ الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَهِيَ كَرَائِبَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ، قَدْ اسْتَفْرَعَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الْإِيْقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَةِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَعَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ» .

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام إلى سائر أصناف الملائكة بعد أن فرغ من صفه ملائكة الوحي، فقال عليه السلام: «ومنهم من هو في خلق الغمام الدلح (1) في عظم الجبال الشمخ (2)، وفي قتره (3) الظلام الأيهم (4)»، الدلح جمع دلح تعني السحاب المثقل بالماء، وشمخ جمع شامخ بمعنى المرتفع، وقتره تعني هنا الخفاء والبطون، وأيهم بمعنى الليالي الدامسه التي لا يهتدى فيها. فالذي يبدو أن مراد الإمام عليه السلام الملائكة الموكلة بالسحب الممطره والجبال المرتفعه والظلمات، حيث لكل منها سهم

ص: ٦٧

١- ١) «الدلح» جمع «دلح» من ماده «دلوح» بمعنى السحب المليئه بالمطر، وكأنها تتحرك ببطئى لثقلها (لأن أصلها الغوى يعنى بطئى الحركة).

٢- ٢) «شمخ» جمع «شامخ» من ماده «شموخ» بمعنى العلو والرفعه ومن هنا يطلق الشامخ على الجبل المرتفع.
٣- ٣) «قتره» بمعنى ضيق وانضمام شىء إلى آخر، ولما كانت شده الظلمه كذلك وكان الظلمات قد انضم بعضها الى بعض وتراكت، اطلق عليها هذه المفرده.

٤- ٤) «أيهم» تعنى فى الأصل المجنون وناقص العقل ويقال للصحراء القاحله فلاه كما تطلق على الظلام فيقال «الظلام الأيهم» أى لا يرى فيه كوكباً.

فى تدبير هذا العالم، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى الآيه الخامسه من سوره النازعات، حيث عبر عن هذه الملائكه بالقول «فَالْمِدْبَرَاتِ أَمْراً»، كما احتمال أن يكون لهذا الصنف من الملائكه دور فى ايجاد تلك السحب والجبال والظلمات - على كل حال فإنّ مأموريه هذا الصنف من الملائكه هى مأموريه تكوينيه - على الخلاف من ملائكه الوحي حيث لهم مأموريه تشريعيه. ثم تطرق عليه السلام إلى صنف آخر من الملائكه فقال عليه السلام: «ومنهم من قد خرفت أقدامهم تخوم (١) الأرض السفلى، فهى كرايات بيض قد نفذت فى مخارق (٢) الهواء، وتحتها ريح هفافه (٣)، تحبسها على حيث من انتهت من الحدود المتناهيه» وتشبه هذه العبارة ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه الاولى من نهج البلاغه التى قال فيها: «ومنهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم»، طبعاً هذه العبارات إنّما تشير على سبيل الكنايه إلى رفعه هذا الصنف من الملائكه وسمو مكانته، واننا لاندرك سوى شبح عنها، وذلك لأننا لانمتلك المعلومات الكافيه عن خلقها. ولا يتسنى إدراك حقيقه هذه التعبيرات بصوره تامه سوى لعلّى عليه السلام وسائر المعصومين عليهم السلام الذين رفعت عنهم الحجب، وما علينا إلّا القناعه والاكتفاء بهذا العلم الإجمالى. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى وصف هؤلاء الملائكه فقال عليه السلام: «قد استفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الايقان به إلى الوله (٤) إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره»، فالعبارات الأربع مرتبطه مع بعضها البعض الآخر قطعاً، فالاشتغال بالعباده سبب لتقويه الإيمان ورسوخه، كما أنّ قوه الإيمان تنتهى إلى الحب والعشق، فاذا ملأحبه كيان الإنسان أو الملك، لم يدعه يفكر فى غيره ولا يطمع إلى ما عند سواه. فقد ورد فى الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «أفضل الناس من عشق العباده فعانقها، وأحبها

ص: ٦٨

-
- ١- ١) «تخوم» جمع «تخم» تعنى فى الأصل الحد، وتخوم الأرض اعماقها.
- ٢- ٢) «مخارق» جمع «مخرق» من ماده «خرق» على وزن خلق. بمعنى موضع الخرق، ومخارق الهواء الشقوق بين طبقات الهواء.
- ٣- ٣) «هفافه»، الريح التى تتحرك بسرعه. وقيل هفافه بمعنى الطيبه الساكنه، إلّا أنّ هذا المعنى لا يبدو مناسباً للعباره المذكوره، ولا يستبعد ادغام المعنيين فى مفهوم واحد وهو الريح السريعه المنتظمه.
- ٤- ٤) «وله» تغنى الحيره من شده الحزن حتى يفقد صاحبها عقله، ثم اطلق على العشق المفرط الذى يسلب الإنسان استقراره.

بقلبه، وبشرها؟ ، وتفرغ لها؛ فهو لا يبالى على ما أصبح من الدنيا على عسر، أم على يسر» (١)، وواضح أن عباده الملائكة لا تصدّهم عن مأموريتهم فى تدبير شؤون العالم - بأمر الله - ولا عباده أولياء الله تصدّهم عن تدبير دينهم و دنياهم و وظائفهم الفرديه و الإجتماعيه فكل أمورهم إنّما تنبعث من حبهم وعشقهم الحق سبحانه وتعالى و السير على طاعته.

ص: ٦٩

١-١) الكافي ٢/٨٣، ح ٣، باب العباده. [١]

إشارة

«قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَائِهِ قُلُوبُهُمْ وَشَيْجَهُ حَيْفَتِهِ، فَحَنُوا بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ طُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِذْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رَبِّقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهِمُ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْبِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَلَا تَرَكَتْ لَهُمْ اسْتِكَانَةُ الْإِلَاجِلِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَمْ تَجْرِ الْفَتْرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤْبِهِمْ، وَلَمْ تَغْضُ رَغْبَاتُهُمْ فَيَخِذُوا عَنِ رَحِيَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسِيلَاتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا مَلَكَتْهُمْ الْأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهِمْسِ الْجُجَارِ، إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاجِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رَقَابَتُهُمْ، وَلَا تَعِيدُو عَلَى عَزِيمِهِ جِدْهِمْ بِلَادَةَ الْعُقَلَاتِ، وَلَا تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ حَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بصوره أعمق عن صفات الملائكة ومقام معرفتهم وعشقهم لله سبحانه و درجات عبادتهم وخضوعهم وخشوعهم. فقد أشار في الواقع إلى ثلاث من الصفات بعبارات رائعه مختلفه، تعرض في العبارة الاولى إلى مقام الملائكة الرفيع في المعرفه وكأنها أسكرت عقولهم وجوارحهم فملأتها حبا وعشقا لله. كما تعرض في العبارة الثانيه إلى الطاعه المتواصله بفضلها الوليده الطبيعیه لهذه المعرفه وأخيراً العبارة الثالثه التي تفيد خلو هذه الطاعه المستمره من الكلل والملل والتعب والفتور والعجب. كأن الإمام عليه السلام دعا الناس للاقتداء بها واحتذاء طريقتها في المعرفه والعبوديه والاخلاص. فقال عليه السلام: «قد ذاقوا

حلاوه معرفته، وشربوا بالكأس الرويه (١) من محبته، وتمكنت من سويداء (٢) قلوبهم وشيجه (٣) خيفته» تفيد العبارة: «قد ذاقوا حلاوه معرفته، وشربوا بالكأس الرويه من محبته» أنّ الملائكة قد إنفتحت على معرفه الله وحبه بكل كيانه حتى نفذ إلى سويداء قلوبها، كما تفيد مفردته تمكنت أنّ خوف الله قد تجذر في أعماق قلوبها بحيث وظّف هذا الخوف والرجاء كل قواها في سبيل طاعه الله؛ وذلك لأنّ الحب والأمل دون الخوف يسوق الإنسان إلى الغفله والغرور، كما أن الخوف دون الحب والأمل يقوده إلى اليأس والقنوط. من هنا قال الإمام عليه السلام عقب تلك الصفات: «فحنوا (٤) بطول الطاعه اعتدال ظهورهم» فهم دائما على أتم الخضوع وكمال التسليم لله. مع ذلك فإن رغبتهم المتفاقمه في عبادته وكثرتها لم تسلبهم حاله التضرع والخشوع (فلم يتطرق إليها التعب والارهاق) «ولم ينفذ طول الرغبه إليه ماده تضرعهم» لا كالأفراد من عديمي المعرفه الخالين من معاني الحب والعشق والخوف والرجاء الذين تتعبهم أدنى عبادته وتسلبهم الرغبه والاقبال عليها. ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه أخرى: «ولا أطلق عنهم عظيم الزلفه (٥) ربق (٦) خشوعهم، ولم يتولهم الاعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ولا تركت لهم استكانه (٧) الاجلال نصيبا في تعظيم حسناتهم»، فهناك نقطه لطيفه كامنه في هذه العبارة أشار إليها بعض شراح نهج البلاغه وهي أنّ من يقترب من الملوك والسلاطين والشخصيات التي تبدو رفيعه وعظيمه سرعان ما يكتشف أن قدرتهم وشوكتهم قاصره زائله مهما بدت كبيره، وبامكان مقربهم أن يبلغوا هذه القدره يوماً ما، بل حتى أعظم منها. وهذا ما يؤدي بدوره إلى الحد من تواضع الآخرين وخضوعهم وطاعتهم لهم، فإن اضطروا إلى تعظيمهم ظاهراً، لم يروا لهم مثل هذه العظمه باطناً. أمّا الملائكة فعلى العكس كلما اقتربت

ص: ٧٢

١- ١) «رويه» من ماده «رى» على وزن طى التي تروى منه العطش، وكأس رويه كناية عن الظرف المملوه الذي يروى العطشان بصوره تامه.

٢- ٢) «سويداء» تصغير «سوداء» من السواد، وهي حبه صغيره في القلب تشكل مركزه حب اعتقاد القدماء.

٣- ٣) «وشيجه» من ماده «وشج» أصلها عرق الشجره وإراد بها هنا بواعث الخوف من الله.

٤- ٤) «حنو» من ماده «حنو» على وزن حذف بمعنى الالتواء والانحناء.

٥- ٥) «زلفه» من ماده «زلف» على وزن ضعف بمعنى القربى، و«زلفه» و«زلفى» بمعنى المقام والمنزله والقرب.

٦- ٦) «ربق» جمع «ربقه» جبل فيه عده عرى تربط فيه البهم، ثم اطلقت على الرابطه المحكمه بين شىء وأخر، وقد وردت هنا بهذا المعنى.

٧- ٧) «إستكانه» من ماده «سكون» تأتي بمعنى الخضوع والتواضع في هذه الموارد. قيل من باب إفتعال من ماد هسكون، وقيل من باب استفعال من ماده كون وهي أيضاً بمعنى السكون في مكان مع الخضوع والخشوع.

فى مسيرتها من الله تكشف لها حقائق جديده عن عظمته المطلقه، فيروا فيه ملامح جديده من صفات الجمال والجلال. من هنا يزدادون له خضوعاً وخشوعاً وتواضعاً كل يوم، فلا يبقى أمامهم من مجال للاعجاب بالحسنات وإكبارها، بل يرون أنفسهم مقصرين على الداوم تجاهه. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه باماطه اللثام عن هذه الحقيقه وهى عدم كلال الملائكه عن عبادته، وليس للفتور من سبيل إليها، كما ليس هناك ما يصددها عن مواصلة مسيرتها العباديه، بل هى دؤوبه على العباده بدافع من عشقها وإرادتها وعزمها، على غرار الإنسان الذى لا يكل عن استنشاق الهواء الطلق طيله عمره وإن امتد لآلاف السنين. ثم تناول الإمام عليه السلام هذه المسأله من مختلف الجوانب بثمان عبارات. فقال فى العباره الاولى: «ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم» (١) كما قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز واصفاً الملائكه: «يَسْبُحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» (٢) ثم قال عليه السلام فى العباره الثانيه: «ولم تغض (٣) رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم»، وذلك لأن عشقهم للكمال دائمي لا يتوقف، وعلمهم متزايد بربهم - وبناءً على هذا فليس هنالك ما يدعو إلى غفلتهم عن العباده، أو يقلل من أملهم. وقال فى العباره الثالثه أن طول مناجاتهم لم تجف ألسنتهم وتعجزها عن العباده: «ولم تجف لطول المناجاه أسلات (٤) ألسنتهم»، طبعاً ليس هنالك لساناً وفما للملائكه كما لدينا، بحيث تقل رطوبته بفعل كثره الذكر والمناجاه فيصيبه الجفاف واليبس، بل العباره كناية لطيفه عن عدم ضعفهم وفتورهم فى تسييحهم وتضرعهم لله سبحانه وتعالى، ثم قال عليه السلام فى العباره الرابعه: «ولاملكتهم الاشغال فتقطع بهمس (٥) الجؤار (٦)، إليه أصواتهم»، فالواقع ليس لهؤلاء من عمل سوى العباده والطاعه والعبوديه، وهذه الأمور جزء لا يجترأ من ذواتهم ووجودهم وإيمانهم. وليس لهذه الأمور أن تخلق أى تعب أو ملل، كالقلب المعافى الذى لا يشعر بالتعب ولو عمل لسنين، وقال عليه السلام فى العباره الخامسه: «ولم تختلف فى مقاوم (٧) الطاعه

ص: ٧٣

١-١) «دؤوب» مصدر بمعنى الدوام والاستمرار والسعى والجهد إلى حد التعب والارهاق.

٢-٢) سورة الأنبياء/٢٠. [١]

٣-٣) «تغض» من ماده «غيض» بمعنى تنقص و تقل. و أشارت فى العباره إلى عدم قله رغبه الملائكه بطاعه الله و عبادته.

٤-٤) «أسلات» جمع «أسله» بمعنى طرف اللسان، وتطلق على من لا يكل عن الذكر ولا يجف لسانه.

٥-٥) «همس» على وزن لمس، الخفى من الصوت.

٦-٦) «جؤار»، الصوت المرتفع، وقد ورد فى العباره بمعنى رفع صوت الملائكه بالتضرع وعدم الكف عن المناجاه.

٧-٧) «مقاوم»، قال شراح نهج البلاغه مقاوم جمع مقام بمعنى الصفوف وإن لم تعشر على مثل هذا الجمع فى المصادر اللغويه.

مناكبهم» ، ثم أردفها عليه السلام بالقول بعدم خلودهم إلى الراحة ليؤدي بهم ذلك إلى التقصير في القيام بمهامهم: «ولم يثنوا (١) إلى راحة التقصير في أمره رقابهم» فهم على أهبة الاستعداد للعبادة على الدوام. ثم اختتم ذلك بقوله عليه السلام: «ولاتعدوا على عزيمة جدهم بلاده الغفلات، ولاتنتضل (٢) في همهم خدائع الشهوات» ، حقاً أنّ وجودهم خال من أية شهوة وغفلة، ولهم إيمان وحب لخالقهم على درجه من القوه والرسوخ بحيث لا يتسلل إليهم التعب والملل أبداً في مسيرتهم العباديه وطاعتهم لربهم.

تأمل: الناس والملائكة

هدف الإمام عليه السلام باختصار بيان حال الملائكة في طاعتها وعبوديتها لله سبحانه بعبارات مفعمه بالكنايات والتشبيهات المقرونة بروعه الدقه، و الجمال ليكون ذلك في الواقع درساً لكافة الأفراد في أنّ الإنسان إذا شق طريقه إلى الله وسار نحو مقام القرب الإلهي وذاق بروحه وأحاسيسه حلاوه معرفه الله وارتوى من حبه وعشقه، إلّا يستشعر التعب والفتور أبداً في مسيرته العبوديه وطاعته لربه، وعليه أن يكون أكثر جديه وعزماً كلما تقدم في هذه المسيره.

فقد ورد في سيره الاثمه ورواد الطريق من العلماء الأعلام ما يشير إلى أنّ الإنسان يمكنه أنّ يكون على غرار الملائكة في هذه الأمور، بل له أن يسبقهم ويتفوق عليهم، وذلك لأنّ الملائكة مجردة من الأهواء والشهوات و الغفلة، فاذا نال الإنسان تلك الصفات، كان حقاً أفضل من الملائكة. جاء في الخبر أنّ الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام لم ينقطع أربعين سنه عن صلاه الليل، حتى أنّه كان يصلي الصبح بوضوء المغرب: «إنّه عليه السلام صلى أربعين سنه صلاه الصبح بوضوء المغرب» (٣)، وقال الإمام الباقر عليه السلام في وصفه لعباده الإمام علي عليه السلام: «ما أطاق أحد عمله وإن كان علي بن الحسين لينظر في كتاب من كتب علي

ص: ٧٤

١-١) «يثنوا» من ماده «ثنى» بمعنى الطي وأن أطلقت على المدح فلأنها تعدد صفات الشخص البارزه الواحد بعد الأخرى.

٢-٢) «تنتضل» من ماده «نضال» ترمى السهام.

٣-٣) روضه المتقين ١٣/٢٦٤.

فيضرب به الأرض ويقول من يطيق هذا» (١).

القسم السادس عشر: عودة على بدء في صفات الملائكة

إشارة

«قَدْ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ، وَيَمَمُّوهُ، عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لَا يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ وَلَا يَزْجِعُ بِهِمُ الْإِسْدِيَّتْهُنَّارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلَّا إِلَى مِيوَادِّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَحَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ، فَيُنُوا فِي جَدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمْ الْأَطْمَاعُ فَيُؤَثِّرُوا وَشَيْكَ السَّعَى عَلَى اجْتِهَادِهِمْ. لَمْ يَسْتَعْظُمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ اسْتَعْظُمُوا ذَلِكَ لَنَسِخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِّهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَلَا تَوْلَاهُمْ غُلُّ التَّحَاسُدِ، وَلَا تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرَّيْبِ، وَلَا اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهَمَمِ، فَهَمُّ أُسْرَاءِ إِيْمَانٍ لَمْ يُفَكِّهِمْ مِنْ رَبِّقَتِهِ زَيْغٌ وَلَا عُدُولٌ وَلَا وَنَى وَلَا فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْيَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعٌ إِهْرَابٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طَوْلِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْمًا، وَتَزْدَادُ عِزَّهُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظْمًا» .

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى صفات أخرى للملائكة (وكان الإمام عليه السلام يوصي الناس بأنكم إذا أردتم أن تصبحوا كالملائكة وتسلخوا سبيل القرب إلى الله، عليكم أن تتحلوا بهذه الصفات) فإشار عليه السلام بادية ذي بدء إلى مقامهم في توحيد الأفعال وتوجههم الخاص إلى ربهم وانصرافهم عن سواه فقال عليه السلام: إنهم جعلوا ذا العرش وحبته وطاعته ذخيره

ص: ٧٥

(١- ١) موسوعه الإمام على بن أبي طالب ٩/٢٠٢؛ بحار الأنوار ٤٦/٧٥. [١]

ليوم الفاقة وقد خلوا بكل كياناتهم للخالق حين كرس الخلق أفكارهم في المخلوقات «قد اتخذوا ذا العرش ذخيره ليوم فاقتهم، ويمموه (١) عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم» «ذا العرش» إحدى صفات الله التي تدل على ذروه عظمه ذاته سبحانه، وذلك لأن العرش أسمى موجودات عالم الخلق. وقد اقتبست هذه الصفة من الآية الشريفة: «ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِه عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ» (٢). نعم فلم يتعلق قلب هؤلاء سوى بالله ولا يرون من مصدر غيره للخير والفضيله والبركة والنجاه في هذا العالم، ولا ينال المؤمن هدفه ما لم يسلك هذا السبيل لمعرفة الله، أما العبارة: «ذخيره ليوم فاقتهم» فتفيد وقوف الملائكة يوم القيامة للحساب وانتظارهم للآجر والثواب. ثم قال عليه السلام: «لا يقطعون أمد غايه عبادته ولا يرجع بهم الاستهتار (٣) بلزوم طاعته إلّا إلى مواد (٤) من قلوبهم غير منقطعه من رجائه ومخافته»، نعم فدوافع هؤلاء في الطاعه والعبوديه إنما يستقونها من مصدر خوف الله ورجائه الذي يضاعف معرفتهم بالله وسلوك السبيل المؤدى إلى قربه. ولذلك أكد الإمام عليه السلام في العبارة اللاحقه في أنّ أسباب خوف الله لم تنقطع عنهم ليهنوا في سعيهم وجدهم «لم تنقطع أسباب الشفقه منهم، فينوا (٥) في جدّهم» ثم أردفها عليه السلام بالقول بأنّ الاطماع لم تأسرهم وتستحوذ عليهم ليقدموا سرعه سعيهم في أمور الدنيا على جدّهم في أمور الآخره: «ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك (٦) السعى على اجتهادهم» أجل فالذي يضعف الإنسان في طريق عبوديته الحق هو السقوط في مخالبا الأهواء والأطماع التي تعطل قواه وتصده عن طاعه ربّه.

ثم قال عليه السلام: في صفة أخرى من صفات الملائكة «لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم،

ص: ٧٦

١ - ١) «يممو» من ماده «يم» قصدوه بالرغبه والرجاء عند ما انقطع الخلق سواهم إلى المخلوقين، ومنه «التيّم» الذي يقصد فيه الإنسان ضرب يديه بالتراب ومسح ظاهرها وجبهته به.

٢ - ٢) سوره غافر/ ١٥. [١]

٣ - ٣) «الاستهتار» مصدر بمعنى اللامبالاه والحرص على المخالفه، واصله «التهتر» على وزن الستر بمعنى الحماقه والجهل.

٤ - ٤) «مواد» جمع «ماده» أصلها من «مد» البحر إذ زاد، فالمواد تعنى الزيادة.

٥ - ٥) «ينوا» من ماده «ونى» على وزن روى بمعنى الضعف والفتور.

٦ - ٦) «وشيك» من ماده «وشك» بمعنى السرعه.

ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم» فالعبارة درس عظيم لكافة الأفراد في استصغار أعمالهم عند الله، وذلك أنهم إذا أكبروا هذه الأعمال تعلقوا بها وازداد أملهم بها فيفتروا في سعيهم؛ الأمر الذى يسلبهم خوف الله الذى يعتبر من أحد العوامل المهمة للحركة نحو الكمال. وبغض النظر عما سبق فما عسانا أن نكون وما أعمالنا التى تليق بساحة الربوبية المطلقة. كان الحديث فى بعض الصفات السابقة عن عدم اعجاب الملائكة بأعمالها ونفسها، وجرى الحديث هنا عن تأثير الاعجاب فى تغلب الرجاء على الخوف؛ الأمر الذى يصد أصحاب الحق عن مواصلة مسيرتهم و يمنعهم من التكامل، وذلك لأن الإنسان إذا شعر بكبر أعماله عند الله، راوده الشعور بأنه دائن، ومن رأى نفسه دائماً اكتفى بما أتى من أعمال وتخلف عن سلوك سبيل التكامل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن سائر خصائص الملائكة التى يحتاجها الإنسان بشده، ومنها عدم اختلافهم فى ربهم، ثم يعزى الإمام عليه السلام هذا الاختلاف إلى الوسواس الشيطانية أحياناً، أو الرذائل الأخلاقية أحياناً أخرى. فقال عليه السلام: «لم يختلفوا فى ربهم باستحواذ الشيطان عليهم» فالعبارة تحمل رساله واضحه للجميع، وهى أنّ مصدر اختلاف المذاهب والأديان إنّما يعود بالدرجة الأساس إلى الوسواس الشيطانية، وذلك لأنّ الاختلاف - لاسيما إن كان عقائدياً - إنّما يفضى لأنواع النزاعات والحروب والاضطرابات؛ الأمر الذى يهدد مصير الإنسان ويقضى على سعادته. ثم أشار عليه السلام بعد ذلك إلى العوامل الداخليه والرذائل الأخلاقية التى تؤدى إلى الاختلاف، وإن التعامل السيء لم يفرق هذه الملائكة، ولم يبعدها الحسد عن بعضها، كما أن الشك والترديد لم يفرقها ويشتت أمرها: «ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولا تولاهم عن التحاسد، ولا تشعبتهم مصادر الريب، ولا اقسمتهم أخياف (1) الهمم» فالواقع هو أنّ عمده عوامل الاختلاف قد بينت فى هذه العبارات القصيره. فلو تعامل الأفراد مع بعضهم البعض الآخر بشكل صحيح وفق معايير الادب، لحيل دون أغلب

ص: ٧٧

١ - ١) «أخياف» من ماده «خيف» على وزن هدف و هو فى الأصل ما انحدر من سفح الجبل، و اريد به هنا سواقط الهمم. و تعنى إختلاف العينين مثلاً واحده زرقاء و أخرى سوداء، ثم أطلقت على كل إختلاف.

الخلافاً التي يفرزها سوء التعامل. وإذا لم يحسد بعضهما البعض الآخر لاجتث العامل المهم الآخر من عوامل الخلاف والشقاق. وإن طرحوا عنهم الشكوك في مختلف المسائل وتعاملوا مع ما يواجههم استناداً إلى العلم والمعرفة لحد من نسبه الخلاف. وأخيراً لو أذعن الجميع لاختلاف الأفكار والتوجهات وتشعب الآذواق والآراء لقل حجم التقاطع والانفصال، فقد شاء الله أن يخلق الناس على أنواع واختلاف في الأفكار والتطلعات، ولو هم كل أحد بفرض آرائه على الآخرين، فمن اليقين لتعذر عيش شخصين إلى جانب بعضها دون بروز حاله من التوتر والاضطراب. صحيح أن ليس للملائكة من شهوات كما للإنسان، وأن أغلب دوافع الذنب والمعصية ليست متوفرة فيهم. إلا أنهم على كل حال قد زدوا بالعقل والشعور والاختيار وحب الذات والقدرة على المعصية والتمرد على الطاعة. إلا أن عرفان الملائكة بالله حال دون ارتكابها للذنب؛ وذلك أن مقارفتها للذنب والمعصية كلما كانت متعذره، كانت جديره بكل هذا المدح والتمجيد وجعلها أسوأ للاقتداء بها من قبل الناس. وبناء على هذا فإن الإنسان إذا بلغ هذه الدرجة من الكمال والمعرفة كان له أن يصون نفسه من التلوث بالذنب. ثم قال عليه السلام: في ختام الكلام على سبيل نتيجة قصيره بليغه «فهم اسراء ايمان لم يفكهم من ربقتة زيغ (١) ولا عدول ولا وني (٢) ولا فتور»، فالتعبير بالاسراء والربقه (الحبل ذو الحلقات المتعدده) يفيد مدى التزام الملائكة بالإيمان، فقد سبحوا في بحار معرفه الله وسلموا لذاته المطلقه وكأنهم لفوا أعناقهم بطوق محكم من الإيمان، ولا يستطيع أى عامل أن يرفع هذا الطوق من أعناقهم، ولو عاش الناس مثل هذا التسليم للحق والالتزام بالإيمان، لما وسع دوافع الذنب والمعصية أن تتسلل إلى وجودهم قط. ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بهذا الشأن بالحديث عن مسأله أخرى وهى كثره الملائكة وسعه معرفتها، حيث يختتم هنا شرحه لصفات الملائكة، بحيث لا يوجد، أدنى موضع فى السماء إلا وقد شغل بملك ساجد، وآخر ساع حافد منهمك فى أداء مسؤوليته، ومن شأن هذه الطاعة أن تضاعف معرفتهم لربهم، كما تزداد عزه ربهم فى قلوبهم عظمه:

ص: ٧٨

١-١) «زيغ» من ماده «زيغ» على وزن فيض الاعوجاج.

٢-٢) «ونى» من ماده «ونى» بمعنى الضعف كما مر علينا سابقاً.

«وليس في أطباق السماء موضع إهاب (١) إلّا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد (٢) يزدادون على طول الطاعة برّبهم علماً، وتزداد عزه ربّهم في قلوبهم عظماً» .

فالعبارات تفيد كثره عدد الملائكة من جانب بحيث ملأت جميع أقطار السموات بما فيها مدبرات الأمر وامناء الوحي والمنهمكين بالطاعة والعبودية. من جانب آخر فان كلا الطائفتين من الملائكة لكثرة طاعتها لرّبها إنّما تزداد يوماً بعد آخر علماً ومعرفة فيصبحوا أكثر قرباً لله ومعرفة به. وهذا درس آخر للناس ليعلموا أنّ الطاعة والتقوى سبب ازدياد العلم والمعرفة والتعرف على صفات الله الجماليه والجلاليه. والواقع هو أنّ هنالك تأثير متبادل بين الطاعة والتقوى والمعرفة حيث تحكّمها علاقته طردية، فالمعرفة تقود إلى الطاعة، كما أنّ الطاعة تكون سبباً للعلم والمعرفة الأعمق والأشمل. فقد ورد في الحديث أنّ رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام: هل الملائكة أكثر أم الناس؟ فاجاب عليه السلام: «والذى نفسى بيده لعدد ملائكة الله في السموات أكثر من عدد التراب في الأرض؛ وما في السماء من موضع قدم إلّا وفيها ملك يسبحه ويقده» (٣).

تأمل: الناس والملائكة ثانيه

بين الإمام عليه السلام في هذا الخطبه صفات الملائكة بصوره واسعه جداً، وبالطبع فإنّ هنالك هدفاً مهما كان ينشده الإمام عليه السلام من ذلك. ويبدو أنّ للإمام عليه السلام هدفان هما: ذلك المطلب الذى وردت من أجله الخطبه ويكمن في معرفه الصفات بعيداً عن الشرك سواء عن طريق التشبيه أو التعطيل.

والآخر هو سوق الإنسان نحو الملائكة والتحلى بصفاتها؛ ومنها أنّهما كها بالعباده والطاعة والتواضع والخضوع واتباع الأوامر؛ فلا يكلون ولا يتعبون ولا يفترون، وليس بينهم من

ص: ٧٩

١- ١) «أهاب» جلد الحيوان، أو الجلد المدبوغ.

٢- ٢) «حافد» من ماده «حفد» السرعة فى العمل.

٣- ٣) تفسير القمى ٢/٢٥٥. [١]

أحقاد وضغائن وحسد، كما ليس بينهم اختلاف وتفرق وتشتت، وأخيراً لا يكبرون أعمالهم ولا يتسلل إليهم اليأس والقنوط، ولا يفكرون سوى في الله وطاعته. صحيح أن خلق الإنسان يختلف تماماً وخلق الملائكة، فالعقل هو الذى يحكم الملائكة، بينما ركبت إلى جانبه الشهوة في الإنسان. إلّا أنّ هذا الإنسان الخليط من الصفات الحيوانية والعقلانية قد ينحدر حتى يكون كالحيوان الوحشى الكاسر «بَيْلُ هُمْ أَضَلُّ»، كما يمكنه أن يتسامى بفضل ما زود به من استعدادات ليفوق الملائكة فيبلغ مرتبه لا تتسنى لغيره «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»، ومن هنا يمكن للملائكة أن تكون قدوة للإنسان.

من جانب آخر فإن العلم. بحضور الملائكة في أرجاء العالم - بحيث ليس هنالك شبراً في هذا العالم المترامى الأطراف يخلو منها - دلالة مهمّة على فعالية التدبير الإلهي في هذا العالم؛ الأمر الذى لا يخفى دوره في المسائل التربوية. وناهيك عما سبق فإنّ هذه الصفات تحمل رساله مهمّة للإنسان وهى عدم الاغترار بالأعمال واستكثارها إذا ما وقف بين يدي ربّه للصلاه أو ناجى ربّه وتضرع إليه، بل إن نهض في جوف الليل وصلّى والناس نيام. فيطرد عن نفسه هذه الأفكار الشيطانية، فالذات الإلهية مطلقه غنيه ليست بحاجة إلى العباده، بغض النظر عن كثره عدد الملائكة التى تتقلب في طاعه الله ساجده وراكعه وقائمه. والحق أنّ قدراً من الدقه والتمعن في الصفات التى أوردها أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن الملائكة لتأخذ بيد الإنسان إلى عالم النور والعرفان وتوقفه على صغر أعماله وطاعاته وتعرفه بسر القرب من الله والفوز برضوانه. وتكشف النقاب عن عدم عبثه شده قرب الملائكة من الله، إلى جانب عدم بلوغ الإنسان أهدافه المعنويه الرفيعه المرسومه له دون السعى والجد والاجتهاد والطاعه.

فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه وهو عبدالله بن سنان: أيهما أفضل الملائكة أم بنى آدم؟ قال عليه السلام أمير المؤمنين على عليه السلام: «إنّ الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوه، وركب في البهائم شهوه بلا عقل، وركب في بنى آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم» (١).

ص: ٨٠

طبعاً لا يعنى هذا الحديث أنّ الملائكة لاتملك لنفسها اختياراً، أو أنّها تخلو من عوامل الذنب والمعصية، فعدم وجود الشهوة فى الملائكة إنّما يحول دونها ودون بعض دوافع الذنوب لا جميعها.

ص: ٨١

«كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَوْرٍ أَمْوَاجٍ مُسِيَّتَفْحَلِهِ، وَلُجِجَ بِحَارٍ زَاخِرِهِ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِي أَمْوَاجِهَا، وَتَضِي طَفِيقُ مُتَقَاذِفَاتِ أُنْبَاجِهَا، وَتَزْعُو زَيْدًا كَالْفُحُولِ عِنْدَ هَيَاجِهَا، فَخَضَعَ جَمَاحُ الْمِيَاءِ الْمُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَيَكُنْ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكُلِّكَلِهَا، وَذَلَّ مُسِيَّتَخْدِيًا، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اضْطِحَابِ أَمْوَاجِهِ، سَاجِيًا مَقْهُورًا، وَفِي حَكْمِهِ الذَّلُّ مُنْقَادًا أَسِيرًا، وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجِّهِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَحْوِهِ بِأَوِهِ وَإِعْتِلَائِهِ، وَشَمُوخَ أَنْفِهِ وَسُمُومِ غُلَوَائِهِ، وَكَعَمَّتْهُ عَلَى كِطْهِ جَزَيْتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيْفَانِ وَثَبَاتِهِ» .

الشرح والتفسير

مرّ علينا في الخطبه الاولى من نهج البلاغه ما أورده الإمام عليه السلام بشأن خلق الأرض فقال: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائكك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطمًا تياره، متراكماً زخاره، حمله على متن الريح العاصفه، والززع القاصفه، فأمرها برده، وسلطها على شده. . . فسوى منه سبع سموات.

وقد أشار الإمام عليه السلام هنا في هذا الموضوع من الخطبه إلى ذلك الأمر الذي ذكره سابقاً في إطار عرضه لخلق الأرض بعبارات جديده رائعه فقال عليه السلام: «كبس (١) الأرض على مور (٢) أمواج

ص: ٨٣

١-١) «كبس» بالفتح من ماده «كبس» على وزن حبس بمعنى الأغلاق والضغط.

٢-٢) «مور» على وزن غور التحرك الشديد والهيجان والاضطراب.

مستفله (١)، ولجج بحار زاخره (٢) تلتطم أو أذى (٣) أمواجه، وتصطفق (٤) متقاذفات (٥) أثباجها (٦) وترغوا (٧) زبداً كالفحول عند هياجها، ولعل هذه العبارات من قبيل الأمواج والبحار وأمثال ذلك مما كان موجوداً قبل بدايه الخلق، أى فى ذلك الزمان الذى لم يكن فيه الماء، بل حتى الليل والنهار، إشاره إلى المواد المذابه التى كانت موجوده قبيل انبثاق الخليقه وقد تلاطمت وتلاشت إثر وقوع الانفجارات العظيمه، فظهرت الرغوات الواسعه على هذه المواد المذابه ثم قذفت فى الفضاء لتكون الأرض والكواكب والسيارات، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحله أخرى من مراحل ظهور العالم فقال: «فخضع جماح (٨) الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائيه إذ وطئته بكلكلها (٩)، وذل مستخذياً إذ تمعكت (١٠) عليه بكواهلها (١١)»، ثم أرف الإمام عليه السلام ذلك بقوله: «فاصبح بعد اصطخاب (١٢) أمواجه، ساجياً (١٣) مقهوراً، وفى حكمه (١٤) الذل منقاداً أسيراً»، فالذى يستفاد من هذه العبارات أن ظهور الأرض (وسائر

ص: ٨٤

- ١-١) استفله من ماده استفحال الهائجه التى يصعب التغلب عليها.
- ٢-٢) «زاخره» من ماده «زخر» على وزن فخر بمعنى المليء.
- ٣-٣) «أو أذى» جمع أذى على وزن قاضى الموج أو أعلاه.
- ٤-٤) «تصطفق» من ماده «صفق» على وزن سقف بمعنى ضرب الشىء بآخر مصحوباً بالصوت، واصطفقت الأشجار اهترت بالريح.
- ٥-٥) «متقاذفات» من ماده «قذف» على وزن حذف النزاع وقذف شىء على آخر.
- ٦-٦) «أثباج» جمع «ثبج» بالتحريك وهو فى الأصل ما بين الكاهل والظهر، استعاره لأعلى الموج، التى يقذف بعضها بعضها.
- ٧-٧) «ترغو» من ماده «رغو» على وزن نقد ومنه الرغوه ما يطفو على اللبن وأريد بها هنا العناصر المكونه للأرض التى ظهرت عليها ماده مذابه فى البدايه.
- ٨-٨) «جماح» طغيان الفرس ثم اطلق على كل شىء شبيه ذلك.
- ٩-٩) «كلكل» يعنى الصدر.
- ١٠-١٠) «تمعكت» من ماده «معك»، تمعكت الدابه تمرغت فى التراب.
- ١١-١١) «كواهل» جمع «كاهل» أعلى الظهر وقرب العنق.
- ١٢-١٢) «اصطخاب» من ماده «صخب» على وزن وهب بمعنى ارتفاع الصوت وتستعمل حين تختلط أصوات الطيور والضفادع مع بعضها، ووردت هنا بشأن اختلاط الأمواج مع بعضها.
- ١٣-١٣) «ساجى» بمعنى ساكن من ماده «سجو» على وزن هجو.
- ١٤-١٤) «حكمه» من ماده «حكم» على وزن حتم تعنى فى الأصل الاعاده والمنع وتطلق على ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه. وتطلق الحكمه على العقل والعلم، لأنها تمنع الإنسان من السيئات والانحرافات.

الكرات السماويه) على ماده المذابه الاولى كان سببا لاستقرارها بالتدريج وكبح جماحها واضطرابها. كما يحتمل أن تكون هذه العبارات إشاره إلى الأمطار والسيول في بدايه ظهور الكره الأرضيه، بحيث شكلت محيطات متلاطمه، إلّا أنّ هذه الأمواج أخذت بالاستقرار نسبياً على سطح المحيطات بفعل الجاذبيه الأرضيه. حتى أخذت تظهر اليابسه، من هنا قال لاحقاً بان الأرض قرت وظهرت يبوستها شيئاً فشيئاً وحد من حركات الماء حتى سكن وقر في مكانه «وسكنت الأرض مدحوه (1) في لجه تياره، وردت من نخوه بأوه (2) واعتلائه، وشموخ (3) أنقه، وسمو غلوائه (4) وكعمته (5) على كظه (6) جريته (7) فهمد (8) بعد نزقاته (9)، ولبد (10) بعد زيفان (11) وثباته (12)»، وهكذا خمدت العواصف الاولى وقطعت الأمطار والسيول ثم هدأت تلك الامواج، فتأهبت الأرض لتقبل الحياه عليها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في المقطع القادم. وهنا لابد من القول بأن بعض شراح نهج البلاغه ذهبوا إلى أنّ الماء قد وجد قبل خلق الكره الأرضيه، إلّا أنّه كما أشير سابقاً أنّ التعبير بالماء يمكن أن يكون إشاره إلى المواد المذابه السيله التي وجدت قبل ظهور السماء والأرض.

ص: ٨٥

١-١) «مدحوه» من ماده «دحو» بمعنى مبسوطه.

٢-٢) «أوه» على وزن نحو الكبر والزهو والفخر.

٣-٣) «شموخ» بمعنى الكبر والغرور.

٤-٤) «غلواء» من ماده غلو النشاط و الطموح و تجاوز الحد.

٥-٥) «كعم» من ماده «كعم» على وزن طعم، كعم البعير شد فاه لثلا يعفى أو يأكل، وما يشد به كعام.

٦-٦) «كظه» بالكسر ما يعرض من امتلاء البطن بالطعام، ويراد بها هنا ما يشاهد في جرى الماء من ثقل الاندفاع.

٧-٧) «جريه» بمعنى الجريان.

٨-٨) «همد» من ماده «همود» بمعنى اخماد حراره النار.

٩-٩) «نَزَقَات» من ماده «نزق» الخفه والطيش.

١٠-١٠) «لبد» من ماده «لبود» الوقوف في مكان.

١١-١١) «زيفان» التبخر في المشيه.

١٢-١٢) «وثبات» جمع «وثبه» القفز وقد وردت في العبارة بمعنى حركه الأرض الشديده في الأيام الاولى.

«فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَفِهَا، وَحَمَلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الشُّمَخِ الْبُذَخِ عَلَى أَكْتَفِهَا، فَجَرَ يَنْابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينَ أَنْوْفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بَيْدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّسِيَّاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيِّخِيدِهَا، فَسَيَّكَنْتَ مِنَ الْمَيْدَانِ لِرُشُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطْعِ أَدِيمِهَا، وَتَغْلُغْلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جُؤَبَاتِ حَيَاثِيَمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقِ سُهُولِ الْأَرْضِينَ وَجَرَائِمِهَا، وَفَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنِهَا، وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسِّمًا لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه - بعد أن شرح كيفية ظهور الأرض - إلى مسأله ظهور العيون والآثار المهمه للجبال في استقرار الأرض ومن عليها، فتطرق إلى أهم أسباب الحياه على الأرض وفي مقدمتها الماء والسكون والاستقرار فقال عليه السلام: «فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواحق (1) الجبال الشمخ (2) البذخ (3) على أكتافها، فجر ينابيع العيون من عرانيين (4) أنوفها وفرقها في سهوب (5) بيدها (6) وأخاديدها (7)» فالعبارة تفيد أن أوّل

ص: ٨٧

١- (١) «شواحق» جمع «شاهق» العالى والمرتفع.

٢- (٢) «شمخ» جمع «شامخ» و «بذخ» جمع «باذخ» العال والرفيع.

٣- (٣) شمخ جمع شامخ وبذخ جمع باذخ العال والرفيع.

٤- (٤) «عرانيين» جمع «عرنين» على وزن عشرين وهو ما صلب من عظم الأنف.

٥- (٥) «سهوب» جمع «سهب» على وزن فهم الفلاه.

٦- (٦) «بيد» جمع «بيداء» بمعنى الأرض الفلاه.

٧- (٧) «أخاديد» جمع «أخدود» الحفره الكبيره.

ما ظهر على الأرض الجبال ثم تبعثها العيون؛ الأمر الذى أيدته أبحاث علم طبقات الأرض حيث تشققت القشره الأرضيه فى البدايه إثر البروده، فكان فى تلك الشقوق حفر عظيمه استوعبت الماء النازل من السماء ثم جرى بشكل عيون و ينابيع. والعباره «عرانين أنوفها» التى تعنى ما صلب من عظم الانف، هى كناية راعه عن قمم الجبال، بل أن تشبيه نتوءات الجبال بالانف تشبيه رائع يدل على أن جوف الجبل ليس مملوءاً، بل فيها المزيد من الأجزاء الخاليه بحيث تبدوا أحياناً للعيان على هيئه غيران وكهوف ومصادر لادخار المياه.

ثم اشار عليه السلام إلى سكون الأرض والسيطره على حركتها بالجبال، فقال: «وعدل حركاتها بالراسيات (1) من جلاميدها (2) وذوات الشناخيب (3) الشم (4) من صياخيدها (5)» .

وهكذا سكنت حركات الأرض بفعل نفوذ الجبال فى سطحها ورسوخها فى الأعماق واستقرارها على الفلاسه فحالت دون اضطرابها: «فسكنت من الميدان (6) لرسوب الجبال فى قطع أديمها (7) وتغلغها (8) متسربه (9) فى جوبات (10) خياشيمها (11)، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها (12)» .

والحق أن ما أورده الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه هو ذات ما أثبتته العلم الطبيعى؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم فى أن الجبال بمثابه مسامير الأرض: «وَالجِبَالِ

ص: ٨٨

- ١-١) «الراسيات» جمع «راسيه» بمعنى الثقيل والمحكم.
- ٢-٢) «جلاميد» جمع «جلمود» الحجر الصلد.
- ٣-٣) «شناخيب» جمع «شنخوب» رأس الجبل.
- ٤-٤) «الشم» جمع «أشم» بمعنى العالى والمرتفع.
- ٥-٥) «صياخيد» جمع «صيخود» على وزن محمود الصخره الشديده.
- ٦-٦) «ميدان» بالتحريك الاضطراب.
- ٧-٧) «أديم» يعنى فى الأصل الجلد المدبوغ ثم اطلق على سطح الأرض.
- ٨-٨) «تغلغل» المبالغه فى الدخول.
- ٩-٩) «متسربه» من ماده «تسرب» الدخول خفيه.
- ١٠-١٠) «جوبات» «جوبه» على وزن توبه الحفره.
- ١١-١١) «خياشيم» جمع «خيشوم» على وزن زيتون وهو منفذ الأنف إلى الرأس.
- ١٢-١٢) «جراثيم» جمع «جرثومه» المراد هنا ما سفلى عن السطوح من الطبقات الترابيه.

أوتاداً» (١)، كما صرح القرآن قائلاً: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» (٢). طبعاً هناك عدة فوائد أخرى للجبال؛ ومنها خزن المياه التي تخرج منها أحياناً كعيون، وأحياناً أخرى على هيئة صقيع كثير ذاب ماءً فشكّل الأنهار، ناهيك عن سائر فوائد التي ذكرناها في شرح الخطبه الأولى في المجلد الأول من هذا الكتاب. ثم أشار عليه السلام إلى أمور مهمّة أخرى لاعداد الأرض بغيه عيش الإنسان وممارسه حياته عليها، في أنّ الله جعل فاصله بين الأرض والجو، وأعد الهواء والنسيم إلى جانب توفير كافه ما يحتاج إليه سكنه الأرض: «وفسح بين الجو وبينهما، وأعد الهواء متنسماً (٣) لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها (٤)»، فقد ضمنت هذه العبارة أشاره إلى الأركان الأصلية للحياه ومعيشه الإنسان والحيوان، وفي مقدمتها الهواء، أو بعبارة أخرى الاوكسجين الذي لا يستغنى عنه الإنسان لبضع (دقائق حيث يموت إذا قطع عنه. إلّا أنّ الحق سبحانه وتعالى خلقه بكميه كافيه وفي جميع الاماكن بحيث يحصل عليه الإنسان دون أدنى جهد أو تعب. كما يحصل عليه الجميع على السواسيه غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم وعجوزهم وفتاهم وعاجزهم وناشطهم. ثم أشار على نحو الاجمال إلى كل ما يلزم الإنسان والحيوان للمعيشه على الأرض بعبارة قصيره أوجزها في المفرده «المرافق». أمّا ما المراد بالجو في العبارة الذي فصله الله عن الأرض، فقد قال البعض المراد به الفضاء، ولما لم يكن الفضاء جسماً أو ماده فلا يبدو التعبير بايجاد الفاصله بينه وبين الأرض مناسباً. و يمكن أن يكون المراد بالجو الطبقات التي وراء الهواء، كطبقة الأوزون التي لا يمكنها تلبية الحاجه التنفسيه للإنسان لو كانت فاصلتها مع الأرض قليله، وكانت الطبقة الجويه رقيقه. أضف إلى ذلك فانها تدعو إلى اضطراب سائر شرائط حياه الإنسان وكافه الأحياء على الأرض.

تأمل: أسرار خلق الجبال

ص: ٨٩

١-١ (١) سورة النبأ/٧.

٢-٢ (٢) سورة النحل/١٥. [١]

٣-٣ (٣) «متنسم» من ماده «نسيم» هبوب الرياح المعتدله. وعليه متنسم (بصيغه اسم مفعول) بمعنى الهواء الصالح للتنفس.

٤-٤ (٤) «مرافق» جمع «مرفق» على وزن مكتب كل ما يحتاج الإنسان ويستفيد منه، وهذا هو المعنى المراد في الخطبه. كما ورد بمعنى مرفق اليد.

لقد أعد الحكيم سبحانه بمقتضى قدرته وعلمه كافة أسباب الحياه ومتطلبات العيش والوسائل التي يحتاجها الإنسان قبل خلقه؛ الأمر الذي أشارت الخطبه إلى جانب منه، ومن ذلك استقرار الأرض، فلو كانت القشره الأرضيه فى حاله حركه لتعدرت الحياه عليها، و الآخر توفير الهواء بهذه الصوره الواسعه حيث يعتبر ماده الحياه فى السفر والحضر وفى البيت وخارجه وفى اليقظه والمناخ وهو معه أينما كان، وتوفير المياه والعيون وجعلها تحت تصرف الإنسان، إلى جانب نزول الأمطار التي تروى كافة المواضع المرتفعه والعاليه وترويها بالمياه، وهذا ما سيأتى ذكره فى الأقسام القادمه من الخطبه.

وظهور الجبال التي تلعب دوراً مهماً فى حياه الإنسان، بل يمكن القول أنّ الحياه البشريه مهدده بالاطار لولا- هذه الجبال للأسباب التاليه.

أولاً: دورها فى الحيلولة دون اضطراب الأرض بفعل الضغط الداخلى.

ثانياً: الحيلولة دون عدم استقرار الأرض إثر الضغط الخارجى الناجم عن جاذبيه الشمس والقمر وظاهره المد والجزر الناشئه عنهما.

ثالثاً: كونها الملجأ الأمان ازاء العواصف التي تهدد كل مقومات وعناصر حياه الإنسان.

رابعاً: وسيله لايقاف السحب ونزول الأمطار.

خامساً: عامل مهم لادخار المياه بصوره صقيع متراكم فى سطحها الخارجى بحيث تتحول بالتدريج إلى ماء طيله السنه.

سادساً: موضع للآبار الجوفيه التي تختزن فى حفر عظيمه داخلها وتجرى كعيون.

سابعاً: تمنع الاصطدام الشديد للهواء بطبقه الأرض.

ثامناً: تجعل الأرض قابله للاستفاده العمليه، وبالنظر لاختلاف درجات حراره وسط الجبال ونقاطها العلويه والسفليه فانها توفر مناخاً مناسباً لنمو مختلف النباتات والمحاصيل.

تاسعاً: انها مراكز للمعادن العظيمه التي تلعب دوراً مهماً فى حياه الإنسان.

عاشراً: يستخرج منها بعض المواد المهمه فى البناء ولاسيما الحجر.

ومن هنا عدها القرآن الكريم من النعم العظيمه ذات الفوائد الكثيره، فقال «وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَجِينَ أُثْنَيْنِ» (١).

ص: ٩٠

«ثُمَّ لَمْ يَدْعُ جُرْزَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلَ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتِيهَا، وَتَشِي تَخْرُجُ نَبَاتُهَا أَلْفَ غَمَامَةٍ بَعِيدِ افْتِرَاقٍ لِمَعِهِ، وَتَبْيَأِينَ فَرْعِهِ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُرْنِ فِيهِ، وَالتَّمَعَ بَرَقُهُ فِي كَفِّهِ، وَلَمْ يَنْمِ وَمِيضُهُ فِي كَنْهَوْرِ رَبَابِهِ، وَمُتْرَاكِمِ سَيَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَيِّحًا مُتَبَدِّرًا كَأَنَّ قَدْ أَسْفَفَ هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ الْجُنُوبُ دَرَرَ أَهَاضِيهِ، وَدَفَعَ شَأْبِيهِ. فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرَكَ بَوَانِيهَا، وَبَعِيَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعَبءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُغْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِرَبْنِهِ رِيَاضَةً هَا وَتَرْدُهِى بِمَا أُلْبَسَتْهُ مِنْ رَيْطٍ، أَزَاهِيرِهَا، وَحَلِيهِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلَاغًا لِلْأَنَامِ، وَرِزْقًا لِلْأَنْعَامِ، وَحَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا، وَأَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى نعمه مهمه أخرى لا تتم الحياه بدونها على سطح الأرض، حيث شرحها بعبارات لطيفه رائعه، فقال عليه السلام: «ثم لم يدع جرز (1) الأرض التي تقصر مياه العيون عن روايبها (2)، ولا تجد جداول الأنهار ذريعه إلى بلوغها، حتى أنشأ لها

ص: ٩١

١- ١) «جرز» ؛ تطلق على الأرض التي تمر عليها مياه العيون فتنبت.

٢- ٢) «روابي» جمع «رايبه» من ماده «ربو» على وزن غلو مرتفعات الأرض.

ناشئه السحاب تحيى، مواتها وتستخرج نباتها» .

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أشار بصوره عابره إلى الاقسام الثلاثة للرى والسقى: السقى الطبيعى بواسطه العيون المليئه بالمياه، والسقى عن طريق الجدوال والآبار وتوجيه مياه الأنهار الطبيعىه، والسقى عن طريق الأمطار الأهم من كل ذلك، وذلك لوجود بعض المناطق فى الأرض التى يتعذر سقيها بغير الأمطار، وهى المناطق الكثيره، فلولا مياه الأمطار لماتت أجزاء واسعه من الأرض. اضيف إلى ذلك فما لاشك فيه أنّ الأنهار والعيون إنّما تكتسب مياهها من الأمطار. على كل حال فإنّ السحب وبالتالى الأمطار تقوم بهذه المهمه فى السقى و التى كلفها بها الله فقال عليه السلام: «الف غمامها بعد افتراق لمعه (١)، وتباين قزعه (٢)، حتى إذا تمخضت (٣) لجه المزن (٤) فيه والتمع برقه فى كفه (٥)، ولم ينم وميضه (٦) فى كنهور (٧) ربابه (٨)، متراكم سحابه، أرسله سحاً (٩) متاركاً، قد أسف (١٠) هيدبه (١١)، تمريره (١٢) الجنوب درر (١٣) أهاضيبه (١٤)، ودفع شايبيه (١٥)»، فقد استبطنت هذه العبارات عدّه مواضع علميه مهمه: ومنها الإشاره إلى مهمّه

ص: ٩٢

- ١-١ «لمع» جمع «لمعه» على وزن لقمه بمعنى قطعه من السحاب أو شيء آخر.
- ٢-٢ «قزع» جمع «قزعه» على وزن ثمره القطعه من الغيم.
- ٣-٣ «تمخضت» من ماده «مخض» على وزن فرض، بمعنى الحركه الشديده، مثل حركه الشكويه - وهو الوسيله التى يخض فيها اللبن لفصل الزبد عنه - عند ما نريد فصل الزبد عن اللبن. و المخاض: يطلق على حركه الطفل الشديده فى بطن أمه فى حاله الطلق و الوضع.
- ٤-٤ «مزن» السحب الماطره.
- ٥-٥ «كفف» جمع «كفه» على وزن قبه حاشيه شيء و اطرافه.
- ٦-٦ «مبيض» من ماده ومض على وزن رمز التشعشع.
- ٧-٧ «كنهور» القطع العظيمه من السحاب.
- ٨-٨ «رباب» جمع «ربابه» السحاب الابيض.
- ٩-٩ «سح» متلاحق متواصل.
- ١٠-١٠ «أسف» من ماده إسفاف الدنو من الأرض.
- ١١-١١ «هيدب» السحاب المتدلى الذى يقترب من الأرض.
- ١٢-١٢ «تمرى» من ماده «مرى» من مرى الناقه مسح على ضرعها ليحلب لبنها.
- ١٣-١٣ «درر» جمع «دره» اللبن.
- ١٤-١٤ «أهاضيب» جمع «أهضوبه» الحلب المتواصل.
- ١٥-١٥ «شاييب» جمع «شؤبوب» ما ينزل من المطر بشده.

الرياح التي تولف بين السحب المتفرقة المنبعثه من البحار لتتكون منها الأمطار الغزيره. ثم تطرق عليه السلام إلى تجمع السحب والغيوم والضغط الذي تسلطه كل واحده على الأرض تأهباً لهطول الأمطار إلى جانب دور البرق في ذلك الهطول، لاننا نعلم أنّ البرق إنّما يحصل من خلال الكهربائيه الموجبه والسالبه، فيجذب إليه مقداراً كبيراً من الهواء ويقلل من ضغطه فاذا قلّ ضغط الهواء تمهدت الظروف لسقوط الأمطار. ثم واصل الإمام عليه السلام الكلام في دور الرياح وأنها بمثابة الأصابع التي تستخرج الحليب من ضرع الثدي، فتفصل السحب والغيوم عن الهواء وتبعث بمياه الأمطار هنا وهناك. فكل هذه الأمور تشير إلى أن الخالق الحكيم قد أعدّ جميع المقدمات ودبر كافة الاسباب من أجل رى الاراضى المرتفعه والجافه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى آثار المطر على الأرض وما ينطوى عليه من بركات وفوائد فقال: «فلما أَلقت السحاب برك (1) بوانيها (2) وبعا (3) ما أستقلت (4) به من العبث (5) المحمول عليه، أخرج به من هوامد (6) الأرض النبات، ومن زعر (7) الجبال الأعشاب»، فقد أشارت هذه العبارات الرائعه إلى مسأله وهي أنّ السحب كأنها جلي فاذا هطلت الأمطار الثقليه وضعت حملها؛ الحمل الذي يفيض الحياه والبركه والجمال لكي تشمل الصحارى الجرداء أطراف قمم و سفوح الجبال - التي يصعب على الإنسان سقيها - فتخرج منها النباتات التي تعود بالفائده على الناس. ثم واصل عليه السلام حديثه برسم صورته رائعه عن الطبيعه التي تتمخض عن ذلك المطر، فقال «فهى تبهج (8) بزينه رياضها، وتزدهى (9) بما البسته من ريط (10) أزاهيرها (11) وحيله ما سمطت (12) به من ناضر (13) أنوارها (14)» .

ص: ٩٣

- ١- ١) «برك» بالفتح مايلي الأرض من جلد صدر العبير.
- ٢- ٢) «بوانى» مثنى «بوان» على وزن لسان عمود الخيمه.
- ٣- ٣) «بعا» بالفتح ثقل السحاب من الماء.
- ٤- ٤) «استقل» من ماده «استقلال» الحمل.
- ٥- ٥) «عبء» الحمل.
- ٦- ٦) «هوامد» جمع «هامده» من ماده «همود» انطفاء النار والهوامد من الأرض ما لم يكن بها نبات.
- ٧- ٧) «زعر» جمع «أزعر» الموضع القليل النبات.
- ٨- ٨) «تبهج» من ماده «بهجت» سر وفرح.
- ٩- ٩) «تزدهى» من الأزدهاء العجب.
- ١٠- ١٠) «ريط» جمع «ريطه» الثوب الرقيق.
- ١١- ١١) «أزاهير» جمع «زهرة» النبات.
- ١٢- ١٢) «سمطت» من ماده «سمط» التعليق.
- ١٣- ١٣) «ناضر» من ماده «نضاره» النشاط، ولا سيما الحاصل من وفور النعمه.
- ١٤- ١٤) «أنوار» جمع «نور» البرعم والزهر.

ومن الواضع جداً دور الطبيعى وجمالها فى صفاء روح الإنسان وإزالته لتعبه وارهاقه إلى جانب تفعيل قوته وطاقته؛ وعليه فالحديث لا يقتصر على مسأله الجمال، وإن كان هذا الجمال يمثل جانباً من جمال الحق سبحانه وجلاله؛ بل إن هذا الجمال يعد أحد عوامل بقاء الحياه وديمومتها، بل ذهب بعض العلماء إلى أهميه دروه حتى فى نشاط الحيوانات. ثم قال عليه السلام بأن كل ذلك زاد ومتاع للإنسان ورزق للأنعام: «وجعل ذلك بلاغاً (١) للأنام، ورزقاً للأنعام»، فالإنسان لا يستفيد من نعم الطبيعى على مستوى الغذاء فحسب، بل يؤمن عن طريقها لباسه ومسكنه ومركبه، وبصوره عامه كافه حاجاته ومتطلباته. قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «أَنَا صَدَقْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِالْأَنْعَامِكُمْ» (٢).

نعم فالإنسان لا يتغذى على النباتات وثمارها، وينسبح مفروشاتة من مختلف أليافها فحسب، بل يبنى بيوته من خشبها وينصب الخيام من أليافها، كما يغطى أغلب حاجاته ومتطلباته عن طريق منتجات الحيوانات التى تتغذى على النباتات. ثم اختتم خطبته عليه السلام بالإشاره إلى مسأله مهمه أخرى خلقها الله فى الأرض من أجل الإنسان: «وخرق الفجاج (٣) فى آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد (٤) طرقها». فادنى نظره إلى الأرض وكل بقعه من هذه الكره الأرضيه يتضح من خلالها بأن الجبال لم تحول دون الحركة على الأرض أو بفصل بعض بقاعها عن البعض الآخر فحسب، بل جعل فى كافه مواضعها الاوديه والشقوق لا يصلها مع بعضها عن طريق السبل والجادات وما إلى ذلك: وقلما يلتفت الإنسان أنه لولا وجود هذه الجادات و الجبال العملاقه المتصله مع بعضها و التى تشكل جدارا لمنع عبور الناس و الحيوانات و تقسم الأرض إلى إقسام متناثره لتعرض لعظيم البلاء و عاش أشد الفاقه: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ

ص: ٩٤

١- ١) «بلاغ» من ماده «بلوغ» الوصول إلى الشىء وهو هنا ما يتبلغ به من قوت.

٢- ٢) سوره عبس ٢٥/ - ٣٢. [١]

٣- ٣) «فجاج» جمع «فج» بمعنى الوادى بين الجبلين.

٤- ٤) «جواد» جمع «جاده» الطريق الواسع الواضح.

يَهْتَدُونَ» (١)، وقال: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ» (٢).

تأمل: سعه قاعده اللطف فى التكوين والتشريع

جرت عاده أهل التدبير والحكمه على توفير كافه المقدمات والأسباب التى توصل إلى الهدف، ويتجلى هذا الأمر بأعظم أبعاده فى الخالق الحكيم سواء فى عالم التشريع والتكليف، أم فى عالم العينيات والواقعات، فقد أعد كافه الشرائط ومهد جميع السبل فى عالم التكليف من أجل الطاعه، حيث زود الإنسان بالعقل والذكاء والفطره السليمه وانزل الكتب السماويه وبعث الرسل والأنبياء ليتسنى للعباد اتخاذ سبيل الطاعه؛ الأمر الذى اصطلح عليه باللطف فى علم الكلام. وفى عالم الخلق فإن الله سبحانه أعد كافه وسائل الحياه قبل أن يضع الإنسان قدمه على هذا العالم، فقد أقر سطح الأرض وحال دون حركاتها الطائشه بواسطه الجبال، وشق فيها الآبار والأنهار التى تعتبر ماده الحياه، وسخر السحب لرى المرتفعات، كما خلق مختلف النباتات التى يتغذى عليها الناس والحيوانات كما أوجد الجواد وسط الجبال لعبور الناس ومشيههم، وسهل للناس روابطهم الاجتماعيه، بل منح أرواحهم السكينه والهدوء بما زين به الطبيعه من ورود وأزهار. نعم هذا هو معنى الحكمه والتدبير والربوبيه الذى أشار إليه أميرالمؤمنين على عليه السلام فى هذا الموضع من الخطبه، والذى يعرف الإنسان بعلم الله وقدرته وحكمته من جانب، كما تثير لديه حس الشكر - ماده الطاعه والعبوديه -، وهو الأمر الذى ورد كراراً فى القرآن ومن ذلك فى سوره النحل بعد ذكره لخلق السموات والأرض والانعام ونزول الأمطار من السماء و خروج الاشجار و نمو الزرع و أنواع الثمار و الفاكهه و حركه الشمس و القمر و خلق البحار على أنها من نعمه التى لاتعد و لا تحصى. حيث قال: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (٣).

ص: ٩٥

١-١) سوره الأنبياء/٣١. [١]

٢-٢) سوره فاطر/٢٧. [٢]

٣-٣) سوره النحل/١٦ - ١٥. [٣]

«فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَيْرَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبَلْتِهِ وَأَسْوَأَ كَنَهُ جَنَّتِهِ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكْلَهُ، وَأَوْ عَزَرَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَا عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَا عَنْهُ - مُؤَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ - فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَلِيُثَبِّتَ الْحُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسِنِ الْخَيْرِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَتِهِ، قَزَنًا فَقْرُونًا؛ حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعُ عُذْرَهُ وَنُذْرَهُ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في قضيه خلق آدم بعد خلق الأرض و إعدادها من جميع النواحي، وأن الله سبحانه قد أعد الأرض و انفذ فيها أمره ثم اصطفى آدم عليه السلام من بين جميع خلقه: «فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السلام، خيره من خلقه، وجعله أول جبلته» (1)، والعبارة «أول جبلته» (أول مخلوقاته) يمكن أن يكون المراد بها الإنسان الأول من حيث الترتيب الزماني، أو أول مخلوق من حيث الموقع.

والمقام، أو كلاهما.

ص: ٩٧

١- ١) «جبله» بمعنى الطبيعه و الفطره الإنسانيه (وقد اشتقت هذه الكلمه من ماده «جبل» حيث تابى هذه الفطرها للتغيير) .

ثم قال عليه السلام بأن الله سبحانه أسكن آدم جنته وزوده بمختلف الأَطعمه والأشريه، ثم حذره ما حظر عليه والعاقبه الخطيره لتجاوز أمره ونهيه على مقامه وكرامته: «وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز (١) إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الأقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطره بمنزلته» .

نعم فقد أسكن الله آدم عليه السلام في جنته أرضيه (جنته غناء بالفاكهه من جنان الأرض، والشاهد على ذلك قوله: «فلما مهد أرضه» ، ثم بين لآدم عليه السلام تكليفه وأصدر له وأوامره ونواهيته وحذره من معصيته وعدم طاعه أوامره، والعبارات وان لم تصرح بالشجره المنهيه، غير أنها بينت بصوره عامه؛ الأمر الذى ورد كراراً فى عدّه آيات قرآنيه ومنها الآيه: «وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» (٢) والآيه «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» (٣).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن آدم وقع فى ما حذر منه: «فأقدم على ما نهاه عنه، موافاه لسابق علمه» .

قد يبدو فى البدايه أنّ العبارة: «موافاه لسابق علمه» ، أنّ آدم عليه السلام - قد أجبر على المعصيه وذلك لأنّ علم الله سبق فى هذا الأمر (وهذه هى الشبهه المعروفه لدى المجبره فى مسأله العلم الأزلى لله سبحانه) ، ولكن كما ذكرنا ذلك سابقاً فى بحث الجبر والتفويض، أنّ العلم الانزلى ليس سبباً الاجبار على فعل قط! لأنّ الله كان يعلم أنّ آدم عليه السلام سيقارف هذا العمل باختياره، بالضبط كالاستاذ الذى يعرف تلميذه سيسقط فى الامتحان النهائى بسبب إهماله وكسله فى الدروس. فمثل هذا العلم من قبل الاستاذ ليس له أيه صله برسوب ذلك التلميذ أو اجباره عليه. فهو يعلم أنّ تلميذه اختار طريقاً خاطئاً بمحض إرادته، وقد اعتاد الكسل والتقاعد دون الجد والمطالعه والمثابره (٤) ومن هنا آخذة الله وخاطبه: «أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَفَلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (٥).

ص: ٩٨

١- ١) «أوعز» من ماده «وعز» على وزن وعظ اقتراح عمل على آخر.

٢- ٢) سورة طه/١١٥. [١]

٣- ٣) سورة البقره/٣٥. [٢]

٤- ٤) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع راجع كتاب «معرفه الله» .

٥- ٥) سورة الاعراف/٢٢. [٣]

فلو كان آدم عليه السلام مجبوراً كيف يؤاخذة الحكيم سبحانه على فعل لم يكن مختاراً في ارتكابه، كذلك لماذا يندم آدم عليه السلام على ذلك الفعل ويتوب منه، أم كيف يخرج الله سبحانه من الجنة بذلك الفعل؟ كل هذه الأمور تدل على عدم وجود أى تضارب بين العلم الأزلى لله سبحانه مع اختيار آدم وسائر أفراد البشر، ثم قال عليه السلام: «فأهبطه (١) بعد التوبه ليعمر الأرض بنسله، وليقيم الحججه به على عباده» .

فبالنظر للعباره السابقه «أسكنه جنّته» يفهم أنّ هبوط آدم ونزوله لم يكن هبوطاً مكانياً، بل مقامياً، أى أنّ الله أهبط آدم من ذلك المقام الرفيع الذى كان عليه لتركه ذلك الاولى.

والعباره: «ليعمر أرضه بنسله» تفيد أنّ هدف كافه الأفراد لابدّ أن يكون إعمار الأرض لا اخرابها با الحروب والقتال والنزاعات والخلافات أو الخمول والكسل والتقاعد عن العمل أو حتى تلوّث البيئه السالمه! والطريف أنّ هذا الاعمار جاء بعد التوبه، فما لم يتب الإنسان من أخطائه وزلله لا يوفق لهذا البناء والاعمار، فقد جاء فى القرآن الكريم «هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ فِيهَا فَاسْتَعْمَرْتُمْ ثُمَّ تَوَبْتُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ» (٢).

كما يستفاد من العبارة: «فأهبطه بعد التوبه» بأنّ ذلك الهبوط قد حصل بعد التوبه.

النقطه المهمه الأخرى فى العبارة والتي أشير إليها مراراً فى القرآن مسأله اتمام الحججه على العباد. فالله سبحانه وإن زود الإنسان بالعقل، إلّا أنّه لم يكتف بذلك فواتر إليه كتبه ورسله وأنبيائه والدعاه إلى طاعته - فى كل عصر ومصر - ليتم الحججه على العباد، وهذا ما أورده الإمام عليه السلام فى حديثه بين بنى آدم وواتر إليهم الأنبياء ليؤدوا رسالات ربّهم ويطيعوا عليهم الحجج: «ولم يخلهم بعد أن قبضه، ممّا يؤكد عليهم حججه ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيره من أنبيائه، ومحتملى ودائع رسالاته، قرناً (٣) فقرناً؛ حتى تمت بنينا محمد صلى الله عليه و آله حجته، وبلغ المقطع (٤) عذره ونذره (٥)»، تفيد بعض

ص: ٩٩

١-١) «أهبط» من ماده «هبوط» النزول.

٢-٢) سورة هود/٦١. [١]

٣-٣) «قرن» الزمان الطويل الذى قد يمتد الى مئه عام، كما يطلق الجماعه التى تعيش مع بعضها فى عصر.

٤-٤) «مقطع» النهايه.

٥-٥) «عذره» و «نذره»، «العذر» هنا اتمام الحججه على العباد بحيث لا يبقى لهم عذرا للمخالفه، و «النذر» جمع النذير بمعنى الانذار، ذكر العواقب السيئه للشئ.

الآيات القرآنية وجود التوبه سابقاً، كما تفيد آيات أخرى وجودها لاحقاً، ويمكن الجمع بينهما، في أن آدم عليه السلام تاب مرات من خطيئته من قبل الهبوط وبعده، وما أكثر ما يخطئ الإنسان ويكثر من الاستغفار كلما عرض له ذلك الخطأ. العبارة «لم يخلهم بعد أن قبضه» (1)، تفيد أن آدم عليه السلام هو أحد أنبياء الله وحججه، وأن الله واطر أنبيائه بعد آدم عليه السلام حتى ختمهم بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهنا يبرز هذا السؤال: إذا كان اتمام الحجج ضروره في كل زمان ومكان / لم ختمت النبوه بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فكان صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء؟ وتتضح الاجابه على هذا السؤال من خلال التفات إلى هذه النقطه وهى أن الله أنزل آخر أوامره وأحكامه وأكمل قوانينه وتعاليمه على نبي الإسلام، فكانت شريعته أكمل الشرائع وأشملها، بحيث يمكن للبشرية برمتها أن تحتديها في مسيرتها إلى السعاده والفلاح، ولا سيما أن نسل الأوصياء عليه السلام الامتداد الحقيقى للنبي صلى الله عليه وآله مائل إلى يوم القيامة، ومن أراد المزيد فليراجع المجلد الثامن من كتاب نفحات القرآن بحث الخاتمي.

ص: ١٠٠

١ - ١) جملة «ليقيم الحجج به على عباده» «في حاله عود الضمير «به» على آدم عليه السلام أيضاً يمثل دليلاً آخرأ على نبوه آدم عليه السلام. و تعبير «عباده» يشير إلى حواء و أولاد آدم، بالاضافه إلى مصير آدم و زوجته بعد الخروج من الجنة بعد ارتكاب الخطأ، وهى حججه على بنى آدم كافه إلى يوم القيامة.

«وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَمَهَا عَلَى الضَّيْقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَتَلَى مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيُحْتَبَرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَيِّئَاتِهَا عَقَابِيْلَ فَاقْتَبَاهَا، وَبِسَيِّئَاتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَبِفَرَجِ أَفْرَجِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا، وَخَلَقَ الْأَجَالَ فَاطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجًا لِأَشْطَانِهَا، وَقَاطَعًا لَمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه بالأدله الدامغه و الواضحه بشأن اتمام الله سبحانه للحجه على العباد من خلال إنزال الكتب السماويه وبعث الأنبياء والرسل بالحديث هنا عن وسيلتين للامتحان الإلهى للعباد فى مختلف مراحل تكليفهم، فأشار فى الاولى إلى مسأله الرزق التى قدرها وتعرضها للزياده والنقيصه: «وقدر الارزاق فكثرها وقللها، وقسمها على الضيق والسعه» وبغيه الحيوله دون التصور بأن هذا التفاوت فى الرزق بين العباد يتناقض والعداله، بادر الإمام عليه السلام إلى القول بتقسيمها على ضوء العدل «فعدل فيها» فى إشاره إلى أن العداله لاتعنى المساواه والتكافى، بل العداله تعنى الايصال على ضوء مصلحه الشخص، فقد ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن الله سبحانه وتعالى قال: «إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفاقه ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحه ولو أمرضته

لأفسده ذلك» (١)، ثم تعرض عليه السلام بصورة أعمق لهذا الأمر قائلاً: «ليبتلى من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها»، يمكن أن يكون هذا التفاوت في الأشخاص مختلفاً؛ فتمتع فئه بنعمه جمه لترى في ميدان الاختبار هل أدت شكر هذه النعمة وأفاضت بعضها على المحرومين، ووضعت الأموال مواضعها الصحيحة، أم بالعكس فإن زياده الثروه أبعدها تماماً عن الخالق والمخلوق وجعلها تسيح في بحر من الغرور والغفله. أم أن ضيق الرزق حطم صبر هذه الجماعه وقضى على استقامتها واضطراها إلى مقارفة الحرام وجحود النعمة والأعراض عن الله سبحانه وتعالى.

بل إن هاتين الحالتين قد تتحققان في نفس الشخص، فقد يكون غنياً أحياناً، كما قد يكون فقيراً أحياناً أخرى، وهو ممتحن في الحالتين في شكره وصبره وجحوده وجزعه ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى هذه النقطة في أن الغنى والفقير والصحة والمرض ليست من الأمور المنفصلة عن بعضها ليستند الإنسان على واحده منها، بل هي قريبه متداخله مع بعضها، في أن الباريء سبحانه خلط سعه الرزق بما يتبقى من الفقر والفاقة، والصحة والعافيه والسلامه بالحوادث الإلهيّه، والسرور والافراح بالأحزان والأتراح: «ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها، وبسلامتها طوارق آفاتها، وبفرج أفرحها غصص أتراحها (٢)»، حتى لا يغتر أحد بغناه وعافيته وفرحه وسروره، ويعلم الجميع بان هذه الأمور معرضه للزوال والتبدل والعدم على الدوام وفي كل مكان ولدى كائن من كان و أنها تنقلب يوماً إلى ما يضادها. وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليل يحدث الكدر

و بالنظر إلى أن «عقابيل» جمع عقبوله على وزن جرثومه تعنى الشدائد وبقايا الأمراض والمشاكل التي تتمثل بقروح صغيره تخرج يالشفه: فإن العبارة المذكوره تفيد أن المشاكل

ص: ١٠٢

١ - ١) بحار الأنوار ٦٨/١٤٠، [١] وقد ورد شبه هذا المعنى في الغنى والفقر والصحة والمرض والتوفيق للعباده من عدمه في بحار الأنوار ٥/٢٨٤ [٢] عن النبي صلى الله عليه و آله عن الله سبحانه.

٢ - ٢) «أتراح» جمع «ترح» على وزن فرح بمعنى الغم والهم، وفسر ضد الفرح كما فسر أيضاً بالهلاك وقطع الخير والاحسان.

والمصائب وآثارها وبقاياها تلازم دائماً الراحة والهدوء ولا تفارقهما أبداً، والعبارة: «يفرج أفرحها غصص أترأحها» تأكيد آخر لهذا المعنى؛ لأنَّ أترأح جمع ترح على وزن فرح بمعنى الحزن والغم والهم. فبالنتيجة ذكر الإمام عليه السلام أنَّ هذه الأفرأح والسرور مقرونه بالهم والحزن، النقطة الأخرى التي أشار إليها الإمام عليه السلام هي الوقت المحدد. للحياه، فلها نهايه حتميه عاجلا- أم آجلاً والشئ الذى ليس للإنسان منه وسيله للهرب هو الموت: «وخلق الاجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها». فالموت موصول بالحياه (وجعل الأمراض وسيله لانتهاء الحياه) من شأنه القضاء عليها «و وصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا (١) لأشطانها (٢)، وقاطعا لمرائر (٣) أقرانها»، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة القصيره إلى عدّه نقاط، منها أنَّ البعض يعمر كثيراً بصوره طبيعيه، والبعض الآخر يعمر قليلاً، كما قد يقصر ذلك العمر الطويل بفعل بعض الأعمال الشائنه أو الذنوب والمعاصى، بينما قد يطال فى ذلك العمر القصير إثر رعايه القضايا المرتبطه بالصحه والسلامه، أو بفعل الأعمال الطيبه والخير والاحسان. كما أشار عليه السلام إلى أنَّ للموت عدّه أسباب، إذا هرب الإنسان من بعضها وقع فى مخالبا الآخر، بل لاينجو من الموت أقوى الأقوياء. وعليه لاينبغى لأحد أن يغتر بصحته وسلامته وشبابه وقوته، ولابدّ لكل أحد أن يتأهب للموت ويعد له الزاد المطلوب متوقفاً الموت فى أى وقت. (٤) كما احتمل بعض شراح نهج البلاغه أن المراد بالتقديم والتأخير، هو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق البعض فى الأزمنه الماضيه والبعض الآخر فى الأزمنه اللاحقه على ضوء المصالح، إلّا أنَّ المعنى الأول أنسب.

تأمل: هل رزق كل إنسان مقدر؟

لا يستفاد من عبارات هذه الخطبه تقدير رزق الإنسان فحسب، بل يستفاد ذلك من

ص: ١٠٣

١-١) «خالج» من ماده «خلج» بمعنى الجذب، والخلجان شىء فى ذهن الإنسان يعنى انجذابه أمام الشىء، ومن هنا اطلق الخليج لجذبه ماءً كثيراً من البحر.

٢-٢) «أشطان» جمع «شطن» على وزن وطن وهو الجبل الطويل، كما وردت هذه المفرده بمعنى العبد، ومنه «الشيطان» لبعده عن الهدايه والرحمه.

٣-٣) «مرائر» جمع «مرير» الجبل المحكم.

٤-٤) اوردنا بحثاً مفصلاً فى الخطبه ٦٢ من المجلد الثالث بشأن الأجل ونهايه عمر الإنسان.

أغلب الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن، فقد طالعتنا مختلف المصادر الإسلامية بأن سعه الرزق أوضيحه إنما هي خاضعة لإرادته الله ومشيته بغية اختبار العباد وتمحيصهم. بعبارة أخرى: لقد منح الإنسان ما يوافق مصلحته. وهذا الأمر يثير عدّه أسئلة منها: أولاً: إذا كان الأمر كذلك، فما معنى السعي والجهد من أجل الرزق.

ثانياً: إن مثل هذا الاستنتاج يؤدي إلى سكون الأنشطة الاجتماعية وتخلف المجتمعات البشرية؛ المجتمعات التي ينبغي أن تعيش حاله النشاط والمثابرة بغية عدم تخلفها عن سائر المجتمعات ولاسيما غير الإسلامية، فقد صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «نَحْنُ قَسِيْمًا بَيْنَهُمْ مَعِيْشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ» (١)، إلّا أنّ الإجابة على السؤال المذكور وردت في الروايات الإسلامية، بحيث لا يبقى من مجال للغموض إذا تأملناها بأجمعها، فقد جاء في كلمات أمير المؤمنين على عليه السلام في نهج البلاغة: «إنّ الرزق رزقان؛ رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فان أنت لم تاته أتاك» (٢).

والواقع كذلك فالقسم الأعظم من الرزق يتطلب سعي الإنسان وجهده وتوظيفه لكافة إمكانياته واستعداداته وطاقاته وليس له الظفر به دون ذلك، إلّا أنّ القسم الآخر من الرزق يأتي إلى الإنسان دون السعي إليه، ليدل الإنسان على أن السعي والجهد وإن كان أصلاً مسلماً إلّا أنّ رازقيه الله لا تقتصر على ذلك، فلا بد من التوجه إلى الله وطلب الرزق منه.

من جانب آخر جاء في الخبر أن من بين الأدعية التي لا تستجاب دعاء الإنسان الصحيح الذي لزم بيته وقعد عن السعي وهو يدعو الله: اللهم إرزقني فتناديه الملائكة بان دعائك ليس بمستجاب، قم وإعمل. فقد ورد في الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أربع لا يستجاب لهم دعاء: الرجل جالس في بيته، يقول: يارب ارزقني! فيقول له: ألم آمرك بالطلب» (٣).

أضف إلى ذلك فإنّ التقديرات الإلهية في أغلب الموارد إنّما تنسجم وتديبرنا وتخططنا، أي أنّ الله قدر سهما وخيرا لمن سعى وبذل جهده، بينما قدر أقل من ذلك لمن تقاعس وكسل. فهذا

ص: ١٠٤

١-١) سورة الزخرف/٣٢. [١]

٢-٢) نهج البلاغة، الرسالة ٣١. [٢]

٣-٣) ميزان الحكمه ٢ / ح ٥٧٠١.

الانسجام بين التقدير والتدبير يعد اجابه واضحه لاولئك الذين يستسلمون للكسل والخنوع والخمول، ويفرون من الواقع تحت ذريعه التقدير.

وناهيك عما تقدم فمما لا شك فيه أن الناس ليست سواسيه فى الاستعداد البدنى والفكرى والإداره الاقتصاديه والقدره على العمل وتوظيف الإمكانيات المتاحة؛ وهذا بدوره ما أدى إلى تفاوت الأرزاق. وعليه فليس من الصواب بعد كل هذا التصور أن يتساوى الرزق على كافة الأفراد بغض النظر عما سبق، فهذا من قبيل توقع تساوى جميع أعضاء البدن و العظام و العضلات، فى حين لكل عضو وظيفته فى هذا البدن و قدرته بقدر نشاطه، فعالم البشرىه كالبدن يختلف فى رزقه على أساس إختلافه فى سعيه و جهده. والنتيجه التى نخلص إليها: هو أن تقدير الرزق الذى ورد فى هذا الخطبه، إنّما هو إشاره لما استعرضناه آنفا؛ الأمر الذى لا يتنافى قط ومفهوم العداله، بل هو عين العداله والحكمه.

ص: ١٠٥

«عَالِمِ السَّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمَرِينَ، وَتَجْوَى الْمُتَخَافَتِينَ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدِ عَزِيمَاتِ اليَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيْمَاضِ الجُفُونِ، وَمَا ضَمِنْتَهُ أَكْنَانُ القُلُوبِ، وَعَيَابَاتُ العُيُوبِ، وَمَا أَضِيغَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصَائِحُ الأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفُ الذَّرِّ، وَمَشَاتِي الهَوَامِّ، وَرَجْعِ الحَنِينِ مِنَ المَوْلَهَاتِ، وَهَمْسِ الأَقْدَامِ، وَمُنْفَسِحِ الثَّمَرِ مِنْ وَلايِجِ غُلْفِ الأَكْمَامِ، وَمُنْقَمَعِ الوحوشِ مِنْ غَيْرَانِ الجِبَالِ وَأُودِيَّتَيْهَا وَمُخْتَبِئِ البُعُوضِ بَيْنَ شُوقِ الأشجارِ وَالْحَيْتَيْهَا، وَمَغْرَزِ الأُورَاقِ مِنَ الأَفْنَانِ، وَمَحِطِّ الأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الأَضْيَالِ، وَنَاشِئَةِ العُيُومِ وَمُتَلَاحِمَيْهَا، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتْرَاكِمَيْهَا، وَمَا تَشِي فِي، الأَعَاصِيرِ بِدُيُولِهَا، وَتَغْفُوا الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُتْبَانِ الأَعَاصِيرِ بِدُيُولِهَا، وَتَغْفُوا الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُتْبَانِ الرَّمَالِ» .

الشرح والتفسير

يتضح من خلال تامل الأقسام المختلفه لهذه الخطبه العجيبه أنّ الإمام عليه السلام قد اختط مساراً دقيقاً في معرفه الله، ومن ثم التعرف على هذا العالم مرورا بمعرفه الإنسان وتربيته، بعبارات رائعه تأخذ بيد الإنسان نحو هذا المسار الطويل و تقوده نحو الهدف، يعنى يسلك به سبيل السمو والتكامل.

فقد تحدث الإمام عليه السلام في السابق عن خلق الأرض ومصادر الحياه ومن ثم خلق آدم

وقصته مع الجنه و ما تضمنته من عبر ومن ثم هبوطه إلى الأرض، وتقسيم الأرزاق وتعيين الاجال. ولما فرغ من ذلك واصل حديثه في هذا المقطع من الخطبه عن علم الله سبحانه بكل شىء وكل شخص وفي كل زمان ومكان، والعالم بكافه الخفايا والاسرار. فقد أورد الإمام عليه السلام ذلك بعبارات دقيقه رائعه، مؤكداً على تفاصيل هذه الأمور، بحيث يشعر الإنسان بكل كيانه أن العالم برمته حاضر لدى الله بكل حركاته وسكناته؛ و هو الشعور الذى يلعب دوراً، حيويًا فى تربيته الإنسان وسوقه نحو الخير والاحسان.

فقال عليه السلام: «عالم السر من ضمائر المضميرين، ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيماات اليقين» .

فالعبارة تفيد علمه سبحانه بكل شىء: ما يقتدح فى الأذهان، وما يمثل فى الواقع، وما يجرى فى الأوهام والظنون، والشك والترديد، وما يجول فى باطنه ونجواه وهمسه مع الآخرين، ثم قال عليه السلام: «ومسارق (١) إيماض (٢) الجفون، (٣) وما ضمنته أكنان القلوب، وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخ (٤) الأسماع»، ولما كانت أهم مصادر علم الإنسان تكمن فى قلبه (عقله) وعينه واذنه، كما صرح بذلك القرآن الكريم: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٥) والله محيط بجميع هذه المصادر؛ فهو عليم بكافه خفايا الإنسان وأسراره. ثم تجاوز عليه السلام خفايا الإنسان وما تنطوى عليه جوانحه ليتجه صوب أصغر الكائنات، ليكشف عن علمه سبحانه وتعالى بخفايا وأوكار الهوام والحشرات وآهات الالم واصوات الحزن ووقع الاقدام: «ومصائف (٦) الذر،

ص: ١٠٨

١-١) «مسارق» جمع «مسرق» من ماده «سرقه» النظر خلسه.

٢-٢) «إيماض» من ماده «ومض» على وزن رمز اللمعان القصير والمخفى.

٣-٣) «جفون» جمع «جفن» على وزن جفت، بمعنى جفن العين.

٤-٤) «مصائخ» جمع «مصيخه» من ماده «صوخ» على وزن صوت الشق، والمراد هنا شق الاذان الذى يسمع به الإنسان الأصوات.

٥-٥) سورة النحل/٧٨. [١]

٦-٦) «مصائف» جمع «مصيف» موضع اقامتها فى الصيف.

ومشاتي (١) الهوام (٢) ورجع الحنين (٣) من المولهاات (٤) وهَمَسِ (٥) الأقدام» .

ثم واصل عليه السلام كلامه بالاشارة إلى أمور أخرى لطيفة وظيفه وخفيه ومكتومه، ليكشف النقاب عن إحاطه العلم الإلهي المطلق بها من خلال عبارات غايه فى الروعه والدقه فقال عليه السلام: «ومنفسح (٦) الثمره من ولائج (٧) غلف (٨) الاكمام (٩)، ومنقمع (١٠) الوحوش من غيران (١١) الجبال وأوديتها، مختباء البعوض بين سوق (١٢) الاشجار والحيتها (١٣)، ومغرز (١٤) الاوراق من الافنان (١٥)، ومحط الامشاج (١٦) من مسارب (١٧) الأصلاب»، العبارة «لامنفسح» بمعنى المكان الفسيح الواسع إشاره إلى أنّ الله سبحانه خلق مكاناً واسعاً فى جوف البراعم لنمو الثمار. والعبارة: «منقمع الوحوش» تفيد لجوء الحيوانات الصحراويه إلى الغيران والكهوف بغيه حفظ أنفسها من سائر الحيوانات الوحشيه المفترسه و تخرج حين الحاجه أو صيد سائر الحيوانات. و التعبير «مغرز الأوراق..» لا إشاره إلى الأوراق و لا الأغصان، بل إشاره إلى

ص: ١٠٩

- ١- ١) «مشاتي» جمع «مشتى» موضع اقامتها فى الشتاء.
- ٢- ٢) «هوام» جمع «هامه» الحشرات (الخطيره)، كما تطلق على مطلق الحشرات.
- ٣- ٣) «حنين» الألم من ماده «حنان» ورجع الحنين ترديده.
- ٤- ٤) «مولهاات» الحزينات من ماده «وله» على وزن فرح.
- ٥- ٥) «همس» على وزن لمس، بمعنى الصوت الهادىء الخفى، يطلق أحيانا على صوت الاقدام الحافيه.
- ٦- ٦) «منفسح» المكان الواسع من ماده «فسح» على وزن مسح.
- ٧- ٧) «ولائج» جمع «وليجه» البطانه الداخليه.
- ٨- ٨) غلف جمع غلاف معروف المعنى.
- ٩- ٩) «الأكمام»، جمع «كم» غطاء النوار ولايبعد اضافه الغلف إليها أنّها إضافه بيانیه.
- ١٠- ١٠) «منقمع» موضع الاختفاء من ماده «الانقماع» بمعنى الاختفاء.
- ١١- ١١) «غيران» جمع «غار»، والواسع منها يطلق عليه الكهف.
- ١٢- ١٢) «سوق» جمع «ساقه» أسفل الشجره.
- ١٣- ١٣) «ألحيه» جمع «لحاء» قشر الشجره.
- ١٤- ١٤) «مغرز» موضع جذور الشىء.
- ١٥- ١٥) «أفنان» جمع «فئن» على وزن قلم بمعنى الغصون.
- ١٦- ١٦) «أمشاج» جمع «مشج» على وزن سبب الشىء المخلوط.
- ١٧- ١٧) «مسارب» جمع «مسرب» على وزن مركب وهى ما يتسرب المعنى فيها عند نزوله أو عند تكونه.

موضع خاص تلتصق فيه الورقه بالغصن و تنطلق جذورها فى أعماقه فتحفظه من الريح و العواصف.

و التعبير «محط الأمشاج. . .» إشاره إلى حركه نطفه الرجل من غدده الداخليه و تختلط مع نطفه المرأه حين نزولها فى الرحم حتى تنمو و تتحول إلى إنسان كامل. فالله سبحانه يعلم بهذا المسار و كيفيه التركب و موضع النزول، و يمكن أن تكون «أمشاج» إشاره إلى تركيب نطفه الرجل من مياه مختلفه و الذى أثبتته العلم الحديث، حيث لكل منها هدف معين عند إختلاطه مع الآخر و التى تشكل نطفه الرجل، ثم تتحرك نحو الرحم. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى تفاصيل دقيقه لعالم الخلقه و الحوادث المبرمج، ليكشف عن علمه سبحانه برقيق السحب التى تظهر فى السماء و تتصل مع بعضها البعض الآخر، إلى جانب هطول قطرات المطر من تلك السحب و الرياح التى تحيط بها و تبعث بها هنا وهناك: «وناشره الغيوم و متلاحمها، و درور قطر السحاب فى متراكمها، و ما تسفى (١) الأعاصير (٢) بذبولها، و تعفو (٣) الأمطار بسيولها، و عوم (٤) بنات الأرض فى كئبان (٥) الرمال» .

نعم فهو عالم بتمام دقائق عالم الوجود و جزئيات الكائنات الحيه و الجمادات فى السموات و الأرض؛ وهو محيط بظهورها و حركاتها و سكناتها. فكيف بنا وهو الخبير بما فى أعماقنا و يجول فى أذهاننا و خواطرننا.

تأمل: تنوع الكائنات

رغم تركز الكلام فى هذا المقطع من الخطبه على علم الله الواسع بكافه الأشياء و جميع الكائنات، إلمأَنَّ هناك إشاره ضمنيه لنقطه مهمه أخرى، إلمأوهى التنوع العجيب للكائنات، من المسائل الفكرية و الذهنيه للإنسان إلى الاجزاء المختلفه للعين و الاذن، و الكائنات الصغيره

ص: ١١٠

١- ١) «تسفى» من ماده «سفى» على وزن نفى الرياح التى تثير الغبار و التراب.

٢- ٢) «أعاصير» جمع «إعصار» على وزن إجبار الريح التى تثير السحاب.

٣- ٣) «تعفو» من ماده «عفو» بمعنى المحو و تستعمل هذه المفرده فى الذنوب بمعنى محوها، و من هنا يقال العافيه بمعنى محو المرض.

٤- ٤) «عوم» على وزن قوم السباحه و الطوفان.

٥- ٥) «كئبان» جمع «كئيب» التل و المرتفع.

والكبيره للعالم من قبيل الهوام ومصائفها والحشرات ومشايتها، مروراً بتشكيل نطفه الإنسان المركبه من ماء الرجل والمرأه، وظهور السحب والغيوم وتراكمها وسقوط حبات المطر وهبوب الرياح والأعاصير وجريان السيول واختفاء الحشرات في المرتفعات والتلال وما إلى ذلك من الأمور التي سنتطرق إليها في البحث القادم. والخلاصه فانّ كل أمر دلالة على علمه سبحانه وقدرته وابداعه، وكلما تعمق الإنسان في تأمل هذه الأمور تعرف أكثر على عظمه الحق سبحانه وعلمه، ويسمع باذن البصيره تسييح هذه الكائنات وحمدتها، ويشعر بتوحيدها وتوجهها لخالقها. الأشياء التي لا يدركها سوى من تحسسها و إنطلق منها لما وراءها.

ص: ١١١

إشاره

«وَمُسَيِّتَقَرَّ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ بِذُرِّ شَنَاخِيبِ الْجِبَالِ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ الْمَنْطِقِ فِي دِيَاغِيرِ الْأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ الْأَصْدَافُ، وَحَضَنْتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجَ الْبَحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ، وَمَا اعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدِّيَاغِيرِ، وَسَيَّبِحَاتُ النُّورِ؛ وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَيْءٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، وَمَثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَةٍ، وَمَا عَلَيْنَهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ سَاقِطِ وَرْقَةٍ؛ أَوْ قَرَارِهِ نُطْفَةٍ، أَوْ نَقَاعِهِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئِهِ خَلْقٍ وَسَلَالَةٍ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُفْلُهُ، وَلَا اعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلَا اعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الْأُمُورِ وَتَدَابِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلَالَةٌ وَلَا فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَأَخْصَاهُمْ عَدْدُهُ، وَوَسَعَهُمْ عَدْلُهُ، وَغَمَّرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق بالحديث عن علم الله سبحانه وتعالى بكافه جزئيات عالم الوجود، حيث يتعرض إلى ذلك بعبارات رائعة غايه في الدقه والجمال، والحق أن كلام الإمام عليه السلام يفيد بما لا يقبل الشك أنه يستند إلى ارتباطه بما وراء هذه الطبيعه بحيث لا يضاويه كلام، وان علمه عليه السلام إنما يتصل بمصادر العلم الإلهي فقد تطرق بادية بدء إلى الطيور العائمه في

السماء: «ومستقر ذوات الأجنحة بذراً (١) شناخيب (٢) الجبال، وتغريد (٣) ذوات المنطق في دياجير (٤) الأوكار (٥)» .

فنحن نعلم أنّ كل طائر يصنع لنفسه ما يناسبه من عش، بحيث تتنوع حسب أصناف الطيور، كما نعلم أنّ أنغام الطيور على أقسام، كل واحد منها يبيّن موضوعاً، الأهم من كل ذلك هو علم الله بتمام جزئياتها.

ثم يغوص الإمام عليه السلام في أعماق البحار ليتحدث عن الاصداف واللؤلؤ والأمواج: «وما أوعبته (٦) الاصداف، وحضنت عليه أمواج البحار»، ثم خاض عليه السلام في نظام النور والظلمة في عالم الخلق وحياه الإنسان فقال: «وما غشيته سدفة (٧) ليل أو ذر (٨) عليه شارق نهار، وما اعتقت عليه أطباق الدياتجير، سبحات (٩) النور» ثم إتجه صوب مختلف حركات الإنسان قال عليه السلام: «وأثر كل خطوه، وحس كل حركه، ورجع كل كلمه، وتحريك كل شفه، ومستقر كل نسمة» .

ثم تناول عليه السلام أصغر الذرات وأخفى الأصوات في أنّ الله عالم بها: «ومثقال كل ذره، وهماهم (١٠) كل نفس هامه (١١)» ثم ينتقل إلى الأشجار و الثمار و الناس و النطف التي

ص: ١١٤

١-١ «ذرا» جمع «ذروه» المكان المرتفع و أعلى الشىء.

٢-٢ «شناخيب» جمع «شنخوب» على وزن بهلول رؤوس الجبال.

٣-٣ «تغريد» أصوات الطيور.

٤-٤ «دياجير» جمع «ديجور» الظلمه.

٥-٥ «أوكار» جمع «وكر» على وزن مكر العش.

٦-٦ «أوغبت» من ماده «وعب» على وزن صعب جمعت.

٧-٧ «سدفة» ظلمه.

٨-٨ «ذر» بمعنى نثر و تأتي ايضاً بمعنى انتشار ضوء الشمس.

٩-٩ «سبحات» جمع «سبحه» على وزن لقمه بمعنى شعاع النور، و «سبحات النور» فى الجمله أعلاه جاءت بمعنى اشعه النور.

١٠-١٠ «هماهم» جمع همهمه مجاز من المهمه تريد الصوت فى الصدر من الهم.

١١-١١ «هامه» قال بعض شراح نهج البلاغه من له همه عاليه، كما يراد بها الهموم من الهم والغم وهذا ما أريد بها فى العبارة.

تشبه إلى حد كبير بعضها البعض فقال «وما عليها من ثمر شجره، أو ساقط ورقه، أو قراره نطفه، أو نقاعه (١) دم ومضغه، أو ناشئه خلق وسلاله» .

ويشير الإمام عليه السلام في آخر الخطبه إلى نقطه مهمه أخرى وهي أنّ تلك الأمور بتلك السعه والشموليه التي أشار إليها الإمام عليه السلام ما يجعل التبادر إلى الذهن صعوبه حسابها والاحاطه بها، بعبارة أخرى قد يقتدح في الأذهان هذا السؤال: هل علم الله سبحانه تعالى بهذه الأمور لا يوجد من مشكله لذاته المطهره؟ فالإنسان يصاب بالتعب والأعياء من جراء احاطته بقسم غايه في الصغر بالنسبه لحوادث هذا العالم وأسراره إلّا أنّ الإمام عليه السلام يعلن بكل صراحه أن ليس هناك أدنى مشقه على الله بهذا الشأن (ليس فقط من ناحيه العلم والاحاطه بها بل) في حفظ ما أبدع من مخلوقات، كما ليس هنالك من ملل أو فتور عرض له سبحانه في انفاذ أمره وتديبر شؤون خلقه: «لم يلحقه في ذلك كلفه، ولا-اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضه، ولا اعتورته (٢) في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملاله ولافتره» ، بل نفذ فيها علمه واحصاها عددا بقدرته وضمها جميعا تحت لواء عدالته، كما عم المقصرين منهم بفضله وعفوه ولطفه: «بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله» ، فقد أكد الإمام عليه السلام بهذه العبارات على عدّه أمور:

الأول: أنّ احاطه لله سبحانه العلميه بجزئيات جميع عالم الوجود لا تنطوي على أيه مشكله بالنسبه له (وذلك لأنّ علم الله علم حضوري وليس علم حصولي، كما سيأتي شرح ذلك في البحث القادم) .

الثاني: اضافته إلى الاحاطه العلميه فهو حافظها جميعاً؛ الأمر الارتفاع من العلم؛ وهذا أيضاً لا يسبب أيه مشكله لذاته المطلقه سبحانه (لأنّ الكل متوقف على وجوده سبحانه) .

الثالث: اضافته إلى العلم والحفظ فهو مدبرها وهاديها إلى السمو والكمال؛ الأمر الذي لا ينطوي على أي ملل أو فتور لذاته المطلقه، وبعيداً عن معرفه الخلائق وأدائها للشكر، فإنّ فضله ولطفه شامل للجميع عدله فيهم نافذ شامل، نعم فعلمه ليس بمحدود وقدرته مطلقه لامتناهيه وفضله مطلق شامل، ولا يرتجى منه سوى ذلك.

ص: ١١٥

١-١) «نقاعه» من ماده «نقع» على وزن نفع جمع الماء و «نقاعه دم» الحفره التي يجمع فيها الدم، وهي هنا ٢ إشارة إلى رحم (الأم) وقال البعض أريد بها هنا العلقه.

٢-٢) اعتورت من ماده اعتوار تداولته وتناولته.

١ - العلم الكامل

كلماته عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه بشأن سعه علمه سبحانه واحاطته الشامله بكافه دقائق الأمور، لتذكر الإنسان بالآيه الشريفه التى وردت فى سوره لقمان: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (١).

وهنا لابد أن نلتفت إلى نقطه مهمه وهى أن ما أورده أميرالمؤمنين على عليه السلام إنما يرتبط بالكره الأرضيه ومخلوقاتهما، والحال يغص هذا الفضاء العظيم بملايين، بل مليارات الكرات السماويه العجيبه التى تخضع برمتها لعلم الله واحاطته، كما لابد من الالتفات إلى أن هذا العالم قد وجد قبل ملايين السنوات قبل خلقنا، ولا يعلم إلى متى سيستمر، فاحصاء الحوادث التى تقع طيله هذا الزمان إنما تتعذر على كائن من كان سوى الحق سبحانه مع ذلك لاينبغى أن ننسى بأن هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه الحقائق مضاعفه معرفه الله من جانب، ومن جانب آخر تهذيب النفوس البشريه وأنها حاضره عند الله وأنه محيط ببنياتها وكوامنها. وشاهد ذلك ما قاله الإمام عليه السلام فى الخطبه ١٩٨ من نهج البلاغه: «يعلم عجيب الوحوش فى الفلوات، ومعاصى العباد فى الخلوات، واختلاف النيان فى البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات» .

٢ - علم الله بكافه الخفايا

يرى جمع من قدماء الفلاسفه أن الله لايسعه أن يكون عالماً فهم يعتقدون أن الجزئيات متعدده ومتكثره وليس للمتعدد من سبيل إلى ذاته الواحده من جميع الجهات. فهذا الكلام واضح البطلان وأساسه أنهم يرون أن علمه سبحانه وتعالى حصولياً، ويعتقدون بأن الصور الخارجيه تنتقل إلى ذاته المقدسه، والحال كلنا نعلم أن علمه سبحانه بالموجودات ليس عن

ص: ١١٤

طريق انتقال صورتها الذهنيه لديه، كما هو الحال عند الإنسان، بل علمه علم حضوري، أى أنه حاضر في كل مكان، والموجودات برمتها حاضره عنده، وهو محيط بها جميعاً، دون الحاجه لصورها؛ بالضبط كحضور الصور الذهنيه للإنسان أمام روحه، لأنّ الصور الذهنيه حاضره بذاتها في روح الإنسان لاصورتها، واحاطه الإنسان بها نوع من الاحاطه الحضوريه. فتأكيد الإمام عليه السلام في هذه الخطبه على علم الله سبحانه بجميع جزئيات الوجود إنّما يبطل هذا الاعتقاد الفاسد لبعض الفلاسفه بشأن نفى علم الله بالجزئيات.

٣ - ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبه.

حين بلغ هذا العالم المشهور - شارح نهج البلاغه - هذا الموضوع من الخطبه بشأن علم الله قال: لوسمع النضر بن كنانه هذا الكلام لقال لقائله ما قاله على بن العباس بن جريح لاسماعيل بن بلبل: جريح لاسماعيل بن بلبل

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقر به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول له: أنه لم يعف ما شيدت من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولدا ابتدع من علوم التوحيد في جاهليه العرب ما لم تبتدعه أنت في جاهليه النبط. بل لو سمع هذا الكلام أرسطو طاليس، القائل بانه تعالى لا يعلم الجزئيات، لخشع قلبه ووقف شعره، واضطرب فكره، ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابه، والعظمه والفخامه، والمتانه والجزاله! مع ما قد أشرب من الحلاوه والطلاوه واللطف والسلاسه، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه، فإنّ هذا الكلام نبعه من تلك الشجره، وجدول من ذلك البحر، وجدوه من تلك النار؛ وشرح آيات الخالق سبحانه (١).

ص: ١١٧

«اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تَوَمَّلْ فَخَيْرٌ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرَجَّحْ فَخَيْرٌ مَرْجُوعٍ. اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لَا أَمْدُحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلَا أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ، وَلَا أُوجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرَّيْبِ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْآدَمِيِّينَ؛ وَالشَّيْءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ. اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مَثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ أَوْ عَارِفَةٍ مِنْ عَطَاءٍ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلًا عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ. اللَّهُمَّ وَهَذَا مَقَامٌ مَنْ أفرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَرِ مُسْتَحِقًّا لِهَذِهِ الْمَحَامِدِ وَالْمَمَادِحِ غَيْرَكَ؛ وَبِي فَاقَهُ إِلَيْكَ لَا يُجْبَرُ مَسِيئَتُهَا إِلَّا فَضْلُكَ، وَلَا يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتْهَا إِلَّا مُنْكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنَا فِي الْمَقَامِ رِضَاكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!».

الشرح والتفسير

لأننسى أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة الجامعة والمفصلة رداً على من سأله الحديث عن صفات الله، فخاض الإمام عليه السلام في البدايه بأدق العبارات وأظرفها في بحث صفات الله الجماليه والكماليه، ثم تطرق إلى فعله من قبيل خلق الملائكه والسماء والأرض، ثم خلق الإنسان وما أفاض عليه من النعم، وأخيراً علمه سبحانه وتعالى بجمع جزئيات عالم الوجود و كلياته.

ثم يختتم الخطبه بهذا القسم الذي يطرق فيه باب الله متضرعاً إليه بالدعاء، فيصف الله سبحانه بأفضل صفاته التي لا تنجز على أحد سواه، كما تدل على التوحيد في مقام الدعاء

«اللهم أنت أهل الوصف الجميل، والتعداد (١) الكثير»، نعم فقد جمعت كافة الصفات العظيمة في ذاته القدسيه، فهو الكريم والرحيم وأهل الفضل والثناء، ومن هنا فإن أمله الإنسان فهو خير مأمول، وان رجاه فهو خير مرجو لا يقطع رجاء من رجاه: «إن تؤمل فخير مأمول، وإن ترج فخير مرجو»، ثم قال عليه السلام: «اللهم وقد بسطت لى فيما لا أمدح به غيرك، و أثنى به على أحد سواك ولا أوجهه إلى معادن الخيبه ومواضع الريبه، وعدلت بلسانى عن مدائح الادميين؛ والثناء على المربوبين المخلوقين» .

الجدير بالذكر أن الإمام مزج مدح الله وثنائه بالشكر، وقد أعرب عليه السلام عن سروره أن وفقه الله سبحانه ففتح لسانه بمدحه سبحانه، وهل يليق هذا المدح والثناء بأحد سواه، و أى عمل أفضل من أن يغض الإنسان طرفه عن عالم الأسباب و لا يتطلع سوى إلى «مسبب الأسباب» فيمطره بحمده و ثنائه. ثم أردف ذلك بقوله: «اللهم ولكل مثن على من أثنى عليه مثوبه من جزاء أو عارفه من عطاء؛ وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمه وكنوز المغفره»، يمكن أن تكون العبارة بمعنى طلب المزيد من رحمته سبحانه ومغفرته، أو بمعنى طلب التوفيق والاستعداد لكسب هذه الرحمه. والفرق بين «جزاء» و «عارفه» قد يكون فى أنّ الجزاء هو ثواب العمل، والعارفه بمعنى الفضل والرحمه إلى جانب الثواب. و لما كان الله معروفاً بالفضل و العطاء فقد عبر بعارفه (فالعارفه فى الواقع وردت هنا بمعنى المعروف) .

ثم إختتم هذه الخطبه الفريده و العظيمة بدعائين جامعين عميقى المعنى قال عليه السلام: «اللهم وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذى الذى هو لك، ولم ير مستحقاً لهذه المحامد والممادح غيرك؛ وبى فاقه إليك لا يجبر مسكنتها إلا فضلك، ولا ينعش (٢) من خلتها (٣) إلا منك وجودك»، فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يطرح هذه الحقيقه وهى أنى لا أثنى الا عليك ولا أو مل سواك،

ص: ١٢٠

١- (١) «تعداد» بفتح التاء له كما صرح بذلك أرباب اللغه، ويعنى عد الشيء (واعتبره البعض مصدر ثلاثى مجرد، وقيل من باب تفعيل، كان تعديداً ثم بدلت ياء، بالف و تلفظ تعداد بكسر التاء قليل جداً) .

٢- (٢) «ينعش» من ماده «نعش» وهى فى الاصل بمعنى رفعه و أقامه، ويقال لجسد الانسان اذا خرجت منه الروح نعشاً، و كذلك للآله التى يرفع فيها الميت بالنعش، و الذى يرفع لينقل إلى مكان مناسب.

٣- (٣) «خله» الحاجه والفقر، كما وردت بمعنى الضعف.

وليس هناك قادر على طلبتي غيرك، وهذه هي حقيقته توحيد الصفات وتوحيد الأفعال، ثم يختتم الخطبه: «فهب لنا في هذا المقام رضاك، وأغننا عن مد الايدي إلى سواك، إنك على كل شىء قدير»، ما أروع هذا الرجل العظيم الذى فاض كل هذه الفصاحه والبلاغه والعلم والمعرفه، ثم يختتم عباراته بهذا الدعاء العظيم الذى يكشف عن مدى تواضعه وتذللته لله فيسأله رضاه ولا يلتفت إلى أحد سواه.

تأمل: فى اعجاز البيان.

كما أن القرآن الكريم من المعاجز الخالده لنبى الإسلام صلى الله عليه وآله فإن بعض خطب نهج البلاغه حقاً لفى حد الاعجاز! أى لا يمكن أن تصدر سوى عن المعصوم، وليس ذلك لاحد سواه. ومن ذلك هذه الخطبه المسماه بالاشباح. التى نعرض لشرحها.

فقد انطوت هذه الخطبه على عبارات غايه فى الفصاحه والبلاغه، إلى جانب رقتها وحلاوتها وعدوبه الفاظها بحيث تتسلل إلى أعماق روح الإنسان فتملأها معنويه ونوراً وانفتاحاً على الله سبحانه، أما المفردات التى استعملها الإمام عليه السلام فهى غايه فى العمق والرصانه بحيث لا يمكن (الوقوف عليها دون الرجوع إلى مصادر العربيه وآدابها. أما مضمونها فهو الآخر (رصين) عميق لا يمكن تصور مثيله بشأن صفات الله وعلمه واحاطته بكل شىء؛ الأمر الذى يكشف عن حقيقته ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه الثالثه المعروفه بالشقشقيه: «ينحدر عنى السيل ولا يرقى الا الطير» .

وأما من ناحيه الآثار التربويه، فقد تطرق عليه السلام إلى نعم الله سبحانه بأدق تفاصيلها بما يثير حس الشكر لأى إنسان يتأملها ويرى نفسه مقصراً أمام كل هذه النعم التى أفاضها عليه سبحانه، وإذا تأمل سعه علمه سبحانه وحضوره يدرك بكل كيانه معنى هذه العبارة «أن العالم حاضر عند الله، وعليه فلا ينبغى معصيته والتمرد عليه» أما الأدعيه العرفانيه آخر الخطبه والتواضع التام للإمام عليه السلام بعد كل هذا البيان فهو الآخر درس لكافه الأفراد فى عدم الغفله والغرور والتوجه إلى الله وطلب الحاجات منه، كيف لا وهو الكريم، الرحيم، المنعم والغفور الودود.

ومن كلام له عليه السلام

لما أرادہ الناس على البيعه بعد قتل عثمان

نظره إلى الخطبه

قال المرحوم العلامة الخوئي - أحد شراح نهج البلاغه -: اعلم أنّ المستفاد من الروايات الآتية وغيرها في سبب هذا الكلام هو أنّ خلفاء الجور بعد ما غيروا سنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسيرته التي كان يسيرها من العدل بالقسمه والمساواه بين الرعيه، ففضلوا العرب على العجم، والموالي على العبيد، والرؤساء على السفله، وآثر عثمان أقاربه من بنى اميه على سائر الناس وجرى على ذلك ديدنهم سنين عديده، واعتاد الناس ذلك أزمه متطاوله حتى نسوا سيره الرسول صلى الله عليه وآله وكان غرض الطالبين لبيعه عليه السلام أن يسير فيهم مثل سيره من سبق عليه من المتخلفين من تفضيل الشريف على الوضيع، وكان عليه السلام تفرس ذلك منهم وعرفه من وجنات حالهم فخطبهم بهذا الكلام اتماماً للحجه واعلاماً لهم بأنه عليه السلام ان قام فيهم بالأمر لا يجيبهم إلى

ص: ١٢٣

١-١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه في ذيل هذه الخطبه. رواه الطبري وابن الأثير في حوادث ٣٥ ه بتفاوت يسير جدا وكلام هذا نسجه لا سبيل إلى انكاره، ولذا ترى الناس اختلفوا في توجيهه بعد أن لم يسعهم رده. ويستفاد من المصدرين المذكورين أنّ الإمام عليه السلام لم يرد هذه العبارات لخطبه واحده، بل حدث كلام بينه عليه السلام وبين الناس في الخلافه، فحذف السيد الرضى كلام الناس وذكر الإمام عليه السلام. فالمعروف ان مصدرين من مصادر العامه ذكرت هذه الخطبه قبل السيد الرضى (تاريخ طبري ٣/٤٥٦، تاريخ الكامل لابن أثير ٣/١٩٠) والشيخ المفيد في الجمل ٤٨/ وابن الجوزي في تذكره الخواص ٥٧/.

ما طمعوا فيه من الترجيح والتفضيل فقال عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيري» للبيعه، «فانا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان» وهو إنذار لهم بالحرب وإخبار عن ظهور الفتن واختلاف الكلمات وتشتت الآراء وتفرق الأهواء (١)، كما أشار ضمناً إلى زهده عليه السلام بالخلافه والمقامات الظاهرية. وقد رفض بيعه القوم، حتى لا يتصور أحد أن قبول الإمام عليه السلام بيعه الناس كانت لرغبته بالخلافه.

ص: ١٢٤

١-١) منهاج البراهه ٧/٦٢.

«دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَحْبَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُضْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَثْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُكُمْ فَمَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا!» .

الشرح والتفسير

دعوني والتمسوا غيري

أورد شراح نهج البلاغه أبحاثاً مسهبه بشأن هذه الخطبه، وقد خاضوا بصوره مفصله فى الإشكالات ذات الصله بمسأله الإمامه. غير أن البعض منهم لم يتعرض لشرح هذه الخطبه واتجه مباشره للرد على الإشكالات. ونرى من الضرورى أن نخوض فى البدايه فى شرح الخطبه، ثم نسلط الضوء على بعض الاسئله والاستفسارات فى آخر البحث.

فقد رد الإمام عليه السلام على أولئك الذين بسطوا إليه يدهم بالبيعه وانها لوا عليه من كل جانب، ظانين أن الإمام عليه السلام سيواصل سياسته التمييز فى العطاء من بيت مال المسلمين، إلى جانب إغداق المناصب والمقامات بالقول: «دعوني والتمسوا غيري»، ثم أشار عليه السلام إلى الدليل على ذلك بقوله: «فانا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان؛ لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول»، فقد فقدت الأمة وحدتها إثر الأفعال الباهته التى مارسها الخلفاء ولا سيما عثمان، فكان لكل رأيه، فأصبح الأعم الأغلب منهم كالصياد الذى يبحث عن صيده، ليجدوا فى البحث عن الأموال والمناصب الدنيويه، وعليه فإن القضاء على هذه الفرقة والتشتت وإعادة الأئمه إلى سابق عزمها ووحدتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كان يبدوا أمراً فى غاية الصعوبه والتعقيد

ص: ١٢٥

ولا يمكن توقعه فضلاً عن تحققه على الواقع العملي.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن الآفاق المظلمة التي تلوح في الآفاق وعدم التعرف على الحق وصراطه المستقيم في ظل هذه الأوضاع المضطربة: «وإن الآفاق قد أغامت (١)، والمحج (٢) قد تنكرت»، وذلك لأنَّ الأهواء الشيطانية والاطماع الدنيوية قد قلبت الموازين الفكرية للمجتمع بحيث يصعب عليه تمييز الصحيح من السقيم، وكيف يتخلص من المطبات التي تواجهه في حياته.

ثم أكد الإمام عليه السلام هذا الموضوع بأنَّي إذا تقلدت هذه المسؤولية فسوف لن أنتهج السياسة الخاطئة التي كانت سائده سابقاً، بل سأقتدى بهدى رسول الله صلى الله عليه وآله في بسط الحق والعدل: «اعلموا أني إن أجبتمكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب (٣) العاتب» - حيث لم يكن الطمع الذي عاشه الناس على عهد عثمان يدعهم يتساوون مع الآخرين فكانوا يهربون من عداله على عليه السلام و يثيرون الفتن - فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل سوى مخالفه الشرع و مواصلة الظلم أو السير فيهم بالعدل الذي نشده من قام ضد عثمان، فلما سار بهم بعدله حدثت تلك الفتن التي توقعها الإمام عليه السلام. (٤)

في إشاره إلى أنَّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنَّ طلاب الدنيا من أهل المطامع والمصالح سيقفون حجره عثره في طريقه من أجل اشاعه الحق وإجراء العدل وبسط القسط، وسيؤلبون الآخرين عليه ويهبوا لمعارضته والوقوف بوجهه، وكأنَّ المبادئ السياسية لتلك المرحلة كانت تتطلب مواصلة الفوضى التي كانت سائده والتطاول على بيت المال واغداق المناصب والمهام على أصحاب النفوذ والسطوة دون أي إستحقاق، وإنَّ إنعكس ذلك سلباً على الأمة وهضمها حقوقها؛ الأمر الذي كان في مقدمه أهداف الأنبياء والرسل القضاء عليه: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

ص: ١٢٤

-
- ١- ١) «أغامت» من ماده «غيم» غطيت بالغيم، كناية عن اضطراب الأوضاع السياسي والاجتماعيه للمسلمين في ذلك الزمان.
 - ٢- ٢) «محج» الطريق المستقيمه والواضحه سواء الظاهريه أم المعنويه، وقد اقتبست في الأصل من ماده «حج» بمعنى القصد، لأنَّ الإنسان يقصد دائماً المشى على الطريق المستقيم ليصل إلى الهدف.
 - ٣- ٣) «عتب» مصدر بمعنى اللوم والتأنيب و التوبيخ.
 - ٤- ٤) شرح نهج البلاغه للشيخ محمد عبده، ذيل الخطبه ٩٢/٢٣٣.

بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» (١).

ثم ناشدهم عليه السلام تماماً لحجه وإثبات مدى زهده بمقامات الدنيا ومظاهرها، تركه ليكون كاحدهم في الأئمة: «وإن تركتموني فانا كأحدكم؛ ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم» .

فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يعيش عالماً آخر غير ذلك الذى تكالب عليه أهل المصالح من الذين ركنوا إلى الدنيا، هو لم يفكر لحظه قط فى أن تكون الخلافه لقمه سائعه، بقدر ما كان يراها مسؤوليه ثقله تهدف أول ما تهدف إليه إحياء القيم والمفاهيم الإسلاميه. وإلا فهى لاتعدل عنده أكثر من عفته عنز. ثم عاد القول عليه السلام على أولئك الجماعه المتكالبه على الدنيا والتي تطمع إلى المزيد «وأنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً» .

وذلك إنى ان كنت أميراً لحيل بينكم وبين العلو والاستبداد والتطاول على حقوق المحرومين، أمياً أن أكون وزيراً فلکم أن تشيروا علىّ وتنتفعون بما أرىکم من الحق، دون أن أتحمل مسؤوليه أعمالکم. والحق أثبت التاريخ كل ما تكهن به الإمام عليه السلام فى هذه الكلمات الشريفه، وخلافاً لما يزعمه البعض من أصحاب النظره الضيقه فإنّ الإمام عليه السلام كان عالماً بكافه الظروف والملابسات التى أحاطت بخلافته، كما كان على علم تام بردود الفعل التى سيمارسها الخصوم ضده، وعليه فلم يقع ما لم يكن يتحسبه الإمام عليه السلام، إلا أنّ الإمام عليه السلام كان ينتمى إلى مدرسه تملى عليه القيام بالمسؤوليه وإحياء الدين ومفاهيمه الساميه وتعاليمه الحقه وإن كلفه ذلك حياته، على العكس من المدارس الماديه التى ترى فى الحكومه هدفاً وكل ما سواها وسيله يمكن التضحيه بها وقد مارس الإمام عليه السلام ما كان يقوله عملياً، كيف لا وهو الذى اشتاط غضباً حين سأله عقيل ما لا يستحقه من بيت المال فعامله بتلك الشده والصرامه، ليثبت أنه يسير فى الناس بما يعلم ولا يابه بعتب العاتب كائناً من كان. لم يكن أسلوبه أسلوب من سبقه من الخلفاء قط، وهو الذى لم يجمع لنفسه شيئاً من حطام الدنيا، حتى خاطب الأئمة قائلاً: «دخلت بلادكم با شمالي هذه ورحلتى، وراحتى، ها هي فان أنا خرجت من بلادكم بغير ما دخلت فإننى من الخائنين» ،
(٢)والعجيب أنّ الإمام عليه السلام قد سلك سبيلاً يتناقض تماماً وما

ص: ١٢٧

١-١ (١) سورة الحديد/٢٥. [١]

٢-٢ (٢) بحار الانوار ٤٠/٣٢٥. [٢]

ينتهيجه اليوم الحكام والرؤساء حين شروع الحملات الانتخابيه، حيث يبذلون قصارى جهدهم لتقديم الوعود المعسوله للأمة والشعارات المزيفه الفارغه، بل لايتورعون عن ارتكاب أى خلاف من أجل كسب ود الناس والحصول على آرائهم. فالإمام عليه السلام يعلن بكل وضوح أهدافه، وان تعارضت هذه الأهداف مع الكثير منهم ولم تنسجم مع طموحاتهم ورغباتهم. وبغية التنبيه إلى عدم الغفله والخداع، فإنه يكشف النقاب عن جسامه الأوضاع فى المستقبل؛ الأمر الذى لايرى له مثيلاً على مدى التأريخ بالنسبه للخلفاء والحكام.

تأملات

١ - لم قال دعونى؟

استغرق شرّاح نهج البلاغه وسائر علماء الإسلام كثيراً فى كلام أميرالمؤمنين على عليه السلام: دعونى والتمسوا غيرى. فذهب البعض إلى أنه قال ذلك لعدم وجود النص على الإمامه والولاية، فهبت طائفه من مثقفى العصر لترى فى ذلك الكلام انه يشكل الدليل على إصالة رأى الامه فى الحكومه واختيار القائد، ونرى من الضروره بمكان أن نسلط الضوء على الشرائط الزمانيه والمكانيه التى كانت سائده آنذاك والتى دفعت بالإمام عليه السلام إلى هذا الكلام قبل أن نعلن عن رأينا بهذا الشأن بغية تفادى الزلل والانحراف عن حقيقه الأمر:

١ - إنّما صدر هذا الكلام من الإمام عليه السلام إثر مقتل عثمان بفعل ذلك البذخ والتطاول على بيت المال المسلمين وتسليط بنى أميه على رقاب المسلمين، وظهور حاله الاستياء العامه فى أغلب مناطق البلاد الإسلاميه آنذاك، ممّا دفع بالأمة إلى الهجوم على الإمام عليه السلام وبسط يدها إليه بالبيعه. فقد اعتاد كبار الأمة سياسه عثمان ليتوقعوا من الإمام تحقيق رغباتهم وتقسيم بيت المال بينهم حسبما يحلو لهم، إلى جانب أولئك الذين كانوا يحلمون بأن يمنحهم الإمام عليه السلام مقابل بيعتهم بعض المناصب الحساسه فى البلاد ليكونوا عماله وولاته على بعض الأمصار فيحكموا سيطرتهم على البلاد.

أضف إلى ذلك فإنّ الأمة قد ابتعدت عن قيمها الإسلاميه، وقد دفعتها الفتوحات وما جرتها عليها من غنائم وثروات إلى الاقبال على الدنيا وزخارفها وتفشى الأفكار الجاهليه

ونسيان حياتها التي شهدتها على عهد النبي صلى الله عليه وآله بفعل عدم التفات الخلفاء لهذا الأمر. ومن هنا رأى الإمام عليه السلام نفسه أمام مفترق طرق؛ إمّا الاستسلام للبيعه في تلك الظروف العصيبه والتأهب لتلك الحوادث والأزمات، وأمّا رفض البيعه وترك الأُمّة وشأنها.

٢ - لم يكن الإمام عليه السلام كساسة الدنيا ليخفي أهدافه الحقيقيه التي سيسعى إلى تطبيقها فيما لو تولى الخلافة والحكومه الإسلاميه، فيجر الأُمّة بوعوده المعسوله إلى البيعه، ثم يكشف عن برامجه وخططه بعد أن يتربع على عرش السلطه وتستتب له الأمور ويحكم قبضته على الناس! نعم هيهات أن يفكر الإمام عليه السلام بمثل هذه المراوغات والأساليب المظلمه. ومن هنا حذر الأُمّة من عظم المسؤوليه التي ينبغي أن تنهض بها فيما لو لبي بيعتها وتولى زعامتها. فمن الطبيعي الا- يكون هناك من مبرر لخداع الأُمّة بغيه حصول الأهداف الإسلاميه واشاعه المفاهيم السماويه.

٣ - لاشك أنّ الإمام عليه السلام أجدر أفراد الأُمّة على الخلافة ليس في ذلك الزمان فحسب، بل في الزمان الذي سبقه حيث ولا يقتصر الإعتراف بذلك على الإمام صرح قائلًا: «إنّه ليعلم أن محلى منها محك القطب من الرحا» (١)، وحين جعله عمر أحد أعضاء الشورى فقال: «متى إعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر» (٢)، ولما أرادت الأُمّة أن تبايعه بعد عثمان إذ قال: «ولقد علمتم أنى أحق الناس بها من غيرى» (٣)، بل كان يراه كذلك حتى خصومه (وإن لم تشهد السياسه مثل هذا الأمر) ومن ذلك ما قاله عمر حين انتخاب الشورى: «أمّا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحججه البيضاء» (٤)، كما ذكر الطبرى أنّ أبابكر حين ولي الخلافة، تطرق لعدم أحقيته فيها طبق أغلب الروايات فقال: «أيها الناس! فآنى وليت عليكم ولست بخيركم» (٥).

ص: ١٢٩

١-١ (١ نهج البلاغه، الخطبه ٣. [١]

١-٢ (٢ نهج البلاغه، الخطبه ٣. [٢]

١-٣ (٣ نهج البلاغه، الخطبه ٧٤. [٣]

١-٤ (٤ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١/١٨٦؛ [٤] وقد نقل هذا المضمون الطبرى فى ٣/٢٩٤ حوادث عام ٢٣ هـ باختلاف طفيف.

١-٥ (٥ تاريخ الطبرى ٢/٤٠٥. [٥]

بل ورد في بعض الروايات أنّ أبابكر قال: «أقبلوني! فلست بخيركم وعلى فيكم» (١)، فبالنظر إلى ما أوردنا من محكمات التأريخ والأخبار، يمكن القول بأنّ الإمام عليه السلام أراد أن ينفي عن نفسه في هذه الخطبه رغبته بمسأله الخلافه، ويكشف عن ذروه تواضعه في هذا الأمر، كما أراد أن يفهم الأّمه التي أصرت على البيعه انه ان ولي أمرها فسوف لن يسير بتلك الأساليب الخاطئه، وليس أمامه سوى سلوك سبيل الحق واحياء عصر النبي صلى الله عليه و آله، وأنّ آثار ذلك حفيظه البعض وأدى إلى إنزعاجه، ليؤدّي به ذلك إلى رفع رايه المعارضه والوقوف بوجه الإمام عليه السلام. وعلى هذا الضوء لانرى هناك من حاجه لأن نبحت في هذه المسأله، هل الخطبه دليل على عدم النص على الإمامه، أو القول بأنّ معيار الإمامه والخلافه إنّما يكمن في آراء الأّمه لاغير. وذلك لأنّ هذا القول إنّما يصدر ممن اكتفى بالنظر إلى ظاهر الخطبه، واغضى عينيه عن جميع القرائن التاريخيه وسائر كلمات الإمام عليه السلام في نهج البلاغه.

٢ - لم لا يتحملوا عداله على عليه السلام؟

لاشك أن بيعه على عليه السلام - وطبق أقوال جميع المؤرخين - كانت الأعظم والأكمل بيعه، ولاسيما مقارنه ببيعه السقيفه التي لم تتجاوز بضعه أشخاص، وقد استندت بيعه عمر إلى وصيه الخليفه الأول، كما تمت البيعه لعثمان بثلاثه آراء من تلك الشورى المؤلفه من سته أعضاء، أما البيعه لعلى عليه السلام فقد تمت من قبل جميع أبناء الأّمه، مع ذلك كان الإمام عليه السلام مكرها على قبولها بسبب تلك الظروف الصعبه والملابسات التي عاشها المجتمع الإسلامى من جراء سياسه الخلفاء، فقد أورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى الكامل بهذا الشأن قائلاً: أتى المصريون علياً عليه السلام بعد مقتل عثمان وقال بعضهم لبعض لئن رجع الناس إلى أمصارهم بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الأّمه. فغشى الناس علياً عليه السلام بعد أن باعدهم وقالوا له: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من بين القرى. فقال على عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيرى فانا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول». فقالوا:

ص: ١٣٠

ننشدك الله! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال: «قد أجبتكم، واعلموا أنى إن اجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فأنما أنا كاحدكم، إلا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه»، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد. وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحه والزبير فقد استقامت، فبعث البصريون إلى الزبير حكيم بن جبلة وقالوا: احذر تحابه ومعه نفر، فجاؤوا به يحدونه بالسيف، فبايع، وبعثوا إلى طلحه الأشر ومعه نفر، فأتى طلحه، فقال: دعونى أنظر ما يصنع الناس، فلم يدعه، فجاء به يتله تلاً عنيفاً، وصعد المنبر فبايع - ثم خاض ابن أثير فى تفاصيل بيعه عامه الأئمه. (١)

فالحق أنّ علياً عليه السلام كان يعلم مدى صعوبه السير على الحق وبسط العدل فى ربوع هذه الجماعه التى تربت على مفردات الظلم والجور، مع ذلك لم يكن يتوانى عليه السلام من التضحية حتى بنفسه من أجل حفظ المبادئ الإسلامية فلم يكن هدف الإمام عليه السلام الاستيلاء على الخلافة مهما كان الثمن، بل كان يرى الحكومه وسليه لحفظ القيم الإسلامية؛ الأمر الذى يصعب إدراكه على من ليس له علم بفحوى رساله الأنبياء والاولياء، فقد نقل ابن أبى الحديد عبارته راعه عن بعض العلماء بهذا الشأن إذ قال: وبهذا ونحوه استدلل أصحابنا المتكلمون على حسن سياسته وصحة تدبيره، لأنّ من منى بهذه الرعيه المختلفه الأهواء، وهذا الجيش العاصى له، المتمرد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، فليس يبلغ أحد فى حسن السياسه وصحة التدبير مبلغه. إنّ سياسته عليه السلام إذا تأملها المنصف متدبراً لها بالاضافه إلى احواله التى دفع إليها مع أصحابه، جرت مجرى المعجزات لصعوبه الأمر وتعذره. (٢)

٣ - لم وزارتته عليه السلام خير من إمارته؟

إضافه إلى إمكانيه حمل عبارته الإمام عليه السلام «أنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً»، على نوع من التواضع واتمام الحججه، فإنه يمكن توجيهها بشكل آخر، وهو أنّ علياً عليه السلام لو أصبح أميراً لكانت معارضته والوقوف بوجهه مدعاه إلى الكفر، وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له كما روى

ص: ١٣١

١-١) الكامل لابن أثير ٣/١٩٣. [١]

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٧٣. [٢]

فى الخبر المعروف «حربك حربى» (١)، ولما كانت حرب رسول الله صلى الله عليه وآله كفرةً، فان حرب على عليه السلام كفرةً. أما لو كان عليه السلام وزيراً فان الخروج على تلك الحكومه لا يودى إلى الكفر.

وزبده الكلام فان بعض المغرضين حاول استغلال هذه الخطبه وتفسيرها خلافاً لأصول وعقائد التشيع، والحال ليس فيها ما يدعوا إلى هذا الأمر، لأن الإمام عليه السلام أراد أن يبين زهده بهذا المقام الظاهرى من جانب وأن الآخرين يفقدون صوابهم لأدنى من هذا الأمر. ومن جانب آخر فقد كشف الإمام عليه السلام قمه تواضعه بهذه العبارات للمؤمنين من أبناء الأُمَّه. كما حذر فيها واتم الحججه بأنى إذا نهضت بالأمر فلن أعمل سوى بالكتاب والسنة والحق والعدل ورضى الله، ولا تتوقعوا أن أوصل ما شهدتم من سياسه، وترسيخ دعائم الحكم على الظلم والجور.

وأخيراً لا تعتقدوا بأنى غافل عن عواصف المستقبل وأنى متطلع إلى الخلافه لأراها سهله ذلول، فأنى لعلى يقين من أن الخلافه فى هذه الظروف خطيره كركوب الدابه الجموح كالمركب الجموح ولا اقبلها إلا بفضلها وظيفه وتكليف إلهى، وبخلافه فلا قيمه لها عندى.

ص: ١٣٢

١- ١) روى ابن المغازلى أحد علماء العامه فى مناقبه عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «سلمك سلمى وحربك حربى» (مناقب ابن المغازلى/ ٥٠).

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يتبّه أمير المؤمنين عليه السلام على فضله وعلمه ويبيّن فتنه بنى أميه

أشار عليه السلام نظره إلى الخطبه في هذا الخطبه إلى فتنه بنى أميه وقد تبّه إلى عظم خطورتها، لأنّ الناس كلهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعون مولاهم أم لا؟ وهل يجهزون على جريحهم أم لا؟ واستعظموا أيضاً حرب عاشته وحرب طلحه والزبير، لمكانهم في الإسلام، فلولا أنّ الإمام عليه السلام اجترأ على سل سيفه فيها. ما أقدم أحد عليها حتى الحسن عليه السلام. ثم قال عليه السلام سلوني قبل أن تفقدوني. فقد روى صاحب كتاب الاستيعاب بن عبد البر عن جماعه من الرواه والمحدثين، قالوا لم يقل أحد من الصحابه «سلوني» إلّاعلى بن أبي طالب. (٢)

ص: ١٣٣

١ - ١) سند الخطبه: قال ابن أبي الحديد هذه الخطبه ذكرها جماعه من أصحاب السيره، وهي متداوله منقوله مستفيضه، خطب بها على عليه السلام بعد انقضاء أمر النهروان، وفيها ألفاظ لم يروها الرضى (ره) (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٥٧) [١] كما ورد في مصادر نهج البلاغه [٢] أنّ من رواها ابن واضع في تاريخه (تاريخ يعقوبى ٢/١٩٣) وأبو نعيم في حليه الأولياء وابن أثير في النهاية. كما رواها العلّامه المجلسى عن كتاب الغارات الثقفى (مصادر نهج البلاغه ٢/١٧٨) [٣] فالذى يستفاد من هذه النقول أنّ هذه الخطبه من الخطب المعروفة التى ذكرت فى عده مصادر.

٢ - ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٤٦ و ١٣/١٠٦. [٤]

«أَمَا بَعِيدَ حَمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْبُهَا وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا. فَأَسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلَا عَنْ فَنَاءِ تَهْدِي مِثْلَ مِثْلِهِ إِلَّا أَنْتُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمُنَاحِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتًا. وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الْأُمُورِ، وَحَزَبِ الْخُطُوبِ، وَالْأَطْرَقِ كَثِيرٍ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشَلِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَسْئُولِينَ، وَذَلِكَ إِذَا قَلَصَتْ حَزْبُكُمْ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سِيَاقِي، وَضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضَيْقًا، تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ» .

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله وأثنى عليه خاطب الناس قائلاً: « أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ! فَإِنِّي فَقَأْتُ (١) عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْبُهَا (٢) وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا (٣) .

ص: ١٣٥

١- ١) «فقأت» من ماده «فقا» على وزن فقر القلع بمعنى تغلبه عليها.

٢- ٢) «غيب» من ماده «غهب» على وزن وهب الظلمه وشده السواد، وتستعمل فى الليالى الدامسه الظلام، كما تعنى فى الأصل الغفله والنسيان المناسب للظلمه.

٣- ٣) «كلب» على وزن طلب من ماده «كلب» على وزن قلب داء معروف يصيب الكلاب، فكل من عضته ٢ أصيب به فجن ومات إن لم يبادر بالدواء. ومن هنا يستعمل فى الحوادث الأليمه والحروب الطاحنه وهجوم الحيوانات الوحشيه المفترسه.

وقد اختلفت أقوال الشراح في المراد بهذه الفتنة، فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بها وقعه الجمل، حيث أصابت فيه الحيره السذج من الأفراد وحتى من لم يكن يمتلك الإيمان والعلم العادي، في أنّه هل يجوز قتال فئه تنتحل الإسلام ظاهرا و هي من أهل القبلة؟ كيف وفيها بعض كبار الصحابه كطلحه والزبير، وكذلك زوج رسول الله صلى الله عليه وآله عائشه، وناهيك عما سبق فاذا تمت الحججه ونشبت الحرب، فهل يمكن السيطرة على أموالهم كغنائم؟ وكيف سيعامل أسراهم؟ إلما أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ هذا النقص لليهود والمواثيق، وشق عصا الأئمه وتمزيق وحدتها، إذا استمر فانّ الفتنة ستعم كافة البلاد الإسلاميه حتى لا يبقى من الإسلام إلّا اسمه، ومن القرآن إلّارسمه وستطمس معالم الدين. فبذل الإمام عليه السلام بادية الأمر قصارى جهده من أجل اتمام الحججه محذرا الطرف المقابل من العواقب الوخيمه وذلك من خلال الكتب والرسل التي كان يبعث بها إليهم، فلما لم يستجيبوا، لم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل إلا القتال، ومن هنا واجههم الإمام عليه السلام بتلك الشده والصرامه حتى أخدم فتنه الجمل، بينهما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بها فتنه الخوارج من النهروان لأنّ ظاهر الخوارج كان يتصف بنوع من الصلاح والقدسيه، رغم انحرافهم الباطني وحمقتهم وجهلهم بالتعاليم الإسلاميه، بينما كانوا يولون عنايه فائقه لأذني المستحبات والمندوبات، ولذلك تردد الكثير من السذج في قتالهم، بينما نهض الإمام عليه السلام بالأمر ليواجه هذه الفتنة ويفقأ عينها، كما ذهب بعض الشراح إلى أنّ المراد بها الفتنة بمفهومها العام، حيث يعتقدون أنّ هذه الفتن قد بدأت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في موقعه بدر واستمرت في سائر الغزوات، ثم استفحلت وتفاقم خطرها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم امتدت لتشتد في زمان عثمان، فلما قتل وبايع الناس الإمام عليه السلام تجذرت هذه الفتنة لتتخذ أشكالا أخرى، ليواجهها الإمام عليه السلام بالسيف أحيانا، وبالصبر والتحمل والتحذير والنذير أحيانا أخرى ولكن يبدو تفسيرها بالجمل أنسب من غيره أمّا التعبير: «عين الفتنة» فيفيد أنّ الإمام عليه السلام قد شبه الفتنة بشيح وحشى كاسر، وإذا فقأت عينه سلبت قدرته وحيويته، كما تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يتجه في مجابهته للفتنة إلى مراكزها الأصليه ورموزها الأساس،

ولا يقصد العناصر الثانويه هنا وهناك، فالفتنه تزول إذا مازال مركزها؛ وهذا هو الطريق الافضل الذى ينبغى اتخاذه فى مواجهه الفتن والدسائس. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى مسأله ذات أهميه بالغه جدا فقال عليه السلام: «فاسألونى قبل أن تفقدونى». كما ذكر سابقا فقد قال المحققون لم يكن ليقول هذا الكلام غير على بن أبى طالب، و ذلك لأنه كان واسع العلم بأحداث الماضى و الحاضر و المستقبل بحيث يجب يرد على كل سؤال بشأن المعارف و الأحكام، و هو العلم الذى تعلمه من رسول الله صلى الله عليه و آله الذى أخذه عن الوحى.

قال الشارح المعتزلى روى صاحب كتاب الاستيعاب عن جماعه من الرواه والمحدثين قالوا لم يقل أحد من الصحابه عنهم سلونى إلماعلى بن أبى طالب، وقال أبو جعفر الاسكافى فى كتاب نقض العثمانيه: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلونى إلماعلى بن أبى طالب عليه السلام.

وقيل إن ابن الجوزى قال يوماً على منبره: سلونى قبل أن تفقدونى، فسألته أمراه عما روى أن علياً سارفى ليله إلى سلمان فجهزه ورجع، فقال: روى ذلك، قالت: فعثمان ثم ثلاثه أيام منبوزاً فى المزابل وعلى عليه السلام حاضر، قال: نعم، فقالت: قد لزم الخطاء لأحدهما، فقال: ان كنت خرجت من بيتك بغير اذن زوجك فعليك لعنه الله وإلا فعليه، فقالت: خرجت عائشه لحرب على باذن النبى صلى الله عليه و آله أم لا؟ فانقطع ولم يحر جواباً (١) ثم قال عليه السلام: «فو الذى نفسى بيده! لاتسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعه، ولا عن فئه تهدى منه وتضل منه إلا أنبأتكم بناعقها (٢) وقائدها وسائقها، ومناخ (٣) ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً، ومن يموت منهم موتاً» ربّما يتكهن الكثير من الناس بصوره كليه ومبهمه عن بعض حوادث المستقبل، وهذا ما نلمسه بوضوح لدى الساسه الذين يتكهنون ببعض الأمور التى قد تصيب وقد تخطىء. إلا أن أحداً لم يتمكن بالتكهن بدقائق الأمور وأدنى التفصيلات وبالنسبه

ص: ١٣٧

١-١) منهاج البراعه ٧/٧٤.

٢-٢) «ناعق» من ماده «نق» على وزن ضرب من نق بغنمه صاح بها لتجتمع وتستعمل فى الافراد السذج الذين يتحركون بواعر من المفسدين.

٣-٣) «مناخ» من ماده «نوخ» بمعنى أقام، و «مناخ» يطلق على المكان الذى يبرك فيه البعير، وتستعمل بشكل واسع ككنايه عن محل الإقامه.

لتلك الأزمان البعيدة، إلّا لمن ارتبط بمصادر الوحي واستند إلى المدد الإلهي والعلم المطلق.

والعجيب في الأمر أنّ الإمام عليه السلام أكد في هذه العبارة أنّي أستطيع أن أخبركم بكافه الحوادث القادمة إلى يوم القيامة من جانب، ومن جانب آخر أشار إلى جزئيات هذه الحوادث وتفصيلها. الأمر الذي لا يتيسر إلّا للنبي ومن يستقى علومه ومعارفه منه، وهنا يبرز هذا السؤال: هل للنبي أو الإمام العلم بالغيب، وبهذه السعه والشموليه، والحال هذا القرآن يصرح: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ» (١)، وتبدو الاجابه واضحه ومعروفه على هذا السؤال، على ضوء ما ورد في الآيات القرآنيه، وكلمات الائمه عليه السلام ولاسيما الإمام عليه السلام في أن علم الغيب بالذات مختص بالله سبحانه، والله سبحانه يطلع من يشاء من أوليائه على ذلك العلم، كما ورد ذلك في الآيه ٢٦ - ٢٧ من سوره الجن: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ»، وسيأتى عما قريب أنّ الإمام عليه السلام حين أخبر عن بعض الحوادث، فتبادر هذا السؤال إلى ذهن أحد الأفراد بشأن علم الإمام عليه السلام للغيب، ردّ عليه عليه السلام بالقول: «ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلم من ذى علم»، في إشاره واضحه إلى أنّ الغيب الذاتى لله، وعلم الإمام عليه السلام إكتسابى، فقد تعلم جميع هذه الأمور من رسول الله صلى الله عليه وآله الذى تعلمها من الله سبحانه وتعالى (وسيمر علينا فى البحث القادم شرح هذا الكلام). على كل حال، لم يقل مثل هذا الكلام بعد رسول الله أحد سوى أمير المؤمنين، إلّا أنّ الإمام أورد ذلك كراراً ومراراً ليقع عين ما كان يخبر به عليه السلام. وقد أفرد ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه فصلاً أسماه الأمور الغيبه التى أخبر عنها الإمام عليه السلام أورده فى ذيل هذه الخطبه، وسنشير إليه فى البحث القادم.

والعبارة: «ولاعن فنه تهدى مئه. . .» إشاره إلى أنّ الإمام عليه السلام لا يخبر عن الجماعات الكثيره والوقائع الخطيره فحسب، بل يستطيع الأخبار عن صغائر الحوادث ببركه ذلك التعليم الإلهي. ثم أشار عليه السلام إلى نقطتين بهذا الشأن:

الاولى: لتشجيع أولئك على السؤال عن المسائل المصيريه، حذراً من ندمهم يوماً حين

ص: ١٣٨

١-١) سوره النمل/٦٥ ([١] كما ورد شبيه هذا المضمون فى آيات متعدده أخرى).

تضطرب عليهم الأمور فيحل مشاكلهم: «ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه (١) الأمور، وحوازب (٢) الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين» أى أسألوني مادمت بينكم، فليس لأحد بعدى أن يرد على ما يدور فى أذهانكم، آنذاك ليس لكم سوى الندم.

الثانية: إشاره إلى الأزمات والخطوب المرتقبه، ليستعدوا لها، كما تبشر من جانب آخر الأخيار والصالحين بالفتح «وذلك إذا قلصت (٣) حربكم، وشممت (٤) عن ساق، وضافت الدنيا عليكم ضيقاً، تستطيلون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم»، فالإمام عليه السلام أشار - إلى سيطره الجناه من حكام بنى أميه وسيطرتهم على مقدرات الأمه الإسلاميه وغصب أموالها، وليس لمن يقف بوجههم سوى الضربات الماحقه الشديده، والحق أن جرائمهم وجنایاتهم لتفوق الخيال والتصور، وما أروع عباره الإمام عليه السلام بهذا الشأن حين قال: «ضاقت الدنيا عليكم ضيقاً» لتصور بعض الفضائع التى ارتكبها بنى أميه بحق الناس.

أمّا قوله عليه السلام: «حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم»، فيمكن أن يكون إشاره إلى زوال حكومه بنى أميه، ليتنفس المسلمون بعدها الصعداء، حيث سيتدبر بص بهم العباسيون الذين لم تشتد قوتهم آنذاك. كما يمكن أن تكون إشاره إلى الحكومه العالميه للإمام المهدي عليه السلام التى تقتلع جذور الظلم والجور وتنهى كافة أشكال التسلط والهيمنه وترسى قواعد العدل والقسط، وإليك طائفه من الأمور الغيبية التى أخبر عنها الإمام عليه السلام ثم تحققت، تأمل نبوءات الإمام عليه السلام أفرد ابن أبى الحديد فصلاً بهذا الشأن فقال: واعلم أنه عليه السلام قد أقسم فى هذا الفصل بالله الذى نفسه بيده أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامه إلا أخبرهم به، وأنه ما صحّ من طائفه من الناس يهتدى بها مائه وتضلّ بها مائه، إلا هو مخبر لهم - إن سألوه - برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها؛ ومن يقتل منها قتلاً، ومن يموت منها

ص: ١٣٩

- ١-١) كرائه جمع كريبه.
- ٢-٢) حوازب جمع حازب من ماده حزب على وزن جذب الأمر الشديد.
- ٣-٣) «قلص» من ماده «قلوص» بتشديد اللام تمارت واستمرت.
- ٤-٤) «شمر» من ماده «تشمير» ويطلق على عمليه رفع الثوب عن الساقين و التهيؤ والاستعداد للقيام بعمل ما. و «شمر» تطلق على الاشخاص ذوى الجد و التجربه، وكذلك تطلق على الاشرار.

موتاً؛ وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعا الزّبييه، ولا إدّعاء النبوه؛ ولكنه كان يقول: إنّ رسول صلى الله عليه وآله أخبره بذلك؛ ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكوره، كإخباره عن الضربه التي يضرب بها فى رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام؛ وما قاله فى كربلاء حيث مرّ بها، وإخباره بملك معاويه الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج؛ وعن يوسف بن عمر؛ وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى صحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدّ الجيش الوارد إليه من الكوفه لما شخص عليه السلام إلى البصره لحرب أهلها، هذه شهاده ضد من لا يعتقد بإمامته عليه السلام على أنه الإمام المعصوم؛ بينما المسأله واضحه لنا تماما. فالائمه ورثه علوم النّبى صلى الله عليه وآله إلى جانب إدراكهم للحقائق القرآنيه التي يعجز عن دركها الاخرون، مع مالهم من إلهامات غيبية و سنبحث فى حينه فى ذيل بعض الخطب بشأن سعه علم الإمام.

«إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ؛ يُنْكَرُونَ مُقْبِلَاتِ، وَيُعْرَفُونَ مُدْبِرَاتِ، يَحْمَنَ حَوْمَ الرِّيَّاحِ، يُصَيِّبُ بِنَ بَلْدًا وَيُخْطِئُ بَلْدًا. أَلَا- وَإِنَّ أَوْفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمِيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمِيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ حُطَّتْهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتْهَا، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا، وَإِيمُ اللَّهِ لَتَجِدَنَّ بَنِي أُمِيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءِ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ، تَعْدُمُ فِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لَا يَزَالُونَ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَانَتْصَارِ الْعَبِيدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَضْحِيهِ، تَرُدُّ عَلَيْكُمْ فِتْنَتَهُمْ شَوْهَاءَ مَحْشِيَّةٍ، وَقِطْعًا جَاهِلِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارٌ هُدًى، وَلَا عِلْمٌ يُرَى» .

الشرح والتفسير

أخبر الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه عن جانب من الحوادث المستقبلية والفتن التي ستصيب المسلمين، ثم واصل هنا الكلام عن أولاً: الإشاره إلى القانون العام ذات الصله بالفتن؛ القانون الذي يؤدي العلم به إلى الحد من خطر هذه الفتن، ثانياً: الحديث عن فتنه خاصه - وهي في الواقع من أهم الفتن - وتحذير الناس منها، وهي فتنه بنى أميه التي تطرق الإمام عليه السلام إلى أغلب مميزاتها. فقد قال عليه السلام بادية ذى بدء، أن الفتن عاده ما تتلبس بلباس الحق إذا أقبلت، فاذا أدبرت نبهت الناس إلى ما هيتهها «إن الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت» .

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه في الحقيقه هي عله هذا الأمر، وهي أنّ هذه الفتن مجهوله عند الاقبال، معروفه عند الإدبار «ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات»، فهذه نقطه اجتماعيه سياسيه غايه في الأهميه، وهي أنّ أصحاب الفتنه والانحراف إنّما يحاولون تنميق ظاهرهم ليخفون صورتهم الكريهه في إطار الحق ليستقطبوا الناس إليهم، فاذا استتب لهم الأمر كشفوا عن أنيابهم الكريهه حتى يطاح بهم.

ومن هنا فإنّ دعاه الحق مطالبون على الدوام بالنظر بمنتهى الحيطه والحذر إلى الأحداث والوقائع خشيه الانخداع والاغترار، فحسن الظن والنظره السطحيه في مثل هذه الأمور لن تؤدي سوى إلى الضرر والخسران.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه وهي أنّ الفتن ليست شامله، بل هي كالرياح التي تصيب موضعا وتترك آخر: «يُحْمَنُ (١) حوم الرياح، يصبن بلداً ويخطئن بلداً» .

لأنّ أرضيه كافه المدن والامصار ليست واحده لتحتضن الفتن، بل هناك عده عوامل متوفره هنا وليست متوفره هناك، وبناء على هذا فلا ينبغي الاغترار إذا لم تشاهد بعض آثار الفتن في موضع دون آخر.

ثم يتطرق عليه السلام إلى فتنه بنى أميه ليحذر من خطورتها فيقول: «ألا وإنّ أخوف الفتن عندى عليكم فتنه بنى أميه، فإنّها فتنه عمياء مظلمه» .

فتنه عمياء مظلمه لاتبقى أمامها من قيم ومفاهيم ومثل، وتتجاوز كافه الأشخاص دون الالتفات إلى سوابقهم ومواقفهم، والحق أنّ فتنه بنى أميه كانت كذلك! فقد استعادت أعراف الجاهليه حياتها على عهدهم وفي ظل حكومتهم، حيث تمكنت حالات رجالهم من التسلط على رقاب المسلمين وإشغال المواقع الحساسه في الحكومه، فتحت تلك الشخصيات الصالحه وأقصيت عن الميدان، بينما مورست أبشع أنواع البطش والتعذيب بحق أولئك الذين رفعوا أصواتهم بوجه هذه الحكومه. ثم أشار عليه السلام إلى بعض خصائص هذه الفتنه في أنّ حكومتها عامه شامله بحيث يخضع الجميع لهذه السلطه الغاشمه، غير أنّ بلائها يختص بطائفه وجماعه؛

ص: ١٤٢

(١-١) «يُحْمَنُ» من ماده «حوم» على وزن قوم بمعنى الدوران.

فمن كان بصيراً في تلك الفتنة (ووقف بوجهها) شمله ذلك البلاء، بينما يسلم منها من كان أعمى «عمت خطتها» (١) وخست بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها» .

طبعاً أنّ آثار الفتنة ستعم بالتالي كافة القوم، ولعل هذا هو المعنى الذي أشارت إليه العبارة «عمت خطتها» ؛ إلّا أنّ شدتها وحدتها إنّما تطيل المجاهدين الأشداء، بينما يكون الجهال من عديمي الشعور بالمسؤولية في أمان من ذلك البلاء ثم تطرق عليه السلام إلى خاصية أخرى من خصائص حكومه بنى أميه، ليقسم قائلاً: «وأيّم الله (٢) لتجدن بنى أميه لكم أرباب سوء بعدى كالناب (٣) الضروس (٤) تعذم (٥) بفيها، وتخبط (٦) بيدها وتزبن (٧) برجلها، وتمنع درها (٨)» .

ياله من تشبيه رائع في الإنسان يتوقع أن يستفيد من لبن ناقته ويركبها ليصل إلى المكان الذي يريد، كما أنّ الإنسان ينتظر من الحكومة أن تساعده وتحل مشاكله وأن تكون سنده في مسيره الرقى والتقدم الفردي والاجتماعي. أمّا الحكام الظلمه الذين يفتقرون إلى المنطق والرحمه - والذين لا يفكرون إلّا في تحقيق منافعهم - ليس فقط لا يحلون مشاكل المجتمع فحسب، بل يجعلونه يعيش في خضم هاله من المصاعب والمشاكل ويوجهون له الضربات الماحقه الموجهه وهذه المعامله الجافه العنيفه، و يالها من نبوءه صحيحه حيث كان عليه السلام يرى ببصيرته كل تلك الأحداث و عظم البلاء الذي صبته هذه الفئه القاسيه على المسلمين. حتى لا يبقى منكم إلّا من ينفعهم أو لا يضرهم: «لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلّا نافعهم، أو غير ضائر بهم» .

ص: ١٤٣

- ١-١) «خطه» من ماده «خط» به معنى وضع العلامه، ولفظ «خطه» يأتي أحياناً بمعنى حاله أو موضوع.
- ٢-٢) «أيّم» يرى بعض الأدباء أن أصلها (أيمن) أسقطت نونها، فان قيل وأيّم الله تفيد القسم (ومن أراد المزيد فليراجع شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٥٤) . [١]
- ٣-٣) «الناب» الناقه المسنه.
- ٤-٤) «ضروس» الحيوان السئ الخلق يعفى حباله.
- ٥-٥) «تعذم» من ماده «عذم» من عذم الفرس إذا أكل بحفاء أو عض.
- ٦-٦) «تخبط» من ماده «خبط» الضرب باليد.
- ٧-٧) «تزين» من ماده «زين» على وزن دفن تضرب.
- ٨-٨) «درّ» جريان اللبن توفير، كما يطلق على كل خير وبركه.

فهم يخنقون أصوات دعاه الحق في حناجرهم ويلتقطون من يعارضهم أينما كان ولا يرون لأى أحد من حق في الحياه سوى من يقوم على خدمتهم، أو لايشكل أى خطر على مصالحهم، ولايفرق لديهم أن يكون داع الحق هذا وطالب العدل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله أو من صحابته أم كان من كبار علماء الأئمه وأعلامها وهكذا تتضح عموميه الفتنة وشموليتها التي أشار إليها الإمام عليه السلام. كما أشار في الخاصيه الرابعه إلى نقطه وهى أنّ المشكله العظيمه فى هذه الحكومه تكمن فى عدم وجود أى ملاذ من شأنه توفير الأمن للآخرين والنجاه من ظلم هؤلاء الظلمه، وليس هنالك من يسمع شكواهم، الأمر الذى يضطرهم إلى شكوى ظلم الظلمه إلى أنفسهم ومعلوم بالطبع نتيجه مثل هذه الشكوى: «ولايزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربّه، والصاحب من مستصحبه» .

والحق هذا هو مصير الأئمه التي تقوم حكومتها الجائره والظالمه بقطع ألسن كافه دعاه الحق وتحاصر العلماء وتفرض عليهم الاقامه فى بيوتهم، وتعز الذليل وتذل العزيز وتحطم عناصر القوه فى الأئمه وتسخرها من أجل منافعتها. ثم أشار فى الخاصيه الخامسه والأخيره - والتي تؤكد فى الواقع الخصائص السابقه - إلى تتابع هذه الفتنة وهى عماء وصماء خاليه من الأدله وسبل النجاه: «ترد عليكم فتنهم شوهاء (1) مخشيه (2) وقطعاً جاهليه، ليس فيها منار هدى، ولاعلم يرى» ، وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد رسم بهذه الخصائص الصوره القاتمه لظروف وأوضاع حكومه بنى أميه، كما أشار إلى نهايتها؛ وكأنه كان قد عاش تلك الفتره المظلمه التي دامت ثمانين سنه، وكان يرى تفاصيلها رأى العين. فقد كانت حكومه لا-تقيم وزناً للقيم والمثل الإسلاميه ولا-تعترف بالقوانين الإسلاميه، بل هى حكومه مستبده طاغيه تفتقر إلى المنطق والموازن مليئه بالفتن الحاكيه عن عصر الجاهليه، الحكومه التي قد لا-تفكر حتى فى مصالحها، لتمارس أقصى درجات الظلم والجور فترتكب ما قل نظيره فى التأريخ البشرى. والعبارة: «أرباب سوء بعدى» ، إشاره لطيفه إلى هذه الحقيقه وهى أنّكم لم تستجيبوا لحكومتى الإسلاميه والإنسانيه العادله، فليس أمامكم سوى الحكام الظلمه وأرباب السوء. وقد أورد

ص: ١٤٤

١- ١) «شوهاء» من ماده «شوه» على وزن قوم قبيحه المنظر.

٢- ٢) «مخشيه» من الخشيه مخوفه مرعبه.

بعض شراح نهج البلاغه أنّ بنى أميه كانت تعامل طائفه من الناس كعبيد. حتى جاء فى شرح نهج البلاغه للعلامة التستري أنّهم كانوا يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمه ويقولون فروا من الجزية، ويأخذون الصدقه من الخيل، وكانوا يختمون فى أعناق المسلمين كما توسم الخيل، وينقشون فى أكفهم علامه لاسترقاقهم كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشه. (١)

تأملات

١- مميزات الفتنه

الفتنه مفرده يخشاها الجميع، ويرون نتيجهتها هى الشؤم والألم، ولكن هنا يطرح هذا السؤال: ما هى الفتنه؟ وما هى علامتها وملاحظتها؟ فالإمام عليه السلام بين فى هذه الخطبه علامات الفتنه، كما عرفها على أساس هذه العلامات والملاحظ. فالفتنه إنّما تطلق على الحوادث المعقده التى لاتضح ماهيتها؛ لها ظاهر براق وباطن مملوء بالفساد؛ تؤدى بالمجتمعات البشرى إلى الفوضى والعداوه والتناحر والاقتتال وسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الاعراض - والأذى من كل ذلك تعذر السيطرة عليها.

غالباً ما تتلبس بلباس الحق لتجذب إليها السذج من الناس ولا يلتفتون إليها، إلّا بعد أن تسدد إليهم سهام حقدتها. والفتن لاتعرف القانون، فقد تأتى على منطقه لتحرقها عن بكره أبيها، بينما لاتشهد منطقه أخرى أثراً لهذه الفتنه وهى تعيش فى أمن وأمان منها، وقد شبهها الإمام عليه السلام فى الخطبه بالريح التى تصيب منطقه وتخطىء منطقه أخرى، وقد تلف هذه الريح كل شىء معها من قبيل الناس والسيارات لتقذف بهم هنا وهناك حسب سرعتها وشدتها! وهذا ما تفعله الفتن بكبار الشخصيات الدينيه والاجتماعيه السياسيه، إلى جانب فعلها بأموال الأممه وثروات المجتمع والحرب التى وقعت على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام تعد كل واحده منها نموذجاً بارزاً للفتنه؛ فقد شهدت واقعه الجمل حضور زوج النبى صلى الله عليه وآله عائشه التى ركبت الجمل، وإلى جانبها طلحه والزبير وهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله - ومن أهل السابقه

ص: ١٤٥

الحسنه فى الإسلام، بحسب الظاهر - حتى بثوا أولى بذور النفاق والفرقه والشقاق فى صفوف الأمه الإسلاميه، ولم تضع الحرب أوزارها إلا بعد مقتل أكثر من عشرين ألف من المسلمين، حتى تم الأمر لعلى عليه السلام فأحمد نيران تلك الفتنة. قضيه أهل الشام وموقعه صفين والمطالبه بدم عثمان ورفع المصاحف على أسنه الرماح نموذج بارز آخر لهذه الفتنة، ولم تنطفئ نيرانها طائفه من الجهال المتنسكين وهم يرفعون شعار «إلا الله» ليشعلو فتيل موقعه النهروان فالواقع أن تأمل هذه النماذج العينيه يمكنه أن يعلم الإنسان بصوره علميه كافه مميزات الفتنة ومدخلاتها كما بينها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

٢ - حكومه بنى أميه

بناءً على ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه فإن حكومه بنى أميه كانت من أعظم وأعقد الفتن التى عصفت بالمسلمين منذ انبثاق الدعوه الإسلاميه حيث قلبت الحضاره الإسلاميه رأساً على عقب وصبغت الحكومه الإسلاميه بصبغه الاستبداد والتسلط والظلمه، تنتمى طائفه بنى أميه إلى أميه بن عبد شمس بن عبد مناف. ومنها أبو سفيان أعدى أعداء الإسلام الذى أثار أغلب الحروب ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وقد بذل قصارى جهده من أجل القضاء على الإسلام، إلا أن إرادته وقدرته حالت دون ذلك، حتى استسلم أخيراً بجحافل الإسلام بينهما أسر الكفر وظل يخطط من أجل كسر شوكة الدين، بينما صفح النبى صلى الله عليه وآله عن جرائمه. روى ابن أبى الحديد عن الشعبى أن عثمان لما ولى الخلفه، اجتمع بنو أميه فى داره فاغلقوا الباب، وكان حينها أبو سفيان قد كف بصره فالتفت إليهم وسألهم: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، فقال عبارته المشهوره: «يا بنى أميه تلقفوها تلقف الكره! فو الذى يحلف به أبو سفيان! ما من عذاب ولا حساب ولا جنه ولا نار ولا بعث ولا قيامه» (١).

وهى ذات العبارة التى أطلقها معاويه بعد ان سماع مقاله المغيره، كما وردت مثلها فى الأشعار المعروفه ليزيد حين جاءوا إليه برأس الإمام الحسين عليه السلام. هذا وقد ألف علماء الفريقين عدده

ص: ١٤٦

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٩/٥٣. [١]

كتب ومقالات بشأن الجنايات والجرائم التي ارتكبتها حكومه بنى أميه، والتي تدل على عمق الحقيقه التي صرحت بها الروايات الإسلاميه قبل استيلاء بنى أميه على دفة الحكم، وأنهم آفه هذه الأُمَّه.

ص: ١٤٧

«نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاهِ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللَّهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْمَادِيمِ: بِمَنْ يَشِمُّهُمْ خَسِيفًا، وَيَسُوقُهُمْ غُنْفًا، وَيَسِيْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لِيُعْطِيَهُمْ إِلَّا السَّيْفَ، وَلَا يُجْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ - بِالْدُّنْيَا وَمَا فِيهَا - لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَامًا وَاحِدًا، وَلَوْ قَدَّرَ جَزْرٌ جُزُورًا، لِقَبْلَ مَنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلَا يُعْطُونِي!». .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالأخبار عن بعض الحوادث المستقبلية الحلوه والمريره، حيث يلفت النظر إلى أن أهل البيت عليهم السلام بمنجاه من هذه الفتنة وأنهم ليسوا دعاه حكومه آنذاك: «نحن أهل البيت منها بمنجاه (1)، ولسنا فيها بدعاه» .

يبدو أن هناك إختلاف بين شراح نهج البلاغه في تفسير هذه العبارة، لأن الفتنة من حيث العينيه الخارجيه قد شملت أهل البيت، ونموذج ذلك شهادة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الكرام. وعليه فنجاه أهل البيت من تلك الفتنة بمعنى عدم مسؤوليتهم في هذه الفتنة، وتقع مسؤوليتها على الأمه التي ولت ظهورها عن أهل البيت والتحقت بسليبي الكفر والشرك والجاهليه. والعباره «ولسنا فيها بدعاه» قرينه على هذا المعنى، لأن أهل البيت حين اجبروا على

ص: ١٤٩

١-١) «منجاه» من ماده «نجاه» الأرض المرتفعه التي لا يصلها السيل، ثم اطلقت على كل موضع يكون سبباً للنجاه، إلا أنها وردت أيضاً بمعنى الاقصاء عن التدخل في أمر، وقد جاءت بهذا المعنى في العبارة؛ أي ليس هنالك أي دور لأهل البيت في حكومه بنى أميه، وعلى بنى أميه وزرها خاصه.

السكوت ولم تندفع الأُمَّه خلفهم، بات من الطبيعي عدم تحملهم لأية مسؤوليه. ثم بشرهم الإمام عليه السلام بعدم استمرار هذه الفتنة وأن الله سيكشفها عن الأُمَّه كما يكشف الجلد عن اللحم: «ثم يفرجها (١) الله عنكم كتفريج الأديم». (٢) فهذا التشبيه يشير إلى اخماد فتنة أميه بصوره تامه في ذلك الزمان، لأن الجلد حين يفصل عن اللحم لا تبقى ذره منه على اللحم بحيث يتغير شكل الحيوان المذبوح تماماً.

والسؤال المطروح من الذى ينهى هذه الفتنة ويقضى على حكمه بنى أميه وكيف؟

قال عليه السلام: فى مواصله كلامه بشكل عام «بمن يسومهم خسفاً (٣)، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مصبره لا يعطيهم إلا السيف، ولا يحلسم (٤) إلا الخوف» .

العباره «مصبره» من ماده صبر على وزن خشن نبات شديد المراره، إشاره إلى مراره الحياه التى سيعيشها بنى أميه فى ظل حكمه بنى العباس، والعباره «لا يعطيهم. . .» تأكيد لهذا المعنى فى ابتلاء بنى أميه ببنى العباس، الذين يضعون السيف فى أعناقهم، ومن حالفه الحظ فى الهرب فليس له إلا الخوف والرعب.

ثم قال عليه السلام آنذاك تود قريش (إشاره إلى طائفه من بنى أميه) أن تعطى الدنيا وما فيها، لترانى مره أخرى (وتدعن لامرتى) ولو لمدته وجيزه بقدر ذبح الناقه، لأقبل منها ما تمنعنى اليوم بعضه: «فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها، لو يرونى مقاماً واحداً، ولو قدر جزر جزور (٥)، لا قبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونيه» فالعبارات وان أشارت إلى تكهن الإمام عليه السلام بشأن زوال سلطه بنى أميه على يد بنى العباس، إلا أن بعض شراح نهج البلاغه احتملوا أن هذه العبارات وردت بخصوص حكمه الإمام المهدي عليه السلام حيث سيؤدى.

إلى إجتثاث جذور الظلم والطغيان، إلا أن هذا الاحتمال يبدو بعيداً، وذلك لأنه أولاً: سوف

ص: ١٥٠

- ١-١) «يفرج» من ماده «فرج» بمعنى السلخ ورد هنا، كما يعنى حل المشاكل.
- ٢-٢) «أديم» بمعنى الجلد.
- ٣-٣) «خسف» بمعنى الاخفاء، وورد فى الخطبه بمعنى الذل.
- ٤-٤) «يحلس» من ماده «حلس» على وزن فلس بمعنى الكساء الذى يوضع على ظهر البعير.
- ٥-٥) «جزور» من ماده «جزر» على وزن جذب الناقه المجزوره، كما وردت هذه المفرده بمعنى انخاض ماء البحر وما شاكل ذلك.

لن يكون بنى أميه آنذاك طائفه خاصه. ثانياً: ليس هنالك من مجال لأن يتمنوا حكومه الإمام على عليه السلام حين ظهور الإمام المهدي عليه السلام وتطبيق كافة تعاليم السماء.

وبعباره أخرى: فإن هذه الأمية ستكون من قبيل تحصيل الحاصل. وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوده، وانقراض ملك بنى أميه، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه السلام؛ حتى لقد صدق قوله: «لقد تود قريش...»، فإن أرباب السير كلهم نقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزاب لما شاهد عبدالله ابن علي بن عبدالله بن العباس بازائه في صف خراسان: لوددت أنّ علي بن أبي طالب تحت هذه الراية بدلاً من هذا الفتى؛ والقصة طويله وهى مشهوره. (١)

والأعجب من ذلك حين ولى أبو العباس السفاح الخلافة - وهو أول خليفه عباسى أمر بقتل كافة بنى أميه، كما أمر بنبش قبورهم وأخراج الأموات منها واحراقها، ولم ينج منهم إلّا من هرب إلى الأندلس - وقيل أنّ السفاح أمر بطرح موتى بنى أميه أمام الكلاب لتنهش لحومهم. (٢)

بل لقب أبو العباس بالسفاح لكثرة قتله من بنى أميه. (٣)

ويتضح ممّا مر معنا أنّ الفرج الذى بشر به الإمام عليه السلام إنّما يقتصر على الفتره الممتده بين حكومه بنى أميه وبنى العباس، أو بعباره أخرى يرتبط بالمدّه التى لم تقو فيها قدره بنى العباس إلى الحد المطلوب، وذلك لأنهم حين توطدت دعائم حكومتهم وقويت شوكتهم، غاصوا فى هاله من الظلم والاضطهاد ليجعلوا المسلمين يعيشون فتره مظلمه أخرى.

تأملان

١- ضريبه الفرار من الحق

شحن التاريخ بهذه التجربه فى أنّ من يهرب من الحق والعزه والكرامه، إنّما يعيش حياته فى ظل الذل والباطل. وأفضل نموذج على ذلك أهل العراق على عهد على عليه السلام الذين لم يستجيبوا

ص: ١٥١

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٥٧. [١]

٢- ٢) تتمه المنتهى ١٥٦.

٣- ٣) دائره المعارف الاعلمى ١٠/٤٠٥.

لعلى عليه السلام المعروف بعدالته ورحمته حتى فى ساحات الوغى ومع الخصوم والاعداء، فكانوا يختلقون مختلف الذرائع ليتمردوا عليه، فملأوا قلبه دماً وشحنوا صدره غيضاً وجرعوه الهم والغم. إلا أنه لم تمض عليهم مده حتى دفعوا ثمن ذلك باهضاً ليدوقوا ألوان الذله والهوان. فقد سلط عليهم زمره من الجفاه الطفاه القساه الذين لم يرعوا إلا ولاذمه فى كبير أو صغير. وقد نهبوا أموالهم وانتهكوا حرمانهم وجرعوه الموت غصه غصه، وأحالوا حياتهم ظلاماً دامساً، حتى تمنوا لحظه من لحظات حكمه على عليه السلام ولكن هيهات.

نعم هذا ما صرح به الإمام عليه السلام فى الخطبه ٢٨: «ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجربه الضلال إلى الردى».

حقاً أن هذا الفصل من تاريخ الإسلام ملئ بالدروس والعبر، فمصير أولئك الذين غدروا بأمر المؤمنين على عليه السلام ينطوى على الدروس والعبر من جانب، ومن جانب آخر فإن قصه بنى أميه بعد على عليه السلام هى الأخرى عبره لمن اعتبر.

روى المؤرخ المشهور المسعودى أن الحجاج حكم الكوفه والبصره على عهد عبد الملك بن مروان عشرين سنه، واحصى من قتله صبراً سوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجد مائه وعشرين ألفاً، ومات فى حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف أمراه، منهن سته عشر ألفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد، ولم يكن للحبس سترىستر الناس من الشمس فى الصيف ولا من البرد والمطر فى الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب. (١)

وذكر ابن قتيبه فى الامامه والسياسه أن الحجاج دخل مسجد البصره مع مئتين نفر يحملون سيوفهم ثم أمرهم بالهجوم على الناس إن خلع عمامته إذا رموه، فجعلون يضربون أعناق من فى المسجد حتى امتلأ بدمائهم. ولم يكن ذلك سوى جانباً من مصير من تمرد على الإمام عليه السلام.

٢- عاقبه بنى أميه

عاقبه بنى أميه كانت هى الأخرى أسوأ من عاقبه أهل العراق فى حكمه بنى العباس

ص: ١٥٢

(١-١) مروج الذهب ٣/١٦٦. [١]

حتى قيل أنّ أحد خلفاء بني العباس أحضر في مجلسه تسعين من زعماء بني أميه فأمر بضرب رؤوسهم بأعمده الحديد والقوا وسط المجلس، ثم وضعت مائده الطعام عليهم فجعل يتناول مع صحبه الطعام. (١)

بل لم يرحموا حتى صغار بني أميه فضلاً عن موتاهم. فقد عمد عبدالله بن على أيام أول خليفه عباسى السفاح إلى نبش قبورهم، فاخرج جسد هشام بن عبدالملك وأضرم فيه النار، كما أخرج جسد الوليد بن عبدالملك ويزيد بن معاويه - ولم يبق منهما إلّا العظام - وسائر أجساد بني أميه وأمر باحراقها. (٢)

ثم اتجه صوب قبر معاويه، فلم يكن فيه سوى حفنه من التراب. (٣)

ص: ١٥٣

١-١) الكامل لابن أثير ٥/٤٣٠.

٢-٢) مروج الذهب ٣/٢٠٧.

٣-٣) الكامل لابن أثير ٥/٤٣٠.

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف الله تعالى ثم يبين فضل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ثم يعظ الناس

نظرة إلى الخطبه

تشتمل الخطبه على أربعة محاور: الأول: بيان بعض صفات الله سبحانه، الثاني: خلق الأنبياء من صلب آدم عليه السلام.

الثالث: خلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من النسل الطاهر، وشرح بعض فضائله ومناقبه ومدح عترته عليهم السلام.

الرابع: النصيح والوعظ بعبارات قصيره عظيمه التأثير.

ص: ١٥٥

١-١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه مانقله الرضى (ره) فى هذا الموضوع مأخوذ من خطبه له عليه السلام مشهوره أولها: الحمد لله الواحد الأحد الصمد، المتفرد... وقال الكلينى فى الكافى عن هذه الخطبه بعد أن أخذ غرضه، منها فى الكتاب التوحيد: وهذه الخطبه من مشهورات خطبه عليه السلام حتى لقد ابتدئتها العامه (الكافى ١/١٣٤) [١] وقال المرحوم الصدوق، قال الإمام الصادق عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بهذه الخطبه لما استنهض الناس لحرب معاويه فى المره الثانيه. (توحيد الصدوق، ٤١/١، باب التوحيد ونفى التشبيه، الحديث ٣). رواها ابن عبد ربه المالكى فى العقد الفريد ٤/٧٤ بتفاوت مع روايه الرضى تحت عنوان خطبته الفراء. وقال صاحب المصادر: ويلاحظ أن روايه العقد خلت من ذكر أهل البيت فى الخطبه فلعل يداً أمينه! حذف ذلك، كما حذف الخطبه الشقشقيه من العقد (مصادر نهج البلاغه ٢/١٨٥). [٢]

«فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلَا يَنَالُهُ حَدْسُ الْفِطَنِ، الْأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقُضِي» .

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبته - كسائر خطبه - بحمد الله والثناء عليه، أفضل انطلاقه في الحديث واعداد القلوب لسماع الوعظ. فقد بين عليه السلام بهذه العبارات أربع صفات من صفات الله التي تعود في الحقيقه إلى صفة واحده (وقد ورد شبيه ذلك في الخطبه الاولى من نهج البلاغه في المجلد الأول من هذا الكتاب) . فقال عليه السلام: «فتبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم، ولا يناله حدس الفطن» .

فهو سبحانه الأول الذي لانهايه له ليتمكن الوصول إليه، ولا- آخر له لتكون له نهايه «الأول الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي» فجميع هذه الصفات إنما تشير إلى عدم تناهى ذاته في كل جهه. الذات التي لا تعرف الحدود من حيث العظمه والعلم والقدرة والاوليه والآخريه. فهو ليس محدود في الفكر الإنساني، ولا- يدرك بالظنون، ليس له أول، كما ليس له آخر، ليس هنالك من هدف لذاته ولا غاية، وذلك لأنه كمال مطلق ووجود لا حدود له ولانهايه.

وفي ذات الوقت فإنّ هذه الصفات الأربع تعالج هذه الحقيقه من جوانب مختلفه:

في العبارة الاولى: أنّ الأفكار البشريه والإرادات القويه ومهما بلغت جهودها ومساعدتها لايسعها أن تبلغ معرفه كنهه سبحانه.

والعبارة الثانيه: إشاره إلى الحدس والظن والانتقالات الدفعيه والسريعه الفكرية التي يمكنها أن تدلل أغلب قضايا الحياه، حيث يقول الإمام عليه السلام ليست لها من فاعليه هنا.

العبارة الثالثه: تشير إلى أنّ الله سبحانه، على خلاف الموجودات الإمكانية التي لها هدف ومقصد لهذا الوجود، فهي تنتهي حين تبلغ هدفها وتقوم برسالتها؛ فليس هناك وجود ليبلغه.

العبارة الأخيره: تشير إلى أنه آخر لانهايه له - بعبارة أخرى: هو أول الوجود وآخره، ولكن ليس بمعنى الأول الذي ينتهي ولا الآخر الذين ينقضي؛ فهذه الصفات تعنى أزليته وابدئته ومطلقيته.

قد لا يكون المعنى الأخير كذلك للوهله الأولى، ولكن يبدو ذلك صحيحاً من خلال الالتفات إلى العبارة السابقه، ونظيراتها في نهج البلاغه، كما ورد في الخطبه ٨٥.

على كل حال فإنّ الأفكار البشريه المحدوده لاتصل أبداً إلى كنه ذلك الكمال المطلق، وليس لنا سوى معرفه إجماليه، يمكنها أن تتكامل كلما طهرت روح الإنسان أكثر وأصبح فكره أقوى وأكمل، وأن تعذر بلوغ المعرفه التفصيليه البتة.

القسم الثاني: (ومنها في وصف الأنبياء) : المكانه الرفيعه للأنبياء

«فَأَسْتَوْدَعُهُمْ فِي أَفْضَلِ مَسْتَوْدَعٍ، وَأَقْرَهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَيْخَتُهُمْ كَرَائِمِ الْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ؛ كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللَّهِ خَلْفٌ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى الأنبياء الذين بعثهم الله طيله تاريخ البشريه، ليكمل بحث التوحيد ببحث النبوه. وتفيد القرائن أن هناك مقاطع محدوفه بين هذا القسم وذلك الذي سبقه، فالأقسام مقتطفات من خطبه طويله للإمام عليه السلام.

على كل حال فان الخطبه أشارت في الواقع إلى الأمور المهمه التاليه.

الأول: أن الأنبياء قد غطوا جميع التاريخ البشري وقد نهضوا الواحد تلوا الآخر بمهمتهم في الوعظ والإرشاد.

الثاني: أنهم ينشدون جميعاً هدفاً واحداً.

الثالث: أنهم تربوا في أصلاب شامخه وأرحام مطهره.

فقال عليه السلام: «فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر» ، ثم خاض عليه السلام في شرح هذا المجمل بأن الله قد قلبهم في الأصلاب الكريمه والأرحام المطهره. فقال عليه السلام بهذا الشأن: «تناسختهم (1) كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام» .

ص: ١٥٩

(١ - ١) «تناسخ» من ماده «نسخ» بمعنى الازاله وانتقال الشىء، وتعنى هنا انتقال نطفه الآباء إلى أرحام الأمهات.

فالواقع هو أنّ «أفضل مستودع» يراد به أصلاب كرام الآباء من أهل الفضل و «خير مستقر» يراد به الأرحام الطاهره للأمهات.

ثم أشار عليه السلام إلى استمرار رساله الأنبياء وامتدادها، وكلما رحل منهم أحد، خلفه آخر ليواصل سبيله: «كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف». .

فالواقع هو أنّ حديقه الحياه الإنسانيه لم تخل قط من شجره الأنبياء الطيبه، لتتغذى البشريه على الدوام على ثمارها المعطاء: «تَوْتِي أُكَلِّهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» (١) فترتوى من فيضها وتزدان قوه فى روحها وبدنها.

أمّا قضيه طهاره أصلاب الأنبياء وأرحامها فمن الأمور المهمه التى أسهبت فى ذكرها الروايات الإسلاميه والزيارات، وذلك لاهميتها من جانبين: الأول من ناحيه قانون الوراثة الذى ينطوى على آثار عميقه والثانى: من الناحيه الاجتماعيه وثقه الأئمه بالأنبياء، إلى جانب الرابطه بين الأمم والأنبياء بما لا يمكن انكار دوره.

ومن هنا صرحت الروايات التى وردت بشأن انتخاب الزوجه بأن تكون من أسره دينيه مشهوره بعفتها وطهارتها وورعها وتقواها، والعكس صحيح فى اجتناب الأسره الوضيعه وان كانت هناك بعض الصفات فى المرأه. فقد جاء فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أيها الناس إياكم وخضراء الدمن! قيل: يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأه الحسناء فى منبت السوء». (٢)

والنقطه الجديره بالذكر أنّ العبارة: «كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف»، إشارة إلى هذه الحقيقه هى أنّ الأنبياء وبمصادق «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (٣)، لهم برامج واحده، وأصول مشتركه، وإن كان هناك بعض الاختلاف فى الفروع بسبب تفاوت الزمان والمكان؛ فكانوا يدعون جميعاً إلى التوحيد والعدل والمعاد، حتى أنّهم كانوا سواسيه فى اصول المسائل الفرعيه؛ فهم يدعون إلى التضرع والعبوديه ويحثون على الفضائل ومكارم الأخلاق ويحذرون من الصفات الرذيله، وبالتالي احترام القانون ورعايه النظام.

ص: ١٦٠

١-١) سورة ابراهيم/٢٥. [١]

٢-٢) وسائل الشيعه ١٤/٢٩ ح ٤. [٢]

٣-٣) سورة البقره/٢٨٥. [٣]

«حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتًا، وَأَعَزَّ الْأَرْوَامَاتِ مَغْرَسًا؛ مِنْ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءُهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أَمْنَاءُهُ. عَثْرَتُهُ خَيْرُ الْعَثَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسْرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ؛ نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَيْتْ فِي كَرَمٍ؛ لَهَا فُرُوعٌ طَوَالٌ؛ وَثَمَرٌ لَائِنٌ؛ فَهُوَ إِمَامٌ مَنْ اتَّقَى، وَبَصِيْرَةٌ مَنْ اهْتَدَى، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سَيْرَتُهُ الْقَضِيْدُ، وَسَيِّئَتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلَامُهُ الْفَضِيْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَيْدُلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينٍ فَتَرَاهِمِنَ الرُّسُلِ، وَهَفْوَهُ عَنِ الْعَمَلِ، وَغَبَاوَهُ مِنَ الْأُمَّمِ» .

الشرح والتفسير

ركز الإمام عليه السلام في إطار حديثه عن أنبياء الله ورسله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وفضائله وكمالاته وأعظم صفاته من جميع الجهات. فقد تطرق في بادىء الأمر إلى أجداده الطاهرين وعظم فضيله ونسبه صلى الله عليه وآله و آله ثم خاض في فروع هذه الشجرة المباركة من عترته وأهل بيته. ثم تناول في المرحلة الأخرى صلاحيته في زعامه الأمة، كما تحدث عن انبثاق دعوته وقيامه بالامر، ومن شأن كل بعد من هذه الابعاد أن يكشف عن عظمته صلى الله عليه وآله و آله. فقد قال عليه السلام بأن الله وأصل عنايته ولطفه ببعث الأنبياء إلى أن ختمهم بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله: «حتى أفضت كرامه الله سبحانه وتعالى إلى محمد صلى الله عليه وآله» .

حيث استخرجه من أطيب المعادن وأفضلها ومن أطيب التراب وأعزها، وجعل فرع

وجوده من شجرة الأنبياء، تلك الشجرة الطيبة التي اصطفى منها أمناه رسالاته: «فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الارومات (١) مغرساً: من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناه» .

قطعاً أنّ أحد الابعاد المهمة في شخصيه الإنسان انما يبلوره البعد الوراثي، حيث يكتسب الأبناء القدسيه من جراء الآباء من أهل الورع والتقوى والصالح، والأمهات من ذوى الطهر والنجابه والعفاف. وبالطبع كل ذلك دون حصول الاجبار. والنبى صلى الله عليه وآله كان نموذجاً بارزاً في هذا الأمر؛ فهو ينتهى لآل ابراهيم عليه السلام والأنبياء الذين إنحدروا من نسله، من صلب بنى هاشم المعروفون بالشجاعه والكرم والاثره، من ولد عبدالمطلب المشهور بإيمانه وعدله وشجاعته. فقد انفرد صلى الله عليه وآله بكل هذه الصفات.

الحقيقه الأخرى التي لاغبار عليها هي أنّ الأبناء من ذوى الشخصيات والأحفاد من أهل الفضائل دليل آخر على شخصيه كل إنسان وقد يما قيل (الظرف ينضح بما فيه) .

ومن هنا ذكر الإمام عليه السلام بأنّ عترته من أهل بيته من أفضل العتر وأطيبها، واسرته صلى الله عليه وآله من خير الاسر، وشجرته المباركه من أحسن الشجر: «عترته (٢) خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر» الشجرة التي نبتت في حرم الله الأيمن، وبسقت في سماء الكرامه والفضيله: «نبتت في حرم، وبسقت في كرم» .

وتمتاز هذه الشجرة بفروعها الطويله وثمارها الطيبه القيمه التي لا تبلغها أيادى السفله: «لها فروع طوال، وثمر لاينال» .

فالحق أنّ الإمام عليه السلام أدى حق الكلام بهذه العبارات اللطيفه الرائعه بشأن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وعترته الطاهره عليهم السلام، واما ط اللثام عن عظمه وبركه هذه الشجرة الطيبه، ليبيّن بتشبيهات وعبارات جميله فضائله ومناقبه صلى الله عليه وآله وأهل بيته.

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالحرم في قوله: «نبتت في حرم» الحرم

ص: ١٦٢

١- ١) «أرومات» جمع «ارومه» بمعنى أصل الشىء وأساسه، كما تطلق على جذر الشجره.

٢- ٢) «عتره» من ماده «عتر» على وزن سطر آل بيت الرجل ونسله ورهطه الأقربون، والعشيره. ومعناها الأصلى هو الأصل.

المكى، الذى نمت فيه شجره النبى صلى الله عليه وآله، وترعرعت ونمت فى ظله، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بالحرم هنا العتره والحرمه؛ أى أن شجرته صلى الله عليه وآله نبتت فى غايه الحرمة والعزه، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب.

والعبارة «بسقت فى كرم» إشاره إلى أنّ النبى صلى الله عليه وآله لم يلد فى أرض وأسرّه عزيزه كريمه فحسب، بل ترعرع وتربى فى بيئه مفعمه بالكرامه والشموخ (لأنّ البسوق فى الأصل تعنى ارتفاع وطول فروع وأغصان النخل).

والعبارة «ثمر لاينال» لا تعنى أن يد أحد لاتصل إلى ثمار هذه الشجره المباركه؛ لأنّ هذه ليست فضيله، بل كما ذكرنا سابقاً إمّا ان يكون المراد أنّه لاتبلغ يد الطالحين ثمار هذه الشجره الفاضله، وإمّا أن يكون المراد أنّ ثمار هذه الشجره المباركه إلى درجه من الفضل والكرامه بحيث لايمكن أن يضافها أحد.

ويتبين ممّا ذكرنا أنّ الشجره فى العبارة الاولى إشاره إلى إبراهيم عليه السلام والأنبياء السابقين، وفى العبارة الأخرى إشاره إلى شجره وجود النبى صلى الله عليه وآله وعترته فروعها.

ثم أشار بعد ذلك بتسع عبارات فصار إلى سائر الخصال المهمه الحميده للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: «فهو إمام من اتقى وبصيره من اهتدى، سراج لمع ضؤوه، وشهاب سطر نوره، وزند (١) برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل» فالعبارة: «إمام من اتقى. . .» شبيهه «هدى للمتقين» بشأن القرآن التى وردت فى الآيه الثانيه من سوره البقره. والمراد إمّا يستضيئ بنور هذا السراج الهادى والزعيم الاوحد من كانت له عين باصره وقلب واع ينشد الحقيقه والفضيله، بعبارة أخرى يتحلون بالتقوى التى تجعلهم مستعدين لقبول الحق؛ ولذلك فليس من العجيب ألايهتدى بهديه أهل التعصب والعناد والأحقاد والضغان من عمى البصائر، على غرار مكفوفى البصر الذين لا يرون الشمس فى رابعه النهار فلا يستفيدون من ضيائها، والعبارة: «سيرته القصد» شبيهه ما ورد فى القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» (٢)، فهى إشاره إلى اعتدال سيره النبى صلى الله عليه وآله وابتعاده عن كل

ص: ١٤٣

١-١) «زند» ما تشعل به النار مثل الكبريت، أو الوسائل القديمه التى كانت توقد منها النار.

٢-٢) سوره البقره/١٤٢. [١]

افراط وتفريط في كافة الشؤون العباديه والاخلاقية والسياسيه والاقتصاديّه.

ولعل هناك من يتصور أن هناك تضاد بين العبارة «وحكمه العدل» وما ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنما أفضى بينكم بالبينات والإيمان، وبعضكم ألحن بحجته من بعض؛ فأيا رجل قطعت من مال أخيه شيئاً، فإنما قطعت له به قطعه من النار». (١)

وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله قد يحكم بخلاف الواقع على ضوء مفهوم هذا الحديث. إلا أن الجواب على هذا الإشكال يبدو واضحاً، وهو أن النبي صلى الله عليه وآله لم يستعن في إصداره للأحكام على الوحي والغيب، وإنما يصدر أحكامه دائماً على ضوء الأدلة والمدارك المتعارفه الموجوده، وهذا بحد ذاته عين العدله، في أن يستند القاضي إلى المدارك الموجوده في إصداره للأحكام والقضاء، فإذا كان هناك من يضعف عن بيان الحق، أو لا يستطيع أن يقدم المدارك المطلوبه فيتعرض إلى نوع من الاجحاف فإن ذلك لا يחדش البتة في عداله القاضي، ولو كان غير ذلك لما أمكن تسميته عادلاً.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى الظروف الصعبه والملابسات التي رافقت ظهور النبي صلى الله عليه وآله ليكشف النقاب عن عظمه دعوه النبي صلى الله عليه وآله والجهود الجباره التي بذلها في هذا الشأن، فقد بعثه الله بعد مده طويله من الرسل (ومن هنا) ابتعد الناس عن العمل الصالح وعاشوا الانحراف، وساروا نحو الجهل والظلام: «أرسله على حين فتره من الرسل، وهفوه (٢) عن العمل، وغباوه (٣) من الأمم» وتتضح حقيقه هذه العبارات من خلال التأريخ البشرى إبان ظهور الدعوه للإسلاميه، ولاسيما أوضاع عرب الجاهليه. (٤)

ومن الطبيعي أن تكون وظيفه أولياء الله والمصلحين الربانيين ودعاه العدل والحق والاخلاق والفضيله أصعب وأعقد كلما كانت الظروف السائده قاسيه تدعو إلى الجهل

ص: ١٦٤

١-١) وسائل الشيعه ١٨/١٦٩ ح ١. [١]

٢-٢) «هفوه» من ماده «هفو» الزلل.

٣-٣) «غباوه» من الغباء وعدم الفهم.

٤-٤) راجع شرح الخطبه الاولى ١/٢٢٨.

والبلاذ والفساد والانحراف، ومن هنا نكتشف عظمه النبي صلى الله عليه وآله وعظم جهوده في تغيير ذلك المجتمع.

تأملان

١ - منزله النبي صلى الله عليه وآله لدى الآخرين

لا يقتصر ماورد في هذه الخطبه من صفات عاليات وكرامات شامخات للنبي صلى الله عليه وآله على عليه السلام واتباعه، بل اننا لنرى حتى كبار الشخصيات الغربيه من غير المسلمين ليقفون وقفه إجلال وإكبار لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

فهذا الفيلسوف والكاتب الانجليزى برنارد شو يقول: إن دين محمد هو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز على أهليه الهضم لأطوار الحياه المختلفه بحيث يستطيع أن يكون جاذباً لكل جيل... أن محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأعتقد أنه لو تولى رجل مثله زعامه العالم الحديث لنجح فى حل مشاكله بطريقه تجلب إلى العالم السعاده والسلام، أن محمداً أكمل البشر من السابقين والحاضرين، ولا يتصور وجود مثله فى الآتين. (١)

٢ - أسره النبي صلى الله عليه وآله

لم يقتصر الحديث عن شرف نسب النبي صلى الله عليه وآله وعظمه طائفته وأسرته على ماورد فى كلام أميرالمومنين على عليه السلام فى هذه الخطبه، بل تظافت أحاديث النبي صلى الله عليه وآله فى مصادر الفريقين بهذا الشأن. ومن ذلك أنه صلى الله عليه وآله قال: «إن جبرائيل عليه السلام قال لى: يا محمد! قد طفت الأرض شرقاً وغرباً، فلم أجد فيها أكرم منك، ولا بيتاً أكرم من بنى هاشم» (٢). وجاء فى حديث آخر: «ساده أهل المحشر ساده أهل الدنيا: أنا وعلى وحسن وحسين وحمزه وجعفر» (٣). وورد فى الحديث أيضاً: «أنه لا يبغيض أحد أهلى إلّا حرمه الله الجنّه» (٤). وروى عن عائشه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «قال لى جبرائيل: يا محمد! طفت شرق الأرض وغربها فلم أر أكرم من بنى هاشم» (٥)، وجاء فى صحيح مسلم - وهو من المصادر المشهوره لدى العامه - فى بحث

ص: ١٦٥

١- (١) محمد جواد مغنيه، فى ظلال نهج البلاغه ١/٦٣. [١]

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٦٣. [٢]

٣- (٣) شرح نهج البلاغه، لابن أبى الحديد ٧/٦٣. [٣]

٤- (٤) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٦٤. [٤]

٥- (٥) ورد الحديث فى عمده ابن بطريق ٢٧٣؛ فضائل الصحابه لأحمد بن حنبل ٢/٦٢٨.

فضائل الصحابه فى قضيه الغدير أن النبى صلى الله عليه وآله قال فى خطبته ثلاثاً: «اذكر كم الله فى أهل بيتى» (١).

والطريف فى الأمر أنّ الإمام الحافظ أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبى - من مشاهير علماء العامه - صرح فى كتابه المفهم الذى شرح فيه صحيح مسلم حين بلغ هذا الحديث قائلاً: من العجب أن يخالف بنى أميه أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله ويضيعوا حقهم رغم وصايا النبى صلى الله عليه وآله بهم، حتى أراقوا دمائهم وسبوا نساءهم وأخربوا بيوتهم وسنوا لعنهم. فويل لهم يوم القيامة. (٢)

والأعجب من ذلك دفاع البعض عن معاويه رغم فضائح بنى أميه ومدى سعه ظلمهم وجورهم.

على كل حال فإنّ شجره النبى صلى الله عليه وآله وفروعها المباركه مصداق واضح للآيه ٢٤ و ٢٥ من سوره ابراهيم: «كشَجَرَهُ طَيْبِهِ أَضْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» .

ونختتم حديثنا هذا بهذه الأبيات الرائعه (٣): يا حبذا دوحه فى الخلد نابته

ص: ١٦٦

١-١) صحيح مسلم ٤/١٨٧٣ (كتاب فضائل الصحابه، ح ٣٦) .

٢-٢) المفهم ٦/٣٠٤ .

٣-٣) منهاج البراعه ٧/١١٠ .

«اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، عَلَى أَعْلَامٍ بَيْنَهُ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارٍ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَاللُّسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من الخطبة بالنتيجة الأخلاقية والعملية، ليبيّن بعض الأمور المفيدة والمهمه بعبارات قصيرة، عظيمه المعنى. فقال عليه السلام: «اعملوا رحمكم الله»، ثم أشار عليه السلام إلى المسير الذي ينبغي سلوكه في العمل وهو الاستناد إلى الكتاب والسنة «على أعلام بينه» .

ثم أشار عليه السلام إلى أنّ تشخيص هذا المسير ليس بالشىء الصعب فالسبيل واضح يدعو إلى الأمن والأمان والسعادة الخالده في الجنّة: «فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام» .

ثم تطرق عليه السلام إلى الفرص الثمينه التي زود بها الإنسان، وغالباً ما يهملها، ليوضحها عليه السلام بثمان عبارات ويكشف جميع جوانبها، أشار في العبارة الاولى إلى أنّكم في دار يمكنكم فيها تلافى ما يفرط منكم: «وأنتم في دار مستعتب» . (1)

ولديكم الفرصه الكافيه والمهله الوافيه للقيام بالصالحات من الأعمال: «على مهل وفراغ» .

ص: ١٤٧

(١-١) مستعتب من ماده عتب على وزن حتم طلب العتبى، أى طلب الرضى من الله بالأعمال النافعه.

وصحيفه الأعمال مفتوحه والقلم مشرع للكتابه: «والصحف منشوره والاقلام جاريه» .

وأنتم فى صحه وعافيه والسن حاكيه: «والأبدان صحيه والألسن مطلقه» . ومن ثم: «التوبه مسموعه، والأعمال مقبوله» .

فوسائل السعاده وأسبابها متوفره من جانب، وموانع الطريق يمكن ازالتها من جانب آخر؛ فاذا لم تستثمر هذه الفرص. فإن الأمر يدعو للآسى والأسف حقاً. ولاسيما ليس هنالك من ضمانه باستمرار هذه الفرض. فلعل جميعها تنتهى بلحظه، فتغلق أبواب التوبه وتختتم صحيفه الأعمال، وتتوقف الأقلام عن الكتابه، ويعتل البدن، ويعقد اللسان دون أن يكون هناك أى سبيل إلى الرجعه؛ الأمر الذى حذر منه القرآن أن ليس للندم من جدوى بعد الموت ولا سبيل لسؤال الرجعه: «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» فيأتى الجواب: «وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» . (١)

ص: ١٤٨

ومن خطبه له عليه السلام

يقرر فضيله الرسول الكريم صلى الله عليه و آله

نظره إلى الخطبه

الهدف من هذه الخطبه ذكر عظمه الإسلام من جانب، وعظمه من حمل رسالته من جانب آخر. وذلك لأن الخطبه اشتملت على مقارنه لاوضاع الناس قبل الإسلام وبعده؛ ويفهم من هذه المقارنه عظمه جهود النبي صلى الله عليه و آله التي استطاعت أن تنهض بذلك المجتمع الجاهلى المنحط وتجعله مجتمعاً راقياً متطوراً.

ص: ١٦٩

١-١) سند الخطبه: لم يذكر صاحب مصادر نهج البلاغه مصدراً آخر نقل هذه الخطبه، وقال فى نقل ابن أبى الحديد اختلاف وهذا دليل على أنه قرأها فى غير نهج البلاغه، لأن الرضى (ره) لم يشر إلى ذلك (مصادر نهج البلاغه ٢/١٨٦). [١]

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالًا فِي حَيْرِهِ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنِهِ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَنْزَلَتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» .

الشرح والتفسير

النور الذي كشف الظلمه

خاض الإمام عليه السلام كراماً في خطبه في نهج البلاغه بشأن أوضاع الجاهليه التي كانت عليها العرب، حيث رسم صورته واضحه عن دقائق تلك الفتره، ليلتفت الناس في عصر الإمام عليه السلام ممن لم يدرك ذلك العهد إلى عظمه الدعوه الإسلاميه، وليعلموا حجم التغيير الذي حدث في المجتمع، فيتعرفوا أكثر على منزله النبي صلى الله عليه وآله وعظم قدره؛ وذلك لأن مثل هذا العمل الجبار إنما يتطلب إرادته حديديه وعزماً راسخاً وتديباً عالياً وبرامج وخطط واضحه، جمعت كلها في شخص النبي صلى الله عليه وآله. فقد بين الإمام عليه السلام وضع العصر الجاهلي بسبع عبارات، أشار في العبارة الاولى والثانيه إلى أن الله بعث النبي صلى الله عليه وآله حين كان الناس يعيشون بالحيره والضلال ويسبحون في بحر من الفتن: «بعثه والناس ضلال في حيره، وحاطبون في فتنه» .

لا- شك أن الإنسان يمكنه أن ينقذ نفسه من الضلاله ما لم تكن مقرونه بالحيره والتخبط كالذي ضل الطريق ثم اكتشفه من خلال بعض القرائن والعلامات؛ إلا أن المشكله تبدو معقده إذا اقترنت الضلاله بالحيره، وهذا هو الوضع الذي كان عليه الناس في الجاهليه. والحاطب تطلق على من يجمع الحطب. فالناس في عصر الجاهليه وفي ذات الوقت الذي يعيشون فيه الفتن، كان يزيدون من حطب نيران هذه الفتن.

ثم قال عليه السلام في العبارة الثالثه والرابعه: «قد استهوتهم الأهواء، واستنزلتهم الكبرياء» .

فمن البديهي أن تقود الأهواء المجتمع إلى مستنقع الضلاله، فاذا رافقها العجب والخيلاء لسقط في ذلك المستنقع.

ثم قال عليه السلام: «واستخفتهم الجاهليه الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل» .

وهكذا يتجسم بؤس هؤلاء القوم وشقائهم في الجهل والضلال والأهواء والافتتان والتكبر؛ الرذائل التي تكفى كل واحده منها في سقوط المجتمع، فضلا عن جمعها مع بعضها فيه. ومن هنا يتبين مدى حجم مشاكل عصر الجاهليه وتعقيدها وتهديدها للمجتمع، كما يتضح على سبيل اليقين أنّ من يتغلب عليها، إنّما استند إلى التأييد الإلهي والغيب والامداد.

ثم أشار عليه السلام في آخر الخطبه إلى جهود النبي صلى الله عليه وآله ومدى نصحه للقوم بذلك الأسلوب الروحي الذي يستند إلى الوحي السماوي حتى نفذ إلى القلوب: «فبالغ في النصيحه، ومضى على الطريقه، ودعا إلى الحكمه والموعظه الحسنه» .

فالواقع أن عناصر تقدم البعثه النبويه والتطور الذي أحرزه النبي صلى الله عليه وآله على صعيد الرساله إنّما يكمن في أربع: الأول: النصح وإرادته الخير، بحيث أيقن الناس أنه يسعى جاهداً من أجل نجاتهم. الثاني: كان ممن قرن القول بالعمل، فيأتمر بما يأمر وينتهى عما ينهى.

الثالث: قد دعا اولئك الناس الذين أصيبوا بالجهل والخرافه والحيره والضلال إلى العلم والمعرفه. وأخيراً كان يدعوا إلى ربّه بالحكمه والموعظه الحسنه والكلمات الرقيقه التي تخترق القلوب.

وقد ذكر البعض من شراح نهج البلاغه تفسيراً آخر للعبارتين الأخيرتين، وهو أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو الناس إلى الله بالحكمه والموعظه الحسنه، كما ورد ذلك في الآيه الشريفه: «أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» (١)(٢).

إلّا أنّ التفسير الأول يبدو أنسب من خلال الالتفات إلى العبارات السابقه التي اعتبر

ص: ١٧٢

١-١) سورة النحل/١٢٥. [١]

٢-٢) بحسب هذا التفسير فان «إلى» جاءت بمعنى «به»، أو أن الذي يأتي بعد «إلى» يجب ان يكون مقدراً، «إلى ربه بالحكمه» .

الإمام عليه السلام عامل بؤسهم يكمن في: «الجاهلية الجهلاء» و «بلاء من الجهل» .

على كل حال فإن ماورد في هذه الخطبه بشأن الأوضاع المأساويه والظروف الشائكه والفضائع التي سادت العصر الجاهلي، تدعو الإنسان إلى التفكير والتأمل، حيث يمكنه الوقوف على عمق هذه المسألة من خلال الرجوع إلى التواريخ والروايات والأخبار التي تناولت تلك الفترة، فهناك المصادر الكافية التي أشارت إلى هذا الأمر. ولما كانت مقارنة تلك الأوضاع والظروف بما حدث بعد انبثاق الدعوة الإسلامية ونهوض رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمر والتي تعدّ من معاجز التأريخ الإسلامي، يبدو من الضروري تسليط الضوء أكثر على هذا الموضوع ودراسته من قبل الجميع، ولا سيما من قبل شريحة الشباب.

هذا وقد قدمنا شرحاً مفصلاً بهذا الشأن في الخطبه الاولى من المجلد الأول، والخطبه ٣٦ و٣٣ من المجلد الثاني، ولا نرى هنا من ضروره للتكرار، إلّا أنا نوصي القراء الأعزاء بالرجوع مره أخرى إلى هذه الخطب.

ص: ١٧٣

ومن خطبه له عليه السلام

فى الله وفى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله

نظره إلى الخطبه

بحث الإمام عليه السلام بصوره رئيسيه فى هذه الخطبه أمرين:

الأول: إشاره إلى بعض أسماء الله الحسنى والثناء عليه بها.

الثانى: بيان بعض مناقب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفضائله، إلى جانب الحديث عن نسبه الشريف ومن ثم نهضته الباسله التى قبرت الفتنة وأطفأت نيران الأحقاد وحصدت الضغائن من القلوب.

ص: ١٧٥

(١ - ١) سند الخطبه: لم نعثر على سند لهذه الخطبه سوى أنها وردت فى نهج البلاغه.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ فَلَأَشَىءَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرِ فَلَأَشَىءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلَأَشَىءَ فَوْقَهُ، وَالْبَاطِنِ فَلَأَشَىءَ دُونَهُ» .

الشرح والتفسير

كما ذكر سابقاً فإنَّ الإمام عليه السلام أشار في هذا المقطع من الخطبة إلى بعض صفات الله وأسمائه الحسنی، وقدر كز على كونه أول وآخِر وظاهر وباطن، فحمد الله وأثنى عليه في أنه أول الوجود الذي لم يسبقه شيء، والآخِر الذين لا شيء بعده: «الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخِر فلا شيء بعده» .

وهو الظاهر الذي لا يوجد أظهر منه، والباطن الذي لا يوجد أخفى منه: «والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه» .

فأوليه وآخريه الحق سبحانه وتعالى تعنى أزليه الذات المطهره و أبديتها؛ لأن أوليته لا تعنى الابتداء الزمانى، حيث لو كان الأمر كذلك لحصِر في دائره الزمان، كما ليس كذلك من حيث المكان، لأنه لو كان كذلك لحد بدائره المكان، بل أوليته تعنى أن ذاته الأنزليه القدسيه مصدر جميع الوجودات، وقد نشأت منها كافه الموجودات. وهكذا تكون آخريته منزّهه عن الأخرويه الزمانيه والمكانيه، والمراد منها أن ذاته سبحانه أبدية، وبقاء الموجودات متوقف على بقاءه، ومن ثم بقاءه حين فناء كل شيء: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (١).

ص: ١٧٧

وزبده الكلام فهو أول عالم الوجود وهو الباقي بعد فناء العالم.

أمّا وصفه بالظاهر والباطن فهو تعبير عن إحاطته المطلقة بجميع الأشياء، فهو أظهر من كل شيء، لأنّ آثاره ملأت أركان كل شيء وغص بها العالم، وهو أخفى من كل شيء، لأنّ كنه ذاته ليس بمعروف!

وقد أورد بعض الشّراح تفاسير أخرى للظاهر والباطن، منها أنّ المراد بالظاهر الغالب على كل شيء ولا يغلبه شيء، كما قيل المراد بالظاهر أفضليته على جميع الأشياء؛ لكن على ضوء هذين التفسيرين لا يبدو تفسير مفهوم الباطن بقريته المقابلة واضحاً مستقيماً، ومن هنا فإنّ التفسير الأول أنسب. في أنّه ظاهر جلي من حيث آثاره الوجودية بحيث لا يضاهيه شيء؛ فقد ملأت آثاره الأرض والسماء والنبات والحيوانات والناس والبحار والقفار، مع ذلك فإن كنه ذاته على درجه من الخفاء بحيث لا يبلغ أحداً معرفه تلك الذات، فالإنسان متناه وذاته سبحانه ليست متناهيه، فأنّى للمتناهي أن يحيط باللامتناهي.

فقد ورد في الدعا المعروف للإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء عرفه: «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً».

ص: ١٧٨

ومنها: فى ذكر الرسول صلى الله عليه و آله

«مُسْتَقَرُّهُ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا، وَمَنْبُتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فى مَعَادِنِ الْكِرَامِهِ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامِهِ؛ قَدْ صِيرَفَتْ نَحْوَهُ أَفْنِدَهُ الْأَبْرَارِ، وَتُبَيْتَتْ إِلَيْهِ أَرْزَمُهُ الْأَبْصَارِ، دَفَنَ اللَّهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ النَّوَائِرَ، أَلْفَ بِهِ إِخْوَانًا، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَانًا، أَعَزَّ بِهِ الدُّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلَامُهُ بَيَانٌ، وَصِيَمَتُهُ لِسَانٌ» .

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام فى هذا الكلام بعض صفات رسول الله صلى الله عليه و آله كل واحده منها أعمق من سابقتها. وقد انطلق فى البدايه من جذوره العريقه وموقع ولادته، ليصف مستقره بأنه خير مستقر ومكان ترعرعه أفضل مكان: «مستقره خير مستقر، ومنبته أشرف منبت، فى معادن الكرامه، ومماهد (١) السلامه» .

والمراد بالمستقر والمنبت الأرحام المطهره للامهات والاصلاب الموحده والمؤمنه للآباء؛ الأمر الذى ورد فى زياره المعصومين عليهم السلام، ومنها زياره الإمام الحسين عليه السلام المعروفه بزياره وارث: «أشهد أنك كنت نورا فى الاصلاب الشامخه، والأرحام المطهره» .

وقد ورد مثل هذا المعنى فى رسول الله صلى الله عليه و آله عنه، حيث روى الفخر الرازى فى تفسير الآيه

ص: ١٧٩

١-١) «مماهد» جمع «ممهده» على وزن مكتب اقتبست فى الأصل من «مهده»، ثم اطلقت على كل مكان يستريح فيه الإنسان أو تسكن إليه روحه.

«وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» (١) أنه صلى الله عليه وآله قال: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» (٢). «معادن الكرامه» و «مماهد السلامه» تأكيد لهذا المعنى، أو إشاره إلى أنّ آباء النبي صلى الله عليه وآله وأمّهاته إضافه إلى الطهر والإيمان، يتحلون بالفضائل الإنسانيه والنزاهه من المعايير الأخلاقيه.

كما قيل المراد بالمستقر المدينه موضع إقامه النبي صلى الله عليه وآله والمنبت مكه مكان ولادته.

إلا أنّ التفسير الأول أنسب، ولا سيما بالانتفات إلى العبارة: «في معادن الكرامه، ومماهد السلامه» .

ثم خاض عليه السلام في خلقه الجذاب صلى الله عليه وآله الذي استقطب القلوب وخطف الأبصار وشدها إليه: «قد صرفت نحوه أفنده الأبرار، وثبتت (٣) إليه أزمه الأبصار» .

حقاً كان رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك فقد استطاع بخلقته وتواضعه وشفقته وعفوه وصفحه المقرون بشجاعته وشهامته أن يستقطب إليه القلوب كما استطاع أن يشد إليه الأبصار بجهوده المضنيه في سبيل هدايه الأمه والأخذ بيدها إلى السعاده والصلاح.

ثم أشار عليه السلام في هذه المرحله إلى بعض الأنشطة الاجتماعيه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومنها ازالة الاضغان الاحقاد، وأطفا به نيران الفتن والعدوان: «دفن الله به الضغائن (٤)، وأطفا به الثوائر (٥)» .

أضف إلى ذلك فقد ألف به القلوب وآخى به الناس، كما فرق البعض بسبب التعارض بين الإيمان والكفر: «ألف به إخوانا، وفرق به أقراناً» ، كما صرح بذلك القرآن الكريم في الآيه ٦٢ و٦٣ من سورة انفال: «هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنَصِيرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ» ،

ص: ١٨٠

١- ١) سورة الشعراء/٢١٩. [١]

٢- ٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/١٧٤، [٢] كما نقل المرحوم العلامة الأميني عده روايات بهذا الشأن في بحار الانوار ١٥/٣. [٣]

٣- ٣) «ثبتت» من ماده «ثنى» بمعنى الاعاده ووردت هنا بمعنى الانتباه.

٤- ٤) «ضغائن» جمع «ضغينه» البغض والعداء.

٥- ٥) «ثوائر» جمع «ثائره» الفتنه والعداء.

وقال فى الآيه ١٠٣ من سوره آل عمران «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً» .

ثم أشار عليه السلام إلى لطف آخر من الألفاظ الإلهيه ببركه وجود النبى صلى الله عليه و آله: «أعز به الذله، وأذل به العزه» .

فقد أعز الله ببركه نبيه صلى الله عليه و آله تلك الثله المؤمنه التى وقعت فى مخالاب الكفر، وفوض اليهم إرادته شؤون المجتمع الإسلامى، وأقصى تلك العناصر الفاسده عن الساحه، ثم اختتم كلامه عليه السلام بالاشاره إلى أبرز صفاته صلى الله عليه و آله: «كلامه بيان، وصمته لسان» .

فاذا نطق صلى الله عليه و آله تفتق لسانه باسرار الحكمه وبيان حقائق الوحى، وكشف النقاب عن سبيل النجاه، ومهوى الردى ومستنقع السقوط، وأن سكت وصمت، فكان سكوته يختزن المعنى والمفهوم ولم يكن صمناً طبيعياً.

نعم كان سكوته أحياناً تعبيراً عن انزعاجه وقلقه وعدم رضاه ببعض الأفعال، كما كان يرد بهذا السكوت على بعض الأسئلة غير الموجهه والخاطئه. وأخيراً كان يستعين بهذا الصمت تجاه سوء ألسنه الجهال. كما لانسى أن سكوته أحياناً (ومن خلال بعض القرائن الحاليه) كان يعنى تقرير بعض الأعمال والمواقفه عليها) .

ومن خطبه له عليه السلام

في اصحابه، واصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله

نظره إلى الخطبة

قيل في الخطبة أنها وردت - كما ذكر شرّاح نهج البلاغه - حين تمرد جيش الكوفة على أوامر الإمام عليه السلام بمجابهه أهل الشام بعد واقعه النهروان، فقد عرض عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة بالذم لأهل الكوفة وعنفهم أشد التعنيف أملاً في إثارة حميتهم وغيرتهم ليتأهبوا للقاء العدو، بعد إفاقتهم من نوم الغفلة والالتفات إلى مقدراتهم خشية نهبها من قبل الظلمه.

ثم دعاهم في القسم الثاني من الخطبة إلى إقتفاء آثار أهل البيت واتباعهم بفضلهم سبل النجاه، والواقع هو أنه عليه السلام قد ذكرهم بمضمون ومحتوى حديث الثقلين.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالمقارنه بين أهل الكوفه وأصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله، حيث وضح عليه السلام من خلال هذه المقارنه عمق الهوه بين هؤلاء وأصحاب النبي صلى الله عليه و آله من حيث الإيمان والورع والتقوى والعباره والجهاد والاستقامه والصمود والشجاعه، ومن الواضح أنّ الخطبه بجميع أقسامها إنّما تنشده هدفاً واحداً، وهو تعبئه جيش الكوفه لمواجهة العدو؛ العدو الذي لا يابه بالدين والدنيا ولا يقيم وزناً لأي شىء.

ص: ١٨٣

١ - ١) سند الخطبه: ما أورده المرحوم السيد الرضى (ره) في هذه الخطبه جزءاً من خطبه طويله نقلت بصوره متفرقه في عده مصادر، ومن ذلك في كتاب سليم بن قيس الهلالي والكافي للمرحوم الكليني والإرشاد للمفيد والتذكرة للسبط ابن الجوزى وتاريخ دمشق لابن عساكر والبيان والتبيين للجاحظ (مصادر نهج البلاغه ٢/١٩٢). ونهج البلاغه طبعه جماعه مدرسى الحوزه ذيل الخطبه).

«وَلَيْسَ أَمَهْلَ الظَّالِمِ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ. أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُظَهِّرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صِيَابِهِمْ، وَإِطْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَضْيَبَتْ الْأُمَّمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَضْيَبَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي. اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمَّ تَنْفَرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمَّ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا فَلَمَّ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَيْتُكُمْ لَكُمْ فَلَمَّ تَقْبَلُوا، أَشْهُودُ كَعْيَابِ، وَعَبِيدُ كَأَرْبَابِ! أَتَلُوا عَلَيْكُمْ الْحِكْمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعْظُمُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحْشُكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبُغْيِ فَمَا آتَى عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِي سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَّخِذُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أَقَوْمُكُمْ عُدُوَّةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ الْحَيَّةِ، عَجَزَ الْمُؤْمُومُ، وَأَعْضَلَ الْمُؤْمُومُ» .

الشرح والتفسير

كما أشرنا فى السابق - نظره إلى الخطبه - إلى أنّ الهدف من هذه الخطبه هو حث أهل العراق لمواجهه معاويه وأهل الشام. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بأنّ إمهال الظالم مدّه من الزمان لايعنى خلاصه من المؤاخذه والعقاب: «ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه» .

فقد كمن له سبحانه بالمرصاد، وإذا شاء منعه ابتلاع ريقه: «وهو له بالمرصاد على مجاز

طريقه، وبموضع الشجاء (١) من مساع (٢) ريقه (٣) لعل هذه العبارات إشارة إلى معاوية وأهل الشام، حذراً من تسرب الشك والريب إلى قلوب أصحابه بسبب إمهال الله لهم، كما لا يشكوا بأحقية الإمام عليه السلام وبطلان معاوية، فالواقع أن الإمام عليه السلام رام رافع معنويات جيشه بالفات نظره إلى هذه الحقائق. كما يحتمل أن يكون المراد بالظالم ذلك الجيش المتمرد، فالواقع عبارته تهديد لهم بأنكم إن أمهلتهم عدّه أيام فلا يغرنكم ذلك أنكم ستفوتون من العذاب والمؤاخذة بسبب هذا العصيان والتمرد، ويبدو التفسير الأول أنسب.

على كل حال، هذا هو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم كراراً بقوله: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّ نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ» (٤). وقال في موضع آخر «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» (٥).

ولا يصدق هذا الموضوع أو يقتصر على ظلمه الشام أو مرده العراق فحسب، بل هو درس وعبره لنا جميعاً، بأن المهلة الإلهية لا ينبغي أن تقود إلى الغفلة والغرور.

ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أن الله تبارك وتعالى أهبط ملكاً إلى الأرض، فلبث فيها دهرًا طويلاً، ثم عرج إلى السماء، فقيل له: ما رأيت؟ قال: رأيت عجائب كثيرة، وأعجب ما رأيت أنى رأيت عبداً متقلباً في نعمتك، يأكل رزقك، ويدعى الربوبيه، فعجبت من جرئته عليك ومن حلمك عنه. فقال الله جل جلاله: فمن حلمى عجبت؟ قال: نعم.

قال: قد أمهلته أربعمائه سنه لا يضرب عليه عرق، ولا يريد من الدنيا شيئاً إلاناله، ولا يتغير عليه فيها مطعم ولا مشرب. (٦)

ص: ١٨٦

١-١) «الشجاء» ما يعترض في الحلق من عظم وغيره.

٢-٢) «مساع» من ماده «سوغ» على وزن فوق العذب

٣-٣) «ريق» ماء الفم.

٤-٤) سورة آل عمران/١٧٨. [١]

٥-٥) سورة الفجر/١٤. [٢]

٦-٦) بحار الانوار ٧٠/٣٨١. [٣]

وبالطبع فإن كل ذلك اختبار له وللعباد.

ثم تكهن الإمام عليه السلام بمستقبل هؤلاء القوم إزاء عدوهم الطامع قائلاً: «أما والذي نفسى بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لاسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي» .

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار إلى نقطه مهمه هنا وهي أن هؤلاء القوم سيتغلبون عليكم آخر الأمر، ولكن لا تظنوا أن هذه الغلبة نابعه من كونهم على الحق. فلا ينبغي أن يعتقد أحد بأنهم على الحق فيؤدى به ذلك إلى الضلال. قطعاً أنهم على باطل، إلّا أنهم راسخون في هذا الباطل عاقدون العزم عليه وهم آذان صاغية لمعاويه؛ أما أنتم وإن كنتم على حق، إلّا أنكم ضعفاء، ليس لكم من عزم أو اراده، ولا تعيرون زعيمكم اذناً صاغية، فدرجتم على التمرد والعصيان، فاذا جمعت هذه الصفات فى شخص أو أمه مهما كانت فسوف لن يكون مصيرها سوى الهزيمة والفشل.

فقد روى أبو مخنف فى قصه يوم الحره: أن مسلم بن عقبه ركب فرساً فأخذ يسير فى أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام أنكم لستم بأفضل العرب فى أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عدداً ولا أوسعها بلداً، ولم يخصصكم الله بالذى خصكم به من النصر على أعدائكم، وحسن المنزله عند أئمتكم إلباطاعتكم واستقامتكم. (١)

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه بهذا الشأن: «ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي» .

فالأمم والشعوب طيله التاريخ إنما تشكو ظلم وجور حكوماتها المستبده الطاغيه، بحيث أصبح هذا أمراً طبيعياً، بينما انقلبت هذه المسأله بالنسبه للإمام عليه السلام فهى على العكس تماماً! لم يكن هناك من يخشى ظلمه عليه السلام، فلم يكن للظلم والجور من سبيل إلى وجوده عليه السلام، فى حين كان هو عليه السلام يعيش حاله القلق والاضطراب من غدر أصحابه ومكائدهم وما شاكل ذلك؛ والحق أن مثل هؤلاء الأفراد إنما يتلون عاقبه الأمر بالطغاه فيذيقوهم أنواع الظلم، وهذا ماحدث بالفعل، ثم تطرق عليه السلام إلى نقاط ضعف أهل الكوفه والعراق آنذاك فقال: «استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، واسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا» .

ص: ١٨٧

(١-١) أبو مخنف، طبق نقل شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري ١٠/٥٩٦.

والسؤال المطروح: هل كان جيش العراق يشعر بالخطر، إلّا أنّ الضعف والتقاعس يثبطه بعدم مواجهه العدو؟ أم أنّه لم يكن يشعر بخطر من معاويه وأهل الشام؟ الاحتمالان قائمان، إلى جانب الخوف والجبن والجهل والاختلافات القبليه.

انذاك خاطبهم عليه السلام بعبارات عنيفه - تشير غيره من كان له أدنى غيره ورجوله - بغيه آثارتهم ودفعتهم للنهوض والحركه، فقال عليه السلام: «أشهود كغياب، وعبيد كأرياب، أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظه البالغه فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما أتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين أيادى سبا» .

«أيادى سبا» وبعبارة أخرى «مثل أيادى سبا» إشاره إلى مثل معروف بين العرب يضرب للمتفرقين، وقيل أنّ سباً هو أبو عرب اليمن كان له عشره أولاد، جعل منهم سته يميناً له، وأربعة شمالاً تشبها لهم باليدين، ثم تفرق أولئك الأولاد أشد التفرق. (١)

على كل حال فإنّ عبارات الإمام عليه السلام تفيد أنّه عليه السلام نصحهم بأدنى الأمر بكلمات حكيمة ومواعظ حسنه، وقد بالغ فى مداراتهم، وما ورد من كلمات عنيفه وحاده تضمنتها بعض عبارات الخطبه فإنّما كانت عقب تلك الكلمات التى تضمنت الوعظ والنصح، هذا فى الوقت الذى كان الطرف الآخر يمتاز بالفضاذه واللجاجه بحيث لا تجعلهم يفيقون من غفلتهم إلّا كلمات الذم والتوبيخ والعتاب.

ثم قال عليه السلام: «ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، أقومكم غدوه، وترجعون إلى عشيه، كظهر الحنيه (٢)، عجز المقوم، وأعضل (٣) المقوم» .

فالعبارة تنطوى على نقطه مهمّه وهى كثره المنافقين آنذاك بين أهل العراق، وكانوا يسعون للالتفاف على كلام الإمام عليه السلام، فكانوا يتأثرون بأخلاق الإمام عليه السلام ومواعظه حين يأتوه، ويقتنعون بضروره الاستعداد والتأهب لقتال العدو، فاذا رجعوا إلى مجالسهم الخاصه والعامه نفثوا سمومهم الشيطانيه وشوشوا الأفكار وسعوا لاضعاف الارادات وتصديق عرى الاتحاد والاخوه وبث بذور الشقاق والفرقه.

ص: ١٨٨

١-١) «أيادى» جمع «أيدى» وهذه الاخيره جمع يد، كما تستعمل الأيدى فى معانى أخرى.

٢-٢) «الحنيه» بمعنى القوس وذلك بسبب انحناؤه.

٣-٣) «أعضل» من ماده «الاعضال» بمعنى الشده والتعقيد.

قال نافع بن كليب: دخلت الكوفه للتسليم على علي عليه السلام فاني لجالس تحت منبره وعليه عمامه سوداء - إلى أن قال - ثم نزل تدمع عيناه فقال (إنالله وإنإليه راجعون) أقومهم والله غدوه ويرجعون إلى عشيه مثل ظهر الحنيه، حتى متى وإلى متى (1)؟

ص: ١٨٩

١-١) العقد الفريد، ج ٤، ص ١٦٢ ([١] مطابق نقل شرح نهج البلاغه للتستري) .

«أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَيْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أَمْرَاؤُهُمْ. صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ. لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَيَّرَ فَنِي بِكُمْ صَيَّرَ الدِّينَارَ بِالدِّرْهِمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ!». .

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه من تقريره وصب جام غضبه على أولئك القوم، على أمل انبثاق حركه في خضم سكونهم المدهش وإرادتهم الخاويه، ليهبوا قبل بروز الخطر فقال عليه السلام: «أيها القوم الشاهده أبدانهم، الغائبه عنهم عقولهم، المختلفه أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم». .

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارة على ثلاث نقاط ضعف: الاولى: غياب العقول، وكأن عقولهم فارقت أبدانهم فأصبح وجودهم كبلد ليس له من مدير ومدبر. الثانية: عدم وجود عرى التواصل بينهم أبداً، حيث لكل منهم طلباته على ضوء اهوائهم وعقولهم القاصره. وبالبداهه سوف لن تتمكن محل هذه الفئه من حل مشاكلها، فضلاً عن مشاكل الآخرين.

الثالثه: نقطه ضعفهم تكمن في اضطرار زعمائهم للتاقلم معهم. وقد أدت بهم هذه الصفات إلى الخواء في ميدان قتال العدو، ثم قال عليه السلام: «صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه». .

ياللعجب! فمن أطاع الله أحق بان يطاع، ومن عصاه لا بدّ من معصيته والوقوف بوجهه، بينما انعكست القضية هنا؛ فقد عومل مطيع الله بالجفاء، وعاصيه بالحب والاحترام!!

ثم تطالعنا عبارته لامثيل لها في نهج البلاغه، حيث قال عليه السلام: «لوددت والله أن معاوية صار فني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشره منكم، وأعطاني رجلاً منهم»، فالتأكيدات المتعدده في هذه العبارة تفيد جديده الإمام عليه السلام دون أدنى مبالغه، وكأنّ أهل الشام بمنزله سكه ذهبه وأهل العراق فضيه. كما تفيد العبارة مدى انضباط أهل الشام آنذاك حيث وقفوا بكل صلابه خلف معاوية رفم خداعه لهم؛ بينما لم يكن هناك أدنى انضباط لأهل العراق فلم يكن قيمه عشره منهم تعدل قيمه واحد من أهل الشام!

ص: ١٩٢

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمُّ ذُووِ أَسْمَاعٍ، وَبُكْمُ ذُووِ كَلَامٍ، وَعُمَى ذُووِ أَبْصَارٍ، لَا أُخْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ! تَرَبَّتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيَمًا إِخْوَالُكُمْ: أَنْ لَوْ حِمَسَ الْوَعَى، وَحِمَى الضَّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرَاهِ عَنْ قُبُلَيْهَا. وَإِنِّي لَعَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّ، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْقُطْبُ لَقَطًا» .

الشرح والتفسير

صعد الإمام عليه السلام هنا من حده كلامه وامطار أرواح القوم بوابل تفريره ولومه، مع بيان نقاط ضعفهم، علمهم يفتقون من غفلتهم ويجردوا في اصلاح أنفسهم، فقال عليه السلام: «يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنتين صم ذوو أسماع، و بكم ذوو كلام، وعمى ذوو أبصار» .

فالإمام عليه السلام يشير إلى عجزهم عن مشاهدته الأحداث والافتقار إلى تحليلها الصحيح وعدم السعي للعثور على الحلول، فقد قبعوا في مخادعهم ينتظرون العدو الذي لا يابه بشيء، دون أن تتحرك لهم قصبه، أو يسمعوا رعيده ووعيده فيستعدوا لمجابهته.

إلى جانب ذلك فهناك خصلتان لم تكن فيهم «لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقه عند البلاء» .

لا شك أنّ الحياه مليئه بالأحداث الساخنه والطبيعيه: فأحياناً الحرب والقتال والأخرى

الصلح والسلام، وتاره الراحة والأمان وأخرى التعب والبلاء. والأصدقاء الأوفياء والاخوه الثقاه لا يعرفون عند الراحة والاستقرار، وميدان معرفتهم إنما يكمن فى الصعوبات والمعضلات والتزاعات والبلايا والأحداث الأليمه، ومما يؤسف له أهل الكوفه لم ينجحوا آنذاك فى الامتحان، وقد كشفوا مراراً عن غدرهم وضعفهم وعدم صمودهم وثباتهم.

ومن هنا دعا عليهم الإمام عليه السلام فى العبارات القادمه، ثم اختتم كلامه بتشبيهين رائعين لاوضاعهم النفسيه فقال: «تربت (١)أيديكم»، ثم اتبعها بالقول: «يا أشباه الابل غاب عنها رعاتها» .

فالتشبيه تعبير واضح عن جهل القوم وعدم انضباطهم. فقد شبههم فى البدايه بالحيوانات ومن ثم بعدم وجود الراعى النافذ الكلام.

ثم قال عليه السلام بعد أن أقسم أنهم لو حمى الوطيس ونشبت الحرب لتركوا الإمام عليه السلام وحده فى الساحه وانفرجوا عنه انفراج المرأه عن وليدها حين وضعها لحملها: «والله لكأنى بكم فيما إخالكم: أن لو حمس (٢)الوغى (٣)، وحمى (٤)الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبى طالب انفراج المرأه عن قبلها» .

هذا وقد ذكرت عدده تفاسير للعبارة «انفرجتم. . .» إلما أن ما أوردناه سابقا هو الأنسب لمقام أميرالمؤمنين على عليه السلام إلى جانب رعايه الفصاحه والتناسب فى مقام التشبيه. فالمرأه حين الوضع ترجو أن تضع حملها كل لحظه لما تعانيه من الأم وأوجاع، والإمام عليه السلام شبه أهل الكوفه بهذه المرأه التى تعد اللحظات أملا فى وضع الحمل، فكانوا يعيشون حاله من الجزع فى ميدان القتال بحيث ينتظرون بفارغ الصبر الفرصه المؤتاه للهروب من ساحه المعركه، وهو الهروب الذى لاعوده فيه، كالوليد الذى ينسلخ عن رحم أمه فلا يعود إليه. وللإمام عليه السلام تشبيه رائع

ص: ١٩٤

١-١) «تربت» من ماده «تراب»، تستعمل فى الخساره والفقر، وكأنّ الفقير قد صرع وخالط التراب يده.

٢-٢) «حمس» بالفتح من ماده «حمس» على وزن قفص بمعنى الشده و «الحماسه» و «التحمس» يعنى التشديدولا سيما فى المعركه.

٣-٣) «وغى» يعنى فى الأصل اصوات المقاتلين فى المعركه، كما تطلق على نفس المعركه، وقد وردت عنا بهذا المعنى.

٤-٤) «حمى» من ماده «حمى» على وزن سعى شده الحراره، و «الضراب» بمعنى الاشتياك والمناوشه والقتال.

بهذا الشأن ورد في الخطبه ٣٤ حيث قال عليه السلام: «وأيم الله إننى لأظن بكم أن لو حمس الوغى، واستحر الموت، قد انفرجتم عن ابن أبى طالب انفراج الرأس» .

وفى الختام يكشف عن موقفه فى هذه الأحداث فقال عليه السلام: «وإنى لعلى بينه من ربى، ومنهاج من نبى، وإنى لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً (١)». فمن الطبيعى أن لا يكون هناك من شعور بالفشل أو الهزيمة لمن انطلق فى حركته على هدى من الله ونور من رسوله صلى الله عليه وآله، ولا يرى فى كل ما يحدث سوى الغلبه والنصر وأداء التكليف والوظيفه. والعبارة «ألقطه لقطاً» تعنى جمع الأشياء من نقاط مختلفه، الأمر الذى يحتاج إلى الدقه والفظنه، ومراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنى أجد فى الاختيار من أجل التقدم فى مسار الحق وانتخب أفضل السبل من أجل بلوغ الهدف.

تأمل: مقارنة بين أهل العراق والشام

لقد أورد الإمام عليه السلام عبارة عجيبة فى إطار مقارنته بين أهل العراق والشام لم يرمثلها حيث قال: لوددت والله أن معاويه صرفنى بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منى عشره منكم وأعطانى رجلاً منهم. والحال كان ينبغى أن تكون القضية معكوسه، فقد عقد القرآن الكريم مثل هذه المقارنه بين المؤمنين والكفار فقال: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ» (٢)، ترى لم انقلب هذا المعيار القرآنى بشأن أهل العراق والشام؟

يبدو أن التحليلات الدقيقه من شأنها ايقافنا على ماورد فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الشأن.

فالكوفه منطقته حربيه حديثه، وأن أهلها الذين كانوا يمثلون القسم الأعظم من جيش الإمام عليه السلام قد قدموا هناك من عدّه مناطق وهم ينحدرون من مختلف القبائل بحيث لم يكن يسودهم الانسجام والانضباط المطلوب. فكان لكل واحد منهم أهدافه وطموحاته

ص: ١٩٥

١-١) «لقط» أخذ الشيء من الأرض، وتطلق «القطه» على الأشياء المفقوده، لأنها عادة ماتلتقط من الأرض.

٢-٢) سورة الانفال/٦٥. [١]

وطروحاته الفكرية، بينما كانوا أهل الشام كتله واحده عاشت هناك ليتحلوا بكافه عناصر الوحده والانسجام ووحده الفكر والثقافه. هذا أولاً.

وثانياً: كان فى جيش الإمام عليه السلام من قدم بغيه الحصول على الغنائم، فان كانت هناك غنيمه سارعوا لميادين القتال، بينما يقبعون فى بيوتهم حيث التضحيه والفداء والشهاده.

ثالثاً: كان أهل الشام ينظرون إلى منطقتهم كوطن لا بدّ من الدفاع عنه والذود عن حياضه، بينما كان لأغلب أهل الكوفه وطن آخر خارج الكوفه، وكلما ضاقت عليهم السبل فى الكوفه عادوا إلى أوطانهم.

أضف إلى ذلك فإنّ ضعف إرادتهم وسرعه خداعهم وانفعالهم بالأعيب العدو، ومن ذلك خديعتهم فى صفين، وعدم معرفتهم بمقام الإمام عليه السلام ومنزلته، والاعماض عن الحوادث المستقبلية، كل هذه الأمور كانت تفعل فعلها فيهم فى ميدان القتال.

ومن هنا كانوا يخلتقون مختلف الذرائع للهروب من ساحه الحرب، ولايتوانون فى اغتنام أيه فرصه تسنح لهم من أجل الفرار، منهم يتذرعون تاره بحراره الجو، وأخرى ببرودته والحال يصرخ فيهم الإمام عليه السلام: «فاذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر». (١)

وكانّ القتال لا بدّ أن ينشب فى فصل الربيع؛ على ظلال الأشجار وسط الحقول الخضراء والمياه المتدفقه وتغريد العصافير والطيور.

العنصر الآخر الذى أدى إلى ضعف جيش الكوفه وعدم تحليه بالانضباط هو أنّ أشرافهم كانوا مرفهين على عهد عثمان، حيث كان يقسم أموال بيت المال دون حساب بين الناس، وكانت الحصه العظيمه تمنح للزعماء والأشراف والبطانه والأقرباء. فلما تسلّم الإمام عليه السلام زمام الأمور تغيرت الأوضاع ليعيشوا مراره العداله بعد أن أنسوا بالظالم والجور، ومن هنا كانوا لا ينفكون عن الشكوى، هذا من جانب ومن جانب آخر فإنّ معاويه كان يسعى جاهداً لتحقيق أهدافه دون الاكتراث لدين الله والقيم الإسلاميه والموازين الشرعيه،

ص: ١٩٦

فكان يبذل الآف الدنانير لشراء هذا الفرد أو ذاك من أجل ترسيخ دعائم حكمه، فان لم يسعفه ذلك عمد إلى التهديد والارعاب والقتل.

ومن هنا نقف على عمق حكمه الإمام عليه السلام وبعد أفقه وتدييره في كيفية تمكنه من زج هؤلاء القوم في الجمل وصفين والنهروان، وإن شهدت هذه الوقائع بعض الانكسارات بسبب تمرد البعض وعدم طاعتهم لأوامر الإمام عليه السلام.

وهنا نكتشف عمق ما قاله ابن أبي الحديد: إن سياسة علي عليه السلام إذا تأملها المنصف متديراً لها بالاضافه إلى أحواله التي دفع إليها مع أصحابه، حرت مجرى المعجزات، لصعوبه الأمر وتعذره ثم كسريهم الأعداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه (١).

والحق إننا إذا أردنا أن نصدر حكماً على سياسة أمير المؤمنين عليه السلام ونعلن رأينا بهذا الشأن، كان علينا أن نأخذ هذه الأمور بنظر الاعتبار. وناهيك عن كل ما سبق فإن الإمام عليه السلام لم يكن ليعتمد أيه وسيله من أجل بلوغ الهدف، حيث يمنعه دينه وعدله وورعه وتقواه عن ذلك.

ص: ١٩٧

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٧٣. [١]

«انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سببهم، واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبّدوا فالبّدوا، وإن نهضوا فانهضوا. ولا تشبّوهم فتضلموا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا. لقد رأيت أضيحاب محمد صلى الله عليه و آله، فما أرى أحداً يشبههم منكم! لقد كانوا يصبحون شعناً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم! إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميّد الشجر يوم الرّيح العاصف، خوفاً من العقاب، ورَجاءً للثواب».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - فى المقطع الأخير من هذه الخطبه - إلى نقطتين مهمتين؛ الأولى: تعريفه بالقاده الذين لا يضلون أبداً، بهدف تمسك الأمه بهم وعدم الانفراج عنهم والتماس الهدايه عن طريقهم بغيه الفوز بالفلاح والسعاده - والثانيه: يتحدث عن صفات أصحاب النبي صلى الله عليه و آله لتكون نموذجاً للاخرين، فيكونوا مصداقاً لمضمون الآيه الشريفه: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ» (١)، فيجدوا ويجتهدوا فى هذا السبيل ويسعوا لأن يتحلوا بصفاتهم. فقال عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سببهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم فى ردى».

فهذا الكلام فى الواقع إشاره إلى حديث الثقلين الذى يعتبر من الأحاديث المتواتره والذى

ص: ١٩٩

أوصى بالتمسك بالقرآن وأهل البيت اللذان لن يفترقا حتى يردا الحوض، ولن تضل الامه أبدا إن تمسكت بهما.

ومن الواضح طبعاً أنّ المراد بأهل البيت، هم أئمة العصمة عليهم السلام الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (١).

ثم أمرهم عليه السلام بالحركة خلفهم أن تحركوا ونهضوا، والقعود أن جلسوا وصمتوا: «فان لبدوا فالبدوا (٢)، وإن نهضوا فانهمضوا» .

فالحق أن الشرائط والظروف الزمانية والمكانية في تغير مستمر؛ فان كانت الظروف تقتضى القيام والنهضة وخوض غمار الجهاد، فان السكوت يقود قطعاً إلى البؤس والشقاء، وان كانت الظروف لا تسمح بالقيام، فان النهضة لا تنطوي سوى على الخيبة والخسران وهدر الطاقات. وأئمة العصمة من أهل البيت عليهم السلام أعلم من غيرهم بهذه الظروف والشرائط وينطلقون في حركتهم وسكونهم من خلالها، وعليه فعدم الاقتداء بهذا الأسلوب إنما يؤدي إلى الخسران.

ومن هنا قال عليه السلام: «ولا تسبقوهم فتصلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا» ، فالمجتمعات لا تخلو على الدوام من الأفراد الذين يعيشون حاله الافراط والتفريط. فالمفراطون يحكمون ببطيء حركة الزعماء الحق فيتقدموا عليهم، ليقودوا المجتمع إلى الهاوية. والمفراطين على العكس يرون حركتهم مستعجلة فيتأخرون عنهم بذريعة الحزم والاحتياط وإجالة الفكر؛ الأمر الذي يؤدي إلى هلاكهم واختلال حركة المجتمع.

والواقع هو أنّ عبارة الإمام عليه السلام تنسجم والحديث النبوي المشهور: «مثل أهل بيتي فكيم، مثل سفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها هلك» ، وقد ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة في مصادر الفريقين، وهو يكشف عن علم أهل بيت النبي عليهم السلام المستقى من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، كونهم السفينة الوحيدة للنجاه في هذه البحار العاصفة؛ على غرار الطوفان الذي لم يكن فيه من وسليه للنجاه سوى سفينة نبي الله نوح عليه السلام (٣).

ص: ٢٠٠

١-١) سورة الاحزاب/٣٣. [١]

٢-٢) «لبدوا» من ماده «لبود» الإقامة في المكان.

٣-٣) نقل هذا الحديث المرحوم السيد حامد حسين الهندي في كتاب عبقات الأنوار عن ٩٢ كتاب من ٩٢ عالم من علماء العامه.

والجدير ذكره ماورد شبيه هذه العبارة فى الخطبه ٨٧ بشأن القرآن فى وصفه خلص عباد الله الذين جعلوه محوراً فى حياتهم «فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله» .

وهذا تأكيد آخر لحديث الثقلين.

ثم تطرق عليه السلام إلى خصائص طائفه معينه من صحب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ليقتدى بها صحبه، فقال عليه السلام: «لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحداً يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثاً (١) غبراً» . (٢)

ثم قال فى صفتهم الثانيه: «وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون (٣) بين جباههم وخدودهم (٤)» .

وقال أيضاً: «ويقفون على مثل الجمر (٥) من ذكر معادهم» .

نعم فقد شعروا بعظم العذاب الإلهى بكل كيانهم، فلم يهدأ بالهم ويسكن روعهم: «كأن بين أعينهم ركب (٦) المعزى (٧) من طول سجودهم» ، فقد ذاقوا حلاوه العبوديه، فتراهم يطيلون سجودهم، حتى بدت آثار السجود على جباههم.

«إذا ذكر الله هملت (٨) أعينهم حتى تبل جيوبهم» .

فقد تنهمر دموعهم حياً لله تاره، وخوفاً من العقاب وخشيه الفراق تاره أخرى: «ومادوا (٩) كما يמיד الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاءاً للثواب» .

والتشبيه بالشجر الذى يמיד من جراء الريح العاصف، هو تشبيه رائع، وقد أشار عليه السلام إلى

ص: ٢٠١

١- (١) «لشعث» جمع «أشعث» وهو المغير الرأس وهى كناية عن الفقر أو الزهد.

٢- (٢) غير جمع أغير بمعنى الغبار.

٣- (٣) «يراوحون» من ماده «تراوح» القيام بالأعمال الواحد بعد الآخر.

٤- (٤) «خدود» جمع «خد» طرفا الوجه.

٥- (٥) «جمر» جمع «جمره» قطعه من النار، وتطلق الجمرة وجمعها جمرات.

٦- (٦) «ركب» جمع «ركبه» موصل الساق من الرجل بالفخذ.

٧- (٧) «معزى» و «معز» معروف.

٨- (٨) «هملت» من ماده «همول» الجريان والنزول.

٩- (٩) مادوا من ماده ميدان الحركة والاضطراب.

دليل ذلك والذي يكمن في خوف العقاب تاره ورجاء الثواب تاره أخرى.

فهم سيكون بعين شوقا إلى لقاء ربهم، بينما تهمل الأخرى خشيه من عقاب ربهم! وهذا هو ديدن الصالحين من عباد الله الذين يعيشون بين الخوف والرجاء.

تأملات

١ - ولاية أهل البيت وعصمتهم

تتضح عصمه أهل البيت عليه السلام بجلاء من خلال عبارات الإمام عليه السلام وذلك أنه عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيكم والزمو سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فان لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا» .

فالعبارات من أوضح الأدله على مقام عصمتهم عليهم السلام؛ لأنّ مثل هذه الوصايا لا تصح في غير المعصومين من الذنب والخطأ.

كما تدل من جانب آخر على أنّ امامه المسلمين دائما في أهل البيت وذلك لأنّ الإمام عليه السلام لم يقيد وصاياه بزمان معين.

كما تدل من جهه أخرى على أنّ مفهوم الولايه لا ينسجم وانتقاء أوامر أهل البيت عليهم السلام، بل الولايه الحقيقيه في امثال أوامرهم في كل شيء وعلى أى حال. أما من يتبع أهل البيت على مستوى اللسان والقول أو بعض التصرفات الفرديه والاجتماعيه، فلا يمكن اعتباره من الموالين الواقعيين، بل ذلك زعم وإدعاء فقط. ومن البديهي أنّ مراد الإمام عليه السلام لا يقتصر على عصره أو زمانه؛ لأنّه يعرف بأهل البيت بصفتهم أئمه وولاه وليس فقط شخصه والشاهد الحى على هذا الكلام ما ورد في الحديث النبوى الشريف أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «انى وأهل بيتى مطهرون، فلا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتخلفوا عنهم فتزلوا، ولا تخالفوهم فتجهلوا، ولا- تعلموهم فأنهم أعلم منكم. هم أعلم الناس كباراً، وأحلم الناس صغاراً؛ فاتبعوا الحق وأهله حيث كان»

(١)

ص: ٢٠٢

٢ - مميزات أهل الكوفة والشام

هناك رابطة لطيفة بين القسم الأخير من هذه الخطبة، الذى يدعو الناس من جانب إلى اتباع أهل البيت، ومن جانب آخر إلى بيان خصائص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، والاقسام السابقة من الخطبة التى عرضت بالذم الشديد لأهل العراق والكوفة. وذلك لأنها تفهمهم من جانب أن ليس لكم من عذر عند الله، لأن قادتكم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، الذين ما انفك رسول الله صلى الله عليه وآله يوصى الأمة بالتمسك بهم وعدم مفارقتهم، فهم عدل القرآن وسفن النجاه، والحال زعيم أهل الشام معروف بالظلم والانحراف والسلب والنهب، وعليه فقد تمت عليكم الحجج.

والآخر أن ضعفكم وهو أنكم ليس لعدم قدرتكم البدنية، بل لضعف ارتباطكم بالله وخواؤكم الروحي وانعدام معنوياتكم، ومن هنا دعاهم لاقتفاء آثار تلك التلة من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله بصورة عملية حيث كانت لها أعظم رابطة بالله سبحانه وتعالى.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان صفاتهم التى تدعوا إلى الغلبة والنصر فقال: لقد كانوا يصبحون شعثاً غرباً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم. إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يמיד الشجر يوم الرياح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء للثواب. وقد كان هذا التعبد والإلتزام هو سر إنتصارهم على خصومهم.

٣ - حقيقه الصحابه

لعل هناك من يفهم من اطلاق كلام أمير المؤمنين على عليه السلام أن هذه الخصائص قد جمعت فى كافة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وعليه فهو دليل على ما ذهبوا إليه من نظريتهم المعروفة فى تنزيه الصحابه، والحال أن هذه الخصائص إنما تتصف بها فئة خاصه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كسلمان وأبى ذر وعمار والمقداد ومن كان على شاكلتهم، لا جميع الصحابه. وذلك لأنه أولاً: أن هذا الموضوع يخالف السير والتواريخ، حيث لم تدون لهم كل هذه الصفات، ثانياً: تفيد أغلب آيات القرآن الكريم أن بينهم من عرف بالنفاق والذنوب والخطايا والمعاصى. ومن

ذلك أن بعضهم قد خان رسول الله صلى الله عليه وآله وجيش المسلمين، وقد تابوا بعد أن افتضح أمرهم؛ كحاطب بن أبي بلتعنه وأبي لبابه، وقصتهم معروفه، وعمود التوبه فى مسجد النبى صلى الله عليه وآله شاهد حى على هذه الحقيقه.

وفيهم من اعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله فى حكم الزكوه، والمال و منهم من عاهد الله بالانفاق أن آتاهم من فضله ومنهم ثعلبه بن حاطب الانصارى الذى وردت قصته فى الآيات ٧٥ - ٧٧ من سوره التوبه.

وفيهم من تخلف عن غزوه تبوك وتمرد على أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وردت قصتهم فى ذيل الآيه ١١٨ من سوره التوبه.

وفيهم الحواسيس الذين وصفتهم الآيه ٤٧ من سوره التوبه: «وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ» .

وفيهم من بنى مسجد ضرار بهدف ايجاد الفرقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين، وقد وردت قصتهم فى الآيات ١٠٧ - ١١٠ من سوره التوبه.

وفيهم من سار على الصراط على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ثم انقلبوا بعده فاثاروا الفتن واشعلوا نيران الحروب وسفكوا دماء المسلمين، كطلحه والزبير الذين أججا نار الجمل وخرجا على إمام المسلمين، ومعاويه الذى آثار الفتن ومنها فتنه صفين.

وعليه يبدو من السداجه أن نتغاضى عن هذه الحقائق والوقائع التاريخيه وصريح الآيات القرآنيه، لنعتبر الصحابه منزهين جميعاً يتصفون بالطهر والعفاف والورع والتقوى.

وبناءً على ما تقدم فإن أمير المؤمنين على عليه السلام إذا مدح الصحابه وأثنى عليهم - فى هذه الخطبه أو سائر الخطب - فالمفروغ منه أن مراده خاصه صحب رسول الله صلى الله عليه وآله لاجميعهم.

وهم ثله معدوده من صحابه كانت تقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وتلتحق به فى كافه المعارك والغزوات، حتى استشهد أغلبهم على عهده صلى الله عليه وآله.

على كل حال فإنّ هذه الثله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله التى انطوت على أعظم دروس العبوديه والاستقامه والصمود والتضحيه فى سبيل الله والإسلام، وتعلمتها من معلم البشرىه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لجديره بان تكون قدوه للمسلمين فى كل عصر وزمان.

وهم الذين قال قيهم المؤرخون أنّهم كانوا يتلون لبعضهم البعض الآخر سوره العصر حين

يفترقون، ليوصى كل منهم الآخر بالايمن والعمل الصالح والتحلّى بالحق والصبر. (١)

وصفهم القرآن بقوله: «سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ». (٢)

وهم المعروفون بشدّتهم وصلابتهم تجاه الاعداء، واللين والرحمه تجاه الأصدقاء: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» (٣).

ص: ٢٠٥

١-١) اسد الغايه ٣/١٤٤.

٢-٢) سوره الفتح/٢٩. [١]

٣-٣) سوره الفتح/٢٩. [٢]

ومن كلام له عليه السلام

يشير فيه إلى ظلم بنى أميه

نظره إلى الخطبه

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بعبارات قصار عن فجائع حكومه بنى أميه وظلمهم وانحرافهم، بحيث صور جميع مظالمهم وفضائحهم في هذه الكلمات المختصره، وهى تفيد وخامه العواقب التى تنتظر المجتمع الإسلامى إذا ضعفت إرادته فى المجابهه والتصدى.

التأريخ من جانبه أشار إلى تحقق كافه تكهينات الإمام عليه السلام، وأنّ عدم الالتفات إلى تحذيراته عليه السلام فساد ذلك الظلم والجور الذى عم المسلمين بما لم يشهد له التأريخ مثيلاً.

والخطبه ضمناً رد قاطع على أولئك الذين يترددون فى قتال الإمام عليه السلام لبنى أميه، على أنّه قتال المسلمين للمسلمين.

ص: ٢٠٧

١ - ١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه، روى هذه الخطبه ابن قتيبه فى كتاب الإمامه والسياسه، والذى يفهم من عباراته أنّ الإمام على عليه السلام خطبها بعد الخطبه ١٢٣ (مصادر نهج البلاغه ٢/١٩٣).

«وَاللّٰهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدْعُوا لِلّٰهِ مُحَرَّمًا إِلَّا اسْتَحْلَوْهُ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلَّوهُ، وَحَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِّدْرٍ وَلَا وَبْرٌ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَأَ بِهِ سُوءَ رَعِيَّتِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِانِ بَيْنَكُمَا: بَاكِ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكِ يَبْكِي لِذُنُوبِهِ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصَيْرَةٌ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كُنُصْرَهُ الْعَبْدِ مَنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اعْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْمَكُكُمْ فِيهَا عَنَاءٌ أَحْسَنُكُمْ بِاللّٰهِ ظَنًّا، فَإِنْ آتَاكُمْ اللّٰهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوهَا، وَإِنْ ابْتَلَيْتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ «الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» .

الشرح والتفسير

مظالم بنى أمية

أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصار إلى مصير بنى أمية، كما يشير إلى الفجائع التي ارتكبتها هذه الطغمة الفاسدة. حيث أقسم على امتداد حكومتهم حتى تستحل كل حرام وتنتهك كافة المواثيق والعهود: «والله لا يزالون (1) حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه، ولا عقداً إلا حلوه» .

وقد قام بعض الأعلام باحصاء بدع بنى أمية والمحارم التي انتهكوها واستحلوها، والعهود التي نقضوها، سنستعرضها في الأبحاث القادمة. ويتضح من خلالها عمق الفجائع التي جروها على العالم الإسلامي.

ثم أشار عليه السلام إلى الفضائح التي ارتكبوها بحق المسلمين وعموم ظلمهم وشموله بحيث لا يفلت منه بيتاً من البيوت: «وحتى لا يبقى بيت مدر، ولا وبر إلا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم» ، والمراد بيوت المدر المبنية من الطوب والحجر ونحوهما وهي بيوت المدينة عادة. أمّا

ص: ٢٠٩

١ - ١) قال بعض شراح نهج البلاغة ان العبارة «لا يزالون» فيها محذوف تقديره «لا يزالون ظالمين» ، والظاهر الأنسب أن يكون تقديره لا يزالون حاكمين، ولا سيما بالنظر إلى العبارات اللاحقة.

الوبر فيرادبه صوف الناقه، فالمراد بيت الوبر الخيام التي كانت تقام في القرى والبوادي، والحق أنّ هذا أروع تعبير لشموليه الظلم بحيث لايسع أحد النجاه من ذلك الظلم. وهو الظلم الذي قد يدفع بالبعض إلى الفرار من بيوتهم.

ثم تطرق عليه السلام إلى أنّ الناس آنذاك على طائفتين؛ طائفه تبكى دينها، وأخرى تبكى دنياها: في تصويره للفاجعه الثالثه «وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكى لدينه، وباك يبكى لدنياه» .

نعم فالمتدينون سيكون خشيه على دينهم من الأخطار التي تهدده من هذه الطغمه سليله الجاهليه، بينما يبكى أصحاب الدنيا على دنياهم، فالظلمه قد ساموا الناس الظلم في دينهم ودنياهم.

ثم قال عليه السلام: في بيانه للفاجعه الرابعه «وحتى تكون نصره أحدكم من أحدهم كنصره العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه» .

في أشاره إلى أنّهم يستعبدون الناس، وليتها كانت من نوع العبوديه التي تسودها علاقه الحب والرفاه بين العابد والمعبود، بل العبوديه التي تختزن كل معاني الظلم والتحقير والاستخفاف؛ وكأنّهم قيدوا أعناق الناس وسحبوهم بالاتجاه الذي يريدون.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالعباره طلب الناس العون من هؤلاء، لاعون الناس لهم بمعنى نصرتهم (فالإضافه إلى المفعول لا إلى الفاعل): وعليه مفهوم العباره أنّكم إذا طلبتم عونهم فإنّ ذلك كطلب الغلام العون من سيده الظالم، لا طلب الرفيق من رفيقه. إلّا أنّ عبارتي: «إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه» تؤيدان المعنى الأول.

ثم وصف فاجعتهم الأخيره بأنّها أشد وأعظم على ذلك الأقرب لله والأكثر عبوديه له: «وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظناً» .

وهل ينتظر غير هذا من حكومه ظالمه مستبده مجرمه، لادين لها ولا أخلاق، قطعاً محنه العبد في ظل هذه الحكومه تكون أعقد وأصعب كلما كان لربه أطوع وأقرب.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بتسليه أصحابه وأنصاره لما ينتظرهم من أحداث أليمه: «فان أتاكم الله بعافيه فاقبلوا، وإن ابتليتكم فاصبروا فان العاقبه للمتقين» .

فالذى يفهم من هذه العبارة أنّ حكومه بنى أميه وإن مارست ظلمها وضغوطها بحق الأمّة، فجرعتها أنواع العذاب، إلّا أنّ هناك البعض الذى نجى من هذه الحوادث الخطيره والمؤطه، وقد أوصى الإمام عليه السلام الطائفه الاولى بالصبر والتحمل وانتظار الفرغ، بينما أوصى الثانيه بالحمد والشكر.

تأمل: بدع بنى أميه

لقد حصلت كافه تكهنات الإمام عليه السلام التى أوردها فى هذه الخطبه بشأن شموليه فجائع بنى أميه، حيث لم تأل هذه الحكومه المستبده جهدوا عن مقارفه أنواع الظلم والجور، كما سفكت بحاراً من الدماء من أجل ترسيخ دعائم سلطتها الغاشمه، إلى جانب ملئ السجون بالأبرياء من المومنين وسومهم سوء العذاب، وممارسه أقصى درجات العنف والبطش، فعم الخوف والرعب كافه أبناء الأمّه، بما فيهم مقربى هذه الحكومه وبطانتها. وقد قام المرحوم العلامة الأمينى بجمع كافه الانتهاكات والبدع التى ارتكبتها بنى أميه، مع ذكر اسنادها فى كتابه الغدير، نورد طائفه منها، ونترك للقارىء العزيز الوقوف على تفاصيلها فى المجلد الحادى عشر من كتاب الغدير أنّ معاويه:

أول من أحدث الاذان فى صلاه العيدين؟!

أول من رأى الجميع بين الأختين إحياء لما ذهب إليه عثمان؟!

أول من غير السنّه فى الديات وأدخل فيها ما ليس منها؟!

أول من ترك التكبير فى الصلوات عند كلّ هوى وانتصاب وهى سنّه ثابتة؟!

أول من ترك التلبيه وأمر به خلافاً لعلّى أمير المؤمنين عليه السلام العامل بسنّه الله ورسوله؟!

أول من قدم الخطبه على الصلاه فى العيد لإسماع الناس سبّ على عليه السلام؟! وقد صحّ عن نبى الإسلام: «من سبّ عليّاً فقد سبه، ومن سبه فقد سبه الله».

أول من عصى ربّه بترك حدوده وإقامه سنّته؟! «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

أول من نقض حكم العاهر، وأحیی طقوس الجاهلیة، وخالف دین محمد صلی الله علیه و آله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»؟!

أول من تختم بالسیار؟ فأخذ المروانیه بذلك إلى أن نقله السفاح إلى الیمین فبقی إلى أيام الرشید فنقله إلى الیسار.

أول من سنّ سبّ علیّ وقت به وجعله سنّه جاریه فی خلفه الذین أضاعوا الصلاه وأتبعوا الشهوات، وشوّه خطب المنابر بذلك الحادث النخري؟!

أول من بغى علی إمام وقته وحاربه وقتله وقتل أمّه كبیره من صلحاء الصحابه البدریین وأهل بیعه الشجره الذین رضی الله عنهم ورضوا عنه؟!

أول من أعطى المال لوضع الحدیث وتحریف كتاب الله وكلمته الطیبه عن مواضعها؟!

أول من اشتراط البراءه من علیّ علیه السلام من بايعه فی خلافته الغاشمه أو فی ملكه العضوض؟!

أول من حُمل إليه رأس الصحابيّ العادل عمرو بن الحمق وأدير به فی البلاد؟!

أول من قتل عدول الصحابه الأولین والتابعین لهم بإحسان من عیون الأمه وعبادها ونساکها لمحض ولائهم سید العتره، وقد جعله الله أجر رساله نبیه الخاتم صلی الله علیه و آله؟!

أول من قتل نساء كلّ وإلى أهل بیت النبی وذبح صبیانهم ونهب أموالهم، ومثّل بقتلهم وشتّت شملهم، وفرق جمعهم، واستأصل شأفتهم، ونفاهم عن عقر دورهم، وأبادهم تحت كلّ حجر ومدّر؟!

أول من عبثت به رعیته، وسنّ العمل بالشهادات المزوّره، وسلط ورجال الشرّ والغیّ والجور علی صلحاء أمه محمد صلی الله علیه و آله.

أول من همّ بنقل منبر رسول الله صلی الله علیه و آله عن المدينه المشرفه إلى الشام؟! ولما حرّك المنبر خسفت الشمس فترك.

أول من بدّل الخلافه الإسلامیة إلى شرّ ملك وسلطه سوء؟!

أول من ملك وتجبّر فی الإسلام بلبس الحریر والديباج، وشرب فی آنيه الذهب والفضّه، وركب السروج المحلّاه بهما؟!

أول من سمع الغناء وطرب علیه وأعطى ووصل إليه وهو یرى نفسه أميرالمؤمنین؟!

أول من هتك دين الله باستخلاف جروه الفاجر المستهتر التارك الصلاة؟!!

أول من شنَّ الغارة على مدينه الرسول صلى الله عليه وآله حرم أمن الله، وأخاف أهلها، وما رعى حرمة ذلك الجوار المقدس؟!

إلى جرائم وبوائق تجر الرجل فيها هو السابق الأول إليها.

أصحيح أن مثل هذا الطاغية تصدر فيه كلمه إطراء من مصدر النبوه؟ أو يأتي عن نبي العدل والحق والصدق ما يوهم الشئ عليه؟ لا، لا يمكن ذلك؛

٢ - غيض من فيض فضائع بنى أميه

ذكر أبو الفرج الاصفهاني وهو من مشاهير علماء القرن الرابع الهجري في كتابه المعروف «الآغانى» بعض الأمور العجيبه بشأن بنى أميه، نورد طائفه منها:

١- خالد بن عبدالله القسرى و الى هشام بن عبدالملك على الكوفه كان زنديقا و أمه نصرانيه و كان يولى النصارى و المجوس على المسلمين. (١)

٢- بنى كنيسه لأمه خلف قبله مسجد الكوفه فكان يضرب فيها الناقوس حين يرتفع صوت الأذان (٢).

٣- كان يقول - و العياذ بالله - بأفضليه الخليفه هشام على رسول الله صلى الله عليه وآله و كان يقول بكل وقاحه: و الله لو أمرنى الخليفه لهدمت الكعبه و نقلت حجرها إلى الشام. (٣) و العجيب عزله هشام بعد مدته إثر تعرضه لبنى أميه. (٤)

روى ابن أبى الحديد المعتزلى (٥) فى شرح نهج البلاغه عن أبى عثمان الجاحظ أن بنى هاشم كانوا يفخرون على بنى أميه أنا لم نقم بهذه الأعمال:

أ هدم الكعبه (إشاره لما فعله الحجاج على عهد عبد الملك)

ب - تغيير القبلة (إشاره لصلاه الوليد لغير القبلة ثملا و هو يقول أينما تولوا فثم وجه الله)

ص: ٢١٣

١- ١) الآغانى ٢٢/٢٣. [١]

٢- ٢) الآغانى ٢٢/٢٢. [٢]

٣- ٣) الآغانى ٢٢/٢٥. [٣]

٤- ٤) الآغانى ٢٢/٣٣. [٤]

ج - لم يجعلوا الخليفة أفضل شأنًا من النبي صلى الله عليه وآله (إشاره لما ورد في كتاب الأغاني)

ع - لم يختموا رقاب المسلمين (إشاره إلى ختم بنى أميه لرقاب المسلمين كعييد كما كانوا يختمون الخيل).

ه - لم ينهبوا حرم النبي صلى الله عليه وآله و ينتهكوا حرمة المسلمات (إشاره إلى قصه مسلم بن عقبه الذى إستباح المدينه بأمر يزيد فارتكب فيها من الجرائم ما يعجز القلم عن وصفها).

و قد وجّه معاويه قبل ذلك يسر بن أرتاه ليهجم على المدينه و يطوف فى مسجد النبي صلى الله عليه وآله دعيا الناس لبيعته و قتل من تخلف و هدم بيته و مصادره أمواله.

و نختمت الكلام بما ذكره ابن عساكر - المؤرخ السننى المعروف - فى كتابه تاريخ دمشق أن عبد الله بن حنظله - و أبوه غسيل الملائكه من كبار صحابه النبي صلى الله عليه وآله - خاطب الناس حين أمر يزيد مسلم بن عقبه بالهجوم على المدينه فقال: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ماخرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجاره من السماء - إن رجلا ينكح الأمهات و البنات و الأخوات و يشرب الخمر و يدع الصلاه - و الله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً. (١)

و هنا نقف على عمق كلام أمير المؤمنين عليه السلام «لكل أمه آفه، و آفه هذه الأمه بنو أميه» (٢) و يالهم من جهال أولئك الذين يطرون معاويه و يتغنون بأمجاد بنى أميه رغم هذه الفجائع.

ص: ٢١٤

١-١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٢/١٢٧.

٢-٢) كنز العمال ١١/٣٦٤ ح ٣١٧٥٥.

ومن خطبه له عليه السلام

فى الترهيد من الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض الروايات أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة فى صلاه الجمعة، فأوصى فيها الناس بالزهد فى الدنيا، وقد صور غدرها وتقلب أحوالها بالشكل الذى جعل طلابها يمجونها ولا يركنون إليها؛ ولا سيما أنّه تحدث عن أولئك الذين يذرفون الدمع حزناً على فقد أعزتهم، وآخرين يعزونهم، وطائفه من الناس قد رقدت على فراش المرض تنتظر الموت، بهدف إيقاظهم من غفلتهم وسيطره أهوائهم وهوسهم. فالخطبة موعظه لمرضى القلب من عبده الدنيا.

ص: ٢١٥

١ - ١) سند الخطبة: رواها قبل السيد الرضى (ره) جامع نهج البلاغه زيد بن وهب (وهو من أصحاب أمير المؤمنين على عليه السلام الذى نقل جانباً من خطبه عليه السلام فى كتابه خطب أمير المؤمنين على المنابر فى الجمع والأعياد وغيرهما، وهو أول كتاب صنفه بهذا الشأن) ونقلها عنه المرحوم المحدث النورى فى مستدرک الوسائل باختلاف قليل، ورواها المرحوم الصدوق فى كتابيه معانى الأخبار ومن لا يحضره الفقيه. كما رواها عدد آخر ممن عاش بعد السيد الرضى (ره). (مصادر نهج البلاغه

[١]. (٣/١٩٦)

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يُكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ» .

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه لتتهيى القلوب لسماع الكلمات القادمة فى الوعظ والنصح، فقال عليه السلام: «نحمده على ما كان» فمفهوم هذه العبارة واسع شامل، حيث تشمل النعم التى يفيضها الله سبحانه وتعالى على العباد، كما تشمل الحوادث المريره والأليمه. وذلك لأنَّ خاصه عباد الله تعد كل ما صدر من الله نعمه ورحمه، فترى عليها شكره على كل حال.

ثم قال عليه السلام: «ونستعينه من أمرنا على ما يكون»، فمن الطبيعى أن يكون الحمد والثناء على الماضى، والاستعانه على المستقبل، وهذا هو ديدن العباد المخلصين الذى يكمن فى شكر البارئ على ما كان والاستعانه به على ما يكون.

ثم قال عليه السلام: «ونسأله المعافاه فى الأديان، كما نسأله المعافاه فى الأبدان»، فالعبارة إشاره إلى نقطه لطيفه وهى أنّ الناس لو أولوا سلامه دينهم ذات الأهميه التى يولونها لسلامه ابدانهم وديناهم، لأخذوا العافيه بطرفيها ونجوا. إلّا أنّ المؤسف له أنّ الإنسان قد يتعرض إلى مرض بسيط فتراه يراجع عدداً من الأحياء، بينما لا- يتجه إلى طبيب واحد حتى لو أصابته عشرات الأمراض الروحيه والأخلاقية الخطيره.

هذا وقد أورد بعض شراح نهج البلاغه عن بعض المفكرين قوله لو سكبت عشر هذه الدموع التى تسكب على البطون الجائعه والأبدان العاربه على الأرواح الجائعه للمعرفه

والعاريه من الفضائل لزال كل هذا الجوع والعري البدني، كما زال كل هذا الجوع والعري المعنوي. (١)

جدير بالذكر أن الأديان بصيغه الجمع إشاره إلى تدين أفراد البشر، لامختلف الأديان، على غرار الأبدان جمع البدن.

ص: ٢١٨

١-١ شرح نهج البلاغه العلامة الجعفرى ١٨/٩.

«عِبَادَ اللَّهِ، أَوْصِيَكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُنْبَلِيَةَ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَيْفٍ، سَيْلَكُمْ سَيْبًا فَكَأَنَّكُمْ قَدْ قَطَعْتُمْ، وَأَمَّا عَلَمًا فَكَأَنَّكُمْ قَدْ بَلَّغْتُمْ. وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءٌ مِنْ لَهُ يَوْمٌ لَا يَعِيدُوهُ، وَطَالِبٌ حَيْثُ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْمًا! فَلَمَّا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلَا تَعْجَبُوا بِزَيْنَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا تَعْزَعُوا مِنْ ضَرَائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ، وَإِنْ زَيْنَتِهَا وَنَعِيمِهَا إِلَى زَوَالٍ، وَضَرَاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ» .

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله وأثنى عليه شرع في هذا المقطع من الخطبة حث الناس على الزهد في هذه الدنيا بعبارات نافذة مؤثره، إلى جانب تصويره لتفاهه هذه الدنيا فقال عليه السلام: «عباد الله أوصيكم بالرفض (1) لهذه الدنيا التاركة لكم وان لم تحبوا تركها» .

ويالها من فاجعه ان يسعى الإنسان بكل كيانه وذاته نحو معشوق يسعى بكل ما أوتي من قوه للهروب منه! فقد قال عليه السلام: إذا كانت الدنيا تاركة لكم فاتركوها، وان شق ذلك على

ص: ٢١٩

١-١) «رفض» تعنى فى الأصل ترك الشىء، ومن هنا سميت الشيعة بالرافضة لتركها الخلفاء الثلاثة، وقيل استعملت هذه المفردة لأول مره على عهد زيد بن على، حيث نهاهم زيد عن سب الشيخين، ولهذا تركوه.

أهوائكم ورغباتكم، وذلك امتثالاً لقوله سبحانه: «وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» (١)، فلعل هناك بعض الأمور التي تبدو حسنه الظاهر يجيها الإنسان، بينما تستبطن السم الزعاف.

ثم قال عليه السلام: «والمبليه (٢) لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها» .

فكل فرد يلاحظ على نفسه آثار العجز والتعب بمرور الزمان من قبيل ذهاب النشاط والحيويه وذبول الجلد وضعف العظام وضعف البصر وتقل السمع وتمتمه اللسان وانحناء الظهر وضعف العضلات والاعصاب وما إلى ذلك من الأمور التي تؤرق الإنسان وتجعله يشعر بالاسى والحزن. ومن هنا يسعى احياناً وبشتى الوسائل لا استعاده حيويته ولكن هل يصلح العطار ما أفسد الدهر، طبعاً قد يحقق بعض النجاحات الطفيفه فى هذا المجال، إلّا أنّ هناك مسيره لابدّ له من اجتيازها والوصول إلى مصيره المحتوم، فهل من الصحيح أن يولى الإنسان ظهره لكل هذه الأمور ويتعلق بالدنيا؟! الجدير بالذكر أن الدنيا لا تبلى الكائنات الحيه ولاسيما بدن الإنسان فحسب، بل يشمل هذا القانون عالم ماده برتمه من المجرات حتى الذرات. بل حتى هذه الشمس المشرقه التى تبعث بأشعتها إلى كل مكان إنّما تبلى بالتدريج حتى تنتهى يوماً إلى الزوال؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم «تكوير الشمس» وأيده العلم الحديث.

ثم قال عليه السلام: «فانما مثلكم ومثلها كسفر (٣) سلكوا سبيلاً فكأنّهم قد قطعوه، وأموا (٤) علماً فكأنّهم قد بلغوه، وكم عسى المجرى (٥) إلى الغايه أن يجرى إليها حتى يبلغها» .

ثم أكد ذلك عليه السلام بقوله، كيف يمكن أن يؤمل البقاء من كان له يوم لا بدّ من بلوغه ولا يمكنه تجاوزه، والموت يجرى خلفه ليسوقه إلى حتفه وان كان كارها: «وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث (٦) من الموت يحدوه (٧)، ومزعج (٨) فى الدنيا حتى يفارقها رغماً (٩)» .

ص: ٢٢٠

١-١ (١) سورة البقره/٢١٦. [١]

٢-٢ (٢) «مبليه» من ماده «بلاء» منهكه.

٣-٣ (٣) «سفر» جمع «مسافر» بمعنى مسافر.

٤-٤ (٤) «أموا» من ماده «أم» على وزن غم القصد.

٥-٥ (٥) «مجرى» من ماده «اجراء» كناية عن المسافر، وقد وردت فى تفسيره عدّه أقوال، الأنسب ما أوردناه فى المتن.

٦-٦ (٦) «حثيث» من ماده «حث» بفتح الحاء السرعة فى العمل.

٧-٧ (٧) «يحدوه» من ماده «حدى» يسوق.

٨-٨ (٨) «مزعج» من ماده «ازعاج» السوق والاضطراب والاجتثاث.

٩-٩ (٩) «رغم» بمعنى الاجبار، ومنه تمريرغ الأنف بالتراب حين يضاف للأنف فيقال رغم أنفه.

فالعبارات بمجموعها تكشف النقاب عن ذات الحقيقه وهى تقلب الدنيا وانعدام قيمتها؛ الحقيقه التى يغفلها أغلب الناس، فتقودهم هذه الغفله إلى البؤس والشقاء والحرمان من السعاده.

ثم يخلص الإمام عليه السلام من هذا البحث بشأن تفاهه الدنيا إلى نتيجته ينبغى أن يبلغها الجميع، وهى مادامت الدنيا كذلك فلا ينبغى اضاعه الجهود من أجل الحصول على مفاخرها الزائفه وعزتها الموهومه، كما لا ينبغى الانخداع بزینتها وزخارفها الزائله، ولا-ينبغى الشعور بالامتعاض والغصه على آلامها وأحزانها: «فلا تنافسوا (١) فى عز الدنيا وفخرها، ولا- تعجبوا بزینتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضررائها وبؤسها» .

وذلك لأنّ فخرها آيل إلى الزوال ونعمتها إلى الفناء، وآلامها إلى انقضاء «فان عزها وفخرها إلى انقطاع، وان زینتها ونعيمها إلى زوال، وضرائها ويؤسها إلى نفاذ (٢)، كل مده فيها إلى انتهاء، وكل حى إلى فناء» .

فقد ركز الإمام عليه السلام فى هذه العبارات الرائعه على عزه الدنيا وفخرها ونعمها وزینتها وآلامها ومصائبها، ليرى فناء كل شىء فيها وزواله، ثم عرض لقانون كلى إلى أنّ كل عز فيها إلى انقطاع وزينه ونعيم إلى زوال وضرء وبؤس إلى نفاذ وكل مده فيها إلى انتهاء، وكل حى فيها إلى فناء؛ فاذا كان الأمر كذلك فما معنى كل هذا النزاع والتنافس والجزع؟! فقد صرح أحد شراح نهج البلاغه بأن الماضين قد ذهبوا وأصبحوا ترابا واننا لنطى ترابهم ثم نكون مثلهم، ثم يعبر علينا الآخرون من بعدنا. ومع كل هذا لا نفيق من غفلتنا!! وما أروع حديث الإمام الباقر عليه السلام الذى شبه نعم الدنيا بالمال الذى يراه النائم فان نهض من نومه لم ير شيئا: «أو كمال وجدته فى منامك، فاستيقظت وليس معك منه شىء» (٣).

أو كما صورها الشاعر: ألا إنّما الدنيا كمنزل راكب أناخ عشياً وهو فى الصبح راحل

وكل شباب، أو جديد إلى البلاء وكل امرء يوماً إلى الله صائر

ص: ٢٢١

١-١) «تنافسوا» من ماده «تنافس» بمعنى بذل الجهد والسعى، ومحاولة شخصين او مجموعتين للحصول على شىء نفيس.

٢-٢) نفاذ بمعنى الفناء والزوال.

٣-٣) بحار الانوار ٧٠/٣٦. [١]

«أُولَئِكَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجِرٌ، وَفِي آيَاتِكُمُ الْمَاضِيْنَ تَبَصُّرَةٌ وَمُعْتَبِرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ! أَوْلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِيْنَ مِنْكُمْ لَازِرِجُونَ، وَإِلَى الْخَلْفِ الْبَاقِيْنَ لَا يَبْقُونَ! أَوْلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ عَلَى أَحْوَالِ شَيْءٍ: فَمَيِّتٌ يُبْكِي، وَآخِرٌ يُعْزِي، وَصَيْرِيْعٌ مُبْتَلَى، وَعَايِدٌ يَعُوْدُ، وَآخِرٌ بِنَفْسِهِ يَجُوْدُ، وَطَالِبٌ لِّلدُّنْيَا وَالْمَوْتِ يَطْلُبُهُ، وَعَافِيْلٌ وَلَيْسَ بِمَعْفُوْلٍ عَنْهُ؛ وَعَلَى أَثْرِ الْمَاضِيْ مَا يَمْضِي الْبَاقِي!». .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام هذا المعلم الرباني العظيم كلامه السابق من أجل نفي القبطه في هذه الأرواح التي تعيش السبات والغفلة من خلال للدنيا وتقلب أحوالها فقال عليه السلام: «أوليس لكم في آثار الأولين مزدجر (1)، وفي آباءكم الماضين تبصره ومعتبر، ان كنتم تعقلون» .

ثم وضع عليه السلام هذه العبارة بقوله: «أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون» .

إشاره إلى قانون الموت والفناء؛ القانون العام الشامل الذي ليس فيه أي إستثناء، فمن ذهب لا يعود، ومن بقي فهو سائر اثر تلك القافلة إلى الزوال وعدم العوده. مع هذا الفارق وهو أنّ البعض في الصفوف المقدمه والبعض الآخر في الصفوف المؤخره؛ على غرار عباراته التي

ص: ٢٢٣

(١-١) مزدجر من ماده زجر المانع، مصدر ميمي بمعنى اسم الفاعل.

خاطب بها الأموات ممن دفنوا ظهر الكوفه: «أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق» (١).

ثم خاض عليه السلام في بيان هذا الكلام بعبارات أدق وأوضح و تحليل دقيق و بليغ بعد أن قسم أحوال أهل الدنيا في مصابهم بالحوادث إلى سبعة أقسام ليقول: «أولستم نزون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال مشتى: فميت يبكى، وآخر يعزى، وصريح مبتلى، وعائد (٢) يعود، وآخر بنفسه يجود (٣)، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه؛ وعلى أثر الماضي ما يمضى الباقي» .

يا لها من عبارات رائعة وشامله عظيمه التأثير إذا استطاع الإنسان أن يتمثل صورها للناس وهم يتحركون؛ فهذا يموت ويبكى عليه، وهنالك مجلس للغزاء تتوافد عليه الناس جماعات ليعزوا ذوى الفقيده. وهناك من رقد على فراش المرض وقد عاده جمع من الاخوه والأصدقاء. وهناك من يعالج سكرات الموت ويحتضر وليس لأحد أن يفعل له شيئاً. وهناك صوره أخرى يطالعك فيها الناس وهم يسارعون في الركض والحركه دون الالتفات إلى الحلال والحرام والمشروع والممنوع بغيه الحصول على شىء من حطام الدنيا؛ بينما كمن لهم الموت فى الطريق؛ وإذا به يباغتهم ليقضى على جميع آمالهم وأحلامهم. وبالتالي هناك فئه غافله مشغوله بالدائند العيش وسكر النعم والفرح والسرور دون أن تلتفت إلى الموت الذى ينتظرها؛ فاذا هجم الموت على أحدهم أحال فرحهم حزناً وغماً.

هذه هى صور الحياه السائده طيله تاريخ البشرىه وستكون كذلك، ويا لها من صور تنطوى على الدروس والعبر، إلا أن القله القليله من تعتبر.

ص: ٢٢٤

١- (١) نهج البلاغه، كلمات القصار ١٣٠.

٢- (٢) «عائد» من يذهب لعباده أحد.

٣- (٣) «يجود» من ماده «جود» السخاء، وتستعمل فى الاحتضار وكأن الإنسان يسخو بانفس ما لديه وهى روحه.

«أَلَا فَادْذُكُرُوا هَادِمَ اللَّذَاتِ، وَمُنْغَصَّ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعِ الْأُمْنِيَّاتِ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَاسْتَعِينُوا اللَّهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لِيُحْصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعْمِهِ وَإِحْسَانِهِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في ختام هذه الخطبة الفصيحة والبلغه النافذه إلى نقطتين تكملان البحث السابق:

الاولى: الإشارة إلى الموت الذى يدعو ذكره إلى يقظه الإنسان من سباته وغفلته: «ألا- فاذكروا هادم اللذات، ومنغص (١) الشهوات، وقاطع الامنيات، عند المساورة (٢) للأعمال القبيحة» .

فقد وصف الإمام عليه السلام الموت هنا بثلاث: الأول: أنه هادم اللذات؛ لأن أغلب الناس يفنون أعمارهم ليوفرا لأنفسهم العيش الهنيئ واللذيد، بالضبط فى الوقت الذى تهجم فيه الأمراض على الإنسان وترديه ميتاً. أضف إلى ذلك كثيراً ما تشاهد مجالس السرور واللذذ وقد تعكرت وتبدلت عزاء إثر بعض الحوادث، والعجيب ليس هنالك من ضمانه لأحد بعدم وقوع هذه الحوادث.

ص: ٢٢٥

١ - ١) «منغص» من ماده «نغص» على وزن نقص بمعنى ليس عذب، وبمعنى اعتراض الماء فى الحلق، ثم اطلقت على الحياه الصعيه ونحو ذلك.

٢ - ٢) «مساوره» من ماده «سور» على وزن غور الموائبه، كأنه يرى العمل القبيح لبعده عن ملاءمه الطبع الإنسانى بالخطره ينفر عن مقترفه كما ينفر الوحش، فلا يصل إليه المغبون إلا بالوثبه عليه.

الثانى: منغص الشهوات؛ لأن الموت - الذى ليس له من زمان معين ولا- يمكن التكهن به قط - يهجم على الإنسان فى تلك اللحظة التى ينعم فيها بالشهوات.

الثالث: قاطع الامنيات؛ فامانى الإنسان كثيره طويله لاتعرف الحدود ولا يقطعها ويعطلها سوى الموت. فهذه العبارات على درجه من القوه. بحيث تؤثر على كل إنسان. و الرائع أنه قال «الافاذكروا هادم اللذات. . . عند المساوره للأعمال القبيحه» إشاره إلى أن القبائح كثيرا ما تتزين بحيث يهجم عليها الإنسان كالوحش الذى ينقض على فريسته - ففى هذه اللحظه يمكن أن يصدده عن ذلك ذكر الموت.

ثم أوصى عليه السلام بذكر نعم الله التى تحول دون ارتكاب الذنوب على أنها العامل الثانى الذى يصد عن المعاصى «واستعينوا الله على أداء واجب حقه، وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحاسنه» .

فشكر المنعم لا يؤدي إلى معرفه الله فحسب، بل يلعب دوراً مباشراً فى دفع الإنسان لاداء الواجبات وترك المحرمات.

تأملان

١ - خداع الدنيا محدود

يزعم أغلب الناس أن الدنيا خادعه بزيتها وزخرفها؛ وقد أشير إلى هذا المعنى فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه. إلّا أننا إذا فكرنا بصورة سليمه لتوصلنا إلى أنّ هذا الخداع إنّما يطيل السذج والحمقى من الناس. وهذا ما أورده الإمام عليه السلام حيث صور الدنيا وقد ملئت بحوادث الغدر والخيانه والتنكر والتقلب. كما حفلت بالآف الصور التى تبعث على الاعتبار من قبيل المرض والموت والعزاء والحوادث الاليمه وماشاكل ذلك، فهل خادعه هى الدنيا وهى بهذه الصفات.

ومن هنا قال عليه السلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا، أيها الذام للدنيا، المغتر بغورها، المخدوع بأباطيلها! أتغتر بالدنيا ثم تدمها؟ أنت المتجرم عليها، أم هى المتجرمه عليك؟ متى استهوتك، أم متى غرتك؟ أبمصارع آباءك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم عللت بكفيك،

وكم مرضت بيديك! تبتغى لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداه لا يغنى عنهم دواؤك، ولا يجدى عليهم بكاؤك. (١)

كما قال عليه السلام: مثل الدنيا كمثل الحيه لين مسها، والسم الناقع فى جوفها، يهوى اليها الغر الجاهل، ويحذرها ذواللب العاقل.

(٢)

٢ - أكيس الناس

ورد فى بعض الروايات سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أكيس المؤمنين؟

فقال صلى الله عليه وآله: «أكيس المؤمنين أكثرهم ذكرا للموت، وأشدهم له استعدادا» (٣).

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله تحت عنوان: «أكيس الناس وأحزمهم» جاء فى آخره: «أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامه الآخرة» (٤).

والدليل على ذلك واضح لأن ذكر الموت وفناء الحياه عامل مهم فى الصد عن الذنوب والمعاصى التى تنشأ عادة من حب الدنيا والتعلق بزخارفها والحرص والطمع الذى ينسى ذكر الموت والآخرة «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْمِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» (٥).

ومن الأمور التى حث عليها الإسلام زياره القبور التى تهدف إلى احترام أرواح الأموات من المؤمنين، إلى جانب كونها من العوامل المهمه فى إيقاظ الإنسان، حيث لا يملك الإنسان هناك سوى الأذعان لهذه الحقيقه. كل فتى وان طالت سلامته لا يدّ يوماً على آله الحدباء محمول

ص: ٢٢٧

١-١ (١) نهج البلاغه، [١] كلمات القصار ١٣١.

١١٩-٢ (٢) نهج البلاغه، [٢] كلمات القصار ١١٩.

١٨٠١٣-٣ (٣) ميزان الحكمه ٣ / ح ١٨٠١٣.

١٨٠١٤-٤ (٤) ميزان الحكمه ٣ / ح ١٨٠١٤.

٦٥/٣ [٣] (٥) -٥) سورة العنكبوت/٦٥.

ومن خطبه له عليه السلام

فى رسول الله وأهل بيته عليه السلام

نظره إلى الخطبه

كما أشرنا فى سند الخطبه فإنّ الإمام عليه السلام خطبها أوائل خلافته. حيث استهلها بحمد الله والثناء عليه، ثم تطرق إلى رساله النبى صلى الله عليه وآله وضروره طاعته واتباعه. ثم أشار عليه السلام إلى بعض الأخبار عنه وعن أهل العراق فقال: فاذا أنتم ألتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به.

ثم يختتم الخطبه بالحديث عن عظمه آل محمد صلى الله عليه وآله وبركتهم واستمرار هدايتهم، و كلما ذهب منهم أحد خلّفه آخر.

ص: ٢٢٩

١ - ١) سند الخطبه، لابن أبى الحديد كلام فى هذه الخطبه يدل على أنّه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغه فقد قال: واعلم أنّ هذه الخطبه خطب بها أمير المؤمنين على عليه السلام فى الجمعه الثالثه من خلافته، وكنى فيها عن مال نفسه، وأعلمهم فيها أنّهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له؛ وهكذا وقع الأمر، فأنّه نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشد اجتماعاً عليه من الشهر الذى قتل فيه عليه السلام. وجاء فى الأخبار أنّه عقد للحسن ابنه عليه السلام على عشره آلاف، ولأبى أيوب الأنصارى على عشره آلاف ولفلان وفلان، حتى اجتمع له مائه ألف سيف، وأخرج مقدمته، أمامه يريد الشام فضربه اللعين ابن ملجم، وكان من أمره ما كان، وانفضت تلك الجموع، وكانت كالغنم فقدت راعيها. (مصادر نهج البلاغه ٢/١٩٨). [١]

«الْحَمْدُ لِلَّهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا، وَيَذِكْرِهِ نَاطِقًا، فَأَدَى أَمِينًا، وَمَضَى رَشِيدًا؛ وَخَلَفَ فِينَا رَايَهُ الْحَقُّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لِحَقَّ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَنْتُمْ لَهُ رِقَابِكُمْ، وَأَشْرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ حَتَّى يُطْلَعَ اللَّهُ لَكُمْ مَنْ يَجْعَلُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرُكُمْ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزَلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتِيهِ، وَتَثْبَتَ الْأُخْرَى، فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبَتَا جَمِيعًا» .

الشرح والتفسير

لاشك أن الهدف الأصلي للخطبة بيان أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله ومقامات أهل بيته عليهم السلام، ولكن وعلى ضوء الحديث المعروف: «أن كل خطبه ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء» (1)، فإن الإمام عليه السلام إستهل كلامه بحمد الله والثناء على والشهادة له بالوحدانية وللرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوه، لتستنير القلوب بهاتين الشهادتين وتتأهب لسماع المطالب القادمة. فقال عليه السلام: «الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجدود يده» .

ص: ٢٣١

فوصف بالله بهذه الصفات هو فى الواقع دليل على تفرده سبحانه بكل حمد وثناء، نعم فهو الجدير بكل مدح وحمد وثناء، كيف لا وقد عم فضله وانتشر جوده وملأت أركان العالم نعمه وآلائه. ولا ينبغى ذلك لمن سواه، فهم عيال على نعمه.

ثم أشار إلى سعه حمده و الثناء عليه قال عليه السلام: «نحمده فى جميع أمورهم، ونستعينه على رعايه حقوقه» .

فالعباره «جميع أمورهم» تفيد أننا لانحمده عند النعم والرفاه والدعه والعافيه فحسب، بل نحمده ونشكره فى البلاء والشده وحين الوقائع الخطيره، وذلك لأنه أولاً: كل ما يفعله الله يتفق والحكمه والمصلحه، حتى المصائب التى تصب علينا إختباراً فهى كفاره لذنوبنا، أو أنها سبب ليقظتنا من نوم الغفله.

وثانياً: أن هذه الحوادث تجعلنا ننال أجر وثواب الصابرين وجزاء الشاكرين وهذه نعمه كبرى.

والعباره «ونستعينه. . .» أى إننا يجب أن نستمد العون منه لطاعته وإمتثال أوامره ورعايه حقوقه، حيث لايسعنا فعل شىء دون عونهم، وهذا ما نردده ليل نهار فى صلواتنا «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ولما فرغ عليه السلام من حمد الله والثناء عليه، شهد الله بالوحدانيه وأن لا- معبود سواه «ونشهد أن لا- إله غيره» . لأننا إذ سلمنا أن النعم منه، فإن العبوديه والطاعه لاتليق الا به سبحانه وبذاته المقدسه.

ثم اتبعها بالشهاده للنبي صلى الله عليه و آله بالنبوه والعبوديه: «وأن محمدا عبده ورسوله» أما تقديم العبوديه على الرساله، فتنفيذ فيها لكافه أنواع الشرك عن المؤمنين، إلى جانب كون مقام العبوديه أفضل وأسمى من مقام النبوه! لأن العبد الكامل المخلص لله يرى تمام وجوده لله، فلايفكر فى سواه ولايرجو غيره، وهذا بحد ذاته أوج تكامل الإنسان الذى ليس بعده من مقام. ثم أشار عليه السلام إلى بعض صفات النبي الأكرم صلى الله عليه و آله فى أنه صدح بالحق، وأدى رسالته بكل أمانه حتى مضى إلى ربّه بعد أن ثبت دعائم الحق: «أرسله بأمره صادعاً، (1)وبذكره ناطقاً،

ص: ٢٣٢

١- ١) «صادع» من ماده «صدع» فالقابه، كما وردت هذه المفرده بمعنى الاظهار والاعلان، حيث يظهر باطن الشىء عند فلقه وهذا ما اريد بها فى العباره، وأما «الصداع» الذى يطلق على وجع الرأس فكأنه يريد أن يفلقه.

فأدى أميناً، ومضى رشيداً؛ وخلف فينا رايه الحق» .

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى الخدمات الجليلة التي أسداها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إلى جانب ابلاغه لأوامر الحق ونواهيه، كما شرح من جانب آخر كل ما يلزم لمعرفة الله سبحانه، وأنه صلى الله عليه وآله كان أميناً في قيامه بهذه المهمة في أداء الرسالة، كما عمل صلى الله عليه وآله بما قال ليكون للأخرى أسوة صالحه، كما كان حريصاً على الأجيال القادمة فنصب لهم رايه الحق، حيث خلف في الأمة كتاب الله وسنته.

واختلف الشراح في تفسير المراد بقوله: «رايه الحق» فذهب البعض الر أن المراد به القرآن الكريم، وقيل الكتاب والسنة، كما فسر بالكتاب والعترة اللذان وردا في حديث الثقلين.

إلّا أنّ تفسيرها بالكتاب والسنة (لأنّ الكتاب دعا إلى السنة) أنسب بالنظر لتصدر الكلام بالعبارة: «دليلها مكيبث الكلام» .

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «من تقدمها مرق (١)، ومن تخلف عنها زهق (٢) ومن لزمها لحق» .

فالعبارة تشير إلى كيفية التعامل الطوائف الثلاث من الناس مع الحق: طائفه مفرطه تتقدم على الحق فتصيبها الحيره والضلال كالخوارج الذين ذهب بهم الظنون بأنهم إنّما يعملون بالقرآن فتقدموا على إمام زمانهم فعاشوا بحماقتهم ذلك التناقض، أو كأولئك الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فرأوه أفطر حين سافر فزعموا أنّهم لا يفطرون رعايه طرحه شهر رمضان حتى تسموا بالعصاه (٣) الطائفه الثانيه من أهل التفريط الذين يتقدمون بضع خطوات في الحق ثم تحول أهوائهم وضعفهم دون مواصله الطريق.

والطائفه الثالثه الملازمه للحق التي لا تتقدم عليه ولا تتخلف عنه؛ فهي تتحرك دائماً في ضل الحق حتى تبلغ أهدافها. (٤)

ص: ٢٣٣

١ - ١) «مرق» من ماده «مروق» على وزن غروب الخروج عن الدين، ومن هنا اطلق الخوارج على تلك الفرقة التي خرجت عن الإيمان.

٢ - ٢) «زهق» من ماده «زهوق» الاضمحلال والهلكه.

٣ - ٣) وسائل الشيعه ٧/١٢٥، ح ٧ (ابواب من يصح منه الصوم) .

٤ - ٤) يمكن أن يكون مفعول لحق كتاب الله أو رسول الله أو الحق أو جميعها.

ثم قال عليه السلام: «دليلها مكيث (١) الكلام، بطييء القيام، سريع إذا قام» .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: هل المراد بالدليل فى العبارة حامل الرايه؟ أم الشخص الذى يتحرك فى مقدمه العسكر والعارف بالطريق الذى يهدى الآخرين إلى جاده الصواب؟

يبدو الاحتمال الأول هو الاقوى، لأنّ حامل الرايه ينهض بمسؤوليه الهدايه أيضاً، والعسكر مكلف باتباعه أينما حل.

على كل حال فقد صرح أغلب شرّاح نهج البلاغه أنّ المراد به شخص أمير المؤمنين عليه السلام أو جميع أهل البيت عليهم السلام؛ فقد قرنوا عليه السلام - حسب حديث الثقلين - بالقرآن وأنهم لن يفترقوا عنه أبداً، حيث جاء فى الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وعترتى أهل بيتى وقد نبأنى اللطيف الخبير أنّها لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» .

وأمرالمؤمنين على عليه السلام من قال له رسول الله صلى الله عليه و آله حسب مصادر الفريقين: «انت مع الحق والحق معك حيثما دار» (٢).

فقد كان عليه السلام القرآن الناطق ومبين سنه رسول الله صلى الله عليه و آله.

والعبارة «مكيث الكلام» لا تعنى أنّه قليل الكلام؛ بل تعنى تريثه فى الكلام، وبعباره أخرى أنّه رزين فى كلامه فلا يبادر من غير رويه. والعبارة «بطيئى القيام، سريع إذا قام» تأكيد لهذا المعنى وهو أنّ أعماله هى الاخرى رزينه كأقواله، فلا يعجل فى قيامه بالأعمال، ولكن إذا حان العمل لم يفوت الفرصه، فيقدم عليه بكل صرامه دون أدنى ترديد. والحق أنّ من عرف

ص: ٢٣٤

١ - ١) «مكيث» من ماده «مكث» الرزين فى قوله فلا يبادر من غير رويه فى قوله وعمله.

٢ - ٢) نقل هذه الحديث عن أم سلمه بطرق مختلفه عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. ومن ذلك نقله ابن عساكر فى تاريخ دمشق وأبوبكر البغدادي فى تاريخ بغداد والحموى فى فرائد السمطين. وجاء فى صحيح الترمذى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال «اللهم أدر الحق معه حيثما دار» (للقوف على تفاصيل هذا الحديث راجع كتاب احقاق الحق ٥/٦٢٣ [١] والغدير ٣/١٧٦). [٢] والطريف مانقله الفخر الرازى فى تفسير سوره الحمد فى مورد الجهر بالبسملة عن البيهقى عن أبى هريره ان رسول الله صلى الله عليه و آله كان يجهر بالبسملة، ثم قال: كما كان يجهر بها عمر وابن عباس وعبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبير أمّا على عليه السلام فقد ثبت بالتواتر أنّه كان يجهر بالبسملة دائماً، فمن اقتدى به فى دينه هدى إلى الحق والدليل على ذلك حديث النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «اللهم أدر الحق مع على حيث دار» (تفسير الفخر الرازى ١/٢٠٤ - ٢٠٥).

سيره أمير المؤمنين على عليه السلام يذعن بهذه الصفات التي انطوت عليها شخصيته. فقد تواتر عليه بعض الأفراد بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وناشدوه القيام؛ إلا أنه لم يجبههم بسبب عدم توفر الشرائط اللازمة إلى جانب خشيته من الأعداء المتربصين بالإسلام، بينما نهض بالأمر لما تغيرت الظروف.

وهناك شواهد أخرى كثيرة وردت في كلماته عليه السلام بهذا الشأن (1).

ثم قال عليه السلام: «فاذا أنتم أنتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به» .

إشاره إلى أنه يعاني الأمرين حتى يجمعكم تحت رايته، وتسلمون لإمامته بحيث تشيرون إليه من كل جانب، ولكن ما أن تتمهد مقومات الاتحاد وعناصر النصر والغلبة حتى تأخذه يد القدر منكم فتتفرقون ثانيه ويتسلط عليكم الأعداء.

ولعل العبارة إشارة لما أوردناه سابقاً في سند الخطبة في أن الناس اجتمعوا على الإمام عليه السلام في الشهر الذي قتل فيه بحيث اجتمع له مائة الف سيف، عقد كل عشرة آلاف لرجل، فخرج عليه السلام يريد الشام، فحال ابن ملجم بينه وبين ذلك. إلا أن بعض شراح نهج البلاغة فسروها بعصره عليه السلام، إلا أن هذا التفسير يبدو بعيداً، وذلك لأن العبارات قبل هذه الجملة تفيد خلاف هذا المعنى، ولا سيما أن الخطبة بعد خلافه عليه السلام وفيها اشارات إلى المستقبل.

ثم حاول الإمام عليه السلام الحيلولة دون شعور أصحابه باليأس، فبشرهم بالنصر القادم قائلاً: «فليتتم بعده ما شاء الله حتى يطلع الله لكم من يجمعكم، ويضم نشركم» .

أمّا من المقصود بهذا القيام؟ فقد أورد الشراح احتمالين: أحدهما: أن يكون المراد قيام الإمام المهدي عليه السلام، والآخر قيام بنى العباس الذي أنهى حكمه بنى أمية واجتث جذور ظلمهم وفسادهم، وان ما رسوا بدورهم نوعاً آخر من الجرائم والجنایات. ويبدو الاحتمال الأول أنسب، فلم تكن لبنى العباس مثل هذه الجداره في عباراته عليه السلام، كما لم تكن جنایاتهم بحق شيعه على عليه السلام وأهل العراق بأقل من جنایات بنى أمية. أضف إلى ذلك فالكلام في رافع رايه

ص: ٢٣٥

(١-١) راجع شرح الخطبة الخامسة والسادسه من المجلد الأول من هذا الكتاب.

الحق، ومن المسلم به أنّ رايه بنى العباس كانت باطله.

كما قيل فى تفسير العبارة المذكوره أنّ المراد بذلك الاجتماع لأصحابه هو الاجتماع الفكرى والثقافى إلى جانب الاجتماع السياسى والعسكرى، وهو المعنى الذى تحقق على عهد الإمام الباقر والصادق والرضا عليه السلام، والعبارات الأخيره من الخطبه إنّما تؤيد هذا المعنى.

إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً بالنظر إلى عدم انسجام هذا التفسير مع العبارات السابقه التى أشارت إلى الاجتماع السياسى والعسكرى. ولكن على كل حال، فالهدف من هذه العبارة نفى ما يسيطر على الأفكار عاده بعد الهزيمه و هو اليأس و التشاؤم. فوصفها بأنها أمواج عابره و هنالك المستقبل المشرق الذى ينتظر المجتمع الإسلامى. و من هنا ذكر ما يؤيد ذلك.

ثم قال عليه السلام: «فلا تطمعوا فى غير مقبل، ولا تيأسوا من مدبر، فإنّ المدبر عسى أن تنزل به إحدى قائمتيه، وتثبت الأخرى، فترجعا حتى تثبتا جميعاً» .

قالوا هو أنّ الإمام عليه السلام بين قاعدتين كليتين لا بدّ من الاهتمام بهما فى الحوادث الصعبه: الاولى: لا ينبغى التفاؤل المفرط فى مثل هذه الحالات والاعتماد على شىء لم تتوفر بعد مقدماته.

الثانيه: ألا تدعو الهزيمه إلى اليأس والقنوط - فيشبهه الإمام عليه السلام ذلك بمن يتحرك فى جاده فتزل احدى قدميه، فيظن الناس أنّه سقط ولا سبيل إلى قيامه ثانيه، إلّا أنّه سرعان ما يعتمد على قدمه الأخرى فينهض من سقطته ويجد فى الحركة ثانيه.

يناءً على هذا لا ينبغى اليأس عند الحوادث الاجتماعيه الصعبه والاستسلام لمعاناتها، كما لا ينبغى التعلق بالحركات الطائشه.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ سائر الأئمه عليه السلام غير الإمام المهدي عليه السلام هم المرادون بقوله «غير مقبل»، وأنّ قوله عليه السلام لا تطمعوا فى غير مقبل، إشاره إلى الشرائط اللازمه لقيامهم عليه السلام ليست متوفره، ومدبر إشاره إلى الإمام المهدي عليه السلام فلا ينبغى اليأس من ظهوره فى أى زمان.

إلّا أنّ هذا التفسير لا ينسجم قط والعبارات فى آخر هذا المقطع من الخطبه؛ لأنّ زلل القدم

والاعتماد على الأخرى لا ينطبق عليه عليه السلام إلّا بتكلف شديد.

اضافه إلى أنّ التعبير بمقبل ومدبر بصيغه التنكير يدل على أنّ المراد بيان قاعده كليه، لا الإشاره إلى مصداق شخصي، وإلّا كان من المناسب تحليلتها بالالف واللام.

تأملان

١ - أولياء الله

إنّ الخصائص التي ذكرها الإمام عليه السلام بحقه بصوره غير مباشره في العبارة المذكوره، هي في الواقع إشاره إلى الصفات التي ينبغي أن يشتمل عليها كل زعيم رباني مدير ومدبر:

الأول: لا بدّ أن يكون رزيناً في كلامه إلى جانب التريث والتروي قبل المبادره. كما ورد ذلك في ما روى عن أميرالمومنين عليه السلام قوله «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه». (١)

فالعاقل يفكر أولاً ثم يتكلم، أمّا الأحمق فهو يتكلم ثم يفكر.

الثاني: أعماله هي الأخرى رزينه كأقواله، فهو يفكر في عواقب العمل، فإذا احاط به وعرفه أقدم عليه دون تردد - فقد جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك خيراً ورشداً فاتبعه، وإن يك غياً فاجتنبه» (٢).

٢ - الفشل قنطره النجاح

هناك من يشعر باليأس لأدنى حادثه صعبه، فيما رس بعض ردود الفعل الساذجه، ومثل هذا اليأس يحول دون القيام بالأنشطه والمواقف المطلوبه مستقبلاً؛ الأنشطه التي قد تحيل النشل نجاحاً والهزيمه نصراً. والالتفات إلى أمرين مهمين أوردتهما الإمام عليه السلام في الخطبه من شأنه أن يعالج هذه المواقف السلبيه.

الأول: إجتنا الاستعجال في الأعمال والتعويل على ما لم تتوفر مقدماته، الثاني: عدم

ص: ٢٣٧

١-١) نهج البلاغه، الكلمه ٤٠.

٢-٢) شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي ٧/١٥٩.

اليأس من جراء بعض الاخفاقات المرحليه؛ لأنّ الاخفاق يتحول إلى نجاح بالتجارب.

أضف إلى ذلك فإنّ الألفاظ الإلهيه قد تشمل الإنسان وتهمد له كل أسباب النجاح ومقومات النصر. فقد ورد عن أميرالمؤمنين على عليه السلام طبق روايه الشيخ الصدوق في الامالى أنّه قال «كن لما لاترجو أرجى منك لما ترجو» ، ثم يوضح ذلك عليه السلام بذكر ثلاثه نماذج رائعه بقوله أنّ موسى بن عمران خرج يلتمس لاهله ناراً فعاد نبياً، كما قدمت ملكه سبأ للقاء نبي الله سليمان عليه السلام فأسلمت وآمنت، كما خرج السحره يبغون العزه لفرعون فانقلبوا مؤمنين بالله وبموسى عليه السلام. (1)

ص: ٢٣٨

١-١) امالى الصدوق / ١٥٠/ ح ٧. [١]

«أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلْتُمْ مِنَ اللَّهِ فِيكُمْ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمَلُونَ» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام كافة الناس في آخر الخطبه داعيا اياهم إلى الحركة خلف آل النبي صلى الله عليه وآله بصفتهم الكواكب الزاهره، وكلمما غاب كوكب خلفه آخر «ألا- إن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء، إذا خوى (1)نجم طلع نجم» .

ثم قال عليه السلام: «فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع (2)»، وأراكم ما كنتم تأملون» ، فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيره إلى عدّه أمور: منها أنّ آل محمد صلى الله عليه وآله كالنجوم التي قال بشأنها الحكيم في كتابه الكريم: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (3)، كما قال في موضع آخر: «وَهُيَوُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ وَالْبَحْرِ» (4) فالقوافل كانت تهتدى في الصحارى والبحار فى الليالى الظلماء بنجوم السموات، حيث لم يخترع آنذاك البوصله، كما لم تكن الطرق معبده بالشكل الذى هى عليه اليوم.

فالنجاه فى الدنيا والآخرة ونيل السعاده إنّما تتحقق فى ظل هدى آل محمد صلى الله عليه وآله والأمر الآخر أنّ السماء لاتخلو لياليها من النجوم، فاذا غابت نجمه، أشرقت أخرى فى أفقها؛ وهكذا

ص: ٢٣٩

١- ١) «خوى» من ماده «خوى» بمعنى غرب.

٢- ٢) «صنائع» جمع «صنيعه» النعمه والاحسان.

٣- ٣) سوره النحل/١٦. [١]

٤- ٤) سوره الانعام/٩٧. [٢]

أهل البيت عليه السلام إذا رحل امام خلفه آخر حتى يقوم آخرهم المهدي عليه السلام فيملاً الدنيا قسطاً وعدلاً، فالعبارة تفيد اتصال سلسله الإمامه التي تأتي القطع. بعبارة أخرى فإنّ الأرض لا تخلو من حجه الله. والعجيب ما أورده بعض شراح نهج البلاغه كابن أبي الحديد حين بلغ العبارة المذكوره اذ قال: وهذا إشاره إلى المهدي الذي يظهر في آخر الوقت، وعند أصحابنا أنه غير موجود الان وسيوجد ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً.

ولو أمعن هذا القائل في العبارات التي وردت في ذيل الخطبه لوقف على خطأه في ما ذهب إليه؛ ولكن للأسف! فإنّ التعصب قد لايسمح أحياناً بان يلتفت الإنسان إلى القرائن الواضحه.

وأخيراً قال الإمام عليه السلام بأنّ اتباع أهل البيت عليه السلام يؤدي إلى نيل كافة الأمانى وبلوغ جميع النعم، وهذا ما يكشف بدوره عن دور أهل البيت في التكامل الديني والديني في كافة الازمنه، وماذهب إليه بعض الشراح من أنه إشاره إلى زمان ظهور الإمام المهدي عليه السلام فهو كلام يفتقر إلى الدليل.

كما يكمن ان يكون المراد بالعبارة هو أنّ الإمام عليه السلام قال: إنّ الله سبحانه وفرّ لكم كل أسباب السعاده ومنها وجود آل محمد صلى الله عليه وآله.

تأملان

١ - حديث النجوم

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه شأن آل محمد صلى الله عليه وآله وتشبيهم بنجوم السماء، هو في الواقع اقتباس من الحديث النبوي المعروف الذي قال فيه صلى الله عليه وآله: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف» .

رواه الحاكم النيشابوري من علماء العامه في كتاب المستدرك عن ابن عباس وقال: «هذا حديث صحيح الاسناد» (١).

ص: ٢٤٠

(١-١) مستدرك الحاكم ٣/١٤٩ (طبق نقل احقاق الحق ٩/٢٩٤). [١]

كما رواه عدد من محدثي العامه ومنهم الحمويني في فرائد السمطين وابن حجر في الصواعق ومحمد بن صبان في اسعاف الراغبين وغيرهم (١) وقد أفرد المرحوم العلامة المجلسي في بحث الإمامه من كتابه بحار الانوار عنواناً أسماه: «إنهم أمان لأهل الأرض من العذاب»، وقد نقل فيه عدة أحاديث عن طرق أهل البيت، كما صرح قائلاً: رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن النبي صلى الله عليه وآله. (٢)

ومن الواضح أنّ تشبيه أهل البيت عليه السلام بالنجوم يدل على ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبه أيضاً بدليل الدلاله الالتزاميه، لأنّ طبيعه نجوم السماء بهذه الشاكلة إذا غرب أحدها في أفق المغرب، طلع الآخر في أفق المشرق - أضف إلى ذلك فان التعبير بأمّتي تفيد أن جميع أمّه النبي صلى الله عليه وآله على طول الزمان يمكنها أن تهتدى بأهل البيت عليه السلام، وبالنتيجه فانه سيكون هناك إماماً على الدوام من اهل البيت عليه السلام في الأمّه.

٢ - آخر مراحل تكامل النعم الإلهيه

هذه النقطة جديره بالالتفات أيضاً وهي أنّ تكامل النعم الإلهيه في ظل أهل البيت عليه السلام سيكون في كل زمان، إلّا أنّ ذروه كما لها ستكون في عصر ظهر الإمام المهدي عليه السلام أرواحنا فداه.

فقد نقل المرحوم ابن ميثم حديثاً في شرح هذه الخطبه وقال: رأيت حديثاً للإمام عليه السلام يمكنه أن يوضح هذه الخطبه: «يا قوم اعلموا علماً يقيناً، إن الذي يستقبل قائمناً من أمر جاهليتكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليتكم. . . ولعمري لينزعن عنكم قضاه السوء، وليقبضن عنكم المراضين (المرائين) وليعزلن عنكم أمراء الجور، وليطهرن الأرض من كل غاش، وليعلمن فيكم بالعدل، وليقومن فيكم بالقسطاس المستقيم». (٣)

ص: ٢٤١

١- (١) احقاق الحق ٩/٢٩٤ - ٢٩٦. [١]

٢- (٢) بحار الانوار ٢٧/٣٠٨. [٢]

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٣/٩.

ومن خطبه له عليه السلام

وهى إحدى الخطب المشتمله على الملاحم

نظره إلى الخطبه

هذه الخطبه كما ينهم من عنوانها تتحدث بصوره رئيسيه عن الحوادث القادمه، والأخطار التى تهدد المسلمين، خاصه أهل العراق.

الا- أنها تتناول أمرين قبل ذلك: الأول: حمد الله والثناء عليه والشهاده له بالوحدانيه مع ذكر بعض الأمور. والثانى: الاعراب عن القلق من بعض من يسمع كلمات الإمام عليه السلام واخباراته على سبيل الشك والترديد.

ص: ٢٤٣

١ - ١) سند الخطبه: ورد فى كتاب مصادر نهج البلاغه لم تذكر هذه الخطبه فى غير مصدر السيد الرضى (ره)، وأن ذكرت اسناد هذه الخطبه فى نهج البلاغه، طبعه جماعه مدرسى الحوزه للمحقق المرحوم حجه الإسلام الدشتى، غير أنه تبين خطأها بعد الرجوع إلى المصادر الأصلية التى ذكرت فى ذلك الكتاب.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالْآخِرِ، بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوْلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِغْلَانِ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانَ» .

الشرح والتفسير

استهل عليه السلام هذه الخطبه كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهادة له بالوحدانيه، ثم تطرق إلى ذكر صفات الحق سبحانه: «الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر» .

فالإمام عليه السلام انطلق هنا نحو أزليه الله وأبديته سبحانه التي تعد من أهم صفاته وتعود اليها سائر الصفات؛ وذلك لأننا قلنا في بحث الصفات: أن أساس صفاته الجماليه والجلاليه عدم تناهى ذاته المقدسه من جميع الجهات، والازليه والأبديه هي بيان آخر لعدم محدوديه تلك الذات المقدسه.

ثم خاض عليه السلام في بيان الدليل أو وضع ذلك بقوله «وبأوليته وجب أن لا أول له، وبآخريته وجب أن لا آخر له» .

فالعباره تشتمل على نقطه لطيفه وهي أن أوليته سبحانه وتعالى ليست أوليه زمانيه، بل أوليه ذاتيه وبمعنى الأزليه، ومن الواضح أن الذاتى الذى هو أزلى ليس له من أوليه زمانيه. وكذلك آخريته هي الآخري ذاتيه، لا- زمانيه وبمعنى الأبديه، وما كان أبدياً فلا آخر زمانى له.

وقد أورد بعض شراح نهج البلاغه احتمالات أخرى في تفسير هذه العباره لا تنسجم وسائر عبارات الإمام عليه السلام.

ثم شهد لله بالوحدانيه والعبوديه له على مستوى اللسان والقلب: «وأشهد أن لا إله إلا الله شهاده يوافق فيها السر الاعلان، والقلب اللسان» .

فالعبارة تفيد ان الشهاده المطلوبه التى تشمل تمام وجود الإنسان والكيان والتى ينسجم فيها الظاهر والباطن والقلب واللسان.

فالأعم الأغلب يشهد بالوحدانيه لساناً، بينما يعيش الوثنيه والصنميه فى قلبه. وكذلك الكثير ممن يشهد قلباً بهذه الوجدانيه، بينما تخالط الشرك أعمالهم وأفعالهم. فهم يسجدون للمال والمقام ويركعون أمام الشهوات؛ بينما قد يرددون صباح مساء على ألسنتهم أو قلوبهم «لا إله إلا أنت» ، و نعلم أن كل هذا من شعب النفاق، ومثل هؤلاء الأفراد بحق فى زمرة المنافقين.

ص: ٢٤٦

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَمَّا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلَمَّا يَسِيْهِ تَهْوِيْنَكُمْ عَصِيَّيَانِي، وَلَمَّا تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي. فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُتْبِئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مَا كَذَبَ الْمُبْلِغُ، وَلَا جَهْلَ السَّمِيعُ» .

الشرح والتفسير

مهد الإمام عليه السلام في الواقع بكلامه ما أراد أن يورده هنا في إماطه اللثام عن بعض الحوادث الآتية هو عين اليقين والحق الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ولا سبيل إلى مخالفته. وتفيد هذه العبارات أن الإمام عليه السلام قد أخبر سابقاً عن بعض الحوادث فانكرها عليه بعض المنافقين أوضاع الإيمان. فو عظمهم عليه السلام بأن عداى ومخالفتم لى لا تدفعكم إلى مقارفة الذنب، ولا ينبغي أن تسوقكم معصيتكم لى إلى اتباع هوى أنفسكم، فاذا سمعتم ما أقول أنكرتم على «أيها الناس لا يجرمنكم (١) شقاقى (٢)، ولا يستهو ينكم (٣) عصيانى، ولا تتراموا بالأبصار، عند ما تسمعونه منى» .

ومراده عليه السلام أن الحقد والحسد والضغينه تسوق الإنسان فى أغلب الأحيان إلى ارتكاب الذنب والمعصية، فتكون حجاباً على بصره لتمنعه عن رؤيه الحقائق.

ص: ٢٤٧

١- ١) «يجرمن» من ماده «جرم» على وزن جهر (جرم على وزن ظلم، اسم مصدر) تعنى فى الأصل القطع، ولما كان الإثم يقطع صلته بالله، فهذه الكلمه تطلق على الذنب، وعليه لا يجرمنكم بمعنى لا يحملنكم على الذنب.

٢- ٢) «شقاق» فى الأصل تعنى المخالفه والنزاع.

٣- ٣) «يستهو ين» من ماده «هوى» من هوى النفس.

ثم قال عليه السلام: «فو الذى فلق (١) الحبه وبرأ (٢) النسمة (٣) إن الذى أنبئكم به عن النبى الأسمى (٤) صلى الله عليه وآله، ما كذب المبلغ، ولا- جهل السامع» والعبارة التى صدرت بالقسم لمن ابداعات أميرالمؤمنين عليه السلام التى ذكرت لمرات فى خطب نهج البلاغه، حيث يشير إلى نقطه مهمه وهى أن أهم وأعقد مسأله فى نظام عالم الوجود هى مسأله الحياه؛ سواء فى عالم النباتات أوفى عالم البشريه، ورغم الجهود المضنيه التى بذلها الإنسان فى هذا المجال، مازالت هنالك الأسرار التى تختزنها هذه الحياه لم تكتشف بعد. وبناءً على هذا فإنّ الحياه رائعه الخلق و هو الشىء الذى يربطنا تأمله باللّه و يدل على أن هذه الظاهره العجيبه ليست بالشىء الذى انبثق دون علم الله وقدرته، فالاستفاده من هذه الأوصاف حين القسم تجسد مفهوما بارزاً فى الأذهان.

على كل حال فإنّ هدف الإمام عليه السلام طمأنه مخاطبيه إلى أنّ مايقوله بشأن الحوادث المستقبلية لايستند إلى الحدس والتخمين، ولا- من قبيل نبوءات الكهنة، بل هو واقع وحق سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وليس الإمام عليه السلام من يخطىء فى إدراك كلام النبى صلى الله عليه وآله. وعليه فما يقوله هو عين الحقيقه والصواب، واطلاعهم على هذه الأحداث من سبيله الحد من أخطارها.

فقد ورد فى الخبر حين نزلت الآيه الشريفه: «وَتَعَبَّهَا أُذُنٌ وَاَعْيَتْ» (٥).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام: «سألت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا على! قال عليه السلام فما نسيت شيئاً بعد ذلك» (٦).

ص: ٢٤٨

١- ١) «الخلق»: وتأتى أحيانا بمعنى الإبداع والإيجاد والتقدير، وأحيانا بمعنى الابتعاد والبرائه من الشىء. وفى هذه الخطبه جاءت هذه الكلمه بالمعنى الاول.

٢- ٢) «برأ» من ماده «برء» على وزن ظلم وتعنى الصحه وحسن الحال، أى خروج الشخص من حالته الاولى، والتى كان فيها مريضاً إلى حاله جيده وحسنه.

٣- ٣) «نسمه» تعنى فى الأصل هبوب الرياح المعتدله، كما تأتى بمعنى التنفس، ومن هنا تطلق على الإنسان.

٤- ٤) التعبير بالأسمى يطلق على الشخص الذى لا يعرف القراءه والكتابه، أو على الشخص الذى ينسب الى الأم، وهو الذى تعلم فى أحضان أمه ولم يتعلم من غيرها. وهنا نود ان نشير اشاره لطيفه فى هذا المورد، وهى أن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله كان أمياً، ولكنه أخبر عن الماضى والمستقبل، وهذه من علامات ارتباطه بالله سبحانه وتعالى.

٥- ٥) سورة الحاقه/ ١٢. [١]

٦- ٦) كفايه الطالب للكنجى ٤٠/ وردى مثل هذا المعنى أغلب مفسرى العامه كالقرطبى فى تفسير جامع الأحكام والبرسوى فى روح البيان والآلوسى فى روح المعانى، ذيل الآيه ١٢ من سورة الحاقه.

«لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضَلِيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانٍ، فَإِذَا فَعَزَّتْ فَأَغْرَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَثَقَلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطَأَتْهُ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْبَابِهَا، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَيَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كَلُّوْحُهَا، وَمِنْ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا. فَإِذَا أَيْتَعَ زَرْعُهُ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ، وَهَيَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عَمِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضَمَلِهِ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُتَلَطِّمِ. هَذَا، وَكَمْ يَحْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُخَصِّدُ الْقَائِمُ، وَيُحْطَمُ الْمَخْصُودُ!»

الشرح والتفسير

كشف الإمام عليه السلام في هذا الكلام - الذى يمثل فى الواقع جوهر الخطبه - النقاب عن الحوادث المستقبلية الخطيره التى تنتظر أهل العراق، ثم يشرح عليه السلام بعض تفاصيل جزئيات هذه الحوادث المروعه، بغيه أعداد الأمم للحد من أخطارها: «لكأنى أنظر إلى ضليل (1) قد نعق (2) بالشام، وفحص (3) براياته فى ضواحي كوفان» (4).

ص: ٢٤٩

١-١) «ضليل» من ماده «ضلال» الشديد الضلال فهو ضال مضل.

٢-٢) «نعق» من ماده «نعق» على وزن نعل تعنى فى الاصل صوت الفرس، ثم اطلق على الأصوات التى تطلق لحركه الحيوانات و أمرها و نهيبها، و وردت فى العبارة بمعنى أن بنى أميه قد استضعفوا جماعه، يسوقونها كالحيوانات حيثما أرادوا.

٣-٣) «فحص» البحث والتفتيش.

٤-٤) «كوفان» بمعنى الكوفه.

ثم خاض في توضيح هذه الفاجعه الكبرى: «فاذا فغرت (١) فاغرته، واشتدت شكيمته (٢) وثقلت في الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بانيابها، وماجت الحرب بامواجها، وبدا من الايام كلوحها (٣)، ومن الليالى كدوحها (٤)» .

هناك قولان رئيسيان لشراح نهج البلاغه في المراد بالضليل في عباره الإمام عليه السلام:

الأول: أن يكون المراد به معاويه الذى أحكم قبضته على العراق بعد شهاده أميرالمومنين على عليه السلام وصلحه مع الإمام الحسن عليه السلام، وقد نفذ كل ماورد في العبارة عملياً، والثانى: أن يكون المراد به عبدالملك بن مروان الذى سلط ذلك المجرم المعروف الحجاج على الكوفه فسام الناس سوء العذاب وجرعهم أنواع الظلم، ومهما كان فالعبارة إشاره إلى الطغاه من حكام بنى أميه.

والعبارة: «عضت الفتنة أبناءها بانيابها» إشاره إلى أن هذه الفتن ستطيل حتى أولئك الذين يثيرونها! فعاده ماتعصف بهم الاختلافات الداخليه، أو أن يتسلط عليهم أعداؤهم فيذيقونهم أشد العذاب.

ثم قال عليه السلام: «فاذا أينع زرعه وقام على ينعه (٥)، وهدرت شقاشقه (٦)، وبرقت بوارقه، عقدت رايات الفتن المعضله، وأقبلن كالليل المظلم، والبحر الملتطم» .

في إشاره إلى أن حكومه هؤلاء لن تدوم، كما لن يلتذ هؤلاء الضلال الظلمه بفتنهم، وسرعان ما تحيط بهم رايات المخالفين.

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشاره إلى قيام بنى العباس ضد بنى أميه.

ثم اختتم عليه السلام الخطبه بالقول: «هذا، وكم يخرق الكوفه من قاصف، ويمر عليها من

ص: ٢٥٠

١-١) «فغرت» من ماده «فغر» على وزن فقر فتح الضم.

٢-٢) «شكيمه» تعنى فى الاصل الحديده المعترضه فى اللجام فى فم الدابه، ويعبر بقوتها عن شده البأس، ثم اطلقت على كل قوه.

٣-٣) «كلوح» عبوس.

٤-٤) «كدوح» شده السعى والجهد، وتعنى فى الأصل الخدش وأثر الجراحات.

٥-٥) «ينع» بمعنى نضج الفاكهه، ثم اطلق على كل نضج واستعداد لتلقى نتيجه.

٦-٦) «شقاشق» جمع «شقاشقه» شىء كالرئه يخرج البعير من فيه إذا هاج.

عاصف، وعن قليل تلتف القرون بالقرون، ويحصد القائم، ويحطم المحصود» .

والعجيب أن ما تكهن به الإمام عليه السلام في هذه العبارات القصار قد وقع سريعاً، فقد طحنت الكوفة بفتن بنى أميه ومن بعدهم بنى العباس؛ لتصبح هذه المنطقه مركزاً للمختلف الحوادث العنيفه، وكل من كان له أدنى المام بتاريخ الكوفه يدرك بسهولة عمق كلمات الإمام عليه السلام التي أوردتها في هذه الخطبه.

والعباره: «تلتف القرون بالقرون» إشاره إلى الحروب الطاحنه التي خاضها مختلف الأقسام في العراق والكوفه، ولاسيما حروب بنى أميه وبنى العباس.

والعباره: «يحصد القائم، ويحطم المحصود» كنايه لطيفه عن الاضرار والخسائر التي تلحق بالأمة طيله هذه الحوادث. فمن كان قائماً صرع، و من كان مصروعاً تحطم.

أمّا ابن أبي الحديد فقد قال في شرحه للعباره: «يحصد القائم» كنايه عن قتل أمراء بنى أميه في الحرب و «يحطم المحصود» كنايه عن قتل المأسورين منهم صبراً، وهكذا وقعت الحال.

والحق أن ما ذكره ابن أبي الحديد هو بعض مصاديق المفهوم الواسع للعباره المذكوره.

تأملان

١ - الملاحم

ملاحم جمع ملحمة تعنى في الأصل الواقعه المهمه المقرونه بالفتنه، وقد طالعتنا أغلب خطب نهج البلاغه في بعض الموارد التي يتحدث فيها أميرالمومنين على عليه السلام عن الفتن المهمه التي تنتظر الناس، ثم يشرح جزئياتها، ويعلن صراحه أنه سمع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه و آله. ويبدو أن الإمام عليه السلام يهدف شيئين من هذه الأخبار: الأول: حب الإمام عليه السلام للناس الذي يدفعه لاخبارهم بغيه تأهبهم واستعدادهم ليحذروا من أخطار هذه الفتن؛ بالضبط كمن يخبر الآخرين قبل وقوع الزلزال أو السيل؛ وان تعذر منعها، إلّا أنّ العلم المسبق يحد من هذه الاخطار، الثاني: افهامهم أنّ التوانى عن الجهاد والضعف والاختلاف إنّما يقود إلى مثل هذه الحوادث، عليهم يفيقون إلى أنفسهم فيتوبون وينيبون إلى الله.

وسنبحث نظير هذه الأمور في شرحنا للخطب ١٢٨ و ١٣٨ من هذه الكتاب.

لاشك أنّ من له أدنى معلومات مختصره بتأريخ الكوفه، ليعلم أنّ الكوفه من المناطق التي شهدت أفسى الأحداث وأخطرها طيله التأريخ الإسلامى. بعبارة أخرى فان الكوفه كانت مسرحاً لاحداث داميه، وجرائم وجنایات بشعه مارستها بحقها طغاه بنى أميه وبنى العباس، بما يندى لها جبين البشريه حين يتصفح التاريخ.

هذا وقد أوردنا شرحاً مفصلاً فى الخطبه ٢٥ و٤٧ من المجلد الثانى والخطبه ٨٧ من المجلد الثالث بشأن الحوادث البشعه التي تعرضت لها الكوفه، ولا نرى من ضروره لإعادتها.

ومن خطبه له عليه السلام

تجرى هذا المجرى وفيها ذكر يوم القيامه وأحوال الناس المقبله

نظره إلى الخطبه

تتالف هذه الخطبه من قسمين:

القسم الأول: وهو قصير، إشاره إلى الحوادث الصعبه ويوم القيامه، الذى يجمع الله فيه الاولين والاخرين للحساب والثواب والعقاب القسم الثانى: إشاره إلى الفتن المرعبه التى تهجم على الناس كقطع الليل المظلم فتضيق الخناق على الناس، حتى يهب لها جماعه من المجاهدين. ثم يركز الإمام عليه السلام فى كلامه على البصره التى ستكون مسرحا لهذه الفتن.

ص: ٢٥٣

١ - ١) سند الخطبه: لم ترد هذه الخطبه فى المصادر التى الفت قبل السيد الرضى (ره)، ولكن يبدو أنها جزء من الخطبه ١٢٨ التى ستعرض باذن الله لشرحها، إلا أنها ذكرت فى الكتب التى دونت بعد السيد الرضى (ره).

«وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِنَقَاشِ الْحِسَابِ، وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ، خُضُوعاً، قِيَاماً، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَأَحْسَنَهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مَتْسَعاً» .

الشرح والتفسير

كما أوردنا سابقاً أن الإمام عليه السلام أشار في القسم الأول من الخطبه إلى وضع الناس في يوم القيامة بعبارات قصار مؤثره وقد ذكر المميزات المهوله لذلك اليوم.

فقد قال عليه السلام: «وذلك يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب، وجزاء الاعمال، خضوعاً قياماً» .

فالعباره «الأولين» و «الآخرين» تشير إلى حقيقه وهى أن القيامة والحساب سيشمل جميع الناس في يوم واحد، كما ورد ذلك في القرآن الكريم: «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا» (١). وورد في موضع آخر: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» (٢).

والتعبير بالنقاش يفيد الدقه في الحساب حيث تخضع أصغر الأعمال ذلك اليوم للحساب فيعاقب الإنسان أو يثاب عليه.

والتعبير بالخضوع والقيام إشاره إلى أن الناس يوم القيامة كمثل من يحضر في المحكمه ويمثل بين يدي القاضى العادل، حيث تظهر عليه آثار الخوف والخشيه.

ص: ٢٥٥

١-١ (١) سورة مريم/٩٥. [١]

٢-٢ (٢) سورة الواقعة/٤٩ - ٥٠. [٢]

وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى هذه المعاني، ومن ذلك الآية الشريفة: «خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ. . .» (١) والآية «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (٢).

ثم قال عليه السلام: «قد الجمهم العرق، ور جفت (٣) بهم الأرض» .

فهل هذا العرق بسبب حراره محيط المحشر، أم من شدة الخجل، أم كلاهما؟ وهل رجف الأرض بسبب أعمالهم، أم هكذا هي طبيعه محكمه العدل الإلهي، بحيث يشغل الجميع بأنفسهم ويعترفوا بكل ما اقترفوا؟

كيفما كان فالاجواء هناك مرعبه مهوله للغايه.

وقد صرحت الآيات والروايات الإسلاميه بالعوامل التي تدعو إلى الخوف والخشيه في ذلك اليوم (نسأل الله أن يشملنا جميعاً برحمته وألطافه ويجنبنا هلع ذلك اليوم) .

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغه - كديدنهم في سائر الموارد - إلى أن الألفاظ المذكوره كناية عن الأمور الباطنيه والروحيه، والحال ليست هناك آيه قرينه تدعو إلى مثل هذا التأويل - ولو فتح الباب لمثل هذه التأويلات بشأن الآيات والروايات وباب التفسير بالرأى وأن يسطر الإنسان كل ما يفهمه من الآيه والروايه، أو الاسلوب الذي يعتمد به بعض من يتسمى بالانفتاحى والذي يكمن فى القراءات الجديده للآيات والروايات، فمن المسلم به لسوف تزول إصالة المتون الدينيه، ولا يبقى من شىء للاستدلال بالمسائل العقائديه والعلميه.

ثم أشار عليه السلام فى ختام هذا القسم من الخطبه إلى معضله أخرى من معضلات القيامة: «فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً، ولنفسه متسعاً» .

فالعباره تشير إلى زحام الناس وضيق المكان، حيث يفهم من الروايات أن هول المحشر ووحشه حساب الأعمال مسأله عامه تشمل كافه أهل المحشر؛ وذلك لأن خلص عباد الله أيضاً يخشون الحساب! فلهول المحشر عده عوامل، يكمن أحدها فى ضيق المكان الذى ورد فى هذه العبارة.

ص: ٢٥٦

١-١ (١) سورة القمر/٧. [١]

٢-٢ (٢) سورة المطففين/٦.

٣-٣ (٣) «رجف» من ماده «رجف» على وزن ربط تعنى الاضطراب، ولما كانت أخبار الفتن تدعو لاضطراب المجتمع فقد اصطلح عليها بالاراجيف.

ومنها:

«فِتْنٌ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَرْمُومَةً مَرْحُولَةً: يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلْبُهُمْ، قَلِيلٌ سَيْلَبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَوْمٌ أَذَلَّهُ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ. فَوَيْلٌ لَكَ يَا بَصْرَةَ عِنْدَ ذَلِكَ، مِنْ جَيْشٍ مَنْ نَقِمَ اللَّهُ! لَا رَهَجَ لَهُ، وَلَا حَسَّ، وَسَيَبْتَلِي أَهْلَكَ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ، وَالْجُوعِ الْأَغْبَرِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام من الخطبه إلى فتنه أخرى تنتظر أهل العراق ولا سيما البصره، لعل الأُمَّه تستعد للدفاع وتقلل من خسائرها في هذه الفتنه، وكذلك تخشى العقاب الإلهي الذي يتمثل أحياناً بظهور الفتن فلا تحيد عن الطريق وتلتزم بدينها. فقد وصف عليه السلام هذه الفتن بأنها كقطع [\(1\)](#) الليل المظلم، والتي لا يسع أحد الوقوف برجها والتغلب عليها «فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمه، ولا ترد لها رايه» .

في إشاره إلى أنّ مشيرى هذه الفتن يردون الميدان بكل قوه واقتدار فيأتون على كل ما يقف في طريقهم.

ص: ٢٥٧

(١ - ١) «قطع» جمع «قطعه» ولعله إشاره إلى بعض أقسام الليل كنصفه، أو الوقت الذي فيه القمر، كما فسره البعض بالظلمه.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بتشبيه هذه الفتن بالناقة التي وضع عليها رجلها ويسوقها سائقها بسرعة: «تأتيكم مزموه (١) مرحوله (٢) يحفزها (٣) قائدها، ويجهدا راكبيها» .

ثم أشار عليه السلام إلى شدة هذه الفتنة وجسامه خسائرها بعد أن شبهها بالناقة المعده للركوب وقد استسلمت لراكبيها بعبارة أخرى فإن كل شيء جاهز للفتنة بحيث تكون ضربه أصحابها غاية في الشدة و تلفاتها قليلة: «أهلها قوم شديد كلبهم (٤) وقليل سلبهم (٥)» .

فالإمام عليه السلام بين خصائص هؤلاء القوم الذين يقتحمون الميدان بكامل العدة والعدد، وسنرى لاحقاً ومن خلال ما ورد في التواريخ من تنطبق عليه هذه الأوصاف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمه وهي عدم تداوم هذه الفتنة لمدته طويله، حيث يتصدى لها طائفه من أولياء الله فيهبون للوقوف بوجه أصحاب هذه الفتن (ويقضون عليهم) ، ثم وصف هذه الطائفه بأنها ذليله لدى المتكبرين، فهي ليست معروفه في الأرض، لكنها معروفه في السماء: «يجاهدكم في سبيل الله قوم أذله عند المتكبرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون» .

فهذه الطائفه من أولياء الله ذات المقام الرفيع لديه والشديده في الجهاد في سبيل الله ستخدم نار الفتنة، كما تفقد هذه الطائفه منزلتها لدى المتكبرين بسبب زهداها في الدنيا وبعدها عن التظاهر والرياء، فهي مجهوله في الأرض بين الناس، بينما معروفه لدى ملائكة السماء الخبيره بباطن هذا العالم.

أما من هم هؤلاء القوم الذين أخبر الإمام عليه السلام عن فتنهم وفجائهم، ومن هم المجاهدون الذين سيتصدون لهم ويخدموا نيران الفتنة، فيبدو هنالك اختلاف بين شراح نهج البلاغه بهذا الشأن.

ص: ٢٥٨

١-١) «مزموه» من ماده «زمام» الحيوان الذي الجم.

٢-٢) «مرحوله» من ماده «رجل» جهاز الناقه أو أدوات السفر، ومرحوله هنا بمعنى الناقه الجاهزه للركوب، وهي كناية عن تمام الفتن وقوتها.

٣-٣) «يحفز» من ماده «حفز» على وزن حبس يحث ويدفع.

٤-٤) «كلب» على وزن طلب الاذى والشده.

٥-٥) «سلب» محرکه ما يأخذه القاتل من ثياب المقتول وسلاحه في الحرب.

فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بأصحاب الفتن هم أنصار رجل يدعى صاحب الزنج واسمه على بن محمد وقد نسبوه إلى سلالة النبي صلى الله عليه وآله (وإن كان هنالك شك في نسبه) حيث يجمع عددا من الزنوج حوله ومن هنا لقب بصاحب الزنج. فقد نهض في نصف القرن الثالث وأثار فتنه عظيمه أطراف البصرة، ثم قتل على يد المجاهدين بعد ١٢ سنة من حكمه لتلك المنطقة.

كما فسرها البعض الآخر بفتنه المغول، الذين لم يسيطروا على العراق فحسب، بل سيطروا على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، ثم تصدى لهم المجاهدون المسلمون بعد مده طويله وقضوا عليهم. وأخيرا فسرها البعض بحوادث آخر الزمان وتعم الفتنه أغلب العالم الإسلامي فلا تقتصر على العراق، ثم يهب لهم جيش الإمام المهدي عليه السلام فيقضى عليهم.

ولما كان أغلب شراح نهج البلاغه يرون هذه الخطبه جزءا من الخطبه ١٢٨، لذلك نرجح تناول هذا الموضوع بصوره أعمق حين نخوض في شرح تلك الخطبه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته مخاطبا البصره: «فويل لك يا بصره عند ذلك، من جيش من نقم الله! لارهج (١) له ولا حس (٢)، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر، والجوع الأغبر (٣)».

والعبارة عند ذلك تشير إلى أنّ حادثه البصره ليست حادثه منفصله، بل البصره إحدى مراكز الفتنه التي يتعرض أهلها إلى أشد الضربات والعقوبات.

والعبارة نقم الله تفيد أنّ هذه الفتنه المرعبه جزاء لاعمالهم.

والعبارة لارهج له ولا حس إشارة إلى الاستعداد التام للقوات المهاجمه بحيث تدخل المدينه وفق خطه دقيقه دون أن تثير بعض الاصوات والجلبه فتسلب زمام المبادره من الطرف الآخر بحيث لا يبقى أمامه من مجال للمقاومه.

والعبارة الموت الاحمر إشارة إلى عظم المقتله التي تقع في البصره، فقد ورد في تاريخ صاحب الزنج أنّه قتل ثلاثمئه ألف من الناس حين دخل البصره. (٤)

ص: ٢٥٩

١-١) «رهج» بالتحريك والسكون الغبار كناية عن دخول الجيش بكل هدوء وبصوره مباغته دون أن يثير شيئا.

٢-٢) «حس» الجلبه والاصوات المختلفه.

٣-٣) «أغبر» من الغبار والجوع الأغبر كناية عن المحل والجذب والقحط الشديد؛ فوجوه الناس تبدو مغبره في القحط من شدة الجوع.

٤-٤) مروج الذهب ٤/١١٩. [١]

والعبارة الجوع الأغير إشاره إلى القحط الشديد إثر الحروب والاضطرابات بحيث يشحب وجههم.

وقد صرح بعض المؤرخين بأن الظروف الصعبة جعلتهم يقتلون بعض الحيوانات من قبيل الكلب والقط والفأر ويأكلونها، كما كانوا أحياناً يأكلون ميتة الإنسان (١).

وقد فسّر بعض شراح نهج البلاغه الموت الأحمر والجوع الأغير بالطاعون والوباء والغرق أثر السيول وهجوم أمواج البحر، ولا يبدو مثل هذا التفسير مناسباً.

ص: ٢٤٠

١-١) مروج الذهب ٤/١١٩.

ومن خطبه له عليه السلام

فى التزهيد فى الدنيا

نظره إلى الخطبه

يستفاد من تعبيرات المرحوم السيد الرضى (ره) (منها ومنها) أنه لم يأت يتمام الخطبه هنا، بل اقتطف بعضها كعادته. ويبدو بصوره عامه أن لهذه الخطبه عده أهداف: الأول: الحث على الزهد والتقوى والرغبه عن الدنيا. الثانى التفكير والاعتبار والتبصر فى الأمور، ثم التعريف بالعالم الحق وبيان اتباع الحق من اتباع الباطل من خلال ذكر الصفات، ثم اختتام الخطبه ببيان محن المؤمنين فى آخر الزمان ومصير الإسلام فى ظل تلك الشرائط، بغية تأهب المؤمنين والحد من الاضرار على مستوى الإيمان والأخلاق.

والخطبه على العموم ارشاد معنوى ومادى للإنسان يجعله يتغلب على ما يواجهه من مشاكل.

ص: ٢٤١

١ - ١) سند الخطبه: ما نقله المرحوم السيد الرضى (ره) فى هذه الخطبه جزء من خطبه طويله ولذلك قال منها ومنها. وقد وردت أجزاء مختلفه من هذه الخطبه فى عده مصادر قبل نهج البلاغه، ومنها روضه الكافى وتحف العقول واصول الكافى وعيون الأخبار لابن قتيبه وكتاب الفتن لنعيم بن حماد الخزاعى المتوفى عام ٢٢٨ (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٠٦).

«أَيُّهَا النَّاسُ! انظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِقِينَ عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا وَاللَّهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُرِيْلُ النَّاوِي السَّاكِنِ، وَتَفْجَعُ الْمُتَرَفِّفَ الْآمِنَ؛ لَا يَزِجُّ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ، وَلَا يُدْرِي مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيَنْتَظِرُ. سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجِلْدُ الرَّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلَا يَغْرُنُّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلِّهِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا» .

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإنَّ الإمام عليه السلام تطرق في هذا الكلام من الخطبه إلى مسأله الزهد في الدنيا الذي يقود إلى كافه الصالحات والفضائل.

فقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ! انظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِقِينَ (١)عَنْهَا» ، طبعاً لا تعنى هذه العبارة أنَّ الإنسان ينبغي أن يترك الدنيا ويعيش الرهبنة فيها، بل الهدف عدم فقدان النفس، وعدم الركون إلى الدنيا والاعتزاز بها. فقد ثبت بوضوح أنَّ التعلق بالدنيا والاعتزاز بما لها وجاهها ولذاتها يشكل حجاباً على سماع الإنسان وبصره، فيؤدى به إلى مقارفة الذنب والمعصيه.

فقد ورد في الحديث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئه» (٢).

ص: ٢٤٣

١- ١) «صادف» من ماده «صدف» على وزن حرف بمعنى الأعراض عن الشىء.

٢- ٢) روى هذا الحديث بعبارات مختلفه عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والإمام الصادق وحتى الأنبياء الماضين عليهم السلام. (ميزان الحكمه ٢/ ح ٥٨١٣ - ٥٨٢٣) - [١] وفى الحديث الذى نقله الكلينى فى الكافى عن الإمام السجاد عليه السلام بعد شرح ودوافع الذنوب قال: «فاجتمعن كلهن فى حب الدنيا» . فقال الأنبياء والعلماء - بعد معرفه ذلك - «حب الدنيا رأس كل خطيئه» . (اصول الكافى ٢/١٣١) . [٢]

إنّ الذنب هو المادة التي تفضى إلى كافة الحروب والنزاعات والجنايات وسفك الدماء وما إلى ذلك من انحرافات.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعبارات قصيرة لأدله اثبات تلك الحقيقة فأوجزها في سته أدله: «فأنها والله عما قليل تزيل الثاوى (١) الساكن» .

نعم لابد لكل إنسان دون استثناء ان يودع يوماً هذا العالم، بعضهم يودع أبكر، والبعض الآخر قليل يتأخر، ولكن لا مناص من تذوق هذه المراره: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (٢).

والفارق بين ثاوى وساكن هو أنّ الثاوى تطلق عن من أقام بصورة مستمره في مكان وقد استقر فيه، وقد يكون الساكن كذلك أو لا يكون، وبناءً على هذا فالشباب الذين يعتقدون باستقرارهم لمدة مديدة في هذه الدنيا معرضون للزوال، وكذلك الكهول يبدو سكنهم مؤقتاً ومحدوداً، فالجميع يسير نحو الفناء والزوال، إلى عالم البقاء والخلود.

ثم قال في الدليل الثاني أنّ الدنيا تفجع بمصائبها من غرق في النعم واغتربها: «وتفجع المترف (٣) الأمن» .

نعم بينما ترى هذا الإنسان غارقاً في لذاته ونعمه وإذا نقل إليه خبر موت فلان. ويالها من عبره هذه الوفيات المفاجئه، وما أكثرها في هذا الزمان. ويالها من عبره أنّ تراه غارقاً ليلاً في نعمه وملذاته فيصبحوا صباحاً وقد فقد كل شيء.

أمّا الدليل الثالث والرابع فهو أنّ ما يذهب من الدنيا لا يعود أبداً، ولا يعلم كيف سيكون المستقبل: «لا يرجع ما تولى منها فأدبر، ولا يدرى ما هو آت منها فينتظر» .

ويالها من محنه إلّيعثر الإنسان على ضالته قط، كما يفقد الأمل بالمستقبل! فهو في حسره دائمه! فلا الشباب يعود إليه، ولا قواه وطاقاته التي ذهبت أدراج الرياح مع تقادم العمر، هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فالخوف من المستقبل الغامض الذي يهز كيانه ويؤرق تفكيره ويقض مضجعه.

ص: ٢٤٤

١-١) «ثاوى» من ماده «ثواء» الاقامه مع الاستقرار.

٢-٢) سورة آل عمران/١٨٥. [١]

٣-٣) «مترف» من ماده «ترف» التمتع ويطلق «المترف» على من تغفله كثرة النعم وتؤدى به إلى الغرور والطغيان.

ثم أورد عليه السلام الدليل الخامس والسادس الذى يدعو إلى الزهد فى الدنيا وهو أنّ فرحها مقرون بالحزن وسرورها بالهم وقدره الرجال وقوتهم إلى الضعف والوهن: «سرورها مشوب بالحزن وجلد (١) الرجال فيها إلى الضعف والوهن» .

فمشكله النعم الماديه الدينويه قد أشار إليها الإمام عليه السلام فى موضع آخر فقال: «لاتنالون منها نعمه إلابفراق أخرى» (٢)، على سبيل المثال فالعقيم يتصدع قلبه بفعل عدم وجود الأولاد؛ إلّا أنّ مشكلته قد تحل بأن يمنح الأولاد، فسرعان ما تهجم عليه سائر المشاكل! ليس له ثروه كافيه فيؤرقه ألم الفقر والحاجه، فاذا ما أصاب ثروه، واجهته مشاكل الحسد وخيانه الخونه وطمع اللصوص بثروته، حتى يفقد سكينته واستقراره. نعم فسرور الدنيا مشوب بالهم والغم والحزن، وقوه الإنسان آيله فيها إلى الوهن، وهكذا يخلص الإمام عليه السلام من هذه الأدله إلى نتيجته مؤداها: «فلا يغرنكم كثره ما يعجبكم فيها لقله ما يصحبكم منها» .

صحيح أنّ الدنيا مليئه بمعانى الزينه والجمال والمظاهر الخلايه، إلّا أنّها وعلاوه على استبطانها للمشاكل والمحن، فهى متقلبه سائره نحو الفناء والزوال. وعليه فلا يجدر بالعاقل الاهتمام بها والركون إليها.

على كل حال فإنّ أدنى تأمل لهذه الأدله يكفى لافاقه الغافلين من سباتهم، إلّا أنّ المؤسف هو أنّ أغلب الناس ييخل على نفسه حتى بتلك اللحظه من التأمل.

تأمل: الزهد فى الدنيا

قد يتصور أحياناً بأنّ مفهوم الزهد هو التخلّى التام عن الدنيا، والتفوق فى زاويه والابتعاد عن المجتمع، والحال لا ينسجم هذا المعنى والروح الاجتماعيه للإسلام؛ الأمر الذى ورد النهى عنه فى الروايات الإسلاميه.

والحق أنّ للزهد معنى آخر وهو ترك التعلق المفرط بالدنيا وعدم الوقوع أسيراً فى قبضه

ص: ٢٦٥

١- ١) جلد بمعنى القوه والصلابه.

٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٤٥. [١]

زخارفها ومفاتها؛ وبخلافه فإنَّ الإنسان يسير نحو الذنب والخطيئه ويبيع دينه وآخرته بمتاع الدنيا الفانى وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «إنَّ من أعون الاخلاق على الدين، الزهد فى الدنيا» (١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص: «إذا تخلى المؤمن من الدنيا لسما، ووجد حلاوه حب الله» (٢). وورد فى الحديث أنَّ علياً عليه السلام رأى جابر بن عبدالله وهو يتنهد فقال: «يا جابر علام تنفسك؟ أعلى الدنيا؟» قال جابر: بلى.

فتطرق الإمام عليه السلام إلى بيان لذات الدنيا وأنها لا تعدو أن تكون فى المأكل أو المشرب أو اللباس الفاخر، أو اللذنه الجنسيه أو المركب الهنيئ، ثم شرح ذلك قائلاً: فألذ المأكولات العسل وهو بصدق من ذبابه، وأحلى المشروبات الماء؟ وكفى باباحته وسياحته على وجه الأرض، وأعلى الملبوسات الديباج وهو من لعاب دوده، وأعلى المنكوحات النساء وهو مبال فى مبال، ومثال لمثال، وإنما يراد أحسن ما فى المرأه لأفصح ما فيها، وأعلى المركوبات الخيل وهو قواتل، وأجمل المشمومات المسك وهو دم من سره دابه، وأجل المسوعات الغناء والترنم وهو إثم، فما هذه صفته لم يتنفس عليه عاقل.

قال جابر بن عبدالله: فو الله ما خطرت الدنيا بعدها على قلبى (٣).

ص: ٢٦٦

١- ١) منهاج البراعه، للعلامة الخوئى ٧/١٨٢.

٢- ٢) المصدر السابق.

٣- ٣) بحار الانوار ٧٥/١١. [١]

إشاره

«رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقِّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانَ» .

الشرح والتفسير

قال عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه - والذى يعتبر فى الواقع نتيجته لما تقدم - «رحم الله امرأ تفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر» .

طبعاً مراد الإمام عليه السلام التفكير فى مصير الدنيا الذى تطرق إليه سابقاً، فإن مثل هذا التفكير يودى إلى الاعتبار واليقظه. ومن الواضح أن من يعتبر ويتعظ يتبصر الأمور ويقف على بواطن الأشياء بدلاً من ظواهرها، ويفكر فى المقدمات والنتائج فيلتمس سبيل النجاه فى ظل هذا الاعتبار والأبصار. وبعبارة أخرى فإن الإنسان ليتعرف على سلسله من الحقائق من خلال تأمل حوادث الماضى والحاضر، فيحتذئها فى مسيره ليميز الحق من الباطل.

فقد ورد فى الحديث أن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن صحه هذا الخبر «إن تفكر ساعه خير من قيام ليله»، فأجاب عليه السلام: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «تفكر ساعه خير من قيام ليله». فسأل الراوى: «كيف يتفكر؟». قال عليه السلام: «يمر بالدور الخربه، فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ مالك لا تتكلمين؟» (1).

ص: ٢٤٧

ولو كانت له أذن سامعه لسمعها وهي تناديه: لقد ارتحلوا جميعاً بعد أن توسدوا التراب ولم يبق سوى آثارهم.

ثم قال عليه السلام: «فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل» .

أى أنّ الدنيا لتمضى بسرعه، والآخرة تأتي بسرعه بحيث يتصور الإنسان أنه لم تكن هناك من دنيا، والآخرة هي التي كانت موجوده دائماً.

وقد جربنا هذه المسأله فى العديد من حوادث الدنيا؛ فقد نمر أحياناً بدار بعض الاشراف وقد كانت داره تغص بالناس والذهب والاياب، وإذا بها صامته هادئه وكأن لم تشهد تلك الضجه.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بثلاث عبارات غايه فى الروعه والدقه، فى أنّ ما كان محدوداً (كساعات عمر الإنسان) فهو إلى انقضاء، وما كان منتظراً فهو إلى قدوم ووقوع، وما كان قريباً فهو حاصل: «وكل محدود منقض، وكل متوقع آت، وكل آت قريب دان» .

فالعباره الأولى إشاره إلى قاعده كليه فلسفيه فى محدوديه كل ما دخل تحت العدد، وما كان محدوداً فهو إلى انقضاء، ولما كان عمر الإنسان والدنيا برمتها داخل فى العدد والارقام، فلا بدّ من انتظار انقضائه، والعبارات اللاحقه مكمله لذلك؛ لأنّ ما ننتظره سيأتينا يوماً لا محاله، وما يأتينا ليس ببعيد عنا! وعليه فلا ينبغى الاعتقاد ببعده الموت وخلود الحياه، والعمر ليس بباق. و الواقع هو أن هذه العبارات الثلاث بمنزله الدليل على العبارات السابقه.

تأمل: فى الاعتبار

مليئه حياه الإنسان فى كل عصر ومصر بالدروس والعبر؛ الدروس التى توقظ القلب وترفع الحجب وتفضح ماهيه الحياه الدنيا؛ إلماً أنّ الموسف قلبه الاعتبار. فالناس عاده ما تمرّ الكرام على الحوادث التى من شأنها اثاره الاعتبار لديهم، كما أنّ تكرارها يدعوهم لاهمالها.

العامل الآخر الذى يقف وراء عدم الاعتبار إنّما يكمن فى حصر مكاره الدهر فى الآخرين،

وكأنا بمعزل عن تلك المكاره وأنا مخلدون في هذه الدنيا. ولو كانت هناك بصيره حقا فإن كل شيء في الأرض يشتمل على عبره تدعوننا للإعتبار.

جاء في الأخبار أن هارون الرشيد كتب رساله إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام طلب فيها أن يعظه قائلاً «عظني وأجز» (طبعا من المستبعد أن يكون مثل هؤلاء الأفراد صادقين وأنهم يطلبون النصيح والوعظ والارشاد؛ لأن هذه الأمور إنما تكون عادة جزءاً من مخططاتهم السياسيه، ليوحوا للآخرين أنا من اهل الوعظ الذي نسأله من ابن رسول الله).

فأجابه عليه السلام: «ما من شيء تراه عينك ألو فيه موعظه» (١).

نعم فالأرض والسماء والكائنات والاشجار والحوادث وأنين المرضى ومشيب الشعر وانحناء الظهر والمقابر والقصور الخاويه للملوك، كلها تغص بالدروس والعبر فالواقع هو أن الإمام عليه السلام اراد أن يقول له لو كان لك عين باصره لاعتبرت.

فقصور الملوك مملوءه بالعبر، ولكن لا يعتبر بها سوى من له آذانا صاغيه.

و كفى بالقرآن واعظا بهذا الشأن: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ». (٢).

ص: ٢٤٩

١-١) سفينه البحار - ماده وعظ.

٢-٢) سوره الدخان / ٢٥ - ٢٩. [١]

إشاره

ومنها: «العالم من عرف قدره، وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره؛ وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبدًا وكَلَهُ اللهُ إلى نفسه، حياً أو ميتاً عن قضيده السبيل، سائراً بغير دليل؛ إن دعى إلى حوث الدنيا عملاً، وإن دعى إلى حوث الآخرة كسلاً! كأن ما عمل له واجب عليه؛ وكأن ما ونى فيه ساقط عنه!». .

الشرح والتفسير

اتجه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه - والذي يبدو منفصلاً، وان كان له نحو ارتباط بالمقاطع الماضيه - صوب التعريف بالعلماء الحق ومن تشبه بالعلماء (العلماء الحقيقيون والعلماء المزيّفون) حيث يعرض لصفات كل منهما، فقال عليه السلام: «العالم من عرف قدره» .

ثم أكد هذه العبارة بقوله عليه السلام «وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره» .

وقد وردت عدة احتمالات في تفسير هاتين العبارتين كلها مناسبة، ويمكن جمعها في مفهوم كلامه عليه السلام.

الأول: أنّ العالم الحقيقي من يعرف قيمته وقدره ازاء عظمه الله سبحانه في هذا العالم، فيرى أنّه ليس بشيء يذكر بالنسبه لذلك الوجود المطلق، وأنّه تابع له، فيحث الخطى للفوز بقربه، ولعل هذا هو المعنى الذي هدف إليه الحديث: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» (١).

والثاني: أن المراد معرفه القيم والمكانه الواقعيه في المجتمع، وبعبارة أخرى: العالم الحقيقي من

ص: ٢٧١

يبتعد عن الامال التي لا تستند لأى المنطق، ولا يتجاوز حدود نفسه، ولا يضع نفسه فى موضع ليس له باهل، فلا يعيب بماء وجهه وقدره. على غرار ما ورد فى بعض الروايات: «رحم الله من عرف قدره، ولم يتجاوز حده» (١).

والثالث: أنّ المراد هو أنّ الإنسان موجود قيم له استعدادته العاليه، فلا ينبغى أن يبيع هذه الجوهره الثمينه برخص ولا يزهّد فى نفسه وإمكاناته؛ الأمر الذى ورد فى الشعر المنسوب لأمير المومنين على عليه السلام إذ قال: أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وبالنظر إلى إمكانيه استعمال اللفظ لأكثر من معنى، حيث يعد ذلك من جماليه الكلام وبدائعه، فلا يبدو من المستبعد الجمع بين هذه الاحتمالات الثلاث فى تفسير الكلام المذكور؛ وإن كانت العبارات القادمه أنسب للمعنى الثانى والثالث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتعريف بمن تشبه من العلماء من الجهال البعيدين عن الحق والصواب فقال عليه السلام: «وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبدا وكله الله إلى نفسه، جائراً عن قصد السبيل، سائراً بغير دليل» .

طبعاً لا يسع الإنسان ما لم تحفه عنايه الله والطفه ان يتجاوز هذه الموانع والآفات الخطيره التى تعترض طريقه، فاذا وكلّ إلى نفسه فسوف لن تكون عاقبته سوى المهلكه؛ فهو ينحرف عن الصراط، ويفقد الدليل فيسير على عمى وضلال.

ثم وضع ذلك عليه السلام بالقول أنه اغتر بالدنيا وخدع بها بحيث لا يعمل إلالها ولا يجهد نفسه إلّا من أجل الحصول على متاعها: «إن دعى إلى حرث الدنيا عمل، وإن دعى إلى حرث الآخرة كسل» .

فهو نشط من أجل الدنيا، كسل من أجل الآخرة، وذلك لضعف ايمانه بالآخرة وعدم اعتقاده بالوعد والوعيد الإلهى. فلم يبصر سوى الدنيا وينسى الآخرة.

ومن هنا إختتم عليه السلام كلامه بهذا الشأن بالقول: «كأن ما عمل له وأحب عليه، وكأن ما ونى فيه ساقط عنه» (٢).

ص: ٢٧٢

١- ١) اشتهرت هذه العبارة التى يطلقها العلماء بالاستفاده من الاحاديث.

٢- ٢) «ونى» بمعنى ضعف وتعب.

والتعبير بالزرع عن الدنيا والآخرة هو اقتباس من الآية الشريفة: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» (١).

يمكن للدنيا أن تكون مزرعه الآخرة، كما يمكنها أن تكون مزرعه لنفسها. ويذرهما الأعمال الحسنه والسيئه، وأعمالها الحسنه كالحبه التي تنبت سبع سنابل وفي كل سنبله مأه حبه، أمّا الأعمال السيئه فهي البذور التي تزرع في الأراضى المالحة: «لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» (٢).

وتشير العبارة الأخيره ضمناً إلى أنّ الأعمال الصالحه والطالحه إنّما تفرزها طبيعه الاعتقادات القويه والضعيفه.

تأمل: العلماء الحقيقيون

أوضح الإمام عليه السلام بجلاء في هذه الخطبه صفات العلماء، و من تشبه بهم من علماء السوء، فكان في مقدمتها عدم معرفه قدر النفس. عدم معرفه قدر النفس ازاء عظمه الله، ولا قدره تجاه المجتمع، ولا قدر نفسه حيال نفسه. ومن لم يعرف قدر نفسه فأنه سيبته في أمواج من الجهل والبؤس والحيره والشقاء، حتى يكله الله إلى نفسه فيضل في خضم هذه الحياه؛ فهو لا يرى سوى النعم الماديه، وعليه فالدنيا عنده ماء، والآخرة سراب من الهواء. والحلال والحرام والحق والباطل لديه على حد سواء؛ وهو ينطلق نحو المال والمقام وكأنّها أوجب الواجبات، بينما يتقاعس عن واجباته وكأنّها من المحرمات.

وقد اوردنا شرحاً مفصلاً بهذا الخصوص في الخطبه السابعه عشر من المجلد الأول، ولا حاجه للتكرار.

ص: ٢٧٣

[١- ١] سورة الشورى/٢٠. [١]

[٢- ٢] سورة الاعراف/٥٨. [٢]

إشاره

ومنها: «وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُومِهِ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى، وَأَعْلَامُ الشُّرَى، لَيْسُوا بِالْمَسَابِيحِ، وَلَا الْمَدَائِعِ الْبُذُرِ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضُرَاءَ نِقْمَتِهِ. أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ، كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعْذِكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع الذي يمثل آخر الخطبة إلى الوضع في آخر الزمان، وبعبارة أخرى الزمان الذي يسوده الشر قبل الإمام المهدي عليه السلام. فكان عليه السلام يتطرق إلى خصائص المؤمنين في ذلك الزمان أحياناً، وأحياناً أخرى إلى وضع الإسلام والأحكام الإسلامية. (١)

فقال عليه السلام: «وذلك زمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نومه، إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد» .

صحيح أن النومه من النوم بمعنى الشخص الكثير النوم؛ إلا أنه من الواضح هنا أن ذلك كناية عن الفرد المجهول وغير المعروف، ولا سيما أن الإمام عليه السلام وضع ذلك بالعبارات القادمة.

ص: ٢٧٥

١- ١) يفيد عدم الارتباط المعنوي بين هذا المقطع من الخطبة والذي سبقه، أن السيد الرضى (ره) حذف بعض الأقسام بينهما، والشاهد على ذلك تعبيره (منها) .

طبعاً من البديهي في الظروف التي يعم فيها الفساد المجتمع، ويكون زعماء المجتمع وقادته من الفسده والمنحرفين، ألا يكون الأفراد المؤمنين من الشخصيات المعروفة في المجتمع، لأنهم سيكونون فريسه للجبايره الذين لن يتركوهم وشأنهم أبداً؛ فأما أن يتسلموا ويكونوا عوناً لهم، وأما ان يقاوموا ويمتنعوا وفي هذه الحاله ليس لهم سوى الحديد والنار.

وبناءً على هذا يتوجب على الأفراد المؤمنين في ظل هذه الظروف أن يختفوا عن الأضواء ويعيشوا بعيداً عن الشهرة والمعرفه، كي لا يكون هناك من يتعقبهم ويبحث عنهم.

وبالطبع فان هذه المجهولييه لن تحط من قدرهم وتقلل من مكانتهم، وأنهم لن يتخلوا عن دورهم المعنوي في المجتمع، ومن هنا وصفهم الإمام عليه السلام بقوله: «أولئك مصايح الهدى، وأعلام السرى» (١).

فهم صامتون خاملون، إلا أنهم قدوه للاخرين، فهم مصايح هدى كتلك العلامات التي تنصب على الطريق لكي لا يضل السائر فيه ليلاً.

ثم قال عليه السلام في وصف هذه الطائفة من المؤمنين: «ليسوا بالمسايح، ولا المذايع البذر» .

قال المرحوم السيد الرضى المسايح جمع مسياح وهو الذى إذا سمع لغيره بفاحشه أذاعها، والبذر جمع بذور وهو الذى يكثر سفهه ويلغو منطقته.

وعليه فمعنى العبارة هو أن هذه الطائفة من المؤمنين ليست بمفسده ولا مثيره للفتنه وليست سفيهه تشيع الفاحشه.

ثم قال: «أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته» . فالعبارة تفيد أن الله سبحانه وتعالى لم يسلب الطائفة المؤمنه الحقه عنصر هدايتها في تلك الظروف العصبيه، وهو حافظهم من شر الظلمه ومكاره ذلك الزمان وحوادثه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بنبوءه صريحه وتوضيح أكثر لذلك الزمان، فقال عليه السلام: «أيها الناس! سيأتى عليكم زماناً يكفا (٢) فيه الإسلام، كما يكفا الاناء بما فيه» .

فالعبارة «يكفا فيه الإسلام» كناية لطيفه عن انقلاب كافه المفاهيم الإسلاميه رأساً على

ص: ٢٧٦

١-١) «السرى» تعنى السير في الليل.

٢-٢) «يكفا» من ماده «كفا» على وزن نفع بمعنى الانقلاب.

عقب وذهاب حقيقتها وجوهرها، لأنها شبهت الإسلام بالاناء الذى وضعت فيه المعارف والقوانين والأحكام والأخلاق الإسلاميه، وكما يضيع كل الماء إذا قلب الاناء، فكذلك الإسلام فى ذلك الزمان يضيع كل محتواه، ولا يبقى منه سوى القشور.

ويبدو أنّ عصرنا يشهد مثل هذه العلامات حيث يكتفى أغلب المسلمين بذكر اسم الإسلام فقط، دون أن يكون هناك أى أثر للأخلاق أو انفتاح على السنه النبويه؛ فليس هناك سوى الشهوات والمال والمقام واللذه الماديه والشهوات الحيوانيه.

ولا شك أنّ احد عوامل البؤس والشقاء هو التفسير بالرأى والقراءات الكاذبه والمنحرفه للإسلام، حيث يقوم بعض الأفراد خداعاً لأنفسهم وللآخرين بتقديم بعض التفاسير المشبوهه للحقائق الإسلاميه المسلمه انسجاماً مع أهوائهم وأفكارهم؛ الأمر الذى يجعل الإسلام العوبه بيدهم يفعلون به ما يشاؤون.

فقد ورد فى الحديث أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبه، والأهواء الساهيه» (١).

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالاجابه على سؤال مقدر وهو: لم يتبلى الله المسلمين بهذه الحوادث والاضطرابات؟ فقال عليه السلام: «أيها الناس إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم، ولم يعذكم من أن يبتليكم، وقد قال جل من قائل إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين» (٢).

فى إشاره إلى أنّ مثل هذه الحوادث اختبار للناس وامتحان لهم، ولا بدّ أن يخوض عامه الناس - بما فيهم الأنبياء وسائر الأفراد - هذا الامتحان الإلهى! الامتحان الذى قد ينطوى أحياناً على بعد فردى، وأحياناً جماعى؛ كما ورد فى العبارة المذكوره من شمول الجميع بالامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق.

كلام السيد الرضى (ره)

قال السيد الشّريف الرّضى: أَمَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلُّ مُؤْمِنٍ نُومَةٍ فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخَامِلَ الذُّكْرَ، الْقَلِيلَ الشَّرِّ».

ص: ٢٧٧

١-١ (١) نهج البلاغه، الخطبه ١٥٦. [١]

٢-٢ (٢) سوره المؤمنون/٣٠. [٢]

وَ «الْمَسَايِخُ» جَمْعُ «مَسِيحٍ» وَهُوَ الَّذِي يَسِيحُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْفِسَادِ وَالنَّمَائِمِ. وَ «الْمَيْدَائِعُ» جَمْعُ «مَيْدِيَةٍ» وَهُوَ الَّذِي إِذَا سَمِعَ لغيرِهِ بِفَاحِشَةٍ أَدَاعَهَا، وَنَوَّهَ بِهَا. وَ «الْبُدُورُ» جَمْعُ «بُدُورٍ» وَهُوَ الَّذِي يَكْثُرُ سَفَهُهُ وَيَلْغُو مَنْطِقَهُ.

تأمل: الفساد في آخر الزمان

وردت عدة روايات التي تدم آخر الزمان، حيث فسر آخر الزمان عادة بالزمان القريب من ظهور الإمام المهدي عليه السلام: والواقع هو كثره الفساد الذي يجتاح العالم بأسره: «كما ملئت ظلماً وجوراً» فيعد القلوب الوالهة إلى تقبل وجوده عليه السلام بصفته مظهر العدل والصلاح.

هذا ومن جملة العوامل التي تؤدي إلى سعه حجم الفساد في آخر الزمان ما يلي:

١ - الابتعاد عن تعاليم الأنبياء وارشادات الاوصياء عليهم السلام.

٢ - إزدیاد وسائل الفساد والشهوات.

٣ - اتساع حجم الوسائل الدعائية التي تقوم بنشر الفساد إلى مختلف الأماكن لمجرد حصوله في زاويه من الأرض.

٤ - إزدیاد الشبهات في المباني الدينية والأخلاقية من خلال التفسير بالرأى والقراءات المختلفه للمعارف والمفاهيم الدينیه.

٥ - تسلط حكام الجور والفساد الذين لا يهتمون سوى بتحقيق منافعهم الماديه، إلى جانب بذلهم الجهود الحثيثة من أجل افساد الناس ولا سيما الشباب من اجل الوصول إلى اهدافهم الخبيثه.

حقاً أنّ التدين لصعب في مثل هذه العصور والأزمنه، بل الواقع هو أنّ هذا العصر من أصعب العصور اختباراً وامتحاناً. ولا يمكن للصالحين اجتياز هذا الامتحان العسير إلّا من خلال الاستغاثه بالله ليشملهم بلطفه وعنايته.

ومن خطبه له عليه السلام

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه إلى قيام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في وسط جاهليه العرب وجهوده المضنيه في سبيل هدايه الأُمَّه.

وأشار في القسم الآخر من الخطبه إلى سعى بعض المنحرفين لاحياء تقاليد الجاهليه: ثم قال عليه السلام أنى سأواصل طريق رسول الله صلى الله عليه وآله ولأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته، لتعلم الأُمَّه كيف تنهض بتكاليها وتتعامل معه، وتتاهب لمحاربه أعراف الجاهليه.

ص: ٢٧٩

١-١) سند الخطبه: تشيه هذه الخطبه إلى حد كبير الخطبه الثالثه والثلاثين. ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى (ره) في آخر الخطبه: وقد تقدم مختار هذه الخطبه، إلّا أنى وجدتها في هذه الروايه على خلاف ما سبق من زياده ونقصان، فأوجبت الحال إثباتها ثانيه. فالعبارة تفيد ان الخطبتين مرتبطه بواقعه واحده، وإن نقلهما الرواه مع بعض الاختلاف؛ إلّا أنّ التفاوت الواضح بين الخطبتين يجعل احتمال التعدد أقوى. وللوقوف على التفاصيل راجع ما أوردناه ذيل الخطبه ٣٣.

إشاره

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَآلِهِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا، وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةً وَلَا وَحْيًا، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ عَصَاهُ، يَسُوفُهُمْ إِلَى مَنَاجِئِهِمْ؛ وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غَايَتُهُ، إِلَّا هَالِكًا لَأَخِيرِ فِيهِ، حَتَّى أَرَاهُمْ مَنَاجِئَهُمْ وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ» .

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام الخطبة - بعد الحمد والثناء الذى لم يذكر فى العبارة - بالحديث عن بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى ذلك الوسط الجاهلى فقال عليه السلام: «أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه و آله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدعى نبوه ولا وحياً» .

فالعبارة إشاره إلى الأغلبية الساحقة من العرب آنذاك التى كانت تعبد الأوثان والأصنام وقد تناست دعوه الأنبياء السابقين. وبناءاً على هذا فليس هناك من منافاه بين هذا الحكم العام الناظر للأغلبية العظمى ووجود الأقليات الدينيه آنذاك كاليهود والنصارى. أضف إلى ذلك فإنّ الأقلية اليهوديه كانت مهاجره أتت إلى الحجاز من الشام، كما قدمت الأقلية النصرانيه من اليمن، فهما لا تنتميان إلى العرب. كما يحتمل أن يكون المراد بالكتاب، الكتاب السماوى غير المحرف، الذى لم يكن موجودا آنذاك. أمّا ما قيل من أنّ المراد بالكتاب هنا هو القراءه والكتابه فيبدو بعيداً، لا سيما أنّ العبارة القادمه على الخلاف من ذلك.

أضف إلى ذلك فقد كما هناك من يحسن القراءة والكتابه آنذاك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بتقسيم الناس ازاء الدعوه الإسلاميه إلى ثلاث طوائف: الطائفه التي تقبلت الإسلام بكل كيانها، وأخرى التي استجابت بعد جهود، والثالثه التي اعتمدت التعصب واللجاجه فوقف بقوه بوجه الدعوه، فلم تتعاطف معها أبدا، وقد قضى عليها.

فقال عليه السلام بشأن الطائفه الاولى: «فقاتل بمن أطاعه من عصاه، يسوقهم إلى منجاتهم، ويبادر بهم الساعه أن تنزل بهم». .

والمراد بالساعه فى هذه العبارة القيامه الصغرى يعنى الموت، لا القيامه الكبرى التي تقوم بعد نهايه العالم.

وقال بشأن الطائفه الثانيه: «يحسر الحسير (١)، ويقف الكسير، فيقيم علمه حتى يلحقه غايته». .

ثم أشار إلى الطائفه الثالثه وهى الطائفه الضالاه التي لا يؤمل هدايتها: «إلّا هالكاً لا خير فيه». .

فما ورد فى الحديث الشريف هو عين ماورد فى عباره أميرالمؤمنين عليه السلام، ثم عاد عليه السلام إلى أصل المطلب: «حتى أراهم منجاتهم وبوأهم محلثهم، فاستدارت رحاهم (٢)، واستقامت قناتهم (٣)». .

تأملان

١ - هل بعث نبي من العرب؟

تضمنت بدايه الخطبه إشاره إلى عدم قيام نبي من العرب؛ وهذا فى الواقع اقتباس من الآيه الشريفه: «لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ». .
(٤)

ص: ٢٨٢

١-١) «حسير» من ماده «حسر» على وزن حبس بمعنى العرى وسلب اللباس من شىء. ثم استعمل بمعنى الكسل والتعب.

٢-٢) «رحى» كناية عن وفره أرزاقهم، فالرحى تدور على ما تطحنه من حب.

٣-٣) «القناه» من ماده «قنو» على وزن صنف فى الأصل فرع الشجره، كما اطلقت على الرمح لشباهته بفرع الشجره، وهى كناية عن صحه الأحوال وصلاحها.

٤-٤) سورة يس/٦. [١]

وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: إِنَّ الْقُرْآنَ صَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ قَائِلًا: «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» (١).

أضف إلى ذلك فإنَّ قاعده اللطف تقتضى أن يكون لكل أمة رسول مبعوث من الله.

ونقول في الجواب: أنَّ المراد بالآية وما ورد في الخطبه كبار أنبياء الله الذين ذاع صيتهم في الارحاء، وإلا فليس هناك من زمان ليس لله فيه من حجه بين الناس. ومن هنا يصطلح بالفترة على الفاصله الواقعه بين بعث السيد المسيح عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله؛ والحال كان هناك أوصياء المسيح عليه السلام من بعده.

أضف إلى ذلك لم يدع أحد من العرب في زمان بعثه النبي صلى الله عليه وآله - المراد بهذه الخطبه - النبوه والاتصال بالوحي والإتيان بكتاب سماوى.

٢ - القوه فى الدين

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام الوارده فى هذه الخطبه أنَّ ظهور الإسلام لم يقتصر على اصلاح دين الناس فقط، بل حل إلى جانب ذلك الكثير من مشاكلهم الدنيويه.

وهكذا تبلورت أمة قويه وحكومه مقتدره فى ظل الدين الجديد، تمكنت من إداره شؤون الأُمَّه وزعامتها لسنوات طويله؛ ولعل هذه الحكومه كانت ستخلد لو لم تنحرف عن المسار الإسلامى الصحيح. اضافه إلى ذلك نهضت الحضاره وتطورت ثقافه لتشهد اتساعاً ورقياً فى ظل التعليمات الإسلاميه، حتى كانت صفحه جديده فى فصل التاريخ البشرى.

كل هذه أدله على أن اتباع التعاليم الإسلاميه إنما يؤدى إلى ضمان سلامه دين الإنسان وعمارته دنياه.

والعبارات الاربع الوارده فى الخطبه شاهد على هذا الادعاء، فقد قال عليه السلام: حتى أراهم منجاتهم، وبوأهم محلثهم، فاستدارت رحاهم، واستقامت قناتهم. لتصف بمجموعها سعادتهم المعنويه والماديه.

ص: ٢٨٣

«وَإِيمُ اللَّهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحِذَافِيرِهَا، وَاسْتَوَسَيْتُ فِي قِيَادِهَا؛ مَا ضَعُفْتُ، وَلَا جُبُنْتُ، وَلَا حُنْتُ، وَلَا وَهَنْتُ وَإِيمُ اللَّهِ، لِأَبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ!». .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى دوره في انتشار الدعوة الإسلامية ودحر عسكر الكفر فقال عليه السلام: «وايم الله، لقد كنت من ساقتها حتى تولت بحذافيرها (١)، واستوسقت قيادها» (٢).

ساقه جمع سائق. وقد كان سائداً في السابق أن يتقدم حركة الركب أو القافلة شخص يسمى القائد، ويقال عن خلفه السائق.

وهكذا كان الأمر بالنسبة للجيش فقد كان القاده في مقدمه الجيش و الأمرء خلفه. فالإمام عليه السلام يشير إلى أن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله كان القائد للجيش وهو بمنزله السائق، كما ورد السائق أحياناً بمعنى القائد. أضف إلى ذلك فان ساقه الجيش وردت بمعنى القسم الخلفى منه و فى هذه الحالة لاتكون جمع سائق.

على كان حال فان العبارة تكشف عن دور الإمام عليه السلام في زعامة جيش الإسلام وهزيمة جيش الكفر.

ص: ٢٨٥

١-١) «حذافير» جمع «حذفور» الجماعة الكثيره، كما وردت بمعنى الجانب، إشاره إلى أن كل طوائف الباطل تولت وانتهت.
٢-٢) حسب التفسير الذى اوردناه فان الضمير فى «ساقتها» و «قيادها» يعود إلى جيش الإسلام، بينما يعود إلى جيش الكفر فى حذافيرها بقرينه المقام.

ثم قال عليه السلام: «ما ضعفت، ولا جبت، ولا خنت، ولا وهنت» فالواقع هو أنّ الهزيمة إنّما يفرزها أحد هذه العناصر الأربعة: الضعف الخوف، الخيانه والوهن.

والفارق بين الضعف والوهن هو أنّ الضعف يعنى العجز وعدم وجود القدره، بينما هناك قدره فى الوهن، غير أنّ هناك مسامحه فى الاستعمال. وعليه فلا يمكن العثور على أى من هذه العناصر فى شخص الإمام عليه السلام، ومن هنا كان منتصراً على الدوام.

ثم اختتم الخطبه بالقول: «وايم الله، لأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته» .

فالعباره تفيد وجود الحق فى الدنيا دائماً، وإن غطاه الباطل وعليه فبقر الباطل وطرح حجابيه يظهر منه الحق. وهى نقطه رائعه أشار إليها الإمام عليه السلام بكلامه.

كلام السيد الرضى:

قال السيد الشريف الرضى: وَقَدْ تَقَدَّمَ مُخْتَارُ هَذِهِ الْخُطْبَةِ، إِلَّا أَنَّنِي وَجَدْتُهَا فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ عَلَى خِلَافِ مَا سَبَقَ مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، فَأَوْجَبَتِ الْحِجَالَ إِثْبَاتَهَا ثَمَانِيَةً. (وهذا يكشف بدوره عن مدى دقه السيد الرضى (ره) فى ذكر الخطب حيث لم يهمل حتى إختلاف الروايات).

ومن خطبه له عليه السلام

فى بعض صفات الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و تهديد بنى أميه وعظه الناس

نظره إلى الخطبه

يتضح من عنوان الخطبه أنها تشتمل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول فى ذكر بعض صفات الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و يصرح الإمام عليه السلام فيه بأن الرسول صلى الله عليه و آله خير الخليفه طفلاً- وأعظمها كهلاً- حيث هدف الإمام عليه السلام فى الواقع إلى لفت إنتباه الناس إلى أهميه موروث النبى صلى الله عليه و آله و حفظ القرآن و الإسلام.

القسم الثانى يذم فيه بنى أميه و يلفت إنتباههم إلى الدنيا التى أقبلت عليهم، ويحذرهم من غضب الله لما سفكوه من دماء بريئه، مؤكداً على أن هذه الخلافه ستؤول قريباً إلى الاعداء.

القسم الثالث فى وعظ الناس و نصيحتهم بعدم الاستجابه للاهواء، والسعى لتحصيل العلم و عدم ترك الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

ص: ٢٨٧

١ - ١) سند الخطبه، روى بعض هذه الخطبه المفسر المعروف على بن ابراهيم المتوفى عام ٣٠٧ فى المجلد الأول من تفسيره ٣٨٤/ ذيل الآيه «ليحملوا أوزارهم كامله يوم القيامه» (سوره النحل ٢٥/ [١] عن الإمام الصادق عليه السلام. كما ورى بعضها الشيخ المفيد فى كتابه الارشاد /١٦٠٠ وقد عاش كلاهما قبل السيد الرضى (ره) .

«حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، شَهِيدًا وَبَشِيرًا، وَنَذِيرًا، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً، وَأَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة إلى النعمة الوفيرة بظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وقد أثنى على سبع من صفاته البارزة، فقال عليه السلام: (أن الناس كانوا في هاله من الضلال) حتى بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً على أعمالهم وبشيراً (بالثواب الإلهي على الأعمال الصالحة) ونذيراً (بين يدي عذاب شديد على السيئات) وقد كان خير الخلق طِفْلاً وانجبههم كهلاً، أخلاقه تفوق أخلاق الجميع، وكرمه وسخاؤه ليس له من مثيل «حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله لشهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طِفْلاً، وانجبهها كهلاً (١)، وأطهر المطهرين شيمه (٢)، وأجود المستمطرين ديمه» (٣).

فصفه الشهيد إشاره لما ورد في الآيه الشريفه: «وَيَوْمَ نَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ» (٤). وصفه البشير والنذير إشاره لما وردت كراراً في الآيات القرآنيه كآليه «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا» (٥).

ص: ٢٨٩

١- ١) «كهل» متوسط العمر، وقيل تطلق على من جاوز الثلاثين، ولا تعني العجز.

٢- ٢) «شيمه» بمعنى الأخلاق وجمعها «شيم» .

٣- ٣) «ديمه» بكسر الدال المطر المستديم الذي يخلو من الرعد والبرق.

٤- ٤) سورة النحل/٨٩. [١]

٥- ٥) سورة البقره/١١٩. [٢]

ثم تحدث الإمام عليه السلام عن طفولته صلى الله عليه وآله حيث كان متميزاً فيها. حيث ورد في مناقب ابن شهر آشوب عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله كان يخالط الأطفال دون أن يأتي ببعض أعمالهم التي تستند إلى الجهل. كما ورد عن أبي طالب قوله: لم أعهد فيه كذبه ولم يتخلق بأخلاق الجاهليه، و لم يضحك عبثاً. كما يروى أن عبدالمطلب كان يفرش في ظل الكعبه ولم يجلس على فرشه أحد حتى يخرج سوى رسول الله صلى الله عليه وآله و آله و حين يحاول أعمامه إبعاده كان يرد عليهم عبدالمطلب: دعوه، فوالله إن له لشأنا عظيماً. (١)

و قد أنشد ابوطالب في خلقه هذين البيتين: ولقد عهدتك صادقاً

و العجيب ما روى أنه كان يكتفى بالثدى الأيمن من مرضعته حلیمه السعديه و كأنه كان حريصاً على العدل ليرك الثدى الايسر لولد حلیمه. (٢)

ثم أشار عليه السلام إلى نجابه النبي صلى الله عليه وآله و آله و كرامته في الكهوله؛ الأمر الذي يشهد به التأريخ، كما لا يخفى على أحد.

أما تواضعه و رأفته و فطنته و عفوه و صفحه فقد دوت في أرجاء كافه المعموره و هي أشهر من نار على علم. كان يهب كل مالديه للآخرين و وجود بالعطاء.

كان أسخى الجميع بحيث لم يبق عنده دينار أو درهم، وان زاد لديه شيء لم تكن تغمض عينيه دون أن يوصله إلى المحتاجين. كان يكرم الفضلاء، و يجهد في صله الأرحام، و كان يقبل العذر و يصفح عن المسيء.

ص: ٢٩٠

١-١) مناقب ابن شهر آشوب ١/٣٤ - ٣٧ ([١] طبق نقل شرح نهج البلاغه للشوشتری ٢/٢٠٤) و [٢] سيره ابن هشام ١/١٧٨. [٣]

٢-٣) ابن شهر آشوب طبق نقل بحار الأنوار ١٥/٣٣٢. [٤]

«فَمَا اخْلَوْلَتْ لَكُمْ الدُّنْيَا فِي لَمَدَّتِهَا، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رِضَاعِ أَخْلَافِهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلًا خَطَامُهَا، فَلَقَا وَضِعَ بَيْنُهَا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ، وَحَلَالُهَا بَعِيدًا غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا، وَاللَّهِ، ظِلًّا مَمْدُودًا إِلَى أَجْلِ مَعْدُودٍ. فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ. وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ؛ وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مَسْلَاطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِرًا، وَلِكُلِّ حَيٍّ طَالِبًا وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَيِّاءِ كِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَمَّا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلَمَّا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ، يَا بَنِي أُمَّيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفَنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَيْدُوكُمْ! أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبْلَهُ!». .

الشرح والتفسير

صرح أغلب شراح نهج البلاغه بأن هذا المقطع من الخطبه - والذي يبدو أن هناك حذف بينه وبين القسم الأول، جريا على عادة السيد الرضى فى اقتطاف بعض كلمات الإمام عليه السلام - فى بنى أميه، والشاهد على ذلك أن اسمهم ورد صراحة فى أواخر هذا القسم، بينما يرى جمع من شراح نهج البلاغه أن المخاطب هو من تبقى من الصحابه والتابعين، وذيلها فى بنى أميه، والعبارات التى استهل بها هذا القسم إنما تؤيد المعنى الثانى؛ لأن هذه العبارات تبين أن الإمام عليه السلام إنما عاتب أفرادا لم يكن يتوقع منهم الانحراف عن جاده الحق، ونعلم أن بنى أميه

طائفه ظالمه طيله التاريخ معروفه بانحرافها عن الإسلام. على كل حال قال الإمام عليه السلام: «فما احلوت (١) لكم الدنيا في لذتها، ولا تمكنتم من رضاع اخلافها (٢) إلا من بعد ما صادقتموها جائلاً (٣) خطامها، (٤) قلقتا (٥) ووضينها (٦)». .

المراد أنكم تكالبتم على لذات الدنيا وزخارفها في عهد عثمان وبعد الفتوحات الإسلامية والتداول على بيت المال، وهذا ماجعلكم تبتعدون عن الله، فقد انهمك الحكام بجمع الثروات، بينما انشغلت الأمة بدنياها ولذاتها.

ومن هنا قال عليه السلام أن حرام الدنيا أصبح سهلاً يسيراً كالسدر الخالى من الشوك، بينما أصبح الحلال بعيداً غائباً: «قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود، وحلالها بعيداً غير موجود»، فقد انهال البعض على بيت المال فنهب ماشاء، ثم اتسعت هذه الأموال الحرام بين الناس.

العباره «السدر المخضود» إشاره إلى أن نهى الله وتحريمه كالشوك تجاه لذات الدنيا المحظوره، أما الأفراد من عديمى الورع والتقوى فهم لا يكثرثون للنواهي الإلهيه، والحرام عندهم كالسدر المخضود، وقد صرح ارباب اللغه أن شجره السدر أنواع، لبعضها ثمار شديده الحلاوه فواحه العطر تفيض رائحته على يد الإنسان وثيابه إذا ما تناول منه. (٧)

نعم فاصحاب الدنيا يبتلعون الأموال الحرام وكأنها ثمار لذيذه كالسدر المنضد الذى قطع شوكه، ولا يلتفتون إلى أوامر الله ونواهييه، وبالطبع فإنّ الحرام إنّما ينتشرويعم مثل هذا الوسط فلا يبقى للحلال من مكان.

ص: ٢٩٢

١-١) «احلوت» أصبحت حلوه من ماده «حلو» .

٢-٢) «اخلاف» جمع «خلف» على وزن جلف حلمه ضرع الناقه.

٣-٣) «جائل» من ماده «جولان» تعنى فى الأصل إزاله الشى من مكانه، وتطلق على الحيوان الذى ينزل عنانه وينطلق اينما يشاء.

٤-٤) «خطام» ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به.

٥-٥) «قلقت» من ماده «قلق» الاضطراب وتحريك الشىء.

٦-٦) «وضين» بطن عريض منسوج من سيور أو شعر يكون للرحل كالخرام للسرّج.

٧-٧) لسان العرب، ماده سدر.

ثم قال عليه السلام: «وصاد فتموها والله، ظلًا ممدوداً إلى أجل معدود، فالأرض لكم شاغره (١)، وأيديكم فيها مبسوطه؛ وأيدي القاده عنكم مكفوفه، وسيوفكم عليهم مسلطه، وسيوفهم عنكم مقبوضه» .

فهذه العبارات تبين أنّ الكلام هنا بخصوص فريق من المؤمنين من بقيه الصحابه والتابعين الذين لم يتمالكوا أنفسهم حين الاختبار الإلهي، فيميلون حينما مالت الريح.

فقد شغلتهم الدنيا وغرتهم بزينتها وزخرفها وبالطبع قد حصل هذا في وقت لم يسع الإمام عليه السلام حتى في زمان حكومته أن يصددهم عنه؛ وذلك لأنهم غرقوا في هذه الدنيا على عهد عثمان بالشكل الذي لم يبق معه من أمل لانقاذهم بسهولة.

ثم هددهم عليه السلام ليعلموا أن المسأله ليست بهذه السهوله وهناك الحساب الذي ينتظرهم، محذرهم قائلاً: اعلموا أنّ لكل دم شائراً، ولكل حق طالباً: «ألا وإن لكل دم تائراً، (٢) ولكل حق طالباً، وإن التائر في دماننا كالحاكم في حق نفسه، وهو الله الذي لا يعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب» .

فاذا تأخر العذاب والانتقام الإلهي عن بعض العصاه المرده الذين يجاهرون بجنایاتهم، فهذا لا يعنى نسيان هذه الأعمال الشائنه، أو قدره هؤلاء الجناه على الفرار من مخالف العدل الإلهي.

والعبارة «إن التائر في دماننا. . .» تعنى أنّ التائر لدماننا أهل البيت والتي تسفك بغير حق هو الله سبحانه وتعالى، فهي تسفك في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمته، فلا تشتمل هذه الدماء على جانب شخصي أو قبلي، وقطعاً أن مثل هذا التائر لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء وهو بالمرصاد.

ص: ٢٩٣

(١-١) «شاغره» من ماده «شغور» خاليه.

(٢-٢) «تائر» من ماده «تأر» على وزن قعر «وقد يُدلت الهمزه بألف. و «تأر» تقرأ على وزن غار. وفي الاصل جاءت بمعنى التائر والانتقام، وتأتى أحياناً بمعنى الدم، وهو كناية عن التائر أيضاً. وتعبير «ثارالله» أطلق على الإمام الحسين والإمام علي عليهما السلام «يا ثارالله وابن ثاره»، ومعنى ذلك ان تار هذين الامامين لا- يتعلق بعائله او قبيله، بل يرتبط بالله سبحانه وتعالى وبكل بنى الانسان في هذا العالم.

ثم حذر بنى أميه قائلاً: «فاقسم بالله، يا بنى أميه، عما قليل لتعرفنها فى أيدى غيركم وفى دار عدوكم» .

إياكم والظن بآئكم أن سفكتم دماء الأبرياء ولم ترحموا صغيراً وتوقروا كبيراً، ورسختم دعائم حكومتكم على الظلم والعدوان ونهب الأموال وقتل الناس، فإنّ هذه الحكومه دائمه لكم! فسرعان ما ينهض لكم الأعداء ويسددوا لكم ضرباتهم الماحقه حتى يطيحوا بحكومتكم ويقضوا عليكم، بل سوف لن يرحموا حتى موتاكم، فسيخرجونهم من قبورهم ويحرقون أجسادهم.

ويشير التاريخ إلى تحقق كل ما أخبر به الإمام عليه السلام، وقد مر شرح ذلك فى الخطبه ٨٧. (١)

ثم إختتم الكلام بقوله عليه السلام: «ألا إن أبصر الأبصار ما نفذ فى الخبر طرفه! ألا إن أسمع الاسماع ما وعى التذكير وقبله» .

أى إن كان لكم بصر وسمع مفتوح، لم تعد عليكم من صعوبه فى الظفر بسبيل الخير والسعاده، غير أنه لمن المؤسف أن أهوائكم النفسيه وطغيانكم قد غطى أبصاركم وأسماعكم بالحجب، بحيث لا يسعكم رؤيه الحق ولا سماع المواعظ.

جدير ذكره سئل بعض شيوخ بنى أميه عقيب زوال الملك عنهم:

ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عمالنا على رعيننا، فتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا، أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم عنا، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقله أنصارنا، وكان استتار الأخبار عتاً من أوكد أسباب زوال ملكنا. (٢)

ونرى هنا يوضح عمق ما أخبر به الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

ص: ٢٩٤

١- (١) المجلد الثالث من هذا الكتاب فى الخطبه ٨٧؛ ج ٤ الخطبه ٩٣.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/١٣٦. [١]

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلِهِ مِصْبَاحٍ وَاعْظُوا مُتَعِظًا، وَامْتَاخُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكُدْرِ.

عِيَادَ اللَّهِ، لَاتَزَكُنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلَا تَنفَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرْفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ! فَاللَّهُ اللَّهُ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أُبْرِمَ لَكُمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا في نصح الناس ووعظهم فقال في البدايه لإعداد أنفسهم: «أيها الناس، استصبحوا من شعله مصباح واعظ متعظ، وامتاخوا (1) من صفو عين قد روقت (2) من الكدر».

كما أنّ الاشارات الضوئيه تنير للإنسان طريقه إذا مشى ليلاً في الظلام وتقيه الوقوع في المطبات أو أن يضل الطريق، فإنّ نصائح الواعظ المتعظ تصون الإنسان في مسيرته وسلوكه المعنوي والفكري والأخلاقي من الانحرافات العقائديه، وكما أنّ الماء الزلال والخالي من الكدر هو ماده حياه جسم الإنسان وسائر الكائنات الحيه؛ كذلك نصائح دعاه الحق تشكل ماده حياه روح الإنسان ونفسه.

ومن الواضح أنّ المراد بهذا الواعظ المتعظ الذي ينبغي الاستصباح من شعلته والتروى من

ص: ٢٩٥

١-١) «امتاخوا» من ماده «متح» سحب الدلو من بئر الماء.

٢-٢) «روقت» من ماده «روق» على وزن فوق بمعنى صفت، فتأني بمعنى التصفيه إذا حملت على باب التفعيل.

صفو عينه هو الإمام عليه السلام الذى وظفت الناس بالتمسك به والاستفادة منه: أما للأسف لم يفعلوا واننا لنهتدى اليوم بما وصلنا من كلماته عليه السلام ونستقى من عينه الصافية.

ثم واصل عليه السلام كلامه بخطاب كافة عباد الله وحذرهم من الجهل والهوى والأفكار الباطلة المنحرفة.

فقال عليه السلام: «عباد الله، لا تركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا لأهوائكم» ثم بين عليه السلام دليل ذلك قائلاً: «فان النازل بهذا المنزل نازل بشفاً (١) جرف هار، ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع»، ثم قال عليه السلام: «لرأى يحدثه بعد رأى؛ يريد أن يلصق ما لا يلتصق، ويقرب ما لا يتقارب».

فقد بين الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة حقيقه مهمه وهى أن أحد مصادر الضلال إنما يكمن فى الاستناد إلى الاوهام والظنون الباطلة والآراء الفاسده البعيده عن البرهان والدليل.

وقد شبههم الإمام عليه السلام بحافه النهر حيث يتمتعون بظاهر خلاب، فى حين يستبطن الخلاء والجوفيه! فاذا وطى الجهال تلك الحافه هروا فى القعر.

ثم خلى الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة: «فالله الله أن تشكوا إلى من لا يشكى شجوكم (٢)، ولا ينقض برأيه ما قد أبرم لكم».

ولعل هذه العبارة إشاره إلى أن أحد منابع الجهل وعدم العلم والوقوع فى متاهات الظنون الباطله إنما يتمثل باستشاره غير الاكفاء من الأفراد الذين يفتتروا إلى الفكر السليم والرأى القاطع والاطلاع الكافى واللازم للتغلب على المشاكل والصعوبات، فاذا ما استشير حمل معه من استشاره إلى وادى الضلال والهلكه.

كما يحتمل أن تكون إشاره إلى ضروره عدم الاغترار بالقدرات الكاذبه والجباره التى لا تفكر سوى فى تحقيق أطماعها ومآربها (كبنى أميه). وعليه فلا ينبغى لهم الاستعانه بهؤلاء من أجل حل مشاكلهم. فهم ليسوا فقط غير قادرين على حل هذه المشاكل فحسب، بل غالباً ما يسهمون فى مضاعفه هذه المشاكل.

ص: ٢٩٦

١-١) «شفا» حافه الشىء وتعنى فى الأصل حافه البئر والنهر، و «الهار» من «هور» على وزن غور بمعنى المتهدم أو المشرف على الانهدام.

٢-٢) «شجو» الهم والغم (ولهذه المفرده معنى المصدر واسم المصدر).

«إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الْإِبْلَاحُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالْإِجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالْإِحْيَاءُ لِلسُّنَنِ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحَقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهُمَانِ عَلَى أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَضْوِيحِ نَبِيِّهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي!» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة إلى الوظائف الخمس لإمام المسلمين ووظائف المسلمين فذكر بعض الأمور المهمة بهذا الشأن، وكان ما أورده الإمام عليه السلام سابقاً يدعو إلى سؤال يقتدح في الازدهان، وهو أننا إذا وقعنا في وادى الجهل أو شكونا ما يحل بنا لغير أهله، فذلك لأن الإمام لم يأخذ بأيدينا ويهدينا ويدلنا على الطريق.

فقد رد الإمام عليه السلام على مثل هذا السؤال المقدر بالقول: «إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ» .

والوظائف الملقاه على عاتقه هي:

١ - الوعظ لعامة الناس «الابلاغ في الموعظة» .

٢ - الجد والاجتهاد في الخير والنصح «والاجتهاد في النصيحة» .

٣ - «والإحياء للسنة» .

٤ - «واقامة الحدود على مستحقيها» .

ص: ٢٩٧

هذه هي وظائف حاكم المسلمين. فعليه أن يوصل الأحكام الإسلامية كامله إلى الأمة بحيث يخرج من نشد الحق عن الجهل والضلال ولا يبقى له من عذر في الجهل بهذه الأحكام. هذا من جانب.

ومن جانب آخر: يسعى ويجتهد من أجل خير المسلمين وإصلاح أوضاعهم الدينية والدينيوية والاجتماعية والاقتصاديية والسياسية. ومن جانب ثالث: أن يسعى لحياء السنه النبويه والأحكام الشرعيه من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو سائر الوسائل.

ومن جانب رابع: إجراء الحدود بحق المستحقين دون التمييز بين أحد وآخر والتساهل في إقامتها بهدف منع الجرائم والجنايات. ومن جانب خامس: دفع حقوق المستحقين والمحتاجين من بيت المال.

فاذا فعل امام المسلمين ذلك فقد أدى دينه تجاه عبادالله، فان كان هناك من اشكال واضطراب فأتما يعود إلى الناس.

ثم خاض عليه السلام في وظائف الأُمَّه ليوجزها في ثلاث، تعلم العلم من قبل أن تجف شجرته، وقبل أن ينشغلوا بأنفسهم ويتلوثوا بالدنيا، كما عليهم أن يستقوا هذا العلم من منابعه: «فبادروا العلم من قبل تصويح (٢) نبتة، ومن قبل أن تشغلوا بأنفسكم عن مستثار (٣) العلم من عند أهله» .

ولعل المراد بجفاف شجره العلم شهادته عليه السلام، والمراد شخصه عليه السلام أيضاً بمركز فيض العلم - ومن هنا فقد لفت انتباههم إلى ضروره السؤال والاستفسار مادامه عليه السلام بينهم.

والعبارة تشبه تلك التي أطلقها عليه السلام أواخر عمره الشريف: «سلوني قبل أن تفقدوني» (٤).

كما يحتمل ان يكون المراد بهذه العبارة جفاف شجره وجود الإنسان، لأن الإنسان لا يمتلك

ص: ٢٩٨

١-١) «سهمان» على وزن لقمان جمع «سهم» الحظ والنصيب.

٢-٢) «تصويح» جفاف النبات.

٣-٣) «استثار» من ماده «استيثار» بمعنى الاستثارة والنشر.

٤-٤) نهج البلاغه، الخطبه، ٩٣.

القدره الكافيه على تناول العلم فى أى سن وعمر وينسجم هذا الاحتمال والعبارة القادمه، لأنّ الإنسان كلما تقدم به العمر ازدادت مشاكله وهمومه، كما يقل استعداداه - كما يمكن الجمع بين الاحتمالين.

ثم أشار إلى الوظيفه الثانيه والثالثه للأّمه بالقول: «وانهوا عن المنكر وتناهوا عنه، فآّمأ أمرتم بالنهى بعد التناهى» .

وعليه فوظيفه الناس أولاً: ان يرفع من مستواه العلمى ويزيد من معارفه، لأنّ الجهل من عوامل التخلف.

وثانياً: الجّد فى امتثال أوامر الله وعدم نسيان وظيفه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى تعد وظيفه عامه. والحق أنّ السعاده ستعم الأّمه لو عملت بوظائفها ونهض أئمه المسلمين بوظائفهم.

وقد برز سؤال بين شراح نهج البلاغه - وهو السؤال الذى يتبادر إلى ذهن كل متتبع - وهو؛ كيف اشترط الإمام عليه السلام النهى عن المنكر بانتهاه، الشخص عن فقال: «فانما أمرتم بالنهى بعد التناهى» ؟ رد ابن أبى الحديد على هذا السؤال بالقول: لم يرد عليه السلام أنّ وجود النهى عن المنكر مشروط بانتهاه ذلك التناهى عن المنكر، وإنّما أراد: أنى لم آمركم بالنهى عن المنكر إلّا بعد أن أمرتكم بالانتهاه عن المنكر. (١)

بينما اعتبر الشارح الخوئى هذا الرد تكلفاً وقال: الأفضل أن يقال للسائل: أنّه عليه السلام أوجب الأمرين (دون اشتراط أحدهما بالآخر) والعبارة الأخيره إشاره إلى الانتهاه عن المنكرات التى أكدت أكثر عن وجوب النهى عن المنكر. لأنّ اصلاح النفس مقدم على اصلاح الآخرين. (٢)

إلّا أنّ الأفضل أن يقال: إنّ الانتهاه عن المنكر لشرط كمال النهى عنه، لا شرط وجوبه، لأنّ الإنسان حين يرتكب الذنب ويريد نهى الآخرين عنه، سوف لن يكون لكلامه من تأثير، ولو علم الناس منه ذلك لسخروا منه وقالوا: «طيب يعالج الناس وهو عليل» .

ص: ٢٩٩

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/١٧٠. [١]

٢- ٢) شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئى ٧/٢٥١.

ومن هنا أكد أئمة الدين عليه السلام أننا لا ننهاكم عن شيء حتى ننتهي عنه قبلكم.

فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس، إني والله ما أحثكم على طاعه إلّا وأسبقكم إليها، ولا- أنهاكم عن معصيه إلّا وأتناهى قبلكم عنها» (١).

ص: ٣٠٠

(١-١) نهج البلاغه، الخطبه ١٧٥. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

وفيه يبين فضل الإسلام ويذكر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ثم يلوم أصحابه

نظره إلى الخطبه

كما يتضح من عنوان الخطبه أنها تتألف من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن أهميه الإسلام وبركاته وآثاره والتركيز على بعض النقاط المهمه بهذا الشأن.

القسم الثانى: يتحدث عن شخصيه الرسول الأ-كرم صلى الله عليه وآله بعبارات قصار عميقه المعنى، ثم يختتمه بالدعاء للنبي صلى الله عليه وآله وعامه المؤمنين.

القسم الثالث: يلوم أصحابه على سكوتهم على الظلم والفساد رغم ما آتاهم من النعم، والسماح لهؤلاء الظلمه بانتهاك الحرمات. وممارسه كل ما يحلو لهم من أعمال.

وجاء فى بعض الروايات أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عن الإسلام والإيمان والكفر والنفاق فخطب عليه السلام بهذه الخطبه. وفى خبر عن الاصغ بن نباته أن أمير المؤمنين عليه السلام خطبها فى داره أوفى دار الاماره ثم أمر بكتابتها. (٢)

ص: ٣٠١

١-١) سند الخطبه: ورد فى مصادر نهج البلاغه سنذكر مدارك هذه الخطبه فى ذيل الكلمات القصار (الكلمات ٣٠، ٣١، ٢٦، ٢٦٨) ويبدو انها فى خطبه واحده للإمام عليه السلام (فصلها المرحوم السيد الرضى (ره))، ولكن ليس لدينا مدارك واضحه لما نقله المصادر. والذى يستفاد من كتاب المستدرک والمدارك لنهج البلاغه ان جانب من هذه الخطبه ورد فى كتاب اصول الكافى وجانب آخر منها فى الامالى للطوسى (من اول الخطبه إلى عبارته والجئه سبقتة).

٢-٢) شرح نهج البلاغه للشوشترى ١٢/٣٣٩. [١]

«الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَيِّهَلْ شَرَائِعُهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَابَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْنًا لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسَلَّمَ لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُورًا لِمَنْ اسْتَبْصَأَ بِهِ، وَفَهْمًا لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ، وَتَبَصَّرَهُ لِمَنْ عَزَمَ، وَعَيْزَةً لِمَنْ اتَّعَظَ، وَنَجَاءً لِمَنْ صَدَّقَ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجَنَّةً لِمَنْ صَبَرَ، فَهُوَ أَوْلَجُ الْمَاهِجِ، وَأَوْضَحُ الْوَلَائِجِ؛ مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُشْرِقُ الْخِيَوَادِّ، مُضَيءُ الْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ الْمِضَارِ، رَفِيعُ الْغَمَائِهِ، حَامِعُ الْحَلَبَةِ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ. التَّضْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّلَاحَاتُ مَنَارُهُ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ، وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، وَالْقِيَامَةُ حَلَبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ضمن الخطبة ٢٦ إلى الخصائص المهمة للإسلام والمميزات التي ينطوى عليها بعبارات قصيرة ذات معان عميقة. وكما أوردنا سابقاً - نظره إلى الخطبة - أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة في المسجد لعامة الناس، رداً على من سأله عن خصائص الإسلام والكفر والإيمان والنفاق. فقد استهل عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه قائلاً: «الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده». حيث نعلم أن الشريعة تعنى الطريق الذي يشقه الناس إلى جانب الأنهار الكبيرة نحو الماء لاستفيد منه الناس.

فقد بين الإمام عليه السلام أنّ الإسلام أشبه بالنهر العظيم و وصف طرق الوصول إليه بأنها سهلة

يسيره. كما أنّ اعتناق الإسلام سهل يخلو من أى تكلف؛ فيكفى فيه أن ينطق الإنسان من صميم قلبه بالشهادتين ليخرج من صف الكفر والنفاق ويلتحق بصفوف المسلمين والمؤمنين، كما أنّ البرامج الإسلاميه هي الأخرى سهله يسيره سمحاء، فهناك الأدله من قبيل «لا ضرر» و «نفى الحرج» التي رفعت أى تكلف و ثقل عن كاهل الإنسان! كما منحت الاصاله فى الشرع للبراءه وحمل أفعال الآخريين على الصحه. كما رفضت أى إكراه أو إجبار، كما حكم ببطالان كافه العقود التي تبرم على أساس إلا-كراه والاجبار والاضطرار. كما صرحت ببعض الواجبات التي لاتدعو إلى المشقه والعسر والحرج. وزبده الكلام فقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «بعثت إليكم بالحنيفيه السمحه السهله البيضاء» (١).

إلما أن لسهولتها لا- تعنى قدره أرباب السوء على السيطره عليها والتغلب عليها، ومن هنا قال: «وأغر أركانه على من غالبه»، ثم بحكم: «أشداء على الكفار رحماء بينهم» (٢) فإن المسلمين مكلفون بالقوه والشده تجاه الأعداء والرحمه والرأفه ازاء المؤمنين.

ثم واصل ذكر الصفات الأخرى للإسلام كونه ملاذاً آمناً لمن لجأ إليه من الأفراد وسلاماً وأمناً لمن دخل حصنه وولج حريمه، ودليلاً- وبرهاناً قاطعاً لمن اعتمده فى منطقته، ووجه دامغه لمن احتج به على خصمه: «فجعله آمناه لمن علقه (٣)، وسلماً لمن دخله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به» .

نعم فالمسلمون جميعاً يتمتعون بالأمن قاطبه دون استثناء فى الإسلام، وأسسده ودعائمه رصينه قويه تدعو دعاه الحق للاستدلال بها، كما تسوقهم للدفاع عنها تجاه خصوم الدعوه وأعدائها.

ثم قال عليه السلام فى ذكره لعهده صفات أخرى: «ونوراً لمن استضاء به، وفهماً لمن عقل، ولباً لمن تدبر»، فبلوغ الحقيقه يمر عبر ثلاث مراحل: الظفر بموقعها ومن ثم إدراكها وفهمها وأخيراً تحليلها بصوره دقيقه. وقد بين الإمام عليه السلام هذه المراحل الثلاث بالعبارات الثلاث

ص: ٣٠٤

١-١) بحار الانوار ٦٥/٣٤٦. [١]

٢-٢) سورة الفتح/٢٩. [٢]

٣-٣) «علق» من ماده «علق» التعلق بالشىء والالتصاق به.

المذكوره، فقال أولاً أنّ الإسلام نور يستقطب نحوه الأفراد ليصلوا إليه. ثم قال: إنّ من تعقله سيد ركه ويفهمه. وأخيراً من تدبر بلغ حقيقته.

والحق أنّ الإسلام يتمتع بكل هذه الصفات، فالقرآن الذى تكفل بشرح الإسلام وتوضيحه إنّما يستند على الدوام إلى الدليل والبرهان والمنطق والعقل؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الآيه ١٥ و١٦ من سوره المائده: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» .

ثم قال عليه السلام: «وآيه لمن توسم، وتبصره لمن عزم، وعبره لمن اتعظ»، توسم من ماده وسم وضع العلامه، والمتوسم تطلق على من يفهم الواقعه من خلال أبسط أثر أو علامه، وهى الفراسه التى ذكرها القرآن فى الآيه الشريفه: «إِنَّ فِي ذَلِكْ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ» (١). فعبارة فى الواقع إشاره إلى أمور مهمه و ظريفه فى القرآن يدر كها ممن تحلى بالفراسه.

ثم واصل عليه السلام ذكره لسائر صفات الإسلام بصفته وسيله النجاه لمن صدق به، والاطمئنان والثقه لمن استند إليه وتوكل عليه، كما يغرق الإنسان بالهدوء والراحه إذا ما وكل أعماله إليه وهو الجنّه الواقيه لمن استقام وصبر: «ونجاه لمن صدق، وثقه لمن توكل، وراحه لمن فوض، وجنّه لمن صبر» .

فالعباره تتحدث عن أربع فضائل أخلاقية هى: التصديق والتوكل والتفويض والصبر.

فتصديق الإسلام فى الاعتقاد والعمل إنّما يودى بلا- شك إلى النجاه، كما أن الاعتماد على المعارف الإسلاميه يقود إلى الاطمئنان بالمستقبل والحاضر للدنيا والآخرة، وتفويض الأمور إلى أصول الإسلام وفروعه بمعنى الحركة فى ظله هى سبب الهدوء والسكينه والاستقرار والراحه، وأخيراً فان الصبر والاستقامه فى هذه المسيره وتحمل الشدائد فى سبيل حفظ العقيدته والعمل على ضوء أحكام الشريعة إنّما تجعل الفرد فى جنّه وثيقه تجاه الأمور التى تهدد سعادته أو سعادته المجتمع.

ص: ٣٠٥

والواقع هو أنّ الإنسان إنّما يطلب النجاه والاطمئنان والهدوء والراحة والأمن؛ وهى الأمور التى لا تحصل الأمن خلال العمل بالبرامج الإسلاميه وعلى ضوء التعاليم السماويه.

ثم تطرق عليه السلام إلى خمس صفات أخرى تمثل فى الواقع النتيجة لما سبق من أوصاف، وهى أنّ طرق الإسلام أوضح الطرق ومدخلها من أظهر المداخل، وعلاماتها جليه ظاهره، ومسالكتها بينه منيره «فهو أبلج (1) المناهج (2) وأوضح الولايج (3)؛ مشرف المنار (4) مشرق الجواد (5)، مضىء المصاييح» .

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام رسم هنا صورته للجاده التى تضم كافة الامتيازات.

فهى على درجه من الوضوح بحيث يبلغها كل شخص بسهولة. ولها أبواب متعدده ماثله امام اصحاب الحق واضحه لديهم. وتتطلب هذه الجاده بعض العلامات التى تبدو من بعيد؛ وهذه فى الواقع جاده الإسلام.

(فقد كانوا يعمدون فى السابق إلى بناء الأبراج فى الطرق ثم ينصبون المصاييح فوقها لتبدو للعيان من مسافات بعيدة وتحول دون ضلال الطريق ويطلقون عليها اسم المنار؛ أى موضع النور، إلّا أنّ المعنى الواسع لهذه الكلمه يشمل جميع العلامات التى تمنع السالكين من الانحراف) .

ولعل هذه العبارات كناية عن محكمات الآيات القرآنيه وصريح السنه النبويه والمعجزات والكرامات وأدله العقل والنقل التى تضيئى معالم الطريق للموحدين السائرين على هدى الإسلام.

ثم شبه عليه السلام بالإسلام بالمسابقه التى تمثل أركانها ذروه الحسن والكمال.

فللمسابقه عاده بعض الأركان من قبيل:

١ - ميدان التمرين ٢ - نقطه انتهاء المسابقه ٣ - الخيل الجاهزه ٤ - الجائزه الكبيره ٥ - الفرسان النجباء.

ص: ٣٠٦

١-١) «أبلج» من ماده «بلوج» على وزن بلوغ واضح ونير.

٢-٢) «المناهج» جمع «منهج» الطريق الواضح والمستقيم.

٣-٣) «الولايج» جمع «وليجه» من ماده «ولوج» بمعنى الدخول فولانج أبواب الدخول.

٤-٤) «مشرف» من ماده «اشراف» بمعنى المرتفع.

٥-٥) «جواد» جمع «جاده» الطريق الواسع الواضح، كما تطلق على مطلق الطريق.

فقال عليه السلام أنّ ميدان السباق الإسلامى طاهر مطهر وكريم، ونقطه انتهاء السباق هى نقطه رفيعه ساميه، وفرسان هذه المسابقه معروفون بالاصاله والاستعداد، أمّا الجائزه المترتبه على هذه المسابقه فهى عظيمه للغاية، وأهلها من النجباء «كريم المضممار (١)، رفيع الغايه، جامع الحلبه (٢)، متنافس (٣)، سبقه (٤)، شريف الفرسان» .

ثم أضاف عليه السلام بأنّ التصديق واليقين هو سبيل (الوصول إلى الأهداف) الإسلام، وعلامه ذلك الأعمال الصالحه (فالواقع هو أنّ الإيمان والعمل الصالح هما العنصران الذان يؤديان إلى الفوز فى هذا السباق) .
«التصديق منهاجه، والصالحات مناره» .

ثم اختتم عليه السلام كلامه بالقول: «والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامه حلبته، والجنّه سبقته» . ليشخص بصوره جزئيه ما ورد سابقاً بنحو الكليه.

أمّا عدم ذكر فرسان المسابقه فلوضوح الأمر؛ فهم ليسوا سوى المؤمنين من ذوى الأعمال الصالحه.

وقد مرعلينا مثل هذا التشبيه الرائع مع إختلاف طفيف فى الخطبه ٢٨ إذ قال عليه السلام: «ألا وإنّ اليوم المضممار، وغدا السباق، والسبقه الجنّه والغايه النار» .

تأملان

١ - منزله الدنيا والآخره فى النظره الإسلاميه

تمثل الدنيا بالنسبه لطلابها ولاولئك الذين ينكرون الآخره علماً أو عملاً منتهى الطموح والهدف، وعليه فهم يضحون بكافه القيم والمثل من أجلها.

ولعل البؤس والشقاء الذى يعيشه المجتمع العالمى هو وليد هذا النوع من التفكير. أمّا

ص: ٣٠٧

١-١) «المضممار» موضع تضمير الخيل وزمان تضميرها.

٢-٢) «الحلبه» من ماده «حلب» على وزن قلب خيل تجمع من كل صوب للنصره كما تطلق على حلب اللبن من الحيوان، ثم اطلقت على الخيل التى تتسابق فى الميدان.

٣-٣) «متنافس» من ماده «تنافس» سعى الإنسان للحصول على شىء نفيس.

٤-٤) «سبقه» جزاء السابقين.

الإسلام فهو لا يرى الدنيا سوى مرحلة عابره ومقدمه للآخرة، حتى وردت الروايات والأخبار التي شبهتها بالمزرعه والقنطره والمتجر (وقد مر شرح ذلك في الخطبه ٢٨).

أمّا في هذه الخطبه والبعض الآخر من خطب نهج البلاغه فقد شبهت الدنيا بميدان التمرين والآخرة بميدان السباق؛ وهو تشبيه رائع غايه في الدقه والروعه. فالإنسان إنّما يتزود بالقوه والقدرة في هذا الميدان بواسطه التعاليم العقائديه والتربويه والأخلاقية، بما يمكنه من إجتياز مسابقه الأخرى بسرعه لدخول الجنّه والفوز برضوان الله وقربه. والتصديق الذي ورد في الخطبه بصفته المنهاج والصالحات بصفتها المنار إنّما يشير إلى هذه التريه والتعليم الرباني.

فالذي نستفيد من هذا التشبيه ما يلي!

١ - أنّ السعاده والنجاه في الآخرة ليست عبثاً؛ بل تتأتى في ظل البناء الفكرى والأخلاقى والعقائدى.

٢ - إنّما تغلق صحيفه الأعمال بانتهاء الدنيا، والقيامه يوم حساب ولا عمل، كما أنّ ميدان المسابقه للسباق لا للتمرين.

٣ - جائزه هذه المسابقه من أعظم الجوائز، وذلك لان هذه المسابقه من أعظم المسابقات

٤ - يعتمد تفاوت واختلاف درجات الناس ومقاماتهم على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم. فقد يدخل الإنسان الجنّه إلّا أنّ درجته تختلف عن غيره، على غرار الفائزين في السباق، فهناك الفائز الأول والثانى والثالث وهكذا.

٥ - ليس هنالك أى عمل من أعمالنا في هذه الدنيا يمكنه أن يزول وأن آثاره باقيه، على غرار آثار التمارين التى يقوم بها المتسابقون.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بالقول: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» (١).

وجاء في الحديث عن الإمام الحسن عليه السلام بعد أنّ وصف شهر رمضان بصفته مضمار الخلق وميدان التمرين أنّه قال: «وايم الله لو كشف الغطاء لعلموا أنّ المحسن مشغول باحسانه، والمسيئ مشغول باسائه» (٢).

ص: ٣٠٨

١-١ (١) سورة الزلزله/٧ - ٨. [١]

٢-٢ (٢) بحار الانوار ٧٥/١١٠. [٢]

كما أوردنا في الخطبه المذكوره والروايه التي نقلناها في شرحها أنّ الإسلام لشريعه سهله سمحاء؛ أى ليس هنالك من تكلف ولا عسر ولا حرج فى ممارسته وطقوسه فهى لاتدعو إلى الضجر والتعب.

والتمعن فى أحكام الإسلام سواء فى العبادات والمعاملات والروابط الإنسانيه أو فى العقوبات والجزاء يفيد أنّها برمجت على ذلك الأساس أيضاً. فقد روعى هذا الأصل حتى فى أشد العقوبات الإسلاميه من قبيل قتل الزانى بالمحصنه، وذلك لأنّ العقاب ان كان شديداً تعذر بسهوله إثبات الجرم. فعاده ما تثبت الدعاوى بشاهدين، بينما يلزم هنا اربعة شهود. وهكذا الحال فى اجراء بعض الحدود من قبيل الجلد، فقد أوصى باجرائه فى الجو البارد فى فصل الصيف، والحر فى فصل الشتاء، وعدم رفع اليد إلى مكان مرتفع وعدم ضرب المواضع الحساسه وما إلى ذلك من الأوامر.

من جانب آخر فإنّ هؤلاء المجرمين ينالون العفو عما ارتكبوا فيما إذا تابوا قبل القبض عليهم، اضافته إلى العمل بقاعده درء الحدود عند الشبهات فى كافه الجرائم وعند بروز أدنى شك أو شبهه.

وقد جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه كلفوا الناس من دينهم ما يطيقون، ثم نقل له عليه السلام قصه ذلك المسلم الذى كان له جار كافر رغب فى الإسلام، فكان يحمله صباحاً وظهراً وليلاً إلى المسجد، بحيث كان يقضى أغلب وقته فيه فى أداء الواجبات والمستحبات. حتى فارق هذا الرجل الإسلام بعد أن شق عليه الأمر وقال: لا طاقه لى بهذا الدين. ثم قال الإمام عليه السلام: «إن إماره بنى أميه كانت بالسيف والعسف، وإن إمارتنا بالرفق، والوقار، والتقيه، وحسن الخلطه، والورع، والاجتهاد. فرغبوا الناس فى دينكم، وفيما أنتم فيه» (١).

ص: ٣٠٩

ولا يخفى أن الحب والرفق والمداراه والخلطه الحسنه إنما تكون مع الأفراد الذين لا يعملون بالشر وإلّا فالإسلام صلب المعامله لشديد فيها تجاه الظلمه والطغاه والاشرار والأوباش، بغيه الحفاظ على سلامه المجتمع وأمنه.

ص: ٣١٠

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

«حَتَّى أَوْزَى قَبْسًا لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عِلْمًا لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ يَوْمَ رَسُولِكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً، اللَّهُمَّ اقسِمْ لَهُ مَقْسِيماً مِنْ عَيْدِكَ، وَاجْزِهِ مَضْمَعَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ اعمِلْ على بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ! وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِي زَمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَادِمِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا ضَالِّينَ، وَلَا مُضِلِّينَ، وَلَا مَفْتُونِينَ» .

الشرح والتفسير

أشار عليه السلام في هذا الموضع من الخطبه إلى خصائص النبي صلى الله عليه وآله وعلو صفاته، ثم سأل الله تعالى له رفيع الدرجات، كما اختتم بالدعاء لنفسه ولجميع المؤمنين بالحشر في زمرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله. فقال عليه السلام: «حتى أوري (١) قبساً لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عِلْمًا لِحَابِسٍ (٢)» .

وبالنظر إلى أن هذا القسم من الخطبه - كما صرح المرحوم السيد الرضى (ره) - رواه أخرى للخطب السابقه (٧٢) ، فالذى يفهم أن «حتى» غائيه بالنسبه لسعى النبي صلى الله عليه وآله وجهده،

ص: ٣١١

١ - ١) «أورى» من ماده «ورى» على وزن نفى بمعنى التغطية والستر، وتستعمل بمعنى اشعال النار إذا جاءت من باب الأفعال؛ وكأن النار التى كمننت فى جوف المواد المشتعله قد خرجت، وتشير فى الخطبه إلى أنوار الهدايه التى نصبها الرسول صلى الله عليه وآله لدعاه الحق.

٢ - ٢) «قبس» الشعلة من النار، والقابس آخذ النار من النار، وهى هنا إشارة إلى النور والهدايه.

٣ - ٣) «الحابس» من حبس ناقته وعقلها حيره منه لا يدرى كيف يهتدى فيقف عن السير.

كما يمكن القول بأن الفاعل في عبارته أوري وأثار هو لشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وعليه فقد قام صلى الله عليه وآله بعملين مهمين هما:

الأول: أنه أمد طلاب الحق بقبسات النور، والثاني أنه نصب مصابيح الهداية في طريق الحيارى.

وكانَّ العبارة الأولى إشارته إلى علماء الأمة الذين يأخذون بشعلة الهدى فيواصلون مسيرتهم ويحملون الآخرين معهم. والعبارة الثانية إشارته إلى الأفراد العاديين الذين ليست لديهم مثل هذه القبسات وعيونهم متطلعة إلى مصابيح الهدى الموضوعه على جانب الطريق. وبعبارته أخرى فإن النبي صلى الله عليه وآله قد أمد دعاه الحق بالهداية العامه والخاصه.

ثم قال عليه السلام على سبيل النتيجة الواضحه و الرائعه: «فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمه ورسولك بالحق رحمه» .

وقوله عليه السلام أمينك المأمون تأكيد لمطلق أمانته وكمالها، وشهيدك يوم الدين ويوم الحساب والجزاء إشارته للآية الشريفة ٨٩ من سورة النحل: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ» .

ويمكن أن تكون هذه الشهادة على الاصول الكليه التي تضمنتها دعوه كافه الأنبياء، أو على جزئيات الأعمال، بفعل الشهود العلمى للنبي صلى الله عليه وآله بالنسبه لأعمال كافه الأمم.

وقوله عليه السلام: «بعيثك نعمه» إشارته إلى أن بعثه النبي صلى الله عليه وآله كانت نعمه كبيره من جانب الله سبحانه، كما كانت نموذجاً بارزاً لرحمته الواسعه سبحانه، فقد اهدت به الملايين من أفراد البشريه وانقادت إلى الحق في ظل تعاليمه الساميه، وهذا الكلام في الواقع اقتباس من الآيات القرآنيه ومنها: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» (١) و «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (٢).

ثم واصل عليه السلام كلامه في إطار امتنانه وتقديره لجهود النبي صلى الله عليه وآله العظيمه، فرفع يده بالدعاء مبتهلاً إلى الله بافاضه نعمه على النبي صلى الله عليه وآله فقال: «اللهم أقسم له مقسماً من عدلك، واجزه

ص: ٣١٢

١-١) سورة آل عمران/١٦٤. [١]

٢-٢) سورة الأنبياء/١٠٧. [٢]

مضعفات الخير من فضلك، اللهم أعل على اباة البانين بناءه وأكرم لديك نزله (١)، وشرف عندك منزله، وآته الوسيله، واعطه السناء (٢) والفضيله» .

ويختزن الدعاء الأول والثاني هذه النقطه، وهى أنّ النبي صلى الله عليه وآله يستحق مزيد الثواب بمقتضى العدل الإلهي، كما يتضاعف هذا الثواب بمقتضى الفضل الإلهي. قال القرآن الكريم: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» (٣).

وسؤال الله علو بناء النبي صلى الله عليه وآله على بناء جميع البانين إمّا إشاره إلى علو دينه على جميع الاديان بمقتضى «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» (٤).

وإمّا علو مقاماته فى الجنّه، أو علو فضائله المعنويه صلى الله عليه وآله.

ويبدو التفسير الأول أنسبها جميعاً.

والعبارة «آيه الوسيله» إشاره إلى المقام العالى للقرب ونتيجه ذلك الدرجات الرفيعه فى الجنّه، فقد ورد فى الحديث النبوى أنّه صلى الله عليه وآله خاطب أصحابه قائلاً: «سلوا الله لى الوسيله»، ثم أضاف: «هى درجتى فى الجنّه، وهى ألف مرقيه... فلا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلّا قال طوبى لمن كان هذه الدرجه درجته» (٥).

ثم اختتم كلامه عليه السلام بهذا الدعاء: «واحشرنا فى زمرة غير خزايا (٦)، ولا نادمين، ولا ناكبين، ولا ناكثين، ولا ضالين، ولا مضلين، ولا مفتونين» فى إشاره إلى أن الأفراد يسعهم بالعمل والعلم أن يكونوا فى زمرة النبي صلى الله عليه وآله ويجتازوا هذه الفضائح السبع، فلا يندمون ويفتضحون يوم القيامة، وإذا رأوا أعمالهم لا يشعرون بالندم، فلا يكونوا فى صف الناكثين، ولا يحملون أوزار الآخرين ولا يخذعون بالشياطين.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام اشار إلى طوائف أمه النبي صلى الله عليه وآله حين ترد المحشر حيث ترد كل

ص: ٣١٣

١-١) «نزل» بضمّتين ما هينى للضيف لينزل عليه.

٢-٢) «السناء» علو المقام والرفعه.

٣-٣) سورة الانعام/١٦٠. [١]

٤-٤) سورة الصف/٩. [٢]

٥-٥) تفسير نور الثقلين ١/٢٦٦ ح ١٧٨. [٣]

٦-٦) «خزايا» جمع «خزيان» الخجل والافتضاح.

واحد منها وادياً من الأودية المذكوره السبع، ولعل هذه الطوائف كانت موجوده وقد خاطبها عليه السلام محذراً إياها بهذا الدعاء.

كلام المرحوم السيد الرضى

قال المرحوم السيد الرضى (ره) ذيل هذا الكلام: «وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم؛ إلا أننا كررناه هنا لما فى الروايتين من الاختلاف». (١)

تأمل: إعراف مهم

قال ابن أبي الحديد فى ذيل هذا المقطع من الخطبه: سألت استاذى النقيب أبا جعفر، وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبيه عن هذا الموضوع، فقلت له: وقد وقفت على كلام الصحابه وخطبهم فلم أر فيهم من يعظم رسول الله صلى الله عليه وآله تعظيم هذا الرجل، ولا يدعوا كدعائه: فانا قد وقفنا من نهج البلاغه ومن غيره على فصول كثيره مناسبه لهذا الفصل، تدل على إجلال عظيم، وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: ومن أين لغيره من الصحابه كلام مدون يتعلم منه كيفيه ذكرهم للنبي صلى الله عليه وآله؟

وهل وجد لهم إلا كلمات مبتدره، لاطائل تحتها! ثم قال: إنَّ علياً عليه السلام كان قوى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتصديق له، ثابت اليقين، قاطعاً بالامر، متحققاً له، وكان مع ذلك يحب رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه، وتربيته له، واختصاصه به من دون أصحابه، وبعد، فشرفه له، لأنهما نفس واحده فى جسمين، الأب واحد، والدار واحده، والأخلاق متناسبه، فاذا عظمه فقد عظم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه، ولقد كان يود أن تطبق دعوه الإسلام مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنَّ جمال ذلك لا حق به، وعائد عليه، فكيف لا يعظمه ويبجله ويجتهد فى إعلاء كلمته. (٢)

ص: ٣١٤

١- (١) الخطبه ٧٢ فى المجلد الثالث.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/١٧٤. [١]

ومنها فى خطاب أصحابه

«وَقَدْ بَلَّغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنْزِلَهُ تَكْرُمًا بِهَا إِمَاؤُكُمْ وَتَوَصَّلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَيُعْظَمُكُمْ مَنْ لَأَفْضَلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلَا يَدَّ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَيْطَوَةً، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللَّهِ مَنْقُوضَةً فَلَا تَغْضَبُونَ! وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمِّ آبَائِكُمْ تَأْنِفُونَ! وَكَانَتْ أُمُورُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تَرْدًا، وَعَنْكُمْ تَصُدُّرٌ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّالِمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَأَلْقَيْتُمُ إِلَيْهِمْ أَرْمَاتِكُمْ، وَأَسْلَمْتُمُ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسْتَيِرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، وَإِنَّمَا اللَّهُ، لَوْ فَرَّقَ قَوْمَكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمْ اللَّهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الموضوع من الخطبه إلى أمرين مهمين مرتبطين مع بعضهما ارتباطاً واضحاً وهما:

الأول: أَنَّ المجد والعظمه التى بلغها المسلمون فى ظل الإسلام لهى عظمه فريده لدى العدو والصدىق.

الثانى: أَنَّ اولئك الناس لم يعرفوا قدر هذه النعمه، وقد آلت أمورهم إلى الحكام الظلمه من عدىمى الإيمان وأصحاب الشهوات بفعل ضعفهم وذلهم وهو انهم، وهذا بحد ذاته جحود عظيم فقال عليه السلام: «وقد بلغتم من كرامه الله تعالى لكم منزله تكرم بها إمامكم وتوصل بها جيرانكم» .

واثر ذلك أخذ يعظكم من لستم خيراً منه، وليس لكم من حق عليه «ويعظكم من لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده» .

كما يهابكم ويوجلّكم من ليس لكم قدره عليه، ولا حكمه أو سيطره عليه «ويها بكم (١) من لا يخاف لكم سطوه (٢)، ولا لكم عليه إمره» فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد بين بهذه العبارات الرائعة البليغه منزله المسلمين في ظل الإسلام، ولم تقتصر حرمه العدو والصديق لهم فحسب، بل شملت حتى جواريتهم، كما عومل جيرانهم باللطف والرحمة كرامه لهم، كما كان يكبرهم ويجلّهم من الأقوام من ليس لهم عليهم سطوه ولا قوه ولا فضل ولا احسان، بل كان يهابهم حتى من لم يكن تابعاً لبلادهم.

فمن الواضح وعلى ضوء الحديث الشريف: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء» (٣)، أنّ المسلم إذا التزم بجوهر الإسلام وعمل باحكامه وما أمر به الله سبحانه واعتمد الورع والتقوى في مسيرته الدينيه، يحظى باحترام الآخرين وإجلالهم. فهذه حقيقه لا مبالغه فيها.

فقد أصبح المسلمون وفي ظل الإيمان يتمتعون بكافه معانى الشجاعه والاقدام والتضحيه والقوه والمنعه.

أصنف إلى ذلك فقد حفتهم العنايه الإلهيه والامدادات الغيبيه.

فقد نقل ابن أبي الحديد قصه رائعه بهذا الشأن. حيث قال: قيل إنّ العرب لما عبرت دجله إلى القصر الأبيض الشرقى بالمدائن عبرتها في أيام مدها، وهى كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها، ولا درع عليها ولا بيض؛ فهربت الفرس بعد رمى شديد منها للعرب بالسهام؛ وهم يقدمون ويحملون، ولا- تهولهم السهام، فقال فلاح نبطى، بيده مسحاته وهو يفتح الماء إلى زرعه لأسوار من الاساوره معروف بالبأس وجوده الرمايه: ويلكم! أمثلكم فى سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين! ولذعه باللوم والتعنيف: فقال له: أقم مسحاتك،

ص: ٣١٦

١- ١) «يهاب» من ماده «هيه» الاحترام المقرون بالخوف.

٢- ٢) «سطوه» و أصله كما ورد فى مفردات الراغب، من سطا الفرس اذا اقام على رجله رافعاً يديه. القهروالغلبه والتسلط.

٣- ٣) الكافي ٢/٤٨. [١]

فأقامها فرماها، فخرق الحديد حتى عبر النصل إلى جانبها الآخر، ثم قال: انظر الآن، ثم رمى بعض العرب المارين عليه عشرين سهماً لم يصبه ولا فرسه منها بسهم واحد؛ وأنه لقريب منه غير بعيد. ولقد كان بعض السهام يسقط بين يدي الاسوار، فقال له بالفارسيه: أعلمت أن القوم مصنوع لهم! قال: نعم. (١)

ثم أشار عليه السلام في القسم الأخير من هذا الموضع من الخطبه إلى جحد الناس لتلك النعم والقدرة، فقال عليه السلام رغم كل ذلك لا تهتز لكم قصبه وأنتم ترون كل هذه الانتهاكات ونقض العهود والقوانين والأحكام الإلهيه! في حين تشتاطون غضباً فيما إذا نقضت ذمم آبائكم: «وقد ترون عهود الله منقوضه فلا تغضبون! وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون (٢)» .

أى لو نقضت سنه قبله أو طائفه كانت شائعه بينهم لا ترفع أصواتهم، في حين ينتهك بنى أميه السنن الإلهيه بمرأى ومسمع منهم دون أن ينسوا بنت شفء، وهذا قمه جحود النعم الإلهيه.

ثم قال عليه السلام: «وكانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإيكم ترجع، فمكنتم الظلمه من منزلتكم، وألقيتم إليهم أزمتمكم، وأسلمتم أمور الله في أيديهم» .

وهذا جحود آخر، فبعد كل تلك القوه والقدرة - بحيث كان كل شىء بأيديهم وتابع لآرادتهم - أدخلوا الساحة للظلمه ودعوههم يجلسون على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ويتحكموا بأمر المسلمين.

ثم قال عليه السلام في وصف هؤلاء: «يعملون بالشبهات، ويسرون في الشهوات» .

نعم فقد فوضت الأمور على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصالحين فكانوا يعملون على ضوء التعاليم الإسلاميه، إلّا أن الغفله والضعف وجحود النعم أدى لأن يتزعم الأمور تلك الثله من سليلي الجاهليه وبقايا أهل الشرك والعصبيه، حيث تربع ابن أبى سفيان - أعدى أعداء الإسلام - على عرش الحكومه الإسلاميه فقلب أمور الإسلام رأساً على عقب.

ذهب بعضى شراح نهج البلاغه إلى المراد بالعباره ١١: «وكانت أمور الله عليكم ترد. . .» .

ص: ٣١٧

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/١٧٧. [١]

٢-٢) «تأنفون» من ماده «أنف» على وزن شرف بمعنى الحميه والغضب والعزّه.

الأحكام الشرعية، لا- الحكومه وقالوا: كانت الأحكام الشرعيه اليكم ترد من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الإمام عليه السلام، ثم تصدر عنكم إلى من تعلمونه إياها من اتباعكم وتلامذتكم، ثم يرجع إليكم بأن يتعلمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الاتباع. أو المراد الحكم فى الأحكام الإلهيه.

وتبدو هذه الاحتمالات ضعيفه، ولا تنسجم والعباره «فمكنتم الظلمه من منزلتكم» التى تشير إلى أمر الحكومه.

والمراد بالعباره «يعملون بالشبهات» هو أنّ بنى أميه كانوا يتمسكون بمتشابه القرآن أو كلمات النبى صلى الله عليه وآله - حيث كانوا يكيّفونها بالاستعانه بالقراءات الجديده على مقاصدهم الانحرافيه - من أجل توجيه أعمالهم الشائئه، وهم لا يفكرون سوى فى حفظ مصالحهم وشهواتهم الحيوانيه واحياء سنن الجاهليه.

ثم إختتم خطبته قائلاً: «وايم الله، لو فرقوكم تحت كل كوكب، لجمعكم الله لشر يوم لهم» .

وقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بهذه العبارة قيام أبى مسلم الخراسانى وقيام أهل العراق ضد بنى أميه بحيث ينتقمون منهم شر انتقام ويجتثون جذورهم، بل قيل أنّهم ارتكبوا مالم يحفل التاريخ بمثيله.

ولا يبيدو صحيح الاحتمال الذى أورده بعض شراح نهج البلاغه من أنّ المراد بالعبارة المذكوره قيام المهدي عليه السلام حيث لا ينسجم وسائر عبارات الخطبه.

وتشير العبارة: «لو فرقوكم تحت كل كوكب» كناية إلى ذروه التشتت والفرقه، وإلّا لا يمكن جعل كل إنسان تحت كوكب.

ومن كلام له عليه السلام

فى بعض أيام صفين

نظره إلى الخطبه

بالنظر إلى أنّ الإمام عليه السلام اورد هذه الخطبه فى أحد أيام صفين، وأنّها ناظره إلى حادثه فى بدايه صفين حيث انسحب أصحاب الإمام عليه السلام وتراجعوا ثم عادوا فانتصروا على العدو، فمقصود الإمام عليه السلام هو ذم تراجعهم بالفاظ لطيفه رقيقه، ومن ثم الإشاره بحملتهم ثانيه إلى جانب حثهم وتشجيعهم على الصمود والمقاومه. ولا يخفى التأثير الذى يلعبه الكلام حين يتصدر بيان نقاط الضعف، ثم يتتابع بذكر عناصر القوه.

ص: ٣١٩

١-١) سند الخطبه: رواه الطبرى فى تاريخه فى حوادث عام ٣٧، والمرحوم الكلينى فى كتاب الجهاد من فروع الكافى، ونصرين مزاحم فى كتاب صفين (باختلاف)، وفسر ابن أثير فى كتاب النهايه بعض مفرداتها، ممّا يدل على عثوره عليها (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٢١). [١]

«وَقَدْ رَأَيْتَ حَيْوَلْتَكُمْ، وَانْحِيَا زَكْمَ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحْوِزُكُمْ الْجُفَاءَ الطَّغَامَ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَيَا فَيْخُ الشَّرَفِ، وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمِ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ. وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوَحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخْرِهِ تَحْوِزُونَهُمْ كَمَا حَاوَزُكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ؛ حَسًّا بِالنُّصَالِ، وَشَجْرًا بِالرَّمَاكِ، تَزَكُّبُ أَوْلَاهُمْ أَخْرَاهُمْ كَاللَّيْلِ الْهَيْمِ الْمَطْرُودِ؛ تُزَمَى عَنِ حِيَاضِهَا؛ وَتُذَادُ عَنِ مَوَارِدِهَا!» .

الشرح والتفسير

أتلجتم صدرى

ذكر بعض شراح نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين تراجعت ميمنه أهل العراق، ثم عادت لتهجم ثانيه بعد أن قادها مالك الاشر وحمل على أهل الشام ففرقهم. (١)

فلما رأى ذلك الإمام عليه السلام خطب بهذا الكلام. فقد قال عليه السلام: إننى شاهدت فراركم وهزيمتكم وتراجعكم عن صفوفكم بعد أن ذادكم عنها الجفاه من العرب من أهل البادية: «وقد رأيت جولتكم (٢)، وانحيازكم (٣) عن صفوفكم تحوزكم الجفاه (٤) الطغام (٥) وأعراب أهل الشام» .

ص: ٣٢١

١- ١) جاء فى كتاب «وقعه صفين» «لنصر بن مزاحم»، حول سبب ايراد هذه الخطبه قوله: كان ذلك فى يوم السابع من صفر، و هو من الايام العصبيه فى حرب صفين، فى ذلك اليوم هاجم جيش معاويه قسماً من جيش الإمام اميرالمؤمنين عليه السلام و أجبروهم على التراجع إلى الخلف، فتألم الإمام على عليه السلام لذلك، و لام جيشه، وبعدها حرضهم و شجعهم على القتال، وقد قاد هجوماً شاملاً بنفسه يصحبه مالك الاشر، فهزم جيش معاويه و فرقهم، و بعدها خطب الإمام على عليه السلام فى جيشه هذه الخطبه. (كتاب وقعه صفين، ٢٤٣/ [١] إلى ٢٥٤/، طبعه بصيرتى - قم المقدسه) .

٢- ٢) «جوله» من ماده «جولان» تعنى فى الأصل الدوران فى الميدان، ثم وردت بمعنى التراجع والحمله ثانيه، وهكذا وردت فى العبارة.

٣- ٣) «انحياز» ترك المواضع.

٤- ٤) «الجفاه» جمع «الجافى» بمعنى السفله من الناس و ذوى الخلق السيء و الخشن.

٥- ٥) «الطغام» جمع «طغامه» الأوباش والأراذل.

والحال لا يليق هذا بكم «وأنتم لها ميم (١)العرب، ويا فيخ (٢)الشرف، والانف (٣)المقدم، والسنام الاعظم» .

ولم أكن أتوقع هذا التراجع منكم، كما لا- يليق بكم، إلّا أنّ الذى اثلج صدرى معاودتكم الكر وازاحتكم لهم عن مواضعهم: «ولقد شفى وحاوح (٤)صدرى أن رأيتكم بأخره تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم» .

ثم وصف ذلك عليه السلام بقوله «حسا (٥)بالنصال (٦)، وشجراً (٧)بالرمح، تركب أولاهم أخراهم كالابل الهيم (٨)المطروده، ترمى عن حياضها، وتذاد (٩)عن مواردّها» .

ومما لا شك فيه أن صفيين كانت مقابله بين عسكرين، ضم أحدهما أغلب الشخصيات الإسلاميه من قبيل بعض صحابه النبي صلى الله عليه وآله وابناء الصحابه ومن البيوتات الصالحه السابقه إلى الإسلام والإيمان، وقد كانت هذه الجماعه تحت إمره الإمام على عليه السلام. وبالمقابل كان الطرف الآخر يتمثل فى الواقع ببقايا الجاهليه والشرك والاراذل والاوباش من طلاب الدنيا وعبيده الأهواء الذين قدموا الميدان بدينار معاويه ودرهمه واجزل لهم فى العطاء، وفى مقدمتهم عمرو بن العاص الذى لم يبايع لمعاويه حتى اشترط عليه ولايه مصر.

وعليه فعبارات الإمام عليه السلام بشأن أهل الشام والعراق كانت تمثل عين الواقع، بعيداً عن أسلوب الحث والتشجيع والمبالغه.

ص: ٣٢٢

١-١) «لهاميم» جمع «لهميم» و «لهموم» وهو السابق الجواد من الخيل والناس.

٢-٢) «يافيخ» جمع «يافوخ» وهو من الرأس حيث يلتقى عظم مقدمه مع مؤخره، ووردت هنا كناية عن القاده.

٣-٣) «الانف» المراد به الموضع البارز من الوجه، وتطلق العرب هذه الكلمه على المقدم.

٤-٤) «وحاوح» جمع «وحوح» صوت مع بحح يصدر عن المتألم.

٥-٥) «حس» بالفتح القتل.

٦-٦) «النصال» جمع «نصل» السهم.

٧-٧) «شجر» الطعن بالرمح.

٨-٨) «هيم» شده العطش جمع «أهيم» أو «هائم» .

٩-٩) «تذاد» من ماده «ذود» بمعنى الطرد و الدفع.

ومن خطبه عليه السلام

وهى من خطب الملاحم

نظره إلى الخطبه

تتالف هذه الخطبه من أقسام: استهل عليه السلام القسم الأول: كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه وبيان أوصاف الجلال والجمال وأدله إثبات وجوده سبحانه. والقسم الثانى: جرى كسائر الخطب فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفضائله وكمالاته.

القسم الثالث: الحديث عن طبيب دوار يتفقد مرضاه وقد اعد كافة وسائل العلاج، وفسره أغلب شراح نهج البلاغه بان المراد شخصه عليه السلام أو النبى صلى الله عليه و آله.

القسم الرابع: لوم الأصحاب الضعفاء وتذكيرهم بأن هذا الضعف والاختلاف يؤدى إلى عاقبه وخيمه يسלט فيها العدو عليكم، فيسد ضرباته إليكم ولا يبقى لكم باقيه.

القسم الخامس: وهو أهم قسم فى الخطبه فى الوعظ والنصح. والقسم السادس والأخير اخبار عن الحوادث المستقبلية فى قطع الأرض والسماء لبركتهما، وظهور التحريف وتحول المعروف إلى منكر والمنكر إلى معروف.

ص: ٣٢٤

١ - ١) سند الخطبه: روى بعض هذه الخطبه الآمدى فى الغرر والزمخشري فى ربيع الأبرار وجانباً آخر رواه الآمدى فى الغرر باختلاف مع ماورد فى نهج البلاغه، وهذا يدل على أنه نقلها من مصادر أخرى غير نهج البلاغه. (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٢٧).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَجَلَّى لِحَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ. خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْ كَانَتْ الرُّوِيَّاتُ لَا تَلِيْقُ إِلَّا بَدْوَى الضَّمَائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّرَاتِ، وَأَحَاطَ بِعُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيَرَاتِ» .

الشرح والتفسير

كما أوردنا سابقاً فإنَّ الإمام عليه السلام استهل خطبه بحمد الله والثناء عليه وذكر جماله وجلاله وأدله وجوده سبحانه بعبارات قصار رائعة وهو يشير إلى أدله التوحيد، فقال عليه السلام: «الحمد لله المتجلى» . والواقع هو أنَّ العبارة تشير إلى برهان النظم الذى ورد فى عدة آيات قرآنيه التى تأخذ بيد الإنسان أحياناً إلى السموات والسيارات والثوابت والمجرات العظيمة كما تصحبه أحياناً أخرى إلى عمق الذره ودقه بنائها العجيب وتنتقل به تاره إلى عجيب خلقه الطيور، كما تراه أخرى اسرار البحار والمحيطات، فهى تراه عظمه الخالق من خلال المخلوقات، ويتضح ممَّا تقدم ان الخلق فى (لخلقه) تشير إلى الإنسان، وفى بخلقه إلى جميع المخلوقات فاحدها خاص والآخر عام.

ثم أشار عليه السلام فيما بعد إلى برهان الفطره فقال: «والظاهر لقلوبهم بحجته» .

فأيه حجه أعظم من هذه، وهى حين يعود الإنسان إلى قلبه وروحه يستمع نداء التوحيد يأتيه من كل مكان. ومن هنا مهما سعت الشياطين لانكار ذاته، وجهدت من أجل انحراف العباد، فبمجرد زوال هذه الترينات، وتلاشى السحب القاتمه للوساوس الشيطانيه، تتجلى

هذه الفطره التوحيديه فى الإنسان فيعود إلى ربّه وخالقه.

ثم أشار فى العبارة الثالثه إلى ما يمكن تسميته ببرهان الابداع فقال عليه السلام: «خلق الخلق من غير رويه، إذ كانت الرويات لاتليق إلابدوى الضمائر (١)، وليس بذى ضمير فى نفسه» .

نعلم أنّ جميع المصنوعات البشريه إنّما تعود إلى الفكر والبرمجيه والخطط والمشاريع المسبقه، وهذه بدورها إلى المخلوقات والمصنوعات فى هذا العالم. أى كل ما يصنعه الإنسان فقد شاهد شبيهه فى عالم الخلقه، كما قد يركب أحيانا بين عدّه أشياء ليصنع منها شيئاً معيناً، فقد يحتذى بطيور البحر فى صنعه للسفينه وبخلقه الطيور فى صنعه للطائره وهكذا، وعليه فهو يحتاج إلى التفكير فى صناعته من جانب، ويحتاج إلى موجودات أخرى لكى يقلدها ويستعين بها فى صناعته من جانب آخر. أمّا الابداع بمعنى الخلق دون الحاجه إلى التفكير أو النموذج للاقتداء فأنّما يختص به وحده سبحانه. ثبت اليوم أن على الأرض فقط ملايين الأنواع من النباتات و الحيوانات و الحشرات، حيث لم تكشفت بعد للإنسان لأنها تعيش فى أعمال البحار أو فى متاهات الغابات أو فى الصحارى النائية و المناطق القطبيه، و كل ذلك يرمز إلى الإبداع الإلهى فى عجائب خلقتها، و يشير هذا الإبداع إلى وجوده و علمه و قدرته.

و بغض النظر عن كل ذلك فإن الصناعات البشريه إنّما تتكامل مع تقادم الزمان و الإنفتاح على تجارب الآخرين، و الحال مخلوقات الله ليست كذلك، فتكاملها يستند إلى ذاتها، لا إلى التجارب الجديده.

ثم فسر قوله السابق عليه السلام قائلاً: «خرق علمه باطن غيب السترات (٢)، وأحاط بغموض عقائد السريرات (٣)» .

فان كان غنياً سبحانه فى تنويعه لخلقه عن التفكير والمثال الذى يحتذيه فأنّما ذلك لعلمه المطلق النافذ فى كل شىء والمحيط بكل شىء.

ص: ٣٢٤

١-١) «ضمائر» جمع «ضمير» من ماده «ضمور» على وزن قبول تعنى فى الأصل الضعف كما يراد بها باطن الإنسان.

٢-٢) «سترات» جمع «ستره» على وزن قربه ما يستربه.

٣-٣) «سريرات» جمع «سريره» ما يخفيه الإنسان ويكتمه، وقد تجمع سريره جمع تكسير فيقال سرائر، كما تجمع جمع مؤنث سالم.

نعم فمن يحتاج إلى الفكر والانفتاح على تجارب الآخرين، من كان علمه محدوداً، جاهلاً بما غاب عنه.

والعبارة السابقة من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ أي أنها تحدثت أولاً عن علم الله بباطن جميع الأشياء، ثم علمه بالعقائد الخفية للإنسان.

تأمل: في سعة علم الله

تعتبر مسأله علم الله من المسائل المهمه من خلال النظره المعرفيه، وكذلك من حيث الآثار الأخلاقيه والتربويه.

وهي المسأله التي أورد القرآن بشأنها عدّه أبحاث مهمه، وقد كشف عن سعتها بأمثله رائع، من ذلك: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (١).

ولو تأملنا هذا المثال وتصورنا معناه، لا كتشفنا هذه الحقيقه وهي أنّ علمه سبحانه أوسع وأشمل ممّا نعتقد.

ومن البدايه أنّ هذا العلم ليس بعلم حصولي يتأتى عن طريق التصور والتصديق، بل هو علم حضوري. أي أن حضور الحق سبحانه في كل زمان ومكان وحضور جميع الأشياء لدى ذاته المطهره يقتضى ألا يخفى عليه شيء، لأنّ حقيقه العلم تعنى حضور المعلوم لدى العالم. غير أنّه في العلم الحصولي لا يحضر شخصاً لدى العالم، بل تحضر صورته في الذهن عن طريق التصور أو التصديق. أمّا في العلم الحضوري فالذي يحضر لدى العالم ذات المعلوم، وجميع الأشياء والحوادث في كل زمان ومكان، باطنها وظاهرها عن طريق هذا العلم الحضوري واضحه لدى الله. ومن هنا قال عليه السلام: خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات.

ص: ٣٢٧

قد يتعذر فهم العلم الحضوري لدى البعض، ولكن توضيحه بمثال وهو: إنَّ ممَّا لا شك فيه أنَّ علمنا بصورنا الذهنيه والتصورات والتصديقات التي ترسم في أذهاننا عن العالم الخارجى، والعلم الحضورى يعنى أن هذه الصور الذهنيه حاضره لدى روحنا ولا تنفصل عنها.

نعم هذا هو علم الله بجميع عالم الوجود، لا أنَّ لديه صور ذهنيه عنها، بل وجودها العينى حاضر لديه، لأننا نعلم أنه معنا فى كل مكان: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» (١) و«وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (٢).

ومن هنا نكتشف الآثار المهمه التربويه من خلال الالتفات إلى سعه علمه المطلق. لأنَّ الإنسان إذا علم بأنَّ العالم حاضر لدى الله وعلمه محيط بأسرار الأشياء وخفاياها فباليقين سيعيش حاله من مراقبه أعماله، بل حتى أفكاره ونياته. (٣)

ص: ٣٢٨

١- ١) سورة الحديد/٤. [١]

٢- ٢) سورة ق/١٦. [٢]

٣- ٣) راجع نفعات القرآن ٤.

ومنها فى ذكر النبي صلى الله عليه وآله

«إِخْتَارَهُ مِنْ شَجَرِهِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَشَكَاهِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابِهِ الْعُلْيَاءِ، وَسُرَّهُ الْبُطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ» .

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه وأشار إلى أدله وجوده، تطرق فى القسم الثانى من الخطبه إلى ذكر فضائل النبي صلى الله عليه وآله حيث عدد فضائله الفريده بوضع عبارات قصيره وسته تشبيهات فقال عليه السلام: «إخثاره من شجره الأنبياء، ومشكاه الضياء، وذؤابه العلياء، وسره البطحاء، ومصايح الظلمه، وينابيع الحكمه» .

فكل تشبيه واستعاره فى هذه العبارة تشير إلى فضيله من فضائل رسول الله صلى الله عليه وآله.

التشبيه الأول - حسب قول أغلب شراح نهج البلاغه - إشاره إلى آل ابراهيم عليه السلام الذى ظهر منه الأنبياء العظام، وينتمى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى نبي الله ابراهيم عليه السلام عن طريق إسماعيل.

التشبيه الثانى: إشاره إلى أن أنوار المعارف الإلهيه فى مشكاه وجود الأنبياء، وحامل هذه الأنوار هو رسول الله صلى الله عليه وآله والمشكاه وعاء لحفظ السراج لانطفأه الريح، وعليه فالأنبياء حفظه أنوار المعارف الإلهيه.

التشبيه الثالث: بالالتفات إلى أن ذؤابه شعر مقدم الرأس، وعلياء المرتفع، فهى إشاره إلى أن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله ينتهى إلى أفضل السلالات البشريه وقد ورث عنها ذلك الشرف والمجد.

التشبيه الرابع: بالنظر إلى أنّ البطحاء جزء من مكة سكنته قبيله قريش، والسرّه تعنى المركز، فهى إشاره إلى أنّ النبى صلى الله عليه وآله قد انحدر من مركز قبيله تعتبر أشرف القبائل (وإن دفع حب الدنيا البعض منها إلى عدم اجابه دعوه النبى صلى الله عليه وآله حتى عرفوا بكفار قريش).

التشبيه الخامس: أنّ الأنبياء والرسل هم مصابيح الهدى ومشكاة الأنوار التى تكشف ظلمات الكفر والجهل، وأنّه صلى الله عليه وآله مركز هذه الأنوار وحاملها.

التشبيه الأخير الذى شبه الأنبياء بينابيع العلم والحكمه وأنّ النبى صلى الله عليه وآله أحد هذه الينابيع.

ومنها: «طَيْبٌ دَوَّارٌ بِطَبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبِ عُمَى، وَأَذَانِ صُمَّ، وَأَلْسِنِهِ بُكُمْ؛ مُتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ؛ لَمْ يَسْتَضِئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ؛ وَلَمْ يَقْضُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ؛ فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ» .

الشرح والتفسير

ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بهذه الصفات التي ذكرها الإمام عليه السلام إنّما تعود إليه، حيث خاض في بيان صفاته بعد أنّ بين صفات رسول الله صلى الله عليه وآله، واصفا نفسه بأنه طيب سيار وقد حمل معه كافة أسباب العلاج التي تشفى المرضى - ولم يشذ من الشراح في نسب هذه الصفات إلى شخص الإمام عليه السلام سوى شخص واحد نسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله - فقد صرح الآمدي في كتاب غري الحكم قائلاً: «إنّه في ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

إلا أنّ ارتباط هذه العبارة بالعبارات السابقة من جهه، وانطباقها على الأوضاع التي كانت سائده على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من جهه أخرى تؤيد أنّ هذه الصفات في رسول الله صلى الله عليه وآله. وأننا لنتعجب كيف لم يطرح قاطبه الشراح هذا الأمر على الأقل - على نحو الاحتمال والحال أنّهم لم يقيموا أى دليل لاثبات صحه مدعاهم. صحيح أنّ النبي صلى الله عليه وآله و آله وعلى عليه السلام من شجره واحده، وهما

ص: ٣٣١

روح واحده فى جسمين وعامه الصفات تصدق عليهما معاً؛ غير أنه لا بدّ من الدقه فى ارجاع الضمائر إلى أصولها.

على كل حال فقد قال عليه السلام: «طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه (١) وأحمى مواسمه، (٢) يضع ذلك حيث الحاجه إليه: من قلوب عمى، واذان صم، والسنه بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفله، ومواطن الحيره» .

يا لها من تعبيرات رائعه تشبه النبى صلى الله عليه وآله (أو الإمام) بالطبيب!

لأنّ الأطباء يتولون علاج مرضى الأبدان، وينهمك هو فى علاج مرضى الروح والأخلاق الذى يفوق بمراتب مرضى البدن.

حيث أشار إلى ثلاثه منها فى العبارة: أولئك الذين تعمى أبصار قلوبهم ويفقدون السمع واستقبال الحق وعجز اللسان عن ذكر الحق بفعل الذنب والمعصيه والغفله واتباع الهوى.

ثم وصفه بأنّه (دوار) فى إشاره إلى أنه ليس على غرار أطباء الابدان الذين يجلسون فى عياداتهم وينتظرون مراجعه المريض.

بل يحمل وسائله وعلاجه معه ويتجول بحثاً عن المريض، وهذا هو منهج الأنبياء والأوصياء وروثهم من العلماء، الذين ينبغى لهم أن يقتدوا بالأنبياء ولا يروا أنفسهم كالكعبه وأن أفراد الأُمَّه مطالبون بالطواف حولهم، بل عليهم أن يكونوا كالصياد الذى يبحث عن صيده، فيفيضوا علومهم على الناس ويأخذوا بأيديهم إلى الحق.

ثم قال عليه السلام واصفاً ما أورده سابقاً من مواضع الغفله ومواطن الحيره؛ وأصحابها من أهل الغفله والحيره: «لم يستضيئوا بأضواء الحكمه، ولم يقدحوا (٣) بزناد (٤) العلوم الثاقبه، فهم

ص: ٣٣٢

١-١) مراهم جمع مرهم الدهون التى يداوى بها الجروح.

٢-٢) «مواسم» جمع «ميسم» بمعنى الآلات التى يوسم بها بدن الانسان أو الحيوان بعد أن يحمى عليها. و «وسم» على وزن رسم، و يطلق على العلامه التى تظهر على جسم الحيوان أو الانسان بعد وسمه بالآلات الحاره.

٣-٣) «يقدحوا» من ماده «قدح» على وزن «مدح» بمعنى إضرام النار بواسطه القداحه «وهى الآله التى تحتوى على حجر خاص يستعمل فى قديم الزمان، حيث يقدح عليه فيولد ناراً، و كانوا يستفيدون منه كما نستفيد فى الوقت الحاضر من الشخاط الحاوى على الكبريت» .

٤-٤) «زناد» جمع «زند» وهى آلات تستخدم لتوليد شراره لغرض اضرام النار و اشعالها فى الوقود، كالخشب والفحم و الحطب، و قد اعتاد العرب فى القديم على الاستفاده من هذه الوسيله لاشعال النار فى الوقود.

فى ذلك كالانعام السائمه، (١)والصخور القاسيه» .

فالعباره لم يستضيئوا ولم يقدحوا تفيد أنهم كانوا يستطيعون حتى قبل قيام الأنبياء أن يتخلصوا من جانب من غفلتهم وحيرتهم بنور الحكمة والعلم ودليل العقل، إلا أنهم لم يلتفتوا قط للعلم والعقل.

ولعل «لم يستضيئوا. . .» و «لم يقدحوا. . .» إشاره إلى طائفتين من الأفراد الضالين الذين كان يمكن أن يتبدل ضلالهم نوراً ولو لومضه من العلم والمعرفه التى تصل إلى قلوبهم، والطائفة الأخرى التى كان لها أن تهدى نفسها وان عجزت عن هدايه الآخرين.

كما يمكن أن تكون العباره «أنعام سائمه» و «صخور قاسيه» إشاره إلى فئتين: فئه ضاله وهى كالأنعام التى لها إلى حد امكانيه التعليم والتربيه، والفئه الأخرى كالصخره الصماء التى يصعب اختراقها.

جدير بالذكر هناك تفاوت بين مواضع الغفله ومواطن الحيره؛ فالغفله تطلق حيث لايلتفت الإنسان إلى أمر ولايرى أخطاره المحدقه به؛ أو كالأمرض الخاليه من الألم وفجأه يصاب بها الإنسان فلا يشفى منها.

أمّا مواطن الحيره؛ فالإنسان يلتفت فيها إلى الأخطار، إلا أنه لايعرف كيف يواجهها.

على كل حال فإنّ هذا الطبيب الروحى السيار إنما يتجول بحساب وبرنامج حيثما حل، فيشفى المرضى ويمنحهم العافيه والسلامه.

ص: ٣٣٣

١- (١) «سائمه» من ماده «سوم» على وزن «قوم» بمعنى حركه الحيوان فى الصحراء. وكذلك على هبوب الرياح المستمره. و يطلق «الحيوانات السائمه» على الحيوانات التى ترعى و تحصل على علفها من الصحراء وهى سائمه فى الصحراء.

«قَدْ أَنْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّهُ لِحَابِطِهَا وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةَ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمَتَوَسِّمِهَا. مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحًا بِلَا أَشْبَاحٍ، وَنُسَاكًا بِلَا صِيَالِحٍ، وَتُجَارًا بِلَا أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاطًا نُومًا، وَشَهُودًا غُيْبًا، وَنَاطِرَةً عَمِيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَاءَ، وَنَاطِقَةً بِكَمَاءٍ!». .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبه إلى وضع المنافقين والمعاندين من بنى أميه، فقال عليه السلام سرائرهم وبواطنهم ظاهره لأهل البصائر، وقد إتضح سبيل الحق لسالكه (وعليه فقد تمت الحجه على الجميع) «قد انجابت (1) السرائر لأهل البصائر، ووضحت محجه الحق لحابطها (2)». .

ثم قال عليه السلام: «واسفرت (3) الساعه عن وجهها، وظهرت العلامه لمتوسمها» .

يمكن أن يكون المراد من علامات ظهور القيامة، بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله بصفته خاتم

ص: ٣٣٥

١- ١) «أنجابت» من ماده «جوب» على وزن قَوْمٍ. و «جوبه» على وزن توبه بمعنى قطع وفصل، وعلى هذاالاساس سمي الرد على الكلام ب «الجواب» ، و ذلك لـان السؤال يُقطع و ينتهى بواسطه الجواب. و اذا جاءت هذه الكلمه على وزن انفعال، فيكون معناها الانكشاف و الاعلان، وفي الخطبه أعلاه جاءت بهذا المعنى.

٢- ٢) «خابط» من ماده خبط، و تأتي تارةً بمعنى القرب الشديد، وتاره بمعنى السير على غير هدىً، كالذى يسير ليلاً بدون ضياء، وقد جاءت الكلمه هذه فى الخطبه أعلاه بهذا المعنى.

٣- ٣) «أسفرت» من ماده «سفور» بمعنى جلد أى شىء و يستفاد من هذه الكلمه بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

الأنبياء عليه السلام وآخر بنى من أنبياء الله، وكذلك ظهور الفتن فى العالم الإسلامى وعلى الأرض، وليست هناك من منافاه بين هذا الأمر ومرور آلاف السنين، لأنّ هذا الزمان قصير جداً إذا ما قورن بعمر الدنيا.

فقد ورد فى الحديث النبوى أنّه صلى الله عليه وآله قال: «بعثت أنا والساعه كهها يتن وضم السبابه والوسطى» (١).

ونخلص ممّا سبق إلى أن اتضاح السرائر ووضوح سبيل الحق واقتراب الساعه لمن دواعى يقظه الغافلين من نوم الغفله والتوبه إلى الله من الذنوب والمعاصى وسلوك طريق الحق والاستقامه عليه.

ومن هنا يتعجب الإمام عليه السلام لعدم وجود ردود الفعل المناسبه من قبل الناس ازاء هذه الأمور فقال عليه السلام: «مالى أراكم اشباحا بلا أرواح، وأرواحاً بلا أشباح، ونساکاً (٢) بلا صلاح، وتجاراً بلا أرباح وأيقاظاً (٣) نوماً (٤)، وشهوداً غيباً، وناظره عمياء، وسامعه صماء، وناطقه بكماء» .

العباره: «أشباح بلا أرواح، وأرواح بلا أشباح» بعض الجماعات التى لها قدره ظاهريه بينما ليس لها من تفكير أو تدبر، أو أنّها مفكره ومدبره لكنها تفتقر إلى قدره الاستخدام. ومن الطبيعى ألا تكون كلا الجماعتين على صواب وليس من شأنها فعل شىء، كخواء الجسم الذى لاروح فيه والروح التى لا جسم لها. والعباره: «نسا كابلأ صلاح» إشاره إلى العبادات الجوفاء لعباد ذلك الزمان. لأنّ الأثر الأول للعباده إنّما يتمثل بالتريبه والصلاح الإنسانى؛ فاذا لم يكن العبد صالحاً كان ذلك دليل على أنّ عبادته قشر لا لبّ فيه.

والعباره «تجاراً بلا أرباح» يمكن أن تكون إشاره إلى ماورد فى سورة العصر: «وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» .

ص: ٣٣٦

١-١) أورد أغلب مفسرين الفريقين هذا الحديث ذيل الآيه ١٨ من سورة محمد صلى الله عليه وآله.

٢-٢) «نساك» جمع «ناسك» العابد.

٣-٣) «أيقاظ» جمع «يقظان» ضد النائم.

٤-٤) «نوم» جمع «نائم» .

والعبارة «أيضا ظانوماً» والعبارات الأربع القادمة إشاره إلى الأفراد اليقظين ظاهراً ولهم حضور في الساحة ويتمتعون بالسمع والبصر والنطق، إلا أنهم لا يبدون أى رد فعل تجاه الحوادث الحسنه والسيئه، وكأنهم نيام غير شهود، ولا سمع لهم ولا بصر ولا كلام.

نعم فالإسلام يرى وجود كل شىء فى آثاره، والإنسان الحى الذى لا اثر له كأنه فى عداد الأموات، ومن لا بصيره له فهو أعمى، وقد ورد هذا المعنى كراماً فى القرآن بشأن المنافقين من الأفراد عديمى الإيمان، كالاية: «صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ» (١) وما شابه ذلك فالذى يستفاد من كلامه عليه السلام أنه وبخ بشده أصحابه على عدم ابداء أى رد فعل تجاه بنى أميه بعد أن اتضح لهم باطنهم وخبث مقاصدهم، وكأنهم نيام فقدوا السمع والبصر والنطق، فلا يأبهون بجنايات بنى أميه. ولا يعلمون أى مصير مظلم ينتظر الإسلام والمسلمين.

تأمل: الوجود الباهت كالعدم

عاده ما ينظر إلى وجود الأشياء وعدمها من خلال عينيتها فى الخارج، بينما ينظر إليها فى المنطق القرآنى والروائى على أساس الآثار والمعطيات. وعليه فقد يرى بعض الأحياء فى عداد الموتى إذا ما انعدمت آثارهم والعكس الصحيح فقد يرى الموتى أحياءً بفعل عطائهم وآثارهم.

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى كراماً. فقد خاطب النبى الاكرام صلى الله عليه وآله بالقول: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» (٢).

ومن المسلم به أن المراد بالموتى والصم هنا الأفراد الذين يتمتعون بظاهر والحياه لهم أذان سامعه؛ إلا أن القرآن عددهم أمواتاً حين اتخذوا موقف المتفرج ازاء دعوه النبى صلى الله عليه وآله.

ثم قال فى موضع آخر: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا» (٣).

ص: ٣٣٧

١- ١) سورة البقره/١٧١. [١]

٢- ٢) سورة النمل/٨٠. [٢]

٣- ٣) سورة يس/٦٩-٧٠. [٣]

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لكميل بن زياد: «هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر: أعيافهم مفقوده، وأمثالهم فى القلوب موجوده» (١).

ولو اعتمدنا المقياس القرآنى والروائى فى تقييم الأفراد والحضارات والمدنات وسائر الأمور، لرأينا العالم بحله جديده أخرى، والحق لا بد أن يكون هذا هو المعيار والمقياس، وذلك لأن الكائن الحى من كان له آثار حيويه، ومن افتقر لهذه الآثار فهو ميت. والأموات الذين يخلفون بعض الآثار فهم أحياء مادامت آثارهم الوجوديه قائمه فى المجتمع البشرى. ولما كانت آثار الشهداء فى سبيل الله باقيه، فهم أحياء خالدون (بغض النظر عن الحياه البرزخيه). ليس للظلمه والطغاه سوى الموت كيف لا وهم يخلفون هذا الفساد والدمار.

ومن هنا نعت الإمام عليه السلام تلك الجماعه من أهل الكوفه والعراق بأنها أشباح بلا أرواح وايقاظ نوماً وشهود غيباً من خلال ذلك المعيار القرآنى والروائى.

ص: ٣٣٨

(١-١) نهج البلاغه، [١] كلمات القصار ١٤٧.

إشاره

«رَأَيْهِ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وَنَفَرَتْ بِشُعْبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا. قَائِمَةٌ خَارِجٌ مِنَ الْمَلَّةِ، قَائِمَةٌ عَلَى الضَّلَّةِ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا تُفَالَهُ كُنْفَالِهِ الْقَدْرُ، أَوْ نَفَاضَهُ كُنْفَاضِهِ الْعِجْمُ، تَعْرُكُكُمْ عَزَكَ الْأَيْدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبُطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ» .

الشرح والتفسير

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ هذا المقطع من الخطبه منفصلا عن الاقسام السابقه، ويرون أنّ بينهما مطالب أخرى حذفها السيد الرضى (ره) جريا على عادته فى اقتطاف بعض المقاطع من الخطب على أساس فصاحتها وبلاغتها. ومن هنا اعتبر اولئك الشراح هذا المقطع إشاره إلى حوادث وفتن آخر الزمان. فى حين لا يرى البعض الآخر من الشراح انفصلاً بين هذه المقاطع، ومنهم ابن ميثم البحرانى، فىرى هذا الكلام فى طغاه بنى أميه وحكامهم الظلمه، ويبدو هذا الاحتمال قريباً لأنّ عاده السيد الرضى (ره) حين يحذف بعض مقاطع الخطبه يذكرها بقوله (ومنها ومنها) ، الأمر الذى شاهدناه بوضوح فى الخطب السابقه.

على كل حال قال الإمام عليه السلام: «رايه ضلال قد قامت على قطبها، وتفرقت بشعبها» .

ورغم أنّ ذلك اخبار عن الحوادث الآتية ليتأهب الناس ويقللوا من اضرارها وخسائرها إلى أقل حد ممكن، مع ذلك فقد أوردتها بصيغه الفعل الماضى، أى أنّ مثل هذه الأمور واقعه لا محاله!

كما صرّح بذلك الأدباء بأنّ المضارع المتحقق الوقوع بمنزله الماضى. والعبارة «قد قامت على قطبها» إشاره إلى أنّ رايه الضلاله التى سترفعها الطغمه الفاسده والمفسده من بنى أميه على درجه من الثبات والرسوخ بحيث لايمكن الاطاحه بها بهذه السهوله.

والعبارة «تفرقت بشعبها» وإن بدت ظاهراً فى تفرق فروع هذه الرايه، إلّا أنّ المراد فى الواقع فرقه الانصار فى البلاد الإسلاميه، ثم قال عليه السلام: «تكيلكم (١) بصاعها، وتخبطكم بباعها (٢)»

فى إشاره إلى أنّهم يحملونكم على أساس معاييرهم، فمن وافقها رغبوا فيه وإلّا فلا، كما يحتمل أن يكون المراد بالعبارة الاولى أنّهم يمسكون بجميع مقدراتكم، ويعطون لكل شخص ما يريدون.

والعبارة «تخبطكم بباعها» بالنظر إلى «تخبط» التى تعنى تساقط ورق الأشجار بضرب الخشب وباع بمعنى الأيدى المفتوحه إشاره إلى أنّهم يستدلونكم بكل ما أوتوا من قوه، وهذا هو أسلوب الحكام الظلمه الذين يحرقون الاخضر واليابس فى البلاد. وهذا هو أسلوب الحكومات المستبده التى تسوق الجميع حسب معاييرها و يفنى كل من يخالف تلك المعايير.

ثم يصف عليه السلام هذه الحكومه الجائره بأنّها خارجة عن الإسلام، وقائمه على أساس الضلال والفساد: «قائدها خارج من المله، قائم على الضله» .

هذه العبارة التى تشير إلى معاويه أو سائر حكام بنى أميه، ناظره إلى هذه المعنى وهو أنّ زعماء هذه الجماعه ليس فقط لايعملون على ضوء قوانين الإسلام ويتجاوزون ضروريات الدين فحسب، بل أساس عملهم ونشاطهم هو الضلال؛ الأمر الذى يشهد به التاريخ.

ثم أشار عليه السلام إلى النهايه المأساويه لهذه الأحداث فى أنّه لا يبقى منكم آنذاك إلّا النزر اليسير كالذى يتبقى فى قعر القدر فاذا حرك وقع: «فلا يبقى يومئذ منكم إلا ثفاله (٣) كثقاله القدر، أو نفاضه (٤) كنفاضه الحكم (٥)» .

ص: ٣٤٠

١- ١) «تكيل» من ماده «كيل» على وزن ذيل بمعنى المكيال وتستعمل عاده فى المواد الغذائيه كاحنطه والشعير، كما تستعمل فى غيرها مجازاً.

٢- ٢) «باع» يعنى فى الأصل المسافه بين أصابع اليدين، حين يفتحها نحو اليمين أو اليسار بصوره تامه، كما يستعمل مجازاً بمعنى القدره الكامله للإنسان.

٣- ٣) «ثفاله» من ماده «ثفل» هو ما استقر تحت الشىء من كدره.

٤- ٤) «النفاضه» من ماده «نفض» على وزن نبض ما يسقط بالنفض.

٥- ٥) «العكم» بمعنى الكيس الذى يحفظ فيه الأشياء.

فالعباره تفيد عدم سلامتهم فيها سوى القله القليله منهم، لأنّ هؤلاء الظلمه لا يدعون بقاء أحد من المؤمنين الصالحين.

ولا يكتفون بذلك بل: «تعرككم (1) عرك الأديم (2) وتدوسكم (3) دوس الحصيد» .

ويفصلون أهل الإيمان منكم فيقصون عليهم كما تلتقط الطيور الحبوب القويه من الضعيفه: «وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبه البطينه (4) من بين هزيل (5) الحب» .

فى إشاره إلى أنّ ظلمهم يعم الجميع، إلّا أنّ ظلمهم وجورهم يتضاعف تجاه المؤمنين من الأفراد.

تأمل: الحكومات المستبده

إنّ ما اورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه وإن كان أخباراً عن بنى أميه وحكومتهم فى المستقبل، إلّا أنّه يبدو أنّ ذلك يمثل قانوناً عاماً كلياً بشأن كافه الحكومات المستبده الجائره، فهى تجهد من أجل ترسيخ دعائمها واعتماد المعايير اللازمه لضمان منافعها وديمومتها، والتعامل بمنتهى العنف والقوه مع من يهب لمعارضتها، فتقمع العناصر المؤمنه ولا سيما الناشطه منها، فهى لا تعرف أيه قيمه لقانون أو رأفه ورحمه وإنسانيه، كما لا تأبه بحقوق الناس؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الحكومات المعاصره.

ص: ٣٤١

١-١) «تعرك» من ماده «عرك» شديد الدلك ومن هنا تطلق المعركه على ميدان القتال حيث يدك كل منها الطرف الآخر.

٢-٢) «الاديم» فى الأصل بمعنى جلد أى شىء. ويستفاد من هذه الكلمه بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

٣-٣) «تدوس» من ماده «دوس» على وزن قوس.

٤-٤) «بطينه» من ماده «بطن» سمين.

٥-٥) «هزيل» ضد بطين بمعنى الضعيف وخفيف الوزن.

«أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمْ الْمَذَاهِبُ، وَتَتِيهِ بِكُمْ الْغِيَاهِبُ وَتَخْدَعُكُمْ الْكَوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتُونَ، وَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبٍ إِيَابٌ، فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّائِكُمْ، وَأَخْضِرُوا قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ. وَلِيَصُدَّقَ رَأْيُ أَهْلِهِ، وَلِيَجْمَعَ شَمْلُهُ، وَلِيَحْضُرَ ذَهْنُهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمْ الْأَمْرَ فَلَقَ الْخَرْزَهَ، وَقَرَفَهُ قَرَفَ الصَّمْغِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَا خِذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاقِبَهُ، وَعَظَمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبْعِ الْعُقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيْقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ، وَتَوَاحَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكُذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصُّدْقِ» .

الشرح والتفسير

خاطب عليه السلام صحبه من أجل الفات نظرهم إلى ما ينتظرهم من حوادث صعبه مأساويه - ستصيب المسلمين في المستقبل - بهدف كبس خسائرها واضرارها أو إرشادهم إلى طرق الإبتعاد عنها، فقال عليه السلام: «أين تذهب بكم المذاهب، وتتيه (1) بكم الغياهب (2) وتخدعكم الكواذب؟ ومن أين تؤتون، وأنتى تؤفكون» .

وهكذا قام عليه السلام هذا الزعيم الربانى بإيقاظ مخاطبيه من نوم الغفله واعدتهم لسماع قول الحق، ثم لفت انتباههم إلى الموت وانتهاء أجل الإنسان، فقال عليه السلام: «لكل أجل كتاب، ولكل غيبه إياب» .

ص: ٣٤٣

١- ١) «تتيه» من ماده «تیه» على وزن «بيه» بمعنى الضلال والحيره.

٢- ٢) «غياهب» جمع «غيبه» على وزن «حيرت» بمعنى شده ظلام الليل.

فلا تتصوروا أنّ أعماركم ممتدة لانهايه لها وأنّ الفرصه سانحه على الدوام لتدارك ما فرط، ولا تظنوا أنّ أعمالكم خافيه مستتره ولا تعود عليكم، فالموت حق والعمر محدود والأعمال محفوظه عند الله تنتظر الثواب أو العقاب.

وعليه فالمراد بقوله: «لكل غيبه إياب» إمّا الموات وأعمال الإنسان!

كما نرى مثل هذا التعبير فى سائر خطب نهج البلاغه. فقد خاطب عليه السلام الأُمّه فى الخطبه ٨٣ داعياً إياها إلى التوبه قبل حلول الموت الذى عبر عنه بالقول: «قبل قدوم الغائب المنتظر».

كما ورد مثل هذا المعنى فى الخطبه ٦٤ (١).

ثم قال عليه السلام: «فاستمعوا من ربانيكم، واحضروه قلوبكم، واستيقظوا إن هتف (٢) بكم».

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنصح والوعظ والتحذيرات، على أنّ الزعيم لا بدّ أن يتحدث بصدق إلى اتباعه، ويحرص على لم شملهم وجمع كلمتهم، ويحضر لديهم ذهنه بغيه نجاتهم وانقاذهم وهذا ما عليه الحال بالنسبه لزعيمكم «وليصدق رائد (٣) أهله، وليجمع شمله (٤)، وليحضر ذهنه».

وخلاصه القول فإنّ لزيم الجماعه وظيفه، كما للأُمّه وظيفه أيضاً، فهو يجب عليه أنّ يبيّن للأُمّه الواقع والحقائق من جانب، ومن جانب آخر عليه أن يجمع أفراده وينظمهم ويمنحهم فكره وذهنه، فاذا قام الإمام بهذه الأمور، كانت وظيفه الامه تتمثل بالجد والاجتهاد من أجل امتثال أوامره.

ثم قال عليه السلام: «فلقد فلق (٥) لكم الأمر فلق الخرز (٦)، وقرفه (٧) قرف الصمغه».

ص: ٣٤٤

١- ١) ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى ان هذه العبارة منقطعه حيث لم يروا من إرتباط واضح بينها وبين العبارات السابقه على أنّ السيد الرضى فصلها طبق عادته فى الانتخاب، والحال هذا ليس من عادته الرضى (ره) فى ان يحذف عبارته دون أن يشير إليها كما مر معنا ذلك بقوله (ومنها) وعليه وكما ذكرنا فان هناك علاقه معنويه وطيده.

٢- ٢) «هتف» من ماده «هتاف» صراخ.

٣- ٣) «الرائد» من يتقدم القوم ليكشف لهم مواضع الكلاّ ويتعرف سهوله الوصول إليها من صعوبته.

٤- ٤) «شمل» بمعنى الجمع.

٥- ٥) «فلق» بفتحيتين بمعنى الشق.

٦- ٦) «الخرزه» الجواهر القيمه النفيسه او قليله الثمن.

٧- ٧) «قرف» من ماده «قرف» على وزن حرف بمعنى التقشير.

فالعباره كنايه عن بيان الحقائق والواقعيات واطهار باطن الأمور، والعباره: «قرفه قرف الصمغه (١)» إشاره إلى أنى أخرجت لكم عصاره المطالب وجوهرتها، كما تجرى تلك الماده اللزجه من الأشجار. خاض الإمام عليه السلام هنا ثانيه فى الحديث عن الحوادث القادمه التى ذكرها سابقاً حيث أتمها بيان الوقائع الاجتماعيه و الأخلاقيه و الدينيه للحكومات المستبده، و قد أوضح الآثار المختلفه الاجتماعيه و الدينيه لهذه الحكومات. و إرتباط هذا القسم من الخطبه بالأقسام السابقه واضح تماماً، و إن تخللها بعض العبارات لإيقاظ أصحابه. و العجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغه من مجانبه هذا القسم للأقسام السابقه بفعل عاده السيد الرضى (ره) فى الإقتطاف، و كأن هذا الإقتطاف الرائع للسيد أصبح ذريعه لمن لم يتأمل الإرتباط بين أقسام الخطبه ليحملها جامع نهج البلاغه.

ثم قال عليه السلام: «فعد ذلك أخذ الباطل ماخذه، وركب الجهل مراكبه، وعظمت الطاغيه، وقلت الداعيه» .

يمكن أن يكون للطاغيه هنا معنى مصدرى: أى أنّ الطغيان يكبر ويتسع على مستوى المجتمع، كما يمكن أن يكون لها معنى اسم الفاعل؛ أى يستفحل أمر طائفه طاغيه، و يقل عدد دعاه الحق أمامها، فأمرًا أن تقضى عليهم أو تقصيههم عن الساحة الاجتماعيه، وهذه أهم الأخطار التى تنبثق من هذه الحكومات الباطله المستبده التى تجهد فى كم أفواه دعاه الحق.

ثم قال عليه السلام: «وصال الدهر صيال السبع العقور، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم» .

نعم فقد اقتحمت الساحة ثانيه من قبيل الجماعات المنافقه وسليله الجاهليه - التى طردت من الميدان - أثر ضعف دعاه الحق. وعلى هذا الضوء تقلب كاهه الموازين والقيم: «وتوافى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق» .

وهكذا وبمقتضى «الناس على دين ملوكهم» فإنّ هؤلاء الحكام الفسقه والفجره عديمى الدين يجدون فى طبع الأئمه بهذه الصفات الخبيثه بحيث يحيلون الساحة الإسلاميه إلى جحيم

ص: ٣٤٥

ورغم أنّ الدين يشمل ترك الكذب والفجور، وهجر الدين يعنى هجر القيم والمثل، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يركز بالخصوص على مسأله الفجور والكذب، لأنّ هذه الرذائل لمن من أخطر الرذائل التي تفرزها طبيعه الحكومات المستبده الفاقدده للدين، حيث تركز على الفساد والتحليل الأخلاقي والكذب.

أمّا التعبير «توافى وتهاجروا وتحابوا وتباغضوا» تشير إلى نقطه لطيفه وهى أنّ الناس فى مثل هذه المجتمعات تتجه زرافات وجماعات نحو الكذب والفجور، وبعباره أخرى ليس لها من بعد فردى، بل بعد اجتماعى عظيم الخطر.

«فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْوَلَدُ غَيْظًا، وَالْمَطَرُ قَيْظًا، وَتَفِيضُ اللَّيَامِ فَيْضًا، وَتَغِيضُ الْكِرَامِ غَيْضًا، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذُنَابًا، وَسَيِّئَ لَاطِينُهُ سِبَاعًا، وَأَوْ سَاطَهُ أَكَالًا، وَفُقْرَاؤُهُ أَمْوَاتًا؛ وَغَارَ الصُّدُقُ، وَفَاضَ الْكُذِبُ، وَاسْتَعْمَلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَبًا، وَالْعَفَافُ عَجَبًا، وَلَبَسَ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفُرُوقِ مَقْلُوبًا» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام بحثه السابق في الأخبار عن المستقبل وسيطره الحكام الظلمه والأعمال الوحشيه التي يمارسونها بحق الناس، في التعرض إلى جانب آخر من الآثار المشؤومه لهذه الحكومات، والوضع الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي للناس في ظل هذه الحكومات.

فتطرق عليه السلام بادی الأمر إلى الأولاد الذين يثيرون غضب آبائهم، وأصبح المطر قَيْظًا، وانتشر اللثام في كل مكان وقل الاختيار: «فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً (١) والمطر قَيْظًا (٢) وتفيض اللثام فيضاً (٣) وتغيض الكرام غيظاً (٤)» .

في إشاره إلى أنّ رذائل السوء للحكام الظلمه إنّما تخترق الأسر والعوائل، والأولاد الذين

ص: ٣٤٧

١- (١) «غيض» بمعنى الغضب، وقيل حاله أشد من الغضب.

٢- (٢) «قبض» بمعنى وسط الصيف «قلب الاسد» واذا وردت بالمعنى المصدرى فهي شده الحراره.

٣- (٣) فيض سيل الماء أو المطر والدمع.

٤- (٤) غيض الغور في الأرض والنقصان.

ينبغي أن يكونوا قره أعين والديهم ومصدر سعادتهم وخيرهم، يكونون سبب شقائهم وبؤسهم.

من جانب آخر تتضح الآثار الوضعيه لهذه الأعمال السيئه فى عالم الطبيعه والنعم الإلهيه، كما ينزل المطر فى الصيف فيدعو إلى الانزعاج وضياح المحاصيل الزراعيه بدلاً من نزوله فى فصل الشتاء فيؤدى إلى بروده الجو وتلطيفه.

أضف إلى ذلك وإثر انقلاب القيم وضياحها يفتح الميدان لحثاله المجتمع فيصلولون ويجولون فيه، الأمر الذى يعنى إقصاء الأخيار والصالحين من الساحه، فهذه العناصر الأربعة تشهد بوضوح فى كل حكومه طاغيه مستبده.

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشاره إلى أربع صفات حيث قسم الفئات الاجتماعيه آنذاك إلى أربع وقال: «وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعاً، وأوساطه أكالاً، (١) وفقراؤه أمواتاً» .

والمراد بأهل ذلك الزمان أعوان الحكام الظلمه وعمالهم وولاتهم.

فاذا كان السلطان ذئباً ضارياً، كان من الطبيعى أن تكون هذه هى صفه بطانته، كما أن من الطبيعى أيضاً أن تكون الطبقة المتوسطه من المجتمع فريسه لهذه الذئاب، أمّا الفقراء فيعتريهم النسيان وكأنهم أموات محوا من صفحه التاريخ.

وكان الإمام عليه السلام قد طالع عن كتب كافه تفاصيل التاريخ البشرى، فكشف النقاب بهذه العبارات القصيره عن عمق مميزات الحكومات المستبده الطاغيه.

ثم إختتم عليه السلام خطبته بالإشاره إلى سبع ظواهر مقيته فى هذه المجتمعات والتي تمثل قمه البؤس والشقاء. حيث قال سيزول الصدق فى ذلك الزمان ويكثر الكذب وظهرت الموده على اللسان فى حين انطوت القلوب على البغض والعدوان، ويتفاخر بالذنب ويندهش من العفه والطهر،

ص: ٣٤٨

١-١) «أكال» جمع «آكل» مثل طلاب بمعنى الآكل، و على هذا المعنى يكون معنى الجملة «أوساطه أكالاً»، المقصود به الطبقة المتوسطه فى ذلك الزمان والذين لاهم لهم غير الاكل والشرب وسلب ونهب الأموال، واذا جاءت بصيغه اسم فاعل، حيث نرى أنها جاءت على صيغه «اسم مفعول، وهو ما يناسب الجمل التي سبقتها، فيكون معناها، بالشكل الذى أوردناه فى الشرح أعلاه.

فيلبس الإسلام ثوباً مقلوباً: «وغار (١)الصدق، وصار الفسوق نسباً، والعفاف عجباً، ولبس الإسلام لبس الفرو (٢)مقلوباً» .

يمكن أن تكون العبارة «غار الصدق، وفاض الكذب» وبالالتفات إلى معنى الغور الذى يعنى الانتشار داخل الأرض وفاض من فيض بمعنى الماء الوفير أو المطر وأمثال وذلك، إشاره إلى ذلك الزمان وكأَنَّ عيون الصدق قد غارت فيه فى الأرض بينما جفت بساتين الحياه الإنسانيه اثر ابتعادها عن هذه المياه، وبدلاً من ذلك فقد عم وانتشر الكذب وكأنه الماء المالح الذى يخرب كل شىء.

والعبارة «صار الفسوق نسباً» تفيد مدى اقتراب الفسقه من بعضهم وتوطيد أواصرهم وكأنهم قرابه ونسب.

وقد فسر بعض شراح نهج البلاغه الفسوق هنا بالزنا؛ أى يكثر أولاد الحرام فى المجتمع، وينسجم هذا التفسير والعبارة: «والعفاف عجباً» .

الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أنّ الفسقه يفتخرون بفسقهم، كما تفتخر العرب بنسبها، وعلى العكس من ذلك فإنّ الأفراد من أهل الطهر والعفاف يشعرون بالخجل إثر ذم المجتمع وملامتهم لهم.

والعبارة: «لبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً» إشاره إلى نقطه لطيفه وهى أنّ حكام الجور والفسقه والفجره لا يسعون إلى القضاء على الإسلام وسلب الناس دينهم، بل يحرفون الإسلام ويقلبون محتواه من أجل تحقيق أطماعهم ومآربهم. وشهد تاريخ الحكومات المستبده ولاسيما حكومه بنى أميه على صدق هذا الكلام.

طبيعى أنّ اللباس إذا قلب لم يعد له من شبه بثياب الناس، بل يبدو من يرتديه حيواناً، أما ذكر هذه العبارة بعد الحديث عن مفاسد ذلك الزمان يمكن أن يكون من قبيل ذكر العام بعد الخاص؛ لأنّ الإسلام إذا قلب كان الكذب بدل الصدق والفسوق بدل العفاف وسائر الرذائل بدل الفضائل والقيم.

ص: ٣٤٩

١ - ١) «غار» من ماده «غور» الدخول فى الشىء وإذا استعمل فى الماء عنى غوره فى الأرض، ومن هنا يستعمل بمعنى الانعدام أيضاً.

٢ - ٢) «فرو» ما يهيبىء من جلد الحيوانات وله صوف عاده ما يلبس فى الشتاء.

لقد رسم الإمام عليه السلام فى هذه الأقسام الثلاثه من الخطبه صورته واضحه بيانه للاحداث القادمه التى ستواجه المجتمع الإسلامى عن كافته الحكومات الطاغيه والمستبده على مدى التاريخ.

حيث تسعى هذه الحكومات لتقويه دعائمها فان استتبت لها الأمور واستقرت أقصت كافته الأخيار والشرفاء عن الميدان، واستقطبت بطانتها من حثاله المجتمع ليمارسوا أبشع الأساليب بحق الناس ولا سيما المؤمنين، كما يسعون إلى سوق الناس لأن يعيشوا فى هاله من الجهل والتخبط.

الكذب هو السائد والصدق غائب، والفسوق عامر والطهر ضامر. أضف إلى ذلك فانّ الناس سرعان ما تكتسب رذائل الحاكم، ولاغرو فالناس على دين ملوكهم. وزبده الكلام فانّ قيم المجتمع ومثله تقلب تماماً على سبيل المثال يكون الفسق والفجور فخراً، بينما يصبح الطهر والعفاف نقصاً.

وبالطبع فانّ مثل هذه الحكومات لا تقف بوجه الدين فى الأوساط الدينيه بل تسعى جاهده لتحريفه واخلائه من محتواه بغيه تمرير مخططاتها، إلى جانب تعبئه الرأى العام لصالحها من خلال ترويجها للخرافات التى تستهوى العوام.

والحق اننا إذا اعتمدنا هذه المعايير التى أوردتها الإمام عليه السلام تجاه عالمنا المعاصر ولاسيما غالبيه البلدان الإسلاميه لرأيناها مصداقا واضحا لما ذكر، وكان الإمام عليه السلام كان ينظر لكافه الأحداث التى تشهدنا مجتمعاتنا اليوم.

أمّا ما أوردته الإمام عليه السلام من نبوءه فى هذه الخطبه فانّما يشبهه بعض مضامين الروايات التى نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقد جاء فى الحديث الشريف أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ وَجُوهُهُمْ وَجُوهُ الْأَدَمِيِّينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ، كَأَمْثَالِ الدَّنَابِ الضَّوَارِي، سَيَفَاكُونَ لِلدَّمَاءِ، لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ، إِنْ تَابَعْتَهُمْ ارْتَابُواكَ وَإِنْ حَدَّتْهُمْ كَذَّبُواكَ، إِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمْ اغْتَابُواكَ. أَلَسُنَّهُ فِيهِمْ بَدْعُهُ وَالْبَدْعُ فِيهِمْ سُنُّهُ،

وَالْحَلِيمُ مِنْهُمْ غَادِرٌ، وَالْعَادِرُ بَيْنَهُمْ حَلِيمٌ، الْمُؤْمِنُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُسْتَضْعَفٌ، وَالْفَاسِقُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُشْرَفٌ . . . فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْرِمُهُمُ اللَّهُ
قَطْرَ السَّمَاءِ فِي أَوَانِهِ، وَيُنزِلُهُ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ، وَيُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ شَرَارَهُمْ . . .» (١).

ص: ٣٥١

١-١) سفينه البحار، [١] ماده زمن.

ومن خطبه له عليه السلام

فى بيان قدره الله وانفراده بالعظمه وأمر البعث

نظره إلى الخطبه

تعد هذه الخطبه من أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغه إلى جانب عظم محتواها ومن هنا أسموها بالزهراء. حتى صرح ابن أبى الحديد قائلاً: من أراد أن يتعلم الفصاحه والبلاغه، ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض فليتأمل هذه الخطبه، فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام نسبه الكواكب المنيره الفلكيه إلى الحجاره المظلمه الأرضيه، ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلاله والرواء والديباجه وما تحدثه من الروعه والرهبه والمخافه والخشيه؛ حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفى البعث والنشور لهدت قواه، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده. (٢)

والخطبه تتألف بصوره عامه من ثمانية أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن عظمه قدره الله وعجز المخلوقات أمامه حيث يورد بعض الأمور الدقيقه بهذا الشأن.

ص: ٣٥٣

١-١) سند الخطبه: جاء فى مصادر نهج البلاغه أن المرحوم الرضى (ره) اقتطفها من الخطبه المعروفه بالزهراء، ورواها ابن عبد ربّه المالكي فى العقد الفريد والزمحشرى والآمدى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٣٥).

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٢٠٢. [١]

القسم الثاني: فى خلقه الملائكه وبعض صفاتها وخصائصها، التى ستحقر عبادتها تجاه عظمه الحق، لو اطلعت على اسرار الغيب، رغم اجتهادها وذوبانها فى العباده والطاعه.

القسم الثالث: عن غفله العباد واقبالهم على الدنيا وابتعادهم عن دعوه الأنبياء مع وجود الآخره ونعمها الدائمه.

القسم الرابع: يعالج عشاق الدنيا من أهل الذنوب والمعاصى حين الموت، بعبارات بليغه مؤثره تسوق الغافل إلى التفكير وإعاده النظر فى سلوكه وتصرفاته.

القسم الخامس والسادس: حول القيامه ومقدمات يوم الحساب وسؤال الإنسان عن أعماله، وسعاده المؤمنين، وتعاسه المذنبين وعاقبه كل من هاتين الطائفتين.

القسم السابع: عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وزهده بالدنيا ورغبته عنها. و كونه الأسوه التى ينبغى لأهل الايمان الاقتداء بها.

القسم الثامن: عن أهل البيت عليهم السلام واتباعهم وعظم منزلتهم.

«كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ. مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ الْعُيُونَ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصَةِ فِيمَنْ مِنْ خَلْقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِرُوحِهِ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ. مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ، مَنْ أَحَدْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مِنْ عَصِيَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَزِيدُ أَمْرَكَ مَنْ سَخَطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَتَعْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ. أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُتْتَهَى فَلَا مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعَدُ فَلَا مَنْجِي مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. يَبِيدُكَ نَاصِيَةٌ يَهْ كُفْلٌ دَابَّهِ، وَإِلَيْكَ مَصِيرٌ كُلُّ نَسِيمَةٍ. سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنُكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَزَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَضْمَرَ كُلُّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَزَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَشْبَعَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَضْعَرَّهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ!» .

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإن هذه الخطبه من أعمق خطب نهج البلاغه و أروعها و أجملها، وقد تطرق عليه السلام في بدايه الخطبه إلى أوصافه سبحانه وتعالى الجماليه والجلاليه وصفات الأفعال بصوره واسعه جامعته.

فاشار عليه السلام إلى عشر صفات من صفات الكمال: «كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به: غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوه كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف» .

فهذه الصفات الست تعود إلى قدرته المطلقة سبحانه ووجوده المطلق اللامحدود وحاجه جميع الممكنات إليه.

«خاشع» من ماده «خشوع» تعنى فى الأصل الخضوع؛ مع ذلك لها مفهوم أوسع يشمل الخضوع الظاهرى والباطنى والتشريعى والتكوينى. وعليه فخشوع كل شيء له بمعنى التسليم لله والانصياع لقوانينه.

وقيام كل شيء بالله من حيث إنه واجب الوجود وغيره ممكن الوجود، والممكن يتوقف على الواجب، كتوقف ضياء الشمس عليها. وإليه يعزى أيضاً غنى كل فقير وعز كل ذليل وقوه كل ضعيف؛ وذلك لأن الممكنات والمخلوقات لا تملك لنفسها شيئاً، وكل ما لديها من الله، وكل كمال تحصل عليه فأنما هو فيض من كماله المطلق.

ملهوف من ماده لهف تعنى فى الأصل الغم والهم الذى يعانى منه الإنسان اثر فقدانه لشيء: كما تستعل أحياناً لمن يظلم من الأفراد ويصرخ مستغيثاً. ولما كانت قدره الناس زهيدة لا تمكنهم من تحقيق كاهه رغباتهم أو الحفاظ على مالديهم، فان حاله الهم والغم والحزن تسيطر عليهم حين يفقدون سندهم المادى والمعنوى، فليس أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى تلك الذات القادره المقتدره من أجل حل مشاكلهم والتغلب على مصاعبهم.

والواقع هو أن ماورد سابقاً إنما اقتبس من عدّه آيات قرآنيه اشارت إلى هذه الصفات. فقد صرح القرآن فى موضع: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (١). وقال فى موضع آخر: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (٢). وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» (٣). وقال: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٤).

ص: ٣٥٦

١-١) سورة النمل/٤٩.

٢-٢) سورة البقره/٢٥٥. [١]

٣-٣) سورة فاطر/١٥. [٢]

٤-٤) سورة آل عمران/٢٦. [٣]

ثم اردفها عليه السلام بست صفات أخرى: «ومن تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فالإليه منقلبه» .

نعم فهو عليم بظاهرها وباطنها، وهو العالم بحياتنا وموتنا، وإنا إليه راجعون لا محاله.

والحق لو عشنا الإيمان على مستوى القلب والعمل بهذه الصفات التي بينها الإمام عليه السلام لكفتنا في اصلاح أنفسنا، لا بد أن نعلم بأن كل كالدنيا منه سبحانه، وعلينا أن نسأله كل ما نريد، فهو العالم بأسرارنا، وأن يوماً سنعود إليه ونمثل بين يديه في محكمته العادله.

ثم قال عليه السلام وقد ذكر بعضاً من صفات الخالق السلبية: «لم ترك (1) العيون فتخبر عنك، بل كنت قبل الواصفين من خلقك» .

فالعباره «لم ترك العيون» إشاره إلى أنه ليس بمخلوق ولا بجسم ليرى، وتبين صفاته من خلال الرؤيه والمشاهده.

والعباره اللاحقه بمنزله العله؛ لأنّ الله كان منذ الأزل، ولا يمكن أن يكون جسمًا. فالجسم حادث. وعليه فان أردنا أن نصف الذات المقدسه علينا ان نستعين بما أورده انبياء الله وكتبه السماويه.

ثم اشار عليه السلام إلى ثمان صفات أخرى من صفات الجلال ذات البعد السلبى، وفي الواقع نتحدث عن غنى الحق المطلق.

«لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لَوْحْشِهِ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ (٢) مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَزِيدُ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَعْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ» .

نعم فهو الغنى عن الجميع، وكل كماله مصدره الحق سبحانه و ليس لشيء من قدره على تحدى إرادته - و عليه فخلقه للمخلوقات يستند إلى فيضه لالدفع وحشه وحده أو جلب

ص: ٣٥٧

١- ١) «لم تر» فعل، والكاف مفعوله، و فاعله «العيون» يعنى «لا تبصر ك الانظار» .

٢- ٢) «يفلت» من ماده «افلايت» ينفك أو يفر. ومنه الحديث المعروف لعمر فى كتب الفريقين «إن بيعه أبى بكر كانت فلتة وفى الله شرّها» .

منفعه، فلا- عباده العباد تزيد من جلاله، ولا كفرهم ينال من كبريائه، فمن تولى عنه لم يستغن عنه، و من إعترض على قضائه لم يسعه دفعه. ثم ذكر الإمام عليه السلام خمس من صفاته الجماليه فقال: «كل سر عندك علانيه، وكل غيب عندك شهاده، أنت الابد فلا أمد لك، وأنت المنتهى فلا محيص (١) عنك، وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك» .

قد تبدو للوهله الاولى مفرده «سر» و «غيب» بمعنى واحد، وكذلك مفردتى «علانيه» و «شهاده» ، ولكن لايبعد أن يكون المراد بالسر، الأسرار الباطنيه للعباد التى يعلمها الله، وبعباره أخرى فإنّ كل سر علانيه لديه، أمّا الغيب فيعنى الحوادث الآتية، أو الماضيه الغائبه على حسناً وشعوراً، أو الكائنات الموجوده حالياً فى هذه السموات والأرض التى لا يبلغها حسناً. (٢)

والعباره أنت الأبد تأكيد لأبديه الله سبحانه. فهو على درجه من الأبديه وكأنه عينها وذاتها، فهو واجب الوجود، ومن هنا لا بدايه له ولا نهايه، فالبدايه والنهايه من صفات المخلوقات المحدوده من مختلف الجهات.

والتعبير بالمنتهى والموعد صفتان متفاوتان بشأن الله سبحانه وتعالى. فهو المنتهى بمعنى كل شىء ينتهى إليه: «انا لله وانا إليه راجعون» ، وليس لأحد القدره على الفرار من محكمه عدله. وقد قال القرآن الكريم صراحه: «وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صِيّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً» (٣).

والرساله التى تحملها هذه الصفات هو أن نعلم ونؤمن بان الله خبير عليم بكل شىء بما فى ذلك بواطن أسرارنا وخفائنا، فما نكتمه على الخلق ليس بمكتوم على الخالق، واننا مرجعنا يوماً إلى محكمه العدل الإلهي، واخيراً لا يخفى الدور التربوى والحيلوله دون الوقوع فى الذنب والمعصيه إذا ما التفتنا إلى هذه الصفات.

ثم واصل عليه السلام كلامه مؤكداً على قدره الله وعوده جميع الكائنات الحيه إليه فقال: «بيدك ناصيه كل دابه، وإليك مصير كل نسمه» .

ص: ٣٥٨

١- ١) «محيص» من ماده «حيص» على وزن حيف بمعنى العوده والعدول واعتزال الشىء ومحيص اسم مكان، وعليه قد تعنى الملاذ.

٢- ٢) استفاد من المصادر اللغويه ان السر ما يخفيه الإنسان، أمّا الغيب فما خفى على عيننا وحسناً.

٣- ٣) سوره الكهف/٤٨. [١]

فالتعبير بالناحية كناية عن تسليم المخلوقات لإرادة الله المطلقه. والتعبير بكل نسمة يعنى فى الأصل هبوب الرياح المعتدله، ثم اطلق على روح الكائنات الحيه، فى إشاره إلى أن كل موجود راجع إليه مائل فى محكمته.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالقول: «سبحانك ما أعظم شأنك! سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك! وما أصغر كل عظيمه فى جنب قدرتك! وما أهول ما نرى من ملكوتك! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك» .

والحق ان عظمه هذا العالم وعمق غرائبه تتسع لدينا شيئاً فشيئاً كلما تقدمت مسيره العلم وتطورت الأجهزة. وقد عبرَ أحد العلماء بأنَّ عالم الخلقه - حسب ما لدينا من معلومات - بمثابة المكتبه العظيمه التى تضم ملايين الكتب، وكرتنا الأرضيه بكل ما فيها بمنزله نقطه فى صفحه من صفحات كتاب من تلك المكتبه الضخمه. كما صرح آخر بأن ما ثبت اليوم أن كواكب السماء على قدر من الكبر بحيث تذهل الإنسان. فكوكب الجوزاء يبلغ أكبر من كرتنا الأرضيه ثلاثين مليارداً، هذا بالنسبه لكواكب واحد - و ما أروع ما قاله الإمام عليه السلام بأن ماخفى عنا لأعظم مما نرى - وقد قال ذلك حيث تنعدم الإكتشافات آنذاك و حين كانت الهيئه البطليموسيه التى ترى صغر عالم الوجود هى السائده فى كافه الأوساط العلميه.

فقد انطلق الإمام عليه السلام فى الواقع من خلال الرؤيه القرآنيه لهذه المسأله «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

ثم اختتم عليه السلام كلامه فى بيان نعم الدنيا والآخره فقال: «وما أسبغ (٢) نعمك فى الدنيا، وما أصغرها فى نعم الآخره» .

ص: ٣٥٩

١-١ (١) سورة غافر/٥٧. [١]

٢-٢ (٢) «اسبغ» من ماده «اسبغ» الكثير الوافر.

ومنها: «مِنْ مَلَائِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛ هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخَوْفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ؛ لَمْ يَشْرِكُنَا الْأَضْيَالَ، وَلَمْ يُضَمُّنُوا الْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا «مِنْ مَيِّمٍ مَهِينٍ» وَلَمْ يَتَشَبَّحْهُمْ «رَيْبُ الْمُنُونِ»؛ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَأَشْيَتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَقَلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَيَّيْنَا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنََّّهُمْ لَمْ يَعْبُدُواكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُواكَ حَقَّ طَاعَتِكَ» .

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من الحديث في الأقسام السابقة عن عظمه خلق الله وملكوت السموات، وأن ما نراه لأصغر بكثير عما خفى علينا من أسرار، أشار هنا إلى الملائكة بفضلها دلالة على عظمه خلق الله فقال عليه السلام: «من (1) ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهم عن أرضك» .

لاشك أن ملائكة لا تقتصر على سكنه سماواته، فهناك ملائكة الأرض التي تحفظ أعمال الانس وتدبر الأمور بأذن الله وتولى قبض الأرواح. لكن بالنظر إلى أن الإمام عليه السلام لم يبين بالعباره المذكوره حكما كليا بشأن الملائكة بل تحدث عن طائفه منها فليست هناك من مشكله - ولا ضروره لتلك التوجيهات التي ذكرها هنا بعض شراح نهج البلاغه.

ص: ٣٤١

(١-١) بناء على ماورد فان «من» تبعيضية وإشاره إلى بعض مخلوقات الله العظيمة التي وردت في المقطع السابق من الخطبه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه في الإشارة إلى بعض الصفات الثبوتية والسلبية للملائكة قائلاً: «هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقربهم منك» .

فالصفات الثلاث مرتبطة مع بعضها؛ لأنه المعرفة العظمى للملائكة بالنسبة لذات الله تؤدي إلى خوفها، الخوف من التقصير في إداء الوظائف والمسؤوليات، والخوف الناشئ من عظمته وهيبه مقامه. والصفتان تؤديان إلى قرب الملائكة من الله.

وهنا يبرز هذا السؤال كيف أنّ الملائكة أعلم من جميع المخلوقات بالله وأقربها إليه، والحال أننا نعلم أنّ أنبياء الله - ولا سيما نبي الإسلام - وحتى بعض الصالحين أفضل من الملائكة، وأفضل دليل على ذلك سجود كافة الملائكة لآدم، وأفضليته عليهم من حيث العلم والمعرفة، وقد ورد في الحديث أنّ طائفة من الملائكة تقوم على خدمة الأنبياء والصلحاء والمؤمنين، كما هناك الحديث المشهور عن تركيب خلق الإنسان من العقل والشهوه والملائكة من العقل دون الشهوه، فإنّ غلب عقله شهوته كان أفضل من الملائكة، هو الآخر دليل على أفضلية الإنسان على الملائكة (١) ويمكن القول في الاجابة على هذا السؤال: المراد الأعلمية والقرب النسبي، وبعبارة أخرى فإنّ العبارة المذكورة شبيهة الحصر الإضافي، كما يمكن القول أنّ العبارة حكم عام يستثنى منه الأنبياء والأولياء.

ثم أشار إلى صفاتهم السلبية بعدم وجود نواقص في الملائكة على غرار الناس، فذكر أربع صفات منها: «لم يسكنوا الأصلاب، ولم يضمّنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مهين (٢) ولم يتشعبهم (٣) ريب (٤) المنون» .

من الواضح أنّ الاستقرار في مكان محدود كصلب الأب ومن ثم رحم الأم، والخلق من قطره ماء تبدو تافهه، لهو نقص في الإنسان؛ والحال ليست الملائكة كذلك، فلا من زواج ولا ولادة كالإنسان.

ص: ٣٦٢

١-١) وسائل الشيعة ١١/١٦٤، أبواب جهاد النفس، الباب ٩، ح ٢.

٢-٢) «مهين» من مادة «مهانه» بمعنى الضعه والحقاره وماء مهين إشارة إلى المنى الذي ليس له قيمة من حيث المقدار ولا الظاهر.

٣-٣) «يتشعبهم» من مادة «تشعب» التفرق، وشعبه بمعنى الفرع الذي فصل عن الأصل.

٤-٤) «ريب» كل شك وترديد، ومنون حوادث الدهر أو الموت.

أضف إلى ذلك فهي لا- تموت ولا- تتغير بسبب الزمان، ولا- تمرض ولا تشيب وتعجز. فوجود هذه المميزات وإن كانت من علامات شرف خلقه الملائكة، وأنّ الإنسان لا شك هو أسمى مقاماً منها من هذه الناحية. إلّا أنّ سبب عظمه الإنسان وأفضليته على الملائكة إنّما تعود إلى روحه التي أشارت إليها الآية الشريفة: «نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (١).

ومن هنا سجد الملائكة كلهم أجمعون لآدم عليه السلام.

أمّا هدف بيان الإمام عليه السلام لكل هذه الصفات ما أراد ذكره في العبارات اللاحقة «وأنّهم على مكانهم منك، ومنزلتهم عندك، واستجماع أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كنه ما خفى عليهم منك لحقروا أعمالهم، ولزروا (٢) على أنفسهم، ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك» .

نعم فالملائكة ورغم تلك المعرفة والمقام الشامخ، فهي قاصره عن معرفه عظمته ودائره صفاته في الجمال والجلال، وعليه فلو فرض تعرفها على الله كما هو، لأكتشفوا أنّهم لم يعبدوه كما هو أهله ولم يطيعوه كما يستحقه. وكل ما أدوه ذره لاقيمه لها ولا وزن.

فالعبارة تفيد من جانب أنّ معرفه الإنسان بالله كلما تسامت، تضاعفت عبادته وطاعته لله. كما تفيد من جانب آخر أنّ أحداً لم يعبد الله حق عبادته، كما أنّ أحداً لم يعرف الله حق معرفته، وذلك لأنّ الإنسان والملك - حتى أعظم الناس والملائكة - إنّما هو وجود محدود، والذات الإلهية ليست محدوده، فليس لهذا المحدود أن يؤدي حق عباده الله ولا طاعته ولا معرفته. أمّا التعبير بالأهواء جمع هوى في العبارة «واستجماع أهوائهم فيك» فلا تعنى هوى النفس وشططها، بل تعنى الحب والرغبة، لأنّ لهذا اللفظ معنيان. وعبارة أخرى يستعمل أحياناً في الحب الإيجابي وأخرى في السلبي. والمراد بالعبارة أنّ الملائكة ركزت حبها وعشقها في الله سبحانه والعبارة «قله غفلتهم عن أمرك» تفيد امكانيه غفله الملائكة، إلّا أنّها طفيفه جداً. وشاهد ذلك الروايات الواردة في بعضى الملائكة في ترك الاولى. وعليه فلا حاجة لذلك التكلف الذى صرح به بعض شراح نهج البلاغه من أنّ القله هنا تعنى العدم.

ص: ٣٤٣

١-١ (١) سورة الحجر/٢٩. [١]

٢-٢ (٢) «زروا» من ماده «زرى» على وزن سعى العيب والتوبيخ واللوم، والازراء بهذا المعنى أيضاً.

على كل حال هذا هو حال الملائكة بهذه العباده والطاعه لآلاف السنين فما ظنك بعباداتنا وطاعاتنا البخسه؟ والجدير بالذكر أنّ الرسول الأكرام صلى الله عليه وآله وبالنظر إلى الحديث المعروف «ما عبدناك حق عبادتك، وما عرفناك حق معرفتك» (١)، قد التفت إلى هذه الحقيقه، أى عدم معرفه الله وعبادته كما يستحق، بينما تبين العبارة المذكوره للإمام عليه السلام عدم التفات الملائكه لهذه المسأله، ولعل الآيه الشريفه: «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» (٢) دليل آخر على هذا المعنى، وهذا ما يوضح أفضليه الإنسان على الملائكه.

ص: ٣٦٤

-
- ١-١) بين المرحوم العلامة المجلسى فى المجلد ٦٨ من بحار الانوار [١] ص ٢٣ الحديث المذكور عن النبى صلى الله عليه وآله ضمن شرحه لبعض الاحاديث.
- ٢-٢) سورة البقره/٣٠. [٢]

إشاره

«سُبْحَانَكَ خَالِقًا» وَمَعْبُودًا! بِحُسْنِ بِلَائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ. خَلَقْتَ دَارًا، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَبًا وَمَطْعَمًا، وَأَزْوَاجًا وَخُدَمًا، وَقُصُورًا، وَأَنْهَارًا، وَزُرُوعًا، وَثِمَارًا؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلَا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلَا فِيهَا رَغَبَتْ رَغْبُوا، وَلَا إِلَى مَا شَوَّقَتْ إِلَيْهِ اشْتَأَفُوا. أَقْبَلُوا عَلَى جِيفِهِ قَدْ افْتَضَّ حُوا بِأَكْلِهَا، وَاضْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشَقَ شَيْئًا أَغَشَى بَصِيرَتَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ حَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلَهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَاجِرٍ، وَلَا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُودِينَ عَلَى الْعُرَّةِ، حَيْثُ لَا إِقَالَهَ وَلَا رَجْعَهَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيَّرَ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن الدار الآخرة وخلق الجنّة وما تضمنه من نعم جمه فقال عليه السلام: «سبحانك خالقاً ومعبوداً! بحسن بلائك عند خلقك» فقد خلقت تلك الدار العظيمة (الآخرة) وجعلت فيها مختلف النعم من مشارب ومطاعم وأزواج وخدمه وقصور وأنهار

وزرع وثمار «وجعلت فيها مآديه (١): مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخداماً وقصوراً وأنهاراً وزروعاً وشماراً» .

قطعاً أنّ الهدف من بيان هذه الأمور هو تطهير الإنسان من الرذائل والادناس والذنوب والمعاصي وسوقه إلى القرب من الله سبحانه: وقد وفرها الحق جميعاً لعباده بصفاتها تشجع الإنسان على الثبات في الطريق القويم ومواصلته.

ثم قال عليه السلام: «ثم أرسلت داعياً يدعو إليها، فلا الداعي أجابوا، ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا» .

فهم لم يكتفوا بعدم الرغبه بتلك النعم المطهره الخالده، بل اقبلوا على جيفه نتنه افتضحوا بأكلها والعجيب فى الأمر أن كلمتهم اتفقت على حبها: «أقبلوا على جيفه (٢) قد افتضحوا بأكلها، واصطلحوا على حبها» .

طبعاً مراد الإمام عليه السلام من ارسال الداعى هو بعث الأنبياء ولاسيما نبى الإسلام صلى الله عليه وآله والمراد بعدم إجابته الدعوه لاتشمل جميع الناس؛ بل الأغلبيه من أهل الدنيا المفارقين للآخره من اتباع الهوى والشهوات.

ومن هنا فقد شبههم بالحيوانات المفترسه التى تنهال على جيفه فتفضح نفسها؛ وذلك لأنّ الرائحه النتنه لتلك الجيفه تفوح من فمها ويدها.

وقوله عليه السلام: «واصطلحوا على حبها» لا يعنى عدم وجود النزاع بين أهل الدنيا، بل هم دائماً كالحيوانات التى تجتمع حول جيفه نتنه وتهجم عليها ليتناول كل قطعه منها. والمراد أنّهم اتفقوا على حبها.

وتشبيه الدنيا بالجيفه، هو تشبيه ورد فى بعض الروايات، وذلك للتعفن الكامن فى باطن

ص: ٣٦٦

١ - ١) «المآدبه» بضم الدال وفتحها ما يصنع من الطعام للمدعوين فى عرس ونحوه، والمراد هنا نعيم الجنّه، من ماده أدب التى تعنى فى الأصل الدعوه.

٢ - ٢) «جيفه» بمعنى الميتة، وأصلها من ماده «جَيْفَ» و «الأ-جيف» بمعنى الأنتن، ولذلك فإن كل شىء فاسد وnten يُشَبَّه ب «الجيفه»، ومن هنا فقد شَبَّهت الخطبه أعلاه الدنيا الماديه بانها «جيفه» .

الدنيا التي تختزن أنواع الظلم والذنب، أو لأن أصحاب الدنيا يهبون للتنازع والاقتيال بهدف سلبها من بعضهم البعض الآخر.

ثم بين الإمام عليه السلام نتيجة هذا الحب للدنيا بشكل قاعده كليه وعامه وهى: «ومن عشق (١) شيئاً أعشى (٢) بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحه، ويسمع باذن غير سميعة» .

فقد ركز الإمام عليه السلام على نقطه يكشف فيها عن حقيقه وهى أنّ حب الدنيا وعشق زخرفها وزبرجها وزينتها الماديه إنّما يسلب الإنسان اصدار الأحكام بصوره صحيحه، بحيث يحسب أنّ سعادته وموفقيته إنّما تتمثل بالوصول إلى هذه الدنيا الماديه، مهما كان وكيفما كان الطريق المؤدى اليها.

ومن الطبيعى أن يتعذر على مثل هذا الفرد تشخيص الحق من الباطل والمصالح من المفاسد. فهو ينطلق بشكل جنونى نحو لذات الدنيا، فاذا أفاق رأى نفسه وقد فقد كل شىء.

وستحدث فى البحث القادم ان شاء الله عن حقيقه العشق وآثاره.

وتختتم هذا البحث بالحديث النبوى الشريف: «من جعل الدنيا أكبر همه، فرق الله عليه همه، وجعل فقره بين عينيه» (٣).

ثم قال عليه السلام: «قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولعت عليها نفسه» .

فقد شبه الإمام عليه السلام العقل فى العبارة الاولى بالثوب، الذى يمكنه أن يحفظ الإنسان ويكون له زينه، أما الشهوه فهى تمزق ثوب العقل الجميل. وفى العبارة الثانيه وصف غلبه الشهوات على العقل بأنّه موت للعقل. كما أشار عليه السلام فى العبارة الثالثه إلى أنّ حب الدنيا والرغبه فيها قد أحاط بجميع كيان أهل الدنيا وطلابها.

وعليه فمثل هذا الإنسان عبد للدنيا، ولمن فى يده شىء من حطامها: «فهو عبد لها، ولمن يده شىء منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبلت عليها» .

ص: ٣٦٧

١- ١) «عَشَقَ» من ماده «عشق» على وزن فكر بمعنى العلاقه الشديده بالشىء. و «عشقه» على وزن ثمره بمعنى الشجره الخضراء اليانعه، والتي لا يمر عليها الا وقت قصير فتصبح صفراء وذابله. وبعضهم قال: ان العشق أشق فى الأصل من هذه ماده، وذلك لان العاشق يصبح نحيفاً ذابلاً.

٢- ٢) «أعشى» من ماده «عشو» على وزن «خشم» بمعنى ضعف النظر و عدم قدره العين على الابصار بصوره جيده، و تأتى أحيانا بمعنى العمى الليلى أو العشو ليلاً.

٣- ٣) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٣/٦٣. [١]

فهو لا-ينزجر بأى زاجر ولا- يكثرث لأى ناهى، ولا يتعظ بموعظه واعظ ولا يصغى إلى نصح ناصح، والحال يرى بأم عينيه من يؤخذ بغته لاصفح ولا-عقو ولا-رجعه «لا ينزجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين على العزه (1) حيث لا إقاله (2) ولا-رجعه، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون، فغير موصوف ما نزل بهم» .

نعم فمن يرى بعينه كل يوم تقلب أحوال الدنيا وغدرها بأهلها لابد أن يكون يقظاً، يستمع إلى الوعظ والنصح وينتهي بنهى الآخرين، إلّا أن المؤسف له هو أن حب الدنيا والتكالب عليها والاعتزاز بزخارفها ليعمى عين الإنسان ويصم سمعه ويستحوذ على فكره بحيث لا يسمح له بأن يفيق إلى نفسه.

تأمل: العشق المقدس والهجين

لقد أشار الإمام عليه السلام بعباره قصيره بليغه إلى حقيقه مهمه، طالما استغرق فيها العلماء والعرفاء والشعراء والأدباء.

فقد قال عليه السلام: «من عشق شيئاً أعشى بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحه، ويسمع باذن غير سميعه» ، وقد دفعنا هذه العباره لأن نتحدث عن العشق، المقدس منه الايجابى، والمستتهجن السلبي. فقد قيل الكثير فى العشق وعظمته وجنونه وأمراضه، ولعلها من الكلمات القل التي وردت بشأنها كل هذه التعبيرات والتعاريف المختلفه والمتناقضه. فقد سمي به بعض الكتاب إلى درجه جعلتهم يرونه بمثابة ضابط الحياه والسعاده الأبدية! أو أن العشق معمار عالم الوجود.

كما أن تحدثوا عن إعجازاته بالنسبه للإنسان حيث ينشط روح الإنسان ويملاً قلبه حيويه وحركه، بل قيل بانعدام طعم الحياه بدونه.

ص: ٣٦٨

-
- ١- ١) «غره» بمعنى الغفله من ماده «غرور» بمعنى الخداع، حيث يستغفل هذا الخداع الإنسان ويأخذه بغته.
 - ٢- ٢) «إقاله» من ماده «قيل» على وزن سيل بمعنى فسخ المعامله، وقيل معناها الأصلي انقاذ الإنسان من السقوط، ووردت فى الخطبه بمعنى العفوع عن الذنوب.

وبالمقابل فهناك طائفه من الكتاب والفلاسفه الذين صعدوا من حملاتهم واتهاماتهم للعشق ليصوره كمرض مقيت يدعو إلى التفرز. فقد قال أحد الكتاب المعروفين: علينا أن نرى العشق عباره عن عصاره الأدمغه الخاويه إن لم نقل بأنه نوع من الجنون.

وقال كاتب آخر: أن العشق كمرض السرطان والنقرس الذى ينبغى أن يفر منه الإنسان العاقل.

فالتفسيرات المتناقضه للعشق تشير إلى أن العلماء والمفكرين لم يتحدثوا جميعاً عن شىء واحد. فهناك من تكلم عن العشق المقدس الذى يطفى القدسيه والطهاره على الإنسان، ويشده بقوته الفائقه نحو معشوقه الحقيقى خالق الوجود.

أمياً من ذمه منهم فانما قصد به ذلك العشق المادى والمفعم بالخطايا والرذائل والجنايات الذى يفضى غالباً إلى المرض والفضيحه والشقاء.

فالإنسان فى العشق المادى يقبل بجنون على الشىء الذى يتعلق به ويعشقه، ويضحى بكل ماله من أجله. فالمراد بهذا العشق هو تلك القوه السحريه التى تقود الإنسان إلى المعصيه والذنب والخطيئه، وكل ما قيل فى ذمه فهو قليل.

فهذه القوه الطاغيه تخرب العقل وتشل حركته وفاعليته بحيث يقدم الإنسان على الأعمال الجنونيه الطائشه.

وتتمثل اولى مخاطر ذلك بتعظيمه العيوب والقبايح. فمثل هؤلاء العشاق يبتكرون أنواع التفاسير المذهله لأقبح العيوب.

فهم لا يقبلون النصيح ولا يصغون إلى الوعظ، بل يهبون أحياناً للوقوف بشده بوجه الناصحين والوعاظ.

والغريب فى الأمر أن الأشخاص الذين يعيشون مثل هذا العشق المادى الجنونى يشعرون أنهم بلغوا إدراكاً حرم منه معظم الآخرين.

فهم يعيشون فى هاله من الأوهام والخيالات ولا يفهمون سوى لغه العشق الطائش، فلا يفهمون لسان العلم والمنطق الذى يحدثهم به الآخرون.

وبالطبع فان جذبه هذا العشق غالباً ما تطفىء بالمجامعه!

آنذاك تطرح الحجب فيلتفت إلى الواقع. وكان هذا العاشق قد نهض من سبات عميق ليتبدل لديه ذلك العشق إلى نفره ومقت، وذلك لأنه يرى نفسه قد فقد كل شيء مقابل ذلك المعشوق؛ الأمر الذي يقود بالتالي إلى الفضيحة والخزى.

الفضيحة التي لا يمكن تلافيها بعد يقظته.

وبالطبع فإن أغلب حالات الانفصال والانتحار إنما تفرزه هذه الحالة من العشق لعمق الهوه بين الخيال والواقع.

ولا تقتصر هذه النتائج المريره على العشق الجنسي، بل تترتب نفسها على عشق المال والمقام والجاه والجلال المادى.

ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه فقال عليه السلام: «قلوب خلت عن ذكر الله، فأذاقها الله حب غيره» (١).

وورد فى حديث عن على عليه السلام فى عجز العاشق عن رؤيه الحقائق إذ قال: «عين المحب عميه عن معايب المحبوب، وأذنه صماء عن قبح مساويه» (٢).

وإلى هذا العشق المجازى أشار الحديث النبوى الشريف: «من عشق فعف ثم مات، مات شهيداً» (٣).

كما قال صلى الله عليه وآله: «من عشق وكرم وعف وصبر، غفر الله له، وأدخله الجنة» (٤).

وعلى العكس من ذلك فى العشق الحقيقى والمقدس فإن روح الإنسان تعيش حاله من الصفاء والنور، فلا يرى سوى معشوقه الحقيقى مظهر الكمال المطلق، فيتحمل فى سبيله كافة الشدائد. فقد ورد فى الحديث القدسى: «إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بى جعلت بغيته ولذته فى ذكرى، فإذا جعلت بغيته ولذته فى ذكرى، عشقنى وعشقتة، فإذا عشقنى رفعت الحجاب فيما بينى وبينه» (٥).

ص: ٣٧٠

١- ١) بحار الانوار ٧٠/١٥٨. [١]

٢- ٢) غرر الحكم، ٦٣١٤. [٢]

٣- ٣) كنز العمال، ٦٩٩٩.

٤- ٤) كنز العمال، ٧٠٠٢.

٥- ٥) كنز العمال ١/٤٣٣، ح ١٧٧٢.

وما مناجاه أمير المؤمنين عليه السلام بالاسحار ودعاء الصباح ودعاء كميل وتضرع الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفه في تلك الصحراء والمناجاة الخمس عشره للإمام السجاد عليه السلام التي وردت في الصحيفة السجادية ودعاء الندبه الذي يلهج به لسان المنتظر لظهور إمام العصر والزمان عليه السلام الامعطيّات وآثار هذا العشق الطاهر. وعليه يتضح ممّا مر معنا أنّ الذم الذي أوردته بعض العلماء لمفرده العشق وتلك الحساسيه التي ابدوها تجاهه إنّما مرادهم العشق الملوّث المشوب بالخطيئه، وإلّا فالعشق المقدس من أعظم القوى المحرّكه للإنسان والتي تدفع به نحو الله سبحانه والقيم والمثل الإنسانيه النبيله، ويخطيء كل من يتصور خلو كلمات المعصومين عليهم السلام من هذه المفرده التي كثرت في روايات النبي صلى الله عليه وآله وأئمه العصمه عليهم السلام.

ومن ذلك ما رواه المرحوم الكليني عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أفضل الناس من عشق العباده فعانقها، وأحبها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرغ لها» (١).

وورد في حديث آخر بشأن الصحابي الجليل سلمان: «إن الجنّه لأعشق لسلمان من سلمان للجنّه» (٢).

قال العلامة المجلسي في ذيل الحديث الأول العشق يعني الإفراط في الحب وقد تصوره يختص بالأمر الباطله دون حب الله، بينما تفيد هذه الروايه ليس الأمر كذلك، وإن إقتضى الإحتياط أن لانستعمل مفرده العاشق والمعشوق على الله.

عالم الآخره

ص: ٣٧١

١-١) الكافي ٢/٨٣، ح ٣، باب العباده. [١]

٢-٢) بحار الانوار ٢٢/٣٤١. [٢]

«اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَيِّئَةُ الْمَوْتِ وَحَسِيرَةُ الْقَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجًا، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَتَبَيَّنَ أَهْلُهُ يَنْظُرُ بِبَصِيرَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِدْحِهِ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيهِمْ أَفْنَى عُمْرِهِ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا، أَعْمَصَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَيَّرٍ حَاتِهَا وَمُسْتَتَبِهَا تَهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبَعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبَقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِعَيْرِهِ، وَالْعِبَاءُ عَلَى ظَهْرِهِ. وَالْمَرْءُ قَدْ غَلَقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعْصُ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَضَيَّحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمْرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَعْطِبُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانَهُ سَمْعُهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدُّ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ السِّنْتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ. ثُمَّ ازْدَادَ زَادَ الْمَوْتُ التَّيَاطُّبَ بِهِ، فَقَبِضَ بَصْرَهُ كَمَا قَبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لَا يُسْعِدُ بَاكِيًا، وَلَا يُجِيبُ دَاعِيًا. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَحَطِّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَأَنْقَطَعُوا عَنْ زُورَتِهِ» .

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام هنا إلى سكرات الموت بعبارات تهز أعماق الإنسان وتلفت انتباهه إلى

تلك الحقيقه: «اجتمعت عليهم سكره الموت وحسره الفوت» .

فالواقع هناك هجوم ثقيل على الإنسان وهو على أعتاب الموت: الأول هجوم سكرات الموت، وهو حاله تشبه السكر تحدث للإنسان حين يحل أجله، وقد تستولى أحياناً على عقله فتجعله يعيش حاله من الاضطراب والقلق العظيم.

والآخر حسره فقد ان كل شيء كان قد أجهد نفسه عمراً طويلاً من أجل الحصول عليه وعانى في سبيله الأمرين.

وهي أمور تعلق وشغف بها وكأنها أصبحت جزءاً من وجوده وكيانه، وإذا به يرى الآن أنه يودعها إلى غير رجعه، وهذا ما يضاعف من قلقه واضطرابه ثم خاض عليه السلام في شرح تفاصيل تلك السكرات، حيث تضعف حينها الأعضاء والجسد بعد أن يتغير لونها، ثم يدب فيها الموت بالتدرج، فيفصلها عن اللسان، والحال هو جالس بين أهله يراهم بعينه ويسمع كلامهم باذنه، وهو على سلامه من عقله: «ففترت لها أطرافهم، وتغيرت لها أطرافهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقته، وإنه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع باذنه، على صحه من عقله، وبقاء من لبه» .

فالذى يستفاد من هذه العبارات أنّ أول ما يتوقف عن العمل هو لسان الإنسان. اللسان الذى يعدّ أكبر سند للإنسان من أجل حل مشاكله، وبإلها من حسره وفاجعه أن يرى الإنسان بعينه ويسمع باذنه وهو على سلامه من عقله ولبه، لكنه لا يستطيع أن ينبس ببنت شفه فيلهج بما يريد. ذكر أحد شراح نهج البلاغه هنا مثالا من التوراه عن الموت حيث شبهته بالشجره ذات الأشواك التى تغوص فى جميع البدن، و يغرس كل شوكة فى عصب من عصبه فتمزقها جميعاً و تقضى عليه.

ثم واصل عليه السلام كلامه بشأن من هجم عليه سكره الموت فى أنه فاق من غفلته واستغرق فى التفكير فهو يفكر فيم أقصى عمره وذهب به أدراج الرياح وكيف أفنى دهره: «يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره» .

يتذكر هنا الأموال والثروات التى جمعها وقد أغمض عينيه عن الكيفيه التى جمعت بها

دون الاكتراث إلى الحلال والحرام والمحظور والممنوع: «ويتذكر أموالاً جمعها، أغمض (١) في مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشتبتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها» .

نعم فهو يفوق إلى نفسه وأول كابوس يقض مضجعه ويهيمن على كيانه هو كابوس أمواله؛ الأموال التي لم يفكر بالحلال والحرام في جمعها بعد أن أعماه حبّ الدنيا، أو أنه اعتمد بعض التوجيهات المشبوهة ليستحوذ على بعض الأشياء، والآن بعد أن رفع عنه الحجاب فهو يرى العبيء الثقيل الذي طال عاتقه متمثلاً بحق الله وحق الناس، والأنكى من ذلك عدم وجود سبيل إلى الفرار. ليس له من لسان لبيان هذه المشكله، وإن كان له من بيان، فليس هنالك من يسمع! ولو سمعه من حوله من قرابته ووارثيه اکتفوا بالقول (أنه ليهجر حيث فقد عقله وفكره) ليتمكنوا من مصادرته أمواله بسهولة.

وهذا هو البؤس الحقيقي في أن يشقى الإنسان بجمع هذه الأموال وتبقى عليه تبعاتها ومسؤوليتها، بينما يخلفها الآن إلى غيره ويفارقها إلى غير رجعه.

ومن هنا قال عليه السلام: «تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهنأ لغيره، والعب (٢) على ظهره، والمرء قد غلقت رهونه (٣) بها» .

يالها من مصيبه! أن يرى الإنسان كل هذه القصور الفخمه والأجهزه المتطوره والثياب الفاخره ووسائل الراحة الراقية والأموال الوفيره التي عانى ما عانى في الدنيا من أجل الحصول عليها وهو يهبها الان لقمه سائعه لمن وراءه! والأدهى من ذلك ذهب لذتها لغيره وبقيت تبعتها عليه.

وليت شعري ليس له الآن سوى الحسره والندم فلم تعد هناك من فرصه لتلافى ما فرط

ص: ٣٧٥

١- ١) «أغمض» من ماده «غمض» على وزن نبض اطباق الجفن على العين، ثم اطلق على كل تساهل وغفله.

٢- ٢) «العب» بمعنى الحمل والثقل.

٣- ٣) «رهون» جمع «رهن» حبس الشىء وهو عاده سند يسلم مقابل قرض لا يعاد مالم يسدد «والمرء قد غلقت رهونه بها» استحقتها مرتبتها وأعوزته القدره على تخليصها، كناية عن تعذر الخلاص.

منه وتدارك ما قصر فيه ولذلك قال عليه السلام: «فهو يعرض يده ندامه على ما أصحر له (١) عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره» .

وهنا يتذكر الحساد الذين واجهوه في حياته وحاولوا الاستيلاء على أمواله وثوراته ويسلبوه ملكيتها، إلا أنه حال دونهم بفكره وشطارته ولم يدعهم ينيلون منها، إذ ذاك تمنى حين هجم عليه الموت ألا يكون قد أخذها، وليتها صارت من نصيب من حسده وغبطه عليها: «ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه» .

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل الموت بعبارات تهز النفس وتوقظ الضمير، وكأنه يعيش تلك الحالة ويوشك أن يودع الدنيا الفانية: «فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه» .

فأخذت الأعضاء تموت الواحد بعد الآخر ولم يبق له من لسان ناطق أو أذن سامعه: «يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم، ولا يسمع رجوع كلامهم» أنهم يسعون لأن يرتبطوا به ولكن لم يعد هنالك من سبيل.

ثم قال عليه السلام: «ثم ازداد الموت التياطاً (٢) به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفه بين أهله، قد أو حشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكباً، ولا يجيب داعياً» .

ثم بلغ مرحلته الأخيرة: «ثم حملوه إلى مخط (٣) في الأرض، فأسلموه إلى عمله، وانقطعوا عن زورته (٤)» .

لقد ألفوه سنوات، كان يضحكون معه وربما لم يطيقوا بعده، أمّا الآن بعد أن حل الموت بساحته، فهم لم يعودوا يتحملوا الجلوس بقربه ولو لساعه، وكأنهم لم يألفوه وكانوا غرباء عنه.

تأمل: سكره الموت والاحتضار

ليست هناك من لحظة يتعرض فيها الإنسان لأعظم خطر طيله حياته وأبلغ وأوجع من لحظة الاحتضار فهى.

ص: ٣٧٦

١-١) «أصحر» برز في الصحراء، أى على ما ظهر له وانكشف من أمره.

٢-٢) «التياط» من ماده «ليط» على وزن ليل الالتصاق.

٣-٣) «مخط» الحفرة وتطلق على القبر، لأنهم يحظون ثم يحفرون.

٤-٤) «زوره» من ماده «الزياره» وجاءت بهذا المعنى.

لحظه انتهاء الامال والأمانى.

لحظه الاغماض عن كافه وسائل الحياه.

لحظه مفارقه الأهل والأقرباء والأصدقاء.

لحظه وداع الدنيا وما فيها.

وبالتالى لحظه الانتقال إلى عالم جديد ربما انطوى على كثير من المشاكل والمعضلات الخطيره.

وقد صور الإمام عليه السلام هذه اللحظات بصوره دقيقه متابعا الموت مرحله مرحله تملأ القلب رعبا وخشيه إذا ما تمثلها على حقيقتها.

فقد هدف الإمام عليه السلام إلى ايقاظ الإنسان من غفلته قبل أن يفيق فى اللحظه حين لا يجديه نفعاً، فيستعد لها ويهيى الزاد اللازم لها.

وهنا لاينبغى أن ننسى بأن أولياء الله والصالحين من العباد إنما يستقبلون الموت برحابه صدر وطلاقه وجه؛ وذلك لأنهم يرون الموت طفره نحو السعاده والخلود والحياه الابديه، وبعباره أخرى فإنّ سكرات الموت إنما تتوقف على أعمال الإنسان، وعليه فيمكن أن تكون من أخطر اللحظات وأصعبها، كما يمكن أن تكون من أجملها وأروعها.

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرُهُ، وَالْحَقُّ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءِ وَفَطَرَهَا، وَأَرْجَ الْأَرْضِ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَذَكَ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ وَمَخُوفِ سَيِّطَوْتِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعِيدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعِيدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسَائِلِهِمْ عَنِ حَفَايَا الْأَعْمِيَالِ وَحَبَايَا الْأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَأَنْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في مرحلة أخرى تواجه الإنسان، بعد أن أشار إلى دنيا الطالحين واللحظات المريرة التي يعيشونها آخر حياتهم حين الاحتضار. فقد تطرق عليه السلام هنا إلى القيامه والحساب ليكمل بحث مصير الإنسان ويكون عبره للاخرين، بهدف اليقظة والابتعاد عن الانحراف وسلوك الصراط المستقيم.

فقال عليه السلام: «حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريد من تجديده خلقه»، نعم فحياه الإنسان في هذه الدنيا ليست هدفاً غائياً، بل هي مقدمه لتلك الحياه الخالده في ذلك العالم الخالد.

«أَمَادَ (١) السَّمَاءِ وَفَطَرَهَا، وَ أَرْجَ (٢) الْأَرْضِ وَ أَرْجَفَهَا، (٣) وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَ نَسَفَهَا، (٤)»

ص: ٣٧٩

١- (١) «أَمَادَ» من ماده «ميد» الحركه والاضطراب.

٢- (٢) «أَرْجَ» من ماده «رَجَّ» على وزن «حَجَّ» ومعناها التحريك الشديد.

٣- (٣) «أَرْجَفَ» من ماده «رَجَفَ» على وزن «كشَفَ» بمعنى الاضطراب والاهتزاز الشديد، ومن هنا يطلق على الأخبار التي تثير الفتنة ب «الأراجيف» والتي تسبب الاضطرابات فى المجتمع.

٤- (٤) «نَسَفَ» من ماده «نَسَفَ» على وزن «حذَفَ» بمعنى وضع الحبوب التي يستفاد منها كماده غذائيه فى الغراب، وتحريكه أو يُذرى فى الهواء من أجل فصل الحبوب عن القشور. وهنا تأتى بمعنى تحطيم وتلاشى الجبال و بشكل شديد.

ودك (١) بعضها بعضا من هيبة جلالته ومخوف سطوته» .

حيث يقع انفجار عظيم فى السموات والأرض فيضنى عالم المادة تماماً فيظهر عليه عالم جديد، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك العالم كونه العالم الذى تقام عليه القيامة والحساب: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» .

(٢)

والواقع هو أن الإمام عليه السلام قد اقتبس هذه العبارة من الآية الشريفة: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَترَتْ» (٣).

كما قال بشأن الأرض: «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا» (٤).

وقال: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (٥)

ثم قال عليه السلام: «وأخرج من فيها، فجددهم بعد إخلاقهم جمعهم بعد تفرقهم» . (٦)

وهذه بدايه قيامه الإنسان، حيث يعود إلى حياه جديده يرد بها المحشر.

والعبارة «جددهم» إشاره واضحه إلى المعاد الجسماني واعاده بناء الإنسان وتكامله الجسمى فى المحشر.

والعبارة «وجمعهم بعد تفرقهم» ممكن أن تكون إشاره إلى تجمع الناس فى المحشر، أو جمع الذرات المتفرقه لكل إنسان من أجل تجديد حياته، ولا مانع أن تكون العبارة إشاره إلى كلا المعنيين.

ثم قال عليه السلام: «ثم مميزهم لما يريد من مسألتهم عن خفايا الأعمال، وخبايا الأفعال،

ص: ٣٨٠

١- ١) «دك» فى الاصل بمعنى تسويه الأرض، ومن هنا فان عمليه تسويه وتعديل الارض الغير المستويه يحتاج الى ان ندكها، ويستعمل هذا الاصطلاح فى موارد عديده بمعنى التحطيم الشديد.

٢- ٢) سورة ابراهيم/٤٨. [١]

٣- ٣) سورة الانفطار/١-٢. [٢]

٤- ٤) سورة الواقعة/٤-٦. [٣]

٥- ٥) سورة النازعات/٦-٧. [٤]

٦- ٦) «إخلاق» من ماده «خلق» على وزن شفق البلى.

وجعلهم فريقين: أنعم على هؤلاء وانتقم (١) من هؤلاء» .

والعبارة: «خبايا الأفعال، وخفايا الأعمال» يمكن أن يراد بها مطلب واحد، يعنى الأعمال الخفيه: كما يحتمل أن تكون «خفايا الاعمال» إشاره إلى الأعمال التى تتم فى الخفاء وان أتى بها وسط الناس، و «خبايا الأفعال» إشاره إلى الأعمال التى تتم فى الخلوات، لأنّ خبايا جمع خبيئه الشىء المخبوء.

على كل حال ليس هنالك من عمل من أعمالنا بخفى على الله، لأنّه حاضر فى كل مكان و العالم حاضر لديه.

ص: ٣٨١

١ - ١) «انتقم» من ماده «نقمه» على وزن نعمه تعنى فى الأصل الجزاء والعقاب، كما تأتي بمعنى الثأر المقرون بالعداء، الا انها وردت بالمعنى الأول فى الخطبه والاستعمالات القرآنيه.

«فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجَوَارِهِ، وَخَلَدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النَّزْلُ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحِيَالُ، وَلَا تُنَوِّبُهُمُ الْأَفْرَاعُ، وَلَا تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلَا تُشَخِّصُهُمُ الْأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ يَهْ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَعَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمَقَطَعَاتِ النَّيْرَانِ، فِي عَيْدَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلْبٌ وَلَجْبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا. لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيَقْضَى» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبه - الذى يمثل فى الواقع آخر مرحله سير الإنسان - إلى جانب من ثواب المحسنين وعقاب المسيئين فقال: «فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره، وخلدهم فى داره» .

ثم تحدث عليه السلام عن خصائص تلك الدار بعبارات قصار بعيده المعنى «حيث لا يظعن (١) النزال، ولا- تتغير بهم الحال» . وإلى جانب ذلك فلا- من خوف ولا مرض ولا خطر ولا سفر يخرج من الديار «ولا تنوبهم الأفراع (٢)، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار ولا تشخصهم (٣) الأسفار» .

ص: ٣٨٣

١- ١) «يظعن» من ماده «ظعن» السفر.

٢- ٢) «أفراع» جمع «فراع» الخوف.

٣- ٣) «تشخص» من ماده «إشخاص» الاخراج من منزل إلى آخر.

وعليه فالحوادث المزعجه والعوارض المقلقه التى تصدع باستمرار هدوء الإنسان فى الحياه الدنيا، لا- وجود لها فى الآخـره، والإنسان فى راحه تامه هناك نعم بالسكينه والاستقرار والحياه المملوءه بالفرح والسرور، فليس هنالك من خطر يهدده، ولامرض ولا عوامل طبيعـيه مرعبه من قبيل السيول والزلازل والقحط وسائر الحوادث الاجتماعيه التى تدعوا إلى النزاع والحرب فتهدد أمنه.

والفارق بين العبارة «لا يظعن النزال» والعبارة «ولا تشخصهم الأسفار» فى أنّ الاولى إشاره إلى السفر الاضطرارى الذى قد يجبر عليه الإنسان فى الدنيا أحياناً فيترك وطنه بالمره، والثانيه إشاره إلى الأسفار التى يضطر لها الإنسان فى الدنيا بهدف تلبية حاجاته ومتطلباته فيتحمل المشاق والمصاعب، وليس هنالك أى من هذين السفرين فى الدار الآخـره.

نعم فالحياه الدنيا مهما كانت مريحه مفعمه بالنعم إلا أنّها ليست حلوه مرجوه بسبب تلك الآفات والعوارض؛ بينما حلوه هى الدار الآخـره لخلوها من هذه الآفات والعوارض.

وهنا قد يقتدح إلى الأذهان هذا السؤال اننا لندرك قيمه النعمه حين نفقدها والصحه والعافيه والسلامه حين السقم والمرض، وما لم نر ظلمه الليل فلا نقف على أهميه شعاع الشمس فى النهار، أفلا يغيب عن الإنسان إدراك لذه تلك النعم إذا لم تطرأ عليها الحوادث المذكوره؟

وللإجابـه على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى نقطتين: الاولى أنّ نعم الآخـره فى حاله تغيير، أى هناك نعمه تستبدل بأخرى على الدوام، وكل يوم يفاض عليهم نعم جديده، ومن شأن هذا التغيير أن يقضى على حاله الرتابه. والثانيه ما يجعل نعم الدنيا مريره هو أنّها محفوفه بالاطـار، والذى يورق الإنسان هو عدم انفكاكه عن التفكير فى سلبها وزوالها، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدم وجود هذه الأمور فى نعم الآخـره.

فقد ورد على لسان أهل الجنّه حين حمدهم لله وثنائهم عليه: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا

فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» (١).

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل أهل المعصية وما يتعرضون له من مشقه «وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار، وغل الأيدي إلى الاعناق، وقرن النواصي بالأقدام» .

والعبارات إشاره إلى ما صرح به القرآن الكريم: «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (٢).

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «وألبسهم سراويل القطران، ومقطعات النيران، في عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله، في نار لها كلب (٣) ولجب (٤)، ولهب ساطع، وقصيف (٥) هائل» .

فالعبارات تفيد شده حراره نار جهنم المحرقه، حيث تتصاعد السنتها إلى عنان السماء مصحوبه بالأصوات المرعبه.

ثم قال عليه السلام: «لا يظعن مقيمها، ولا يفادى أسيرها، ولا تفصم (٦) كبولها (٧) لا مده للدار فتفتنى، ولا أجل للقوم فيقضى» .

ولو تصور الإنسان في ذهنه لحظه هذا العذاب الشديد والمرعب، لما قارف الذنب، وهذا هو هدف الإمام عليه السلام من شرح هذا العذاب!

وقد أكدت الروايات الإسلامية التمعن في الآيات القرآنيه التي تتحدث عن الثواب، والتوقف عند تلك التي تتحدث عن العذاب.

ص: ٣٨٥

١-١ (١) سورة فاطر/٣٤ - ٣٥. [١]

٢-٢ (٢) سورة غافر/٧١ - ٧٢. [٢]

٣-٣ (٣) «كلب» من ماده «كَلَبَ» على وزن «جلب» وفي الاصل بمعنى الضغظ على الحصان بواسطه المهماز و ذلك لكى يُسرع فى عدوه، وهذا الاصطلاح يستعمل لأى نوع من أنواع الشده.

٤-٤ (٤) «لجب» له معنى المصدر واسم المصدر الصوت المرتفع.

٥-٥ (٥) «قصيف» أشد الصوت.

٦-٦ (٦) «تفصم» من ماده «فصم» على وزن نظم كسر الشىء دون فصله، وتعنى القطع.

٧-٧ (٧) «كبول» جمع «كبل» القيد.

وهو ذات الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى الخطبه ٩٣ وهو يصف المتقين: «فاذا مروا بآيه فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم» .

تأمل: أسلوب الهدايه

حقاً أنه لاسلوب عظيم فى هدايه الإنسان ونجاته هذا الذى اعتمده الإمام عليه السلام بهذه العبارات التى تختزن الآثار والتحذير. فقد الستهل الخطبه بالإشاره إلى صفات الجمال والجلال وقدرته العظيمه سبحانه وعلمه المطلق بكل شىء مما يصدر من العباد إلى جانب عظمه عالم الوجود.

ثم تحدث عليه السلام عن خلق أصناف الملائكه وعبادتها وطاعتها، ليبين زهاده عباده الإنسان بالنسبه لتلك العباده.

آنذاك تطرق عليه السلام إلى خلق الإنسان ونعمه الجمه سبحانه، ثم ذم بشده طلاب الدنيا، محذراً إيّاهم من التعلق بهذه النعم الزائله.

كما تحدث عليه السلام عن الموت وانتهاء الحياه وسكرات الموت ومدعى الحسره والندم التى يشعر بها الاثم على أعتاب الموت، حتى رسم صورته يهتز لها القلب ويتيقظ لها الوجدان، وتفيق لها الأرواح الميته.

وأخيراً إختتم عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى الثواب الذى ينتظر الصالحين والعقاب الذى ينتظر المسيئين، ليلتفت كل إنسان إلى نفسه ويراقب عمله.

نعم فقد خط هذا الطيب الروحى العظيم وصفه لمرضى القلوب لاتحمل لهم سوى العلاج إن إلتزموا بالعمل بها.

إشاره

ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله

«قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَيَّرَهَا وَهَوَّنَهَا وَوَهَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوَاهِيَا، عَنْهُ اخْتِيَارًا، وَبَسَّطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَارًا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيْبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَامًا. بَلَغَ عَنِ رَبِّهِ مُعْذِرًا، وَنَصَحَ لَأَمْنِهِ مُنْذِرًا، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّرًا، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحْذِرًا» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا فى صفات النبى صلى الله عليه وآله ورغبته عن هذه الدنيا لتكون سيرته قدوة تامه للأمة، و ليبين كيف يستطيع الإنسان أن يعيش الأمان من أخطار الدنيا فى ظل الإيمان و العمل الصالح فقال عليه السلام: «قد حقر الدنيا وصغرها، وأهون بها وهونها» .

فالعباره إشاره واضحه إلى زهده صلى الله عليه وآله: لأن من يحقر الدنيا ويوصى الآخرين باحتقارها، قطعاً ليس له أدنى تعلق بها، وذلك لأن الشئ الحقيق والتافه ليس له قيمه فى استقطاب القلب والسيطره على العقل.

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بالقول: «وعلم أن الله زواها (١) عنه اختياراً (٢)، وبسطها لغيره احتقاراً» . والعباره شبيهه ماورد فى الآيه الشريفه من سوره الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ

ص: ٣٨٧

١- (١) «زوى» من ماده «زى» على وزن طى الجمع والفيض والابعاد.

٢- (٢) «اختيار» بمعنى الانتخاب والاصطفاء والاعتزاز ضد «الاحتقار» .

أُمَّهُ وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ*
وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذِي لِكْلِ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ». (١)

ثم واصل عليه السلام كلامه عن النبي صلى الله عليه وآله: «فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها ريشاً، أو يرجو فيها مقاماً» .

ورد الرياش بمعنى المفرد والجمع وهو اللباس الفاخر، وأصلها الريش، ويمكن أن يراد به جميع زينه الدنيا ومنها اللباس الفاخر.

فأول مزيه لرسول الله صلى الله عليه وآله عدم اغتراره بزخرف الدنيا وزينتها فلم يقع في مخالبتها قط.

المزیه الأخرى للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله تكمن في وظيفته بتبليغ الرساله وايصال أوامر الله ونواهيهِ إلى جميع العباد، وقد استفرغ وسعه في هذا السبيل، حيث قال عليه السلام: «بلغ عن ربّه معذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنّه مبشراً، وخوف من النار محذراً» .

قطعاً لو فشل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في المرحلة الأولى في كيفية التعامل مع الدنيا واغتر بنعمها ولذاتها، لما تمكن قط من القيام بالمرحلة الثانية في ابلاغ الرساله السماويه، فأين إساره النفس في الدنيا من ابلاغ الرساله.

ورد في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: «يا موسى إنّ الدنيا دار عقوبه عاقبت فيها آدم عند خطيئته، وجعلتها ملعونه، ملعون ما فيها إلّما كان لى. يا موسى إنّ عبادى الصالحين زهدوا فى الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم». (٢)

تأمل: الشرط الاصلى فى الزعامه

إنّ أعظم مشكله تهدد القاده والزعماء إنّما تمكن فى تهافتهم على ماديّات الدنيا؛ الأمر الذى يؤدى إلى تقديمهم الأفراد السيئين على الصالحين بدافع من حفظ منافعهم ومصالحهم الماديه،

ص: ٣٨٨

(١-١) سورة الزخرف/٣٣ - ٣٥. [١]

(٢-٢) الكافي ٢/٣١٧ ح ٩. [٢]

إلى جانب إثارهم للظلم والجور على العدل والقسط لذات الهدف.

إنهم يعتمدون المنافع المادية كمعايير في تعاملهم مع كل شيء فيضحون بالمبادئ الإلهية والعقلانية والإنسانية من أجل تحقيق منافعهم الدنيوية الرخيصة.

ومن هنا كان أول أمر أكده الإمام عليه السلام في إطار وصفه للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هو عدم اعتناؤه بالدنيا وتصغيرها وتحقيرها، مما جعله لا يكثر لجمع ما فيها، ويمحوها من ذاكرته.

وقد صرح القرآن الكريم مراراً بشأن الأنبياء ولاسيما نبي الرحمة صلى الله عليه وآله أنهم لا يسألون الناس أجراً على ابلاغ الرسالة، وكانت معيشتهم في الدنيا معيشة المستضعفين وهذا ما جعلهم يجرون الحق ويقيمون العدل بحق الجميع ولا يخشون سطوه ظالم ولا يحسبون حساباً لأصحاب المال والثراء.

فضريبه الحياه المرفهه با هضه لاتتأتى إلّا من خلال مماشاه أصحاب الثراء ومداهنتهم؛ الأمر الذى يهدد بالصميم الحق والعدل والإداره الصالحه الطاهره.

وقد بلغ من زهد رسول الله صلى الله عليه وآله وانصرافه عن الدنيا أنه كان يجلس على الحصير ويتوسد الليف حتى أثر في بدنه الطاهر، ولما قيل له هذا كسرى وقيصر يجلسان على الحرير والديباج وانت تجلس على الحصير. ردّ رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما مثل الدنيا كمثل راكب مر على شجره ولها فيء فاستظل تحتها، فلما أن مال الظل عنها ارتحل فذهب وتركها» (١).

ص: ٣٨٩

«نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبِيِّ، وَمَحِطُّ الرَّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ، نَاصِرَةٌ نَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ وَعِيدُونَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ» .

الشرح والتفسير

اختتم الإمام عليه السلام خطبته بعد ذكر أوصاف النبي صلى الله عليه وآله بالحديث عن صفات أهل البيت عليه السلام وقد بلغ بالفصاحة والبلاغه ذروتها بهذا الختام الحسن فقال: «نحن شجرة النبوه، ومحط الرساله، ومختلف (1) الملائكه، ومعادن العلم، وينابيع الحكم» .

فالتعبير بالشجره يفيد أنّ النبوه كالشجره المثمره التي لها فروع وأغصان مختلفه، جذرها وساقها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأوراقها أولاده، وثمرتها هدايه الناس إلى الله.

وشبه عليه السلام أهل البيت في العبارة الثانيه بالموضع الذي تهبط فيه الرساله من جانب الله سبحانه، كما وصفهم في العبارة الثالثه بالموضع الذي تختلف إليه الملائكه في صعودها ونزولها. على عليه السلام وولده ممن تربوا في هذه الاسره ليستضيوا بنور الوحي.

ولعل المراد بالملائكه هنا ملائكه الوحي (جبرئيل ومن معه) الذين كانوا يهبطون على رسول الله صلى الله عليه وآله، أو أنّها إشاره إلى المعنى الأعم فيشمل جميع الملائكه الذين يختلفون عليهم للخدمه والبشاره وأمثال ذلك، على كل حال فليس المراد أنّ الوحي كان ينزل على غير رسول الله صلى الله عليه وآله.

ص: ٣٩١

١ - ١) «مختلف» من ماده «اختلاف» وتأتى هنا بمعنى الذهاب والإياب، ومن هنا فان كلمه «مُخْتَلَفٌ» تعنى هنا محل الذهاب والإياب.

والفارق بين شجره النبوه ومحط الرساله أنّ للنبي صلى الله عليه وآله مقامان: مقام النبوه وهو الأخبار عن الله ومقام الرساله وهو ابلاغها. وبعبارة أخرى فان النبي صلى الله عليه وآله مأمور بالابلاغ، والرساله تقتزن عاده بالإمامه والزعامه والإجراء.

والمراد بمعادن العلم أئمه أهل البيت عليهم السلام ورثه علوم النبي صلى الله عليه وآله وحفظه الكتاب والسنة.

فقد قيل في سبب نزول الآية الشريفه: «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» (١).

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سألت ربّي أن يجعلها أذن علي. ثم قال علي عليه السلام: «ما سمعت من رسول الله شيئاً فنسيته» (٢).

وكذلك الحديث: «علي مع القرآن، والقرآن مع علي» (٣).

والحديث: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» (٤).

وهكذا سائر الأحاديث المعروفة التي روتها كتب الفريقين، تفيد بأجمعها كون أهل البيت معادن العلم والحكمه.

والفارق بين معادن وينابيع هو أنّ المعدن الشيء الذي يقصده الناس وينتفعون به، أمّا الينابيع ما يفيض على الناس.

ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول: «ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمه، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوه» (٥).

طبعاً لا تعنى هذه العبارة أنّ لهم حقاً مثل هذا الانتظار، بل تعنى أنّهم لابد أن ينتظروا مثل هذه العاقبه المشؤومه، فالواقع أنّه نوع من التهديد بالعذاب الإلهي في الدنيا والآخرة.

ص: ٣٩٢

١-١ (١) سورة الحاقه/١٢. [١]

٢-٢ (٢) راجع نفحات القرآن ٩/٣٥٩؛ [٢] بحار الانوار ٣٥/٣٢٦-٣٣١. [٣]

٣-٣ (٣) الغدير ٣/١٧٨ و ١٨٠.

٤-٤ (٤) الغدير ٦/٦١-٨٠.

٥-٥ (٥) «سطوه» الوثوب على الشخص وقهره، ولما كان من لوازم ذلك العقاب، فقد وردت بهذا المعنى في العبارة.

ومن خطبه له عليه السلام

فى أركان الدين

نظره إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه فى الواقع من قسمين: القسم الأول: الذى تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى أفضل ما تقرب به العباد إلى الله من قبيل الإيمان والجهاد والاخلاص والصلاه والزكاه، ثم ذكر فلسفه كل شعيره من هذه الشعائر بعبارة قصيره عميقه المعنى.

القسم الثانى: بيان الأبعاد العمليه للإيمان وطرق بلوغها والوصيه بذكر الله والافتداء بهدى النبى صلى الله عليه وآله واتباع سنته والاهتمام بتعلم القرآن وفهم آياته.

ثم اختتم عليه السلام الخطبه بالذم الشديد للعالم بلا عمل وشده عقابه.

ص: ٣٩٣

١ - ١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه بدايه الخطبه «الحمد لله فاطر الخلق وخالق الأشباح» وهى خطبه معروفه مشهوره تعرف بخطبه الديباج. رواها قبل السيد الرضى (ره) المرحوم الصدوق فى كتاب من لا يحضره الفقيه (١/١٣١) بتفاوت وفى علل الشرايع، كما وردت فى تحف العقول وفى كتاب المحاسن (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٣٨) إلما أن الخطبه فى تحف العقول بدأت «الحمد لله فاطر الخلق، وخالق الاصباح» ثم اورد الخطبه وذكرانها تعرف بخطبه الديباج. (تحف العقول، ١٠٤ - ١٠٧).

إشارة

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةٌ الْإِسْلَامِ؛ وَكَلِمَةُ الْإِحْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ؛ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمَلَّةُ؛ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ؛ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ؛ وَحُجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحِضَانِ الدَّنْبَ، وَصَلْمَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ؛ وَصِدْقَةُ السَّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ؛ وَصِدْقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ الشُّوْءِ؛ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن أفضل الأعمال التي يؤديها سالكي طريق العبودية ودعاه الحق للتقرب إلى الله فقال عليه السلام: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ (١) إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ» .

وكان هذه العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» (٢). إلى جانب شرحها و تفسيرها، فقد أمر الله سبحانه في هذه الآية بالتقوى ومن ثم انتخاب الوسيلة إلى الله.

وعلى هذا فالمراد بالوسيلة الإيمان والجهاد وسائر الأمور الواردة في هذه الخطبة وليس

ص: ٣٩٥

١- (١) «متوسلون» من ماده «وسيله» بلوغ الشيء مع الميل والرغبة.

٢- (٢) سورة المائدة/٣٥. [١]

هناك من منافاه بين هذا الكلام والتفسير الآخر الذى عنى الوسيله هنا بشفاعه أولياء الله؛ لأنّ كل هذه الوسائل يمكن جمعها فى الآيه الشريفه.

على كل حال فإنّ الوسيله الاولى التى ذكرت هى الإيمان؛ الإيمان بالله والنبي، لأنّ الإيمان أساس الحركه البناء والفاعله.

الطريف فى كلام الإمام عليه السلام أنّه تطرق فى كل نقطه دليلها بصيغه تعليل وفلسفه لكافه الواجبات العشر الوارده فى العبارة، سوى مسأله الإيمان بالله والنبي. وذلك لأنّ هذه المسأله غنيه عن ذكر الدليل، وعبارة أخرى فإنّ أساس الصالحات والخيرات واعمال البر إنّما يكمن فى الإيمان، وبدونه ليس هنالك من حركه نحو الفرائض الإلهيه والواجبات الدينيه. فالأمر على درجه من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل.

ثم أشار عليه السلام إلى الواجب الثانى: «والجهاد فى سبيله، فانه ذروه (١)الإسلام» وللجهاد هنا معنى واسع يشمل الجهاد العلمى والإعلامى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكافه الجهود والمساعى البناء من أجل النهوض بالاهداف الإسلاميه وحتى جهاد النفس، إلى جانب الجهاد العسكرى والمقاومه ضد العدو.

والعبارة «ذروه الإسلام» تفيد عدم جدوى الجهاد ما لم يكن عاماً شاملاً. وقد قال الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغه بشأن فلسفه الأحكام ومنها الجهاد: «والجهاد عن للإسلام» (٢).

ورغم سعى إعداء الإسلام إلى استغلال مفرده الجهاد الإسلامى واساءه تفسيرها من خلال وصفها بالعنف إلّا أنّهم يغفلون عن المعنى الواقعى للجهاد الذى يتمثل بالصمود من أجل الحياه ومقاومه العناصر الهدامه؛ وهو الأمر الذى أودع طبيعه كل إنسان.

فالحق أنّ الحياه لتتعذر علينا ولو ضعفت الخلايا ليوم واحد كتلك التى ركبت فى بدن الإنسان وتقوم بوظيفتها فى الدفاع عنه ومهاجمه المكروبات والجراثيم التى تحاول اختراق البدن، وما المرض الخطير الذى يصطلىح عليه بالايديز إلّا اختلال القوى الدفاعيه للبدن. فالمجتمع الذى يتخلى عن الجهاد إنّما يكون كهذا المريض المصاب بالايديز، فيصبح مسرحاً

ص: ٣٩٦

١- ١) «ذروه» على وزن قبله أعلى الشىء.

٢- ٢) نهج البلاغه، الحكمة ٢٥٢. [١]

لهجوم أنواع المشاكل والمعضلات.

وبالطبع أن أولئك الذين صوبوا سهام حقدهم نحو الجهاد الإسلامى، ليعلمون جيداً أنّ التسلط على المسلمين متعذر مادام هذا الأصل المتمثل بالجهاد نابض بالحياه، فلو حذف الجهاد بحجه العنف، لم تعد هنالك من مشكله أمام تسلط الاعداء.

على كل حال فان ذكر الإمام عليه السلام للجهاد كواجب بعد الإيمان بالله والنبي يفيد موت الدين فى حاله غياب هذا الواجب.

فقد ورد فى حديث عن على عليه السلام: «والله ما صلحت دنيا ولا دين إلاّ به» (١).

ثم ذكر عليه السلام الواجب الثالث «وكلمه الاخلاص فانها الفطره» .

والمراد بكلمه الاخلاص «لا إله إلاّ الله» التى تتضمن الشهاده لله بالوحدانيه والعبوديه ونفى الشرك والوثنيه.

وتفيد بعض الروايات أنّ للاخلاص بعد عملى يتمثل بالاقبال على الحق سبحانه والأغماض عما سواه إلى جانب التحفظ عن ارتكاب الذنب والمعصيه. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قال لا إلاّ الله عما حرم الله» (٢).

ومن الواضح أنّ من يقارف الذنوب أو ينقاد للشيطان أو الأهواء فأنّه مشرك فى عمله، وهذا ما يتناقض وحقيقه الأخلاص.

ثم قال عليه السلام: «واقام الصلاه فأنها المله» ، والمله هنا تعنى الدين، أمّا أنّ الصلاه لم تعد جزءاً من الدين بل الدين كله، وذلك لأنّ الصلاه الدعامة الأساسيه للدين. فقد جاء فى الحديث النبوى المعروف أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الصلاه عماد الدين، فمن ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه» (٣).

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مثل الصلاه مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنّب، ولا وتد ولا غشاء» (٤).

ثم قال عليه السلام: «وايتاء الزكاه فانها فريضه واجبه» .

ص: ٣٩٧

١-١) وسائل الشيعه ١/٩.

٢-٢) بحار الانوار ٨/٣٥٩. [١]

٣-٣) جامع الأخبار ([٢] طبق نقل بحار الانوار ٧٩/٢٠٢). [٣]

٤-٤) منهاج البراعه ٧/٣٩٨ وبحار الانوار ٧٩/٢١٨. [٤]

تطلق الفريضة عادة على الواجب، وبناءً على ذلك فإن ذكر الواجب بعدها للتأكيد، إلّا أنّ للفريضة معنى آخر أنسب لموضع بحثنا، وهو قطع وفصل الشيء، وهنا قسم من المال الذى يفصل لهدف.

أو بعبارة أخرى الضريبة التى فرضت لمساعدته الضعفاء فى المجتمع وتأمين بعض تكاليف الحكومه الإسلاميه.

وقد ورد فى القرآن بشأن أسهم الإرث: «نَصِيبًا مَّفْرُوضًا» (١).

ومن هنا عبر العلماء الاعلام فى مباحث الإرث بكتاب الفرائض بدلاً من كتاب الارث.

على كل حال فإنّ مسأله الزكاه من أهم أركان الإسلام بعد الصلاه.

وقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان فى مسجده فنادى خمسه أشخاص وقال: «لاتصلوا فيه وانتم لا تزكون» (٢).

ثم قال عليه السلام: «وصوم شهر رمضان فأنّه جنّه من العقاب» .

ورد التعبير هنا «جنّه من العقاب» بينما وردت العبارة فى الحديث المعروف «جنّه من النار» (٣).

ويكفى فى فضل الصوم أنّه يخرج الإنسان من البهيميه إلى عالم الملائكه ويجلسه على بساط القرب الإلهي.

ثم بين الركن السابع من أركان الإسلام فقال: «وحج البيت واعتماره فأنهما ينفيان الفقر ويرحضان (٤) الذنب» .

لاشك أنّ لزياره بيت الله بركات ماديه وأخرى معنويه وروحانيه، وقد أشير إليهما هنا، وقد وردت خلاصه ذلك فى الآيه الشريفه ٢٨ من سورالحج: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» وقد ورد فى الحديث «يخرج من ذنوبه كهيثه يوم ولدته أمه» (٥) أما تأثيره فى ازالة الفقر - علاوه على بركاته المعنويه - فذلك أنّ المسلمين يستطيعون أن يقيموا الاسواق الاقتصاديه إلى

ص: ٣٩٨

١-١ (١) سورة النساء/٧. [١]

٢-٢ (٢) شرح نهج البلاغه للمرحوم الشوشترى ١٣/١٠٢. [٢]

٣-٣ (٣) الكافى ٤/٦٢ ح ١.

٤-٤ (٤) «يرحضان» من ماده «رحض» على وزن محض الغسل، إشاره إلى أنّ الحج والعمره يغسلان الذنوب.

٥-٥ (٥) بحار الانوار ٦٩/٢٦. [٣]

جانب مراسم الحج من أجل ممارسه الانشطه والمبادلات التجاربه بحيث بديرون نوعاً من التجاره العالميه فيما بينهم، فقد كان هناك مثل هذه الأسواق البدائيه على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله.

ولو جد المسلمون اليوم فى تقويه بناهم الاقتصاديه لتمكنوا حقاً من سد حاجات الفقراء والمعوزين. ومن هنا ورد فى حديث الإمام الصادق عليه السلام: «ما رأيت شيئاً أسرع عنى ولا أنفى للفقير من إدمان حج البيت» (١).

ثم قال عليه السلام فى بيان الركن الثامن: «وصله الرحم فأنها مثراه (٢) فى المال ومنسأه (٣) فى الأجل».

فصله الرحم واضافه إلى تأثيرها فى ازدياد المال تؤدي إلى نماء العمر وزيادته، ولعل ذلك لدعاء الأرحام بعضهم لبعض، إلى جانب معونه بعضهم البعض فى الأمراض؛ الأمر الذى يؤدي إلى طول العمر، ناهيك عن تقليلها من الهم والغم والحزن.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «صله الأرحام تزكى الأعمال، وتنمى الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسىء فى الأجل» (٤).

ثم قال عليه السلام فى الركن التاسع من أركان الإسلام: «وصدقه السر فأنها تكفر الخطيئه، وصدقه العلانيه فأنها تدفع ميتة السوء» ، المراد بصدقه السر المساعدات التى يقدمها الإنسان إلى الأفراد المحتاجين والمحترمين بدافع من نيه خالصه إلى جانب السعى لحفظ ماء وجههم، ومن هنا كانت بركاتها جمه، والعباره تشمل الصدقات الواجبه كالكفارات والندورات والصدقات المتجه والانفاقات. والمراد بصدقه العلانيه، المعونه الظاهره ومن بركاتها تشجيع الاخرين على أفعال الخير. والعباره اقتباس من الآيه الشريفه: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٥).

ص: ٣٩٩

١-١) بحار الانوار ٤٠٦/٤٦٦. [١]

٢-٢) «مترأه» من ماده «ثرى» و «ثروه» وتعنى الزياده، وعلى هذا الاساس، يقال للمال الكثير «الثروه» و «مترأه» مصدر ميمى بمعنى اسم فاعل و يعنى سبب الزياده.

٣-٣) «منسأه» من ماده «نساء» على وزن نسخ بمعنى التأخير، ومنسأه: مصدر ميمى بمعنى اسم فاعل يعنى سبب التأخير. ويقال للعصا «المنسأه» لانها تستعمل لازاله الاشياء الضاره التى تعترضنا أثناء السير.

٤-٤) الكافى ٢/١٥٠. [٢]

٥-٥) سوره البقره/٢٧٤. [٣]

وتفيد روايات الفريقين أنها نزلت في علي عليه السلام حين كان له أربعة دراهم انفق واحد منها في النهار وآخر في الليل وآخر سراً وآخر علانية. (١)

طبعاً تطلق الصدقة في الفقه الإسلامي على ما يعطى للفقراء بقصد القربى إلى الله، إلا أن للصدقة مفهوم واسع يشمل كل عمل خير اجتماعي كبناء المساجد والمدارس والطريق والمستشفيات والأعمال الثقافية، ومن هنا جاء في روايه الإمام الكاظم عليه السلام: «عونك للضعيف من أفضل الصدقة» (٢) ولا شك أن بناء المستشفيات والمدارس وأمثال ذلك مصداق لعون الضعيف. وورد في الحديث النبوي: «كل معروف صدقة» (٣).

وورد عنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «الكلمه الطيبه صدقه» (٤).

وقال الصادق عليه السلام: «إسماع الاصم من غير تزجر صدقه هنئه» (٥).

ونختم هذا الكلام بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في أنه قال: على المسلم أن يتصدق كل يوم. فقال رجل: لانقدر كلنا على ذلك.

فقال صلى الله عليه وآله: «إماتتك الاذى عن الطريق صدقه، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقه، وعيادتك المريض صدقه، وأمرك بالمعروف صدقه، ونهيك عن المنكر صدقه» (٦).

والمراد بميتهه السوء، الموت تحت التعذيب والالام، كالا حتراق في النار، أو أثر الاصابه بمرض خطير شاق وحوادث الطريق.

ثم قال في الركن العاشر من أركان الإسلام: «وصنائع (٧) المعروف فأنها تقى مصارع (٨) الهوان» .

ص: ٤٠٠

١- ١) احقاق الحق ٣/٢٤٦-٢٥١. [١]

٢- ٢) تحف العقول، الكلمات القصار للإمام الكاظم عليه السلام.

٣- ٣) الخصال ١/١٣٤.

٤- ٤) بحار الانوار ٨٠/٣٦٩. [٢]

٥- ٥) بحار الانوار ٧١/٣٨٨. [٣]

٦- ٦) بحار الانوار ٧٢/٥٠ ح ٤. [٤]

٧- ٧) «صنائع» من ماده «صنع» على وزن «فعل» بمعنى صناعه الشيء وابداعه. وفي لغة العرب يقال للاعمال الجيده والحسنه «الصنائع» وهو جمع «صنيعه». «نقل من المعجم الوسيط» .

٨- ٨) «مصارع» جمع «مصرع» بمعنى السقوط على الارض، ويطلق لمحل القتل بالمصرع، ويقال للمصراع بين طرفين «المصارعه» لان كل طرف من هذين الطرفين يحاول أن يطرح الآخر أرضاً.

والعبارة بصنائع المعروف تشمل كل عمل صالح، من قبيل ذكر العام بعد الخاص، كما يحتمل أن يكون المراد بصنائع المعروف مساعده عباد الله.

وقد وردت عن الأئمة عليه السلام عدة روايات أكدت مسأله صنائع المعروف، منها ماورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أول من يدخل الجنة أهل المعروف» (١)، وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام: «عليك بصنائع المعروف فانها نعم الزاد إلى المعاد» (٢).

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه كان يحث أصحابه على صنائع المعروف ويقول: إن للجنة باب اسمه المعروف لا يدخله إلا من كان يصنع المعروف في الدنيا، ثم قال: «إن العبد ليمشى في حابه أخيه المؤمن، فيوكل على الله عزوجل به ملكين واحداً عن يمينه، وواحداً عن شماله، يستغفرون له ربّه ويدعوان بقضاء حاجته» (٣).

فلسفه الأحكام

غالبا ما يعمد الاطباء المهرة إلى تنبيه مرضاهم إلى الآثار المهمة للأدوية والأطعمه المقويه التي تسرع في شفاء حالتهم المرضيه؛ لكي يتحملوا مراره الدواء برغبه ولهفه ويلتزموا بارشادات الطبيب. ولعل الأطباء الروحيين يسرون على هذا النهج فيبينون فلسفه تشريع الأحكام ومعطيات البرامج الدينيه للناس، ليشيروا فيهم الشعور والدافع نحو هذه البرامج ويرسخوا عزمهم في تنفيذها.

وقد راينا فموزج ذلك - بيان فلسفه الأحكام - في هذه الخطبه، حيث ينطوى هذا البيان على عدة فوائد، إلى جانب كونه يحث الناس على التفاعل مع الوظائف الدينيه وممارستها بكل شوق ورغبه ويهون عليهم تحمل بعضى المشاق التي تشتمل عليها بعض الوظائف الدينيه. ومن الفوائد التي يمكن ذكرها هنا:

١- تحدد للناس الاسلوب الصحيح الذي ينبغي أن تؤدي فيه الفريضته، مثلاً حين تبين فلسفه الحج «فرض الله الحج تشييدا للدين» (٤)، فمفهوم ذلك إقامه مراسم الحج بكل عظمه

ص: ٤٠١

١-١ ميزان الحكمه ٢/١٩٣١ ح ١٢٤١١. [١]

٢-٢ غرر الحكم، ٦١٦٦. [٢]

٣-٣ الكافي ٢/١٩٥ ح ١٠. [٣]

٤-٤ خطبه الزهراء عليها السلام، احتجاج الطبرسي ١/٢٥٨، طبع اسوه، وورد مثل هذا المعنى في الكلمات القصار، ٢٥٢.

لتحقيق هذا الهدف ولا يكتفون بأدابه الصوريه الظاهريه.

٢- أن يعلموا أن آثار وبركات هذه الأعمال تعود علينا، فليس هناك من مَنه على الله، بل الله يمن علينا، الأمر الذي صرح به القرآن الكريم بشأن الإسلام والإيمان: «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلِمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١).

٣- يمكننا تقييم أعمالنا من خلال الالتفات إلى فلسفه الأحكام، لنرى مدى قبولها عند الله، مثلاً حين يقال: «وفرض عليكم الصوم للتقوى والصلاه نهياً عن الفحشاء والمنكر» فإن علينا أن نرى هل حصلت لدينا ملكه التقوى بعد القيام بالصوم والصلاه أم لا؟ وهكذا نقف على قيمه عبادتنا وأعمالنا.

نعم اننا نعلم بأن الله حكيم، وحكمته تقتضى ألا يشرع شيئاً دون أن يبين هدفه ونتيجته، ويا لهم من جهال أولئك الذين يزعمون أن أفعال الله ليست معلله بغرض؛ أى ليس هناك من هدف فى تشريعاته وأعماله! أنهم ليسيون بهذا الكلام إلى كونه حكيماً سبحانه، وهم يزعمون أنهم اقتربوا من حقيقه التوحيد، والحال أنهم مصداق لهذه الآية الشريفه: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (٢).

نعم أفعال الله ليست معلله بأغراض، أى ليس هناك من هدف يعود إليه، لأنه غنى عن كل شىء وعن كل موجود؛ إلما أن المؤسف له أن هؤلاء الجهال لا يقولون ذلك، بل يزعمون أن لاضروره لأنّ تعود نتيجة أفعال الله وأوامره على العباد، وهذا منتهى الجهل!!

على كل حال فإن الإمام عليه السلام بين فلسفه الأحكام فى هذه الخطبه، بحيث يتأجج الشوق فى أعماق من يتمناها لأن يؤدى وظائفه على أكمل وجه دون أن يشعر بالتعب والملل.

ص: ٤٠٢

[١- ١] سورة الحجرات/١٧. [١]

[٢- ٢] سورة الكهف/١٠٣-١٠٤. [٢]

إشاره

«أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ. وَارْعَبُوا فِيمَا وَعِيدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعِيدَهُ أَضْيَقُ الْوَعِيدِ. وَاقْتِيدُوا بِهَيْدَى نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَيْدَى. وَاسْتَيْتِنُوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ. وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ؛ بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْوَمُ» .

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان أركان الإسلام وذكر فلسفه الأحكام، دعا الناس إلى امتثال الأحكام والعمل بالوظائف فقال عليه السلام: «أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر» .

فالعباره «أفيضوا» تفيد كثره ذكر الله سبحانه والتوجه إليه.

والعباره «أحسن الذكرى» لأن ذكر الله سبحانه مصدر وأساس كافة البركات المادية والمعنوية.

فقد جاء في الحديث النبوي: «ليس عمل أحب إلى الله تعالى، ولا أنجى لعبده من كل سيئه في الدنيا والآخرة، من ذكر الله. قيل: ولا القتال في سبيل الله؟ قال: لولا ذكر الله لم يؤمر بالقتال» (١).

ص: ٤٠٣

ثم قال عليه السلام: «وارغبوا فيما وعد المتقين فإنَّ وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدى نبيكم فإنَّه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنَّها أهدى السنن» .

لاشك أنَّ الوعد الإلهي للمطيعين والمؤمنين الصالحين لهي أصدق الوعد، لأنَّ من يتخلف عن الوعد إمَّا عاجز، أو بخيل أو جاهل، حيث يعد دون علم، ثم لا يفى بوعدده. أمَّا من كان مطلق في علمه وقدرته فخلف الوعد محال عليه.

المراد بالهدى (على وزن منع) السبيل والاسلوب والطريقة.

والسنه تعنى ما يصدر من الأوامر فى مختلف المجالات، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء، فمن الطبيعى أن تكون سنه أهدى السنن.

ثم أكد الإمام عليه السلام على القرآن فقال: «وتعلموا القرآن فإنَّه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنَّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنَّه أنفع القصص» .

فقد ذكر الإمام عليه السلام أربع مراحل مختلفه تتقدم كل واحده منها بصورة طبيعیه على الأخرى.

فى المرحله الاولى أوصى عليه السلام بتعلم القرآن على أنه أحسن الحديث؛ وذلك لاشتماله على أكمل أسس سعادة الإنسان.

المرحلة الثانية أوصى عليه السلام بالتفكير والتدبر فيه وسبر غوره والوقوف على معناه ومضمونه، بفضله ربيع القلوب، فكما تتفتح البراعم فى فصل الربيع وتورق الأشجار وتنبت الأوراد والزهور وتنتشر رائحتها العطره فى كل مكان، فببركه القرآن الكريم تظهر على القلب زهور فضائل الأخلاق وبراعم المعارف الإلهيه، فمن لم يكتسب منه الحياه الإنسانيه، كان كالشجره اليابسه التى لاتتهتز وتتحرك فى فصل الربيع.

المرحلة الثالثه الأمر بالعمل والقول: عليكم بالاستشفاء بنور آيات الله، على غرار نور الشمس التى يستشفى فى ظلها المرضى، فقد قيل أشعه الشمس قد تغنى عن حضور الطبيب. والمرحلة الرابعه: «أحسنوا تلاوته» لتغوص القلوب فيه وتطبع بطابعه فتبلغه إلى الآخرين.

وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد حدد وظيفه الأفراد تجاه القرآن الكريم. وليت الأفراد لم يكتفوا بالاعتصار على حسن تلاوه القرآن وتجويده والتركيز على جماليه الصوت، والتفتوا إلى سائر

المراحل التي تشكل الدف الأصلي للقرآن. وقد عبرت العبارة الأولى عن القرآن على أنه أحسن الحديث، والعبارة الأخيرة أنفع القصص. فالحديث ما يصدر من المتحدث من كلام (لأنّ الحديث من مادة حدوث ويطلق على الكلام الحديث لأنه حادث باستمرار) فالمفهوم أنّ القرآن أفضل كلام بين الناس، من حيث الفصاحة والبلاغة، ومن حيث المحتوى والمضمون، والواقع هو أنّ العبارة إشاره إلى الآية الشريفة: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي» (١).

أمّا أحسن القصص فقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بها المجموعه القرآنيه بما فيها الآثار والنتائج العلميه للقرآن التي تتحصل في ظل اجراء الأحكام والتعاليم القرآنيه.

ومن هنا وردت الإشاره في آخر الخطبه إلى نقطه مهمّه بالنسبه للعالم الذي لاعمل له، واولئك الذين يتلون القرآن ولايعملون به، إذ قال عليه السلام: «إنّ العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لايستفيق (٢) من جهله، بل الحججه عليه أعظم، والحسره ألزم، وهو عند الله ألوم (٣)».

فالعبارة تشتمل على تشبيه رائع للعالم بلا عمل (أو بتعبير الإمام عليه السلام العالم الذي لايعمل بعلمه) يفيد أنّ مثل هذا العالم أقلّ درجه في الواقع من الجاهل العادي. بل هو كالجاهل الحائر الذي لايفيق من جهله قط، فليس هنالك من أمل في هدايته؛ وذلك لأنه يسير عن علم على الطريق الاعوج، ومن هنا فان الله سبحانه يسلبه توفيق الهدايه فيفقد صوابه في هذه الحيره ولايصل ساحل النجاه أبدا فيسقط في الهاويه.

ثم أشار عليه السلام إلى مدى بؤس مثل هذه العالم السادر في غيه فقال عليه السلام أولاً بأنّ الحججه عليه أعظم، فقد يتذرع الجاهل بجهله (إن يكن الجهل عذراً) ولكن ما عذر العالم بلا عمل.

والثاني حسرته لازمه، فقد تخلف عن السعاده وكانت كافه أسبابها لديه فتاه حائراً في صحراء الحياه.

ص: ٤٠٥

١- ١) سورة الزمر/١٧. [١]

٢- ٢) «يستفيق» من ماده «استفاقه» بمعنى تحسن حاله الصحيه بعد المرض والوعى بعد السكر واليقظه من النوم وجاءت هذه الكلمه في هذه الخطبه بالمعنى الثالث أى اليقظه من النوم.

٣- ٣) «ألوم» من ماده «لوم» على وزن قوم بمعنى العتب، ومع الأخذ بنظر الاعتبار بان «ألوم» هي صيغه أفعال تفضيل، وهنا تعنى الملامه، وهو الأنسب.

والثالث أنه أكثر لوماً عند الله من الجاهل الحائر، لأنّ الحجة عليه أتم من غيره. ومن هنا ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد» (١). بل يتعذر قبول توبه هذا العالم الذي لا عمل له. فقد صرح القرآن الكريم قائلاً: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ. . .» (٢).

تأمل: عاقبه العالم غير العامل

الناس على أربع: عالم، جاهل مقصر، جاهل مقصر بسيط وجاهل مركب. فالعالم من يعلم المطلوب على نحو الاجمال أو التفصيل؛ أى قد يكون له أحياناً علم اجمالى بالشىء، وقد يكون له أحياناً أخرى علم تفصيلى. فهو يعلم مثلاً على نحو الإجمال أنّ المسكر حرام وله أضرار على جسم الإنسان وروحه. أو أنه رأى على نحو التفصيل أدله حرمة المسكر وقد درس الآثار الضاره له على كل عضو من أعضاء البدن.

والجاهل القاصر من لا يعلم، وليس له من سبيل إلى العلم، وربما كان بعيداً عن مراكز العلم فانغمس فى الغفلة والسهو.

والجاهل المقصر من له سبيل إلى العلم، إلّا أنّ الكسل والإهمال لم يدعه يتجه إلى العلم، فيبقى فى جهله، مع ذلك فهو يعلم بجهله!

أى يدري أنه لا يدري.

وأما الجهل المركب فهو من جهل ولا يدري أنه فى جهل. بل بالعكس يظن أنه عالم وما يفهمه من الأمور هو عين الواقع، وبعبارة أخرى فهو: لا يدري أنه لا يدري.

ويبدو أنّ الخطر والمسؤوليته التى تتوجه إلى الجاهل القاصر أقل من غيرها بالنسبة للطوائف الأربع، ويأتى بعده الجاهل المقصر ثم الجاهل المركب؛ الذى قد يدفعه جهله المركب ليجاد بعض المشاكل لنفسه والآخرين. إلّا أنّ الأخطر من الجميع هو العالم.

ص: ٤٠٦

[١-١] الكافى ١/٤٧ ح ١. [١]

[٢-٢] سورة النساء/١٧. [٢]

الذى لا- عمل له. وإلى هذه الطائفة تعزى جميع الكوارث التى تكبدتها البشرية طيله التاريخ بما فيها النزاعات والحروب فى الماضى والحاضر.

فهم الذين يصنعون أخطر أسلحه الدمار الشامل التى تهدف إلى القضاء على الأبرياء من المجتمع البشرى. وهم الذين يشعلون فتيل الحرب من أجل تحقيق مآربهم واطماعهم.

وأخيراً هؤلاء هم الذين يستحذون على المواقع المتقدمه والمراكز الحساسه فى الأ-جهزه الإعلاميه ووسائل الدعايه ليمارسوا أوسع عمليه تضليل ليشوهوا الحقائق فيسوقوا الجهال إلى نيران فتنهم ويقضوا على حياتهم. وقد شبههم القرآن الكريم بالكلاب إذ قال: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ» (١).

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: ترى ما سر هذا التضاد بين العمل والعلم أولم يكن حرياً بهذا العالم أن يتجه إلى الصواب ويقود الناس إليه؟

ويبدو الجواب واضحاً على هذا السؤال وهو أن أسس ودعائم إيمان هذا العالم إنما هى فى الواقع ضعيفه خاويه، وإن انتحل الإسلام والعلم ظاهراً، إلّا أنّ لسانه الباطنى «يقولون إن الله خالق جنّه ونار وتعذيب وغل يدين» (٢).

كما قد يكون مؤمنا بالله إلّا أنه منقاد لهوى نفسه الذى يتغلب على إيمانه.

ونختتم هذا الكلام بحديث عن على عليه السلام فى أنّ التواره قد اختتمت بخمس عبارات هى (٣).

الأول: العالم الذى لا يعمل بعلمه فهو وابليس سواء.

والثانى: سلطان لا يعدل برعيته فهو وفرعون سواء.

والثالث: فقير يتذلل لغنى طمعاً فى ماله فهو والكلب سواء.

والرابع: غنى لا ينتفع بماله فهو والاجير سواء.

والخامس: إمراه تخرج من بيتها بغير ضروره فهى والأمة سواء.

ص: ٤٠٧

١- ١) سورة الأعراف/ ١٧٦. [١]

٢- ٢) ورد ذلك عن عمر بن سعد حين اقترح عليه قتال الحسين عليه السلام فى كربلاء، واعطائه ملك الرى، ففكر فى الأمر ثم انشد شعراً، زعم فيه أن يقتل الحسين عليه السلام ويفوز بملك الرى ثم يتوب اله الله سبحانه. ألا لعنه الله على الظالمين.

٣- ٣) الاثنى عشرية / ٢٠٦. [٢]

اللهم نسألك العمل بما نعلم من العلم الذي أفضتته علينا في ظل قبسات وعلوم نهج البلاغه لأمير المؤمنين على عليه السلام، اللهم ولا تقرنا مع الشيطان أبداً، اللهم نسألك حسن العاقبه وأن تختم لنا بالخير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم بعون الله المجلد الرابع من شرح نهج البلاغه

في ١٧ شوال. عام ١٤٢٢ هـ ويليه المجلد الخامس ان شاء الله.

ص: ٤٠٨

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه المجلد ۵ / ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام على ابن ابى طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى: ۱۰ ج.

شابك: ۳۰۰۰۰ ريال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۱۱۳-۹۱۷-۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۵-۹۴۱-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳:

يادداشت: عربى.

يادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق. = ۱۳۹۰).

يادداشت: كتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الى ۱۸۰-ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الى ۲۰۰-ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الى ۲۴۱-ج. ۹. من رساله ۱ الى ۳۱-ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الى ۵۳

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- خطبه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- كلمات قصار

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- نامه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. . نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۰۳۸/۱۳۸۴ BP/م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٥

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي ذَمِّ الدُّنْيَا

نظره إلى الخطبه

تحدثت هذه الخطبه بصوره عامه - كما ورد في عنوانها عن ذم الدنيا، الدنيا التي تغرق الإنسان في لذاتها وزخارفها الزائله اللامشروع، ومتعها الرخيصه، بحيث يتناسى الله والخلق ومصيره وعاقبته، الدنيا التي تغيب فيها معاني القيم والمثل ولا يعد فيها من مفهوم للحلال والحرام والظلم والعدل.

والخطبه التي نحن بصددھا على أقسام:

القسم الأول: فيها يتعرض إلى خداع الدنيا وغرورها وزبرجھا وظاهرھا الأجوف الذي لا باطن له.

القسم الثاني: فيتناول تقلب أحوال الدنيا وعدم ثباتها، إلى جانب الحديث عن النعم التي قد تتبدل نقماً والنجاحات التي تتحول فشلاً.

القسم الثالث: خاض عليه السلام في بيان فناء الدنيا وزوالها، حيث تضمن عبارات رائعه مؤثره

ص: ٥

١-١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه طائفه من الأعلام ممن عاشوا قبل وبعد المرحوم السيد الرضى ومنهم: ابن شعبه الحراني في «تحف العقول»، وابن طلحه الشافعي في «مطالب السؤل»، ومحمد بن عمران المرزباني في «الموفق»، كما فسّر ابن أثير ما صعب من مفرداتها في كتابه «النهايه»، إلا أنّ هناك اختلافاً في نقله مع بعض عبارات هذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه ٢/١٤٤) [١] وقال ابن أبي الحديد حين شرحه لهذه الخطبه: نقل هذه الخطبه أيضاً أبو عثمان الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٢٣٦).

تكشف النقاب عن حقيقه هذا الأمر.

القسم الرابع: فكأنه يأخذ بيد الناس ويغوص بهم فى أعماق تاريخ الماضيين، والعاقبه المريره التى طالت الأقوام من ذات القوّه والسطوه لتهز عروشهم وتحيلهم أجساداً خاويه قبرت تحت التراب.

وأخيراً القسم الخامس: الذى تطرق إلى الموت والأموات الذين عاشوا دهرًا بيننا بذلك النشاط والحيويه وقد ذاع صيتهم ليعمّ الأرجاء، والحال قد ذهبت تلك الحيويه أدراج الرياح وتبدل ذلك النشاط إلى خمول وضمور بعد أن اتاهم الموت وأحال أجسادهم تراباً.

هذا وقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه بعبارات لطيفه بالغه التأثير شأنها إيقاظ أسوأ الأفراد الذين يغطون فى سبات الغفله ونفث النور والأمل فى أوراخهم المظلمه البائسه.

ص: ٦

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحذِرُكُمْ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجَعَتُهَا. غَرَارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِثَةٌ بَائِثَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَالَةٌ. لَا تَعِيدُو - إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمَّيْتِهِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سُيُبْحَانَهُ: «كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» .

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بتحذير الجميع من هذه الدنيا الفانيه والغراره، ثم أَمَط اللثام عن ماهيه واقعها وحقيقتها من خلال وصفها والتعرض لغرورها وخذاعها بثمان عشره عباره، فقال عليه السلام أٌحذركم من هذه الدنيا ذات الظاهر اللطيف الذى إنطوى على اللذات والشهوات، الأمر الذى يجعلها تشد إليها الأنظار بفعل عينيتها ومثلها للإنسان رغم ضحاله نعمها وتفاهتها، إلّا أنّها تحلّت بالآمال وتزيّنت بالغرور لتسوق إليها هذا الإنسان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحذِرُكُمْ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ

بِالْعَاجِلِهِ، وَرَاقَتْ (١) بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ» .

فالإمام عليه السلام يرى خداع الدنيا في حلّ ظاهرها المحفوف بالشهوات، فهي محببه إلى النفوس كونها ماثله للعيان ملموسه، وهذا هو المعنى المراد من العبارة «تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلِهِ» .

أمّا العبارة «رَاقَتْ بِالْقَلِيلِ»، فهي إشارة إلى أنّ الدنيا قد زينت متاعها القليل بالشكل الذى جعلها تستقطب قلوب عبده الدنيا المتكالبين على حطامها.

بينما أشارت العبارات «تَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ» إلى زيف هذه الزينه التى تحلّت بها الدنيا، حيث تفتقر إلى الواقع، بل زينت مظهرها بالآمال والخيالات الفارغه الزائفه، وهذا هو المعنى الذى أكدته العبارة «تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ»، فرصيدها الرئيسى الذى يشكل عنصر التزيين إنّما هو الغرور الخداع، ولعل الوقوف على عمق هذا المعنى يتجسد من خلال النظر من بعيد إلى قصور الملوك وسلطتهم الظاهريه المرعبه، وسعه حجم أموالهم و ثرواتهم، وأببه وجلال مراكبهم وملابسهم النفيسه الفاخره وسائر الوسائل والأدوات التى يعتمدونها فى حياتهم ومعيشتهم التى تخطف الأبصار وتسحر القلوب، بينما الاقتراب منهم والغوص فى واقع حياتهم لا يرى سوى البؤس والشقاء وسبل المصاعب والمشاكل التى تلف حياتهم ومدى القلق والاضطراب الذى يسودهم من جراء المؤامرات والدسائس التى يخطط لها أعداؤهم إلى جانب الحسد والطمع الذى تكنه لهم بطانتهم وقرابتهم.

والواقع هو أنّ هذه العبارات إقتباس ممّا صرحت به بعض الآيات القرآنيه، فقد جاء فى القرآن الكريم بشأن الحياه الدنيا:

«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ . . .» (٢).

وجاء فى موضع آخر: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . . .» (٣).

كما جاء أيضاً: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ . . .» (٤)

ص: ٨

١- ١) «راقت»: من ماده «ورق» على وزن ذوق بمعنى المسره والإعجاب.

٢- ٢) سوره آل عمران / ١٨٥؛ [١]الحديد / ٢٠. [٢]

٣- ٣) سوره الإنسان / ٢٧. [٣]

٤- ٤) سوره آل عمران / ١٤. [٤]

. وقال تعالى أيضاً: «ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (١).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن نعم الدنيا وسرورها إلى إنقطاع ولا دوام لها، وليس هناك من شخص بمنأى عن مشاكلها وفجائعتها، ورصيدها الخداع والغرور والضرر والخسران، معروفه بالفناء والزوال وعاقبه أمر سكانها وعمارها الهلاك والعدم:

«لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا (٢)، وَلَا تُؤْمِنُ فَجَعَتُهَا. عَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ (٣) زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ (٤) بَائِدَةٌ (٥)، أَكَّالَةٌ عَوَّالَةٌ (٦)» .

نقد تناول الإمام عليه السلام الدنيا ليتحدث بهذه العبارات الرائعة البيان عن تقلب أحوالها وعدم ثباتها، فليس هنالك من دوام واستمرار لأى من مفرداتها من قبيل حلاوتها وطلاوتها ونعمها وثرواتها وإمكاناتها وآمالها ورغباتها ونشاطها وعنفوان الشباب فيها، فكل هذه الأمور محكومها بالفناء والزوال، وبناءً على هذا فلا يركن إليها إلا الجاهل الغافل.

ثم اختتم عليه السلام كلامه - فى هذا القسم من الخطبه - بالقول:

«لَا تَعِيدُوا - إِذَا تَنَاهَيْتُمْ إِلَى أُمَّيِّهِ أَهْلِيلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا (٧) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» (٨)» .

فقد عزز الإمام عليه السلام إثبات مراده من خلال التمسك والاستشهاد بالتشبيه الرائع الذى أورده القرآن فى سورة الكهف بشأن الدنيا، وكأنى به قد اصطحب المخاطب إلى حيث الصحراء

ص: ٩

١- ١) سورة الحجر / ٣. [١]

٢- ٢) «حبره»: من ماده «حبر» بالفتح السرور والنعمة.

٣- ٣) «حائله»: من ماده «حول» على وزن قول المتغيره.

٤- ٤) «نافده»: من ماده «نفاد» بمعنى الفناء والعدم والزوال.

٥- ٥) «بائده»: من ماده «بيد» على وزن صيد هالكه.

٦- ٦) «عواله»: من ماده «غول» على وزن قول الهلكه المباعته.

٧- ٧) «هشيماً»: من ماده «هشم» بمعنى كسر الأشياء ومن هنا تطلق على النبت اليابس المكسّر.

٨- ٨) سورة الكهف / ٤٥. [٢]

ليريههم صورته الربيع والخريف واهتزاز الأرض وحيوتها من نزول المظرة وخروج النباتات وتفتح البراعم والزهور وحمل الأشجار للفاكهة والثمار، غير أنّ هذه الأمور لا يكتب لها الاستمرار والدوام، فلم تشهد هذه الحالة سوى بضعة شهور لتذبل تلك الأوراق وتنتهي تلك الثمار وتنقطع زرقته العصافير والطيور وتتبدل الخضرة ببوسه وجفافاً، وهذه بالضبط حقيقة الحياة الدنيا التي تعيشها البشرية حيث يتجه كل شيء فيها نحو الزوال فيا له من تشبيه رائع وعجيب!

«لَمْ يَكُنْ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرِهِ إِلَّا أَعْقَبْتُهُ بَعْدَهَا عَجْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَائِهَا بَطْنًا، إِلَّا مَنَحْتُهُ مِنْ صَرَائِهَا ظَهْرًا؛ وَلَمْ تَطْلُهُ فِيهَا دَيْمَهُ رَحَاءً، إِلَّا هَتَّتْ عَلَيْهِ مُرْنَهُ بَلَاءً، وَحَرِيٌّ إِذَا أَضْيَبَتْ لَهُ مُنْتَصِرَهُ أَنْ تُمَسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اغْدُؤَذَبَ وَاخْلَوْلَى، أَمْرٌ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَبًا، إِلَّا أَرْهَقْتَهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا. وَلَا يُمَسِّي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَضْيَبِحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ. عَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَيَّا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَرْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْتَرَ مِمَّا يُؤْمَنُ. وَمَنْ اسْتَكْتَرَ مِنْهَا اسْتَكْتَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه مواصله لذم الحياه الماديه الدنيويه إلى صفه أخرى من صفاتها البارزه الأخرى والمتمثله بسرعه تغييرها وتبدلها، إلى جانب تبدل نعمها ونقمها، فلم يصب أحد منها سروراً إلا أتبعته حزناً وحسره، ولم يذق حلاوتها إلا استشعر مرارتها: «لَمْ يَكُنْ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرِهِ إِلَّا أَعْقَبْتُهُ بَعْدَهَا عَجْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَائِهَا بَطْنًا، إِلَّا مَنَحْتُهُ (١) مِنْ صَرَائِهَا ظَهْرًا» .

ص: ١١

١- (١) «منحت»: من ماده «منح» على وزن مدح بمعنى العطاء.

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بأنه لم يستشعر هبوب الرياح اللطيفة والأمطار الملائمه حتى يغرق في سبيل من البلاء: «وَلَمْ تَطَّلُهُ (١) فِيهَا دِيمُهُ (٢) رَخَاءً، إِلَّا هَتَّتْ (٣) عَلَيْهِ مُزْنَهُ (٤) بِلَاءً» .

ومن هنا فلا وجه للغرابه والتعجب إذا انتصرت لأحد صباحاً تنكرت له مساءً، وإن حملت بيد ظرفاً حلواً حملت بأخرى ظرفاً مرّاً: «وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةٌ أَنْ تُمَسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةٌ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْدُوذَبَ (٥) وَاحْلَوْلَى (٦)، أَمَرَ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! (٧)» .

نعم، هذه هي طبيعه الدنيا وستكون كذلك، حيث تستحيل حلاوتها مراره، ونصرها هزمه، وحياتها موتاً، وليست هناك أيه قدره يسعها الحيلولة دون هذه الاستحاله والتغيير.

ثم واصل عليه السلام تأكيد هذه الحقيقه في أنّ الإنسان لا يصيب منها لذّه ونعمه إلاّ أتبعته غصّه ورهقه، ودفعت به إلى ما يتعبه من الشدائد والنوائب، فلا يكاد يتمتع بلذّه الأمان حتى يزعجه ألم الخوف والخطر: «لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا (٨) رَغْبًا، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ (٩) مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا، وَلَا يُمَسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ (١٠) خَوْفٍ» .

أجل، ليست هناك من فاصله يؤبه بها في هذه الدنيا لا مكانيه ولا زمانيه بين السعاده والشقاء، فقد تراه أحياناً جن عليه الليل وقد غرق في لذاته وشهواته وهنيء عيشه ودعته في هاله من فرحه وسروره، ولم يكد يطلع الصبح عليه حتى تتعالى الأصوات بالنيح والبكاء تنعى فقده ومفارقه لهذه الدنيا، بل لعله يتجرع كأس المنون من يد أقرب مقربيه:

ثم استمر عليه السلام في الحديث عن غرور الدنيا وزوالها فقال: «عَرَّازَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيَّهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْتَرَّ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنْ

ص: ١٢

١-١) «تطلّه»: من ماده «طل» على وزن تل المطر الخفيف ويقابله الوابل المطر الشديد.

٢-٢) «ديمه»: من ماده «دوام» مطر دوم في سكون لا رعد ولا برق معه.

٣-٣) «هتنت»: من ماده «هتن» على وزن حتم بمعنى إنصبت.

٤-٤) «مزنه» قطعه من السحاب الممطر.

٥-٥) «اعدوذب»: من ماده «عذب» الفرات الزلال.

٦-٦) «احلولى»: من ماده «حلو» الطعم المعروف.

٧-٧) «أوبى»: من ماده «وبى» المرض والهلكه.

٨-٨) «غضاره»: من ماده «غضر» على وزن نذر كثره النعم، وسعه العيش.

٩-٩) «أرهقت»: من ماده «رهق» على وزن شفق ألبسته بالقوه والقهر.

١٠-١٠) «قوادم»: جمع «قادمه» الواحده من الريشات في مقدم جناح الطائر، وهى زلقه عاده.

اسْتَكْتَرَتْ مِنْهَا اسْتَكْتَرَتْ مِمَّا يُوبِقُهُ (١)، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ .

وهكذا أورد الإمام عليه السلام هذه الصفات التي تصور تغير أحوال الدنيا وعدم ثباتها وأقول قدرتها وزوال موفقياتها ليخلص إلى نتيجة مفادها ضروره قناعه العاقل بالقليل منها (على قدر الكفاف) ليمهد السبل أمام أمنه واستقراره وراحه باله، وذلك لأن من طلب المزيد فيها غامر بنفسه وقذف بها في لهوات المخاطر، فيكون بذلك قد مهد السبيل أمام شقاء نفسه وبؤسها.

ص: ١٣

١-١) «يوبق»: في الأصل من ماده «وبوق» على وزن نبوغ، بمعنى الهلكه، وعليه فيوبقه يعنى يهلكه.

«كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعْتُهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَيَّرَعْتُهُ. وَذِي أُبَّهٍ قَدْ جَعَلْتُهُ حَقِيرًا، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا سَيِّطَانُهَا دُوْلٌ وَعَيْشُهَا رَنْقٌ، وَعَيْدُهَا أَجَاجٌ، وَحُلُوهَا صَبْرٌ، وَعَيْدَاؤُهَا سَيِّمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيْثُهَا بَعْرَضِ مَوْتٍ، وَصَيِّحُهَا بَعْرَضِ سَيْقَمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنكُوبٌ. وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ!»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه - إلى أمرين مهمين آخرين بشأن الحياه الدنيا ووضعها متاعها المادي:

الأمر الأول: أن لا شيء فيها يمكن الاعتماد عليه والوثوق به، فقد قال عليه السلام بهذا الشأن كم من وثق بهذه الدنيا وسكن إليها فجرعته الألم والمعاناه، وما أكثر الأفراد الذين اطمئنوا إليها فصرعتهم، وما أكثر الأفراد الذين كانوا من أهل السطوه والشوكه، فأذاقتهم لباس الذل والمسكنه: «كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعْتُهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَيَّرَعْتُهُ. وَذِي أُبَّهٍ (١) قَدْ جَعَلْتُهُ حَقِيرًا، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا» .

نعم، ليس هنالك من فرد مهما كان مقامه، وموقعه بمأمن من الحوادث الخطيره والمكاره

ص: ١٥

١ - ١) «أبّه»: بمعنى العظمه وقد اشتقت من ماده «أبه» بمعنيين الفطنه حيث توصل ممن يتصف بها من الأفراد إلى المجد والعظمه.

التي تصيب الإنسان بغيته، فعظام الملوك والسلاطين والأبطال الأشداء أصحاب رؤوس المال من أهل الجاه والسطوه والشباب الذين يعيشون عنفوان النشاط والحيوية والجمال، كل هؤلاء ومن شاكلهم إنما يخضعون لهذه الحوادث التي تجري عليهم وهم صاغرون، الحوادث التي تأتي على جميع النعم واللذات فتخطفها في لحظه وتذل الأعزّه والجابره وما التاريخ عنك بعيد، فقد شحن بمثل هذه الحوادث، وقد ورد في تاريخ الطبرى أنّ سليمان بن عبدالمملك لبس ذات يوم لباساً فاخراً واعتم بعمه خضراء وأخذ ينظر في المرآه (وهو يتلذذ بما يشاهد من نفسه فدفعه الفخر لأن) يقول: أنا ملك شاب سعيد الحظ، فلم يعمر بعد ذلك أكثر من سبعة أيام (١).

الأمر الثانى: هو أنّ حلاوتها قد عجت بالمراره وانتصاراتها بالهزائم: «سِلْطَانُهَا دُوْلٌ (٢) وَعَيْشُهَا رَنْقٌ (٣)، وَعَيْذُهَا أُجَاجٌ (٤)، وَحُلُوْهَا صَبْرٌ (٥)، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ (٦)، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ (٧)» .

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حال ساكن الدنيا من أنّ حياته معرّض للموت والسقم والمرض يتربص بعافيته وصحته، ملك هذه الدنيا يستبطن الزوال والفناء، وعزيزها آيل إلى الانكسار، ووفره نعمها تحمل معها مفردات النفاذ والانقضاء: «حَيْثُهَا بَعْزٌ مَوْتٌ، وَصَحِيحُهَا بَعْزٌ سُقْمٌ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا (٨) مَنكُوبٌ (٩)، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ! (١٠)» .

نعم، فمتع الدنيا ولذاتها إن وجدت، فهي مشوبه بأنواع المعاناه والألم، والحكام فى ذوى القدره والسطوه الذين نغبطهم على مدى قدرتهم وشده شوكتهم وتربعمهم على العرش نراهم

ص: ١٦

١-١) الطبرى ٥/٣٠٥.

٢-٢) «دول»: بضم الدال وفتح الواو المشدده المتحول، الشىء الذى يتحول من يد إلى أخرى، ولما كانت حال الحكومات كذلك، فقد اصطلح عليها بالدول أيضاً.

٣-٣) «رنق»: صفة مشبهه من ماده «رنق» بمعنى الكدر.

٤-٤) «اجاجم»: شديد الملوحة تلدغ حرارته الفم.

٥-٥) «صبر»: جمع «صبره» على وزن كلمه أو جمع صبر على وزن فقر عصاره شجره مرّه، كما يطلق أحياناً على نفس الشجره.

٦-٦) «سام»: جمع «سم» المواد التي إذا خالطت بدن الإنسان أفسدته وأهلكته.

٧-٧) «رمام»: جمع «رمه» بالضم القطعه الباليه من العظم أو الحبل.

٨-٨) «موفور»: من ماده «وفور» الكثير من الشىء.

٩-٩) «منكوب»: من ماده «نكبه» بمعنى المصاب.

١٠-١٠) «محروب»: من ماده «حرب» القتال والحرب.

حين الاقتراب منهم أخوف ما يخافون حتى من مقربيهم، وأكثر الناس طاعه لأوامرهم، بل هم في غايه القلق والاضطراب ممّا يخبىء لهم الغد والمستقبل القريب.

ولعل هذا الأمر أشبه شيئاً بتلك القصّه التي تحدثت عن ذلك الفرد الذي كان يتمنى التربع على العرش السلطه ولو ليوم واحد، فحققوا له ما يريد، غير أنّهم عقلوا على رأسه خنجراً حاداً ربطوه بشعره، فكان يتوقع في كل آن قطع تلك الشعره ونزول ذلك الخنجر على هامته، فكان يرجو بفارغ الصبر انقضاء ذلك اليوم والخلاص من مسند العرش الذي انطوى على ذلك الخطر، فما أروع الصورة التي رسمها الإمام عليه السلام لهذه الدنيا الغرور حين قال: «كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طَمَإْنِينِهِ إِلَيْهَا قَدْ صَرََعَتْهُ» .

فليس هنالك ما يوثق به منها ولا يعتمد عليه فيها.

«أَلَسَيْتُمْ فِي مَسَاكِينٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْتَفَى جُنُوداً! تَعَبُدُوا لِلدُّنْيَا أَىَّ تَعْبُدِ، وَآثَرُوهَا أَىَّ إِثَارٍ. ثُمَّ طَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبْلَغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سِيَّحَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صِيحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَصَغَضَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطَّئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعْيَانَتْ عَلَيْهِمْ رَبِّبَ الْمُنُونِ. فَسَدُّ رَأْيَيْكُمْ تَنْكُرُهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرُهَا وَأَخْلَدَ لَهَا، حِينَ طَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَيْدِ. وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّعْبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعَقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ! أَفَهَذِهِ تُؤَثِّرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبَسَّتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمَهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!»

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام الخطبه التي أوردتها في ذم الدنيا وسرعه زوالها وخداعها وغرورها مصطحباً مخاطبيه هذه المره ليغوص في أعماق تاريخ الأمم السالفه، ليصور من خلالها حياه أصحاب السلطه والقدره ممن ملأ صيبتهم الأرجاء وكانت تقوم الدنيا وتقع بين أيديهم، وكذلك أصحاب الثروه والمال ليتساءل عليه السلام أستم تحلون محل من كان قبلكم وتسكنون مساكنهم، ممن عمروا كثيراً وتركوا آثاراً وكانت لهم أمنياتهم وآمالهم ورغباتهم، وكانت لهم

جنودهم وحماتهم: «أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِينٍ مِنْ كَمَا كَانَ قَبْلَكُمْ أَطُولَ أَعْمَارًا، وَأَبْقَى آثَارًا، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعِيدَ عَدِيدًا (١)، وَأَكْثَفَ (٢) جُنُودًا!». .

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى خمس خصائص إمتازت بها الأقسام السابقه وهى: طول العمر، وبقاء الآثار والمخلفات، وطول الآمال، وكثره السكان، وكثره الجنود، فهى خصائص منحتهم التفوق على سائر من سواهم، وإلا أن أى من هذه الامتيازات لم يحل دون زحف العدم والفناء لقصورهم وأديتهم، فكان مصيرهم أن تلاشوا وتساقطوا ركوعاً للموت تساقط أوراق الشجر فى فصل الخريف.

ثم أضاف عليه السلام مواصلاً كلامه بهذا الشأن: «تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيْ تَعَبَّدُوا، وَآثَرُوهَا أَيْ إِثَارًا. ثُمَّ طَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبْلَغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ». .

نعم، فرغم كل سعيهم وجهدهم فى سبيل عباده الدنيا والذوبان فيها وتجنيد كافة قواهم وطاقاتهم فى هذا الاتجاه، إلا أنهم لم يصيبوا أى شىء منها، ثم مشوا إلى حتوفهم وقد خلت جعبهم من الزاد والمتاع ودون حمل الورع والتقوى التى لا يجدى غيرها نفعاً هناك، فطريق الآخرة شاق طويل لا يجتازه إلا أهل الورع والتقوى.

ثم خاطب عليه السلام صحبه: هل بلغكم أن الدنيا قدمت لأحدهم فديه لتنجيه من الموت أو سكراته؟ أم هل أعانتهم بشىء فى هذا السبيل؟ أم هل كانت على الأقل صاحباً حسناً لهم: «فَهَلْ بَلَّغْتُكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ (٣) لَهُمْ نَفْسًا بِفِدَائِهِ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونِهِ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً!». .

نعم، لم تقدم لهم أى عون ولم تنجيهم عن المكاره والأهويل، أفلا يكون ذلك عبره لم اعتبر من أبناء الدنيا!

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بهذا الخصوص قائلاً: «بَلْ أَرَهَقْتُهُمْ (٤) بِالْقَوَادِحِ (٥)، وَأَوْهَقْتُهُمْ (٦)

ص: ٢٠

١- ١) «عديد»: بمعنى «العدد»، كما ورد بمعنى الشبيه والمثل وأريد بها المعنى الأول فى عبارته الخطبه.

٢- ٢) «أكثر»: تفضيل «كثيف» بمعنى الكثير.

٣- ٣) «سخت»: من ماده «السخاوه» بمعنى العطاء.

٤- ٤) «أرهقت»: من ماده «إرهاق» ستر الشىء بالقوه، أرهقتهم بمعنى غشيتهم.

٥- ٥) «قوادح»: جمع «قادحه» بمعنى الآفه.

٦- ٦) «أوهقت»: من ماده «وهق» حلقه توضع على رقبه الحيوان.

بِالْقَوَارِعِ (١)، وَضَعُضَعَتْهُمْ (٢) بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ (٣) لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطَّئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ (٤)، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِم رَيْبَ الْمُنُونِ (٥) .

فهذه العبارة المؤثرة تشير إلى أنّ الدنيا ليس فقط لم تقدم العون والمساعدة لعبادها وأصحابها، بل سارعت بكل ما أوتيت من وقوه لتوجيه ضرباتها الماحقه إليهم بغية إبادتهم، وإستئصال شوكتهم، حتى جندت جميع قواها وطاقاتها ضدهم.

والطريف فى بيان الإمام عليه السلام هو أنّه بدأ من المراحل الكبرى نزولاً إلى الصغرى فى إطار تصويره لإعانه الدنيا وما يمكنها أن تقدمه من نصره ومساعدته، بينما تدرج فى أضرارها التى تصيب من تعلق بها من المراحل السفلى إلى المراحل العليا المتمثلة بالانقضاض عليهم وإزالتهم من صحفه الوجود، ولعمري هذه قمه الفصاحه والبلاغه فى بيان الحقائق المريره والأليمه ويكشف النقاب عن مدى وضاعه الدنيا وانحطاطها وتنكرها لمن أخلد إليها واطمأن بها.

ثم خالص عليه السلام إلى نتيجة ممّا سبق مفادها تنكر الدنيا لأصحابها ممن آثرها على كلّ شىء وهو الأمر الذى رأوه بأمر أعينهم (أو لعلهم طالعهو بشأن الأمم التى سبقتهم) فقد سلمتهم للأقدار وساقتهم نحو الموت دون أن يعدّوا الزاد والمتاع لتلك الدار الآخرة: «رَأَيْتُمْ تَنَكَّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ (٦) لَهَا، حِينَ ظَنَعُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ» .

فهل أمدتهم هذه الدنيا بشىء سوى الجوع والفقر؟ وهل عرضتهم سوى للتعب والارهاق

ص: ٢١

١-١) «قوارع»: جمع «قارعه» بمعنى المحن والدواهى.

٢-٢) «ضعضعت»: من ماده «ضعضعه» بمعنى الذله والهوان، كما تأتى بمعنى الإباده.

٣-٣) «عفرت»: من ماده «التعفير» كتبهم على مناخرهم فى العفر وهو التراب.

٤-٤) «المناسم»: جمع «منسم» يكسر الميم وهو مقدم خف البعير.

٥-٥) «ريب المنون»: الريب الشك الذى يكشف عنه الغطاء آخر لأمر ويبلغ اليقين، والمنون يعنى الموت، وريب المنون الموت المحتمل ويراد بها أحياناً مكاره الدهر التى تكون فى البدايه مشكوكه ثم يحصل بها اليقين.

٦-٦) «أخلد»: من ماده «إخلاق» وأصلها من الخلود، والعبارة أخلد إليها بمعنى الركون، أى أنّ أصحاب الدنيا قد أبدوا منتهى الرغبه بالدنيا وكأنّهم التصقوا بها.

والضنك؟ وهل وهبتهم إلا الظلمة التي ليس معها نور؟ (أبدأ، بل أودعتهم حفراً مظلمة موحشه تفيض رعباً وخشيه)، وهل بقي لديهم من شيء سوى الحسره والندم: «وَهَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا السَّغْبَ، أَوْ أَحَلَّتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ (١)، أَوْ نَوَّرْتَ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعَقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ!». .

فكيف الوثوق بهذه الدنيا التي لا تضم لمن تعلق بها سوى البؤس والشقاء والهزيمة والفشل والظلمه، ولا تعقبه سوى الندم؟ أم كيف له التضحية بالغالى والنفيس فى سبيل الحصول على بعض حطام الدنيا وجعلها هدفاً فى حياته؟!

ومن هنا تساءل الإمام عليه السلام مستنكراً: «أَفَهَذِهِ تُؤَثِّرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبَسْتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمَهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!». .

حقاً، ليست هناك من عبارات أوضح وأفصح من هذه العبارات التي وردت بشأن تفاهه الدنيا والمصير والعاقبه المريره التي تنتظر من تعلق بها وسكن إليها، وهدف الإمام عليه السلام من هذه التأكيدات المتواصله والعبارات المنبهه الشديده إلى الوقوف بوجه الريح الدينويه العاتيه، وما إنطوت عليه من نعم جمه أفرزتها قضيه الفتوحات الإسلاميه والتي إستهوت قطاعات واسعه من المسلمين لتقذف بهم فى أتون الرفاهيه والراحه والدعه بما ينسيهم القيم والمثل والمبادئ السماويه الخالده، ويجعلهم يغطون فى سبات الغفله، علهم يفيقون إلى أنفسهم ويعودون إلى رشدهم فيهبوا لإحياء القيم الإسلاميه المغيبه، إلى جانب محاوله الإمام عليه السلام إعادته الأئمه - لا سيما أولئك الأفراد الذين تكالبوا على الدنيا وثوراتها إبان عهد عثمان - إلى المسار الإسلامى الصحيح.

وما أروع هذه المواعظ والنصائح البليغه الواضحه للمتكالبين على الدنيا من أبناء عصرنا الراهن حيث يشهدون ذات الظروف، بل أسوأ منها والتي عصفت بالمجتمع وجعلته يتعلق بالدنيا، والحق لو لم يلتفتوا إلى هذا الأمر ويفكروا فى علاج وضعهم فلا من دين ولا دنيا معقوله يمكنهم أن يظفروا بها ويحصلوا عليها.

والعبارات تنسجم تماماً وما صرحت به الأحاديث النبويه الشريفه وروايات وكلمات

ص: ٢٢

(١-١) «ضنك»: بمعنى «الضيق» والشده وهى مفرده تستعمل بصيغه المفرد دائماً.

المعصومين عليهم السلام وبالتالي الآيات القرآنية، فقد صرّحت الآية ٩، من سورة الروم:

«أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» .

كما صرّحت الآية ٧ - ٨ من سورة يونس:

«إِنَّ الَّذِينَ لَمَّا يَزُجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مِثْلُ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»

وورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ زَهَّدَ فِي الدُّنْيَا أَثَبَّتَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَبَصَّرَهُ عُيُوبَ الدُّنْيَا دَاءَهَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنَ الدُّنْيَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ» (١).

كما ورد عنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتْ أَمْرَهُ، وَلَمْ يَنْلُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ، مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ» . (٢)

ص: ٢٣

[١- ١] اصول الكافي ٢/١٢٨. [١]

[٢- ٢] المصدر السابق ٣١٩/. [٢]

«فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَاتَّعَظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً». حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا، وَأُنزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ ضَمِيمًا. وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرَّفَاتِ جِيرَانٌ، فَهَمَّ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَمِيمًا، وَلَا يَبَالُونَ مَنْدَبَةً. إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَنُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ. حُلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَصْغَانُهُمْ. وَجُهَلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخَشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، إِسْتَبَدَلُوا بَطْهَرَ الْمَارِضِ بَطْنًا، وَبِالسَّعَةِ ضَمِيمًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً. فَجَاءَهَا كَمَا فَارَقَهَا، حُفَاءَ عُرَاءَ، قَدْ طَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمِ الْهِمِّ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالِدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «كَمَا يَدُونا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَيدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث مرّه أخرى عن تقلب أحوال الدنيا وغدرها وتنكرها لمن تعلق بها، إلى جانب الكلام عن المصير الحتمى الذى ينتظر كل إنسان والذى يتمثل بمفارقة الدنيا والرحيل إلى عالم الآخرة، فقال عليه السلام: «فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ (1) عَنْهَا» .

ص: ٢٥

(١-١) «ظاعنون»: من ماله «ظعن» على وزن دفين بمعنى السفر والرحيل.

نعم، فلا بد لكل إنسان أن يذوق طعم الموت: «كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ . . .» (١).

وقال تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (٢).

ولعل الإنسان يشك في كل شيء، غير أنه لا يشك في حقيقة الموت: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» (٣).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بضرورة الاتعاظ بمن كان قبلهم من الأمم ممن غرّتهم قواهم، فلم تنفعهم تلك القوّة شيئاً حتى حملوا راغمين إلى قبورهم، فلم يحلوا ضيوفاً على تلك القبور بعد أن ورد وهاقراً وإكراهاً دون أن يكون لهم أدنى إرادة واختيار: «وَاتَّعَطُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» (٤). حَمَلُوا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا (٥)، وَأُنزِلُوا الْأَجْدَاثَ (٦) فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا» .

ولعل العبارة إشارة لما ورد في الآية ١٥ من سورة فصلت القائله: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» . . .

فالمعروف أنّ قوم عاد كانوا ذوى جثّ ضخمة وقصور وبيوت فارهه عملاقه ينحتونها وسط الجبال، الأمر الذى جعلهم يصابون بالكبر والغرور، فلمّا عتوا عن أمر الله وعصوه أرسل الله عليهم ريحاً عاتية فأحالت جثثهم الضخمة إلى ما يشبه أوراق الأشجار التى تتناثر على الأرض، حيث حدّث عنهم القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ» (٧).

ص: ٢٤

١-١) سورة العنكبوت / ٥٧. [١]

٢-٢) سورة الرحمن / ٢٧ - ٢٨. [٢]

٣-٣) سورة الحجر / ٩٩. [٣]

٤-٤) سورة فصلت / ١٥. [٤]

٥-٥) «ركباناً»: صرّح بعض شراح نهج البلاغه [٥] أنّ العرب إعتادت الاصطلاح بالركبان على من يركب مختاراً وله التصرف فى مركوبه، فان نزلوا سموا ضيفان، أمّا الموتى الذين يحملون إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً ولا ضيفان.

٦-٦) «الاجداث»: جمع «جدث» على وزن قفص بمعنى القبور.

٧-٧) سورة القمر / ١٩ - ٢٠. [٦]

أمّا قوله عليه السلام «فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا» والركبان جمع راكب وذلك لأنّ الرّاكب من يكون مختاراً، ولا اختيار لهؤلاء، وقوله عليه السلام «فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا» لأنّ الضيف يرد برغبته وإرادته إلى المكان الذي يستقبل فيه، وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبه ١٨٨ من نهج البلاغه إذ قال عليه السلام: «حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ» .

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلة لوصفهم: «وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ (١) أَجْنَانٌ (٢)، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ (٣) جِيرَانٌ» .

فالعباره إشاره إلى أنّ قبورهم خاليه من البناء والسقوف والأعمده والأبواب والنوافذ، فهى ليست أكثر من قبضه من الحجر والتراب على وجه الأرض، والتعبير عن التراب بالكفن فذلك لأنّه يحيط ببدن الميت ويواريه كالكفن، وأمّا ذلك الكفن الذى يلف به الميت فهو مؤقت سرعان ما يبلى ويزول، ولا يبقى سوى الكفن الأصيل وهو التراب.

والجدير بالذكر هو أنّ الإمام عليه السلام واصل كلامه بالحديث عن هؤلاء الجيران وهم ليسوا أكثر من عظام نخره، فيكشف النقاب عن حقيقه وضعهم بعبارات غايه فى الجمال والروعه، وبما يدعو للتأمل والاعتبار: «فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا (٤)، وَلَا يُبَالُونَ مَنَدَبَةً (٥)» .

أضف إلى ذلك فهم على درجه من عدم الإكتراث بأى شىء بحيث: «إِنْ جِيدُوا (٦) لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَفْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ (٧) وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدُونُونَ لَا يَتَرَاوِرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ» .

حقاً، أنّهم عبره لمن اعتبر وأوضاعهم مدعاه إلى التأمل والنظر، فكل شأن من شؤونهم يختلفت ماماً وما عليه الحال بالنسبه لأهل الدنيا، فقد كانوا معاً حتى أمس القريب، ينجد

ص: ٢٧

١-١) «صفيح»: وردت هنا بمعنى وجه الأرض، من ماده «صفح» على وزن مدح.

٢-٢) «أجنان»: جمع «جنن» على وزن كفن بمعنى القبر، وأصلها بمعنى التغطية والستر، ولما كان القبر يستر بدن الميت فقد اطلق عليه الجنن.

٣-٣) «رفات»: بمعنى كل شىء بالى ومتعفن، كما يراد بها العظام المندقه المحطومه والمتنافره.

٤-٤) «ضيماً»: له مفهوم المصدر واسم المصدر ويعنى الظلم.

٥-٥) «مندبه»: من ماده «ندبه» بمعنى البكاء.

٦-٦) «جيدوا»: من ماده «جود» على وزن قوم مبنى للمجهول بمعنى مطروا.

٧-٧) «جيره»: جمع «جار» وغالباً ما تجمع جيران.

بعضهم البعض الآخر، يهرعون لاستقبال السنين التي تدر عليهم النعم والمنافع، بينما كانوا ينزعجون من القحط والجذب، كما كانوا يطوون المسافات القريبه والبعيده لرؤيه بعضهم البعض الآخر، لكن دون خبر عن أوضاعهم وما عليه أحوالهم، قبورهم متصله متلاصقه مع بعضها، إلّا أنّ المسافه بينهما كأنّها ما بين المشرق والمغرب، ومن كان منهم يأن ليل نهار من عذاب البرزخ فلا يسمع أنيه أقرب مقربيه من صحبه من أهل القبور، بل حتى لو سمع صراخه وألمه لما وسعه نجاته وتقديم العون له.

وما أروع ما كان يردده الإمام السجاد عليه السلام حين مناجاته باكياً وهو يجسد ما أورده الإمام على عليه السلام بهذا الشأن، إذ كان يقول: وَأَضْحَوْا رِمِيمًا فِي التُّرَابِ وَاقْفَرْتُ

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن أصحاب القبور بأنهم عقلاء قد ذهبت عداوتهم وخصومتهم، وفي نفس الوقت هم جهّال قد طرحت أحقادهم وأضغانهم، فليس هناك ما يدعو للخشيه من ضررهم وشرهم، كما لا يؤمل أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد انسلخوا من ظاهر الأرض ليوطنوا باطنها، فاستبدلوا بتلك السعه ضيقاً بالأهل والوطن والنور غربه وظلمه: «حُلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجَهْلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبَدَّلُوا بَطْنَهُ الْأَرْضِ بِطَنَّا، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً» .

والعجيب في الأمر أنه يصفهم في عبارته بالعقلاء، ثم يردفها بالعبارته التاليه بوصفهم بالجهلاء، والواقع هو أنهم جثث خاويه قد خلت من الأرواح، فهم ليسوا بعقلاء ولا- جهلاء، بل وضعهم في موضع جعلهم أشبه بالعقلاء حيث زالت العداوه بينهم، وفي موضع آخر تشبهوا بالجهلاء حيث ماتت بينهم روح الحسد ودوافعه، فقد تغيرت جميع مفرداتهم في لحظه حيث استبدلوا بظاهر الأرض باطنها وبالذور الواسعه المنيره المليئه بالأهل والعيال، القبور الضيقه

والمظلّمه الموحشه الخاليه من الصخب والضجيج.

ثم إختتم حديثه عليه السلام بالقول: «فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاءَ عَرَاهٍ» (١).

والعباره مستوحاه من الآيه القرآنيه الشريفه: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» (٢).

نعم كما خلق آدم عليه السلام من التراب، كذلك أولاده سيعودن حفاه عراه إلى هذه الأرض على غرار ولادتهم وقدومهم إليها، وإن حملوا معهم كفناً، فهو ليس كذلك في الواقع، إذا سرعان ما يبلى ويزول ولا يعد له من وجود، بالتالي سيودع هذا الإنسان شاء أم أبى يوماً كل ما جمعه من أموال وأعدّ لنفسه من قصور ودور فارهه وحدائق ومراكب وإمكانات ووسائل، لينزل تلك الحفره حافياً عرباناً وعليه أن يستعد لتلك الظلمه والوحشه.

نعم، الشىء الوحيد الذى يحمله معه هو عمله والذى قد يكون أحياناً وبالاً عليه وأعظم بلاء يصيبه، وهو الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فقال: «قَدْ طَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالِدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» (٣).

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار فى ختام هذه الخطبه إلى نقطتين:

الأولى: عوده الإنسان إلى الأرض كما خلق منها.

والثانيه: النشأه الجديده فى الآخره.

ثم استشهد عليه السلام بالآيه القرآنيه الكريمه: «كَمَا يَدَّبْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»، لكى لا يبقى أدنى مجال للشك فى حقيقه عوده الإنسان إلى التراب الذى خلق منه فيرى هناك جزاء أعماله من ثواب أو عقاب.

ص: ٢٩

١- ١) اختلفت أقوال شراح نهج البلاغه [١]لهذه العبارة، ويبدو الأنسب هو ما أوردها سابقاً.

٢- ٢) سورة طه / ٥٥. [٢]

٣- ٣) سورة الانبياء / ١٠٤. [٣]

١ - سبل مواجهه التعلق بالدنيا

إنَّ حبَّ الدنيا كما ورد في الروايه هو رأس كل خطيئه وأساس جميع الذنوب والمعاصي، كما أنَّ التعلُّق بها والاعتزاز بزخارفها وحطامها يصد الإنسان عن ربِّه وينسيه الآخره والحساب يوم القيامة، ومن شأن هذه الغفله والصدود أن تشكل أحد العوامل المهمه التي تقذف بالإنسان في وحل الخطايا والذنوب، وقد شهد عصر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تنامي الأموال والثروات إثر التقدم السريع الذي أحرزه الإسلام والغنائم المتحصلة من الغزوات، وهو الأمر الذي لفت إنتباه طائفه عظيمه من المسلمين ليشدّه إلى الدنيا ويدفع بها إلى التكالب عليها، وأفضل شاهد على ذلك الفساد المالي العظيم الذي حصل على عهد عثمان، ومن هنا لم ينفك الإمام عليه السلام في أغلب خطب نهج البلاغه من ذمّ الدنيا والتحذير من الانخداع بها والركون إليها والثوق بها، وقد أورد عباراته بمنتهى الفصاحه والبلاغه وبالشكل الذي يجعلها تثير حساسيه أهل الغفله ممن نسوا أنفسهم وتعلّقوا بالدنيا، ولا سيّما في هذه الخطبه التي مرّ علينا شرحها، فقد سارت مواكبه للقرآن الكريم في ذمّه للدنيا، وقد سلك الإمام عليه السلام مختلف الطرق من أجل بيان هذه الحقيقه منها:

١ - تحدّث عليه السلام بادية ذى بدء عن «غدر الدنيا وعدم ثباتها» وكيف استقطبت كل من تطلّع إليها بينما ولّت ظهرها وتكررت له وقذفت به في وحل البؤس والشقاء.

٢ - تحدّث أحياناً عن «تقلب الدنيا السريع» حيث سرعان ما تتبدل القوّه ضعفاً، والانتصار هزيمه، والغنى فقراً، والعافيه مرضاً.

٣ - كما تحدّث أحياناً أخرى عن إختلاط النعم بالآلام، والمعافاه والعذوبه بالمراره، فهناك الاشواك حيث الأزهار، والأفاعى حيث الكنوز، بهدف عدم اغترار الناس بالدنيا والتعلُّق بها والانخداع بزخارفها.

٤ - كما يصحب عليه السلام مخاطبيه تاره أخرى ليقفهم على نماذج عينية ملموسه للغدر وعدم الثبات الذي تنطوى عليه طبيعه الدنيا، فيقول لهم: إنظروا إلى الدنيا ماذا فعلت بمن كان أشدّ منكم قوه وأكثر جمعاً للأموال وأعظم جنداً.

٥ - وأحياناً أخرى يكون على غرار الرسّام الماهر الذى أمسك بريشته وجعل يرسم على لوحته الحالات المرعبه للإنسان على أعتاب الموت، وإنفصاله عن الأهل والولد والمال والثروه والجاه والمنصب، فيضع تلك اللوحه أمام أعينهم ليروها عن قرب فيعتبروا ويفكروا فى مصيرهم.

٦ - كما يعمد أحياناً أخرى لرسم لوحه صادقه معبره عن ضيق القبر وظلمته والذى يمثل آخر منازل الدنيا، فهو يحكى عن وحده الإنسان وغربته وسط ما يجاوره من قبور صامته، فليس هناك من تراور بينهم قط، كما ليس لأحد منهم علم عن آخر، إلى جانب تصويره لانقطاع الإنسان عن زوجته وولده ومدى عجزه وحاجته.

والملفت للنظرها هو أنّ جميع هذه المباحث والمضامين إنّما تتحرك فى ظلّ آيات القرآن الكريم، فأحياناً تشير صراحة إلى تلك الآيات، وأخرى تكون العبارات مستقاه من الآيات القرآنيه، وهذا ما يسيغ نوراً ولمسات روحيه، وجذبات معنويه على كلمات الإمام على عليه السلام وبالتالى مضاعفه مدى تأثيرها.

يالىت أهل الدنيا ممن اغتروا بها وخذعوا بحطامها وزيفها وتزينها أن يلتفتوا لأنفسهم ولو لحظه واحده طيله عمرهم فيطالعوا هذه الخطبه الموقظه ويتدبروا عباراتها ومفاهيمها، بل ما أحرانا نحن أيضاً أن نتأمل هذه الخطبه وما شابهها من الخطب التى وردت فى نهج البلاغه لتتعمق معرفتنا بخصوص الدنيا والوقوف على مدى ضحالتها وتفاهتها فتتجدد فىنا روح الطاعه والابتعاد عن الخطيئه والمعصيه.

جدير بالذكر أنّ العديد من الأدباء والشعراء قد انطلقوا أيضاً فى ظلّ الآيات القرآنيه والروايات الشريفه والمفاهيم الدينيه فانشدوا أشعاراً تهزّ الضمير وتوقفه على واقع الدنيا، من أولئك الشعراء الايرانيين هو الشاعر الكبير والفريد «الحافظ الشيرازى» الذى أنشد أشعاراً كثيره بشأن سرعه زوال نعم الدنيا وغدرها وأنّ حلاوتها قد مزجت بالمراره وراحتها بالألم وسلامتها بالمرض والسقم، كما نظم قصائداً فى تقلب أحوال الدنيا وتغيرها المفاجيء وعدم استقرارها على حال. قصر الجديد إلى بلى والوصل فى الدنيا انقطاعه

أى اجتماع لم يعد

ومن كلام الحكيم فى الدنيا: «إنا قد أصبحنا فى دار رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزيزها ذليل، وصحيحها عليل، والداخل إليها مخرج، والمطمئن فيها مزعج، والذائق من شرابها سكران، والواثق بسرابها ظمآن، ظاهرها غرور، وباطنها شرور، وطالبها مكدود، وتاركها محمود» .

٢ - الرد على سؤال

حين نطالع ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه حول «أهل القبور» فى أنهم جيره لا يتزاورون وقریبون لا يتقاربون وما إلى ذلك، يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال وهو أنه وردت عدّة روايات صرّحت بعضها بأنّ أهل القبور يجتمعون أحياناً مع بعضهم ويطلع كل منهم على أوضاع الآخر وأنّ لهم مجالسهم وحلقاتهم، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كَأَنِّي بِهِمْ حَلَقٌ حَلَقٌ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ» (١).

فكيف الجمع بين هذه الروايات وما ورد فى عبارات الخطبه المذكوره؟

ولعلّ الأجابه على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى أنّ الروايات المذكوره إنّما وردت بشأن المؤمنين وأصحاب الأعمال الصالحه، وأمّا ما جاء فى هذه الخطبه، فإنّما ورد بشأن أصحاب الدنيا من أهل الأعمال السيئه، وعليه فليس هنالك من تعارض بين هذه الخطبه وما صرّحت به الروايات.

ص: ٣٢

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

ذكر فيها ملك الموت وتوفيه النفس وعجز الخلق عن وصف الله

نظره إلى الخطبه

تفيد بعض القرائن أنّ هذه الخطبه جزء من خطبه مفصله طويله، وهي تهدف في الواقع إلى بيان هذه الحقيقه التي تكمن في عجز البشريه عن إدراك كنه الذات وصفات الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنّ الإنسان إن عجز عن معرفه ملك الموت وصفاته وطبيعته أعماله، فكيف يتوقع أن يقف على كنه الذات والصفات للخالق سبحانه كما هي عليه.

والذي يفهم من كتاب «تمام نهج البلاغه» أنّ هذه الخطبه هي جزء من الخطبه المعروفه بالأشباح والتي أوردتها الإمام على عليه السلام بشأن عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات والصفات الإلهيه، والحق إنّ عبارته هذه الخطبه تنسجم تماماً وعبارات خطبه الأشباح، فاذا ما وضعت الخطبتان مع بعضهما لتوصلنا إلى أنّ الخطبه التي بين أيدينا هي جزء من تلك الخطبه (٢).

ص: ٣٣

١ - ١) سند الخطبه: ورد في مصادر نهج البلاغه أنّه نقلها «على بن محمد الليثي» صاحب كتاب «عيون الحكم والمواعظ» مع فارق قليل، وقال ابن ميثم البحراني حين شرحه لهذه الخطبه أنّها جزء من خطبه طويله أوردتها الإمام على عليه السلام بشأن توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه. ويفيد هذا الكلام أنّه نقل هذه الخطبه من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٤٤).

٢ - ٢) كتاب «تمام نهج البلاغه»، ص ٦٥.

«هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟ ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. أَيْلُجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجُزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!». .

الشرح والتفسير

أينما تكونوا يدركم الموت

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبة في الواقع جزء من خطبه التي تصدت لبيان صفات الله تعالى وعجز البشريه عن إدراك كنهه وصفاته سبحانه، وقد استدلل الإمام عليه السلام بمثال في هذه الخطبه يشخص الحقيقه المذكوره ويبيّن عجز الإنسان عن الوقوف على كنه ذات أغلب المخلوقات، وبناءً على ما سبق فكيف يمكن توقع وقوف هذا الإنسان على كنه ذات وصفات الخالق المطلق بينما لا يسعه إدراك كنه مخلوق مثله؟

فقد قال عليه السلام: «هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟ ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا؟». .

قطعاً أنّ روح الإنسان تفصل عن جسده من قبل ملك الموت، كما صرحت بذلك العديد من الآيات القرآنيه، والحال ليس لدينا أى علم بولوجه من أجل قبض الروح ولا-خروجه، كما لا-نراه حين يقبض الروح، رغم أنّه مخلوق من مخلوقات الله سبحانه، وما أكثر من مثله من الملائكه الذين يتعذر علينا رؤيتهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالتطرق إلى مورد خاص بشأن قبض الروح والذي يتصف بالتعقيد والغموض، وهو قبض روح الجنين في بطن أمه، فقال عليه السلام: «بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. أَيْلُجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟». .

فمن البديهي أنه يشق على كل عالم بانتقاء أى من الأجوبه الثلاث على سؤال المذكور، فليس هنالك دليل يثبت أى منها، وعليه فقضيه قبض الروح بواسطه ملك الموت بحد ذاتها قضيه شائكه غايه فى التعقيد يعجز عن إدراكها الإنسان فضلاً عن قبض روح الجنين فى بطن أمه.

ثم يخلص الإمام عليه السلام من العبارات السابقه إلى هذه النتيجة: «كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجُزُ عَنِ صِفِهِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!». .

نعم، فهناك الألوف المؤلفه من المخلوقات والكائنات التى عجز الإنسان عن إدراكها حتى بعد تطور العلوم وتقدمها، فما حقيقه الروح؟ وما كيفيه إرتباطها بالجسد؟ كيف تنسلخ عن الجسد؟ وأين تتجه هذه الروح بعد انفصالها من البدن؟ ما حقيقه الحياه؟ لم استطاع العلماء جمع كافة العناصر الموجوده فى الخليه الحيه فى مختبراتهم بصوره صناعيه إلا أنهم عجزوا عن نفخ الروح فيها؟ !

ما حقيقه الزمان والمكان؟ ما كيفيه أمواج الجاذبيه التى تربط شرق العالم بغربه؟ ومئات الأسئلة من هذا القبيل.

فاذا عجزنا عن وصف هذه المخلوقات التى نشترك معها فى كثير من الأمور، فكيف نتوقع إمكانيه وصفنا لله الذى لا يشترك معنا فى أى أمر؟ ! بلى، لدينا علم إجمالى بوجوده وصفاته سبحانه، حيث نعلم أنه موجود وله الصفه الفلانيه على سبيل الإجمال، إلا أن الكل يعرب عن عجزه وفشله من اقتحام ميدان العلم التفصيلي، بما فيهم أنبياء الله سبحانه وتعالى.

تأملات

١ - ملك الموت أم ملائكه الموت

هل ملك واحد أم جماعه؟ سؤال يتبادر إلى أذهان الكثيرين، فقد وردت بعض الآيات القرآنيه التى نسبت إلى الله تعالى قبض الأرواح: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا. . .» (١).

ص: ٣٦

بينما نسبت البعض الآخر منها قبض الروح إلى الملائكة، كما نسبته إلى ملك الموت الذى عيّرت عنه أيضاً بالملائكة، فقد صرحت الآية ١١ من سوره السجده قائله: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ. . .». وقالت الآية ٨ من سوره النحل: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ» .

ويعلم أرباب التفسير وأهل التحقيق فى القرآن أن ليس هنالك أى تعارض بين الآيات الثلاثه المذكوره، وذلك لأن السنه الإلهيه جرت فى تفويض الملائكه تدبير شؤون الخلق وأمور العالم، وعليه فالفعل المذكور هو فعل الله سبحانه من جانب حيث منه يصدر الأمر، وهو فعل الملائكه من جانب آخر كونها تباشر ذلك العمل، على سبيل المثال يقال الحاكم الفلانى جدد بناء المسجد الحرام فى التاريخ الفلانى، يعنى أنه أصدر أوامره للمهندسين والمقاولين والبنائين بمباشره ذلك البناء، هذا من جهه.

ومن جهه أخرى: لملك الموت معنى الجنس، ونعلم أن الجنس يستعمل فى مفهوم العموم ومعنى الجمع أيضاً.

واستناداً لما مرّ معنا فإن قبضه الأرواح هو طائفه من الملائكه يباشرنا ذلك العمل بأمر الله سبحانه وكبير هذه الملائكه هو «عزرائيل» .

ويعتقد البعض بأن الملكين المأمورين بكتابه أعمال الإنسان هما اللذان يتوليان قبض روح الإنسان إذا انتهى أجله، ولعل العبارة الوارده فى الآية الشريفه: «وَكُلُّكُمْ» أشارت إلى هذا المعنى.

ولما كان الصلحاء والأتقياء يتميزون بجميع خصائصهم عن الطلحاء والتمتهكين، فمن الممكن أن تختلف الملائكه التى تتولى قبض أرواحهم، ولقبض الروح الطاهره لعظماء الناس كالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله، فإن شخص ملك عزرائيل عليه السلام هو الذى يتولى هذه المهمه (١).

٢ - كيفية قبض الأرواح

تبدو قضيه قبض الروح مبهمه وغامضه لدينا على غرار الابهام الذى يكتنف ولوج

ص: ٣٧

(١ - ١) وردت إشاره لهذا المعنى فى روايه عن على عليه السلام (بحار الانوار ٦/١٤٢، ح ٦) .

الروح فى البدن، وكل الذى نعرفه بهذا الخصوص هو قطع الرابطة القائمة بين الروح والجسد حين قبض الروح، ولكن كيف يحصل ذلك وبأيه صيغه؟ فهذا ما يكتنفه الغموض والابهام.

ويبدو أنّ كل ما ورد فى الروايات الإسلاميه يكون من قبيل التلميحات والتشبهات، وإلا فليس لدينا سجناء عالم الماده من سبيل إلى مثل هذه الأمور المتعلقه بعالم ما وراء الطبيعه.

فهل ملك الموت كائن فى موضع - كما ورد فى بعض الروايات - والدنيا لديه كالدرهم فى كف اليد يقلبه كيف يشاء بحيث يتوفى كل أحد إذا ما صدر أمر وفاته، فيقبض روحه، أم أنّ ملائكه الموت انتشروا فى كل مكان من العالم ويتجهون لقبض الأرواح إذا حان أجلها؟

لقد ذكرت ثلاثه احتمالات فى الخطبه بشأن الأطفال الذين تقبض أرواحهم وهم أجنه فى بطون أمهاتهم:

الأول: ورود ملك الموت فى أحشاء الأم من بعض جوارحها.

والثانى: يدعو روح الجنين اليه وهو فى الخارج.

الثالث: كونه مع الجنين فى أحشاء الأم منذ البدايه، ولذا عدم ترجيح الامام عليه السلام أحد هذه الاحتمالات الثلاثه إشاره الى حقيقه أنّ صعوبه إدراكنا لجزئيات هذه الأمور بفعل وجودنا فى عالم الماده.

وقد ركز بعض شراح نهج البلاغه على الاحتمال الثانى من بين الاحتمالات الثلاثه المذكوره، ولعل دليلهم فى ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قيل لملك الموت عليه السلام: كيف تقبض الأرواح وبعضها فى المغرب وبعضها فى المشرق فى ساعه واحده؟

فقال: أدعوها فتجيبني، قال: ثم قال ملك الموت: إنّ الدنيا بين يدي كالقصعه بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء» (١).

ص: ٣٨

مِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فِي ذَمِّ الدُّنْيَا

نظره إلى الخطبه

تحدّث الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عن عدّه مسائل مهمّه مرتبطه مع بعضها البعض الآخر.

فقد حذر عليه السلام في القسم الأول من الخطبه من الدنيا، ثم ذكر عيوبها ومصائبها، حيث شبّهها بالدار الآيله للسقوط فلا ينبغي الاغترار بها، ثم واصل في القسم الثاني كلامه بهذا الخصوص موصياً بعدم نسيان الموت والزهد في الدنيا من خلال عدم التعلّق بها.

وأخيراً إختتم الخطبه بالإشاره إلى تشتت المسلمين واختلافهم وإسناد ذلك إلى التهافت على الدنيا، وإنّ صلاح المجتمع في الحذر منها.

ص: ٣٩

١-١) سند الخطبه: ذكر البعض هذه الخطبه كل من الزمخشري في أوائل كتاب «ربيع الأبرار» والآمدى في كتاب «غرر الحكم» باختلاف طفيف يفيد أنه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٤٧).

«وَأُحْذِرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنَزِلٌ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٍ. قَدْ تَزَيَّنَتْ بِعُزُورِهَا، وَعَرَّتْ بِرِبْنَتِهَا. دَارٌ هِيَ أَنْتَ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالُهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرُهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلُوقُهَا بِمَرِّهَا. لَمْ يُضَيِّفْهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسَلَبُ، وَعَامِرُهَا يَحْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرُ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمِيدَةٌ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ. وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ» .

الشرح والتفسير

إتجه الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه نحو ذم الدنيا وأصحابها المتكالبين عليها، ثم حقرها وعدد عيوبها بما يوقظ كل عاقل وينبهه إلى أن الدنيا لا يمكنها أن تكون سبيل للنجاه وأداه للسعاده.

فقد استهل عليه السلام الخطبه بتحذير مخاطبيه بما فيهم الناس آنذاك واليوم وسائر الأفراد في كل العصور من الدنيا قائلاً: «وَأُحْذِرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنَزِلٌ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٍ» .

«القلعه» بضم القاف وسكون اللام المشتقه من ماده «قلع» الموضع غير المستوطن الذى يجب أن يرحل عنه الإنسان فى أى زمان.

و «النجعه» بضم النون عكس سابقتها فهى تعنى الموضع الذى عثر فيه الإنسان على الخير

والبركة، وقد عزم قطعاً على الاستقرار فيه، وعليه فمفهوم كلامه عليه السلام أن الدنيا منزل مؤقت عابر ولا قيمة لها لكي يتخذها الإنسان موضعاً للإقامة والاستقرار، ثم واصل عليه السلام الكلام بالإشارة إلى أدله المطلب السابق ليقول: «قَدْ تَزَيَّنَتْ بِعُزُورِهَا، وَعَزَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ (١) هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالُهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرُهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلُوهَا بِمَرِّهَا» .

إذا أردت الحصول على الرزق الحلال فإن عليك أن تتحمل آلاف المصاعب والمعاناه وأن تتجاوز الطرق الوعرة والمطبات الشائكة، كما عليك أن تعد بدنك لوخز الأشواك كلما حاولت غرس الزهور، وإن إبتغيت العسل فما عليك إلا أن تتوقع لدغ الزنابير، فالواقع هناك أفعى كامنه فى كل كتر ومراره فى كل حلاوه، وعلى سبيل المثال فمن لم يرزقه الله الولد عاش الهم والغم الذى يثقل كاهله ويكدّر روحه، ولكن ما إن يرزق الولد حتى يواجه سيل المشاكل التى تعقب ذلك، وهكذا سائر النعم التى يثير فقدانها الغم ووجودها التعب والإرهاق.

ثم أكد عليه السلام ذلك الكلام على أنه هو السبب الذى لم يجعل الله سبحانه يرضها ثواباً لأولياته ولم يمنعها عن أعدائه: «لَمْ يُصْفِهَا (٢) اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ (٣) بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ» .

نعم، لو كان متاع الدنيا ثمين لخصّ بها الحق سبحانه أوليائه وزواها عن أعدائه، لكنّها لما كانت زهيده لا قيمة لها، فهو يهبها لكل شخص.

ثم أضاف عليه السلام: «خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ (٤). وَجَمَعَهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرُبُ» .

والعجيب ليس هناك من تدريج فى هذه التغييرات وزوال النعم وانهايار الحكومات وخراب المعمور، بل أحياناً يتغير كل شىء خلال ساعه، بل فى برهه من الزمان والتاريخ مليء بمثل هذه الحوادث المرعبه والتى تنطوى على العبر والدروس.

فكيف والحال هذه يتعلق بالدنيا عاقل؟ ويثق بنعمها؟ ويفرح باقبالها ويحزن لإدبارها؟

ص: ٤٢

١ - ١) وردت هذه العبارة فى سائر النسخ بهذه الصيغه «دار هانت على ربّها»، بينما يبدو أنّها وردت خطأ فى نسخه صبحى الصالح والتى أقتبست منها هذه النسخه بهذه الصيغه «دارها هانت» .

٢ - ٢) «لم يصفها»: من ماده «الاصفاء» بمعنى الاختصاص إشاره إلى تفاهه نعم الدنيا بحيث منحها الله الجميع.

٣ - ٣) «لم يضمن»: من ماده «الضمن» بمعنى البخل.

٤ - ٤) «عتيد»: من ماده «عتاد» على وزن جواب بمعنى حاضر وتأتى بمعنى الإدخار.

ثم واصل الإمام عليه السلام الكلام بهذا الخصوص من خلال طرحه على شكل سؤال، لينطلق الجواب عليه من باطن قلب المخاطب فيكون له أثره البالغ والعميق: «فَمَا خَيْرٌ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٌ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٌ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ!». .

لقد استعمل الإمام عليه السلام قمه الفصاحة والبلاغه في هذه التشبيهات الثلاث، فقد شبه بادية الأمر الدنيا بدار خاويه باليه قد انفطرت جدرانها وأشرفت سقوطها على الانهيار، ثم شبه عمر الإنسان بالأطعمه التي توضع على المائدة وتأخذ بالتناقص مع مرور الزمان إثر تناولها، وأخيراً شبه فتره بقاء الإنسان في هذا العالم بالأسفار القصيره التي لا يكاد المسافر يحث خطاه فيها حتى ينقطع أمدها.

ثم إختتم عليه السلام هذا القسم من الخطبه بثلاث وصايا خاطب بها الجميع فقال: «اجْعَلُوا مِا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلِبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ». .

فقد أوصى الناس في العبارة الأولى أن يهتم الناس على الأقل بالفرائض الشرعية بقدر طلباتهم الشخصية فيجدوا ويجتهدوا في هذا الأمر، لا أن يجعلوا الصداره لحاجاتهم الدنيويه ويهمشوا الفرائض الإلهيه والواجبات الشرعيه.

كما يحتمل أن يكون المراد اجعلوا التوفيق للإتيان بالفرائض والواجبات الشرعيه من حاجاتكم وطلباتكم بين يدي الله تبارك وتعالى، غير أن المعنى الأول يبدو هو الأنسب وذلك للإشاره إلى هذا المعنى والتي وردت في العبارة الثانيه إذ قال: «وَاسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ»، وعليه سيكون تفسير الجملتين تكرار لمفهوم واحد.

وأخيراً أشارت العبارة الثالثه إلى التأهب والاستعداد لمواجهة الموت من خلال أداء حقوق الناس والتوبه من الذنوب وتدارك ما فرط، وبخلافه فإن الموت سيباغت الإنسان ويقذف به في عالم لم يعد العده لدخوله.

«إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَإِنْ اغْتَبَطُوا بِمَا رَزَقُوا. قَدْ غَابَ عَن قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الآخِرِ، وَحَضَرَ تَكْمُ كَوَازِبِ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مِمَّا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا حُبُّ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازُرُونَ وَلَا تَنَاصِيحُونَ، وَلَا تَبَادُلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبه إلى ثلاث نقاط تكمل المقطع المذكور من الخطبه وتؤكدده، وهي مقدمه للقسم القادم من الخطبه.

فقد إتجه أولاً إلى وصف الزهّاد في الدنيا ليتضح وضع كل فرد من خلال مقارنه أحوال المخاطبين مع أحوال أولئك، فذكر ثلاث خصائص يتحلى بها الزهاد قائلاً: «إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا» .

صفتهم الثانية تكمن في شدة حزنهم رغم فرحهم وسرورهم: «وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا» .

وأما صفتهم الثالثة فهم ناقدون على أنفسهم ساخطون عليها (وهم ليسوا راضين عن أعمالهم وطاعتهم) رغم شكرهم الله سبحانه وتعالى على موفور الرزق والنعمة: «وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَإِنْ اغْتَبَطُوا (١) بِمَا رَزَقُوا» .

ص: ٤٥

١ - ١) قرأها أغلب شراح نهج البلاغه مبنية للمجهول بينما قرأها البعض الآخر مبنية للمعلوم ففهموا من العبارة شبيه ما ذكر، والحال يتبين من الرجوع إلى المتون اللغوية أن للاغتباط معنى آخر هو السرور وحمد الله وشكره على نعمه (انظر لسان العرب والقاموس وسائر المصادر اللغوية) .

نعم، فعيون قلوبهم باكيه لما يرون في أنفسهم من نقائص وعيوب وما يتندر منهم من زلات أحياناً، وإن عاشوا حاله من السرور والضحك على مستوى الآداب الاجتماعيه والأخلاقه، إنهم يأسفون على ماضيهم ويغتمون لما كانت في أيديهم من فرص لم يستثمروها، رغم ما هم عليه ظاهرياً من الفرح والسرور، إلى جانب ذلك فإن لسانهم يلهج بحمد الله وشكره على ما حباهم به من نعم ماديه ومعنويه من جهه، ومن جهه أخرى فهم لا- ينفكون عن مقتهم لأنفسهم وتوبيخها لشعورهم بالتقصير في عدم استثمارها بالشكل الصحيح.

وخاصه القول فهم في مقام النقد لأنفسهم وإصلاح نقائصهم ومعايبهم المعنويه وهذا هو السبب في حركتهم التكاملية نحو الله سبحانه، فهم لا يقنعون بوضعهم السائد قط ليكون ذلك مدعاه لتخلفهم وإنحطاطهم.

ثم شرح في النقطة الثانيه وضع مخاطبيه ليقارنوا أنفسهم بالزهاد فيقفوا على عيوبهم، وقد بين لهم ثلاث صفات: «قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْأَجَالِ، وَحَضْرَتُكُمْ كَوَاذِبُ الْأَمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أُمَّلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ» .

نعم، فالدنيا تستولى على عقل الإنسان وفكره وينسى الآخرة إذا ما غاب عن قلبه ذكر الموت وإنهمك في هذه الدنيا العابره واحاطه القلب بالأمانى الخياليه الكاذبه.

ثم إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبه ببيان هذه النتيجة: «وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْتُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ (١) وَلَا تَنَاصِحُونَ، وَلَا تَبَاذُلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ» .

فالعبارة تشير إلى توفر سبل الوحده بينكم من خلال الإخاء الإسلامى وقد تصدعت هذه السبل بفعل الاختلافات التي تستند إلى التعصب والحقد والحسد وحب الدنيا وضيق الأفق، فأدى ذلك بالتبع إلى ضعف الأمن الداخلى والعجز أمام العدو الخارجى وبالنتيجه قطعت عنكم البركات الاجتماعيه كالتعاون والموازره وإسداء الخدمات المتبادله أو اصر المحبه والصدافه.

ص: ٤٦

(١- ١) «لا توازرون»: من ماده «موازره» بمعنى التعاون والمساعده.

فهذه العبارة تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ حبّ الدنيا وخبث السريرة وسوء التّيه والأخلاق لا يفسد الآخرة فحسب، بل يحيل المجتمع البشري إلى بؤره للتوتر والنزاع والاصطدام بحيث تنعدم فيه مظاهر التعاون والمساعدة.

ص: ٤٧

«مَا بِالْكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَخْزُنُكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمْ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَّبِعَنَّ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقَلَّ صَبْرُكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مَقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبَلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَهُ أَنْ يَسْتَقْبَلَهُ بِمِثْلِهِ. قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينَ أَحَدِكُمْ لُغْفَةً عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام - في القسم من الخطبه والذى يمثل آخرها - أصحاب الدنيا وهو يسعى لإيقاظهم من سباتهم وغفلتهم من خلال الذم واللوم القائم على أساس الدليل والبرهان فقال: «مَا بِالْكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَخْزُنُكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمْ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَّبِعَنَّ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقَلَّ صَبْرُكُمْ عَمَّا زُوِيَ (١) مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مَقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ» .

نعم، هذا حال أغلب أهل الدنيا الذين لا يحزنهم فوات الأمور المعنويه بينما تنقلب أحوالهم لأدنى ضرر مادي يحيق بهم، على سبيل المثال ليس هناك ما يقلقهم إذا فاتتهم صلاه الفجر

ص: ٤٩

١-١) «زوى»: من ماده «زى» على وزن حى بمعنى الجمع والأخذ والإبعاد والمراد بها فى العبارة الفقدان والإبعاد حيث وردت بصيغه الفعل المجهول مقرونه بالفعل عن.

لعدّه أيام متتاليات، أو لا يغمون إن حرموا لسنوات من فيوضات التهجد وقيام الليل، بينما يضجرهم خسران بضعه دارهم، فلا يتمالكون أنفسهم عن الزعيق بمن حولهم، ولعل هذا التفاوت الواضح والمخجل يستند إلى أحد أمرين: إمّا ضعف إيمانهم بالآخرة والوعد والوعيد الإلهي، أو أنهم مؤمنون بالآخرة والوعد والوعيد غير أنّ الهوى قد أحاط بقلوبهم واستولى على أنفسهم وسيطرت عليهم الغفلة بحيث لم يعودوا يروا سوى الدنيا وحطامها ومتاعها الزائل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن نقطه ضعف أخرى يمتاز بها طلاب الدنيا والتي تتمثل بعدم قدره أى أحد منهم على التعرض لعيوب أخيه (بهدف الإصلاح والنهي عن المنكر) ما ذلك إلّا خشية أنّ يجابهه بنفس ذلك العيب: «وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبَلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَهُ أَنْ يَسْتَقْبَلَهُ بِمِثْلِهِ» .

فالعباره تشير إلى حرمانهم من إصلاح بعضهم البعض الآخر رغم إتصافهم بكل تلك العيوب الناشئه من حبّ الدنيا، وذلك لأنّه لا يجراً أحد منهم أن يتصدى للإصلاح فهو يخشى الردّ من الآخرين الذين ينبرون له ويقولون: إنّ هذا العمل أو ذاك شيئاً فلم نفعله؟ وإن كنت طيباً فهلمّاً عالجت نفسك قبل أن تهتم بعلاج الآخرين (طبيب يداوى الناس وهو عليل)؟ وهل يصح اطلاق الحجر ممن كان بيته من الزجاج؟!

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول كأنكم قد اتفقتم على نبذ الآخرة والذوبان فى الدنيا وقد أصبح الدين لقلقه لسان، وأنكم لأشبه بمن قام بعمله وأحرز رضى سيده ومولاه: «قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينَ أَحَدِكُمْ لُغْقَهُ (١) عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ» .

قد تحصل أحياناً بعض الأفعال الشائنه بين الناس دون أن يكون هناك إتفاق مسبق عليها، إلّا أنّها على درجه من التناغم والتنسيق والانسجام وكأنّهم حضروا عدّه جلسات مخططه ومبرمجه، وقد اتفقوا على كل شىء، وما هذا إلّا التشابه الدوافع فى مثل هذه الأمور،

ص: ٥٠

١- ١) «لغقه»: من ماده «لغق» على وزن فرق بمعنى لحس الشىء وتطلق اللغقه على القليل من الطعام الذى يجعله الإنسان بأصبعه أو ملعقه صغيره على لسانه ويتلعه بسرعه، وهى كناية عن الشىء المختصر.

وأحد مصاديقها الواضحه يتمثل بعدم المبالاه بالقضايا المرتبطه بالآخره والخلود إلى الدنيا الماديه.

يمكن أن يكون مثل هؤلاء الأفراد الطلاب للدنيا من المتدينين ظاهرياً، غير أن تدينهم لا يتجاوز سلسله من الشعارات والمزاعم والألفاظ وأحياناً القليل من العبادات، والمفرده «لعهه» تشير إلى هذا المعنى، وقد يعيشون أحياناً حاله من الرضى عن أنفسهم وكأنهم عملوا بكل تكاليفهم الشرعيه ووظائفهم الإنسانيه وقد فازوا بمقام القرب الإلهى وبلوغ رضاه، والواقع هذا انحراف خطير أشار الإمام عليه السلام إليه فى آخر هذه الخطبه.

ص: ٥١

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

وفيها مواعظ للناس

نظره إلى الخطبه

مزج الإمام عليه السلام القسم الأول من هذه الخطبه حمد الله والثناء عليه بعبارات تكشف معالم طريق معرفه الله تعالى وتعلم الإنسان اسلوب الشهاده بالإخلاص، كما تبين أهميه الشهاده بالوحدانيه والنبوه وذلك بعبارات عميقه المعنى، وفي القسم الثانى من الخطبه دعى الجميع إلى التحلى بالورع والتقوى وتطرق إلى آثارها وبركاتها التى تنعكس على حياه الإنسان.

أما القسم الثالث فقد جرى فيه الحديث عن تقلب أحوال الدنيا وسرعه زوال النعم وعدم بلوغ الأمانى وقصر الحياه الدنيا، وأخيراً القسم الرابع الذى تضمن مختلف النصائح والمواعظ البالغه حيث دعى الجميع إلى طاعه الله سبحانه وحذرهم من نسيان الآخره والانغماس فى مخالف الغفله والغرور بالحياه الدنيا، ولا يخفى على أحد الترابط الوثيق بين الأقسام الأربعة

ص: ٥٣

١ - ١) سند الخطبه: ورد قسم مهم من هذه الخطبه فى كتاب «تحف العقول» الذى يحتمل تأليفه قبل نهج البلاغه، وقد نقل الزمخشري مقطعها الأول فى أوائل كتابه «ربيع الابرار» والقسم الآخر فى أوائل المجلد الثانى من ذلك الكتاب، ويتضح من الفرق بين نقله ونقل السيد الرضى قدس سره أنه إقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغه، كما نقلها مع اختلاف طفيف القاضى القضاعى (وهو من علماء القرن الخامس ومن مقربى أحد خلفاء الدوله الفاطميه فى مصر) فى كتابه «دستور معالم الحكم» والمرحوم الشيخ الطوسى فى الآمالى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٥٢).

وتبلورها في عرض سلسله من المواعظ المتسقه.

أما فصاحه وبلاغه هذه الخطبه ولطافه وعذوبه عباراتها ليتبين ممّا صرّح به صاحب كتاب «الطراز» الإمام يحيى الزيدى (من علماء القرن الثامن) في ختام هذه الخطبه إقال: «لَوْ كَانَ كَلَامٌ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ مُعْجِزَةً لَكَانَ هَذَا هُوَ الْأَوَّلُ وَلَوْ أَعْجَزَ شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ لَكَانَ هَذَا هُوَ الثَّانِي» (١).

ص: ٥٤

١-١) مصادر نهج البلاغه ٢/٢٥٢. [١]

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى آلائِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلَائِهِ. وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هَذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السَّرَّاعِ إِلَى مَا نُهَيْتَ عَنْهُ. وَنَسْتَعْفِزُهُ مِمَّا أَحْرَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَخْصِيَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُعَادِرٍ، وَتَوْمِينٌ بِهِ إِيمَانٌ مِنْ عَيَايِنِ الْغُيُوبِ وَوَقْفٌ عَلَى الْمُوعُودِ، إِيمَانًا نَفَى إِخْلَاصَهُ الشُّرُوكَ، وَيَقِينُهُ الشُّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُضِيحُ عِدَانَ الْقَوْلِ وَتُزْفَعَانِ الْعَمَلِ. لَا يَخْفُ مِيزَانُ تَوْضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانُ تَرْفَعَانِ عَنْهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه إلى مسائل مهمه في جانب حمد الله والثناء عليه والاستعانه بذاته المقدسه والاستغفار من الذنوب والمعاصي، فقال باديء ذي بدء: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ» .

قرن الحمد بالنعمة يستند إلى أن حمد الله تعالى بنعمه وشكره يجعل الإنسان جديراً بالنعم، فهذا الحمد يجعل العباد يتمتعون بنعمه وأفضاله، كما تعود علاقته النعمه بالشكر إلى أن النعمه سبب الشكر، وذلك لأن العباد مكلفون بشكر كل نعمه، فالشكر واجب على كل نعمه (الواقع هو أن الحمد يشكل السبب التكويني للنعم والنعم السبب التشريعي للشكر)، والشاهد على ذلك ما ورد في الخطبه ١٥٧ إذ قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ» .

طبعاً يمكن أن تكون هناك عدّة تفاسير أخرى للعبارتين المذكورتين من حيث تفاوت العلّة والمعلول، غير أن ما ورد هو أنسبها جميعاً.

ثم قال عليه السلام في المسألة الثانية: «نَحْمِدُهُ عَلَى آيَاتِهِ، كَمَا نَحْمِدُهُ عَلَى بَلَائِهِ». في إشارته إلى أنّ البلاء الإلهي هو في الواقع نوع من النعم، كما بيّنا ذلك في بحثنا لفلسفه الآفات والبلاء ضمن مباحث التوحيد والعدل، فقد يكون البلاء سبباً لليقظة والعودة إلى الله تعالى وترك المعاصي أحياناً، وقد يكون أحياناً أخرى بلاءً ظاهراً، لكنّه نعمه باطنياً، غير أننا لا نميز ذلك، فربّما يكون البلاء كفّاره للذنوب كما قد يكون وسيله لمعرفة قدر النعم وذلك لأنّ الإنسان قد لا يعرف قيمه النعم إلّا أن يفقدها ويتعرض إلى بعض الشدائد، وإلّا فالحكيم تبارك وتعالى لا يعرض شخصاً للبلاء عبثاً، وعليه فبلاؤه رحمه ودأؤه دواء.

ثم قال في المسألة الثالثة: «وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هَذِهِ النَّفُوسِ الْبِطَاءِ (١) عَمَّا أَمَرَتْ بِهِ، السَّرَاعِ إِلَى مَا نُهَيْتَ عَنْهُ».

إشارته إلى النفوس البشريه ما لم تبلغ المرحله المتكامله للنفس المطمئنه فهي ضعيفه في الإتيان بالوظائف الشرعيه وإمتثال الأوامر الإلهيّه ومسارعه في مقارفه الذنوب التي تنسجم والغرائز الحيوانيه، ويتعذر تجاوز مرحله النفس الأماره وبلوغ مرحله النفس اللوامه والوصول إلى النفس المطمئنه ما لم تكن هناك نصره الله ومدده.

ثم قال عليه السلام: «وَنَسْتَعْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَخْصَاهُ كِتَابُهُ: عَلِمَ غَيْرَ قَاصِرٍ، وَكَتَابَ غَيْرِ مُعَادِرٍ».

فالعبارته تشير إلى أننا إن لم نستغفر من الذنوب ولم نجل صدأ القلوب فسوف لن يسعنا التخلص من وساوس النفس والفوز بمقام القرب وبلوغ تلك المرحله من الإيمان التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، والواقع هو أنّ الاستغفار تكميل للبحث السابق ومقدمه للبحث القادم.

أمّا القضية الأخيره فقد تناولت النتائج النهائيه لهذا البحث فقال: «وَتَوْمُنٌ بِهِ إِيْمَانٌ مِنْ عَايِنِ الْغُيُوبِ وَوَقْفَ عَلَى الْمَوْعُودِ، إِيْمَانًا نَفَى إِخْلَاصُهُ الشُّرُكَ، وَيَقِينُهُ الشُّكَّ».

ص: ٥٦

إشاره إلى خلاص الإنسان من وساوس النفس إذا ما مزج حمد الله تعالى والثناء عليه بشكر النعم، وخرج سالماً معافى من ميدان الامتحان وتغلب على هواه ونزع عن ذنوبه وتاب من معاصيه آنذاك له أن يبلغ كمال الإيمان، الإيمان الذى يبلغ به درجه الشهود، وكأنه يرى الله ببصيرته ويشاهد بأَم عينيه الجنه والنار وثواب المحسنين وعقاب المسيئين، الإيمان المتزّه عن كافه أشكال الشرك واليقين الذى لا يتطرق إليه الشك.

نعم، فاليقين على مراتب: المرتبه الأولى وهى مرحله التى يتجه إليها الإنسان بواسطه البرهان والاستدلال التى يصطلح عليها باسم «علم اليقين»، والمرتبه الثانيه وهى مرحله التى يصلها الإنسان عن طريق الشهود وكأنه يرى من بعيد الأنوار الإلهيه وعرصه الحشر يوم الحساب، وهى مرحله المسماة «عين اليقين» يلمس جميع الأشياء، فالأنوار الإلهيه تحيطه من كل جانب ونسيم الجنه المنعش يداعب ظلال روحه ويتكدر لنيران جهنم المحرقه، وهى مرحله التى تدعى «حق اليقين»، وعلى هذا فالمراد بالعباره عاين ووقف هو تلك مرحله النهائيه للإيمان واليقين التى تبلغ فيها الإنسان مقام الشهود عن قرب وبالعاينه.

وأخيراً يتوجه الإمام عليه السلام صوب الشهاده بالتوحيد والنبوه ليختتم به هذا المقطع من الخطبه، فقال: «وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تَصِدِّقَانِ الْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ. لَا يَخْفُ مِيزَانُ تَوْضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانُ تَرْفَعَانِ عَنْهُ».

فى إشاره إلى أنّ الشهاده بالوحدانيه والنبوه إن انطلقت من أعماق النفس البشريه وظهرت أثارها على القول والعمل، فإنها على درجه من الطهر الاخلاص بحيث تشكل أثقل الأوزان فى ميزان الأعمال يوم القيامة حتى لا يخف ذلك الميزان بوجودها، والعكس صحيح لا ثقل لذلك الميزان مهما وضع فيه دونها.

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى لو أنّ السموات وعامريهنّ عندى، والأرضين السبع فى كفّهِ ولا إله إلا الله فى كفّهِ، مالت بهنّ لإله إلا الله» (١).

ص: ٥٧

١ - ١) ثواب الأعمال، ([١] حيث نقل شرح نهج البلاغه، للعلامة الخوئى ٨/٥٧) وهذا هو الحديث الأول الذى ورد فى كتاب ثواب الأعمال. [٢]

وبالطبع ليس المراد بالزنه هنا الأوزان وما يرتبط بها عن ميزان، بل المراد زنه القيم على ضوء المعايير العقلية والمعنويه.

تأمل

أسس الموقيه والنجاه

بين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه والذي يشكل في الواقع مقدمه للقسم الثاني الذي يتحدث عن أهميه التقوى وآثارها، حقيقه جذور الورع والتقوى والتي يكمن أهمها في الإيمان واليقين والمعرفه، والإيمان القوى والراسخ الذي يبلغ بصاحبه درجه تجعله كأنه يرى الله ويشاهد نعم الجنه ونيران جهنم، ومما لا شك أن مثل هذا الإيمان هو ماده التقوى.

أضف إلى ذلك فقد أشار إلى الموانع الأصلية لهذا الأمر والتي تتمثل بالنفس الطائشه على أن الاستعانه باللطف الإلهي، هو سبيل النجاه منها وقد تطرق إلى ما ورد في سوره يوسف وشأنه مع زليخا: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١).

حيث استعان بعدّه وسائل من أجل بلوغ هذا الهدف ومن ذلك حمد الله والثناء عليه وشكره على النعم والبلاء والحديث عن التوبه والاستغفار بصفته أحد العوامل المؤثره في التوفيق في هذا المسير، وما أن يتم الانتهاء من هذا البرنامج الإلهي حتى يشرع ببحث التقوى على أنه من الأبحاث المداعبه للقلب والتي تختزن تعتبر غايه في التأثير ولو استفاد المرّبون وأساتذته درس الأخلاق من هذا الطريق الذي علمناه الإمام عليه السلام لتحقيق هذا الهدف لما كان هناك من شك في تأثير حديثهم ونفوذ كلامهم.

ص: ٥٨

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ: زَادٌ مُبْلَغٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمِعُ دَعَا، وَوَعَاهَا خَيْرٌ وَاعٍ. فَأَسْمِعْ دَاعِيَهَا وَفَارَ وَاعِيَهَا.

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَالزَّمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسِيَهَرَتْ لَيْلِيَهُمْ، وَأُظْمِيَتْ هَوَاجِرُهُمْ. فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالزِّيَّ بِالظَّمِّ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلَا حَظَّوَا الْأَجَلَ» .

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام عن تلك المقدمة الرصينه والوثيقه فى المقطع الأول من هذه الخطبه، إتجه إلى أهم فضيله من الفضائل التى يكتسبها الإنسان وهى التقوى، فقد أشار فى البدايه إلى آثارها الأخرويه، فقال: «أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ: زَادٌ مُبْلَغٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ» .

من البديهي أن يحتاج الإنسان فى أسفاره الطويله المليئه بالأخطار والمخاوف إلى شيئين: الزاد والمتاع اللازم والمنازل والأماكن التى تحفظه من المخاطر، وهو ما صرح به القرآن الكريم بقوله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...» (١).

ص: ٥٩

وما اقتصه من خير يوسف عليه السلام حين لاذ بالتقوى كسبيل للنجاه حين وقف على حافة خطر هاويه الذنب: «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ . . .» (١).

حقاً إنّ التقوى كهف حصين وأمين وراسخ إزاء السيول الجارفة لأهواء النفس ووساوس الشيطان وحصن حصين للنجاه من نار جهنم يوم القيامة وأفضل زاد ومتاع في هذا السفر المليء بالخوف والخطر.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن أهميّة التقوى في أنّ من دعا إليها أسمع داع نافذ الكلمة (إشاره الله تبارك وتعالى، أو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أو جميع الأنبياء والأولياء) وقد وعى تلك الدعوه خير واع (إشاره إلى كافه التقاه وأتباع مدارس الأنبياء): «دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاَهَا خَيْرٌ وَاعٍ. فَأَسْمَعُ دَاعِيَهَا وَفَازَ وَاعِيَهَا» .

ذهب البعض إلى أنّ المراد بالداع إلى التقوى قد يكون الله سبحانه وتعالى أو شخص النبي صلى الله عليه وآله الذي ينطق عن الله تعالى، والمقصود بواع التقوى هو على عليه السلام، ولا يبعد أن يكون لهما مفهوم عام يشمل جميع دعاه الحق ووعاته، على أنّ المنبع الأصلي هو الحق تبارك وتعالى والنبي صلى الله عليه وآله وإمام المتقين على بن أبي طالب عليه السلام.

ثم خاض عليه السلام في الآثار القيمه للتقوى في خاصه عباد الله فقال: «عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ (٢) أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَأَلَزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَشْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ (٣)» .

طبعاً العبارتان المذكورتان بشأن الليل والنهار هما تعبيران كنهانين لطيفان، حيث المراد أصحاب الليل الذين يفتقون في جوف الليل، فيقومون للعباده والتهدد وقد أحجموا عن النوم وانهمكوا بالدعاء والمناجاه، إلى جانب صومهم نهارهم وذكرهم الله على كل حال، فالعبارة تشير إلى أنّ تقوى الله هي ماده الحركه نحو جميع الفضائل والخيرات، وذلك لأنّ الإنسان حين يشعر بالمسؤوليه ينطلق في الحركه نحو إمتثال الطاعات واجتناب المعاصي

ص: ٦٠

(١-١) سورة يوسف / ٢٣. [١]

(٢-٢) «حمت»: من ماده «حمایه» بمعنى المنع، ولذلك يقال الحامى للذى يمنع عن الآخرين الخصوم والأعداء.

(٣-٣) «هواجر»: جمع «هاجره» وسط النهار في الجو الحار.

والمحرمات، وما إحياء الليل والصوم إلآ جانب من آثار خشية الله تعالى التي تسمى بالتقوى.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبه بوصف طريقه عبوديتهم لرّبهم بأنهم آثروا المشقه والتعب على الراحة والكسل والعطش على الرى، وقد شعروا بقصر الدنيا ودنو الأجل وهذا ما دعاهم إلى المسارعه فى الخيرات ومبادره الأعمال الصالحه، وعدم الخلود إلى الأمل بعد أن جعلوا الموت نصب أعينهم: «فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ (١)، وَالرِّىَ (٢) بِالظَّمِّ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلَا حَظَّوَا الْأَجَلَ» .

نعم، ففى الوقت الذى ينغمس فيه أهل الدعه والراحه فى مختلف الذنوب والأرجاس ترى هؤلاء يعضون الطرف عن الراحة بهدف مجانبه الذنوب والإتيان بالصالحات، وهم ليسوا كأهل الدنيا الذين خدعوا بها فوقعوا فى حبالها وآمالها الكاذبه.

والواقع هو أن العبارة «فبادروا» و «فلا حظوا» هى نتيجة ومعلول للعباره «واستقربوا» و «كذبوا» يعنى من يرى قرب الأجل وسرعه العمر يبادر بالعمل، ومن يكذب الآمال يفكر بالموت ويراه أمام عينيه، والطبع فأن تحمل مصاعب وشدائد هذا العالم يؤدى إلى سكينتهم الخالده واستقرارهم التام، وهو ما عبّر عنه الإمام عليه السلام فى موضع آخر بقوله: «صَبْرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً» (٣).

ص: ٦١

١- ١) أعظم الفضائل «نصب»: بمعنى العناء والتعب.

٢- ٢) «الرى»: بمعنى الارتواء من الماء.

٣- ٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٩٣ ([١] همّام) .

«ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغَيْرِ وَعَبْرٍ؛ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسُهُ، لَا تُحْطَىٰ سَهْمُهُ، وَلَا تُؤَسَّىٰ جِرَاحُهُ. يَزِيهِ الْحَيِّ بِالمَوْتِ وَالصَّحِيحِ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيِ بِالعَطَبِ. آكِلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْفَعُ. وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ المَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ. ثُمَّ يُخْرِجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَالََ حَمَلٍ، وَلَا بِنَاءَ نَقْلٍ. وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّكَ تَرَى المَرْحُومَ مَعْبُوطًا، وَالمَعْبُوطَ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكُ إِلَّا نَعِيمًا زَلَّ، وَبُؤْسًا نَزَلَ. وَمِنْ عِبْرِهَا أَنَّ المَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرِكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُورُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّهَا وَأَضْحَىٰ فَيْئَهَا، لَا جَاءَ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيِّ مِنَ المَيِّتِ لِلْحَاقِقِ بِهِ، وَأَبْعَدَ المَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!» .

الشرح والتفسير

لما كان الانغماس في الدنيا والتكالب عليها وفقدان النفس لتوازنها إزاء زخارف عالم المادة من أهم العوامل لعدم التقوى، فقد ورد الحديث هنا عن تفاهة الدنيا وتقلب أحوالها وما تنطوي عليه من شدائد ونوازل بهدف اجتثاث جذور التحلل وعدم استشعار الورع والتقوى فقال عليه السلام: «ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغَيْرِ وَعَبْرٍ» .

حيث تشير العبارة إلى أربع خصائص تمتاز بها الدنيا والتي يقود التفكير بها الإنسان إلى التعرف على الصورة الحقيقية للدنيا، ثم خاضت العبارات التالية في شرحها الواحد بعد

الأخرى مع التطرق إلى بعض التفاصيل الدقيقة لكل واحده منها، فأشارت في البدايه إلى خاصيه فناء الدنيا، حيث صورت بعض علامات هذا الفناء في أنّ الدهر يشبه الرامي الماهر الذي يطلق سهامه دون أن تطيش وتخطيء الهدف، كما يتعذر علاج جروح من أصابته تلك السهام: «فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسُهُ، لَا تُحْطِئُ سِهَامُهُ، وَلَا تُؤَسَى (١) جِرَاحُهُ» .

فلا خلاص لأحد من الموت والعجز والمشيب والمرض والألم والعناء، ولذلك قال الإمام عليه السلام في شرحه لهذه العبارة: «يَزِيهِمُ الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ» . فأقوى أفراد البشر يستسلم يوماً للموت، كما يمرض الأصحاء ويهزم حتى الأبطال.

نعم، هذه طبيعه الحياه الدنيا، وهذا هو القانون الذي لا يعرف لاستثناء، والغريب في الأمر أنّ الجميع يعرف ذلك ويرونه بأعينهم ورغم كل ذلك فهم يتعلقون بالدنيا ويخلدون إليها ويغترون بها.

ثم يختتم عليه السلام كلامه بشأن توضيح فناء الدنيا قائلاً: «أَكَلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ (٢)» .

فقد كشف الإمام عليه السلام حقيقه فناء الدنيا من خلال العبارات الثمان التي أوردتها في وصف الدنيا، بحيث لا يشك من كان له أدنى عقل بفناء الدنيا وعدم دوامها.

ثم خاض عليه السلام في شرح وتفسير عناء الدنيا ومن ذلك جمعه الأموال التي لا يستفيدها جميعاً والمباني التي يشيدها دون أن يسكنها وأخيراً يودع كل ذلك وينتقل إلى عالم آخر دون أن يحمل معه شيئاً من الأموال أو الدور: «وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَالًا حَمَلٌ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ» .

نعم، كثيرون هم الأفراد الذين يدخرون أموالاً طائلة، إلّا أنّهم لا يستفيدون إلّا من جزء يسير منها وما أكثر أولئك الذين يبنون لأنفسهم أعظم القصور والدور فلا يقيمون فيها إلّا مدّة قليلة، بل قد لا يسكنونها حتى ليوم واحد، وقد رأينا بأم أعيننا إقامه مراسم العزاء على أرواحهم في تلك القصور الفخمة، فهم يتركونها في خاتمه المطاف ولا يحملون من مال الدنيا

ص: ٦٤

١-١) «توسى»: من ماده «أسو» بمعنى علاج الجرح.

٢-٢) «ينقع»: من ماده «نقع» على وزن نفع بمعنى إرواء وارتواء.

سوى الكفن، بل ربّما لم يحملوا حتى ذلك الكفن، فتكون ثيابهم أكفانهم وبيوتهم قبورهم.

ورد في البحار عن العلامة المجلسي أنّ على عليه السلام قال: «كَمْ مِنْ غَافِلٍ يَنْسِيحُ ثَوْبًا لِيَلْبَسَهُ وَإِنَّمَا هُوَ كَفَنُهُ وَيَبْنِي بَيْتًا لَيْسَ كُنُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضِعُ قَبْرِهِ» (١).

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح الصفه الثالثه للدنيا فقال: «وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطًا، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيمًا زَلًّا (٢)، وَتُؤَسَّأ نَزْلًا» .

حيث رأينا كرارا ليس في صفحات التاريخ فحسب، بل في حياتنا اليوميه عدّه أفراد كانوا من أهل السطوه وقمه القدره حتى يتمنى الجميع الحصول على شىء من قدرتهم، لكنهم هووا في مستنقع السقوط بما جعل الكل يترحم عليهم، وبالعكس فإننا نعرف بعض الأفراد ممن يشعر من يراهم بالأسى والحزن لصعوبه أوضاعهم ومعاناتهم، بينما تسلقوا فجأه سلّم القدره ليحظوا باعجاب الجميع وغبطتهم.

نعم، لم يكن «قارون» لوحده الذى استعرض يوماً كل تلك القدره و الثروه التى خطفت أبصار قصار النظر من بنى اسرائيل الذين اعتراهم الحسد والأمل، فتمنوا الحصول على تلك الثروه بدله، ولم تمض مدّه حتى شقت الأرض لتبتلع كل كنوزه و ثرواته، ممّا دفع من تمنى تلك الثروه إلى شكر الله أن لم يجعلهم بدلاً منه ولم يغدق عليهم الثروه والسطوه، أجل لقد تكررت هذه الصوره مراراً فى التاريخ ثم قال عليه السلام فى الصفه الرابعه للدنيا التى تختص بكونها عبره: «وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرِكُ وَلَا مَوْءَلٌ يُتْرَكُ» .

فأحياناً يعدّ الإنسان عدّه مقدمات بغيه الحصول على المال والثروه أو الجاه والمنزله ولا يكاد يقترب من الوصول إلى أهدافه حتى يتخطفه الموت فيقضى على جميع طموحاته ورغباته ويحول دون تحقيقها، بل لا يدوم له حتى المال الذى يجنيه والمنصب الذى يشغله.

ثم يعرب الإمام عليه السلام فى آخر كلامه عن وحشته لمن يغترّ بمثل هذه الدنيا المليئه بالفناء والعناء والموصوفه بالغير والعبر: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُرُورُهَا وَأَظْمَأ رِيَّهَا (٣) وَأَضْحَى

ص: ٦٥

١- ١) بحار الانوار ٦/١٣٢. [١]

٢- ٢) «زلّ»: من ماده «زل» على وزن حل بمعنى الانزلاق والسقوط.

٣- ٣) «رى»: بمعنى الارتواء.

فَيَنْهَى، لَا جَاءَ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ .

نعم، عابره جداً لحظات الفرح والسرور وهي أشبه بلحظات الإرتواء من النعم وزوال الفيء والظل.

يمكن أن تكون العبارة «لا- جاء يرد ولا- ماض يرتد» إشارة إلى الناس حيث تأتي طائفه لا يقدر أحد على صدها، كما تنتقل طائفه من هذا العالم وليس لأحد من قدره على إعادتها، كما يمكن أن تكون إشارة إلى حوادث الدهر شرّها وخيرها والتي لا يسع أحد الحيلولة دون وقوعها إن أبرمت وأصبحت قطيعه حتميه، كما لا- يمكن عوده ما تولى من أمور ودهور، فلا- عوده للطفوله في الشباب ولا الشباب في المشيب.

ثم إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبه بهذه العبارة التي تكمل سابقتها من العبارات قائلاً: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلْحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لِإِنْقِطَاعِهِ عَنْهُ!» .

نعم، فالفاصله بين الموت والحياه قصيره جداً حتى صورتها الروايات بأنها تكاد تكون كطرفه العين، ومن ما ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا طَرَفْتُ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ سَفَرِي لَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِي وَلَا رَفَعْتُ طَرْفِي وَظَنَنْتُ أَنَّي حَافِضُهُ حَتَّى أُقْبِضَ وَلَا تَلَقَّنُ لُفْمَهُ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّي لَا أُسَيِّغُهَا حَتَّى أُعْضَّ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ» (١).

إن من له أدنى إلمام بينه جسم الإنسان ليعلم بمدى قرب هذه الفاصله، فيكفي تخثر مقدار قليل من الدم ليغلق منافذ شرايين الفاصله أو الدماغ فيؤدى بحياه الإنسان، بل يكفي نفوذ جزء يسير من الطعام إلى لسان المزمار بدلاً من إتجاهه إلى المعده ليختنق الإنسان ويموت من فوره، كما تكفى صدمه طبيعیه لهذا الإنسان قد توقف قلبه عن الدق وإلى الأبد.

أما بالنسبه للحوادث الخارجيه فبمجرد اهتزاز الأرض للحظه قد تنقلب مدينه رأساً على عقب، كما قد تأتي عاصفه أو سيل على كل شىء فتحيله خراباً لا حركه فيه ولا حياه، بل لصاعقه من السماء أن تحيل كل شىء إلى رماد.

ص: ٦٦

إلى جانب ذلك هنالك الحوادث اليومية في حياتنا المعاصرة من قبيل الاصطدامات وسقوط الطائرات والحرائق والانفجارات التي تنهى حياة الأفراد خلال لحظات، نعم، تكاد تكون معدومه هي الفاصله بين الحياه والموت، ولكن من جانب آخر فإن هذه الفاصله قد تكون في غايه البعد، فلو اجتمع كافه الأطباء وأعدّوا مختلف الوسائل الطبيه، فليس لهم أن يهبوا الحياه للأموات، على غرار الوليد الذي لا يسعه الرجوع إلى بطون أمه و الثمار التي لا تعود ثانيه إلى الأشجار بعد سقوطها.

نختم الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءٌ لَا يَتَّبِعِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْسَاهُنَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَنَاءُ الدُّنْيَا وَتَصَرُّفُ الْأَحْوَالِ وَالْآفَاتُ الَّتِي لَا أَمَانَ لَهَا» (١).

ص: ٦٧

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرِّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبْرُ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ! إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نَهَيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أَحَلَّ لَكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. فَدُ كَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأَمَرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلْبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اغْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخَلَ الْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضَمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَادِرُّوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَعْتَهُ الْأَجَلَ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعِهِ الْعُمُرُ مِمَّا يُرْجَى مِنْ رَجْعِهِ الرِّزْقِ. مِمَّا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِي عَمْدًا زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسٍ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي. فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» .

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام سلسله من النصائح والمواعظ في هذا المقطع من الخطبه والذي يمثل آخرها بهدف إعداد المخاطبين بحيث لو تأملها الإنسان وفكر فيها وسعه تحقيق السعاده والنجاه فقال:

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرِّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ» .

فالإنسان بصورة عامه يهرب من السوء والشر ويجنح نحو الخير، وقد جبل على السعى نحو جنى منفعه ودفع الضرر، فقد اعتمد الإمام عليه السلام هذا الأمر الفطرى ليدعو الناس إلى طاعه الله تعالى والابتعاد عن المعصيه والذنب فقال إنّ الأسوأ من السوء هو عقاب الله تعالى ومؤاخذته على الذنوب والأفضل من الخير هو جزاء الله تعالى وثوابه على الطاعه والاحسان، من الواضح أنّ المراد من الشر والخير (بقرينه الثواب والعقاب) هو المعصيه والطاعه، بينما يتسع معنى الشر والخير إن توسعنا فى معنى العقاب والثواب ليشمل العقاب والثواب التكويني (أى جزاء وبركات الأعمال فى الدنيا) .

وقد أورد الإمام عليه السلام مثل هذه العبارة فى موضع آخر حيث قال: «فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ» (١).

فقد إهتم الإمام فى النظره الأولى إلى النتائج ومن ثم إلى الأسباب والعلل، حقاً إنّ الذى يضمه فاعل الخير والشر أعظم ممّا يقوم به من عمل، لأنه لا يرى توفر أرضيته وأسبابه، من جانب آخر فإنّ نتائج الأعمال خالده بينما تزول الأعمال وهذا بحدّ ذاته دليل على أفضليه النتائج على نفس الأعمال.

ثم أضاف الإمام عليه السلام نقطه مهمه أخرى بهذا الخصوص فقال: «وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَيِّمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَيِّمَاعِهِ» ، هذه حقيقه فى أنّ المتع الماديه كالسراب له منظر خاص من بعيد، ولكن لا يبدو شيئاً يذكر حين يصله الإنسان، فللقصور والثروات والقدرات واللذات والمتع ظاهر أنيق من بعيد، ولكن ما أن يقترب منها الإنسان حتى يرى سيل المشاكل والمصائب، فيتمنى أحياناً أنّه لم يبلغها ويحصل عليها، فى حين ورد بشأن النعم الإلهيه الجمه فى الآخره: «أَعِيدَتْ لِعِبَادِي مَا لَاعَيْنُ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا حَظَرٌ عَلَّ قَلْبٍ بَشَرٍ» (٢).

بل ليشعر الإنسان بالعجز عن وصف اللذه التى يعيشها فى هذه الدنيا حين مناجاته لله

ص: ٧٠

(١-١) نهج البلاغه، الكلمات القصار ٣٢.

(٢-٢) بحار الانوار ٨/١٩١ ح ١٦٨. [١]

وإحساسه بالقرب منه والفوز برضاه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ الأمر إذا كان كذلك لا بدّ أن يغنيكم سماع الحقائق المرتبطه بالآخره بواسطه الأنبياء وأولياء الله سبحانه وتعالى عن رؤيتها: «فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعِ، وَمِنَ الْعَيْبِ الْحَبْرُ»، من البديهي أن يعجز الإنسان عن العالم الخارجى مادامه فى زنانه الجسد وفى دار الدنيا الظلماء الضيقه، فلا سبيل لإدراك أوضاع الآخره وتفصيلها سوى ما يوصله له هؤلاء العظام من أخبار يكتفى بها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أمرين منطقيين بهدف التشجيع على الإتيان بالصالحات وإجتنب السيئات فقال: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِّمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!»، وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح إذ قال: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ . . .» (١).

وكما قال فى موضع آخر: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ . . .» (٢).

وبناءً على هذا فالأموال والأعمار والإمكانات التى توظف فى مسار الآخره إن قلت فى الظاهر شيئاً من الدنيا، ولكن فى الواقع قد تضيف أحياناً مئة ضعف إلى ثواب الآخره، وبالعكس فإنّ الإنسان يدفع الثمن باهضاً إن أحلّ بشيء من آخرته وتنازل عن دينه وإيمانه وإنهمك بدنياه لينال شيئاً من حطامها، قال القرآن الكريم بهذا الخصوص: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَأَخْلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ . . .» (٣).

فهل هناك من عاقل مستعد لمعاوضه الصفقه الأولى المربحه بالثانيه الخاسره؟!

ثم قال الإمام عليه السلام فى الأمر الثانى: «إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهَيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ» .

المراد من «ما أمرتم به» هنا الأمر فى مقابل الحظر، يعنى ما أجاز لكم بالنسبه إلى الذنوب

ص: ٧١

١-١) سورة البقره / ٢٦١. [١]

٢-٢) سورة التوبه / ١١١. [٢]

٣-٣) سورة آل عمران / ٧٧. [٣]

هو أوسع وأشمل، وترك الذنب لا يؤدي بكم إلى الضيق والعسر، بل أمامكم مسار واسع وشامل بهدف الحصول على الدين والدنيا، قطعاً إننا نصل إلى عدد محدود حين نحصى الذنوب ولا سيّما الكبائر، بينما نواجه دائره واسعه جداً إن أردنا إحصاء ما أجازته الشرع المقدس، ويصدق هذا الأمر على الحلال والحرام، فما أكثر الأغذية الحلال بالنسبه للطعام الحرام، وما أكثر معاملات الحلال قياساً بمعاملات الحرام، كما أنّ النساء اللاتي يحلّ الزواج منهن أكثر بكثير من تلك اللاتي يحرم الزواج منهن (١)، وعليه فطاعه أوامر الله تعالى ورعايه الحلال والحرام لا- تجعل الإنسان في حرج، وهذا في الواقع ردّ قاطع على أولئك الذين يرون دين الله سلسله من المحظورات والممنوعات، وهكذا يحث الإمام عليه السلام الجميع على ترك الذنوب والمعاصي والمحرمات، وهكذا والمحدوده والحركه باتجاه السبيل الرحب للحلال والمباح، فليست هنالك من مشكله في حياتهم الماديه ولا المعنويه.

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشاره لما ورد في القرآن الكريم: «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . . .» (٢).

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «بَعَثَنِي بِالْحَنْفِيهِ السَّمْحَةِ» (٣).

كما صرّح القرآن الكريم قائلاً: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُتُوبَكُمْ عَلَيْهِ تَعْتَدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . . .» (٤).

ولما كان السعي من أجل المعاش والحرص لنيل الرزق يشكل أحد العوامل المهمه للغفله والكسل عن الإتيان بالفرائض الإلهيه والخوض في تهذيب النفس وتزكيتها، فإنّ الإمام عليه السلام أشار إلى مسأله دقيقه، وهي ضروره علمهم بأنّ الله قد ضمن أرزاقهم وأمرهم بالقيام

ص: ٧٢

١ - ١) الواقع أنّ العبارة «إنّ الذي أمرتم به . . .» إشاره إلى الأحكام التكليفية الخمسه، والعبارة «ما أحل لكم . . .» ناظره إلى الأحكام الوضعيه، وعليه فلا داعي لأنّ نعتبر العبارتين مترادفتين للتأكيد كما ذهب إلى ذلك بعض شراح نهج البلاغه.

٢- ٢) سورة الحج / ٧٨. [١]

٣- ٣) بحار الانوار ٢٢/٢٦٤. [٢]

٤- ٤) سورة النحل / ١١٤ - ١١٥. [٣]

بالواجبات، وعليه فلا ينبغي لهم منح الأولويه لما ضمن والغفله عما يجب عليهم الإتيان به فقال: «قَدْ تَكْفَلْ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأَمْرُكُمْ بِالْعَمَلِ فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلْبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ» (١).

وبعبارة أخرى فإن لدينا شيئين: الأول تحصيل الرزق والثاني القيام بالفرائض الإلهية، وقد تكفل الله تعالى بضمان الأول وقلدنا مسؤوليه الأمر الثاني، ومن هنا لا بد أن نبذل ما في وسعنا بالأمر الثاني، والحال القضييه على العكس في أن أغلب الناس يركزون جهودهم ويبدلون قصارى سعيهم ويشغلون فكرهم من أجل تحصيل الرزق والمعاش ويولون ظهورهم ليتناسوا الواجبات والفرائض الملقاه على عاتقهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اعْتَرَضَ الشُّكُّ وَدَخَلَ (٢) اليقين، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضَمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ» .

ويبدو أن هذه العبارة تشبه ما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام في مقارنته لطلب العلم بطلب المال حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ اعْلَمُوا أَنَّ كَمَالَ الدِّينِ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلُ بِهِ، أَلَا وَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجِبُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَمِنَهُ وَسَيَفِي لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَخْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ وَقَدْ أَرْتُمْ بِطَلْبِهِ مِنْ أَهْلِهِ فَاطْلُبُوهُ» (٣).

لا- شك أن المقصود بالعبارات المذكوره ليس إيقاف الناس لأنشطتهم الاقتصاديه الإيجابيه ويتخلون عن مساعيهم من أجل ضمان الحياه المشرفه، بل الهدف هو الحد من الحرص

ص: ٧٣

١- ١) يعتقد بعض شراح نهج البلاغه [١] أن «طلبه» في العبارة المذكوره ليست نائب فاعل للمضمون ونائب الفاعل هو «الرزق» التي وردت في العبارات السابقه، وإلا أدنى تأمل يكشف أن هذا المطلب ينقض نسق العبارتين المذكورتين (المضمون لكم... المفروض عليكم) والحال يقتضى الانسجام بين هاتين العبارتين أن يكون كل من «طلب» و «عمل» نائب فاعل أحدهما للمضمون والآخري للمفروض، وعليه يصبح معنى الجملة «لا ينبغي أن تولون الأهميه للشئ الذي ضمنه لكم الله وتغفلون عما وجب عليكم من عمل» بعبارة أخرى فإن الطلب هنا بمعنى تحصيل وإعداد الرزق من جانب الله تعالى.

٢- ٢) «دخل»: يعنى الفساد فى مثل هذه الأمور ودخل على وزن دعل بمعنى الأمور الفاسده التى تتسلل داخل الإنسان فتؤثر على عقله.

٣- ٣) اصول الكافي ١/٣٠ [٢]

والتكالب على الدنيا والجنوح نحو الشره الذى يصد الإنسان عن العلم والمعرفه والأمر المعنويه.

ثم خلى الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة: «فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَعْثَهُ (١) الْأَجَلَ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجَعِهِ الْعُمَرُ مَا يُرْجَى مِنْ رَجَعِهِ الرَّزْقِ. مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرَّزْقِ رُجِيَ غَدًا زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسٍ مِنَ الْعُمَرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعُهُ»، نعم، «الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي».

حقاً إنه منطق بليغ واضح فى عدم إمكانية عوده ساعات العمر بأى شكل من الأشكال، فى حين يمكن استعادته متع الدنيا وفى كل الظروف وتداركها، بناءً على هذا فالذى يقوله العقل لابد من الحزم والحساسيه تجاه الأمور التى يمكن عودتها، لا الأمور التى إن فقدت اليوم أمكن الحصول عليها بالغد، والحال أن أغلب الناس يتصرفون على العكس من هذا الأمر، فأصواتهم ترتفع بالصراخ إلى عنان السماء لمجرد فقدانهم لشيء من حطام الدنيا، بينما لا يأنهون لتصرم الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات، وهذا يدعو إلى الدهشه والعجب، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للتأكيد على هذا المطلب وشبهه فى هذه الخطبه وسائر الخطب.

ورد فى الخبر أن شخصاً أتى إلى الإمام السجاد عليه السلام وقد شكى إليه وضعه وكأنه كان يعانى من قلّه الرزق فرد عليه الإمام عليه السلام أن بنى آدم عليه السلام مساكين يشهدون ثلاث مصائب كل يوم ولا- يعتبرون بها ولو اعتبروا بها لهانت عليهم المصائب، المصيبة الأولى: كل يوم يمر عليهم يذهب من عمرهم (لكنهم لا يأسفون على ذلك) لكنهم يحزنون إن قلّ مالهم، والحال هناك خلف للدينار والدرهم بينما ليس للعمر من عوده قط، المصيبة الثانية: هو أن الإنسان يرتزق كل يوم فان كان رزقه حلالاً- كان فيه حساب وإن كان من الحرام فيه عقاب، المصيبة الثالثة وهى أعظمها جميعاً: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُمَسَّى إِلَّا وَقَدْ دَنَا مِنَ الْآخِرَةِ مَرَحَلَةً لَا يَدْرِي عَلَى الْجَنَّةِ أَمْ عَلَى النَّارِ» (٢).

وفى ختام الخطبه نصح الناس من خلال الوعظ بالآيات القرآنيه فقال: «فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» .

ص: ٧٤

١-١) «بغته»: من ماده «بغت» على وزن وقت يعنى الشىء الذى يحدث فجأه.

٢-٢) بحار الانوار ٧٥/١٦. [١]

والقول مستوحى من قوله تبارك وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ حَتَّىٰ تُقَاتِيَهُ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ» (١).

تأملات

١ - غرور عن بعد ورعب من قرب

إنّ المتع الدنياوية المادية والبهرجه لهذا العالم تبدو خلّابه ساحره من بعيد، لكن ما إن يبلغها الإنسان حتى يراها غايه فى الصغر والضحاله، بل تكون مقلقه ومرعبه أحياناً، مثلاً يرى الإنسان من بعيد حياه الملوک فيظن لو إعتلى يوماً عرش السلطه، فقد سيطر على العالم بأسره وقد نال السعاده والموفقيه، ولكنّه ما إن يبلغ ذلك حتى يشعر أنّه فقد على الأقل ثلاثه أشياء من ركائز الحياه:

الأول: الأمن فهو يشعر فى ذلك المنصب بالخوف من أقرب مقربيه، فهو مطالب بالحذر من بطانته دائماً حتى فى قصره وغرفه نومه فلا أمن ولا أمان، فما أكثر السلاطين الذين قتلوا على يد مقربيههم.

الثانى: الحريه، على سبيل المثال لا- يستطيع ممارسه حياهه كالأفراد العاديين من قبيل الخروج فى نزهه مع زوجته وأولاده أو الحضور بحريه فى المجالس والحفلات التى يقيمها الأصدقاء والأقرباء.

الثالث: راحه البال، فهو مشغول على الدوام ولا يهدأ أبداً، فما زلنا نذكر بعض رؤوسا الجمهوريات الذين صرّحوا علنا بأنهم لم يذوقوا طعم النوم الهادىء طيله ليالى حكومتهم وأن حاشيتهم كانوا يوقظونهم من نومهم ليطلعوهم على الحوادث التى تقع هنا هناك من العالم، نعم لم يذوقوا طعم النوم إلّا بعد أن تمت مدّه حكومتهم.

ومثال آخر لما ذكرنا آفاق حياه الأثرياء من بعيد فيظن الناظر أنّها مفعمه بالسعاده والرفاه، ولكن إن قدر له أن يعيش ذلك الشراء فسيشعر أنّ بحاجه إلى جزء يسير من هذه

ص: ٧٥

الثروه فى حياهه بينما تثقل باقى الثروه كاهله، فالحرص على حفظ هذه الثروه وصيانتها من الأعمال الشاقه، والعداوه والبغض الحسد الذى يعانىه من الآخرين والذى يمثل كابوساً مرعباً يقض مضجعه، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام بتلك العبارة الرائعه التى أوردها فى هذه الخطبه فى أنّ كل شىء فى الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وبالعكس بالنسبه للآخره فإنّ كل شىء فيها عيانه أعظم من سماعه، فهل لعقل بعد كل هذا أن يؤثر الدنيا على الآخره.

نعم، إن نشد الإنسان المقامات الماديه وثروات هذا العالم من أجل خدمه خلق الله تعالى، على حدّ تعبير القرآن الكريم فى إطار خطابه لقارون: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ. . .» (١).

وتحمل كل ما يترتب على ذلك من مشاكل وصعاب فذلك له حساب آخر، فقد ورد فى الخبر إنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام شكى إليه طلب الدنيا والتعلق بها، فقال له عليه السلام لم تطلب الدنيا؟ قال: لأصل بها رحمى وأنفق على عيالى وأعطى وأحج وأعتمر، فقال: «لَيْسَ هَذَا طَلْبُ الدُّنْيَا، هَذَا طَلْبُ الْآخِرَةِ». (٢).

٢ - الدنيا وآراء الناس

الكل يعلم أنّ هذه الدنيا والحياه فى هذا العالم لا تدوم لأحد، فهم يرون بأمر أعينهم مراحل انتقال الطفوله إلى الشباب ومنه إلى الكهوله ثم العالم الآخر تطالعنا صفحات النعى فى الصحف المسائيه كل يوم بالإعلان عن موت بعض الأعزّه الذين يشكل بهم الأقرباء والأهل، ولا سيّما فى عصرنا الراهن الذى أصبح فيه الموت والحياه قريب جداً من الإنسان مقارنة الأزمنه الماضيه ومتوسط عمر الإنسان، فقد نسمع بسقوط مفاجئ لظائره فتتناثر أجساد ركبها فى الهواء لتقع هنا هناك، والحوادث الأخرى التى تزيد من عدد الوفيات كل يوم وفى مختلف الأماكن، حتى أنّ ضحايا الوسائل النقليه فى المناطق والمدن لتفوق ضحايا الحروب، وبغض

ص: ٧٦

١- ١) سورة القصص / ٧٧. [١]

٢- ٢) وسائل الشيعه ١٩/١٢. [٢]

النظر عما سبق فإنّ هذه الحياه القصيره مليئه بأنواع المعاناه والألم والمشاق، ويكفى في ذلك أن نلقى نظره عابره على مستشفى لنرى مختلف الأمراض التي يعانى منها الأطفال والشباب والكهول، أو نتطلع أحد السجون ونشاهد عن كثب الأفراد الذين زجت بهم المظالم والشهوات والأخطاء والنزوات في ذلك المكان، ولكن مع ذلك أغلب الناس يتناسون كل هذه المسائل ليحصلوا على استقرار كاذب مزيف، والاستقرار الذى يشبه ذلك الذى يشعر به الحيوان الذى يخفى جسده فى الرمال مخافه الصياد، والحال يراه الصياد ويسارع إلى افتراسه.

ومن هنا فإنّ الإمام عليه السلام يورد وصاياه فى أغلب مواضع نهج البلاغه بهدف التنبيه إلى تلك الغفله والنسيان المميت وايقاظ الضمير البشرى الذى يغط فى سبات عميق، وقد اتبع الإمام مختلف الأساليب من أجل تحقيق هذا الغرض فتارة يذكر الدنيا على أنّها دار عناء وفناء وغير وعبر وأخرى يذكر إنزوائها على أنواع الشدائد والمشاكل، كما يتطرق إلى قصر المسافه بين الحياه والموت، إلى جانب ذلك يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقه فى عدم إمكانيه عوده ما يتصرم من ساعات العمر، فى حين يمكن تدارك كافه سائر النعم الماديه، والحق لو تأمل كل إنسان مرّه واحده فى الاسبوع هذه الخطبه لما عانى من الغفله قط.

٣ - كيف نبحت عن سعاده الآخره فى الدنيا؟

ربّما يطلب الإنسان الدنيا من أجل إشباع أهوائه ورغباته إلى جانب الامتياز على الآخرين واستغلالهم واستعمارهم، كما قد يطلبها بهدف الحصول على الرفاه المتوازن، وأحياناً ينشدها بغيه وفره الإمكانيات لخدمه الآخرين، أخيراً قد يريد لها لترسيخ دعائم اقتصاد المجتمع الإسلامى وتحقيق مجده وعظمته ورفعته وإبعاده عن كافه أشكال التبعية للآخرين، ومن البديهي أنّ هذه الأهداف تتفاوت فيما بينها تفاوتاً تاماً.

فعلى ضوء الهدف الأول يتصف بأشبع الصفات الرذيله، والثانى يتّجه نحو الأهداف

المباحه والاستفاده من النعم الإلهيه، والثالث يمارس أرفع عباده وأخيراً الرابع يسدى أعظم الخدمات الإنسانيه والإسلاميه، وكل ما ورد من ذمّ في هذه الخطبه وسائر الأخبار والروايات عن أئمه العصمه عليه السلام وكذلك القرآن الكريم إنّما يشير في الواقع إلى الطائفه الأولى من الناس وهو الموصوف برأس كل خطيئه ومصدر جميع الذنوب، ولا عاقبه له سوى جهنم وبئس المصير.

ومن هنا فلا ينبغي تفسير ذمّ الدنيا والمتكالبين عليها بأنّ الإسلام يرتضى للمجتمع حاله الفقر والحرمان ويوصى بذلك، قد ورد هذا المضمون في الروايات الإسلاميه، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ عَبَدَ الدِّينَارَ وَالدَّرْهَمَ» (١).

وقال المرحوم الشيخ الصدوق في تفسير هذا الحديث: «يعنى به من يمنع زكاه ماله ويبخل بمواساه إخوانه، فيكون قد آثر عباده الدينار والدرهم على عباده خالقه» (٢).

وجاء في الخبر أنّ علياً عليه السلام يفخر برفاه أهل الكوفه خلال مدّه حكومته رغم ما هو عليه من الزهد والعزوف عن الدنيا فقال: «مَا أَصْبَحَ بِالْكُوفَةِ أَحَدٌ إِلَّا نَاعِمًا، إِنَّ أَدْنَاهُمْ مَنَزِلَةً لِيَأْكُلُ التُّبْرَ وَيَجْلِسُ فِي الظِّلِّ وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ» (٣).

ص: ٧٨

١-١) بحار الانوار ٧/١٤٠. [١]

٢-٢) المصدر السابق. [٢]

٣-٣) المصدر السابق ٤٠/٣٢٧. [٣]

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فِي الاسْتِسْقَاءِ

نظره إلى الخطبه

كما ورد في عنوان الخطبه فأنها دعاء في الاستسقاء، وقد أوردها الإمام في عصر حكومته حين أصاب الناس الجفاف، حيث أشار عليه السلام في البدايه إلى الأسباب التي تدعو إلى حبس المطر وشیاع الجفاف في أنّ أغلب الحوادث من هذا القبيل معلوله لمعاصی الناس وذنوبهم وسوء أعمالهم، ثم يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء بعبارات رصينه عميقه المعنى سائلاً الحق تبارك وتعالى التلطف بنزول المطر، حتى أنّ عباراته لتخترق شغاف القلب وتملأه بالمعنويات والشده لله سبحانه.

وما أحرانا بالتوسل بهذه العبارات والمضامين الوارده في هذ الخطبه من أجل الاستسقاء.

ص: ٧٩

١ - ١) سند الخطبه: رواها قبل السيد الرضى المرحوم الشيخ الصدوق في كتابه «من لا يحضره الفقيه» في آداب صلاه الاستسقاء مع اختلاف كبير وإضافات تدلّ على أنّ ما نقله السيد الرضى في نهج البلاغه هو بعض ما اختاره من تلك الخطبه «من لا يحضره الفقيه ٢/٢٣٥» كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسى في «التهذيب ج ٢، ص ١٥١» وفي «المصباح المتهجد» في آداب صلاه الاستسقاء مع اختلاف وما ورد في نقل السيد الرضى في نهج البلاغه ممّا يدلّ على وجود مصدر آخر اعتمده الشيخ، ونقلها من علماء العامه الزمخشري في «ربيع الابرار» وابن الأثير في «النهايه» (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٥٦). [١]

«اللَّهُمَّ قَدِ انْصَيْحَ احْتِ جِبَالِنَا، وَاغْيَرْتِ أَرْضُنَا، وَهَامَتِ دَوَابُّنَا. وَتَحَيَّرْتِ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتِ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرْدُدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَيْنَ إِلَى مَوَارِدِهَا! اللَّهُمَّ فَارْحَمِ أَيْنَ الْمَاءِ، وَحَيْنَ الْحَيَاةِ! اللَّهُمَّ فَارْحَمِ حَيْرَتَهَا فِي مِذَاهِبِهَا، وَأَيْنَهَا فِي مَوَالِجِهَا! اللَّهُمَّ خَرِّجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اغْتَكَّرْتَ عَلَيْنَا حَدَابِيرَ السِّنِينَ، وَأَخْلَفْتَنَا مَخَايِلَ الْجُودِ. فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَسِسِ، وَالْبَلَغَ لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَطَّ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخِذَنَا بِذُنُوبِنَا. وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُتْبِعِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُنَوِّقِ. سَحًّا وَابِلًا، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في بدايه هذه الخطبه الوضع المأساوى الذى أصاب الناس إثر الجفاف ومع السماء بعبارات رائعه بعيده المعنى، حيث استهلها بسته جمل قائلاً: «اللَّهُمَّ قَدِ انْصَا حَتْ (١) جِبَالِنَا، وَاغْيَرْتِ (٢) أَرْضُنَا، وَهَامَتِ (٣) دَوَابُّنَا. وَتَحَيَّرْتِ فِي مَرَابِضِهَا (٤)، وَعَجَّتِ (٥) عَجِيجَ

ص: ٨١

١ - ١) «انصاحت»: من ماده «صوح» على وزن صوم بمعنى الانشقاق وقيل بمعنى الجفاف والتشقق والزوال الملازمه لبعضها البعض الآخر.

٢ - ٢) «اغبرت»: من ماده «غبار» وهى هنا إشاره إلى الجذب الذى يؤدى إلى جفاف الأرض.

٣ - ٣) «هامت»: من ماده «هيم» على وزن حيف بمعنى الحيره وتستعمل أحياناً بشأن الإنسان أو الحيوان الذى لا يدرى أين يذهب من شدّه العطش.

٤ - ٤) «مرابض»: جمع «مربض» موضع الماشيه ومبرك الغنم.

٥ - ٥) «عجت»: من ماده «عجيج» بمعنى الصراخ والصياح بأعلى الصوت.

التَّكَالِي (١) عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرْدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَيْنَ إِلَى مَوَارِدِهَا! .

فقد رسم الإمام عليه السلام صورته واضحة بعبارات فصيحته عن الجفاف الشديد الذى أصاب الناس فى ذلك الزمان، وكشف النقاب عن وضع الجبال والأراضى والمراتع والدواب، ثم رفع يديه بالدعاء مبتهلاً إلى الله: «اللَّهُمَّ فَارْحَمْنَا أَيْنَ الْأَنَّهُ (٢)، وَحَيْنَ الْحَائِهِ! (٣)» .

كما شكى شدة عطش الدواب وجوعها وصراخها فى أماكنها: «اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَيْنَهَا فِي مَوَالِجِهَا! (٤)» .

وأردف قائلاً: «اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرْتُ (٥) عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ (٦)، وَأَخْلَفْتَنَا (٧) مَخَايِلُ (٨) الْجُودِ (٩)» .

إنَّ دقة العبارات التى استخدمها الإمام عليه السلام فى هذا الدعاء تشير إلى مدى حرقة الإمام عليه السلام والناس من جانب، ومن جانب آخر تستبطن تصويراً عميقاً لتلك الحادثة، فحدابير جمع حدبار تستخدم بشأن الجمل الذى تبين عظام سنامه وقد حز لحمه بصوره تامه إثر شدة الضعف (بسبب الجوع أو كثره المشى) .

فقد شبه الإمام عليه السلام الجفاف المتواصل بهذا الجمل، ومن الطبيعى أن يدعو منظره إلى الأسى والحزن، كما أنَّ ركوبه يبدو متعذراً شاقاً.

أما العبارة التى تضمنت «آنه» و «حائه» التى تستخدم كلهما بشأ تألم الحيوان حيث

ص: ٨٢

١- ١) «تكالى»: جمع «تكلى» المرأه التى مات إبنها.

٢- ٢) «آنه»: من ماده «أنين» وعاده ما تطلق على الشاه التى تتألم.

٣- ٣) «حائه»: من ماده «حنين» التى تطلق على الجمل حين يتألم.

٤- ٤) «موالج»: جمع «مولج» مدخل الشىء.

٥- ٥) «اعتكرت»: من ماده «عكر» على وزن مكر بمعنى الهجوم.

٦- ٦) «سنين»: اسم جمع السنوات، لكنّها ترد عاده فى العبارات كالعباره المذكوره بمعنى القحط والجفاف (ورد معنيان لسنين فى قاموس اللغة أحدهما بمعنى السنه والآخر بمعنى الجفاف والقحط) .

٧- ٧) «أخلفتنا»: من ماده «خلاف» بمعنى المخالفه.

٨- ٨) «مخايل»: جمع «مخيله» على وزن قبيله بمعنى الغيوم التى يأمل الإنسان بنزول المطر منها لكنّها ليست بمطره.

٩- ٩) «جود»: لفتح الجيم جمع «جائد» المطر الكثير والجود بالضم بمعنى السخاء والهبه.

تشير الأولى إلى الشاه والثانية إلى الجمل، فأما تشير إلى حاله الألم التي كانت تعيشها جميع الحيوانات في ذلك القى الشديد، وبالالتفات إلى أن القسم الأعظم من أراضي العراق تقع بين النهرين العظيمين دجله والفرات المروفان بوفره المياهما مقارنة بأنهار المنطقه يتبين أن القحط تلك السنوات على درجه من الشده بحيث ضيق على أهل العراق حتى في تلبه الحاجات الأولى للحيوانات (تشير القرائن إلى أن الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبه بعد صلاه الاستسقاء حين كان في الكوفه) .

ثم ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى في أنك الأمل والرجاء لكل بائس وحلال مشاكل كل طالب حاجه وقد سيطر اليأس على الناس وقد منعت السماء بركاتها والغيوم مياها وأشرفت الحيوانات على الهلكه ففسألك ألاً تؤاخذنا بسيئات أعمالنا ولا بوائق ذنوبنا: «فَكُنْتُ الرَّحِيَاءَ لِلْمُبْتَسِ (١)، وَالْبَلَاغَ (٢) لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْعَمِيَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ (٣)، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذْنَا بِذُنُوبِنَا» .

تفيد هذه العبارة أن أغلب الآفات والبلاء والشده معلوله لذنوب الناس، ولا تزال مشاكلهم قائمه مستعصيه ما لم يتوبوا إلى الله ويسألوه العفو والمغفره، والعبارة تشبه الشكوى التي بثها نبي الله نوح عليه السلام إلى ربه بشأن قومه: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» (٤)

كما ورد في سوره الأعراف قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٥).

ثم طرح الإمام طلبته الأصلية على الحق تبارك وتعالى قائلاً: «وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ

ص: ٨٣

١-١) «مبتس»: من ماده «بؤس» على وزن قرص الفقر وشده الحاجه.

٢-٢) «البلاغ»: بمعنى الكفايه وحل المشكله.

٣-٣) «سوام»: وسائمه الحيوان الذي يرعى في الصحراء.

٤-٤) سوره نوح / ١٠ - ١١. [١]

٥-٥) سوره الأعراف / ٩٦. [٢]

بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ (١)، وَالرَّبِيعِ الْمَغْدِقِ (٢)، وَالنَّبَاتِ الْمُؤْنِقِ (٣). سَحًّا (٤) وَأَبْلًا (٥)، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ» .

فما ورد في عبارات الإمام عليه السلام إنعكاس تام لما عاناه الناس من قحط شديد ومصائب عضال من جهه، ومن جهه أخرى تضمنت طلباً للغيوم الملبده بالأمطار، وكذلك ربيعاً مباركاً ونباتات طريه جميله وأخيراً تتجه صوب نتیجه نهائيه هي الأمطار التي تحيي الأرض وتستعيد كل ما فقد؟ ولا تكون تلك السنه سنه عامره بالبركه فحسب، بل سنه تتلافى سنوات الجفاف السابقه.

ص: ٨٤

١ - ١) «منبعق»: من ماده «انبعاق» بمعنى انشقاق ولما كانت الغيوم حين نزول المطر تبدو منشقه وتجرى منها الأمطار فقد استخدمت هذه المفرده بشأن نزول المطر.

٢ - ٢) «مغديق»: من ماده «غديق» على وزن شفق الماء الوفير وتستعمل كناية بشأن السنوات المفعمه بالخير والبركه.

٣ - ٣) «مونق»: من ماده «أنق» على وزن شفق بمعنى السرور والاعجاب بالشىء.

٤ - ٤) «سح»: بمعنى انسياب الماء الوفير وبصوره مستمره.

٥ - ٥) «أبل»: المطر الشديد الضخم القطر.

إشاره

«اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ مُحِييَهُ مُزَوِيَهُ، تَامَهُ عَامَهُ، طَيِّبَهُ مُبَارَكَهُ، هَنِيئَهُ مَرِيئَهُ. زَاكِيَا نَبْتَهَا، ثَامِرَا فَرْعَهَا، نَاصِرَا وَرَقَهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ! اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نَجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وَهَادُنَا وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابَنَا، وَتُقْبَلُ بِهَا نِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدِي بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا. مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُزْمَلَةِ، وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَارًا هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلْبٍ بَزُقُهَا، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا، وَلَا شَفَانَ ذَهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لِامْرَأَعِهَا الْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْتَيْتُونَ، فَإِنَّكَ تُنَزِّلُ الْعَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» .

الشرح والتفسير

طرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه طلبه وصحبه الرئيسى والذى يتمثل بنزول المطر المبارك فسأل الله سبحانه وتعالى مطراً ذات عشرين صفه تشير كل واحده منها إلى قضيه رائعه، وما أروع أن يذكر الإمام كل هذه الأوصاف للمطر المطلوب، وهى الأوصاف التى تجعل الإنسان يتواضع ويشعر بالخضوع أمام عظمه الخلاق، كما تفهم السامع عمق الآثار والبركات التى تختزنها هذه القطرات من المطر: «اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ مُحِييَهُ مُزَوِيَهُ، تَامَهُ عَامَهُ،

طَبِيئَهُ مُبَارَكَةً، هَيْئَتُهُ مَرِيَعَةٌ (١). زَاكِيًا نَبْتُهَا، ثَامِرًا (٢) فَرْعُهَا، نَاصِرًا (٣) وَرَقُهَا، تُنْعَشُ (٤) بِهَا الضَّعِيفُ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ!». .

الواقع هو أنّ الإمام عليه السلام سأل الله تعالى مطرا تتوفر فيه الشرائط وبعيداً عن كل الموانع، فقد لوحظ في أغلب الأحيان نزول الأمطار على شكل سيول، لكنّها تحطم كل شيء تأتي عليه، أو إنّها تتركز في نقطه معينه ليست لها منفعه عامه، أو أنّها مصحوبه ببرد شديد قارس لا تخفى آثاره السلبيه، أو يكون مصحوباً ببعض الموانع من قبيل الرياح الحاره والعواصف الشديده والآفات التي تصيب النباتات كالجراد والحشرات المؤذيه وأمثال ذلك التي تقضى على آثار الأمطار، فالإمام عليه السلام يأخذ جميع هذه الأمور بنظر الاعتبار فيسأل الله تعالى اجتماع كافة الشرائط ودفع جميع الموانع.

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء بذكر سبعة أوصاف أخرى ليكتمل عدد الصفات عشرين صفة فقال: «اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا (٥)، وَتَجْرِي بِهَا وَهَادُنَا (٦) وَيُخْصِبُ (٧) بِهَا جَنَابُنَا (٨)، وَتُقْبَلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدِي (٩) بِهَا أَقَاصِينَا (١٠)، وَتَشْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا (١١). مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ عَلَيَّ بَرِّيَّتِكَ الْمُزْمَلَةِ (١٢)، وَوَحْشِكَ

ص: ٨٤

- ١-١) «مرع»: من ماده «مرع» على وزن كثيف النبات.
- ٢-٢) «ثامر»: بمعنى ذو ثمر.
- ٣-٣) «ناصر»: بمعنى ذو نصره.
- ٤-٤) «تنعش»: من ماده «نعش» على وزن فرش بمعنى الإثارة و اقامه.
- ٥-٥) «نجاد»: من ماده «نجود» على وزن سجود ما ارتفع من الأرض حيث تصطلح العرب بالنجد على الأرض المرتفعه.
- ٦-٦) «وهاد»: جمع «وهده» على وزن غفله ما انخفض من الأرض.
- ٧-٧) «يخصب»: من ماده «خصب» على وزن فكر كثير النبات.
- ٨-٨) «جناب»: ناحيه الدار أو المدينه.
- ٩-٩) «تندى»: من ماده «نداوه» الرطوبه و هي هنا كناية عن الجود والسخاء.
- ١٠-١٠) «أقاصى»: جمع «أقصى» النقطه البعيده.
- ١١-١١) «ضواحي»: جمع «ضاحيه» المنطقه الخارجه عن المدينه.
- ١٢-١٢) «مزملة»: من ماده «إرمال» الفقر ونفاد المتاع والزداد.

فقد كشف الإمام عليه السلام النقاب بهذا الدعاء عن سعه صدره وعمق نظره وعموميه شففته ورحمته، ذلك لأنه أخذ بنظر الاعتبار المناطق القاصيه والدانيه ولم يهمل الدواب حتى حيوانات الصحراء الوحشيه، فدعاه يشمل الجميع وسؤاله يهدف حاجه الجميع وهذا هو معنى لطف إمام المسلمين ورحمته العامه.

وأضاف الإمام عليه السلام فى معرض مواصله لطلب الماء ونزول المطر الذى يفيض بالخير والبركه قائلاً: «وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا سَيِّمَاءً مُخْضِلَةً (١)، مِدْرَاراً هَاطِلَةً (٢)، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ (٣)، وَيَخْفِرُ (٤) الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ» .

كما واصل عليه السلام وصف الأمطار: «غَيْرَ خُلْبٍ (٥) بَزْقُهَا، وَلَا جَهَامٍ (٦) عَارِضُهَا، وَلَا قَرَعٍ (٧) رَبَابُهَا (٨)، وَلَا شَفَانَ (٩) ذَهَابُهَا (١٠)» .

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء قائلاً: «حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا (١١) الْمَجْدُبُونَ (١٢)، وَيَحْيَا

ص: ٨٧

-
- ١-١) «مخضله»: من ماده «خضل» على وزن عمل الليل والرطوبه وتستخدم كناية للسنوات المليئه بالأمطار ونزول البركه.
 ٢-٢) «هاطله»: من ماده «هطل» على وزن سطل السيول والقطرات الضخمه.
 ٣-٣) «الودق»: حبات المطر، كما تطلق على ذرات الماء الصغيره التى تتعلق كغبار فى الجو حين نزول المطر، والمعنى الأول هنا أنسب.
 ٤-٤) «يخفر»: من ماده «خفر» على وزن نبض الدفع بشده.
 ٥-٥) «خلب»: بمعنى خارع من ماده «الخلابه» وهى هنا إشاره إلى الغيوم ذات البرق والرعد الخاليه من المطر.
 ٦-٦) «جهام»: بالفتح السحاب الذى لا مطر فيه.
 ٧-٧) «قرع»: القطع الصغيره المتفرقه من السحب.
 ٨-٨) «رباب»: السحاب الأبيض (الذى لا مطر فيه) .
 ٩-٩) «شفان»: الرياح الباردة أو الجو البارد المقرون بالرطوبه (لسان العرب ومعجم دهخدا) وأصلها شفون على وزن فنون النظر بطرف العين أو النظره باعتراض، ولعل اطلاقها هنا على الرياح الشديده لأنها تسبب انزعاج الطرف المقابل.
 ١٠-١٠) «ذهاب»: جمع «ذهبه» بالكسر الأمطار القليله.
 ١١-١١) «امراع»: بمعنى كثير البركه.
 ١٢-١٢) «مجدب»: من ماده الجفاف بسبب قطع الماء ويقال مجدب لمن أصيب بالجفاف والقحط.

بَرَكَّتْهَا الْمُسْتُونَ (١)، فَإِنَّكَ تُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢) .

فقد بين الإمام في هذه العبارة تسع أوصاف أخرى للأمطار المفيدة النافعة ذات الخير والبركة، حيث يبلغ عدد الصفات مع ذكر سابقاً ٢٩ صفة، حقاً إنه لمن دواعي العجب والدهشه أن يستسقى الإمام عليه السلام ويوصف المطر بتسع وعشرين صفة بينما يصف ذلك الطالبون عادة بصفه، أو صفتين فيبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى أن أسقنا الغيث المبارك، ومن هنا لا يشعر الإنسان سوى بالحيره والذهول حين يتأمل عبارات أمير المؤمنين على عليه السلام، لقد استفرخ الإمام أقصى فصاحته وبلاغته في هذه الخطبه وشرح طلبه إلى الله تعالى بما يعرف الناس بلطف الله تعالى وفضله ورحمته ويفهمهم أن مسار النعمه مليء بكثير من الموانع بحيث لا يسعهم بلوغ الكمال المنشود ما لم تشملهم رعايه الله ورحمته، والحق يتعذر مثل هذا المنطق على من لم يكن مؤيداً من عند الله ويؤيد بروح القدس.

تفسير ما في هذه الخطبه من الغريب

نقرأ في ختام هذه الخطبه:

«قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلِهِ: (انصِياحَتْ جِبَالُنَا) أَيْ تَشَقَّقَتْ مِنَ الْمَحُولِ يُقَالُ: لِنصَاحِ الثَّوْبِ إِذَا انشَقَّ وَيُقَالُ أَيْضاً: انصَاحَ ائْتَبْتُ وَصَاحَ وَصَوَّحَ إِذَا جَفَّ وَيَيْسَ كُلُّهُ وَقَوْلُهُ (وَزَهَامَتْ دَوَابُّنَا) أَيْ عَطَشَتْ وَالْهَيْامُ: الْعَطَشُ، وَقَوْلُهُ (حَدَايِيرُ السِّنِينَ) جَمْعُ حِدْبَارٍ، وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي أَنْصَاهَا السَّيْرُ، فَسَبَّهَ بِهَا السَّنَةَ الَّتِي فَشَا فِيهَا الْجَدْبُ، قَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

ص: ٨٨

١- ١) «المسنت»: هو المقحط.

٢- ٢) إقتباس من الآية الشريفة: «وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» (سوره الشورى / ٤٨).

[١]

حِدَابِيرٌ مَا تَنْفِكُ إِلَّا مُنَاخَهُ عَلَى الْخَسْفِ أَوْ نَرِمِي بِهَا بَلْدًا فَقْرًا

وَقَوْلُهُ: (وَلَا فَرْعَ رَبَابِهَا) الْفَرْعُ: الْقَطْعُ الصَّغَارُ الْمُتَفَرِّقَةُ مِنَ السَّحَابِ.

وَقَوْلُهُ: (وَلَا شَفَانَ ذِهَابِهَا) فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ: وَلَا ذَاتَ شَفَانَ ذِهَابِهَا، وَالشَّفَانُ: الرِّيحُ البَارِدَةُ، وَالذَّهَابُ: الْأَمْطَارُ اللَّيْنَةُ، فَحَذَفَ (ذَاتَ) لِعَلِمِ السَّامِعِ بِهِ» .

تأملان

١ - صلاة الاستسقاء

صلاة الاستسقاء واحده من التعاليم الإسلامية القيمة والتي ذكرها عامه فقهاء المسلمين من الفريقين في كتبهم الفقهيه، ومن جمله الآداب التي أوردتها مصادر أتباع أهل البيت عليهم السلام بشأن هذه الصلاة أن يصوم الناس ثلثه أيام ويتجهون في اليوم الثالث وهم صيام إلى خارج المدينة، ويأتون بركتين على غرار ركعتي عيد الفطر والأضحى حيث تشتمل الركعة الأولى على خمس قنوتات والثانية على أربع قنوتات، ولكن يقتنون بالأدعية الواردة بشأن الاستسقاء ونزول الرحمة والمغفرة بدلاً من الدعاء المأثور المختص بالعيد، فيصلون على النبي وآله قبل كل دعاء، فان فرغ الإمام من الصلاة قلب العباء رجاء نزول المطر واستقبل القبلة وكبر بأعلى صوته منه مره (ويكبر الناس معه) ثم يلتفت إلى الناس ويتوجه يميناً ويسبح الله سبحانه بصوت عال منه مره ثم يلتفت شمالاً ويهلل بصوت عال منه مره، ثم يستقبل الناس ويحمد الله منه مره ويردد الناس من بعده، آنذاك يرفع يديه إلى السماء ويتضرع مع الناس إلى الله سبحانه وتعالى يسأله الرحمة ويؤمن الناس على دعائه.

وقد ورد في بعض الروايات التصريح بأن يحملوا معهم إلى الصحراء الشيوخ و النساء والأطفال وحتى الحيوانات الجائعه العطشى وأن يفرق بين الآباء وأولادهم بهدف التأثير على الناس حين يتجهون إلى الله في الدعاء (١).

فإن تعذر عليهم القيام بكل هذه الأمور تابوا إلى الله واستغفروه من ذنوبهم ورفعوا أيديهم

ص: ٨٩

١-١) ذكرت آداب صلاة الاستسقاء في أغلب المصادر الفقهيه وكتب الحديث ومنها جواهر الكلام ١٢/١٢٧ وتحريم الوسيله للإمام الخميني، ج ١ و ج ٥، [١] ص ١٦٢ من وسائل الشيعة.

بالدعاء جمعه سائلين الله سبحانه العفو الرحمة.

حقاً إنها لمراسم ذات آثار عجيبة أدناها حاله التضرع والخشوع التي يعيشها الداعي إلى الله تعالى، فهي تربط الفرد بالذات الإلهية المقدسه لله سبحانه الرحمن الرحيم وتؤدى إلى نزول الرحمة وشموله بها.

أضف إلى ذلك فإن لهذه الصلاة أثارها الكبيره فى تربيته النفوس والتوبه من الذنوب والعوده إلى الطهر والعفاف، والذي يستتبع أحياناً نزول المطر الذى يعود على الجميع بالخير والبركه ويستفاد من الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يدعو بدعاء الاستسقاء حين يشكو إليه الناس من القحط والجذب، فكانت تنزل الأمطار بما يجعل الناس يطلبون توقفها (١).

وتفيد القرائن أن أمير المؤمنين عليه السلام أورد هذه الخطبه بعد صلاه الاستسقاء حيث جاء فى بعض الروايات التى نقلت هذه الخطبه بصوره تامه العبارة: «اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ» التى تكشف اتجاهه عليه السلام مع الناس إلى الصحراء ويختص هذا العمل عادة بصلاه الاستسقاء، وورد فى بعض الروايات أن علياً عليه السلام بكى آخر هذه الخطبه وقد سأل الله سبحانه وتعالى بعبارات تفيض لوعه وحرقة.

وسياتى تفاصيل ذلك حين شرحنا للخطبه ١٤٣ من نهج البلاغه الوارده بشأن صلاه الاستسقاء.

٢ - الذنب وزوال البركه

وردت عدّه أبحاث فى الكتب الفلسفيه والكلاميه والتفسيريه بشأن فلسفه الآفات والبلاء، فالذى يستفاد من القرآن الكريم هو تشديد البلاء على الأمم حين ظهور الأنبياء بغيه إيقاظهم، حيث صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ» (٢).

ص: ٩٠

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٢٧٢؛ بحار الانوار ٨٨/٣٢٩. [١]

٢-٢) سورة الاعراف / ٩٤. [٢]

فآليه تشير إلى أنّ هذا القانون عام ودائمي يهدف إلى الاستعداد لتقبل دعوه الأنبياء، فكانت تقع الحوادث الأليمه من جانب الله طيله تاريخ الأمم وحين بروز الغفله وذلك بهدف القضاء على تلك الغفله وإيقاظ تلك الأمم، وربما تكون هذه الحوادث الأليمه والمفجعه نتيجه لذنوب الناس، والهدف أيضاً الفساد والإنابه والعوده إلى الله، فقد جاء في الآيه القرآنيه: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (١).

وهكذا يتضح أنّ أحد طرق التربيه الإلهيه هو هذه الحوادث الأليمه الطبيعيه أو الاجتماعيه، والقحط يمكن أن يكون أحد هذه الحوادث، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك في الخطبه المذكوره، حيث قال في هذه الخطبه: «نَدْعُوكَ حِينَ قَطَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا» .

وقد ورد هذا المطلب بصوره أوضح في الخطبه ١٤٣، حيث حذر فيه الناس حين القحط بالنزوع عن المعاصي والاحتراز من الذنوب والإنابه إلى الله سبحانه وتعالى، واستشهد عليه السلام بآيات من سوره نوح بهذا الخصوص وهذا ما سيرد ذكره إن شاء الله في محله.

ونختتم هذا الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا فَشَتْ أَرْبَعَةٌ ظَهَرَتْ أْبَعَةٌ فَشَتْ لِرْنَا ظَهَرَتْ الرَّزَالِزُ وَإِذَا أَمْسَيْكَتْ الزَّكَاةُ هَلَكَتْ الْمَاشِيَةُ وَإِذَا حَارَ الْحُكَّامُ فِي الْقَضَاءِ أَمْسَكَ الْقَطْرُ مِنَ السَّمَاءِ وَإِذَا خَفَرَتْ الدَّمَةُ نَصَرَ الْمَشْرُكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ» (٢).

وورد في الحديث المعبر والمعروف عن أبي ولاد أنّ الإمام الصادق عليه السلام لما سمع الفتاوى غير الصحيحه لأبي حنيفه في بعض المسائل الفقهيّه قال: «فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ وَشِبْهِهِ تَحْبِسُ السَّمَاءُ مَاءَهَا وَتَمْنَعُ الْأَرْضُ بَرَكَاتَهَا» (٣).

ص: ٩١

١-١) سوره الروم / ٤١. [١]

٢-٢) بحار الانوار ٧٦/٢١، ح ١٣. [٢]

٣-٣) وسائل الشيعه ١٣/٢٥٦. [٣]

مِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

وَفِيهَا يَنْصَحُ أَصْحَابَهُ

نظره إلى الخطبه

تتألف هذ الخطبه فى الواقع من عدّه أقسام:

القسم الأول: وصف بليغ للنبي الأكرم صلى الله عليه و آله و جهاده العظيم فى إبلاغ الرساله و دعوه الناس إلى الإسلام.

القسم الثانى: التوجه إلى الناس بالوعظ والإرشاد والنصيحه، المواعظ المؤثره والبالغه.

القسم الثالث: الشكوى من الأصحاب ورجاء الله فى مفارقتهم وإلحاقه بصنوه من الأفراد.

القسم الرابع والأخير: الذى يختص بالإخبار عن فتنه طاغ واستعراض جانب من جنائياته و جرائمه أملاً فى إيقاظ الناس والوقوف بوجه هذه الجرائم من خلال التوبه إلى الله سبحانه والعوده إلى وحده ونبذ الخلافات والفرقه.

ص: ٩٣

١ - ١) سند الخطبه: تتضمن الخطبه إشاره إلى موضوع خلافه الحجاج للكوفه وما ارتكب فيها من جرائم، وقد نقل أغلب المؤرخين والمحدّثين هذا الجانب من الخطبه ومنهم ابن عبد ربه فى العقد الفريد، والمسعودى فى مروج الذهب، والأزهري فى تهذيب اللغة، وابن الفقيه فى كتاب البلدان، وابن أثير فى النهاية، والديلمى فى الإرشاد (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٥٩).

«أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ. فَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَاِنٍ وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهِدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاِهِنٍ وَلَا مُعِيدِرٍ. إِمَامًا مِّنَ اتَّقَى. وَبَصُرَ مِّنَ اهْتَدَى.» .

الشرح والتفسير

كما صرح البعض من شراح نهج البلاغه يبدو أنّ هذه الخطبه جزء من خطبه طويله حيث تطرق الإمام عليه السلام فيها إلى تشجيع صحبه على الجهاد والوقوف بوجه بغاه الشام وبين الأخطار التي تتهددهم في حاله الضعف وترك الجهاد ومقاتله العدو فأتى الحجّه عليهم.

ففى القسم الأول من هذه الخطبه أشار إلى الجهود الجباره التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله في إبلاغ الوحي ونشر الرساله من أجل ترفيق قلوب المخاطبين فيتعرفوا على أهميته هذا الميراث العظيم ولا يتوانوا في الدفاع عنه والتصدي لهجمات خصوم الدعوه، فقال عليه السلام: «أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ» .

فالواقع أخلص الإمام عليه السلام الرساله الإسلاميه التي نهض بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هاتين العبارتين، قد دعى إلى الحق وإبلاغ الأحكام الشرعيه من جانب، وأشرف على حسن تطبيقها من جانب آخر، أما شهادته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد قيل المراد بها الشهاده على أعمال الناس أو الشهاده على الأنبياء في يوم القيامة حيث ورد في القرآن الكريم: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» (١).

ص: ٩٥

لكن ظاهر كلام الإمام عليه السلام يشير إلى أنّ المراد بالشهادة إطلاع النبي صلى الله عليه وآله على أعمال الناس من أجل إمتثال الأوامر الإلهية في هذه الدنيا، وبعبارة أخرى فإنّ وظيفه النبي صلى الله عليه وآله لا تقتصر على إبلاغ الدعوه إلى الحق، بل تتبع إجراء وتطبيق تلك الدعوه وهذا هو معنى إمامته وولايته التشريعية، ولا مانع طبعاً من الجمع بين المعنيين في أنّه شاهد على الأعمال في هذا العالم وكذلك شاهد عليها في العالم الآخر. ثم خاض في بيان أوصاف نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ليذكر ست صفات آخر فقال: صلى الله عليه وسلم فَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَاِنِ (١) وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاِهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ (٢). إِمَامٌ مِّنِ اتَّقَى. وَبَصَرٌ مِّنِ اهْتَدَى. .

فقد تضمنت هذه العبارة القصيره جميع الخصائص التي ينبغي توفرها في القائد الشجاع المقتدر، عدم الضعف والوهن والتقصير ومجاهده العدو وعدم الاعتذار والتذرع، ومن جانب آخر فانه عدّ النبي صلى الله عليه وآله إمام المتقين ووسيله هدايه المبصرين، حيث يدود عنه الأفراد من المفسدين ويقصى المضلين المعاندين.

نعم، الكثيرون هم الأفراد الذين يخلقون الذرائع والحجج الواهيه بهدف التغطيه على تقصيرهم وعدم جدّهم واجتهادهم، ويستبعد ذلك من زعيم شجاع ومدير مدبّر فلا يتّجه صوب الحجج والذرائع.

فالعبارات المذكوره تشير في الواقع إلى مدى ضعف أهل الكوفه ووهنهم وتركهم للجهد وتشبّهم بالذرائع من أجل الفرار من المسؤوليات، فالإمام صلى الله عليه وآله يذكرهم بأنّ نبيكم لم يكن كذلك فما بالكم تقيمون على هذا الحال.

ص: ٩٦

١- ١) «وانّ»: من ماده «ونى» على وزن وحى بمعنى الضعف والثاقل، ويقال الوانى لمن يتباطىء في الأعمال.

٢- ٢) «معذر»: من ماده «عذر» تقال لمن يعتذر ولا يثبت له عذر.

إشاره

و منها: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا آغَلَمَ مِمَّا طَوَى عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إِذَا لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعِدَاتِ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرْكَبُنَّ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ نَفْسَهُ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا. وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِيتُمْ مَا حُدِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتْ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَالْحَقُّنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيِّامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْجَلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُمًا عَلَى الطَّرِيقِ وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفَرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ» .

الشرح والتفسير

يحذر الإمام صلى الله عليه وآله في هذا المقطع من الخطبه كافه الأفراد الذين يبدون الضعف فى مجاهده العدو الغادر والغاشم، ويتهربون من المسؤوليه من خلال اللجوء إلى بعض الحجج والأعذار، فى أن الآفاق المعتمه إنما تكمن أمامكم، والمستقبل المظلم الذى يتسلط فيه العدو عليكم ويهيمن على مقدراتكم وسيصبون عليكم جام غضبهم بما يجعلكم تفقدون صوابكم وعقلكم: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا آغَلَمَ مِمَّا طَوَى (١) عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إِذَا لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعِدَاتِ (٢) تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ (٣) عَلَى أَنْفُسِكُمْ» .

ص: ٩٧

١- (١) «طوى»: من ماده «طى» بمعنى الكتمان والاختفاء وأريد بها هنا الكتمان.

٢- (٢) «صعدات»: جمع «صعيد» بمعنى بقعه الأرض والتراب والمواضع المرتفعه من الأرض، وهى هنا إشاره إلى الصحراء والجبل والسهل، وصرح البعض بأن صعادات جمع سعد على وزن دهل وصعدات جمع الجموع.

٣- (٣) «تلتدمون»: من ماده «لدم» على وزن لفظ بمعنى الضرب وإلتدام بمعنى ضرب النساء صدورهن للنياحه.

بل قد لا- تكتفون بذلك: «وَأَلْتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ (١) عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسَهُ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا» .

فهذه العبارات تجسد حال الشخص الذى يتلى بمصائب عظميه بحيث ينسى كل شىء سوى إنقاذ نفسه، فقد إتجه صوب الصحراء ويتابع لطم وجهه ورأسه يسكب دموعه ويتعالى صراخه، كما يسعى إلى التخلي عن أموال رغم مالها من أهميه لديه ومدى الجهود التى بذلها من أجل الحفاظ عليها، إلى جانب ذلك فهو لا يعير أهميه لمن خلفه حتى أنه لينسى أعزته وبطانته.

ويرى بعض شراح نهج البلاغه أن هذه العبارات ترتبط بأحوال يوم القيامة التى وردت فى مختلف الآيات القرآنيه، لكن بالنظر إلى ذيل الخطبه الذى يتحدث عن جرائم الحجاج وسبب الخطبه الذى يفيد ضعف أهل الكوفه فى جهاد العدو، فإن المعنى المذكور يبدو بعيداً، والظاهر أنها ناظره إلى سلطه بنى أميه والجرائم المروعه التى إرتكبها الحجاج وأمثاله.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى المصدر الرئيسى الذى انبثقت منه هذه الحوادث: «وَلَكِنَّكُمْ نَسِيْتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمْتُّمَّ مَا حُدِّرْتُمْ، فَتَاهَ (٢) عَنْكُمْ رَأْيَكُمْ، وَتَشَّتَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ» .

لا ينبغى لكم أن تتصوروا أبداً بأن الحوادث الأليمه التى تنتظركم إنما تأتاكم بغته، كلا ليس الأمر كذلك، فقد حذرتكم مراراً، وأدّيت لكم حق الوعظ والنصح، وكشفت لكم المستور، ثم أنذرتكم، لكن للأسف لم تعيروا وعظى ونصحى آدانا صاغيه، فقد نسيتم كل ما ذكرته لكم وتجاهلتم كل الإرشاد، ومن هنا لم تمارسوا ما ينبغى عليكم فى موقعه وأوانه ولم تعدوا الخطط اللازمه للوقوف بوجه الأعداء فلم تكن نتيجة ذلك الذى لا مثيل له فى التاريخ.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ» .

إشاره إلى أنه طالما تعذر إصلاحكم فيا ليتنى فارقتكم، وليت القدر الإلهى أذن بالتحاقى

ص: ٩٨

١ - ١) «خالف»: من ماده «خلوف» من يخلف فى الأهل والمال حين الخروج إلى السفر أو الحرب، كما وردت بمعنى الفرد الكثير الخلاف، إلّا أن المراد هنا هو المعنى الأول.

٢ - ٢) «تاه»: من ماده «تاه» الحيره والقلق.

بمن ينسجم معى فى الأفكار والتطلعات.

ثم خاض عليه السلام فى شرح خصائص القوم الذين يراهم ينسجمون وأفكاره وتوجهاته: «قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَّامِينَ (١) الرَّأْيِ، مَرَّاجِيحُ (٢) الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ (٣) لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدَمًا (٤) عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفَرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ» .

فهذه العبارات إشاره واضحه إلى النبى صلى الله عليه وآله وطائفه من صحبه ممن يتصف بالخصائص المذكوره الست، صفتان فى برامج الحياه (نصره الحق ومصارعه الظلم) وصفتان فى العمل (الانطلاق باتجاه الحق والسرعه من أجل بلوغ الهدف) وصفتان فى الفكر (التحلى بالفكر الناضج والعقل التام) ، فبين أيضاً نتيجة هذه الصفات والتي تتمثل بالسعاده المطلقة والحياه الحره الكريمة.

مظلوميه أمير المؤمنين على عليه السلام

لا تقتصر المظلوميه على أن يقتل الإنسان من قبل فئه ظالمه جباره ناقضه للعهود وغادره فى معركة ليست متكافئه فحسب، بل من أسوأ نماذج المظلوميه أن يرى الإنسان الكفوء والمدير الناجح والأمر المقتدر والخبير الماهر والسياسى اليقظ والواعى نفسه وسط طائفه لا- تنسجم وأفكاره وكفاءته ولا يسعها الحركة باتجاهه، فهى تفعل على العكس من كل ما يقول ولا تتحرك خلفه مهما حذرهما وأنذرهما، فهى فرقه مشتته وجاهله وضعيفه وهنه مسلوبه الإراده، فابتلاء مثل هذا الزعيم بمثل هؤلاء الأتباع يؤدى إلى ضياع القيم وتناسى الأفكار، بل أبعد من ذلك يذهب بعض الجهال إلى إتهام هذا الزعيم بعدم قدره على إداره الأمور.

هذا هو أحد نماذج المظلوميه والذى عاشه أمير المؤمنين عليه السلام فى عصره، وقد أشار إلى ذلك

ص: ٩٩

١-١) «ميامين»: جمع «ميمون» بمعنى مبارك.

٢-٢) «مراجيح»: جمع «مرجاج» على وزن مثقال ذو حلم.

٣-٣) «متاريك»: جمع «متراك» على وزن مسواك من يترك الشىء تماماً.

٤-٤) «قدم»: من «ماده» قدوم بمعنى السبق، وهى هنا إمّا ظرف بمعنى فى مسار السبق وإمّا معنى جمعى بمعنى السابقون.

الإمام نفسه عليه السلام فى أكثر من خطبه من خطب نهج البلاغه، فتاره يقول عليه السلام: «لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ صَارَ فَنَى بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ» (١).

وأخرى يقول: «مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا حَيِّ السُّ، فَسَيَّحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوْدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ: أَبَدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبَدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي» (٢).

ويقول فى الثالثه: «يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رِبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ» (٣).

والحق لعننا لا نعثر طيله التاريخ على زعيم وولى من أولياء الله قد واجه فى مده قصيره من حكومته بكل هذه العداوه والبغضاء والقسوه والجلاده والعنف والطغوى، وهذا أبشع أنواع المظلوميه، ومن هنا قيل: «على عليه السلام أول مظلوم فى العالم».

ص: ١٠٠

١-١ (١) نهج البلاغه، الخطبه ٩٧. [١]

٢-٢ (٢) المصدر السابق، الخطبه ٧٠. [٢]

٣-٣ (٣) المصدر السابق، الخطبه ٢٧. [٣]

«أَمَّا وَاللَّهِ لَيَسْلُطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامٌ ثَقِيفٌ الذِّيَالُ الْمَيَّالُ. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِلَيْهِ أَبَا وَذَحَه!». .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبه باستعراض صريح لا لبس فيه للإخبار عن المصير الأسود الذى ينتظر أهل الكوفه فقال: «أَمَّا وَاللَّهِ لَيَسْلُطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامٌ ثَقِيفٌ الذِّيَالُ الْمَيَّالُ (١) (٢). يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ». .

ثم أردفها بالقول: «إِيَّاهُ أَبَا وَذَحَه! (٣)». .

أجمع شراح نهج البلاغه على أنّ المراد بغلام ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفى الذى ينسب إلى قبيله بنى ثقيف والذى ولى الكوفه على عهد عبدالملك بن مروان، كان مشهوراً بقسوته وتعطشه للدماء وقد إختاره عبدالملك بن مروان للانتقام من أهل الكوفه وإخماد الثوره ضد حكومه بنى أميه، وكما أخبر الإمام عليه السلام فى هذا الكلام، فهو لم يرحم أحد وقد نهب أموال الأمه وسفك دماءها، وقد صور الإمام أوضاع الناس على عهده بقوله: «يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ». .

ص: ١٠١

١- ١) «الذّيال»: من ماده «ذيل» آخر كل شىء وتصطلىح العرب بالذّيال على الشخص الذى تخط ذيال ثوبه على الأرض، ولما كان هذا العمل يقوم به المتكبرون من الأفراد، فقد أطلقت الذّيال على الأفراد الذين يتصفون بالكبر والأنانيه.

٢- ٢) «المّيال»: من ماده «ميل» الفرد الطائش.

٣- ٣) «وذحه»: كما سيرد فى المتن بعره الشاه أو بولها والذى يلتصق بصوفها، كما ورد بمعنى الخنفساء، إلّا أنّ ابن أبى الحديد صرّح بأنّ المعنى الثانى لم يرد فى أى من لغات العرب، والحال إذا رجعنا إلى متون اللغه لرأينا أنّ أغلب أرباب اللغه ذكروا هذا المعنى لمفرده الودحه.

لابد من الالتفات إلى أن «خضره» وإن كانت بمعنى محصول الحقول والأراضي الزراعيه، لكنها هنا تشير إلى كافة الأموال التي نهبها الحجاج والعبارة يذيب شحمتكم كناية عن شدة الضغط الذي يتعرض له الناس فيصبحوا على درجة من الضعف، وكأنه لم يبق لهم سوى الجلد والعظم، وهذا هو مصير الأفراد الذين يتمردون على القائد الفذ والشفيق الرؤوف بالأمه العادل معها كعلي عليه السلام. والمفردة «أيه» بالكسر والتنوين حسب تصريح أغلب أرباب اللغة تستخدم حين يراد تشجيع الشخص على مواصلة الكلام أو العمل وإياها بتنوين الفتح تستعمل حين يراد دعوه شخص لل سكوت أو الامتناع عن العمل، بالنظر إلى أن «أيه» وردت في نسخ نهج البلاغه بتنوين مكسور فالمفهوم ضاعف يا حجاج من ضغوطك على الأفراد الطلحاء وضعفاء الإيمان جاحدى الحق الطغاه الذين يتمردون على إمامهم العادل! وعبارة أخرى فإن هذه المفردة كناية في أن أولئك الأفراد يستحقون ما يحل بهم من عذاب إلهي، لا يعنى ذلك رضى الإمام عليه السلام بأى مقدار من ظلم الحجاج.

فالكلام أشبه بما نقوله لشخص إن هذا الدواء وإن كان مرًا لكنه العلاج الذى يشفيك فلا يصغى لما يقال له، فان اشتد ألمه وتعالى صراخه وارتفع صوته نقول له: تألم أكثر! فهذه نتيجة عملك، فمن البديهي أن مفهوم ذلك ليس رضانا بألمه ووجعه، بل معناه أن تلك هى النتيجة الطبيعى لعدم إمتثاله لأوامر الأطباء والحكماء، وهذا الكلام شبيه ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه ٢٨ حيث قال: «أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى» .

وأما وذحه فقد صرحت أغلب المصادر اللغويه من قبيل (لسان العرب، مجمع البحرين، أقرب الموارد) ، أنها تعنى الخنفساء، وقال البعض كصاحب القاموس والخليل بن أحمد فى كتاب «العين» أنها تعنى بعرة الحيوان بوله الذى يلتصق بصوفه.

وأما بشأن انتخاب كنيه «أبا وذحه» للحجاج فقد وردت فيها عدّه آراء ذكرتها التواريخ وشروح نهج البلاغه، أنسبها أن الحجاج رأى يوماً خنفساء قرب موضع صلواته فدفعها عنه، فأثته ثانيه فدفعها، فلما أثته ثالثه أمسكها بيده وعصرها فعضته فورمت يده فأدى به الورم إلى الموت، وكان الله تعالى أراد أن يرى هذا السفّاح مدى قدرته حيث قضى عليه وبواسطه

أحقر مخلوقاته، على غرار النمرود ذلك الطاغية المعروف والذي ولجت أنفه بعوضه قضت عليه.

وقال البعض أنّ الحجاج كان يتنفر من الخنفساء فلم تكد تقع عينيه عليها حتى يأمر غلمانها بدفعها، ومن هنا إصطلحت عليه الناس أبا وذحه، ولا يبدو مناسباً أن نذكر هنا سائر ما ورد في هذا الشأن وخلاصته أنّ الحجاج كان يشكو من مرض جنسى، فكان يعالج مرضه بالخنفساء، وقد صرح ابن أبي الحديد بعد ذكره لهذه الروايات أنّ الإمام عليه السلام إختار هذه الكنية للحجاج لأنّ عادة العرب جرت على ذكر الفرد بكنيته حين الاحترام وذلك للعظمه، وإن أرادوا تحقيره ذكروه بالكنيه أيضاً من قبيل كنيه عبدالملك بن مروان بأبى الذبّان، حيث كان الذباب يتجمع على فمه لخبث رائحته (أو كان حتى الذباب ينفر منه كما صرح بذلك البعض)، وكذلك كنيه يزيد بن معاوية بأبى زنه (١).

قال الشريف الرضى آخر هذه الخطبه: «الوذحه الخنفساء» وهذا القول يؤمى به إلى الحجاج وله مع الوذحه حديث ليس هذا موضع ذكره.

من هو الحجاج؟

الحجاج من أشبع الطغاه الذين عرفهم التاريخ البشرى، وقد ألفت مختلف القصص التي تعنى بجرائمه وجنایاته والتي يصعق لها كل من طيلع عليها، كان والى عبدالملك بن مروان على الكوفه، وعبدالملك خامس الخلفاء بنى أميه، وقيل فى صفه الحجاج أنّه كان دميم الخلقه كريبه المنظر قصير القامه ضعيف أعوج الرجلين أبرص ولعل سفكه للدماء وولعه بها ناشىء من تلك العقده والشعور بالحقاره، وقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودى فى «مروج الذهب»: «بأنه كان يعترف بأنّ أعظم لذته فى سفك الدماء والإتيان بالأفعال التي لا يقوم بها الآخرون» (٢).

ص: ١٠٣

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٢٧٩. [١]

٢- ٢) مروج الذهب ٣/١٢٥.

تولى إماره الحجاز «مكه والمدينه» من قبل عبدالملك بن مروان لستين فارتكب أشع الفضائع ومنها قصفه الكعبه بالمنجنيق، ثم وضع النار على طائفه من صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله المعروفين مثل جابر بن عبدالله الأنصاري، وأنس بن مالك، وسهل بن الساعدي على أنهم اشتركوا فى قتل عثمان، ثم وجهه عبدالملك إلى العراق وولاه البصره والكوفه، حكم الحجاج مدّه عشرين سنه وبلغ من قتلهم الحجاج مئه الف وعشرين من غير الذين قتلوا على يديه وأعوانه فى الحروب، كان فى سجنه حين مات خمسون ألف رجل ثلاثين ألف وإمرأه سته عشر ألف منهم عراه، وكان يضع النساء مع الرجال ولم يكن لسجنه سقف فكانوا يعانون من شدّه الحراره فى الصيف والبروده فى الشتاء.

وقال ابن الجورى: أنّ حرس السجن كانوا يرمون السجن بالحجر إن لاذ بالجدار من شدّه حراره الشمس، وكان طعامهم قليلاً من الخبز المخلوط بالملح والرماد، فكان يسود وجه من يدخل السجن بحيث لا تعرفه أمه حين تأتي لرؤيته.

ولعل أبلغ كلام قيل فى الحجاج ما ذكره الشعبى حين قال: «لو أخرجت كل أمه خبيثها وفاسقها وأخرجنا الحجاج بمقابلتهم لغلبناهم» .

وكان موته ذا عبره أيضاً حيث أصيب بمرض شديد فكان يصرخ بشدّه من الألم حيث كانت تسيطر عليه بروده شديده فيضعون قربه ظروفاً مملوءه بالنار حتى كان يحترق جلده وهو يرتعش من البرد.

نعم، لقد احترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة، توفى فى الرابعه والخمسين من عمره عام ٩٥ هـ فإلى جهنّم وبئس المصير. (١)

ص: ١٠٤

١ - ١) مروج الذهب ٣٦/١٦٦؛ وتاريخ ابن الجوزى حسب نقل سفينه البحار، وسيره الأئمه، ٢٤٤/؛ وشرح نهج البلاغه للمرحوم التستري ٦/١٢.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
يُؤَيِّخُ الْبِخْلَاءَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ

نظره إلى الخطبه

يبدو أن هذه الخطبه القصيره هي جزء من خطبه طويله فصلها المرحوم السيد الرضى، ومن هنا لم يتضح سبب ووردها ولا أقسامها الأولى: والآخره، مع ذلك فهي تشمل على عبارات مؤثره ومعتبره رغم قصرها.

ويستفاد من بعض المصادر (٢) أن الإمام عليه السلام أورد هذه العبارات ضمن خطبه في نهايه معركة صفين فهي تناسب تلك الأجواء تماماً.

على كل حال فإن الإمام عليه السلام عرض بالذم المخاطبيه الذين يسحون في بذل الأموال والأنفس في سبيل الله سبحانه وتعالى فقال لهم اعتبروا بتاريخ أسلافكم واتعضوا بحياتهم كيف تركوا كل شيء وارتحلوا عنه.

ص: ١٠٥

١-١) سند الخطبه: ورد في مصادر نهج البلاغه أن أى مصدر غير نهج البلاغه لم يتعرض لنقل هذه الخطبه، ويكتفى بالإشاره إلى كلام ابن أبى الحديد في آخر هذه الخطبه وقال: جاء في بعض الروايات «أصل اخوانكم» بدلاً من «أوصل إخوانكم» ويستفاد إجمالاً من هذا الكلام أن هناك مصدراً آخر لابن أبى الحديد في هذه الخطبه.

٢-٢) تمام نهج البلاغه، ص ٦٥٩.

«فَلَا أَمْوَالَ يَدَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا. تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ! فَاعْتَبِرُوا بِتُرُوكِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصِلِ إِخْوَانِكُمْ».

الشرح والتفسير

الفكر والاعتبار

إستهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بدمّ طائفه من أصحابه وهو يعتب عليهم ويوبخهم فقال: «فَلَا أَمْوَالَ يَدَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا» .

فالواقع هو أنّ الله تبارك وتعالى خالق الأنفس هو المالك الأصلي لهذه الأموال، وهذه الأموال والأنفس أمانه استودعها الله سبحانه الناس مدّة من الزمان، وإلّا أنكم أخذتم إليها وإلتصقتم بها وكأنكم أنتم المالك الأصلي والخالق لها، وهذا قمه الجهل بالواقع، فالعبارة تبدو متناسبه تماماً وإلقاء هذا الكلام بعد معركة صفين، حيث كانت هناك فئه في جيش الإمام عليه السلام لم تكن مستعدة للمخاطره بأرواحها دفاعاً عن الحق ولم تكن حاضره لبذل ما في أيديها من أموال لتجهيز جند الإسلام.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «تَكْرُمُونَ (١) بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ!» .

حقاً إنّ هذا الإزدواج لشيء عجيب في أن يتوقع الإنسان أن يعزّه ويكرمه الناس على أنّه عبد من عباد الله، بينما لا يكرم أى من عبيد الله سبحانه، فهو لا ينفق شيئاً من ماله ولا يضحى

ص: ١٠٧

(١-١) ورد الفعل تكرمون بصيغه الفعل الثلاثي المجرد المعلوم الذي يعنى الإكرام والاحترام، وهى هنا بمعنى انتظار الإكرام.

بنفسه من أجل الوقوف بوجه الظالم ونصره المظلوم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بتحذيرهم وضروره الاعتبار بمن سبقهم حيث سيجرى عليهم نفس الحكم، وإن كانوا رحلوا فسترحلون ويأتى قوم آخرين يسكنون مساكنكم كما سكنتم منازل من كان قبلكم كما عليهم الإيعاظ بانفصام عرى القرابه حتى مع أقرب إخوانكم، فقد رأيتم بأعينكم ذهاب بعض أعزتكم وقريباً ما تلحقون بهم: «فَاعْتَبِرُوا بِمَنْزِلِكُمْ مَنْزِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصِلِ إِخْوَانِكُمْ» .

فهذا دليل آخر على أنّ كافه الأموال والأنفس ودائع وهى مخلوقه جميعاً لله، وأنه سبحانه يداول هذه الأموال والمساكن والمناصب بين الناس إلى أجل مسمى، والتاريخ أعظم شاهد على هذا الأمر.

فلسنا أول من وطأنا هذا العالم، ولسنا بأخر من يغادره، إنما حلقة صغيره ضمن هذه السلسله الطويله الممتده منذ بدايه الخليقه حتى نهايه العالم، فمن الغفله ألا نرى الحلقات السابقه واللاحقه، فلا نعرف موقعنا فى هذا العالم ونرى هذه الدنيا خالده دائمه لنا.

وزبيده الكلام فإنّ الإمام عليه السلام كشف النقاب عن الممكنون بهذه العبارات بما يوقظ النائم الغافل ويقض مضجع من يشهد سكر المال والمقام والجاه.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي الصَّالِحِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ

نظره إلى الخطبه

كما ذكر في سند هذه الخطبه فقد صرح بعض شراح نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام بعد معركة الجمل، حيث كان أصحاب الإمام عليه السلام وحده واحده وصفوف متراصه مطيعه لأوامره وتوجيهاته فحققوا نصراً سريعاً باهراً بعد أن قضوا بكل شجاعه وبساله على فلول العدو وأخمدوا نار الفتنة.

فقد أثنى الإمام عليه السلام عليهم بهذه العبارات البليغه القصيره، ثم أوصاهم بمواصله السير على هذا النهج، وأخيراً إختتم خطبته بإشاره عابره إلى مقام ولايته

ص: ١٠٩

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه المؤرخ المعروف الطبرى في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، وابن قتيبه الدينورى في كتاب «الإمام والسياسيه»، وابن أبى الحديد الذى قال فى شرح هذه الخطبه، قال على عليه السلام هذا الكلام بعد معركة الجمل، كما نقلها المدائنى، والواقدى فى كتبهما (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٦١).

«أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجَنُّ يَوْمَ الْبَاسِ، وَالْبَطَانَةُ دُونَ النَّاسِ. بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحِهِ خَلِيَّتِهِ مِنَ الْغَشِّ، سَلِيمِهِ مِنَ الرَّيْبِ. فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!» .

الشرح والتفسير

الأصحاب الأوفياء

شجنت أغلب خطب نهج البلاغه بالذم الشديد بالنسبه لطائفه من أصحاب الإمام عليه السلام خاصه بعد معركة صفين على ما أبدوه من ضعف وفرقه وغدر في ميدان المعركه، لكن في هذه الخطبه التي وردت بعد معركة الجمل، فإن الإمام عليه السلام يعرض بالمدح والثناء البليغ على أصحابه الأوفياء، ويدل هذا بوضوح على أن الإمام عليه السلام كان على الدوام يحث المحسنين من أصحابه ويرغبهم في الأعمال الصالحه، كما كان يذم المسيئين منهم، ليخلص الفريق الأول في عمله ويلتصق به، ويرعوى الفريق الثاني ويهم بإصلاح نفسه، فقد خاطب الإمام الصالحين من صحبه بأربع عبارات: «أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجَنُّ يَوْمَ الْبَاسِ، وَالْبَطَانَةُ (٢) دُونَ النَّاسِ» .

نعم، أنتم إخواني في الدين وقد أثبتتم عدم تقصيركم في نصره الحق، تقفون بكل شموخ في ميادين القتل بوجه الأعداء، إلى جانب ذلك فأنتم ثقه في حفظ الأسرار المتعلقة بالحرب والسلام.

ثم قال عليه السلام: «بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ» .

ص: ١١١

١-١) «جنن»: جمع «جنه» على وزن قوه الوقايه.

٢-٢) «بطانه»: من ماده «بطن» صاحب السر وخاصه الرجل.

إشاره إلى أنّ الناس على صنفين: صنف أدار ظهره للحق وهبّ لمقارعتة ولا سبيل هناك سوى التصدى له والوقوف بوجهه، وأنتم الأنصار في هذا القتال، وصنف آخر أقبل على الحق ولكن لا يتمتع بالمعرفه اللازمه والطاعه الكافيه، وسأعمل على تربيتهم بواسطةكم لكي ينقادوا لله ويطيعوه.

والخلاصه: فأنتم أنصارى في مقاتله العدو وكذلك في المجال الفكرى تجاه الصديق، ثم نصح عليه السلام صحبه الأوفياء بعبارتين عميقتين المعنى فقال: «فَأَعِينُونِي بِمُنَاصِحِهِ خَلِّئِهِ مِنَ الْغَشِّ ۖ سَلِيمِهِ مِنَ الرَّيْبِ» .

ففى العبارة إشاره إلى نقطه مهمه وهى أنّ بطانه الأمراء ومشاورى الحكام غالباً ما يقدمون مصالحهم الشخصيه أو منافع قرابتهم ومن لهم علاقه بهم، ثم يعرضونها للحكام على أساس إرادته الخير والخدمه، بل أحياناً يطرحون بعض الاقتراحات التى لا يقتنعون بها أنفسهم وهذا ما يؤدى بدوره إلى الإحباط والفشل فى أغلب الخطط، فالإمام عليه السلام يؤكد على أصحابه الإخلاص فى ما يطرحونه من أراء واقتراحات وابعادها عن كل ما يشوبها وعدم الأخذ بنظر الاعتبار سوى الخير وصلاح دين الحق وعباد الله.

وأخيراً يختتم خطبته بهذه العبارة: «فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!» .

ولعل هذه العبارة دليل على العبارات السابقه، أى إنى إن توقعت نصرتكم ووقوفكم إلى جانبى فذلك كونى ولى أمر الناس باذن الله، بل إنى أولى بهم حتى من أنفسهم، وهذا ما ينبغى أن يجعلكم تشعرون بالرضى والسرور على إنكم تسرون خلف مثل هذا الإمام وتطيعون أوامره.

الثناء على الأصحاب

أثنى الإمام عليه السلام ثناءً بليغاً على أصحابه بعد معركة الجمل، حيث استطاعوا بمدّه قياسيّه ومن خلال إتحادهم وصمودهم وقوّه إيمانهم من القضاء على قدرات العدو وإخماد نار الفتنة فى تلك المنطقه الإسلاميه الحساسه (البصره) .

بينما توالى الخطب التي تعرض بالذم لطائفه أخرى من أصحابه، وذلك بعد معركة صفين التي انتهت بفشلهم بفعل اختلاف كلمتهم وضعفهم في عقيدتهم وإرادتهم وعدم طاعتهم وإمتثالهم للأوامر، ولم يكن ذيك سوى في اللحظات الأخيره التي أوشك النصر فيها على التحقق والرسوخ، فذلك الثناء وهذا الذم يفيد أن كل ذلك يتم على أساس حساب تخطيط وليس هناك من تناقض في الأمر، كما لم تطلق كلمه في هذا المجال تتعارض والحكمه والمصلحه، الأمر الذي ربّما يلتبس على البعض الذين لا يعلمون بشأن وورد هذه الخطبه.

النقطه الأخرى هي أنّ الإمام عليه السلام عين في هذا الكلام القصير وظيفه الأمه تجاه الحكومه، فيجب عليها من جانب الوقوف من أجل استقطاب الأوفياء ودفع الحاقدين، ومن جانب آخر التمعن في كافة الأنشطة السياسيه والاجتماعيه والعسكريه وإبداء المقترحات النافعه والانتقادات البناء بهذا الخصوص.

ثم يشير في آخر عبارته من هذه الخطبه إلى نقطه مهمه وهي مسأله الولايه الإلهيه، وهو الأمر الذي أكدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في خطبه الغدير حيث قال: «أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»، فردّ المسلمون: بلى يا رسول الله، ثم قال صلى الله عليه وآله: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلَيَّ مَوْلًا». . هكذا قطع رسول الله صلى الله عليه وآله الأعداء على جميع من يتشبث بالحجج الواهيه ويختلق الذرائع ليقول الولي هنا بمعنى الصديق.

والطريف في الأمر أنّ العلماء الأئمة صاحب كتاب الغدير قد نقل العبارة: «أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» من أربعة وستين محدثاً ومؤرخاً إسلامياً، وهذا ما يؤكد إتفاق الجميع على هذه العبارة (1)، فالإمام عليه السلام ذكر هذه النقطه في الخطبه وأقسم قائلاً: «فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِالنَّاسِ!». .

من الواضح أنّ المراد من هذه العبارة هو أنّ أوامر الإمام المعصوم كأوامر الله تبارك وتعالى مقدمه على رغبات الناس، وإن كانت هذه الأوامر تصبّ في طريق مصالح المجتمع ومنافعه.

ص: ١١٣

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا ملتياً

نظره إلى الخطبه

كما ورد في سند الخطبه فإنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه إثر إحدى حملات معاويه وجيش الشام على أطراف العراق، فيعرض الإمام عليه السلام بالنقد اللاذع في هذه الخطبه لذلك الصمت السلبي وعدم الإكتراث من قبل الناس تجاه تلك الأحداث المؤذيه التي تضعف معنويات جند الإسلام وروحياتهم، وحين ردّ البعض على الإمام عليه السلام إن سرت سرنا معك، شدد الإمام عليه السلام من ذمهم وتوبيخهم على أنّ وظيفه الإمام وزعيم الجماعه ليست في أن يدفع بشخصه لإخماد أي تمرّد ومطاردته عدو وترك مركز الحكومه الإسلاميه والتخلي عن مختلف وظائفه، فالإمام لا بدّ أن يقوم بهذا العمل في الأحداث الغايه في الأهميه ويترك لبعض الأمراء الصغار ممن دونه التعامل مع سائر الأحداث، فهذا أحد الأصول المسلمه للإداره والإمره وللأسف لم يكن أهل الكوفه على علم بذلك أو أنّهم لم يريدوا العلم بذلك.

ص: ١١٥

١-١) سند الخطبه: نقلت مصادر أخرى هذه الخطبه وكذلك فسّر ابن الأثير في «النهايه» بعض المفردات من هذه الخطبه، كما أشار إلى بعض عباراتها. قال ابن أبي الحديد في شرح لهذه الخطبه أنّ الإمام خطبها بعد معركة صفين والنهروان بعد غارات أهل الشام على مناطق البلاد الإسلاميه، وهذا يفيد وجود مصدر آخر لابن أبي الحديد غير الذي إعتمده السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٦٣).

«فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بَالُكُمْ أَمْخَرَسُونَ أَنْتُمْ؟»

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ سِرَّتَ سِرْنَا مَعَكَ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بَالُكُمْ! لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدِي! وَلَا هُدَيْتُمْ لِقَصْدِي! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أُخْرَجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوَى بَأْسِكُمْ، وَلَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أَدْعَ الْجُنْدَ وَالْمِصِيرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الْمَارِضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُشْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَّالِبِينَ، ثُمَّ أُخْرَجَ فِي كَتِيبِهِ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقْلُقُ تَقْلُقَ الْفَدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتَهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوْءُ!.

الشرح والتفسير

حين بلغ الإمام عليه السلام هجوم أعوان معاويه على بعض المناطق الحدودية، جمع الناس وأمرهم بالحركة إلى الجهاد، لكن وكما ورد في الخطبه المذكوره سكت الناس ولم يجيبوه، فامتعض الإمام عليه السلام وتأثر شديداً فقال: فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا بَالُكُمْ أَمْخَرَسُونَ أَنْتُمْ؟»

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ سِرَّتَ سِرْنَا مَعَكَ».

فردّ عليهم الإمام بعنف بعدم التوفيق وبلوغ الهدف (1)، فلا ينبغي للإمام الحركه في مثل تلك

ص: ١١٧

١ - ١) هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه [١] بشأن هذه الجملة هل هي جملة خبريه تخبر عن وضع جماعها الكوفه الضعيفه والمسلوبه الإراده على أنهم سلكوا سبيلاً لا يدهم يتوفقون في حياتهم أبداً، أم أنها جملة إنشائية ونوع من الاشتمزاز، يبدو المعنى الثاني هو الأنسب.

الظروف: «فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بِالْكُمْ! لَا سُدِّدْتُمْ (١) لِرُشْدٍ! وَلَا هُدَيْتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أُخْرَجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ» .

فلم يكف متعارفاً في أي مكان من الدنيا ولا عصر من العصور أن ينهض زعيم فرقه أو رئيس دولة بشخصه للتدخل في حادثه صغيره وبلبله معينه، بل عاده ما يوجه لها أحد أمریه برفقه مجموعه من العناصر الشجاعه والوفيه من أجل إخماد الفتنة وحل النزاع، وذلك لأنّ التخلي عن مركز الحكومه من شأنه أن يقود إلى عدّه مخاطر جانيه، ومن هنا واصل الإمام كلامه قائلاً: «وَلَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمَصِيرَ وَبَيَّتَ الْمَالِ وَجَبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أُخْرَجَ فِي كِتَابِهِ (٢) أَتَبِعُ أُخْرَى، أَتَقَلُّلُ تَقَلُّلَ (٣) الْقَدْحِ (٤) فِي الْجَفِيرِ (٥) الْفَارِغِ (٦)» .

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى سته جوانب تتضمن الوظائف المهمه لرئيس الدوله يمكنها الإنهيار جميعاً فيما إذا شغل مركز الحكومه من ذلك الرئيس، وهي الاشراف على الجند وأمور العسكر والجيش والحفاظ على مركز الدوله وحفظ بين مال المسلمين وجبايه الخراج والضرائب والقضاء بينهم والدفاع عن حقوق عنهم.

فمن البديهي يمكن لرئيس الدوله أن يشخص بنفسه للتعامل مع الحوادث الضحمة ويهب لمواجهة العدو، أمّا في غيرها من الحوادث ذات الطبيعه العاديه، فيمكن لغيره التعامل معها، وتشير سيره الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه كان يشخص بنفسه الشريفة في الغزوات المهمه المصيريه، فيتزعم الجند، وكان ينصب بعض الأفراد في الغزوات العاديه فيسلمه الرايه

ص: ١١٨

١-١ «سددتم»: من ماده «سد» المعروف المعنى ولما كان السد هو البناء المحكم فالتسديد يعنى الإحكام والترسيخ وسدده وفقه للسداد.

٢-٢ «كتيبه»: طائفه من الجيش قال بعض أرباب اللغه يتراوح عددها من مئه إلى ألف.

٣-٣ «تقلقل»: الحركه من جانب إلى آخر.

٤-٤ «قدح»: بكسر القاف السهم أو القطعه من الخشب وقيل أيضاً هو السهم قبل أن يراش وينصل.

٥-٥ «جفير»: الكنانه التي توضع جانب الفرس وتوضع فيها السهام.

٦-٦ «الفراغ»: بمعنى الخالى.

ويوصيه ببعض التعاليم كما يوصى الجيش بطاعه أوامره، وهكذا كانت تحصل أغلب الغزوات فى تاريخ الإسلام والتى يصطلح عليها عاده بالسريه، غايه ما فى الأمر أن صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانوا يأترون بأوامره بحيث يطيعونه فى كل ما يقول ولم يكن يرد عليه أحد بأن سرت سرنا معك.

نعم، صحيح لكل قسم مسؤول على أساس تقسيم وتنظيم شؤون البلاد، لكن لا يخفى الدور الحيوى الذى يلعبه الرئيس المشرف على أولئك المسؤولين فى تقدم الأعمال والنهوض بها قدماً، هذا الأمر واضح تماماً، بل هو من البديهيات، لكن أولئك المتقاعسون المسلوبون الإراده والضعاف الذين يتذرعون بمختلف الذرائع من أجل إجتناى مواجهه العدو فيشترطون شرطاً غايه فى البعد عن المنطق لخروجهم، وبعبارة أخرى شرطهم هو تعليق على المحال، ويواصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال تشبيه رائع لشخصه بقطب الرحا ومحورها والذى يفيد ضروره بقاءه فى موضعه (بـحيث تدور كل الأمور من خلاله) فان إبتعد هذا المحور عن مركزه اختلت حركه جميع الأشياء: «وإنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتَهُ اسْتَحَارَ (1) مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا» .

فقد جرت العاده سابقاً على الاستفاده من الرحى اليدويه أو المائيه والهوائيه من أجل طحن الحنطه والشعير، وكانت بنيه هذه الآليات بسيطه وواضحه، فقد كانت هناك حجره ثابتة فى الأسفل وأخرى تتحرك فى الأمام بواسطه حركه اليد أو ضغط الماء الذى يعبر من تحتها أو الرياح، وكان وسط الحجرين قطب يدور حول محوره الحجر لو كسر القطب لخرج الحجر عن مساره ووقع جانباً إلى جانب ذلك كان هناك جلد كبير أو قطعه من القماش تبسط تحت الرحا لجمع الدقيق بسهوله، حيث إذا خرج الدقيق من وسط الحجرين وقع عليه، ولو زال ذلك القطب والمحور الأصلي لوقفت الرحا عن الحركه ووقع الحجر على تلك القطعه من القماش أو الجلد واضطراب.

هذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا» ، إضافة إلى ذلك فإن

ص: ١١٩

١-١) «استحار»: من ماده «تـحـير و حـير» بمعنى التردد والاضطراب وتطلق على السحب الثقيله التى لا تدعها الرياح تتحرك فى مسارها وكأنها تبقى مضطربه متردده.

الشيء الذى يحرك الحجر فى الرحا هو ذلك الواقع فى وسط الحجر والذى يتصل من الأسفل بمحور أكبر يصب عليه الماء من جانب ويحركه، وهكذا يكون القطب عامل حركه وعامل تنظيم، وهذه هى منزله الإمام والقائد.

وأخير يخلص الإمام إلى النتيجة صريحه بأن ذلك الاقتراح مرفوض تماماً فى أن يشخص بنفسه لإطفاء كل فتنه هنا وهناك تاركاً لمركز الحكومه: «هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوءُ!». .

حقاً أنه لإقتراح فاشل بشهاده كل مدير ومسؤول له علم بهذه الأمور فى أن القائد لا يفارق موقعه ومركز ثقله ومهامه سوى فى الحوادث المهمه.

«وَاللّٰهُ لَوْلَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعِدُوِّ - وَلَوْ قَدَّ حُمِّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَّصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جُنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاعِينَ. إِنَّهُ لَا غِنَاءَ فِي كَثْرَتِهِ عِدَدِكُمْ مَعَ قَلْبِهِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ لَقَدْ حَمَلْتَكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ اسْتَقَامَ فَالَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَالَى النَّارِ» .

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه من ذمّه وتوبيخه لأهل الكوفه وعين نقاط ضعفهم وأعرب عن يأسه وعدم أمله في مستقبلهم وعاقبه أمرهم، فقال: «وَاللّٰهُ لَوْلَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعِدُوِّ - وَلَوْ قَدَّ حُمِّ (١) لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَّصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جُنُوبٌ وَشَمَالٌ» .

العباره «مَا اخْتَلَفَ جُنُوبٌ وَشَمَالٌ» ، إشاره إلى مراده أنني لم آتني إليكم أبداً، فالعباره أشبه بما ورد في إحدى كلماته عليه السلام حين أقترح عليه عدم التسويه في العطاء من بيت مال المسلمين، فقال عليه السلام: «أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجُورِ فَيَمُنُّ وُلِّيْتُ عَلَيْهِ! وَاللّٰهُ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا!» (٢).

ص: ١٢١

١- ١) «حم»: من ماده «حم» على وزن غم بمعنى قدر، وعليه فمفهوم العبارة قد حم لي لو قدر لي مثل هذا الأمر، أو إن وفقت لهذا الأمر.

٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٦. [١]

تطالعنا هنا ثلاثة أسئلة تطرح نفسها:

الأول: كيف قال الإمام عليه السلام لولا رجائي الشهادة لما مكثت بينكم ولتركتكم، بينما ذكر سابقاً لا ينبغي لى أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر فى حقوق المطالبين، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الثانى أنّ الإمام عليه السلام قد سمع بشاره رسول الله صلى الله عليه وآله له بالشهادة وكان يعلم أنه سيقتل على يدي أشقى الآخريين عبدالرحمن بن ملجم، فكيف قال لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو؟

الثالث: كيف يستطيع الإمام عليه السلام التخلي عن إمامته وزعامته ويخرج من الناس؟

وللإجابة على السؤال الأول لابد من القول أن نيل فيض الشهادة كان يشكل أحد الأهداف المقدّسه للإمام عليه السلام فى بقائه وسط تلك الفئه ولا مانع من أن يكون له أهداف أخرى، حيث بين اثر تلك الأهداف فلم تعد هناك من حاجه لديه لذكرها هنا (١).

ونقول فى الردّ على السؤال الثانى إنّ لقاء العدو يشتمل على مفهوم غايه فى السعه وإن بدى فى الوهله الأولى يجسد مواجهه الخصم فى ساحه المعركه والذى يمثل جزءاً من ذلك اللقاء، ونعلم أنّ شهادة الإمام عليه السلام كانت أحد مصاديق ذلك.

وأما السؤال الثالث: فيمكن الإجابة عليه بالقول بأن ترك فئه فاسده لا يمكن إصلاحها لا يعنى التخلي عن وظائف الإمامه أبداً، بل يمكن للإمام عليه السلام أن يتّجه صوب جماعه أعظم إستعداداً، على غرار ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله حين هاجر من مكه إلى المدينة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكر الأدله التى تدعوه إلى عدم الإرتياح منهم ويبيّن لهم نقاط ضعفهم على أمل الإلتفات إلى أنفسهم فيهموا باصلاحها فقال: «طَعَانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ (٢) رَوَّاعِينَ (٣)» .

ص: ١٢٢

١- ١) للأسف وحسب علمنا فإنّ شرّاح نهج البلاغه لم يطرقوا هذا البحث ويردوا على هذه الأسئلة، وشذ منهم أحد أعلام القرن السادس هو المرحوم البيهقى الذى أجاب عن السؤال الثالث بأنّ الإمام عليه السلام قال: ذلك بغض النظر عن مقام الإمامه، وإلّا فإنّ مقام الإمامه يقتضى من الإمام أن يكون بين الناس مهما كانت الشرائط، وبعبارة أخرى فإنّ الإمام عليه السلام قال لولا مقام الإمامه وكنت حرّاً فى هذا الأمر لتركتكم.

٢- ٢) «حيادين»: من ماده «حيد» على وزن حرف بمعنى الانحراف ويقال الحياد، لمن ينحرف كثيراً عن جادهالحق.

٣- ٣) «رواعين»: من ماده «روغ» على وزن ذوق بمعنى الذهاب إلى هذا الطرف وذاك وهى كناية عن المكر والحيله، ومن هنا تستخدم هذه المفردة بشأن الثعلب، فيقال (راغ الثعلب).

فهذه الصفات الأربعة على درجه من القبح والبشاعه بحيث يكفى وجود واحده منها فى فرد لتدعو للنفره منه والابتعاد عنه، فضلاً عن اجتماعها جميعاً فيه، أى أنّ جلّ همّه الالتفات إلى المعايب والمثالب، بل يعطيها حجماً أكثر من واقعها فهو لا ينفك عن طرحها وتكرارها حتى شعر المقابل باليأس، فلا يرى الحق حتى يولى له ظهراً فتختلط حياته بالمكر والأسى، فكيف لرجل صالح أن يعيش وسط مثل هذه الفئه فضلاً عن الإمام المعصوم عليه السلام الزعيم للخلق والذى ليست أمامه من نتيجته لهذا الوضع الأساسى سوى الحزن والمعاناه، ومن هنا يرجو الإمام عليه السلام مفارقتهم والانفصال عنهم.

ثم أضاف الإمام عليه السلام بأنه إلى جانب تلك العيوب الشخصيه هناك عيب اجتماعى كبير فيهم والذى يتمثل بعدم جدوى كثره عددهم مع قلّه اجتماع أفكارهم: «إِنَّهُ لَأَغْنَاءُ فِي كَثْرِهِ عَدَدِكُمْ مَعَ قَلِّهِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ» .

صحيح أنّ عددكم يبدو كثيراً فى الظاهر، ولكن حيث تغيب الوحده التى ينبغى أن تجمع قلوبكم وتوحدها وحيث ينفرد كل بإرادنه وقراره، فلم يعد هناك من خير يؤمل فيكم، أو بعبارة أخرى فإنّ اجتماعكم الموتى وتجمعكم الوحشه.

ثم إختتم الإمام عليه السلام الخطبه بقوله أنّى قمت بوظيفتى تجاهكم: «لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ» .

فالإمام عليه السلام أوضح بهذه العبارة حقيقه مفادها أنّى قلت لكم كل ما ينبغى قوله وأتممت عليكم الحجه وإن تمنيت الخروج عنكم ومفارقتكم فذلك لا- يعنى أنّى قصرت فى مقام بوظيفتى تجاهكم، ولكن للأسف إنكم لستم بالأفراد للثقلين الذين يسعكم الاستفاده من البرامج التربويه التى يطرحها مرشد ربانى شفيق عليكم.

القلوب الواعيه

أورد مؤرخ القرن الثالث المعروف أبو اسحاق الثقفى فى كتاب «الغارات» فى ذيل هذه الخطبه حين خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه قام «جاريه بن قدامه السعدى» فقال: «يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا أَعَدَمْنَا اللَّهُ نَفْسَكَ وَلَا أَرَانَا فِرَاقَكَ أَنَا لَهُؤْلَاءِ الْقَوْمِ فَسِرِّحْنِي إِلَيْهِمْ» .

فسر الإمام عليه السلام لكلامه وأثنى عليه، من جانب آخر قام إليه «وهب بن مسعود الخثعمي» فقال: «أنا لهم» .

فأمر الإمام عليه السلام جاريه أن يسير بألفين إلى البصره والخثعمي بألفين إلى الكوفه، ثم أمرهما بتتبع بسر بن أبي ارطاه أينما وجدوه (١).

والذي يستفاد من هذا البحث التاريخي:

أولاً: إنَّ شدَّه كلمات الإمام عليه السلام كان لها في خاتمه المطاف الأثر البالغ في بعض القلوب الواعيه فاستعد أصحابها لمواجهه الأعداء.

ثانياً: يتضح أنَّ هذه الخطبه قد وردت قبل المرحوم الرضى في كتاب «الغارات» .

ص: ١٢٤

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَذَكَرُ فَضْلَهُ وَيَعْظُ النَّاسَ

نظره إلى الخطبه

بدايه الكلمات إشاره إلى وجود أبواب الحكم وكنوز العلم لدى أهل البيت عليهم السلام الذين تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وآله و آله تبليغ الرساله و تفسير كلمات الله سبحانه و تعالى، ثم خاض الإمام في إسداء مواعظه و نصائحه النافعه و حذر الناس في ضروره الاعتبار بالآخرين و الخوف من نار جهنم و أن يعملوا ما يجعل الناس يذكرونهم بكل خير بعد إيمانهم، فالسمعه الحسنه أفضل من الأموال تلحق الإنسان بعد وفاته، الأموال التي قد لا يعرف الورثه عاده قيمتها ولا يشكرون جامعها.

ص: ١٢٥

١-١) سند الخطبه: جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه أن سليم بن قيس الذي عاش قبل السيد الرضى نقل القسم الأول من هذه الخطبه في كتابه، كما وردت سائر أجزاءها بصوره متفرقه في كتاب «غرر الحكم»، ولما كان هناك تفاوت بين بعض عبارتها، فإن ذلك يعنى أنها أخذت من كتاب آخر غير نهج البلاغه، كما قال ابن أبي الحديد في شرح بعض عبارات هذه الخطبه نقلها جماعه بشكل آخر وهذا يشير إلى أنه كان لديه مصدراً آخر (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٦٤). [١]

«تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ. وَعِنْدَنَا - أَهْلَ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَصِيَاءُ الْأَمْرِ. أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَإِحَادَهُ، وَسُيْلَهُ قَاصِدَهُ. مَنْ أَخَذَ بِهَا لِحَقٍّ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ. إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُدْخِرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ. وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرٌ لِيَوْمِ فَعَازِيهِ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَاتَّقُوا نَارًا حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَلِيَّتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ».

الشرح والتفسير

المواعظ القيمه

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن العلوم التي تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ».

المراد بتبليغ الرسالات أساليب نشر المعارف الإسلاميه وأحكام الدين بمختلف الطرق وايصالها إلى الناس، إشاره إلى أنى لم أتعلم الرسالات الإلهيه فحسب، بل تعلمت من رسول الله صلى الله عليه وآله طرق التبليغ، فكانت لا أنثنى فى هذا السبيل.

والمراد باتمام العادات «الوفاء بالعهود» تلك وعود الله تبارك وتعالى بصوره عامه بالنسبه لجميع المؤمنين والوعود بصوره خاصه بالنسبه له عليه السلام، كما ورد فى القرآن الكريم: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (١).

ص: ١٢٧

يمكن أن يكون هذا الوعد الإلهي هو الوعد بالشهادة في سبيل الله، أو سائر الوعود من قبيل مقاتله الناكثين والقاسطين والمارقين، أو غير ذلك.

والمراد بتمام الكلمات يمكن أن يكون إشاره إلى تفسير آيات القرآن وتفسير كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وتبيان وإكمال كافة الكلمات التي وصلت من الكتاب والسنة.

كما يحتمل أن يكون المراد الإمام صلى الله عليه وآله أنى أولى من جميع الأفراد بخلافه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك لأننى تعلمت طريق تبليغ الرساله وتحقيق وعوده صلى الله عليه وآله وتفسير وتكميل كلماته، وعليه فإننى أستطيع النهوض لمسؤوليه الخلافه، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «أَنْتَ وَصِيّ وَأَخِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَتَقْضِي دِينِي وَتُنْجِزُ عِدَاتِي» (١).

الاحتمال الآخر الذى يمكن ذكره بالنسبه لهذه العبارة هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول أنا أولى بالخلافه، لأننى أقدر على تبليغ جميع رسالات الله سبحانه، كما أستطيع العمل بالوعود التى أقطعها وكذلك أتم ما أورده من كلمات وأحاديث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول: «وَعِنْدَنَا - أَهْلَ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ» .

والحكم بضم الحاء بمعنى الحكموهو القضاء، بناءً على هذا فالمراد بالعبارة عندنا أهل البيت طرق تدبير الحكومه وإقامه العدل وبسط الأمن، والحكم بكسر الحاء وفتح الكاف جمع الحكمه بمعنى العلوم والمعارف، ولا شك ولا ريب أنّ لدى أهل البيت عليهم السلام أبواب الحكمه وكنوز العلم والمعرفه، كما قرنهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال فى حديث الثقلين المعروف: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي» (٢).

ثم أورد الإمام عليه السلام خمس نصائح من شأنها نجاه العباد فى الدنيا والآخرة، وكأن العبارات الأولى لهذه الخطبه قد وردت لإعداد القلوب من أجل تقبل هذه النصائح ليقول أنّ كلامى يستند إلى علم عميق ودقيق بتعاليم الإسلام وتعاليم النبي صلى الله عليه وآله، فكانت النصحيه الأولى مسأله الإتحاد ووحده الكلمه وذلك لأن الاختلاف آفات سعادته الإنسان، فقال: «أَلَا وَإِنَّ

ص: ١٢٨

١- ١) بحار الانوار ٣١١/٣٦.

٢- ٢) للوقوف على مصادر هذا الحديث الشريف راجع كتاب نفحات القرآن ٩/٦٢ - ٧١. [١]

شَرَائِعِ الدِّينِ وَاحِدَةً، وَسُبُلُهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَ بِهَا لِحَقٍّ وَعَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ» .

المقصود بشرائع الدين كافة التعليمات التي صرّح بها الدين الحنيف بما فيها المعارف والعقائد والقوانين والوصايا والأمر الأخلاقيه، فجذروها واحده في جميع الأديان السماويه وإن إقتضت الظروف الزمانيه والتطور البشرى أن يكون هناك بعض الاختلاف شرحها وتفصيلها وتنوع فروعها.

كما يحتمل أن يكون المراد بشرائع الدين مختلف الطرق إلى الله سبحانه في الدين الإسلامى والتي تنتهى جميعاً إلى طريق رئيسى واحد وهو القرب إلى الله والسعاده المطلقة للبشر، فالصلاه الصوم والجهاد والحج والزكاه وكافه مثل هذه التعليمات إلى جانب التعاليم العقائديه والأخلاقية تتصل وتنتهى بنقطه واحده ويؤكد عليه السلام على أن بلوغ السبيل سهل وواضح وقريب، وعليه فإن الفرقه والاختلاف إنَّها تحصل من مزج الأفكار الباطله والأهواء ووساوس النفس والشيطان بشرائع الدين، فقال تعالى فى كتابه العزيز: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. . .» (١).

وقال عليه السلام فى الموعظه الثانيه: «إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تَدْخُرُ لَهُ الدَّخَائِرُ، وَتُبَلَى فِيهِ السَّرَائِرُ» .

العباره الأولى إشاره إلى الآيه الشريفه: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ. . .» (٢).

والعباره الثانيه إشاره إلى الآيه القرآنيه: «يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ» (٣).

من البديهي أن للإنسان قدره محدوده ينبغى توظيفها فى أفضل سبيل، فالعقل يقول: لم تستهلك طاقتك فى طريق لا يدوم أكثر من أيام، لم لا- تستهلكها فى سبيل يرافكك على الدوام ويخلد فيه معك، أضف إلى ذلك يوم تبلى فيه السرائر وكافه أعمال الإنسان الخفيه، فهو يوم عصب وفضيحه بالنسبه للطالحين.

وقال عليه السلام: فى عظته الثالثه: «وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرٌ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ (٤) عَنْهُ أَعْجَزُ، وَعَازِبُهُ أَعْوَزُ (٥)» .

ص: ١٢٩

١-١ (١) سورة الشورى / ١٣. [١]

٢-٢ (٢) سورة النحل / ٩٦. [٢]

٣-٣ (٣) سورة الطارق / ٩. [٣]

٤-٤ (٤) «عازب»: من ماده «عزوب» بمعنى الابتعاد وعازب بمعنى بعيد.

٥-٥ (٥) «أعوز»: من ماده «عوز» على وزن مرض وعوز الشىء بمعنى لم يوجد ويراد به عدم وجود الشىء عند الحاجه.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة مزج الأدلة العقلية بالنقلية وتعبئه الجميع من أجل متابعه سبيل الحق، وقد قال الإمام عليه السلام هنا ثلاثة أنواع لعقل هي: العقل الحاضر والبعيد والغائب، يمكن أن يكون الأول إشاره إلى المسائل العقلية الواضحة، والثاني إلى المطالب النظرية التي يبلغها الإنسان من خلال الطرق الاستدلالية الواضحة، والأخير إشاره إلى المواضيع المعقدة التي يتعذر التوصل إليها من خلال الدليل والبرهان، فمن البديهي أن يتعذر إدراك المطالب النظرية والمعقدة والبعيدة عن الفكر على من لا يستفيد من المسائل الفكرية البسيطة.

ففي المسائل النظرية تتضح تماماً معرفه الله يوم القيامة (بالمبدأ والمعاد)، وذلك لأنّ آياته قد ملأت جميع العالم، والقيامه التي تمثل محكمته العادلة ثابتة بحكم العقل، وفي المسائل العلمية فإنّ حسن العدل وقبح الظلم ومدح الصدق والوفاء والعفة والورع والتقوى مسلم للجميع، ولكن قد يحول التعصب الأعمى وأهواء الإنسان دون الوقوف على هذه الأمور الواضحة، فأني لمثل هذا الفرد أن يبدي رأيه في المسائل النظرية والمعقدة ويبلغ الهدف المطلوب.

ثم خاطب الإمام عليه السلام الناس في المواعظه الرابعه بصفته منذر عالم فقال: «وَاتَّقُوا نَاراً حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَلِيَّتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ» (١).

والعبارات البليغه التي أوردها الإمام عليه السلام بشأن نار جهنم والتي تكفي كل واحده منها لصد الإنسان عن الذنب إنما اقتبست من الآيات القرآنية والأحاديث النبويه، فقد جاء في الآيه: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا. . .» (٢).

وجاء في أخرى: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ. . .» (٣).

يعني أنّها على قدر من الكبر والسعه بحيث لا تمتلىء بسهولة، وجاء في آيه أخرى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ» (٤).

وجاء في آيه أخرى: «مَنْ وَرَّأَهُ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ» (٥)، قطعاً من يؤمن

ص: ١٣٠

١-١) «صديد»: الماء الساخن، كما ورد بمعنى ماء الجرح الرقيق.

٢-٢) سورة التوبه / ٨١. [١]

٣-٣) سورة ق / ٣٠. [٢]

٤-٤) سورة الحاقه / ٣٠ - ٣٢. [٣]

٥-٥) سورة إبراهيم / ١٦. [٤]

بالآخِره ومحكمه العدل الإلهى وشىء من العذاب الأليم، فإنه يتحكم وسيطر على أهوائه ويجتنب الظلم والجور ولا يقارف الذنب والمعصيه، أما أولئك الذين ليس لهم من إيمان بهذه الأمور ولا يعتقدون بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، فليس هناك ما يدعوه إلى السيطرة على أهواءه وكف الأذى عن الآخرين وعدم التعرض لحقوقهم.

نعم، يمكن للضمير أن يجد من هوس الأفراد إلى حدود معينه، لكن من اليقين أن ليس لذلك من بعد عمومى وشامل، وتأثيره يبقى متواضعاً، أضف إلى ذلك فإن نبتة الضمير تذبل وتجف وتموت ما لم تسق بماء تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

أما الموعظه الأخيره والخامسه فقد أشار إلى نقطه مهمه جداً فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللّٰسَانَ الصّٰلِحِ يَجْعَلُهُ اللّٰهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُرْتَبَهُ مَنْ لَّا يَحْمَدُهُ» .

إن أغلب الناس وبدافع حبهم لأولادهم وأزواجهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل ضمان مستقبلهم ويفنون جانب عظيمياً من أعمارهم فى هذا المجال حتى أنهم يخلطون أحياناً الحلال بالحرام، لكنهم يغفلون عن قضيه مهمه دلت عليها التجربه أنه قلما نجد وارثاً يحمده من ورثه على ما خلفه لهم من ميراث، بل غالباً ما تكون الأموال الموروثة مصدراً للشقاق والاختلاف والنزاع، ولا غرو فكل فرد يسعى لأن يحصل لنفسه على السهم الأوفى، حتى قيل موت الغنى بدايه قتال الفقير.

بل قد يتجاوز الأمر ذلك لنشهد سب الوارث والتشنيع عليه والتعرض له بالذم من جراء ما خلفه من مشاكل بسبب الارث.

والحال لو تجاوز الإنسان وهو على قيد الحياه ذاته وأنفق قسماً من أمواله كصدقه جاريه وخدمه إنسانيه وثقافيه يسديها إلى المجتمع لبقى ذكره الطيب بين الناس فلن ينسوه أبداً، ويشنون عليه دائماً ويسألون الله له المغفره والرحمه، فهذا هو ثوابه فى الدنيا ولثواب الآخِره أعظم.

مِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

بعد ليله الهرير

وَقَدْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: الْأَمْرَيْنِ أَرَشَدُ؟ فَصَفَّقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ثُمَّ قَالَ:

نظره إلى الخطبه

لابد من الالتفات إلى مناسبه وورد الخطبه من أجل الوقوف على عمق محتواها ومضمونها، فهذا الكلام يرتبط بمعركه صفين حين نهى الإمام عليه السلام الناس عن قبول التسليم للتحكيم، ثم دعاهم إلى قبوله، والمعروف بهذا الشأن أنّ عمرو بن العاص فكر بخدعه حين شارف جيش الشام على الهزيمه، فأمر برفع المصاحف ووضعها على أسنه الرماح، ثم دعى أصحاب على عليه السلام إلى تحكيم القرآن، فانخدع لذلك الكثير من السذج من أصحاب على عليه السلام فكفوا عن القتال واستجابوا لطلب أهل الشام، ثم أصروا على تحكيم القرآن بشأن مصير

ص: ١٣٣

١ - ١) سند الخطبه: وردت هذه الخطبه فى عدّه كتب ألفت قبل المرحوم السيد الرضى مثل كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربّه و «الاختصاص» للشيخ المفيد، والكتب التى ألفت بعده «الكتب التى تفيد عباراتها أنّها نقلت الخطبه من مصادر أخرى غير نهج البلاغه» مثل «مطالب السؤل» لمحمد بن طلحه الشافعى، و «الاحتجاج» للطبرسى، و «ربيع الابرار» للزمخشرى مع اختلاف.

المعركة فى أن ينهض حكم من جيش الإمام عليه السلام وآخر من جيش معاويه، وبلغ بهم الأمر أن هددوا الإمام قائلين: «إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان» .

الإمام كان يعلم بأنّ تلك مصيده خطيره كمنت فى طريقهم ورغم مخالفته لهذا العمل، وإصراره على مواصلة القتال، غير أنّه أُجبر على التسليم للتحكيم، وهذا ما دفع بالعض للإعتراض على الإمام على عليه السلام، وفحوى اعتراضهم إنك نهيتنا عن التحكيم، واليوم تأمرنا به؟

فالخطبه ردّ على هذا الاعتراض وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّه أمور فى إطار الجواب فقال أولاً: هذه نتيجة طبيعیه لفعلكم وعدم تبعيتكم لإمامكم، فلو عملتم بما أمرتكم به وواصلتم القتال لما أصبحتم اليوم تعانون من هذه المشكله، ثم بين الإمام نقاط ضعفهم التى أدت إلى هذه المشكله الكبيره وفى المرحله الثالثه ذكر طائفه من أوائل المسلمين فى صدر الإسلام كانت تهب مسرعه لتبليه نداء الجهاد ومواجهه العدو بفعل قوه إيمانها، فكانت تنتصر دائماً (إشاره إلى أن طريق النصر ما سلكوه، لا ما أنتم عليه) .

وأخيراً يعرض لهم بالنصح ثانيه فى مراقبه أنفسهم والحذر من مصائد الشيطان.

«هَذَا جَزَاءُ مَن تَرَكَ الْعُقْدَةَ! أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ فَوَشَّيْتُكُمْ، وَإِنِ ابْتَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى، وَلَكِنِ بَمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أَدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشُّوكَةِ بِالشُّوكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا! اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطْبَاءُ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيَّ، وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ!». الشرح والتفسير

ردّ الإمام عليه السلام بجواب قاطع على من اعترض عليه في أنّ هذه المصيبة التي عصفت بكم إنّما أفرزها التحكيم وهذا جزاء من ترك الرأي السليم: «هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ (١)!». .

لقد صرخت بكم أن واصلوا القتال ولا تتركوه في هذه المرحلة الحساسة فالنصر قريب، لكنكم وليتم ظهوركم واستسلمتم لخدعه عمرو بن العاص، فأبيتهم إلما التحكيم، كان مكر ابن العاص في رفع المصاحف خدعه ظاهرها الإيمان وباطنها الكفر والنفاق على ضوء ما أخبر به الإمام عليه السلام في الخطبة القادمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وقد أقسم بالله لو أجبرتكم على الجهاد - والذي لم يكن يروق لكم بينما فيه الخير الكثير - حين أمرتكم بقبول التحكيم (بفعل الاضطرار واصرار الجهّال) لكان خيراً لكم، فان سلكتم سبيل الحق هديتكم وإن انحرفتم أعدتكم إلى الصواب، ولو

ص: ١٣٥

تخلفت طائفه منكم لاستبدالها بأخرى (على كل حال لو أطمعتموني في مواصلة القتال) وهذا هو الحق الذى ليس بعده إلا الضلال، لكن من المؤسف إنكم لم تجيبوني، فبمن استظهر على العدو وبمن أثق؟ «أما والله لو أنى حين أمرتكم به حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اغوججتم قومتكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكأنت الوثقى، ولكن بمن وإلى من؟» .

فالإمام عليه السلام قد بين بهذا الرد القاطع حقيقه فى أن تبتى مواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر، سيما أننا على أعتاب النصر، و كنت مستعداً لمواصلة هذا الطريق بكل قوه وعزم، ولذلك نهيتكم عن التحكيم، لكنكم أفراد ضعاف لا إراده لكم وطغاه عصاه لستم مستعدين للقيام بهذا العمل، وعليه فلم يكن لى من سبيل سوى قبول التحكيم، والحال رجعتم الآن عن رأيكم وسوّلت لكم أنفسكم الاعتراض علىّ.

ثم أعرب الإمام عليه السلام عن دهشته فقال: «أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى، كناقش الشوكه بالشوكه، وهو يعلم أن ضلعها (١) معها!» .

فالتشبيه المأخوذ من المثل المعروف تشبيه غايه فى الدقه والبلاغه، فعاده ما يخرجون الشوكه التى تغوص فى الرجل يابره أو منقاش، فان أريد سلها بشوكه أخرى احتمال أن تغوص الثانيه فى الرجل أيضاً، فيزيد الطين بله حتى أصبح الأمر بصيغه مثل تعارف عند العرب حيث يقول: «كناقش الشوكه بالشوكه، وهو يعلم أن ضلعها معها» .

فالمثل يصرب لمن يحكم آخر لرفع الاختلاف بينه وبين شخص آخر والحال يرغب ذلك الفرد بزياده العداوه والنزاع، فمراد الإمام عليه السلام إنى أريد أن أرفع بكم عصاه الشام بينما أنتم العصاه الذين يجب تأديبهم، على كل حال، فان هذه العبارات التى تفيض معاناه تفيد مدى الوضع العصيب الذى شهده الإمام عليه السلام، فان أمرهم بالهجوم ومواصلة القتال خالفوه وقالوا: عليك بالنزول لحكم القرآن، وإن طرح عليهم قضيه التحكيم اعترضوا عليه بالقول: لم تسلّم لمنطق العدو؟ فكل هواه ورأيه، ولكل فكره ونهجه، بحيث انتهى بهم الأمر إلى إتهام أعظم

ص: ١٣٦

١-١) «ضلع»: من ماده «ضلع» على وزن سبب بمعنى الميل نحو الشيء، وتعنى هنا الشبه والمثل.

إمام خلف رسول الله صلى الله عليه وآله على أنه ضعيف فى التدبير، وليس ذلك إلا بسبب وجود فئه سيئه من الأتباع الضعاف، لم وكيف أصبح الأمر كذلك؟ كأن الحق سبحانه أراد امتحان الجميع بهذا الزعيم الفذ.

وأخيراً شكى الإمام وعرض حاجته إلى الله سبحانه فقال: «اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطْبَاءُ هَذَا الدَّاءِ (١) الدَّوِيَّ، وَكَلَّتِ (٢) النَّزْعَةُ (٣) بِأَشْطَانِ (٤) الرِّكِيِّ (٥)!». .

ياله من تعبير بليغ وموجع فى نفس الوقت، فان أصيب شخص بمرض عضال ولم يجد معه نفعاً كل علاج يقدمه الطبيب المختص، فلا يشعر مثل هذا الطبيب سوى بالملل والإرهاق، على غرار الفلاح الذى يجهد نفسه فى استخراج الماء من البئر ليسقى به الأرض المالحة فلا تخرج بالنبات، وهذا بالضبط حال الإمام على عليه السلام حين إبتلى بتلك العصابة من الجهال المسلوبه الإيمان والإرادة لا خير يرتجى فيهم.

ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: «دَاوَيْتُ الْمَرْضَى فَشَفَيْتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرَأْتُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَالَجْتُ الْمَوْتَى فَأَحْيَيْتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَالَجْتُ الْأَحْمَقَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى إِصْلَاحِهِ» (٦).

ص: ١٣٧

١- ١) «داء»: من ماده «دوى» بمعنى المرض الشديد.

٢- ٢) «كلت»: من ماده «كلول» على وزن ملول بمعنى الضعف.

٣- ٣) «نزعه»: من ماده «تزع» على وزن جمع نازع بمعنى السحب.

٤- ٤) «أشطان»: جمع «شطن» على وزن وطن الحبل الطويل الذى يسحب به الماء من البئر.

٥- ٥) «ركى»: جمع «ركيه» البئر.

٦- ٦) بحار الانوار ١٤/٣٢٣، ح ٣٦. [١]

«أَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَاقْبَلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ، وَهَيِّجُوا إِلَى الْجِهَادِ قَوْلُهَا وَلَهُ اللَّقَاحُ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَيَلْبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا، وَصِفًا صِفًا. بَعْضُ هَلْكَ، وَبَعْضُ نَجَا. لَا يَبْشُرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّرُونَ عَنِ الْمَوْتَى الْقَتْلَى. مُزَّةُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَايَا، حُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشَّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صِفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهْرِ. عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبْرَةُ الْخَاشِعِينَ. أَوْلَيْكَ إِخْوَانِي الدَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَنْظُمًا إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَيْدَى عَلَى فِرَاقِهِمْ» .

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه أصحابه الشجعان من أهل الإيمان بهدف إثارة قدراتهم وقواهم وحثهم على الجهاد، كما ذمهم على ضعفهم وتقصيرهم، أصحابه الذين تألقوا فى ساحات الحرب حين قتالهم للأعداء وكذلك فى ميدان الطاعة والعبودية حيث كانوا سباقين فى هذه الميادين فقد قال: «أَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَاقْبَلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ، وَهَيِّجُوا (١) إِلَى الْجِهَادِ قَوْلُهَا (٢) وَلَهُ اللَّقَاحُ (٣) إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَيَلْبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا (٤)، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا (٥)، وَصِفًا صِفًا. بَعْضُ هَلْكَ، وَبَعْضُ نَجَا» .

ص: ١٣٩

- ١- (١) «هيجوا»: فعل مجهول من ماده «هيجان» وتعنى هنا أنهم كانوا يندفعون إلى الجهاد.
- ٢- (٢) «ولها»: من ماده «وله» على وزن فرح شدّه الشوق أوالحن.
- ٣- (٣) «لقاح»: من ماده «لقوح» الناقه.
- ٤- (٤) «اغماد»: جمع «غمد» على وزن هند موضع السيف.
- ٥- (٥) «زحف»: تعنى فى الأصل المشى مع الثقل.

دقيقه هي الأوصاف التي أوردها الإمام عليه السلام في هذه العبارة لهم، فقد ابتدأها بالإيمان بالإسلام والفهم والإدراك الصحيح للقرآن والعمل به والذي الدافع الرئيسي للحركة نحو الجهاد، ومن ثم عشقهم للجهاد الذي يشبه بعشق الأم لولدها وولدها إليه، ويشنى على شجاعتهم حيث لم يفكروا قط في إغماد سيوفهم والتراجع عن الجهاد، وأخيراً مدح مدى حركتهم الجماعية - والذين كانوا يحضرون في الميدان في أي موضع كانوا - والحق من يتحلى بهذه الصفات، فهو منتصر على الدوام.

ثم واصل الكلام بالحديث عن سائر صفاتهم حيث يكشف النقاب عن علو معنوياتهم ومدى زهدهم وخضوعهم وخشوعهم لله تبارك وتعالى فقال: «لَا يُبَشِّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى» .

وهذه علامته علو روحيتهم حيث لم يكونوا يفكر قيود الحياه الماديه، بحيث ينزعجون لفقد الأجه أو يهنى أحدهم الآخر على البقاء على قيد الحياه، إنهم يفخرون بالشهاده فى سبيل الله سبحانه ويرونها حلمهم فى نيل السعاده الأخرويه، ومن صفاتهم أيضاً: «مُرُهُ (١) الْعُتْيُونَ مِّنَ الْبُكَّاءِ، حُمْصُ (٢) الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبِيلُ (٣) الشَّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ (٤) الْمَأْلُوانِ مِنَ السَّهْرِ (٥). عَلَى وَجْهِهِمْ غَبْرَةُ الْخَاشِعِينَ» .

نعم، فهم فى ساحات المعارك يزأرون كالأسد، وإن جن عليهم الليل ارتفعت أصواتهم بالنحيب والبكاء وجرت دموعهم على خدهم، هكذا هم فى الحالين.

ثم خلص الإمام عليه السلام بعد ذلك إلى الدرس والعبره التى ينبغى الاحتذاء بها فقال: «أُولَئِكَ إِخْوَانِي الدَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نُنْظِمًا إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَيْدَى عَلَى فِرَاقِهِمْ» .

لقد جرت عادة أرباب الترييه على الاستشهاد بالنماذج البارزه القيمه من أجل تهذيب الأفراد المطلوب تربيتهم ليتمكنوا من مقارنة أنفسهم بتلك النماذج فيحذو حذوهم، يقفون

ص: ١٤٠

١-١) «مره»: أمره من مضت عينه أو وجعت.

٢-٢) «خمص»: جمع «أخمص» ضامر البطن.

٣-٣) «ذبل»: جمع «ذابل» الجفاف والتيس.

٤-٤) «صفر»: جمع «أصفر» شاحب اللون.

٥-٥) «سهر»: البقاء واعياً فى الليل.

على أخطائهم فيهمون بتداركها وإصلاح أنفسهم، وهذا هو الأسلوب الذي إعتمده الإمام عليه السلام في إطار تربيته للأفراد، ولكن وللأسف لم يكن أولئك الأفراد آنذاك مستعدين لتقبل نصائحه ووصاياه وبرامجه التربويه، وبالطبع لا فائده لأى مربّ ومعلم مهما كان بصيراً ومشفقاً ونموذجاً ما لم يكن هناك من إستعداد فى الطرف المقابل لتقبل أفكاره والاستجابة لها، فالأمطار المفعمه بالحياه والخير والبركه تنزل على كل مكان، ولكن لا- تخرج الأرض المالحه إلّا الخبث ولا يسعها الاستفاده من تلك الأمطار، والشمس هى الأخرى تضييء لكل ذى عينين، ولكن ماذا يسع الأعمى أن يرى منها، والرياح المنعشه تهب فى كل مكان ولكن لا تنتفع بها قبور الموتى.

ص: ١٤١

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَيِّئُ لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ. فَاصْدِقُوا عَنْ نَزَعَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَأَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَأَعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن الشيطان كون وساوسه تمثل مصدر البؤس والشقاء، حيث حذر صحبه ومخاطبيه من هذا المكر وضروره مراقبه الشيطان والالتفات إلى طرق نفوذه، وقد بين ذلك على شكل خلاصه بأربع عبارات فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَيِّئُ (١) لَكُمْ طُرُقَهُ» .

ولما كان الشيطان يتبع الأساليب السياسيّة شيئاً فشيئاً فإنه يسعى لتقويض جموح الدين والقضاء على العقائد والأعمال الواحد بعد الأخرى: «وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً» ، من ضمن برامجه وخططه أيضاً إيجاد الفرقه بدلاً من الإتحاد: «وَيُعْطِيكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ» ، فيشير الفتن بواسطه هذه الفرقه: «وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ» .

أجل أول برنامج للشيطان أن يبدى الطرق الوعره والخطيره معبده سهله في نظر الإنسان، فيستقطب إليه الجميع من خلال المرونه والتساهل وتصوير طريق الطاعه على أنه معقد خطير وصعب، فإن سلك سبيله وأتبعه قاده كل يوم إلى ترك قانون من قوانين الشرع وعهد

ص: ١٤٣

١-١) «يسئى»: من ماده «سئاء» بمعنى الضياء وإن استعملت فى باب التفعيل وردت بمعنى يسهّل.

من عهوده المقدّسه، وهو الأمر الذي أكدّه القرآن الكريم أربع مرّات محذراً من أتباع الشيطان: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ. . .» (١).

وقال تعالى: «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. . .» (٢).

فان جعل الإنسان غير مكترث للأحكام الإلهية وسادت المجتمع الأهواء، آنذاك يستفيد من تضارب المصالح الماديّه والتعصبات الجاهليه ليدعو الناس إلى الفرقه، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. . .» (٣).

ومن الطبيعي إن اشتعلت نيران الفرقه والاختلاف والنفاق في المجتمع استتبع ذلك ظهور الفتن، ومما لا شك فيه فان دين الأفراد ودنياهم تتحطم بفعل تلك الفتن، ولعل هذا هو الأمر الذي أجراه الشيطان في أحدث معركه صفيين، فقد لقنهم الشيطان بادية الأمر أن قبول التحكيم هو أسهل الطرق لبلوغ الصلح والاستقرار، ثم دعاهم للتمرد على أوامر المحكم أمير المؤمنين على عليه السلام في مجال الجهاد، آنذاك بث بذور الفرقه والنفاق بين صفوف الجيش حتى انتهى الأمر إلى فتنه عمرو بن العاص وأثرها فتنه الخوارج.

ثم قال الإمام عليه السلام بغيه عدم سقوط أصحابه في شباك الشيطان: «فَاصْدِقُوا (٤) عَنْ نَزَغَاتِهِ (٥) وَنَفَثَاتِهِ (٦)، وَأَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا (٧) عَلَى أَنْفُسِكُمْ» .

ويصدق هذا الأمر في عصرنا وزماننا، فالشيطان يرى طريقه المنحرفه سهله وبسيطه بادية الأمر، ويسحب الناس إليه، ثم يسلبهم القيم الإسلاميه الواحده بعد الأخرى، ثم يبث بينهم بذور الفرقه والخلاف، وأخيراً تقود الفرقه إلى اشتعال نيران الفتن السياسيه والاجتماعيه والاقتصاديّه.

ص: ١٤٤

١-١) سورة البقره / ١٦٨. [١]

٢-٢) سورة البقره / ٢٠٨؛ [٢] سورة الانعام / ١٤٢؛ [٣] سورة نور / ٢١. [٤]

٣-٣) سورة المائده / ٩١. [٥]

٤-٤) «اصدقوا»: من ماده «صدق» على وزن عطف بمعنى الإعراض.

٥-٥) «نزغات»: جمع «نزغه» على وزن ضربه وساوس.

٦-٦) «نفثات»: جمع «نفثه» تعنى هنا الوسوسه.

٧-٧) «اعقلوها»: من ماده «عقل» على وزن دغل احبسوها على أنفسكم لا تتركوها فتضيع منكم، والعقل ربط رجل الناقه.

وَمِنْ كَلَامٍ لَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قاله للخوارج، وقد خرج إلى معسكرهم و هم مقيمون

على إنكار الحكومه، فقال عليه السلام:

نظره إلى الخطبه

كما ورد أعلاه فإنّ هذه الخطبه جانب من حديث الإمام عليه السلام قبل معركة النهروان، ذكره الإمام حجّه عليهم، فكان لكلامه بالغ التأثير بحيث تاب أغلب الخوارج وتراجعوا عن القتال، فقد قسمهم الإمام عليه السلام باديء الأمر إلى فئتين، وقد فرق بين صفوفهم، فنه شهدت صفين وأخرى لم تشهدها، وفي القسم الثاني ذكر أصحاب الصفين بأنكم أنتم من فرضتم عليّ مسأله التحكيم، والحال كنت شديد المخالفه لذلك الأمر، وقد أمرتكم بمواصله الجهاد حتى تحقيق النصر.

وفي القسم الثالث أشار إلى مسأله وهي إننا كنّا في صدر الإسلام نقاتل قرابتنا حين كانوا في معسكر الكفر من أجل نصر الدين، وأمّا الآن فالذي يقف في المعسكر المقابل إخواننا من

ص: ١٤٥

١ - ١) سند الخطبه: نقل المرحوم الطبرسي في كتاب الاحتجاج أقصر ممّا ورد في هذه الخطبه ممّا يدل على أنّه أخذها من مصدر آخر، وقال ابن أبي الحديد إنّ هذا الكلام وإن كان متصلًا لكنّه يتألف في الواقع من ثلاثه أقسام منفصله، وقد جرت عاده السيد الرضى على انتخاب الأفصح من الكلمات وحذف سائر الكلمات (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٧١). [١]

المسلمين الذين أخطأوا الطريق وقد اختلفت الظروف الشرائط، وعليه فإنّ علينا أن ندفع الشبهه عنهم لتحل المشكله.

ص: ١٤٦

إشاره

«أَكَلْتُمْ شَهِدًا مَعَنَا صَفِيَيْنِ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ: فَاِمْتَاَزُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صَفِيَيْنِ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أَكَلْتُمْ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ. وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ:

أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَا شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا.

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حَيْلَهُ وَغِيْلَهُ، وَمَكْرًا وَخَدِيْعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاخُوا إِلَيَّ كِتَابَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عِدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَيَّ شَأْنَكُمْ، وَالزُّمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَيَّ الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيَّ نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أُعْطِيتُمْوهَا. وَاللَّهِ لَئِنْ أَيْتَيْتُهَا مَا وَجِبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتِيهَا، وَلَا حَمَلَنِي اللَّهُ ذَنْبَهَا. وَاللَّهِ إِنْ جِئْتَهَا إِنِّي لِلْمُحِقِّ الَّذِي يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ:»

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإنَّ المخاطب بهذه الخطبه هم خوارج النهروان الذين كلمهم الإمام عليه السلام بهذا الكلام لإتمام الحجّه عليهم وهدايه وإرشاد الفئه الضاله المنخدعه، فقال بادىء الأمر من

أجل إعدادهم: «أَكَلَكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِغِيْنٌ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ» .

رغم أنّ المدّة بين معركة صفين ومقاتله خوارج النهروان لم تكن طويلة، لكن لا يعلم كيف اتصلت الفئه الثانيه التي لم تشهد صفين بالفئه الأولى الباغيه، وربّما أثرت عليها وساوس الفئه الأولى سمومها التي بثتها بين أهل الكوفه فجعلتها تلتحق بها وتقف معها في مواقفها الفاسده.

ثم قال عليه السلام: «فَامْتَاَزُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِغِيْنٍ فِرْقَهَ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَهَ، حَتَّى أَكَلَّكُمْ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ» .

فالعبارة تفيد أنّ المخاطبين بحديث مهم إن لم يكونوا على مستوى واحد فإنّ الفصاحة والبلاغه تقتضى تمييزهم عن بعضهم والتحدث لكل بما يتناسب ووضعه، ليكون للكلام أثره المرجو والمطلوب، ومن هنا سلك الإمام عليه السلام هذا النهج: «وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ (١) شَهَادَةً فَلْيُقِلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا» .

فالذى يستفاد من هذه العبارة أنّ خوارج أو جيش الإمام عليه السلام ممن حضر هناك، أو كلاهما، أنّهم كانوا مشغولين بالكلام مع بعضهم البعض الآخر، فقد دعاهم الإمام عليه السلام إلى الصمت والاستماع لما يقول والاقبال عليه بقلوبهم ليستعدوا للتفاعل مع الكلام، كما إختار من جمعهم بعض الشهود: «ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:» (٢).

فقد أخذ الإمام عليه السلام أيديهم إلى الماضى القريب وذكرهم بكبر أخطائهم وعظم معصيتهم وتمردهم، ثم خاطب الفرقه التي شهدت صفين: «أَلَعَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصِيحَةَ أَحْفَ حَيْلَهُ وَغِيْلَهُ (٣)، وَمَكْرًا وَخَدِيْعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلِيلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا (٤) وَاسْتَرَاْحُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأَى الْقَبُولَ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيْسُ (٥) عَنْهُمْ؟» .

بعد ذلك طرح الإمام عليه السلام ردّه على تلك الخدعه: «فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ،

ص: ١٤٨

١-١) «نشد»: من ماده «نشد» بمعنى النداء والسؤال والطلب وهنا بمعنى الاستشهاد.

٢-٢) هل هذه الجملة للسيد الرضى أم كلام روى الخطبه الذى نقل عنه السيد الرضى، لا يعلم بالضبط، لكن من المسلم به أنّ كلام الإمام عليه السلام أكثر ممّا ورد فى نهج البلاغه وقد اعتاد السيد الرضى على اقتطاف أفصح وأبلغه.

٣-٣) «غيله»: بمعنى «غدر» .

٤-٤) «استقالوا»: من ماده استقاله بمعنى عوده الشىء.

٥-٥) «تنفيس»: بمعنى الكف والحل.

وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ» .

وعليه: «فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالزُّمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ، وَلَمَّا تَلْتَفْتُوا إِلَى نَاعِي نَعَقَ: إِنَّ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ» .

لكن مع الأسف فقد وقعت هذه الفتنة (التحكيم) ورأيتكم استجبتم لها، والآن قد ارتفع صوتكم بعد أن سقطتم في الفتنة: «وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا» .

حقاً، إنه لمن دواعي العجب! فقد عرضوا الإمام لأشد الضغوط في اللحظات الأخيرة لتلك المعركة المصيرية والتي أشرفت على تحقيق النصر النهائي حتى فرضوا عليه الاستجابة لخدعه عمرو بن العاص وقبول التحكيم، بل أبعد من ذلك هددوه بالقتل إن لم يصدر أمره لمالك الأشتر بالانسحاب والفرار عن القتال، ولما زالت الحجب وتكشفت الأمور وبانت الخدعة توجهوا باللوم إلى الإمام عليه السلام لم قبلت التحكيم، بدلاً من العوده إلى نفوسهم والاعتذار والهجم بإصلاح ما بدر منهم من أخطاء) .

الجدير بالذكر في هذا الأمر أنّ الإمام عليه السلام ميز الخوارج في بدايه الأمر إلى فرقتين، فرقه شهدت صفين وأخرى لم تشهداها، لتتضح قضيه وهي إن تمرّت الفرقة الثانيه بفعل جهلها وعدم إحاطتها بأحداث صفين، فما بالكم أنتم الذين شهدتم صفين وتابعتم الأحداث؟ فما المنطق والأسس التي دفعتكم للقدوم إلى النهروان؟ كيف تتهموني بمسؤوليه التحكيم؟

وهكذا أتمّ الحجّه عليهم وعلى أولئك الفريق الثاني الذي خدع بالفريق الأول ورافقه إلى الميدان، وليس هنالك أسوأ ممن لا يصغى لكلام الناصح الأمين المشفق، فان أصابته مصيبه بما قدمت يداه نسب التقصير فيها إلى ذلك الناصح وجابهه بالإعتراض، نعم، هذا هو دين الأفراد البعيدين عن الانصاف والذين ينسون ما يصدر منهم من أفعال.

ثم أوضح الإمام عليه السلام حقيقه الموقف بصوره أخرى ليقسم بأنّه لو لم يقبل التحكيم لما كان عليه من مسؤوليه في الالتزام بلوازمها ولا يحملها الله سبحانه ذنبها ووزرها: «وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجِبْتُ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَلَنِي اللَّهُ ذَنْبَهَا» .

إشاره إلى مراده: إن خالفت بشدّه مسأله التحكيم في بدايه الأمر فذلك لكى لا أكون مسؤولاً تجاه لوزامها ولا يلحقنى وزرها؛ لأنّ قضيه التحكيم أدت إلى تقويه حكومه

طواغيت الشام وذهبت بدماء شهداء صفين أدراج الرياح، فذلت دعاه الحق وأشعرتهم باليأس.

ثم قال عليه السلام إثر ذلك: «وَوَاللَّهِ إِنَّ جِبَّتَهَا إِنِّي لِلْمُحِقِّ الَّذِي يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعَى، مَا فَارَقْتَهُ مُذْ صَحِبْتُهُ» .

إشاره إلى أنه حين رأيت ما وقع بينكم من شقاق في مسأله التحكيم يتطلب أن أمنعه، وبخلافه لنزع أحدكم الآخر وشهر السيف في وجه صاحبه ولقاد ذلك الأمر إلى فضيحه كبرى، وهنا شعرت بالاضطرار لقبول التحكيم.

أضف إلى ذلك فلو فرضتم التحكيم إلى من هو عالم به ولا يفارقه ومحيط بمضمونه ولم تتجهوا صوب فرد بسيط وجاهل كأبي موسى الأشعري، لفشلت تلك المؤامره وخمدت الفتنة، وإن كان فيها من ضرر فهو جزئى محدود، لكنكم فرضتم على التحكيم وكذلك أجبرتمونى على تحكيم أبى موسى الأشعري، فسقطتم فى هذه الفتنة وتكبدتم كل هذه الأضرار فما تقولون بهذا الخصوص؟ فهل على أن أتحمّل مسؤوليه تقصيركم؟ وأدفع ثمن جريمتكم؟ والذي نخلص إليه ما مر معنا من كلام:

١ - أن الإمام عليه السلام أقسم مرّتين فى هذا المقطع من كلامه، سيّما فى القسم الثانى الذى أردفه بالتوكيد ليبيّن بعده كل البعد عن أدنى تقصير.

٢ - ما بيّنه الإمام عليه السلام فى القسمين المذكورين ليس فيه ما يدلّ على ترديده فى مسأله للتحكيم، بل إشاره إلى حالتين مختلفتين، فقد كان مخالفاً بشدّه فى البدايه، لأنّه كان يعتبرها مكر وحيله خطيره، ولما اختلف جيشه وصحبه، وأبى الأعم الأغلب منهم إلّا التحكيم، استجاب للتحكيم دفعاً للفتنه وإبعاداً للفرقه والشقاق، وعليه فقد كانت مخالفته فى بدايه الأمر وموافقته تستند إلى الحكمه، وبغض النظر عمّا سبق لو لم يصرّ ذلك الفريق الجاهل على تحكيم ذلك العنصر الفاسد كأبى موسى الأشعري لما كانت المشاكل بذلك الحجم، فذلك الإصرار الفرض هو الذى أدى إلى عقم نتائج معركه صفين والامتياز الذى حصل عليه أعداء الإسلام، وبناءً على هذا فإنّ هذه الفئه المتعصبه أخذت تفقد مواضعها الواحد بعد الآخر حتى انتهت إلى ذلك المصير الأسود، والعجيب أنّهم استجيب للتحكيم؟! !

لكن وعلى كل حال، فإنّ منطلق الإمام عليه السلام بهذا الخصوص قد أتى أكله فعادت طائفه عظيمه من الخوارج إلى نفسها فتابت وكفت عن القتال، حتى صرّحت كتب التاريخ بأنّ الأغلبية الساحقه من الخوارج قد تابت ووقفت على عظيم زلتها.

نبذه عن شخصيه معاويه

إنّ الأعمال التي مارسها معاويه طيله تاريخ حياته ولا سيما في مدّه حكومته لتكشف حقيقه واضحه لكل فرد منصف في أنّه لم يفكر بارساء العدل بين المسلمين، ولم يكن يهّم بنشر الإسلام، بل كان جلّ همّه ترسيخ دعائم حكومته المترلزله، ومن هنا فقد اعتمد كافة الأساليب التي يلجأ إليها جبابره الدنيا من أجل ترسيخ حكوماتهم، وأبسط نموذج يمكن الإشارة إليه في هذا المجال إنّما يتمثل برفعه لقميص عثمان في الشام وذرف دموع التماسيح على الخليفه المقتول ظلماً بهدف إثارة الناس للتمرد على أمير المؤمنين على عليه السلام وسفك دماء المسلمين، إلى جانب إغداق الرشاوى الضخمه على زعماء القبائل، بل حتى بعض قواد جيش الإمام على عليه السلام وإيجاد الفرقة والخلاف بينهم وبين سائر الناس.

وكذلك توجيه الأراذل إلى مختلف نواحي البلاد الإسلاميه لنهب الثروات وإشاعة أجواء التوتر القلق. ولعل قضيه رفع المصاحف وحملها على أسننه الرماح تعدّ واحده من تلك الأساليب، فمعاويه لم يكن مستعداً لقبول حكم القرآن الكريم، كما لم يكن مهتماً بهذا الأمر، وكل ما يفكر فيه هو الحكومه، كما ذكر شراح نهج البلاغه أنّ معاويه قام بوجه أمير المؤمنين على عليه السلام في البدايه تحت شعار الطلب بدم عثمان، إلّا أنّه لم يصطدم قط بقتله عثمان بعد ظهوره عليهم، فقد كان يقول أحياناً، ألسنت من قتله عثمان؟ وأحياناً أخرى كان يسكت، ويغدق عليهم العطاء (هذا ما نقله العقاد في كتاب «معاويه» ونقل عبدالكريم الخطيب عن كتاب «على بن أبي طالب عليه السلام» أنّ عائشه بنت عثمان طالبت معاويه بالقصاص من قتله أبيها.

فأجابها معاويه: «لأنّ تكوني إبنته عمّ أمير المؤمنين خيرٌ من أنّ تكوني امرأة من عرض الناس» مراده أنّ قضيه الطلب يَيدِم عثمان قد انتهت، وكان الهدف منها الاستيلاء على

حكومه وقد حصل هذا الأمر، ولعل المطالبه بدم عثمان تهدد كياننا، وما عليك إلا الإكتفاء والقناعه بأنك ابنه عمى، ابنه عم حاكم المسلمين طبعاً، يمكن التعرف على شخصيه معاويه من خلال مقريه، فقد ذكر العقاد، أن عمرو بن العاص قال يوماً لمعاويه: «أترى أننا خالفنا علياً لفضلنا؟ لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها»، أى ولم يكن الحديث عن الإسلام والقرآن سوى الذريعه.

وذكر ابن الأثير أن سعد بن أبى وقاص قال لمعاويه: «السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ» .

فقال معاويه: «لِمَ لَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» .

فأجاب سعد قائلاً: «وَاللَّهِ إِنِّي مَا أُحِبُّ إِنْ وَلَّيْتُهَا بِمَا وَلَّيْتُهَا» .

ومراده أنك ولَّيتها بالمكر والحيله (١).

ص: ١٥٢

١- ١) فى ضلال نهج البلاغه، للمرحوم محمد جواد مغنيه، ذيل الخطبه التى بحثها ٢/٢٢٢.

«فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانَ وَالْقَرَابَاتِ الْأَقْرَبَاءِ، فَمَا نَزَدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَانًا، وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ. وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزُّبَيْعِ وَالْإِعْوَجَاجِ، وَالشُّبُهَةِ وَالْتَأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي حَضِيْلِهِ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعْنَنَا، وَتَدَانِي بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإجابة المنطقية لأصحاب الخوارج، فقد قالوا: لِمَ استجاب الإمام عليه السلام إلى التحكيم؟ لِمَ لا نقاتل الأعداء إلى آخر نفس على غرار ما فعله المسلمون من صحابه النبي صلى الله عليه وآله في صدر الإسلام؟ هل أذعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لمسأله التحكيم؟ فقد أوضح الإمام عليه السلام حقيقه فى إجابته على أولئك بأنّ زماننا يختلف تماما عن زمان النبي صلى الله عليه وآله، ومن نقاتلهم الآن طائفه من المسلمين المخدوعين، والحال كان أعداؤنا فى صدر الإسلام هم الكفار والمشركون الذين وقفوا بوجه الإسلام.

فقد قال عليه السلام: «فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانَ وَالْقَرَابَاتِ الْأَقْرَبَاءِ، فَمَا نَزَدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا

إِيمَانًا، وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضْضِ (١) الْجِرَاحِ .

نعم، لقد كنّا نهجم بشدّه آنذاك على العدو، وإن كان فيهم إخواننا وقرابتنا، فالمصاب وإن عظم علينا، لكن حيث كان ذلك يأمر فقد كنّا نزداد إيمانًا، ولم نجابه كل مصائب المعارك وجراحاتها إلّا بالصبر والشكر: «وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصِيبْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالْإِعْوَجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلِهِ يُلْتَمُ (٢) اللَّهُ بِهَا شَعْنًا (٣)، وَتَنَدَّأَنِي بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغْبِنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا» .

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أن قياس زمانه بزمان رسول الله صلى الله عليه وآله هو قياس مع الفارق، وذلك لأنّ القتال ذلك الزمان كان يدور مع العدو الخارجى، بينما أصبح زمان الإمام عليه السلام ضد الأصدقاء المخدوعين والمنحرفين من الداخل، فالواقع يستند موقف الإمام عليه السلام في قبول التحكيم إلى الآية الشريفة: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتِلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (٤).

صحيح أنّ أصل مسألة التحكيم خدعه ولم يكن أمراء جيش الشام يعتقدون بالقرآن، ولهذا السبب كان الإمام شديد المخالفة في بادئ الأمر، لكنّه استجاب لذلك الأمر بعد ذلك الضغط الشديد الذى مارسه السواد الأعظم المخدوع من جيشه مع ذلك كان بالإمكان أن تتمخض مسألة التحكيم عن نتائج مرضيه لو خضعت لقيادته سليمة، ولكن كما نعلم فإنّ ضغوط الجهال قد دفعوا التحكيم إلى مسار لا يجر عليهم سوى الضرر والخسارة.

ص: ١٥٤

١-١) «مضض»: الألم والحرقه.

٢-٢) «يلم»: من ماده «لم» على وزن غم بمعنى جمع، وتأتى أحياناً بمعنى الجمع والإصلاح.

٣-٣) «شعث»: وردت فى الأصل بمعنى ما يقع عليه الغبار، ثم يطلق على نوع من التشتت والتفرق.

٤-٤) سورة الحجرات / ٩. [١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَالَ لِأَصْحَابِهِ فِي سَاحَةِ سَاعَةِ الْحَرْبِ «بَصْفَيْنِ»

نظره إلى الخطبه

هذه الخطبه جزء من خطبه طويله إقتطف المرحوم السيد الرضى بعضها، وقد تضمنت إشاره إلى بعض النقاط المهمه، وهى:

١ - يجب على الأفراد الذين يتمتعون بقدرات فائقه فى القتال أن يدافعوا ويشدوا من أزر الضعاف.

٢ - إنَّ الأفراد الذين يهربون من الجهاد خشيه الموت هم على خطأ، لأنه لا يمكن الفرار من الموت الذى يدرك الجميع أينما كانوا.

ص: ١٥٥

(١ - ١) سند الخطبه: يمكن التعرف على هذا الكلام بصوره متفرقه فى سائر الكتب، ومنها: ١ - الكافى فى باب فضل الجهاد. ٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه. ٣ - الجمل للشيخ المفيد نقلًا عن كتاب الجمل للواقدى. ٤ - الإرساد للشيخ المفيد. ٥ - تجارب الأمم لابن مسكويه طبق نقل تأسيس الشيعة. ٦ - الآمالى للشيخ الطوسى. (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٧٣). [١]

٣- لا موت أشرف وأكرم من الشهاده، فألف ضربه بالسيف خير من ميته على الفراش.

٤- إخبار عن هوان أهل الكوفه وذللهم فى المستقبل بسبب وهنهم وضعفهم فى مواجهه الظلمه.

ص: ١٥٦

«وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِهِ رَبَّاطَهُ جَاشٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحْيِدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًّا، فَلَيَّ يَدْبُ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَدْبُ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَيْثُ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَي الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!». .

الشرح والتفسير

يشتمل هذا الكلام - سواء أوردته الإمام عليه السلام على أعتاب معركة الصفين كما ورد آنفاً أو حسبما صرح به بعض المحققين على هامش معركة الجمل بعد ضججه معسكر عائشه، أو في المعركتين وذلك لأنه يتناسب مع كل مهما - على نقاط مهمه وردت ثلاث منها في هذا القسم من الخطبه:

الأولى: لزوم التنسيق بين أفراد الجيش بحيث يتولى الأقوياء الدفاع عن الضعفاء للحد من جسامه الخسائر، فقد قال عليه السلام: «وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِهِ رَبَّاطَهُ (١) جَاشٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحْيِدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًّا، فَلَيَّ يَدْبُ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ (٢) الَّتِي فَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَدْبُ عَنْ نَفْسِهِ» .

ص: ١٥٧

١ - ١) «رباطه جاش»: جاش على وزن عرش والرباطه الربط بإحكام، فالمراد بالعباره قوه القلب عند لقاء العدو، حيث يراد بالجاش القلب والصدر.

٢ - ٢) «نجده»: من ماده «نجد» على وزن مجد، بمعنى الشجاعه.

ثم أضاف عليه السلام: «فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ» .

فان وهبه القوه والصلابه فقد وجب عليه الشكر، والمراد أنّ أفعال الله وإن استندت إلى الحكمة جميعاً، مع ذلك فمن تمتع بنعم كثيره وجب عليه الشكر بافاضتها على الآخرين ليؤدّي بذلك الشكر العملي للنعمه.

والثانيه: لو لم يكن هناك من تنسيق بين العسكر فإن ذلك يؤدّي إلى إحباط الجميع، وذلك لأنّ العدو إنّما يهجم على الجانب الذى يشعر بضعفه، فإنّ اخترقه وقضى عليه، إلتفّ ليحاصر باقى العسكر، وعليه وإضافه لمسأله الشكر فإنّ فنون القتال وسياسه المعركه تتطلب من الأجنحه القويه من العسكر شد ظهور الأجنحه الضعيفه وعدم التوانى فى الدفاع عنها، بحيث لا تسدد إليها ضربات العدو، ولا سيّما إذا استطاع العدو أن يشلّ حركه طائفه من الجيش، فإنّه سيتمكن من تحطيم معنويات الجميع.

ثم إتجه الإمام عليه السلام صوب نقطه مهمه أخرى وهى ضروره ألا- يتصور أحد أنّه يستطيع الفرار من مخالف الموت، فهو يدرك المقيم والمنتظر والهارب: «إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَيْثُ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ» .

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: الموت على نوعين: موت حتمى، وموت معلق أو مشروط، والذى لا- يمكن تغييره هو الموت الحتمى، أمّا الموت المشروط، فهو قابل للتغيير على ضوء تغير الظروف والشرائط، ولعل الموت فى ساحه القتال ليس من الموت الحتمى فكيف إستدل الإمام عليه السلام بهذه المسأله وقال بشأن الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب.

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بوجهين:

الأول: هو أنّ الإمام عليه السلام ناظر للموت الحتمى فقط سواء فى ساحه القتال أو غير ساحه القتال فلا يمكن إجتنابه.

والثانى: على فرض أنّ الإنسان يستطيع الهروب من مخالف الموت المشروط أو المعلق، ولكن ما جدوى ذلك؟ فالموت الحتمى بالتالى سيدرك جميع الأفراد دون استثناء، فلا ينبغى للإنسان أن يستسلم للظلمه فى مقابل البقاء عدّه أيام (1).

ص: ١٥٨

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمه وقيمه فقال: «إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفَسَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبِهِ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتِهِ (١) عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!». .

فالعباره تفيد عظمه مقام الشهداء إلى درجه أنّ الإمام عليه السلام يعرب عن إستعداده لتحمل ألف ضربه بالسيف يؤثرها على ميته الفراش الطبيعيه، وهذا هو لسان حال أو قال جميع المؤمنين المخلصين والشجعان الذين يعشقون طريق الحق، طبعاً لا تعنى العباره أنّي لا أشعر بألم ضربات السيف - كما ذهب إلى لذلك بعض شراح نهج البلاغه - بل المراد أنّ الأولى بالإنسان من حيث الجانب المعنوي أن يفتح صدره لتحمل أقسى الضربات بدلاً من الموت الطبيعي على الفراش، لأنّ وسام الشهاده يجعل الإنسان يتحمل الألم والمعاناه، ولا ننسى هنا الروايات التي صرّحت بأنّ الإنسان بحكم الشهيد إن مات على الفراش على سلامه من دينه، وهو الأمر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في آخر العباره.

الشهاده عرس الأبطال

الشهاده من القيم الساميه التي تضمنتها ثقافه الإسلاميه، والشهيد يمثل قمه المرتبه الإنسانيه، وأولياء الله كما أورد الإمام عليه السلام في هذه الخطبه يفكرون دائماً بالشهاده ويأبون الموت طبيعياً على الفراش، ويرون الشهاده أفضل ألف مره من ميته على فراش، وكانوا مستعدين لتلقى آلاف الضربات والفوز بالشهاده دون الموت على الفراش، وذلك لأنّ روح الإنسان أعظم هديه إلهيه، وما أروع أن تبذل هذه الهديه في سبيل الله سبحانه، لا أنّ تذهب هدرأ في الموت.

ويكفي في فضل الشهاده ما ورد في حيث النبي الأكرم صلى الله عليه و آله حين شاهد فرداً يدعو الله تعالى قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا تُسْأَلُ فَأَعْطِنِي أَفْضَلَ مَا تُعْطِي». .

ص: ١٥٩

١- (١) «ميته»: بكسر الميم بمعنى كيفيه الموت، والميته بفتح الميم الشخص الميت (بدلاً من الالتفات هنا إلى ميت مذكر ومؤنث ميته). .

فقال صلى الله عليه وآله: «إِنْ أُسْتُجِبَ لَكَ أُهْرِيْقَ دَمُكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١).

كما ورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيَتَمَنَّى أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا إِلَّا الشَّهِيدُ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ فَيَقْتَلَ عَشْرَ مَوَلِّتٍ مِمَّا يَرَى مِنْ كِرَامَةِ اللَّهِ» (٢).

نعم، مقام الشهداء رفيع جداً في التعاليم الإسلامية، وهم الذين حفظوا الإسلام حين الخطر، ولولا تضحيات الشهداء كشهداء بدر وأحد وشهداء كربلاء لما بقى من الإسلام اليوم شيئاً سوى اسمه، ويعيش أعداء الإسلام اليوم حاله من الرعب إزاء الشهادة وفلسفتها في الإسلام، وذلك لأنَّ الشهيد قد يبدد في لحظات مخططات الأعداء وبرامجهم التي تستوعب تكاليفاً باهضة.

أضف إلى ذلك فهم لا يمتلكون أى سلاح يمكنهم من مواجهه هذا السلاح، سمع أخيراً أنَّ الدوائر الصهيونية وإثر عجزها عن مواجهه انتفاضه الشعب الفلسطيني، قد أكدت على ضروره إجتماع جذور ثقافه التفكير بالشهادة، لابدّ من اسقاط مفرده الشهاده من كتاب الدراره المتوسطه والثانويه، كما لابدّ من إزاله الآيات القرآنيه المتعلقة بالشهادة من الكتب الدينيه، ومن المؤكد أنّ البلدان الإسلاميه العميله وما أكثرهم قد ساروا على هذا النهج، وقد اصطلحوا على الشهاده بالإنتحار والشهيد بالإرهابى لتشويه هذه المفرده الطيبه، لكن ولحسن الحظ فإنّ هذه الثقافه قد إتسعت وترسخت بحيث لا يسع هذه الدعايات الوقوف بوجهها، حتى سارع إليها العديد من الشباب والشابات، وهذا ما يشكل أعظم خطر على أعداء الإسلام، نأمل أن يتعرف المسلمون أكثر فأكثر على هذه القيمه الساميه التي تدعو إلى الفخر والاعتزاز.

ص: ١٦٠

١-١) مستدرک الوسائل ١١/١٣، ح ٢١. [١]

٢-٢) المصدر السابق، ح ٢. [٢]

و منه: «وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكْشُونَ كَشَيْشَ الضَّبَابِ: لَاتَأْخُذُونَ حَقًّا، وَلَمَا تَمْنَعُونَ ضَمِيمًا. قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالْتَجِأَهُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةَ لِلْمُتَلَوِّمِ» .

الشرح والتفسير

يرى البعض من شراح نهج البلاغه أنّ هذا الكلام مستقل، ومن هنا ذكره بصوره مستقلة، بينما يراه البعض الآخر استمرار للكلام السابق، فمن ذكره بصوره مستقلة استدلل بعدم وجود إرتباط بين هذا المقطع والمقطع السابق، حيث حث الإمام عليه السلام أصحابه في المقطع السابق على الجهاد والقتال ببسالة، بينما جرى الكلام في هذا المقطع عن الهزيمة والفرار، وليس هنالك من إنسجام بين هذين المقطعين، ولكن بالنظر إلى أنّ هذا المقطع يخبر عن المستقبل، وهو المستقبل الذي لا يكون فيه الإمام عليه السلام بين ظهرائهم ويشهدون حاله من الفرقة والتشتت والضعف والهوان والذلّة، وعليه يمكن تصور إرتباط بين هذا المقطع وسابقه.

ولكن على حال سواء كان هذا المقطع مستقل أم مرتبطاً، فهو كلام الإمام عليه السلام ويخبر عن المصير المرير لأفراد يوثرون العافيه والدعه على الجهاد، فقال: «وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكْشُونَ كَشَيْشَ الضَّبَابِ (١)» .

فالعباره يمكن أن تكون إشاره إلى الحيوانات المعروفه الضباب جمع ضب بالكسر والتي إن تحركت بصوره جماعيه اضطربت وإحتك بعضها ببعض الآخر فيظهر من هذا الاحتكاك

ص: ١٤١

١-١) «كشيش الضباب»: بمعنى الصوت الذي لا يرتفع كثيراً ويطلق على صوت الضفدع، والضب وصوت الناقه.

صوتاً، والمراد أنكم اضطربتم حين الفرار، بحيث إندك بعضكم ببعض الآخر وقد انبعث صوت اضطرابكم.

ثم قال عليه السلام: «لَا تَأْخُذُونَ حَقًّا، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْمًا (١)» .

أى حال أسوأ من أن يصبح الإنسان على درجه من الضعف والعجز بحيث لا يستطيع الدفاع عن حقه أو عن صحبه وقرابته وإخوته فى الدين، كما لا يستطيع الوقوف بوجه الظلم الذى يوجه إليه وإلى الآخرين، حقاً إنَّها لحاله مؤلمه مهينه.

ثم إختتم خطبته بالقول: «قَدْ خُلِيْتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالْتَّجَاهُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ (٢)» .

فالعباره قد خليتم والطريق تشير إلى إتمام الحجه الكامله، فقد بين الطريق إلى الهدف بكل وضوح من قبل زعيم عالم، وقد زالت الموانع التى تحول دون سلوكه، وعليه فلن تعد هناك من حجه لمن يقصير فى هذا الطريق، ولذلك بشر سالكين هذا الطريق بالسعاده، بينما هدد المتباطىء بالهلكه.

ص: ١٤٢

١-١) «ضيم»: بمعنى الظلم.

٢-٢) «متلوم»: من ماده «تلوم» بمعنى الانتظار والتباطىء والتوقف.

ومن كَلامٍ لهُ عليه السلام

فى حث أصحابه على القتال

نظره إلى الخطبه

وردت هذه الخطبه كما يفهم من عنوانها بشأن حث الإمام عليه السلام لأصحابه على الجهاد، وذلك لأنه حسب تصريح شراح نهج البلاغه أنها وردت قبل معركة صفين، ومن هنا تضمنت إشاره إلى بعض الأمور المهمه:

١ - ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه مطالب دقيقه بخصوص فنون القتال وانتخاب أفضل السبل فى مجابهه العدو، بحيث يمكن التوصل إلى النتائج بأقل الخسائر.

٢ - حذر أصحابه فى المقطع الآخر من الخطبه وضمن مدحه لمقاتليه من الفرار الذى يستتبع الفضيحه والعار، كما يتطرق إلى ذكر مقامات الشهداء.

٣ - يلعن فى المقطع الثالث أعدائه ويقوى عن هذا الطريق عزائم أصحابه المجاهدين.

ص: ١٦٣

١-١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه نصر بن مزاحم المتوفى عام ٢٠٢ ق فى كتاب صفين، كما نقلها المؤرخ المشهور الطبرى فى تاريخه عن أبى مخنف فى حوادث عام ٣٧ هـ، كما وردت فى كتاب الجهاد عن الكافى وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٧٧).

«فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخْرُزُوا الْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَصْرَاسِ، فَإِنَّهُ أُنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ؛ وَالتَّوَّأُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمُورٌ لِلْأَسِنَّةِ؛ وَعَضُّوا الْأَبْصِيَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبِطُ لِلْحِيَاشِ، وَأَشِيكُنْ لِلْقُلُوبِ؛ وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرُدُ لِلْفَسْلِ. وَرَايَتُكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخْلُوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الدَّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحْفُونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتِنِفُونَهَا: حِفَافِيهَا، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيَسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا. أَجْزَأُ أَمْرُ قِرْنِهِ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ» .

الشرح والتفسير

يرى بعض كبار المحدثين أنّ هذه الخطبة تبدأ كآلاتي: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ دَلَّكُمْ عَلَى تِجَارِهِ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ وَتُشْفِي بِكُمْ عَلَى الْخَيْرِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَجَعَلَ ثَوَابَهُ مَغْفِرَةً لِلذَّنْبِ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ» (١) فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ. . .» (٢).

ثم أشار في مواصلته لهذا الكلام إلى سبع وصايا هامة في فنون تحقيق النصر، فقال في

ص: ١٤٥

١-١ (١) سورة الصف / ٤. [١]

٢-٢ (٢) الكافي ٥/٣٩، ح ٤. [٢]

وصيته الأولى بهذا الشأن: «فَقَدِّمُوا الدَّرْعَ (١)، وَأَخْرُوا الحَاسِرَ (٢)» .

فمن الطبيعي أن يكون قليلاً هو الضرر الذي يتعرض له من يلبس الدرع بفعل السهام والسيوف، ومن هنا لا يسع العدو السيطرة عليهم، ومن لم يتدرع يمكنه أن يواصل قتاله وهجماته من خلفهم، والذي يستفاد من هذه العبارة وجود فئه في ميدان القتال لم ترتدى الدرع، وذلك إمّا يعود إلى الأزمات والمشاكل التي يعيشها المجتمع الإسلامي، أو أنّ إرتداء الدرع كان يثقل على البعض ويعيق حركته في ميدان القتال، ولذلك كان الأشداء من المقاتلين هم الذين يتدرعون.

وقال عليه السلام في وصيته الثانية: «وَعَضُّوا عَلَى الأَضْرَاسِ (٣)، فَإِنَّهُ أُنْبَى (٤) لِللسُّيُوفِ عَنِ الهَامِ (٥)» .

وكما ذكرنا في شرح الخطبة الحادية عشرة أنّ لهذه الخطبة فائدتان، الأولى إزالة الخوف والرعب، أو الحدّ من هذا الخوف إلى أقلّ درجه، ومن هنا فإنّ الإنسان يعمد إلى إطباق أسنانه على بعضها حين الخوف بهدف إزالتها، والأخرى تبقى على صلابه عظام الرأس فلا تتأثر كثيراً بضربات السيف.

وقال في الوصيه الثالثه: «وَالْتَوُوا (٦) فِي أطْرَافِ الرّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمُورٌ (٧) لِلأسِنَّه» .

والوصيه أشبه بما يقال اليوم، إن أراد أحد أن يرمىك تحرك يميناً وشمالاً، أى عليك بتغيير موضعك باستمرار حتى لا يتمكن العدو من التصويب باتجاهك.

جدير بالذكر أنّ بعض شراح نهج البلاغه أشار أنّ المراد بالانعطاف والانحناء حين الهجوم بالحربه على العدو، فإنّ ذلك يضاعف من دقه الحربه لمواجهه ضد جسد العدو، لكن

ص: ١٦٦

١-١) «الداع»: بمعنى لابس الدرع من ماده درع على وزن فعل.

٢-٢) «الحاسر»: من لا درع له من ماده حسر على وزن عصر بمعنى العرى.

٣-٣) «أضراس»: جمع «ضرس» على وزن حرس الإنسان وردت بمعنى سن العقل.

٤-٤) «أنبى»: من ماده «نبو» على وزن عفو بمعنى عدم العمل.

٥-٥) «الهام»: جمع «هامه» على وزن قامه رأس الإنسان أو رأس أى موجود حى.

٦-٦) «التووا»: من ماده «التواء» بمعنى الانعطاف أو الميل لهذا الجانب وذاك.

٧-٧) «أمور»: من ماده «مور» على وزن غور بمعنى الحركه السريعه، كما وردت بمعنيين الذهاب الإياب والاضطراب وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

بالإلتفات إلى الوصايا السابقه واللاحقه لهذه الوصيه والتي تبين فنون الدفاع، فإنّ المعنى الأول يبدو هو الأنسب، لا سيما التعبير بالحرف في لا يتناسب والمعنى الثاني، بينما يتناسب ما اخترناه حتى التعبير الأمور المأخوذ من ماده مور والذي يعنى الاضطراب.

وقال في الوصيه الرابعه بعض النظر (وعدم النظر إلى كثره العدو وآخره) فذلك أسكن للقلب: «وَعُضُّوا الْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَاشِ (١)، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ» .

تختلف هذه الوصيه عن سابقاتها لاشتمالها على بعد نفسى ونعلم جميعاً أنّ روحه الجنود كلما كانت مرتفعه كان الأمل بالنصر أكثر، ومن هنا أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى مراراً وقد مرّ علينا نموذج ذلك في الخطبه ١١ و ٦٦.

وقال في الوصيه الخامسه: «وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرُدُ لِلْفَشْلِ» .

من الطبيعي أنّ الإنسان حين ينشغل بالحديث فأنه يستهلك جانباً من قواه الفكرية وكذلك جانباً من طاقته البدنيه ويحد من تركيزه الفكرى والالتفات إلى حملات العدو المبرمج، ومن هنا فإنّ العدو الصامت البعيد عن الضوضاء والضجيج يبدو أخطر من غيره. ولذلك ورد بشأن معركة بدر أنّ قريش تعجبت من قلّه عدد جيش الإسلام وتصورت أنّ عدد المسلمين أكثر ممّا ترى ولعلمهم إختفوا خلف التله حيث يردون ميدان القتال فى الوقت المناسب، فبعثوا بعمير بن وهب لينظر أطراف الميدان، فركب فرسه وجعل ينظر حول الصحرا ولم ير شيئاً، فعاد وقال: عدد المسلمين يقارب الثلاثمائه، إلّا أنّى رأيتهم مستعدين للقتال ولا يقوى أحد على مواجهتهم، أمّا ترونها خرسا لا يتكلمون، يتلمذون تلمذ الأفاعى ما لهم ملجأ إلّا سيوفهم وما أراهم يولون حتى يقتلوا ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم (٢).

وقال فى الوصيه السادسه: «وَرَأَيْتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخَلُّوهَا (٣) وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الدَّمَارَ (٤) مِنْكُمْ» .

ص: ١٦٧

١-١) فسرت هذه المفرده سابقاً.

٢-٢) منتهى الآمال، ج ١، وقائع العام الهجرى الثانى.

٣-٣) «تخلوا»: من ماده «تخليه» بمعنى الإخلاء والترك، وعليه فالصحيح فتح الخاء لأنها من باب التفعيل.

٤-٤) «ذمار»: بكسر الذال ما يلزم الرجل حفظه وحمايته.

ثم أتم كلامه باستدلال منطقي قائلاً: «فإن الصابرين على نزول الحقائق (١) هم الذين يحفون برأياتهم، ويكتنفونها: حفافياً (٢)، ووراءها وأمامها؛ لا يتأخرون عنها فيسلموها، ولا يتقدمون عليها فيفردوها» .

كان للرايه أهميه خاصه فى ميدان القتال فى الأزمنه الماضيه، وذلك لدورها فى إرتباط الصفوف والتحامها، وحين كان ينهمك المقاتلون وسط الميدان وجوانبه بالقتال، كانوا يلتفون حين الضروره حول الرايه لإعاده تنظيم صفوفهم وشن الحملات من جديد، وإن سقطت الرايه اضطرب العسكر وأحياناً كان ينهار، ولذلك ترى العدو يسعى جاهداً للإحاطه بالرايه، بينما يحاول الطرف الآخر الإبقاء على الرايه مرفوعه وهو يدافع عنها بكل ما أوتى من قوه، فقد كان سقوطها يعنى الهزيمه، وزبده الكلام فإن انتصاب الرايه دليل على القدره وسبب قوه وعزيمه المقاتلين وحلقه اتصالهم مع بعضهم، ولهذا ما انفك الإمام عليه السلام عن التأكيد وصاياهم بحفظ الرايه، حيث أكد من جهه ضروره ثبوت موضع الرايه وأن حمايتها من أشجع الأفراد، ومن جهه أخرى يوصى حمله الرايه بعدم التخلي عنها ومراقبتها من جميع الجهات، لا أن يتخلفوا عنها ولا يتقدموا عليها، ويضحوا بالغالى والنفيس من أجل حفظها بفضلها علامه الاقتدار والشموخ وورد فى شأن غزوه خيبر التى. لف الفريقان بخصوصها عشرات الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطى الرايه فى اليوم الأول إلى أبى بكر فلم يتمكن من فتح قلاعها، وفى اليوم الثانى أعطاها عمر بن الخطاب، فلم يفلح، فقال صلى الله عليه وآله: «لأعطين الرايه غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كراز غير فزار يفتح الله عليه» (٣).

فامتدت الأعناق فى اليوم التالى ليروا من هو ذلك الرجل، وقد تمنى كل فرد (شجاع) أن

ص: ١٤٨

١- (١) «الحقائق»: جمع «حاقه» على وزن جاده النازله الشديده.

٢- (٢) «حفافى»: مثنى «حفاف» على وزن كتاب بمعنى جانب الشىء وحفافيتها هنا إشاره إلى جانبى الرايه يمينها وشمالها.

٣- (٣) الكامل لابن الأثير ٢/٢١٩، [١] وتفسير الثعلبى (طبق نقل غايه المرام، ٤٦٧/ [٢] وصحيح مسلم، ج ٤ كتاب الفضائل الصحبه الحديث ٣٢؛ صحيح البخارى ٥/١٧١ باب غزوه خيبر (طبعاً ذكرت الجملة [٣] الأخيره فقط بشأن على عليه السلام فى صحيح البخارى مسلم).

يكون هو المعنى فيعطيه رسول الله صلى الله عليه وآله الرايه، نادى رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وسلّمه الرايه فلم يرجع إلبعد أن فتح خيبر واستسلم له أهلها، هذه دلالة على الأهميّة الفائقة للرايه وحاملها في ذلك الزمان، وقد تكرر نفس هذا المعنى في عصر على صلى الله عليه وآله مالك الأشتر النخعي وقال له علمت بوقوفك في القتال وشجاعتك ولولا ذلك لدفعت الرايه إلى غيرك، فردّ عليه بالقول: «لأسرنك اليوم يا مالك أو أقتل شهيداً» (١).

ثم أشار الإمام عليه السلام في وصيته السابعه والأخيره إلى قضيه أخرى من تكتيكات الحرب أنذاك فقال: «أجزأ امرؤ قزئه (٢)، وآسى (٣) أخاه بنفسه، ولم يكَل قزئه إلى أخيه، فيجتمع عليه قزئه وقزئ أخيه» .

يتضح المفهوم الدقيق لهذا الكلام فيما لو دققنا بصوره صحيحه على وضع الحروب في ذلك الزمان، فقد كانت للمعركه في ذلك الوقت ثالث صور (وأحياناً كانت تتحقق الصور الثلاث في نفس المعركه) :

الأولى: أن يتقدم أحد الشجعان وسط الميدان ويدعو شجاعاً آخر من العدو لمبارزته، فيتبارزان حتى يهلك أحدهما.

الثانيه: أن يتقدم الميدان عدّه أفراد ليقف كل واحد منهم أمام خصمه فيبدأ بينهم القتال.

الثالثه: أن تدور المعركه بين المعسكرين بأكملهما طبعاً هناك صوره رابعه تكون المعركه فيها غادره كأن تنهال طائفه على فرد فتزل عليه ضرباتها من كل جانب، ويبدو أنّ العبارة تشير إلى هذه الصوره الثانيه التي يبرز فيها عدّه أفراد إلى أمثالهم، وفي هذه الحاله لا- ينبغي لأحد أن يترك خصمه لآخر، بل يبارز كل واحد خصمه فيراعى المساواه والمواساه وتقف من خلال هذه الوصايا على مدى خبره الإمام عليه السلام بفنون القتال حيث يعرّف أصحابه على أدق تفاصيل القتال قبل البدء فيه.

ص: ١٦٩

١- ١) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري ١٣/٥٥٨.

٢- ٢) «قرن»: الكفو وعدل الإنسان في الشجاعه في ميدان القتال ويطلق أحياناً القرن على كل كفو، وقد اشتق في الأصل من قرن بفتح القاف والاقتران الذي يعنى الاقتراب بين شيئين أو عده أشياء، ومن هنا يقال للزمان الطويل قرن حيث تكون فيه طائفه من الأجيال مع بعضها.

٣- ٣) «آسى»: من ماده «وسى» على وزن مشى بمعنى عاون والمواساه تعنى المعاضده ومساعدته كل واحد الآخر.

«وَإِئِمَّ اللَّهُ لَيْثُنَ فَرَزْتُكُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلِهِ، لَاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرِهِ، وَأَنْتُمْ لِهَامِيمِ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامِ الْأَعْظَمِ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللَّهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَّ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ [مَحْجُوب] بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ. [مَنْ] الرَّائِحُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي! الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ! وَاللَّهِ لَأَنَا أَشَوْقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاثة أمور بهدف إعداد الأصحاب في ميدان القتال، فأحياناً يهددهم إن هم فروا من القتال، وأخرى يمدحهم ويتعرض لما يتحلون به من نقاط إيجابيه يراها فيهم، وأخيراً يشجعهم ويحثهم على الثواب والأجر الأخرى، وعليه يمكن إيجاز هذا المقطع من الخطبة في ثلاثه محاور هي: التهديد، والتشجيع، والتمجيد، فقد قال على مستوى المحور الأول: «وَإِئِمَّ اللَّهُ لَيْثُنَ فَرَزْتُكُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلِهِ، لَاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرِهِ».

فالعباره سيف الآخره إشاره إلى عذاب الله الذي يشمل الفارين من ميدان الجهاد، ولا شك أن الفرار من الزحف من الكبائر، وذلك لأن فرار عدّه أفراد يؤدى إلى هزيمة عسكر جرّار ويقود حضاره عريقه إلى السقوط والإنهار، أو يجعل العدو يسدد ضرباته الموجهه إلى

الإسلام، ثم قال على مستوى المحور الثاني، أى المدح والثناء: «وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمٌ (١) الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ (٢) الْأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةً (٣) اللَّهُ، وَالذَّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٌ (٤) بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ» .

فهو يعدهم من جانب بصفته مبرزى شخصيات العرب التي تشد نحوها الأنظار، من جانب آخر يذكرهم بمساوىء عار الفرار وهي الغضب الإلهي والذل الدائم والهوان والفضيحة الأبدية، على صعيد آخر ذكرهم بهذه النقطة وهي إن كان الهدف من الفرار هو التمتع بعمر أطول فإن هذا الهدف لا يحصل بالفرار، ذلك لأنه لا محيص من الممات واليوم الذي قدر فيه فلا يدفعه دافع.

نعم، قد يتصور الإنسان أنه يحصل على عمر أطول عن طريق الفرار، ولو فرض أن الأمر كذلك فما قيمه هذا العمر وهو يتضمن العواقب الثلاث متمثلة بغضب الله والذل والهوان الأبدى، وقد خاطب القرآن الكريم أولئك الذين يشعرون بالقلق من تواجدهم في جبهات القتال قائلاً: «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ. . .» . (٥)

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بعبارة قصيره عميقه المعنى تهدف حثهم على جهاد العدو فقال: «مَنْ الرَّائِحُ (٦) إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي (٧)!». .

وأخيراً قال عليه السلام بأن اليوم تبلى أخبار وأعمال كل فرد ويتميز فيها الغث من السمين:

ص: ١٧٢

١-١) «لهاميم»: جمع «لهوموم» على وزن حلقوم الجواد السابق من الإنسان والخيول.

٢-٢) «سنام»: أعلى الجمل ثم اطلق على كل شيء بارز.

٣-٣) «موجده»: من ماده «وجد» علث وزن نجد بمعنى الغضب، كما ورد بمعنى الحزن والمعنى الأول هو الأنسب هنا.

٤-٤) «محجوز»: من ماده «حجز» بمعنى المنع.

٥-٥) سورة آل عمران / ١٥٤. [١]

٦-٦) «رائح»: من ماده «رواح» الاندفاع بسرعه خلف شيء.

٧-٧) «العوالي»: جمع «العاليه» تعنى أسنه الرماح، كما تعنى الرمح.

«الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ!» .

العباره من الرائح إلى الله سبحانه إشاره إلى الأفراد الذين يقبلون بكل شوق ورغبه وعشق الشهاده، كعشق العطشان إلى الماء الزلال.

وقد أورد الإمام عليه السلام شبيه هذا المعنى فى وصيته قبل الشهاده وبعد ضربته حيث قال: «وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدٍّ، وَطَالِبٍ وَحَيْدٍ...» (١). والعباره اليوم تبلى الأخبار هى فى الواقع إقتباس من الآيه ٣١ من سوره محمد صلى الله عليه وآله: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ» .

والفرده أخبار إمّا تعنى الأعمال أوالكلام والزعم والتي تبلى جميعاً فى ميدان الجهاد، والعباره: «الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي!» . تشبه العباره التي أوردها رسول الله صلى الله عليه وآله فى ميدان معركة أحد، حيث قال: «الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» .

الجدير بالذكر أنّ أحد الأنصار سمع هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وآله وفى يده تميرات يلو كها، فقال: بخ بخ! ليس بينى وبين الجنة إلا هذه التميرات، ثم قذفها من يده وكسر جفن سيفه وحمل على قريش فقاتل حتى قُتل (٢).

ثم قال فى العباره الأخيره من أجل حث صحبه على الجهاد: «وَاللَّهِ لَأَنَا أَشَوْقٌ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ» . بمعنى لا دافع عندهم للجهاد وهم يحرصون على العوده إلى بيوتهم، بينما أحرص على جهاد عدو الحق والعداله، فالمراد هلموا لكل رغبه لميدان الجهاد واعلموا أنّ النصر حليفكم حين تقاتلون عدواً لا دافع له.

ص: ١٧٣

(١ - ١) نهج البلاغه، الرساله ٢٣. [١]

(٢ - ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٦ [٢] الحديث (الجنة تحت ظلال السيوف) ، كما ورد الحديث فى بحار الانوار

[٣]. ٩٧/١٣

«اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَأَفْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنِ دِرَاكٍ، يَخْرُجُ مِنْهُمْ [منه] [منه] النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ، وَيَنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ؛ وَحَتَّى يُزَمَّوا بِالْمَنَاسِرِ تَتَّبَعَهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُزَجَّمُوا بِالْكَتَائِبِ، تَقْفُوهَا الْحَمَائِبُ؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِلَعَادِهِمُ الْخَمِيسُ يَنْأَوُهُ الْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام على عليه السلام في هذا المقطع - الذى يمثل المقطع الأخير من الخطبه - فى أمرين:

الأول: يدعو فيه على العدو، وهو الدعاء الذى يجز عليهم الهزيمة والعذاب الإلهى ويشد من عزمه صحبه ويضعف إرادتهم فقال: «اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَأَفْضُضْ (١) جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ (٢) بِخَطَايَاهُمْ» .

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام اشترط اللعن بعدم قبول الحق، وذلك لأن الهدف النهائى من هذا القتال لا يكمن فى الاستيلاء على العدو والسلطه، بل ليس للإمام عليه السلام من هدف سوى قبول الحق، فإن قبله انتفت الحرب، وهذه هى فلسفه قتال دعاه الحق وأهل الإيمان طيله التاريخ.

ص: ١٧٥

١- ١) «افضض»: من ماده «فضّ» على وزن خط بمعنى الهزيمة.

٢- ٢) «أبسّل»: من ماده «بسّل» على وزن نسل بمعنى المنع من الشىء أو القهر والغلبه والإبسال بمعنى التسليم للهلكه والعباره إشاره إلى هذا المعنى.

والأمر الآخر: هو أنّ الإمام عليه السلام ذكر اختلاف الكلمه ضمن دعائه كوسيله لتفريق العدو وهزيمته والذنوب من أسباب البؤس والشقاء، ومن هنا كان دعاؤه درساً، ليس درس واحد بل دورس. وفي القسم الآخر من هذا المقطع من الخطبه أشار إلى وصيته قتاليه مهمه أخرى فقال لهم، إن أردتم الانتصار عليكم بتوجيه الضربات الموجهه إلى العدو وأن تقوم كل فرقه من العسكر بمهمتها الخاصه ومتابعه العدو حين الهزيمة دون إمهاله ليتحقق النصر الشامل، فشرح ذلك قائلاً: «إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنِ دِرَاكٍ (١)، يَخْرُجُ مِنْهُمْ النَّسِيمُ، وَضَرْبِ يَفْلِقِ الْهَامَ، وَيُطِيحُ (٢) الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ (٣) السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ» .

ثم واصل عليه السلام حديثه مؤكداً على ضروره شن الهجمات عليهم تلو الهجمات وأن تتبنى فرقه مطاردتهم ورميهم بالسهام، وأن تعاضد كل فئه الأخرى وتحمل على العدو، كما يقوم الفرسان بمطاردتهم حتى المدن حتى تندوس حوافر خيلكم آخر نقطه في أرضهم والاستيلاء على مسار الذهاب والأياب والطرق المرأى من كل جانب: «وَخَيْتِي يُزْمُوا بِالْمَنَاسِرِ (٤) تَتَّبِعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُزَجِّمُوا بِالْكَتَائِبِ (٥)، تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ (٦)؛ وَحَتَّى يُجَزَّ بِيَلَادِهِمُ الْخَمِيسُ (٧) يَتْلُوهُ زَالِ الْخَمِيسِ؛ وَحَتَّى تَدْعُقَ (٨) الْخَيُْولُ فِي نَوَاحِرِ (٩) أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ (١٠) مَسَارِيهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ (١١)» .

ص: ١٧٦

١ - ١) «دراك»: من ماده «درك» متتابع متوال وكأن كل واحد منهم يدرك الآخر ويصله، وعليه فإنّ طعن الدراك بمعنى السهام التي تطلق تبعاً على العدو.

٢ - ٢) «يطيح»: من ماده «إطاحه» بمعنى الاسقاط.

٣ - ٣) «يندر»: من ماده «اندار» بمعنى يسقط، كما يطلق على طرح شيء من الحساب.

٤ - ٤) «مناسر»: جمع «منسر» على وزن محفل القطعه من الجيش تكون أمام الجيش العظيم ويطلق عليها الطليعه، ومنسر على وزن منبر بمعنى منقار الطيور.

٥ - ٥) «كتائب»: جمع «كتيبه» طائفه من الجيش من مئه إلى ألف.

٦ - ٦) «الحلائب»: جمع «حليبه أو حلوبه» بمعنى الجماعه التي تجتمع على صوب، كما تطلق على الخياله.

٧ - ٧) «الخميس»: بمعنى الجيش الكامل الذي يتألف من خمسه أقسام، المقدمه واليمينه والميسره والقلب والساقه.

٨ - ٨) «تدعق» كلفه «تدعق» في كلام السيد الرضى.

٩ - ٩) «نواحر» كلفه «نواحر» في كلام السيد الرضى.

١٠ - ١٠) «أعنان»: قال صاحب لسان العرب جمع «عنن» على وزن كفن بمعنى نواحي الشيء وأطرافه.

١١ - ١١) «مسارب»: جمع «مسربه» بمعنى المرعى وكذلك مسارح بمعنى المرعى، إلّا أن بعض شراح نهج البلاغه [١] ذهب إلى أنّ المسارب ما يسرب فيه المال والمرعى، والمسارح ما يسرح فيه والفرق بين مسرح ومسرب أنّ السروح إنّما يكون في أول النهار وليس ذلك بشرط في السروب. (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٨/٩). [٢]

فقد علم الإمام عليه السلام في هذه الخطبه جنوده الآداب الفرديه للقتال، وفي القسم الأخير الآداب الجماعيه في كيفية عمل الكتاب والفرق والخِيَاله والمشاه وتنسيقها فيما بينهما تجاه العدو والاعتماد على الأساليب العلميه في القضاء على العدو، ومن النقاط المهمه التي تطرق إليها الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه هي عدم التواني في إتمام النصر على العدو، وربما كانت للإنسحابات أبعاد المباغته، والهدف تشديد الحملات، فلا يدمى تعقيب العدو إلى أقصى نقاط مناطقه والاستيلاء على كل مكان ليزول بالمره أى احتمال لأنّ يشن العدو هجماته.

والحق لو عمل جيش الإمام عليه السلام بهذه الوصيه في صفين والتي أوردها الإمام عليه السلام قبل المعركه لخدمت فتنه بنى أميه إلى الأبد ولزال شبح ظلمهم وجور حكمهم عن المسلمين، ولكن والأسف فقد سمعوا كل هذه الوصايا وضربوها عرض الحائط فتجرعوا مراره تمردهم.

خاض المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه في نهايه هذه الخطبه بشرح بعض مفرداتها الصعبه فقال:

الدعق: الدعق، أى تدق الخيول بحوافرها أرضهم، ونواحر أرضهم: متقابلاتها ويقال: منازل بنى فلان تتناحر أى تتقابل، انتهى كلام السيد الرضى.

ولكن فسّر أغلب أرباب اللغه النواحر بمعنى المناطق البعيده وهذا ما يناسب الخطبه.

ومِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

فى التحكيم وذلك بعد سماعه لأمر الحكيمين

نظره إلى الخطبه

كما ورد فى السابق أنّ هذه الخطبه وردت بصوره عامّه بشأن التحكيم بعد معركة صفين، وهى تتألف من عدّه أقسام، فقد بيّن الإمام عليه السلام قبول التحكيم من خلال الاستدلال بالآيات القرآنيه.

وفى القسم الثانى يتكفّل بالردّ على الاعتراضات

والقسم الثالث والأخير ينصح الإمام عليه السلام بالكفّ عن الخلاف وإعداد أنفسهم من أجل الوقوف بوجه ظلمه الشام كما ذمّهم على ما أبدوه من تقصير واعتراض وعدم انضباط.

ص: ١٧٩

١-١) سند الخطبه: تطرق المؤرخ المعروف الطبرى فى حوادث عام ٣٧ هـ إلى هذه الخطبه وشأن صدورها وخلاصته أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام فى الخوارج حين حاججهم ابن عباس، حيث أمر الإمام عليه السلام ابن عباس بالسكوت، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال لهم: «من إمامكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: لم خالفتمونى، قالوا: لقبولك التحكيم فى صفين، فقال: ناشدتكم الله ألم تطالبونى بالكفّ عن القتال حين رفعت المصاحف على أسنه الرماح، فقلت: لكم إنى أعلم بهم منكم، فلا دين لهم ولا قرآن، فلم تسمعوا قولى وأبيتم إلّا التحكيم فقبلت، لكننى اشترطت عليهم أن يحكموا القرآن وإلّا لا نستجيب لحكمهم؟ قالوا: أمن العدل تحكيم الأفراد فى دماء المسلمين؟ قال عليه السلام: إنا لم نحكم الرجال بل حكمنا القرآن. ثم أورد الطبرى جانباً من الخطبه، كما نقلها باختلاف طفيف السبط بن الجوزى فى تذكره الخواص، والمرحوم المفيد فى الإرشاد، والطبرى فى الاحتجاج.

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرَّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ حَطُّ مَسِيئَتِهِ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا يُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرَّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلَّى عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ). فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نُحَكِّمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّتِهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا» .

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإن الخطبه ردّ على اعتراض قبول الإمام عليه السلام للتحكيم، ومضمون كلام المعترضين: لم قبلت تحكيم فردين في هذا الأمر الديني المهم؟ والحال لا حكم إلا لله وليس لعامة الأفراد من حق في الحكم في الوظائف الدينية، أما الإمام عليه السلام فقد أشار في رده إلى نقطه مهمه فقال: «إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرَّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ حَطُّ مَسِيئَتِهِ (١) بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ (٢)، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا يُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرَّجَالُ» .

ص: ١٨١

١- ١) «مستور»: الشيء الخفي، إلا أن هذه المفردة وردت مسطوره في بعض النسخ من ماده سطر وردت صفهللخط في العبارة وهي أنسب.

٢- ٢) «دفتين»: مثني «دفعه» بمعنى جانب كل شيء ويقال دفتين لجانبى الكتاب أو القرآن.

إشاره إلى أنّ القرآن الكريم بين طائفه من الأحكام الكليه وعلى العالمين بالقرآن استنباط الأحكام الجزئيه وإبلاغها إلى عموم الناس، أو بعبارة أخرى تطبيق تلك الكليات على المصاديق، على سبيل المثال قال القرآن الكريم: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (١).

لا- شك أنّ معركة صفين أحد مصاديق هذه الآيه، ووظيفه الحكمين - إن كانا على الصواب وعالمين بالأمر - أن يقولوا: لِمَا بايع الناس علياً عليه السلام إضافة إلى نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه فإنّ عامه الأمه والصحابه قد قبلت خلافته، فمن سلك غير هذا السبيل كان مصداقاً للباغى والظالم وعليه العوده إلى الأمه و التوبه، فان أبى وجب على المسلمين مقاتلته حتى يرعوى عن غيه.

ومسأله التحكيم لا تشذ عن هذا الأمر، فهي ليست سوى ما يقوم به قضاء الإسلام، أى أنهم يطبقون أحكام الكتاب والسنة على مصاديقها ويصدرون الأحكام بهذا الخصوص، فهل هناك من اعتراض على هذا الكلام؟ للأسف لم يدرك الخوارج الجهاد هذا المطلب الواضح ولم يدعهم تعصبهم وجهلهم ليفهموا ذلك فيعوا الهدف الأصلي من الحكومه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى توضيح هذا المعنى قائلاً: «وَلَمَّا دَعَاْنَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحْكَمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلَّى عَن كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» (٢)» .

فوضح الإمام عليه السلام الآيه بالقول: «فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نُحْكَمَ بِكِتَابِهِ، وَرُدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا» .

ومن هنا فقد أثبت الإمام عليه السلام بوضوح أنّ تحكيم الكتاب والسنة لا تعنى سوى الرجوع إليهما، ولما كنّا مأمورين بهذا الأمر، فليس لأحد أن يعترض علينا لم قبلنا التحكيم، فخطأ

ص: ١٨٢

(١-١) سورة الحجرات / ٩. [١]

(٢-٢) سورة النساء / ٥٩. [٢]

المعترض فى تصورہ أننا قبلنا تحکیم الأشخاص، والحال إننا لم نقبل سوى تحکیم کتاب الله.

وهنا سؤال يطرح نفسه: يفهم من كلام الإمام عليه السلام هذا أنه قبل التحکیم على ضوء رغبته ورضاه ووظيفته الشرعيه، والحال يفهم من عدّه خطب وردت فى نهج البلاغه أنّ التحکیم فرض على الإمام عليه السلام وكان ممتعظاً من هذا الأمر، فكيف يمكن حلّ هذا التناقض؟

لابدّ من القول فى الإجابة عن هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام لم يكن مخالفاً للتحکیم قط، بل كان الإمام عليه السلام يؤكّد على أمرين: الأول: هو أنّ رفع المصاحف على أسننه الرماح كان خديعه ومؤامره تهدف الحيلولة دون انتصار جيش الإمام عليه السلام فى اللحظات الأخيره من المعركه، وإيجاد الفرقه والاختلاف بين صفوف عسكر الإمام عليه السلام، وإلّا فأهل الشام لم يكونوا مستعدين لقبول تحکیم القرآن الكريم، فلم يكونوا من أهل الدين ولا القرآن حسب تعبير الإمام عليه السلام (١).

الأمر الآخر: هو أنّ الإمام عليه السلام كان معترضاً على أبى موسى الأشعري كمثل له فى تحکیم القرآن، وعليه فليس هنالك من تناقض بين هذه الخطبه وسائر الخطب نهج البلاغه، والشاهد على ذلك ما فعله الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء طبق نقل أرباب المقاتل أنّه وضع المصحف على رأسه وخاطب أهل الكوفه: «يا قوم إنّ بينى وبينكم كتابُ الله وسننهُ جِدَى رَسُولُ الله» (٢).

فضيه التحکيم

نعلم أنّ جيش معاويه حين أشرف على الهزيمة المنكره فى صفين، فبادر عمرو بن العاص المعروف بمكره إلى توصيه أهل الشام برفع المصاحف على أسننه الرماح والقول بالتسليم لحكم القرآن، من جانبه قال الإمام عليه السلام بأنّ هؤلاء لا يسلمون لحكم القرآن وليس ذلك سوى خدعه بهدف منع تلك الهزيمة الحتميه، إلّا أنّ فئه من جهّال عسكر الإمام عليه السلام إلى جانب

ص: ١٨٣

١- ١) كما ورد فى سند هذه الخطبه.

٢- ٢) مسند الإمام الشهيد ٢/٤٣، وقد نقل هذا الأمر فى الأصل مقتل الحسين، للمقرّم وقد نقله عن تذكره الخواص لابن الجوزى (مقتل الحسين / ٢٣٣). [١]

المنافقين لم يسمعوا كلام الإمام عليه السلام وأصروا على إيقاف المعركة، حتى هددوا الإمام عليه السلام بالقتل، فلم يكن من الإمام عليه السلام وبهدف الحيلولة دون ذلك الاختلاف والشقاق وبحكم الإيجاب إلّا أنّ أصدر أوامره بإيقاف القتال.

ثم قالوا بوجوب انتخاب فردين من العسكريين لتحكيم القرآن، والعجيب أن طائفه منهم بعد ذلك وقفوا بوجه الإمام وهبوا لمخالفته والاعتراض عليه في قبوله للتحكيم، الخطأ الآخر الذي بدر من الجهّال والمنافقين هو اختيارهم لأبي موسى الأشعري الجاهل كحكم وفرضوه على الإمام عليه السلام وهو الأمر الذي أدى إلى تلك الانتكاسه المريره والعجيب في الأمر فته بعد هذه الحادته رفعت رايه التمرد على الإمام عليه السلام معترضه على قبوله للتحكيم، في حين هذا القرآن يصرّح قائلاً: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» (١)، فكان من نتائج ذلك وقوع معركة أخرى عرفت بمعركة النهروان، وقد رجعت طائفه منهم إلى نفسها بعد أن سمعت كلام الإمام عليه السلام فتابت إلى الله سبحانه، ولم تبق إلّا فته قليله لم يكتب لها الدوام، وقد كان عمل الإمام عليه السلام واضحاً في هذا الأمر للأسباب التاليه:

١ - تحكيم القرآن في حلّ الخلافات العالقه بين المسلمين ليس بخفى على أحد، وقد أمر القرآن المسلمين صراحه بالرجوع إلى كتاب الله وسننه نبيه صلى الله عليه وآله في حاله حدوث اختلاف بينهم (الآيه ٥٩ من سوره النساء التي استشهاد بها الإمام عليه السلام في كلامه). وبناءً على ما سبق فتحكيم القرآن واستناداً لعقيده كافه المسلمين الذين للقرآن الكلمه الفصل في حل المنازعات ليست بالأمر الذي يدعو إلى الاعتراض على الإمام عليه السلام، لكن لم يكن من أولئك الجهّال إلا أن يصوروا الأمر على أنه نقطه ضعف في الإمام عليه السلام.

٢ - لا شك أنّ الذين أثاروا فتنه رفع المصاحف على أسنه الرماح لم يكن لهم من اعتقاد بحكم القرآن ولا الحق والعدل، بل لم يكن لساسه الكفر عديمى الإيمان من هم سوى التسلط على الأممه والهيمنه على إمكاناتها الماديه، وقد كشف الإمام عليه السلام اللثام منذ البدايه عن كنه هذه المؤامره، ولكن ما جدوى ذلك حيال الجهّال الذين رفضوا منطق الإمام عليه السلام.

ص: ١٨٤

٣ - قطعاً ليس للقرآن من دور في التحكيم من خلال نفسه، وإنما يتسنى ذلك بواسطة أهل الذكر العالمين بالقرآن فيجتهدون في استنباط أحكامه في كل مسأله وإبلاغها إلى الناس، ولو حصل هذا الأمر في حادثه صفيين لتبين أن عسكر معاويه مشمولون بالآيه التاسعه من سوره الحجرات القائله: «فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى . . .» فينبغي إدانتهم بصفتهم بغاه طغاه هبوا للوقوف بوجه إمام المسلمين والحكومه الإسلاميه.

والمؤسف أن الحكيمين هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص اللذان ليس لهما من علم بالقرآن، ونهض بالأمر من هو عارف بالقرآن، فإن ذلك ليس خلافاً فحسب، بل يمثل عملاً بالقرآن وأحكامه، لكن حيث لم تحصل الشرائط اللازمه في أيه مرحله، وكانت النتيجة مريه على تلك الفئه الجاهله، فعمدت إلى لوم الإمام عليه السلام بدلاً من ذمها لنفسها، فلم تعمد لإصلاح منظرها، بل اتجهت إلى كسر المرآه، طبعاً لا ينبغي تصور قضيه التحكيم على أنها ترتبط بحادثه تاريخي عابره، بل هي قضيه تكرر في مختلف العصور والأزمئه وحتى في عصرنا الحاضر، فهناك من يتستر خلف بعض المقدمات من ثم يحملوها بعض القراءات الخاطئه عن علم وبدونه ويختارون ما يتماشى ومصالحهم اللامشورعه.

فلعمروا بن العاص وأبو موسى الأشعري - هذان الجاهلان - أشباههما في كل زمان، وأما أكثر ما تتكرر واقعه صفيين وحمل المصاحف على السنان والتحكيم التي تتخذ لنفسها صوراً مختلفه، فلا تتمخض سوى عن النتائج التي تؤدي إلى مظلوميه من يسير على النهج العلوي.

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لِيَتَّيَنَ الْجَاهِلُ، وَيَتَّيَنَ الْعَالِمُ؛ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُضَيِّحَ فِي هَذِهِ الْهَيْدَنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَا تُؤَخِّدُ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعْجَلَ عَنِ تَبْيِينِ الْحَقِّ، وَتَتَّقَادَ لِأَوَّلِ الْعَيْ. إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ - وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَّهَهُ - مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَايْتَدَهُ وَزَادَهُ. فَأَيُّ يَتَاهُ بِكُمْ! وَمَنْ أَيْنَ أُتَيْتُمْ! اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمِ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجُورِ لَا يَعْزِلُونَ بِهِ، جُفَاهٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكِبَ عَنِ الطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعَلَّقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! أَفْ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحًا، يَوْمًا أَنْادِيكُمْ وَيَوْمًا أَنْاجِيكُمْ، فَلَا أُخْرَأُ صِدْقٍ عِنْدَ النَّدَاءِ [اللقاء]]، وَلَا إِخْوَانٍ نَفَهٍ عِنْدَ النَّجَاءِ!« .

الشرح والتفسير

يتألف كلام الإمام عليه السلام في الواقع من قسمين: الأول يعالج شبهات الخوارج وأمثالهم، ثم يحثهم على جهاد ظلمه الشام، فكلام الإمام عليه السلام في القسم الأول إشاره إلى ميثاق التحكيم الذي وقع بين الإمام عليه السلام ومعاويه (وسياتى شرح ذلك في موضوع تأملات) وعلى ضوء العهد فقد منح الحكمان مدّه سنه لحلّ اختلاف الأمة دون التسرع في ذلك، والمعتضون الجهّال يشكلون أحياناً على أصل التحكيم والذي أجاب عليه الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبه، وأحياناً أخرى كانوا يشكلون على تفاصيله، أى مسأله المدّه، ومن هنا ردّ الإمام عليه السلام على الإشكال

الأخير بالقول: «وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجْلاً فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لِيَتَّبِعَنَّ الْجَاهِلُ، وَيَتَّبِعْتَ (١) الْعَالِمُ» .

ثم أضاف: «وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُضِلِّحَ فِي هَذِهِ الْهُدْيَةِ (٢) أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَا تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا (٣)، فَتَعَجَّلَ عَنْ تَبْيِينِ الْحَقِّ، وَتَتَفَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ» .

فقد بين الإمام عليه السلام عدّه فوائد للأجل الوارد في مسأله التحكيم، الأولى: أن يترىث الجهال ويكفوا عن شططهم وتعصبهم ويحققوا في المسأله المصيريه، والأخرى: أن يقوم القوم علماء الأّمه من أصحاب على عليه السلام بدراسه جوانب المسأله ويختاروا ما ينطوى على الحد الأدنى من الخسائر ويهدوا الحكمين لانتخاب الصحيح، والثالثه: التفكير خلال هذه المدّه فى الطرق التى تتكفّل بإصلاح أمر الأّمه بصوره كليه واجتناب الأفعال المتسرعه التى تقود إلى الضلال، والغريب فى الأمر التسرع والطيش الذى مارسه الخوارج الجهال بهذا الشأن ليعرضوا مصير الامه للخطر دون أدنى دراسه وتحقيق، وهذا هو ديدن الجهال من الأفراد فى كل عصر ومصر.

أمّا العبارة: «لَا تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا» فهى كناية عن الحريره من أجل المطالعه واتخاذ القرار والانتخاب، وهى كناية فصيحه وبلغه، والعبارة: «تَتَفَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ» إشاره إلى أن التسرع فى القرار ضلاله عاده.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن المراد بأول الغى رفع المصاحف على أسنه الرماح التى تعدّ أول خطوه فى الضلال (٤)، ويبدو التفسير الأول بقرينه الجملة التى سبقتها أنسب.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى نصحهم ووعظهم بالانقياد للحق وعدم مجابته بالتعصب واللجاجه وملاحظه المنافع الشخصيه، فقال: «إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ - وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَّهَهُ (٥) - مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةٌ وَزَادَهُ» .

ص: ١٨٨

١-١) «يتثبت»: من ماده «ثبت» بمعنى التحقيق.

٢-٢) «هدنه»: من ماده «هدون» على وزن قرون بمعنى الهدوء والسكون، وتستعمل عاده بمعنى المصالحه بعدالقتال أو وقف اطلاق النار.

٣-٣) «أكظام»: جمع «كظم» على وزن عزم وجمع كظم على وزن قلم بمعنى مخرج النفس.

٤-٤) منهاج البراعه، للعلامة الخوئى ٨/١٨٠.

٥-٥) «كرث»: من ماده «كرث» بمعنى شدّه الغم.

الواقع إنَّ علامه المؤمن الحقيقي هي هذه، يعني ان وقف على مفترق طرق بحيث كان الحق في جانب والمنافع الشخصية في جانب آخر، ولي ظهره لمنافعه الشخصية واندفع نحو الحق، وإلَّا فلا فخر في تعصب الإنسان للحق الذي ينسجم مع حفظ مصالحه الشخصية، ومن هنا ذمَّ القرآن الكريم طائفه من اليهود التي عملت على هذا الضوء فقالوا: «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ . . .» (١)، كانت تلك الطائفه تدعن للقوانين الموافقه لميلها ورغبتها وتحقق منافعها، بينما تتمرد على تلك التي تتعارض ورغباتها، والحق إنَّ مثل هذا التفكيك لا يعنى عباده الله سبحانه، بل عباده الهوى، ويصدق هذا الكلام على الأفراد الذين يهتون لنصره الباطل بدافع التعصب واللجاجه ودعم الأصدقاء والقرايه، وقد ورد مثل هذا الكلام عن علي عليه السلام في خطابه لعمر بن العاص حيث أقسم أنه يعرف الحق، إلَّا أنه يتجاهله، ولم يدفعه للإلتحاق بصفوف أعداء الله سبحانه سوى منافعه (٢).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فَأَيْنَ يَتَاءُ (٣) بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ (٤)!» .

آنذاك دعاهم لجهاد القوم الظالمين، وقد نعتهم بخمس صفات سلبيه تتمثل بحيرتهم عن الحق وعدم رؤيته وقد شجعوا على الظلم والجور، ومن هنا فلا يسعهم الاقلاع عنه، وقد ابتعدوا عن كتاب الله وانحرفوا عن الصراط، رغم حملهم المصاحف ووضعها على الرماح وكلامهم عن تحكيم القرآن الكريم: «اشْتَبَعُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَمَّا يُبْصِرُ زُؤْنَهُ، وَمُوزَعِينَ (٥) بِالْجُورِ لَا يَغْدُلُونَ بِهِ، جُفَاهٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكِبِ (٦) عَنِ الطَّرِيقِ» .

وهكذا أشار الإمام عليه السلام إلى إننا نمتلك خمسه أدله قاطعه إن أردنا قتال هؤلاء وكل واحد من هذه الأدله يكفى سبباً لقتالهم!

ص: ١٨٩

١-١ (١) سورة النساء / ١٥٠. [١]

٢-٢ (٢) شرح نهج البلاغه، للمرحوم التستري ١٠/٢٦٣؛ تاريخ الطبري ٤/٥٠ طبعه الأعلمی بيروت.

٣-٣ (٣) «يتاه»: من ماده «تياه» على وزن قيد بمعنى الحيره والاضطراب، ويقال التيه للصحراء التي يحتر فيها الإنسان.

٤-٤ (٤) «اتيتم»: من ماده «إتيان» لها معاني مختلفه وتعنى هنا الانخداع والتسليم للباطل.

٥-٥ (٥) «موزعين»: من ماده «ايزاع» بمعنى التشجيع وإيجاد الرغبه فى شىء وترد بمعنى الإلهام والتوفيق، والمعنى الأول هو المراد بها فى هذه العبارة.

٦-٦ (٦) «نكب»: جمع «ناكب» من ماده نكب على وزن نفى الانحراف عن الشىء.

فقد حادوا عن الصواب وانحرفوا عن الصراط، ولا يكثر ثون للقرآن الكريم، اعتادوا على الظلم والجور، وقد عجزت أعينهم عن رؤيه الحق فأصبحوا يدورون حول ذواتهم.

ثم لهج لسان الإمام عليه السلام بالشكوى فى عباراته الأخيره وعرضهم لأشدّ الذمّ واللوم، لعلمهم يفيقون إلى أنفسهم ويعيدون النظر فى أعمالهم فقال: «مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقِهِ يُعَلَّقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ (١) عَزٌّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشٌ (٢) نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ!». .

ثم شدد عليه السلام فى تقريرهم فقال: «أَفْ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرَحًا (٣)، يَوْمًا أَنْادِيكُمْ وَيَوْمًا أَنْاجِيكُمْ، فَلَا أُحْرَازُ صِدْقٍ عِنْدَ النَّدَاءِ [] [الْقَاءِ] ، وَلَا إِخْوَانٌ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ (٤)!». .

فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى حقيقه فى هذه العبارات وهى إن كانت هنالك من مشكله قد ظهرت فى أمر الجهاد وحكومته عليه السلام فأنما مرد ذلك إلى عدم كفاءه جمع من صحبه، وذلك لأنهم كانوا يبدون الضعف والوهن فى كل ميدان يطرقه الإمام عليه السلام، ومن الطبيعى أن هناك ضروره للوصول المقتدره فى بدايه المعركه والتي ينبغى أن تحصل من قبل الرجال الأشداء والشجعان والمخلصين، ولم يكن من ينهض بهذا الدور فى معسكر الإمام عليه السلام، من جانب آخر فان القائد حين ينادى أن أحملوا! فلا بدّ من حركه الجميع بشكل منسجم، إلّا أنّهم كانوا أضعف وأوهن من ذلك، وإن كانت هناك من خطط حريه يطلعون عليها بصوره سريه، لا بدّ أن يجدوا ويجتهدوا فى حفظها، إلّا أنّهم لم يكونوا من حفظه الأسرار ويوثق بهم، وعليه لا يبدو من الصواب توقع حصول نصر خاطف فى ظلّ وجود مثل هؤلاء الأفراد، والعجيب فى الأمر فانّ مثل هؤلاء الأفراد وبهذا المدى من الضعف والوهن حين يصابون بفشل، فهم يوعطونه إى الخارج ويحملوا الإمام عليه السلام مسؤوليه زلاتهم دون أن يهتموا ويفتشوا عن أسباب ذلك فى أنفسهم، وهذه مشكله كبرى.

ص: ١٩٠

١-١) «زوافر»: جمع «زافره» من ماده على وزن فقر بمعنى الألم والصراخ، ولما كان أعوان الإنسان بصفتهم المواسين فى الألم والأين فقد اطلقت مفرده الزافره على النصير وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

٢-٢) «حشاش»: جمع «حاش» من ماده حش على وزن شك بمعنى إيقاد النار، والمراد بها هنا الأفراد الذين يسددون أولى الضربات للعدو.

٣-٣) «برح»: بفتح الباء الشده والغضب.

٤-٤) «نجاء»: ونجوى الهمس فى الاذن والشىء الذى يقال للآخرين سرّاً.

حين استغل ظلمه الشام قضيه رفع المصاحف على أسنه الرماح وخذعوا بها أهل العراق، ففرض الصلح على أمير المؤمنين على عليه السلام كتب هذا العهد بين الفريقين:

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب (١) ومعاوية بن وأبي سفيان، قاضى علي بن أبي طالب على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية بن وأبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين أنا ننزل عند حكم الله وكتابه ولا يجمع بيننا إلا إياه وإن كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيى ما أحيا القرآن ونميت ما أمات القرآن فإن وجد الحكمان أن ذلك في كتاب الله إتبعناه وإن لم يجدها أخذنا بشئنا العادل غير المفرقه والحكمان عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص» (٢).

وقد نقل هذا الصلح أو العهد (أو مهما سميته) في مختلف الكتب مع اختلاف طفيف، وكلها تشير إلى أن المسألة كانت مسأله تحكيم القرآن الكريم لا- تحكيم الأشخاص، وبعبارة أخرى فإن الأشخاص كانوا مكلفين باستنباط ما في القرآن بهذا الشأن وتطبيقه على مصاديقه، بينما اعتبرها الخوارج تحكيم للأفراد في دين الله فأثاروا مختلف الولايات والمأسى التي أفرزتها الجهل والحقاقه.

٢ - حوار الإمام عليه السلام مع الخوارج

روى أن أمير المؤمنين على عليه السلام أرسل عبدالله بن عباس إلى الخوارج وكان بمرآى منهم

ص: ١٩١

١- ١) ورد في أغلب التواريخ أن كتاب الإمام عليه السلام كتبوا أمير المؤمنين إلى جانب اسمه، فاعترض عمرو بن العاص وقال: لو علمناك أميراً للمؤمنين فلا بد أن يكون من يعاديك أميراً للفاسقين، لا بد من محو هذه الكلمة، فأطرق على عليه السلام وذكر صلح الحديبيه فقال: «الله أكبر لقد كتبت محمد رسول الله صلى الله عليه وآله فاعترض الكفار وطالبوا بمحو رسول الله، فلم أفعل، فأشار عليّ النبي أن أمحوها ثم محاها بنفسه دفعاً للفتنه، فغضب عمرو بن العاص وقال تشبهنا بالكفار فلن أبق في هذا المجلس - فقال عليه السلام: أسأل الله أن يطهر مجلسي من مثلك، ثم استمر الكلام حول كتابه لقب أمير المؤمنين حيث رأى البعض عدم محوها وإن شهرت السيوف، ولكن محيت تلك الكلمة آخر الأمر (انظر تاريخ الطبرى ٤/٣٧ [١] والتواريخ الأخرى)

٢- ٢) بحار الانوار ٣٢/٥٤٢؛ [٢] وقد ورد هذا العهد في تاريخ الطبرى ٤/٣٨ [٣] مع بعض الاختلاف.

ومسمع ليسألهم ما الذى نعموا عليه؟ فقالوا فى الجواب: نعمنا يابن عباس على صاحبك خصلاً كلها موبقه مكفره تدعو إلى النار:

أمّا أولها: فأنه محى اسمه من إمره المؤمنين، ثم كتب بينه وبين معاويه فإذا لم يكن أمير المؤمنين فنحن المؤمنون فلسنا نرضى أن يكون أميرنا.

وأمّا الثانية: فأنه شك فى نفسه حين قال للحكمين: انظر فإن كان معاويه أحق بها فأثبتاه، وإن كنت أولى بها فأثبتانى، فإذا هو شك فى نفسه، فنحن فيه أشدّ شكاً.

والثالثة: أنه جعل الحكم إلى غيره وقد كان عندنا أحكم الناس.

الرابعة: أنه حكم الرجال فى دين الله ولم يكن ذلك إليه.

الخامسه: أنه قسم بيننا الكراع والسلاح يوم البصره ومنعنا النساء والذريه.

السادسه: أنه كان وصياً فضييع الوصيّه.

قال ابن عباس: قد سمعت يا أمير المؤمنين مقاله القوم فأت أحق بجوابهم. فقال عليه السلام: نعم، ثم قال له: قل لهم يابن عباس أترضون حكم الله ورسوله؟ فقالوا: بلى، ثم قال: أمّا الأولى فقد كتبت عهد الصلح يوم الحديبيه «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اصطلاح عليه رسول الله وأبوسفيان وسهيل بن عمرو» فقال سهيل: إنا لا نعرف الرحمن الرحيم أولاً، وثانياً ولا نقر أنك رسول الله، وثالثاً ولکننا نحسب ذلك شرفاً لك أن تقدّم اسمك قبل أسمائنا، . إن كنا أسن منك، فأمرنى رسول الله صلى الله عليه و آله أن أكتب بدلاً من «بسم الله الرحمن الرحيم» «بسمك اللهم» وبدلاً من «رسول الله» «محمد بن عبدالله»، ثم قال لى: إنك تدعى إلى مثلها فتجيب وأنت مكره، وهكذا كتبت بينى وبين معاويه وعمرو بن العاص، فقال الخوارج: هذه لك خرجت منها.

وأمّا الثانية إنى شككت فى نفسى حيث قلت للحكمين: انظروا فان كان معاويه أحق بها منى فأثبتاه، فان ذلك لم يكن شكا منى فقد قال القرآن: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (١).

ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أنّ نبيه على الحق، فقالوا: وهذا لك، وأمّا قولكم أتى جعلت الحكم إلى غيرى وقد كنت عندكم أحكم الناس، فهذا رسول الله صلى الله عليه و آله قد جعل الحكم إلى سعد

ص: ١٩٢

يوم بنى قريظته وقد كان أحكم الناس، وقد قال الله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» (١)، قالوا: وهذه لك بحجتنا، قال وأما قولكم إنني حكمت في دين الله الرجال، فما حكمت الرجال
ولكن حكمت كلام ربِّي فقال في الصيد عند الاحرام: «وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ
مِنْكُمْ» (٢)، فدماء المسلمين أعظم من دم طائر، قالوا: وهذه لك، قال وأما قولكم: إنني قسمت يوم البصره الكراع والسلاح
ومنعتكم النساء والذرية، فاني مننت على أهل البصره كما من رسول الله صلى الله عليه وآله على أهل مكه، وبعد فأيتكم كان
يأخذ عائشه في سهمه، قالوا: وهذه لك بحجتنا قال وأما قولكم إنني كنت وصيًا فضيبت الوصيّه، فأنتم كفرتم وقدمتم عليّ
وأزلتم الأمر عني... قالوا: وهذا لك وإثر ذلك رجع بعضهم وبقي منه أربعة آلاف فقاتلهم فقتلهم. (٣)

ص: ١٩٣

١-١) سورة الأحزاب / ٢١. [١]

٢-٢) سورة المائدة / ٩٠. [٢]

٣-٣) الاحتجاج للطبري ١/٤٤٢، ([٣] يتصرف ونقل بالمعنى) ووردت في مناقب ابن المغازلي / ٤٠٦ [٤] مع اضافته، وبحار الانوار
٣٣/٣٧٧ [٥] مع اختلاف.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لَمَّا عُوتِبَ عَلَى التَّسْوِيَةِ فِي الْعَطَاءِ

نظره إلى الخطبه

يبدو الهدف من هذه الخطبه كما يفهم من عنوانها هو جواب الإمام عليه السلام لمن أشار عليه باغداق أموال بيت المال على الأشراف وزعماء القبائل الذين يمكنهم التأثير على الحكومه، فيعطيهم سهماً أكثر من غيرهم ويميزهم بالعطاء، وذلك من أجل ترسيخ حكومته، وقد تضمنت إجابته الإمام عليه السلام الإشاره إلى أمرين:

الأول: ليس لى قط ترسيخ دعائم حكومتى من خلال الظلم والجور والتمييز بين الناس وإعطاء حق أحد لآخر، فلا يسعنى بلوغ الحق والعدل بواسطه المعصيه.

الثانى: أن من يمارس هذا الفعل فإن عاقبته جحود أولئك الأفراد الذين أغدق عليهم.

ص: ١٩٥

١ - ١) سند الخطبه: هذه الخطبه جزء من خطبه طويله للإمام عليه السلام فى تقسيم بيت المال لما اعترض عليه، ويبدو أنها مرتبطه بالخطبه ١٤٢، والجزءان من خطبه واحده، وقد نقلها الكثيرون ممن عاشوا قبل السيد الرضى وبعده ومنهم: ابن قتيبه فى الإمامه السياسه، وابن شعبه فى تحف العقول، والكلينى فى فروع الدين، والشيخ المفيد فى كتاب المجالس، والمرحوم الشيخ

الطوسى فى كتاب الآمالى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٨٢). [١]

«أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فَيَمَنُ وَوَلِيْتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَيَمَرُ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ! أَلَا وَإِنْ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْدِيدٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَمْ يَضَعْ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَمَّا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لَغَيْرِهِ وَدُهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْمًا فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَالْأَمُّ خَدِينٍ!» .

الشرح والتفسير

المنصب والعدالة

أورد المرحوم الكليني في بدايه نقله لهذه الخطبه عن أبي مخنف أنّ جماعه من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام اقترحوا على تقسيم أموال بيت مال المسلمين على الزعماء والأشراف (في أن يعطيهم من سهمهم) لتستقر الحكومه ومن ثم يعود إلى التسويه في العطاء، فانزعج الإمام عليه السلام وأورد هذه الخطبه ليوضح لهم عدم إمكانية الوصول إلى هدف مقدّس من خلال وسيله ليست مقدّسه، فهذا الأمر لا ينسجم مع تعاليم الإسلام فقال: «أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فَيَمَنُ وَوَلِيْتُ عَلَيْهِ!» .

أو ليس الهدف من الحكومه هو بسط العدل والقسط؟ كيف تقترحون على تثبيت هذه الحكومه بالظلم والجور؟ هذا تناقض واضح للعيان، وهو أمر لا يرتضيه الحق تبارك وتعالى.

ص: ١٩٧

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «وَاللَّهِ لَا أَطُورُ (١) بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ (٢)، وَمَا أُمَّ (٣) نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا!». .

فقد بين الإمام عليه السلام رسوخ عزمه بهذا الشأن بعبارات صريحة وقويه، فهو يقسم من جانب، ويستعمل العبارة لا أطور من جانب آخر، والمراد ليس فقط لا أفعل هذا، بل لا أقاربه ولا أحوم حوله، إلى جانب ذلك أشار إلى الحركة المتواصله والأبدية للنجوم في السماء والليل والنهار في الأرض، كناية عن مراده لو كان عمرى خالداً فلست مستعداً للمارسه مثل هذا الظلم والتمييز، ثم أكد ذلك بقوله: «لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ!». .

فالعباره وإن بدت صعبه على الأفراد الذين ليس لهم بُعد نظر وأولئك الذين يضحون بالحق والحقيقه من أجل المصلحه، إلّا أنّ الحق هو أنّ هذه العبارة إنّما تتفق وسنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وتعاليم القرآن الكريم والقيم الإسلاميه العليا، وهذا ما سنعرض له في البحث القادم.

ثم أشار الإمام على عليه السلام إلى مفسد الظلم والجور والتقسيم غير العادل لأموال بيت المال فقال: «أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْدِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَزْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ». .

قد يكون التبذير والاسراف بمعنى واحد ويرادف كل منهما الآخر تاره، وتاره أخرى بمعنيين، لأنّ التبذير بالمعنى الواقعي يختلف عن الاسراف، فالتبذير من ماده بذر بمعنى نثر البذور وتستعمل حين يضيع الإنسان نعمه الله وي طرحها جانباً، وعبارة أخرى ينفق الأموال في غير موضعها، أمّا الاسراف فهو المبالغه في إستهلاك النعم بحيث يخرج من حاله الاعتدال

ص: ١٩٨

١- ١) «أطور»: من ماده «طور» على وزن غور بمعنى حام حول الشىء، والمفردة طور وجمعها أطوار وردت بمعنى نوع وحاله وصيغه.

٢- ٢) «سمير»: من ماده «سمر» على وزن تمر حديث الليل، وقال البعض أن المعنى الأصلي لهذه الماده هو الاختلاط بالنور والظلمه، ولما كانت أحاديث الليل تتم أحياناً في ظلّ النور، فقد استخدمت هذه المفردة بشأن أحاديث الليل، وإن اطلق الأسمر على بعض الأفراد فذلك لأنّ بياض بشرتهم مشوب باللون الغامق.

٣- ٣) «أمّ»: من ماده «أم» على وزن غم بمعنى القصد، والعبارة (ما أمّ نجم في السماء نجماً) كناية عن طلوع النجوم وغروبها متتابعه، وكأنّ كل نجم يقصد متابعه الآخر.

دون أن يضيع شيئاً ظاهرياً، كأن يعد طعاماً كثيراً للغايه وفاخراً لبضعه أفراد، بينما يمكن إطعام عشرات الأفراد بتلك القيمه، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من خطبته إلى الآثار المعنويه السيئه لصرف الأموال فى غير مواضعها، حيث يمكن أن يحظى الإنسان فى ظلها بمكانه معينه إلى أجل بين الناس، بينما يسقط بالمره أمام الله ويعرض نفسه لأشد العقاب فى يوم الجزاء، وأما نعته مثل هذا العطاء بالتبذير والاسراف، فذلك لأنه يؤدى إلى اشاعه التبذير والاسراف فى وسط المجتمع، فأولئك الذين يأخذون أكثر من الحد اللازم، لا يسعهم غالباً إفاضة جزء منه على الآخرين، كما لا يستطيعون احتمالاه بأنفسهم، فلا مناص من بروز حاله التبذير والاسراف.

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشاره إلى الآثار الدنيويه السيئه لذلك العمل فقال: «وَلَمْ يَضَعْ أَمْرُهُ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِعَيْبِهِمْ وَدُهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْمًا فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَالْأَمُّ خَدِينٍ (١)!»

والعباره الأم خدين إشاره إلى أن أولئك الأفراد الذين أحسن إليهم ليس فقط لا يقدمون المساعده لمن أحسن إليهم فى يوم عوزه فحسب، بل تبلغ بهم الوضاعه واللؤم أن يتحولوا إلى ذامين، أما ما فهمه بعض شرّاح نهج البلاغه من أن العباره تعنى اللوم والتوبيخ، فلعل ذلك كون الصديق هو المصداق الواضح للوضاعه حين الحاجه، وقد دلّ التاريخ والتجارب الشخصيه كراماً ومراراً على أن أغلب الظلمه والأثرياء الذين يغدقون الأموال على أصدقائهم، لم يمهد أحد لهم يد العون حين ذاقوا وبال أعمالهم، بل نفر عنهم أقرب أصدقاؤهم القدمات، ولعل بيت الشعر المعروف للشاعر المشهور حافظ الشيرازى والذى تتناقله الألسن ومضمونه «أنى لم أتأثر قط بما يفعله الأجانب، بقدر ما أتأثر مما يفعله الصديق» إشاره إلى هذا المعنى.

بحث فى اسلوب تقسيم العطاء

يستفاد من هذه الخطبه الشريفه أن الإمام عليه السلام كان شديد الحرص على تقسيم أموال بيت

ص: ١٩٩

١- ١) «خدين»: من ماده «خدن» بمعنى الصداقه وخدن على وزن اذن بمعنى الصديق وجمع ذلك أخدان.

مال المسلمين بينهم بالسويه دون أن يكون هناك أدنى امتياز لشريف على وضع وشخصيه سياسيه واجتماعيه وحتى السابقين فى الإسلام، بل حتى أهل الحاجه على أحد من الناس، وهذا ما كانت عليه الحال على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ويبدو أنه كان النهج الذى اعتمده الخليفه الأول أيضاً، حتى خلافة عمر حيث إتبع التمييز والاخذ بنظر الاعتبار الأمور السياسيه والاجتماعيه فى تقسيم بين المال.

قال ابن أبى الحديد: أمّا عمر فأنه لما ولى الخلافة فضل بعض الناس على بعض، ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كاه على الأنصار كاه، وفضل العرب على العجم، وفضل الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبى بكر فى أيام خلافته بذلك، فلم يقبل وقال هذا خلاف كتاب الله، ولما ولى عثمان الخلافة بلغ التمييز قمته، فقد فضل آنذاك كاه قرابته وبطانته، فقسم بينهم أغلب أموال بيت المال (١)، وقد ذكر العلامة الأمينى رحمه الله فى المجلد الثامن من كتابه الغدير الصفحه (٤٨٦) عنواناً أسماه (الفوضى فى مال الله) جمع فيه الأرقام الدقيقه التى روتها مختلف مصادر العامه بشأن هباته إلى قبيلته وأعوانه، وهى الأرقام التى تذهل كل إنسان حين يتأملها، فكان هذا أحد العوامل التى دعت الناس للقيام عليه، كما أنّ رفع هذه الامتياز من قبل الإمام عليه السلام كان أحد العوامل التى جعلت زعماء القبائل يتمردون عليه (كما يفهم من هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه) (٢).

والطريف فى الأمر أنّ أصحاب الإمتيازات فى ذلك الزمان لم يخفوا هذا الأمر، كما نقل ذلك الطبرى فى تاريخه، حيث قال رجل لأبى عبدالرحمن السلمى (الذى كان معروفاً آنذاك) (٣): ناشدتك الله متى عاديت علياً عليه السلام أليس ذلك حين قسم العطاء ولم يعطك وأهلك شيئاً (وقد استغلوا بيت المال قبل ذلك)؟ قال أبو عبدالرحمن: بلى هو كذلك. (٤)

ص: ٢٠٠

١- ١) مرّت تفاصيل ذلك فى شرحنا للخطبه الشقشقيه.

٢- ٢) انظر الخطبه ٢٣٢.

٣- ٣) ابو عبدالرحمن السلمى من مشاهير التابعين، ولم يكن من الصحابه وقال البعض كان بادىء الأمر من خواص أمير المؤمنين عليه السلام (الكنى واللقاب).

٤- ٤) كتاب منتخب ذيل المذيل، ص ١٤٧ نقلاً عن العلامة التستري فى شرحه لنهج البلاغه ٦/٤٩١.

على كل حال لابد من بحث جذور مسأله المساواه التي تأكدت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، قطعاً إن ذلك يعود إلى ماهيه الأموال التي كانت ترد بيت المال، وتوضيح ذلك أن الأموال التي كانت ترد بيت المال تستند إلى نواحي:

الأولى: غنائم الحرب وتعلم أن ليس هناك أى تفاوت بين المقاتلين بخصوص الغنائم الحربية، سوى أن الفارس كان يأخذ ضعف الراجل (بسبب التكاليف المتعلقة بالمركب، فهم الذين كانوا يعدونه، إضافة إلى دور الفارس مقارنة بدور الراجل فى المعركة) .

الثانية: أموال الخراج وهى الأموال المتعلقة بالأراضى الإسلاميه والتي كانت تشكل أغلب بين المال على عهد الخلفاء، فهذه الأموال تتعلق بجميع المسلمين ولا بد من تقسيمها بالسويه عليهم، وذلك لأن أراضى الخراج ملك لعامة المسلمين وينبغى توزيعها عليهم بالسويه، حيث يتقسم دخل الملك المشاع بالتساوى على جميع المالكين، لأن سهم ملكيه الجميع متساوى.

الثالثة: الجزية والأموال التي تجبى من غير المسلمين إزاء ما يتمتعون به من دعم وحمايه من جانب الحكومه الإسلاميه إلى جانب حفظ أموالهم وأعراضهم، ويرى طائفه من كبار الفقهاء أن مصاريف الجزية هى مصارف الخراج المتعلقة بجميع المسلمين.

الرابعة: الزكاه التي تفرض على بعض الأجناس بمقدار معين وقد تكفل القرآن الكريم ببيان مصاريفها الثمانيه، وقد قسمت بصوره عامه إلى الفقراء، والمساكين، حسب حاجتهم وفى موارد مصاريف الجهاد حسب الحاجات، وعليه فالمعيار فى تقسيمها الحاجه لا المساواه.

الخامسه: الخمس وهى الأموال المفروضه على كافه الإيرادات بعد طرح التكاليف ومخارج السنه، وعلى ضوء ما أورده القرآن الكريم والروايات فإن الخمس نصفان، نصف يتعلق بأهل الحاجه من بنى هاشم، والنصف الآخر بإمام المسلمين والذي ينفقه فى حاجيات الحكومه الإسلاميه.

السادسه: الأنفال التي تشمل جميع الأموال التي ليس لها ملكيه خاصه كالأراضى الموات والبساتين وبعض المعادن وسواحل البحار والأراضى البوار التي غادرها أصحابها وانصرفوا عنها، فهى الأخرى جزء من أموال الدوله وتعلق بجميع المسلمين، ولكل مصدر من المصادر

الست الماضيه بحث مفصل ورد فى الكتب الفقهيه مثل كتاب الخمس وكتاب الزكاه وكتاب الجهاد.

وهنا يطرح هذا السؤال: أى من هذه الأموال الست التى ينبغى توزيعها بصورة مساويه بين المسلمين وقد عمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله واستمر العمل بها حتى فى زمان الخليفه الأول، وواصلها الإمام على عليه السلام إحياءً للسنة بعدما إندرت على عهد الخليفه الثانى والثالث؟

يبدو أنّ تلك الأموال هى أموال الخراج (ويحتمل إلحاق الجزية بها) والتى كانت تشكل فى ذلك الزمان القسم الأعظم من بيت المال، وقد كانت إلى درجه من الكثرة بحيث لم تكن هناك من أهميته لسائر موارد بيت المال فى مقابلها، ولذلك فإنّ أحد البرامج الرئيسيه للولاه الذين يتجهون إلى مختلف المناطق جبايه الخراج، ويستفاد هذا المعنى من أغلب الرسائل الوارده فى نهج البلاغه، ومن ذلك عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشرى رضى الله عنه ورسالته عليه السلام إلى مصقله بن هبيرة (الرساله ٥٣ و ٤٣).

وبناءً على ما تقدم فإنّ وزع قسم آخر من أموال بيت المال بصورة غير متساويه على أساس مصالح المسلمين والحكومه الإسلاميه على ضوء المدارك الفقهيه، فليس هناك من منافاه مع ما ورد فى هذه الخطبه وأمثالها.

أضف إلى ذلك فإنّ هناك تقسيماً لأموال بين المال على أساس مصالح المسلمين والخدمات التى يقوم بها بعض الأفراد، لا على أساس المصالح الشخصيه كما كان يفعل ذلك معاويه، حيث كان يشتري زعماء القبائل بما يغدق عليهم من أموال، حتى كان يغرب بعض الأفراد ضعاف الإيمان من جيش الإمام عليه السلام فيغيرهم بما ينفقه عليهم من أموال كثيره (١)، وهذا بحد ذاته يمثل جنايه عظمى لا يمكن تداركها والإغماض عنها، وقد كان الإمام عليه السلام كما ورد فى هذه الخطبه يتنفر من هذا العمل، وقد غضب بشده على من اقترح عليه استماله الأشراف وزعماء القبائل بالأموال.

وبالطبع فإنّ هذه مدرسه الأحرار والأتقياء الأوفياء التى كانت وما زالت تتضاد ومدرسه سماسره السياسه وعبد المصاب وأسرى الأهواء.

ص: ٢٠٢

١ - ١) ورد عن معاويه أنه قال: «والله لأستميلنّ بالأموال أهل ثقات عليّ ولا أقسمنّ فيهم المال حتى تغلب دنياي على آخرتيه» شرح نهج البلاغه للعلامة التستري ٤٩١/٦.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وفيه يبين بعض أحكام الدين

ويكشف للخوارج الشبهه وينقض حكم الحكمين

نظره إلى الخطبه

خاطب الأمام عليه السلام الخوارج بهذه الخطبه، رغم عموميه نفع الخطبه، تتألف الخطبه من عدّه أقسام، فنّد الإمام عليه السلام فى القسم الأول عقيدته الخوارج فى تكفير مرتكب الكبيره وحكمهم بقتل عامّه أمّه النبى صلى الله عليه وآله، وذلك من خلال الأدله المحكمه، وأشار عليه السلام فى القسم الثانى إلى غفله الخوارج وجهلهم وسلوكهم المفرط فى عدوانهم، بينما أفرط البعض الآخر منهم فى موالاتهم، فكلاهما على ضلاله، والقسم الثالث تضمن التأكيد على متابعه جميع المسلمين وعدم الإنفراد عنهم والتحذير من الفرقة، وأنّ شعار الخوارج هو شعار مضل وخطير، وأخيراً القسم الرابع وهو إشاره إلى خطأ الحكمين، كما يوضح أن وظيفه الحكمين العمل بأحكام القرآن، ولكنهم ضلوا الطريق، وعليه فليست هنالك أيه قيمه لحكمهم.

ص: ٢٠٣

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه المؤرخ المعروف الطبرى فى حوادث سنه ٣٧ هـ عن أبى مخنف باختلاف طفيف، وابن الأثير فى كتاب النهايه وأشار إلى المفرده (بجر). (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٨٥).

«فَإِنْ أَبِيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُظَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَمِّ مَالِي، وَتَأْخُذُونَ بِهِمْ بِخَطِيئِي، وَتُكْفَرُونَ بِهِمْ نَبْدُنُوبِي! سَيُؤْفِكُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الثُّبْرِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلُطُونَ مَنْ أَدْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُدْنِبْ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِدُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ» .

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبة ناظر إلى الرد على شبهات الخوارج التي لحقت بهم بفعل جهلهم وتعصبهم وتقليدهم الأعمى، فهم يعتقدون بكفر من ارتكب الكبيرة، والكافر يجب قتله، فقد صنعوا لأنفسهم صغرى وكبرى وعلى أساسهما أجازوا لأنفسهم قتل أى فرد من أصحاب على عليه السلام أينما وجدوهم، ومن هنا حمل هؤلاء الضالون المتعطشون لدماء الأبرياء سيوفهم على عواتقهم ليسفكوا دماء من شاءوا من الأبرياء فى مختلف مناطق البلاد الإسلامية، فأتوا بالأفعال الشنيعة التى يندى لها جبين التاريخ، نعم لقد ابتكروا لأنفسهم صغرى وكبرى وقالوا: إن علينا عليه السلام قبل تحكيم الأفراد فى مقابل القرآن، وعليه فقد ارتكب الذنب، وكل من ارتكب الذنب فهو كافر، واتباع على عليه السلام كذلك فهم كفرة، والكافر يجب قتله وقد رد الإمام على عليه السلام

بالعبارة المذكورة على خطأهم ليطم الحجج عليهم، فلو فرض (وفرض المحال ليس بمحال) أنه ضل فما الذى يدعو إلى الحكم بضلاله كإمه محمد صلى الله عليه وآله بضلاله: «فَإِنْ أَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُظَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطِيئِي، وَتُكْفِرُونَهُمْ نَبْدُنُوبِي!». .

ثم واصل كلامه بالقول: «سَيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ (1) تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرِّءِ وَالسُّتْمِ، وَتَخْلُطُونَ مِنْ أَدْنَبِ بَمَنْ لَمْ يُذْنِبِ» .

فهذا العبارات تتضمن إشاره إلى عدّه أجوبه: الأول بطلان التصور القائم على أنى أخطأت وضللت، فأولاً: أنى قبلت التحكيم بفعل ضغوطكم، وثانياً: لو تمّ التحكيم بصوره صحيحه لكان مطابقاً للقرآن، فالواقع أنّ الحكم هو القرآن، ومن ينهض بالتحكيم إنّما يرجع إلى القرآن ويستنبط منه حكم الله سبحانه، فيطبق الكليات على مصاديقها، كما مرّ ذلك فى الخطب السابقه، وعليه فليس هنالك من عمل مخالف حكم الله حتى يؤدّى إلى الخطأ والضلاله، ثالثاً: على فرض أنى إرتكبت خلافاً فما معنى حمل ذلك على سائر المسلمين؟ لم تكفرونهم وتريقون دماء الأبرياء؟ أى قانون هذا الذى تتمسكون به؟ وبأى شرع تؤمنون؟

ثم إتجه الإمام عليه السلام صوب خطأهم الأصلي المتمثل بقولهم كل مذنب كافر، فردّ عليهم ردّاً قاطعاً فقال: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَثَهُ أَهْلُهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلُهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ» .

فقد أراد الإمام عليه السلام عدّه شواهد من سنّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله تؤكد وضوح خطأ الخوارج، الأول أنّ النبى صلى الله عليه وآله كان يعدم الزانى والقاتل، ثم يصلى عليهما ويورث أهلهما، لو كفر هؤلاء بارتكابهم الزنا وقتل النفس لما وجب توريث أهلهم لهم حسب عقيدتكم، لأنّ المسلم لا يرث الكفار، (هذه عقيدته أغلب فقهاء العامه)، كما حدّ رسول الله صلى الله عليه وآله سائر المذنبين كالسارق

ص: ٢٠٦

(١ - ١) «عواتق»: جمع «عائق» قسم من الجسم يقع بين الرقبه والكتف.

والزاني غير المحصن، فقطع يد الأول وجلد الثاني، لكنهم بقوا في صفوف المسلمين فأجازهم جميع الأحكام الإسلامية كالزواج من المسلمات وأخذهم سهمهم من بيت المال، والحال لا تجرى عليه أى من هذه الأحكام إن كفر بارتكاب الكبيرة.

تأملات

١ - الخوارج وتكفير أهل الذنوب

يستفاد من هذه الخطبه أنّ الخوارج يعتقدون بأنّ ارتكاب الكبيرة يوجب الخروج من دين الإسلام، بناءً على هذا فمن ارتكب الكبيرة وكان قبل ذلك مسلماً فهو مرتد يجب إعدامه، وقد استدلل هؤلاء الجهال بظاهر بعض آيات القرآن التي لم يدركوا مفهومها، ومن ذلك الآية الشريفة ٩٧ من سورة آل عمران بشأن تارك الحج والتي تقول: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» ، والآية ٤٤ من المائدة: «وَمِنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» ، والآية ٢٣ من سورة الجن التي تحدثت عن المذنبين جمعاء: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا» .

فقد أطلقت هذه الآيات على بعض المذنبين كلمه الكفر أحياناً، وأحياناً أخرى الخلود في جهنم الذي يختص بالكفار، وقد غفلوا عن أنّ مفردة الكفر في اللغة واصطلاح الشرع لا تعنى على الدوام الخروج من الإسلام، بل الكفر درجات ومراحل: فقد يكون بمعنى ارتكاب الذنب، ويكون أحياناً أخرى بمعنى إنكار الله والعقائد الدينيه، وبعبارة أخرى الكفر بمعنى مجانبه الحق أو ستره وهو على مراحل ودرجات، ولكل أحكامه الخاصه، كما للإيمان درجات، لكل منها أحكامه الخاصه، فقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام في الروايه المعروفه في اصول الكافي خمس معاني للكفر الوارد في القرآن، أحدهما: أنّ الكفر بمعنى ترك أوامر الله والعصيان، ثم يورد الإمام شواهد من القرآن الكريم على هذه المعاني الخمسه (١).

ص: ٢٠٧

١- (١) أصول الكافي ٢/٣٨٩، باب وجوه الكفر، ح ١.

وأوضح دليل على بطلان هذه العقيدة ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام في هذه الخطبة من كثره عدد المذنبين في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والذين كان يقيم عليهم الحد، مع ذلك كان يجري عليهم كافة أحكام الإسلام، حتى وإن لم يتوبوا من قبيل إقامه صلاه الميت والدفن في مقابر المسلمين وأحكام الارث، ومن كان حياً بعد إقامه الحد؛ أجرى عليه سائر الأحكام كأخذه لسهمه من بيت المال والزواج من المسلمات وأمثال ذلك، هذه هي سيره رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تواصلت في العهود اللاحقه حتى عصرنا الحاضر بين جميع مسلمى العالم والتي تدل على أن مرتكب الكبيره ليس بكافر بمعنى خروجه من الإسلام قط، وليس فقط لا يراق دمه فحسب، بل هناك ديّه على أدنى جرح يعرّض له.

٢ - جانب من جنایات الخوارج

إن أدنى مطالعه لجانب من التاريخ المظلم للخوارج تكفى لأن نقف على مدى فضاعه الفئه التي وقفت بوجه أمير المؤمنين على عليه السلام، والأسباب التي عاقت برامجه عليه السلام في النهوض بالأمه، فليست هنالك فئه تشبه الخوارج شهدها التاريخ، فئه متعصبه عاشت جميع التناقضات ويسفكون الدماء بكل بساطه ولا يرحمون كبيراً ولا صغيراً حتى الجنين في بطن أمه، كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبه حيث وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيريقون دم من يريدون، ولم يأمن أحد في منطق حكومتهم التي لم تدم طويلاً لحسن الحظ، وكأنهم يرون أنفسهم المالكين والناس عبيد فلهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤون من قتل وتعذيب وتشريد.

قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه: حين مضى الخوارج إلى النهروان أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرياً، فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني، قالوا: احفظوا ذمه نبيكم، ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء (وهو من مشاهير علماء عصره) أقبل في رفته فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقه: إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم، فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ فقال: قوم مشركون مستجيرون بكم، ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده، قالوا:

قد أجرناكم، قال واصل: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي، قالوا: فمضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.

فقال: بل تبلغوننا مأمنا لأن الله تعالى يقول: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساورا معهم بجمعهم حتى أبلغهم المأمن (٢).

ومعروفه هي قصة قتلهم صحابي النبي صلى الله عليه وآله المعروف: عبدالله بن خباب وقتلهم لإمرأته وهي حامل، وقد عرضنا لشرح ذلك سابقاً، وهذا غيض من فيض جرائم الخوارج، هذا في الوقت الذي إذا قتل أحدهم خنزيراً، واعترضوا عليه على وأن ذلك فساد في الأرض وأنكروا قتل الخنزير (٣)، يبدو أنّ الجهل والتعصب والعجب هي العوامل الأصلية لظهور هذه الفئه السفّاهة التي لا تتورع عن ارتكاب أيه جريمة وجنايه، أو ليس جزاء هؤلاء تلك الحملات المتتاليه التي شنّها عليهم جيش الإمام على عليه السلام بعد إتمام الحجّه وتوبه المخدوعين منهم، لكي لا تبقى لهم من باقيه، كما حدث في النهروان؟!

٣ - الردّ على سؤال

تصدى الإمام عليه السلام في الخطبه المذكوره للردّ على الخوارج الذين يقولون بكفر من ارتكب الكبيره، في أنّ ذلك خلاف سيره رسول الله صلى الله عليه وآله في إقامته للحدود على مرتكبي الكبائر، وفي الموارد التي تتطلب إعدام صاحبها من قبيل قصاص القاتل، فقد كان يحكم بقتلهم ويورثهم أهلهم من المسلمين.

هذا في الوقت الذي نعتقد فيه على ضوء مذهبنا بأنّ المسلم لا يرث الكفّار وعليه فان إيصال إرثهم إلى وارثهم المسلمين ليس دليلاً على نفى كفرهم، وللإجابة على هذا السؤال لا بدّ

ص: ٢٠٩

١-١ (١) سورة التوبه / ٦. [١]

٢-٢ (٢) سرح ابن أبي الحديد ٢/٢٧٩ - ٢٨١. [٢]

٣-٣ (٣) انظر نفحات الولاية ٢/٣٧٧. [٣]

من القول بأنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام طبق مذهب أغلب العامّة والخوارج الذين يعتقدون بعدم إرث الكافر للمسلم ولا المسلم من الكافر، وبناءً على هذا فقد استدلّ على ضوء مسلمات مذهبهم، أمّا مذهب أهل البيت عليهم السلام الكافر لا يرث المسلم بينما يرث المسلم الكافر، للرواية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام: «إِنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَزِدِ الْمُسْلِمَ إِلَّا عِزًّا فِي حَقِّهِ» (١).

ص: ٢١٠

١-١) وسائل الشيعة ١٧/٣٧٧. [١]

إشاره

«ثُمَّ أَنْتُمْ شَرَّارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ! وَسَيَ يَهْلِكُ فِي صِنْفَانٍ: مُحِبُّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُغِيضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِي حَالِ النَّمَطِ الْأَوْسَطِ فَالزُّمُوهُ، وَالزُّمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ!

فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْعُنَمِ لِلذُّبِّ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشُّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ» .

الشرح والتفسير

أوضح الإمام عليه السلام جهراً في ما مضى من كلام الخطبه بطلان عقيدته الخوارج في تكفير المسلمين، وقد حدثهم بمنتهى المرونه حسبما يقتضيه البحث المنطقي، أما في هذا القسم (القسم الثاني) فقد عنفهم في الكلام ليحد من غرورهم ويعرضهم بمكائنتهم بين المسلمين على أنهم شر الناس وأغراض الشيطان الذي أضلهم وأوردهم الحيره، وأفضل شاهد على ذلك أفكارهم الشيطانيه وأعمالهم العدوانيه ضد البشريه: «ثُمَّ أَنْتُمْ شَرَّارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ!» .

حقاً ليس هناك من فته في أوساط المسلمين شر من الخوارج، فهم مصداق الآيه الشريفه: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (١).

ص: ٢١١

وهم مصداق واضح للآية: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (١).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى وهي أنّ الإفراط والتفريط شيمه الأفراد الجاهل، فمنهم من ألهنى ومنهم من كفرنى، فقال عليه السلام: «وَسَيَهْلِكُ فِي صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ» .

فإن دفعكم جهلكم وجنايتكم لأن تعتبرونى كافراً، فإنّ هناك من ذهب إلى عكس ذلك - وبدافع الجهل أيضاً - ليقولوا بالوهيتى، والفتتان ضالتان، والطريف فى الأمر إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر الإمام عليه السلام منذ سنوات بهذا الإفراط والتفريط تجاهه، فقد روى ابن عبدالمالكى فى كتاب «الاستيعاب» أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خاطب علياً عليه السلام بالقول: «لَا يُحِبُّكَ إِلَّا الْمُؤْمِنُ وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا الْمُنَافِقُ... وَيَهْلِكُ فِيكَ رَجُلَانِ مُحِبٌّ مُفْرِطٌ وَكَذَّابٌ مُفْتَرٍ... وَتَفْتَرِقُ فِيكَ أُمَّتِي كَمَا افْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عِيسَى» (٢). (الحديث إشارة إلى أنّ طائفه من بنى غ اسرائيل آمنت واعتقدت بالوهيته وطائفه لم تؤمن وراته ابن الله والعياذ باللله).

وروى المرحوم السيد محسن الأمين فى «أعيان الشيعة» عن «مسند أحمد» و«صحيح الترمذى» و«الاستيعاب» لابن عبد البر و«مستدرک الحاكم» أنّ المعروف بين الصحابه بغض على عليه السلام علامه النفاق والذى يميزه عن المؤمن الصادق.

ثم أضاف والثابت تاريخياً أنّ معاويه كان يسب علياً عليه السلام ويدعو الناس إلى سبه (وعليه فمعاويه كان من المنافقين) (٣).

على كل حال فالجهال دائماً على الإفراط والتفريط، الغلو أو العداوه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وبالتأكيد على حفظ الاعتدال فقال: «وَخَيْرُ النَّاسِ فِي حَالِ النَّمَطِ الْأَوْسَطِ فَالزَّمُوهُ» .

ص: ٢١٢

١-١) سورة الكهف / ١٠٣ - ١٠٤. [١]

٢-٢) الاستيعاب ٣/٣٦. [٢]

٣-٣) شرح نهج البلاغه لمغنيه ٢/٢٤٧، [٣] كما وردت فى كتاب الغدير عدّه روايات من المصادر المعتره للعامه بخصوص معرفه المؤمن يحبّ على عليه السلام والمنافق ببغضه (الغدير ٣/١٨٣) .

فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: «أَلَا إِنَّ خَيْرَ شَيْعَتِي النَّمَطُ (١) الأَوْسَطُ إِلَيْهِمْ يَرْجِعُ الْغَالِي وَبِهِمْ يَلْحَقُ التَّالِي» (٢).

ثم أصدر أمراً مهماً كانت مخالفته السبب في سقوط الخوارج في وادي الضلال فقال: «وَالزُّمُومَا السَّوَادَ (٣) الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ». كما بالغ في هذا التأكيد ليقول: «وَأَيُّكُمْ وَالْفُرْقَةُ! فَإِنَّ الشَّاذَّ (٤) مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذُّئْبِ».

فالجماعه المؤمنه غالباً من تنطلق في مسار الحق، فان ضلت طائفه منهم ذكرتها طائفه أخرى وانقذتها من وادي الضلال، أما الأفراد الشاذون والفئات الصغيره والمعزوله عن المجتمع الإسلامى فهى عرضة لأنواع الأخطاء والانحرافات والشيطان غالباً من ما يشدد من وساوسه بينهم فهم لقمه سائغه للشيطان على غرار الشاذه من الغنم، فتكون لقمه سائغه للذئب، ثم أورد فى وصيته فى الخصوص تقضى بقتل كل من رفع شعار لا حكم إلا لله ودعى إليه الناس وإن لاذ بالإمام عليه السلام واختفى تحت عمامته: «أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشَّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ».

وهكذا أصدر حكمه النهائى بشأن هذه الفئة الفاسده والمفسده والقاسيه المتعطشه للدماء والذى لا يشكلون سوى الخطر الجدى على الإسلام والمسلمين، أما ما هو مراد الإمام عليه السلام من مفرد «الشعار» التى وردت فى عبارته المذكوره فقد اختلفت فيه أقوال شراح نهج البلاغه فقيل: المراد بالشعار التفرقه، قيل يعنى شعار الخوارج، وكان شعارهم أنهم يحلقون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل (٥)، وقيل هو الشعار الذى يعد شعار الخوارج أينما حلوا وقد إرتكبوا بواسطته ما لا يحصى من الفتن والمفاسد وأشعلوا بالنيران المجتمع

ص: ٢١٣

١- ١) «النمط»: هو الطائفة من الناس التى لها هدف واحد، كما تستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى الأسلوب والطريق.

٢- ٢) بحار الانوار ٦/١٧٨. [١]

٣- ٣) «السواد»: تعنى فى الأصل اللون الأسود، ولما كانت الجماعه الكثيره والأشجار المتشابهه والكثيره تبدو سواء من بعيد فقد وردت هذه المفردة بهذين المعنيين، وقد جاءت فى هذه الخطبه بمعنى الجماعه.

٤- ٤) «شاذ»: من ماده «شذوذ» بمعنى القله والندره ويطلق الشاذ على من يتخلف عن الجماعه وينفرد لوحده.

٥- ٥) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/١٢٣. [٢]

الإسلامي، والواقع قد مهدوا بهذا الشعار أسباب الفرقه، والقتال وسفك الدماء والفساد في الأرض، ومن هنا فقد حكم بالإعدام على حمله هذا الشعار.

كما وردت عدّه تفاسير للعبارة: «لَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ»، أنسبها ما ذكرناه سابقاً، وهو وإن اعتصم هؤلاء الأفراد الفاسدين بي ولاذوا بداري وكانوا تحت ثيابي.

تأملات

١ - الحذر من الإفراط والتفريط

من بين المسائل التي أكد عليها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه ضلاله وهلاك الفئه المفرطه والمفرطه، وقد ظهرت هاتان الفئتان بصوره جليه بشأن الإمام عليه السلام في أوساط المجتمع الإسلامي، الفئه التي تصوّرت الإمام عليه السلام هو الله والتي عاشت على عهده عليه السلام وقد تلقت أشد العقاب من الإمام عليه السلام، والفئه الأخرى التي تراه - نعوذ بالله - كافراً، وقد عوقبت هذه الفئه أشد العقاب أيضاً، فالإفراط والتفريط مذموم في كل شيء ومصدر البؤس والشقاء، ولا يقتصر ذلك على القضايا العقائديه، بل يتجاوزه ليشمل الحياه المتواضعه، وعاده ما يستند هذا الإفراط والتفريط إلى الجهل والعصبيه، فهناك طائفه انحرفت عن الإسلام وشذت عن إتباع منهج أهل البيت عليهم السلام، فهبطت بالله إلى منزله متسافله لتراه كالجسمانيات فصوّرتة كفتى أمرد وشعر مجعد وما إلى ذلك من صفات الأجسام، بينما رفعتة فئه أخرى عن فكر البشر، لتقول باستحاله معرفه ذاته لدينا، وأبعد من ذلك بأننا لا نعلم شيئاً من صفاته، وبعبارة أخرى قال بتعطيل معرفه الله، فئه سلكت طريق الإفراط فقالت: بالتفويض، وأخرى سلكت سبيل التفريط فقالت: بالجبر، أمّا أئمة الهدى عليهم السلام فقد وصفوا أنفسهم بأنهم «النمرقه الوسطى» أي الفئه المعتدله البعيده عن الإفراط والتفريط، والتي ينبغي أن يعود إليها المتطرفون ويلحق به المغالون: «نَحْنُ النُّمْرَقَةُ الوُسطَى بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الغَالِي» (١).

ص: ٢١٤

ورد التأكيد في الخطبه المذكوره على مرافقه ومسايره السواد الأعظم، أى جماعه المسلمين والابتعاد عن كافه أشكال العزله والتفرد، فقال عليه السلام صراحه: «يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»، فالجماعه الإسلاميه كانت قويه ومقتدره ذات شوكة كما كانت متحده ومتفقه، بينما عاشت الذل والهوان والضعف كلما سادها النفاق والشقاق، فمقاطعه الجماعه الإسلاميه وبعبارة أخرى الانعزال الاجتماعى يشكل أحد الانحرافات والفكرية والعقائديه، والأفراد الانعزاليون عاده كما يعيشون خيال العجب بالنفس فيظنون أنهم أفضل من غيرهم وعلى الآخرين أن يعظموهم، وحيث لا يرون ذلك في الناس تشتعل في قلوبهم نيران العداوه والبغضاء وسوء الظن، الأمر الذى يجعلهم يهمون أحياناً بالتأثر وقتل الأبرياء والإساءه إلى المثل الاجتماعيه، وأحياناً أخرى يدعى النبوه أو الإمام أو نيايه الإمام لمهدى عليه السلام فيصبح مصدرراً لكل شقاق وفرقه ونفاق، ومن هنا نقف على عمق عبارته الإمام فى قوله: «فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْعُنْمِ لِلذُّبِّ». طبعاً المراد من مسايره الجماعه بمعنى الأكثرية الموصوفه بالإيمان والقيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية، وإلا فالإسلام لا يوصى بمسايره الأكثرية الفاسده، قال عليه السلام فى موضوع آخر: «لا تَشِيَتْوَحْشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلْبِهِ أَهْلِهِ» (١). واما الذم الذى أورده القرآن الكريم على لسان عدّه آيات بشأن الأكثرية إلا كان المراد بها الأكثرية الفاسده والمفسده: «قُلْ لَأَيُّ شَيْءٍ تَوَدُّونَ الْحَيْثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٢).

٣ - شرار الخلق

وصف الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه الخوارج بصفتها شرار الناس، فهذا الكلام ليس مبالغه، فالحق أن الخوارج شرّف فته ظهرت فى أوساط المسلمين، ليس فقط لتكفيرهم أشرف مؤمن

ص: ٢١٥

[١-١] نهج البلاغه، الخطبه ٢٠١. [١]

[٢-٢] سورة المائده / ١٠٨. [٢]

بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أى على عليه السلام الذى سقى شجره الإسلام بدمائه الزكية فاستقام عودها وكثفت أغصانها، وليس لحملهم سيوفهم على عواتقهم وسفكهم لدماء الأبرياء، بل لأنهم أسسوا لأنفسهم بالتدريج مدرسه منحرفه من حيث العقائد، كما ابتعدت عن أحكام الإسلام والقرآن السنّه، ففي جانب عقائدهم وردت عدّه أبحاث فى كتب الملل والنحل تصوّر مدى اختلافها وتضاربها، ولعل ذلك بسبب اختلاف فروعهم، مع ذلك فقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودى اشتراك الخوارج فى ما يلى:

١ - تكفير عثمان وعلى عليه السلام (والعياذ بالله)

٢ - وجوب القيام ضد الإمام الجائر.

٣ - كفر من ارتكب الكبيره (وجوب قتله).

٤ - أنهم بريئون من الحكمين (أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص).

٥ - كفر معاويه وأتباعه وأتباعه.

لكنهم يختلفون فى بعض المسائل كالتوحيد والوعد والوعيد فى القيامه والإمامه (١).

وعدّ البعض الآخر من جملة عقائدهم المشتركة وجوب انتخاب الأئمه للخليفه سواء كان من قريش أم من غيرها، والأخرى قبولهم الخلفاء الأربعة (وإن عزلوا عثمان وعلى عليه السلام)، وكذلك شدّه مخالفتهم لكافه خلفاء بنى الأميه وبنى العباس، خاصّه أنهم يسبون بنى أميه (٢).

وأما الأباضية الذين ينتشرون اليوم فى عمان ومراكش وليبيا والجزائر وتونس ومصر والذين يعدّون أحياناً من الخوارج، فهناك فارق كبير لعقائدهم مع عقائد الخوارج، وإن اشتركوا معهم فى مخالفه التحكيم فى صفين وعدم اشتراط وصف القريشى فى إمام المسلمين.

ولعل عقائد الأباضية تشبه كثيراً عقائد الشيعة مثل:

١ - صفات الله ليست زائده على ذاته.

٢ - استحاله رؤيه الله فى الآخرة.

٣ - القرآن حادث لا قديم.

ص: ٢١٤

٢-٢) قاموس دهخدا، ذيل مفرده الخوارج.

٤ - مرتكب الكبيره كافر بالنعمة لا كافر ملى (يعنى مثل هذا الفرد مسلم وليس خارجاً عن الإسلام).

٥ - وجوب موالاه أولياء الله والبراءه من أعدائه.

وروى بعض أنهم يقولون بوجوب حبّ الخليفه الأول والثانى وبغض عثمان وعلى عليه السلام إلّا أنّ الأباضية فى هذا الزمان ينكرون ذلك (١).

ص: ٢١٧

١- ١) الملل والنحل لآيه الله السبحانى ٥/٢٤٢ و ٢٤٩.

«فَأَنبَيَا حُكْمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِخْيَاؤُهُ الْإِجْتِمَاعَ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْإِفْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْهِمْ أَتَبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا أَتَبَعُونَا. فَلَمْ آتِ - لَأَبَالِكُمْ - بُجْرًا، وَلَا خَتَلْتَكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَسْتُمْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلِكِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهِيَا عَنْهُ، وَتَرَكَمَا الْحَقَّ وَهَمَيَا يُبْصِرَ رَأْيَهُ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمَدِ لِلْحَقِّ - سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا» .

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه والذي يمثل آخرها إلى الأدله المنطقيه ليكشف بالبراهين القاطعه خطأ الخوارج. توضيح ذلك أنّ الخوارج حين رأوا النتيجة المريره لقضيه التحكيم التي خدع فيها الماكر عمرو بن العاص أبي موسى الأشعري الساذج وقد حسم التحكيم لصالح معاويه، ارتفعت أصواتهم ليقولوا لم قبلنا التحكيم، ولماذا قبل على عليه السلام التحكيم، رغم أنّهم يعلمون:

أولاً: أنّ التحكيم فرض على على عليه السلام.

ثانياً: أنّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بأبي موسى الأشعري ممثلاً عنه في التحكيم، بل كان رأيه أن يلعب ابن عباس ذلك الرجل العالم دور التحكيم، رغم ذلك أصر أولئك الجهال وفرضوا عليه أبي موسى الأشعري، وقد خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه في جواب

آخر على أن تحكيم الحكيم كان مشروطاً بأن يتم على ضوء القرآن لا على أساس الأهواء النفسية والعقد الشخصية، فلم يعملوا بهذا الشرط وهذا ذنبهم لا ذنب الإمام عليه السلام فقال: «فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَ مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَ مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ» .

جدير بالذكر إنه ورد نفس هذا المطلب الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في متن العهد الذي أشرنا إليه سابقاً: « وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَيْنَنَا مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ نُحْيِي مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ وَنُمِيتُ مَا أَمَاتَ » .

ثم أضاف قائلاً: «وَإِحْيَاؤُهُ الْإِجْتِمَاعَ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْإِفْتِرَاقُ عَنْهُ» ، ووضح هذه العبارة من خلال التأكيد على مضمونها بالقول: «فَإِنْ جَرَّرْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْهِمْ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّوهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا» .

فهذا الكلام منطقي يدركه من كان له أدنى فكر وشعور، لكن كأن الخوارج لم يتمتعوا حتى بهذه النعمة الإلهية، ثم بين الإمام عليه السلام هذا المطلب بتعبير أوضح بحيث يبدو وكأنه اشتراط غضباً من جهلهم وكلامهم الذي يفتقر إلى المنطق فقال: «فَلَمْ آتِ - لِأَيِّكُمْ - بُجْرًا (١)، وَلَا - خَتَلْتُمْ (٢) عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا - لَبَسْتُمْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيٌ مَلِكُكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ» ، لكنهم فقدوا عقلهم «إيمانهم» وتركوا الحق وهم يرونه بأعينهم، كما كان الظلم والجور ديدنهما وهما فاتخذوا سبيلاً وقد كنا اشترطنا عليهما قبل أن يحكما بذلك الحكم الظالم أن يستندا إلى العدل ولا يهملوا الحق: «فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَمَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَى عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمَدِ (٣) لِلْحَقِّ - سُوءَ (٤) رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا» .

فالواقع أن زبده الكلام الإمام عليه السلام هي:

أولاً: إنَّ انتخاب الحكيم كان على أساس ضغطكم وإصراركم على هذا الأمر، فان كان

ص: ٢٢٠

١-١) «بجر»: بضم الباء الشر والأمر العظيم، كما ورد بمعنى اتساع البطن وملأها.

٢-٢) «ختلت»: من ماده «ختل» على وزن قتل بمعنى المكر والخداع.

٣-٣) «الصمد»: بمعنى المكان المرتفع، كما يرد بمعنى القصد وعدم الاعتماد وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

٤-٤) «سوء»: مفتوح مفعول سبق الذي ورد في أول العبارة ومفهوم الجملة قبل أن يبدى هؤلاء الرأى الظالم والفاقد قد اشترطنا عليهم إننا سوف لن نقبل رأيهم إن حاد عن الحق.

خلافاً فهو خلاف منكم لا منى.

وثانياً: إننا اشترطنا عليهم الحكم على ضوء الآيات القرآنية، لكنهم آثروا هوى أنفسهم وانحرفوا عن السبيل البين الذى هديناهم إليه، وعليه فإن كان هناك من خلاف فقد بدر منهما لا منى (١).

ولكن طبيعة الأفراد الجهّال والمتعصبين حين يرتكبون مخالفه ويبتلون بسوء عواقبها شرعان ما يغرونها إلى الآخرين ويحملونها مسؤوليه أخطأهم وهذا أخس الأساليب، والحال يقتضى العقل والانصاف والإيمان الاعتراف بالذنب فى مثل هذه الموارد والاعتذار منها ومن ثم التفكير فى تدراكها.

تأمل

دروس التحكيم

كثير هو الكلام بشأن قضية التحكيم وهى تنطوى على الدروس والعبر التى نقلتها التواريخ والسير ومنها: أن عمرو بن العاص اشترط على معاوية إن انتصر فى معركة أن يسلمه حكومه مصر، وقد وفى له معاوية بهذا الشرط وقد قدّم أكثر رشوه لعمرو بن العاص، ولم تمض مدّة حتى كتب معاوية لعمرو بن العاص أن إعطنى خراج مصر لهذا العام فبيت المال لا يسدّ حاجات أهل الحجاز والعراق، فرفض عمرو ذلك من خلال شعر بعثه لمعاوية، فلم يعد معاوية للحديث عن خراج مصر - أمّا كتابه الذى ضمنه فهو: مُعَاوِي حَطَّى لَا تَعْفَلِ

ص: ٢٢١

١- ١) ورد شبه هذا المعنى مع إختلاف طفيف فى الخطبه ١٧٧.

وَأَثْبَتَهَا فِيكَ مَوْرُوثَةً تُبَوِّتُ الْخَوَاتِمَ فِي الْأَنْمَلِ
وَهَبْتَ لِغَيْرِي وَزَنَ الْجِبَالَ وَأَعْطَيْتَنِي زَنَةَ الْخَرَدَلِ
وَإِنَّ عَلِيًّا غَدًا خَصْمُنَا سَيَحْتَجُّ بِاللَّهِ وَالْمُرْسَلِ
وَمَا دَمَ عُثْمَانُ مُنْجٍ لَنَا فَلَيْسَ عَنِ الْحَقِّ مِنْ مَزْحَلٍ (١)

ص: ٢٢٢

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١٠/٥٦ [١] بتصرف.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنِ الْمَلَأَمِ بِالْبَصْرَةِ

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى عدّه أمور:

١ - فتنه صاحب الزنج وهم جماعه من العبيد بزعامه فرد أسمى نفسه على بن محمد العلوى وقد قاموا في زمان خلافه المهتدى العباسى، وقد سفكوا الكثير من الدماء.

٢ - إشاره إلى فتنه أخرى فسرها شراح نهج البلاغه بفتنه المغول والعجيب أنه أشار إلى أغلب صفاتهم هنا وفي القسم السابق.

٣ - بيان الإمام عليه السلام بشأن الغيب بعد أن سأله أحد الحاضرين إنك تعلم الغيب فتخبر عن المستقبل، كما أشار إلى الفرق بين العلم الذاتى والعلم الإكتسابى، وهو فى الحقيقه تفسير للآيات القرآنيه التى تنفى بعضها عن العباد علم الغيب بينما يثبتها البعض الآخر.

أمّا المرحوم ابن ميثم فقد إختتم الخطبه فى شرحه لنهج البلاغه بهذه العبارة «وناظرها

ص: ٢٢٣

١ - ١) سند الخطبه: جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ هذا الكلام جزء من خطبه طويله لإمام عليه السلام فى البصره بعد موقعه الجمل، وقد نقل المرحوم ابن ميثم البحرانى فى شرح نهج البلاغه أجزاء منها، والمخاطب هو الأحنف بن قيس من أشرف قومه والمعروف بحكمته وسابقته، وترتبط هذه الخطبه بالخطبه رقم ١١٠ التى شرحت سابقاً (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٨٨). [١]

بعينها» واعتبر بقيه الخطبه، خطبه أخرى، وهذا ما نهجه أيضاً المرحوم الخوئي وابن أبي الحديد، فقد قسموا الخطبه إلى قسمين واعتبروا كل قسم خطبه منفصله، بينما اعتبرهما المرحوم مغنيه في شرحه كصباحي الصالح خطبه واحده.

ص: ٢٢٤

«يَا أٰخَنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَد سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ عُبَارٌ وَلَا لَجْبٌ، وَلَا قَعْقَعَهُ لُجْمٌ، وَلَا حَمْحَمَهُ خَيْلٌ. يُشِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ. (قَالَ الشَّرِيفُ: يُومئُ بِذَلِكَ إِلَى صَاحِبِ الزَّنْجِ) ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيَلُّ لِسَتِكَ كِكُكُمْ الْعَامِرَهُ، وَالذُّورِ الْمَزْخَرَفَهُ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمٌ كَخَرَاطِيمِ الْفَيْلَةِ، مِنْ أَوْلِيَّتِكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَاتِبُ الدُّنْيَا لَوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاطِرُهَا بِعَيْنِهَا» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام باديء الأمر الأحنف بن قيس (١) وهو من أشرف قبيلته، فقال: «يَا أٰخَنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَد سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ عُبَارٌ وَلَا لَجْبٌ (٢)، وَلَا قَعْقَعَهُ لُجْمٌ (٣)، وَلَا حَمْحَمَهُ خَيْلٌ (٤). يُشِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ (٥)» .

ص: ٢٢٥

١- ١) المراد بالأحنف بن قيس من أشرف البصره وأحد صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وورد في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سأل الله له المغفره، فكان يثق بدعائه رغم أنّه رجل شريف وكريم، كما وجهه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى البصره لنشر الإسلام، شهد صفين في عسكر أمير المؤمنين على عليه السلام ولم يشهد الجمل بوصيته منه عليه السلام حيث قال: إن لم أشهد المعركه فلي أن أمنع عنك سته آلاف سيف فوافقه عليه السلام. سفينه البحار ماده حنف وأسد الغابه

١/٥٥، وشرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢/٢٤٩. [١]

٢- ٢) «لجب»: بمعنى الصياح وتطلق أحياناً على أصوات الخيل والمقاتلين.

٣- ٣) «قعقعه»: الصوت الذي ينبعث من احتكاك الأشياء اليابسه كالجام الذي ورد في الخطبه.

٤- ٤) «حمحمه»: بمعنى صوت الفرس التي لا تبلغ الصهيل المرتفع.

٥- ٥) «نعام»: حويان المعروف.

والإمام عليه السلام لم يذكر إسمًا لزعيم الجيش، إلّا أن القرائن الواردة في هذه العبارات وما بعدها تشير إلى أنّ المراد به صاحب الزنج الذى قام فى البصره عام ٢٥٥ هـ ق وجمع حوله العبيد وقد خلق هناك فتنه عظيمه سنعرض لتفاصيلها فى البحث القادم إن شاء الله.

والعبارة: «لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ» والعبارات القادمه تدلّ صراحه على أنّ جيش صاحب الزنج كان من المشاه، حيث لم يكن لهم من خيول ليركبوها، طائفه من العراه المستضعفين الذين ساءت أحوالهم فقاموا على الأسياد فارتكبوا الجرائم الفضيعة، والعبارة يثيرون الأرض بأقدامهم تدلّ على أنّهم كانوا حفاه وقد اتسعت أرجلهم بسبب المشى حفاه طيله أعمارهم لتصبح كرجل الناقه، مع ذلك كانوا مخفين فى السير والحركه، وحين وصل هنا المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه قال: (قَالَ الشَّرِيفُ: يُومئُ بذلك إلى صاحب الزنج).

ثم قال عليه السلام: «وَيُؤَلِّ لِسِيَّتِكُمْ الْعِمَارَةَ، وَالذُّورِ الْمُرْخَرَفَةَ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمٌ كَخَرَاطِيمِ الْفِيلَةِ، مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ» .

والذى يستفاد من هذه العبارة أنّ البصره كانت عامره (وإن عاش العبيد منتهى الشقاء والعسر) فقد كانت بيوتهم كالقصور مزوده بالشرفات والظلال الجميله وخراطيم المياه التى تزيدها روعه وجمالاً وكما سيأتى فإنّ كل ذلك قد تحطم إثر قيام صاحب الزنج وقد ضرج أصحاب القصور بدمائهم، والعبارة «لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ» .

تشير إلى أنّ العبيد لم يكونوا ذوى زوجات وأولاد، بل كانوا عزّاباً فلا ناديه لهم من الأقرباء ليبحثوا عنهم ويفقدونهم ويبكون عليهم، وهذه هى صفات العبيد فى ذلك الزمان حيث كانوا يجلبون إلى البلاد الإسلاميه وغير الإسلاميه بالقهر والغلبه من البلدان البعيده خاصّه أفريقيا، وخلافاً للتعاليم الإسلاميه فقد كانوا يعاملون كالحوانات، فكان قيام صالحب الزنج ردّ فعل تجاه المعامله غير الإسلاميه والإنسانيه، ثم قال آخر كلامه: «أَنَا كَابٌ (١) الدُّنْيَا لَوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاطِرُهَا بِعَيْنِهَا» .

فهذه العبارات الثلاث إشاره إلى تفاهه متاع الدنيا لدى الإمام عليه السلام وكأنّ الدنيا موجود

ص: ٢٢٤

(١- ١) «كاب»: من ماده «كب» على وزن خط تعنى فى الأصل طرح الشىء على وجهه فى الأرض.

حتى شريراً لا يقيمه له وقد كبه الإمام عليه السلام على وجهه وهو ينظر إليه بحقاره، وتشبه هذه العبارة ما ورد عن الإمام عليه السلام في قصار كلماته حيث قال: «يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيْكَ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضْتَ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتَ؟ لَأَحَانَ حِينُكَ، هَيْهَاتَ! غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ، قَدْ طَلَّقْتُكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا!» (١).

ولعل شقاء أهل الدنيا المتكالبين عليها إنما يعود إلى تقييمهم الباطل للدنيا فهم يرونها بعين أخرى فيعظمونها ويركعون لها ويضحون بالغالي والنفيس من أجلها، أما ما هو الارتباط بين هذه العبارة والعبارات السابقة بشأن أخطار صاحب الزنج، فيبدو أنّ شراح نهج البلاغة لم يخوضوا في توضيح هذا الأمر، وربّما كان الارتباط من خلال ذلك الظرف العصيب الذي أصاب أهل البصرة بسبب حبّ الدنيا، فقد شيّدوا القصور واهتموا بالدور وعاشوا الاسراف والتبذير في حياتهم، في حين عانى غالبية العبيد في مدنهم ومزارعهم الأمرين فسامهم الزوج أنواع العذاب.

تأمل: قيام صاحب الزنج

ظهر في البصرة عام ٢٥٥ هـ ق على عهد الخليفة العباسي المهتدي رجل زعم أنّه على بن محمد ونسب نفسه إلى الإمام زين العابدين وزيد بن علي عليهما السلام وقد دعى العبيد للقيام ضد مالكيهم ولتبوا دعوته مسرعين بسبب صعوبه معيشتهم في الدور والمزارع في خدمه السلاطين فاجتمع له مائه نفر وألف نفر، وقد وعدهم بعقوبتهم وتسليمهم أموال مالكيهم ومزارعهم، وكانت الطبقيه شديده في ذلك الزمان، فالبعض مرفه في القصور كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذه الخطبه، والبعض الآخر يعيش الحياه الصعبه، لذلك إلتحق به جماعه من غير العبيد أيضاً، فاجتمع له جيش عظيم، لقد أشعل في قلوب العبيد والمحرومين نار

ص: ٢٢٧

(١-١) نهج البلاغه، [١] الكلمات القصار، الكلمه ٧٧.

الإنتقام حتى أمر غلمانه بعد غلبته للأثرياء بأن يضرب كل رجل منهم خمسمائه شطبه وسبى نساءهم وكان يبيع كل واحده منهم بدرهمين أو ثلاث وملكهن العبيد.

قال المؤرخ المشهور المسعودى فى «مروج الذهب» أنّ صاحب الزنج قتل النساء والأطفال والشيخ الفانى والمريض وكان يحرق أموالهم وأدواتهم ويخرب بيوتهم، وقد قتل فى البصره ثلاثمائة ألف، ومن فرّ إلى الصحراء ونجى من القتل كان يأكل الكلاب والقطط والفئران، وأحياناً يأكلون الأموات، إستولى على قسم عظيم من العراق وإيران ودام حكمه مدّه تزيد على أربع عشره سنه (وهذا يدلّ على أنّ حركته لم تكن عابره بل كانت متجذره فى أعماق ذلك المجتمع).

وقد أو شكك صاحب الزنج أن يسقط الدوله العباسيه، فهب له أبو أحمد الملقب بالموفق وهو أخو الخليفه العباسى فقاتله بجيش كبير حتى تمكن من قتله فى شهر صفر عام ٢٧٠ هـ وفرق جيشه بعد معركة دمويه طويله، لقد ألفت عدّه كتب بشأن قيام صاحب الزنج فهو ليس بالأمر الهين الذى يمكن المرور عليه بسهولة، وذلك لأنّ جمع جيش يقارب عدده ثمانمائه ألف أو ثلاثمائه ألف آنذاك ليست بالشىء البسط وكذلك تلك المدّه من الحكم والتي تعتبر طويله نسبياً، وكل ذلك يشير إلى رسوخ ذلك القيام بفعل الاضطراب وغياب العدل والذى ساد آنذاك، وإن قاد هذا القيام إلى الكثير من المظالم والجنايات.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى بعض الأمور:

١ - شبّه بعض الكتّاب قيام صاحب الزنج بثوره العبيد التي حدثت فى ايطاليا عام ٧٣ قبل الميلاد بزعامه اسبارتكوس الذى جمع حول فئه عظيمه من العبيد وقد قاتل الأثرياء والمرفهين وأحرز عدّه انتصارات حتى قتل عام ٧١ قبل الميلاد مع أربعين ألف من العبيد، لكن يبدو أنّ هناك بوناً شاسعاً بين قيامه وقيام صاحب الزنج، فقيام صاحب الزنج كان أوسع وأشمل وقد تمكن من تشكيل الحكومه آخر الأمر والتي حكمت قسماً كبيراً من العراق وايران لمدّه أربع عشره سنه، على كل حال فهو رجل دموى ومجرم رغم إمتلاكه للحجج التي تبدو منطقيه نسبياً من أجل قيامه وثروته.

٢ - كما ذكرنا سابقاً فإنّ صاحب الزنج أسمى نفسه على بن محمد ومن نسل الإمام السجاد عليه السلام، وتلقب بالعلوى، إلّا أنّ ذلك لا حقيقه له، ولم يكن هدفه سوى شرعيه حركته

والاستفاده من مكانه آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، ولذلك ورد عن الإمام الحسن العسكري أن قال: «صاحب الزنج ليس منا أهل البيت» (١)، وكما أوردنا فإن قيام صاحب الزنج كان أواخر عمر الإمام الحسن العسكري عليه السلام وتزامناً مع ولادته المباركة لإمام العصر والزمان المهدي عليه السلام.

٣ - كان ظاهر قيام صاحب الزنج وفتنته الدفاع عن العبيد والمحرومين، لكنّه انحرف عن هذا الهدف وتسبب في دمار عظيم وسفك للدماء، حتى قال المسعودي في «مروج الذهب» (٢) أنه قتل خمسمائة ألف من النساء والأطفال والشيوخ وهذا أقل عدد لقتلهم، وقال بعض المؤرخين أنه دخل البصره بعد عامين فأحرق مسجدها الجامع وكثير من البيوت، وأحرق حتى المواشى وجرت الدماء في أزقه البصره (٣).

٤ - رغم كل نقاط الضعف في صاحب الزنج فقد كانت فيه بعض الجوانب الإيجابية ومنها خطه الجميل وضلوعه بعلم النجوم وقد نقلت عنه بعض الأشعار التي تدلّ على ذوقه الشعري ومن أشعاره: لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورِ بَغْدَا

ومن الشعر المنسوب إليه: وَإِنَّا لَتَصْبِحُ أَسْيَافُنَا

فهذان البيتان يكشفان بوضوح عن روحيته وأهدافه.

ص: ٢٢٩

١-١ (١) بحار الانوار ١٩٧/٦٣. [١]

٢-٢ (٢) مروج الذهب ٤/١٢٠.

٣-٣ (٣) الكنى والألقاب ٢/٤٠٢.

منه فى وصف الأتراك

«كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْمًا «كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ»، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالذِّيَابَ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ. وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَازُ قَتْلِ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمُقْتُولِ، وَيَكُونُ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ!».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبه فى نبوءه عجيبه أخرى طبقها المرحوم السيد الرضى وتقريباً كاهه شراح نهج البلاغه على المغول وحملا-تهم الوحشيه الهدّامه، ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى: القسم الآخر من الخطبه فى وصف الأتراك (المغول).

فقد قال الإمام عليه السلام: «كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْمًا «كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ (١) الْمُطْرَقَةُ (٢)».

وردت المفرده «كأنى» فى عدّه موارد من نبوءات أميرالمؤمنين على عليه السلام، والمفرده أراهم إشاره إلى الشهود الباطنى والبصيره التى كانت ترى الحوادث المستقبلية عبر القرون فيخبر عنها بصوره دقيقه، وتشبيهه وجوههم بالدروع لأنّ وجوههم كانت عريضه وكبيره ووصفها

ص: ٢٣١

١-١) «المجان»: جمع «مجن» ومجنه الترس.

٢-٢) «المطرقه»: من ماده «طرق» على وزن برق بمعنى دق الشىء بالمطرقه أو مطلق الدق، وعليه فالمطرقه الشىء الذى دقّ بالمطرقه.

بالمطرقة يمكن أن يكون إشاره أن أغلب وجوههم كانت تشبه بالضبط موضع المطرقة على صفيحه الترس، ثم قال عليه السلام: «يَلْبَسُونَ السَّرَقَ (١) وَالذَّبِيحَ (٢)، وَيَعْتَقِبُونَ (٣) الْخَيْلَ الْعِتَاقَ (٤)» .

فالعباره تفيد أن هؤلاء وإن كانوا فقراء وجوعى أول أمرهم يرتدون الثياب الخشنه، إلا أنهم حين يستولون على البلدان الغنيه وسيطرون على أموالهم وثرواتهم يتجهون صوب الثياب الفاخره والخيول النفيسه، ويحتمل أن يكون المراد أن لهم رغبه شديده فى القتال، ومن المعروف أن لبس الحرير يمنح الإنسان قوه القلب ويجعله أكثر مقاومه للسيف، كما للخيول الخفيفه دور مهم فى ميدان القتال، وهذا ما يجعلهم يتجهون إلى هذه الأمور.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى أعمالهم وأشار بعبارات قصيره إلى أبعاد ما يرتكبونه من فاجعه فقال: «وَيَكُونُ هُنَاكَ اشْتِخَارًا (٥) قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونُ الْمُفْلِتُ (٦) أَقْلًا مِنَ الْمَأْسُورِ (٧)!». .

فالعبارتان تشيران إلى مدى سعه أبعاد الفاجعه، حيث لا يبقى فى الأرض مكان يسمح لعبور الجرحى، لا بد من وضع أقدامهم على أجساد القتلى، ومن لم يقتل يؤسر، وقليل هم الناجون، وإن أدنى مطالعه فى تاريخ المغول تفيد انطباق جميع هذه الأوصاف عليهم، قال ابن أبى الحديد: واعلم إن هذا الغيب الذى أخبر به على عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً ووقع فى زماننا فقد فعل هؤلاء القوم ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم إلى عصرنا هذا على مثله (٨).

وهنا يبرز هذا السؤال: ماذا كان قصد الإمام عليه السلام بالإخبار عن فتنه صاحب الزنج التى

ص: ٢٣٢

١- ١) «السرقه»: بمعنى الحرير الفاخر أو الحرير الأبيض، وقال أغلب أرباب اللغه أصلها فارسى أخذ من السرّه بمعنى الحسن والخالص.

٢- ٢) «الديباح»: بمعنى القماش الحريرى الملون، كما يستعمل أحياناً بمعنى كل قماش حسن النقش، وأصله فارسى أيضاً.

٣- ٣) «يعتقبون»: من ماده «اعتقاب» يحبسون كرائم الخيل ويمنعونها غيرهم.

٤- ٤) «اعتاق»: جمع «عتيق» بمعنى كل شىء حسن وقيم وتستعمل فى الخيل الأصيله.

٥- ٥) «استحرار»: من ماده «حراره» بمعنى الشده والحدّه.

٦- ٦) «المفلت»: من ماده «فلت» على وزن فرد بمعنى الهروب والفرار وتطلق مفرده المفلت على من ينجو من الشده.

٧- ٧) «المأسور»: بمعنى الأسير.

٨- ٨) شرح نهج البلاغه ابن أبى الحديد ٨/٢١٨. [١]

وقعت بعد مئتي سنة وفتنه المغول التي وقعت بعد ستمائه سنة؟ ربّما أراد الإمام عليه السلام أن يذكرهم بأن أعمالكم الطالحة هذه والتي تأتون بها في هذا العصر وقد وليتم ظهوركم للحق وأقبلتم على الباطل وضربتم أحكام الإسلام ووقعتم أسرى هوى أنفسكم، فإن تواصلت هذه الأعمال في أجيالكم القادمة ستشهدون عواقب وخيمة وسيطالكم العقاب الإلهي، كما يحتمل أن يكون الإمام عليه السلام أراد تحذيرهم من البلاء العظيم الذي ينتظرهم، عليكم أن تتحدوا وتركزوا قوتكم لتمكنوا من التقليل من آثاره المخربه.

فتنه المغول

المغول فرع من الترك الذين عاشوا في آسيا المركزيه والشرقيه في حدود الصين وهم طوائف مختلفه، طائفه منهم التاتار، وكانوا يأترون عادة بأوامر سلاطين الصين، وكان والد جنكيز أول من نهض من هذه الطائفه وإدعى الاستقلال، وحين خلف جنكيز أباه ٦٠٠ هـ سعى للسيطره على الأقوام المختلفه لتلك المنطقه حيث أراد الرئاسه العامه لنفسه واستولى على قسم واسع من الصين وسيطر على عاصمتها بكين.

أمّا السلطان محمود خوارزم شاه الذي كان يحكم أكثر الشرط الأوسط وآسيا المركزيه، فقد عقد الهدنه باديء الأمر مع جنكيز، ولكن لم تمض مدّه حتى نشبت بينهما عداوه فقتل رسل جنكيز، فما كان من جنكيز وبدافع الانتقام إلّا أن هجم على ايران وسائر المناطق الخاضعه لنفوذ خوارزمشاه.

أمّا ابن أبي الحديد الذي عاش في ذلك الزمان وقد شهد تلك الأحداث حسب قوله كما سمع بعضها الآخر، فقد أفرد ٢٥ صفحه في شرحه لنهج البلاغه وتطرق فيها بالتفصيل إلى حمله المغول على المناطق الإسلاميه وقال: واعلم أنّ هذا الغيب الذي أخبر به الإمام عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً، ووقع في زماننا، وإليك الآن جانب ممّا أورده ابن أبي الحديد بهذا الشأن:

هم التاتار الذين خرجوا من أقاصى المشرق حتى وردت خيلهم العراق والشام، وقد فعلوا بالقوقاز وبلاد ما رواء النهر وبخراسان وما والاها من بلاد ما لم تحنو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا على مثله، رئيسهم هو جنكيز الذي كان شجاعاً عاقلاً

موفقاً منصوراً في الحرب، كما كان عسكريه من الأفراد الشجعان وكانوا يعيشون بصوره شبه وحشيه وأنهم من أصبر الناس على القتال، لا يعرفون الفرار ويعلمون ما يحتاجون إلى من السلاح بأيديهم، وأن خيلهم لا تحتاج إلى الشعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعي، وأنّ عندهم من الخيل والبقر ما لا يحصى، وأنهم يأكلون الميتة والكلاب والخنزير وهم أصبر خلق الله سبحانه على الجوع والعطش والشقاء، وثيابهم أخشن الثياب مساً، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والدواب والميتة، وأنهم أشبه شيء بالوحش والسباع، كانوا يقتلون كل من يرونه من الرجال ويغنمون الأموال ويحرقون المدن ويسبون النساء الأطفال، لقد دخلوا من شرق ايران وأشاعوا الخوف والرعب بحيث لم يفكر أحد في مواجهتهم، ومن قاومهم استسلم أخيراً لهم، وأحياناً كانت تفتح لهم أبواب المدن بعد أن يعطيهم التاتار الأمان حين يطلبونه، ولكنهم كانوا ينقضون عهدهم ويقتلون أهالي المدن ويسبون النساء والأطفال ويعذبون الناس بأنواع العذاب في طلب المال. . ومن العجيب في هذ الأحداث أنّهم وصلوا إلى إصفهان بعد أن سيطروا على المدن الإيرانيه، فحصلت بين الفريقين مقتله عظيمه، ولم يبلغوا منها غرضاً حتى اختلف أهل إصفهان في سنه ثلاث وثلاثين وستمائه وهم طائفتان: حنفيه وشافعيه، وبينهم حروب متصله وعصبيه ظاهره، فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلى ما يجاروهم ويتأخموهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتى نسلمه إليكم، وفتحت أبواب المدينه فلما دخلوا البلد بدؤا بالشافعيه فقتلوهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفيه، ثم قتلوا سائر الناس وسبوا النساء وشقوا بطون الحبالى ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا إصفهان حتى صارت تلوّاً من الرماد.

ثم ساروا إلى بلاد العرب فهجموا على بغداد فتصدى لهم عسكر بغداد وثبت أحسن ثبوت ورشقوهم بالسهم، وبعد مدّه توفى جنكيز وخلفه حفيده هولوكو الذى تمكن من السيطرة على بغداد بعد أن قتل آخر خلفاء العباسيين المستعصم بالله وقد أنهى حكومتهم بذلك.

وبقى المغول في إيران والبلدان الإسلاميه وقد فقدوا ما طبعوا عليه من وحشيه بالتدريج وتأثروا بالثقافه الإسلاميه، وأسلم هولوكو حتى تشيع السلطان محمد خدابنده أحد سلاطين المغول (١).

ص: ٢٣٤

«فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ! فَضَحِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيًّا: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمٍ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ. وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عِدَّدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ يُنَزَّلُ الْغَيْبُ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. . .) الْآيَةَ، فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى، وَقَيْحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَّةِ النَّبِيْنَ مُرَافِقًا. فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَمَّا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعْينَهُ صَدْرِي، وَتَضَطَّمَ عَلَيْهِ جَوَانِحِي» .

الشرح والتفسير

حين خاض الإمام عليه السلام في تلك الحادتين المهمتين (قيام صاحب الزنج وفتنه المغول) وذكر خصوصياتهما «فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ!» .

فالعباره وإن كانت على سبيل الإخبار، لكنّها في الواقع استفهاميه، لأنّه سمع أن علم الغيب مختص بالله سبحانه، ولذلك طلب توضيح الإمام عليه السلام: «فَضَحِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيًّا: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمٍ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ» .

قطعاً أنّ ضحك الإمام عليه السلام لم يكن بدافع السخرية ولم يفرزه الغرور، بل كان ضحك الفرح

والسرور، ولعل مرد ذلك إلى حسن الأمر في طرح ذلك السؤال من الرجل الكلبى ليكشف الإمام عليه السلام عن كنه ذلك الموضوع أمام الجميع. . أو أنّ ضحكته كان من تعجبه في أنّه لا ينبغي أن يكون مثل هذا الأمر يخفى على أحد، على كل حال فإنّ عبارته الإمام عليه السلام تشير إلى حقيقته في أنّ ذلك العلم مختص بالله وهو علم ذاتي، والعلم الممكن لما سوى الله، فهو العلم الحاصل من التعلم والذي له بُعد إكتسابي، يعنى يتعلّمه الإمام عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله والنبي عن طريق الوحي الإلهي (سيأتي شرح هذا المطلب).

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَأَيْمًا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَيَّدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْبَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. . .» (١).

ثم أوضح معنى ذلك قائلا: «فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَيِّئٍ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا» .

فخلص عليه السلام إلى نتيجة نهائية مؤداها: «فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَمَّا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ (٢) صَدْرِي، وَتَضَطَّم (٣) عَلَيْهِ جَوَانِحِي (٤)» .

فالذي يستفاد من مجموع هذه العبارات:

أولاً: أنّ علم الغيب علم ذاتي مختص بالله سبحانه وتعالى، لكن العلم الإكتسابي والإعطائي لا يسمى بعلم الغيب، بل هو ذلك العلم الذي علّمه الله سبحانه نبيّه وعلمه النبي من يراه مستعداً لذلك العلم.

ثانياً: لهذه العلوم التعليميه استثناءات وردت خمسه منها في الآيه الشريفه الأخيره من

ص: ٢٣٦

١- ١) سورة لقمان / ٣٤. [١]

٢- ٢) «يعي»: من ماده «وعى» على وزن سعى بمعنى حفظ الشيء في القلب، أو بعباره أخرى التعلم والايدياع في الحافظه.

٣- ٣) «تضطم»: من ماده «ضم» بمعنى جمع الشيء.

٤- ٤) «جوانح»: جمع «جانحه» الأضلاع تحت الترائب ممّا يلي الصدر.

سوره لقمان، وهذه مصاديق علم الغيب التي لم يعلمها الله سبحانه أحداً من الخلق.

وهنا لابد من طرح هذه الأسئلة

١ - كيف يستفاد من الآيه الشريفه أنّ هذه العلوم الخمسه مختصه بالله سبحانه؟

٢ - كيف تختص هذه العلوم بالله والحال أخير النبي صلى الله عليه وآله والأئمه عليهم السلام أحياناً عن نزول الأمطار والأطفال في الأرحام أو الزمان والمكان الذي يتوفون فيه، بل أحياناً أخرى كانوا يخبرون عن العلوم المعاصره فمثلاً متى وأين سينزل المطر، وذلك الجنين ولد أم بنت؟

٣ - ما الفارق بين هذه العلوم الخمسه وسائر الأمور الخفيه التي لا يعلمها غير الله سبحانه؟

ويقال في الإجابة على السؤال الأول: العبارة الأولى بشأن القيامة قد بيّنت بوضوح إختصاص علمها بالله سبحانه، وتقديم عنده على علم الساعه دلالة على الحصر، يعنى العلم بالقيامة مختص فقط بالذات الله المقدس، كما تدلّ العبارة والرابعة والخامسه على الحصر أيضاً حيث قالت: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...» .

وبناءً على ما تقدم فإنّ المورد الثاني والثالث بمقتضى وحده السياق جزء من العلوم المختصه بالله سبحانه، والروايات المتعدده الوارده عن أئمة العصمه عليهم السلام في تفسير الآيه شاهد آخر على هذا المعنى (١).

ويقال في الردّ على السؤال الثاني: أنّ الالتفات إلى هذه النقطة ضروره، وهى أنّ العلم بهذه الأمور الخمسه بصوره تفصيليه مختص بالله سبحانه، وإن أمكن حصول العلم الإجمالى للمعصومين أو بعض أولياء الله سبحانه، مثلاً يمكن أن يعلم المعصوم أنّ المطر ينزل غداً، أو الشخص الفلانى يموت فى الأرض الفلانيه، أما العلم بجزئيات هذا الأمر من قبيل العلم بلحظه الشروع وحباب المطر التي تنزل فى المكان، وكذلك العلم بلحظه الموت والبقعه التي يموت فيها والحالات الناشئه من سكرات الموت وما إلى ذلك فى أمور فهو مختص بالذات الإلهيه المقدسه،

ص: ٢٣٧

(١ - ١) تفسير نور الثقلين، ووردت أحاديث سبعة أقلّاً فى هذا المضممار فى ذيل الآيه الشريفه.

والشاهد على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام بشأن الجنين في رحم أمه فقال: «فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَيِّئٍ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا»، وسائر الأمور التي يقتصر علمها على الله تبارك وتعالى، وبناءً أهلى هذا فما يعلمه الناس من حالات في بعض الأدوار الجنينية من خلال تعلم الغيب أو المختبرات المتداوله في الوقت المعاصر، فهو من قبيل العلم الجزئي، والحال يختص العلم الكلي بالله سبحانه.

وأمّا الإجابة على السؤال الثالث: فلا بدّ من الإذعان بأننا لا نرى من فارق بين الموارد الأربعة الأخرى غير القيامه وسائر الأمور الخفيه، سوى أنّ الآيه المذكوره وروايات المعصومين عليهم السلام تفرّق هذه الأمور مع سائر الأمور الخفيه وتقول بأنّ العلم التفصيلي فيها مختص بالذات الإلهية، ولكن في الموارد الأخرى كالذي ورد في هذه الخطبه بشأن فتنه صاحب الزنج وحمله المغول، فممكّن أن يزود الله بعض الخواص من عباده بعلمها الإجمالي والتفصيلي، وعلى كل حال فاننا تبع للنصوص القرآنيه وروايات المعصومين المعتمره.

علم الغيب في الآيات والروايات

اختلف العلماء في قضيه علم الغيب وهل هناك من يعلم الغيب سوى الله سبحانه أم لا؟ ويبدو اختلافهم يعود إلى اختلاف ظواهر آيات القرآن والروايات الإسلاميه، فبعض الآيات القرآنيه صرّحت علانيه قائله أنّ علم الغيب مختص بالله تبارك وتعالى، مثل الآيه ٦٥ من سوره النمل: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ. . .» .

وصرحت في الآيه ٥٩ من سوره الأنعام قائله: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ. . .» ، في حين يستفاد من البعض الآخر من الآيات أنّ جانباً من علم الغيب على الأقل قد زود به بعض أولياء الله تعالى، كما في الآيه ٤٩ من سوره آل عمران بشأن السيد المسيح عليه السلام: «ءَأُتْبِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ. . .» ، والآيه ٢٦ و ٢٧ من سوره الجن: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ. . .» .

ونرى نفس هذا التفاوت في الروايات، فمثلاً جاء في الحديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام ورد مجلساً غاضباً وكان فيه أبو بصير وبعض أصحابه، فلما جلس قال: «يَا عَجَباً لَأَقْوَامٍ يَزْعُمُونَ أَنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبَ مَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (١).

بينما يستفاد من عدّه روايات علم الأئمة المعصومين عليهم السلام بأغلب الأمور الخفيه كالذى ورد في هذه الخطبه بشأن فتنه صاحب الزنج والمغول، أو سائر خطب نهج البلاغه بخصوص الأمور المستقبلية، ومما لا شك فيه أنّه ليس هناك من تضارب بين الآيات المذكوره وأمثالها ولا بين الروايات السابقه (والروايات الأخرى التى وردت بهذا المضمون) وقد ذكر المحققون عدّه آراء من أجل الجمع بين هذه الآيات والروايات، منها:

١ - المراد بعلم الغيب الذى اختصته الآيات والروايات بالله تبارك وتعالى هو العلم الذاتى، وما يعلمه الأنبياء والأولياء هو العلم التعليمى من جانب الله سبحانه (وهو ما ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه).

٢ - أسرار الغيب على قسمين: قسم يختص بالله تعالى ولا يعلمه أحد إلّا هو كزمان الساعه والأمور الأخرى التى وردت فى الآيه ٢٤ من سوره لقمان، وقد أشارت الخطبه إلى هذا الوجه فى الجمع وقد تقدم شرح ذلك.

٣ - علم الله سبحانه بأسرار الغيب بالفعل يعنى يعلم كل شىء فى كل زمان، أمّا علم أولياء الله سبحانه، فليس بفعلى بل حينى، أى إن أرادوا أن يعلموا شيئاً وتتحقق هذه الإراده باذن الله تعالى ورضاه، ومن هنا نقرأ فى سوره يوسف أنّ يعقوب لم يكن يعلم مصير ولده فى صحراء كنعان، والحال علم بعد سنوات بمصيره فى مصر، فقد وجد ريح يوسف من مصر بينما لم يجده فى بئر كنعانه، فلم يكن مأذوناً فى المورد الأول لأن يريد فيعلم، بينما أذن له فى المورد الثانى.

٤ - الطريق الآخر للجمع بين الآيات والروايات المختلفه فى أنّ أسرار الغيب مثبتة فى موضعين، اللوح المحفوظ والذى لا يحدث فيه أدنى تغيير ولا- يعلمه إلّا تعالى، واللوح المحو والإثبات وهو فى الواقع علم بالمقتضيات لا علم بالعله التامه، ومن هنا فهو قابل للتغيير، وما

ص: ٢٣٩

(١-١) اصول الكافى ١/٢٥٧، ح ٣ [١] من باب «نادر فيه ذكر الغيب».

يعلمه أولياء الله إنما يرتبط بهذا القسم.

ومن أراد المزيد من الشرح لكل من الطرق الأربعة المذكوره، فليراجع المجلد ١٩، من تفسير الأمثل في تفسير سورة الجن.

ص: ٢٤٠

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فى ذكر المكاييل والموازين (٢)

نظره إلى الخطبه

خاض الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه بوعظ المسلمين فأورد عدّه نصائح شافيه وكافيه، الأولى وتحدث فيها عن قصر عمر الدنيا وأنّ الناس فيها كالضيوف وستنتهى بسرعه هذه الضيافه، بينما تبقى تبعات أعمال الإنسان حين الحساب والجزاء، ثم تحدث فى الثانيه عن سعه الفساد فى ذلك العصر شاكياً منه، وأشار فى الثالثه إلى الأخيار والصلحاء والأتقياء والسّمحاء ليحذر من خلال المقارنه بضروره إصلاح النفس وإجتثاث الفساد من المجتمع وأخيراً إختتم الخطبه بدم المرأين الذين يأمرّون بالمعروف وليسوا من أهله، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه.

ص: ٢٤١

١-١) سند الخطبه: ورد فى مصادر نهج البلاغه أنّ هذه الخطبه وإن كانت فى رعايه العدل فى الكيل والميزان، لكن لا يرى مطلب بهذا الخصوص فى هذه الخطبه سوى إشاره قال فيها الإمام عليه السلام: «اين المتورعون فى مكاسبهم»، وهذا يدلّ على أنّها جزء من خطبه طويله أشارت إلى هذه المسأله المهمه، إلّا أنّ المرحوم السيد الرضى كعادته يختار منها ويترك بقيتها، رواها الزمخشري فى «ربيع الأبرار»، كما ورد قسم منها فى «غرر الحكم» (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٩٠).

٢-٢) مكاييل جمع مكيال، والموازين جمع الميزان.

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ - وَمَا تَأْمَلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا - أَثَوِيَاءُ مُوَجَّلُونَ، وَمَيَدِينُونَ مُقْتَضُونَ: أَجَلٌ مُنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ ذَائِبٍ مُضَيِّعٍ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٍ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنِ لَأَيِّزِ دَادِ الْخَيْرِ فِيهِ إِلَّا إِذْبَارًا، وَلَا الشَّرِّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالًا، وَلَا الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعًا. فَهَذَا أَوْ أَنْ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمَكَنْتْ فَرِيَسَتُهُ. إِضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتُمْ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ [تنظر] إِلَّا فَقِيرًا يُكَابِدُ فَقْرًا، أَوْ غَيِّيًا يَدُلُّ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، أَوْ بِخِيَلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَقْرًا، أَوْ مُتَمَرِّدًا كَأَنَّ بَأْذَنِهِ عَنِ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْرًا!». .

الشرح والتفسير

كما ورد في سند الخطبه وخلافاً لما جاء في عنوان هذه الخطبه فاننا لا نشاهد في متنها ما يشير إلى رعايه العدل في الكيل والوزن، ولعل ذلك يعود إلى أحد سببين: إما أنّ المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه قد حذف بعض جوانب الخطبه المتعلقة بالكيل والوزن حسب طريقته في اختيار الأوضح، أو ليس هنالك من حذف في الخطبه إلّا أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبه في ظروف حين اتسع الفساد في الكيل والوزن والتطيف في السبع وظلم الناس وساد ذلك في المجتمع، وبالنظر إلى ذلك أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه ليحذر المردده، بعبارة أخرى فإنّ شأن وورد الخطبه قضيه الكيل والميزان وإن لم يذكر ذلك صريحاً في متنها، إلّا أنّه ذكر من خلال الدلاله الالتزاميه، على كل حال خاطب الإمام عليه السلام عامه الناس وقد حذرهم من تقلب الدنيا

وفساد المجتمع فقال: «عِيَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ - وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا - أَثَوِيَاءُ (١) مُؤَجَّلُونَ، وَمَا يَدِينُونَ مُقْتَضُونَ: أَحِلُّ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ» .

فقد شبه الإمام عليه السلام وضع أهل الدنيا بهذه العبارة بالضيوف الذين دعوا لمدته معينه في ضيافته، وبالأفراد المدنيين الذين لا يتركهم دائنهم، فمن الطبيعي ألا يرى الضيف دار المضيف محطته الأبدية، فهم لا يتعلق بها أبداً ولا يثق بها ولا يحرص عليها، وليس الشخص المدنيين الذي يتابع دائماً من قبل الدائن من سبيل سوى منحه كل ما يجد بالتدريج، أملاً بأن يأتي اليوم الذي يكون قد سدد فيه كل دينه، كأن العمر الذي منحنا الله تعالى من ديوننا التي تؤخذ منا كل لحظة، والمشكلة المهمه أن إلى جانب ذلك العمر المتقلب والذي ينقضى بسرعة أعمالنا التي نقوم بها والتي تحفظ ويجب علينا تحمل تبعاتها.

ورى بعض شرّاح نهج البلاغه عن بعض الصلحاء قوله: «مَا أَدْرِي كَيْفَ أَعْجَبُ مِنَ الدُّنْيَا! أَمِنْ حُسْنِ مَنْظَرِهَا وَقُبْحِ مَخْبَرِهَا أَمْ مِنْ دَمِّ النَّاسِ لَهَا وَتَنَاخُرِهِمْ عَلَيْهَا» (٢).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فَرُبَّ دَائِبٍ (٣) مُضَيِّعٍ، وَرُبَّ كَادِحٍ (٤) خَاسِرٍ» .

صحيح أن السعى والجهد رمز الموفقيه والنجاح، إلّا أنّ هذا ليس قانوناً كلياً، فهناك الأفراد الذين أفنوا عمرهم في السعى والجد وأجهدوا أنفسهم ليل نهار ولم يظفروا بشيء، وهذا أحد إبطات الإنسان في الحياه الدنيا، ولعل العبارة إشاره إلى السعى المتعلق بالأمور الماديه أو المعنويه، لأنهم كثيرون هو الأفراد الذين أجهدوا أنفسهم من أجل الوصول إلى المقامات المعنويه والنجاه الأخرويه، ولكن تسللت إليهم أهواء النفس ووساوس الشيطان في اللحظات الحساسه فاشتعلت النيران في مزارع طاعتهم وأحرقت كل شيء، ثم أشار إلى الأوضاع المزريه لزمانهم وإقبال الناس على المساويه وفرارهم من الصالحات فقال: «وَقَدْ

ص: ٢٤٤

١-١) «أثوياء»: جمع «ثوى» على وزن قوى بمعنى الضيف وفي الأصل من ماده «ثواء» بمعنى الإقامه في مكان.

٢-٢) شرح نهج البلاغه ابن أبي الحديد ٨/٢٤٧. [١]

٣-٣) «دائب»: من ماده «دؤوب» على وزن غروب المداوم في العمل.

٤-٤) «كادح»: من ماده «كدح» على وزن مدح الساعى بجهد ومشقه في القيام بعمل.

أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنِ لَمَّا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلَّا- إِذْيَارًا، وَلَمَّا الشَّرُّ فِيهِ إِلَّا- إِقْبَالَ، وَلَا الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعًا. فَهَذَا أَوْ أَنَّ قَوِيَّتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمَكَّتْ فَرِيستُهُ (١) .

فهذه العبارات الصريحة والواضحة تشير إلى مدى سقوط الوضع الأخلاقي للمسلمين في ذلك العصر والزمان بفعل الحكومات المستبده، ومدى الوسط المضحك الذي واجهه الإمام عليه السلام في عهده، نعم إن فسد مسؤولوا البلاد ومن كان على رأس الحكومة فإن الفساد يشمل كل شيء «الناس على دين ملوكهم» .

فما الذي يمكن توقعه من الناس إن وزع الخليفة أموال بيت المال المسلمين على بطانته، وولى قرابته الطالحة ونصبهم في المواقع الحساسة، وتعاطى عامله الشراب علانيه ليدخل المحراب فيصلى بالناس جماعه ثملاً، ويمارس الآخرون الرذيله والأعمال البشعة، أو ليست سلطه الشيطان بالتكالب على الدنيا وإبتاع الأهواء؟

نعم، إن سادت هذه الأمور تيسرت حكمه الشيطان، فقد ورد في الخبر أن ابن عمر وبعض ولد أبي بكر وسعد بن أبي وقاص قصدوا علياً عليه السلام حين خلافته وسأله زياده العطاء من بين المال، فصعد عليه السلام المنبر وخطب الناس قائلاً: « . . . إذا منعتمهم ما كانوا فيه يخوضون وصيرتهم إلى ما يستوجبون فيفقدون ذلك فيسألون ويقولون: ظلمنا ابن أبي طالب وحرمانا ومنعنا حقوقنا - إلى أن قال - أما أني أعلم الذي تريدون ويقيم أودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي . . . » (٢) .

ثم قال: «إضرب بطرفك (٣) حيث شئت من الناس، فهل تبصر» [تنظر] [إلا فقيراً يكابد (٤) فقراً، أو غنياً يدل نعمه الله كُفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً (٥)، أو متمرداً كأن

ص: ٢٤٥

١- (١) «فريسه»: من ماده «فرس» على وزن قرض بمعنى الصيد.

٢- (٢) اصول الكافي ٨/٥٥١.

٣- (٣) «طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حركة جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأن الأجفان تتحرك حين النظر.

٤- (٤) «يكابد»: من ماده «كبد» بمعنى تحمل المشقه وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة، كما وردت بمعنى الجعل في المشقه.

٥- (٥) «الوفر»: بمعنى الوفير والكثير.

بَأذُنِهِ عَنِ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقَرَأَ (١)!». .

فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة والرائعة على أربع فئات محرومه أو منحرفه تشكل أساس فساد المجتمع وإنهياره:

الأولى: الفقراء الذين يقعون أسرى الفقر، وهو الفقر الذى عبرت عنه الروايات بالقول: «كَأَدَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا». . الثانية: الأغنياء الذين غرقوا فى النعم والملذات والشهوات حتى نسوا كل شىء وهووا فى الكفر.

الثالثة: البخلاء الذين تصوروا أن البخل سبب زيادة الثروه.

الرابعة: المتمردون الذين عاشوا الغرور ولم تعد آذانهم تسمع كلام الحق.

فعبارة الإمام عليه السلام التى قال فيها: «إِضْرِبْ بِطَرْفِكَ (٢) حَيْثُ شِئْتَ. . .» فلا تبصر أحداً سوى هذه الفئات الأربع دليل على أن الفقر والفساد أصبح على درجه من الشموليه بحيث ظهرت آثارهما فى كل مكان، والدليل على تلك السعه والشموليه ما أشير إليه فى العبارة المذكوره.

ص: ٢٤٦

١- ١) «الوقر»: بمعنى الثقل.

٢- ٢) «طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حرکه جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأنَّ الأَجْفَانَ تتحرك حين النظر.

«أَيْنَ أَخْيَارِكُمْ وَصِيْلِحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارِكُمْ وَسِيْمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ طَعَنُوا جَمِيعاً عَنِ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّيِّيَّةِ، وَالْعِجَالِهِ الْمُنْغَصِيَّةِ. وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلَّا فِي حُثَالِهِ لَا تَلْتَقِي بِمَذْمِهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتَضِيَّ غَاراً لَقَدِرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنِ ذِكْرِهِمْ! فَاِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ، (ظَهَرَ الْفَسَادُ) ، فَلَا مُنْكَرَ مُعَيَّرٍ، وَلَا زَاجِرَ مُزْدَجِرٍ. أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهَاتَ! لَا يُخْدَعُ اللَّهُ عَنِ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ! .

الشرح والتفسير

استعمل الإمام عليه السلام عبارات بليغة رائعة في هذا المقطع من الخطبه ليكشف النقاب عن فساد الزمان والتولى عن الصالحات والاقبال على السيئات فقال: «أَيْنَ أَخْيَارِكُمْ وَصِيْلِحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارِكُمْ وَسِيْمَحَاؤُكُمْ! (١) وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ (٢) فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! .

فقد بحث الإمام عليه السلام بهذه العبارات عن سته طوائف في المجتمع ليبدل فقد انها أنذاك على مدى الانحطاط والفساد، والطوائف الست هي: الأخيار، الصالحون، الأحرار، السمحاء،

ص: ٢٤٧

١- ١) «سمحاء»: جمع «سميح» الشخص الرؤوف وصاحب الكرم، وقيل من يبذل حين وفره النعمه وضيقتها.

٢- ٢) «متورع»: من ماده «ورع» بمعنى اجتناب الذنب والشبهه.

المتورعون، والمنتزهون، حقاً إن افتقرت المجتمعات البشرية إلى هذه الطوائف الشريفة والنجيبه فى المجتمع، فليس هناك سوى الفساد والانحراف، والمراد من المتورعين فى مكاسبهم، الأفراد الذين لا يطفون فى البيع ولا يغشون ولا يكذبون ولا يقسمون بالباطل ولا يرابون والذين ينقضون عهودهم وموآثيقهم، فمن يرى المجتمع الصالح العاير بالأخيار والصلحاء والأحرار والسمحاء على أنهم نماذج المجتمع إنما يشعر بالامتعاظ لا سيما إن رأى بدلاً منهم الأشرار والطلحاء والأسرى والبخلاء فلا يمتلك سوى الصراخ: اين أولئك الأعزّه؟ كيف خلى مكانهم؟

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَلَيْسَ قَدْ ظَعُنُوا (١) جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّيَّيَّةِ، وَالْعَاجِلِ الْمُنْغَصِّهِ (٢)» .

فأردفها عليه السلام بالقول: «وَهَلْ خُلِقْتُمْ (٣) إِلَّا- فِى حُثَالِهِ (٤) لَأَتَلْتَقَى بِبَدْمِهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِضِيَّ غَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَ(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)» .

وقد انبثقت هذه الظروف العصيبه والأفراد المنحطين منذ انحراف الخلافة الإسلامية عن محورها الأصلى وقد بلغ الأمر ذروته على عهد عثمان، فقد فوضت المواقع الحساسه من الحكومه الإسلامية إلى أصحاب الدنيا البعيدين عن الورع والتقوى وقد تغلغلوا فى المجتمع الإسلامى بحيث كان من المتعذر تغييرهم ابان حكمه على عليه السلام، كما كان هؤلاء الأفراد هم السبب لكافه المعارك التى حدثت ضد الإمام عليه السلام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الوظيفة التى ينبغى أن يقوم بها أصحابه تجاه تلك الظروف والأوضاع فقال: «ظَهَرَ الْفَسَادُ، فَلَا مُنْكَرَ مُعَيَّرٍ، وَلَا زَاجِرَ مُرْدَجِرٍ. أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِى دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟» .

ص: ٢٤٨

١- (١) «ظعنوا»: من ماده «ظعن» السفر والرحيل.

٢- (٢) «المنغصه»: من ماده «نغص» على وزن نقص الكدر وعدم الصفاء ماء الشرب، ثم اطلقت على كدوره العيش ومنه العيش المنغص.

٣- (٣) وردت هذه المفردة فى أغلب شروح نهج البلاغه خلقتم التى لا- تختلف كثيراً عن «خُلِفْتُمْ» كما لم تذكر إلأى العبارة إلأبذمهم.

٤- (٤) «حثاله»: تعنى فى الأصل راسب الدهن ثم استعملت بشأن الأفراد الأراذل الذين لا شخصيه لهم.

طبعاً إنّ هذا الاستفهام إستفهام استنكاري، والمراد على ضوء هذا الوضع الذي سلكتموه وقد سكتم إزاء الفساد أو أعتتم عليه، فلا- من أمر بمعروف ولا نهى عن منكر، فليس لكم أن تنالوا القرب الإلهي وتكونوا في صفوف أولياء الله، فأكد ذلك بالقول: «هَيْهَاتَ لَا يُخَدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تَنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» .

فأولئك المسلمون ظاهراً ويحسبون في صفوف أهل الإيمان لكنهم راضون بالفساد ساكتون باطناً، لا يقدرّون على خداع الله العالم بأسرارهم وأعمالهم، لعلم يخدعون الآخرين، بل وأنفسهم لمدّه، ولكن أنى لهم ذلك يوم القيامة يوم لا يخفى على الله منهم خافيه، فليس أمامهم سوى الندم.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحْلِي وَلَا بِالتَّمْنَى وَلَكِنِ الْإِيمَانُ مَا خَلَصَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَقَهُ الْأَعْمَالُ» (١).

ثم إختتم الخطبه مشدداً في التأكيد فقال: «لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!» .

صحيح أنّ عمل الإنسان لا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعبارة أخرى فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفتان مستقلتان وإن كان نفس الإنسان تاركاً للمعروف وعاملاً بالمنكر.

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِن لَّمْ تَفْعَلُوهُ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوا كُلَّهُ» (٢).

ولكن أن يأمر الإنسان بالمعروف ولا يأتمر به وينهى عن المنكر ولا ينتهي عنه بحد ذاته نوع من النفاق الواضح، والمنافق يستحق اللعن واللولم والعقاب.

وبعبارة أخرى فإنّ اختلاف الظاهر والباطن الذي يكون سبباً لخداع الناس وروح النفاق من أسوأ الصفات التي يجعل الإنسان يستحق اللعن فيوجب بُعده عن الله ورحمته.

ص: ٢٤٩

١-١ (١) بحار الانوار ٦٢/٦٦، ح ٢٦. [١]

٢-٢ (٢) كنز العمال ٦٦/٣، ح ٥٥٢٢.

من المسائل الغايه فى الصعوبه والمراره فى التاريخ الإسلام هو أنّ علياً عليه السلام بدلاً من أن يأخذ بزمام أمور الأمة الإسلاميه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لينشر الإسلام فى الشرق والغرب ويحفظ مبادئ الإسلاميه، قد تسلم الحكومه الإسلاميه والأمة الإسلاميه عاشت الانحراف عن العداله والزهد بفعل اضطراب عهود الخلفاء ولا سيما عهد عثمان الذى ضاعت فيه القيم الإسلاميه وقد وضعت الأموال والمناصب تحت تصرف حثاله بنى أميه وآل مروان، فهم لا يفكرون إلّا فى المال والثروه والمقام والسيطره على الناس، وقد انتعشت أغلب مثل الجاهليه، فقد قام الإمام عليه السلام فى ظل هذه الظروف العصيبه من أجل إحياء القيم الإسلاميه وسنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وإطفاء فتن الجاهليه، من خلال الحث والتبشير أحياناً والانذار واللوم أحياناً أخرى، ون خلال الاستشهاد بحوادث عصر النبى الأكرم عليه السلام ومقارنتها بالأوضاع السائده، كما يستعين أحياناً بتاريخ سالف الأنبياء والعذاب الذى صبّ على العتاه الذين تمردوا عليهم، وهكذا أخذت تظهر الفضائل الإسلاميه والإنسانيه شيئاً فشيئاً بين أصحاب الإمام عليه السلام حتى استقرت وتبلورت بعد أن رويت شجرتها بدم الإمام عليه السلام، وكادت أن تثمر، ولكن مع الأسف الشديد أنّ تلك الأوجاء تعكرت بفعل فتن الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد بلغت الجريمة بأحدهم لأن ينهال بالسيف على رأس الإمام عليه السلام لتبقى تلك البرامج ناقصه، فتنشط من جديد الشياطين لتعيث فى الأرض الفساد.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لأبي ذرٍّ رحمه الله لما أخرج إلى الربذه

نظره إلى الخطبه

لما إنهال أزالام بنى أميه وبنى مروان على بيت مال المسلمين بتلويح من عثمان فجعلوا ينهاون ما يريدون، واجههم أبو ذر رحمه الله ذلك الصحابي الشجاع والأسوه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فأصبح يشكل خطراً جدياً على منافعهم، فأشاروا على عثمان بنفيه إلى ربذه التى تعتبر أسوأ المناطق مناخاً، أما الإمام عليه السلام فقد أراد أن يثبت عدم شرعيه هذا الحكم الجائر من جهه، وأن يشد من عزيمة أبى ذر من جهه أخرى، فيعينه على تحمل ما يواجهه من صعوبات، ومن هنا شايح أبى ذر وقد واساه بكلمات رائعه وعميقه وأمله بالمستقبل الزاهر الذى ينتظره، كما أضاف ورقه سوداء أخرى إلى سجل بنى أميه ومروان المظلم.

ص: ٢٥١

١ - ١) سند الخطبه: ذكرها المرحوم الكلينى فى كتاب «روضه الكافى» باختلاف طفيف ويستفاد من ذيلها أن ليس على عليه السلام شيعه إلى الربذه فقط، بل شيعه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام وعمار (وعقيل حسب بعض الروايات)، وبعبارات رائعه سيأتى بيانها فى الأبحاث القادمه (الكافى ٨/٢٠٦، ح ٢٥)، قال صاحب مصادر نهج البلاغه بعد الإشاره إلى روايه الكافى نقلها ابن أبى الحديد عن كتاب «السقيفه» لأحمد بن عبدالعزيز الجوهري (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٩١). [١]

«يَا أَيُّهَا ذَرُّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخَفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خَفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَخَوْجُهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَيَتَعَلَّمُ مِنَ الرَّابِحِ غَدًا، وَالْأَكْثَرُ حَسَدًا» [خسيراً]. [. وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَيْنَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتَقًا ثُمَّ اتَّقَى اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجًا! لَا يُؤْنِسُ نِكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ. فَلَوْ قَبِلَتْ دُنْيَاهُمْ لِأَحْبُوكَ، وَلَوْ قَرَضَتْ مِنْهَا لِأَمَّنُوكَ. » .

الشرح والتفسير

كما ذكرنا فإن الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام حين نفى أبو ذر من قبل عثمان إلى الربذه، جاء في الخبر: لما أخرج أبو ذر إلى الربذه أمر عثمان، فنودي في الناس ألا يكلم أحد أبا ذر ولا يشيعه، وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به، فخرج به، وتنحى عنه الناس إلما على بن أبي طالب عليه السلام وعقيلاً- أخاه وحسنًا وحسينًا عليهما السلام وعماراً رحمه الله، فأنهم خرجوا معه يشيعونه، فجعل الحسن عليه السلام يكلم أبا ذر، فقال مروان إيها حسن ألا تعلم أن أمير المؤمنين (عثمان) قد نهى عن كلام هذا الرجل، فان كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل على عليه السلام على مروان فضرب بالسوط بين أذني راحلته وقال: تنح لحالك الله إلى النار، فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر (١).

ص: ٢٥٣

وهنا وقف أبو ذر رحمه الله فودعه القوم، وخطب الإمام عليه السلام بهذه الكلمات التي تتضمن كل واحده منها نقطه مهمه بهدف مواساه أبي ذر وتحمله المصاعب التي ستواجهه في المستقبل، فقد أشار عليه السلام إلى ست نقاط فقال أولاً: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مِنْ غَضِبَتْ لَهُ» .

أمّا قوله عليه السلام فارح من غضبت له ولم يقل ارج الله، فالواقع بين الإمام عليه السلام دليل ذلك الأمل، لأن كل شخص يغضب لآخر بالنسبه لشيء يؤذيه، فمن الطبيعي أنّ ذلك الشخص سيقف إلى جانبه.

وقال في الثانيه: «إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخَفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَمَاتُوكَ فِي أَيْدِيهِمْ مَيَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرَبْتَ مِنْهُمْ بِمَا خَفْتَهُمْ عَلَيْهِ» .

إشاره إلى أنهم شعروا بالخطر على حكومتهم ومنافعهم الماديه إثر صراحه كلامك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يستطيعوا تحمل وجودك في المدينه، لكنك قاطعتهم ولم تقبل بذلهم، وذلك لأنك شعرت بالخطر على دينك، فلما قمت بوظيفتك واطلعت الناس على أعمال هؤلاء الحكام، فتركهم واهرب بدينك وإيمانك.

ثم قال الإمام عليه السلام: «فَمَا أَحْوَجُهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَعْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَيَتَعَلَّمُ مِنَ الرَّابِحِ غَدًا، وَالْأَكْثَرُ حُسْدًا» ، فهم بحاجة إلى دينك، الدين الذي لم تكن مستعداً للتضحيه به من أجل دنياهم، لكنك لست بحاجة إلى دنياهم وإن منعوها عنك (١)، والعباره «وستعلم. . .» مواساه أخرى لأبي ذر فعمر الدنيا قصير كأنه ويوم وغدا تقوم القيامه، أنذاك سيفتضح الظلمه عبده الدنيا ويغبطون الأتقياء على درجاتهم العاليه، ثم ضاعف من ذلك الرجاء في قلب أبي ذر فقال في الثالثه: «وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتَقًا (٢) ثُمَّ اتَّقَى اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجًا!» .

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشاره إلى الآيه الشريفه: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (٣).

ص: ٢٥٤

١- ١) وعليه تفسير «ما» بالموصوله بمعنى الدين لأنهم أرادوا أن يستفيدوا من دين أبي ذر لصالح دنياهم، فحال أبو ذر دون ذلك، كما يحتمل أن يكون الدين بصوره مطلقه، إلّا أنّ هناك تقديراً في العبارة حيث يكون المعنى ما أحوجهم إلى الدين، الدين الذي حذرت عليه من إفسادهم له.

٢- ٢) «رتق»: إلتحام شيء بآخر وتعنى في العبارة إغلاق طرق الخلاص والفرار.

٣- ٣) سورة الطلاق / ٢ - ٣. [١]

ثم قال فى الرابعه والخامسه: «لَا يُؤْنَسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ» .

فليكن أنسك فى الحق ولا- تخشى شيئاً مادمت فى هذا السبيل، ولتكن وحشتك من الباطل وإنك لسعيد مادمت هارباً من الباطل، فلا ضير عليك إنك قمت لله وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فى الله، فلو قبلت دنياهم وعاونتهم فى نيل أطماعهم الماديه لأحبوك، ولو أخذت من ذلك شيئاً وهدنتهم لأمنوك، ولذا قال فى السادسة: «فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لِأَحْبُوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ (١) مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ» ، فهم تجار ظلمه ذائبون فى الدنيا وأهل معامله فيها، فمن وافق على مظالمهم وهدانهم بقبول سهم من أموالهم، أحبوه وقدسوه ودافعوا عن ماله وعرضه.

فعبارته عليه السلام مواساه لأبى ذر من جانب وصاعقه شديده على الحكام الظلمه من جانب آخر، فالحق أن نفى «أبوذر» ذلك العبد الصالح والزاهد الورع كان نموذجاً للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان وصمه عار فى جبين الحكام الظلمه وأعوانهم، فقد كانوا يعلمون أن لسان ذلك الصحابى الجليل يعدل مئه ألف سيف.

تأملات

١ - من هو أبو ذر رحمه الله

تعتبر حياه أبى ذر مليئه بالأحداث مقارنه بحياه سائر صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله التى يمكنها أن تكون أسوه لكافه المجاهدين فى سبيل الحق طيله التاريخ البشرى، ولا غرو فحياته إقتباس من حياه مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام مع فارق بسيط هو أنه خضع لظروف صعبه جداً، لكنّه لم يتوان قط فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الوقوف بوجه الظلمه والفساد، وإليك جانب من سيرته:

اسمه جندب وأبوه جناده (٢) وأسماه رسول الله عبدالله، ينسب إلى طائفه معروفه من طوائف

ص: ٢٥٥

١-١) «قرضت»: من ماده «قرض» تعنى فى الأصل قطع الشىء ومن هنا يقال المقرض للمقضى، كما يقال القرض لما يعطى من مال، ووردت فى العبارة المذكوره بمعنى قطعت منها جزءاً من المال لنفسك، ومهادنه الظالمين.

٢-٢) روت أغلب المصادر «جندب وجناده» بضم الجيم، وكنيته أبو ذر، حيث كان له ولد بهذا الاسم.

العرب وهى بنى غفار، كانت له ضيعه أطراف مكه، سمع بيعث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فاتجه إلى مكه، فلما دخل المسجد رأى فيه طائفه من قريش وهى تتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهى تسبه وتشتمه، فدخل أبو طالب، فقالوا: إسكتوا هذه عمه، عرف أبو ذر، أبا طالب، فلما خرج من المسجد تبعه فالتفت إلى أبو طالب وسأله هل من حاجه؟ قال: أريد الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله، فقال له أبو طالب تعال هنا غداً، فقضى أبو ذر ليلته فى المسجد الحرام، وفى اليوم التالى إلتقى حمزه، ثم تعرف بجعفر وعلى وأخيراً حملة على عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم وآمن طواعيه.

ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالرجوع إلى أهله وقال له: فان لك ابن عم قد توفى وليس به وارث غيرك فاستعن بتلك الأموال حتى يؤذن لى بالدعوه العلنيه آنذاك عد إلينا، كان أبو ذر من أوائل من أسلم، وإلتحق بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد غزوه بدر وأحد والخندق وحين أنفق كل ما لديه فى سبيل الله، وقد وصفه النبي صلى الله عليه وآله بصديق الأئمه وشبيهه عيسى بن مريم.

قال العلّامة المجلسى رحمه الله فى كتاب «عين الحياه» يستفاد من مصادر الفريقين أنه لم يكن من بين صاحبه بعد المعصومين من هو أجل قدراً من سلمان و أبى ذر والمقداد وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَا أَظَلَّتِ الْخَضِرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبِرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ يَعِيشُ وَحَدَهُ وَيَمُوتُ وَحَدَهُ وَيُبْعَثُ وَحَدَهُ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَحَدَهُ» (١).

لازم أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وآله فى المدينة، ولما ولى عثمان الخلافه وأعطى مروان من بيت المال، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفى الطرقات والشوارع: «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...» (٢).

فى إشاره إلى عثمان وبطانته الذين أخذوا ينهبون بيت مال المسلمين، كان أبو ذر يردد تلك الآيه ويرفع بها صوته، فرفع ذلك مراراً إلى عثمان وهو ساكت، ولم تمض مدّه حتى صعب على الخليفه وبطانته تحمل كلام أبى ذر، فأرسل إليه عثمان مولى من مواليه أن إتنه عمّا بلغنى عنك،

ص: ٢٥٦

[١-١] بحار الانوار ٢٢/٢٩٨. [١]

[٢-٢] سورة التوبه / ٣٤. [٢]

فقال أبو ذر: أو ينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى؟ فوالله لأن أَرْضِيَ الله بسخط عثمان أحبَّ إليَّ وخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان، فأغضب ذلك عثمان وأحفظه، فتطير وتماسك، إلى أن قال يوماً والناس حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً، فإذا أيسر قضى؟ وكان في المجلس كعب الأحبار وأبو ذر، فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال: أبو ذر: يابن اليهودية أتعلما ديننا؟ (فمثل هذه الأمور لا تجوز في بيت مال المسلمين) فقال عثمان: قد كثر أذاك وتولعك بأصحابي، إلحق بالشام، فأخرجه إليها.

ولم يسكت أبو ذر في الشام حين شاهد الخضراء التي بناها معاوية في دمشق إلى جانب البيوت المتواضعة للفقراء من الناس والمحرومين، فقال لمعاوية: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الاسراف، والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سننه نبيه، والله إنني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثره بغير تقى، وصالحاً مستأثراً عليه، فنقل ذلك الكلام على معاوية، فكتب إلى عثمان، فكتب عثمان أن إحمل جندباً إلى على أغلظ مركب وأوعره حتى قدم به المدينة.

فلما دخل أبو ذر رحمه الله على عثمان، سعى عثمان لأن يضطره للقول بخلاف ما يريد فقال له: أنت الذي تزعم أنا نقول: «إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ وَنَحْنُ الْأَغْنِيَاءُ»، فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده، ولكنني أشهد أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إِذَا بَلَغَ بَنُو الْعَاصِ ثَلَاثِينَ رَجُلًا، جَعَلُوا مَالَ اللَّهِ دُولًا، وَعِبَادَهُ خِيَالًا، وَدِينَهُ دَخْلًا»، فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: لا؟ قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: ادعوا لي علياً، فما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي أسمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا؛ وقد صدق أبو ذر، فقال: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الْعَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهَجِهِ أَصْدَقُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ . . .». فقال من حضر: أما هذا فقد سمعناه كلنا من رسول الله صلى الله عليه وآله، فندم عثمان.

وجاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ عَثْمَانَ بَعَثَ غَلَامِينَ بِمِثْقَالِ دِينَارٍ إِلَى أَبِي ذَرٍّ وَقَالَ: قَوْلًا لَهُ إِنَّ عَثْمَانَ يَقْرَأُكَ السَّلَامَ وَبَعَثَ بِهَذَا الْمَالِ لِتَسْتَعِنَ بِهِ عَلَى مَعِيشَتِكَ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ:

فهل أعطى سائر المسلمين، قالوا: لا، فقال: لا حاجة لي به، قالوا: إنّ عثمان يقول إنّّه من خاصه مالى ولم يخالطه الحرام، فلم يقبل أبو ذر وقال: إنّنى لأغنى الناس بولايه على بن أبى طالب، فعودا بالمبلغ إليه واللّه يحكم بينى وبينه» (١).

وأخيراً ضاق عثمان ذرعاً بأبى ذر واستشار من حوله، فأشاروا عليه بنفيه من المدينة، فاختر أبو ذر الشام والعراق، فلم يوافقوه حيث كانوا يخشون منه، إلى انتهى بهم الأمر لنفيه إلى الربذه (٢) المعروفه بسوء أحوالها ومناخها حتى توفى فيها، ولم يكن لديه حتى الكفن مرّت جماعه وفيهم مالك الأشر فأخبرتهم بنته فى الطريق، فكفّنوه وصلى عليه صحابى رسول اللّه صلى الله عليه وآله عبد الله بن مسعود، ثم دفنوه (٣).

٢ - أبو ذر رحمه الله والاشتراكية

لقد سعى البعض من المتعصبين بدافع حبه لمعاويه وبنى أميه أو لفرط ذوبانه فى عثمان لإثاره بعض الغبار على شخصيه أبى ذر، وذلك لعدم إمكانيه الجمع بين كون أبى ذر من أولياء الله أنّه أصدق من على الأرض وأنّ عثمان خليفه المسلمين ومعاويه من الصحابه، ومن هنا فلم يروا أخف وطأه عليهم من أبى ذر فقالوا: إنّ أبى ذر لا يؤمن بالملكيه الفرديه وكانت له نزعه اشتراكيه.

وقال الرزكلى فى كتاب «الاعلام فى أبى ذر»: «ولعله أول اشتراكي طادرتّه الحكومات» (٤).

وهذا فى الوقت الذى لم يتطرق فيه أبو ذر قط إلى نفي الملكيه الفرديه، بل شدد من حملاته ضد الأثرياء كمعاويه ممن يوزعون الثروه بصوره غير عادله، ولذلك لم يكن يشن مثل هذه

ص: ٢٥٨

١-١) بحار الانوار ٢٢/٣٩٨. [١]

٢-٢) ورد فى معجم البلدان أنّ الربذه من القرى الواقعه أطراف المدينه حيث تبعد عنها ثلاثه أميال (حدود ١٥٠ كيلومتر).

٣-٣) لخصت هذه المطالب من عدّه كتب معروفه كشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، وشرح المرحوم التستري، وشرح المرحوم الخوئى، وبحار الانوار.

٤-٤) الأعلام للزركلّى، ذيل كلمه جندب.

الحملايت على عهد الخيفه الأول والثاني، قال البعض وردت عبارته «مال الله» في كلمات أبي ذر، فاستفادوا منها نفيه للملكيه الخاصه، والحال التعبير بمال الله عن بيت المال هو تعبير متداول وسائد، فقد صرح المرحوم العلامة الأميني في المجلد الثامن من الغدير حين نقل نعت أبي ذر بالاشتراكيه أنّ التعبير بمال الله كثير في أقوال الصحابه، ثم نقل عدّه روايات عن عمر عبّر فيها صريحاً بمال الله، كما وردت عدّه روايات عن أمير المؤمنين على عليه السلام عبّر فيها بمال الله (١).

لا شك أنّه يمكن التعبير عن تلك الأموال بمال الله، بل يمكن اطلاق مال الله حتى على الأموال الشخصيه للناس، فقد جاء في القرآن الكريم مثل هذه التعبير: «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...» (٢).

والحق إنّ هذه الفئه تسرعت في الحكم على أبي ذر، حيث كان يؤكد مراراً تمسكه بالآيه: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...» (٣)، ونعلم جميعاً أنّ هذه الآيه وردت بشأن مانعي الزكاه.

والأدهى من كل ذلك لجنه فتوى الأزهر قد أصدرت فتوى عام ١٣٦٧ ق تحت تأثير بعض المتعصبين في نفى الشيوعيه لتنقل عقيدته أخرى لأبي ذر وحكمت ببطانها لتعتبرها معلوله لبعده عن مبادئ الإسلام، وهي أنّه كان يعتقد بوجوب اعطاء المال الزائد عن حاجته إلى أهل الحاجه ولا ينبغي أن يحتفظ بتلك الأموال، قال المرحوم الأميني بعد ذكره لهذه الفتوى لو أوكل شيخ الأزهر مطالعه هذه المسأله لمن هو أعرف بأبي ذر وحكموا فيها بعيداً عن التعصب، لعلم أنّ ليس هناك مثل هذه العقيدته لأبي ذر، والأسوأ من ذلك ما ذكره من عذر لأبي ذر بعدم معرفه بمبادئ الإسلام، وهذا ما يضحك الثكلي ويكي كل مسلم غيور، فهل يصح مثل هذا الكلام بشأن صحابي جليل قضى شرطاً من حياته مع رسول الله صلى الله عليه وآله وقد شبّهه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعيسى خلقاً وخلقاً (٤)، والطريف في الأمر أنّ أبا ذر ثقّه عند بعض

ص: ٢٥٩

١-١) الغدير ٨/٣٤٣. [١]

٢-٢) سورة النور / ٣٣. [٢]

٣-٣) سورة التوبه / ٣٤. [٣]

٤-٤) الغدير ٨/٣١٢ و ٣٤٣.

المحدثين كالبخارى ومسلم حيث نقلوا عنه ٨١ حديثاً (١)، وهذا بدوره يكشف عن مدى بعد لجنة فتوى الأزهر عن الحقيقة.

٣ - العاقبة المريرة لأبى ذر

إنّ الحديث فى أبى ذر وما لم يقال فيه لكثير ويتطلب كتاباً مستقلاً، ولكن يبدو من الضرورى ذكر هذه النقطة فى أنّ ما منح أبى ذر القوه والصلابه وأرعب خصومه هو زهده الممزوج بصراحه لسانه، فهم لم يستطيعوا الاعتراض عليه لزهده من جانب، ومن جانب آخر لم يطيقوا تحمل صراحته، وإليك نموذج من ذلك.

روى ابن أبى الحديد عن الجاحظ عن جلام بن جندل الغفارى قال: كنت غلاماً لمعاويه على قنسرين والعواصم فى خلافه عثمان، فجئت إليه يوماً أسأله عن حال عملى، إذا سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار بحمل النار (إشاره إلى الجمال التى كانت تحمل أموال بين المال)، اللهم إلعن الأمرين بالمعروف التراكين به، اللهم إلعن الناهين عن المنكر المرتكبين له، فإزبار معاويه وتعيير لونه وقال: يا جلام أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللهم لا. قال: من عذيرى من جندب بن جناده، يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت! ثم قال: أدخلوه علىّ، فجيئى بأبى ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه، فقال له معاويه: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله تأتينا كل ويوم فتصنع ما تصنع، أما لو أنى كنت قاتل رجلاً من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكنى أستأذن فيك. فقال أبو ذر: ما أنا بعدوّ لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوّان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبظتما الكفر، ولقد لعنك رسول لله صلى الله عليه وآله ودعا عليك مرات ألا تشبع. فغضب معاويه وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاويه أن إحمل جندباً على أغلظ مركب وأوعره، فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلأقرب، حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم

ص: ٢٦٠

فخذيده من الجهد، ثم نفاه عثمان إلى الربذه (١).

ونختتم هذا البحث بحديث نبوى شريف ورد فى كتاب أسد الغابه، فقد أسلم أبو ذر لثلاث سنوات قبل البعثه، وكان يعبد الله: «وَبَايَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَيَّ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً وَعَلَيَّ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مَرًّا» (٢).

٤ - كلمات المؤدعين لأبى ذر

جاء فى الكتب التاريخيه أن عقيلاً وحسنأ وحسينأ عليهم السلام وعمارأ رحمه الله قد ودعوا أبا ذر إلى جانب على عليه السلام وكل قال فى وداعه كلمه، ففقد قال عقيل:

«ما عسى أن نقول يا أبا ذر وأنت تعلم إننا نُحِبُّكَ، وأنت تُحِبُّنا! فاتق الله فان التقوى نجاه واصبر فان الصبر كرم» .

ثم تكلم الحسن عليه السلام فقال:

«يا عمأه، لولا أنه ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشييع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشده ما إشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك صلى الله عليه وآله وهو عنك راض» .

ثم تكلم الحسين عليه السلام فقال:

«يا عمأه، إن الله تعالى قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم هو فى شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عمأ منعوك وأحوجهم إلى منعتهم، فأسأل الله الصبر والنصر، واستعد به من الجشع والجزع، فان الصبر من الدين والكرم» . . .» .

ثم تكلم عمار رحمه الله فقال: «لا آنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت، مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين» .

ص: ٢٤١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٢٥٧. [١]

٢- (٢) أسد الغابه ١/٣٠١. [٢]

فبكى أبو ذر رحمه الله وكان شيخاً كبيراً، وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمه إذا رأيتمكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله، ما لى بالمدينه سكن ولا- شجن غيركم، والله ما أريد إلماالله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشه، توكلت على الله والصلاه والسلام على رسول الله وآله (١).

ص: ٢٦٢

١-١) الكافي ٨/٢٠٨، [١] بتصرف، شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٢٥٣. [٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وفيه يبين سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحقّ

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام على عليه السلام في هذا الكلام إلى عدّه مطالب:

- ١ - قبوله الحكومه من أجل رفع رايه الدين والعدل في المجتمع الإسلامي وإصلاح البلاد وأمان العباد واستقرار المظلومين.
- ٢ - أشار عليه السلام في جانب آخر من الخطبه إلى الاختلافات الفكرية لأصحابه فقال: لا- يمكن بسط العدل في ظل هذه الظروف واعطاء الحقوق إلى أصحابها، ويستحيل بلوغ هذه الأهداف ما لم تتحد قلوبكم وتتفق أعمالكم.
- ٣ - خاض عليه السلام في تعريف نفسه فقال: أنى أول من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله فأمنت به، ولم يسبقني إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاه.
- ٤ - أشار في القسم الأخير من الخطبه إلى صفات الزعيم المقتدر، فعدد أوصافه بكل دقه، وهي الأوصاف التي يؤدى توفرها في الزعيم الإسلامي إلى الديمومه والثبات.

ص: ٢٤٣

١- ١) سند الخطبه: أشار ابن الجوزى في «تذكره الخواص» إلى هذه الخطبه وقال: ابتدأ الإمام هذه الخطبه حين استوى على منبر الكوفه بالقول: الحمد لله وأومن به ثم خطب الخطبه، وأورد القاضى نعمان الفصل الأخير من الخطبه في المجلد الثانى من «دعائم الإسلام»، كما أشار إلى بعضها ابن أثير في «النهايه» فى ماده ظار وماده دعا (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٩٥) [١] وتدلل هذه المصادر على أنّ الخطبه وردت فى عدّه كتب قبل السيد الرضى.

إشاره

«أَيَّتْهَا النَّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظَارَكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِغْزَى مِنْ وَعْوَعِهِ الْأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطَّلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ» .

الشرح والتفسير

من الحوادث الأليمه فى التاريخ الإسلامى أن يبتلى إمام عالم وكفوء مقتدر كعلى عليه السلام بناس جهّال وعبيده للأهواء يعيشون التناحر والفرقه، فقد كانوا وسائل سيئه لإقامه حكومه الحق والعدل، وقد رأينا منذ بدايه الكتاب لحدّ الآن فى مختلف خطب نهج البلاغه أنّ الإمام على عليه السلام كان يتألم بشده من هذا الأمر وكان دائم الشكوى، باحثاً عن مختلف الأساليب لعلاج أمراضهم النفسيه والأخلاقية، فقد قال عليه السلام مستهلاً هذه الخطبه: «أَيَّتْهَا النَّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ» .

فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على الجذور الأصلية لداء المجتمعات والأمم، ألا وهو الاختلاف والتشتت والذى يؤدى إلى النزاعات وهدر الطاقات، والعبارة: «الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ. . .» إشاره إلى حضورهم الجسمانى فى المجتمع وغيابهم الفكرى والروحى عن الحوادث الخطيره التى تصيب المجتمع، أمّا أهميه هذا الموضوع فقد دفعت بالإمام إلى ذكر مثل هذه العبارات مع اختلاف طفيف فى الخطب الأخرى، كالذى ورد فى الخطبه ٢٩ و ٩٧ حيث قال فى الأولى: «أَيَّتْهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ» .

وقال فى الثانىة: «أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ» .

ثم قال عليه السلام: «أَطَارُكُمْ (١) عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى (٢) مِنْ وَغْوَعِهِ (٣) الْأَسَدِ!» ، العبارة «أَطَارُكُمْ» بالنظر إلى أنّ «ظأراً» جاءت فى اللغة بمعنى القابله، فهى تشير إلى مراده أنّى كالقابله الشفيقه قد رويتكم على الدوام من عين الحق الجياشه، لكنكم كنتم تفرون من ذلك دائماً، تفرون فراركم من الأسد، وهذه أسوأ حاله يمكن أن تعرض لإنسان فينفر من الحق ويهرب منه بالشكل الذى يفوق التصور، والعبارة «وَعَوَّعَهُ الْأَسَدُ!» ، تعبير رائع فلم يقل «من الأسد» بل قال «وَعَوَّعَهُ الْأَسَدُ!» يعنى إنّ هذا الحيوان على درجه من الجبن بحيث لا ينظر إلى أطرافه ليرى هل هو أسد أم لا، بل يهرب لمجرد سماعه الصوت، وهذا هو حال بعض الحيوانات التى تهرب إذا سمعت زئير الأسد مهما كانت المسافه بعيدة فى الصحراء.

ثم قال عليه السلام: «هَيْهَاتَ أَنْ أَطَّلَعَ (٤) بِكُمْ سَرَارَ (٥) الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ» .

قطعاً ليس للحق من إعوجاج ليراد قيامه، والمراد يخلطونه بالباطل وقد سعى أئمه الهدى عليهم السلام لتخليص الحق من شوائب الباطل، كما ليس فى العدل من ظلمه ليجلوها عنه، فالظلم الذى غالباً ما يخالط العدل ويلبسه على حال لا شك أنّ إزاله الظلمه عن العداله وتمييز الباطل عن الحق، يتطلب أعواناً وأنصاراً من أهل الوعى والتضحيه، ولم يكن للجهاال والغدره المشتتين كأهل الكوفه من قدره للإستعانه بهم فى إزاله الظلمات وتسويه الاعوجاجات، وهذا داء دوى عرض لإمام عادل وشجاع كعلى بن أبى طالب عليه السلام.

ص: ٢٦٦

١- ١) «أَطَارُ»: من ماده «ظأراً» على وزن ضرب تعنى فى الأصل المراقبه والمواظبه على الشىء ولما كان عمل القابله الإرضاع ومراقبه الطفل فقد استعملت هذه المفرده لها.

٢- ٢) «المعزى»: بمعنى السخله فى مقابل الضأن بمعنى الخروف.

٣- ٣) «وعوعه»: بمعنى الضراخ والضججه والزئير، وتطلق على الأموات المتداخله.

٤- ٤) «اطلع»: لها معنى اللانزم وهو الطلوع والظهور وكذلك معنى المتعدى، وهنا بالنظر لسرار مفعولها فقد وردت متعديه، والباء فى بكم للاستعانه أو السبب.

٥- ٥) «سرار»: من ماده «سر» تعنى فى الأصل آخر ليله من الشهر «ليه المحاق التام» ويراد بها شدّه الظلمه.

أشرنا سابقاً إلى إبتلاء الإمام عليه السلام بالأصحاب الذين اعتادوا الحياه المرفهه والدعه والراحه، وقد اعتمدوا مختلف الذرائع للهروب من الجهاد ومقاتله العدو، وقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لتطهير روحيتهم من هذه الأدران عن طريق الحث والتشجيع تاره واللوم والعتاب والذم تاره أخرى.

وقد أشار في هذه الخطبه إلى نقاط ضعفهم ليخلصها في ثلاث هي الاختلاف و التشتت وغياب العقل والهروب من الواقع، ثم صرح إثر ذلك: كيف يمكن تطهير المجتمع من رواسب بنى أميه وعناصرهم المنافقه المتبقيه من عصر الجاهليه وإقامه الحق وتسويه العوج، وأنتم بهذه الأحوال.

وكما أراده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه قانون كلى دائم يحكم كل عصر ومصر ويصدق في المشاريع السياسيه والاجتماعيه والعسكريه، وهى الأمه المتحده الواعيه التى تستقبل الحق وتعمل به مهما كان مريراً.

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافِسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَمَّا التَّمَّاسَ شَيْءٌ مِنْ فُضُولِ الْخُطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرْدِ الْمَعَالِمِ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرِ الْإِضْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتَقَامَ الْمُعْطَلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَجَّعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَشِبْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ» .

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبه أهداف الحكومه الإسلاميه - ومنها حكومته - بعبارات غايه في الروعه والدقه ليضمنها دروساً خالده لجميع الحكّام المؤمنين والمخلصين فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافِسَةً (1) فِي سُلْطَانٍ، وَلَمَّا التَّمَّاسَ شَيْءٌ مِنْ فُضُولِ الْخُطَامِ» .

ربّما كانت هذه العبارة إشاره إلى أصل قبول بيعه الأمه على الخلافه، أو إشاره إلى المعارك التي وقعت بينه وبين الأعداء في صفين وأمثالها، وهي تعكس الأهداف الرئيسيه لحكّام الاستبداد الذين يهدفون إلى أمرين: الحصول على المنصب مهما كان الثمن والاستيلاء على الأموال أينما كانت ومن أي كان، والواقع ليس ذلك سوى حب الجاه وحب المال الذي ساد تاريخ البشر واجتاح حتى الحكومات المستبده، وقد أثبت الإمام عليه السلام عملياً ما قال، فقد

ص: ٢٦٩

١- ١) «منافسه»: تعنى فى الاصل سعى فردين يريد كل منهما الظفر بشىء نفيس يمتلكه الآخر، فالواقع هى مسابقه شريفه بين فردين من أجل بلوغ كمال من الكمالات، ولكن قد تستعمل هذه المفرده فى الموارد السلبيه، كما تستعمل بشأن الأفراد الذين يتسابقون من أجل نيل المال والمقام، والمراد بها فى الخطبه المعنى الثانى.

اشترط على الإمام عليه السلام من قبل الشورى التي عينها عمر نيل الخلافة شريطه الانحراف عن مسار رسول الله صلى الله عليه و آله فلم يستجب الإمام عليه السلام كما وقف بقوة بوجه طلحه والزبير وما قدماه من اقتراح ليس بصواب، كيف يستجيب لهما الإمام عليه السلام هو يرى الدنيا كعطفه عنز، ثم بين الإمام أهدافه الأربعة من أجل قبول الحكومه وهي: «وَلَكِنْ لِنَرِدَ (١) الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْأِضْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعْطَلَّةُ مِنْ حُدُودِكَ» .

فالواقع أشار الإمام عليه السلام في العبارات الأربع التي أوردها كدافع أصليه لقبول البيعه، إلى برامج المعنويه في الحكومه ومشاريعه الماديه والظاهرية، فلا بد في الدرجه الأولى من إعادة معالم الدين التي تعين للناس مسيرتها نحو الله سبحانه وقد اندثرت بفعل الحكومات المستبده، ومن ثم الإصلاحات في كافة الشؤون الاجتماعيه والسياسيه والاقتصاديه والأخلاقية، ونصره المظلوم من الظالم وإجراء الحدود الإلهية بحيث يشعر المظلومون بالأمن والاستقرار حقاً، وإن كان هذه الأهداف الأربعة هي مراد الحكومات لعاشت المجتمعات السعاده والماديه والمعنويه، وإن كان هدفهم الحصول على المناصب ونيل الأموال والثروات، فليست هناك من نتيجته سوى الفساد والظلم وتعطيل الحدود الإلهية ومحو الأخلاق والدين، وهذا بحد ذاته درس لجميع المسلمين في كافة الأزمنه والعصور، وهذه هي الأمور التي ذكرها القرآن الكريم كأهداف لبعثه الأنبياء وتشكيل الحكومه الإسلاميه، فقد ذكر التعليم والتهديب والنجاه من الظلال المبين كهدف لبعثه فقال: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (٢)، كما ذكر في موضع آخر هذا الهدف المتمثل ببسط العدل والقسط: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ. . .» (٣)، كما قال: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» (٤).

ص: ٢٧٠

١- ١) يبدو أنّ هذه المفردة «لنرد» من ماده وورد قد وردت خطأ في نسخه نهج البلاغه [١] لصبحي والصحيح لنرد بالتشديد من ماده الرد بمعنى الإعادة، كما وردت كذلك في أغلب نسخ نهج البلاغه. [٢]

٢- ٢) سورة الجمعه / ٢. [٣]

٣- ٣) سورة الحديد / ٢٥. [٤]

٤- ٤) سورة الحج / ٤١. [٥]

ثم إختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبه بذكر شهاده واضحه على صدق قوله بالنسبه لداوفعه فى قبول البيعه فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ» .

إشاره إلى أنّ الإسلام كان غريباً آنذاك، والرسول لوحده وليس إلى جانبه سوى خديجه عليها السلام زوجته الوفيه، فكان الجهر بالإسلام إزاء المشركين المتعصبين غايه فى الخطوره، فقد بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وإنقاد له، فكان أول من إتحق به، ولم يكن همّه سوى طاعه الله سبحانه وإحياء الحق والتوحيد والعدل، ومازال ذلك الهدف هوالدافع له من أجل قبول البيعه.

ليس هناك من خلاف بين علماء الفريقين بشأن خديجه على أنّها أول إمرأه أمنت بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأنّ علياً عليه السلام أول من آمن به من الرجال، وإن تذرّع البعض من علماء العامه بصغر سن على حين أمن، ليسقطوا عنه تلك الفضيله ويلصقوها بالآخرين، ولكن يتضح خواء هذه الذريعه من خلال قبول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لإسلام على صلى الله عليه وآله وأبعد من ذلك تسميته بوصيه فى يوم الدار (1).

ص: ٢٧١

١- ١) ورد شرح إسلام على عليه السلام وأنه أول من أسلم فى أغلب مصادر الفريقين والرد على التخرصات فى المجلد الثالث من هذا الكتاب، والمجلد التاسع، ص ٣٢٦ من نفحات القرآن. [١]

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالِدَمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَهُ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِئَ لَهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَانِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُزْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمُعْطَلُ لِلشُّنَّةِ فَيَهْلِكُ الْأُمَّةَ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام في المقطع الأخير من الخطبه في بيان خصائص ولاء العدل ودعاه الحق حيث أشار إلى ست صفات من صفاتهم، وهكذا يختتم هذه الخطبه التي أوردها بشأن الحكومه الإسلاميه، والحذير بالذكر أنه استهل الكلام بالعباره «وقد علمتم» حيث يرى الالتزام بهذه الصفات من الأمور العقليه الواضحه والمسلمه التي يعرفها كل شخص، أو على الأقل ينبغي معرفتها من كل شخص، فقال: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالِدَمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَهُ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ (١)» .

والواقع هو أن هذه الأمور تشكل أصول الحياه الفرديه والاجتماعيه للناس وهي الفروج، والأرواح، والأموال، والقوانين، وإدارت الدوله التي ينبغي للإمام المدبّر والواسع الآفاق والعاقل المنصف أن يؤدّي حقوقها جميعاً، فتأمن الأمة على أرواحها وأموالها وأعراضها،

ص: ٢٧٣

(١ - ١) «النهمة»: تعنى فى الأصل الحاجه وشده الحب لشيء والمبالغه فى الحرص عليه.

وتطبق القوانين والأحكام وتوكل زعامه الأمة وإمامتها إلى الصالحين من أفرادها، فان كان إمام الخلق بخيلاً اقتصرت همته وشهوته على جمع الأموال وضحي بكل شيء من أجل بلوغ هذا الهدف، فلا من أمن واستقرار، ولا من احترام للقوانين والأحكام.

ثم قال عليه السلام في بيان الصفه الثانيه: «وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ»، فلا شك أنّ العلم بالأحكام والموضوعات والأساليب الصحيحه تعدّ من أهم دعائم الحكومه وليس للجّهال من الأفراد قدره إداره شؤون الحكومه وإن صفت نيتهم واتصفوا بالورع والتقوى، فهم يقودون الأمة إلى المجهول بجهلهم.

وقال عليه السلام في بيان الصفه الثالثه: «وَلَمَّا الْجَافِي (١) فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ»، فمن أبرز صفات والى العدل العطف والمحبه والسماحه والمدارسه، ونعلم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد استقطب القلوب البعيده عن الحق بهذه الشفقه والمحبه، وهذه رحمته إلهيه كبرى كما وصفها القرآن الكريم بالقول: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَمْ كُنْكَ فِظًا غَلِيظًا لِّمَنْفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ...» (٢).

ثم قال عليه السلام في الصفه الرابعه: «وَلَا الْحَائِفُ (٣) لِلدُّوَلِ (٤) فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ»، وهذا هو البلاء الذى أصاب عثمان، وقد سدّد الضربات المهلكه للمجتمع الإسلامى بحيث لا يمكن معالجتها، فقد أغدق أموال بيت المال المسلمين على قرابته وبطانته ومتملقيه، مما أدى إلى قيام المظلومين عليه حتى قتلوه فظهرت الخلافات العظيمة بين الناس آنذاك وما زالت آثارها باقيه.

ثم قال عليه السلام فى الصفه الخامسه: «وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاتِعِ (٥)»، فأهم عامل للحكم بالظلم والجور هو الرشوه التى يقدمها أصحاب الثراء والقدره فيغيرون مسار القضاء ليصدر أحكامه لصالحهم ضد أصحاب الحق فيحولون دون إجراء الحق والعدل.

ص: ٢٧٤

١-١) «الجافى»: من ماده «جفاء» تعنى قى الأصل العنّف وأخذ الشىء.

٢-٢) سورة آل عمران / ١٥٩. [١]

٣-٣) «الحائف»: من ماده «حيف» بمعنى الظلم والجور وتعنى فى الأصل الانحراف فى الحكم التمييز.

٤-٤) «دول»: جمع «دوله» بمعنى المال.

٥-٥) «المقاطع»: جمع «مقطع» بمعنى آخر كل شىء، كما تطلق هذه المفرده أحياناً على الحدود الإلهيه التى تنتهى بجرم المجرمين وقد وردت بهذا المعنى فى العباره، وفى إشاره إلى أنّ القاضى إن كان مرتشياً فإنه لا يأذن باجراء حدود الله تعالى.

طبعاً فلسفه القوانين والمحاکم حفظ حقوق الضعفاء، وإلّا فالأقوياء يحفظون حقوقهم، وإن تسللت هذه الرشوه إلى المحكمه ونفذت إلى ذهن القاضى والتي لا يقوى على دفعها سوى الأثرياء والأقوياء، فعندما تسلب قدره الضعفاء على الدفاع فتضيع حقوقهم، وهذا هو الأمر الذى نشهده فى كافه أنحاء عالمنا المعاصر، ومن الضرورى الالتفات إلى هذه النقطه أنّ الرشوه لا تقتصر على الجانب المالى، فقد تتخذ أشكالاً أخرى كتصفية الحسابات السياسيه والوصول إلى المناصب والمقامات والشهوات الجنسيه والمدح الكاذب وأمثال ذلك، وهكذا تتحرك عجله المحكمه باتجاه الظلم والجور.

وقال عليه السلام فى الصفه السادسه الأخيره: «وَلَا الْمُعْطَلُ لِلسُّنَّهِ فَيَهْلِكُ الأُمَّةَ»، طبعاً يمكن أن يكون المراد بالسُّنَّه سنَّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أو السنن والقوانين التى أمضاها الله فى عالم الخلقه أو السنين الاجتماعيه الحسنه التى أشير إليها فى عهد مالک الأشتر: «وَلَا تَنْقُضْ سُنَّهَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ لَأُمَّةٍ»، أو جميعها وإن بدا المعنى الأول هو الأقرب.

آفه الحكومات

كما ورد فى بدايه هذه الخطبه، فهى تتألف فى الواقع من ثلاثه أقسام مرتبطه مع بعضها تماماً، الأول ذم الإمام عليه السلام القوى الجاهزه التى ينبغى لها أن تنشط فى إقامه الحق والعدل، لكنّها عاشت الضعف والجز بفعل الاختلاف وعدم توظيف العقل والفكر، ثم أشار إلى أهداف ودوافع حكومه العدل الإسلاميه والإنسانيه، بينما ذكر آخر الخطبه الأركان الأصليه لمواصفات حكّام العدل، طبعاً إن كانت القوى المؤمنه والمتحده من جانب، والأهداف والدوافع المقدسه والوالى الذى يتحلى بالصفات الست المذكوره من جانب آخر، فإنّ ذلك سيؤدى إلى قيام حكومه من شأنها حفظ الأمن والاستقرار وإحياء القيم الإنسانيه، وبالعكس لو:

حل البخل بدل الكرم.

والجهل بدل العلم.

والعنف بدل الرأفة والرحمة.

وخاض الحكّام فى البذخ ونهب الأموال والثروات والتميز والظلم والجور، وتسللت الرشوة إلى الجهاز القضائى، وعطلت السنن الحسنه، فتأسس حكومه فاسده ينعلم فيها الدين كما تزول فيها الدنيا. . . ويا له من درس وعبره لحكّام الحق.

ص: ٢٧٤

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

يعط فيها ويزهد في الدنيا

نظره إلى الخطبه

تشمثل هذه الخطبه كما ورد في عنوانها على المواعظ والإرشادات والنصائح والوصيه بالزهد في الدنيا، وتتألف من أربعة أقسام هي:

١ - حمد الله والثناء عليه مع ذكر صفات الله سبحانه الخاصه والشهاده الخالصه للنبي صلى الله عليه و آله بالنبوه.

٢ - إشاره إلى انتهاء الأجل وسلخ الإنسان من كافه ممتلكاته التي حازها في الحياه الدنيا.

٣ - لزوم الاعتبار بحياه الأمم السالفه، وأولئك الذين جمعوا الأموال والثروات، فكان عاقبه دورهم أن أصبحت قبورهم، كما خلفوا للآخرين أزواجهم وأموالهم.

٤ - ضروره اغتنام فرض الدنيا وإعداد المتاع والزاد للآخره.

ص: ٢٧٧

١-١) سند الخطبه: نقلها بصوره متفرقه الآمدى - من علماء القرن الخامس - في كتاب «الغرر»، ويفهم من اختلافها مع ما ورد في نهج البلاغه أنها كانت في مصدر آخر غير نهج البلاغه، كما أشار ابن الأثير المتوفى عام ٦٠٦ هـ في «النهايه» إلى جوانب من هذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٩٨).

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى. الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَنَّ لَإِلَهَ غَيْرَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيَّهُ نَجِيَّهُ وَبَعِيَّتُهُ شَهَادَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِغْلَانُ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانُ» .

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبه بحمد الله والثناء عليه وذكر أوصافه الخاصة فقال: «نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى» .

والمراد من «أخذ» سلب النعم والآلاء الإلهية، والمراد من «أعطى» وهبها، ومن «أبلى» إعطاء النعمة و «إبتلى» الامتحان بواسه أخذ النعم، ومن هنا ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ هاتين العبارتين تفسيرتين (أى أن أخذ تعادل أبلى وأعطى تعادل ابتلى)، لكن يحتمل أن تكون الأولى إشاره إلى النعم المادية والثانية إشاره إلى النعم المعنوية، لأنّ المفردة «أخذ» كثيراً ما تستعمل فى الأمور المادية.

على كل حال يستفاد من العبارات المذكوره أنّ سلب النعمة قد يكون نفسه نعمة، لأنّ وفور النعمة سبب الغرور والابتعاد عن الله ومقاطعته الخلق، أضف إلى ذلك فإنّ الحمد تجاه سلب النعمة علامه على التسليم المطلق لمشيئه الله.

ثم أشار إلى ذكر ثلاثه أوصاف أخرى من أوصاف الله سبحانه وتعالى والتي تشكل فى

الواقع تحذيراً لكافة الأفراد الذين يراقبون أنفسهم ونياتهم فقال عليه السلام: «الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ (١)، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. الْعَالَمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ» .

فهذه الصفات تدلّ بوضوح على أنّ علم الله سبحانه علم حضوري، يعني أنّه حاضر وناظر في كل مكان، فالخفيات والعلنيات لديه على حدّ سواء، والحضور والغياب عنده واحد، فهو يعلم أسرار الصدور وخائنه الأعين، وهو علم بباطن كل شخص وكل شيء.

حقاً إنّ الإنسان لو تأمل حقيقته الحمد والثناء وذكر هذه الصفات وأمن بها إيماناً راسخاً لأدرك أنّ العالم حاضر عند الله تبارك وتعالى، ولله حضور في روحه وفكره، ولما قارف السيئه، بل لما فكر فيها.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبه بالشهاده لله بالوحدانيه وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوه، فقال عليه السلام: «وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبُهُ (٢) نَجِيهٌ وَبَعِيثُهُ (٣) شَهَادَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانُ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانَ» .

طبيعي أنّ الشهاده بهذين الركنين الأصليين الذين يشكلان أسس الإيمان تدعو الإنسان إلى نفي معبود آخر وتحذر من عباده الشيطان وهوى النفس الأماره، كما تدعو الشهاده بالنبوه إلى طاعه الإنسان لأوامر النبي صلى الله عليه وآله، ولا سيما الشهاده التي لا تقتصر على اللسان بل تتعزز بالقلب وروح الإنسان.

ص: ٢٨٠

١-١) اللام في «خفيه» بمعنى في أو بمعنى مع وكذلك اللام في «لكل سريره» .

٢-٢) «نجيب»: من ماده «نجاهه» الإنسان أو الشيء المصطفى والنفيس.

٣-٣) «بعيث»: من ماده «بعثه» بمعنى مبعوث.

و منها: «فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لِمَا لَلَّعِبُ، وَالْحَقُّ لَالْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيَهُ، وَأَعَجَلَ حَادِيَهُ. فَلَا يَغُرُّنَكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذَرَ الْإِقْلَامَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ - طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِتْعَادَ أَجَلٍ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزَعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مِأَمِنِهِ، مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَائِيَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرَّجَالُ الرَّجَالَ، حَمَلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ. أَمَّا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيدًا، وَيَبْنُونَ مَشِيدًا، وَيَجْمَعُونَ كَثِيرًا! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بِيُوتُهُمْ قُبُورًا، وَمَا جَمَعُوا بُورًا؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَأَفَى حَسَنِهِ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئِهِ يَسْتَعْتِبُونَ!». .

الشرح والتفسير

حذر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه الجميع في أنّ هذه الحياه الدنيا إلى زوال ولا بدّ من مفارقه هذه الدنيا عاجلاً أم آجلاً- والالتحاق بالآخره وتحمل تبعات الأعمال فقال: «فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لِمَا لَلَّعِبُ، وَالْحَقُّ لَالْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيَهُ (١)، وَأَعَجَلَ حَادِيَهُ (٢)». .

ولما كان الموت حقيقه واقعه بالنسبه لجميع الأفراد، وقضيه قطعيه تأبى الاجتناب، فقد

ص: ٢٨١

١- ١) اسمع فعل وداعى فاعل وضميره يعود إلى الموت ومفعوله محذوف وهو جميع الناس، أى إنّ داعى الموت أوصل صوته لیسع الجميع.

٢- ٢) «حادى»: من ماده «حدا» من يسوق الجمال بسرعه والعباره فعل وفاعل ومفعول محذوف كالجمله السابقه.

أَكَّدَ الإمام عليه السلام كلامه بأنواع التأكيدات (١)، والتي بلغت عشره أنواع حسب قول بعض شراح نهج البلاغه، فقال أن صوت داعي الموت يطرق الأذن من كل جانب وقد دوى صوت الرحيل ليملا- كاهه أرجاء العالم، وملك الموت لا يفرق بين كهل وشاب وطفل، فقد كمن للجميع ولا- ينتظر سوى أمر الله، ثم قال عليه السلام: «فَلَا يُعْرَنُكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَدَرَ الْأَقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ - طُولَ أَمَلٍ وَاسْتَيْعَادَ أَجَلٍ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَازْعَجَهُ (٢) عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ»، يمكن أن يكون للعبارة «فَلَا يُعْرَنُكَ سَوَادُ النَّاسِ»، معنيان:

الأول: إن رأيت الناس أحياء وسالمين فلا يخذعك ذلك ولا يغفلك من الموت.

والثاني: لا تخدعك جماعات الناس لأن تفكر في الحياه لا الموت، ومفهوم العبارة: «وَحَدَرَ الْأَقْلَالَ»، ابعاد النفس (حسب طنه) عن الفقر بجمع الأموال، والعبارة: «وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ» تعني تصور الشخص أنه بمأمن من عاقبه عمله بسبب الآمال الفارغه بأن الوقت مازال مبكراً على الموت، ولكن رغم كل هذه الآمال والأمانى، فقد فاجأهم الموت وأخرجهم بسرعه وعنف من وطنهم المألوف وطردهم من مكانهم الآمن، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن ذلك في الوقت الذي يحملون فيه على الأولاد وقد تناولتهم أيدي الرجال ليمسكوهم بالأنامل، وكانهم متنفرون ومرعبون من حمل توابيتهم بكامل أيديهم: «مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَائِيَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرَّجَالُ الرَّجَالَ، حَمَلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورته واضحه بهذه العبارات الصريحه والبلغه المؤثره لكيفيه نهايه حياه الأثرياء المرفهين والمغرورين بالجاه والمنصب، ولاسيما حين يدركهم الموت المفاجيء، فهي عبارات تمزق كاهه الحجب التي تسدل على عين الإنسان، كما توظف كل سامع من نوم غفلته.

ثم أضفى عليه السلام صورته أخرى على هذا المعنى مواصله لكلامه فقال: «أَمَّا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ

ص: ٢٨٢

١- ١) هذه الأنواع العشره من التأكيد هي: «ان» وضمير الشأن «إن» اعتبرنا الضمير في «أنه» ضمير الشأن والجمله الاسمييه والقسم بلفظ الجلاله والجد والألف واللام التي دخلت عليه ولا اللعب والحق ولا الكذب والاستفاده من الحصر في العبارة (ما هو إلّا. .).

٢- ٢) «ازعج»: من ماده «ازعاج» بمعنى الاقتلاع والاخراج.

بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً (١)، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخِرِينَ؛ لَأَفَى حَسَنِهِ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئِهِ يَسْتَعْتِبُونَ!

نعم، يفوق الإنسان من نوم الغفلة حين يصفعه الأجل، وفي تلك اللحظة تغلق صحف الأعمال تماماً، فلا من شيء يمكن إضافته إلى الحسنات، ولا يمكن تقليل شيء من السيئات، ولو سلب الإنسان حياته بينما بقيت صحف العمل مفتوحة والسبيل مشرع أمام تداركها فلا عقبه ولا ضير، إلا أنّ المشكله تكمن في غلق صحيفه الأعمال فلا مجال لتداركها، وهذا ما يجعل الإنسان يعيش الهم والغم.

ص: ٢٨٣

١-١) «مشد»: من ماده «شيد» على وزن بيد، لها معنيان: الأول بمعنى الارتفاع والآخر بمعنى الجص ومن هنا يطلق على القصور المرتفعه والعاليه التي تعانق السماء باقصور المشيده، كما تطلق على القصور المحكمه لتبقى محصنه من حوادث الدهر (في مقابل مساكن المستضعفين التي تبني عاده من الطين).

«فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبُهُ بَرَزَ [برز] [مَهْلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبَلُوا هَبْلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَرْوِدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ. وَقَرَّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ [للزوال] [] .»

الشرح والتفسير

خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة بعد مقدمات دقيقة أوردتها في بدايه ووسط هذه الخطبه بشأن علم الله بكل شيء سيمًا بأعمال العباد وثيَّاتهم وكذلك قرب الموت والاعتبار بحياه الماضين فقال: «فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبُهُ بَرَزَ (١) بَرَزَ مَهْلُهُ (٢)، وَفَازَ عَمَلُهُ». فمن الواضح أنَّ التقوى إذا تجذرت في أعماق قلب الإنسان ظهرت ثمارها على يديه ولسانه وعينه وسمعه، وذلك لأنَّ التقوى ملكه نفسه تتمثل بخشيه الله وهي الدافع القوي للإتيان بالأعمال الصالحه وحاجز عن الذنوب والمعاصي.

ثم واصل الإمام كلامه فقال: «فَاهْتَبَلُوا هَبْلَهَا (٣)، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا»، إشارة إلى أنَّ

ص: ٢٨٥

١- ١) «برز»: من ماده «بروز» بمعنى الظهور والسبقه، وتوضيح ذلك أنَّ هذه المفرده تكون أحياناً على هيئه ثلاثي مجرد (على وزن ضرب) بمعنى الظهور، وأحياناً أخرى من باب تفعيل (على وزن صرّف) بمعنى السبقه، وقد استعملت في العبارة الثاني، وإن وردت بصيغه الثلاثي المجرد في بعض النسخ.

٢- ٢) «مهل»: له معنى الاسم المصدرى وتعنى الوفق والمداراه، كما تستعمل بمعنى الفرصه للقيام بالعمل الصالح.

٣- ٣) «هبل»: نعى أحياناً الهلكه وفقدان الشيء أحياناً، وأخرى بمعنى الغنيمه والاهتبال بمعنى الخدعه، كما يعنى الاغتنام والاستيلاء على شيء، والمعنى الثاني هو المراد بالعبارة.

الجَنَّة لا- تعطى لأحد بالمجان، كما لا- تتأتى من خلال الظن والتصور والخيال والزعم الفارغ، فمفتاح الجَنَّة الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تنبعث من التقوى.

ثم قال عليه السلام فى مواصلة لشرح وضع الدنيا والآخرة ومنزله كل جماعه: «فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِيَتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالِ إِلَى دَارِ القَرَارِ»، فالنظره الإسلاميه التى تعرض لها القرآن الكريم ونهج البلاغه مراراً تكمن فى أنَّ الدنيا دار ممر وأنها قنطره وميدان للتدريب وبالتالى فهى متجر ومقدمه للآخرة الموضوع الأصيلى للإنسان، وإن اعتمدنا هذه النظره للدنيا آنذاك سيبدو لنا كل شىء بصيغه أخرى وستحول دون مقارفتنا للذنوب والظلم، وتسوقنا نحو الخير والاحسان.

أمياً أتباع المدارس الماديه التى ترى الدنيا ولذاتها هدفها النهائى، وقد غفلت تماماً عن الآخرة، فليس هناك من حد لتلوثها بالذنوب والنزاعات من أجل الاستحواذ على الأموال والمناصب الظاهريه، وعليه فلا أمل فى إطفاء غائله المعارك والنزاعات بينها، وأخيراً خلص الإمام إلى نتيجة رائعه عميقه المعنى فقال: «فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ (١). وَقَرَّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ (٢)»، فى إشاره إلى أنَّ الوقت ضيق والموانع كثيره وزمان الرحيل مجهول تماماً، ولا ينبغى أن يقتصر التأهب على الكهول، بل لابد أن يعيش ذلك التأهب حتى الشباب على الدوام، فما أكثر من بقى من الآباء الكهول والعجزه، بينما رحل الشباب الأشداء.

نتيجه الخطبه

أشار الإمام فى هذه الخطبه إلى أمور مهمه يمكن إيجازها فى ما يلى:

١ - لفت الأنظار فى بدايه الخطبه إلى حضور الله سبحانه فى كل مكان وعلمه بخفايا الإنسان وباطنه، ليراقب الجميع أعمالهم.

ص: ٢٨٤

١-١) «أوفاز»: جمع «وفر» على وزن نبض السرعة والعجله والاستعداد للسفر.

٢-٢) «الزِّيَال»: بمعنى الفراق والعباره «قربوا الظهور للزِّيَال» تعنى أعدوا المراكب للرحيل من الدنيا ولازمه ذلك الإتيان بالأعمال الصالحة والتوبه من الذنوب وأداء حقوق المخلوق والخالق.

٢ - عدّ الشهاده الحقيقه بالوحدانيه للحق والنبوه للنبي صلى الله عليه و آله من العلم الذى ينسجم فيه الظاهر والباطن وينفصل عن كل نفاق.

٣ - إلفات إنتباه الجميع إلى قرب الموت والرحيل عن الدنيا وهو سبب اليقظه والعلم.

٤ - دعى مخاطبيه لمطالعه تاريخ الماضين من خلال الكتب والآثار التى خلفوها فى المدن والمناطق، ليعلموا أنّ ذلك المصير ينتظرهم مهما كانوا ومهما بلغوا.

٥ - دعى الجميع إثر تلك المواعظ والإرشادات إلى الروع والتقوى، التقوى التى تخترق أعماق قلب الإنسان وتظهر آثارها على جميع أفعاله وممارساته.

٦ - يذكر كافه مخاطبيه بهذه النقطه وهى عدم إعطاء الجنّه لأحد دون حساب، بل لها ثمن لا يبلغها العبد إلّابيه.

٧ - يستعرض أخيراً هذا الأمر فى أنّ الدنيا ممر ولا مقر، متجر ينبغى للجميع التزود منه فيستعدوا فى كل آن للرحيل والانطلاق.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يُعْظَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَيَذْكَرُ الْقُرْآنَ وَالنَّبِيَّ وَيَعْظُمُ النَّاسَ

نظره إلى الخطبه

يتضح من النظرة الإجمالية إلى الخطبة أنها تتألف من خمسة أقسام مهمته هي:

القسم الأول: يتحدث عن عظمه الله وقدرته المطلقة وسجود كافة المخلوقات لذاته المقدسه.

القسم الثاني: إشاره إلى عظمه القرآن الكريم وخلوده.

القسم الثالث: في النبي صلى الله عليه وآله وأن الله سبحانه أرسله بعد فتره وختم به النبوه.

القسم الرابع: الحديث عن تفاهه الدنيا ودعوه الجميع لليقظه والتعرف على الدنيا والتزود منها.

القسم الخامس: وعظ المخاطبين والعود على التذكير بالقرآن وعظمته ولزوم التدبر في آياته، وهكذا يعرض اطروحه كامله لأهل الحق لنيل السعاده.

ص: ٢٨٩

(١-١) سند الخطبه: لم يجد كاتب مصادر نهج البلاغه سنداً آخر لهذه الخطبه، سوى ما قاله ابن أبي الحديد من أن ما ورد في هذه الخطبه جزء اقتطفه السيد الرضى من خطبه طويله، فيراه دليلاً على أنه أصل الخطبه وإن لم يشر إلى سندها، ولكن يحتمل أن يكون كلام ابن أبي الحديد استنباطاً لهذه الخطبه في نهج البلاغه، لأن السيد الرضى بين من خلال تعبيره «منها ومنها» والذي كرره في هذه الخطبه أنه قطعها، كما أن عدم إرتباط أجزائها يفيد أن أصل الخطبه طويل جداً، وقد ذكرها الآمدى في «الغرر» ويحتمل أنه نقلها من مصدر آخر.

«وَأَنْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ بِأَزْمَتِهَا، وَقَدَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُونَ مَقَالِيدَهَا، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النَّيْرَانَ الْمُضِيئَةَ، وَآتَتْ أَكْلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثَّمَارُ الْيَانِعَةَ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع فى بيان طائفه من أوصاف الله تبارك وتعالى، وأشار بخمس عبارات إلى أمور دقيقة بهذا الشأن فقال: «وَأَنْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ بِأَزْمَتِهَا (١)» .

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام شبه الدنيا والآخرة بالحيوانات السلسه والمروضه التى أسلمت زمامها فيقودها حيث يشاء، ثم قال عليه السلام فى العبارة الثانية مؤكداً ذات المعنى السابق بصيغته أخرى: «وَقَدَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُونَ مَقَالِيدَهَا (٢)» ، فهو يفتح ما يشاء ويغلق ما يشاء ويفعل كل ذلك على أساس الحكمة، وأشار فى العبارة الثالثة إلى سجود الأشجار والناضرة لذاته المقدسه وقال عليه السلام: «وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ (٣) الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ» .

صبغاً التركيز على الأشجار الناضرة لا يعنى الحصر، بل نموذج من أجمل الكائنات الحيه

ص: ٢٩١

١- (١) «أزمه»: جمع زمام اللجام.

٢- (٢) «مقاليد»: قال أغلب أرباب اللغة مقلد وقال البعض الآخر جمع مقلاد بمعنى مفتاح، وقال صاحب «لسان العرب» أنّ أصلها فارسى كليلد الذى يعنى المفتاح، كما قال صاحب «لسان العرب» تأتى أحياناً بمعنى الخزائن إلّا أنّ المعنى الأول أنسب وأكثر إنسجاماً مع العبارة أزمه فى الجملة السابقه وقذفت فى هذه الجملة.

٣- (٣) «غدو»: جمع «غدوه» بمعنى الصباح، و «الأصال» جمع أصل على وزن رسل وهى جمع من ماده أصل بمعنى العصر وآخر النهار واعتبر بعض أرباب اللغة الآصال والأصل جمع أصيل.

لعالم الخليقه، كما يشير الغدو والآصال إلى جميع الأوقات، كقولنا إنا فى خدمه نشر المبادئ الإسلاميه ليل ونهار، أى فى جميع الأحوال والأوقات، ومن هنا أطلق القرآن الكريم القول: «وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ» (١)، كما يحتمل أن تكون آثار الله وعظمته أوضح فى الأشجار حين شروق الشمس وغروبها أكثر من أى زمان، ويمكن أن يكون هذا السجود بلسان الحال، لأن نظامها الدقيق يعكس علم خالقها وقدرته المطلقة، كما يمكن أن يكون بلسان القول، وبناءً على تمتع كافه ذرات كائنات العالم بالعلم والشعور وتسييحها لله سبحانه عن علم وسجودها له.

وقال عليه السلام فى العبارة الرابعه: «وَقَدَحَتْ (٢) لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا (٣) النَّيْرَانَ الْمُضِيئَةَ» .

وهذا من عجائب القدره الإلهيه بأن يخلق ماده بين الماء والتراب تكون مركزاً للنور والضوء، وذلك الضوء الذى تحل من خلاله أغلب مشاكل الإنسان.

ثم قال عليه السلام: «وَأَتَتْهُ أَكْلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثَّمَارُ الْيَانِعَةُ (٤)» .

اسجام الآيات والروايات

تتفق عبارات الخطبه التى تضمنت آثار التوحيد الله وعظمته وما ورد فى الآيات والقرآنيه، فقد ورد فى موضع من القرآن الكريم: «لَهُ الْحَمِيدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْحَكِيمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (٥)، وفى موضع آخر: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (٦)، وكذلك: «أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ...» (٧)، وورد أيضاً: «الَّذِي

ص: ٢٩٢

[١- ١] سورة الرحمن / ٦. [١]

[٢- ٢] «قدحت»: من ماده «قدح» على وزن مدح بمعنى ضرب الحجر بالسندان لتوليد شعله النار التى كانت شائده سابقاً، ثم وردت بمعنى اشتعلت.

[٣- ٣] «قضبان»: جمع قضيب بمعنى عَضن الشجره وقضب على وزن نبط بمعنى الفاكهه.

[٤- ٤] «يانعه»: من ماده «ينع» على وزن منع بمعنى نضج الفاكهه.

[٥- ٥] سورة القصص / ٧٠. [٢]

[٦- ٦] سورة الزمر / ٦٣. [٣]

[٧- ٧] سورة الحج / ١٨. [٤]

جَعِيلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ» (١)، وقال: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ. . .» (٢).

على كل حال كلما تأملنا آيات القرآن الكريم وخطب نهج البلاغه كهذه الخطبه اتضح لنا عظمه الحق تبارك وتعالى وقدرته ونعمته فتشير الدنيا حس الشكر له لنتوى من العين الصافيه لفرات معرفته وتعرفنا على صفات جماله وجلاله.

ص: ٢٩٣

١-١) سورة يس / ٨٠. [١]

٢-٢) سورة الانعام / ١٤١. [٢]

منها: «وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لَّا يَغِيَا لِسَانَهُ، وَبَيْتٌ لَّا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَّا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع القصير من كلامه بالحديث عن أهميته كتاب الله القرآن الكريم، وقد أدى حق المطلب بثلاث عبارات قصيره وبلغه: «وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ (١) نَاطِقٌ لَّا يَغِيَا لِسَانَهُ، وَبَيْتٌ لَّا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَّا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ» .

فقد أشار في العبارة الأولى إلى هدايه القرآن في كل زمان ومكان وتحت أية ظروف، وإن بدا صامتاً، لكنّه تحدث بمئه لسان، وقد سمعه كل من جلس إليه ومنحه آذاناً صاغية، فهو لا ينفك يلقن الإنسان دورس الحياه السعيده، والعبارة: «لَّا يَغِيَا لِسَانَهُ»، يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ تقادم الزمان لا يؤثر مطلقاً على حقائق القرآن الكريم، وهو غض طرى على الدوام كما صورته الأخبار والروايات (٣).

وأشار في العبارة الثانيه إلى نقطه أخرى حفظ القرآن الكريم، فكما يحفظ البيت المستحکم

ص: ٢٩٥

١ - ١) «أظهر»: جمع «ظهر» كل شيء، والتعبير بين أظهركم تعنى في أغلب الموارد الدفاع عن الشيء، وذلك لأنّ الأفراد إن أرادوا الدفاع عن منطقهم ولوا إليها ظهورهم وإلتفوا حولها واستقبلوا العدو، ثم استعملت هذه المفرده حين يكون الشخص وسط جماعه سواء دافعوا عنه أم لم يدافعوا، وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

٢ - ٢) «يعيى»: من ماده «عى» على وزن حى بمعنى التعب والعجز، وقال الراغب في المفردات تعنى في الأصل العجز الذى يعرض لجسم الإنسان إثر كثره المشى، ثم اطلقت على كل تعب وعجز.

٣ - ٣) ورد هذا الكلام في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «هو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم

القيامه» (بحار الانوار ٢/٢٨٠). [١]

ذا الأعمده القويه أصحابه من مخاطر الحوادث والحراره والبروده والحيوانات الوحشيه والأعداء واللصوص، فإنّ القرآن الكريم يتكفل بحفظ أتباعه من الانحراف والضلال ووسوسه الخناسين وإلقاءات الشياطين.

وأشار فى العبارة الثالثه إلى هذه الحقيقه وهى أنّ قدره الإنسان لا تقهر إن لاذ بالقرآن وهبّ لنصرته، وذلك لأنّ قدره هدايه القرآن تستند إلى قدره الله سبحانه وقدره الله قاهره لا تغلب، وبفعل مصداق الآيه الشريفه: «إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ. . .» (١)، فمن تأيد بنصر القرآن لن يهزمه عدو.

القرآن الناطق

لعل العبارة التى وردت فى هذا المقطع من الخطبه والتى عبّرت عن القرآن الكريم بأنّ «نَاطِقٌ لَّيَعْبِي لِسَانُهُ» تشير هذا السؤال: كيف التوفيق بين هذه العبارة وما ورد عن الإمام فى الخطبه ١٥٨ بشأن القرآن إذ قال عليه السلام: «ذَلِكَ الْقُرْآنُ، فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ».

وكذلك العبارة التى وردت فى الخطبه ١٨٣ إذ قال عليه السلام: «فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ»، أو ليس هناك من تضاد بين هذه العبارات؟

تتضح الإجابة على هذا السؤال من أدنى دقّه وتأمّل، بعبارة أخرى فإنّ العبارات المذكوره تفسر بعضها البعض الآخر، لأنّ القرآن حين يعبر عن القرآن بالصامت والناطق فمفهوم ذلك أنّ كل تعبير ناظر لشيء، مثلاً يمكن القول: القرآن صامت من حيث الظاهر، لكنّه فى الواقع تحدث بصوت جلى بليغ، أو أنّه صامت إزاء الأفراد السطحيين بينما ناطق هو تجاه العلماء المفكرين، أو أنّه ناطق فى مواصلة الطرق العمليه الأصوليه، أمّا بالنسبه لتطبيقها على مصاديقها استنباط الأحكام الفرعيه (كقضيه التحكيم فى حادثه معركة صفين)، فيجب على المجتهدين أن ينطقوا عنه، ويمكن جمعها معاً فى مفهوم جامع لكلام على عليه السلام وسيأتى مزيد من التوضيح فى ذلك هذه الخطبه.

ص: ٢٩٦

منها: «أرسله على حين فتره من الرُّسُلِ، وتنازع من الألسنِ، ففقى به الرُّسُلِ، وختم به الوحي، فجاهد في الله المديرين عنه، والعادلين به» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في المقطع الأول والثاني عن صفات الله سبحانه والقرآن الكريم، ثم أشار هنا بعبارات قصيرة عميقة المعنى إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أن الله تعالى أرسله بالإسلام بعد مدّة وفتره من الرسل السابقين حين كان النزاع قائماً على قدم وساق بين الأفراد في دفاع كل عن معتقده فقال: «أرسله على حين فتره (١) من الرُّسُلِ، وتنازع من الألسنِ» .

فالعباره: «تنازع من الألسنِ» ، إشاره إلى أن الحوادث التي تدور بين أتباع المذهب المختلفه بما فيهم عبده الأوثان وأهل الكتاب ومن ليس له دين وعقيدته، لم تكن حوارات منطقيه ذات محتوى فكري وعقلي، بل كان كل يسطر بعض الألفاظ بدافع التعصب لإثبات أحقيته، بل كان هذا النزاع والاختلاف اللفظي أحياناً مصدر معارك طاحنه وسفك دماء غزيره.

ثم قال عليه السلام: «ففى (٢) به الرُّسُلِ، وختم به الوحي» ، فقد أشار الإمام إلى نقطتين: الأولى أن رسول الله صلى الله عليه وآله و آله واصل مسيره الأنبياء الماضين، وذلك لأن مسرتهم بصوره كليه واحده، والثانيه أنه بلغ بتعاليمهم الكمال وختم بهم النبوه، ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول: «فجاهد في الله المديرين عنه، والعادلين (٣) به» .

ص: ٢٩٧

١-١) «فتره»: وفتره تعنى فى الأصل الهدوء والاستقرار وتأتى أحياناً بمعنى الضعف والفتره، وتطلق على الفاصله بين حركتين أو حادثتين أو انقلابين، ومن هنا عبروا بالفتره عن الفاصله بين ظهور الانبياء.

٢-٢) «ففى»: من ماده «ففا» بمعنى ظهر، كما ورد بمعنى خلف الشىء فى المجيىء.

٣-٣) «العادلين»: جمع «عادل» من ماده عدل على وزن فكر بمعنى المعادل والشبيه والمثيل وإن وردت من ماده عدل على وزن نظم عنت العداله، ومن ماده العدول بمعنى الانحراف والرجوع عن الشىء، وعليه فالعادل على ثلاثه معانى، وأريد بها المعنى الأول فى الخطبه (لابد من الالتفات إلى أن المعنى الأول يتعدى عادة بالباء والمعنى الثالث بواسطه عن) .

فالواقع هو أنّ الكفّار فريقان: فريق نسي الله تعالى بالمرّة ولا يعتقد بالحق، وفريق آخر مشرك جعل لله سبحانه شريكاً، وقد جاهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كلا الفريقين، جهاد ثقافي وإعلامي وخاضه لمدّة ثلاث عشرة سنة وقد أسلم العديد منهم، وعندما شاهد الفريق المعاند الذي حال دون إقبال الناس على الدين الله خاض الجهاد المسلح ليقضى على تلك الموانع دون أن يجبر أحداً على قبول دينه ذلك لأنّه: «لَمَّا كَرَاهَ فِي الدِّينِ . . .» (١)، وزبده الكلام فقد أوجز الإمام عليه السلام جميع أنشطته نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في الجهاد، وهو الجهاد ذو المفهوم الواسع والذي يشمل كل سعي وجهد من أجل نشر دين الحق، والعبارة جاهد في لله إشارة لطيفة في أنّه لم يكن أسيراً للمال أو المقام والجاه والجلال، بل جاهد من أجل الله سبحانه وسعى لنجاه العباد.

ص: ٢٩٨

منها: «وَأَيْنَمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصِيرِ الْأَعْمَى، لَأَيُّبَصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ يُنْفِذُهَا بِصِيرِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ. وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَرَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَرَوِّدٌ» .

الشرح والتفسير

أورد الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه كما ذكر ذلك الشارح البحرانى عدّه نقاط لطيفه ورائعه رغم اقتضاها، وقد لفت الأنظار إلى الأصول التى تعد معالم حياه الأفراد فقال: «وَأَيْنَمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصِيرِ الْأَعْمَى» . ثم أكمل ذلك بقوله: «لَا يُبَصِّرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ يُنْفِذُهَا بِصِيرِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا» .

نعم، فعباد الدنيا وبسبب حبهم وشغفهم بزخارف الدنيا وزبرجها كالمحبوس فى سجن لا يرى سوى ما فى داخل السجن، فأما نظرهم ضعيف، أو هناك حجب تحيط بأطرافهم، أو كلاهما، وأما دعاه الحق فنظرهم ثابت ولا حجاب لهم، ومن هنا فهم يرون ببصيرتهم الثاقبه الدار الآخره منزلهم الأبدى الخالد بكل وضوح فليس لهم من هم سواها والحق إننا عرفنا الدنيا كما هى تبع ذلك الإيمان بالآخره، وذلك لتعذر فهم الدنيا دون الآخره، فهل خلق الخالق الحكيم كل ما فى هذا العالم الواسع ليعيش الإنسان هذه المدّه المعينه فى أكل ويشرب وينام ويصحو بالتالى يموت ويوارى جثمانه الثرى ويدع النسيان؟ والحال بدايه عمره كنهايته ممزوجه بالضعف والعجز، ووسطه الذى يمكن الاستفاده منه مشوب بأنواعه المشاكل المصائب والآلام والمعاناه؟ هل هناك حكيم يقوم بمثل هذا العمل الطائش؟ ولذلك صرح

القرآن الكريم: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» (١).

وقال فى النقطة الثانية التى تمثل فى الواقع نتيجة بالنسبة للنقطة الأولى: «فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاحِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاحِصٌ» .

وبناءً على هذا فقد استعمل الشاخص بمعنيين وما يصطلح عليه بالجنس التام، المعنى الأول من مائه شخوص بمعنى الرحيل والمفارقة، والمعنى الثانى التطلع وتصويب العين نحو موضع والتخلف عن الحركة، وكأن العين تريد مغادره الحدقه، وللعبارة تفسير آخر اقتصر على ذكره شراح نهج البلاغه وهو أن الشاخص هنا يعنى الراحل غايه ما فى الأمر تطلق حين يقال «منها شاخص» ، كما يقال «إليها شاخص» وهذا هو الفارق بين من كانت له بصيره والأعمى، وقال فى النقطة الثالثه والأخيره: «وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ» .

فهل البصيره يتزودون من الدنيا للآخره كما صرح بذلك القرآن الكريم: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٢)، بينما يتزود عمى القلوب من أجل العيش فى الدنيا، فهناك اختلاف تام بين المسيرين بتعين فقط بكلمه «منها» و «لها» .

التعامل مع الدنيا

هناك على الدوام نظرتان يمتلكها الإنسان تجاه الدنيا، فأتباع الأديان السماويه يرون الدنيا بصفتهها منزلاً لا بد من التزود فيها إلى الآخره، يبلغون مرادهم بواسطه هذا الزاد والمتاع وليس لهم من مراد سوى السعاده الأبدية والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، أمّا أتباع المدرسه الماديه (والمدارس التى تتفق معها) فهم ينظرون إلى الدنيا على أنها الهدف النهائى والغايه فيوظفون كافه طاقاتهم ويجندون قواهم من أجل الظفر بها، وأحياناً يتفق أصحاب النظرة الأولى فى العمل مع أتباع النظرة الثانية، يعنى رغم اعتقادهم بأن الدنيا وسيله لنيل الآخره، إلا أن عملهم يشير إلى نسيان ذلك الاعتقاد وتعاملهم مع الدنيا كههدف نهائى ومن هنا وردت

ص: ٣٠٠

١-١) سورة الروم / ٧. [١]

٢-٢) سورة البقره / ١٩٧. [٢]

تحذيرات أئمة الدين التي تهدف إيقاظهم من الغفلة، فيقولون أحياناً: «تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ» (١).

وأخرى يقولون: «النَّاسُ عَيْبُ الدُّنْيَا وَالِدُّنْيَا لَعْرَقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ» (٢)، كما يقولون: «الدنيا: تَعْرُ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ» (٣).

وأخيراً يقولون: إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى، ولا يبصر ما وراءها شيئاً والبصير ينفذها بصره، ويعلم أنّ الدار وراءها.

وأعظم مانع من الافراد، وأهم وظائف أئمة الدين إيقاظ هؤلاء الأفراد ولفت إنتباههم إلى أنّ الدنيا ممر لا مقر.

ص: ٣٠١

١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٤.

٢-٢) بحار الانوار ٤٤/٣٨٣. [١]

٣-٣) نهج البلاغه، قصار الكلمات ٤١٥. [٢]

منها: «وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا- وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمْلُهُ إِلَّا- الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلِهِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصِيرَةٌ لِلْعَيْنِ الْعَمِيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمآنِ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ. كِتَابُ اللَّهِ تُبَصِّرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَمَّا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ، وَلَمَّا يَخَالَفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ. قَدْ أَضَى طَلْحَتُمْ عَلَى الْغُلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دَمِنِكُمْ. وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْأَمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ. لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكُمْ الْخَيْثُ، وَتَاهَ بِكُمْ الْغُرُورُ، وَاللَّهُ الْمُشْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع إلى مسائل مهمه وقضايا مختلفه لا يبدو أنها مرتبطه مع بضعها، ومن هنا يعتقد بعض شراح نهج البلاغه أن هذه العبارات قطوف اختارها المرحوم السيد الرضى من خطبه طويله مرتبطه، وذلك لأنه رآها أعظم فصاحه وبلاغه، وإلى هذا يعود سبب عدم رؤيتنا لإرتباط واضح بينها، ومع ذلك فهناك حكمه بالغه تختزنها هذه العبارات، فقد ساق في البدايه تشبيها من أجل لفت الأنظار إلى أهميه العلم الذى يمثل حياه قلب الإنسان فقال: «وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا- وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمْلُهُ إِلَّا- الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً» .

وقد صرح أغلب شراح نهج البلاغه هنا سؤالاً وهو: لا ينسجم هذا التعبير مع ما ورد فى

بعض الآيات والروايات التي تصور راحة أولياء الله سبحانه في الموت، ومن ذلك ما ورد في سورة الجمعة: «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١). وما ورد في سورة الواقعة: «فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ» (٢).

فمن الطبيعي ألا يكره الموت من يرى نفسه على أعتاب الروح والريحان والجنَّة المليئة بالنعم، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ رَاحَةٌ دُونَ لِقَاءِ اللَّهِ» (٣)، كما ورد هذا المعنى بعبارته أخرى عن الإمام الصادق أنه قال: «لَا رَاحَةَ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا عِنْدَ لِقَاءِ اللَّهِ» (٤).

وجاء في الدعاء المعروف للإمام علي بن الحسين عليهما السلام في يوم الثلاثاء: «وَأَجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَالْوَفَاةَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ». وقد ذكرت عدده أجوبه على هذا السؤال أوضحها جميعاً أنّ هذه العبارة إشارة إلى الناس الذين يهربون عادة من الموت، بينما ليس لأمر كذا لك بالنسبة لخواص الله سبحانه، كما يحتمل أن يكون المراد كراهه حتى أولياء الله تعالى للموت بفضلها نهاية التزود ومواصلة مسيرتهم التكاملية، على كل حال فقد أراد الإمام علي عليه السلام هذه المقدمه على أنّها نتيجة وتشبيه للعلم والمعرفة التي يرتوي منها الإنسان مطلقاً فقال: «وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعُمَيَّاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَاءِ، وَرِيٌّ (٥) لِلظَّمْآنِ (٦)، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ».

فالواقع أراد الإمام عليه السلام أن هناك نوعين من الحياه حياه ماديه وجسمانيه والتي لا يشبع منها الناس غالباً، والحياه المعنويه والروحانيه والأفضل منها العلم والمعرفة التي لا يرتوي منها العقلاء والعلماء قط، وبناءً على هذا فإنّ المشار إليه «ذلك» بالضبط هو ذلك الشيء الذي ورد

ص: ٣٠٤

١-١ (١) سورة الجمعة / ٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة الواقعة / ٨٨ - ٨٩. [٢]

٣-٣ (٣) شرح نهج البلاغه، لابن ميثم ٣/١٥٧. [٣]

٤-٤ (٤) بحار الانوار ٦٩/٦٩. [٤]

٥-٥ (٥) «رى»: له معنى مصدرى هو الارتواء.

٦-٦ (٦) «الظمان»: من ماده «ظماً» على وزن طمع بمعنى العطش.

قبل ذلك وهو الحياه الماديه التي لا يشيع منها الناس، والغريب هنا كما أورده شراح نهج البلاغه حيث ذكر كل واحد منهم احتمالاً للعبارة المذكوره، الحال تفسيرها واضح وهو يشبه ما ورد في إحدى قصار الكلمات لأمير المؤمنين على عليه السلام إذ قال: «مَنْهُمَا لَ يَشْبَعَانِ: طَالِبٌ عِلْمٍ وَطَالِبٌ دُنْيَا» (١).

على كل حال فالمراد بالحكمه فى العبارة المذكوره هو العلم والمعرفه التى تقرب الإنسان من الله وتنظم أموره الماديه والمعنويه وتحول دون أعماله العبيثه، وبعبارة قصيره كما وردت فى القرآن الكريم فإنّ الخير الكثير يعود إلى صاحبه: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا. . .» (٢).

وقد بيّن الإمام عليه السلام فى عبارته المذكوره العميقه المعنى الأوصاف الخمسه للحكمه وكشف عن منزلتها فى حياه الإنسان الماديه والمعنويه، فقال أولاً إنّ الحكمه حياه القلب الميت، يعنى أنّ الأرواح والأفكار التى تصبح بفعل الجهل كالأموات خاليه من أية حركه إيجابيه، إنّما تعود إلى الحياه فى ظلّ العلم والحكمه فتحيًا وتمارس الحركه.

وثانياً وثالثاً أنّ الحكمه تبصر الأعمى وتسمع الأصم وتوضح الحقائق لمن غطت الحجب بصره وأثقل الوقر أذنه، بحيث يرى الحق فى كافه أنحاء الخلق ويسمع نداء تسييح الكائنات ويدرك رسالته أولياء الله سبحانه، وقال فى الوصف الرابع والخامس أنّ عطشى الحق لا يرتوون من منابع الحكمه ويجدون فيها أسباب عافيتهم وسلامتهم، وعليه فلن يبقى من الخير والبركه والسعاده شيئاً إلّا وقد اخترنته الحكمه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن القرآن الكريم والذى يراه بعض شراح نهج البلاغه أنّه جمل استثنافيه قطع إرتباطها بالعبارات السابقه بسبب ما اعتمده السيد الرضى فى الانتخاب (٣)، ولكن كما أورد المرحوم البحرانى فأنّه لا يمكن القول أنّ ليس هناك إرتباط بين هذه العبارات وسابقتها حيث بينت أحد منافع الحكمه المهمه وهى القرآن الكريم، أو بعبارة

ص: ٣٠٥

١-١) نهج البلاغه، قصار الكلمات ٤٦٦. [١]

٢-٢) سورة البقره / ٢٦٩. [٢]

٣-٣) هذا الاحتمال مختار ابن أبى الحديد والمرحوم الشارح الخوئى ومحمد عبده.

أخرى قد ركزت على المصداق التام للحكمه، والجدير بالذكر أن الأوصاف التي بينتها للقرآن تشبه الأوصاف التي بينتها العبارات المذكوره للحكمه، على كل حال فقد قال كتاب الله الذى تبصرون به الحقائق وتحدثون به، وتسمعون به ينطق بعضه البعض الآخر (وتفسر فيه المتشابهات على ضوء المحكمات) ويشهد بضعه على البعض الآخر (ويؤيد بعضه الآخر) ولا يختلف ما يقوله فى الله، ومن يصحبه لا يخلاف الله: «كِتَابُ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ» .

والأوصاف السبعه التى بينها الإمام عليه السلام بشأن القرآن تشبه من جهات الأوصاف الخمسه التى بينها بصوره كليه بخصوص الحكمه.

والجدير بالذكر أن الحكمه اقترنت بالكتاب فى غلب الآيات القرآنيه (١)والذى يدل على العلاقه الوثيقه بينهما وأن رسل الله سبحانه كانوا يمضون قدماً فى ظلّهما (الكتاب والحكمه) .

من جانب آخر فإن الأوصاف التى تضمنتها عبارته بشأن القرآن الكريم فى أنه أساس البصر والسمع والنطق، وقد وردت الإشاره إليها فى بعض الآيات القرآنيه ومن ذلك الآيه: «قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ...» (٢).

ومما لا شك فيه أن الآيات الإلهيه ودلائل الحق قد وردت بكثره فى القرآن الكريم بحيث يسع الإنسان بواسطتها رؤيه جمال الحق ويسمع نداء الله تبارك وتعالى، وهناك فارق واضح بين العباره: «يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ» والعباره: «يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ»، لأن الحديث فى العباره الأولى عن آيات القرآن التى يفسر بعضها البعض، وتتضح المتشابهات فى ظل المحكمات، وأما العباره الثانيه فتتحدث عن إنسجام آيات القرآن وكل منها يعاضد الأخرى وتشهد على صدقها، وبالعباره: «وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ»، إشاره إلى عدم اختلاف القرآن الكريم فى بيان صفات الجمال والجلال التى تعدّ من أهم مباحث القرآن الكريم، ويتحدث بجميع آياته عن تلك الذات المقدسه الجامعه لكافه الكمالات اللامتناهيه، والعباره: «وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ». إشاره إلى أن أى من آيات القرآن لا تبعد الإنسان عن مسار الحق، بل

ص: ٣٠٦

١-١) سورة البقره / ١٢٩، ١٥١؛ [١] وآل عمران / ٤٨، ٨١... [٢]

٢-٢) سورة الانعام / ١٠٤. [٣]

تأخذ بيده إليه، فمن تمسك بالقرآن لن يضل أبداً، ومن رجاه لا يخيب، فالقرآن يعرّف نفسه: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (١).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه كطييب حاذق وحكيم ماهر فخاض في بيان معاناه مخاطبيه المعنويه وقد ذكرهم بنقطه مهمه، كيف ولم عجزتم عن مواصلة سبيل الحق وعندكم هذا القرآن - وعليه لا- يبدو صواباً ما أورده شراح نهج البلاغه من عدم إرتباط العبارات اللاحقه بالعبارات السابقه، فقال باديء الأمر كأنتي بكم قد إتفقتم على الخيانه والحسد والحقد: «قَدْ أَضِيَّ طَلْحُكُمْ عَلَى الْعِغْلِ (٢) فِيمَا بَيْنَكُمْ». ثم قال: «وَوَبَّتِ الْمَرْعَى عَلَى دِمْنِكُمْ (٣)»، إشاره إلى أن أعمالكم الخاطئه إنما تفرزها أفكاركم الملوثة، وأضاف في بيانه لنقطه ضعفهم الرابعه والخامسه فقال: «وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْأَمْالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ»، فنقطه اشتراككم تكمن في تعلقكم بالآمال والأمانى الفارغه، ونقطه اختلافكم في كسب المال، حيث يريد كل منك أن يختطف المال الذى فى يد غيره.

والواقع يمكن خلاصه نقاط ضعفهم فى أربع كلمات هى الحقد والحسد والرياء وطول الأمل والنزاع من أجل كسب المال، والحق أن المجتمع لن يرى الأمن والاستقرار إن سادته هذه الرذائل، ولا يسوده سوى النزاع والقتال وأنواع التوتر، كما لا يعيش سوى الضعف والوهن تجاه العدو الخارجى، وإن طالعتنا بعض مظاهر الجمال فى هذا المجتمع فهى بمثابة الزهور الجميله التى تنبت فى المزابل وجذورها عفنه، وكأن الإمام عليه السلام أراد أن يفهمهم هذه القضية وهى أن المبادئ التى سادت المجتمع الجاهلى قبل الإسلام والنسب والى وردت الإشاره إليها فى صدر هذه الخطبه قد إنتعشت اليوم مره أخرى فى وسطكم، ثم أشار الإمام عليه السلام فى آخر الخطبه إلى أحد الأركان المهمه لانحرافهم والذى يتمثل بوساوس الشياطين والتى جعلتهم يضلون سبيل

ص: ٣٠٧

(١- ١) سورة النساء / ٨٢. [١]

(٢- ٢) «غل»: من ماده «غلول» أو غلل على وزن أفول وأجل تعنى فى الأصل النفوذ التدريجى والخفى للماء فى جذور الأشجار، ثم اطلق الغل الذى له معنى (الاسم المصدرى) على الخيانه لأنها تحصل بصوره تدريجيه وخفيه.

(٣- ٣) «دمن»: جمع «دمنه» على وزن فتنه بمعنى السارقين، كما يطلق على الحقد القديم.

السعادة والنجاه: «لَقَدْ اسْتَهَمَ بِكُمْ الْخَيْثُ، وَتَاهَ (١) بِكُمْ الْغُرُورُ (٢)، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ». قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا. . .» (٣)، كما قال: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» (٤)، استهام من ماله هيام على وزن قيام خرج لا يدرى أين يذهب، فهو يمشى دون هدف حيران فلا يبلغ الهدف، ولما كان العاشق حيران في حياته فقد اطلقت هذه المفردة على العشق الشديد.

على كل حال فإن الشيطان يحث الإنسان على العبث والعشوائيه ولا يقود ذلك سوى للحيره والاضطراب، وهذا بدوره يلقي بالإنسان في وادى الهلكه، وبالنتيجه فإن صفاتهم الباطنيه القبيحه من جانب، والانقياد لوساوس الشياطين من جانب آخر قد مهدت السبيل لبؤسهم وشقائهم وسلبتهم بصيرتهم وسمعهم ونطقهم وفهم الصحيح، وهكذا يستعرض هذا الطبيب الرباني بهذه الخطبه الغراء جذور الأمراض وطرق مكافحتها وعلاجها.

أشار الإمام في هذا المقطع الأخير من الخطبه إلى عدّه أمور مهمّه منها:

١ - أنّ القرآن الكريم مصدر البصر السمع والنطق، مع ذلك هناك من لم يستثمر ذلك، لأنهم محجوبون وحجابهم فسادهم والباطني وتلوّثهم وطول أملمهم وغرقهم في حبّ الدنيا، ونعلم أنّ هذه الأمور أهم حجب المعرفة، نعم فالكتب السماويه مهما ملئت الحكمة، ومهما تحلى الأئمّه بالعلم والبلاغه فلا جدوى من ذلك ما لم تكن هناك قابليه في القابل، فالشمس ترسل أشعتها

ص: ٣٠٨

١ - ١) «تاه»: من ماله «تياه» بمعنى الحيره ومن ماله «توه» على وزن لوح بمعنى الهلكه، ويبدو المعنى الثاني في العبارة هو الأنسب.

٢ - ٢) «غرور»: إن قرأ بالضم فهو الخداع والمكر، وإن قرأ بالفتح أفاد الوصف وعنى الشخص الخادع وقد أطلقه القرآن على الشيطان، وقد ورد بالصيغه الأولى في النسخه المعروفه لصبحى الصالح، بينما ورد بالصيغه الثانيه في أغلب النسخ، وتبدو الصيغه الثانيه أنسب على ضوء تناسق العبارات.

٣-٣) سورة النور / ٢١. [١]

٤-٤) سورة النساء / ٨٣ [٢]

على الدوام ولكن ما جدوى هذا الشعاع بالنسبة للأعمى، وكذلك هي الأمطار فى لطافه طبعها لكنه لا ينبت الأزهار فى كل مكان.

٢ - إنَّ حبَّ المال والثراء أساس الحروب والمعارك النزاعات ولا يقتصر هذا الأمر على الزمان والماضى، بل تلمسه بوضوح فى كل مكان فى الوقت الحاضر، فالدول الغاشمه تصرّح دون خشيته إننا دخلنا تلك الحرب من أجل حفظ مصالحنا، أو لدينا بعض المصالح فى البلد الفلانى (طبعاً مصالح غير مشروعته) وعليه فلا بدّ أن يكون لنا تواجد عسكري فيه لنعرض تلك المصالح، والمؤسف أن وجه الدنيا أخذ يتكدر يوماً بعد آخر والحياه أصبحت فيها عديمه الأمن، وليس ذلك سوى ما أورده الإمام عليه السلام إذا قال: «وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ» .

ص: ٣٠٩

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد شاوره عمرُ بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم

نظره إلى الخطبه

قال بعض شراح نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذا الكلام حين أتجه قيصر بجيشه نحو ثغور الإسلام عندما عزل خالد بن الوليد عن إمره جيش المسلمين وقد تولى الإمره أبو عبيده الجراح وشرحبيل وقد ضاق عليهما الأمر، لذلك عزم عمر أن يحضر بنفسه وأستشار أمير المؤمنين على عليه السلام (٢)، ويفهم من كلام ابن أبي الحديد أنّ عمر خالف ما أشار عليه على عليه السلام، فلمّا علم الروم مقدم عمر بنفسه خافوا وسألوا الصلح على أن يؤدّوا الجزية إلى المسلمين، ثم روى قصه أشبه بالخرافه (٣).

قال المرحوم العلّامة التستري أولاً: ما وراه ابن أبي الحديد عن سيف وروايات سيف لا تخلو من الوضع والتحريف.

ثانياً: لا دليل لدينا أنّ هذا الكلام قاله على عليه السلام حين استشاره عمر في الخروج بنفسه

ص: ٣١١

١-١) سند الخطبه: نقل هذا الكلام عن الإمام عليه السلام باختلاف طفيف ابن الأثير في النهايه في ماده كنف وأبو عبيد في

كتاب الأموال (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٢) [١]

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحراني ٣/١٦٢.

٣-٣) شرح نهج البلاغه، لابن أبي الحديد ٨/٢٩٨. [٢]

لقتال الروم، بل ظاهر بعض كلمات الشيخ المفيد رحمه الله أنّ الكلام فى معركة القادسيه أو نهاوند (١).

والجدير بالذكر هنا أنّ عمر كان يقبل عادة ما يشير عليه على عليه السلام وكان يرى نجاته فى ذلك القبول، وهذا بدوره يؤيد ما أورده المرحوم العلامة التستري.

على كل حال تتألف هذه الخطبه من قسمين: الأول وعد الله سبحانه لهذه الأمة بالنصر والغلبه والامل بهذا الوعد، والثانى الذى قال فيه على عليه السلام لعمر: لا- تشخص بنفسك فأنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب لا يكن للمسلمين كهف دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه.

ص: ٣١٢

(١- ١) شرح نهج البلاغه، للتستري ٧/٤٢١ - ٤٢٣، بتصرف.

«وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَتَنَصَّرُونَ، وَمَنْعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْنَعُونَ، حَتَّى لَا يَمُوتَ.

إِنَّكَ مَتَى تَسِرَ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتَنْكَبَ، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانْفَهُ دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ. فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مَحْرَبًا، وَاخْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ وَالنِّصَةِ يَحَهُ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، كُنْتَ رِذَاءً لِلنَّاسِ وَمَتَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ» .

الشرح والتفسير

الحضور الخطير

استهل الإمام عليه السلام كلامه للخليفة بهدف تقوية معنوياته حذراً من خوف لقاء العدو الغاشم كالروم بقوله: وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ (١)، وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ» ، والعبارة توكل تشير إلى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ تَكْفُلُ بِحِمَايَتِهِمُ وَالِدِفَاعِ عَنْهُمْ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (٢).

وهذا الوعد الإلهي - طبق كلام الإمام عليه السلام - لم يكن مقتصرًا على زمان النبي صلى الله عليه وآله، بل يجرى في كل عصر ومصر، والعبارة: «وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ» ، بالنظر إلى أَنَّ الْعَوْرَةَ تعني في الأصل النقاط الحدودية الهشة وما يخشاها الإنسان ويخافه، فهي تشير إلى أَنَّ الْحَقَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وإضافه إلى

ص: ٣١٣

١-١) «حوزه»: من ماده «حوز» على وزن موز تعنى الجمع والاتصال والإملاك وعاده ما تطلق الحوزه على كل مجموعه.

٢-٢) سورة التوبة / ٣٣. [١]

تعهد به بعزّه المسلمين ورفعتهم فأنه يمنع العدو من الالتفات إلى نقاط ضعفهم أسرارهم حتى لا يتمكن من تسديد ضرباته للمسلمين.

ثم شد من العزائم أكثر فأتى بشاهد حتى فقال عليه السلام: «وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنْعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْنَعُونَ، حَتَّى لَا يَمُوتَ (١)» .

فقد نصر الله تعالى أولئك المسلمين الذين كانوا يبدون في الظاهر ضعفاء ومن حيث العده قلائل، واليوم وقد اتسعت حوزة الإسلام والحمد لله وقد انضوت عدّه أفواج تحت رايته، فهم مشمولون قطعاً بنصره الحق والغلبه لهم والهزيمة لأعدائهم، فناصرهم هو الله تعالى الحي القيوم الذي لا يموت، طبعاً إن أي موجود تثق به وتعتمد عليه فإن مرور الزمان يصيبه بالضعف والهت والفتور وبالتالي الزوال والفتناء، والذات الإلهية المقدسه الوحيدة التي لا تعرف للضعف الفتور من معنى والتي لا ينبغي الاعتماد سوى عليها.

ثم ورد الإمام عليه السلام ذى مقدمه بعد هذه المقدمه فيخلص إلى نتيجة ليؤكد على عمر عدم حضور ميدان القتال بنفسه بعد أن ذكر دليلاً واضحاً لذلك والذي يقبل بصوره تامه في الموارد المشابهه فقال: «إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتَنْكَبَ (٢)، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانْفَهُ (٣) دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ، لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ» .

إشاره إلى هذا الأمر إن حضرت ميدان القتال بنفسك وقتلت فإن أرادت الأمه مبايعه شخص آخر فإن المجتمع الإسلامي سيفقد مركزيته وتنه المناطق النائية التي تكون عرضه للخرق أكثر من غيرها وهذا ما سيسرى إلى سائر أنحاء البلاد، ولما كان السلب في القضايا الاجتماعيه يقترن دائماً بالايجاب بغيه سد الفراغ الاجتماعى، فبعد أن أشار عليه الإمام بعدم الذهاب بنفسه، طرح عليه البديل ببعث رجل مجرب في الحرب وطائفه ممن أبلت في القتال، من أهل النصيح والخير فإن أتاهم النصر فذلك ما ينبغي ويحب، وإن حدث شيء آخر (إشاره

ص: ٣١٤

١-١) العبارة «والذى نصرهم...» مبتدأ وخبرها «حتى لا يموت» .

٢-٢) «تنكب»: من ماده «نكب» على وزن نخل بمعنى الانحراف عن المسير، وفي هذه العبارة بمعنى الهزيمة والقتل.

٣-٣) «كانفه»: من ماده «كنف» على وزن ظرف بمعنى الحفظ، وعليه كانفه تقال للشخص أو الشيء العاصم الذى يحفظ الأفراد.

إلى الهزيمة المسلمين) فسيكون هو ملاذ المسلمين وكهفهم (فيستطيع ومن خلال بعث القوى السيطره على الأوضاع وتحيق النصر على العدو): «فَابَعَثَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مَحْرَبًا (١)، وَاخْفِزُ (٢) مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ (٣) وَالنَّصِيحَةَ بِيحِهِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنَّ الْأُخْرَى، كُنْتَ رِذَاءً (٤) لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً (٥) لِلْمُسْلِمِينَ» .

فقد بين الإمام عليه السلام جوابه للخليفة حين المشوره بدليل منطقي وواضح وهو أنّ حضور زعيم جماعه فى ميدان القتال أمر خطير سوى فى الموارد الاستثنائية، لأنّ من الاحتمالات الوارده قتله فى المعركه ونتيجه ذلك إنيهار الجيش من جانب وتصدع كيان البلاد من جانب آخر، بينما لو بقى مكانه كان له أن يبعث بجيوش بدل جيش واحد ويحتفظ بقدرته وسيطرته على جميع البلاد.

تأملات

١ - الردّ على سؤال

طرح بعض شرّاح نهج البلاغه هذا السؤال أشار على عليه السلام على عمر ألا يشخص بنفسه، فما بال رسول الله صلى الله عليه و آله كان يشاهد الحروب بنفسه، ويباشرهم بشخصه، وما بال أمير المؤمنين على عليه السلام شهد حرب الجمل وصفين والنهروان بنفسه؟

وقد أجاب بعض الشرّاح بالقول أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله كان عالماً عن طريق الوحي بأنّه لا يقتل فى الحرب، كما كان على عليه السلام عالماً من جهه النبي صلى الله عليه و آله أنه لا يقتل فى هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتفق عليه بين الناس يقاتل بعدى الناكثين، والقاسطين، والمارقين، وعليه

ص: ٣١٥

١-١) «محرّب»: من ماده «حرب» بمعنى المقاتل والشجاع.

٢-٢) «احفز»: من ماده «حفز» على وزن نبض الدافع والسوق الشديد.

٣-٣) «بلاء»: بمعنى الاختبار وأهل البلاء أهل المهارة فى الحرب.

٤-٤) «ردء»: بالكسر من ماده «ردء» على وزن عبد بمعنى المساعدة وعليه فردء بمعنى النصير والعضيد والسند.

٥-٥) «مثابه»: من ماده «ثوب» على وزن قوم بمعنى رجوع الشيء إلى حالته الأولى ومثابه بمعنى المرجع ومن يعاد إليه.

فليست هنالك من خطوره في حضورهما، وقال البعض الآخر، أنهما كانا يحضران المعارك التي لم تكن تدور بعيداً عن مركز البلاد، بينما اقتصر حضور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في المعارك الخارجيه على تبوك فقط، وبعد أن استخلف علياً عليه السلام في المدينة.

وبعبارة أخرى يمكن القول: الموارد مختلفه تماماً ولكل ميدان من ميادين القتال وشرائطه ووضع العدو حكمه الخاص، ولكن غالباً إن كان الميدان بعيداً عن مركز الحكومه واشترك رئيس الحكومه فيه وقتل أدى إلى عدّه مشاكل، ومن هنا نهى الإمام عليه السلام الخليفه عن حضور ميدان القتال بنفسه.

٢ - شبهة أخرى

لعل هناك من يشكّل: كيف قدم الإمام عليه السلام هذه النصيحة الوديّه والمشفقه للخليفه مع أنه يرى الحكومه من حقوقه المسلمه وقد صرّح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والآيات القرآنيه بهذا المعنى في أنّ الولاية لعلي عليه السلام؟

الجواب على هذا السؤال واضح وهو أنّ الإمام عليه السلام إنّما يفكر في المصير النهائي للإسلام والمسلمين لا في شخصه، وهو يعلم أنّ الخليفه الثاني قد تربع على مسند الحكومه وتسلم زمام الأمور وقد وقف إلى جانبه عوام الناس وطائفه من الخواص، فإنّ تعرض في ظل هذه الظروف إلى أزمة عظيمه وقتال خطير ساد الهرج والمرج البلاد وعمتها الفوضى وتعرض كيان الإسلام للخطر، فروح علي عليه السلام العظيمه تقتضى نسيانه لكل شيء وإيثاره لخير المسلمين على كل شيء.

٣ - الأمانه في الاستشاره

الكلام المذكور درس لجميع المسلمين بتقديم الخير والصلاح حين المشوره دون الأخذ بنظر الاعتبار قضيه المستشار وكيفيه العلاقه به.

بعبارة أخرى: إما يرفض المشوره وإما أن يقبلها ويؤدى حقها، فقد ورد في الحديث أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اعلم أن ضارب علي بالسيف وقاتله لو إتمنى واستصحنى واستشارنى ثم قبلت ذلك منه لأدبت الأمانة» (١).

٤ - إستنتاج خاطيء

أراد بعض المخالفين التشبث بكلام الإمام عليه السلام ليقوموا بالدليل على أحقيته الخليفة الثانى بالخلافه وعلى لسان على عليه السلام، ولكن من الواضح أن هذا الاستنباط خاطيء، لأن الوظيفة الشرعيه والعقليه وحفظاً لمصالح المسلمين تتطلب من كل شخص فى مثل ظروف على عليه السلام أن يقدم النصح لمن كان يمر بظروف عمر، فينطق لسانه بخير المسلمين وصلاحتهم، وإن جرت الأمور على خلاف مصالحه الشخصيه، بل إن كانت بضروره، والعبارة: «لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ»، لا تعنى قط أنك أصلح الأمة، بل معناها أن الناس عرفوك فى ظلّ الظروف الفعلية - حقاً أم بغير حق - بهذه الصفة فان قتلت تطلبت البيعه لآخر زماناً طويلاً وهنا تنهار الأمة.

ص: ٣١٧

ومن كلام له عليه السلام

وقد وقعت مشاجره بينه وبين عثمان

فقال المغيره بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه، فقال على عليه السلام للمغيره:

نظره إلى الخطبه

صرح ابن أبي الحديد وآخرون أن هذا الكلام لم يكن بحضره عثمان، وإن أفادت عبارات الخطبه أن هذه المشاجره كانت بحضره عثمان، فقد جاء في الخبر أن عماراً لما سمع بخبر وفاه أبي ذر ترحم عليه بحضور عثمان، فغضب عثمان وقال: انفوه إلى الربذه، فقال عمّار: مجالسه الكلاب والخنازير أحبّ إليّ من مجالستك قال ذلك وخرج، فعزم عثمان على نفيه، فذهب بنو مخزوم إلى على عليه السلام وشكوا له ضرب عثمان لعمار وهو عازم الآن على إبعاده فسألوه أن يكلم عثمان وإلا وقعت فتنه عظيمه، فذهب الإمام على عليه السلام إلى عثمان وقال له: نفيت أبي ذر إلى الربذه حتى مات غريباً وهو من صحابه رسول الله صلى الله عليه و آله وقد نقم عليك الناس ذلك، وتريد الآن نفي عمار.

فغضب عثمان وقال: لا بدّ من نفيك أولاً لكي لا يجرأ عمار، ففسادهم منك، فقال على عليه السلام: لا تقدر على ذلك وفساد أمثال عمار بسبب أعمالك، فأنت تعمل خلاف دين الله تعالى فنقم

ص: ٣١٩

١ - ١) سند الخطبه: لم ينقل صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه من نقل هذه الخطبه سوى أحمد بن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح، لكنّه أورد بعض التوضيحات بشأن وورد الخطبه عن كتاب شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد.

الناس عليك، قال ذلك ثم خرج من عند عثمان، وقد أحاط الناس به وقالوا فليبعدنا عثمان جميعاً لنموت بعيداً عن أهلنا، فقال الإمام عليه السلام قولوا لعمار يلازم بيته ولا يخرج.

فقال بنو مخزوم: إن كنت معنا فليس لعثمان أن يفعل شيئاً، فلما بلغ ذلك عثمان شكى علياً عليه السلام إلى الناس، فقال له زيد بن ثابت وكان من شيعته وخاصته: أفلا أمشى إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتي إليك، قال: بلى، فأتاه زيد معه المغيرة بن الأحنس (1) وعداده بنى زهره وأمه عمه عثمان، فحمد زيد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله قدم لك سلفاً صالحاً في الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمك ووالى هذه الأمة، فله عليك حقان، حق الولاية وحق القرابة، وقد شكنا إينا أن علياً يعرض لى، ويرد أمرى على، وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهيه أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما، فحمد على عليه السلام الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: أما بعد، فوالله ما أحب الاعتراض ولا الرد عليه، إلا أن يأبى حقاً لله لا يسعنى أن أقول فيه إلا بالحق، ووالله لأكفّن عنه ما وسعنى الكف.

فقال المغيرة بن الأحنس وكان رجلاً وقاحاً، وكان من شيعه عثمان وخلصائه: إنك والله لتكفن عنه أو لتكفن، فإنه أقدر عليك منك عليه.

فقال له عليه السلام: يابن اللعين الأبتى، والشجره التى لا أصل لها ولا فرع... (2).

بناءً على هذا فخلاصه الكلام أنه اعتراض شديد على المغيرة بن الأحنس الذى نطق بكلام أكبر منه واعتقد أن له منزله أعظم مما فى نفسه.

ص: ٣٢٠

١- ١) المغيرة بن الأحنس وأبوه أحد المنافقين وهو غير المغيرة بن شعبه المعروف بنفاقه وعداوته لأهل البيت عليهم السلام.
٢- ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٣٠١ - ٣٠٢؛ [١] والفتوح لابن أعثم الكوفى ١/١٦ طبقاً لنقل شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري ٩/٢٦١.

«يَا بَنَى اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَمَّا أُضِلَّ لَهَا وَلَا فَرْعٌ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟ فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهَضُهُ. أُخْرِجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهُ نَوَاكٍ، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!» .

الشرح والتفسير

أنت عاجز

كان على عليه السلام الكهف الحصين للمظلومين والمحرومين على عهد الخلفاء الثلاث سيما على عهد الخليفة الثالث عثمان الذي تجاوزت بطانته الحد في الظلم والجور، فلم ترحم صغيراً ولم توقر كبيراً، فكان عليه السلام من يوصل نداء المظلوميه للخليفة، فمن الطبيعي أن يسبب له هذا الأمر بعض المشاكل حيث كان يجند الأمة ضد الخلافة الحاكمة.

فقد عرض الإمام عليه السلام بهذا الرد على تهديد المغيرة بن الأحنس بالدم له والاستخفاف به، فأشار بادىء الأمر إلى جذور فساد ونقاط ضعفه ليخلص إلى نتيجة تفيد عجزه عن القيام بأى عمل ضد الإمام عليه السلام فقال: «يَا بَنَى اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَمَّا أُضِلَّ لَهَا وَلَا فَرْعٌ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟» ، والتعبير عن المغيرة بن الأحنس باللعين كونه من رؤوس النفاق حيث أظهر الإسلام في فتح مكة وأبطن الكفر، وقد حاول رسول الله صلى الله عليه وآله إستمالة قلبه فأعطاه سهماً كبيراً من غنائم حنين، وأخوه أبو الحكم الذى قتله على عليه السلام يوم أحد، ومن هنا حقد المغيرة على على عليه السلام (1).

وأما وصف الإمام لأبيه بالأبتر لا أنه لم يكن له عقب، بل الأبتر هنا تعنى انقطاعه عن الخير والسعادة، أو أبتر من حيث النسب حيث كان أولاده ممن لا خير فيهم فكانوا كالعدم،

ص: ٣٢١

١ - ١) يقال إنَّ عداء آل المغيرة استمر ضد على عليه السلام حتى شهد ولده عبد الله المعركة الجمل فقتل فيها (شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري ٩/٢٦٦) .

وأما قوله والشجره التي لا- أصل لها ولا فرع فهو كناية عن وضاعه هذه الأسره وبعدها عن القيم والمثل، فالواقع أن قول الإمام عليه السلام إقتباس من الآيه الشريفه: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ» (١).

ثم قال الإمام عليه السلام: «فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهَضُهُ» (٢)، العزه والقدره بيد الله سبحانه ذلك طبقاً للآيه الكريمه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (٣).

وقوله تعالى: «إِنَّا لَنَنْصِرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (٤)، فالعزه لله لا- للمنافقين، ثم إختتم الخطبه باستخفافه الشديد بالمغيره فقال: «أُخْرِجْنَا عَنْ أَبْعَدِ اللَّهِ نَوَاكٍ» (٥)، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ (٦) إِنْ أَبْقَيْتَ!». .

إشاره إلى أنك لأصغر من أن تهدد علياً عليه السلام، فافعل ما بوسعك لترى إنك لا تقوى على شىء، وبئس هو الفرد الذى أنت ناصره.

سلوك الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق

لو أنعمنا النظر فى شأن وورد هذا الكلام للإمام عليه السلام وتتبعنا بدقه مساره التاريخى لرأينا كيف اصطدم الإمام عليه السلام بصوره منطقيه بالانحرافات فى عصر الخلفاء ولا سيما على عهد عثمان، فلم يتوان فى تقديم الوعظ والنصح من أجل منع أى توتر واضطراب حيث كان يكتفى بالحد الأدنى من التذكير، أما حين كان يصطدم بالمنافقين والجهال عديمى المنطق، فقد كان يقف بوجههم بكل شدّه وصلابه حتى لا يقتدح فى أذهانهم التفكير بالأعمال الطائشه والخطيره، وصدر وذيل الكلام المذكور خير شاهد على السلوكين.

ص: ٣٢٢

١-١ (١) سورة ابراهيم / ٢٦. [١]

٢-٢ (٢) «منهض»: من ماده «نهض» القيام من المكان ومنهض من باب إفعال الشخص الذى يساعد غيره لينهض.

٣-٣ (٣) سورة محمّد / ٧. [٢]

٤-٤ (٤) سورة غافر / ٥١. [٣]

٥-٥ (٥) «نواك»: من ماده «نوا» والكاف ضمير متصل تعنى فى الأصل غايه المسافر بعيده كانت أم قريبه.

٦-٦ (٦) فالعباره لا أبقى الله عليك تطلق حين اللعن ليعبد عن رحمه الله، والعباره إن بقيت تعنى لا رحمك الله إن رحمتنى، فهى فى الواقع استخفاف بالمخاطب، فافعل ما شئت إنك لا تقدر على شىء.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي أَمْرِ الْبَيْعَةِ

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى أمور:

الأول: أن بيعته لم تكن صدفة بعيدة عن تفكير الناس وتخطيطهم، وعليه فلا يحق لأحد نقضها لأنها بيعه عامه.

الثاني: أنني أريدكم جنوداً لتبلور الأهداف الربانيه، لكنكم تريدونني من أجل ضمان منافعكم الدنيويه.

الثالث: أبغى من كل الافراد النصره لاستنفاذ حق المظلوم من الظالم، ويبيّن الإمام عليه السلام عزمه القاطع بهذا الشأن

ص: ٣٢٣

١- ١) سند الخطبه: قال المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الإرشاد» أن الإمام على عليه السلام أورد هذا الكلام إمتنع البعض عن بيعه الإمام عليه السلام - حسب روايه الشعبي - ومنهم عبدالله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمه وحسان بن ثابت واسامه بن زيد، فخطب الإمام عليه السلام لبيان أحقيته ببيعته (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٦) وهكذا نقل هذه الخطبه الشيخ المفيد في إرشاده وقد عاش قبل السيد الرضى، وكذلك أشار إليها ابن الأثير في كتاب «النهايه» في ماده (فلت) .

«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَهُ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا. إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَإِنَّمِ اللَّهُ لِأَنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُوْرِدَهُ مِنْهُلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا» .

الشرح والتفسير

أنصف المظلوم من الظالم

كما ورد سابقاً فإن الإمام أورد هذا الكلام - بعبارة أخرى هذا المقطع من الخطبه - حين إمتنع بعض صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله عن بيعته، فاتم الإمام عليه السلام الحججه عليهم بهذا الكلام فقال: «لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَهُ»، بل حين رأيتم المشاكل الناشئه من بيعه الخلفاء السابقين ولاسيما بيعه الخليفه الثالث وما ترتب عليها من آثار فقد عزمتم على الإقبال عليّ فأبيتم أمراً جديداً في مسأله البيعه، وبناءً على ما تقدم فإن الأقلية لا تمتلك الحق في نقض البيعه التي سارعت إليها الأكتيره من الأمه.

وبالنظر إلى أنّ الفلته تعنى العمل الذى يقع بغته دون رويه وتدبر فقد أراد الإمام:

أولاً: يوضح أنّ بيعته كانت دقيقه جداً وقد حصلت بعد مشوره الأمه وزعماء القبائل مع بعضهم.

ثانياً: التلميح إلى بيعه أبى بكر التي حصلت فى أجواء متوتره مغلقه من قبل قلبه قليله حتى قال عمر بهذا المضمون: «إِنَّ بَيْعَهُ أَبَى بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَهُ، وَقَى اللَّهُ شَرَّهَا» (١)، كما ورد فى بعض الروايات فى ذيل هذا الحديث «فَمَنْ عَادَ إِلَى مِثْلِهَا فَاقْتُلُوهُ» (٢)، وسنقدم شرحاً وافياً لهذا الموضوع فى البحث اقادم.

ثم قال الإمام عليه السلام فى مواصله كلامه: «وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ،

ص: ٣٢٥

١-١ صحیح البخاری ٦/٢٥٠٥ طبعه دارالنشر بیروت وصحیح ابن جبان ٢/١٤٨، طبع مؤسسهالرساله.

٢-٢ بحار الانوار ١٠/٢٤٨ ([١] نقلًا عن مناقب ابن شهر آشوب). [٢]

وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ» ، فلست من قبيل طلاب الدنيا من الحكّام الذين ينشدون من وراءها تأمين جلالهم وأبتهتهم ومصالحهم الشخصية، فما أريده هو إقامه الدين بواسطتكم وأن أؤدّي حقوق الناس وأفوز برضى الله سبحانه، ولكنكم تريدوننى لمصالحكم الشخصية كالحصول على سهم كبير من بيت المال أو نيل المناصب والمقامات والرفاه فى الحياه، وبالإلتفات إلى الاختلاف بين هاتين النظرتين فمن الطبيعي ألا تتساوى المسارات تبعاً لوسائل العمل، ثم دعاهم لإصلاح أنفسهم بعد أن وبّخهم وأيقظهم فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ» ، فى إشاره إلى أنّ مدرستى التربويه معده لإصلاحكم، فما أريده منكم وبقبول نصائحي - التى تستند إلى مصدر الوحي والقرآن الكريم وتعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله - الإلتحاق بها والتعاون معي، فإن لم يكن لديكم الإندفاع فلا جدوى من أى برنامج، ثم أشار فى الختام إلى نقطه مهمه ووضح عزمه الراسخ فيها وهى مسأله بسط العدالة فى كافه أرجاء البلد الإسلامى مقاتله الظلمه فقال: «وَإِيْمَ اللّٰهِ لَأُنصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُوْدَنَّ الظّٰلِمَ بِخِرَامَتِهِ (١) حَتَّىٰ أُورِدَهُ مَنَهْلَ (٢) الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا» ، فهذا التشبيه الرائع للظلمه بالبعير الجامح الذى يمتنع حتى من شرب الماء ويريد صاحبه أن يورده مشربه كرهاً ويرويه، يفيد أنّ الهدف من مقارعه الظلمه لا يقتصر على استرداد حقوق المظلومين فحسب، بل أنّ هذا العمل بنفعهم أيضاً، لأنّ الظالم إن جاوز الحدّ فإنّ التمرد والعصيان العام سيكون كألسنه اللهب التى تحرق الأخضر واليابس وأنّ الظلمه أول من تحرقهم تلك النار، الأمر الذى وقع فى عصر عثمان قبيل حكمه الإمام عليه السلام كما يفيد من جانب آخر أنّ أهم هدف اجتماعى للإمام عليه السلام بسط العدل وأخذ حق المظلومين، وهذا هو الدواء الشافى المرير على ألسنه أغلب الأفراد الجهّال، وهذا أهم هدف لبعثه الأنبياء والذى صوره القرآن الكريم بالقول: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...» (٣).

ص: ٣٢٤

١- ١) «خزاهه»: بالكسر حلقه من شعر تجعل فى وتره أنف البعير ليشد فيها الزمام ويشهل قياده، وقال البعض إن كان جنس الحلقه من النحاس قيل لها البره وإن كانت من الشعر فهى الخزاهه.

٢- ٢) «منهل»: من ماده «نهل» على وزن جهل بمعنى الشربه الأولى ويطلق المنهل على الموضوع الذى يمكن الاستفاده منه من ماء النهر (لابدّ من الإلتفات إلى أنّ سطح ماء أغلب الأنهار أكثر انخفاضاً من الساحل وعاده ما يشقون بعض الأماكن لوصول الماء ليبلغه الناس والحيوانات بسهولة ويقال لمسير هذه الأماكن الشريعه وأخرها المنهل.

٣- ٣) سورة الحديد / ٢٥. [١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي شَأْنِ طَلْحَةَ وَالزَّبِيرِ وَفِي الْبَيْعَةِ لَهُ

نظره إلى الخطبه

المحاور الأصلية للخطبه هي:

١ - نقض طلحه والزبير للبيعه لحجّه اشتراك على عليه السلام في قتل عثمان، والحال هم كانوا يحرضون الناس للقيام على عثمان.

٢ - النصيحة المشوبه بالتهديد لطلحه والزبير ليكفوا عن الفتنة، ويلتحقا بصفوف عامّة المسلمين.

٣ - الإشارة إلى مسأله البيعه وأنّ الإمام عليه السلام لم يكن طالباً للحكومته، بل هم الذين أصرّوا عليه بقبول البيعه.

٤ - لعن الإمام عليه السلام في ختام الخطبه طلحه والزبير وهو الأمر الذي جرى عليهما عملياً فسأت عاقبتهما.

ص: ٣٢٧

١ - ١) سند الخطبه: رواها ابن عبد البر من علماء العائمه للقرن الخامس في كتاب «الاستيعاب» في شرح سيره طلحه، كما رواها ابن الأثير من علماء القرن السابع في «اسد الغابه»، ونقلها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الجمال» عن الواقدي، كما فسّر بعض أجزاءها ابن أبي الحديد عن أبي مخنف وكذلك ابن الأثير في كتاب «العود» (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٩).

«وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصْفًا. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيْبَهُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلَوْهٗ [وُلُوهُ] [دُونِي فَمَا الطَّلِيْبَةُ إِلَّا قَبْلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عِيْدِهِمْ لِلْحُكْمِ عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ. إِنْ مَعِيَ لَبِصَةٌ يَرْتِي؛ مَا لَبِصْتُ وَلَا لَبِسْتُ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لِلْفِتْنَةِ الْبَاغِيَّةِ؛ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحَمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاخَ الْبَاطِلُ عَنِ نَصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنِ شَعْبِهِ. وَإِيمُ اللَّهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَا تَحُهُ، لَا يَصُدُّرُونَ عَنْهُ بَرِيٌّ، وَلَا يَعْبُونَ بَعْدَهُ فِي حَسْبِي!». .

الشرح والتفسير

لا شبهه ولا شك أن طلحه والزبير كانا من بين أولئك الذين أثاروا الناس ضد عثمان ويجمع العدو والصديق على اشتراكهما في قتل عثمان، كما أعلنت عائشه صراحه اعتراضها على عثمان، إلا أن العجيب ما إن هبت الأمة لمبايعه على عليه السلام فتسلم زمام الأمور حتى وقف بوجهه طلحه والزبير وكذلك عائشه، والأعجب من ذلك أن حجبتهم لذلك الوقوف هو الطلب بدم عثمان، ولا زال التاريخ يحفل بالكثير من هذه العجائب والأفراد الذين يحرصون على الدنيا وزخارفها، على كل حال فإن الإمام عليه السلام أشار في هذه الخطبه إلى هذا المطلب فقال: «وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصْفًا (١)»، ثم أضاف قائلاً: «وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ».

ص: ٣٢٩

ثم استدللّ بدليل واضح على ذلك فقال: «فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكُهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيْبَهُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلَوْهُ [وُلُوهُ] [دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لِلْحُكْمِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ]»، قطعاً ليس الإمام عليه السلام من يد في قتل عثمان، وإن اعتبر أغلب الصحابه أنّ عثمان يستحق القتل، إلّا أنّ الإمام عليه السلام ليس فقط لن يشترك في هذا العمل فحسب، بل بعث بولديه الحسن والحسين عليهما السلام للدفاع عنه، مع ذلك صرّح تجاه ذرائع طلحه والزيبر وبغيه سلبهم حق المطالبه فقد قال لم يقل أحد بأنّي كنت الوحيد في قتل عثمان على فرض أنّي اشتركت في قتله، فقد شركتموني فيه، وعليه فأى منطق يستول لكم مطالبه الآخرين بأمر اشركتم فيه معهم، وإن كنتم لوحدكما من فعل ذلك، فالعقاب يقتصر عليكم، وعليكم أن تدينوا أنفسكم قبل أى شخص، فالمتعارف بين الساسه الشياطين أنّهم يسعون لخلق بعض الذرائع التي يستحسنها العوام بغيه التشنيع على منافعهم، فهم يبذلون قصارى جهدهم لإتهام منافسهم بما يشوه سمعتهم لدى الرأى العام، وفي ظلّ هذه الأجواء تغيب معانى المنطق والعداله والوجدان والشرف، فالهدف إقصاء المنافس الخصم مهما كان الثمن، وهذا بالضبط هو المنهج الذي مارسه طلحه الزبير وعائشه بعد بيعه الأمه لعلى عليه السلام فألبوا الكثير من الناس لقتاله عليه السلام حتى احترقوا بنيران تلك المعارك، على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام سلب من خصومه الحجّه وأفشل خططهم ليعلم الناس أنّهم قتله عثمان وقد تذرعوا بالمطالبه بدمه وهدفهم ضمان مصالحهم الشخصيه، فهم لا يفكرون في الناس ولا يهتمون بدم الخليفه المظلوم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن أصحاب الجمل الذين ينقضون البيعه: «إِنَّ مَعِيَ لَبِصِيرَتِي (١)؛ مَا لَبِسْتُ وَلَا لُبِسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لِلْفِتْنَةِ الْبَاغِيَةِ؛ فِيهَا الْحَمَاءُ وَالْحَمَمَةُ، وَالشُّبُهَةُ الْمُعْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاخَ الْبَاطِلُ عَن نِّصَابِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَن شَعْبِهِ (٢)».

فهذا الكلام إشاره للحديث المعروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَا تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ حَتَّى تَتَنَابَحَ كِلَابُ مَاءٍ بِالْعِرَاقِ يُقَالُ لَهَا الْحَوَابُّ إِمْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِي فِي فِتْنَةٍ بَاغِيَةٍ» (٣).

ص: ٣٣٠

١- ١) أوردنا شرحاً تاماً للعبارة «إِنَّ مَعِيَ لَبِصِيرَتِي» في هذا الكتاب ١/٤٨١.

٢- ٢) «شغب»: مصدر وبمعنى تهيج الشر والفساد.

٣- ٣) منهاج البراعه ٨/٣٣٨؛ الاحتجاج ١/١٦٥. [١]

فالحديث يشير إلى الحادثه المعروفه لأصحاب الجمل حين قدموا من المدينه إلى البصره، فلمّا بلغوا الحوآب نبحت عائشه كلابها، فتذكرت حديث النبي صلى الله عليه و آله فقالت: إرجعوني إلى المدينه، لكن الساسه المحترفين جندوا أهل تلك المنطقه ليشهدوا بأنّ تلك المنطقه ليست الحوآب (١).

وروى ابن عساكر فى «تاريخ دمشق» ومتقى الهندى فى كثر العمال أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «يا علىّ سَتَقَاتِلُ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةَ وَأَنْتَ عَلَى الْحَقِّ فَمَنْ لَمْ يَنْصُرْكَ يَوْمَئِذٍ فَلَيْسَ مِنِّي» (٢)، ومن هنا قال الإمام عليه السلام إنّ معى لبصيرتى ما لبست ولا لبس علىّ، فالعباره: «فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحَمَةُ»، بالنظر إلى أنّ الحمأ بمعنى المستنقع والماده الغامقه فى جرف الأحواض والجداول، والحمه بضم ففتح بمعنى الإبره اللاسعه للعقرب والحيه، فهى كنايه عن الأفراد الأرجاس والخطيرين الذين كانوا من مشيرى فتنه الجمل.

وهنا تفسير آخر لهاتين المفردتين فى أنّ الحمأ بمعنى القرابه الحميمه والحمه بمعنى الزوج وهى كنايه عن الزبير بن العوام ابن عمه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، وعائشه إحدى أزواج النبي صلى الله عليه و آله، والعباره الشبهه المغدقه بالنظر إلى أنّ المغدقه من ماده أغداق تعنى فى الأصل التغطيه إشاره إلى الضجه التى أقامها أصحاب الجمل بعنوان المطالبه بدم عثمان والحال أيديهم ملطخه بدم عثمان، بينما صوروا أنفسهم من حماته، وهذه العبارة لا تنافى العبارة اللاحقه التى قالت بوضوح المطلب، لأنّ المراد هو عدم خفاء الأمر على الأفراد من ذوى العقول والإدراك، لأنّهم كانوا على علم بمؤامرات أصحاب الجمل ودعاياتهم المغرضه الكاذبه.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بتوجيه تهديد شديد استهله بالقسم فقال عليه السلام: «وَأَيْمُ اللَّهِ

ص: ٣٣١

١- ١) أورد ابن الأثير فى المجلد الثانى، ص ٣١٥ عن الكامل شرحاً مفصلاً لقضيه نباح كلاب الحوآب وصراخ عائشه وعزمها على الرجوع وشهادته البعض على كذب من قال تلك المنطقه هى الحوآب.

٢- ٢) تاريخ دمشق ٣٢/١٧١، طبعه بيروت؛ كثر العمال ١٢/٢١١ طبعه حيدر آباد (مطابق نقل أحقاق الحق ١٧/١٦٦). [١]

لَأَفْرَطَنَّ (١) لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَا تَحُهُ (٢)، لَأَيْضُدُّرُونَ عَنْهُ بَرِيٌّ (٣)، وَلَا يَعْجُونَ (٤) بَعْدَهُ فِي حَسْبِي! (٥) .

كما أوردنا في الخطبة العاشرة التي تشبه إلى حد بعيد هذه الخطبة، مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنني سأجعل من ميدان معركة الجمل مستنقعا خطيرا مملوءا بالماء بحيث لا يسعهم الهروب منه وأحمد الفتنة في مهدها حتى لا يفكروا قط في العوده إلى مثل ذلك الميدان، وكما ورد في التواريخ فإن الإمام عليه السلام حقق عمليا ما قاله، فقد قتل زعماء الجمل وعادت عائشه مخذوله إلى المدينة وافتضح أصحاب الفتنة وتشتتوا في البلاد.

ص: ٣٣٢

١- ١) «افرطن»: من ماده «افراط» تعنى فى الأصل تجاوز الحد، لكنّها وردت أحيانا بمعنى القيام بالحدّ الأكثر من العمل وقد جاءت بهذا المعنى فى العبارة، يعنى سأملاً حوض المعركة للخصوم (طبعاً المراد حوض المنيه) بحيث لا يبقى أمامهم من سبيل للنجاه، وبناءً على هذا فلا مجال لطرح مثل هذا السؤال أو يمكن للإمام عليه السلام أن يفرض فى شىء.

٢- ٢) «ماتح»: من ماده «متح» على وزن مدح بمعنى سحب الماء من الأعلى كسحب الماء من البئر بواسطة الدلو، وعليه فالماتح تطلق على من يطرح الدلو بواسطة الحبل فى البئر ويسحب منه الماء.

٣- ٣) «رى»: اسم مصدرى ومصدره «رى» على وزن حى والباء للمعيه.

٤- ٤) «يعبون»: من ماده «عب» بمعنى شرب الماء أو مانع آخر دون تنفس.

٥- ٥) «حسى»: السهل من الأرض الذى يتجمع فيه الماء.

و منه: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُودِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبِضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُمْ يَدِي فَجَادَبْتُمُوهَا. اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَا نِي وَظَلَمَا نِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلْبَا النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاخْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أُبْرِمَا، وَأَرْهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمَلَا. وَلَقَدْ اسْتَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوَقَاعِ، فَعَمَطَا النَّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبه إلى مسأله البيعه فقال: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُودِ (١) الْمَطَافِيلِ (٢) عَلَيَّ أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبِضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُمْ يَدِي فَجَادَبْتُمُوهَا» .

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى هذه الحقيقه وهى أن عليكم أن تقارنوا بى الزاعمين الطالبه بدم عثمان ليجعلوا ذلك ذريعه للوصول إلى الخلافه والحكومه وهم طلحه والزبير، فهما لا يتورعان عن أيه حيله وخذعه من أجل تحقيق أهدافهما، أما أنا فقد أريتكم منذ البدايه أنى لا- أطلب المقام، وأنتم الذين أصررتهم على البيعه، ولأن قبلت بيعتكم فإنما ذلك بسبب القيام بالمسؤوليه التى تتمثل باجراء الحق وبسط العدل والقسط وإحياء الإسلام فعبارات الإمام عليه السلام

ص: ٣٣٣

١- ١) «العود»: بضم العين جمع «عائد» الإنسان أو الحيوان الذى يلد حديثاً.

٢- ٢) «المطافيل»: جمع «مطفل» على وزن مسلم ذات الطفل من الإنسان والوحش، وعليه فالعود والمطافيل قريبه المعنى وهما هنا للتأكيد.

تكشف مدى شوق الناس للبيعه، وفي ذات الوقت مدى زهد الإمام عليه السلام بها.

ثم إتجه إلى الحق تبارك وتعالى فشكى إلى الله الظلمه الذين نقضوا العهد وجعلوا من إراقه دماء الأبرياء وسيله لتحقيق أطماعهم وأغراضهم، ثم أخذ بالدعاء عليهم ولعنهم: «اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلْبَا (١) النَّاسَ عَلَيَّ» .

ثم قال: «فَاخْلُجْ مَيَا عَقْدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أُبْرِمَا، وَأَرِهِيَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمَلَا»، والتفت إلى الناس قائلاً: «وَلَقَدْ اسْتَبْتُهُمَا (٢) قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ (٣) بِهِمَا أَمَامَ الْوُقَاعِ (٤)، فَغَمَطَا (٥) النَّعْمَةَ، وَرَدَّ الْعَافِيَةَ»، لعل العبارة الأخيره مواصله شكوى الإمام عليه السلام لله سبحانه، ويمكن أن تكون خطاباً للناس، يبدو المعنى الثانى أنسب، على كل حال فإن هذه العبارات تبين مدى سعى الإمام عليه السلام لاجتناب الحرب وسفك الدماء وقد بذل قصارى جهده لوعظ أصحاب الجمل ومثيرى الفتن عليهم يعودون إلى رشدهم وتثار حميتهم الدينيه، فيعودوا عن سبيل الغى، إلّا أنّ حبّ الخلافه والجاه والمقام قد أعمى أبصارهم وأصم أسماعهم بحيث لم يعد لنصائح الإمام عليه السلام ومواعظه من تأثير عليهم، بالتالى حلت عليهم لعنه الإمام عليه السلام ففشلوا فى تحقيق أهدافهم، فانهزموا شرّ هزيمه وقتلوا بذله وهوان.

القائل يطالب بالتأثر

لا شك أنّ طلحه والزبير كانا ممن أثارا الناس ضد عثمان، فقد أورد ابن قتيبه فى كتابه «السياسه والإمامه» أنّ أهل الكوفه ومصر حين قاما ضد عثمان وحاصروه فى داره كان

ص: ٣٣٤

١- (١) «ألبا»: من ماده «تأليب» بمعنى الافساد وإثاره الناس.

٢- (٢) «استبنت»: من ماده «ثوب» على وزن صوم بمعنى رجوع الرميض إلى العافيه ومفهوم العبارة أنى أردت من طلحه والزبير الرجوع عن انحرافهما.

٣- (٣) «استأنيت»: من ماده «أناه» على وزن قناه بمعنى الصبر والانتظار ومفهوم الجمله أنى كنت أنتظر تأثير اقتراحى عليهما فيعودا إلى رشدهما ويسلكا سبيل العافيه والسلامه، لكن من المؤسف...

٤- (٤) «وقاع»: بمعنى الحرب وتستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى المصدر وأخرى الجمع «وقيعه» .

٥- (٥) «غمطاً»: من ماده «غمط» على وزن غصب بمعنى استصغار الشىء وكفران النعمه والعبارة المذكوره إشاره إلى أنّ طلحه والزبير استخفا بما منحتهم من فرصه وكفرا بالنعمه.

طلحه ممن أثار الفريقين ضد عثمان ويقول: أن عثمان لا يهتم لمحاصرته كما يحل عليه الماء والغذاء فاقطعوا عنه الماء (١)، كما ورد عن ابن أبي الحديد بشأن الزبير أنه كان يقول: اقتلوا عثمان فقد أحدث في دينكم، فقالوا له: ابنك علي باب دار عثمان يدافع عنه، قال: إن قتل عثمان فليقتل ابني قبله (٢)، فقد كان تصور طلحه العكس حين قتل عثمان وبايع الناس علياً عليه السلام فتغيرت الأوضاع تماماً، ولم تكن الأمة مستعدة لبيعتهما على حد قول الكاتب المصرى المعروف العقاد، حيث لم يكن أمرهما يختلف عن عثمان (٣)، وكانت عائشه من الناقمين على عثمان (٤)، إلا أن هؤلاء الأفراد الثلاث انقلبوا على عقبتهم بعد بيعه الأمة للأمير المؤمنين علي عليه السلام فاصبحوا من أنصار عثمان وهبوا للمطالبة بدمه، وكثيره هي هذه الانقلابات التي تسود حركة الساسة المحترفين، وبالتالي ذاق الثلاث العاقبة المريرة لإثارتهم الفتن، فقد هزم طلحه والزبير وقتلا في المعركة، وعادت عائشه تجر أذيال الخيبة إلى المدينة، وقد تناولنا بالتفصيل موقعه الجمل وطيش عائشه ودور طلحه والزبير في المجلدات السابقة من هذا الشرح (٥).

ولكن ما ينبغي إضافته هنا أن أتباعهم ممن حاول توجيه أعمالهم قد خسروا أنفسهم في زوايه حرجه، فمن جانب اعتبروا طلحه والزبير من الصحابه، كما يجرون عليهم نظريه عداله الصحابه (طهاره و قدسيه جميع صحابه النبي صلى الله عليه و آله) ، ومن جانب آخر يعتبرونهما من ضمن العشره المبشره، تاره يزعمون أنهم كانوا مجتهدين وإن أخطأوا في اجتهادهم، وعليه فهم معذورون ومأجورون، والحال لو وجهنا أعمالهم تحت هذا الغطاء لأمكن تبرير كل جريمه ومن كل فرد، ذلك لأن الاجتهاد لا يقتصر على هؤلاء الأفراد، وهذا بدوره يؤدى إلى تجاوز البديهيات العقلية والنصوص القرآنيه، وتاره أخرى يزعمون أنهم تابوا، وتوبتهم مقبوله عند الله، ولكن هل يمكن اشعال فتيل حرب تؤدى بسبعه عشر ألف شخص ثم تنسلخ مسؤوليه هذه الدماء بمجرد لقلقه اللسان بالقول استغفر الله؟! فهل أدوا حق تلك الدماء لأصحابها؟ أم

ص: ٣٣٥

١- ١) السياسه والإمامه ١/٣٨.

٢- ٢) شرح نهج البلاغه ابن أبي الحديد ٩/٣٦.

٣- ٣) فى ظلال نهج البلاغه ٢/٢٩٤.

٤- ٤) الكامل لابن الأثير ٣/٢٠٦؛ تاريخ الطبرى ٣/٤٧٧.

٥- ٥) ج ١ شرح الخطبه الثالثه عشره، ج ٢ شرح الخطبه الثلاثون والحاديه والثلاثون ج ٣، ص ٢٠٩ - ٣٠١.

هل عوضوا تلك الأموال التي ذهبت هدراً بهذا الخصوص؟ وهل اعترف طلحه والزبير وعائشه بخطأهم أمام الملاء العام؟

إنّ مثل هذا الدفاع العاثر هو نتيجة للأغماض عن الحقائق والتعصب الأعمى، أو ليس من الأجدر بنا تقسيم صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى طائفتين، طائفه كانت صالحه على عهده وأخرى منافقه وطالحه، كما تقسم الطائفة الصالحه إلى فئتين، فئه واصلت صلاحها، وأخرى انقلبت على عقبها فجانبت الحق والعدل والإيمان والسلاح، كما علينا أن نعلم بأنّ المراد من بشاره القرآن الكريم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بنجاه شخص أو أشخاص في ذلك الزمان هو شمولها بهذا الحكم، على أنّهم ربّما غيروا مسيرتهم، فممكّن أن يقوم الإنسان بعمل بحيث تجب له الجنّه، ثم يفعل بعد ذلك ما يوجب دخوله النار.

ص: ٣٣٦

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

يَوْمِي فِيهَا إِلَى ذِكْرِ الْمَلَا حِم

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام مرتبطه مع بعضها:

القسم الأول: إشاره إلى ولي من أولياء الله سبحانه ينطلق في عمله على أساس هدايه القرآن، ويرى أغلب شراح نهج البلاغه أنّ ذلك الولي واستناداً إلى صفاته هو الإمام المهدي «عجلّ الله تعالى فرجه الشريف» .

والقسم الثاني: إشاره إلى الأحداث الداميه التي يفرزها قيام ذلك الولي من أجل بسط العدل في ظلّ الحكومه الإلهيه حيث يملأ الأرض بالقسط والعدل.

القسم الثالث: إشاره إلى الحوادث داميه أخرى تظهر من الشام، ولعل ذلك إشاره إلى حكومه البعض من بني مروان، أو ظهور بعض الأفراد كالسفياني الذي يسبق ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

ص: ٣٣٧

١- ١) سند الخطبه: ورد في مصادر نهج البلاغه أنّه نقل جانباً من هذه الخطبه عن الآمدى في «غرر الحكم» وقال بالنظر إلى أنّ بعض شراح نهج البلاغه اعتبروا القسم الأول إشاره إلى قيام الإمام المهدي عليه السلام فإنّ ذلك يدل على أنّهم نقلوا الخطبه من مصدر آخر أشار إلى هذه القيام (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٢) لكننا لا نعتقد بتوجيه هذا الاستنتاج، ولعلمهم استنبطوا ذلك من خلال بعض القرائن الوارده في الخطبه.

«يَعْطِفُ الْهُوَى عَلَى الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهُدَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ» .

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبه تشير إلى الحوادث المستقبله حيث تطرقت إلى ثلاث حوادث، الأولى عدّها أغلب شراح نهج البلاغه في الإمام المهدي عليه السلام، لأنّه قال يجعل رغبات النفس وهواجس القلب تابعه للهدى حين يسود العكس باتباع الهدى للهوى، ويجعل الرأي والفكر منقاداً للقرآن في الوقت الذي يجعلون القرآن فيه تابعاً للرأي: «يَعْطِفُ (١) الْهُوَى عَلَى الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهُدَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ» .

والسؤال هل للعبارتان مفهوم واحد ويؤكد كل منهما الآخر؟ أم أنّ العبارة الأولى إشاره إلى الهدايه العقليه والعبارة الثانيه إلى الهدايه القرآنيه؟ يبدو المعنى الثاني أنسب، يعني في ذلك اليوم الذي يغيب فيه الناس منطق العقل والهدايه بسبب عباده الهوى فأنه يزيل حجب الهوى، ويجعل السيادة لهدايه العقل، كما يجعل القرآن هو ميزان التقييم بعد أن يقصى التفسير بالرأي حين يحاول ذوى الاطماع تطبيق النصوص القرآنيه على ضوء تفسيرهم إياه حسب آرائهم

ص: ٣٣٩

١- ١) يعطف من ماده عطف على وزن فتح بمعنى الميل والرغبه أو الترغيب بشيء، وقد تستعمل أحياناً بصيغها المتعدى فتعني الترغيب، كما تتعدى أحياناً بحرف إلى فتعني الرغبه في شيء، وتتعدى أيضاً بحرف على فتعني الرجوع إلى الشيء وأخيراً تتعدى بحرف عن فتعني الانصراف عن الشيء.

من أجل تحقيق أطماعهم للامشروع، ولو تأملنا أسباب البؤس والشقاء لرأيناها تتمثل بهذين الدائنين، تحكيم هو النفس على العقل وتطبيق الرغبات الخفيه على آيات القرآن من التفسير بالرأى، وإن زال هذان السيلان تمهد السبيل من أجل بلوغ حكومه العدل الإلهى، ولعل جميع القضايا التي أصابت المسلمين منذ البدايه لحدّ الآن إنما تعود إلى هذين الانحرافين كما يعود سبيل الصلاح إلى إصلاحهما.

ذكر العلماء فى بحث المعرفة أنّ الهوى من بين حجب المعرفة، حيث قال القرآن الكريم: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً. . .» (١).

وما أورع ما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى الخطبه ١٠٩: «وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَغَشَىٰ بَصَرَهُ»، والتفسير بالرأى وحمل الآيات القرآنيه عليه إحدى مكائد الشيطان الكبرى فى تحريف العبارات عن معناها الواقعى وإسقاط الوحى عن قيمته، ومن هنا فقد عدت الأحاديث الإسلاميه هذا العمل بمنزله الكفر حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (٢)، ولما كان الوقوف بوجه هذين الانحرافين من خصائص الإمام المهدي (أرواحنا فداه) فإنّ الضمير فى هذه العبارات يعود كما يعتقد شراح نهج البلاغه إلى الإمام المهدي عليه السلام.

ص: ٣٤٠

[١- ١] سورة الجاثيه / ٢٣. [١]

[٢- ٢] بحار الانوار ١/١٩. [٢]

و منها: «حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سِيَاقٍ، بَادِيًا نَوَاجِدُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا، حُلُوءًا رِضَاعُهَا، عَلَقَمًا عَاقِبَتُهَا. أَلَا وَفِي عَدَدٍ - وَسَيَأْتِي عَدَدٌ بِمَا لَمَّا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَالَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْمَارِضُ أَفَالِيدَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سَلْمًا مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدَلُ السَّيْرِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالشَّنَّةِ» .

الشرح والتفسير

يمثل هذا القسم من الخطبه فى الواقع استمراراً للقسم السابق وهو إشاره إلى حوادث آخر الزمان يتعرض بادية الأمر فيها إلى المعارك الدمويه المدمره التى تثقل كاهل المجتمعات البشريه ويعم الظلم والجور كاهه الأماكن، ثم يظهر رمز العدل الإلهي فينهى النزاعات والافتتال ويملا الأرض قسطاً وعدلاً، ويوفر كاهه مستلزمات الراحة والرفاه، فقال عليه السلام بأن هذا الوضع سيتواصل: «حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سِيَاقٍ، بَادِيًا نَوَاجِدُهَا (١)»، ثم أشار إلى الانتصارات التى تتحقق فى بدايه الحرب والمراره التى تختمم بها فقال: «مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا (٢)، حُلُوءًا رِضَاعُهَا، عَلَقَمًا (٣) عَاقِبَتُهَا»، وكأن الحرب تنطوى على لبن حلو وفى نفس الوقت مسموم

ص: ٣٤١

-
- ١-١) «نواجذ»: جمع «ناجد» أقصى الأضراس أو الأنياب، كما فسّر بجميع الأسنان وهذا هو المعنى المراد منها فى العبارة.
 - ٢-٢) «أخلاف»: جمع «خلف» بالكسر بمعنى حلمه ضرع الناقه، كما وردت بمعنى حلمه ضرع سائر الحيوانات كالبقرة والشاه.
 - ٣-٣) «علقم»: برعم شديد المراره يطلق عليه الحنظل، وتطلق هذه الكلمه على كل شىء مرّ.

بحيث يجذب الأفراد المهوسين ليأملوا بتحقيق نصر خاطف سريع، بينما يصرعون ويهلكون في نهايه الأمر، ثم أشار الإمام إلى ظهور حكمه العدل الإلهي: «أَلَا وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا» .

ثم تطرق إلى ذكر الأوضاع المطلوبه المفعمه بالخير والبركه والتي تحصل بعد قيامه فقال: «وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيدَ (١) كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْمًا مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَيْدُ السَّيْرِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» ، فمن جانب: يتم اكتشاف المعادن النفيسه باطن الأرض بسهولة.

ومن جانب ثان: بيده مقاليد تلك الكنوز أو مقاليد حكمه أرجاء الأرض.

ومن جانب ثالث: يبسط العدل والقسط بالاستناد إلى التمتع بتلك المصادر الغنيه وهذه الحكمه الشامله.

ومن جانب رابع: يحيى التعاليم المندرسه والقيم المغيبه للقرآن والكريم والسنة الشريفه، وهكذا تسيير البشريه باتجاه التكامل على المستوى المادى والمعنوى، فالعقول تتم فى ظل حكمه الإمام المهدي عليه السلام، وتحىي القيم الإنسانيه وتفيض النعم بأنواعها على الناس ويطاح بصنم الظلم والجور.

وقد وردت مثل هذه العبارات فى الروايات المتعلقة بقيام الإمام المهدي عليه السلام فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: « وَتَظْهَرُ لَهُ الْكُنُوزُ وَيَبْلُغُ سُلْطَانُهُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، وَيُظْهِرُهُ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ فَلَا يَفْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ خَرَابٌ إِلَّا عُمَرَ (٢) .

وقا فى موضع آخر: «يَمَلَأُ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا، فَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ شَرْقَ الْأَرْضِ وَغَرْبَهَا» (٣).

ص: ٣٤٢

١- ١) «أفاليذ»: جمع «أفلاذ» وهذا جمع «فلذ» على وزن فكر بمعنى كبد الناقه، أو كبد كل إنسان أو حيوان، : وفلذتهعنى قطعه من الكبد، والمراد بها فى هذه العبارة الأشياء النفيسه والكنوز والمعادن الثمينه فى جوف الأرض.

٢- ٢) شرح نهج البلاغه لعلامة الخوئى ٨/٣٥٣.

٣- ٣) بحار الأنوار ٥٢/٣٩٠. [١]

منهيا: «كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الصَّرُوسِ، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرْتُ فَمَاغِرْتُهُ، وَثَقُلْتُ فِي الْأَرْضِ وَطَبَّأْتُهَ، بَعِيدَ الْجَوْلِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ. وَاللَّهِ لَيْشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ، فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ، حَتَّى تَتُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا! فَالزُّمُوا السُّنْنَ الْقَائِمَةَ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي السُّبُوهِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسْنِي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى حاكم دموي وغاشم ومقتدر يظهر مستقبلاً بالشام فيشهر سيفه ويستولى على جميع البلاد الإسلاميه، ثم ذكر له تسع صفات، فقال: «كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ (١) بِالشَّامِ، وَفَحَصَ (٢) بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي (٣) كُوفَانَ (٤)» .

ص: ٣٤٣

١ - ١) «نَعَقَ»: من ماده «نَعَقَ» على وزن كعب تعنى فى الأصل صوت الغراب أو الصوت الذى يخرج من الشاه حين يذودها الراعى وتشير هنا إلى زعيق الظالم فى الشام.

٢ - ٢) «فَحَصَ»: من ماده «فَحَصَ» على وزن بحث تعنى فى الأصل البحث، كما وردت بمعنى البسط وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبه.

٣ - ٣) «ضَوَاحِي»: جمع «ضاحيه» من ماده «ضحو» على وزن سهو بمعنى التعرض للشمس كما تطلق الضواحي على المناطق أطراف المدن.

٤ - ٤) «كُوفَانَ»: اسم آخر للكوفه وتعنى فى الأصل تلال الرمل الحمراء الدائريه.

ثم قال: «فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ (١)، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَعَرَتْ (٢) فَاعْرَتْهُ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطَأَتْهُ، بَعِيدَ الْجَوْلِ (٣)، عَظِيمَ الصَّوْلِهِ (٤)». ثم أقسم قائلاً: «وَاللَّهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ (٥) فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ».

فهذه الصفات التسع لذلك الحاكم الدموي المقتدر والتي تكشف عن شخصه بصورة تامه تشير إلى أنه يدك أهل الإيمان دكاً بحيث لا يبقى منهم إلّا القليل، فهو يكتم الأنفاس في الصدور ويخنق كل حركة ونشاط، ويستولى على البلاد بعد سفكه للدماء وانطلاقه من الشام إلى الكوفة ثم سائر المناطق، أمّا من هو هذا الشخص الذي يتصف بهذه الصفات؟ هناك رأيان لشراح نهج البلاغه، رأى يراه عبدالملك بن مروان خامس خلفاء بني أميه، كان جباراً طاغياً ودموياً، فقد تحرك بجيش عظيم من الشام ليقضى على مصعب بن الزبير الذي كان يحكم الكوفة، فاستولى على العراق والكوفة، ثم وجه جيشاً بقياده الحجاج إلى الحجاز فقتل عبد الله بن الزبير فسيطر على مكة والمدينه، كما هدم جانباً من الكعبه بعد أن لاذ بها جمع من جيش عبدالله بن الزبير.

والرأى الآخر أنّ ذلك الشخص هو السفينانى الذى يسبق ظهور الإمام المهدي عليه السلام حيث يظهر فى الشام ويسفك الدماء ويدعو الناس إلى نفسه، وبالنظر إلى أنّ الأقسام السابقه من الخطبه بشأن ظهور الإمام المهدي عليه السلام لذلك يبدو أنّ هذا القسم فى الظهور أيضاً، والعبارات المذكوره إشاره إلى ظهور السفينانى.

وقد ورد فى الخبر عن حذيفه بن اليمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أشار إلى فتنه بين أهل الشرق والغرب فيخرج السفينانى حتى يرد دمشق فيبعث بجيش إلى الشرق وآخر إلى المدينه حتى

ص: ٣٤٤

١- ١) «ضروس»: من ماده «ضرس» بمعنى عض الشىء والضغط عليه، وتطلق الضروس على الناقه السيئهالخلق التى تعض حالبها.
٢- ٢) «فعرّت»: من ماده «فعر» على وزن فعر بمعنى فتح الفم، وهى هنا كناية عن الحرص فى الاستيلاء على كل شىء، وافعر اسم فاعل من هذه الماده.

٣- ٣) «جوله»: من ماده «جول» على وزن قول بمعنى الحركة والدوران حول مكان، وهى كناية عن السعى والجهد المتواصل.

٤- ٤) «الصوله»: من ماده «صول» على وزن قول بمعنى الحمله فى الحرب أو القفز على شىء.

٥- ٥) «ليشردنكم»: من ماده «تشريد» بمعنى النفى والطرده والتفريق.

يصل بابل وبغداد، فيقتل أكثر من ثلاثة الاف وينتهك عرض أكثر من مئة إمراه، ثم يتجهون إلى الكوفه فيخربون أطرافها، ثم يعودن إلى الشام، فتظهر رايه هدى فى الكوفه وينطلق جيشها إلى جيش السفينانى فيقتله ولا ينجو منه إلاواحد يخبر عن الحادثه (وهكذا تخمد الفتنة) .

قال المرحوم العلامة المجلسى نقل أصحابنا هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام ضمن أحاديث المهدي عليه السلام (١).

ولكن القسم الأخير من هذه الخطبه لا ينسجم مع هذا التفسير، ثم قال الإمام عليه السلام: بأن هذا الوضع من الاضطراب وسفك الماء والابعاد والتشتت يستمر حتى يعود إلى العرب رشدها وعقلها فتتخلص بهذا العقل من فرقتها واختلافها وتتحد كلمتها: «فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ، حَتَّى تَوُوبَ (٢) إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ (٣) أَخْلَامِهَا! (٤)» .

ثم أمر الناس بأربع من شأنها نصرهم على حكام الظلم والجور، وإعاده الأمن والسلام إليهم فقال عليه السلام: «فَالزُّمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالْأَثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي التُّبُوهِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسْنِي (٥) لَكُمْ طُرُقَهُ لِيَتَّبِعُوا عَقْبَهُ» .

والمراد بالسنة القائمه ضروريات الإسلام وتعاليمه التي ينبغي أن تكون محور الأنشطة السياسي والاجتماعيه والفرديه فى كل زمان، والمراد بالآثار البيئنه هى الأخبار والروايات التي ثبتت من الطرق المعتمره والتي تحتزن أغلب التعاليم والوصايا الإسلاميه، والمراد بالعهد القريب وصيه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بولايه على عليه السلام، والمراد بالعباره «واعلموا...» مراقبه الشيطان والحذر منه فى الإتيان بالأمر المذكوره، وذلك لأن الشيطان يسهل طرقه ليصد الناس عن طاعه الله والأئمه المعصومين عليه السلام والذي لا يخلو عاده من المصاعب، أما الأفراد الذين اعتبروا

ص: ٣٤٥

١-١) بحار الانوار ٥٢/١٨٦ - ١٨٧ [١] بتصرف.

٢-٢) «يؤوب»: من ماده «أوب» الرجوع من السفر أو مطلق الرجوع.

٣-٣) «عوازب»: جمع «عازبه» فى الأصل من ماده «عزبه» من لا زوجه له، لكنها وردت أحياناً بمعنى الخفاء والابتعاد، وهذا هو المراد بها فى العباره.

٤-٤) «أحلام»: جمع حلم بمعنى العقل.

٥-٥) «يسنى»: من ماده «سنو» تعنى فى لأصل رى الأرض من الغيوم، ثم استعملت بمعنى مطلق التسهيل من أجل القيام بعمل.

القسم الأخير من الخطبه بشأن حكومه عبدالملك بن مروان فيرد عليهم إشكالات:

الأول: مفهوم العبارة هو أنّ اسقاط حكومه بنى أميه ومجبيء حكومه بنى العباس قد تمّ فى ظلّ عقل العرب ودرايتها والعوده إلى الطريق الصحيح، والحال نعلم أنّ بنى العباس قد واصلوا جنایات بنى أميه ولم تكن حكومتهم أقلّ استبداداً من حكومه بنى أميه، إلّا أن يقال بعقلانيه سقوط بنى أميه وشروع حركه بنى العباس وإن انحرفوا فى مواصله الطريق.

الثانى: لم يكن ظهور بنى العباس مباشره بعد موت عبدالملك، بل استغرق عشرات السنين حيث حكم ولد عبدالملك ثم أعقب ذلك سقوط بنى أميه، إلّا أن يقال فى جواب هذا الإشكال أنّ حكومه ولد عبدالملك كان امتداداً لحكومته، ولكن من اعتبر القسم الأخير من الخطبه إشاره إلى خروج السفينانى قبل قيام الإمام المهدي عليه السلام قد فسّر العبارات المذكوره على أنّها بعد سفك الدماء الطائش فى آخر الزمان والفساد الذى يحصل الناس مع خروج السفينانى، حيث يطرح حجب الغفله وتتم العقول وتستعد الناس لقبول حكومه المهدي عليه السلام لابدّ فى تلك الشرائط ومن أجل مزيداً من الاستعداد من حفظ السنن الإسلاميه والولاء للولايه، وقد مرّ علينا فى الخطبه ١٠١ العبارات المشابهه لما ورد فى هذه الخطبه، وقد وردت الابحاث بشأن تطبيقها على حكومه عبدالملك.

(١)

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي وَقْتِ الشُّورَى

نظره إلى الخطبه

نعلم أنّ عمر حين أشرف على الموت عهد بتشكيل الشورى المؤلفه من ستة أفراد لتعيين الخليفه، كان أحدهم علياً عليه السلام وعثمان، وكان إختيار الأفراد قد جرى وفق تخطيط وسياسه، وكان الهدف واضحاً منذ البدايه فى إقصاء على عليه السلام وتسلم عثمان لزام الأمور بصفته الخليفه السابق، بل بصفته منتخب شورى كبار المسلمين وقد مضى شرح ذلك فى الخطبه الشقشقيه (٢).

أمّا الإمام على عليه السلام الذى كان ينظر لما هو أبعد من الشورى فقد خطب هذه الخطبه ليحذر أصحاب الشورى، وقد ذكر المرحوم السيد الرضى جانب منها.

ص: ٣٤٧

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه الطبرى فى تاريخه فى شرح حوادث عام ٢٣ هـ (عام قتل عمر) وقال ابن أبى الحديد هذا جزء من خطبه خطبها على عليه السلام فى أصحاب الشورى بعد وفاه عمر، وقد ورد فى الكلمات القصار رقم ٢٢ «لنا حق . . .» وهو جزء من هذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٢).

٢ - ٢) نفعات الولاية ١/٢٤٤ [١]

«لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوِهِ حَقًّا، وَصَلِّهِ رَحِمًا، وَعَائِدِهِ كَرَمًا. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي؛ عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُتَنَضَّى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانَ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَيْمَةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

الشرح والتفسير

تحذير من الحوادث المستقبلية

يتألف هذا الكلام في الواقع من ثلاثة أقسام:

الأول: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من فضائله، ولم يكن ذلك بدافع الفخر ومدح النفس، بل ليمهد السبيل أمام الآخرين للقبول.

الثاني: طلب فيه من مخاطبيه سماع ما يقول وقبول نصائحه التي تستبغ خيرهم ومصالحهم وسعادتهم.

والقسم الثالث: تطرق فيه إلى الحوادث الأليمة التي يشهدها المجتمع الإسلامي في حاله عدم قبول مواعظه وإشراته.

فقد قال في القسم الأول: «لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوِهِ حَقًّا، وَصَلِّهِ رَحِمًا، وَعَائِدِهِ كَرَمًا».

فقد أشار في هذه الفضائل الكبرى الثلاث إلى قبول الإسلام فقال إنَّ علياً عليه السلام هو أول من أسلم ومن الطبيعي أن مثل هذا الفرد يكون أكثر وعياً به من غيره وأحرص، والآخري إلى سبقه في صلته الرحم، لأنه وقف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله منذ إنبثاق الدعوه الإسلاميه حتى وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد فدى رسول الله صلى الله عليه وآله و آله بنفسه في المواطن الصعبة من قبيل مبيته على فراش النبي صلى الله عليه وآله واقعه أحد وأمثال ذلك، كما كان الأبرز في البر والخير والإحسان حتى نزلت

آيات من القرآن الكريم بشأن تصدّقه بالخاتم حين الركوع فى الصلاه (١)، وتصدّقه بالطعام على المسكين واليتيم والأسير (٢)، وتصدّقه بدرهم فى السر وآخر فى العلانيه، ودرهم فى الليل وآخر فى النهار (٣).

ثم قال بالاستناد إلى إذعان الجميع بالفضل فيما ذكر: «فاسْمِعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي»، لا تتعجلوا الأمور بانتخاب عثمان، فهذا عمل خطير له عواقب وخيمه على المسلمين، وتطرق عليه السلام إلى المصير الصعب الذى سيفرزّه هذا الانتخاب فقال: «عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى (٤) فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةِ لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ» .

هناك خلاف بين شراح نهج البلاغه فى أنّ هذا الإخبار إشاره لحادثه قتل عثمان وشهر السيوف ونقض البيعه من قبل بعض الأفراد كطلحه والزبير وأمّثالهما أم إشاره إلى تمرد الناكثين والقاسطين والمارقين (أصحاب الجمل وصفين والنهروان)، ولكن بالنظر إلى الظروف التى وردت فيها هذه الخطبه (حين تشكيل الشورى لانتخاب الخليفه الثالث)، يبدو المعنى الأول أقوى، وكما تكهن الإمام عليه السلام فبمجرّد تسلم عثمان زمام الأمور حتى بدأ التبذير والبذخ فى بيت مال المسلمين وحصل أقرباؤه وبطانته على المراكز الحساسه فى البلد الإسلامى فتهافتوا على بيت المال ليفعلوا فيه ما شاؤوا، وهو الأمر الذى أثار غضب المسلمين فثاروا عليه وكان فى مقدمه من ثار عليه طلحه والزبير، وقد تبعهم طائفه من الناس فحصل ما لم ينبغى أن يحصل، والحال لو لم تسود الشورى تلك العصبية والملاحظات الشخصيه وفوضت الخلافه لأهلها، لما وقعت تلك الحوادث المريره ولا ما تبعها من نتائج، وذلك لأنّ جذور فتنه الناكثين والقاسطين والمارقين إنّما ترعرعت فى ظلّ حوادث عصر عثمان.

ص: ٣٥٠

١-١) سورة المائده / ٥٥.

٢-٢) سورة الدهر / ٨.

٣-٣) سورة البقره / ٢٧٤.

٤-٤) «تنتضى»: من ماده «نضو» و «نضى» على وزن نظم بمعنى سل السيف، أو الخروج من البيت وشحوب اللون وما شابه ذلك، والمراد بها فى العبارة المعنى الأول.

ذكرنا فى المجلد الأول من هذا الكتاب فى شرحنا لخطبه الثالثه المعروفه بالخطبه الشقشقيه قصه الشورى المؤلفه من سته أفراد والتى شكّلها عمر وأدّت إلى انتخاب عثمان كخليفه والتى تمثل فى الواقع مؤامره ضد خلافه على عليه السلام، وقد أوردنا جانباً من الأقوال بهذا الشأن استناداً إلى التواريخ المعتبره والذى نود إضافته هنا إلى ما ذكرناه هو أننا لو أنعمنا النظر فى تركيب هذه الشورى وحوادثها السلبيه وسنرى أنّ أغلب مشاكل المسلمين قد أفرزتها تلك الشورى، ومن ذلك أيضاً حكومه عثمان واستيلاء بنى أميه وبنى مروان على المناصب الحساسه للبلاد الإسلاميه وبيت المال المسلمين وحكومه معاويه ومعارك الجمل وصفين والنهروان ومن ثم حكومه يزيد وأمثال عبدالملك.

والجدير بالذكر هنا ما أورده شارح نهج البلاغه ابن أبى الحديد حيث قال بخصوص الشورى: «إنّ ذلك كان سبب كل فتنه وقعت وتقع إلى تنقضى الدنيا» (١).

فهذه الشورى هى التى أدّت بالتالى إلى تغييب القيم الإسلاميه وأحيت السنن الجاهليه والمعايير الماديه والدينيه وشادت المجتمع الإسلامى وقطعت ألسن دعاه الحق ونفت وشردت أبى ذر وأثارات النقمه ضد عمّار بن ياسر حين اعترض على نتيجة الشورى فلم يكثر أحد لما كان يقول: فقد استوى أوثك العتاه على عرش الغرور والحميه فعاثوا الفساد فى أوساط المجتمعات الإسلاميه، الفساد فى الحكومه والفساد فى الإيمان والأخلاق، ولو سمحت النعرات الطائفيه بالتعامل الدقيق مع هذه الأحداث لاتضح فداحه خساره التى منى بها المسلمون من جراء الشورى.

ص: ٣٥١

١- (١) شرح نهج البلاغه ابن أبى الحديد ١١/١١، [١]

ومِن كَلامٍ لهُ عليه السلام

فى النهى عن غيبه الناس

نظره إلى الخطبه

نهى الإمام عليه السلام الناس فى هذه الخطبه عن اغتياى بعضهم البعض الآخر وقد عزز ذلك بعده أدله، فقد ذكر بادیء الأمر وجوب الشكر على من تطهر من العيوب والذنوب، ويتمثل شكرها بتجنب الغيبه واقتفاء عيوب الآخرين، الأمر الآخر لو تأمل صاحب الغيبه نفسه لاكتشف فيها العيوب التى يحاول العثور عليها فى الآخرين، فكيف والحال كذلك يسعى لذم الآخرين على عيوبهم وهم يحملونها، وأخيراً لعل الإنسان يقارف الصغيره وهو يظن بأنه لم يرتكب الكبيره من الذنوب فيخوض فى غيبه الآخرين، وتقصى معايهم وهذا بحد ذاته من الكبائر، أضف إلى ذلك فما يدرى من يفتاب الآخرين أن الله قد غفر لهم بينما لم يغفر لمن فتش عن عيوب الآخرين، وزبده الكلام فإن الله قد أغلق الطريق على أصحاب الغيبه والباحثين عن عيوب الناس ليظهر المجتمع الإسلامى من هذه الفاحشه.

ص: ٣٥٣

١- ١) سند الخطبه: ذكر الأمدى فى كتاب «غرر الحكم» مع فارق وما ورد فى نهج البلاغه وهذا يدل على أن مصدره غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٣١٤)، كما وردت هذه الخطبه فى بعض المصادر كجزء من خطبه تعرف بالديباج (كتاب تمام نهج البلاغه).

«وَأَيْتِمًا يَتَّبِعِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمُضَيَّنُّوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَزْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ بِهِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِلُؤَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَدُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بَعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَإِيمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَّأَتْهُ [لَجَرَّأَتْهُ] عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرًا!» .

الشرح والتفسير

إهتم الإسلام بقضيه الغيبه وإقتفاء عيوب الآخرين على أنها من المشاكل الاجتماعية الكبرى التي تشيع روح التشاؤم والنفاق وتفكك عرى الثقفه وتقضى على روح الاتحاد والأخوه، ومن هنا عدّها الإسلام من الذنوب الكبيره، وقد قسم الإمام عليه السلام الناس إلى خمس طوائف، الطائفة الأولى التي شملتها عنايه الله سبحانه فلم تتلوث بالذنوب المعاصي، فقال بشأن هذه الطائفة: «وَأَيْتِمًا يَتَّبِعِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمُضَيَّنُّوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَزْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ بِهِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ» ، فأى نعمه أعظم من أن يتلطف الله تعالى على إنسان ويصونه من مقارفة الذنب، وأى شكر أعظم من شكر هذه النعمة الإلهية الكبرى بأن يحفظ لسانه من إغتياب الآخرين واقتفاء عيوبهم.

الطائفة الثانية التي تحمل العيوب وتذم الآخرين على مثلها، أى إنّ حب الذات لا يدعهم

يرون عيوبهم بينما دقيق هو في متابعه عيوب الآخرين، وقد قال فيها على عليه السلام: «فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِلَوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ!». .

إشاره إلى أنّ الإنسان المؤمن يجب أن يتحلى بقبسات من صفات الله سبحانه، فالله ستار العيوب، فينبغي عليه أن يستر عيوب الآخرين.

الطائفة الثالثة التي ترتكب الذنوب وتذم الآخرين على مثلها، والحال من الطبيعي أن يكون الإنسان أحرص على نفسه من الآخرين، فكيف لهذا الإنسان بالتفكير في عيوب الآخرين دون أن يهتم بإصلاح نفسه وعيوبه، أى عقل يسؤل للإنسان نسيانه لذاته بصوره كليه ويلقى بها في مستنقع البؤس والشقاء فيخوض في ذنوب الآخرين، ناهيك عن أنّ الدافع من ذلك هو الفساد لا الإصلاح، فقد قال الإمام عليه السلام: «وَكَيْفَ يَذُمَّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ!». .

الطائفة الرابعة من تذم الآخرين على ذنوب لم ترتكبها، لكنّها ارتكبت ما هو أفضع منها، وهو غافل عن هذه الذنوب غير مكترث لها، فقال الإمام عليه السلام بشأنها: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ». .

الطائفة الخامسة التي ربّما لم ترتكب تلك الذنوب التي تذم الآخرين على ارتكابها، حيث لم تصدر منها سوى بعض الصغائر من الذنوب فقال قال الإمام عليه السلام بشأنها: «وَإِنَّمِ اللَّهُ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَاتُهُ [لَجْرَاتُهُ] عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!». .

وهكذا أغلق الإمام عليه السلام جميع الطرق على أولئك الذين يقتفون عيوب الآخرين ويسلبهم أیه ذريعه بعد أن يذكرهم بكافه العواقب الوخيمه التي تترتب على شنائع أعمالهم، ليتعدوا عن وساوس الشياطين ويطلعهم على أهوائهم وقبح أفعالهم ليجسدها أمام أنظارهم.

«يَا عِبْدَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صِغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ» .

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه تلك المبادئ التي أوردتها في القسم السابق وقد حذر كافة العباد من تتبع عيوب الآخرين وغيباتهم، ثم تابع هذا الأمر من خلال الأدله المنطقيه فقال عليه السلام: «يَا عِبْدَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صِغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ» .

في إشاره إلى أن ذنب الآخرين قد يغفر بسبب التوبه أو شفاعه المعصومين عليه السلام أو على أساس القيام بأعمال الخير بينما يؤاخذ هذا الإنسان بذنبه مهما كان صغيراً بفعل الغرور والغفله، وعليه كيف يسمح العاصي لنفسه بدم الآخرين على معايهم ومثالبهم فيغتابهم؟

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال: «فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ» ، فالله هو المنزه من العيوب والطاهر من الذنب هو المعصوم، وعليه فلا يجوز لنا العقل بأن نضوب سهام غيبتنا وذمنا للآخرين ونحن غارقون في العيوب والذنوب.

ثم إختتم الخطبه بالإشاره إلى المطلب الذي ذكره في القسم الأول من الخطبه ولكن بعبارة أخرى فقال عليه السلام: «وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ» .

فو فرضنا تنزه شخص عن كل عيب أو عيوب معينه، فذلك نعمه كبيره تستحق شكر الله والشعور بلطف الله تعالى وعنايته، والحق إن مثل هذا الشكر يشغل الإنسان بنفسه إلى الحد الذى يسلبه فرصه البحث عن عيوب الآخرين.

نعم، فهذا المعلم الربانى يعتمد مختلف الأدله المنطقيه بغيه القضاء على هذه الرذيله القبيحه المتمثله بالغيبه وتحرى عيوب الآخرين، كما يغلق جميع الطرق على أصحاب الحجج والذرائع.

الغيبه والبحث عن العيوب آفة المجتمعات الإنسانيه

الغيبه تعنى إفشاء عيوب الأفراد ومثالبهم، والمؤسف له هو أن هذه الظاهره شائعه فى أغلب المجتمعات البشريه، وبما لا شك فيه أنها تخترن مختلف الآثار السلبيه على المستوى الأخلاقى وكذلك الاجتماعى، وذلك لأنّ السند الرصين لكل مواطن فى المجتمع هو ماء وجهه، والغيبه تزيل ماء الوجه وتطعن فى شخصيه الفرد وتقضى على روح الثقه وبين أفراد المجتمع والتالى تلعب دوراً سلبياً فى إضعاف التعاون الاجتماعى، ومن هنا عدّها الشارع وحداه من أقبح وأشنع الذنوب حتى شبهها القرآن الكريم يأكل لحم الأخ الميت، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فى خطبه حجّه الوداع وهى خطبه حساسه: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمِهِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْغَيْبَةَ كَمَا حَرَّمَ الْمَالَ وَالْدَّمَ» (١).

وكفى بقباحه الغيبه ما ورد فى الحديث القدسى أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران: «مَنْ مَاتَ تَائِبًا مِنَ الْغَيْبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ» (٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الشأن: «مَنْ مَشَى فِي غَيْبِهِ أَخِيهِ وَكَشَفَ عَوْرَتَهُ كَمَا كَانَ أَوَّلُ خُطْوِهِ خَطَايَاهَا وَضَعَهَا فِي جَهَنَّمَ» (٣).

ص: ٣٥٨

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٩/١٦٢. [١]

٢- ٢) جامع السعادات ٣/٣٠٢؛ [٢] بحار الانوار ٧٢/٢٥٧. [٣]

٣- ٣) جامع السعادات / ٣٠٣. [٤]

كما قال صلى الله عليه وآله: «مَا عَمَرَ مَجْلِسٌ بِالْغَيْبِ إِلَّا خَرِبَ بِالَّذِينَ» (١).

وكثيره هي الأحاديث التي وردت بهذا الخصوص والتي لا يسع المجال ذكرها، ونكتفى هنا بذكر حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: ونحيل من أراد المزيد إلى المجلد الثالث من كتاب الأخلاق في القرآن في مبحث الغيبة وكتاب جامع السعادات المجلد الثاني والمجلد الثامن من وسائل الشيعة، حيث قال: «الغيبه حرام على كل مسلم وأنها تأكل الحسنات كما تأكل الثأر الحطب» (٢).

والحقيقه هي أن الإسلام يرى حرمه ماء وجه المسلم والتي تعدل حرمه دمه، وقد اقترن العرض بالدم في الروايات والأخبار الإسلاميه وبناءً على ما تقدم فإن من إغتاب شخصاً آخر وانتهك حرمة الاجتماعيه وأراق ماء وجهه فكأنه قتله، ومن هنا تواترت الروايات التي أكدّت الثمن الباهض الذي سيدفعه صاحب الغيبة يوم القيامة وما سيؤخذ منه حسنات بسبب ما اقترف من غيبه فتضاف إلى حسنات من إغتابه، فإن لم يكن له من حسنات، أخذت من سيئات من إغتابه وأضيفت إلى سيئات صاحب الغيبة.

نعم، الغيبة حق الناس على غرار قتل النفس وجرح الأفراد، ولهذا فلو إلتفت المؤمنون إلى تبعات السيئه لهذه الذنوب والتي صورتها الروايات الإسلاميه لما سعى لمقارفه هذه السيئه، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للإتيان بعده أدله منطقيه لبيان الآثار السيئه لهذه السيئه وقد حذر الجميع من مقارفتها، ويبدو بحث موضوع الغيبة من الأبحاث الواسعه كما صورها علماء الأخلاق ونكتفى هنا بذكر بعض الأمور بهذا الشأن:

١ - لا بد أن نتجه قبل كل شيء نحو دوافع الغيبة وذلك لأنه يمكن الاستدلال على قبح النتائج من خلال قبح الدوافع، فدافع الغيبة غالباً هو الحسد وحب الذات والغرور والتكبر والحقد والرياء وحب الدنيا والثأر والسخرية والاستهزاء بالآخرين وما شاكل ذلك، حيث يحاول الأفراد الملوثون بهذه الأمراض بلوغ أهدافهم السيئه عن طريق الغيبة وبالنظر إلى أن الدوافع المذكوره جميعاً من الكبائر فإنه يمكن الوقوف على قباحه الغيبة.

ص: ٣٥٩

١-١) بحار الانوار ٧٥/٢٥٩.

٢-٢) جامع السعادات ٣/٣٠٥. [١]

٢ - إنَّ أهمَّ أُرصدَه المَجمَع وسنَدَه الأَصَل والذِي من شَأْنِه توحيد الأَفراد ويدفعهم بأتجاه الأهداف النبيله هو الثقه المتبادلَه وممَّا لا- يشك فيه أنَّ أولى النتائج السيئه للغيبه تتمثل بالقضاء على هذا السند، وذلك لأنَّ كل فرد في الغالب ينطوى على عيب أو عيوب فإنَّ بقيت خفيه لن تنعكس سلباً على الآخرين ويبقى التفاؤل ثقَه الأَفراد بعضهم بالبعض الآخر قائمه، أمَّا كشف هذه العيوب عن طريق تحريها والبحث عنها وممارسه الغيبه وذم كل فرد آخر إنَّما يحيل المَجمَع إلى جهنم محرقه بحيث يسبىء كل فرد الظن بالآخر وينفر منه، بالنتيجه تزعزع النظام العام للمَجمَع وتعرّضه للقلق والاضطراب.

وبعباره أخرى كما يتهدد الأمن العام للمَجمَع بفعل نهب الأموال وسفك دماء الأبرياء، فإنَّ سلب ماء الوجه وسرقته من الآخرين عن طريق الغيبه إنَّما يشيع تلك الفوضى ويقضى على الأمن، وذلك لأنَّه كما ورد في الروايه المذكوره عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإنَّ التعرض لحيثيات الآخرين بمثابه التعرض لأنفسهم وأموالهم، لا يمكن كتمان الغيبه عاده وتفشى على صاحبها فتشتعل فيهم نيران الحقد والكراهيه، الحقد الذى يمهد السبيل أمام سفك الدماء وعظام المشاكل، والغيبه أحد أسباب إشاعه الفحشاء وعامل مهم من عوامل سوء الظن، إلى جانب كونها تجعل الآثم جريئاً فى ذنوبه، لأنَّ المذنب الآثم يراعى عاده جانب الاحتياط إن بقيت معصيته خفيه مستوره، فان هتكت زال حجاب الحياء والخجل.

٣ - الغيبه حق الناس، والمسأله المهمه بشأن الغيبه أنَّها ليست معصيه بين الإنسان وربّه تبارك وتعالى يمكن غسلها بماء الندم فتحصل التوبه، بل كما لا- يمكن تلافي الخسائر الناجمه عن سفك الماء وغصب الأموال دون القصاص أو الديه ودفع التعويضات المالىه، فإنَّه لا- يمكن غفران إزاله ماء وجه الآخرين دون تعويض، سيّما إن توفى من أغتیب ولم يكن هناك من سبيل لمن إغتابه للوصول إليه ولم يبق أمامه سوى الحساب والقيامه، يعنى حين لا يكون هنالك من سبيل للتعويض سوى إضافه حسناته إلى ذلك الفرد أو تقبل سيئاته، وهذه بحدّ ذاته مصيبه كبرى.

٤ - إنَّ أفضل علاجٍ للغيبه يتمثل بما ذكره مولى الموحيد أمير المؤمنين على عليه السلام في الكلام المذكور وقد لفت انتباه الإنسان إلى هذه الحقيقه وهى إن رأى الإنسان عيباً ومنقصه فى شخص آخر وليس فيه مثلها، فقد وجب عليه شكر الله، الشكر الذى يصده عن تحرى عيوب الآخرين، وإن قارف معصيه وقد إرتكبها مثله، فلا ينبغى له أن يتجاهل عيبه وينشغل بعيوب الآخرين، وإن إرتكب الصغيره وجب عليه أن يفكر فى أن كبيره غيره ربّما غفرت ولم يغفر له، بل جرّأته على تقصى عيوب الآخرين لأكبر من ذنوبهم مهما كبرت.

أضف إلى ذلك فكما أنّ الأمراض البدنيه لن تعالج بصوره تامه ما لم تزول جذورها فإنّ الأمراض الروحيه كالغيبه لا بدّ من إقتلاع جذورها حتى تزول الرغبه فى مقارفتها.

٥ - استماع الغيبه أحد الذنوب - كما سيأتى شرح ذلك فى الخطبه القادمه - ذلك لأنّ السامع شارك فى إراقه ماء وجه مسلم فهو شريك فى الجرم، سيّما إن إستمع مختاراً بما يجعله سبباً لتشجيع صاحبه الغيبه.

٦ - لا يقتصر سبيل التوبه عن الغيبه على الاستغفار، بل لا بدّ من محاوله تعويض من أعتيب وأريق من ماء وجهه إلى جانبى الندم والتوسل إلى الله تعالى فى طلب العفو الرحمه، فان أمكن مناشدته إبراء الذمّه، وأما إن تعذّر ذلك بسبب ترتب مفسده، أو توفى الشخص، فلا بدّ من القيام بأعمال الخير من أجله حتى يرضى، وكل هذه الأمور تشير إلى مدى فضاغه الغيبه وصعوبه التخلص من تبعاتها، ومن أراد المزيد بشأن المسائل المتعلقه بالغيبه ومن ذلك موارد الاستثناء عليه مراجعه الجلد الثالث من كتاب الأخلاق فى القرآن (١).

ص: ٣٤١

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي النَّهْيِ عَنِ سَمَاعِ الْغَيْبِ وَفِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

نظره إلى الخطبه

يبدو أنّ هذا الكلام مواصله للخطبه السابقه، فقد ورد الحديث في الخطبه السابقه عن نهى الناس عن الغيبه، وجرى الكلام هنا في النهى عن سماع الغيبه، كما أكد عليه السلام عدم تصديق كل ما يصدر من الشخص بهدف حفظ شخصيه الآخرين، فالخطأ جائز حتى على الصادقين.

وإختتم عليه السلام الخطبه بوصيّه الجميع بعدم تصديق الشيء ما لم يره، فما أكثر الخطأ واللبس في السماع.

ص: ٣٤٣

١ - ١) سند الخطبه: نقلها القاضي القضاى فى كتاب «دستور معالم الحكم»، كما نقل جزءاً منها على بن هذيل فى كتاب «عين الأدب والسياسه»، وكذلك المرحوم الصدوق فى «الخصال» وابن عبد ربه فى «العقد الفريد»، (مصادر نهج البلاغه ٢/٣١٥) [١]

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَهُ دِينَ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرَّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَتُخَطِي السَّهَامُ، وَيُحِيلُ [يُحِيكَ] [الْكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذَلِكَ يُبُورُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

فَسَيْئِلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنِ مَعْنَى قَوْلِهِ هَذَا، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ وَوَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!». .

الشرح والتفسير

المسافة بين الحق والباطل

كما ورد سابقاً، يبدو أن هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة فصلها عن بعضها المرحوم السيد الرضى، وذكرها بصورة مستقلة، والواقع أن الهدف من الخطبتين واحد هو حفظ ماء الوجه وإشاعه أجواء الثقة بين أفراد المجتمع والابتعاد عن الآثار السيئة للغيبة وتحري العيوب.

فقد بين الإمام عليه السلام في الخطبة السابقة طرق معالجة الغيبة، وسعى هنا للحد من الآثار الهدامة للغيبة أو القضاء عليها تماماً.

فقال بادئ ذي بدء: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَهُ دِينَ وَسَدَادَ (١) طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرَّجَالِ» .

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد أبطل بهذه العبارة القصيره ومن خلال عدّه طرق الآثار السيئه للغيبة في المستمع، وأول تلك الطرق ما ورد في العبارة المذكوره، لأنّ الإنسان إن عرف

ص: ٣٦٥

١ - ١) «سداد»: بمعنى الصحيح من الكلام والعمل وتستعمل هذه المفردة كمصدر واسم مصدر، ويبدو أنّها قريبهمن ماده سد بمعنى الجدار المحكم الذى يقام ضد السيول وما شابه ذلك، لأنّ للكلام الحق استحكام خاص.

أحداً بحسن السيره والورع والتقوى كان عليه أن يوقن بخطأ ما يقال فيه من أمور مخالفه، لأن الموارد المشكوكه غالباً ما تحمل على الموارد المعلومه وعلى حدّ التعبير المشهور: «الظنُّ يَلْحَقُ الشَّيْءَ بِالْأَعْمِّ الْأَغْلَبِ»، وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يعنى قبولنا لغيبه الأفراد وتتبعهم لعورات الآخرين الذين ليس لهم من سابقه، بل الهدف مضاعفه التأكيد بالنسبه للأفراد من ذوى السوابق الحسنه، بحيث لا ينبغى التصديق مطلقاً بما يقال بشأن أولئك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى وهى لو فرضنا أنّ المتكلم كان صادقاً، ولكن من الموقن به أنّه ليس بمعصوم، وعليه فالخطأ محتمل من جميع الناس سوى المعصومين، وعليه فلا- ينبغى تصديق المقابل بكل سهوله فى ما ينسبه إلى الآخرين، ناهيك عن عدم مطابقه الظن والحدس إلى الواقع على الدوام، فقال: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِيَ، وَتُخْطِئُ السَّهَامُ»، أضف إلى ذلك وعلى ضوء كلام الإمام عليه السلام: « وَيُحِيلُ (١) [يُحِيكُ] [الكَلَامُ، وَبَاطِلٌ ذَلِكَ يُبَوِّرُ (٢)، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ»، فى إشاره إلى أنّ أغلب الناس لا- يلتزمون بكلام الحق ويتفوهون بكل ما يرد على ألسنتهم، ومن هنا لا ينبغى قبول ما ينسبونه إلى الآخرين من عيوب، فقد يكون ذلك من الأقوال الباطله التى تنسب إلى الأفراد دون تريث.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه أخريس فقال: «أَمَّا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ» .

وفى هذه الأثناء سأله أحد الحاضرين: «عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ هَذَا، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ وَوَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!» .

فالعباره فى الواقع إشاره إلى الشائعات التى تتناقها الألسن فيطالعك هذا وذاك وهم يرددون يقال كذا ويقال كيت وليس الأمر سوى شائعات لا- أساس لها، وقد قال عليه السلام لا تلتفتوا إلى الشائعات ولا تنسبوا إلى الآخرين ما لا ترون، ومن هنا تتضح الإجابة على السؤال الذى أورده أغلب شراح نهج البلاغه ومفاده: إنّ الآيات القرآنيه والوحى السماوى وسنّه النبى

ص: ٣٦٦

-
- ١-١) «يحيل»: من ماده «إحاله» كل تغير أو حركه تخرج عن الحق والاستقامه وتحيل إلى الانحراف و الاعوجاج.
٢-٢) «يبور»: من ماده «بور» تعنى فى الأصل شدّه كساد الشىء وحيث يبعث ذلك على الفساد حسبما ورد فى المثل كسد حيا فسد فقد اطلقت هذه المفرده على الفساد ومن ثم الهلكه.

الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام كلها عن طريق السمع فكيف يحكم بطلانها؟

فليس مراد الإمام عليه السلام بطلان أخبار الثقاه والأحاديث المتواتره والمستفيضه التى وصلتنا عن طريق السمع، بل مراده ذلك المعنى العرفى والمتداول بشأن الشائعات، والشاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لما سئل: كم بين الحق والباطل؟ فقال عليه السلام: «أربع أصابع فما رأيت به عينك فهو الحق وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً» (1).

وزبيده الكلام ليس كل ما يراه الإنسان حق، وذلك لأن العين قد تخطف أحياناً، وليس كل ما يسمعه باطل، وذلك لأن المتكلم قد يكون فرداً عادلاً وثقة، لكن قليل هو الخطأ على مستوى العين، أما الكلام الباطل عن طريق السمع فهو كثير، وهذا ما أشارت إليه العبارة الواردة عن الإمام عليه السلام.

ولعل هذا هو أنسب التفاسير للعبارة المذكوره، بينما أورد البعض من شراح نهج البلاغه تفسيراً آخر خلاصته أن العبارة: «ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع» إشاره إلى العيوب التى تقال فى حق الأفراد، أغلب هذه العيوب ناشىء من سوء الظن وعدم التحقيق والحسد، والحقد والكراهيه وما شاكل ذلك، وعليه فهناك الكثير من الكذب والباطل فى هذه الأقوال، ولكن يمكن للإنسان القول بأن العيوب الفلانيه فى الشخص الفلانى إن رآها بعينه.

درس أخلاقى رفيع

لو وضع الناس نصب أعينهم واستحضروا على الدوام وفى كل مكان عبارة الإمام عليه السلام ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع وعملوا بها فى حياتهم، قطعاً كل التفاؤل محل التشاؤم وحسن الظن بدل سوء الظن والثقه والاعتماد بدل عدمهما والمحبه بدل البغض والكراهيه، وسوف تبته الإشاعات ولا يكون لها ذلك الصدى والتأثير وبالتالي سوف لن يبلغ أصحابها ما يرومونه من أهداف فلا يسود المجتمع سوى الحب والأخاء، والمؤسف له أن الشائعات فى

ص: ٣٦٧

الوقت الحاضر قد جاوزت الأفراد لتطيل فئات البلاد وتجمعاته بحيث ألفت بظلالها الوخيمه على جميع أرجاء العالم وما ذلك إلى للغفله عن الفارق بين الحق والباطل التي أشير إليها في كلام الإمام عليه السلام، وإنما لنلمس الثمن الباهظ الذي يدفعه العالم بسبب عدم التزامه بهذا الأمر.

ص: ٣٤٨

ومِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

المعروف في غير أهله

نظرة إلى الخطبه

تدور هذه الخطبه حول محورين:

المحور الأول: يشرح النتائج السلبيه للمعروف والإحسان إلى غير أهله.

والمحور الثاني: الموارد المؤهله لأن يصنع الإنسان إليها المعروف لينال من خلالها شرف الدنيا والفوز بفضائل الآخره.

ص: ٣٦٩

١ - ١) سند الخطبه: ذكرها المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٢)، [١] والمرحوم الشيخ المفيد والشيخ الطوسي في الآمالى وابن قتيبه في كتاب «الإمامه والسياسه»، والجدير بالذكر أنه يستفاد من بعض المصادر المذكوره مثل كتب الكافي أن هذه الخطبه هي استمرار للخطبه ١٢٦ (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٨٢ [٢] بتصرف).

«وَلَيْسَ لِمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحِظِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمَدَهُ اللَّئَامُ، وَتَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنْعِمًا عَلَيْهِمْ: مَا أَجُودَ يَدُهُ! وَهُوَ عَنِ ذَاتِ اللَّهِ بِخَيْلٍ!»

مواضع المعروف

فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفَكِّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِي، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْعَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزًا بِهِذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكٌ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً هذه الخطبة حسب بعض الروايات المعتبره جزء من الخطبه رقم ١٢٦، والتي اعترض فيها بعض الجهال على الإمام عليه السلام بسبب تسويته بين الناس في العطاء من بيت المال المسلمين، فكلموه لم لا تزيد في عطاء أشراف القبائل ليطروه ويشنوا عليه ويقفوا إلى جانبه عند الشدائد، أما الإمام عليه السلام فقد وبخهم في هذه الخطبه في أن البذل والعطاء في غير موضعه لا يوجب غضب الله وسخطه فحسب، بل به آثاره السلبيه حتى في الدنيا أهونها ثناء الأشرار وإنسحاب الأخيار، فقال عليه السلام: «وَلَيْسَ لِمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحِظِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمَدَهُ [\(١\)](#) اللَّئَامُ، وَتَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ» .

ص: ٣٧١

أضف إلى ذلك فإن هذا المدح والثناء قائم مادام البذل والعطاء ومد يد الجود والسخاء، ولكن بمجرد أن يقطع هذا البذل لا يبقى من أثر لذلك المدح ولا ثناء، هذا في الوقت الذي يكون فيه بخيلاً عن البذل في سبيل الله تعالى: «مَا دَامَ مُنْعَمًا عَلَيْهِمْ: مَا أَجُودَ يَدُهُ! وَهُوَ عَن ذَاتِ اللَّهِ بِخَيْلٍ!». .

وقد جربنا كلام الإمام عليه السلام مراراً في حياتنا والذاكره البشريه تحتفظ بالكثير من ذلك طيله التاريخ، فقد حفلت الدنيا بالأفراد المتكالبين على الدنيا ممن تحكموا بثروات المجتمع وقد أغدقوها على المتملقين من الأشرار ممن حولهم وبطانتهم وقد ولو ظهورهم بالمزّه عن معاناه المحرومين وآلام المساكين، فان دارت عليهم الدوائر وتنكرت لهم الدنيا، هب المحرومون للوقوف بوجههم ولم يكتف الأمر عند هذا الحدّ، بل تنكر لهم حتى أنصارهم من المتملقين وعرضوا لهم بالذم والتوبيخ، فلم يتركوهم وشأنهم فحسب، بل سارعوا للتمرد عليهم وأعدوا أنفسهم للإنسجام مع من يخلفونهم من الحكّام، وهذه هي عاقبه من ولى ظهره للحق تبارك وتعالى والخلق والتحق بركب النفعيين.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِيِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنْهُمْ دَائِمًا» (١)، وعن المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ إِلَى خَيْرٍ يَصِيْرُ الرَّجُلُ أَمْ إِلَى شَرٍّ؟ أَنْظِرْ إِلَى أَيْنَ يَضَعُ مَعْرُوفُهُ؟ فَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعْرُوفَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَصْتَبِرُ إِلَى خَيْرٍ وَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعْرُوفَهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» (٢).

ص: ٣٧٢

١-١ (١) بحار الانوار ٧٤/١٧٨. [١]

٢-٢ (٢) منهاج البراعه ٧/٤٣٩.

«فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَّ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيُضَبِّرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ائْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزًا بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكٌ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» .

الشرح والتفسير

عرض الإمام عليه السلام بالذم الشديد لصانع المعروف في غير أهله كما ورد ذلك في المقطع الأول من الخطبه والذي كان يمثل الجانب السلبي من القضية، أما في هذا القسم فقد تعرض إلى جانبها الإيجابي فبين الموارد الطبيعه التي تستحق الانفاق والبذل والعطاء، حذراً من استغلال البعض لما مرّ معنا سابقاً في العبارات، فيعتمد البخل وعدم الانفاق فقال: «فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَّ (١)، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ (٢)» .

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى سته موارد للانفاق والبذل وفي مقدمتها القرابه من ذوى الحاجه، فمما لا شك فيه أنّ هؤلاء مقدمون على غيرهم، وهذا ما ورد في الخبر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: عَلَى ذِي الرَّجْمِ الْكَاشِحِ» (٣)، ثم ركز الإمام على قضيه الضيافه وهى الأمر الذى يؤدّى إلى إشاعه أجواء المودّه

ص: ٣٧٣

١ - ١) «العانى»: من ماد «عنى» بمعنى الشدّه والتعب، وعدها البعض من شرّاح نهج البلاغه [١] مرادفه لأسير، ويبدو أنّ معناها واسع يشمل كل إنسان يعيش التعب والإرهاق.

٢ - ٢) «الغارم»: من ماده «غرامه» من عليه الديون.

٣ - ٣) الكافي ١٠/٤. [٢]

والمحبه بين الأصدقاء ويزيل الأحقاد، كما يوطد العلاقات العاطفيه والاجتماعيه وقد أولى الإسلام هذه المسأله الإنسانيه والأخلاقيه أهميه قصوى حتى ورد في الخبر أن الإمام الصادق عليه السلام سأل أحد أصحابه: «أَتَجِبُ إِخْوَانَكَ يَا حُسَيْنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: تَنْفَعُ فَقَرَائِهِمْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّهُ يَحِقُّ عَلَيْكَ أَنْ تُجِبَّ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ، أَمَا وَاللَّهِ لَا تَنْفَعُ مِنْهُمْ حَتَّى تُجِبَّهُ، أَتَدْعُوهُمْ إِلَى مَنَزِلَتِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا أَكُلُ إِلَّا وَمَعِيَ مِنْهُمْ الرَّجُلَانِ وَالثَّلَاثَةُ وَالْأَقْلُ وَالْأَكْثَرُ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمْ إِنَّ فَضْلَهُمْ عَلَيْكَ أَعْظَمُ مِنْ فَضْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَقُلْتُ: فَمَا أَطْعَمُهُمْ طَعَامِي وَأَوْطَيْتُهُمْ رَحْلِي وَيَكُونُ عَلَيَّ فَضْلُهُمْ عَلَيَّ أَعْظَمُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا مَنَزِلَكَ دَخَلُوا بِمَغْفِرَتِكَ وَمَغْفِرَةِ عِيَالِكَ، وَإِذَا خَرَجُوا مِنْ مَنَزِلِكَ خَرَجُوا بِذُنُوبِكَ وَذُنُوبِ عِيَالِكَ» (١).

ولمّا كان دفع الحقوق الواجبه والمستحبه وتعويض الخسائر شاقاً على النفس فقد أكد الإمام عليه السلام على الصبر والتحمل فقال: «وَلْيَصْبِرْ نَفْسُهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَابِ (٢)، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ» .

وبناءً على هذا فالتعبير بالحقوق يشمل الواجبه والمستحبه، والنواب جمع نائبه والحادثه الأليمه، وتشير هنا إلى جميع الأمور التي تتضمن الخساره الماليه، سواء كان من جانب ظلم الظلمه وحكام الجور، أو الحوادث غير المتوقعه التي تصيب الإنسان طيله حياته.

والعبارة «ابتغاء الثواب» إشاره إلى أن الصبر تجاه كل هذا البذل وصرفه في الموارد المذكوره لابد أن يكون لله تعالى ليحصل الأجر والثواب.

وإختم كلامه بالإشاره إلى الآثار العظيمه لهذا البذل فقال عليه السلام: «فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ»، فالحق أن البذل في الموارد الستة المذكوره يؤدي إلى حسن سمعه الإنسان في المجتمع، كما يوجب فوزه في الحياه الآخره، وأفضل شاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «مَنْ جَادَ سَادَ» (٣)، وقد أصبحت هذه

ص: ٣٧٤

١-١) المصدر السابق ٢/٤٠١، ح ٨. [١]

٢-٢) «النواب»: جمع «النائبه» تعنى الحوادث الأليمه التي تصيب الإنسان، ولكن فسرها بعض أرباب اللغهمطلق الحوادث سواء المطلوبه منها أو غير مطلوبه.

٣-٣) كشف الغمه ٢/٢٤٢. [٢]

العباره مثل يضرب لتأكيد المعنى المذكور، وكذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «وأحسن إلى مَنْ شئتَ تَكُنْ أميرَه» (١)، بل يؤيد ذلك ما نلمسه في حياتنا اليوميه، وهذا على مستوى الدنيا.

أمّا من حيث الآخره فإنّ البذل من أهم أسباب النجاه ولاسيما إعانه المحتاجين، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْمَعْرُوفُ» (٢).

والتعبير بـ «فوزاً» بصيغه النكره يفيد حقيقه في أنّ هذا البذل وإن كان قليلاً فإنه يوجب عزّه الدنيا ورفعاه الآخره.

ص: ٣٧٥

١- (١) الإرشاد ١/٣٠٣؛ [١] وبحار الانوار ٧٤/٤٣٣.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ١٢٦١١.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فِي الاسْتِسْقَاءِ

وفيه تنبيه العباد على وجوب استغاثته رحمه الله إذا حبس عنهم رحمه المطر

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما ورد في عنوانها بشأن الاستسقاء والتضرع إلى الله سبحانه في طلب نزول الأمطار، وهي الخطبة الثانية من خطب نهج البلاغه في باب الاستسقاء (الخطبة الأولى رقم ١٥٥)، وتتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يشير إلى هذه الحقيقة في أنّ السماء والأرض مطيعه لأمر الله فان شاء أخرج بركاتهما إلى الناس، وبناءً على هذا فإن الذي ينبغي التوجه إلى قبل عالم الأسباب هو ذات مسبب الأسباب.

القسم الثاني: ناظر إلى هذا المطلب وهو أنّ أعمال السوء والذنوب والمعاصي تؤدي إلى إغلاق أبواب الخير والبركة بأمر الله تبارك وتعالى، ومفاتها الاستغفار من الذنوب والإتابة إلى الله تعالى.

ص: ٣٧٧

١ - ١) سند الخطبة: وردت هذه الخطبة حسب تصريح صاحب مصادر نهج البلاغه في كتاب «أعلام النبوه» للديلمى عن الإمام الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين على عليه السلام، وفي «النهايه» لابن الأثير في ماده بطن بمناسبه المفرده بطنان التي وردت في آخر الخطبه، (مصادر نهج البلاغه ٢/٣١٩) كما وردت في بحار الانوار، ج ٨٨ عن «أعلام» النبوه للديلمى، لكن لم يتضح على وجه الدقه في أى قرن عاش الديلمى مؤلف الكتاب.

القسم الثالث: يعرض إلى رفع الإمام عليه السلام يده بالتوسل إلى الله سبحانه في مراسم صلاه الاستسقاء حيث يطلب نزول المطر بعبارات دقيقه رائعه عميقه المعنى، والأمطار المفعمه بالبركه والتي تروى الأرض وتسقى الأشجار والثمار وتسّر الناس.

ص: ٣٧٨

«أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تُقْلِكُمْ تَحْمِلُكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظْلِكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَضْيَحْنَا تَجُودَانِ لَكُمْ بَبَرَكَتَيْهِمَا تَوْجِعاً لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لِحَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أُمِرْنَا بِمَنَافِعِكُمْ فَطَاعَتَا، وَأُفَيْمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا» .

الشرح والتفسير

من الوصايا الإسلامية التي وردت بصورة موسعة في الكتب الفقهية الوصية بصلاه الاستسقاء، حيث يقبل فيها الناس على الله تبارك وتعالى ويتوبون إليه من ذنوبهم معاصيهم ويسألونه نزول المطر، وقد حدث هذا الأمر كراراً ومراراً في الإتيان بهذه الصلاه ونزول الرحمه الإلهية، ويبدو أن الإمام عليه السلام قد دعى الناس حين الاستسقاء، ومن هنا فقد خطب بهذه الخطبه المليئه بدروس التوحيد والتهذيب والتربية، فقد قال عليه السلام بادية الأمر بهدف إعداد الناس وإحياء روح التوحيد فيهم والتوجه إلى الله تعالى الذي يمثل مصدر الخير والبركه والعتاء: «أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تُقْلِكُمْ (1) تَحْمِلُكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظْلِكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ» .

ثم قال عليه السلام: «وَمَا أَضْيَحْنَا تَجُودَانِ لَكُمْ بَبَرَكَتَيْهِمَا تَوْجِعاً لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لِحَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أُمِرْنَا بِمَنَافِعِكُمْ فَطَاعَتَا، وَأُفَيْمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا» ، والتعبير بالسماء إشاره إلى الغيوم المحليه، لأن العرب تستعمل السماء بمعنى الجانب العلوى،

ص: ٣٧٩

١- ١) «تقلكم»: من ماده «اقلال» بمعنى حمل الشىء وأخذه، ولما كان الإنسان يعيش على الأرض فكأنها تحمله على أكتافها، وقد وردت تحملكم بدلاً من تقلكم فى أغلب شروح نهج البلاغه والتي تفيد نفس المعنى.

فتطلقه أحياناً على موضع النجوم فتقول نجوم السماء، وتطلقه أحياناً أخرى على موضع الشمس والقمر، وأخيراً على موضع السحب والغيوم وحتى الموضع الذى يضم الغصون المرتفعه للأشجار، ومن ذلك الآيه القرآنيه: «أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» (١).

هذا الكلام يشتمل على درس مهم فى التوحيد والأخلاق، فقد قال الإمام عليه السلام من جانب أن الله أمر السماء والأرض بمنافعكم، وكأنّ السماء أشبه بالأب والأرض بالأم اللذان يتحدان لتزويد الإنسان بما يحتاجه من غذاء وشراب ولباس ودواء ومركب دون التمييز بين المطيع والعاصى والمؤمن والكافر، لأنهما مظهر رحمانيه الحق.

الطريف فى الأمر أن المائده الإلهيه لا تنضب فالأجيال متعاقبه فى الذهاب والإياب وهما قائمان على خدمتهم، ومن جانب آخر فإنّ السماء والأرض ورغم تقديمها لكل هذه الخدمات فهما لا يرحوان أى عوض من الإنسان، بل يخدمان بكل إخلاص، وهذا درس مهم للإنسان يشدّه إلى خدمه الآخرين بعيداً عن الأجر والثواب.

ص: ٣٨٠

«إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِعْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيُتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلَعَ مُقْلَعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجَرَ مُزْدَجِرٌ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِسْتِغْفَارَ سَبَبًا لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) فَرَحِمَ اللَّهُ أُمَّرَاءً اسْتَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ حَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيئَتَهُ!» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى نقطه مهمه من أجل إعداد الناس لصلاه الاستسقاء فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِعْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيُتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلَعَ مُقْلَعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجَرَ مُزْدَجِرٌ» .

ثم إعتد الإمام عليه السلام بعد ذلك أسلوب الطبيب الماهر الذي يصف العلاج بعد تشخيص المرض فقال: «وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِسْتِغْفَارَ سَبَبًا لِدُرُورِ (١) الرِّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ

ص: ٣٨١

١- ١) «درور»: من ماده «در» على وزن جرّ بمعنى تقاطر الحليب من الشدى، ثم استعملت فى المطر وأمثاله، و «درور الرزق» بمعنى نزول الرزق من الله تعالى.

بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَنَّ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا» .

وأخيراً يخلص إلى نتيجته: «فَرِحِمَ اللَّهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ (1) خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَبِيئَتَهُ!». نعم، حين تغلق أبواب الرحمة الإلهية بفعل كثرة الذنوب فليس هنالك من سبيل لفتحها سوى الاستغفار والتوبة والنسوح.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام وبهدف إثبات هذا الأمر قد استدللّ بأنسب آية قرآنية، وهي الآية التي وردت على لسان نبي الله نوح عليه السلام حين خاطب قومه باستغفار الله والتوبة إليه والذي يؤدّي إلى نزول البركات والخيرات ومضاعفه الأرصده الماديه والمعنويه وتقويه الوجود الإنساني وتحسين الأوضاع الاقتصاديه والزراعيه.

والعبارة وَبَادَرَ مَبِيئَتَهُ، إشارة إلى أنّ التوبة لا تقتصر على بلوغ الرفاه المادى فى الحياه الدنيا، بل الهدف الأهم من ذلك النجاه فى الآخرة، وذلك لأنّ الموت إن سبق التوبة فلا سبيل للتدارك، وإن كان العكس وسبقت التوبة والأعمال الصالحه الموت، كان مفتاح النجاه بيده فى الدار الآخرة.

جانب من فلسفه البلاء

لقد قيل الكثير فى فلسفه البلاء، والذي يستفاد من أغلب الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه هو أنّ الذنوب والمعاصى تشكل أحد علل الآفات والحوادث الصعبه فى الحياه البشريه، حيث تحدث عدّه آيات عن التلازم بين هذين الأمرين، بل يستفاد من بعض الروايات والأخبار الترابط الوثيق بين نوع الذنب والبلاء الذى يترتب عليه، على سبيل المثال فإنّ الزنا وعدم العفه وشرب الخمر والتطيف والربا وقطع الرحم كل ذلك يؤدّي إلى سلب نعمه معينه كما أشار إلى ذلك الحديث النبوى الشريف، من ذلك روى أبى حمزه عن الإمام الباقر أنّه قال: «وَجِدْنَا فِي كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِذَا ظَهَرَ الزُّنَا مِنْ بَعْدِي كَثُرَ مَوْتُ»

ص: ٣٨٢

١ - ١) «استقال»: من ماده «استقاله» بمعنى معونه من وقع على الأرض للقيام، ثم اطلقت على فسخ المعامله أو طلب العفو على الذنب.

الْفُجَاءَ، وَإِذَا طَفَفَ الْمِكْيَالُ وَالْمِيزَانُ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالسِّنِينَ وَالنَّقْصِ إِذَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ مَنَعَتْ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا مِنَ الزَّرْعِ وَالشَّمَارِ وَالْمَعَادِنِ كُلُّهَا، إِذَا جَارُوا فِي الْأَحْكَامِ تَعَاوَنُوا عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُرْدُونَ، إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، إِذَا قَطَعُوا الْأَرْحَامَ جُعِلَتْ الْأَمْوَالُ فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ إِذَا لَمْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْأَخْيَارَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ فَيَدْعُوا خِيَارَهُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» (١)

والدليل العقلي يؤكد هذا الأمر على أنّ هناك إرتباط بين الذنب وقطع النعم، فالفيض الله يتوقف على الاستعداد والاستحقاق، فان قارف الإنسان الذنب وأفضح عن عدم استعداده كان من الطبيعي أن يقطع عن نفسه الفيض الإلهي.

أضف إلى ذلك فالذي يستفاد من الآيات القرآنية أنّ هناك هدفاً مهماً آخر يتمثل بايقاظ الغافلين وإعادة تهم إلى الله تبارك وتعالى، حتى صرّحت بعض الآيات بأنّ البلاء يعمّ الأقسام المشركه حين بعث الأنبياء والرسل لهدايتها من أجل تمهيد السبيل أمامهم لقبول الدعوه ومن ذلك الآية ٩٤ من سوره الأعراف التي قالت: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ» .

وهكذا فإنّ القضييه التربويه تشكل أحد الأهداف المهمه للبلاء والحوادث الأليمه، على كل حال فإنّ مفتاح الأبواب الموصده وإخماد جذوه أمواج البلاء إنّما يكمن في العوده إلى الله سبحانه كما صرّح بذلك القرآن الكريم إذ قال: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٢).

وهكذا سائر الآيات، وورد في الخبر أنّ شخصاً قال لأمير المؤمنين على عليه السلام لقد أسرفت في المعاصي فادعوا الله أن يغفر لي، قال على عليه السلام: عليك بالاستغفار، وقال الآخر: مزارعنا تشكو من قله الماء، فادعوا الله أن يرسل علينا المطر، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار، وشكى الثالث من الفقر فأشار عليه الإمام عليه السلام بالاستغفار، وشكى الرابع العقم وكان له مال كثير فأشار عليه الإمام بالاستغفار، وشكى له الخامس من قله ثمار البستان فنصحه عليه السلام بالاستغفار، وشكى

ص: ٣٨٣

[١-١] الكافي ٢/٣٧٤، ح ٢. [١]

[٢-٢] سوره الأعراف / ٩٦. [٢]

السادس من جفاف الآبار وعيون الماء فقال له عليه السلام عليك بالاستغفار، فتعجب ابن عباس من إشارته على الجميع بالاستغفار وقد كان لكل مشكلته التي تختلف عن غيره، فقال عليه السلام أولم تسمع إلى القرآن والآيات ١٠، ١١، ١٢ من سورة نوح إذ قال: «وَلَوْ أَنِ تَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُزِيلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» (١).

ص: ٣٨٤

١ - ١) تفسير نهج الصادقين ١٠/١٩ (بتصرف، وقد ورد هذا الحديث بصوره مختصره عن الإمام المجتبي عليه السلام) (مجمع البيان ١٠/٣٦١).

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَشْيَارِ وَالْأَكْنَانِ، وَبَعِيدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ. اللَّهُمَّ فَاسْأَلْنَا عَيْشَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا (بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأْتَنَا الْمَضَائِقَ الْوَعْرَةَ، وَأَجَاءْتَنَا الْمَقَاحِطُ الْمُخْرِدِبَةَ، وَأَغْيَيْتَنَا الْمَطَالِبَ الْمُتَعَسِّرَةَ، وَتَلَاخَمْتِ عَلَيْنَا الْفِتْنَ الْمُحِنَ الْمُسْتَضِيْعَةَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْآلَاءَ تَرَدُّدًا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبْنَا وَاجِمِينَ، وَلَا تُخَاطِبْنَا بِدُنُوبِنَا، وَلَا تُقَايِسْنَا تَنَاقُشَنَا بِأَعْمَالِنَا. اللَّهُمَّ أَنْشُرْ عَلَيْنَا عَيْشَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرَزَقَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَهُ نَافِعَهُ مُرْوِيَهُ مُعْشِبَهُ، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ. نَافِعَهُ الْحَيَا، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى، تُرْوِي بِهَا الْفَيْعَانَ، وَتُسَيِّلُ الْبَطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرَخِّصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ» .

الشرح والتفسير

بعد أن مهد الإمام عليه السلام قلوب الناس ودعاهم إلى التوبة من الذنوب والإنباه إلى الله سبحانه في هذه الخطبة التي خطبها بمناسبة صلاة الاستسقاء، إلتفت إلى الحق تبارك وتعالى فتوسل إليه بعبارات وهو يسأله اللطف والرحمة، كما فرض عدّه مطالب من خلال خمس عبارات يستهلها بالقول اللهم، فقد قال باديء ذي بدء: «اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَشْيَارِ

وَالْأَكْنَانِ (١)، وَيَعْدُ عَجِيجَ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانَ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ» .

إشاره إلى أنّ خروجنا من المنازل وقدمنا إلى الصحراء من أجل أداء صلاه الاستسقاء دليل على إسرافنا على أنفسنا، فإن كنا من عبادك الخاطئين فما ذنب هذه الماشيه والأطفال العطاشي، وليس لنا من دافع في هذا الخروج سوى طلب رحمتك وفضلك وكرمك وقد أقبلنا عليك وأتينا إليك واستجرنا بك من عذابك وعقوبتك، وقد صرّحت الروايات الإسلاميه الوارده في باب آداب صلاه الاستسقاء بحمل حتى الرضع من الأطفال والهيم العطاشي إلى الصحراء، بل وردت الوصيه بتفريق الأطفال عن أمهاتهم لترق القلوب لبكاء الأطفال ويزداد الإقبال على الله تبارك وتعالى (٢).

ولا يخفى ما لهذا المنظر من عظيم الأثر في إثارة عواطف الناس وحضور قلوبهم وجريان دموعهم والذي يؤدى إلى استجابته الدعاء، إلى جانب كونه سبب المزيد من لطف الله ورحمته.

ثم طرح طلبه الرئيسي فقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ فَاسِدِينَ غَيْثِكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ (٣)، وَلَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أى وإن فعل فريق من الجهال ما يوجب قطع الفيض الإلهي عنهم، ولكن عاملنا بكرمك وفضلك ولا تعاملنا بعدلك، فلا طاقه لنا بعدلك وليس لنا سوى عفوك ورحمتك، ولما كان شرط استجابته الدعاء فى إذعان الفرد بعجزه وأن الله على كل شىء قدير فقد قال عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأْنَا الْمَضَائِقَ الْوَعْرَةَ (٤)، وَأَجَاءْنَا (٥) الْمَقَاحُطُ (٦) الْمَجْدِبَةُ (٧)، وَأَعْيَيْنَا الْمَطَالِبَ الْمُتَعَسِّرَةَ، وَتَلَّاحَمْتُ (٨) عَلَيْنَا الْفِتْنُ الْمُحْنُ الْمُشْتَصِّبَةَ» .

ص: ٣٨٦

١- (١) «الأكنان»: جمع «كن» على وزن «جن» بمعنى واسطه الحفظ والصون ومن هنا تطلق الأكنان على الغيران.

٢- (٢) راجع الخطبه ١٥٥ بشأن آداب صلاه الاستسقاء.

٣- (٣) «السنيين»: جمع «سنه» وإن استعملت مع مفرد الهلكه أو الأخذ عنت الجذب والقحط.

٤- (٤) «الوعره»: بالتسكين كناية عن صعوبه الحياه.

٥- (٥) «أجاءت»: من ماده «مجيء» من باب إفعال بمعنى أَلْجَأْتَهُ.

٦- (٦) «مقاحط»: جمع «مقحطه» من ماده «قحط» بمعنى سنين الجذب.

٧- (٧) «مجديه»: من ماده «جذب» على وزن جعل قلّه النعمه، وعليه المجدبه تطلق على السنيين التى يعانى فيهاالناس من الشده فى غ أرزاقهم.

٨- (٨) «تلاحمت»: من ماده «تلاحم» بمعنى الاتصال.

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى مسأله وهي إننا إن عددنا حاجاتنا ومشاكلنا الواحد بعد الأخرى لا على أساس إنك لا تعلمها، بل لأنك تحب أن يطرح العباد مشاكلهم بالسنتهم ويقرون بعجزهم وسعه حاجاتهم، ثم أشار إلى أربع مشاكل تشترك مع بعضها من جهات وتشارك في أخرى وهي: صعوبات الحياه والجذب والقحط و الرغبات التي يتعذر نيلها في الشرائط العاديه، وأخيراً الفتن الصعبة والمزعجه، وهي المشاكل التي لا يرجى حلها إلا من الله تبارك وتعالى، ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ حَاجَتَكَ وَمَا تُرِيدُ وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ تَبْتَئِرَ إِلَيْهِ الْحَوَائِجَ» (١).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبْنَا وَاجِمِينَ» (٢)، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِعُدُوبِنَا، وَلَا تُقَايِسَنَا تَنَاقِشَنَا بِأَعْمَالِنَا» .

فليس هنالك من سبيل للنجاه إن عاملتنا على أساس أعمالنا، فنسألك أن بحملنا على لطفك وكرمك وألا نرجع خائبين من بابك، والطبع فإن هذه الأدعيه وإن اشتملت على الطلبات المؤكده من الله تبارك وتعالى، فهي تنطوي على الدروس العميقه المعنى للسامعين ليقضوا على آثار ذنوبهم وشناعه أعمالهم فيسارعوا لإصلاح أنفسهم، وتشتمل أغلب الأدعيه التي تردنا عن المعصومين عليه السلام على هذه الأمور التربويه.

وأخيراً طرح طلبه النهائي قائلاً: «اللَّهُمَّ أَنْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرِّكْتَكَ، وَرَزُقْكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَةٍ نَافِعَهُ مُرْوِيَهُ مُعْشِبَهُ» (٣)، تُنْبِتُ بِهَا مَيًّا قَدْ فَاتَتْ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ. نَافِعَةَ الْحَيَا (٤)، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنِّي، تُرْوِي بِهَا الْقِيَعَانَ (٥)، وَتُسَيِّلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوِرُقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرَخِّصُ الْأَشْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ» (٦).

ص: ٣٨٧

١- ١) في ظلال نهج البلاغه ٢/٣١٩. [١]

٢- ٢) «واجم»: من ماده «وجم» على وزن نجم من اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.

٣- ٣) «معشبه»: من ماده «عشب» على وزن شرف نمو النبات.

٤- ٤) «الحيا»: بمعنى المطر ووفره النعمه.

٥- ٥) «القيعان»: جمع «قاع وقاعه» الأرض السهله الواسعه كما تطلق أحياناً على الأرض التي تتجمع فيها المياه.

٦- ٦) والجدير بالذكر قد نزلت الآن (حين كتابتي لهذه السطور في العاشر من رمضان عام ١٤٢٣ هـ) أمطار مفعمه بالبركه والخير بعد جفاف طويل، ويبدو أنّ هذا المطر ينطوي إن شاء الله تعالى على جميع الصفات التي ذكرها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه.

تحدثنا بأسهاب في ذيل الخطبه ١٥٥ عن صلاه الاستسقاء وآدابها، ونخوض هنا في الإجابة عن سؤال وهو لم شرح الإمام عليه السلام الصفات المذكوره في المطر حين استغاثته بالله سبحانه في نزوله (حيث ذكر في هذه الخطبه تسع صفات وفي الخطبه السابقه عشرين صفه) والحال الله عليم بكل هذه الصفات ولا داعى من شرحها؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابد من الالتفات إلى أنّ شرح الطلبات بجميع جزئياتها وبالنظر إلى طلب الحاجات من الله تعالى، تفيد هذا المعنى وهو ضروره سؤال الناس من الله عزّ اسمه عن جميع وحاجاتهم وطلباتهم، وذلك لأنّ هذه الأدعيه تفيد مدى حاجه الناس، وهذا بدوره يضاعف من عشق الناس لله سبحانه، ومن جانب آخر لابد أن يعلموا كم هو حيوى المطر النافع وأى بركات وخيرات فيه.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

مبعث الرسل

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: الذي يبين فيه بعض الأمور المهمّة بشأن مبعث الأنبياء ورسالاتهم.

المحور الثاني: الذي تطرق فيه إلى فضائل أهل البيت عليه السلام وأفضليتهم على من سواهم.

المحور الثالث: الذي يتضمن إشارات عميقة المعنى إلى نهج الضالين وعاقبه أمرهم

ص: ٣٨٩

١ - ١) سند الخطبة: أورد الآمدى جانباً من هذه الخطبة في كتابه «غرر الحكم» وفيها إضافات لما في نهج البلاغه مما يدلّ على أنّه استقاها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٢٢).

«بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَا خَصَّصَهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِنَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاَهُمْ بِلِسَانِ الصُّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ. أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَهُ؛ لِأَنَّهُ جَهْلٌ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلَكِنْ «لِيَبْلُغُوهُمْ أَتَيْهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونُ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً» .

الشرح والتفسير

يعتقد جمع من شراح نهج البلاغه أن دافع الإمام عليه السلام من هذه الخطبه بيان الرد القاطع على المغرضين الذين ينكرون فضائل الإمام عليه السلام، والطبع فإن جانباً من الخطبه قد عالج هذا الأمر، وإن اشتملت سائر الأقسام على إبعاد كليه.

وعلى كل حال فقد أشار الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبه إلى أمرين: هما فلسفه بعثه الأنبياء وفلسفه الامتحان الإلهي، فقال عليه السلام: «بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَا خَصَّصَهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِنَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاَهُمْ بِلِسَانِ الصُّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ» .

فهذه العبارة تشير إلى نقطه مهمه وردت كراراً في الآيات القرآنيه وهي عدم مؤاخذه الله سبحانه العباد دون بعث الرسل وإبلاغهم أوامره ونواهييه سبحانه عن طريق الوحي، فقد جاء

ص: ٣٩١

فى الآيه ١٥ و١٦ من سورة الاسراء: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا»، هنا يطرح هذا السؤال وهو عدم انسجام ما ورد فى هذه الخطبه والآيات القرآنيه الوارده بهذا الشأن ومبدأ استقلال حكم القتل، فالحجه تتم على الإنسان من خلال العقل الذى يحكم بحسن وقبح الأشياء (كإدراكه لحسن العدل وقبح الظلم) وعليه فهو يستحق العقاب أو الثواب حتى دون بعث الأنبياء والرسل، ونقول فى الإجابة عن هذا السؤال صحيح أن هناك استحقاقاً للثواب والعقاب وإرادته الحق تبارك وتعالى ومن باب اللطف بالعباد واقتضت عدم مؤاخذه العباد وعقابهم ما لم تويد المستقلات العقلية بواجبات الشرع ومحرماته التى تعين عن طريق الوحى.

ومن هنا تتضح عدم الحاجه للإجابة التى ذكرها بعض شرّاح نهج البلاغه حيث صرّحوا بأنّ هذه الآيه فى حكم العموم الذى يخص فى المستقلات العقلية.

وبعبارة أخرى: إنّ الله تعالى لا يعاقب شخصاً دون بعث الأنبياء ونزول الوحى سوى فى المستقلات العقلية من قبيل قبح الظلم والجور والسرقة وقتل النفس، ثم خاض الإمام عليه السلام فى مطلب آخر فى إطار مواصلة لكلامه والذى يتمثل بفلسفه الإمتحان الإلهى فقال: «أَلَمْ يَأْتِ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخُلُقَ كَشْفَهُ؛ لِمَا أَنَّهُ جَهْلٌ مَا أَحْفَوُهُ مِنْ مَصُونٍ أَسِيرَارِهِمْ وَمَكْنُونٍ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونُ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً (١).

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه العبارة اللثام عن مسأله مهمه حيث لا معنى لمفهوم الامتحان بالنسبه لله بالشكل الذى تعارف على العباد، فالهدف من اختبار العباد لرفع الجهل والإيهام، لمعرفة الأشياء والتعرف على الأشخاص، وليس لمثل هذه الأمور من مفهوم لمن كان الغيب والشهادة والظاهر والباطن عنده سواء، بل هدف البلاء الإلهى هو أن يظهر الإنسان ما يبطنه لتتحقق مسأله استحقاق الثواب والعقاب.

وبعبارة أوضح: لا يمكن إثابة الفرد أو معاقبته على ما يضمه من ثبات حسنه أو سيئه، بل يترتب الثواب والعقاب على ما يصدر منه من أعمال وأفعال تفرزها الثبات، وهذا ما بينه

ص: ٣٩٢

١ - ١) «بواء»: تعنى فى الأصل العوده والنزول ثم أطلقت على العقوبه المستمره والمتواصله وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبه.

الإمام عليه السلام فى إحدى قصار كلمات فى تفسيره للآيه القرآنيه: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ. . .» (١)، معنى أن يختبرهم بالأموال والأولاد. . . «وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِنُظْهِرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ» (٢).

فلم يرد فى الفقه ولا فى دستور أى بلد التصريح بعقاب شخص بسبب نيه القتل أو السرقة، وكما لا يثاب بسبب نيته الحسنه فى الخدمه، وإن شمل مثل هؤلاء الأفراد بنوع من التكريم تفضلاً بسبب تلك النيات وقد تضافرت الروايات التى صرحت بجزاء الخير تفضلاً منه سبحانه كونه أرحم الجميع، لكنه لا يعاقب على نيه الشر كما ورد فى الحديث: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ. . . وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْهِ» (٣).

ص: ٣٩٣

١-١ (١) سورة الانفال / ٢٨. [١]

٢-٢ (٢) نهج البلاغه، قصار الكلمات ٩٣. [٢]

٣-٣ (٣) وسائل الشيعه ١/٣٦، من أبواب مقدمه العبادات، الباب ٦، ح ٦. [٣]

اشاره

«أَيُّنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُشِي تَغَطَى الْهُدَى، وَيُشِي تَجَلَّى الْعَمَى. إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبُطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَا تَصْلُحُ عَلَي سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه في الرد على التخرصات في مجال العلم والمعرفه الإسلاميه تجاه أهل البيت عليهم السلام ويقدمهم على أنهم أعلم من غيرهم بكذبهم، وأن الساسه المحترفين آنذاك كانوا يثيرون تلك التخرصات بهدف النيل من مسأله خلافه وإمامه أهل البيت عليهم السلام فقال: «أَيُّنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا» .

وأضاف عليه السلام أينهم أولئك ليروا كيف رفعنا الله تعالى وفضلنا وأعطانا ووضعهم وحرّمهم وأدخلنا في سعه رحمته وأخرجهم منها: «أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ» .

في إشاره إلى أن إتباع أهل البيت عليهم السلام في معارفهم والإسلاميه ووقوفهم على القرآن والوحى والسنة النبويه الشريفه ليس بالشىء الخفى على أحد، فهم كهف الأمه الذى كان يلوذ به حتى الخلفاء فى ما يعترضهم من مشاكل وصعوبات، وهذا من البديهيات التى لا يختلف عليها إثنان، وأما أولئك الذين تدفعهم القضايا السياسيه والحب والبغض الناشىء من العلاقات الماديه بانكار هذه الحقيقه فإنما يفضحون أنفسهم.

ثم قال عليه السلام: «بِنَا يُسْتَعَطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجَلَى الْعَمَى»، والشواهد التاريخية المستفيضة والأحاديث النبوية القطعية إنما تؤيد هذا الكلام، وهذا ما سنتعرض له في البحث القادم.

وأخيراً إختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبه بالإشاره إلى الحديث النبوى الشريف بشأن اقتصار الإمام على قريش وبنى هاشم فقال: «إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَاتَصْلُحَ عَلَي سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحَ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ» .

فالإمام بإشارته إلى الحديث النبوى المعروف: «إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ»، ومن ثم حصرها فى بنى هاشم أوضح بأن أدياء الخلافه من غير بنى هاشم لا يستحقون هذا المقام ولا بد من التحرى عن بنى هاشم فى كل زمان للعثور على الإمام الحق.

قبسات من علم على عليه السلام

لقد عمد تجار السياسة بهدف نيل أهدافهم وتحقيق مآربهم إلى إنكار أو ضح المسائل أحياناً أو المرور عليها من خلال التوجيهات الجوفاء وأحد مصاديق ذلك منح بعض الصحابه الأفضليه على على عليه السلام حتى قدموا عليه تلميذه فى التفسير والذى كان يفخر بذلك هو ابن عباس (1)، وزيد بن ثابت فى العلم بأحكام الميراث وأبى بن كعب فى القراءه، ولم ينسبوا للنبي الأ-كرم صلى الله عليه و آله حديثاً بهذا الشأن، فى حين تظافرت مصادر الفريقين (الشيعة والسنة) التى تؤكد أعلميه على عليه السلام على سائر الصحابه قاطبه بما لا يمكن إنكارها ومن ذلك:

١ - حديث الثقلين وهو من أشهر الأحاديث التى روتها مصادر العامه - وقد استشهدنا به سابقاً (٢) - بالكتاب وأهل البيت عليهم السلام الذين لا يفترون عنه والكل يعلم بأن القرآن هو مصدر جميع العلوم المعارف.

ص: ٣٩٤

١ - ١) نقل الدكتور الذهبي فى كتابه «التفسير والمفسرون» عن ابن عباس: «مَا أَخَذْتُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِلَّا مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» ج ١، ص ٨٩، كما روى عن ابن عباس أنه قال: «وَمَا عَلِمِي وَعَلِمُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ عَلِيِّ إِلَّا كَقَطْرِهِ فِي سَبْعَةِ أَبْحُرٍ» (الغدِير ٢/٤٥ [١] فى شرح ديوان حسان) .

٢ - ٢) ذكرنا أسناد حديث ثقلين فى نفحات القرآن ٩/٦٢ - ٧١. [٢]

٢ - الحديث المعروف «أفضاكم علياً» (١)، هو الشاهد الآخر على هذا الأمر، وذلك لأن القضاء واصدار الأحكام الإسلامية يتطلب إحاطة علميه بأصول الإسلام وفروعه، ومن كان الأعم كان هو الأفضى.

٣ - الحديث المروى عن علي عليه السلام أنه قال: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَلْفَ بَابٍ كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ (منه) أَلْفَ بَابٍ» (٢)، وهو دليل آخر يكشف بوضوح أن ليس بين الأمة من يماثله في العلم والمعرفة وذلك لأن هذا الحديث لم يرد في شخص سواه.

٤ - قال رسول الله صلى الله عليه و آله في تفسير الآية: «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» (٣) إنما هو علي» (٤).

لابد من الالتفات هنا إلى أنه طبق الآية ٤٠ من سورة النمل فقد تمكن آصف بن برخيا: «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ. . .»، من الإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام، فما بالك بقدره من لديه علم بكل الكتاب.

٥ - الكلام المشهور لعلي عليه السلام حين قال: «سَأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي» والذي صرح كبار علماء العامة أن شخصاً غير علي عليه السلام لم يقل ذلك إلا افتضح (٥).

٦ - العارفون بتاريخ الإسلام في عصر الخلفاء يعلمون أن علياً عليه السلام كان الكهف العلمي الحصين للأمة حتى قال الخليفة الثاني كراماً ومراراً: «لولا - علي لهلك عمر»، وقال في عبارته أخرى: «اللَّهُمَّ لَا تُبْقِنِي لِمَعْضَلِهِ لَيْسَ لَهَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ»، وقال: «لَا أَبْقَانِي اللَّهُ بِأَرْضٍ لَسْتَ فِيهَا (يا) أبا الحسن» (٦).

ص: ٣٩٧

١-١) روى هذا الحديث جمع من حفاظ العامة كابن عبد البر في «الاستيعاب»، والقاضى في «الموقف»، وابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة»، وابن طلحة الشافعى في «مطالب السؤل»، (الغدیر ٣/٦٩)، وابن عساكر في (التاريخ المختصر لدمشق ١٧/٣٠١).

٢-٢) ورد هذا الحديث في كنز العمال ١٣/١١٤، ح ٣٦٣٧٢.

٣-٣) سورة الرعد / ٤٣. [١]

٤-٤) انظرو مصادر هذا الحديث في كتب العامة في إحقاق الحق ٣/٢٨٠، [٢] كما وردت روايات بهذا الخصوص في شواهد التنزيل للحسكاني ١/٣٠٧ - ٣١٠.

٥-٥) ذكرنا شرح هذا الموضوع في المجلد الرابع من هذا الكتاب ذيل الخطبه ٩٣.

٦-٦) المرحوم العلامة الأمينى أورد هذه العبارات بمصادر دقيقه من كتب العامة (الغدیر ٣/٩٧) [٣] تحت عنوان آراء الصحابه بعلى عليه السلام.

وهذا المطلب على درجه من الوضوح حتى أصبح المثل يضرب به بين الناس، فكلمة عصيت قضيه على أحد ولم يكن هنالك من يحلها قالوا: «قَضِيَهُ وَلَا أَبَا حَسَنِ لَهَا» (١).

روايه أن الأئمة من قريش

نشير في الخطبه إلى هذه النقطه وهى أن الأئمة من قريش ومن بنى هاشم وليس للآخرين صلاحية الخلافه والإمامه وينسجم هذا الكلام مع عدّه روايات التى وردت فى أشهر مصادر العامه ومنها:

١ - روى عن جابر بن سمره فى صحيح مسلم أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثنى عشر خليفه - ثم قال كلمه لم أفهمها - فقلت لأبى ما قال؟ قال: فقال: كلهم من قريش» (٢)، وقد وردت هذه الروايات بعبارات مختلفه.

والجدير بالذكر إننا نقرأ فى أحد طرق هذا الحديث فى صحيح مسلم أن جابراً قال فى ذيل الحديث «فقال صلى الله عليه وآله كلمه أصيبنها الناس فقلت لأبى ما قال؟ قال: كلهم من قريش»، كما ورد عنه صلى الله عليه وآله قال: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم إثنى عشر خليفه كلهم من قريش».

٢ - جاء فى صحيح البخارى عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يكون إثنى عشر أميراً فقال كلمه لم أسمعها فقال: أبى أنه قال: كلهم من قريش» (٣).

٣ - وورد مثل هذا المضمون فى صحيح الترمذى مع اختلاف طفيف وقال فيه: «هذا حديث حسن صحيح» (٤).

٤ - كما ورد نفس هذا المضمون فى صحيح أبى داود ويفيد تعبير الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله قاله فى جماعه، حيث جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وآله حين قال: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثنى عشر خليفه كبر الناس بأعلى أصواتهم» (٥).

ص: ٣٩٨

١-١) التفسير والمفسرون ١/٨٩. [١]

٢-٢) صحيح مسلم ٣/١٤٥٣؛ طبع بيروت دار التراث العربى.

٣-٣) صحيح البخارى ٣/١٠١، جزء ٩، طبع دار الجيل بيروت.

٤-٤) صحيح الترمذى ٤/٥٠١ طبع دار [٢] التراث الاحياء العربى بيروت.

٥-٥) صحيح أبى داود ٤/١٠٦ (كتاب المهدى).

٤ - كما ورد الحديث في عدّه موارد في مسند أحمد بن حنبل (١).

وقد ذهب بعض المحققين إلى أنّ عدد طرقه في مسند أحمد ٣٤ طريق (٢).

لقد أسهب علماء العاقه بشأن تفسير الأحاديث المذكوره والتي وردت في أشهر مصادرهم، إلّا أنّهم لم يقدموا تفسيراً قانعاً حول الإثني عشر خليفه أو أمير، وذلك لأنّهم يعتقدون بعدم انطباق هذا العدد والخلفاء، ولا يمكن تفسيره إلّا على ضوء اعتقاد أتباع أهل البيت عليهم السلام.

منزله بنى هاشم في الإسلام

أشير في الخطبه إلى منزله بنى هاشم في قريش، والذي أقتبس في الواقع من كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن ذلك ما روى عن عائشه في كتاب «فضائل الصحابه» لأحمد بن حنبل قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال لي جبرائيل يا مُحَمَّدُ قَلْبُ الْأَرْضِ مَشَارِقُهَا وَمَغَارِبُهَا فَلَمْ أَجِدْ وَوَلَدَ أَبِ خَيْرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» (٣).

ومن الواضح أنّ المقصود ليس جميع بنى هاشم، والحديث يبدو ناظرًا إلى الأئمه المعصومين عليهم السلام.

ص: ٣٩٩

١-١) مسند أحمد ٨٩/٥ - ٩٠ - ١٠١.

٢-٢) انظر كتاب منتخب الأثر ١٢/؛ إحقاق الحق ١٣/.

٣-٣) فضائل الصحابه ٢/٦٢٨، ح ١٠٧٣. [١]

منها: «آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخَّرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِيًا وَشَرِبُوا آجِنًا؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلْفَهُ، وَبَسِيَ بِهِ وَوَأَفَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصَبَعَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزِيدًا كَالْتِّيَارِ لِأَيْبَالِي مَا عَرَّقَ، أَوْ كَوَقَعَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لِيَحْفِلُ مَا حَرَّقَ!». .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى الأفراد الذين وقفوا بوجه أئمة الحق وقد لولوا ظهورهم للحق من أجل الحكومه لبضعه أيام فقال: «آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخَّرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِيًا وَشَرِبُوا آجِنًا (١)؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلْفَهُ، وَبَسِيَ بِهِ (٢) وَوَأَفَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصَبَعَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ (٣)». .

ثم قال مواصلة لكلامه عليه السلام: «ثُمَّ أَقْبَلَ مُزِيدًا (٤) كَالْتِّيَارِ (٥) لِأَيْبَالِي مَا عَرَّقَ، أَوْ كَوَقَعَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ (٦) لِيَحْفِلُ (٧) مَا حَرَّقَ!». .

ص: ٤٠١

١- ١) «آجن»: من ماده «اجن» على وزن فجر الماء المتغير اللون والطعم والرائحه.

٢- ٢) «بسيء به» من ماده بسوء ألفه وإستانس به.

٣- ٣) «خلائق»: أحياناً جمع «خلق» بمعنى المخلوق وأخرى جمع «خليقه» بمعنى الخلق والملكه وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة.

٤- ٤) «مزيد»: من ماده «زيد» رغوہ الماء وما شابه ذلك ومزيد اسم فاعل.

٥- ٥) «تيار»: يعنى فى الأصل الموج الشديد الذى يقذف الماء خارج البحر، ويطلق أحياناً على مطلق الموج.

٦- ٦) «الهشيم»: من ماده «هشم» تطلق على النباتات الجافه المتكسره.

٧- ٧) «يحفل»: من ماده «حفل» بمعنى الاعتناء بالشىء وعليه فلا يحفل تعنى لا يهتم.

هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه بشأن الضمير وعودته فى هذه العبارات، فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بالخلفاء الأوائل، وذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بعض الصحابه الذين انحرفوا، وقال البعض يراد بها مفهوماً عاماً وأخيراً رآه البعض إشاره إلى بنى أميه، ويبدو الاحتمال الأخير أنسبها جميعاً، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة جهره وقد تنكروا للحق وسقطوا فى مستنقع الدنيا العفن، وبناءً على هذا فالمراد بالعباره «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ»، هو عبدالملك بن مروان حيث كان من أقدر عناصر بنى أميه، وقد إرتكب الكثير من الجرائم وباشرها بنفسه، وما أشع الجنايات التى إرتكبها واليه الغاشم الحجاج، فقد كان كالنار الملتهبه التى تحرق الأخضر واليابس ولا يقف أمامها شىء، والعباره كأني انظروا إلى فاسقهم إشاره إلى فرد يظهر فى المستقبل، فلا يمكن تطبيقها على الماضين أو المعاصرين له عليه السلام إلّامع تكلف.

«أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُشْتَضِبَةُ بِحُهُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وَهَبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعِهِ
اللَّهِ! ازْدَحِمُوا عَلَى الْحُطَامِ، وَتَشَاوُوا عَلَى الْحَرَامِ، وَرَفِعَ لَهُمْ عِلْمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ
بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَفَرُّوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من هذه الخطبة عن فئتين: فئة عاقلة ومتقيه ومطيعه للحق وأخرى تكالبت على حطام الدنيا وتسابقت مع بعضها من أجل نيل الأموال الحرام فقال: «أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُشْتَضِبَةُ بِحُهُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ (١) إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وَهَبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعِهِ اللَّهُ!»، إشارته إلى أن جماعه عظيمه من الناس سلكت سبيل المخالفه، وقد قل الصالحون وكان الإمام عليه السلام يبحث عنهم ليجدهم.

ثم تطرق عليه السلام إلى الفئة الثانية التي تهافتت على الدنيا فقال: «ازْدَحِمُوا عَلَى الْحُطَامِ (٢)، وَتَشَاوُوا (٣) عَلَى الْحَرَامِ، وَرَفِعَ لَهُمْ عِلْمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ،

ص: ٤٠٣

١- ١) «لامحه»: من ماده «لمح» على وزن لمس تعنى فى الأصل لمعان البرق، ثم جاءت بمعنى النظره الخاطفه، كما وردت بمعنى النظر إلى الشيء وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة.

٢- ٢) «حطام»: الشيء المكسور الفانى الذى لا قيمه له ويقال حطام الدنيا لأموالها بسبب فنائها وزوالها سريعاً.

٣- ٣) «تشاحوا»: من ماده تشاح واصلها الشح بمعنى البخل المقرون بالحرص ويقال تشاح حيث يتنازع فردان أو طائفتان من أجل الحصول على الشيء.

وَأَقْبِلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَانْفَرُوا (١) وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبِلُوا! .

يبدو أن الفئتين اللتان أشار إليهما الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه، هما تلك الفئتان اللتان ذكرتا سابقاً، فنه سلمت لأنمه الهدى وانقادت لهم، وأخرى تمردت ووقفت بوجههم سعت لإطفاء نورهم، فهي فنه أدخلت إلى الدنيا ولم تهتم بالحلال والحرام وتتسابق فيما بينها من أجل تبعيه الشيطان وطاعته.

ص: ٤٠٤

١-١) «نفروا»: من ماده «نفر» و «نفور» بمعنى الابتعاد عن الشيء والفرار منه.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فناء الدنيا ودم البدع

نظره إلى الخطبه

الخطبه ناظره إلى موضوعين:

الموضوع الأول: إشاره إلى تقلب الدنيا ووزال نعمها، حيث يتعرف الإنسان أكثر فأكثر على حقيقه هذا العالم المتغير حين يتأمل هذه العبارات التي تضمنت مواعظ توقظ السامع من غفلته.

الموضوع الثانى: حول ذم البدع حيث تتغيب سنه كلما شاعت بدعه بين الناس.

ص: ٤٠٥

١-١) سند الخطبه: أورد ابن شعبه الحرانى فى كتابه «تحف العقول» جانباً من هذه الخطبه ضمن خطبه تعرف باسم الوسيله، كما ذكرها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى كتاب «الإرشاد» مع اختلاف طفيف، كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسى فى الأمالى وأشار أبو العتاهيه فى أشعاره إلى مضمون بعض عبارات هذه الخطبه ويحتمل أنه أخذها من كلام الإمام عليه السلام، ووردت أجزاء من هذه الخطبه فى الكلمات القصار فى كلمه رقم ١٩١. (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٢٣)

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَزَعِهِ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلِهِ غَصِيصٌ! لَاتَتَّالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلَمَّا يُعَمَّرْ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا يَهْدِمُ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَمَّا تُجِدَّ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجِدُّ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعِيدٌ أَنْ يَخْلُقَ لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ. وَقَدْ مَضَتْ أَصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى أفات الدنيا التي تهدد الإنسان من كل ناحية وقد عكس هذه الآفات بثلاث عبارات عميقه المعنى فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَرَضٌ (١) تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَزَعِهِ شَرَقٌ (٢)، وَفِي كُلِّ أَكْلِهِ غَصِيصٌ! (٣) لَاتَتَّالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى»، فهي تشير من جانب إلى الآفات المميته التي تشمل الفرديه من قبيل أنواع الأمراض وحملات الحيوانات ومنازعه الأشرار والسقوط من الشاهق وإلى ذلك، وكذلك الآفات الجماعيه كالزلازل والسيول والقحط والحروب، ومن جانب آخر ذكر اقتران كل نعمه بنقمه وكل نصر ونجاح بهزيمه وفشل، أھونها ما ورد في عبارہ الإمام عليه السلام حين قال:

ص: ٤٠٧

١- (١) «عرض»: الهدف الذي يرمى بالسهم.

٢- (٢) «شرق»: له معنى مصدرى يعنى الاختناق بالماء.

٣- (٣) «غصص»: له معنى مصدرى ويعنى الاختناق بالطعام.

«مَعَ كُلِّ جَزَعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلِهِ غَصِيصٌ! لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى»، فلعله يغص بالطعام ويموت رغم لذته وشوقه إليه، وأخيراً أشار إلى تنافر النعم الدنيوية المادية فصرّح بتعذر جمعها، فما إن ينال واحده حتى تفارقه أخرى، مثلاً يحرم من نعمه الولد فيهبه الله الولد لكنه يسلبه الهدوء والراحة، أو أنه فقير لا مال لديه ويعيش ظروفاً صعبة فيهبه الله المال، ولكن الحرص على هذا المال وكيفيه التصرف به لا تدع له مجالاً للراحة، ليس لديه وسيله نقلية فهو يعانى من المصاعب وما إن يحصل عليها حتى يعانى من مشاكل جديده من قبيل إنفاق المال عليها وكيفيه المحافظه عليها، وهكذا فهو لا يحصل على نعمه إلى بفراق أخرى.

والعبارة تنتضل بالنظر إلى أنها تستعمل بشأن الأفراد الذين يشتركون في مسابقات الرمي فهي تشير إلى آفات الدنيا وكأنها تتسابق لاستهداف حياه الإنسان، والعبارة منايا جمع منيه بمعنى الموت إشاره إلى اختلاف أنواع الوفيات سواء الفرديه أو الجماعيه والتي أشير إليها في الخطبه، قد يتصور أحياناً أنّ العباره «لَمَا تَنَالُونَ مِنْهَا. . .»، تعبير آخر عن الجمله «مَعَ كُلِّ جَزَعَةٍ شَرَقٌ. . .»، والحال العبارتان مختلفتان، فالعباره مع كل جرعه شرق إشاره إلى أنّ بانتظار كل نعمه آفه كامنه، وأما العباره لا تناولوا منها. . . فهي تشير إلى أنه لو لم يكن هنالك من آفه فإنّ النعم لا تجتمع، فلا تنال واحده إلا بمفارقة أخرى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشرح رائع للعباره السابقه حين قال لا تناولون نعمه إلا بفراق أخرى، فبين خمس نماذج واضحه في خمس عبارات فقال: «وَلَا يُعَمَّرُ مَعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا بِهَيْدَمٍ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدِّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلُقَ (١) لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَخْصُودَةٌ (٢)» .

نعم، للإنسان حيويه خاصه حين الطفوله فان انتقل إلى مرحله الشباب ودبّ فيه نشاطه تزوال عنه حيويه الطفوله، فان أتجه نحو مرحله الشيخوخه وأصبح وجوده مجموعه من

ص: ٤٠٨

١-١) «يخلق»: من ماده «خلق» بمعنى يبلى ويخلق من ماده خلق المراد المعنى الأول فى الخطبه.

٢-٢) «محصوده»: من ماده «حصد و حصاد» على وزن غصب بمعنى حصاد الشىء.

التجارب والخيرات فقد نشاط الشباب، وهكذا يمنح الله الإنسان نعمه الولد ولا تمضى مده حتى يفقد أباه ويتعرف على أصدقاء جدد، فى حين يسلب القدماء من أصدقائه، وهكذا يحصل على نعمه ويفقد أخرى، وهذه هى طبيعه الحياه الدنيا والنعم الماديه، فهى لا- تجتمع لأحد فى أى زمان ومكان فلا تنال نعمه إلى بفراق نعمه أخرى، وهذا بحد ذاته إنذار لكافه الناس بعدم التعلق بنعم الدنيا وربط القلب بها، والعبارة «وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ. . .»، إشاره إلى أنّ الإنسان إن خلف بعض الآثار - سواء كانت هذه الآثار علميه أم خيريه ذات النفع العام - فإنه يفقد قطعاً من أجلها طاقه من حيث الفكر والبدن، والعبارة «وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ. . .»، يمكن أن تكون إشاره إلى نعمه الولد والحفيد حيث كلما كبر هؤلاء فقدوا بالتدرّج قرابتهم الأكبر، كما يمكن أن تكون إشاره إلى كل نمو وتقدم، مثلاً- يفرس الإنسان بذور جديده فى جانب من بستانه فى حين يعانى جانب آخر من ذبول الأشجار وموتها الواحد بعد الأخرى.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «وَقَدْ مَضَتْ أَصُولُ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعِيدٍ ذَهَابِ أَصِيلِهِ!»، فقد ذهب أبوانا وأسلافنا وصاروا إلى الزوال فلا ينبغى لنا إنتظار البقاء، لأنّ الفرع الزائد على الأصل ليس بممكن، وبناءً على هذا سنلحق بهم عاجلاً أم آجلاً.

لقد رسم الإمام عليه السلام صورته واضحه ودقيقه فى هذا القسم من الخطبه عن الدنيا، نعم، فهذه الدنيا نعيش فيها آفاق تختلف تماماً عن واقعها، آفاق القصور والثروات والنعم والجمال والنشاط ولكن ما إن تقترب منها حين نصطدم بصورتها القبيحه، فالإنسان من جانب - كما أشار الإمام عليه السلام - هو هدف دائم لسهام الآفات والبلاء، بحيث لا يسعه التهكن بمستقبله لما بعد ساعه، ومن جانب آخر فى جانب كل نعمه مصيبه وإلى جانب كل ورده شوكة وأخيراً لا ننال نعمه حتى نفقد أخرى، نعيش حياه متواضعه، لكنّها مفعمه بالاستقرار، نتمنى سعه هذه المعيشه، إلّا أننا إن نلنا منيتنا طالعنا العديد من المشاكل، حفظ المال والثروه بحد ذاته مشكله كبيره، إلى جانب عين الحساد التى تصوب نحوه وأمانى الأشرار بزواله واللصوص الذين يتربصون به، وأحياناً خيانه الزملاء والأصدقاء وهكذا سائر المشاكل التى تصب على رأسه من كل حذب وصوب والتى تقضى على استقراره بصوره تامه، ناهيك عن مختلف الأمراض

التي تعرض للإنسان بفعل الجهاد، إننا خام ما دمنا شباباً فان نضجنا وعجزنا، وآنذاك يسعنا الاستفاده الصحيحه من الأموال بينما أيدينا خاليه، فان أصبحنا نملك شيئاً لم يسعنا الاستفاده منه، فهل يمكن التعلق بمثل هذه الدنيا والثوق بها؟ يقال إن أحدهم طلب من ملك أن يجلس على عرشه ساعه ويسلمه مقاليد الحكم ويأتمر بأمره الحرس والغلمان، فأجابه الملك لكنه أمر أن يعلق فوق رأسه شعره، فلما جلس على العرش شعر بالفرح الشديد، فوقعت عينه على الخنجر وأنه معلق بشعره فارتعش، لأنه ظن سيقع عليه في كل لحظه، فلما همّ بالهروب قيل له لم تنتهي ساعتك، فجلس خائفاً ينتظر انتهاء المدّه وهو يدعو إلى إنتهائها، ففهم إن كان السلطه من جمال فهي تشتمل على آلاف الأخطار، ولعل هناك من يهم بقتله من أقرب مقربيه كما يفيد التاريخ ذلك، ورغم كل هذه المشاكل فليس هناك من بقاء وخلود في الحياه الدنيا ليسعى إليها الإنسان ويجهد نفسه من أجلها، وما عليه إلّا السير نحو الآخره، وكما قال آخر خلفاء بني أميه «لَمَّا حَلَا لَنَا الدَّهْرُ خَلَا مِنَّا» (١).

ص: ٤١٠

(١-١) في ظلال نهج البلاغه ٤/٣٨٩. [١]

منها: «وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعُهُ إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا الْبِدْعَ وَالزَّمُوا الْمَهْجِعَ. إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا» .

الشرح والتفسير

يعالج هذا الكلام من الخطبه قضيه مهمه وهى قبح البدع، وعلى ضوء عدم الارتباط الواضح بين هذا القسم والذي سبقه فالذى يبدوا أنّ بين هذين القسمين أقسام حذفها المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه، ولا بدّ من تغيير مفرده البدعه على أساس اللغه والشرع ليتضح لدينا مضمون هذا القسم من الخطبه: فالبدعه لغوياً تعنى كل تجدد والذي يمكنه أن يكون حسناً أو سيئاً، حسب ما صرّح به أرباب اللغه: «البدعه إنشاء أمر على غير مثال سابق» .

أمّا المعنى السائد بين الفقهاء العلماء - كما ذكرنا ذلك فى شرح الخطبه السابعه عشره - إدخال شىء فى الدين أو إخراجة دون قيام دليل معتبر على ذلك، ولما كانت تعاليم الإسلام وأحكامه خالده ونازله عن طريق الوحي فكل بدعه كبيره، وإليها تعود كل فرقه واختلاف أصاب الأمة الإسلاميه، نعود الآن إلى شرح كلام الإمام عليه السلام فقد قال: «وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعُهُ إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ» .

ثم نصح باجتنب البدع وضروره السير على النهج المستقيم فقال عليه السلام: «فَاتَّقُوا الْبِدْعَ

وَالزُّمُو المَهْيَع (١). إِنَّ عَوَازِمَ (٢) الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحَدَّثَاتِهَا (٣) شَرَّارُهَا» .

فقد اتضحت حقيقته ما قيل في هذه العبارة في كيفية ترك سنّه حين ظهور بدعه، وكيف تكون البدعه شرّ الأمور، لأنّه لو سمح للأفراد أن ينقصوا من الدين شيئاً أو يضيفوا له شيئاً على ضوء ذوقهم وفكرهم القاصر، لما بقي من أحكام الدين وتعاليمه شيئاً خلال مدّه وجيزه ولإينقلاب كل شيء رأساً على عقب، وفقد اعتباره وأصاليته، ولإستبدلت التعاليم الأصليه للدين بسلسله من الأفكار المنحرفه والواهيه ولحل السراب محل العين الزلال، طبعاً إن كان التجدد وليد البحث والتحقيق والدقيق في أدله أحكام الشرع وكشف حقائق حديثه من خلال الكتاب والسّنّه والدليل القاطع للعقل، فليس هذا من البدعه في شيء فحسب، بل سيكون سبب رفعه الدين وإزدهاره.

وبعبارة أخرى: فإنّ الكشف شيء جديد، أمّا المكشوف فهو موجود سابقاً في الدين، أمّا إن كان الذوق الشخصى والاستحسان الظنى هو دعامة وأساس التجدد فليس له من نتائج سوى الظلال ومسوخ الصوره الحقيقيه الناصعه للدين ويتضح ممّا مرّ معنا عدم صواب ما أورده شرّاح نهج البلاغه للعبارة المذكوره من أن كلّ بدعه خلاف لسّنّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله الذى حرم البدعه، وعليه فالسنّه تترك بظهور البدعه، بل المراد أنّ لكل موضوعه فى الإسلام حكم، وكل بدعه تعارض ذلك الحكم، إذن فبظهور البدع تترك الأحكام الأصليه للدين - كما تبين جسامه خطأ ما أورده بعض شرّاح نهج البلاغه مثل ابن أبى الحديد الذى قسم البدع إلى حسنه وسيئه، فاعتبر مثلاً صلاه التراويح (تلك الصلاه المتسحبه التى كان يصلها الناس فراداً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فى ليالى رمضان وقد ابتدع عمر أن تصلى جماعه) من البدع الحسنه،

ص: ٤١٢

-
- ١-١) «المهيع»: من ماده «هيع» على وزن رأى بمعنى الطريق الواسع والواضح.
- ٢-٢) «عوازم»: جمع «عازمه أو عوزم» على وزن جوهر تعنى فى الأصل المسن من الإنسان أو الحيوان وتطلق على كل شيء قديم، وتعنى هنا الأمور التى كانت موجوده منذ زمان النبى وأصاليته ثابتة فى الدين.
- ٣-٣) وردت حدثات بكسر الدال فى النسخه المعروفه لصبحى الصالح فلها معنى اسم الفاعل، وردت مفتوحه فى أغلب النسخ بمعنى الحدوث وهذا هو الصحيح.

وذلك لأنه بهذه البدعه ترك سنّه، وترك سنّه استحباب الأفراد في الصلاه المستحبه، وعليه فليس لدينا بدعه حسنه، وإن أقرنا البدعه الحسنه كان ذلك الإقرار بأن السنّه قد تكون حسنه وقد تكون سيئه، كما اتضح المعنى الذى أراد به بعض العلماء للبدعه حين أجروا عليها الأحكام الخمسه من أن بعض البدع واجبه وبعضها محرمة، فأنما أرادوا المعنى اللغوى لا الشرعى بإضافه أو طرح أشياء من الدين وأحكامه ومن هنا ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَلَا وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ، أَلَا وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» (١).

ومن أراد الوقوف على المزيد بشأن البدعه فليراجع المجلد الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبه السابعه عشره.

ص: ٤١٣

١ - ١) ورد مثل هذا المعنى فى الأمالى للشيخ المفيد رحمه الله، ص ١٨٨ مع اختلاف طفيف كما ورد فى مصادر العامه (الموسوعه الفقهيه الكويتيه ٨/٢٤).

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

نظره إلى الخطبه

هناك خلاف بين المؤرخين في أن هذه الاستشاره بخصوص الحضور في معركة نهاوند أو القادسيه، ويرى الطبرى حسب قول ابن أبي الحديد أنها في معركة نهاوند، بينما يراها المدائني في كتاب «الفتوح» بشأن معركة القادسيه (٢)، وخلاصه ما ورد في تاريخ الطبرى أن عمر حين عزم على الشخوص بنفسه لقتال العجم طلب مشوره الصحابه فتقدم طلحه والزبير وقالوا رأيهما، إلا أن عمر استشار علياً عليه السلام فأشار عليه السلام بعدم الشخوص بنفسه كما في الخطبه، قال المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في «الإرشاد»، ورد عن أبي بكر الهذلي أن من بين الأمور التي نقلت عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في إرشاد الناس لما فيه مصلحتهم ولولا- إرشاده لكان فسادهم أن فريقاً من أهل همدان والرى وإصفهان ودامغان ونهاوند تكاتبوا بينهم وبعثوا الرسل فرأوا أن الإسلام قد فقد زعيمه (النبي الأكرم صلى الله عليه وآله) وخلفه من لم يستمر، ثم خلفه من طال عمره وقد

ص: ٤١٥

١-١) سند الخطبه: روى جانباً من هذه الخطبه أبو حنيفه الدينورى في كتاب «الأخبار الطوال» وأحمد بن أعثم الكوفى في كتاب «الفتوح» والطبرى في تاريخه والمعروف في حوادث عام ٢٧ هـ (الصحيح عام ٢١ هـ كما ورد في تاريخ الطبرى) وذكرها الشيخ المفيد رحمه الله في «الإرشاد» (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٢٥). [١]

٢-٢) شرح ابن أبي الحديد ٩/٩٧. [٢]

هجم على مدنا وإنه لن يتركنا ما لم نخرجه، فلما بلغ عمر الخبر فقدم إلى المسجد وأطلع الصحابه بالخبر، فقال كل رأيه، فأشار على عليه السلام (كما ورد في هذه الخطبه) بما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، قال الشيخ المفيد: انظر كيف بين الإمام عليه السلام رأيه الصائب في تلك الظروف الحساسه وأنقذ المسلمين (1)، على كل حال فإن هذه الخطبه تعالج بمجموعها موضوعاً واحداً، وهو أنّ حضور رئيس الدوله في الحرب في بعض الظروف أمر خطير جداً من شأنه أن يؤدى إلى مشكلتين، أحدهما إتحد أفراد العدو فيما بينهم وبذل قصارى جهدهم من أجل قتله، فيضطرب الجيش ويختل نظمه، والأخرى على فرض عدم حدوث مثل هذا الخطر فلعل إخلاء الجبهه الداخليه يشجع العدو على الهجوم على المراكز الأصليه للبلاد من كافه الجهات فتنجم من جراء ذلك الأخطار الشديده التى تهدد كيان الإسلام والمسلمين، وتشير هذه الخطبه بوضوح إلى أنّ علياً عليه السلام أنّه كان يقف حتى إلى جانب أعدائه إذا اقتضت ذلك مصالح الإسلام والمسلمين حرصاً على الدين وكيانه.

طبعاً هذا الكلام لا يعنى أنّ رئيس الدوله لا ينبغى أن يشخص بنفسه قط في ميدان القتال فقد شخص أمير المؤمنين على عليه السلام بنفسه في معارك الجمل وصفين والنهروان، وأعظم من ذلك حضور النبي الأكرم صلى الله عليه و آله في الغزوات، فالشرايط متفاوتة تماماً بحيث كانت تتطلب عدم حضور الخليفه الثانى في الميدان.

والجدير بالذكر أنّ المعارك قد تقع أحياناً بالقرب من البلاد الإسلاميه وفي المناطق القريبه منه فإنّ حضور المعركه من قبل رئيس الدوله لا يترتب عليه أية مخاطر في مثل هذه الظروف، في حين تبرز مثل هذه المخاطر في المناطق البعيده وتجاه عدو قوى يمتلك جيشاً كبيراً، وقد تحدثنا في مثل هذا الأمر في شرحنا للخطبه ١٣٤.

ص: ٤١٤

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصِيرُهُ وَلَا خِدْلَانُهُ بِكَثْرِهِ وَلَا بِقِلِّهِ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعَدِيدٌ، وَنَاصِرٌ جُنْدُهُ. وَمَكَانُ الْقِيَمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النُّظَامِ مِنَ الْخَرْزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنْ انْقَطَعَ النُّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرْزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِخِدَائِفِهِ أَبَدًا. وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالْإِجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْبًا، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصِلْ لَهُمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَفَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدْعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعُورَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ».

الشرح والتفسير

صرح الإمام عليه السلام في البدايه بهدف عدم رعب المسلمين بفعل كثره جيوش العدو في تلك المعركه القاسيه، سيما ما ذكرته بعض التواريخ من أن رأى عثمان حين أشار عليه الخليفه الثانى كان مقبولاً، فقال: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصِيرُهُ وَلَا خِدْلَانُهُ بِكَثْرِهِ وَلَا بِقِلِّهِ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ»، فى إشاره إلى أننا كنا دائماً قله مقابل العدو فى الحروب التى خضناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، مع ذلك فقد انتصرنا وشملنا الله برحمته وعنايته، وقد لمسنا هذا الفضل دائماً، وعليه فلا تخشوا من كثره العدو وامضوا بعد التوكل على الله تعالى.

والعبارة هذه تذكّر بنصر المسلمين في بدر والأحزاب وأمثالهما.

ولعل الفارق بين العبارتين بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع أنّ العبارة الثانية تخبر عن انتشار الإسلام والأولى عن منتهى منطقه نفوذ الإسلام، كما يحتمل أن تكون العبارة الأولى إشاره إلى المناطق التي نفذ إليها الإسلام، والعبارة الثانية إلى المناطق التي ذاع فيها صوت الإسلام وشع عليها بما يمهّد السبيل أمامه وإن لم ينفذ إليها بعد، أو أنّ العبارة الأولى إشاره إلى قوّة الإسلام وقدرته، والثانية إلى سعه الإسلام وانتشاره.

ثم قال عليه السلام مؤكداً ذلك الكلام: «وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعَدَّهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ»، إشاره إلى الآية الشريفة: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (١). والآية: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (٢).

نعم، فقد وعدنا في ظل الإيمان بالنصر في الدنيا والآخرة وتشهد سائر الآيات القرآنية على هذا المعنى، وما إن فرغ الإمام عليه السلام من بيان هذه المقدمة بهدف الاستقرار الروحي للخليفة والحاضرين حتى تطرق إلى الموضوع الأصلي للمشورة في حضور عمر بنفسه في المعركة فقال: «وَمَكَانُ الْقَيْمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النَّظَامِ (٣) مِنَ الْخَرْزِ (٤) يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنْ انْقَطَعَ النَّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرْزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحِذَافِيرِهِ (٥) أَيَدًا»، يا له من تعبير رائع وتشبيه جميل فالقائد والزعيم لبلد بمنزله خيط المسبحة أو القلادة بفضلها رمز الوحدة وإنسجام والأمة، كما تحمل الزعيم قضية في أن يتحلى بسعه الصدر ووسع الفكر بحيث يستطيع استقطاب كافة الأفراد وصهرهم في كتله متحده.

ثم خاض الإمام ثانية في رفع معنوياتهم على أنّ العرب اليوم هم الكثرة رغم قلتهم وما

ص: ٤١٨

١-١ (١) سورة التوبة / ٣٣. [١]

٢-٢ (٢) سورة غافر / ٥١. [٢]

٣-٣ (٣) وإن كان لهذه المفردة مفهوم كلي لكنّها تعنى هنا السلك ينظم فيه الخرز.

٤-٤ (٤) «خرز»: بمعنى حبات السبحة وتكون نفيسه، كما تكون عادية ويصنع منها المسبحة وأصلها «الخرز» على وزن الفرض بمعنى ثقب الجلد أو شيء آخر.

٥-٥ (٥) «حذافير»: جمع «حذفور و حذفار» على وزن مضممار بمعنى جانب الشيء وناحيته وحذافير بمعنى جميع الجوانب.

ذلك إلابالإسلام ففهم عزيزون ومقتدرون فى ظل اجتماعهم واتفاقهم فى ظل هذا الدين: «وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالْإِجْتِمَاعِ!». .

فخلص من ذلك إلى نتيجة أصلية: «فَكُنْ قُطْبًا، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ (١) دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ». .

ثم ذكر دليل ذلك فقال عليه السلام: «فَإِنَّكَ إِنْ شَخَّصْتَ (٢) مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ تَدْعٍ وَرَاءَكَ مِنَ الْعُورَاتِ (٣) أَهَمُّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ»، إشارة إلى أن الإسلام فى بداياته لحدّ الآن، وما زال المنافقون وسلبوا عصر الجاهلية فى صفوف العرب وهم يتربصون الفرصه لطعن المسلمين من الخلف، فلو انطلق القائد وصحبه الأوفياء إلى نقطه بعيده يكون الميدان قد خلى للمفسدين والمنافقين، ولعلمهم يسببون بعض الأخطار التى تفوق أخطار العدو الخارجى، أضف إلى لذلك فلو اصطدم الجيش بمشكله فى الجبهات، كان بإمكان القائد إن استقر فى المركز أن يعبى جيشاً جديداً ويبعث به إلى ميدان القتال، بينما ينهار سند الجيش إن حضر بنفسه الميدان.

والجدير بالذكر أن العرب فى العبارة «وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ. . .» تختلف عن العرب فى العبارة «انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ. . .» فالمراد بالأولى المخلصون من المؤمنين، والثانيه المنافقون الذين يظهرون الإيمان، أو المسلمون الضعاف.

ص: ٤١٩

١-١ (١) «اصل»: من ماده «صلى» على وزن سعى بمعنى دخول النار أو الاحتراق فيها، وإن استعملت فى باب الأفعال عن القذف فى النار، والعبارة إشارة إلى أن الجيش حين ينشغل بالحرب عليك بالابتعاد عنهم حتى لا يتمكن العدو من إصابتك.

٢-٢ (٢) «شخصت»: من ماده «شخوص» على وزن خلوص تعنى فى الأصل الخروج من المنزل أو المدينة، ولما كان الإنسان يظهر حين الخروج فقد أطلقت على قامه الإنسان والمرتفعات التى تلوح من بعيد، ويقال للمسافر شاخص حيث يبين حين دخوله المدينة، وتطلق هذه المفراده على كل شىء مرتفع.

٣-٣ (٣) «عورات»: جمع «عوره» تعنى فى الأصل العيب والعار ولما كان إظهار الآله الجنسيه مدعاه للعيب والعار فقد اطلقت عليها العرب العوره، ولكن لهذه المفرده معنى أوسع وأشمل وهى النقطه التى يمكن اختراقها وما يخشاه الإنسان ويقلق منه، وحيث كانت حدود كل بلد من المناطق التى يمكن إلحاق الصدر بها والمقلقه فقد استعملت بهذا المجال، إلّا أنها لا تعنى الحدود خلافاً لما أورده أغلب شراح نهج البلاغه، [١] والمراد بها النقاط المضطربه داخل البلد الإسلامى والتى يمكن هجوم المنافقين عليها، والشاهد على ذلك العبارة ما تدع وراءك، لأنّ الجيش حين يتحرك نحو عدو خارجى لا يبقى خلفه سوى الجبهه الداخليه للبلاد.

ما يستفاد من هذه العبارات دورس مهمه فى مجال الإدارة والقيادة وتصريف شؤون البلاد:

أولاً: حفظ القائد والزعيم للآمه لا من منظور شخصى بل كونها قضيه اجتماعيه تعدّ من أهم الواجبات، وذلك لأنه رمز وحده الأمة وتماسكها، ومن هنا لابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جميع التدابير للازمه من أجل حفظه ودفع أى احتمال يمكنه أن يشكل خطراً عليه، سيّما أنّ العدو ومن خلال الاطلاع على هذا الموضوع يسعى لاستهداف شخص القائد قبل كل شىء، وقد دلت التجربه التاريخيه أنّ أقصر طريق لهزم جماعه يتمثل بدك موقع القيادة واستهداف القائد، ولعلنا نلمس هذا الأمر فى قضيه بنى اسرائيل وقتالهم لجالوت التى عرضها القرآن الكريم حيث استهدف داود شخص جالوت فقتله فانهمز الجيش إثر ذلك.

ثانياً: على القائد أن ينظر باحدى عينيه إلى العدو الخارجى وبالأخرى إلى الاعداء فى داخل البلاد، حتى ورد فى هذه الخطبه وكما دلت التجارب التاريخيه الكثيره على خطر العدو الداخلى الذى يفوق الخطر الخارجى، وذلك لأنّ الذى يأتى من الخارج معروف، بينما يتمثل العدو الداخلى عاده بالمنافقين الذين يتخفون بين أبناء المجتمع، فإنّ سنحت لهم أدنى فرصه سددوا سهام حقدهم وضربوا ضربتهم، إضافة إلى أنّهم على علم تام بمواقع الخلل فى الداخل وكيفيه التسلل إلى المناطق، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام عنهم وعن أخطارهم المتوقعه بالعورات وعد أخطارهم من أهم الأخطار.

«إِنَّ الْأَعْيَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا: هَذَا أَضِلُّ الْعَرَبِ، فَمَاذَا اقْتطعتموه [قَطَعْتُمُوهُ] اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلْبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدْدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نَقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!» .

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبه فى الواقع تأييد وتأكيد للقسم الأول، وقد أشار إلى ثلاث نقاط، الأولى: الدليل الذى أقامه الإمام عليه السلام على عدم حضور الخليفه فى ميدان الحرب فقال: «إِنَّ الْأَعْيَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا: هَذَا أَضِلُّ الْعَرَبِ، فَمَاذَا اقْتطعتموه [قَطَعْتُمُوهُ] اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلْبِهِمْ (١) عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ» .

الثانيه: «فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ»، وتشير العبارة إلى أن عمر قال سابقاً بأن الأعاجم قد زحفوا نحونا وبنون قتالنا وهذا يدل على ما يرونه فى أنفسهم من قوه، ولعل الأمر كان كذلك حسب الظاهر وما تفيده الشواهد التاريخيه، إلا أن الإمام عليه السلام ذكر بقدره الله الخاصه من أجل رفع معنوياته وهو الأمر الذى لمسّه المسلمون كراراً فى غزواتهم، ومن

ص: ٤٢١

(١-١) «كلب»: بمعنى الأذى.

الطبيعى أن يتعقد الأمر لو بقى المسلمون فى ديارهم وهجم عليهم العدو فما أمراهم لو توكلوا على الله وتصدوا للعدو خارج بلادهم.

الثالث: أنّ الخليفة الثانى كان يخشى عدم التكافىء وموازنة القوى بين المسلمين والأعداء، فرد عليه الإمام عليه السلام بالقول: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَيْدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلْ فِيهَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصِيرِ وَالْمُعُونَةِ!»، فقد كان عمر يرى قوه العدو واقتداره فى أمرين، أحدهما كثرتهم وزياده عددهم، والآخر حركتهم وهجومهم على بلاد الإسلام.

وقد صرح الإمام عليه السلام إننا لم نقاتل العدو ومنتصر عليهم بهذه القوه الظاهرية، وقد أيدنا الله بنصره ومدده العينية فى جميع مواقف القتال، وقد انتصرنا رغم قلّه العدد وكثره العدو وهجومه علينا، وهكذا شجعه الإمام عليه السلام على مواجهه العدو، وأكد وأيضاً عدم حضوره شخصاً فى الحرب، واستجاب له عمر وكان النصر حليف المسلمين.

معركة القادسيه ونهاوند

وقعت معركة مهمتان بين المسلمين والساسانيين على عهد عمر القادسيه (1) فى عام ١٤ هـ ومعركة نهاوند عام ٢١ هـ، وقد استشار عمر بشأن حضوره القتال، وقد مرّ علينا فى الخطبه أنّ الإمام عليه السلام منعه من ذلك بعد ذكره للأدله المحكمه، بينما أشار عليه الآخرون بالحضور، فقبل من الإمام عليه السلام وبقى فى المدينه، وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ هذه المشوره كانت فى معركة نهاوند، على كل حال حين عزم عمر على عدم الحضور فى القادسيه ولى سعد بن أبى وقاص إمره الجيش، بينما نصب يزيدجرد الساسانى رستم فرخزاد، فبعث سعد رسوله النعمان بن المقرن إلى يزيدجرد، فعنفه حيث لم يتوقع ذلك من العرب آنذاك وقال له لولا أنّك رسول لقتلتك، ثم أمر بذر التراب على رأسه وطرده من المدائن، وقال له أنّ رستم سيدفن قائد عسكركم فى خندق القادسيه، فلما عاد النعمان إلى سعد، فقال سعد، ابشر أن وضعوا التراب على رأسك فاننا سنملك بلادهم، والعجيب أنّ رستم كان يخشى قتال المسلمين رغم تعداد جيشه الذى بلغ

ص: ٤٢٢

١ - ١) القادسيه كانت من المدن الإيرانيه الغربيه ولم تكن تبعد كثيراً عن الكوفه (ذكر البعض أنّها تبعد تسعين كيلومتراً) وهى الآن من مدن العراق.

١٢٠ ألف بينما كان عدد جيش المسلمين بضع وثلاثين ألف.

وأخيراً تقاتل الجيشان، وفي اليوم الأول هجم الساسانيون بفيلهم على المسلمين، ولكن المسلمين تمكنوا من قطع خراطيمها وقد قتل من العدو في ذلك اليوم ٢٠٠٠ ومن المسلمين ٥٠٠، وفي اليوم الثاني تقدم أبو عبيده الجراح بجيش من الشام لنصره سعد بن أبي وقاص فقتل من الساسانيين عشره آلاف بينما قتل ألفان من المسلمين، وفي اليوم الثالث اشتد القتال واستمر القتال حتى اليوم الرابع فبان الضعف على العدو، فهبت ريح شديده فهجم المسلمون على خيمه رستم، فحاول الهرب لكنه صرع تحت حوافر الخيل، فانهمز الجيش الساساني فلما بلغ الخبر عمر أمر بعدم تعقيب العدو وأن تستقر الجيش هناك فبقى سعد هناك في الكوفه فعلاً فبنى مسجداً وباشر بناء الكوفه، أما معركة نهاوند (١)، فقد ذكر الطبري أنّ عمر أراد أنّ يشخص لقتال الجيش الساساني في نهاوند فأشار عليه الصحابه حتى خطب الإمام عليه السلام فوافقه عمر وقال هذا هو الصواب.

ثم أمر النعمان الذي كان والي البصره، فواجهه لقتال الفيروزان قائد جيش كسرى في نهاوند، فان قتل خلفه حذيفه ومن بعده نعيم، كما وجه معه طلحه بن خويلد وعمرو بن معدى كرب العارفين بالقتال ثم أمره بمشورتها، وقد قتل النعمان في المعركه، فحمل الرايه حذيفه حتى قتل الفيروزان ودخل المسلمون نهاوند وحصلوا عن غنائم كثيره فبعثوا بها إلى عمر، فلما رأى عمر الغنائم بكى فسأله عن ذلك، قال: أخشى خداع الناس من هذا الثراء.

قال بعض المؤرخين: أنّ هذه المعركه حدثت عام ٢١ هـ لسبع سنوات بعد القادسيه وقد انهزم الساسانيون ودخل المسلمون ايران، فما كان من الايرانيين المعروفين بالفطنه إلا أنّ تعرفوا على الإسلام واعتنقوه فأصبحوا من رواد العلوم الإسلاميه. والجدير بالذكر أنّ مقاومه الايرانيين تركزت في القادسيه ونهاوند، بينما كانوا يستقبلون المسلمين حين دخلوا من سائر المدن، ولم يبدو أيه مقاومه، فقد كانوا يعانون من الساسانيين من جانب، ومن جانب آخر رأوا نجاتهم في الإسلام (٢).

ص: ٤٢٣

١-١) نهاوند مدينه معروفه غرب ايران وهي الآن تابعه لمحافظة همدان ولا تبعد عنها كثيراً.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٩/٩٦ - ١٠٢؛ وتاريخ الطبري ٣/٢٠٢.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فى الغايه عن بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وأهميته القرآن، والإخبار عن المستقبل

نظره إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه من عدّه أقسام:

القسم الأول: إشاره إلى أهداف بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ودور القرآن فى هدايه الناس.

القسم الثانى: يخبر فيه الإمام عليه السلام عن الفتن القادمه ويتحدث عن وقت يغرق الناس فيه بالذنوب والمعاصى وينسون القرآن.

القسم الثالث: إنذار الناس والتذكير بعاقبه الأقسام السابقه التى صب عليها البلاء.

القسم الرابع: بين فيه الإمام عليه السلام بعض المواعظ الموثره والمفيده وقد دعى الناس إلى إتباع القرآن وأهل البيت عليهم السلام من أجل النجاه من الفساد.

ص: ٤٢٥

١- ١) سند الخطبه: نقلها قبل السيد الرضى باختلاف طفيف المرحوم الكلينى فى كتاب روضه الكافى، وقد أُشير فى الخطبه ٢٣٧ إلى جزء من هذه الخطبه كما وردت إشاره إلى جانب منها فى قصار الكلمات، الكلمه ٩٨ (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٣١).

«فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَّهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيُعَلِّمَ الْعِبَادَ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوا، وَلِيَقْرَأُوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُشَبِّتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوْفَهُمْ مِنْ سَيِّطَوْتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَّ مَنْ مَحَقَّ بِالْمَثَلَاتِ، وَاحْتَصَدَّ مَنْ احْتَصَدَّ بِالنَّقِمَاتِ!»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبه - كما ذكر ذلك الشارح البحرانى - إلى بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ثم شرح أهداف البعثه، ثم أشار إلى الوسيله التى اعتمدها لتحقيق ذلك الهدف وهى القرآن الكريم فقال: «فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ»، يالها من عباره بليغه رائعه وقصيره بشأن الهدف من بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله التى تستند إلى ركنين:

الأول: ترك عبوديه الأصنام والتمسك بالتوحيد فى العباده، أى عباده الله.

الثانى: التحرر من طاعه الشيطان والاقبال على طاعه الله سبحانه وتعالى.

لا- شك أن طاعه الشيطان نوع من الوثنيه، وعليه فهى داخله فى مفهوم العبارة الأولى يعنى عباده الأوثان، إلا أن تقابل هاتين العبارتين يفيد أن العباده قد استعملت فى معناها الخاص، والمراد طاعه الشيطان، إتباع أوامره لا عبادته، على كل حال فإن للأوثان والشيطان فى هاتين

العبارتين مفهوم واسع يشمل كل معبود غير الله سبحانه وتعالى ويضم شياطين الانس والجن، وبناءً على هذا يدخل في مفهوم هذه الجمل التسليم لحكام الظلم والجور وطاعه أوامرهم والاستسلام للاستعمار والاستغلال والانصياع للقوانين غير الشرعيه، وهذا هو هدف البعثه والذي يتمثل بالتححرر من كل هذه الأمور.

نقل المرحوم الكليني في الكافي العبارات المذكوره بهذه الصيغه: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ مَنْ عِبَادَتِهِ وَمِنْ عُهُودِ عِبَادِهِ إِلَى عُهُودِهِ وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إِلَى طَاعَتِهِ وَمِنْ وِلَايَةِ عِبَادِهِ إِلَى وِلَايَتِهِ» (١).

وهكذا بين الإمام الهدف الأصلي لبعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والذي تعود إلى سائر الأهداف بهذه العبارات المختصره وقد أخطأ كل إبهام.

ثم أشار عليه السلام إلى الوسيله اللازمه لتحقيق هذا الهدف السامى فقال: «بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَّهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيَقْرُوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ» .

لا- شك أن مشركى العرب كانوا يؤمنون بالله ويعترفون بوجوده وأنه خالق السماوات والأرض ويرون الأوثان شفعاثهم إليه، ولكن ليس لهذا الاعتقاد الممزوج بالشرك أيه قيمه، وقد بعث الله نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله ليطهر أرواحهم وأفكارهم من أدران الشرك والوثنيه ويشدهم نحو التوحيد والعبوديه الخالصه، وهذا فى الواقع وظيفه كافه الأنبياء والمرسلين فى تطهير التوحيد من رواسب الشرك.

وقال عليه السلام فى تعريفه للقرآن وآثاره البناءه فى الفكر والعمل: «فَتَجَلَّى (٢) لَهُمْ شَيْبَحَانُهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ» .

والعباره إشاره إلى آيات التوحيد وبيان أسماء الله وصفاته والى تفعل مثل هذا الفعل فى الإنسان حين يتأملها وكأنه يرى الله سبحانه وتعالى جهره، نعم يراه ولكن بالبصيره لا

ص: ٤٢٨

[١- ١] الكافي ٨/٣٨٦ [١]

[٢- ٢] «تجلى»: من ماده «تجلى» وأصل جلو على وزن دلو بمعنى الظهور والبروز، وتجلى الله بمعنى أن آياته على درجه من الوضوح وكأنه يمكن رؤيته من خلالها.

بالبصر، احتمال البعض أنّ المراد بالكتاب هنا كتاب عالم التكوين المملوء بآيات الله سبحانه بحيث نشاهدها أينما نظرنا (١)، ولكن يبدو هذا المعنى مستبعداً بالاستناد إلى العبارة السابقة التي أشير فيها إلى القرآن في العبارة اللاحقة إلى الإنذار الإلهي، والمراد بالكتاب القرآن الكريم، ولما كان تجلي الله بواسطة الآيات القرآنية قد يوهم إمكانه رؤية الله بالعين، فقد صرح عقيب ذلك مباشرة بأنّ هذا التجلي يحصل دون رؤيه بالبصر.

وأشار في العبارة القادمة إلى جانب آخر من آيات القرآن الكريم وهي آيات الإنذار والتخويف، فقال عليه السلام: «وَحَوَّفَهُمْ مِنْ سَطَوْتِهِ»، ثم تطرق بعد ذلك إلى القصص الأليمه للأقوام السابقة وما تنطوى عليه من دروس وعبر فقال: «وَكَيْفَ مَحَقَّ (٢) مَنْ مَحَقَّ بِالْمَثَلَاتِ (٣)، وَاحْتَصَدَ (٤) مَنْ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!». .

وأخيراً ما زال هناك احتمال في تفسير العبارات المذكوره في أنّ الله تعالى قد تجلى في كتابه بجميع هذه الموارد (آيات القدره والتخويف من السطوه والقصص الأليمه للأقوام العاصيه) .

كيفية تجلي الله في القرآن

كما شحن كتاب عالم التكوين بآثار عظمه الله وقدرته في آيات الآفاق والأنفس وفي السماوات والأرض وفي أكثر المنظومات والكرات السماويه وفي أصغر ذرات وجودنا، وكما صور ذلك الشاعر بأنّ كل نبات يخرج من الأرض يهتف وحده لا شريك له، وكذلك الذات الإلهية متجليه في القرآن الكريم، حين يتحدث عن آياته في السماوات والأرض وحين يستعرض نعم الجنان ونعم النيران وحين يتحدث عن قدرته الباهره في الخلق وحين يكشف اللثام عن صفات جلاله وجماله ورحمانيته، فذاته ظاهره متجليه في كل هذه الآيات وقد قال

ص: ٤٢٩

١- ١) قال الشاعر: وله في كل شيء آية تدلّ على أنّه واحد

٢- ٢) «محق»: من ماده «محق» على وزن خلق بمعنى المحو الكامل أو إزاله بركه الشيء.

٣- ٣) «المثلات»: جمع «مثله» على وزن عضله بمعنى العقوبه.

٤- ٤) «احتصد»: من ماده «حصد» بمعنى القطف.

بعض الأعلام أنّ أغلب المكاشفات تتم حين تلاوه القرآن الكريم والتدبير في مفاهيمه، أجل لا يمكن رؤيه الله سبحانه بهذه العين، بينما يمكن رؤيته بعين القلب ومن خلال آياته القرآنيه، فما أحرانا بالنظر إلى عالم التكوين والتفكير وفي أسرار الوجود ومن ثم نفتح القرآن الكريم ونطالع آيات التكوين في الكتاب التدوين، حقاً لو كان لنا مئه ألف عين لشاهدنا مئه ألف تجلى من تجليات الحق تبارك وتعالى.

ص: ٤٣٠

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَالِيكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَحْفَى مِنَ الْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقٌّ تَلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلْتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظْتُهُ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَانِ، وَصَاحِبَانِ مُضِيَّ طِحْبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ. فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لِأَنَّ الضَّلْمَالَهَ لَمَاتُوا فِي الْهُدَى، وَإِنْ اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَأَفْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَيْمَةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا حَطَّهُ وَزَبْرَهُ. وَمَنْ قَبْلُ مَا مَثَلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلِّ مَثَلِهِ، وَسَيَمُوتُوا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فَرِيئَةً، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في القسم المذكور عن ظهور الإسلام والهدف من بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والآثار العظيمة للقرآن في الهدايه، ثم واصل عليه السلام كلامه في هذا القسم بالحديث عن زمان لا يبدو بعيداً وسيشهد تغيراً تاماً في الأوضاع بما يهدد بالخطر جهود النبي صلى الله عليه وآله فينذر كافة المؤمنين بالالتفات إلى الأخطار التي ترتبص بهم، فاستهل عليه السلام كلامه ببيان الوضع في ذلك الزمان بسبع عبارات قصيره بليغه فقال: «وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَالِيكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ

شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ، وَلَمَّا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ»، كما ليست لدى الناس من سلعه أبور من القرآن الكريم آنذاك إن فسّر وتلى حق تلاوته، بينما يزداد الإقبال عليه إن حُرّف عن معناه الحقيقي: «وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعُهُ (١) أَبُورٌ (٢) مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ (٣) مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَمَّا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلْتَهُ، وَتَنَاسَاهُ (٤) حَفِظْتَهُ» .

نعم، ستظهر غيوم الجاهلية ثانية في سماء الإسلام فتحجب شعاع شمس النبوة والقرآن فيتغير كل شيء وتنطمس حقائق الإسلام ويستولى سليلوا أئمة الكفر والشرك والوثنية على الحكومه الإسلاميه فتعاني الأمة من ظلمات الجهل والجور، والسؤال المطروح أى زمان هذا الذى أشار إليه الإمام عليه السلام؟ هل المراد زمان معين؟ أم الحكومه مفهوم عام ويشمل مختلف الأزمنه حتى زماننا الحاضر؟ هناك خلاف بهذا الشأن بين شراح نهج البلاغه، ولكن بالنظر إلى العبارة «سيأتى» التى تفيد عادة الإخبار عن المستقبل القريب والتعبير بـ «عليكم» ومن بعدى التى تشير إلى درك مخاطبيه له، يبدو أنه إشاره إلى زمان سيطره بنى أميه ومعاويه ويزيد وسائر حكاهم الذين تنطبق عليهم هذه الصفات، نعم، فهؤلاء الذين كتموا الحق وقطعوا رقبه كل من تعصب له، إلى جانب ذلك فقد إتسق سوق الكذابين والوضاعين والمتملقين لبنى أميه ممن اندفع فى مدحهم والثناء عليهم، فقد ظهرت المنكرات فى كل مكان وضاع المعروف.

طبعاً لا ننكر أنّ هذا الأمر حدث ويحدث فى سائر الأزمنه وحتى فى عصرنا، مع ذلك فمراد الإمام عليه السلام من هذه العبارات العصر المظلم لبنى أميه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى وضع القرآن وأصحابه فى ذلك الزمان المظلم وشرح عله بؤس الناس آنذاك والتى تتمثل بابتعادهم عن القرآن: «فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ (٥) مَنْفِيَانِ (٦)،

ص: ٤٣٢

١- (١) «سلعه»: المتاع والبضاعه.

٢- (٢) «أبور»: من ماده «بور» شدّه كساد الشيء والأرض البائر والبوار الميته الخاليه من النبات.

٣- (٣) «أنفق»: فعل تفضيل من ماده «نفاق» لها معانى مختلفه وأريد بها هنا غلاء السلعه ورواجها.

٤- (٤) «تناساه»: من ماده نسيان.

٥- (٥) «طريدان»: مثنى «طريد» من ماده طرد ومعناها معروف.

٦- (٦) «منفيان»: من ماده «نفي» بمعنى الابعاد.

وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَأَيُّوِيهِمَا (١) مُؤَوٍ .

ثم أكد عليه السلام قائلاً: «فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ!» ، فهم يتلون القرآن في دورهم وعلى منابرهم، ويقبلونه ويتبركون به، بينما ليس هنالك أدنى أثر لتعاليمه ومفاهيمه في حياتهم الفردية والاجتماعية، فقد اكتفوا من القرآن بغلافه وتركوا مضمونه، إنهمكوا بالألفاظ وأهملوا المعاني.

ثم خاض عليه السلام في الدليل قائلاً: «لَأَنَّ الضَّلَالَةَ لَأَتَوَافِقُ الْهُدَى، وَإِنْ اجْتَمَعَا» . نعم، فالضالون في وادي والهدى وأتباعه في وادي آخر، وإن كانوا معاً في الظاهر، والدليل الآخر المهم لشقائهم: «فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَأَفْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَيْمَةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ» ، بعبارة أخرى فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا، وقد أدت هذه الفرقة إلى أن يفسر كل القرآن حسب رغبته، أو بعبارة أخرى فقد أسسوا بنيانهم على التفسير بالرأى، يأخذون ما ينسجم مع رغباتهم من آيات بينما يسعون لتوجيه البعض الآخر من الآيات التي تتعارض وأهوائهم بما يتفق ورغباتهم، فهم يجعلون أنفسهم أئمة القرآن بدلاً من أن يكون القرآن الكريم إمامهم، ولذلك فهم لا ينتفعون بالقرآن، بل يجعلونه الموجّه لضلالتهم، فيزدادوا ضلالاً وبعداً عن القرآن الكريم.

ثم رسم صورته واضحة عن مصير القرآن في ذلك العصر والزمان بعبارة رائعة لا تماثلها عبارة فقال عليه السلام: «فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ (٢)» ، فقد يسطر القرآن بخطوط غايه في الجمال وتذهب صفحاته وغلافه ويتدعوا روائع الفن بهذا الخصوص وتتداول الأيدي القرآن ويتلى في المساجد بمختلف الأصوات بصوره فرديه وجماعية، ولكن دون أن يكون هناك أدنى خبر عن مضمونه ومحتواه، بالضبط كالدواء الشافي الذي يوضع في زجاجه جميله تترك على الرف دون أن يتناول المرضى منها شيئاً، وهنا يبرز هذا السؤال: هل الصالحون والمؤمنون وأصحاب القرآن صامتون في ذلك الزمان؟ كأن الإمام عليه السلام أجاب في

ص: ٤٣٣

١-١) «يؤوى»: من ماده «ايواء» بمعنى الملاذ والملجأ.

٢-٢) «زبر»: بالفتح الكتابه (وقد جاء بالمعنى المصدرى واسم المصدر).

العباره الأخيره على هذا السؤال فقال: «وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا (١) بِالصَّالِحِينَ كُلِّ مَثَلِهِ، وَسَيَمُّوا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فَرِيَةً (٢)، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ» .

فالعبارة إشارة إلى التاريخ الأسود لبنى أمية الذين مثلوا بالصلحين من العباد لما رأوهم يشكلون خطراً عليهم، حتى قيل بلغ تعداد من قتلهم معاوية ما يزيد على الأربعين ألف من المهاجرين والأنصار.

ولا نرى من حاجه لاستعراض تلك الفاجعه التي إرتكبها ولده يزيد بحق الحسين عليه السلام وأنصاره فى كربلاء، كما لا يمكن إحصاء من قتلهم عبدالملك بن مروان وعامله الحجاج من أهل العراق والحجاز (٣)، وهكذا أحمدوا كل دعوه حق وقطعوا كل لسان صدق ومهدوا السبيل لإملاء أفكارهم ورغباتهم.

تأملان

١- أبشع عصور الإسلام

لا- شك إنَّ عصر حكومه بنى أميه من أبشع العصور التى شهدتها الأممه الإسلاميه، ويشترك حكام بنى أميه من معاويه حتى آخرهم الذى يعرف بمروان الحمار فى ثلاث خصال هى: الجلافة والقسوه المتناهيه وحبّ الحكومه والذوبان فيها مهما كان الثمن لبلوغها وحسن الثأر والانتقام، ومن هنا فقد ضحوا بكل معانى الحق والعدل والشرف والإنسانيه من أجل حكومتهم المقيته فارتكبوا من الظلم والجور ما لم يرد مثيله فى التاريخ، وقد أذاقوا دعاه الحق

ص: ٤٣٤

١- ١) «مثلوا»: من ماده «تمثيل» وأصلها «المثله» بمعنى التنكيل والتشيع.

٢- ٢) «فريه»: من ماده «فري» على وزن فرد تعنى فى الأصل القطع، ولما كان قطع الشىء يؤدى إلى فساده غالباً، فهى تطلق على كل خلاف ومنه الكذب والتهمه.

٣- ٣) روى ذلك المرحوم العلامة الحلى فى كتاب «كشف الحق» عن كتاب «الهاويه» (شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئى ٩/٧٠).

وصحابه رسول الله صلى الله عليه وآله الأُمَمَيْنِ بين قتل وتشريد وقطع الرأس ونفى وصلب وحصار فى البيت من أجل تلك الحكومة، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى عباراته الأخيره من هذا القسم من الخطبه، إلّا أنّ أهم كهف كانت تلوذ به الأمة الإسلاميه والذى يشكل أكبر عقبه تعترض طريقهم إنّما هو القرآن، القرآن الذى أعلن الحرب ضد الظلمه، والظغاه وهدد دائماً عروش الغاشمين، وكان المعيار لتميز الحكومه الإسلاميه من الحكومات الغاصبه والظالمه والكافره، فما كان من أولئك الظغاه إلّا أن وظفوا أشباه العلماء ووعاظ السلاطين ويهدف إزاله تلك العقبه عن طريقهم بتفسير القرآن حسب أهوائهم، فى أنّ آياته تشهد بحقانيه أولئك الغرباء على القرآن والبعيدى عن الحق تبارك وتعالى، كما منعوا من يرون تلاوه القرآن حق تلاوته، وهكذا لم يبق من القرآن سوى اسمه ورسمه فحكم عليه بأن يصح كالسجين الذى أودع زنانه إنفراديه مخيفه ليبعد عن أفكار الناس، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

فقد جاء فى الخبر أنّ معاويه حين قدم المدينه مرّ بمجلس من كبار قريش، فلما رأوا قاموا له خوفاً سوى ابن عباس، فقال له مالك لا تقوم يابن عباس أهي صفين، فقد قتل عثمان مظلوماً (وهذا ما دفعنا للقتال).

فقال ابن عباس: فقد قتل عمر بن الخطاب مظلوماً (لماذا لم تقم لنصرته)، فقال معاويه: إنّ كافراً قتل عمر. قال ابن عباس: فمن هم قتله عثمان، قال معاويه: المسلمون. قال ابن عباس: فهذه عليك لا لك.

قال معاويه: لقد أمرنا بعدم ذكر فضائل على وأهل بيته فاحفظ لسانك. قال ابن عباس:، أتمنعنا من قراءه القرآن؟ قال: لا. قال ابن عباس: تمنعنا من تأويله؟ قال معاويه: بلى، لك القراءه دون التأويل، وإن كان ولا بدّ فلا تحدث بفضائل أهل البيت.

ثم أمر لابن عباس بمئه ألف درهم (ليمزج الترهيب والترغيب ليتمكن بكل الوسائل من إسكات ابن عباس) (1)، ومن أراد المزيد بشأن جنایات بنى أميه والتعرف عليهم بدقه على ضوء القرآن وأخبار العامه والأعمال التى قاموا بها من أجل مسخ المعارف الإسلاميه وتحريفها فليراجع المجلد الثالث من هذا الكتاب.

ص: ٤٣٥

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بشأن العصر المظلم للحكومة الأمويه بأن لا يبقى من القرآن إلّا اسمه لا يقتصر على ذلك الزمان، والمؤسف له أنّ ذلك الأمر قد تكرر في مختلف النقاط وإن لم يبلغ ما بلغه أبان الحكومة بنى أميه، وما زلنا نلمس نماذج ذلك حتى في عصرنا.

وقد وردت للإمام عليه السلام عبارته أشمل في قصار كلماته بهذا الخصوص إذ قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى فِيهِنَّ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا إِسْمُهُ وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا إِسْمُهُ وَمَسَاجِدُهُمْ يَوْمئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبِنَاءِ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، سَيَكُونُهَا وَعُمَارُهَا شَرًّا أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ تَجْرُجُ الْفِتْنَةُ وَإِلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ». (١)

ص: ٤٣٦

«وَإِنَّمَا هَلَكُكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَعْتِيبِ آخِرِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعِيدَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنَّقْمَةُ» .

الشرح والتفسير

أنذر الإمام عليه السلام الجميع في هذا المقطع من الخطبه ودعاهم لتأمل تاريخ الأمم السابقه ويفكروا في أسباب بؤسهم وشقائهم فيعتبروا بذلك حيث قال: «وَإِنَّمَا هَلَكُكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَعْتِيبِ آخِرِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ» ، المراد بالهلك في قوله إنما هلكك حسب ما ذهب إلى جمع من شرّاح نهج البلاغه الهلاك المعنوي يعنى الضلاله التي ينتج عنها العذاب الأخرى، ولكن لا يبعد أن تشمل الهلاك المعنوي والأخرى وكذلك المادى والدينى، أى أنّ طول الأمل ونشيان أجل الحياه والغرق في الشهوات، إنما يفسد الآخره ويحط من قدر وعظمه الإنسان في الدنيا، وبالتالي تعرضهم لأنواع العذاب الدينى من قبيل طوفان قوم نوح وزلزله قوم لوط والصواعق السماويه التي أصابت الأقسام الأخرى.

نعم، فتغيب الآجال أحد آثار طول الأمل والذي يعد من أعدى أعداء سعادته الإنسان، لأنه يلقى بحجاب ضخّم على بصيره العقل ويجعل الهوى حاكماً عليه ويقذف بالإنسان في مستنقع الذنوب والمعاصى، وهذا ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين على عليه السلام: «وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْأَخْرَةَ» (١)، ويفهم من العبارة: «حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ» ، أنّ أولئك

ص: ٤٣٧

الأفراد يفيقون فى تلك اللحظه، أجل يفيقون، ولكن حيث لا- ينفعم ذلك، ولذلك قال الإمام عليه السلام: «الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ
الْمُعَذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ (١) وَالنَّقْمَةُ (٢)». .

نعم، فمصدر كل تلك الجنايات والمخالفات التى ورد الكلام عنها فى القسم السابق من الخطبه إنما يكمن فى حبّ الدنيا وطول
الأمل ونسيان الأجل، الأجل الذى لا رجعه فيه ولا يمكن تدارك ما فرط من الإنسان فيه.

ص: ٤٣٨

١- ١) «قارعه»: من ماده «قرع» على وزن فرع بمعنى ضرب شىء بآخر وتطلق القارعه على كل حادثه مهمه ومهلكه.
٢- ٢) «النقمه»: تعنى فى الأصل استقباح الشىء بحيث تحصل أحياناً باللسان وأخرى بصوره عقوبه علميه، ومن هنا غالباً ما
تستعمل هذه المفرده بمعنى العقوبه.

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مِنْ أَسْتَنْصَحَ اللَّهُ وَفَّقَ، وَمَنْ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدًى (لَلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)؛ فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعِدْوَهُ خَائِفٌ؛ وَإِنَّهُ لَمَا يَبْغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَهُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمْتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَيَلَامَهُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلَمَّا تَنَفَّرُوا مِنَ الْحَقِّ نَفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِي مِنْ ذِي السَّقَمِ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي بَدَّه. فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمْ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصِيَمَتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَيَاطِنِهِمْ؛ لَأَيِّخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَحْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ» .

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام عليه السلام في هذا القسم السابق عن فئه ضاله ومستبده غيرت جميع الحقائق وإرتكبت أفضع الجرائم، ثم حل أجلها ولم تب إلى ربها فسارعت إلى عالم آخر ليصب عليها العذاب، فأبان الإمام عليه السلام في هذا المقطع سبيل النجاه حتى لا يتبلى الآخرون بذلك المصير الأسود فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنْ اسْتَنْصَحَ اللَّهُ وَفَّقَ، وَمَنْ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدًى (لَلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)» ، نعم، هذه هي الخطوه الأولى من أجل الإهتداء إلى الحق والصراط المستقيم ثم استدلل على ذلك بقوله: «فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعِدْوَهُ خَائِفٌ» .

وأضاف بعد ذلك بهدف استماع الناس للمواعظ الإلهية ويبعدوا عنهم الكبر والغرور ويسلموا لأوامر الله: «وَإِنَّهُ لَآيْتَبِغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَهُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمْتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَيَلَامَهُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ»، في إشارته إلى أن أولئك الذين يعيشون الغرور والتكبر غافلون عن عظمة الله سبحانه، والذين يغترون بقدرتهم جاهلون بقدره الله تعالى، أما من عرف الله وقدرته فهو يدرك أنه لا شيء تجاهه، عليه فلا داعي لهذا الكبر والغرور الفارغ.

ثم قال على سبيل الاستنتاج: «فَلَا تَتَفَرُّوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِي (١) مِنْ ذِي السَّقَمِ»، إشارته إلى أن سعادتكم وفلاحكم وسلامتكم في إتباع الحق، وأن النزوع نحو الباطل نوع من أنواع المرض والسقم، لكن من المؤسف هناك من يهرب من الحق وكأنه يفر من مرض معدى، أو حسب تعبير القرآن الكريم: «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَوَّتَّ مِنْ قَسْوَرَةٍ» (٢).

ثم عرض الإمام عليه السلام في الخطوه التاليه سبيلاً واضحاً بهدف هدايه مخاطبيه إلى الحق وإبعادهم عن الباطل فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَفَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَبَيَّدَهُ»، والواقع هذا هو أحد طرق معرفه الحق والباطل والذي ينطوي تحت القاعده المعروفه: «تَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ بِأَصْدَادِهَا»، فالإنسان يجهل معنى العافيه ما لم يمرض ولا يدرك مفهوم الضياء ما لم يرى الظلمه، فقد اعتبر الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه كما ورد في عبارته المذكوره - التعرف على تاركى الحق ومخالفه كطريق بلوغ الحق، فأشار إلى ثلاث طوائف: طائفه تركت الحق، وطائفه نقضت ميثاق القرآن، والطائفه الثالثه التى نبذته وراء ظهرها، والفارق بين هذه الطوائف الثلاث واضح، فالبعض يترك الحق دون أن يحضره والبعض الآخر يحقره علاوه على تركه، وأخيراً هناك من ينقض عهود الله وموآثيقه، والذي وردت الإشارة

ص: ٤٤٠

١- (١) «البارىء»: من ماده برء على وزن قفل لها معنيان: الأول: بمعنى الخالق والايجاد ومن هنا يقال لله البارىء، والآخر: بمعنى الابتعاد عن الشيء ولذلك تستخدم بمعنى العافيه والبعد عن المرض وهذا هو المعنى المراد بها في عبارته الخطبه.

٢- (٢) سورة المدثر / ٥٠ - ٥١. [١]

إليه فى الآيه القرآنيه الشريفه: «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ. . .» (١)، والآيه صادقته على الآخرين وإن كانت فى الظاهر فى بنى اسرائيل.

نعم، يمكن الظفر بسبيل الحق من خلال معرفه هؤلاء التاركين للحق والناقضين لمواثيق الله والمحقرين لكتاب الله، ومعرفه المبادئ التى تسود حياتهم.

ثم عرض الإمام عليه السلام طريقاً آخر فى آخر قسم من هذه الخطبه من زياده الاطمئنان بهدف الظفر بالحق وإدراك مفاهيم القرآن الكريم وهو التمسك بأهل البيت من عتره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بفضلهم أحد الثقلين الذين خلفهما النبى فى الأمه، فقال عليه السلام: «فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمَهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ» .

فقد وصف الإمام عليه السلام أهل البيت عليهم السلام فى هذه العبارات القصيره والعميقه المعنى بأوصاف منها: «فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. . .» ، حيث عندهم علم الله تعالى وسنّه النبى صلى الله عليه وآله، فأينما يحلّون يكشفون الظلام بنورهم، وحكمهم (سواء كان الحكم بمعنى القضاء أو الحكم بمعنى كفه وصاياهم وبيانهم للحلول) ينطق عن علمهم، وصمتهم العميق المعنى يفيد منطقتهم ومقاصدهم (لأنّ السكوت أبلغ من الكلام فى أغلب الموارد) ، وظاهر على قدر من الرزانة والإخلاص والطهر بحيث يعكس طهاره ونقاء باطنهم، من خصائصهم الأخرى أن علمهم لا يختلف مع الدين قط ولا يختلفون فى تفسيرهم لحقائق الدين، ولا غرو فعلمهم تنبع من ذات المصدر، ومن هنا لديهم حقيقه الدين والقرآن وروحهما، فى حديث الثقلين: «. . . إِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا (العتره والقرآن) مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا فَلَنْ تَضِلُّوا. . .» .

ص: ٤٤١

كثيره هى طرق معرفه الحق والباطل والمهم أن يعزم الإنسان على معرفه الحق ويتجه قدماً بشجاعه - وإحدى هذه الطرق ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه والذى يتمثل بمطالعه الأضداد.

فإن رأى الإنسان المصير الأسود لجماعه تسبح فى بحر من الأخطاء والزلات، أدرك ببساط أن الطريق الصحيح عكس ذلك، وإن أراد السير على الحق وجب عليه التخلّى عن الاصول التى اعتمدها تلك الجماعه، فيتعلم الأدب من عديميه والعدل الظالمين والظهور من المدنين.

لعل هناك من يتصور تضارب هذه العبارة مع ما ورد فى عباره أخرى للإمام عليه السلام قالها للحارث الهمداني: «إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ بَلْ بِآيَةِ الْحَقِّ فَاعْرِفْ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ» (1)، لكن الطريقان صحيحان، كل فى محله، فان عرف الحق بوضوح فى موضع كان لابد من معرفه شخصيه الأفراد على أساس معياره، فمن كان مع الحق فهو الحسن الصالح ومن كان ضده فهو السيئ الطالح، فهنا نعرف الاشخاص بمعيار الحق. وان كان الأفراد معروفين والحق خفى كان لابد من التعرف على الحق والباطل بواسطتهم، على سبيل المثال لو تنازع عمار بن ياسر مع أبى جهل، فاننا ندرک بسهولة أن عمّاراً على الحق وأبى جهل على الباطل، وقد يتعذر أحياناً معرفه الأشخاص ومعرفه الحق، فهنا ننظر إلى حاشيه وأصدقاء أولئك الأشخاص، فرضاً شككنا فى شخص معاويه ورأينا بطانته وحاشيته جماعه من المنافقين وأصحاب الدنيا كعمرو بن العاص وممن طردهم رسول الله صلى الله عليه وآله ومن تبقى من أقطاب الجاهليه آنذاك يمكننا التعرف عليه.

وزبده الكلام هناك عدّه طرق لمعرفه الحق والباطل ولا بد من استفاده ما يناسب كل مورد من طريق.

ص: ٤٤٢

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي ذِكْرِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ

نظره إلى الخطبه

تحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبه عن طلحه والزبير واللذان قد إتحدوا في الظاهر واتفقا على قتال علي عليه السلام في الجمل، فقد كشف الإمام عليه السلام اللثام عن جانب من أسرارها فقا إنهما وإن اتحدوا ظاهرياً، إلّا أنّ ذلك الاتحاد مرحلي ومؤقت، فان تسلّط أحدهما أسقط الآخر، وأشار عليه السلام في المقطع الثاني إلى فتنه البصره وأصحاب الجمل، وقد دعى الناس للعمل على إخماد نار هذه الفتنة، كما حذر في الختام من ضروره مراقبه التحركات المشبوهه لناقضى الموائيق (طلحه والزبير وأعوانهما).

ص: ٤٤٣

١ - ١) سند الخطبه: قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه روى هذه الخطبه قبل السيد الرضى أبو مخنف في كتاب «الجمل»، كما رواها باختلاف «لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الاختلاف ليس بقليل) المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الإرشاد» (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٣٢)

«كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمْتَنَانِ إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَا يَمِيدَانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَبٌّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَرِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا. قَدْ قَامَتِ الْفِتْنَةُ الْبَاطِنِيَّةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! فَقَدْ سِنَّتْ لَهُمُ الشَّنُّ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبْرُ. وَلِكُلِّ ضَلَّهِ عَلَيْهِ، وَلِكُلِّ نَاكَثٍ شُبْهَةٌ. وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَمَا سَمِعَ اللَّدْمُ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ!» .

الشرح والتفسير

الإِتِّحَادُ الظَّاهِرِيُّ وَالْعِدَاءُ الْبَاطِنِيُّ

كشف الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة النقب عن حقيقته في عدم وجود دافع شرعي لطلحه والزبير - اللذان أثارا معركة الجمل - وليس لهما من هم سوى الدنيا والاستيلاء على الحكومة، ومن هنا فإنَّ تحقق لهما ما يريدان سعى كل منهما لإزاله الآخر لينفرد بالحكومة فقال: «كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ» .

ثم استدلل عليه السلام على ذلك بالقول: «لَمَّا يَمْتَنَانِ (١) إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَا يَمِيدَانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَبٌّ (٢) لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ!» ، والضَّبُّ هو الحيوان المعروف، وتعتقد العرب بأنه خال من العاطفه إلى جانب حماقته حتى أنه ليأكل فراخه ومن هنا ضرب به المثل في العقوق، وقد استشهد الإمام عليه السلام بذلك المثل في قوله: «حَامِلٌ ضَبٌّ لِصَاحِبِهِ» ، فهي عبارته غايه في الروعه لمدى العداوه والبغضاء التي يخفيها كل منهما لصاحبه.

ص: ٤٤٥

- ١- ١) «يمتان»: من ماده «مت» على وزن خط تعنى فى الأصل سحب الحب وحيث يسبب هذا العمل إقتراب الدلو فقد وردت هذه المفردة بمعنى الإقتراب والتقرب وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبه.
- ٢- ٢) «ضبٌّ»: لها عدة معانٍ ومنها سحب الماء والحقد والحيوان المعروف.

ثم قال عليه السلام: «وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيُنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا»، والطريف أن ما أورده الإمام عليه السلام في عبارته السابقة بشأن طلحه والزيبر يصدق على جميع الأفراد الذين يتحدون من أجل نيل السلطه دون أن يكون لهم أى دافع إلهي، فهم متحدون ومتفقون مادامهم لم ينتصروا، فبمجرد الانتصار يسعى كل واحد منهم للقضاء على الآخر والتفرد بالسلطه، وشواهد ذلك كثيره على مرّ العصور وفي كل زمان ومكان، والحال لو كانت الدوافع إلهيه لدام الإتحاد وربّما اقترح كل السلطه على غيره، وقد إتضحت حقيقه كلام الإمام عليه السلام بشأن طلحه والزيبر حتى قبل شروع معركة الجمل وتنازعهما على الزعامه، وهذا ما سنتناوله إن شاء الله في البحث القادم، ولما كانت هذه الخطبه قبل معركة الجمل فقد دعى الإمام الناس إلى الوقوف بوجه ناقضى العهد الذين حملوا رايات معركة الجمل فقال: «قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ (١)»! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْحَبْرُ» .

والعباره الفئه الباغيه إشاره إلى كل جماعه تقوم بوجه الحق وحكومه العدل، كما يصدق هذا الكلام على أصحاب الجمل، وعلى أعوان معاويه أيضاً، لأنهم وقفوا جميعاً ضد الحق، ومن هنا جاء فى الحديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لعَمَّارِ الَّذِي اسْتَشْهَدَ فِي صَفِينٍ وَقَتْلَهُ أَعْوَانُ مَعَاوِيَةَ: «يَا عَمَّارُ تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ» (٢).

والمفرده «المحتسبون» إشاره إلى الأفراد الذين يجاهدون حسبه لله ولا ينتظرون سوى ثوابه وأجره.

والعباره «فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ...» ، إشاره إلى أن سنن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قد عرضت السبل اللزومه للقيام ضد البغاه والعصاه.

العباره: «وَقُدِّمَ لَهُمُ الْحَبْرُ» ، إشاره إلى حديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لصحبه: «تُقَاتِلُونَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِيَةَ طِينِ وَالْمَارِقِينَ» (٣)، بناءً على هذا وبالنظر إلى اتضاح الضلال بالنسبه لتلك

ص: ٤٤٦

١- ١) «المحتسب»: من ماده «حسبه» بمعنى الإتيان بالعمل حسبه لله وإرادته الثواب منه سبحانه، ووردت مفرده المحتسب بمعنى الأمور الذى يكلف من الحكومه للإشراف على إجراء أحكام الدين ولعل ذلك لأنه يقوم بالعمل لله، أو أن هدفه حساب عمل الناس.

٢- ٢) وردت هذه الروايه فى أغلب مصادر العامه ومنها مسند أحمد بن حنبل وصحيح مسلم وطبقات ابن سعد [١] ومصادر أخرى (انظر إحقاق الحق ٨/٤٢٢). [٢]

٣- ٣) تاريخ بغداد ١٣/١٨٧ طبع دار الفكر.

الفئه واتضح سنن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تجاه مثل هؤلاء الأفراد والنبوءه السريعه التي طرحها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فلم يبق هنالك من مجال للإيهام ولا بد لكل مؤمن مخلص أن يقف في وجه الباطل.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلِكُلِّ ضَلَّهِ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»، قطعاً لم يرد الإمام عليه السلام بها الكلام توجيه الأعمال القبيحه والطائشه لطلحه والزبير، بل يريد الإشاره إلى هذه الحقيقه إلى أن الضلال ليس عبثياً، وعاده ما تكون علة اختياريه، فالعله الأصلية لأغلب الضلال تتمثل في هوى النفس وحب الدنيا والجاه والاستبداد والكبر والغرور والحسد، وهذا المعنى واضح تماماً بالنسبه لطلحه والزبير.

والعباره: «وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»، إشاره إلى أن كل ناكث لعهد عاده ما يخلق لنفسه ذريعه ليخدع العوام ويجرهم إليه، كما تذرعه طلحه والزبير بدم عثمان على أنه الخليقه الذي قتل مظلوماً، فيثيروا طائفه من العوام ضد على عليه السلام فيتمكنا من تحقيق أهدافهما المغرضه، بينما كانا من العناصر التي قتلت عثمان، كما مرّ معنا في الخطبه ١٣٧ حيث قال الإمام بشأن طلحه والزبير ومعاويه: «وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ».

والعباره «ناكث» إشاره إلى طلحه والزبير حيث بايعا علياً عليه السلام في البدايه ثم نقضوا البيعه.

ثم إختتم الإمام الخطبه بالإشاره إلى نقطه مهمه وهى المراقبه وعدم الغفله عن العدو فقال: «وَاللَّهِ لَأَكُونُ كَمَشِيَمِ اللَّدْمِ (١)، يَسِيَمُ النَّاعِي وَيَخْضُرُ الْبَاكِي، ثُمَّ لَا يُعْتَبَرُ!»، إشاره إلى أن الزعيم اليقظ لا يسمع أنين المظلومين وتعبئه قوى الشياطين، وقد مضى شبيه هذا المعنى في الخطبه السادسة: «وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَالضَّبِّعِ: تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتَلِهَا رَاصِدُهَا، وَلَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرِ عَنْهُ».

ص: ٤٤٧

(١-١) «اللدّم»: تعنى فى الأصل ضرب الشىء بأخر دون شدّه الصوت.

العباره أعلاه تبين حقيقه وهى أنّ أصحاب الباطل وإن إتحدوا فى بادية الأمر من أجل تحقيق أهدافهم، إلّا أنّهم ما إن ينتصروا ويتمكنوا حتى يسعى كل منهم لإزاله الآخر والتفرد بتناول ثمره شجره النجاح والنموذج البارز لذلك الإتحاد طلحه والزبير فى معركة الجمل والذى يشكل الموضوع الرئيسى لهذه الخطبه، والطريف فى الأمر أنّ بوادر هذه المنافسه الهدامه قد لاحت حتى قبل شروع المعركه.

فقد نقل ابن أبى الحديد عن المؤرخين أنّ خلافاً وقع بينهما قبل الجمل بشأن إمامه العسكر، ولما إشتد النزاع بينهما تدخلت عائشه فأمرت أن تصلى يوماً محمد بن طلحه وآخر عبدالله بن الزبير حتى تنتهى المعركه (١).

من جانب آخر سأل طلحه عائشه أن يسلم عليه الناس بصفته أمير المؤمنين، كما سألها الزبير ذلك، فسلمت عائشه عليهما بأمر المؤمنين، كما اختلفا فى إمره الجيش فقد أراد طلحه الإمره، بينما رأى الزبير نفسه الأجدر بها (٢)، وكل هذه الأمور شواهد حيه على ما أخبر به الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه حين قال كل واحد منها يرجو الأمر له ويفكر فى القضاء على صاحبه، فليس هناك من دافع إلهى، ولا تؤدى الدوافع النفسانيه سوى إلى الاحتكار دائماً.

ص: ٤٤٨

١ - ١) ورد هذا المعنى فى مروج الذهب فى شرح معركة الجمل وأضاف المسعودى ولم يتم تقسيم صلاه الجماعه بهذه البساطه، بل حدث ذلك بعد حوار طويل ونزاع طلحه والزبير (مروج الذهب ٢/٣٦٧ طبعه دار المعرفه بيروت).

٢ - ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٩/١١٠. [١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَبْلَ شَهَادَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نظره إلى الخطبه

كما ورد في أسناد الخطبه فإن الإمام عليه السلام خطبها حين كان على أعتاب الشهاده، فقد أوردها على سبيل الوصيه إلى جانب النصيح والمواعظ، والواقع أن الخطبه تتألف من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: بشأن الموت الذي لا يستطيع أحد الفرار منه ولا يعلم أين ومتى يدركه.

القسم الثاني: وصييه قصيره وبلغه عظيمه المضمون تجذب القلوب وتوضح معالم الطريق في المستقبل.

القسم الثالث: الدروس التي ينبغي للناس تعلمها من شهاده الإمام عليه السلام كما يشير عليه السلام إلى هذه الحقيقه وهي إنني إن رحلت عنكم وخلفني غيري آنذاك ستعرفون، من كنت؟ وماذا أردت؟ وما كانت سرائري؟

ص: ٤٤٩

١-١) سند الخطبه: رواها المرحوم الكليني في الكافي ١/٢٩٩؛ والمسعودي في مروج الذهب بصوره مختصره، وابن عساكر في كتاب مقتل أمير المؤمنين، ويتفق الجميع على أن الخطبه بعد ضربه ابن ملجم وقبل شهاده الإمام عليه السلام، وقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغه أسناد الخطبه في قسم الرسائل حيث جاء جانب مهم من هذه الخطبه في رساله رقم ٣٣ (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٤٧).

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. وَالأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثَهَا عَنْ مَكُونٍ هَذَا الأَمْرِ، فَأَبَى اللهُ إِلاَّ إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!». .

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه أن الفرار من الموت مستحيل، وأبعد من ذلك فإنّ الإنسان يستقبل الموت حين فراره، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. وَالأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ». .

هناك عدّه تفاسير لشراح نهج البلاغه للعباره الهرب من الموت موافاته، فقد قال البعض: المراد من هذه العبارة أنّ الأجل إذا حلّ وجاء أمر الله سبحانه برحيل من الدنيا فحتى الدواء يعطى نتيجة معكوسه، فما كان مشفياً في الأحوال العاديه يصبح سبباً للموت، وقيل في تفسير العبارة أنّ الزمان الذي يصرفه الإنسان من أجل العلاج في مثل هذه الحالات إنّما يقربّه من آجله (٢).

وبعبارة أخرى، فقد شوهد كثيراً وقوع الإنسان في ما يخافه ويحذره، ويدركه ما هرب منه، وعلى ضوء هذا التفسير فإنّ الحكم المذكور حكم غالبى وليس كلى.

ص: ٤٥١

١-١) «مساق»: مصدر ميمي أو اسم مكان من ماده «سوق» بمعنى الغايه التى يصلها الإنسان، أو بعبارة أخرى آخر الطريق.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحرانى، ومنهاج البراعه للخوئى.

ثم قال عليه السلام: «كَمْ أُطْرِدْتُ (١) الْأَيَّامَ أُبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عَلِمَ مَخْزُونٌ!». .

سؤال

هنا يبرز هذا السؤال وهو: كيف قال الإمام بأنَّ الله وحده العالم بالآجل ولا يعلمه أحد (٢)، بينما تظافرت الأخبار التي وردت عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه كان يعلم بزمان وفاته، وكان يعرف قاتله، كما يخبر ولده على الدوام في ليله شهادته، بل أشار بعبارات مختلفة إلى زمان شهادته حتى خلال شهر رمضان الذي استشهد فيه، وقد ورد في الكافي أنَّ الطيور في بيت الإمام عليه السلام كانت على علم بشهادته؟

جواب

يعتقد البعض بالاستناد إلى بعض الروايات (٣)، أنَّ حالات المعصومين عليهم السلام وأولياء الله تعالى مختلفة، فأحياناً يعلمون كل شيء بإرادة الله تعالى، وأحياناً أخرى تخفى عليهم بعض المسائل بإرادة الله تعالى حتى اللحظات يمكن أن تكون متفاوتة، فقد شم نبي الله يعقوب رائحة قميص يوسف من مساحه بعيده (مصر) بينما لم يراه في بئر كنعان، وهناك احتمال آخر ما ذكره الإمام عليه السلام قانوناً كلياً حول الأجل وخاتمه حياه جميع الأفراد، إلّا أنَّ هذا القانون الكلي كسائر القوانين الكليه له استثناءات، فما المانع أن يعلم أولياء الله وبإذن الله وتعليمه بلحظه موتهم.

وهناك نقطة أخرى هي: إنَّ علوم المعصومين عليهم السلام بالنسبة لمسائل المستقبل على أساس لوح المحو والإثبات وهو قابل للتغيير، أو ما يصلح عليه بالعلم بالمقتضيات، لا العلم بالعله التامه التي تأبى التغيير، لأنَّ ذلك القسم الذي يسمى باللوح المحفوظ مختص بالله تبارك وتعالى، مثلاً جاء في قصه السيد المسيح عليه السلام أنه أخبر عن موت عروس في ليله زفافها، بينما لم يقع ذلك، وذلك لأنَّها تصدقت وحالت الصدقه دون وقوع تلك المصيبه.

وستناول شرح هذا الموضوع في محله إن شاء الله.

ص: ٤٥٢

١- ١) «اطردت»: من ماده «طرد» بمعنى الاخراج، واطردت الأيام طويتها واحداً بعد الآخر.

٢- ٢) اصول الكافي، ج ١ باب «أنَّ الأئمه يعلمون متى يموتون» الحديث ٤.

٣- ٣) المصدر السابق.

«أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللَّهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا تَضَيَّعُوا شَيْئَتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعُمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهْلَةِ. رَبُّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ!» .

الشرح والتفسير

بيّن الإمام عليه السلام في القسم من الخطبه وصيته وقد صبّ الإمام عليه السلام فيها عصاره روحه وفكره في تلك اللحظه الحساسه والصعبه التي يوشك فيها على الرحيل فقال: «أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللَّهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيَّعُوا شَيْئَتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعُمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ (1) مَا لَمْ تَشْرُدُوا» .

والمراد بالشرك هنا المعنى الواسع للكلمه والذي يشمل الشرك في الذات والصفات وكذلك الشرك في الأفعال، وعبارة أخرى، كل ميل لما سوى الله سبحانه سواء في العقيدة أو العمل، وكذلك أريد بالسنة معناها الواسع الذي يشمل جميع البرامج العباديه والأخلاقية والسياسيه والاجتماعيه، والواقع هو أنّ العبارتين قد تضمنتا جميع أسباب سعادته الإنسان،

ص: ٤٥٣

١ - ١) «خلاكم الذم»: مثل بين العرب مفهومه ليس هناك من ذم لكم لأنكم تقومون بوظيفتكم، وقيل أنّ أول من قال هذه العبارة (قصير بن سعد) غلام (خزيمه) (أحد ملوك العرب) والذي قتل على يد الزباء، فقال قصير لابن شقشقه الملك خذ بثأر خزيمه، فقال: أتى لى به وإنه لأسرع من العقاب، فقال له قصير: (اطلب وخالك ذم) ، (شرح نهج البلاغه للبيهقى من علماء القرن السادس، ص ٢٣٩ ذيل الخطبه التي نبحتها) .

فالإنسان لم يتعلق بما سوى الله ولا يطلب غير رضاه ولم يحكم هو نفسه وطبق كافة تعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على كافة الأصعدة والمجالات فهو الإنسان سعيد وموفق، ومن هنا شبه الإمام هذين الاثنين بعمودي الخيمة إن أقيما فإن الخيمة ملاذ آمن من الحرارة والبرودة وواقية من أغلب المخاطر، كما شبهها بمصباحين على جانبي الإنسان وهما يضيئان الفضاء والطريق، ومن البديهي ألا يبقى مجالاً للظلاله مع وجود هذين المصباحين المضيئين.

ولذلك قال الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه، إعملوا بهذه الوصايا وخلاكم ذم، وسوف لن يكون هناك من خلل ونقص في دينكم وإيمانكم وحياتكم، ولكنه يشترط ذلك بمواصله الطريق دون الانحراف، والالتزام بمسار التوحيد والعمل بالسنة، والواقع هو أن جميع أصول الإسلام وفروعه قد جمعت في هذه العبارة: فالتوحيد يشمل كافة الأصول العقائديه وحفظ سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يشمل جميع التعاليم العلميه والأخلاقية، وإن قال عليه السلام أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم، للدليل السابق، ولما كان إقامه التوحيد وسنة النبي صلى الله عليه وآله في جميع الأبعاد ليس ميسراً للجميع وذلك لعدم تساوى القدرات الفكرية والجسميه، فقد قال عليه السلام: «حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهْلَةِ»، وهو ذات الأمر الذي أُشير إليه كراراً في الآيات الروايات.

فقد قال القرآن الكريم: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. . .» (١)، وقال في موضع آخر: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا. . .» (٢).

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ» (٣). كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّمَا يُدَاقُ الْعِبَادُ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدَرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا» (٤)، والواقع أن هذا هو مقتضى العدالة في أن تؤخذ القدرات الفكرية والجسميه للأفراد بنظر الاعتبار في تفويض المسؤوليات والحساب على المخالفات، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «رَبُّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ».

ص: ٤٥٤

١-١) سورة البقره / ٢٨٦. [١]

٢-٢) سورة الطلاق / ٧. [٢]

٣-٣) اصول الكافي ١/٤٧، ح ١. [٣]

٤-٤) المصدر السابق / ١١. [٤]

والواقع هو أنّ كافه أسباب السعادة فى ظل هذه الثلاث، فالله سبحانه رحيم قد فتح كافه أبواب السعادة بوجه الإنسان والدين الذى أتى به نبي الإسلام صلى الله عليه وآله يتمتع برسوخ لا- مثيل له، والإمام عليه السلام الذى نصب لإجراء أحكام الدين عادل من جميع الجوانب يمكن أن تكون كلمه الإمام هنا إلى شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو على عليه السلام أو جميع أئمه الإسلام من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى آخر الأئمه الإمام المهدي (سلام الله عليهم أجمعين) ، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الرب والدين والإمام لا يكلف الإنسان سوى على قدر وسعه.

ثم أشار الإمام عليه السلام فى الختام إلى نقطه مهمه ليكمل بها القسم الأول والثانى فقال: «أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عبيركم، وغداً مفارقكم! غفر الله لى ولكم!» ، إشاره إلى أنّكم إن جعلتم هذه الأيام الثلاث مع بعضها لعلمتكم مطالب كثيره، فبالأمس كنت مثلكم، بل زعيمكم وقائدكم حيث صرعت الكثير من على شاكلة عمرو بن عبد ود، لقد فتحت خبير وقلعت بابها، ودافعت عن رسول لله صلى الله عليه وآله فى ميادين القتال حين تظافرت علينا الأعداء، وكنت أجنرال الأبطال فى الجمل وصفين والنهروان، لكننى اليوم لكم عبير بعد أن رقدت على فراش الموت، وغداً أنا مفارقكم، سوف ترون مكانى خالياً، أو ليست هذه الأيام الثلاث تكفيكم عبيره لتكشف عن وضع الدنيا وتفاهتها؟ حقاً لم يسمع كلام أبلغ من هذا الكلام وبهذا الاختصار والعمق فى المعنى.

أما بشأن المراد من العبارة «وَعَدَاً مُفَارِقُكُمْ. . .» ، هل هو الإخبار عن شهادته فى ذلك الوقت أم الإخبار عن مستقبل بعيد والذى ورد التعبير عنه فى العبارات المتداوله بقولهم غداً؟ يبدو هنالك خلافاً بين شراح نهج البلاغه، ولكن ما يفهم من القرآن المختلفه وسائر كلمات الإمام عليه السلام فى تلك الحادته الأليمه وقبلها أنّ المراد الخبرالقطعى عن المستقبل القريب، ولا يتنافى ذلك مع العبارة: «إِنْ تَبَيَّتِ الْوِطَاءُ. . .» ، لأنّ مثل هذه التعبيرات تهدف إلى بيان مقاصد خاصه واعتياديه، كما ورد فى القرآن الكريم: «أَفَمَإِينَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ. . . (١)». والحال يعلم الله سبحانه أنّ نبيّه صلى الله عليه وآله لا يقتل، فهدف الإمام عليه السلام هنا بيان هذا المطلب، أنّى لو بقيت لعفوت عن ضاربي.

ص: ٤٥٥

«إِنْ تَثَبَّتِ الْوُطَاهُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ. وَإِنْ تَدَحَضِ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَعْصَانٍ، وَمَهَابِّ رِيَّاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، أَضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا، وَعَفَا فِي الْأَرْضِ مَحْطُهَا. وَإِنَّمَا كُنْتُ جَارًا جَاوَرَكُم بِيَدِنِي أَيَّامًا، وَسَيَتُعَقَّبُونَ مِنِّي جُنَّةً خَلَاءً. سَاكِنَهُ بَعِيدَ حَرَائِكِ، وَصِيَامَتَهُ بَعِيدَ نَطْقٍ لِيُعْظُكُمْ هَيْدُؤِي، وَخَفُوتُ إِطْرَاقِي، وَسَيَكُونُ أَطْرَاقِي، فَإِنَّهُ أَوْعِظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ. وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعِ امْرِئٍ مُزْصِدٍ لِلتَّلَاقِي! عَمْدًا تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سِرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعِيدَ خُلُوعِ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي» .

الشرح والتفسير

شرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه مصيره على فراش الشهاده كما بين وضع المسلمين بعده فقال: «إِنْ تَثَبَّتِ الْوُطَاهُ (١) فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ (٢) فَذَاكَ. (٢) وَإِنْ تَدَحَضِ (٣) الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ (٤) أَعْصَانٍ، وَمَهَابِّ (٥) رِيَّاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، أَضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا (٦)، وَعَفَا (٧) فِي

ص: ٤٥٧

١- (١) «وطأه»: بمعنى محل القدم وتأتي بصيغه كناية بمعنى الضغط الشديد.

٢- (٢) «مزله»: من ماده «زلل» على وزن ضرر بمعنى محل الزلل.

٣- (٣) «تدحض»: من ماده «دحض» على وزن محض بمعنى الزلل أيضاً.

٤- (٤) «أفياء»: جمع «فيء» على وزن شيء بمعنى الظل.

٥- (٥) «مهاب»: من ماده هبوب بمعنى حركه الرياح ومهاب جمع مهب محل هبوب الرياح.

٦- (٦) «متلفق»: بمعنى القطع المتصله من ماده لفق على وزن لفظ الجمع.

٧- (٧) «عفا»: من ماده «عفو» بمعنى ترك، ولكن ما كان ترك الشيء يؤدى إلى ذهابه وإندراسه، فقد وردت في هذه العبارة

وأمثالها بمعنى الإندراس.

الأَرْضِ مَخْطُهَا (١)». فتاريخ البشر وتجاربنا اليومية تكشف هذه الحقيقة في أن الحياة كظلال الأشجار والقدرات كظلال الغيوم تمرّ بشرعه وتزول آثارها إلى الأبد، لكن العجيب عدم التفات الإنسان رغم رؤيته لكل هذه الأمور وكأنه غير مشمول بهذا القانون.

ثم بين هذا المعلم الرباني أثر ذلك وبالنظر إلى علمه بمفارقة الدنيا عاجلاً بعض الدروس والعبر التي يمكن للآخرين الاستفادة منها والتي من شأنها إيقاظهم من غفلتهم فقال: «وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُم يَدْنِي أَيَّاماً، وَسَيَتَعَقَّبُونَ مِنِّي جُثَّةَ خَلَاءٍ (٢) سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَكَ (٣)، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ».

ثم استنتج مباشرة: «لِيَعِظْكُمْ هُدُوءِي (٤)، وَخُفُوتِي (٥) إِطْرَاقِي (٦)، وَسُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمُنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَشْمُوعِ».

حقاً أن الأمر كذلك فالمتحكمون مهما كانوا فصحاء وبلغاء، والسامعون مهما كانوا صاغين ولكن هناك فارق كبير بين النظر والسماع، فإياها من عبره أن ترى ذلك الرجل الشجاع الذي ذاع صيته في الأرجاء وهو الآن طريح الفراش جثته هامده لا يقوى حتى على تحريك جفن عينيه، كما لا تقوى شفتاه على الحركة وهذا ما ينطوي على أعظم درس وعبره حيث يشاهد الإنسان بعينه أقوال القوه والقدرة فيغرق في هاله من التفكير، وهل لواعظ القدرة على إبراز هذا التأثير؟

وأخيراً اختتم الوصية بتوديع الناس، ذلك الوداع الأليم فقال: «وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعِ أَمْرِي مُرَصِدٍ (٧) لِلتَّلَاقِي! غَدَاً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوقِ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي».

نعم، فحين رجل مظهر العدل ذلك الزعيم الشفيق والرؤوف، وحين غادر الناس تلك

ص: ٤٥٨

١-١) «مخط»: من ماده «خط» بمعنى محل الخطوط.

٢-٢) «خلاء»: بمعنى خاليه.

٣-٣) «حراك»: وحركه لها معنى واحد.

٤-٤) «هدو»: على وزن غلو بمعنى السكون وعدم القدرة على الحركة.

٥-٥) «خفوت»: بمعنى السكون والتوقف عن الحركة.

٦-٦) «اطراق»: خفض العين لضعف الأجفان.

٧-٧) «مرصد»: من ماده «ارصاد» بمعنى الاستعداد والانتظار.

الكنوز العلميه التي كانت تجرى على لسان الإمام عليه السلام وحل محلّه جباره بنى أميه الذى لا- يجيدون سوى لغه الظلم والجور ولا- يفكرون سوى بأهوائهم وغرائزهم الحيوانيه وأراقوا دماء الأبرياء، آنذاك فهم المسلمون من فقدوا، وأيه خساره تكبدوا.

وبناءً على تقدم فالتعبير بغد لا- يثير حسب ظاهر العبارة إلى لعالم البرزخ ولا القيامة (كما ذهب إلى ذلك بعض شرّاح نهج البلاغه)، بل إشاره إلى الأيّام السوداء والمريره التي مرّت على المسلمين بعد شهاده أميرالمؤمنين على عليه السلام.

والعبارة «مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي» ، سواء كانت بمعنى لقاء ملائكه الموت أو الله سبحانه فهي تفيد عدم تعلق روحه المقدّسه سلام الله عليه بهذا العالم المادى الزائل، بل كان متعلقاً بالعالم العلوى والملائكه والذات الإلهيه المقدّسه، وضربه ابن ملجم كانت المقدمه لذلك الفوز العظيم ولقاء ربّ الكعبه، والشاهد الناصع على ذلك قوله عليه السلام حين ضرب: «فُزْتُ وَرَبُّ الكَعْبَةِ» .

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

يَوْمِي فِيهَا إِلَى الْمَلَّاحِم وَيَصِفُ فَتْنَهُ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن فتنه ظلت الطريق القويم وإتجهت نحو الانحراف، ثم تحدث عن إمامه أهل البيت عليهم السلام الذين يرون الفتن بمصاييح الهدايه وينهضون بهدايه الأمه، الإمامه والزعامه التي تذلل الصعاب وتحرر الأمم.

القسم الثاني: تحدث عن ضعاف الإيمان الذين يسبحون في الفتن والظلال إثر إتباع أهواء النفس، فتنه أخرى راسخه الإيمان وهي تجابه الكفر والشرك وقد نالت القرب الإلهي.

القسم الثالث: الذي أشار إلى الأفراد الذين تراجعوا القهقري بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وقطعوا أواصر الإيمان وجانبوا أولياء الله سبحانه والتحقوا بأعدائه وقد اقتلعوا أسس الولاية وحولوها إلى غير موضعها.

ص: ٤٦١

١- ١) سند الخطبة: السند الوحيد الذي ورد في كتاب مصادر نهج البلاغه هو كتاب المسترشد للطبري الذي نقل أقساماً من آخر هذه الخطبة باختلاف، ويفهم من روايه الطبري أنّ هذه الخطبة أطول مما نقل المرحوم السيد الرضى وقد إكتفى السيد الرضى رحمه الله حسب طريقته ببعض مقاطعها (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٣٧).

«وَأَخَذُوا يَمِينًا وَشِمَالًا ظَغْنًا فِي مَسَالِكِ الْغَيْ، وَتَزَكَّا لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنْهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ عَدَا يَا قَوْمَ، هَذَا إِبَانٌ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوءٍ مِنْ طَلْعِهِ مَا لَاتَغْرِفُونَ. أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مَنَّا يَسْرَى فِيهَا بِسِرَاجِ مُنِيرٍ، وَيَخْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيُحِلَّ فِيهَا رِبْقًا، وَيُعْتَقَ فِيهَا رِقًا، وَيَصْدَعَ شَعْبًا، وَيَشْعَبَ صَدْعًا، فِي سِتْرِهِ عَنِ النَّاسِ لَأَيْبِصِرَ الْقَائِفُ أَثْرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظْرَهُ. ثُمَّ لَيْشْحَدَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحَدَ الْقَيْنِ النَّصْلَ تُجَلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُزْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأَسِّ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصُّبُوحِ!».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبه بالمجموع تتكهن بحوادث المستقبل وتفيد القرائن والعبارات الواردة فيها، أن الإمام عليه السلام قد أشار إلى الحوادث ما قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام ومن ثم قيامه المبارك.

فقد قال الإمام عليه السلام: «وَأَخَذُوا يَمِينًا وَشِمَالًا ظَغْنًا فِي مَسَالِكِ الْغَيْ، وَتَزَكَّا لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ (١)، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ».

ص: ٤٤٣

(١-١) «مرصد»: من ماده رصد على وزن «صمد» تعنى فى الأصل مراقبه الشيء، ويطلق المرصد على الشيء الذى يراقب وينتظر.

ثم خاض الإمام عليه السلام في ذكر الدليل لترك الاستعجال فقال: «فَكَمْ مِنْ مُسَيِّعٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنْهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرٍ (١) غَدًا»، إشارة إلى الانتصارات الموعودة بعد الفتن (لاسيما ظهور المهدي عليه السلام الذي وردت الوعود الصريحة في عصر النبي بشأن بسط العدل والقسط في كافة أنحاء العالم)، وفي عدم استعجالها وذلك لأن لكل شيء زمان وشرايط، وما لم تحصل الشرايط فهي كالثمار الخام وتقطف من الشجرة فلا يؤدي ذلك سوى إلى الندم.

ثم خاطب الناس قائلاً بأنّ الآن أوان تحقق ما وعدتم به (من ظهور الفتن والبلابل وسلطه الظلمه وزيادة الضغط على المظلومين): «يَا قَوْمَ، هَذَا إِبَانٌ (٢) وُورِدَ كُلُّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلَعِهِ مَا لَا تَعْرِفُونَ».

ثم تحدّث بصورة أوضح عن هذا الظهور العظيم فقال: «أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مَنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو (٣) فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ»، ثم تطرق في مواصلته لحديثه إلى برامج ذلك المصلح الكبير بعبارات قصيره عميقه المعنى، فقال: «لِيُحَلَّ فِيهَا رِبْقًا (٤)، وَيُعْتَقَ فِيهَا رِقًا، وَيَصْدَعُ (٥) شَعْبًا (٦)، وَيَشْعَبُ صَدْعًا، فِي سُتْرِهِ عَنِ النَّاسِ لِأَيْبَصِرُ الْقَائِفُ (٧) أَثْرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظْرَهُ».

فهذه العبارات تنطبق تماماً على قضيه ظهور المهدي عليه السلام، لأنّه يقطع أغلال الأسر ويطلق المظلومين ويكسر شوكة الظالمين ويفرق جمعهم، فهو يعيش لسنوات في الخفاء بحيث يعجز أعظم الباحثين عن العثور عليه، وقد أورد البعض من شراح نهج البلاغه عدّه تفاسير

ص: ٤٦٤

١-١) «تباشير»: بمعنى البشارة وأوائل كل شيء (والذي يشير في الواقع بوروده) وتباشير الصبح بمعنى أوائله، وذهب البعض إلى أنّ تباشير جمع تبشير، ولكن يستفاد من تعبيرات البعض أنّها مفرد أو جمع لا مفرد له.

٢-٢) «أبان»: بمعنى بدايه ووقت كل شيء.

٣-٣) «يحذو»: من ماده حذو على وزن حذف بمعنى الاتباع.

٤-٤) «ربق»: بكسر فسكون جبل فيه عدّه هرا، كل عروه ربقه تشدّ فيه البهم.

٥-٥) «يصدع»: من ماده «صدع» تعنى فى اللغه مطلق الشق، أو شق الأجسام المحكمه، كما وردت بمعنى الاظهار حيث يظهر باطن الشيء بالشق.

٦-٦) «شعب»: بمعنى جماعه عظيمه من الناس وتستعمل اليوم بمعنى الأمه.

٧-٧) «قائف»: من ماده «قوف» على وزن خوف بمعنى البحث عن آثار الشيء، ويقال القائف لمن يتتبع آثار الأشياء أو الأفراد، وهذا هو معنى معرفه القيافه.

للعباره، وحيث لا يجدر الالتفات إليها فاننا نعزف عن ذكرها.

والجدير بالذكر أن شارح نهج البلاغه ابن أبي الحديد المعروف بتعصبه بالنسبه لأغلب المسائل المرتبطه بالإمامه، صرح فى شرحه للعباره المذكوره: «وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مَنَّا يَشِيرُ فِيهَا بِسَرَاجٍ مُنِيرٍ»، إلى أن المراد بها مهدي آل محمد صلى الله عليه و آله، كما ترى إنطباق سائر الصفات المذكوره عليه، وإن كان اعتقاد العامه بالنسبه للإمام المهدي عليه السلام أنه يولد فى آخر الزمان (١).

ثم أشار فى ختام هذا المقطع من الخطبه إلى أصحاب الإمام المهدي عليه السلام وأوصافهم: «ثُمَّ لَيْشُحَذَنَّ (٢) فِيهَا قَوْمٌ شَحَذَ الْقَيْنِ (٣) النَّضْلَ تُجَلَى بِالنَّزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُزْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُعْبَقُونَ (٤) كَأَسِّ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصُّبُوحِ!». .

ويستفاد من العبارات إلى أن أصحاب الإمام المهدي عليه السلام هم من الرجال الشجعان والعلماء الذين أعدوا سلفاً وعملية بنائهم مستمره متواصله، وقلوبهم نابضه بآيات القرآن وتفسير كلمات اسبحانه، وهم دائموا التعلم صباح مساء ويزدادون إستعداداً وتأهباً، ولكن من هذا الذى أعدهم مسبقاً؟ هل حصل ذلك بأنفسهم أو لديهم بعض الأساتذه الذين أمروا باعدادهم؟ أم لإرتباطهم بإمامهم ومعلمهم الغائب؟ القضية ليست واضحه لدينا بالضبط، ولكن على كل حال أنهم أفراد أعدوا للمساعده فى هذه الثوره العظيمة حتى وصفهم ابن أبي الحديد بالعرفاء، فمن جمع فيهم الزهد والحكمه والشجاعه فهم أصحاب ولى الله الذى إصطفاه (٥).

ويفهم مما مرّ معنا فى هذا القسم من الخطبه أن الإمام عليه السلام قد بشر المسلمين بفجر مضيء بعد تلك الظلمات، وهو الفجر الذى يأتي به ولده اليمون المهدي (عج) وبشروق شمس جماله تنجاب الظلمات.

ص: ٤٦٥

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٩/١٢٨. [١]

٢-٢) «ليشحذن»: من ماده «شحذ» تعنى فى الأصل حدّ السكين، إلّا أنّها وردت بمعنى حدّ الذكاء والاستعداد.

٣-٣) «القين»: بمعنى الحداد، ولهذه المفرده معنى مصدرى يعنى الحداده والإعداد.

٤-٤) «يعبقون»: من ماده غبوق بمعنى يسقو بالماء فى مقابل صبح بمعنى يشرب وقت الصباح ومصدرها غبق على وزن غبن.

٥-٥) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٩/١٢٩.

وردت في هذه الخطبه الشريفه في الفصل السابق - كسائر خطب نهج البلاغه - البشاره بظهور الإمام المهدي عليه السلام، البشاره التي وصلتنا من خلال الروايات المتواتره عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هنا إتفق علماء الإسلام من الفريقين على هذا الأمر، ولم يشذ سوى النزر اليسير الذين يعانون من انحراف فكري، حتى سطر أبرز علماء العامه كتباً تحت عنوان تواتر روايات المهدي عليه السلام (١).

ويستفاد من هذه الخطبه كأغلب روايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمه أهل البيت عليهم السلام أمران:

الأول: أنّ هذا الظهور المقدّس بهدف إزاله بساط الظلم ونشر التوحيد والعدل سيكون في زمان يعم فيه الفساد العالم، أي يملّ الناس الظلم والجور وتغلق طرق الصلاح وتثبت جميع المدارس والقوانين البشريه فشلها وهزيمتها، وهذا ما يضاعف من استقبال تلك الحكومه الإلهيه.

الثاني: أنّ أصحاب المهدي عليه السلام وبهدف إجراء هذا المشروع العالمي الإنساني العظيم هم من الأفراد الشجعان والعلماء والحلماء والرهن لإمتثال الأوامر.

ونختتم هذا البحث بحديث عن الصحابي المعروف أبي سعيد الخدري في مسند أحمد بن حنبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْتَلَأَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمَلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا لَمْ يَمَلَأْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا» (٢).

كما ورد مثل هذا المعنى باختلاف طفيف في سنن أبي داود (٣).

ص: ٤٦٦

١ - ١) ومن ذلك كتاب للعالم المعروف الشوكاني تحت عنوان التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر (راجع كتاب نفحات القرآن ١٠/٤٢٣). [١]

٢ - ٢) مسند أحمد ٣/٣٦. [٢]

٣ - ٣) سنن أبي داود ٤/١٥٢.

منها: «وَطَالَ الْأَمْدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغَيْرَ؛ حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَ الْأَحْيَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتْنِ، وَأَسْأَلُوا عَنْ لِقَاحِ حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا يَدَلْ أَنْفُسَهُمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مِدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَشْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَأَعِظِهِمْ» .

الشرح والتفسير

اختلف شراح نهج البلاغه في هذا القسم من الخطبه وذلك لأن الضمائر التي وردت في هذا القسم والأوصاف لا تبد منسجمه، ومن هنا قال بعض الشراح بوجود تقدير في العبارات، واعتقدوا بأن عدم الإنسجام هذا يرتبط بإختيار السيد الرضى رضى الله عنه، فلعل عدم الإنسجام هذا يزول لو نقل المرحوم جميع الخطبه، على كل حال ما يبدو مناسباً في تفسير هذا القسم هو أن الإمام عليه السلام نظر إلى ناس العصر الجاهلى ومن ثم عصر الظهور النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، فقسم أهل ذلك الزمان إلى ثلاث طوائف: الضالون، وضعاف الإيمان، والمؤمنون الشجعان الأشداء، فقال بشأن الطائفة الأولى: «وَطَالَ الْأَمْدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغَيْرَ (١)» .

نعم، فأحياناً يترك الله الأفراد الذين يصرون على سلوك سبيل العصيان والطغيان ليلغوا قمه الفضحيه فيستوجبوا العقاب الإلهى.

ص: ٤٦٧

١-١) «غير»: جمع «غيره» بكسر ففتح بمعنى حوادث الدهر والتغيرات التي توجب تغير النعم، وقال البعض غير مفرد ولا جمع.

وقد أشارت الآشارات القرآنيه إلى هذه الطائفه فى عدّه موارد واصطلحت على عقابهم بالاستدراج. ثم تحدّث عن الطائفه الثانيه والثالثه فقال: «حَتَّى إِذَا اٰخْلُوٰقَ (١) الْاٰجِلُ، وَاِسْتَرٰحَ قَوْمٌ اِلَى الْفِتْنِ، وَاَسْأَلُوْا (٢) عَن لِّقٰحِ (٣) حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمْنُوْا عَلٰى اللّٰهِ بِالصَّبْرِ، وَّلَمْ يَشِيْعُوْا بِذَلِّ اَنْفُسِهِمْ فِى الْحَقِّ؛ حَتَّى اِذَا وَاَقَّ وَاَرَدَ الْقَضٰءُ اِنْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوْا بَصَائِرَهُمْ عَلٰى اَشْيَافِهِمْ، وَدَانُوْا لِرَبِّهِمْ بِاَمْرِ وَاِعْظَمِهِمْ» .

وهكذا ميّز هذه الطوائف الثلاث التى لا يخلو مجتمع من نظائرها، وكل تسلك طريقها، وقد قسمهم جمع من شراح نهج البلاغه إلى قسمين، والعباره: «وَاِسْتَرٰحَ قَوْمٌ اِلَى الْفِتْنِ . . .» ، اعتبروها إشاره إلى الصالحين الذين يتخذون جانب الصمت والتقيه تجاه بعض الفتن فى زمان معين حتى يحين موعد القيام، والعباره: «لَمْ يَمْنُوْا . . .» معطوفه عليها.

وكما أشرنا سابقاً فقد اختلف شراح نهج البلاغه بشأن هؤلاء القوم ومن هم أولئك الأفراد ومتى ينهضون ومن هو زعيمهم وفى أى وقت يظهر.

ذهب البعض إلى أنّ ذلك هو زمان بنى أميه الذين يتسلطون بادية الأمر على كافه البلاد الإسلاميه ويتردون الأخيار الصالحين من الساحة ويخفون أصوات المظلومين، ولكن لا- تمرّ مدّه حتى تقوم طائفه ضدهم وتطيح بسطانهم وتقذف بهم فى مزبله التاريخ.

ويرى البعض الآخر أنّهم أنصار الإمام المهدي عليه السلام الذين ينهضون بالأمر بعد كل ذلك الفساد والظلم والابتعاد عن الله سبحانه بأمر من إمامهم فيملأون الأرض قسطاً وعدلاً بعد أنّ تملأ ظلماً وجوراً، ولكن بالنظر إلى ما سيرد فى المقطع الآخر يبدو أنّها إشاره إلى ناس يعيشون فى الجاهليه وقد سلكوا سبيل الفساد، ثم نهض عليهم ثله من الصالحين التى تهب لنصره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فتصحى بما لها ونفسها حتى ينتشر الإسلام فى كل مكان.

والعباره: «حَمَلُوْا بَصَائِرَهُمْ عَلٰى اَشْيَافِهِمْ . . .» ، تعبير غايه فى الروعه تشير إلى أنّ الجهاد الإسلامى لابدّ أن يبتنى على العلم والجهاد الثقافى مقدم على الجهاد العسكرى.

ص: ٤٤٨

١-١) «اخْلُوٰقَ»: من ماده «خلق» أحد معانيها القدم، وتعنى هنا الانتهاء لأنّ لازمه القدم انتهاء العمر الشىء.

٢-٢) «اسألوا»: من ماده «سؤل» على وزن قول تعنى فى الأصل رفع الشىء كرفع الحيوان لذيله، وتعنى هنا الكف عن القتال.

٣-٣) «لقاح»: تعنى بدايه الحرب.

«حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمْ السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِحِ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رِصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرِهِ. قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ عَلَى سُنَنِهِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعِ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقِ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام بحثه السابق عن العصر الجاهلي ومن ثم زمان قيام رسول الله صلى الله عليه وآله وإنبثاق الدعوه الإسلاميه، ليتحدث هنا عن العصر الذي يعقب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث رسم صورته واضحه عنه وأزاح الستار ليكشف الحقائق فقال: «حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمْ (١) السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِحِ (٢)، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ» .

المراد من العبارة: «رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ» ، العوده إلى الجاهليه وإحياء سنن ذلك الزمان والذي ظهر للأسف في المجتمع الإسلامى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد استحوذ الطالحون على

ص: ٤٦٩

١- ١) «غالتهم»: من ماده «غول» على وزن قول تعنى فى الأصل الفساد الذى ينفذ فى الشىء بصوره خفيه، ومن هنا يقال غيله للأغتيال والقتل السرى، ووردت هذه المفردة بمعنى الهلكه والتضاد بعوامل خفيه، ولما كانت الضلاله بمعنى الهلكه المعنويه فقد جاءت بهذا المعنى وهو المراد فى العبارة.

٢- ٢) «ولائح»: جمع «وليجه» بمعنى نظير ومثيل وشبه وخاصه الرجل من أهله.

مختلف المناصب وأقصى الصالحون وبرز حبّ الدنيا وأصبح بين المال العائد لجميع المسلمين تحت تصرف طبقه معينه.

والعبارة: «وَعَاثَتْهُمْ السُّبُلُ»، إشاره إلى اختلاف الآراء الذى ظهر بعد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقد فسّر العديد من الأفراد محكمات الإسلام على ضوء ميولهم ومنافعهم الشخصيه، وهذا ما أدى إلى ضلاله الكثير من الناس، وهى الضلاله التى عبّر عنها الإمام بالهلكه.

والمراد بالعبارة: «وَأَتَكَلَّمُوا عَلَى الْوَلَائِحِ» أنّ جماعه من المسلمين قد إختارت المنافقين بطانه لها.

والعبارة: «وَصَلُّوا غَيْرَ الرَّحِمِ»، إشاره إلى الآيه الشريفه: «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . . .» (١).

والعبارة: «وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ»، تأكيد آخر على هذا المعنى فى أنّهم مأمورون بموده أهل البيت عليهم السلام واتباع منهجهم، وإلا أنّهم تركوهم واتبعوا غيرهم.

ثم خاض الإمام عليه السلام بصراحه أبعد بشأن الخلافه وتغيير أساسها فقال: «وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رِصِّ (٢) أَسْيَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ»، رغم أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عين خليفته مراراً صراحه وكنايه فقال، تمسكوا بالقرآن والعترة، لكنهم هدموا هذا البنيان ونقلوه إلى موضع هش آخر.

ثم تطرق الإمام عليه السلام فى ختام الخطبه إلى صفات العامل الأصلي وراء ذلك التغيير فقال: «مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرِهِ (٣). قَدْ مَارُوا (٤) فِي الْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ عَلَى سَيْتِهِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُتَقَطِّعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ» .

فقد بين الإمام عليه السلام هذه الصفات الخمس لهم ليشير إلى انحراف أفكارهم وأعمالهم من

ص: ٤٧٠

(١-١) سورة الشورى / ٢٣. [١]

(٢-٢) «رِصٌّ»: بمعنى الصاق شىء بآخر ويطلق المرصوص على كل بناء محكم، ورص العبارة المذكوره بمعنى مرصوص، وعبارة الإمام رص أساسه من قبيل إضافه الصفه على الموصوف يعنى الأساس المحكم للولاية.

(٣-٣) «غمره»: من ماده غمز على وزن أمر بمعنى إزاله آثار الشىء، ثم اطلق على الماء الوفير الذى يغطى شيئاً ويزيل آثاره، وفى الخطبه إشاره إلى الأفراد الذين غطوا فى الغفله والضلاله.

(٤-٤) «ماروا»: من ماده «مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعه والاضطراب.

الجدور، فهم أفراد فاسدون ومفسدون ومغرورون وغافلون وغارقون في الدنيا ومجانبون لدين الحق، وقد شبَّههم الإمام عليه السلام بآل فرعون، وأحدى صفات آل فرعون أنهم قسموا المجتمع إلى قسمين: الأقباط والأسباط، أو بعبارة أخرى آل فرعون وبنى اسرائيل، وقد تمتع الفريق الأول بكافه الامتيازات في البلاد (مصر) ومرغوا أنوف الفريق الثاني بالتراب، فكانوا يقتلون رجالهم ويسبون نسائهم وملأوا الأرض فساداً: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (١).

فقد اعتمد خط النفاق الجاهلي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ذات السنه الفرعوني، فقد اقتصرت كافه امتيازات البلاد الإسلاميه على بنى أميه ولم يكن نصيب شيعة على عليه السلام سوى القتل «تحت كل حجر ومدبر» والتشريد والحبس والتعذيب، وقد ملأوا العالم الإسلامى بالفساد.

والعبارة: «مُنْقَطِعٌ إِلَى الدُّنْيَا...»؛ إشارة إلى أن طائفه منهم قد أقبلت علانيه على الدنيا، فقد طاولت قصورهم عنان السماء، كما ذكر ترفهم وبذخهم بحياه كسرى والقيصر، ويبدون أن من بين حاشيتهم ممن لا ييدى علاقته ظاهريه بالدنيا لكنه باع دينه بدنيا غيره ووضع له الأحاديث التي تصيرح بفضله ونسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ووجه أعماله القبيحه، ومصداق ذلك واضح للجميع.

تأمل: مصير جاحدوا الولايه

تعدّ هذه الخطبه من أقوى الخطب التي تدافع عن ولايه أهل البيت عليهم السلام، وإن مرّ عليها بعض شراح نهج البلاغه مرور الكرام، فقد أعلن الإمام عليه السلام صراحه وجود حركه رجعيه بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأساسها إسقاط ولايه أهل البيت عليهم السلام وضرب الوصايا المؤكده للنبي

ص: ٤٧١

الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص، وأفضل محمل لها يتمثل ب «الاجتهاد مقابل النص» وعدم اعتبارهم وصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لمصلحه المسلمين، ولكن على كل حال فإنّ مؤججى نيران تلك المعركة هي العناصر المعروفة في الجاهليه وخصوم الدعوه كأبى سفيان وأعوانه الذين نفذوا تدريجياً إلى الخلافة الإسلاميه وتقدموا إلى الصفوف الأماميه بعد أن كانوا من المؤخرين، فسيطروا على كل شىء وإرتكبوا من المفضائع ما ليس له مثل في التاريخ أو قل مثيله، لكن الخطبه تشير بصوره دقيقه إلى نهجهم ومسارهم وبالتالي عاقبتهم.

والجدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد المعروف بتعصبه فى مسأله خلافة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والخلفاء الأوائل قد اعترض صراحه ليقول بأنّ الإمام عليه السلام قصد بهذه الخطبه مسأله الخلافة والإمامه غير أنّه سعى بتكلف ليراها مختصه بزمان بنى أميه، ثم يفصل العبارة: «حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» عن «رَجِيعَ قَوْمٍ عَلَى الْأَعْقَابِ»، ويفسرها لما بعد أربعين سنه (1)، وهو الضعف الذى لا يخفى على أحد، وذلك لأنّ صريح كلام الإمام عليه السلام هو أنّ هذه الحركه على الأعقاب قد بدأت مباشره بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والتاريخ يشهد بأنّ الجنائيات بنى أميه جذور فى عصر الخلفاء والطريف فى الأمر أنّ هذه الإشاره وردت فى «صحيح البخارى» الذى يعتبر من المصادر الروائيه المعتمده لدى العامه فى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أخبر عن الحوادث الأليمه من بعده، حيث قال: «يَرُدُّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيَحْلَلُوْا عَنْهُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ، إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ إِرْتَدُّوا عَلَيَّ أَدْبَارِهِمُ الْفَهْقَرَى» (2). والعبارة إرتدوا جذيره بالتأمل.

والجدير بالذكر أنّه وردت عدّه روايات بهذا الخصوص وفى هذا الباب فى صحيح البخارى والتي تدلّ جميعاً على قلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد رحيله من أعمال طائفه من أصحابه، وهذا شاهد بين على ما ورد فى هذه الخطبه بشأن الأحداث الأليمه بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله، والواقع هو أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أراد بهذا البيان تحذير أصحابه فى أن يراقبوا أنفسهم وأنّهم

ص: ٤٧٢

-
- ١-١) يمكن الوقوف على شرح كلام ابن أبى الحديد واعترافاته وتوجيهاته الضعيفه فى شرح نهج البلاغه ٩/١٣٤.
٢-٢) صحيح البخارى ٨/٢١٧ ح ١٦٥ (باب ما جاء فى حوض النبي).

مؤاخذون يوم القيامة على أى خلاف يصدر منهم فيسعوا لأن لا يكونوا من تلك الطائفة.

حسن الختام

انتهى المجلد الخامس من هذا الكتاب بالخطبة المأه والخمسين وهى نهايه رائعه حيث تتحدث عن ولايه أهل البيت عليهم السلام فى أيام الولايه، الولايه بفضلها الصراط المستقيم وسبيل النجاه والمانعه من كل انحراف وزلل.

اللهم ثبتنا على ولايتهم، واحشرنا بولايتهم، واجعلنا من أتباع منهجهم، إنك حميد مجيد، وبالإجابه جدير وعلى كل شىء قدير.

نهايه المجلد الخامس

محرم الحرام ١٤٢٤

ص: ٤٧٣

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية: شرح عصری جامع لنهج البلاغه المجلد ۶ / ناصر مکارم شیرازی، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانی.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام علی ابن ابی طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهری: ۱۰ ج.

شابک: ۳۰۰۰۰ ریال: دوره X-۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴: ۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴: ۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۸۱۳-۹۱۷: ۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴: ۰؛ ج. ۵ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۹۴۱-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵: ۷۰۰۰۰؛ ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲: ۷۰۰۰۰؛ ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹: ۷۰۰۰۰؛ ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶: ۷۰۰۰۰؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳:

یادداشت: عربی.

یادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

یادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ق. = ۱۳۹۰).

یادداشت: کتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الی ۱۸۰. ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الی ۲۰۰. ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الی ۲۴۱. ج. ۹. من رساله ۱ الی ۳۱. ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الی ۵۳

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه ها

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- کلمات قصار

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه ها

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده: حمیرانی، عبدالرحیم

شناسه افزوده: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٦

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحذِّرُ مِنَ الْفِتَنِ (١)

نظرة إلى الخطبة

تتكوّن هذه الخطبة من أقسام ثلاثة:

أمّا القسم الأول: فهو حمد الله والثناء عليه، ومن ثم الشهادة بالرسالة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبعض صفاته الخاصة. حيث أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلى الأوضاع المربكة التي كانت سائده إبان الجاهلية ليقف المسلمون من خلال المقارنه على عظمه النعم التي أفاضها الله عليهم ببركه الإسلام.

أمّا القسم الثاني من الخطبة: فقد أخبر فيه الإمام عليه السلام عن ظهور الفتن في المستقبل والعودة القهقري إلى الجاهلية بأفكارها وممارساتها، كالفتن التي يقودها

ص: ٥

١- (١) سند الخطبة: لم ترد هذه الخطبة في مصادر أخرى والشىء الوحيد الذى يعتمد عليه مؤلف «مصادر نهج البلاغه» ما ذكره السيد اليماني في كتاب «الطراز» وقد استشهد فيه بعدة عبارات من هذه الخطبة، رغم أنه عاش بعد السيد الرضى، إلّا أنّ اختلاف بعض العبارات مع ماورد في نهج البلاغه يفيد أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه. راجع مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص

الظلمه والتي تفعل فعلها فى الوسط الإسلامى.

وأخيراً يختتم الخطبه بوصيه الناس بالحدز من الظلمه وعدم الإنخداع بفتنهم والاستجابه لتحقيق مآربهم، إلى جانب عدم أتباع خطوات الشيطان والسقوط فى شراكه، والإبتعاد عن تناول الحرام وتقوى الله على كل حال.

ص: ٦

وَأَحْمَدُ اللَّهَ وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ. لَا يُؤَاوِزِي فَضْلُهُ، وَلَا يُجْبِرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْعَالِيَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ؛ وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَدِلُّونَ الْحَكِيمَ؛ يَخِيُونَ عَلَى فِتْرِهِ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرِهِ!

الشرح والتفسير: الشمس التي أشرقت في الظلام

إن هذه الخطبة من خطب الملاحم التي تتعرض إلى جانب من الأحداث الخطيرة التي تقع في المستقبل وتحذر الناس من ضروره التحلى باليقظه ومراقبه الذات بغيه عدم التلوث بالظلم والفتن والفساد. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه والاستعاذه بذاته المقدسه من شر الشياطين فقال:

«وَأَحْمَدُ اللَّهَ وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ (١) الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ (٢) وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ (٣)»، فالإمام عليه السلام يسأل الله تعالى في هاتين العبارتين التوفيق للطاعه والعباده والاعتصام من الذنب والمعصيه، فليس هنالك من وسيله لابعاد

«مداحر» الشيطان و

«مزاجره» سوى طاعه الله وامتنال أوامره، وليست

«حبائل» الشيطان و

«مخاتله» سوى

ص:٧

١- (١). «مداحر» جمع مدحر، بمعنى الأمر الذي يسبب طرد الشيء وإبعاده من ماده (دحور) بمعنى الطرد والإبتعاد

٢- (٢) «مزاجر» جمع مزجر، بمعنى المانع من الشيء من ماده (زجر) بمعنى المنع

٣- (٣) «مخاتل» جمع مختل، المكيدة وهي الوسيله التي يتم بها الخداع من ماده (ختل)

ولا تبدو طاعه الله والاحترام من الذنب والمعصيه ممكنه دون تسديد الله وتوفيقه، وذلك لأن طريق الطاعه واجتناب المعصيه صعب مليئ بالمطبات والعوائق، ثم يقر لله بالوحدانيه وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرساله فيقول:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيَّهُ وَصَفْوَتُهُ». وذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أن

«نجيبه» و «صفوته» بمعنى واحد هو الانتخاب والاصطفاء وكل منهما يؤكد الآخر، والصحيح أن هنالك فارقاً بين المفردتين. بالنظر إلى أن النجيب يعنى النفيس، والمفردة الأولى فى الواقع ممهده للمفردة الثانيه؛ لأنّ الشئ يصطفى حين يكون نفيساً قيماً، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى صفتين من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«لَا يُؤَاوِى فِضْلُهُ، وَلَا يُجْبِرُ فِقْدُهُ» حقاً يتعذر تعويض الشئ الذى لا نظير له حين يفقد، كما أشار فى آخر صفه إلى آثار النبي صلى الله عليه وآله الوجوديه فى تلك الظروف التى شهدها عصر الجاهليه حيث أشرقت بنور وجوده البلاد التى كانت غارقة فى لجاج الضلاله والظلمه وقد استحوذ الجهل على أفكار أهلها فقسّت قلوبهم وطفحت بالجمود:

«أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعِيدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلَمَةِ، وَالْجَهَّالَةَ الْغَائِبَةَ، وَالْجَفْوَةَ الْجَافِيَةَ(١)». وذلك حين كان الناس يستحلون الحرمات ويحتقرون العلماء فى ظل الفتره وغياب أولياء الله وهم يموتون على الكفر ومجانبه الدين

«وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَدِلُّونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرِهِ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرِهِ!». فهذه الصفات السبع التى أوردتها الإمام عليه السلام بعبارات مجمله بشأن عهد الجاهليه إنما تجسد صورته رائعه عن ذلك الزمان الذى اتسم بالضلال، والجهل، والقسوه، واستحلال الحرمات، والإستخفاف بالعلماء، وانعدام وجود القائد والمرشد، والموت على الكفر.

وقد بلغ ضلال القوم مرتبه من الفضاغه إلى الحد الذى جعلهم يفخرون بجناياتهم

ويرون سفك الدماء ووأد البنات دليلاً على الغيره، والسلب والنهب شجاعه، كما تأصلت لديهم معانى الجهل والخرافه حتى جعلهم يصنعون آلهتهم بأيدهم تاره من الخشب وأخرى من الحجر وأخيراً من التمر، فإن جاعوا التهموها. وأما قساوه قلوبهم فقد تجذرت فى أعماقهم حتى توارثوا الحقد جيلاً عن جيل، فكانوا لا يأتبهون بسفك الدماء وممارسه سائر المفاسد والانحرافات. وفى ظل هذه الظروف العصيه يمكن إدراك عظمه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ومعطياته فى تلك الأ-جواء المتلفعه بالظلمه، حتى استطاع خلال تلك الفتره القصيره من النهوض بذلك المجتمع الخرافى الجاهل والمتخلف ليضعه فى مصاف المجتمعات المتمدنه والمتحضره.

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ أَعْرَاضُ بَلَايَا قَدِ افْتَرَبْتُمْ، فَاتَّقُوا سَكْرَاتِ النُّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النُّقْمَةِ، وَتَثَبُّوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ، وَأَعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَأَنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمِدَارِ رَحَاهَا. تَبْدَأُ فِي مِدَارِ حَفِيَّتِهَا، وَتَتَوَلَّى إِلَى فَطَاعِ جَلِيَّتِهَا. شَبَابُهَا كَثِيبُ بَابِ الْغَلَامِ، وَأَثَارُهَا كَأَثَارِ السَّلَامِ، يَتَوَارِثُهَا الظُّلْمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوْلَهُمْ قَائِدٌ لآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوْلِهِمْ؛ يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَرِيَّتِهَا، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيْفِهِ مُرِيحِهِ. وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَشْبُوعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ، فَيَتَزَايِلُونَ بِالْبُغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ».

الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة

أخبر الإمام عليه السلام الناس في هذا المقطع من الخطبة بالفتن التي تنتظرهم إلى جانب تحذيرهم وإفادات نظرهم إلى خطورتها ليتحصنوا قدر المستطاع من ضربات تلك الفتن ويحذروا من الخسائر، حيث أشار الإمام عليه السلام بعبارات لطيفة إلى مصادر هذه الفتنة وكيفيه تبلورها ومرورها بمختلف المراحل فقال:

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ أَعْرَاضُ بَلَايَا قَدِ افْتَرَبْتُمْ، فَاتَّقُوا سَكْرَاتِ النُّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ (١) النُّقْمَةِ». فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارة على عنصرين يقفان وراء الفتن؛ أحدهما سكرات النعمة، والآخر عقوبه الأعمال.

١- (١). «بوائق» جمع بائقة، بمعنى الحادثة المهمة والداهية المميته من مادة (بوق) على وزن فوق، بمعنى الفساد

وبين نتيجة تلك الفتن التي يعصف بلاؤها بالناس. ثم أوصى الناس بالتحلى باليقظة والحذر بغية التقليل من الخسائر حين تهب رياح الحوادث المعتمه وتستفحل الفتن عند ظهور اجنتها وانتصاب محورها وحرکه رحاها

«وَتَبَّئُوا فِي قَتَامِ (١) الْعَشْوَةِ (٢)، وَأَعْوَجِجِ اجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَيْنِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَأَنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا». فالإمام عليه السلام يشبه الفتنه فى هذه العبارة بالجنين الذى يترعرع بصورة خفيه ويولد فجأه تاره، وتاره أخرى يعدّها كالرحى التى يقام محورها بادئ الأمر ثم تدور حوله، وتشير الشواهد التاريخيه إلى أنّ الفتن كذلك حقاً، فهى مراحل تتبلور أثر بعض العوامل الاجتماعيه المختلفه لتنفجر فجأه ويطفو على السطح ما يعتصر فى باطن المجتمع، ثم يتطرق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى الملامح الأخرى لتبلور الفتن على أنّها تبدأ من مراحل خفيه لتظهر فى خاتمه المطاف بوجهها الخطير، وهى تنمو وتنتشر بسرعه على غرار نمو الشباب وتسدّد ضرباتها الموجهه إلى جسد المجتمع

«تَبْدَأُ فِي مَدَارِجِ خَفِيَّتِهِ، وَتُؤَوَّلُ إِلَى فِطَاعِهِ جَلِيَّتِهِ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ (٣) الْغُلَامِ، وَأَثَارُهَا كَأَثَارِ السَّلَامِ (٤)».

هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه فى الفتنه التى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه العبارة وحذر منها؛ ويبدو أنّ المراد بها فتنه بنى أميه التى بدأت منذ عهد عثمان وبرزت بقتله ثم بلغت ذروتها إثر خلافه معاويه ويزيد وعبد الملك بن مروان ومن سار فى فلكهم، وقد اتّضحت هذه الفتنه وتجلّت فضيحتها بشتم أمير المؤمنين على عليه السلام من على منابر المسلمين وتلك الضربات التى وجهت إلى الإسلام بحيث لو وضعت على جبل لتصدّع.

ص: ١٢

١- (١). «قتام» بمعنى الغبار

٢- (٢) «العشوه» ركوب الأمر على غير بيان

٣- (٣) «شباب» بكسر الشين أى بداياتها فى عنفوان وشده كشباب الغلام وفتوته، وقد وردت هذه المفرده بكسر الشين فى بعض نسخ نهج البلاغه وبالفتح فى البعض الآخر

٤- (٤) «السلام» بكسر السين جمع سلمه، على وزن كلمه بمعنى الحجاره الصم

ثم واصل حديثه بالإشارة إلى سائر خصائص هذه الفتنة

«يَتَوَارَثُهَا الظَّلْمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوْلُهُمْ قَائِدٌ لِتَأْخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوْلِهِمْ». أجل فقاده الفتن على هذه الشاكلة يتوارثون فيما بينهم أسباب الفتنة ويسيرون جميعاً في خط واحد وباتجاه مشترك، ومن شأن هذا الانسجام والاتفاق والوراثه أن يضاعف أخطار الفتنة ويشعب آثارها السلبية، آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الأصلي لقاده الفتن والظلمه في أنهم يتسابقون من أجل الظفر بهذه الدنيا الدنيه ويتكالبون على حطامها كتهافت الكلاب على المزابل التننه، فالواقع هم متحدون في الظاهر وينطلقون معا في مسار واحد، غير أنهم يعيشون باطنياً حاله من الصراع والنزاع ويسعى كل فرد منهم لأن يكون رأس الفتنة ويقتفى آثاره الآخرون

«يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جَيْفِهِ مُرِيحِهِ (١)».

ثم أشار عليه السلام بعباره قصيره وبلغه إلى عاقبتهم المريره فقال:

«وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَّبِرُ التَّابِعُ مِنَ الْمُتَّبِعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمُقْمَدِ، فَيَتَرَايِلُونَ بِالْبُغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ».

لعل هذه العباره إشاره إلى أصحاب الفتن من بنى العباس.

رغم أنهم اقتفوا آثار بنى أميه في سلوك هذا النفاق والتكالب على الدنيا وتوجيه الضربات إلى أهل البيت عليهم السلام زعماء الأُمَّة الإسلاميه وأئمتها، إلّا أن الظاهر أنهم كانوا يلعنونهم ويتبرأون من أفعالهم، وكان شعارهم الذى أرادوا به خداع الناس «الرضا لآل محمد»، ففتكوا بفلول بنى أميه وسفكوا دماءهم حتى سالت أنهار من الدماء وقضوا على تراثهم ونهبوا أموالهم، وذهب البعض من شراح نهج البلاغه إلى أن المراد من العباره

«وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ»، لقاء الله ويوم القيامه، كما ورد فى القرآن الكريم: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» (٢) كما ورد فى القرآن الكريم بشأن براءه المشركين من أئمتهم: «وَيَوْمَ

ص: ١٣

١- (١) «مريح» بمعنى التنن والعفن من ماده (ريح) بمعنى التنن

٢- (٢) . سورة البقره، الآية ١٦٦

نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ» (١). وعبارته

«وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جَيْفِهِ مُرِيحِهِ» تشبه هذه الفئه الطاغية المتهافته على الدنيا بالكلاب التي تهجم على الميتة العفنه وينهش كل منها
ما فى يد الآخر وفمه، وياله من تشبيه بليغ رائع!

تأمل: مميزات الحكام اتباع الهوى

يستفاد من العبارات المذكوره فى خطبه الإمام عليه السلام أنّ الحكام الظلمه يتسمون ببعض المميزات التي يشهد بها التاريخ
البشرى، ومنها:

١. إثارة الفتن والبلابل بغيه تحقيق الأهداف؛ الأمر الذى نشهده فى استغلال بنى أميه لقضيه المطالبه بدم عثمان.

٢. الاتحاد والتنسيق فى الانطلاقه والتواطىء فى الخطط الهدامه وإثارة الفتن.

٣. اشتداد المنافسه حين الغلبه بحيث تبدو المجموعه وكأنها حفنه من الكلاب التي تتكالب على جيفه ليحوز كل حصته من
الآخر.

٤. لعن كل طرف للآخر فى خاتمه المطاف وتحميله المسئوليه ولعل التاريخ بماضيه وحاضره شاهد حى على كلام الإمام عليه
السلام.

ص: ١٤

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَالْقَاصِمَةُ الرَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبَ بَعْدَ اسْتِقَامَتِهِ، وَتَضِلُّ رِجَالَ بَعْدَ سَلَامَتِهِ؛ وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْأَرَائِءُ عِنْدَ نُجُومِهَا. مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصِيَمَتُهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتُهُ؛ يَتَكَادِمُونَ فِيهَا تَكَادِمَ الْحُمْرِ فِي الْعَانَةِ! قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبِيلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةَ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلْمَةَ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْيَدِوِ بِمَسِّ حَلِيهَا، وَتَرْضُهُمْ بِكُلِّهَا يَضِيعُ فِي عُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ؛ تَرُدُّ بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَيْطَ الدَّمَاءِ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْمَدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدْبِرُهَا الْأَرْجَاسُ. مِرْعَادُ مِرْبَاقٍ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ! تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ، وَيَفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ! بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَطَاعِنُهَا مُقِيمٌ!».

الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنة الكبرى

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من خطبه - إلى فتنة مهممة أخرى تنتظر المسلمين، فتنة مرعبة وكاسره وردت تفاصيلها في عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، على أمل أن يتعرف عليها المسلمون فينأوا بأنفسهم بعيداً عنها ولإجتنب من فداحه أضرارها، فقال عليه السلام:

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ (١)،

ص: ١٥

١- (١). «رجوف» من ماده (رجف) على وزن حذف بمعنى شدة الاضطراب، وتطلق الأراجيف على الاشاعات التي تجعل المجتمع شديد الاضطراب

وَالْقَاصِمَهُ (١) الزُّحُوفِ (٢) ، فَتَزِيغُ قُلُوبَ بَعْدَ اسْتِقَامِهِ ، وَتَضِلُّ رِجَالَ بَعْدَ سَلَامَتِهِ ؛ وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا ، وَتَلْتَبِسُ الْأَرَائِ عِنْدَ نُجُومِهَا (٣) .»

ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بهذه الفتنة هنا فتنة المغول والتاتار، ولم يذكروا حسب اطلاعنا احتمالاً آخر؛ إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً؛ لأنّ أهداف المغول لم تكن سوى نهب الأموال وخراب البلدان والسيطره على الممالك الإسلامية؛ في حين أخبر الإمام عليه السلام بعبارات في هذه الخطبه عن فتنة تستهدف أفكار الناس ومعتقداتهم وتلقى بهم في غياهب الغي والضلال والاختلافات الفكرية والدينية، وعليه يمكن أن يكون المراد بها فتنة بنى العباس التي أعقبت فتنة بنى أميه والتي أشارت إليها العبارات السابقة، والواقع هو أنّ بنى العباس وبنى أميه وإن كانوا وجهين لعمله واحده وسياسه شيطانيه واحده، إلّا أنّ بنى أميه وكما صرح زعيمهم معاويه كانوا لا يكثرثون للصوم والصلاه وطقوس الناس الدينية، سوى - في المواقع - التي تصطدم بحكومتهم الغاشمه؛ بينما اخترق بنو العباس عقائد الأُمّه حتى ظهرت على عهدهم أغلب المدارس المنحرفه والمذاهب الفاسده، كما اشتدت الاختلافات في بعض المسائل من قبيل «حدوث القرآن وقدمه» و «الجبر والتفويض» إلى جانب الخلافات بين «الأشاعره والمعتزله»، وممّا لا شك فيه أنّ ذلك كان يجرى وفق خطه مرسومه حتى أنّهم كانوا يشجعون العلماء والمفكرين لإثاره مثل هذه المباحث بهدف الاستمرار في السلطه، طبعاً لا نزعماً أنّ بنى أميه تخلوا مطلقاً عن هذه الأمور، لكننا نقول ليس لمثل هذه المباحث من ظهور آنذاك كالذى أصبح عليه بنو العباس، كما يبدو، مستبعداً أيضاً، الاحتمال الآخر الذى ذكره بعض شراح نهج البلاغه من أنّ هذا الكلام إشاره إلى فتنة «الدجال» في آخر الزمان

ص: ١٦

١- (١) . «قاصمه» من ماده (قصم) على وزن خصم بمعنى الكسر مع الشده

٢- (٢) «زحوف» من ماده (زحف) على وزن حرف بمعنى الثقل فى المشى وتطلق على حركه الجيش الكثير، وزحوف فى العبارة إشاره إلى الافتتان الذى يستشرى فى المجتمع

٣- (٣) «نجوم» وردت هنا بالمعنى المصدرى وهو الظهور

الذى يضل فئه من الناس.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى شدّه تلك الفتنة قائلاً:

«مَنْ أَشْرَفَ لَهَا فَصِيحَتُهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتُهُ؛ يَتَكَادِمُونَ (١) فِيهَا تَكَادِمَ الْحُمْرِ (٢) فِي الْعَانَةِ!» وهذه العبارة تأكيد لما ذكر في الكلام السابق بشأن الفتنة الأولى من أنّ رؤوس الفتنة متحدون بادية الأمر، أنّهم سرعان ما يسعون لطرده كل منهم الآخر عند الغلبة، ثم تطرق إلى أوضاع الناس الدينيه والأخلاقية آنذاك فقال:

«قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةَ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةَ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَيْدِ بِمِشِيحِهَا (٣) ، وَتَرُضُّهُمْ (٤) بِكَلْكَلِهَا (٥)». نعم، حين يغيب العلماء عن مسرح الأحداث تؤول الأمور إلى الظلمة ليقولوا ما يريدون ويحملوا الآخرين على فعل ما يشاؤون، آنذاك تعم الفتنة لتشمل البلاد بأسرها وتأتى على القرى الصغيره والنائية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن فضاعه أخطار هذه الفتنة (حيث يصبح الوضع بالشكل الذى) يضعف فى غبارها المشاه من الأفراد وتهلك فيها الفرسان:

«يَضِيحُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ». إشاره إلى أنّ الفتنة على درجه من القوه بحيث يكفى غبارها لقمع المعارضين المتفردين، كما تعصف بالجمع الكثير منهم إن اعتراضوا سبيلها، بالتالى ليس لأحد القدره على مواجهتها والصمود بوجهها.

قال بعض شراح نهج البلاغه فى تفسيرهم لهذه العبارة، إنّ المراد ب

«الوحدان»، العلماء والفضلاء الذين يتلون بغبار الشبهات ويضيعون الحق، والركبان كناية عن الفئات المقتدره التى لا تقوى أيضاً على مقاومه رؤوس الفتنة وتهلك فى مواجهتها؛

ص: ١٧

١- (١). «يتكادمون» من ماده (كدم) على وزن شرم بمعنى العضم والتكادم أن يلتحم حيوانان فيعض كل منهما الآخر

٢- (٢) «حمر» جمع حمار، بمعنى الحمار الوحشى هنا بقريته العانه وهى الجماعه من حمر الوحش

٣- (٣). «مسحل» من ماده (سحول) بمعنى الفأس والمبرد وما شابه ذلك ممّا يبرد به الشيء

٤- (٤). «ترض» من ماده (رض) التهشيم

٥- (٥) «كلكل» بمعنى الصدر

إِلَّا أَنْ التَّفْسِيرَ الْأَوَّلَ أَقْرَبَ، لِأَنَّ

«الوحدان» إشارة إلى الأفراد الوحيدين أو المشاه، و

«الركبان» إلى الأفراد الأشداء أو الفرسان.

ثم قال عليه السلام:

«تَرِدُ بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَيْطَ (١) الدِّمَاءِ، وَتَتَلَمُّ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَتَّقِضُ عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدْبِرُهَا الْأَرْجَاسُ»، أَجَلٌ حِينَ يَنْحَى الْأَكْيَاسُ وَالْحُكَمَاءُ وَيَتَسَلَّمُ الْأَرَاذِلُ وَالْأَرْجَاسُ زَمَامَ الْأُمُورِ تَتَصَدَّعُ عَرَى الْإِيمَانِ وَتَتَفْسَخُ عَقْدَ الْيَقِينِ وَتَتَعَرَّضُ أَرْوَاحُ النَّاسِ وَأَعْرَاضُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَى الْخَطَرِ.

ويختتم الإمام عليه السلام بيانه لخصائص هذه الفتنة العظيمة بالقول:

«مِرْعَادٌ (٢) مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَن سَبَاقٍ! تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ، وَيُفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ! بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!». و «مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ»، صفات كنهية لشده هول هذه الفتنة، لأن هذه العبارات عادة ما تستعمل بهذا المعنى، رغم أن بعض الشراح عدوا ذلك إشارة إلى أصوات ضربات السيوف وبرقها، غير أن المعنى الأول أنسب. وعبارته

«كَاشِفَةٌ عَن سَبَاقٍ» كناية عن شدة مشقتها؛ لأنَّ الإنسان يشمر عن ذراعه وساقه عادة إن همَّ بإتيان عمل شاق. وعبارته

«تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ» إشارة إلى أن رؤوس الفتنة لا- يرعون في آخ وأب وأم إلا- ولا- ذمه ويذبحون كل من يعترض طريقهم ولتحقق رغباتهم.

ومن الطبيعي أن تغيب التعاليم الإسلامية في ظل هذه الظروف، وأخيراً عبارته

«بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!» إشارة إلى أن الفتنة تطال حتى من يعتقد بأنه بعيد عن مخاطر هذه الفتنة، كما يقع فيها حتى من ظن باستطاعته الهرب منها، فهي فتنة كاسره قاصمه قل من ينجو منها.

ص: ١٨

١- (١). «عَيْطٌ» من مادة (عبط) على وزن خبط بمعنى قطع رأس الحيوان ويقال الدم العييط للدم الطرى الذى يجرى من بدن الإنسان أو الحيوان

٢- (٢). «مِرْعَادٌ» من مادة (رعد) الشىء العظيم الصوت والمبراق من مادة (برق) الشىء البراق الذى يخطف الأبصار

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتَلُونَ بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِعُرْوَةِ الْإِيمَانِ؛ فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ؛ وَالزُّمُومَا مَا عَقَدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبَيَّتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ؛ وَأَقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ؛ وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدُوانِ؛ وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لِعَقِّ الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بَعِينٌ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهْلٌ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنه

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى عدم إرتباط هذا الجانب من الخطبه بما سبقه من كلام، وقد اختاره السيد الرضى جرياً على عادته في الاقتطاف ولم يذكر الكلام الذى سبقه؛ والحال هنالك ارتباط وثيق بين هذا المقطع من الخطبه وما سبقه من مقاطع، حيث تصدت المقاطع السابقه لبيان الفتن التى تنتظر الناس وأهم مميزاتها، وانتقلت هنا إلى نتائجها ووظيفه الأُمَّه فى ظلها، فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه هنا قائلاً:

«بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ (١)، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ»، ثم واصل كلامه بالقول:

«يَخْتَلُونَ (٢) بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِعُرْوَةِ الْإِيمَانِ».

أجل فرأس الفتنه يتشبث بكل وسيله لتحقيق مآربه الشيطانيه من قبيل ممارسه

١- (١). «مطلول» من هدر دمه من ماده (طل) على وزن حل بمعنى هدر الدم
٢- (٢) «يختلون» بمعنى (يخدعون) من ماده (ختل) على وزن قتل بمعنى الخداع

القتل والقمع والتظاهر بالإيمان إن اقتضت الضرورة واعطاء الأمان لبعض الأفراد ومن ثم ضرب كل هذه الأمور عرض الحائط، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظائف الناس في ظل هذه الفتن والإرباكات فأورد خمس تعليمات لأصحاب الحق فقال في وصيته الأولى:

«فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ» إشاره إلى اعتزال هذه المعركة الخطيره دون التعاون مع رؤوس الفتنه وأصحاب البدعه.

والوصيه الثانيه:

«وَالزُّمُومَا مَيَا عُقَدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ» والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعه إشاره إلى ضروره الالتزام بالقوانين والتعاليم الشرعيه التي تضمن طاعه الله وبقاء المجتمع الإسلامى ورعايتها قدر المستطاع فى ظل نشوب الفتن، ذلك لأنه إن كان هنالك من سبيل للنجاه من الفتنه إنما يتمثل فى الالتزام بهذه التعاليم، والكلام يشمل بالطبع التعاليم الإسلاميه الوارده بهذا الخصوص من قبيل الجمععه والجماعه والحج والتكافل الاجتماعى، وهى الأمور التى تؤدى إلى النجاه من الفتنه.

وقال فى الوصيه الثالثه:

«وَأَقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَمَّا تَقَدَّمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ». طبعاً ليس مفهوم العبارة الاستسلام للظلم والاستجابة للظالم؛ فهذا الأمر منهى عنه فى الإسلام وهو نوع من إعانة الظالم على الظلم، لكن المراد إن خيرتم بين أمرين إما أن تهضم حقوقكم أو تهضموا حقوق الآخرين، فما عليكم إلا أن تغضوا الطرف عن حقوقكم لكي لا تدنسوا أنفسكم بظلم الغير، ومثل هذا الأمر عادل ومرضى لله على ضوء قاعده تقديم الأهم على المهم.

الوصيه الرابعه:

«وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ» أى لا تقتربوا من الخطوط الحمراء (الظلم والفساد)، والتعبير ب

«المدارج» و

«المهابط» إشاره إلى نكته لطيفه، أى أن الشيطان يرفع الإنسان من سلم الطغيان، فإن بلغ القمه قذف به إلى الأسفل، وأحياناً يهوى به إلى أوديه المعصيه ليزل قدمه فتهوى به إلى أعماق الكبائر.

ص: ٢٠

«وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ (١) الْحَرَامِ، فَمَا نُنْكُم بَعِينٍ مِّنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ، وَسَيَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ». لا- شك في أن الأموال الحرام تزداد في أيدي الناس في ظل حكومه الظلمه وبروز الفتن والاستفاده من تلك الأموال تنعكس سلباً على الإنسان، فهي تسود القلب وتبعد الإنسان عن الله وتسوقه لاتباع خطوات الشيطان. فالإمام عليه السلام يحذر من الحرام ويلفت نظرهم إلى عدم غلق الرحمن لأبواب الطاعه والكسب الحلال قط، فالله يترك الباب مفتوحاً في كل الظروف بوجه عباده لممارسه الطاعه والنجاه من الفتنه. قال العلامه مغنيه: «إنَّ أفضل تفسير لهذه العبارة وما بعدها ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبه ١١٤

إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أَجَلَ لَكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ».

ص: ٢١

١- (١). «لُعق» جمع لعقه، الشيء القليل، وما تأخذه من طعام بالملعقه

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَّالُهُ، وَصِفَاتِ أُمَّهِ الدِّينِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتكون هذه الخطبه بصوره رئيسيه من ثلاثه أقسام. أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى بعض النقاط المهمه بشأن صفات الله التي صرح فيها بعض شراح نهج البلاغه بأنها لم ترد في أى كتاب وهى أعظم من تلك المطالب التي ذكرها الفلاسفه والحكماء والعرفاء بشأن صفات الله، بينما أشار في القسم الثانى إلى المنزله الرفيعه لزعماء الدين وأئمه الهدى ومقامهم عند الله وموقعهم فى المجتمع البشرى، وتحدث الإمام عليه السلام فى القسم الثالث عن نعمه الله الكبرى أى الإسلام والقرآن، فذكر بعض النقاط الرقيقه بشأن هذا الكتاب السماوى ليقف المسلمون على عظمه الكتاب وينهلوا من فيضه العذب.

ص: ٢٣

١- (١) سند الخطبه: أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه بعد تسلّمه الخلافه. هذا ما ذكره ابن أبى الحديد والذى يدل على أنه وجدها فى مصدر آخر غير نهج البلاغه؛ وذلك لأنّ نهج البلاغه لم يشر إلى هذا الموضوع، كما روى المرحوم الكلينى بعضها فى الجزء الأول من أصول الكافى، وأشار الآمدى فى غرر الحكم إلى بعض جوانب الخطبه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٤٤)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالُّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحَدِّثِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَلَّتِهِ؛ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَاشَبَهُ لَهُ. لَاتَسْبِيْلُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلَمَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمُحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ؛ الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لِابْتِغَايِ حَرَكَهِ وَنَصْبِ، وَالسَّمِيعِ لِابْتِدَائِهِ، وَالْبَصِيرِ لِابْتَفْرِيقِ آلِهِ، وَالشَّاهِدِ لِابْتِمَاسِهِ، وَالْيَائِنِ لِابْتِرَاحِي مَسَافِهِ، وَالظَّاهِرِ لِابْتِرُؤِيهِ، وَالْبَاطِنِ لِابْطَافِهِ. بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةَ عَلَيْهَا، وَبَانَ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَرْزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدْ اسْتَوْصِيَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ. عَالِمٌ إِذْ لَمْ يَعْلَمْ، وَرَبٌّ إِذْ لَمْ يَرْبُ، وَقَادِرٌ إِذْ لَمْ يَقْدُرْ.

الشرح والتفسير: شمه من صفات الله الجمالية والجلالية

كما ذكر آنفاً فإن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد أن بايعته الأمة أثر نعمتها على عثمان وبطانته وقتلها إياه، استهل الإمام عليه السلام الخطبة بمعرفة الله وبيان صفاته الجلالية والجمالية؛ كونها دعامة السعادة والفلاح والصلاح الفردي والاجتماعي. وقد ذكر ثمان صفات في عبارات قصيرة عميقة المعنى بما يعجز الفلاسفة والمتكلمون عن الوقوف على كنهها.

فقد قال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالُّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ» أَجَلٌ، حِينَ نَتَأَمَّلُ عَجَائِبَ

الخلقه إلى جانب الأسرار والنظم التي تكتنف خلق الأرض والسماء والإنسان والحيوان لا نملك سوى التسليم بأن هنالك إرادته حكيمه وقادره عالمه وراء كل تلك الآثار البديعه التي لا يسعها أن تكون وليده هذه الطبيعه الصماء، وهذا هو برهان النظم الذى أشار إليه القرآن الكريم والروايات الإسلاميه بفضله أدل دليل على معرفه الله.

ثم قال فى بيان الصفه الثانيه:

«وَبِمُخَيَّدَتِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِّيَّتِهِ» والعبارة فى الواقع إشاره إلى برهان الوجوب والإمكان؛ ذلك أن سلسله المخلوقات التي ارتدت لباس الوجود خلف بعضها البعض لا يمكنها الاستمرار إلى مالانهايه فكل حادث مخلوق، لأن عدم تناهى المعلول يحتاج بالتالى إلى علّه أزليه وغنيه عن الخلق والتي يصطلح عليها بواجب الوجود.

وقال فى الصفه الثالثه:

«وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَأَشْبَهَهُ لَهُ» والسؤال الذى يطرح نفسه: كيف يكون تشابه المخلوقات دليلاً على عدم الشبيه لله؟ الجواب: أن هذا الشبه دليل على تركيب هذه المخلوقات، لأن لها قدراً مشتركاً من قبيل الزمان والمكان وبعض الأشكال والعوارض الظاهريه، كما هنالك بعض الجهات المختلفه التي تميزها عن بعضها. وبناءً على هذا فإن كل مخلوق مركب مما به الاشتراك وما به الامتياز (الجهات المشتركه والجهات المختلفه) ومن الطبيعى أن تكون هذه المخلوقات المركبه محتاجه (محتاجه إلى أجزائها ومن يركبها) ومن هنا نفهم أن لا شبيه لله وإلا لزم التركيب والحاجه على ذاته المقدسه.

وقال فى الصفه الرابعه والخامسه:

«لَا تَسْتَلِمُهُ (١) الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ» والدليل واضح على تعذر بلوغ مشاعر الإنسان بما فيها الحواس الظاهريه والباطنيه والعقل كنه ذاته المقدسه؛ فهو وجود غير محدود ولامتناه من جميع الجهات، والعقل البشرى

ص: ٢٦

١- (١). «تستلمه» من ماده (الاستلام) بمعنى الاتصال بالشىء

محدود من جميع الجهات، وغير المحدود لا يسعه المحدود مطلقاً. من جانب آخر فقد ملأت آثار وجوده أركان العالم بأسره بحيث لا يسع شيء حجبتها، فذاته خفيه على الجميع وآثاره ظاهره للجميع.

والعبارة

«لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ...» دليل على خفاء ذاته المقدّسه وظهور آثاره، لاختلاف الخالق والمخلوق والحاد والمحدود والرب والمربوب. فالمصنوع الممكن الوجود لا يمكنه إدراك الصانع الواجب الوجود، والمخلوقات المحدوده لا يسعها درك الخالق اللامحدود والموجودات الخاضعة لربوبيه الرب يتعذر عليها إدراكه كما هو. جدير بالذكر أنّ طائفه من شرّاح نهج البلاغه ذهبوا إلى أنّ هذه استدلالات على جميع الصفات المذكوره سابقاً، إلّا أنّ التفسير الأول يبدو أنسب.

وقال في بيانه للصفه السادسه والسابعه:

«الْأَحَدُ بِلَا تَأْوِيلٍ عَدَدٌ، وَالْخَالِقُ لَا بِمَعْنَى حَرَكَهِ وَنَصَبِ (١)» فحين يقال: الله واحد يتصور البعض أن مفهوم ذلك أنّه واحد وليس بثان، وهذا خطأ محض؛ لأنّ مفهوم هذا الكلام إمكانيه تصور ثانٍ له ولكن لا وجود له؛ والحال لا يمكن تصور ثانٍ لذاته المقدّسه، وهل يمكن تصور التعدد في الذات اللامحدوده من جميع الجهات؟! لو تصور التعدد لكان كلاهما محدوداً. وعليه فتوحيد الذات الإلهيه ليس بمعنى الوحده العدديه، بل بمعنى الوحده بالنسبه للشبيهه والنظير وما شاكل ذلك، لا في الذهن ولا في الخارج. وحين يقال: قد يقتدح إلى ذهن البعض أنّ الخالق شمّر عن ساقيه ويديه وانطلق من هنا إلى هنالك واجهد نفسه لخلق الموجودات؛ على غرار ما نقوم به حين نصنع بعض الأشياء، كلا:

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (٢).

ثم تطرق إلى الصفه الثامنه والتاسعه فقال:

«وَالسَّمِيعُ لَأَبَادَاهِ، وَالْبَصِيرُ لَابْتَفْرِيقِ آلِهِ». والتوضيح الذي أورده الإمام عليه السلام منشأه ما يتوارد إلى الأذهان حين الحديث

ص: ٢٧

١- (١). «النصب» بمعنى التعب والمشقه

٢- (٢) سورة يس، الآية ٨٢.

عن السمع والبصر وما شابه ذلك إلى سمعنا وبصرنا الذى يتم من خلال بعض الوسائل من قبيل الاذن والعين، والحال سمعه وبصره سبحانه ليس بأداة، بل بحضور ذاته المطلقة فى كل مكان وفى ظاهر جميع الأشياء وباطنها. العبارة

«لَمَّا بِنْفَرِيقِ آلِهِ» يمكن أن تكون إشاره إلى نقطه وهى أنّ الإنسان إذا أراد رؤيه صورته كامله - بيت مثلاً - ينبغى له أن يركز بصره على مختلف جوانب ذلك البيت، ليرى أعلاه وأسفله وشرقه وغربه، وتنتقل عدّه صور إلى الدماغ ليقوم بترتيبها للظفر بصوره صحيحه تامه عن البيت. وبناءً على هذا فوظيفه العين الأولى، التقاط الصور المستقله، والثانيه، تحويلها إلى الدماغ ليركبها مع بعضها. وهكذا بشأن مشاهدته حركه معينه - كحركه إنسان مثلاً - والعمليه أشبه بالتقاط الأفلام والتصوير، حيث تلتقط العين كل لحظه صورته لشكل ذلك الإنسان وهيته، ثم تنقلها إلى الدماغ ليركب هذه الصور واطهار الحركه.

قال فى بيانه للصفه العاشره والحاديه عشره:

«وَالشَّاهِدِ لِابِّمَمَاسِهِ، وَالْيَائِنِ لَمَّا بِنْفَرِيقِ مَسَافِهِ». إشاره إلى أنّ حضور الله فى كل مكان لا بمعنى الحضور المكانى من خلال الاتصال بالأشياء، بل بحضوره بمعنى إحاطته الوجوديه بكل شىء، كما أنّ مباينته عن الأشياء ليس على نحو المسافه المكانية أو الزمانيه، بل بمعنى أنّ ذاته فى ذروه الكمال وما سواه فى غايه النقص. لعل هنالك من يتصور تناقض هذه الصفات مع تلك التى ستأتى، فالبعد والقرب والعلو والदनو والظاهرية والباطنيه من الصفات التى لا يسع تفكيرنا جمعها مع بعضها؛ والأمر كذلك بالنسبه لهذه الصفات أن استعملت بشأن المخلوقات المحدوده من حيث الزمان والمكان ومختلف الجهات، غير أنّ هذه الصفات المتضاده يمكن جمعها فى الذات المقدسه اللامتناهيه، فرغم حضوره المطلق فى كافه الأماكن (بمعنى إحاطته العلميه بجميع الأشياء) لكن ليس له حضور مكانى فى أى مكان، ذلك لأنه ليس بجسم ليجتاج إلى مكان.

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان الصفه الثانيه والثالثه عشره فقال:

«وَالظَّاهِرُ لَا بُرُؤِيَّةَ، وَالْبَاطِنُ لَا بِلَطَافِهِ» أَجَلٌ، فَهُوَ أَظْهَرَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَأَثَارُهُ قَدْ مَلَأَتْ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ فَاصْبِحِ الْوَجُودَ قَبْسًا مِنْ صِفَاتِ جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ، وَهُوَ خَفِيَ لَا عَلَى شَاكِلَةِ الْأَشْيَاءِ اللَّطِيفَةِ الْغَايَةِ فِي الصَّغَرِ كَالْهَوَاءِ، بَلْ بِمَعْنَى عَجْزِ الْعُقُولِ عَنِ إِدْرَاكِ كُنْهِ ذَاتِهِ.

والصفه الرابعه عشره:

«بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةُ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ» أَيْ إِنْ قِيلَ إِنَّ اللَّهَ بَائِنٌ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، فَذَلِكَ لَا يَعْْنَى أَنَّهُ بَعِيدٌ عَنَّا، بَلْ هُوَ قَرِيبٌ مِنَّا بِمَقْتَضَى الْأَدْلَةِ الْفَلَسْفِيَّةِ الْقَطِيعَةِ وَصَرِيحِ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١)، وَالْمَعْنَى أَنَّ قُدْرَتَهُ قَهَرَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ اللَّهِ، وَأَيْنَ الثَّرَى مِنَ الثَّرِيَا؟ كَمَا أَنَّ بَيْنُونَهُ الْأَشْيَاءِ عَنْهُ تَعْنَى خُضُوعِ كُلِّ شَيْءٍ لِإِرَادَتِهِ.

وقال في الصفه الخامسه عشره التي تنزه الذات عن الوصف:

«مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَيَّرَهُ، وَمَنْ حَيَّرَهُ فَقَدْ عَيَّرَهُ، وَمَنْ عَيَّرَهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزْلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدْ اسْتَوْصِيَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّرَهُ» (٢).

وتوضيح هذا الكلام: إننا كمخلوقات نعيش في عالم الممكنات إنما نقارن كل شيء بالنسبه لنا، ونصف الله في أغلب الأحيان بأوصافنا الناقصه والمحدوده فنضفي عليه بعض صفات الممكنات وهذا هو وادى التشبيه الخطير الذي حذرتنا الآيات والروايات من السقوط فيه. ومن هنا قال الإمام عليه السلام من وصف الله بهذه الصفات فقد حده ومن حد الله فإنه سيتصور له شبيها لا محال وعليه سيجعله في قالب الأعداد فإن فعل ذلك أنكر عليه أزليته وأبديته، ذلك لأن هاتين الصفتين تترشحان من ذاته الغنيه عن الحدود، كما أن من يسأل عن كيفية ذاته فقد نعتة بصفات المخلوقات، ومن سأل عن مكانه أو زمانه فقد افترضه جسماً يقع ضمن

ص: ٢٩

١- (١). سورة ق، الآية ١٦

٢- (٢) «حيزه» من ماده (حيز) بمعنى المكان

دائره المكان والزمان. ولعل هنالك من يرى الوصف المذكور ليس بقوه الأوصاف السلبيه الثلاث عدم الحدوديه ونفى الكيفيه ونفى المكان على الذات المقدسه.

أما الصفات السادسة عشره والسابعه عشره والثامنه عشره، فقال فى بيانها عليه السلام:

«عَالِمٌ إِذْ لَمَّا مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَمَّا مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَمَّا مَقْدُورٌ». إِمَّا أَنَّهُ عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومَ فَذَلِكَ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ وَذَاتِهِ مَصْدَرُ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، وَعَلَيْهِ فَالْعِلْمُ بِالذَّاتِ هُوَ فِي الْوَاقِعِ عِلْمٌ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي لَبَسَتْ ثَوْبَ الْوُجُودِ تَدْرِيجِيًّا فِي الْعَالَمِ. وَإِمَّا أَنَّهُ رَبٌّ قَبْلَ وُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ فَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الرَّبُوبِيَّةِ وَرَبُوبِيَّةِ الْمَوْجُودَاتِ عَيْنُ ذَاتِهِ الْمَقْدَسَةِ، عَلَى غَرَارِ قَوْلِنَا: إِنَّ فُلَانًا مَدِيرًا وَمُدِيرًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَتَسَلَّمْ فِيهِ لِحَدِّ الْآنِ زَمَامَ الْإِدَارَةِ.

وأخيراً إن قيل هو قادر قبل وجود المقدور فإنما يستند ذلك أيضاً إلى أن قدرته عين ذاته، وهكذا كقولنا إن فلاناً قادر على القيام بالعمل الفلانى ولم يقم به لحد الآن. وزبده الكلام فإن صفاته كالعلم والقدره وجميع الصفات الثبوتيه عين ذاته تبارك وتعالى، وعليه فقد كان كل شىء قبل أن يوجد أى شىء، ولو تمعنا قليلاً فهو الآن كل شىء وكل ما سواه لا شىء.

منها: «قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَلَمَّاحٌ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ؛ وَاسْتَبَدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا، وَبِيَوْمٍ يَوْمًا؛ وَأَنْتَظَرْنَا الْعِيزَةَ أَنْتَظَارَ الْمُحْيِدِ بِدَبِّ الْمَطَرِ. وَإِنَّمَا الْمَائِمَةُ قَوْمٌ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَعَرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَمَّا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ. وَلَمَّا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخَلَصَكُمْ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمٌ سَلَامَةٌ، وَجَمَاعٌ كَرَامَةٌ.

اضِطْفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ، وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حِكْمٍ. لَمَّا تَفَنَّى غَرَائِبُهُ، وَلَمَّا تَنَقَّضَتِ عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ النُّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لَمَّا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ، وَلَمَّا تُكْشَفُ الظُّلَمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءٌ الْمُسْتَشْفَى، وَكَفَايَةٌ الْمُكْتَفَى».

الشرح والتفسير: إنتظار الفرج

يعتقد البعض من شراح نهج البلاغه - كما ذكرنا سابقاً - بأن هذه الخطبه ولاسيما هذا المقطع منها يعالج مسائل الخلافه عقب مقتل عثمان وبيعه الأُمّه للإمام عليه السلام بالخلافه، والشاهد على ذلك عباراتها وخاصه مايتعلق بأئمه المسلمين. على كل حال فإن الإمام عليه السلام أشار هنا بادىء الأمر إلى ظهور خلافه الحق فقال:

«قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَلَمَّاحٌ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ» تفيد هذه العبارات بما لا يقبل الشك أن عهد حكومه عثمان كان من العهود المظلمه فى التاريخ الإسلامى، وذلك لأن بطانته وقرابته استاثرت بالسلطه وتسلطت على كافه المقامات المهمه فى البلاد

وجعلت بيت المال جزءاً من ملكيتها الشخصية فتعالت صرخات المحرومين إلى عنان السماء، ثم أشرقت من بعده شمس العدالة واحترقت سحب الظلم لتعود الحكومه إلى سابق عزها على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. جدير ذكره، هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغه بشأن العبارات الثلاث الأولى، هل العطف فيها عطف تفسيري وأنها تبيّن مطلباً واحداً (بزوغ شمس ولايه الحق) بعدّه عبارات، أم أنّ كل عبارته تشير إلى معنى معين. ويبدو الصحيح أنّ لكل عبارته معنى معين؛ لأنّ الشمس إنّما تجتاز ثلاث مراحل حين البزوغ؛ الأولى: الخروج من الأفق، والثانيه: نشر شعاعها على سطح الأرض، والثالثه: ارتفاع قرص الشمس وتوسطها للسماء وطلوعها للجميع. وكل عبارته من العبارات الثلاث تشير إلى مرحله من هذه المراحل؛ أي أشرقت شمس الولايه وألقت بأشعتها على الأرض وبالتالي ارتفعت لتستقر في قلب السماء.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول:

«وَأَسْتَبَدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا، وَيَوْمَ يَوْمًا؛ وَأَنْتَظِرُنَا الْغَيْرَ أَنْتَظِرَ الْمُخِيدِ بِ الْمَطَرِ». حيث تشير هذه العبارات بوضوح إلى أنّ الحوادث التي وقعت على عهد عثمان لم تكن بعيدة عن التوقع، فكلّ شخص عاقل كان يتكهّن بأنّ مثل هذه الحكومه التي تتسلم فيها القرابه مقدرات البلاد دون رادع أو وازع سوف لن يكتب لها النجاح وأنها ترعرع نطفه الثوره في رحمها، وهذه سنّه إلهيه جاريه طيله التاريخ، ولعلّ من أشكال على على عليه السلام ما ورد في هذه العباره أنّه كان ينتظر مقتل عثمان، قد غفل عمّا ذكرناه آنفأ من أنّ تلك الأحداث كانت متوقعه من قبل شخص فطن، بعباره أخرى إنّما كان ذلك نتيجة طبيعیه لتلك الأعمال. أضف إلى ذلك فإنّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بمقتل عثمان - بل ينتظر التغييرات على غرار من ينتظر المطر حين الجفاف؛ وياله من تعبير رائع! فالبلاد الإسلاميه أصبحت إثر ظلم بطانه عثمان وكأنها صحراء مقفره وقد أمطرتها السماء بزوال عثمان وظهور حكومه العدل العلوي. وقد تعرض ابن أبي الحديد المعتزلي لهذه القضية من خلال

إثارته لسؤال والإجابة عنه.

فقد سأل نفسه بادية الأمر: هل يصح حسب عقيدة المعتزلة أن ينتظر على عليه السلام قتل عثمان انتظار نزول المطر حين الجفاف؟ أو ليس هذا دليلاً على حقانيه الشيعة؟ ثم قال ابن أبي الحديد في مقام الجواب عن هذا السؤال: إنَّ علياً عليه السلام لم يقل كُنَّا ننتظر قتله، بل كان ينتظر بعض التغييرات كعزله عن الخلافة، لأننا نعتقد أنه كان يرى أعماله توجب ضروره عزله لا قتله، وهذا ينسجم مع عقيدتنا، كما تعرّض لسؤال آخر وهو: هل تعتقد المعتزلة أنَّ علياً عليه السلام كان يعتبر عثمان فاسقاً يجب عزله عن الخلافة؟ فيجيب: إنَّ المعتزلة لا ترى ذلك، بل تعتقد إنَّ علياً عليه السلام كان يرى عثمان شخصاً ضعيفاً لا يستطيع تدبير أمور المسلمين، وذلك لأنه قرب بطانته وسلطهم على بيت مال المسلمين حتى قاموا عليه (١).

ثم تطرّق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى منزله أئمه الهدى فقال:

«وَأَيُّهَا الْأَيُّمَةُ قَوْمُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرْفَاؤُهُ (٢) عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ.

وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ». وهذه العبارة تفيد أنَّ نصب الإمام عليه السلام من قبل الله تعالى لا من قبل الناس وإن كانت هنالك من بيعه وانتخاب فبغية تنسيق الأعمال والنهوض بمستوى الأئمة وتطوير شؤونها، والمفردة

«قَوْمُ» إشاره إلى تدبير شؤون الخلق والعرفاء جمع عريف إشاره إلى أن هؤلاء الأئمة بفعل معرفتهم بالآخرين وعلمهم بالظروف الزمانية والمكانية وخبرتهم بمصالح الناس ومفاسدهم إنّما يضعون كلّ فرد في موضعه المناسب ويباشرون كلّ عمل بموعده وفي وقته.

وأما العبارة

«وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ...»

وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ» تأكيد لما قيل في العبارات السابقة؛ فلو سلّمنا أنّهم نُصّبوا من قبل الله، فمن تبعهم وسار على نهجهم وقبلوا عمله كان من الداخلين إلى الجنة، ومن أنكرهم فقد أنكر في واقع الأمر أوامر الله،

ص: ٣٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٥٣

٢- (٢). «عرفاء» جمع عريف، بمعنى رئيس القوم الذي يدير أمورهم ويعرفه جميعهم

ومثل هذا الفرد يدخل النار. وطبعاً كل هذه العبارات تنسجم مع المدرسة الشيعيه التي ترى نصب الإمام من قبل الله بواسطه النبي أو من سبقه من إمام، وتراه معيار الفرقان بين الحق والباطل، وتعتقد بعدم اتّصاف من يختاره الناس بهذه المقامات ولعله يسير فيهم بالخطأ والظلم والعدوان، ومن هنا ورد في الحديث الشريف:

«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مَيْتَةً الْجَاهِلِيَّةِ»^(١) والغريب إصرار ابن أبي الحديد على أنّ هذه العبارة صادقه على جميع الخلفاء من بعد النبي صلى الله عليه وآله والحال عرض الإمام عليه السلام في العبارات السابقة بالذم الشديد لحكومته عثمان؛ الأمر الذي يتناقض صراحة مع ما استنبطه ابن أبي الحديد. بل كيف يكون ذلك الخليفة الضعيف - الذي جعل كافة مناصب الدولة الإسلامية وبيت مال المسلمين ومقدّراتهم تحت تصرف قرابته الانتهازية الهزيلة من عبده الأهواء حتى قامت ضدّهم جموع المسلمين وأباحوا دماءهم وقد صمت إزاء ذلك أغلب الصحابة - مصداقاً لقول الإمام عليه السلام: قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عبادته؟ ليدخل من أذعن له الجنّه ومن أنكره النار؟! ورد في الحديث الشريف أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لأمر المؤمنين على عليه السلام:

«ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ أَنَّهُنَّ حَقٌّ، إِنَّكَ وَالْأَوْصِيَاءَ مِنْ بَعْدِكَ عَرَفَاءٌ، لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِكُمْ، وَعَرَفَاءٌ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَكُمْ وَعَرَفْتُمُوهُ، وَعَرَفَاءٌ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَكُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ»^(٢).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أعظم النعمة التي منّ الله بها على المسلمين:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ» أجل، إنّ الله تعالى خصّكم بهذه النعمة العظيمة ورآكم أهلاً للذود عنه.

ثم أضاف:

«وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ، وَجَمَاعُ كَرَامَةٍ». ووضح ذلك بالقول:

«اصْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ، وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حِكْمٍ». لعلّ

ص: ٣٤

١- (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٣٧١-٣٧٨؛ بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٣ ومستدرک الوسائل، ج ١٨، ص ١٨٧

٢- (٢) خصال الصدوق، باب الثلاثة، ح ١٨٣

«منهجه» و «حججه» يعود إلى الله أو الإسلام والنتيجة واحده لكليهما، والعبارة

«ظَاهِرٌ عِلْمٌ» إشاره إلى الأدله العقلية التي تثبت حقانيه الإسلام، كما أنّ العبارة

«بَاطِنٌ حِكْمٌ» إشاره إلى أسرار الأحكام الشرعيه المبيّنه في الأدله النقليه.

نعم، الإسلام دين السلامه وشرعه الكرامه، ودعوته أينما كان إلى الحب والسلام والوئام والتحذير من البغض والعنف والعداوه حيث يخاطب المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (١). أضف إلى ذلك فإنّه مصدر الكرامه الإنسانيه وداعيه العدل والمساواه والحرية وتنميه الفكر والبيان والورع والتقوى ومكارم الاخلاق. والحق أنّ المسلمين أفضل سند ودرع للدود عن الإسلام وقد ضحّوا بالغالي والنفيس طيله التاريخ من أجل إسلامهم وسعوا جاهدين لحفظ بيضته وكيانه، ولما كانت هذه العبارات تختزن إشاره واضحه إلى القرآن الكريم، فقد أردفها بيان خصائص هذا الكتاب السماوى بما يربو على عشر صفات فقال:

«لَمَّا تَفَنَّى غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنَقَّضَى عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعٌ (٢) النَّعْمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلْمِ، لَاتُفْتَحُ الخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ» فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى ست صفات مهمه للقرآن الكريم كل واحده منها أروع من الأخرى، فذكر بادىء الأمر أن غرائب القرآن (صفاته البارزه الفريده) لا تفنى أبداً ولا يعترىها غبار القدم فتتآكل، فهى غصّه طريه على الدوام، وأشار فى الصفه الثانيه إلى التجدد والحيويه التى تبدو عليه كل يوم فقال: إنّها لا تنقضى؛ وعليه فالفارق بين

«الغرائب» و

«العجائب» و «الفناء» و «الانقضاء» أن الأولى إشاره الصفات البارزه التى كان وسيظل يتحلى بها القرآن، والثانيه إشاره إلى نقاط مهمّه تظهر كل يوم من تقادم الزمان وكثره القراءه، وهذا ما ورد فى الحديث المروى

ص: ٣٥

١- (١). سورة البقره، الآيه ٨٢

٢- (٢). «مرابيع» جمع مربع، على وزن مثقال بمعنى المكان يثبت نبتة فى أول الربيع. وقال بعض: المطر الذى ينزل أول الربيع

عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل:

«ما بال القرآن لا يزداد على النثر والدرس إلا غصاصة؟ قال: لأن الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غصص إلى يوم القيامة» (١).

ثم شبهه في الصفه الثالثه بالأرض المليئه بالنبات وتفيض بالنعم في فصل الربيع، ونعلم جميعاً ما عليه نبات الربيع من طراوه ولطافه وطعم عذب، كما شبهه في الصفه الرابعه بمصابيح النور التي تخترق دهاليز الظلمه وتضيء بنورها كل شىء، بينما حصر في الصفتين الخامسه والسادسه سبل نيل الخيرات بالقرآن، إشاره إلى خطأ من يبحث عن مفاتيح الخير خارج القرآن ويستعين بغيره في ضياء عتمه القلب وظلمه المجتمع.

ثم اختتم كلامه بالإشاره إلى أربع صفات أخر في أن القرآن قد أوضح الحلال والحرام والمباح، فهو الشفاء لمن استشفاه والكفايه لمن استكفاه

«قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ (٢) ، وَأَرْعَى (٣) مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَشْفَى، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفَى». فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الأوصاف إلى النظام القانوني القرآني حيث بين الأصول الكليه للحلال والحرام بصوره تامه وعرض سبل مواجهه الأمراض الأخلاقيه والمفاسد الاجتماعيه على عمق هذه العباره مالم يتعرف على القرآن. أجل إن علاج الأمراض الخلقيه والانحرافات الفكرية والمشاكل الاجتماعيه كافه، في القرآن. ومن كان القرآن معه وكان مع القرآن فقد ظفر بكل شىء، كما قال الإمام عليه السلام في خطبه أخرى:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى» (٤). ومن هنا بلغ

ص: ٣٦

١- (١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥، ح ٨، وقد قدمنا شرحاً وافياً بهذا الشأن ذيل الخطبه ١٨

٢- (٢) . «حمى» المنطقه المحرمه العائده لشخص أو جماعه ولا- يحق للآخرين دخولها دون إذن، ووردت في الخطبه بمعنى حرمت الله

٣- (٣) . «ارعى» من ماده (رعى) مراقبه الشىء ومن هنا يطلق الرعى على الأغنام وحيث يترك الحيوان بحريته في المرعى فإن الارعاء ورد بهذا المعنى في الخطبه، أى أن الله حكم في قرآنه بحريه ما ينبغى بقاؤه حراً

٤- (٤) . نهج البلاغه، الخطبه ١٧٦

ذلك المجتمع شبه الوحشى فى الجاهلىه تلك المنزله المرموقه فى ظل تعاليم القرآن بعد أن كان يعىش منتهى الفقر الأخلاقى والإقتصادى والإجتماعى، وما ىجدر ذكره أن بعض شرّاح نهج البلاغه ىرى أن الصفات المذكوره تعود إلى الإسلام لا القرآن والضمائركذلك، ولكن بالنظر إلى ورود مثل هذه العبارات فى سائر خطب نهج البلاغه بشأن القرآن، ىتضح أن المراد بتلك الأوصاف هو القرآن وإن لم ترد مفرده القرآن فى نصوص العبارة، ناهىك عن عدم اختلاف النىجه مهما كان المراد(1).

ص: ٣٧

١- (١) قال المرحوم العلامه التسترى فى شرحه لنهج البلاغه: كأن مفرده القرآن أو كتاب أنزله سقطت من نسخه نهج البلاغه الموجوده (نهج الصباغه، ج ٣٣، ص ١٣)

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نظرة إلى الخطبة

(١)

هذه الخطبة قطوف مختاره من خطبه طويله للإمام عليه السلام. يتحدث في القسم الأول عن صفات الأفراد الفاسدين والمفسدين ليتعرّف عليهم الناس وليبتعدوا عنهم.

وأشار في القسم الثاني إلى مميزات الغافلين الذين لا يفيقون إلّا حين ضياع الفرصه وفوات الأوان فيبتلون بشر أعمالهم. ويعرض في القسم الثالث بالوعظ والنصح لهم لينهضوا من سباتهم ويصلحوا أمر آخرتهم. وتطرق في الفصل الرابع إلى بعض الأمور الخطيره التي تحبط الأعمال وتحول دون النجاه. ويختتم الخطبه في القسم الخامس بالمقارنه بين صفات البهائم والسباع والناس من أصحاب الدنيا والمؤمنين.

ص: ٣٩

١- (١) سند الخطبه: ورد في مصادر نهج البلاغه: ذكرت هذه الخطبه في بعض نسخ نهج البلاغه كجزء من الخطبه السابقه. قال ابن أبي الحديد إنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه حين اتجه إلى البصره (لقتال أصحاب الجمل والقضاء على الفتنه). وممّا لا شك فيه أنه عثر على هذه الخطبه في مصدر آخر ليقول ذلك الكلام. وردت هذه الخطبه بالتفصيل من قبل السيد الرضى في كتاب تحف العقول، كما روى الكليني بعضها في الجزء الخامس من كتابه الكافي، كما وردت عبارته من خطبه في قصار الكلمات وهي الكلمه ٢٩٨ (ضع فخر ك، واحفظ كبرك واذكر قبرك)، (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٤٧)

«وَهُوَ فِي مُهْلِهِ مِنَ اللَّهِ يَهْوَى مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَعْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ».

الشرح والتفسير

يعتقد بعض شراح نهج البلاغه - كما ذكرنا سابقاً - أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه أثناء حركته إلى البصره للقضاء على فتنه طلحه والزبير وعائشه وضمّنها جانباً من الوعظ والنصح والإرشاد. تحدّث عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه عن الإنسان الضال - والذي يتجلى نموذجاً في مشعل فتيل معركة الجمل - على ضوء أربع صفات تميّزه، فقد منحه الله الفرصه في عمره لياشر الأعمال الصالحه من أجل الظفر بالسعاده الأبدية، ولكنه لا ينفك عن ملازمه الغافلين والمذنبين الذين يسلكون به مهاوى الردى، دون أن يسير على الحق ويقتدى بزعيم حق

«وَهُوَ فِي مُهْلِهِ مِنَ اللَّهِ يَهْوَى (١) مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَعْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ». نعم أن أسباب بؤسه وشقائه تكمن في أربعة أمور؛ ملازمه الغافلين والآثمين، وعدم السير على طريق الحق إلى جانب عدم الإقتداء بالإمام الصالح.

ولعلّ العبارة

«إِمَامٍ قَائِدٍ» إشاره إلى الإمام المعصوم عليه السلام أو كلّ عالم صالح من أتباع المعصومين عليهم السلام وعلى كلّ حال فإنّ الإمام عليه السلام يفصح عن دور القائد الصالح

ص: ٤١

١- (١). «يهوى» من ماده (هوى) على وزن نهى تعنى فى الأصل، السقوط من شاهق، وهوى على وزن نوى. بمعنى الرغبة فى الشئ وعاده ما تستعمل فى الميول النفسية والأموال الباطله، والمعنى الأول هو المراد فى العبارة، أى أنّ الشخص الذى يعبد الدنيا يسقط مع الغافلين فى وادى الشقاء

فى هدايه الناس ونجاتهم؁ كما يوضح دور ملازمه أهل الغفله والمعصيه فى بؤس الإنسان وسقوطه.

ص: ٤٢

منها: «حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبَلًا، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ.

إِنِّي أَحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعَبْرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَدًا وَاضِحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلَالَ فِي الْمَعَاوِي وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاةَ بِنَعْسَفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ».

الشرح والتفسير: الموعظه البالغة

لما أشار الإمام عليه السلام إلى غفله أصحاب الدنيا أردفها بعدم ديمومتها وطرحها قريباً حين يصفعهم الموت ويخرجهم من غفلتهم، وعليه فمدى هذه الغفله

«حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ (١) غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبَلًا» أجل، عمر الدنيا قصير فإن أشرف الإنسان على الموت وأزيلت عن عينه البرزخية حجب الغفله ورأى أعماله آنذاك عندئذٍ يتغير كل شيء ويواجه حقيقه الموقف. ومن هنا يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة واضحة

«فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ (٢)». قد ظن هؤلاء بخلودهم في الدنيا

ص: ٤٣

١- (١). «جلابيب» جمع جلباب، الستار والثوب

٢- (٢). «وطر» بمعنى الحاجه وقضاء الوطر الاستفاده التامه من الشيء

بما جنوا من تلك الأموال الطائلة والقصور الفارهة والبساتين الواسعة والخدم والحشم لكنهم ودّعوها في الحال وأصبحوا تحت التراب.

كأنّ العبارة الأولى تشير إلى أولئك الأفراد الذين لم ينتفعوا قط بإمكاناتهم (مثلاً شيدوا قصرًا فلم يتنعموا به حتى أتاهم الأجل). والعبارة الثانية إشاره إلى أولئك الذين تمتعوا قليلاً بإمكاناتهم ثم حال بينهم وبينها الموت من قبيل ذلك الذي بنى قصرًا، وما أن حلّ فيه حتى أخرجه الموت منه.

ثم استطرد الإمام عليه السلام ليسدى بعض النصائح والمواعظ التي تقود إلى السعادة والفلاح بعد أن حذّر من الحياة العصبية التي يعيشها أهل الغفلة

«إِنِّي أُحذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ». ثم بين أثر ذلك، سبيل النجاة من هذه الغفلة القاتلة من خلال خمسة تعاليم فقال:

«فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعَبْرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَدًا (١) وَاضِيحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي (٢)، وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي (٣)» فالإمام عليه السلام يخاطب نفسه والآخرين بادية الأمر ليأخذ النصيحة موضعها من قلوب الآخرين، وذلك لأنّ المستمع إنّما يتفاعل مع الواعظ الذي يمزج القول بالعمل ولا يترفع عن الآخرين. ثم يحذّر الجميع من أنّ الله أسبغ عليهم ما لا يُحصى من النعم وأودعهم مختلف الاستعدادات والقابليات بغية استثمارها والانتفاع بها من خلال تفعيل السمع بالأذن والنظر بالعين والافتتاح على تجارب الآخرين وسلوك السبيل القويم الذي يجنبهم الانحراف والضلال.

وأخيرًا يحذّر الإمام عليه السلام من تمكين الغواه من النفس:

«وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاهُ (٤) بِتَعَسُفٍ (٥) فِي حَقِّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نَطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ». إشاره إلى أنّ

ص: ٤٤

١- (١) «جدد» و «جاده» بمعنى واحد يطلق على الطريق السهل الذي لا تغوص فيه القدم.

٢- (٢) «مهاوى» جمع مهواه، على وزن مقلاه الخفرة التي يسقط فيها الإنسان.

٣- (٣) «مغاوى» جمع مغواه، على وزن مقلاه، الشبهه المضله.

٤- (٤) «غواه» جمع غاوى، الشخص الضال

٥- (٥) «تعسف» من ماده (عسف) على وزن خسف، المشى على غير هدى، ومن هنا يقال للظالم متعسف لأنه يسير بغير هدى.

البعض من الأفراد الضعاف النفوس والذين يميلون إلى الدعه والراحه حين يواجهون الغواه من الأفراد يسعون إلى التغاضى عن بعض الحقائق أو المداهنه فى بيان الحق أو الخشيه من الصدق والصراحه بهدف الحدّ من معارضتهم وهذا ما يؤدى إلى تسلط أولئك الغواه وتفاقم جرأتهم بما يجعل من المتعذر الوقوف بوجههم. وعليه لابدّ من اعتماد الصراحه المفعمه بالأدب والشفقه فى بيان الحقائق والإبتعاد عن الخشيه، فالغواه عاده ما يتراجعون وينكسرون إزاء المواقف الشجاعه، وقد دلت بعض النماذج التى حفل بها التاريخ على أنّ الأفراد الذين يحزفون الحقائق ويكتمون الواقع إنّما أسهموا فى مضاعفه المشاكل التى جرّت عليهم وعلى مجتمعاتهم الويلات. فقصه قريه الحوآب المعروفه فى معركه الجمل معروفه. حيث سمعت عائشه من النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال لها:

«فِيكُنَّ مَنْ تَبَحُّهَا كِلَابُ الْحَوَآبِ». وحين انطلق أصحاب الجمل إلى البصره وبلغوا الحوآب سمعت عائشه ذلك النباح، فسألت عن اسم الموضع فقيل لها: الحوآب. فعزمت على العوده إلى المدينه، فاعترضها محمد بن طلحه وقال لها: هذه ليست الحوآب، ثم أتى ببعض الأفراد وشهدوا لها زوراً، فواصلت مسيرها.

وما أكثر القصص من هذا القبيل فى الماضى والحاضر(١).

ص: ٤٥

«فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّمِيعُ مِنْ سَيِّئَاتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفَلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مَنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا لَأَبَدٌ مِنْهُ وَلَمَّا مَحِيصٌ عَنْهُ؛ وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذِمَّتَكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعَا وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛ وَضَعَّ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ، وَادْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمْرَكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَخْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَدًا، فَأَمِّهْدُ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمُ لِيَوْمِكَ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»».

الشرح والتفسير: الحذر الحذر

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بعد تلك التحذيرات السابقه في إسداء الوعظ والنصح بعبارات قصيره عميقه المعنى فخاطب مستمعه قائلاً:

«فَأَفِقْ (١) أَيُّهَا السَّمِيعُ مِنْ سَيِّئَاتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفَلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مَنْ عَجَلَتِكَ». إشاره إلى أن زخرف الدنيا والمال والمقام والشهره تسكر الإنسان وتقذفه في سبات الغفله وتضطره للعجله دون التروى والترىث، وتورث هذه الأمور مختلف المعاصى والذنوب والأخطاء، وهل يرتجى من السكران سوى الخطأ والزلل؟

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ (٢) - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

ص: ٤٧

١- (١). «افق» من ماده (افقه) بمعنى الصحو

٢- (٢). «أمي» ينسب إلى الأم بمعنى عديم القراءه، وكأنه بقى على تلك الحاله التى ولد فيها من بطن امه ولم يتعلم، وبالطبع فإن معنى أميه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن جميع علومه ومعارفه إلهيه ولم يتعلم من الإنسان. راجع سائر الآراء بهذا الشأن فى الجزء السادس من تفسير الأمثل، ذيل الآيه ٥٧، سوره الأعراف

وَأَلِهٍ وَسَيِّئَم - مِمَّا لَأَبْدُ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ وَدَعَا وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ» فقد دعى بادية الأمر إلى الاتباع التام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فما يقوله عليه السلام هو الوحي السماوى الذى يهدف إلى سعادته الإنسان فى الدنيا والآخرة. ثم يوصى عليه السلام بمخالفته من يخالف ذلك مهما كثر عدد المخالفين واتباع الحق دون أدنى شك وريبه أو إكتراث للآخرين.

وواصل عليه السلام نصحه قائلاً:

«وَضَعُ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ (١) كِبْرَكَ، وَأَذْكَرْ قَبْرَكَ» فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الوصايا الثلاث إلى أساس الشر والفساد الذى يتمثل فى الفخر والكبر التى لن تجعل الإنسان يذوق طعم السعادة ما لم يطرحها جانباً، وسيكون مصيره مصير الشيطان الذى قاده نحو فخره وكبره. وتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى القبر الذى يسوق نسيانه الإنسان إلى طول الأمل والانغماس فى الدنيا، وهو الموضوع الذى يتساوى فيه الجميع وهذا ما ورد فى الكلمة القصيره رقم ٣٩٨ من قصار الكلمات وهذا يدل على أن السيد الرضى كان يقتطف أحياناً الكلمات القصار من بعض الخطب الطويله.

ثم أورد عليه السلام ثلاث نصائح أخرى منسجمه مع بعضها، فقال:

«وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَدًا، فَاْمَهْدُ (٢) لِقَدَمِكَ، وَقَدَّمَ لِيَوْمِكَ».

كيف ينتظر الإنسان من الله أن يعفو عن سيئاته ويجازيه بالاحسان وهو يظلم الآخرين ويقابل الاحسان بالإساءه؟ أم كيف ينتظر الورد من يزرع الشوك؟! الواقع

ص: ٤٨

١- (١). «احطط» من ماده (حط) على وزن خط لازم ومتعدى بمعنى الخفض والاختفاض وارىد به المعنى الثانى فى الخطبه
٢- (٢). «فامهد» من ماده (مهد) على وزن عهد تعنى فى الأصل مهد الطفل أو الموضوع الذى يعد للأطفال، ثم استعملت بمعنى الإعداد كما وردت فى هذه الخطبه

هو أن هذه النصائح مستقاه من الآيات القرآنيه والأحاديث النبويه، فالله: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» وفي الحديث:

«الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ» والآيه الشريفه: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ»^(١) والآيه الكريمه: «وَمَا تَقَدَّمُوا لَانْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»^(٢). ثم يعود الإمام عليه السلام فى ختام الخطبه الى ذات المطلب الذى ابتدأ به ليوقظ الغافلين ثانيه من سباتهم ويسوقهم إلى الجد والاجتهاد فيقول:

«فَالْحَيَاةُ الْجَدْرُ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدُّ الْجِدُّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»». العبارة الأخيره المقتبسه من الآيه ١٤ من سوره فاطر إشاره إلى أن أى شخص لا يضاهى القائل فى بيانه لحقيقه الموت والحياه وحاضر الإنسان وغده ومصيره فى المستقبل وعاقبته فى الآخره.

وقد قال أحد شراح نهج البلاغه: إن من يتأمل خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله وقصار كلماته يكتشف بوضوح أن أحداً لا يسعه التحدث بهذه الدقه والرقه عن الدنيا وماهيتها وبدايتها ونهايتها.

قال الشاعر بشأن النصائح الأخيره فى الخطبه:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمَلِّ فِيهَا

ص: ٤٩

١- (١). سوره الحشر، الآيه ١٨

٢- (٢) سوره البقره، الآيه ١٦٠

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثَبِّبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسَخَطُ، إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَاقِيًا رَبَّهُ بِخُضُلِهِ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَثْبُتْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعْرِ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَهُ إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بَدْعِهِ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْسَحَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اغْقِلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شُبْهِهِ.

إِنَّ الْبَهَائِمَ هُمُّهَا بَطُونُهَا؛ وَإِنَّ السِّيَاحَ هُمُّهَا الْعِيدُونَ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هُمُّنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ.

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

الشرح والتفسير: المواقف الخمس

حذر الإمام عليه السلام مخاطبيه في المقطع السابق من الخطبه من سبات الغفله وحثهم على الجد والاجتهاد، ليشير هنا إلى خمسه من الذنوب الكبيره الخطيره التي لا يقبل عمل العبد دون التوبه منها، فقال:

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثَبِّبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسَخَطُ، إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَاقِيًا رَبَّهُ بِخُضُلِهِ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَثْبُتْ مِنْهَا». العبارة

«وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ» - مع العلم، يتعذر الإخلاص في العمل لمن اتصف بهذه الخصال

السيئه - تبدو إشاره إلى الإخلاص المرحلى والآنى حين ينسى فى لحظه كل هذه المساوىء من قبيل التصدق فى سبيل الله ومد العون للفقير، إلّا أنّ هذا الإخلاص لا يدوم حتى يحل محله الشرك والنفاق والبدعه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح هذه الخصال المتمثله بالشرك وقتل النفس والتهمه والبدعه والنفاق حيث بين كل واحده منها بعباره قصيره فقال:

«أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِي عَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يُعَرِّ (١) بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بَدْعِهِ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْسِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اغْتِيلَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ ذَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ». وعلى هذا الضوء فإنّ أول كبيره هى الشرك. فى عبوديه الله؛ وهى الكبيره التى مالم يتب عنها العبد لن ينال عفو الله ومغفرته «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (٢).

والكبيره الأخرى اطفاء الإنسان لغضبه بسفك دم الآخرين، حيث ورد فى القرآن: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا» (٣). ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ العبارة تشمل الانتحار وقتل النفس أيضاً، إلّا أنّ المعنى الأول هو المراد من ظاهر الآيه. على كل حال فإنّ البعض اعتبر الآيه دليلاً على أنّ قتل النفس البريئه يؤدى بالقاتل إلى الموت على الكفر، لأنّ الخلود فى جهنم يختص بالكافرين، أمّا بالنسبه للخصله الثالثه، اتهام الأفراد بما لم يقارفوا من أعمال هو فى الواقع قتل لشخصيه الآخرين وإراقه ماء وجوههم. الأمر الذى تعدّه بعض الروايات بمثابه إراقه الدم.

وأما الخصله الرابعه أى البدعه فى الدين بهدف نيل المال والمقام فيكفى فى ذمها ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«أَهْلُ الْبِدْعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، أَهْلُ

ص: ٥٢

١- (١). «يعر» من ماده (عر) على وزن شر، أو عر على وزن حر، يعنى فى الأصل الجرب الذى يصيب الجلد، ثم أطلق على كل ضرر يلحق بالإنسان، وأريد به العيب والتهمه فى العبارة

٢- (٢) سورة النساء، الآيه ٤٨

٣- (٣). سورة النساء، الآيه ٩٣

وأخيراً خصله النفاق التي قال بشأنها القرآن الكريم: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ»(٢) وقد صرحت ما بعدها من آيات أنّ الإحباط هو نصيب عمل هؤلاء المنافقين الذين لن يهديهم الله.

حقاً أنّ المجتمع البشرى إذا طهر من دنس هذه الرذائل الخمس لعاش الأيمن والسلام والوئام ولحفظت فيه الأموال والأنفس والأعراض، ولتكاتف الجميع على الحبّ والمودة وسارعوا على مدارج السمو والكمال والابتعاد عن البدعه والشرك، ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالعباره

«أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بَوَجْهَيْنِ» معنى معين، وبالعباره

«أَوْ يَمْشِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ» معنى آخر؛ فالأول يشير إلى نفاقه بالنسبه لنفسه، والآخر إلى النفاق بالنسبه للآخرين. ومن هنا جعلوا الصفات المذكوره ستاً، لكن يبدو أنّ كليهما من آثار النفاق، أحدهما باللسان والآخر بالوجه، وعليه فالأفضل جمعهما فى عنوان واحد. القضية الجديده بالاهتمام ما أورده بعض شراح نهج البلاغه من أنّ هذه الخطبه وإن وردت أثناء المسير إلى البصره لمواجهه أصحاب الجمل إلى أنّها تشير إلى أنّ الصفات المذكوره موجوده فى أصحاب الجمل؛ ذلك لأنهم حكموا أهواءهم بدلاً من الله من جانب، ومن جانب آخر فإنهم يسعون لإطفاء غضبهم على على عليه السلام بسفك دماء الأبرياء، كما نسبوا لعلى عليه السلام تهمة قتل عثمان الذى قتل على أيديهم بتحريض الآخرين، كما أنكروا إمامه على عليه السلام ونسبته من رسول الله صلى الله عليه و آله فابتدعوا فى الدين ما ليس منه، وأخيراً منعوا الناس من التعرض لقتل عثمان من جهه، ومن جهه أخرى كانوا يتآمرون على قتله خفيه. والعباره

«اغْقِلْ ذَلِكَ» إشاره إلى هذا المعنى(٣). قال الإمام عليه السلام إثر طرحه

ص: ٥٣

١- (١) كنز العمال، ح ١١٢٦، ١٠٥٩.

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ١٤.

٣- (٣) . اقتباس من شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ١٦٢

«اغْتَلِ ذَلِكْ»، وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ هذه العبارة إشاره إلى مطلب سيرد لاحقاً، إلّا أنّ هذا خلاف التعبير (ذلك).

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام في ختام الخطبه إلى بعض النقاط المهمّة التي لا تبدو بمعزل عن قضيه معركة الجمل فقال:

«إِنَّ الْبُهَائِمَ هَمُّهَا بَطُونُهَا؛ وَإِنَّ السَّبَاعَ هَمُّهَا الْعِدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ (١). إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

أجل فالمؤمنون الصالحون العاملون خائفون من الله وخائفون من خلق الله، إمّا خوفهم من الله بدليل تكاليفهم ووظائفهم تجاهه، وإمّا خوفهم من خلق الله حذراً من هضم حقوق فرد من الأفراد، خلافاً للسباع الذين لا يفكرون سوى في بطونهم والعدوان على الآخرين.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام يوجز المظاهر الدنيوية في ثلاثة أشياء؛ الاهتمام بالبطن والتزعه السبعيه والاهتمام بالزينة، فأسند أحدهما إلى البهائم والأخرى إلى السباع إشاره إلى قاده معركة الجمل الذين ساقتهم هذه العناصر إلى تأجيج نار حرب الجمل فسفكوا تلك الدماء ولم يظفروا بأهدافهم (لابدّ من الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام على ضوء بعض الروايات أورد هذه الخطبه حين سار إلى قتال أصحاب الجمل).

يذكر فيها فضائل أهلبئيت عليهم السلام (١)

نظرة إلى الخطبه

تدور مطالب هذه الخطبه بصوره رئيسيه حول ثلاثه محاور:

١. فضائل أهل البيت عليهم السلام وعلومهم ومعارفهم الخارقه ووصيه الناس باتبعاهم.

٢. بحث بشأن ارتباط الظاهر بالباطن وأن طهاره الباطن عاده ما تؤدي إلى طهاره الظاهر لأعمال الإنسان، ومن كان ملوثاً باطناً غالباً ما يكون ملوثاً ظاهرياً.

٣. لابد من الرجوع إلى الجذور في ممارسه إصلاح كل شيء والانطلاق من الأساس والبنيه التحتيه في الإصلاحات.

ص: ٥٥

١- (١) سند الخطبه: أورد الآمدى الذى صنف كتابه (تحرر الحكم على أساس الحروف الأبجديه) جوانب مختلفه من هذه الخطبه بتفاوت فى حروف «ق» و «ن» و «ه» و «ا» ورغم أن الآمدى عاش بعد المرحوم السيد الرضى، إلا أن اختلاف عباراته مع نهج البلاغه يفيد أنه اقتبسها من مصدر آخر، كما أوردها السيد باختلاف طفيف فى كتابه، الطراز، وهذا يشير إلى أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه

«وَنَاطِرٌ قَلْبِ اللَّيْبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي.

قَدْ خَاضُوا بِحَارِ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصِيحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا».

الشرح والتفسير: أبواب علم النبي

إنَّ الأبحاث المتنوعة لهذه الخطبه تفيد جرى المرحوم السيد الرضى على عاداته فى اقتطاف هذه المقاطع من خطبه طويله، ولذلك يبدو هنالك نوع من التعقيد فى ترابط مقاطع هذه الخطبه. يورد الإمام عليه السلام مقدمه لبيان فضائل أهل البيت عليهم السلام فيتحدث عن صفات المهتدين والضالين فيقول:

«وَنَاطِرٌ (١) قَلْبِ اللَّيْبِ (٢) بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ (٣)» إشاره إلى أنَّ الإنسان العاقل لا يقنع بظواهر الأمور، بل يسعى إلى الوقوف على ملاساتها وتفصيلها وما يمكن أن تؤول إليه عاقبتها فلا يسلك مساره جزافاً ويواجه بعض المطيات والمخاطر.

ثم قال عليه السلام:

«دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي» من

ص: ٥٧

١- (١). «ناظر» بمعنى سواد العين التى يقع فيها البؤبؤ

٢- (٢) «لييب» من ماده (لب) على وزن حب بمعنى الدماغ ويقال: اللييب للشخص العاقل الحكيم

٣- (٣). «نجد» ما ارتفع من الأرض

الواضح أنّ المراد بالداعى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذى أرسى دعائم الدين، والمقصود بالراعى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذى تزعم الأمة الإسلاميه بأمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

فالكلام يشير إلى هذا الأمر: أنّكم إن نظرتم بحكمه لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته بالحق، وبموجب هذه المعرفة سوف لن يكون لديكم أدنى شك وريبه فى اجابه دعوته واقتفاء آثار خليفته.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الفئه الأخرى التى تقابل الفئه المذكوره وهى الفئه المعاديه للحق التى خاضت فى بحار الفتن وابتدعت فى الدين حتى انتهى الأمر إلى اقضاء المؤمنين فخدمت أصواتهم ولم تصدح سوى اصوات الضالين المكذبين المنحرفين

«قَدْ خَاضُوا بِحَارِ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ (١) الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ».

فالعباره إشاره إلى تلك الفئه المنحرفه التى غصبت الخلافة عقب رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى انتهت إلى بنى أميه بزعامه معاويه ويزيد وآل مروان. أجل لم يكن هم تلك الفئه سوى إثارة الفتن من قبيل فتنه الجمل وصفين والنهروان واستغلالها لصالحها إلى جانب ايجاد البدع فى دين الله وهجران سنن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، الأمر الذى اتضح بجلاء على عهد خليفه بنى أميه الثالث، بعد ذلك خاض الإمام عليه السلام فى صفات وفضائل أهل البيت عليهم السلام فقال:

«نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا».

إشاره إلى أننا أقرب الجميع للنبي صلى الله عليه وآله (لابد من الالتفات هنا إلى أنّ الشعار يعنى مايلى البدن من الثياب) وقد ورثنا علم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكل من أراد نيل تعاليمه صلى الله عليه وآله والاقتداء بهديه عليه أن يمر من خلالنا.

والمواقع هو أنّ هذه العبارات قد اقتبست من روايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن أهل

ص: ٥٨

١- (١). «ارز» من ماده (ارز) على وزن فرض، تعنى فى الأصل الايقاض والثبات، ثم استعملت بمعنى الاعتزال والانعزال عن المجتمع، وهذا هو المعنى المراد بها فى العباره

البيت عليهم السلام عموماً وعلى عليه السلام على وجه الخصوص. ومن ذلك حديث الثقلين الذي أُلزم المسلمين بالتمسك بالقرآن وأهل البيت إلى يوم القيامة وحديث:

«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأُيُوبِهَا فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ» (١). جدير بالذكر أنّ شارح نهج البلاغه ابن أبي الحديد حين بلغ هذا الموضوع من الخطبه صرّح بأنّ ما أشار إليه على عليه السلام في هذه الخطبه لا يتضمن سوى عشر الفضائل التي صرّحت بها العديد من الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن على عليه السلام. ثم أضاف: لا اقصد الروايات التي استدلت بها الإماميه على إمامه على عليه السلام، بل مرادى الروايات التي رواها كبار محدثي العامه في مصادرهم عن فضائل على عليه السلام وأذكر هنا بعضها، ثم يذكر أربعاً وعشرين روايه معتبره في فضائل على عليه السلام سنشير في البحث القادم إلى جانب منها إن شاء الله.

تأملان

١. الفارق بين العُجب والتعريف بالذات

يتساءل بعض المغرضين هنا: لماذا خاض الإمام عليه السلام في مدح ذاته والتعريف بها؟ أليس هذا الأمر دون شأن الإمام عليه السلام؟ وقد روى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه أنّ البعض أشار على عمر بتأمير على عليه السلام على الجند. فقال: إنّ علياً عليه السلام يرى نفسه أرفع شأنًا من ذلك.

ولكن يبدو أنّ مثل هذه الإشكالات إنّما يفرزها الجهل والحسد الذي لا يصمد أمام منطق العقل، وذلك أنّ أغلب الناس قد لا يقفون على عظمه شخص وعمق مكانته فلا يكادون يفتحون على أفكاره ومشاريعه وخططه التربويه والإصلاحيه، ونقول هنا: ألا ينبغي لهذا الشخص أن يعرف الآخرين بذاته وإمكاناته؟ ولعل هذا

ص: ٥٩

١- (١). ورد هذا الحديث المشهور في مصادر العامه المعروفه مثل مستدرک الحاکم و المعجم الكبير للطبرانی و غيرها (وللوقوف على المزيد من مصادر هذا الحديث في كتب العامه راجع كتاب احقاق الحق، ج ٥، ص ٤٦٩ و ما بعدها)

الأمر أشبه بذلك الطبيب الماهر والمتخصص بمختلف الأمراض والذي نصب لوحه كبيره على باب عيادته ليبيّن عليها شهادته وخبرته الطبيه والعلميه حتى يتعرف عليها الآخرون فيقبلون على عيادته، فهل هذا العمل من العُجب ومدح الذات أم التعريف بالنفس في مقابل الجهال؟

ناهيك عما سبق، فإن احدى مراحل شكر النعم التحدث بها. قال الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم بهذا الشان: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»^(١).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآيه الكريمه أنه قال:

«حدث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهداك»^(٢). ومن هنا ورد فى بعض الروايات أنّ علياً عليه السلام حين سئل عن بعض فضائله، أجاب بأنّ الثناء على النفس مذموم؛ لكننى أُجيبك عن هذه الفضائل على أساس ما ورد فى القرآن الكريم: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» ثم يبين عدداً من فضائله ومناقبه.

٢. الفضل ما شهدت به الاعداء

كما أشرنا سابقاً فإنّ ابن أبى الحديد حين بلغ فى شرحه لنهج البلاغه هذه الخطبه، نقل أكثر من أربع وعشرين روايه روتها مصادر العامه فى فضائل على عليه السلام وصرّح بأنّ هذه الروايات غير تلك الأحاديث التى تمسكت بها الشيعة الإماميه فى مقام اثبات ولايه وإمامه على عليه السلام. ومن الضرورى بمكان أن نشير هنا إلى بعض تلك الروايات العظيمة المضمون:

١. قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«يا علىّ إنّ الله قد زيّنك بزينه لم يزيّن العباد بزينه أحبّ إليه منها هيّ زينته الأبرار عند الله تعالى؛ الرّهْدُ فى الدنيا جعلك لا تزوّء من الدنيا شيئاً، ولا تزوّء الدنيا منك شيئاً ووهب لك حبّ المساكين فجعلك ترضى

ص: ٦٠

١- (١) سورة الضحى، الآيه ١١

٢- (٢) . مجمع البيان، ذيل الآيه المذكوره

بِهِمْ أَتْبَاعاً وَيَرْضُونَ بِكَ إِمَاماً» (١).

٢. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيَّ فِي عَلِيِّ عَهْدًا، فَقُلْتُ: ياربِّ بَيْنَهُ لِي.

قَالَ: إِسْمِعْ أَنْ عَلِيًّا رَأَيْهُ الْهُدَى وَإِمَامَ أَوْلِيَائِي وَنُورٌ مَنْ أَطَاعَنِي وَهُوَ الْكَلِمَةُ الَّتِي أَلَزَمْتُهَا الْمُتَّقِينَ مَنْ أَحَبَّهُ فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَنِي فَبَشِّرْهُ بِذَلِكَ» (٢).

٣. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَحْيَا حَيَاتِي وَيَمُوتَ مَمَاتِي وَيَسْئَلُنِي جَنَّةَ عَدْنٍ الَّتِي عَزَّسْتُهَا رَبِّي فَلْيُؤَالِ عَلِيًّا مِنْ بَعْدِي وَلْيُؤَالِ وَلِيَّهُ وَلْيَقْتَدِ بِالْأَيْمَةِ مِنْ بَعْدِي فَإِنَّهُمْ عَثَرَتِي خُلِقُوا مِنْ طِينَتِي وَرُزِقُوا فَهْمًا وَعِلْمًا فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ مِنْ أُمَّتِي الْقَاطِعِينَ فِيهِمْ صَلَاتِي لَأَنَا لَهُمُ اللَّهُ شَفَاعَتِي» (٣).

ص: ٦١

١- (١) نقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة هذا الحديث عن أبي نعيم الاصفهاني في حليه الأولياء ومسند أحمد بن

حنبل (شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ١٦٦)

٢- (٢) المصدر السابق

٣- (٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٦٦

منها: «فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ. إِنْ نَطَقُوا صِدْقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسَبِّقُوا. فَلْيَضِّدْ رَأْسَهُ أَهْلَهُ، وَلْيُخْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَوْلَادِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمٌ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ».

فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصْرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ. فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَمَّا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعِيداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ. فَلْيَنْظُرْ نَاطِرًا:

أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!».

الشرح والتفسير: خصائص دعاه الحق

تعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بالإشاره إلى غيظ من فيض فضائل أهل البيت عليهم السلام بهدف إحباط الدعايات المغرضه لأجهزه بنى أميه ضد أهل البيت عليهم السلام والعناصر التي تأمرت عليهم من بعض العملاء الذين تجلببوا بشباب رواه الحديث، فقال:

«فِيهِمْ كَرَائِمُ (١) الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ. إِنْ نَطَقُوا صِدْقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسَبِّقُوا». العبارة

«فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ» يمكن أن تكون إشاره إلى المعنى المذكور أو تعنى عندهم آيات القرآن الكريم، والعبارة

«كُنُوزٌ» إشاره إلى أن عندهم أحكام الله وتعاليم السماء؛ لأن الأشياء النفيسه عادة ما تحفظ في الكنز.

ص: ٦٣

١- (١). «كرائم» جمع كريمه، الآيات المباركه التي نزلت بشأن أهل البيت عليهم السلام

«إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا» تتضمن احدى صفات أهل البيت عليهم السلام وهى الصدق فى الكلام التى تنسجم والآيه الشريفه: «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»^(١). والعبارة

«وَإِنْ صَيَّمْتُمْ لَمْ يُشَبِّهُوا» إشاره واضحه إلى أنّ صممتهم عليهم السلام لا- يعنى عجزهم عن الإجابة قط، بل صممتهم على ضوء الحكمه والمصلحه، وعليه فلا- يسع أحد أن يسبقهم. أو معنى ذلك أنّ هيبتهم تحول دون قدره الآخرين على الكلام حين صممتهم. على كل حال فإنّ هذه الصفات الأربع فى أهل البيت عليهم السلام تميز مقامهم عن الآخرين وتكشف عن علو منزلتهم ومكانتهم العلميه، ثم قال تأكيداً لهذا المطلب فى أنّ الهدف ليس المدح والثناء على الذات:

«فَلْيَصُدِّقْ رَائِدُ (٢) أَهْلَهُ، وَلِيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلِيُكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ».

تعنى كلمه

«رَائِدٌ» فى الأصل، الشخص الذى يتقدم القافله ويبحث عن الماء والمرعى. فلو كان مثل هذا الشخص كاذباً لعرض أهل القافله أنفسهم إلى الخطر.

فاختيار هذه الكلمه يشير إلى لطيفه مؤداها أنّى إن شرحت لكم خصائص أهل البيت عليهم السلام فذلك لأننى بمنزله ذلك الشخص الذى يوفر لاتباعه ضروريات وسائل العيش. ولعل العبارة

«فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ» تشير مفهوم الآيه الشريفه: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». أو بعبارة أخرى أنّ الآخره تعنى هنا ماوراء الطبيعه. نعم ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالعبارة أنا خلقنا للآخره، كما ورد ذلك فى قصار كلمات الإمام:

«أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالْدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ»^(٣).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنظر إلى ما ورد قبيل ذلك بشأن أهل البيت عليهم السلام

ص: ٦٤

١- (١). هذه هى الآيه ١١٩ من سوره التوبه التى تأمر المؤمنين فى كل عصر ومصر باتباع الصادقين وملازمتهم، وقد فسّرت الروايات الواردة فى مصادر الفريقين، الصادقين، بالأئمه المعصومين عليهم السلام. راجع للوقوف على مصادر هذا الحديث كتاب، نفحات القرآن، ج ٩، ص ١٦٧

٢- (٢). «رائد» من ماده «ورد» على وزن قوم بمعنى السعى للقيام بشى، كما ورد فى الشرح، فانها تطلق عادة على الشخص الذى ينطلق امام القافله ويبحث عن المرعى والمرتع

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٥٧

ليحذر الآخرين من ضروره مراقبه أعمالهم وأن يلحقوا بتلك الكنوز أى الأئمه العارفين بالقرآن ويحذوا حذوهم ويسيروا على هديهم وأن يفكروا فى بدايه كل عمل بعاقبته ويعزمون عليه:

«فَالنَّاطِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصِيرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ». والواقع هو أن الإمام عليه السلام يرى توقف النجاح على ثلاثه أمور تتفرع جميعها من العلم والمعرفه؛ التفكير فى أصل العمل، والعمل على أساس البصيره ودراسه وتأمل نتيجته ذلك العمل نافعه له أم مضره؟

ثم خاض فى بيان دليل ذلك وقد استعان بتشبيه رائع ليوضح الفارق بين العالم والجاهل فقال:

«فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَمَّا زَيْدُهُ بُعِيدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعِيداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ».

يا له من تشبيه رائع! فالعالم والجاهل كلاهما يسعى، إلا أن العالم حيث يسير على الطريق الصحيح فإنه يقترب من هدفه كل آن، أمّا الجاهل حيث يسير على غير هدى وعلى غير الطريق فإنه يبتعد عن هدفه كل آن؛ بعبارة أخرى فإن سعيه لن يؤدى إلا إلى النتائج المعكوسه.

روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله تعبير رائع بهذا الشأن حيث قال:

«مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ» (١).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ لَا يَزِيدُهُ سُرْعَةَ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا» (٢).

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ: أَسَائِرُهُ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!».

فالعبارة تشير إلى أن الجهال من الأفراد ليسوا فقط لا يبلغون الهدف بسعيهم وجهدهم، بل أحياناً يخطون بذلك الجهد إلى ما يخالفه.

ص: ٦٥

١- (١) اصول الكافى، ج ١، ص ٤٤ باب العمل بغير علم، ح ٣.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٤٣، ح ١

«وَأَعْلَمَ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ».

وَأَعْلَمَ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَأَغْنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَقِيُّهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبِثَ سَقِيُّهُ، خَبِثَ غَرْسُهُ وَأَمْرَتْ ثَمَرَتُهُ».

الشرح والتفسير: معرفه المحسن والمسيء

كشف الإمام عليه السلام هنا - مواصلة لما أورده سابقاً - سبيل معرفه المحسن من المسيء فقال:

«وَأَعْلَمَ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ». فهذه قاعده كليه من شأنها تمهيد السبيل أمام الإنسان لمعرفة الأفراد والمجتمعات البشريه ومختلف التنظيمات الاجتماعيه والسياسيه والعقائديه (وإن كانت لها على غرار كل قاعده كليه شواذ) لأن أعمال الإنسان عاده ما تكون انعكاساً لأفكاره وأخلاقه وصفاته الباطنيه، وظاهره ما يترشح عن باطنه، على غرار ما ورد في المثل المعروف: الظرف ينضح بما فيه.

وعلى هذا الأساس فإن شككنا في باطن شخص كان لابد لنا من التوقف عند أعماله لننظر من خلالها إلى باطنه. وقد أيد القرآن الكريم هذه الحقيقه في عدّه آيات فقال بشأن المنافقين: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

أَكْبَرُ»(١). وقال في موضع آخر: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّمَاتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ»(٢). كما قال في آية أخرى: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِوَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا»(٣). كما ورد هذا الأمر في الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء.

فقد قال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وَصَيِّفَاتِ وَجْهِهِ»(٤). وصرح الفقهاء في مبحث العدالة: أن حسن الظاهر والعمل بالتكاليف الشرعية يفيد وجود ملكة العدالة في الباطن. الغريب في عصرنا الراهن أن العلماء توصلوا إلى صنع جهاز من شأنه التعرف على كذب المقابل من صدقه في موضوع ما من خلال نبض قلبه وضغط دمه وما شاكل ذلك. وكما أشرنا سابقاً أن لهذه القاعده كما لسائر القواعد الكليه شواذ؛ فهناك بعض الأفراد الذين يعيشون حاله من التعقيد بحيث لا يمكن التعرف عليهم من خلال أعمالهم بسهولة، كما يمكن لبعض المرئيين والمنافقين أن يخدعوا العقلاء، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول:

«وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَيْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ يَدَنَهُ». فافتراق الظاهر عن الباطن والعمل عن العقيدة في بعض الحالات يعزى إلى بعض العوامل التي تحدث وتبعد الشخص عن ذلك الأصل الكلي؛ من قبيل مجالسه الصالحين والطالحين والتواجد في الأوساط الطاهره والفاصله إلى جانب التعصب والبغض والحق والفساد والدعايه المسمومه والفقر المدقع وما شاكل ذلك من الأمور التي تقدر أحياناً بانسجام الظاهر مع الباطن. آثار المرحوم العلامة الخوئي شارح نهج البلاغه مطلباً آخر في شرحه لهذه العبارة، فقد قال - بعد تلك الإشارة إلى تناقض صدر هذا القسم

ص: ٦٨

١- (١). سورة آل عمران، الآية ١١٨

٢- (٢). سورة الحمد، الآية ٣٠

٣- (٣). سورة الأعراف، الآية ٥٨

٤- (٤). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٦

من الخطبه وذيلها - إنه تدبر وفكر لأيام وتوسل بجده أمير المؤمنين عليه السلام ليخلص إلى هذه النتيجة وهي أن الإمام عليه السلام أراد أن يشير بالاستناد إلى حديث النبي صلى الله عليه وآله إلى أن الشخص إن رأى عدم انسجام ظاهره وباطنه عليه أن يسعى لإصلاح نفسه، يعني، إن كان باطنه حسناً وعمله سيئاً يسعى لأن يصلح عمله، وإن كان عمله حسناً وباطنه سيئاً يسعى لإصلاح باطنه(1). وهذا الكلام وإن كان صحيحاً إلا أن استفاده هذا المعنى من العبارة المذكوره لا يخلو من إشكال، ويبدو التفسير الأول أنسب.

ثم اختتم الخطبه في إطار اتمام عبارته السابقه في مجال انسجام الظاهر والباطن ولزوم تطهير الباطن بهدف تطهير الظاهر بالقول:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَأَغْنِي بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَقِيُّهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبِثَ سَقِيُّهُ، خَبِثَ غَرْسُهُ وَأَمْرَتْ ثَمَرَتُهُ». فقد شبه الإمام عليه السلام الإنسان وأعماله بالنبات وثمره، فكما أن النبات لا غنى به عن الماء لسقيه ونموه، فإن الإنسان لا يستغنى عن التعليم والتربية والإرشاد. فمن عكف على التعليم والتربية والإرشاد الصحيح ظهرت أعماله صالحه، بينما تسي وتخبث أعمال ذلك الذي لاحظ له من الإرشاد والتربية. بعبارة أخرى فإن قيمة ثمره النبات تنشأ في الواقع من ثلاثه عوامل: البذر الطيبه والأرض الخصبه والماء الوفير. والحق أن بذره الإنسان على ضوء الفطره التي أودعها إياه الله، طيبه؛ كما أن عوامل البيئه الوراثيه بمتاباه الأرض، والتعليم والتربية بمنزله الماء، فإن طهرت وطابت هذه الأمور، كانت ثمره وجود الإنسان طيبه وطاهره.

ص: ٦٩

يَذْكُرُ فِيهَا بَدِيعَ خَلْقِهِ الْخُفَّاشِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تعتبر هذه الخطبه من خطب نهج البلاغه التوحيديه المهمه وتتألف من قسمين.

يتعرض القسم الأول لحمد الله والثناء عليه وبيان عظمته التي حيرت العقول إلى جانب قدرته في الخلق دون الاستناد إلى فكره مسبقه حيث يختزن كل مخلوق عجائب الاسرار. اما القسم الثاني فقد ركز على الخفاش وعجائب خلقتة، فيتعرض الإمام عليه السلام إلى تفاصيل خلقه وكأنه استغرق سنوات في دراسته هذا المخلوق العجيب حتى وقف على اسراره.

ص: ٧١

١- (١) سند الخطبه: لم يرد في مصادر نهج البلاغه سند يمكن الاعتماد عليه كما في سائر المصادر، ويبدو أنّ السند الرئيسي لهذه الخطبه ما ذكره المرحوم السيد الرضى، إلا أنّ مضمون الخطبه على درجه من الرفعه بحيث يقوى سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا إِلَّا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ!

هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبِينُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونَ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدِ فَيَكُونُ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرِ فَيَكُونُ مُمَثَّلًا. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ، وَلَمَّا مَشُورَهُ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَهُ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقَهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لَطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَأَنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ».

الشرح والتفسير: درس في معرفة الله

ذكرنا آنفاً أنّ الإمام عليه السلام استهل هذه الخطبة بحمد الذات الإلهية المطلقة وبيان صفاتها الجمالية والجلالية، فأشار بادية ذى بدء إلى معرفه كنه ذات الله فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْحَسَرَتِ (١) الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا (٢) إِلَّا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! (٣)».

والسؤال الذى يطرح نفسه: لماذا عجزت الاوصاف عن معرفه كنه الذات

ص: ٧٣

١- (١). «انحسرت» من ماده (حسر) على وزن قصر، تعنى فى الأصل العرى، ثم استعملت بمعنى الضعف والعجز حيث يتعرى الإنسان فى هذه الحاله من قواه

٢- (٢) «مساغ» من ماده (سوغ) بمعنى سهوله الاكل والشرب ثم أطلقت على كل مسير سهل، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة

٣- (٣) «ملكوت» من ماده (ملك) على وزن قفل، بمعنى الحكومه والملكيه، وإضافه الواو والياء تفيد التأكيد والمبالغه وإن استعملت بشأن الله تبارك وتعالى فإنها تفيد حكومته المطلقة على العالم قاطبةً

الإلهية؟ ذلك لأنّ جميع الألفاظ الموضوعه لبيان الأوصاف إنّما ترتبط بصفات المخلوقين وهى صفات محدوده ومخلوقه. وبعباره أخرى فإنّ ذات الله المطلقه واللامتناهيه من جميع الجهات متعذره الإدراك من قبل عقولنا المحدوده ولا يسع ألفاظنا وأفكارنا بيانها والوقوف عليها، وهذا ما أذهل العقول البشريه وحال دون ظفرها بالسييل إلى معرفه تلك الذات، طبعاً هذا لا يعنى أننا نقول باستحاله معرفه البشر بالله، أو بعباره أخرى أننا لا نقول بتعطيل المعرفه، بل المراد أنّ حظنا من العلم بتلك الذات المطلقه من جميع الجهات هو العلم الإجمالى الذى يسعنا الإشاره إليه من خلال آثاره وليس لدينا من علم تفصيلى بهذا الشأن. ولا- تبدو هذه القضيه عجيبه، فعظمه الله ممّا لا- نقاش فيها. بل هنالك الكثير من مخلوقات عالم الإمكان التى تؤمن بها وتبدو واضحه لنا كالشمس، غير أننا نجعل كنهها، على سبيل المثال أننا تؤمن بوجود الروح، ووجود الجاذبيه والزمان والمكان، لكن ما حقيقه كنه هذه الأمور؟ إنّ هذه الأمور تعدّ من الأبحاث التى حظيت باهتمام الفلاسفه والحكماء وعلماء العلوم الطبيعیه ولم يتفقوا لحد الآن على نقطه مشتركه، بل أبعد من ذلك إننا لأقرب إلى أنفسنا من كل شىء ولكن ما زلنا نجعل الكثير من أسرار وجودنا، حتى انبرى العالم الغربى «الكسيس كارل» ليكتب كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ببيان صفه أخرى من صفات الله - وهى تأكيد لما سبق - فقال

«هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونَ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَّخْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَّقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا». نعم، فوجوده أظهر الأشياء وكنهه فى غايه الخفاء وما تاره العين قد يكون خطأ البصره - الذى ذكر له العلماء عدّه أنواع - ولكن العلم بوجود الله لأخطأ فيه. وإننا نشعر بحضوره فى كل زمان وكل مكان وكل حال، مع ذلك نحن حيارى فى إدراك حقيقه ذاته، وكلما تقدمنا خطوه فى هذه المرحله رجعنا خطوات إلى الوراء، كما قال الشاعر:

كُلَّمَا قَدَّمْ فِكْرِي فِي

كَ شِبْرًا قَرَّ مَيْلًا

كَأَنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ أَشْبَهَ بِذَلِكَ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَبْصُرُ مَصْدَرًا شَدِيدًا لِلنُّورِ يَخْطِفُ الْأَبْصَارَ فَيَقْتَرِبُ مِنْهُ بِيْطَاءٍ فَإِذَا النُّورُ يَهْزُهُ فَجَأَهُ وَيُدْفَعُ بِهِ خَائِفًا إِلَى الْخَلْفِ. حَقًّا يَبْدُو أَنَا سَنَقَعُ لَا مَحَالَ فِي الْخَطَأِ إِنْ حَاوَلْنَا تَشْبِيْهَ أَيْ مِنْ صِفَاتٍ وَكَنْهَ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ، ذَلِكَ لِأَنَّ نَشْبِيْهَهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ فَنَصَابُ بِنُوعٍ مِنَ الشَّرْكَ.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى خلقه سبحانه وتعالى للخلق فقال:

«خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةٍ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةٍ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذَعَنَ (١) لِبَطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَأَنْقَادًا وَلَمْ يُنَازِعْ» جدير ذكره أن كل ابداعات الإنسان إنما تستند إلى برامج مسبقه وخطط معده بشأن عالم الطبيعه. فأحياناً يستفيدها بعينها وأخرى يضيف لها بعض أفكاره، إلما أن آيه فكره ليست جديده فى الواقع، على العكس من ذلك فإنّ نظرنا إلى عالم الوجود سنرى ملايين الأنواع من النباتات والحيوانات الصحراويه والبحريه والطيور وسائر الكائنات التى يتسم كل واحد منها ببعض الخصائص المميزه له، كلها تدين لخالقها تبارك وتعالى.

وأخيراً فإنّ الإمام عليه السلام قد أشار فى هذا المقطع من الخطبه إلى ثلاثه مواضيع مهمه؟ عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات الإلهيه، وظهور وجوده تعالى، وأخيراً إبداعه الفريد فى عالم الخلق.

«وَمِنْ لَطَائِفِ صِيغَتِهِ، وَعَجَائِبِ خَلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ عَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الصَّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَنْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ؛ وَكَيْفَ عَشِيَّتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئِ نُورًا تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَّعَهَا بِتَلَاؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكْنَهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلُجِ اثْتِلَاقِهَا، فَهِيَ مُسِيدَةٌ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةٌ اللَّيْلِ سَرَاجًا تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافَ ظُلْمَتِهِ، وَلَمَّا تَمْتَنَعَ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِعَسَقِ دُجْنَتِهِ. فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَوَدَّتْ أَوْضَاحَ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الصَّيَابِ فِي وَجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَا قِيَهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيْالِيهَا. فَسَبَّحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَارًا وَمَعَاشًا، وَالنَّهَارَ سَكْنًا وَقَرَارًا!».

الشرح والتفسير: الطائر العجيب

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه العام والجامع بشأن خلق العالم حتى ركز هنا على أعجب وأظرف مخلوقات الله، ألا وهو الخفاش الفريد في خلقه من كل النواحي، وإن كانت جميع المخلوقات عجيبة لو أجلنا التفكير بصورة صحيحة. فقد أشار عليه السلام إلى جانبين فريدين في خلقه هذا الحيوان؛ عينه وجناحيه، فقال:

«وَمِنْ لَطَائِفِ

صَنَعْتَهُ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ عَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ».

ثم يردفها بالعباره:

«وَكَيْفَ عَشَيْتَ (١) أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيءِ نُورًا تَهْتَدِي بِهِ فِي مِزَانِهَا، وَتَنْصَلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَّعَهَا بِتَلَاؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبْحَاتِ (٢) إِشْرَاقِهَا، وَأَكْنَهَا (٣) فِي مَكَامِنِهَا (٤) عَنِ الدَّهَابِ فِي بُلُجِ (٥) ائْتِلَاقِهَا (٦)». النقطه الجديره بالتأمل، إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى ثلاث نقاط مختلفه بثلاث عبارات إلى التأثير السلبي لضياء الشمس عليها، فقال: إنّ ضياء الشمس لم يدعها تتلمس طريقها وإنّ أشعه الشمس تمنعها من بلوغ مقاصدها في هذه الطرق (كالطعمه والحجر) وأخيراً أنّها لو سلكت طريقاً وطلعت عليها الشمس فجأه لصدتها عن مواصله السير.

وبالنتيجه، ليس لها سوى الاختباء في الحجور المظلمه لتأمن أشعه الشمس، وعلى هذا الأساس فإنّ ضياء الشمس الذى ينير كل شىء ويساعد جميع الكائنات الحيه لأن تعرف طريقها وتواصل حركتها نحو غايتها، لا يبدو كذلك بالنسبه لهذا الطائر «الخفاش» فأثاره سلبيه عليه، وعلى العكس من ذلك فهو يستفيد من الظلمه التى تسوق كل ما سواه إلى السكون، ليبدأ بالنشاط والحركه.

ومن هنا واصل كلامه فقال:

«فَهِيَ مُسْدَلَةٌ (٧) الْجُفُونِ (٨) بِالنَّهَارِ عَلَيَّ

ص: ٧٨

١- (١) . «عشيت» من ماده (عشو) بمعنى الظلمه، إشاره إلى أنّ عيونها عاجزه عن رؤيه ضياء الشمس

٢- (٢) . «سبحات» جمع سُبْحَه، على وزن لقمه، بمعنى النور، كما تعنى الظلمه

٣- (٣) «اكنها» من ماده (كن) على وزن جن، تعنى فى الأصل، الظرف الذى يحفظ فيه الشىء، ثم اطلقت على جميع الوسائل التى تؤدى إلى الخفاء

٤- (٤) «مكامن» جمع مكمّن، من ماده (كمون)، بمعنى الاخفاء والمكمّن هو الموضع الذى يختفى فيه الإنسان أو الشىء

٥- (٥) . «بلج» جمع بلجه، أول ضياء الصباح

٦- (٦) «ائتلاق» من ماده (التق) على وزن برق، بمعنى البريق، وبلج ائتلاقها بمعنى أول الضياء ولمعان الشمس

٧- (٧) . «مسدله» من ماده (سدل) على وزن عدل، تعنى فى الأصل، هبوط الشىء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يتغطى وهى هنا إشاره إلى سقوط أجفان الخفاش إلى الأسفل

٨- (٨) «جفون» جمع جفن، على وزن قفل، ما يغطى العين

حِدَاقِهَا (١) ، وَحِإِعَلَهُ اللَّيْلُ سِرَاجًا تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافٌ (٢) ظَلَمْتِهِ، وَلَمَّا تَمَتَّعَ مِنَ الْمُضْتَعَى فِيهِ لِعَسَقٍ (٣) دُجِنْتِهِ (٤)».

ثم تطرق إلى وضع الخفاش حين شروق الشمس وارسالها لأشعتها على الجبال والصحارى فقال:

«فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ (٥) نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضُّبَابِ (٦) فِي وَجَارِهَا (٧) ، أُطْبِقَتِ الْأَجْفَانُ عَلَى مَا فِيهَا (٨) ، وَتَبَلَّغَتْ (٩) بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيَالِيهَا».

ياله من تشبيه لطيف! فقد شبه الشمس منتصف الليل بالمرآة التي تلمعت بخمارها وحين الشروق طرحته جانباً وقد أشرق ضياء وجه هذه الأم الحنون على مهد أولادها. العبارة الرائعة الأخرى أنه قال: إنَّ إشراق ذلك النور والضياء بلغ جحور الضباب المعروفه بشغفها بطلوع الشمس وقد أخرج آنذاك راسه من جحره ليستقبل ضياء الشمس. وهي إشارة أيضاً إلى أن الخفافيش تحتفظ بما اصطادته في الليل لنهارها.

ص: ٧٩

- ١- (١) . «حداق» جمع حدقه، سواد العين
- ٢- (٢) «اسداف» جمع سدفة، على وزن وزنه، تعنى، أحياناً الظلمه، وأخرى النور، ووردت هنا بالمعنى الأول
- ٣- (٣) «عسق» بمعنى شدة الظلمه، كما تستعمل بمعنى منتصف الليل لاشتداد الظلمه منتصف الليل
- ٤- (٤) «دجنه» من ماده (دجون) بمعنى، السحاب والمطر، ولما كان السحاب والمطر يؤدى إلى الظلمه، فإن مفرده الدجنه تعنى الظلمه، وعسق دجنته، تعنى، شدّه الظلام
- ٥- (٥) . «اوضاح» جمع وضح، على وزن شفق، بياض الصبح
- ٦- (٦) . «ضباب» جمع ضب، على وزن سد، الحيوان المعروف
- ٧- (٧) «وجار» بمعنى، جحر
- ٨- (٨) «مآقى» جمع مؤق، على وزن قفل، بمعنى طرف العين ممّا يلي الأنف، كما فسّرهما البعض بمجرى الدمع الواقع فى زاويه العين، ووردت فى العبارة كإشاره إلى أنّ جفون الخفاش تغطى جميع عينه حتى زواياها. ولعل هذه العبارة إشارة إلى نقطه لطيفه وهى أنّ آخر نقطه تغلق عند غلق العين ما يلي طرف أنفه
- ٩- (٩) «تبلغت» من ماده (تبلغ) بمعنى اكتفت بالشىء

ثم يخلص إلى نتیجه ليقول بعباره قصيره:

«فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَيِّكناً وَقَرَاراً!» فهذا الكائن الفريد، وخلافاً للكائنات الحيه كافه - ولاسيما الإنسان - التي تفتت في النهار وتستريح وتسكن في الليل «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً» (١)، إنما يستريح في النهار ويكّد من أجل المعاش في الليل لتعلم الخليقه أنّ قدره الله لامتناهيه وكل ما يريده سبحانه يكون.

وستكلم في آخر الخطبه إن شاء الله عن عجائب خلقه الخفاش ولاسيما خلقه عينيه.

ص: ٨٠

١- (١). سورة النبأ، الآيتان ١٠ و ١١

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَهُ مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيْرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا (١) الْأَذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنْكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيْنَهُ أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقًا فَيَنْشَقُّ، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا. تَطِيرُ وَوَلَمَدَهَا لِمَاصِقُ بِهَا لِأَجَىءِ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَزْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يَفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ الْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!».

الشرح والتفسير: عجائب الخفاش

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى أمرين من عجائب خلقه الخفاش (جناحه وتربيته لفرخه)، فقال:

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَهُ مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيْرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا (١) الْأَذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ (٢) وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنْكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيْنَهُ أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقًا فَيَنْشَقُّ، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا». حَقًّا إِنَّ هَذَا لَمِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ، فَاجْنِحُهُ جَمِيعُ الطَّيُورِ تَتَكُونُ مِنَ الرِّيشِ الَّذِي يَتَوَسَّطُهُ شَيْءٌ يَشْبَهُ الْقَصَبِ، وَنَظْرًا لِحَفْتِهِ فَإِنَّ الطَّيُورَ تَسْتَطِيعُ الطَّيْرَانِ بِوَسَطَتِهِ بِسَهُولَةٍ، أَمَّا الْخَفَاشُ الْمَعْرُوفُ بِطَيْرَانِهِ السَّرِيعِ فَهُوَ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنِ جَمِيعِ الطَّيُورِ، فَجَنَاحُهُ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ يَتَوَسَّطُهَا عِظَامٌ نَحِيفَةٌ أَشْبَهُ بِالْغَضَارِيِّفِ. وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ رَغْمَ نَحَافَتِهَا إِلَّا أَنَّهَا شَدِيدَةٌ

ص: ٨١

١- (١). «شطايا» جمع شظية، على وزن قضيه، القطع المتفرقة

٢- (٢) «ريش» الشيء المعروف عند الطيور

المقاومه، كما أنّها خفيفه وصامده على الدوام وهى تشبه صفحه إذن الإنسان.

والغريب أننا لو نظرنا إليه إزاء ضوء الشمس أو المصباح لشاهدنا مجموعه من الأنابيب الظريفه والواسعه والمعقده من العروق الدمويه التى تغذيه والتي يشتد نشاطها حين يطير لتوصل المواد الغذائيه اللازمه إلى الأجنحه بهدف السرعة فى الحركه.

ثم أشار إلى قضيه عجيبه أخرى فى خلقه هذا الطائر والتي تتعلق بتربيته لولده فقال:

«تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَأَصِقُ بِهَا لَاجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَزْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلتُّهُوِضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَيَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ». معروف أن لهذا الحيوان دوره شهريه كسائر (الثديّات) وهو يحمل ويضع الحمل، خلافاً لسائر الطيور البيوضه وتفقيس فراخها فى بيوضها. وينفرد الخفّاش بحمله لفرخه معه حين الطيران والهبوط ليعلّمه الطيران وكيفيه الحصول على الغذاء وصيد الحشرات والخروج والرجوع إلى العش والحجر، ولعل سرّ حمله لفرخه معه خلافاً لعاده جميع الطيور أنّه يمارس الطيران ليلاً فيضطر لحمله معه.

على أيّ حال فإنّ كل شىء عجيب فى هذا الطائر، وهذا بدوره أحد عجائب الخليقه التى تعرف الإنسان على تنوع المخلوقات وقدره الخالق.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته الشريفه بالخشوع أمام عظمه الله وقال:

«فَسَيَّبِحَانَ الْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!» وكما استهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله والثناء عليه فقد اختتمها بتسبيحه وتنزيه ذاته المقدّسه.

تأمل

خلقه الخفّاش العجيبه

تحدث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه عن بديع خلقه الخفّاش الذى يختلف فى كل شىء تقريباً عن سائر الطيور، حتى صرّحت بعض المصادر العلميه أنّ الخفّاش

ص: ٨٢

ليس من فصيله الطيور، بل جزء من الثدييات وذلك لما يلي:

١. للخفاش أسنان، بينما للطيور منقار.
٢. بدن الخفاش مغطى بالشعر، بينما للطيور ريش.
٣. تتكون أجنحه الخفاش من قطعه لحميه رقيقه وليست الطيور كذلك.
٤. للخفاش يدان ورجلان ويمشى على الأرض على يديه ورجليه وليست الطيور كذلك.
٥. الخفافيش ولوده، بينما الطيور بيوضه.
٦. ترضع الخفافيش صغارها، بينما توفر الطيور الغذاء المناسب لفراخها.
٧. معاش الخفافيش ليلاً، والطيور نهاراً.
٨. تنام الخفافيش نهاراً وتطير عقب الغروب وتتعلق حين النوم بأرجلها على الأشجار والسقوف، بينما ليست الطيور كذلك.
٩. تتغذى الخفافيش على الحشرات وتفتح أفواهها حين تطير وتبتلع عشرات أو مئات الحشرات ولعل هذا سبب رائحتها الكريهه، ولعل هذا العمل من الخفافيش هو الذى يسهم فى تنقيه أجواء البيئه من الحشرات، ومن هنا فقد عمد الناس إلى بناء الأبراج لتربيه الخفافيش فى المناطق التى تكثر فيها الحشرات. جدير بالذكر، وخلافاً لما يتصوره البعض من ضعف بصر الخفاش حتى راح يضرب به المثل أنّ الشخص الفلانى أعمى كالخفاش، فإنّ باصره الخفاش حاده جداً، إلّا أنّ عينه حساسه للضوء ولا يطبق تحمله. والخفاش يطير بسرعه ومهاره فى الليل حتى حين شدّه الظلمه، ولا يستعين الخفاش فى طيرانه الليلي بعينه فقط، بل يتمتع بجهاز صوتى يشبه الرادار. فالخفاش حين الطيران يُخرج صوتاً من أنفه وليست لدينا القدره على سماعه، إلّا أنّ هذا الصوت يصطدم بكل شىء يعترض طريقه وينعكس إليه، ويلتقط هذا الصوت المنعكس بأذنه الكبيره فيقف على الأشياء التى تقف فى طريقه فيغيّر مساره، ومن هنا قيل: الخفاش يرى بأذنه. عاده ما يتغذى الخفاش على

الحشرات، إلماً أنّ بعض الخفافيش تتناول الفاكهه، وبعضها الآخر وحشيه خطيره، ويبدو أنّ عددها قليل جداً. وهى تهجم على الإنسان حين النوم فتغرس أسنانها بكل هدوء فى بعض المواضع التى تفتقر إلى الأعصاب والحساسيه من قبيل شحمه الأذن فتمتص الدم، كما تتأتى خطورتها من إمكانيه حملها لبعض الميكروبات القاتله من قبيل الحمى الصفراء. والخفاش يقترب من الماء حين الطيران ليرتشف الماء كالقط بلسانه. ويضع الخفاش القليل الوزن ما يقارب من أربعة فراخ يحملها معه حين الطيران، أمّا تلك الثقيله الوزن والتى تشبه القطه أحياناً، فلا تلد أكثر من فرخ، أضف إلى ذلك فهناك بعض الخفافيش التى لاتزن أكثر من الدرهم(١).

وقد وردت فى كتاب التوحيد للمفضل بعض العبارات القصيره والعميقه المعنى بشأن خلقه الخفاش حيث إنّ الله خلقه وسطاً بين الطيور والأنعام (الثديّات) ذلك أنّ له أذنين طويلتين وأسناناً وهو يلد ويرضع وليده ويمشى على يديه ورجليه، وكل ذلك خلافاً للطيور، كما يطير فى الليل ويتغذى على الحشرات الطائره فى الهواء، ويعتقد البعض أنّه لا يتغذى سوى على الهواء، وهذا باطل، وذلك أولاً: لخروج البول والغائط منه وهذا غير ممكن دون غذاء، وثانياً: إنّ له أسناناً وليس لهذه الأسنان من معنى إن لم يتغذّ ونعلم أنّ الله لم يخلق شيئاً عبثاً(٢). على كل حال فكلما أمعنا النظر فى الخفاش أدركنا عمق الأسرار المركبه فيه، وهنا نقف على عظمه ما أورده الإمام عليه السلام فى أنّ الله كأنه خلق هذا المخلوق للتعريف بعظمه قدرته بعرضه أحد بدائع خلقه الذى انطوى على العديد من العجائب والغرائب.

ص: ٨٤

١- (١) الرساله الثقافيه، ج ٧، ص ٦٥٨. أُلّف هذا الكتاب العالم الغربى موريس باركر وقد ترجم إلى الفارسى من قبل «رضا أقصى» ونخبه من الكتاب المعروفين، كذلك كتاب المعجم الزولوجى الحديث للمؤلف محمد كاظم المالكى، المتخصص فى علم الأحياء، ج ٢، ص ٦٣٦ وكتاب البحث عن الله، لآيه الله العظمى مكارم الشيرازى.

٢- (٢). راجع بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٧

خَاطَبَ بِهِ أَهْلَ الْبَصْرَةِ عَلَى جِهَةِ اِقْتِصَاصِ الْمَلَا حِمِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى مسائل مختلفه مرتبطه مع بعضها البعض رغم استقلاله كل منها، وتدور هذه الخطبه حول عدّه محاور هي:

الأول: أنّ الإمام عليه السلام حثّ الناس على طاعته وقد كشف لهم النقاب عن سبيل الجنّه الملى بالمتاعب والمشقات.

الثانى: إشار الإمام عليه السلام إلى دوافع عائشه فى إثارة فتنه الجمل حتى لا يظن الآخريين بأنّ خروجها للمعركه يضىفى شرعيه على ممارسات طلحه والزبير.

الثالث: يتحدث عن القيامه والمعاد ويعدّ الناس لذلك بالتزود من التقوى والعمل الصالح وكسب الفضائل ومكارم الأخلاق.

الرابع: أشار فيه إلى كيفية بعث الموتى من القبور وحضورهم فى المحشر.

ص: ٨٥

١- (١) سند الخطبه: لم يرد فى مصادر نهج البلاغه سند يمكن الاعتماد عليه كما فى سائر المصادر، ويبدو أنّ السند الرئيسى لهذه الخطبه ما ذكره المرحوم السيد الرضى، إلّا أنّ مضمون الخطبه على درجه من الرفعه بحيث يقوى سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام

الخامس: الحديث عن ممارسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يخالف ظن البعض من المشاكل المترتبه عليها في الحياه الدنيا والآخره.

السادس: إشاره إلى أهميه القرآن ودوره في إصلاح الفرد والمجتمع.

السابع: الرد على سؤال طرحه شخص بشأن الفتنه وهل سأل الإمام عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، إلى جانب إخبارهم عن شهادته.

ص: ٨٦

فَمَنْ اسْتِطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَغْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقِهِ مَرِيرَةٍ.

وَأَمَّا فَلَانُهُ فَأَذْرَكَهَا رَأَى النَّسَاءِ، وَضَغْنُ غَلَا فِي صِدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِنَتَالِ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهيه

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد موقعه الجمل حيث تفيد العبارات الواردة في طليعتها إشاره الإمام عليه السلام قبل ذلك إلى الفتن التي تنتظر الناس ويحذرهم أنّ فتنه الجمل ليست الأولى والأخيرة فقال:

«فَمَنْ اسْتِطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَغْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقِهِ مَرِيرَةٍ(١)». مفهوم العبارة

«أَنْ يَغْتَقِلَ نَفْسَهُ» - بالنظر إلى أن يعتقل من ماله عقل بمعنى المنع - اقتصار النفس على طاعه أوامر الله التي تمثل أرفع درجات الطاعة والعبودية. والعبارة

«وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ» إشاره إلى أنّ الإنسان لا ينال الجنة والسعادة بالهين، وعلى الفرد الذي يبغى الجنة أن يعد لها عدتها؛ وذلك لأنّ جهاد النفس ولجم هواها شاق كماواجه العدو.

وقد عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنى في الخطبه ١٧٦ بما رواه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

«إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الذي ساق عائشه إلى الجمل - الفتنه التي عمت العالم الإسلامي آنذاك - وقد تطرق إلى التفاصيل بخمس عبارات عميقه المعانى فقال:

«وَأَمَّا فَلَانُهُ فَأَذْرَكَهَا رَأَى النِّسَاءِ، وَضَمَّعْنَ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلٍ (١) الْقَيْنِ (٢)، وَلَوْ دُعِيَتْ لَتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُزْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى». لا شك في أن المراد من فلانه فى العبارة المذكوره عائشه، وحيث إن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه بعد موقعه الجمل، يبدو أن الهدف هو الرد على بعض الشبهات، واحدى الشبهات، لو لم تكن هذه المعركه شرعيه كيف تشترك فيها عائشه لتلعب ذلك الدور الحساس؟ وقد أشار الإمام عليه السلام فى رده على هذه الشبهه إلى دافعين يكمنان وراء مسانده عائشه لطلحه والزيبر:

الأول: آراؤها الضعيفه كامرأه والتي يستطيع طلحه والزيبر اختراقها وضمها إلى جانبهما، ويؤيد ذلك، الأخبار التي صرحت بندم عائشه على فعلتها وتوبتها.

والآخر، الحقد الدفين الذى كانت تكنه لعلى عليه السلام والذى فاق الحدود بحيث لم يدعها تفكر فى عواقب فعلتها وبوجه من تقف ولحساب من، وكيف ستكون نتيجة المعركه؟ وقد أسهب شرّاح نهج البلاغه فى بيانهم للعوامل التي تقف وراء ذلك الحقد والبغض؛ إلا أن الشرح الوافى ما ذكره ابن أبى الحديد عن استاذه أبى يعقوب، ونشير إلى جانب من ذلك:

١. على عليه السلام زوج الزهراء عليها السلام والزهراء بنت خديجه وقد شحنت التواريخ المعروفه بالأخبار التي تتحدث عن حساسيه عائشه من خديجه حتى بعد وفاتها.

٢. منزله فاطمه الزهراء عليها السلام لدى رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تكشف عن شخصيتها عليها السلام

ص: ٨٨

١- (١). «المرجل» هو القدر

٢- (٢) «القين» الحداد

وأنه كان يوليها منتهى الحب والاحترام حتى صرحت بعض الروايات المعتبره أنه اطلق عليها «سيدة نساء العالمين» وقال:

«فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِثِّي مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ أَغْضَبَهَا فَقَدْ أَغْضَبَنِي»^(١). وهذا ما أثار حفيظه عائشه حيث كانت ترى أنها تستحق هذه الألقاب لا غيرها، ولذلك حملت الحقد على علي عليه السلام.

٣. منزله على عليه السلام لدى النبي صلى الله عليه وآله ومدى حب النبي صلى الله عليه وآله له وحديثه عن فضائله ومناقبه، وكانت ترى أحقيه أبيها أبي بكر بتلك الفضائل.

٤. كون نسل رسول الله صلى الله عليه وآله من فاطمه عليها السلام وعلي، ووجه للحسن والحسين عليهما السلام بينما لم تكن عائشه ولوده.

٥. إغلاق النبي صلى الله عليه وآله كآفه أبواب الصحابه في المسجد حتى باب بيت أبي بكر سوى باب دار علي عليه السلام. أضف إلى ذلك فهناك عدّه عوامل أخرى لا يسع المجال ذكرها^(٢).

جدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد روى عن استاذه أبي يعقوب قال: «ثم بايع علي أباهما - عائشه - فسّرت بذلك، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعه واستقرار الخلافه وبطلان منازعه الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا واستمرّت الأمور على هذا مدّه خلاف أبيها وخلافه عمر وعثمان، والقلوب تغلى، والأحقاد تذيب الحجاره، وكلّما طال الزمان على عليّ تضاعفت همومه وغمومه، وباح بما في نفسه إلى أن قتل عثمان، وقد كانت عائشه فيها أشدّ الناس عليه تأليماً وتحريضاً، فقالت:

أبعده الله! لمّا سمعت قتله، وأمّلت أن تكون الخلافه في طلحه، فتعود الإمره تيميه، كما كانت أولاً، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب، فلمّا سمعت ذلك صرخت:

واعثماناه! قتل عثمان ظلوماً، وثار ما في الأنفس، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده»^(٣).

ص: ٨٩

١- (١). بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٣

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١، ص ١٩٢ بتصرف وتلخيص

٣- (٣) المصدر السابق، ص ١٩٨ و ١٩٩

والغريب في الأمر أنّ بعض العلماء رغم اعترافهم بخطأ عائشه وارتكابها المعصيه في معركة الجمل، يزعمون أنّها تابت وقد عفا الله عنها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سفك دماء سبعة عشر ألفاً وفي روايه عشرين ألف مسلم في الجمل بالإضافة إلى تلك المصائب التي طالت العالم الإسلامي بسبب تلك المعركة وما زالت آثارها عالقه، يُغفر بمجرد قول: «استغفر الله»؟ وهل يتجاوز الله عن هذا الحق بهذه السهوله؟ ذكر ابن عبد ربه في عقده الفريد أنّ امرأه تدعى أم أوفى دخلت على عائشه بعد الجمل وسألته: يا أم المؤمنين ما تقولين في من قتل ولده الصغير؟ قالت عائشه: وجبت له نار جهنم؟ ثم سألتها: فما تقولين فيمن قتلت عشرين ألفاً من ولدها؟ أدركت عائشه أنها المعنيه بهذا السؤال لما فعلته في الجمل فردت: عليكم بعدوه الله هذه (1).

وأما عبارته الإمام عليه السلام: (ولو دعيت لتتال من غيري ما أتت إليّ، لم تفعل) إشاره إلى أنّ هذه المرأه لم تكن لتطالب بدم عثمان، بل هدفها تأليب الناس علىّ. وأمّا عبارته (ولها بعد حرمتها الاولى) ذلك انها كانت زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وقد غض النظر عن عقابها في الدنيا حرمه لرسول الله صلى الله عليه وآله ولذلك أُرِدْفها بالعباره (والحساب على الله تعالى) في أنّ الله سوف لن يعفو عن هذه المعصيه. وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر في الآية الكريمة ٣٠ من سوره الأحزاب: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

ص: ٩٠

منها: سَبِيلٌ أْبْلَجُ الْمُنْهَاجِ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ، فَبِالْإِيْمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَبِالْإِيْمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُزْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزَلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَأَمْقَصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُزْقَلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى.

الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاه

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة عن الإيمان ثم آثاره - العمل الصالح والعلم والمعرفة وخوف العقاب والاستعداد للسفر الشاق وبالتالي نيل الجنة - فقال:

«سَبِيلٌ أْبْلَجُ (١) الْمُنْهَاجِ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ». شبه الإمام عليه السلام الإيمان بالسبيل الواضح الخالي من العقبات نهراً والمليء بالمصايح ليلاً، كما يحتمل أن يكون المراد من السراج، العلامات والألواح التي تنصب على جوانب الطرق بغية إرشاد المسافر إلى الهدف، أى أنّ الإيمان طريقه واضح وعلاماته جلية.

ثم قال عليه السلام:

«فَبِالْإِيْمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَبِالْإِيْمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُزْهَبُ الْمَوْتُ» (٢). قطعاً أنّ معنى الإيمان في

ص: ٩١

١- (١). «ابلج» من ماده (ولوج) بمعنى الوضوح، سيما ضياء أول الصبح

٢- (٢). المعروف من سراج نهج البلاغه أنّ (سبيل) مبتدأ لخبر محذوف هو الإيمان، بقرينه ما ورد في الجملة القادمة، كما احتمال البعض أنّ المبتدأ المحذوف «سبيل الجنة» التي وردت في المقطع السابق، والواقع، عبارته (واما فلانه...) ذكرت كجملة اعتراضية

العبارتين هو الاعتقاد الباطني؛ و (يستدل) في العبارة الأولى، يعطى معنى العلية وفي العبارة الثانية، الكاشفيه، أى أنّ الإيمان سبب العمل الصالح، والعمل الصالح كاشف عن الإيمان، مع ذلك ربّما تكون العلية هي المراده من (يستدل) في المعنيين، أى كما أنّ الإيمان سبب العمل الصالح فإنّ العمل الصالح سبب قوه الإيمان. وقوله عليه السلام (وبالإيمان يعمر العلم) إشارة إلى أمرين:

الأول: إنّ الإنسان إن آمن بالخالق العالم والحكيم وانفتح على الهدف الذى ينطوى عليه الخلق سيوقن بان ليس هنالك شىء خُلق عبثاً فى هذا العالم فيسعى أثر ذلك للوقوف على علل الأشياء وأسرار الظواهر. حيث صرح أحد علماء العلوم الطبيعه بأنّ العنصر الذى دفع بكبار العلماء للسعى من أجل كشف أسرار الطبيعه ولسنين مديده إيمانهم بالهدفية التى تحكم عالم الخليقه وأن ليس هنالك من سبيل للعبث فى خلق أى شىء.

الثانى: إنّ أحد موانع العلم والمعرفه هو التعصب الأعمى والغرور، لكن إن حل الإيمان زالت كل هذه الموانع وتمهد السبيل أمام بلوغ منابع العلوم والمعارف. أضف إلى ذلك فإنّ العلم دون عمل هو علم هدام يستبطن الجهل، والعنصر الذى يقترن العلم بالعمل هو الإيمان، كما ورد ذلك فى الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه قال:

«إِنَّ الْعِلْمَ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ازْتَحَلَ عَنْهُ» (١). وقوله عليه السلام: إنّ الإنسان بسبب العلم يرهب الموت فى أنّه لا يرى الموت نهايه الحياه، بل يراه بدايه حياه جديده يعيشها على ضوء ما أسلف من أعمال.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكره للعله والمعلول واللازم والملزوم فقال:

«وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ

ص: ٩٢

الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَأَمَقَّصِرَ (١) لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُزْقَلِينَ (٢) فِي مَضْمَارِهَا إِلَى الْغَيَابَةِ الْقُصْوَى». نعم، الموت نهايه الحياه الدنيويه وانطلاقه الحياه الأبدية، وصحيفه الأعمال تطوى بالموت؛ ذلك أن مزرعه الآخرة هي الدنيا، وليس في القيامة سوى الجنة والسعادة الأبدية أو النار والعذاب الأبدى، وكل إنسان دون استثناء آيل إلى أحدهما. لا يستبعد أن يكون ذكره لهذه العبارة بعيد موقعه الجمل أن أولئك النفر الضال لو كان إيمانهم قوى لما انساقوا إلى تلك الفتنة والمعركة القاتله. فالإيمان يدعو العلم والمعرفة وترجيح الدار الباقيه على تلك الفانيه: ولكن من المؤسف أن حجاب الهوى يحول دون إدراك العقل لهذه الحقائق رغم أن الطريق واضح والمعالم جليه.

أما العبارة

«وَبِالْقِيَامَةِ تُزَلَّفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» مقتبسه من سوره الشعراء، الآيه ٩١-٩٠: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ».

ص: ٩٣

١- (١). «مقصر» من ماده (قصر) على وزن فصل، أحد معانيه، المنع، كما يطلق المقصر على الموقف، كونه يمنع الإنسان من الحركة

٢- (٢) «مرقل» من ماده (ارقال) بمعنى المسرع

منها: قَدْ شَخَّصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ.

لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبَدِّلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا.

وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانٍ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يَقْرَبَانِ مِنْ أَجْلِ، وَلَا يَنْفُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، «فَإِنَّهُ الْحُجْلُ الْمُتَيْنُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ»، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّئْيُ النَّافِعُ، وَالْعِضْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاهُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَا يَعْجُجُ فَيَقَامُ، وَلَا يَزِيغُ فَيَسْتَعْتَبُ، «وَلَا تُحْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ»، وَوُلُوجُ السَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

الشرح والتفسير: عوامل النجاة في القيامة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه عقب العبارات السابقه - التي تحدث فيها عن الموت والجنه والنار - في مسأله الحشر والنشر يوم القيامة ثم تطرق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميه القرآن الكريم، كونها تشكل العناصر المحوريه في النجاة يوم القيامة فقال:

«قَدْ شَخَّصُوا (١) مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ (٢)، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبَدِّلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا».

فأشار بادية الأمر إلى أن الجميع ينهضون من القبر كما ورد ذلك كراراً في القرآن

ص: ٩٥

١- (١). «شخصوا» من ماده (شخوص) على وزن خلوص، بمعنى الخروج من الدار، كما وردت بمعنى، تركيز النظر على نقطه

معينه، وكأن العين تريد الخروج من حدقتها، وأريد بها هنا، الخروج

٢- (٢) «اجداث» جمع (جدث)، القبر

الكريم: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا» (١) ويستفاد من العبارة أنّ ذرات البدن التي تحولت إلى تراب تعود إلى القبر أينما كانت لتتحيا ثانية وتنفض عنها التراب.

وهنا يرد هذا السؤال: إنّ آيات القرآن صريحه في أنّ الدنيا ستنتهي بزلزله عظيمه تحطم كل شيء فكيف ستبقى القبور ويخرج الموتى منها إلى الحساب؟ أوردنا الاجابه عن هذا السؤال في الجزء الثالث من الأنوار العلويه.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عدم استبدال دور الجنّة والنار وسيقيم كل شخص على ضوء أعماله في الجنّة أو النار؛ والمراد أنّ الثواب والعقاب في الآخرة للمؤمن والكافر أبديان، لا يمكن استبداله ولا نقله. والحق أنّ تلك الدار على قدر من النظام والدقه الذي ينسجم مع العقيدة والعمل وكان كل مكان يبحث عن شخص لا العكس. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أنّ معركه الجمل كانت من النماذج البارزه لهذا المفهوم، فقال:

«وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانٍ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرَّبَانِ مِنْ أَجْلِ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ». على غرار ما جاء في القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ». ويرى بعض شراح نهج البلاغه أنّ التعبير (بالخلق) عن الله هو تعبير مجازي (مجاز في الكلمه أو مجاز في النسبه)، لأنّ الخلق ملكه نفسانيه تنبعث من الأعمال الصالحه والسيئه، والله منزّه عن هذه العوارض والحالات، إمّا أن اعتبرنا الخلق بمعنى الوصف فليست هنالك من مشكله سواء أريد به الحاله النفسانيه أو الوصف عين الذات الذي يطلق على الله. على كل حال فإنّ الوظائف التي عينها الإسلام للناس تكون أحياناً متعلقه بالإنسان مثل العبادات وأغلب المحرمات، لكن هنالك أمور واسعه جداً تصدق حتى على الله، كالعداله وترك الظلم وإرشاد الجاهل وتنبيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنّ أساس نزول الكتب السماويه وبعث الأنبياء على ضوء

ص: ٩٦

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو إرشاد الجاهل، وبناءً على هذا، كفى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهميته أنه محور انطلاقه جميع الأنشطة للأنبياء والرسل. وما قاله الإمام عليه السلام من أنهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، إشارته إلى أن أغلب الناس من ذوى النظره الضيقه والآفاق المحدوده يعتقدون بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى الاشتباك مع أهل المعاصي، وهذا ما يؤدي بدوره إلى القتل تاره وأخرى انفراج الناس عن هذا الإنسان وبالتالي قله رزقه.

ولكن إن جرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الأسلوب الصحيح والمعقول وجانب الإفراط والتفريط فإن الله يحفظ الإنسان الذي يمارس هذه الوظيفة ولا يبخل عليه في رزقه. وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شرائط، منها: احتمال التأثير وعدم الضرر، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعان؛ عام، وهو وظيفه كآفه الناس (عن طريق القلب واللسان، وخاص، وهو وظيفه الحكومه الاسلاميه (من خلال الإجراءات العمليه). فلو راعى الإنسان هذه الأمور في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جانب الأدب والاحترام فسوف يحظى بحب الآخرين واحترامهم لا انفراجهم عنه ونفرتهم، فإن عرضت له بعض المكاره يفرجها الله تعالى. وزبيده الكلام إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أساس ودعامه نظام المجتمع وقديسيته ونهضته وتطوره، والعكس بالعكس، فإن المجتمع الذي يموت فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستفحل فيه التنصل عن المسؤوليه وترتكب فيه الذنوب والمعاصي ويجهر فيه بالفسوق حتى يغط المجتمع في وحل الانحراف والفساد.

ولما كان سبيل نيل السعاده وحل المشاكل الفرديه والاجتماعيه يتمثل بالعوده إلى القرآن فإن الإمام عليه السلام يتطرق هنا إلى أهميته القرآن ليوضحها بعبارات حيه عميقه المعانى وتشبيهات لطيفه ضمن احدى عشره جمله - تشير كل جمله منها إلى ميزه من مزايا القرآن - قال

«وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ».

كأنَّ البشريه قبل التعليم والتربيه مستغرقه فى وحل الطبيعه ولابدَّ لها من التمسك بحبل بغيه النجاه. وينبغى أن يكون هذا الحبل متيناً كى لا يتركها منتصف الطريق.

ومن هنا يعبر عن القرآن بالحبل المتين، الوسيله الفضلى فى النجاه، وبالنظر إلى أنّ سلوكك الطريق فى الظلمات يؤدى إلى الضلال والسقوط فى المستنقعات فقد شبه القرآن بالنور المبين الذى يحف الإنسان حتى يبلغ الهدف.

وقال فى صفته الثالثه والرابعه بالنسبه للقرآن:

وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّىُّ (١) النَّافِعُ (٢)، فالصفات الذميه والردائل الأخلاقيه سواء تلك التى يتسم بها الفرد أو الجماعه كالأمرض المعضله وربّما القاتله وقد ورد علاجها فى ظلال القرآن الكريم، وطالما كان أهم عوامل الحياه وديمومتها هو الماء فإنّ القرآن الكريم يلعب دور الماء فى حياه الإنسان المعنويه، ومن هنا عدّه الإمام عليه السلام وسيله رى عطاشى الحق.

ثم قال فى الميزه الخامسه والسادسه:

وَالعِصْمَهُ لِمُتَمَسِّكٍ، وَالنَّجَاهُ لِلْمُتَعَلِّقِ» فالإنسان عاده ما يتعرض فى مسيرته نحو الصلاح والسعاده إلى بعض المطبات ولابدَّ له من التمسك بما يعونه من الوقوع فى تلك المطبات. وقال فى الميزه السابعه والثامنه

«لَمَا يَعْوَجُ فَيْقَامُ، وَلَمَا يَزِيغُ فَيَسْتَعْتَبُ (٣)». قطعاً أنّ كلام اللّهم الذى يستند إلى علمه المطلق ليس من سبيل للخلاف والخطأ والانحراف إليه، ذلك لأنّ الخطأ إنّما يقارفه من كان علمه محدوداً وقدرته بسيطه، لا تلك الذات المطلقه العلم والقدره، ونعلم جميعاً أنّ احدى ملامح اعجاز القرآن، عدم وجود التضاد والاختلاف فى آياته:

«وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (٤) كما

ص: ٩٨

١- (١). «رى» بمعنى السقى

٢- (٢) «نافع» من ماده (نفع) على وزن نفع، تعنى فى الأصل انغمار الماء، وتعنى هنا الرى الكامل، بحيث يزول العطش

٣- (٣). «يستعتب» من ماده (عتب) على وزن ثبت تعنى فى الأصل الانفعال الباطنى وان استعملت فى باب الاستفعال بمعنى

كسب ود الطرف المقابل وكانه يطلب منه العتبى حتى يرضى ويعودالى سبيل الحق

٤- (٤). سوره النساء، الآية ٨٢

ورد في سورة الكهف: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ غَبِيَةَ الْكِتَابِ وَكَلَّمَ يَعْقِلُ لَهُ عِوَجًا» (١).

ثم قال في الصفحه التاسعه:

«وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّذِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ». أجل فطراوه القرآن وحلاوته ودوره التربوي يسمو على القراءه والتكرار، ذلك لأن القرآن كلام الله وكلامه كذاته غير متناهٍ وكلما تدبر الإنسان فيه اكتشف حقيقه جديده وكلما تطور العلم البشرى كلما تكشفت أبعاد جديده منه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله

:«لا- تُحْصِي عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلِي غَرَائِبُهُ» (٢) أو كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام حين سأله شخص عن تسامى القرآن على التلاوه والتكرار فقال عليه السلام:

«لَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ لِمَا نِ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٍ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٣).

وأخيراً قال في الميزه العاشره والحاديه عشره:

«مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ». إشاره إلى أن القرآن معيار الحق والباطل والنصر والهزيمة، ومن تحدث على ضوء القرآن كان كلامه عين الحقيقه ومن التزم بالقرآن عملاً نال السعاده، ولاغرو فليس من سبيل للخطأ إلى القرآن وهذا ما يجعل الملتزم به قريباً من الحق في منطقته وسلوكه.

ص: ٩٩

١- (١) سورة الكهف، الآية ١

٢- (٢) . اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٦٩

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٩٢

وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنه، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟ فقال عليه السلام:

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلُهُ: «الم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا تَنْزَلُ بِنَا وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنْ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لِي: «أَبَشِّرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ.

الشرح والتفسير: الفتنه الكبرى

جاء في متابعه الخطبه:

«وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنه، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟» فالعبارة تشير إلى أن أذهان الناس كانت تساورها وقوع الفتنه، وأراد السائل أن يعرف هل ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله شيء بشأن هذه الفتنه الخطيره. فأجابه الإمام عليه السلام:

«إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلُهُ: «الم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» (١)

عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا تَنْزَلُ بِنَا

ص: ١٠١

وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ (١) عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أُبَشِّرُ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» (٢) فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ».

تأملان

١. الرد على بعض الأسئلة

تفيد العبارة الواردة في الخطبه أن الآيه: «الم * أَحْسِبَ النَّاسُ...» أنها نزلت في المدينة بعد موقعه أحد، في حين يتفق المفسرون على أن سورة العنكبوت مكيهه، حيث لم يكن آنذاك شيء عن الجهاد.

قيل في الجواب عن هذا السؤال: إن مكيهه سورة معينه يعنى نزول السوره بجميع آياتها في مكه، بل لا- يمنع أن تكون أغلب آياتها نزلت في مكه كما نزلت آيه أو أكثر، منها في المدينة، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بوضع هذه الآيه في السوره، على غرار إجماع المفسرين على مكيهه سورة النحل مع العلم اليقين بنزول ثلاث آيات منها بعد موقعه أحد.

السؤال الثانى: من أين علم على عليه السلام بعد نزول الآيه المذكوره أن الفتنه لا تقع على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بينما لم تشر الآيه إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد؟

ص: ١٠٢

١- (١). «حيزت» من ماده (تعنى) الوصول إلى شيء إن تعدت يالى، وعدمه إن تعدت بعن، كما فى الخطبه المذكوره

٢- (٢). «وراء» تعنى الخلف كما تعنى أحياناً الأمام

والجواب واضح في أنّ المراد من الفتنة خطر الانحراف عن أصول الدين وفروعه والذي يهدد كيان الأمة الإسلامية وليس لمثل هذا الانحراف أن يقع طالما كان النبي صلى الله عليه وآله بين ظهرانيهم، ولكن ما أن تغيب شمس النبي صلى الله عليه وآله حتى يستغل المنافقون الفرصه وتبرز الخلافات.

السؤال الثالث: ما تلك الفتنة التي أشار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الخطبه إلى وقوعها بعده؟ فقد ورد في روايه عن النبي صلى الله عليه وآله تعرض للتفاصيل أكثر من روايه نهج البلاغه، أنّه قال:

«إنّ أمتي ستفتن من بعدى فتأول القرآن وتعمل بالرأى وتستحل الخمر بالنبيذ(١) والسحت بالهديه والربا بالبيع وتحرف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمه الضلال فكن جليس بيتك حتى تقلدها، فإذا قلدها جاشت عليك الصدور وقلبت لك الأمور(٢). فهذا الحديث الذي ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبه يبيّن تلك الفتنة الكبرى(٣).

السؤال الرابع والأخير:

لماذا سأل علي عليه السلام بشأن شهادته؟ فهل أشار النبي صلى الله عليه وآله إلى شهادته حين تحدث عن تلك الفتنة؟ والحال لم يرد في الخطبه ما يشير إلى هذا الأمر؟ والجواب كما أسلفنا أنّ المرحوم السيد الرضى (ره) قد أوجز الخطبه. وقد ورد في الروايات المفصله أنّ علياً عليه السلام لما سمع من النبي صلى الله عليه وآله وقوع هذه الفتنة قال: يا رسول الله لقد وعدتني بالشهاده فاسأل الله أن يعجل لي بين يديك. قال صلى الله عليه وآله: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أمّا أنى وعدتك الشهاده وستشهد تضرب على هذه فتخضب هذه(٤).

ص: ١٠٣

١- (١). المراد من النبيذ كما ورد في روايات أهل البيت أنّ النبي صلى الله عليه وآله أراد الحد من بروده ماء المدينه فأمر بطرح كميّه من التمر في ظرف كبير من الماء (لا أن يكون الماء مضافاً) إلّا أنّ بعض المنافقين تذرّع لاحقاً بهذا الموضوع وقذف بمقدار كبير من التمر حتى تخمر وخرج منه هذا الشراب الشفاف الذي يعرف بالنبيذ

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٤٣

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٠٦

٤- (٤) المصدر السابق

القضيه الجديره بالذكر فى هذا المقطع من الخطبه ما ورد من حوار بين النبى صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، حيث تطرق النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى مفهوم الصبر الذى يكشف عن ذروه الإيمان وقمه الإيثار والتضحيه فى سبيل الله والقيم الإسلاميه التى لم تنقل عن شخص آخر على غرار ما هى عليه بالنسبه لعلى عليه السلام، ولعلنا نلمس امتدادات ذلك فى صرخته التى اطلقها عليه السلام حين ضرب فى محراب عبادته وخضب بدمه،

«فُزْتُ وَرَبُّ الكَعْبَةِ».

وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمُنُونَ سَيِّطَوْتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيدِ، وَالشُّحْتَ بِالْهَدْيَةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلْتَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أِبْمَنْزِلِهِ رَدَّهُ، أَمْ بِمَنْزِلِهِ فَتْنَهُ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلِهِ فَتْنَهُ».

الشرح والتفسير: الحيل الشرعية في استغلال المحرمات

قال الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه الذي يمثل آخرها ومواصله لنقل كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بخصوص الفتنة التي تقع من بعده:

«وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمُنُونَ سَيِّطَوْتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيدِ، وَالشُّحْتَ (١) بِالْهَدْيَةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ».

فقد ركز رسول الله صلى الله عليه وآله على تفاصيل هذه الفتنة الكبرى وأشار إلى خمس صفات من صفات الفئة التي تعيش ذلك الاختبار. فصرح قبل كل شيء بافتتانهم بأموالهم في إشاره إلى أن المال من المحاور الرئيسية في الاختبار والامتحان، كما نرى أن الأمر كذلك في كل عصر ومصر، والآخر، أنهم يعيشون حاله من الغرور

ص: ١٠٥

١- (١) «السحت» يعني في الأصل، فصل القشر عن الشيء، ثم اطلق على كل مال غير شرعى ولا سيما الرشوة، لأن هذه الأموال تسلب الإنسان البركه على غرار الشجره التي تذبل حين سقوط قشرها

الزائف، ذلك أنهم يتناولون على الناس بإسلامهم وكأنهم يمتنون على الله، ويظنون رغم كل آثامهم بنيل رحمه الله والأمان من عذابه، وهذه هي الحالة التي تستحوذ عادة على جميع الاثمين المغرورين الراضين عن أنفسهم.

قال القرآن الكريم بشأن بعض الأعراب الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً واتسموا بتلك الصفات: «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلِمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١).

الميزه الأخرى لهؤلاء أنهم يحاولون التغطية على أعمالهم السيئه بغيه خداع الآخرين وربما خداع أنفسهم. فهم على سبيل المثال يتناولون الخمر وحين يشكل عليهم بأنّها من المحرمات، قالوا: بل هذا النبيذ الذي كان يشربه رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، في حين لم يكن ذلك النبيذ مسكراً ولا حراماً، وقضيه ذلك النبيذ أنّ أصحابه بعد أن قدموا إلى المدينة وشكوا من طبعه الماء، أشار عليهم بقذف عدّه تميرات في ظرف كبير من الماء. ولم يكن ذلك الماء مضافاً، كما لم تكن التميرات بالحد الذي يؤدّي إلى السكر، فكانوا يشربون من ذلك الماء ويتوضؤون به، إلّا أنّ بعض المغرضين استغل هذه القضية وقذف المزيد من التمر وعرضها للحراره حتى تخمرت وتحولت إلى مسكر، فكانوا يتعاطونه باسم النبيذ (٢). على غرار الكثير من الأشخاص ضعاف الإيمان في الماضي والحاضر الذين يصطلحون على الرشوه بالهديه، كما يمارسون الربا في معاملاتهم باسم البيع. طبعاً يسعى الآثمون في الأوساط الدينيه التي لا يخفى فيها الإثم ويؤدّي إلى بعض المشاكل بالنسبه لمن يقارفه إلى ممارسه الحرمات من خلال بعض المظاهر الزائفه، وهذا ما تناولته الأخبار الوارده بشأن الفتنه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته في حديثه مع الرسول الله صلى الله عليه وآله:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

ص: ١٠٦

١- (١) سورة الحجرات، الآية ١٧٠

٢- (٢). راجع الكافي، ج ٦، ص ٤١٦، ح ٣٠

فَبَأَى الْمَنَازِلِ أَنْزَلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَمْ بِمَنْزِلِهِ رَدَّهُ (١) ، أَمْ بِمَنْزِلِهِ فِتْنَهُ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلِهِ فِتْنَهُ».

يبدو أنّ هؤلاء الأفراد يقرون بالتوحيد والنبوّه وكان انحرافهم فى القضايا العمليه، ولم يكونوا منكرين حتى لضروريات الدين وكانوا يسعون لتمويه ما يقترفون من محرمات بغطاء الحلال، وعليه لا- يجرى عليهم حكم الارتداد، ولم يعاملهم الإمام عليه السلام كمرتدين.

تأمل: الحرام لا يحلل بالزيف

ما أورده النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن الفتنه لا يقتصر على عهد على عليه السلام بل يمتد ليشمل كل العصور بما فيها عصرنا الراهن. فهناك العديد من الأفراد الذى يظنون أنّهم فى ركب المؤمنين حين يجرى الكلام عن الأموال والثروه غير المشروعه وكأنّهم يمتنون على الله بإسلامهم ويطمعون بعفوه ورحمته. والأسوأ من ذلك ارتكاب الكبائر فى إطار بعض العناوين المباحه والمزيفه، بعبارة أخرى يرتكبون هذه المخالفات من خلال التحايل على القانون واستغلال بعض فقراته المرنه. ولعلنا نشاهد اليوم أغلب المرابين الذين يتشبثون بمختلف الحيل، تاره باسم تبديل العملات النقدية بأخرى، وتاره أخرى عن طريق «ضم الضميمه» أى أنّهم يضمون إلى المعامله شيئاً زهيد القيمة فيبيعونه بقيمه فادحه، وأحياناً باسم تقاضى الأجور وأخرى ببيع الشروط الكاذبه أو حق العمل وذريعه التضخم وسائر العناوين الكاذبه والزائفه لإضفاء الحليه على الربا، حتى عدنا نلمس بوضوح ما قاله النبى صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ» (٢). حقّاً أنّ هذا النوع من المخالفه للقوانين الشرعيه هو أسوأ وأخطر من

ص: ١٠٧

١- (١). «ردّه» على وزن مكه الرجوع عن شىء، و (ردّه) على وزن فتنه، الرجوع عن الدين، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة المذكوره فى الخطبه

٢- (٢). مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٢٣٣

المخالفة الصريحه؛ لأنها قد تستشري سريعاً في أوساط المجتمع دون أن تصطدم ببعض الموانع، والحال ليست المعاصي الصريحه بهذا الشكل والتي تصطدم بالكثير من العقبات في المجتمعات الدينيه. أضف إلى ذلك فإنّ هذا الهروب من القانون يعدّ جريمه مضاعفه؛ فهو ينطوي على معصيه الربا إلى جانب الرياء والتلاعب بأحكام الدين. بعبارة أخرى، لا يبقى من القانون والحكم الشرعي في الهروب سوى صورته الظاهريه مع اسقاط مضمونه وفلسفته؛ فتحريم الربا مثلاً يستند إلى مفسده العديده على النظام الاقتصادي للمجتمع وإثاره السلبيه في خلق الطبقيه البغيضه وبروز الطبقيه المعدمه إلى جانب تلك المرفهه، ومن هنا عدّته بعض الروايات أسوأ من الزنا بالمحارم وأنه بمثابة محاربه الله، وذكرت سبعاً من مفسده أوضحنها في بحث الربا(1). ولنا أن نتساءل: هل تزول هذه المفسد بمارسه بعض الأمور الظاهريه من قبيل إضافه علبه كبريت أو مقدار من النبات إلى تلك المعامله الثقيله؟ كلا. وهل يكمن جوهر المشكله في كلمه السحت والربا كما قال المرحوم وحيد البهبهاني وأنّ جميع مساويء الربا إنّما تعود إلى هذه الألفاظ، أم أنّ هنالك حكمه في هذا الحكم لا ينبغي الغفله عنها؟!

ص: ١٠٨

١- (١). راجع كتاب الربا والبنوك المصرفيه لسماحه المؤلّف

يُحْتِ النَّاسَ عَلَى التَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبه

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبه كسائر خطب نهج البلاغه بحمد الله والثناء عليه، ثم خاض في بعض الأمور الحساسه. تطرق في القسم الأول إلى الاعتبار بالماضين - الذين نشترك معهم في المصير - ليأخذ بأيدينا إلى أعماق التاريخ لننظر بوضوح لمصيرنا فنظفر بالسعاده.

وأشار في القسم الثانى إلى أهميته الورع والتقوى والتزود من الدنيا للآخرة، وحذر من أن نهایه الحياه الدنيا ليست معلومه لأى فرد فلا- ينبغى الغفله. وتحدث في القسم الثالث عن المراصد التى تتابع أعمال الإنسان بما فيها الملائكه والحفظة وحتى جوارح الإنسان وأعضائه.

ص: ١٠٩

١- (١) سند الخطبه: رغم سمو مضامين الخطبه وألفاظها الفصيحه والبليغه التى يستبعد صدورها - على غرار سائر خطب نهج البلاغه - عن غير الإمام المعصوم عليه السلام، مع ذلك نشير إلى بعض المصادر التى وردت بشأنها فى كتاب مصادر نهج البلاغه، فقد أشار إلى بعضها العالم اللغوى ابن الأثير فى النهایه فى ماده شول وماده ربك، كما وردت بعض عباراتها باختلاف فى غرر الحكم والذى يفيد أنها أخذت من مصدر آخر غير نهج البلاغه

وخاض فى القسم الأخير فى نهايه الحياه وعالم القبر والوحشه هنالك وفناء الدنيا والقيامه من خلال عبارات قصيره تهز الإنسان وتحته على اغتنام الفرصه.

ص: ١١٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ.

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالبَاقِينَ كَجَرِيهِ بِالمَاضِينَ؛ لَيَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سِوَمَدًّا مَا فِيهِ.

أَخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَخِيدُوكُمْ حِدْوَالِ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ: فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحْيِيرٌ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَاكَ فِي الْهَلَكَاتِ، وَمِيدَتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمَفْرُطِينَ.

الشرح والتفسير: انعطافه على المبدأ والمعاد

استهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله بعبارات جديده فقال:

«الْحَمْدُ (١) لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ». أما بشأن الذكر الوارد في العبارة، فقد قيل: المراد به القرآن الكريم حسب بعض الآيات التي عبرت عنه بالذكر، وذلك لأن سورة الحمد بدايه القرآن (بناءً على أن سورة الحمد أول سورة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن القرآن جمع بهذا الشكل على عهد

ص: ١١١

١- (١). «الحمد» في اللغة، بمعنى المدح على عمل أو صفة اختياريه، ولما كانت افاضته النعم على المحتاجين احدى الأعمال الحسنه فإن هذه المفرده ترد بمعنى الشكر أيضاً

النبي صلى الله عليه وآله وأمره وقد صدر بسوره الحمد(١). أو أنها إشاره إلى بعض السور القرآنيه التي تصدرت بالحمد كسوره الحمد والأنعام والكهف وسبأ وفاطر. أو أنّ الذكر مطلق ذكر الله كما ورد في الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم»(٢). ومن هنا نشاهد أغلب خطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام تستهل بحمد الله والثناء عليه. والعبارة (سبباً للمزيد من فضله) إشاره للآيه الكريمة:

«لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ»(٣) وهنا لابد من الإلتفات إلى أنّ الحمد ورد في أغلب الآيات القرآنيه بمعنى الشكر. والعبارة (دليلاً على عظمته وآلائه) إشاره إلى أننا حين نحمد الله ونشكره فإننا نكون قد توجهنا إلى نعمه وآلائه إلى جانب التفاتنا لمقام عظمته.

ثم خاطب الإمام عليه السلام عباد الله ليحذّرهم من تقلب الدنيا ويوصيهم بالاعتبار بمن سبقهم من الماضين فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ (٤) يَجْرِي بِالبَاقِينَ كَجَرِّهِ بِالمَاضِينَ».

والعبارة تشير إلى موضوع معروف في أنّ التاريخ يعيد نفسه وأنّ حوادث اليوم هي حوادث الأمس بتغيير طفيف. ويقول موضعاً ذلك

«لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سِرٌّ مَدَامَا فِيهِ، آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ». أجل، لو تمعنا قليلاً لعرفنا أنّ سلسله من الأصول تحكم تاريخ البشريه وأنها تبرز كل يوم بصيغه جديده، ومن هنا يستطيع كل فرد الوقوف على مستقبله من خلال دراسه تاريخ الماضين، ذلك أنّ تاريخ الأمس مرآه عاكسه لأحداث اليوم. فهناك على الدوام فئه تمسك بزمام الأمور وتسيطر على كل شيء ولا تمضى عليها مدّه حتى

ص: ١١٢

١- (١). أكدنا على هذا الاحتمال في بحث سوره الحمد في التفسير الأمثل واعتبرنا تسميتها من قبل الروايات بفاتحه الكتاب دليلاً على ما ذهبنا إليه

٢- (٢). فقه السنه، ج ٢، ص ٢٣٠ (كما وردت بعض الروايات بهذا الخصوص في كتاب المغنى لابن قدامه ونيل الأوطار للشوكاني)

٣- (٣). تفيد هذه العبارة أنّ الاحتمال الثالث أنسب الاحتمالات

٤- (٤). «الدهر» حسب الراغب في المفردات أنها في الأصل اسم لعمر العالم، ثم أطلقت على معنى أوسع يشمل الزمان وتاريخ الحياه البشريه، كما تستعمل بمعنى ناس عصر معين وخالق الزمان أيضاً

يدب فيها الضعف والعجز وتتخلى عن تلك السلطه مختاره أو مرغمه إلى الآخريين «فإذا جاء أجلهم لا يسألتهم ساعه ولا يسألهم يومئذ»، كما جرت العاده على أن يولد الفرد طفلاً ثم يصبح شاباً يافعاً وبالتالي يسير إلى الشيخوخه والهزم لينتظر أجله فيلتحق بقافله الموتى ويتوسد التراب.

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذا الأمر حتى يسدى نصائحه ومواعظه

«فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحِيدُواكُمْ (١) حَيْدُوا الزَّاجِرِ بِشَوْئِهِ». وبالنظر إلى أن الزاجر تطلق على من يسوق الجمال بسرعه، والشوال جمع شائله التي تطلق على الجمال الخفيفه، أى التي مضت مدّه على وضعها لحملها وقد جفّ ثدياها وبالطبع لا يلتفت إليها الراعى، نستنتج أن الدهر يسوق الناس سراعاً إلى الفناء. فما أسرع الليالى والأيام والسنوات والأشهر، إلى جانب الحوادث المفاجئه والأمراض وسائر الأمور التي تستهدف حياه الإنسان.

ثم يلفت عليه السلام الانتباه بعد ذلك التحذير إلى هذه الحقيقه:

«فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ (٢) فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيْطَانِيَّتُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ». فكل إنسان ينطوى على بعض المناقص والمثالب ونقاط الضعف وليس له من سبيل سوى إصلاحها ليتدرج فى المسيره نحو الإنسان الكامل فيستحق قرب الله وخلافته، أمّا من صوب نظره خارج ذاته وانهمك بسائر قضايا الناس كالمال والثروه والجاه فلا مناص أنه سيعيش الحيره والارباك، والأسوأ من ذلك أن الشياطين تتخطف هذا الإنسان الغافل فتسوقه إلى الطغيان وتزين له سوء أعماله حتى يراها من مواطن قوته فيفخر بها، ومن الطبيعى أن مثل هذا الإنسان لا سبيل لديه إلى النجاه. صرح القرآن بشأن مثل هذا الفرد: «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٣).

ص: ١١٣

١- (١). «تحدو» من ماده (حدو) و (حدى)، سوق الابل، ومطلق السوق

٢- (٢). «ارتبك» من ماده (ربك) على وزن ربط، الاضطراب، بحيث يصعب على الإنسان النجاه

٣- (٣) سورة الانعام، الآيه ١٢٢

وأشار عليه السلام في ختام هذا القسم من الخطبه إلى مصير هذا العمل فقال:

«فَالجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفْرَطِينَ» والمراد طبعاً من السابقين، السابقين في ميدان طاعه الله وهدفهم الجنه، على غرار ماورد في القرآن الكريم: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا» (١) العبارة (والنار غايه المفرطين) إشاره إلى الأفراد الذين تؤول أمورهم إلى النار بفعل تقصيرهم وعدم استغلالهم الفرص؛ حيث يقول القرآن الكريم بشأن مثل هؤلاء الأفراد: «قَالُوا يَا حَسْرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا» (٢).

تأمل: كيف يعيد التاريخ نفسه

تاريخ البشريه سلسله من الأحداث الجمه المتنوعه والمختلفه، ولكن ما أن نتأملها بدقه حتى نستطيع التوصل إلى خصائص تلك الأحداث المختلفه وتقولبها في فئات معينه وعناوين خاصه، وبعض تلك الخصائص كما يلي:

١. الزوال السريع للنعم والسلطات: نعم، فالنعمه والسلطه تأتي بسرعه وتزول كذلك وتنتقل من طرف لآخر.

٢. التقلب: التقلب هو احد مميزات حوادث هذا العالم فما أن يتعلق الإنسان بشيء حتى يفقده، وما أن يدوب في شخص حتى يفجع به.

٣. غدر الدنيا: وقد ضرب المثل بهذا الشأن حتى قيل (لمن صفت الدنيا لتصفو لنا).

٤. النصر والهزيمه: ما زالت ذاكره التاريخ حافله بالكثير من الأفراد والطوائف

ص: ١١٤

١- (١) . سورة الحديد، الآية ٢١

٢- (٢) سورة الانعام، الآية ٣١

الذين عاشوا الانتصار وغروره ولكنهم ما لبثوا أن تجرعوا غصص الذل والهوان ومرغت انوفهم بوحل الهزيمة.

٥. استبدال الود بالعداء والعكس: فأقرب مقربى الإنسان اليوم قد يصبح عدوه فى الغد كما أنّ أعداء أمس قد يصبحون أصدقاء اليوم، الأمر الذى نلاحظه بجلاء فى حياة الساسه والحكام.

٦. الترحم واللعن: الذى يبقى فعلا- ويدعو إلى الذكر الحسن لدى الناس هو أعمال الخير والبر والمروءه والاخلاص، والعكس صحيح، فليس للظلم والطغيان سوى اللعن.

ص: ١١٥

اعلموا، عباد الله، أن التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَمَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَمَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى.

عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقِهِ. فَشِدْقُوهُ لَازِمُهُ، أَوْ سِعَادَةُ دَائِمُهُ! فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلُّنَا عَلَى الزَّادِ، وَأَمَرُنَا بِالظَّنِّ، وَحَثَّنَا عَلَى الْمَسِيرِ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٍ وَقُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسَلِّبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبَعْتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَ اللَّهِ، احذروا يَوْمًا تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ.

الشرح والتفسير: تقلب الدنيا

قال الإمام عليه السلام هنا - بعد أن خاض في تقلب أحوال الدنيا واعد المخاطبين لاستماع المواعظ والإرشادات:

«اعلموا، عباد الله، أن التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَمَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَمَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ». إشاره إلى أن

التقوى ملكه باطنيه قويه تحول دون مقارفة الإنسان للذنب وهذا ما يؤدى بدوره إلى الاحتراز من انعكاسات الذنب الخطيره فى الدنيا والآخرة، بعكس الأفراد المجانين للورع والتقوى والذين يصبحون عرضه لنفوذ الشياطين وأهواء النفس وبالتالي السقوط فى مستنقع الذنب والفضيحة فى الدنيا وسوء العذاب فى الآخرة.

ثم تطرق عليه السلام إلى آثار التقوى فقال:

«أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حَمَمُهُ (١) الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرِكُ الْعَايَةَ الْقُصْوَى» فالإمام عليه السلام يشبه سطوه الذنوب بالحشرات السامه كالحيه والعقرب. نعم، فالتقوى هى التى تمنح الإنسان الحياه، ولما كانت التقوى واليقين لازماً وملزوماً لبعضهما البعض فقد صرح الإمام عليه السلام بأن من ينطق باليقين يبلغ الهدف، والتقوى تزيل عقبات الطريق ولا يفرز عدم التقوى سوى ضعف اليقين.

فهل يسع من يوقن بهذه الآيه:

«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ مُظْلِمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» (٢) أن يأكل مال اليتيم؟ وهل يسعك أن تجد شخصاً يتناول قطعه من النار ويضعها فى فمه؟! ثم قال فى اطار حث الآخرين على التزود من الدنيا للآخرة:

«عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أعزِّ الأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ». قطعاً المراد من (أعز الأنفس) فى هذه العبارة نفس الإنسان، ذلك لأن حب الذات مسأله طبيعیه لدى الإنسان وإن تعلق بشخص أو شىء ففى ظل غريزه حب الذات (بغض النظر عن أولئك الذين تجاوزوا ذواتهم ولم يعودوا يروا سوى الله وذاته المطلقه ولا يرومون سواه. على كل حال، فالمراد: إن لم ترحموا أحدا فعلى الأقل ارحموا أنفسكم وإن غفلتم عن مصالح الآخرين فلا تغفلوا عن مصالحكم، فهذا الأمر مودع فى فطرتكم.

ثم حذر قائلاً:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْصَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقِهِ. فَشِقْوَةٌ لَّازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ!». وخاض أخيراً فى بيان أسباب نيل السعاده الدائمه واجتناب

ص: ١١٨

١- (١). «حمه» بالضم، على وزن قوه، بمعنى لسع الحشرات والعقارب وما شابه ذلك، كما تطلق على سمها أيضاً

٢- (٢). سورة النساء، الآيه ١٠

«فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبُقَاءِ. قَدْ دُلَّيْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّنِّ (١)، وَحُشِّتُمْ (٢) عَلَى الْمَسِيرِ». جدير ذكره أنّ المراد من الزاد: التقوى والعمل الصالح الذى أشار إليه القرآن: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٣). والعبارة (أمرتم بالظن...) يمكن أن تكون إشارة إلى أمر تشريعى ورد فى الآيات المرتبطة بفناء الدنيا وأنّ كل شخص سيدوق فى خاتمه المطاف طعم الموت على ضوء الدلالة الالتزامية، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أمر تكويني؛ لأنّ الله خلق أسباب الحركة بحيث يسرع الطفل نحو الشباب والشباب إلى الكهولة وحث الخطى نحو دار البقاء، وقد أصدر أمره بحث الحركة نحو أسباب العفو والمغفرة: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» (٤). كما ورد فى الخطبه ٣١ من نهج البلاغه فى وصيه الإمام عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام

:«يا بنى من كانت مطيته الليل والنهار، فإنّه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافه وإن كان مقيماً وادعاً».

ثم واصل كلامه بتشبيهه بليغ فقال:

«فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٌ (٥) وَقُوفٌ، لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ». لعل هنالك من يتساءل كيف التوفيق بين عبارة الإمام عليه السلام وقوله (أمرتم بالظن) التى اردفها بالعبارة (لا يدرون متى يؤمرون بالسير)؟ وإنّ أدنى تأمل يفيد أنّ العبارة الأولى إشارة إلى الحركة فى الدنيا نحو الكمال والمسارعه فى أعداد عناصر العفو والمغفرة، أمّا العبارة الثانية فهى تشير الحركة من الدنيا إلى الآخرة.

على كل حال فقد ورد هذا التشبيه فى سائر مواضع نهج البلاغه ومنها الكلمات القصار حيث قال عليه السلام:

«أهل الدنيا كَرَكِبٍ يُسَارُّ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ» (٦) وهذا النوم هو الغفله

ص: ١١٩

١- (١). «الظن» بمعنى (الرحيل) من مكان إلى آخر

٢- (٢) «حشتم» من ماده (حث) على وزن وصف، الاندفاع والسرعه

٣- (٣). سوره البقره، الآيه ١٩٧

٤- (٤). سوره آل عمران، الآيه ١٣٣

٥- (٥). «ركب» جمع (راكب) تعنى فى الأصل، ركوب الدابه، إلّا أنّ معناها المتعارف، القافله

٦- (٦). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٦٤

التي يعيشها أغلب الناس. ثم قال في توضيح هذه الحقيقة:

«أَلَمْ أَفَمَا يَصْبِغُ بِالْدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْبِغُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْأَلُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعُهُ (١) وَحَسَبَ أَبُوهُ!». إن كانت دارنا الأصلية هي دار الآخرة والدار الدنيا ليست سوى ممر فما معنى تعلقنا بهذه الدنيا؟ وما معنى كل هذا السعى والجهد من أجل جنى الأموال ولو عن طريق مزج الحلال بالحرام وهي ليست سوى وديعه لدينا وإن يوماً سنفارقها ونحاسب عليها؟

ثم استعان الإمام عليه السلام في اطار حثه الآخرين على الخير والإحسان واجتناب الشر والسوء بمنطقتين مؤثرتين؛ الأول الذي قال فيه:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْعَبٌ». إشارة إلى أن من أمر ونهى ووعده بالثواب وتوعد بالعقاب ليس فرداً عادياً يمكن الريه في كلامه.

والثاني الذي قال فيه:

«عِبَادَ اللَّهِ، اخِذُوا يَوْمًا تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْتُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ وَتَشْتَبِ (٢) فِيهِ الْأَطْفَالُ». ففي ذلك اليوم ستخضع جميع الأعمال مهما كانت صغيرة لدراسه دقيقه، كما قال القرآن الكريم: «يَا بَنِي إِنْهَإِ إِنَّ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَيْخُرِهِ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» (٣)، والمراد من كثره الزلازل في ذلك اليوم زلزله الافكار وارتعاد القلوب من هول المحشر وخوف نتيجة الأعمال. صحيح أن نهايه العالم ستشهد زلزله بمعناها الحقيقي والتي تقلب كل شيء رأساً على عقب، وما ورد في العبارة إشارة إلى الزلزله الفكرية والاضطراب الذي يعانيه الإنسان في ساحه الحشر. والعبارة

ص: ١٢٠

١- (١). «تبعه» من ماده (تبع) على وزن خبر، بمعنى المتابعه، ويطلق تبعه العمل على الجزاء الذي يطال الإنسان بعد مقارفته المعصيه

٢- (٢). «تشيب» من ماده (شيب) على وزن عيب، بمعنى بياض الشعر، وتطلق عاده على الكهول، وشيب: على وزن سيب، جمع أشيب بمعنى الكهول في مقابل الشباب، والشيبه بمعنى الشباب

٣- (٣). سورة لقمان، الآية ١٦

«تشيب فيه الأطفال» كناية عن عمق وشده ذلك المشهد وهو التعبير السائد لدينا في المكالمات اليومية حين نقول: إن تلك الحادثة مثلاً- تشيب الإنسان، كما ورد في القرآن الكريم: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» (١) نعم، ذهب البعض إلى أن شيب الأطفال هنالك بالمعنى الحقيقي لا الكنائي، إلّا أن هذا الاحتمال بعيد، فليس هنالك ما يشير إلى أن الطفل الذي يتلقى العذاب يشيب بفعل هول العذاب.

ص: ١٢١

١- (١). سورة المزمل، الآية ١٧

اعلموا، عباد الله، أن عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم، لا تستركم منهم ظلمة ليل داج، ولا يكننكم منهم باب ذورتاج وإن غداً من اليوم قريب.

يذهب اليوم بما فيه، ويحيى الغد لاحقاً به، فكان كل امرئ منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدثه، ومخط حفرته. فبالله من بيت وحيده، ومنزل وحشه، ومفرد غريبه! وكان الصيحة قد أتتكم، والساعة قد غشيتكم، وبرزت لفضل القضاء، قد زاحت عنكم الأباطيل، واضمحلّت عنكم العليل، واشتجقت بكم الحقايق، وصدرت بكم الأمور مصادرها، فأتعظوا بالعبر، واعتبروا بالغير، واتنفعوا بالندر.

الشرح والتفسير: حضور المحكمه الإلهيه

أشار الإمام عليه السلام تماماً لمواعظه السابقه إلى ثلاثه أمور مهمه؛ الأول، بشأن حفظه الأعمال، والثاني، الموت والقبر، والثالث، الحساب يوم القيامة والتي من شأنها تنبيه الغافل ويقظته من سبات الغفله، فقال في الأمر الأول:

«اعلموا، عباد الله، أن عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم».

ثم وضع طبيعه هؤلاء المراقبين فقال:

«لا تستركم منهم ظلمة ليل داج (١)، ولا

ص: ١٢٣

١- (١). «داج» من ماده (دجو) على وزن هجو، بمعنى الظلم، وليل داج، الليله الظلماء التي لا يرى فيها القمر والنجوم

«أَنَّ عَلَيْنَكُمْ رَصِيداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ» إشاره إلى شهاده أعضاء بدن الإنسان وجوارحه وجلده يوم القيامة، كما عبر عن ذلك القرآن الكريم: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٣) ثم قال:

«شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَيِّمُهُمْ وَأَبْصِرْ أَرْهَمَ وَجُلُودَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِيُجْلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» (٤). بالنظر أن معنى «الرصد» الرقيب، و «عيون» بمعنى الاطلاع فإن المفردتين من قبيل الإجمال والتفصيل؛ أى أن مراقبى أعمال الإنسان فى الدرجة الأولى أعضاؤه وجوارحه التى تنطق يوم القيامة وتشهد على جميع أعماله. أما ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغه من أن «الرصد» يعنى وجدان الإنسان الذى يلومه على الأعمال السيئه، فليس بصحيح؛ لأن الوجدان قاضى الباطن لا المراقب والشاهد الكامن فى مفهوم الرصد. وهل هذه الشهاده بلسان القال والنطق المتعارف أم بلسان الحال وشهاده الآثار؟ الاحتمالان واردان؛ لأن أى عمل يقوم به الإنسان تنعكس آثاره على جميع أعضائه وستظهر هذه الآثار يوم القيامة لتفصح عن جميع أعماله التى أتى بها طيله عمره، كما يمكن تبديلها إلى أمواج صوتيه يسمعها الجميع. والعبارة

«وَحُفَاظَ صِدْقٍ» إشاره إلى الملائكه الموكله بضبط أعمال الإنسان، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَإِنَّ عَلَيْنَكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» (٥) وهنا يرد هذا السؤال المعروف: ما حاجه الله إلى هؤلاء الملائكه رغم علمه الذى أحاط بكل شىء وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد؟ وتتضح الاجابه عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطه

ص: ١٢٤

- ١- (١). «يُكِنُّكُمْ» من ماده (كَن) على وزن جن، يقال عاده للظرف الذى يحفظ فيه الشىء، ثم توسع هذا المعنى وأصبح يطلق على كل ما يحفظ الأشياء أو الأشخاص
- ٢- (٢) «رتاج» و «رتج» على وزن كرج، الباب العظيم المحكم الاغلاق
- ٣- (٣). سوره النور، الآيه ٢٤
- ٤- (٤). سوره فصلت، الآيه ٢١-٢٢
- ٥- (٥). سوره الانفطار، الآيات ١٠-١٢

وهي أنّ الإنسان كائن مادي وليس له من معرفه عميقه بعالم ماوراء ماده ولا يشعر بقرب الله منه؛ إلّا أنّه يدرك هذا المطلب تماماً حين يقال له إنّ أعضاء بدنك ستشهد عليك يوم القيامة، كما يعبر هذا الموضوع أهميّة كبرى إن قيل له: عليك ملكان يكتبان كل أعمالك، وهذا بدوره يمثل عنصراً مهماً في ردعه عن ارتكاب الذنوب والمعاصي. فالله سبحانه وتعالى أراد بكل وسيله أن يصد عباده عن الذنوب، وشهادة الأعضاء والملائكة واحده من هذه الوسائل.

الغريب في الأمر أنّ هؤلاء الحفظة يحصون على الإنسان حتى عدد أنفاسه ولا يحتاجون في كتابتهم لأعمالنا لأدنى سراج ومصباح، فهم يكتبون حتى في عتمه الظلمه المطلقه، ولكن ما كفيه هذه الكتابه؟ قطعاً ليس ذلك من قبيل كتابتنا وإن لم نحط علما بتفاصيل ذلك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن الموت والقبر الذي يهزّ الغافل بعنف فقال:

«وَإِنَّ عَدَاً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ الْيَوْمَ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْغَدُ لَأَحِقًّا بِهِ». المراد من

«الغد» قرب نهايه العمر والموت الذي إن غفل عنه الإنسان يهوى في مستنقع الغفله فإن رآه قريباً راقب أعماله وقام بوظيفته وتاب من ذنوبه. حقاً أنّ نهايه العمر ليست بعيده مهما عمّر الإنسان، ذلك أنّ الأشهر والسنين تمرّ بسرعه إلى جانب الحوادث غير المتوقعه والأمراض التي تهجم على الإنسان فجأه وتقضى عليه. وذهب بعض الشراح لنهج البلاغه إلى أنّ المراد ب

«الغد» في العبارة المذكوره غد القيامة، وهذا المعنى وإن كان قريباً إلّا أنّ المعنى الأول وبالاستناد إلى العبارات القادمه التي تحدثت عن القبر أنسب.

ثم ذكر الجميع بوحشه القبر فقال:

«فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنَزِلَ وَحَدَّتِهِ، وَمَخَطَّ (١) حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتٍ وَحَدَةٍ، وَمَنْزِلٍ وَحَشَةٍ، وَمُفْرَدٍ غُرْبَةٍ!».

ص: ١٢٥

١- (١) «مخط» من ماده (خط) بمعنى الخط والعلامه، فهو اسم مكان، والمراد به في العبارة، المكان الذي يُخط لحفر القبر

أجل، فالإنسان الذى لا يتحمل الوحده لساعه ويعيش دائماً بين صحبه وقرابته وأهله، لا يكاد يغمض عينيه عن هذه الدنيا حتى يفارق الجميع وإلى الأبد فينزل حفره مظلمه ومرعبه فى وحده وغربه مطلقه، فيالها من غربه أليمه صعبه، اللهم إنا أن يظفر بأصحاب جدد من أعماله الصالحه فتجعل الملائكه قبره روضه من رياض الجنّه، لا حفره من حفر النار.

قال الإمام الصادق عليه السلام

«إِنَّ لِلْقَبْرِ كَلَاماً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ، أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، أَنَا بَيْتُ الدُّوْدِ، أَنَا الْقَبْرِ، أَنَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ» (١).

وأخيراً ما أن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الموت والقبر حتى يتجه صوب القيامة ومحكمه العدل الإلهى ليحذر الجميع قائلاً:

«وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ عَشَيْتُكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصِيلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاخَتْ عَنْكُمْ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمْ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمْ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا».

«وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ»، فى العبارة، إشاره إلى صيحه القيامة التى توقظ جميع الموتى وتنشرهم من قبورهم وتدفعهم إلى الحساب. يستفاد من الآيات والروايات أن العالم ينتهى بصيحه عظيمه يقال لها نفخه الصور الأولى، ثم تتبعها صيحه عظيمه أخرى تدعى نفخه الصور الثانية، وما ورد فى الخطبه بقرينه ما بعدها من عبارات، إشاره إلى النفخه الثانية. والتعبير بالساعه، إشاره إلى القيامة، لأن الساعه تعنى فى الأصل، برهه من الزمان أو لحظه عابره، ولما كان قيام الساعه سريعاً والحساب أيضاً سريعاً لاستناده لله سريع الحساب فقد عبّر عن القيامة بالساعه.

«لِفَصِيلِ الْقَضَاءِ»، القضاء الذى يفصل الحق من الباطل وزوال الأباطيل واضمحلال العلل، إشاره إلى خلو القيامة من الكذب والاعذار الواهيه والحجج الجوفاء وكل ما هنالك هو الحق والحقيقه. والعبارة

«وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ

ص: ١٢٤

مَصَادِرَهِا»، إشاره إلى أن كل شخص يرى نتيجة عمله وكل يحل في مكانه الأصلي هنالك. والإمام عليه السلام يرى القيامة قريبه إلى الحد الذي جعله يقول بأن كل شيء كأنه قد وقع ونفخ في الصور وقامت القيامة وخرج الموتى للحشر من قبورهم ونصبت موازين العدل وحصلت نتيجة الأعمال، وكل ذلك يشير إلى مدى قصر عمر الدنيا بالنسبة للآخره.

وقد عبّر القرآن الكريم عن القيامة فقال:

«يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» (١) كما عبّر عنها بيوم الفصل الذي يفصل الحق عن الباطل وعبّر عنها بسرعه الحساب، وقال في موضع آخر:

«وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدُونَ» (٢) و

«يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ» (٣) و

«يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ» (٤).

واختتمها بالقول:

«فَاتَّعِظُوا بِالْعَبْرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَأَنْتَفِعُوا بِالنُّذْرِ». و

«عبر» جمع عبره، إشاره إلى الحوادث الجديده بالاعتبار والتي عاده ما يحفل بها تاريخ الإنسان وسيشهداها في حياته، و

«غَيْر» جمع غيره بمعنى التغيير، إشاره تغيير النعم ونزول البلاء وتقلب الدهر، و

«نذر» جمع نذير، والتي تشمل الأنبياء والأوصياء والآيات والروايات وحوادث الدهر.

تأملان

١. الشهود على الأعمال

رغم أن الله شاهد وناظر لأعمالنا في كل حال وزمان ومكان وعلمه الذي أحاط بكل شيء الكافي في عدم شروء أدنى صغيره وكبيره، إلّا أنه وللمبالغه في الحججه ولفت أنظار المحسنين والمسيئين إلى مراقبه أعمالهم، فقد وكل بنا إضافه لذلك،

ص: ١٢٧

١- (١) . سورة ق، الآية ٤٢

٢- (٢) . سورة المرسلات، الآية ٣٦

٣- (٣) سورة المؤمن، الآية ١٦

العديد من الشهود ومنها:

١. أعضاء البدن وجوارحه حتى الجلود على ضوء ما ورد في الآيات. والغريب في الأمر اتضاح هذه الحقيقه بعد طرح قضيه الإنسان الشبه من أنّ كل ذره من ذرات بدن الإنسان استبطنت إنساناً كاملاً والأغرب، الاستفادة من جلد الإنسان في هذا الموضوع.

٢.

«الحفظه» و

«الكتاب» أى الملائكه الموكله بثبت الأعمال.

٣. الأرض التي نعيش عليها هى الشاهد الآخر، جاء فى القرآن: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» (١).

٤. الزمان الذى نعيش فيه من الشهود علينا يوم القيامة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ: يَا بَنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِي خَيْرٍ وَأَعْمَلْ فِي خَيْرٍ أَشْهَدُ لَكَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢).

٥. شهاده الأنبياء أعظم من كل ذلك، لنص القرآن الكريم فى شهاده كل نبى على أعمال أمته يوم القيامة وشهاده النبى الأكرم صلى الله عليه وآله على الجميع: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً» (٣) هكذا يخضع الإنسان طيله عمره لهؤلاء الشهود ومن الجهات الست، وحق لمن آمن بحقيقه هؤلاء الشهود أن يراقب أعماله ويتحفظ عن الأخطاء.

٢. ثلاث عبارات عميقه المعنى

العباره

«فَاتَّعِظُوا بِالْعَبِيرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَانْتَفِعُوا بِاللُّذْرِ»، تنطوى على ثلاثه مفاهيم تكفى لايقاظ الإنسان من نوم الغفله حيث تشير كل واحده إلى حقيقه

ص: ١٢٨

١- (١) سورة الزلزال، الآيه ٤-٥

٢- (٢) بحار الانوار، ج ٧٤، ص ٣٧٩

٣- (٣) . سورة النساء، الآيه ٤١

مستقله. فالعبارة الأولى ترى كفايه العبر في الموعظه، وتشمل هذه المفردة كافة الحوادث الخطيره في الماضي والحاضر، بل حتى الحوادث الطبيعيه. من قبيل الذهاب والإياب والليل والنهار يمكنها أن تكون عبره لمن اعتبر: «يُقَلَّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ» (١). والعبارة الثانيه تشير إلى الوعظ في التغييرات التي تطال حياه الإنسان والعالم. فأعزّه الأمس أذله اليوم، وأذله الأمس أعزّه اليوم، ما أسرع ما يحكم الحاكم ويعتلى المحكوم سده الحكم، والشباب آيل الكهوله والعجز، والطفل الضعيف سرعان ما يشب ويهرم، ما كان غضاً بالأمس أصبح اليوم تحت التراب في المقابر المهجوره، وهذا الضجيج المرتفع اليوم سيخمد بعد سنوات، يالها من دروس وعبر؟! العبارة الثالثه أن السن الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء والآيات كلها مشرعه بالتحذير وهي تنادى الحذر الحذر والعمل العمل.

ص: ١٢٩

١- (١). سورة النور، الآية ٤٤

يُبَيِّنُ فِيهَا عَلَى فَضْلِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَفَضْلِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ حَالَ دَوْلَهُ بَنِي أُمَيَّةَ (١)

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة من قسمين: يؤكد الإمام عليه السلام في القسم الأول على رسم صورته عن عصر البعثة وأهميته القرآن وعظمته وأنه الدواء لكل داء والعلم المتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل. أما في القسم الثاني فيشير إلى فتنه بني أمية ومدى ظلمهم وطغيانهم وسعه حجمه، إلا أنه يواصل كلامه بأن هذه الحكومه لن تدوم طويلاً وستولى إلى غير رجعه.

ص: ١٣١

١- (١) سند الخطبة: بدايه هذه الخطبه كبدايه الخطبه ٨٩ التي مرّت علينا في الجزء الثالث، ومن هنا ذهب البعض إلى أنها خطبه واحده وقد جمعها الشريف الرضى، والحال، ليس الأمر كذلك، فهاتان الخطبتان لا تتشابهان إلا في جملتين. على كل حال المصدر فالوحيد غير نهج البلاغه الذي ذكر أن ابن الأثير خاض في تفسير بعض مفردات هذه الخطبه في كتابه (النهايه) وما ذكره من عبارات تختلف عما جاء في هذه الخطبه، وهذا يفيد أن ابن الأثير أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٦٤، كما أورد الكليني في كتاب الكافي جانباً من هذه الخطبه بالاختلاف، راجع اصول الكافي، ج ١، ص ١٦٠ كذلك تفسير القمي، ج ١، ص ٢)

أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعِهِ مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَضْيِيقِ الدِّي يَبِينَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَىٰ بِهِ. ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاشْتَتَقُوهُ، وَلَكِنْ يَنْطِقُ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنُظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

الشرح والتفسير: الكتاب الذي استوعب كل شيء

أشار الإمام عليه السلام في مطلع الخطبه إلى الوضع على عهد الجاهليه والذي تزامن مع بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعِهِ (١) مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ (٢)». ومضمون هذه العبارات من قبيل العله والمعلول.

فالفتره التي توسطت عصر ظهور الأنبياء السابقين وخاتمهم كان سبب نوم الغفله الذي غطت فيه الأمم وهذه الغفله أدت إلى ذلك الانتقاض المبرم، بمعنى تقطع وشائج الحقائق ونظام الحياه البشريه التي وقعت في وحل المعصيه والظلمه. ثم تطرق عليه السلام إلى بعثه النبي الخاتم والكتاب الذي جاء به مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماويه:

«فَجَاءَهُمْ بِتَضْيِيقِ الدِّي يَبِينَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَىٰ بِهِ». فقد قام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمهمتين؛ إنه بين للناس المعارف والأحكام التي تنسجم مع الأصول الكليه لمعارف وأحكام من مضى من الأنبياء، والأخرى حمليه لمشعل الهدايه الذي

ص: ١٣٣

١- (١). «هجعته» من ماده (هجوع) النوم ليلاً، ولما كان هذا النوم أعمق فقد شبه به أوضاع أقوام الجاهليه

٢- (٢). «مبرم» من ماده (ابرام) المحكم، من ابرام الحبل إذا أحكم فتله ثم اطلق على مطلق الأعمال المحكمه

أضواء ظلمات الجهل والضلال. ثم خاض عليه السلام في بيان هذا النور المتمثل بالقرآن:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسِيَّتُنَّ طُقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرْكُمْ عَنْهُ». لقد شبّهت أغلب الآيات القرآن بالنور، ومنها ما ورد في سورة المائدة: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ» (١)، وسورة الاعراف: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢)، وكما يضيئ النور أجواء الحياه ويحول دون تعثر الإنسان في الظلمه والضلال وينمى النباتات ويرعى جميع الكائنات الحيه، فللقرآن مثل هذه المهام في حياه الإنسان الماديه والمعنويه.

المراد من

«بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» وبالنظر إلى أن بين يديه تعنى هنا ما قبل ليس تصديق التوراه والانجيل الذين طالهما التحريف، بل هي إشاره إلى تلك الكتب السماويه التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام كما لا يعنى هذا التصديق أن الإسلام يتفق مع هاتين الديانتين في جميع التفاصيل، بل المراد الأصول الكليه التي تشكل المحور المشترك لكافه الأديان السماويه، وإن طبقها الإسلام على مستوى أرفع وأوسع.

والعبارة

«وَلَنْ يَنْطِقَ» لا تعنى أن القرآن لا يفتح على أى شخص (سوى الأئمه المعصومين عليهم السلام)، وذلك لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين ومنطق واضح جلى وقد أمر الجميع بالتدبر فيه والاصغاء إلى مواعظه ليعيشوا الرجاء من خلال آيات البشاره والخوف من خلال آيات الوعيد والانذار. وعليه فالمراد من

«وَلَنْ يَنْطِقَ» فيما يتعلق ببطون القرآن والأسرار الكامنه فيها، فهذه البطون من اختصاص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمه المعصومين عليهم السلام.

ومن هنا قال:

«أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ». فالعبارة

«عِلْمَ مَا يَأْتِي» كما أوردها بعض شراح نهج البلاغه

ص: ١٣٤

١- (١). سورة المائدة، الآية ١٥

٢- (٢). سورة الاعراف، الآية ١٥٧

إشاره إلى المسائل المرتبطه بالآخره من قبيل الحساب والكتاب والصراط والجنّه والنار، ولكن يبدو أنّها إشاره إلى الحوادث المستقبلية لهذا العالم والكامنه فى بطون هذا القرآن والتي يعلم بها المعصومين عليهم السلام بقرينه العبارة القادمه

«وَالْحَدِيثُ عَنِ الْمَاضِي»، التي تشير إلى الأمم السابقه وشرح سيرتها، كما قيل: هي إشاره إلى بدايه الخليقه والعصور الأولى لخلق هذا العالم. والعبارة

«وَدَوَاءَ دَائِكُمْ» إشاره إلى التعاليم والمفاهيم التي تعالج كافة أنواع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية «وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»^(١).

والعبارة الأخيره:

«وَنُنظِّمُ مَا بَيْنَكُمْ»، إشاره إلى جميع القوانين التي تنظم شؤون المجتمع البشرى وتزيل العوائق وتنشر الأمن والاستقرار وبسط العدل والقسط فى ربوع البلاد.

ص: ١٣٥

ومنها: فَعِنْدَ ذَلِكَ لَأَيَّبَقِي بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلْمَةُ تَرْحَهُ، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَهُ. فَيَوْمَئِذٍ لَأَيَّبَقِي لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَضِيْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيِّئْتَقِيمُ اللَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّا بِمَا كَلَّ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ، وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ وَالْمَقْرِ، وَلِيَّاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدَثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَزَوَائِلُ الْأَثَامِ. فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمِّيَّةٌ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفِظُ النُّخَامَةَ، ثُمَّ لَا تَدُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا مَا كَرَّرَ الْجَدِيدَانِ!

الشرح والتفسير: حكوته الظلم ودوله الطغيان

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى فتنه بنى أمية الشاملة والتي تلقى بظلامها على جميع المسلمين دون أن تغادر مسلماً إلّا وجرعته غصص ظلمها وطغيانها، إلى جانب تعذر الفرار من تلك الفتنه، وهي ليست سوى نتيجة طبيعیه لأعمال الناس، فقال:

«فَعِنْدَ ذَلِكَ لَأَيَّبَقِي بَيْتَ مَدْرٍ (١) وَلَا وَبَرٍ (٢) إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلْمَةُ تَرْحَهُ (٣)، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَهُ» يمكن أن يرد الهم والغم بيتاً دون أن يرد الظلم، أما ظلم بنى أمية فقد بلغ درجه بحيث عمّ الهم والغم كل مكان، إلى جانب البلاء والمصائب، وذلك لأنّ ولاه

ص: ١٣٧

١- (١). «مدر» ورد في اللغة بمعنى الزهور المتداخلة، أحياناً والحجر والطابوق، أحياناً أخرى، وبيت المدر عادة ما يطلق على بيوت الحضر

٢- (٢) «وبر» وبيت (الوبر) عادة ما يطلق على بيوت البادية

٣- (٣) «ترحه» الغم والحزن

بنى أميه كانوا جميعاً من بطانتهم الذين سادتهم روح الظلم والانتقام بغيه الاحتفاظ بسلطتهم لأقصى مدّه ممكنه.

ثم قال عليه السلام:

«فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفِقِي لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصِفِيئِمُّ بِالْأَمْرِ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَأُورِدْتُمُوهُ غَيْرِ مَوْرِدِهِ» ونفهم من هذه العبارة أنّها تخاطب أولئك الذين صمتوا إزاء الظلم والطغيان بعد أن قصروا في أداء مسؤولياتهم، والدليل على ذلك العبارة

«أَصِفِيئِمُّ بِالْأَمْرِ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَأُورِدْتُمُوهُ غَيْرِ مَوْرِدِهِ»؟ وجاء مثل هذا المعنى في الخطبه ١٩٢ التي قال فيها:

«وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارِبِكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ ثُمَّ لَأَجْبِرَائِلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ» وليس من الصواب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغه من أنّ المخاطب بالعبارة المذكوره هم الحكام الظلمه والذي يتابع فيه كل صغيره وكبيره من أعمالهم السيئه:

«وَسَيَبْتَغِيكُمْ اللَّهُ مَمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّا- بِمَا كَلَّ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ (١)، وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ (٢) وَالْمَقْرِ (٣)، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدَثَارِ السَّيْفِ.

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا (٤) الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ (٥) الْأَثَامِ». إشاره إلى أنّ الله سيجرعههم كل بلاء يصبوه على الناس وسيذيقهم مراره الذله إزاء كل لذه حصلوا عليها من مناصبهم، وقد شهروا سيوفهم على رقاب الناس، وسيسلط الله عليهم من يضع السيف في أعناقهم. وقد ثبت وقوع كل هذه الأحداث كما أخبر عنها الإمام عليه السلام وقد انتقم الله من بنى أميه شر انتقام بحيث دبّ الرعب والهلع في صفوف من تبقى منهم حتى فروا إلى المناطق النائية ولم يخلفوا لأنفسهم سوى الفضيحة والعار واللعنه الأبدية.

والعبارة:

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ تشبيه لطيف ورائع. فقد شبههم بالحيوانات

ص: ١٣٨

١- (١). «علقم» شجره ثمرتها شديده المراره، والتي يطلق عليها أيضاً الحنظل

٢- (٢) «صبر» بكسر الباء، على وزن فقر، عصاره شجر مر، والتي صار يضرب بها المثل، كما يطلق على نفس الشجره

٣- (٣) «المقر» نبات سام، كما يطلق على كل سم

٤- (٤). «مطايا» جمع (مطيه) المركب الهنيء السريع

٥- (٥) «زوامل» جمع (زامله) دابه الحمل

حيث باءوا بخطايا الناس إثر جهلهم وافتقارهم للعقل والشعور، على غرار ما وصف به القرآن الكريم تلك الطائفة من الكفار: «وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ»^(١).

ثم اختتم الخطبه بنبوءه حاسمه أخرى بشأن مصير بنى أميه فقال:

«فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا^(٢) أُمِّيَّةٌ مِنْ بَعِيدِي كَمَا تُلْفِظُ النُّخَامَةَ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا مَا كَرَّرَ الْجَدِيدَانِ!». فقد أورد الإمام عليه السلام عبارته عجيبة بشأن دوله بنى أميه على أنهم شابوا الحكومه الإسلاميه بالارجاس والأدناس والقذاره والظلم والفساد فأصبحت كالمواد المخاطيه التي يدفعها الصدر والرأس، بحيث سينتهى الأمر إلى ما لا يظنون أنه أنفسهم على غرار ذلك الذى يهيم بطرح تلك المواد، فسيفقدون تلك السلطه ولا يظفرون سوى بلعنات الناس.

تأملان

١. وظيفه الحاكم والرعيه

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه إلى مسألتين مهمتين تتعلقان بحوادث التاريخ المريره؛ الأولى، وظيفه ومسؤوليه الحاكم، والأخرى، مسؤوليه الرعيه.

فالإمام عليه السلام لا يقتصر بإلقاء المسؤوليه على الحاكم فى ممارساته الظالمه، بل يحمل الأُمَّه المستسلمه والراضيه بهذا الظلم جزءاً من تلك المسؤوليه. فالحكّام ومرتقتهم إنّما يمثلون فئه معينه، ولو مارست الأُمَّه وظيفتها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعدم الرضا والسكوت إزاء الظلم لما سهل على مثل هؤلاء الأفراد الأخذ بزمام الأمور ليعيشوا فى الأرض الفساد ويهلكوا البلاد والعباد.

فالإمام عليه السلام يحمل الأُمَّه وأعمالها ماصب عليها من البلاء على أيدي حكومه بنى

ص: ١٣٩

١- (١) سوره العنكبوت، الآيه ١٣

٢- (٢). «تنخمنّها» من ماده (نخامه) وبمعنى الاخلاط التى تجتمع على الرأس والصدر ويرمى بها خارجاً

أمية الظالمه، فأنتم الذين أسهمتم فى توطيد دعائم هذه الحكومه، وأنتم الذين سلمتم مقاليد الدوله لغير أصحابها، وأنتم الذين تصمتون اليوم إزاء هذه الجرائم، ولعل هذا من الألفاف الإلهيه بغيه العوده إلى أنفسكم وسلوك طريق الحق «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (١). طبعاً تحميل الأُمه مسؤوليه تجاوز الحكام الظلمه لا- يعنى سلب تلك المسؤوليه عن أولئك الحكام، ومن هنا تطرق الإمام عليه السلام العذاب الشديد الذى ينتظرهم، فبين عبارات قصيره عميقه المعنى مصيرهم الأسود ونهايتهم الأليمه.

٢. فاجعه نهايه دوله بنى اميه

نعلم أن دوله بنى أميه استغرقت أكثر من ثمانين سنه لتحكم من قبل ١٤ حاكماً من حكام بنى أميه وقد حكم البعض منهم لأقل من شهرين، إلا أن التاريخ لم يشهد مثيلاً لظلمهم الذى طال الناس عامه ولا سيّما أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وبنى هاشم. وبالطبع فإن بنى أميه لم يشهدوا الأمان والراحه طيله مدّه حكمهم حيث كانت تتوالى عليهم الثورات والنهضات، فكانوا يقيمونها بقوه الحديد والنار وسفك المزيّد من الدماء، حتى قامت عليهم الأُمه بأسرها دفاعاً عن آل محمد إثر الشعار الذى رفع آنذاك

«الرضا لآل محمد» (٢) والذى لم تكن نتيجه سوى مجى بنى العباس. أصدر الخليفه العباسى أوامره بقتل جميع بنى أميه فوقه فيهم القتل بما لا يحصى، حتى نبشوا القبور وأحرقوا من كان فيها منهم (من أراد المزيّد فليراجع آخر الخطبه ١٠٦ الجزء الرابع والخطبه ٩٣ الجزء الأول والجزء الثالث). وذكر المرحوم العلّامه التستري فى الجزء السادس من شرحه لنهج البلاغه أنه حين قتل مروان

ص: ١٤٠

١- (١). سوره الروم، الآيه ٤١

٢- (٢). تكرر رفع هذا الشعار فى التاريخ كثيراً، حيث ورد بشأن أبى مسلم الخراسانى (وقد قام يدعو إلى الرضا من آل محمد). كتاب شرح الأخبار للنعمان بن محمد، ج ٣، ص ٤١٨

آخر خلفاء بنى أميه مروان، هجم عامر بن إسماعيل على داره وكان فيها ونسائه.

فغلقوا الأبواب وتعالت الصرخات. فأمسك عامر برجل وسأله عن عائله مروان.

قال أمرنى مروان إن قتلت فاقتل جميع بناتى (حتى لا يقعن فى أيدى الآخرين) لكنى لم أفعل. وهنا احضروا له اثنتين من بناته، فأمر بوضع رأس مروان فى حجر بنته البكر وقال لها: معذره، هذا ما فعلتموه برأس يحيى بن زيد حين وضعتم رأسه فى حجر أمه، وكنتم أول من فعل ذلك والبادىء أظلم، ثم أمر بقتلهم جميعاً(١).

ص: ١٤١

١- (١) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٦، ص ١١٦

يُبَيِّنُ فِيهَا حُسْنَ مُعَامَلَتِهِ لِرِعِيَّتِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى قضيه لطيفه في أنه عاملهم قدر المستطاع بالرفق والاحسان على ما بدر منهم من حسن التصرف والسلوك رغم قلته وكثره إساءه التصرف فعفى عن كثير ظلمهم وما يكون من العدااء والبغضاء.

ص: ١٤٣

١- (١) سند الخطبه: لم يرد في مصادر نهج البلاغه سند خاص غير ماورد في نهج البلاغه، إلّا أنّ سائر الكتب التي ألفت بعد النهج أخذتها منه، ومن ذلك ما ذكره العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٤

وَلَقَدْ أَحْسَيْنْتَ جَوَارِكُمْ، وَأَحَطْتَ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ. وَأَعْتَقْتَكُمْ مِنْ رَبِّ الدَّلِّ، وَحَلَقِ الضَّيِّمِ، شُكْرًا مَنِي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا عَمَّا
أَذْرَكَهُ الْبَصْرُ، وَشَهَدَهُ الْبَدَنُ، مِنْ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

الشرح والتفسير

الدعم المطلق

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيره إلى أياديه الكريمة وخدماته للمسلمين والتابعين لحكومته وأوجزها في أربع عبارات فقال:

«وَلَقَدْ أَحْسَيْنْتَ جَوَارِكُمْ» المراد من حسن الجوار أن يعتمد الإنسان حاله التعايش السلمى المقرون بالأدب والاحترام وحسن التصرف تجاه الوسط الآخر من الأصدقاء وتحمل مساوئهم بحيث بشعرون بالارتياح لتواجده بينهم. وسيره الإمام عليه السلام لاسيما إبان عهد حكومته تفيد أنه كان يعامل الآخرين بالعطف والمحبه، حتى كان يتفقد اليتامى والأرامل ليلاً ويحمل لهم الطعام ويلبى حاجاتهم، كما كان يداعب الأطفال ويسهر على راحتهم، ويواسى المهمومين ويدارى المخالفين ويسعى جهده للترويح عن الموالين والمحبين. على العكس تماماً من عهد حكومه عثمان الذى بالغ وولاته فى إيذاء الناس، ولم يسلم منهم حتى كبار الصحابه كأبى ذر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، فكان أن نفى الصحابى الجليل أبا ذر إلى تلك الأرض القاحله الجرداء حتى مات فيها، كما اندفعت بطانته لثنال من عمار بذلك الأسلوب الهمجى البشع لمجرد اعتراضه على بعض الممارسات، فكسرت أسنانه وأشبعوه ركلاً ورفساً، كما شددوا على عبد الله بن مسعود حتى قيل إنه فارق الحياه إثر التعذيب. وإن ساوى على عليه السلام

بين عقيل وسائر المسلمين في العطاء من بيت المال، فإن قرابه عثمان تهافتت على بيت المال حتى عدت العراق بستان قريش وبنى أميه (١).

ثم قال:

«وَأَحْطَّتْ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ». أي أنني حفظتكم من وساوس شياطين الجن والانس في مسيره طاعه الله وعبوديته، ودفعت عنكم شر الأعداء. وأشار إلى دوره في عتقهم من قيود الذل والظلم والأسر فقال:

«وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبِّ (٢) الذُّلِّ، وَحَلَقَ (٣) الضَّيْمِ (٤)». وذلك لأن عهد عثمان وحكومته بنى أميه وبنى مروان وسيطرتهم على مقدرات المسلمين شهدت اتساع رقعه الظلم والجور الذي وصل إلى كل مكان، ولم يكن هنالك من اعتبار سوى لأولئك الأفراد المتعاونين مع السلطه والمستبدين؛ وقد أنقذهم أمير المؤمنين على عليه السلام من هذه الحكومه القبليه وحررهم من أيدي شرار بنى أميه وبنى مروان.

ثم اختتم خطبته بالإشاره إلى دوافعه من تلك الأعمال الحسنه تجاههم والتي لا تنبعث من اقرارهم بحقه وفضله بل:

«شُكْرًا مَنَى لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا (٥) عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصِيرُ، وَشَهَادَةً الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ». فالواقع مراد الإمام عليه السلام أنكم لم تسدوا إليّ معروفًا لأكافئكم عليه، بل ما أكثر الخطوب والمحن التي خلفتموها عليّ، فإن أسديت لكم معروفًا ففي سبيل الله وأداء الوظيفة الشرعيه. وعلى ضوء هذا التفسير فإن

«الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ» في هذه العبارة إشاره إلى تمرد الناس وغدرهم بالإمام عليه السلام، بينما فسّرها البعض من الشراح بالمنكرات بهذا الحجم على عهد الإمام عليه السلام ولم ينهاهم ويردعهم عنها؟ فأجابوا: لم يكن بوسع الإمام عليه السلام الحيلولة دون بعض

ص: ١٤٦

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ١٢٩. قول سعيد بن العاص والى عثمان على الكوفه

٢- (٢) . «ربق» جمع ربقه، على وزن فتنه، الحبل الذي يربط به الشخص، كما فسّره البعض بالحبل الذي يشتمل على عدّه عقد

٣- (٣) . «حلق» جمع حلقه، معروف

٤- (٤) «الضيم» الظلم والحيث

٥- (٥) . «إطراق» بمعنى السكوت والاعماض عن مطلب معين

المنكرات المتجذره، أو لو أراد منعها لآل الأمر إلى مفسده أعظم. لكن كما ذكرنا فإنّ المراد من المنكر ليس ما ذهب إليه أولئك الشّراح ليرد ذلك الإشكال وضروره دفعه. والمراد المساوىء التي مارسوها بحق الإمام عليه السلام والدليل على ذلك العبارة السابقه:

«لِلْبَرِّ الْقَلِيلِ».

هذا، وقد ورد مثل هذا المعنى فى سائر خطب نهج البلاغه كالخطبه ٩٧ التي قال فيها:

«وَلَقَدْ أَصْبَحَتْ الْأُمَّمُ تَخَافُ ظُلْمَ رِعَاتِهَا وَأَصْبَحَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رِعِيَّتِي».

ص: ١٤٧

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مطالب متعددة تشكل بعض التعاليم القيمه بشأن تهذيب النفس ومعرفة الله حيث يمكن خصرها في خمسة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه عن عظمة الله وحمده والثناء عليه بذكر أسمائه وصفاته.

القسم الثاني: جرى الكلام فيه عن حقيقة الرجاء بصفته أحد أركان السعادة الإنسانية.

القسم الثالث: تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأفعاله وأقواله التي ينبغي التأسي بها من قبل الجميع إلى جانب سائر صفات الأنبياء كموسى وداود وعيس عليه السلام.

القسم الرابع: عوده إلى صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهى الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الجميع.

ص: ١٤٩

١- (١) سند الخطبة: قيل في سند هذه الخطبة: ذكر الزمخشري المتوفى عام ٥٣٨ هـ والذي عاش بعد قرن من وفاه الشريف الرضى رحمه الله بعض هذه الخطبة باختلاف في كتابه (ربيع الأبرار) وهذا يفيد أنه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٧٣)

القسم الخامس: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى تواضعه واختتمه بالمثل الرائع

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يُحَمَدُ الْقَوْمُ الشُّرَى».

ص: ١٥٠

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاؤُهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي؛ حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْدًا يَمَلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْدًا لَا يُحْجِبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصِرُ دُونَكَ.

حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدْدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». لَمْ يَنْتَه إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ.

أَدْرَكَتِ الْأَبْصَارُ، وَأَحْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ». وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعَجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصَبُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصَّيْرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتِ سِتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيرًا، وَعَقْلُهُ مَبْهُورًا، وَسَمْعُهُ وَالْهَأَا، وَفِكْرُهُ حَائِرًا.

الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمه الله

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى أربعة مواضع فقال:

«أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ» أى يستند أمره إلى الحكمة رغم قاطعيته على العكس من المستبدين والمقتدرين الذين يصدرن الأوامر الصارمه دون أدنى حكمه. ولمفرده (أمره) فى

العباره معنى واسع يشمل الأوامر التكوينية: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (١) والأوامر التشريعية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى» (٢).

والحكمة واضحة في كلا الأمرين تتضمن مصالح العباد والبلاد.

ثم قال:

«وَرِضَاءُ أَمِيَانٍ وَرَحْمَةٌ» يمكن أن يرضى الناس عن فرد ويأمنوه، إلّا أنّ أمانهم مشوب بالخوف والرهبه، بينما لا ينطوى أمان الله سوى على الرحمة، كما تحدث في العباره التاليه عن قضاء الله، فقال:

«يَقْضَى بِعِلْمٍ» خلافاً لقضاء الإنسان الذي يمتزج عادة الجهل وعدم العلم.

ثم قال في المقطع الرابع:

«وَيَعْفُو بِحِلْمٍ». نعم، عفوه بحلم ومن يعفو عنه لا- يؤاخذه ولا- يعاقبه، بخلاف البعض الذين يسعون لعقاب الآخرين حين يعفون عنهم لإطفاء غضبهم، كما هنالك من يعفو عن الآخرين لطفاً ورحمه. ثم أتجه الإمام عليه السلام صوب حمد الله والثناء عليه وقد تكرر هذا الحمد ثمان مرات في هذا الجانب من الخطبه حيث أورد صفه خاصه لكل مرحله، ثم خاض في هذا الحمد والثناء بأسلوب بليغ وفصيح فقال:

«اللَّهُمَّ لِمَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي» أى أحمداً وأثنى عليك فى كل الاحوال، ذلك لأنّ الخير والسعاده منك، فإن أفضت نعمه فتلك كرامه وإن سلبتها كان ذلك عن عناية. وإن منحت الصحه والعافيه فتلك سعاده وإن أمرضت وابتليت فعن مصلحه، فلا تفعل إلّا الحكمة وكل ما يأتى منك رحمه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى صفات هذا الحمد ليوجزها فى سته أوصاف ليجمعه حمداً جامعاً شاملاً من جميع النواحي فقال:

«حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْدًا يَمَلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ.

حَمْدًا لَا يُحْجِبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصِرُ دُونَكَ. حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدُدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ».

ص: ١٥٢

١- (١). سورة يس، الآية ٨٢

٢- (٢) سورة النحل، الآية ٩٠

فهذا الحمد جامع شامل يتجاوز الزمان والمكان والعدد والقصور والحجاب.

أضف إلى ذلك فهو حمد على العافيه والبلاء والأخذ والعطاء فهو حمد على كل شيء وفي كل زمان ومكان وعلى كل حال. ثم خاض عليه السلام في صفات الجلال والجمال ليورد أوصافاً بليغه أعرب فيها عن العجز عن إدراك عظمه الله، فقال:

«فَلَسَيْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ» ذلك لأن الله وجود مطلق ولا متناه من جميع الجهات، وهل من نصيب للإنسان المحدود مهما كان هذا الإنسان سوى العجز عن إدراك غير المحدود. إلا أن الإمام عليه السلام وبغية دفع التصور الخاطئ من أن هذا الكلام ربما يعنى عدم إمكان معرفه الله وتعطيل صفاته تطرق مباشره إلى المعرفه الإجماليه من خلال بيان ثمان صفات من صفاته الثبوتيه والسلبيه على أننا وإن عجزنا عن إدراك كنه ذاتك المقدسه

«إِلَّا أَنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيٌّ قَيُّومٌ، لَاتَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصِيرٌ. أَدْرَكَتِ الْأَبْصَارُ، وَأَخْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ»». طبعاً وصف الله بالحياء ليس المراد منه الحياه الواقعيه بمعنى العلم المطلق والقدره التامه على جميع الوجود. والقيوم القائم بذاته والذي يقوم به غيره، لأنه واجب الوجود، وواجب الوجود غنى عن الغير ولكل محتاج إليه. والعباره

«لَمَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ» إشاره إلى أن علمه ولطفه دائم على العباد، لا- أنه يلتفت أحياناً ويحف عباده بالعنايه وأخرى ينام فينساهم. والعباره

«لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْكَ نَظْرٌ...» إشاره إلى أن علم الإنسان لا يسعه الاحاطه بذاته المقدسه - لأن ذاته مطلقه - كما لا يسع البصر الظاهر رؤيته، لأنه ليس بجسم وليس له جهه ولا لون، بينما يدرك سبحانه حركات العيون ويحاسب على أدنى الأعمال. والمراد من

«بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ» - بالنظر إلى أن النواصي جمع ناصيه بمعنى شعر مقدمه الرأس والأقدام جمع قدم - قدره الله وغلبته لكل شيء، ذلك أن الإنسان متى أخذ منه ناصيته أو قيدت رجلاه سلب القدره تماماً.

ثم خاض الإمام عليه السلام في عالم الخلقه وعظمته لإثبات تلك الصفات الجماليه والجلاليه من خلال عبارات عميقه وورصينه تفيد أنّ العالم الذي نراه وندركه رغم عظمته لا يشكل بالنسبه لما لا نراه وندركه سوى قطره إلى بحر فقال:

«وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعَجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَعَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصِيرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُبُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ». نعم، ما نراه اليوم رغم اتساع العلوم والمعارف بشكل مذهل بشأن عالم الخلقه - لغيض من فيض ما لا نراه وندركه. والعلماء المعاصرون يتحدثون اليوم عن عوالم لا تكون كرتنا الأرضيه بالنسبه لها سوى نقطه في كتاب ضخم!! كما يتكلمون عن كرات عظيمه في هذا الكون تفوق كرتنا الأرضيه بثلاثين ملياراً! وأجرام سماويه عملاقه تفوق الشمس بثلاثه مليارات مره (وهي الأجرام التي تجذب كل شيء من حولها حتى النور الذي ينعكس حين اصطدامه ببعض الأجسام)، ومن هنا لا نراها سوى قطع سوداء متناثره هنا وهناك في السماء، وتضم كرتنا الأرضيه رغم صغرها ملايين النباتات والحيوانات التي تغوص في أعماق البحار والغابات والتي لم يتعرف عليها العلماء لحد الآن ولا يمكن رؤيتها بالعيون المجرده. أجل، فعالم الملك والملكوت على قدر من السعه بما تعجز العقول عن إدراكه وتحير الأفكار في عظمته فضلاً عن عظمه الله في خلقه، وهذا بدوره أعظم درس في التوحيد ومعرفه الله.

ورد في الروايه عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنّه قال:

«لَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَصِفُوا اللَّهَ بِعَظَمَتِهِ لَمْ يَقْدِرُوا» (١).

ثم قال عليه السلام مواصلاً خطبته:

«فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ (٢) خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ

ص: ١٥٤

١- (١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٢

٢- (٢). «ذرات» من ماده (ذراء) على وزن زرع، الخلق والايجاد

عَلَى مَوْرٍ (١) الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ (٢) حَسِيرًا (٣)، وَعَقَلَهُ مَبْهُورًا (٤)، وَسَمِعَهُ وَالِهًا، وَفَكَرَهُ حَائِرًا. فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات اللطيفة العميقة المعنى على أربعة أمور بشأن عظمه الخلق؛ إقامة العرش، وبدايه الخلق، وتعليق الكرات في السماء، وظهور الأرض من تحت الماء، وكل واحده أعجب من الأخرى، ثم أشار عقبها إلى آثار هذه الحيره من قبيل تعب العين وعجزها، وبهت العقول، ووله السمع، وحيره الفكر. أمّا بشأن تفسير العرش فهناك كلام كثير، والمستفاد من آية الكرسي أنّ العرش عالم فوق السماء والأرض، حيث ورد في القرآن بشأنه: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». جدير ذكره أنّ الملوك القدماء كان لهم عرشان؛ عرش صغير يطلق عليه الكرسي يستعملونه في الأيام الاعتيادية، وآخر مرتفع يسمى العرش يعتلونه في الأعياد والمناسبات الرسميه، ثم أصبح هذان التعبير أنّ كناية عن مختلف درجات العظمه، والقرآن يعد السماوات والأرض التي نراها كرسي الله، وعليه فعرشه أرفع من ذلك. ومن هنا ربّما يكون العرش إشارة إلى عالم ماوراء الطبيعه، أى عالم الملائكه والكروبيين (٥) أو عالم ماده الذي ليس لدينا من سبيل إليه.

والعبارة

«وَكَيْفَ مَيَّدَتْ عَلَى مَوْرِ الْمِيَاءِ أَرْضَكَ» يمكن أن يكون إشاره إلى دحو الأرض وظهور اليابسه من المياه؛ لأنّ المياه عمت بادية الأمر الكره الأرضيه برمتها، ثم تخللت فجوات الأرض وشقوقها بالتدريج حتى ظهرت اليابسه. أجل لا يمتلك الإنسان سوى الحيره والذهول أن فكر بشأن عالم الخليقه وما ينطوى عليه

ص: ١٥٥

١- (١). «مور» على وزن قول، لها معان مختلفه في اللغه، منها التيار السريع أو أمواج الماء

٢- (٢) «طرف» على وزن حرف، أهداب العين

٣- (٣) «حسير» من ماده (حسر) على وزن قصر، التعب والضعف

٤- (٤) «مبهور» من ماده (بهر) على وزن قهر، الغلبه والحيره

٥- (٥). أشرنا إلى هذا المطلب في شرح آية الكرسي في التفسير الأمثل

من عجائب وغرائب وأسرار، وهي الحيره التي تلفت نظرنا إلى عظمه الخالق وضروره معرفته وتنزيهه عن سواه.

ص: ١٥٦

منها: يَدْعِي بِرَعْمِهِ أَنَّهُ يُرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لَا يَتَّبِعُنْ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرْفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى - فَإِنَّهُ مَيْدُخُولٌ وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَغْلُولٌ يُرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيُرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبِيدَ مَا لَمْ يُعْطِيَ الرَّبَّ! فَمَا بَيَالُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصِّرُ بِهِ عَمَّا يُضَيِّعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تَكُونَ لَاتِرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا؟ وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عِبِيدًا مِنْ عِبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَمْ يُعْطِيَ رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِعْمًا مَرَارًا وَوَعِيدًا. وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا.

الشرح والتفسير

عبيد الدنيا

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى عظمه الله وحمده وأثنى عليه وتطرق إلى علامات ذاته المقدسه في عالم الوجود، خاض في وعظ الغافلين وإرشادهم وركز على مسألة من أهم المسائل وهي الخوف حيث كشف حقيقته وشرح تفاصيله وفضح الكاذبين في دعواهم إياه فقال:

«يَدْعِي بِرَعْمِهِ أَنَّهُ يُرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! (١)». ثم خاض في ذكر الدليل فقال:

«مَا بَالُهُ لَا يَتَّبِعُنْ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرْفَ

ص: ١٥٧

١- (١). التعبير بالعظيم بدل والله العظيم، لأنه حذف الموصوف والتركييز على الصفه يكشف عن مدى التاكيد، يعني أن هذه الصفه للعظمه لذاته تعالى إلى درجه من الثبات وكأنها اسم من أسمائه

رَحِيَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ». فهذا دليل واضح للفلاح الذي يرجو جنى ثمار مزرعته ينهمك في سقيها ودفع الآفات عنها وتوفر كآفه مقدمات الانبات والأثمار، فإن ادعى مزارع الرجاء لكنه جلس في بيته ولم يقدم على أى عمل فسوف يتفق الجميع على أن رجاءه كاذب فهو يتخيل الرجاء دون واقعه لذلك الخيال، فالرجاء الصادق المقرون بطاعه الله والسير على سبيله والفوز برضاه. قيل للإمام الصادق عليه السلام أن جماعه يرتكبون الذنوب ويرجون عفو الله ورحمته فقال:

«كَذَّبُوا لَيْسُوا بِرَاجِينَ أَنْ مَنْ رَجَا شَيْئاً طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ شَيْئاً هَرَبَ مِنْهُ»^(١).

ثم خاض عليه السلام فى تفاصيل ذلك الخوف والرجاء فقال:

«وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى - فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ^(٢) وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ^(٣) إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ».

يبدو دليل ذلك واضحاً فليس هنالك من مبدأ للخير سوى الله وكل من قدر على الإتيان بالخير فبمعاونته (لا مؤثر فى الوجود إلا الله). وعليه فلا ينبغي التعلق سوى بالله والرجاء لما عنده، فالذى ينفع ويضر ويثيب ويعاقب هو الله وحده وليس للآخرين من ذلك شىء كما ورد فى القرآن الكريم: «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٤). صحيح أن الله ترك للعبد قدره الإتيان بالأعمال، إلا أن ذلك لا يعنى سلب قدره عن ذاته المقدسه. ولذلك لابد من حصر الرجاء فى تلك الذات والخوف من مخالفتها.

ص: ١٥٨

١- (١) اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٨

٢- (٢) «مدخول» من ماده (دخل) على وزن أجل، بمعنى الفساد، وعليه فالمدخول، هو المغشوش غير الخالص

٣- (٣) «محقق» معلوم وقطعى وثابت، وورد فى العبارة المذكوره صفه لخوف - ولابد أن يكون مجروراً إشاره إلى أن خوفهم من الله ثابت لا غبار عليه، ذلك لأنه هو الذى يؤاخذ العباد وعليه إن خفنا الله ولم نعص أوامره فسوف لن نخاف أى أحد. إلا أن بعض الشراح ذهبوا إلى أن محقق خبر كل خوف فتكلفوا مرجع الضمير فى «فأنه» وكذلك الاستثناء ومفهوم العبارة، بينما لو اعتبروا محقق صفه لخوف لوضح معنى العبارة تماماً، ولعل العبارة السابقه بشأن الرجاء قرينه جيده على هذا المعنى، بعبارة أخرى أن الإمام عليه السلام قال ببطلان كل رجاء سوى رجاء الله وكل خوف سوى خوف الله

٤- (٤) . سورة البقره، الآية ١٠٢

ثم إشار عليه السلام إلى قضيه مهمه تكمن في تضاد أعمال الناس بخصوص موضوع الخوف والرجاء. فلو أمل شخص شخصاً آخر في مسأله لا بد له من الخضوع والخشوع، وإن خاف شيئاً أيضاً حسب له ألف حساب، بينما لا يبدى مثل هذه الحساسيه تجاه الله تبارك وتعالى سواء على مستوى الرجاء والأمل أو الخوف وحتى في القضايا المهمه، فهناك تواضع يديه لسائر العباد يفوق نظيره لله تعالى:

«فَأِنَّهُ مَعْلُولٌ يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ!».

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشاره إلى سبب ذلك فقال:

«فَمَا يَأَلُ اللَّهُ حَيْلَ ثَنَائِهِ يُقَصِّرُ بِهِ عَمَّا يُضَيِّعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تُكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تُكُونَ لَأْتَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مُؤْضِعًا؟»
حقاً أن الإنسان الذي يؤمن بالله وأنه قادر على كل شيء ويؤمن برحمانيته ورحيميته وفضله وكرمه، لا يمكن أن يكون أمله بالله كاذباً، أو أن لا يراه أهلاً للأمل. لو تأملنا قليلاً هذه الأفكار لأدركنا بما لا يقبل الشك أصل الانحراف عن التوحيد ومعرفة الله. فالحقيقه أن عصاره كلام الإمام عليه السلام هي أننا نرى أن بعض الأفراد يتجهون البعض الآخر لحاجه صغيره فيبدون لهم صنوف الاحترام والاجلال، بينما لا تشاهد منهم هذه الأمور حين يقصدون الله لحاجاتهم الكبرى، وليس هنالك من تفسير لهذه القضيه سوى ضعف مثل هؤلاء الأفراد وعجزهم عن معرفه الله والوقوف على صفاته الجلاليه والجماليه.

ثم انتقل الإمام عليه السلام من الرجاء إلي الخوف وقارن بين خوف الله وخوف العبد، فقال:

«وَكَمَا ذَلِكُ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِعْمًا (١)»
وَوَعْدًا».

قطعاً أن سبب هذا الازدواج يعزى إلى ضعف الإيمان، ذلك لأن قدره العباد هشه مقارنه بقدره الله، فلو فرضنا جميع قدراتهم، ومضه، لكانت قدره الله بحاراً من

ص: ١٥٩

١- (١) «ضمارة» الوعد البعيد، وتعنى الوعود والديون التي لا رجاء فيها

النيران بالنسبه لتلك الومضه، فكيف يتعرف الإنسان على هذين الميدانين للخوف فيخاف الومضه ولا يخاف بحار النار؟! طبعاً يمكن أن يكون منشأ هذا التفاوت، الأمل المفرط بلطف الله وكرمه والذى تفرزه بالطبع الغفله، لأنه أرحم الراحمين فى موضع العفو والرحمه وأشد المعاقبين فى موضع النكال والنقمه. ولما كان هذا التعامل الازدواجى تجاه الله والعباد ناشىء من ضعف المعرفة وضيق الافق، فقد خاض الإمام عليه السلام فى اختتامه لهذا الكلام فى هذا التعامل الازدواجى للإنسان حيال الدنيا والآخره، فقال:

«وَكَذَلِكَ مَنْ عَظَمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا».

أجل، أن عبود الدنيا عديمو المعرفة لا يرون سوى متاع الدنيا الزائل وحطامها الفانى ويغفلون عن نعيم الآخره الدائم، وهذا ما يدعوهم لا يثار الدنيا على الآخره وتقديم رضا المخلوق على الخالق. على العكس من عباد الله من أهل الورع والتقوى الذين وصفهم الإمام عليه السلام فى خطبه المتقين:

«عَظَّمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

العباره

«فَمَا انْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا» إشارة إلى حقيقه هى أن طلاب الدنيا عاده ما ينتهى بهم الأمر إلى الخروج عن عبوديه الله والاشتغال بعبوديه الدنيا وطاعه النفس والهوى والشيطان، وبالتالي الخروج من معسكر التوحيد وعبوديه الله إلى معسكر الشرك وعبوديه الدنيا. أجل عاقبه أمرهم ما آل إليه أمر عمر بن سعد حيث لم ير شيئاً سوى الدنيا متمثله بملك الرى وغفل عن عذاب جهنم ونعيم الجنه فاختر ذلك الموقف:

ألا إنما الدنيا لخيئر معجل

فَمَا عَاقِلٌ بَاعَ الْوُجُودَ بِدَيْنِ (١)

تأمل

الخوف والرجاء

إن أقوى دافع نحو الحركة باتجاه الورع والتقوى يتمثل بالخوف من عقاب الله والرجاء لرحمته وعفوه. وليس لأحد أن يخلق فى سماء الحق ويقترب من ساحه القدس الربانى دون العنصرين المذكورين. فعلى غرار التلميذ الذى يأمل تذوق طعم النجاح من خلال رجائه الموفقيه والحصول على الدرجات العاليه إلى جانب الخوف من الرسوب فى الامتحان، فيجد ويجتهد ويجند طاقاته من أجل العلوم والمعارف، يبدو لابد من هذا الرجاء والخوف فى الجانب المعنوى أيضاً.

ورد فى الحديث الشريف أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَهُ عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ» ١.

وقال الصادق عليه السلام:

«لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا، وَلَا يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا حَتَّى يَكُونَ عَامِلًا لِمَا يَخَافُ وَيَرْجُو» (٢). والإنسان لا يمكنه الاستفادة من هذين المفهومين، الخوف والرجاء أن زعمهما كذباً، والتأكيد من عدم الكذب بهذا الشأن يكمن في الموازنة والعمل على أساسهما، إلّا أنّ المؤسف له هو أنّ أغلب الناس صادقون في رجائهم وخوفهم بالنسبة لأمر الدنيا، لكنهم ليسوا كذلك بالنسبة للآخرة. لقد ظهر الآن مرض شديد هو مرض ذات الرئة: «والذى يطلق عليه الالتهاب الرئوى اللانمطى» القاتل حيث بلغ عدد الوفيات ستة بالمئه بالنسبة للمصابين بهذا المرض، ويبد وأن طرق الوقايه التى اتخذت بهذا الشأن تفوق التصور، فقد عمدوا إلى رش السموم فى المناطق الملوثة، والجميع يرتدى الأقمعه الواقيه، وإن عثروا على من يظن أنه مصاب يعزلونه عن الآخرين، كما هنالك تفتيش دقيق لكافه المسافرين حين يهبطون فى المطارات. حقاً هذا هو الخوف الصادق.

ص: ١٦٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٨٠

٢- (٢). اصول الكافى، ج ٢، ص ٧١

والسؤال الذى يرد هنا: هل يبدى المؤمنون مثل هذا الخوف من عذاب الله يوم القيامة الذى يفوق هذا الأمر بما لا يحصى؟! يتعجب الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره من كيفيه شعور الإنسان بذلك الخوف من بعض الحوادث الطفيفه بينما لا يعيش مثله من الله! والأمر كذلك بالنسبه للرجاء؛ نعم، أولياء الله كانوا يرتعشون خوفاً من الله فى محراب عبادتهم، وكان يسمع من بعضهم أنين وتأوه. الكلام بهذا الشأن كثير والهدف هنا إشاره سريعه لاتمام المباحث، ونختتم البحث بهذا الحديث. قال الإمام الصادق عليه السلام: كان أبى يقول:

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفَى قَلْبِهِ نُورَانِ، نُورٌ خِيفَهُ، وَنُورٌ رَجَاءٍ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا» (١).

ص: ١٦٢

١- (١) اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٧

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لَكُمْ فِي الْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكُمْ عَلَى ذِمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رِضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

الشرح والتفسير: التأسى بالنبي صلى الله عليه وآله

تحدث الإمام عليه السلام في العبارات الأخيره من المقطع السابق عن أولئك الأفراد الذين ذاعوا في الدنيا فأصبحوا عبيدها الأذلاء بعد أن ولّوا ظهورهم لكل شيء وأخلدوا إلى الدنيا. وقد سعى الإمام عليه السلام لإيقاظ هذه الفئة المتهافتة على الدنيا من خلال الاقتداء بجوانب من سيره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن سبقه من الأنبياء، وقد ركز بادية الأمر على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لَكُمْ فِي الْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكُمْ عَلَى ذِمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا(١) وَمَسَاوِيهَا» جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام يرى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هنا اسوه ودليل. والواقع هو أنّ العبارتين تنتهيان إلى نتيجة واحده وهى اقتناء آثار ذلك النبي الأعظم وتكييف الحياه على ضوء حياته، لكن هنالك تفاوتاً لطيفاً فى المعنى؛ فالأسوه إشاره إلى أننا نكيف حياتنا طبق حياه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أما الدليل، فإنّ إشاره إلى أنه يدعوننا إلى الآخره.

ثم ذكر عليه السلام توجيه ذلك التأسى فقال:

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ

ص: ١٦٣

١- (١). «مخازى» من جمع، مخزاه من ماده (خزى)، الفضيحه

أَكْنَفُهَا، وَفِطَمَ (١) عَنْ رِضَاعِهَا، وَزُؤَى (٢) عَنْ زَخَارِفِهَا (٣)».

فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وآله حين كان القياصره والأكاسره يرتعون في الجزيره العربيه، وقد واصل تلك الحياه البسيطه المتواضعه حتى حين تزعم الدوله الإسلاميه وحاز على الغنائم العظيمه، وكان يفخر صلى الله عليه وآله بتلك المعيشه فيقول:

«الْفَقْرُ فَخْرِي» (٤) فالعباره لا تعنى أنه لم يكن بوسع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الحصول على تلك الحياه وأسلوب العيش، بل لم يكن شخصياً يرغب فى مثل تلك المعيشه، ومن هنا ورد فى الروايه أنه هبط عليه أحد الملائكه ويده مفتاح خزائن الدنيا فقال:

«يَا مُحَمَّدُ هَيْدِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ إِفْتَحْ وَخُذْ مِنْهَا مَا شِئْتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْقُصُ شَيْئاً عِنْدِي»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله

:الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَادَارَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَاعَقَلَ لَهُ. فقال الملك:

أُقْسِمُ بِاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ نَبِيًّا بِالْحَقِّ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعِ حِينَ تَسَلَّمْتُ هَذِهِ الْمَفَاتِيحُ» (٥).

والعباره

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا» إشاره أن حكومه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلطته لم تكن كحكومه القياصره والأكاسره، والعباره

«وَفِطَمَ عَنْ رِضَاعِهَا» إشاره إلى عدم تناوله الأطمعه اللذيذه المتنوعه، والعباره

«وَزُؤَى عَنْ زَخَارِفِهَا» أنه لم يستفد من القصور الفارهه والمراكب الهنيئه والثياب الفاخره. على كل حال فقد استعان الإمام عليه السلام بأعظم أسوه وركز على حياه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إزاء أولئك الذين إنقادوا للدنيا وقصروا همتهم عليها. النبي الذى كان يجلس على التراب ويعيش كأضعف الأفراد ولم يكن لديه أحياناً سوى ثوب واحد وقد اعترض على ابنته فاطمه

ص: ١٦٤

١- (١) «فطم» من ماده (فطم) منع الطفل من اللبن

٢- (٢) «زوى» من ماده (زى) على وزن حى، الجمع والابعاد

٣- (٣) «زخارف» جمع زخرف، على وزن هرمز، تعنى فى الأصل كل زينه مكتوبه، واطلاق الزخرف على الكلام الفارغ لما ينطوى على تزويق وتجميل

٤- (٤) . مستدرک الوسائل، ج ١، ص ١٧٣

٥- (٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٩

الزهاء عليها السلام حين وضعت ستاراً جديداً على باب دارها وقد لبست بعض الحلى من الفضة لا الذهب، وسنخوض في
المزيد بهذا الشأن في ختام هذه الخطبه.

ص: ١٦٥

وَإِنْ شِئْتَ تَنْبِئْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ يَقُولُ:

«رَبِّ إِنِّي لَمِمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرِ فَقِيرٍ». وَاللَّهُ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَهُ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَهُ الْبَقْلُ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لَهُزَالِهِ وَتَشَدُّبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ تَلْتُمُ بَدَاوُودَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سِيفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ تَمَنِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَّاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلْعَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَفَاكِهِتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاؤُهُ!

الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في البحث السابق إلى جانب من حياه النبي صلى الله عليه وآله كآسوه بالمؤمنين في الزهد، ثم تطرق هنا إلى هذا الجانب في حياه ثلاثه من سائر الأنبياء ليتضح من خلال ذلك أن هذا الأمر كان محورياً في حياه الأنبياء فكانوا آسوه لأممهم، فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ تَنْبِئْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ

يَقُولُ: «رَبِّ إِنِّي لَمِياً أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». ثم خاض عليه السلام في تفسير العبارة المذكورة وهي آية من آيات سورة القصص على لسان موسى عليه السلام حين وروده إلى مدين فقال:

«وَاللَّهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَهُ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرُهُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ (١) صِفَاقٍ (٢) بَطْنِهِ، لِهَزَالِهِ (٣) وَتَشْدُبِ (٤) لَحْمِهِ». فرَّ موسى عليه السلام إلى الشام ثم مدين إثر دفاعه عن أحد أفراد بني اسرائيل وقتله لأحد اتباع فرعون ومطاردته من قبل الأجهزه الفرعونييه والبحث عنه في مصر، ولم يكن يحمل في سفره متاعه وحيث لم يكن يستجدي أحداً من الناس فقد اضطر لأكل نبات الأرض فهزل بدن موسى عليه السلام وضعف خلال هذه المده بفعل المسافه الطويله التي قطعها ماشياً من بلد إلى بلد آخر وقد بلغ الضعف مداه بحيث كانت تبدو خضره البقول من بطنه. وقد سأل الله سبحانه طعاماً يسد رمقه ويزيل جوعه، بينما كان باستطاعته سؤال الله عيشه هانئه وسفراً مريحاً. صحيح أن موسى عليه السلام كان يمر بظروف عصيبه اضطرته إلى تلك الأزمه العنيفه، إلّا أنّ المهمم أنه لم يسأل الله سوى مقدار الضروره، وهذا دليل واضح على الزهد الذي كان محور حياته.

ثم عرج على زهد داود عليه السلام فقال:

«وَإِنْ شِئْتُمْ ثَلُثْتُ بِدَاوُودَ - صَيَّلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَرَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ (٥) الْخُوصِ (٦) بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجَلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْنَعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا». نعلم أن داود عليه السلام وإلى جانب النبوه كان من ملوك بني اسرائيل وكانت حكومته قويه شامله على ضوء الآيه الشريفه: «شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابِ» (٧). فهل ما

ص: ١٤٨

١- (١). «شفيف» من ماده (شفوف) رقه الشيء، بحيث يستشف ما وراءه

٢- (٢) «صفاق» الجلد الباطن الذي فوقه جلد البطن الظاهر

٣- (٣) «هزال» ضعف

٤- (٤) «تشذب» بمعنى تفرق، وأريد بها هنا، تفرق لحم البدن

٥- (٥). «سفائف» جمع سفيفه، ما ينسج من سعف النخيل

٦- (٦) «خوص» سعف النخيل

٧- (٧). سورة ص، الآيه ٢٠

قيل يتعلق بعهد حكومته أم بعدها؟ كيف ما كان الأمر فهناك دليل دامغ على زهده ولاسيما ما ورد في بعض الروايات أنه لم يكن يقات من بيت المال، بل كان يعمل الدروع ويأكل من عرق جبينه. العبارة

«صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» إشاره إلى مقاماته المعنوية الرفيعة في الدنيا والآخرة. وقد أفاض الله عليه من العلوم المعنوية بحيث كان ينشئ المزامير (المزامير كما سيأتي بمبحث التأمّلات مجموعته من الأدعية والمناجاة والمواظب والإرشادات التي كان يتلوها داود عليه السلام وترنم بها بصوت عذب فكان يشد إليه الناس، بل حتى الطيور والحيوانات حسب الرواية).

وقارياً (أهل الجنة) إشاره إلى مقامه الأخرى حيث يتذوق أولياء الله هناك لذّة القرب الإلهي وعشق ذاته المقدّسه من ترانيمه المعنوية لذلك الصوت العذب ومناجاته الروحية.

والعبارة

«أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا» ربّما تكون إشاره إلى هذه النقطة وهي أنه أراد شخصاً يبيعها ويستفيد مقداراً من ثمنها، وإن كان هذا الأمر على عهد قضائه فهو إشاره إلى أنّ القضاء لا يتعامل في مثل هذه الأمور مباشرة مع الآخرين حذراً من معرفته واعطائه الكثير بغيه استمالته في إصدار الأحكام.

ثم تطرق عليه السلام إلى زهد عيسى عليه السلام حيث أوجز حياته المتواضعة في ثلاث عشرة عبارة قصيرة، يصعب علينا حقاً تصور تلك الحياه العجيبه لهذا النبي الزاهد فضلاً عن العمل بها فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ (١) الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلْمَالُهُ فِي الشَّيْءِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَعَارِبُهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزَنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجَالُهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاؤُهُ!». المراد من العبارة

«وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ» أنه

ص: ١٦٩

١- (١). «يتوسد» من ماده (وسد) جعل الشيء كالوساده تحت الرأس

كان يكتفى من الطعام بالخبز. وتشير العبارة

«وَضَلَّالُهُ فِي الشُّتَاءِ...» أنه كان يستعين بدفء حراره الشمس على بروده الشتاء. جدير بالذكر أنّ المسيح عليه السلام ظهر في فتره كان يتنعم بها عبيد الدنيا من بنى اسرائيل في القصور الفخمه والمراكب الهائئه والثياب الفاخره وتنقل إليهم مختلف الأَطعمه ممّا لذّ وطاب. وقد اختار عليه السلام هذا النوع من الحياه لتحذيرهم من مغبه التكالب على الدنيا المحفوفه بالقيود والاغلال والتي تذل في خاتمه المطاف كل من ركن إليها، وقد قاطع بعض المحاور المهمه التي من شأنها فتنه الإنسان من قبيل الدور الفارهه والزوجات الجميله الفاتنه والمال والولد والمركب، فقد ولى عليه السلام ظهره لكل هذه الأمور بهدف ايقاظ المجتمع من غفلته والسعى إلى دار الآخره.

تأملات

١. مزامير داود

مزامير جمع مزمور بمعنى الترانيم التي تنشء بنغمه معينه، ومزامير داود عليه السلام اشعار روحيه مناجاه ومواعظ وعبر، كان يتلوها داود عليه السلام بصوته العذب لتؤثر في القلوب (١) وتتكون هذه المزامير التي تعد الآن من كتب أهل العتيق من خمسه كتب تكرر لفظ آمين آخر كل قسم منها، ويعتقد الأغلب من المفكرين أنّ هذا اللفظ من إضافات جامعي الكتب (لابدّ من الالتفات إلى أنّ المزامير الفعلية الموجوده في الكتب المقدسه تخلو من هذا اللفظ.

على كل حال يضم الكتاب الأول ٤١ والثاني ٣١ والثالث والرابع ٧١ والخامس ٤٤ مزموره. ويمكن ايجاز مفاهيم المزامير بصوره عامه في العناوين الآتيه:

١. مزامير الحمد والتسبيح التي تشمل عدّه مزامير.

٢. مزامير الشكر التي يطلقها الأشخاص إزاء أَلطاف اللّٰه.

٣. المزامير المتعلقه بالتوبه.

ص: ١٧٠

١- (١). وأحياناً جمع مزمارة، المعروف

٤. المزامير السياحيه (بشأن قصه الأفراد الذين خصتهم عنايه الله أو غضبه).

٥. المزامير التاريخيه بشأن رحمه الله وفضله على بني اسرائيل.

٦. مزامير النبوه على أساس وعد الله لداود عليه السلام وأبنائه.

المزامير التعليميه التي كان يوصى داود عليه السلام فيها ببعض الأمور.

أ) خصائص العادلين ومميزات الشريرين.

ب) قدسيه وطهاره؟ الشريفة الإلهية.

ج) هوان قيمه الحياه الدنيا.

د) الوظائف الواجبه على الحكام.

٧. مزامير دعاء للمذنبين (يجدر الإشارة إلى أن أغلب هذه المزامير لا جميعها تنسب إلى داود عليه السلام)^(١).

٢. الصوت الداودي

يستفاد من الآيات والروايات أنّ لداود عليه السلام صوتاً شجياً، إلى درجه أنّه لا يقتصر على جذب الناس فحسب، بل كانت تجتمع إليه الطيور وتحط إلى جانبه أو على بدنه حين يناجى الحق في محراب عبادته. ولما كانت الجنّة الموضع الأفضل فقد ورد في الخطبه أنّ داود عليه السلام قارىء أهل الجنّة، كما أشار ابن أبي الحديد إلى روايه تحمل هذا المعنى فقال: ورد في الخبر، داود قارىء أهل الجنّة.

٣. زهد الأنبياء

ستعرض في نهايه الخطبه عقب الحديث عن زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى عليه تشدد أنبياء الله على أنفسهم في الحياه، بما نعجز عن تحمله.

ص: ١٧١

١- (١) اقتباس من قاموس الكتاب المقدس امستر هاكس

فَتَأْسَ بِبَيْتِكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأْسَى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَى. وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأْسَى بِبَيْتِهِ، وَالْمُقْتَضُ لِأَثَرِهِ. فَضَمَّ الدُّنْيَا قَضَمًا، وَلَمْ يُعْزِهَا طَرْفًا. أَهْضَمُ أَهْلُ الدُّنْيَا كَشْحًا، وَأَحْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

الشرح والتفسير: سيره النبي صلى الله عليه وآله إزاء عبده الدنيا

إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ أَنْبِيَاءَهُ مِنَ الْبَشَرِ لِيَكُونُوا أُسْوَةً لِلْآخِرِينَ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي؛ وَلَوْ كَانُوا مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ لَتَعَذَّرَ التَّأْسَى بِهِمْ وَأَصَابَ الشَّلَلُ أَهْمَ مَفَاصِلِ حَرَكَتِهِمُ الرِّسَالِيَّةِ الْمُمَثِّلَةِ بِالتَّعَالِيمِ الْعَمَلِيَّةِ. وَالْوَاقِعُ مَهْمَا كَانَ الْخَطِيبُ مَتَمَكِّنًا وَبَلِيغًا وَالْكَاتِبُ فَصِيحًا وَمَتَعَمِّقًا فَإِنَّ تَأْثِيرَ مَوَاعِظِهِ وَنَصَائِحِهِ لَا يَرْقَى إِلَى الْأُسْوَةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَلَا يُمْكِنُ مَقَارَنُهُ مَا يَسْتَفِيدُهُ الْآخَرُونَ مِنَ السِّيَرَةِ الْعَمَلِيَّةِ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ مَعَ تِلْكَ الَّتِي تَحْصُلُ عِنْدَ سَمَاعِ الْوَعَاظِ؛ وَمِنْ هُنَا رَكِزُ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذِكْرِهِ لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى سَيْرِهِ الرَّسُولِ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي أُطَارِ مَوَاجَهَتِهِ لِأَصْحَابِ الدُّنْيَا الَّذِينَ تَكَلَّبُوا عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَفِي كُلِّ زَمَانٍ، فَأَشَارَ قَبْلَ الْخَوْضِ فِي الْجَوَانِبِ الْعَمَلِيَّةِ لِسَيْرِهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى رُؤْيَتِهِ لِلدُّنْيَا فَقَالَ:

«فَتَأْسَ بِبَيْتِكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ

تَأْسَى، وَعَزَاءٌ لِمَنْ تَعَزَى. وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأْسَى بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ (١) لِأَثَرِهِ».

وتطرق إلى نظرتة صلى الله عليه و آله إلى الدنيا، فقال:

«قَضَمَ الدُّنْيَا قَضَمًا (٢)، وَلَمْ يُعِزَّهَا طَرْفًا».

أَهْضَمُ (٣) أَهْلُ الدُّنْيَا كَشْحًا (٤)، وَأَخْمَصُهُمْ (٥) مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ (٦). إشاره إلى أنه كان مسلم لله بكل كيانه، يحب ما أحب الله ويعادى من يعاديه الله، وكل هذه العبارات إشاره إلى زخرف الدنيا الزائفة فى أن الدنيا مبعوضه وحقيره وصغيره وتافهه. القضية المهمه أن حب الدنيا أساس الظلم والحروب وسفك الدماء، والذي ينظر إلى زخارفها نظره حقيره لن يحبها ويفتن بها وقلما يتلوث بآثامها.

ثم يخلص إلى نتيجته واضحه فيقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَيَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنِ أَمْرِ اللَّهِ». نعم فسعدتنا فى الدارين وصدقنا فى ادعاء الإيمان بالله ورسوله فى أن نعظم ما عظمه ونستصغر ما صغراه. فقد وقف النبى الأكرم صلى الله عليه وآله موقفاً مخالفاً لزخارف الدنيا ومظاهرها الزائفة، فكيف نزع الإيمان به ونحن نعظم هذه التوافه الدنيويه ونضحى من أجلها بالعالى والنفيس؟! يمكن أن يرد هنا هذا السؤال: إذا كان

ص: ١٧٤

١- (١) «مقتص» من ماده (قص) على وزن نص، قطع الشىء وقصه، كما وردت بمعنى متابعه الشىء، قصه أيضاً بمعنى متابعه حادثه، ومنه القصاص أيضاً

٢- (٢). «اقضم» تعنى فى الأصل لوك الأشياء الجافه مقابل الخضم للأشياء الرطبه وابتلاعها، وأريد بها هنا قلّه الاستفاده من الدنيا

٣- (٣). «اهضم» من ماده (هضم) على وزن قدم، بمعنى الضعف للبدن، ومنه هضم الطعام حيث تضمر البطن بعدالهضم، ومنه ضمور الخاصره والبطن

٤- (٤) «كشح» الخاصره

٥- (٥) «اخمص» من ماده (خمص) على وزن شمس، خلو البطن اثر الجوع

٦- (٦). الفارق بين التصغير والتحقير، أن التحقير يطلق عاده بشأن الكيفيه؛ مثلاً- يعتبر الإنسان المحروم من العلم والمعرفه والصفات الحميده حقيراً، أما الصغير فيطلق على الشىء القليل من حيث الكميّه كالإنسان الصغير العمر وما شابه ذلك، إشاره إلى عدم قيمه الدنيا وقتلها

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يجانب الطعام إلى هذه الدرجة وكان أخلى بطناً من عامه الناس، فكيف كان يصمد أمام العدو في المعركة حتى وصفه على عليه السلام بقوله:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَاسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى الْعَيْدِ مِنْهُ»^(١). فقد ورد مثل هذا السؤال بشأن على عليه السلام كيف وقف تلك المواقف الصعبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في معركة بدر واحد والأحزاب وخيبر وحنين وإبان حكومته في الجمل وصفين والنهروان ولم يكن طعامه سوى الشعير. وقد أجاب الإمام عليه السلام عن السؤال في كتابه إلى عثمان بن حنيف^(٢) فقال:

«أَلَا إِنَّ الشَّجْرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْيَلُّ عُوْدًا وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا وَالنَّابِتِيَّاتِ الْعَدِيَّةَ أَقْوَى وَوُودًا وَأَبْطَأُ حُمُودًا» وعليه، فالنهم في الطعام ليس بدليل على القوه والقدرة. ولعل أولئك الأعراب الذين كانوا يقتاتون على الأطعمة العادية قد ابلوا بلاءاً حسناً في الحرب التي نشبت بين ايران والروم على العكس من أولئك الجنود الذين كانوا يطعمون مختلف الأطعمة، فقاوموا وصمدوا بالشكل الذي أذهل الجميع. القضية الأخرى هي أن معنويات المقاتل هي التي ترسم صورته واضحه عن مصيره في جبهه القتال لا الطعام وانواعه، وكانت معنويات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعليه السلام في القمه بما أهلها لتلك الشجاعه الفائقه. جدير ذكره أن ما ورد بشأن طعام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعليه السلام لا يعنى أنهما كانا يتناولان مثل ذلك الطعام طيله حياتهما، بل المراد أنهما لم يتعلقوا بطعام معين قط.

ص: ١٧٥

١- (١). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٢٦

٢- (٢). نهج البلاغه، الرساله ٥٣

وَلَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْفَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعِارِي، وَيُزِدُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّرُّ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فَلَانَهُ - لِأَحَدِي أَرْوَاجِهِ - عَيْبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَزْجُو فِيهَا مَقَامًا، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَعَيْبَهَا عَنِ الْبَصْرِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَهُ.

الشرح والتفسير

زهد النبي صلى الله عليه وآله

تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبه بصوره عامه إلى زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و ضروره الاقتداء والتأسي به، إلا أنه بين هنا مصاديق ذلك الزهد والتواضع في حياته اليوميه فأشار إلى سبعة مواضع تكشف بجلاء عن مدى زهده وتواضعه (١)، فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ،

ص: ١٧٧

١- (١). يستفاد من المطالعات التاريخيه أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان عاده ما يركب أحداً خلفه، أحياناً اسامه وأخرى الفضل بن العباس وسائر الأفراد من الصحابه حتى بلغ عددهم حسب ما أورده المؤرخون ٣٣ شخصاً (انظر شرح العلامة التستري لنهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٣٧) كما ورد في الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يستقبله الأطفال حين يعود من المدينه فكان يأمر ياركابهم خلفه وأمامه، وكان يوصي أصحابه ياركابهم، فكانوا يفخرون بركوبهم على مركب رسول الله صلى الله عليه وآله (المحجبه البيضاء، ج ٣، ص ٣٦٦)

وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيُخَصِّفُ (١) بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَزِقُّ (٢) بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَزَكُّبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَّ، وَيُزِدُّ (٣) خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّتْرَ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ:

«يَا فَلَانَهُ - لِإِحْدَى أَرْوَاجِهِ - غَيْبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَّارِفَهَا».

العبارة

«يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ» إشارة إلى عدم امتلاك المحتاجين للمفروشات آنذاك ليجلسوا عليها فكانوا يضطرون للجلوس على الأرض فكان النبي صلى الله عليه وآله يواسيهم في الجلوس على الأرض. والعبارة

«وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ» تشير إلى مدى تواضعه في جلوسه، لا على غرار المتكبرين الذين يضعون رجلاً على أخرى بكل غرور. والمعروف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يجثو على ركبتيه على غرار العبيد؛ فهي جلوسه متواضعه إلى جانب كونها سهله في النهوض. ورد في الحديث أنّ امرأه سيئه اللسان مرّت بالنبي صلى الله عليه وآله وهو جالس فقالت له: يا محمد إنك لتجلس كالعبيد؟ فقال صلى الله عليه وآله:

«وَأَيُّ عَبْدٍ أَعْبَدُ مِنِّي» (٤).

والعبارة

«وَيَكُونُ السُّتْرَ...» إشارة إلى عائشه حين وضعت ستراً مزيناً فيه صور لذي أرواح، فامتعض رسول الله صلى الله عليه وآله من رؤيته لأنه مزين فقال:

«غَيْبِيهِ عَنِّي فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَّارِفَهَا، وَأَمَرَ بِرَفْعِهِ فَوْرًا» (٥).

ثم قال عليه السلام مواصلاً كلامه:

«فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ،

ص: ١٧٨

١- (١). «يُخَصِّفُ» من مادة (خصف) على وزن وصف، رقع الشيء وخطاهه القطع. وتعني هذه المفردة في الأصل ضم الشيء

إلى آخر ومن هنا تطلق على خطاهه الحذاء والثوب

٢- (٢) «يُرِقُّ» من مادة (رقع) على وزن رفع، بمعنى وصل الشيء

٣- (٣). «يُرِدُّ» من مادة (ردف) على وزن حرف الكون خلف شيء، ومن هنا يقال لمن يركب خلف غيره رديف

٤- (٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧١ بتلخيص

٥- (٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ٢، ص ٢٩٣ ولكن ورد في هذا الحديث كلمة النمرقه بدل السترة

وَأَحَبُّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتَهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَمَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا(١)، وَلَمَّا يَعْتَقِدْهَا قَرَارًا، وَلَمَّا يَزُجُو فِيهَا مُقَامًا». إشاره إلى أَنَّ حَبِيبَ لَا يَجْتَمَعَانِ فِي قَلْبِ إِنْسَانٍ. فَإِنَّ افْتِنَ بِالْدُنْيَا وَأَحْبَبَهَا رَحَلَ عَنْ قَلْبِهِ حُبَّ اللَّهِ وَنَعِيمَ الْآخِرَةِ، فَمَا لَمْ يَطْرُدْ مِنْ قَلْبِهِ حُبَّ الدُّنْيَا لَنْ يَحِبَّ اللَّهَ. وَيَصْدُقُ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى جَمِيعِ الْأَفْرَادِ، وَأَبْرَزَ نَمُودَجَ لِذَلِكَ تَمَثَّلَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الَّذِي قَالَ:

«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُهَا كَمَثَلِ الرَّكَّابِ رُفِعَتْ لَهُ الشَّجْرَةُ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَقَالَ تَحْتَهَا ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(٢).

ثم خُصَّصَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى نَتِيجِهِ وَاضْحَى أَنَّهُ طَالَمَا كَانَتِ الدُّنْيَا بِهَذَا الشَّكْلِ فَمَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَّا أَنْ قَاطَعَهَا:

«فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا(٣) عَنِ الْقَلْبِ، وَعَيَّبَهَا عَنِ الْبَصْرِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَهُ». وَهَذَا يَطْرُقُ هَذَا السُّؤَالُ نَفْسَهُ: لِمَاذَا كَلَّ هَذَا الدَّمُ وَالتَّحْقِيرُ لِلدُّنْيَا مِنْ قَبْلِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ سَنَرُدُّ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ بِالتَّفْصِيلِ فِي آخِرِ الْخُطْبَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ص: ١٧٩

١- (١). «رياش» جمع ريش، تعني في الأصل، ريش الطيور، ولما كان ذلك الريش ثوبه الطبيعي الجميل فإنها تطلق أحياناً على كل ثوب جميل كما تطلق على كل زينه، والمعنيان محتملان في العبارة المذكورة
٢- (٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٤ (لابد من الالتفات هنا إلى أن العبارة (قال تحتها) من القيلولة، بمعنى الاستراحة والنوم عند منتصف النهار)

٣- (٣). «أشخصها» من ماده (شخوص) على وزن خلوص، تعني في الأصل التركيز في النظر على نقطه، ويفيد عادة الخوف ثم اطلقت على اخراج شخص من مكانه فجأه

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ.

فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ - بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فَتَأَسَّى مُتَأَسِّسٌ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَصَ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَمَّا يَا مَنْ أَهْلَكَه، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالجَنَّةِ، وَمُنْذِرًا بِالعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصًا، وَوَرَدَ الآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعِ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنْهُ اللَّهُ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا تَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأَ عَقْبَهُ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَفَعْتُ مِذْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ:

اعْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ الشُّرَى!

الشرح والتفسير: لم التأسي بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

عاود الإمام عليه السلام تأكيده لما أورده في المقطع السابق من الخطبه في ذم الدنيا والمتعلقين بها فقال باديء الأمر على نحو الاستدلال المنطقي:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ

فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ (١)، وَزُوَيْتٍ (٢) عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ (٣). وَعَلَى ضَوْءِ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ خَاضَ فِي بَرَهَانِهِ الْمُنْطَقِي فَقَالَ:

«فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهْرَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهْرَانُهُ، فَقَدْ كَذَبَ - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ - بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْرَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ». لَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْسِيَ هُنَا أَنَّ فَتْنَهُ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ أَنْذَاكَ كَانَتْ تَرَى ثَرَوَتَهَا دَلِيلًا عَلَى عِنَايَةِ اللَّهِ بِهَا، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ الْفُقَرَاءَ وَالضَّعْفَاءَ مَبْعُدُونَ عَنْ عِنَايَةِ اللَّهِ، وَهَذَا التَّفَكِيرُ دَفَعَ بِهِمْ لِحَثِ الْآخِرِينَ عَلَى جَمْعِ الثَّرْوَةِ عَنْ أَى طَرِيقٍ وَبَايَهُ وَسِيلَهُ. وَمِنْ هُنَا «وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ الْعَظِيمِ» (٤) فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ تَعَالَى «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» (٥).

وَالْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَفِنْدَ بِالْبَرَهَانِ الْقَاطِعِ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْمَرِيضَةَ السَّائِدَةَ فِي الْأَذْهَانِ.

فَالْحَقُّ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْلَى رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنَايَةً فَائِقَةً، فِي حِينِ كَانَتْ مَحْرُومًا مِنَ زَخَارِفِ الدُّنْيَا وَزَبْرَجِهَا، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَزْعِمَ أَنَّ اللَّهَ أَهَانَ نَبِيَّهُ، وَعَلَيْهِ نَخْلَصُ إِلَى نَتِيجَةِ مَفَادِهَا أَنَّ الْإِمْكَانَاتِ الْمَادِيَةَ وَالثَّرْوَةَ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى الشَّخْصِيَّةِ وَلِذَلِكَ خَلَصَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ:

«فَتَأْسَى (٦) مُتَأَسِّ نَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلَجُهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ».

ص: ١٨٢

- ١- (١). «خاصه» بمعنى (قرايه الإنسان)، شَرَّاحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ فَشَرَّحُوا (خاصه) اسْمَ الْفَاعِلِ بِالْمَعْنَى الْمَصْدَرِيَّ وَالْمَفْهُومَ أَنَّهُ جَاعَ رَغْمَ خُصُوصِيَّتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنَّهُ لَا يَبْدُو مُسْتَقِيمًا
- ٢- (٢) «زويت» من ماده (زى) على وزن حى، قبض الشيء وأبعاده
- ٣- (٣) «زلفه» بمعنى المقام والمنزله
- ٤- (٤). سورة الزخرف، الآية ٣١
- ٥- (٥) سورة الزخرف، الآيات ٣٣-٣٥
- ٦- (٦). «فتأسى» وردت فى أغلب نسخ نهج البلاغه (تأس) كفعل ماض، لكن يستفاد منها معنى الأمر بقريته العباره (وإلا فلا يأمن الهلكه)، لكنّها وردت بصيغه فعل الأمر فى بعض النسخ «فتأسى»

ثم واصل عليه السلام حديثه بالقول:

«فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنذِرًا بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا حَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَحْيَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ». إشارته إلى أن النبي صلى الله عليه وآله ورغم عظمتها وكونه علمًا للساعة وبصفتها البشير والناذير فقد عاش تلك الحياة البسيطة المتواضعة إلى درجة أنه رحل عن الدنيا ولم يملأ بطنه أو يبني له بيتاً مشيداً (طبعاً بنى النبي صلى الله عليه وآله حجرات لأزواجه عند المسجد من الطين وسعف النخيل والعبارة

«لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ» تشير إلى بيوت الأثرياء الذين كانوا يبنون بيوتهم من الحجر).

وأخيراً خلص إلى هذه العبرة:

«فَمَا أَعْظَمَ مَنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا نَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأُ عَقِبَهُ!». أجل، فأحدى نعم الله العظمى على البشر وجود هؤلاء الزعماء العظام الذين حفلت جميع حركاتهم وسكناتهم بالدروس والعبر، ولم تنتفع أيه أمه كالمسلمين من النعمة الفضيلة، فالأمم وإن كانت لها عظماء، إلا أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان أعظم الجميع، وليت شعري أي كفران للنعمة أعظم من ضلالتنا وحيرتنا رغم نعمه الله علينا بهذا القائد العظيم. وأخيراً وليثبت الإمام عليه السلام أنه أول من يتمثل عملاً بما يقول وأنه يحذو حذو رسول الله صلى الله عليه وآله فقد قال:

«وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَعْتُ (١) مِدْرَعَتِي (٢) هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ (٣) عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْيِي دُ الْقَوْمَ السُّرَى!». يستفاد من هذه العبارة بوضوح أن الإمام عليه السلام كان يعطى ثوبه بين الحين والآخر ليرقعوه (وإن قام أحياناً بهذا العمل شخصياً) وقد كثرت رقعات ثوبه حتى شعر الإمام عليه السلام بالخجل من رقعته، مع ذلك لم يكن مستعداً لطرحة. شتان بين سيره الإمام عليه السلام وبعض الأفراد الذين

ص: ١٨٣

١- (١). «رقت» من مادة (ترقيع) معروفه، وتستعمل اليوم بخصوص تطعيم الأعضاء

٢- (٢). «مدرعه» ثوب الصوف

٣- (٣). «اغرب» من مادة (غروب) اذهب وابتعد

ينتقون ثياب كل فصل وزمان ومكان بما يناسبه، فهناك ثوب لمجالس السرور وآخر لمجالس العزاء، وهكذا للسفر والحضر والنوم، بل الأسوأ من كل ذلك طرح بعض الملابس كونها لا تناسب الموضه. العبارة

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرِيَّ!»، مثل معروف عند العرب، معناه، أن من يصبر على النوائب ويتحمل الشدائد حين يبلغ هدفه يُسَرَّ بصبره ويحمد الله ويحمده الآخرون أيضاً (١).

تأمل

لعلنا نتعرف بصورة عميقة على حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال

«حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» كلما أمعنا النظر في حجم الذنوب والمعاصي والنزاعات الاجتماعية العنيفة وتأملنا الملفات الحقوقية والجزائية التي تضح بها المحاكم.

والجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يقتصر على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بل أكدته سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام كالإمام الصادق والإمام السجاد عليهما السلام إلى جانب تأكيده من الأنبياء السابقين عليهم السلام (٢).

ولو توقفنا قليلاً وتأملنا لأمكننا إيجاز عمدته مظاهر حب الدنيا في ثلاثة أشياء هي: حب المال وحب الجاه وحب الشهوه. فليس هنالك من حرب وقعت في العالم ولا فساد انتشر في صفوف المجتمع إلا كان معلولاً لأحد هذه المحاور الثلاثة. وبناءً على هذا فإن أردنا ممارسه عمليه الإصلاح في المجتمعات الإسلاميه كان لابد لنا

ص: ١٨٤

١- (١) كتب أغلب شراح نهج البلاغه كلمه «يحمد» على شكل فعل معلوم، لأنهم اعتبروا لكلمه (سرى) معنىً مصدرياً، يعنى (السير في الليل) وفي هذه الصوره يكون مفهوم الجمله: يحمد السير في الليل والسائرون يحمدون الله تعالى عندما يصلون إلى مقاصدهم، ولكن في بعض النسخ «يحمد» جاءت بشكل فعل مجهول، عندئذ تكون كلمه (سرى) بمعنى الوصف، يعنى (السائرين في الليل)، وفي هذه الصوره يكون مفهوم الجمله: عند الصباح يحمد السائرين في الليل، البته النتيجة في المفهومين واحده

٢- (٢) روى المرحوم الكليني في أصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٧ حديثاً في باب حب الدنيا عن الإمام السجاد عليه السلام شرح فيه المصادر السبعه للذنب حتى ورد في آخره: «فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفه ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئه»

من مواجهه التعلق بالدنيا. ولعل هذا الموضوع يبدو بارزاً في المجتمعات الفقيره التي تنتقل فجأه إلى الغنى، كالمجتمع الإسلامى فى صدر الإسلام؛ ذلك أن الفقر كان قد عمّ المجتمع قبل بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، إلّا أنّ الفتوحات وما انطوت عليها من غنائم بصورة مفاجئه قد غيرت الأوضاع فأخذ أصحاب الدنيا يتهافتون على اللذات والغرق فى المعاصى. وعليه فلا يبدو من المستغرب على ذلك الإمام الهمام على عليه السلام وبغيه تغيير تلك الأوضاع أن يورد تلك الخطبه ويكرسها لذم الدنيا ومن تعلق بها؛ فيأخذ بأيدي الناس ويغوص بهم فى أعماق تاريخ الأنبياء الماضين ويكشف لهم عن عمق زهد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وحياته البسيطة المتواضعة بهدف إيقاظهم من غفلتهم وإعادتهم إلى المسار الصحيح.

على سبيل المثال كان على عهد عثمان - حين إزدادت الأموال فى بيت مال المسلمين وكان ينبغى أن تصرف فى العمران وبناء الدوله الإسلاميه و انقاذ المحرومين - أن سيطرت قرابته و بطانته على الأموال، فجنى كل منهم ثروه عظيمه أفرد لها العلامه الأمينى رحمه الله فى الجزء الثامن من الغدير باباً أسماه (الكنوز المكنزه بركة الخليفه) وقد عرض فيه بعض تلك الكنوز من مصادر العامه. وذكر بعض الأفراد من قبيل: مروان وطلحه والزبير وسعد بن أبى وقاص ويعلى بن أميه وعبدالرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وسائر الأفراد، وقد حصل كل منهم على آلاف الدينانير من بيت المال، حتى ذكر أنّ ورثه زيد بن ثابت كانت تتقاسم ارثه من الذهب والفضه عن طريق كسرها بالفؤوس، كما ترك يعلى بن أميه مبلغ خمسمائه ألف دينار إلى جانب المزارع والبساتين والدور والديون التى له بدمه الناس والتى تبلغ مائه ألف دينار (كل دينار مثقال من الذهب المسكوك).

وأما عبدالرحمن بن عوف فقد ترك ألف ناقه وثلاثه آلاف شاه ومائه فرس إلى جانب الأراضى الزراعيه، ومن أراد المزيد فليراجع الغدير وما ذكره من مصادر

وعلى هذا الضوء ألا يتوجب على زعيم عظيم كعلى عليه السلام أن يكون كالطبيب الحاذق فيشمر عن ساعديه ويعالج ذلك المجتمع المريض بوباء حب الدنيا من خلال ذمها واستصغار شأنها؟ وعليه ينتفى السؤال الذى يطرح نفسه أنه لم عرض على عليه السلام بكل هذا الذم للدنيا وهو إمام الإسلام هذا الدين الذى يعنى بالدنيا والآخرة والحضاره والمدنيه. واليوم أيضاً إن أردنا أن نحول دون هذه النزاعات الداميه وسفك الدماء وتجار السلاح الذين يصدرون الموت والدمار للشعوب والوقوف بوجه مراكز الفساد والدعاره والانحراف، فليس أماننا من سبيل سوى تحقير هذه الدنيا ومن تعلق بها واستصغارها حتى تصبح فضيحه ليقتنع الآخرون بالحياه البسيطة المتواضعه على حد الكفاف.

ونختتم الكلام بالحديث الذى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال

«جَعَلَ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي بَيْتٍ وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا»(٢).

ص: ١٨٦

١- (١) الغدير، ج ٨، ص ٢٨٢

٢- (٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٨

فِي صِفَةِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعِ دِينِهِ وَفِيهَا يَعِظُ بِالتَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبه

تشتمل هذه الخطبه على ثلاثه أقسام، أشار في المقطع الأول إلى بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وصفاته الحميده وخصائص أهل بيته، ويذكر آثار دعوته في إظهار الحق ودحر الباطل، ويخلص إلى نتيجته مفادها أن شقاء الدنيا والآخرة في عدم الإيمان بالإسلام الحنيف.

وتطرق الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من الخطبه إلى التوكل على الله وسؤاله الهدى. ثم اختتم الخطبه بدعوه الجميع إلى الورع والتقوى وطاعة الله والحذر من التعلق بالدنيا بعبارات عظيمه المعانى إلى جانب ضروره الاعتبار بالوقائع والأحداث التي يشهدها العالم.

ص: ١٨٧

١- (١) سند الخطبه: يبدو أن لهذه الخطبه سنداً غير نهج البلاغه، كما لم يعثر صاحب مصادر نهج البلاغه على سند آخر، مع ذلك رواها بعض الأعلام ممن عاش بعد المرحوم السيد الرضى كالعلامة المجلسي وآخرين (نحن أيضاً بحثنا في الحاسوب ولم نعثر على مصادر أخرى لهذه الخطبه)

ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ، وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِي وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ. أُسْرَتُهُ خَيْرٌ أُسْرِهِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرٌ شَجَرِهِ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثَمَارُهَا مُتَهَيِّدَةٌ. مَوْلَاهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتِدَادُ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّهِ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَفِّفِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمُدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ.

«فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا» تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمُ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمُ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَأْبَهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ. وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

الشرح والتفسير: صفات النبي صلى الله عليه وآله

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بالحديث عن خصائص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ورسالته فقال:

«ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ، وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِيَ (١) وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ».

المراد من النور المضيء نور نبوته صلى الله عليه وآله الذي أضاء كل شيء،

«وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ» إشارته إلى معجزاته الواضحة، كما تبين العبارة

«وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِيَ» شريعته الغراء،

«وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ» القرآن الذي يهدي عامه الخلق إلى الله حتى قيام الساعة. هذا

ص: ١٨٩

١- (١). «البادي» على وزن (النادي)، بمعنى الواضح والجلي بصورة تامه، ووصف شريعته النبي بالبادية إشارته إلى أنأوامره وتعاليمه تحظى بقبول العقلاء

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ العبارات الأربع المذكوره تشير إلى القرآن الذى نظر إليه الإمام عليه السلام من عدّه جوانب؛ إلّا أنّ الأنسب ما ذكرناه من أنّ كل عبارته تشير إلى جانب معين؛ الأمر الذى استحسنته سائر الشراح. على كل حال فإنّ كلام الإمام عليه السلام إشارة إلى أركان الدعوه الكامله الشامله التى تستند إلى نور الوحي، والتى بينت بمختلف المعجزات والأدله والبراهين وكتاب الهدايه القرآنيه بأحكامه الجليه الواضحه.

ثم خاض عليه السلام بثمان عبارات قصيره فى التعريف بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«أَشْرَتْهُ خَيْرُ أُسْرِهِ، وَشَجَرْتُهُ خَيْرُ شَجَرِهِ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ (١) عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَاقْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ». متهدل، بمعنى متدلٍ وهنا تعنى الفاكهه القريبه من الجميع. ولعل موفقيه الإنسان وسعادته تتحقق فى ظل أمور مختلفه ولكل من نجابه الأسره وكرامه الحسب والنسب ورفع شخصيه الأهل والقرايه وأهميه مسقط الرأس والبيئه والنشاط فى أجوائها، دور مهم فى تلك السعاده. ولو أمعنا النظر فى حياه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نجد أنّه صلى الله عليه وآله إلى جانب سموه الذاتى قد توفرت له سائر العوامل اللازمه للتوفيق والنجاح ليتمكن على ضوءها من ممارسه دوره فى هدايه الناس، فنسبه الشريف يمتد إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام حيث ورث منهما الشجاعه والتضحيه. قبيلته بنى هاشم من أشرف القبائل العربيه. أبوه عبدالله، وجدّه عبدالمطلب، وعمّه حمزه وأبوطالب، وابن عمّه على وجعفر عليهما السلام، وبنته فاطمه الزهراء عليها السلام أم المعصومين عليهم السلام. وولادته فى مكه الحرم الإلهى الآمن، وهجرته إلى المدينه الطيبه مركز الإيثار والفداء والتضحيه. ومن هناك وسع رقعته دعوته وأسمع صوته العالم بأسره، والأسره من ماله أسر على وزن عصر، بمعنى القوه والقدرة إشارة إلى أسره بنى هاشم وقرايه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ص: ١٩٠

١- (١). «طيبه» بمعنى الطاهره، ويستفاد من لسان العرب أنّ النبي صلى الله عليه وآله دعاها بهذا الاسم (بمناخها المعتدل وكثره اشجارها وإيثار أهلها) ونهى عن بقاء اسم يثرب لأنّه يعنى فى الأصل الفساد

وتشير الشجرة إلى أصل هذه الأسره التي تنتمى إلى إبراهيم عليه السلام، والأغصان المعتدله إشاره إلى فروع كعبدالمطلب وأبى طالب وحمزه وجعفر وأمير المؤمنين عليه السلام وأئمه الهدى عليهم السلام وهم بمثابة الفروع المتداخله للشجرة فى فضلهم وعلمهم وكمالهم وعدم اختلافهم ومعارفهم التي يتغذى على ثمارها جميع الناس على مرّ العصور والدهور.

ثم أتجه الإمام عليه السلام صوب سيرته العمليه فقال:

«أَرْسَلَهُ بِحُجَّتِهِ كَدَافِيهِ، وَمَوْعِظَتِهِ شَافِيَهُ، وَدَعْوَتِهِ مُتَلَفِيَهُ (١)». نعم، فقد كانت له مختلف الأدله العقليه والفطريه والمعاجز الحسيه، فيعالج أمراض الناس والمجتمعات بكلماته الحكيمه ويصلح الخراب الذى لحق بالناس إبان الجاهليه فى كافه مجالاتهم الاجتماعيه. فقد اقترنت دعوه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بالدليل والبرهان من حيث جذورها وانطلاقتها، كما تضمنت على مستوى المضمون الخطط العمليه الهاديه، وكل ذلك يقود إلى نتيجته مرجوه تتمثل فى إصلاح الفساد وإعادة بنيه الأصول الفكرية والأخلاقية والاجتماعية.

ثم خاض عليه السلام فى الأعمال المهمه التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ (٢)، وَبَيَّنَّ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ (٣)».

فالواقع هو أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله مارس ثلاثه أعمال مهمه: أعلن العقائد الحقه، وأزال البدع والخرافات، وبيّن الأحكام الشرعيه بوضوح لجميع الناس، حصل كل منها بسعى متواصل وجهد عظيم. ثم خلص إلى هذه النتيجة التي صرح بها القرآن الكريم: «فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا»

تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمَ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمَ كِبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَأْتَبُهُ إِلَى الْخُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَيْلِ». فمن الطبيعى أن لا تكون

ص: ١٩١

-
- ١- (١). «متلافي» من ماده (تلافي) بمعنى تدارك، وتأتى بمعنى معالجه الفساد، وهذا هو المعنى المراد بها فى هذه العبارة
 - ٢- (٢). «مدخوله» من ماده (دخول) إشاره هنا إلى البدع التي كانت تنسبها الجاهليه إلى الله. أو من ماده دخل، على وزن دغل، بمعنى الفساد، لأن هذه البدع مصدر فساد الفرد والمجتمع
 - ٣- (٣) «المفصولة» من ماده (فصل) واطلقت على الكلام والقضاء الذى يميز الحق من الباطل ويمكن أن يكون المراد بها المعنيان معاً؛ الأول إن أحكام الشريعة بيّنت بصوره منفصله والآخر، فصل الحق عن الباطل، (تكون الجملة فى الأول اسم المفعول وفى الثانى اسم الفاعل)

نتيجة مخالفه الدين الذي يتسم داعيته بكل تلك المكارم ودينه الجامع والشامل، سوى الشقاء والضلال والهلكه. ويتضح من هذه العبارات مدى زيف الشعارات الجوفاء التي يرفعها البعض اليوم في الأوساط الإسلاميه انفعالاً بكتّاب الغرب فيتبنون كفايه اعتناق أى من الأديان؛ الأمر الذي لا ينسجم ومنطق القرآن ولا كلمات أئمه الهدى كعلي عليه السلام.

وأخيراً يعرب الإمام عليه السلام عن توكله على الله وإنابته إليه فيقول:

«وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلَ الْإِنْبَاءِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ». ربّما تكون هذه العبارة إشارة إلى أنّ أسباب سعادته البشريه توفرت ببيعه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والدين العظيم الذي بعث به، ولم يبق لتحقيق هذه السعاده سوى أن نسير على الدرب وبالتوكل على الله وطلب الهدايه منه والإرشاد إلى الحق. ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبه بالتوكل على الله واسترشده الطريق إلى الجنّه.

تأمل

من قال أم ما قال ؟

يبدو أنّ هذه العبارة المعروفه:

«أَنْظُرْ إِلَى مَا قَالَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ» (١) صادقه في القضايا الواضحه والمنطقيه، أمّا في القضايا المهمّه والمعقدّه والمدارس الفكرية المطروحه فلا بدّ من النظر والتركيز على من قال، حتى يتسنى الوثوق به والتأسي بسيرته، ولذلك خاض القرآن في أكثر من موقع في خصائص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» (٢) وقال في موقع اخر: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ

ص: ١٩٢

١- (١). وردت هذه الكلمه في غرر الحكم، ح ١٠١٨٩ لعلّى عليه السلام أنّه قال: «لَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ وَأَنْظُرْ إِلَى مَا قَالَ»

٢- (٢). سوره التوبه، الآيه ١٢٨

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»(١). ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في بدايه الخطبه إلى شخصيه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من حيث النسب والأسره والأصل وصفاته الكماليه وأثنى على شجرته وفروعها المثمره، ثم تطرق إلى شريعته السمحاء من مختلف الجوانب ليلفت انتباه الآخرين إلى ضروره الوثوق به ويقطع اعدار المغرضين.

ص: ١٩٣

١- (١). سورة الأعراف، الآية ١٥٧

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاهُ عَدَاً، وَالْمَنْجَاهُ أَبَدًا. رَهَبٌ فَأَبْلَغُ، وَرَغَبٌ فَأَشْبَعُ؛ وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلِّهِ مَا يَصِيحِبُكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سِخَطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ! فَعُضُّوا عَنْكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أُيْقِنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَنَصِيْرُفِ حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوهَا حَيْذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ. وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصِيَةُ الْهُمِّ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرْفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ؛ فَيَدُلُّوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقَدَهَا، وَيَصِيحِبُهُ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتِهَا. لَا يَتَفَاحِرُونَ، وَلَا يَتَنَاسِلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا، عِبَادَ اللَّهِ، حَيْذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَيَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدِّدٌ وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالامم السابقة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه باسداء النصح والموعظه التي توقظ الغافلين بعد أن أكد في الموضوع السابق على تقوية روح الإيمان لدى المخاطبين ليؤكد هنا على بعض الجوانب العلميه، ذلك لأن عمل ثمره الشجره الإيمان فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاهُ عَدَاً، وَالْمَنْجَاهُ (١) أَبَدًا».

ص: ١٩٥

١- (١) «منجاه» من ماده (نجاه) اسم مكان بمعنى موضع النجاه، ولها معنى مصدرى، ونجاه، بمعنى الخلاص

ربّما أمكن عوده الطاعة والتقوى إلى مفهوم واحد، كما يمكن اعتبار التقوى أساس الطاعة، ذلك لأنّ طاعه الله إنّما تنبعث من التقوى والورع، كما يحتمل أن تكون التقوى إشاره إلى ترك الذنب، والطاعة إلى امتثال الأحكام الشرعيه، فهما لا يفترقان كيفما كان الأمر (ولعل ذلك هو سبب الإتيان بالضمير مفرداً في أنّها والحال، ينبغى أن يكون مرجع الضمير مثني). واطلاق النجاه على التقوى من قبيل اطلاق المسبب على السبب، لأنّ التقوى سبب النجاه في الآخره.

ثم قال:

«رَهَبَ (١) فَأَبْلَغَ، وَرَعَّغَبَ فَأَسْبَغَ (٢)». إننا لنعلم أنّ الضمان الفعلي لجميع الأحكام الشرعيه هو البشاره والإنذار. وقد شحنت الكتب السماويه بالوعد والوعيد والإنذار والبشاره ترغيباً للناس في الطاعة وحياشه لهم عن المعصيه. ولما كان التعلق بالدنيا والخداع بمظاهرها رأس المعاصي والذنوب فإنّ الإمام عليه السلام عاد ليؤكد هذا الأمر فقال:

«وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَأَنْقَطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرَضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلِّهِ مَا يَصِيحِبُكُمْ مِنْهَا». فالذي يستفاد من هذه العبارة القصيره والعميقه المعاني أنّ الله بين أربعة أمور بشأن الدنيا؛ الأول أصل الحياه الدنيا وكما يبدو من أسمها حياه دينيه وتافهه لا- قيمه لها، والثاني، أنّها ليست مستقره وذات يوم يحل الموت بالإنسان ويقضى على دنياه، والثالث، ما أن ينغمس الإنسان في متع الحياه الدنيا حتى يشعر بزوالها التدريجي، حيث تأخذ قواه البدنيه بالضعف وتختل صحته ويثكل بفقد الأعره والأصدقاء، الواحد تلو الآخر، وينظر إليهم وهم يتوسدون التراب، والرابع، أنّ الدنيا دائمه الانتقال من قوم إلى قوم: «اعْلَمُوا أَنَّ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُضِيغاً فَفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٣).

ص: ١٩٦

١- (١) «رهب» من ماده (ترهيب) بمعنى التخويف.

٢- (٢) «أسبغ» من ماده (اسباغ) بمعنى الإتيان بالعمل بصوره تامه، و اطلقت على النعمه التامه و الوضوء التام.

٣- (٣) سورة الحديد، الآيه ٢٠

فقد رسمت الآيه القرآنيه الشريفه صورته واضحه عن تفاهه الدنيا وانقطاع نعيمها وزوالها فى إطار واضح، كما ورد هذا الانتقال فى آيه أخرى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» (١).

ثم قال مواصلاً وصف الدنيا:

«أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَيِّحِطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ!». ودليل ذلك واضح هو أنّ الدنيا هوى وهوس يقذف بالإنسان فى مستنقع الذنب من كل جانب وهذا ما يوجب غضب الله وعدم رضاه. طبعاً، المراد من الدنيا هنا، الدنيا الماديه التى يجعلها الإنسان هدفاً ويعتمد كل الوسائل للحصول عليها وإن قارف الذنوب، وإلّا فالدنيا وسيله على الاقتدار للطاعه وشكر النعمه وبلوغ السعاده.

ثم خلس عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَعُضُّوا (٢) عَنْكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - غُمُومَهَا وَأَشْعَالَهَا، لِمَا قَدْ أَيَقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَيَّرُفِ حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوا حَيْدَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ (٣)». إشاره إلى تصاعد آلام الدنيا وتزايد همها، فكلما اقترب الإنسان منها زاد غناؤه حتى يسيطر الهم على جميع كيانه.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«مَثَلُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا مَثَلُ دُودِ القَرِّ كُلِّمَا إِزْدَادَتْ مِنَ القَرِّ عَلَى نَفْسِهَا لَفَا كَانَ أَبْعَدُ لَهَا مِنَ الخُرُوجِ حَتَّى تَمُوتَ غَمًّا» (٤). وقد تمثل الشاعر العربى فانشد (٥).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرَّةَ طُولَ حَيَاتِهِ

حَرِيصٌ عَلَى مَا لَا يَزَالُ يَنَاسِجُهُ

كَدُودٌ كَدُودِ القَرِّ يَنَسِجُ دَائِمًا

فَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطَ مَا هُوَ نَاسِجٌ

ص: ١٩٧

١- (١) سورة آل عمران، الآيه ١٤٠

٢- (٢). «غضوا» من ماده (غض) على وزن حظ، بمعنى الحد والتقليل، وغض البصر، بمعنى عدم تركيز الإنسان على الشئ فى النظر إليه، بل يخفض عينيه إلى الأسفل

٣- (٣). «كادح» من ماده (كادح) على وزن مدح، السعى المصحوب بالمشقه

٤- (٤). اصول الكافى، ج ٢، ص ٣١٦

٥- (٥) حاشيه الكافى، ج ٢، ص ٣١٦، كدود فى البيت الثانى صيغه مبالغه من ماده (كد) يعنى الجهد

ثم أخذ الإمام عليه السلام بيد مخاطبيه إلى العهود الماضية ليشرح عاقبه الحياه الدنيا لمن تعلق بها ضمن عشر عبارات قصيره بما يهز ضمير الإنسان فقال:

«واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع (١) القرون قبلكم: قد ترائلت أوصيهم (٢)، وزالت أبصارهم وأشيماعهم، وذهب شرفهم وعزهم، وانقطع سرورهم ونعيمهم».

وتشير العبارة

«ترائلت أوصيهم» إلى تأكل الجسد تحت التراب، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى تأكل الشوائج الاجتماعيه في حياه الإنسان والتي تزول بعد وفاه الإنسان، كما يمكن أن تكون الأسماع والأبصار إشارة إلى الأذن والعين الظاهريه لقدره الرؤيه والسمع الحسى. ولا- تزول حواس الإنسان الظاهريه وأعضائه البدنيه فحسب، بل تزول كل امتيازاته الاجتماعيه من قبيل الترف المادى والعزه وكافه النعم والمتع. ثم أشار عليه السلام إلى جانب آخر من النعم التي يفارقها الإنسان بالموت فقال:

«فبدلوا بقرب الأولاد فقدها، وبصحبته الأزواج مفارقتها. لا يتفاحرون، ولا يتناسلون، ولا يتزاورون، ولا يتحاورون».

بل وصفهم الشاعر (٣):

وَحَلُّوا بِدَارٍ لَا تَزَاوُرُ بَيْنَهُمْ

وَأَنَّى لِسُكَّانِ الْقُبُورِ التَّرَاوُرُ

طبعاً هذا الكلام فى جسم الإنسان ولا مانع من اجتماع أرواح المؤمنين وتزاورها وتحاورها.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبه محذراً الجميع:

«فاحذروا، عباد الله، حذر الغالب لنفسه، المانع لشهوته، الناظر بعقله؛ فإن الأمر واضح، والعلم قائم، والطريق جدد (٤) والسبيل قصد». العبارة

«فاحذروا... الناظر بعقله» إشارة إلى أن الإنسان يمكنه

ص: ١٩٨

١- (١). «مصارع» جمع مصرع، موضع الوقوع على الأرض ويطلق أيضاً على المقتل

٢- (٢) «أوصال» جمع وصل، على وزن قفل، العظام وانسجه الأعصاب التي تربط الأعضاء

٣- (٣) منهاج البراعه، ج ٩، ص ٤١٢

٤- (٤). «جدد» من ماده (جد) على وزن خط، القطع وطى الطريق المستوى، ويقال للطريق المحكم والمستوى، الجاده

اجتياز الأخطار الواردة في العبارات السابقة للإمام من خلال: غلبته لنفسه ليتمكن بعد ذلك من كبح جماح شهواته ومن ثم النظر إلى الأمور ببصيره العقل لا الشهوه المضله، والعبارات الأربع الأخيره فى الخطبه تشير كل واحده منها إلى قضيه مستقله، قال فى الاولى: إنَّ سبيل السعاده قد اتضح بواسطه القرآن وأولياء الله وقد نصبت الأعلام الواضحه على طول طريق السير إلى الله، كما أنَّ الجاده محكمه ومستويه وخاليه من العوائق والمطبات والانحراف، ولا يبقى شىء سوى العزم والإراداه للسالكين على الدرب واجتيازه بصوره سريعه. وهنيئاً لأولئك الذين عزموا وساروا على الدرب كما قال الشاعر:

فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللَّهَ رَبَّهُ

وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ (١)

ص: ١٩٩

١- (١) منهاج البراعه، ج ٩، ص ٤١٢

لِيَغْضِ أَصْحَابِهِ وَقَدْ سَأَلَهُ: كَيْفَ دَفَعْتُمْ قَوْمَكُمْ عَنْ هَذَا الْمَقَامِ

وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ؟ فَقَالَ: (١)

نظره إلى الخطبه

كما ورد آنفياً فإن الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام كجواب لأحد أصحابه وقد سألته عن كيفية دفعه عن حقه في الولاية وجدارته بها. فأشار الإمام عليه السلام إلى أمرين تدور حولهما الخطبه:

الأول: أن السبب الرئيسي هو البخل والاستبداد والتعلق بالدنيا.

والثاني: الذي قال فيه إنك إن تعجب من قضيه بدايه الخلافه، فانظر اليوم وقد تصدى معاويه وتبعه الناس، دون أدنى جداره بهذا المنصب ولا يمكن المقارنه بينى وبينه.

ص: ٢٠١

١- (١) سند الخطبه: ذكر هذا لعلى عليه السلام قبل السيد الرضى، المرحوم الشيخ الصدوق فى كتابه الامالى فى سبب ترك الناس لعلى عليه السلام والطبرى فى المسترشد والمرحوم الشيخ المفيد فى الإرشاد، كما ذكروا أن السائل هو (ابن دودان). (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٧٧)

فقال: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلْبُ الْوَضِيِّينَ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصُّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمَ: أَمَّا الْإِسِيْبِتْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَبًا، وَالْأَشْدُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوْطًا، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثْرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَحَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَالْحَكَمُ اللَّهُ، وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ.

وَدَعَّ عَنْكَ نَهْبًا صِيحٌ فِي حَجْرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرَّوَاجِلِ

الشرح والتفسير: عله غصب الخلفه العلويه

أورد الإمام على عليه السلام هذا الكلام في رده على السائل الذى يبدو أنه طرح السؤال فى موقع لم يكن مناسباً، مع ذلك أجب عليه السلام عن السؤال فقال:

«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلْبُ الْوَضِيِّينَ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ (١)، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةٌ (٢) الصُّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمَ». أما لماذا خاطبه الإمام عليه السلام

«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ» وأشار ضمن كلامه بالقول لك علينا ذمامه الصهر؟ هناك خلاف بين شراح نهج البلاغه بهذا الشأن؛ فالبعض كابن أبى الحديد ومغنيه يقولان إن ذلك يعود إلى أن إحدى أزواج النبى الأكرم صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش من طائفه بنى أسد (٣). بينما يرى البعض الآخر أن

ص: ٢٠٣

١- (١). «سدد» بمعنى الاستقامه

٢- (٢) «ذمامه» الحق والحرمة

٣- (٣). «بنو أسد» قبيله معروفه بالقتال بالجاهليه والإسلام. عاشت هذه القبيله قرب نجد واعتنقت الإسلام وقاتلت إلى جانب سعد بن أبى وقاص فى القادسيه وقدمت العديد من القتلى. وتاريخ بنى أسد ملئ بالأحداث وقد سارعت فئه من بنى أسد لدفن أجساد شهداء كربلاء، كما كانت فئه منهم فى جيش عبید الله بن زياد

علياً عليه السلام تزوج امرأه من بنى أسد، وإن لم تذكر كتب التاريخ ذلك، ولا مانع من الجمع بين الاحتمالين. العبارة

«لَقَلِقُ الْوُضِينَ» بالنظر إلى أنّ

(الوضين) بطان يشد به الرحل على البعير كالحزام للسرّج، و

(قلق)، بمعنى الضعيف فإنّ من الطبيعي أن اضطرب ذلك الحزام تململ الجمل وتحرك هنا وهناك ومن هنا يطلق على المضطرب: الوضين. والعبارة

«وَحَقُّ الْمَسْئَلَةِ» تعبير حى رائع يفيد أنّ لكل شخص الحق فى سؤال الإمام، كما يستفاد ضمناً التزام الإمام بالاجابه ما لم يكن هنالك محذور معين.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق ليتطرق إلى الأسباب التى وقفت وراء دفعه عن حقه فقال:

«أَمَّا الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَبًا، وَالْأَشْدُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوْطًا (١)، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثْرَةً (٢) شَحَّتْ (٣) عَلَيْهَا نَفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَّتْ (٤) عَنْهَا نَفُوسُ آخَرِينَ؛ وَالْحَكْمُ لِلَّهِ، وَالْمَعُودُ (٥) إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ».

المراد من الإستبداد، من ماله

(بدد)، بمعنى الابعاد والتفريق، بحيث يستولى الإنسان على شىء ويبعد الآخرين عنه. فقد عزى الإمام عليه السلام فى هذا الموضوع من كلامه الدليل الأصلى لغضب الخلافة رغم أولويته بها إلى الإستبداد والبخل الذى أعمى أعين البعض عن الواقع فسارع عزل الآخرين واعتلى موقع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

من الواضح أنّ المراد من هؤلاء الأفراد أولئك الذين اجتمعوا فى سقيفه بنى ساعده لاختيار الخليفة، وإن دفع التعصب ابن أبى الحديد لينسب المقصود إلى الشورى

ص: ٢٠٤

١- (١). «نوط» بمعنى التعلق والالتصاق

٢- (٢) «أثره» بمعنى الاختصاص بالشىء (الاحتكار) دون الغير المستحق على العكس من الإيثار الذى يعنى تقديم الغير على الذات

٣- (٣) «شحت» من ماله (شح) بمعنى البخل

٤- (٤) «سخت» من ماله (السخاء)

٥- (٥) «معود» اسم مكان، موضع العوده

التي نصبها عمر ومعارضه عبدالرحمن بن عوف لخلافه على عليه السلام والذي يعد في الواقع من قبيل انكار البديهيّات؛ ذلك لأنّ سؤال السائل كان بشأن أصل الخلافه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وجواب الإمام عليه السلام أيضاً عالج هذه القضية والذي يشبه ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الخصوص في خطبه أخرى. والمراد من العبارة

«وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسٌ آخِرِينَ» إننا بنى هاشم حين رأينا الإصرار العجيب لتلك الفئه على مصادر الخلافه ولا تعود المقاومه سوى إلى تصدع كيان المجتمع الإسلامى غضضنا الطرف عنها بكل سخاء ولم نمارس أيّه مقاومه.

ثم تمثل الإمام عليه السلام بذلك الشعر الذى ينسب إلى

امرؤ القيس الذى قال فيه دع عنك الحديث بشأن الغارات التى وقعت فى الزمان الماضى وحدثنى عن غارات اليوم (حيث آلت فيه الخلافه الإسلاميه إلى معاويه الذى أصبح الخطر العظيم الذى يهدد الإسلام).

ودع عنك نهياً صريحاً فى حجراته (١) ولكن حديثاً ما حديث الرواحل.

يذكر أنّ امرؤ القيس أنشد هذا البيت بعد قتل أبيه الذى لجأ إلى

خالد بن سدوس فهجمت عليه طائفه من قبيله

بنى جديله ونهبوا الأموال والجمال. فأخبر

امرؤ القيس خالد الخبر فقال له: أعطنى جمالك حتى استعيد تلك الجمال فقبل. فاتّجه

خالد إلى قبيله

بنى جديله فطالبهم باعاده الجمال. فأنزله من ناقته وأخذوا منه البقيه. فلما اطلع

امرؤ القيس على هذا الخبر أنشد ذلك البيت، ومضمونه: دع عنك نهب تلك الجمال وحدثنى عن هذه التى سلمها

خالد لهذه القبيله (٢). ينطوى هذا القسم على موضوعين مهمين سنتطرق إليهما فى ختام الخطبه.

ص: ٢٠٥

١- (١). «حجرات» جمع حجره، على وزن ضربه، بمعنى الناحيه

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٢٤٤

وَهَلَّمَ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ؛ وَلَا غَرْوَ وَاللَّهِ، فَيَا لَهُ خَطْبًا يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الْأَوْدَ! حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْدِ بِاحِهِ، وَسَيِّدَ فَوَارِهِ مِنْ يَثْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرِبًا وَبَيْثًا، فَإِنْ تَزْتَفِعَ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحْنُ الْبُلُوعِ، أَحْمِلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبه شرح لما ذكره الإمام عليه السلام على نحو الإشاره فى البيت الذى تمثل به والذى أنشده امرؤ القيس، فقد صرح الإمام عليه السلام بترك الماضى رغم عيوبه وإشكالاته والنظر إلى الطامه التى تحدث اليوم:

«وَهَلَّمَ (١) الْخَطْبَ (٢) فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ».

إنك تسألنى لِمَ أبعءوك عن الخلافه بعد رسول الله صلى الله عليه و آله فى حين لا يرقى إليك أحد؟ تعال اليوم وانظر إلى ابن أبى سفيان عدو الإسلام اللدود الذى يطالبنى بالخلافه. يا له من أمر مبكٍ ومضحكٍ، أما أنه مبكٍ فذلك لأن الإسلام بلغ مرحله يريد فيها ابن أعدى أعداء الدين زعامه الدوله الإسلاميه والدفاع عن حمى الإسلام

ص: ٢٠٧

١- (١). «هلم» تركيب من هاء التنييه ولم، بمعنى اجمع، وتستعمل هذه المفرده كلمه واحده بمعنى تعال إلينا وإلى جانبنا

٢- (٢) «خطب» على وزن ختم، بمعنى الأمر العظيم، ومنه الخطاب والمخاطبه حيث الحوار المهم

والمسلمين، وأما أنه مضحك فذلك لأنه ليست هنالك من نسبه للمقارنه بينى وبينه، ولذا لا يقاس معاويه أبداً بى بل أنا وهو طرفى التضاد، نعم ربّما لا يعود هذا البكاء والضحك لزمان واحد، فالبكاء لهضم حقوق الإسلام والمسلمين فى كيفية رضاهم بحكومته بنى أميه حثاله عصر الجاهليه.

ثم قال عليه السلام

:«وَلَا غَرْوَ (١) وَاللَّهِ، فَيَا لَهُ حَظْبًا يَسْتَفْرِغُ (٢) الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الْأَوْدَ (٣)!».

لعل صدر وذيل العبارة يبدو فى الوهلة الأولى متناقضاً، إلّا أنه فى الواقع نوع من البلاغه والفصاحه التى أوردها الشاعر حين أنشد:

قَدْ صرْتُ فِي الْمِيدَانِ يَوْمَ طَرَادِهِمْ

فَعَجِبْتُ حَتَّى كِدْتُ أَنْ لَأَعْجَبًا (٤)

أى، تعجبت إلى الحد الذى لم يبق لى من مجال للتعجب فقد وطأت الميدان فعجبت من الوضع إلى درجه أتى كدت أن لا اتعجب، ولعل ذلك من باب المثل المعروف، «أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا تَجَاوَزَ حَدَّهُ انْقَلَبَ ضِدُّهُ». والعبارة

«وَيُكْثِرُ الْأَوْدَ!» إشاره إلى أَنَّ المجتمع الإسلامى بفعل حكومه يتزعمها ابن أبى سفيان سينحرف تماماً عن الصراط ويعيش الاعوجاج فى كل شىء.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل هذا الأمر فقال:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَارِهِ (٥) مِنْ يَبْتُوعِهِ، وَجَدَحُوا (٦) بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرْبًا وَبَيْتًا (٧)». فالعبارة

«حَاوَلَ الْقَوْمُ...» إشاره إلى أَنَّ بنى أميه لا- يسعون إلى الحكومه وزعامه الأئمه فحسب، بل هدفهم إطفاء نور الإسلام والقرآن، والهدف إعاده الأئمه إلى الجاهليه

ص: ٢٠٨

١- (١) «غرو» بمعنى، التعجب

٢- (٢) «يستفرغ» من ماده (فراغ) تعنى هنا، الاخراج ومعنى العبارة، يستفرغ العجب أنه يزيل أى عجب ولا يترك له من مكان

٣- (٣) «أود» من ماده (أود) على وزن قول، بمعنى العوج، وأود على وزن سند، بمعنى الاعوجاج

٤- (٤) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٤٧

٥- (٥) . «فوار» صيغه مبالغه بمعنى كثير الفوران، كما تعنى عين الماء والثقب الذى يخرج منه الماء بشده

٦- (٦) «جدحوا» من ماده (جدح) على وزن مدح، بمعنى، الخلط والمزج

٧- (٧) «وبيتاً» الشىء الذى يكثر فيه الوباء، طبعاً يطلق الوباء أحياناً على مرض خاص، وأخرى، على كل مرض، والمعنى الثانى

هو المراد في الخطبه

وعصرها المظلم وأعمالهم خير شاهده على ذلك.

والعبارة

«وَسَدَّ قَوَارِهِ...» بينت نفس المعنى بتعبير آخر، حيث شبه الإسلام والقرآن بعين فياضه انفجرت في صحراء جاهليه العرب وروت بمائها العذب ما تصحو من قلوبهم واثمرت تلك النبتة، ويسعى بنى أميه لغلق هذه العين وسوق الأمة إلى تلك الصحراء.

والعبارة

«وَجَدَحُوا...» تعبير رائع آخر للمعنى المذكور. فقد خلط هؤلاء القوم ماء الشريعة العذب الفرات بالسموم الفتاكة ليسموا أفكار الأمة ويلوثوا أخلاقها، فمثل هذه الأمة لن تنقاد إلى بنى أميه وآل أبى سفيان إن عاشت السلامه فى فكرها والطهر فى أخلاقها. نعم، فهؤلاء لم يسعوا لإطفاء نور الولايه فحسب، بل وعلى غرار المشركين الذين قال فيهم القرآن: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ» (١) سعوا إلى إطفاء نور الإسلام والقرآن والحيلولة دون نشر الإسلام والمعارف الدينيه وقد وضعوا العديد من الأحاديث لتلويث هذا الماء العذب.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى عزمه الذى اتخذه بهذا الشأن فقال:

«فَإِنْ تَرْتَفِعَ عَنَّا وَعَنَّهُمْ مِحْنُ الْبُلُوَى، أَحْمَلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِيرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» . أى، إن زالت الموانع فأتى على استعداد تام لإعاده الأمة الإسلاميه إلى سابق عزها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسأبذل جهدى بهذا الخصوص، ولكن إن لم تسمح الظروف فلا إشكال، ذلك أتى أعمل بوظيفتى وسيدوق هؤلاء وبال أعمالهم.

تأملات

١. حق السؤال

عاده ما يواجه الإنسان من حوله سيلاً من المجاهيل التى ترتبط أحياناً بالأمر

ص: ٢٠٩

الماديه وأخرى المعنويه وسؤال العلماء والمختصين، مفاتيح حل تلك المجاهيل.

ولذلك فتح الله تعالى على الإنسان أبواب السؤال بشأن عالم التشريع والتكوين.

وتمتاز الشريعة الإسلاميه الغراء بأنّها لم تأذن بفتح باب السؤال لكل شخص وفي أى مجال فحسب، بل أمرت بذلك. القرآن الكريم من جانبه أكد على هذا الأمر في آيتين: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدُّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ» (١). كما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى بعض كلماته القصار فى نهج البلاغه:

«وَلَا يَسْتَحْيِينَ أَحَدًا إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ» (٢). نعم، فالسؤال ليس عيباً، بل العيب أن لا يسأل الإنسان ويبقى فى الجهل.

الجدير بالذكر أنّ الخطبه المذكوره إشاره إلى أنّ السؤال حق لكل شخص، ويبدو هذا الأمر أكثر أهميه لدى الشباب وذلك لكثره مجهولاتهم. فمن حيث التكوين والخلقه فإنّ الله خلق فى ذات الإنسان حبّ الاستطلاع والبحث. فالإنسان يميل بطبعه لمعرفة الأشياء التى لا يعلمها، وتبدو هذه الرغبه أعمق لدى الشباب، بسبب تلك الحاجه، فهم يطرحون أحياناً على الوالدين بعض الأسئلة التى تنتهى عادة بارتفاع أصواتهم، والحال، واجبهم يتطلب منهم تلبية هذه الحاجه الروحيه بكل عطف ورقه، فيعلمونهم ما لا- يعلمون وإن عجزوا عن الجواب أرشدوهم إلى من يجيبهم. والبعض يعتقد أنّ السؤال عن القضايا الأصوليه والعقائديه من دواعى الكفر والإلحاد، بينما تسهم مثل هذه الأسئلة فى ترسيخ الإيمان وشد الجانب العقائدى لدى الإنسان. لا شك أنّ وظيفه العلماء تقتضى تأهيبهم للاجابه عن الأسئلة فى كافه الظروف والتعامل مع السائل بكل أدب واحترام، ولا ينبغى لهم نسيان ضروره قيامهم بهذا الدور، لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ عَلَى الْجُهَّالِ عَهْدًا بِطَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ عَهْدًا بِبَدْلِ الْعِلْمِ لِلْجُهَّالِ» (٣).

ص: ٢١٠

١- (١). سورة النحل، الآية ٤٣؛ سورة الأنبياء، الآية ٧

٢- (٢). نهج البلاغه، القصار الكلمات، الكلمه ٨٢

٣- (٣) الكافى، ج ١، ص ٤١

ونختتم البحث ببعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن: أولاً: ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام في حثه أحد أصحابه وهو حمران بن أعين على السؤال أنه قال:

«إِنَّمَا يَهْلِكُ النَّاسَ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ»^(١).

وثانياً: قال علي عليه السلام:

«الْقُلُوبُ أَقْفَالٌ مَفَاتِحُهَا السُّؤَالُ»^(٢).

وثالثاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الْعِلْمُ خَزَائِنٌ وَمَفَاتِيحُهَا السُّؤَالُ فَاسْأَلُوا يَزِدَّكُمْ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُؤْجِرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ وَالْمُعَلَّمُ وَالْمُسْتَمِعُ وَالْمُحِبُّ لَهُمْ»^(٣). التفت أعرأبى يوم الجمل إلى أمير المؤمنين وقال: يا أمير المؤمنين، تقول أن الله واحد؟ ما المراد بهذه الوحدة. فهجم عليه الناس من كل جانب وقالوا له ألا ترى انشغال أمير المؤمنين بالقتال؟ (فلكل حادث حديث) فأشار عليهم الإمام عليه السلام دعوه فما يسأل عنه الأعرأبى هو ما نريده من القوم (إننا ندعوهم إلى التوحيد والقتال لمعرفة هذه التعاليم المقدّسه) ثم قسم الإمام عليه السلام التوحيد إلى أربعة أقسام اثنان مرفوضان واثنان مطلوبان^(٤).

٢. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبه

مراد الرجل الاسدى من السؤال بشأن الخلافه واجابه الإمام عليه السلام واضحه تماماً أنّها بخصوص السقيفه وتغيير محور الخلافه عن أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بعد وفاته، إلّا أنّ تعصب ابن أبى الحديد لمذهبه جعله يفسر العبارة ومرادها على أساس احتمال ضعيف من قبيل أنّ المراد معارضه عبدالرحمن بن عوف لخلافه على عليه السلام ودفعها لعثمان. والغريب فى الأمر أنّ ابن أبى الحديد نقل هنا قصه عن

ص: ٢١١

١- (١) الكافى، ج ١، ص ٤٠

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ٤، ح ٨٠٣٩

٣- (٣) . المصدر السابق، ح ٨٠٤١

٤- (٤) راجع كتاب توحيد الصدوق، ص ٨٣ باب «معنى الواحد والتوحيد»

استأذنه أبي جعفر النقيب تؤيد تماماً ما قلناه، وهي منطقيه تماماً، مع ذلك لم يستطع هذا الرجل المفكر ابن أبي الحديد من التسامى على بعض تعصبه، إذ يروى عن أستاذه الذي يصفه بأنه رجل منصف علوى المذهب وله حظ وافر من العقل أنه يسأله ماذا عنى ذلك السائل بسؤاله الإمام على عليه السلام عن أبعده عن حقه؟ أكان مراده يوم السقيفه أم يوم الشورى؟ أجاب: السقيفه. قلت: لا أجزى لنفسى أن أقول إن أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خالفوه ولم يلتزموا بمعنى الخلافه. قال: إنا أيضاً لا أجزى لنفسى أن أنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أهمل أمر الخلافه والإمامه من بعده وترك الأمه دون إمام، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينصب من يقوم مقامه إن سافر إلى المدينه، فكيف لا ينصب شخصاً للخلافه بعد وفاته وأضاف الأستاذ أن الجميع يعتقدون أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قمة الكمال العقلى، كما يعتقد اليهود والنصارى والفلاسفه والحكماء أنه رجل حكيم وله نظره صائبه وقد أتى بقوانين منطقيه وعقليه، وبغض النظر عن مقام النبوه فإن تعاليمه تستند إلى الوحي، وهذا الإنسان كان عارفاً بالعرب ويعرف طباعهم وأحقادهم وإن قُتل شخص لقبيله ثأروا له، فإن عجزوا فمن أهله وقرابته، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحب بنته فاطمه وولديها الحسن والحسين وبعلمها علماً عليهم السلام، ولا شك فى أنه لو لم يستند إلى الوحي فلن يتركهم دون إمام، أتظن أنه أراد أن تكون إحدى ضعفاء المدينه. وفى وسط قوم أراق على عليه السلام دماء قرابتهم، والواقع هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله سفك دماءهم لا على عليه السلام.

خلاصه القول أن هذا الرجل العاقل كان لا بد له من تنصيب أحد للخلافه من أهل بيته لكى لا تموت رسالته. قال: فقلت له: هذا صحيح، لكن كلام الإمام عليه السلام لا يدل على النص فى الخلافه، أجاب: صحيح، إلا أن السائل لم يسأل عن النص فى الخلافه بل سأل كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم الأعلى نسباً وقرابه من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فأجابه الإمام عليه السلام عن هذا السؤال (١).

ص: ٢١٢

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره ولاسيما قوله:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِضِي بَاحِهِ...» أنّ هدف بنى أميه لم يقتصر على الإستيلاء على الخلافه الإسلاميه فحسب، بل إنّهم سعوا جاهدين لمحو آثار الإسلام، كونهم حثالى عصر الجاهليه، ولولا تضحيات تلك الثله المخلصه فى كربلاء والتي كشفت عن كوامن بنى أميه لما بقى اليوم من الإسلام إلّا اسمه، والشواهد التاريخيه على ذلك كثيره منها:

١. إنّ المؤرخ المعروف المسعودى قد روى فى كتابه (مروج الذهب) قصه عن المأمون، الخليفه العباسى أنّه أصدر أمراً سنه ٢١٢ هـ وبعث بمنادٍ ينادى أن ليس لأحد أن يذكر معاويه بخير أو يقدمه على أى من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وحين حاول البعض معرفه دافع المأمون، اتضح أنّ السبب ما ذكره له ابن المغيره بن شعبه، قال: دخلت الشام مع أبى وكان كل يوم يقصد معاويه ويمدحه حتى رجع يوماً حزيناً فسألته الخبر. قال: رجعت من أخبث الناس. قلت: لم؟ قال: كنت عند معاويه فأشرت عليه بالعدل والخير تجاه بنى هاشم وصله الرحم فقال غاضباً: - هيهات هيهات أخو تيم (أبو بكر) ولى الخلافه وفعل ما فعل، فلما مات انقطع ذكره، ثم ولاها أخو عدى (عمر) فلما مات انقطع ذكره، وكذلك عثمان إلّا أخو هاشم ينادى باسمه كل يوم خمس مرات

«أشهد أنّ محمداً رسول الله» فما الذى يبقى لنا ثكلتك أمك.

ثم قال:

«وَاللَّهِ إِذَا دَفِنَا دَفْنًا» (١). فلما سمع المأمون ذلك أصدر أمره المذكور بحق معاويه (٢) فهذا الخبر الذى تناقلته كتب التاريخ يكشف الكثير من الأمور ويتضمن

ص: ٢١٣

١- (١). ورد فى شرح ابن أبى الحديد أنّه قال: لا والله إلّا دفننا دفناً

٢- (٢). مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٥٤؛ شرح نهج البلاغه، ج ٥، ص ١٢٩

الأجوبه عن الكثير من الأسئلة التي تطرح بشأن مؤامرات بنى أميه.

والشاهد الآخر على ما ذكرناه الشعر الذي تمثل به يزيد بن معاويه حين سمع بمصرع الحسين فأنشد:

لَعِبْتُ هَاشِمًا بِالْمَلِكِ فَلَا

خَبْرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلَ

ولا غرو فهو ابن معاويه بن أبى سفيان. قال الطبرى: حين ولى عثمان الخلفه خاطب أبوسفيان بنى أميه: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، قال:

«تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الْكُرْهَ فَمَا هُنَاكَ جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ»^(١).

وروى المسعودى (فى مروج الذهب) أنه قال

«يَا بَنِي أُمِيَّةَ تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الْكُرْهَ فَوَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سَفِيَانَ مَا زِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى صِبْيَانِكُمْ وَرَائَهُ»^(٢).

كما روى هذا المعنى ابن عبد البر فى الاستيعاب، وقال: كان هذا فى مجلس عثمان، فلما سمع انكاره للجنه والنار قال:

«قُمْ وَانصرف عَنِّي»^(٣).

ص: ٢١٤

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ١٨٥ حوادث عام ٢٨٤ هجرية لرساله كتبت للمعتضد العباسى فى فضائح معاويه

٢- (٢). مروج الذهب، ج ١، ص ٤٠٣

٣- (٣) الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٩

(١)

إنها خطبة بليغة وفصيحة تتكون من قسمين:

القسم الأول: يتحدث عن صفات الله الجمالية والجلالية، وقد شرح الإمام عليه السلام تسع عشره صفة من صفات الله بعبارات غاية في الروعة حسبما ذكره المرحوم المحقق البحراني.

أما القسم الثاني: فخطب فيه الإمام عليه السلام الإنسان وقد بين آيات القدره الإلهيه في خلقه رغم ضعفه وعجزه، ليربط صدر الخطبه بذيلها ويرسم صورته جميله عن توحيد الله ومعرفته.

ص: ٢١٥

١- (١) سند الخطبه: ذكر أبو نعيم الإصفهاني في حليه الأولياء والواسطى في عيون الحكم والمواعظ والزمخشري في ربيع الأبرار جوانب من هذه الخطبه

الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمَهَادِ، وَمُسَيِّلِ الْوَهَادِ، وَمُخَصِّبِ النَّجَادِ. لَيْسَ لِأَوْلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِّيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَمَّا أَحْيَلِ. خَرَّتْ لَمَهُ الْجِيَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشَّفَاهُ. حَيَّدَ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِيَانَهُ لَهُ مِنْ شَبَهِيهَا. لَاتَقَدَّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُرْدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَمَّا بِالْجَوَارِحِ وَاللَادَوَاتِ. لَأَيْقَالَ لَهُ: «مَتَى؟» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمِيدٌ «بِحَتَّى». الظَّاهِرُ لَأَيْقَالَ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَأَيْقَالَ: «فِيمَ؟» لَشَبِيحٌ فَيَنْتَقِصِي، وَلَمَّا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى. لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتَّصَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِالفِتْرَاقِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُحُوصٌ لَحْظِهِ، وَلَمَّا كُرُورٌ لَفْظِهِ، وَلَمَّا اذْدِلِمَافُ رَبُّوهِ، وَلَمَّا انْبِسَاطُ حُطْوِهِ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ، وَتَقْلُبُ الْأَزْمَنَةَ وَالذُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعَدَّةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنَهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأْتِلِ الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنِ الْأَمَاكِينِ. فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنُشُوبٌ.

الشرح والتفسير: حادثه مهمه

يبين المقطع الأول من الخطبه كما ذكرنا جانباً من صفات الله، والمهم أنه يستهل الخطبه بصفات الأفعال، يعنى خلق عالم الوجود وما ينطوى عليه من عجائب

وغرائب، ذلك لأن هذه الصفات تدرك من قبل الجميع، حيث قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ (١) الْمَهَادِ (٢)، وَمُسِيلِ الْوَهَادِ (٣)، وَمُخْصِبِ (٤) النَّجَادِ (٥)». فقد أشار الإمام عليه السلام بادية الأمر إلى خلق الناس بصفته، أروع خلق الله، ثم أشار إلى ثلاثه محاور مهمه (موضع السكن والماء، ماده الحياه، والمواد الغذائيه) ليثير لدى الآخرين الشعور بالإمتنان والشكر ويعدّهم للتعرف على صفات الله الجماليه والجلاليه.

(والعباد) الوارده بقرينه العبارات القادمه تعود إلى الناس وأن تشمل أحياناً الملائكه والجن. وتشير

«وَسَاطِحِ الْمَهَادِ» إلى ما ورد في الآيه الشريفه: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» (٦). والعباره

«وَمُسِيلِ الْوَهَادِ» بالنظر إلى أنّ الوهاد تعنى الوديان والمنخفضات إشاره إلى أنّ الله تعالى جعل بعض مناطق الأرض منخفضة لتتخلها المياه دون غيرها. والعباره

«وَمُخْصِبِ النَّجَادِ» إشاره إلى قدره الله فى إحياء الأراضى المرتفعه بالنباتات رغم عدم وصول المياه إليها.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى جانب مهم من صفاته تعالى الأزليه والأبديه وواجب الوجود فقال:

«لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَمَّا لِأَزَلِّيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ». أثبتت الأدله العقليه أنّ الله واجب الوجود ليس له بدايه ولا نهايه، كان دائماً ولا يزال، فوجوده عين ذاته وذاته مطلقه، وعليه فالعباره «هُوَ الْأَوَّلُ...»

وَالْبَاقِي...» نتيجته للعباره

«لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ... وَلَمَّا لِأَزَلِّيَّتِهِ...» لأنه حين لا تكون لأزليته وأبديته بدايه ولا نهايه، فهو الأول والآخر، وهاتان الصفتان فى الواقع أساس أغلب صفات الله، وصفاته الجماليه والجلاليه إنّما تعود إلى هاتين الصفتين.

ص: ٢١٨

١- (١). «ساطح» من ماده (سطح) بمعنى معروف، ويقال ساطح، لمن يجعل الشئ مسطحاً

٢- (٢) «مهاد» و «مهد» بمعنى الفراش، وتطلق على الأرض موضع السكن والاستراحه، وهذا هو المعنى المراد

٣- (٣) «وهاد» جمع وهده، بمعنى الأراضى المنخفضه

٤- (٤) «مخصب» من ماده (خصب) على وزن غضب، بمعنى كثره النبات، وعليه فالمخصب تطلق على الشخص الذى يملأ الأرض نباتاً وبركه

٥- (٥) «نجد» جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، ومصدرها نجد

٦- (٦). سورة النبأ، الآيه ٦

قال القرآن الكريم: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (١).

ثم قال عليه السلام:

«خَرَّتْ لَهُ الْجِيَاهُ، وَوَحَدَتْهُ الشُّفَاهُ». ومن المسلّم به أنّ خالق جميع الأشياء والمخلوقات والنعم والذى يستمد الوجود بأسره، الوجود منه فهو أهلٌ للعبادة والسجود والحمد وليس لأحد غيره هذا المقام. وبالطبع فإنّ ذلك السجود والحمد يختص بالعارفين بالله لا الكفار والمشركين الذين لا يستحقون الذكر.

ثم واصل كلامه بالإشارة إلى بعض الصفات السلبية المنزهة من كل نقص فقال:

«حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهِهَا». إشارته إلى أنّ جميع المخلوقات محدوده وذاته المقدّسه فقط لا تعرف الحدود، ومن هنا ليست هنالك من صعوبه فى تمييز الخالق من المخلوق والإبتعاد عن السقوط فى مستنقع الشرك. وهنا يرد هذا السؤال: أيمكن أن يخلق الله شيئاً غير محدود أو بعباره أخرى، واجب الوجود؟ أنّ ذات كل مخلوق تقتضى كونه محدوداً، ومن هنا كيف يقال إنّ الله خلق الأشياء المحدوده حتى لا تشبه ذاته؟

والجواب عن هذا السؤال: إنّ المراد من

«حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا...» تمييزه عن المخلوقات؛ بعباره أخرى، فإنّ

«إِبَانَةٌ لَهُ» ليست مفعولاً لأجله، بل نتيجه وغايه الفعل. والمسأله الأخرى الجديره بالإلتفات أنّ أغلب نسخ نهج البلاغه نقلت العبارة

«ابانه لها» وفى هذه الحاله لا يرد أى غموض وإبهام؛ حيث مفهوم العبارة أنّ الله حدّ الأشياء عند خلقها أى جعل لكل موجود حدود معينه تميزه من الأخرى، من قبيل ما ورد فى الآيه ١٣ من سوره الحجرات: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» (٢).

ثم أسهب عليه السلام فى شرح مطلقه ذات الله المقدّسه ليكشف عمق هذه الحقيقه

ص: ٢١٩

١- (١) سوره الحديد، الآيه ٣

٢- (٢) وردت هذه العبارة ضمن خطبه أخرى وبصيغه أخرى فى أصول الكافى والذى تدعم التفسير الأول وهى «حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهِهِ، وَإِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهِهَا» (أصول الكافى، ج ١، ص ١٣٥)

بعبارات مختلفه تسلط الضوء على كل جوانب غناه عن الحدود فقال:

«لَا تُقَدَّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدْوَاتِ». ليست له أعضاء كأعضاء الإنسان ولا يعتمد الوسائل والأدوات لتحقيق مايشاء، كما لا- يحتاج الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، ذلك لأن كل هذه الأمور من علامات المحدوديه ولا تعرف ذاته الطاهره أیه حدود وقيود، ومن هنا تعذر على سكان العالم المحدود المعروف بالنقص والحاجه، الوقوف على كنه تلك الذات المقدسه، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«كُلُّ مَا مَيَّزَتْهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ» (١).

ثم وضع مقاله سابقاً:

«لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى؟» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى». الظاهرُ لَا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: «فِيمَ؟» وعلى هذا الضوء ليست له من بدايه ولا- نهايه، لا- ظاهر كظهور الشمس والقمر، ولا باطن كالمعادن الخفيه في باطن الأرض، وفي ذات الوقت فذاته أظهر من كل شيء وأخفى من كل شيء، بعبارة أخرى، فإن ظهوره ظهور ذاتي وخفاءه من كنه ذاته.

ثم خاض عليه السلام بصوره أعمق ليقول:

«لَا شَبْحٌ (٢) فَيَتَقَصَّى (٣)، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيَحْوَى (٤)».

لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتَّصَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِالتَّبَرُّاقِ». فقد نفى الإمام عليه السلام في هذه العبارات بادية الأمر، الجسميه عن الله، ذلك لأن الجسم إما ظاهر له حدّ وحدود أو مخفى ومحتجب في شيء آخر وله حدّ وحدود في كلا الحالتين، والحال ليس لواجب الوجود من حدود، كما يلاحظ في العبارتين الأخيرتين تجلّى آخر لغنى الذات المقدسه عن الحدود. فهو أقرب لكل شيء، لكن ليس بمعنى الالتصاق أو الحلول والاتحاد، بل بمعنى الحضور في كل مكان والاحاطه بكل شيء، كما هو

ص: ٢٢٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٢

٢- (٢). «شبح» بمعنى الشخص، وتطلق أحياناً على الشخص الذي لا يبدو واضحاً من بعيد

٣- (٣) «يتقصى» من ماده (قصو) على وزن قصد، بمعنى الإبتعاد، وتعنى أيضاً، البحث والتحرى عن الشيء

٤- (٤) «يحوى» من ماده (حوايه)، الاستيلاء على الشيء

بعيد عن كل شيء ليس بمعنى المسافه والانفصال عن الأشياء، بل بمعنى سمو ورفعه وجوده وصفاته بالنسبه لسائر الأشياء. وهذا يشبه ما ورد في الخطبه الأولى من نهج البلاغه:

«مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَابْتِمَارِيهِ وَعَظِيمُ كُلِّ شَيْءٍ لَابْتِمَارِيهِ». لا شك أنه يستحيل جمع هذه الصفات في الممكنات؛ ذلك أن الشيء إن بعد فلا يسعه الاقتراب، وإن اقترب فلا يمكنه الابتعاد، ولكن ليس هنالك من معنى لتضاد القرب والبعد وأمثال ذلك في ذات واجب الوجود المطلق.

ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع علم الله تعالى بكل شيء وفي كل زمان ومكان من خلال عبارات رائعة عميقه المعنى فقال:

«وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شَخْصٌ (١) لِحِظِهِ، وَلَا كُرُورٌ لَفِظِهِ، وَلَا اِزْدِلَافٌ (٢) رَبْوَةٍ (٣)، وَلَا اِنْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ (٤)، وَلَا غَسَقٍ (٥) سَاجٍ (٦)». فالإمام عليه السلام بغيه تشخيص عدم خروج أخفى الأشياء عن علم الله يفترض مسافراً مرّ في ليله ظلماء بصحراء وقد صوب بصره إلى الصحراء وينبس ببعض الكلمات، يقترب من التلال والمرتفعات ويتسلقها بسرعه ليبلغ غايته وهو يشق طريقه في تلك الظلمه المعتمه، فالله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء من حركات عيون وشفاه وأقدام هذا المسافر لهو أعلم بأعمال عباده وهم يأتون بها في وضح النهار وفي المدن والبلدان.

ثم قال في وصف هذه اليه الظلماء:

«يَتَفَيَّأُ (٧) عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأَفْوَالِ وَالْكَرُورِ (٨)». إشاره إلى أن علم الله بالموجودات وأعمال

ص: ٢٢١

١- (١). «شخص» بمعنى التركيز في النظر على الشيء

٢- (٢). «ازدلاف» بمعنى الاقتراب والصعود من نقطه مرتفعه، ويقال (المزدلفه) للمشعر الحرام لاقتراب الناس هناك من منى أو اقترابهم من الله بهذه العباده

٣- (٣) «ربوه» الموضع المرتفع

٤- (٤) «داج» من ماده (دجو) على وزن علو، المظلم، وليل داج، اليه المظلمه الخاليه من القمر

٥- (٥). «غسق» شدة الظلمه، وتطلق هذه المفرده على منتصف الليل لشده ظلمته

٦- (٦) «ساج» الساكن، والمراد من الغسق الساج، الظلام الطويل والمستمر

٧- (٧). «يتفياً» من ماده (فيئ) على وزن غيب، العوده، وتفياً بمعنى، الإنتقال والذهاب والإياب

٨- (٨). «كرور» له معنى مصدرى، الرجوع

الإنسان لا يقتصر على اليالى المظلمه، بل يشمل اليالى المقمره والنهار الواضح، بالتالى ليس هنالك من مكان خارج عن علم الله كالذى ورد فى ما بعد:

«عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى».

ثم قال مواصلاً كلامه:

«وَتَقَلَّبِ الْأَزْمَنَةَ وَالذُّهُورَ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ». هذه العبارة كتلك التى وردت فى العبارات القادمة:

«عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِيَةِ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِيَةِ» وكل هذه العبارات تشير إلى سعه علم الله الذى لا يحده الزمان والمكان. وهنا يرد هذا السؤال: لماذا استند إلى إقبال الليل والنهار مع أن لكل من الليل والنهار إقبال وإدبار؟ لعل هذه العبارة تأكيد لما مرّ فى العبارات السابقة بشأن نفوذ علم الله إلى أعماق الظلمات وليس فقط وضوح النهار. وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن تركيز الإمام على إقبال الليل وإدبار النهار ربّما إشاره إلى أن أمور الدنيا غالباً ما تجرى على خلاف رغبة الإنسان(١).

ثم قال عليه السلام:

«قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعَدَّةٍ». الواقع أن العبارة

(لا يخفى عليه من عباده...) التى تحدّث فيها عن علم الله بالزمان والمكان وكل إنسان وشيء تشمل هذا المعنى أيضاً أنه عليم بنهايه عمر كل إنسان وكل موجود قبل أن ينتهى عمره كما يعلم عدد الموجودات قبل أن تعد وتحصى(٢).

ثم قال فى نتیجه كليه:

«تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنَهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأْتُلُ (٣) الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنُ الْأَمَّاكِينِ». نعم؛ فكل طائفه ضاله

ص: ٢٢٢

١- (١) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ١، ص ٢٧٣

٢- (٢) إعتبر أغلب شراح نهج البلاغه أن هذه العبارة مستقلة تشير إلى عدم حدود الذات المقدسه، إلّا أن هذا التفسير لا يبدو صحيحاً، لأنّه لو كان كذلك لقال (بعد كل غايه ومدّه) أى أنّ ذاته موجوده بعد كل نهايه كما هى موجوده قبل كل بدايه. أمّا من فسّرها كما أوردنا فهو العالم المعروف محمد عبده فى شرحه لنهج البلاغه حيث ربط هذه العبارة بعبارة (لا يخفى) وهذا ما عليه ظاهر عبارة العلامة الجعفرى

٣- (٣). «تأتل» بمعنى عمران المسكن، ومن ماده ائل على وزن أمل، شجره معروفه

تفتقر إلى المعرفة من قبيل المشبّهه والمجسّمه إنّما شبّهت الله بمخلوقاته وجعلت له جسماً وأعضاءاً، وأنّ له مكاناً وينتقل من مكان إلى آخر فيحضر هنا ويغيب هناك، والحال أنّه لأرفع من الزمان والمكان والقياس والوهم؛ أرفع ممّا نرى ونقرأ ونكتب، فليس له جسم ولا مكان ولا صفة من صفات المخلوقات. والعبارة المذكورة إشاره إلى أربعة أنواع من الحدود يتنزه الله عنها جميعاً: الحدود من حيث القامه كالصغر والكبر ومن حيث النهايه كمقدار العمر ومن حيث اختيار السكن وأخيراً من حيث المكان. فهو وجود مطلق لا متناهٍ غني عن أي من الحدود، ذلك لأنّ كل هذه الأمور من صفات المخلوقات. ومن هنا اختتم الخطبه بالقول:

«فَالْحَرُّ دُ لِحَلْقَتِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنَسُوبٌ». فهذه العبارة هي عصاره الأبحاث السابقه في أنّ كل محدوديه هي إنّما تعود للمخلوقات ومن شأن الممكنات، وليس لهذه الصفة من سبيل إلى ذاته المطلقه.

تأمل: الله حقيقه مطلقه

إنّ أول وأهم مطلب ينبغي إثباته في باب صفات الله ليتضح مفهوم التوحيد وكذلك سائر الصفات كالعلم والقدرة وماشابه ذلك يتمثل في كون ذاته مطلقه لا متناهيه، وذلك لأنّه إن ثبت هذا المطلب فقد تمهد السبيل أمام إدراك جميع صفاته الجماليه والجلاليه (الصفات الثبوتيه والسلبيه). ولإثبات ذلك لابدّ من الألتفات إلى الأمور التاليه:

1. إنّ محدوديه الوجود تعنى طروء العدم، ذلك لأنّه إن لم يرد العدم فلا معنى للحدود. فلو قلنا إنّ عمر فلان محدود، فذلك يعنى أنّ عمره سينتهى يوماً إلى العدم، وهكذا بشأن العلم والقدرة وماشابه ذلك.
2. إنّ الوجود ضد العدم فإن اقتضى شيء بذاته الوجود فلا يمكنه اقتضاء العدم.
3. ثبت في برهان العله والمعلول أنّ سلسله العله والمعلول لهذا العالم يجب أن

تنتهى إلى نقطه ثابتة وأزليه يصطلح عليها (واجب الوجود) أى أن وجوده من ذاته لا من خارجها، وعليه فإن العله الأولى للعالم تقتضى الوجود بذاتها فهي لا تمتزج بالعدم. وعلى ضوء هذه المقدمات الثلاث يتضح أن طرأت حدود على الذات الواجبه الوجود فلا بد أن تكون من خارجها، ذلك لأن المحدوديه استناداً إلى المقدمات المذكوره بمعنى الامتزاج بالعدم، والشىء الذى تقتضى ذاته الوجود فإنها لا تقتضى العدم اطلاقاً. وبناءً على هذا فإن اعترته محدوديه فلا بد أن يحده عامل خارجى ويلزم من ذلك أنه ليس بواجب الوجود، لأنه معلول لذات أخرى ومخلوق آخر فى حد وجوده. بعبارة أخرى، ممّا لا شك فيه أن العالم ينتهى إلى واجب الوجود، فإن كان واجب الوجود غير محدود فليست هنالك من مشكله، أمّا إن كان محدوداً فذلك ليس من مقتضيات ذاته، لأن ذاته تقتضى الوجود لا العدم، إذن لا بد أن تطرأ عليه من الخارج. ومفهوم هذا الكلام أن هنالك عله خارج وجوده وهو معلول لتلك العله وفى هذه الحاله سوف لن يكون واجب الوجود.

وقد تعرضت الروايه الوارده عن الإمام السجاد عليه السلام إلى وجوده المطلق على ضوء البرهان المذكور، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِمَخْدُودِيَّةٍ عَظْمٍ رَبُّنَا عَنِ الصِّفَةِ فَكَيْفَ يُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ مَنْ لَا يُحَدُّ» (١). وورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«هُوَ أَجَلٌ مِنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهُمْ أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ» قال السائل: حده لى؟ قال عليه السلام:

«إِنَّهُ لَا يُحَدُّ قَالَ: لِمَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَنَّ كُلَّ مَحْدُودٍ مُتَّنَاهِ إِلَى حَدٍّ فَإِذَا احْتَمَلَ التَّحْدِيدَ احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ وَإِذَا احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ احْتَمَلَ النُّقْصَانَ فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ وَلَا مُتَزَائِدٍ وَلَا مُتَجَزِّئٍ وَلَا مُتَوَهِّمٍ» (٢).

ص: ٢٢٤

١- (١). اصول الكافى، ج ١، ص ١٠٠ باب النهى عن الصفه

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥ للوقوف على المزيد راجع نفحات القرآن، ج ٣، ص ١٤٩

لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَصُولٍ أَرْزَلِيهِ، وَلَا مِنْ أَوَائِلِ أَبْدِيهِ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعِهِ شَيْءٌ انْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِيَةِ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى.

الشرح والتفسير: العلم الإلهي المطلق

واصل الإمام عليه السلام ما طرحه سابقاً بشأن قدره الله التامه وعلمه المطلق فقال:

«لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَصُولٍ أَرْزَلِيهِ، وَلَا مِنْ أَوَائِلِ أَبْدِيهِ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ» فالعبارة إشارة إلى الابداع في الخلق، أى خلق الأشياء دون سابقه، فلم تكن هناك مواد أزليه استعان بها الله لخلق الأشياء، كما لم تكن هنالك إشكال وصور احتذاها في تصويره الأشياء، خلافاً لما اعتقده الفلاسفة من أزليه المادة، فلا أبدية وأزليه سوى للذات المقدسه، وهذا ما بيناه في برهان التوحيد من امتناع وجود الأبدى والأزلى في عالم الممكنات. والعجيب أنّ الإمام عليه السلام كشف النقاب عن هذه الحقيقه في عصر وبيئه لم ترق لهذه الأفكار ولم تشهد معرفه الله مثل هذا المنطق الرصين.

ثم أشار عليه السلام إلى قدره الله المطلقة من زاويه أخرى فقال:

«لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعِهِ شَيْءٌ انْتِفَاعٌ». بل الجميع مستسلم لإرادته التكوينية، فيوجد ما يشاء متى شاء ويعدم ما يشاء كيفما شاء، مع ذلك فاستسلام الموجودات وطاعه

المطيعين وعباده العابدين لا تزيد في عظمته شيئاً، لأنَّ وجوده مطلق ومصدر جميع الخيرات والبركات. هذا من حيث قدره، أما بشأن العلم المطلق فقال:

«عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِيْنَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِيْنَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِيْنَ السُّفْلَى». فما ذكره الإمام عليه السلام في هذه العبارات البليغه الرائعه العميقه المدى اقتباس من بعض الآيات القرآنيه من قبيل: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصِغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَٰ مَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (١) «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا» (٢) والإيه: «وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْدِ تَقْدِيمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْدِ تَأْخِرِينَ» (٣). وزبده الكلام:

تتعذر معرفه الله دون الوقوف على علمه المطلق وقدرته اللامتناهيه وأزليته وأبديته الغنيه عن الحدود.

تأمل: دور الإيمان بعلم الله على العمل

الموضوع المهم هنا أن مثل هذا الإيمان بعلم الله وقدرته وأزليته وأبديته لا يقتصر دوره على البعد الذهني والفكري فحسب، بل له تأثير عميق وشامل على أعمالنا وأفعالنا، لأننا حين نوقن بأنه معنا أين ما كنا وكان قبلنا وسيكون بعدنا ولا يخفى عليه ظاهرا وباطنا بل حتى تفاصيل دوافعنا وجزئيات تياتنا، فإن هذا الإيمان سيربينا ويضطرنا إلى مراقبه أنفسنا وأعمالنا ويسوقنا إلى محاسبه أنفسنا، إلى جانب إبعادنا عن الشعور باليأس والإحباط ويبعث فينا روح الرجاء والأمن.

وعلى هذا الأساس فإن إيماننا بالله على ضوء الصفات المذكوره لا يقتصر دوره

ص: ٢٢٤

١- (١). سوره يونس، الآيه ٦١

٢- (٢). سوره فاطر، الآيه ٤٤

٣- (٣). سوره الحجر، الآيه ٢٤

على يوم الجزاء فحسب، بل من شأنه إصلاح حياتنا الدنيويه والأخذ بأيدينا إلى الورع والتقوى والشعور بالأمن والاستقرار، وعليه
فما نراه اليوم من تهتك لحجاب التقوى من جانب وحاله الاضطراب من جانب آخر إنما يُعزى أحد أسبابها الرئيسيّه إلى الإبتعاد
عن العقائد الدينيه الصحيحه.

ص: ٢٢٧

أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتِثَارِ. بُدِئْتَ «مِنْ سَيْلَالِهِ مِنْ طِينٍ»، وَوُضِعْتَ «فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ» وَأَجَلَ مَقْسُومٍ. تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمَّكَ جَنِينًا لِاتُّحِيرَ دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ زَيْدَاءً؛ ثُمَّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا. فَمَنْ هَذَاكَ لِاجْتِرَارِ الْغَدَاءِ مِنْ تَدْيِ أُمَّكَ، وَعَرَفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلْبِكَ وَإِرَادَتِكَ! هَيْهَاتَ، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمَنْ تَنَاوَلَهُ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!

الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم

هذا المقطع الذى يمثل القسم الأخير من الخطبه هو جواب عن سؤال من الأسئلة التى تفرزها الأقسام السابقه، وهو تعذر معرفه الله بهذه الصفات من قبيل كونه الأول والأخر والظاهر والباطن والقريب من الأشياء والبعيد عنها والمطلق العلم واللامتناهى القدره. صحيح، لدينا علم إجمالى بكل هذه الصفات ولكن ليس لدينا من سبيل إلى العلم التفصيلى الذى نعبر عنه بالعلم بكنه الذات والصفات. يشير الإمام عليه السلام هنا إلى جانب من خلق الإنسان والأسرار المعقده التى تكتنف فتره كونه جنيناً إلى جانب الأسرار العظيمه لولادته وما بعدها، ثم يخلص إلى نتيجة فى أنك إن عجزت عن التوصل إلى أسرار خلقتك كيف يسعك العلم بكنه صفات خالقك؟

فقال:

«أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ (١)، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ (٢)، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ». نعم؛ مرحلة الجنين من أعجب مراحل الخلقه التي تنطوي على العديد من الأسرار. فنطفه الإنسان تطوى مراحلها التكاملية بصورة متتاليه في وسط مغلق ومظلم ومحاط بالأستار بحيث يطاء كل يوم مرحلة جديده في إطار خلقه موزونه ومنظمه، ورغم أنها تجرى في وسط رقيق وشفاف إلا أنها بعيده كل البعد من المخاطر.

ثم خاض في شرح هذا المطلب فقال:

«بُدِئْتُ «مِنْ سَلَالِهِ (٣) مِنْ طِينٍ»

،وَوُضِعْتُ «فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٤) * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»

وَأَجَلَ مَقْسُومٍ». إشاره إلى أن عمليه توقف الإنسان في الرحم خاضعه لحساب دقيق. من حيث كميته البدن وكيفيته من حيث المده والزمان وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أحدهما بالعباره

«إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ» والأخرى بالعباره

«وَأَجَلَ مَقْسُومٍ».

ثم تطرق إلى المرحله الأخرى التي تعقب الرحم فقال:

«تَمُورُ (٥) فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِينًا لَا تُحِيرُ (٦) دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً». فهذه العباره إشاره لطيفه إلى الحركه المتتابعه للجنين في بطن أمه والتي تتم من خلال السباحه في ماء معين حوله. وأنه ليتلقى بوازع من فطرته وبحكم طبيعته الأمر بالحركه، دون أن يسأل أو يجيب أحداً، ذلك لأنه ليس له من سمع ولا لسان، لكن الله وفر له كل حاجاته مسبقاً حين كان في ذلك الوسط المظلم والمغلق.

ص: ٢٣٠

١- (١). «سوى» من ماده (تسويه) التنظيم والرعايه لتناسب أجزاء الشىء

٢- (٢) «مرعى» على وزن منفى، بمعنى الشىء الذى يرمى ويحافظ عليه

٣- (٣). «سلاله» من ماده (سل) على وزن حل، عصاره الشىء وخلاصته، ومنه معنى الإختيار أيضاً

٤- (٤). «مكين» من ماده (مكانه) بمعنى المنزله وبمعنى الشخص أو الشىء الذى له منزله واستقرار وثبات وتحت تصرفه جميع

وسائل العمل

٥- (٥). «تمور» من ماده (مور) على وزن قول، بمعنى الحركه السريعه، كما وردت بمعنى الذهاب والإياب. وورد هذا التعبير

بشأن الجنين بسبب كونه دائم الحركه داخل الرحم

٦- (٦) . «تحير» من ماده (حور) على وزن غور، بمعنى الذهاب والإياب، وكذلك وردت هذه المادة بمعنى الحوار في الكلام، فعليه (لا تحير) في العبارة المذكوره بمعنى أنّ الجنين لا يرّد على أى كلام ولا يقدر على بيان حاجاته

ثم أشار عليه السلام إلى مرحلة الولادة والرضاعه في احضان الأم فقال:

«ثُمَّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقْرَكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا». نعم، يرد من ذلك القرار المكين والمكان الآمن إلى الدنيا لا يعرف منها شيئاً، فلا يعرف الغذاء اللازم ولا الإرادة للحصول عليه ولا كيفية تناوله، لا يعرف وسائل النمو، ولا معوقاته، ولا يعرف أسلوب التعايش ولا التعامل مع الآخرين، فإن لم يأخذ اللطف الإلهي بيده وتشمله الهداياه التكوينية لعجز قطعاً عن مواصلة الحياه، غير أن الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه يحفه بعنايته فيتجاوز الطرق الوعره بحكم الغريزه التي أودعها الله إياه.

لذلك واصل الكلام عليه السلام قائلاً:

«فَمَنْ هَذَاكَ لِاجْتِرَارِ (١) الْعِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ!». حقاً من علم الوليد أن غذاءه في ثدي أمه؟ عليك أن تضغط بأصابع يدك الصغيره وتمتص ما في الثدي من اللبن بفمك الصغير؟! من علمه ذلك البكاء بالصوت الحزين ليعلن من خلاله عن حاجاته كافه؟! العطش والجوع والحر والبرد والمرض والحاجه إلى النوم؟! والغريب أن فراخ الطيور والدواب وسائر الحيوانات يندفع كل منها بطريق عجيب نحو حاجته.

ثم اختتم الخطبه بهذه النتيجة:

«هَيْهَاتَ (٢)، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدْوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجِزُ، وَمَنْ تَنَاوَلَهُ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!».

أجل، لا يمكن حقاً الوقوف على عجائب وغرائب عالم الخلق وسبر غور أسرارهِ.

فإن عجزنا عن إدراك بعض ما يتعلق بمخلوقات الله فأنى لنا بالوقوف على كنه الذات والصفات الغنيه عن الحدود من جميع الجهات. البنيه المعقده للأعصاب والقلب والعروق والخلايا والجينات ومختلف الغرائز التي أودعها الله أجسامنا لمن المسائل التي شغلت أذهان العلماء لقرون وما زالوا يعترفون بكثرة المجاهيل التي

ص: ٢٣١

١- (١). «اجترار» من ماده (جر) بمعنى الجر الشيء وسحبه

٢- (٢). «هيهات» اسم فعل يفيد البعد

تعتبرى خلقه الإنسان حتى أَلَّف ذلك العالم الفرنسى المعروف، كتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول).

تأمل

الدوره الجينييه المذهله

ما ورد فى هذا الجانب من الخطبه بشأن الأسرار الغريبه لخلق الإنسان فى الدوره الجينييه ومن ثم الولاده والرضاع ينسجم تماماً والعديد من الآيات القرآنيه التى أكدت على التفكير فى هذه الأسرار، ومنها سوره الزمر: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» (١) وسوره المؤمنون:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (٢). وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المرحله فى توحيد المفضل كآيه من آيات الله فى التوحيد والقدرة، وأوصى المفضل وقال: «نبتدىء يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلك ما يدبر به الجنين فى الرحم، وهو محجوب فى ظلمات ثلاث: ظلم البطن، وظلم الرحم، وظلم المشيمه، حيث لا حيله عنده فى طلب غذاء ولا دفع أذى، ولا استجلال منفعه ولا دفع مضره، فإنه يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذوا الماء النبات فلا يزال ذلك غذاؤه حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه، وقوى أديمه على مباشره الهواء، وبصره على ملاقيه الضياء حاج الطلق بأمه فأزعجه أشد إزعاج، وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صرف ذك الدم الذى كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها فانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء...» (٣).

ص: ٢٣٢

١- (١) . سوره الزمر، الآيه ٦

٢- (٢) . سوره المؤمنون، الآيات ١٢-١٤

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح تكامل المولود في مختلف المراحل وهو يعرض لعجائب الخلقه الواحده تلو الأخرى(١).
(طبعاً لا- يسع البحث الاستغراق في القضايا المذهله التي تم اكتشافها في عصرنا الراهن بشأن تكامل النطفه من خلال مرورها بتلك المراحل، وكل الذي يسعنا قوله إن مثل هذا البحث ينطوي على آلاف الأسرار والعجائب: «خَلَقًا مِّنْ بَعِيدٍ خَلْقٍ». ومن الضروري أن نشير هنا إلى سر من تلك الأسرار وهو أن الجنين طيله هذه المدّه يسبح في كيس صغير مملوء بماء غليظ، ولا يتأثر هذا الكيس بالضربات حتى وإن سقطت المرأه على الأرض أو قامت بحركات سريعة وعنيفه، فليس هنالك أدنى أذى على الجنين، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنه يمتاز بتعديله للحراره والبروده بالشكل الذي يحول دون تأثيرهما على الجميع. أضف إلى ذلك فإن سباحه الجنين في ذلك السائل يبعد الضغط عن أعضائه الرقيقه، وأخيراً يحفظ هذا الكيس الجنين من الأمواج الصوتيه العاليه ويحافظ على نعومه الجلد، كما يلعب دوراً مهماً في التغذيه: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

ص: ٢٣٣

١- (١). بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢

لَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَشَكُوا مَا نَقِمُوهُ عَلَى عُثْمَانَ وَسَأَلُوهُ مُخَاطَبَتَهُ لَهُمْ وَاسْتِعْتَابَهُ لَهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: (١)

نظرة إلى الخطبه

المراد الأصلي من هذه الخطبه كما ذكرنا سابقاً أنها تعرض بالنصح لعثمان وتحذيره بمنتهى الأدب والحرص للحيلولة دون تجاوز أجهزه حكومته للحدود، وهي تتألف من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: خطاب لشخص عثمان، خطاب الناصح المشفق الذى يرى مقابله على شفا حفره خطيره، وقد ركز الإمام عليه السلام على علم عثمان بالأحكام الإسلاميه وسوابقه مع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ليصده عن الزلل والانحراف.

أما القسم الثانى: فيعرض فيه الإمام عليه السلام بحثاً جامعاً و كلياً بشأن أئمه العدل

ص: ٢٣٥

١- (١) سند الخطبه: كما ورد سابقاً حين إزداد حجم المخالفات فى أجهزه حكومه عثمان وظهرت للقاصى والدانى، اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وطلبوا منه أن يكون سفيرهم إلى عثمان فيعظه وينصحه. وقد نقل هذا الكلام قبل السيد الرضى، البلاذرى فى (أنساب الأشراف) والطبرى المؤرخ المعروف (فى حوادث سنه ٣٤ هجرية)، وابن عبد ربّه فى (العقد الفريد) والمرحوم الشيخ المفيد فى (الجمال). (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٨٧)

والظلم وخصائص كل منهما، وبما يجعل كل إمام منهما اسوه للأخرين في سيرته وفي كل زمان ومكان، ومن ثم حذر عثمان من أن يصبح العوبه بيد بطانته كمروان وأمثاله.

والقسم الثالث: نقل جواباً عن عثمان وما أن سمع الإمام عليه السلام ذلك الجواب حتى عرض عليه كيفية الخروج من المأزق، والمؤسف أنّ هذه النصائح لم تجد أذاناً صاغية من عثمان فوَقعت تلك الحوادث العنيفه والمريره.

ص: ٢٣٦

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَشَفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئًا تَجْهَلُهُ، وَلَا أَذُكُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَىٰ شَيْءٍ فَخَبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَتَبَلَّغَكَهُ. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَدِّحْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَدِّحْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَيْفَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَىٰ بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشَيْجَةَ رَحِمَ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نَلْتِ مِنْ صَهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا. فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِّي، وَلَا تُعْلَمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحُهُ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ.

الشرح والتفسير: إتمام الحجج على عثمان

ينبغي لاتضح مضمون هذه الخطبة الإشاره إلى الأحداث والأوضاع التي أدت إلى هذا الحوار بين الإمام عليه السلام وعثمان. حيث ذكر المؤرخ المعروف الطبري أنّ الناس حين رأوا أعمال عثمان - من قبيل سلب ونهب بيت المال وتسليط الظلمه والفسقه على المناصب الحساسه فى الحكومه الإسلاميه - كتب عدد من صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله كتبهم إلى أمراء الجيش على الثغور ودعوههم إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دين محمد صلى الله عليه وآله والقدم إلى هنا وإنقاذ من يقوم بهدم هذا الدين. وتقاطر الجنود من كل مكان على المدينه - سيما أولئك الذين أتوا من مصر والذين عاشوا

ظلم الولاة وعمال الخليفة - حتى قتلوا عثمان(١). آنذاك تعالت الأصوات التي ضجت من ظلم عثمان، فقدم جماعه من الناس إلى الإمام عليه السلام وسألوه وضع حد لتلك الأوضاع بطريقه سلميه، فيكون عليه السلام سفيرهم إلى عثمان ويتم الحجه عليه. فأورد الإمام عليه السلام ذلك الكلام بما يجعله وبطانته يكفون عن الظلم. وكلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبه يتضمن براعه البلاغه والفصاحه والقضايا النفسيه الدقيقه أملاً في عوده الطرف المقابل إلى رشده ولعله يلتفت إلى الأخطار المحدقه بالإسلام والعالم الإسلامى. وقد تحدث الإمام عليه السلام بادية الأمر عن علم عثمان ومعرفته بالأحكام الإسلاميه بشأن رعايه حقوق الناس والإبتعاد عن الظلم والجور فقال:

«إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَسْفَرُونِي(٢) بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِمَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لِمَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَخُبِّرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَتُبَلِّغَكَهُ». من الواضح أنّ عبارات الإمام عليه السلام لا تعنى أنّ عثمان بمصاف الإمام على عليه السلام فى العلم والمعرفه، بل مراده أنّ عثمان كان يعلم بالأحداث التى وقعت وسوء الظلم والجور وضروره رعايه حقوق الناس، وهى الأمور العاديه التى يتساوى فيها عثمان مع عامه الناس الذين كانوا يعرفون تلك الأمور، بل حتى الأطفال - فضلاً عن العقلاء والكبار - كانوا يعلمون صحيحها من سقيمها كما ذكر ذلك ابن أبى الحديد(٣). وبناءً على هذا فإنه يخطئ كل من يتصور بأنّ عبارات المذكوره دليلاً على أنّ عثمان بمنزله الإمام على عليه السلام فى العلم والمعرفه. فعلى عليه السلام كما قال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله باب علم مدينه النبى صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام حسب الروايات الإسلاميه من عنده علم الكتاب وهو الملاذ العلمى للأمه فى حل جميع مشاكلها حتى صرح بعض الخلفاء

«اللَّهُمَّ لَا تَبْقِنِي لِمُعْضَلِهِ لَيْسَ لَهَا ابْنٌ

ص: ٢٣٨

- ١- (١). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٠٠ و ٤٠١، فى بيان حوادث سنه ٣٥
- ٢- (٢). «استسفرونى» من ماده (سفره) والسفير، يقال لشخص يقوم بالوساطه بين شخصين أو بلدين
- ٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٦٣

ثم واصل كلامه مشيراً إلى سوابق عثمان في الإسلام فقال:

«وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَحِبْنَا».

إشاره إلى أنك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله لسنوات عديدة وقد سمعت منه تعاليم الإسلام وأحكامه الشرعية، وعليه فكيف تخفى عليك هذه المسائل الواضحة بشأن حق الناس وبيت المال والعدالة الاجتماعية. آنذاك طرق السبيل الثالث بغية التأثير على أفكار عثمان فقارنه بأبي بكر وعمر، ذلك لأنهما لم يرتكبا ما ارتكبه عثمان قط، وإن كانت لهم زلتهم الأخرى فقال:

«وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَيْفَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَبِي (٢) رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشَيْبَةَ رَحِمَ مِنْهُمْ؛ وَقَدْ نَلَّتْ مِنْ صَهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَ». بالنظر إلى أن الوشيجة بمعنى جذور الشجره أو الألياف التي تصنع من النخيل وشم اطلقت على اشتباك القرابه، فإن الإمام عليه السلام أراد أن يذكره بقرابته من النبي صلى الله عليه وآله حيث يقرب للنبي صلى الله عليه وآله من جده عبد مناف. فقد اعتمد الإمام عليه السلام مختلف الطرق بغية التأثير عليه وإعداده لقبول الحق والكف عن ممارسه الباطل. إلا أن المؤسف أن الخليفة الثالث لم يعد يسمع قول الحق وقد انغمس في الفساد الذي دب في كآفه مرافق الحكومه. على كل حال عاد الإمام عليه السلام ليؤكد على الخليفة ضروره الأنصياح إلى الحق والشفقه على نفسه فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِي، وَلَا تُعَلِّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ». فالإمام عليه السلام لم يتخل عن أى أسلوب من شأنه التأثير على الخليفة، فأحياناً يحدثه بحسن وقبح مثل هذه الأمور، وأخرى يقول له

ص: ٢٣٩

١- (١) الغدير، ج ٦، ص ٢٦٣

٢- (٢) . الغريب أن كلمه «أبى» التى وردت فى نسخه صبحى الصالح لم ترد فى أى من سائر النسخ. فلم ينقلها هنا المرحوم الشارح البحرانى والخوئى والعلامة الجعفرى ومحمد عبده وابن أبى الحديد ومغنيه والتستري وصاحب مصادر نهج البلاغه، ويبدو أنها من زلات صبحى الصالح، سيما بالنظر إلى أن مثل هذه التعبيرات لم ترد فى كلمات على عليه السلام بالنسبه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

إنَّكَ سمعت من النبي صلى الله عليه وآله ما ينبغي سماعه، وتاره يقول له على الأقل سر بسيره من سبقك من الخلفاء فهما ليسا أولى منك بالعمل بالحق. وأخيراً يبيِّن له أنَّ طريق الحق واضح فلماذا تعرض نفسك لكل هذه الأخطار وتسلك السبيل غير القويم، لكن لم يستجب عثمان حتى حدث ما لا ينبغي أن يحدث بعد أن ولى ظهره لكل تلك المواعظ والإرشادات القيِّمه.

تأمل

سبيل نفوذ الكلام في الآخرين

إذا قام شخص ببعض المخالفات وكان يبدو مدركاً لبعض الأعمال الخطيره وأراد عاقل أن يوقظه من نوم الغفله، فإنَّ أفضل أسلوب يمكن اعتماده بادية الأمر أن يستقطب قلبه ويذكره بإيجابياته، فيقول مثلاً: إنَّكَ من أسره عريقه ولديك تحصيلات علميه قيمه وسمعتك حسنه بين الناس لعله يشعر بشخصيته ويثق بالمقابل فيقبل منه. ومن ثم مقارنته بأمثاله وأقرانه بهدف إعادته إلى الصواب والإبتعاد عن الخطر.

الإمام عليه السلام بصفته سيد الفصحاء والبلغاء والعالم بالقضايا التربويه والنفسيه، فقد ذكّر عثمان بكل هذه الأمور، فقال له إنَّكَ لصهر رسول الله صلى الله عليه وآله (١) وأقرب إليه من الخليفه الأول والثاني ولك سابقه في الإسلام وقد لازمت النبي صلى الله عليه وآله وليس هنالك من شيء غائب عنك لأذكرك به، فهنالك ظلم وجور وتناول على بيت مال المسلمين وهضم لحقوق الناس. إلماً أنَّ الخليفه الثالث قد انغمس في شباك بطانته - تلك البطانة التي يمثل اغلبها حثالات الجاهليه - ولم يعد يتحمل نصح ذلك الناصح الأمين وينقذ نفسه من تلك الورطه. ويتضح ممَّا مر معنا أن ليس هنالك من فضيله لعثمان تضمنتها عبارات هذه الخطبه.

ص: ٢٤٠

١- (١). كان عثمان زوج رقيه بعد أم كلثوم بنتي النبي صلى الله عليه وآله

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدَى وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ، وَأَمَاتَ بَدْعَهُ مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَكَيْرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِزٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَأْخُودَةٍ، وَأَحْيَا بَدْعَهُ مَثْرُوكَةً. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبُطُ فِي قَعْرِهَا». وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ:

يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتِيحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجًا، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجًا.

فَلَا تَكُونَنَّ لِمُرُوانَ سَيْقَهُ يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلالِ السُّنَنِ وَتَقْضَى الْعُمُرِ.

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلَّمَ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم

تضمن المقطع الأول من هذه الخطبة، خطاب الإمام عليه السلام بصورة خاصة لعثمان

وبذل له النصح والإرشاد لإنقاذه من خطوره الموقف الذى كان فيه وليطفىء عنه غضب الأمة، والأهم من كل ذلك رضى الله تبارك وتعالى. أما هنا فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى الضوابط الكليه والعامه للحاكم العادل ومن ثم صفات الحاكم الظالم ليتبين الخليفه من ذلك، الطريق الصحيح فيسلكه فقال عليه السلام:

«فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدًى وَهَدًى، فَأَقَامَ سُنَّتَهُ مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بَدْعَهُ مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنْنَ لَكَثِيرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ». فقد ركز الإمام عليه السلام بادية الأمر على هذا الموضوع المهم فى أن أفضل عباد الله هو الإمام العادل، كيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«عَدْلٌ سَاعَهُ خَيْرٌ مِنْ عِبَادِهِ سِتِّينَ سَنَةً قِيَامَ لَيْلِهَا وَصِيَامَ نَهَارِهَا» (١) ثم تطرق إلى خصائص الإمام العادل، ومنها أن تلمس الهدى عن طريق القرآن والوحي والعقل السليم ثم هدى الناس إلى الصراط المستقيم، ذلك لأن البرامج الثقافيه البناء من وظائف الحاكم العادل لأنها تتمثل فى إقامة السنن المعلومه وإماتة البدع المجهوله؛ لأنه لا بد للحاكم العادل من رؤيه دقيقه بحيث لا تطمس السنن الحسنه وتنسى وتسود المجتمع خصال الخير والفضيله والتقوى والعلم والمعرفه والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب عدم السماح لظهور البدع السيئه والخرافات والاختلافات والنزاعات وكل ما جهد الأنبياء من أجل تنقيه الأمة من شوائبه، خاصه أن الإمام عليه السلام صرح بأن للسنن والبدع علامات. فعلامات السنن الأمن والاستقرار وتطور البلاد ومسارعه الأفراد إلى المعنويات، على العكس من علامات البدع المتمثله بالاضطراب والإرباك والركود والتخلف والخرافات. وبالطبع فإن مميزات الحاكم الظالم (الإمام الجائر) بالضبط على العكس من سابقته فى الحاكم العادل، فهو ضال مضل لغيره، يطمس سنن الله ويحيى البدع، وللأسف كلنا نعلم أن الخليفه الثالث كان مصداقاً للإمام الجائر بتسليطه لبطانته على رقاب المسلمين ونهبهم لبيت المال.

ص: ٢٤٢

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ حَيَّائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سَيِّئُهُ مَأْخُودَةً، وَأَحْيَا بِدَعَاةٍ مُتْرُوكَةٍ». فمن البديهي أنّ دعائم العدالة وركائزها في المجتمع إنّما تستحکم في ظل إحياء السنن الإلهية التي تضمن خير البشرية وسعادتها، وتهجر البدع التي تسوق الناس إلى الفساد والظلم. والحاكم الذي يقوم بهذه الأعمال إنّما يفصح عن ظلمه وفساده، بالتالي فهو شر الناس، ذلك لأنّه يسوق المجتمع إلى البؤس والشقاء، بغض النظر عن ظلمه لنفسه وسوقها للشقاء الأبدى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مستشهداً بحديث خطير عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبُطُ فِي قَعْرِهَا» (١). فقله عليه السلام:

«وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ» إشاره إلى أنّه كان له في الدنيا فئة من الناس يقفون إلى جانبه في الشدائد والمشاكل التي تعرض عليه ويجدون له المبررات في ممارسه الظلم والجور، ومن جانبه كان يصدق عليهم الإمتيازات بغية الإحتفاظ بهم. أمّا في ذلك اليوم فهو وحيد فريد في محكمه العدل الإلهي وليس له سوى النار جزاء لأعماله الشنعاء. ولعل العبارة

«فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى» إشاره إلى أنّ دورانه في نار جهنم يوجب مزيداً من الألم والأحراق أولاً ويجلب انتباه الآخرين ثانياً فتبدو فضيحتة علانية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمّة تتعلق بمصير عثمان تحذره من مغبه سوء فعالة فقال:

«وَإِنِّي أَنْشُدُكَ (٢) اللَّهُ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». فالإمام عليه السلام وإن لم يشر إلى من قال هذا الكلام، لكن من الواضح أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وقع عين ما أخبر به حيث كان الظلم سبب قتل عثمان وأثر ذلك - وبحجه دم عثمان - حصل كل ذلك

ص: ٢٤٣

١- (١). روى الطبري هذه الخطبة مع الحديث في (تاريخه)، ج ٣، ص ٣٧٦ حوادث سنة ٣٤

٢- (٢). «أنشد» بصوره ثلاثي مجرّد على وزن أقتل من ماده (نشد)، على وزن قتل، بمعنى التذكير والطلب وإنشادضاله، بمعنى كسب الإطلاع من الناس بشأن الضاله

القتال وسفك الدماء ومازلنا نشهد حتى العصر الراهن بعض التبعات والاختلافات التي تحدث بين المسلمين. والشاهد على ذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذي ورد في سنن أبي داود أنه قال:

«وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَيْمَةَ الْمُضِلِّينَ وَإِذَا وَضَعَ السَّيْفَ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرَفَّعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١).

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهِا، وَيَبُتُّ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمْوجُونَ (٢) فِيهَا مَوْجًا، وَيَمْرُجُونَ (٣) فِيهَا مَرْجًا». وتشير العبارة

«وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهِا» إلى أنّ الساسه المحترفين يحاولون تضليل الرأي العام فهم ينطلقون في الظاهر على أساس المطالبة بدم الخليفة المقتول، لكنهم يزيّفون الحقائق باطناً بهدف الوصول إلى الخلافة، فهم يصورون الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً (٤). والعبارة

«وَيَبُتُّ الْفِتْنَ فِيهَا» وهي إشاره إلى اتساع الفتنة في صفوف الأئمة نتيجة ذلك، والعبارات القادمة بمثابة نتيجة، فمن جانب يصعب تمييز الحق من الباطل ومن جانب آخر فإنّ الناس سيعومون في بحر من الفتنة. والفارق بين يموجون ويمرجون أنّ الأولى إشاره إلى اقتتال الأئمة في تلك الفتنة، والثانية إشاره إلى اختلاط الحق والباطل في المجتمع بحيث يصعب تمييز الحق من الباطل. جدير بالذكر أنّ كل ما تتبّأ به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الروايه وأخبر به أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام وقع دون أدنى زياده أو نقصان.

فقد ألب عثمان وبطانته الأئمة عليهم لظلمهم حتى قتل عثمان واندفعت عقب ذلك فنه من بنى أميه لتستغل الأحداث السياسيّه لصالحها وارتفعت حده الخلافات بين

ص: ٢٤٤

١- (١) سنن أبي داود، ج ٤، ح ٤٢٥٢

٢- (٢). «يموجون» من ماده (موج) بمعنى الحركة، كما تستعمل بمعنى الاضطراب والحيره والكنايه

٣- (٣). «يمرجون» من ماده (ورج) على وزن فلج، بمعنى الاختلاط أو البعث والترك، ولما كان الاختلاط وترك الشىء يؤدى إلى الفساد، فإنّ هذه المفردة تستعمل بمعنى الفساد

٤- (٤). يفهم من بعض كلمات شراح نهج البلاغه أنّ هذه العبارة جزء من حديث النبي صلى الله عليه وآله لكن بالنظر إلى أنّ الحديث المذكور ورد في بعض المصادر المعروفه (كسنن أبي داود) دون ذيلها، فالذى يستفاد أنّ حديث النبي صلى الله عليه وآله ينتهى بالعبارة (إلى يوم القيامة)

الناس حتى تعذر تمييز الحق من الباطل وسفكت تلك الدماء الغزيره، ثم امتدت تلك الاضطرابات لقرون. راجع المزيد بشأن عوامل القيام ضد عثمان الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب (١).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أهم عنصر يقف وراء انحراف عثمان - والذي جرّ عليه كل تلك الويلات - والمقصود من طاعته العمياء لمروان، فقال عليه السلام:

«فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّفَهُ (٢) يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ (٣) السِّنِّ وَتَقْضَى الْعُمْرِ».

ورد في التاريخ أنّ عمر عثمان كان آنذاك ٨٢ سنة (٤). لا شك أنّه كان لمروان الدور الأساسي في حكمه عثمان بحيث كان سير الأمور حسب رغباته، وحتى حين استمع عثمان لنصائح الإمام عليه السلام وعزم على الاعتذار من الأمه، اعترضه مروان بشده وحال دون إصلاحه لأخطائه، والواقع أنّه صب الزيت على فتيل النار التي أوقدها الناس حتى طال حياه عثمان، وربما كان ذلك يستند إلى خطه تمكنه أو تمكن معاويه من استلام زمام الأمور بعد عثمان.

فلما بلغ الإمام عليه السلام هذا الموضوع من كلامه استجاب له عثمان وتأثر شديداً:

«فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلِمَ النَّاسِ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَطَايِمِهِمْ».

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ». إشاره إلى أنّ المهله في هذه الحالات الحاده قد تقود إلى ثوره عارمه فلا معنى لهذه المهله، إضافه إلى أنّ المهله إنّما تهدف إلى إعداد المقدمات، وإعادة حقوق الناس لا تحتاج إلى أى مقدمات، فما كان في المدينة لابد من إصدار الأوامر بشأنه فوراً

ص: ٢٤٥

١- (١) نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٤٤ علل القيام ضد عثمان، ج ٢، ص ١٥٢ عوامل قتل عثمان وكذلك الجزء الثاني بعنوان الأعمال التي مارسها عثمان ودعت إلى الغضب العارم

٢- (٢) «سيفه» على وزن (سيده) صفة مشبهه من ماده سوق، على وزن فوق، بمعنى ما يستاق من الدواب إلى هذا الجانب أو ذاك، وتعنى أحياناً ما يستاقه العدو من الحيوانات

٣- (٣) «جلال» بمعنى الكبر، وجلال السن، بمعنى السن الرفيعه

٤- (٤). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٤١ وهنالک أقوال أخرى في سن عثمان آنذاك وأغلبها ترى أنّ عمره كان ٨٢ سنة

فيؤخذ من الظلمه ويسلم إلى المظلومين، وما كان في المناطق البعيده فلايبد من الإسراع في انتزاعه. ولعل العبارة المذكوره إشاره إلى هذه النقطة في أنّ الساسه حين يواجهون أزمه إنّما يلجأون إلى التسوييف بغيه الهروب من المسؤوليه ويطلبون من الطرف المقابل مهله زمنيّه على أمل امتصاص نغمه الغضب وتوجيه ضربه مهلكه إلى الطرف الآخر، فما كان من الإمام عليه السلام إلّا أنّ سد عليه الأبواب كافه واختلاق الذرائع. صرّحت كتب التاريخ بأنّ عثمان استجاب للإمام عليه السلام لكنه استمهّل الإمام عليه السلام ثلاثه أيام بالنسبه للمدينه. فوافقه الإمام عليه السلام وخرج من عند عثمان وأخير الناس وكتب العهد على عثمان ومهله الثلاثه أيام لإعاده الحقوق المهضومه وعزل الولاه الظلمه الذين نغم منهم الناس. وقد أشهد على العهد طائفه من المهاجرين والأنصار، فانسحب الناس على أمل وفاء عثمان بالعهد بينما أراد عثمان خلال الأيام الثلاثه جمع العده والعدد وتجهيز الجيش، فلما مضت المهله شعر الناس بعدم الوفاء بالعهد فثاروا على عثمان، حتى انتهى الأمر إلى قتل عثمان، جدير بالذكر أنّ كل ما ذكرناه أوردّه الطبري في تاريخه(١).

أضواء على حادثه قتل عثمان

أشرنا في الأجزاء السابقه من هذا الكتاب إلى الأحداث التي رافقت مقتل عثمان، ونود هنا أن نشير إلى بعض الأمور، ومنها:

١. لا- شك في أنّ قتل عثمان حادثه مفجعه، ذلك لأنّها انعكست سلباً على المسلمين، وكما ورد في الروايه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّ قتل عثمان أدّى إلى تصاعد الخلافات بين المسلمين وسفك المزيد من الدماء، رغم أنّ المقصر الأصلي في هذه الحادثه شخص عثمان وبطانته وقرابته الذين أخرجوا الحكومه من إطارها المتعارف وأشاعوا في المجتمع معاني الظلم والجور إلى جانب الفساد والانحراف.

ص: ٢٤٦

٢. جدير ذكره أنّ هذه الحادثة وقعت في المدينة أمام الصحابه من المهاجرين والأنصار ولم يهبوا للدفاع عن عثمان، وكانّهم راضون عن حركة الناس ضد عثمان، بل حسبما ورد في تاريخ الطبرى أنّ جماعه من الصحابه كتبوا لبعضهم إنّ الجهاد حقاً في المدينة لا في الروم (لأنّ الحكومه الإسلاميه اندفعت نحو الفساد وإصلاحها مقدم على كل شىء). أمّا الشخص الوحيد الذى وقف إلى جانب عثمان وحال دونه فهو أمير المؤمنين عليه السلام والذى أمر ولديه بالدفاع عنه، لأنّه كان يعلم بالآثار السلبيه التى تترتب على قتل عثمان وإن كانت حركة الأُمّه عنيفه ولم تنجح تدابير الإمام عليه السلام فى الحيلولة دون وقوعها.

٣. تقدم الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره وقبل تصاعد حده الاعتراض بإسداء النصيح والإرشاد المشفق لعثمان وحذره بشدّه بضروره الكفّ عن مواصله ذلك الأسلوب وتلافى ما فرط منه، ووعد هو من جانبه بالعمل بذلك، لكنه إمّا أن يكون رفض أو منعتة حاشيته من الإستجابه. والذى يستفاد من بعض المصادر التاريخيه أنّه لم يكن مستعداً بفعل تعصبه الشديد لقرابته أن يعترف صراحه بما فرط منه، حيث قال بعد نصيح الإمام: لم أرتكب خلافاً، فقد وصلت رحمى (فالأموال التى أنفقتها على قرابتي من باب صله الرحم) وأغنيت الفقراء وآويت المحتاجين واستعملت مثل من استعمل عمر وولاه. فرد الإمام عليه السلام إنّ عمر كان يعاقب بشدّه من يرتكب الخلاف ممّن ولاه من عمّاله، لكنك ضعيف، أمّا قرابتك وولاتك فلا تكثرث لما يرتكبون من أخطاء(١).

والعجيب أنّ عثمان صعد المنبر بعد هذه الأحداث ليحدث الناس بأنّ لكل شىء آفه وآفه هذه الأُمّه أهل الغيبه الذين يتكلّمون بما لا يعلمون والأُمّه تلهث خلفهم، وإنّكم لتعيون علىّ بعض الأمور التى كنتم ترضونها لعمر، لغضتته عليكم، على العكس من مداراتى لكم وإن شئت لأشرت على رجالى، فلا تفعلوا ما يدعونى إلى

ص: ٢٤٧

النقمة عليكم، فاسكتوا ولا- تطعنوا في ولايتي. وهنا انبرى مروان ليصرخ: أيها الناس إن شئتم جعلنا السيف حكماً بينا وبينكم. فغضب عثمان وأسكته وقال له دعني اكلم أصحابي، ألم أوصيك بعدم الكلام؟ فصمت مروان ونزل عثمان من المنبر(١).

وهذه العبارات تفيد أنّ عثمان إمّا كان جاهلاً بالأوضاع! أو أنّه كان يثق بقرابته وبطائته بحيث كان يرى ظلمهم وجورهم عين العدالة والقسط! فكان أسيراً بيدهم بحيث لم يستطع تغيير مسار الأحداث(٢).

ص: ٢٤٨

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٦٥

٢- (٢) راجع بشأن قتل عثمان وأسباب القيام عليه وأعماله التي جعلت العامه تنقم عليه الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب في الصفحات التي ذكرتها سابقاً

يَذْكُرُ فِيهَا عَجِيبَ خَلْقِهِ الطَّائُوسِ (١)

نظرة إلى الخطبه

يمكن تقسيم هذه الخطبه إلى أربعة أقسام:

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى العجائب والغرائب التي تكتنف المخلوقات ولا سيما الطيور ليستدل عن هذا الطريق على وجود الله والإيمان به. ويركز في القسم الثاني على خلق الطاووس من بين الطيور وأسرار خلقته ليشير إلى تفاصيل لطيفه ودقيقه عن هذا المخلوق، كما يرد على بعض الخرافات والأوهام الواردة بشأنه.

ويختتم هذا الكلام بالإشارة إلى نقطه وتتمثل بعجز العقول عن وصف مخلوقات

ص: ٢٤٩

١- (١) سند الخطبه: روى الزمخشري من أعلام القرن السادس بعض هذه الخطبه في كتابه «ربيع الأبرار» حيث نقل أغلب كلمات الإمام عليه السلام باختلاف بحيث يفهم أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه، ورغم أنه عاش بعد الشريف الرضى لكن من المستبعد أن يستند إلى كتب الشيعة لموقفه المعادى لهم، وفسر ابن اثير بعض مفردات هذه الخطبه في كتابه (النهايه)، ويفهم من عباراته أنه اقتبسها من مصدر آخر، ذلك لأنه ذكر كلمات لم ترد في الخطبه التي رواها السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٠٠)

اللّٰه فأنّى لها بوصف الخالق العظيم؟ كما تطرق فى القسم الثالث إلى عجائب خلق الديدان الصغیره وكشف عن عجائب خلق النمل لیستدل من خلال ذلك على توحيد اللّٰه تعالى. أمّا القسم الرابع والأخیر فقد خاض فى جانب من أوصاف الجنّه بما يجعل السامع يعيش لهفه الشوق إليها، وعلى هذا الأساس یربط بین المبدأ والمعاد ليعرض صورته واضحة متكامله فى بحث العقائد.

ص: ٢٥٠

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ؛ وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنِيعِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَيِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَالُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُورِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَحَادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا وَرَوَاسِي أَعْلَامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتِ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَيِّرَفَةٍ فِي زَمَامِ التَّسْيِيرِ، وَمُرْفَرَفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُتَنَفِّسِ، وَالْفَضَاءِ الْمُتَفَرِّجِ. كَوْنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُورِ ظَاهِرِهِ، وَرَكَّبَهَا فِي حَقَاقِ مَفَاصِلِ مُخْتَجِبِهِ، وَمَنَعَ بَعْضُهَا بَعْضًا بِعَبَالِهِ خَلْقَهُ أَنْ يَسِيْمُوا فِي الْهَوَاءِ حُفُوفًا، وَجَعَلَهُ يَدْفُ دَفِيفًا وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنِيعِهِ. فَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي قَالِبِ لُونٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لُونٍ مَا غَمَسَ فِيهِ؛ وَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي لُونٍ صَبِغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صَبِغَ بِهِ.

الشرح والتفسير: خلق الطيور

إن معرفة الله من أهم أصولنا العقائديه والتي يستند جانب كبير منها إلى القرآن الكريم، وهذا هو الهدف من الخطبه. ومما لا شك فيه أن أعمال الإنسان وسلوكه إنما يتوقف على تلك المعرفة ومدى رسوخ دعائمه. فقد بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عجائب الخلقه التي تعكس وجود الله وعلمه المطلق وقدرته التامه، سيما أن الإمام عليه السلام يصطحبنا إلى عالم الطيور ويكشف لنا النقاب عن أسرار تلك الخلقه. ومن

ثم يتطرق إلى الطاووس ليكشف عجب صنعه بما يحير العقول ويسوق الإنسان إلى حمد الله والثناء عليه وتسيحه وتقديسه، فقال:

«ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانَ وَمَيَوَاتٍ، وَسَيَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ». المراد من الموات، الجوامد كالأرض والسماء والنجوم والشمس والقمر، وبعضها ساكنه والأخرى متحركة (وإن كان هنالك رأى بحركتها جميعاً). والمراد من الابداع، الخلق من غير مثال مسبق، وهذا موضوع في غاية الأهميه، ذلك لأن جميع ما سوى الله إنما يحتذى الأمثله المسبقه في تصويره وصنعه وابداعه. ثم خاض في شرح هذا الكلام فقال:

«وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صِنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَيِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ (١) فِي أَسْمَاعِنَا دَلَالَتُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ». حقاً أن الإنسان لو تعرّف على العلوم الطبيعيه وخاض في دراسته عجائب خلقه موجودات العالم لانطلق نحو الله تبارك وتعالى.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى جانب خاص من غرائب وعجائب العالم - الملى بالأسرار واللطائف - ليتحدث عن عالم الطيور ويشرح أسرارها، فقال:

«وَمَا ذَرَأَ (٢) مِنْ مُخْتَلِفِ صُورِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَشْكَنَهَا أَخَادِيدَ (٣) الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ (٤) فِجَاجِهَا (٥) وَرَوَاسِي (٦) أَعْلَامِهَا (٧)» (٨).

ص: ٢٥٢

١- (١). «نعتت» من ماده (نعتق) على وزن برق، تعنى فى الأصل صوت الغراب، ثم أُطلقت على الأصوات التى تقال لأمر الحيوانات ونهيتها عن الحركه

٢- (٢). «ذراً» من ماده (ذراً) على وزن زرع، الخلق والإيجاد

٣- (٣). «أخاديد» جمع (أخدود) الشق الواسع والعميق فى الأرض ويطلق على الوادى

٤- (٤) «خروق» جمع (خرق) على وزن زرع، الصحراء الواسعه، كما تعنى الشقوق

٥- (٥) «فجاجها» جمع (فج) على وزن حج، الطريق الواسع، وتعنى فى الأصل الوديان الواسعه بين الجبال التى كانت تجتازها القوافل

٦- (٦) «رواسى» جمع (راسيه) تعنى الثابت والراسخ، ولذلك تطلق على الجبل

٧- (٧) «أعلام» جمع (علم) على وزن قلم، بمعنى العلامه وتطلق على القمم والجبال

٨- (٨) احتمال البعض بشأن إعراب ما ذراً أنها عطف على (ما انقادت)، كما قالوا إنها معطوفه على الضمير فى دلالة أو كلمه دلالة، ولا يبدو هذا الاحتمال مستبعداً أنها مبتدأ لخبر محذوف وتقدير الجملة وما ذراً... من آثار صنعه وعظمته

هذا أول تنوع لخلق الطيور من حيث موضع سكنها، فبعضها كالبوم تلجأ إلى شقوق الأرض وتخرج عند الظلام، كما يسكن البعض في الوديان كالفاخته والبعض الآخر في سفوح الجبال كالنسر والعقاب، وقد أمد الله تعالى كلاً منها بما يتطلبه في حياته. طبعاً ما ذكره الإمام عليه السلام في العبارات المذكورة يقتصر على نماذج من الحيوانات البحرية والأهليه الأليفه من قبيل الطيور التي تعيش في الغابات والأعشاش والصحارى ولكل عجائبه وغرائبه التي تحير عقل الإنسان. فما ذكره الإمام عليه السلام تصنيف للطيور على أساس سكنها.

ثم أشار إلى تصنيف آخر - على أساس نوع الطيران والأجنحه - فقال:

«مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَيَّرَفَةٍ (١) فِي زِمَامِ التَّشْخِيرِ، وَمُرْفَرَفَةٍ (٢) بِأَجْنِحَتَيْهَا فِي مَخَارِقِ (٣) الْجَوِّ الْمُتَفْسِحِ (٤)، وَالْفَضَاءِ الْمُتَفَرِّجِ». وهو ما أشير إليه في القرآن بعده آيات مثل: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (٥).

ثم خاض الإمام عليه السلام في تصنيف ثالث ورابع للطيور فمنها ما لها أشكال مختلفه وطيور ثقيله الوزن تعجز عن الطيران وأخرى خفيفه تحلق إلى عنان السماء فقال:

«كَوْنَهَا بَعِيدٍ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُورِ ظَاهِرِهِ، وَرَكْبَتَيْهَا فِي حِقَاقِ (٦) مَفَاصِلَ مُحْتَجِبِهِ، وَمَنْعَ بَعْضَهَا بِعِبَالِهِ (٧) خَلَقَهُ أَنْ يَشْمُوَ فِي الْهُوَاءِ خُفُوفًا (٨)، وَجَعَلَهُ يَدْفُ

ص: ٢٥٣

- ١- (١). «مصرفه» من ماده (صرف) على وزن حرف، بمعنى التغيير وتأتى معرفه بمعنى الأشكال المختلفه
- ٢- (٢) «مرفرفه» من ماده (ررفه) بمعنى الجناح، وبسطه، كما وردت بمعنى القماش الجميل والملون، والمعنى الأول هو المراد فى العبارة
- ٣- (٣). «مخارق» جمع (مخرق) على وزن مشرب، الفلاه والصحراء الشاسعه
- ٤- (٤) «منفسح» من ماده (فسح) على وزن مسح، بمعنى الوسيع
- ٥- (٥) سورة النحل، الآية ٧٩
- ٦- (٦). «حقاق» جمع (حق) على وزن، حب، مجتمع المفصلين
- ٧- (٧). «عباله» بمعنى الثقل والضخامه
- ٨- (٨) «خفوف» السرعة والخفه التي تكون غالباً لازماً وملزوماً

دَفِيْفًا(١)». نعم؛ فأشكال الطيور على درجه من الاختلاف بما يذهل تنوعها عقل الإنسان، فبعضها غايه فى الجمال بما لا تشيع العين من رؤيته، والبعض الآخر له شكل مخيف غالباً ما يفرع الإنسان من مشاهدته، وبعضها ذات أقدام طويله وكأن أجسامها حملت على عمودين (كالنعامة والقلق) والأخرى قصيره لا ترى إلّا بصعوبه، ومنها الطيور ذات الجثه الضخمه والأخرى النحيفه، كما تختلف مع بعضها فى الطيران فبعضها لا تستطيع الطيران لكنها تبسط جناحيها وتنطلق بسرعه، وتحلق الأخرى إلى ارتفاعات منخفضة فتنهض من الأرض كنهوض الطائر، أما البعض الآخر فيرتفع سريعاً من الأرض ويحلق فى عنان السماء مستفيداً من دفع أقدامه بالإضافة إلى الإستعانه بأجنحته (كحركه المروحيات)، وتبقى بعض الطيور محلقة فى السماء لأسابيع دون أن تشعر بالتعب والملل، كالطيور المهاجره التى تقطع أحياناً نصف الكره الأرضيه وتتغذى على ما تدخره من مواد غذائيه. جدير بالذكر أن بعض الطيور ذات الأجنحه المنبسطة والبدن الخفيف تستغنى عن بسط جناحيها حين تبلغ ذروه التحليق وعلى العكس من ذلك الطيور ذات الجثه الثقيله والتى لا- غنى لها عن الأجنحه مهما حلقت. حقاً أن الإنسان كلما تأمل هذه الأنواع تعرّف أكثر على عظمه الخالق وعلمه المطلق وإرادته التامه.

وأشار عليه السلام فى المرحله الرابعه إلى تنوع ألوان الطيور والذى يكشف أيضاً عن جانب من العجائب فقال:

«وَنَسَقَهَا (٢) عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِغِ (٣) بِلطيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صِنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ (٤) فِي قَالِبٍ (٥) لَوْنٍ لَمَّا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنٍ مَا غَمِسَ فِيهِ؛

ص: ٢٥٤

١- (١) «دفيف» بسط الجناح و لما كانت الطيور تبسط اجنحتها قرب سطح الأرض فإن هذه المفرده تطلق على مرور الطائر فوق الأرض.

٢- (٢) «نسقتها» من ماده (نسق) على وزن غسق، الترتيب سواء فى الصفوف أو العبارات و الكلمات و غيرها.

٣- (٣) «أصايغ» جمع اصباغ، و اصباغ جمع صبغ، على وزن فعل اللون.

٤- (٤) «مغموس» من ماده (غمس) على وزن لمس، غمر الشىء فى الماء، و قد شبه الإمام لون الطيور و كأنها مرتبه فى قالب من اللون فأخرجت بهذا الشكل.

٥- (٥) «قالب» على وزن فالج، ما يصب فيه الفلز ليظهر بالشكل المطلوب

وَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي لَوْنٍ صَبِغٌ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافٍ مَا صُبِغَ بِهِ». فتنوع ألوان الطيور هو الآخر من العجائب. وقد قام البعض بإنشاء حديقة كبيرة في بعض المناطق تدعى حديقة الطيور فضمت مختلف أنواع الطيور وتعيش ظروفًا كالظروف الطبيعيه للحياه مع فارق بسيط هي أنها أحيطت بسياج كبير بغيه المحافظه عليها، والحق أن كل من يتأمل ألوانها المتنوعه ليسحره منظرها الخلاب فيخيل إليه أن رساماً ماهراً جلس لأيام يخط هذه الألوان، فلا يملك الناظر سوى التوجه إلى الله بالحمد والثناء والتسبيح والتقديس.

تأمل: عجائب عالم الطيور

إنّ النظر إلى طائر جميل والإبداع في بنيه جناحه وبالتالي خلقه يجعل الإنسان مستغرقاً في التوحيد، فما ظنك لو قطعنا هذه الرحله الطويله في عالم الطيور والتي تتطلب سنوات عديده. لقد ألف العلماء العديد من الكتب بشأن الأسرار المودعه في الطيور ومختلف أنواعها وأقسامها بما فيها الطيور البريه والبحريه والمهاجره وغير المهاجره، ولا يسع البحث لاستيعاب زاويه منها ولذلك نقتصر على الإشاره إلى جانب منها، فمما قاله العلماء:

١. هنالك حوالي أربعه عشر ألف نوع من الطيور في الكره الأرضيه وقد دفع اختلافها العلماء إلى تصنيفها إلى عدّه فصائل، وبالطبع فإنّ لكل فصيله آلاف المصاديق في الخارج، ولا يخفى أنّ هنالك الآلاف المؤلفه أيضاً من الطيور في الغابات والوديان التي لم يقف عليها الإنسان لحد الآن.

٢. إنّ بعض الطيور كالنعامه التي تزن حوالي ١٠٠ كيلوغرام وتستطيع بأرجلها الطويله أن تسير بسرعه ٩٥ كيلومتر بالساعه، وهنالك الطيور الخفيفه الصغيره التي لا يتجاوز وزنها بضعه كيلو غرامات، وربّما لا تقل سرعه طيرانها عن سرعه سير النعامه.

٣. إنَّ خلقه كل طير متناسب مع بيئته وظروفه المحيطه وأوضاعه المعاشيه، فلبعضها منقار طويل وحاد يتمكن من صيد الأسماك، ولبعضها منقار قصير ومخروطى يستطيع كسر البذور النباتيه، كما هنالك المنقار النحيف والحاد الذى يمتص رحيق الأزهار، وأخيراً المنقار الذى يشبه السله ويتمكن من صيد عدد من الأسماك والاحتفاظ بها.

٤. ليس لأى من الطيور أسنان لكنها تطحن الطعام وتمتصه فى أوعيتها الصلبه.

٥. الطيور بيوضه عاده تنام على بيضها لأنيام لتفقس عن أفراخ، طبعاً الأنثى هى التى تنام عليها، كما يتناوب معها الذكر أحياناً، وأحياناً يحبس الذكر انثاه فى عش ولا يسمح لها بالخروج ولا يدع سوى فتحه صغيره فى العش ليوصل إليها ما تحتاج من غذاء.

٦. بدن الطيور خفيف للغاية مستعد للطيران وهو ملىء بالغضاريف والغدد التى تساعدها على الطيران.

٧. لطيور الماء ويقصد بها الطيور العائمه فى المياه وسواحل البحار برامج عجيبه فأحياناً تستهدف طعامها تحت الماء من خلال اكتشافه بجهاز يشبه الرادار فتغوص فى الماء لتحصل عليه وبالطبع فإنَّ جسمها دهنى لا يسمح بنفوذ الماء إلى داخلها.

٨. ألوان الطيور من عجائب الخلقه، فهناك بعض الطيور الجميله التى تخطف الأبصار وتشرح القلوب حتى يظن الناظر أنها رسمت بريشه فان عبقرى (وهذا من أبداع أمور الخليقه التى ركز عليها الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره) ولا يدرك الإنسان هذه العظمه دون النظر والتأمل.

٩. أعشاش الطيور هى الأخرى متنوعه وعجيبه، ورغم أنها لا تمتلك الأيدى إلّا أنها تصنع أعشاشها وتبنيها بدقه متناهيه، فهناك طائر يسمى (الخياط) يقوم بصنع عشه من خلال خياطته لأوراق الأشجار حيث يستعين بمنقاره كأبره وخيوطه ألياف النباتات.

١٠. طيور الصيد لها أرجل وأجنحة قوية كالعقاب والغراب ولها رؤيه حاده وقويه بحيث ترى حتى الحشرات الصغيره فى الأرض وهى على ارتفاعات فى السماء، وبعضها على درجه من الضخامه بحيث يمكنها التقاط شاه وحملها معها.

١١. وللطيور المهاجره عالم غريب وعجيب فهى تنطلق أحياناً من خط الإستواء نحو المناطق القطبيه وبالعكس فتقطع أكثر من عشره آلاف كيلومتر دون أن تضل طريقها، فهى تحلق لأيام وليالٍ دون تعب وتعكف قبل الهجره غريزتهاً على جمع المواد الغذائيه لتستفيد منها طيله مدّه الهجره.

١٢. للطيور مقاومه شديده لدرجات الحراره والبروده فهى صامده حتى فى درجه تحت الصفر، وحراره جسمها أعلى من درجه حراره جسم الإنسان وتصل إلى ٤٥ درجه فوق الصفر(١).

١٣. خدمات الطيور للإنسان كثيره، فطعام أغلب هذه الطيور من الحشرات، وطيور الصيد تحول دون مضاعفه نسل الطيور الأخرى، وهنالك الطيور التى تتغذى على الميتة فتطهر سواحل البحار وسطح الأرض كما تلعب دوراً فى القضاء على الآفات.

١٤. نقل شارح نهج البلاغه عن كتاب روبرت لمن

«كل شىء عن الطيور» والذى ترجمه الدكتور بدران، أنّ البعض يعتقد أنّ على وجه الأرض أكثر من مئه مليار طير أكبرها النعامه التى يبلغ طولها مترين ونصف... وأصغرها الطنان وطوله خمسه سانتى مترات، وتحلق بسرعه حيث تبلغ سرعتها أكثر من تسعين كيلومتر بالساعه وتستطيع الوقوف مدّه طويله فى الجوى، وتبلغ خطوه بعض الطيور أكثر من سته أمتار. وتحلق بعض الطيور إلى سته آلاف متر فى الهواء بينما تغطس بعضها إلى

ص: ٢٥٧

عمق ١٨ متر(١). وزبده الكلام فإنا لإنسان لا يملك إن تأمل هذا الخلق العجيب سوى الركون لله والإستسلام لقدرته المطلقة
وصنعه العجيب.

ص: ٢٥٨

١- (١). فى ضلال نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٦٧

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقًا الطَّائُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَحَ قَصِيْبَهُ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ.

إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيْهِ، وَسَمَّا بِهِ مُطَلًّا عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوثِيَهُ.

يَخْتَالُ بِالْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيْفَانِهِ. يُفْضِي كَأَفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيُورُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُعْتَلِمَةِ لِلضَّرَابِ. أُحِيلَكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنِهِ، لَأَكْمَنُ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْتِنَادُهُ. وَلَوْ كَانَ كَزَعَمٍ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْفِحُ بِدَمْعِهِ تَشْفِيحَهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي صَفْتِي جُفُونِهِ، وَأَنَّ أَنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَأَمِنْ لِقَاحٍ فَحَلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُتَبَجِّسِ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ.

الشرح والتفسير: أعجب طير في العالم

بعد أن تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبة إلى عجائب عالم الطيور أشار هنا بالخصوص إلى أعجب وأجمل طيور الدنيا ألا وهو (الطاووس) الذي يضرب به المثل في الجمال حتى يستفاد من ريشه الجميل كعلامة للوصول إلى آية معينه في القرآن وصنع المكناس لنكت الغبار عن الأضرحة المقدّسه، حيث أشار الإمام عليه السلام الى بعض خصائص هذا الطائر فقال:

«وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقًا الطَّائُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ (١) أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ

ص: ٢٥٩

١- (١). «نضد» من ماده (تنضيد) بمعنى نظم الأشياء وترتيبها مع بعضها

أَشْرَحَ (١) قَصْبَهُ (٢) ، وَذَنَبٌ أَطَالَ مَسْحَبَهُ (٣) .

الشيء الأول الذى يلفت الانتباه فى الطاووس، الألوان الرائعة العجيبه لأجنحته وذيله الطويل نسبياً حيث يخط وراءه عندما يمشى ويتبختر كأنه العروس الجميله فى ليله زفافها. حقاً لا- يمكن وصف ألوان الطاووس بأى شكل من الأشكال، سوى أن يقف الإنسان مذهولاً أمام عظمه الخالق ويشاهد ويتمتع بهذا الطائر اللطيف. ما يجدر ذكره فى عالم الحيوانات أن الذكر يستغل مختلف الطرق بغيه جلب انتباه الأنثى له، فأحياناً عن طريق الصوت العذب وأخرى، الحركات الموزونه وبعض الحركات الأخرى، كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطه المهمه فقال:

«إِذَا دَرَجَ (٤) إِلَى الْمَأْتَى نَشَرَهُ مِنْ طَيْهِ (٥) ، وَسَيَّمَا بِهِ مُطَلًّا (٦) عَلَى رَأْسِهِ». حقا أن بسط الطاووس لجناحه لمن أروع المناظر ويعكس حاله من النسق والنظام الرائع.

ثم أورد الإمام عليه السلام تشبيها لذلك فقال:

«كَأَنَّهُ قَلْعٌ (٧) دَارِيٌّ (٨) عَنَجُهُ (٩) نُوتِيَّةٌ (١٠)». ربّما

ص: ٢٦٠

- ١- (١) «أشراج» من ماده (أشراج) بمعنى خلط الأشياء مع بعضها أو إدخال الجبال والخيوط بكيس أو صندوق مع بعضها وإحكام غلقها
- ٢- (٢) «قصب» بمعنى ساق النبات الأجوف
- ٣- (٣) «مسحب» من ماده (سحب) على وزن (سهو) السحب على الأرض، وله هنا معنى المصدر أو اسم المصدر
- ٤- (٤) «درج» من ماده (درج) على وزن خرج، المشى إلى موضع معين أو صعود السلم، والمعنى الأول هو المراد فى عبارته الخطبه، كما يطلق على حركة الطفل البطينه
- ٥- (٥) «طى» بمعنى اللوى من طيه، وفى الخطبه بمعنى بعد طيه، إشاره إلى أن الطاووس يفتح جناحيه المركبين
- ٦- (٦) «مطل» من ماده (طل) على وزن حل، بمعنى المشرف والنظر من الأعلى والمعنى الأول هو المراد فى العبارة
- ٧- (٧) «قلع» شراع السفينه
- ٨- (٨) «دارى» ينسب إلى (دارين) فى البحرين مركز تجاره المسك ومفهوم العبارة أن الطاووس ينشر مظلته كأنه شراع السفينه التى تجلب العطر من دارين
- ٩- (٩) «عنج» من ماده (عنج) على وزن رنج، السحب والغلق
- ١٠- (١٠) «نوتى» ربان السفينه من ماده (نوت) على وزن فوت الحركة هنا وهناك واطلاق هذه المفرده على الربان لأنه يحرك السفينه كيفما يشاء

كان هذا التشبيه لأنَّ حركة الشراع نحو المقصد تمنح السفينه جمالاً خاصاً، الطاووس أيضاً عند حركته وفتح لمظلته يجلب انتباه الآخرين لجماله وروعته.

ثم قال عليه السلام:

«يَخْتَالُ (١) بِالْوَانِهِ، وَيَمِيسُ (٢) بَرِيفَانِهِ (٣). يُفْضَى (٤) كَافْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيُؤْرُ (٥) بِمَلَاقِحِهِ (٦) أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ (٧) لِلضَّرَابِ (٨)». الواقع أنَّ هذا الكلام مقدمه لابطال بعض خرافات عامه الناس بشأن هذا الطائر (ويالها من خرافات كثيره يحيكها العوام بشأن عجائب الحيوانات) لذلك قال:

«أَحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايِنَتِهِ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَلَوْ كَانَ كَرَعَمٌ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعِهِ تَشْفِيحَهَا (٩) مَدَامِعُهُ (١٠)، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتِي (١١) جُفُونِهِ (١٢)، وَأَنَّ أَنْشَاءُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَأَمِنْ لِقَاحٍ فَخَلَّ سِوَى الدَّمْعِ الْمُتَبَجِّسِ (١٣)، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ (١٤) الْغَرَابِ». إشاره إلى عدم التعجب من هذه الخرافه التي قيلت بشأن الطاووس، فقد قيل الأعبج من ذلك بشأن الغراب، أنه ليس هنالك من جماع لدى الغراب بل إنَّ أراد لأنشاء الحمل يضع منقاره في منقارها وينقل إليها مقداراً من الماء من القامصه الذكريه فتحمل، وهو كلام باطل ولقد شوهد الجماع كراراً لدى الغراب، وإن سعى إلى الإبتعاد عن

ص: ٢٤١

١- (١). «يختال» من ماده (اختيال) بمعنى التكبر والغرور الذى يظهر عاده من الخيال الفارغ

٢- (٢) «يميس» من ماده (ميس) على وزن حيث الحركة والغرور

٣- (٣) «زيفان» المشى المتبختر تأكيد لعباره يميس

٤- (٤) «يفضى» من ماده (افضاء) كناية عن اللقاح وتعنى فى الأصل التوسعه

٥- (٥). «يؤر» من ماده (أر) على وزن شر، الجماع واللقاح

٦- (٦) «ملاقح» جمع ملقحه، من ماده (اللقاح)، الآله التناسليه وتعنى الحمل

٧- (٧) «مغتلمه» من ماده (غلمه) على وزن لقمه، شده الشهوه، وفحول مغتلمه بعض الحيوانات التى تندفع من شبقيه الشهوه

٨- (٨) «الضراب» لقاح الفحل لأنشاء

٩- (٩). «تسفع» من ماده (سفع) على وزن محو، نبع الدموع والسفاح، سفك الدم

١٠- (١٠). «مدامع» جمع مدمع، على وزن منبر، مجرى الدمع

١١- (١١) «ضفه» ساحل النهر أو البحر، حيث شبه الأجفان بجانبى النهر

١٢- (١٢) «جفون» جمع جفن، معروفه فى العين

١٣- (١٣). «منبجس» من ماده (انبجاس) وأصله بيجس على وزن نحس، نبع الماء بصوره رقيقه وشفافه

١٤- (١٤) «مطاعمه» من ماده (طعم) بمعنى تناول الطعام مع الآخرين، ومن ثم أطلق على عمل الطيور التي تضع مناقيرها في مناقير الأخرى وكأنّ كل واحد يطعم الآخر

أنظار الناس، وعليه فعملية الجماع لديه خفيه حتى ضرب المثل به لدى العرب ف قيل:

«أخفى من سفاد الغراب» ولعل سبب هذه الخرافة أنّ أغلب الطيور تضع مناقيرها أمام مناقير الطيور الأخرى قبل الجماع وهذا ما جعل البعض يلتبس عليه الأمر. وشبيه ذلك ما قيل في الطاووس من أنّ الأنثى تمتص دمع الذكر قبل الجماع (١).

سؤال: وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ترى من الذى جعل الإمام عليه السلام يتعرض لهذه الخرافة بشأن الطاووس أو الغراب، والحال لو كان الأمر كذلك لكان من عجائب الخلقه وغرائبها؟

والجواب: أنّ الناس لو اتجهوا صوب الخرافات لإثبات العجائب والغرائب لاضطرت الواقعات وسلبت نتائجها المطلوبه. والسؤال الآخر الذى يرد هنا لم يكن فى الحجاز طاووس ليرى الإمام عليه السلام عملية التلقيح فكيف ورد هذا الكلام؟

أجاب ابن أبى الحديد فى شرحه لهذه الخطبه من نهج البلاغه أنّ المدينه وإن خلت من هذا الطائر غير أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه فى الكوفه التى كان يجلب إليها كل شىء بما فيها هدايا وصفايا الملوك، وعليه فليس من العجيب أنّ الإمام عليه السلام شاهد الطاووس وحركاته (٢).

ص: ٢٤٢

١- (١) وعليه فما ذكر جواب القضية الشرطيه «ولو كان...» جملة «لما كان ذلك بأعجب...»

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٧٠

تَخَالَ قَصَبُهُ مِدَارِي مِنْ فَضِّهِ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ، وَشُمُوسِهِ خَالِصِ الْعَقِيَانِ، وَفَلَدِ الزَّبْرِجِدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أُنبِتَتِ
الْمَارِضُ قُلَّتْ: جَنَى جُنَى مِنْ زَهْرِهِ كُذِّلَ رَبِيعٌ. وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمُوشَى الْحَلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ عَضْبِ الْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ
بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفَضِيٍّ وَصِ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ. يَمْشِي مَشَى الْمَرْحِ الْمُخْتَالِ، وَيَنْصِفُ فُحْ ذَنْبَهُ وَجَنَاحِيهِ، فَيَقْفَهُ
ضَاحِكًا لِحِمَالِ سِزْبَالِهِ، وَأَصَابِيعِ وَشَاحِهِ؛ فَإِذَا رَمَى بَبَصِيرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوَلًا بِصَوْتِ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ
تَوْجُعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمُشٌ كَقَوَائِمِ الدَّيْكَهِ الْخِلَاسِيِّهِ. وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ طُثُبِ سَاقِهِ صَيِصِيَهُ خَفِيَّةً.

الشرح والتفسير: صورته رائعة لجناح الطاووس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى عجب خلقه الطاووس من خلال وصف جناحه وريشه الملون الرائع
ليشرح ذلك بعبارات فصيحته بليغة وتشبيهات غايبه في الروعة فقال:

«تَخَالَ قَصَبُهُ (١) مِدَارِي (٢) مِنْ فَضِّهِ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ (٣)، وَشُمُوسِهِ خَالِصِ الْعَقِيَانِ (٤)، وَفَلَدِ (٥) الزَّبْرِجِدِ (٦)».

ص: ٢٤٣

١- (١). «قصب» بمعنى عمود الريش

٢- (٢) «مداري» جمع مدري، على وزن املاء، بمعنى المشط

٣- (٣) «دارت» جمع داره، بمعنى الحلقة أو الهاله لطرف القمر

٤- (٤) «عقيان» بمعنى الذهب

٥- (٥) «فلد» جمع فلده، على وزن بدعه، بمعنى القطعه

٦- (٦) «زبرجد» حجر ثمين للزينة له عدده ألوان وأشهره الأخضر، و من هنا يُشَبَّه كل شيء أخضر اللون جميل بالزبرجد

يعلم كل من رأى ريش الطاووس أن ألوانه خارقه فى الجمال، إلّا أنّ هنا لك لونين يجليان الإنتباه أكثر من غيرهما، هما اللون الأصفر - الذى يلمع كالذهب الخالص، واللون الأخضر الذى يشبه قطعات الزبرجد (ذلك الحجر النفيس الأخضر اللون والذى يستخدم فى الزينه وتاج الملوك) ومن هنا ركز الإمام على هذين اللونين من بين سائر الألوان، والغريب أنّ جميع ريشه الجميل نبت على قصبه بيضاء شبهها الإمام عليه السلام بالفضه. ثم شبه الإمام عليه السلام جناحى الطاووس بغيه زياده التوضيح تارة بالأزهار الربيعيه المتنوعه الألوان وأخرى، بالثياب النفيسه الملونه.

وأخيراً التيجان المرصعه بها، فقال:

«فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أُنبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جَنِيٌّ (١) جُنِيٌّ مِنْ زَهْرِهِ كُلِّ رَيْعٍ». ذكر بعض شراح نهج البلاغه أنه يوجد فى بعض البلدان عشره آلاف نوع من البراعم والزهور ولكل جماله الخاص به.

ثم ذكر الإمام عليه السلام تشبيها آخر وعبارته رائعه فقال:

«وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ (٢) بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشَى (٣) الْحُلَلِ، أَوْ كَمُوتِقٍ (٤) عَصَبِ الْيَمَنِ» والتشبيه الثالث والأخير:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ (٥) ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ (٦) الْمُكَلَّلِ (٧)». فقد كان لقدماء الملوك تيجان مفعمه بالنقوش والألوان ومليئه بالمجوهرات حيث يجعلون المجوهرات على شريط أو يخطونها عليه بخيوط رقيقه ليزينوا بها تيجانهم.

ص: ٢٦٤

١- (١) . «جنى» بمعنى الحصاد، وقيل باقه الزهور

٢- (٢) . «ظاهيته» من ماده (مظاهاه) بمعنى، التشبيه

٣- (٣) . «موشى» بمعنى المنقوش من ماده (وشى)، بمعنى النقش والنميمة أيضاً

٤- (٤) «موتق» بمعنى الجميل والعجيب من ماده انق

٥- (٥) . «فصوص» جمع فص على وزن نص، فص الخاتم

٦- (٦) «لجين» بمعنى الفضه

٧- (٧) «مكلل» ذواتاج من ماده (إكليل)، بمعنى التاج، كما يطلق على ما يزين بالمجوهرات

والقصبات التي تتوسط جناحي الطاووس - كما وردت سابقاً في عباره الإمام عليه السلام - بيضاء كالفضه والريش على جانبيها كالمجوهرات. الواقع، أنّ النقوش الجميله والملونه لا تعدو عاده أحد هذه الأشياء الثلاثة: باقه الورد والملابس والجواهر. وقد استعان الإمام عليه السلام بالتشبيهاث الثلاثة بتلك العبارات الفصيحه البليغه ليجسد جماليه ريش الطاووس.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليخوض في شرح الطاووس من خلال مشيه ونظرته لنفسه فقال:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصِ ذَاتِ الْوَانِ، قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ، يَمْشِي مَشَى الْمَرْحِ (١) الْمُخْتَالِ (٢)، وَيَتَصَفَّحُ ذَنْبَهُ وَجَنَاحَيْهِ، (٣) فَيَقْهَقُهُ ضَاحِكًا لِحِمَالِ سَرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ (٤) وَشَاحِهِ (٥)؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصِيرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا (٦) مُعْوَلًا (٧) بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِعَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوْجِعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمَشٌ (٨) كَقَوَائِمِ الدَّيْكَهِ الْخِلَاسِيِّهِ (٩). وَقَدْ نَجَمَتْ (١٠) مِنْ طُنْبُوبٍ (١١) سَاقِهِ صَيْصِيئَةً (١٢) حَفِيئَةً». فقد أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه لطيفه وهى أنّ الله سبحانه جعل في هذا الطائر بعض نقاط الضعف رغم آيات الجمال، وإذا ما شعر حيناً بالغرور ودفعه ذلك للضحك بالقهقهه فإنه لا يكاد يخفى ألمه إن وقعت عينيه على نقصه. وبالطبع فإنّ هذا نموذج من عالم الخلق الذى حال فيه الحكيم دون الغرور والطغيان الناشئ من الشعور بالقوه حيث جعل قدرًا من الضعف والنقص بغيه التوازن والقضاء على الغرور والغفله. فهنالكَ الكسل والعجز الذى يطارده الشباب والنشاط، والمرض والسقم الذى يتبع الصحه والعافيه،

ص: ٢٤٥

- ١- (١). «مرح» بمعنى سكر النعمه والقدره، من ماده (مرح) على وزن فرح، بمعنى شدّه السرور
- ٢- (٢) «مختال» المتكبر والزاهى بنفسه، من ماده (خيال)
- ٣- (٣) قال الراغب فى المفردات: الثوب ويطلق على مطلق اللباس
- ٤- (٤). «أصايغ» جمع أصباغ، و «أصباغ» جمع صبغ، بمعنى اللون
- ٥- (٥) «وشاح» شريط عريض جميل يلقى على الكتف ويحمل
- ٦- (٦) «زقا» من ماده (زقو) على وزن ضعف، بمعنى الصيام
- ٧- (٧) «معول» بمعنى رفع صوته بالبكاء، وأصله عويل
- ٨- (٨). «حمش» جمع أحمش الشخص أو الشئ النحيف الرجل كما وردت بمعنى اللون الغامق
- ٩- (٩). «الخلاسى» الديك المتولد من دجاجتين هنديه وفارسيه
- ١٠- (١٠) «نجمت» من ماده (نجم) على وزن حجم، بمعنى نبتت
- ١١- (١١) «طنبوب» الإنحراف والإعوجاج
- ١٢- (١٢) «صيصيه» شوكة فى رجل الديك وتعنى أيضاً، المشط الذى يصفف به القماش قبل نسجه

والفقر الذى يجرى خلف الغنى، وإدبار الدنيا الذى يحثّ الخطى نحو إقبالها. نعم هذه إحدى فلسفات المرض والعجز وسائر المحن والويلات.

ص: ٢٦٦

وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزَعُهُ خَضْرَاءُ مُوشَاهُ. وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالْإِبْرِيْقِ، وَمَعْرُزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصَبْعِ الْوَسْمِ الْيَمَانِيِّ، أَوْ كَحَرِيرِهِ مُلْتَبَسِهِ مِرْآةَ ذَاتِ صَمَلٍ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفَعٌ بِمِعْجَرِ أَسِيْحَمٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُحْيَلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيْقِهِ، أَنَّ الْخَضْرَاءَ النَّاصِرَةَ مُمْتَرِجَةٌ بِهِ. وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ حَطُّ كَمْسِدِ تَدَقُّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأَفْحَوَانِ، أَيْضُ يَقُقُّ، فَهُوَ بِيَّاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ. وَقَلَّ صَبْعُ بَنُغٍ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بَقِيسُطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صَمَلِهِ وَبَرِيْقِهِ، وَبَصِيصِ دِيْبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمَبْتُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ.

الشرح والتفسير: صورته دقيقة عن جمال الطاووس

خاض الإمام عليه السلام هنا بعبارات فصيحته بليغه في خمس خصائص أخرى تعكس جمال الطاووس ليذكر من خلالها هذه الجمالية على ضوء مظاهر جمال الله وجلاله، فقال:

«وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ (١) قُنْزَعُهُ (٢) خَضْرَاءُ مُوشَاهُ (٣)». العرف عند العرب، شعيرات طويله تبدأ من أعلى الكتف والرقبة حتى خلف الرأس لتنتهي بين الأذنين فيكون كالتاج وحيث هذا التاج أخضر براق في الطاووس فإنه يمنحه جمالاً يسحر الأبصار ويلفت نظر الإنسان إلى مبدأ هذا الجمال الساحر.

ص: ٢٤٧

١- (١). «العرف» ما على الرأس من شعر

٢- (٢) «قنزعه» الخصله من الشعر

٣- (٣) «موشاه» بمعنى منقوشه

وقال فى الخاصيه الثانيه:

«وَمَخْرُجُ عُنُقِهِ كَالْبَرِيقِ (١) ، وَمَعْرُزُهَا (٢) إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِنْعِ الْوَسْمِ (٣) الِئِمَائِيَّةِ ، أَوْ كَحَرِيرِهِ مُلْبَسَهُ مِرْآةَ ذَاتِ صِقَالٍ (٤)».

وقال فى الثالثه:

«وَكَأَنَّهُ مُتَلَفَعٌ (٥) بِمَعْجَرٍ (٦) أَسْحَمٍ (٧) ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاصِرَةَ مُمْتَرِجَةً بِهِ».

وقال فى الخاصيه الرابعه:

«وَمَعَ فَتْحٍ سَمِعَهُ خَطُّ كَمُسْتَدَقٍّ (٨) الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأَقْحَوَانِ (٩) ، أَيْبُضٌ يَقْقُ (١٠) ، فَهُوَ بِيَّاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ (١١)».

وأخيراً قال فى الخاصيه الخامسه:

«وَقَلَّ صِبْغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ (١٢) ، وَبَصِيصٌ (١٣) دِيْبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ (١٤) ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمُبْثُوثَةِ ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَيْبِيعٍ ، وَلَا شُمُوسٌ قَيْظٍ (١٥)».

إنَّ التمعن فى هذه الخواص الخمس للطاوس إضافه لما ذكر فى مقاطع الخطبه السابقه يكشف من جانب، عن عظمه وقدره المصور الماهر الذى جمع كل هذا الحسن والجمال فى هذا المخلوق وجعله نموذجاً لأنواع الجمال، حيث أدنى وقفه

ص: ٢٤٨

- ١- (١) . «بريق» وقال البعض فيها أن أصلها فارسى (أبريز) الذى يستعمل لغسل اليد أو الفم قبل تناول الطعام أولرش الورد فى الضيافه وقد صنع أنبوبها بانحناء خاص وشكل جميل
- ٢- (٢) «معرز» بمعنى موضع الغرز
- ٣- (٣) «وسمه» لون خاص تخبص به اللحيه والحاجب
- ٤- (٤) «صقال» بمعنى الجلاء
- ٥- (٥) . «متلفع» بمعنى الملفوف، من ماده (لفع) على وزن نفع، الاحاطه وستر جميع الأشياء
- ٦- (٦) «معجر» بمعنى المقنعه والربطه
- ٧- (٧) «اسحم» بمعنى الأسود
- ٨- (٨) . «مستدق» بمعنى النحيف والرقيق، من ماده (دق)، على وزن حق
- ٩- (٩) «الاقحوان» بمعنى البابونج
- ١٠- (١٠) «يقق» بمعنى شديد البياض، من ماده (يقوقه)
- ١١- (١١) «يأتلق» بمعنى يلمع، من ماده (التق)، على وزن دلق
- ١٢- (١٢) . «بريق» بمعنى لمعان، من ماده (برق)

۱۳- (۱۳) «بصيص» بمعنى اللمعان

۱۴- (۱۴) «رونق» بمعنى الحسن، من ماده (رنق)، على وزن فتق

۱۵- (۱۵) «قيظ» بمعنى شده الحراره

عند هذا المخلوق دليل على وجود الخالق سوى لهذا المخلوق البديع لكفى في الوقوف على الخالق العظيم، وكلما أوغل الإنسان أكثر وتعمق أصبح أكثر خضوعاً لخالقه الحكيم ونطق بلسان حاله: يا لك من مخلوق رائع جميل، فما أجمل من خلقك ومنحك كل هذا الجمال. ومن جانب آخر، نقف على مدى عظمه هذا الإمام العظيم بطل التوحيد ومدى دقته في عرض عجائب وجمال عالم الخلق وإرشاده الخلق إلى الخالق، والحق أنّ أحداً لم يستطع أن يتحدث عن جمال هذا الطائر كما تحدث الإمام عليه السلام.

ص: ٢٦٩

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيْشِهِ، وَيَعْرِى مِنْ لِيَّاسِهِ، فَيَسِيْقُ تَتْرَى، وَيَنْبُتُ تِبَاعًا، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاخِقُ نَامِيًا حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لَأِيْخَالِفُ سَالِفَ الْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْْنٌ فِيْ غَيْرِ مَكَانِهِ! وَإِذَا تَصَيَّفَمَحَتْ شَعْرَهُ مِنْ شَعْرَاتِ قَصَبِهِ أَرْتَكَ حُمْرَهُ وَرُدِيَّهٖ، وَتَارَهُ حُضْرَهُ زَبْرَجِدِيَّهٖ، وَأَحْيَانًا صُفْرَهُ عَسْجَدِيَّهٖ، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفِهِ هَذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَضْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ!

وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهٖ، وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسَيَبْحَثُ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقِ جَلَاءِ لِلْعُيُونِ، فَأَذْرَكَهُ مَحْدُودًا مُكَوَّنًا، وَمُؤَلَّفًا مُلَوَّنًا؛ وَأَعْجَزَ الْأَلْسَانَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيهِ نَعْتِهِ!

الشرح والتفسير: حيره العقول فى الوصف

أشار الإمام فى هذا المقطع والذى يمثل ختام الكلام فى الطاووس فى أمرين مهمين؛ الأول قال:

«وَقَدْ يَنْحَسِرُ (١) مِنْ رِيْشِهِ، وَيَعْرِى مِنْ لِيَّاسِهِ، فَيَسِيْقُ تَتْرَى (٢)، وَيَنْبُتُ تِبَاعًا، فَيَنْحَتُّ (٣) مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاخِقُ نَامِيًا حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ».

ص: ٢٧١

١- (١). «ينحسر» يعنى يعرى ويتكشف، من ماده (حسر)، على وزن حشر، بمعنى العرى

٢- (٢) «تترى» من ماده (وتر)، بمعنى الواحد، وتأتى بمعنى الواحد تلو الآخر

٣- (٣). «ينحت» يعنى يتقشر، من ماده (نحت)، على وزن نخت، التقشر

ثم قال:

«لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ!». لا شك في أنّ ريش الطاووس ورغم كل هذا الجمال لكنه قد يتعرض مع مرور الزمان إلى الإتساخ بالتراب والغبار، ومن هنا فإنّ الله تعالى ينزع عنه كل سنه لباسه القديم ويغطي جسمه بلباس جديد وجميل ليبقى غضاً جميلاً على الدوام. غالباً ما تسقط أوراق الأشجار في فصل الخريف ويسلب الطاووس نشاطه وحيويته، وحين تتفتح الأزهار في فصل الربيع تدب الحيويه في الطاووس ويكتسى حله جديده ملونه تجعل قصبه الأبيض الفضى اللون يبدو كسيقان الأشجار.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه لطيفه فقال:

«وَإِذَا تَصَيَّفَتْ شَعْرَةٌ مِنْ شَعْرَاتِ قَصْبِهِ أَرْتَكَ حُمْرَهُ وَرُدِّيَّهُ، وَتَارَهُ خُضْرَهُ زَبْرَجِدِيَّهُ، وَأَخْيَانًا صُفْرَهُ عَسْجِدِيَّهُ (١)». لما كانت على ريش الطاووس دوائر جميله بألوان مختلفه، وكل لون يختص بخصله معينه لتبدو بصوره رائعه.

وأخيراً يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفِهِ هَذَا عَمَائِقُ (٢) الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ (٣) الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ! وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهِيَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ!». نعم؛ إن عجز الإنسان العاقل والمفكر عن الوقوف على عجائب الطاووس وتعذر عليه وصفه وإدراكه فكيف بعالم الخلقه وأسراره؟! وإضافه إلى النتيجة السابقه الواضحه في موضوع معرفه الله وإدراك عظمه الخالق وسعه علمه وقدرته إنّما خلص إلى نتيجته أخرى، فإن عجزنا عن إدراك كائن من هذه الكائنات فكيف لنا بإدراك كنه الذات والصفات والتعرّف على الله كما هو (٤)، فقال:

«فَسُبْحَانَ الَّذِي

ص: ٢٧٢

١- (١). «عسجديه» من عسجد، الذهب

٢- (٢). «عمائيق» جمع عميقه، الدقيق والعميق

٣- (٣) «قرائح» جمع قريحه، بمعنى الذهنيه والذكاء الذى أودعه الله فى الفطره

٤- (٤). على ضوء التفسير المذكور فإنّ جميع الضمائر تعود إلى الطاووس، وهذا ما فهمه أغلب شراح نهج البلاغه وإن مروا عليه بنوع من الإجمال والإبهام، كما يحتمل أن يعود الضمير فى العبارة (أعجز الألسن عن تلخيص صفته) وكذلك العبارة (عن تاديه نعته إلى الله تعالى). وعليه فمفهوم العبارة: أنّى للعقل بإدراك كنه الذات والصفات وهى عاجزه عن إدراك صفات المخلوق

بَهْرٍ (١) الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقِ جَلَاءِ (٢) لِلْعُيُونِ، فَأَذْرَكَهُ مَخِيدُوا مُكُونًا، وَمَوْلَفًا مُلُونًا؛ وَأَعَجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ (٣) صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيهِ نَعْتِهِ!.

تأمل

غرائب الطاووس

إنَّ عالم الخليقه لعجيب كيفما نظرنا إليه، إلَّا أنَّ هنالك البعض الأعجب غيره ومن ذلك الطاووس. فهذا الطائر فريد في الجمال ومن هنا ضرب به المثل. لقد اصطبغ ريشه بعدّه ألوان جميله، وإن نشر جناحيه بدأ أكثر جمالاً وروعاً ويفعل ذلك على وجه السرعه حين تلحظه أنشاه ليلفت نظرها إليه، فهو يبدو كالعروس التي ترتدى حلتها ليله الزفاف، ويشعر بالمتعه من هذا المنظر فيمشى باختيال وغرور ويختتم ذلك بقهقهه ضاحكاً.

يبلغ عمر الطاووس ٢٥-٢٠ سنة وتبيض الأنثى في الثالثه من العمر، تبيض الأنثى عاده مرّه في العام وتضع ١٢ بيضه، إلَّا أنَّ كثره حركاته تجعله لا يحافظ على بيوضه، لذلك توضع البيضه تحت بطن آخر لتفقس، يعتبره اليونانيون والرومانيون طائراً مقدساً، بينما يراه الآخرون مشؤوماً أدى إلى دخول ابليس إلى الجنّه، يبلغ طوله من منقاره إلى انتهاء ذيله أكثر من مترين، والأنثى أقصر من الذكر.

وكما ذكر الإمام عليه السلام في الخطبه المذكوره فإنَّ هنالك خرافه سائده بين الناس بشأن حمل الطاووس وأنَّ الذكر حين يتهيج يضع قطره دمع في عين الانثى فتمتصها

ص: ٢٧٣

١- (١). «بهر» من ماده (بهر)، على وزن نهر، بمعنى الغلبه والقهر

٢- (٢) «جلاء» يعنى أظهره، من ماده (جلاء)

٣- (٣) «تلخيص» ورد بمعنى الشرح، وكذلك الخلاصه والمعنى الأول الأول هو المراد هنا

وتحمل، والواقع أنه يلقح انثاه على أساس الجماع كما لوحظ ذلك كثيراً. عادة ما يربى هذا الطائر الجميل الذي يستفاد منه في الزينه، وهنالك من يتناول لحمه، غير أن الشريعة الإسلاميه حرمت ذلك(1).

ص: ٢٧٤

١- (١) جواهر الكلام، ج ٣٦، ص ٣٠٩؛ راجع حياه الحيوان للدميري، وقاموس دهخدا، والزولوجى الحديث

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمْجِ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيْتَانِ وَالْفَيْلِ! وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَبِيحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

الشرح والتفسير: الديدان والفيلة والحيتان

أشار الإمام هنا بصورة عابرة إلى عجائب سائر الأحياء حتى لا يتصور أن العجائب تقتصر على الطاووس، فقال:

«وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ (١) قَوَائِمَ (٢) الذَّرَّةِ (٣) وَالْهَمْجِ (٤) إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيْتَانِ (٥) وَالْفَيْلِ!». فقد أشار الإمام إلى حشرتين من أصغر الحشرات على الأرض صغار النمل والذباب وإلى أضخم وأكبر حيوانين هما الحوت في البحار والفيل في اليابسة، ولقد لفت الإنتباه إلى أيدي وأرجل صغار الحشرات، اليد والرجل التي تضاهي يد الفيل ورجله فتتحرك يميناً وشمالاً وتأخذ أوامرهما من الدماغ وتشتمل على الأعصاب والعضلات والمفاصل وما شابه ذلك، والحق لو جعلنا رجل هذه الدودة الصغيره تحت المجهر وتأملنا بنيتها لتعرفنا على قدره الله تعالى وعلمه المطلق.

ص: ٢٧٥

١- (١). «ادمج» من ماده «دموج»، بمعنى الاستحكام

٢- (٢) «قوائم» جمع قائمه، بمعنى العمود، وهنا إشاره إلى الأيدي والارجل التي تعتبر أعمده البدن

٣- (٣) «ذره» صغار النمل، وبمعنى الغبار، كما تطلق على الذره فى الكيمياء

٤- (٤). «همجه» ذباب صغير، وجمعه همج

٥- (٥) «حيتان» جمع حوت معروفه

كذلك لو تأملنا الحيوانات الكبيره حيث إن زنه بعض الحيتان تبلغ طناً وترضع فراخها اللبن تحت الماء، حيث تسكب الأم اللبن فى الماء ويمتصه الوليد فوراً، وتنطوى سائر عجائبها على الدروس البليغه فى التوحيد ومعرفه الله، نعم؛ إن هذه الديدان - على سبيل المثال - كثيره من حولنا وقد اعتدنا على رؤيتها فلم نعد نلقت إلى أن بنيتها تفوق بنيه الطائر الضخمه. قال الله تعالى فى كتابه العزيز: «وَكَأَيُّ مَن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» (١).

وأشار الإمام عليه السلام أخيراً إلى مصير الأحياء كافه، أى الموت والعدم، فقال:

«وَأَيُّ (٢) عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَيْخٌ (٣) مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحَيَاةَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ». أجل؛ إن الموت هو مصير كل ذى روح وهذا الكلام هو إشاره إلى أن الدنيا لا تدوم رغم كل ما فيها من جمال وعجائب ولا يمكن التعلق بها، ومن جانب آخر يمكن الوقوف على عظمه الله تعالى بصوره أفضل من خلال مقارنه موت هذه الموجودات بحياتها، لأن أهميته كل شىء تظهر حين فناءه.

تأمل: غيبض من عجائب الحيتان والفيله

سنخوض فى شرح الخطبه ١٨٥ التى أوردتها الإمام عليه السلام بشأن النمل إن شاء الله، ونشير هنا إلى الحيتان والفيله بصوره مختصره:

الحيتان

يقول العلماء: إن هنالك خمسه عشر ألف نوع من الحيتان فى بحار ومحيطات العالم، بعضها صغيره جداً لا تتجاوز سانتيمترين وبعضها الآخر كالحوت الذى يبلغ

ص: ٢٧٦

١- (١) سورة يوسف، الآية ١٠٥

٢- (٢). «وَأَيُّ» من ماده «وَأَيُّ»، على وزن سعى، بمعنى الوعد

٣- (٣) «شبح» بمعنى الشخص، وكل شىء يترانى للإنسان ويدركه الحس

طوله ثلاثين متراً ويزن ثلاثين طناً تنطوى على العديد من العجائب. فمعدتها كبيرة جداً تستوعب الكثير من المواد الغذائية، ويبلغ طول ولدها ستة أمتار حين الولادة.

وتتغذى فراخها على لبنها الذى يخرج من بدنها بغزاره. تتحرك دائماً على سطح الماء للتنفس ولا تستطيع البقاء أكثر من ساعه تحت الماء، فهي أكبر الحيوانات على الأرض وتعتبر من الثدييات. أبدانها دهنية، يستفاد منها فى الصناعات المختلفه ولا تملك أسناناً بل لها شفرات عظيمه طويله وخطيره تشبه الأسنان ويستفيد الصيادون من هذه الشفرات والغدد الدهنيه.

الفيله

يعتبر الفيل فى الوقت الحاضر من أكبر الحيوانات، والفيله نوعان: الفيله الهنديه ويطلق عليها الفيله الأسيويه، والآخر، الفيله الأفريقيه. والفيله الأسيويه أكبر ومستعدده للتربيه أكثر من نظيرتها الأفريقيه. والواقع هو أنّ خرطوم الفيل بمثابة أنفه وشفته العليا، غير أنّه يقوم بعمل اليد عاده، أى أنّ الفيل يحمل الطعام بيده إلى فمه ويقذف الماء على ظهره عند الحراره. يتغذى الفيل على العلف حيث يجمعه من الأرض بخرطومه ويضعه فى فمه، كما يستعين بعاجه القوى والحاد على اقتلاع الأشياء من الأرض. الفيل حيوان ذكى جداً يمكن ترويضه للقيام بعدّه أعمال، كما يقوم بالعديد من الحركات السريعه والعجيبه فى السيرك. تعيش الفيله بصوره جماعيه وهذا بدوره دليل على ذكائها. تعمر أحياناً مائه وخمسين سنه! تعرف أسنان الفيل (بالعاج) الذى يعتبر من الأشياء النفيسه والذى تصنع منه أشياء الزينه.

كان قدماء الملوك والسلاطين عاده ما يشكلون جيشاً من الفيله ويزينون فيلتهم وينصبون عليها الأعلام. نعم؛ عجائب الحيتان والفيله أكبر من أن تختصر فى هذا البحث، وغرض الإمام عليه السلام من التطرق إلى هذه الخصاص إلفات الإنتباه إلى آيات الخلقه العظيمه(1).

ص: ٢٧٧

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِيرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفْتَ نَفْسَكَ عَنْ يَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَمَدَاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا، وَلَمَذَهَلَتْ بِالفِكْرِ فِي اضْطِغَاقِ أَشْجَارِ عُيُوتِ عُرُوقِهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَغْلِيْقِ كَبَائِسِ اللُّوْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيْجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تَلْسُكِ الثَّمَارِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي غُلُوفِ أَكْمَامِهَا، تُجَنِّي مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ فَيَأْتِي عَلَى مُنْتَهَى مُجْتَنِبِهَا، وَيُطَافُ عَلَى نَزَالِهَا فِي أَفْتِيهِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَيِّفَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوِّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمْنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ. فَلَوْ شَعَلَتْ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُضُوءِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُؤَنِقَةِ، لَزَهَقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مَحَاوِرِهِ أَهْلِيلِ الْقُبُورِ اشْتِغَالًا بِهَا. جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: نعم الجنه ومفاتها

يشير هذا المقطع من الخطبه كما يفهم من مضمونه وصرح به السيد الرضى إلى صفات الجنه، وبالطبع فإن هنالك مطالب أخرى بين هذا المقطع وما سبقه إلا أن السيد اقتطف هذه الرياحين كعادته، لكن يبدو أن الإمام تحدث سابقاً عن التوحيد، بينما تطرق هنا إلى المعاد، ليتكامل مبحث المبدأ والمعاد، أو بعبارة أخرى يعرض لنعم الجنه بعد هذه الدنيا. فقال:

«فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِيرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا

لَعَزَفَتْ (١) نَفْسُكَ عَنْ يَدَائِعِ مَا أَخْرَجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَمَدَاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا، وَلَذَهَلَتْ (٢) بِالْفِكْرِ فِي اضْيَاطْفَاقِ (٣) أَشْجَارٍ عُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُتُبَانِ (٤) الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا».

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من وصف الأشجار في الجنه، حتى تطرق إلى ثمارها فقال:

«وَفِي تَغْلِيْقِ كَبَائِسِ (٥) اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَةِ الْجِبْهِهَا (٦) وَأَفْنَانِهَا (٧)، وَطُلُوعِ تَلْمِكِ التَّمَارِ مُخْتَلِفَهُ فِي غُلْفِ (٨) أَكْمَامِهَا (٩)، تُجْنَى (١٠) مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْتَهَى مُجْتَنِبِهَا».

إنَّ أحدَ معضلاتِ أشجارِ الفاكهه في الدنيا يكمن في جنيتها الذي ينطوى على متاعب جمه، إلى درجه أن البعض يتسلق الشجره لعملية الجنى، فيفقد حياته. هذه هي طبيعه الدنيا في مزج اللذّه بالألم، أمّا في الجنه حيث لا موضع للألم وكل شيء على ما يرام وطبق المراد فإن ثمار الأشجار في تناول الجميع، وعلى كل حال، سوى الوقوف أو الجلوس، بل على أساس بعض الروايات أن غصون الشجره تحضر بثمارها عند الشخص كلما اشتهاها: «قُطُوفُهَا دَائِبَةٌ» (١١)، وفي أيه أخرى:

ص: ٢٨٠

- ١- (١). «عزفت» من ماده (عزف)، على وزن حذف، الترك والانصراف عن شيء، كما وردت بمعنى اللعب واللهم
- ٢- (٢). «ذهلت» من ماده (ذهل)، بمعنى غفله العقل وترك الشيء ونسيانه
- ٣- (٣) «اصطفاق» بمعنى اضطراب شيء بحيث يحدث صوتاً كالتصفيق أو تضارب أوراق الأشجار
- ٤- (٤) «كتبان» جمع كتيب، بمعنى التل، من ماده (كتب)، على وزن حرب، بمعنى الجمع
- ٥- (٥). «كبائس» جمع كباسه، على وزن حمايه، بمعنى عنقود الفاكهه وما شابهه
- ٦- (٦) «عساليج» جمع عسلوج، على وزن بهلول، بمعنى غصن الشجره
- ٧- (٧) «أفنان» جمع فن وفنن، على وزن قلم، بمعنى الغصن الطرى الملى بالأوراق، ويقال الفنون لمختلف فروع العلم والمعرفه والصناعه وما شاكل ذلك
- ٨- (٨). «غلف» جمع غلاف، من ماده (غلف)، على وزن قصر، بمعنى الغطاء
- ٩- (٩) «اكمام» جمع كم، على وزن جن، بمعنى الوعاء الذى يغطى الفاكهه، وجمع كم على وزن أم بمعنى الردن التي تغطى اليد
- ١٠- (١٠) «تجنى» من ماده (جنى) على وزن نهى، بمعنى قطف الثمار
- ١١- (١١). سورة الحاقه، الآيه ٢٣

ثم خاض الإمام عليه السلام فى النعمه الأخرى فى الجنه فقال:

«وَيَطَافُ عَلَى نُزَالِهَا فِي أَفْنِيهِ (٢) قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ (٣)». وقد أشار القرآن إلى الشراب الطهور اللذيذ فى الجنه الذى لا- يصيب الرأس بالصداع ولا- يذهب بعقل الإنسان، ومن ذلك ما ورد فى سوره الدهر التى أشارت إلى هذا الشراب اللذيذ وأربع صور وطبائع: «إِنَّ الْمَأْبُرَ إِشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا... * وَيُسِيقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسِى سُلْسَبِيلًا... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» (٤) وقال فى موضع آخر:

«لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزَفُونَ» (٥).

ثم أشار عليه السلام إلى أوصاف الجنه فقال:

«قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكِرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَهُ (٦) الْأَسْفَارِ». ويستفاد من هذه العبارة أن أصحاب الجنه حفظوا قدسيتهم وطهارتهم وورعهم إلى آخر عمرهم ولم يخذشوا الكرامه الإنسانيه التى أشارت إليها الآيه القرآنيه: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...» (٧) فلقوا ربهم على الإيمان والعمل الصالح الذى ملأ كيانهم، كما تفيد العبارة، التأكيد على حسن العاقبه وأن كل شىء يتوقف على خاتمه الأمور والأعمال. وأخيراً يشعل فى قلوب الآخرين شعله

ص: ٢٨١

١- (١) سوره الرحمن، الآيه ٥٤

٢- (٢) . «افنيه» جمع فناء، على وزن غناء، بمعنى الساحة ومقدمه الدار

٣- (٣) «مروقه» بمعنى المصفاه، من ماده (روق)

٤- (٤) . سوره الدهر، ٥ و ٦ و ٧ و ١٨ و ٢١

٥- (٥) سوره الواقعه، الآيه ١٩

٦- (٦) . «نقله» من النقل وتأتى أحياناً بمعنى النميمه

٧- (٧) . سوره الاسراء، الآيه ٧٠

الشوق إلى لقاء اللطف الإلهي ونعمه التي لا تحصى في ذلك العالم:

«فَلَوْ شَغَلَتْ قَلْبِيكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُؤَنِقَةِ (١) ، لَزَهَقَتْ (٢) نَفْسِيكَ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَلْتِ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوِرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالًا بِهَا». أراد الإمام عليه السلام أن يؤكد في هذا الكلام على حقيقته هي أنّ عظمه نعم الجنّه أكبر من أن يحيطها وصف الإنسان، ولو تأملها الإنسان لذاب شوقاً إليها وكأنه يروم التحليق إليها، كما ورد ذلك في خطبه المتقين:

«فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا» (٣).

وهكذا اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بهذا الدعاء:

«جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مَمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ». إشاره إلى أنّ الإنسان لا يبلغ شيئاً دون أن تشمله رحمه الله.

تفسير بعض الكلمات الصعبة في الخطبه (من جانب الشريف الرضى):

قال السيد الشريف الرضى في آخر هذه الخطبه:

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«يُؤَرُّ بِمَلَأِجِهِ» الأُرُّ: كِنَايَةٌ عَنِ النِّكَاحِ، يُقَالُ: أَرَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يُؤَرُّهَا، إِذَا نَكَحَهَا. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كَأَنَّهُ قَلْعٌ دَارِيٌّ عَنَجَهُ نُوتِيَهُ» القَلْعُ: شِرَاعُ السَّفِينَةِ، وَدَارِيٌّ:

مَنْسُوبٌ إِلَى دَارِينَ، وَهِيَ بَلَدَةٌ عَلَى الْبَحْرِ يُجْلَبُ مِنْهَا الطَّيْبُ. وَعَنَجَهُ: أَيْ عَطَفَهُ.

يُقَالُ: عَنَجْتُ النَّاقَةَ - كَنَصَرْتُ - أَعْنَجُهَا» عَنَجًا إِذَا عَطَفْتَهَا. وَالنُّوتَى: الْمَلَأُ.

وقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«ضَفَّتِي جُفُونِهِ» أَرَادَ جَانِبِي جُفُونِهِ. وَالضَّفَّتَانِ: الْجَانِبَانِ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«وَفَلَذَ الرَّبَّزَجِدَ» الْفِلْدُ: جَمْعُ فَلَذَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كَبَائِسِ اللُّوْلُو الرِّطْبِ» الْكِبَاسَةُ: الْعِدْقُ وَالْعَسَالِيحُ: الْعُصُونُ، وَاحِدُهَا عُسْلُوحٌ.

تأمل: أيها أجمل؟

١- (١) . «مونقه» بمعنى المعجبه، من ماده (أنق)، على وزن شفق، الإعجاب بالشىء

٢- (٢) . «زهقت» من ماده (زهوق) على وزن غروب، بمعنى الهلكه

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٩٣

تحدث الإمام عليه السلام بكل فصاحته وبلاغته المعهودة في هذه الخطبه عن جمال هذا العالم أحياناً، وأحياناً أخرى عن جماليه العالم الآخر، لكنه ما أن يبلغ شرح نعم الآخرة حتى يشير إلى هذه الحقيقه وهى أن ما يتعلق بذلك العالم يتعذر بيانه، بحيث لو يراه الإنسان لتمنى المسارعه إليه. حقاً أن آداب الحياه الدنيا لا يسعها شرح الحياه الآخرة، وذلك أشبه بأن يسجن الإنسان منذ ولادته فى غرفه ولما اكتمل عقله أرادوا أن يشرحوا له المناظر الجميله المتناثره فى الحدائق والبساتين والشلالات ومختلف الأماكن الطبيعیه الرائقه، يحدثوه عن الطاووس وألوانه الجميله وأصوات الطيور العذبه، والفاكهه الذيذه وسائر المناظر الخلابه، فبالطبع لا تسعفه الآداب التى تعلمها فى تلك الغرفه المظلمه لأن يفهم ما يسمع. الجدير بالذكر أن الإمام ينظر إلى نعم الآخرة من زوايا مختلفه، فتاره من زوايه حظ البصر وأخرى من خلال الفواكه الذيذه والثمار الطبيعیه، وأحياناً من خلال الضيافه المفعمه بالكرامه والاجلال، والأخرى عن الأمن والسكينه التى تسود الجنه. فليس هنالك من مرض ولا تعب ولا إرهاق ولا موت ولا سلطان ظالم ولا خيانه ولا مكر ولا غدر ولا حرب وخراب ودمار. بل الحاكم هو الإمن والأمان والسلام.

عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لِمَا حَوَّطَ حَائِطَ الْجَنَّةِ لِبَنَةِ مِنْ ذَهَبٍ، وَلِبَنَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَعَرَسَ عَرَسَهَا قَالَتْ لَهَا: تَكَلِّمِي فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ: طُوبَى لَكَ مَنَزَلَ الْمُلُوكِ» (١).

وعن عبد الله بن جابر الأنصارى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى: أَتُحِبُّونَ أَنْ لَذِيذَكُمْ فَيَقُولُونَ: وَهَيْلُ خَيْرٍ مِمَّا أُعْطِينَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ رِضْوَانِي أَكْبَرُ» (٢).

ص: ٢٨٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٨٠

٢- (٢) المصدر السابق

تألف هذه الخطبه من ثلاثه أقسام: حثّ الإمام عليه السلام في القسم الأول الناس على احترام بعضهم البعض الآخر ويتبع الصغير الكبير ويراف الكبير بالصغير ولا يكونوا كجفاه الجاهليه. وأخبر في القسم الثاني عن مصير بني أميه الذين يستولون على كل شيء بفعل فرقه المسلمين وابتعادهم عن أصالتهم، وسيصلون إلى أقصى مناطق البلاد الإسلاميه، إلّا أنّهم لا يلبثون كثيراً حتى يفقدون كل شيء.

وأخبر في القسم الثالث عن عوامل تخلف المسلمين في آخر الزمان وفي مقدمتها عدم نصره الحق والوقوف بجانب الإمام العادل.

ص: ٢٨٥

١- (١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه قبل المرحوم السيد الرضى، مسلم ابن قيس في كتابه، كما روى صاحب الكافي جوانب منها في الجزء الثامن. وقال صاحب مصادر نهج البلاغه يستفاد من روايه الكافي والشيخ المفيد في الإرشاد أنّ هذه الخطبه وما ورد في الخطبه ٨٦ (طبق نسخه صبحي الصالح ٨٨) خطبه واحده (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٠٣)

لِيَتَّأَسَّ صِيَّغِيْرُكُمْ بِكَبِيْرِكُمْ، وَلِيُزَافَ كَبِيْرُكُمْ بِصِيَّغِيْرِكُمْ؛ وَلَمَّا تَكُوْنُوْا كَجَفَاةِ الْحِيَاهِيَّيْهِ: لَأَفِي الدِّيْنِ يَتَفَقَّهُوْنَ، وَلَا عَنِ اللّٰهِ يَعْقَلُوْنَ؛ كَقِيْضٍ يَبِيْضٌ فِيْ أَدَاحٍ يَكُوْنُ كَسْرُهَا وَزُرًّا، وَيُخْرِجُ حِصَانَهَا شَرًّا.

الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقية

أورد الإمام في هذه العبارات القصيره العميقه المعنى ثلاث وصايا أخلاقية واجتماعيه مهمه يؤدى العمل بها إلى تماسك عرى المجتمع، فقال في الأولى:

«لِيَتَّأَسَّ (١) صِيَّغِيْرُكُمْ بِكَبِيْرِكُمْ». ذلك لأَنَّ الكبير عاده سلسله من التجارب وقد ذاق حلاوه الدنيا ومرارتها ووقف على خيرها وشرها، أضف إلى ذلك فقد اجتاز هذا الكبير عصر الفتوه بنشاطه وحيويته ويشعر الآن بنوع من الاستقرار الأخلاقي وقد تعرف على الآداب والأعراف الاجتماعيه، ولا يمكن التكر لهذه الحقيقه، بالرغم من أنّ هذه ليست قاعده كليه ولا تخلو من الاستثناء.

الوصيه الثانيه

«وَلِيُزَافَ (٢) كَبِيْرُكُمْ بِصِيَّغِيْرِكُمْ» فيتلافى ضعفهم وينقل إليهم تجاربه ويتغاضى قدر المستطاع عن أخطائهم ويقف في كل الأحوال إلى جانبهم. ولو كان هناك التزام بهاتين الوصيتين لتوطدت العلاقات بين الجيل القديم والحديث بما يجعلهم يشكلون جبهه واحده رصينه الصفوف. وإلّا فليس هنالك سوى احتدام

ص: ٢٨٧

١- (١). «ليتأس» من ماده (اسوه) على وزن عروه، بمعنى اتباع الغير والاقتداء به

٢- (٢). «ليرأف» من ماده (رأفه) بمعنى العطف والشفقه

النزاع بينهما بما يعكس صفو المجتمع.

أما الوصيه الثالثه والتي تمثل فى الواقع تأكيداً للوصايا السابقه:

«وَلَمَّا تَكُونُوا كَجَفَاهِ (١) الْجَاهِلِيَّةِ: لَمَّا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُوْنَ، وَلَمَّا عَنِ اللَّهِ يَغْقَلُونَ». نعم، فالجهال لم يفتحوا على التريبه الدينيه ولم يستعينوا بعقولهم، فهم زمره فضه متحلله تهد كيان المجتمع، لا ترحم الصغير ولا تعظ بنصائح الكبير.

ثم خاض عليه السلام فى هذه الفئه فقال على سبيل التمثيل:

«كَفَيْضِ (٢) بَيْضٍ فِي أَدَاحِ (٣) يَكُونُ كَشِيرْهَا وَزُرًّا، وَيُخْرِجُ حِصًّا أَنْهَا (٤) شَرًّا». إشاره إلى الحذر من كون ظاهركم الإسلام وباطنكم كجفاه العصر الجاهلى بحيث يشك الصالحون بكم حين التعامل، فلو عاملوكم بصدق وأمانه خشوا من باطنكم الذى تشم منه رائحه النفاق، وإن عاملوكم كمنافقين خشوا أن يكون باطنكم طاهراً. من المعروف أن النعامه تحفر الرمل وتبيض هناك وهكذا تفعل الحيه والأفعى، ومن هنا فإن الإنسان حين يرى هذه البيضه لا يعلم هل هى للأفعى تعود أم النعامه؟ فيشك فى التعامل معها! وبعباره أخرى أن صوره الإنسان الجافى صورته إنسان إلا أن باطنه مملوء بالشر والفساد، كالبيضه التى صورتها بيضه الطيور وباطنها حيه قاتله. وعلى هذا الضوء فقد رسم الإمام عليه السلام بهذا التشبيه الرائع صورته واضحه للمشاكل التى تفرزها التعامل مع الفرد المنافق.

ص: ٢٨٨

-
- ١- (١). «جفاه» جمع جافٍ، من ماده (جفاء)، بمعنى الغلظه، ويقال للشخص العنيف، الجافى
 - ٢- (٢). «قيض» قشره البيضه، وتأتى بمعنى كسر البيضه أيضاً
 - ٣- (٣) «أداح» جمع دحى، على وزن نهى، بمعنى مبيض الانعام فى الرمال، ومن ماده (دحو) على وزن سهُو، بمعنى السعه
 - ٤- (٤). «حضان» بمعنى البيض تحت بطن الطائر ليفقس عن فرخ، ومن ماده (حضانة) بمعنى ما تحت الجناح والريش

أَفْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ، مَالٍ مَعَهُ. عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِيَوْمِ لَبْنِيِّ أُمِّيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ فَرْعُ الْخَرِيفِ يُؤَلَّفُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَّامًا كَرَّكَامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَتَارِهِمْ كَسِيلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسَلِمَ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكْمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَيْنُهُ رِصٌّ طَوْدٍ، وَلَا حِدَابٌ أَرْضٍ. يُدْعِيهِمُ اللَّهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَّتِهِ، ثُمَّ يَسِيلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمِ حُقُوقِ قَوْمٍ، وَيُمْكِنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ. وَإِيمُ اللَّهِ، لِيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالْتِمَكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الْأَيْهَةُ عَلَى النَّارِ.

الشرح والتفسير: المصير الأسود لبني أمية

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى المصير الباهر لأصحابه إلى جانب النهايه المفجعه فقال:

«أَفْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ» فمنهم من التحق بالخوارج وقف في وجه الإمام عليه السلام ومنهم من أصابه الشك واعتزل عن الجماعه، ومع ذلك فإن هناك بعض أصحابه

«فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ، مَالٍ مَعَهُ». فهذه إشاره إلى طائفه ثبتت على الحق وتمسكت بالثقلين (الكتاب والعترة) وتعلقوا بغصن شجره النبوه المتمثل بأهل بيت العصمه والطهاره عليهم السلام فانطلقوا خلفهم لرضى الله. نعم؛ ذهب البعض إلى أن هذه العبارة إشاره إلى فئه منحرفه أيضاً، والحال تفيد العبارات القادمه أن المعنى الأول هو الصحيح. لأن الإمام قال لاحقاً:

«عَلَى أَنَّ اللَّهَ

تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِيُنِي أَمِيَّهُ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعٌ (١) الْخَرِيفِ (٢). ثم قال:

«يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَّامًا (٣) كَرَّامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا.»

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين كيف سيواجه اتباع أهل البيت عليهم السلام ظلمه بنى أميه فقال:

«يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَنَارِهِمْ (٤) كَسَيْلِ الْجَبَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسَلِمَ عَلَيْهِ قَارَةٌ (٥)، وَلَعَمَّ تَثْبِثٌ عَلَيْهِ أَكْمَةٌ (٦)، وَلَمْ يَرُدَّ سِنَّهُ (٧) رَصٌّ (٨) طَوْدٍ (٩)، وَلَا حِدَابٌ (١٠) أَرْضٍ». ما ورد في هذه العبارة إشارة إلى قوم سبأ الذين عاشوا في اليمن وبنوا سداً عظيماً بين جبلين يعرف بسد مارب منعوا السيول واستفادوا من ماء السد في بناء جنتين عظيمتين على جانبي نهر كان يجري هناك، فعاشوا حياه مرفهه وادعه، إلَّا أنَّ جحودهم وبطر نعمتهم وغرورهم عزّضهم لأليم العقاب.

إنهار السد عند الليل فأتى السيل على جنتيهم وأحال أرضهم خراباً فاضطر من تبقى منهم للهجرة. وسيكون أتباع أهل البيت عليهم السلام بمثابة السيل الذي يدمر ظلمه بنى أميه ويخربون بيوتهم ويقضون عليهم ويهاجر من يبقى منهم.

ثم شبه الإمام عليه السلام هذه الجماعة المدافعه عن الحق فيما بعد زوال بنى أميه بالماء المطمور في الأرض والذي ينبع كعيون جاريه في البناء والعمران، فقال:

«يُدْعَدُهُمْ (١١) اللَّهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَّتِهِ (١٢)، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ»

ص: ٢٩٠

١- (١). «قزع» جمع قزعه، على وزن ثمره، بمعنى قطعه من السحاب، كما تطلق على الأشياء التي لها قطع متناثره

٢- (٢) «الخريف» هو أحد فصول السنه المعروفه

٣- (٣) «ركام» من ماده (ركم) على وزن مكر، بمعنى الأشياء المتراكمه

٤- (٤). «مستنار» بمعنى موضع الغليان والخروج، من ماده (ثور)، على وزن فور، بمعنى الهيجان

٥- (٥) قاره بمعنى الجبل الصغير

٦- (٦). «أكمه» بمعنى التل والهضبه

٧- (٧) «سنن الطرق» بمعنى المسير المادى والمعنوى

٨- (٨) «رص» من ماده (رصاص) بمعنى المحكم

٩- (٩) «طود» بمعنى الجبل العظيم

١٠- (١٠) «حداب» جمع حدب، على وزن هدف، بمعنى الأرض المرتفعه

١١- (١١). «يدعده» من ماده (ذعده) بمعنى التفرق

١٢- (١٢) «اوديه» جمع وادٍ، معروف

قَوْمٌ حُقُوقٌ قَوْمٌ، وَيُمْكِنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ». ذكر بعض شراح نهج البلاغه احتمالاً آخر لتفسير العبارة المذكوره ومرجع الضمائر، ولا- نرى حاجه لذكره سيما لعدم انسجامه مع العبارات السابقه واللاحقه. نعم؛ فأتباع أهل البيت عليهم السلام ينطلقون بادیء الأمر كالسيل الذي يحطم قصور بنى أمیه كما حطم السيل عروش الظلمه فى سبأ، وسيطيحون بدولتهم، فيتفرقون فى كل مكان ويكونوا كعيون الماء فى إقامتهم للعدل والقسط.

وأخيراً أقسم الإمام عليه السلام قائلاً:

«وَأَيْمُ اللَّهِ، لَيُذَوِّبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَمَا تَذَوِّبُ الأَلْيَهُ (١) عَلَى النَّارِ». والتشبيه المذكور إشاره إلى أن بنى أمیه وإن ترهلوا على عهد حكومتهم، إلّا أن أعداءهم سيكونون عليهم كالنار فيذيبون أجسادهم كما يذاب الشحم فى النار، يذوب أولاً ثم يحترق ولا تبقى له باقيه. وقد اختلف شراح نهج البلاغه بشأن من يسلط على بنى أمیه ويطيح بحكومتهم الظالمه وينتصر للمظلوم منهم؛ قيل المراد بهم بنو عباس، وقيل الشيعة الذين قاموا ضد بنى أمیه، والظاهر أن كلاهما يعود إلى معنى واحد، لأننا نعلم أن قيام بنى العباس انطلق باسم العلويين وإن انحرف عن مساره وجعلوه لبنى العباس خاصه فساروا على نهج بنى أمیه حتى قضى عليهم.

تأمل: ثورات دامیه ضد بنى أمیه

دوت أصداء شهاده الإمام الحسين عليه السلام وصحبه فى كربلاء فى أرجاء العالم الإسلامى وأثبت العديد من المسلمين على بنى أمیه. وقد نال أغلبهم الشهاده بسبب

ص: ٢٩١

١- (١). «الأليه» بمعنى الشحم المعروف

سطوه بنى أميه، بينما انتصر البعض الآخر لمدّه قصيره. وقد ذكرنا هذه الثورات التي بلغ عددها خمسة عشر في الجزء الثالث من هذا الكتاب،(١) وكان آخرها قيام أبو مسلم الخراساني والذي أدى إلى سقوط دوله بنى أميه. وخلافاً لما يتصوره البعض فإنّ أبا مسلم وصحبه لم يثوروا لأجل بنى عباس، بل اجتمع بادىء الأمر عدد من زعماء الشيعة عند أبى مسلم - وكان رجلاً شجاعاً - فى خراسان وعزموا على مواجهه آخر خلفاء بنى أميه (مروان الحمار) وإقامه حكومه آل محمد وكان شعارهم

«الرضا لآل محمد» ولم تمض مدّه حتى سيطر أبو مسلم على خراسان وأغلب مناطق إيران. ورغم محاوله إبراهيم الإمام وهو من بنى العباس للتقرب منه وكذلك عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح وأبو جعفر المنصور - وكلاهما أخ لإبراهيم الإمام - إلّا أنّه لم يرض بذلك. ومن هنا قام عامله على الكوفه أبو سلمه حين وصله الأخوه الثلاثة باخفائهم فى موضع لیتزعم المسلمین أحد أبناء على عليه السلام فبعث بثلاثه كتب إلى المدینه؛ إلى الإمام الصادق عليه السلام وعبد الله بن الحسن وعمر بن على بن الحسين وأوصى رسوله أن یتدیء بالصادق عليه السلام فإن وافق لا- یسلم الرسالتین. وحيث كان الإمام عليه السلام يعلم بالمؤامرات الخفيه حتى على أبى مسلم فلم يجب الدعوه، وهكذا عبد الله وعمر تبعاً للإمام الصادق عليه السلام. لكن قبل أن يعود رسول أبى سلمه إلى الكوفه علم جماعه من أهل خراسان بموضع السفاح وأخويه فبايعوه، فما كان من أبى مسلم إلّا أن إلتحق بهم، حتى وصلت الحكومه لبنى العباس بعد قتال شديد بينهم وبين أتباع عبد الله بن على عم المنصور، فوُلّى المنصور الخلافه بعد أبى العباس السفاح، فأحضر أبا مسلم إلى بغداد وقتله وفق خطه معده سلفاً، لعله كان يعلم بأنّ أبا مسلم من أتباع آل على عليه السلام لا بنى العباس، فكان يراه خطراً يهدد حكومتهم(٢). ذكر العلامه المجلسى روايه بهذا الخصوص عن الإمام على عليه السلام أنّ جيش الشام هجم يوماً فى صفيين على جند العراق ففرقهم عن

ص: ٢٩٢

١- (١). نفحات الولاية، ج ٣، ص ٣٥٨-٣٦٠

٢- (٢). راجع كتاب المعارف والمصاريف، ج ١، ص ٤٨١ والموسوعه الإسلاميه الكبرى، ج ٦، ص ٢٢٧

ميمنتهم وكان مالك الأشر (رضوان الله تعالى عليه) يدعوهم إلى الرجوع. فكان الإمام عليه السلام يصيح في وجه جيش الشام: خذهم يا أبا مسلم ويكرر ذلك ثلاثاً. فقال الأشر: أوليس أبو مسلم في جيش الشام؟ قال الإمام عليه السلام: لا أقصد أبا مسلم الخولاني، بل أبا مسلم رجل يظهر من مشرق الأرض يهلك الله الأميين على يده ويطيح بدولتهم (١). طبعاً شخصيه أبا مسلم وإن كانت تعيش نوعاً من التعقيد على ضوء النظرة التاريخيه، إلا أن هنالك من يراه من أتباع أهل البيت عليهم السلام ويكنون له الاحترام، وعلى العكس، هنالك من يراه من أعدائهم ويقول بجواز لعنه. والمسلم به أن قيامه كان في بادىء الأمر لنصره آل محمد وكان أنصاره من الشيعة.

ص: ٢٩٣

١- (١). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣١٠

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَنْ نَصِيرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهْنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوِ مِنْ قَوِيَّ عَالِيكُمْ. لَكِنَّكُمْ تَهْتُمُ مَتِيَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيْضَ مَعَنَّ لَكُمْ التِّيَهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافًا بِمَا خَلَقْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَذْنَى، وَوَصَيْلْتُمُ الْأَبْعَدَ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَيَلِكُ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفَيْتُمْ مَوُونَهُ الْإِعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثَّقَلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

الشرح والتفسير: عامل التخلف

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه - الذى هو آخرها - بعد بيانه لمصير بنى أميه الأسود فى بيان مصير فئه من أتباع الحق التى ضعفت عن نصرته فتسلط عليها عدوها فكانت عاقبتها كعاقبه بنى إسرائيل، فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَنْ نَصِيرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهْنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعِ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوِ مِنْ قَوِيَّ عَالِيكُمْ». هذا الكلام إشاره إلى حكومه معاويه وتسلطه وصحبه على أصحاب الإمام عليه السلام على عهده (بصوره محدوده) ومن بعده (دون حدود). وما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه العبارة لا يختص بزمان ومكان معين، بل هو أصل كلّى للأعصار والأمصار كافه فى أن تنامى الباطل معلول لضعف أتباع الحق.

ثم واصل عليه السلام كلامه بتشبيه تلك الفئه بنى إسرائيل أثر إبتعادهم عن الحق وتيههم

(في صحراء سيناء) فقال:

«لِكُنْكُمْ تَهْتُمْ (١) مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيْضَ عَفَنَ لَكُمْ التِّيَهُ مِنْ بَعِيدِي أَضْعَافًا (٢) بِمَا خَلَقْتُمْ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمْ الْأَذْنَى، وَوَصَلْتُمْ الْأَبْعَدَ». ثم أوضح في الختام سبيل النجاه وذكرهم بأن باب العوده إلى الحق مفتوح على الدوام فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ اتَّبَعْتُمْ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَيَلِكُ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفَيْتُمْ مَوْوَنَهُ الْإِعْتِسَافِ (٣)، وَتَيَذَّتُمْ الثُّقْلَ الْفَادِحَ (٤) عَنِ الْأَعْنَاقِ».

تأمل: بنو اسرائيل

...

شبه الإمام عليه السلام بالعباره المذكوره طائفه من المسلمين الذين حادوا عن الحق واحتراروا كبنى اسرائيل الذين تاهوا فى الصحراء اثر عنادهم وعدم استجابتهم لنيهم موسى عليه السلام، بجهاد غاصبى بيت المقدس. وقد نقل بعض شراح نهج البلاغه روايه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لتركب سنن من كان قبلكم حذو النعل النعل، والقده بالقده، حتى لو دخلوا حجر صب صب لدخلتموه، فقيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن» (٥). وبغض النظر عن الإشكال الذى يرد على اسناد الروايه، فإن تطبيقها على الواقع لا يخلو من إشكال أيضاً، وعلى فرض صحه الروايه فإنه يمكن حملها على الغالب. إشاره إلى أن أغلب الحوادث المريره التى شهدتها الأقسام السابقه سيشهدها المسلمون، ويعيد التاريخ نفسه، ذلك لأن الأسباب المتشابهه تتطلب مسببات متشابهه.

ص: ٢٩٦

١- (١). «تهتم ومتاه» كلاهما من ماده (تبه)، تعنى فى الأصل، الزهو والتكبر، ثم استعملت بمعنى الحيره والضلال عن الطريق وهذا هو المراد بها فى العباره، أى احترتم كحيره بنى اسرائيل (متاه مصدر ميمي)

٢- (٢). «أضعاف» جمع ضعف، على وزن فعل، معروف

٣- (٣) «اعتساف» من ماده (عسف) على وزن وصف، بمعنى الضلال

٤- (٤) «فادح» بمعنى ثقيل وشاق، وهى هنا تأكيد لكلمه ثقل

٥- (٥). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٨٦؛ منهاج البراعه، ج ١٠، ص ٨٣

فى أوائل خِلافتِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتضمن هذه الخطبه عدّه مواضع وإرشادات بحيث ربّما يُتصور عدم وجود الترابط بين أقسام الخطبه، ولعلّ المرحوم السيد الرضى اقتطف هذه الخطبه من خطبه أطول خطبها الإمام أوائل خلافته.

على كل حال فإنّ الخطبه تتكون من خمسة أقسام رئيسيه:

القسم الأول: يتحدث عن عظمه القرآن الكريم وهدايته والتأكيد على اتّباعه.

القسم الثانى: التأكيد على إتيان الفرائض والعمل بالواجبات وترك المحرمات.

القسم الثالث: أهميه حقوق المسلمين وحفظ كرامتهم وترك أذاهم.

القسم الرابع: يوصى فيه الإمام عليه السلام بالاستعداد للموت والقيامه والتزود للآخره.

القسم الخامس: التأكيد على التقوى وطاعه الله.

ص: ٢٩٧

١- (١) سند الخطبه: قال المرحوم عبد الزهراء الحسينى: لم أعثر فى كتاب مصادر نهج البلاغه على سند قبل السيد الرضى للخطبه سوى ما ذكره المؤرخ الطبرى فى حوادث سنه ٣٥ هجرية (ج ٥، ص ١٥٧). وينبغى الالتفات إلى أنّ بعض هذه الخطبه مر سابقاً فى الخطبه ٢١

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيِّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدْوَهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَيْدُخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرْمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَادِهَا، «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ.

الشرح والتفسير: معرفه سبيل الحق

أكد الإمام على ضروره الالتزام بالقرآن والعمل بتعاليمه بصفته المصدر الرئيسي للتعاليم الإسلاميه وتبيان كل خير وإحسان، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيِّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ (١) الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا (٢) عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا». فهذا الكلام يدل على أن جميع أصول الخير والشر والواجبات والمحرمات والفضائل والرذائل والعقائد الصحيحه والمنحرفه إنما بُيِّنَتْ في القرآن الكريم، وهو في الواقع تعبير آخر عن

«تبيان كل شيء» الذي ورد في القرآن وإن فوض شرحه إلى سنه المعصومين عليهم السلام.

ص: ٢٩٩

١- (١). «النهج» بمعنى الطريق الواضح، من ماده (نهج)، على وزن خرج، الوضوح

٢- (٢) «اصدِفُوا» من ماده (صدف) على وزن صبر، بمعنى الإعراض

ثم أكد الإمام عليه السلام من بين كل الفضائل على الفرائض والواجبات، فقال:

«الْفَرَائِضُ الْفَرَائِضُ! أَدُوهُمَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ». إشاره إلى إن الخيرات التي دعى إليها القرآن على نوعين، واجبه وغير واجبه (مستحبات وفضائل) وعليكم قبل كل شيء بأداء الواجبات فإن شعرتم بقوّه فأتوا بالمستحبات؛ ذلك لأنّ ما يأخذ بيد الإنسان قبل كل شيء إلى الجنّة، أداء الفرائض والواجبات. طبعاً الفرائض تشمل العبادات والواجبات الأخرى التي أوجبها الله على الإنسان فيما يتعلق بنفسه أو الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه كأنّها دليل على عبارته السابقة، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ (١)». إنّها عبارته لطيفه تشير إلى مصالح ومفاسد الأحكام الشرعيه التي اعتبرها الحكيم في الواجبات والمحرمات، بعبارته أخرى، رغم وجوب طاعه أوامر الله في الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، إلّا أنّ هذه الطاعه ليست عمياء، ذلك لأنّ جميع الواجبات تشتمل على مصالح، بينما تنطوي المحرمات على مفاسد تعود على نفس العباد: «يُحَلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرَّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ» (٢) ولما كانت رعايه حقوق المسلمين وحفظ حرمتهم لا تقل أهميّة عن الفرائض والواجبات، فقد قال عليه السلام:

«وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرْمِ (٣) كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا (٤)».

إنّ أدنى نظره إجماليه على الكتب الفقهيّه كافه - من العبادات إلى الحدود والديات - لتشهد على صدق هذا المعنى في أنّ الإسلام أولى أهميّة عظيمه لحرمة

ص: ٣٠٠

١- (١). «مدخول» بمعنى معيب، من ماده (دخل) على وزن نخل، بمعنى الفساد من الداخل. ولهذه المفرده معانٍ أخرى منها الدخول في المكان

٢- (٢). سورة الأعراف، الآية ١٥٧

٣- (٣). «حرم» بفتح الراء جمع حرمه بمعنى الاحترام، وحرم بضم الراء، جمع حرام بمعنى الممنوع، و«احرام» جمع حرم على وزن قلم، بمعنى الناحيه الممنوعه

٤- (٤) «معاقد» جمع (معقد) على وزن مجلس، بمعنى موضع اغلاق الشيء، كالحزام الذي يربط الظهر، وفي عبارته إشاره إلى رابطة الإخلاص والتوحيد لحقوق المسلمين

المسلمين وحقوقهم، حتى وقف الإمام الكاظم عليه السلام أمام الكعبة، وقال:

«مَيَّا أَعْظَمَ حَقِّكَ يَا كَعْبُهُ وَاللَّهِ إِنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ لَأَعْظَمُ مِنْ حَقِّكَ»^(١) وعبارته الإمام عليه السلام تشدّد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ الإنسان الموحد والمخلص من يراعى حقوق المسلمين، وهذا ما قال به أغلب شراح نهج البلاغه، كما يحتمل أن يكون المراد ضروره حرمة حقوق كل مسلم، لا إخلاصه وتوحيده (الإخلاص والتوحيد فى التفسير الأول صفه للمحافظين وصفه للمحفوظين فى التفسير الثانى). التفسير الثالث أن يكون احترام حقوق المسلمين فى مصاف الإخلاص والتوحيد.

ثم أضاف عليه السلام كنتيجة

«فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ». فاستنتاج الإمام عليه السلام هذا يفيد أنّ التفسير الأول هو الأنسب للعبارة السابقه من التفاسير الأخرى، لأننا إن اعتبرنا حفظ حقوق المسلمين علامه إخلاص وتوحيد الحافظين لهذه الحقوق فإنّ نتيجته ذلك ستكون:

المسلم من سلم الناس من لسانه ويده. جدير بالذكر أنّ العبارة

«إِلَّا بِالْحَقِّ» والأخرى

«إِلَّا بِمَا يَجِبُ» أن تكون الأولى: إشاره إلى عدم جواز أذى المسلمين ما لم يكن هنالك من مجوز من قبيل العقوبات والحدود الإسلاميه والتعزيرات، والثانيه: إشاره إلى الإكتفاء بالمقدار الذى أجازه الله من حيث الكمية والكيفيه على فرض الجواز. ورد فى بعض الروايات أنّ قبراً ورغم مكانته عند الإمام عليه السلام غلط فى حدّ رجل فأضاف ثلاثاً، فأخذ الإمام عليه السلام بالقصاص منه:

«إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَ قَبْرًا أَنْ يَضْرَبَ رَجُلًا حَدًّا فَغَلِطَ قَبْرٌ فَزَادَهُ ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ فَأَقَادَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْرِ بَثَلَانَةَ أَشْوَاطٍ»^(٢).

ص: ٣٠١

١- (١). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٢٧

٢- (٢) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣١٢ (الحديث الثالث من الباب الثالث من أبواب مقدمات الحدود)

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، تَحَقُّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلِكُمْ آخِرِكُمْ.

اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبَقَاعِ وَالْبَهَائِمِ.

أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المسؤولية الشاملة

واصل الإمام عليه السلام مواعظه السابقة بتذكير القوم بالموت والتأكيد على الورع والتقوى أفضل زاد إلى الآخره فقال:

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ (١) مِنْ خَلْفِكُمْ». المراد من الأمر العام والخاص الموت، لأننا إذا نظرنا إلى عامه المجتمع البشرى نرى الموت مصير الجميع، وعليه فلموت بعد عام، وإن نظرنا لأنفسنا فقط فإننا نرى الموت حاضراً آخر أعمارنا، فله على هذا الأساس بعد خاص. واستناداً إلى تفسير الإمام عليه السلام بقوله:

«وَهُوَ الْمَوْتُ» (٢) فلا يبقى مجال للشك في تفسيرنا، والعجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغه من تفسيرهم للعبارة

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ» بإصلاح شؤون

ص: ٣٠٣

١- (١). «تحدوا» من ماده (حدو) حدى، على وزن حدو، بمعنى طرد الشر أو الصوت الخاص للحادى ثم أطلق على كل سوق
٢- (٢). لا بد من الالتفات إلى أن الضمير «هو» مذكر يعود إلى أمر وعليه لا بد أن تكون خاصه مجروره لا مفتوحه كماورد فى
النص

المجتمع. العبارات القادمة أيضاً تشير إلى أن ما ورد في هذه العبارة يتعلق بالموت ونهاية الحياة، لا إصلاح المجتمع البشرى والذى يعتبره مقوله أخرى. نعم؛ هنالك دليلاً على حقانيه الموت - على أنه قانون عام - أحدهما: إننا نرى بأم أعيننا الأفراد الذين كانوا سابقاً بيننا وقد التحقوا بهذه القافله ونحمل أجسادهم الخاليه من الروح على أكتافنا ونواريهم الثرى ونعود، فهل من فارق بيننا وبينهم أنهم يمضون ونبقى؟!

والآخر: إن علامات الحرکه باتجاه نهايه حياتنا الواحد بعد الآخر واضحه من قبيل الشيخوخه والعجز والمشيب وكسل الاعضاء. فهل يسع عاقل بعد هذين الدليلين أن يشعر باستثناء من هذا القانون؟

ثم خاض الإمام عليه السلام في هذه النتيجة بناءً على ما ورد في السابق وطالما كان الأمر كذلك قال:

«تَخَفَّفُوا تَلَحَّقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلِيكُمْ آخِرُكُمْ». أجل، إن سفر الآخرة سفر شاق ومتعب ولا يجتاز مطباته سوى المخفين، أولئك الذين قنعوا بالكفاف في الحياة الدنيا وعضوا الطرف عن جمع الثروه والعيش الرغيد الملىء بالكماليات، على غرار المسافر الذى يحمل معه ما يكفيه من الطعام للسفر فيمر بسهولة، بينما لا يسع المثقل إلا التخلف عن الركب والقافله. روى المرحوم السيد الرضى، العبارة الأخيرة باختلاف طفيف في الخطبه ٢١ وقال: إن العبارة

«تَخَفَّفُوا تَلَحَّقُوا» ما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً، وما أبعد غورها من كلمه. وقد قدمنا من جانبنا شرحاً وافياً بهذا الشأن (١). وحيث يتطلب سفر الآخرة زاداً ومتاعاً وخيره التقوى على لسان القرآن: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٢).

فقد واصل الإمام عليه السلام كلامه داعياً الجميع إلى التقوى فقال:

«اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ (٣) وَالْبِهَائِمِ (٤)».

ص: ٣٠٤

١- (١). نفحات الولاية، ج ٢، ص ٥

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ١٩٧

٣- (٣) «بقاع» جمع (بقعه) بمعنى مساحه من الأرض متميزه عنها، ووردت في العبارة بمعنى مطلق الأرض العامره

٤- (٤) «بهائم» جمع (بهيمه) بمعنى الحيوانات، ويشتمل السباع والطيور

ومفهوم التقوى فى العباد واضح يتمثل فى ترك آذاهم وحفظ حقوقهم ورعايه حرمتهم، أمّا تقوى البلاد فالسعى لإعمارها واجتناب تخريبها وعدم تلويث محيطها. وأمّا المسؤليه إزاء البهائم وعدم إيذاؤها عبثاً وتحميلها فوق طاقتها وتوفير متطلباتها من الغذاء والماء والدواء، وذهب بعض شراح نهج البلاغه فى تفسيرهم للمسؤليه فى البقاع فى عدم السكن فى بلدان الكفر التى يتعذر فيها القيام بالوظائف الدينيه وعدم تشييد القصور الضخمه للتناول على الآخرين وحب الظهور. إلّا أنّ الصحيح ما أوردناه من تفسير، والشاهد على ذلك، الروايات التى سنذكرها فى المبحث القادم. ولما كان مفهوم التقوى ربّما يبدو معقداً للبعض فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقته بوضوح، فقال:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ». والجدير بالذكر أنّ بدايه ونهايه الخطبه تتحد فى خصوص الخير والشر، حيث أشار فى مستهل الخطبه إلى مصدر الخير الذى يكمن فى الرجوع إلى القرآن.

تأمل: سلامه البيئه وحمايه الحيوانات فى الإسلام

إنّ التطور الصناعى ورغم فوائده الجمه للبشرية، إلّا أنّه أخذ يهدد بالصميم سلامه البيئه وتلوثها، وهذا ما يهدد بدوره العديد من الكائنات ويعرضها إلى خطر الزوال، وإن استفيد من الأسلحه الفتاكه ولا سيما أسلحه الدمار الشامل فإنّ حجم الكارثه يبدو مفعجاً، ومن هنا هبّ عالمنا المعاصر لأخذ التدابير اللازمه بغيه الحفاظ على سلامه البيئه والحيلوله دون انقطاع نسل الحيوانات، على الرغم من العراقيل التى يضعها أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يفكرون سوى فى التنميه لثرواتهم فحدّوا من نشاطات الفرق القائمه على أساس تطهير البيئه ولا يعلم بعمق الفاجعه التى ستشهدها الأجيال القادمه. أمّا زعماء الإسلام وحماه الدين فقد أكدوا

على هذا الموضوع قبل ألف سنة، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى الخطبه المذكوره شاهد على ذلك، كما وردت عدّه روايات عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بهذا الخصوص حيث أكدوا على هذه المسأله المهمه، ومن تلك الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رأى ناقه نائمه وجهازها على ظهرها بينما قيدت رجلها (والحال يجب أن تستريح الدابه فلا يبقى شىء على ظهرها) فقال:

«أَيْنَ صَاحِبِهَا؟ مَرُوهُ فَلَيْسَتْ عِدَّةً غَدًا لِلْخُصُومِ»^(١).

وروى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَمَا تَتَوَرَّكُوا عَلَى الدَّوَابِّ وَلَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَهَا مَجَالِسَ»^(٢) إشاره إلى أنكم إن رأيتم أصحابكم وأنتم على ظهر الدابه فأنزلوا لتتحدثوا معهم فإن تم حديثكم فاركبوا^(٣).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةٌ حُقُوقٍ لَا يُحْمَلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يَتَّخِذُ ظَهْرَهَا مَجَالِسَ يَتَحَدَّثُ عَلَيْهَا وَيَبْدَأُ بَعْلَفِهَا إِذَا نَزَلَ وَلَا يَسْتَمُّهَا وَلَا يَضْرِبُهَا فِي وَجْهِهَا فَإِنَّمَا تُسَبِّحُ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءُ إِذَا مَرَّ بِهِ»^(٤). فهذه الروايات وغيرها تفيد مدى دقه الإسلام فى مجال حمايه الحيوانات ورعايه حقوقها، ولا نرى دينا كالإسلام أوصى بهذه التعاليم. أما بشأن عدم تلويث البيئه فقد ورد النهى عن تلويث مياه الأنهار وكذلك تحت الأشجار المثمره ومقابل أبواب الدور وموضع نزول القوافل وأطراف المساجد^(٥). كما ورد فى الوصايا الحريه عدم قطع الأشجار أو حرقها أو ردم عيون الماء والنهى عن تلويث مياه الأعداء^(٦).

ص: ٣٠٦

١- (١) وسائل الشيعه، ج ٨، ص ٣٩٤

٢- (٢). ورد فى بعض المصادر اللغويه أن التورك على الدابه، وضع الرجل على الأخرى فوق سرج الدابه

٣- (٣) اصول الكافى، ج ٦، ص ٥٣٩

٤- (٤). المصدر السابق، ص ٥٣٧، ح ١

٥- (٥). وسائل الشيعه، أحكام الخلو، الباب ١٥

٦- (٦) المصدر السابق، كتاب الجهاد، الباب ١٦ و ١٥ باب جهاد العدو

بَعْدَمَا بُويعَ بِالْخِلافِهِ

وَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: لَوْ عَاقَبْتَ قَوْمًا مِمَّنْ أَجْلَبَ عَلَى عُثْمَانَ؟ فقال عليه السلام: (١).

نظره إلى الخطبه

كما ورد آنفاً فإنَّ قوماً من الصحابه طلبوا من الإمام عليه السلام بعد أن بويع بالخلافه أن يعاقب أولئك الذين ثاروا على عثمان وقتلوه، فأقنعهم الإمام عليه السلام بأنَّ ذلك ليس في أوانه، لأنَّهم متَّحدون وخلفهم اناس كثيرون، يقفون بوجه كل من يقف ضدهم ولا يتخرجون من عمل.

ص: ٣٠٧

١- (١) سند الخطبه: المصدر الوحيد الذي ذكرها غير نهج البلاغه، تاريخ الطبرى فى حوادث سنه ٣٥ هـ (مصادر نهج البلاغه، ج

يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةِ وَالْقَوْمِ الْمُجَلِبُونَ عَلَى حَيْدِ شَوْكِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ تَارَتْ مَعَهُمْ عَيْنَانُكُمْ، وَالتَّفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا؛ وَهَلْ تَرُونَ مُوضِعًا لِقُدْرِهِ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ حَيْهَلِيهِ، وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ - إِذَا حُرِّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَمْ تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ لَمْ تَرَى هَذَا وَلَمْ ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدِيَ النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُوخَّذَ الْحُقُوقُ مُسِيحَةً؛ فَاهْدُوا عَنِّي، وَأَنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَمَا تَفْعَلُوا فَعَلَهُ تَضَعُ قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مِنْهُ، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً. وَسَأَمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيْ.

الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبه قتله عثمان

هذه الخطبه، كما ذكر، ردّ على بعض أصحاب الإمام عليه السلام الذين طالبوه بالقصاص من قتله عثمان، حيث تطرق إلى هذا الموضوع على ضوء تحليل دقيق، فقال:

«يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةِ». عاده ما يتصور البعض أنه توصل إلى قضيه لو إهتم بها الحاكم لكانت لصالح المجتمع الإسلامي، والواقع أنهم يرون شيئاً دون ملاحظه ملابساته، فهناك حاله من الغموض فى القضيه يجهلونه. ومن هنا أردف الإمام عليه السلام عبارته السابقه بشرح للظروف الاجتماعيه

القائمة آنذاك ليتضح لهم عدم عمليه اقتراحهم، فقال:

«وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ (١) عَلَى حَيْدٍ شَوْكِيهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ!». كيف يمكن الوقوف بوجه فئه متحده وغازبه أوائل الخلافه؟ وهل هناك سوى سفك المزيد من الدماء دون جدوى؟! والشاهد على ذلك ما رواه بعض شراح نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام جمع الناس ووعظهم.

ثم قال:

«لتقم قلته عثمان» فقام الجميع سوى قله قليله (٢). ثم أشار عليه السلام إلى نقطه أخرى، فقال:

«وَهَاهُمْ هُوَلاءِ قَدْ تَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالتَّفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ (٣) مَا شَأُؤُوا». يستفاد من هذه العبارات أنّ الثوره ضد عثمان كانت متجذره وقد أسهم المحرومون فيها بصوره واضحه.

ثم قال عليه السلام

«وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرِهِ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ!». إشاره إلى أنّكم لا تستطيعون القيام بعمل في ظل هذه الظروف ولا أنا. ومارس عليه السلام تحليلاً آخر للتأكيد على هذا الأمر، فقال:

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ، وَإِنَّ لَهُوْلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةٌ». إشاره إلى أنّه إن وجب مؤاخذه عثمان لسوء تصرفه في بيت مال المسلمين وتسليطه فساق القوم على رقاب المسلمين وإغداق المناصب عليهم، فلا بدّ أن تتمّ من خلال الطرق الشرعيه وقضاه العدل، ونتيجه العمل غير المدروس إنّما هو ضرب من ضروب الأنشطة الجاهليه، وقوله: إنّ لهؤلاء القوم ماده، تأكيد لتلك الحقيقه التي ذكرها في عبارته السابقه من أنّ تلك الفئه ليست وحيدته في الساحه، بل يقف خلفها الأعراب وطائفه من الساسه المحترفين المتعطشين للمناصب، وعليه فليس من المصلحه الإصطدام بها.

ص: ٣١٠

١- (١). «مجلبون» من ماده (جلب) على وزن كلب، بمعنى السوق والطرده وتطلق على الأفراد الذين يغيرون مواقفهم بسهولة،

وجلب، على وزن غضب، وإجلاب، بمعنى الجمع، ومجلبون، هنا إشاره إلى الثوار الذين جمعوا الناس ضد عثمان

٢- (٢). منهاج البراعه، ج ١٠، ص ١٠٢. روى الحديث المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣

٣- (٣). «يسومونكم» من ماده (سوم) على وزن قوم، بمعنى البحث عن الشيء، كما وردت بمعنى تكليف الآخرين بعمل

كما واصل كلامه بأن الاشتباك مع قتله عثمان يؤدي إلى تفرقه صفوف المجتمع، فقال:

«إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ - إِذَا حُرِّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَاتَرُونَ، وَفِرْقَةٌ لَاتَرَى هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ (١) النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤَخَذَ الْحُقُوقُ مُسَمَّحَةً (٢)».

ثم أورد تأكيداً آخر:

«فَاهْدُوا عَنِّي، وَأَنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَهُ تَضَعُضِعُ (٣) قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مِنْهُ (٤)، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً». إشارة إلى أن عدم التآني في القضايا الاجتماعية ربما يعطى نتائج معكوسة، فلا ينبغي القيام بفعل دون توفر شروطه، ذلك لأن الخفاق فيه يؤدي الذله والهوان. كما ورد شبيه ذلك في الخطبه الخامسة:

«وَمُجْتَنِي الثَّمَرَ لِعَيْرٍ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّرَارِعِ بَعَيْرِ أَرْضِهِ» (٥).

وأخيراً اختتم الخطبه بهاتين العبارتين:

«وَسَأْمَسِكَ الْأَمْرَ مَا اسْتَيْمَسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُيْدًا فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيْ (٦)». ربما تكون هذه العبارة بفعل ضغوط طلبه الثأر لدم عثمان، حيث قال عليه السلام: سأصمد ولن ألجأ إلى السيف، لكن إن شعرت بغلق أبواب السلام فسأضطر إلى القوه وأنهى التمرد. الاحتمال الآخر أن هذه العبارة إشارة إلى أولئك الذين تذرعوا بدم عثمان ليقفوا بوجه الإمام عليه السلام كطلحه والزبير. فصرح الإمام عليه السلام بأنه سيعاملهم بالطرق السلميه وإلا لجأ إلى القوه. طبعاً لا يبدو هذا الاحتمال منسجماً مع الخطبه، حيث لم ترد أدنى إشارة في الكلام إلى طلحه والزبير وأمثالهما، إلا أن يكون السيد الرضى قد حذف بعض الكلمات، وهذا أيضاً يبدو مستبعداً. أما العبارة

«فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيْ» فهو مثل معروف ورد في الأصل بشأن

ص: ٣١١

١- (١). «يهدأ» من ماده (هدوء)، معروفه

٢- (٢) «مسمحه» من ماده (سماح وسماحه) السهوله واليسر، وتعنى أحياناً السخاء والكرم أو الموافقه، والمعنى الأول هو المراد بها في العبارة

٣- (٣). «تضعضع» من ماده (ضعضعه) بمعنى الهدم والتخريب

٤- (٤) «منه» بمعنى القوه

٥- (٥) نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٨٩

٦- (٦). «كى» على وزن حى، احراق بدن الإنسان أو الحيوان بحديده ساخنه وما شابه ذلك

الجروح الخطيره حيث كانوا يسلكون عدّه طرق لعلاجها فإن لم تنفع أحرقوا الجرح بحديد ساخن، ثم أصبحت هذه الجملة كناية عن القضايا المشابهه، وعليه تستعمل هذه العبارة حين تغلق الطرق السلميه كافه(١).

تأملان

١. معوقات العدالة

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه مطلب جدى، لا- كما تصور البعض أنه يهدف إلى إسكات المقابيل. حقاً كان الثائرون على عثمان آنذاك أشداء، حتى لم يجرأ على مجابتهم حين قتلهم لعثمان بعض الصحابه الموالين له. والأهم من ذلك أن معاويه حين تسلّم الخلافه وعبء كل طاقاته للمطالبه بدم عثمان، لم يستطع مواجهه قتله عثمان فضلاً عن التعرف عليهم، بل لما ورد معاويه المدينه وسيطر على الأوضاع أتجه إلى دار عثمان، فصاحت بنته عائشه: أينك يا أبى؟ ومرادها الثأر من قتله عثمان. فرد عليها معاويه بأنّ الناس قد استسلموا لنا وأعطيناهم الأمان وقد حملناهم على الحلم وسيوفنا لم تغمد، فإن نقضنا عهدنا نقضوا عهدهم ولا- ندرى ينفعنا ذلك أم يضرنا (فالأولى أن نسكت ولا تضعف خلافتنا) وأنت بنت عمّ الخليفه خير لك أن تكونى من عوام النساء، أى إن زالت خلافتى فسوف لن تكونى أكثر من امرأه عاديه(٢).

٢. إشكال الثوار

لا- شك في أن الثوره التى قامت ضد عثمان كانت متجزره، ذلك لأنّ أنصار عثمان وبطانته لم يكونوا قلائل في المدينه. لم يتمكنوا من الوقوف بوجههم واكتفى

ص: ٣١٢

١- (١) قال المرحوم العلامه المجلسى في بحار الأنوار إنّها وردت في أغلب النسخ: آخر الداء الكى، بمعنى أن ختام الألام الصعبه الحرق، لكن هذا المعنى مستبعد (بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣)

٢- (٢) العقد الفريد، ج ٥، ص ١١٣

المهاجرون والأنصار بالنظر إلى الأحداث. وسبب ذلك واضح، فقل من كان راضياً بحكومته عثمان واقتصر هذا على قرابته وبطانته التي عثت بيت المال وتسلطت على رقاب الناس. وأن كل محقق منصف لا يرى من مبرر لما وقع من أعمال على عهد خلافه عثمان. فقد كان من الأجدر بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أن يقتادوه إلى القضاء، تجنباً لغضب الأئمة ومباشرتها لوضع حد لأعمال عثمان. وعليه فالإشكال الرئيسي الذي يرد على الثوار أنهم تصرفوا بعيداً عن قوانين الإسلام القضائية، وقد لمسنا دور الإمام عليه السلام إبان محاصره عثمان وامتصاصه لنقمه غضب الناس وأمره الحسن والحسين بالدفاع عن عثمان. ونخلص مِمَّا سبق إلى أن جواب الإمام عليه السلام في هذه الخطبة كان دقيقاً ينسجم وروح الأحكام الشرعية والقضائية في الإسلام.

عِنْدَ مَسِيرِ أَصْحَابِ الْجَمَلِ إِلَى الْبُضْرَةِ

الْأُمُورَ الْجَامِعَةَ لِلْمُسْلِمِينَ (١)

نظرة إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه من قسمين:

القسم الأول: دعوه الناس إلى طاعه الحكومه الإسلاميه عقب اتباع القرآن الكريم ونبذ البدع المضله، ويحذرهم من أن الله يسلبهم النعمه إن لم يطيعوه، وبالتالي يعدهم لمواجهة الناكثين.

القسم الثانى: أشار فيه إلى اتحاد أعداء الحق رغم اختلافهم وإجماعهم على الوقوف بوجه الإمام عليه السلام وأنه سيصبر فإن أصرّوا على غرضهم فى القضاء على النظام الإسلامى فسأقف بوجههم بكل حزم.

ص: ٣١٥

١- (١) سند الخطبه: لم يذكر هذه الخطبه، سوى الطبرى فى حوادث سنه ٣٦ فى تاريخه ج ٣، ص ٤٦٥ (ذكر الطبرى، القسم الأول من الخطبه فقط)

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَيَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ.

وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمَشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا.

وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَيَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرَ إِلَيَّ غَيْرِكُمْ.

الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومه الإسلاميه

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه حين علم باتحاد الناكثين واقامتهم حكومه فى البصره مناوئه لحكومته العادله عليه السلام وقد انطلقوا إلى البصره. وهدف الإمام عليه السلام من هذه الخطبه تعبئه الناس لمواجهةهم. دعاهم بادية الأمر إلى التمسك بالقرآن، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَيَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ (١)». ثم حذرهم قائلاً:

«وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ (٢) الْمَشَبَّهَاتِ (٣) هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا».

إشاره إلى أن رؤوس الفتنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يسعون إلى تحقيق أهدافهم الخبيثه

ص: ٣١٧

١- (١). «هالك» من ماده (هلا-ك) تعنى فى الأصل الموت والفتنة، لكنها ترد أحياناً بمعنى الهلكه المعنويه وهى الضلال والبؤس والشقاء، والمراد بها فى العبارة الهلكه المعنويه، فمعنى لا- يهلك عنه إلا الهالك أنه لا- يضل ألماً من استعداد للضلال والهلكه

٢- (٢) «مبتدعات» من ماده (بدع) على وزن بدر، ظهور الشىء دون سابقه، وتطلق فى الرد على ما خالف الكتاب والسنة، وعليه فالمبتدعات الطرق المخالفه للكتاب والسنة

٣- (٣) «مشبهات» البدع التى تلبس ثوب الدين وتوجب الضلال

تحت غطاء الإسلام، كأن يغفلوا نكثهم البيعه بالمطالبه بدم عثمان. وعليه، ينبغي التحلى باليقظه وعدم الانخداع بالظواهر والتوكل على الله.

ثم دعاهم إلى الطاعه فقال:

«وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِضْمَهُ إِتْمَارِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ (١) وَلَمَّا مُسِيَّتْ كَرِهَ بِهَا. وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَيَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرَزَ (٢) الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ».

نعم، إن هذه النعمه عقوبتها الزوال إن لم تُشكر، وهكذا شأن سائر النعم: «لَيَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (٣) وما يستفاد من العباده المذكوره (بناءً على أن «حتى» للغايه) أنكم إن لم تطيعوا إمام الحق، فإن الله يسلبكم نعمه الحكومه الإسلاميه ولا تعود إليكم، إلّا أن يسلط عليكم العدو وتزول حكومته ثم تعود إليكم. وقد حيرت هذه العبارة الشراح، ذلك لأن الحكومه غير الصالحه بعد الإمام كانت بيد بنى أميه ولم تعد الحكومه بعد بنى أميه لأهل البيت عليهم السلام. قال البعض عادت إلى بنى العباس وهم من بنى هاشم وعليه فقد عادت إلى أهل البيت، إلّا أن هذا التفسير غير مستقيم لأن ظلم بنى العباس لم يكن أقل من ظلم بنى أميه.

واحتمل البعض الآخر أن عوده الحكومه إلى أهل البيت عند ظهور ولى العصر أرواحنا فداه. نعم، ليست هنالك من مشكله إن كانت (حتى) عاطفه بمعنى الواو، لأن معنى العبارة سيكون: إن لم تطيعوا إمام الحق سيسلبكم الله الحكومه الإسلاميه ولا تعود إليكم وسيكون الأمر لغيركم (طبعاً المراد فى المستقبل القريب، وإلّا ليس من شك فى المستقبل البعيد لحكومته صاحب العصر والزمان عليه السلام والتي تمثل عوده الحكومه العالميه لأهل البيت عليهم السلام).

ص: ٣١٨

١- (١). «ملومه» من ماده (لوم) على وزن قوم، معروفه

٢- (٢) «يأرز» من ماده (أرز) على وزن فرض، بمعنى الجمع

٣- (٣). سوره إبراهيم، الآيه ٧

إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَّؤُوا عَلَى سَخَطِهِ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخْفَ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيْالِهِ هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرِهِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الصبر على الفتنه

بالنظر إلى ورود الخطبه في أوائل خلافه الإمام عليه السلام وإبان السير إلى البصره لمواجهه أصحاب الجمل فقد حث الإمام عليه السلام أصحابه في القسم الأول، على الطاعه، وحذر هنا، العدو من مغبه مواصله الفتنه وإلا سيقف بوجههم بكل ما أوتى من قوه فقال:

«إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَّؤُوا (١) عَلَى سَخَطِهِ (٢) إِمَارَتِي». إشاره إلى اختلافهم ففهم المنافق والحسود والضيق الافق (كطلحه والزبير) ولا يجمعهم سوى عدائهم لى.

ثم قال:

«وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخْفَ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ». فالعبارة تشير إلى تحمل الإمام عليه السلام لذلك العدو، ويرى عدم ضروره المبادره إلى السيف ما لم يكن هناك خطر يهدد الجماعه، وبالطبع، هذا لا يعنى أن الإمام عليه السلام كان يسكت تجاه كل أعمالهم.

ومن هنا قال عليه السلام

«فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيْالِهِ (٣) هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ». ثم

ص: ٣١٩

١- (١). «تمالؤوا» من ماده (ملائه) تعاونوا على أمر، وعليه فمفهوم تمالؤوا أنهم اتحدوا وتعاونوا

٢- (٢) «سخطه وسخط» بمعنى واحد الغضب

٣- (٣). «فَيْالِهِ» ضعف الفكر

قال:

«وَأَيْمًا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَىٰ أَدْبَارِهَا». فقد أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله الحكومه من صورتها الدنيويه والماديه ومنحها صبغه ربانيه بجهود الأولياء والأصفياء، إلّا أنّ أصحاب الجمل يظنون أنّ الحكومه لقمه سائغه وطعمه هنيئه فيصرون على اقتناصها وتحقيق أغراضهم الدنيويه.

والعبارة

«حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا» بالنظر إلى أنّ أفاء من ماضيه في بمعنى العوده فإنّها تشير إلى أنّ الحكومه على عهد النبي صلى الله عليه وآله كانت في بني هاشم وقد عادت إليهم الآن. وإن سعى الحساد لاستعادتها واحياء سنن الجاهليه.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالإشارة إلى حقوق الناس على الحكومه، فقال:

«وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسَيَرِهِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ (١) لِسُنَّتِهِ». أي إن كان لى عليكم حق (وهو حق الطاعة والانقياد التام) فلكم على حق أيضاً هو إحياء كتاب الله وسننه رسوله صلى الله عليه وآله، ذلك لأنّ للحق طرفين، وليس هنالك من حق ذى طرف واحد. جدير ذكره أنّ الخطبه بدأت وانتهت بالتأكيد على أهميه القرآن.

ص: ٣٢٠

١- (١). «نعش» بمعنى الرفع والحمل، ويقال لجسد الميت، النعش، لرفعه على الأيدي وحمله إلى القبر

فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ (١)

كَلَّمَ بِهِ بَعْضَ الْعَرَبِ وَقَدْ أُرْسِلَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ لَمَّا قَرَّبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا لِيَعْلَمَ لَهُمْ مِنْهُ حَقِيقَةَ حَالِهِ مَعَ أَصْحَابِ الْجَمَلِ لِتُرُورِ الشُّبْهَةِ مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَبَيَّنَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ مَا عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: بَايِعْ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَلَا أُحَدِّثُ حَدَثًا حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ:

نظرة إلى الخطبة

الخطبة، كما ورد، سابقاً، جواب واضح لرسول بعض قبائل أطراف الكوفة والبصرة حين طالبه الإمام عليه السلام بالبيعة وحاول التهرب منها.

ص: ٣٢١

١- (١) سند الخطبة: أوردها العديد قبل السيد الرضى، ومنهم المرحوم الشيخ المفيد في كتابه الجمل عن جمل الواقدي (كتاب الجمل للشيخ المفيد، ص ١٥٦) ورواها الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٦ هجرية، والزمخشري في ربيع الأبرار في باب الجوابات المسكتة

فقال: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِدًا تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكُهُمْ وَمُخَالَفَهُمْ إِلَى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ.

فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: فَاْمُدُّ إِذَا يَدَكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنَعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالرَّجُلُ يُعْرَفُ بِكَلِيبِ الْجَرْمِيِّ.

الشرح والتفسير: لماذا لا تبايع

روى الواقدي في كتاب الجمل عن (كليب الجرمي) أنه لما قتل عثمان ولم تمضى مدّة حتى قدم طلحة والزبير إلى البصره (ليمهدوا السبيل أمام حكومتهم) وحين علم على عليه السلام قدم إلى منطقه ذى قار (لمنعهما). سألتنى شخصان من أهل البصره لأحملهما إلى على، لنعلم ما هدفه؟ فلما بلغنا ذى قار وجدنا علياً عليه السلام أعقل العرب، سألتنى من زعيم قبيله بنى راسب؟ قلت فلان. قال من زعيم قبيله بنى قدامه؟ قلت فلان. قال: هل لك أن تحمل كتابى لهما؟ قلت: بلى. قال: ألا تبايعنى؟ وهنا بايع الرجلان، بينما لم أبايع، فالتفت إلى عدد من الرجال الذين كان عليهم سيماء الصالحين فقالوا: بايع، بايع. قال على عليه السلام: دعوه. فقلت: أنا رائد القوم فأعود إليهم وأخبرهم فإن بايعوك أبايعك وإن لم يبايعوا، تبعتم، فأجابنى الإمام عليه السلام جواباً لم أجد بداً من البيعه. نعود الآن إلى النصّ لنرى ماذا قال له عليه السلام لقد قال:

«أَرَأَيْتَ لَوْ

أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِدًا (١) تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلْبِ (٢) وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ (٣) وَالْمَجَادِبِ (٤)، مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكُهُمْ وَمُخَالَفَهُمْ إِلَى الْكَلْبِ وَالْمَاءِ.

فما كان هنا من الإمام عليه السلام إلَّا أن ابتدره:

«فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : فَأَمُدُّ إِذَا يَدَكَ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنَعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»

قال السيد الرضى:

«وَالرَّجُلُ يُعْرَفُ بِكَلْبِ الْجَزْمِيِّ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى جوابه المذكور إلى حقيقة مهمّة يحل الالتفات إليها الكثير من المشاكل. فكثيرون هم الأفراد الذين يفخرون بانصهارهم بالجماعة وتلونهم بلونها، فهم يفتقرون إلى الاستقلال الفكرى بحيث لا يطيقون الانفصال عن الجماعة - وإن كانت ضاله - وهذا ما يؤدى إلى انتقال الخرافات والمساوىء من جيل إلى آخر. فالإمام عليه السلام يفند هذا اللون من التفكير بمثال واضح حيث قال: لو كنت ضمن جماعة وبلغت موضعاً فى الصحراء حيث الماء والغذاء، بينما انحرفت الجماعة إلى موضع مجذب خالٍ من الماء والغذاء، فهل تبقى معهم أم ترجع إلى عقلك؟ فتفصل عنهم وتسلك سبيل العافية والسلامة، هل من عاقل يبقى فى هذه الحالة مصراً على الجماعة؟! قطعاً لو كان الإنسان مستقلاً فكرياً فإنه يسلك الطريق المستقيم أن تعرف عليه وإن سلكه لوحده. وهذا من قبيل ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه ٢٠١ حين قال

«أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلِّهِ أَهْلِهِ». نعم، مبايعه إمام كعلى بن أبى طالب عليه السلام مجادب، جمع مجذب، المكان الذى لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه. وقبول ولايته تمثل ماء الحياه فى

ص: ٣٢٤

١- (١). «رائد» من ماده (رود) على وزن ذوب، بمعنى اللقاء، وتطلق عادة على من ينطلق أمام القافله أو الجيش ويستطلع المكان المناسب من حيث الماء والغذاء

٢- (٢). «كلاء» النباتات الطويل

٣- (٣) «معاطش» جمع (معطش) الموضع الذى يعطش فيه الإنسان

٤- (٤) «مجادب» جمع (مجدب) المكان الذى لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه

ذلك المجتمع الذي شهد فساد عصر عثمان، ولم يكف هذا الرجل يسمع كلام علي عليه السلام حتى بايعه.

تأمل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام

يفيد الكلام المذكور مدى عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام في المستمع، والجدير بالذكر أن هذا الأمر حدث بالنسبة لرسول عائشه ورسول طلحه والزبير. ولما همت عائشه ببعث رسولٍ إلى علي عليه السلام، سألت القوم أن يأتوها بأشد أعداء علي عليه السلام فأعطته عائشه كتابها وحذرتة من تناول طعامه وشرابه ففيه سحر. فأتى بكتاب عائشه إلى علي عليه السلام، فلما أعطاه الكتاب قرأه ودعاه إلى بيته ليتناول الطعام حتى يكتب له الجواب، فأقسم الرجل على عدم الذهاب. فقال له الإمام علي عليه السلام: هلا- تجيبي إن سألتك؟ قال: بلى. قال علي عليه السلام: ناشدتك الله حين أرادت عائشه أن تبعث برسولها ألم تسأل القوم عن رجل شديد العداوة لعلي، فأتوا بك إليها وسألتك عن عدائي فأجبت كذا وكذا؟ قال: بلى. قال علي عليه السلام: ألم تحذرك من تناول الطعام فإن فيه سحر؟ قال: بلى. قال علي عليه السلام: أتكون رسولي؟ قال: بلى والله. لقد قدمت إليك وأنت أبغض الخلق إليّ والآن أنت أحب الخلق إليّ. قال علي عليه السلام: إذهب بكتابي هذا إلى عائشه وقل لها: لقد عصيت الله وعصيت رسول الله صلى الله عليه وآله حيث خرجت من بيتك. وقل لطلحه والزبير: حفظتم نساءكم وأبرزتم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله. فقدم الرجل وسلم عائشه الكتاب، وقال لها ما أوصاه الإمام عليه السلام، وقد قتل هذا الرجل في صفين مع علي عليه السلام.

قالت عائشه: ما أرسلنا من رجل إلى علي إلّا عصانا وتمرد علينا(١). وقد حصل مثل هذا الأمر لرجل يدعى خدّاش رسول طلحه والزبير، وقد ورد شرح ذلك في

ص: ٣٢٥

١- (١). شرح نهج البلاغه للخوئي، ج ١٠، ص ١١٥ بتلخيص طفيف

كتاب الكافي للمرحوم الكليني، (١) وخلاصته، أن هذا الرجل أتى بكتاب طلحه والزبير إلى أمير المؤمنين على عليه السلام وقد حذراه سابقاً من بيان على عليه السلام الذي يسحر العقول فلا ينبغي أن يجالسه ويتناول معه الطعام ولا يطيل النظر إلى وجهه وأن يقرأ عند رؤيته، آية السحرة: «إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتِّهِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ مَسِيرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ» (٢).

ليأمن من سحره. فلما قدم إلى الإمام عليه السلام نظر إليه وضحك ثم قال: أجلس. قال:

لا. قال عليه السلام: نأتيك الطعام ثم قل ما عندك. قال: لا حاجة بي إلى ذلك. قال عليه السلام: تعال نتحدث في مجلس. قال ليس لدى ما أخفيه. قال عليه السلام: قل الصدق، ألم يأمرك الزبير بذلك؟ قال: بلى. قال عليه السلام: أخبرك أن تقرأ آية السحرة إن رأيتني؟ قال: بلى. فأخذ يقرأها والإمام عليه السلام يقرأ معه، ثم قال عليه السلام: كزرها، حتى كزرها سبعين مره. قال عليه السلام: قل ما عندك؟ فقال له ما أوصاه طلحه والزبير، فرد عليه السلام على تناقضاتهما وجعل (خداش) يصدقه حتى قال لنفسه: لقد جئت بكتاب يبطل بعضه بعضاً؟ إلهي أبرء إليك منهما؟ قال عليه السلام: قل لهما ما قلت لك، قال: خداش والله لا أبرح حتى تسأل الله أن يرجعني إليك. ففعل الإمام عليه السلام فرجع إلى طلحه والزبير وأوصل كتاب الإمام عليه السلام إليهما ثم عاد مسرعاً إلى الإمام عليه السلام حتى قتل بين يديه في الجمل.

ص: ٣٢٤

١- (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٣٤٣

٢- (٢) سورة الأعراف، الآيات ٥٤-٥٦

لَمَّا عَزَمَ عَلَى لِقَاءِ الْقَوْمِ بِصَفِّينَ (١)

نظرة إلى الخطبه

هذه الكلمات ليست خطبه وليست كلاماً عادياً، بل هي دعاء عظيم المعنى لهج به الإمام عليه السلام حين عزم على مواجهه القاسطين في صفين معاويه ورهطه في شهر صفر سنة ٣٧ هـ واختتمه بدعوه صحبه إلى الجهاد. ويتضمن كلامه قسمين:

الأول: دعاء يثنى فيه على الله بما يرسخ الإيمان لدى الآخرين ويسأله تعالى التسديد إلى الحق والثبات إن انتصر على عدوه، وأن ينعم عليه بالشهادة والإبتعاد عن الفتنة إن كانت الغلبة للعدو.

أمّا القسم الثانى: فقد دعى فيه صحبه لجهاد معاويه ورهطه من خلال عبارات قصيره، لكنها تثير الحماس والقوه.

ص: ٣٢٧

١- (١) سند الخطبه: روى هذا الدعاء قبل السيد الرضى، كل من نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، وحسين بن سعيد الأهوازى فى كتاب الدعاء والذكر، حسب نقل السيد ابن طاووس رحمه الله فى منهج الدعوات، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٧ هـ. (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤١١)

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ شَيْكَاَنَهُ سَبْطًا مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ؛ وَرَبِّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَارًا لِلنَّامِ، وَمَدْرَجًا لِلهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَا يُحْصِي مِمَّا يَرَى وَمِمَّا لَمْ يَرِ؛ وَرَبِّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلأَرْضِ أُوتَادًا، وَلِلخَلْقِ اعْتِمَادًا، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عِدُونَا، فَجَنَّبْنَا البُغْيَ وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ.

أَيْنَ الْمَانِعِ لِلذَّمَارِ، وَالْغَائِرِ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! الْعَارُ وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

الشرح والتفسير: الجنة أمامكم

كما ذكرنا سالفًا فإنَّ الإمام عليه السلام استهل خطبه بدعاء روى عميق المعاني ليعد نفسه وصحبه للقاء العدو، وحيث يحمد الله في الدعاء بصفات تعد القلوب فإنَّ الإمام عليه السلام حمد الله في هذا الدعاء باسم ربِّ السموات والأرض وربِّ الجبال فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ (١) الْمَكْفُوفِ (٢)، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا (٣)»

ص: ٣٢٩

١- (١). «جو» بمعنى السماء، وردت بمعنى الهواء

٢- (٢) «مكفوف» بمعنى المتراكم، كما جاء بمعنى المقيد، ومن ماله (كف)، بمعنى الجمع أو المنع

٣- (٣) «مغيض» بمعنى موضع نفوذ الماء، كأنَّ الجو كالأرض يبتلع في صدره الليل والنهار، وهذه المفردة من ماله (غيض) على وزن فيض، بمعنى استقرار الماء في عمق الأرض

لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِّلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السِّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُبْحَانَهُ سَبْطًا (١) مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ (٢) مِنْ عِبَادَتِكَ». العباره

«السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ» إشاره إلى موضع النجوم التي تشاهد في السماء بصوره سقف - وقد سحبت من الشرق والغرب والشمال إلى الجنوب - أو إشاره إلى جو الأرض، أى طبقه الهواء التي تحيط بالأرض بقطر طوله مئتي كيلومتر ويحفظها كسقف من الأشعه الكونية القاتله والصخور السماويه الثائنه(٣). إلّا أنّ التفسير الأول أنسب، وعليه فالسقف المرفوع محل نجوم العالم العلوى والتي تبدو لأهل الأرض كالسقف، ومفهوم مجرى الشمس والقمر... بهذا المعنى.

«وَالجَوِّ الْمَكْفُوفِ» طبقه الهواء المحيطه بالأرض موضع ظهور الليل والنهار (فالليل ظل الأرض ويظهر في هذا الجو المكفوف وكذلك النهار موضع شروق الشمس).

وربما تشير العباره مختلفا

«وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السِّيَّارَةِ» إلى جميع نجوم السماء السابحه في هذا الفضاء الواسع، حيث تطلع كل ليلة من أفق المشرق تغيب في أفق المغرب، أمّا إن كانت (النجوم السياره) إشاره إلى السيارات الخمس المعروفه للمنظومه الشمسيه فإنّ المفرده (مختلفاً) تشير إلى حركتها الخاصه في السماء، وكأنّها تتقدم قليلاً ثم تعود ثم تنطلق (وإن لم تكن كذلك في الواقع). ضمناً، فإنّ الكلمات المذكوره على غرار التعبيرات القرآنيه التي تنسجم وعلم الفلك المعاصر وتنفي نظريه بطليموس، وذلك لأنّ معنى مجرى الشمس والقمر، هاتين الكرتين مستقلتان في حركتهما في السماء، وكذلك النجوم، لا أنّها مشدوده إلى أفلاك بلوريه وتتحرك معها.

ثم أشار عليه السلام إلى الأرض وكائناتها الحيه فقال:

«وَرَبِّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا

ص: ٣٣٠

١- (١). «سبط» بمعنى القبيله والطائفه، وتعنى في الأصل، اتساع الشىء بسهولة، ولما كانت الطوائف تتسع فقد اطلقت عليها هذه المفرده

٢- (٢) «يسأمون» من ماده (سأمه) بمعنى التعب عن مواصله العمل

٣- (٣). راجع التفسير الامثل، ذيل الآيه ٣٢ من سوره سبأ

قَرَارًا لِلنَّامِ، وَمَدْرَجًا (١) لِلهُوَامِ (٢) وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَأُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَأُتْرَى».

إن هذه العبارات تفيد احاطه الإمام عليه السلام العلميه بجميع الكائنات على الأرض والتي تشمل الإنسان والحيوانات الأهلبيه وغير الأهلبيه حتى الديدان التي لا ترى بالعين المجرّده كأنواع الميكروبات والفيروسات. وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد من (ما لا- يرى) الأحياء المتناثره فى الصحراء والتي لا- يراها أحد، وقالوا: لو أوقدت نار فى الصحراء فى ليله مظلمه لا-جتمعت حولها ديدان لم يرها الإنسان، ولكن بالنظر إلى الاكتشافات الحديثه بشأن الأحياء المجهرية التي لا- ترى بالعين المجرّده لا تبدو هناك حاجه لمثل هذا التفسير، فهناك طائفة من الأحياء التي لا ترى بأى شكل من الأشكال، وهذا الكلام من كرامات الإمام عليه السلام التي أماطت اللثام عن حقيقه كانت خفيه على الجميع آنذاك. وعبر عن الإنسان بالقرار (موضع الإستقرار والإقامه) وعن الحيوانات بالمدرج (موضع السير البطئ والتدريجي) ولعل الفارق فى التعبيرين، يعزى إلى الحركة فى الحيوانات التي تفوق نظيرتها عند الإنسان.

ثم قال عليه السلام فى الصفه الثالثه للذات المقدّسه فى دعائه العظيم:

«وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي (٣) الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أُوتَادًا، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَادًا». فالعبارة كون الجبال للأرض أوتاداً اقتباس من القرآن الكريم بشأن الجبال: «وَالْجِبَالِ أَوْتَادٌ (٤)» (٥). أحياناً يتصور أنّ حجم أضخم الجبال صغير بالنسبه للكره الأرضيه، بحيث لا يصح اطلاق الوتد عليه، لكن بالنظر إلى أنّ لهذه الجبال العظيمه جذور فى أعماق الأرض، وهذه الجذور متصله مع بعضها كدرع أحاط بالأرض يحول دون الضغوط الداخليه

ص: ٣٣١

١- (١) «مدرج» من ماده (دروج) بمعنى طى الطريق، ومدرج، يطلق على موضع طى الطريق

٢- (٢) «هوام» جمع (هامه) الحيوانات الصغيره كالفأره والحيه

٣- (٣) . «رواسي» جمع (راسيه) الثابت والراسخ

٤- (٤) . «أوتاد» جمع (وتد) على وزن نمد، المسمار، ومن ماده (وتد)، على وزن وقت، بمعنى تثبيت الشئ

٥- (٥) سورة النبأ، الآيه ٧

والخارجيه - والذي يفرزه جاذبيه القمر وجزره ومدّه - فإنّ الجبال تعتبر بمثابة الأوتاد التي تحول دون تصدع الأرض. أمّا قوله: إنّ الله جعلها للخلق اعتماداً، ذلك لأنّ الجبال تحطم الرياح الشديده العاتيه وتمنع العواصف الرملية والسيول الخطيره، أضف إلى ذلك فإنّ أغلب الأنهار والعيون تنحدر من الجبال وهي مركز أكثر المعادن المفيده، إلى جانب بناء البيوت والقلاع المحكمه فيها، سيما المناطق التي تكون عرضه للسيول إنّما تلجأ لبناء الدور هناك خلاصاً من هذا الخطر. والسؤال ما الذي أراد أن يطلبه الإمام عليه السلام من الله في هذا الدعاء. قال عليه السلام

«إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنَّبْنَا الْبُغْيَ وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذا الدعاء إلى هذه الحقيقه وهي أنّ الكثير ربّما يفارق العداله حين النصر والغلبه في المعركه ويمارس الظلم بحق العدو، ومن هنا يسأل الله في حاله النصر ابعاده عن هذا العمل أولاً، وثانياً، كثيرون هم الأفراد الذين ينشدون النصر ارضاء لغرورهم والسيطره على الآخرين. الإمام عليه السلام يدعو الله أن يسدده للحق وإقامه العدل إن كتب له النصر، وثالثاً، على فرض كون الغلبه للأعداء فإنّه يسأل الله الشهاده والاعتصام من الفتنه. الفتنه هنا يمكن أن تكون إشاره إلى الامتحان، ذلك لأنّ ساحه القتال من ميادين الامتحانات الصعبه وعلى الإنسان أن يسأل الله تثبيتته في القتال. فالفرد الذي يعتقد أنّه على الحق ربّما ينقم حظه إن أصابه شيء، وينطلق لسانه بالشكوى وهذا فشل في ميدان الامتحان.

ثم دعى الإمام عليه السلام أصحابه لمواجهة العدو من خلال عباراته المؤثره في الدعاء فقال:

«أَيُّنَ الْمَانِعِ لِلذَّمَارِ (١)، وَالْغَائِثِ (٢) عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ (٣) مِنْ أَهْلِ الْحِفَاطِ! (٤) الْعَارُ

ص: ٣٣٢

١- (١). «ذمار» ما يجب على الإنسان حفظه كالأهل والعرض والوطن، ومن ذمر، على وزن رمل، بمعنى اللوم والتوبيخ، فهي

تطلق بهذا المعنى على من يقصر في حفظ الأهل والشرف والوطن حيث يستحق اللوم

٢- (٢) «غائر» بمعنى الغيور

٣- (٣) «حقائق» جميع حقيقه، تشير هنا إلى النوازل التي تحل بالإنسان أو المجتمع والوطن

٤- (٤) «حفاظ» من ماده (حفظ) تعنى هنا، الوفاء بالعهد ورعايه الذمه

وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!». وأخيراً يختتم كلامه بتشجيع المدافعين وتهديد الهاربين فيقول:

«الْعَارُ وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!» فإن فررتم كان ذلكم عاراً عليكم وإن ثبتم فلکم الجنة.

تأمل

لقد شهد تاريخ البشرية نشوب العديد من الحروب العالميه والأقليميه، ولكن غالباً ما يكون الهدف منها، الطمع وحب الاستعلاء والسيطره والثأر، ومن هنا فإن النصر في المعركه إنما يؤدي إلى ارتكاب أفعال الجنايات، وذلك لغياب الهدف المقدس. نعم، يستثنى من ذلك حروب الأنبياء والأولياء، حيث الهدف منها إطفاء نار الفتنة، «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» (١) والدفاع والوقوف بوجه المهاجم: «فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ» (٢) ولذلك فإن الأصول الإنسانيه لا تغيب قط في المعركه. ومن ذلك ما أوصى به أمير المؤمنين عليه السلام جند الإسلام عند النصر بأن لا يتعقبوا فاراً ولا يجهزوا على جريح ولا يتهيجوا النساء بأذى وإن شتمن الأعراض وسببن الأمراء (٣).

وتراه عليه السلام في هذه الخطبه والدعاء الذي تقرب به إلى الله يسأله الثبات والتسديد إلى الحق عند ظهوره على العدو، وهذا هو الفارق بين من يخوض الحرب من أهل الدنيا وأولئك الذين يعملون للآخرة.

ص: ٣٣٣

١- (١) . سورة البقره، الآيه ١٩٣

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ١٩١

٣- (٣) . نهج البلاغه، الرساله ١٤

(١)

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه ثم أشار إلى بعض الأعمال والأقوال الطائشة لبعض الصحابة المعروفين. تتكون الخطبة من ثلاثه أقسام. أشار في القسم الأول: إلى موقف عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص يوم الشورى (الشورى المؤلفه من ستة أفراد والتي شكلها عمر لاختيار الخليفة من بعده)، حيث نسب إلى الإمام عليه السلام الحرص على الخلافة فأجابه الإمام عليه السلام بجواب رائع. وشكى إلى الله.

في القسم الثاني، قريشاً ومن اصطف معها ضده. وتطرق.

في القسم الثالث، إلى قضيه طلحه والزبير وموقعه الجمل وعملها القبيح الذي ارتكبه حين أخرج عائشه (زوج النبي) إلى المعركة ولم يحفظا حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وما تبع ذلك من سفك للدماء.

ص: ٣٣٥

١- (١) سند الخطبة: يبدو أن هذه الخطبة جانب من كتاب كتبه الإمام عليه السلام في أواخر أيام خلافته ذكر فيه الأحداث التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر أن تقرأ على الناس، وقد رد الإمام عليه السلام على عبدالرحمن بن عوف حين قال له يوم الشورى: إنك على هذا الأمر لحريص، بذلك الجواب الذي ورد في الخطبة. رواها الطبري في كتاب المسترشد (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤١٤)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَاتُورَى عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءٌ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا.

منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ لَحْرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لِأَخْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخْصُ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّهِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي أَمْرًا هَوَالِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَنْزِكَهُ.

الشرح والتفسير: قريش والخلافه

إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله والثناء عليه وركز على علم الله وسعته - بما يتناسب وأبحاث الخطبه - فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَاتُورَى عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءٌ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا».

يبدو أن بعض شراح نهج البلاغه تكلفوا في تفسير العبارة

«وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا» على أساس عدم وجود أكثر من أرض، فذهبوا إلى أنها تشير إلى الأقاليم السبعة على الأرض التي نراها محيطه بالأرض بسبب كرويتها حتى وإن نظرنا إليها من خارج الكره الأرضيه، ولا يمكن رؤيه جميع المناطق في الأرض في لحظه معينه وإن نظرنا إليها من مسافه بعيده، إلّا أن الأمر ليس كذلك بالنسبه لله الذي لا يغيب

عن علمه شيء. وقيل: تشير العبارة إلى طبقات الأرض، فالأرض تتألف من طبقات ولا نرى سوى طبقه واحده منها، أما الله فلا يغرب عنه شيء. وقيل: المراد، المخلوقات التي تعيش في الأرضين، حيث ورد مثل هذا الكلام في تفسير الآيه الشريفه ١٢ من سوره الطلاق: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» وقد قال كل من الفخر الرازي والمرحوم العلامة الطبرسي بأحد هذين التفسيرين المذكورين. الاحتمال الآخر في تفسير الآيه وكلام الإمام عليه السلام أن المراد، العوالم الواقعه في الجانب الآخر من الكره الأرضيه. توضيح ذلك، أننا نصلح على ما فوقنا بالسماء وما تحتنا بالأرض، ونعلم أن الكره الأرضيه وسط مجموعه من الكواكب الثابته والسياره، وكما أن هناك عدداً هائلاً من تلك المجموعه فوقنا، كذلك لو تأملنا الجانب الآخر للكره الأرضيه فإن فيها مجموعه من هذه العوالم التي تعد سماءً بالنسبه لسكنتها بينما تعتبر أرضاً بالنسبه لنا، فالسماء لا تقتصر على هذا النصف الكروي الذي فوقنا، بل هنالك النصف الآخر تحتنا والملء بالكواكب والكرات السماويه (عليك بالتأمل).

ثم أشار الإمام عليه السلام في الجانب الآخر من الخطبه إلى وقائع يوم الشورى المكونه من ستة أعضاء لاختيار الخليفه الثالث فرد على مقوله عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص في حرص الإمام عليه السلام على الخلافه فقال:

«وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحْرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ». فالواقع أن عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ومن شاكلهما ينظرون من خلال أفقهم الضيق على أن الخلافه طعمه لذيذه لهم أو من يرونه مؤهلاً لها، فهم لا يعلمون أو لا يريدون أن يعلموا أن الخلافه ليست بذات قيمه لدى ابن أبي طالب سوى إحقاق الحق والانتصاف للمظلوم وزهق ودحر الظالم. والإمام عليه السلام لا يريد الخلافه لنفسه بقدر ما يريد لها لبسط العدل والقسط وسلامه المجتمع الإسلامى.

ثم قال عليه السلام

«وَأِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ». إِلَّا أَنَّ حَرَصَهُمْ حَال دُونَ إِذْعَانِهِمْ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ. لِذَلِكَ وَاصِل كَلَامِهِ قَائِلًا:

«فَلَمَّا قَرَعْتَهُ (١) بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ (٢) كَأَنَّهُ بُهِتَ لَأَيْدِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!» قضيه الشورى التى شكلها عمر حين وفاته كانت ضجه ضخمة أفصحت عن الأحقاد والضغائن التى يكنها بعض الصحابه لأمير المؤمنين على عليه السلام وتشير إلى حجم المؤامره المبيته بغيه زحزحته عن مقامه وحقه الاجتماعى حتى طالبوه بالتخلى عن حقه وإلا إتهم بالحرص على الخلافه. جدير بالذكر أن ابن أبى الحديد قال: يعتقد الشيعة أن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام فى أبى عبيده الجراح فى سقيفه بنى ساعده التى شكلت لاختيار الخليفه بعد النبى صلى الله عليه و آله (٣). والحال لم نر أحداً من علماء الشيعة قال بذلك، والمسلم لدينا أن الإمام عليه السلام لم يكن حاضراً فى السقيفه. وقد فرغنا من شرح هذه الأحداث فى الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبه الثالثه المعروفه بالشقشقيه.

ثم تضرع الإمام عليه السلام إلى الله يشكو ما ألم به من ظلم فيستلهمه العون قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ (٤) عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعْيَانَهُمْ! فَبِأَنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَيَّرُوا عَظِيمَ مَنَزَلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُبَارَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ». فهذه العبارة تكشف بوضوح أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يرى الخلافه حقه الطبيعى، وذلك لأنه كان أجدر بها من غيره إلى جانب نص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على ولايته فى الغدير والذى أكده مراراً وتكراراً، إلما أن عشاق المناصب اسقطوا نص رسول الله صلى الله عليه و آله وحكم العقل، ومارسوا الأعمال التى من شأنها

ص: ٣٣٩

١- (١). «قرعته» من ماده (قرع) على وزن فرع، بمعنى ضرب الشيء على آخر بحيث يتولد صوت شديد. وتستعمل هذه المفرده فى الأمور المعنويه، أى تستعمل بشأن الأدله الواضحه والدامغه كالخطبه المذكوره

٢- (٢) «هب» من ماده (هبوب) بمعنى حركه الرياح، أحياناً، وأخرى بمعنى الهيجان، وكذلك البهت أو النهوض من النوم، والمعنى الثانى هو المراد فى العبارة

٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٥

٤- (٤). «استعديك» من ماده (استعداء) بمعنى الشكوى وطلب العون

قطع صله الرحم، والأمر الغريب أنهم يعترفون بهذا الحق، لكنهم يزعمون أنها من الحقوق التي ينبغي الإغماض عنها، فالظروف ليست مناسبة لاستحصاله.

والتعبير بقطع صله الرحم إما لاستدلالهم بأوليتهم في أمر الخلافة لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رد عليهم الإمام عليه السلام بأنه أخصّ منهم وأقرب (كما مرّ علينا في عبارته الخطبه) أو (أنا) إشاره إلى أنهم لم يأخذوا الخلافة وهي حقّي فحسب، بل لا يكفون عن ارتكاب الجنايات التي تعدّ مصداقاً بارزاً لقطع الرحم.

تأملان

١. العيون المعصوبه ازاء الحقائق

إنّ البعض وإن سعى المرور مرّ الكرام على القضايا المتعلقة بالخلافه، إلّا أنّ الأمر لا يبدو بهذه السهوله والبساطه. لا شك في أنّ علياً عليه السلام شكى مراراً من سلبه حقّه المسلّم في الخلافه (طبعاً ليس المراد من الحق، المقام الذى يختزن الفائده والربح والمنفعه) بل يمثل المسؤوليه الشرعيه وهدفها - على ضوء ما ذكره الإمام عليه السلام - إقامه العدل وإحقاق الحق وإجراء الحدود. ولعل الكلام المذكور هو أحد النماذج البارزه على شكواه حتى قال: إنهم اجمعوا على منازعتى ليصادروا حقّي، وسنورد المزيد بهذا الشأن في شرحنا للخطبه رقم ٢١٧.

الجدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد نقل هذا الكلام وحاول تبريره وتوجيهه بما لا يمكن قبوله بأى شكل من الأشكال. فقد صرّح قائلاً: أعلم أنّه وردت أخبار متواتر عنه عليه السلام ومنها هذه الخطبه أنّه قال:

«مَا زِلْتُ مَظْلُومًا مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ حَتَّى يَوْمَ النَّاسِ هَذَا»، وقال أيضاً:

«اللَّهُمَّ اخْرِ قُرَيْشًا فَإِنَّهَا مَنَعَتْنِي حَقِّي وَعَصَبَتْنِي أَمْرِي» وسمع شخصاً يقول:

«أَنَا مَظْلُومٌ» فقال عليه السلام:

«هَلُمَّ فَلْنُصْرِحْ مَعًا فَإِنِّي مَا زِلْتُ مَظْلُومًا» وقال في الخطبه الشقيه:

«وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى» وأضاف في الخطبه المذكوره:

«أرى تراثي نهباً» ولما فرغ ابن أبي

الحديد من ذلك هب للدفاع عن الخلافة ليقول: أنّ أصحابنا يوجهون ذلك بأنّ مراد الإمام عليه السلام أنّه كان أفضلهم وأولاهم - وهذه حقيقته - لا- أنّ مراده أنّ النبي صلى الله عليه وآله نص عليه، لأنّ ذلك يدعوننا إلى تكفير وتفسيق كبار المهاجرين والأنصار (ننسبهم للكفر أو الفسق) وأضاف أنّ الزيدية والإمامية يحملون هذا الكلام على ظاهره (ويرون الخلفاء غاصبين للخلافة). ثم قال: والذي نفسى بيده أنّ مفهوم هذه العبارات وإن كان أغلب الظن ما يقوله هؤلاء، إلّا أنّ هذا الظن باطل وليس أماننا سوى اعتبار هذا الكلام من قبيل الآيات القرآنية المتشابهة التي تطرح بعض الأمور التي لا نقرّها لله (١). والعجيب كيف يتأول ابن أبي الحديد وأمثاله هذه الكلمات الواضحة بهذا الشكل، والأسوأ من ذلك أنّه قاس هذا الكلام بآيات القرآن المتشابهة، فالآية القرآنية: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (٢) يفهم كل فرد عاقل أنّ المراد منها قدره الله، وإلّا فالله ليس بجسم لتكون له يد كيدنا. نعم، قال الإمام صراحه في العبارة السابقة أنّ هؤلاء غصبوني حقّي، وليس لهذه العبارة أكثر من تفسير وتأبى التوجيه، ليت شعري ما الضير في قولنا إنّ طائفه من المهاجرين والأنصار أخطأت بشأن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ أفكانوا معصومين؟ الحق أنّ الأحكام المسبقة والتعصّب للمذهب يؤدّي بالإنسان أحياناً إلى أنّ يعصب عينيه عن رؤيه القضايا الواضحة والتشبث بالتوجيه غير المنطقي.

٢. هل ينبغي التنازل عن بعض الحق

تمسك غاصبوا الخلافة - كما ورد في الخطبه - بضروره استيفاء بعض الحقوق والتنازل عن بعضها الآخر على ضوء بعض المصالح. ويرون خلافة أمير المؤمنين عليه السلام من النوع الثاني. نعم، العبارة المذكوره تنطوي على مفهوم صحيح

ص: ٣٤١

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٠٦ و ٣٠٧

٢- (٢). سورة الفتح، الآية ١٠

وآخر باطل. فالإنسان ينبغي له التنازل عن جانب من حقه الشخصي أو جميعه بغيه الحيلولة دون نشوب النزاعات ومواصلة الخصومه ومراعاة للمحبه والموده، أمّا بالنسبه للحقوق المتعلقة بالمجتمع ومصيره، فلا يحق لأحد التنازل عنه أو المساومه على حسابه. وأصحاب هذه الحقوق هم وكلاء الأئمه. وليس للوكيل مثل هذا التنازل، والخلافه من هذا النوع من الحقوق، إلّا أنّ غاصبي الخلافه حاولوا خلط الأوراق. بمنطقهم الأجوف بغيه تحقيق أهدافهم ومآربهم. والعباره المذكوره تشير ضمناً إلى أنّ أعداء الإمام عليه السلام كانوا يعترفون بحقه، أو بعباره أخرى فإنّ حقه كان على درجه من الوضوح بحيث لم يسعهم إنكاره، فعمدوا إلى الذرائع والحجج الواهيه.

فَفَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُزْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجْرُ الْأُمَمُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بَيْتَيْهِمَا، وَأُبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَّحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَيَّ عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا، وَطَائِفَةً غَدْرًا. فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصَبِّ يَبُورًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بَلَا جُزْمِ جَرَّةٍ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرَ رُؤُوسَهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعَا مَا أَنْتَهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح والتفسير

فضيحة أصحاب الجمل

شرح الإمام عليه السلام هنا الخطأ الفادح الذي ارتكبه أصحاب الجمل ليعلم الجميع بأن الإمام عليه السلام إن قاتلهم وقتل طائفته منهم فهي مستحقة لذلك، فلا ينبغي التذرع بالأعذار ومواجهه هذا المنطق المتين، حيث أشار عليه السلام إلى ثلاث من جرائمهم الكبرى، فقال في الأولى:

«فَفَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُزْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجْرُ الْأُمَمُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ». ثم قال:

«فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بَيْتَيْهِمَا، وَأُبْرَزَا حَبِيسَ (١) رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا».

ص: ٣٤٣

١- (١) «حبيس» من ماله (حبس) بمعنى المحبوس، وإشارته إلى عائشه زوج النبي صلى الله عليه وآله التي كانت منهيه عن الاشتراك في الحرب والخروج إلى المسرح الاجتماعي، لكن طلحه والزبير دفعها لذلك العمل

كَلْنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَوْصَىٰ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَنْ يَقْرَنَ فِي بُيُوتِهِمْ وَأَنْ لَا يَتَّبِعْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَتَصَفَّحْنَ هَذَا وَذَلِكَ: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ» (١) . وَأَنَّ بَعْضَ الْأَحْدَاثِ كَمَوْقِعِهِ الْجَمَلِ كَانَتْ مَنظُورَةً مِنْ قَبْلِ، إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَلِّينَ أَبْقَوْا عَلَىٰ نِسَائِهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ وَأَخْرَجُوا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خِلَافَ نَصِّ الْقُرْآنِ لِجَعْلِهَا وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهِمْ.

ثم قال عليه السلام في جنائتهم الثانية:

«فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أُعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَيَّمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ». وَلَا يَقْتَصِرُ الْإِلْتِمَامُ بِالْبَيْعَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ، بَلْ كَانَ يَلْتَزِمُ بِهَا حَتَّى قَبْلَ الْإِسْلَامِ، بَيْنَمَا نَقَضَ أَصْحَابُ الْجَمَلِ هَذِهِ السَّنَةَ وَنَكثُوا عَهْدَهُمْ عَلَانِيَةً وَاسْتَعَدُّوا لِمُوجَهِّهِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَأَشَارَ إِلَى جَرِيرَتِهِمْ الْأُخْرَى فَقَالَ عِنْدَ مَا دَخَلُوا الْبَصْرَةَ:

«فَقَدِمُوا عَلَيَّ عَامِلِي بِهَا وَخِزَانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا (٢)، وَطَائِفَةً غَدْرًا». ذَكَرَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ فِي شَرْحِ لَجْنَايَاتِ أَهْلِ الْجَمَلِ أَنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَأَعْوَانَهُمَا تَدْرَعُوا وَقَدِمُوا الْمَسْجِدَ عِنْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَكَانَ فِيهِ عَامِلٌ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ عُثْمَانُ بْنُ حَنِيفٍ. فَتَقَدَّمَ لِلصَّلَاةِ فَدَفَعَهُ أَصْحَابُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَقَدِمُوا الزُّبَيْرَ. فَتَقَدَّمَ

(السَّبَابِجَةُ) (حَمَاهُ بَيْتُ الْمَالِ) (٣) وَدَفَعُوا الزُّبَيْرَ خَارِجَ الْمَسْجِدِ، فَهَجَمَ عَلَيْهِمْ أَنْصَارُ الزُّبَيْرِ وَقَدِمُوهُ وَاسْتَمَرَ النِّزَاعُ حَتَّى طَلُوعِ الشَّمْسِ.

فَصَاحَ النَّاسُ: اتَّقُوا اللَّهَ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَالشَّمْسُ تَكَادُ تَطْلُعُ، فَغَلِبَهُمُ الزُّبَيْرُ وَصَلَّى بِالنَّاسِ. ثُمَّ أَمَرَ بِالْقَبْضِ عَلَى ابْنِ حَنِيفٍ فَضَرْبُوهُ حَتَّى كَادَ يَمُوتُ، كَمَا قَبِضُوا عَلَى السَّبَابِجَةِ وَهُمْ سَبْعُونَ، حَمَلُوا عُثْمَانَ بْنَ حَنِيفٍ إِلَى عَائِشَةَ، فَأَمَرَتْ بِقَتْلِهِ. فَقَالَ عُثْمَانُ: إِنْ قَتَلْتُمُونِي سَيَقْتَصُّ مِنْكُمْ أُخِي (وَالِي الْمَدِينَةِ) فَخَافُوا وَتَرَكَوهُ. وَأَمَرَتْ

ص: ٣٤٤

١- (١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣

٢- (٢). «صبر» تعنى فى الأصل الحبس، ومن هنا يطلق الصبر على مسك النفس وحبسها عن المكاره. المعنى الآخر للصبر أن يحبس الإنسان أو الحيوان فى موضع، ثم يرمى بحجر أو سهم، بالتالى يقال، قتل صبراً لمن يقتل بالزجر والتعذيب

٣- (٣). «السبابجة» جمع (سبيجى) قال صاحب لسان العرب، من ماده (سبيج) طائفه شجاعه من السند استؤجروا للقتال (الدفاع عن بيت المال). وقيل: كلمه فارسىه تعنى الشبان الصغار وألوانهم سواد

الزبير بقتل السباجه فذبحهم ابنه عبدالله كما تذبح الشاه. قال بعض المؤرخين كأبي مخنف كان السباجه أربعمائمه وقد نقض طلحه والزبير عهدهم مع عثمان بن حنيف - بعدم التعرض لأحد - فكان السباجه أول طائفه قتلت صبراً فى الإسلام(١). وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا، وَطَائِفَةً غَدْرًا».

وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصَبِّبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بَلَا جُزْمَ جَرِّهِ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعَا مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!».

أثار هنا بعض شراح نهج البلاغه أسئلة وأجابوا عنها، نوردها بما يناسب البحث:

سؤال: كيف تفسر فقهيًا عباره الإمام عليه السلام فى حليه قتل الجيش كله وإن أصابوا واحداً فضلاً عن قتلهم لذلك العدد الكثير؟

الجواب: أجاب البعض بأنهم أباحوا قتل المسلمين وهذا نوع من انكار ضروريات الدين وعليه فهم مرتدون. وقيل: إن قتلهم من باب النهى عن المنكر، ولو توقف النهى عن المنكر بذلك لكان جائزاً. الجواب الثالث: والأنسب، أنهم كانوا مصداقاً للمفسدين فى الأرض، فقد جهزوا الجيوش ونكثوا البيعه وعاثوا فساداً فى بعض مناطق البلد الإسلامى، فهم مشمولون بالآيه الشريفه «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا...»(٢). وعباره الإمام عليه السلام أنهم حضروا ولم ينكروا ولم يدفعوا بلسان ولا بيدهم فى الواقع مقدمه لاثبات كونهم من

ص: ٣٤٥

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٢٠

٢- (٢). سورة المائده، الآيه ٣٣

الجواب الرابع: الذى يتبناه مذهب أتباع أهل البيت عليهم السلام فى أنّ الخارج عن الإمام المعصوم كافر، كما ذكر ذلك الخواجه الطوسى فى تجريد العقائد (١) فقال:

«وَمُحَارِبُو عَلِيٍّ كَفَرَهُ» ذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام:

«حَرْبُكَ حَرْبِي». وقد فصلنا فجائع طلحه والزبير وعائشه فى موقعه الجمل فى الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبه الثالثه عشره، والجزء الثانى فى تفسير الخطبه ٢٢ و ٣١، والجزء الخامس فى شرح الخطبه ١٣٧.

سؤال آخر:

لو استحق أولئك، القتل لمجرّد قتلهم جماعه من المسلمين وقبل المعركه، لماذا لم يقتص الإمام عليه السلام من أتباع طلحه والزبير بعد أن انتصر عليهم فى المعركه؟ بل حتى عائشه كانت تستحق القتل لخروجها على أمام المسلمين والفساد فى الأرض، لكن الإمام عليه السلام أعادها بكل احترام إلى المدينه؟ والجواب على هذا السؤال واضح، فالأوضاع كانت مضطربه والظروف معقده بحيث لو قام الإمام عليه السلام بمثل هذا العمل لتمكن أعداء الإمام عليه السلام من تأليب عامه المسلمين عليه وتعبئتهم ضده. ومن هنا قال عمرو بن العاص لعائشه: ليتك قتلت فى الجمل. قالت: لم لا أم لك؟ فقال عمرو:

لدخلت الجنّه وحرضنا الناس على على بقتلك (٢). على كل حال، فإنّه لمن دواعى الفخر لعلى عليه السلام أنّه غَضَّ النظر عنهم وأراح المجتمع الإسلامى من شرّهم.

ص: ٣٤٤

١- (١). شرح التجريد، ص ٢٤٠

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٣٢٢

فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ لِلْخَلِيفَةِ،

وَفِي هَوَانِ الدُّنْيَا (١)

نظره إلى الخطبة

تبدأ هذه الخطبة ببيان صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصورة مختصره، كما يتعرّض الإمام عليه السلام في القسم الثاني إلى خصائص الجدير بخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله فيؤدى حق الموضوع بعبارات قصيره. ويتحدث في القسم الثالث عن تقوى الله ويوصى صحبه بعدم العجله فى الأعمال والتروى عند الإقدام. وأخيراً يذم الدنيا والتعلق بها والخداع بزخارفها.

ص: ٣٤٧

١- (١) سند الخطبة: ذكر صاحب تحف العقول قبل السيد الرضى، الفصل الأخير من الخطبة (إلا وأن هذه الدنيا...) باختلاف، كما نقلها أبو جعفر الإسكافى (المتوفى عام ٢٤٠ هـ) فى رسالته (نقض العثمانية) (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤١٧)

أَمِينٌ وَحِيهِ، وَخَاتَمَ رُسُلِهِ، وَبَشِيرٌ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرٌ نَقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ.

فَإِنْ شَاعَبَ شَاغِبٌ اسْتَيْعَبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتَلَ. وَلَعُمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلِهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجَعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: أجدد الأفراد بزعامه الأمة

كما ورد سابقاً فإن الإمام عليه السلام قد إستهل الخطبه ببيان جانب من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله حيث أشار إلى أربع منها، فقال:

«أَمِينٌ وَحِيهِ، وَخَاتَمَ رُسُلِهِ، وَبَشِيرٌ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرٌ نَقْمَتِهِ» والواقع، إنَّ أنشطه النبي صلى الله عليه وآله كافه يمكن إيجازها في هذه الصفات الأربع؛ ذلك لأنّ الفعاله الأولى للنبي، تلقى الوحي وإيصاله وإبلاغه إلى الناس بكل أمانه والتخطيط لنشر مبادئ الدين إلى نهايه الدنيا ومن ثم التمهيد لطاعه الله عن طريق البشاره بالرحمه والإنذار بالعذاب والجزاء. وقد أكّدت هذه الصفات الأربع من خلال الآيات القرآنيه حيث أشارت إلى بعضها من قبيل البشاره والإنذار.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرائط خليفه الأمة وإمامها ليوجزها في أمرين:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى ركنين أساسيين، لأحدهما بعد عملي، والآخر

علمي، فعلى المستوى العلمى ينبغي أن يكون أعلم الجميع، وفى الجانب العملى أقواهم فى أمور الإدارة، فكثيرون هم الأفراد العلماء، لكنهم يفتقرون إلى حسن الإدارة، أو أنهم يتمتعون بحسن الإدارة إلا أنهم يفتقرون إلى العلم، ولا يمكن النهوض بزعامه الأمة دون توفر هذين الشرطين معاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع فى قصة بنى إسرائيل أثر اختيار (طالوت) كزعيم وقائد فاعترض البعض على أنهم أولى بالزعامة منه على أساس الثروه، فرد القرآن عليهم بأن طالوت أولى بها لعلمه وقدرته: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» (١) ومن الواضح أن الإمام عليه السلام أراد أن يكشف عن أولويته من الجميع بالتصدي لأمر الخلافة، ذلك لأن الجميع يعلم بأنه الأعلم فى أصول الدين وفروعه وهو الأقوى والأقدر على الإدارة ومواجهه العدو.

سؤال:

لماذا لم يستدل الإمام عليه السلام بنص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله على خلافته؟ أليس هذا دليلاً على أن الخلافه لم تكن على أساس النص، بل على ضوء انتخاب الناس لأكفأ الأفراد؟

الجواب:

قطعاً، لو استدلل الإمام عليه السلام بالنص، لهب أغلبهم لإنكاره، وعليه فمن الأفضل الاستناد إلى مسلماتهم وإلزامهم بمنطقهم (الأمر الذى يصطلح عليه فى المنطق بالجدل) والذى قال بشأنه القرآن: «وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (٢). جدير بالذكر أن ابن أبى الحديد حين يبلغ هذا الموضوع من شرحه لنهج البلاغه، وخلافاً لأولئك الذين لا يصغون لصوت الضمير يُقرّ بأن علياً عليه السلام أعلم القوم، لكنه يرى أن هذا ليس بدليل على نفى خلافه الآخرين، ذلك لأنه يمكن أحياناً تقديم المفضول على الأفضل (٣). طبعاً، هذا منطق الأفراد الذين لا يفقهون قوانين العقل ولا يرون قبح

ص: ٣٥٠

١- (١). سورة البقره، الآيه ٢٤٧

٢- (٢). سورة النحل، الآيه ١٢٥

٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٢٧

ترجيح المرجوح على الراجح، والحال، قبح هذا الأمر واضح للجميع، إلّا أنّ التعصب الأعمى يحول عادةً دون رؤيه الواقع.

ثم قال عليه السلام: فإن تصدى مثل هذا الفرد، للأمر:

«فَإِنْ شَغَبَ (١) شَاغِبٌ اشْتَعَبَ (٢)، فَإِنْ أَبِي قُوتِلَ». وقال القرآن بهذا الخصوص «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...» (٣).

ثم خاض الإمام عليه السلام في الردّ على بعض المتخرفين، حيث انبرى البعض كمعاويه وعمرو بن العاص وطلحه والزبير وأمثالهم وصرحوا بأنّ الخلافة والإمامه لمن تنتخبه عامه الأمة. وعليه، لا تكفى بيعه المدينة وأطرافها لعلّ عليه السلام.

فقال عليه السلام:

«وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَاتَنْعَقِدُ حَتَّى يَخْضُرَ رَهَا عَامَهُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا». ثم واصل كلامه قائلاً:

«ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَزْجَعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ». وأخيراً حذرهم جميعاً بالقول:

«أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ». يبدو أنّ العبارة الأولى تشير إلى معاويه الذى تخلف عن البيعه بذريعه المطالبه بدم عثمان، والحال، أن تتم المطالبه بدم عثمان من قبل أولياء الدم أو إمام المسلمين، ومن بايعه الناس أى، على بن أبى طالب عليه السلام. والثانية إشارة إلى طلحه والزبير وأمثالهما الذين بايعوا ثم نكثوا البيعه بما فيهم معاويه والآخرون. وأمّا ما قيل: إنّ المراد، ادّعاء الخلافة من قبل معاويه والذى ليس له حقّ، فلا ينسجم مع التواريخ، لأنّ معاويه لم يدع الخلافة على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام، بل ركّز على المطالبه بدم عثمان.

ص: ٣٥١

١- (١). «شغب» من ماده (شغب) على وزن شرق، بمعنى إثارة الفتنة والشر والفساد

٢- (٢) «استعتب» من ماده (عتب) وعتاب بمعنى اللوم والتوبيخ بقصد الرجوع إلى الحق، وإن استعملت فى باب الإستفعال أفادت

معنى الإسترضاء

٣- (٣) سورة الحجرات، الآية ٩

سؤال:

لم يستدل الإمام عليه السلام فى حديثه المذكور فى إثبات خلافته وإمامته على نص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص، ولم يتطرق إلى حديث الغدير وما شابهه، بل أكد على بيعه الأئمة، وهذا فى الواقع إمضاء لخلافه من سبقه. لذلك قال ابن أبى الحديد، هنا، صراحةً: إنَّ هذا الكلام من الإمام عليه السلام دليل على صحه مذهبنا، ولا يؤيد مذهب الإماميه، فكيف تُحلَّ هذه الشبهه؟

الجواب:

لابدّ من الإلتفات إلى أمور:

الأول: أنّ الإمام عليه السلام استدل بمسلمات الخصم لإثبات حقّه، لأنّهم يرون كفايه قبول أهل الحل والعقد (علماء الأئمة) لثبوت الخلافه والإمامه. وعليه فقد أجابهم بمنطقهم (منطق الجدل بالتي هي أحسن)، ولو استدل بالنص لأنكروه.

الثانى: أنّ خلافه من سبقه لم تستند إلى قبول الناس، أمّا أبو بكر فقد انتخب من قبل أهل السقيفه حيث كانوا عدّه قليله من الناس، وأمّا عمر فقد انتخب بنص من أبى بكر، بينما لم تتمّ خلافه عثمان إلّا من قبل ثلاثة أو أربعة أفراد من الشورى.

الثالث: أضف إلى ذلك، فإنّ الوقوف على رأى الإمام عليه السلام بشأن الخلافه لا يمكن من خلال خطبه أو خطبتين، بل لابدّ من دراسته شامله لجميع كلماته بهذا الخصوص، لنرى كثره تركيزه فى نهج البلاغه على النص فى الخلافه.

ص: ٣٥٢

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِمَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرٌ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ. وَقَدْ فَتَحَ بَابَ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَمَّا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصِيرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ، فَمَا مَضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقَفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غَيْرًا.

الشرح والتفسير

تعليمات عسكريه

أعد الإمام عليه السلام صحبه هنا لمواجهة الظلمه والطواغيت حيث أوصاهم باديء الأمر بالتقوى فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِمَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرٌ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ». القرآن الكريم من جانبه أكد هذا المعنى حيث إن الأفراد الذين لا- يصيبهم الخسران هم فقط الذين يتواصلون بالحق والصبر: «وَالْعَصِيرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». وقال: «وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» (١) وقال أيضاً: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (٢).

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَقَدْ فَتَحَ بَابَ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصِيرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ». ثم قال:
«فَمَا مَضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقَفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا

ص: ٣٥٣

١- (١) سورة طه، الآية ١٣٢

٢- (٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٨

مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنَكِّرُونَهُ غَيْرًا (١).

تشير العبارة

«وَلَمَّا يَخْمِتُ لِهَذَا الْعَلَمِ» إلى أننا نضطر لأول مره في الإسلام لأن نقاتل أفراداً يدعون الإسلام، وأنهم من أهل القبلة لبغيهم وطغيانهم، ويبدو هذا الأمر مستصعباً بالنسبة للأفراد السطحيين وضيقي الافق، وعليه، فلا يستحق حمل هذا العلم سوى من تحلى بالبصر والعلم والصبر.

والعبارة

«فَمَا مَضُوا لِمَا تُوْمَرُونَ...» إشاره إلى أن هذا الطريق مسؤوليه كبيره، فينبغي المضى فيه بدقه ورعايه النظم والانضباط. أما العبارة الأخيره

«فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنَكِّرُونَهُ غَيْرًا» فتشير إلى أن الأوامر التي تصدر أحياناً من القيادة - الإمام عليه السلام - في القضايا الحريه وجزئيات الأعمال، بما لا ينسجم ورغبات أكثرية الناس، مثلاً، يرد الأمر بالهجوم على العدو في البصره من شمالها، إلّا أن الأكثرية ترى صعوبه ذلك وتود لو أنها هجمت من جنوبها. فالإمام عليه السلام يوصى هنا بالترث وعدم الاستعجال طالما لا تتضارب هذه الأوامر مع الشرع والمصلحه، فربما نمارس بعض التغييرات ونحقق رغباتكم، كذلك إن شكى بعض الناس من بعض الولاه فليس لدى من إصرار، كعثمان، على بقائهم وما دام رأى الناس موافقاً للشريعه والمصلحه فهو مقبول لدى. ولعل إحدى خصائص الأمر والمدير الناجح تتمثل في احترامه لأفكار الآخرين والإفتاح عليها ما لم تتعارض مع الأصول. أما ما ذكره بعض شراح نهج البلاغه من تفسير لهذه العبارة فلا يبدو مناسباً؛ ففسروا

(غيراً) مثلاً، بالمصالح، ولكن هذه المفرده؛ والاحتمالات الأخرى التي وردت في كلمات بعض الشراح ليست منسجمه مع ظاهر كلمات الإمام عليه السلام ومن هنا لا نرى ضروره الخوض فيها.

ص: ٣٥٤

١- (١) «غَيْرٍ» بمعنى الحوادث والتغييرات التي تقع في حياه الإنسان، وأريد بها في الخطبه، مطلق التغيير

لا شك في أنّ أهل القبلة والمسلمين إن مارسوا بعض الأعمال التي تهدد كيان الإسلام أو قاموا ضدّ الحكومه الإسلاميه، فلا بدّ من إرشادهم وإعادتهم إلى جاده الصواب من خلال الطرق السلميه؛ لكن إن واصلوا غيهم وتمادوا في أعمالهم، فليس هنالك من سبيل سوى اللجوء القوّه، ولا يبدو هذا العمل مستساغاً من قبل الأفراد السطحيين وضيقى الأفق، لذلك قال الإمام عليه السلام:

«وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصِيرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ». ورد في أحداث موقعه صفين: روى عن نصر بن مزاحم، قال: «حدثني يحيى بن يعلى، قال: حدثني صباح المزني، عن الحارث حصن، عن رجاء بن ياسر، عن أسماء بن حكيم الفزارى، قال: كتبنا بصفين مع عليّ، تحت رايه عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظللنا برداء أحمر، إذ أقبل رجل يستقرى الصف حتى انتهى إلينا فقال: أيكم عمار بن ياسر، فقال عمار:

أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إنّ لى إليك حاجه أفأنتق بها سرّاً أو علانيه؟ قال: اختر لنفسك، أيهما شئت، قال: لا بل علانيه، قال: فأنطق، قال: إننى خرجت من أهلى مستبصراً فى الحقّ الذى نحن عليه، لا أشك فى ضلاله هؤلاء القوم، وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً، حتى ليلتى هذه، فإنى رأيت فى منامى منادياً تقدّم، فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونادى بالصلاه ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقيمت الصلاه، فصلينا صلاه واحده، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوه واحده، فأدركنى الشك فى ليلتى هذه، فبتّ بلبه لا يعلمها إلا الله تعالى، حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر! قلت: لا، قال عليه السلام فالحق، فانظر ماذا يقول لك عمار، فاتبعه، فجتتك لذلك، فقال عمار: تعرف صاحب الرايه السوداء المقابله لى! فإنها رايه عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثلاث مرات، وهذه الرابعة فما هي بخيرهنّ، ولا أبرهنّ، بل هي شرهنّ وأفجرهنّ.

أشهد بدرأً وأحدأً يوم حُنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإنّ مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر، ويوم أحد ويوم حنين، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيه! والله لو ددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية ويريد قتالنا، مفارقاً للذى نحن عليه، كانوا خلقاً واحداً، فقطعته وذبحته، والله لدمأؤهم جميعاً أحلُّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال، قال: فإنّهم حلال كذلك، أترانى بينت لك، قال: قد بينت لى، قال عليهما السلام فاختر أى ذلك أحببت«(١). فهذه الواقعة وأمثالها تفيد أنّ ارتداء ثوب الإسلام من قبل تلك الفرق المنحرفة إنّما كان يخدع البعض من السذج، وهذا ما دفع الإمام عليه السلام لتحذيرهم من الفتنة.

ص: ٣٥٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٢٥٦ بتصرف وتلخيص، وقد نقل هذه الواقعة نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، ص ٣٢١

أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصَيْبُكُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصَيْبُكُمْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنْزِلِكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا؛ وَهِيَ وَإِنْ عَزَّيْتُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَيَّرْتُمْ شَرَّهَا. فَادْعُوا غُرُورَهَا لِتَحْيِرِهَا، وَأَطْمَاعِهَا لِتَحْوِيفِهَا؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْصِرُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا؛ وَلَا يَخَنَّ أَحَدُكُمْ خَيْنَ الْأَمَّةِ عَلَى مَيَّا زَوَى عَنْهُ مِنْهَا، وَأَسِيَّتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعِيدَ حِفْظِكُمْ فَائِمَةً دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعِيدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ!

الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبه إلى تقلب الدنيا وعدم ثباتها وحذر الجميع من زخرفها وزبرجها، ذلك لأن الإنحراف الذي طال أصحاب الجمل إنما يعزى إلى تهافتهم على الدنيا وحطامها، فلا ينبغي لهم السير على خطاهم، وعليهم أن يسلكوا سبيل الحق وإن انتهى بهم إلى الشهاده، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصَيْبُكُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصَيْبُكُمْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنْزِلِكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ».

فالعباره، إشاره لما تأكد مراراً في نهج البلاغه والقرآن أنّ الدنيا ليست خالده وأنها ليست بدار إقامتنا، بل هي ممر مؤقت نجتازه في سفرنا إلى الآخرة حيث مقرنا ومقامنا بعد التزود من هذه الدنيا لتلك الحياه الحقيقه التي قال عنها القرآن:

«لَيْسَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (١).

ثم أكد الإمام عليه السلام أكثر فقال:

«أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا».

كما ردّ على أولئك الذين يصفون الدنيا دائماً بالخداع والغرور، فقال:

«وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتُخْوِيفِهَا».

صحيح أنّ أغلب مظاهر الدنيا تثير الغرور والغفله، لكنها ترينا إلى جانب ذلك بعض المشاهد التي توقظ كل غافل من نوم غفلته. فاللحظه التي ينال فيها أحدهم السلطه ويستولى على العرش، هي ذاتها التي يسقط فيها أخيراً، وفي الوقت الذي يرث فيه شخص الآلاف المؤلفه من الثروه، هو نفس الوقت الذي يحمل فيه جثمان صاحب تلك الثروه ليوثيد التراب، وحين يولد طفل وتطالعنا مظاهر الفرح والسرور على سيماء وجوه أسرته، ترتفع إلى جانبه أصوات أسره بالعويل لفقدهم أحد أعزتهم، فلم نركز على الصوره الأولى وتتناسى الصوره الثانيه؟! حاول الإمام عليه السلام بهذه العبارات العميقه المعنى أن يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقه وقد أكدها في سائر خطب نهج البلاغه وقصار الكلمات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا»، كما قال:

«وَلَمَّا يَخْنَنَنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْمَأْمَةِ عَلَى مَا زُورَى (٢) عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَيْتَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظْتُمْ مِنْ كِتَابِهِ».

ص: ٣٥٨

١- (١) سورة العنكبوت، الآية ٦٤

٢- (٢). «زوى» من ماده (زى) على وزن حى، بمعنى الجمع والأخذ والحمل والإبعاد، وتعنى فى العباره الإبعاد والفقدان لأنها وردت بصيغه الفعل المجهول فى العباره ومعها الحرف عن

فقد شبه الإمام عليه السلام الأفراد الضعاف الذين لا يكادون يفقدون نعمه من نعم الدنيا حتى يعيشوا حاله من العزاء وكأنهم فقدوا عزيزاً من أعزتهم بتلك الأُمَّه التي يرتفع صوتها بالبكاء لأدنى مُلمّه، وربما دوى صوت البكاء أثر شدّه الجزع. نعم، هذا فعل العبيد الضعاف؛ ضعف الدنيا وأسرى مظاهرها، والحال، لو فكروا بصوره صحيحه لأدركوا أنّ ما فقدوه مهما كان مهماً فلا قيمه له، لأنهم يفقدونه عاجلاً أم آجلاً، وإن لم يفقدوه اليوم فسيفقدونه ويفقد كل شيء عندما يموت غداً.

أضف إلى ذلك فإنّ أغلب النعم التي تزول إنّما تعود فيما بعد بفضل الله ولطفه، وعليه فلا داعى للتأوه والشعور بالألم والحسره. ويستفاد من العبارة الأخيره أنّ أحد عوامل بقاء نعم الله وديمومتها طاعه الله واتباع أوامره والإلتزام بالقرآن والعمل بأحكامه.

وأشار الإمام عليه السلام فى ختام الخطبه إلى نقطه مهمّه أخرى، تتمثل فى ضروره حفظ الدين حين يكون هنالك مفترق طرق وتضاد بين حفظ الدنيا بزینتها وزخرفها وحفظ الدين، فليس هنالك من ضرر يطيل الإنسان إن ذهب دنياه، بينما لا ينفعه شيء إن ذهب دينه:

«أَلَا وَإِنَّهُ لَإِيْضاً رُّكْمٌ تَضْيَعُ شَيْءٌ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَهُ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَإِيْنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيَعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافِظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ».

إشاره إلى أنّ الغنى الحقيقى، فى حفظ الدين والإيمان الذى يشكل مفتاح حياه الإنسان الأبدية، لا النعم الماديه العابره، فهى عناصر ثانويه تغادر سريعاً كالفقاعات التى تطفو على سطح الماء. نقل المرحوم الكلينى أنّ أحد أصحاب الإمام عليه السلام كان يقدم كل عام إلى الحج ويرى الإمام عليه السلام، لكنه غاب مدّه. فسأل الإمام عليه السلام أحد أصحابه المعروفين عن ذلك الشخص، فلم يشأ أن يخبر الإمام عليه السلام بوضعه المالى الصعب. فقال عليه السلام وكيف دينه وإيمانه؟ قال: هو والله كما تحبّ. فقال عليه السلام: هو والله الغنى(1).

ص: ٣٥٩

وأخيراً اختتم عليه السلام الخطبه بهذا الدعاء:

«أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ!» لقد قلنا مراراً إنّ الإمكانيات الماديه إن استعملت كوسيله لتحقيق الأهداف المعنويه فهى ليست مذمومه، بل هى من أفضل الوسائل لتطور الإنسان، ولما كان عصر الإمام عليه السلام والأئمه من بعده قد شهد إقبال المسلمين على الدنيا أثر الفتوحات وما جلبت إلى البلاد من أموال طائله وثروات، فقد جهد الإمام عليه السلام على ذم الدنيا وتحذير الآخرين من الخداع بها، والخطبه المذكوره نموذج لذلك.

ص: ٣٦٠

فِي مَعْنَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَقَدْ قَالَهُ حِينَ بَلَغَهُ خُرُوجُ

طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ إِلَى الْبَصْرَةِ لِقِتَالِهِ (١)

نظرة إلى الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين بلغه خروج طلحه والزبير إلى البصرة للإستيلاء عليها وقتال الإمام عليه السلام. فأراد الإمام عليه السلام بهذه الخطبة رفع معنويات صحبه وكشف حقيقه طلحه والزبير، وتألّف الخطبة من قسمين:

الأول: الذي قال فيه الإمام عليه السلام إنّه لم يهدد من قبل شخص بالحرب لحدّ الآن، فقد لمس الجميع شجاعتى فى ميدان القتال، وعليه فتهديد طلحه والزبير هراء.

والآخر: يستدل فيه الإمام بالبرهان والمنطق أنّ المطالبة بدم عثمان - التى يتذرع بها طلحه والزبير من أجل إشعال فتيل الحرب - كذبه فارغه، ذلك لأنّ يد طلحه ملطخه قبل أى أحد بدم عثمان.

ص: ٣٤١

١- (١) سند الخطبة: يرى صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ هذه الخطبة متصله بالخطبه ٢٢ و ١٣٥ (وحسب أرقامنا، الخطبه ١٣٧)، وأضاف: رواها (باختلافات) المرحوم الشيخ الطوسى فى كتابه الأمالى، والخوارزمى فى المناقب وشرح ابن أثير فى كتابه اللغوى (النهايه) كلماتها الصعبه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤١٩)

قَدْ كُنْتُ وَمَا أَهْدَدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ؛ وَأَنَا عَلَى مَا قَدَّ وَعِيدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصِيرِ. وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِبَدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالِبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظَنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَالِطَ بِمَا أَجَلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشُّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَيَّرَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَيْسَ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازَرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَيْسَ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنْهَنِّهِينَ عَنْهُ، وَالْمُعِيدِينَ فِيهِ وَلَيْسَ كَانَ فِي شُكٍّ مِنَ الْخُصَلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَيَزُكِّدَ جَانِبًا، وَيَدْعَ النَّاسَ، مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرِ لَمْ يُعْرِفْ بَابَهُ، وَلَمْ تَسَلِّمْ مَعَاذِيرُهُ.

الشرح والتفسير: تناقض طلحه دليل فضيحة

أشار الإمام عليه السلام في بدايه الخطبه إلى تهديد طلحه والزيبر فقال:

«قَدْ كُنْتُ وَمَا أَهْدَدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ».

إشاره إلى أنّ الجميع يعلم بشده وقع سيفي في المعارك الإسلاميه قد جندلت صناديد العرب حتى اقترن اسمي بالشجاعه لدى الداني والقاصي. وأنه لمن دواعي العجب أن يجرأ طلحه والزيبر على تهديدي بالحرب وقد شهدوا صولاتي في الحروب.

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ». يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى الوعد الإلهي للمؤمنين بالنصر والذي نصت عليه الآية الشريفة «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (١) كما يمكن أن تكون إشارة إلى وعد خاص وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله في ظهوره على الناكثين، وقد أطلعه على موقعه الجمل وأخبر عائشه بها صراحة ونهاها عن الخروج، وقد ورد هذا الأمر في التواريخ (٢).

ثم تطرق عليه السلام إلى تيه طلحه والزبير من هذه الفعله القبيحه فقال:

«وَاللَّهِ مَا اسْتَيْعَجَلَ مُتَجَرِّدًا (٣) لِلطَّلَبِ بِدَمِ عَثِمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَ بِدَمِهِ، لَأَنَّهُ مَظَنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ (٤) فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشُّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عَثِمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَكِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانٍ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يُتَّبَعِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ (٥) قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ (٦) نَاصِرِيهِ. وَلَكِنْ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يُتَّبَعِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنْهَنِّهِينَ (٧) عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَلَكِنْ كَانَ فِي شَكِّ مِنَ الْخَصْمَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يُتَّبَعِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَيَرْكُدَ (٨) جَانِبًا، وَيَدْعَ النَّاسَ، مَعَهُ».

ثم قال عليه السلام:

«فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرِ لَمْ يُعْرِفْ بَابَهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ (٩)».

ص: ٣٦٤

١- (١). سورة غافر، الآية ٥١

٢- (٢) أوردنا شرحاً مفصلاً، ذيل الخطبه ١٣ في الجزء الأول

٣- (٣). «متجرد» من ماده (تجرد) بمعنى الإستعداد للقيام بعمل بجد واجتهاد، ومنه السيف المجرد

٤- (٤). «أجلب» من ماده (اجلاب) بمعنى، الجمع والعون

٥- (٥). «يوازر» من ماده (موازره) ينصر ويعين

٦- (٦) «ينابذ» من ماده (منابذه) بمعنى، المدافعه والمقاتله

٧- (٧). «منههين» بمعنى، الزجر والمنع من العمل، من ماده (نههه)، على وزن فقههه

٨- (٨). «يركد» من ماده (ركود) السكوت والصمت

٩- (٩) معذرين من يصطنع العذر لنفسه أو غيره

وهكذا يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن كذب طلحه ومؤامرتة بهذا الأسلوب المنطقي ويشير إلى أنه سياسى محتال ومحترف، ذلك لأن وضعه إزاء عثمان - طبق الحصر العقلي - لا يتجاوز إحدى ثلاث حالات: إمّا، كان يعتبره ظالماً أو مظلوماً أو شاكاً فيه؛ وكل حاله تتطلب تعامل مناسب، لكنه وقف يوماً خلف الكواليس يؤلب الآخرين على قتل عثمان، وما أن قتل عثمان حتى هبّ للدفاع عنه والمطالبة بدمه.

هذه هي طريقه الساسه المحترفين الذين يغيرون مسيرتهم بين ليله وضحاها أحياناً.

ولا تبدو سياسه معاويه - وإن حاول الإبتعاد عن هذه الأحداث - مختلفه عن سياسه طلحه. فقد تخلى عن عثمان حتى قتل، ثم طالب بدمه. كان هؤلاء راضيين فى الواقع بقتل عثمان، أملاً فى نيل الخلافه. وقد صرح الإمام على عليه السلام بأن طلحه لم يتعاون مع قتله عثمان، والحال، يفيد التاريخ أنه ساعدهم. طبعاً، مراد الإمام عليه السلام أنه لم يرد الميدان علناً، لكنه كان ينسّق بعيداً عن الأنظار - ما يجدر ذكره أن ابن قتيبه ذكر فى كتابه (الإمامه والسياسه) أن عائشه خطبت الناس فى البصره ودعتهم للطلب بدم عثمان، فأبرز رجل من أشراف البصره كتابا كتبه إليه طلحه يحثه فيه على قتل عثمان. فقال لطلحه: أتعرف هذا الكتاب؟ قال طلحه: بلى. قال: فما الذى حدث؟ بالأمس تريد قتل عثمان، واليوم تدعوا إلى المطالبه بدمه؟ وقد قلت: إن علياً عليه السلام دعاك ليوليكم الناس الخلافه لكبر سنك، فأبيت وبايعته حيث قلت: هو أقرب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسوابقه فى الإسلام مقدمه، فلم نقضت بيعتك؟ أجاب طلحه: لقد قال ذلك بعد أن بايعه الناس وولّى الخلافه، وكنت أعلم أنه لا يفعل، وإن فعل لم يرض بخلافه المهاجرين والأنصار، فخفت إن لم أبايع أقتل فبايعت مكرها؟ فقال له الرجل: وكيف تغير موقفك من عثمان؟ قال طلحه: إن قومنا عابوا علينا عدم نصرته، واليوم نطالب بدمه (1) ويتضح من هذا، أن الناس آنذاك كانوا يدركون عدم

ص: ٣٤٥

١- (١). الإمامه والسياسه، ج ١، ص ٨٨ ذكرنا مطالب أخرى فى الجزء الخامس من هذا الكتاب، ذيل الخطبه ١٣٧

صدق طلحه في مزاعمه. ومن عجائب التاريخ الإسلامي ما رواه المدائني في كتاب مقتل عثمان أن طلحه منع دفن عثمان ثلاثه أيام، حتى استعان بعض الصحابه بعلي عليه السلام لدفنه. وقد أمر طلحه بعض الأفراد بإطلاق الحجر على الجنازه، حتى دفنوه في المدينه في موضع يدفن فيه اليهود، يدعى (حش كوكب)، ثم رماه البعض بالحجر. فبعث علي عليه السلام من منعهم عن هذا العمل (١).

ص: ٣٦٦

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ٦، كما ذكر هذه القصة دون ذكر اسم طلحه، الطبري في الجزء الثالث من تاريخه في حوادث سنة ٣٥ ص ٤٣٨ ثم كتب: أمر معاويه أن يهدم جدار حش كوكب ويوصل بالبيع

فِي الْمَوْعِظَةِ وَبَيَانِ قُزْبَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (١).

نظرة إلى الخطبه

تتكون هذه الخطبه من ثلاثه أقسام: ذكر الإمام عليه السلام في القسم الأول: مواظب قيمه لجميع مخاطبيه - الذين يمثلون في الواقع، الناس على مر العصور - بعبارات مؤثره توقظ الغافل من غفلته.

وأشار في القسم الثاني إلى علمه بالأحداث القادمه وأن ذلك ممّا علّمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله حيث صرح بأنّه يستطيع أن يخبر كل أحد منهم بتفاصيل حياته، لكنه يتحفظ ذلك خشيه الغلو والكفر.

أمّا القسم الثالث - الذي يمثل آخر الخطبه - فقد أشار فيه إلى سبقه الجميع في الأوامر والنواهي، فلا يأمر بشيء حتى يأتمر هو به ولا ينهى عنه حتى ينتهى هو عنه.

ص: ٣٦٧

١- (١) سند الخطبه: من المصادر التي نقلت بعض هذه الخطبه، غرر الحكم للآمدي (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٢٢) ويفهم من كتاب تمام نهج البلاغه أنّ هذه الخطبه وردت في مصادر أخرى، وفيها إضافات: ومنها إخبار على عليه السلام عن الحجر الأسود ونقله من مكه إلى بلاد أخرى من قبل الأعداء ثم يعاد إلى موضعه الاصلى (كتاب تمام نهج البلاغه، ص ٢٨٧)

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرِ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودَ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعَى وَبِيٍّ، وَمَشْرَبٌ دَوِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَغْلُوفَةِ لِللَّيْلِ لَمَّا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أَحْسِنُ إِلَيْهَا تَحَسَّبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشَتَبَعَهَا أَمْرَهَا. وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير: الغفلة التامة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بخطاب جميع الناس قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرِ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودَ مِنْهُمْ».

ثم أضاف عليه السلام:

«مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ (١) بِهَا سَائِمٌ (٢) إِلَى مَرْعَى وَبِيٍّ (٣)، وَمَشْرَبٌ دَوِيٍّ (٤)».

رغم أن جميع المسلمين يتحدثون عن الله، إلا أن عمل البعض يشير إلى أنه

ص: ٣٦٩

-
- ١- (١) «أراخ» من ماده (إراحه) بمعنى إعادته الحيوانات عند المساء إلى الإصطبل، وتطلق أحياناً على حركة الحيوانات في كل زمان، وهذا هو المراد بها في العبارة
- ٢- (٢) «سائم» تعنى فى الأصل الشخص الذى يتابع الشىء، ثم استعملت بمعنى الراعى الذى يحمل الحيوانات إلى المرعى، والحيوانات التى ترعى، وتعنى فى العبارة، الراعى (وعليه لها معنى المتعدى واللازم)
- ٣- (٣) «وبى» من ماده (وباء) بمعنى، الشخص المصاب بالوباء أو أى مرض معدٍ ومرعى وبى، فى العبارة المذكوره بمعنى المرعى الذى يجلب الوباء أو الملوث بالمرض
- ٤- (٤) «دوى» من ماده (داء) بمعنى، المرض، ودوى، يقال للماء والغذاء الذى يجلب المرض

تولى عن الله والتصق بالدنيا وهوى النفس، فقد شبه الإمام عليه السلام مثل هؤلاء بالحيوانات التي حملها الراعى الجاهل أو المغرض إلى مرعى ليس فيه ماء ولا كلاء سوى المرض والموت. هذا الراعى، هو الشيطان وهذه الحيوانات، هم الناس الذين لا يصغون لنداء العقل وقد استغرقوا فى هوى أنفسهم، وهذا المرعى المميت هو وادى اللذات والشهوات الذى يفرز الذنوب والمعاصى وبالتالي يقتل روح الإنسان ومعنويته.

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَغْلُوفَةِ لِلْمُدَى (١) لَاتَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أَحْسِنُ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا».

فقد شبه الإمام عليه السلام بهذين التشبيهين أصحاب الدنيا، بالحيوانات التي لا هم لها سوى شبعها وأن من يقدم لها العلف يحسن إليها، ولا تعلم أن علفها وسقيها مقدمه لذبحها، وهذا حالهم حين ينغمسون فى لذات الدنيا وشهواتها.

وأخيراً أشار إلى جانب من علمه بأسرار الغيب وحوادث المستقبل ليقفوا على جديته ومعرفته بما يصلحهم:

«وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ (٢) وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فَيَبْرُسُوا إِلَيَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

ورد فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً فدخل عليه على عليه السلام فقال:

«إِنَّ فِيكَ شَبَهًا مِنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَلَوْ لَأَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوَائِفٌ مِنْ أُمَّتِي مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ لَقُلْتُ فِيكَ قَوْلًا لَاتَمُرُّ بِمَلَأٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا اخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ يَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ الْبَرَكَهَ» (٣).

ص: ٣٧٠

١- (١). «مدى» جمع (مدية) على وزن لقمه، بمعنى السكين

٢- (٢). «مولج» بمعنى الدخول إلى الشيء، من ماده (ولج)، على وزن، ورود

٣- (٣) اصول الكافي، ج ٨، ص ٥٧

أَلَمْأ وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الْخَاصِّهِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصْبِرْ طِفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطَقُ إِلَّا صَادِقًا، وَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِكَ مَنْ يَهْلِكُكَ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَالَ هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعُهُ فِي أُذُنِي وَأَفْضِي بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتُكُمُ عَلَى طَاعِهِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَاكُمُ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَأَتْنَاهِي قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

الشرح والتفسير: علمنى رسول الله صلى الله عليه وآله كل شىء

بالنظر إلى أنّ الإمام عليه السلام أشار في السابق إلى علمه بأسرار الغيب وإخبار كل شخص عن تفاصيل حياته، إلّا أنّه يخشى منهم الغلو والكفر، ليشير هنا إلى أمرين؛ الأول: إنى أطلع على هذه الأسرار بعض الخواص من المؤمنين ممن يتحملون الأسرار ويحفظونها، والآخر، ما أقوله إنّما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«أَلَمْأ وَإِنِّي مُفْضِيهِ (١) إِلَى الْخَاصِّهِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ». هذه الخاصة، مثل، كميل بن زياد، ورشيد الهجرى، والأصبغ بن نباته، وميثم التمار، وحبيب بن مظاهر، الذى يسع كل واحد منهم حفظ بعض الأسرار. وقد حفلت حياتهم بالتعرض لبعض الأسرار فى المواقع الحساسه؛ فإذا كان التلامذه يحملون مثل هذه الأسرار ولهم مثل هذه

ص: ٣٧١

١- (١). «مفضيه» فى الأصل، من ماده (فضاء)، بمعنى السعه، وعليه فالإفضاء، بمعنى، التوسع، وحين يتصل شخص بآخر بصورة تامه يكون فى الحقيقه قد وسع الوجود بمعونه الآخر. وتعنى هذه المفرده الاختلاء بالشخص لبيان الأسرار وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة

المقامات، فما ظنك بالأسرار المودعه لدى الأستاذ، والمقام الذى هو عليه!!؟

ثم خاض فى الأمر الثانى فقال:

«وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاضِيَّ طَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطَقَ إِلَّا صَادِقًا، وَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِكَ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَالَ هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعُهُ (١) فِي أُذُنِي وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ».

ترى هل كان تعليم النبي صلى الله عليه وآله لهذه الأسرار بصورة بيان جزئى وشرح لكل واقعه، أم أنه علم علينا عليه السلام أصول وكليات، وأن كل باب يفتح ألف باب، أم كانت الموارد مختلفه فتاره من خلال الأصول الكليه وأخرى من خلال التفاصيل؟ يبدو الإحتمال الثالث، هو الأقرب. نعم، هذه الأمور ليست واضحه لدينا، والله ورسوله أعلم، إلّا أننا نعلم أنه أخبر عن حوادث جمه ووقعت كما أخبر، وقد بينت فى خطب متعدده من نهج البلاغه، ولو جمعت لكاتباً رائعاً. وبالطبع فإن أى من ذلك ليس من علم الغيب الذاتى - الذى يختص بالله تعالى - بل كما قال عليه السلام فى الخطبه ١٢٨

«إِنَّمَا هُوَ تَعْلَمُ مِنْ ذِي عِلْمٍ» (٢) ولما كان الإمام عليه السلام قد أفرد جانباً مهماً من الخطبه فى دعوه الناس إلى ترك الانغماس فى الدنيا عاد فى ختام الخطبه ليشير إلى هذه النقطة المهمه فى سبقه للعمل بما يأمر فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْكُمُ عَلَى طَاعِهِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَاكُمُ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَاتَّأَمَّاهُ فَبَلَّغْتُكُمْ عَنْهَا». فالشرايط اللزومه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم تتضمن ضروره عمل الأمر والنهى.

كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ» (٣). ولكن الأمر والنهى إذا كان عاملاً قبل الآخرين بما

ص: ٣٧٢

١- (١) «أفرغه» من ماده (إفراغ) تعنى فى الأصل، سكب شىء سيال من الظرف بحيث يخلو ممّا فيه، ثم استعملت بمعنى إلقاء المطالب المختلفه على الآخر

٢- (٢). للوقوف على المزيد بشأن علم الغيب وعلم الأنبياء والأئمه عليهم السلام راجع إلى هذا الكتاب ج ٥، ص ٣٦٦

٣- (٣). ميزان الحكمه، ج ١، ح ١٢٧٧٦ هناك قضيه، وهى أنّ الإنسان إن دعى الآخرين إلى المعروف ونهاهم عن المنكر ولم يلتزم هو بذلك فإنه يشعر بالخجل من نفسه، وهذا الخجل يسوقه بالتالى إلى المعروف والإبتعاد عن المنكر

يأمر به وينهى عنه فسيكون لكلامه أبلغ الأثر في نفوسهم، لأنّ تأثير الكلام إنّما ينبع من القلب، فإن خرج من القلب استقر لا محاله في القلب. ومن هنا كان هذا هو الأسلوب الذي اعتمده رسول الله صلى الله عليه وآله والائمة المعصومين عليهم السلام وأتباعهم وأنصارهم، فإن نشبت الحرب، كانوا في خطوطها الأمامية وإن حل وقت العبادة تغيّرت ألوانهم، حتى حذر القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وآله من إجهاد نفسه في العبادة: «طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى» (١). وقال أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن سبق رسول الله صلى الله عليه وآله في القتال:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبُأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعُدُوِّ مِنْهُ» (٢). ونعلم جميعاً أنّ علياً عليه السلام إن حثّ الناس في هذه الخطبه وسائر الخطب على الزهد في الدنيا وعدم التعلق بزخارفها، فقد كان أزهد العباد، وحياته خير شاهد على زهده الفريد، والحق لو انطلق زعماء البلدان الإسلاميه من هذه المفاهيم في أن يلتزموا هم وبطانتهم بالعمل بالقوانين قبل غيرهم، لكان لكلماتهم أعظم التأثير في نفوس الآخرين.

ص: ٣٧٣

١- (١). سوره طه، الآيتان ١ و ٢

٢- (٢). نهج البلاغه، القصار الكلمات، الكلمه ٢٢٦

وَفِيهَا يَعِظُ وَيُبَيِّنُ فَضْلَ الْقُرْآنِ وَيُنْهَى عَنِ الْبِدْعَةِ (١)

نظرة إلى الخطبه

هذه خطبه طويله تتحدث عن مسائل مهمه وتتضمن وصايا حيه وبناءه لحياتنا المعاصره وتتألف من ثمانية أقسام: القسم الأول، الذى يتضمن مواظب قيمه يؤكد فيها الإمام عليه السلام أنّ جهنم حُفَّتْ بالشهوات، والجَنَّةُ بمقاومه هذه الشهوات. وشرح فى القسم الثانى، أهميه القرآن مع ذكر بعض التفاصيل الظريفه التى تضاعف من شوق القلوب إلى آيات القرآن. وتطرّق عليه السلام فى القسم الثالث، إلى العمل بالأحكام والاستقامه.

ثم عاود النصح والوعظ فى القسم الرابع، مؤكداً على مراقبه اللسان الذى يمثل

ص: ٣٧٥

١- (١) سند الخطبه: صرح ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه، وابن ميثم بأن هذه الخطبه أولى خطبه بعد البيعه وقتل عثمان. وهذا يدل على أنّ هذين الشارحين وجداهما فى مصدر آخر، غير نهج البلاغه، لأنّ المرحوم السيد الرضى لم يشر إلى ما قالاه، كما روى الزمخشري فى كتابه (ربيع الأبرار) بعضها باختلافات متعدده، وقد بين البعض الآخر من هذه الخطبه فى أربعه كتب ألّفت قبل نهج البلاغه (كتاب الكافى، والمحاسن، للبرقى، والأمالى للصدوق، وتفسير العياشى)، (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص

(٤٣٠)

أولى مراحل إصلاح الذات والمجتمع. وأكد في القسم الخامس، على حفظ أصالة التعاليم الإسلاميه، ونبذ البدع، كما تعرض في القسم السادس، إلى أهميه القرآن وخصائصه. وأوضح في القسم السابع، أقسام ظلم النفس والآخريين. أمّا القسم الثامن (والأخير في الخطبه) فهو بيان مختصر عميق المعنى بشأن إصلاح الذات.

ص: ٣٧٦

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَقَبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ لِكُلِّكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَّ لَكُمْ مَحَابَّةَ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهِهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَاهِ. فَحَرَّمَ اللَّهُ أَمْرًا نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنَزَعًا وَإِنِّهَا لَأَنْزَالُ تَنْزِعٌ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوَى.

الشرح والتفسير: حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات

إستهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَقَبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ» يمكن اعتبار هذه العبارات الثلاث تبياناً لحقيقته واحده بجمل مختلفه، ويحتمل أن تكون كل عباره مُبَيَّنَّه لمطلب معين. فقد أوصى عليه السلام بادیء الأمر بالانتفاع ببيان الله والمراد به الأوامر والنواهي، ومن ثم الإلتعاض بمواعظ الله، أى الترغيب والترهيب والبشاره والإنذار التى تشكل دوافع الطاعه وترك المعصيه، والمرحله الأخيره مرحله الخير التى تتضمن بركات الطاعه وهجر المعصيه، فالمراحل الثلاث هى السبيل إلى القرب الإلهى. جدير ذكره أن لفظ الجلاله تكرر فى العبارات الثلاث، وذلك لبيان أهميه المواعظ والنصائح والشعور بمراقبه الله.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال الدليل والبرهان، فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْدَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيلِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّةً (١) مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِيَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ».

فالإمام عليه السلام لا يرى من مبرر للتواني في قبول المواعظ والإتيان بالواجبات وترك المحرمات، ذلك لأن الله أتم الحجة على الجميع ووضع بما لا يقبل الشك، سبيل قبح العقاب بلا بيان. وخاض عليه السلام في الرد على إشكالات مقدره فقال:

«فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ (٢) بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وواصل عليه السلام كلامه في بيان حديث الرسول صلى الله عليه وآله، فقال:

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مِمَّا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ، وَمِمَّا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي «فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً نَزَعَ (٣) عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ (٤) هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنَزَعًا وَإِنِّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةِ فِي هَوَى».

فهذه حقيقة، وهي أن الإنسان لا بد له من اجتياز الطرق الصعبة الوعرة في مسيرته العبادية وكسب الفضائل ودفع الرذائل، وعليه مراقبه الأخطار التي تكمن في طريقه وتعيقه عن الوصول إلى هدفه، أما في مسيره المعصية فكأن هذه النفس الجامحة تسلك سبيلاً سهلاً لا ينطوي على أية صعوبات، وهذا هو سر ثواب الطاعة وعقوبه المعصية.

نقرأ في حديث لطيفه عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَنَّ اللَّهَ حِينَ خَلَقَ الْجَنَّةَ أَمَرَ جَبْرِيْلَ

ص: ٣٧٨

١- (١). «محاب» جمع (محب) من ماده الأمر المحبوب

٢- (٢). «حفت» من ماده (حف) على وزن كف، بمعنى الاحاطه بالشىء

٣- (٣). «نزع» من ماده (نزع) على وزن نبض، تتعدى هذه الماده بحرف (إلى) أحياناً فيقال: نزع عنه أى أفلع عن هذا العمل، وقد وردت فى العبارة بالمعنى الثانى، واستعملت بالمعنى الأول فى العبارات اللاحقه (تنزع إلى المعصيه). وتتعدى أحياناً دون حرف الجر كقولهم نزع الشىء أى، إبطاله وهدمه

٤- (٤) «قمع» من ماده (قمع) على وزن منع، بمعنى، القهر والغلبه

بالنظر إليها، فأقسم بعزّه الله وجلاله أنّ كل من سمع عنها يود دخولها، ثم حَفَّها الله بالمكراه وأمره بالنظر إليها، فنظر إليها وقال أخشى أن لا يرغب فيها أحد، وحين خلق النار أمر جبريل بالنظر إليها، فلما نظر إليها أقسم بعزّه الله وجلاله أنّ كل من سمع عنها سوف لن يدخلها، ثم حَفَّها بالشهوات، وأمره بالنظر إليها، فأقسم بعزّه الله وجلاله أنّه يخشى أن يدخلها الجميع»(١).

تأمل: عشق الطاعة

ما ورد في هذه الخطبه حكم غالب، لا دائم، بعبارة أخرى أنّ أكثر الطاعات مصحوبه بالمشاكل وأغلب المعاصي محفوفه باللذه. والجدير بالذكر أنّ هذا الحكم الغالب يختص بعامه الناس، وإلّا فإنّ أولياء الله ودعاه الحق إنّما يبلغون درجه تجعلهم يتلذذون بكل طاعه ويزدوبون فيها ويتنّفرون من كل معصيه، حيث ورد في الروايه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا»(٢) وقد اعتمد الإمام عليه السلام تلك العباده لأنّ مخاطبيه عامه الناس لا الخواص والأولياء. وصدر الخطبه يشهد على هذا الأمر. القرآن الكريم من جانبه يقول بشأن الصوم والصلاه:

«وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ»(٣) سؤال: قيل في تفسير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنّ المعروف ما عُرف؛ لأنّ روح الإنسان متعرّفه على المحاسن، والمنكر ما لم يُعرّف، وروح الإنسان لا تعرف المساوىء، أليس العبارة المذكوره في الخطبه، تتعارض مع هذا التفسير المشهور؟

يتضح من التأمل أن ليس هنالك من تعارض، لأنّ معرفه المعروف ومجهوليّه

ص: ٣٧٩

١- (١) سنن أبي داود، ج ٢، ص ٤٢٢، ح ٤٧٤٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢

٢- (٢) . اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٣

٣- (٣) . سورة البقره، الآية ٤٥

المنكر لا- تتنافى من حيث الإدراك الكلى مع جاذبه المعصيه ودافعه الطاعه، مثلاً- نلتدّ جميعاً بالعلم ونتنفّر من الجهل، إلّا أنّ
تحصيل العلم ينطوى على عدّه مصاعب، بحيث يزهد فيه بعض الأفراد، وينزعون إلى الجهل، حيث الكسل والخمول.

ص: ٣٨٠

وَاعْلَمُوا - عِبَادَ اللَّهِ - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُضْبِحُ وَلَا يُمَسِّي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِيًا عَلَيْهَا وَمُسْتَرِيدًا لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوِّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَّوْهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ.

الشرح والتفسير: نقد الذات

أعطى الإمام عليه السلام هنا دعاه الحق والسالكين إلى الله درساً معنوياً مهماً فقال:

«وَاعْلَمُوا - عِبَادَ اللَّهِ - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُضْبِحُ وَلَا يُمَسِّي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ (١) عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِيًا (٢) عَلَيْهَا وَمُسْتَرِيدًا لَهَا».

فإننا نعلم أن أحد حجب تكامل الإنسان، هو حب الذات الذي يبدى له عيوبه محاسن وضعفه قوه، وعليه فإن أراد الإنسان سلوك طريق السمو والتكامل، لا بد أن يتهم نفسه ويعرضها للنقد لي طرح عنها حجب حب الذات ويربها الواقع كما هو. وقد بين الإمام عليه السلام هذا الأمر بثلاث عبارات قصيره، قال في الأولى بوجوب إساءه الظن بالنفس ومن ثم انتقادها وأخيراً إيصالها إلى الكمال المطلوب. وقد أشار في خطبه المتقين التي تضمنت مائه وعشره دروس أخلاقيه إلى هذه القضية المهمه:

«فَهُمْ

ص: ٣٨١

-
- ١- (١). «ظنون» صيغه مبالغه من ماده (ظن) ترد في مثل هذه الحالات بمعنى سوء الظن، وعليه، تعنى هنا، من ينظر إلى نفسه بالنقد ويتهمها، كما وردت ماده ظن بمعنى الشئ القليل، وعليه فالظنون تطلق على الفرد الضعيف، والمعنى الأول هو المراد
- ٢- (٢) «زاري» بمعنى عائب، من ماده (زرى)، على وزن جرى

لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ».

ثم رغب مخاطبيه - الإنسانيه جمعاء - فى ترك التعلق بالدنيا وقد عرض لهم نماذج السلف الصالح فقال:

«فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ.

قَوْضُوا (١) مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَّوْهَا (٢) طَيَّ الْمَنَازِلِ».

وصايا ضروريه

١. ورد الحثّ فى الإسلام والتأكيد على حسن الظن، فما معنى تأكيد الإمام عليه السلام هنا على إساءه الظن؟ سبب ذلك واضح فى أنّ حسن الظن يتعلق بالآخرين، أمّا بالنسبه للذات التى تعيش طبيعياً حسن الظن المفرط إلى درجه رؤيه الضعف قوّه، والرذيله فضيله، ورد الحثّ على إساءه الظن لإيجاد حاله من التوازن. فلا بدّ للإنسان من نقد ذاته وتقييم أعماله وسلوكه دون تهاون لينفتح على الكمال. فهو كذاك الذى يجتاز طريقاً خطراً، فإن اطمأن للطريق، هوى وإن احتاط وحذر، نجى.

جدير بالذكر أنّ نقد الذات لا يتنافى والثقه بالنفس، فالثقه بالنفس من قبيل وجود قوّه عظيمه لدى الإنسان وهو عالم بها، وهذا لا يمنع من الحذر فى مواضع الخطر وعدم نسيان الإحتياط حين الإستعانه بتلك القوّه.

٢. أورد الإمام عليه السلام لمخاطبيه نموذجين (كالسابقين من قبلكم) و (الماضين أمامكم) لانتواء حياه كل فئه منهما على الدروس والعبر.

٣. اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بأمرهم بالنظر إلى الدنيا كمن قوض عماد الخيمه وجمعها وسلكت سبيله يطوى المنازل دون الإقامه فى الدنيا والإستقرار فيها، ويبدو أنّ جميع مشاكل أهل الدنيا تنبعث من هنا، فى أنّهم نسوا الموت تماماً وظنوا بخلودهم فى الدنيا، وكأنّهم لا يرون الزلازل والسيول التى تضرب بعض المناطق

ص: ٣٨٢

١- (١) «قوضوا» من ماده (تقويض) بمعنى الهدم، والمراد هنا نزع أعمده الخيمه وإطناها لرفعها وجمعها

٢- (٢) «طووها» من ماده (طى) بمعنى الاجتياز

فتحيلها خلال ثوانٍ، خراباً كأنها لم تسكن من قبل، وتأتى على مزارع وحقول لتحطم كل محاصيلها التي استغرقت مئات السنين (١).

ص: ٣٨٣

١- (١) تعيش البلاد الإسلاميه حاله من العزاء بسبب الزلزال الذى ضرب مدينه (بم) ونواحيها وخلف آلاف الضحايا، حيث أحالت هذه الزلزله خلال ١٢ ثانيه (نعم، فقط ١٢ ثانيه) هذه المدينه النضره إلى كثبان من التراب كأنها مدينه مهجوره منذ آلاف السنين. نعم، نعلم أن لا اعتبار لهذه الدنيا، لكننا لم نر مثل هذا، حدث ذلك في ٢ ذى القعدة عام ١٤٢٤ هـ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادِهِ أَوْ نُقْصَانِهِ: زِيَادِهِ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانِهِ مِنْ عَمَى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لِمَا وَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْثَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْغَيِّ وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُجَّتِهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ.

الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء

بين الإمام عليه السلام هنا أهميته القرآن الكريم بصفته الكتاب السماوي الشافي في خمسه أوصاف فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادِهِ أَوْ نُقْصَانِهِ: زِيَادِهِ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانِهِ مِنْ عَمَى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى». فقد أشار بالعباره الأولى والثانية والثالثة إلى هذه الحقيقه و هي أنّ الناصح الأمين والهادى من لا يكذب أو يغش أو يغدر أو يضل حتى لا- يكون سبباً لانحراف الآخرين، فلعل هناك من يعرف السبيل إيماناً لا- يصدق الآخرين أو يخدعهم، كما يمكن أن يكون صادقاً لكنه لا- يعرف الطريق، والحال، ليس القرآن كذلك، فالوحي إنّما يستند إلى علم الله المطلق

الذى لا يتسلل إليه الكذب والغش والخيانة، فهو كتاب الله الغنى عن الجميع والمشفق بهم.

ومن هنا خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجتين مهمتين لهدياه القرآن؛ الأولى، أنّ من يجالس القرآن فهو دائماً في إزدياد ونقصان؛ زياده في الهدى، ونقصان، من العمى والضلال، والأخرى أنّ القرآن مصدر عظيم، والفرد أو المجتمع الذى يلتزم بأحكامه ويعمل بتعاليمه، لا يصيبه فقر معنوى، ولا مادى، وعلى العكس من فارقته شهد الفقيرين. طبعاً قد لا يكون الفرد فى زمره أتباع القرآن الكريم إلّا أنّ أعماله تنسجم مع تعاليمه، كأن لا يكذب ولا يغش ولا يهضم الآخرين حقوقهم فذلك له نصيبه من النجاح والتوفيق، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام فى وصيته

«اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَ يُقُومُ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ» (١) وقد اختلف شراح نهج البلاغه فى كلمه (بعد) فى العبارة (بعد القرآن) هل معناها، بعد نزول القرآن، أم بعد العمل به؟ ويبدو المعنى الثانى هو الصواب، لأنّ العمل بالقرآن يزيل الفقر المعنوى والمادى، لا النزول دون العمل.

ويستفاد ضمناً من هذه العبارة أنّ ما يشهده العالم الإسلامى من ضعف وفقر فى الجانب المعنوى والمادى إنّما يُعزى لابتعاده عن القرآن، على غرار من جلس عند عين ماء صافيه ويشكو العطش.

ثم خلص إلى نتيجة أخرى فقال عليه السلام

:«فَأَسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأَوَائِكُمْ» (٢)، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْغِيءُ (٣) وَالضَّلَالُ». فالإمام عليه السلام يعتبر القرآن وسيله لحلّ المشاكل والشفاء من جميع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والمعنوية، ويوجز هذه الأمراض فى أربعة: الكفر والنفاق والجهل والضلال؛ ذلك لأنّ القرآن يقذف نور الإيمان والإخلاص فى القلب

ص: ٣٨٦

١- (١). نهج البلاغه، الرسالة ٤٧

٢- (٢). «لأوى» من ماده (لأى) على وزن سعى، بمعنى الشده والمحنه

٣- (٣) «غى» بمعنى العمل الطائش أو الجهل النابع من الاعتقاد الفاسد، حسب الراغب فى المفردات

ويهتك حجاب الجهل ويهدى الإنسان من الضلاله. قطعاً، ليس هنالك من مرض يهدد المجتمع القرآنى المعروف بالإيمان والإخلاص.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أخرى:

«فَأَسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ». ويستفاد من هذا التعبير أن القرآن أهم وسيلة للنجاه ونيل العناية الإلهية، والعبارة

«وَلَمَّا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ» إشاره إلى عدم جعل القرآن وسيلة لإلفات انتباه الآخرين بهدف تحقيق بعض الأطماع الدنيوية. روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ قَارِئٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَطْلُبَ بِهِ الدُّنْيَا وَلَا خَيْرَ فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فِي صَلَاتِهِ وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ»(١).

تأمل

القرآن والشفاء

صحيح أن عدّه روايات تحدّثت عن تأثير القرآن فى شفاء أمراض البدن أيضاً، ولا يستبعد من كلام الله حتى إحياء الموتى به فضلاً عن شفاء الأمراض، إلّا أنّ ما ركز عليه الإمام عليه السلام فى الخطبه، شفاء القرآن للأمراض المعنويه والخلقيه التى أوجزها فى أربعة؛ الكفر والنفاق والجهل والضلال، كما أكد عليه السلام على ضروره الإستغاثه بالقرآن وتعزيز العلاقه به وحبّه. ويتضح أنّ المراد من التوسل والحب، ما ليس ببعيد عن العمل. وبالطبع فإنّ الاستشفاء بالقرآن من الأمراض الخلقية والاجتماعيه والعقائديه يتم من خلال الوقوف على مضامين الآيات والالتزام بها على صعيد العمل، على غرار ما فعله النبى صلى الله عليه وآله حين نهض بذلك المجتمع المريض ليجعله من أقوى وأفضل المجتمعات.

ص: ٣٨٧

١- (١) اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٠٧ (باب من حفظ القرآن... ذيل الحديث)

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدِّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَّ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرْثِهِ وَعِاقِبِهِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرْثِهِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرْثِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَتَهَمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَعِشُوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الشرح والتفسير: القرآن شافع القيامة

واصل الإمام عليه السلام حديثه هنا عن بركات القرآن وآثاره، مع هذا الفارق في أن الكلام في السابق عن البركات المعنوية والمادية للقرآن في هذه الدنيا، وهنا عن بركاته في الآخرة، وقد أكد على شفاعته، فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدِّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَّ (١) بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ». لا شك في أن شفاعته القرآن بلسان الحال أو القول لمن عمل به، وشكواه ممن هجره ولم يحط به علماً.

ثم وضع عليه السلام أكثر فقال:

«فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ (٢) مُبْتَلَى

ص: ٣٨٩

١- (١). «محل» من مادة (محل) على وزن نحل، بمعنى الشكوى الممزوجة بالسعاية والعيب، لكنّها وردت هنا بمعنى الشكوى

٢- (٢). «حارث» تطلق على الفلاح، من مادة (حرت)، على وزن غرس، بمعنى الزراعة

فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبِهِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرْثِهِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرْثِهِ وَأَتْبَاعِهِ». وتشير هذه العبارة إلى الحديث المعروف

«الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ الْآخِرَةُ» فالإمام عليه السلام يوصي بزراعة بذور الآيات القرآنية في هذه المزرعة، فلا بدور مثمر سوى هذه، وكل ما سواها ضرر وخسران. فمن طبقت أعماله تعاليم القرآن كانت بذوره آياته، ومن خالف سلوكه القرآن، فلا يحصد سوى الخيبة والخسران.

ثم اختتم عليه السلام بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهي كون القرآن بمعيار والميزان لكل الأشياء، فقال:

«وَأَسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَتَّهَمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَعِشُوا (١) فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ». حيث أشار عليه السلام بهذه العبارات القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمّة، الأول: ضروره أخذ العقائد الصحيحة من القرآن، والثاني: كسب الفضائل الخلقية عن طريق القرآن، والثالث: جعل القرآن، الفرقان بين الحق والباطل، فما وافق القرآن صحيح وحق وما خالفه خاطئ وباطل. وهذه العبارة، تأكيد آخر على بطلان التفسير بالرأى وتحميل الأفكار على المفاهيم القرآنية.

جاء في الرواية

«مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (٢).

وورد في روايه أخرى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

«مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ كَلَامِي» (٣).

جدير بالذكر أنّ الاستدلال بالقرآن لمعرفة الله يتمّ تارة عن طريق أدله التوحيد - الواضحة في القرآن بأسره - وتارة أخرى عن طريق ذات القرآن، حيث هذا الكتاب العظيم هو دليل النبوه من جانب، وذاته المقدّسه من جانب آخر. ويصدق هذا الكلام على جميع المعجزات بخصوص القرآن.

أمّا الفارق بين الآراء والأهواء التي وردت في العبارة. أنّ الآراء إشارة إلى

ص: ٣٩٠

١- (١). «استعشوا» من مادة (عش) على وزن مسّ، بمعنى، الخداع والأعمال غير الصالحة، وأريد به في العبارة، الظن بالغش في

العمل

٢- (٢) وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ٣٩

٣- (٣). بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٧

القسم الخامس

الْعَمَلِ الْعَمَلِ، ثُمَّ النَّهْيَةَ النَّهْيَةَ، وَالْإِسْتِقَامَةَ الْإِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ! «إِنَّ لَكُمْ نَهْيَةً فَانْتَهُوا إِلَى نَهَائِكُمْ»، وَإِنَّ لَكُمْ عِلْمًا فَاهْتَدُوا بِعِلْمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَّ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ.

الشرح والتفسير: الدفاع المشروط

أشار الإمام عليه السلام بعد الفراغ من بيان أهميته القرآن، إلى هذه الحقيقة وهي أن الهدف النهائي من نزول القرآن، العمل به، لا الاقتصار على تلاوته:

«الْعَمَلُ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّهْيَةُ النَّهْيَةُ، وَالْإِسْتِقَامَةُ (١) الْإِسْتِقَامَةُ، ثُمَّ الصَّبْرُ الصَّبْرُ، وَالْوَرَعُ الْوَرَعُ!». حَقًّا أَنَّ هَذِهِ الْمَرَاهِلَ الْخَمْسَ الَّتِي ذَكَرَهَا الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عَصَارَةُ السُّمُوِّ وَالتَّكَامُلِ وَالسَّيْرِ إِلَى اللَّهِ. فَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَّجِهَ بِأَدَى الْأَمْرِ إِلَى الْعَمَلِ وَمَنْ ثُمَّ لَا يَتَّهَوَّنُ فِي إِتْمَامِهِ، وَيَرِاقِبُ نَفْسَهُ خِلَالَ ذَلِكَ حَذْرًا مِنَ الْإِنْحِرَافِ عَنِ جَادَةِ الصَّوَابِ وَيَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ إِزَاءَ أَهْوَاءِ النَّفْسِ وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، حَتَّى يَصِلَ الْمَرْحَلَةَ الْأَسْمَى، الْوَرَعَ عِنْدَ الشَّبْهِهِ حَتَّى يَصِلَ الْهَدْفَ.

ص: ٣٩١

١- (١). «الاستقامة» ملازمه الطريق المستقيم والثبات على المسار الصحيح، وفُسِّرَ بعضُ أربابِ اللغة، بالإعتدال، وكلاهما بمعنى واحد، كما وردت بمعنى الثبات والرسوخ، والاحتمالان واردان بشأن العبارة ولا مانع من الجمع بينهما

ذكر بعض شراح نهج البلاغه أنّ العبارة الثانيه والرابعه عطف بالحرف ثم والثالثه والخامسه، بالواو، لأنّ بلوغ الهدف يكون بعد العمل، ولما كانت الإستقامه هي كيفيه العمل فقد عطف بالواو، وحيث الصبر إزاء المعصيه وما ورد قبله، في الطاعه فقد عطف بالحرف ثم، وعطف الصبر والورع بالواو لأنهما متلازمان(١). طبعاً هنالك تفاسير أخرى وارده بشأن العبارة.

ثم أشار عليه السلام إلى هدف المراحل المذكوره وعلامه بلوغ الهدف، فقال:

«إِنَّ لَكُمْ نَهَائِيَّ فَأَنْتَهُوْا إِلَيَّ نَهَائِيَّتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَمًا فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَأَنْتَهُوْا إِلَيَّ غَايَتِيَّ».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضيه مهمه هي هديه حياه الإنسان إلى جانب هديه التعاليم الدينيه، فالله لم يخلقنا عبثاً، والشريعه تنشد هدفاً هاماً هو سعادته الإنسان في الدنيا والآخره. وقد أوصى الإمام عليه السلام بالسعى لنيل هذا الهدف وحذر من الغفله والتوقف في الطريق، فعلاماته واضحه. وربما كان المراد من العلم وجوده عليه السلام والأنبياء والأولياء في كل عصر ومصر، الذين أضاءوا الطريق للجميع، أو المراد، القرآن المجيد، بعبارة أخرى، الكتاب والسنة، أو جميع ذلك.

وخلص في الختام إلى هذه النتيجة

«وَآخِرُ جُؤا(٢) إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ(٣) يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ».

المقصود بالشاهد أنه عليه السلام يشهد في القيامة على الأعمال الصالحه للناد وأداء الحقوق واستقامتهم في سبيل الوصول إلى الهدف وصبرهم وورعهم وتقواهم، والمراد من الحجيج، أتى سادافع عنكم وأجيب الملائكه في محكمه العدل الإلهي.

ص: ٣٩٢

١- (١). شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي، ج ١، ص ٢٠٤

٢- (٢). «اخرجوا» من ماده (خرج) ولما كان أداء الحق يخرج الإنسان من المسؤوليه فقد وردت بهذا المعنى، وإذاعتدت هذه المفرده بالحرف (من) عنت أداء الحق

٣- (٣) «حجيج» من ماده (حج) وردت بمعنى الغلبه، ويطلق الحجيج على من يغلب الخصم بالدليل والبرهان

فهذه العبارات اقتباس من القرآن الكريم وقوله: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ»^(١) وقال بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ»^(٢).

ص: ٣٩٣

١- (١) . سورة الاسراء، الآية ٧١

٢- (٢) سورة النحل، الآية ٨٩

أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ؛ وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بَعْدَهُ اللَّهُ وَحُجَّتِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَا تَخَافُوا أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ»، وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللَّهُ»، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لَا تَمُرُّوا مِنْهَا، وَلَا تَتَبَدَّعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطِعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى الأحداث السابقة، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ (١)». وردت عدّه احتمالات من قبل بعض شراح نهج البلاغه بشأن المراد من القضاء والقدر في العباده، ولكن بالنظر إلى العبارات القادمه فلا يستبعد أن تكون إشاره إلى الأمور المرتبطه بزعامته عليه السلام - التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ومواجهته للناكثين - والمفروغ منه أنّ القضاء والقدر - كما شرحناه في محله - لا- يعنى إجبار العباد وسلب اختيارهم، بل إنّ آثار الأفعال الإختياريه للإنسان نوع من القضاء والقدر؛ مثلاً، إنّ الله قدّر نجاح من يسعى ويجهد ويجهد، وفشل من يتوانى ويكسل، فهذه الأمور وإن جرت باختيار الإنسان إلّا أنّ الله مسبّب الأسباب جعل لذلك آثاراً تعتبر من القضاء والقدر، طبعاً، هناك القضاء والقدر

ص: ٣٩٥

١- (١). «تورّد» من ماده (ورود) بمعنى، الدخول، وتستعمل حين يكون الدخول تدريجياً

الإلزامى الخارج عن حدود الأفعال الإنسانية(١).

ثم بين عليه السلام وظيفه الناس بالنسبه للمستقبل، فقال:

«وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بَعْدَهُ اللَّهُ وَحُجَّتِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَمَّا تَخَافُوا وَابْتَشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ».

ثم خلص إلى نتیجه واضحه، فقال:

«وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللَّهُ»

فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ».

إشاره إلى أن القول بلا عمل لا يؤدى إلى الهدف ولا يوجب دخول الجنة والفوز بالسعاده الأبدية، فما دتم أظهرتم الإيمان فعليكم بالعمل لتشملون بوعده الله.

ثم بين عليه السلام الأخطار التى تكمن فى طريق المؤمنين، فقال:

«ثُمَّ لَمَّا تَمَرَّقُوا مِنْهَا، وَلَمَّا تَبَتَدَعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ (٢) مُنْقَطِعٌ (٣) بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فقد أشار عليه السلام فى هذه العبارة إلى ثلاث فرق من المنحرفين وحدّر من السير على نهجهم، الفئة الأولى: التى تمرق من الدين وترى نفسها على الدين بينما هى بعيدة عنه كل البعد، كخوارج النهروان الذين نعتهم الروايات والتواريخ بالمارقين، فقد بلغوا درجة من التبعد والتمسك بقشور الدين بحيث يحسبهم الجاهل من المتدينين الحقيقيين، والحال، ليس لهم حظ من الدين سوى ظاهره ولا يعلمون عن حقيقته الدين شيئاً.

الفئة الثانية: أهل البدع الذين يُحمّلون الدين ما ليس منه، والواقع أنّهم يقدمون أهواءهم وأفكارهم على أحكام الدين ولم يكونوا قلائل على عهد الخلفاء. الفئة الثالثة: التى تخالف الأحكام الشرعية عامده وتترك ما لا ينسجم مع مصالحها

ص: ٣٩٦

١- (١) للوقوف على المزيد، راجع شرح آيات القضاء والقدر فى التفسير الأمل، ذيل الآيه ٤٩ من سورة القمر، وكتاب دوافع ظهور الدين

٢- (٢). «مروق» تعنى فى الأصل، مرور السهم من الهدف، ويطلق المارقين على الخوارج الذين أفرطوا فى الدين حتى خرجوا منه

٣- (٣) «منقطع» بهم: بمعنى الفرد الذى انتهى متاعه أو أوقف مركبه وسط الطريق ولم يصل الهدف

ومنافعها، وأفضل نموذج على ذلك، معاويه حين ظهر ودخل الكوفه خطب الناس، فقال: «والله لم أقاتلكم لتصوموا وتصلوا وتحجوا وتزكوا فأنتم تفعلون ذلك، ولكن قاتلتكم لأتأمر عليكم» (وقيل على روايه، لأتسلط على رقابكم)^(١). نعم، من جانب هذه الطرق المنحرفه ولم يصغ لوساوس الشيطان وهوى النفس فهو الذى قال:

«قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ»^(٢).

تأمل: الإستقامه فى مسار الولاية

ورد فى بعض الروايات فى تفسير العبارة

«ثُمَّ اسْتَقَامُوا» (المقتبسه من الآيه ٣٠ من سوره فصلت) أنها إشاره إلى الولاية. فقد أجاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام من سأله عن الإستقامه فى الآيه المذكوره، فقال:

«هِيَ وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»^(٣). طبعاً الإستقامه والثبات على الصراط لهما مفهوم واسع، واحد مصاديقه البارزه، ولاية أهل البيت عليهم السلام.

سؤال: متى هذه البشاره التى تزفها الملائكه للمؤمنين، عند الموت أم فى الحياه الدنيا أم القيامة؟ هل يلمس المؤمنون هذه البشاره، أم لا؟

الجواب: ممّا لا شك فيه أن نجد الملائكه - طبق صريح الآيات القرآنيه - للمؤمنين فى الظروف الحساسه مبذوله فى هذه الحياه الدنيا، ونموذج ذلك ما حصل

ص: ٣٩٧

١- (١). نقل ذلك الكلام الكثير من مصادر المحدثين والمؤرخين ومنها: مصنف ابن أبى شيبه، ج ٧، ص ٢٥١؛ وتاريخ دمشق، ج ٥٢، ص ٣٨٠؛ والبدايه والنهايه لأبن كثير، ج ٨، ص ١٤؛ وشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٥١٠ وورد إلى جانب ذلك، قوله: كل شرط أعطيته فهو تحت قدمى (إشاره إلى عدم التزامه بالشروط فى صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام)

٢- (٢) سوره فصلت، الآيه ٣٠

٣- (٣). مجمع البيان ذيل الآيه ١٢٤

فى موقعه بدر والأحزاب (١)؛ طبعاً لم يرهم المؤمنون إلا أنهم شاهدوا إمداداتهم الغيبية على صعيد نصرتهم فى ميدان القتال. وما يستفاد من الروايات أن بشاره الملائكة المذكوره فى الآيه السابقه، والتي أشارت إليها الآيه ٣١ من سوره فصلت، تتعلق بلحظه الموت أو الحشر وقد فسرت العبارة

«نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...» بصيغه «ونحن كُنَّا أَوْلِيَاءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، أى، كُنَّا أَوْلِيَاءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَسَتُولَاكُمْ لِحظهِ الْإِحْتِضَارِ وَالْقِيَامَةِ. روى صاحب مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«أَلَّا تَخَافُوا مَا تَقْدُمُونَ عَلَيْهِ وَلَا تَحْزَنُوا مَا خَلَقْتُمْ وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا» (٢).

ص: ٣٩٨

١- (١). سوره آل عمران، الآيه ١٢٤؛ سوره الأحزاب، الآيه ٩

٢- (٢) مجمع البيان، ذيل الآيه المذكوره

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعِ الْأَخْلَاقِ وَتَضْيِرِيفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا، وَلِيُخْزِنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جُمُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَاللَّهُ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزِنَ لِسَانَهُ. وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَائِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمِ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ.

الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق في إصلاح اللسان

بين الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه بعض المسائل المهمه المرتبطه بتهديب الأخلاق وتطهير الروح من الرذائل الخلقية، وأشار إلى الأمور المهمه التي تشكل مفتاح الإصلاح الأخلاقي، فقال:

«ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعِ الْأَخْلَاقِ وَتَضْيِرِيفَهَا(١)». بالنظر إلى أنّ تهزيح، من ماده هزح، على وزن نظم، بمعنى التكبير، وكأنّ الإمام عليه السلام يرى أنّ الفضائل الأخلاقية كالبناء الشامخ والجوهر الثمين الذي يمثل أى انحراف فيه كسره وتغيير شكله، ولا يقتصر هذا البناء على الفرد، بل حتى المجتمعات البشرية إن

ص: ٣٩٩

فقدت الفضائل الاخلاقيه تنحدر نحو الفساد والانحراف والزوال:

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ

فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ثم ركز الإمام عليه السلام على واحده من أهم المسائل الأخلاقيه التي لا- يتسنى تهذيب النفس إلّامن خلالها والتي تتمثل بإصلاح اللسان، قائلاً:

«وَأَجْعَلُوا اللَّسَانَ وَاحِدًا» حيث تقابل هذه العبارة تلك العبارة

«ذواللسانين» بحق المنافق، الذي يقول شيئاً في حضور الإنسان وآخر في غيابه، «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ»^(١) ومن الطبيعي أن تغيب كل معاني المحبّه والمواساه التي تشكل الركن الأساس للحياه الإجتماعيه في المجتمع الذي يمتاز أفراداه بالنفاق والإبتعاد عن الصدق، وليس هنالك سوى سوء الظن الذي يسود المجتمع.

ثم قال في الوصيه الثانيه:

«وَلْيُخْزِنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللَّسَانَ جَمُوحٌ»^(٢) بِصِيَّاحِيهِ». فتشبيه اللسان بالفرس الجموح تشبيه رائع ولطيف، ذلك لأنّ اللسان أسهل عضو لدى الإنسان يحركه دون عناء، إلّا أنّ أهواء النفس ووساوس الشيطان قد تغلب الإنسان بحيث لا يستطيع السيطرة عليها، فيصبح كالفرس الجموح الذي يغلب فارسه فيوشك أن يطرحه في المهلكه. ولعل أفضل وسيله لحفظه من الخطر أن يقلل الإنسان من كلامه، وهذا هو المراد من حفظ اللسان، وليس بعدم الكلام قط، ذلك لأنّ اللسان أهم وسيله في التريه والتعليم ونقل العلوم والمعارف والتجارب وذكر الله تعالى.

ثم أكد عليه السلام ذلك، فقال:

«وَاللَّهِ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزِنَ لِسَانَهُ».

فهذا التأكيد المقرون بالقسم إشاره إلى المرحله الأولى التي قال بها أرباب السير والسلوك إلى الله والتي تتمثل بإصلاح اللسان، وما لم يجتز الإنسان هذه العقبه فلن

ص: ٤٠٠

١- (١). سورة البقره، الآيه ١٤

٢- (٢). «جموح» من ماده (جمح) الفرس، الذي يغلب صاحبه

يقف على حقيقته التقوى والقرب من الله.

ثم تطرّق الإمام عليه السلام إلى أهميته حفظ اللسان في أنّ إحدى فوارق المؤمن عن المنافق إنّما تكمن في هذا الموضوع فقال:

«وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبَدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَيَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ».

طبعاً، لسان كل شخص في فيه، والقلب - سواء العضو الواقع في وسط الصدر أو المراد به العقل - مفصول عن اللسان، ولا فرق في هذا بين المؤمن والمنافق، لكن هناك كناية لطيفة في العبارة، أنّ المؤمن يفكر ثم يتكلم، أمّا المنافق فيتكلم ثم يفكر، الأمر الذي فسره الإمام عليه السلام في العبارات القادمة.

جدير ذكره أنّ هذا المعنى ورد بصورة أخرى في قصار كلمات الإمام عليه السلام ومنها:

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ» (١). وقال:

«قَلْبُ الْأَحْمَقِ فِي فِيهِ وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ» وكل هذه العبارات تشير إلى حقيقته واحده هي أنّ المؤمن والعقل يفكر وينطق والمنافق والأحمق ينطقان ولا يفكران.

سؤال: يمتاز المنافقون عادة بالذكاء والخطط الجهنمية في مشاريعهم الهدامة فكيف يوصفون بأنهم لا يدرون ماذا لهم وماذا عليهم؟!

الجواب: تمكن الإجابة عن هذا السؤال من خلال الآيات القرآنية الواردة بشأن المنافقين وهو أنّ المنافق وإن كانت له بادية الأمر بعض الخطط الشيطانية والذكية حتى يرى نفسه عاقلاً والمؤمن سفيهاً، إلّا أنّ المنافق في خاتمه المطاف هو السفيه الحقيقي، قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ» (٢). وعليه تتضح فطنه المؤمن

ص: ٤٠١

١- (١). نهج البلاغه، القصار الكلمات، الكلمة ٤٠

٢- (٢). سورة البقرة، الآية ١٣

وبلاده المنافق من خلال التأمل الدقيق، والمنافق شاء أم أبى فهو مفضوح فى الدنيا والآخرة.

ثم استدل عليه السلام بحديث عميق المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ».

فالعلاقة القائمة بين إصلاح اللسان والقلب والإيمان فى هذا الحديث هى علاقه جدليه واضحه. وقد دلت التجربه على أن سوء اللسان وتلوته بالذنوب والكلمات العبيثه الفارغه، يسود القلب ويخلى الروح من المعنويه، ومن الطبيعى أن القلب إذا اسودَّ لن يجد بصيص نور الإيمان. قال القرآن الكريم فى تعبير دقيق وبعيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» (١). وعليه فالعلاقة بين إصلاح اللسان وإصلاح القلب وإصلاح الإيمان علاقه لازم وملزوم، وإن تكلف بعض الشراح فى تفسير العبارة. طبعاً، لا يمكن إنكار صدق عكس هذا المعنى، أى أن قوه الإيمان تؤدى إلى نورانيه القلب والذى يؤدى إلى إصلاح اللسان، وبعباره أخرى، تؤثر هذه الأمور الثلاثه فى بعضها البعض الآخر تأثيراً متبادلاً، إلّا أن الأبرز، ما ورد فى حديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ثلاثه مواضيع مهمه أخرى، فقال:

«فَمَنْ اسْتِطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ» قطعاً، أن مثل هذا الفرد على درجه رفيعه من الورع والتقوى التى تجعله مشمولاً بعنايه الله ورحمته. وأى تقوى أعظم من كف الأذى عن الناس واحترام أموالهم وأعراضهم وأنفسهم. ويبدو هذا الموضوع على قدر من الأهميه بحيث كانت رعايته دليلاً على كون الفرد مسلماً وهجره دليلاً على بعده عن

ص: ٤٠٢

الإسلام. ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (١) وأبعد من ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام الذى أوسعته ليشمل الناس، فقال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ اتَّيَمَّنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» (٢).

تأملان

١. اللسان اعجب اعضاء البدن

لهذه القطعه البسيطة من اللحم والتي نسميها (اللسان) مسؤوليات خطيره على مستوى الظاهر والباطن. ولو تأملنا نطق الآخرين لرأينا أنّ اللسان يتحرك بسرعه مذهله فى الفم فيرتب الحروف سريعاً لينطلق ببعض الكلمات، ولا يكل أبداً. ولو أخطأ قليلاً فى الحركة لصدرت منه الكلمات المهمله والمضحكه أحياناً، كما يقوم بدور فريد حين تناول الطعام حيث يدفع الغذاء بسرعه فائقه إلى الاسنان وينسحب قليلاً بغيه طحنه. ووظيفته الأخرى تتمثل فى جمع الطعام الممضوغ ودفعه إلى البلعوم، ولولا اللسان لتعذر علينا ابتلاع الماء والغذاء؛ هذا من حيث الظاهر. وأما من حيث القضايا المعنويه والأخلاقية، فدور اللسان واضح وجلّى؛ فهو أبسط وسيله عباديه وأهم وسيله للمعصيه؛ فأفضل العبادات (الصلاه، تلاوه القرآن، الترييه والتعليم، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر و...) إنّما تتمّ باللسان، كما قيل بأنّ ثلاثين كبيره (من قبيل الغيبه، التهمه، أذى المؤمن، الحكم بالباطل، إيجاد الفساد، والإختلاف و...) ترتكب بواسطه اللسان، فاللسان أفضل وسائل الطاعه كما أنّه أخطر وسائل الذنب، ذلك لأنّه مستعد فى كافه الأزمنه والأمكنه والظروف ودون أدنى تكاليف لارتكاب الذنب، والأدهى من ذلك أنّ ذنوب اللسان أثار كثرتها وسعتها لم تعد قبيحه لدى عوامّ الناس، ومن هنا كانت الخطوه الأولى لإصلاح

ص: ٤٠٣

١- (١). ميزان الحكمه، ح ٨٧٧٨

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٥١، ح ٣

الذات تكمن فى إصلاح اللسان. هنالك طريقان مهمّان للنجاه من معاصى اللسان أشار إليهما الإمام عليه السلام؛ الأول: قلّه الكلام واجتناب الفضول للخلاص من آفات اللسان. الثانى: أن يفكر كلما أراد الكلام، كما قال الإمام عليه السلام أن يكون لسانه وراء قلبه، لا أن يكون قلبه وراء لسانه كالمناق والأحمق. ويبدو الكلام بهذا الشأن كثير، نختصره ونختتمه بالحديث النبوى الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يُعَذِّبُ اللَّهُ اللِّسَانَ بِعَذَابٍ لَّا يُعَذِّبُ بِهِ شَيْئًا مِنَ الْجَوَارِحِ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ عَذَّبْتَنِي بِعَذَابٍ، لَمْ تُعَذِّبْ بِهِ شَيْئًا فَيَقَالَ لَهُ: خَرَجْتَ مِنْكَ كَلِمَةً فَبَلَغْتَ مَشَارِقَ الْمَآرِضِ وَمَغَارِبَهَا فَشَدِّفَكَ بِهَا الدَّمَ الْحَرَامَ وَانْتَهَبَ بِهَا الْمَالَ الْحَرَامَ وَانْتَهَكَ بِهَا الْفَرْجَ الْحَرَامَ، وَعَزَّيْتَنِي (وَجَلَالِي) لَأَعَذِّبَنَّكَ بِعَذَابٍ لَّا أُعَذِّبُ بِهِ شَيْئًا مِنْ جَوَارِحِكَ» (١).

٢. رصيد الإنسان

إن رصيد الإنسان ثلاثه أشياء: النفس والمال والعرض، ولعل العرض يتقدم على الجميع حيث يستعد الإنسان للتضحيه بنفسه من أجله، ثم النفس والأموال. وقد أولى الإسلام هذه الأمور الثلاثه أهميه فائقه، وكما ورد فى الخطبه فإن النجاه يوم القيامه لمن سلمت يده من دمائه الناس وأموالهم ولم يتعرض لأعراضهم. ويرى الإسلام حرمه الأموال كحرمه الأنفس، وأن حرمه إنسان كحرمه البشرىه جمعاء، وأن انتهاك حرمه مؤمن بغيبته كمن يأكل لحم أخيه ميتاً. ورد فى الحديث النبوى فى حجه الوداع فى منى، (التي يقصدها الناس من مختلف مناطق العالم) أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس بعد أداء مناسك الحج فقال: أى يوم أفضل أيام السنه؟ قالوا:

هذا الشهر. قال: وأى أرض؟ قالوا هذه الأرض. فقال صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

ص: ٤٠٤

عَلَيْكُمْ حَرَامٌ لِحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ فَيَسِدْ بُلُوكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ»، ثم قال: هل بلغت؟ قالوا: بلى. قال صلى الله عليه وآله:

«اللهم فاشهد» (١).

ص: ٤٠٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٥٠

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعِيَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلًا، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلًا؛ وَأَنَّ مَا أَحَدَثَ النَّاسُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا، وَوَعِظْتُمُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ؛ فَلَمَّا يَصُمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكَرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعُ شَرْعِهِ وَمُتَّبِعُ بَدْعِهِ، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّهِ، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّتِهِ.

الشرح والتفسير: أخطار البدع

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى آفة دينيه واجتماعيه أخرى ليكمل ما ذكره من آفات، وتلك الآفة هي البدعه وتغيير أحكام الله على ضوء الرغبات والأهواء النفسيه، فقال:

«وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلًا، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلًا».

لا يُخضع الأحكام الشرعيه لهوى نفسه ويُغيرها بأفكاره الناقصه، فلو فتح باب البدع فى الأحكام لغير الظلمه والطواغيت كل ما لا ينسجم مع مصالحهم ومنافعهم، فلا تمضى مدّه حتى تدرس أصول الدين وفروعه ويمحق محتواه. والعبارة تشير

إلى البدع التي وردت إلى الدين عقب وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولم يكتف القوم بالقياس عند عدم وقوفهم على نصوص الكتاب والسنة، بل هبوا لمخالفه صريح القرآن وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. فالخليفة الثالث خالف طريقه رسول الله صلى الله عليه وآله في توزيع أموال بيت مال المسلمين وتسويته بينهم في العطاء، فقدم الأعيان والأشراف ولا سيما خاصته وبطانته من قرابته. ثم انبرى الخليفة الثاني ليقول صراحة: متعتان كانتا حلالاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أحرهما وأعاقب عليهما، متعه النساء (الزواج المؤقت) ومتعه الحج (الحج بصورة حج التمتع) ناهيك عن سائر البدع التي ظهرت على عهد الخلفاء والتي أحصتها بعض الكتب (١). والإمام عليه السلام بدرأيته الواسعة شعر أنه إن لم يقف بوجه هذه البدع لمحق الدين وغيب أحكامه، ولذلك عدّ الإبتعاد عن البدع من الإيمان.

ثم قال عليه السلام

: «وَأَنَّ مَا أَخَذَتِ النَّاسُ لَأِيْحُلَّ لَكُمْ شَيْئاً مِّمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ». ومن ثم أشار إلى نقطه بمثابه الدليل على ما ذكر، فقال:

«فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا (٢)، وَوَعظْتُم بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضَرَبْتِ الْأَمْثَالَ لَكُمْ، وَدُعَيْتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ». بمعنى أنكم شاهدتم حجم المصائب والإرباكات التي جرّتها البدع السابقة على الإسلام والمسلمين. فالبدع في زمان عثمان أدت إلى تلك الثورة الهوجاء التي سفكت دمه وأحدثت التمييز بين العرب والموالي، إلى تلك الفرقة بين المسلمين أيضاً وكان عاقبتها سفك دمه أيضاً (٣). وناهيك عما سبق، فإنّ الله ذمّ اليهود في القرآن الكريم على بدعهم وتحريفاتهم وكشف عن مصيرهم، وأنتم قد جرّبتم البدع وقد وعظتم بمن كان

ص: ٤٠٨

١- (١). راجع النص والاجتهاد للمحقق المرحوم السيد عبدالحسين شرف الدين

٢- (٢). «ضرستموها» من ماده (ضرس) على وزن درس، بمعنى، العض أو البعض أو العض الشديد بالأسنان، ثم وردت بمعنى الدراسة الدقيقه للشيء، وهذا هو المراد بها في العبارة

٣- (٣). ذكرنا قصه أبو لؤلؤه غلام المغيرة بن شعبه الذي شكى مظالم المغيرة إلى عمر فلم يُصغ له فشعر بالبغض والكراهيه له حتى قتله. راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبه الشقشقيه

قبلكم، فقد دعوتكم إلى مطلب واضح قامت عليه الأدلة الحيه والتجريبية والنقلية.

ثم خلص إلى هذه النتيجة:

«فَلَمَّا يَصُمْ عَنْ ذِكْرِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَمَّا يَعْمَى عَنْ ذِكْرِكَ إِلَّا أَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ (١)، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكَرَ مَا عَرَفَ».

فالتجارب الحسيه والبلاء الإلهي أهم وسيله لإيقاظ الإنسان، فمن لم يتيقظ بهذا الاسلوب يستبعد أن ينتفع بالمواعظ والنصائح، وليس له من عاقبه سوى رؤيته للحسن سيئاً والسيء حسناً، كما أورد ذلك القرآن الكريم: «قُلْ هَلْ تُبْتِئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (٢).

فقد حسب معاويه وطلحه والزبير أنفسهم من المدافعين عن دم المظلوم (دم عثمان) هذا فى صدر الإسلام، واليوم يرى أصحاب البدع الوهابيون أنهم مصلحو هذه الأمة، وعاده ما يزعم المبتدعون طيله التاريخ أنهم مصلحون.

ويختتم الإمام عليه السلام الخطبه بعباره، لتمييز صفوف المبتدعين من صفوف المتبعين للدين، فيقول:

«وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شَرِّعَهُ وَمُتَّبِعٌ بَدْعَهُ، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّهِ، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّتِهِ» وعليه فلا بد لكل شخص من معرفه صنفه. فإن كان متشرعاً فهو تابع للكتاب والسنة والدليل العقلى اليقيني، وإن كان فى صف المبتدعين فليس لديه دليل من كتاب ولا سنة ولا نور ولا ضياء من عقل ولا يتبع سوى أهوائه ويغير أحكام الله بما ينسجم وتلك الأهواء. وبناءً على ما سبق فإن برهان السنيته إشاره إلى الأدله النقلية، وضياء الحجه الأدله العقلية، وهكذا يُعرّف الإمام عليه السلام أهل البدع بأنهم الأفراد الذين يتبعون أهواءهم وخيالاتهم الباطله.

ص: ٤٠٩

١- (١) «أمامه» تعنى فى الأصل جهه الأمام والعباره (أتاه التقصير من أمامه)، أى، أتاه التقصير علانيه

٢- (٢) سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤

ركّز الإمام عليه السلام في المقطع المذكور من الخطبه على وقوفه بوجه البدع. والبدع في اللغة تعنى إيجاد الشيء دون تجربته أو مثال وهي ممدوحه حيناً ومذمومه حيناً آخر. فالقرآن يصف الله بالقول: «يَدْبِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١)، كما يصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ» (٢) والمراد هو المفهوم المذكور. إلّا أنّ لهذه المفردة مفهوماً خاصاً في لسان الروايات وكلمات الفقهاء وهو تغيير الأحكام الشرعيه وتبديلها بأحكام طبق الرغبات النفسيه والمنافع الشخصيه. ومن هنا ورد الذم الشديد للبدع في الروايات، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَهْلُ الْبِدْعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيفَةِ» (٣).

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«أَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ فَالْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ الْعَامِلُونَ بِرَأْيِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَإِنْ كَثُرُوا» (٤) والروايات كثيره بهذا الشأن والتي ذمّت بشدّه، البدع والمبتدع. والسبب واضح، فكما ذكرنا سابقاً أنّ باب البدع لو فتح لما بقى من أحكام الدين وأصوله وفروعه شيءٌ ولمحق الدين. وعلى هذا الأساس قال رسول الله صلى الله عليه وآله

: «مَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ دِينِهِ» (٥).

ويتضح من هنا خطأ أولئك الذين خلطوا المعنى الواسع للبدع بمعناها الخاص ليزعموا أنّ كل القضايا متجدده، فمن يسعه الوقوف بوجه التجدد؟ وأمّا أولئك فإنهم يرون تغيير الآراء الإجتهديه وكشف المسائل المستحدثه من الكتاب والسنة ضرباً من البدع، فإمّا أنهم يخدعون أنفسهم أو أنهم يريدون خداع الآخرين. فكشف

ص: ٤١٠

١- (١). سورة البقره، الآية ١١٧

٢- (٢). سورة الأحقاف، الآية ٩

٣- (٣) ميزان الحكمه، ح ١٦٢٩

٤- (٤). المصدر السابق، ح ١٦٣٢

٥- (٥). المصدر السابق، ح ١٦٣٥

المسائل المستحدثة من الكتاب والسنة تبعيه للشرع لا بدعه بالمعنى الخاص للكلمه؛ أى، تحريم حلال الله وتحليل حرمة استناداً لأهواء النفس والمنافع الشخصية. جدير بالذكر أن المبتدعين وخشيته اعتراض المؤمنين يلجأون إلى التغيير بالرأى، فيحرفون آيات القرآن الكريم أو روايات المعصومين عليهم السلام ليوردوا البدع.

وبالطبع فإن هؤلاء أعظم خطراً من الذين يمارسون البدعه علانيةً. على كل حال، فقد قال الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه: إن المؤمن من يلتزم بحلال الله وحرامه ولا يغيرهما، ويعمل بالأحكام الشرعيه فى كل الأوقات ولا يحيد عن الكتاب والسنة.

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكَّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاشُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَا بَنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ».

الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم

تطرق الإمام عليه السلام هنا ثانيه إلى القرآن وعظمته ليطم ما ذكره سابقاً فأشار إلى بعض الأمور الجديدة فقال:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ». ذلك لأنّ الكتب السماوية التي أنزلها الله لهدايه الخلق تشتمل على أعظم المواعظ.

ويمتاز القرآن من بين هذه الكتب بكونه الشمس المشرقة ومواعظه فريده وإرشاداته قيمه. فتارة يتحدث مباشرة للعباد، وأخرى كسؤال يجيب عنه الوجدان، وأحياناً يطرق التاريخ الماضي الملئ بالدروس والعبر، وأحياناً أخرى يتحدث من خلال المثال البليغ ويلبس الحقائق العقلية ثوب الحسن، ويورد كل ذلك بعبارات تفيض رقة وعدوبه وبلاغه، ومن هنا فليس هنالك من مواعظ كمواعظ القرآن.

ثم ذكر عليه السلام أدله ذلك، فقال:

«فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ (١)»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ

ص: ٤١٣

١- (١). «متين» من ماده (متن) يعنى فى الأصل العضلتان القويتان على طرفى العمود الفقرى، ثم أطلق على كل موضوع محكم

الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ (١) الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جَلَاءٌ غَيْرُهُ». فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات الخمس ما يمكن قوله في القرآن؛ الأول: أنه جبل الله المتين وكأنته سحب من السماء إلى الأرض ليمسك به العباد، فيحلّقون به إلى عنان السماء ويبلغون مقام القرب. وهذه هي العروة الوثقى التي أشار الله إليها في كتابه: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَأَنْفِصَامَ لَهَا». يعنى لا شك فيه أنّ الطريق إلى الإيمان بالله والكفر بالطاغوت هو القرآن.

الثانى: أنّه السبب الأمين، أى، الواسطه بين الخلق والخالق والذى لا يعرف الزلل والخيانة وكل ما فيه حق خالص. والثالث: أنّ القرآن ربيع القلوب، فكما تدبّ الحياه فى الربيع فى الأشجار الميتة وتتفتح غصونها وأوراقها، كذلك من يفتح على القرآن يشعر بحيوية روحه وحياته بالإيمان والفضائل والأخلاق. الرابع: أنّ القرآن ينابيع العلوم، ليس فقط العلوم التى تتعلق بمعرفة الله وتربى فى الإنسان روح الفضيله والورع والتقوى فحسب، بل القرآن دافع للخوض فى العلوم التى تعنى بخلق الإنسان والسماء والأرض وسائر الأحياء والكائنات، وله إشارات عميقة المعنى فى كل هذه العلوم. وأشار فى الخامس إلى هذه الحقيقة وهى، أنّ جلاء القلوب مما يعلق بها من أدران الذنب والغفلة لا يتيسر إلا بنور القرآن الذى يزيل عنها الصدأ من خلال تلاوته وتدبر آياته. أمّا قصير الجلاء على القرآن فذلك لأنّ سائر الوسائل إنّما تستند فى الواقع إلى القرآن، فالقرآن مصدر كل شىء. ومن الطبيعى أن يكون الكتاب الذى يشتمل على هذه الخصائص أفضل واعظ.

وأعرب الإمام عليه السلام عن أسفه لوضع المسلمين تجاه القرآن، فقال:

«مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَيَدِّكُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ» هذه العبارة إجابته عن سؤال مقدر فى أنّ الآثار العظيمة التى أُشير إليها بشأن القرآن إن انحسرت فى المجتمع الإسلامى فسبب ذلك لا يُعزى إلى القرآن، بل لغفلة الجهال والمنافقين أو تغافلهم

ص: ٤١٤

عن هذا الفيض الإلهي. ولعل هذه العبارة تشبه تلك التي ذكرها الإمام عليه السلام في الخطبه ١٨٢ حين أعرب عن أسفه على شهادته صحبه الأوفياء، فبكى، وقال:

«أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْصَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ».

فقد صنّف الإمام عليه السلام الناس إلى ثلاث فئات، فنه يقظه تنتفع دائماً بآيات الله، وأخرى غارقه في ماديّات الدنيا نسيّت القرآن، وثالثه، عمدت إلى تناسي تعاليم القرآن، فهي تمرّ عليه بكل بساطه رغم معرفتها بأهدافه. طبعاً إن رأينا المجتمع الإسلامي يشكو المرض من عدّه جوانب، فذلك ليس لتقصير الطبيب ولا عدم فائده الوصفه الطبيه، بل السبب الحقيقي يكمن في عدم الإلتزام بهذه الوصفه الإلهيه الشافيه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وكأنه ردّ على إشكال من يقول: إن كانت هناك فئه نسيّت طريق الحق أو تناست، فذلك لأنّ طريق الحق ليس معروفاً وقد امتزج بطرق الباطل، بحيث لا يبدو تشخيصه سهلاً، فقال:

«فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَابْنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ» (١) قَاصِدٌ (٢)». يتضح من العبارة أنّ للخير والشرّ معاني واسعة، كما تشير العبارة إلى الحسن والقبح العقليين في أنّ الإنسان يدرك بعقله وفكره الخير والشر، وإن عمل به فقد طوى مسافه واسعه من الطريق القويم والجاده المستقيمه. وللوقوف على عظمه القرآن وأهميته مضمونه، فقد أوردنا مباحث كثيره في الأجزاء السابقه (الجزء الأول، ذيل الخطبه ١٨، والجزء الرابع، ذيل الخطبه ١١٠) وسنتطرق بإذن الله إلى مبحث مفصل بهذا الشأن في شرح الخطبه ١٩٨.

ص: ٤١٥

١- (١). «جواد» تعنى فى الأصل، الفرس السريع، ومن ماده (جود)، معروف، ثم اطلقت على الإنسان المجدوالمستقيم

٢- (٢) «قاصد» من ماده (قصد) بمعنى الاعتدال، وعليه فالقاصد، من يسير على الدرب دون إفراط وتفريط

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لِمَا يُعْفَرُ، وَظُلْمٌ لِمَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَعْفُورٌ لَا يُطْلَبُ.

فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لِمَا يُعْفَرُ فَالشَّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ». وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُعْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لِمَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَرَحًا بِالْمِدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَضِيءُ غُرَّ ذَلِكُمْ مَعَهُ. فَمَا يَأْتِيكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوْتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ» فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

الشرح والتفسير: إصلاح النفس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل ختامها إلى ثلاثة مواضيع مهمّة؛ أحدها، أقسام الظلم الثلاثة، والآخر، موضوع وحده المسلمين وأهميتها، والثالث، التهذيب وإصلاح النفس بدلاً من تقصّي عيوب الآخرين، والأبحاث التي ذُكرت في هذه الخطبة بشأن المسائل الأخلاقية والنصائح الواردة بهذا الخصوص تكتمل بهذه المواضيع الثلاثة. فقد قال عليه السلام في الموضوع الأول:

«أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ

ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَأَيُّغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَأَيُّتْرِكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَأَيُّطَلَّبُ».

ثم خاض عليه السلام في شرح كل قسم، فقال:

«فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَأَيُّغْفَرُ فَالشَّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ»». طبعاً، بالتوجه إلى صدر الآية وذيلها:

«وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (١). يتبين لنا أن الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله، إن مات الإنسان ولم يتب منه، هو الشرك، أما سائر الذنوب، كبيرة كانت أم صغيرة إن مات الإنسان ولم يتب منها، فربما يُشمل بالعتو الإلهي، وإن لم يكن ذلك قطعياً وشموله بالعتو خاضع لبعض الشرائط، لأنَّ العبارة

(من يشاء) لا- تعنى العفو عن المذنبين دون حساب وكتاب، ذلك لأنَّ الله حكيم وإرادته ومشيتته حكيمه، ولا يشمل بالعتو سوى من امتلك مقوماته، بالضبط على غرار العفو عن السجناء والذي ينظر إلى حاله السجين، فإن رأى فيه الإستعداد شمل بالعتو، والمراد من الشرك هنا هو الشرك الجلي من قبيل عبادة الأوثان وما شابه ذلك، وأمَّا الشرك الخفي

(كالرياء) فهو من قبيل الكبائر الداخلة في ذيل الآية المذكوره.

ثم خاض عليه السلام في بيان القسم الثاني والثالث، فقال:

«وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ (٢). وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَأَيُّتْرِكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَزَاءً بِالْمُدَى (٣) وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصَيَّرُ غَيْرُ ذَلِكَ مَعَهُ». فقد أشار الإمام عليه السلام في العبارة الأولى إلى الصغائر التي ذكر القرآن شرط عفوها بترك الكبائر: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» (٤). أو إشاره إلى الكبائر التي لها بعد حق الله ويستطيع الإنسان غسلها بماء التوبة والندم وتداركها بالأعمال الصالحة، أما العبارة الثانية التي تبين النوع الثالث

ص: ٤١٨

١- (١). سورة النساء، الآية ٤٨

٢- (٢). «هنات» جمع (هن) على وزن من، بمعنى الأمر المهم والحادثه الشديده، كما ورد في لسان العرب، ماده (هن)، وتطلق أحياناً على الموضوعات الصغيره قليله الأهميه، وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة

٣- (٣). «مدى» جمع (مدية) على وزن، بنيه، السكين

٤- (٤). سورة النساء، الآية ٣١

للظلم، فهي إشاره إلى حق الناس الذي توعد الإسلام عليه أشد العقوبات، والله لا يغفره ما لم يتنازل صاحب الحق، وعليه، فالتعبير بالقصاص في العبارة إشاره إلى العقاب، لا القصاص الإصطلاحي المعروف، ولذلك قال: ليس ذلك القصاص جرحاً بالسكين والخنجر ولا ضرباً بالسياط، بل عقاب يهون كل ذلك معه: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (١).

ورد في الروايه، عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ فِي مَمْلَكِهِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَّارِينَ أَنْ آتِ هَذَا الْجَبَّارَ فَقُلْ لَهُ: إِنِّي لَمْ أُسْتَعْمَلِكْ عَلَى الدِّمَاءِ اتِّخَاذِ أَمْوَالٍ، بَلِ اسْتَعْمَلْتَكْ لِتُكْفَّ عَنِّي أَصْوَاتَ الْمَظْلُومِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَدْعُ ظَلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا» (٢).

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلِمُ بِمَظْلَمِهِ إِلَّا أَخَذَهُ اللَّهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَمَا الظُّلْمَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ فَإِذَا تَابَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ» (٣).

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى موضوع وحده صفوف المسلمين، فقال:

«فَبِأَيِّكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَبِإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فِرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفِرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ».

العبارة

«فَبِأَيِّكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ...» إشاره إلى أن كل طائفة كانت تتخذ لها صيغه تميز برنامجها من الآخرين، سواء في المسائل العقائديه أو العمليه، وهذا التلون يؤدي إلى فرقه الصفوف وضياع الطاقات وأحياناً نشوب الحروب الأهليه التي تهدد مصير المجتمع ومنافعه. وكلما كان أفراد المجتمع - كما ورد في عبارات الإمام عليه السلام المذكوره - يتحولون بالمرونه في القضايا البسيطة، والصبر في الأمور التي لا تنسجم مع رغباتهم، فإنّ الوحده ستسود هذا المجتمع جانب الهدوء والأمن

ص: ٤١٩

١- (١) سورة الهمزه، الآيتان ٦ و ٧

٢- (٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤

٣- (٣) المصدر السابق، ح ١٥

والإستقرار. وبالطبع، فإنَّ اختلاف الصفوف والفرق طيله التاريخ - كما ذكر الإمام عليه السلام - لم يجلب من خير قط.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بدعوه الجميع إلى إصلاح الذات وترك البحث عن عيوب الآخرين، فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عَيْبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ». ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!» إشاره إلى أنَّ كل انسان - سوى أولياء الله والمعصومين عليهم السلام - ينطوى على عيب، فإنَّ إنهمك بعيوب الآخرين غفل عن إصلاح نفسه ولا يسعه بلوغ القرب الإلهي والتهذيب الخلقى والسير إلى الله، أمّا إن اختلفى بنفسه وانشغل بعيبه وشعر بالندم لما فرط منه وغسل أدران المعصيه بمياه طاعه الله ولاسيما بقطره دمع صادق، أنذاك سيتمكن من إصلاح تلك نفسه والعروج بها إلى ساحه القدس.

تأمل: العيش بصوره جماعيه أم الإنزواء

حثَّ الإمام عليه السلام فى ختام الخطبه على الإنزواء والإعتزال، الإعتزال الذى يعدّ مقدمه لتهذيب النفس والإبتعاد عن المفاسد الإجتماعيه، وذهب أغلب علماء الأخلاق إلى أنَّ الإعتزال يعدّ أحد الشرائط اللازمه لتهذيب الأخلاق. ولو تأملنا آيات القرآن الكريم لرأينا مرحله العزله التى شهدها الأنبياء العظام والصالحون فى حياتهم. فقد قال إبراهيم الخليل عليه السلام حين واجه المجتمع الضال والمتعصب - الذى كان يصصر على عباده الأوثان - «وَأَعْتَرِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا» (١).

وقد اعتزل موسى عليه السلام قومه أربعين يوماً لأخذ الألواح واتّجه إلى الطور، حيث

ص: ٤٢٠

وردت تفاصيل هذا الموضوع في الآيه ١٤٢ من سوره الأعراف.

وكما ورد اعتزال مريم عليها السلام حيث أشارت إليه الآيه ١٦ من سوره مريم، وكذلك ما ورد في شأن أصحاب الكهف عندما عجزوا من مقارعه الوثنيين فاعتزلوهم إلى الكهف وأشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث قال: «وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُغِيْدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا» (١).

وإننا لنعلم جميعاً باعتزال النبي صلى الله عليه وآله القوم حين كان يختلى في الغار لأيام بل أشهر قبل البعثه ويجد ويجتهد في العباده.

نعم، وردت عدّه روايات بهذا الشأن ومنها، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«الْعَزْلَةُ عِبَادَةٌ» (٢).

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«الْعَزْلَةُ أَفْضَلُ شَيْمِ الْأَكْيَاسِ» (٣).

وقال عليه السلام أيضاً:

«فِي اعْتِرَالِ ابْنَاءِ الدُّنْيَا جِمَاعُ الصَّلَاحِ» (٤). والحال هنالك بعض الروايات أكدت على الجماعه، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ» (٥).

وورد مثل هذا المضمون عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«وَالزَّمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّبِّ» (٦).

فالأحاديث في الموضوعين كثيره، ويتصور أحياناً تعارضها مع بعضها، والحال، صرحت ذات الروايات بكيفيه الجمع بينها. فالذى يفهم من النصوص القرآنيه

ص: ٤٢١

١- (١) سوره الكهف، الآيه ١٦

٢- (٢) ميزان الحكمه، ح ١٢٨٨٤

٣- (٣) غرر الحكم، ح ١٤١٤ و ٦٥٠٥

٤- (٤) . المصدر السابق

٥- (٥) كنز العمال، ج ١، ص ٢٠٦، ح ١٠٢٨

٦- (٦) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٧

والروايه أنّ العزله تتمّ على ضوء بعض الشرائط الإجتماعيه الخاصه، والواقع أنّها استثناء إزاء حكم كلى بالاجتماع، وقد ورد الحثّ على العزله فى الأمور التاليه:

١. الإبتعاد عن طلاب الدنيا والتي صرّحت به الأحاديث المذكوره.

٢. الإبتعاد عن المجتمع الفاسد والمنحرف، كما ورد ذلك فى قصّه إبراهيم وأصحاب الكهف، وقد سئل الصادق عليه السلام عن سبب اعتزاله، فقال:

«فَسَدَ الزَّمَانُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ فَرَأَيْتَ الْإِنْفِرَادَ أَسْكَنُ لِلْفُؤَادِ»^(١).

٣. حين تكون العزله بهدف التفكير والتهديب وإصلاح النفس، كالذى كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثه وتفرغه للعباده فى غار حراء. ولا- شك أنّ الإنسان إذا أفرد بعض الوقت من يومه وليلته للتفكير فى نفسه ومجتمعه كان لذلك آثاره الطيبه والنافعه.

٤. الإبتعاد عن الأشرار - الذين يشكلون جزءاً من المجتمع - فقد. ورد الحثّ على الإعتزال عن هؤلاء، وقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ اعْتَزَلَ النَّاسَ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ»^(٢). وإلّا ليس هنالك من يسعه التنكر للجماعه التى حظيت باهتمام واسع من أحكام الشريعه السمحاء. والإبتعاد التام عن المجتمع يعنى الإبتعاد عن التجارب والعلوم والمعارف وطاقت أفراد المجتمع، أضف إلى ذلك فإنّ العزله على ضوء ما أثبتته التجربه قد تدفع بالإنسان إلى العجب والفخر وإساءه الظن بالآخرين، إلى جانب بعض الإدعاءات الباطله والفاسده.

ص: ٤٢٢

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٦٠، ح ١١٦

٢- (٢). غرر الحكم، ح ٨١٥١

فى مَعْنَى الْحَكَمَيْنِ (١)

نظرة إلى الخطبه

كما ورد فى سند الخطبه فقد خاطب الإمام عليه السلام الخوارج الذين ضغظوا بادية الأمر على الإمام عليه السلام فى قبول التحكيم فاضطر إلى الموافقه رغم ممانعته للحيلولة دون الإنقسام فى صفوف أتباعه ووقوع الحرب الأهليه، ولكن ما إن ظهرت نتيجة التحكيم السلبيه أثر خيانه ممثله فى تحكيم أبى موسى الأشعري وخداعه من قبل عمرو بن العاص ممثل معاويه حتى اعترضوا على الإمام عليه السلام فى قبوله التحكيم. فرد عليهم الإمام عليه السلام بذلك الرد الحاسم فى أنكم أنتم الذين أثرتم هذه الفتنة وقد حذرتكم فلم ترعوا، والآن حيث ترون سوء اختياركم تعترضون! أضف إلى ذلك أن التحكيم كان مشروطاً لا مطلقاً، وشرطه عدم الإنحراف عن القرآن ولكنهم انصرفوا، وعليه فينبغى الاعتراض عليهم لا على.

ص: ٤٢٣

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه مع اضافات كثيره، المؤرخ المعروف، الطبرى، فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٧ هجرية عن أبى مخنف، وقد خاطب بها أصحاب النهروان. وقد ذكر الإمام على عليه السلام فى بدايه الخطبه أموراً بشأن الحكيمين وأخطائهما، ثم بين (باختلاف) ما رواه المرحوم السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٢٨) ولا يبعد أن تكون هذه الخطبه جزءاً من الخطبه ١٢٨

فَأَجْمَعَ رَأْيَ مَلَائِكُمْ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعَلَا عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعُهُ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبَيِّنُ رَأْيَهُ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْإِعْوَجَاجُ رَأْيَهُمَا. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِشْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا. وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفْنَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيْنَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ.

الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكيمين

فَصَيَّرْنَا الْكَلَامَ بِشَأْنِ الْحَكَمَيْنِ فِي الْخُطْبِ السَّابِقِ وَلَا سِيَمَا الْخُطْبَةَ ١٢٥ وَ ١٢٧ وَخِلَاصَتَهُ، أَنَّهُ لَمَّا أَوْشَكَ جَيْشَ الشَّامِ عَلَى الْهَزِيمَةِ، لَجَأَ عَمْرُوبُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى خُدَعِهِ، فَأَمَرَ بِرَفْعِ الْمَصَاحِفِ عَلَى أَسْنَتِهِ الرِّمَاحِ وَقَوْلُوا: بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ الْقُرْآنُ، فَمَا حَكَمَ بِهِ الْقُرْآنُ رَضِينَا بِهِ. أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَذَّرَهُمْ مِنْ أَنَّهَا خُدَعُهُ وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ فَاْمَضُوا فِي الْقِتَالِ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْجَهَالِ وَالْمَغْرَضِينَ رَفَضُوا وَضَغَطُوا عَلَى الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَبُولِ الْإِحْتِكَامِ إِلَى الْقُرْآنِ. لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُمُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَصْرُوا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفُوا، فَلَمْ يَرِ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَأَ مِنَ الْقَبُولِ. ثُمَّ أَصْرَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَى اخْتِيَارِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُ بِحِمَاقِهِ هَذَا الرَّجُلِ وَضَعْفِ إِيمَانِهِ، أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِابْنِ عَبَّاسِ الرَّجُلِ الْعَاقِلِ الْعَالِمِ الْمَعْرُوفِ وَالَّذِي لَا يَخْدَعُ بِالْأَعْيَابِ عَمْرُوبُ بْنُ الْعَاصِ، لَكِنَّهُمْ رَفَضُوا وَأَصْرُوا عَلَى اخْتِيَارِ أَبِي مُوسَى، وَهَذَا

اضطر الإمام عليه السلام ودفعا للفرقة والانقسام، إلى القبول بعده شروط، منها، عدم خروج الحكيمين عن الحق والعدل. استغرقت المحادثات بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، شهوراً عديدة حتى قال ابن العاص: ليخلع كل منا صاحبه حتى يختار الناس خليفه. فأعلن أبو موسى هذا الجاهل والأحمق - عن خلعه للإمام على عليه السلام من الخلافه، ثم انبرى ابن العاص ليعلن نصبه لمعاويه. فشبّ النزاع بين القوم، وقدم أولئك الذين أصروا على وقف القتال وقبول التحكيم واختيار الأشعري على الإمام عليه السلام واعترضوا عليه، لم قبلت التحكيم؟ قال الإمام على عليه السلام:

«فَأَجْمَعَ رَأْيِي مَلِكِكُمْ (١) عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعَجَعَا (٢) عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ». فالإمام عليه السلام يشير إلى أن قبول التحكيم وإن حصل بفعل الضغط إلا أنه كان مشروطاً لا مطلقاً دون قيود وشروط بحيث يفعلون ما يشاؤون حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ورجباتهم وينبغي أن يقبله الآخرون. فالشرط كان تبعيه القرآن وعدم الإنحراف عن تعاليمه، إلا أن الشيء الوحيد الذي غيَّب في العملية، إنما كان القرآن، فانطلق الأشعري الأحمق ليتصرف خلاف منطق الحق والعدل القرآني.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه:

«فَتَاهَا (٣) عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهِمَا، وَالْإِعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا». ثم أكد الإمام عليه السلام على شروط التحكيم، فقال:

«وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فهل في القرآن الكريم آية تصرّح بضروره خلع شخص كعلی عليه السلام الذي بنى صرح الإسلام بجهاده وتربی فی حجر رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن، وكان مظهر الحق

ص: ٤٢٤

-
- ١- (١). «مألاً» تعنى لغوياً، ما يملأ العين ويشير إعجاب الناظر، ومن هنا تطلق على الجماعه الكثيره المتفقه فى الرأى والعقيده والتي يملأ تجمعها العين، وماده هذه الكلمه وكلمه مملوء واحده
 - ٢- (٢) «يجعجع» من ماده (جعجعه) تطلق فى الأصل على بروك البعير، ثم استعملت بمعنى الخضوع والإستسلام
 - ٣- (٣). «تاه» من ماده (تبه) بمعنى، الحيره والضلال

والعدل من الخلافه، أم هل هناك من آيه تصرّح باستخلاف سليل الجاهليه والكفر والظلم والجور الذي لا يخفى مكره وخذاعه على أحد، وقد استقطب حوله كل المنافقين والشياطين؟

ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَأَيَّعُرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ». وهكذا يردّ بحسم على المعترضين:

أولاً، إنّ قبول التحكيم كان من قبلكم، ثانياً، إنّ هؤلاء لم يطلق لهم العنان في التحكيم، بل كانوا مأمورين باتباع القرآن والإنصياح لأحكامه لا- الإنصياح لأهوائهم. وماداموا لم يلتزموا بالشروط فلا- اعتبار لحكمهم، الغريب في الأمر أنّ الحكّمين نفسيهما لم يتفقا في الحكم وسعى كل منهما لخداع الآخر وليضعه أمام حقيقه لا نقاش فيها، بينما يشترط في التحكيم اتفاق الحكّمين على الشروط المطروحه في التحكيم؟

تأمل: تولى الحكّمين عن القرآن

صرّح الإمام في هذه الخطبه بتجاهل الحكّمين للقرآن ومخالفه الحق وهما يبصرانه وقدّموا أهواءهما على الحقيقه وكان ذلك واضحاً، ولو أنّهما فكّرا قليلاً في مختلف الآيات القرآنيه الوارده بحق على عليه السلام أو تلك التي تبين أصلاً كلياً، والذي يمثل الإمام على عليه السلام نموذج البارز طبق روايات رسول الله صلى الله عليه وآله لما ترددّا لحظه في ترجيحه على شخص ك معاويه بن أبي سفيان أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد صرّح القرآن قائلاً: «إِنَّمَا وَكَّلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» (١) وهل كان غير الإمام على عليه السلام من تصدق بخاتمه حين ركوعه ونزلت هذه الآيه بحقه؟ وقد روى هذا، عشره من كبار الصحابه مثل ابن عباس

ص: ٤٢٧

وعَمَّار بن ياسر وجابر بن عبد الله الأنصارى وأبوذر الغفارى وأنس بن مالك وعبد الله بن سلام ومسلمه بن كهيل وعبد الله بن غالب وعقبه بن حكيم وعبد الله بن أبي، وذكر شرحه فى التفاسير العامه.

وهل يساوى شخص بمن نام فى فراش النبى صلى الله عليه و آله ليله المبيت(١) وفداه بنفسه فنزلت بحقه الآيه الشريفه: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاهِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ»(٢) وهل يتقدم عليه شخص وهو الذى عدّه القرآن الكريم خير البريه [بعد رسول الله صلى الله عليه و آله] فقال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَوْلَتْكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»(٣). لما نزلت هذه الآيه قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

«أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَا عَلِيُّ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»(٤).

وهل ينبغى الإستغراق لشهور، لكى تعلم الأئمه الإسلاميه أيها أفضل على أم معاويه؟ حقاً إنها مقارنه عجيبه وجفاء كبير لأئمةالمؤمنين الإمام على عليه السلام فى أن يُقرن بمعاويه ويعلم فضله، أين هذا من ذاك وأين الثرى من الثريا؟!

ص: ٤٢٨

١- (١). راجع من ذكر سبب نزول الآيه فى على عليه السلام ومنهم، الطبرى وابن هشام والحلبى واليعقوبى وأحمد بن حنبل وابن الجوزى وابن الصبَّاح المالكى (الغدیر، ج ٢، ص ٤٨-٤٩)

٢- (٢). سوره البقره، الآيه ٢٠٧

٣- (٣). سوره البينه، الآيه ٧

٤- (٤) راجع شواهد التنزيل والصواعق المحرقه والدر المنثور ونور الأبصار وتفسير الطبرى وكتاب آيات الولايه لسماحه المؤلف

فِي الشَّهَادَةِ وَالتَّقْوَى

وَقِيلَ إِنَّهُ خَطَبَهَا بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام على عليه السلام بادية الخطبه إلى صفات الله، ومنها، علمه المطلق سبحانه بجميع الأشياء حتى أصغرها حجماً - كعدد قطرات المطر وذرات التراب - ليعلم الناس أن أعمالهم محفوظة عند الله ولا يخفى عليه شيء من أسرارهم.

ثم شهد في القسم الثاني، لله تعالى بالوحدانية ولرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوه، وقرن كل بصفاته ليكشف عن عمق تلك الشهاده.

أما القسم الثالث، فقد تحدّث فيه عن خداع الدنيا ووعودها الكاذبه التي تمنى بها من تعلق بزخرفها.

وأخيراً حذّر الجميع من أن الذنوب سبب زوال النعم، وأن أياً من الأمم لم تعيش

ص: ٤٢٩

١- (١) سند الخطبه: روى الشيخ صدوق، إلى جانب كتابه الخصال، جانباً من هذه الخطبه، وشرح ابن أثير في كتابه (النهايه) مفرداتها الصعبه، كما روى بعضها الزمخشري، في (ربيع الأبرار) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٣٥)

البؤس والشقاء إلتارتكابها الذنوب والمعاصي، ومن هنا فقد دعى الجميع لإعاده النظر فى أعمالهم وتصرفاتهم فيهبّوا لإصلاحها
بغية السعادة والفلاح.

ص: ٤٣٠

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلَا يَعْرُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلِ الدَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. يَغْلَمُ مَسَاقِطَ الْأُورَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْجُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةٌ مِنْ صَدَقَتْ نَيْتُهُ، وَصَفَتْ دِخْلَتَهُ وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَنَقَلَتْ مَوَازِينَهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَمَدُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ وَالْمُضْطَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَالْمَوْضُوحُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى، وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَزِيْبُ الْعَمَى.

الشرح والتفسير: عظمه الله وكرامه نبيه صلى الله عليه وآله

كما أشرنا سابقاً استهل الإمام عليه السلام خطبته خمس صفات من صفات الله الجماليه والجلاليه بعبارات قصيره وعميقه المعنى فقال:

«لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ (١) مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ». هذه الصفات تنبع من ذاته القدسيه المطلقه. فالفرد المحدود العلم والقدرة إن خاض في شيء واستعان بعلمه وقدرته، فمن الطبيعي إلما يسعه التعامل مع عمل آخر، أما الذات المقدسه فهي تدبر عالم الوجود برمته في لحظه واحده، يسمع سبحانه استغاثه العباد ويعلم بحاجاتهم، وحيث كانت ذاته غنيه

ص: ٤٣١

١- (١). «يحوى» من ماده (حوايه) على وزن شفاعه، بمعنى الإحاطه بالشىء

عن الحدود وجامعه للكمالات كاهه فليس من سبيل لتغيير تلك الذات، كما أنّ المكان من لوازم محدود الوجود، فتلك الذات المطلقة عن الحدود حاضره فى كل مكان، وفى نفس الوقت هى ليست بحاجه إلى مكان. أضف إلى ذلك فإنّ صفات الله خارجه عن نطاق وصفنا، فنحن محدودون، والذات وصفاتها ليست محدوده، وليست لنا من قدره للحديث عن كمالات الله وإن طال بنا الحديث فإننا نعود من حيث ابتدأنا، شئنا أم أبينا. نعم، له وحده وصف ذاته وكمالاته كما ورد فى الحديث:

«لَا أُبْلَغُ مَدْحَكَ وَالتَّنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا اثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» (١).

ثم خاض فى الصفه الخامسه وهى علمه المطلق حيث ركّز على سبعة مواضع خفيه تماماً عن الآخرين، فقال:

«وَلَا يَعْزُبُ (٢) عَنْهُ عَيْدٌ قَطْرِ الْمِيَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَايَاءِ، وَلَا سَوَافِي (٣) الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبٌ (٤) النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا (٥) ، وَلَا مَقِيلٌ (٦) الذَّرِّ (٧) فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْزَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ (٨) الْأَخْدَاقِ».

فالعباره

«عَيْدٌ قَطْرِ الْمِيَاءِ» تشير إلى قطرات المطر وقطرات ماء البحار والأنهار والآبار والينابيع التى لا يعلمها إلا الله، كما يعلم عدد نجوم السماء التى يقول العلماء اليوم أنّ مجرتنا فقط تحتوى على ٢٠٠ مليار نجمه، لكن ما عدد النجوم فى سائر المجرات التى لا تعد ولا تحصى؟ لا- يعلم ذلك إلا الله. والأدهى من ذلك، ذرات الغبار التى ترتفع فى كل آن فى أمواج الرياح فى كرتنا الأرضيه وتنتقل من موضع إلى آخر ولا يعلم بها إلا الله. ذهب البعض إلى أنّ المراد من ديب النمل، الأصوات

ص: ٤٣٢

١- (١) أصول الكافى، ج ٣، ص ٣٢٤، ح ١٢. مناجاه النبى عند سجوده منتصف الليل

٢- (٢). «يعزب» من ماده (عزوب) على وزن غروب، بمعنى الإبتعاد والإختفاء، ومن هنا يقال، الأعزب

٣- (٣). «سوافى» جمع سافيه، بمعنى، الريح الشديده

٤- (٤) «ديب» المشى البطيء

٥- (٥) «صفا» جمع صفاه، على وزن وفا، بمعنى، الحجر الأملس الضخم

٦- (٦) «مقيل» من ماده (قيلوله) النوم قبل الزوال، ومقيل اسم مكان بمعنى، موقع الراحة والنوم منتصف النهار

٧- (٧) «ذر» جمع ذره، وهى صغار النمل

٨- (٨) «طرف» بمعنى جفن العين، وترد بمعنى النظر وتحريك الأجفان

التي تصدر عن وقع أقدام النمل على الحجر، والذي يصعب إدراكها بأيّ وسيلة متطوره، إلّا أنّ الله عالم بكل ذلك، كما يعلم بمخادعتها، والمراد، جميع النمل في نقاط العالم كاهه.

وتشير العبارة

«يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْمَأْوِرَاتِ» إلى موضع سقوطها في أنحاء الكره الأرضيه كاهه حيث يسقط في كل لحظه ما لا يعدّ ولا يحصى من الأوراق في البساتين والحدائق وأعلى الجبال وأعماق الوديان ولا يعلم ذلك إلّا الله، كما يعلم عدد أطباق أجفان عيون الناس والحيوانات وكل ذى عينين. أجل، لا يخفى عليه شيء من الكليات ولا الجزئيات في عالم الوجود بأسره، وكفى الإنسان تربيته وأدباً، إيمانه بهذا الإله، كفاه أن يعلم أنّ العالم حاضر بأسره لدى الله وهو عليم بظاهرننا وباطننا، ومن هنا ورد في القرآن «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمِيْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبِغَهُ أَبْحُرٍ مَا نَفَقْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ» (١). ثم شهد لله بالوحدانيه، فليس سوى الله تعالى أهل للعبوديه:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ» (٢) به، ولما مشكوك فيه، ولما مكفور دينه، ولما مجحود تكوينه. وهكذا ينفي الإمام عليه السلام كل أنواع الشرك والشك والكفر بالآيات التكوينيّه والتشريعيّه، بعبارة أخرى ينفي كل شبيه وشريك لله ثم يخوض في الشك في ذاته المقدسه وأفعاله التشريعيّه والتكوينيّه ويقول: ليس من سبيل للشك في دينه ولا في خالقيته وربوبيته في عالم التكوين، ثم قال:

«شَهَادَةٌ مِنْ صِدْقَتِ نَيْتِهِ، وَصَفَتْ (٣) دَخَلَتْهُ (٤) وَخَلَصَ يَقِيْنُهُ، وَثَقَلَتْ مَوَازِيْنُهُ».

إشاره إلى أنّ هذه الشهاده لذات الحق وصفاته شهاده من اتصف بهذه الصفات الأربع: صدق نيته وطهاره قلبه من الشرك والرياء وبعد يقينه عن الربيه والشك

ص: ٤٣٣

١- (١). سورة لقمان، الآية ٢٧

٢- (٢). «معدول» من ماده (عدل) على وزن علم، بمعنى التشبيه والمثيل

٣- (٣). «صفت» من ماده (صفا) بمعنى طهرت

٤- (٤) «دخله» بمعنى، باطن الشيء

وتكشف أعماله عن عمق إيمانه بالله، وهي ليست كشهادته المناق أو الطامع بالمال والجاه، ولا ذلك الذى خلط إيمانه بالشك، ولا ذلك الذى يتحدث عن الإيمان ولا يبادر العمل الصالح.

ثم أردف شهادته لله بالوحدانية بالشهادة لمحمد صلى الله عليه وآله بالرساله ونعته بست صفات، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَمَائِقِهِ، وَالْمُعْتَمَدُ (١) لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ (٢) كَرَامَاتِهِ وَالْمُضِيَّ طَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَالْمَوْضَّحُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى، وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَرِيبُ (٣) الْعَمَى».

الصفة الأولى، التى ورد الحديث فيها عن صفته التى سببت اختياره للرساله.

والصفة الثانية، وظيفته فى شرح حقائق الدين والعقائد الصحيحه. وتطرق فى الصفة الثالثة، إلى مكارم خلقه، والصفة الرابعة، فى وظيفته المهمه فى بيان الأحكام، والصفة الخامسة، هدايته صلى الله عليه وآله عن طريق قوله وفعله وإمضائه العملى. وتحدث فى الصفة السادسة، عن جهوده فى محاربه الجهل والذى عبر عنه بالعمى. وتشير هذه الصفات إلى أنى لم أشهد اعتباطاً بنبوته وأنقاد لإمامته.

تأملان

١. مشكله الصفات

كما ورد فى كلمات الإمام عليه السلام العميقه المعنى فإنّ الذات القدسيه تتجاوز الحدود والزمان والمكان ولها إحاطه علميه تامه بكل شىء فى عالم الوجود. نعم، فالعالم بأسره حاضر عند الله وله حضور فى كل مكان دون أن يضمه مكان. وإنّ صفاته الجماليه والجلاليه وإن منحتنا معرفه عميقه، إلّا أنه لا بدّ من الاعتراف بأنّه خارج

ص: ٤٣٤

١- (١). «معتام» من ماده (عيم) على وزن غيب، تعنى فى الأصل الشغف باللبن، والمعتام هنا، الشخص الشديد الحب لإتيان الوظيفه المكلف بها

٢- (٢). «عقائل» جمع عقيله، بمعنى اقتطاف كل شىء، ومن هنا يقال للجوهره الثمينه عقيله البحر

٣- (٣) «غريب» تعنى الشىء الأسود المعتم، وتعنى هنا، ظلمه الجهل

عن وصفنا. أحياناً تبدو تعبيراتنا بشأن الذات لغز ونوع من التناقض، إلّا أنّ حلّ هذا اللغز يمكن في الإلتفات إلى نقطه وهي أنّ وجوده مطلق ولا-متناهٍ من جميع الجهات، فليس له من بدايه ولا-نهايه ولا-حد محدود. وإن تصور هذا الموجود للانسان المحدود من جميع الجهات يبدو مستصعباً، ولكن على كل حال لا تحل قضية الصفات الإلهيه دون الإلتفات إلى ذلك الأمر. فإن قلنا إنّ عالم بكل شيء حتى بذرات الغبار التي تتعلق بالهواء، فذلك لأنّه حاضر في كل مكان بمعنى أنّ وجوده غنى عن الحدود ومحيط بكل شيء. وإن قلنا ليس له مكن زمان أو مكان، ذلك لأنّ الزمان يأتي من الحركة والمكان بواسطة محدوديه الإنسان، وليس للوجود المطلق من حركة نحو النقص أو الكمال، وحيث هو غنى عن كل شيء فلا-حاجه به إلى مكان. وخلاصه الكلام إذا أردنا معرفه الله فإنّ علينا أن ننفي جميع صفات المخلوقات التي تنبع من الحاجه والمحدوديه عن تلك الذات المقدسه.

٢. أهداف بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

تضمنت آيات القرآن الكريم والروايات وخاصة نهج البلاغه، الكثير من الكلمات بشأن هدف بعث الأنبياء ولا سيما نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، ومن ذلك، العبارات العميقه التي أوردتها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه. فقد بين الإمام عليه السلام أنّ أحد أهداف رساله النبي صلى الله عليه وآله شرح الحقائق والتي يمكن أن يراد منها كل حقيقه أو حقائق مرتبطه بالمبدأ والمعاد وأصول العقائد، إلى جانب بيان القيم الخلقية كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»(١).

والهدف الآخر، بيان الرسالات السماويه في الأحكام الدينيه وكشف علامات الهدايه وأخيراً طرح حجب الجهل والعمى عن قلوب الناس وأبصارها. فهو معلم عظيم ومرّب ربّاني ومرشد خبير.

ص: ٤٣٥

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تُعْرَى الْمُؤَمَّلَ لَهَا وَالْمُخْلَدَ إِلَيْهَا، وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَإِيْمَ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِدُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لِأَنَّ «اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ».

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلَ بِهِمُ النَّقْمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ النِّعْمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَّهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصِيَلَحَ لَهُمْ كُلُّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرِهِ. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتَمٌ فِيهَا مَيْلَهُ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَكِنْ رَدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسَعْدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!

الشرح والتفسير: صدق النبي مع الله

خاطب الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه الناس كافة وذكرهم بأربع نقاط مهمه، لها بالغ الأثر في حياه الناس، فقال في النقطه الأولى:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تُعْرَى الْمُؤَمَّلَ لَهَا وَالْمُخْلَدَ (١) إِلَيْهَا، وَلَا تَنْفَسُ (٢) بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا». لما كان حب الدنيا كما ورد في الحديث رأس كل خطيئه فقد شرع الإمام عليه السلام بحب الدنيا. الجدير بالذكر أنه لم يرد ذم لمن حصل على الدنيا بل على

ص: ٤٣٧

١- (١). «مخلد» من ماده (خلد وخلود) الشخص الذى يسكن مكاناً بصورة دائميّه وتشير فى العبارة إلى من التصق بالدنيا

٢- (٢) «تنفس» من ماده (نفاسه) بمعنى الثمين، ووردت هنا، بمعنى الأهميّه

أولئك الذين يتهافتون على الدنيا ويتعلقون بزخارفها. وقد تغر زخارف الدنيا أولئك المتكالبين عليها حتى يظنون بأن كل شيء خالد فيها، إنما أنهم يرون فجاه زوال كل شيء بفعل حادثه أليمه، على سبيل المثال، فإن زلزه لا تستغرق بضع ثوان تضرب المدينة فتقتضى على ما فيها ومن فيها، نعم ربّما يفيق لمدّه وسرعان ما يعود إلى سبات الغفله.

ثم أشار إلى النقطة الثانيه فقال كقاعده كليه:

«وَأَيُّمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ (١) نِعْمَهُ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا (٢)، لِأَنَّ «اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ». والواقع أن هذه العبارة اقتباس من الآيه الشريفه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (٣) والآيه: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٤). طبعاً، نعم الله تقسم على العباد حسب استعدادهم وأهليتهم، ومن هنا يستحقها الصالحون الطاهرون لا الآثمون الملوثون.

سؤال: ورد في بعض الروايات أن الله يبتلى أوليائه بأنواع البلاء كما جاء في الخبر «البلاء للولاء» (٥) لرفع مقام أوليائه، كما يستفاد من بعض الروايات أن البلاء قد يكون امتحاناً للمؤمن وأخرى تحذيراً وإيقاظاً للعباد، أفلا يتنافى هذا وما ورد في عبارته الإمام؟

الجواب: ما ورد في كلام الإمام عليه السلام قانون كلى ونعلم أن لكل قاعده شواذ، فموارد الامتحان والإيقاظ وأمثال ذلك استثناءات من تلك القاعده الكليه والقانون

ص: ٤٣٨

١- (١). «غض» النظر والجديد

٢- (٢) «اجترحوا» من ماده (جرح) وما يصيب البدن من ضرر ويبقى أثره، واجترح، بمعنى، الإتيان بالذنب، وكأن الإنسان يجرح نفسه، ثم توسع هذا المعنى ليطلق على كل اكتساب وارتكاب

٣- (٣). سوره الرعد، الآيه ١١

٤- (٤). سوره الاعراف، الآيه ٩٦

٥- (٥). وردت في كلمات العلماء وهى مقتبسه من الأحاديث الإسلاميه، مثل قول الإمام الصادق عليه السلام «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ تُمَالَّذِينَ يُلُونَهُمْ تُمَالْمَثَلُ فَالْمَثَلُ». (أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٢ باب شدة ابتلاء المؤمن)

العام، وبعبارة أخرى، عبارة الإمام عليه السلام تحمل على الغالب وهذا شبيه ما ورد في القرآن: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» (١) قطعاً، ليس هناك من منافاه بين هذه الآيه، والآيه: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ...» (٢) التي تتحدث عن مختلف الإمتحانات الإلهيه بواسطه البلاء، وكذلك الآيه: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (٣) ولعل الإنسان إذا تأمل قليلاً لأمكنه التعرف على الموارد التي يكون البلاء فيها جانب العقاب والجزاء أو الامتحان والتحميص والتحذير. فإن بدرت منه معصيه أو قارف المجتمع أنواع الفساد وأصابته بعض الحوادث المريره فإن ذلك عقاباً؛ أما الحوادث المريره التي تطيل الصالحين فهي تمحيص يهدف إلى رفع مقامهم.

ثم خالص الإمام عليه السلام إلى نتيجته فقال:

«وَلَمَّا أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النَّقْمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ النَّعْمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ تَيَاتِهِمْ، وَوَلَهُ (٤) مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدِّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ (٥)، وَأَضْمَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ». عاده ما يعمد هذا الطبيب الرباني الماهر إلى وصف العلاج بعد ذكر المرض، ويعلم الناس سبيل دفع المكروه والبلاء، ويرى أن الدعاء إن كان صادقاً وخارجاً من أعماق القلب بمعنى تحدث حاله من التغيير لدى الإنسان فإنه يدفع البلاء كما ورد ذلك في العديد من الروايات، ومنها ما روى عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«الدُّعَاءُ يَدْفَعُ الْبَلَاءَ النَّازِلَ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ» (٦).

ثم أشار إلى النقطه الرابعه التي بينها سابقاً على نحو العموم فقال:

«وَإِنِّي

ص: ٤٣٩

١- (١) . سورة الشورى، الآيه ٣٠

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ١٥٥

٣- (٣) . سورة الروم، الآيه ٤١

٤- (٤) . «وله» بمعنى الحيره، من شدّه الحزن حتى يفقد الإنسان أحياناً عقله ووعيه، ومن هنا اطلقت على العشق الذي يسلب عن الإنسان سكونه وواعيته

٥- (٥) . شارذ الشخص الذي يفر من الطريق أو ينحرف

٦- (٦) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٦٩، باب الدعاء يرد البلاء، ح ٥

لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرِهِ (١). وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِثْلُهَا فِيهَا مِثْلَهُ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسِيَّعَدَاءٌ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!». أمّا مراد الإمام عليه السلام من هذه الإشارة المطلقة إلى بعض انحرافاتهم، فقد قيل إنه أشار قضيه عثمان وحكومته التي فوّضت إليه من جانب شوري عمر الظالمه بعد أن سلبتها من أولى الناس بها (عليّ) - والذي أثبتت الحوادث اللاحقه هذه الحقيقه - وقد سلمتم لتلك الحكومه، وورود الخطبه بعد مقتل عثمان في أوائل خلافه الإمام عليه السلام شاهد على هذا المعنى. لكن الاحتمال الأكبر أنه إشاره إلى جميع الخلفاء والأحداث المريره التي رافقت الخلافه. ومراده من العبارة »

وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ»، أي لو أردت أن أكشف النقاب عن هذه الأحداث الأليمه لاستطعت، لكنني أغض النظر عنها وأسأل الله أن لا يؤاخذكم ويعفو عن تقصيركم (٢).

ص: ٤٤٠

١- (١). «فتره» تعنى فى الأصل، التوقف والضعف والعجز، ومن هنا هى تطلق على الفاصله بين برنامجين لإيقاف الأعمال، وحيث تمتزج بالغفله استعملت لهذا المعنى

٢- (٢) ذهب كأغلب شراح نهج البلاغه و مترجميه، إلى ترجمه هذه العبارة بمعنى: «إذا أردت أن أقول شيئاً قلت، عفا الله عما سلف»، ولكن هذا المعنى بعيد، لأنه ما ورد فى كلام الشيخ المفيد فى كتاب «الجمال» وفى كتاب «مناقب» حسب ما نقله كتاب «تمام نهج البلاغه» بوجود (لكن) قبل العبارة «عفا الله عما سلف»، فعليه أن جملة «عفا الله عما سلف» دعاء لأولئك، وهذا ما تقتضيه العلاقه بين هذه الجملة والجمال التى سبقتها: واختار عدّه من الشراح هذا المعنى، راجع الكتب، معارج نهج البلاغه، تأليف البيهقى، بحار الأنوار، العلّامة المجلسى، ج ٢٩، ص ٥٩٩، وشرح حدائق الحقائق، البيهقى، ج ٢، ص ٩٤، وشرح المرحوم الخوئى، ج ١٦، ص ٣٥٩

وَقَدْ سَأَلَهُ ذُعْلَبُ الْيَمَانِيِّ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبِّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَفَأَعْبُدُ مَا لَأَأْرَى؟

فَقَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ فَقَالَ: (١)

نظره إلى الخطبه

يدور محور الكلام حول صفات الله ويؤكد هذا المعنى: إن تعذرت رؤيه الله بالعين فإنه يمكن مشاهدته من خلال قبسات صفاته بالبصيره.

ص: ٤٤١

١- (١) سند الخطبه: وردت العبارة المذكوره (باختلاف فيها) في عدّه كتب معتبره من كتب علماء الشيعة بطرق متعدده قبل تأليف نهج البلاغه، ومنها المرحوم الكليني في الجزء الأول من أصول الكافي حيث نقلها في باين، والمرحوم الصدوق في كتاب التوحيد والمرحوم الشيخ المفيد في الإرشاد. ومن علماء العامه ابن الجوزي الحنفي في كتابه (التذكره) عن ابن عباس (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٣٧)

فقال: لَاتُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهِدَةِ الْعَيْنِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرِ مُبَايِنٍ. مُتَكَلِّمٌ لِمَا بَرُوِيهِ، مُرِيدٌ لِبِهْمِهِ، صَائِعٌ لِبِجَارِحِهِ. لَطِيفٌ لَأَيُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَأَيُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَأَيُوصَفُ بِالْحَاسَةِ، رَحِيمٌ لَأَيُوصَفُ بِالرَّفَةِ. تَغْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

الشرح والتفسير: هل رأيت الله ؟

يستفاد من مختلف الروايات في سيره أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال مراراً:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»، فقد أعرب عن استعداده للإجابة عن كل سؤال يتعلق بدين الناس ودنياهم، وقد كرر هذه العبارة حتى حين التقى الناس وهو على فراش الموت بعد ضربه ابن ملجم. وحين وُلِّي عليه السلام الخلافة خطب فقال:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي» وأكد بهذا المعنى بأنه أعلم بآيات القرآن فيم نزلت وأين نزلت وناسخها ومنسوخها ومتشابهها ومحكمها. فقام ذعلب اليماني وكان رجلاً شجاعاً وبليغاً فسأله السؤال المذكور وأجابه الأمير عليه السلام (١) فقال:

«أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى؟» بمعنى أن العبادة فرع من المعرفة وللمعرفة درجات أرفعها درجة الشهود، وقد التفت الإمام في كلامه عليه السلام إلى مرحلته العبادية الرفيعة التي ترافق مشاهدته الذات المقدسه، ذعلب غرق في التفكير في أن مراد الإمام عليه السلام هنا أيه رؤيه؟ هل الرؤيه الحسيه التي

ص: ٤٤٣

يقول بها أم المجسمه؟ أم الرؤيه الروحيه والمعنويه التي تفوق الرؤيه العقليه؟ لذلك أردف سؤاله بسؤال آخر فقال:

«وَكَيْفَ تَرَاهُ؟»

هل هذا سؤال واستفهام لكشف الحقيقه أم نوع من الإنكار والجدال؟ الجواب عن هذا السؤال يتوقف على تقييماً لدعبل، فإن كان من أصحاب الإمام عليه السلام فلا شك في أنّ سؤاله كان لمعرفة الحقيقه، وإن كان أنساناً طائشاً، كما يستفاد من بعض روايات الماره - فإنّ سؤاله يستند إلى الإنكار والجدال. على كل حال أجابه الإمام عليه السلام بما يميّط اللثام عن بعض الحقائق وقد أثر جوابه بالجميع بما فيهم ذعبل، حيث نفهم على قدر مطالعتنا أنّه أُصيب بالذهول عندما فرغ الإمام من الكلام.

فقد قال عليه السلام:

«لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ». المراد من حقائق الإيمان، الأصول العقائديه والمعارف الحقه. ولتوضيح هذا الكلام ينبغى الالتفات إلى هذه النقطه وهى أنّ المشاهده على ثلاثة أنواع:

١. المشاهده الحسيه التى تتم بالعين، وأحياناً تزود هذه العين ببعض الأجهزة كالمجهر والتلسكوب.

٢. المشاهده العقليه التى يبلغها عن طريق الإستدلال به فيرى الحقائق ببصيره كالشمس من قبيل - ما ذكره المرحوم مغنيه فى شرح نهج البلاغه - مشاهده نيوتن لقانون الجاذبيه الذى يستحيل رؤيته بالعين أثر مشاهدته لسقوط التفاحه من الشجره على سطح الأرض.

٣. الشهود الباطنى وهو نوع من الإدراك الباطنى لكن ليس الاستدلالى.

فالإنسان يرى ببصيرته الواقع الموجود ويؤمن به دون الحاجه إلى الاستدلال ويبدو فهم هذا الإدراك والرؤيه صعباً ما لم يبلغه الإنسان، ولهذا الموضوع نماذج كثيره فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه، فقد ورد فى آيه بشأن إبراهيم: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١). وبشأن يعقوب حين انطلق إخوه يوسف

ص: ٤٤٤

بقميصه، فقال: «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» (١) والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله حين حفر الخندق قبيل شروع معركة الأحزاب لما ضرب الحجر ثلاث مرات وزف البشاره لصحبه بفتح قصور كسرى وقيصر وقصور صنعاء فى اليمن (٢). وقد أخبر على مراراً فى نهج البلاغه عن المستقبل، وكان يقول فى بعض المواقع، كأنى أرى جماعه ستفعل كذا وكذا، بل نال بعض المؤمنين المخلصين هذا الكشف والشهود.

ومعروفه هى قصه ذلك الفتى الذى قال للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، يَتَنَعَّمُونَ فِيهِ الْجَنَّةِ... كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ». فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه:

«هذا عبثٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ» (٣). وسائر الموارد التى تستحق كتاباً مستقلاً فى الكشف والشهود، والتى تدل جميعاً على وجود شهود آخر يفوق الشهود الحسى والعقلى (٤).

ثم بين الإمام عليه السلام احدى عشره صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، وقد قرن تسعه منها بعبارات تنفى عنه صفات المخلوقات لتوضيح هذا المطلب فى كيفية إدراك القلوب لله بحقائق الإيمان فقال فى الصفة الأولى والثانية:

«قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مُلَابِسٍ» (٥)، «بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرِ مُبَايِنٍ». ذكرنا مراراً أنّ مشكلتنا فى فهم صفات الله هى الإنطلاق من صفات المخلوقات والممكنات التى تعيقنا عن إدراك صفات الله ما لم نبتعد عنها، مثلاً فى هذين الوصفين حين نقول: الله قريب، يترأى لنا سىء مثل

ص: ٤٤٥

١- (١). سورة يوسف، الآية ٩٤

٢- (٢). الكامل لابن أثير، ج ٢، ص ١٧٩

٣- (٣). اصول الكافى، ج ٢، ص ٥٣ (باب حقيقه الإيمان واليقين، ح ٢)

٤- (٤) للوقوف على المزيد وفهم معنى الشهود وأسبابه وموانعه (راجع نفحات القرآن، ج ١، ص ١٩٣)

٥- (٥). «ملابس» اسم فاعل من ماده (ملابسه) بمعنى، الإختلاط والإلتصاق بشىء

قرب جسمين من بعضهما يقعان في مكانين حسيين، وعندما نقول: الله بعيد يتداعى لنا جسمان بعيدان عن بعضهما وانفصاهما، والحال، بعدهما وقربهما ليس كذلك، فهو قريب من كل شيء، بمعنى إحاطته التامه بجميع الموجودات، وبعيد بمعنى تنزه كبريائه عن أدناس المكان وصفات المخلوقات الناقصه.

وقال في الصفه الثالثه والرابعه:

«مُتَكَلِّمٌ لِّأَبْرَوِيَّةٍ (١)، مُرِيدٌ لِّأَبِيهِمَّ (٢)». وإن طرح موضوع الكلام والإرادة يتبادر إلى أذهاننا إنَّ الشخص جيد لغه معينه ويفكر في مطلب ثم يصوغه في إطار كلمات وعبارات، ثم يستعين بلسانه وشفتيه ليوصل صوته المنطلق من حنجرتة إلى الآخرين، وهكذا الأمر بالنسبه للإجراده في أن يفكر المرید مسبقاً ويتأمل صلاح الشيء من فسادة ثم يعزم على القيام بالعمل وأمر الجوارح والأعضاء بالتنفيذ. قطعاً إنَّ أيّاً من هذه الأمور لا تصدق على الله، فهو ليس بجسم وليس له أعضاء وجوارح وليس بحاجة إلى التفكير. فكلامه ليس سوى خلق الموجات الصوتيه في الفضاء كتلك الأمواج التي سمعها النبي موسى عليه السلام من الشجره، وإرادته ليست سوى علمه بالمصالح والمفاسد. وهذه الحقيقه صادقه تماماً على الصفات السبع الأخرى. ومن هنا اعتبر الإمام عليه السلام أن أفضل طريق لمعرفة الله، نفى صفات المخلوقات عنه، فقال:

«وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ» (٣).

وقال في الصفه الخامسه:

«صَيَانِعٌ لِّأَبِيحَارِحِهِ» نعم، إنَّ أمره إذا أراد شيئاً إنَّما يقول له كن فيكون، وله أن يخلق عالماً واسعاً ومترامياً كعالمنا فيقول له كن فيكون ولا يحتاج إلى وسائل وأدوات وأجزاء كالإنسان.

وقال في الصفه السادسه والسابعه:

«لَطِيفٌ لِّأَيُّوَصْفٍ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لِّأَيُّوَصْفٍ بِالْجَفَاءِ»، لشراح نهج البلاغه وعلماء الكلام أحاديث مسهبه في باب صفات الله ومنها صفه اللطيف، فذكروا لها عدّه معانٍ، فتاره فسّروه بالخفي، وأخرى بخالق الأشياء الظريفه وأخيراً ذو اللطف والحبّ، ولله كل هذه الصفات، إلّا أنّ المعنى الأول أنسب، أي أنّ الذات المقدّسه ظريفه الخفاء، لكن لا بمعنى الخفاء عن العباد،

ص: ٤٤٤

١- (١). «رويه» من ماده (ترويه) تعنى، أحياناً، الشبع من الماء، كما وردت بمعنى التفكير

٢- (٢) «همه» من ماده (هم) بمعنى العزم على الإتيان بشيء، كما تعنى، الهم الذى يشغل فكر الإنسان، والنوع الأول هو المراد

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ١

ذلك لأن آثاره ملأت أركان العالم وتجلت فيه جميع الموجودات، والعبارة

«لَمَّا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ» إشاره إلى عظمته، لكن ليست كعظمه الطواغيت والجبابره الممزوجه بالظلم والجور والجفاء، كما قال القرآن الكريم فى أواخر سورة الحشر:

«الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ».

وقال فى الصفه الثامنه والتاسعه:

«بَصِيرٌ لَّيُوصَفُ بِالْحَاسِيهِ، رَحِيمٌ لَّيُوصَفُ بِالرَّقِيهِ». فإن قلنا: فلان بصير، تبادر إلى الذهن بسرعه العين التى يبصر بها، وحين يقال: فلان رحيم تتداعى شفقته قلبه ورقته، والحال، هذه الصفات الممكنات والموجودات الجسمانيه والله أسمى من ذلك. فبصره سبحانه بمضى علمه بالموجودات كافه التى ترى بالعين ورحيمته بمضى لطفه وعطائه لعباده، وإن مثل هذه الصفات مركبه من النقص والكمال، والله كمالها ونزاهته من نقصها.

وقال فى الصفتين الأخيرتين:

«تَعْنُو (١) الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ (٢) الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ». إشاره إلى أنه رغم لطفه ورحمته، إلا أن ذلك لا يعنى جراه العباد على الذات من خلال التشبث بتلك الصفات، بل لابد من خشيه عقابه إلى جانب الأمل بلطفه ورحمته. ومن هنا قال القرآن بشأن المؤمنين: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» (٣). ونعلم جميعاً بأن تعادل الخوف والرجاء من شأنه الأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال.

ص: ٤٤٧

١- (١). «تعنو» من ماده (عنو) على وزن غلو، بمعنى، تذلل وتخضع

٢- (٢) «تجب» من ماده (وجوب) تعنى أحياناً، الثبوت، وأخرى السقوط والوقوع ولازمته الثبوت والاستقرار، وإن وردت بشأن القلب عنت الاضطراب

٣- (٣). سورة المؤمنون، الآية ٦٠

فِي ذَمِّ الْعَاصِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ (١)

نظرة إلى الخطبة وسبب الورود

يستفاد من كتاب (الغارات) للثقفى، أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين أتاه رسولا محمد بن أبي بكر لنجدته قبل قتاله مع عمرو بن العاص في مصر، فدعى الإمام عليه السلام الناس إلى المسجد وأخبرهم بالأمر، إلّا أنّه لم يستعد للجهاد سوى نفر قليل. ثم بعث، ليلاً إلى أشرف الكوفة ودعاهم إلى دار الإماره، وكان حزينا، لأنّه كان يعلم بعمق الخساره في ظهور ابن العاص وأعوان معاويه على مصر. فعرض بالذم في هذه الخطبه لصحبه العاصين وناشدهم دفع فتنه عمرو بن العاص عن مصر.

ويتضح ممّا قيل أنّ مضمون الخطبه ذم لترك الجهاد وحثّ على جهاد العدو إلى جانب العواقب الوخيمه للوهن والضعف.

ص: ٤٤٩

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى، فى (الغارات) عن حبيب بن عبد الله. (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٣٩ و ٤٤٠)

أَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِي بِكُمْ أَيَّتَهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطْعَ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أَمَهَلْتُمْ خُضَّتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَضْتُمْ. لَأَنِّي لِعَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتُ أَوِ الدَّلُّ لَكُمْ؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيَفْرَقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لَصِيحْتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار

إستهل الإمام عليه السلام الخطبه كسائر أغلب الخطب بحمد الله والثناء عليه، وقال:

«أَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِي بِكُمْ». لشراح نهج البلاغه عدّه تفاسير في المراد بالقضاء والقدر في هذه العبارات هل له معنى واحد ويشير بأجمعه إلى المقدرات الإلهيه، أم له معنيان؟ قال البعض: كلاهما بمعنى واحد، وقال الآخر: القضاء يتعلق بخلق عالم الأمر والعقول يعنى عالم ماوراء الطبيعه، والقدر إشارة إلى عالم الخلق أى عالم الطبيعه. وأحد التفاسير الواضحه للقضاء والقدر - والذي تؤيده الآيات والروايات - أنّ القضاء سواء في عالم التكوين أو عالم التشريع يشير إلى أمر الله بأصل وجود الشيء، ويشير القدر بحجمه وأجزائه وشرائطه، مثلاً، شخص يأمر ببناء مسجد أو مستشفى، فهذا مصداق للقضاء، ثم يبين متطلباته، وهذا هو القدر. فأمر الله بالصلاه والصوم في عالم

التشريع، القضاء، وأمره بالنسبة لأجزائه وشروطه، قدر.

النقطة الأخرى فى كلام الإمام عليه السلام حمده الله على ابتلائه بأصحابه العاصين. ذلك لأن أولياء الله المسلمون لأمره ويرون كل ما ينالهم منه حسناً جميلاً.

ثم خاطب عليه السلام الحاضرين فى المجلس من زعماء قبائل الكوفه فقال:

«أَيُّهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِيعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنَّ أُمَّهَلْتُمْ خُضْتُمْ (١)، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُزْتُمْ (٢) وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ (٣) إِلَى مُشَاقَّةٍ (٤) نَكَصْتُمْ (٥)». فقد أشار إلى أربع نقاط لضعف الناس تجاهه: المعصية وعدم الإهتمام بالدعوة وتضييع الفرصه والضعف فى ميدان القتال، ولا شك أن كل واحده تكفى لأن تكون سبباً للهزيمة فضلاً عن اجتماعها. ثم وبخهم بنوع من الحب، فقال:

«لَا أَبَا لِعَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتُ أَوْ الذُّلُّ لَكُمْ؟» (٦).

إشاره إلى أن الوضع الذى أنتم عليه - إزاء العدو الماكر كعماويه وجيشه والذى يتسم بالضعف وعدم الإكتراث - ليس له من نتيجة سوى الموت أو الذل، وإن بقيتم أحياء فالذله لهؤلاء، العز فى الجهاد ونتيجته النصر أو الشهاده، كما قال الإمام عليه السلام:

«الْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاءُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ» (٧).

ثم قال:

«فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لَصُحْبَتِكُمْ

ص: ٤٥٢

١- (١). «خضتم» من ماده (خوض) على وزن حوض، قال الراغب فى المفردات، الورود شيئاً فشيئاً فى الماء والمشى فيه، ثم وردت بالمعنى الكنائى للشروع بالأعمال السيئه أو الأقوال القبيحه

٢- (٢). «خرتم» من ماده (خوار) الصراخ وحيث ينشئ الصراخ من الضعف فهى تعنى الضعف أو العجز

٣- (٣) «أجئتم» من ماده (أجاء) وجذرها مجىء، جلب الشخص أو الشئ، وعليه إن اجئتم بمعنى أن جلبوكم

٤- (٤) «مشاقه» بمعنى الصعوبه أو الخصومه والعداء من ماده (شق) على وزن حق

٥- (٥) «نكصتم» من ماده (نكص) على وزن عكس، الرجوع إلى الوراء، القهقرى

٦- (٦) اعتبر شرّاح نهج البلاغه العبارة «الموت أو الذل» لكم نوعان من اللعن والدعاء عليهم، أى متّم أو ذلتم، وهى ليست كذلك فقد أراد الإمام عليه السلام أن يبين وهنهم وضعفهم فى الجهاد، أى أن نتيجة عملكم إمّا الموت أو الذله، لاسيّما أن العبارة التى وردت قبلها «لا أبأ لغيركم!» والعبارة اللاحقه «لله أنتم!» تفيد أنه لم يكن فى مقام الدعاء عليهم، وقد أذعن الشرّاح بأنّه تلتطف من الإمام عليه السلام بتوجيه الدعاء لغيرهم

قَالَ (۱)، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ. فَقَدْ لَفَّتِ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتِبَاهَهُمْ إِلَى قَضِيهِ مَهْمَهُ وَهِيَ أَنَّ وَجُودِي سِنْدٌ عَظِيمٌ لَكُمْ فَعُورُوا ذَلِكَ. وَاعْلَمُوا إِنَّ مِتُّ فَسَوْفَ لَنْ أَخْسِرَ شَيْئاً سِوَى جَيْشٍ لَا إِرَادَةَ لَهُ، بَيْنَمَا سَتَخْسِرُونَ أَنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَتَسْتَفْقِدُونَ قَائِداً شَجَاعاً وَآمِراً لَا يَقْهَرُ.

ص: ۴۵۳

۱- (۱). «قال» بمعنى العدو، ومن ماده (قلا)، على وزن ندا، بمعنى، شده البغض والعداء

لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةَ تَشْحَذُكُمْ! أَوَلَيْسَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجَفَاءَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مُعَاوَنَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ الْإِسْلَامَ، وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعَاوَنَةِ أَوْ طَائِفِهِ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضَى فِتْرَتِ مَعُونَتِهِ، وَلَا سُخْطَ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! فَذَرَسْتُكُمْ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَابَ، وَعَرَفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّعْتُكُمْ مَا مَجَّجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرَبُ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ فَأَدُّهُمْ مُعَاوِيَةَ! وَمُؤَدِّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ!

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام عرضه بالدم لأولئك الضعاف من أصحابه في الامتثال لأوامره:

«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةَ (١) تَشْحَذُكُمْ (٢)!».

إشاره إلى أن الوقوف بوجه العدو والدفاع عن الأهداف المقدسه يتطلب أحد العنصرين: أحدهما الإيمان بالله ويوم الجزاء ووعده للمجاهدين والشهداء أو الدفاع القومي الوطني، وللأسف ليس فيكم أى من هذين العنصرين، فدينكم وإيمانكم ضعيفان وليس فيكم من دافع أو هاجس لحب الوطن، ولذلك توانيتم حتى شئت

ص: ٤٥٥

١- (١) «حمية» بمعنى الغيره والشخصيه والتعصب، كما وردت بمعنى التكبر وأصلها من ماده (حمايه)، لأن مثل هذه الصفات سبب لحمايه الشخص أو الشىء

٢- (٢) «تشحذ» من ماده (شحذ) على وزن قبض، بمعنى حد، وتستعمل فى المسائل المعنويه كالذكاء والفظنه

عليكم الغارات وداهمكم العدو.

ثم قارن الإمام عليه السلام بينهم وبين أصحاب معاوية فقال:

«أُولَئِكَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاهَ (١) الطَّغَامَ (٢) فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَمَّا عَطَاءٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ (٣) الْإِسْلَامَ، وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفِهِ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَحْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟». فهنا سؤالان جديران بالاهتمام، الأول أن معاوية معروف في البذل والعطاء السياسى الهادف، فكيف يقول الإمام عليه السلام إن معاوية لا يقدم للأفراد معونه ولا عطاء؟ أجب بعض شراح نهج البلاغه عن هذا السؤال بأنه كانت لمعاوية مساومات سياسيه مع زعماء القبائل وقاده الجيش فكان يغدق عليهم الأموال الطائلة دون الالتفات إلى الناس، أمّا الإمام على عليه السلام فكان يقسم أموال بيت المال بالتسويه على الناس بمنتهى العدل والقسط ويقدم التكاليف الحربيه لجميع المقاتلين.

والثانى: لم عبأ معاوية الناس بتلك الطريقه من توزيع الأموال، بينما لم يتعبأ الناس لأمير المؤمنين عليه السلام رغم تعميمه العطاء والمعونه على أساس العدل؟ ولا تبدو الإجابة عن هذا السؤال صعبه، فإضافه إلى ضعف أهل الكوفه وغدرهم كان هناك وفاء أهل الشام وانصياع الأفراد لزعماء قبائلهم الذين كان يرشيهم معاوية بالأموال، ولكن زعماء القبائل كانوا يشعرون بعدم الرضا من تسويه الإمام عليه السلام بينهم بالعطاء، فلم يكونوا يعبئون أفراد قبيلتهم.

ثم ذم الإمام عليه السلام فرقتهم واختلافهم فقال:

«إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضَى فَنَزَوْنَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ».

ويبدو تفسير هذه العبارة واضحاً رغم اختلاف الشراح فى تفسيرها فالامام عليه السلام

ص: ٤٥٦

١- (١). «الجفاه» جمع جافٍ، الشخص الغليظ والسىء الخلق، من ماده (جفاء)

٢- (٢) «الطغام» جمع طغامه، بمعنى، ضعاف الفكر وأراذل الناس

٣- (٣). «تريكه» من ماده (ترك) والمراد به، الشخص أو الشىء المتبقى، والمراد هنا المتبقون من شخصيات صدرالإسلام

يريد أن يقول إنكم دائماً تحثون الخطي باتجاه التشتت والفرقه وليس هناك ما يوحّد كلمتكم، لا العناصر التي ترضيني ولا النواهي عن الأمور التي تغضبني، والفرقه هي أهم عوامل فشلكم، فأنتم لا-تمثلون لأوامري ولا تنتهون بنهيي، كما يحتمل أن يكون مراد الإمام عليه السلام أنكم تجتمعوا على ما يخالف رغبتكم أو يطابقها، كمن يقول للمريض انك لا تتناول الدواء المر ولا-الحلو، أى إن لم تقبل الأول فاقبل الثانى، كحد أدنى. ثم تشتعل النار فى قلب الإمام عليه السلام بعد ذلك الذم والتوبيخ فيقول:

«وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لِمَا قِ إِلَى الْمَوْتِ!». حَقّاً إِنَّهَا لِفَاجِعِهِ أَنْ تَبْلُغَ الْحَالَةَ دَرَجَةً يَتَمَنَّى مَعَهَا هَذَا الْجَبَلَ الشَّامِخَ الَّذِي يَفِيضُ صَبْرًا وَتَحَمُّلاً الْمَوْتِ. نَعَمْ أحياناً يَصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَحْبِهِ الْغَدْرَةَ الْفَجْرَةَ مَا لَا يَصِيبُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَهنا يَتَمَنَّى الْإِنْسَانَ الْمَوْتِ، الْمَوْتِ الَّذِي يَفْرُقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ الْناكِرِينَ لِلْجَمِيلِ الْمُنْحَرِفِينَ عَنِ الْحَقِّ.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أياديه الثقافيه والتربويه لأُمّه الإسلاميه سيما بالنسبه لصحبه فأشار إلى أربعه مواضع مهمّه فقال:

«قَدْ دَارَسْتُكُمْ (١) الْكِتَابَ». طبعاً القرآن كان بأيدي المسلمين يتلونه أثناء الليل والنهار ولم تكن هنالك من حاجه لتدريس الإمام عليه السلام، فالمراد فهم مضمون القرآن الكريم وسبر أغواره والوصول إلى مفاهيمه حيث يعتبر الإمام عليه السلام المفسر الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يفسّر للناس آيات القرآن ويستشهد بها فى أغلب خطبه، ثم تطرق إلى خدمته الثانيه للأمه فقال:

«وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَابَ (٢)». أى علمتكم الأدله العقليه كحجه شرعيه بعد الأدله النقليه.

وقال فى الخدمه الثالثه:

«وَعَزَّيْتُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ» فقد كشفت لكم الغطاء عن مكنون كثير من الحقائق الخافيه عليكم وكنتم تجهلونها، كما يمكن أن يكون لهذه العبارة مفهوم آخر هو انكاركم لبعض المسائل واتخاذكم مواقف أخرى منها بفعل

ص: ٤٥٧

١- (١) . «دارستكم» من ماده (مدارسه) بمعنى، التدريس والتعليم والتفهم

٢- (٢) «حجاج» جمع حجه، بمعنى الدليل والبرهان، ولها أحياناً معنى مصدرى وتستعمل بصيغه المفرد

جهلكم، فعرفتكم حقيقتها لتقلعوا عن انكاركم، وأخيراً

«وَسَوْعَتُكُمْ (١) مَا مَجَجْتُمْ (٢)».

فهناك الكثير من المفاهيم التي لم تبلغوا عمقها وحقيقتها، ومن هنا كنتم تمجون هذه المفاهيم وتبتعدون عنها، إلّا أنّي كشفت لكم عن أسرارها لتصبح لديكم كالماء الزلال.

ثم أعرب عن أسفه عن سذاجه مخاطبيه فقال:

«لَوْ كَانَ الْمَاعَمَى يَلْحِظُ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!». فأنّا لم أقصر في تربيبتكم وتعليمكم، وقد بنيت لكم كل ما ينفعكم، ولكن ليس لديكم من استعداد وكان بذور علمي وتربيّتي وحكمتي قد صادفت أرضاً قاحله.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بإبراز تعجبه قائلاً:

«وَأَقْرَبُ (٣) بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدَّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ (٤)!». جاء في الرواية أنّ الإمام عليه السلام قال هذه العبارة مع إضافات حين مرّ بجماعه من أهل الشام كان فيهم الوليد بن عقبه، المعروف بشرب الخمر وقد أُقيم عليه الحد، حين سمعه البعض قد شتم الإمام عليه السلام فهمّوا به ونهاهم الإمام عليه السلام (٥).

تأملان

١. الفرق بين المعونه والعطاء

قال الإمام عليه السلام في الخطبه المذكوره إنّ معاويه لم يقدم لأتباعه معونه ولا عطاءً

ص: ٤٥٨

١- (١). «سوغتكم» من ماده (تسويغ) جعلت الشيء سائغاً، ثم استعملت بمعنى، الأذن

٢- (٢) «مجاجتم» من ماده (مجاج) على وزن حجج، بمعنى رمى الماء أو شيء آخر من الغم، ثم استعملت بمعنى كئابي هو إبراز الكراهيه من شيء

٣- (٣). «أقرب» بقوم من قبيل صيغه التعجب، حيث يبدي الإمام عليه السلام تعجبه بهذه الصيغه من الأفراد الجهال الذين استسلموا لخطط معاويه

٤- (٤). «نابغه» تعني في الأصل الفرد المشهور والعبقري، من ماده (نبوغ)، وتطلق أحياناً على الفرد المشهور بالفساد، ليس لها

داع هنا

٥- (٥) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١ حوادث سنة ٣٧ هجريه

(طبعاً، المراد الأفراد العاديون، وإلا فإنَّ شراءه لزعماء القبائل بواسطة الأموال الطائلة ما تناقلته كتب التاريخ). والفارق بين المعونه والعطاء، إلا أنَّ العطاء شيء من قبيل المرتبات الرسميه والمعونه ما يقدم من منح ومساعدات لإعداد السلاح أو الدابّة للقتال.

٢. الخدمات الثقافيه الأربع للإمام عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام في الخطبه المذكوره إلى أربع من خدماته لصحبه، وأجزها في:

تعليم كتاب الله، القرآن الكريم، والثانيه، تعريفهم بالأدله العقليه والبراهين الجليه، والثالثه، تعليمهم ما كانوا يجهلونه وكشف أسرار أغلب الحقائق المتعلقة بالدين والدنيا، والرابعه، والأخيره إعادتهم إلى المفاهيم الحقه وجعلها مستساغه لهم بعد أن كانت ممجوجه، والواقع هو أن هذه الأصول الأربعة تشكل دوره تعليميه ودينيه وفكريه متكامله، ينبغي لجميع القائمين على شؤون التعليم، الإلتفات لها، وبالطبع فإنَّ النتيجة المطلوبه لهذه اللحظه إنما تتأتى حين يتمتع الفرد الخاضع للتربيه والتعليم بالإستعداد التام لتقبّلها.

اللهم ارزقنا عيناً باصرةً وأذناً سامعهً ويقظَةً ووعياً لنصغى إلى كلمات أوليائك التي تطهّر روح الإنسان وتهذّبها وننظر إلى آيات عظمتك بعين البصيره.

اللهم لا تفرّق بيننا وبينهم ولا طرفه عين في الدنيا وفي الآخره وثبّتنا على مسيرتهم. ياربّ العالمين.

ختام الجزء السادس

كانون الثاني ٢٠٠٣ م

محرم الحرام ١٤٢٥ هجري

ص: ٤٥٩

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية: شرح عصری جامع لنهج البلاغه المجلد ۷ / ناصر مکارم شیرازی، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحیم الحمدانی.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام علی ابن ابی طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهری: ۱۰ ج.

شابک: ۳۰۰۰۰ ریال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳.

یادداشت: عربی.

یادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

یادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق. = ۱۳۹۰).

یادداشت: کتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الی ۱۸۰. ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الی ۲۰۰. ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الی ۲۴۱. ج. ۹. من رساله ۱ الی ۳۱. ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الی ۵۳

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- خطبه ها

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- کلمات قصار

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- نامه ها

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. . نهج البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده: حمیرانی، عبدالرحیم

شناسه افزوده: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۰۳۸/۱۳۸۴ BP/م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٧

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

وَقَدْ أَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أَحْوَالِ قَوْمٍ مِنْ جُنْدِ الْكُوفَةِ، قَدْ هَمُّوا بِاللِّحَاقِ بِالْخَوَارِجِ، وَكَانُوا عَلَى خَوْفٍ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ قَالَ لَهُ: «أَأْمِنُوا فَقَطَّنُوا(١)»، أَمْ جَبِنُوا فَظَعَّنُوا(٢)؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: بَلْ ظَعَّنُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (٣)

نظرة إلى الخطبه

لابد من التعرف على سبب ذكر هذا الكلام الذي ورد في الخطبه بغيه الوقوف على معناها.

إن رجلاً يدعى الخريت بن راشد أحد بنى ناجيه قد شهد مع علي عليه السلام صفين

ص: ٥

١- (١). «قطنوا»، من ماده «قطنون» على وزن «فنون» بمعنى الإقامه الإستيطان.

٢- (٢) «ظعنوا» من ماده «ظعن» على وزن «رهن» فى مقابل قطنون وبمعنى الرحيل والانتقال.

٣- (٣) سند الخطبه: مع الإلتفات إلى اتصال هذه الخطبه بالخطبه ٤٤، فأورد صاحب المصادر أسنادها فى ذيل الخطبه ٤٤ ويقول: «تضمنت كتب السير قصه بنى ناجيه هذه، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا قبل أن تلد الرضى امه، منهم أبو جعفر الطبرى فى تاريخه المعروف فى حوادث سنه ٣٨ هجرى، وإبراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب «الغارات»، والبلاذرى فى «أنساب الاشراف»، وكما رواه آخرون مثل ابن عساكر فى «تاريخ دمشق»، وأبو الفرج الاصفهانى فى «الأغانى» فى شرح حال مثقله بن هبیره، (مصادر نهج البلاغه، ج ١، ص ٤٥١ و ٤٥٢؛ ج ٢، ص ٤٤١).

فجاء بعد تحكيم الحكيمين في ثلاثين من صحبه (وفي روايه الطبرى ثلاثمائة) فقال:

«وَاللَّهِ يَا عَلِيُّ لَا أُطِيعُ أَمْرَكَ وَلَا أُصَلِّي خَلْفَكَ وَإِنِّي غَدًا مُفَارِقُكَ».

فقال الإمام عليه السلام:

«تَكَلَّفْتَكَ أُمَّكَ إِذَا تَعَصَى رَبُّكَ وَتَنَكَّتُ عَهْدَكَ وَلَا تَضُرُّ إِلَّا نَفْسَكَ»،

«أَخْبَرَنِي لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟» قال:

«لَأَنَّكَ حَكَمْتَ فِي الْكِتَابِ وَضَعْتَ عَنِ الْحَقِّ إِذَا جَدَّ الْجُدُّ فَأَنَا عَلَيْكَ رَاذٌ وَلَكُمْ جَمِيعًا مُبَايِنٌ».

فقال عليه السلام:

«وَيَحِيَّكَ هَلُمَّ إِلَى أَدَارِسِيكَ وَأَنَاظِرِكَ فِي السُّنَنِ وَأَفَاتِحِيكَ أُمُورًا مِنَ الْحَقِّ أَنَا أَعْلَمُ بِهَا مِنْكَ فَلَعَلَّكَ تَعْرِفُ مَا أَنْتَ الْآنَ لَهُ مُنْكَرٌ».

فقال الخريت:

«فإِنِّي غَادٍ عَلَيْكَ غَدًا».

فقال عليه السلام:

«أُغْدُو وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ وَلَا يَتَّقَحَمَنَّ بِمَكَ رَأَى السُّوءَ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الْجُهْلَاءُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، فَوَاللَّهِ إِنْ اسْتَنْصَيْتَنِي وَاسْتَرَشَدْتَنِي وَقَبِلْتَ مِنِّي لِأَهْدِيَنَّكَ سَبِيلَ الرَّشَادِ» (١).

فقرر هذا الرجل الجاهل الإلتحاق بقومه من الخوارج لبيتلى بذلك المصير الأسود، وإثر ذلك بعث الإمام عليه السلام أحد أصحابه خلف هذا الرجل علّه يتراجع عن موقفه، ولكن سرعان ما عاد مبعوث الإمام عليه السلام ليخبره بإلتحاقه وصحبه بالخوارج ومغادرته الكوفه.

ص: ٦

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٧٦؛ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٣، ص ١٢٨ وقد ذكرنا شرحاً مسهباً بهذا الشأن فى الخطبه ٤٤.

بُعْدًا لَهُمْ «كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ»! أَمَا لَوْ أَسْرَعَتِ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصَبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَتْ مِنْهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَقَلَّهُمْ، وَهُوَ عَدَا مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ، وَمَتَخَلٌّ عَنْهُمْ. فَحَسِبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَازْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَجِمَّاحِهِمْ فِي التَّبَيُّهِ.

الشرح والتفسير: مصير المشككين الجاهل

كما مضى سابقاً كان الكلام من قبل فنه قليله جاهله ومتعصبه أشكلت على الإمام عليه السلام بسبب استجابته لتحكيم القرآن، والحال هذا وأمثاله ممّا كانوا قد مارسوا ضغوطهم على الإمام عليه السلام لقبول التحكيم، والأسوأ من ذلك وإثر اعتراضهم على الإمام عليه السلام الذى يمثل محور الهدى انشقوا عنه وإلتحقوا بالخوارج محور الجهل والتعصب والضلال، ويشرح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه عوامل تعاسه هذه الفئه الضالّه بغيه تجبّب الآخرين السقوط فى هذا المستنقع فقال عليه السلام:

«بُعْدًا (١) لَهُمْ «كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ»!».

كان هذا التعبير إشاره لما ورد فى القرآن الكريم بشأن قوم ثمود إذ قال تعالى:

«أَلَا بُعِيداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ» (٢) والذى كان لعنه لقوم شعيب الوثنيين، كما كان إشاره إلى الجهات المشتركة بين هؤلاء القوم الضالين وقوم شعيب وقوم صالح،

ص: ٧

١- (١). «بُعْدًا» مفعول مطلق لفعل محذوف جاء للتوكيد وتقديره «أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ بُعْدًا».

٢- (٢). سورة هود، الآية ٩٥.

حيث كان هؤلاء اناساً متكبرين ومغرورين وردت قصّتهم في عدّه سور من القرآن الكريم، ثم قال عليه السلام:

«أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ (١) الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصِيَبَتِ الشُّيُوفُ عَلَى هَامِيَاتِهِمْ (٢)، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانُوا مِنْهُمْ، إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَفْلَهُمْ (٣)، وَهُوَ عَدَاؤُ مُتَبَرِّئٍ مِنْهُمْ، وَمَتَخَلٌّ عَنْهُمْ».

يشير هذا الكلام في الواقع إلى ما ورد مراراً في القرآن الكريم بخصوص الطغاه الغافلين الذين ما أن يركبوا السفينه وتغشاهم أمواج البحار الهادره ويستشعروا بالخطر حتى تطرح عنهم حجب الغفله ويتوجّهون إلى الله، ولكن سرعان ما يعودون لتلك الغفله إذا ما بلغوا ساحل النجاه (٤).

كما يشير أيضاً إلى ما ورد كراراً في القرآن الكريم أنّ الشيطان (٥) وأئمّه الضلال (٦) يتبرأون يوم القيامة من أتباعهم.

ثم قال عليه السلام:

«فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكَاسِهِمْ (٧) فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَجَمَاحِهِمْ (٨) فِي التَّيِّهِ».

إشاره إلى أنّه نتيجة تلك اللجاجة التيه في الضلال والحيره والإبتعاد عن الهدى وهذا المصير الأسود الذي يصنعه كلّ إنسان لجوج وجاهل، جدير بالذكر أنّه يستفاد من هذا الكلام وتلك المقدمه التاريخيه الوارده في سبب ذكره:

إنّ الإمام عليه السلام كان رحيماً حتى بالأفراد من أهل اللجاجة والجهل والتعصب، وكان

ص: ٨

١- (١). «أشّرت» من ماده «شّرع» تعنى فى الأصل الذهاب إلى بركه الماء، أو شقّ الطريق إلى الماء، ومتى ما استعملت هذه المفرده فى «الرماح» تأتي بمعنى شدّدت وصوّبت نحوهم.

٢- (٢). «هامات» جمع «هام» بمعنى الرأس.

٣- (٣) «استقل» من ماده «قلّ» على وزن «شل» بمعنى التفرقه والتشتت.

٤- (٤) انظر: سوره العنكبوت، الآيه ٦٥.

٥- (٥). انظر: سوره الحشر، الآيه ١٦.

٦- (٦) انظر: سوره البقره، الآيتان ١٦٦ و ١٦٧.

٧- (٧). «ارتكاس» من ماده «ركس» على وزن «مكث» بمعنى الانقلاب وعوده الشيء.

٨- (٨) «جماح» و «جموح» بمعنى الطغيان.

يسعى قدر المستطاع لإصلاحهم، وإن لم تؤثر مواعظه البليغه كان يقرعهم بكلمات عنيفه ويريهم عاقبه أعمالهم فى الدنيا والآخره لعلهم يفيثون إلى الحقّ.

ص: ٩

رُويَ عَنْ نَوْفِ الْبُكَّالِي قَالَ: خَطَبْنَا بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْكَوْفَةِ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حِجَارِهِ، نَصَّ بِهَا لَهُ جُعْدَهُ بِنُ هُبَيْرَةَ (١) الْمَخْزُومِي، وَعَلَيْهِ مِدْرَعُهُ (٢) مِنْ صُوفٍ وَحَمَائِلُ سَيْفِهِ لَيْفٌ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ لَيْفٍ، وَكَأَنَّ جَبِينَهُ ثَفْنَهُ (٣) بَعِيرٍ (٤).

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من أواخر هذه الخطبة أن الإمام عليه السلام خطبها قبل شهادته بأسبوع، وهدفه

ص: ١١

-
- ١- (١) . جعده بن هبيرة المخزومي: ابن اخت أمير المؤمنين عليه السلام وأمه أم هانئ بن أبي طالب، كان رجلاً شجاعاً وعالمًا أدرك عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وولاه الإمام علي عليه السلام على خراسان (أسد الغابة، ج ١، ص ٢٨٥).
- ٢- (٢) «مدرعه» «جُبّه» من مادة «درع»، ثوب يعرف عند بعض العامة بالدراعيه، قميص ضيق الأكمام.
- ٣- (٣) «ثفنه» تعني في الأصل ما يمسّ الأرض من رُكبتى البعير بعد البروك ويكون فيه غلظه من ملاطمه الأرض.
- ٤- (٤) سند الخطبة: هذه آخر خطبه خطبها أمير المؤمنين عليه السلام (وقتل بعدها بأسبوع). ذكرها الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار، كما روى بعضها أبو شاكر الليثي في عيون الحكم والمواعظ، وفسّر ابن الأثير بعض كلماتها وبالنظر لاختلاف كلماتهم مع ما ورد في نهج البلاغه يبدو أنها ذكرت من مصدر آخر غير نهج البلاغه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٥١).

منها إعداد الناس لجهاد معاويه ولصوص الشام، واستجابوا لدعوته فتقاطروا عليه ألوفاً مؤلفه، ولكن للأسف....

خاض الإمام عليه السلام فى استعراض عدّه أمور من هذه الخطبه بغيه إثارة أرواحهم وعواطفهم لمواجهه الأعداء الظلمه، فاستهلّ حديثه فى القسم الأوّل والثانى والثالث من الخطبه بحمد الله والثناء عليه إلى جانب بيان صفاته الجمائيه والجلاليه ومن ثم وحدانيته وعلمه المطلق بذرات الوجود كافّه، وأنّ ذاته وصفاته أسمى من أن يستوعبها الفكر، كما لا يقوى على ذلك الأمر حتى الملائكه المقرّبون.

ثم تطرق الإمام عليه السلام فى القسم الرابع إلى الورع والتقوى والزهد فى الدنيا، وبين جوانب من سيره سالف الأنبياء مثل نبي الله سليمان عليه السلام الذى عاش الزهد فى الدنيا مع ما كان لديه من الملك.

وبين فى القسم الخامس من الخطبه المصير الأسود الذى طال طغاه العالم كالفراعنه والعمالقه وأصحاب الرسّ الذين قتلوا أنبياء الله وسعوا لإطفاء نور الله، ولكن سرعان ما صرعوا وغادروا الدنيا.

وأشار فى الفصل السادس إلى ظهور المهدي عليه السلام وتشكيل حكمه العدل العالميه وتطرق إلى جانب من فضائله ومناقبه.

وخاض فى القسم السابع ثانيه فى الوعظ والإرشاد، وتحدّث عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وتفاهتها، وذكر شهداء صفين الذين عانقوا الشهاده وبكى عدداً من أصحابه مثل عمار بن ياسر وابن التيهان وخزيمه ذى الشهادتين، ثم مدحهم على طاعتهم لأوامر الله وإحيائهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وإماتتهم البدع واستعدادهم الدائم للجهاد.

وأصدر فى القسم الثامن من خطبته أمره بالجهاد ودعى الجميع للإلتحاق بسوح الوغى.

إشارة

الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَتَبَرُّ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمِيداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرَّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. وَنَسْتَعِينُ بِهِ اشْتِعَانَهُ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٌ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٌ بِبَدْفِعِهِ، مُعْتَرِفٌ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُدْعِنٌ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَاناً مِنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وَخَنَعَ لَهُ مُدْعِناً، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وَعَظَّمَهُ مَمَجِّداً، وَلَاذً بِهِ رَاغِباً مُجْتَهداً.

الشرح والتفسير: هو من يستحق الشكر

ينبغي قبل الشروع في شرح هذه الخطبة الإشارة إلى شخصيه (نوف البكالي) راوى هذه الخطبه، لا شك ولا ريب فى أنه من أصحاب الإمام على عليه السلام وقيل حاجبه، ويعتقد البعض أنه من قبيله حمير التى سكنت اليمن، بينما يراه البعض الآخر من قبيله همدان، وهنالكَ كلام فى لقبه، قيل بَكَال (على وزن فَعَال) وقيل بِكَال (على وزن كِتَاب) وقيل بِكَال (على وزن طَوَاف)، على كلِّ حال فقد كان رجلاً عفيفاً ومؤمناً ووفياً.

استهل الإمام على عليه السلام هذا القسم من الخطبه بحمد الله والثناء عليه بهدف إعداد قلوب المخاطبين وإزاله صداد الغفله عنها، ثم استعان بذاته المقدسه وأبرز إيمانه المطلق بها

فقال في الحمد والثناء:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ (١) الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ».

نعم فمنه تعالى بدايه الخلق وإليه المصير، فموجودات هذا العالم كآفه من فيض وجوده وستؤول عاقبه أمرها إليه، وهذه إشاره إلى قضيه المعاد ويوم القيامه فالحديث في هذه العبارة عن مبدىء نحمده ونثنى عليه.

ولكن لم هذا الحمد والثناء؟ قال عليه السلام:

«نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَثِيرُ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي (٢) فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ».

العبارة:

«عَظِيمِ إِحْسَانِهِ» يمكن أن تكون إشاره إلى نعمه الإيمان والاعتقاد الخالص بالله تعالى بقرينه

«نَثِيرُ بُرْهَانِهِ» التي تشير إلى الأدله الواضحه، وكما يمكن أن تكون إشاره إلى نعمه الحياه والخلق التي تعدّ من أعظم نعم الله،
إِلَّا أَنَّ التفسير الأول أنسب، والعبارة:

«وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ» إشاره إلى تكامل الإنسان في المجالات الماديّه والمعنويّه والتي تعدّ من النعم الإلهيّه الكبرى.

ثم خاض عليه السلام في بيان كيفيه هذا الحمد فقال:

«حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرَّبًا، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا».

من البديهي أن لا يسع أحد أداء حقّ الشكر والحمد لله تبارك وتعالى، ويعجز عن ذلك حتى جميع الأنبياء والأولياء والملائكه المقربين، وعليه فالمراد من الأداء ما كان في وسع الإنسان والذي يوجب ثواب الله ونيل المزيد من نعمه.

وعلى هذا الأساس تطرق في هذه الجملات الحكيمه، تاره الصفات الإلهيّه وإحسانه ونعمه، وتاره أخرى إلى أساس النعم المتنوعه الإلهيّه وأصولها، وفي الثالثه إلى كيفيه الحمد والشكر، وبذلك تطرق إلى مجموعه كامله من الصفات الإلهيّه ونعمه.

ثم تطرق بعد الحمد - كما ورد شبيه ذلك في سوره الفاتحه - إلى الاستعانه بالله

ص: ١٤

١- (١) «مصائر» جمع «مصير» بمعنى موضع الرجوع.

٢- (٢) «نوامي» جمع «ناميه» من ماده «نمو» بمعنى الشيء الزائد.

تبارك وتعالى فقال:

«وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَهُ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٌ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٌ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٌ لَهُ بِالطُّوْلِ (١)، مُذْعِنٌ (٢) لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ».

تشير هذه العبارات الخمس إلى مواضيع متنوعه؛ الأول: الحديث عن الأمل بفضل الله في الأمور المعنويّه، والثاني: الأمل والرجاء في المنافع والمصالح الماديّه، والثالث: الثقة بدفع الآفات والمضرات عن العباد، والرابع: مقام الاعتراف بالنعم، وأخيراً أداء حقّ الشكر بالقول والعمل.

فقد أتجه الإمام عليه السلام بعد بيانه لما يستحقّ الله تعالى من حمد واستعانه تامه بذاته المقدّسه الإفصاح عن إيمانه بالذات المقدّسه، وهو الإيمان الذي انطوى على جميع المزايا فقال عليه السلام:

«وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيْمَانًا مِنْ رَحْمَاهُ مُوقِنًا، وَأَنَابًا إِلَيْهِ مُؤْمِنًا، وَخَنَعَ (٣) لَهُ مُيْذِعِنًا، وَأَخْلَصَ لَهُ مُيُوْحِدًا، وَعَظَمِيَهُ مُمَجِّدًا، وَلَاذَبَهُ رَاغِبًا مُجْتَهِدًا».

حقاً إنّ الإيمان الذي ينطوى على كلّ هذه الصفات ويخترن كلّ هذه الآثار لهو أرفع إيماناً وأرسخ عقيدته، ولا يتأتّى مثل هذا الإيمان إلّا من خلال تطهير القلب من دنس المعصيه والإبتعاد عن الأهواء والسعى إلى تهذيب النفس والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، ولعلّ هنالك من يتساءل: لماذا استهل الإمام عليه السلام كلامه بحمد الله والثناء عليه ثم استعان بذاته المقدّسه ليتجه أخيراً إلى الإيمان، والحال أنّ الإيمان هو دافع الحمد والاستعانه؟

والجواب عن ذلك، إنّ الإيمان الذي تطرق إليه الإمام عليه السلام هنا هو الإيمان الجامع للكمال، والذي لا يحصل إلّا بعد حمد الله والاستعانه بذاته المقدّسه وما وجب سابقاً قبل الحمد والاستعانه إنّما يمثل المراحل الابتدائيّه للإيمان.

ص: ١٥

- ١- (١) «الطول» بمعنى الفضل والنعمه، وأصلها من طول على وزن «نور» بمعنى ما يحفظ للإنسان قوّته وبقائه وإمكان استمراره في الوجود، ماده «طُول» على وزن «قَوْل» وعليها اطلقت هنا.
- ٢- (٢) «مذعن» من ماده «إذعان» بمعنى التصديق والطاعه.
- ٣- (٣) . «خنع» من ماده «خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع.

لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونُ فِي الْعِزِّ مُشَارِكًا، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونِ مَوْرُوثًا هَالِكًا.

وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرَهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عِلْمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَقِنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْتَرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوْطَدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ. دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبِطِّنَاتٍ؛ وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِدْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا لِعَرْشِهِ، وَلَا مَسِيكًا لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَضِيْعَةً لِلِكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

الشرح والتفسير: دلالة السماء على الله

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة - في مواصلة شرح صفات الله التي تصدرت بها الخطبة:

«لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونُ فِي الْعِزِّ مُشَارِكًا، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونِ مَوْرُوثًا هَالِكًا، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرَهُ (١) زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ».

إن من بين القوانين التي تحكم عالم المادة والممكنات أن كل جماعه ترد الحياه تفارقها بعد مدّه لتحل محلها طائفه أخرى، فالأبناء يرثون صفات الآباء، كما ينقل هؤلاء صفاتهم إلى الأبناء، وبما أن الذات الإلهية أزليّة وأبدية فهي لم تولد من أحد ليكون لها مثيل ولم يولد منها أحد ليرثها.

ص: ١٧

١- (١) «يتعاور» من ماده «تعاور» بمعنى تبادل الشيء والقيام بعمل بصوره متناوبه، والمراد منها في العبارة عدم طرو الزيادة والنقصان على الذات القدسيه، وأن هذه الذات منزّهه عن الحوادث.

«وَلَمْ يَتَّعِدْهُ...» إشارته إلى أنه يفوق الزمان؛ لأنَّ الزمان نتيجته لحركه الموجودات من النقص إلى الكمال وبالعكس، وبما أنَّ وجوده المقدَّس عين كماله المطلق وليس للزيادة والنقصان من سبيل إلى ذاته فلا معنى لظرو الوقت والزمان عليه (١).

وحيث إنَّ نفى الشبيه والنظير والزمان والزيادة والنقصان عن ذاته القدسيه ربِّما يخلق وهماً يتمثل في تعطيل معرفه الله، وبعباره أخرى إنعدام السبيل إلى معرفته؛ فقد قال:

«بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عِلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَّقِنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ».

إشارته إلى أنَّ الذات القدسيه وإن كانت خارجه عن متناول العقول البشريه إلَّا أنَّ إثبات أصل وجودها ممكن من خلال تأمل نظام الخليقه والتدبير الحكيم الذى يحكمه، وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات الإسلاميه التى حثت على عدم الاستغراق فى الذات المقدسه، بل التفكير فى آثار قدرته وعظمته وعلمه فى عالم الوجود، الأمر الذى جعله القرآن الكريم محوراً فى معرفه الله ودعى أصحاب الفكر وأولوا الأبواب إلى التفكير على الدوام فقال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (٢).

ثم ركز الإمام عليه السلام على مصاديق هذا البيان الكلى والعام فقال:

«فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ مَوْطِدَاتِ (٣) بِلَا عَمَدٍ (٤)، قَائِمَاتِ بِلَا سَنَدٍ (٥)».

١- (١) اعتبر بعض شراح نهج البلاغه أنَّ الوقت يرادف الزمان، بينما عدّه البعض الآخر بالزمن المعين وأنَّ للزمان مفهوماً عاماً، والتفسير الثانى يبدو أصح. كما ورد فى القرآن الكريم فى الآية ١٠٣ من سورة النساء بشأن الصلاة، «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا».

٢- (٢) سورة آل عمران، الآيتان ١٩٠ و ١٩١.

٣- (٣) «موطدات» من ماده «وطد» على وزن «وقت» بمعنى التثبيت والإحكام.

٤- (٤) «عمد» جمع «عماد» بمعنى العمود.

٥- (٥) «سند» بمعنى ما يستند عليه.

ثم أشار إلى هذه الحقيقة:

«دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُدْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ (١) وَلَا مُبْطِئَاتٍ».

يبدو هنالك رأيان بشأن المراد من طاعه السماوات لأوامر الله وإقرارها بربوبيته تعالى؛ قال البعض: إنَّ المراد الإقرار والطاعة بلسان الحال، أي أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقها بهذه الصيغه بحيث تعيش حاله التسليم له من حيث نظام العله والمعلول وقوانين الخلق دون أن يكون لها أيه إراده أو علم، لأنها موجودات جامده ولا روح لها.

وقال البعض: إنَّ العبارات أعلاه تدلّ على أنَّ جميع عالم الوجود - من الإنسان والحيوان والجماد وجميع الكواكب السماويه - له عقل وشعور، وقد أقرّوا بإرادتهم على ربوبيته تعالى وأذعنوا له بالطاعه.

طبعاً هذان التفسيران صحيحان ولا يختلفان عمّا أراد الإمام عليه السلام بيانه، لأنَّ الهدف بيان عظمه الخلق وتسليم عالم الوجود لأمر الله تبارك وتعالى.

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِدْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ (٢)، لَمَّا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا لِعَرْشِهِ، وَلَا مَسْكَنًا لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَصْعَدًا (٣) لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ».

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أنَّ طاعه السماوات لأوامر الله منحها ثلاثة امتيازات: الأول: أنَّها موضع عرش الله، والثاني: مسكن لملائكته، والثالث: موضع لصعود الأعمال والأقوال الصالحة للعباد؛ بمعنى أنَّ حفظه الأعمال وكتبه الأفعال

ص: ١٩

١- (١). «متلكئات» من ماده «تلكؤ» على وزن «تكلّم» بمعنى التباطؤ.

٢- (٢). «طواعيه» بمعنى الطاعه والانقياد.

٣- (٣). «مصعد» موضع الصعود.

تكتبها فى سجل الأعمال ويرفع إلى السماء ما يستحق منها القرب الإلهى.

ومن الطبعى أن يختار الله تعالى موضعاً لهذه الأمور خاضعاً لسيطرته وهيمنته، وبعبارة أخرى بما أن جميع السماوات فى قبضته فقد أسبغ عليها تلك الأمور، والتعبير بالملائكة فى العبارة المذكورة إشارة إلى الملائكة المقربين، وإلا فللملائكة حضور فى العالم برمته من أرض وسماء.

وأما حقيقة العرش فهذا ما سيأتى شرحه فى هذه الخطبه إن شاء الله.

ص: ٢٠

جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ، لَمْ يَمْنَعِ ضَوْءُ نُورِهَا إِذْ لَهَمَ أُمَّ سِجْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلَا اسْتِطَاعَتْ جَلَابِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَأْتِ نُورِ الْقَمَرِ، فَسَيَبْحَثُ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقِ دَاجٍ، وَلَا لَيْلِ سَاجٍ، فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْمُتَطَائِفَاتِ، وَلَا فِي يَفَاعِ الشُّفَعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ وَمَا يَتَجَلَّجَلُ بِهِ الرَّعِيدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْعَمَامِ، وَمَا تَشَقُّطُ مِنْ وَرَقِهِ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقِطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَإِنْهَطَالُ السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقِطَ الْقَطْرِهَ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ الدَّرِّهَ وَمَجْرَّهَا، وَمَا يَكْفِي الْبُعُوضَهَ مِنْ قُوَّتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الْأُنْثَى فِي بَطْنِهَا.

الشرح والتفسير: احاطته العلميه بكل شيء

تطرق الإمام عليه السلام في مواصلته لبيان آثار عظمه الله في عجائب السماوات في العالم العلوي عن القمر والنجوم حيث قال ابن أبي الحديد: إن هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام بيان لتوحيد الله وتمجيده بأحسن وجه وبأفصح الكلام وأجمل العبارات حيث قال عليه السلام:

«جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ (١) الْأَقْطَارِ (٢)».

ص: ٢١

١- (١). «فجاج» جمع «فج» على وزن «حج» بمعنى الفاصله بين جبلين.

٢- (٢) «أقطار» جمع «قطر» على وزن «قفل» بمعنى الناحيه.

هذه العبارة إشاره إلى ما ورد كراداً في القرآن الكريم بشأن النجوم: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (١).

وقال تعالى في موضع آخر: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ» (٢).

نعلم أنّ النجوم الثابتة التي تشكل تقريباً أغلب كواكب السماء إنّما تطلع من نقاط معينة وتغيب في أخرى معينة كذلك وأنّ مواضعها في السماء من شأنها تعيين الجهات الأربع الشمال والجنوب والشرق والغرب وتعدّ أفضل وسائل للاهتداء في الأسفار الطويلة خلال الليالي المظلمة في الصحارى والبحار.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه بديعه أخرى فقال:

«لَمْ يَمْنَعِ ضَوْءُ نُورِهَا ادْلِهَمَامَ» (٣) سُجْفِ (٤) اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلَمَّا اسْتِطَاعَتْ جَلَابِيبُ (٥) سَوَادِ الْحَنَادِيسِ (٦) أَنْ تَرُدَّ مَاءَ شَاعٍ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَالُؤِ نُورِ الْقَمَرِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى نكته ظريفه إلى أنّ الله سبحانه وتعالى خلق ظلمة الليل كنعمه كبيره لهدوء المخلوقات وراحتها من جانب، ومن جانب آخر جعل النجوم ليتهدى بها في الصحارى والبحار وخلق القمر منيراً، إلّا أنّ هذين المصدرين المضيئين خلقتا بحيث لا يقضيان على عتمه الليل، والجمع بين هذا النور والظلمة بهدفين مختلفين نموذج لقدرته المطلقة سبحانه.

ص: ٢٢

١- (١) سورة النحل، الآية ١٦.

٢- (٢) سورة الأنعام، الآية ٩٧.

٣- (٣) . «ادلهمام» بمعنى شدّه الظلمه.

٤- (٤) «سجف» جمع «سجاف» حسب أرباب اللغة بمعنى الستر.

٥- (٥) . «جلابيب» جمع «جلباب» بمعنى ثوب واسع تلبسه المرأة فوق ثيابها وتغطي به رأسها وهو أقصر من العباءة.

٦- (٦) «حناديس» جمع «حناس» على وزن «قبرص» بمعنى الليل المظلم.

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار عظمه الله وقدرته في عالم الخلق حتى تطرق لسعه علمه وإحاطته بجميع الموجودات في الأرض والسماء؛ حتى أشار بشرح رائع إلى عشره موارد منها تجسد سعه علمه سبحانه فقال:

«فَسَيَّبِحَانِ مَنْ لَمَّا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادٌ غَسِقٌ (١) دَاجٌ (٢) ، وَلَمَّا لَيْلٌ سَاجٌ (٣) ، فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْمُتَطَاطِئَاتِ (٤) ، وَلَمَّا فِي يَنْفَاعِ (٥) الشُّفَعِ (٦) الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ وَمَا يَتَجَلَجَلُ (٧) بِهِ الرَّعْدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَاشَتْ (٨) عَنْهُ بُرُوقُ الْعَمَامِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهِ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقِطِهَا عَوَاصِفٌ (٩) الْأَنْوَاءِ (١٠) وَانْهَطَالٌ (١١) السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقِطُ الْقَطْرِهِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبٌ (١٢) الذَّرَّةِ وَمَجْرَّهَا (١٣) ، وَمَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الْأَنْثَى فِي بَطْنِهَا».

حَقًّا إِنَّ تَأْمِيلَ عِبَارَةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامِ بِشَأْنِ عِلْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي تَجْعَلُ أَعْظَمَ الْأَشْيَاءِ وَأَصْغَرَ الْمَوْجُودَاتِ وَأَخْفَى الْمَخْلُوقَاتِ يَغُوصُ فِي بَحْرِ مِنَ التَّفَكِيرِ هَلْ بِالْإِمْكَانِ خَفَاءَ أَعْمَالِنَا وَأَقْوَالِنَا، بَلْ نِيَاتِنَا وَأَفْكَارِنَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ؟ وَهَذِهِ أَحَدُ أَهَمِّ الْآثَارِ التَّرْبُويَّةِ لِلْإِمَامِ بِسَعِهِ عِلْمُ اللَّهِ وَإِحَاطَتُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

والطريف أن الإمام عليه السلام حين يتحدث عن ظلمه الليل أو سكونه يشير إلى آثاره المختلفه في مختلف بقاع الأرض من قمم الجبال إلى سفوحها، وحين يتحدث عن

ص: ٢٣

١- (١) . «غسق» الظلمه التي تقع عادة منتصف الليل.

٢- (٢) «داج» من ماده «دجو» على وزن «غلو» بمعنى الشديد الظلام.

٣- (٣) «ساج» من ماده «سجو» على وزن «غلو» السكون والهدوء.

٤- (٤) «متطأطات» جمع «متطأطي» المنخفضات.

٥- (٥) . «يفاع» التل وكل شيء مرتفع.

٦- (٦) «سفع» جمع «سفعه» على وزن «سفره» الحمره المائله للسواد.

٧- (٧) «يتجلجل» من «جلجله» صوت الرعد ثم اطلقت على كل صوت شديد.

٨- (٨) «تلاشت» من «تلاشى» بمعنى الاضمحلال. ويرى البعض أن مادتها لا شيء.

٩- (٩) . «عواصف» جمع «عاصف» و «عاصفه» الرياح الشديده.

١٠- (١٠) «أنواء» جمع «نوء» على وزن «نوع» غروب النجم في جهه المغرب، وللعرب عقيدته في الأنواء سنعرض لها في مبحث التأملات بمعنى الطوفان.

١١- (١١) . «انهطال» نزول المطر كما تطلق على إنهمار الدموع.

١٢- (١٢) «مسحب» اسم مكان من ماده «سحب» على وزن «سهو» الجذب نحو الشيء.

١٣- (١٣) «مجر» اسم مكان من ماده «جر»؛ السحب والجر.

تساقط الأوراق يخوض في جملة الأسباب التي تؤدى إلى هذا التساقط، وبالتالي حين يتطرق إلى هطول قطرات المطر لا ينسى الحديث عن مواضع استقراره في جوف الأرض الذى يعدّ خزاناً مباركاً لتلك المياه، وحين يتحدث عن طعام ذبابه يشير إليه بمقدار، وهذا بدوره ما يجعل هذه الخطبه في مصاف أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغه، وهى الفصاحه والبلاغه التى بلغت حد الإعجاز.

جدير بالذكر أنّ لأغلب هذه التعبيرات جذوراً فى الآيات القرآنيه، فالله تبارك وتعالى حين يشير إلى علمه بجميع الموجودات يقول: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» (١). ويقول تعالى فى موضع آخر: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ» (٢).

تأمل

ما الأنواء؟

تضمنت الخطبه إشاره إلى عواصف الأنواء التى تستحق المزيد من الشرح، فأنواء جمع نوء على وزن نوع تعنى لغوياً طلوع النجوم أو غروبها، إلما أنهم اقتصروا على معنى الطلوع، وإن أضاف البعض إليها الغروب واعتبرها من مفردات الأضداد، ومن العقائد السائده لدى العرب أنّ القمر يطوى ٢٨ منزلاً خلال دورته حول نفسه ويستغرق كل منزل ١٣ يوماً، وتقترب بدايه كل منزل بطلوع نجم فى المشرق وغروب آخر فى المغرب، كما يعتقدون بحصول تغيير فى الجو وسقوط مطر أو هبوب رياح يتزامن مع بدايه كل منزل، ومن هنا كانوا يقولون: (مُطِرْنَا بِنِوَاءِ فُلَانٍ)، وقد اتخذ هذا الاعتقاد صيغه خرافيه بالتدريج ليعتقدوا بأنّ هذا النجم هو العنصر المسبب لنزول الأمطار ولا بدّ من التضرع إليه بغيه نزول المطر.

ص: ٢٤

١- (١) . سورة الرعد، الآية ٨.

٢- (٢) سورة لقمان، الآية ٣٤.

ذكر العلامة المجلسي رحمه الله في الجزء ٥٥ من بحار الأنوار باباً مفصلاً حمل عنوان:

«في النهي عن الاستمطار بالأنواء والطيهر والعدوى» ونقل فيه عدّة روايات بهذا الشأن منها ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ثَلَاثَةٌ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ، الْفَخْرُ بِالْأَنْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَحْسَابِ وَالِاسْتِشْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ»^(١).

والذى تجدر الإشارة إليه هنا أنّ أحداً لو طرح الموضوع بصيغته بحث فلكي وقال باقتران هبوب رياح شديده أو سقوط مطر في كلّ منزل من المنازل الثمانية والعشرين بأمر الله فإنه لم يجانب الحقيقة، وليس هناك من نهى عن هذا الكلام، غير أنّ عرب الجاهلية نسبوا هبوب الرياح وهطول الأمطار إلى تلك الأنواء وهذا نوع من الشرك، لأنهم قالوا باستقلاله تلك الأنواء بعيداً عن إرادة الله، من هنا يتّضح عدم وجود أى إشكال في عبارته الإمام:

«تُزِيلُهَا عَنْ مَسِيقَتِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ» لأنّ مراد الإمام عليه السلام أنّ كل ما اقترن بطلوع وغروب هذه الأنواء تابع لإذن الله وأوامره.

ص: ٢٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٣١٥.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ. لَا يُدْرِكُ بَوَهِمٍ، وَلَا يُصَدَّرُ بِفَهْمٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٍ، وَلَا يَحِدُّ بِأَيْنٍ، وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ، وَلَا يُخْلَقُ بِعَلَّاجٍ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ. الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا؛ بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدْوَاتٍ، وَلَا نُطْقَ وَلَا لَهَوَاتٍ. بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَتِيهَا الْمُتَكَلِّفُ لَوْصِفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجَرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجِحِينَ، مُتَوَلِّهِ عَقُولُهُمْ أَنْ يَحْدُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذُؤَالِهِئَاتِ وَالْأَدْوَاتِ، وَمَنْ يَنْقُضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حُدِّهِ بِالْفَنَاءِ. فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

الشرح والتفسير: عجزنا عن إدراك صفاته

تابع الإمام عليه السلام بيان صفات الله تعالى بعد أن أشار إلى عظمه الخالق وقدرته وذكر آياته في عالم الوجود، فشرح في هذا القسم جانباً مهماً من الصفات الثبوتية والسلبيّة والصفات الفعلية بصورة رائعة فأتّم درسه لمخاطبيه في سبيل معرفه الله، فقد تحدّث في بادئ الأمر عن أزليته الله تبارك وتعالى المقرونه بالأبدية فقال عليه السلام:

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ».

فالأمر الستة هذه إشاره إلى تكوين العالم، ذلك لأنها الأصل والأساس وما سواها تابع لها، على كل حال فإن هذه العبارة إشاره إلى أهم صفاته الجماليه سبحانه والتي تعود إليها سائر الصفات وهي عدم تناهي ذاته القدسيه من جميع الجهات، فلكل المخلوقات زمان وتاريخ لحدوثها سوى الذات القدسيه التي كانت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد، ومن هنا أشار إثر ذلك إلى إحدى عشره صفة من صفاته السليبه والتي تنبع جميعها من ذاته القدسيه اللامتناهيه.

فقال في العبارة الأولى والثانية:

«لَا يُدْرِكُ بَوَهِمٍ، وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ».

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن الفارق بين هاتين العبارتين هو أن الوهم هنا إشاره إلى القوه التي تدرك الجزئيات، والفهم إشاره إلى إدراك الكلّيات، وهنالك احتمال آخر هو أن الوهم إشاره إلى قوه الحدس والفرض، والفهم إشاره إلى الإدراك واليقين، أي لا- يمكن الوصول إليه تعالى عن طريق العلم ولا- الحدس ولا- الظن، أضف إلى ذلك أن العبارة الأولى إشاره إلى إدراك أصل وجوده، والعبارة الثانية إشاره إلى قياس ذاته القدسيه وبما أنها لامتناهيه فهي لا تدرك بوهم ولا تقاس بعقل.

ثم قال في الصفتين السليبتين الثالثه والرابعه:

«وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ (١)».

إن الإنسان مهما كان ذكياً وفتناً إن تحدّث إليه شخص أو عدّه أشخاص بشأن موضوع مهم لا يسعه إدراك مطلب الآخرين، أو تعامله مع شخص يحول دونه والآخرين، ذلك لأنه وجود محدود ومتناهٍ، أمّا الذات الإلهيه القدسيه فلا يضيق بها التعامل مع جميع المخلوقات وفي آن واحد فهي تسمع أصواتهم وتقضى حاجاتهم وتعلم بتياتهم ولا يشغلها سائل عن آخر، وكذلك لو طرق جميع العباد باب الله وسألوه ما سألوا وضمن لهم الإجابة لما نقص شيء من ملكه وخزائنه، بل لما شكل

ص: ٢٨

١- (١) «نائل» له معنى اسم الفاعل والمصدر بمعنى العطاء أو البذل أو طالب البذل أو المعنيان هنا مناسبان.

ذلك قطره من بحر جوده، كيف لا وهو الخلاق لما يشاء وفيضه غنى عن الحدود(١).

ثم قال عليه السلام: فى الصفتين الخامسة والسادسه:

«وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٍ، وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ(٢)».

أجل! إنه يرى كل شىء وكل مكان والعالم برمته حاضر عنده، مع ذلك ليس له عين ولا مكان، لأنه أسمى من الزمان والمكان والعوارض الجسميه.

ثم قال عليه السلام فى الصفتين السابعه والثامنه:

«وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ(٣)، وَلَا يُخْلَقُ بِعَلَاجٍ».

ذكروا عنده معانٍ لأزواج منها: جمع زوج مثل النظير والقرين والزوج والشبيه والمثيل والضد والتركيب، ولا مانع من جمع كل هذه المفاهيم فى العبارة السابقه، أى أن الله منزّه عن كل هذه الأمور، والعبارة

«لَمَا يُخْلَقُ بِعَلَاجٍ» إشاره إلى الناس وأشباههم إن أرادوا خلق شىء - أو بتعبير أدق - إن أرادوا تركيب هيئه من أشياء إنما يستعينون ببعض الوسائل التى قد تكون بسيطه وأخرى صعبه، والخالق الوحيد الذى لا يحتاج إلى أيه وسائل وأدوات هو الحق سبحانه وتعالى(٤)، بل أبعد من ذلك كما قال القرآن الكريم: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»(٥).

ثم قال فى الصفتين التاسعه والعاشره من صفاته السليبيه سبحانه:

«وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ».

إننا نعلم بأن دائره حواس الإنسان هى الأجسام الماديه، وعليه فالذات القدسيه

ص: ٢٩

١- (١) جاء فى الحديث القدسى: «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيدٍ واحدٍ فسألونى فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندى شيئاً إلا كما ينقص المخطط إذا دخل البحر» (صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٧؛ كنز العمال، ج ١٥، ص ٩٢٤).

٢- (٢) «أين» بمعنى المكان.

٣- (٣) «أزواج» جمع «زوج» لها معنى واسع يشمل كل قرين ومثيل.

٤- (٤) لا بد من الالتفات إلى أن كلمه «يخلق» وردت بصيغه المجهول فى متن نهج البلاغه لصبحى الصالح ولا يبدولها أى مفهوم صحيح، بينما ذكرها أغلبه الشراح مثل المرحوم ابن ميثم ومغنيه وعبدہ والتستري والخوئي والجعفرى بصيغه المعلوم والحق ما ذكروه، أمّا العبارة «وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٍ» وإن كانت ذات معنى بصيغه المعلوم إلا أنها أنسب مع العبارة اللاحقه بصيغه

المجهول.

٥- (٥) سورة يس، الآية ٨٢.

التي تفوق عالم المادة لا تدرك إلَّا بالعقل والفكر، ويخطئ أولئك الذين يعتقدون بإمكانية رؤيه الله تعالى في الدنيا والآخرة بهذه العين.

العبارة:

«لَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ» تشير إلى أصل كَلَى بشأن صفات الله تعالى في عدم إمكانيته مقارنة هذه الصفات بصفات المخلوق فإن ذلك ينتهي إلى الضلاله، وهذا المعنى ورد في الخطبه الأولى من نهج البلاغه:

«وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ».

وقال أخيراً في بيان آخر الصفات:

«الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا؛ بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدْوَاتَ، وَلَا نُطْقَ وَلَا لَهَوَاتَ (١)».

بما أنه نقل في السابق مختلف الصفات وأثبتها لله تعالى بأكمل وجه، فقد خاض هنا في مسأله تكلم الله سبحانه وتعالى وأوضح أن الله كلم موسى عليه السلام ولكن ليس على غرار الناس الذين يتكلمون بواسطة اللسان والفم والأمواج الصوتيه وأداء الحروف، بل يخلق الأمواج الصوتيه ليتحدت بواسطتها مع موسى عليه السلام، فكان موسى يسمع الكلام من ست جهات وهذا من عظمه آيات الله دون الحاجه إلى الجوارح والأعضاء الصوتيه، وظاهر كلام الإمام عليه السلام أن عظمه آيات الله هو سماع كلامه سبحانه من الجهات الست، والشاهد على ذلك قوله عليه السلام:

«بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدْوَاتَ، وَلَا نُطْقَ وَلَا لَهَوَاتَ».

الاحتمال الآخر الذي ذكره شراح نهج البلاغه بهذا الشأن أن المراد من عظيم آياته المعجزات التسع التي حبي بها موسى بن عمران (٢)، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً ولا ينسجم مع سياق كلام الإمام عليه السلام فهو لا يخلو من تكلف ومخالفه الظاهر،

ص: ٣٠

١- (١) «لهوات» جمع «لهاه» بمعنى اللحمه المشرفه على الحلق في أقصى الفم، ويقال لها اللسان الصغير، ولكن يبدو معناها في الخطبه الحنجره بقرينه المجاوره.

٢- (٢). المراد من الآيات التسع ما وردت الإشارة إليها في آيات مختلفه من القرآن الكريم، وهي عباره عن الجراد والقمل والضفادع والدم والرياح العاصفه والعصا واليد البيضاء والقحط الشديد الذي أصاب الفراعنه وآفات الفاكهه.

ويحتمل أن يكون المراد معجزتى العصا واليد البيضاء التى اقترنت بتكليم موسى عليه السلام.

على كل حال فلا يصح إطلاق صفة الناطق أو اللافظ على الله تبارك وتعالى، هذين اللفظين يشيران إلى حركة اللسان ومخارج الحروف والأمواج الصوتية التى يتنزه عنها الله تبارك وتعالى، بينما يصح إطلاق لفظ المتكلم على الله لأنه يوجد الكلام ويخلق الأمواج الصوتية فى ست جهات كى لا يتصور موسى والآخرون أن الله يحويه مكان.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مطلبين آخرين بهدف إكمال هذه الصفات وإثبات عجز الفكر البشرى عن تبيان حقيقته الله تبارك وتعالى فقال فى الأولى:

«بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَتَيْهَا الْمُتَكَلِّفُ (١) لَوْصِفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجْرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجِحِينَ (٢)، مُتَوَلِّهَةً (٣) عَقُولُهُمْ أَنْ يَحْدُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ».

إشاره إلى أن الإنسان الذى يعجز عن بيان صفات ملائكة الله المقربين ولا يسعه إدراك حقيقه وجودها وحقيقه صفاتها، فكيف يتوقع إدراك صفات الخالق ويستوعب فى حيزه الفكرى صفاته الجمالته والجلالته، مع العلم أن الملائكة الذين نعجز عن بيان صفاتهم يعيشون حاله الحيره ضمن دائرتهم.

ثم خاض عليه السلام فى النقطة الثانية التى تعدّ دليلاً عقلياً واضحاً فقال:

«فَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذُؤُوالْهَيْئَاتِ وَالْأَذْوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ».

ثم اختتم هذا القسم باستنتاج واضح فقال عليه السلام:

«فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ».

ص: ٣١

١- (١). «متكلف» تطلق على الشخص الشديد التعرض لما لا يعنيه.

٢- (٢). «مرجحين» من الفعل الرباعى «رجحن» على وزن «دحرج» بمعنى المائل لثقله والمتحرك يميناً وشمالاً ووردت فى الخطبه بمعنى الخضوع والتواضع.

٣- (٣) «متولّيه» من ماده «وله» بمعنى الحائره أو متخوفه من شدّه الحب.

وقد ركز شراح نهج البلاغه فى تفسيرهم لهذه العبارة على معنى مطابق؛ فقالوا:

المراد القضاء على ظلمه الليل بضيء النهار وجمع ضياء النهار بظلمه الليل وجعل الظلمه المقرونه بالسكون والهدوء تعم كل مكان، بينما أخذ البعض الآخر المعنى الكنائى، فقال: إنّ المراد من الظلمات الأخلاق القبيحه التى تزول من روح الإنسان بنور معرفه الله، وبالمقابل فإنّ الأفراد الذين يعيشون ظلمه الجهل وعدم معرفه الله إنّما تزول عن وجودهم أنوار الفضيله والأخلاق الإنسانيه.

نعم، ليست هنالك من حاجه للتفسير الكنائى استناداً إلى إمكانيه التفسير على ضوء المعنى المقارن وعدم وجود القرينه على المعنى الكنائى وإن أمكن الجمع بين المعنيين.

تأملان

١. سرّ صعوبه معرفه صفات الله

ذكرنا كراراً أنّ طريق معرفه الله صعب بنفس الدرجه التى يتّضح فيها السلوك إليه والتعرف عليه، وبعبارة أخرى فإنّ العلم بوجود الله عن طريق تدبر أسرار الخلق فى الأرض والسماء والوقوف على عجائب الخلقه أمر فى غايه الصعوبه، فكلّ إنسان مهما كان لديه من علم وشعور يرى آثار علمه وقدرته وعظمته تعالى فى كلّ مكان وفى كلّ شىء، ولكن يستحيل عليه فهم كنه ذاته وصفاته، ذلك لأنّه كما ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه أننا نعانى من القياس المضل بهذا الشأن، فليس لنا حظ سوى معرفه الصفات بواسطة الوسائل والأدوات والمقرونه بالزمان والمكان، فكان من الطبيعى أن يتعذر علينا إدراك ما يفوق الزمان والمكان والأدوات واللامتناهى من حيث الوجود والصفات، أو بتعبير:

«ما لُتْرَابٍ وَرَبِّ الْأَرْبَابِ».

إننا لنعجز عن إدراك صفات بعض المخلوقات الأسمى كالملائكه المقرّبين - كما أشار إلى ذلك الإمام عليه السلام فى الخطبه - فضلاً عن إدراك صفات خالقها، وعلى هذا

الأساس أمرنا بالاكْتفاء بالعلم الإجمالي في مرحله إدراك كنه الذات والصفات، وأن لا نسعى للوصول للعلم التفصيلي فهو خارج عن طاقتنا، على سبيل المثال إننا نعلم أن الله عالم بكل شيء وقادر على كل شيء، ولكن هل علمه عن طريق الصور الذهنية كالذي عليه الأمر بالنسبة للإنسان؟ طبعاً لا! ولكن كيف ذلك، حقاً إننا لا نعلم وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها الإمام عليه السلام كراراً في خطب نهج البلاغه ولا سيما في الخطبة ٩١ المعروفه بخطبه الأشباح، كما حذرنا سائر أئمة الهدى عليهم السلام من سلوك هذا الوادى وقد نقل المرحوم الكليني في الكافي والصدوق في كتاب التوحيد بعض نماذج ذلك.

يذكر أن عبد الملك بن أعين أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام كتب له رساله أن طائفه في العراق يصفون الله بالأوصاف الجسميه فطلب منه بيان المذهب الحق في التوحيد فكتب الإمام عليه السلام:

«سَأَلَتْ عَنِ التَّوْحِيدِ رَجِمَكَ اللَّهُ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَأَنَّهُ أَسْمَى مَنِ الصُّفَاتِ الَّتِي يَشَبَّهُ بِهَا مَخْلُوقَاتِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَتَزَهُهُ عَنِ الشَّيْبِ» (١) (إشاره إلى أنه في باب صفات الله أن لا نشبهه بالمخلوقات وأن لا نعتقد بالعدم بصوره كليته بالاكْتفاء بالمعرفه الإجماليه).

٢. العرش والكرسي

قيل الكثير في العرش والكرسي، وقد أسهنا في شرح العرش وحملته في الخطبه الأولى من نهج البلاغه (٢).

تكررت مفردة العرش في القرآن الكريم ٢٠ مره، وإن لم تكن جميعها متعلقه بالعرش الإلهي، كما ذكرت مفردة الكرسي مرتان تتعلق إحداهما فقط بكرسي الله

ص: ٣٣

١- (١). كتاب الوافي، ج ١، ص ٤٠٥، الباب ٤٠.

٢- (٢) نفحات الولاية، ج ١، ص ١٠٥.

كما وردت عبارته «العرش» في نهج البلاغه سبع مرّات والكرسى مرّه واحده في هذه الخطبه، ورغم أنّ العرش يعنى المسند المعهود والأريكة التى ينصبها السلاطين ويجلسون عليها فى الأعياد والمناسبات الرسميه، ويعنى الكرسى الأريكة القصيره الدعامة التى يجلسون عليها فى الأيام الاعتياديه، ولكن قطعاً ما ورد فى القرآن ونهج البلاغه والروايات بشأن العرش والكرسى ليس المراد منه هذا المعنى وإنما هى كناية عن أمور أخرى.

فقد اعتبر البعض العرش إشاره إلى مجموع عالم الوجود، بينما عدّه البعض الآخر علم الله تعالى، وذهبت طائفه ثالثه إلى أنّ المراد به صفات الجمال والجلال، كما فسّروا الكرسى بهذا المعنى أيضاً، وهناك من اعتبر الكرسى إشاره إلى تدبير الأمور الجزئيه للعالم والعرش بمعنى التدبير الكلى والأحدى والذى يفرز جميع التدبيرات الجزئيه، ولكن كما أشرنا سابقاً فإنّ ما يفهم من القرآن الكريم أنّ أحد معانى الكرسى على الأقل مجموعته السماوات والأرض وعالم الماده أو الحاكميه عليه، والعرش إشاره إلى عالم الأرواح والملائكه وعالم ما وراء الماده أو الحاكميه عليها، ذلك أنّ القرآن الكريم قال فى آيه الكرسى: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» (١) ومن الطبيعى أنّ العرش أسمى وأرفع من الكرسى، طبعاً ما ذكرناه هو أحد التفاسير الواضحه للعرش والكرسى، وهناك بعض التفاسير الأخرى كما صرحت بها الروايات (٢).

ص: ٣٤

١- (١) . سورة البقره، الآيه ٢٥٥.

٢- (٢) روى المرحوم العلّامة المجلسى فى ج ٥٥ من بحار الأنوار عدّه أقوال وروايات بشأن العرش والكرسى.

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي أَلْبَسَكُمْ الرِّيشَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ الْمَعَاشَ؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلْمًا، أَوْ لَدَفَعَ الْمَوْتَ سَبِيلًا، لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مَلَكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، مَعَ التُّبُوهُ وَعَظِيمِ الرُّلْفَةِ. فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَيْتَكَمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيَةُ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخِرُونَ. وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

أَيُّنَ الْعَمَالِقَهُ وَأَبْنَاءَ الْعَمَالِقَةِ! أَيُّنَ الْفِرَاعِنَهُ وَأَبْنَاءَ الْفِرَاعِنَةِ! أَيُّنَ أَصْحَابِ مِدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّ، وَأَطْفَأُوا سِينَةَ الْمُرْسِيِّينَ، وَأَحْيَوْا سُنْنَ الْجَبَّارِينَ! أَيُّنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجِيُوشِ، وَهَزَمُوا بِالْأُلُوفِ، وَعَسَكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!

الشرح والتفسير: أين الفراعنه والعمالقه؟

خاص الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه بعد الأبحاث المرتبطه بصفات الجمال والجلال وعظمه عالم الوجود بالأبعاد العمليه، ذلك لأن الأعمال الصالحه إنما تفرزها العقيدته الصالحه، فقد دعى الإمام عليه السلام الجميع للتقوى إزاء تلك النعم التي أفاضها تعالى على عباده فقال عليه السلام:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي أَلْبَسَكُمْ الرِّيشَ (١)، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ الْمَعَاشَ».

١- (١) «رياش» جمع «ريش» تعنى فى الأصل ريش الطائر ثم اطلقت على كل نوع من الثياب، ولما كان ريش الطيور بألوان مختلفه وجميله فهذه المفرده تختزن مفهوم الجمال والزينه، ويطلق الرياش على الثياب الفاخره.

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى نعمتين عظيمتين تعدان مصدراً لنعم جمه أخرى؛ النعمه الأولى أنواع الثياب التى تحفظ البدن من الحراره والبروده ومختلف المخاطر، وتضفى على الإنسان الوقار والهيبه والاحترام وتميزه عن الحيوانات.

والنعمه الأخرى المعاش، أى أنواع الرزق التى يحتاجها الإنسان فى حياته، وللمعاش من ماده معيشه مفهوم واسع يشمل الطعام والماء والهواء والدواء والسكن، وجميع مواهب الحياه ولا يبدو صحيحاً ما تصوره البعض من أنه يقتصر على الماء والغذاء، ورغم أن هذا المفهوم عام إلا أنه يشمل أنواع الألبسه الفاخره، ولكن ممكن ذكر ذلك بالخصوص بسبب أهميته الفائقه فى حياه الإنسان.

وبما أن حب الدنيا رأس كل خطيئه فقد خاض الإمام عليه السلام فى تقلب أحوال الدنيا وزوالها ثم ركز على مصداق واضح فقال عليه السلام:

«فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سَلِمًا، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا، لَكَانَ ذَلِكَ سَلِيمًا بِنِ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي سَيَّخَرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، مَعَ التُّبُوهُ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ (١)».

نعم فسلیمان عليه السلام مع ما كان له من جلال وجبروت وقدره وعزه وكر وفر لم يستطع الحيلولة دون الموت ليغادر الدنيا فى الأجل المعين دون أدنى تأخير أو تريث، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«فَلَمَّا اسْتَوَفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسْيٌ (٢) الْفَنَاءِ بِنِبَالِ (٣) الْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ».

يا له من تشبيه رائع! فقد شبه الإمام عليه السلام قانون الفناء بالنبال التى تحمل الموت! وقد صوبت هذه النبال نحو الجميع لتنتظر آخر لقمه طعام يتناولونها وآخر دقيقه عمر يقضونها لتصوب نحوهم سهام الموت فتصيب أهدافها، سواء كان هذا الهدف

ص: ٣٦

١- (١) «زلفه» و «زلفى» بمعنى القرب والمنزله.

٢- (٢) . «قسى» جمع (قوس).

٣- (٣) «نبال» جمع «نبل» بمعنى السهم.

نمله ضعيفه أو سليمان الذى سخرت له جنود الإنس والجن والوحش والطير، والعجيب أن قانون الموت والفناء من القوانين التى لا تعرف من معنى للاستثناء، فهو يطال الصالحين والسيئين والأتقياء والأشقياء والأقوياء والضعفاء دون أن يرحم أحداً أو يمهله مدّه: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَأَيَّسَ تَأْخِرُونَ سَاعَهُ وَلَأَيَّسَ تَقْدِمُونَ» (١) وسنورد بحثاً مهمّاً فى التأمّلات بشأن كيفية موت سليمان عليه السلام.

ثم خالص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيُّنَ الْعَمَةِ الْقَهْ وَأَبْنَاءَ الْعَمَةِ الْقَهْ! أَيُّنَ الْفِرَاعِنَةَ وَأَبْنَاءَ الْفِرَاعِنَةَ! أَيُّنَ أَصْحَابِ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّ، وَأَطْفَأُوا سِنْنَ الْمُزْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سِنْنَ الْجَبَّارِينَ! أَيُّنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجِيُوشِ، وَهَزَمُوا (٢) بِاللُّؤُوفِ، وَعَسَكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!».

فالإمام عليه السلام فى هذه العبارات العميقه المعنى وعقب إشارته للاعتبار بموت سليمان عليه السلام يسلط الضوء على تاريخ البشرى السالفه فيتطرق إلى ذوى النفوذ والقدرة الذين حكموا البلاد بقبضتهم الفولاذيه آنذاك ولم يبق منهم اليوم سوى حفنه من التراب مركزاً على طائفه معينه منهم فقد أشار بادئ الأمر إلى العمالقه الذين ينحدرون من العملاق أحد أحفاد نبي الله نوح عليه السلام ممن كانت لهم أجساد قويه وضخمه وقد حكموا البلاد لسنين متماديه.

ثم أشار إلى الفراعنه أى ملوك مصر الذين كانوا من أقوى ملوك التاريخ، بينما تطرق فى المرحله الثالثه إلى أصحاب الرس (نهر الرس أو الأبار المليئه بالماء التى كانت فى بعض مناطق ايران)، وهم أولئك الذين وقفوا بوجه الأنبياء وقتلوهم وأطفأوا سنن الله وأحيوا سنن الظلمه.

وأشار فى المرحله الأخيره بصوره كليه إلى الملوك المتجبرين السابقين كافه

ص: ٣٧

١- (١) . سورة الأعراف، الآية ٣٤.

٢- (٢) . «هزموا» من ماده «هزيمه» بمعنى الغلبه.

الذين كانوا يمتلكون العده والعدد وشيدوا المدن الجميله والرائعه، ولكن لم تكن عاقبتهم سوى الركوع للموت ومغادره العروش المذهبه والاكتفاء بحفره صغيره فى باطن الأرض.

تأملات

١. شوكة سليمان عليه السلام وموته

خلافًا للتوراه المعاصره التى تصور سليمان عليه السلام كملك جبار وصانع للمعابد الوثنيه(١) يعتبره القرآن الكريم من الأنبياء العظام ونموذجاً للقدره والحاكميه الاستثنائيه، وقد اختزنت سيرته العديد من الدروس والعبر للجميع فالقرآن الكريم يصرح بأن الله سبحانه وتعالى أفاض عليه العديد من النعم فسخر له الريح التى تنقله من مكان إلى آخر وسخر له الإنس والجن وأفاض عليه العلم الجم حتى علمه منطق الطير وزوده بالعديد من الجنود والعمال، مع ذلك كان موته عبره ودرسا، جاء فى بعض الروايات: أن سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَهَبَ لِي مُلْكًا عَظِيمًا وَمَعَ جَمِيعِ مَا أُوتِيتُ مِنَ الْمَلِكِ مَا تَمَّ لِي سُرُورَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَدْخَلَ قَصْرِي فِي غَدٍ فَأُصْعِدَ أَعْلَاهُ وَأَنْظُرَ إِلَى مَمَالِكِي فَلَا تَأْذَنُوا لِأَحَدٍ بِالْدُّخُولِ عَلَيَّ» فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع من قصره ووقف متكئا على العصا ينظر إلى ممالكه مسرورا بما أُوتى فرحا بما أُعطى، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره فقال له سليمان:

«مَنْ أَدْخَلَكَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْلُو فِيهِ الْيَوْمَ فَيَاذَنَ مَنْ دَخَلَ». فقال الشاب:

«أَدْخَلَنِي هَذَا الْقَصْرَ رَبِّي وَيَاذَنِي دَخَلْتُ». فقال:

«رَبِّي أَحَقُّ بِهِ مِنِّي فَمَنْ أَنْتُ؟» قال:

«أَنَا مَلِكُ الْمَوْتِ». قال:

«وَفِيمَا جِئْتُ». قال:

«لَأَقْبِضَ رُوحَكَ». قال سليمان:

«إِمضِ لِمَا أَمَرْتُ بِهِ فَهَذَا يَوْمُ سُرُورِي وَأَبَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ لِي

سُرور دُونَ لِقَائِهِ»، فقبض ملك الموت روحه وهو متكئاً على عصاه (ولم يمنحه إذن الجلوس) وهو ميت ما شاء الله والناس ينظرون إليه وهم يقدرون أنه حى فافتنوا فيه واختلفوا فمنهم من قال إن سليمان عليه السلام قد بقى متكئاً على عصاه هذه الأيام الكثيره ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب، إنه لربنا الذى يجب علينا أن نعبده، وقال قوم إن سليمان عليه السلام لساحر وأنه يرينا أنه واقف متكئ على عصاه يسحر أعيننا وليس كذلك، فقال المؤمنون: إن سليمان هو عبد الله ونبيّه يدبر الله أمره بما شاء، فلما اختلفوا بعث الله الأرضه فدبت فى عصاه فلما أكلت جوفها انكسرت العصا وخزّ سليمان عليه السلام على وجهه فعلموا جميعاً بموته (١).

وكما أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه لما تمّ عمر سليمان صوبت إليه أقواس المتيه وأصابه سهم الموت.

٢. من هم العمالقه؟

«عمالقه»: جمع «عملاق» اسم شخص من أحفاد نوح وإليه تنسب قبيله العمالقه وكان هؤلاء الأفراد أقوياء وأشداء ومقاتلين عاشوا فى شمال الحجاز لألفى سنه قبل الميلاد حسب بعض المؤرخين، هجموا على مصر فاحتلوها وحكموها مدّه، ولكن حمل عليهم المصريون لسبعه عشر قرن قبل الميلاد فعادوا إلى جزيره العرب وأقاموا فى اليمن والحجاز وسائر المناطق وشكلوا هناك بعض الدويلات ويرى بعض المفسرين أنّ الجابره الذين تحدّث عنهم القرآن فى قصّه دخول موسى وبنى اسرائيل إلى بيت المقدس هم طائفه من أولئك العمالقه.

وأخيراً قضى عليهم يوشع حيث أمر بنى اسرائيل بأمر من موسى عليه السلام، وقد تساءل أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبه قائلاً:

«أَيَّنَ الْعَمَالِقَهُ وَأَبْنَاءَ الْعَمَالِقِهِ» الذين

ص: ٣٩

١- (١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٣٦ و ١٣٧ (بتلخيص كما ورد هذا المطلب مختصراً فى القرآن الكريم فى الآيه ١٣ و ١٤ من سوره سبأ).

كانوا يتمتعون بقدرات هائلة وشكلوا الحكومات المقتدره ليحكموها لعقود من الزمان، ثم زالوا من صفحه الوجود ولم يبق سوى اسمهم (١).

٣. فراعنه مصر

كان ملك مصر يسمى (فرعون) وسُلطان الروم (القيصر) وسُلطان ايران (كسرى)، ويُدعى فرعون مصر الذى عاصر نبى الله موسى عليه السلام رمسيس الثانى والذى عاصر نبى الله يوسف عليه السلام كان الريان بن الوليد، وقيل إنَّ الفراعنه الذين حكموا مصر قبل الميلاد بلغوا ٣٢ فرعوناً، كان بعضهم من مصر والبعض الآخر من العمالقه والروم واليونانيين وبعض الايرانيين الذين أوفدوا من قبل بعض السلاطين لفتح مصر فحكموا البلاد ولم يبق لهم من اليوم أثر.

٤. أصحاب الرس

تعنى مفرده الرس فى الأصل (الأثر المختصر)، ويرى البعض أنّ الرس مختصر الأرس (نهر معروف فى شمال ايران) بينما يرى الأعم الأغلب أنّها بئر ويعتقدون أنّ القوم الذين لم يبق منهم الآن إلّا القليل كانوا مزارعين ولديهم عدّه آبار مليئه بالمياه فكانت أوضاعهم المعاشيه جيده، وهنالكَ خلاف بين المفسرين بشأن المكان الذى عاشوا فيه والنّبى الذى أرسل إليهم، فالبعض يعتقد أنّهم بقايا عاد وثمود، بينما يرى البعض الآخر أنّهم عاشوا فى اليمامة وكان نبيهم يدعى حنظله، ويرى آخرون أنّ نبيهم كان شعيب.

جاء فى كتاب عيون أخبار الرضا أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا يَعْبُدُونَ شَجَرَةً صُنُوبِرٌ يُقَالُ لَهَا شَاهٌ دَرَخَتْ وَكَانَتْ لَهُمْ اثْنَتَا عَشَرَ قَرْيَةً عَلَى

ص: ٤٠

١- (١) راجع دائره المعارف لفريد وجدى، قاموس دهخدا والتفسير ذيل الآيه «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ» سوره المائده، الآيه ٢٢.

شاطئ نهرٍ يقال له أرسٌ يُسمى إحداهنَّ آبان والثانية آذر والثالثة دى والرابعة بهمن والخامسة اسفندار والسادسة فروردين والسابعة اردبيهشت والثامنة خرداد والتاسعة تير والعاشره مُرداد والحادية عشره شهريور والثانية عشره مهر، وكانوا يأتون بشياهٍ وبقرٍ فيذبحونها للشجره ويشعلون النيران بالحطب فإذا ارتفع دُخان تلك الذبائح خزوا للشجره سُجداً ييكون ويتضرعون إليها، ثم بعث الله عز وجل إليهم نبياً من بنى اسرائيل فلم يتبعوه فدعا الله قائلاً: أليس شجرهم أجمع، أرهم قدرتك وسلطانك، فأصبح القوم وقد ييس شجرهم كله فهالهم ذلك واجتمع رأيهم واتخذوا أنابيب طوال من رصاص وأسعه الأفواه ثم أرسلوها في قرار العين وأرسلوا فيها نبيهم حياً حتى مات، فأرسل الله عليهم ريحاً عاصفاً، شديده الحمره؛ فأما ثم جميعاً» (١).

نعم، لقد رأت الدنيا الكثير من السلاطين والأقوام المنحرفه والجابره الظالمه، وقد طفح غبار النسيان لا على قبورهم فحسب بل على تاريخهم، وهذا أفضل سند ودليل على عدم وفاء الدنيا لأحد.

ص: ٤١

١- (١) راجع بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٤٨ فما فوق، وتفسير الميزان، ج ١٥؛ التفسير الأمثل، ج ١٥ ذيل الآيه ٣٨ من سوره الفرقان، والآيه ١٢ من سوره ق.

ومنها: قَدْ لَبَسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا، مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا؛ فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةٌ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُوَ مُعْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامَ، وَضَرَبَ بَعْسَبِ دَنْبِهِ، وَالصَّقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بِقِيَّتِهِ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ.

الشرح والتفسير: خصائص ذلك الولي

ما ورد في هذا القسم يبدو ظاهراً عديم الارتباط بالأقسام السابقة من الخطبه وسبب ذلك أن السيد الرضى لا ينقل جميع الخطبه في أغلب الأحيان، بل يختار قطوفاً منها، ويدل على ذلك ما صدر به هذه الخطبه بقوله

«مِنَهَا»، وهذا ما أدى إلى نوع من الإبهام والغموض في هذا القسم وعوده الضمائر فيه ليقدم كل شارح ما يراه من احتمال بشأنها، لكننا نعتقد بوجود بعض القرائن لها هنا.

فقال عليه السلام:

«قَدْ لَبَسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا(١)، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا، مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا».

هنالك عدّة احتمالات بشأن هذا الشخص الذي تدرع بالحكمه وأخذ بجميع آدابها ومنها أربعة احتمالات هي:

ص: ٤٣

١- (١). «جنّه» من ماده «جن» على وزن «فن» بمعنى تغطيه الشئ وتطلق على المجنون وكأنّ سترأ غطى عقله. والجن كائن لا يرى والجنين أيضاً مستور في الرحم كما تطلق الجنّه على البستان كونه مغطى بالأشجار وغان على وزن «زمان» تطلق على القلب المستور في الصدر ووردت الجنّه في الخطبه بمعنى الدرع الذي يلبسه الإنسان في الدفاع عن نفسه.

١. قال البعض: المراد به الإمام المهدي عليه السلام وغيبته ونهضته، وقد نسب ابن أبي الحديد هذا الرأي إلى الإمامية ولم يقرّ به بادئ الأمر، بينما أذعن أخيراً بأنه الشخص الذي سيولد في آخر الزمان واسمه المهدي عليه السلام.

٢. قال الفلاسفة: هم نخبه من العرفاء يتواجدون بين الناس في كلّ زمان.

٣. جاء عن بعض المتصوفه أنّ المراد أولياء الله وسالكي طريق الحقّ الذين يتواجدون على الأرض على الدوام.

٤. وترى المعتزله أنّ المراد به العالم العدل والموحد من المؤمنين من الأفراد الذين يعيشون بين الناس، ولكن حين نسلط الضوء على هذه العبارات إلى آخر القسم سيّضح لدينا بما لا يقبل الشك أنّ المراد هو الإمام المهدي عليه السلام.

على كلّ حال فالعباره:

«قَدْ لَيْسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا» تشير إلى أنّه حكيم وقد لبس جلباباً لحفض هذه الحكمة والمراد من ذلك طبعاً جلباب الورع والتقوى، كما ورد في هذا الحديث الشريف:

«مَا أَخْلَصَ عَبْدُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً إِلَّا جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» (١).

والعبارات اللاحقه:

«وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا...» كلّها تشير إلى أنّه حكيم، قد عمّت الحكمة والعلم كلّ كيانه وبها يدير شؤون من حوله.

ثم قال عليه السلام:

«فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةٌ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا».

وهذا الكلام تأكيد آخر على أنّ ذلك الولي ينطلق في مشروعه من الحكمة والعلم ليمارس قبل كلّ شيء خلق الثوره العلميه والثقافيه، وينسجم هذا الكلام تماماً وما ورد في الروايات بشأن المهدي عليه السلام.

ومن ذلك ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إِذَا قَامَ قَائِمُنَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْعِبَادِ فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُمْ وَكَمَلَتْ بِهَا أَحْلَامَهُمْ» (٢).

ص: ٤٤

١- (١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٦٩، ح ٣٢١.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٢٨، ح ٤٧.

وواصل كلامه عليه السلام فى بيان ميزه اخرى لذلك الولي فقال:

«فَهُوَ مُعْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ (١) الْإِسْلَامَ، وَضُرِبَ بِعَسِيبٍ (٢) ذَنْبِهِ (٣)، وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ (٤)».

حين تتخلف الناقه عن المشى فإنها تفترش الأرض بحيث يلتصق ذنبها بالأرض حتى تضع عليه أسفل عنقها وهذه دلالة على شدة التعب ويستفيد العرب من هذا الأمر بصفته كناية عن الضعف والعجز، وهذا الكلام إشاره واضحه أخرى إلى أحد صفات ذلك الولي الربانى فى أن الإسلام والمسلمين يعيشون أقصى درجات الضعف فى غيبته وتكالب عليهم الأعداء من كل حذب وصوب بغيه القضاء على الإسلام وكسر شوكة المسلمين.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الْعِلْمُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا فَجَمِيعٌ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ حَرْفَانِ فَلَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ حَتَّى الْيَوْمِ غَيْرَ الْحَرْفَيْنِ فَإِذَا قَامَ قَائِمُنَا أَخْرَجَ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ حَرْفًا فَبَثَّهَا فِي النَّاسِ وَضَمَّ إِلَيْهَا الْحَرْفَيْنِ حَتَّى يَبْثَّهَا سَبْعَةً وَعِشْرِينَ حَرْفًا» (٥).

(إشاره إلى أن الإمام المهدي عليه السلام يمارس ثوره ثقافيه هائله وسريعه بحيث يرقى بسطح العلم والمعرفه عشره أضعاف ما كانت عليه).

ويختتم الإمام عليه السلام هذا القسم بمسأله واضحه بهذا الخصوص فيقول:

«بَقِيَّتُهُ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَتُهُ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ».

وكما يفهم من بيان هذه الصفات فإن مرجع الضمير فى العبارات السابقه لا يعود

ص: ٤٥

١- (١) «اغترب» من ماده «اغتراب» بمعنى الهجره.

٢- (٢) «عسيب» يقال للعظم فى مؤخره ذيل الدابه أو الفرس.

٣- (٣) «الذنب» من ماده «ذنب» على وزن «ضرب» بمعنى متابعه الشىء، وبما أن للذنب آثار وتبعات لا تفارق الإنسان لذلك قيل له ذنب على وزن «ضرب» وذنب على وزن «هدف» الذى ورد فى هذه الخطبه بمعنى ذيل الحيوان وذيل كل شىء.

٤- (٤) «جران» يقال لمقدم عنق البعير والعباره (ضرب بجرانه) كناية عن الإطراق فى مكان.

٥- (٥) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٣٦.

إلّا إلى الإمام المهدي عليه السلام سيما من خلال هذه المفردات «بقيه»، «بقيه الله»، «الحجّه»، «الخليفه» الواضحه فى نصوصنا الدينيه.

تأمل

إشارات لنهضة الإمام المهدي عليه السلام

يستفاد من الإشارات الواضحه التى تضمنتها هذه الخطبه بشأن نهضة الإمام المهدي عليه السلام وخلافاً لما يتصوره الجهال فإنّ القاعده الأصليه التى ينطلق منها الإمام عليه السلام إنّما تستند إلى الثوره الثقافيه والعلميه والفكريه، لا النهضه العسكريه التى تختزن إراقه الدماء، حيث يرتقى بالمستوى العلمى لدى الناس بحيث يمارس حكومته القائمه على أساس العدل والقسط، طبعاً سيواجه الإمام عليه السلام فى بدايه مشروعه تلك الأقليه المتغترسه والمنحرفه التى تحاول إعاقه مشروعه ممّا يضطره لمعالجتها عسكرياً، ولكن يبقى همه محصوراً فى طلب العلم والارتفاع بالمستوى العلمى لدى الأُمَّه ولسان حاله وقاله على غرار سيره جدّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»^(١).

ص: ٤٦

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَشَّتُ لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَّهَتَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوْجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا، لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَأُ بِكُمْ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ؟

أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَذْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى. مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَيَفَكُّ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصَفِينٍ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ؟ يُسَيِّغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرِّثْقَ! قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أَجُورَهُمْ، وَأَحْلَاهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.

الشرح والتفسير: التذكير بما يلزم!

خاص الإمام عليه السلام في الوعظ والإرشاد والنصح المشوب بالتحذير فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَشَّتُ (١) لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَّهَتَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ (٢) بِالزَّوْجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا (٣)».

ص: ٤٧

١- (١). «بشئت» من ماله «بث»، على وزن «نص» بمعنى النشر.

٢- (٢). «حدوتكم» من ماله «حدو» على وزن «محو» و«حدي» على وزن «دعا» تعنى فى الأصل سير الدابة بصوت مخصوص من قبل الجمال ثم اطلقت على كل سوق وسير.

٣- (٣) «تستوسقوا» من «وسوق» بمعنى الاجتماع والانضمام إلى بعض.

تشير هذه العبارات إلى أن الإمام عليه السلام كان يستغل كل فرصة بغية هداية أهل الكوفة الذين عرفوا بالضعف والتشتت وقد مارس شتى الأعمال الثقافية بهذا الشأن حتى أفاض عليهم مختلف مواعظ الأنبياء وإرشادات الأوصياء إلا أن المطر الرحمة الإلهية لم يجد له من سبيل في أرض قلوبهم السبخة، ثم تخلى عن الرفق والمرونة ليجابهم بشده عليهم يعودون إلى أنفسهم ويعيشون الوحده؛ ومزّه أخرى لم تجد هذه المسامير من سبيل في تلك الأحجار الصلده، ليتضح بجلاء أن لا نقص ولا عيب في الزعامه والقياده، بل العيب كله في تلك الفئة الجاهله الفاقده للحميه.

كما تفيد هذه العبارات أن مساعي جميع الأنبياء والأوصياء لا تبدو مجديه مع هؤلاء القوم.

«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَأُ بِكُمْ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ؟».

أى حين لا يتمكن زعيم مثلى من إعادةكم إلى جاده الصواب فسوف لن يكون هنالك قط من يسعه القيام بذلك.

والغريب أنه رغم حاله اليأس والقنوط التى تفرزها طبيعه تلك الفئة إلا أن الإمام عليه السلام لا يكف عن النصح والإرشاد، فيستعرض لهم طبيعه ما حولهم وما تحكمه من ظروف ويكشف لهم عن منزله الشهاده فى سبيل الله فيقول:

«أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَذْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا».

إشاره إلى اقبال جميع الفضائل على المجتمع الإنسانى إبان بزوغ فجر الإسلام وشروق شمس النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، إلا أن هذه القيم والسنن الإلهية قد ولت ظهرها لهذا المجتمع وحلت محلها قبائح عصر الجاهليه التى طويت صفحاتها عن المجتمع الإسلامى بفعل ظهور بنى أمية وسليلى عصر الجاهليه.

ثم ذكر عليه السلام مقدمه بهدف الاشاده بمقام الشهداء فى سبيل الله وترسيخ ثقافه الجهاد والشهاده إزاء الطواغيت والظلمه فقال:

«وَأُزْمَعُ (١) التَّرْحَالُ (٢) عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ،

ص: ٤٨

١- (١). «أزمع» من ماده «زمع» على وزن «شمع» فى الأصل بمعنى التصميم على الشىء.

٢- (٢) «ترحال» من ماده «رحله» بمعنى السفر والحركه.

وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَتَّبِعُوا بَعْثًا مِنَ الآخِرَةِ لَأَيُّنِي.»

تشير هذه العبارة اللطيفة إلى أنّ أولئك الأخيار الذين فازوا بالشهادة وتقلّدوا وسام الشرف بالجهاد فى سبيل الله لم يجانبوا الضرر فحسب، بل مارسوا تجاره مريحه حيث باعوا القليل من متاع الدنيا الفانى بالكثير من متاع الآخرة الباقي، كما أنّ أولئك الذين وفقوا لجهاد أنفسهم ولم ينالوا الشهادة وولّوا ظهورهم لخرق الدنيا وزبرجها وأقبلوا على الآخرة ونعيمها هم أيضاً فى مصاف عباد الله الأخيار.

ثم أكد الإمام عليه السلام ذلك بقوله:

«مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ؟ يُسَيِّغُونَ (١) الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! (٢)».

إشاره إلى أنّهم ذهبوا واستراحوا لنبقى اليوم ونشهد هذه الأوضاع المزريه التى يصول ويجول فيها العدو بينما يكتفى الأصحاب الضعاف فى الحقّ والفاقدو الإراده بالفرج على هذا المشهد الذى يهز من الأعماق كلّ مؤمن غيور، والواقع أنّ الإمام عليه السلام يشير بهذه العبارات إلى جنایات معاويه وجند الشام وسكوت وضعف أهل الكوفه والعراق.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته فقال:

«قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوْقَهُمْ أَجْوَرَهُمْ، وَأَحْلَهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.»

أجل، فالأمر كما قال القرآن الكريم: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ»، بل الموتى أولئك الذين استسلموا للذل وواصلوا حياتهم الماديّه التافهه فى ظلّ رايه الطواغيت والظلمه، والحقّ أنّ الشهاده مدعاه للفخر، ويتضاعف هذا الفخر حين يكون فى وسط اجواء فاسده وقدره وتنتهى إلى الخلاص من الطغمه المفسده والمتجره.

ولعل الرساله التى اطلقها الإمام على عليه السلام من محراب عبادته حين شهادته بقوله:

ص: ٤٩

١- (١) «يسغون» من ماده «سوغ» على وزن «فوق» وسغ، على وزن «سيل» بمعنى الهنىء.

٢- (٢) «رنق» بمعنى الكدر.

«فُرْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ» لتختزن العديد من الدروس والعبر التي ينبغي أن يحتذى بها المؤمنون.

ص: ٥٠

إشارة

أَيُّنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيُّنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيُّنَ ابْنُ التَّيْهَانِ؟ وَأَيُّنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيُّنَ نَظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَيْتَةِ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجْرِه!

قال: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفه الكريمه، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام: (أَوَّهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوْا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَاجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ).

ثم نادى بأعلى صوته: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وَإِنِّي مُعَشِكْرٌ فِي يَوْمِي هَذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَاخَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ!

الشرح والتفسير: النفي العام للجهاد

تغيّر خطاب الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه ليواصل خطبته بعبارات مليئه بالحزن ويذكر تلك الثلثه من الشهداء في صفيين التي خلا مكانها الآن بين الأصحاب فقال:

«أَيُّنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟».

ثم ركز عليه السلام على الطليعه منهم في الاثره والشهاده والعلم والمعرفه فقال:

«أَيُّنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيُّنَ ابْنُ التَّيْهَانِ؟» ثم ذكرهم بصوره كلييه وعامه فقال:

«وَأَيُّنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيُّنَ نَظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَيْتَةِ، وَأُبْرِدَ (١)»

ص: ٥١

١- (١). «أبرد» من ماده «برود» و «بروده» بمعنى البروده وتستعمل هذه المفرده بشأن يرد مكاناً آخر النهار وكذلك بشأن الرساله التي تنقل من مكان إلى آخر وتطلق اليوم على دائره البريد والمراد هنا ارسلت مع البريد بعد قتلهم إلى معاويه.

بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجْرِ!».

إشاره إلى عشرات الأفراد من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذين لزموا علياً عليه السلام ونالوا الشهادة في صفين وقام جناه جيش معاوية بحز رؤوسهم وارسالها إلى طاغيتهم معاوية (١).

«قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ، فَأَطَالَ الْبُكَاءَ»، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أَوْه (٢) عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْصَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَحْبَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ».

فهذه الصفات الست تفيد عظمه مقامهم في العمل والعلم في حفظ الدين والجهاد وطاعة الإمام والزعيم الرباني، فقد كانوا على بصيره بالقرآن فيطبقونه على تفاصيل حياتهم كما كانوا على علم بالواجبات فيعملون بها ويميتون البدعة ويحيون السنة كما كانوا من أهل الإيثار والتضحية حين الجهاد.

في الواقع أن الإمام عليه السلام أراد أن يقدم لأصحابه أسوه حسنه ويقول إن المؤمن الواقعي والمسلم الحقيقي وصاحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من يتصف بهذه الخصائص، أملاً في أن تفعل هذه الكلمات الحماسية فعلها في تلك القلوب الباهته فيهب أصحابها لجهاد الظلمه والطواغيت.

«ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وَإِنِّي مُعْسِكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيُخْرِجْ!». وهكذا دعا الإمام عليه السلام القوم للجهاد بعد تلك المواعظ البالغة، فأقبل العديد منهم وشعر بخطوره المسؤولية فتأهب للجهاد.

«قال نوْفٌ: وَعَقَدَ لِلْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ، وَلِقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ فِي عَشْرَةِ

ص: ٥٢

١- (١) روى ابن عبد البر عن عبد الرحمن بن أبي نزي أن ثلاثمائة ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيعه الرضوان شهدوا صفين مع علي عليه السلام فقتل منهم ثلاثة وستون، ومنهم عمار بن ياسر (الاستيعاب، ج ٢، ص ٧٠ عمار بن ياسر).
٢- (٢). «أَوْه» بفتح الهمزة وكسر الواو وتشديد ها وكسر الهاء كلمه توجع.

آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عَشْرَةِ آلاف، وَلِغَيْرِهِمْ عَلَى أَعْدَادٍ أُخْرٍ، وَهُوَ يُرِيدُ الرَّجْعَةَ إِلَى صِفَيْنَ، فَمَا دَارَتْ الْجُمُعَةُ حَتَّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابْنُ مُلَجَمٍ لَعْنَةُ اللَّهِ، فَتَرَاجَعَتِ الْعَسَاكِرُ، فَكُنَّا كَأَغْنَامٍ فَقَدْتُ رَاعِيهَا، تَخْتَطِفُهَا الذِّئَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ!».

وعلى هذا الأساس فرح ذئاب الشام ولصوص جيش معاوية بتخلصهم من ذلك الخطر العظيم، بينما عاش المؤمنون حاله من الأسى والهم، جاء في الرواية أنّ الشام لما بلغها خبر قتل أمير المؤمنين عليه السلام علم بذلك عمرو بن العاص فبشر معاوية قائلاً:

«إِنَّ الْأَسَدَ الْمُفْرِشَ ذِرَاعِيهِ بِالْعِرَاقِ لَاقَى شُعُوبَهُ» (١).

تأمل

صحاب الإمام عليه السلام الميامين

إشاره

ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بعض الأصحاب الأوفياء الذين كانوا من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله الأشداء، ثم وفوا بما عاهدوا عليه الإمام عليه السلام حتى نالوا الشهاده في صفين، وكما ذكر سابقاً وجاء في الروايه أنّ ٣٠٠ من صحابه النبي صلى الله عليه وآله الذين بايعوه في بيعه الرضوان وكان منهم ممن شهد بدر قد وقفوا إلى جانب علي في صفين فقتل منهم ٦٣ وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثه منهم، ونذكر هنا نبذه عن كلّ واحد منهم ثم نخوض في سيره قيس بن سعد وأبي أيوب الأنصاري الذين ورد إسماهما في آخر الخطبه بصفتها من امراء جيش الإمام عليه السلام.

١. عمّار بن ياسر

كنيته أبو اليقظان، أسلم في مكه وتحمل أشدّ العذاب، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنّ ياسر حين قدم إلى مكه تزوج من جاريه هي سميه التي ولدت له عماراً الذي عذب على يد المشركين وأجبر على الطعن بالإسلام، فأتى النبي صلى الله عليه وآله

ص: ٥٣

باكياً فنزلت الآية الشريفة: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» (١) التي تدلّ على التقية في هذه الموارد، وأجمع المفسرون على أنّ الآية نزلت في عمّار، وكان ممن هاجر الحبشه وصى إلى القبليتين ومن أوائل المهاجرين الذين شهدوا بدرًا وجميع الغزوات الإسلاميّة.

قال فيه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إِنَّهُ مَلِيٌّ إِيْمَانًا إِلَىٰ أَحْمَصِ قَدَمِيهِ»؛ وقال أيضاً:

«مَنْ أَبْغَضَ عَمَّارًا أَبْغَضَهُ اللَّهُ»؛ وقال صلى الله عليه وآله:

«تَشْتَأُقُ الْجَنَّةُ إِلَىٰ أَرْبَعِهِ: عَلِيٌّ وَعَمَّارٌ وَسَلْمَانُ وَأَبِي ذَرٍّ».

وأضاف ابن عبد البر تواتر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«تَقْتُلُ عَمَّارًا الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ».

وعده ابن عبد البر من أصحاب الأخبار، وقد قتل يوم صفين وهذا أعظم دليل على بطلان معاوية، وروى ابن عبد البر عن أبي عبد الرحمن السلمانية قال: شهدنا صفين فرأيت عمار بن ياسر ومعه أصحاب محمد وكأنه رأيتهم وسمعت عمار يقول لهاشم ابن عقبه (عتبه) احمل يا هاشم فالجته في ظلال السيوف، اليوم نلقى محمداً وأصحابه فإنما نحن على الحق وهم على الباطل. يقول عبد الله ابن سلمه: نظرت عمّار في صفين وقد أصابه العطش فالتمس ماء، فأتوه بظرف من اللبن فقال اليوم التقى أصحابي فقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ آخِرَ شَرَابِكَ مِنَ الدُّنْيَا ضَبَاحًا مِنْ لَبَنٍ» (٢).

جدير ذكره أنه لما بلغ معاوية خبر قتل مالك الأشتر - بعد صفين - خطب الناس فقال: «أما بعد فإنه كانت لعلى يمينان فقطعت إحداهما بصفين - يعنى عمّار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم - يعنى الأشتر -» (٣).

٢. ابن التيهان

هو أبو الهيثم بن التيهان واسمه مالك من قبيلة الأنصار، وهو أحد النقباء ليله

ص: ٥٤

١- (١). سورة النحل، الآية ١٠٦.

٢- (٢) الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٨ (سيره عمار).

٣- (٣) كامل ابن الأثير، ج ٣، ص ٣٥٣، في حوادث سنة ٣٨ هجرى.

العقبه وممن شهد بدرًا، وقيل إنّه أدرك صفين وقتل فيها، ويؤيد ذلك هذه الخطبه، وذكر ابن أبي الحديد أسماء طائفه من علماء أهل السنّه الذين قالوا بقتله في صفين (١).

٣. ذو الشهادتين

هو خزيمه بن ثابت الأنصاري وكنيته أبو عمّار وممن التحق بالنبي صلى الله عليه وآله في المدينة وقد وروى ابن الأثير في أسد الغابه سبب لقبه ذو الشهادتين فقال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربي، فوجد سواء، فشهد خزيمه بن ثابت للنبي فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ما حَمَلَكَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا حَاضِرًا»، فقال: صدقتك بما جئت به وعلمت أنّك لا تقول إلّا حقاً، فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ أَوْ عَلَيْهِ فَحَسْبُهُ» (٢)، فجعل رسول الله شهادة خزيمه بشهادتين (طبعاً هذا استثناء وذلك بسبب إيمان خزيمه ولعل ذلك كون شهادته تدعو إلى علم القاضي). كان ممن شهد الغزوات الإسلاميّه، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنّه شهد صفين فقاتل فيها حتى قتل (٣).

٤. قيس بن سعد بن عباده

كنيته أبو الفضل. كان رجلاً شجاعاً وجواداً، وأبوه سعد رئيس الخزرج، وكان قيس من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وهو معروف بمحبته وولائه للإمام وشهد معه حروبه كلّها وروى انس بن مالك أنّ قيس بن سعد كان رئيس حاجبي النبي صلى الله عليه وآله (وكان ثقّه في كلّ الأمور) وذكر ابن شهاب: أنّ قيس بن سعد كان أحد الساسه العرب الخمسه الذين يحلمون المشاكل والفتن (٤).

ص: ٥٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٠٧ و ١٠٨.

٢- (٢) . اسد الغابه، ج ٢، ص ١١٤ (سيره خزيمه).

٣- (٣) الاستيعاب، ج ١، ص ٢٦٨ (سيره خزيمه بن ثابت).

٤- (٤) أسد الغابه، ج ٤، ص ٢١٥؛ الاستيعاب، ج ٢، ص ١٥٩ (سيره قيس بن سعد).

٥. أبو أيوب الأنصاري

هو خالد بن زيد ويعرف عادة بالكنية، كان ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وشهد العقبة وشهد بدرًا، وعليه نزل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين قدم المدينة ولم يزل عنده حتى بنى مسجده ومساكنه، شهد مع علي عليه السلام الجمل وصفين وكان في مقدمه يوم النهروان، عاش عشر سنوات بعد علي عليه السلام وتوفي سنة ٥٠ للهجرة (١).

ويتضح ممّا مرّ معنا سابقاً هذه النقطة التاريخيّة من هم الأفراد الذي قاتلوا مع علي عليه السلام قاسطى الشام وسائر البغاه؟ ومن هم أولئك الأفراد الذين نالوا الشهادة مع علي عليه السلام ومن هم قاده جيشه؟ ولو لم يكن هناك من دليل على أحقيته عليه السلام وبطلان خصمه سوى هذا لكفى.

ص: ٥٦

فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَفِي فَضْلِ الْقُرْآنِ وَفِي الْوَصِيَّةِ بِالتَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة من الخطب الغاية في الفصاحة والبلاغة والتي تتضمن عدّة مباحث تبدو غير متصلة الأقسام، وذلك بسبب أسلوب السيد الرضى رحمه الله المعهود في الاختيار. على كل حال تتعرض الخطبة لخمسة مواضيع مهمّة هي:

١. جانب من صفات الله الجلالية والجمالية بعبارات عميقة المعنى.

٢. التعريف بالقرآن الكريم وبيان بعض خصائصه المهمّة.

٣. الوصية بالورع والتقوى وشرح آثارها وبركاتها.

٤. ذكر للقيامة ونار جهنم الأليمه وعجز الإنسان عن تحملها.

ص: ٥٧

١- (١) سند الخطبة: روى هذه الخطبة بعض الأفراد بعد السيد الرضى وإن لم نعثر عليها في كتب الحديث قبله، فذكروها بما يفيد أنّهم عثروا عليها في مصدر آخر غير نهج البلاغة، وممن روى هذه الخطبة الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار فذكر بعض هذه الخطبة الذي يرتبط بأنواع نار جهنم، كما فسّر ابن الأثير كلماتها في كتابه النهاية، وكما ذكر السيد هاشم البحراني في كتابه البرهان جانباً منها مع اختلاف وما ورد في نهج البلاغة، وهذا يدلّ على أنّه استقاها من مصدر آخر (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٥٩).

٥. بيان سبل النجاه من نار جهنم والاستفاده من إمكانات الدنيا فى هذا السبيل وأهمها إغاثة المحرومين والمساكين.

ص: ٥٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيِهِ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصِبِهِ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعَظَمَاءَ بِجُودِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَيُحَدِّثُوا لَهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا، وَيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَيُبَيِّنُوا لَهُمْ عُيُوبَهَا، وَيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِحِهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعَصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ. أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا.

الشرح والتفسير: دور الأنبياء عليهم السلام في هداية الأمم

جدير ذكره أن «ابن أبي الحديد المعتزلي» لما بلغ هذه الخطبة تأثر جداً بفصاحتها وبلاغتها. ثم خاض في مقارنتها مع أحد أبرز وأفضل الخطب التي خطبها الكاتب العربي المعروف (ابن أبي الشحماء العسقلاني) فأشار إلى ضعف تلك الخطبة إزاء خطبه أمير المؤمنين عليه السلام، واستنتج أن مثل هذه العبارات لا تصدر إلا من على عليه السلام وعرض بالذم لأولئك المتعصين الذي يحاولون عبثاً نسب خطب نهج البلاغة لغير الإمام عليه السلام ويراهم لا يتبعون إلا أهواءهم ورغباتهم (1).

على كل حال استهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيِهِ،

ص: ٥٩

١- (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٢٦.

وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبِهِ (١). خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ».

لا- شك في أنّ الرّؤية والمشاهده تختص بالأجسام، والله أسمى من الجسميّة، والتعب والإرهاق أثر القيام بالأعمال من شؤون الأفراد ذوى القدره المحدوده، وليس لها من سبيل إلى من كانت جميع صفاته لامتناهيه في خلقه لما يشاء، فخلق هذا العالم أهون عليه من رؤيتنا لبعضنا خلال لحظه، كما ليس لمقتدر من قدره أمام الله، فهو القادر على فناء كلّ شىء بعاصفه أو صاعقه أو زلزه أو سيل جارف.

العباره:

«وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ» إشاره لطيفه إلى هذه الحقيقه أنّ عظمه الإنسان في جوده وكرمه فكلما كانت كرمه أكبر كان عظمته كذلك، ولكن بما أنّ جميع نعم الأرض والسماء من الله الذى بسط مائدته لتشمل الجميع فهو أعظم من كلّ عظيم.

ثم أشار إلى جانب من صفاته سبحانه فى خلق الإنسان والهدف من هذه الخلقه وطرق الأنبياء عليهم السلام فى التريبه والتعليم فقال:

«وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ».

ثم تطرق إلى الهدف من بعثه الأنبياء ليوجزها فى عدّه أمور فقال:

«لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غَطَائِهَا، وَلِيَحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيَبْصُرُوهُمْ عُيُوبَهَا».

أجل، فزخارف الدنيا ومتاعها غفله وعيشها نكد ومالها ومقامها ضلاله، ومن هنا كان أحد المبادئ الأساسيه للأنبياء تحذيراتهم المتكرره للإنسان بغيه عدم الغفله عن الهدف الأساسى للخلقه وعدم الاستغراق فى هذه الدنيا واتخاذها قنطره إلى الآخره وعدم الركون إلى الإقامه فيها فهى ليست إلّا منزل يتوقف فيه الإنسان لليله.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالاشاره إلى سائر أهداف الأنبياء فقال:

«وَلِيَهْجُمُوا (٢) عَلَيْهِمْ

ص: ٦٠

١- (١). «منصبه» مصدر ميمى من ماده «نصب» على وزن «غضب» بمعنى التعب، وللمصدر هنا معنى اسم المصدر.

٢- (٢). «يهجموا» من ماده «هجوم» بمعنى الدخول أو الحمله غفله ويراد بها فى بعض الموارد القوه.

بِمُعْتَبِرٍ (١) مِنْ تَصِيْرِ رُفٍ مَصِيَةِ أَحْهَا (٢) وَأَسِيْقَامِيَهَا، وَحَلَالِيَهَا وَحَرَامِيَهَا، وَمَا أَعِيَدَ اللهُ لِلْمُطِيْعِيْنَ مِنْهُمْ وَالْعُصِيَاةِ مِنْ جَنَّةِ وَنَارِ، وَكَرَامَةِ وَهَوَانٍ».

إشاره إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام وإضافه لما سبق ينشدون ثلاثه أهداف مهمه أخرى لهدايه الناس؛ فذكر في البدايه الدروس والعبر التي تختزنها هذه الحياه العابره، ومن ذلك أننا نرى بعض الأفراد الأصحاء والأقوياء الذين سرعان ما يهجم عليهم المرض فيسلبهم قدره الحركه ويسير بهم إلى حافه الموت، وإذا بهم ينهضون فجأه ليستأنفوا نشاطهم من جديد، والآخر بيان الحلال والحرام الذي يشكل جانباً مهماً من دعوه الأنبياء ويمثل الحد الفاصل بين المنطقه الآمنه والمحظوره.

والثالث بيان الثواب والعقاب المادى والمعنوى - المادى مثل الجنّه والنار والمعنوى مثل الاحترام والتحقيق - فكلّ هذه الأمور من شأنها أن تكون دافعاً لطاعه الله (٣).

العباره:

«لِيَهْجُمُوا» إشاره إلى أنّ أنبياء الله يخوضون في أهداف الدعوه من خلال بياناتهم البلاغيه وتعبيراتهم المؤكده والتي تفعل فعلها في نفس المخاطب.

ثم عاد الإمام عليه السلام في ختام هذا القسم إلى حمد الله والثناء عليه فقال:

«أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ».

وقد اختلف شراح نهج البلاغه في مفهوم هذه العباره، ولكن بالنظر إلى العباره

«اسْتَحْمَدَ إِلَى فُلَانٍ» التي تعنى أنه عامله بإحسان ليحمده (٤) يصبح معنى العباره

ص: ٦١

١- (١) . «معتبر» اسم مفعول من ماده «عبره» تعنى في الأصل العبور من شيء، ويقال عبره للحوادث التي يعتبر بها الإنسان كونها تعبر الإنسان من شيء إلى آخر، وعليه فالمعتبر يطلق على كلّ أساس لعبره واتعاظ.

٢- (٢) «مصاح» جمع «مصحه» بمعنى اسم المصدر من ماده «صح» تعنى الصحه والعافيه.

٣- (٣) كثرت أقوال شراح نهج البلاغه التي لا تخلو من تكلف في تفسيرهم لهذه العبارات والمعطوف عليه في العباره (حلالها وحرامها...) والأنسب أن تكون العباره (حلالها... وما أعد الله...) عطف على (بمعتبر) ليكون المعنى أنّ للأنبياء ثلاثه وظائف أخرى والتي شرحناها آنفاً.

٤- (٤) . المعجم الوسيط، مفرد «حمد».

(أحمدہ علی إفاضہ النعم) كما طلب من عباده.

وعاد عليه السلام في الختام إلى ما استهل به الخطبه فتطرق إلى محدوديه الحياه الدنيا والحساب الدقيق الذي يسود العالم فقال:

«وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا».

نعم! فكل ذرات هذا العالم تسير وفق حساب وكل شيء في لوح محفوظ، كما أن لجميع موجودات هذا العالم نهايه ستبلغها في وقت معين ينتهي فيه عمرهم وهذه عبره لجميع الناس ليعلموا من جانب أن الدنيا ليست باقيه ومن جانب آخر أن هنالك حساباً دقيقاً ينتظر جميع الأعمال.

ص: ٦٢

منها: فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّهُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ. أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَّغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ. فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَأِنَّهُ لَمْ يُخَفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْمًا بَادِيًا، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَرْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَيَخْطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَيَخْطُهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَإِنَّمَا تَسْتَبِيرُونَ فِي أَثَرِ بَيْنِ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلِ قَدِّ قَالَهُ الرَّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَدْ كَفَاكُمْ مَوْوَنَهُ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ.

الشرح والتفسير: الهدى فى ظل القرآن

تحدث الإمام عليه السلام فى القسم السابق من الخطبه عن المبدأ والمعاد وصفات الجلال والجمال والثواب والعقاب يوم القيامة إلى جانب بعثه الأنبياء والرسل وبيانهم للحلال والحرام.

وتطرق هنا إلى القرآن الكريم لكونه معجزه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وأعظم مشروع عمل يوم القيامة وذكر له عدده أوصاف تشير جميعاً إلى جامعيه القرآن وشموليته فقال:

«فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّهُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ،

وَأَرْتَهْنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ».

فقد ذكر عليه السلام سبع صفات مهمّة للقرآن كافيّه شافيّه لبيان أهمّيّه القرآن ومنزلته الرفيعه، العبارة

«آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ» في الواقع كلّ منهما صفتان للقرآن وقد حذفوا واو العطف بينهما، أي للقرآن أوامر ونواهٍ سكت في بعض الأمور التي تقتضى المصلحه فيها السكوت وانطلق بيانه في الأمور التي يتوجب على الجميع الإلمام بها أو أنّ القرآن ساكت في الظاهر ذلك أنّه ليس أكثر من حروف وكلمات، إلّا أنّ حقيقه الأمر أنّه تحدّث بمئه لسان وإمّاط اللثام عن الحقائق، العبارة

«أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ» إشاره إلى العهد الذي أخذه الله وأنبياءه من المؤمنين حين الإيمان بالتوحيد والنبوه، لأنّ من بيدي إيمانه بهذين المبدأين فمعنى ذلك تسليمه لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وآله، أو أنّ الله بافاضته للعقل من جانب وفطره التوحيد من جانب آخر أخذ هذا العهد من جميع الناس من خلال التكوين ليسلموا لأمره ويعملوا بكتابه.

العبارة:

«وَأَرْتَهْنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ» إشاره إلى الحقيقه التي صرّح بها القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (١) فكما لا تطلق العين المرهونه دون تسديد الديون فإنّ الإنسان لا يبلغ حرّيته الحقيقه ما لم يمارس وظائفه الدينيه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليكشف عن عمق أهمّيّه كتاب الله بذكره لصفيتين أخريين فقال:

«أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ».

والمراد من النور هنا الفيض الإلهي الذي يشمل العباد عن طريق القرآن، والعبارة

«أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ» إشاره إلى الآيه: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (٢) التي كمل بموجبها الدين بنزول القرآن ومشروع الولاية.

وتطرق الإمام عليه السلام إلى شموليه أحكام الإسلام والقرآن فقال:

«وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى

ص: ٦٤

١- (١) . سورة المدثر، الآيه ٣٨.

٢- (٢) . سورة المائدة، الآيه ٣.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَعْنَا إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ».

ثم استتج من ذلك

«فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ».

إشاره إلى عدم ارتجال الصفات لله وعدم الابتداع في العباده والدعاء وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل شيء بل لا بد من اتباع هديه وإرشاده الذي ورد في القرآن في كل هذه الأمور (يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى توقيفيه صفات الله والتعبدية في الطاعة).

ثم خاض عليه السلام في بيان عله هذا الموضوع فقال:

«فَإِنَّهُ لَعَمْرٍأ يُخْفِ عَنكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْمًا يَأْتِي (١)، وَآيَةً مُحَكَّمَةً، تَزُجُّ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ».

بعبارة أخرى، أن الله سبحانه وتعالى أتم الحجة في جميع أوامره ونواهيه وجهد رسول الله في ابلاغ رسالته؛ فأوضح المعالم من الدين وبين الأصول والفروع، وعليه فلم يدع من مجال للبدع في الدين.

ثم قال عليه السلام:

«فَرِضَاءٌ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ».

وعليه فقد سلب هذه الذريعة في أن أحكام عصر النبي صلى الله عليه وآله إنما تختص بعهدته وعلينا الاجتهاد على ضوء تغير الزمان وتبدل الوسط، والواقع أن هذه العبارة إشارة إلى الحديث النبوي الشريف:

«حَلَالٌ مُحَمَّدٌ حَلَالٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَحَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٢).

وقال في تأكيده على وحده رسالته بشأن جميع الناس بما فيهم الماضون والحاضرون والقادمون:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَيَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسَخِطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِنِّي مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَنْرَبَيْنِ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلِ قَدْ قَالَه الرَّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ».

ص: ٦٥

١- (١). «بادياً» من ماده «بدو» على وزن «جبر» بمعنى الايضاح ولها حيثيه وصفيه.

٢- (٢) الكافي، ج ١، باب البدع والرأى والمقاييس، ح ١٩.

وتشير كل هذه العبارات إلى وحده تعاليم الأنبياء وسفراء الله وطرق السعادة والتكامل التي ابليت من جانب الله بواسطه أنبيائه، رغم رقى التكامل البشرى بفعل تقادم الزمان وهذا فى الواقع أحد فروع التوحيد، وهو ما أكده القرآن الكريم.

«آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانْفِرَاقٍ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (١).

واختتم الإمام عليه السلام كلامه هنا بالإشارة لبعض الأمور المهمه فقال:

«قَدْ كَفَّاكُمْ مَوْوَنَهُ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمْ الذُّكْرَ».

إشاره من جانب إلى أنه شملكم بأنواع النعم: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (٢).

و «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» (٣) ومن جانب آخر أمركم بالشكر الذى يوجب زياده النعمه واستمرار العناية الإلهيه، ومن جانب آخر دعاكم لذكره والذى يعود على قلوبكم بالطمأنينه والنجاه من مخالب الشيطان: «أَلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (٤) «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» (٥).

وما يلاحظ من أن الإمام عليه السلام اكد على ذكر اللسان من بين جميع الأعمال الواجبه والمستحبه كونه مدعاه ليقظه القلب وهذه اليقظه هى المصدر الرئيسى للحركه نحو الخير والسعاده، أضف إلى ذلك فإن اللسان إن لم يلهج بالذكر سينطلق لخدمه الشيطان وأنا لنعلم أن العديد من الكبائر إنما تصدر من اللسان، جدير بالذكر أن التوجه إلى النعم وشكر المنعم على فضله ونعمه هو المحور الأصلى لمعرفة الله كما ورد فى علم العقائد.

ص: ٦٦

١- (١) سورة البقره، الآيه ٢٨٥.

٢- (٢) . سورة الجاثيه، الآيه ١٣.

٣- (٣) سورة البقره، الآيه ٢٩.

٤- (٤) . سورة الرعد، الآيه ٢٨.

٥- (٥) سورة الأعراف، الآيه ٢٠١.

١. وحده حكم الله في الأولين والآخرين

إنّ وحده الأحكام الشرعيّة وسريانها على الأولين والآخرين بما فيها الأقسام والأمم كافّه لمن الأمور المهمّة التي أكّد عليها الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه، وتوضيح ذلك أنّ تاريخ البشريّه في الماضي والحاضر شهد أنواع التمييز بين الأقسام والشعوب في وضع القوانين والتشريعات، فكانت هنالك الأحكام المختلفه التي تتأثر عاده بلون البشره والأخرى بالمنزله الاجتماعيه وكان دم ذوى البشره البيضاء أثمن من نظيره لدى العبيد فكانت هنالك الامتيازات الخاصه لدى طبقه الأشراف في سن القوانين.

فانبثق الإسلام ليلغى تلك الامتيازات كافّه إثر تبنيه لرساله المساواه وعدم التمايز الطبقي وتكافؤ جميع الأفراد مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم في الحقوق والواجبات وجاء في الخبر أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بينما كان في منى أيام الحج راكباً دابته إذ التفّت إلى الناس فقال:

«يا أيّها النّاس ألا- إنّ ربّكم واحدٌ وإنّ أبائكم واحدٌ ألا- فضل لعربيّ على عجمي، ولا لعجمي على عربيّ، ولا لاسودّ على أحمر (١)، ولا لأحمر على اسودّ إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا نعم! قال ليبلغ الشاهد الغائب» (٢).

ولم يقتصر النبي صلى الله عليه وآله على هذا الكلام في ذلك التجمع العظيم بمنى، بل أشار إليه في موارد كثيره بصفته أحد المبادئ الإسلاميه المسلمه، ففي الخبر أنّ سلمان الفارسي دخل مجلس النبي صلى الله عليه وآله فأكرمه النبي لفضله وسنه وأجلسه في صدر المجلس فلما رآه عمر أنكر ذلك وقال:

«مَنْ هَذَا الْعَجْمِيُّ الْمُتَصَيِّدُ فِيمَا بَيْنَ الْعَرَبِ» فصعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المنبر (الأمر الذي كان يقوم به لبيان حكم عام وأساسى) فخطب الناس وقال:

ص: ٦٧

١- (١). «أحمر»، إشاره إلى حمرة الوجه، أو كونه حنطاوياً، لأنّ بيض الوجوه كانت في ذلك المحيط ألوانهم بلون الحنطاوى.

٢- (٢) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦١ و ٦٢.

«إِنَّ النَّاسَ مِنْ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا مِثْلُ أُسَيْنَانَ الْمِشْطِ؛ لَا فَضْلَ لِلْعَرَبِيِّ عَلَى الْأَعْجَمِيِّ وَلَا لِلْأَحْمَرِ عَلَى الْأَسْوَدِ إِلَّا بِالتَّقْوَى، سَيَلْمَانُ بَحْرٌ لَا يُنَزَفُ وَكَثْرٌ لَا يُنْفَدُ، سَلْمَانٌ مِّنَا أَهْلُ الْبَيْتِ» (١).

يشير هذا الحديث صراحة إلى عدم مساواة الناس الذين يعيشون في عصر معين إزاء القوانين الشرعية فحسب، بل شموليته لجميع الأفراد الذين سكنوا الأرض طيله تاريخ البشرية في ظل نفس الظروف ويبدو لهذا المبدأ والحكم الإسلامى جدواه الفعلية آنذاك حين كانت الامتيازات القبلية بين العرب والامتيازات العرقية والتمايز الطبقي هو الحاكم فى العالم آنذاك.

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبه إنمّا هو تأكيد لهذا الموضوع حين قال إنّ الله لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضىه ممن كان من قبلكم وما زال هذا القانون هو الحاكم، كما يبدو لهذا الكلام الذى يمثل امتداداً لكلمات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قيمته القصوى على أساس إعادة تلك الامتيازات الجاهلية بما فيها امتياز العرب على العجم إبان خلافه عمر كما تفيد تواريخ الفريقين.

ونختتم الحديث هنا بعبارة من خطبته صلى الله عليه وآله فى حجة الوداع حين بين للجميع أسس وقوانين الشريعة الإسلاميه للجميع:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»

وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى؛ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» (٢).

٢. القرآن ناطق أم صامت؟

صدر الإمام عليه السلام كلامه فى هذه الخطبه بأن القرآن صامت وناطق، بينما وصفه فى

ص: ٦٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٨.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٣٥٠.

«هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ حَظٌّ مَشْتُورٌ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَزْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرَّجَالُ» كما ورد شبيه ذلك فى الخطبه ١٥٨.

فهل هنالك من تناقض بين هذه التعابير؟ الجواب هو أن المراد من ناطقيه القرآن أنه بين أحكام الله فيه بلسان عربى مبين، فكل من كان لديه استعداد دعاه لنفسه وهداه للخير والسعاده وعليه فهو ناطق بالنسبه لدعاه الحق؛ أما بالنسبه إلى أولئك الأفراد المتعصبين والذين انبروا للنزاع فهم لا يسمعون رساله القرآن وإن سمعوها تظاهروا بعدم السماع، ولا مناص لهؤلاء الأفراد من قاض وحكم عادل يبلغهم رساله القرآن ويتم عليهم الحجه، على سبيل المثال للقرآن رساله واضحه فى قصه صفين حيث يقول: «فَإِنَّ بَعَثَ إِخِيْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» (١). فمن الواضح للجميع أن علياً عليه السلام وإضافه إلى نصبه لخلافه النبي صلى الله عليه وآله من جانب الله تعالى إنما بويع من قبل قاطبه المؤمنين وأغلبيه المهاجرين والأنصار، ولم يكن معاويه وجيشه سوى حفنه من الطغاه الجفاه الذين أرادوا فرض أنفسهم على الأمة، ولكن حيث انبروا لمواجهه حكم الله لزم أن يكون هناك حكم يأخذ بأيديهم إلى الحق رغم أن مسأله التحكيم وللأسف لم تسر بالاتجاه الصحيح ولم تتوصل إلى النتيجة المتوخاه.

ص: ٦٩

وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَا، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بَعِينِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ. إِنْ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتْبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفْظَهُ كِرَامًا، لَأَيْسِقُطُونَ حَقًّا، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ (مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) مِنَ الْفِتَنِ، وَنُورًا مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِي مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنزِلْهُ مَنَزِلَ الْكِرَامِ عِنْدَهُ، فِي دَارِ اضْيَاطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُورُهَا مَلَايِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ؛ فَيَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَيَابِقُوا الْآخِيَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَزْهَقَهُمُ الْأَجَلُ، وَيَسِيدَ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ اضْيَبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجَعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُوسَبِيلَ، عَلَى سَيْفَرٍ مِنْ دَارِ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالْأَرْتِحَالِ، وَأَمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

الشرح والتفسير: منزله التقوى

أكد الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه على الدعوه إلى التقوى إلى جانب ذكره لسبب ذلك مع الإشارة إلى آثار التقوى، كما قدم شرحاً عميقاً لتقلب الدنيا ورحله الآخرة وما يلزمها من زاد ومتاع يكمن في الورع والتقوى.

فقال بادئ الأمر:

«وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَا، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وتشير هذه العبارة إلى أن التقوى أفضل شيء سأل الله عباده وأعظم فخر يتقلده

الجميع والذي ينسجم مع الآيات القرآنيّة القائلة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (١)، «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٢)، «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (٣) وجعل للتقوى قيمتها العميقة.

والحقيقه هي أنّ التقوى شعور باطنى بالمسؤولية فهي وليده الإيمان القوى من جانب وأساس الطاعه واجتناب المعصيه من جانب آخر، والتعبير بالحاجه بشأن الله تعالى لا يعنى أنّ الله محتاج إلى العباد فالحاجه لغويّاً لا تقتصر على الفقر، بل ترد أحياناً بمعنى الطلب والسؤال.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى الإشاره إلى الداعى لرعايه تقوى الله فقال:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ (٤) بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ (٥) فِي قَبْضَتِهِ».

نعم فالعالم حاضر عند الله وزمام الجميع بيده سبحانه، ورغم أنّ العباد أحرار فى ما يمارسون من أعمال، إلّا أنّ هذه الحرية لا تعنى سلب الذات القدسيه قدرتها.

ثم قال عليه السلام لمزيد من التأكيد:

«إِنْ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتْبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَهُ كِرَامًا، لَا يُسْقِطُونَ حَقًّا، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا».

وجاء فى القرآن أيضاً: «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (٦).

وكذلك: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» (٧).

فمن البديهي أنّ كتابه الأعمال من قبل الملائكة الحفظة إنّما هو للتأكيد، وإلّا فقد اتضح من العبارات السابقه أنّ السر والعلايه سواء عند الله وعلمه محيط بكلّ ما فى السماوات والأرض، استناداً للعباره

«قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ» وحصر هذه الكتابه بأعمال

ص: ٧٢

١- (١) . سورة الحجرات، الآية ١٣.

٢- (٢) . سورة البقره، الآية ١٩٧.

٣- (٣) سورة مريم، الآية ٦٣.

٤- (٤) «نواصى» جمع «ناصيه» بمعنى شعر مقدمه الرأس وهي إشاره لقدرة الله وكنايه عن هيمنته على كلّ شىء.

٥- (٥) «تقلب» هنا بمعنى التصرف وكلّ تغيير إشاره إلّا أنّ بيده كلّ حركاتكم.

٦- (٦) سورة الملك، الآية ١٣.

٧- (٧) سورة الانفطار، الآيات ١٠-١٢.

«وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتَابَهُ» فالذى يستفاد أنّ الملائكة ليست مأموره بكتابه كل الأعمال الخفيه وأنّ الله الستار لليوب قد أخرج جانباً من هذه الأعمال عن دائره علمهم واختص بها نفسه وهذا يشير إلى منتهى لطفه.

جاء فى دعاء كميل:

«وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتِ بِإِثْبَاتِهَا الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوَارِحِي وَكُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرَائِهِمْ وَالشَّاهِدَ لِمَا خَفِيَ عَنْهُمْ وَبِرَحْمَتِكَ أَخْفَيْتَهُ وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ».

ثم خاض الإمام عليه السلام فى بيان آثار وبركات التقوى فذكر بعباره قصيره عميقه المعنى أربع نتائج تفرزها التقوى. فقال فى الأولى والثانية:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ «مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»

مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ».

فالشق الأول من الكلام اقتباس من الآيه الشريفه: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» (١).

روى أبوذر الغفارى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنِّي لَأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَكَفَفَتْهُمْ: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»

فَمَا زَالَ يَقُولُهَا وَيُعِيدُهَا» (٢).

والشق الثانى من سائر الآيات مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً» (٣) (ورؤيه خاصه تتعرفون من خلالها على الحق والباطل).

وقال فى الثمره الثالثه والرابعه للتقوى:

«وَيُخَلِّدُهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنزِلُهُ مَنزِلَ الْكِرَامِ عِنْدَهُ، فِى دَارِ اضْطِنَاعِهَا (٤) لِنَفْسِهِ».

فنتيجه التقوى فى هذه العباره الخروج من الفتنه وزوال الظلمات من حياه المتقين فى هذا العالم والخلود فى النعم الماديّه والمعنويّه فى العالم الآخر، فالواقع أنّ الله سبحانه وتعالى جمع للمتقين النعم الماديّه والمعنويّه لهذا العالم والعالم الآخر

ص: ٧٣

٢- (٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٠٦.

٣- (٣) سورة الانفال، الآية ٢٩.

٤- (٤) «اصطنع» من ماده «صنع».

والعبارات تشير كل منها إلى إحدى هذه النعم.

وتشير العباره

«أَضْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ» أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ مَنَازِلَ الْآخِرَةِ الْخَاصَّةَ لِحَوَاصِهِ أَوْ أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ بَعْضِ الْعِبَارَاتِ مِثْلَ «بَيْتِ اللَّهِ» وَ «شَهْرِ اللَّهِ» الَّتِي تُشِيرُ إِلَى عَظَمَةِ تِلْكَ الدَّارِ وَأَهْمِيَّتِهَا.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح صفات ذلك المنزل الخاص فقال:

«ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُورُهَا مَلَائِكَتُهُ، وَرَفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ».

يا له من منزل رفيع ذلك الذى يفوق السماء والأرض وفي ظلّ عرش الله، أضاءته أشعه نور الله وتقاطرت فيه ملائكته على زياره ذلك الإنسان وجالس فيها رسل الله وأنبياءه، وهى الصفات التى تسحر الإنسان عند سماعها، فما ظنك برويتها؟

قال تعالى فى القرآن الكريم: «وَمِنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (١).

وخلص الإمام عليه السلام فى مواصلة كلامه بالدعوة إلى التقوى وبيانه لبركاتها بالقول:

«فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ».

كما قال القرآن: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢).

وقال فى موضع آخر: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (٣).

ثم خاض عليه السلام فى بيان العله فقال:

«فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَزْهَقَهُمْ (٤) الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ

ص: ٧٤

١- (١) سورة النساء، الآية ٦٩.

٢- (٢) سورة الحديد، الآية ٢١.

٣- (٣) سورة الرعد، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

٤- (٤). «يرهق» من مادته «رهق» على وزن «شفق» فى الأصل من تغطيه شىء بالقهر والغلبه وتعنى هنا الغلبه وتسلط الموت على الإنسان.

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

والكلام إشاره لما ورد في القرآن: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» (١).

ومراد الإمام عليه السلام بادرُوا اليوم إلى العمل الصالح والتوبه من الذنب قبل أن تعيشوا مثل هذا المصير وتطلبوا ما لا يلبي لكم.

وحت إثر ذلك على التأهب لسفر الآخرة والاستعداد والتزود لذلك السفر الطويل والمليء بالمخاطر فقال:

«وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ».

واختتمها بالعباره:

«وَقَدْ أُودِغْتُمْ مِنْهَا بِالْإِزْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ».

وعاده ما يلاحظ مثل هذا التشبيه الرائع للدار الآخرة والدنيا وسكنه هذا العالم في بعض الآيات القرآنيّه والعديد من الروايات الإسلاميّه التي شبهت الإنسان بالمسافر الذي ينطلق نحو الهدف المطلوب وعليه أن يطرق بعض الأيام أثناء الطريق فيتوقف في بعض الأماكن فيهيء الزاد والمتاع وينطلق من هناك وليس المراد من الزاد والمتاع سوى التقوى كما ليس المراد من المركب سوى الإيمان، فأولئك الذين يقصرون في الإعداد إنّما يتخلفون في الطريق ويهلكون ولا- يبلغون المقصد قط فقافله الأنبياء والأوصياء عليهم السلام مازالت تنادى بالرحيل والتزود لذلك السفر الطويل، وإن غط البعض في نوم عميق وفقد الآذان الصاغية فصم عن سماع ذلك النداء.

قال تعالى في محكم كتابه:

«وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» (٢). وقال: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٣).

ص: ٧٥

١- (١) سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩ و ١٠٠.

٢- (٢) . سورة غافر، الآية ٣٩.

٣- (٣) سورة البقره، الآية ١٩٧.

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا.

أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ تَصَيَّبَهُ، وَالْعَثْرَةَ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءَ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضَهَا بَعْضًا لِعَظْبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ!

الشرح والتفسير: العذاب الشديد يوم القيامة

إثر تأكيدات الإمام عليه السلام على الورع والتقوى في القسم السابق من الخطبه أشار هنا بعبارات رائعة إلى شدة العذاب يوم القيامة فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ».

ثم جسد بمقارنه بسيطه وواضحه شدّه إحراق نار جهنم فقال:

«فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ (١) تَصَيَّبَهُ، وَالْعَثْرَةَ تُدْمِيهِ (٢) ، وَالرَّمْضَاءَ (٣) تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ (٤) مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ،

ص: ٧٧

١- (١) . «شوكه» تطلق على حراب الجنود والأسلحة كافة، لأنّ السلاح علامه القدره والشده وتطلق الشوكه على كلقدره، وتطلق على التواء المدبب كالإبره فى النبات الشائك.

٢- (٢) . «تدميه» من ماده «إدماء» بمعنى إخراج الدم من البدن.

٣- (٣) «رمضاء» بمعنى شدّه الحراره وكذلك الأرض والحجر المحرقه بفعل أشعه الشمس.

٤- (٤) «طابقين» تشبيه «طابق» بكسر وفتح الباء بمعنى طبقه البناء ويطلق على ما يخبز عليه.

وَقَرِينِ شَيْطَانٍ!».

وقال في مواصلته لهذا الكلام:

«أَعْلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ (١) بَعْضُهَا بَعْضًا لِعَظْبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ (٢) بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ!».

وللمرحوم «مغنيه» حين بلغ هذا القسم من الخطبه كلام رائع حيث يقول: «إنَّ جميع خطب نهج البلاغه تبحث أصليين أو ثلاثه أصول مع بعضها، فمن جانب الثناء على صفات الله الجمالتيه والجلالتيه وأسمائه الحسنى ومن جانب آخر مدح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما أتى به من هدى للناس وأخيراً الكلام عن خداع الدنيا وسكرات الموت ووحشه القبر وأليم العذاب فى القيامة، والعجيب أن هذه الخطب لا تتضمن التكرار رغم تكرر هذه المواضع، حيث يوردها بأسلوب بديع وشكل جديد، الأمر الذى أذهل شراح نهج البلاغه» (٣).

على كل حال فإن الإمام عليه السلام شرح فى هذا الكلام عجز الإنسان وانزعاجه الشديد من مصائب الدنيا الهينه وقارنها مع أليم العذاب وشده المصاب فى الآخرة ليحذر الجميع من ذلك.

وقد ورد شبيه ذلك فى دعاء كميل حيث يقول:

«يَا رَبِّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفِي عَنْ قَلِيلٍ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَعُقُوبَاتِهَا وَمَا يَجْرَى فِيهَا مِنَ الْمَكَارِهِ عَلَى أَهْلِهَا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ بَلَاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَلِيلٌ مَكْنُتُهُ يَسِيرٌ بَقَاؤُهُ قَصِيرٌ مُدَّتُهُ فَكَيْفَ احْتِمَالِي لِبَلَاءِ الْآخِرَةِ وَجَلِيلِ وَقُوعِ الْمَكَارِهِ فِيهَا وَهُوَ بَلَاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقَامُهُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِهِ».

والذى يستفاد ضمناً من العبارات المذكوره أن نار جهنم مخلوق فطن، يشعر بالرعب من غضب مالك خازن النار فيتأرجح هنا وهناك، كما يفهم من تلك

ص: ٧٨

١- (١). «حطم» من ماده «حطم» على وزن «حتم» بمعنى هدم وكسر الشىء ويطلق على الأشياء التى تتهشم بقوه ومن هنا كان أحد أسماء جهنم الحطمة.

٢- (٢) «توثبت» من ماده «وثوب» بمعنى القفز.

٣- (٣) فى ظلال نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٦ (باقتباس).

التعبيرات أنّ لعذاب جهنم بعد جسمى هو حرقه النار وآخر معنوى يتمثل فى مجاوره الشيطان.

ص: ٧٩

أَيُّهَا الْيَقِينُ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمَّتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ. قَالَ اللَّهُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصَّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسَيْحَةِ قَبْلَ الضُّيْقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا. أَسِيهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَمَّا تَبَخَّلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «إِنْ تَنْصِرُوا اللَّهَ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ». فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصِرْكُمْ «وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وَاسْتَقْرِضْكُمْ «وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ». وَإِنَّمَا أَرَادُ أَنْ «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

الشرح والتفسير: الامتحان الإلهي

تغيرت نبره الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه ليخاطب الكهول ويستعرض لهم جانباً من أشد عذاب وأهوال يوم القيامة، ثم يدعو عباد الله كافة اغتنام الفرصه بغيه الخلاص من عذاب الله ونقمته ليقدم تعاليم دقيقه بهذا الشأن يتمثل أحدها في الانفاق فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا الْيَقِينُ (١) الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ

ص: ٨١

لَهْزَةً (١) الْقَتِيرُ (٢) ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمْتُ (٣) أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ ، وَنَشِبَتْ (٤) الْجَوَامِعُ (٥) حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ (٦) .

السؤال الذى يطرح نفسه هنا: لماذا خاطب الإمام عليه السلام الشيخ المسن؟ لعل ذلك يعود إلى أن شمس عمره توشك على المغيب - وإن كان الموت يأتى كل أحد بغته - وعليه أن يركز فى الانتباه لنفسه، أو لأن للكحول تأثيراً على أسرهم وأبنائهم وباستطاعتهم نصحتهم ووعظهم.

العبارة:

«قَدْ لَهْزَةُ الْقَتِيرُ» استناداً إلى أن

«لهز» يعنى فى الأصل نفوذ الشىء واتساعه فى شىء آخر و

«قتير» من ماده قتر بمعنى التضيق والتصعب فالعبارة تفيد أن الشيخوخه قد نفذت فى كل كيانهم فقد ضعفت العظام وبهت الدماغ والأعصاب وعجزت أعضاء البدن كآفه.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى نوعين من العذاب الأليم الذى يحيق بأهل جهنم، أحدهما أطواق النار التى تطوق أعناق المجرمين وتتغلغل فى لحومهم حتى تبلغ عظامهم والآخر غل الجامعه التى تربط أيديهم إلى أعناقهم بحيث تجرح سواعد أيديهم، طبعاً هذا العذاب وإن كان شديد الألم إلا أنه يعتبر رحمه بفعل دوره فى حجزهم عن الذنب والمعصيه.

ثم واصل كلامه عليه السلام موجهاً الخطاب لجميع العباد فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ!

ص: ٨٢

١- (١) . «لهز» من ماده «لهز» على وزن «محض» المخالطه والنفوذ فى شىء.

٢- (٢) «قتير» تعنى فى الأصل رؤوس المسامير فى حلقات الدرع ثم اطلق على كل أمر صعب ومرهق وبما أن فتره الكهوله تعدّ إحدى المشاكل الشديده فقد اطلق القتير على الكهل وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبه.

٣- (٣) «التحمت» من ماده «لحم» على وزن «فهم» بمعنى اندكت واستحكمت وتعنى فى العبارة المذكوره أن أطواق النار تلتصق بعظام الرقبه.

٤- (٤) «نشبت» من ماده «نشب» على وزن «رجب» التعلق.

٥- (٥) «جوامع» جمع «جامعه» الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.

٦- (٦) «سواعد» جمع «ساعد».

وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصَّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضُّيْقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا(١)».

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلى نعمتين كبيرتين؛ إحداهما السلامة والعافية والأخرى إعداد الإمكانيات التي تمكن الإنسان من الإقدام على أي عمل. نعم فهو يحذر الجميع من استغلال هذه الفرص والخلاص من تبعات المسؤولية.

وتشير العبارة

«فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ» إلى سلسلة من التكاليف التي لا مناص للإنسان من القيام بها، فقد كان السائد لدى الأقوام السابقة أنّ الدائن يستعبد المدين ما لم يتمكن من أداء دينه، ولا يعتق ما لم يسدد ذلك الدين، فالعبارة المذكورة يمكن أن تكون كناية عن هذا المطلوب.

والعبارة:

«مَنْ قَبِلَ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا» إشارة إلى أنّ الشخص المدين إن تخلف عن أداء الدين خرج عن ملكيته ما كان مرتهاً لدى المدين (طبعاً بمقدار الطلب) فقد أشار الإمام عليه السلام إلى ضروره أداء الديون الإلهية والمراد بها الواجبات بغيه تحرير رهائهم لديه والمراد به أنفسهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام بالخوض في تفاسير العبارات التي ذكرها سابقاً بصورة كليه فركز على خمسة مواضيع وقال:

«أَسْهَرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا(٢) بَطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فُجُودًا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخُلُوا بِهَا عَنْهَا».

والمراد من

«أَسْهَرُوا عُيُونَكُمْ» أسهروا عيونكم المناجاة في الليل سيما صلاة التهجد.

«وَأَضْمِرُوا بَطُونَكُمْ» إشارة إلى الصيام،

«وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ» إشارة إلى قيام الليل أو السعي في قضاء حوائج الناس واغاثه الملهوفين،

«وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ» إشارة إلى الخمس والزكاة الواجبه والصدقات المستحبه

«وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فُجُودًا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» إشارة إلى العبادة وتهذيب النفس والجهاد في سبيل الله.

ص: ٨٣

٢-٢) . «اسهروا» من ماده «سهر» على وزن «سفر» بمعنى اليقظه فى الليل.

٣-٣) «اضمروا» من ماده «ضمور» على وزن «عبور» بمعنى الضعف وتتعدى فى باب الأفعال.

ثم استدلل الإمام عليه السلام على كلامه بالاستشهاد بآيتين من القرآن فقال:

«فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (١).

وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» (٢).

وقال عليه السلام فى شرحه لهذه الآيات:

«فَلَمْ يَشْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَشْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ «وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

وَاسْتَقْرِضَكُمْ «وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»

وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

إشاره إلى أن الله اعتمد غاية اللطف فى الكلام ليتعظ من كان له أدنى استعداد لطاعته بتلك التعبيرات المفعمه باللطف والمحبه فيحث الخطى على التسليم لله.

والحقيقه أن كلام الإمام عليه السلام جواب لسؤال هو هل يمكن لله تعالى الذى له جند السماوات والأرض أن يستعين بعبده الضعيف العاجز الذى لا يملك لنفسه سوى ما أفاض الله عليه؟ أم يستقرض عبده الضعيف الذى يرتع فى نعمه وهو الذى بيده خزائن السماوات والأرض؟ فلو أراد الله اعانه ضعيف لما لا يعينه، ولو أراد اثراء فقير لما لا يقوم هو بهذا العمل؟ أشار الإمام عليه السلام إلى أن الهدف من كل هذه الأمور هو الامتحان والاختبار.

جدير بالذكر أن جميع ما ذكر اقتباس من القرآن الكريم، إذ قال تعالى فى موضع «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا» (٣).

وفى موضع آخر: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٤) وآيات أخرى.

ص: ٨٤

١- (١) سورة محمد، الآية ٧.

٢- (٢) سورة الحديد، الآية ١١.

٣- (٣) سورة محمد، الآية ٤.

٤- (٤) . سورة الملك، الآية ٢.

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ. رَافَقَ بِهِمْ رُسُلُهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتُهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارِ أَبَدًا، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا وَنَصَبًا: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ). أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!

الشرح والتفسير: الانتقال إلى جيران الله

خلص الإمام عليه السلام في ختام الخطبه إلى نتيجته واضحه وهى أن كان الأمر كذلك

«فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ».

ثم خاض عليه السلام في خصائص هؤلاء الجيران فقال:

«رَافَقَ بِهِمْ رُسُلُهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتُهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ (١) نَارِ أَبَدًا، وَصَانَ (٢) أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا (٣) وَنَصَبًا (٤): «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (٥)».

فقد بين الإمام عليه السلام بهذه العبارات الرائعه أربع خصائص لجيران الله اثنان منها لهما

ص: ٨٥

١- (١). «حسيس» من ماده «حس» تعنى الصوت الخفيف أو الضعيف.

٢- (٢) «صان» من «صيانه» بمعنى المحافظه.

٣- (٣) «لغوب» مصدر بمعنى شده العياء.

٤- (٤) «نصب» بمعنى التعب. وذهب البعض إلى أن لغوب بمعنى التعب الروحي والنصب التعب البدني. وعلى هذا الأساس فليس فى الجنة ومجاوره الله من تعب روحى ولا بدنى.

٥- (٥) سورة الحديد، الآية ٢١.

بعد معنوى والاثنان الآخران لهما بعد مادى؛ فمرافقه الأنبياء وزياره الملائكه كرامتان معنويتان وكرامتان روحيتان لا مثيل لهما كما أن عدم سماع أدنى صوت لنار جهنم وصون الاجساد من أى تعب ونصب كرامتان ماديتان لا نظير لهما كذلك.

وليت شعرى أى كرامه أسمى من أن يرافق الإنسان هؤلاء المقربين فى غرف الجنه ويشمل بهذه النعم المعنويّه والماديّه.

ويؤكد الإمام عليه السلام ضمنياً بالاستفاده من الآيه الشريفه على أهميه هذه النعم الأخرويه ويعدها من فضائل الله العظمى.

والعباره:

«وَأَكْرَمَ أَسْمَاءَهُمْ...» اقتباس من الآيه: «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ»(١).

والعباره:

«وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ...» إشاره إلى الآيه الشريفه: «لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ»(٢).

وهنا يرد هذا السؤال: ترى من هم جيران الله الذين لهم هذه الكرامات؟

فالتعبير بجيران الله يشير إلى أنهم من خواص الله ومقربيه بحيث استحقوا اسم جيران الله ويتضح من زياره الملائكه والأنبياء لهم أنهم ليسوا أنبياء ولا ملائكه، وعليه فلا بد أن يكونوا من الصديقين والشهداء والحواريين الذين تمحوروا حول الأنبياء والأولياء وأصبحوا على ما هم عليه فى ظل الورع والتقوى وتهذيب النفس ليشملوا بكل هذه العناية الإلهيه، على غرار ما قال القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا»(٣).

والشاهد على هذا الموضوع ما ذكره الإمام عليه السلام فى رساله ٢٧ بشأن تلك الثلثه

ص: ٨٦

١- (١) سوره الأنبياء، الآيه ١٠٢.

٢- (٢) سوره فاطر، الآيه ٣٥.

٣- (٣) سوره النساء، الآيه ٦٩.

من المتقين الذى بلغوا درجه من الورع والتقوى ومنزله رفيعه من الزهد وعدم الاعتناء بزخارف الدنيا واكتسبوا بحق اسم جيران الله.

ثم اختتم خطبته لإتمام الحجّه فقال:

«أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَشْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!».

وعليه فقد أتمّ الحجّه عليهم من جانب ودعا لهم بالموفقيه من جانب آخر وأفصح بالتالى عن توكله على الله فى جميع الأحوال.

تأمل

طريق السير والسلوك إلى الله

لقد كشف الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه عن أروع الدروس التى يمكن أن ينطوى عليها من سلك سبيل الحقّ بغيه التريه والتهديب كما تطرق بعبارات قصيره وعميقه المعنى إلى منهج السير والسلوك إلى الله تعالى.

فقد أثار لديهم الشعور بخشيته الله من خلال ذكره لجانب من العذاب الأليم لنار جهنم، ثم حذرهم من أن أعمارهم وعافيتهم إنما هى أمانه مستودعه وستودعه يوماً ما إلى صاحبها.

وعليه فلا بدّ من اغتنام الفرصه والمبادره إلى العمل كما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«إِغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ؛ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ» (١).

ثم أشار إلى العباده وتهذيب النفس فأوصى بإحياء الليل وقلة الطعام وتوظيف الجوارح فى خدمه الخلق والسعى إلى الجهاد ومن ثم انفاق الأموال، وبالتالى الحد من الجسم لصالح الروح ليث الأمل فى قلوب السالكين بوعد الله من خلال استشهاد به بعض الآيات القرآنيه.

ص: ٨٧

١- (١) كنز العمال، الحديث رقم ٤٣٤٩٠؛ بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٥ مع اختلاف طفيف.

وأخيراً رسخ الدوافع المعنويّة عن طريق ذكر الثواب العظيم الذي ينتظرهم جوار قرب الله. نعم فقد أدى معلم الإنسانيّة العظيم وقائد الغرّ المحجلين حقّ المطلب بعبارات قصيرة واضحة في إطار تعاليم متكامله.

ص: ٨٨

قاله للبرج بن مسهر الطائي، وقد قال له بحيث يسمعه:

«لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»، وكان من الخوارج (١)

نظرة إلى الخطبه

نعلم أنّ الخوارج - تلك الفئة الجاهله والمتعصبه التي ثارت على الإمام عليه السلام بعد التحكيم في صفين - وكان شعارهم

«لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» ومرادهم عدم ضروره تعيين حكم يوم صفين، فلا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ؛ وقد استعمل هذا الشعار بصيغه منحرفه وخاطئه من قبل الخوارج، وحين رفع بُرج بن مسهر الطائي هذا الشعار عند الإمام عليه السلام، عنفه عليه السلام بكلمات لاذعه وعنيفه، حتى لا يجر واحداً غيره على رفع هذا الشعار المضل (قدمنا شرحاً وافياً بشأن هذا الشعار الذي رفعتة هذه الفئة الضاله في الخطبه ٤٠ من هذا الشرح)

ص: ٨٩

١- (١) سند الخطبه: ذكر صاحب مصادر نهج البلاغه أنّ أبا هلال العسكري ذكر هذا الكلام في كتابه الصناعتين قبل أن يجمع المرحوم السيد الرضى نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٦١).

اسْكُتْ قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ ضَيْئًا شَخْصُكَ، خَفِيًّا صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمَتْ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ.

الشرح والتفسير: صه يا أحمق

فى بدايه الكلام أجبَر الإمام عليه السلام هذا الخارجى على السكوت. ثم ليعرفه جيداً الناس ذكر صفاته السيئه وسابقته البشعه، فقال:

«اسْكُتْ قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ».

كلمه «أثرم» التى تعنى الشخص الذى ضرب على فمه وكسرت أسنانه الإماميه إشاره إلى أن فمك واسنانك تشير إلى أن مخالفيك ضربوك لأنك بذيء اللسان، إضافة إلى ذلك فإن من كسرت أسنانه الأماميه لا يستطيع أن يتكلم بطلاقه والأفضل له أن يسكت.

ثم واصل ذكر ماضيه السىء فقال:

«فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ ضَيْئًا (١) شَخْصُكَ، خَفِيًّا صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمَتْ (٢) نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ (٣)».

إشاره إلى أنك لم تحضر ولم تدافع عن الحق عند ظهور الإسلام حين بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أو ظهور ولايه الحق لأميرالمؤمنين على عليه السلام بل كنت شخصاً ضعيفاً لا يكثرث لكلامك، أما الآن وقد صدع صوت الباطل فقد انضمت إليه لتطلق ذلك الشعار عن حماقه وجهل، ويتضح من خلال تأمل سوابق هذا الرجل ومن شاكلة

ص: ٩١

١- (١). «ضئيل» من ماده «ضئوله» على وزن «كهوله» تعنى النحيف المهزول.

٢- (٢) «نجمت» من ماده «نجم» بمعنى الظهور والبروز ويقال للكواكب نجوم كونها تظهر فى السماء.

٣- (٣) «ماعز»، الشاه.

العقيدة والظروف التي كانت سائده آنذاك أنّ هذه المواجهه العنيفه من قبل الإمام عليه السلام والعبارات المحقره له كانت غايه فى الحكمه، ولولا ذاك لكان يخشى انخداع الأفراد السطحيين بزيف ذلك الشعار.

والخوارج فنه سطحيه متعصبه جاهله خلقت العديد من الإرباكات للمجتمع الإسلامى. كما أنّ قسوتهم وغلظتهم فاقت الوصف فى تاريخ الإسلام، ولحسن الحظ فقد تعرفت عليهم المجتمعات الإسلاميه طيله التاريخ فاقصتهم عن الساحه ولعل هنالك القليل من سليليهم والذين لا يتظاهرون وبذلك العقيدة الباطله.

تأمل

من هو بُرج بن مُسهر؟

اعتبر ابن أبى الحديد برج بن مسهر أحد شعراء الخوارج الذى ينتمى إلى يعرب بن قحطان؛ إلّا أنّ البعض يعتقد أنّ برج بن مسهر الشاعر هو شخص آخر، عاش فى العهد الجاهلى (ويحتمل أنه أدرك ظهور الإسلام) وقد روى أبو تمام أبياتاً من شعره فى الحماسه(١).

وبرج بن مسهر الطائى الخارجى الذى حقره الإمام عليه السلام شخص مجهول لم يرد اسمه فى كتب الرجال المعروفه، ويؤيد ذلك عباره أمير المؤمنين عليه السلام حين خاطبه بأنك شخص ضئيل ومجهول ولا قدره لك على الكلام.

ص: ٩٢

يَحْمَدُ اللَّهَ فِيهَا وَيُثْنِي عَلَى رَسُولِهِ وَيَصِفُ خَلْقًا مِنَ الْحَيَوَانِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تعدّ هذه الخطبه من الخطب الجامعه فى نهج البلاغه والتي تسهب فى المعارف الدينيه وتتكون فى الواقع من ستة أقسام، فى القسم الأول - وعلى غرار أغلب خطب نهج البلاغه - جرى الكلام فى حمد الله والثناء عليه وذكر أسمائه وصفاته بعبارات غاية فى الدقه والروع.

وتطرق القسم الثانى إلى رساله الرسول صلى الله عليه وآله ومشاريعه العمليه.

وركز فى القسم الثالث على خلق بعض الأحياء كنموذج حى لآيات علم الله وقدرته سيما بشأن النمل وخلق السماوات والأرض والشمس والقمر.

وخاض - فى القسم الرابع - فى نتائج ما قيل ليكشف عن عظمه الخالق التى تقف وراء هذه المشاهد العجيبه وحذر أولئك الذين يرون هذه الآيات وينكرونها عملياً.

ص: ٩٣

١- (١) سند الخطبه: ذكر هذه الخطبه جمع من الأعلام ممن عاش بعد السيد الرضى كالمرحوم الطبرسى فى الاحتجاج والزمخشرى فى ربيع الأبرار بالإضافة إلى آخرين ويتضح من الاختلاف بين ما ذكره وما ذكره السيد الرضى أنهم رووها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٦٧).

وتطرق فى القسم الخامس ثانىه إلى خلقه كائن عجب آخر هو الجراده وخاض فى جزئيات خلقه.

واختتم الخطبه فى القسم الأخير ليخلص فى نتيجه جامعه لينهى خطبه ببحث كلى بشأن نظام الخلق وعظمه الخالق وخضوع جميع المخلوقات لذاته القدسيه.

جدير ذكره أن تنظيم الخطب هنا يخلت فى أغلب شروح نهج البلاغه؛ فقد ذكر البعض هذه الخطبه بالرقم ٢٣١ (مثل ابن أبى الحديد وفيض الإسلام) بينما ذكروا بدلاً من هذه الخطبه التى وردت بالرقم ١٨٥ فى نسخه صبحى الصالح خطبه همام؛ والبعض بالرقم ٢٢٧ (مثل نسخه بنياد نهج البلاغه وشرح ابن ميثم).

وذكرها المرحوم الشارح الخوئى بالرقم ١٨٤؛ ولكننا - كما يعلم الإخوه القراء - نتبع نسخه صبحى الصالح.

ص: ٩٤

إشارة

الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاطِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَابِرُ، الدَّالُّ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَاشَبَهُ لَهُ. الَّذِي صَدَقَ فِي مِعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلَتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لَا يَبْعُدُ، وَدَائِمٌ لَا يَأْمِدُ، وَفَائِمٌ لَمَّا بَعَمِدَ. تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهِيَانُ لَابِمُشَاعَرِهِ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَابِمُحَاضِرِهِ. لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهِيَامُ، يَلُّ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِجِدَى كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النَّهَائِيَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيمًا، وَلَا بِجِدَى عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْعَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيمًا؛ بَلْ كَبَّرَ شَأْنًا، وَعَظَّمَ سُلْطَانًا.

الشرح والتفسير: معرفه الله الحقيقيه

ما أن استهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله والثناء عليه حتى خاض في صفاته التي تنفي عنه الجسميه والحدوث والشبيه والمثيل فقال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاطِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَابِرُ».

فما جاء في هذه الصفات الأربع أمور تنفي أي شائبه جسميه عن الله تعالى، فلا عين تراه ولا حواس تدركه ولا مكان يحويه ولا شيء يخفيه.

«شواهد» جمع

«شاهد» بمعنى الحس و

«مشاهد» جمع

«مشهد» بمعنى

مكان الحضور والظهور.

«نَوَاطِرُ» جمع

«نَاطِرَةٌ» قوه البصره و

«سَوَاتِرُ» جمع

«سَاتِرَةٌ» بمعنى الستر وكل ما يستر الأشياء.

فالصفات المذكوره والمقتبسه فى الواقع من القرآن الكريم فى عدد من الآيات تبطل عقيدته المجسمه (الفرقه التى تقول بجسميته الله) وتكشف مدى بعد أصحابها عن التعاليم الإسلاميه.

ثم أشار عليه السلام إلى صفات أخرى ومنها صفه الأزليه وتنزيهه عن كل شبيه ومثيل فقال عليه السلام:

«الدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَاشِبَهُ لَهُ».

تستند هذه الأدله الثلاثه إلى هذه النقطة وهى استحاله مضى سلسله العلل ومعاليل العالم إلى مالا نهايه، لأن التسلسل باطل، وعليه فحدوث الموجودات دليل على وجود العله الأنزليه والأبديّه التى ينبع وجودها من ذاتها؛ فالكل حادث وهو القديم، والكل مخلوق وهو الخالق، لأن ذاته الطاهره لا متناهيه من جميع الجهات فليس له شبيه ولا مثيل، لاستحاله وجود وجودين لا متناهيين من جميع الجهات ذلك أن كلما منها يحد الآخر أميا المخلوقات المحدوده من جميع الجهات بما فيها الزمان والمكان إنما تعددت أشباهها وأمثالها.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفتين من صفات الذات وهما تعدان من صفات الفعل فقال:

«الَّذِي صَدَقَ فِي مِعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ».

نعم، فليس فى وعوده غير الصدق، ذلك لأن التخلف فى الوعد إما يعزى إلى العجز أو إلى الجهل أو الحاجه (مثلاً يعد الإنسان ثم يعجز ويتخلف عمياً وعد بعد القيام به، أو يعد ثم يفهم لاحقاً ما كان ينبغى عليه أن يعد مثل ذلك أو يعد ويرى أن خلف الوعد لصالحه) ومن الطبيعى أن أياً من الصفات الثلاث؛ العجز والجهل والحاجه ليست لها من سبيل إلى الذات القدسيه ومنها يستحيل عليه خلف الوعد.

وأشار في بيانه للصفة الثانية إلى سمو مقام الله عن الظلم، وهو ذات الأمر الذي يفرزه العجز والجهل أو الحاجة.

ثم ركز عليه السلام على جانبين من جوانب عدله أحدهما في عدم التمييز والآخر العدل في القضاء والعقاب والثواب، وعليه فالعبارات الثلاث

«وَأَرْتَفَعَ عَيْنَ ظُلْمِ عِبَادِهِ» «وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، «وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ» تشير جميعها إلى عداله الله ونفى الظلم عنه في مختلف الجوانب.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفات أخرى من صفات الجمال والجلال فقال:

«مُسْتَشْهَدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ».

فقد قال الإمام عليه السلام في العبارة الأولى: إنَّ الله قد جعل حدوث الأشياء دليل على أزلتيته، ذلك لأننا نرى في هذا العالم مجموعه من الموجودات تنتهى إلى علل سابقه بصيغه سلسله من العلل والمعاليل، فهل يمكن أن تستمر سلسله العلل والمعاليل إلى مالانهايه؟ وكلَّ علَّه معلوله لآخر وبعباره أخرى هل نقبل تسلسل العلَّه والمعلول إلى مالانهايه؟

الجواب عن هذا السؤال بالسلب قطعاً، لأنَّ مفهوم ذلك أنَّ المالانهايه تتطلب التبدل إلى موجود غنى، أو بتعبير آخر تتبدل مالانهايه الصفر إلى عدد، وعليه فإننا ندرک من حدوث الأشياء وجوداً أزلياً ووجوده من ذاته وهو واجب الوجود.

وأشار في العبارة الثانية إلى حقيقه هي أنَّ في جبين كلِّ موجود علامه على العجز، فالأعمار والقدرات والاستعدادات كلَّها محدوده، وهذا العجز يكشف أنَّ وراءها يد القدره المطلقه التى أفاضت القدره على كلِّ شىء بالمقدار الذى تطلبتة حكمتة.

وجرى الحديث في العبارة الثالثه عن فناء الكائنات، وهو الفناء الذى يسير طواعيه وقد كمن لها الموت بالمرصاد شئت أم أبت، ومن الواضح أنَّ هذه الكائنات الفانيه ليست خالقه لنفسها كما أنَّ وجودها لا ينبع من ذاتها وإلَّا لما آلت إلى الفناء،

وعليه فهناك قدره تفوقها أزليته وأبديته والكلّ مستند في وجوده إلى الذات المقدسه، والذي نود بيانه هنا أنه ما الفارق بين العبارة

«مُسْتَشْهَدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ» والعبارة السابقه

«الدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ؟» فهل العبارتان تفيدان اثبات أزليه الله عن طريق حدوث الموجودات؛ أى أنها صفة وضحت بعبارتين أم أنّ لكلّ منهما مفهوماً مستقلاً؟ طبعاً فصاحه وبلاغه الإمام عليه السلام تستلزم أن تختزن كلّ عبارة مفهوماً جديداً.

فلا- يستبعد أن تكون العبارة السابقه إشاره إلى الدلاله التكوينيّه والعبارة الأخيره إشاره إلى الدلاله التشريعيّه، أى كما يدل حدوث الموجودات على أزليّه الله بلسان التكوين ففى الآيات القرآنيّه وروايات المعصومين وردت مثل هذه الاستدلالات بعبارات مختلفه.

قال القرآن الكريم: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (١).

وقال فى موضع آخر: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ» (٢).

فالآيه فى الواقع إشاره لبرهان العليه الذى جاء فى الفلسفه لاثبات وجود الله وهو أنّ العالم الذى نعيش فيه حادث لا شك، فهل وجد هذا الحادث بدون علّه أم أنه علّه لنفسه أم أنه معلول لعله أخرى معلوله لعله أخرى أو مخلوق لله تعالى واجب الوجود؟ الذى وجوده فى ذراته ولا يبقى سوى الاحتمال الرابع بعد الإلتفات إلى بطلان الاحتمالات الثلاثه الأولى.

ثم ذكر الإمام عليه السلام ثلاث صفات أخرى من صفات الله تعالى فقال:

«وَاحِدٌ لِّابْعَدَدٍ، وَدَائِمٌ لِّابْتَدَادٍ، وَقَائِمٌ لِّابِعَمَدٍ».

والمراد من الواحد العددى الأشياء التى لها شبيه ومثيل وثانى وثالث ولكن لم يوجد إلّما فرد منها؛ كالشمس فى المنظومه الشمسيّه فهى واحده فقط لا غير ولكن لها ثان.

ص: ٩٨

١- (١). سورة الرحمن، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

٢- (٢) سورة طور، الآيه ٣٥.

فهذا المعنى لا- يصح بالنسبة لله تعالى؛ لأنَّ وجوده لا متناهٍ من جميع الجهات ويستحيل عليه التعدد، ولذلك فوحده الذات القدسيه ليست وحده عدديه، بل بمعنى انعدام الشبيه والنظير والمثيل لها، وهو ذات المعنى الوارد في سورة التوحيد: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» (١).

وبعبارة أخرى يمكن التعدد في الواحد العددي؛ لكنه يستحيل في الواحد الذاتي.

وأشار في العبارة الثانية

«دَائِمٌ لَأَبَآمِد» إلى أنَّ دوام وجوده سبحانه ليس بدوام زماني لأنَّ ذاته القدسيه تفوق الزمان والمكان بل المراد منه الدوام الذاتي.

ومفهوم العبارة

«قَائِمٌ لَأَبَآمِد» أنَّ قيامه بذاته؛ لا- بمساعده الآخر وبعبارة أخرى فإنَّ القيام ذو مفهوم مادي وهو وقوف الشيء على قدميه أو بالاستعانة بعمود، كما له مفهوم يفوق المادة وهو أنَّه وجود مدير ومدبر لعالم الوجود ودون الاستناد إلى شيء آخر وهذا هو معنى قائميه الله تعالى.

بعبارة أخرى فإنَّ جميع الموجودات تعتمد على ذاته القدسيه وهو قائم بهذه الذات.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته ليخوض في تلك الذات المطلقة إلى الحد الذي يسعه الفكر البشري فشرح الذات المقدسه بأسلوب رائع ضمن عبارة قصيره وعميقه المعنى بما يبعدها عن التشبيه ولا ينتهي إلى تعطيل المعرفه فقال:

«تَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَأَبْمُشَاعَرِهِ (٢) ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي (٣) لَأَبْمُحَاضَرِهِ (٤)».

ص: ٩٩

١- (١) أشرنا في شرحنا للخطبه ٦٥ في الجزء الثالث من هذا الشرح إلى حديث عميق المعنى والذي بينه أمير المؤمنين عليه السلام في رده على السائل الذي سأله عن وحدانيه الله تعالى، فذكر عليه السلام للواحد أربعة معانٍ يستحيل اثنان منهما على الله بينما يصح الآخران (راجع نفحات الولاية، ج ٣، ص ٤١).

٢- (٢) «مشاعره» تعني الإدراك بواسطة الحواس ومادته شعور بمعنى الاحساس.

٣- (٣) «مرائي» جمع مرءاء تطلق أحياناً على العين حيث تنعكس فيها صور الموجودات.

٤- (٤) «محاضره» بمعنى الحضور والمجالسه.

دليل واضح إشاره إلى أنّ آثار عظمته وقدرته وعلمه وحكمته التي ملأت العالم على وجوده؛ الوجود الكائن خلف حجب الغيب وما وراء الطبيعه وجعل كلّ شيء تجلياً لعلمه وقدرته.

وقال في مواصلته لكلامه عليه السلام:

«لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ (١) ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا (٢) بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا».

فالإمام عليه السلام طبق ما ورد أبطل مذهب التعطيل إلى جانب نفى التشبيه؛ أي أنّه حذر من مغبه خطأ أولئك الذين يزعمون أنّهم لا يفهمون من صفات الله تعالى سوى صفاته السلبيّه، إلى جانب أولئك الذين هبطوا بالله تعالى إلى درجه الممكنات فقالوا: له صفات محدوده وممكنه، فقد تحدّث من جانب عن تلقى الأذهان وتجلي الصفات ومن جانب آخر عن عدم احاطه الأفكار بالذات القدسيّه وصفاتها وينتج من ذلك أنّ لدينا علماً إجمالياً بالنسبه لذاته وصفاته سبحانه رغم عجزنا عن الاستغراق في تفاصيلها وجزئياتها.

ثم قال عليه السلام:

«لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النَّهَائِيَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبَّرَ شَأْنًا، وَعَظَّمَ سُلْطَانًا».

إشاره إلى أننا حين نقول:

«الله أكبر» إنّما يقتدح أحياناً إلى ذهن الأفراد غير المطلعين إلى أنّ أبعاده الوجوديه ملأت شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، وحين نقول:

«الله عظيم» يتصورون أنّه كذلك بالنسبه لسائر الموجودات كالجبال والبحار والسموات، والحال ليس لكبره وعظمته من بعد جسمي، بل كبره وعظمته معنوي،

ص: ١٠٠

١- (١). «أوهام» جمع «وهم» على وزن «فهم» تعني لغوياً ما يخطر على القلب ولكن تشير القرائن إلّا أنّها وردت في هذه الخطبه وسائر الخطب بمعنى الأفكار الخياليه.

٢- (٢) «تجلى لها» تعود الضمائر الست في هذه العبارة والعبارتين التاليتين إلى الأوهام ومفهومها في العبارة الأولى أنّ الله تعالى تجلى للعقول عن طريق الإدراكات العقليه وللأنظمة التي يراها العقل في عالم الخلقه وسلم عن طريق الإدراك العقلي باستحاله إدراك ذاته على العقول. وحوكم العقل بادعائه درك كنه ذاته من قبل العقل نفسه (عليك بالدقه). أمّا ما ذكره البعض من احتمالات أخرى لعوده الضمائر فلا يبدو صحيحاً.

لأنه إن كان الله جسماً كبيراً لاشتمل حتماً على أجزاء ونهايه وزمان ومكان بينما هو أسمى وأرفع من كل ذلك ويالها من كلمات رائعه تلك التي ساقها الإمام الصادق عليه السلام لذلك الشخص الذي قال عنده: الله أكبر، فسأله عليه السلام:

«أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟»، قال:

«مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

فأشار عليه الإمام عليه السلام:

«بِأَنَّكَ جَعَلْتَ لَهُ حُدُوداً فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ». فقال الشخص فماذا أقول: قال عليه السلام: قل:

«اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ»^(١).

إشاره إلى أننا لا نعدو صفات مخلوقاته في كل صفة نطبقها عليه ذلك لأن فكرنا محدود في الاستيعاب، وعليه فهو اسمى من كل الصفات وهذا ما أكده القرآن الكريم بقوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ»^(٢). (الذين يصفونه بما يليق به).

ص: ١٠١

١- (١) الكافي، ج ١، ص ١١٧، ح ٨.

٢- (٢). سورة الصافات، الآيتان ١٥٩ و ١٦٠.

إشاره

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ، وَإِضَاحِ الْمُنْهَجِ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعًا بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالًّا عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أُمْرَاسَ الْأَشْيَاءِ مَتِينَةً، وَعُزَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً.

الشرح والتفسير: الأبعاد الوجودية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفات الجمال والجلال خاض في الأصل الثاني للدين أي الشهاده بنبوه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فوصفه بتلك الصفات التي تكشف عن أبعاده الوجودية كافة فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -».

حقاً إنَّ الله تعالى إن اصطفى شخصاً واعتبره أميناً وارتضاه من خلقه فذلك لكمال إخلاصه وطهارته على جميع المستويات، فهذه العبارات إشاره إلى عصمه النبي صلى الله عليه وآله من الذنب والخطأ.

ثم خاض عليه السلام في الأهداف المتوخاه من بعثته صلى الله عليه وآله وتعاليمه فقال:

«أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ (١)، وَإِضَاحِ الْمُنْهَجِ».

وهكذا بين الإمام عليه السلام من خلال هذه العبارات الثلاث أهداف البعثة التي تتمثل في إتمام الحجّه وانتصار الحق على الباطل وايضاح سبيل السعاده. آنذاك تناول

ص: ١٠٣

١- (١) «فلج» بمعنى الظفر سواء في الاستدلال أو العمل.

المهام العمليّة للنبي صلى الله عليه وآله فقال:

«فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً (١) بِهَيَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالاً عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ (٢) الْإِسْلَامِ مَتِينَةً، وَعُزَى (٣) الْإِيمَانِ وَثِيقَةً».

فقد ورد الحديث بادئ الأمر عن الخوض في إبلاغ الرسالة بصورة كليه على غرار ما ورد في القرآن الكريم: «فَاصْبِرْ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» (٤).

ثم خاض في الجزئيات في أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله دعا الناس إلى جاده الصواب وعرض لهم علامات لسير على هذا النهج ونصب لهم مصابيح الهدى حتى لا- يضلوا الطريق في ظلمه الليل ولا يتخلفوا عن مواصلة السير، وبالتالي رسخ أسس الإسلام وشدّ عرى الإيمان بشرح وافٍ وتدير محكم.

وقلّما نجد كلاماً يستعرض هذا المطلوب بشأن أهداف النبي صلى الله عليه وآله وخطه في الدعوه بهذه العبارة القصيره والعميقه.

العبارة:

«جَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً» كأنه شبه الإسلام بالخيمه التي شدّت بحبال متينه من كلّ جانب إلى الأرض لتحول دون إقتلاعها من قبل العواصف وليست هذه الحبال سوى بعض الأمور من قبيل الجمعه والجماعه والحج والزكاه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد التي حفظت على الدوام بيضه الإسلام وذاذت عن كيانه، فالإسلام بخير ما طبقت هذه التعليمات الإسلاميه فإنّ ضعفت هيمن الأعداء على المسلمين.

والعبارة:

«وَعُزَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً» شبهت الإيمان بحبل له عدّه عقد لابدّ من التمسك بها للنجاه من قعر البئر أو الخلاص من المطبات، ومن الطبيعي أنّ هذه العقد

ص: ١٠٤

١- (١). «صادع» من ماده «صدع» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل الشقّ ولما كان شق الأرض يدعو إلى ظهور النباتات فإنّ الصدع يستبطن معنى الظهور والجهر.

٢- (٢). «أمراس» جمع «مرس» على وزن «مرض» يعنى الحبل.

٣- (٣) «عرى» جمع «عروه» بمعنى العقده.

٤- (٤) سورة الحجر، الآيه ٩٤.

إن كانت ضعيفه وخاويه فلا- يتعذر على الإنسان النجاه فحسب بل يشرف على سقوط خطير فهذه العقده هي فروع الإسلام وتعليماته في مختلف مشاريعه العباديه والاجتماعيه التي صرحت بها الأخبار والروايات، ومن ذلك ما ورد في الحديث النبوى الشريف أنه صلى الله عليه و آله سأل أصحابه يوماً:

«أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟» قالوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؟» وذكر البعض الصلاة أو الزكاه و... فقال صلى الله عليه و آله:

«بَلَى فِي ذَلِكَ فَضْلٌ، وَلَكِنْ أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالتَّبَعُضُ فِي اللَّهِ وَتَوَلَّى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَالتَّهَبُّ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ»(١).

طبعاً يمكن أن تكون المفاهيم الأخلاقيه التي أشارت إليها الروايات من قبيل التوكل والتفويض والتسليم والرضا والصبر واليقين وما شابه ذلك من عرى الإيمان وليست هنالك أى منافاه مع بعضها البعض الآخر.

ص: ١٠٥

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ١٢٦، ح ٦.

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النُّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلَيْهِ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ! أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَیْغِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصِيرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالنَّسْرَ! انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافِهِ هَيْئَتِهَا، لَاتَكَادُ تُنَالُ بِلَخْظِ الْبَصْرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُجْرِهَا، وَتُعَدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبُرْدِهَا، وَفِي وَرْدِهَا لِصِدْرِهَا؛ مَكْمُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا؛ لَا يُعْمَلُهَا الْمَنَانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْخَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَخَارِجِ أَكْلِهَا، فِي غُلُوبِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرِاسِيْفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا، وَلَقَيْتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعْنَهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَيَادِينِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّحْلِ، لِتَدْقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ. وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءً.

الشرح والتفسير: قدرته المطلقة في خلق الكائنات

عاد الإمام عليه السلام ثانيه إلى موضوع معرفه الله الذي استهل به خطبته وعرج فيها

على معرفه النبي صلى الله عليه وآله ليخوض هنا فى أدله اثبات وجود الله وعلمه وقدرته المطلقه، فحذر أولئك الذين ضلوا الطريق فقال:

«وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النَّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

إشاره إلى أمرين: أنه لو استعمل الفكر لا تضح آثاره عاجلاً على أعمال الإنسان؛ الأول التفكير فى عظمه قدره الله الذى خلق النجوم السماويه العظيمة ومليارات الكواكب فى المجره ومئات الملايين من المجرات بحيث لم يتضح لأحد سعه ملكه وعظمته، وكل ما نوره بشأن عظمه العالم إنما يقتصر على الأشياء التى لا تتجاوز دائره علمنا القاصر، ولعل كل ذلك لا يعدو ورقه شجره بلغت عنان السماء فى وسط غابه كثيفه، فالتفكير بهذا الشأن يجعل الإنسان خاضعاً لهذه القدره فيقبل على الله ويتعلق به قلبه فينير باسمه وذكره حياته.

والآخر التفكير فى النعم كونها ملأت وجودنا وهى متصله منذ لحظه انعقاد النطفه حتى ختام العمر؛ فقد سخر لنا لشمس والقمر والسماوات والأرض ومنحنا التصرف فى السحب والرياح والأمطار، فقد بسط نعمته فى كل مكان وجعل الجميع يتغذى على رزقه، والحق أن شكر النعمه المودع فى فطره كل إنسان يسوقه إلى معرفه المنعم.

ثم تساءل عليه السلام ترى ما العامل الذى يصد الإنسان عن السبيل ويسوقه إلى العذاب الأليم مع وجود كل هذه الدوافع القويه؟ فقال:

«وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةً، وَالْبَصَائِرَ مَدْخُولَةً!» (١).

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلى سببين رئيسيين، لأن المراد من القلوب العقول التى تتعطل عن المعرفه أثر الهوى والهوس وسائر الآفات، والمراد من البصائر عيون البصيره التى تطرح عليها حجب المعصيه والتعصب وحب الذات.

وبالطبع فإن هذه الأمور طارئه على أصل الخلقه بل الغفله والهوى والهوس

ص: ١٠٨

١- (١) «مدخوله» من ماده «دخل» على وزن «دغل» بمعنى الفساد.

والشهوة هي التي قادت إلى ذلك، فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة القصيره إلى موانع المعرفة والتي أفصح عنها القرآن الكريم بقوله: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١).

وقوله: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» (٢).

كما تضمنت العديد من الآيات القرآنية دعوه الجميع إلى تأمل أسرار الخلق والتفكر في قدره الله ونعمه عليهم يعودون عن هذا الطريق إلى جاده الصواب.

ثم ركز الإمام عليه السلام على بعض الكائنات العجيبه في هذا العالم بعد فراغه من بيان أسرار الخليقه بصوره كليه فقال:

«أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرٍ مَّا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيْبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى (٣) لَهُ الْعِظْمَ وَالْبَشْرَ! (٤)».

حيث أشار الإمام عليه السلام إلى سته أمور بشأن الحيوانات والحشرات الغايه في الصغر؛ الخلق المحكم، التركيب الصحيح، الإشتمال على الأذن والعين، والنظام الخاص في العظام والجلد، نعم فهذه الحشرات تتمتع بالأعضاء والوسائل كافه التي تحتاجها رغم صغرها فقد أفاض الله عليها بقدر جسمها وحاجتها ما أفاضه على بعض الحيوانات العظيمة كالفيل والجمل وبالطبع يبدو خلق هذه الكائنات الصغيره أعظم من تلك الكبيره لما فيها من دقه وظرافه عجيبه.

ثم خاض الإمام عليه السلام في مرحله أدق في تفاصيل مخلوقين صغيرين غالباً ما لا يكثر الإنسان لخلقتهم بعبارات رائعه، فقال بادئ الأمر بشأن النمله:

«انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافِهِ هَيْئَتِهَا، لَاتَكَادُ تُنَالُ بِلِحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُشْتَدِّكِ الْفِكْرِ».

ص: ١٠٩

١- (١) سورة المطففين، الآية ١٤.

٢- (٢) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

٣- (٣) «سوى» من ماده «تسويه» بمعنى التنظيم والترتيب.

٤- (٤) «بشر» جمع «بشره» بمعنى ظاهر جلد البدن وتأتى بمعنى الإنسان.

ثم قال عليه السلام:

«كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصِيَّبَتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى حُجْرِهَا، وَتَعِدُّهَا فِي مُسَدِّ تَقْرُّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرْهَا لِبَزْدِهَا، وَفِي وَرْدِهَا (١) لَصَدْرِهَا (٢)».

نعم، فهذا المخلوق الضعيف على درجه من الفطنه بحيث يعرف كيف يمارس حياته، فهو يتجول بهذه اليد والرجل الصغيره فى الجبل والصحراء ويتسلق الأشجار ويختار ذلك النوع من الطعام من بين مختلف الأَطعمه والذى ينسجم مع طبيعته ومزاجه ويجلب إلى عشه الحبوب من الطرق القريبه والبعيده فهو يختار حتى هذه الحبوب ويسلك بعض الطرق المتشعبه فى عشه كى لا يخلق بعض المتاعب لسائر جنسه فى الحركه والعبور ثم يضع هذه الحبوب فى مكان معين بغيه الحيلوله دون فسادها، ويعمد فى فصل الصيف بإلهام ذاتى ودون أن يرى فصل الشتاء - أى ولد فى تلك السنه - لادّخار بعض الحبوب والمواد الغذائيه التى يحتاجها فى المستقبل خشيه هطول الأمطار وتعذر الحركه فى فصل الشتاء فيلتقط ما يعينه على قضاء تلك المدّه.

ثم قال عليه السلام:

«مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا؛ لَا يَغْفُلُهَا الْمَنَّانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ (٣)، وَلَوْ فِى الصُّفَا (٤) الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! (٥)».

أشار إلى أن الله سبحانه وتعالى قد عمّ لطفه هذه الموجودات الصغيره التى تعيش فى الجبال والصحارى والسهول فزودها بالطعام الذى يلائم طبيعتها وقد وفر لها ما تحتاجه من غذاء ورطوبه لازمه عن طريق الهواء حتى وإن كانت تعيش فى جوف صخره صماء، والهمها قدره التزود بالطعام لتلك التى تفتقد فيها هذه القدره وهذا حقاً ما يذهل العقول.

ص: ١١٠

١- (١) «الورد» بمعنى العطش وهنا كناية عن القدره.

٢- (٢) «صدر» الرجوع بعد الورود وهى هنا كناية عن العجز والفقدان.

٣- (٣) «ديان» بمعنى المفيد والحاكم والمدبر.

٤- (٤) «صفا» بمعنى الحجر الأملس لا شقوق فيه.

٥- (٥) «جامس» جامد.

هل تدرى هذه الحشرة أنه يتعذر عليها الخروج من عشها في بعض أيام الشتاء؟ وهل تفهم المقدار الذى تحتاجه من المواد الغذائية فى تلك المدّة؟ وهل تعى طبيعه المواد التى يمكن أن تبقى سالمه أو فاسده خلال هذه المدّة؟ وهل تعلم أين هذه المواد وكيف يجب عليها الحصول عليها؟

نعم، إنها تعرف كل ذلك بعد أن علمها خلقها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى البنيه العجيبه لهذا المخلوق الحى الصغير فقال:

«وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلوِّهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَّاسِيفٍ (١) بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا، وَلَقَيْتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا!».

إشاره إلى أنّ الإنسان لو تأمل خلق هذا الموجود الصغير الذى لا يرى بسهولة لرآى عالمًا عجيبًا حقًا فذلك الرأس الغايه فى الصغر يضم العين والأذن والفم وقرنان كأنهما هوائيان تستفيد منهما فى الإرتباط بالعالم الخارجى وتحوى بطنها شىء أشبه بالمعدى والأمعاء واحاطت به أضلاع غايه فى الصغر والدقه كما لها أعصاب وعضلات ظريفه تتناسب مع حاجتها ويتولى دماغها الصغير إدامه حياتها المعقده، ولأرجلها مفاصل مختلفه ولكل مفصل وظيفه معينه على غرار مفاصل الحيوانات الكبرى.

ثم خلص الإمام عليه السلام ممّا سبق إلى هذه النتيجة فقال:

«فَتَعَالَى الَّذِى أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يُشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعْنَهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ».

فقد لفت الإمام عليه السلام فى هذه العبارة انتباه الجميع إلى موضوعين:

وهو أنّ الله سبحانه وتعالى خلق هذا الجسد الظريف على يد ورجل ظريفه تستطيع حمله بل أحيانًا تحمل حملاً ثقيلًا يفوق دفعه أضعاف وزنها، والغريب أنّها

ص: ١١١

١- (١). «شراسيف» جمع «شُرُوف» بمعنى الاضلاع التى تشرف على البطن.

تتسلق الحائط الأملس بهذا الحمل وتلتصق أحياناً بالسقف وتواصل طريقها وهو العمل الذى يتعذر على أى إنسان بطل القيام به، أضف إلى ذلك فقد خلق لها جهازاً عظيماً يناسب طبيعتها والذى عبّر عنه الإمام عليه السلام بالدعائم، وهذا الجهاز ليس ثقيلاً بحيث يحدّ من حركتها ولا خفيفاً وظريفاً إلى الدرجة التى لا تستطيع حفظ حياتها وما بجوفها.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمّة أخرى فقال:

«وَلَوْ ضَمَرْتِ فِي مِيدَاهِ بِفِكْرِكَ لَتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلِ هُوَ فَاطِرُ النَّحْلِ، لِذَقِيقِ نَفْصَةِ يَلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ».

أى لا تعتقدوا أنّ بنيه كائن كبير كالنحلة الضخمة أعقد من بنيه موجود صغير كالنملة، لأنكم إن نظرتم بدقّه فإنّ لكليهما بنيه غاية فى التعقيد والدقّه وتحكم كلّ منهما قوانين معينه وتبدو عليهما الهدايه الإلهيه منذ الولادة حتى الممات بالإضافة إلى أنّ لتلك الشجرة الكبيره أعضاء مختلفه صغيره وكبيره وقويه وضعيفه بحيث يؤدّى كلّ منهما وظيفه معينه تناسب معه (وعلى هذا الضوء تتضح علاقه العله والمعلول فى العبارات المذكوره).

وزبدته الكلام إنّ الإنسان يرى أحياناً آثاراً مختلفه من حيث الصغر والكبر لصانع اساعه التى لا يعدو حجمها ساتيماً واحداً وأخرى التى تبلغ بضعه أمتار، أو كتاب من بضع صفحات وآخر ذو عشره أجزاء، فإنّ الإنسان حين يقارنها مع بعضها ويرى وحده الأصول الكليه السائده فيها ويقف على انسجام الآداب التى ضمها ذلك الكتاب الصغير وذلك الكبير يفهم أنّ هذين الأثرين يعودان إلى مصدر واحد وأنّ الذى أبدعهما واحد أيضاً.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمّة أخرى لمواصله كلامه السابق فقال:

«وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ».

إشاره إلى أنّ الصغير والكبير والبسيط والمعقد إنّما يتصور بالنسبه لموجود

محدود القدره ويمتنع عليه ما كان خارجاً عن استعداده ويصعب عليه ما كان بمنتهى استعداده ويسهل عليه ما كان دون قدرته، أمّا الله تبارك وتعالى اللامتناهى القدره فالجميع لديه على حد سواء، فلا فرق عنده بين تسيير المنظومه الشمسيه وتسيير ذره من الغبار، وخلق نملة غايه فى الصغر مع خلق شجره غايه فى الضخامه.

وحمل حبه قمح بالنسبه لنمله يفرق عما عليه فى حمل حبتين، فلعل حملها للأولى يبدو سهلاً بينما يشقّ عليها حمل الثانيه والحال لا نشعر نحن البشر بأدنى فارق بين الحالتين.

كما أننا نستطيع فى تصوراتنا الذهنيه أن نتصور قطره ماء كما نستطيع بنفس البساطه تصور بحر متلاطم من المياه.

لعل هذه الأمثله تستطع إيضاح عمق البحث الذى ذكرناه بشأن قدرته المطلقه سبحانه.

تأمل

حياه النمل العجيبه

رغم أنّ طبيعه النمل بفعل كثرتها وتنوعها وتواجدها فى الجبال والصحراء وداخل البيوت بحيث لا تحضى باهتمام عامه الناس، لكنها تبدو عجيبه للغاية بالنسبه للعلماء الذين فكروا لأكثر من عقدين بشأن حياتها فالدراسات التى أجريت بشأن أسرار خلقه هذه الكائنات فتحت الباب على مصراعيه أمام الوقوف على عظمه الخالق ونشير هنا إلى جانب من تلك الدراسات:

١. إنّ الحيوانات والحشرات التى تعيش بصوره جماعيه ليست بالقليله من قبيل:

الطيور والأسماك والغزلان بينما قليله هى الحيوانات التى تستند حياتها الجماعيه على أساس تقسيم الوظائف والأعمال وأبرزها النمل فلإناث النمل وظيفه جمع

الطعام وحفظ الفراخ وحتى حراسه ملكه النمل فى عشها، ووظيفه الذكور تلقيح الملكه كما أنّ وظيفه الملكه وضع البيوض، والغريب فى الأمر أنّ الذكور تموت بعد التلقيح، وهنالك طائفه منها تبدو كمجموعه مسلحه لها مجسات قويه تنبرى للدفاع بها عن نفسها وصد هجمات الأعداء على لاعشاش.

٢. تقوم العاملات بوظيفه ثقب الأرض وايجاد حفره بالتدريج لتوفر لبقيتها الحياه تحت سطح الأرض إلّا أنّ جميع النمل لا يعيش تحت الأرض فهنالك طائفه منها التى يطلق عليها «النجاره» تعتمد إلى ثقب الأخشاب لتصنع أعشاشها بداخلها

٣. تملك النمله - على الرغم من صغرها ودقّه هيكلاها - جميع الأجهزه التى يملكها الحيوان الكبير بل لديها ما يفوق تلك الحيوانات من قبيل: الأرجل الإضافيه والمجسات التى تمكنها من التعرف على الوسط الذى تعيش فيه.

٤. هناك نوع من النمل يتعدى على بعض الأحياء ومن ذلك النمل المعروف بالحنطى والذى يخدمه البرغوث النباتى، فهذه الحشرات تفرز سائلاً حلوّاً كالعسل يتغذى عليه النمل، كما يستفيد سائر النمل من بعض الحشرات التى تضع بيوضها على قشور الأشجار.

٥. إذا لا يعترىكم العجب فإنّ بعض النمل يمارس الزراعه، فهناك نوع من النمل يدعى المظلى حيث يرتب مزرعه صغيره حول أعشاشها ويزرعها بالفطريات الصغيره وتقوم العاملات بفصل قطع صغيره من الأوراق وتضعها على رأسها فتبدو وكأنها مظلّه وهذا سبب التسميه.

٦. هنالك نوع من النمل يدعى بالحرس الذى يتنقل كالبدو من مكان إلى آخر، وهو فى الواقع حشرات مفترسه تتجنبها حتى الفيله وإلّا كبدتها خسائر جسيمه، وطائفه من هذه الحشرات التى تعيش فى المناطق الحاره تأكل اللحوم، فإن هاجمت حيواناً افترسته ونهشت لحمه وعضلاته ولا تبقى منه سوى العظام وخلال مدّه وجيزه.

٧. للنمل عادة رأس كبير وخصر نحيف وجثته قويه فهي قادره على حمل الحبوب التي تعادل بضعه أضعاف وزنها وتتسلق الجدران التي لا يقوى على تسلقها الأبطال من حملة الأثقال، نعم فالنملة وخلافاً لجثتها الصغيره تحمل ما يبلغ عشره أضعاف وزنها وتنقله من مكان لآخر.

٨. نظره النمله للمستقبل وإدارتها رائعه جداً، فهي تفكر فى الصيف بمؤونه الشتاء والحال ربّما لم تكن شاهدت الشتاء طيله عمرها، فتلتقط الحبوب وتخرجها أحياناً من عشّها لكي لا تفسد، وأحياناً أخرى تشطرها نصفين حتى لا تخضر وتنمو.

٩. للنمل خبره عجيبيه بالمكان فقد ذكر العلماء أنّهم جعلوا نملة وسط دائره من النار فحاولت الخروج ولم تستطع حتى ماتت وكان ذلك فى مركز الدائره، أى أبعد نقطه عن النار.

١٠. ذكر العلماء أنّ النمل أنواع ربّما يتجاوز الأربعة آلاف وأنّ عدده على الأرض عشره أضعاف عدد الناس، وتفيد المطالعات الحديثه أنّ النمل سبق الإنسان فى التغلب على مشكله الازدحام، فملايين النمل تتخذ أقصر الطرق لتبلغ مقصدها بأسرع وقت ودون أى تأخير.

إنّ عجائب عالم النمل ليفوق ما ذكرناه وقد سطرت العديد من المقالات والكتب بهذا الشأن، ومن هنا تتضح أهميته المسأله التى ركز عليها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه من شرحه لخلق الله سبحانه(١).

ص: ١١٥

١- (١) راجع دائره المعارف لموريس باركر وحياه الحيوان للدميمى.

وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ. فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللَّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدَّرَ، وَجَحِيَ دَ الْمِيدِبِرُ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ؛ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّتِهِ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقِ لِمَا أُوْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ!؟

الشرح والتفسير: نظره إلى كائنات السموات والأرض

تحدث الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبه عن عجائب خلق النمل وبغية دفع التوهم بأن العجائب التي تسلب العقول وتخطف الأبصار ربما تنحصر في هذه الموارد صرح مباشرة بأن تأمل مواضع هذا العالم الواسع في أرضه وسمائه إنما ينطوى على مثل هذه العجائب أيضاً، فركز الإمام عليه السلام هنا على ست عشره ظاهره عجيبه في هذا العالم من السماء والأرض إلى بعض الأمور المرتبطه بالإنسان فقال:

«وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ».

وواصل كلامه قائلاً:

«فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ (١) وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللَّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ».

ص: ١١٧

١- (١) «القلال» جمع «قله» بمعنى قمه الجبل.

فقد طرح الإمام عليه السلام هنا سلسله من الموجودات المتنوعه فى هذا العالم لكلّ منها مميزاتا عجيبه وخصائصها الجمّه، والمراد من السماء مجموعه العالم العلوى من الثوابت والسيارات إلى المجرات وعليه فالشمس والقمر فى الجملة القادمه من قبيل ذكر الخاص بعد العام وأنا لنعلم أنّ السماء بهذا المعنى تنطوى على خلقه غاية فى الدهشه كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

المراد من الهواء هو ذلك الهواء المحيط بالكره الأرضيّه، الأكثر حيويه من كلّ شىء والأكثر من كلّ شىء.

والرياح (جمع ریح) والتي له عدّه وظائف فى تسيير عجله حياه الإنسان والكائنات الحيه فهى تسوق السحب والغيوم إلى الأراضى الجافه والقاحله فتخرج النباتات، وتبث الأمواج فى البحار وتزود الكائنات البحريه بالأوكسجين وتنقل الهواء الملوث من مكان إلى آخر وتبعث إلى المدن بهواء الغابات النقى.

والماء هنا بقرينه الرياح إشاره إلى نزول الأمطار التى تبعث الحياه كما ذكر ذلك القرآن الكريم: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» (٢).

ثم أمر الإمام عليه السلام بتأمّل مختلف كائنات هذا العالم من الشمس والقمر إلى النباتات والأشجار والمياه والأحجار (يبدو أنّ المراد من الماء الذى ذكر هنا إلى جانب الحجر هو العيون والأنهار الجاريه) واختلاف الليل والنهار إشاره إلى النظام الدقيق ذو النور والظلمه حيث يعقب كلّ منهما الآخر وينبثق من بركتهما الفصول الأربعة وتلك الليالى الساكنه والهادئه والأيام المفعمه بالحركه والتي أشارت إليها العديد من الآيات القرآنيّه.

العباره:

«وَتَفَجَّرِ الْبِحَارِ» يمكن أن تكون إشاره إلى ظهور البحار أو الحركه التى

ص: ١١٨

١- (١) سورة غافر، الآيه ٥٧.

٢- (٢) سورة الحجر، الآيه ٢٢.

تظهر تلك الأمواج العاتية ونعلم أنّ البحار مركز عجائب مخلوقات الله حيث ورد في دعاء الإمام السجاد عليه السلام:

«يا مَنْ فِي الْبِحَارِ عَجَائِبُهُ» (١) وأنها مصدر مهم للمواد الغذائية والمعدنيّة ووسيله مناسبه للنقل بصوره واسعه جدا ومصدر ظهور السحب وهطول الأمطار.

وكثره الجبال إشاره إلى عددها الجم والذى جعلها تبدو كدرع يحيط بالكره الأرضيه وتكسر الرياح العواتى وتحفظ بالسحب لسقى الأراضى وتمنح الأرض الهدوء والاستقرار إزاء عمليه المد والجزر الناشئه من الجاذبيه الأرضيه، كما أنّ سفوحها مرعى خصب للدواب والأنعام. كما أنّ استطاله القطعان تؤدى إلى ادخار المياه بصوره برّد أو حبات ثلج على سفوحها فتنحدر تدريجيا إلى الأراضى القاحله فتسقيها بالمياه، كما تسقى الإنسان والحيوان، قال القرآن الكريم: «وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» (٢).

وأشار الإمام عليه السلام فى النهايه إلى نقطه مهمه من حياه الإنسان والتى تتمثل فى اختلاف اللغات واللهجات وكثره الألسن، فكيف تعددت هذه اللغات وكيف كان لكل قوم لغتهم الخاصه مع أنّ الجميع ينحدر من ذات الأب والأم؟ فالآن هنالك أكثر من ألف لغه فى العالم بما فيها اللغات الرسميه والمحليه، وقد أفاض الله على الإنسان استعداداً لخلق اللغه بحيث تتمكن كل جماعه من اختراع لغه ووسيله للتفاهم بينها ولعل ذلك لكى تنحصر أسرارهم بينهم دون أن يطلع عليها الآخرون، قال القرآن الكريم: «الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» (٣).

وقال أيضاً: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ» (٤).

ص: ١١٩

١- (١). دعاء أبو حمزه الثمالى.

٢- (٢) سورة النازعات، الآيات ٣٠-٣٣.

٣- (٣) سورة الرحمن، الآيات ١-٤.

٤- (٤) سورة الروم، الآية ٢٢.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من استدلالاته الرصينه والمقنعه فى إثبات وجود الله أتجه صوب من ينكر وجود الله ليفند دعواه الواهيه بدليلين. (طبعاً قلما يرى فى القرآن ونهج البلاغه كلام بشأن الماديين ومنكرى الذات الإلهيه القدسيه، ذلك لأنهم كانوا قلّه قليله آنذاك وكان أكثر الناس ممن يعتقدون بالأديان والمذاهب).

فقال عليه السلام:

«فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدَّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ!».

إشاره إلى أنّ آثار التدبير فى أرجاء عالم الخلق كافه على درجه من الوضوح بحيث لا يستحق منكر مدبر العالم سوى الويل واللعنه.

ثم قال عليه السلام:

«زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ».

طبعاً هذه العبارة بسبب النظرة الساذجه التى يبديها الإنسان عادة تجاه العلف المهمل والحال من وجهه نظر عالم النبات أنّ كلّ ورقه منها هى دفتر من معرفه الله تعالى وقد توصل العلماء المعاصرون اليوم إلى أنّ آلاف الأنوع من هذا النبات يخترن العديد من الخواص الطبيه والعلاجيه ولكلّ منها بنيه معقده، الجذور والسيقان والأوراق والبذور كلّ منها تبدو أعجب من الاخرى، إذن يتّضح من تأملها أنّ لها زارعاً وخالقاً عليمًا وقديرًا.

ثم فند الإمام عليه السلام قولهم بدليلين: فقال أولاً:

«وَلَمْ يُلْجَأُوا (١) إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أُوْعُوا (٢)».

والدليل الثانى أنّ لكلّ بناء منظم ومبنى مرتب مهندس ومعمار فقال عليه السلام:

«وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَائِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ».

وتوجد اليوم العديد من الآثار والمباني هنا وهناك فى الكره الأرضيه وقد مرّت عليها آلاف السنين وحفظت كآثار تراثيه لما فيها من دقه وفنون وليس هنالك أحد

ص: ١٢٠

١- (١). «يلجأوا» من ماده «لجؤ» على وزن «غروب».

٢- (٢) «اوعوا» من ماده «وعى» على وزن «سعى» تعنى فى الأصل حفظ الشىء فى القلب ومنه الوعاء.

من عباد الله ولا أحد من الماديين من يدعى أنّ هذه المباني ظهرت بواسطة الأمطار والرياح والعواصف أو أنّها رتبت من قبل أفراد جهال من عديمي الخبرة عن طريق الصدفة، بل يجمع الجميع دون استثناء على وجود الباني لها صاحب العقل والشعور ويشيد بهندسته وفنه في البناء.

والعبارة:

«أَوْجِنَايَهُ مِنْ غَيْرِ جَانٍ» إشاره إلى أنه ليس فقط البناء بحاجة إلى علم وتدبير بل التخريب والجنايه المتعمده تحتاج إلى تخطيط الشخص العاقل الذي يتعين عليه انتخاب الزمان والمكان والوسيله وكيفيه ممارسه العمل لتحقيق الهدف.

ويستعان اليوم بذوى الخبرة والاختصاص فى هدم بعض المباني الضخمه بغيه تفادى وقوع العوارض الجانيه، وعليه فالبناء والهدم المبرمج كلاهما يحتاج إلى العقل والتدبير.

والدليل على هذا الكلام ما سيرد فى القسم القادم من هذه الخطبه وكلام الإمام عليه السلام عن الجراد وبنيته العجيبه وعمله التخريبي المنظم ضد النباتات.

تأمل

قيسات من برهان النظم

ما قاله الإمام عليه السلام فى العبارة الأخيره من هذه الخطبه:

«وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ يَانَ، أَوْجِنَايَهُ مِنْ غَيْرِ جَانٍ» إشاره لطيفه إلى البرهان المعروف ببرهان النظم الذى يعدّ من أهم الاستدلالات على معرفه الله.

توضيح ذلك: أننا حين نرد مبناً ضخماً ذا عدّه طبقات يحتوى على غرف متعدده، وصاله للاستقبال، ومطبخ وحمام، ومرافق صحيه، ومصاعد وحين ننظر إلى الجدران والسقوف المزينه بالمرايا الجميله والنقوش الظريفه الملونه ووسائل التكييف والتبريد ومد أنابيب المياه والغاز وخطوط الكهرباء والهاتف فنرى كلّ شىء منظم ومرتب.

فهل هنالك من أحد - مهما كانت درجته من العقل والشعور - يحتمل أنّ الصدفة الناشئه من الحوادث الطبيعيه المختلفه هى التى تقف وراءه؟ أم أنّ عدّه عمال أميين

ص: ١٢١

جمعوا مقداراً من مواد البناء فبنوا هذا البناء الرائع دون أن يكون لديهم أدنى فن أو خبره؟

قطعاً أنّ كلّ من يحتمل هذا الشيء إمّا أن يمزح أو أنّه فقد عقله، فالعقلاء كافه يحكمون بأنّ بعض الأفراد الأذكياء أعدوا خريطه مسبقه ثم تكاتف عدد من المهندسين البنائين المهرة والمختصين وذوى المهن المنزليه ليشيدوا معاً هذا المبنى.

ويصدق هذا الكلام على كلّ بناء وكل مصنع وكل كتاب علمي... ويعبر عن ذلك ببرهان النظم ويقال إنّ النظم يدل دائماً على عقل وشعور من يأتي به، وكلّما كان النظم أدق وأعقد كان صاحبه أوعى عقلاً وشعوراً وعلماً.

ولو تأملنا بنيه نمله والتي يمكن أن نقضى عليها لحظه واحده دون أن نلتفت إليها لوقفنا على أنّها أعظم وأهم من تلك المباني الشاهقه والضخمه، فبنيه الأرجل، ومفاصلها والأيدى والمجسّات والعين الغايه فى الصغر وجهاز الشامه القوى الذى يمكنها من الشمّ من مسافات بعيدة والفم والأمعاء وجهاز الهضم وسلسله الأعصاب والأهم من كلّ ذلك الدماغ الغايه فى الصغر والخارق للذكاء لكشف كلّ منها بمفرده خلقه من قبل خالق عالم وقدير.

أضف إلى ذلك فإنّ هذه الحشره الصغيره تتغذى وتنمو وتتجب بينما ذلك المبنى الضخم موجود جامد خالٍ من الروح لا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا ينجب.

والحقّ أنّ إيماننا ليتعمق بذلك الخالق القادر والعالم إن اتجهنا صوب بنيه الإنسان وأجهزته الغايه فى التعقيد كالقلب والدماغ والأعصاب وألوف الكيلومترات من الشرايين والأوعيه الدمويه التى تغذى كلّ لحظه جميع ذرات البدن.

أضف إلى ذلك فإننا نعلم أنّ العالم يحتوى على مئات الألوف من أنواع النباتات ومئات الألوف من أنواع الحيوانات والطيور والحشرات... ولكلّ منها قصته العجيبه والمذهله.

والقرآن المجيد جعل كلّ واحده منها آيه من آياته فقال: «سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (١).

ص: ١٢٢

وَإِنْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ فِي الْجَرَادِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حُمْرَاوَيْنِ، وَأَشْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحَسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَتَيْنِ بِهِمَا تَقْرُضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ. يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زُرْعِهِمْ، وَلَمَّا يَشِي تَطِيعُونَ ذَبَّهَا، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَأَيْكُونَ إِصْبَعًا مُسْتَدْفَةً.

الشرح والتفسير: صنع الجراد

يمكن تصنيف الحشرات إلى ثلاثة أنواع؛ الصنف الذى يخدم الإنسان كالنحل الذى يزودنا بالشهد وعامه النحل التى تنقل حبوب اللقاح وتنمى ثمار الأشجار.

والصنف الآخر الحشرات غير المؤذيه (ظاهرياً) التى لا تعود على الإنسان بالنفع ولا تصيبه بضرر، والصنف الثالث الحشرات التى تعدّ من الآفات مثل الجراد.

وقد أسهب الإمام عليه السلام فى الأقسام السابقه من هذه الخطبه فى عجائب خلقه النمل فى أنها وجودات خاليه من الأضرار غالباً ومجدّه ومثابره يمكن أن تكون نموذجاً للإنسان؛ لكنّه تحدّث هنا عن حشره تعدّ من وسائل العذاب الإلهي وبإمكانها أن تجهز جيشاً لتتجهم به على الحقول والمزارع ولا يسع قوه الحد من زحفها، وهكذا يفصح الله تعالى عن قدرته فى جميع الجهات ويرسخ لدى الإنسان شعور الخوف والرجاء.

فقال:

«وإن شئت قلت في الجراد (١)، إذ خلق لها عينيّ حمراوين، وأسرج لها حدقتين قمرأوين (٢)، وجعل لها السمع الخفي، وفتح لها الفم السوي (٣)».

وأضاف قائلاً:

(وجعل لها الحس القوي، ونايين (٤) بهما تقرض، ومنجلين (٥) بهما تقبض».

صرح بعض العلماء بأن الجراد حشره عجيبه يشبه كل عضو منها أحد الحيوانات، وبعبارة أخرى مع أنها تبدو حشره ضعيفه لكنها تشبه عشره حيوانات قويه، فوجهها كوجه الفرس، وعيونها كعيون الفيل ورقبتها كرقبة البقره، ومجساتها كقرني الضبي وصدورها كصدر الأسد وبطنها كبطن العقرب وأجنحتها كأجنحة العقاب وسيقانها كسيقان الجمل وأرجلها كأرجل النعامه وذيلها كذيل الحيه، وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلى سبع خصائص عجيبه فيها؛ كالعيون والأحداق والأذن الخفيه والفم والشعور القوي والأسنان الحاده والعضوين اللذين يشبهان منجلين على جانبي الفم (وسنعرض لها في التأمّلات).

ثم تطرق عليه السلام إلى الأخطار العظيمه لهذه الحشره التي تبدو ضعيفه فقال:

«يزهّبها الزرّاع في زرّهم، ولما يسدّ تطيعون ذبّها، ولو أجلبوا بجمعهم، حيتي تردّ الحزّث في نزواتها (٤)، وتفضي منه شهواتها. وخلقها كله لا يكون إصبعا مستدقه (٧)».

حقاً أنه لمن العجب أن كبار أبطال التاريخ كلما جهّزوا جيشاً لمقاومه هذه الحشره الضعيفه فشلوا في التخلص منها؛ فأسرّاب الجراد تظهر كقطع السحب

ص: ١٢٤

١- (١). «الجراده» من ماده «جرد» على وزن «فرد» بمعنى إزاله القشور ويبدو أن هذه المفرده اقتبست منها.

٢- (٢) «قمرأوين» تشنيه «قمرأ» من ماده «قمر» و «القمرأ» مفرده وصفيه تعنى المضىء.

٣- (٣) «سوى» بمعنى الكائن الكامل الذى لا عيب فيه.

٤- (٤). «نايين» تشنيه «ناب» السن الأمامى.

٥- (٥) «منجلين» تشنيه «منجل» كناية هنا عن أرجل الجراده أو أيديها القوسيه الشكل وتمسك بهما الأوراق والسيقان.

٦- (٦) «نزوات» جمع «نزوه» بمعنى الوثوب.

٧- (٧) «مستدقه» من ماده «دقه» بمعنى النحافه ومستدقه بمعنى نحيفه.

الكبيره فى السماء فتهجم بغمته على البساتين والمزارع الواسعه، فتلتهم خلال مده قصيره سيقان النباتات وأغصانها وأوراقها فتحيلها إلى أشجار عاريه جرداء من الأوراق والثمار.

ويستعان اليوم بالطائرات التى ترش المبيدات الحشريه وسائر الوسائل لمواجهة خطر هذه الآفه مع ذلك لم تحرز سوى بعض التقدم وفى بعض الأحيان، وإن كانت حملته الجراد قويه، فإن الوسائل المعاصره هى الأخرى تعجز عن مواجهتها.

تأمل

عجائب الجراد

إن إحدى الحشرات العجيبه هى الجراد، الحشره التى تبدو بصورة عاديه خاليه من الضرر والأذى حيث تعيش هنا وهناك فى المزارع والبساتين والوديان والجبال، ولكن ما أن تتلقى بعض الأوامر المشفره حتى تتكاثر بسرعه وتتطاير كأسراب عظيمه بمثابه السحب فى السماء لتحط على كل مزرعه وبستان فتحيله خراباً.

ويقول العلماء: إن بنيه هذه الحشره غايه فى التعقيد والدهشه ومن ذلك لها عينان مركبتان وثلاثه عيون بسيطه، وتتكون عيونها المركبه من أربعة آلاف قسم ولكل قسم بنيتة الخاصه وتشكل من جميع هذه العيون المركبه رؤيه واحده.

أما العيون الثلاثه البسيطه فتقع فى أعلى الرأس، ويتألف صدرها من ثلاث حلقات وبطنها من عشر حلقات تشبه بعضها البعض الآخر.

لها زوجان من الأجنحه زوج أمامى بصيغه مقوسه لا يستعمل فى الطيران ووظيفته حفظ أجنحه الطيران الظريفه التى تنطبق حين الاستراحه لتحفظ تحت الأجنحه الأماميه القويه.

وقد استطالت أرجلها الخلفيه لتساعدھا فى القفز والوثوب، تضع الجراده بيوضها فى فصل الصيف أو الربيع، حيث تخرج هذه البيوض بواسطه نوع من المواد

من ذيلها فتضعها فى ثقب من الأرض تصنعها بنفسها، وتمتاز صغار الجراد التى تتفقس عن البيوض بشده النهم والحرص فتأكل كل ما يصادفها فى طريقها، ومن هنا لابد من التعرف على موضع بيوضها من أجل مكافحتها والتصدي لصغارها قبل تفقيسها من البيوض.

والجراد أنواع وأقسام منه الجراد البحرى والجراد المراكشى والجراد الإيطالى الذى يسبب خساره للمزارع أكثر من غيره من سائر الأنواع، ومن عجائب هذه الحشره أنها تغير شكلها ست مرات منذ تفقيسها من البيضه إلى تكاملها كحشره قادره على الطيران. وتبدو أسراب الجراد على درجه من السعه بحيث تغطى آلاف الكيلومترات المربعه من السماء(١).

ص: ١٢٤

١- (١) انظر: الزلجى الحديث تأليف وترجمه محمد كاظم المالكى، ج ٢، ص ٣٢٩؛ قاموس معين، كلمه الجراد.

فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)، وَيُعْفِرُ لَهُ خَدًّا وَوَجْهًا، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سَلْمًا وَضَّحْفًا، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا! فَالطَّيْرُ مُسَيَّرَةٌ لِأَمْرِهِ؛ أَحْصَى عِدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفْسَ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدى وَالْيَبْسِ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهَذَا غُرَابٌ وَهَذَا عَقَابٌ. وَهَذَا حَمَامٌ وَهَذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بَرزُقِهِ.

وَأَنْشَأَ (السَّحَابَ الثَّقَالَ) فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

الشرح والتفسير: الله العظيم

بين الإمام عليه السلام في ختام الخطبه خلاصه عامه ليعتبر موجودات الأرض والسماء كآفه وأنواع الطيور والسحب والرياح مؤتمره بأمره سبحانه وتعالى فقال:

«فَتَبَارَكَ (١) اللَّهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) (٢)

، وَيُعْفِرُ (٣) لَهُ خَدًّا (٤)

ص: ١٢٧

١- (١). «تبارك» من ماده «برك» فى الأصل من «البرك» على وزن «الفرك» بمعنى صدر الناقه ولما كانت الجمال تلصق صدرها بالأرض حين الاستقرار فقد استعملت هذه المفرده بمعنى ثبات الشىء واستقراره ومنه البركه لبقاء الماء مدّه فيها، ويقال للشىء مبارك إن ثبت واستقر خيره، وعليه فإن استعملت هذه المفرده بشأن الله عنت كثره بركته وخلودها.

٢- (٢). سوره الرعد، الآيه ١٥.

٣- (٣) «يعفر» من ماده «عفر» و «عفر» على وزن «فقر» و «سفر» بمعنى التراب والتعفير بمعنى التمرغ بالتراب.

٤- (٤) «خد» تعنى فى الأصل الشق ثم اطلق على ما فى الوجه ووردت هنا بمعنى جانبى الوجه.

وَوَجْهًا، وَيُلْقَى إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سَلْمًا وَضَعْفًا، وَيُعْطَى لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا!«.

ربّما يكون السجود هنا إشاره إلى الخضوع الإرادى للذات الإلهية المقدّسه فاعله أصحاب العقول والذى يفهم من كلمه «مَنْ»، كما يحتمل أن يكون المراد من السجود الإرادى التشريعى والتكوينى، إستناداً إلى أنّ مفردّه «مَنْ» تشمل هنا ذوى العقول وغيرهم (أى لها حيثه تغليبيه كما فى الاصطلاح).

ويمكن أن تكون العبارة

«طَوْعاً وَكَرْهًا» إشاره إلى هذا المعنى، لأنّ السجود التشريعى قائم على أساس الإرادة، بينما ليست هنالك مثل هذه الإرادة فى السجود التكوينى، وعليه فربّما تكون إشاره إلى الطائفه التى تسجد مختاره لله والأخرى التى تسجد حين البلاء والشده كما ورد فى القرآن الكريم: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي يَوْمِ الْقُلُوبِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ»(١).

كما أنّ العبارة

«يُعْفَرُ لَهُ...» إن فسّرت بمعناها الحقيقى فهى إشاره إلى السجده الاعتياديه التى يضع فيها الإنسان جبهته على التربه، وإن فسرت بالمعنى المجازى فهى شامله للخضوع التشريعى والتكوينى.

كما أنّ العبارة

«يُلْقَى إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ...» وارده بهذا المعنى أيضاً فى أنّ طائفه من العقلاء يخضعون لله إنطلاقاً من الرغبه والاختيار والشعور بالضعف والعجز بينما تعيش الموجودات غير العاقله حاله التسليم لقوانين الخلق دون إرادته واختياره.

وتشير العبارة

«يُعْطَى لَهُ الْقِيَادَ...» إلى مرحله أبعد من مرحله الطاعه لأنّ الإنسان يسمع أمر المولى فى الطاعه فينهض ويباشر العمل، أمّا فى القيادة فهو يسلم نفسه لمولاه ليأخذه حيث يشاء.

ثم وذهب بعض اللغويين إلى التمييز بين «الرهبه» و «الخوف» فى أنّ الخوف يعنى مطلقه، بينما تعنى الرهبه الخوف المقرون بالاضطراب وضبط النفس.

ثم خاض الإمام عليه السلام ثانيه فى جانب من مخلوقات الله العجيبه هى الطيور التى

ص: ١٢٨

تمتاز حقاً بعالمها العجيب. فلا يقتصر الأمر على تحليقها إلى السماء باتجاه مضاد للجاذبيه الأرضيه فتنتقل هنا وهناك بسرعه فائقه، بل تمتاز بنيتها ببعض الأشياء المعقده من جميع الجهات والتي سنعرض إلى جانب منها فى ختام هذا البحث فقال:

«فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ».

والعبارة اقتباس من الآيه الشريفه: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (١).

ثم أسهب الإمام عليه السلام فى شرح هذه الطيور فأشار إلى بعض الأمور المهمه فقال:

«أَخْصَى عَدَدَ الرِّيشِ (٢) مِنْهَا وَالنَّفْسَ، وَأَرْسَى (٣) قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدى (٤) وَالْيَبْسِ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَخْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهَذَا غُرَابٌ وَهَذَا عُقَابٌ. وَهَذَا حَمَامٌ وَهَذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَّلَ لَهُ بَرَزِقَهُ».

أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات إلى أمور رائعه، فعدّ ريش الطيور من أغرب عجائبها فكلّ منها يشبه البرعم الجميل الذى غاصت جذوره بصوره سطحيه فى لحم بدنه وظهرت أغصانه وأوراقه بصوره منتظمه وتجمعت على بعضها بهيئه خاصه على جوانب الرأس والعنق والجناح والصدر وما أن يسقط أحد منها حتى ينمو آخر غيره فلطافتها عجيبه وألوانها أعجب.

ثم أشار إلى أقدامها فقد صممت بعضها لليابسه فهى قصيره ومحكمه، وأخرى للفائده عند حافات البحار والأنهار فهى طويله ومرتفعه وبرقبه طويله لتمكن الطائر من تناول طعامه من داخل المياه.

ثم تطرق عليه السلام إلى موادها الغذائيه حيث لكل حصته من الحبوب وما شابه ذلك

ص: ١٢٩

١- (١) سورة النحل، الآيه ٧٩.

٢- (٢). «الريش» معروف لدى الطيور وبما أنّ الريش غالباً ما يكون للزينة فقد اطلقت هذه المفرده على الثياب المزينه.

٣- (٣) «أرسى» من ماده «رسو» على وزن «رسم» بمعنى الثبات وأرسى بمعنى أثبت.

٤- (٤) «الندى» و «نداوه» بمعنى الرطوبه والبلل.

والطريف فى الأمر أن أياً من الطيور لا يملك أسناناً لقضم هذه الحبوب وبالمقابل زودت بمعده (والتي يطلق عليها اسم القانصه) والتي تمتاز بحراراتها الشديده فتفرز بعض السوائل التي تطحن الحبوب وتمتصها، وحيث لا تمتلك الوقت الكافى لالتقاط الحبوب خشيه مهاجمتها من مختلف الأعداء فقد زودت بعضو آخر هو الحوصله التي تشبه الكيس فتقوم عن طريقها بجمع سريع لتلك الحبوب ثم تهضمها وتمتصها.

ثم أشار إلى أنواع مختلفه ومتفاوته للطيور حيث لكل بيتته الخاصه وطريقته المختصه به كالغراب والعقاب إلى الحمام والنعام والتي انطوت على العديد من العجائب والغرائب بما يبهت الإنسان فتعالى الله الملك الحق الذى أبدع كل هذا الخلق.

ولعل العبارة

«دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ» تشير إلى هذا الموضوع حيث إنه سبحانه خلق كل طائر من هذه الطيور على ضوء ما أرادته من خصائص والواقع هذه دعوه تكويته مع مجموعه الخصائص التي عبر عنها بالاسم وشيبه تلك العبارة التي وردت فى القرآن الكريم بشأن خلق جميع الموجودات: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(١).

واختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى السحب التي تعدّ المصدر الأصيل بما تفيضه من مياه ضروريه لحياء جميع الموجودات فقال:

«وَأَنْشَأَ «السَّحَابَ الثَّقَالَ»^(٢)

فَأَهْطَلَ^(٣) دِيمَهَا^(٤)، وَعَدَدَ قِسْمَهَا. فَبَلَ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا^(٥)».

ص: ١٣٠

١- (١) سورة يس، الآية ٨٢.

٢- (٢) . سورة الرعد، الآية ١٢.

٣- (٣) . «اهطل» من ماده «هطل» على وزن «حتم» بمعنى تتابع المطر.

٤- (٤) «ديم» جمع «ديمه» مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق.

٥- (٥) «جدوب» و «جدب» على وزن «جم» بمعنى اليبس الناشىء من عدم نزول المطر.

وإننا لنعلم أن السحب على أنواع فهناك السحب المغطاه التي تخلو تقريباً من المياه وتلك التي تحمل قليلاً من الماء، والنوع الثالث السحب المتجمعه المليئه بالمياه والشديده الرطوبه وكأنها بحار علقت في عنان السماء وتكون عادة في الطبقات السفلى من الجو والتي عبّر عنها القرآن الكريم بالسحاب الثقيل فقال:

«وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ۖ سِيقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» (١).

تأمل

دروس عظيمه بعبارات قصيره

تعلمنا من هذه الخطبه عدّه دروس؛ ومن ذلك أن نتأمّل أسرار عظمه الله حتى في أصغر موجودات هذا العالم، فما أكثر الموجودات الصغيره والتي لا تبدو في ظاهرها مهمّه كالنمل والجراد بينما تختزن عجائب أسرار الخلقه، فما علينا إلّا أن نعيد النظر في رؤيه كلّ شيء وكأننا نراه لأول مرّه لنقف على عجائبه فنستدل من خلالها على خالقها الحكيم والقادر العليم.

جدير ذكره أن الأسلاف ذكروا بعض الأمور عن أسرار خلق الموجودات ولا سيما الحيوانات والتي لا تخلو من الأساطير والخرافات والحال ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه عن أسرار الخلقه يخلو تماماً من أى إغراق وخرافه واسطوره.

ص: ١٣١

١- (١) سورة الأعراف، الآية ٥٧.

فِي التَّوْحِيدِ وَتَجْمَعُ هَذِهِ الْخُطْبَةُ مِنْ أُصُولِ الْعِلْمِ

مَا لَا تَجْمَعُهُ خُطْبَةٌ (١)

نظرة إلى الخطبه

تحدّث الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عن صفات الله تعالى ليشير إلى أكثر من سبعين صفة حيث لم يلاحظ ذكر هذا العدد من صفات الجلال والجمال في أي من سائر الخطب.

والمواقع كشف الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عن قدرات تفكيره الربّاني في شرح وتوضيح أعقد المسائل العقائديه، فتطرق إلى تفاصيل صفاته تعالى الثبوتيه والسليّيه

ص: ١٣٣

١- (١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه أنّ السيد المرتضى (رحمه الله) قال: «إنّ شرح أصول التوحيد والعدل اقتبست من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه وكل ما قاله المتكلمون هنا هو شرح لهذه الكلمات». وأضاف: «إنّ الطبرسي ذكر هذه الخطبه مع اختلاف يفيد أنّه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغه، كما روى المرحوم الكليني قبل السيد الرضى بعض هذه الخطبه في الجزء الأوّل من اصول الكافي». (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٧٧) ومن جانب آخر فإنّ مضامين الخطبه على درجه من الرفعه والسمو بحيث يستحيل صدورها من غير الإمام المعصوم وحجّه الله وأننا لنعلم أنّ أحد أدله صحه استناد الروايات إلى المعصومين عليهم السلام هو علو مضمونها.

والإضافيه بنظام خاص ورائع، وما أحرانا أن نعدّ ذلك بمنزله سورة التوحيد - التي اعتبرتها بعض الروايات أنّها تعدل ثلث القرآن الكريم - في نهج البلاغه.

والخطبه في الحقيقه قسم واحد هو شرح أسماء الله وصفاته لكننا من باب المسامحه نقسمها إلى ثلاثه أقسام، قسم يتحدّث عن صفات الله الثبوتيه والقسم الآخر في صفاته السلبيه وقسم ثالث في قدرته تعالى في مسأله المعاد وعوده الناس إلى الحياه الأخرويه.

وبالتالى فإنّ كلّ من يتأمّل هذه الخطبه ليقطع بأنّ أحداً من الفلاسفه الإلهيين في الماضى والحاضر لم يقدموا مثل هذه الصوره الرائعه والدقيقه والجليه بشأن الله تعالى؛ حتى أنّ من يطلع على هذه الخطبه من غير المسلمين لا يملك إلّا الإشاده بقائلها.

ص: ١٣٤

مَا وَحَدَهُ مِنْ كَيْفِهِ، وَلَمَا حَقِيقَتُهُ أَصَابَ مَنْ مَثَلَهُ، وَلَمَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَمَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْدُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُومٌ. فَاعِلٌ لَابِاضِطْرَابِ آلِهِ، مُقَدَّرٌ لَابِجَوْلِ فِكْرِهِ، غَنِيٌّ لَأَبَشِيَّتَفَادِهِ. لَاتَضِيحُ حُبُّهُ الْأَوْقَاتِ، وَلَا تَرَفُّدُهُ الْأَدْوَاتِ؛ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وَجُودُهُ، وَالْإِتِّدَاءَ أَرْزُلُهُ. بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عَرَفَ أَنْ لَمْشَعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عَرَفَ أَنْ لَأَضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عَرَفَ أَنْ لَمَا قَرِينَ لَهُ. ضَادُّ النَّوْرِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحِ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودِ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورِ بِالصَّرْدِ. مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارَنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا.

الشرح والتفسير: أضواء مهمه في صفات الله

تشتمل هذه الخطبه الشريفه كما ورد سالفاً على مواضيع قيمه ومباحث هامه في علم الله والتي بينت بمنتهى الفصاحه والبلاغه وحسن الأسلوب وانسجام العبارات، فقد استهل الإمام عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى جانب من صفات الله السليبيه فقال:

«مَا وَحَدَهُ مِنْ كَيْفِهِ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ (١) مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ».

ص: ١٣٥

١- (١). «صمد» من ماده «صمد» تعنى أحياناً العظمه وأحياناً أخرى الصلابه والاستحكام كما تعنى الطهاره والتنزه وهذا هو المعنى المراد بها في هذه العبارة.

فقد أشار الإمام عليه السلام في أول صفه من صفاته السلبيه إلى مسأله نفى الكيفيه عن الله تعالى، تلك الحاله التي تعرض على الجسم المادى أو الموجود الروحانى وبما أن طرو العوارض دليل على المخلوقيه فإنّ الذات الإلهيه الطاهره لا تطرأ عليها الكيفيه كونها أزليه وأبديه.

ثم نفى الإمام عليه السلام عن الله فى الصفه الثانيه أى شبيه ومثيل، ذلك إن كان له مثل وكانت هذه المثلثه فى جميع الجهات لأصبح عينه، وإن كانت فى بعض الجهات لزم منها التركيب (تركيب ما به الاشتراك وما به الامتياز) والتركيب لا ينسجم مع كونه واجب الوجود، ذلك لأنّ كلّ مركب يحتاج إلى أجزاء ولا معنى للحاجه فى واجب الوجود، وبعباره أخرى تكون الأجزاء فى المرتبه السابقه للكل، وعليه إن كان واجب الوجود لكأن تلك الأجزاء، لا (الكل) المولود من تلك الأجزاء، ومن جانب آخر فإنّ الذى يلزم من الأجزاء التعدد والتعدد محال فى واجب الوجود، لأنّ واجب الوجود لامتناهٍ من جميع الجهات ويستحيل وجود لامتناهيين من جميع الجهات.

ونفى الشبيه فى الصفه الثالثه عن الذات القدسيه، فالذات اللامتناهيه من جميع الجهات لا شبيه لها (الفارق بين المثل والشبيه أنّ المثل يلاحظ فى جميع الجهات أو أكثر الصفات بينما الشبيه يمكن فى بعض الجهات).

وقال فى الصفه الرابعه والخامسه: من أشار إلى الله أو توهمه لم يعرفه، لأنّ الإشاره الحسيه دلالة على الجسميه والاشتمال على الجهه والمكان المنزه لله منها، وتوهمه يعنى جعل حدود لذاته اللامحدوده، وعلى هذا الأساس نقول ليس لأحد درك ذاته سبحانه وعلمنا به هو علم إجمالى فنقول مثلاً: الله خالق وخالق لهذا العالم.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين أخريين فقال:

«كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَغْلُوبٌ».

قلنا كراراً أنّ الله وجود لا-متناهٍ من جميع الجهات ولا يستوعبه فكرنا المحدود، ولهذا فهو أسمى من الخيال والقياس والظن والوهم، فإن قيل: فكيف نعرف الله؟ نقول: عن طريقين رئيسيين؛ الأول الإشاره إلى آثاره وأفعاله التي ملأت عالم الوجود وكلّما أمعنا النظر في شيء رأيناه إجمالاً- خلفه، والآ-خر عن طريق تحليل حقيقه الوجود التي تنتهى إجمالاً- بواجب الوجود والذي يصطلح عليه (برهان الصديقين) والذي أشير إليه في الأحاديث والأدعية بعنوان

«يا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ» وهو أيضاً علم إجمالى؛ لا-علم بكنهه وحقيقه ذاته الخارجه عن تناول جميع الأفكار بما فيها أفكار الأنبياء والأولياء.

كما توضح هذه النقطة أنّ كلّ شيء قائم بآخر سواء بصوره عرض عارض على ذلك الشيء أو بصوره وجود جوهرى متوقف عليه، على كلّ حال معلول آخر والله تعالى واجب الوجود ليس بمعلول؛ بل هو القيوم؛ أى القائم بذاته وقيام الآخرين به.

ثم أشار عليه السلام إلى أفعاله وتدبيره وغناه فقال:

«فَاعِلٌ لِّابَاضِطِرَابِ آلِهِ، مُقَدَّرٌ لَّا بِجَوْلٍ (١) فِكْرِهِ، غَنِيٌّ لِّابَاسْتِفَادِهِ».

لأنّ الشخص إنّما يستعين فى عمله بالوسائل والأدوات من حيث كانت قدرته محدوده ولا بدّ له من الاستفاده والاستعانه بتلك الوسائل ومن يحتاج فى تدبيره الفكر والمطالعه فإنّما يعزى ذلك لمحدوديه علمه وهذا ما يدفعه لزياده فكره ومطالعاته؛ أمّا من كان علمه وقدرته لامتناهين فهو غنى عن كلّ ذلك كما أنّ جميع الأغنياء غيره يصبحون أغنياء عن طريق كسب المال والمقام وأمثال ذلك من خارج وجودهم أمّا الله تعالى فهو الغنى بالذات.

قال تعالى فى القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» (٢).

ص: ١٣٧

١- (١) «جول» و «جولان» بمعنى الحركه فى كل اتجاه وجولان الفكر بمعنى التفكير.

٢- (٢) سوره فاطر، الآيه ١٥.

ثم واصل كلامه عليه السلام في بيان هذه الصفات فقال:

«لَا تَصِحُّهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَزْفِدُهُ (١) الْأَدْوَاتُ؛ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالْإِبْتِدَاءَ أَزْلُهُ».

العباره:

«لَا تَصِحُّهُ الْأَوْقَاتُ...» تشير إلى أن الزمان أمر حادث والله تعالى الأزلي والأبدي الذات لم ولن يقترن بالحوادث كما لم تكن الأدوات والآلات سنده ومعينه.

والفارق بين هذه العباره والعباره:

«فَاعِلٌ لِّابَاضِطِرَابِ آلِهِ» يمكن أن تكون في أن الكلام في العباره السابقه في أفعال الله التي لا تتطلب الآلات والأدوات؛ بينما تشير هذه العباره إلى عدم استعانتها بهذه الأدوات في بقاءه.

العباره:

«سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ...» في الواقع، شرح للعباره

«لَمَّا تَصِحُّهُ الْأَوْقَاتُ» لأننا حين نقرّ بأن وجوده أسمى من الزمان والمكان نخلص إلى نتيجة أنّ وجوده سبق الزمان وتقدم على العدم وأنّ أزليته مقدمه على كلّ بدايه.

وهنا يرد هذا السؤال، وهو أنّ الإمام عليه السلام قال: وجوده سبق عدمه والحال العدم ليس بالشيء الذي يسبقه وجود الله والجواب يمكن القول إنّ المراد من العدم هنا هو انعدام المخلوقات أي أنّ الله تعالى كان موجوداً حين لم يكن أي من الموجودات.

ويقال أحياناً هذه العباره كناية عن كون الله واجب الوجود لأنّ الذات الواجبه الوجود كائنه وستكون على الدوام وتتغلب على العدم ولا يعرض لها العدم بأي شكل من الأشكال.

وتشير العباره:

«وَالْإِبْتِدَاءَ أَزْلُهُ» إلى أنّ الذات الأزليه والأبديه أسمى من أن يكون لها ابتداء.

ثم خاض عليه السلام في صفات أخرى كلّ واحده منها أهم من الأخرى فقال:

ص: ١٣٨

«بِتَشْعِيرِهِ (١) الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَمْ شَعَرَ لَهُ»، لأنَّ وجود الحواس من لوازم المخلوقات الممكنه الوجود ويتنزّه عن ذلك واجب الوجود، أضيف إلى ذلك أنَّ الحواس من عوارض الموجودات، والعرض والمعروض شيان مختلفان بينما نعلم أن ليس للتركيب من سبيل إلى ذات الله.

بعبارة أخرى لقد دلَّ الله تعالى بخلقه الحواس لعباده أنَّ الاحساس والحواس عارضه ومنفصله عن ذات الأشياء، وهنا فهم العباد أن ليس له حواس لأنَّ ذاته ليست محلًّا للعوارض.

ثم قال عليه السلام:

«وَبِمُضَادَّتِهِ بَيَّنَّ الْأُمُورَ عُرِفَ أَنْ لَاضِدًا لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيَّنَّ الْأَشْيَاءَ عُرِفَ أَنْ لَأَقْرَبِينَ لَهُ» وتفسير هذا الكلام أنَّ وجودين متضادين يكونان قطعاً محدودين ولهما حالتان مختلفتان، والحال الذات الإلهية ليست محدوده ولا شيء عارض عليها، كما أنَّ الموجودين المقرونين محدودان ولهما عوارض مشابهه بينما الذات الإلهية لامحدوده من كلِّ الجهات وعاريه من كلِّ العوارض.

وواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى بعض المصاديق من الأمور المتضاده فقال:

«ضَادُّ النَّوْرِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحُ بِالْبُهْمَةِ (٢)، وَالْجُمُودُ بِالْبَلْبَلِ، وَالْحَرُورُ بِالصَّرْدِ (٣)».

طبعاً ينطوى هذا التضاد على فلسفه تتمثل في ايجاد التوازن وإزاله آثار السوء لكلِّ شيءٍ بآخر، فلو أشرقت الشمس على جانب من الكره الأرضية دائماً وغط الجانب الآخر منها في ظلمه دائمه لزلت الحياه عاجلاً؛ فالجانب الذى يتعرض إلى الشمس يحترق بفعل شدّه الحراره ويهلك، كما ينجمد ويزول ذلك الذى يعيش الظلمه: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ» (٤)؛ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ

ص: ١٣٩

١- (١). «تشعير» من «شعور» بمعنى العلم والمعرفة وتعنى هنا العلم بالشئ عن طريق الحواس.

٢- (٢) «بهمه» بمعنى السواد والليالى الظلماء والمعنى الأول هو المطلوب.

٣- (٣) «صرد» بمعنى البرد وقيل إنها مفردة فارسيه.

٤- (٤). سورة القصص، الآية ٧١.

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَا تَيْكُم بَلِيل تَسِي كُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» (١)؛ «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسِي كُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٢).

قد يقال هنا إنَّ الظلمه أمر عدمى وليس بالشىء الذى خلقه الله أو يكون مضاداً للنور.

وهو ذات السؤال الذى ورد فى الآيه الشريفه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» (٣).

ولكن بالإلتفات إلى هذه النقطة وهى أن ظلمه الليل وأمثالها ليست ظلمه مطلقه لتكون عدميه، بل ضعف شديد للنور ومن هنا حين تطفأ المصابيح فى الليل فجأه لا نكاد نرى شيئاً مطلقاً، ولكن بالتدرىح تعتاد عيوننا ذلك النور الضعيف فى جوف الظلمه فنبداً برؤيه الأشياء من حولنا، وعليه فالظلمه مخلوق من مخلوقات الله مضاده للنور.

ويمكن أن تكون العبارة

«وَالْوُضُوحُ بِالْبَهْمَةِ» إشاره إلى اختلاف الألوان وفلسفه ذلك تمييز الأشياء عن بعضها البعض الآخر، فالوضوح إشاره إلى الألوان الفاتحه والبهمة إلى الألوان الغامقه والقاتم، أو إشاره إلى الحالات شبه المضيئه وشبه المظلمه بين الطلوعين والغروبين. «وَالْجُمُودُ بِالْبَلْبَلِ» أشار إلى اليابسه والبحار والأشياء الجامده والمرطوبه والتى لكل منها فلسفته الوجوديه المختصه به.

كما تشير

«وَالْحَرُورَ بِالصَّرْدِ» إلى فصول السنه أو بصوره كليه الحراره والبروده والتى لكل منهما دوره فى حياه ورشد الكائنات الحيه.

ثم أشار عليه السلام إلى أربع صفات أخرى فقال:

«مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مَتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ

ص: ١٤٠

١- (١) . سورة القصص، الآيه ٧٢.

٢- (٢) سورة القصص، الآيه ٧٣.

٣- (٣) سورة الأنعام، الآيه ١.

مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَمَدِّنَاتِهَا». حيث تطرق الإمام عليه السلام إلى أمور غاية في الأهميه اعتمدها الله سبحانه وتعالى في تدبير عالم الوجود، فقد جمع في أغلب الموارد بين الضدين فربط بين الروح هذا الجوهر اللطيف الذي يفوق المادة مع هذا الجسم الترابي وجعل عدّه موجودات مختلفه إلى جانب بعضها البعض الآخر الأمر الذي نلاحظه في تركيب بدن الإنسان والحيوان والنبات حيث جعل عشرات الفلزات وأشباه الفلزات إلى جانب بعضها البعض الآخر ليخلق منها ذلك التركيب البديع، والعجيب أنه جعل الجاذبيه والتناقض بين الضدين كالقطب الكهربائي الموجب والقطب السالب وبين القطبين المتشابهين أوجد حاله من التنافر كما في القطبين الموجبين أو القطبين السالين كما جعل جاذبيه بين الجنس المذكور والمؤنث والتنافر بين المتجانسين.

وهكذا فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أقسام من موجودات العالم: قسم منها متضاد كالنور والظلمه والروح والجسم، وآخر متباين كأنواع النباتات والحيوانات المتباينه غير المتضاده وقد جعل الله بينها جميعاً نوعاً من الألفه.

والقسم الثالث تلك المتباعده وقد قربها الله كالأزواج من قومين منفصلين عن بعضهما البعض الآخر ويقترنان ببعضهما إثر الحبّ والمودّه.

وأخيراً القسم الرابع الأمور القريبه من بعضها ذاتاً، وقد ابعدها الله عن بعضها بتدبيره لهذا العالم مثل كرات المنظومه الشمسيه التي كانت مع بعضها البعض حسب النظرية المعروف ففصلها الله تعالى وخلق المنظومه الشمسيه.

رغم أنّ الأجزاء المركبه للنباتات وأوراقها تنفصل عنها بعد الجفاف وتتحول إلى عناصر فعاله لتنميه سائر الأشجار والنباتات كما أنّ سحب الغيوم أحياناً تتصل مع بعضها من مختلف المناطق بواسطة الرياح فتتهطل الأمطار الحيويه، كما يأمر الرياح بحملها إلى مناطق أخرى.

نعم! فربوبيته وتدبيره تقتضى أحياناً أن يجمع بين الضدين وأحياناً أخرى للتقريب بين المتباينين وثالثه تقريب المتباعده وإبعاد المتقارب.

كيفية الجمع بين الضدين

يعتقد البعض أنّ العالم مؤلف من جمع الأضداد والتضاد سبب التكامل وحسب بعض الحكماء

«لَوْلَا التَّضَادُّ مَا صَحَّ الْفَيْضُ عَنِ الْمَبْدَأِ الْجَوَادِ». كما استدل البعض على هذا المطلب بعبارته الإمام عليه السلام الواردة في الخطبه:

«مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا...».

ويرى اتباع المدرسه الماديّه الديالكتيكيه أنّ أحد المبادئ الأربعة يتمثل في الجمع بين الضدين ويزعمون أنّ كلّ موجود يحمل ضده في داخله وبظهور الضد يزول الموجود السابق ويضربون على ذلك مثال البيضه والدجاجه وأمثال ذلك ليخلصوا في النتيجة إلى أنّ المجتمع الرأسمالي يبلور مضطراً داخله ضده الذي يتمثل في المجتمع الاشتراكي والشيوعي وما تظهر حتى تزول الرأسماليه، وهكذا طرحوا مبادئهم الواهيه الجوفاء على هذا الأساس بحيث اتضح ضعفهم وعجزهم عملياً على مستوى الظاهر، وقد لمسنا كيفيه إنهيار هذه المدرسه.

ويجب الالتفات إلى أنّ الجمع بين الضدين (أو النقيضين) مصطلح فلسفي يعنى الجمع في محل واحد من جميع الجهات بمعنى أن يكون الشيء الواحد أسوداً وأبيضاً في آن واحد، وهذا محال؛ أو يكون مكان معين في لحظه معينه ليلاً- ونهاراً أو يكون الإنسان حياً وميتاً في زمن معين ومن الطبيعي أنّ الجمع بين هذين النقيضين محال بهذا المعنى، ولكن أحياناً يكون المراد الجمع العرفي: كأن يجتمع جسمان أبيض وأسود مع بعضهما في آن واحد أو في زمنين متصلين، فأحياناً يكون الجسم أبيضاً وأخرى أسوداً.

وهذا المعنى ليس ممكناً فقط فحسب بل شمل جوانب عظيمه من هذا العالم وعلى ضوء هذه النقطة نعود إلى أصل الموضوع فنقول: في العالم الذي نعيش فيه فإنّ مدبره هو الذات الإلهيه القدسيه التي أشاعت نظام الأضداد، وكما ورد في كلام

الإمام عليه السلام فقد مزج النور بالظلمه والحراره والبروده واليبوسه والبلل ووظف نظام الليل والنهار والفصول الأربعة والسحب والأمطار والشمس ببعض الأعمال المهمه، وأحياناً يلاحظ بين الأمثال أنّ عضواً من أعضاء الإنسان أو النبات ليس فقط لا يتضادان بل هما منسجمان مع بعضهما.

على كلّ حال فإنّ التضاد بالصيغه المذكوره من شأنه في أغلب المواقع أن يلعب دوراً مهماً في تطوير المجتمع البشرى وتكامل الكائنات؛ والتنافس البناء في كلّ مجتمع مدعاه للتطور وعاده ما يؤدى إلى القوّه والمنعه في مختلف المجالات حتى أنّ وجود الشيطان أمام المؤمنين مدعاه لتأصل ورسوخ إيمانهم.

ص: ١٤٣

إشاره

لَا يُشْمَلُ بِحَدِّ، وَلَا يُحَسَبُ بَعْدُ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا. مَمَعْتَهَا «مُنْدُ» الْقَدَمَةَ، وَحَمَتَهَا «قَدُ» الْأَزْلِيَّةَ، وَجَبَّتْهَا «لَوْلَا» التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنِ نَظَرِ الْعُيُونِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَهَ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِمَّا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أُبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ! إِذَا لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزْلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءَ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمِيَامٌ، وَلَا لَتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وَإِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَضِينُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعِيدًا أَنْ كَانَ مِدْلُولًا عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ. الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأَقُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهَّرَ عَنِ مَلَامَسِهِ النَّسَاءِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلى صفات أخرى من صفات الله السليبيه فقال:

«لَا يُشْمَلُ بِحَدِّ، وَلَا يُحَسَبُ بَعْدُ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا».

وتفسير العبارة الأولى والثانية واضح لأن الله وجود لا-متناه من جميع الجهات ولو كان محدوداً لما كان واجب الوجود، بل لأصبح ممكن الوجود كذلك لو حسب بعدد لكان من الممكنات التي يمكن عدّها، وقولنا إنّ الله واحد لا بمعنى الواحد

العددي بل بمعنى عدم وجود مثيل له: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (١).

بينما اختلف شراح نهج البلاغه في تفسيرهم للعبارتين الثالثه والرابعه بسبب الإبهام الذى يسودها ولعلّ مفتاح حلّ المشكله فى تفسير هاتين العبارتين يكمن فى هذا الأمر وهو أنّ القرائن تشير إلى أنّ المرحوم السيد الرضى قد حذف العبارات المرتبطه بهاتين العبارتين درجاً على عادته فى الاقتطاف.

ورغم حرص المرحوم الرضى على عدم بتر العبارات المرتبطه مع بعضها إلّا أنّ ذلك قد يقع سهواً ونسياناً أحياناً.

والشاهد على سقوط بعض العبارات فى هذه الخطبه ما ورد فى «تحف العقول» حيث قال الإمام عليه السلام:

«لا- تَفَوُّتُهُ «متى» ولا- تَدْنِيهِ «قَد» ولا- تَحْجُبُهُ «لَعْل» ولا تُقَارِنُهُ «مَعَ» ولا تَشْتَمِلُهُ «هُوَ» إنّما تَحَدُّ الأدواتُ أَنْفُسَهَا وَتَشِيرُ الآلَةُ إِلَى نَظَائِرِهَا».

فهذه الكلمات (بعض العبارات مثل متى وقد ولعل ومع وهو) تحدد نفسها (أى تستعمل فقط حين يكون للزمان والمكان وعدم العلم إليها من سبيل) وهذه العبارات إنّما تشير إلى نظائرها (النظائر الموجوده فى عالم الممكنات لا الذات المقدسه التى لا نظير لها).

ثم أكد عليه السلام هذا الكلام بقوله:

«مَنْعَتَهَا «مُنْدُ» الْقِدْمَةَ، وَحَمَّتَهَا «قُدُ» الْأَزَلِيَّةَ، وَجَبَّتْهَا «لَوْلَا» التَّكْمِلَةَ!» (٢).

توضيح ذلك: أنّ المفرده

«مُنْدُ» تستعمل حيث السيره التاريخيه لوجود الشىء، وعليه واستناداً إلى استعمال هذه المفرده بشأن الممكنات يمكن التوصل بسهولة إلى أنّها حادثه وليست قديمه، كما أنّ المفرده

«قُدُ» حين تستعمل فى الماضى تعنى

ص: ١٤٦

١- (١) سورة الشورى، الآيه ١١.

٢- (٢) لا يبدُ من الإلتفات إلى أنّ الكلمات (منذ وقد ولولا) فى العبارات الثلاث فاعل للأفعال منعت وحمد وجنبت ومفعولها قدمه وأزليته وتكمله، وتعود الضمائر المؤنثه فى منعتها وحماتها وجنبتها إلى المخلوقات.

وقوع الشيء القريب من الزمن الحاضر وهذا أيضاً لا ينسجم مع الأزلي، كما تستعمل المفردة

«لَوْلَمَا» حيث المانع الذى يكمن فى طريق تكامل الشيء، كالتقول الذى نقله القرآن الكريم على لسان الكافرين حين مخاطبتهم للمستكبرين: «لَوْلَمَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ» (١). واستناداً إلى أزليته وأبديته سبحانه وكماله المطلق فلا تستعمل بحقه هذه الأدوات والعبارات.

ثم قال الإمام عليه السلام فى بيانه لصفات أخرى من صفات الله أنه تجلى للعقل بخلقه لمخلوقاته ومن هنا تعذرت رؤيته بهذه العيون:

«بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنِ نَظْرِ الْعُيُونِ».

نعم، فآثاره واضحه فى كل زاويه من زوايا عالم الوجود ومنها ندر ك وجوده المقدس؛ مع ذلك لا يمكن رؤيته بعين، لأن رؤيه العين تختص بالأجسام ذات الزمان والمكان والأجزاء والجهه، والله منزّه عن كل هذه الأمور.

ثم تعرض الإمام عليه السلام لمسأله مهمه أخرى ليتحدّث بشأن نفى السكون والحركه عن الذات القدسيه فقال عليه السلام:

«وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَهَ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَخْدَثُهُ!».

نعم، فالحركه والسكون من عوارض الممكنات، والحركه أن يكون للشيء موضعين أو حالتين فى زمانين، والسكون أن يكون له فى زمانين نفس المكان والحاله، وعليه فالسكون حادث والحركه كذلك؛ لأن كلا الصفتين بيان للحاله الثانيه للشيء التى مضى عليها الزمان، بعبارة أخرى فى الحاله الأولى لا سكون ولا حركه بينما للسكون والحركه معنى فى الحاله الثانيه، فإن كان فى المكان الأول سكون كان فى موضع آخر حركه.

أضف إلى ذلك إن كانت الحركه فى المكان والزمان والكيفيه وما شابه ذلك فهى من عوارض الجسم وكذلك إن كانت الحركه فى الجوهر، وأنا لنعلم أن الله ليس

ص: ١٤٧

بجسم ولا بجوهر.

والنتيجة هي أنّ الحركة والسكون من مخلوقات الله ومن الممكنات وليس لها من سبيل قط إلى الذات القدسيه واجبه الوجود.

ثم خاض الإمام عليه السلام لذكر ثمانيه أدله على هذا الموضوع فقال:

الأول: لوجرت عليه الحركة والسكون

«إِذَا لَتَفَاوَتْ ذَاتُهُ» ونعلم أنه وجود ذو كمال مطلق وليس لأى تغيير من سبيل إلى ذاته الثابته.

والثانى لزم أيضاً:

«وَلَتَجَزَأُ كُنْهَهُ» لأنّ ما يلزم الحركة بلوغ الموجود نقطه لم تكن عنده، وعليه فوجوده مركب ممّا ما بالفعل وما بالقوه.

والثالث:

«وَلَا مَتْنَعُ مِنَ الْأَنْزَلِ مَعْنَاهُ»، لأنّ الحركة والسكون كما قلنا حادثان وذاته سبحانه أزليّه وقديمه ويستحيل الجمع بين الحادث والقديم.

والرابع: يلزم من الحركة

«وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءَهُ إِذْ وَجِدَ لَهُ أَمَامَهُ»، لأنّ للحركة بأى اتجاه وبأى مفهوم لها جهه تعدّ أماميه وما يعاكسها جهه خلفيه.

والخامس: يلزم من الحركة البحث عن الكمال، فمن عانى النقص يبحث عن الكمال

«وَلَا لَتَمَسَّ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النَّقْصَانُ»، لأنّ الحركة إمّا إلى النقص أو الكمال، ومهما كانت فهى تعنى عدم مطلقه الموجود المتحرك.

السادس: لو تخللته الحركة لظهرت فيه آيه الخلق

«وَإِذَا لَقَامَتْ آيَهُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ».

السابع: أنه لو كان كذلك لكان دليلاً على وجود خالق آخر، لا أن تكون المخلوقات دليلاً عليه:

«وَلَتَحْوَلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ».

الثامن: فسوف لن يؤثر عليه ما يؤثر على غيره بسبب قوته المطلقه

«وَحَرَجَ بِسُلْطَانِ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مِمَّا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ». إشاره إلى أنّ سلطته المقتدره وغير القابله للتغيير إلّا أن يكون فى

معرض الحوادث وما يؤثر في غيره لا يؤثر عليه، لأنَّ ذاته القدسيه ليست قابله للتغيير.

ص: ١٤٨

وزبيده الكلام فإنَّ الحركة سواء كانت في العرض أو الجوهر، في الكمية (كنمو بدن الإنسان أو النبات) أو في الكيفية (كتغير الألوان في عالم الطبيعه وزيادة ونقصان الحرارة والبروده في فصول السنه) وسواء كانت نحو الكمال (كنمو الطفل) أو نحو النقصان (كالضعف والعجز لدى الكهول) ليس لها من سبيل إلى الذات القدسيه، واجب الوجود وكمال مطلق وتختص الحركة بالممكنات والوجودات الناقصه.

أضف إلى ذلك فإنَّ الحركة عباره عن الجزئيه والحدوث التي ليس لها من سبيل إلى الذات الأزلئيه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان سبع صفات أخرى ذات علاقه قويه بمسأله الحركة فقال:

«الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ».

فالتغير والزوال والأفول والغروب كلُّها من عوارض الموجودات الممكنه والمحدوده والناقصه ولا تتصور هذه الصفات على الله.

ثم قال عليه السلام:

«لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا، وَلَمْ يُوَلَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهَّرَ عَنِ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ».

لا شك في أنَّ كلَّ هذه الأمور من قبيل الولاده والزواج والولد والابن من عوارض الوجودات الجسمئيه، والله سبحانه ليس بجسم وليست له عوارض جسمئيه، أضف إلى ذلك كلَّ هذه الأمور من علامات الحدوث وكذلك الحاجه، وهوليس بحادث ولا محتاج.

والعباره:

«لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا» إشاره إلى الوضع المعروف لدى الكائنات الحيه التي تولد من أحد ومن جانب آخر يولد منهم أولادهم، وعليه فلا يبدو النقص على آدم عليه السلام أنه صاحب ولد لكنه لم يولد من أحد لا يبدو وارداً لأنَّ آدم عليه السلام كان فرداً استثنائياً، إضافه إلى أنَّ آدم إن لم يولد من إنسان فقد ولد من التراب وهذا بحد ذاته نوع ولاده.

ص: ١٤٩

لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتَقْدَرُهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطْنُ فَتَصَوِّرُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتَحِسُّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسُّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ. وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ. وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ. وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَيْدٌ وَلَا نَهَائِيَّةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتَقْلَهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ، فَيَمِيلُهُ أَوْ يُعَدِّلُهُ. لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بَوَالِجٍ، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدْوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ.

يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضِبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَلُهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهَا ثَانِيًا.

الشرح والتفسير: جانب من صفاته المطلقة

إنَّ من النقاط المهمَّة الواضحة والمتجليه في كلمات الإمام عليه السلام في هذه الخطبه هي نفيه عليه السلام عن الله تعالى أى صفة من الصفات الماديَّة والجسميَّة بعبارات متنوعه؛ ذلك لأنَّ أغلب الناس يعانون من التشبيه في معرفه الله ويصورون له في أذهانهم بعض صفات المخلوقات وهذا خطأ جسيم لا يغفر.

وقد ركز هذا الموحد العارف بالله كراراً على هذه المسألة لينقذ مخاطبيه من هوه التشبيه بعبارات غايه فى الجمال والروعه والدقه.

ومن هنا قال فى مواصلته للأبحاث السابقه فى هذا الجانب من الخطبه:

«لَمَّا تَنَالَهُ الْأَوْهَامُ فَتَصَدَّرَهُ، وَلَمَّا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطْنُ فَتُصَوِّرُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتَحِسُّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسُّهُ، وَلَا يَنْعَجِرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ. وَلَا تُثَلِّبُهُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلَا يَغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ».

«أَوْهَام» جمع

«وَهْم» بمعنى قوه الخيال التى تتعلق بالماده والمحسوسات ولو أحاط الوهم بالله لكان له مكان وزمان وكيفيه وكميه، بينما ذاته المقدسه منزّهه عن هذه الأمور فللجسم أجزاء والزمان والمكان والتغير والحركه أمور ليست لها من سبيل إلى ذاته اللامتناهيّه.

«فِطْن» جمع

«فِطْنَه» قوه العقل ويقال

«الْفِطْن» وتنشط قوه العقل أيضاً بمساعده الواهم والتصورات الذهنيه المتعلقه بالأجسام، وعليه فلو أدرك بالعقل وبمساعده الوهم لظهرت ثانيه قضيه العوارض الجسميّه.

العباره:

«ولا- تَلْمِسُهُ...» بالنظر إلى أنّ اللمس يختلف عن المس، حيث يطلق المس على التماس بالأجسام بينما يطلق اللمس على الطلب والسعى للتماس - إشاره إلى أنه مهما يسعى الإنسان للمسّه تعالى بيده لما أمكن ذلك لأنه ليس بجسم فيلمس.

وأما بالالتفات إلى ثبات ذاته فإنّ تغييره بمرور الزمان والحوادث كالنور والظلمه ليس بممكن؛ لأننا قلنا كراراً أنه وجود كامل ولا متناهٍ من جميع الجهات وبفوق المكان والزمان والحركه، ومثل هذه الذات لا تتأثر بالحوادث والتغيرات كما لا يجرى عليها ليل ونهار ونور وظلمه.

ثم أردف ذلك عليه السلام بقوله:

«وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ».

ص: ١٥٢

من الواضح أنّ جميع هذه الأمور أى الاشتمال على الأجزاء وأعضاء البدن وقبول العوارض - مثل الألوان والكميّة المتفاوتة والكيفيّة - كلّها من خواص الجسم والجسمانيات والماده والممكنات وكذلك التفاوت مع الأشياء الأخرى، لأنّه يلزم من ذلك التركب من قدر مشترك وما به الامتياز، وكل تركب دليل على احتياج المركب إلى أجزائه والموجود المحتاج لا يكون واجب الوجود.

ثم بين الإمام عليه السلام صفات أخرى فى مواصلته لبيان صفاته السلبيّة فقال:

«وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَائِيَّةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتَقِلُّهُ (١) أَوْ تُهْوِيهِ (٢)، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ، فَيَمِيلُهُ أَوْ يُعَدِّلُهُ».

هذه الصفات الست (الحد والنهائية والانقطاع والغاية والاحاطة والحمل) كلّها من صفات الأجسام واللّه منزّه عن الجسميه فليس لهذه الصفات من سبيل إلى ذاته المقدّسه.

وعلى فرض أنّ بعض هذه الصفات صادقه على غير الموجودات الماديّة، فمما لا شك فيه أنّها من صفات ممكن الوجود المحدود من كلّ جهه دائماً، وقلنا كراراً أنّ ذات واجب الوجود لامتناهيه من جميع الجهات وعليه فلا تجرى أى من هذه الصفات على تلك الذات.

أضف إلى ذلك فإنّ للصفات المذكوره لوازم هى الأخرى مرتبطه بعالم الأجسام، فالاحاطه بالشىء تؤدى إلى رفعه أو خفضه، وحمل الشىء يسبب أحياناً ميله إلى جانب معين أو ثباته وكل ذلك من صفات الأجسام.

بل ذهب بعض الفلاسفه إلى أنّه لا يمكن وصف اللّه تعالى باللانهايه لأنّه قد يتداعى منه اللانهايه الجسميه، على كلّ حال سعى الإمام عليه السلام فى جوانب هذه

ص: ١٥٣

١- (١). «تقل» من ماده «قل» على وزن «ذل» بمعنى الرفع ولهذا اطلقت القله على قمه الجبل حيث تقع فى ارفع نقطه منه.

٢- (٢) «تهوى» من ماده «هوى» على وزن «تهى» بمعنى السقوط من شاهق، و «هوا» على وزن «قفا» تطلق على الحب والرغبه.

الخطبه لانتقال مخاطبيه من الوقوع فى فخ التشبيه فنزه الله تعالى عن كل صفة من صفات مخلوقاته.

ثم أردف حديثه عن الصفات بذكر صفات أخرى فقال عليه السلام:

«لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بَوَالِجٌ (١)، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٌ».

قد يتصور البعض من هذه العبارات التى وردت بشأن إحاطه الله تعالى بجميع الأشياء فى هذه الخطبه وسائر الخطب والروايات أنّ هنالك شيئاً من التناقض فكيف يكون هنالك وجود لا داخل فى الأشياء ولا خارج عنها، إلّا أنّ هذه حقيقه واقعه، ففى تشبيه ناقص يمكن القول إنّ ذاته المقدّسه هى روح عالم الوجود، وروح الإنسان فى بدنه لا- بمعنى أنّها جزء من البدن كما أنّها خارجه من البدن لا بصفتها غريبه عنه بل لها احاطه تدبير وتصرف فى الجسم، وإن خرجت هذه الروح من الجسم قطعت علاقه تدبيرها وتصرفها؛ فيموت. فالله تعالى بمنزله عالم الوجود.

ثم خاض عليه السلام فى بيان خمس صفات أخرى فقال:

«يُخْبِرُ لَأَلْسَانَ وَلَهَوَاتٍ (٢)، وَيَسْمَعُ لَابْخُرُوقٍ (٣) وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ».

إشاره إلى اطلاق بعض الصفات على الله تعالى كالسميع والحفيظ والمتكلم والمريد؛ لكنه مجرد من العوارض الجسميه والأسباب الماديّه، لأنّه ليس بجسم ولا ماده، والسميع أو الحفظ بمعنى علمه بجميع الأقوال والكلمات وحفظه لجميع الحوادث الماضيه وهى نتيجة للحفظ والسمع والإراداه، بعبارته أخرى فإنّ هذه العبارات من قبيل المجازات التى تفوق الحقيقه ولا ينبغى أبداً حين نسمع هذه

ص: ١٥٤

١- (١) «والج» من ماده «ولوج» تعنى الدخول.

٢- (٢). «لهوات» جمع «لهاه» اللحمه فى سقف أقصى الفم وقيل معلقه بالحلق ومن هنا فهى تطلق على الحلق وقدوردت فى هذه الخطبه بهذا المعنى.

٣- (٣). «خروق» جمع «خرق» على وزن «برق» بمعنى الشقّ الذى يوجد فى الحائط أو فى غيره وتعنى هنا ثقب الأذن.

الألفاظ التي ابتدعها البشر لحياته اليوميّة وتتصف عادة بالجسميه والماديّه أن نتصور أنّها تجرى كذلك على الذات القدسيّه، بل لا بدّ من التخلص من الأغطيه الجسميّه والماديّه كافه حين استعمال هذه الألفاظ بشأن الله تعالى، وهي بالتالي من قبيل:

«تُحَدِّ الغاياتِ واتُّزَكِ المَبادِيءِ» ليتمكن استعمالها بشأن الله تعالى.

احتمل بعض شراح نهج البلاغه أنّ المراد في العبارة

«يُحَفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ» أنّ الله تعالى يحفظ الموجودات من الحوادث وهو لا يحتاج إلى حافظ، ولكن بالإلتفات إلى سائر الصفات التي وردت قبل هذه الصفه يتّضح أنّ المفهوم الصحيح لهذا الكلام ما ورد سابقاً بمعنى الإشاره إلى قوّه الحافظه.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين فقال:

«يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُغْضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ».

رغم أنّ البعض تصور معنيين مختلفين لـ

«يُحِبُّ وَيَرْضَى» وكذلك

«يُغْضُ وَيَغْضَبُ» غير أنّ سياق كلام الإمام عليه السلام يفيد أنّهما ذات معنى واحد أو استعملتا بمعنى واحد.

على كلّ حال فهاتان الصفتان تشبهان الصفات المذكوره سابقاً، لأسبابهما بعد سماوى، لكن نتيجهما تصدق على الله فمحببتنا ورضانا ممزوجة برقه القلب ونوع من الرغبه الباطنيّه كما أنّ بغضنا وغضبنا لألم ومعاناه باطنيّه مقرونه بإثاره الأعصاب وارتفاع ضغط الدم، ومن البديهي أنّ هذه المعاني ليست صادقه على الله، ولذلك فسّروا هذه الأوصاف بالنتيجه، فقالوا إنّ حبّ الله لعباده ورضاه عنهم بهذه الصيغه أنّه يشملهم عملياً بنعمه وتوفيقاته وبغضه وغضبه على شخص في أن يسلبه النعمه والتوفيق والسعاده.

هذا النوع من التفسير بالنتيجه أحد المبادئ الأساسيه الذي يستعمل بشأن العديد من صفات الله.

ثم قال عليه السلام:

«يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: «كُنْ فَيَكُونُ» (١)

،لَابْصَوْتُ يَقْرَعُ، وَلَا بِنْدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا».

مراد الإمام عليه السلام من هذا الكلام أن العبارة

«كُنْ فَيَكُونُ» وردت في الآيات القرآنية بمعنى الأمر اللفظي؛ ليس من قبيل أوامر الملوك والسلاطين لمن دونهم بحيث يجرون بعض الألفاظ على ألسنتهم ويسمعون مخاطبتهم، وربما يدفعهم الحرص أحياناً للصرخ حتى يسمع صوتهم من مكان بعيد، بل أوامر الله تعالى هي أوامر تكوينية وبتعبير آخر هي فعل، فإن أراد شيئاً (الإرادة أيضاً بمعنى العلم بالنظام الأصلى) يوجد مباشرة، فلو أراد لوجدت الكائنات في لحظة واحدة كما توجد في تلك اللحظة السماء والأرض والنجوم والمجرات ولو أراد أيضاً لوجدت بصورة تدريجية خلال ألف سنة أو ملايين السنين دون زياده أو نقصه.

وفعل الله هو خلق الموجودات ليس على سبيل شبيه سابق؛ لأنَّ الأمر لو كان كذلك للزم تعدد الوجود الأنزلى وتعدد الإله والمعبود، وكما ذكرنا في أبحاث التوحيد فإنَّ التعدد في هذا المورد محال لأنَّ الوجود اللامتناهى واللامحدود من جميع الجهات يأبى التعدد.

ص: ١٥٦

لَمَّا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجَرَّى عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَضْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِي الصَّائِعُ وَالْمَصْدُوعُ، وَيَتَكَافَأُ الْمُتَبَدِّعُ وَالْبَدِيعُ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالِ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعْنِ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِعَالِ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْأَعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالْإِنْفِرَاجِ. أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاشْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيْغْلِبُهُ، وَلَا يَقْوَتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ، وَلَا يَخْتَانُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَزُقُّهُ. خَصَّ عَمَّ الْأَشْيَاءَ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسَيِّئَتُهُ لِعَظَمَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبُ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعُ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلَا كُفَّ لَهُ فَيَكْفِيهِ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيَسَاوِيهِ.

الشرح والتفسير: صفات أخرى في الجمال والجلال

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه إلى صفات أخرى من صفات الله ليكمل ما تطرق إليه سابقاً، فاتجه بادي الأمر صوب أزلته الله تعالى فقال عليه السلام:

«لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجَرَّى عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ

فَصُلِّ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِي الصَّانِعَ وَالْمَصْنُوعَ، وَيَتَكَافَأُ الْمُبْتَدِعُ وَالْبَدِيعُ (١)».

ثم خاض في شرح صفة أخرى من صفاته البارزة تعالى أي قدرته فتعرض لمسألة الابدع والخلق دون سابقه فقال:

«خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالِ خَلَاءٍ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَشْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ». فحين نتأمل عالم الخلقه تطالعنا أنواع لا تحصى من المخلوقات في عالم الحشرات والنباتات والجمادات التي يمتاز كل منها ببنيته البديعه وخلقه الرائع الخاص، وهى الموجودات التي ليس لها من سابقه وقد كساها الله سبحانه حله الوجود من طيات العالم وساقها لمسيرتها التكاملية، والحال لو كان للإنسان بعض الصناعات لاكتسبها من الآخرين، فمثلاً تأمل الإنسان أجنحه الطيور وكيفيه طيرانها ففكر في صنع طائره غايه في البساطه، ثم جاء العلماء في زمان لاحق الواحد تلو الآخر ليستفيدوا من الاختراع السابق ويجدوا في إتمامه حتى بلغ الأمر ذروه تكامله في عصرنا الراهن.

وعلى هذا الأساس فإن علماءنا إمّا يستلهمون من الطبيعه في اختراعاتهم أو من الآخرين فهم لا يقومون بعمل دون سابقه ولا يقومون به دون الاستعانه بالآخرين والحال أعمالهم محدوده بينما الله تعالى وفي ايجاده لهذه المخلوقات المتنوعه كافه والتي لا تعد ولا تحصى ليس بحاجه إلى سابقه ولا لمعونه أحد.

ثم أتجه عليه السلام إلى جانب آخر من قدرته اللامتناهيه فقال:

«وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ (٢) وَالْأَعْوَجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ (٣) وَالْإِنْفِرَاجِ (٤)».

ص: ١٥٨

١- (١) من الواضح أن الضمائر في بينها وعليها تعود إلى المحدثات، وأن قراءه صفات المحدثات بصيغه الإضافه وبدون الألف واللام (كما وردت في بعض النسخ) لأصبح المطلب أكثر وضوحاً، كما يصبح مفهوم العبارة أوضح إن استبدلت المبتدع بالمبتدع كما في بعض النسخ لأن المبتدع يعنى الخالق والبديع فى هذه الحاله يعنى المخلوق والذي له معنى اسم المفعول.

٢- (٢) «أود» بمعنى الثقل الذى يوجب الاعوجاج.

٣- (٣) «التهافت» يعنى التساقط.

٤- (٤) «الانفراج» يعنى الانشقاق.

من المسلم به اليوم من قِبَل الجميع أنّ الكره الأرضيّه تدور منذ ملايين السنين حول نفسها والشمس فى مدار معين فى الحركة وهذه الحركة على درجه من السرعة المنتظمه والهادئه بحيث لا يشعر بها سكان الأرض ممّا دفع العلماء السابقين لاعتبار الأرض ثابتة ومركز العالم، ترى ماهذه القدره العظيمه التى حفظت ثبات الكره الأرضيّه منذ ملايين السنين ورغم تعدد حركاتها دون دعائم وأعمده، ودون أدنى تشقق وتحطم أجزاء رغم مضى كل هذه المدّه الزمانيّه؛ وهل من قدره غير القدره الإلهيّه من شأنها القيام بهذا العمل؟ إننا لنعلم اليوم أنّ المسافه التى جعلت الأرض بهذا البعد عن الشمس وفى وضع طبيعى معلول للتعادل بين قوّه الجاذبه والدافعه، وعلى أساس الجاذبيّه فإنّ كل كتلتين تجذب إحداهما الأخرى بقوه تتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسياً مع مربع المسافه بينهما. فهذه القوّه تجعل الأرض تندفع بسرعه نحو الشمس فتتجذب إليها وتتحوّل إلى بخار، ومن جانب آخر فإنّ الحركة الدورانيّه حول المركز تسبب فرار ذلك الجسم من المركز والتي تسمى قوّه الطرد المركزيه وكلّما كانت الحركة أسرع كانت القوّه الطارده أكبر، ولذلك حين يدور القلاب الحجرى بسرعه ويترك فجأه فإنّه يقذف إلى نقطه بعيده، وعليه وبغية دوران الأرض فى مدارها لملايين السنين بصوره طبيعيه لا بدّ من مساواه قوّه الجاذبيّه للقوّه الطارده، وتختل لهذه المعادله لو إزدادت أو قلت المسافه وكذلك لو ازدادت أو قلت الحركة ففتيه الأرض فى الفضاء أو تنجذب باتجاه الشمس.

وهنا يرد هذا السؤال: لم كلّ هذه العبارات المختلفه؟

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّها من قبيل العطف التفسيري؛ ولكن يبدو أنّ الإمام عليه السلام استعمل كلّ عبارته بمعنى معين ليوضح جوانب الموضوع كآفه، توضيح ذلك إن أريد ثبات جسم فلا بدّ من موضع يستند إليه، ومن ثم حاجته لدعائم وأعمده قويه ومحكمه، وقد قال الإمام عليه السلام إنّ الله أثبت الأرض دون الحاجه إلى

هذه الأمور، فهي تسيح في الفضاء بانتظام دون موضع وأعمده، ثم أشار في العبارة اللاحقه إلى أن الله حال دون إعوجاج الأرض أو تهافتها وانفراجها وأودها، ولكل من هذه المفردات معنى معين، فالأود إشاره إلى الثقل والضغط الذى يؤدى إلى الإعوجاج، كما يوجب أحياناً التهافت أو الانفراج فى البناء، والله حفظ الأرض من كل ذلك.

ثم تطرق عليه السلام إلى سائر عجائب الأرض والتدبير الإلهى لإعدادها للحياه البشرىة فقال عليه السلام:

«أُرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضُرِبَ أَسْدَادُهَا(١)، وَاسْتَفَاضَ عُيُونُهَا، وَحَدَّ(٢) أَوْدِيَّتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ».

فالعباره الأولى إشاره إلى العديد من الآيات القرآنيه الوارده بشأن الجبال وأن الله وتد بها الأرض وجعلها كالمسامير، فقد جاء فى سوره النبا: «وَالْجِبَالُ أَوْتَادٌ»(٣)(٤) ولما كان أحد آثار الجبال أنها تكمن بصوره سد فى مقابل السيول والعواصف فقد عبّر عنها بالأسداد، وبالنظر إلى أن الخلل والشق فى الجبال والمواضع الخاليه فى بعض أقسامها يؤدى إلى خزن الماء ومن ثم جريان العيون، وكذلك شقوق الجبال التى تؤدى إلى ظهور الأوديه وانحدار مياه الأمطار إلى الأوديه فقد ركز عليها الإمام عليه السلام فى خطبته.

ولما أراد عليه السلام الإشاره إلى ربوبيه الله وتدبيره التى تعدّ من صفات أفعاله فقد تطرق إلى صفات الذات وأشار بعبارات غايه فى الروعه والدقه إلى علم الله وقدرته ووحدانتيه فقال:

«هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهِا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْإِطْرُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْغَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ، وَلَا

ص: ١٦٠

١- (١) . «أسداد» جمع «سد».

٢- (٢) «خد» أخذ فى الأصل من خد الإنسان الواقع على طرفى الوجه ثم اطلق على الشقوق الواسعه والعميقه فى الأرض. وذكر فى الخطبه بمعنى الشق.

٣- (٣) . سوره النبا، الآيه ٧.

٤- (٤) راجع شرح هذا الموضوع فى التفسير الأمثل ذيل الآيه ٣ من سوره الرعد والآيه ١٥ من سوره النحل.

يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقُهُ».

أساس كل هذه الصفات في الواقع علمه وقدرته اللامتناهية، ومن له القدره اللامتناهية يغلب كل شيء ويسمو على كل موجود، لا يغلبه شيء ولا يفر من قدرته وبالطبع غنى عن الكل، لأنه القادر على كل شيء.

كما أن من كان علمه لامتناهياً فهو عليم ببواطن الأشياء وظواهرها بل الظاهر والباطن لديه على حد سواء، كما يتساوى لديه القوى والضعيف والبعيد والقريب والأعلى والأسفل.

ولا يخفى الدور الذي يلعبه الالتفات إلى هذه الصفات في تربيته الإنسان وتركيبته بغض النظر عن الارتقاء بمستوى معرفته.

ثم واصل كلامه عليه السلام في شرحه لقدره الله تعالى في عالم الوجود فقال:

«خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَأَسْتَطِيعَ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ».

نعم فالعالم كله ملك الله وقوانينه حاكمه في كل مكان وأينما اتجهنا فإتماً نحن خاضعين لسلطانه وليس خارج ذلك إلى العدم ولا معنى للفرار من سلطته.

وهنا يتساءل شراح نهج البلاغه أن الفرار من الضرر ممّا لا شك فيه؛ ولكن ما المراد بالهروب من المنفعة؟

فأجابوا: إن المراد بأن الشخص إذا لم يرد أن يكون مديناً لآخر لكي لا يخضع له أو بعباره أخرى يهرب من منافعه وعطاياه لكي لا يضطر للخضوع له؛ فإن مثل هذا العدد لا معنى له إزاء الله ولطفه وقهره.

قال تعالى: «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً» (١).

ص: ١٦١

ثم جرى الكلام هنا عن الامتناع عن قبول رحمه الله وعقابه فأشار عليه السلام إلى أن لا سبيل أمامكم سوى القبول سواء أراد بكم رحمه أو مصيبه إزاء رحمته؛ ففي كل الأحوال أنتم مدينون له.

ثم اختتم عليه السلام الخطبه بالتأكيد على وحدانيته سبحانه فقال:

«وَلَا كُفَّاءَ لَهُ فَيُكَافِئُهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيَسَاوِيَهُ».

قلنا مراراً، إنّ الذات الإلهية لامتناهيه من جميع الجهات، ومن الطبيعي أن تستحيل الأثنيه في الوجود اللامتناهي، لأنّ التعدد إنّما يقتصر دائماً بالمحدوديه، لأنّ كلّ واحد منهما فاقد لوجود الآخر، أو بعبارة أخرى فإنّ حدّ كلّ واحد منهما نقطه نهايته وهذا ما لا ينسجم مع الذات الإلهية اللامتناهيه وغير المحدوده.

والجدير بالذكر أنّ هذا القسم ينطلق بالتوحيد ويختتم بالتأكيد عليه بعد ذكر سلسله من صفات الذات وصفات الأفعال.

ص: ١٦٢

هُوَ الْمُفْنَى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا. وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ائْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ اِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مَرَاكِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ اَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدِ أُمَّمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِخْدَاتٍ بَعُوضِهِ، مِمَّا قَدَّرَتْ عَلَى إِخْدَاتِهَا، وَلَمَّا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَهُ حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقَرَّرَةٌ بِالْعَجْزِ عَنِ اِنْشَائِهَا، مُدْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنِ اِفْنَائِهَا!

الشرح والتفسير: العجز عن خلق بعوضه

تحدّث الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه عن قضيه فناء العالم وقدره الله المطلقه على خلق العالم وعدمه بعد أن فرغ من أبحاثه العميقه فى الأقسام السابقه من هذه الخطبه بشأن خلق العالم ولا سيما الأرض وعجائبها فقال:

«هُوَ الْمُفْنَى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا».

ثم واصل كلامه فقال:

«وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ائْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ اِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مَرَاكِهَا (١) وَسَائِمِهَا (٢)، وَأَصْنَافِ اَسْنَاخِهَا (٣) وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدِ (٤) أُمَّمِهَا وَأَكْيَاسِهَا،

ص: ١٦٣

١- (١). «مراح» من ماده «روح» مأوى الحيوانات.

٢- (٢) «سائم» من «سوم» على وزن «قوم» الراعى وتعنى فى الأصل الذهب خلف الشىء.

٣- (٣) «اسناخ» جمع «سنخ» تعنى الأصول والجذور وهنا تعنى أنواع الحيوانات.

٤- (٤) «متبلده» من ماده «بلاد» بمعنى الغباء مقابل الذكاء.

عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضِهِ، مَا قَدَّرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا».

فهذا الكلام لا يعد حقيقه إبان صدوره من الإمام عليه السلام آنذاك، بل هو حقيقه واقعه اليوم، ذلك أنه لو اجتمع علماء العالم كافه لخلق بعوضه لعجزوا عن ذلك، لأنّ قضيه بعث الحياه فى الجمادات مستحيله، أضف إلى ذلك فإنّ بنيه البعوضه من حيث الأ-جنحه والأرجل والدماغ والأعصاب وجهاز الهضم والانجاب على درجه من التعقيد والدقه فغير الخالق سبحانه لا يستطيع المخلوق خلق بعوضه.

وتشير كلّ عباره من العبارات:

«مَا قَدَّرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا» إلى نقطه معينه، فالعباره الأولى تشير إلى عجز الإنسان والحيوان عن خلق بعوضه، بينما تشير العباره الثانيه إلى الجهل بتلك الأسباب والعوامل.

وقد ورد مثل هذا المعنى فى القرآن الكريم بشأن خلق الذباب حيث قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ» (١).

ثم قال عليه السلام:

«وَلَتَحْيِرَنَّ عَقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجِزَتْ قُوَاهِهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِمَةً (٢) حَسِيرَةً (٣)، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةٌ بِالْعُجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُدْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا».

نعم لو عزمت هذه البعوضه الصغيره على أذى الإنسان وسائر الحيوانات ولم يحد الله من انجابها لتكاثرت بشكل يضيق الحياه على الإنسان ولعجزت كلّ المبيدات عن مواجهتها، وما نشاهده اليوم من القضاء عليها فى بعض المناطق بفعل المواد السامه فذلك لأنّها محدوده فى انجابها وإلا لكانت كالجراد فى خروجها عن

ص: ١٦٤

١- (١) سورة الحج، الآية ٧٣.

٢- (٢). «خاسمته» من ماده «خسأ» على وزن «مدح» تعنى فى الأصل الذله وخاسىء بمعنى الذليل والعاجز.

٣- (٣) «حسير» من «حسر» على وزن «حبس» تعنى فى الأصل العرى ورفع غطاء شىء ثم استعملت بمعنى الضعف والتعب.

السيطره ولشكلت أسراباً عظيمة تملأ أركان الفضاء، وهذه البعوضه التي تبدو في ظاهرها ضعيفه قد كشفت في بعض الأحيان عن قدرتها - بإذن الله - لتهاجم أحياناً بصوره جماعيه فيلاً فتقضى عليه.

ويمتاز بعضها - في ظروف معينه - بنقلها للميكروبات الخطيره أو السموم القاتله فتشعر الإنسان بعجزه عن مواجهتها لتثبت له مدى قدرتها.

تأملان

١. المعاد الجسماني واعاده المعدوم

تحدّث بعض شراح نهج البلاغه بشأن المعاد الجسماني عند العباره

«هُوَ الْمَفْنَى لَهَا بَعِيدٌ وَجُودِهَا» التي تصدر بها هذا الجانب من الخطبه واستشهدوا على ذلك بهذه الآية: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» (١).

ثم أضافوا أنّ جميع الأنبياء وخاصه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أخبر عن فناء هذا العالم، وأضافوا أنّ الفلاسفه خالفوا هذا الأمر لا على أساس عدم إمكانيه فناء العالم، بل على أساس استحاله انعدام العالم مع بقاء العله وهي الذات الإلهيه المقدسه.

ثم خاضوا في شرح مسأله امتناع إعادته المعدوم وأشاروا إلى شكّ البعض في مسأله المعاد الجسماني، والحقّ فناء العالم ليس بمحال، لأنّ الله فاعل مختار وإن رأى المصلحه خلق الشيء أو عدمه، كما ليس هنالك من شكّ في المعاد الجسماني، فقد صرّح القرآن في العديد من آياته بهذا الأمر، كما أنّه ليس هنالك من دليل عقلي على امتناعه (٢).

وليست هنالك من علاقته بين مسأله استحاله إعادته المعدوم ومسأله المعاد، لأننا إن قلنا إعادته المعدوم مستحيله؛ يعني ذلك أنّ إعادته ذلك الشيء بجميع خصوصياته حتى الزمان والمكان محال وبالطبع ليست هنالك من عوده للزمان الذي مضى، إلّا

ص: ١٦٥

١- (١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

٢- (٢) انظر: هذا الموضوع في الجزء الأول من نفحات الولاية بحث المعاد الجسماني.

أنّ عوده الإنسان في المعاد يوم القيامة لا تعنى عوده الزمان والمكان الماضيين، فليس هنالك من عاقل يزعم بعوده ذلك الزمان الذى عاشه في الدنيا يوم القيامة، بل المراد عوده إنسان بجميع خصائصه في زمان ومكان آخر، مثلاً حين يحيى المسيح عليه السلام ميتاً فسيكون ذلك الشخص السابق قطعاً وإن أحياه في زمان ومكان آخر، وهكذا إحياء الأموات في القيامة.

وزبد الكلام فما جاء في هذه الخطبه هو بعينه ما ورد في القرآن الكريم، بل شرح الإمام عليه السلام في الواقع آيات المعاد هنا بعبارات رائعة وعميقه.

٢. الخلقه العجيبه للبعوض!

صرّح الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه لواجتمعت الكائنات كافه لخلق بعوضه لما استطاعت، ولواطق الله العنان للبعوض في التكاثر لما كانت هنالك من قوه في العالم قادره على القضاء عليها وكما أسلفنا فإنّ هذا الكلام لا يبدو حقيقه على عهد نزول القرآن وعصر الإمام فحسب بل هو كذلك حتى في عصرنا الراهن.

ف للبعوضه خلقه معقده؛ أغلبها لا- تعيش سوى في المياه الراكده في حافات الأنهار والمستنقعات وما شابه ذلك، وتضع انثى البعوض ما يقرب من ١٥٠ بيضه في كلّ مرّه لتفقس عن بعوضه ولكلّ بعوضه وليده انبوب تنفسى نحيف للغاية يرتبط بسطح المياه تتعلق به البعوضه، ثم تظهر بعد بضعه أيام قشره على جوانبه كما يحدث الكثير من التغييرات في بنيتها داخل القشره التى تبدو ظاهراً عديمه الحركه، وبعد عدّه أيام تخرج البعوضه غير الكامله من تلك القشره فتطير وتقضى سائر عمرها لتعيش في الهواء.

والتغييرات التى تطرأ خلال هذه المدّه القصيره على بنيه البعوضه وتحولها من كائن مائى إلى طائر حقاً لمذهله وعجيبه.

يقول العلماء إنّ ذكور البعوض تتغذى على عصاره الفواكه وسوائل النباتات؛

بينما تتغذى الاناث على امتصاص الدم فهي تلسع الإنسان وتمتص دمه كماده غذائيه.

والبعوض حشرات صغيره لها جناحان ولو وُضعت تحت المجهر لشوهدت بنيتها الظريفه والعجيبه ويستحيل على الإنسان صنع مثلها فضلاً عن كائن حي قادر على التغذية والنمو والانجاب.

والعجيب أن بعضها عديمه اللون بحيث لا ترى بالعين المجرده.

والبعوض العادى وإن كانت حشرات مؤذيه قد تسلب الإنسان القوى والشديد البنيه نومه ليله كامله، لكنها غالباً ليست خطيره، مع ذلك هنالك بعض البعوض خطير وسام بحيث يستطيع القضاء على أقوى الحيوانات(١).

ص: ١٦٧

١- (١) القاموس.

إشارة

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، يُعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحَيْدِهِ لِأَشْيَاءٍ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينَ وَلَا زَمَانَ.

عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالَ وَالْأَوْقَاتِ، وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ. فَلَا شَيْءَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ. بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَائُهَا، وَلَوْ قَدَّرَتْ عَلَى الْاِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَأَمِدْهُ صُيُوعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَبَّغَهُ، وَلَمْ يَزُودْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَّأَهُ، وَلَمْ يَكُونْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانِ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالِ وَنُقْصَانِ، وَلَا لِلِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نَبْتِ مَكَائِرِ، وَلَا لِلِاخْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُتَاوِرٍ، وَلَا لِلِازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا لِلْمَكَائِرَةِ شَرِيكَ فِي شَرِكِهِ، وَلَا لَوَحْشَتِهِ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

الشرح والتفسير: الغنى عن الخلق

قال الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه ومواصله لكلامه السابق بشأن وجود العالم وعدمه:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، يُعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحَيْدِهِ لِأَشْيَاءٍ مَعَهُ. كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينَ وَلَا زَمَانَ.»

ثم واصل كلامه فقال:

«عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالَ وَالْأَوْقَاتِ، وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ.»

ثم استنتج من ذلك:

«فَلَا شَيْءَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ

الأُمُورِ. بِإِلَاقِدْرِهِ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاقُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَيَّ الِامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا».

إشاره إلى تسليم جميع عالم الخلقه لإرادته الله سبحانه وتعالى، فليس له من اختيار في بدايه خلقه ولا حين زواله ونهايه حياته، فلو كان خلقه وفناؤه بيده لعاش الخلود، فمما لا شك فيه كل كائن يسعى لبقائه.

طبعاً هذا الكلام لا يتنافى مع كون الإنسان مختاراً في أفعاله، لأنَّ مراد الإمام عليه السلام بيان بدايه الخلقه وختامه الخارج عن الإراده والاختيار والذي يتم وفق الحكمة والمصلحة.

ثم أشار عليه السلام إلى هذه النقطة فقال:

«لَمْ يَتَّكَأْ دُهُ (١) صُنْعَ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يُوْذِ دُهُ (٢) مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبِرَّاهُ».

لأنَّ التعب والضعف والعجز من خصائص الإنسان المحدود القدره، فإنَّ أراد القيام بعمل يفوق طاقته فإنه يعجز، وإن كان بمستوى طاقته فإنه يشعر بالتعب أما بالنسبه لمن كانت قدرته مطلقه فحمل القشه من الأرض والجبل العظيم لديه على حد سواء فهو ليس بحاجة لوسيله أو أده ليستعين بها وإرادته تكفي في ذلك: «إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (٣).

وينسجم كلام الإمام عليه السلام هذا مع ما ورد في جانب من آيه الكرسي: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمَّا يَوْدُ دُهُ حِفْظُهُمَا» (٤): وقال في موضع آخر بعد الإشاره إلى خلق السماء والأرض «وَلَمْ يَعْنَى بِخَلْقِهِنَّ» (٥).

ثم خاض عليه السلام في بيان هذه النقطة المهمه في أن خلقه لعالم الخلقه لم يكن لجلب

ص: ١٧٠

١- (١). «يتكأده» من «كاد» على وزن «وعد» بمعنى المشقه والعبارة هنا تعني لا يشق عليه وكؤود: كثير المشقه.

٢- (٢) «يؤده» من ماده «أود» على وزن «قول» بمعنى الثقل ولم يؤده بمعنى لم يثقل عليه.

٣- (٣) سورة يس، الآيه ٨٢.

٤- (٤). سورة البقره، الآيه ٢٥٥.

٥- (٥) سورة الاحقاف، الآيه ٣٣.

نفع أو دفع ضرر لأنه غنى بالذات ولا فناءه بعد خلقه لتعب منه، وهكذا ينفي أى حاجة تحتاجها الذات القدسيه فى خلق العالم ومن ثم فى فئاته.

فقد أشار عليه السلام فى القسم الأول إلى الأهداف السبعة التى يتطلع إليها الإنسان عادة فى قيامه بأعماله ثم نفاها جميعاً عن الله تعالى كونها دلالات على الضعف والعجز والنقص فقال إنه لم يخلق الموجودات لتوطيد حكومته كونه وجوداً لا متناهى وغنى من جميع الجهات:

«وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ».

كما أنه واجب الوجود الذى ليس للزوال والنقصان من سبيل إليه
«وَلَا لِحَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ».

كما ليس له مثيل:

«وَلَا لِلْإِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نَدِّ مُكَاتِرٍ (١)».

وبما أنه لا ضد له ولا عدو والكل خاضع لسيطرته

«وَلَا لِلْإِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُثَاوِرٍ (٢)».

كما أنه ليس بحاجة لمخلوقاته ليقضى بها حاجته

«وَلَا لِلْإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ».

وحيث له شريك ولا قرين

«وَلَا لِمُكَاتَرِهِ شَرِيكَ فِي شِرْكِهِ».

وكذلك:

«وَلَا لَوْحْشِهِ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا».

لأن الوحشه حيث الشعور بالخطر من جانب العدو أو بروز المشاكل والمصائب ولا عدوله ولا مشكله تجرى عليه، ومن الطبيعى أن هذه الأهداف السبعة إنما تعود لجلب المنفعه ودفع الضرر، لكن الإمام عليه السلام شرحها بأسلوب رائع وركز على جميع المصاديق بما لا يتصور أبلغ وأفصح منه ومن الواضح حين تنتفى كل هذه الأهداف يثبت أن الله خلق الخلق إفاضه ولطفاً بالمخلوقات لا لجلب منفعه، لأن جلب المنفعه ودفع الضرر من لوازم الممكنات وهو واجب الوجود.

-
- ١- (١) «مكآثر» من «الكآثره» كما تطلق على من يطلب الكآثره.
٢- (٢) «المآور» من ماده «آور» على وزن «آور» تعنى المهاجم.

هل هناك زمان دون مخلوق

ما ذكره الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه حول فناء الدنيا في البدايه والنهايه حيث إنّ الله واحدٌ أزليٌّ أبدىٌ ليس له بدايه ولا-نهايه، آثار سؤالاً لدى شراح نهج البلاغه وهو كيف مرت مدّه لم يظهر فيها الفيض من الذات الإلهيه الفياضه على الدوام وأجابوا بأنّ المراد ليس إنعدام وجود الأشياء بصوره مطلقه بل في مرحله الذات الإلهيه، أى كانت هنالك موجودات لكنها ليست مستقله عنه (طبعاً هذا الجواب لا يبدو مقنعاً).

إن السؤال الأهم الذى نظرحه هنا هو: كيف ينسجم ما طرحه الإمام عليه السلام بشأن فناء العالم مع ظاهر الآيات القرآنيه؟ فقد صرح القرآن في عدّه آيات أنّ هذا العالم سيتعرض إلى الدمار فى خاتمه المطاف لا أنّه يعدم بالمره إذ قال: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ» (١).

وقال فى موضع آخر: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ» (٢).

كما قال: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» (٣).

إضافه إلى ذلك يقول إنّ الموتى يخرجون من قبورهم، ويعتقد أغلب العلماء أنّ الجنّه والنار موجودتان الآن طبق ظاهر الآيات والروايات وأعمالنا هى التى تبلورهما، فكيف والحال هذه يصرّح بانعدام جميع الأشياء بنهايه العالم ولا يبقى سوى الله فيزول حتى الزمان والمكان؟ كما ورد فى الخطبه المذكوره، والذى يقال

ص: ١٧٢

١- (١) سورة التكوير، الآيات ١-٦.

٢- (٢) سورة ابراهيم، الآيه ٤٨.

٣- (٣) سورة طه، الآيات ١٠٥-١٠٧.

فى جواب السؤال الأول: كما أنّ الله فياض فهو حكيم على الإطلاق وفاعل ليس بمجبر فممكن أن تقتضى حكمته أن لا يكون شىء فى البدايه ثم يوجد، وعليه فإنّ فيضه لا يمنع من انعدام الإشياء قبل خلقها.

ويقال فى الجواب على السؤال الثانى، إنّ العالم يتحطم فى البدايه كما ورد فى الآيات المذكوره، لكنه يعدم بعد ذلك بصوره كليه بحيث لا- يبقى سوى الذات القدسيه ثم يكتسب كلّ ما فنى - بطريقه إعاده المعدوم وبالطبع بشكلها المعقول (1)- حله الحياه وكما كان فى السابق بالضبط من تلك الجنّه والنار والإنسان والقبور وهذا أمر معقول وسنشير إلى هذا المطلب فى القسم القادم من الخطبه أيضاً.

ص: ١٧٣

١- (١). لإعاده المعدوم صيغتان؛ صيغه غير معقوله وأخرى معقوله، والصيغه غير المعقوله أن يعود الموجود الذى فنى بجميع خصائصه بما فيه الزمان إلى ما كان عليه فى السابق وهذا محال حيث لا معنى لعوده الزمان ثم إنّه تناقض، أمّا الصيغه المعقوله فهى أن يعاد كلّ شىء بصورته السابقه ما عدا الزمان، ولعل عدم الإلتفات إلى هذا الفارق أدى إلى ذلك النزاع اللفظى بين العلماء بشأن إعاده المعدوم فرآها البعض محاله بينما رآها البعض الآخر ممكنه.

إشاره

ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لِلسَّامِ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَضْرِيْفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحِهِ وَاصِلَهُ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَا يَمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ ذَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَى كَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِيعَانَهُ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِإِنْصَرَفِ مَنْ حَالٍ وَخَشَهُ إِلَى حَالِ اسْتِثْنَاءِ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلِ وَعَمَى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالتَّمَّاسِ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

الشرح والتفسير: دوام الخلقه والفناء

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لأهداف عالم الخلق تحدّث في هذا الجانب من الخطبه عن فناء العالم والهدف من ذلك فقال:

«ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لِلسَّامِ (١) دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَضْرِيْفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحِهِ وَاصِلَهُ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ.

لَا يَمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا».

فجميع هذه الأمور كالتعب والعجز والملايه وطلب الراحة، ناشئه من محدوديه القوه وقدره الفاعل وليس لهذه الحوادث من سبيل إلى صاحب القدره المطلق، فهذه كلها صفات الممكنات ومن توهم مثل هذه الصفات على الله فقد وقع في هوه

ص: ١٧٥

١- (١). «سأم» بمعنى التعب والملل ونفى الملل في العبارات التاليه ليس تكراراً بل نفى في العبارة الأولى الملل الناشئ من تدبير العالم من الذات القدسيه، وفي العبارة التاليه الملل الناشئ من طول بقاء العالم.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا أو هنالك من يحتمل هذه الأمور على الله لينفيها الإمام عليه السلام؟

لا- شك فى أن أصحاب العقول السليمه لا- يتصورون مثل هذا الاحتمال، إلا أن هذه الوسوسه قد تساور أذهان بعض الأفراد العاديين، أولئك الذين يرون الله جسمًا ويرون له أذنًا وعينًا ويدًا ورجلاً وظفيره ويا له من وهم ساذج! والسؤال الآخر الذى يرد هنا أن الإمام عليه السلام يذكر هذه الأهداف لنفى فناء الدنيا إلا أنه لم يذكر بدل ذلك أى هدف ايجابى والجواب على هذا السؤال واضح: أن الله حكيم وكل أفعاله تستند إلى الحكمة التى تعود آثارها وفوائدها على الإنسان وسائر الموجودات، لا إلى ذاته القدسيه الغنيه عن كل شىء، ولعل الهدف الأصلي من هذا الفناء حتى لا يشتهب الإنسان فيتصور وجوده من نفسه ويعتقد بأزليه وأبديته السماء والأرض وليعلم أن كل شىء متوقف على إرادته الله.

ثم قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه وفى خلاصه للأبحاث السابقه:

«وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةَ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِإِنصَافٍ مِنْ حَالٍ وَخَشَى إِلَيْ حَالِ اسْتِئْثَانٍ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلِ وَعَمَى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالتَّمَّاسِ (١)، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ (٢) إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ».

فما بينه الإمام عليه السلام فى ختام هذه الخطبه وضمن ست عبارات نفى الأهداف التى لا تليق بذاته الطاهره بالنسبه لخلق العالم؛ باختلاف طفيف مع الأهداف السبعه التى مضت فى الأقسام السابقه فذكرها الإمام عليه السلام هنا بصيغه خلاصه وبعبارات جديده وخلاصتها أنه لم تكن لديه من حاجه لإيجاد عالم الخلق ولا فى فئانه ولا فى

١- (١). «التماس» من لمس بمعنى الطلب.

٢- (٢) «ضعه» من ماده «وضع» بمعنى الخسه.

وهنا يطرا هذا السؤال أيضاً: إن كان خلق الله للعالم ثم إفناؤه ثم الخلق الجديد لا لنفع ولا حاجة ودفع نقص فماذا كان هدفه من ذلك ولماذا لم يشر الإمام عليه السلام إلى ذلك الهدف؟

والجواب على عن هذا السؤال هو ما ذكرناه سابقاً فهو وجود كامل من جميع الجهات، وليس هنالك لقيامه بأفعاله ما يعود إليه، بل يعود عادة على المخلوقات والممكنات دون أن يعود عليه بشيء، وبعبارة أخرى كل ما لدى مخلوقاته منه وليس لديهم من شيء فيهبوه لله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» (١).

ص: ١٧٧

وَهِيَ فِي ذِكْرِ الْمَلَّاحِمِ (١)

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من قسمين، تطرق الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى قوم سيتصدون في المستقبل للدفاع عن الحق والقيام من أجل بسط القسط والعدل في عصر يُملأ فيه العالم بالمفاسد ويضيق فيه الناس والذي يتناسب مع ظهور المهدي عليه السلام وصحبه.

وفي القسم الثاني وعظ أصحابه وأهل زمانه في اجتناب الفتن وعدم التفرق عن إمامهم.

وجدير ذكره أنّ المدائني - كما ورد في سند الخطبة - ذكر في كتابه (صفيين) أقسام أخرى من هذه الخطبة التي لم يذكرها المرحوم السيد الرضي وقال في

ص: ١٧٩

١- (١) سند الخطبة: روى هذه الخطبة أبو الحسن المدائني من علماء القرن الثالث في كتاب (صفيين) وتبدأ الخطبة التي رواها «إذا كثر فيكم الاخلاط...» ثم ذكر الخطبة بعد عبارات مفصلة مع اختلاف وإضافات بما يفيد أنه أخذها من مصدر آخر لأنه أولاً عاش لفترة مديده قبل السيد الرضي، وثانياً ما نقله يحتوى على إضافات بالنسبة لما نقله السيد الرضي كما ذكر جانب منها الزمخشري في ربيع الابرار (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٧٨).

آخرها: إنّ رجلاً من أهل البصره قال لرجل من أهل الكوفه إلى جانبه: أشهد أنّه كاذب على الله ورسوله. قال الكوفى: وما يدريك؟ (فلم يجبه) ثم أضاف، قال الكوفى: والله ما نزل من المنبر حتى شلت يد الرجل البصرى ورجله فحملوه إلى بيته ومات فى تلك الليله(١).

ص: ١٨٠

١- (١) مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٧٩؛ كما رواه ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه، ج ٦، ص ١٣٦.

أَلَا بِأَبِي وَأُمِّي، هُمْ مِنْ عِدَّةِ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَأَنْقِطَاعِ وُضْعِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ. ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَكْبَرَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطَى. ذَاكَ حَيْثُ تَشْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ. ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمْ الْبَلَاءُ كَمَا يَعْضُ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبُعَيْرِ. مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ، وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ!

الشرح والتفسير: الحوادث المرعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بالحديث عن طائفه من خواص الله تعالى الذين ينهضون بمهمته خاصة فقال:

«أَلَا بِأَبِي وَأُمِّي (١)، هُمْ مِنْ عِدَّةِ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ».

والسؤال من هي هذه الطائفه وما مهمتها؟ مرّ ذلك مجملاً في متن الخطبه ومن هنا كان هنالك اختلاف بين شراح نهج البلاغه، فالبعض يعتقد أنّهم الأحد عشر معصوماً من ولد على عليه السلام الذين هم أسماؤهم في السماء معروفه، بينما لا يعرفهم في الأرض سوى طائفه معينه.

ص: ١٨١

١- (١). ذكر بعض شراح نهج البلاغه (الخوئي) في تركيب العبارة المذكوره أنّ (هم) مبتدأ و (بأبي وأمي) في محل خبر و (من) بيانيه وهذه العبارة تشبه العبارة (بأبي أتم وأمي) والتي استخدم فيها هنا بدل الضمير المخاطب ضمير الغائب في آخر الجملة.

وذكر بعض علماء أهل السنّة أنّ المراد بهم طائفه من المؤمنين والأولياء الذين عبّر عنهم بالقطب والأبدال، وهى العبارات التى عادة ما يستخدمها المتصوفه فى كلماتهم، إلّا أنّ العديد من القرائن تشير إلى أنّ المراد بهم الإمام المهدي عليه السلام وخواص أصحابه لأنّ الإمام عليه السلام، أخبر بعد هذه العبارة عن حوادث خطيره تذكر الإنسان بعلامات آخر الزمان وظهور المهدي عليه السلام. أضيف إلى ذلك فقد ورد فى جانب من الخطه التى رواها المدائنى فى كتاب (صفيين) (١) إشاره إلى الخسف فى البيداء وهروب طائفه منها وأنا لنعلم أنّ الخسف فى البيداء من علامات الظهور التى أشارت إليها الروايات (٢).

ويّضح منها أنّ مهمتهم هى تلك المهمّة التى أشارت من الروايات فى مصادر الفريقين ومنها

«يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا» (٣).

وطرح البعض هذا السؤال: كيف يقول الإمام عليه السلام (بأبى أئتم وأمى) والحال أنّ المهدي أحدهم بينما البقيه هم أصحابه؟

والجواب على هذا السؤال أنّه صدرت مثل هذه العبارات من الأئمه عليهم السلام بشأن من لهم مهمّات خاصه، ومن ذلك ما ورد ذيل زياره وارث

«بِأبى أئتم وأمى طِبُّنُمْ وَطَابَتِ الْأَرْضُ الَّتِي فِيهَا دُفِنْتُمْ» التى وردت عن بعض الأئمه عليهم السلام حين قرأوا هذه الزياره على قبور شهداء كربلاء.

ونقل المرحوم الأربلى فى كشف الغمه عن النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: رأيت عمى الحمزه وأخى جعفر بن أبى طالب فى المنام فقلت لهما:

«بِأبى وأمى أئتم أئى الأعمالِ وَجَدْتُمْ أَفْضَلَ؟» فقالا: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا:

«وَجَدْنَا أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ وَسَقَى الْمَاءِ وَحُبَّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» (٤).

ص: ١٨٢

١- (١). مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٧٨.

٢- (٢) انظر: بحث علامات الظهور فى كتاب سفينه البحار ماده «هدى»؛ بحار الأنوار، ج ٢، ص ١١٩ و ١٨١.

٣- (٣) وردت هذه الروايات فى جميع الكتب المؤلفة بشأن المهدي عليه السلام بما فيها كتب الفريقين.

٤- (٤) كشف الغمه، ج ١، ص ٩٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٨٤.

ثم تنبأ الإمام عليه السلام بالحوادث الخطيره مُستقبلاً والتي تنتظر الناس، وهي الحوادث التي تشبه العلامات التي ذكرت في الظهور فقال عليه السلام:

«أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِذْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وُصْلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ».

ومن الطبيعي أن تبدأ مسيره التخلف وتقطع الأواصر الاجتماعيه حين يتزعم بعض الأفراد قليلى الخبره والسذج والذين يفتقرون إلى الكفاءه، لكن لماذا تتجه طائفه من الزعامات إلى الصغار وقليلى التجربه فى الإداره والتدبير؟ لا شك فى كونهم فئه من المهزوزين والآذان الصاغيه لكل أمر وهذا من أكبر عوامل البؤس والشقاء.

ثم خاض عليه السلام فى شرح هذه الحوادث الأليمه فقال:

«ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَكْبَرَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطَى».

فقد ذكر الإمام عليه السلام بادئ ذى بدئ فى هذا الجانب من الخطبه مسأله حليه وحرمة الأموال وذلك لتوقف المصير المادى والمعنوى للمجتمعات عليها حيث أشار عليه السلام إلى أن جمع الأموال الملوثة بالحرام والغصب والرشوه والغش إنما يبلغ درجه فى المجتمع بحيث يكون تحصيل الدرهم من الحلال أعقد من تحمل ضربه السيف فى المعركه، ومن هنا قلما يتعرض من ينفق أمواله فى سبيل الله آنذاك إلى الأجر والثواب لأنهم يعلمون أن أموالهم ليست طاهره، إلا أن الآخذين لا يعلمون ذلك، أو أنهم يعلمون لكنهم يضطرون لأخذ تلك الأموال المشكوكه أو المحرمه، وعليه فلا مسؤوليه عليهم أمام الله وأجرهم وثوابهم ثابت عنده بينما تبدو القضية معكوسه لو كان المجتمع سليماً وعلى ضوء الحديث النبوى المعروف:

«إِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(١) فيكون أجر المعطى أعظم من المعطى له.

على كل حال فما ورد فى كلام الإمام عليه السلام بشأن كثرة الأموال الحرام فى آخر الزمان صرحت بها بعض الروايات ومن ذلك ما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

ص: ١٨٣

١- (١) ميزان الحكمه، ج ١، ص ٤٣ ماده «اخ».

«أَقْلَّ مَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَخٌ يُوثَقُ بِهِ أَوْ دِرْهَمٌ مِنْ حَلَالٍ» (١).

ويُتَّضح ممَّا ذكرنا آنفا أنَّ العبارة لا تنطوي على مفهوم معقد ومجهول كما ذهب إلى ذلك بعض شراح نهج البلاغة فقدموا عدَّة احتمالات مستبعده وضعيفه.

ثم خاض عليه السلام في سائر المشكلات التي يعانى منها ذلك المجتمع الفاسد والذي ينتظره الناس بحكم الإجماع فقال:

«ذَاكَ حَيْثُ تَشْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النَّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَّارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ».

فأى مجتمع إنَّما يؤول إلى الإنهيار إن شهد هذه البليات الثلاث، الأثرياء يسكرون بالثروة فينسون الله وخلقه، وبالطبع فإنَّ سكر النعمة أخطر من سكر الشراب، فسكر الشراب قد ينتهى بعد مرور ليلة بينما قد يستمر سكر النعمة طيلة العمر، كذلك القسم من غير اضطرار والذي يوهن من شأن الله تعالى، والكذب من دون احراج الذى يزيل الثقة والاطمئنان وبالتالي تتعقد الحياه فى ظلَّ هذا المجتمع.

وقال عليه السلام فى اختتامه لهذا التكهن:

«ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمْ (٢) الْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ (٣) غَارِبَ (٤) الْبُعِيرِ مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ، وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ!».

يعتقد أغلب الشراح أن هذه العبارة منفصلة عن العبارات السابقة فإنَّ السيد الرضى - طبق عاداته - أسقط بعض العبارات حين اقتطافه لبعض العبارات الرائعة لخطب الإمام عليه السلام.

ولا يبدو هذا الكلام مستبعداً، لأنَّ

«ذَاكَ» تشير ظاهراً إلى النجاه والفرج الذى سيحصل للمؤمنين بعد كلِّ ذلك البلاء، والعبارة

«مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ» شاهد متين على هذا المعنى حيث قال عليه السلام: هنالك أمل فى النجاه بعد كلِّ هذا البلاء.

ص: ١٨٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٧.

٢- (٢). «عَضَّ» من ماده «عَضَّ» على وزن «خَزَّ» تستعمل كناية عن الحوادث التى تزعج الإنسان.

٣- (٣) «قَتَبُ» جهاز الناقة (اطار صغير أصغر قليلاً من سنام الناقة يوضع عليها ليجلس عليها الراكب).

٤- (٤) «الغارب» موضع بين العنق والسنام.

«ألا بأبى وأُمى» أنّ الإمام عليه السلام كان ينتظر تلك الفئه التى تنتشل المجتمع الإسلامى من الشر والفساد، وعلى كلّ حال فإنّ أنسب تفسير لمجموع هذا البحث ما ذكر سابقاً وقلنا إنّنا نأظر لحوادث آخر الزمان المريره ونجاه المجتمع البشرى منها بواسطه الإمام المهدي عليه السلام.

وهنا لابدّ من الإشاره إلى نقطتين ضروريتين: الأولى أنّه لماذا شبّه الإمام عليه السلام البلاء بالقتب (خشبه توضع على الناقه لحل مشكله سنامها الذى يؤذى ظهر الناقه)؟ لا يستبعد أنّ هذا التشبيه على أساس أنّ القتب يوضع لانقاذ الناقه من مشكله بروز السنام، لكنه يخلق مشكله أخرى فى أنّه يؤذى ظهر الناقه ورقبتها ويجرحها أحياناً، والبلاء فى ذلك الزمان والحوادث هكذا فى أنّ التفكير بالسبيل للخلاص منها يخلق مشكله أخرى للناس.

والسؤال الذى يطرح نفسه كيف يصرح عليه السلام باستبعاد الأمل بالنجاه بينما تورد الروايات قرب ذلك الأمل؟

والجواب أنّ ظهور الإمام عليه السلام مشروط بشرائط إن تحققت كان الفرج قريباً وإن لم تتحقق فهو بعيد؛ وبعباره أخرى يمكن للمؤمنين بتوفيرهم لشرائط الظهور من قبيل التزكيه والتهذيب والاستعداد الكامل والأدعيه المتواصله أن يقربوا ظهور الإمام عليه السلام بينما إن تركت هذه الأمور تأخر الظهور، وعليه فالظهور قريب من جهه وبعيد من جهه والذى نأمل أن يكون قريباً بلطف الله ورحمته.

تأمل

الحوادث الأليمه آخر الزمان

وردت فى هذه الخطبه وبعض خطب نهج البلاغه وروايات النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بعض الأخبار عن المستقبل المظلم والمعقد الذى ينتظر المؤمنين.

ومن خصائص ذلك الزمان عدم إكتراث أغلب الناس بالحلال والحرام. فيرون

كل ما يقع في أيديهم حلالاً كيفما حصلوا عليه ومن أي شخص اقتنصوه وهذه القذاره تلوث جميع حياتهم.

الخاصيه الأخرى سكر النعمه الذى يؤدى إلى نسيان المبدأ والمعاد فيعيش الإنسان فى عالم من الجهل على غرار من يسكر من الشراب، كما أنّ الإبتعاد عن الأحكام والتمسك بالحجج الواهيه لممارسه الأفعال غير المباحه والتعويل على الحيل الشرعيّه من الخصائص الأخرى لذلك الزمان وبالتالي تتحول البدع إلى سنن وتلبس السنن ثوب البدع.

جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ» (١).

كما ورد فى حديث آخر فى وصايا الرسول صلى الله عليه و آله إلى ابن مسعود أنّه يأتى على الناس زمان يتناولون فيه الأُطعمه اللذيذه ويركبون المراكب الفارهه ويتزين الرجال لنسائهم وتخرج النساء دون حجاب ويشاركن فى التجمعات حتى وصفهم النبي صلى الله عليه و آله بأنهم منافقو الأمه فى آخر الزمان ثم قال:

«يَا ابْنَ مَسْعُودٍ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ عَلَى دِينِهِ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجُمْرَةِ بِكَفِّهِ» (٢)، وسائر الحوادث الأليمه التى يطول ذكرها.

هذه النبوءات وبالإضافه إلى جانبها الاعجازى هى تحذير للمسلمين المخلصين للإسلام فى ضبط أنفسهم ويعلم أنّ هذا العصر سينتهى بظهور المهدي الموعود (أرواحنا فداه).

ص: ١٨٤

١- (١) مستدرک الوسائل، ج ١٣، الباب ١ من أبواب الربا، ح ١٨.

٢- (٢) . سفينه البحار، ماده زمان.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَنْزِمَةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورَهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلَمَّا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَيَدُّمُوا غِبَّ فِعَالِكُمْ. وَلَا تَفْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ قَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَيِّئَاتِهَا، وَخَلُّوا قَصِيدَ السَّبِيلِ لَهَا: فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ.

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاحِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِي بِهِ مَنْ وَلَجَهَا.

فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

الشرح والتفسير: وصايا للنجاه من الفتنة

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه عن الحوادث الأليمة في المستقبل في الجانب السابق من هذه الخطبة حتى ذكر أصحابه هنا ببعض الوصايا التي تنجيهم من أخطار تلك الأحداث فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَنْزِمَةَ (١) الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورَهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ».

هذه العبارة كناية عن أن الحوادث ستقع حولكم وتحمل آثار الفتنة والفساد فعليكم أن لا تتزعموها ولا تسهموا في تطورها، فالواقع أنه يذكرهم بما أمر به القرآن الكريم حين يقول: «وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» (٢).

ص: ١٨٧

١- (١). «أزمه» جمع «زمام»، معروفه.

٢- (٢) سورة المائدة، الآية ٢.

ثم أضاف:

«وَلَا تَصَدَّعُوا (١) عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُوا غِبَّ (٢) فِعَالِكُمْ. وَلَمَّا تَقْتَحِمُوا (٣) مِمَّا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ (٤) نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا (٥) عَنْ سَنَنِهَا (٦)، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ (٧) لَهَا».

هذا الكلام إشارة إلى أن الناس إن لم يسهموا في استفحال الفتن ولم يلجوها وابتعدوا عنها وقطعوا دابرها فسوف لن تنامي مخلفاتها والقضية بالضبط أشبه بسيل الماء العظيم الذي يعجز الناس عن السيطرة عليه، لكنهم إن فسحوا المجال لكي ينحدروا إلى الوديان والسهول فإن الأضرار التي تصيبهم ستكون أقل مما لو ولجوه وكانوا في وسطه.

ثم ذكر عليه السلام عله ذلك فقال:

«فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ».

إشارة إلى أن موج الفتنة على درجه من القوه بحيث لو انبرى المؤمنون لمواجهته لهلكوا ولسلم غيرهم من نحي نفسه عنها، وعليه لا ينبغي تبديد الطاقات عبثاً في مثل هذه الموارد، بل لابد من الحفاظ عليها والتربص حتى تحين الفرصه المناسبه وهذا بالضبط الفلسفه الأصلية للتقيه في المسائل الدينيه والاجتماعيه والسياسيه والتي تعنى ببساطه حفظ الطاقات وانتظار الفرصه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى موقعه بغيه فواق الغافلين والانتفاع بفيوضاته عليه السلام فقال:

«إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاحِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِي بِهِ مَنْ»

ص: ١٨٨

١- (١). «تصدعوا» من ماده «صدع» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل التشقق ثم جاءت بمعنى التفرق والاختلاف أو افشاء الشىء وأريد بها التفرق.

٢- (٢) «غِبَّ» عاقبه الشىء كما جاء بمعنى بين يوم ويوم وأريد به هنا المعنى الأول.

٣- (٣) «تقحموا» من ماده «أقحام» الإلقاء بالنفس دون رويه.

٤- (٤) «فور» و «فوران» معروف.

٥- (٥) «اميطوا» من ماده «ميط» على وزن «صيت» بمعنى الإبتعاد ومعنى الأبعاد فى باب الأفعال.

٦- (٦) «سنن» بمعنى الطريق و «سُنن» على وزن «كهن» جمع «سنه» بمعنى الأساليب.

٧- (٧) «قصد السبيل» يعنى وسط الطريق سواء طريق الحق أم الباطل ولكن غالباً ما تطلق على السبيل الوسط للحق قال القرآن: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» (النحل، الآية ٩) وأريد بها فى الخطبه المعنى الأول.

وَلَجَّهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا(١) ، وَأُخْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا».

نعم، فالإمام عليه السلام حين يتكهن بحوادث المستقبل المريره وظلمات الفتن يشير إلى سبيل النجاه فيقول: إنكم إنما تنجون من شر الأشرار والفتن التي يثيرها المفسدون إن سمعتم ما أقول لكم وحفظتموه وفكرتم فيه كما ينبغي.

وقد شبه الإمام عليه السلام نفسه هنا بالسراج المنير في أمواج الظلمه ثم أمر الناس بالاستضاءه بنور هذا السراج، فقد أمر أولاً بسماع كلامه وحفظه ثم أردفه بالأمر للتعلم به وإدراك حقيقته (وهذا هو الفارق بين مفهوم العبارة

«فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا»، والعبارة

«وَأُخْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا» حيث الأولى سماع وإدراك وحفظ والأخرى دقه وتعمق).

تأمل

الانسحاب من الفتن

أحياناً تظهر في المجتمعات البشريه بعض الفتن التي لا يقوى الأفراد المؤمنون على مواجهتها، كما لا يستطيعون تشكيل خليه للوقوف بوجهها وليس للأفراد الذين يقفون مباشره إزاء هذه الفتن ويقتحمونها من مصير سوى الهزيمة والانسحاب.

فأفضل سبيل في ظلّ هذه الظروف هو الانسحاب من أمام سيول الفتنة والتربص بالفرصة المناسبه بغيه مواجهتها، وبالطبع فإنّ الاجراءات المتهوره لا تنطوى على نتيجته سوى التضحية بالطاقات والقضاء على الفرص المستقبلية، وهذه هي فلسفه النهي عن النهضات في عصر أئمه العصمه عليهم السلام وهذا في الواقع فرع من فروع التقيه التي تهدف إلى حفظ القوى واستغلالها في الوقت المناسب.

فقد أكد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبه على هذه النقطة وأكد عليها مع أنّه أشجع فرد في الأمه ومن ابطال مواجهه أعداء الإسلام وخصوم الدعوه.

ص: ١٨٩

١- (١) «وعى» من ماده «وعى» على وزن «سعى» بمعنى الفهم والحفظ وتحذف منها الواو حين ترد بصيغه فعل الأمر والفعل المضارع.

فِي الْوَصِيَّةِ بِأُمُورٍ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى ثلاثه أمور مهمه: أوصى أولاً بالورع والتقوى واجتناب المعصيه وذكرهم بنعم الله لتكون لهم دافعاً نحو التقوى والطاعه.

ثم ذكرهم بالموت والانتقال من الدنيا وكيفيه هذا الانتقال بعبارات تهز النفس لتكون عاملاً نحو الطاعه وترك المعصيه.

وأخيراً حذّر من سرعه انقضاء الأيام والليالي والساعات ولا بدّ من الجد والمثابره للترود للدار الآخره.

ص: ١٩١

١- (١) سند الخطبه: لم يرد في كتاب مصادر نهج البلاغه مصدر آخر لهذه الخطبه غير نهج البلاغه سوى كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبي ويتضح من كثره الاختلافات مع ما جاء في نهج البلاغه أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧). طبعاً مضمون الخطبه على درجه من الرفعه بحيث يبدو من المستبعد جداً صدورها من غير الإمام المعصوم.

أَوْصِيَكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آيَاتِهِ إِلَيْكُمْ، وَنِعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمِهِ، وَتَدَارَكُكُمْ بِرَحْمَتِهِ! أَعُوذُ لَكُمْ لَهُ فَسْتَرَكُمُ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ!

الشرح والتفسير: التوصية بالتقوى والحمد

دعا الإمام عليه السلام جميع مخاطبيه في هذا القسم من الخطبه كما أشرنا سابقاً إلى التقوى وشكر الله على نعمه فقال:

«أَوْصِيَكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آيَاتِهِ إِلَيْكُمْ، وَنِعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلَائِهِ (١) لَدَيْكُمْ».

رغم أن

«آلاء» و «نعماء» تستعمل في أغلب الموارد بمعنى واحد هو النعمه، إلا أن البعض يعتقد أن آلاء إشاره إلى النعم المعنويّه ونعماء إشاره إلى النعم الماديّه؛ سيما إن وردت المفردتان مع بعضهما.

وتستعمل كلمه

«البلاء» بمعنى الامتحان والاختبار أو بمعنى الحوادث السارّه والأليمه وفي العباره السابقه وبالنظر إلى تناسق العبارات فهي بمعنى الحوادث السارّه، وقال البعض: المقصود هو الحوادث الأليمه التي يختبر الله الإنسان بها وتسبب ارتقاء رتبته وزيادة ثوابه عند الله وتعتبر نعمه بالنظر إلى هذا الأمر.

ص: ١٩٣

١- (١) «بلاء» أحياناً من ماده «بلو» ناقص واوى وأخرى من ماده «بلى» ناقص يائى والأولى بمعنى الاختبار والامتحان، فالامتحان بوفور النعمه أحياناً وندرته، وأحياناً بسلب النعم والآفات. قال الله تعالى «بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» (الأنبياء، الآيه ٣٥) والثانيه تعنى الكبر ثم وردت بمعنى النعم والحوادث الأليمه التي تنهك الإنسان، كما وردت هذه المفرده بمعنى اختبار، لأنها ثقيله على جسم الإنسان وروحه.

على كل حال فكلام الإمام عليه السلام هذا شبيه ما إستند إليه علماء الكلام فى بحث معرفه الله، وقالوا: الدافع الرئيسى لهذا البحث هو مسأله شكر المنعم، لأنّ الإنسان يرى نفسه غارقاً فى النعم وحيث إنّ شكر منعم النعمه كامن فى فطره الإنسان فإنّه يفكر فى واهب النعمه فيتجه إليه ليتعرف عليه ومن شأن هذا الأمر أن يكون سبباً لطاعته وتركه للمعصيه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح بعض هذه النعم فقال:

«فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمِهِ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَتِهِ! أَعُورُتُمْ (١) لَهُ فَسْتَرَكُمُ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ (٢) فَأَمْهَلَكُمُ!».

فقد أشار الإمام عليه السلام بادئ الأمر إلى النعم والرحمه المختصه بهذه الأُمَّه مثل خاتميه النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله وكونها خير أُمَّه وعدم نزول البلاء على الأُمَّه ما دام النّبى فيهم أو هم يستغفرون، ثم خاض عليه السلام بعد ذلك إلى مسأله ستر الله تعالى مقابل خرق هذا الستر من قبل العصاه وكذلك إعطاء المهله الكافيه من أجل التوبه والعوده إلى النفس وعدم العجله فى معاقبتهم وكل واحده منها نعمه عظيمه للغاية.

ص: ١٩٤

-
- ١- (١) «أعورتم» من ماده «عار» بمعنى العيب وكل شىء يعدّ اظهارها عيباً يطلق عليه العوره وحين يرد فى باب الأفعال كما ورد فى العبارة فهو يعنى إظهار العيب.
- ٢- (٢) «أخذ» وردت هذه الكلمه بمعنى العقاب.

وَأَوْصِيَكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَكَيْفَ غَفَلْتُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفَلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمَهَّلُكُمْ! فَكَفَىٰ وَاِعْظَا بِمَوْتِي عَيَّائِنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّارًا، وَكَأَنَّ الْأَخْرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا. أَوْحَشُوا مِمَّا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مِمَّا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَصَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا. لَاعَنُ قَبِيحَ يَسِيَّتِطِيعُونَ انْتَقَالًا، وَلَا فِي حَسَنِ يَسْتِطِيعُونَ ازْدِيَادًا. أَنَسُوا بِالْدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

الشرح والتفسير: أفضل الوعظ

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى نقطه مهمه من شأنها أن تكون دافعاً قوياً للتقوى آنفه الذكر؛ والتي تكمن في ذكر الموت، فأوصى بصوره عامه إلى ذكر الموت فقال:

«وَأَوْصِيَكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَكَيْفَ غَفَلْتُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفَلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمَهَّلُكُمْ!».

نعم! فليس هنالك من عقل يسوغ للإنسان الغفله عن حادثه لا يبد له من الوصول إليها، وعدم الإكتراث للشئ الذي لا أمل في الفرار منه، فالعاقل من يقرّ بهذه الحقيقه في أنّ الموت مصير حتمى لجميع الناس، بل الموجودات كافه، وما أعظم ما قال الشاعر:

كُلُّ ابْنِ انْتَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ

يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَدْبَاءٍ مَحْمُولُ

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح دقيق يهزّ الأعماق في تفاصيل لحظات الموت خلال ١٢ عباره صغيره وعميقه المعنى فقال:

«فَكَفَىٰ وَاِعْظَا بِمَوْتِي عَيَّائِنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ.».

نعم! فقد حملوا على أكتاف الناس ليتجهوا بهم صوب موطنهم الأبدى دون رغبتهم وأوردوهم حفره القبر دون إرادتهم.

ثم كشف عليه السلام عن مصيرهم بيانه لصفيتين فقال:

«فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّارًا (١) ، وَكَأَنَّ الْأَخْرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا.».

إشاره إلى أنّ كل شئ ينتهى في لحظه فيبلغ بهم البعد عن الدنيا درجه كأنهم لم يعيشوا فيها ويقتربوا من الآخره وكأنهم عاشوا فيها منذ الأزل.

ثم قال عليه السلام:

«أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ».

أجل! كانوا يشعرون بالوحشه حين يمرون بتلك القبور الهامده فيشيحون عنها بوجههم، سيما إن كان مرورهم بالليل، بينما أصبحت الآن وطنهم ولو عادوا اليوم بهذه الحال إلى بيوتهم ومساكنهم لاستوحش منهم الناس وبالعكس سيعيشون هم أيضاً تلك الوحشه - إن كان لهم إدراك وشعور -.

من جانب آخر فإنّ مشكلتهم الرئيسيّه أنّهم لم يعمروا دار الآخره واستفرغوا كلّ طاقتهم في عمران الدنيا حيث وصف ذلك الأمام عليه السلام في مواصلته لكلامه فقال:

«وَأَشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا».

والأسوأ من ذلك لا مجال هنا لتلافي ما فرط منهم وهذا ما أكدّه الإمام عليه السلام بقوله:

«لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالَ، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَادًا».

فهل لثمار الشجره إن انفصلت عنها من عوده إليها ومواصله حياتها ناضجه كانت أم فاسده؟ وهل الوليد الذي يخرج من بطن أمه سواء كان جينياً كاملاً أم ناقصاً يستطيع العوده إلى رحمها ويواصل نموه؟ كلا، نعم هذا هو حال أصحاب الدار

ص: ١٩٥

الآخره ليس لهم من سبيل إلى العوده ولذلك تغلق صحيفه أعمالهم وإلى الأبد، فلا يسعهم تلافى سيئه ولا إضافه حسنه، ولعل هذه أعظم مصيبه يفجع بها أصحاب الدنيا الآثمين، وإلا فإنّ اقترن الموت بالأعمال الصالحه فلا يعدّ مصيبه فحسب بل سعاده ورحمه فهو لا يعنى سوى تحطيم القفص وانطلاق الروح الإنسانيّه وتحليقها فى الفضاء العلوى، ومن هنا حين نزلت ضربه أشقى الأولين والآخرين عبد الرحمن بن ملجم على رأس مولى المتقين على عليه السلام قال:

«فَرْتُ وَرَبَّ الكَعْبَةِ».

ثم تناول عليه السلام سبب ذلك البؤس والشقاء فقال:

«أَنْسُوا بِالدُّنْيَا فَعَزَّتْهُمْ، وَوَثُقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ (١)».

نعم! فالوثوق بالدنيا كالوثوق بالسراب الذى يدعو الإنسان فى الصحراء المحرقه نحوه فلا يزيده إلا عطشاً ويحيل أمله يأساً، أو كالاعتماد على الجدار الرخو الذى ينهار عاجلاً أم أجلاً فيبقى الإنسان تحت أنقاضه.

تأمل

ذكر الموت

لم يقتصر التأكيد على ذكر الموت ونهايه الحياه على أمير المؤمنين عليه السلام بل هذا ما أكدته اساتذه الأخلاق والهداه إلى الصراط وفى مقدمتهم جميعاً القرآن الكريم بغيه إيقاظ الغافلين الموتى فى أنّ هذه الحياه زائله وليست خالده، فأطفال الأمس هم شباب اليوم وشباب اليوم هم كهول الغد وكهول الغد كأوراق الخريف التى تتساقط بريح الأجل لتلتحق بصفوف الأسلاف.

ويبدو الالتفات إلى هذه الحقيقه مدعاه لليقظه والاعتبار، فأغلب الناس يجدون فى العمل وكأنّهم مخلدون فى هذه الدنيا، والحال ليس هنالك م من طمأنينه لاستمرار هذه الحياه ولولساعه أخرى، ويكفى الالتفات إلى هذه النقطه فى انزال

ص: ١٩٧

١- (١) «صرعت» من ماده «صرع» على وزن «فزع» بمعنى التمريغ بالتراب.

الإنسان من مركب الغرور وفتح عينه على الحقائق وإناره الطريق أمامه.

ويبدو ذكر الموت وختم الحياه مفيداً نافعاً حين يتأمل الإنسان تلك الأحداث التي تواجهه حين الموت والانفتاح على العبارات والأشياء التي ركز عليها أمير المؤمنين في هذه الخطبه؛ فالانفصال عن الأعزّه، ومغادره الثروه والقصور والمقامات، والإبتعاد عن الأحبّه، ونزول تلك الحفره تحت التراب، والأهم من كل ذلك غلق صحيفه الأعمال واستحاله تلافى الأخطاء كل هذه الأمور تعدّ أعظم واعظ وأفضل ناصح.

ومن هنا جاء في الحديث النبوي الشريف:

«إِنَّ أَكْبَسَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا» (١).

وفي حديث آخر أنه صلى الله عليه و آله سئل:

«هَلْ يَحْشُرُ مَعَ الشُّهَدَاءِ أَحَدٌ» فقال:

«نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً» (٢).

ونختتم هذا البحث بحديث ينطوي على الدروس والعبر ورد بهذا الشأن عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال:

«إِنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ مَثَلٌ لَهُ مَالُهُ وَعَمَلُهُ وَوَلَدُهُ، فَيَلْتَفِتُ إِلَى مَالِهِ وَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ عَلَيْكَ حَرِيصًا شَجِيحًا فَمَا لِي عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: خُذْ مِنِّي كَفَنَكَ، قَالَ: فَيَلْتَفِتُ إِلَى وُلْدِهِ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ لَكُمْ مُحِبًّا وَعَلَيْكُمْ مُحَامِيًّا فَمَاذَا لِي عِنْدَكُمْ، فَيَقُولُونَ:

تُؤَدِّيكَ إِلَى حُفْرَتِكَ وَنُورِيكَ فِيهَا، قَالَ فَيَلْتَفِتُ إِلَى عَمَلِهِ فَيَقُولُ: إِنِّي وَاللَّهِ كُنْتُ فِيكَ لَزَاهِدًا وَإِنْ كُنْتُ عَلَى لَثْقِيلًا- فَمَاذَا عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا قَرِينُكَ فِي قَبْرِكَ وَيَوْمَ نَشْرِكَ حَتَّى أَعْرُضَ أَنَا وَأَنْتَ عَلَى رَبِّكَ» (٣).

ص: ١٩٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٦٧.

٢- (٢) المحجّه البيضاء، ج ٨، ص ٢٤٠.

٣- (٣) الكافي، ج ٣، ص ٢٣١، ح ١.

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَىٰ مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيْتُمْ إِلَيْهَا. وَاسْتَسْتَمُوا نَعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَالْمُحَابَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ عَمَدًا مِّنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

الشرح والتفسير: سبيل النجاه

كشف الإمام عليه السلام في هذا الجانب من خطبه سبيل النجاه بعد أن فرغ من التذكير بالموت ونهايه الحياه الدنيا والانتقال السريع إلى عالم الآخرة والحسره على ما بدر من تقصير واسراف فقال عليه السلام:

«فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَىٰ مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيْتُمْ إِلَيْهَا».

قطعاً المراد من المنازل منازل الآخرة التي ورد الحث في الآيات والروايات على إعمارها كما ورد الحث على الرغبة فيها والدعوة إليها، حيث قال الله تعالى في كتابه الكريم: «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» (١).

وقال في موضع آخر: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ» (١) وقال في سورة البقره: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنِهِ» (٢).

ثم أشار عليه السلام إلى سبيل آخر من سبل النجاه فقال:

«وَاسْتَقِيمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمُجَانِبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ».

ويمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى إكمال النعم الماديّة الدنيويّة أو إتمام هذه النعم مع زياده نعم الله الكبرى في القيامة، لأنّ الصبر على الطاعة والإبتعاد عن المعصية بمقتضى الآيه الشريفه: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (٣) سبب زياده النعم الماديّة والمعنويّة الدنيويّة والأخرويّة، ونعلم أنّ الشكر الحقيقي في أن يستعين الإنسان بنعم الله على طاعته ولا يستغلها أبداً ويتقوى بها على معصيته.

ونقرأ في حديث عن علي عليه السلام أنّه قال:

«أَقْلُ مَا يَلْزِمُكُمْ اللَّهُ أَنْ لَا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمَتِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ» (٤).

ثم قال في الختام كدليل على ما ذكر:

«فَبِإِنْ عَدَاً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مِمَّا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!» (٥).

والمراد من الغد في هذه العبارة إمّا الموت كما قال الشاعر:

عَلَى الْمَوْتِ إِعْدَادُ النَّفُوسِ وَلَا أُرْبَعِيداً غَدًا مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدٍ

أو المراد يوم القيامة كما ورد في الخطبه ٢٨:

«أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ وَغَدًا السَّبَاقُ».

ولكن بالإنلتفات إلى أنّ جانباً مهمّاً من هذه الخطبه ركز على الموت ونهايه

ص: ٢٠٠

١- (١) سورة يونس، الآيه ٤٥

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ٢٢١.

٣- (٣) . سورة ابراهيم، الآيه ٧.

٤- (٤) نهج البلاغه، الكلمه ٣٣٠.

٥- (٥) «عمر» على وزن «دهل» وعمر على وزن «ظهر» كلاهما بمعنى واحد أى مدّه الحياه، وقال البعض يطلق العمر على

الأربعين سنة الأولى والعمر بضميتين على جميع العمر أو الشق الثاني منه.

الحياه الدنيا وغلق صحيفه الأعمال؛ فالمعنى الأوّل هو الأمثل والعبارات الواردة بشأن سرعه مضي الأيام والشهور والسنوات والعمر شاهد آخر على هذا المعنى.

والطريف في الأمر أنّ الإمام عليه السلام ولتوضيح سرعه مضي العمر انطلق من أجزاءه الصغيره فأشار في البدايه إلى سرعه مضي الساعات في اليوم ثم مضي الأيام في الشهر والشهور في السنه والسنوات في العمر ليّتضح تماماً هذا المرور السريع والحقّ أنّ الأمر كذلك. فأغلب الكهول حين يسألون: كيف مضي عمركم؟ يجيبون:

أسرع من البرق أو كطرفه العين، كأننا بالأمس كنّا نلعب مع الصبيه في الأزقه ونسرح ونمرح مع الشباب، ولم نكد ننظر في المرآه حتى طالعنا علامات الكهوله وبدت واضحه على رؤوسنا ووجوهنا، فضعف البدن وشلت الأعضاء عن الحركة وانحنت القامه وتقطعت الأنفاس.

والحقّ أنّ الخطبه برمتها سيما الجانب الأخير منها تحذير غايه في التأثير لإيقاظ العقول النائمه، قال ابن أبي الحديد في ختام هذه الخطبه:

«كَلَامٌ شَرِيفٌ وَجِيزٌ بِالْغَيْ فِي مَعْنَاهُ وَالْفَصْلُ كُلُّهُ نَادِرٌ لَا نَنْظِيرَ لَهُ» (١).

ص: ٢٠١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ١٠٠.

فى الإيمانِ ووجوبِ الهجره (١)

نظره إلى الخطبه

رغم قصر هذه الخطبه إلا أنها عظيمه المضامين ومؤلفه من أربعة أقسام، خاض القسم الأول فى أقسام الإيمان (الإيمان الراسخ والمتقلب) وتطرق الثانى إلى مفهوم الهجره فى الإسلام على أنها من المفاهيم المستمره والدائمه، وأشار فى القسم الثالث إلى صعوبه إدراك بعض أحاديث المعصومين أو تعذر تحملها، وأخيراً أشار القسم الرابع إلى سعه علمه عليه السلام داعياً الجميع للانتهاال من منبعه الفياض قبل فقده.

ص: ٢٠٣

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه عدد من الأعلام ممن عاش قبل وبعد السيد الرضى. كما روى بعضها كل من المرحوم محمد بن حسن الصفار المتوفى عام ٢٩٠ فى بصائر الدرجات والمرحوم الصدوق المتوفى عام ٣٨١ فى عيون الأخبار والخصال. ورواها الأمدى فى غرر الحكم والثعالبى فى الإيجاز والإعجاز باختلاف (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٩).

فَمِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، إِلَى أَجْلِ مَعْلُومٍ، فَمَاذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُّوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبِرَاءَةِ.

الشرح والتفسير: الإيمان الثابت والأجوف

كما أشير سابقاً فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى أقسام الإيمان الثابت منه وغير الثابت، فقال:

«فَمِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، إِلَى أَجْلِ مَعْلُومٍ».

فتقسيم الإيمان إلى ثابت ومستقر وأجوف ومتزلزل وبعبارة أخرى عارٍ مما وردت الإشارة إليه في الأخبار والروايات.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآيه الشريفه: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ»^(١):

«فَالْمُسْتَقَرُّ الْإِيمَانُ الثَّابِتُ وَالْمُسْتَوْدَعُ الْمُعَارُ»^(٢).

وفي حديث آخر عن أبي الحسن عليه السلام في تفسير الآيه السابقه:

«مَا كَانَ مِنَ الْإِيمَانِ الْمُسْتَقَرُّ فَمُسْتَقَرٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَبْدًا وَمَا كَانَ مُسْتَوْدَعًا سَلَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ الْمَمَاتِ»^(٣).

ص: ٢٠٥

١- (١). سورة الأنعام، الآيه ٩٨.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ١، ص ٢٦٥، ح ١٣٥٠.

٣- (٣) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥١، ح ٢٠٧.

ورغم الاختلاف في تفسير الآيه المذكوره؛ ومن ذلك ما قيل أنّ المراد من المستقر أولئك الذين قرّوا في الدنيا من الرحم والمستودع أولئك الذين ما زالوا في الأرحام، إلّا أنّ ذلك لا يمنع من أن يكون للآيه عدّه تفاسير.

على كلّ حال فإن كان للإنسان نفس مطمئنّه ورسخ الإيمان في أعماقه كان إيمانه مستقراً ولا يتزلزل مهما تغيرت الظروف وتعرض للترغيب والترهيب؛ بينما يمكن زواله بسهولة إزاء المغريات ما لم يكن راسخاً.

وأسباب تزلزل الإيمان متعدده؛ منها عدم الانفتاح على الأدله المحكمه واتباع الهوى وضعف النفس ومقارفة الذنوب والمعاصي، فكلّ من هذه الأمور قد يزلزل الإنسان آواخر عمره ليغادر الدنيا في خاتمه المطاف بلا إيمان.

والعبارة:

«عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ» كناية عن أنّ الإيمان لم يتسلل لحدّ إلى قلب الإنسان وروحه ولذلك لم يستقر، أشبه بالإنسان الذي يبلغ جدار منزل ولا يدخله، فبالطبع ليس لهذا الشخص من استقرار.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فحذر من البراءة من الأفراد قبل اختتام عمرهم، ذلك لأنّ مصير الإنسان يتّضح آخر عمره؛ فقال عليه السلام:

«فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَفِقُوهُ حَتَّى يَخْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حُدُّ الْبَرَاءَةِ».

وعلى هذا الضوء فلا يمكن إصدار الأحكام القطعيّة بحقّ أي شخص، لا بشأن الفرد المؤمن ولا غير المؤمن، لإمكانية عوده كلّ منهما آخر الطريق بفعل بعض العوامل المختلفه، وإن كان هنالك من حكم فهو حكم مرحلي ومؤقت.

تأمل

عناصر ثبات الإيمان

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه المذكوره آنفاً إلى تصنيف الإيمان إلى صنفين مستقر ومتزلزل، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هي العناصر

ص: ٢٠٦

التي تقف وراء زعزعه الإيمان وثباته؟

وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة إجمالاً، فالكبائر والاستخفاف بالوظائف الشرعيّة لمن دواعى زعزعه الإيمان وسوء العاقبه؛
إِلَّا أَنَّ الْآيَاتِ وَالرُّوَايَاتِ أَكَّدَتْ عَلَى أُمُورٍ مَعِينَةٍ، مِنْهَا:

مجالسه رفاق السوء والمنافقين؛ ففي الآيه ٢٨ و ٢٩ من سوره الفرقان يُعرب بعض أصحاب النار يوم القيامة عن أسفهم لاتخاذهم
بعض الأصدقاء فيقولون: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي».

وفى الآيه ٥٦ و ٥٧ من سوره الصافات ينادى أحد أصحاب الجنّه صاحبه الضال فى جهنم: «تَاللَّهِ إِن كِدَّتْ لَتُزِدِنِي * وَلَوْلَا نِعْمَةُ
رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عمّا يثبت الإيمان فى قلب الإنسان؟ فقال:

«الَّذِي يُثَبِّتُهُ فِيهِ الْوَرَعُ، وَالَّذِي يُخْرِجُهُ مِنْهُ الطَّمَعُ» (١).

وروى عنه عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ كَانَ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوَافِقًا فَانْتَبَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ بِالنَّجَاهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوَافِقًا فَانْتَمَا ذَلِكَ مُسْتَوْدِعًا» (٢).

كما بين أمير المؤمنين على عليه السلام لكميل سبيل ثبات الإيمان فقال:

«يَا كَمِيلَ! إِنَّمَا تَسْتَبِحُّ أَنْ تَكُونَ مُسْتَبْرَأً إِذَا لَزِمْتَ الْجَادَّةَ الْوَاضِحَةَ الَّتِي لَا تُخْرِجُكَ إِلَى عَوْجٍ وَلَا تُزِيلُكَ عَنْ مَنْهَجٍ مَا حَمَلْنَاكَ
عَلَيْهِ وَهَدَيْنَاكَ إِلَيْهِ» (٣).

طبعاً لا تقتصر عناصر ثبات وزعزعه الإيمان على ما ذكر سالفاً، غير أنّها تمثل أهم تلك العناصر.

ص: ٢٠٧

١- (١) ميزان الحكمه، ج ١، ص ١٣٥٩.

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٤٢٠.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢٧٢.

وَالْهَجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حِدِّهَا الْأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُشْتَبِرٍ الْأَمَّةِ وَمُغْلِنِهَا. لَا يَقَعُ اسْمُ الْهَجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفِهِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْإِسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاها قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ائْتَمَرَ بِاللَّهِ قَلْبُهُ لِلْإِيمَانِ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مَنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْعَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةً تَطَّأُ فِي خِطَامِهَا، وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا.

الشرح والتفسير: سلوني قبل أن تفقدوني

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمّة: الأول تفسير واضح لمفهوم الهجرة، فنحن نعلم أنّ الهجرة كانت من علامات الإيمان أوائل الدعوه؛ أي أنّ من آمن وكان في سائر المناطق غير المدينة ومنها مكة وجب عليه الإلتحاق بالنبي صلى الله عليه وآله في المدينة؛ لينهل من تعاليم الإسلام ويشد بحضوره شوكة المؤمنين، إلّا أنّ الهجرة فقدت مفهومها كما يبدو بعد بسط الإسلام لنفوذه على الجزيرة العربية، وعليه فلم يعد من ضروره لأنّ يلتحق بالنبي من آمن في سائر المناطق، غير أنّ الهجرة بمفهومها الواقعي أي جوهر الهجرة وروحها ما زال باقياً

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى من الهجره فقال:

«وَالهَجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرٍّ (١) الْأُمَّةِ وَمُغْلِنَهَا» (٢).

«إمّه»: بكسر الهمزة في العبارة المذكوره بمعنى (الحاله) وتشير هنا إلى الإيـمان، أى الشخص الذى يكتـم إيمانـه، إلّا أنّ البعض قرأها بضم الهمزة ليصبح معنى العبارة، أولئك الأفراد من الأمّة الإسلاميه الذين كتموا إيمانهم وأولئك الذين أعلنوه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد هذا البيان الإجمالى إلى شرح معنى الهجره بكلام رقيق فقال:

«لَمَّا يَفْعُ اسْمُ الْهَجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلَا يَفْعُ اسْمُ الْإِسْتِضَاعِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاها قَلْبُهُ» (٣).

وزيده كلام الإمام عليه السلام أنّ الهجره باقيه فى كلّ زمان ومكان على غرار عصر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، لكن ليس بمعنى انتقال المؤمن من مكان إلى آخر، بل بمعنى معرفه حجّه الله أى خليفه رسول الله الحقّ، وحسب تعبير الحديث النبوى الشريف معرفه إمام الزمان والإيمان به، سواء حصل هذا الأمر عن طريق الهجره المكاتبه أو بدونها، فالمهاجر الحقّ من عرف إمام زمانه، لأنّ الهدف من الهجره الذى يتمثل فى معرفه حجّه الله فى الأرض قد حصل عليه، ومن لم يكن كذلك فهو مستضعف قد يكون معذوراً وقد لا يكون كذلك.

فأولئك الذين تعذر عليهم السبيل إلى المعرفه هم من الطائفه الأولى (معذورون) وأولئك الذين اتيح لهم سبيل المعرفه ولم يغتتموه فهم من الطائفه الثانيه (غير معذورين).

ص: ٢١٠

١- (١) «مستسرّ» من ماده «سّر» بمعنى الشخص الذى يكتـم شيئاً.

٢- (٢) طبقاً لما ورد فى العبارة فإنّ (ما) فى العبارة (ما كان لله...) نافية، إلّا أنّ بعض شراح نهج البلاغه اعتبروها زمانيه بمعنى (ما دام) وقالوا إنّ مفهوم العبارة هو أنّ الهجره باقيه ما دام الله بحاجة إلى إيمان الناس والحاجه هنا بمعنى الطلب والمراد منها أوامر الله ونواهيه للناس، ولكن يبدو المعنى الأوّل أنسب.

٣- (٣) لا بدّ من الالتفات إلى أنّ (إلّا) محذوفه فى بعض نسخ صبحى الصالح لكنّها موجوده فى النسخ المصححه وليس للعبارة من معنى صحيح بدون (إلّا).

ويطلق «المستضعف» في القرآن والروايات الإسلاميّة على معنيين: الأوّل:

الأفراد الذين يعانون من الضيق في الحياه الماديّه كما ورد في الآيه ٥ من سوره القصص: «وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ». هذه الآيه إشاره إلى قصه بنى اسرائيل والفراعنه وتشير إلى أصل كلّى في باب المستضعفين.

الثانى: الأفراد الذين يعانون من الضيق من الناحيه الدينيه ولا يستطيعون الهجره من مناطقهم وقد قال القرآن الكريم فيهم: «وَمَا لَكُمْ لَاتَمَنَّا تُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا» (١). فهذه الآيه تتحدّث عن مسلمى مكه الذين تعذرت عليهم الهجره وضيق عليهم المشركون فى أداء مناسكهم الدينيه بحريه وقد شجع القرآن مسلمى المدينه على إنقاذهم من مخالف المشركين واطلق عليهم اسم الاستضعاف.

ولهذه المفرده معنى ثالث فى الروايات حيث يراد بها الشخص العاجز عن تحرى الحقّ ومعرفته؛ سواء بسبب الضعف الفكرى أو بعده عن مصادر التحقيق.

ففى الخبر سئل الإمام الباقر عليه السلام عن المستضعف فقال:

«هُوَ الَّذِي لَا يَهْتَدِي حِيلَهُ إِلَى الْكُفْرِ فَيَكْفُرُ وَلَا يَهْتَدِي سَبِيلًا إِلَى الْإِيمَانِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْفُرَ» (٢).

ومراد الإمام عليه السلام فى الخطبه هو المعنى الثالث.

وسنقدم شرحاً وافياً فى بحث التأمّلات بشأن حقيقه الهجره.

ثم أشار عليه السلام إلى الأمر الثانى فقال:

«إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَضْعَبٌ (٣)، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ

ص: ٢١١

١- (١). سوره النساء، الآيه ٧٥.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٤٠٤، باب المستضعف، ح ١.

٣- (٣). «مستعصب» من ماده «صعب» بمعنى المشكل وصعوبه فهم الشىء ومجيبىء المفردتين صعب ومستعصب مع بعضهما، للتأكيد.

مُؤْمِنٌ اِمْتَحَنَ اللّٰهُ قَلْبَهُ لِلْاِيْمَانِ، وَلَا يَعْى (١) حَدِيثَنَا اِلَّا صُدُوْرٌ اَمِيْنَةٌ، وَاَحْلَامٌ رَزِيْنَةٌ (٢)».

لقد ورد مثل هذا التعبير فى سائر الروايات عن الأئمة المعصومين عليهم السلام وربّما يكون إشاره إلى الروايات التوحيدية العميقة المتعلقة بصفات الله الجماليه والجلاليه ومقامات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وأفعالهم فى عالم التكوين بإذن الله وشفاعتهم الواسعه لمذنبى الأئمة وعلمهم بالغيب وحوادث المستقبل بتعليم الله تعالى والتي لا- يحتملها كل شخص؛ ذلك لأنّ أغلب الجهّال يرون صفات الله على غرار صفات المخلوق ويرون النبى والإمام المعصوم كسائر الناس العاديين، فمن الطبيعى أن لا- يتحمل أمثال هؤلاء الأفراد استيعاب تلك الأحاديث، على غرار ما جاء فى بعض خطب نهج البلاغه حيث إنّ أمير المؤمنين عليه السلام حين أشار إلى جانب من الأخبار الغيبية اتهمه بعض الجهّال الذين ضاق عليهم قبول ذلك الكلام بالكذب والعياذ بالله.

وستتطرق إلى جانب من هذه المقامات فى آخر هذه الخطبه وبالتأكيد سوف لن يتحملة الجميع.

والعلاقه بين هذا القسم من الخطبه وما ذكره الإمام عليه السلام بشأن الهجره أنّ من يهاجر لمعرفة إمام زمانه عليه أن يتحلى بصدر رحب وروح واسعه وفكر رصين ليتسنى له الانتهاال من فيض هذه العيون الربانيه الجياشه.

ثم قال عليه السلام فى الأمر الثالث:

«أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُّوْنِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَا نَا بِطُرُقِ السَّمَاوَاتِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ (٣) بِرِجْلَيْهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا (٤)،

ص: ٢١٢

١- (١) «يعى» من ماده «وعى» على وزن «سعى» بمعنى الفهم والحفظ.

٢- (٢) «رزينه» من «رزانه» بمعنى الوقار ورزين بمعنى الشخص الوقور.

٣- (٣) . «تشغر» من «شغور» على وزن «شعور» لها عدّه معان ومنها الهجوم الذى يناسب العبارة المذكوره ومن معانيها الرفع ورفع الرجل بمعنى شروع الحركه أى قبل حركه الفتنة.

٤- (٤) «خطام» بمعنى «زمام» والعبارة «تطأ فى خطامها» كناية عن كون الفتنة كالدابّه فى ارسالها وطيشها ولا قائد لها.

وَتَذَهَبُ بِأَحْلَامٍ (١) قَوْمَهَا».

هذا الكلام هو الآخر من الأحاديث الصعبة والمستصعبه بشأن مقامات المعصومين التي لا يتحملها الجهال؛ إلا أن علياً عليه السلام قالها كراراً وأجاب كل شخص بما سأل.

والجدير بالذكر أن هذا الكلام لم يقتصر على مصادر الشيعة بل رواه علماء العامه أيضاً، قال يحيى بن سعيد بن المسيب حسب نقل الاستيعاب:

«ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه» (٢).

كما روى في ذلك الكتاب عن أبي الطفيل قال: رأيت علياً عليه السلام خطب وقال:

«سئلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم؛ وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل» (٣).

كما ورد عن عبد الله بن عباس في كتاب الاستيعاب أنه قال:

«والله لقد أعطى علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم وأئيم الله لقد شاركتكم في العشر العاشر» (٤).

ونختتم هذا الكلام بحديث آخر ذكره محمد بن يوسف البلخي في كتابه، فقد روى:

أن علياً عليه السلام خطب الناس فقال:

«سلوني قبل أن تفقدوني...» سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من طرق الأرض، فقام إليه رجل من وسط القوم وقال له:

أين جبرئيل في هذه الساعة. فرمق بطرفه إلى السماء ثم رمق بطرفه إلى المشرق ثم رمق بطرفه إلى المغرب فلم يجد موطناً فالتفت إليه وقال: يا هذا الشيخ أنت جبرئيل. فقال الرجل: بخ بخ لك يا علي بن أبي طالب إن الله يباهي بك ملائكته.

قال ذلك ثم صفق طائراً من بين الناس (٥).

وضمنياً فإن أعلميته عليه السلام بطرق السماء بالنظر لأهميتها بالنسبة للأرض.

ص: ٢١٣

١- (١) «أحلام» جمع «حلم» على وزن «نهم» بمعنى العقل كما وردت بمعنى النوم والرؤيا والمعنى الأول هو المراد.

٢- (٢) الاستيعاب، ج ٢، ص ٥٠.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٥٢.

٤- (٤) المصدر السابق، ص ٥٠.

٥- (٥) احقاق الحق، ج ٧، ص ٢٦١ وجاءت هذه الرواية مع اختلاف طفيف في بحار الأنوار (من كتاب فضائل شاذان بن جبرئيل) ج ٣٩، ص ١٠٨، ح ١٣.

الهجرة في الإسلام

نعلم أنّ التاريخ الإسلامي كتب على أساس الهجرة أي أنّ المسلمين لم يعتمدوا ميلاد النبي صلى الله عليه وآله كمبدأ للتاريخ ولا بعثته، بل جعلوا المبدأ عام الهجرة وهذا يدل على أنّ أهم فصل في حياة المسلمين كان الهجرة، والواقع أنّ الهجرة هي التي فتحت صفحة جديده في تاريخ الإسلام لتكون انطلاقة للحكومة الإسلاميّة وتقدم المسلمين في جميع المجالات.

فالوسط المكي لم يستطع استيعاب رساله بصوره تامه رغم الدعوه النبويّه التي استمرت ثلاث عشره سنه، لأنّ زعماء قريش الطغاه سعوا للقضاء على كلّ حركه تهدد كيانهم في مهدها؛ حيث كانوا يرون الوثنيه راعيه لمصالحهم والتوحيد خطراً عليها؛ إلّا أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أعدّ خلال هذه الفتره طائفه من الفتيه المخلصين فأوفدهم إلى المدينه قبل أن يهاجر إليها ثم التحقت بهم صفوه من أهل المدينه فاتفقوا وتعاهدوا حتى قدم رسول الله فاستقبل هنالك وأخذ ينشر الإسلام بكلّ حريه وتمكن من بناء مسجد.

واستمرت الهجرة كفريضه إلهيه؛ أي أنّ كلّ فرد كان يعتنق الإسلام وأينما كان في الجزيره العربيه ينبغي عليه الإلتحاق بالمدينه وشد ظهور المسلمين، أمّا أولئك الذين لم يهاجروا فلم يشملوا بالولاية الإسلاميّه حسب النص القرآني الصريح «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا» (١).

ويبدو أنّ موضوع الهجرة قد انتهى إبان فتح مكه وبسط نفوذ الإسلام على جميع المنطقه، ولم يُعتبر الأفراد الذين قدموا إلى المدينه من مكه بعد ذلك التاريخ من المهاجرين حيث ورد في الحديث النبوي الشريف:

«لَا هِجْرَةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ» (٢).

ص: ٢١٤

١- (١) سورة الانفال، الآية ٧٢.

٢- (٢) كنز العمال، ح ٤٦٢٥١.

ثم اتسع مفهوم الهجره فأصبح المهاجر من يغادر بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، كما يعتبر من زمره المهاجرين من يهجر منطقه إلى أخرى لدفع شر خصوم الدعوه، لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف:

«أَيُّهَا النَّاسُ هَاجِرُوا وَتَمَسَّكُوا بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ الْهَجْرَةَ لَا تَنْقَطِعُ مَا دَامَ الْجِهَادُ»^(١).

ثم تجاوزت الهجره هذا المعنى لتشمل الهجره الباطنيه والمعنويه بالإضافة إلى الهجره المكانيه والخارجيه، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف:

«وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»^(٢).

كما ورد عن علي عليه السلام أنه قال:

«يَقُولُ الرَّجُلُ هَاجِرٌ وَلَمْ يُهَاجِرْ إِنَّمَا الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يَهْجُرُونَ السَّيِّئَاتِ وَلَمْ يَأْتُوا بِهَا»^(٣).

وعلى هذا الضوء فمن يهاجر من مكان إلى آخر دون أن تكون له هجره معنويه وباطنيه، أي لا يبتعد عن الذنوب والمعاصي، فهو ليس في زمره المهاجرين الواقعيين.

ويبدو دليل هذا الاتساع في مفهوم الهجره واضحاً، لأن روح الهجره وجوهرها الانتقال من الكفر إلى الإيمان ومن المعصيه إلى الطاعه.

ومن هنا يدخل في دائره الهجره من عرف إمام كل زمانه ثم سارع إلى الإلتحاق به لنيل المعارف الدينيه كما ورد في الخطبه.

ص: ٢١٥

١- (١) كنز العمال، ح ٦٤٢٦٠.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ١١، ح ٢١٠٦٥.

٣- (٣) سفينه البحار، ماده هجره.

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيَعِظُ بِالتَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبه

تعدّ هذه الخطبه من أبلغ خطب أمير المؤمنين عليه السلام وتتكون من عدّه أقسام:

القسم الأول: في حمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالنبوه والرساله وتطرق وتطرق فيها لنصره صلى الله عليه وآله و آله على أعدائه بلطف الله.

القسم الثاني: تضمّن التأكيد على مسأله التقوى، فقد دعى الجميع إلى الاستعداد لسفر الآخره والحديث عن نهايه الحياه وخطوره الموت والحوادث التي تعقبه.

القسم الثالث: الحديث عن المصير المشرق للصالحين فى الدار الآخره ونعم الجنّه العظيمه والسكينه التامه والثواب الأخرى العظيم الخالد ضمن التأكيد على

ص: ٢١٧

١- (١) سند الخطبه: قال ابن أبى الحديد: وأعلم أنّ هذه الخطبه من أعيان خطبه ومن ناصح كلامه ونادره، وفيها من صناعه البديع الرائعه المستحسنه البريئه من التكلّف ما لا يخفى. وقد أخذها ابن نباته فأودعها خطبه وشذّر بها كلامه. وقال صاحب مصادر نهج البلاغه بعد نقله لهذا الكلام: فلو لم يكن ابن أبى الحديد اطّلع عليها فى غير نهج البلاغه لم يقل إنّها من أعيان خطبه مع ملاحظه أنّ ابن نباته توفى سنه ٣٧٤ هجرى أى قبل صدور نهج البلاغه. وروى الآمدى من هذه الخطبه فى غرر الحكم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٣).

تقلب الدنيا وشرح العذاب الأخرى الذى ينتظر المجرمين فى الآخرة.

القسم الرابع: عاد الإمام عليه السلام إلى ما بينه فى القسم الثانى من الخطبه ليحث الجميع بعبارات جديده على التأهب للرحيل إلى عالم الآخرة.

القسم الخامس وهو القسم الأخير من الخطبه: خاطب فيه الإمام عليه السلام أصحابه وحذرهم من التسرع والقيام بالنهضات غير المجديه والقرارات الساذجه بغيه نيل الشهاده وأمثال ذلك، وصرح بأن الشهاده ستكون من نصيب من سار على الطريق المستقيم وإن مات على فراشه.

ص: ٢١٨

أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَادًا عَنِ دِينِهِ؛ لِمَا يَنْبَغِيهِ عَنِ ذَلِكَ اجْتِمَاعَ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالتَّمَسُّسَ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ.

الشرح والتفسير: نبى الرحمة والجهاد

استهل الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بحمد الله والثناء عليه فقال:

«أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ؛ عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ (١)».

التعبير بـ

«الوظائف والحقوق» لعله إشارة إلى الواجبات الدينية كالصوم والصلاة والخمس والزكاة التى لا تتم بصوره كامله إلا بتوفيق الله، ويمكن أن تكون إشارة إلى حقوق الله التى تفرزها نعمه كنعمة الأذن والعين والعقل والفتوه والمعافاه التى يتطلب كل واحده منها شكراً.

ثم خاض فى الشهاده للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرساله وبعض صفاته فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَادًا عَنِ دِينِهِ؛ لِمَا يَنْبَغِيهِ (٢) عَنِ ذَلِكَ اجْتِمَاعَ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالتَّمَسُّسَ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ».

ص: ٢١٩

١- (١) «مجد» بمعنى الشرف والجلال والوقار والعظمة، وهذه الصفه تختص بصوره تامه بالله تعالى.

٢- (٢). «يثنيه» من ماده «ثنو» على وزن «سعى» تعنى فى الأصل طى الخبر وحين تقترن بالعطف على وزن «كتف» بمعنى طى الضلع وهى كناية عن الانصراف عن الشىء وعدم الاهتمام به.

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من خطبته إلى نقطتين مهمتين في سيره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله؛ الأولى، أنه منتصر دائماً في قتاله لأعدائه، وهذا دليل واضح على زعامته صلى الله عليه وآله وخططه في مواجهه الأعداء وخصوم الدعوه، إلى جانب الإمداد الغيبي والعنايه الإلهيه.

والأخرى، أنّ اتحاد الأعداء ووقوفهم بوجهه لم يؤثر على عزمه وإرادته صلى الله عليه وآله ويصرفه عن دعوته، فكان يحث الخطى - بصبرٍ على المصاعب - نحو هدفه حتى بلغه.

ومن الحوادث التاريخيه المعروفه عندما جاء رؤوساء قريش إلى أبى طالب وأرادوا أن يكلموا النبى صلى الله عليه وآله وقالوا له: يا محمّد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهه، وسفّهت الأحلام، وفرقت الجماعه.. فإن كنت إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنّما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيتك رثياً تراه قد غلب عليك - وكان يسمون التابع من الجن رثياً - فربّما كان ذلك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه، فقال لهم:

«ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، مبلّغكم رسالات ربّي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» (١).

وكذلك عندما جاء رؤساء قريش إلى أبى طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد آتيناك تفضى بيننا وبين ابن أخيك، فإنّه سفّه أحلامنا، وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب

ص: ٢٢٠

١- (١) سيره ابن هشام، ج ١، ص ٣١٧.

رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك، فقال:

«مَاذَا يَسْأَلُونَنِي؟»، قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وآلهك، فقال:

«أَتُعْطُونَنِي كَلِمَةً وَاحِدَةً تَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ؟»، فقال له أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال:

«قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فقاموا وقالوا: «أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ» (١).

وروى أن النبي صلى الله عليه وآله استعبر ثم قال:

«يَا عَمَاءُ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي شِمَالِي مَا تَرِكَتُ هَذَا الْقَوْلَ حَتَّى أَنْفَذَهُ أَوْ أُقْتَلَ دُونَهُ»، فقال له أبو طالب:

امض لأمرك فوالله لا أخذلك أبداً (٢).

ص: ٢٢١

١- (١) سورة ص، الآية ٥.

٢- (٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٤٣؛ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٧.

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا ذُرُوتُهُ.

وَيَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَامْتَهِدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ فَإِنَّ الْغَايَةَ الْفِيَامَةَ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهَلَ! وَقَبِيلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعَلَّمُونَ مِنْ صَبِيحِ الْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَرَوْعَاتِ الْفَرْعِ، وَاخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ، وَاسْتِكَاتِ الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ.

الشرح والتفسير: الأحوال القادمة

خاض الإمام عليه السلام بعد حمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالرساله، في موضوع مهم ومصيري في حياه الإنسان ألا وهو التقوى فقال:

«فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقِلًا (١) مَنِيعًا (٢) ذُرُوتُهُ (٣)».

فالواقع أنّ عالم الدنيا بمنزله البئر الذي يتعذر الخلاص من مخاطره سوى من خلال التمسك بجبل متين ألا وهو التقوى، ثم شبهه التقوى بالحصن الحصين حيث ينجو من تحصن فيه من الأخطار أو كقمه الجبل المنيعه وعلى هذا الأساس فإنّ التقوى وسيله للنجاه من حضيض الذلّه إلى ذروه السعاده والعزّه كما أنّها الدرع الذي يقى الإنسان عواصف الشهوات والهوى والهوس.

ص: ٢٢٣

١- (١) «معقل» بمعنى الملجأ والجبل المرتفع من العقل بمعنى المنع.

٢- (٢) «منيع» من «منع» بمعنى الأصم الصعب المنال والبرج العالى.

٣- (٣) «ذروته» تطلق على قمه الجبال والجانب المرتفع من كلّ شىء.

ثم تعرض الإمام عليه السلام إلى أهم وسائل العبرة والعظة فرسمها بصورة دقيقة ومعبرة فقال:

«وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمْرَاتِهِ، (١) وَاْمَهْدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ:

فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَأَعْظَا لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهَلَ!«.

فمن الطبيعي أنه ينبغي للشخص المقبل على سفر مليء بالأخطار والذي لا عوده فيه، من التأهب التام له وتوفير جميع السبل التي تلزم للمسير إليه وهو السفر المعروف بسفر الآخرة الشاق، ومما لا شك فيه أنه ليس هنالك أى خشية أو قلق إن اتجه الإنسان إليه بصحيفه أعمال مليئه بالحسنات وخاليه من السيئات، وهنا خاض الإمام عليه السلام فى ذكر جانب من الحوادث المريره للموت والقبر فقال:

«وَقَبِيلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضَيْقِ الْأَرْمَاسِ (٢)، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ (٣)، وَهَيْزُولِ الْمُطَّلَعِ (٤)، وَرَوْعَاتِ (٥) الْفَزَعِ، وَاخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ (٦)، وَاسْتِكَاكِ (٧) الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخَيْفَةِ الْوَعْدِ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ (٨)، وَرَدْمِ (٩) الصَّفِيحِ (١٠)».

بالإلتفات إلى أن الموت لا- يعنى لنا انتهاء كل شىء حيث تبقى الروح بعد الموت تعيش الحياه الأخرى الخالده، فإن القبور الضيقه والمظلمه مقارنة بالبيوت الواسعه والجميله تبدو غايه فى الوحشه إلى جانب القلق المتعلق بضغطة القبر والخوف من

ص: ٢٢٤

- ١- (١) . «غمرات» جمع «غمره» على وزن «ضربه» بمعنى إزالة آثار الشىء، ثم اطلقت هذه المفردة على ما يغطى تمام وجه الأرض، ووردت فى هذه الخطبه بمعنى غمرات الموت وشدائده التى تستولى على تمام وجود الإنسان.
- ٢- (٢) . «أرماس» جمع «رمس» بمعنى القبر والتراب وهذا هو المعنى المراد بها أى القبر.
- ٣- (٣) «إبلاس» تعنى فى الأصل الحزن الذى يصيب الإنسان فى أوقات الشده.
- ٤- (٤) «مطلع» تعنى فى الأصل الموضع المرتفع ثم اطلق على مواقف يوم القيامة أو عالم البرزخ الذى يطلع فيه الإنسان على نتيجة أعماله.
- ٥- (٥) . «روعات» جمع «روع» بمعنى الخوف.
- ٦- (٦) «اضلاع» جمع «ضلع» المواضع جوانب الصدر.
- ٧- (٧) «استكاك» من ماده «سك» بمعنى سد الشىء واستكاك الاسماع صممها على أعتاب الموت.
- ٨- (٨) «ضريح» القبر أو اللحد فى وسط القبر.
- ٩- (٩) «ردم» غلق الشىء كما تطلق على السد الكبير ومل الحفره بالتراب.
- ١٠- (١٠) «الصفيح» الحجر العريض.

المستقبل وفقد الأعزّه والأحبّه والشعور بالوحده المطلقه وتآكل أعضاء الجسم تحت التراب وبالتالي الانتقال من الوسط الهادىء والمرفه إلى الوسط المرعب، كلّ ذلك من الأمور التى يهتز لها الإنسان لمجرّد التفكير بها فيحذر الإمام عليه السلام من ضروره التأهب لمثل هذا السفر الشاق والمليبىء بالأخطار.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام جسّد لمخاطبيه بهذه العبارات العشر الفصيحه والبلغه كلّ الأمور ذات الصله بالموت والقبر وكأنّهم يرونها عياناً؛ وهى الأمور التى ينتظرها الجميع دون استثناء والتفكير فيها ينتشل الإنسان من نوم الغفله مهما كانت عميقه فيوقظه ويجبره على إصلاح أعماله وأقواله.

ولعل هذا هو السبب فى ما ورد من الوصايا الإسلاميه التى توصى بوضع الميت على الأرض قبل وضعه فى قبره حين يحمل إليه والترىث مدّه ثمّ التقدم ووضع ثانيه على الأرض والصبر مدّه أخرى وهكذا حتى يرد ذاك الموضع الموحش (١).

ص: ٢٢٥

١- (١) وسائل الشيعه، ج ٢، ص ٨٣٨ وكتاب الطهاره، أبواب الدفن، باب ١٦، ح ٦.

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَيِّئِن، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْن. وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صَرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِرَلَا زِلْهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلَاكِلِهَا، وَأَنْصَرَمَتْ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِصْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمَ مَضَى، أَوْ شَهْرٍ أَنْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًّا، وَسَيِّمِينُهَا غَثًّا. فِي مَوْقِفِ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورِ مُشْتَبِهَةِ عِظَامِ، وَنَارِ شَدِيدِ كَلْبِهَا، عَالٍ لَجْبِهَا، سَيَّاطِعٍ لَهَبِهَا، مُتَعَيِّظٍ زَفِيرِهَا، مُتَأَجِّجٍ سَيِّعِهَا، بَعِيدِ حُمُودِهَا، ذَاكٍ وَفُودِهَا، مَخُوفٍ وَعَيْدِهَا، عَمِ قَرَارِهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارِهَا، حَرَامِيَةٍ قُدُورِهَا، فَطِيْعَةٍ أُمُورِهَا. (وَسَيِّقِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) قَدْ أُمِنَ الْعِيدَابُ، وَأَنْقَطَعَ الْعَيَْابُ؛ وَزُخِرْ حُوا عَنِ النَّارِ، وَأَطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا، تَخَشَعًا وَاسْتِغْفَارًا؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا تَوَحُّشًا وَأَنْقِطَاعًا. فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبًا، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا، (وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

الشرح والتفسير: أهوال المحشر!

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من التذكير بالموت وشدائده حتى حث الجميع على الاستعداد والتأهب لهذا السفر الخطير والمرعب فتحدث بعبارات رائعة عن بدايه القيامة واختتام الدنيا فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى

سَنَنْ (١) ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ (٢) . وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا (٣) ، وَأَزِفَتْ (٤) بِأَفْرَاطِهَا (٥) ، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا . وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِرَلازِلِهَا ، وَأَنَاخَتْ (٦) بِكَلاَكِهَا (٧) .

العباره:

«وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ» وبالالتفات إلى أن القرن هو الحبل الذي يربط به البعيران، إشاره إلى أن المسافه بينكم وبين القيامه ليست بعيده، كما يمكن أن تكون العباره إشاره إلى القيامه الصغرى أى الموت أو القيامه الكبرى بمعنى يوم القيامه، ذلك لأن عمر الدنيا مهما كان فهو قليل ولا بد أن تحل القيامه، والفارق بين العباره

«وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا» والعباره

«وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا» هو أنه قال فى العباره الأولى قد جاءت علامات الآخره بينما تطرق فى العباره الأخرى إلى توفر مقدماتها.

وذهب البعض إلى أن العباره

«وَأَنَاخَتْ بِكَلاَكِهَا» إشاره إلى مصاعب القيامه، فالبعير حين ينام ويلصق صدره بالأرض يقذف بثقله على الأرض، لكن لا يبعد أن تكون إشاره قضيه الموت والقيامه كالناقه التى تنام على عتبه أبواب الجميع. كناية عن أن أحداً لا ينجو منه.

ثم قال بشأن أوضاع الدنيا:

«وَأَنْصَبَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا (٨) ، فَكَأَنَّتْ كَيَوْمِ مَضَى أَوْشَهْرٍ أَنْقَضَى، وَصَيَّرَ جَدِيدُهَا رَتْناً (٩) ، وَسَيَمِينُهَا عَثّاً (١٠) .»

نعم، فأولئك الذين كانت أعمارهم قصيره كأنها بمثابة يوم ومن عمّر طويلاً

ص: ٢٢٨

١- (١) . «سنن» بمعنى الطريق والأسلوب وتطلق على الجاده أيضاً.

٢- (٢) «قرن» ما يقرن به البعيران.

٣- (٣) «اشراط» جمع «شرط» على وزن «شرف» بمعنى العلامات.

٤- (٤) «ازفت» من ماده «ازف» على وزن «شرف» بمعنى قربت.

٥- (٥) «افراط» جمع «فرط» على وزن «شرط» جبل صغير وعلامه والمراد بها هنا المعنى الثالث.

٦- (٦) «أناخت» من «أناخ» بمعنى نوم الدابته.

٧- (٧) «كلاكل» جمع «كلكل» بمعنى الصدر.

٨- (٨) . «حضن» بمعنى الصدر.

٩- (٩) «رت» بمعنى قديم.

١٠- (١٠) «غث» بمعنى المهزول ويقابل السمين.

العبارة:

«أَخْرَجْتَهُمْ مِنْ حِصْنِهَا» إشاره إلى أن الدنيا أخذتهم مدّه بأحضانها ثم رمتهم إلى الموت وتشير العبارات

«صَارَ جَدِيدُهَا رَتْناً، وَسَدِّمِينُهَا غَنّاً» إشاره إلى تقلب جميع نعم الدنيا فالجديد يصبح قديماً ويزول والسمان يضعفون ويودعون هذا العالم.

ثم واصل عليه السلام كلامه عن وضع الإنسان في نهاية الدنيا ليخوض في مواقف القيامة وكان هنا كلام مقدر وربما لم يورد السيد الرضى بعض العبارات على طريقته في الاقتطاف ليصف العصاه الظلمه حين يردون المحشر ويرون ذلك المشهد المرعب فقال:

«فِي مَوْقِفِ ضَنْكَ (١) الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلْبَهَا (٢)، عَالٍ لَجْبَهَا (٣)، سَاطِعٍ لَهَبُهَا، مُتَعَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ (٤) سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكَ (٥) وَقُودُهَا، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ (٦) قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَطْبَعَهُ أُمُورُهَا».

يشير التعبير بالموقف إلى مشهد القيامة أو مشهد جهنم، بقريته الصفة التي جاءت بعد ذلك وجدير ذكره أن الإمام عليه السلام يئن بهذه العبارات والصفات الاثنتي عشره التي وصف بها نار جهنم جميع هذه الاعجازات الإلهية بدقه متناهية وفصاحه تامه بحيث يقض مضاجع الآثمين.

النار المحرقة والخطيره، النار الشديده اللهب والتي تتداعى منها تلك الأصوات الرهيبة بفعل ما يحدث فيها من انفجارات، فهي لا تخمد أبداً ودخانها كثيف وقاتل تلتهم كل ما حولها بحيث تحيل النهار الواضح إلى ظلمه مطلقه.

ص: ٢٢٩

١- (١). «ضنك» بمعنى الشده والضيق.

٢- (٢) «كلب» بمعنى عضه الكلب ثم استعملت في كل انزعاج وشده.

٣- (٣). «لجب» بمعنى اضطراب الأمواج.

٤- (٤) «متأجج» من ماده «أجيج» بمعنى إشعال النار المقرون بالصوت.

٥- (٥) «ذاك» من ماده «ذكاء» على وزن «دواء» بمعنى إشتد لهيبها وحرارتها.

٦- (٦) «عم» صفة مشبهه تعنى العمى من ماده «عمى» على وزن «جفا».

فالإمام عليه السلام يشير إلى هذه الصفات وكأنه يراها بأم عينيه خلف حجب الغيب.

ثم خاض عليه السلام في أوضاع أهل الجنة فرسم لها صورته دقيقة بما يؤجج نيراناً من الشوق في قلوب المؤمنين فقال مستشهداً بالآية الكريمة: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا (١)»

:قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَأَنْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وَزُخْرِحُوا (٢) عَنِ النَّارِ، وَأَطْمَأْنَنَتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ».

حيث أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيره إلى خمسة امتيازات عظيمه لهذه الطائفه الورعه من أصحاب الجنة والتي يمكن خلاصتها في السكينه والطمأنينه المطلقه حيث الأمان من العذاب وغياب العتاب وابتعاد عن النار والاستقرار التام في الجنة والرضا بهذه العاقبه.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام في شرح جانب من أعمال هذه الفئة فقال:

«الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لِيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا، تَخَشَعًا وَاسْتِغْفَارًا؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوَحُّشًا وَانْقِطَاعًا».

حيث رسم الإمام عليه السلام بهذه الصفات الأربع مقامهم الرفيع بأجمل الصور ليعتبره العنصر الذي جعلهم من أصحاب الجنة.

فمن جانب كانت أعمالهم في الدنيا طاهره ونقيه عن الرياء والعجب والفخر، وكانت أعينهم باكيه من خشيه الله وعلى مصاب المظلومين من عباد الله، ومن جانب آخر كانوا ينقطعون في الليل للتهجد والعباده والخشوع والخضوع والاستغفار كما كان نهارهم ليلاً بسبب ابتعادهم عن أهل الدنيا والتنازع على المتع الماديّه فلا يعيشون سوى الانقطاع إلى الله، نعم هذه هي صفات أصحاب الجنة من ذوى المقامات الرفيعه والسعداء من أصحاب النجاه فاستحقوا بذلك تلك الدرجات، ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبًا، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا، «وَكَانُوا

ص: ٢٣٠

١- (١). «زمر» جمع «زمره» على وزن «عمره» طائفه صغيره.

٢- (٢) «زحزحوا» من ماده «زحزح» على وزن «قهقهه» بمعنى الإبعاد.

أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا» (١)

فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ».

وعلى هذا الضوء فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أهليتهم واستعدادهم بالإضافة إلى أجرهم وثوابهم العظيم، فقد حاربوا هوى أنفسهم مدّة قليلة وأثبتوا أهليتهم ورفعوا مقامهم من خلال عبادتهم لربهم وخشيتهم منه وسهرهم الليالي بالعبادة وإخلاصهم لله تعالى فأفاض الله الجواد الكريم عليهم عظيم أجره وثوابه الذي يفوق تلك الأعمال والذي لا يعرف من معنى للزوال والفناء.

ص: ٢٣١

١- (١) سورة الفتح، الآية ٢٦.

فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِعَائِيهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَيَاْضَاعَتِيهِ يَخْسِرُ مُبْطِلُكُمْ.

وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُزْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَيِّدُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ. وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَهُ تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَهُ تُقَالُونَ.

اسْتَعْمَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: الاستعداد للرحيل

تابع الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه في بيانه لمصير الطالحين والصالحين حين الموت وفي القيامه، مطلباً يؤدى إلى النجاه والتوفيق حين الموت والعرض على الله فقال:

«فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِعَائِيهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَيَاْضَاعَتِيهِ يَخْسِرُ مُبْطِلُكُمْ (١)».

من الواضح أن عبارته الإمام عليه السلام البليغه هذه إشاره إلى التقوى والعمل الصالح الذى يدعو إلى الفلاح بينما يدعو التولى عنه إلى الفشل والخسران كما صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» (٢).

ثم واصل كلامه فى الحديث عن قصر عمر الإنسان وذم التعويل على ما بقى منه

ص: ٢٣٣

١- (١) «مبطل» من ماده «بطلان» بمعنى إبطال الحق.

٢- (٢) سورة النور، الآية ٥٢.

والإبهام الذى يحيط بلحظه الموت فدعى الجميع لادّخار العمل الصالح والمساوغة للخيرات فقال:

«وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ (١) بِمَا قَدَّمْتُمْ».

يا له من تعبير رائع (التعبير بالرهن والدين) بالنسبة للذنوب السالفة وكأنّ الذنوب تطوق عنق الإنسان كدين ليكون بمنزلة المرهون بكلّ كيانه إزاء هذا الدين فلا ينفك عنه ما لم يتب ويبادر إلى تلافى ما فرط منه بالعمل الصالح، الأمر الذى أكدّه القرآن الكريم: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (٢).

ورد فى الحديث النبوى الشريف (الخطبة الشعباتية فى أهميته شهر رمضان):

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمَالِكُمْ فَفُكُّوْهَا بِاسْتِغْفَارِكُمْ» (٣).

ثم حذر الجميع فقال:

«وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةَ تُقَالُونَ» (٤).

فالحقيقه هى أنّ الإمام عليه السلام يشير إلى هذه النقطة وهى أنّ الموت يمكن أن يأتى الإنسان فى كلّ حادثه لا سيما أننا نرى موت الفجاءه أثر السكته القلبيّه أو سائر حوادث الموت الذى لا- عوده فيه والتى تعجز أمامه جميع الأسباب الظاهريّه، ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبه بدعاء قصير وجامع فقال:

«اسْتَعْمَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ».

ص: ٢٣٤

١- (١) «مدِينُونَ» من ماده «دين» بمعنى الجزاء ويقال المدِينون لمن جُوزوا على عمل قاموا به.

٢- (٢) سوره المدثر، الآيه ٣٨.

٣- (٣) وسائل الشيعه، ج ٧، ص ٢٢٧، ح ٢٠، الباب ١٨ من أبواب حكم شهر رمضان.

٤- (٤) «تقالون» من ماده «إقاله» بمعنى الإعادة وتعنى هنا قبول العذر.

إلْزَمُوا الْأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاسْتَوْجِبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النَّيَّةُ مَقَامَ إِضْلَاتِهِ لِسَيْفِهِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجْلاً.

الشرح والتفسير: لكل شيء أجل ومدّه

خاطب الإمام عليه السلام في القسم الأخير من هذه الخطبة أولئك الذين يتطلعون إلى الشهادة بفارغ الصبر ودون تروٍ ويتعجلون في مواجهه العدو بعيداً عن تخطيط الإمام عليه السلام فقال:

«إلْزَمُوا (١) الْأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ».

فكما أنّ هنالك من يتهرب من الجهاد في سبيل الله، هنالك من يتعجل ويبغي الشهادة قبيل أوانها، ورغم أنّ نيات هؤلاء الأفراد مقدسه لكن الأعمال التي لا تخضع للتخطيط وتسبق أوانها تنطوي على العديد من الأخطاء والانعكاسات السلبيّة.

ومن هنا نهى الإمام عليه السلام عن مثل هذه الأفعال ثم قال بصيغته دليل لما ذكر:

«فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ

١- (١). «الزموا» من «لزوم» بمعنى الملازمه والعبارة إلزموا الأرض الأمر بالتوقف والسكون.

شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النَّبِيُّ مَقَامَ إِضْلَاتِهِ (١) لِسَيْفِهِ».

واختتمها بالعباره:

«فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجْلاً».

وتبدو هذه العباره مجديه فى كلِّ عصر وزمان وتشكل رداً حاسماً على المتسرعين من الأفراد من ذوى النيات الطاهره الذين ربّما يعشقون الجهاد والشهاده لكنهم لا يميزون الوقت المناسب من غير المناسب فهم يتحرقون على الدوام ويمارسون بعض الضغوط على زعامتهم إلّا أنّ الزعيم الحكيم من لا يستجيب للضغوط ولا يتعجل النتائج، لكنه يبشرهم بأنّ الله سيثيبهم على تلك النيات إن كانوا صادقين فى دعواهم وإيمانهم بالمبدأ والمعاد والنّبى صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فسيحصلون لا شك على ثواب المجاهدين فى سبيل الله والشهداء ولا يصدق هذا الكلام على الجهاد والشهاده فحسب بل يشمل جميع أفعال الخير التى ينبغى ممارستها فى وقتها المناسب، وقد وردت مثل هذه العباره فى الخطبه الخامسه من نهج البلاغه بتعبير آخر إذ قال:

«وَمُجْتَنَى الثَّمَرَةَ لِعَيْرِ وَقْتِ ائِنَاعِهَا كَالزَّرْعِ بَعْدَ اَرْضِهِ».

ويصدق هذا الكلام على عصرنا وزماننا إذ إنّ هنالك طائفه تسعى لمواجهة المنافقين فى الداخل والأعداء فى الخارج دون التطلع إلى الفرصه المناسبه والتخطط الدقيق، أو تعيش حاله من الانتظار الممل لظهور الإمام المهدي عليه السلام والقتال بين يديه والذى يقال لجميع هؤلاء إنّ الله سيعطيكم أجر المجاهدين والشهداء إن صدقتم فى إيمانكم وأخلصتم فى نياتكم.

تأمل

الثورات المتعجله

قد يضيق البعض ذرعاً فى المجتمعات التى تعيش حاله من المعاناه بفعل العدو

ص: ٢٣٦

١- (١) «اصلات» بمعنى سل السيف.

الداخلي أو الخارجى فيعمد إلى القيام بالثوره فى غير وقتها، الأمر الذى لا يؤدى إلى فشل تلك الثوره فحسب بل يوقظ العدو ويسلب زمام المبادرة فى المستقبل، وهذه إحدى المعضلات التى تواجه القيادات الحكيمه.

وقد حفل تاريخ التشيع بالعديد من هذه الثورات المتعجله عقب واقعه كربلاء والتى جوبهت بالنهى من جانب الأئمه عليهم السلام، مع ذلك فقد التحق بها بعض من اشياهم المخلصين.

والقضية المهمه هى أن الثوره ضد العدو بغيه القضاء عليه تتطلب العديد من الشروط التى يسعى القائد الحكيم لتوفرها جميعاً لتفضى الثوره إلى نتائجها المتوخاه منها.

فالقائد عاده يرى ما لا يراه الفرد العادى ويتمتع بسعه افق تجعله يرى ويفكر فى ما خلف هذا الواقع، والذى تفيده هذه الخطبه أن أميرالمؤمنين عليه السلام ورغم كونه أعظم بطل ومجاهد فى الإسلام قد عانى من مثل هؤلاء الأفراد إلى جانب أولئك المتقاعسين عن الجهاد.

فقد عانى فى الواقع من افراط وتفريط هاتين الطائفتين.

فبعض الأفراد لا يكاد يسمع الآيات والروايات الوارده فى مقام الشهداء وثواب الشهاده ودعوه الناس لهذا المضمار حتى يعيشوا حاله عجيبه من عشق الشهاده، إلا أن الإمام عليه السلام يريهم أفضل سبيل والذى تلخص فى نصحهم عدم الاستعجال واليقين بأن الله سيعطيهم أعظم الأجر والثواب إن صدقوا فى إيمانهم وأخلصوا فى نياتهم.

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُشْتِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيُوصِي بِالزُّهْدِ وَالتَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه في الواقع من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: في حمد الله والثناء عليه المقرون بذكر النعم وجانب من صفات الجلال والجمال، ثم الشهاده للنبي صلى الله عليه وآله بالرساله وتوضيح الظروف التي بعث فيها النبي وهدايه الأُمَّه.

القسم الثاني: الحديث عن التقوى وبركاتها والوصيه بالتمسك بهذه العروه الإلهيه في جميع شؤون الحياه.

القسم الثالث: تحذير أصحاب الدنيا من الغرور بها والكشف عن الدنيا وعيوبها ليعتبر بذلك الآخرون.

ص: ٢٣٩

١- (١) سند الخطبه: ذكر ابن أبي الحديد اختلاف الروايه في بعض كلماتها، مما يدل على أنه رآها في غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٨).

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالَى جَدُّهُ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ التُّوَامِ، وَالْأَلَائِ الْعِظَامِ. الَّذِي عَظَّمَ حِلْمَهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضَى وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلَا اِقْتِدَاءٍ وَلَا تَعْلِيمٍ، وَلَا اخْتِدَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ، وَلَا إِصَابِهِ خَطَأً، وَلَا حَضْرَهُ مَلَا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرِهِ، وَيُمُوجُونَ فِي حَيْرِهِ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَهُ الْحَيْنِ، وَاسْتَتَلَقَتْ عَلَى أَفْنَادِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

الشرح والتفسير: بديع خلق الله

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة التي تعدّ من أفصح خطبه عليه السلام بحمد الله والثناء عليه ووصفه بثلاث صفات فقال:

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي (١) فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالَى جَدُّهُ».

التعبير

«الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ» التي تفيد سعه حمد الله في جميع مخلوقاته يمكن أن تشير إلى حمده من قبل الأقسام المؤمنه والثناء عليه، أو إشاره إلى الحمد والثناء التي تعيشه موجودات العالم كآفه ولا سيما إزاء نعم الله بلسان الحال والقال فتسبح الله وتقدهسه وتحمده، وغلبه جند الله تستند إلى أن جند الله تعالى لا

ص: ٢٤١

١- (١). «الفاشي» من ماده «فشو» على وزن «كشف» بمعنى الانتشار والاتساع.

يقتصرون على ملائكته سبحانه بل كل ما فى العالم، وليس لأحد مقاومته والوقوف بوجهه: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١).

والعبارة:

«وَالْمُتَعَالَى جَدُّهُ» اقتباس من الآية الشريفه: «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا» (٢) وبالالتفات إلى أَنَّ الْجَدَّ هنا تعنى العظمه فإنها إشاره لعظمه الذات الإلهيه المقدسه (٣).

ثم ركز الإمام عليه السلام على النعم الماديّه والمعنويّه ليحمد الله ويشنى عليه إزاء تلك النعم فقال:

«أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ التُّوَامِ (٤)، وَآلَائِهِ الْعِظَامِ».

بالنظر إلى أَنَّ (توأم) على وزن (غلام) جمع (توأم) على وزن (جوهر) بمعنى الأشياء المقترنه مع بعضها فإنها تشير إلى النعم الإلهيه التى تكون عاده متصله ومتتاليه، فمثلاً نعمه اللسان هى وسيله للتكلم وكذلك عنصر لدفع الطعام تحت الأسنان بغيه مضغه من جانب كونه وسيله مهمه لابتلاع الطعام وتذوق الأطحمه وللإطلاع على سلامه الطعام من فساده وهكذا سائر النعم التى لا تعد ولا تحصى، وهل يطيق الإنسان احصاء نعم الله وأفضاله؟

ويمكن أن تكون «آلاء» مقابل «نعم» إشاره إلى النعم المعنويّه فى مقابل النعم الماديّه، ثم خاض فى معرفه الله فحمده واثنى عليه وذكره بخمس صفات من شأن كل واحد منها أن تكون دافعاً لحمد الله والثناء عليه فقال عليه السلام:

«الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضَى وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعَ الْخَلَائِقِ بَعْلِمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ».

فهذه الصفات الخمس التى تنطلق من سعه حلم الله تعالى وتنتهى بخلق الخلائق

ص: ٢٤٢

١- (١) سورة الفتح، الآية ٧.

٢- (٢) . سورة الجن، الآية ٣.

٣- (٣) فالتعبير عن الجد بهذا الأسم لعظم مقامه.

٤- (٤) «توأم» على وزن «غلام» جمع «توأم» على وزن «جوشن» تعنى فى الأصل المولود مع غيره فى بطن واحد ويقال لهما التوأمان، ثم اطلق على كل شىء يقترن بآخر ويشير فى العبارة المذكوره إلى أَنَّ نعم الله سبحانه وتعالى ليست مفردة بل مقرونه عاده بالعديد من النعم.

وابداع الكائنات تعدّ أهم صفات الله التي تشمل العلم والقدرة والعدالة واللطف والرحمة.

ثم أشار إلى هذه الحقيقة أن خلق الله تعالى دون أدنى سابقه تعلم وتجربه ومشوره فقال عليه السلام:

«بَلَا أَقْتِدَاءَ وَلَا تَعْلِيمَ، وَلَا اخْتِدَاءَ (١) لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ، وَلَا إِصَابِهِ خَطَا، وَلَا حَضْرَهُ مَلَا».

فالواقع إنّ الشخص الذى يستلهم من الآخرين فى صناعته إنّما يستند إلى ذلك فى واحده من طرق خمس:

الأول: أن يقلد غيره، والثانى: أن يتعلم، والثالث: أن يرى صناعه عالم غيره فيستفيد منها فى تحقيق غرضه، والرابع: الاستفادة من أخطائه السابقه والخروج بتجربه، والخامس: أن يستشير جماعه معينه ويتعاون معها، أمّا الله الصانع الحكيم فخلقه لا يستند إلى سابقه وغنى عن كلّ ما قيل سابقاً ومن هنا يطلق على خلقه الابداع (الخلق دون سابقه).

وتبدو هذه المسأله فى غايه الأهميه إذ إنّ الإنسان مهما صنع ومهما ابدع وابتكر إنّما شاهد نماذج ذلك فى عالم الخلق؛ فمثلاً الذين اخترعوا الطائره فمما لا شك فيه أنهم استفادوا واستلهموا تصميمها من الطيور، ومن هنا كان هنالك شبه كبير بين أنواع الطائرات وأنواع الطيور، وفى نفس الوقت وبغية تحقيق أهدافهم عليهم أن يستفيدوا من علوم السابقين وتجاربهم ويقوموا باختباراتهم الواسعه والمتكرره ليتمكنوا من تلافى أخطائهم عن طريق الاختبار والتجربه، وعاده ما يعمدون إلى تشكيل بعض المجالس وعقد المؤتمرات والندوات لهذا الغرض والحال فإنّ الصانع الحكيم ليس بحاجة إلى أى من هذه الأمور فى خلقه الواسع والأنواع الخارجه عن الحدود من مخلوقاته.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من حمد الله والثناء عليه خاض فى الشهاده للنبي صلى الله عليه وآله

ص: ٢٤٣

١- (١). «الاحتذاء» يعنى التنسيق من ماده «حذو» على وزن «جذب» بمعنى التنسيق والانسجام.

بالرسالة والأوضاع على عهد بعثته ليشرحها بعبارات قصيره وعظيمه المعنى وليكشف النقاب عن مضمون تلك الدعوه فتبدو واضحة وجليه وملموسه، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرِهِ (١)، وَيَمْجُرُونَ فِي حَيْرِهِ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَهُ الْحَيْنِ (٢)، وَاسْتَعْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ (٣)».

فقد استعار الإمام عليه السلام عده تشبيهات لرسم صورته واضحة لما كانت عليه الناس في العصر الجاهلي؛ فقد شبههم أحياناً بالشخص الذى وقع فى ورطه مرعبه فهو لا ينفك عن الصراخ وطلب النجده، وأحياناً أخرى شبههم بأن أزمهم انيطت بأيدي أفراد فاسدين مفسدين لا- يقودونهم سوى إلى الهاويه، وأخيراً شبه قلوبهم بالمخازن المقفله بحيث لم يلجها أى علم ومعرفه وفضيله.

حقاً، إن الإنسان ما لم يقف على وضع الناس فى العصر الجاهلي من الناحيه الفكرية والعقائديه والأخلاقية والاجتماعية والسياسية لا يسعه إدراك عظمه النبى صلى الله عليه وآله وعظمه الدعوه الإسلاميه، ومن هنا يذكر الإمام عليه السلام فى العديد من خطب نهج البلاغه وبعبارات غايه فى الروعه والجمال الوضع آنذاك للأجيال الذين لم يدركوا ذلك العصر أو أنهم أدركوا واقعه ولكنهم نسوه ومن ذلك ما قاله فى الخطبه الثانيه من النهج:

«أَرْسَلَهُ بِالذِّينِ الْمَشْهُورِ... وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجَزَمَ فِيهَا جَعْلُ الذِّينِ...».

ووقال عليه السلام فى الخطبه ٢٦:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا... وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ فِي شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ...».

والخطبه ٥٩:

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضَلَالٌ فِي حَيْرِهِ وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنِهِ...».

ص: ٢٤٤

١- (١). «غمره» الماء الكثير الذى يغطى كل شىء ثم اطلق على كل شده.

٢- (٢) «حين» بفتح الحاء تعنى الموت والهلكه واستعمل بمعنى الغم والههم الشديد الذى يؤدى بالإنسان إلى الموت وحين بكسر الحاء بمعنى الزمان وقد وردت فى هذه الخطبه بالمعنى الأول.

٣- (٣) «رين» بفتح الراء تعنى الصدأ الذى يصيب المعادن والذى يفيد الفساد والتلف أو ضياع شفافيه المعدن ولمعانه.

«أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَهُ وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَهُ...».

حقًا لو نظرنا إلى عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطب مع بعضها البعض الآخر لتجسدت أمامنا صورته غاية في الروعة عن الأوضاع في العصر الجاهلي والمشاكل التي كان يعاني الناس منها آنذاك على الصعيد العقائدي والاجتماعي والأخلاقي وبالتالي سنقف على مدى أهميته الإسلام والجهود التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله في الإرتقاء بذلك المجتمع وتحويله من مجتمع جاهلي ذي تقاليد متوحشه إلى مجتمع إسلامي ذي مبادئ إنسانية عالية.

إشارة

عِبَادَ اللَّهِ! أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقِّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهِ بِاللَّهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ: فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِزْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي عَمَدِ الطَّرِيقِ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسَلِكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسِيئُودْعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسِيهَا عَلَى الْأَمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ وَالْعَابِرِينَ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا عَدَاءً، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبَدَى، وَأَخَذَ مَا أُعْطِيَ، وَسَأَلَ عَمَّا أَسَدَى. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبَلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أَوْلَيْكَ الْأَقْلُونَ عَدْدًا، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: (وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ).

الشرح والتفسير: التقوى كهف في الدنيا ونور في الآخرة

يشكل هذا الجانب من خطبه الإمام عليه السلام هدفها الأصلي وما مضى في القسم الأول يمثل في الواقع مقدمه وتمهيداً لهذا القسم، ذلك لأنه لا موضوعيته للحديث عن الورع والتقوى ما لم يكن هناك إيمان بالله وإيمان بنبوه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام:

«عِبَادَ اللَّهِ! أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقِّكُمْ».

وهذا التعبير بشأن التقوى بديع، فهو يمثل حقَّ الله من جانب على عباده ومن جانب آخر يجعل للعباد حقاً على الله تعالى، أما حقَّ الله فدليل ذلك أن نتيجة الورع والتقوى هو طاعه جميع أوامر الله ونواهيه وطاعه حقَّ الله لدى عباده، وأما حقَّ العباد على الله فكونهم يستحقون على أثرها الأجر والثواب.

وقد ذهب العديد من شراح نهج البلاغه إلى أنّ التقوى هنا تعنى الطاعة التامه لأوامر الله تعالى، والحال أنّ التقوى هى خشية الله الباطنيه والالتزام بالمبادئ التى يكون أثرها طاعه أوامر الله.

فالتقوى تظهر فى مراحلها الابتدائيه بصوره العداله وفى مراحل أروع بصوره العصمه وكل ذلك من الصفات الباطنيه.

والشخص الذى يستخف بالطاعه ولا يكثر للذنوب هو شخص عديم التقوى وذلك الشخص الملتزم يتعاليم الدين والعامل بها هو المتقى وتظهر آثار كل من الحالتين على الأعمال.

ثم قال عليه السلام فى تحصيل هذه الجوهره الثمينه:

«وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيَّهَا بِاللَّهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ».

نعم، فسلوك سبيل التقوى، التقوى التى تحيط بحياه الإنسان، ليست ميسره إلّا بتوفيق الله، حتى أنبياء الله وأوليائه يفوضون أمورهم إلى الله ويسألونه الأخذ بأيديهم ويقولون: «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (١).

وورد فى الدعاء الذى ورد الحث عليه عقب زياره الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام:

«كَلِّمًا وَفَقَّتَنِي بِخَيْرٍ فَأَنْتَ ذَلِيلِي عَلَيْهِ وَطَرِيقِي إِلَيْهِ» (٢).

ثم أشار عليه السلام إلى معطين مهمين من معطيات التقوى كدليل عليها فقال:

«فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحَرُورِ وَالْجَنَّةِ».

نعم! فمعظم الحوادث المريره الفرديه والاجتماعيه التى تعكر صفو حياه الإنسان فى هذا العالم معلوله للمعصيه والخروج عن جاده العدل والانصاف؛ فالتقوى تنقذ الإنسان فى هذا العالم من السقوط فى مستنقع الذنب وعواقبه الخطيره وتجعله يعيش حياه هانئه مقرونه بالسكينه والسعاده وفخير زاد يتزود به الإنسان

ص: ٢٤٨

١- (١) سورة هود، الآيه ٨٨، ورد هذا الكلام فى القرآن على لسان النبى شبيب عليه السلام تجاه قومه الطاعين.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٥٥.

هى التقوى كما تقول الآيه الشريفه: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (١).

التي تعنى دخول الجنه والتلذذ بنعمها الخالده، فهل هناك من جوهره ثمينه أثنى من التقوى بحيث تحفظ الإنسان فى الدنيا وتنجيه فى الآخره.

ثم أشار فى مواصلته لحديثه إلى ثلاثه أمور مهمه بشأن التقوى فقال عليه السلام فى الأمر الأول:

«وَفِي غَدِّ الطَّرِيقِ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسْلُكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ».

إلا أن وضوح جاده التقوى ومسلكها كونها من جانب منسجمه بصوره تامه مع فطره الإنسان، ومن جانب آخر قد بين مسار هذه الجاده فى عالم التشريع فى الكتاب والسنة النبويه المطهره.

وأما ربح السالك لهذا الطريق كونها تسوق المتقين إلى الجنه وفق الآيه القرآنيه:

«تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (٢) هذا من جانب، ومن جانب آخر تنقذ صاحبها فى الدنيا من الدنس والدنائمه والحياه المظلمه وتجعله سعيداً ذا عزه لدى الجميع، أما حفظها لمستودعها (إذا اعتبرنا مستودع بمعنى اسم المفعول) فسبب ذلك أن الله تعالى تعهد بمثوبه المتقين والورعين، وعليه فأمانه هؤلاء محفوظه لدى الله وملائكته الله حفظت أعمال المتقين، وإن اعتبرنا مستودع بمعنى اسم المكان فإن موضع التقوى هو القلب الذى يحفظها بعناء ويصونها من كل شىء، واعتبر البعض (حافظ) بمعنى المحفوظ وعليه يصبح معنى الجملة، المتقون محفوظون فى ظل التقوى.

الأمر الثانى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام هى أن التقوى حقيقه خالده لا تتأثر بالزمان والمكان فقال:

«لَمْ تَبْرَحْ» (٣) عَارِضَةٌ نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ

ص: ٢٤٩

١- (١) سورة البقره، الآيه ١٩٧.

٢- (٢) . سورة مريم، الآيه ٦٣.

٣- (٣) . «تبرح» من ماده «برح» بمعنى الإبتعاد لكنها تعطى معنى الإيجاب حين تقترن بكلمه النفى.

وَالْغَابِرِينَ (١) ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَدًا، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبْدَى وَأَخَذَ مَا أَعْطَوْا سَأَلَ عَمَّا أُسْدَى (٢)».

نعم فالتقوى كالفصل الجميل الفخم والهادئ الذى يدعو إليه الجميع والذى كان وما زال ماثلاً أمام أعين جميع الناس وقد دعى إليه الجميع من جانب الكتب السماوية وأنبياء الله وأوليائه، فقد صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ» (٣).

وقال الإمام عليه السلام فى الأمر الثالث:

«فَمَا أَقَلَّ مِزْنُ قَبْلَيْهَا، وَحَمَلَيْهَا حَقَّ حَمْلَيْهَا! أُولَئِكَ الْأَقْلُونَ عِدَدًا، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ» (٤)».

والسؤال الذى يرد: لم كان طلاب التقوى قلائل مع ما لها من الأهميه؟ ولا يبدو الجواب على هذا السؤال صعباً، ذلك لأن التقوى تعنى مخالفة هوى النفس ومخالفة هوى النفس ليس بالأمر الهين، فسيبيل التقوى ينطوى على الكثير من المطبات والصعوبات وإن كانت عاقبته حلوه هنيهه، ذلك لأن جاده هوى النفس معبده وللسائرين ولكن عاقبتها فى غايه الخطوره.

إن الله تعالى لما خلق الجنه قال لجبرئيل: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ لَا يَتْرُكُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا» فلما حَفَّها بالمكاره قال: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ أَخْشَى أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ» ولما خلق النار قال: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ» فلما حَفَّها بالشهوات قال: انظر إليها، فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ أَخْشَى أَنْ يَدْخُلَهَا كُلُّ أَحَدٍ» (٥). فهذا الحديث فى الواقع شرح لما ورد عن النبى

ص: ٢٥٠

١- (١). «الغابرين» جمع «غابر» من غبور على وزن «عبور» تعنى بقاء الشىء وعليه فغابرين تعنى الباقين.

٢- (٢) «أسدى» من ماده «سدى» على وزن «عبا» بمعنى الإحسان والعطاء.

٣- (٣) سوره النساء، الآيه ١٣١.

٤- (٤) سوره سبأ، الآيه ١٣.

٥- (٥). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢.

الأكرم صلى الله عليه وآله وعن وعلى عليه السلام:

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (١).

القسم الثالث

إشارة

فَأَهْطَعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَالظُّلُوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَيْلٍ خَلْفًا، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا. أُيْقِطُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْجِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَارْحُضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْيِقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلَا- فَصُوتُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نَزَاهًا، وَإِلَى الْأَخْرَةِ وُلَاهًا. وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعْتَهُ التَّقْوَى، وَلَا تَزْفَعُوا مَنْ رَفَعْتَهُ الدُّنْيَا. وَلَا تَشْتِمُوا بَارِقَهَا، وَلَا تَشْتِمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجَيِّبُوا نَاعِقَهَا وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتِنُوا بِأَعْلَاقِهَا، فَإِنَّ بَرَقَهَا خَالِبٌ، وَنُطِقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالُهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ. أَلَا وَهِيَ الْمُتَصِّدِيَةُ الْعُنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحَزُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْحَزُونُ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَالْعُنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ.

الشرح والتفسير: سماع نداء التقوى

خاض الإمام على عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه في بحث واسع وعميق عن آثار التقوى على الإنسان صاحب البصيره وتطرق إلى أبعادها المختلفه باثنتى عشره عباره قصيره وعميقه المعنى فقال عليه السلام:

«فَأَهْطَعُوا (٢) إِلَيْهَا، وَالظُّلُوا (٣) بِجِدِّكُمْ

ص: ٢٥١

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢؛ نهج البلاغه، خطبه ١٧٦.

٢- (٢). «اهطعوا» من ماده «هطوع» على وزن «طلوع» بمعنى الاندفاع سريعاً نحو الشىء.

٣- (٣) «الظلوا» من ماده «لظ» على وزن «خط» بمعنى الإلحاح على الشىء.

عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلْفًا، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا».

وكانت التقوى قد دعت إلى نفسها جميع الناس وقد بينت للجميع آثارها الطيبة والمحمودة ولذلك قال الإمام عليه السلام سارعوا إليها بأذانكم لسماعها ثم انهضوا وجدوا واجتهدوا في تحصيل مقدماتها فإن كانت لكم تقوى فسوف لن تحزنوا على ما يفوتكم من حطام الدنيا واعلموا أن التقوى حافظتكم من مخالفيتكم.

ويمكن أن تكون

«مُخَالِفٍ» فى العبارة إشارة إلى الذنوب السالفة التى تزول آثارها بالتقوى، أو المراد اعداء الإنسان ومخالفوه، لأن الله وعد المتقين بالنصر والغلبة إذ قال تعالى فى كتابه العزيز: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (١)، وقال: «وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَآ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا» (٢).

ثم نصحنا بست عبارات أخرى فقال:

«أَيَّقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ وَأَقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَارْحُضُوا (٣) بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ».

وعبارة

«أَيَّقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ» يمكن أن تكون إشارة إلى النوم العادى، أى ينبغى فى ظل التقوى قضاء جانب من الليل فى العبادة والتفرغ لمناجاة الله تعالى:

«فى مقابل وأقطعوا بها يومكم» كما يُحتمل أن يكون المراد، اليقظة من نوم الغفلة بالتقوى، والعبارة

«أَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ» بالنظر إلى أنّ (شعار هى الثياب الملاصقة للبدن) فيمكن أن تكون إشارة إلى تنوير القلب بالتقوى أو اجعلوا التقوى شعاركم وعلامتكم أو ايقظوا قلوبكم بالتقوى (حيث إنّ أشعروا من مادة شعور).

والعبارة:

«دَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ» إشارة إلى الأسقام الباطنية التى تعالج بواسطة التقوى.

وقال فى العبارة التاسعة حتى الثانية عشرة:

«وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ (٤)، وَاعْتَبِرُوا

ص: ٢٥٢

٢-٢) سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

٣-٣) «ارحضوا» من «رحض» على وزن «محض» بمعنى الغسل.

٤-٤) . «الحمام» بكسر الحاء الموت.

بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَغْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصُونُوا(١) بِهَا».

وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»(٢) وقال تعالى فى موضع آخر: «وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكُمْ خَيْرٌ»(٣).

والعبارة

«واعتبروا...» إشاره إلى أنّ عاقبه عدم التقوى واضح لك فى هذه الحياه الدنيا وترونها بأُم أعينكم كما تقرأونها فى التاريخ بشأن الأفراد والمجتمعات التى سارت إلى ذلك المصير المشؤوم والأسود فما عليكم إلّا الاعتبار بهم ولا- تكونوا ممن يعتبر بهم الآخرون، وقد أشار القرآن فى قصه يوسف وإخوته وامرأه عزيز مصر إلى النتائج السلبيه التى عمت البعض بسبب انعدام التقوى والبركات التى ساقتها التقوى ليوسف فقال تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولَى الْأَلْبَابِ»(٤).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عواقب الانغماس فى الدنيا التى يفرزها انعدام التقوى فحذر من هذه الدنيا الغرور بتسع عبارات قال فيها:

«وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَاهًا(٥) ، وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلاَهَا(٦) . وَلَمَا تَضَعُوا مَن رَفَعْتُهُ التَّقْوَىٰ، وَلَمَا تَرْفَعُوا مَن رَفَعْتُهُ الدُّنْيَا. وَلَمَا تَشْتِيْمُوا(٧) بَارِقَهَا(٨) وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا(٩) . وَلَا تَسْتَضِيْمُوا بِإِشْرَاقِهَا،

ص: ٢٥٣

١- (١) «تصونوا» من ماده «صون» على وزن «قوم» بمعنى الحفظ وتصون بالتشديد بمعنى حفظ النفس.

٢- (٢) . سورة الحديد، الآيه ٢١.

٣- (٣) سورة الأعراف، الآيه ٢٦.

٤- (٤) سورة يوسف، الآيه ١١١.

٥- (٥) . «نزاه» جمع «نازه» بمعنى عفيف النفس.

٦- (٦) . «ولاه» جمع «واله» بمعنى المشتاق.

٧- (٧) . «لا تشيموا» من ماده «شيم» على وزن «غيب» نظر إليه أين يمطر.

٨- (٨) «بارق» السحاب الذى يقدر منه البرق و جاء أيضاً بمعنى السيف البراق.

٩- (٩) «ناعق» من ماده «نعق» على وزن «برق» بمعنى مناداه الحيوانات ثم اطلقت على المناداه بصوره عامه.

وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا (١)».

ففى الواقع إنَّ الإمام عليه السلام لفت الانتباه فى هذه العبارات العميقه المعنى إلى طرق نفوذ الدنيا إلى فكر الإنسان وروحه ليحذر منها جميعاً وضروره الإبتعاد عن زخارف الدنيا وزبرجها والتوجه إلى الآخره واسناد المتقين وعدم الإكتراث لمقامات أصحاب الدنيا وغض الطرف عن الأموال والثروات والقصور والزينه الظاهريه وصم الاسماع عن وساوس المتهافتين على الدنيا وتنحيتهم جانباً وعدم الانخداع بمظاهر الدنيا البراقه والانقطاع عن جميع الأمور التى تذلل صاحبها.

والحقّ أن كلّ من امتثل هذه التحذيرات وسار على الدرب سوف لن يقع فى شباك الشيطان وفتح طلاب الدنيا.

ثم تطرق عليه السلام إلى أدله تحذيراته السابقه فقال:

«فَإِنَّ بَرِّقَهَا خَالِبٌ (٢) ، وَنُطْفَهَا كَاذِبٌ ، وَأَمْوَالُهَا مَحْرُوبَةٌ (٣) ، وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ».

فالواقع إنَّ كلّ دليل من هذه الأدله الأربعة إشاره إلى جانب من التعبيرات السابقه:

فبرق الدنيا خادع لا- حقيقه له وليس وراءه مظر وكلامها كاذب بدليل أنّها لم تف لأحد من الناس فى أى وقت من الأوقات، وأمواها منهوبه من قبل أصحاب الدنيا ينهبونها من غيرهم، وكونها مسروقه من غيرهم فى أنّ كلّ شخص يمتلك مالاً نفسياً على الظاهر يجعل صاحب الدنيا يتطلع إليه فيسلبه إياه فى الوقت المناسب.

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانياه ليحذر مخاطبيه من الوقوع فى ورطه الدنيا من خلال ذكره لست رذائل من رذائلها فقال عليه السلام:

«أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّئَةُ (٤) الْعُنُونُ (٥) ، وَالْجَامِحَةُ (٦)»

ص: ٢٥٤

١- (١) «اعلاق» جمع «علقه» على وزن «فتنه» بمعنى الشئء النفيس (وإن كانت له حيثيه ظاهريه) وتوجب تعلق النفس بها.

٢- (٢) . «خالب» من «خلابه» بمعنى الخادع.

٣- (٣) «محروبه» بمعنى منهوبه.

٤- (٤) . «المتصدية» بمعنى المرأه تتعرض إلى الرجال وتميلهم إليها من ماده تصدى بمعنى التعرض.

٥- (٥) «عنون» من ماده «عن» على وزن «ظن» بمعنى الظهور.

٦- (٦) «جامحه» من «جموح» على وزن «فتوح» الصعبه على ركبها.

الْحَرُونُ (١) ، والمَائِنَّهُ (٢) الْخَوُونُ (٣) ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ (٤) ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ (٥) ، وَالْحَيُودُ (٦) الْمَيُودُ (٧) .

ص: ٢٥٥

-
- ١- (١) . «حرون» بمعنى «الجامحه» أيضاً مع هذا الفارق أن الجموح، حيوان يركض هنا وهناك مضطرباً، وعنون، حيوان معاند متمرد يقف ولا يتحرك.
 - ٢- (٢) «مائنه» أى كاذبه من ماده «مين» على وزن «عين» بمعنى الكذب.
 - ٣- (٣) «خوون» المبالغه فى الخيانه.
 - ٤- (٤) «الكنود» الجحود والبخل وتعنى فى الأصل الأرض التى لا يظهر عليها شىء.
 - ٥- (٥) «صدود» أى المعترض والمانع من ماده «صد» وتستعمل بمعنيين الاعراض والمنع.
 - ٦- (٦) «حيود» من ماده «حيد» على وزن «صيد» تعنى الميل عن الطريق.
 - ٧- (٧) «ميود» بمعنى المنحرف والمضطرب من ماده «ميدان» على وزن «ضربان» بمعنى الانحراف والاضطراب.

حَالُهَا انْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زَلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرْبٍ وَسَيْلَبٍ، وَنَهَبٌ وَعَطَبٌ. أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسَيْبَاقٍ، وَلِحَاقٍ وَفِرَاقٍ. قَدْ تَحَيَّرَتْ مِذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا؛ فَاسْتَلَمَتْهُمْ الْمَعَاوِلُ، وَلَفَظَتْهُمْ الْمَنَازِلُ، وَأَغْيَتْهُمْ الْمَحَاوِلُ: فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشِئْلُومٍ مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ، وَعَاضٌ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٌ بِكَفَيْهِ، وَمُزْتَفِقٌ بِخَدَيْهِ، وَزَارٌ عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٌ عَنِ عَزْمِهِ؛ وَقَدْ أذْبَرَتِ الْحِيلَةَ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةَ، (وَلَمَاتِ حِينَ مَنَاصٍ) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَيَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَيَا ذَهَبَ، وَمَصَّتِ الدُّنْيَا لِحَالٍ بِأَلِهَا، (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ).

الشرح والتفسير: عاقبه أصحاب الدنيا

بالنظر إلى أنّ حبّ الدنيا والتعلق الشديد بالأموار الماديّة هو أساس أنواع الذنوب والمعاصي والجنايات، وبالنظر إلى أنّ عصر الإمام عليه السلام شهد بسبب الفتوحات الإسلاميّة سعة الثروات التي عمّت البلاد الإسلاميّة وانغمس بعض الناس في حاله من الدعة والرفاهية وبطر النعمة، فقد نهى الإمام عليه السلام في خطبته الناس عن التكالب على الدنيا والانغماس في لذاتها فكشف بعبارات قلّما يرى نظيرها آثار السوء للتعلق بهذه الدنيا، ولذلك أكّد الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بخمس عبارات قصيره على تفاهه النعم الماديّة فقال:

«حَالُهَا انْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زَلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ،

وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ (١)».

أمّا تغير حال الدنيا فليس بخافٍ على أحد؛ فما أكثر أولئك الذين تربعوا على عرش السلطه ليلاً ويفكرون في الاستيلاء على البلدان، فلم يطلع عليهم الفجر حتى زالت عروشهم وفارقوا الحياه فبين لحظه وأخرى تنهاوى عروش الأقوياء ويحل محلهم الضعفاء فيصبح أعزّه الأمس أذلّه اليوم.

وأمّا زلزله وطأتها وخطواتها فذلك لأنّ مقر الإنسان في هذا العالم متزلزل على الدوام، فعلى أى شىء إستند من قبيل المال والثروه والفتوه والصحه والسلامه فهى متقلبه وليست ثابتة، وأمّا أنّ عزّتها عين ذلّتها، فقد فسّر ذلك بعض الشراح أنّ العزّه الماديّه واللامشروع سبب الذلّه فى الآخره، وقال البعض الآخر إنّ سبب الإبتعاد عن الله فى هذه الدنيا؛ إلّا أنّ التفسير الأنسب هو أنّ العزّه الماديّه تؤدّى إلى التعلق الشديد وهو التعلق الذى يسوقه إلى الذلّه ويجعله يعيش الخنوع مقابل كائن من كان بغيه حفظها، وأمّا أنّ جدّها هزل فسبب ذلك التقلب وسرعه الزوال وعدم الاستقرار، وأمّا علوها تسافل فلائّن الأفراد من ذوى المقامات الرفيعه يخضعون للعديد من المطبات بغيه حفظ مناصبهم ومواقعهم ويستعينون من أجل حفظ تلك القدره بالأفراد الفاسدين والطحالين.

ثم أكمل هذا الموضوع بذكره لصفيتين أخريين فى وصف الدنيا فقال:

«دَارُ حَرْبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ. أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَّاقٍ (٢) ، وَلِحَاقٍ وَفِرَاقٍ (٣)».

المفردات

«حَرْبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهْبٍ» وإن كانت جميعها تشير إلى معنى أخذ أموال الآخرين؛ لكن يبدو هنالك اختلاف دقيق بينها،

«حَرْبٍ» أخذ جميع أمواله لأنها

ص: ٢٥٨

١- (١) «علو وسفل» بمعنى الأعلى والأسفل والتي تلفظ أحياناً بضم الحرف الأول وكسره.

٢- (٢) «ساق» بمعنى «ساق» الرجل. والعباره «على ساق» تطلق على من يقف على رجل ويستعد للقيام بعمل. وسياق من ماده سوق بمعنى التقدم والاندفاع وعليه فالعباره على ساق وسياق أنّ أهل الدنيا يتأهبون للحركه للعالم الآخر.

٣- (٣) «لحاق وفراق» نقطتان متقابلتان بمعنى الإلتحاق والانفصال.

فسّرت لغوياً بهذه العبارة

«أَخَذُ جَمِيعَ مَالِهِ».

لكن

«سلب» غالباً فسّرت بمعنى أخذ ثياب الأفراد وما في أيديهم ولذلك ورد في الحديث:

«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»^(١).

وأما

«نَهَب» التي وردت لغوياً بمعنى الغنيمه فربّما تكون إشاره إلى الاغتنام الجماعى، وعليه يصبح معنى كلام الإمام عليه السلام أنّ الدنيا تسلب الإنسان جميع وجوده أو جانباً منه أو قد تأتي جماعه من السّلايين ليتحكموا بالأمر فيسلبوا الناس أموالهم.

نعم، فالدنيا لو نظرنا إليها يامعان لوجدناها ميداناً لصراع السّلايين والناهيين الذين يمارسون فيها السلب والنهب بصور مختلفه وهذا العمل لا ينتهى سوى إلى الهلكه والزوال، والحال يستعد جميع الناس إلى السفر نحو العالم الآخر وليس هنالك من يعلم بما يصيبه غداً، ثم أشار الإمام عليه السلام بثلاث عبارات أخرى إلى جانب آخر من مصائب الدنيا وغيوبها فقال:

«قَدْ تَحَيَّرْتُ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزْتُ مَهَارِبُهَا»^(٢)، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا».

إشاره إلى أنّ الإنسان اليقظ كلّما حاول النجاه من مصائبها لم يكن الأمر عليه سهلاً فتشخيص سبيل الفرار منها يبدو متعذراً والأعقد منه الظفر بموضع الهروب.

وقد جربنا هذه المسأله عند الأفراد الذين يتعلقون بالدنيا ثم يصحون من غفلتهم وينوون الهروب فإنّ العديد من المشاكل تعرقل حركتهم وعليهم بذل قصارى جهدهم بغيه الوصول إلى سبيل الخلاص، ثم أشار عليه السلام إلى مصير أصحاب الدنيا حين يقفون على أعتاب الموت فقال:

«فَأَسْلَمَتْهُمْ الْمَعَاقِلُ»^(٣)، وَلَفَظَتْهُمْ الْمَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمْ الْمَحَاوِلُ»^(٤).

ص: ٢٥٩

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٧٣، كما ورد هذا الحديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله فى سنن البيهقى، ج ٦، ص ٣٠٧ و ٣٠٩.

٢- (٢) . «مهارب» جمع «مهرب» على وزن «مطلب» بمعنى مكان الهروب.

٣- (٣) . «معائل» جمع «معقل» على وزن «مجلس» بمعنى القلعه الحصينه والملجأ.

- ٤-٤ (٤) «لفظت» من ماده «لفظ» على وزن «حلف» بمعنى رمت ويقال لهذه الألفاظ كأنها ترمى من الفم.
- ٥-٥ (٥) «محاول» جمع «محاله» على وزن «حواله» تعنى الحذق وحسن التدبير والتصرف.

نعم! حين يطفح بهم الكيل ويتخلى عنهم كل شيء ويجعلهم وحيدين أمام الحوادث فلا يسع أقوى الأقوياء الدفاع عنهم حيث النتائج العكسيه التي تنتهى بهم إلى الموت وحالهم كما يضرب به المثل: «إذا حل الموت أعيى الطبيب».

وبالتالى سوف لن يكون مصير من اغتروا بالدنيا إلا كما قال الإمام عليه السلام::

«فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ (١)، وَلَخِمٍ مَجْزُورٍ (٢)، وَشَلْوٍ (٣) مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ (٤)، وَعَاضٍ (٥) عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ (٦) بِكَفَيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ (٧) بِخَدَيْهِ (٨)، وَزَارٍ (٩) عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنِ عَزْمِهِ».

فقد بين الإمام عليه السلام عاقبه ومصير المغرورين بالدنيا فالصور التسع الواردة فى الفقره المذكوره لا تُبقى مجالاً لما هو أفصح وأبلغ وأدق منها فهذه الأصناف التسعه يُشعر كل منها بنوع من ضربات الدنيا التي تهز كيان المغرورين بها والقدر الجامع بينهم جميعاً مصيرهم البؤس والشقاء والحسره والندم؛ سواء أولئك الذى تلقوا ضربات ثقيله وسيقوا نحو الموت أو أولئك الذين بقوا ولم تعدد أمامهم سوى الحسره.

وقد عكس التاريخ نماذج كثيره لكل من هذه الأصناف التسعه ولعل الكثير منا

ص: ٢٤٠

١- (١). «معقور» من ماده «عقر» على وزن «فقر» يعنى مجروح وقتل أو قطع يد الناقه ورجلها.

٢- (٢) «مجزور» من ماده «جزر» بمعنى المسلوخ.

٣- (٣) «شلو» بعض لحم الحيوان المذبوح.

٤- (٤) «مسفوح» يعنى «مسفوك» من ماده «سفح» على وزن «صبر» بمعنى السفك وتستعمل عاده فى سفك الدماء.

٥- (٥) «عاض» من ماده «عض» على وزن «سد» ويطلق هذا اللفظ عاده على أولئك الذين يعضون أيديهم بأسنانهم من شدّه الندم.

٦- (٦) «صافق» من ماده «صفق» على وزن «دفع» تعنى ضرب اليدين ببعضها مع الصوت وتشير هنا إلى الأشخاص الذين يضربون أيديهم ببعضها من شدّه الحسره.

٧- (٧) «مرتفق» بمعنى الشخص الذى يستند على يديه ووردت فى العبارة كناية عن الشخص الحائر الذى وضع رأسه على يديه وغرق فى التفكير، وارتفاق يعنى الاستناد.

٨- (٨) «خديه» مثنى «خد» لدى الإنسان وهو معروف.

٩- (٩) «زار» بمعنى اللوم والتوبيخ من ماده «زرى» ولذلك وردت بمعنى الاستصغار والاستحقار.

قد رآها خلال مدّه عمره القصيره.

ثم اختتم الخطبه بالإشاره إلى هذه الحقيقه أنّه حين حلول الحوادث الشاقه والموت الحتمى تغلق جميع السبل فقال:

«وَقَدْ أَذْبَرَتِ الْحَيْلَةَ، وَأَقْبَلَتِ الْغَيْلَةَ (١)، «وَلَاتَ (٢) حِينَ مَنَاصٍ (٣)».

وأضاف عليه السلام:

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بِأَلِهَا (٤)، «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ».

نعم! فأولئك الذى ركبوا يوماً موجه الغرور وعاشوا فى تلك القصور الفارهه وضمنوا أنفسهم من امراء الأرض والسماء لم يجدوا بدأ حين أتاهم القضاء ونزل بهم المقدور سوى الاستسلام بكلّ ذلّه ومغادره الدنيا وكأنّهم لم يكونوا فيها، فلم تبكهم عينٌ ولم يصدع عليهم خاطر، ثم واصلت الدنيا من بعدهم مسيرتها وأعقبهم مجيئ الأقبام والأمم المقتدره والقويه الذين حلوا وفنوا فطواهم غبار النسيان ومحووا من صفحه التاريخ.

والعباره: «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» المقتبسه من القرآن المجيد (٥) أوردها الإمام عليه السلام بشأن طائفه من الأقبام السابقه التى عاشت غرور الاختلاف وظنت الخلود فى الحياه الدنيا وحين حلّ بها عذاب الله تعالت أصواتها طالبه النجده إلّا أنّ وقت النجاه قد ولى ومضى.

والعباره: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» آيه قرآنيه أخرى (٦) أشارت إلى حال الفراعنه حين غرقوا جميعاً فى البحر وخلفوا تلك القصور والعيون والنعم للآخرين وغادروها دون أن يبكيهم أحد.

ص: ٢٤١

١- (١). «الغيلة» بمعنى الشر والقرار الخطير الخفى وتطلق هذه المفرده على الاغتيال.

٢- (٢) «لات» أداه نفى كانت فى الأصل لا نافية أضيفت إليها التاء للتأكيد بينما قيل إنها زائده وللمبالغه.

٣- (٣) «مناص» بمعنى من ماده «نوص» الفرار.

٤- (٤) «بال» بمعنى القلب والخاطر.

٥- (٥). سورة ص، الآيه ٣.

٦- (٦). سورة الدخان، الآيه ٢٩.

ولعلّ التعبير بعدم بكاء السماء عليهم والأرض كناية عن حواره ودناؤه قرنائهم وأصحابهم في الحياه الدنيا، ذلك لأنّ المعروف عند العرب أنّهم حين يريدون الإشارة إلى علو منزله شخص بعد أن فقدوه يقولون: لقد بكته السماوات والأرض وأظلم لفقده الشمس والقمر.

كما قيل إنّ قد يكون المراد من بكاء أهل السماء والأرض ذلك لأنّ الملائكة أحياناً تبكى على المؤمنين والمقرّبين من الله تعالى، بينما لا تبكى على الظلمه والجبارين.

ص: ٢٤٢

وَهِيَ تَتَضَمَّنُ ذَمَّ إِبْلِيسَ لَعْنَةُ اللَّهِ، عَلَى اسْتِكْبَارِهِ وَتَزَكُّهُ السُّجُودَ لِإِدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ الْعَصِيْبِيَّةَ وَتَبَعَ الْحَمِيَّةَ، وَتَحْذِيرَ النَّاسِ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقَتِهِ (١).

نظرة إلى الخطبة

قيل في شأن هذه الخطبة أن أهل الكوفة عاشوا حاله كبيره من الفساد آواخر خلافه الإمام عليه السلام إثر ازدياد الثروات وانتقال الثقافة الفاسده من بعض البلدان المجاوره للبلاد الإسلاميه والمشاكل التي خلفتها فتره الخلافه في المجتمع

ص: ٢٤٣

١- (١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه بعد أن ذكر أن هذه أطول خطب أمير المؤمنين عليه السلام على ما ذكره الشارحون وهي في عده فصول في المواعظ والزواجر وأن طائفه ممن عاشوا قبل السيد الرضى ذكروها في كتبهم وكانت نسخه خطيه عند السيد ابن طاووس ذكرها في كتابه (اليقين) وقال رأيت هذه النسخه مع أخبار في فضائل أهل البيت عليهم السلام وردت عن الأعلام السابقين ويعود تاريخها إلى سنه ٢٨٠ هجرى، كما روى المرحوم الكليني فصلاً من هذه الخطبه في الجزء الرابع من كتابه الكافي كما روى المرحوم الصدوق بعضها في كتابه (من لا يحضره الفقيه) ورواها بعد السيد الرضى؛ الزمخشري في (ربيع الأبرار) وروى الماوردي في (أعلام النبوه) المعجزه التي رواها أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حركه الشجره (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٥٦).

الإسلامي، وفي مقدمتها التفاخر والتعصب القبلي والنعرات الجاهلية حتى بلغ الأمر ببعض الفتيه الطائشين إلى التنازع فيما بينهم فإذا جرح أحدهم أو ضرب استعان بقبيلته فتهب دون أدنى تريث وتمحيص لنجدته ويراق المزيد من الدماء، فانبى الإمام عليه السلام بهذه الخطبه بغيه إطفاء الفتنة فعرض بالذم للكبر والعصبيه القبليه الجاهليه، فأدى حقّ الكلام وبالغ في النصح والوعظ، فهي خطبه غايه في الفصاحه والبلاغه والإثاره ومن هنا سُميت بالقاصعه وإن لم ترد مفرده (القاصعه) في هذه الخطبه.

وذكر بعض شراح نهج البلاغه وجوهاً أخرى لسبب التسميه على ضوء تعدد معاني مفرده القاصعه؛ فقد ذكر المرحوم الشارح الخوئي سبعة وجوه في تسميه هذه الخطبه بالقاصعه إستند كل واحد منها إلى أحد معاني (القصع) لغوياً ويبدو ما ذكرناه هو أنسب الجميع.

على كل حال تتألف هذه الخطبه من عدّه أقسام صنفها كل من شراح نهج البلاغه حسب ذوقه وطريقته فقسمها البعض إلى خمس أقسام وآخر إلى أحد عشر قسماً وثالث إلى تسعة عشر قسماً.

ومن الواضح أنّ جميع أقسام هذه الخطبه تدور حول محور واحد هو ذمّ التعصب الجاهلي والتكبر والفخر، ولا سيما التعصبات القبليه والعرقيه التي تعدّ مصدراً للعديد من الاختلافات والإرباكات والمفاسد الاجتماعيه وتتضح هذه الحقيقه من خلال التمعن في عموم الخطبه إلى جانب سبب ايرادها من قبل الإمام عليه السلام ونحن بدورنا نقسمها إلى عشرين قسماً:

القسم الأول: بعد حمد الله والثناء عليه أشار إلى طرد الشيطان لتعصبه وتكبره على آدم عليه السلام.

القسم الثاني: إشاره لخلق الإنسان من الطين والذي يبعث فيه روح التواضع، والتذكير ثانيه بسوء عاقبه الشيطان بسبب كبره وتعصبه.

القسم الثالث: تحذير الجميع من الوقوع فى فخ الشيطان والسير فى طريقه.

القسم الرابع: ذم الأفراد الذين سقطوا فى شباك التكبر والفخر الجاهلى الموهوم.

القسم الخامس: تحذير الجميع من اجتناب طاعه وإتباع الحكام المتكبرين والمتعصبين.

القسم السادس: الوصيه بالاعتبار بالأقوام السابقه والعاقبه السيئه التى كانت بانتظار المتكبرين منهم والسعاده التى نالها المتواضعون وفى مقدمتهم أنبياءهم عليهم السلام.

القسم السابع: الحديث عن الحياه المتواضعه لموسى بن عمران وأخيه هارون عليهما السلام وما كانا يرتديان من ثياب بسيطه حين دخولهما على فرعون المتكبر المغرور وبالتالى تواضع أولياء الله فى جميع شؤون حياتهم.

القسم الثامن: الإشاره إلى اختيار الأرض الجافه والمحرقه لبناء الكعبه بمواد البناء البسيطه ليترد عنهم الكبر والغرور وتصوير الشعائر التى ترمز إلى البساطه والتواضع التام.

القسم التاسع: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى مختلف شباك الشيطان ولا- سيما الظلم والجور واعتبر إمتثال الفرائض الدينيه كالصوم والصلاه والزكاه وسيله لمقاومه الشيطان.

القسم العاشر: يشير إلى مصادر التعصب والغرور.

القسم الحادى عشر: إشاره إلى التعصب الإيجابى وعلاماته وآثاره.

القسم الثانى عشر: اعتبر مصير الأمم السابقه درساً وعبره ودعى الجميع للنظر فى سيره تلك الأقوام.

القسم الثالث عشر: الحديث عن الآثار المباركه للوحده والألفه وعواقب السوء للفرقه والتشتت والاختلاف.

القسم الرابع عشر: أعاد مخاطبه ثانيه إلى التاريخ الماضى والتذكير بالآثار السلبيه لاختلاف أبناء اسماعيل واسحاق وبنى اسرائيل.

القسم الخامس عشر: أشار عليه السلام إلى النعمة العظيمة في وجود النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآثارها على المجتمع الإسلامي.

القسم السادس عشر: عرض فيه بالذم لتلك الطائفة من الناس التي عادت القهقري بعد الدعوه إلى عادات الجاهليته.

القسم السابع عشر: ركز فيه على الأفعال المشينه للناكثين والقاسطين.

القسم الثامن عشر: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى منزلته من النبي بصفته أول من آمن به من الرجال ولازمه تلك المدّة.

القسم التاسع عشر: تحدّث فيه الإمام عليه السلام عن معجزه الشجره التي تحركت من مكانها نحو النبي بأمره صلى الله عليه وآله.

القسم العشرون: تحدّث فيه عن مناقب أهل البيت عليهم السلام واختتم به الخطبه بعنوانه «مسك الختام».

ص: ٢٦٦

أَلْحَمِدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبْرِيَاءَ؛ وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمَى وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَاضِيَّ طَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ. وَجَعَلَ
 اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِهَذَاكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمُ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَ
 وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضَمَّرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: (إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ
 سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ) اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَأَفْتَحَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدُوا لِلَّهِ
 إِمَامًا الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِذَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّنَدُّلِ.

أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبَرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفُوعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُورًا، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا؟!

الشرح والتفسير: الشيطان رأس العصبية

كما أشير في سبب الخطبة أن الهدف الأصلي من هذه الخطبة الطويلة والمفعمة بالمواعظ والإرشادات السامية التي تهذب
 الإنسان، مواجهه الكبر والغرور والعصبيَّة الجاهليَّة والطائفية التي كانت مصدر النزاعات القبليَّة الدمويَّة على عهد الإمام عليه
 السلام، وعلى هذا الضوء استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه، الله المتجلبب

بالعظمه والكبرياء التي لا تليق إلبذاته القدسيه فقال:

«الْحَمِيدُ لِمَه الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمِيًّا (١) وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَاضِيَةً لِحَمَاهُمَا لِجَلَالِهِ. وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ».

لا شك في أنّ العزّه والعظمه مختصه بالذات الإلهيه المقدسه، ذلك لأنّ كلّ ما سواه كائنات ضعيفه وعاجزه أمامه، إضافه إلى أنّ كلّ ما لديها منه، متى ما شاء أفاضه عليها ومتى شاء سلبه منها.

والعبارات الخمس الوارده في هذه الخطبه من قبيل قوله عليه السلام: لبس العز والكبرياء والتي لا- تليق بغيره وأنهما صفتان مختصتان بالله تعالى ويعبر عنهما أحياناً بالحمى والحرم (المنطقه المحظوره التي لا يحق للغير الدخول فيها) كما يعبر عنها بأنّ الله تعالى اختارهما لنفسه وخص باللعن من سلك سبيل التكبر والفخر، كلّ هذه العبارات المختلفه تهدف إلى إيضاح حقيقه واحده حيث تشير جميعها إلى أن لا- سبيل لعباد الله أمام الذات الإلهيه القدسيه سوى التواضع تجاهها وتجاه بعضهم البعض الآخر.

والواقع هو إنّ الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى الكبر ولا بحاجة إلى أن يمدحه الآخرون به، فذاته القدسيه عظيمه من جميع الجهات، ولكن لما كان الكبر والفخر لدى العباد مصدرراً للبؤس والشقاء وظلم الناس لبعضهم البعض الآخر، فقد ورد هذا التحذير في العبارات السابقه من هذا الأمر ودعى الجميع للبساطه والتواضع.

وعلى هذا الأساس أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه إلى أول امتحان للتواضع حين خلق الله آدم عليه السلام فقال:

«ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيُمَيِّزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضَمَّرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: «إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ»

ص: ٢٤٨

١- (١). «حمى» بمعنى المنطقه الممنوعه من ماده «حمایه» بمعنى الممانعه والدفاع عن الشيء ومن هنا تطلق الحميه على وزن «جزیه علی» المريض الذي يجتنب ما يضرّ به.

سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلَّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ».

وبالطبع فإنَّ اختبار الله يختلف عن اختبار العباد؛ فإننا حين نختبر أحداً نريد أن نبدل جهلنا به إلى علم ولذلك يعبر عن هذا الامتحان بالاختبار؛ أما الله تعالى طبق ما ورد سالفاً، العالم بمكنونات القلوب ومحجوبات الغيوب لا يريد قط بهذه الاختبارات إضافه شيء لعلمه، بل اختباره لتظهر النيات الباطنية والخلقيه والأسرار الخفيه لعباده بلباس الأفعال فيستحقوا الثواب والعقاب، ذلك لأنَّ النيه لوحدها ليست كافيه فى هذا الأمر، والثواب والعقاب إنما يترتب على الأعمال.

وهذا ما ذكره الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغه إذ قال:

«إِنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّخِطُ لِرِزْقِهِ وَالرَّاضَى بِقِسْمِهِ وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَكِنْ لِيُظْهِرَ الْأَفْعَالَ الَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ» (١).

ثم خاض عليه السلام فى شرح قضيه إبليس وسبب تمرده على أمر الله تعالى فقال:

«اغْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَحَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدُوا لِلَّهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصِيَّةِ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ (٢) لِيَأْسَ التَّعَزُّزِ (٣)، وَخَلَعَ فِنَاعَ التَّدَلُّلِ».

فالواقع أنَّ السبب الرئيسى لتمرده إبليس عملياً على أمر الله تعالى هو تعصبه وغروره الذى أفرزه حسابه الخاطى والذى يستند إلى الفخر والأنانيه حيث لم ير فى خلق آدم سوى حيثه التراب ولذلك عد نفسه أفضل منه فقال: «خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (٤) بينما أغفل تماماً الجانب المهم فى وجود آدم إلهو الروح الإلهيه: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (٥).

ص: ٢٤٩

١- (١) نهج البلاغه، الكلمه ٩٣.

٢- (٢) «ادرع» من «درع» على وزن «فكر» بمعنى الثوب ويستعمل أحياناً بمعنى لبس الثوب.

٣- (٣) «تعزز» بمعنى افتخر ورأى نفسه عزيزاً.

٤- (٤) . سورة ص، الآيه ٧٦.

٥- (٥) سورة ص، الآيه ٧٦.

نعم! فالعجب والأنايته أسوأ حجاب يصد الإنسان عن إدراك أوضح الحقائق.

وقد التبس الأمر على إبليس حتى في تقيمه لأفضليته النار على التراب، لأنَّ التراب هو المصدر الأساس للحياه ونمو النباتات وتفتح الأزهار والثمار وأنواع البركات، وبينما تقتصر فاعليتها على بعض جانب من حياه الإنسان.

على كلِّ حال فإنَّ تعبير الإمام عليه السلام إبليس بأنَّه عدو الله إشاره إلى أنه لم يكن عدواً لآدم فحسب، بل كان عدواً لخالق آدم ومتمرداً على أوامره فقد أرسى أولى لبنات العصبية ومنهج التكبر والاستكبار، العمل الذي يعتبر في الواقع محاربه لله تبارك وتعالى؛ ذلك لأنَّ العزّه والعظمه لا تليق إلاّ بذاته المقدّسه وجمال عباد الله في تواضعهم فالتكبر والغرور حسب ما ذكر علماء الأخلاق من أمّهات الرذائل.

روى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنه سأله عن أدنى مراحل الكفر والإلحاد؟ فقال عليه السلام:

«إِنَّ الْكِبْرَ أَذْنَاهُ»^(١). كما ورد في الخبر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام أنهما قالوا:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»^(٢).

ثم اتجه الإمام عليه السلام إلى مخاطبيه ليحذّرهم من عاقبه الشيطان السيئه فقال:

«أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبُرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفُوعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُورًا»^(٣)، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا؟».

فالعباره إشاره لآيات القرآن الكريم حيث قال تعالى: «فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ»^(٤).

وقال تعالى في موضع آخر: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لِأَمْثَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ»

ص: ٢٧٠

١- (١). الكافي، ج ٢، ص ٣٠٩، ح ١، باب الكبر.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٣١٠.

٣- (٣). «مدحور» بمعنى مطرود من ماده «دحر» على وزن «دهر».

٤- (٤) سورة الحجرات، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (١).

القسم الثاني

إشاره

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضَيَاءً، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُؤُوءًا، وَطِيبَ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفَةً، لَفَعَلَ. وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبُلُوى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمَيِّزًا بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفِيًا لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَادًا لِلْخِيَلَاءِ مِنْهُمْ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَخْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرِي أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ كِبَرِ سَاعِهِ وَاحِدِهِ. فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمَثَلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيَدْخَلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحِهِ حِمَى حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بعاقبه إبليس

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه في مواصلته لاختبار إبليس الذي ذكر سابقاً بعد أن أشار إلى قضيه مهمه وهي أن الله تبارك وتعالى يختبر عباده بأمر تخفى فلسفتها عليهم وربما يشق عليهم تحملها:

«وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ» (٢)

ص: ٢٧١

١- (١) سورة ص، الآيتان ٨٤ و ٨٥.

٢- (٢). «يخطف» من «خطف» على وزن «عطف» بمعنى الأخذ بسرعته.

الْأَبْصَارَ ضَيَاؤُهُ، وَيَبْتَلِيهِ (١) الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ (٢) وَطِيبٌ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ (٣) لَفَعَلَ وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبُلُؤَى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ».

إشاره إلى أنّ الامتحان الإلهي إنّما يفقد أثره إذا كان منسجماً مع رغبات العباد وميولهم؛ ذلك لأنّ الجميع سوف يعملون على أساسه؛ سواءً كانوا من عباد الله أو من عبده الأهواء ولا ينطوي مثل هذا الامتحان على أية نتيجة، أما إن كان على خلاف رغباتهم فآنذاك تمتاز صفوف المؤمنين المخلصين من العاصين المتكبرين.

فامتحان أصحاب الغرور والتكبر ينبغي أن يكون في الأمور التي تستهدف غرورهم وتكبرهم على غرار الامتحان الذي حصل للملائكة وإبليس.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفِيّاً لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخِيَلَاءِ (٤) مِنْهُمْ».

وعلى هذا الضوء تتضح عليه خفاء فلسفه الأحكام الشرعيّه، طبعاً تبدو واضحة لدينا فلسفه العديد من هذه الأحكام بحكم العقل والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن، إلّا أنّ جانباً مهماً من هذه الأحكام ما زال مبهماً، وذلك لمعرفة المطيع المخلص من المتمرد العاصي. جدير ذكره إنّ هنالك أدله أخرى غير ما ذكر في خفاء أسرار هذه الأحكام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عاقبه فعل إبليس المتكبر والمتعصب ليعتبر بها الجميع فحذرهم من مغبه اتباع خطواته حتى لا يبتلوا بما ابتلى به من عاقبه سيئه فقال:

ص: ٢٧٢

١- (١). «يبهر» من ماده «بهر» على وزن «بحر» بمعنى الحيره والبهت.

٢- (٢) «رواء» بمعنى حسن المنظر.

٣- (٣) «عرف» بمعنى الرائحه الطيبه.

٤- (٤) «خِيَلَاء» بمعنى التكبر.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدُهُ (١) الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي (٢) الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ، عَنْ كَبِيرِ سَاعِهِ وَاحِدِهِ».

والعبارة

«لا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ» لا تعنى عدم علم الإمام بهذا الأمر، بل إشارة إلى أن الناس لا يعلمون بذلك، والمراد من سنوات الدنيا هذه السنوات التي نعيشها والمعلومه المقدار، كما أن سنوات الآخرة ما أشير إليه كراراً في القرآن الكريم ومن ذلك: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» (٣).

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يمكن زوال ستة آلاف سنة من العبادة بساعه من التكبر؟ والجواب واضح؛ فالبناء عمل شاق وطويل، أما الهدم فعمل بسيط وسريع، فقد يستغرق بناء بيت عدّه سنوات إلا أن حريقاً يحيله خراباً خلال لحظات، كما بينى السد العظيم فى عدّه سنوات بينما ينهار بطرفه عين بفعل الزلزال أو تفجيره بالديناميت والمواد المفجرة، ومسأله إحباط الأعمال بفعل بعض الذنوب لمن المطالب المهمه التي ستعرض إليها فى مبحث التأملات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلى أن مصير المتكبرين من البشر هو ذات مصير إبليس فقال:

«فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسَلِّمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بَأْمُرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا».

ثم قال عليه السلام فى التأكيد على هذا المعنى:

«إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هِيَ وَادَّةٌ (٤) فِي إِيَّاحِهِ حِمَى (٥) حَرَمِيَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ».

إشاره إلى أن جميع المكلفين سواسيه أمام الله تعالى وليس لأى أحد أى امتياز على آخر، فليس لله مع أحد من قرابه، والمعصيه من أى عيدٍ صدرت هى معصيه،

ص: ٢٧٣

١- (١). «جهد» على وزن «مهد و جهد» على وزن «كفر» كلاهما يعنى السعى الجاد وجهيد على وزن «فعليل» من هذه الماده يذكر للتأكيد وعليه فجهد وجهيد تعنى منتهى السعى.

٢- (٢). «سنى» هى سنين فى الأصل وحذفت النون للإضافه.

٣- (٣) سورة الحج، الآيه ٤٧ وقريب من هذا المعنى سورة السجده، الآيه ٥.

٤- (٤). «هواده» بمعنى اللين والرخصه.

٥- (٥) «حمى» بمعنى المنطقه المحظوره من حمى على وزن «نفى» بمعنى المنع والاعراض.

والطاعة هي الطاعة فلا ينبغي أن يتصور البعض أنّ العقاب الأليم الذى شمل إبليس على تكبره يختص به والآخرين بمعزل عن ذلك إن ارتكبوا نفس الفعل.

تأملات

١. حبط الأعمال

جاء فى هذا الجانب من الخطبه أنّ عباده ستة آلاف سنة قد ذهبت هدراً بفعل ساعه من الكبر ومسأله الاحباط والتكفير، وبعبارة أخرى زوال الأعمال الحسنه أو تدارك الأعمال السيئه بالتوبه والطاعه، لمن المسائل المهمه التى حظيت باهتمام المتكلمين والمفسرين وأرباب الحديث.

فالذى يستفاد من بعض الآيات القرآنيه أنّ هناك سلسله من الأعمال السيئه التى من شأنها القضاء على الأعمال الصالحه ومنها الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر الذى ورد فى الآيه ٨٨ من سورة الأنعام: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» والآيه ١٤٧ من سورة الأعراف: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» وصرحت الآيه ٧ من سورة العنكبوت بشأن التكفير قائله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

طبعاً هذا لا- يعنى جعل السيئات والحسنات أمام بعضهما البعض الآخر يوم القيامة بحيث لو كانت الحسنات أكثر لما اكرث للسيئات أو لو كانت السيئات أكثر أهملت الحسنات بصوره كلييه، فليس هنالك هذا النوع من الاحباط والتكفير وهولا ينسجم مع الآيات القرآنيه أيضاً فقد جاء فى الآيتين ٧ و ٨ من سورة الزلزال: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

وزيده الكلام إنّ لكل عمل صالح وطالح آثاره الخاصه عند الله يوم القيامة، ولكن لهذا المطلب استثناءات فهنالك بعض الأعمال الصالحه التى تغطى الأخطاء، وبعض الأعمال القبيحه التى تزيل الحسنات (١).

ص: ٢٧٤

١- (١) للوقوف على المزيد بهذا الشأن انظر: التفسير الأمثل ذيل الآيه ٢١٧ من سورة البقره.

٢. هل إبليس من الملائكة؟

جاء فى هذا القسم من الخطبه أن إبليس كان من الملائكه وقد طرده الله من الجنه ومن حضيره الحق لتلك المعصيه الكبيره.

ولعل هذه العبارة توحى بأن إبليس كان حقاً من الملائكه بينما يصرح القرآن علانيه: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (١).

كما جاء فى القرآن من جانب آخر أن الملائكه معصومون ولا يقارفون المعصيه قط: «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ يَعْمَلُونَ» (٢). فكيف لملك معصوم أن يتمرد على أوامر الله ويسلك طريق الكفر ومخالفه الله تعالى؟!!

ومن هنا يتضح أن إبليس كان فى مصاف الملائكه بفعل عبادته الكثيره ولم يكن حقاً من الملائكه فهذه العبارة وإن كانت مجازيه إلا أن القرائن الكثيره والواضحه تزيل أى إبهام.

٣. كبر إبليس أساس كفره

يستفاد من الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه وهذه الخطبه أن كبر إبليس أدى بالتالى إلى كفره، أقصى درجات الكفر، ذلك لأنه اعترض على حكمه الله وعدّ أمره بالسجود لآدم منافياً للحكمه ولذلك عوقب بأشدّ العذاب وهو الطرد من حضيره القدس وحبطت أعماله وعبادته التى استغرقت سته آلاف سنه.

فالكلام يحمل رساله واضحه للجميع هى عدم الاستخفاف بالكبر والعصبيه، التى قد تقود أحياناً إلى الكفر واحباط الأعمال والطرده من القرب الإلهى، طبعاً كان بإمكان إبليس أن يرجع ويتوب، ولكن كان أول شرط فى توبته طاعه أمر الله فى

ص: ٢٧٥

١- (١) سوره الكهف، الآيه ٥٠.

٢- (٢) . سوره الأنبياء، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

السجود لآدم عليه السلام، فقد جاء في الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ إبْلِسَ سَجَدَ لِلَّهِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ بِهِ وَالتَّكْبِيرِ عُمَرَ الدُّنْيَا، مَا نَفَعَهُ ذَلِكَ وَلَا قَبْلَهُ اللَّهُ مِنْهُ مَا لَمْ يَسْجُدْ لِأَدَمَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ»^(١).

٤. وحده حكم الله في الجميع

إنَّ أحد الدروس المهمّة في هذا الجانب من الخطبه هي أنّ علاقته الخلق بالخالق علاقته الطاعه والعبوديه وأنّ جميع مخلوقات الله سواسيه في الأحكام في الشرائط المتساويه أو المتشابهه وما يعتقده طائفه من اليهود والنصارى أنّهم أبناء الله وخواصه وسوف لن ينالهم سوى جانب من العقاب على أعمالهم: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ»^(٢). إنّما هي عقيدته خاطئه وفكره باطله.

وعليه فإنّ كلّ كبر وعصبيه وعصيان سيؤدى إلى الطرد من رحمه الله وسوف لن يكون مصير كلّ من ارتكب هذه المعصيه سوى مصير إبليس، وهذه القاعده ساريه على جميع العباد على اختلاف مراتبهم.

ص: ٢٧٤

١- (١) الكافي، ج ٨، ص ٢٧١.

٢- (٢) سوره المائده، الآيه ١٨.

فَاخِذُوا عِبَادَ اللَّهِ عِدْوَاللَّهِ أَنْ يُعَدِّيكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يُجَلِّبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَيِّئَهُمُ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَىكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: (رَبِّ بِمَا أَعُوذُنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، فَذُفًا بَغِيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْمًا بِظَنْ غَيْرِ مُصْتَبٍ، صَيَّدَقَهُ بِهِ أَثْنَاءَ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانَ الْعَصْبِيَّةِ، وَفُزْسَانَ الْكِبَرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَرَامِحُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَيَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَفْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الدُّلِّ، وَأَحْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَوْكُمْ إِتْحَانَ الْجِرَاحِ، طَغَنَّا فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزًّا فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقًّا لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْدًا لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْفًا بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمَعْدَةِ لَكُمْ. فَأَصْبَحَ أَغْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَزَجًا، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحًا مِنَ الدِّينِ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَلَهُ جَدُّكُمْ.

الشرح والتفسير: أعدى أعداء الإنسان

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه في الاستنتاج من قصه ضلال الشيطان وطرده من الرحمه إثر كبره وعصبيته ليحذر الجميع من سوء العاقبه والمصير فقال:

«فَاخِذُوا عِبَادَ اللَّهِ عِدْوَاللَّهِ أَنْ يُعَدِّيكُمْ (١) بِدَائِهِ، وَأَنْ

ص: ٢٧٧

١- (١). «يعدى» من «عدو» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل التجاوز والعدوان والعداوه معروفه و «عدوى» بمعنى الرخص وكذلك بمعنى انتقال المرض من شخص لآخر وهذا هو المراد فى العبارة أى أنّ الشيطان ينقل إليكم مرضه فى التعصب والغرور.

يَسْتَفِرُّكُمْ (١) بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ (٢) عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ (٣). وعبارته الإمام عليه السلام هذه اقتباس من القرآن الكريم حيث قال تعالى: «وَأَسْتَفِرُّزُ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ» (٤).

وخيل تعنى الفرس وكذلك الفرسان وأريد بها هنا المعنى الثانى ورجل تعنى المشاه وهى إشاره إلى كثره الأعوان الذين يقفون إلى جانب الشيطان سواء من نوعه أو من البشر والذين يعينونه على إضلال الآخرين؛ فبعضهم سريع كالفرسان والآخر بطيء كالمشاه.

وبالطبع فإن الصفات الرذيله وعوامل المعصيه ومراكز الفحشاء والدعايات السامه والمضله ووسائل الذنوب تعدد من أعوان الشيطان وجنوده حيث حذر الإمام عليه السلام الناس من كل هذه الأمور.

ثم أقسم الإمام عليه السلام بعمره لتأكيد هذا الكلام فقال عليه السلام:

«فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ (٥) لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ (٦) إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ (٧) الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ».

ثم استشهد الإمام عليه السلام بقوله تعالى عن إبليس:

«فَقَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

أما قسم الإمام عليه السلام بعمره فيشير إلى أن القضية غايه فى الجديه؛ وليت شعري أى

ص: ٢٧٨

١- (١). «يستفر» من «استفزاز» بمعنى الاستنهاض والإثارة.

٢- (٢) «يجلب» من «جلب» بمعنى الصراخ بشخص أو نقله من موضع إلى آخر.

٣- (٣) «رجل» جمع «راجل» بمعنى المشاه.

٤- (٤) سورة الاسراء، الآية ٦٢.

٥- (٥). «فوق» من «فوق» موضع الوتر من السهم، إشاره إلى أن الشيطان استعد لاطلاق سهمه عليكم والمفرده تشير إلى هذا المعنى.

٦- (٦) «اغرق» من ماده «اغراق» و «غرق» على وزن «ورق» استوفى مد قوسه ويطلق أيضاً على كل عمل بمنتهى السعى.

٧- (٧) «نزع» بمعنى استئصال الشيء أو جره مثل مد القوس.

شئ أشرف من عمر الإمام وقوله عليه السلام إنَّ الشيطان فَوْقَ لَكُمْ سهم الوعيد واغرق إليكم بالترع الشديد إشاره إلى أن خطر الشيطان قد أحاط بكم بأخدع صورته التي قلما تخطئ وقد دلکم على سبله وذلك من خلال المظاهر الماديّة للدنيا وتزيين نعمها الماديّة والغرق في مستنقع الشهوات واللذات.

وتعبير الإمام عليه السلام بأنَّ الشيطان جند طاقاته وقواه كافه واستعد للهجوم عليكم وقد استهدفكم من مكان قريب فكنتم في مرماه من كل جانب، إشاره إلى كثره عناصر الوسوس الشيطانيه في باطن الإنسان وخارجيه، فهوى النفس من جهه والعوامل الخارجيه للمعصيه من جهه أخرى.

والعبارة «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» التي تبدأ بلام القسم ونون التوكيد الثقيله وتنتهى بالمفرده أجمعين، شاهد على أنه بمنتهى الجد في تحقيق اهدافه المشؤومه، ومن هنا لابد أن يعيش الناس اليقظه والحذر حتى لا يقعوا في شباك فخه ومصائده.

جدير ذكره أن العبارة:

«رَبِّ بِمَا أَعُوَيْتَنِي...» من أكاذيب الشيطان وافترائاته على الله تعالى والتي تشير إلى مدى تمرده ووقاحته بحيث يفتري على الله مثل هذا الكذب، الله الذى يهدى الجميع ويزودهم بعناصر الهدى، ولما كان كلام الشيطان واضح البطلان فالقرآن لا يرد عليه، فكيف يضلّه الله سبحانه وتعالى وهو الذى أمره والملائكة بقوله: «فَإِذَا نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» فالشرف الذى حظى به آدم عليه السلام على أساس روح الله التى نفخت فيه، إلّا أنّ الشيطان الحسود والأنانى تجاهل ذلك واكتفى بالنظر إلى خلقه من الطين! فهل الضلال كان من جانب الله أم من نفس الشيطان؟!

ثم قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه:

«قَدْفَا بَغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْمًا بَظَنٍّ غَيْرٍ مُصِيبٍ».

فقد وردت العبارة

«رَجْمًا بَظَنٍّ غَيْرٍ مُصِيبٍ» بهذه الصيغه فى أغلب نسخ نهج البلاغه والتي يظن أحيانا أنها لا تنسجم مع الآيه الشريفه: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» (١) والحال إن الآيه الشريفه نازله بشأن قوم سبأ لا بشأن جميع الناس وإلا فالمؤمنون ليسوا بقله فى أمم الأنبياء.

ورجحت طائفه من شراح نهج البلاغه النسخه الأخرى التى لا تتضمن كلمه «غير» وبصيغه:

«رَجْمًا بَطْنٌ مُّصَيَّبٌ» لأنهم قالوا إن ظن الشيطان بشأن الناس مطابق للواقع حيث لم ينج من وساوسه سوى قله قليله من الناس وهذا ما صرح به القرآن الكريم إذ قال: «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِى الشُّكُورُ» (٢) وقال فى موضع آخر: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» (٣).

أضف إلى ذلك بأنها أكثر انسجاما مع العبارة التالىة فى هذه الخطبه التى قال فيها:

«صَدَقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ».

فالعباره:

«أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ» كناية عن أنهم عجنوا بالكبر على درجه وكأنهم أصبحوا أبناءه كما أن التعبير إخوان العصية كناية عن علاقتهم الوثيقه بالعصيات القبليه والقوميّه وما شابه ذلك.

والعباره

«وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ» كناية عن أنهم بلغوا درجه من الكبر والجهل والغرور وكأنهم اعتلوا مركباً من الجهل والكبر اندفعوا به إلى الأمام.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ (٤) مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ (٥) مِنْهُ فَيَكُمُ، فَانْجَمَتِ (٦) الْحَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ. اسْتَفْحَلُ (٧) سُلْطَانُهُ»

ص: ٢٨٠

١- (١) . سورة سبأ، الآيه ٢٠.

٢- (٢) . سورة سبأ، الآيه ١٣.

٣- (٣) سورة ص، الآيه ٢٤.

٤- (٤) . «جامحه» بمعنى الحيوان الجامح. من «جموح» على وزن «فتوح».

٥- (٥) «الطماعيه»، «طماعيه» و «طمع» بمعنى واحد.

٦- (٦) . «انجمت» من «نجوم» بمعنى ظهرت كما يطلق على النبات بدون ساق لأنه يظهر من الأرض و يطلق على النجوم لأنها

تظهر في السماء.

٧-٧) «استفحل» من ماده «استفحال» ومن «فَحَل» على وزن «نخل» بمعنى العظيم البارز و «استفحال» الثقيل والمتعب.

عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ (١) بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ».

إشاره إلى أنّ إبليس يسعى بادئ الأمر إلى الهيمنه على الأفراد الذين يتمردون عليه ثم يرسخ قاعدته لديهم ثم يبسط نفوذه عليهم فيهجم عليهم بجنوده والحال فهم فقدوا قدرتهم الدفاعية وعانوا من أنواع المصائب الماديّه والمعنويّه، كما أشار الإمام عليه السلام بثمان عبارات قصيره عميقه المعنى إلى آثار ذلك الهجوم الشيطاني الواسع فقال:

«فَأَقْحَمُواكُمْ (٢) وَلَجَاتِ الدَّلِّ، وَأَحْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ (٣) الدَّلِّ، وَأَحْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ (٤) القَتْلِ، وَأَوْطَأُواكُمْ (٥) إِثْخَانَ (٦) الجِرَاحِ، طَغْنَا فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزًّا (٧) فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقًّا لِمَنَاخِرِكُمْ (٨)، وَقَصْدًا لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقًا بِخَزَائِمِ (٩) القَهْرِ إِلَى النَّارِ المُعَدَّةِ لَكُمْ».

فهذه العبارات الغايه فى الدقه والبيان والمقرونه بمنتهى البلاغه والفصاحه تجسد عظم بؤس المهزومين أمام الشيطان، الذين إن هربوا من جنده وأعوانه ولجأوا إلى كهف فسوف لن يكون سوى كهف الذل والهوان وإن قاوموا فليس لهم من مصير سوى الموت والفتناء كما أنّ موتهم سوف لن يكون هيناً بل ممزوج بالضرب والجرح وغرز السهام فى العيون وقطع الحناجر وتحطيم الأنوف وبالتالي سوف يجرون إلى نار الغضب الإلهية.

ثم خلس عليه السلام إلى استنتاج قاطع فقال:

«فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَزْجًا (١٠)،

ص: ٢٨١

- ١- (١) «دلف» من «دلوف» بمعنى المشى ببط ورفع الخطوات القصيره وتشير هنا إلى التقدم التدريجى للشيطان.
- ٢- (٢) . «اقحموكم» من ماده «قحوم» بمعنى العمل دون تروى و «اقحام» يعنى حمل شخص بالقوه على عمل معين.
- ٣- (٣) «ولجات» بمعنى الملاجئ والكهوف جمع «ولجه» على وزن «درجه» ما يلجا إليه الماره عند المشاكل.
- ٤- (٤) «ورطات» بمعنى المشاكل والمهالك جمع «ورطه» على وزن «غفله».
- ٥- (٥) «اوطأوكم» من ماده «وطئ» بمعنى الوطئ بالارجل.
- ٦- (٦) «اثخان» من «ثخونه» تعنى فى الأصل الضخامه والغلظه و «اثخان» المبالغه فى قتل العدو.
- ٧- (٧) . «حزّ» بمعنى القطع.
- ٨- (٨) «مناخر» جمع «منخر» الانف أو خرم الانف.
- ٩- (٩) «خزائم» جمع «خزامة» على وزن «كتابه» حلقه توضع فى أنف البعير فيشد فيها الزمام ويسحب عند الجماع.
- ١٠- (١٠) . «حرج»، على وزن «خرج» و «حرج» على وزن «حرم» بمعنى الانزعاج والمحدوديه الشديده وتعنى فى الأصل اجتماع الأشجار والتفافها.

وأورى (١) في دُنْيَاكُمْ قَدْحاً (٢) مِنَ الدِّينِ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ (٣) ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ (٤) .

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ (٥) ، وَلَهُ جِدُّكُمْ (٦) .»

إشاره إلى أنّ إبليس أعدى أعدائكم في الدين والدنيا وخطره أعظم من خطر كلِّ عدو فلا بد من تجنيد طاقاتكم لمواجهته.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن الفساد بالحرّج يعني الصعوبه والمشقّه (ووردت في بعض النسخ جرح والتي تبدوانسب للعباره) وعن وساوس الشيطان المضلّه بالقدح (ما يشعل به النار)، لأنّ قداحه صغيره يمكن لها أن تحرق بيتاً أو حياً، ووساوس الشيطان قد تقود أحياناً إلى تصدع مجتمعات وإنهيارها، ولا سيما العصبيات العمياء والكبر والغرور كما ذكر في الخطبه حيث تأجيج نيران القلبيه التي تدعو إلى مزيد من سفك الدماء واغراق الأرض بها من الأفراد الأبرياء.

والتعبير بالجد بفتح الجيم بمعنى القطع تشير إلى قطع العلاقه مع إبليس وعدم طاعه أوامره (وقد ورد الجد في بعض النسخ بكسر الجيم والذي يعنى السعى والمثابره والذي يبدو أنسب للعبارات السالفه) فالبعض يبذل قصارى جهده وسعيه في مجاهدته لإبليس وجنده.

ص: ٢٨٢

- ١- (١) . «أورى» من ماده «وَرَى» على وزن «نفى» تعنى فى الأصل الاخفاء ويطلق الورى على النار الكامنه فى الوسائل الناريه وتقتدح عن طريق الجدحه وتعنى فى هذه العبارة اشعال النار.
- ٢- (٢) «قَدْح» اخراج النار من الآله (شئ أشبه بالكبريت).
- ٣- (٣) «مناصبين» جمع «مناصب» بمعنى المجاهر بالعداوه من ماده نصب بمعنى العداوه.
- ٤- (٤) «متألبين» طائفه تجتمع على القيام بعمل من ماده «ألب» على وزن «سلب» بمعنى الاجتماع.
- ٥- (٥) «حدّ» و «حدّت» بمعنى الشدّه والغضب، وفى الأصل بمعنى الحدّه.
- ٦- (٦) «جدّ» يعنى القطع. ولما كان كلّ موجود عظيم يمتاز عن الآخرين فقد اطلق على الجد وورد فى الآيه الشريفه «وأنّه تعالى جدُّ ربّنا» إشاره إلى عظمه الله والمعنى المراد بها قطع العلاقه.

فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصْلَابِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَفْتَنُصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ. لَاتَمْتَنِعُونَ بِحَيْلِهِ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمِهِ، فِي حَوْمِهِ ذُلٌّ، وَحَلْقِهِ ضَبِيقٌ، وَعَرْضِهِ مَوْتٌ، وَجَوْلَهُ بَلَاءٌ. فَطَافُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَحْوَاتِهِ، وَنَزَعَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضَعَ التَّدَلُّلِ عَلَىٰ رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءِ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلَعَ التَّكْبِيرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَاتَّخَذُوا التَّوَاضِعَ مَسْلِحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودًا وَأَعْوَانًا، وَرَجُلًا وَفُرْسَانًا، وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَىٰ ابْنِ أُمَّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَىٰ مَا أَلْحَقَتِ الْعَظْمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عِدَاوَةِ الْحَسِيدِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَالزَّمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير: التحذير من التشبه بالشیطان أو قایل

عباً الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه الجمیع للوقوف بوجه الشیطان ووساوسه وأشار إلى سوابقه السيئه وعداوته بعبارات تفيض فصاحه وبلاغه فقال:

«فَلَعَمْرُ لِلَّهِ (١) لَقَدْ فَخَرَ عَلَيَّ أَضْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسْبِكُمْ (٢)، وَدَفَعَ فِي نَسْبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيَكُمْ وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ».

وهذه العبارات العميقة المعنى هي اقتباس من الآيات القرآنية الشريفة؛ فالآية ٣٣ من سورة الحجر تشير إلى أنّ الشيطان حقر آدم بهذه الصيغة قائلاً: «لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» فغروره وحسده وتكبره جعله يتناسى عبارته: «نَفَحْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» من كلام الله والتي تعدّ من أعظم مفاخر آدم عليه السلام، كما قال تعالى عن إبليس في الآية ١٢ من سورة الأعراف «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» والحال لو تخلى عن كبره وغروره لأيقن أنّ التراب هو مصدر أنواع البركات وأساس حياه الموجودات وهو أفضل من النار، وصرّحت الآية ٦٤ من سورة الإسراء أنّ الله تعالى قال له: «وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ» كما قال تعالى عن الشيطان في الآية ١٦ من سورة الأعراف: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ».

وهنا تكمن خطوره هذا العدو الذي ينبغي الحذر منه فهو لا يقرّ بشخصيه آدم الرفيعه ولا يسلم بنسبه وقد جند طاقاته كافه من أجل اغوائه واضلاله.

ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«يَقْتَنِصُونَكُمْ (٣) بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ (٤). لَأَتَمْتِعُونَ بِحَيْلِهِ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمِهِ. فِي حَوْمِهِ (٥) ذُلٌّ، وَحَلَقِهِ ضَبِيقٌ، وَعَرَصِهِ مَوْتٌ، وَجَوْلَهُ بَلَاءٌ».

ص: ٢٨٤

١- (١). «لعمركم الله» «عمر»، بفتح «العين» بمعنى العمر، بضم «العين» يستعمل في القسم وعليه فالعبارة لعمري تعني أقسم بنفسى و «لعمركم الله»؛ تعني ببقاء ذات الله تعالى.

٢- (٢) «حسب» تذكر هذه العبارة عادة مقرونه بالنسب لكنهما مختلفان في المعنى. فالحسب في الأصل قدر الشيء ومنزلته وشرفه وبما أنّ الأصل والنسب يؤثر على منزله الإنسان وقدره فإنّ هذه المفردة تشمل أيضاً النسب الرفيع والعزیز فيقال الحسب لمقدار كلّ شيء، والواقع أنّ هذه المفردة أخذت من مادة حساب لأنّ الأفراد يحسبون مفاخرهم ومفاخر آبائهم عند ذكر الحسب.

٣- (٣). «يقتنصون» من مادة «قنص» على وزن «حبس» بمعنى يصيدون.

٤- (٤). «بنان» جمع «بنانه» تعني لغوياً الأصابع ورؤوس الأصابع والشخص الذي تقطع بنانه لا يقوى على العمل.

٥- (٥) «حومه» بمعنى أهم موضع في الشيء وتطلق الحومه على القسم الرئيسي من القتال أو الذل.

«وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ» تشبه ما ورد في القرآن الكريم بشأن هجوم الملائكة على الكفار يوم بدر: «وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» (١). فإن قطع كل بنان إن كان بشأن الأيدي يؤدي بالإنسان إلى العجز عن الإتيان بأغلب الأعمال، ذلك لأن لكل عمل وسيله ووسائل الأعمال عادة الأصابع والأيدي، وإن كان المراد بنان الأرجل فذلك يؤدي إلى اختلال توازن الإنسان حين المشي والعبارة الواردة في الخطبه إشاره إلى أن الشياطين يهجمون عليكم ويعيقونكم عن العمل بحيث يسلبونكم زمام التفكير والقدرة على اتخاذ القرار.

ثم ركز الإمام عليه السلام على لب الموضوع فاستعار تشبيهات غايه في الجمال وبمتهى الفصاحه والبلاغه ليحذر الجميع من الآثار السيئه للعصبيه العمياء والكبر الأجوف فقال عليه السلام:

«فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَّ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصِيْبِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهَا تَلْمِكُ الْحَمِيَّةِ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ (٢)، وَنَزَعَاتِهِ (٣) وَنَفَثَاتِهِ (٤)».

فقد شبه الإمام عليه السلام بهذه العبارات العصبيات الطائشه والأحقاد الجاهليه بالنار الكامنه في أعماق القلوب التي تقتدح فجأه وتلتهم جميع كيان الإنسان فتسرى إلى الخارج لتعم وتحرق أمم بأسرها، ويعد الإمام عليه السلام هذه الصفه الرذيله من وساوس الشيطان والتي تنتقل من الخارج إلى بواطن المسلمين أي هي قريبه من المسلم الحق.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَاعْتَمِدُوا وَضَعِ التَّدْلِيلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءِ التَّعَزُّزِ

١- (١) . سورة الأنفال، الآية ١٢.

٢- (٢) . «نخوات» جمع «نخوه» بمعنى الكبر.

٣- (٣) «نزعات» جمع «نزعه» بمعنى الفساد من ماده «نزغ» على وزن «وضع» بمعنى الدخول في فعل بقصد الافساد.

٤- (٤) «نفثات» جمع «نفثه» بمعنى ما يخرج من الفم من اللعاب وفي الأصل من ماده «نفث» على وزن «حبس» بمعنى النفخ واستعملت هنا لخروج مقدار من اللعاب حين النفخ على الشيء وهي كناية عن وساوس الشيطان في العبارة، السائد بين السحرة أنهم يقرأون بعض الأوراد عند السحر وينفخون على الشخص المطلوب فهي كناية عن الوسوسة.

تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلَعَ التَّكْبِيرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَاتَّخَذُوا التَّوَاضِعَ مَسْلَحَةً (١) بَيْنَكُمْ وَيَبِينَ عَدُوَّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ».

فقد شبه الإمام عليه السلام في هذه العبارات التواضع بالتاج والتعزز بما يلقي تحت الأقدام ممّا لا قيمه له وشبه التكبر بالغل الذي يوضع على العنق والبساطه بالمسلحه أو بالموضع الذي يحفظ الإنسان من مكائد العدو وكلّ منها يحمل رساله واضحه للناس ولا سيما الأفراد المؤمنين منهم.

ثم بين الإمام عليه السلام دليلاً واضحاً لهذه الوصايا فقال:

«فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّه جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجِلاً وَفُرْسَاناً».

طبعاً ليس جميع هؤلاء من الجن بل بعضهم من الناس الشياطين من الضالين والمضللين أعوان الشيطان وأنصاره وقد قال القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» (٢).

وهنا تطرق الإمام عليه السلام بعبارة قصيره وعميقه المعنى إلى قصه قاييل الشخص الثاني بعد الشيطان الذي إعتراه الكبر والعصبيّه فارتكب جنايه عظيمه وغاص في وحل الندم والشقاء فقال عليه السلام:

«وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمَّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظْمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ».

العبارة

«ابن أمّه» بدلاً من أخ إشاره إلى البعد العاطفي للموضوع، أى أنّ التكبر فعل فعله رغم تلك العلاقة العاطفيّه بينهما فدفعه لقتل أخيه ولعلنا نلمس شبيهه هذا المعنى فى قصه موسى وهارون حين نقم على عباده بنى إسرائيل للعجل وقد أخذ برأس أخيه هارون فناداه على سبيل آثاره عواطفه: «يَبْتَنُومَ لَأَتَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي» (٣).

ص: ٢٨٦

١- (١). «مسلحه» بمعنى موضع الجمع وبعباره أخرى يطلق على المواضع ومخازن السلاح لأنهم يجمعون عاده مقداراً من الأسلحه فى الموضوع وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة السابقه.

٢- (٢) سورة الأنعام، الآيه ١١٢.

٣- (٣) سورة طه، الآيه ٩٤.

والعبارة:

«سوى ما أَلْحَقَتْ» من قبيل ما يصطلح عليه بالاستثناء المنقطع وقد وردت هنا لشده الّذم كأن نقول: «ليس لفلان من فضل سوى الكذب والخيانة».

والعبارة:

«عِدَاوَةُ الْحَسِيدِ» إشاره إلى أنّ الحسد يؤدّي بالإنسان إلى العداوه والخصومه؛ العداء الّذى من شأنه أن يكون مدعاه لقتل الأخ لأخيه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى توضيح هذا الأمر فقال:

«وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ (١) الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

ويستفاد من هذه العبارات أنّ الانحرافات إنّما تنطلق بادئ الأمر من باطن الإنسان ثم يعمقها الشيطان لتطال آثارها المشؤومه الإنسان وعليه فكلّ ما هنالك يعزى إلى باطن الإنسان الملوّث وهذا رد حاسم على أولئك الّذين يقولون لماذا يفعل الشيطان كل هذا ولماذا يبتلىنا الله تعالى بكلّ تلك المصائب.

وقد نقل ابن أبى الحديد عند هذه العبارة حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله رواه المؤرخ المعروف الطبرى أنّه قال:

«مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا وَذَلِكَ بِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

وأضاف ابن أبى الحديد: إنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبه يؤيد ذلك (٢).

وقد وردت عدّه أبحاث مطوله فى الروايات الإسلاميه بشأن إقامه السنه الحسنه والسنه السيئه وآثارهما سنتطرق إلى ذلك إن شاء الله فى محله والذى يمكن قوله على نحو الخلاصه: إنّ كلّ من سن فعل خير وحثّ الناس على القيام به فهو شريك لهم فى الأجر والثواب ومن سن سنه سيئه فهو شريك لهم فى الذنب والمعصيه بسبب انتهاكه للحرمات وتشجيعه الناس من ضعف الإيمان على المعصيه.

ص: ٢٨٧

١- (١) «آثام» جمع «إثم» بمعنى الذنب و تعنى فى الأصل تلك الحاله التى يصل إليها روح و عقل الإنسان و يمنعه من الوصول الى الكمال والحسنات.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٣، ص ١٤٦.

أَلَا وَقَدْ أَمَعْتُمْ فِي الْبُعْغِي، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ مُصَارَحَهُ لِلَّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ. فَاللَّهُ اللَّهُ فِي كَثِيرِ الْحَمِيَةِ وَفَخِرِ الْحَيَاهِلِيَةِ! فَإِنَّهُ مَلَأَ قِيْحَ الشَّنَانِ، وَمَنَافِيْحَ الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَّمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْتَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ، دُلَالًا عَن سِيَاقِهِ، سُلْسَاً فِي قِيَادِهِ. أَمْرًا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونَ عَلَيْهِ، وَكِبْرًا تَضَايَقَتْ الصُّدُورُ بِهِ.

أَلَمَّا فَالْحِي ذَرَّ الْحِي ذَرَ مِنْ طَاعِهِ سِيَادَاتِكُمْ وَكُتُبَاتِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَن حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقُوا الْهَجِيَنَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِأَلَايِهِ. فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أُسَاسِ الْعَصْبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اعْتِرَاءِ الْحَيَاهِلِيَةِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعْمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَادًا، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَادًا. وَلَا تَطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصِفْوِكُمْ كَدْرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحْتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أُسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَخْلَاسُ الْعُقُوقِ. اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ. وَجُنْدًا بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَهُ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقًا لِعُقُولِكُمْ وَدُخُولًا فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثًا فِي أَسْمَاعِكُمْ.

فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِيءَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

الشرح والتفسير: اجتناب تبعيه المتكبرين

لما فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمات في المقاطع السابقة بشأن مخاطر الكبر

والغرور والعصبيه حذر مخاطبيه مباشره من سوء عاقبه السير على هذا المسار الشيطاني وألقى باللائمه على أولئك الذين يثيرون الخلافات والنزاعات ويؤججون نيران الصراعات تحت ذرائع واهيه تستند إلى العصبيه القبليه والتفاخر الذى تقوم به جماعه على أخرى فقال عليه السلام:

«أَلَا وَقَدْ أَمَعْتُمْ (١) فِي الْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ مَصَارِحَهُ (٢) لِلَّهِ بِالْمَنَاصِبِهِ (٣)، وَمُبَارَزَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَحَارِبِهِ».

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المخاطب بهذه العبارات هم جند الشام واتباع معاويه ولعلمهم إستندوا فى ذلك إلى خطاب الإمام عليه السلام اللادع والشديد الذى لم يكن مناسباً لما عليه أهل الكوفه والعراق، فى حين يفهم من سبب هذه الخطبه وسائر الخطب أنّ مخاطبى الإمام عليه السلام هم طغاه الكوفه والعراق الذين كانوا يثيرون الصراعات بين القبائل وأدوا إلى المزيد من الفساد وإراقه الدماء انطلاقاً من التعصبات الجاهليه والقبليه؛ الأمر الذى يعتبر عداءً صريحاً لله من جانب وحرماً شعواء على المؤمنين من جانب آخر.

ثم اشتد كلام الإمام عليه السلام فخاطبهم قائلاً:

«اللَّهُ فِي كِبَرِ الْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلَأَ الْكِنَانِ، وَمَنَافِخِ الشَّيْطَانِ».

وبالنظر إلى أنّ

«ملاقح» جمع

«ملقح» على وزن مجرم، فإنّ مفهوم العبارة أنّ الكبر والتعصب سبب ايجاد البغض والعداوه وكذلك

«منافخ» جمع

«منفخ» على وزن «مصرف» وسيله ينفخ بواسطتها ومفهومها أنّ الشيطان يوسوس فى القلوب عن هذا الطريق ويسوقهم إلى الفساد.

ثم أشار عليه السلام إلى آثار ومخاطر هذه الوسوس والنفخات الشيطانيه فقال:

ص: ٢٩٠

١- (١). «أمعنتم» من ماده «إمعان» بمعنى المبالغه فى القيام بشيء مشتقه فى الأصل من ماده «معن» على وزن «دهن» بمعنى ارتواء الأرض بالماء.

٢- (٢) «مصارحه» من ماده «صرح» بمعنى الوضوح والظهور ومصارحه تعنى مواجهه الشخص بصوره عليه.

٣- (٣) «مناصبه» من ماده «نصب» على وزن «نسب» بمعنى التعب والمشقة كما تعنى المناصبه التظاهر بالعداوه التى تؤدى إلى تعب ومعاناه الطرفين.

«الَّتِي خَدَعَتْ بِهَا الْأُمَّمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا (١) فِي حَنَادِسٍ (٢) جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي (٣) ضَلَالَتِهِ، ذُلًّا (٤) عَنِ سَيَاقِهِ، سُلْسًا (٥) فِي قِيَادِهِ».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً:

«أَمْرًا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكَبِرًا تَضَايَقَتْ الصُّدُورُ بِهِ».

فى إشاره إلى أنّ مسأله الكبر والغرور وآثارها ومخاطرها الجمه أمر متجذر فى جميع الأمم والشعوب والذى كان مصدر الحروب الدمويه والنزاعات الواسعه ومختلف أنواع الجرائم والجنايات والحماقات.

فالتكبر والتعصب صفتان سودتا وجه التاريخ البشرى واللتن تعتبران من أهم شباك الشيطان فى العصور الماضيه والحاضره والقادمه.

نقل أحد شراح نهج البلاغه (المرحوم محمد جواد مغنيه) فى شرحه أنّ الفيلسوف الانجليزى المعروف (راسل) قال: إنّ كلّ إنسان يجب أن يكون إلهاً والغريب قلّ من يعتقد أنّ هذا الأمر محال، ثم يضيف هذا الشارح العالم أنّ هذا الكلام صحيح إلّا أنّ أولئك الذى يتمنون أن يكونوا آلهه ولا يبلغون ذلك يعمدون لاشباع رغباتهم الباطنيه إلى التكبر والفخر بالعظام الباليه لآبائهم أو ما هم عليه من مقام أو ذكر أسمائهم فى الصحف.

ثم ركز الإمام عليه السلام على الموضوع الأسمى للقضيه والذى يكمن فى الطاعه العمياء لزعماء القبائل والمفسدين والمتكبرين الأنانيين الذين يدعون الناس إلى أهوائهم وملذّاتهم ويثيرون الفتن والمفاسد فقال عليه السلام:

«أَلَا فَالْحَدَرَ الْحَدَرَ مِنْ طَاعِهِ سَادَاتِكُمْ

ص: ٢٩١

١- (١). «أعنقوا» من ماده «عنق» بمعنى الرقبه و «عناق» الاسراع فى الذهاب خلف الشىء.

٢- (٢) «حنادس» جمع «حناس» على وزن «قبرص» بمعنى الظلام ومن هنا يقال حنادس لليالى الثلاثه الأخيره فى الشهر لشده ظلمتها وامتزاجها بالمحاق.

٣- (٣) «مهاوى» جمع «مهواه» يعنى الحفره كما تعنى الحفره العميقه التى يقع فيها السيل وليس له من سبيل.

٤- (٤) «ذلل» جمع «ذلول» بمعنى الشخص المنقاد والمستسلم للحيوان الهادئ.

٥- (٥) «سلس» جمع «سلس» على وزن «خشن» بمعنى السهل والمنقاد.

وَكِبْرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكْبَرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفُّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقُوا الْهَجِيئَةَ (١) عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِآيَاتِهِ (٢)».

فهذا الكلام فى الواقع اقتباس من الآيه القرآنيه الشريفه التى يظهر فيها الناس ندمهم يوم القيامه على طاعتهم لكبرائهم وزعمائهم فيقولون: «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا» (٣).

وإننا كلّمنا تأملنا تاريخ البشريه الماضى نرى أنّ أحد العناصر الرئيسيه فى الحروب والصراعات وإراقه الدماء كان يكمن فى التكبر والعصبيات القبليه والقوميّه والتى ما زالت قائمه لحد الآن، وهى أحد العوامل المهمه فى نشوب الحرب العالميه الأولى والثانيه التى حطمت دولاً من العالم وأودت بحياه الملايين من الناس، والحال لو أمعن الإنسان النظر لأدرك أنّ أصله من التراب وأصله الآخر نطفه لا قيمه لها ونهايته جثه متعفنه، فقد نهى الإسلام عن الافتخار بالآباء والمناصب والتمسك ببعض الألقاب التى تفرز الغرور والغفله، فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«حُبُّ الرَّجُلِ دِينَهُ، وَمُرُوتُهُ، خُلُقُهُ، وَأَصْلُهُ عَقْلُهُ» (٤).

فقد قاله النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حين حاول البعض الاستخفاف بسلمان الفارسى حين سأله عن نسبه، فرد عليهم بأنّ نسبه عتقه من العبوديه بواسطه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

والعبارة:

«أَلْقُوا الْهَجِيئَةَ عَلَى رَبِّهِمْ» إشاره إلى أنّ هؤلاء رأوا أنّ نسبهم هو الأفضل ونسب الآخرين أدنى، ثم نسبوا دناءه نسب الآخرين إلى الله تعالى، واعتقدوا أنّ الله تعالى خلق خلقاً فاضلاً وكانوا هم من ذلك الخلق، وخلق تعالى خلقاً أدنى هم الآخرون كما نسبوا لأنفسهم ما نالوا من النعم الإلهيه على أنّها تستند

ص: ٢٩٢

١- (١). «هجينه» بمعنى الفعله القبيحه والمستهجنه من ماده هجونه.

٢- (٢) «آلاء» جمع «ألاء» على وزن «جفا» أو إلا- على وزن «فعل» بمعنى النعم وقيل بمعنى خصوص النعم المعنويه خاصه حين تأتى مع مفرده النعمه، ويقال: «النعم والآلاء».

٣- (٣) سوره الأحزاب، الآيتان ٦٧ و ٦٨.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٨١، ح ١٦.

إلى كفائتهم وجدارتهم وتنكروا لنعم الله وآلائه وألطافه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ذكر السبب الذي يقف وراء ضروره عدم تبعيه مثل هؤلاء الأفراد فقال:

«فَانَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اغْتِرَاءِ (١) الْجَاهِلِيَّةِ».

فقد شبّه الإمام عليه السلام العصبية والفتنة بالبيت، وأعمدته دعاه الفساد، وأركانه المتكبرون الأنانيون، وقد نهى الجميع عن السكن في هذا البيت، كما شبه عليه السلام الشعارات السائده في زمان الجاهليّة لإثاره القبائل وتأليبها على بعضها البعض الآخر، بالسيوف الحاده، ثم شبه زعماء الفساد بهذه السيوف.

فقد كان السائد في العصر الجاهلي أنّ أليه قبيله من القبائل إذا ما تعرّضت لتهديد من الطرف الآخر عمد زعماءؤها بدلاً من اعتماد الفكر والمنطق في إصلاح الأمور وإرساء الصلح والسلام إلى تأليب الآخرين على اطلاق شعارات الحرب مستغلين جميع الوسائل من أجل إثارة عواطف الأفراد الجهال بغيه تأجيج نار الحرب، سيما أنّ كل قبيله كانت تنادى الأخرى بأسماء آبائها وأجدادها السابقين فرعماء القبائل في الواقع هنا بمنزله السيوف.

ويشير التاريخ إلى أنّ الزعماء المتهافتين على المناصب والمقامات في العصور السابقه كانوا يعبثون الجماهير بمختلف الشعارات ويزجون بالجهال في أتون الحرب بغيه الحفاظ على مصالحهم ومقاماتهم ولعلنا نلمس اليوم ما عليه وسائل الإعلام العالميه التي تعتمد شتى الأساليب وبصوره واسعه بغيه الحفاظ على الحكومات الاستكباريه ومصالح كبار رؤساء الأموال، وكما قال القرآن الكريم: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً» (٢)، وهذه هي الفئه التي وقفت على الدوام بوجه الأنبياء الذين بعثوا لتنوير عقول الناس وهدايتهم إلى

ص: ٢٩٣

١- (١) «اعتزاء» بمعنى النسب من ماده «عزو» على وزن «رزم».

٢- (٢) . سورة النمل، الآية ٣٤.

الصراط المستقيم وبسط القسط والعدالة الاجتماعيه، فهبت لمعاداتهم ومواجهتهم:

«وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» (١).

ثم أضاف عليه السلام:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنَعْمِهِ عَلِيَّكُمْ أَضْدَادًا، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَادًا».

في الواقع إن هؤلاء الذين يكفرون بنعم الله ويسلكون سبيل الكبر والغرور بدلاً من توظيف هذه النعم في خدمه الخلق إنما يهبون لمناجزه نعمهم ويحسدون أنفسهم في ما أفاض الله عليهم ذلك لأن فعل هؤلاء بالنتيجة يتفق مع ما عليه الحساد والأعداء، فكلاهما ينشد سلب النعمه والفضل الإلهي من الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى فقال:

«وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ» (٢).

ذهب بعض الشراح إلى أن المراد بالأدعياء ذلك المعنى الأصلي (الأفراد الذين لا حسب لهم ولا نسب، أبناء الحرام) بينما فسرها البعض الآخر بأن المراد بها المنافقين، ذلك لأن النفاق إنما هو نتيجة دناءه النسب وخسه الجوهر، وأخيراً هناك من فسرها بالوضيعين.

جدير ذكره أن التكبر الذي يعدّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبه إنما يستند إلى عقده الحقاره، وهذا ما صرحت به الروايه الوارده عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«مَا مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ أَوْ تَجَبَّرَ إِلَّا لِدَلَّةٍ وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ» (٣).

ثم خاض عليه السلام في شرح أوصاف طائفه الأدعياء فقال:

«الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدْرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصَحْتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ».

إشاره إلى أن هؤلاء المنافقين المستكبرين إنما استغلوا حسن نياتكم وأنفدوا

ص: ٢٩٤

١- (١) سوره سبأ، الآيه ٣٤.

٢- (٢) «أدعياء» جمع «دعى» على وزن «جلى» تعنى فى الأصل المتبنى أى الولد من أب آخر ومن ينسب نفسه لآخر، وبما أن مثل هؤلاء الأفراد لا يمتلكون نسباً واضحاً يطلق عليهم الأدعياء ووردت بمعنى عديم النسب أو ابن الزنا.

٣- (٣) الكافى، ج ٢، ص ٣١٢.

إليكم نياتهم السيئه وأمراضهم النفسيه وأعمالهم المريضة والمطالب الباطله ورسخوها في أوساطكم؛ وعليه فما عليكم إلا التعرف عليهم والانسحاب من تبعيتهم وطرح أفكارهم الفاسده وخططهم الشيطانيه من أوساطكم.

ثم أفصح الإمام عليه السلام عن التعريف بهم فقال:

«وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَخْلَاسُ (١) الْعُقُوقِ (٢)».

بالنظر إلى معنى الفسوق وهو الخروج عن الطاعه والعقوق الذى يطلق على مطلق العصيان، فإن المراد بالعباره السابقه أن جميع المعاصى والمفاسد الاجتماعيه إنما تنبع من المفسدين والمستكبرين حيث يقوم هؤلاء الأفراد باستقطاب الناس وشدهم إليهم كونهم مصداق للعباره:

«النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ».

ثم تحدت الإمام عليه السلام عن العلاقه القائمه بين هذه الفئه وإبليس ومدى ارتباط افكارهم وخططهم بوساوسه فقال:

«اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ. وَجُنْدًا بِهِمْ يَصُولُ (٣) عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَهُ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقًا لِعُقُوقِكُمْ وَدُخُولًا (٤) فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثًا (٥) فِي أَسْمَاعِكُمْ».

فالواقع، إنما يمتطى إبليس هذه الفئه بالدرجه الأولى لإضلال الناس وإغوائهم، ثم يستعين بها فى هجومه عليهم فإن استسلموا لقنهم مطالبه بلسان زعماء هذه الفئه الضاله فيعطل لديهم جميع مصادر الفهم والإدراك بما فيها العقل والعين والاذن؛ فيسلبهم عقلهم بأمانيه البعيده وأهوائه ورغباته ويزين لهم الدنيا، فيصادر بصيرتهم ويقرأ فى آذانهم كلمات الخداع ويوسوس إليهم فلا تكون عاقبتهم إلا تلك التى

ص: ٢٩٥

١- (١). «أحلاس» جمع «حلس» على وزن «حرص» بمعنى كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، ثم اطلق «الحلس» على كل شىء ملازم لآخر ولذلك يقال للأفراد الذين يلازمون البيوت «أحلاس البيوت».

٢- (٢) «عقوق» تعنى فى الأصل التقطيع والتمزيق ثم اطلقت هذه الكلمه على مخالفه الأب والأم والآخريين و «أحلاس العقوق» بمعنى الأفراد الملازمين للطغيان والعصيان.

٣- (٣). «يصول» من ماده «صوله» بمعنى الهجوم.

٤- (٤) «دخول» معروف المعنى ولكن يأتى بمعنى الفاسد أيضاً وهذا ما أريد به فى العباره.

٥- (٥) «نفث» تعنى فى الأصل طرح مقدار من لعاب الفم وحيث يقترن بالنفخ فقد وردت بمعنى النفخ أيضاً.

أشار الإمام عليه السلام إليها في خطبته وعلى هذا الأساس فقد جعلكم أهدافاً لسهامه ووطأكم بقدمه واستحوذ عليكم:

«فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ (١) ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ».

فمن الطبيعي أن يتيه الإنسان تحت أرجل الشيطان ويكون بدنه عرضه لسهامه ويحكم عليه قبضته إذا ما فقد عقله وبصيرته وإدراكه.

وقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أن العبارة «وَمَا أَخَذَ» إشارته إلى الأسر في مخالاب الشيطان، وعليه يكون مفهوم العبارات الثلاث أن الشيطان يقضى عليكم أو يذلكم أو يأسرکم، إلّا أن التفسير الذي أوردناه يبدو أنسب مع العبارات السابقة.

والمواقع أن هذه الكلمات العميقة للإمام عليه السلام بشأن نفوذ الشيطان في الإنسان اقتباس من القرآن الكريم إذ قال تعالى: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (٢).

وقال تعالى في الآية ١١٢ من سورة الأنعام: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» وقد مر شبيه ما ورد في هذه العبارة في الخطبة السابعة حين قال:

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مَلَكَاً وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً... فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَزَكَبَ بِهِمُ الزَّلَّلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ».

تأمل

التكبر والعصبيه

«التكبر» يعنى الشعور بالأفضليه من الآخرين، و

«التعصب» يعنى التعلق غير المنطقى بشخص والتفانى فى الدفاع عنه بصورة عمياء، أو الغلو فى الحب للقبيله

ص: ٢٩٦

١- (١) . «نبل»، السهام.

٢- (٢) سورة الأنعام، الآية ١٢١.

وتمجيدها بحق وبغير حق، وتعصب من ماده عصب على وزن غضب بمعنى الأوعيه الخاصه التي تربط عضلات الإنسان بدماعه وتشكل سلسله الأعصاب.

ثم اطلقت على الفئه والجماعه المنسجمه فكراً والمتعاضده فيما بينها، ويطلق على هذه الجماعه

«عُصبه» على وزن

«سُفْره» وتطلق مفرده

«تعصّب» عاده على التبعيه الهمجيه المطلقه والتي يفرزها عاده الجهل وضيق التفكير والكبر؛ لأنّ الشخص الذى يريد أن يلصق بنفسه قيمه معينه يسعى لإكبار من يتعلق به أو يتعلق بهم، فيتجاهل نقط ضعفهم ويبالغ فى تضخيم نقاط قوتهم إن وجدت فيهم.

وهذه الرذيله الأخلاقية الجاهليه إذا انطلقت من التعصب العرقى والقبلى فإنها تؤدى إلى اندلاع النزاعات والحروب والعنف والصراعات الدمويه التي حدثت فى التاريخ القديم والتاريخ المعاصر.

ولعل أحداً لم يأمن مخاطر الكبر والعصبيّه منذ التاريخ الجاهلى حتى تاريخنا الراهن. فقد نشب فى العصر الجاهلى قتالان عنيفان بين القبائل العربيه باسم الفجار المعروفه فى التاريخ. حيث حدثت فجار الأولى حين كان لفرد من قبيله بنى كنانه دين بدمه رجل من قبيله هوازن الذى ما كان يستطيع تسديد دينه؛ فشاهد الرجل الهوازنى قرداً فى سوق عكاظ (السوق الذى كان يعقد كلّ سنه قرب الطائف) وقال:

هل من رجل يبيعنى هذا القرد مقابل دينى من فلان الكنانى ومراده من هذا الكلام تحقير الرجل الكنانى الذى عجز عن تسديد دينه، وهنا قام رجل من كنانه فقتل القرد، فصرخ الهوازنى بوجه الرجل واستنجد الكنانى بقبيلته فاقتلت القبيلتان قتالاً شديداً.

وفجار الثانيه التي حدثت بعد وفاه عبد المطلب، وسببها أنّ فتى من قبيله بنى غفار جلس فى زاويه من سوق عكاظ ومد رجليه وكان يقول: أنا أفضل العرب ومن لم يقبل ذلك فليقطع رجليّ، فانبرى له فتى جاهل من قبيله بنى قيس وسل سيفه وضربه على رجليه، فاقتلت قبيلتيهما قتالاً شديداً حتى تصالحا بعد مدّه من

العداوه والخصومه(١)، وما شهدته القرن العشرين متمثلاً فى الحرب العالميه الثانيه وكان سببها كما نعلم العصبيه الألمانتيه النازيه والتي خلفت عشرات الملايين من القتلى وعشرات الملايين من الجرحى والعديد من المفقودين وذلك الخراب العظيم الذى حلّ بأوروبا وسائر دول العالم، وحتى اليوم فإنّ العوامل الرئيسيّه التى تقف وراء اعتداءات المستكبرين والجنه الاسرائيليين لا تستند إلى شىء سوى إلى الكبر والتعصب.

وبالنظر لما ذكرناه سابقاً نقف على عمق كلام الإمام عليه السلام فى إظهاره لكلّ هذا القلق من النتائج الوخيمه للكبر والعصبيّه، وفى ذلك ورد عن النّبى صلى الله عليه و آله:

«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّتِهِ، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ»(٢).

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تَعَصَّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رَبْقَ الْإِيمَانِ»(٣).

ص: ٢٩٨

-
- ١- (١) . الكامل، لابن الأثير، ج ١، ص ٥٨٨ و ٥٨٩.
 - ٢- (٢) منهاج البراعه، ج ١١، ص ٣٠٩.
 - ٣- (٣) المصدر السابق.

إشاره

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَّمَ الْمُشْتَكِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.

فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصِّهِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَاثُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضِعَ، فَأَلَصَّ قُومًا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ. قَدْ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ. فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالْإِخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالْإِقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ). فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُشْتَكِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.

الشرح والتفسير: آفة التكبر

لما فرغ الإمام عليه السلام من تحذيراته في المقطع السابق من هذه الخطبه من تبعيه المستكبرين والعصاه المتعصين، أخذ في هذا الجانب من الخطبه بيد مخاطبيه ليغوص بهم في أعماق التاريخ ويوقفهم على مصير الأمم المستكبره وأئمه الكبر

والغرور فى التاريخ القديم فقال:

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَّمَ الْمُشْتَكِبِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، (١) وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ (٢)».

فقد عرض لنا القرآن الكريم كيف كانت عاقبه الطغاه سبيته ومصيرهم أسود كفرعون وجنوده حيث هلكوا غرقاً فى أمواج البحر وكانت أجسامهم طعمه لحيتان البحار، وطغاه مع أقوامهم هلكوا تحت الزلازل الشديده ومنهم من أمطروا بالحجاره أو خسف بهم الأرض ومنهم من قلب الله بهم مدنهم فجعل عاليها سافلها كقوم لوط، وطائفه أخذهم بالطوفان والعواصف التى جعلتهم كأعجاز النخل الخاويه كقوم عاد، بينما أخذ البعض الآخر بالصاعقه ليحيلهم أجساداً خاويه بطرفه عين كما قال تعالى فى محكم كتابه العزيز: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (٣).

ثم قال عليه السلام:

«وَاتَّعَظُوا بِمَثَاوِي (٤) خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، (٥) وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبَرِ، (٦) كَمَا تَسْتَعِيدُونَ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ».

يبدو أنّ الوصايا الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام:

«اعتبروا» و «اتَّعَظُوا» و «اسْتَعِيدُوا» إشارة إلى المراحل الثلاث التى تنتظر الإنسان اليقظ فى مسيرته نحو الحقّ حين تأمله لسيره الماضين: وأهمها مصير الأمم السابقيه بما كانت تمتلكه من نعم وما كانت عليه من عزه وقدره ثم الت إلى الزوال أثر الكبر والغرور، لكى يتعلم الدروس والعبر من تاريخ حياتهم ومماتهم فيستعيد بالله فى خاتمه المطاف حتى لا

ص: ٣٠٠

١- (١) «صولات» جمع «صول» على وزن «قول» بمعنى التسلط والغلبه.

٢- (٢) «مثالات» جمع «مثله» على وزن «عضله» بمعنى العقوبه ومن ذلك العذاب الذى نزل على الأمم السابقيه والذى اصبح يضرب به المثل.

٣- (٣) سوره العنكبوت، الآيه ٤٠.

٤- (٤) . «مساوى» جمع «مثنوى» من ماده «ثواء» بمعنى الإقامة فى موضع، وعليه فالمثنوى بمعنى المنزل والمكان.

٥- (٥) «جنوب» جمع «جنب» على وزن «جمع» بمعنى الجبهه والجانب.

٦- (٦) «لواقح» جمع «لاقح» من ماده «لقاح» تشير فى العبارة إلى عوامل ظهور الكبر والغرور.

يُصاب بالكبر والغرور.

وتشير العبارة

«كَمَا تَشِي تَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ» إلى آثار الكبر المشؤومة والتي تعد من الحوادث المريرة التي لا تقل عن الزلازل والعواصف والحوادث الطبيعية المفجعة الأخرى.

ثم طرق هذا المعلم الرباني العظيم سبيلاً آخر بغية خلق النفرة في قلوبهم إزاء الكبر والغرور فقال عليه السلام:

«فَلَمَّا رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِمَّنْ عَيَّادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِجَاوِزِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا (١) فِي التُّرَابِ وَجُوهَهُمْ. وَخَفَّضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ».

لعل بعض المتكبرين يعتقدون أن التكبر يكشف عن الشخصية وأنها بالتالي نعمه من نعم الله تعالى، فالإمام عليه السلام يشير إلى أن هذا العمل لو كان نعمه وكرامه لأنعم به تعالى على أنبيائه وأوليائه قبل كل شخص آخر؛ بينما نرى القضية معكوسة تماماً حيث كرهتعالى إليهم الكبر والغرور، والتواضع بمثابة تاج وضع على رؤوسهم، وعلى هذا الأساس عاشوا الخضوع لله تعالى فكانوا يعفرون وجوههم بالتراب، كما عاشوا البساطة والتواضع للمؤمنين.

والعبارة:

«وَخَفَّضُوا أَجْنِحَتَهُمْ» كناية لطيفة عن التواضع، لأن الطيور حين تريد أن تحنو على فراخها تضمها تحت أجنحتها بعد أن تفتحها لها.

والعبارة:

«وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ» لا تفيد هنا معنى الضعف والعجز، بل تعني أنهم كانوا لا يتكبرون على أبناء مجتمعهم فهم عباد بسطاء وأنهم يشاطرون الآخرين حياتهم.

ثم هم الإمام عليه السلام برفع الخطأ واللبس الذي شاب بعض المستكبرين الذين اعتقدوا بأن المال والأولاد علامات على القرب من الله تعالى، فخاض في بعض

ص: ٣٠١

١- (١). «عفروا» من مادة «عفر» بمعنى التمرغ بالتراب.

التفاصيل من سيره وحياه خاصه أولياء الله وأنبيائه وما تعرضوا له من امتحانات واختبارات بعبارات فصيحہ وبلغه ليركز على أربعة أنواع من الاختبارات فقال:

«قَدْ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ (١)، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ (٢)، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَّضَهُمْ (٣) بِالْمَكَارِهِ».

فطرق الله تعالى الامتحانيه لا تحصي، فأحياناً بالنعمة وكذلك بالنقمة، وتارة بالمرض والسقم وأخرى بالصحة والعافيه وثالثه بالعزّه وأخرى بسلبها؛ لكن يمكن تقسيم هذه الاختبارات إلى أقسام متعدده؛ الضيق في المعيشه والجوع والعطش، الحوادث الشاقه والأليمه من قبيل المصائب التي تحملها المسلمون الأوائل في شعب أبي طالب حتى مختلف الغزوات وحاله اللأمن التي كان يفرضها عليهم خصوم الدعوه، إلى جانب الأمراض والمعاناه التي سادت حياه جميع أنبياء الله، إنّما تعدّ دليلاً على هذه الامتحانات ومن ذلك حياه موسى بن عمران عليه السلام منذ ولادته حتى لجوئه إلى بيت النبي شعيب عليه السلام، وحين انبرى لدعوه الفراعنه وما أعقبها من حوادث أليمه والمصائب التي عاشها في بني اسرائيل، وكذلك مختلف المراحل التي شهدتها نبي الله إبراهيم عليه السلام في حياته من بابل حتى أرض مصر ثم مكه ولا سيما سيره النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله والغنيه عن التوضيح، كلّها شواهد حيه على هذا الأمر.

ثم خاض عليه السلام في دفع خطأ مهم بعد ذكره لهذه المقدمه والذي أصيب به العديد من الناس في الماضي والحاضر والذي يتمثل في ظنهم بأنّ كثرة الأموال والأولاد دليل على التوفيق والسعاده والقرب من الله تبارك وتعالى فقال عليه السلام:

«فَلَا تَعْتَبِرُوا

ص: ٣٠٢

١- (١). «مخمصه» بمعنى الجوع وخلو البطن من الطعام، ومن ماده «خمص» على وزن «لمس» بمعنى الجوع الشديد الذي يدعو إلى خسف البطن.

٢- (٢) «مجهده» مصدر ميمي بمعنى المشقّه من «جهد» على وزن «مهد» و «جهد» على وزن «كفر» بمعنى التعب الناتج من السعي والحركه.

٣- (٣) «مخض» من ماده «مخض» على وزن «خفض» تعنى في الأصل، تحريك اللبن ليخرج زبده، ثم أُطلقت على كل حركه شديده وشاقه.

الرِّضَى وَالسُّخْطِ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالْإِخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالْإِقْتِدَارِ».

ثم استدل عليه السلام بآيه قرآنيه أشارت صراحه إلى هذا الأمر فقال:

«فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ (١)»».

ثم خلص من الآيه الشريفه إلى هذه النتيجة فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُشْتَكِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فالعباره

«فِي أَنْفُسِهِمْ» بشأن المستكبرين إشاره إلى أنهم ليسوا على شيء من الفضيله، بل هم عباد ضعاف وعاجزون يرون أنفسهم كباراً.

والعباره

«فِي أَعْيُنِهِمْ» (استناداً لعوده الضمير للمستكبرين) تشير إلى أن عباد الله ليسوا ضعافاً وعاجزين قط، بل المستكبرون يظنونهم مستضعفين بفعل زهدهم وورعهم وتقواهم وطاعتهم لأوامر الله، ومن هنا يتضح اختلاف مفرده المستضعف هنا مع ما وردت في العباره السابقه حيث قال عليه السلام الأنبياء مستضعفون إشاره إلى تواضعهم ووزهدهم وبساطه حياتهم، وقوله أولياء الله المستضعفين في عين المستكبرين إشاره إلى الضعف والعجز والذلة التي يظنونها.

تأمل

تصحيح خطأ

أشارت العديد من الآيات القرآنيه إلى هذا الموضوع حيث إنه كان في الأقوام السابقه بعض الأفراد الذين يعتقدون بأن كثره الاموال والأولاد دليل على القرب من الله تعالى، وقد دفع بهم هذا التصور الخاطئ لأن يعتقدوا لأنفسهم ببعض المقامات المعنويه بموازاه تلك الإمكانيات الماديّه الضخمه ليوردوا هذا الأمر بصيغه مغالطه

ص: ٣٠٣

فیزعموا أنّ هذه نعم الله فمن شمله الله بهذه النعم فقد أحبه، ومن أحبه الله كان مقرباً منه، وعلى هذا الأساس كانوا ينظرون باستخفاف إلى المؤمنين على المستوى المادى والمعنوى.

وقد غفلوا عن أنّ إفاضه الإمكانيات الماديّة إنّما يستند إلى عده عوامل، فقد تكون نعمه من نعم الله، كما قد تكون للامتحان والاختبار أو الاستدراج للعذاب، أى أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يتابع نعمه على بعض الأفراد الذين لا يمكن إصلاحهم فيسلبها تعالى منهم بغته ليكون ذلك أشد وقعاً على قلوبهم وأكثر إيلاًماً. والقضية أشبه بالضبط بذلك المعتدى الذى يتسلق شجره ثم يأخذ بالتسلق شيئاً فشيئاً حتى يسقط فجأه فتتطم جميع عظامه.

ص: ٣٠٤

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بَنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ (عليهما السلام) عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ:

«أَلَمْ تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أُقِيَّ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ؟» إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَبُئْسَهُ! وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الدُّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعَقِيَانِ، وَمَعَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِ يَنْ لَفَعَلْ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَّا وَجَبَ لِلْقَائِلِينَ أُجُورُ الْمُتَبَلِّينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أَوْلَىٰ قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَهُ فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعِهِ تَمَلُّ الْقُلُوبِ وَالْعُيُونِ غِنَى، وَخِصَاصَهُ تَمَلُّ الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ أَدَىٰ.

الشرح والتفسير: درس وعبره في قصة موسى عليه السلام

تابع الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه من خلال طريق آخر ينطوي على الدروس والعبر ذم الكبر والغرور والعصبيه التي تشكل المحور الأصلي لهذه الخطبه، فأشار إلى قصه موسى بن عمران عليه السلام حين دخل مع أخيه هارون على

فرعون وكانا يرتديان تلك الثياب البسيطة فتعرضا إثر ذلك لاستخفاف فرعون المتكبر فقال عليه السلام:

«وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بَنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ (١) الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ (٢)، فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ».

فقد دخل موسى وهارون عليهما السلام بذلك اللباس البسيط وعصا الرعى على فرعون ليحطما كبريائه وطغيانه ويبيئا له ولحاشيته أن العزّه ليست في الأموال والكنوز وكثره الخدم ليعلنا نهايه ذلك النوع من العيش وانطلاقه العهد الجديد في الحكومه الإلهيه بواسطه المستضعفين.

ثم واصل عليه السلام حديثه فتطرق إلى ردود الفعل التي ابداهها فرعون إزاء دعوه موسى وهارون فقال عليه السلام:

«فَقَالَ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهَمَيَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حِيَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ (٣) مِنْ ذَهَبٍ؟ إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاخْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ!».

نعم! فالنظام المادى للجهاز الفرعونى يدور حول هذا المحور فى أن من كانت إمكاناته فى الذهب والجواهر أكثر كانت شخصيته أسمى، وثياب الصوف البسيطة إنما هى لباس الشخصيات الوضيعه فى المجتمع؛ أى لم يكن هنالك أى دور للقيم الإنسانيه فى بيان شخصيه الإنسان فى ظل ذلك النظام، والقيم الاعتباريه والخياليه هى التى تحدد معيار الشخصيه.

وقد تعرض الإمام عليه السلام لشرح هذه الحقيقه بعبارات غايه فى الروعه والبيان والتى لم تكن لها آنذاك قيمه واقعيه بينما كان يحسبها كذلك فرعون وحاشيته فقال:

«وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذَّهَبَانِ (٤)، وَمَعَادِنَ

ص: ٣٠٤

١- (١). «مدارع» جمع «مدرع» على وزن «منبر» بمعنى الجبهه.

٢- (٢) «عصيّ» جمع «عصا».

٣- (٣). «أساوره» و «أساور» جمع «أسوره» وجمع «سوار»، على وزن «غبار» أو «سوار» على وزن «كتاب» وهى فى الأصل كلمه فارسى (دستور) بمعنى السوار الذى يوضع فى اليد للزينه.

٤- (٤). «ذهبان» جمع «ذهب» معروف.

الْعُقَيَانِ (١)، وَمَغَارِسَ (٢) الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِ بَيْنَ لَفْعَلٍ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَّا وَجَبَ لِلْقَائِلِينَ أُجُورُ الْمُتَّبِلِينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا».

إشاره إلى أنّ الحكيم تبارك وتعالى يستطيع أن يمد أنبياءه بجميع أسباب القوّه ويزينهم بمختلف صنوف الذهب والمجوهرات والثروات ويغدق عليهم القصور ووسائل الراحة، بل يجعل أنبياءه أغنى الملوك والسلطين - لأنّه خالق السماوات والأرض ومالك كلّ شيء - لكنه حكيم فإن فعل ذلك سيزول الهدف الأصلي لبعث الأنبياء والدعوه إلى الله تعالى، بل ستكون النتيجة معكوسه وتتحول القيم والمثل إلى ما يضادها ويفسد الإيمان وتسوء الأخلاق والتربيه.

ولذلك خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل ست مفاصد فى بيان الآثار السيئه لمثل هذا الأمر وهى:

١. انعدام معطيات الامتحان الإلهى للعباد فى ظلّ هذه الظروف، ذلك لأنّ الأفراد غير المؤمنين وبسبب ما عليه الأنبياء من إمكانات وزينه سيندفعون إليهم دون الاقتناع بمنهجهم ودعوتهم.

٢. زوال ثواب المحسنين، ذلك لأنّ إيمانهم لا يكون خالصاً فى ظلّ تلك الشرائط.

٣. لا- يعدّ الوعد الإلهى وأخبار الوحي بشأن الحلال والحرام دافعاً لطاعه الناس، بل الدوافع الماديّه هى التى تحركهم، كما أنّ سيرتهم سوف لن تعدّ أسوه ونموذجاً للعباد.

ص: ٣٠٧

١- (١). «عقيان» مفردّه وهو نوع من الذهب الخالص.

٢- (٢) «مغارس» جمع «مغرس» يعنى محلّ غرس الأشجار.

٤. سوف لن يحصل المؤمنون بالأنبياء على الأجر الجزيل الذى يناله المجاهدون فى سبيل الله.

٥. لا يستحق المؤمنون المخلصون ثواب المحسنين ذلك لأنهم لم يتحملوا عناءً.

٦. بعض الصفات المقدّسه والأسماء من قبيل المؤمن والصالح والمجاهد والمخلص سوف تفقد مصاديقها الواقعيه كما ستفقد بعض الصفات التى تنسب إلى الأنبياء من قبيل الزهد والورع والتقوى وعدم التعلق بالدنيا مفهومها ومعناها.

ثم قال الإمام عليه السلام فى توضيحه لهذا المعنى:

«ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولَى قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَهُ فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعِهِ تَمَلُّا الْقُلُوبِ وَالْعُيُونَ غِيًّا، وَخَصَّاصَهُ (١) تَمَلُّا الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَذَى».

فالواقع إنهم كانوا رجالاً أشداء باستطاعتهم اقتناء الذهب والمجوهرات ووسائل الزينه، إلّا أنهم جعلوا كل أسباب الترف ومباهج الدنيا التى تعدّ مصدراً للكبر والغرور والفخر والعجب والأنانيه وراء ظهورهم، وجعلوا الهدف الرسالى أمام عيونهم.

ص: ٣٠٨

١- (١) «خصاصه» من «خصاص» على وزن «أساس» تعنى فى الأصل الشق الذى يظهر فى جدار البيت ثم اطلق على الفقر والحاجه التى توجب الشده فى العيش.

وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَأْتَرَامُ، وَعِزَّهُ لَاتُضَامُ، وَمُلْكُ تَمِيدُ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرَّجَالِ، وَتَشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرَّحَالِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ، وَلَا مَنُوا عَنْ رَهْبِهِ قَاهِرَهُ لَهُمْ، أَوْ رَعِبَهُ مَائِلَهُ بِهِمْ، فَكَانَتِ النَّيَاتُ مُشْتَرِكَةً، وَالْحَسِنَاتُ مُقْتَسِمَةً. وَلَكِنَّ اللَّهَ شَيْبَحَانُهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّضْيِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لَوُجْهِهِ، وَالْإِسْتِكْبَانُ لِأَمْرِهِ، وَالْإِسْتِشْيَامُ لَطَاعَتِهِ، أُمُورًا لَهُ خَاصَّةً لَاتَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ. وَكَلِمًا كَانَتِ الْبُلُؤَى وَالْإِحْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبه بوضوح إلى الحياه المتواضعه للأنبياء ومنهم موسى بن عمران عليه السلام، ثم واصل كلامه في هذا الجانب من الخطبه لبيان الآثار المعنويّه والتربويّه للبساطه والتواضع فقال:

«وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَأْتَرَامُ (١)، وَعِزَّهُ لَاتُضَامُ (٢)، وَمُلْكُ تَمِيدُ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرَّجَالِ، وَتَشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ (٣) الرَّحَالِ (٤)، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ،

ص: ٣٠٩

١- (١). «ترام» من ماده «روم» على وزن «قوم» تعنى الطلب.

٢- (٢) «تضام» من ماده «ضيم» بمعنى الذلّه.

٣- (٣) «عقد» جمع «عقده».

٤- (٤). «رحال» جمع «رحل» ما يوضع على ظهر البعير ويجلس عليه و «شدّ الرحال» تعنى الاستعداد للسفر أو السفر.

وَلَا مَنُوا عَنْ رَهْبِهِ قَاهِرَهُ لَهُمْ، أَوْ رَغِبَهُ مَائِلَهُ بِهِمْ، فَكَانَتْ النَّيِّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً».

نعم، فالمحور الأصلي الذي حظى باهتمام الأنبياء هو الإخلاص وطهاره التيه، والحق أن الأنبياء عليهم السلام لو كانوا ذوى قوه قاهره وملكوا كنوز الأرض وعاشوا حياتهم فى القصور مترفين كالسلاطين لما اعتبر بهم الناس، وإذا آمن بهم البعض فإما عن خوف من سلطانهم، وإما عن طمع فى ملكهم، حيث

«الناس عبيد الدنيا».

ثم قال عليه السلام مؤكدا هذا الكلام:

«ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتياع لرسوله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والإستينكانه (١) لأمره، والإستينلام لطاعته، أمورا له خاصه لاتشوبها (٢) من غيرها شائبه».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى خمس أشياء ينبغى أن تتم جميعها على أساس الإخلاص فى التيه وهى: ١. قبول دعوه الأنبياء، ٢. التصديق بالكتب السماويه، ٣. الخشوع العملى للذات الإلهيه القدسيه، ٤. التسليم القلبي لأوامر الله، ٥. التسليم العملى وإمتثال الأوامر، وعلى هذا الأساس ينبغى أن ينطلق الإيمان والعمل والأخلاق من قاعده الإخلاص؛ فقد قال تعالى فى القرآن الكريم: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ» (٣) وقال تعالى فى موضع آخر: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (٤).

ثم أشار عليه السلام فى مواصلته لكلامه إلى هذه النتيجة فقال:

«وَكَلَّمَا كَانَتْ الْبُلُوى وَالْإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتْ الْمُتُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ».

ص: ٣١٠

١- (١) . «استكانه» تعنى الخضوع.

٢- (٢) «تشوب» من «شوب» على وزن «شوق» تعنى الخدعه وخلط شىء مع آخر للخداع.

٣- (٣) . سورة الزمر، الآيه ٣.

٤- (٤) سورة البينه، الآيه ٥.

إشاره إلى أنّ بساطه حياه الأنبياء وانصرافهم عن زخارف الدنيا وزبرجها جعل المؤمنين إزاء امتحان أشدّ صعوبه، وبالطبع كلّ ما كان الامتحان أشق وأصعب كان الأجر والثواب أعظم وأبلغ وهذا فى الواقع درس عظيم فى الإخلاص لجميع الأفراد الذين يسعون إلى السير على خط الأنبياء حيث ينبغى أن يسيروا على نفس النهج ليستطيعوا إعداد الأتباع المخلصين.

ص: ٣١١

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأُولِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْأَخِيرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ؛ بِأَخْجَارٍ لَاتَصُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ.

فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ «الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا». ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعِرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقْلَّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مِيدْرًا، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا. بَيْنَ جِبَالِ خَشْيَتِهِ، وَرِمَالِ دَمْتِهِ، وَعُيُونِ وَشْتَلِهِ، وَقَرَى مُنْقَطِعِهِ؛ لَا يَزُكُّو بِهَا خُفًّا، وَلَمَّا حَافِرٌ وَلَا ظَلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَنَوَّعُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَتَابَعًا لِمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوَى إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْنَدِهِ مِنْ مَفَاوِزِ قَفَارِ سَحِيْقِهِ وَمَهَاوِي فِرَاجِ عَمِيْقِهِ، وَجَزَائِرِ بَحَارِ مُنْقَطِعِهِ، حَتَّى يَهْزُوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلًّا يَهْلُلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَزْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُغْنًا غُبْرًا لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِأَعْمَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلَاءً عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا، وَتَمَحِيصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوُضْعًا إِلَى جَنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الدروس والعبر في بيت الله

سلك الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه سبيلًا آخر لمتابعه الغايه الأصلية التي تتمثل في القضاء على التكبر والدعوه للبساطه والتواضع ليشرحه بعبارات غايه في الروعه والجمال والبلاغه بحيث عجز البلغاء والفصحاء أن يأتوا بمثلها فقال:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأُولِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْأَخِيرِينَ مِنْ

هَذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لَا تُضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ «الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا».

فالذي يستفاد من هذه العبارة أنّ الكعبة التي هي أقدم معبد في العالم قد بنيت لأول مرّة في زمن آدم عليه السلام (ثم جدد بناؤها على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام) كما يفهم أنّ بساطتها ومواد بنائها البدائية تهدف إلى عدم لفت انتباه الآخرين إلى جانبها وبعدها المادى، بل الاستغراق فى أبعادها المعنويّة حيث يَبين عليه السلام: أنّ الكعبة تحظى بمر كزيه يتوجه إليها الجميع ليأتوا كلّ سنة لأداء شعائر الحجّ ومناسكه بما يؤدّى إلى تنامى شوكة المسلمين وقوتهم وعزّتهم ووحدهم وسمّوهم وعلوّ شأنهم ومبادئهم فى مختلف الاتجاهات.

فالعباره الوارده فى كلام الإمام عليه السلام اقتباس من الآيه الشريفه: ٩٧ من سوره المائده التى تقول: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ».

وقد ورد

«القيام» هنا كمصدر بمعنى اسم الفاعل أى تقويم حياه الناس من الناحيه الماديه والمعنويّه، على غرار الدعائم القويه التى يقوم عليها البيت والخيمه.

فبيت الله هو رمز الوحده وقوه المسلمين ورفعتهم وعظمتهم من جانب ومن جانب آخر فإنّه ينطوى على المناسك التى تطهر القلب من دنس المعصيه وتفيض عليه نور الهدى وتغمره بالرحمه الإلهيه.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر بساطه الكعبه، عرج على التعرض لخصائص الأرض التى تضم البيت وهى مكه فقال:

«ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ (١) بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقَلَّ نَتَائِقَ (٢) الدُّنْيَا مَدْرًا (٣). وَأَضْيَقَ بُطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا (٤). بَيْنَ جِبَالِ حَشِينِهِ، وَرِمَالِ

ص: ٣١٤

١- (١). «أوعر» من «وعر» على وزن «قعر» تعنى الأرض الوعره والشديده.

٢- (٢). «نتائق» جمع «نتيقه» بمعنى البقاع المرتفعه من ماده «نتق»، على وزن «فتق» بمعنى الحفر والارتفاع.

٣- (٣) «مدر» بمعنى الطين اليابس.

٤- (٤) «قطر» بمعنى البلد والمنطقه.

دَمْتَهُ (١) ، وَعُيُونٌ وَشَلَهُ (٢) ، وَقُرَى مُنْقَطِعَةٌ؛ لَأَيِّزُ كَو (٣) بِهَا خُفٌّ (٤) ، وَلَا حَافِرٌ (٥) وَلَا ظَلْفٌ (٦)».

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه الصفات الثمان لأرض مكة عن محروميته هذه الأرض من مختلف الجهات؛ فقد تحدّث بادئ الأمر عن وعورتها وصعوبتها بحيث يرى كلّ من تشرف بها أنّ بيت الله واقع في وادٍ ضيق بين الجبال الشامخة والقاحله والتي يصعب تسلقها، حتى استطاعوا اليوم حفر العديد من الأنفاق والمنعطفات لشقّ الشوارع التي يمكنها اختراق تلك الجبال بغيه مرور الناس عليها.

ثم أشار عليه السلام إلى قله التربة الصالحه للزراعه؛ والحقّ أن كذلك، حيث يضطرون اليوم لحمل التربة من المناطق القريبه والنائية إليها بغيه غرس بعض الأشجار، ثم تطرق عليه السلام إلى ضيق وديانها، فنحن نعلم أنّ الوديان الواسعه التي تضم الأراضي الزراعيه الصالحه للزراعه تعدّ من أفضل البقاع لمعيشه الإنسان، والعديد من المدن الكبيره إنّما تقع في مثل هذه الوديان، بينما تتعذر الحياه والعيش بأى شكل من الأشكال في الوديان الضيقه.

ثم أشار عليه السلام إلى جبال مكة الوعره التي قلما ينمو فيها نبات والرمال الناعمه التي يصعب السير عليها، وتنقلها الرياح من مكان إلى آخر وعيونها قليله المياه، والمناطق المعموره المتفرقه على تلك الصحارى الجرداء والتي تتوسطها، ليتطرق بالتالى إلى عدم صلاحية تلك الأرض لتربيه الحيوانات الأليفه كالجمال والبقر والشاه. حقاً لو لم يكن بيت الله وسط تلك الجبال فإنّ أحداً سوف لن يفكر أن تكون مكة موضع سكناه إلّا أنّ الله تبارك وتعالى اختار هذه المنطقه كأفضل موضع للعباده

ص: ٣١٥

١- (١) «دمته» من ماده «دماثه» بمعنى اللينه.

٢- (٢) «وشله» بمعنى قليل الماء من «وشل» على وزن «حشر».

٣- (٣) «يزكو» من «زكاه» بمعنى النمو.

٤- (٤) «خف» تعنى فى الأصل النعل وهى هنا كناية عن الدابه لأنّ أسفل قدمها كالحذاء.

٥- (٥) «حافر» من الحفر وتعنى قدم الفرس.

٦- (٦) «ظلف» كناية عن البقر والغنم.

ودعى المستطيعين كافة إلى التوجه إليها للإتيان بمناسك الحج بهدف تهذيب النفوس والقضاء على آثار الكبر والغرور.

وهذه هي الحقيقة التي أذعن لها خليل الله إبراهيم عليه السلام الذي أمر بإعادة بناء الكعبة حيث قال: «رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» (١).

وحين فرغ الإمام عليه السلام من ذكر موضع البيت وخصائص أرض مكة، تطرق إلى شعيرة الحج وزيارته بيت الله الحرام الذي بدأ منذ خلق آدم وسيستمر حتى نهاية الخليقة فقال:

«ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَنَوَّأَ (٢) أَعْطَاهُمْ (٣) نَحْوَهُ، فَصَيَّرَ مَثَابَهُ (٤) لِمُتَّجِعِ (٥) أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَهُ لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ (٦). تَهْوَى إِلَيْهِ ثَمَارُ الْأَفْنَدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ (٧) قِفَارِ (٨) سَحِيقِهِ (٩) وَمَهَاوِي (١٠) فَجَاجِ (١١) عَمِيقِهِ، وَجَزَائِرِ بَحَارِ مُنْقَطِعِهِ».

فهذه العبارات الرائعة للإمام عليه السلام اقتباس من الآيات القرآنية الشريفة، حيث اعتبر الإمام عليه السلام مكة بصفاتها «مثابه» على غرار ما صرح به القرآن الكريم: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا» (١٢). كما عبّر عنها بالمنتجع (الموضع الذي يقصد لتحقيق المنافع) كما جاء في الآية القرآنية الشريفة: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» (١٣). والعبارة

ص: ٣١٦

- ١- (١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.
- ٢- (٢). «يتنوا» من ماده «ثنى» بمعنى طوى الشيء، أو تقريب شيء من آخر.
- ٣- (٣) «اعطاف» جمع «عطف» على وزن «كتف» بمعنى كتف الانسان.
- ٤- (٤). «مثابه» مكان الرجوع «ثوب» على وزن «فوق» بمعنى العوده.
- ٥- (٥) «منتجع» يعنى محل الفائدة من «نجوع» بمعنى المنفع ولذلك يقال منتجع لمكان الراحة والمنتزه أيضاً.
- ٦- (٦) «ملقى رحالهم» يعنى محط رحالهم، من الأصل «إلقاء» و «رحال» جمع «رحل».
- ٧- (٧) «مفاوز» جمع «مفازة» بمعنى الصحراء.
- ٨- (٨) «قفار» جمع «قفر» بمعنى خلو المكان من السكن.
- ٩- (٩) «سحيقه» بمعنى البعيده من «سحق» على وزن «سقف» بمعنى التلين والتبعيد.
- ١٠- (١٠) «مهاوى» جمع «مهوى» منخفضات الأراضي من «هوى» على وزن «حلى» بضم «الحاء» وتشديد «الياء» بمعنى السقوط والوقوع.
- ١١- (١١) «فجاج» جمع «فج» بمعنى الطرق الواسعه بين الجبال من «فج» على وزن «حجج» بمعنى فتح الساقين وتبعيدهما عن بعضهما.
- ١٢- (١٢). سورة البقره، الآية ١٢٥.
- ١٣- (١٣). سورة الحج، الآية ٢٨.

«تهوى إليه ثمار الأفئدة» اقتباس من الآية الشريفة: «فَجَعَلَ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» (١).

وتنسجم العبارة

«من مفاوز قفار» مع الآية الشريفة: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (٢).

وهكذا تحدّث عن توجه مختلف الأقوام من مناطق العالم إلى مكة وأردفها بالإشارة إلى مناسك الحج والأعمال التي تختزن الدروس والعبر فقال:

«حَيْتِي يَهْزُوا (٣) مَنَابِحُهُمْ دُلَالًا يَهْلَلُونَ لِلَّهِ حَيْوَلَهُ، وَيَزْمُلُونَ (٤) عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ شُعْتًا (٥) غُبْرًا (٦) لَهُمْ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ (٧) وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوْهُوَ (٨) بِإِعْفَاءِ (٩) الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيره إلى جانب من مناسك الحج من قبيل ارتداء ملابس الإحرام وترك ما يحرم على المحرم من الزينه، وكذلك الطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروه وفق آداب معينه ينطوي كلّ واحد منها على تعليمات تربويه من دروس الحج، والحقّ لا يسع الإنسان الوقوف على عمق تأثير هذه التعليمات ما لم يؤدّي الإنسان تلك المناسك ويطلع عن كتب على هذا المشروع التهذيبي. ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«إِبْتِلَاءٌ عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُّبِينًا، وَتَمَحِيصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوُضَلَّهُ إِلَىٰ جَنَّتِهِ».

ص: ٣١٧

١- (١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

٢- (٢) سورة الحج، الآية ٢٧.

٣- (٣) . «يهزوا» من ماده «هزّ» على وزن «حظ» بمعنى التحريك.

٤- (٤) «يرملون» من ماده «رمل» على وزن «عمل» بمعنى الهرولة.

٥- (٥) «شعث» جمع «أشعث» بمعنى الشعر مع تلبد فيه.

٦- (٦) " «غبر» جمع «اغبر»: من علا بدنه الغبار.

٧- (٧) «سرابيل» جمع «سربال»: الثياب.

٨- (٨) «شوهوا» من ماده «شوه» على وزن «قول» بمعنى أنّ مناظرهم مشوّهه.

٩- (٩) «إعفاء» بمعنى الترك و «اعفاء الشعور» يعنى ترك الشعر بلا قص.

فالتعبير بالابتلاء والامتحان والاختبار يدل جميعاً على الامتحان، إلا أنها ذكرت مره بوصف عظيم وأخرى شديد وثالثه مبين، والمراد الامتحان المهم للغايه الذى يكون كبيراً وشديداً وواضحاً، وامتحان الحج ينطوى على هذه الصفات الثلاث.

والعبارة

«تَمْحِصاً بَلِيغاً» إشاره إلى نتيجه هذا الامتحان الذى يترك بصماته العميقه فى تطهير القلوب واخلاص النيات، حيث ورد فى الخبر أنّ زائر بيت الله بعد إتيانه بتلك المناسك العظيمه يعود كما ولدته امه، حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: قال أبى:

«مَنْ أَمَّ هَذَا الْبَيْتَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا مَبْرَأً مِنَ الْكِبْرِ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَهَيْئَةِ يَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (١).

وبالطبع فإنّ كلّ هذه الكلمات فى إطار تحقيق هدف الخطبه المتمثل بمكافحه الكبر والغرور والعجب والأنانيه، لأنّ الحج يخلع عن الإنسان ثوب الغرور والكبر ويلقنه درس التواضع والإخلاص.

ص: ٣١٨

١- (١) الكافى، ج ٤، ص ٢٥، باب فضل الحج والعمره، ح ٢.

إشاره

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسِيَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ، دَانَى الثَّمَارِ، مُلْتَفِّ الْبُنَى، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بَرْهٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضِهِ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافِ مُحَدِّقِهِ، وَعِرَاصِ مُعَدِّقِهِ، وَرِيَاضِ نَاضِرِهِ، وَطُرُقِ عَامِرِهِ، لَكَانَ قَدْ صَعَرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. وَلَوْ كَانَ الْإِسْأَسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمْرَدِهِ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتِهِ حَمْرَاءَ، وَنُورِ وَضِيَاءَ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مَصِيرَ عَارِعَةِ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةً إِيْلَيْسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلِجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجًا لِلتَّكْبُرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ.

الشرح والتفسير: الكعبة المقدسه

واصل الإمام عليه السلام هنا ما ذكره في المقطع السابق من الخطبه، فأشار إلى هذه النقطه وهى أن الله كان قادراً على أن يجعل البيت فى أروع البقاع مناخاً، ويشيدها ويزينها بالأحجار الكريمة؛ إلما أنه لم يفعل ذلك خشيه إلتفات الناس وتركيزهم على الجوانب الماديّه فيقلل أجرهم وثوابهم، فأشار عليه السلام لهذا الأمر بعبارات بمنتهى الروعه والجمال بما يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله فقال عليه السلام:

«وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ

بَيْتُهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرُهُ (١) الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ (٢) الْأَشْجَارِ، دَانِي الثَّمَارِ، مُلْتَفَّ (٣) الْبُنَى، (٤) مُتَّصِلَ الْقَرَى، بَيْنَ بَرْهٍ (٥) سَمْرَاءَ، (٦) وَرَوْضِهِ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ (٧) مُحْدَقَةٍ (٨)، وَعِرَاصٍ (٩) مُغْدَقَةٍ (١٠)، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ (١١)، وَطُرُقٍ عَيَامِرِهِ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورته رائعه ودقيقه لمنطقه نضره من خلال اثنتي عشرة صفة مختلفه.

فذكر الإمام عليه السلام كلما ينبغي ذكره بهذا الخصوص فأشار عليه السلام بدقه متناهيه إلى جميع مواضع الجمال التي تتصف بها الأرض الجميله والمعموره فبلغ بها منتهى الفصاحه والبلاغه والبديع والبيان، فالواقع لو كان البيت في منطقه نظره حسنه جميله المناخ، لتبدل إلى مُتَنَزَّهٍ لطيف يقصده الناس من أجل الاستجمام والرفاهيه، ولزالت الدروس التربويه والأخلاقية للحج.

ثم قال عليه السلام بشأن بِنَانِ الْكَعْبَةِ:

«وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ (١٢) الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرْدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَأْقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءَ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ

ص: ٣٢٠

- ١- (١). «مشاعر» جمع «مشعر» موضع تقام فيه بعض مناسك الحج ويقال له «مشعر» حيث تجرى فيه الشعائر الإسلاميه.
- ٢- (٢) «جم» كثير.
- ٣- (٣). «ملتف»: مجتمع ومتراكم من ماده «لف» على وزن «كف».
- ٤- (٤) «بنى» جمع «بنيه» يعنى بناء.
- ٥- (٥) «بره» و «بَرْه» بمعنى الشعير.
- ٦- (٦) «سمراء» معروفه اللون.
- ٧- (٧). «أرياف» جمع «ريف» تعنى القرية.
- ٨- (٨) «محدقه» يعنى الموضع الذى تكثر فيه البساتين.
- ٩- (٩) «عراص» جمع «عرصه» فناء الدار.
- ١٠- (١٠) «مغدقه» يعنى كثيره وفى الأصل من «غدق» على وزن «شفق» بمعنى الماء الوفير.
- ١١- (١١) «ناضره» الخضراء من ماده «نضره» الرفاهيه الحاصله بسبب وفور النعمه.
- ١٢- (١٢). «أساس» بكسر الهمزه جمع «أس» (بفتح أو بكسر أو بضم الهمزه) دعامه.

مُصَارَعَهُ (١) الشَّكَّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةً إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجٌ (٢) الرَّيْبَ مِنَ النَّاسِ.

قطعاً أنّ فلسفه الحجّ تهدف إلى دفع الإنسان إلى مقاومه هوى النفس والوساوس الشيطانيه، وتصبح هذه المقاومه ضعيفه إن كانت لهذه المناسك مسحه جماليه، بينما تصبح مقاومه الوساوس الشيطانيه والأهواء النفسيه أقوى حين تقام هذه المناسك بنوع من الصعوبه والمشقه في ذلك الوسط الجاف والبسيط؛ وعلى هذا الأساس تشتد مقاومه عباد الله ويصبح إيمانهم أقوى وأرسخ وتنفعم الآثار التربويه للحج.

والمراد من

«مُصَارَعَهُ الشَّكِّ» مبارزه وساوس الشك والهواجس التي تخطر على قلب المؤمن وهي الوساوس الباطنيه، والمراد من «مجاهده إبليس» وساوسه الخارجيه، ومفهوم العبارة

«مُعْتَلَجٌ الرَّيْبِ» تلاطم أمواج الشكوك التي تطغى على المؤمنين في التكليف الدينيه الشاقه، و

«شك» و«ريب» وإن فسرت بمعنى واحد إلّا أنّ بعض أرباب اللغه ذهب إلى أنّ الريب بمعنى الشك والترديد الذي يرفع عنه الغطاء لاحقاً، بينما يمكن أن يكون الشك باقياً.

ثم خالص الإمام عليه السلام إلى نتیجه كليه فقال:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَّبِعُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَتَّبِعُهُمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكْبُرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّدَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فَتْحاً (٣) إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْتَبَاباً دُلَّالاً (٤) لِعَفْوِهِ».

إشاره إلى أنّ الواجبات الشرعيه كالصوم والصلاه والحج والزكاه والخمس

ص: ٣٢١

١- (١). «مصارع» من «صرع» على وزن «فرع»: الصرع في الأرض و يقال المصروع على من أصيب بمرض الصرع لأنه يطرحه أرضاً.

٢- (٢) «معتلج» تعنى «التلاطم» من ماده «اعتلاج» يعنى نزاع أحدهما للآخر.

٣- (٣). «فتحاً» بمعنى «الفتح» معروفه.

٤- (٤) «ذلّل» جمع «ذلول» بالمعنى التسليم والانقياد.

والجهاد فى سبيل الله وكذلك بعض النواهي وترك الأهواء والرغبات غالباً ما تكون ثقيله وشاقه، لتمييز صفوف المطيعين والمتواضعين إزاء أوامر الله من العصاه والمتكبرين عبده الأهواء، ولولا ذاك لما إمتازت هذه الصفوف عن بعضها البعض الآخر.

والمفردات

«شدائد» و «مجاهد» و «مكاره» وإن كانت متقاربه المفهوم والمعنى وأنها تشير جميعاً إلى الأعمال الشاقه والصعبه، لكنها تستند إلى ثلاث رؤى؛ الشده التى تتطلب الصبر والمشقه التى تستلزم التحمل والحلم والكراهيه التى تقتضى الصبر والاستقامه.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام قد بين أربع نتائج من قبيل اللازم والملزوم لهذا الأمر وهى: ١. إزالة الكبر من القلوب. ٢. استبداله بالتواضع الذى يمثل الهدف الأصلى للخطبه. ٣. فتح أبواب الجته. ٤. شمول العفو والرحمه.

تأمل

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا!»

ما ورد آنفاً فى كلام الإمام عليه السلام هو عين ما صرحت به الروايات

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا»^(١) ويشير هذا الحديث المروى عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أنّ الطاعه وأعمال الخير تختزن أجراً وثواباً أعظم كلما كانت الطاعه وأعمال الخير شاقه على الجسم عند الإمتثال.

«أَحْمَرٌ» من ماده

«حَمَزٌ» تعنى لغوياً الشده والصعوبه والمشقه، ويفيد هذا التعبير أنّ للأعمال الشاقه والثقيله والمجهده قيمه عظيمه عند الله تعالى. وسبب ذلك واضح فهى تتطلب قوه وطاقه أكبر على مستوى الروح والجسم بغيه الإتيان بها، ونعلم جميعاً أنّ أجر الأعمال وثوابها على قدر مشقتها والقوه اللازمه للإتيان بها.

ص: ٣٢٢

١- (١). بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٩١.

ولا تقتصر هذه القوه على الجانب البدنى (مثل حج بيت الله مشياً على الأقدام فى ظل ظروف تشير إلى عظمه هذه السنه) فغالباً ما تتعداها إلى الجانب الروحى والمعنوى؛ فمثلاً- «إخلاص التيه» بحيث لا يقارنها أى شائبه فى التوجه لغير الله لا تبدو عمليه سهله وبالأمر الهين، وكذلك يبدو التواضع والخشوع الذى لا ينسجم مع روحه الإنسان المتمرده أمراً فى غايه الصعوبه، ومن هنا شق على إبليس تحمله فشق على نفسه عصى الطاعه والعبوديه وإلى الأبد.

فكل مشقّه من هذه المشقات توجب عظيم الثواب والأجر من جهه وتهذب النفس البشريّه وعلى هذا الضوء كانت الرياضات مدعاها لصفاء النفس وقوتها واقتدارها.

وبالطبع فإنّ مكافحه الكبر والعصبيه التى تعدّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبه لمن أبرز مصاديق الحديث الشريف

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا» كما أنّ حج بيت الله الحرام فى تلك البقعه الصعبه والوعره والمحرقة وطبق آدابها المعروفه لتشق على النفس البشريّه؛ من قبيل الإحرام والسعى بين الصفا والمروه وطواف بيت الله والوقوف بصحراء عرفه والمشعر ومنى وحلق الرأس وهى من المصاديق الأخرى الواضحه للحديث الشريف.

إشاره

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي عَاجِلِ الْبُغْيِ، وَآجِلِ وَخَامِهِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصِيدُهُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوِرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَيْدَاءً، وَلَا تُشْوِي أَحْدَاءً، لَا عَالِمًا لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقِلًّا فِي طِمْرِهِ. وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَّاتِ، وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ، وَتَخْشِيعًا لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيزًا لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِلْخِيَلَاءِ عَنْهُمْ، وَلِمَا فِي ذَلِكُمْ مِنْ تَغْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضَعًا، وَالتَّصَاقِ كَرَاهِمِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاعُغًا، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذْلِيلًا؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَيْرُفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ.

انظروا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ، وَقَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ.

الشرح والتفسير: آفة الكبر والغرور

واصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه متابعه الهدف الأصلي لهذه الخطبه والذي يتمثل بدم الكبر والغرور واستعراض سوء آثاره، غير أنه سلك طريقاً رائعاً بهذا الخصوص فاتجه صوب الفرائض والعبادات والواجبات ليبين مدى تأثيرها في القضاء على آثار الكبر والغرور.

فحذر بادئ الأمر وبصوره كليه من العواقب السيئه للبغي والظلم فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ

ص: ٣٢٥

فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخَامِهِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبِهِ الْكِبْرِ».

ثم تطرق عليه السلام إلى السبب الجلى على هذا التحذير فقال:

«فَإِنَّهَا مَصِيدَةٌ (١) إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ (٢) قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوِرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي (٣) أَبَدًا، وَلَا تُشْوِي (٤) أَحَدًا، لَا عَالِمًا لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقْلًا (٥) فِي طِمْرِهِ (٦)».

فالأمر الثلاثة التي حذر منها الإمام عليه السلام في بدايه كلامه والتي تتمثل بالبغي والظلم والكبر من قبيل اللازم والملزوم لبعضها البعض الآخر.

فالأفراد المتكبرون لا يرون سوى أنفسهم ولذلك فهم لا يرون من أهميته لحقوق الآخرين فيرتكبون أنواع الظلم والجور والذي يعد من الشباك الخبيثة والخطيره للشيطان والتي لا ينجو منها سوى أولياء الله والصالحين من الأفراد المؤمنين.

والعبارة:

«فَمَا تُكْدِي أَبَدًا...» إشاره إلى عموميه هذا التحذير؛ فلا يتصور العالم أن بإمكانه النجاه من هذه المصيده بما لديه من علم ومعرفه فقط، أو ينجو من آثاره شخص فقير بفقره، فكل شخص بدون استثناء معرض للتلوث بالبغي والظلم والكبر ستكون عاقبته سيئه ومريره.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى العبادات الإسلاميه ليركز على جانب مهم منها فشرح الانعكاسات الإيجابيه لهذه العبادات في القضاء على آثار الكبر والغرور وإحياء روح التواضع والبساطه فقال:

«وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ (٧) عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ

ص: ٣٢٤

١- (١). «مصيده» (بسكون الصاد وفتح الياء) وقرأها البعض بكسر الميم وتعنى الفخ.

٢- (٢). «تساور» من «سور»، على وزن «غور» بمعنى الوثوب والمقاتله وتعنى هنا نفوذ السموم فى القلوب.

٣- (٣) «تكدى» من ماده «كدى» على وزن «كسب» بمعنى البخل والحبس والتعطيل.

٤- (٤) «تشوى» من ماده «شئ» على وزن «شر» تاتى بمعنى الطبخ أحياناً وأخرى بمعنى اليد والقدم وأطراف الجسم وإن وردت فى باب الأفعال عنت تخطيء المقتل.

٥- (٥) «مقل» تعنى الفقير من ماده «قليل».

٦- (٦) «طمر» الكساء البالى.

٧- (٧). اختلف الشراح والمفسرون فى تركيب هذه الجملة «عَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ». قال ابن أبى الحديد: إن «ما» زائده و «ذلك» إشاره إلى الظلم والتكبر، وعلى هذا الضوء يصبح مفهوم الجملة أن الله حفظ عباده من هذه الأمور الثلاثة بواسطة الصوم

والصلاه والزكاه، وقال المرحوم الشارح الخوئي: إنّ «عن» هنا سببيه وما مصدرية ومعنى الجملة إنّ الله لهذا السبب حفظ عباده عن الكبر والغرور والظلم بواسطه الصلاه والصوم والزكاه.

وَالزَّكَّاتِ، وَمُجَاهِدَهُ الصَّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ (١)، وَتَخَشُّعًا لِابْصَارِهِمْ، وَتَذَلُّيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيزًا (٢) لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِلْخِيَلَاءِ (٣) عَنْهُمْ».

إشاره إلى أن أحد الجوانب الفلسفيه المهمه لهذه العبادات تحطيم دوافع الكبر والغرور الذي يفضى إلى البغى والظلم، فأداب الصلاه وأركانها تدعو الإنسان بصورة كامله إلى التواضع من قبيل الوقوف كالعبد الخاضع لله ومن ثم الركوع والأهم من كل ذلك السجود يربى فى الإنسان روح التواضع من جهه ومن جهه أخرى يصدده عن الذنب والمعصيه: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (٤).

كما أن الزكاه تعدّ فى الواقع نوعاً من التقدير والاحترام للمحتاجين، فتعمل بدورها على إزالة الكبر والغرور عن روح الاثرياء والتمكّنين، وهكذا الصوم الذى يجعل الإنسان فى مصاف الفقراء والمحتاجين بما يشعر به الإنسان من جوع وعطش والذى يحطم بالتالى كبره وغروره؛ طبعاً لا تنحصر فلسفه هذه العبادات بما ذكرناه آنفاً، إلّا أنّ ما مضى كان جانباً من فلسفتها والتى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

وقد أشير إلى هذا المعنى فى عدد من الروايات والأحاديث؛ فقد جاء فى الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ عِلَّةَ الصَّلَاةِ أَنَّهَا إِقْرَارٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَخَلْعُ الْأَنْدَادِ وَقِيَامُ بَيْنَ يَدَيْ الْجَبَّارِ حَيْلَ جَلَالَتِهِ بِالذُّلِّ وَالْمَسِيكَةِ وَالْخُضُوعِ وَالْإِعْتِرَافِ...» (٥).

ص: ٣٢٧

١- (١). «أطراف» من ماده «طرف» على وزن «هدف» بمعنى قطعه من أى شىء وأطراف الجسم هى الأيدى والأرجل.

٢- (٢). «تخفيض» من «خفض» على وزن «لفظ» تعنى السهوله واللين والتزليل.

٣- (٣) «خيلاء» بمعنى التكبر والأنائيه.

٤- (٤) سوره العنكبوت، الآيه ٢٥.

٥- (٥) وسائل الشيعه، ج ٣، ص ٤، كتاب الصلاه، أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ح ٧.

كما قال عليه السلام فى فلسفه الزكاه:

«وَهُوَ مَوْعِظَةٌ لِأَهْلِ الْغِنَى وَعِبْرَةٌ لَهُمْ لِيَسْتَدْلُوا عَلَى فَقْرِهِ الْآخِرِ بِهِمْ» (١).

كما روى عنه عليه السلام فى فلسفه الصوم:

«عِلَّةُ الصَّوْمِ عِزْفَانُ مَسِّ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ لِيَكُونَ ذَلِيلًا مُسْتَكِينًا...» (٢).

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح ما ذكره فى العبارات السابقة بصوره إجماليه حول فلسفه الصوم والصلاه والزكاه فقال:

«وَلَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَغْفِيرِ (٣) عِتَاقِ (٤) الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضِعًا، وَالتَّصَاقِ كَرَائِمِ (٥) الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُرًا (٦)، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ (٧) مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرَفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ».

حقاً إن ما ورد هنا، هو جانب من الجوانب الفلسفيه لهذه العبادات الإسلاميه المهمه، ذلك لأن العبادات تنطوى على العديد من الجوانب ذات الأهميه وفى مقدمتها تفعيل روح التواضع والبساطه ومناهضه الكبر والغرور، وفلسفه النهى عن الفحشاء والمنكر للصلاه وكونها معراج المؤمن إلى جانب تربيته روح التقوى والإخلاص فى ظل الصوم ونبذ آفه التمايز الطبقي فى الزكاه وغيرها من العبادات مما لا يسع الإنسان التنكر لدوره وجدواه.

ص: ٣٢٨

١- (١) وسائل الشيعه، ج ٦، ص ٥، كتاب الزكاه، أبواب ما تجب فيه الزكاه وما تستجب فيه، باب ١، ح ٧.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧٣، ح ١٧٦٧.

٣- (٣). «تغفير» تعنى التمرغ فى التراب من «عفر» بمعنى التراب والغبار.

٤- (٤) «عتاق» جمع «عتيق» بمعنى الشىء الثمين والقيم، و «عتاق الوجوه» إشاره إلى القسم المهم من وجه الإنسان، هى الجبهه.

٥- (٥). «كرائم» جمع «كريمه» نفيس، ثمين، شريف.

٦- (٦) «تصاغر» من ماده «صغر» معروفه.

٧- (٧). «متون» جمع «متن» بمعنى الظهر ويأتى بمعنى الأصل والمراد المعنى الأول.

وقد وردت إشارات واضحة في الأخبار والروايات إلى هذه الأمور، من ذلك ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَعْلَمُ لِمَ اخْتَرْتُكَ مِنْ بَيْنِ خَلْقِي؟ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا، فَقَالَ تَعَالَى: «يَا مُوسَى إِنِّي قَلَّبْتُ عِبَادِي ظَهْرًا وَبَطْنًا فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا أَذَلَّ لِي نَفْسًا مِنْكَ يَا مُوسَى إِنَّكَ إِذَا صَلَّيْتَ وَضَعْتَ خَدَّيْكَ عَلَى التُّرَابِ»(١).

ثم خلاص عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«أَنْظُرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعٍ (٢) نَوَاجِمٍ (٣) الْفَخْرِ وَقَدَعٍ (٤) طَوَالِعِ الْكِبْرِ». جدير ذكره أن بعض هذه العبادات تتكرر كل يوم حتى لا يشهد الإنسان يوماً يخلو فيه من مفهوم نبذ الكبر.

تأمل

فلسفه العبادات

لاشك في أن الله تبارك وتعالى غني عن عبادتنا وعباده الملائكة ولو سلك جميع من في السموات والأرض طريق الإيمان أو الكفر لما أضاف ذلك إلى جلاله شيئاً أو انتقص منه: «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ»(٥).

وكذلك قال: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»(٦).

وكل إنسان مهما كان له من شيء فمن الله تعالى ونفحه من نفحاته سبحانه، وعليه فلا يستطيع هذا المخلوق أن يقوم بفعل من شأنه زياده عظمه الله، ومن هنا يمكن الاستنتاج أن فلسفه الأحكام وفائدتها ولا سيما العبادات إنما تعود على الإنسان نفسه، وللعبادات فلسفه مشتركه وفلسفه خاصه؛ فالفلسفه المشتركه للعبادات تتمثل في الخضوع والتواضع لله وتحطيم صنم الكبر والغرور والطغوى والعصيان، أضف إلى ذلك فإن العباده تذكر الإنسان بالله وتبث الروح في قلبه ونفسه

ص: ٣٢٩

١- (١) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٣٦٣.

٢- (٢). «قمع» بمعنى القهر.

٣- (٣). «نواجم» جمع «ناجمه» كلما يطلع ويظهر. من «نجم» على وزن «حجم» بمعنى الطلوع والظهور.

٤- (٤) «قدع» تعني الكف والمنع.

٥- (٥) سورة إبراهيم، الآية ٨.

٦- (٦) سورة آل عمران، الآية ٩٧.

وتزيل عنه آثار الغفله، وهكذا فإنّ العبادات تأخذ بالإنسان دائماً إلى مسير العبوديّة والطاعة.

ناهيك عن أنّ لكلّ عباده فلسفتها المختصه بها؛ فالصلاه تنهى عن الفحشاء والمنكر والصوم يشد من عزم الإنسان في مواجهه هوى النفس، والزكاه تحد أو تقضى على التمايز الطبقي، والحج يؤدّي إلى وحده المسلمين وتنامى قدره الإسلام وشوكته، وقد وردت الإشارات لكلّ هذه الأمور في الروايات الإسلاميّه بشأن فلسفه الأحكام(١).

ص: ٣٣٠

١- (١) راجع كلمات نهج البلاغه القصار، الكلمه ٢٥٢.

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنِ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيَةَ الْجُهْلَاءِ، أَوْ حُجَّةَ تَلِيْطٍ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَضْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خَلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِي وَأَنْتَ طِينِي.

وَأَمَّا الْأَغْيَاءُ مِنْ مُتْرَفِهِ الْأُمَّمِ، فَتَعَصَّبُوا لِإِثَارِ مَوَاقِعِ النَّعْمِ، فَقَالُوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ).

الشرح والتفسير: العصبية الطائشه

خاض الإمام عليه السلام هنا في بيان نقطه أخرى لمواجهة الكبر والغرور والعصبية الجاهليه وخلصتها أن للأفراد المتعصبين أدلتهم على ذلك وإن كانت ضعيفه وواهيه وخاطئه؛ إلا أن تعصبكم القبيح أدى إلى هذه النزاعات وسفك الدماء بما ليس له مبرر، وهذا يعني أن تعصبكم أسوأ وأقبح من ذلك التعصب.

فقال عليه السلام:

«وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنِ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيَةَ (١) الْجُهْلَاءِ، أَوْ حُجَّةَ تَلِيْطٍ (٢) بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ».

ص: ٣٣١

١- (١). «تمويه» يعني الخداع وتعنى فى الأصل طلى النحاس بالذهب لخداع الآخرين.

٢- (٢) «تليط» من ماده «لوط» على وزن «موت» بمعنى الالتصاق وتستعمل عباره «لاط بقلبي» لمن تعلق بشيء لا يفارقه وكأنه لصق به. وتستعمل هذه المفرده بصيغه أجوف واوى وأجوف يائى.

إشاره إلى أنه كلما تأملنا تاريخ الأسلاف والأقوام المعاصره نخلص إلى هذه النتيجة أنهم كانوا يمتلكون ذريعه لتعصبهم من قبيل إخفاء الحقيقه على الجهّال أو اختراق أفكار السفهاء والسذج وبالنتيجه تحقيق سلسله من المنافع الماديّه، بينما ليس لتعصبكم أى أثر أو فائده ويفتقر إلى أى دليل، سوى الكلمات البذيئه والجنويّه والافتتال الطائش الذى ينتهى إلى سفك الدماء، والفرق بين الجهّال والسفهاء هو أنّ الجهّال يفتقرون إلى أدنى علم بينما للسفهاء حض من علم، ومن شأن بعض الأسباب الواهيّه أن تسوق الطائفتين لتحقيق أهداف ومنافع المتعصبين والمستكبرين.

طبعاً ليس مراد الإمام عليه السلام أنّ تعصبكم معلول لعدم وجود علّه، ذلك لأنّ لكلّ شىء فى العالم على ضوء النظره الفلسفيه علّه، بل المراد أنّه كان لمن سبقكم من المتعصبين بعض الذرائع الظاهريّه الخادعه، وأنكم لتفتقرون حتى إلى هذه الذرائع، فالمتعصبين الذين خاطبهم الإمام عليه السلام كانوا يتصفون بضحاله ثقافتهم وعقائدهم الجاهليّه التى أفرزت ذلك التعصب والتى لا تصلح أن تكون ذريعه أبداً.

ثم أشار عليه السلام إلى نموذجين من التعصبات التى يبدو أنّها كانت معززه ظاهرياً ببعض الأدله وإن لم تكن صائبه؛ أحدهما تعصب إبليس واستكباره والآخر تعصب الأثرياء المستكبرين أصحاب الثروه فقال:

«أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ».

لا- شك فى أنّ إبليس خلق من النار، حيث كان ينحدر من الجن الذين خلقوا من النار بينما خلق آدم من الطين والتراب، وللنار ظاهرياً نور وشعاع، بينما يمتاز الطين بالظلمه، الأمر الذى يمكن أن يكون ذريعه لإبليس فى الكبر، والحال تمتاز النار بأنّها محرقه والطين باعث الحياه، أضف إلى ذلك فإنّ فضيله آدم بفعل الروح الإلهيّه التى ولجت فيه حيث قال تعالى: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ»

سَاجِدِينَ»(١) لكن إبليس وبفعل أنانيته وتعصبه لم يشأ إدراك تلك الحقيقة.

ثم خاض عليه السلام في الطائفة الثانية وهم الأثرياء المتكبرون من الأمم السابقة الذين ابطرتهم النعمة وكثره عددهم حيث كانوا يتباهون بذلك والحال ليست لديكم حتى هذه الذرائع في تعصبكم فقال:

«وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفِهِ (٢) الْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ (٣) النَّعْمِ، فَقَالُوا: «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» (٤).

إشاره إلى أنهم جعلوا نعم الله في الجوانب الماديّة التي تشمل القوّة البشريّة والأموال الطائله وسيله للكبر والتعصب وتمردوا على دعوه الأنبياء حتى شملهم العقاب الإلهي، أمّا تعصب مخاطبي الإمام عليه السلام فقد دفعهم إلى الاقتتال والنزاع تحت طائله ذراع واهيته وطفوليته، فهي لا تشبه تعصب الشيطان ولا تعصب المترفين المستكبرين السابقين، بل تدور حول محور بعض الأمور التي لا تصلح لأن تكون حجه قط، وهذا أسوأ أنواع التعصب.

ص: ٣٣٣

١- (١) سورة الحجر، الآية ٢٩.

٢- (٢). «مترفه» و «مترف» كما ورد في لسان العرب من ماده «ترف» على وزن «هدف» بمعنى التعم ويقال عادة للشخص أغرته وفره النعمة وساقته للطغيان.

٣- (٣) «مواقع» جمع «موقع» بمعنى المحلّ و مواقع النعم إشاره إلى النعم التي يستفاد منها والمراد من الآثار اللذات التي تتوفر لأصحاب النعم.

٤- (٤) سورة سبأ، الآية ٣٥.

إشاره

فَبِإِنْ كَانَ لِأَيْدٍ مِنَ الْعَصِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجِدَاءُ
وَالنُّجْدَاءُ مِنْ بِيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيِبِ الْقَبَائِلِ؛ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيْبَةِ، وَالْأَحْلَامِ الْعَظِيْمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيْلَةِ، وَالْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا
لِخَلَالِ الْحَمِيْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجَوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعَصِيَةِ بِهِ لِلْكِبْرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفُضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبُغْيِ، وَالْإِعْظَامِ
لِلْقَتْلِ، وَالْإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

الشرح والتفسير: العصبية الممدوحه

التعصّب كما ذكرنا سابقاً بمعنى التعلق الشديد بالشىء والذى يظهر بصورتين؛ بصوره سلبية ويراد بها التعلق الشديد الهمجى
البعيد عن المنطق بالمسائل ذات القيمة الدنيئة وربّما العديمه القيمة والوهميّة والتى تفضى إلى العديد من الخلافات والنزاعات
الدمويّة.

والصوره الإيجابية والمراد بها الصمود والإصرار على الأمور ذات المثل والقيم الإنسانيّة والأخلاقية والاجتماعية الرفيعة، وهذا
التعصب ليس فقط منزّه عن العيب والذنب، بل يعتبر من نقاط القوّه والإيجابيه، من قبيل من يصمد لحفظ الدين والإيمان أو
حفظ الوطن والعرض والشرف.

ومن هنا سعى الإمام عليه السلام لدفع مخاطبيه المتعصبين للنجاه من تعصباتهم السلبيه

والقيحه فاقترح عليهم العصبية الإيجابية ليشبع تطلعاتهم العاطفي ويسوق قواهم الباطنية نحو المشروع الإيجابي، وهذه هي الخطه التي ينبغي أن يمارسها جميع الزعماء الحكماء في مجتمعاتهم بغيه إصلاح المفاسد الاجتماعيه، فبدلاً من الوقوف بوجه الأمواج العاتيه للدوافع السلبيه لابد من السعى إلى تغيير مسارها ودفعها باتجاه القنوات الإيجابية ولذلك قال عليه السلام:

«فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصْبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجِدَاءُ (١) وَالنُّجْدَاءُ (٢) مِنْ بَيِّنَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِبِ (٣) الْقَبَائِلِ».

أى لا- ينبغي أن يكون مثلكم فى هذه الأمور الجهال الذين يفتقرون إلى المنطق، بل عليكم الإقتداء والتأسى بالعقلاء والأفراد الواعين الذين يتسابقون فى كسب الفضائل ونيل مكارم الأخلاق ويوظفون إمكاناتهم كافة فى ميدان هذا السباق الإنسانى.

ثم خاض عليه السلام فى شرح ذلك بوضع عبارات قصيره فقال:

«بِالْأَخْلَاقِ الرَّغْبِيَّةِ، وَالْأَحْلَامِ الْعُظِيمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَالْأَنْثَارِ الْمُحْمُودَةِ».

فالواقع إن هذه الصفات الأربع التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام تبين أبعاد شخصيه الإنسان، التى تتمثل فى الأخلاق الكريمة والفكر الحر والمقام الرفيع والآثار الحميده (كالاتار العلميه والخدمات الاجتماعيه) وبالطبع فإن الشخص الذى ينال هذه الصفات هو إنسان فاضل يسعه أن يكون قدوه وأسوه للآخرين.

ثم ركز الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه على جزئيات وتفصيل المسائل الأخلاقيه ليشير إلى عشره نماذج من مكارم الأخلاق والصفات الإنسانيه البارزه داعياً الجميع إلى التمسك بها فقال:

«فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجَوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ، (٤) وَالطَّاعَةِ لِلْبَرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكَبِيرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ

ص: ٣٣٦

١- (١). «مجداء» جمع «مجيد» بمعنى العزيز والعظيم.

٢- (٢) «نجداء» جمع «نجيد» بمعنى الشجاع من «نجد» بمعنى الأرض المرتفعه.

٣- (٣) «يعاسيب» جمع «يعسوب» وهو أمير النحل. ويستعمل مجازاً بمعنى رئيس القوم كما هنا.

٤- (٤). «ذمام» يعنى العهد.

البُغْيِ، والأَعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالْإِنصَافِ لِلخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلغَيْظِ، واجْتِنَابِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ».

ومما لا شك فيه أنّ الإنسان الجامع لهذه الصفات العشر هو إنسان ماجد كما أنّ المجتمع الذي تسوده هذه الخصال هو مجتمع سليم وسعيد ومتطور من جميع الجهات.

جدير ذكره أنّ الصفات المذكوره على صنفين؛ فبعضها تشير إلى اجتناب المفاصد الفرديّة والاجتماعيّة مثل اجتناب القتل ومخالفة الكبر والابتعاد عن الفساد في الأرض، والبعض الآخر يشير إلى الأفعال النافعه والبناءه مثل حفظ الحقوق والوفاء بالعهد والإتيان بالخيرات والبذل والجود.

أمّا حفظ الجوار فيعني رعايه حقوق الجار التي ورد التأكيد عليها في الشريعة الإسلاميّه، فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«حُسْنُ الجَوَارِ يَعْمُرُ الدِّيَارَ وَيَزِيدُ فِي الأَعْمَارِ»^(١).

وبالطبع فإنّ

«حُسْنُ الجَوَارِ» لا يقتصر على كف الأذى عن الجار فحسب، بل لا بدّ من نجاته ومدّ يد العون إليه، وإن تعرض للأذى منه جابهه بكلّ رفق وود، والحقّ لو التزم الجميع بهذه التعاليم الإسلاميّه لسادت المحبّه جميع ربوع العالم.

والوفاء بالذمام إشاره إلى الالتزام بالعهود التي تحظى بفائق الأهميّة في الشريعة السمحاء. وانصاف الخلق إشاره إلى عدم التفريط بحقوق النفس والآخرين والنظر بعين واحده، فينبغي أن يريد للآخرين ما يريد لنفسه ويرفض للآخرين ما يرفضه لنفسه.

تأمل

العصبيّه الإيجابيّة والسلبيّة

يختزن الإنسان العديد من الدوافع المعقده التي لو ترك لها العنان وانطلقت من

ص: ٣٣٧

مصادر الجهل لأدت إلى نتائج سلبية للغاية وأحياناً تكون قاتله، ويتوجب على قادة المجتمع في مثل هذه الحالات أن لا ينجسوا لمواجهه هذه الدوافع بغية القضاء عليها فحسب، بل لابد من تصحيح مسيرتها وإعادتها إلى الطريق الصحيح، وبعبارة أخرى لابد من توظيفها من خلال اختيار البدائل الإيجابية دون الاقتصار على مواجهتها.

فالسيل العظيم ربّما يؤدى إلى القضاء على أموال الناس وهدر طاقاتهم ما لم تتم السيطرة عليه، غير أنه يكون سبباً للعمران والبناء من قبيل إنتاج الطاقة الكهربائية وتشغيل المصانع الكبيره وخزن المياه طيله السنه وانعاش قطاع الزراعة لو بوشر ببناء سد عظيم بغية السيطرة على ذلك السيل.

ويبدو هذا المطلب واضحاً جلياً فى النصوص الدينيه؛ فقد ورد على سبيل المثال فى خطبه النكاح:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحَلَّ النِّكَاحَ وَحَرَّمَ الزَّنا وَالسَّفَاحَ» فالله تبارك وتعالى لم يأمر قط بقمع وكبت الغريزه الجنسيه، بل طرح موضوع النكاح الشرعى كى لا يؤدى الأمر إلى الأعمال التى تتنافى مع العفه، وحين نصح نبى الله لوط عليه السلام قومه ونهاهم عن إتيان الفاحشه اقترح عليهم الزواج من بناته فقال: «هُؤْلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» (١).

وجاء فى سوره النور بشأن حدّ الزنا: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» (٢) ثم رافقته دعوه عامه لأبناء المجتمع إلى الزواج والتكافل الاجتماعى بهذا الشأن فقال: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (٣).

كما صرّحت بعض الروايات الإسلاميه:

«فَأَمَّا سُؤْمُ الْمَرْأَةِ فَكَثْرَةُ مَهْرِهَا...» (٤).

ص: ٣٣٨

١- (١) سوره هود، الآيه ٧٨.

٢- (٢) . سوره النور، الآيه ٢.

٣- (٣) سوره النور، الآيه ٣٢.

٤- (٤) وسائل الشيعه، ج ١٥، الباب ٥ من أبواب المهور، ح ١١.

كما ورد في البعض الآخر:

«وَمِنْ شُؤْمِهَا شِدَّةُ مَوْتِهَا»(١).

فقد تعارف بين الناس وجود بعض الأمور من قبيل الشؤم والتفائل ولكن بصوره خرافيه وغايه فى الضرر؛ فما كان من الإسلام إلّا أن كساها ثوب المنطق دون أن ينبرى لاقتلاعها.

والقضية هذه جاريه عينها على التعصب؛ فهناك بعض الدوافع الباطنيه للإنسان التي تسوقه نحوالتعصب فإن خلى بينه وبينها ساقته إلى الجوانب السلبيه التي تؤدى إلى الكبر والغرور وربّما الاختلاف والنزاعات الدمويه؛ إلّا أن الإمام عليه السلام سعى توجيهه باتجاه الجوانب الإيجابيه فصرح أنه إن كان ولا بدّ لهؤلاء الأفراد والقبائل من التعصب فليكن هذا التعصب فى مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال والدفاع عن المظلومين ومواجهه الظالمين ومدّ يد العون إلى المعوزين والمحتاجين.

ص: ٣٣٩

١- (١) وسائل الشيعه، ج ١٥، الباب ٥ من أبواب المهور، ح ١٠.

وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ.

فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ.

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَيَاتِهِمْ، فَالزُّمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَزَاوَتْ الْأَعْيَادُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُرِدَّتِ الْعِرَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النُّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكِرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفَرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ، وَالتَّحَاضُّ عَلَيْهِمَا، وَالتَّوَاصِي بِهَيَا، وَاجْتِنَبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنْتَهُمُ؛ مِنْ تَضَاعُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالماضين

دعا الإمام عليه السلام في هذا القسم وبعض الأقسام القادمة مخاطبيه إلى تأمل أحوال الأمم السابقة فاستعرض عناصر ضعفهم وقوتهم وعرفهم بالأسباب التي تقف وراء نجاحهم وفشلهم في مختلف زوايا حياتهم، حتى ينفثوا على تجاربهم ويشقوا طريقهم الصائب في حياتهم في ظل الاستفادة من التاريخ، وهذا النوع من التعليم والتعلم عن طريق النظر في تاريخ الأمم السالفة) مما أكدته القرآن الكريم في أكثر السور القرآنية والذي لا يخفى مدى تأثيره ودوره.

فقال عليه السلام:

«وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى مصير بعض الأقوام مثل قوم عاد، وشمود وقوم نوح وقوم لوط وعاقبه الفراعنه وأمثال نمرود وما أصابهم من العذاب بفعل أعمالهم القبيحة فحذّرهم من مغتبه الإبتلاء بذات المصير.

والعبارة:

«سُوءِ الْأَفْعَالِ وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ» يمكن أن تكون تأكيداً لمعنى معين هو الأفعال القبيحة والذميمة، وهنالك احتمال آخر أن سوء الأفعال إشارة إلى الأعمال السيئه وذميمة الأعمال، الأفعال المستهجنه وإن لم تبلغ مرحلة الذنب مثل الغفله عن المحرومين وترك الانصاف والبذل والعطاء والأثره.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من هذا البيان الإجمالى خاض فى التفاصيل ليستفيد من ذات الأسلوب القرآنى الذى طرح كراراً بغيه بيان المسائل المهمه فقال:

«فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَيَاتِهِمْ، فَالزَّمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَرَاحَتِ الْأَعْيَادُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُرِدَّتِ الْعِزَّةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النَّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكِرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ».

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان العناصر التى تقف وراء هذه الأمور الخمسه (العزّه ودحر العدو والعافيه والنعمة والكرامه) فقال:

«مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْإِلْفَةِ، وَالتَّحَاصُّصِ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا».

ورغم أن هذه العناصر الأربعة تعود جميعاً إلى مسأله الاتحاد والوحده، غير أن كل واحد يعالج نقطه معينه: فاجتناب الفرقه ناظر لنفى عناصر التفرقه والاختلاف ولزوم الإلفه لترسيخ عوامل الوحده، والتحاض إشارة إلى الحض والتشجيع (ربما التشجيع العلمى) والتواصى المراد به عن طريق البيان والحوار.

ثم أشار عليه السلام إلى الجانب السلبي لهذه المسأله؛ أى التفرقه وعناصرها فحذّرهم بعبارات عميقه المعنى من ضروره نبذ عوامل الفرقه والاختلاف فقال:

«وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ (١)، وَأَوْهَنَ مُنْتَهُم (٢)».

ص: ٣٤٢

١- (١) «فقره» وجمعها «فقرات» بمنزله العمود الذى يشد ظهر الإنسان ويجعله يستقيم وينحى.

٢- (٢) «مُنْتَهُ» بمعنى القوّه و «مِنْتَهُ» على وزن «عِزّه» بمعنى النعمه العظيمه التى توجب القدره والقوه وقال الراغب فى المفردات إنها مشتقه فى الأصل من «منّ» وحده الوزن.

آنذاك ركز الإمام عليه السلام على العوامل الخاصه بعد ذكره لهذا المبدأ الكلى فقال:

«مِنْ تَصَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النَّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِيِ».

فهذه العناصر الأربعة هي العوامل الرئيسيّة للاختلاف والتي لبعضها جانب باطنى من قبيل الأحقاد الكامنه فى الصدور والحسد والبخل بينما لبعضها الآخر جانب ظاهرى من قبيل تولى البعض عن البعض الآخر وترك الأخوه والمؤمنين عند الحوادث والشدائد، نعم! لوسادت هذه الأمور أیه أمه لكسرت فقرتها وسلبتها قوتها وقدرتها.

ص: ٣٤٣

وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيسِ وَالْبَلَاءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا. اتَّخَذَتْهُمْ الْفِرَاعِنَةُ عَيْدًا فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّ عَوْهُمْ الْمُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْعَلْبَةِ، لِيَجِدُونَ حِيلَهُ فِي امْتِنَاعِ، وَلَمَّا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ. حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالْإِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَصَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجًا، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا، وَأَيْمَةً أَعْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكِرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

الشرح والتفسير: عناصر انتصار المؤمنين الأوائل

بالنظر إلى أنّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبة يتمثل في مواجهه الكبر والغرور والعصبيات السلبيّة وقد بين الإمام عليه السلام ذلك في الفصل السابق ولفت انتباه مخاطبيه إلى أحوال الأمم السالفة وانتصاراتهم ونجاحهم في ظلّ وحدتهم وإلقتهم، وعاد ثانية ليلفت أنظارهم إلى التأمل في سيره الأمم السابقة وما عانوه من امتحانات شاقه وعسيره ليستعرض لهم كيفية نجاحهم في تلك الامتحانات وتسلطهم على العدو، فأفاض الله عليهم العزّة والعظمة ومنحهم الأمن فقال:

«وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيسِ وَالْبَلَاءِ».

ثم تطرق عليه السلام إلى توضيح تلك الامتحانات الصعبة فقال:

«أَلَمْ يَكُونُوا أَنْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً (١)، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلَ الدُّنْيَا حَالًا».

ثم غاص أكثر في التوضيح بهذا الشأن ليركز على ما واجهتهم من صعوبات في حياتهم فقال:

«اتَّخَذَتْهُمْ الْفِرَاعِنَةُ عَيْدًا فَسَامُوهُمْ (٢) سُيُوءَ الْعِيَابِ، وَجَزَّ عُوْهُمُ الْمُرَارُ (٣)، فَلَمَّ تَبْرَحِ الْجِيَالِ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَاكِهِ وَقَهْرِ الْغَلْبَةِ، لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعِ، وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ».

ورغم أن خطوب حياه الأقسام السابقة وامتحاناتهم الصعبة والشاقه لا تقتصر على زمان الفراعنه، ولكن بما أن القرآن أشار كراراً إلى المصائب التي عانى منها بنو إسرائيل في زمان فرعون والتي يعرفها جميع المسلمين، فقد أشار الإمام عليه السلام على وجه الخصوص إلى تلك الحقبه حيث تحول فيها الجميع إلى عبيد من جانب وكانوا يضطرونهم إلى أعقد الأعمال ويزودونهم بأدنى الإمكانيات وحين يشعرون بالخطر يعمدون إلى قتل رجالهم واستحياء نسائهم واستعمالهن للخدمه، وقد مضت عليهم عدّه سنين ولم يكن لهم من سبيل للنجاه حتى تطف الله عليهم فكانت معجزه الله في انتصارهم على عدوهم بهلاك الفراعنه وأعوانهم، حيث قال عليه السلام في مواصلته لكلامه

«حَيْتَى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُيُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالْإِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجًا».

نعم! فحين يجتاز الإنسان الامتحان يبعث الله عليه ما يفرج عنه مشكلاته وفتشرك عليه شمس النصر والغلبه، الأمر الذي لمسناه في موسى عليه السلام وقومه.

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى نصرهم بصورة كليته، ثم خاض في التفاصيل فقال:

«فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا»

ص: ٣٤٦

١- (١) «أعباء» جمع «عبء» على وزن «فكر» بمعنى الحمل الثقيل.

٢- (٢) . «ساموا» من ماده «سوم» على وزن «قوم» بمعنى البحث عن شيء أو إجبار الآخرين على العمل وكذلك الاستمرار أى أن العبارة «ساموهم...» تعنى استمرارهم فى عذاب بنى اسرائيل.

٣- (٣) . «مرار» نوع من الشجره المره المذاق. ثم اطلقت على كلّ حادث مرير.

حُكَّامًا، وَأَيْمَهُ أَعْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكِرَامَةَ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ».

وقد ورد المزيد من التوضيح في القرآن المجيد بشأن بني إسرائيل والفراعنة بهذا الخصوص والذي يكشف النقاب عن دقائق هذا النصر فقال تعالى: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ»(١).

وقال تعالى في موضع آخر: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ»(٢).

ص: ٣٤٧

١- (١) سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

٢- (٢) سورة القصص، الآية ٥.

إشاره

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأُمَلَاءُ مُجْتَمِعَةً، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُتْرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ! فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتِ الْأُلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفِيدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كِرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرًا لِلْمُعْتَبِرِينَ.

الشرح والتفسير: الوحدة والفرقه، والنصر والهزيمة

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه السابق بشأن الأقوام السابقة ومصيرهم الذى يختزن الدروس والعبر، خلص فى هذا المقطع من الخطبه إلى نتيجة ليركز على العنصر الرئيسى للنصر المتمثل باتحاد الصفوف والعنصر الرئيسى للفشل المتمثل بتفرق الصفوف ليشير إلى أبعاد وحده الكلمه من خلال عدّه عبارات بسبع جمل فقال:

«فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأُمَلَاءُ (١) مُجْتَمِعَةً، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُتْرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً.

أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ».

فالإمام عليه السلام أشار بهذه العبارات الغايه فى الروعه والعميقه المعنى إلى الاتحاد

ص: ٣٤٩

١- (١). «أملاء» جمع «ملاء» بمعنى الجماعه و القوم وأحياناً بمعنى الأيدى المتعاونه مثل أشرف القوم.

والاتفاق فى جميع مظاهره لبعده عنصر الإقتدار والرفعه، الاتفاق فى التطلعات والرغبات والخطط والمشاريع والاتفاق فى العمل والاتفاق عند الصلح والقتال وبالتالي وحده الصفوف فى جميع مظاهر الحياه.

ويبدو الدليل على هذا الكلام واضحاً تماماً؛ ذلك لأنه ليس للأفراد بمفردهم من قدره كبيره وكل واحد منهم كالفطره بحيث لو كانت فى صحراء وأشرفت عليها أشعه الشمس أو هبت عليها الريح لحولتها إلى بخار، غير أنّ هذه القطرات أن اجتمعت مع بعضها البعض شكلت تلك البحار العظيمه التى من شأنها أن تكون مصدر لكل خير وبركه، فخيطة العنكبوت بمفرده ضعيف وايل للزوال ولايسعه الصمود أمام أدنى نسيم، غير أنّهم اليوم يلفونها مع بعضها ليصنعوا منها بدله مضاده للرصااص والتى تفوق مقاومتها جميع المقاومات وهذا هو دور الاتحاد والاتفاق.

ولعل هذه العبارات وارده بشأن بنى إسرائيل حين نهض موسى بن عمران عليه السلام بالأمر ووحّد صفوفهم فشملتهم العنايه الإلهيه والألطف الربّانيه فورثوا حكومه مصر والبلدان المجاوره لها، حتى تشكلت بعد موسى عليه السلام حكومات مقتدره كحكومه داود وسليمان عليهما السلام، وربّما يكون أصلاً كلياً وعماماً حصل كراراً فى تاريخ الأمم السابقيه، وكلّما كان هنالك اتحاد واتفاق ووحده قرار وخطه حكيمه كان هنالك الانتصار والغلبه، على كلّ حال فإنّ شرح الإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقه أنّه وإن كانت عدّه عوامل ضروريه للنصر والتقدم إلّا أنّ أهمها مسأله الاتحاد والاتفاق.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فذكر العنصر الرئيسى فى الفشل والهزيمه وهو الاختلاف؛ الاختلاف فى وجهات النظر وتشتت الصفوف، ثم أشار إلى أبعاده المختلفه بخمس عبارات فقال:

«فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتِ الْأَلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْنِدَةُ، وَتَسَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ،

وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كِرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ (١) نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرًا لِلْمُعْتَبِرِينَ».

نعم، فحين تتجه طاقات أمه نحو الاختلاف، وتستبدل الإلفه والمحبه بالنفره والعداوه وتتصاعد فيها ألسنه لهيب اختلاف الكلمه وتفرق الأفكار إنما تخوض حربها ضد نفسها وتهدر طاقاتها بدلاً من تصديها لعدوها الذي ينوى القضاء عليها، والله سبحانه وتعالى ينزع عنها لباس العزّه ويكسيها لباس الذل والهوان.

ويمكن أن يكون هذا الجانب من كلام الإمام عليه السلام إشاره إلى قصه بنى إسرائيل بعد تلك الانتصارات المتتاليه حين فقدوا مجدهم وعزتهم إثر الاختلاف والتشتت فتفرقوا فى الأرض، وربما يكون إشاره إلى جميع الأقسام التى تعيش حاله السقوط بسبب كفران النعمه والاختلاف والتشتت عقب الانتصارات الباهره التى تحققت فى ظلّ الاتحاد ووحده الكلمه.

ص: ٣٥١

١- (١). «غَضَارَهُ» بمعنى السعه.

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ (عليهم السلام). فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهِ الْأَمْثَالِ!

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لِيَأْتِيَ كَانَتِ الْأَكَاثِرَةُ وَالْقِيَاصَةُ أَرْبَابًا لَهُمْ، يَحْتَازُونَ بِهِمْ عَنِ رَيْفِ الْأَفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْحِ، وَمَهَيَا فِي الرِّيْحِ، وَنَكَدِ الْمَعَايِشِ، فَتَرَكُوهُمْ عِيَالَهُ مَسِيكِينَ إِخْوَانَ دَبْرٍ وَوَبْرٍ، أَذَلَّ الْأَمَمِ دَارًا، وَأَجِيدَ بِهِمْ قَرَارًا، لِيَأْتُوا إِلَى جَنَاحِ دَعْوِهِ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَمَّا إِلَى ظِلِّ أَلْفِهِ يَعْتمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا. فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ؛ فِي بِلَاءِ أَزَلِّ، وَأَطْبَاقِ جَهْلِ! مِنْ بَنَاتِ مَوْوُودِهِ، وَأَصْنَامِ مَعْبُودِهِ، وَأَرْحَامِ مَقْطُوعِهِ، وَغَارَاتِ مَشْنُونِهِ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق

تابع الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه ما ذكره في المقاطع السابقه بشأن العناصر التي تقف وراء انتصار وفشل الأمم السابقه فركز على المصاديق العينية لهذا الموضوع وأخذ بيد مخاطبيه ليغوص بهم في أعماق التاريخ فيكشف لهم النقاب عن قصه ولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام وبنى إسرائيل ليعتبروا بهم فقال:

«فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ (١) الْأَحْوَالِ،

ص: ٣٥٣

١- (١). «اعتدال» الحد الوسط بين الافراط والتفريط وأيضاً المساواه بين الشئيين وتشابههما (كل واحده عدل الأخرى) وهو المعنى المراد في العبارة.

وعلى هذا الضوء فقد دعاهم الإمام عليه السلام لمقارنه أنفسهم بمن سبقهم ليتعرفوا على عناصر نجاحهم وإخفاقهم لكي لا يقعوا في شباك الشيطان ويعيشوا هوى النفس والغرور والتعصب.

وهنا لابد من الالتفات إلى أنّ ولد إبراهيم عليه السلام ينقسمون إلى ثلاث طوائف؛ طائفة هم بنو إسماعيل الذين يعدون أجداد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وبنو إسحاق الذين يتفرعون إلى فرعين؛ فرع هم بنو يعقوب الذين يشكلون قوم بني إسرائيل وفرع آخر هم بنو «يسو» ومن نسلهم «الأدوميون» (قوم من أولى القوّه كانوا يقطنون في منطقه «أدوم» التي تمتد من جنوب البحر الميت إلى شمال الحجاز).

ويحتمل أن يكون المراد بالعبارات السابقة قد أشار إلى قانون كلّ في أنّ التاريخ يعيد نفسه باستمرار وعاده ما تعيش الشعوب والأمم ظروفًا متشابهة تستطيع من خلالها كلّ أمّة أن تحدد معالم مصيرها.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرح هذا الكلام بأسلوب الاجمال والتفصيل الذي يلعب دوراً في بيان الحقيقة فقال:

«تَأْمَلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لِيَأْتِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ (٢) وَالْقِيَاصِرَةُ (٣) أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ (٤) عَنْ رِيْفِ (٥) الْأَفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْحِ (٦)، وَمَهَافِي (٧) الرِّيحِ، وَنَكَدِ (٨) الْمَعَاشِ».

ص: ٣٥٤

- ١- (١) «اشتباه» لها معنيان؛ الأول الخطأ في الفهم أو العمل و الثاني تشابه شيئين والمعنى الثاني هو المراد في العبارة أيضاً.
- ٢- (٢) . «أكاسره» جمع «كسرى» (بكسر وفتح الكاف) لقب عام لملوك ايران قبل الإسلام.
- ٣- (٣) «قياصره» جمع «قيصر» على وزن «حيدر» لقب عام لملوك الروم.
- ٤- (٤) «يحْتَازُونَهُمْ» من ماده «حياز» بمعنى التملك والمعنى المراد في هذه العبارة أنّهم يقبضونهم عن الأرض الخصبه.
- ٥- (٥) «ريف» الأرض الخصبه والزراعيه.
- ٦- (٦) «شيع» نبات مر ذات ريحه طيبه.
- ٧- (٧) «مهافي» جمع «مهفي» المواضع التي تهفّ فيها الرياح أي تهب.
- ٨- (٨) «نكد» بمعنى الشيء القليل.

إشاره إلى أنهم سلبوهم حياه القرى والمدن المباركه وهجروهم إلى الصحارى والمناطق الجرداء القاحله.

ثم قال عليه السلام:

«فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً (١) مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبْرٍ (٢) وَوَبْرٍ (٣) ، أَدَلَّ الْأُمَمِ دَارًا ، وَأَجِيدَ دَبْهُمْ قَرَارًا لَأَيُّوُونَ (٤) إِلَى جَنَاحِ دَعْوِهِ يَغْتَصِمُونَ بِهَا ، وَلَا إِلَى ظِلِّ أَلْفِهِ يَغْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا».

انذاك خاض عليه السلام فى شرح معطيات هذا الوضع فقال:

«فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلَاءِ أَزَلٍ (٥) ، وَأَطْيَاقِ جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتِ مَوْوُودَةَ (٦) ، وَأَصْنَامِ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامِ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتِ (٧) مَشْنُونَةٍ (٨)».

إشاره إلى أن اختلاف الآراء وتشتت الأفكار، إنما تفرز على الدوام المحن والخطوب التى تصيب المجتمعات البشرى فتطمرها فى وادى الجهل، كما يشير تاريخ الجاهليه إلى أنهم كانوا يمارسون الأعمال الهمجيه والبربريه، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة نماذج منها؛ فكانوا يعمدون إلى وأد بناتهم أحياءً تحت ذريعه حفظ الحرمه وابرار الغيره والنجاه من الفضيحه والعار، ويعبدون الأحجار التى كانوا يصنعونها بأيديهم فكان لكل قبيله صنمها ووثنها، فقريش وبنو كنانه والأوس

ص: ٣٥٥

١- (١) . «عاله» جمع «عائل» الفقير و «عيلوله» قضاء حوائج الآخرين.

٢- (٢) «دبر» جمع «دبره» على وزن «شجره» القرحة فى ظهر الدابه.

٣- (٣) «وبر» شعر الجمال والمراد فى العبارة أنهم رعاه.

٤- (٤) . «ياوون» من ماده «إواء» على وزن «كتاب» بمعنى الدخول والسكن فى مكان.

٥- (٥) . «أزل» بمعنى الشده؛ وتأتى بمعنى الحبس أيضاً.

٦- (٦) «موووده» من «وأد» على وزن «رعد» تعنى فى الأصل الثقل، ثم اطلقت على البنت التى كانت تدفن وهى حيّه فى عصر الجاهليه أيضاً، لأنهم كانوا يخفونها تحت التراب ويضعون فوقها الكثير من التراب.

٧- (٧) «غارات» جمع «غار» تعنى فى الأصل الهجوم، وحين يكون الهجوم من كل جانب يقال له «غارات مشنونه».

٨- (٨) «مشنونه» من «شن» على وزن «ظن» الهجوم من كل جانب.

والخزرج كانوا يعبدون «مناه»، وبنو ثقيف «اللاه والعزى» وهذيل «سواع» وبنو كلب «ود» وسائر الطوائف كانت تعبد سائر الأصنام، وقد نصب «هبل» كأعظم صنم لهم في الكعبة بينما كان «اساف» و«نائله» على الصفا والمروه فكان الجميع يعظم هذه الأصنام الثلاثة فتحولت الكعبة مركز التوحيد والعبودية إلى أكبر معبد وثني للأصنام.

وقطع الرحم الوارد في كلام الإمام عليه السلام يمكن أن يكون إشاره إلى قتلهم أولادهم خشيه الفقر أو بصفته عباده يتقربون بها لأصنامهم، وتشير «الغارات المشنونه» الحروب المتعدده التي كانت تنشب بين القبائل العربيه في العصر الجاهلي تحت مختلف الذرائع، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أنّ نار تلك الحروب لم تكن تطفأ حتى ظهر الإسلام فوضع حداً للاقتتال القبلي وقتل الأولاد ووآد البنات وعباده الأوثان.

وهذا هو مصير من يقطع أواصر الوحده ويقبل على الاختلاف والتشتت والنفاق والذي يتجلى بصيغه معينه في كلّ أمّه ولا يقتصر على العصر الجاهلي.

تأمل

القطره والبحر

لعلنا سمعنا كراراً هذا الكلام في أنّ قطرات الأمطار ليس لها من قيمه تذكر بمفردها، غير أنّها إن اتصلت بسائر القطرات وشكلت نهراً عظيماً وتراكت مع بعضها البعض الآخر ألفت كتله عظيمه من شأنها القيام ببعض الأعمال الكبيره ومن ذلك إنتاجها للقوه الكهربائيه التي تشغل المصانع والمعامل الضخمه، وتضيئ المدن والقرى وتسقى قطاعات واسعه من المزارع والحقول، وبالتالي يمكنها إضفاء الحياه والحيويّه.

ويبدو أنّ الناس كذلك، فكلّ إنسان مهما كانت قدرته وطاقته لا يمكنه القيام ببعض الأعمال بمفرده، على غرار قطره المطر، ولكن ما أن تتضافر هذه الجهود الصغيره حتى يكون لها تأثيراتها الواضحه في هذا العالم، فهي لا تشكل درعاً

حصيناً العدو فحسب، بل تلعب دورها في عالم الاقتصاد والعلم والمعرفة فتؤدي إلى كل ذلك الرقى والتقدم والإزدهار، والحقّ لولا- تلاقح قطرات علم العلماء طيله التاريخ وفي المجتمعات البشريه لما شهدنا ليوم كل هذا التقدم العلمي الهائل ولما كان التمدن يفوق مدنيه العصور الحجريه.

وإذا دبّ الاختلاف في صفوف المجتمعات البشريه فلا تتوقف عجله الرقى والتقدم فحسب، بل تنعدم كل القدرات والقوى في اتون الاقتتال الداخلي والذي لا يفضى سوى إلى الدمار والخراب والتخلف.

وقد أكد الإمام عليه السلام مراراً في هذه الخطبه الشريفه على هذا المعنى، فأخذ بيد مخاطبيه إلى أعماق التاريخ البشري ليربهم عن كثر نتائج الاتحاد والفرقه.

من جانب آخر فقد ورد مثل هذا التأكيد في الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه؛ ولكن ما تجدر الإشارة إليه أنّ الظفر بوحده الصفوف لا يبدو بالأمر الهين بل يحاط بالعديد من الصعوبات والعوائق، ومنها التعصب والكبر والفخر وترجيح المصالح الذاتيه الضيقه والقصيره الأمد على المنافع العامه والبعيده الأمد، وقد عدّها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه من العقبات التي تعترض سبيل الوحده.

وقد أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى في سائر خطب نهج البلاغه أيضاً؛ ومن ذلك ما ورد في الخطبه ١٢٧ أنه قال:

«وإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّبِّ».

كما وردت إشاره رائعه إلى هذا المعنى في الخطبه ٨٦:

«وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ».

ونختتم هذا الكلام بالرساله المهمه التي صرح بها القرآن الكريم في قوله تعالى:

«وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» (١).

ص: ٣٥٧

فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ: كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ حِيَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالتَّفَتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرِهِ عَيْشَتِهَا فَكِهِينَ. قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانِ قَاهِرٍ، وَأَوْتُهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنْفِ عِزِّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكِكَ ثَابِتٍ. فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِينَ. يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمضِيهَا فِيهِمْ! لَا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاءٌ، وَلَا تُفْرَعُ لَهُمْ صَفَاءٌ.

الشرح والتفسير: عزتكم بالاسلام

بعد كلام الإمام عليه السلام في القسم السابق من هذه الخطبه بشأن خطوب العصر الجاهلى والمشاكل والإرباكات والفقر وعدم الاستقرار التى اتصف بها، تناول هنا شرح المعطيات المباركه التى حصلوا عليها فى ظل انبثاق دعوه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وما أصبحوا عليه من اتحاد وإلفه ومحبه، ليشرح هذا الأمر بعبارات غايه فى الجمال والبلاغه فقال:

«فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ».

نعم؛ فقد كان كل قوم وقبيله بل كل فرد فى العصر الجاهلى يلهث خلف مصالحه ورغباته الضيقه حتى سادهم جو من الفرقة والاختلاف والتشتت، فجمعهم الله

تبارك وتعالى تحت رايه واحده فى ظلّ الإسلام والتوحيد فانقلب كلّ شىء رأساً على عقب.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان هذه النعم من خلال تشبيهات واستعارات رائعه ليتطرق إلى الواحده تلو الأخرى فقال:

«كَيْفَ نَشَرْتِ النَّعْمَةَ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ حِدَاوِلَ (١) نَعِيمِهَا، وَالتَّفَّتِ الْمَلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرَقِينَ، وَفِي خُضْرِهِ عَيْشَهَا فَكَيْهِينَ (٢)».

فقد شبه الإمام عليه السلام هذه النعم بالطيور التى تفتح اجنحتها لتضم إليها صغارها فتمنحها الدفء والحنان والأمان، ثم شبهها ثانية بالماء العذب الفرات الذى ينحدر نحو الحقول والمزارع فيجعلها خضراء نضرة، ونتيجة ذلك الغرق فى النعم والعيش بأمان فى ظلّ حياه هائنه وديعه.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليشير إلى نعمه الحكومه الإسلاميه، الحكومه العزيزه والمقتدره فقال:

«قَدْ تَرَبَّعَتِ (٣) الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانِ قَاهِرٍ، وَأَوْتُهُمُ الْحَالَ إِلَى كَنْفِ عِزِّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى (٤) مُلْكٍ ثَابِتٍ».

والتاريخ الإسلامى أفضل شاهد على جميع ما ذكره الإمام عليه السلام بهذه العبارات حيث انتصار العرب بالخصوص والمسلمين بصوره عامه فى ظلّ الإسلام، الأمر الذى يقوّه مؤرخو الشرق والغرب.

ثم أشار فى ختام هذا الكلام إلى النصر المطلق للمسلمين على خصومهم بعبارة بليغه فقال:

«فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِينَ. يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لَا

ص: ٣٦٠

١- (١). «جداول» جمع «جدول» بمعنى مجرى النهر.

٢- (٢) «فكهيين» جمع «فكه» على وزن «خشن» بمعنى الراضين والفرحين فى الأصل من «فكاهه» على وزن «قباله» بمعنى المزاح والضحك، يقول البعض أنّ أصلها «فاكهه» أى أنّ المزاح حلو كالفكاهه الحلوه.

٣- (٣). «تربعت» من «تربع» بمعنى الاقامه باطمئنان فى مكان.

٤- (٤) «ذرى» جمع «ذروه» (بضم الذال وكسرها) فوق كلّ شىء مثل قله الجبال.

غَمَزُ (١) لَهُمْ قَنَاهُ (٢) ، وَلَا تُقْرَعُ (٣) لَهُمْ صَفَاهُ (٤) .

إشاره إلى سطوه الحكام والسلاطين فى العهود السابقه عليهم إثر اختلافهم وفرقتهم وضعفهم وعجزهم حتى استعبدوهم بينما بث فيهم الإسلام روح الاتحاد والقدره والعزّه فانحنوا لهم حيث تحولوا إلى قوّه لا تقهر.

قال أحد المستشرقين: بلغ المسلمون درجه من القوّه بحيث يوصف بالجنون كلّ من يفكر فى مواجهتهم.

ص: ٣٤١

١- (١) «تغمز» من ماده «غمز» على وزن «همز» تعنى الإشاره بالعين واليد للتعييب وتأتى بمعنى الانحناء وهنا المراد هو المعنى الثانى.

٢- (٢) «قناه» به بمعنى الرمح وتأتى بمعنى العصا أيضاً، ويقال لمسير الماء المستقيم أيضاً وهنا المراد هو المعنى الأول.

٣- (٣) «لا تقرع» من ماده «قرع» على وزن «فرع» يعنى صدم شىء بآخر بحيث يصدر عنهما صوت عالٍ.

٤- (٤) «صفاه» بمعنى الحجر الصلد وفى العبارة كناية عن القوّه.

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَتَلَمَّتُمْ حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ ائْتَنَّ عَلَى جَمَاعِهِ هَذِهِ الْأَمَّةَ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأُفَّةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَيْهَا كَنْفِهَا، بِنِعْمَةِ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ أَعْرَابًا، وَبَعْدَ الْمَوَالَاهِ أَحْرَابًا. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ.

تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِنُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكَ لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضًا لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ، وَأَمْنًا بَيْنَ خَلْقِهِ. وَإِنَّكُمْ إِنْ لَحِزْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارِبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَاجِبْرَائِيلَ وَلَمَّا مِيكَائِيلَ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِنُوا وَعِيدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُنًا بِبَطْشِهِ، وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَعَمَّ يَلْعَنُ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِمَنْزِلِهِمْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي.

أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ، وَعَطَلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمُتُّمْ أَحْكَامَهُ.

أشار الإمام عليه السلام في المقاطع السابقه إلى شؤون بني إسرائيل وضعفهم قبل قيام موسى عليه السلام ومن ثم قوتهم واقتدارهم في ظل حركه موسى التي وحدت صفوفهم وبالتالي ضعفهم وذلتهم ثانيه حين تولوا عن الدين الجديد ودعوه موسى، فذكر المسلمين بهذه المراحل الثلاث، المرحله الأولى المتعلقة بالعصر الجاهلي، والمرحله الثانيه المرتبطه بانبثاق الدعوه الإسلاميه وما انطوت عليه من انتصارات باهره والذى مر علينا في الأقسام السابقه، وخاض هنا في تفاصيل المرحله الثالثه التي انطوت على تخلف المسلمين عن الوحده والانتصارات السابقه فقال:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ (١) أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَتَلَّمْتُمْ (٢) حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ».

ثم خاض عليه السلام في شرح هذا الكلام فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ ائْتَنَّا عَلَى جَمَاعِهِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَيْ كَنْفِهَا (٣) ، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ».

فكل هذه العبارات تشير إلى أهميه الاتحاد والإلفه، الأمر الذى أكدته القرآن الكريم فى عدّه مواضع فى قوله تعالى: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (٤)» (٥).

ص: ٣٦٤

١- (١) . «نفضتم» من ماده «نفض» على وزن «نبض» بمعنى تحريك الشىء لإخراج ما فى داخله والمراد فى العبارة تقطع عرى الطاعه.

٢- (٢) «تلمتم» من ماده «تلم» على وزن «عزم» بمعنى الخرق والكسر.

٣- (٣) . «كنف» بمعنى الحمايه.

٤- (٤) سورة آل عمران، الآيه ١٠٣.

٥- (٥) وشاهدنا آثار هذا الأمر القرآنى وتعليمات الإمام فى أيامنا هذه، وقد أعد أعداء الإسلام والاستعمار الغربى خططاً جهنميه ضد البلدان الإسلاميه ولبنان ليسيروا عليها بواسطه عملائهم فى المنطقه، لكى تضمن حمايه إسرائيل من جانب ولتكون قاعده من جانب آخر للتطاول على سائر البلدان الإسلاميه غير أن الشعب اللبناى عبّر عن وحدته فى ذلك اليوم التاريخى (يوم ٢٦ محرم الحرام ١٤٢٦) ليخرج بتلك المسيرات المليونيه ويطلق الشعارات المعاديه للامبرياليه فأفضل تلك الخطط: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

فكشف النقاب أكثر عن الموضوع ليقول صراحه:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ أَعْرَابًا وَبَعْدَ الْمَوَالَاهِ أَحْزَابًا. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ».

فقد أفصح الإمام عليه السلام في هذه العبارات عن مدى قلقه على أوضاع المسلمين آنذاك وكيف بدت عليهم آثار العصبية القبليّة التي جهد النبي صلى الله عليه وآله على إزالتها في ظلّ التعاليم الإسلاميّة السمحاء، فكانت هذه العصبية أساس الاقتتال وسفك الدماء ولذلك صرّح لهم الإمام عليه السلام: (أنكم لتتحدثون عن الإسلام والإيمان بينما لا تحسنون من الإسلام سوى اسمه ومن الإيمان سوى شكله)، نعم! إنكم لتتطقون بالشهادتين وتأتون ظاهرياً بالصوم والصلاه لكنكم غافلون عن تعاليم هذا الدين.

ثم شرح الإمام عليه السلام هذه العبارة فقال:

«تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَمَّا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِتُوا (١) الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكَ لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضًا لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ، وَأَمْنَا بَيْنَ خَلْقِهِ».

عبارة هذه الشعار

«الْتِمَارَ وَلَمَّا الْعَارَ» اطلقت حسب بعض الشراح لأول مرّه من قبل «أوس بن حارثه» (٢) وهو من الشعارات التعصبيّة البعيده عن الإسلام. فهؤلاء يزعمون أنهم مستعدون لدخول النار، لكنهم ليسوا مستعدين لأنّ تظهر عليهم القبيله الفلانيه، أو يراق لهم دم ولا يردون الصاع صاعين. فالإمام عليه السلام يصف هذا الكلام بأنّه نقض العهود والتراجع عن الإسلام.

ص: ٣٦٥

١- (١). «تكفّتوا» من ماده «اكفاء» بمعنى الانقلاب.

٢- (٢). عاش في عصر الجاهليّة؛ وروى حفيده «حميد بن منهب» أنّ جده أوس بن الحارثه قدم على النبي صلى الله عليه وآله وبايعه مع سبعين نفر من قبيله «طى». (أسدالغابه، ج ١، ص ١٤١).

وقال جمع من شراح نهج البلاغه إن العبارة

«النار ولأ العار» عظيمه إن كانت في الأهداف القدسيه، بينما تعدّ قبيحه ومذمومه إن كانت في المفاخر القبليه الواهيه.

إنما يصح هذا الكلام إن لم تكن النار بمعنى جهنم، بل كانت بمعناها الواسع الذي يشمل نار المشاكل الدنيويه أيضاً، مثلاً يقال (نتحمل جميع المحن وحتى الموت لكننا لا نقبل بسيطره الكفار على البلاد الإسلاميه) فالشعار بالطبع صحيح؛ أما أن يقال (نحن مستعدون لدخول النار لكننا لا نتحمل أفضليه القبيله الفلانيه) فالشعار هنا خاطئ وينسجم مع العصبية الجاهليه.

وعليه فلا يبدو صحيحاً ما ذكره المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغه حيث صرح بأن هذا التقسيم مضحك، ذلك لأن من قال بهذا التقسيم إنما فسّر النار بمعناها الواسع، رغم إن ما ورد في كلام الإمام عليه السلام على لسان المتعصبين آنذاك يراد به الجانب السلبي لذلك الشعار.

ثم أشار عليه السلام إلى العاقبه السيئه لهذا الأسلوب فقال:

«وإِنَّكُمْ إِنْ لَحِجْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ (١) حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَجِبْرَائِيلُ وَلَمَّا مِيكَائِيلُ وَلَمَّا مُهْرَجِرُونَ وَلَمَّا أَنْصَارُ (٢) يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ (٣) بِالسَّيْفِ (٤) حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ».

إشاره إلى أنكم حين كنتم متمسكين آنذاك بالإسلام فقد أمدكم الله بنصرته بملائكته وعنايته الغيبية التي عمت الأنصار والمهاجرين، فدحرتهم الأعداء وثلتم

ص: ٣٦٦

١- (١). مرجع الضمير في «غيره» هو الإسلام الذي سبق ذكره، كما احتمل البعض أن يكون المراد الله.

٢- (٢). جاءت مفردة «لا» في أربعة موارد وردت في هذه الجملة ولو كانت «لا» نافية للجنس لابد أن يراد جبرائيل وميكائيل والمهاجرون والأنصار بالنصب، كما جاء في بعض النسخ. وإن اعتبرناها «لا» نافية (اللام المشبهة بليس) فلا بد أن تقرأ الكلمات الأربع المذكوره بالرفع كما جاءت في النسخه الموجوده.

٣- (٣) «المقارعه» النزاع والقتال والضرب.

٤- (٤) العبارة «إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ» يحتمل أن تكون من قبيل الاشتناء المنقطع، إشاره إلى أنه سوف لن يكون لكم من نصير ومعين سوى الضرب بالسيف والذي لا يسعها أن تؤدى إلى النصر مع ما أنتم عليه من الفرقة، وعليه ستهزمون، كما ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن العبارة المذكوره استثناء متصل، أى أن معينكم الوحيد سيوفكم التي فيها نصركم، ولكن يبدو أن هذا الاحتمال لا ينسجم مع سياق عبارات الإمام عليه السلام.

النصر وعشتم العزّه والكرامه والأمن، ولكن ستسلبون كل ذلك إذا وليتم ظهوركم للإسلام وعليه فما لكم إلّا العوده إلى الإسلام الأصيل واطردوا عن أنفسكم الكبر والغرور والعصبيه الجاهليه واطفئوا نيران الفرقة لتشملكم عنايه الله وألطفه.

ثم حذرهم الإمام عليه السلام ودعاهم لمقارنه أوضاعهم بما أصاب الأمم الظالمه من قبلهم، فاستعرض لهم نماذج العقاب الإلهي كما ورد في القرآن الكريم فقال:

«وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَقَوَائِعِهِ».

والعبارات الأربع

«بأس» و «قوارع» و

«أيام» و

«وقائع» كلها إشاره إلى العاقبه الثقيله والصعبه للأمم المذنبه السالفه، ولكن لكل من هذه العبارات مفهومها الخاص؛ فالبأس تعنى القتال والعذاب والقوارع إشاره إلى العقوبات الشاقه من قبيل طوفان نوح والزلزله التي أصابت قوم لوط وصاعقه قوم عاد وثمود، والأيام إشاره إلى مجموع الأيام التي تشهد وقوع هذه الحوادث، والوقائع هي هذه الحوادث بما فيها المقدمه وذى المقدمه وآثارها ونتائجها.

و

«أيام الله» هنا إشاره إلى أيام الأمم السابقيه الصعبه والمرعبه، فقد جاء في القرآن المجيد بشأن قوم عاد: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ» (١). وقال إثر ذلك: «تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ» (٢). وسائر الآيات الكثيره الوارده بشأن قوم فرعون ونوح وأمثالهم.

ثم قال عليه السلام:

«فَلَا تَسْتَبْطِئُوا (٣) وَعَيْدُهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُنًا بِبَطْشِهِ (٤)، وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ».

أى إن تأخر عقاب العصاه لبضعه أيام أو بضعه شهور فلا تظنوا باستحاله وقوعه،

ص: ٣٦٧

١- (١) . سورة القمر، الآية ١٩.

٢- (٢) سورة القمر، الآية ٢٠.

٣- (٣) . «تستبطنوا» من ماده «استبطاء» «بُطِئ» على وزن «قفل» ضد السرعه.

٤- (٤) «بطش» تعنى فى الأصل الحصول على شىء بالقوّه، وردت بمعنى العقاب لأنّهم يقبضون على المجرم بالقوّه حين العقوبه.

فقد اثبت التاريخ وقوع هذا العذاب رغم تأخيره، وبالطبع فليس لهذا التأخير من أهميته مقارنة بعمر العالم.

ثم خاض عليه السلام في أسباب هذا الموضوع (التشابه في المصير) ليركز على أهمها فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقُرْنَ الْمَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ (١) لِتَرْكِ التَّنَاهِي».

والكلام إشارة إلى الآيه القرآنيه الشريفه التي تقول: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (٢).

وبالطبع وردت إشارات إلى سائر عوامل سقوطهم في القسم القادم من الخطبه؛ إلا أن عبارته الإمام عليه السلام تشير إلى أن أفدح أخطائهم تركهم فريضه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن تطبيق جميع الأحكام الشرعيه يتوقف على إحياء هاتين الفريضتين، فإن أقيمتا أقيمت جميع الفرائض وإن تركتا تعطلت سائر الفرائض والت إلى الفناء والزوال، ولذلك ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ... فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ» (٣).

وستنطبق إن شاء الله في الخطب القادمه إلى الأهميه الفائقه لفريضه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام في الموضوع الذي ورد الحديث فيه صراحه عن هذه الفريضه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه في هذا الجانب من الخطبه بالقول:

«أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ، وَعَطَلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمْتُّمْ أَحْكَامَهُ».

ص: ٣٤٨

١- (١). «الحلماء» جمع «حليم» بمعنى العاقل ومن ماله «حلم» على وزن «سُبُل» بمعنى العقل.

٢- (٢) سورة المائده، الآيتان ٧٨ و ٧٩.

٣- (٣) الكافي، ج ٥، ص ٥٦.

هذه الكلمات تشير إلى أنّ الاكتفاء بظاهر الإسلام وبعض الطقوس الظاهريّة ليس مدعاه للنجاه، بل لا بدّ من الالتزام بأحكامه وتعاليمه وإقامه حدوده وتحكيم الإسلام في جميع المجالات وأنتم لستم كذلك، فأنتم تتصدقون باسم الإسلام وتتصرفون تصرف الجاهليّه، ومع ذلك تتوقعون العزّه والإقتدار.

ص: ٣٦٩

أَلَمْأ وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّذْهَةِ فَقَدْ كُفَيْتُهُ بِصِيغَةِ سَمِعْتُ لَهَا وَجِبَهُ قَلْبِهِ وَرَجَّهُ صَدْرِهِ، وَبَقِيَتْ بِقِيَّتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ. وَلَيْسَ أَذِنَ اللَّهُ فِي الْكُرْهِ عَلَيْهِمْ لِأَدِيلِنَ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَدَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَدُّرًا.

الشرح والتفسير: تكليفي في قتال المفسدين

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى معاركه المعروفه ضد الفئات الظالمه في الجمل وصفين والنهروان وكيف كشف لهم عن قدرته وقوته، وكأنه أراد بهذا الكلام أن يلوح بقوته لبعض القبائل المتمرده التي عاشت الاقتتال مع بعضها بفعل العصبيات القبليه ويلقها حجراً ويفهمها أنها إن واصلت هذه المسيره الخاطئه ستجابه بأشد العذاب فقال:

«أَلَمْأ وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ (١) وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ (٢) فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ (٣)»

ص: ٣٧١

١- (١). «نكث» بمعنى نقض العهد. وأهل النكث إشارة إلى طلحه والزبير وأمثالهما ممن بايع الإمام عليه السلام ثم نقضوا البيعه وقاتلوا الإمام عليه السلام في معركة الجمل وأخيراً قتلوا ويقال لهم الناكثون.

٢- (٢). «قاسطون» من ماله «قسط» تأتي بمعنى الظلم والعداله، وتشير هنا إلى أصحاب معاويه الذين كانوا جائرين عن الحق وظالمين بحق الناس.

٣- (٣) «مارقه» من ماله «مروق» على وزن «غروب» بمعنى الخروج من شيء وغالباً هو السهم حين يطلق من القوس ويتجاوز الهدف، وقيل المارقه للخوارج في النهروان بسبب إفراطهم وتعصبهم وتحجرهم وأنهم كفروا الجميع غيرهم (كالوهابيه).

فَقَدْ دَوَّخْتُ (١)».

إشاره إلى: أن قتالي لهذه الفئات الثلاث كان بأمر الله تعالى، ويستند هذا الكلام إلى الروايه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لأمير المؤمنين على عليه السلام:

«وَأَنَّكَ سَتُقَاتِلُ بَعْدِي النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ» (٢).

وقد ورد هذا الكلام في (أسد الغابه) أنه عليه السلام قال:

«عَهْدُ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ» (٣). هذا أولاً.

ثانياً: إشاره إلى أنني هزمت الفئات الثلاث، أما أصحاب الجمل فقد تفرقوا أيادي سباً وكسرت شوكة خوارج النهروان، كما تحطم معاويه وصحبه يوم صفين، غير أن حيله ابن النابغه عمر بن العاص قد أنقذته من الهزيمه المطلقه.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليركز على زعيم الخوارج حرقوص بن زهير وكنيته ذوالثديه، الذي قتل شر قتله يوم النهروان فقال:

«وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّذْهَةِ (٤) فَقَدْ كُفِّيْتُهُ بِصَعْقِهِ (٥) سَمِعْتُ لَهَا وَجْبَهُ (٦) قَلْبِهِ وَرَجَّهُ (٧) صَدْرِهِ».

وهناك خلاف بين سراح نهج البلاغه بشأن هذه الصاعقه، فقد ذهب البعض إلى أن صاعقه من السماء نزلت حقاً على زعيم الخوارج ذوالثديه فأهلكته وقذفت بجسمه في تلك الحفره (ردهه بمعنى حفره ماء) بينما يعتقد البعض الآخر أن تلك الصاعقه هي الصراخات الشجاعه المدويه التي كانت تنطلق من الإمام عليه السلام في بدايه المعركه، فكانت هذه الصراخات تقض مضاجع البعض ومنهم ذو الثديه الذي إعتراه

ص: ٣٧٢

١- (١) «دَوَّخْتُ» من ماده «دوخ» على وزن «فوق» بمعنى أضعف وأذل.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ١٣٠.

٣- (٣) أسد الغابه، ج ٤، ص ٣٣.

٤- (٤) «ردهه» النقره التي يتجمع فيها الماء، ويقال للغرف والصالات الواسعه في البيوت.

٥- (٥) «صعقه» أخذت في الأصل من الصاعقه التي تسبب الهلاك. ثم اطلقت على الهلاك أو الخوف الذي يصيب قلب الإنسان.

٦- (٦) «وجبه» بمعنى السقوط والخفقان والعطل والسكوت، ومفرده «وجبه» تطلق على وقت الطعام.

٧- (٧) «رجه» من ماده «رجح» على وزن «حجج» بمعنى الاهتزاز والارتعاد.

الرعب فصعق وصرع أرضاً لينحدر إلى تلك الحفرة، ثم هدد ما تبقى من أولئك الأوغاد العتاه فقال:

بَقِيَتْ بَقِيَّتُهُ مِنْ أَهْلِ الْبُغْيِ. وَلَئِنْ أَدَانَ اللَّهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لِأَدِيلِنَ (١) مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَدَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَدُّرًا (٢)».

وتشير العبارة:

«أهل البغي» إلى ظلمه الشام وأصحاب معاوية الذين كانوا سيهلكون لولا قضيه التحكيم يوم صفين، فالإمام عليه السلام يقول: لو أُتيحت لي الفرصه لقصيت عليهم وأرسيت حكمه العدل والقسط في ربوع البلاد الإسلاميه كافة.

ولعل ذكر هذا المعنى بصيغته الجمله الشرطيه يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام سوف لن يُوفّق لشن هجومه الكاسح عليهم، فقد طالته المنيه قبل أن يقوم بهذا العمل؛ ولكن على كلّ حال أعلن عن استعداداه التام لمواجهتهم مادام فيه عرق ينبض ويعلم ضمناً صبحه خططه المستقبلية.

تأمل

من هو ذو الثدييه؟

اسمه حرقوص بن زهير السعدى التميمى المعروف بذي الخويصره، ذى الثدييه ومُخدج، ولا يعلم وجه تسميته بذي الخويصره؛ ولكن بالنظر إلى اللحم الزائد فى عضده كالثدى فى الصدر لقب بذي الثدييه، كما عرف بالمخدج اليد لنقص فى يده.

جاء فى التفاسير فى ذيل الآيه ٥٨ من سوره التوبه: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَشِيخُطُونَ». والمصادر التاريخيه تؤكد أنه لما انتهت غزوه حنين وقف رسول الله صلى الله عليه وآله فى موضع اسمه «جعرانه» لتوزيع الغنائم فطلب أبو سفيان وبعض المسلمين من قريش المزيد من الغنائم؛ فمنحهم رسول الله صلى الله عليه وآله أموالاً كثيره لتأليف قلوبهم، فنهض ذو الثدييه وخاطب

ص: ٣٧٣

١- (١) «أديلن» من ماده «دوله» تعنى الانتقال وتأتى أحياناً بمعنى الضعف والمراد هنا هو المعنى الأول؛ أى لأمحقنهم.

٢- (٢) «يتشدر» من «تشدر» أى يتفرق.

رسول الله قائلاً: «إعدل يا محمد!».

فقال صلى الله عليه وآله:

«ويحك! فمن ذا يعدل إن لم أعدل؟». فاستأذنه عمر أن يضرب عنقه، فنهاه النبي صلى الله عليه وآله وقال:

«دَعِيهِ، فَسَيَخْرُجُ مَنَ ضَنْبِي هَذَا قَوْمٌ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيهِ،... تُحْتَفَرُ صِيَالَاتُكُمْ فِي جَنْبِ صِيَالَتِهِمْ، وَصَوْمُكُمْ عِنْدَ صَوْمِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لِيُجَاوِزَ تَرَاقِيهِمْ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مُخْدَجُ الْيَدِ، إِحْدَى يَدَيْهِ كَأَنَّهَا ثَدْيٌ امْرَأَةٍ أَوْ بَضْعَةٌ تَدْرَدَرُ»(١).

وعلى ضوء هذه النبوءة فقد ظهرت فته في الأمة الإسلامية تقرأ القرآن وتعبد الله، ولكن حقيقة الأمر أنهم خارجون عن الدين ولا يعرفون حقيقته.

وهذه الحقيقة معروفة بين المسلمين حتى أن عائشة المعروفة ببغضها لعلی عليه السلام قالت بعد النهروان وقتل ذی الثديہ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يَقْتُلُهُ خَيْرُ أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي»(٢).

وقد تحققت هذه النبوءة بعد صنفين وقضيه التحكيم، حيث اجتمع الخوارج عند عبد الله بن وهب الراسبي، فخطبهم ذوالثديہ ودعاهم للقتال وكان زعيمهم عبد الله بن وهب (وإن كانت الزعامه الفكرية والعقائديه لذي الثديہ)(٣).

يذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام أخبرهم أن قوماً يخرجون من الدين ويقاثلون المسلمين وعلامتهم رجل (مُخْدَجُ الْيَدِ)(٤).

وكان الناس يبحثون عن ذی الثديہ، لكنهم لم يعثروا عليه، فطعنوا في علی عليه السلام وقالوا: خدعنا ابن أبي طالب لئلا نقاتل إخواننا(٥).

ص: ٣٧٤

١- (١) جاء هذا الحدث وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب السننه المعتمره (مع اختلاف طفيف) من قبيل: صحيح البخارى، ج ٧، ص ١١١ و ج ٨، ص ٥٢؛ صحيح مسلم، ج ٣، ص ١١٢؛ مسند أحمد، ج ٣، ص ٥٦ و ٦٥؛ مصنف ابن أبي شيبه، ج ٨، ص ٧٤١؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٦٦؛ تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٣٦٠؛ أسد الغابه، ج ٢، ص ١٣٩ وكنز العمال، ج ١١، ص ٣٠٧ فما فوق.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٦٧ و ٢٦٨؛ البدايه والنهايه، ج ٧، ص ٣٣٧.

٣- (٣) راجع، تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٥٤ و ٥٥.

٤- (٤) مصنف ابن أبي شيبه، ج ١٠، ص ٧٤٠.

٥- (٥) المصدر السابق، ص ٧٣٧.

وكان على عليه السلام يقول:

«ما كَذِبْتُ وَلَا كُنْتُ كَذِبًا».

فطلب ذا الثدييه طلباً شديداً وقلب القتلى ظهراً لبطن فلم يعثر عليه، ثم قال:

اطلبوا الرجل وأنه لفى القوم، فلم يزل يتطلبه حتى وجدته وهو رجل مخدج اليد كأنها ثدى فى صدره، فكبر على عليه السلام وسجد شاكرًا (١).

ص: ٣٧٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢٧٥-٢٧٧.

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصَّغَرِ بِكَلَالِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعِهِ وَمُضَرَ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ. وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَمُدَّ يَضُّهُنِي إِلَى صِدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمْسِنِي جَسَدَهُ، وَيُشْمِنِي عَرْفَهُ. وَكَانَ يَمْضَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ.

وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسِيلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَزْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءِ فَارَاهُ، وَلَمَّا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُ وَاحِدٌ يَوْمًا فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّهُ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ.

إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ لَوْزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ».

الشرح والتفسير: التريبه في كنف النبي صلى الله عليه وآله

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى أمرين مهمين بغيه تقويه معنويات

أصحابه في مقابل الأعداء والأوباش ومثیری الفتن القبليين؛ فتطرق إلى موقفه في الغزوات الإسلامیة أمام صناديد العرب والضربات الموجهة التي كان يسدها لهم، ليرعب ذلك الخصم العنيد، ومن ثم عرج على قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تنحصر به دون غيره، ليندفع المؤمنون بكل قوه وإخلاص لطاعه وأوامره، وعليه فلا ينبغي التصور بأن الإمام عليه السلام خاض في الإشاده بنفسه في هذا الجانب من الخطبه؛ الأمر الذي يتناقض والجوانب السابقه من الخطبه، بل الإمام يتابع هدفاً أسمى من هذه التصورات. فقال بادئ الأمر:

«أَنَا وَضَعْتُ فِي الصَّغَرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ (١) قُرُونٍ رَيْبَعَهُ وَمُضْرًا».

والتعبير بالصغر في العبارة السابقه والذي يقابل الكبر إشارة إلى شبابه عليه السلام؛ لا الطفوله، فالعبارة سائده لدى الجميع إذا إن الأفراد الذين تقدم بهم العمر حين يريدون الإشارة إلى عصر الفتوه يقولون: (لقد فعلت كذا وكذا في الصغر).

على كل حال تتداعى في عبارة الإمام عليه السلام هذه الخواطر الرائعة للانتصارات التي تحققت في المعارك الإسلامیة؛ سيما الضربات التي سددها في ميدان «بدر» إلى «عتبه» و «الوليد» و «حنظله» وحين دفاعه المستميت في ميدان «أحد» عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمام حشود الأعداء والضربه المهلكة التي سددها يوم الأحزاب إلى أشجع شجعان العرب «عمرو بن عبدود» وذاع صيته في أرجاء الجزيرة العربيه كآفه، ثم بطولاته في فتح «مكة» وغزوه «حنين» وسائر الغزوات الإسلامیة والتي تكشف برمتها عن مدى إقتدار الإمام عليه السلام وشجاعته وصموده في الحروب دفاعاً عن الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وتكشف عن الجانب المعنوي والروحي، وبالطبع فإن استعراض هذه الأمور يبيث حاله الرعب والذعر في صفوف الأعداء ويدفع المؤمنين لخوض الجهاد.

ص: ٣٧٨

١- (١) «نواجم» جمع «ناجمه» من «نجم» على وزن «حجم» بمعنى الطلوع والظهور ويقال نواجم القرون وهي من قبيل الحاق الصفه بالموصوف.

وذكر بعض شراح نهج البلاغه كلاماً رائعاً بهذا الخصوص فينبوا أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمضى ثلاثه عهود بعد البعته؛ الأوّل: العهد الذي استغرق ثلاث عشره سنه في مكه والذي اكتفى فيه بإعداد صحبه لمقاومه الأعداء دون اللجوء إلى السيف. والثاني: الذي يبدأ منذ الهجره حتى معركه الأحزاب والذي كان موقف المسلمين فيها يقتصر على الدفاع. والثالث: عهد فتح مكه وغزوه حنين والذي تميز بالهجوم وإن كان الهدف إطفاء نار الفتنة.

وقد كان على عليه السلام إلى جانب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يضحى بنفسه طيله هذه العهود، حيث بات على فراش النبي ليفديه بنفسه في الفتره الأولى، ولا تنسى مواقفه في الفتره الثانيه يوم بدر وأحد والأحزاب، كما تقدم الصفوف في فتح مكه وحنين في الفتره الثالثه (١).

وقال بعض الكتاب إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يدافع عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى قبل البعته وأشار إلى قصه حدثت حين كان عليه السلام في الثامنه من عمره فقد كان يقول:

إنّ النبي لا يتحدّث في بيته عن العبيد ويخاطب الغلمان بالشباب ولا يغضب عليهم ولم يقل لأحدهم أف (٢).

والتعبير

«بِكَلَّامٍ» (جمع كل كل بمعنى عظام الصدر) إشاره إلى الأبطال والزعماء في المجتمع آنذاك، و«قرون» جمع «قرن» كناية عن المقتدرين من الأفراد وأنّ قرن الحيوان من أعضائه القويه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الأمر الثاني من هذا القسم؛ وهو علاقته الحميمه بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتي ابتدأت منذ الطفوله حتى آخر عمره حيث تربى عليه السلام في كنفه صلى الله عليه وآله فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ».

ص: ٣٧٩

١- (١) في ظلال نهج البلاغه (شرح محمّد جواد مغنيه لنهج البلاغه)، ج ٣، ص ١٥١-١٥٥.

٢- (٢) المصدر السابق، نقلت هذه العبارة عن عبدالرحمن الشرقاوى.

ثم قال لمزيد من الايضاح:

«وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْتُمُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمْسِنِي جَسَدَهُ، وَيُسْمِنِي عَرَفَهُ (١). وَكَانَ يَمْضَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ».

فالعباره تفيد أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يفرق قط بينه وبين ولده، وقد احتضن الإمام عليه السلام منذ كان صغيراً وأفاض عليه من أخلاقه الساميه وغمره بالحب والحنان، وأضاف عليه السلام:

«وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَهُ فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَهُ (٢) فِي فِعْلٍ».

إشاره إلى أنّه تربى في حضن النّبي صلى الله عليه وآله بحيث كان بمنتهى الصدق والإخلاص في القول والفعل والسير على الحقّ دون أدنى انحراف.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان هذه النقطه وهى: إنّى إن اتبعت النّبي صلى الله عليه وآله قبل البعثه واعتزرتك بلك الفتره وافتخر بلك الفرصه، فذلك لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله كان يتمتع منذ نعومه أظفاره بهدى الله والطافه فقال:

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صِيَامِي اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا (٣) أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسِيلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ (٤) أَثَرُ أُمَّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ».

أى أنّ رعايه النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم تكن مقتصره على الجوانب الظاهريه فحسب، بل كان يعلمنى كلّ يوم درساً فى الأخلاق والكمال والفضيله وكنت أعى ذلك.

وتشير العباره

«علماً» إلى العلامات التى كانت توضع سابقاً على الطرق فى الصحارى حتى يهتدى بها المسافرون فى مسيرتهم فلا يضلون الطريق فيتجهون بكلّ ثقه إلى مقصدهم، وقد كانت لعلى عليه السلام هذه الهدايه إلى الحقّ.

ص: ٣٨٠

١- (١). «عرف» بمعنى الرائححه الزكيه.

٢- (٢) «خطله» من ماده «خطل» على وزن «خطر» بمعنى الخطأ الذى ينشأ عن عدم الرؤيه.

٣- (٣). «فطيم» من «فطام» معروفه.

٤- (٤). «فصيل» ولد الناقه الفطيم.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أحد الفصول المهمه في حياه النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثه؛ أى عبادته فى غار حراء فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءِ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا نَالْتُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ».

فالعباره تشير إلى أنّ عبادته صلى الله عليه وآله فى غار حراء كانت تتكرر لسنوات حيث قال الإمام عليه السلام:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءِ» كما تشير إلى أنّ علياً فقط كان يراه.

أضف إلى ذلك فقد مضت على الدعوه الإسلاميه سنوات ولم يؤمن بها إلاثلاثه:

النبي وخديجه وعلى (صلوات الله وسلامه عليهم).

وأما بشأن رؤيه نور الوحي واستشمام ريح النبوه فقد حملها بعض شرّاح نهج البلاغه على الجوانب المعنويّه بينما ذهب البعض الآخر إلى عدم المانع على حملها على الجوانب الظاهريّه والماديّه، أى أنّه حين نزول الوحي كان هنالك نور يسطع منه لا يراه سوى النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام كما كان الجو يتعطر برائحته زكيه لا يشمها سواهما ولا مانع من وجود بعض الكائنات الماديّه التى يدرکها الأفراد من ذوى الشعور القوى بينما يتعذر إدراكها على الآخرين، فمثلاً يقال: إنّ بعض الطيور ذات الحاسه القويه بإمكانها إدراك الأشعه فوق البنفسجيه أو الأشعه الحمراء التى يتعذر إدراكها علينا نحن البشر وستحدث فى مبحث التأمّلات عن عبادته النبي صلى الله عليه وآله فى غار حراء وإيمان خديجه عليها السلام وعلى عليه السلام بصفتها أول من آمن بالله وصدق بالنبي.

ثم أشار عليه السلام إلى أمر آخر بشأن علاقته بالنبي فقال:

«وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّهُ (١) الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ:

«هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ آيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ».

ص: ٣٨١

١- (١). «رَنَّهُ» بمعنى العويل والصوت الحزين ويطلق أحياناً على الصراخ الشديد.

وأضاف عليه السلام فقال لى رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ لَوْزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ».

لعل هنالك من يقول: هنالك من لا يزال يعبد الشيطان فكيف التوفيق بين هذا الكلام وما جاء فى هذه الخطبه؟ والجواب واضح فى أن عرى الطاعه المطلقه للشيطان وعلى جميع المستويات التى كانت سائده فى العصر الجاهلى والتى تشمل الوثنيه وعبوديه الأصنام والانحرافات الأخلاقية والمظالم الاجتماعيه الشديده قد انهارت بظهور الإسلام وظهرت الفئات الخيره الكثيره المؤمنه فى كل قرن وإن لم تكن أكثر عدداً وعدّه من اتباع الشيطان فإنّ كيفيتهم الوجوديه ومقاماتهم لأرفع وأسمى.

بعباره أخرى فقد صرح الشيطان منذ اليوم الأول قائلاً: «وَلَا غُورِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ» (١). وقد زال هذا المعنى بانثاق الدعوه الإسلاميه، فطائفه كبيره من المؤمنين من ذوى الإيمان القوى والعمل الصالح قد خرجوا من تبعيه الشيطان بالإضافة إلى المخلصين والمراد بهم خاصه أولياء الله.

على كل حال فإنّ هذه العباره من قبيل العديد من الروايات التى سنشير إليها لاحقاً، والتى تشير إلى مدى عظم منزله على عليه السلام بالنسبه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد كان صنوه فى كل شىء سوى النبوه، وهذه هى الحقيقه التى وردت فى حديث المنزله الذى ورد مفصلاً فى كتب الفريقين، حيث إنّ النبي صلى الله عليه وآله استخلف علياً عليه السلام على المدينه فى غزوه تبوك فلما سأله الإمام أخبره صلى الله عليه وآله بحديث المنزله.

والحديث حسبما رواه ابن عباس ونقلته مصادر العامه المعتبره كحديث صحيح السند أنّ علياً عليه السلام بكى لما استخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينه حين انطلق إلى تبوك فقال له صلى الله عليه وآله:

«أما تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلِهِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدِي نَبِيٌّ». ثم قال:

«إِنَّهُ لَا يَتَّبِعُنِي أَنْ أَدْهَبَ إِلَّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي».

ص: ٣٨٢

رواه الحاكم فى المستدرک وقال حدیث صحیح السند، كما رواه الذهبى فى تلخیص المستدرک وصرح بصحته؛ كما ورد فى سائر المصادر مثل: مسند أحمد، ذخائر العقبى، مناقب الخوارزمى، الإصابه لابن حجر عسقلانى وسائر المصادر التى يضيق المقام عن ذكرها (١).

تأملات

١. العلاقة الحميمة بين على عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله

لقد كانت هذه العلاقة منذ كان على عليه السلام فى طفولته حين تعرضت مكة لتلك الأزمة الاقتصادية والقحط الشديد الذى أصابها، وكان لأبى طالب أولاد كثيرون فشق عليه ذلك فطلب النبي صلى الله عليه وآله - وذلك قبل نبوته - من العباس الذهاب معه إلى بيت أبى طالب على أن يكفل أحد أبنائه، ويكفل النبي آخر فأتيا أبى طالب فقال لهما: اتركا لى عقيلاً واحملاً من تريدان، فاخترت النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله علياً عليه السلام والعباس جعفرأ، ومنذ ذلك الحين لازم على عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله حتى بعث فأمن به وصدقه (٢).

وكانت اليد الغيبية وراء تلك الحادثه ليكون على عليه السلام منذ نعومه أظفاره إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله فيتربى على يديه وقد تتلمذ على يد رسول الله صلى الله عليه وآله حتى رأى نور الوحي وشم رائحته وسمع صوت جبرئيل، بل سمع حتى رنه الشيطان حين المبعث وبالتالى كانت له علاقة تامه بعالم الغيب حتى خاطبه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنْتَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ» (٣).

ص: ٢٨٣

١- (١) أشار المرحوم السيد شرف الدين فى كتابه «المراجعات» إلى هذه الحديث وكذلك ومحققو كتاب المراجعات فى هوامشهم إلى مصادر عديده لهذا الحديث. (المراجعات، ص ٢٦١، مراجعه ٢٦). وذكر فى كتاب إحقاق الحق أكثر من مئه صفحه حول هذا الحديث ومصادره من كتب السنه (إحقاق الحق، ج ٥، ص ١٣٢-٢٣٨).

٢- (٢) انظر: تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٥٧ و ٥٨.

٣- (٣) أشار إلى أن على بن أبى طالب عليه السلام كان أول الناس إسلاماً بصورة مفصله فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

يقع غار حراء على سفح جبل يعرف اليوم بجبل النور، وكان هذا الجبل خارج مكة أمّا اليوم وبسبب اتساع مكة فإنّ جبل النور وغار حراء أصبحا داخلها، ويستغرق صعود هذا الجبل ما يقارب الساعة.

والغار المذكور غار صغير يستوعب شخصين في حال الوقوف للعبادة واثنان أو ثلاثة عند الجلوس، ولكن إلى جانبه موضع واسع يستوعب الكثير، والجدير بالذكر أنّ جانبي الغار مفتوحان ليدخله هواء لطيف، بحيث لا يشعر الإنسان بالحرارة الشديد في فصل الصيف، وبغض النظر عمّا سبق فهو موضع للاختلاء والمليء بالمعنويات.

وكان صلى الله عليه وآله قبل البعثة وأحياناً حتى بعد البعثة يذهب إلى غار حراء بعيداً عن ضوضاء الجاهلية وعبادة الأصنام والخرافات السائدة في ذلك العصر، فيناجي الله ساعات وأياماً في ذلك الغار، ويفكر في خلق السماوات والأرض؛ والغريب أنّ من يدخل الغار ويتجه إلى الشمال فإنّه يستقبل الكعبة وبيت المقدس.

ويستفاد من بعض الروايات أنّه صلى الله عليه وآله كان يذهب إلى غار حراء حتى بعد النبوة ليتعد عن أذى المشركين ويخوض في عبادة الله ومناجاته وكان معه أحياناً على عليه السلام وخديجه عليها السلام، ونعلم أنّ الوحي كان أوّل نزوله عليه هناك.

قال ابن أبي الحديد في شرحه: وأمّا حديث مجاورته صلى الله عليه وآله بحراء فمشهور وقد ورد في كتب الصحاح أنّه كان يجاور في حراء من كلّ سنة شهراً، وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره من حراء كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة فيطوف سبعمائة ثم يرجع إلى بيته، حتى جاءت السنة التي أكرمها الله فيها بالرسالة، فجاور في حراء ومعه أهله وخديجه وعلى ابن أبي طالب وخادم له. فجاءه جبرئيل بالرسالة.

(إنّ هذا الحديث يبدو إشارة إلى النزول الدفعي للقرآن على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في شهر رمضان؛ ولا ينافي النزول التدريجي في ٢٧ من رجب) (١).

كثيراً ما يتساءل الناس عن الدين الذي كان يعتنقه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قبل البعثة؛ ولم ينزل آنذاك الدين الإسلامي الحنيف؟

يقال أحياناً إنه كان على دين شيخ الأنبياء، إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذا الكلام صائب من جانب حيث كان صلى الله عليه وآله و آله موحداً عابداً لله، والتوحيد من أبرز خصائص دين إبراهيم عليه السلام، ورغم أن جميع الأنبياء كانوا موحدين، إلا أن ذلك ليس دليلاً على أن النبي صلى الله عليه وآله كان متعبداً بشريعته إبراهيم في فروع الدين كافة.

ويفهم من كتاب المرحوم ابن زهره (غنيه) أن هذا السؤال كان مطروحاً منذ ذلك الوقت، وقد أفرد فصلاً في كتابه لهذا الموضوع؛ وهو: هل كان النبي صلى الله عليه وآله متعبداً بشريعته سالف الأنبياء، ورغم أنه ذكر كلاماً مختصراً بهذا الخصوص، لكنه اكتفى بأن النبي صلى الله عليه وآله ربما عمل بدينه دون أن يذكر أي دليل على ذلك.

وورد في حاشية الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب أن هذا السؤال كان مطروحاً منذ عهد السيد المرتضى والشيخ الطوسي، حيث صرح البعض بصوره كاليه: أنه صلى الله عليه وآله كان يتبع ما سبقه من أديان، ونفى البعض الآخر ذلك، وأمسك آخرون عن الكلام، وروى عن الشيخ الطوسي أنه قال: إنه صلى الله عليه وآله كان على شرعه خاصة قبل النبوة نزلت عليه عن طريق الوحي دون أن يتبع الأنبياء السابقين.

ويعتقد العلامة المجلسي أنه كان للنبي هذا المقام قبل البعثة، فكانت تحدّثه الملائكة فيسمع كلامهم وكان أحياناً أخرى يلهم في الرؤيا الصادقة، وبلغ مقام النبوة في الأربعين من عمره حيث نزل عليه القرآن والشريعة الإسلامية؛ ثم استدل على ذلك بستة أدله (١).

وما أجدر علمائنا الأعلام أن يلتفتوا إلى الخطبة القاصعة وكلام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن ما كان عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله من خلال أعظم ملائكته حيث قال:

ص: ٣٨٥

«وَلَقَدْ قَرَأَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَغْظَمَ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ».

فهذا الكلام يشير صراحة إلى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن متبعاً لما سبقه من أديان، بل كانت له منهجيته الخاصّة التي بلغته عن طريق الإلهام من ذلك الملك العظيم وكان صلى الله عليه وآله ملتزماً بها.

فكيف يعلمه هذا الملك العظيم سبل مكارم الأخلاق، ولا يلهمه الواجبات، وهكذا يتّضح الجواب عن السؤال بشأن تعبد النبي صلى الله عليه وآله قبل البعث بما سبقه من أديان، من عدمه (١).

ص: ٣٨٦

١- (١) للمرحوم العلامة المجلسي بحث بهذا الخصوص في كتاب بحار الأنوار حيث يعتقد أنّه صلى الله عليه وآله كان نبياً قبل البعث لكنه لم يكن رسولاً. (ج ١٧، ص ٢٧٧-٢٨١) وللфخر الرازي بحث بهذا الشأن في كتاب المحصول (ج ١، ص ٤٢٦، طبعه دارالكتب العلميّة).

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِيكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَا، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيُّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَمَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا:

تَدْعُونَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ، «فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَبِأَنَّى سَأَرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَيَّ خَيْرًا، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْ يُحَزَّبُ الْأَحْزَابِ». ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يَا أَيُّهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكَ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ يَا ذَنُ اللَّهِ». فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَيْهَا دَوِيُّ شَدِيدٍ، وَقُصِفَتْ كَقُصْفِ أَجْنَحِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرَفَةً، وَأَلْقَتْ بَعْضَ نِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَبَعْضَ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكَبِي، وَكُنْتُ عَنِ يَمِينِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عَلُوًّا وَاسِيَتِكَبَارًا: فَمَرَّهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَقَالُوا - كُفْرًا وَعُتُوًّا -: فَمَرَّ هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيَّ نِصْفِ فِيهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لَأِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ

أَقْرَبُ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصِيدًا بِنُبُوتِكَ، وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السَّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا! يَغْنُونَنِي.

الشرح والتفسير: معجزه حركة الشجرة

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه الذى يعدّ من أهم جوانبها إلى إحدى معجزات النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في مكة وقد شهدها الإمام عليه السلام ليؤكد علاقته الحميمه به صلى الله عليه وآله وسبقه إلبالإيمان، وهى المعجزه التى قل من رآها من المسلمين آنذاك فقال عليه السلام :

«وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ (١) مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِيكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَبْتَنَا، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيُّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

العبارة:

«الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ» تشير إلى أنّ هذه المعجزه حدثت فى مكة وحين جهر النّبي صلى الله عليه وآله بدعوته وسمعها الكثير من الناس، ولكن لم يكن يتمتع المسلمون بقوّه وقدره، وإلا لما تجرّأ خصوم الدعوه بالتحدّث معه بهذه الطريقه الفظه.

على كلّ حال ظن أولئك أنّهم يختبرون النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد سنحت الفرصه لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّ يثبت لهم حقايتيه دعوته من خلال المعجزه التى طلبوها (لا التى يريدونها هو) ولذلك جاء فى هذه الخطبه:

«فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَمَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا: تَدْعُونَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْفَلِحَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ».

فما كان منه صلى الله عليه وآله

:«فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ».

جدير ذكره أنّه صلى الله عليه وآله قال:

«فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ» ولم يقل:

«فَإِنْ فَعَلْتُ» إشاره إلى أنّ

ص: ٣٨٨

المعجزه بيد الله وإن ظهرت على يد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

والعبارة:

«أَتُؤْمِنُونَ» و «تَشْهَدُونَ» إشارة إلى الإيمان القلبي بالإضافة إلى الشهاده بالحق ظاهرياً.

على كل حال فلم يقروا بالأمرين فما كان منه صلى الله عليه وآله إلّا أن:

«قَالَ: «فَإِنِّي سَأْرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَأَتَفِيئُونَ إِلَيَّ خَيْرًا، وَإِنَّ فِيكُمْ مَن يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ (١)، وَمَن يُحْرَبُ الْأَحْزَابَ».

والعبارة:

«وَإِنَّ فِيكُمْ...» إشارة إلى أبي جهل وعته وشيبه وأميّه بن خلف الذين قتلوا يوم بدر ورمى بأجسادهم في بئر كانت هناك.

والعبارة:

«مَنْ يُحْرَبُ الْأَحْزَابَ» إشارة إلى أبي سفيان. فالواقع أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أكمل طلبهم المعجزه بثلاثه أخبار غيبه يعدّ كل منها معجزه، عدم إيمانهم وطرح بعضهم في البئر ومعركه الأحزاب التي حدثت بعد سنوات عديده لاحقاً.

ثم إنتفت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أصل سؤالهم وإنتفت إلى الشجره

«ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يَأْتِيهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرْوِكَ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ يَا ذَنِّ اللَّهِ».

وخطاب النبي صلى الله عليه وآله لتلك الشجره يفيد أنّ للنباتات والجمادات نوعاً من الإدراك والشعور الذي أفاضه عليها الله، كما تفيد العبارة القادمه أنّها مؤمنه أيضاً بالله واليوم الآخر ولكن ما حقيقه هذا الإيمان وكيفيه ذلك الشعور والإدراك، وهل لها بعد اختياري أم إجباري، فذلك من الأمور التي ليست واضحه لدينا على وجه الدقه.

ولدينا العديد من الآيات القرآنيه التي تشير إلى ذلك الإيمان والشعور والإدراك لدى جميع الأشياء بما فيها الجمادات وتفيد أنّها تسبح الله وتقدهسه، وقد أسهب المفسرون بهذا الشأن (٢).

ص: ٣٨٩

١- (١). «قلب» من ماده «قلب» تعنى التغيير كما وردت بمعنى البئر.

٢- (٢) للاطلاع أكثر راجع التفسير الأمثل، ج ١٢، ذيل الآيه ٤٤ سوره الاسراء «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا».

فاستطرد أمير المؤمنين على عليه السلام وقال:

«فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَأَنْقَلَعَتْ بِعُزُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ (١) شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ (٢) كَقَصْفِ أَجْنَحِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرَفَةً (٣)، وَأَلْقَتْ بَعْضَ نَبْهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَبِعَظِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

فالذى يستفاد من هذه العبارة أن تلك الشجرة كانت ضخمة بحيث صاحبت حركتها أصوات عالية كانت مدويه، فألقت ببعض أغصانها على النبي صلى الله عليه وآله وبالبعض الآخر على علي عليه السلام، فكانت تلك معجزه كبيره للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بإذن الله فى إقتلاع تلك الشجرة ووقوفها بين يديه صلى الله عليه وآله.

ولكن هل أدت تلك المعجزه الباهره إلى إيمان المشركين المتعصبين؟ كلا! بل كعاده المتعصبين المعاندين أخذوا يفتشون عن الذرائع وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام

«فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عَلُوًّا وَاسِدْتِكُبَارًا: فَمُرَهَا فَلْيَأْتِكَ نَضِي فُهَا وَيَبْقَى نَضِي فُهَا، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نَضِي فُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدَّهُ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

والذى يستفاد من العبارة أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهله معجزتين أخريين؛ الأولى أنه أمر الشجرة بالرجوع إلى مكانها، والثانية أنه أمرها بأن يأتيه نصفها بإذن الله.

وهل اقتنع القوم المشركون المتعصبون بذلك؟ للأسف كلا! كما ورد فى كلام الإمام عليه السلام:

«فَقَالُوا كُفْرًا وَعُتُورًا: فَمُرْ هَذَا النُّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نَضِيهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ

ص: ٣٩٠

١- (١). «دويٌّ» بمعنى الصوت القوى والصدى.

٢- (٢) «قصف» تعنى فى الأصل الكسر، ويقال «قاصف» للرياح العاتيه وكذلك تعنى الصوت الشديد بسبب الأصوات التى تسمع فى العواصف و....

٣- (٣). «مررفه» من ماده «ررف» تعنى فى الأصل أوراق الأشجار العريضه وكذلك يقال «ررف» للأقمشه الجميله والملونه و «مررفه» هو الطائر الذى يحرك أجنحته، وكان مراد الإمام فى العبارة أن الشجرة عندما اقتربت للرسول صلى الله عليه وآله كانت أغصانها تتحرك كأنها أجنحه الطائر.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لَأِلَهِ إِلَّا اللَّهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجْرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقًا بِنُبُوتِكَ، وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ».

وهل آمن أولئك بعد مشاهدتهم لهذه المعجزات الأربع العجيبه والخارقه للعاده والتي حصلت جميعاً استجابة لاقتراحهم وليس لاقتراح رسول الله صلى الله عليه وآله؟، كلا! ولتتهم اقتصروا على عدم الإيمان بل رموه صلى الله عليه وآله بكلمات كافره وطائشه وبعيده عن المنطق كما أشار إلى ذلك الإمام:

«فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ (١) فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا! يَغْنُونَنِي».

إشاره إلى أننا شهدنا العديد من السحره طيله أعمارنا ونعلم أنّ فعلك كفعالهم، بل أمهر منهم ولا يصدقك في ذلك سوى أمثال هذا الصبي السريع التصديق!

والعجيب أنّ صدر كلامهم يناقض تماماً عجزه! فقد اقترحوا المعجزه وصرحوا باقتناعهم وإيمانهم بمجرد حصولها، ولكن حين تكررت المعجزه أربع مرات رموه بالسحر وهنا يرد هذا السؤال: إنّ هؤلاء لولم يكونوا يعرفون السحر من المعجزه ويحتملون السحر على النبي، فما بالهم اقترحوا عليه المعجزه منذ البدايه؟ فقد كان لهم أن يرموه منذ البدايه بالسحر.

نعم، فالأفراد المتعصبون إنّما يفتقرون على الدوام إلى المنطق والوجدان والانصاف.

تأملان:

١. معجزه الشجره فى الروايات الإسلاميه

كان للنبي صلى الله عليه وآله عده معجزات، والمعجزه المذكوره كانت أبرزها ولم تختصر الإشارة إليها فى هذه الخطبه فحسب، بل وردت هذه المعجزه فى أغلب التواريخ

ص: ٣٩١

١- (١) «خفيف» يعنى فى الأصل القليل (كميه أو وزناً أو...) وكذلك يقال خفيف لمن يجرى حركات سريعه بمهاره.

ويكفي هنا الإلتفات إلى ما ذكره ابن أبي الحديد فى شرحه لهذه الخطبه فقد قال: وأما أمر الشجره التى دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله فالحديث الوارد فيها كثير مستفيض قد ذكره المحدثون فى كتبهم والمتكلمون فى معجزات النبى، وقد وردت فى أغلب الروايات كما جاء فى الخطبه القاصعه (التى نحن بصددنا) وإن اختصرها البعض وقال:

«إِنَّهُ دَعَا شَجْرَهُ فَأَقْبَلَتْ تَخِذُ إِلَيْهِ الْأَرْضَ حَدًّا».

ثم أضاف: وقد ذكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوه حديث الشجره ورواه أيضاً محمد بن اسحاق بن يسار فى كتاب السير والمغازى (١).

وقال المرحوم العلامة التستري فى شرح نهج البلاغه: رواها ابن أثير فى كتاب الكامل وفى أسد الغابه والبلاذرى فى أنساب الأشراف والكرجى فى كنز الفوائد (٢).

طبعاً يعلم من له معرفه بمعجزات الأنبياء بصوره عامه ومعجزات رسول الله خاصة أنّ مثل هذه المعجزات ليست عجيبه فى إثبات حقايقه دعوه النبى، كما أنّ اصرار الأفراد الجهّال والمتعصبين على إنكار الدعوه ليست بالشىء الجديد.

٢. الفارق بين السحر والمعجزه

كما ورد سابقاً فمما لا شك فيه فقد كانت لأنبياء الله والأئمه المعصومين عليهم السلام أفعال خارقه للعادة تتعذر على الإنسان العادى، أى الأمور التى تجرى خلافاً للقوانين الطبيعيه السائده ولا تتم إلّا من خلال الاستمداد من قوه تفوق القوه الطبيعيه من قبيل إحياء الموتى وشفاء المرضى الذى لا علاج لهم والإخبار عن الغيب الذى ورد فى القرآن الكريم بشأن المسيح عليه السلام ومعجزه العصا واليد البيضاء لموسى عليه السلام وناقه صالح عليه السلام واطفاء نار نمرود على إبراهيم لتصبح عليه برداً وسلاماً

ص: ٣٩٢

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢١٤.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٢، ص ٤٦٩.

ومعجزه شق القمر والأهم من كل ذلك معجزه القرآن الكريم التي خُصَّ بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن الواضح أنّ المعجزات لا- تعنى تحقق معلول دون علّه لينكر ذلك بعض الأفراد، بل بمعنى الاستبداد من العلل غير الطبيعيه المجهوله، والزعم بأننا عارفون بجميع العلل الطبيعيه والتي تفوق الطبيعه هو زعم لا يقوّه أحد.

ومن جانب آخر فإنّ السحر حقيقه وإن امتزجت بالعديد من الخرافات، والسحره عاده ما يستفيدون من العلل الطبيعيه، لكنها علل وأسباب لم يلمّ بها الناس العاديون فمثلاً قيل بشأن سحر السحره على عهد موسى عليه السلام أنهم صنعوا شيئاً شبيه الحيه وسكبوا داخله «الزئبق» الذي جعل ذلك الشيء الذي يشبه الحيه يتحرك حين واجه أشعه الشمس بفعل «تطاييره»، وعليه ففعلهم لم يكن خارقاً للعادة؛ لكنهم استغلوا بعض الأسباب التي لم تكن معروفه لدى عوام الناس.

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يتسنى للناس التمييز بين السحر والمعجزه ليتعرفوا على الأنبياء ويكتشفوا كذب السحره؟

ويبدو الفرق بينهما واضح؛ ومن ذلك؛ أولاً: إنّ سحر السحره محدود لأنه يستند العلوم البشريه المحدوده، ولذلك يقوم السحره بما يريدون من خرق العاده لا تلك التي يقترحها عليهم الآخرون، ذلك لأن عملهم ينطلق من تجاربهم وتمارينهم ورياضاتهم السابقه.

أمّا بشأن الإعجاز فإنّ الأنبياء يتجهون صوب الأمور التي يقترحها عليهم الناس كالمعجزه آنفه الذكر ومعجزه شق القمر وسائر المعجزات التي طلبها قوم موسى من نبيهم عليه السلام رغم ما كان عليه الأنبياء من معجزات منذ انطلاقتهم مثل معجزه القرآن والعصا واليد البيضاء.

ثانياً: تقتزن معجزات الأنبياء بادعاء النبوه والحال ليس للسحره مثل هذا الادعاء في خرقهم للعادة، فالحكمه الإلهيه لم تسمح بحصول ما يخرق العاده بيد

الكذابين والمفتريين ليدعى النبوه فيقود الناس إلى الضلال والغوايه، بل تقتضى الحكمة الإلهيه فصح هؤلاء السحره، ومن هنا فقد افتضح كل ساحر هم بهذا الادعاء.

ثالثاً: لما كان السحر أمر منحرف، فلا يتجه إليه إلا الأفراد المنحرفون، أى الأفراد الذين تشهد أقوالهم وأولادهم على انحرافهم. وعلى هذا الأساس إن بدرت من شخص قضيه خارقه للعادة فلا بد من تأمل سيرته، فإن كانت سيرته حسنه صالحه كان ذلك علامه على كون تلك القضيه الخارقه للعادة معجزه، وإن كانت سيرته طالحه وأعماله مشينه كان ما بدر منه سحراً، ذلك لأن السحره من المصاديق البارزه للكذابين من الأفراد والغشاشين.

ص: ٣٩٤

إشاره

وَإِنِّي لَمِنَ قَوْمٍ لَاتَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، سَيِّمَاهُمْ سَيِّمَاتِ الصَّادِقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ، عَمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ. مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ اللَّهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ؛ لَا يَشْتَكِرُونَ وَلَا يَغْلُونَ، وَلَا يَغْلُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ.

الشرح والتفسير: أولياء الله

خاض الإمام عليه السلام في ختام الخطبه في التعريف بنفسه ليكمل ما ذكره في السابق من التعريف بمنزلته وموقعه ليمنح ما ورد في هذه الخطبه قوه وعمقاً واتقاناً أكثر، من جهه، لأن الإيمان بالمتكلم والوقوف على مدى علمه وتقواه يدفع بالمخاطب لأن يحمل خطابه محمل الجد، ومن جهه أخرى وليتعرف عليه أولئك الشباب وسط أصحابه الذين لم يعلموا بمواقفه، إلى جانب ضروره أن يعرف الجميع أن هذه الكلمات لم يكن هدفها الدنيا ولا ترسيخ دعائم الحكومه بل الهدف منها هدايه الأمه إلى الصراط المستقيم، فقد أشار عليه السلام إلى تسع عشره صفه من صفاته والتي تعد كل واحده منها فضيله ومنقبه عظيمه فقال:

«وَإِنِّي لَمِنَ قَوْمٍ لَاتَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ».

فالقيام بالوظيفه أحياناً يكون مخالفاً للأفكار ورغبات طوائف معينه في المجتمع وهنا يتخلى بعض الأفراد الانتهازيين وأصحاب الدعه والراحه أو الجبناء عن أداء وظائفهم خشيه التعرف لملامه الآخرين وتقريرهم، وولى الله من يواصل

طريقه إن رآه صحيحاً ولو انتهج عامه الناس طريق الخطأ دون أن يشعر بأدنى خشيه أو خوف ويقدم رضا الله على رضا الخلق، وقد كان الإمام على عليه السلام رائد هذا الطريق بعد النبي صلى الله عليه وآله وهي الصفه التي امتاز بها جميع أئمه أهل البيت عليهم السلام وأبرز مصداق على ذلك الإمام الحسين عليه السلام وشهادته في كربلاء.

وقد أثنى الله في كتابه الكريم على المجاهدين الذين يتسمون بهذه الصفه فقال:

«يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» (١).

وقال في الصفه الثاني والثالثه: «سِيمَاهُمْ سِيمَا الصَّادِقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ».

و «الصادقين»: هم الصادقون والمصدقون بأنبياء الله الذين كانوا يصدقونهم في أقوالهم وأفعالهم وقد جعلهم الله تعالى في الآية ٦٩ من سوره النساء في مصاف أنبيائه فقال: «فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ...».

و «الأبرار»: من ذكر لهم القرآن ثمانى عشره صفه في سوره الدهر، وهى الصفات التى ترفع صاحبها إلى أسمى مقام فى القرب من الله، ونعلم أن هذه الصفات نعت بها (على وفاطمه الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام).

ثم قال فى الصفتين الرابعه والخامسه:

«عَمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ».

والعباره:

«عَمَّار» جمع (عامر) إشاره إلى التهجد وإحياء الليل وعبادات اليوم والنهار التى تعمروا روح الإنسان وقلبه وتضفى عليه معانى الصفاء والجمال وتحىى القلوب الميتة وتغسل الذنوب بماء حياه التوبه، والعباره «منار» إشاره إلى الأبراج العالیه التى كانت توضع سابقاً فى مسير الطرق الصحراويه وتنصب عليها المصابيح حتى لا يضل المسافر الطريق (تشبه العلامات المروريه التى تنصب اليوم فى الشوارع). فهؤلاء الأفراد كتلك المصابيح فى هدايه الناس إلى الله والسعاده والخير والنجاه من الضلال والغوايه.

ثم قال فى الصفتين السادسه والسابعه:

«مُتَمَسِّكُونَ بِجَبَلِ الْقُرْآنِ؛ يُحْيُونَ سُنَنَ

ص: ٣٩٦

اللَّهِ وَسُنَّنَ رَسُولِهِ».

المراد من التمسك بحبل القرآن التوسل به ليخرج الإنسان من مستنقع الطبيعه وهوى النفس ويعرج إلى ساحه القرب الإلهي، أو خروج ماء الحياه من باطن أرض الوجود الإنساني بواسطته أو التمسك بحبل القرآن فى المعابر الخطيره بغيه عدم السقوط فى أوديه الضلال.

قال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى أهميه القرآن الكريم الوارد فى حديث الثقلين:

«كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» (١).

وإحياء سنه الله وسنه النبى العمل بالفرائض الوارده فى القرآن والواجبات التى فرضها النبى صلى الله عليه وآله، لا العمل لوحده فحسب بل لابد من دعوه الآخرين إلى ذلك.

ثم قال فى الصفات الثامنه والتاسعه والعاشره والحاديه عشره:

«لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَغْلُونَ، وَلَا يَغْلُونَ (٢) وَلَا يُفْسِدُونَ».

وهذه الصفات فى الواقع مرتبطه مع بعضها، فالتكبر والشعور بالعلو وحمل الغلّ والإفساد من صفات الطغاه المستكبرين بغيه تحقيق أهدافهم اللامشروعه، قال القرآن الكريم: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا» (٣)، وقال أيضاً: «تِلْكَ الدَّارُ الْأُخْرَى نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا» (٤).

وبالنظر إلى أن كلمتى الفساد والخيانه وردت هنا بصورة مطلقه فإنهما تشملان فى العقائد والأخلاق والأموال وجميع شؤون الحياه.

وأخيراً قال فى الصفه الثانيه عشره التى تمتاز بشموليتها:

«قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ».

ص: ٣٩٧

١- (١) مجمع البيان، ذيل الآيه ١٠٣ من سوره آل عمران: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا».

٢- (٢) «يَغْلُونَ» من «غلل» على وزن «أجل» أو «غلول» على وزن «غروب» بمعنى الخيانه، وتعنى فى العبارة أنهم لا يخونون.

٣- (٣) . سوره النمل، الآيه ٣٤.

٤- (٤) سوره القصص، الآيه ٨٣.

إشاره إلى أنّ هدفهم نبيل للغاية فهم لا يفكرون سوى برضا الله وجنانه الخالده، ومن هنا فأبدانهم تعيش على الدوام طاعه الحقّ والعمل بالواجبات الإلهية والواجبات الإنسانيّة، جدير بالذكر أنّ الخطبه ابتدأت بنفى الكبر والاستكبار واختتمت به وهذه إحدى شؤون الفصاحه والبلاغه في إرتباط النهايه بالبدايه.

حقاً إنّ الذين يتصفون بهذه الصفات الإثنتى عشره هم المؤمنون المخلصون الذين ينتظرهم الجنّه بشوق، وهم القدوه الحسنه لعباد الله في الحياه الدنيا.

اللهم اجعلنا من السائرين على دربهم، ووقفنا لاتباع تعاليمهم ولا تفرق بيننا وبينهم في الدنيا والآخره طرفه عين أبداً!

ص: ٣٩٨

يَصِفُ فِيهَا الْمُتَّقِينَ (١) رُوي أَنَّ صَاحِبًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَالُ لَهُ هَمَّامٌ كَانَ رَجُلًا عَابِدًا، فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صِفْ لِي الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ. فَتَنَاقَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ جَوَابِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ! اتَّقِ اللَّهَ وَأَحْسِنْ: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ». فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَّامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

نظرة إلى الخطبة

تتابع الخطبة مطلباً معيناً وهو صفات المتقين حيث ذكر الإمام عليه السلام مائة وعشر

ص: ٣٩٩

١- (١) سند الخطبة: هذه الخطبة من الخطب المعروفة والمعتبره وردت بأسانيد مختلفه عن غير نهج البلاغه، عاش طائفه من رواتها قبل السيد الرضى وطائفه بعده. قال صاحب مصادر نهج البلاغه: فمن رواها قبل الشريف الرضى المرحوم الشيخ الصدوق فى «الأمالى»، وابن شعبه المعاصر للشيخ الصدوق فى «تحف العقول»، وسليم بن قيس فى كتابه، ونقل ابن قتيبه (المتوفى فى القرن الثالث) قسماً من هذه الخطبة فى كتابه «الزهد» وكتابه «عيون الأخبار» وغيرهم. هذا قبل السيد الرضى، فقد رواها جماعه من العلماء بأسانيد وصور يعرف منها على أنهم لم يأخذوها عن نهج البلاغه، منهم سبط ابن الجوزى «فى تذكرة الخواص»، وابن طلحه الشافعى فى «مطالب السؤل»، والكراچكى فى «كنز الفوائد» مع اختلاف يسير فى نقلهم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٦٥).

صفات للمتقين، لكننا إن تأملنا تفاصيل الخطبه لرأينا أنّ هذه الصفات تعالج أبعاداً مختلفه من حياه المتقين.

فبعضها يتحدّث عن سجايهم الأخلاقيه الفرديه، بينما يبحث البعض الآخر في أخلاقهم الاجتماعيه.

ويكشف جانب آخر من الخطبه علو شأنهم في القضايا العقائديه والمعارف الدينيه بينما يشير جانب آخر منها إلى منزله تقواهم وورعهم من حيث الأقوال والأفعال.

كما تطرق جانب آخر من الخطبه إلى سيماهم وعلاماتهم التي ترشدنا إلى التعرف على المتقين الورعين في جماعه معينه من خلال هذه الصفات.

واختتمت الخطبه بحادثه عجيبه لهمام - السائل الذي أصر على بيان صفات المتقين - حيث صعق صعقه فارق على أثرها الحياه الدنيا؛ فقال الإمام عليه السلام: هكذا تفعل المواعظ البالغه بأهلها، فقام إليه رجل فقال: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه الإمام بجواب مقنع.

ويستفاد من بعض الطرق الروائيه أنّ الإمام خطب بهذه الخطبه بعنوان صفات الشيعة(1).

إجابه عن سؤال

طبق لما ورد في صدر الخطبه فإنّه يرد هذا السؤال: لم تحفظ الإمام عليه السلام عن بيان صفات المتقين بادئ الأمر ثم شرحها أثر إصرار السائل؟

وردت عدّه وجوه في سبب تأمل الإمام عليه السلام بشأن الجواب منها:

1. إنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ ذلك الرجل من أهل الموعظه والنصح ويخشى عليه من شعوره المرهف وحساسيته المتزايد، ومن هنا اكتفى الإمام عليه السلام بجواب

ص: ٤٠٠

إجمالي يدل عليه ذيل الخطبه.

٢. شهد المجلس آنذاك بعض الأفراد الغرباء الذين لم ير الإمام عليه السلام من مصلحه في سماعهم لتلك الكنوز والجواهر الثمينه، ولعل ذيل الخطبه شاهد على ذلك، فسؤال السائل وجواب الإمام عليه السلام يدلّ على وجود غير المؤهلين في ذلك الوسط.

٣. آثار الإمام عليه السلام اهتمام همام بصوره أعمق لسماع الجواب بذلك التأمل والسكوت لتأخذ تلك الموعظه مأخذها المطلوب منه.

٤. إنّ أدب السؤال والجواب يقتضى ألا يتعجل المجيب بجوابه، بل يتأمل في بدايه الحديث ليعرف السائل بأهميه المطلب، الأمر هل الذى ذكر بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يترث في الجواب حتى يسئل عن ذلك التريث هو تفكير في الجواب؟ فيرد صلى الله عليه وآله: لا، بل إكرام للعلم والعمل (١).

ص: ٤٠١

١- (١) مستدرک سفینه البحار، باب التدبير، ج ٣، ص ٤٢١.

أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَتِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَكَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ.

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسِيُّهُمْ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشِيئُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ. وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَفِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَبَّغَتْهُمُ مَادُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدَّ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدَّ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةٌ طَوِيلَةٌ. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ.

أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُواهَا، وَأَسْرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

الشرح والتفسير: صفات المتقين

قبل أن نخوض في شرح هذا القسم من الخطبة علينا أن نبين هذه النقطة وهي ما كيفية علاقه بين جواب الإمام عليه السلام المقتضب بدياه الأمر وسؤال همام؟ فقد طلب السائل بيان صفات المتقين، فأمر الإمام عليه السلام بالتقوى والإحسان بدلاً من بيان

الصفات، ثم تطرق إلى فوائد التقوى ويبدو للوهله الأولى أن الأمر بالتقوى ليس جواباً عن سؤال همام ولا ذكر الفوائد.

الظاهر أن الإمام عليه السلام أراد بهذا الكلام أن يفهمه بأن التقوى مفهوم واضح بالإجمال وعليك بالعمل، ثم تطرق عليه السلام لنتائج التقوى لحثه عليها، على كل حال فقد خاض الإمام عليه السلام في بدايه الخطبه في بيان هذه النقطه المهمه حيث بين أن الله تعالى غنى عن الجميع فإن وردت بعض الوصايا الثقيله والعديده بشأن التقوى في هذه الخطبه فهي لا تضيف لله شيئاً من الجلال والجاه، بل ليطوى الإنسان مسيره التكامل فقال عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُيِّحَانُهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنِ طَاعَتِهِمْ، آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاءٍ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعَةٍ».

ودليل ذلك واضح، فأولاً: الله تعالى وجود لامتناهٍ من جميع الجهات وكمال مطلق وليس للنقص من سبيل إلى هذا الوجود ليرقى به إلى كمال عن طريق الطاعه والعبوديه ولو كفر من في الأرض كلهم جميعاً لما نال ذلك من كبرياء الله شيئاً، إذ إن المخلوقات أعجز من أن يلحقوا ضرراً بذاته القدسيه.

وثانياً: كل ما لدى المخلوقات من الله وفيوضاته ولا معنى لإعاده الفيض عليه، كل خلق يتغذى على مائدته، بل حياتهم بلطفه ورحمته ولو أوكلهم الله إلى أنفسهم طرفه عين لهلكوا.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أوضاع الناس الدنيويه كمقدمه في الواقع لبيان الجوانب المعنويّه التي ذكرت لاحقاً، فبين عبارتين الأمور كافه في جوانب حياتهم الماديّه وقال:

«فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ».

إشاره إلى أن الله بيده جميع حوائج الخلق الماديّه وهو يفيض عليهم من لطفه بقدر كل حسب موقعه. وهذا ما ورد في القرآن الكريم في الآيه ٣٢ من سوره الزخرف:

«نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ».

طبعاً تقسيم المعيشه لا يعنى وصول كل شىء للإنسان فى داره دون سعى ومثابره، ولكن الرزق يأتى بالسعى والجهد فقد خلق الله جميع الموارد ودعى الجميع للسعى والعمل، وهكذا المقامات الظاهريه التى افاضها الله على العباد لا تتحصل هى الأخرى دون السعى والجهد والاجتهاد.

جدير ذكره أننا أن شاهدنا موت البعض فى العصر الراهن بسبب الجوع، فذلك ليس معلولاً لشحه المواد وقتها، بل يعزى ذلك إلى ظلم وجور الطبقة الأنائيه النفعيه المستغله، فلو كان هنالك تقسيم عادل فى الأرزاق لما جاع أحد حتى فى ظل أصعب السنين قحطاً.

ولم يوفر الله تعالى الرزق للإنسان فحسب دون الكائنات، بل وفر ذلك بصورة مذهله لجميع الأحياء والحيوانات، فلم يغفل عن نطفه فى جنين ولا- يرقه فى بيضه طائر أو بذره نبات ووفر للجميع ما يحتاجون إليه، وتبدو قصه تقسيم الأرزاق فى مختلف أساليبها وطرقها لمن القصص العجيبه التى ينبغى أن تؤلف فيها الكتب.

ثم خاض عليه السلام فى بيان السجايا البارزه للمتقين فاستهلها بثلاث صفات بارزه وقال:

«فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ، وَمَشِيئُهُمُ التَّوَّاضُعُ».

العبارة:

«مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ» إشارة إلى الخطوه الأولى فى تهذيب الإنسان وتربيته التى تتمثل فى صون لسانه ومنطقه؛ اللسان الذى تصدر بواسطته الكبائر، كما تحقق بواسطته أفضل العبادات، فإن صلح صلح كل ما فى الإنسان وإن فسد فسد كل شىء فيه.

ولمفرده

«صواب»، هنا مفهوم غايه فى السعه يشمل كل كلمه حق وحكمه، نعم فالمتقون ينبرون قبل كل شىء لصون ألسنتهم ومنطقهم، ومن هنا يعتقد أصحاب السير والسلوك أن صون اللسان يعد الخطوه الأولى فى إصلاح الذات، ذلك لأن صلاحه يعنى صلاح سائر الأعضاء، قال تعالى فى كتابه العزيز: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

ص: ٤٠٥

اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» (١).

وإصلاح الأعمال وغفران الذنوب أثر التقوى والقول السديد، قرينه حسنه على إرتباطهما ببعضهما.

والتعبير بالملبس فى العبارة

«وَمَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ» (٢) والتي ذكرت ثانى صفه وفضيله للمتقين إن وردت بمعناها الحقيقى فهى إشاره إلى اللباس الظاهرى الذى ينبغى أن يكون بعيداً عن الاسراف والتبذير وكذلك التقدير والبخل كما روى ذلك بعض الشراح.

أما إن كان اللباس بالمعنى الكنائى الواسع بقرينه بعض الآيات مثل

«وَلِيَّاسُ التَّقْوَى ذَلِكْ خَيْرٌ» (٣) و «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا» (٤) و «هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ» (٥) فلا ينبغى الاقتصار به على معنى الارتداء الظاهرى بل يكون معناه واسع يشمل جميع حياه الإنسان، أى إعتدال الحياه برمتها فيكون بمثابة اللباس على أجسادهم، كما عتبر فى الجملة الثالثه:

«مَشِيَّتُهُمُ التَّوَّاضُعُ» فهى لا تقتصر على المشى الظاهرى، ذلك لأن المشى المتواضع وإن كان حسناً لكنه لا يصلح فى مصاف أولى الصفات البارزه للمتقين، ولكن إن كان إشاره لمعنى المشى الواسع فمعناه أن سلوكياتهم كافه مقرونه بالتواضع.

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع بدايه الخطبه إلى ثلاثه مبادئ أساسيه: الصواب والاعتدال والتواضع التى تسود حياه المتقين فى جميع جوانبها.

وقد وردت عدّه تأكيدات على هذه المبادئ الثلاث فى الأخبار والروايات، فقد ورد فى الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ هَذَا اللِّسَانَ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ وَشَرٍّ

ص: ٤٠٦

١- (١) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ و ٧١.

٢- (٢) . «اقتصاد» من ماده «قصد» بمعنى الاعتدال وتشمل الاعتدال فى كل شىء.

٣- (٣) . سورة الأعراف، الآية ٢٦.

٤- (٤) سورة الفرقان، الآية ٤٧.

٥- (٥) . سورة البقره، الآية ١٨٧.

فَيَبْغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَخْتِمَ عَلَى لِسَانِهِ كَمَا يَخْتِمُ عَلَى ذَهَبِهِ وَفِضَّتِهِ» (١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا عَالَ مَنْ افْتَصَّدَ» (٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دَاوُدُ كَمَا أَنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَوَاضِعُونَ كَذَلِكَ أَبْعَدُ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَكَبِّرُونَ» (٣).

ثم بين عليه السلام هاتين الصفتين فقال:

«غَضُّوا (٤) أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ».

«غَضُّوا»: من ماضٍ

«غَضَّ» تعنى فى الأصل (التقليل) وحين تستعمل فى العين تعنى الخفض أى خفض الرأس إلى الأسفل أو إسدال الجفنين على العينين.

«وَقَفُوا»: من ماضٍ

«وقف» تعنى لغوياً التوقف بينما تعنى فى الاصطلاح الفقهى وقف شىء لآخر أو تستعمل بمعنى أوسع بمعنى خص الشىء بآخر. وعليه فإن أخذنا المعنى الحقيقى للكلمة فى العبارتين المذكورتين كان المفهوم أنهن لا ينظرون إلى الحرام ولا يسمعون سوى العلم النافع، وإن أخذنا بنظر الاعتبار المعنى الكنائى الواسع فمفهوم العبارة الأولى أنهن يخفضون بصرهن عن جميع المحرمات ويوقفون سمعهن على العلم النافع فقط.

والمراد من

«الْعِلْمِ النَّافِعِ» فى الدرجة الأولى، العلوم الدينيّة المفيدة والقيم المعنويّة والحياه السعيده فى العالم الآخر، وبالدرجة الثانية كلّ العلوم الضروريّة للعرّه والمجد والاستقرار والرفعه للبشريّه فى هذه الدنيا، بما فيها العلوم المرتبطه بصحه الإنسان وسلامته أو الصناعه والزراعه أو العلوم السياسيّه وما شابه ذلك.

لا شك فى أنّ علاقه الإنسان بالعالم الخارجى والعالم المعاصر والسابق بصورة

١- (١) تحف العقول، قسم كلام الإمام الباقر عليه السلام، ص ٢١٨.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٤٠.

٣- (٣) وسائل الشيعه، كتاب الجهاد، الباب ٢٨ أبواب جهاد النفس، ح ٢.

٤- (٤) . «غَضُوا» من ماده «غَضَّ» على وزن «خَزَّ» كما ورد في الخطبه تعنى التقليل، وإن استعملت في العين عنت الخفض أى خفض الرأس بغيه عدم النظر. «غمض» تعنى غلق العين.

رئيسيه عن طريق هاتين نعمتين أى العين والأذن، فالإنسان يرى الحقائق بعينه وبها يقرأ التاريخ، ويسمع بأذنه رساله السماء وأئمه الدين وتفاصيل تجارب العظماء السابقين. فهو يرتبط بجميع الأشياء من حوله بهاتين الوصيلتين بحيث لو سلبتا منه لما بقى لديه شىء ولكن عقله وشعوره كعقل وشعور الصبى غير المميز، بل حتى لسانه وسائر حواسه إنما تنشط فى ظل سلامه هذين العضوين ومن هنا فإن الفرد الأصم والأعمى أحرص على الدوام وإن كان لسانه سالمًا.

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«كُلُّ عَيْنٍ بَأَكِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرُ ثَلَاثٍ؛ عَيْنٌ سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ فَاضَتْ مِنْ حَشْيِهِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ» (١).

وفى حديث آخر عن الإمام الحسن عليه السلام قال:

«إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ مَذْهَبَهُ وَأَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّنْذِيرَ وَانْتَفَعَ بِهِ» (٢).

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى صفة أخرى من صفات المتقين والتي تتمثل بالرضا والتسليم فقال:

«نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَأَلَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ» (٣).

فالنعمه لا تسكرهم ولا تبطريهم، والمصائب والخطوب لا تحزنهم ولا تجزعهم؛ فهم راضون برضا الله مسلمون لإرادته فى جميع الأحوال. طبعاً أنهم لا يتوانون فى السعى لمواجهه المحن والخطوب وتوفير أسباب النعم والعيش الكريم لكنهم لا يعيشون سوى الرضا والتسليم بالنسبه لما كان خارجاً عن إرادتهم؛ ذلك لأنهم يعلمون من جانب أن الله حكيم ورحيم وأرحم من الأم بولدها ولا يقدر سوى ما فيه مصلحه عبده المؤمن.

ويعلمون من جانب آخر أن الجزع إزاء الحوادث الأليمه ليس فقط لا يحل

ص: ٤٠٨

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ٨٠، باب اجتناب المحارم، ح ٢.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ٤، ص ٥٥١ نقلاً عن بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٠٩.

٣- (٣) «رخاء» و «رخوه» تعنى فى الأصل اللين والضعف وإن استعملت بشأن الحياه فإنها تعنى الحياه الهائنه.

الأزمه بل يحبط الأجر والثواب وأحياناً يضاعف من شدة الخطب ويوجب بالتالى اليأس والقنوط إزاء كل حادثه.

وقد وردت عدّه روايات عن المعصومين عليهم السلام بشأن مقام الرضا والتسليم ومنها ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«رَأْسُ طَاعَةِ اللَّهِ الصَّبْرُ وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ فِيمَا أَحَبَّ الْعَبْدُ أَوْ كَرِهَ، وَلَا يَرْضَى عَبْدٌ عَنِ اللَّهِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ» (١).

وقد روى المرحوم الكليني بعد نقله لهذه الروايه اثنتى عشره روايه فى الرضا والتسليم ومقامات المؤمن الراضى والمسلم لإرادته الله تبارك وتعالى.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفة بارزه أخرى للمتقين والتي تدل على الإيمان القوى والثقة بوعد الله فقال:

«وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ».

فأرواحهم أشبه بالطير المسجون فى القفص فهو يرى نفسه من جهة إزاء الحدائق النضرة المنعمه بأنواع الزهور والنباتات والفواكه والثمار، ومن جانب آخر يرفرف بأجنحته إزاء النار المحرقة داخل القفص فيحنو إلى الحرية ليحلق إلى تلك الحدائق ويتخلص من تلك النار المحرقة.

والمتقون على هذه الشاكلة، فعشقتهم للثواب من جانب وخوفهم من العقاب (أثر سوء العاقبه) من جانب آخر يشد أرواحهم المرهفه إلى العالم الآخر، بينما يحول عنهم دون ذلك الأجل الذى ضربه الله لهم.

ويكشف هذا التعبير ضمناً سياده الخوف والرجاء فى وجودهم، فهم راجون من جانب لثواب الله ولطفه، ويخشون من جانب آخر أن تزل أقدامهم فى هذه الدنيا فيقعون فى فخ الشيطان وهوى النفس فيغادرون الدنيا وقد ساءت عاقبتهم.

جاء فى الحديث أنّ لقمان الحكيم خاطب ولده فقال له:

«يَا بُنَيَّ خَفِ اللَّهَ خَوْفًا

ص: ٤٠٩

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٦٠، باب الرضا بالقضاء، ح ١.

لَوَأْتَيْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيْرَ الثَّقَلَيْنِ خِفْتَ أَنْ يُعَذَّبَكَ وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَوْوَأْفَيْتَ الْقِيَامَةَ بِإِثْمِ الثَّقَلَيْنِ رَجَوْتَ أَنْ يُغْفِرَ اللَّهُ لَكَ» (١).

وذكر الإمام عليه السلام صفة بارزه جداً في المتقين فقال:

«عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَاذُونُهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فكل شخص يبدو له النهر الكبير ضئيلاً حين يكون إلى جانب المحيط المتلاطم الأمواج، وحين ينظر الإنسان إلى الشمس التي تضيئ العالم لا يرى من وجود لضوء أكبر وأكبر مصابيح العالم ضياءً، نعم، فقد تعزف المتقون على القدره المطلقه والعلم اللامتناهى لخالق عالم الوجود فأدر كوا بقدر استعدادهم عظمه ذاته المقدسه، فكان من الطبيعي أن يصغر كل ما سواها في أعينهم، وهذه هي إحدى العوامل التي تقف وراء تقوى المتقين وورعهم وأعظم من ذلك عصمتهم من الذنب والمعصيه، فكلما عظمت معرفه الإنسان بالله صغر ما سواه في نظره فلم يعد يتعلق بهذه الأشياء الحقيه والتافهه ولذلك لا يقارف الذنب.

ومن هنا نفهم ما قاله الإمام على عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيَتْ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهُ فِي نَمَلِهِ أَشْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرِهِ مَا فَعَلْتُهُ» (٢).

وقال في مواصلته لكلامه:

«وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنَ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جِرَادَةٍ تَقْضِيهَا».

فإن ذلك يُعزى ذلك إلى عرفانه عليه السلام بالله تبارك وتعالى. نعم، كلما ازدادت معرفه الله لدى الإنسان صغرت الدنيا في عينيه وضعفت لديه أسباب الذنب واستشعر المزيد من الطمأنينه والسكينه، وبالطبع فإن آثارها حضور القلب في العباده والصلاه، بحيث لا يلتفت إلى الألم حين تُسل السهام من جسده.

ثم أتجه عليه السلام إلى صفة بارزه أخرى تتمثل في مقام المتقين الشهودى فقال:

«فَهُمْ

ص: ٤١٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤١٢.

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ٢٢٤.

وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ».

للإيمان واليقين مراحل، فإيمان البعض تفرزه الأدلة العقلية وسائر الأدلة الكافية والشافيه عليه، وقد عبّر العرفاء وأساتذہ الأخلاق وبلاستناد إلى الآيات القرآنيہ عن هذه المرحله بمرحله (العلم اليقيني)، والمرحله الأسمى هي (مرحله الشهود) حيث يتجاوز الإنسان في هذه المرحله الأدله العقليہ ليلبغ مقام الشهود فيرى الله ويشاهد عظمته ببصيرته وتزول عنه جميع الشكوك والوساوس التي تترتب أحياناً على الأدله العقليه وهذا ما يصطلح عليه بمقام (عين اليقين).

والمرحله الثالثه وهى مرحله (حق اليقين) المختصه بخواص الله ومقربيه حيث يصل الإنسان في ظلها إلى مرتبه تذوب فيها ذاته فلا يرى سوى الله ويغيب عن ناظره كل ما سواه.

فالواقع أن المرحله الأولى عامه وتشمل جميع المؤمنين الصادقين، بينما تختص المرحله الثانيه بالمتقين المخلصين والمجاهدين، وتختصر المرحله الثالثه على صفوه معينه من أولياء الله كالمعصومين عليهم السلام، ولكل مرحله آثارها ومعطياتها وأحد آثار مرحله الشهود التي أشير إليها في هذه الخطبه بشأن المتقين أنهم يرون أنفسهم حاضرين على الدوام أمام الحق ولا ينفكون عن طاعته وإمتثال أوامره، وبالطبع فإن قدسيه حياتهم خير شاهد على إيمانهم الشهودى فقد جاء في الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوى (1) برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

«كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانٌ؟» قال:

«أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُوقِنًا». فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله، وقال صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟».

ص: ٤١١

١- (١). يقال خفق برأسه إذا أخذته سنه من النعاس فمال رأسه دون سائر جسده.

فقال:

«إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي وَأَسْهَرَ لَيْلِي وَأَظْمَأَ هَوَاجِرِي فَعَزَفْتَ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا حَتَّى كَأَنِّي إِلَى أَنْظُرَ عَرْشَ رَبِّي وَقَدْ نُصِبَ لِلْحِسَابِ وَحُشِرَ الْخَلَائِقُ لِتَذَلُّكَ وَأَنَا فِيهِمْ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ وَيَتَعَارَفُونَ، عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُضْطَرِّحُونَ وَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه:

«هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ». ثم قال صلى الله عليه وآله له:

«إِلْزَمَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ».

فقال: يا رسول الله ادع لى أن أرزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج فى بعض غزوات النبى صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر (١).

وقد وردت العديد من الأخبار التى تشبه ما ورد سابقاً بشأن المتقين طيله التاريخ والذين بلغوا مقام الشهود والتى تؤكد كلام الإمام عليه السلام.

ثم واصل كلامه عليه السلام فذكر خمس صفات أخرى من صفات المتقين فقال:

«قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ».

فهذه الصفات سلسله من صفات المتقين، ذلك لأن حزنهم الذى ورد فى صفتهم الأولى يشير إلى خوفهم من الله والتقصير فى الإتيان بالوظائف، قال الإمام الصادق عليه السلام:

«الْحُزْنُ مِنْ شِعَارِ الْعَارِفِينَ». وواصل كلامه قائلاً:

«وَلَوْ حَجَبَ الْحُزْنَ عَنْ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ سَاعَةً لَأَسْتَغَاثُوا» (٢).

نعم، فهم وجلون دائماً إزاء وظائفهم، ومن هنا خيم الحزن على قلوبهم خشيه

ص: ٤١٢

١- (١) نقل المرحوم الكليني هذا الحديث فى باب حقيقه الإيمان (الكافى، ج ٢، ص ٥٣) وكذلك نقله المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٧٤ عن كتاب المحاسن.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٧٠.

التقصير في حقّ مظلوم أو صدور ظلم منهم أو أنّهم فكروا في ما سوى الله، أضف إلى ذلك لا يفارقهم غم العشق وحزن الإبتعاد عمّا يرجونه من قرب الله، على كلّ حال فهم لا يعيشون هم الدنيا أبداً، لأنهم لا يعشقون الدنيا.

وعليه فإن قال القرآن: «أَلَمْ يَأْتِ الْوَيْلَ لَكُمْ وَاللَّهُ لَآتٍ لَكُمْ فَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (١). فهذا لا ينافي ما ورد في هذه الخطبه، لأنّ الخطبه متعلقه بالخوف عمّا سوى الله والحزن على الدنيا الماديّه وقوله في الصفه الثانيه أنّ الناس منهم في أمان إشاره إلى أنّ وجودهم لا يختزن سوى الخير والبركه للجميع ولا يفرز أى عناء وعذاب. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَهُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَخَافُ النَّاسَ شَرًّا» (٢).

وقال عليه السلام في الصفه الثالثه إنّ أجسامهم نحيفه ولا يراد به النحافه المتعارفه اليوم في المجتمع، بل تعنى الضعف الذى يفيد الزهد من جانب والتقوى والصوم ويدل من جانب آخر على الخفه والاستعداد في إتيان الوظائف الشرعيّه، على كلّ حال فإنّ هذه الصفه كبعض الصفات الأخرى لها استثناءات حيث إنّ البعض من الأفراد ليس بنحيف بحسب بنيتة الجسميه لكنه في صف المتقين.

وأشير في الصفه الرابعه إلى حاجاتهم المحدوده لا على غرار أصحاب الدنيا كانزى الذهب والفضه الذين يشبهون جهنم كلّما أعطوا شيئاً نادوا «هل من مزيد»، والحق أنّ القناعه والحاجات الخفيفه لتصون الإنسان من العديد من الذنوب وتريح فكره لسلوك سبيل الحقّ، كما ذكر الإمام عليه السلام في إحدى كلماته القصار حيث قال:

«تَخَفُّوا تَلَحُّقُوا» (٣).

وجاء في الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام دخل حماماً فقال له صاحب الحمام:

نخّيه لك؟ فقال عليه السلام:

«لا، إنّ المؤمنَ خفيفُ المؤمنه» (٤).

ص: ٤١٣

١- (١). سورة يونس، الآيه ٦٢.

٢- (٢) كنز العمال، ج ٣، ص ٥٠٢، ح ٧٦١٣.

٣- (٣) نهج البلاغه، خطبه ٢١.

٤- (٤) وسائل الشيعه، ج ١، الباب ٢٢، أبواب آداب دخول الحمام، ح ٣.

وأشار في الصفه الخامسة إلى مقام العفه في أن أرواحهم عفيفه، تلك العفه التي تسوق الإنسان إلى غض الطرف عن الهوى والمعصيه، وبعبارة أخرى لم يعد للأهواء والمعاصي من سبيل إليهم بحيث ينفرون من رؤيه المناظر القبيحه والفاحشه.

قال عليه السلام في إحدى كلماته القصار:

«مَا الْمُجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَعْظَمِ اجْرَاءٍ مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ؛ لِكَأْدِ الْعَفِيفِ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ» (١).

وكيف لا يكونون كذلك وقد انتصروا في ميدان الجهاد الأكبر على عدوٍ خطر هو هوى النفس والشيطان.

ثم قال في ذكر صفه أخرى من صفاتهم:

«صَبِرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةٌ طَوِيلَةٌ. تِجَارَةٌ مُزِيحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ». فالصبر سواء على الطاعه أو إزاء وساوس المعصيه أو على المصيبه لمن الصفات البارزه للمتقين.

ولا يسع أحد الظفر بأى هدف معنوياً كان أم مادياً ما لم يتحل بالصبر والاستقامه ولو فقد الإنسان هذه الصفه فإنه يخاطر بدينه وإيمانه وعزته وشرفه ومن هنا جاء في حديث عن الإمام عليه السلام أنه قال:

«وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ» (٢).

ونقل المرحوم الكليني في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ وَالصَّبْرُ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ وَجَهَنَّمَ مَحْفُوفَةٌ بِاللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ فَمَنْ أَعْطَى نَفْسَهُ لَذَّتَهَا وَشَهَوَاتَهَا دَخَلَ النَّارَ» (٣).

واعتبر الإمام عليه السلام كما ورد في العبارة أن هذا العمل؛ أى الصبر مدّه قليله إزاء نيل تلك السعاده الخالده تجاره مريحه يسرها الله لهم.

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

ص: ٤١٤

١- (١) نهج البلاغه، القصار الكلمات، الكلمه ص ٥٧٤.

٢- (٢) المصدر السابق، الكلمه ٨٢.

٣- (٣) الكافي، ج ٢، ص ٨٩، باب الصبر، ح ٧.

وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ»(١).

وقال فى موضع آخر إنَّ الملائكة تتلقى الصالحين من المؤمنين حين يرومون دخول الجنة بالسلام: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ»(٢).

ثم تطرق عليه السلام إلى صفتين من صفات المتقين فقال:

«أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُواهَا، وَأَسْرَتْهُمْ فَفَدَّوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا».

إشاره إلى اقبال الدنيا بجميع متعها ولذائدها إلى الجميع لتستقطب إليها النفوس البشريه، ولكن لا يقع فى شباكها سوى أولئك الجهّال أو أصحاب الأهواء، بينما لا يغتر بها المتقون الذين يعلمون أنّ حقيقتها سراب، وهنالك البعض الذى يغتر بالدنيا عن طريق المال والثروه والجاه والمقام والشهره، بينما لا يخفى هذا المعنى على المتقين.

والحقّ أننا لنرى الكثير من الناس الذين يصبحون اسارى المقام بحيث يدفعهم الحفاظ عليها إلى عدم التورع عن ارتكاب كلّ موبقه وجنايه، وهناك البعض الذى يأسره المال والشهوات بحيث يضحى من أجل ذلك بكرامته الإنسانيه، أمّا المتقون السائرون على خطى المعصومين يتجاوزون ذواتهم وشعارهم فى ذلك

«هَيْهَاتَ مِّنَّا الدُّلَّةُ».

تأمل

محاوّر هذا الجانب من الخطبه

تدور محاور هذا الجانب من الخطبه الذى تضمن عشرين صفة من صفات المتقين حول عدّه أمور، إيمان المتقين الراسخ وهو الإيمان الذى بلغ حد الشهود ومشاهده عالم ما وراء الطبيعه، مسأله التولى عن متع الدنيا ولذاتها وعدم الانخداع

ص: ٤١٥

١- (١) سورة فاطر، الآيه ٢٩.

٢- (٢) سورة رعد، الآيه ٢٤.

بالأهواء والشهوات وتحري العلم والمعرفه واجتناب الذنوب والمعاصي سيما معاصي اللسان والتواضع وكف الشر عن الخلق
تمثّل معظم تلك الأمور.

وإن لم يكن للمتقين سوى هذا الجانب المذكور في الخطبه لكفاه أن يصنع منهم أناساً كمل فضلاً عن الجوانب القادمه من
الخطبه التي تشير إلى هذه الصفات.

والصفات السابقه ليست منفصله عن بعضها البعض الآخر، بل هي سلسله متصله ومشروع جامع للسالكين إلى الله والذين ينشدون
القرب منه تعالى.

فذلك الشخص الذي بلغ به الأيمان درجه كأنه يرى حجب النور وينظر من خلف حجب الطبيعه الضخمه إلى الجنّه والنار من
الطبيعي أن يصغر في عينه كلّ ما سوى الله ولا تخدعه مفاتن الدنيا وزخارفها ويعيش الواقع إزاء خلق الله ويكف عنهم أذاه.

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف يتحصل هذا الإيمان الشهودي ولمن سيكون نصيب هذه السعاده؟

وتتضح الاجابه عن هذا السؤال من خلال بعض التشبيّهات، فالصوره الحقيقيه لا تنعكس في مرآه القلب مادام ملطخاً بقذاره
الأهواء، ولا يسع الإنسان التحليق إلى سماء الحقيقه مادام مسجوناً في زنانه الطبيعه.

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحْزَنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنُهُمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَضْيَعُوا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَدِيدَ قَهْرِهَا فِي أَصْوَالِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَيَّانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِيَاهِهِمْ وَأَكْفُهُمْ وَرُكْبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِهِ رِقَابِهِمْ.

الشرح والتفسير: ليل المتقين

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه في حال المتقين في الليل ليركز على التفاصيل ويمهد السبيل أمام الجميع فقال:

«أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحْزَنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ (١) بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ».

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى تلاوه القرآن في صلاة الليل، ذلك لأنهم يرتلون القرآن حين القيام بعد سورة الحمد في الصلاة؛ كما يمكن أن يكون الأمران منفصلين، أي أنهم ينهضون في الليل للصلاة وتلاوه القرآن أيضاً.

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام بين أسلوب قراءه المتقين للقرآن بعبارة قصيره عميقه

ص: ٤١٧

١- (١) «يستشيرون» من ماده «ثور» على وزن «غور» و «ثوران» على وزن «فوران» بمعنى الهياج و «استثاره» بمعنى التهيج ويعنى في العبارة المذكوره البحث في الآيات القرآنيه لشفاء الأمراض الأخلاقيه والمعنويه.

المعنى فهم يقرأون القرآن بصيغه الترتيل الذى يعنى التأمل والتدبر فى مفاهيم القرآن أضف إلى ذلك قال: إنهم يرون أنفسهم مخاطبين بالقرآن فإن مروا بآيه فيها تشويق تطلعوا إليها طمعاً وإن مروا بآيه فيها تخويف، استشعروا منها الحزن، كما أنهم يبحثون عن دواء دائهم الأخلاقى والمعنوى فى زوايا الآيات القرآنيه فهو الطيب وهو الدواء.

ثم قال فى شرحه لهذا المعنى:

«فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ (١) نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنِهِمْ».

نعم! فهؤلاء لا يطالعون القرآن بصوره سطحيه بل يرون أنفسهم مخاطبين به فتأجج فى قلوبهم نيران الشوق حيث البشاره الإلهيه ويرون ببصائرهم ما وهم فيه فى هذه الحياه الدنيا، وهذا ما يدفعهم إلى السير والسلوك إلى الله تعالى.

«وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ (٢) جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ».

فقد بلغ إيمانهم مرحله الشهود فأخذوا يرون حقائق عالم الغيب وكأنها تعيش معهم، وبالطبع إن كانت قراءه القرآن بهذه الصيغه كانت أفضل وسيله فى التهذيب والتريبه.

ورد فى إحدى كلمات الإمام عليه السلام أنه قال:

«أَلَا لَا خَيْرَ فِي قِرَاءِهِ لَيْسَ فِيهَا تَدْبِيرٌ أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادِهِ لَيْسَ فِيهَا تَفَقُّهُ» (٣).

وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنٌ فَكُلَّمَا فُتِحَتْ خَزِينَةٌ يَتَّبَعِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا» (٤).

ص: ٤١٨

١- (١) «تطلعت» من طلوع «تطلع» بمعنى البحث عن شىء.

٢- (٢). «زفير» و «شهيق» «زفير» فى الأصل إخراج الهواء من الرئه و «شهيق» بمعنى إدخال الهواء إلى داخل الرئه؛ لكن صرح البعض أنّ «زفير»، هو إخراج الهواء مع صراخ و «شهيق» هو إدخال الهواء مع وأنين.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢١١.

٤- (٤) الكافي، ج ٢، كتاب فضل القرآن، باب فى قراءته، ح ٢.

ولما فرغ الإمام عليه السلام فى العبارات السابقه من بيان كيفية صلاه المتقين المقرونة بتلاوه الآيات القرآنيه والمتزامنه مع الخضوع والخشوع والتدبر وحضور القلب أردفها فى العبارة التاليه ببيان ركنين آخرين هما الركوع والسجود فقال:

«فَهُمْ حَانُونَ (١) عَلَى أَوْسَاطِهِمْ (٢)، مُفْتَرِشُونَ لِحَبَابِهِمْ (٣) وَأَكْفُهُمْ وَرُكْبَهُمْ، وَأَطْرَافِ (٤) أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ (٥) رِقَابِهِمْ».

فالعبارات التى ذكرها الإمام عليه السلام بشأن الركوع والسجود تعبيرات بمنتهى الروعه والجمال التى تُطلع الإنسان على عمق هذه العبادات، فالإنحاء أمام الله وافتراش الجبين وبسط الأرجل على الأرض إزاء عظمه الله بالتوجه وحضور القلب ينطوى على عالم من المعنويات، والطريف أن الهدف النهائى لذلك تحرير رقبه الإنسان من قيد الأسر، ولكن هل المراد تحريرها من مخالب نار جهنم أم من كَلِّ قيد من قيود هوى النفس والشيطان والأشرار من الناس؟ يبدو أن عبارة الإمام عليه السلام مطلقه تشمل الجميع رغم تظافر الروايات التى وردت فيها العبارة

«مِنَ النَّارِ» بعد

«فَكَأَكِ الرَّقَبَةِ».

نعم! فحريه الإنسان مرهونه بعبوديته لله فى الدنيا وفى الآخرة وسوى المتقين أسرى الأهواء والرغبات والأموال والشروات والمقامات والشياطين.

وما بيته الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه بشأن المتقين إقتباس فى الواقع من الصفات التى ذكرها القرآن الكريم للمتقين فى آواخر سورة الفرقان عن

«عِبَادُ الرَّحْمَنِ» فقد قال تعالى: «وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا» (٦).

ص: ٤١٩

- ١- (١). «حانون» من ماده «حنو» بمعنى الانعطاف، اذن «حانون» جمع «حانى» بمعنى الشخص الذى ينحنى.
- ٢- (٢) «أوساط» جمع «وسط» بمعنى الظهر.
- ٣- (٣) «جباه» جمع «جبهه» بمعنى الجبين.
- ٤- (٤) «أطراف» جمع «طرف» بمعنى رأس كل شىء وتعنى هنا رأس البنان الذى يوضع على الأرض فى السجود.
- ٥- (٥) «فكاك» و «فك» بمعنى التحرير والتفريق.
- ٦- (٦) سورة الفرقان، الآيتان ٦٤ و ٦٥.

١. خاض الإمام عليه السلام بعد بيانه لصفات المتقين في مستهل الخطبه في انشطتهم في الليل والنهار والتي تغص بدروس السعاده.

فشرح بادئ الأمر نشاطهم بالليل حيث يسرون فيه بصورة كامله باتجاه التريه والتهذيب والقرب الإلهي.

ويستند أساس هذا النشاط إلى أمرين: ١. الصلاه بحضور قلب تام، وهي الصلاه الموصله لكل سمو

«قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ» وهي الطريق المتقين للقرب من الله والناهيه عن كل فحشاء ومنكر.

٢. تلاوه القرآن في الصلاه وخارجها في غسق الليل حيث الصمت المطلق والشرائط التي تنفي الموانع كافه من الحضور بين يدي القرآن والمقرونه بالتدبر في الآيات بحيث يرى المؤمن نفسه مخاطباً بآيات الثواب والعقاب فيرى بأمر عينيه مصير أصحاب الجنه وأصحاب النار في خضم الآيات وينفتح على معارفها ويتعظ بمواعظها ويمثل في حياته لأحكامها.

حقاً إن مثل هذه الصلاه والتلاوه القرآنيه في جوف الليل إنما تريهم بحيث يستطيعون في النهار القيام بوظائفهم بأحسن نحو، وسيرد الحديث عن نشاطهم في النهار في القسم القادم من الخطبه.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ. قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بَرَى الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرَضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ حَوْلُوا!

وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرِضُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْتِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ!

الشرح والتفسير: نهار المتقين

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من خطبه في نشاط المتقين في النهار (على غرار القسم السابق الذي شرح فيه نشاطهم في الليل) فأشار بادئ الأمر إلى خمس صفات من صفاتهم فقال:

«وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ. قَدْ بَرَّاهُمْ (١) الْخَوْفُ بَرَى الْقِدَاحِ (٢) يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرَضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ حَوْلُوا! (٣) وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!».

والصفات الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام بشأن نشاط المتقين في النهار دلالة

ص: ٤٢١

١- (١). «براهم» من مادة «برى» على وزن «سعى» بمعنى نحت القلم أو الخشب وتعني هنا التصغير.

٢- (٢). «قداح» جمع «قدهح» على وزن «قشر» بمعنى السهم قبل أن يراش.

٣- (٣) «حولوا» من «خلط» أي مزجوا وتعني هنا الأمر الذي خالط عقولهم، وكما يقال إلتبس عليه الأمر.

واضح على هذه الحقيقة وهي أن تقوى هؤلاء المتقين ليست منفصلة عن المجتمع قط، بل تقواهم مقرونة بالعلم والمعرفة والإدارة وتحمل المسؤولية والإحسان والعيش في وسط المجتمع.

«حُلَمَاءُ»: من ماله «حلم» التي تعنى حسب (الراغب) ضبط النفس حين الغضب، ولما كانت هذه الحالة نابعة من العقل فإن مفردة الحلم تستعمل أحياناً بمعنى العقل ومن هنا تُطلق كلمه الحليم على من يتمالك نفسه عند الغضب وعلى العالم أيضاً.

وقال علماء الأخلاق أن صفة الحلم تمثل حاله الاعتدال بين الصفتين الرذيلتين؛ إحداهما الذل والأخرى المفرطه وهى الغضب.

على كل حال فإن هذه الصفة غالباً ما تظهر حين التعامل مع الجهال فيضطر الحليم إلى مداراتهم بحيث لا يُستغل علمهم فيفقدون إلى أنفسهم ويكفون عن جهلهم.

والتعبير بالعلماء لا يقتصر على أولئك الذين انفتحوا على العلوم المعروفة بل يشمل الأفراد ممن لهم اطلاع ومعرفة واسعه وقدره على إدراك الحقيقة.

والعبارة:

«قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بَرَى الْقَدَاحِ» ليس المراد منها أن المتقين ضعيفو البنية خشية المسؤولية، بل المراد أن تلك الخشية جعلتهم أكثر فاعليه وحسماً في القيام بوظائفهم، ذلك لأن السهم حين يبرى ليصيب الهدف يكون انطلاقه أفضل وحدثه أعظم.

والتعبير

«يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرَضَى» إشاره إلى أن العلماء والحلماء والمتقين الأبرار يبدوون في أعين السذج من الناس كأفراد ضعيفي الإرادة وغير جادين في قراراتهم.

ومن هنا نرى رمى الأنبياء من قبل أممهم بتهمه الجهل والجنون، سيما أنهم لا يشابهون سائر قومهم، فمن لم يكن مثلهم يرونه مجنوناً لأنه يخالف عاداتهم وعقائدهم بينما الواقع هم المجانين.

ص: ٤٢٢

قال القرآن بشأن السابقين في الخيرات: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» (١).

جاء في شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد في ذيل الآية الشريفه أنه سئل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: هل المراد من الآية من يذنب ويخشى الذنب؟ فقال صلى الله عليه وآله:

«لَا، بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُ» (٢).

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان علو همم المتقين فقال:

«لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْتَرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ» (٣).

فعلو هممتهم وسمو معرفتهم لا تدعهم يرضون بالأعمال القليله أو يستكثرون تلك الأعمال على خلاف المغرورين ضيقى النظر الذين يرضون من أنفسهم بالقليل من العمل وكأنهم أشرف خلق الله، وبغض النظر عن ذلك فهؤلاء يتمتعون بصفه بارزه هي نقد الذات التي يفر منها أغلب الأفراد والذين لا يقبلون النقد من الآخرين وبطريق أولى لا ينتقدون أنفسهم وبذلك يهجرون الأمر الذي يؤدى إلى سموهم وتكاملهم.

فهؤلاء يشعرون بالخشيه دائماً وكأنهم لم يؤدوا حق نعمه الله وهجروا طريقه عبوديه الله وأنهم مسؤولون أمام خلق الله.

وقد فسر بعض شراح نهج البلاغه الأعمال الوارده هنا بالعبادات فقط واستشهدوا بالروايات الوارده في كثره عبادات النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والإمام السجاد عليه السلام. صحيح أن العبادات تعد إحدى الوظائف المهمه للعباد، ولكن ليس لدينا أى دليل على حصر الأعمال الوارده في العباده المذكوره بالعباده وعدم شمولها

ص: ٤٢٣

١- (١) سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٤٦.

٣- (٣) «مشفقون» من «اشفاق» بمعنى الرغبه المقرونه بالخوف؛ يعنى خائفون من التقصير فى اعمالهم، كما تعنى من يخشى على آخر يحبه تعرضه لبعض الحوادث.

وقد كان أئمتنا عليهم السلام يقرون بذلك لله تعالى مع ما كانت لديهم من أعمال ضخمه واسعه ورغم قدسيتهم وطهارتهم، فقد ورد عن الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزه الثمالي تضرعه قائلاً:

«وما قدرُ أعمالنا في جنبِ نِعَمِكَ وكَيْفَ نَسْتَكْتِرُ أعمالاً نُقَابِلُ بِهَا».

وجاء في كتاب الغارات عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أن أحدهم تعجب من كثره ما ينفق ويتصدق في سبيل الله فقال له عليه السلام:

«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَبِلَ مِنِّي فَوْضاً وَاحِداً لَأَمْسَكْتُ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ مَا أَذْرِي أَقْبَلَ اللَّهُ مِنِّي شَيْئاً أَمْ لَا؟» (١).

وهذا في الواقع درس لعامة الناس في عدم الاغترار بأعمالهم العباديه والخيريه مهما كانت كثيره ذلك لأن مسأله الإخلاص صعبه ومعقد.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«ثَلَاثُ قَاصِمَاتُ الظُّهْرِ؛ رَجُلٌ اسْتَكْتَرَّ عَمَلَهُ، وَنَسِيَ ذُنُوبَهُ، وَأَعْجَبَ بِرَأْيِهِ» (٢).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى في إطار حديثه عن مسأله نقد الذات فقال:

«إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يَقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ!».

وإننا لنعلم أن من موانع الرقي والتقدم نحو الله وفي المجتمع البشري هو مدح المداحين وتملق المتملقين الذي قذف بأغلب زعماء العالم في أوديه الخطأ والضلال، والمتقون يشعرون بالخوف دائماً من مدح الآخرين حذراً من أن يسوقهم إلى الغرور والعجب فيتعرضون لسخط الله، فهم يسألون الله أن يكونوا أعظم من ذلك المديح وإن كانت لديهم معصيه خفيه سألوه غفرانها.

١- (١) الغارات، ج ١، ص ٩٠.

٢- (٢) وسائل الشيعه، ج ١، ص ٧٣، الباب ٢٢ من أبواب مقدمات العبادات، ح ٦.

إشفاق المتقين من أعمالهم

يتصف نشاط المتقين نهاراً بالصبغ الشعيه والاجتماعيه المحضه رغم نشاطهم الليلي في تهذيب النفس في ظل المناجاه والعباده والتضرع إلى الله، والاستناد إلى العلم والحلم والإحسان والخوف في تحمل المسئوليه لأفضل دليل على هذا المعنى. فهم علماء يوظفون العلم لهدايه وإرشاد المجتمع.

وحلماء يتحملون الصبر إزاء تعصب ولجاجه الجهال من الأفراد، ومحسنون يمدون يد الخدمه بقدر استطاعتهم إلى المحتاجين. خائفون ووجلون من القيام بالمسؤوليات الكبيره، فخوفهم خوف إيجابى ليكون الدافع للعمل أسمى وأعظم لا خوف سلبى يدعو إلى التوقع وترك النشاط، ولذلك قال عليه السلام: إنَّ الخوف لم يضعفهم بل جعلهم أكثر عملاً على غرار السهم الذى يبرى ليعد لإصابه الهدف.

ومن صفاتهم أنهم ليسوا كأصحاب الدنيا الذين ينتهزون الفرص والنفعيين الذين يتأقلمون مع كل شخص ومع جميع الظروف بغيه تحقيق أهدافهم الماديّه، ومن هنا يتهمهم مثل هؤلاء الأفراد بخفه العقل والسداجه، وزبده الكلام فإنهم مشفقون من أعمالهم سباقون للنظر فيها قبل أن يتعرض لها الآخرون.

حقاً مثل هؤلاء الأفراد يستطيعون انقاذ المجتمع البشرى من الظلم والجور وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

فَمِنْ عَلَامِهِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْمًا فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَضِيدًا فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا فِي هُدًى، وَتَحَرُّجًا عَنِ طَمَعٍ. يَعْْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ. يُمَسِّي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُضَيِّحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيْتُ حَذِرًا وَيُضَيِّحُ فَرِحًا؛ حَذِرًا لَمَّا حُدِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنْ اسْتَضَعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قَرَّهَ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

شرح وتفسير

اثنا عشره صفه أخرى

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى اثنتي عشره صفه أخرى من صفات المتقين بعبارات قصيره عميقه المعاني ليستهلها بقوتهم في الدين وبعدهم عن الطمع فقال عليه السلام:

«فَمِنْ عَلَامِهِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْمًا (١) فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَضِيدًا فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً (٢) فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا (٣) فِي هُدًى،

ص: ٤٢٧

١- (١). «حزم» الإحكام والاتقان ومادته الأصلية «حزام»، رباط الحيوان (رباط محكم يربط به سرج الحيوان إلى بطنه وورد بمعنى مطلق الربط المحكم).

٢- (٢). «تجمل» من «جمال» التظاهر بالجمال و«تجمل» التظاهر باليسر عند الفقر والفاقة.

٣- (٣) «نشاط» العمل الصادق و«نشاطات» علميه بمعنى الأعمال العلميه.

وَتَحَرُّجًا (١) عَنْ طَمَعٍ.

والعبارة:

«قُوَّةٌ فِي دِينٍ» تشير إلى عدم استطاعه المشككين والمنافقين النفوذ إليهم وليس بإمكان خطوب الدنيا ومصاعب الحياه زعزعه إيمانهم.

وتشير العبارة

«وَحَزْمًا فِي لَيْنٍ» إلى أنهم رغم إشراقتهم الفكرية التي تستلزم عادة الحزم - خلاف العادات اليومية التي تسهل العمل - لا ينسون الليونة والمرونة ويعاملون من يرافقهم في تحقيق الأهداف الاجتماعية بالرفق والمحبة على ضوء المثل القائل:

«لَا تُكُنْ حُلُومًا فَتَشْتَرِطَ وَلَا مَرًّا فَتُلْفِظَ».

والعبارة:

«وإِيمَانًا فِي يَقِينٍ» تشير إلى أن للإيمان درجات أعلاها درجة علم اليقين وحق اليقين التي تحصل أحياناً عن طريق الاستدلالات القوية والمتينة، وأخرى عن طريق الشهود من خلال ذلك السمو.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْإِيمَانَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَإِنَّ الْيَقِينَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِيمَانِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَعَزُّ مِنَ الْيَقِينِ» (٢). نعم فقد بلغ المتقون هذه المرتبة السامية والنادرة.

والعبارة:

«حِرْصًا فِي عِلْمٍ» رغم أن مفردة الحرص تحمل الجانب السلبي عادة لكنها هنا تشير إلى أنهم بمنتهى الجديه في كسب العلم، ذلك لأنه لا أصاله للتقوى ولا عمق دون العلم.

والعبارة:

«وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ» تشير إلى أن العالم لا ينبغي أن يغضب وينفعل إزاء جهل الجاهلين بل ينفذ إليه بحلمه بصورة تدريجية فيزيل جهله.

ونقرأ مانقله المرحوم العلامة المجلسي في حديث مفصّل حوار الإمام الصادق عليه السلام مع البصري الذي جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام لتحصل العلم، فقال له في شأن الحلم:

ص: ٤٢٨

- ١- (١) «تحرّج» من ماده «حرج» المشقّه. وعندما تتعدى هذه المفرده بالحرف «عن» تعنى الابعاد.
- ٢- (٢). الكافي، ج ٢، ص ٥١، باب فضل الإيمان على الإسلام، ح ١.

«فَمَنْ قَالَ لَكَ إِنَّ قُلْتَ وَاحِدَهُ سَمِعْتَ عَشْرًا فَقُلْ إِنَّ قُلْتَ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَهُ».

وقال بشأن العلم:

«فَأَسْأَلِ الْعُلَمَاءَ مَا جَهِلْتُ وَإِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ تَعْتَنَّا وَتَجْرِبَهُ وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْمَلَ بِرَأْيِكَ شَيْئًا» (١).

العبارة:

«قَصِيداً فِي غِنَى» إشاره إلى أنهم إن أصبحوا أغنياء وأثرياء لا يتخلون عن الاعتدال ويجتنبون الإسراف والتبذير ويعينون الفقراء بما لديهم من أموال فائضه عن الحاجه.

والعبارة:

«وَحُشُوعاً فِي عِبَادِهِ» إشاره إلى أن عبادتهم ليست سطحية جوفاء خاليه من الروح، بل تصدح عباداتهم بالخشوع والخشوع وحضور القلب الذي يمثل روح العباده في أعمالهم العباديه وكل صلاه من صلواتهم معراج للقرب الإلهي، ومن هنا قال القرآن الكريم في وصفه للمؤمنين المفلحين: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» (٢).

والعبارة:

«تَجَمُّلاً فِي فَاقِهِ» التي تقابل في الواقع

«قَصِيداً فِي غِنَى» إشاره إلى أن المتقين ولا يشكون حين الفقر والفاقه.

وتفيد مفرده

«تَجَمُّلاً» أنهم رغم فقرهم وعوزهم يحافظون على ظاهرهم، كما يصفهم القرآن: «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» (٣).

والعبارة:

«صَبْرًا فِي شِدَّتِهِ» تشير إلى استقامتهم وصبرهم إزاء مكاره الدهر والحوادث الأليمه وكمصداق لقوله تعالى: «إِذَا أَصَابَتْكُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (٤).

حيث يرون أنفسهم راجعين إلى الله ودار الأمن والأمان والروح والريحان دون الإكتراث لهذه الدنيا فقد قال النبي صلى الله عليه و آله:

«إِنَّ الصَّبْرَ نِصْفُ الْإِيمَانِ» (٥). وقال:

ص: ٤٢٩

- ١- (١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٦.
- ٢- (٢) سورة المؤمنون، الآية ٢.
- ٣- (٣) سورة البقرة، الآية ٢٧٣.
- ٤- (٤) سورة البقرة، الآية ١٥٦.
- ٥- (٥) . شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٣١٩؛ بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٣٧، ح ٢٢.

«الإيمان نصفان؛ نصف في الصبر ونصف في الشكر» (١).

والعبارة:

«طَلَباً فِي حَلَالٍ» تشير إلى أن المتقين ليسوا أفراداً متفوقين ومعتزلين للأنشطة الحيويه، بل يسعون ويجدون من أجل المعاش والنهوض بالمجتمع الإسلامي الذي يشكل أحد أهدافهم الأساسيّه، مع هذا الفارق وهو أن أصحاب الدنيا لا يهتمون للحلال والحرام بينما يعيش هؤلاء هم الكسب الحلال ويهربون من العمل مهما كان دخله كثيراً إن شَمُوا منه رائحة الحرمة، قال النبي صلى الله عليه وآله:

«الْعِبَادَةُ سَبْعُونَ جُزْءاً أَفْضَلُهَا طَلَبُ الْحَلَالِ» (٢).

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً» (٣). ويمكن أن تكون العبارة دلالة على أن العمل الصالح وليد الغنى الحلال والطيب.

والعبارة:

«نَشَاطاً فِي هُدًى» تفيد أن طي طريق الهدى بالنسبة لهؤلاء وخلافاً لما يعتقد الأفراد ضيقى الفكر وقليلى المعرفة منطلقاً للنشاط والحيويه، فهم لا يكلون قط من السير على هذا الدرب وسلوك هذا الطريق يضاعف من نشاطهم وفاعليتهم.

المراد من العبارة

«وَتَحَرُّجاً عَنِ طَمَعٍ» أن المتقين بعيدون كل البعد عن الطمع، الطمع نتيجة التعلق الشديد بالدنيا بسبب التوجه لغير الله والذي يؤدى إلى العديد من المفسد ومنها أنه أحد عناصر الذلّ والبغض والعداوه والحقد والحسد؛ فالطماع لا يشبع قط من مال الدنيا ويسعى للحصول عليه بالطرق والوسائل كافة فهو في الواقع يعيش أسر هذا القيد على الدوام كما قال الإمام عليه السلام فى إحدى كلماته القصار:

«الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ» (٤).

ص: ٤٣٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥١.

٢- (٢) الكافي، ج ٥، ص ٧٨.

٣- (٣) . سورة المؤمنون، الآية ٥١.

٤- (٤) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمة ١٨٠.

أضف إلى ذلك فالطمع يعطل الفكر والعقل ويعرض الإنسان للتذبذب والحيره، كما قال عليه السلام في إحدى كلماته القصار:

«أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ» (١).

ثم تطرق عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفات المتقين فقال:

«يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ (٢). يُمَسِّي وَهْمُهُ الشُّكْرَ، وَيُصْبِحُ وَهْمُهُ الذُّكْرَ».

نعم! فلو أتى أولياء الله بكل الأعمال الصالحة لظلوا يخشون عدم أدائهم حق العبودية لله والتقصير في إمتثال التكليف، كما ورد في الحديث الشريف عن الحارث بن المغيرة أو أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان في وصيه لقمان؟ قال عليه السلام:

«كَانَ فِيهَا الْأَعْجِيبُ وَكَانَ أَعْجَبُ مَا كَانَ فِيهَا أَنْ قَالَ لِإِيْنِهِ: خِيفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خِيفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ لَعَبَدَبَكَ، وَارْجُ اللَّهُ رَجَاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُبُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ...» (٣).

وللقرآن الكريم تعابير مختلفه ورائعه بهذا الخصوص في وصفه للسابقين في الخيرات: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» (٤).

والعبارة:

«يُمَسِّي وَهْمُهُ الشُّكْرَ، وَيُصْبِحُ وَهْمُهُ الذُّكْرَ» إشاره إلى أن هؤلاء يتدئون يومهم الذي يستأنفون فيه العمل والنشاط باسم الله وفي آخر اليوم حيث انفتحوا على تلك النعم الإلهية واستغلوها في مرضات الله فيندفعون في الحمد والشكر، بالضبط كالجلوس على مائده الطعام، فهم يشرعون بتناول الطعام باسم الله وينتهون بشكره حين يرفعون أيديهم عن الطعام، رغم ما ذهب إليه بعض الشراح (٥) أن الاختلاف في التعبير من باب التنوع في العبارة والمراد أنهم ذاكرون وشاكرون في الصباح والمساء وفي جميع الأحوال، إلّا أن الأنسب ما ذكرناه.

وقد وردت عبارات عميقه المعنى في الآيات والروايات بشأن أهميته ذكر الله.

ص: ٤٣١

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢١٩.

٢- (٢) «وجل» بمعنى الخوف و «وجل» على وزن «خجل» بمعنى الشخص الخائف.

٣- (٣) الكافي، ج ٢، ص ٦٧، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، ح ١.

٤- (٤) سوره المؤمنون، الآية ٦٠.

٥- (٥) . في ظلال نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٦٩.

فقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«ثَلَاثَةٌ مَعْصُومُونَ مِنْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ:

الذَّاكِرُونَ لِلَّهِ، وَالْبَاكُونَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَالْمُسْتَغْفِرُونَ بِالشَّجَرِ»^(١).

كما وردت عدّه آيات وروايات في الشكر منها: ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام في غرر الحكم أنّه قال:

«شُكْرُ النِّعْمَةِ أَمَانٌ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ»^(٢).

ثم أشار إلى صفتين مهمتين من صفات هؤلاء الأولياء فقال:

«يَبِيتُ حَذِرًا وَيُصْبِحُ فَرِحًا؛ حَذِرًا لَمَّا حُدِّرَ مِنَ الْعُفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ».

طبعاً ليس مفهوم العبارة تقسيم الوقت في الخوف والرجاء، فالخوف والرجاء راسخ في قلوب المتّقين في كلّ زمان، وعلى كلّ حال ولكن لما كان المتّقون يخلون إلى أنفسهم بعد نهايه يومهم للحساب يشعرون بالقلق إن كان بدر منهم زله أو خطأ ومن هنا ورد الحث على الاستغفار عند الليل قبل النوم فقد روى عن الصادق عليه السلام أنّه قال:

«... مَنْ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ تَحَاتَّتْ ذُنُوبُهُ كَمَا يَسْقُطُ وَرَقُ الشَّجَرِ»^(٣).

ولما كان النهار انطلاقه فعاليه وأعمال صالحه جديده، الفعاليه التي ينبغي أن تستهل بالأمل والرجاء فقد أصبح تجلياً لصفه الرجاء والأمل.

وللمفسرين عدّه أقوال بشأن الفارق بين الفضل والرحمه ذيل الآيه الشريفه: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»^(٤) فقد ذهب البعض إلى أنّ الفضل الإلهي هو النعم الظاهريه والماديّه والرحمه النعم الباطنيّه والمعنويّه، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ الفضل بدايه النعمه والرحمه دوامها، كما احتتمل أن يكون الفضل إشاره إلى نعم الله العامه على جميع الناس والرحمه إشاره إلى رحمته الخاصه بالمؤمنين. وبالطبع ليس هنالك من تناقض في هذه التفاسير ويمكن الجمع بينها جميعاً.

ص: ٤٣٢

١- (١) مستدرک الوسائل، ج ١٢، الباب ٩٣ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ح ٥.

٢- (٢) غرر الحكم، ٥٦٦٤.

٣- (٣) وسائل الشيعه، ج ٤، الباب ١٢ من أبواب التعقيب، ح ٧.

٤- (٤) . سورة يونس، الآيه ٥٨.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان صفة أخرى من صفات المتقين ذات الصلة بالتربية وتهذيب النفس فقال:

«إِنْ اسْتَضَعَبْتَ (١) عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ».

هذا في الواقع أحد مراحل السلوك إلى الله والذي يصطلح عليه بمرحلة «المعاقبه» التي تأتي بعد مراحل «المشارطه» و «المراقبه» و «المحاسبه» أى يشترط على نفسه منذ الصباح حين ينطلق فى يومه الجديد على عدم مقارفة أى ذنب، ثم يعيش المراقبه طيله يومه ومن ثم يتفرغ ليلاً لحساب ما أتى به من عمل فى النهار، فإن ظفر بمخالفه هب لمعاقبه نفسه كأن يمنع نفسه ما ترغب فيه، مثلاً يحرم نفسه من الطعام اللذيذ والفرش المريح والنوم الكافى وما شاكل ذلك ليؤدب نفسه الجامحه فتعيش طاعه الله فى الأيام القادمه، وهذا البرنامج مؤثر وعملى لتهذيب النفس وبالطبع أن كل من داوم عليه سيلمس آثاره وبركاته بعد مدّه ليست طويله.

ثم أشار إلى أربع صفات مهمه أخرى فقال:

«قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْجِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ».

والعباره

«قُرَّةُ عَيْنِهِ» بالنظر إلى أن «قُرَّة» من ماده «قر» (على وزن حر) تعنى فى الأصل البروده والعرب تعتقد أن دموع الشوق بارده دائماً ودموع الحزن حاره ومحرقة، فإن هذه العبارة تقال حيث السرور والفرح، وعليه فمفهوم العبارة المذكوره أن عين المتقين مسروره بعالم الآخرة، ذلك لأنه عالم خالد ودائم، كما قال القرآن عن أصحاب الجنة: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» (٢) وقال أيضاً:

«فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٣) وبالنظر إلى أنه وحسب ما ورد فى الأقسام السابقه من الخطبه فإن هؤلاء يرون بأعينهم فى هذه

ص: ٤٣٣

١- (١) . «استصعب» من «صعوبه» مأخوذه من «استصعاب» بمعنى التصعيب وعدم الخضوع.

٢- (٢) . سورة هود، الآية ١٠٧.

٣- (٣) . سورة السجده، الآية ١٧.

الدنيا الجنه ونعمها، وتحصل لهم حاله السرور وقره العيون، وبالعكس حيث ايقنوا أنّ الدنيا متقلبه فلم يتعلقوا بها قط، ومزجهم الحلم بالعلم والقول بالعمل كان من أهم نقاط قوتهم، ذلك لأنّ العالم إن لم يكن حليماً إزاء جهل الجهال تعذر عليه هدايتهم وإرشادهم وإن لم يقترن قوله بفعله لم يعد لكلامه من تأثير، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ كَمَا يَزِلُّ الْمَطَرُ عَنِ الصَّفا» (١).

ص: ٤٣٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٩، ح ٦٨.

إشارة

تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلَهُ، قَلِيلًا زَلَلَهُ، حَاشِحًا قَلْبُهُ، قَابِعَهُ نَفْسُهُ، مَنزُورًا أَكَلَهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزًا دِينَهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُومًا غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ.

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطَى مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيدًا فُحِشُهُ، لَيْنًا قَوْلُهُ، غَائِبًا مُنْكَرُهُ، حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِرًا شَرُّهُ. فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٍ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٍ، وَفِي الرِّخَاءِ شُكُورٍ. لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتِمُّ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسِي مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَدَمَتْ لَمْ يَغْمَهُ صَيْمَتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ. وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتَعَبَ نَفْسَهُ لِإِحْرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعِيدَهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدًا وَنَزَاهَةً، وَدُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبَرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيْعَةٍ.

الشرح والتفسير: تسع صفات أخرى

إشارة

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى تسع من صفات المتقين فقال:

«تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلَهُ، قَلِيلًا زَلَّهُ، خَاشِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنزُورًا (١) أَكَلَهُ، سَهْلًا أَمْرَهُ، حَرِيرًا (٢) دِينَهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُومًا (٣) غَيْظُهُ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى قصر الأمل، لأنّ طول الأمل - كما ورد في الروايات - ينسى الآخرة ونسيان الآخرة طامه كبرى تفرز مختلف المعاصي والذنوب.

صحيح أنّ وجود الأمل لدى الإنسان مدعاه للحركة والنشاط، كما جاء في الحديث النبوي الشريف:

«الْأَمَلُ رَحْمَةٌ لِأُمَّتِي وَلَوْ لَا الْأَمَلُ مَا رَضَعَتْ وَالِدَةٌ وَلَدَهَا وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجْرًا» (٤). ولكن إن تجاوز هذا الأمل الحد وتبدل إلى أمل طويل فإنّه يدفع جميع قوى الإنسان وأفكاره نحو الدنيا وينسيه كلّ شيء، بل يتعذر حتى على الإنسان في ظلّ هذه الحالة أن يستثمر دنياه.

وإننا لنرى أنّ قلة زلات المتّقين كونهم يبعدون أنفسهم عن مطبات الذنوب وذكرهم الدائم لله تبارك وتعالى. وخشوع قلوبهم نتيجة لعرفانهم بالله، لأنّ الإنسان كلّما ازداد إدراكه لعظمه المعبود ازداد خضوعه له، وقناعه المتّقين معلوله لسعه افقهم إزاء النعم الماديّة للدنيا ومتاعها وزخرفها، وبما أنّهم يؤمنون بفنائها وزوالها فهم لا يجازفون في السعى للحصول عليها فيقتنعون منها بذلك المقدار اللازم، وقلة طعامهم لعلمهم بأنّ كثرة الأكل - وبغض النظر عمّا تفرزه من أنواع الأمراض - فإنّها تسلبهم حيويته العبادة ومناجاة الله، أضف إلى ذلك فإنّها تجعلهم يغفلون عن ذكر المعوزين من أهل الفاقة.

وجاء في الحديث عن الإمام عليه السلام في غرر الحكم:

«مَنْ اقْتَصَدَ فِي أَكْلِهِ كَثُرَتْ صِحَّتُهُ وَصَلَحَتْ فِكْرَتُهُ».

ص: ٤٣٤

١- (١). «منزور» من مادة «نزر» على وزن «نذر» قليل.

٢- (٢) «حريز» من مادة «حرز» على وزن «قرض» الحفظ و «حريز» الشيء المحفوظ.

٣- (٣) «مكظوم» من مادة «كظم» على وزن «هضم»، ويقال «مكظوم» للشخص الغاضب والذي يتمالك نفسه.

٤- (٤). سفينه البحار، ج ١، ص ٣٠، مادة «أمل»؛ بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٣.

العبارة:

«سَهْلًا أَمْرُهُ» إشارة إلى أنه سهل لين في أعماله الشخصية، كما أنه سهل المؤونه إزاء الناس، وأنا لنرى بعض الأفراد الذين يعيشون حالة من التكلف القسوى بشأن سفر أو ضيافه ويزجون بأنفسهم في أتون عذاب أليم، أو يخوضون صراعاً قد يستغرق أشهراً وربما سنوات تجاه الناس لانتزاع حق بسيط، والحال يعيش المتساهلون حياه وادعه مريحه على المستوى الشخصى إلى جانب الراحة فى علاقاتهم مع الآخرين.

العبارة:

«حَرِيْرًا دِيْنُهُ» إشارة إلى أنه يهتم قبل كل شىء بحفظ إيمانه وعقيدته ومبادئ دينه، ولا- يضحى بها من أجل المال والمقام والشهوه.

والعبارة:

«مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ» لا تعنى أنهم يفتقرون إلى الشهوات، بل يسيطرون بعقولهم وإيمانهم على تهذيب هذه الشهوه، وهوذات التعبير الرائع الذى ساقه القرآن الكريم بشأن يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» (١).

وأما العبارة:

«مَكْطُومًا غَيْظُهُ» بعد الصفات السابقه إشارة إلى أن حفظ الدين وأداء الوظائف قد يؤدى أحياناً إلى ردود فعل طائشه من قبل بعض الجهال والذى يثير الغضب لدى المتقين، لكنهم مسلطون على أنفسهم ويكظمون غيظهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلى أربع صفات من صفات المتقين البارزه فقال:

«الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ».

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«أَلَا أُتْبِكُمْ لِمَ سَمِيَ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا؟ لِإِيْمَانِهِ النَّاسَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، أَلَا أُتْبِكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِ؟ الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ» (٢).

فإن كان هذا هو حال العاديين من المسلمين والمؤمنين، فمن الأولى أن يكون

ص: ٤٣٧

١- (١) سورة يوسف، الآية ٢٤.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٦٠، ح ٣.

كذلك الوضع بالنسبة للمتقين الذين يمثلون نخبة المؤمنين والمسلمين، فهؤلاء مصدر الخيرات والبركات ولا يتلقى الناس منهم أى شر.

وجاء فى الحديث النبوى الشريف:

«إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ النَّحْلِ إِنْ صَاحَبْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ جَالَسْتَهُ نَفَعَكَ وَكُلُّ شَأْنِهِ مَنَافِعٌ وَكَذَلِكَ النَّحْلُ كُلُّ شَأْنِهَا مَنَافِعٌ» (١).

قال بعض الأعلام: إن وجه المشابهة بين المؤمن والنحل حذق النحل وفطنته وقلة أذاه ومنفعته وقناعته وسعيه فى النهار وتنزهه عن الاقذار وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره (٢)، أضف إلى ذلك فإن النحلة تنتج الشهد العظيم الفائدة، بالإضافة إلى أن دورانها حول الأزهار يؤدى إلى تلقيح مختلف أنواع النباتات، ناهيك عن لسعتها التى تعدّ وسيلة للدفاع عن نفسها من العدو ذات فائده عظيمه فى علاج بعض الأمراض ومفرده الخير والشر مفهوم غايه فى السعه تشمل الخيرات الماديه والمعنويه وجميع الشرور الماديه والمعنويه كذلك.

والعبارة:

«إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كِتَابٌ فِي الذَّاكِرِينَ» إشاره إلى أنه لا يتأثر حين يكون وسط بعض الغافلين من الأفراد فهو لا ينفك عن ذكر الله واليوم الآخر، كما لا يعيش حاله الغفله حين يكون وسط الذاكرين.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات مهمه أخرى والتي تعدّ من كرامات المتقين فقال:

«يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ».

يردّ الإنسان بالمثل أحياناً على ما يواجهه من إساءات من الآخرين والتي غالباً ما تفرزها حاله الثأر والانتقام؛ ولكن لا تمارس أحياناً مثل هذه المعامله وهذا بالطبع الأسلوب الذى يطبع سيره أولياء الله والمتقين، فهم يتجاوزون ويعفون عن ظلم الظلمه فى الوقت الذى يتمكنون فيه من الانتقام والرد بالمثل، وهذا بحد ذاته

ص: ٤٣٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٢٣٨.

٢- (٢) . المصدر السابق.

شجاعه لأنه ينبع من موقع القوه وليس من قبيل الاستسلام تجاه الظلم، ويعتمد البذل والعطاء تجاه من حرمه ومنعه، وهذا دليل على جوده وكرمه.

وبالتالى فهو يمد يد المصالحة والسلام لمن يقاطعه ويشمله بعونه ونجدته وهذا شجاعه وكرم.

جاء فى الخبر المروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟ فَيَخْرُجُ عَنْقٌ مِنَ النَّاسِ. فَتَسْأَلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ: وَمَا كَانَ فَضْلُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: «كُنَّا نَصِلُ مَنْ قَطَعَنَا وَنُعْطِي مَنْ حَرَمَنَا وَنَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَنَا».

فَيَقُولُونَ لَهُمْ: «صَدَقْتُمْ اذْخُلُوا الْجَنَّةَ»(١).

وقد أمرنا الله تعالى فى القرآن الكريم بصوره عامه وشامله بهذا الخلق، حيث خاطب النبى صلى الله عليه وآله قائلاً: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ»(٢).

ثم أشار الإمام عليه السلام فى عبارات قصيره وعميقه المعنى إلى ست صفات بارزه أخرى فى المتقين فقال:

«بَعِيداً فُحْشُهُ(٣)، لَيْناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ».

والصفات الست التى يقابل كل زوج فيها الآخر وتفسر بعضها البعض الآخر تشير إلى سلوكيات وتصرفات المتقين الاجتماعيه.

والعبارة:

«بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيْناً قَوْلُهُ» إشارة إلى أن معاملتهم لجميع الناس تنطلق من اللسان الجميل والكلمات المفعمه بالخير والمحبه وليس فى أقوالهم وأعمالهم أى نوع من العنف والغلظه، فهم ليسوا بعيدين غايه البعد عن الفاحش من القول فحسب بل هم أبعد ما يكونون عن الفاحشين.

وقد ورد فى الروايه عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن حد حسن الخلق أنه

ص: ٤٣٩

١- (١) الكافى، ج ٣، ص ١٤٩.

٢- (٢) سوره المؤمنون، الآية ٩٦.

٣- (٣). «فحشه» يقال لكل من تجاوز حد الاعتداء وبلغ الحد الفاحش. ولذا يقال فحشاء للأعمال والأقوال القبيحه والمنكره، وأخذت المفردتان فاحشه وفحشاء من هذا أيضاً.

قال:

«أَنْ تُلِينَ جَنَاحَكَ، وَتُطِيبَ كَلَامَكَ، وَتَلْقَى أَخَاكَ بِبِشْرٍ حَسَنٍ» (١).

والعبارة:

«غَائِبًا مُنْكَرُهُ» تشير إلى انعدامه؛ أى لا يبدر منه أى منكر إزاء الآخرين.

ويحتمل أن يكون المراد أنه لو بدرت منهم زلّة، فهي ليست بزلةٍ عليته على الأقل لتلوث المجتمع.

والعبارة:

«حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ» إشاره إلى جميع المحاسن التي يقرّها العقل والوجدان والشرع وليست غريبه عليها (من مادة عرفان بمعنى المعرفة).

والمراد من

«مُقْبِلًا - خَيْرُهُ، مُدْبِرًا شَرُّهُ» أنهم مندفعون على الدوام فى الإتيان بأفعال الخير، وإن كانت لهم من أعمال سيئه فى الماضى فهم يسعون إلى هجرانها والإبتعاد عنها.

ثم أشار إلى ثلاث من صفاتهم الحميده فقال:

«فِي الزَّلَازِلِ (٢) وَفُورٍ (٣)، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شُكُورٌ».

والمراد من

«زلزل» الحوادث الأليمه والفتن العظيمه التي تهز القلوب. فالمتقون يربطون جأشهم إزاء هذه الخطوب ولا يفقدون معنوياتهم ويقفون إزاءها كالجبل الأصم الذى لا تحركه الرياح العاتيه،

«الْمُؤْمِنُ أَضِلُّبُ مِنَ الْجَبِيلِ» (٤) فهم صامدون وهذا يدل على أنّ التقوى لا- تعنى الإ-عتزال عن المجتمع والخلود إلى الدعه والراحه، بل المتقون الحقيقيون هم أولئك الذين يتصدون للأحداث الصعبه ويسعون جاهدين وبكل شجاعه لإنقاذ أنفسهم ومجتمعاتهم ممّا يعصف بها من خطوب.

والصبر على المكاره يمثل أحد فروع الصبر الذى يشمل كلّ مصيبه وحادثه أليمه. فالمتقون ثابتون وصامدون فى هذا الميدان، ذلك لأنّ الجزع إزاء المصائب

- ١- (١) الكافي، ج ٢، ص ١٠٣.
- ٢- (٢) . «زلازل» جمع «زلزله» و «زلزال» بمعنى الحركه الشديده والصعبه. ويقال الزلازل للشدائد من الأحداث.
- ٣- (٣) «وقور» من «وقر» على وزن «فقر» تعنى فى الأصل الثقل ويقال الوقور للشخص الذى لا يضطرب.
- ٤- (٤) . الكافي، ج ٢، ص ٢٤١.

يقود الإنسان إلى المعصية والسيء من القول من جهه، ومن جهه أخرى يغلق على الإنسان السبيل لمعالجه الموقف.

وشكرهم عند النعمه ناشىء من تواضعهم لله والخلق، فهم ليسوا على غرار المتكبرين الذين تنسيهم النعمه والمال والمقام والثروه كل شىء فيتمردون على الخالق والمخلوق.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى للمتقين فقال:

«لَا يَحِيفُ (١) عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتُمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ».

فهذه الصفات الثلاث تنطلق من روح المتقين الداعيه إلى الحقّ والساعيه للعداله، والعاذل من ينصف حتى عدوه فى إيصال حقّه، كما قال تعالى فى القرآن: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا» (٢).

ولا يهب صحبه أكثر من حقهم بما يؤدى لتضييع حقوق الآخرين، كما قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ» (٣).

وهذا هو سرّ اعترافهم بالحقّ قبل إقامه الشهود عليه، ذلك لأنّ الذين يسلمون إزاء الشهود لا يعتبرون ممن يسلم للحقّ، وإقامه الشهود هى التى اضطرتهم للتسليم؛ أمّا من ينشد الحقّ والعدل فهو ذلك الفرد الذى ينطلق إلى صاحب الحقّ ليعثر عليه ويؤدّى حقّه ويفك رقبتة من ظلامه الآخرين، وعلى هذا الضوء لابدّ أن ينطلق المدين إلى الدائن ويفتش المؤمن عن صاحب الأمانه، على العكس ممّا تشهده المجتمعات المجانبه للتقوى.

نعم، فالمتقون من لا يقصرون فى أداء الحقوق وليسوا بحاجه للقضاء والمحاكم كما أنّ العداوه والصداه لا تخرجهم من حدود الحقّ والعدل.

ص: ٤٤١

١- (١). «يحيف» من ماده «حيف» تعنى الظلم فى الأصل و «لا يحيف» أى لا يظلم.

٢- (٢) سورة المائده، الآيه ٨.

٣- (٣) سورة الأنعام، الآيه ١٥٢.

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«أَتَقَى النَّاسَ مَنْ قَالَ الْحَقَّ فِيمَا لَهُ وَعَلَيْهِ» (١).

ثم واصل عليه السلام كلامه ليشير إلى سبع صفات بارزات أخرى من صفات المتقين بعبارات منسجمه فقال:

«لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ (٢) بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ (٣) بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ».

للعبارة:

«لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ» معنى واسع يشمل جميع الأمانات الإلهية والاجتماعية، من الصلاة التي قال فيها القرآن: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» (٤). حيث يحافظون عليها من خلال أدائها بإخلاص بعيداً عن السمعه والرياء، وكذلك سائر الأمانات، كالقرآن الكريم وأحكام الشريعة والأولاد الذين وهبهم إليهم الله تعالى ومختلف الأمانات التي يأتمنهم عليها الآخرون، فهم يسعون حثيثاً للحفاظ عليها ولا يفرطون بها بسبب التساهل والغفلة والتقصير.

العبارة:

«لَمَا يَنْسَى مِمَّا ذُكِّرَ» إشاره إلى جميع ما يذكر به من الأمور المفيدة من جانب الله تعالى وأولياء الله والمخلصين من الأساتذة والمعلمين والأصحاب والأصدقاء، فهؤلاء ليسوا من أهل النسيان الذين يتغاضون عن دروس الهدى والحق ولا يلتزمون بها، وإذا ما اعتراهم شيء من وساوس الشيطان تذكروا الله وإرشادات أوليائه فيعودون إلى رشدهم وهداهم، قال الله تعالى في القرآن: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» (٥).

والعبارة:

«وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ» إشاره لما ورد في القرآن الكريم: «وَلَا تَنَابَرُوا

ص: ٤٤٢

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١١٢.

٢- (٢). «ينابز» من ماده «نبر» على وزن «نبض» نعت الآخريين بلقب سييء و «التنابز بالألقاب» أن يدعو الآخريين ويذكرهم بألقاب سيئه.

٣- (٣). «يشمت» من «شماته» بمعنى التفرع والفرح لحزن الآخريين.

٤- (٤). سورة المؤمنون، الآية ٩.

٥- (٥) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

بِالْأَلْقَابِ» (١). لأن ذكر هذه الألقاب يُوجج في القلوب نيران العداوة والبغضاء فيضطر الطرف المقابل إلى ممارسه ردود الأفعال الطائشه، الأمر الذى يلوث أجواء المجتمع ويحطم شخصيه الأفراد.

وعدم أذى الجار والشماته بالمصائب التى وردت بعد مسأله التنازب بالألقاب تشير إلى رعايتهم للحقوق الاجتماعيه واحترام الآخرين فى الجوانب كافه. وقد ورد الحث على رعايه حقوق الجار فى القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وآله وروايات الأئمه المعصومين عليهم السلام فقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّتُهُ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورَثُهُمْ» (٢).

من جانب آخر فإننا نعلم أن من أصابته مصيبه فهو كالإنسان المجرور المحتاج إلى من يخفف عنه ويطبب جرحه، والشماته هنا كذر الملح على جروحه، وليس هنالك من إنسان حى يسمح لنفسه أن يقوم بهذا العمل. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ سَمَّتْ بِمُصِيبَتِهِ نَزَلَتْ بِأَخِيهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُفْتَنَ» (٣).

وآخر الصفات التى وردت فى العبارة المذكوره عدم دخول المتقين فى الباطل وخروجهم من دائره الحق التى تنطوى على معانٍ عميقه جداً، أبى المتقى - على ضوء ما ذكر - الدخول فى الأفكار الباطله والتصرفات الباطله والخوض فى الأقوال الباطله ولا يتبع سوى الحق المطلق ولا يحدد عنه فى مطلقاً وأينما كان وتجاه كل شخص وازاء كل عمل.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفاتهم فقال:

«إِنْ صَمَّتْ لَمْ يَغْمُهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُعِيَ عَلَيْهِ صَبْرٌ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ».

فالمتقى لا يغتم فى سكوته، مع أن السكوت فى أغلب الأحيان يؤدى إلى حاله

ص: ٤٤٣

١- (١). سورة الحجرات، الآية ١١.

٢- (٢) نهج البلاغه، الرسائل، ٤٧.

٣- (٣) الكافى، ج ٢، ص ٣٥٩.

من الكآبه والحزن، ذلك لأنَّ السكوت أساس نجاه اللسان من أغلب الآفات، بالإضافة إلى كونه يدعو إلى التفكير في أمور الدين والدنيا، جاء في الحديث النبوي الشريف:

«طوبى لِمَنْ... أَنْفَقَ الْفُضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفُضْلَ مِنْ قَوْلِهِ»^(١).

كما أنَّ المتقى لا- يضحك بصوت عال ويقهقهه في ضحكه، لأنَّ القهقهه من عادات الأثرياء المغرورين والأفراد الفارغين، قال أميرالمؤمنين عليه السلام في غرر الحكم:

«خَيْرُ الضَّحِكِ التَّبَسُّمُ».

والعبارة:

«وإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ...» إشاره إلى أنه أحياناً قد يمارس بعض الأصدقاء والقرايه وربّما حتى الاخوه ظلماً بحقّ الإنسان بحيث لوهب للانتقام لنشبت نزاعات مستمره قد تنتهى إلى ما لا يحمد عقباه، فإنَّ إعتد الإنسان في ظلّ هذه الظروف التحمل واستيعاب الآخر وسلم الطرف المقابل لله يكون قد أنقذ نفسه من الوسوس الشيطانيه الخطيره، كما يكون قد حافظ على حاله الهدوء والاستقرار في المجتمع، طبعاً ليس المراد من هذا الكلام العدووالغادر والقاسى، ذلك لأنّ مثل هذا التحمل والسكوت يدعو لمزيد من الظلم والطغيان.

ثم أشارالإمام عليه السلام إلى أربع صفات أخرى تكمل كلّ واحده منها الأخرى فقال:

«نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ. وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ». أى أنه يتحمل المزيد من العناء بغيه استقرار المجتمع، مثلاً لو ظهرت بعض المشاكل في المجتمع جهد نفسه وتحمل بعض المشاق لحل تلك المشكلات بغيه إراحه المجتمع فالواقع أنّ هذا نوع من الإيثار والتضحية يعمد بموجبه الإنسان إلى تحمل بعض المشاكل الاجتماعيه من أجل راحه خلق الله.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ العبارة الثالثه والرابعه

«أَتَعَبَ نَفْسَهُ...» بمثابه الدليل على العبارتين السابقتين؛ أى إن كانت نفسه في عناء من جانبه فذلك لأنه يسعى دائماً للاستعداد والتزود للدار الآخرة، وإن كان الناس منه في راحه

ص: ٤٤٤

فذلك لأنه قرر ذلك.

كما يحتمل أن تكون العبارتان واردتين بشأن مسأله أخرى، فالعبارتان السابقتان إشاره إلى الأمور الماديّه، وهاتان العبارتان إشاره للأمر المعنويّه.

قال الإمام عليه السلام:

«مَنْ عَمَرَ دَارَ إِقَامَتِهِ فَهُوَ الْعَاقِلُ» (١). وقال تعالى: «وَإِنَّ الْأَخْرَجَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» (٢).

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بأربع صفات أخرى من الصفات البارزه للمتقين الاختتام الذي ربّما لم يكن آخر الخطبه لولا تلك الحادته التي وقعت لهما ولعله أشار لمطالب مهمّه أخرى بهذا الشأن) فقال:

«أَتَعْبَ نَفْسَهُ لِأَخْرَجِهِ، وَأَزَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعِيدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ؛ وَدُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكَبِيرٍ وَعَظْمَةٍ، وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيْعَةٍ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في ذكره لهذه الصفات إلى نقطه مهمّه وهي: أنّ المتقين في صلاتهم الاجتماعيّه وتعاملهم مع الأصدقاء والأعداء واقامتهم للعلاقات أو قطعها مع هذا أو ذاك وبالتالي التعامل مع جميع الأمور إنّما ينشدون أهدافاً مقدّسه؛ فإن بعدوا عن شخص فإنّما ذلك بسبب تلوثه بالمعاصي أو أنّ الاقتراب منه يجعلهم عرضه للافتتان بزخارف الدنيا التي ابتلى بها هذا الفرد، وبالطبع فإنّ اقترابهم من الأفراد يستند إلى دورهم في هدايه الجهال وتنبيه الغافل ومساعدته الضعيف والفقير، أمّا أصحاب الدنيا فإنّما يتبعون عن هذا الفرد أو ذاك بسبب كبرهم وغرورهم ويقتربون من هذا أو ذاك بغيه تحقيق مصالحهم الماديّه والخداع والتضليل.

مصير همام بعد سماع الخطبه

صرّح الراوي بعد نهايه الخطبه التي ذكرها الإمام عليه السلام حين بلغ هذا الموضع من

ص: ٤٤٥

١- (١). غررالحكم.

٢- (٢) سورة غافر، الآية ٣٩.

«قَالَ: فَصَعِقَ هَمَامٌ صَعَقَهُ كَأَنَّهُ نَفْسُهُ فِيهَا».

«فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: أَهَكَذَا (١) تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةَ بِأَهْلِهَا».

«فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بِالكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!».

«فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيَحْكُ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتًا لَيَعْدُوهُ، وَسَبَبًا لَيَتَجَاوَزُهُ».

ثم أضاف الإمام عليه السلام:

«فَمَهْلًا! لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!».

وهنا يرد هذا السؤال: لم كانت عاقبه همام تلك الصعقه بينما لم تحدّث للإمام عليه السلام الذى ساق هذا الكلام؟

لابدّ من الالتفات فى الجواب عن هذا السؤال إلى نقطه مهمه وهى أنّ همام وإن كان رجلاً عابداً وزاهداً كما ورد فى مستهل الخطبه

«كَانَ رَجُلًا -عَابِدًا» وقلبه يفيض حكمه ومعرفه وروحه مفعمه بالصفاء والنقاء (كما يتجلى ذلك من سؤاله) ولكن مهما كانت روحه ساميه لا- يمكن مقارنتها بروح أمير المؤمنين عليه السلام التى تمثّل بحراً من السّمّ والكمال، ومن هنا لم يسع قلب همام تحمل كلّ تلك المفاهيم والمعارف، وهل يمكن سكب البحر فى جدول صغير؟ وعليه فليس من العجب أن يصعق همام صعقه تكون نفسه فيها ويفارق الدنيا.

فقد ورد فى القرآن الكريم بشأن قصه موسى وبنى اسرائيل وتجلي النور الإلهى للجبل: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا» (٢).

فلم يقتصر الأمر على عدم تحمل موسى، بل إنهار ذلك الجبل بعظمته.

نعم! فالمواعظ التى تنطلق من القلب تستقر هكذا فى القلب، والمهم أن يكون الإنسان من ذوى

«الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ» وإلّا فآلتها من الأفراد من ذوى القلوب

١- (١). جاءت فى النسخه علامه الاستفهام على رأس «هكذا»؛ لكنها لم تذكر فى الكثير من النسخ القديمه وشرح نهج البلاغه وهو الأنسب.

القاسيه والملوثه والواقعه فى شباك الشيطان لا تمتلك الآذان الصاغيه لسماع المواعظ ولا القلب الوداع لاستيعابها.

بعباره اخرى أنّ همام وإن كان متّقياً على الهّمّه، لكنه لم ير فى نفسه ذلك السّموّ الذى بيّنه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه، فاشتعلت فى أعماقه نيران الحسرّه وصعقت نفسه كمدّاً.

ويشهد التاريخ الإسلامى على وجود العديد من هذه النماذج من الآثمين أحياناً الذين عادوا إلى رشدهم وعدد من المتّقين الذين سمعوا مثل هذه المواعظ فلم يتحملوها وفارقوا الحياه(١).

وهنالكَ احتمال ثالث وهو أنّ همام لما سمع البشائر التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام للمتّقين حلقت روحه شوقاً إلى ديار المعبود لتعانق الجنان.

وجاء فى الخبر أنّ «ربيع بن الخُثيم» كان فى ذلك المجلس فلما صعق همام جرت دموعه على خديه وقال لأمير المؤمنين عليه السلام ما أسرع أثر وعظك فى ابن أخى ليتنى كنت مكانه، فقال عليه السلام:

«هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةَ بِأَهْلِهَا!»(٢).

والجواب عن السؤال الثانى هو ما ذكره الإمام عليه السلام أنّ لكلّ إنسان أجلاً فلا يفارق الدنيا حتى يحلّ أجله، ولكن حين حلول الأجل يمكن أن يكون العامل النهائى بعض الأمور المختلفه، والعامل النهائى هنا العبارات العميقه لأمير المؤمنين عليه السلام، أضف إلى ذلك لا- يمكن مقارنة روح الإمام عليه السلام بروح همام، فروح الإمام بحر متلاطم من الأمواج وليس من قبيل البركه التى تتغير أوضاعها بفعل التلاطم الشديد للمياه.

ويتّضح ممّا تقدم جواب السؤال الثالث وهو لِمَ قبل الإمام عليه السلام طلب همام وبين له تلك المواعظ الشافيه والكافيه والساميه، بينما قال عليه السلام كنت أخشى عليه هذه

ص: ٤٤٧

١- (١) ذكر المرحوم العلّامة التستري فى شرحه نهج البلاغه، ج ١٠، ص ٤٥٩ نماذج منها.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للتستري، ج ١٢، ص ٤٦٢.

الحادثه؟! لأنَّ العامل النهائي حين حلَّ أجله يمكن أن يكون تغييراً لمختلف أجهزه البدن أو الأمواج المعنويّه العاتيه داخل الروح.

أمّا قول الإمام عليه السلام للمعترض: (لا تعدّ لمثلها فإنّما نفث الشيطان على لسانك) فذلك لأنّه لم يطرح السؤال بغيه التحقيق لفهم الموضوع بل كان هدفه نقض كلام الإمام عليه السلام وبعبارة أخرى إبطاله حسبما يظن، والحقّ أنّ سؤالاً بهذا الشكل ولأجل هذا الهدف لهو سؤال شيطانيّ.

تأمل

نظرة أخرى لخطبه همام

هذه الخطبه في الواقع دوره متكامله في الأخلاق الإسلاميه التي تسلط الضوء على جميع زوايا الحياه الفرديّه والاجتماعيه والماديّه والمعنويّه للإنسان، كما أنّها نظام متكامل لأولئك الذين يرومون السير والسلوك إلى الله.

فقد بيّنت صفات المتّقين بأسلوب بديع خلال أكثر من مائه وعشر صفات (وكأنّه عليه السلام اختار العدد الذي يمثل اسمه المبارك) فانطلق بها من إصلاح اللسان واختتمها بالتدين الاجتماعي واحترام حقوق الآخرين، فهناك بعض الأفراد الذين ينسحبون من الميدان منذ الخطوه الأولى أثر ضعف إيمانهم وخواء إرادتهم، لكن غيرهم من الأفراد مثل همام وباجتيازه لهذه الخصال يحث الخطي للقاء المعبود.

ومن المزايا التي تتصف بها هذه الخطبه أنّها تنتشل التقوى من صيغتها السلبيّه التي تراود أذهان البعض وتعرضها بصيغتها الإيجابيه كما وردت في الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه.

وهذه الخطبه لا تقول لك عليك باعتزال عن المجتمع والانقطاع عن كلّ شيء في الدنيا لتبقى محافظاً على طهرك، بل ترشد إلى الإندكاك في وسط المجتمع ووسط الأمواج العاتيه لحياه أصحاب الدنيا بحيث لا يترك ذلك بصماته السيئه عليك، على

ص: ٤٤٨

غرار الإنسان القوى البنيه الذى يبقى محافظاً على سلامته وسط المرضى ويقاوم كآفه الميكروبات والجراثيم.

وقد صنف المرحوم العلامة الشهيد المطهرى التقوى إلى قسمين فى كتابه (عشر مقالات): تقوى الضعف وتقوى القوه، وقال عن تقوى الضعف: إنَّ الإنسان وبغيه صون نفسه من المعاصى يهرب من أسبابها، وتقوه القوه: أن يخلق فى روحه قوه وقدره بحيث تمنحه حصانه روحيه وأخلاقيه.

ويضيف: يشاهد فى أدابنا الشعريه والثريه بعض التعليمات التى تعكس التقوى بصورتها الأولى التى ينبغى التعامل معها بحذر، ثم يتطرق إلى شرح تقوى القوه ويقول: «إنَّ التقوى فى النصوص الدينيه سيما نهج البلاغه تعنى تلك الملكه المقدسه التى تمد الروح بالقوه والإقتدار وتلجم النفس الأماره وتكبح جماح العواطف الجامحه»^(١).

نعم فالتوقع والإعتزال لا يعدّ فخراً، والفخر إنّما يحقّ ليوסף عليه السلام الذى صان نفسه عن تلك الرغبات الجنسيه الشديده وحفظ نفسه من الفحشاء ببرهان ربّه وذلك مثل التقوى فى أعلى مستوياتها.

طبعاً لا- ننكر أنّ البعض لم يبلغ هذه المرحله من التقوى (تقوى القوه)، وما أكثر من يضطر لانتخاب الصنف الأول (تقوى الضعف).

ص: ٤٤٩

١- (١) راجع الأقوال العشره، ص ٧-١١.

يَصِفُ فِيهَا الْمُنَافِقِينَ (١)

نظرة إلى الخطبه

الخطبه كما يبدو من عنوانها في المنافقين حيث تتحدث عن صفاتهم وتتكون من قسمين:

القسم الأول: يتدئ بحمد الله والثناء عليه والشهادة بالرساله للنبي صلى الله عليه وآله وتركزت خاتمته على المحن العظيمه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما حاكه المنافقون وخصوم الدعوه الإسلاميه ضده من مؤامرات خطيره، وحيث تواصل خط النفاق واشتد بعد النبي صلى الله عليه وآله على عهد الإمام عليه السلام فقد حذر عليه السلام في القسم الثاني من الخطبه من خطوره المنافقين وذكر بالأدله والبراهين للمجتمع الإسلامى خصائصهم الواحده تلو الأخرى ليتعرف عليهم جميع المسلمين ويقبروا مؤامراتهم فى مهدها.

ص: ٤٥١

١- (١) سند الخطبه: أشار صاحب مصادر نهج البلاغه إلى مصدرين لإثبات نقل الخطبه من أشخاص غير السيد الرضى؛ الأول: ما رواه المير يحيى العلوى فى كتاب الطراز الذى ذكر جوانب من الخطبه مع بعض الاختلافات ما يدل على أنه أخذها من غير نهج البلاغه. والثانى: ما ذكره الأمدى فى غرر الحكم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٦٩).

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَنَسَأَلُهُ لِمَنْتِهِ تَمَامًا، وَبِحَيْلِهِ اغْتِصَامًا. وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَمَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلِّ غَمْرَةٍ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ. وَقَدْ تَلَوْنَ لَهُ الْأَذْنَونَ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونَ رَوَاجِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أْبَعْدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ.

الشرح والتفسير: معن الرساله

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبه كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهاده للنبي صلى الله عليه وآله بالرساله، وقرن الحمد والثناء هنا بالتضرع والدعاء فقال:

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ (١) عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَنَسَأَلُهُ لِمَنْتِهِ تَمَامًا، وَبِحَيْلِهِ اغْتِصَامًا».

ولما كان أعظم فخر للإنسان هو التوفيق للطاعه وترك المعصيه، فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على هاتين النقطتين، والمراد من التوفيق هنا توفير أسباب الطاعه وترك المعصيه، ذلك لأن الله أفاض علينا العقل والفتنه والضمير الحى وبعث الأنبياء والرسول وأنزل الكتب السماويه التى تقرّبنا جميعاً من الطاعه وتبعدنا عن المعصيه، ولولا هذه الأسباب لغرقنا فى مستنقع المعصيه، وعليه يجدر بنا حمد الله وشكره على الدوام على هذه النعم العظيمه.

أمّا الدعاء الذى ذكره الإمام عليه السلام فى عبارتين عقب هذا الحمد والثناء؛ فهو يتعلق

يطلب إكمال هذه النعم والتوفيق للاعتصام بحبل الله، والمراد منه دين الله كما يفهم من الآية الشريفة: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» (١).

أو المراد القرآن الكريم كما يستفاد من حديث الثقلين حيث قوله:

«كِتَابَ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» (٢) أو المراد كلاهما حيث ليس هنالك من فارق بينهما.

الحق سنصبح أسعد الناس إن شملنا هذا التوفيق الإلهي بحيث تتم نعمه علينا ويقوى تمسكنا بحبل الله.

وقد طرح بعض شراح نهج البلاغه إشكالاً مفاده: كيف يطلب الإمام عليه السلام إتمام النعمة، بينما صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَاتُحْصَوْهَا» (٣) في إشاره إلى أن نعم الله خارجه عن حدود العد والإحصاء؟

ولكن ما ينبغي الالتفات إليه هو أن لإتمام النعم مراحل ودرجات؛ فإن تعذر على الإنسان بلوغ المرحلة النهائية فإنه يستطيع الوصول إلى سائر مراحلها الأخرى وهذا ما سأله الإمام عليه السلام الله تبارك وتعالى.

ثم شهد عليه السلام بنبوّه النبي صلى الله عليه وآله بذكر بعض الصفات البارزة من صفاته فقال:

«وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كَلْعَمْرَهُ (٤)، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كَلْعُصَّهُ (٥)».

وهاتان الصفتان التي بينهما الإمام عليه السلام بشأن النبي صلى الله عليه وآله جامعتان لكل صفات الخير؛ فالوقوف بوجه المحن والجلد على المصائب مالم يقترن بتلك المقاومة والتحمل فإنه لن يتمخض عن تبلور الأعمال ذات الأهميه.

وتشير العبارة:

«تَجَرَّعَ فِيهِ كَلْعُصَّهُ» إلى أن المحن والخطوب التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وآله لم تكن واحده أو اثنتين بل كان يتجرعها الواحدة تلو الأخرى.

ص: ٤٥٤

١- (١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٢- (٢) مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٣، سورة آل عمران، رواه أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وآله.

٣- (٣) . سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

٤- (٤) «غمره» من «غمر» على وزن «خمر» إزاله أثر الشيء ثم اطلقت الغمره والغامر على ما ازدحم وكثر من الماء.

٥- (٥) «غصه» تعنى فى الأصل الماء والغذاء وكل ما يحشر فى الحلقوم وحيث يشعر الإنسان بأن شيئاً يحشر فى حلقه عند الغم فقد عبر عن ذلك بالغصه.

فقد تحمل من أعداء الإسلام أشد المصاعب، صابراً حيث زرعو طريقه بالأشواك والعقبات، لكنه تخطاها جميعاً، وهذا بحد ذاته درس لجميع الأفراد الذين يرومون مواجهه الطاغوت وإصلاح مجتمعهم.

ثم بين الإمام عليه السلام جانباً من بعض المصائب العظيمة التي واجهها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إبان الدعوه إلى الله بعبارات قصيرة وعميقه المعنى فقال:

«وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الْأَذْنُونَ (١) ، وَتَأَلَّبَ (٢) عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا (٣) ، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونَ رَوَاحِلِهَا (٤) ، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أْبَعْدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ (٥) الْمَزَارِ».

والعبارة:

«تَلَوَّنَ لَهُ الْأَذْنُونَ» إشاره إلى أنّ البعض من قرابه النبي صلى الله عليه وآله كالعباس الذى كان يرغب فى دعمه وإسناده لم يكن جاداً بهذا الخصوص.

والعبارة:

«تَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ» إشاره إلى سائر القبائل البعيده عن قريش والتي اتحدت مع بعضها وألبت سائر القبائل للوقوف بوجه النبي صلى الله عليه وآله ودعوته بحيث لم يكن يجرأ أحد من قرابته للدفاع عنه بشجاعه فى ظلّ تلك الظروف كما كانت وتيره العداة تتصاعد بالشكل الذى يصعب معه مواجهتها.

والعبارة:

«خَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونَ رَوَاحِلِهَا» إشاره إلى سرعه وجديّه الخصوم فى معاداته صلى الله عليه وآله، ذلك لأنهم حين يريدون للراحله أن تسيّر بسرعه يسلسون قيادها ويضربون بطنها واضلاعها. والتاريخ الإسلامى بكلّ فصوله وصفحاته ليشهد على هذه الحقيقه، حيث إنّ الأعداء لم يتورعوا عن القيام بأى فعل كانوا يعتقدون أنّ من شأنه القضاء على الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله والدعوه؛ لكن الله أراد لهذا النور أن يتمّ ولا- يطفأ وأن يزداد إشراقاً يوماً بعد آخر، وقد أفضل

ص: ٤٥٥

١- (١). «أذنون» جمع «أذن» بمعنى القريب، وعليه «أذنون» يعنى الأقرباء فى مقابل «أقصون» الأبعد.

٢- (٢). «تألّب» من ماده «ألّب» على وزن «أمر» بمعنى التجمع من كلّ حدب وصوب كما تستعمل بمعنى تعبئه الآخرين وحشدهم ضد شخص معين أو جماعه.

٣- (٣) «أعنته» جمع «عان» وهو جبل اللجام.

٤- (٤) «رواحل» جمع «راحله» بمعنى المركب وغالباً ما تعنى الناقه.

٥- (٥) «أسحق» من مادة «سحق» على وزن «قفل» بمعنى أقصى كما تعنى اسحق أقصى نقطه.

خططهم واطفاً بمطر لطفه ورحمته نيران فتنهم ومؤامراتهم فخرج النبي صلى الله عليه وآله من هذه الأحداث الخطيره منتصراً
مرفوع الرأس وبسط نفوذ الإسلام ونشر راياته في غرب العالم وشرقه.

ولكن حيث كان للمنافقين في الداخل - أولئك الذين أظهروا إسلامهم وإلتحقوا ظاهرياً بركب المسلمين بينما كانت قلوبهم مع
الأعداء وتختزن البغض والعداء - دور مهم وخطير تواصل حتى عهد الإمام عليه السلام وتغلغل بين صفوف المسلمين، فقد حذر
المسلمين تحذيرات جدّيه بشأن خط النفاق وشرح - كما سيأتي - في القسم القادم خصائص المنافقين وأخطارهم وسلط ابن
أبي الحديد الضوء هنا على المخاطر والصعوبات التي تخطاها رسول الله إبان الدعوه وقال:

«من قرأ وكتب السيره علم ما لاقى رسول الله صلى الله عليه وآله في ذات الله من المشقة واستهزاء قريش به في أول الدعوه
ورميهم إتياء بالحجاره حتى أدموا عقبيه وصياح الصبيان به وفرث الكرش على رأسه وفتل الثوب في عنقه وحصره وحصر أهله
في شعب بنى هاشم سنين عدّه محرّمه معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتى كادوا يموتون جوعاً لولا أنّ بعضاً ممن
كان يحنو لرحم أو لسبب غيره فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم
بالجوع والوثاق في الشمس وطردهم إياهم عن شعاب مكه حتى خرج من خرج منهم إلى الحبشه وخرج عليه السلام مستجيراً
منهم تاره بثقيف وتاره بنى عامر وتاره بربيعة الفرس وبغيرهم، ثم اجمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتى هرب منهم لائذاً
بالأوس والخزرج تاركاً أهله وأولاده حتى وصل المدينه فناصره الحرب ولم يزل منهم في عناء شديد وحروب متصله حتى
أكرمه الله تعالى ونصره وادى دينه، ومن له أنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه»^(١). (هذه هي الأمور
التي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه العبارات القصيره والعميقه المعنى).

ص: ٤٥٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٦٥.

إشاره

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَ النَّفَاقِ، فَإِنَّهُمْ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُونَ الْمُرْتَلُونَ، يَتَلَوْنُونَ أَلْوَانَ، وَيَفْتَنُونَ افْتِنَانًا، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرْضِدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وَصِدْفُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْسُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدْبُونَ الصَّرَاءَ. وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعِيَاءُ. حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، وَمُؤَكَّدُ الْبَلَاءِ، وَمُقْنَطُوا الرَّجَاءِ.

لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَيْرِيْعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيْعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوَدٍ مَوْعٌ. يَتَقَارِضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ إِنْ سَأَلُوا أَلْحُفُوا، وَإِنْ عَيَدُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا.

الشرح والتفسير: خطر المنافقين

كما ذكرنا في آخر القسم السابق فإن الإمام عليه السلام أشار هنا إلى صفات المنافقين ليحذر المسلمين من خطرهم فذكر أوصافهم بمنتهى الدقة بحيث يعجز غيره بالخوض في صفات المنافقين بهذا العمق والدقة.

واستهل كلامه بست من صفاتهم فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَ النَّفَاقِ، فَإِنَّهُمْ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُونَ (١) الْمُرْتَلُونَ، يَتَلَوْنُونَ أَلْوَانَ، وَيَفْتَنُونَ (٢) افْتِنَانًا».

ص: ٤٥٧

١- (١). «الزَّالُونَ الْمُرْتَلُونَ» من ماده «زله» بمعنى الخطأ والزلل.

٢- (٢) «يفتنون» من «افتنان» من ماده «فن» بمعنى التزيين «يفتنون افتناناً» بمعنى تزيينهم لأعمالهم بأشكال مختلفه لخداع الآخرين.

فالصفه الأولى التى ذكرها الإمام عليه السلام للمنافقين تتمثل فى ضلالهم؛ ليس ضلالهم فحسب بل إصرارهم على إضلال وإغواء الآخرين، أضف إلى ذلك فهم خاطئون يسعون إلى قذف الآخرين فى لهوات الخطأ والزلل.

ويبدو الفارق بين الضالين والزالين واضحاً، فالأولى: إشاره إلى السير عن عمد وعلم فى طريق الضلال والغوايه، وتشير الثانيه إلى كثره زلاتهم وأخطائهم.

نعم! فزلاتهم جمه كثيره وكيف لا تكون كذلك ولم يستضيئوا بنور العلم والإيمان.

وبغض النظر عن هذه الخصال الذميه الأربع فهم أفراد متلونون يخرجون كل يوم بلون معين ويلبسون شكلاً آخر فى كل زمان ليحققوا أغراضهم الدنيئه من خلال ذلك فإذا كانوا بين المصلين وقفوا للصلاه، وإن خالطوا أهل الخمر والفجور انغمسوا فى تعاطيها، بالضبط كما وصفهم القرآن: «وَإِذَا لُقُّوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ» (١).

وربما يكون الفارق بين

«يتلونون» و«يفتنون» أنّ الأولى تشير إلى جوانبهم وأبعادهم الظاهريه حيث يكتسبون كل يوم لوناً، والثانيه إشاره إلى خططهم الخفيه بحيث يعمدون كل يوم لخطه مشبوّهه، فطبيعه النفاق تتمثل فى أقوالهم وأفعالهم وخططهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى هذا الإطار فأشار إلى ست صفات أخرى من الصفات الخطيره التى يتصف بها المنافقون بعبارة قصيره عميقه المعنى فقال:

«وَيَعْمِدُونَكُمْ (٢) بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرْضُدُونَكُمْ (٣) بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ (٤) ،

ص: ٤٥٨

١- (١) سورة البقره، الآيه ١٤.

٢- (٢) . «يعمدونكم» من ماده «عمد» المراد أنهم يعتمدون كل وسيله للقدح بكم.

٣- (٣) «يرصدونكم» من «رصد» على وزن «صدف» بمعنى الاستعداد للمراقبه وبمعنى التربص والارتقاب.

٤- (٤) «دويه» من ماده «دوى» من «دواً» بمعنى المرض ودوى (صفه مشبهه على وزن فعيل) بمعنه المريض ومؤنثه دويه ولكن «دواء» على وزن دمار من هذه ماده بمعنى ما يعالج به المرض.

وَصَفَّاحُهُمْ (١) نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدْبُونَ (٢) الضَّرَاءَ (٣)، وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفَعْلُهُم الدَّاءُ الْعِيَاءُ (٤)».

والعبارة:

«وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ» إشارته إلى أنهم لا يتورعون عن التشبث بكل وسيلة للقضاء عليكم، من قبيل بثّ الشائعات وإثاره الشكوك في صفوف المؤمنين وبث الفرقة والعداوة والبغضاء والفساد....

والعبارة:

«وَيَرْصِدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ» إشارته إلى أنهم لا يغضون الطرف عن أدنى فرصة بغية تسديد الضربات إلى السلمين والانقضاض عليهم. فهم متربصون فإذا ما سنحت أدنى فرصة وثبوا عليكم.

وجميع العبارات القادمة تعكس ازدواج شخصيته المنافقين واختلاف ظاهرهم عن باطنهم فقال إنّ قلوبهم مريضة وظاهرهم سليم، أقوالهم تبدو شافية، غير أنّ تصرفاتهم سقيمة لا علاج لها، فجميع أعمالهم مقرونة بالمؤامرات السرية والخطط الشيطانية الخفية.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين ثلاث صفات أخرى فقال:

«حَسَدُهُ (٥) الرَّحَاءِ، وَمُؤَكَّدٌ وَالْبَلَاءِ، وَمُقْنَطُوا الرَّجَاءِ».

قال تعالى في القرآن المجيد: «إِنْ تَمَسَسْتُمْ بِكُمْ حَسَدُهُ تَسْوُهُمْ وَإِنْ تُصَبِّحُوا بِهَا (٦)» وهذه هي طبيعته المنافقين في كل عصر ومصر.

ص: ٤٥٩

١- (١). «صفاح» جمع «صفح» بمعنى صفحه الوجه أو الورقة وأمثال ذلك وتشير هنا إلى أنّ ظاهر المنافقين طاهروباطنهم سيء.

٢- (٢) «يدبون» من «ديب» أى يمشون على هيئته الدبيب ببطء وتأنى وشمل كل متحرك من حيث المفهوم اللغوى سواء كان يمشى سريعاً أم بطيئاً.

٣- (٣) «ضراء» يعنى الأرض الواسعة التى تلتف فيها الأشجار وتلجأ إليها الحيوانات الصحراوية للاختفاء.

٤- (٤) «عياء» من «عئى» بمعنى العجز و «داء العياء» يراد بها هنا المرض الذى أعجز الأطباء علاجه (العياء هنا مصدر له معنى الصفه).

٥- (٥). «حسده» جمع «حاسد» مثل «قتله» جمع «قاتل» بمعنى الشخص الذى يحسد.

٦- (٦) سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

إن بثّ اليأس والتشاؤم بغيه إضعاف الإرادة والقضاء على قوّه الجهاد والمقاومه، هي إحدى الحيل الخطيره للمنافقين بحيث لو نجحت لانطوت على آثار غايه فى الخطوره، ويبدو هذا الموضوع أعظم خطوره فى العصر الراهن حيث تخيم فيه وسائل الإعلام على جميع أرجاء المعموره، وقد وُصف المنافقون هذه الوسيله فى داخل وخارج البلدان الإسلاميه لإدخال اليأس فى قلوب المسلمين وصدّهم عن الرقى والتقدم والتطور وتمهيد السبيل للقضاء عليهم. ولا بدّ هنا من الصمود لمواجهه هؤلاء الشياطين بكلّ ما أوتى المسلمون من قوّه والتذكير بالألطف الإلهيه والعنايات الخفيّه وخلق الأمل هنا وهناك والجهر بهذا المبدأ: «إِنْ تَنْصِرُوا اللَّهَ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (١)، «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢).

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات من صفاتهم فقال:

«لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيحٌ» (٣)، «وَأَلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ (٤) دُمُوعٌ».

العباره الأولى كناية عن كثرة الأفراد الذين يذهبون ضحيه مؤامراتهم وخططهم أو يتعرضون للأذى والضرر.

وتشير العباره الثانيه إلى أنّ المنافقين يسعون بمختلف الحيل وأساليب الخداع والتملق للنفوذ إلى القلوب والإيحاء إلى الآخرين بأنهم من أصدقائهم.

وتشير العباره الثالثه إلى أساليبهم المضلله فى الخداع وذرف دموع التماسيح على مصائب المؤمنين ليغطوا من خلال ذلك على بغضهم الباطنى وعداوتهم

ص: ٤٦٠

١- (١) . سوره محمد، الآيه ٧.

٢- (٢) سوره آل عمران، الآيه ١٣٩.

٣- (٣) . «صريح» من «صرع» على وزن «فرع» بمعنى المطروح على الأرض وله معنى اسم المفعول بمعنى المطروح.

٤- (٤) «شجو» بمعنى الحزن.

المتأصله في قلوبهم فيخدعون الناس ويستقطبونهم إلى أوديه الضلال فيجعلونهم يعيشون ذلك البؤس والشقاء.

والعبارة الرابعة إشاره إلى كثرة الأفراد الذين خدعوا بهم وهلكوا بفعل ضرباتهم الموجهه، وإشاره إلى أنّ ضحاياهم ليسوا قلائل بحيث يمكن تجاوزهم بسهولة، فهم على درجه من الكثره وكان كلّ زقاق وشارع فقد ضحيه لمؤامراتهم ومخططاتهم، وبناءً على ما تقدم فلولم يتصد المسلمون لإفشال خططهم فسوف لن يسلم أحد من ضرباتهم المهلكه.

والعبارة الخامسة تخبر عن الأعيبيهم بغيه اختراق القلوب، فهم على الدوام شركاء مع اللصوص ورفاق قطاع الطرق والذين يزودون السراق بكلّ المعلومات عن القوافل ويتعاونون معهم جنباً إلى جنب، ولذلك فهم يسعون ليوحوا لكلّ من يصادفونه أنّهم من خلص أصدقائه.

والعبارة السادسة هي إكمال وتأکید لما ورد في العبارة السابقه؛ فهؤلاء يصوّرون للآخرين أنّهم يشاطرونهم أحزانهم ويذرفون دموع التماسيح على مصائبهم بينما يضحكون في باطنهم ويشعرون بالسرور والفرح، نعم هذا هو ديدن النفاق.

وأشار عليه السلام في مواصلته لكلامه إلى صفتين قبيحتين وذميتين من صفات المنافقين فقال:

«يَتَقَارِضُونَ النَّئَاءَ، وَيَتَرَأَّبُونَ الْجَزَاءَ».

نعم فكّل واحد منهم يخوض في المجلس في مدح الآخر والاشاده به وينسب له بعض الصفات الحميده التي ليس لها من صله بشخصيته، على أساس أنّه يطالبه أن يعامله بالمثل فيمدحه ويثنى عليه في مجلس آخر، فمدحهم وثنائهم لا ينطلق من الحقّ قط وتقدير المحسنين والأخيار، بل الهدف سماع المزيد من الكذب المشابه لما يورد بحقّه.

والعبارة:

«يَتَرَأَّبُونَ الْجَزَاءَ» هي الأخرى تأكيد على هذا الموضوع وتعبير آخر عن هذه الصفة الذميمة والمريضة، أي أنّهم لا يقدمون خدمه مجانيه بعيده عن الرياء لكائن من كان، بل يتوقعون مقابلها خدمه لهم، ولا يقتصر ذلك على الثناء فحسب بل في كلّ أمر وحيثما ما كان.

ص: ٤٦١

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم ببيان ثلاث رذائل أخلاقية ذميمة للمنافقين فقال:

«إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا (١) ، وَإِنْ عَذَلُوا (٢) كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَّمُوا أَسْرَفُوا».

إنَّ حاجه الناس لبعضها البعض متبايناً لا يمكن إنكاره وقد توجب هذه الحاجه أحياناً أن يلجأ أحد للآخر لمساعدته في حلِّ مشكلته، إلّا أنَّ الإلحاح عمل قبيح، فذلك الطرف المقابل ربّما لا يريد أو يتعذر عليه القيام بذلك العمل أو قبول ذلك الطلب فيشعر بحاله من الخجل والانزعاج من ذلك الإلحاح.

قال القرآن الكريم في بيان صفة المؤمن حين الحاجه: «لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» (٣) إلّا أنَّ المنافقين يريدون نيل أهدافهم وإن أخذ الطرف المقابل حياءً واضطر للعمل خلاف رغبته وميله؛ وكذلك إن إرادوا نصح شخص وأمره بالمعروف كما يزعمون ذهبوا بماء وجهه وسط الآخرين، بينما صرحت التعاليم الإسلاميه بأن هذا العمل ينبغى أن يتم بمنتهى الدقه واللطف؛ بما يحفظ ماء وجه المسلم ولا يكدره ويجعله يعيش حاله من الحزن والغم.

وتشير العبارة:

«وَإِنْ حَكَّمُوا أَسْرَفُوا» إلى أن المنافقين إن بلغوا منصباً فإنهم ليس فقط لا يؤدّون حقّ ذلك المنصب، بل يسلكون طريق الاسراف فيغضبون الله والناس لضمان مصالحهم اللامشروعه، قال القرآن الكريم بشأن بعض المنافقين:

«وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَأُحِبُّ الْفُسَادَ» (٤).

ويحتمل أن يكون المراد من قوله

«إِنْ حَكَّمُوا» أنهم إن تصدّوا للحكم في مسأله معينه فإنّ حكمهم لا يستند إلى العدل قط وأنهم ينتهكون حدود العدل والقسط، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين.

ص: ٤٦٢

١- (١) «ألحفوا» من «الحاف» بمعنى الإصرار والإلحاح في الطلب.

٢- (٢) «عذلوا» من «عذل» على وزن «هزل» بمعنى لاموا.

٣- (٣) . سورة البقره، الآيه ٢٧٣.

٤- (٤) سورة البقره، الآيه ٢٠٥. والتفسير فوق أحد تفاسير هذه الآيه.

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقِّ بَاطِلًا، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مَضِيٍّ بَاحًا. يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالنَّيَّاسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَشْيَاءَ فَهَمُّهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلَاقَهُمْ، يَقُولُونَ فَيْشَ بَهُونَ، وَيَصِدُّونَ فَيْمَوْهُونَ. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيْقَ، فَهَمُّ لُئِمَهُ الشَّيْطَانِ، وَحُمَهُ النَّيِّرَانِ:

(أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

الشرح والتفسير: التخطيط الدقيق للمنافقين

أشار الإمام عليه السلام في هذا الحانب من الخطبه الذي يمثل ختامها إلى أنّ المنافقين يندفعون نحو تنفيذ مآربهم وفق خطط جهنميّه متكامله، واستنفروا أفكارهم لحل كل معضله تعرض عليهم وأعدوا البرامج اللازمه للقضاء على معارضيهم فقال عليه السلام:

«قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقِّ بَاطِلًا، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مَضِيٍّ بَاحًا».

فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقه في هذه العبارات الخمس واستناداً لمفرده

«أَعَدُّوا» أنّ المنافقين يلتمون بجميع الشؤون الإيجابيه للمجتمع ويخططون لمواجهتها والقضاء عليها، وقد انطلقوا من بعض الحلول حتى في المواقف الصعبه التي تواجههم ليتمكنوا من خلال ذلك من فتح ما أغلق عليهم من أبواب وإزاله ما يعترض طريقهم من عقبات، فهم يحملون سراجاً في الليالي الظلماء لتحقيق مآربهم.

وكثيراً ما تلاحظ الشواهد الحيّة لهذه العبارات العميقة المعنى فى كلام الإمام عليه السلام طيله التاريخ ولا سيما القرون الإسلاميه الأولى؛ ومن ذلك الحجج والذرائع لتنجيه الإمام عليه السلام عن الخلافه (كونه شاباً أو فيه دعابه) وإحراق بيت الوحي بعد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بذريعه المخالفه لإجماع المسلمين (الإجماع الذى ليس له من وجود خارجى) والمطالبه بدم عثمان ومن جانب أولئك الذين تلطخت أيديهم بدمه، ورفع القرآن على أسنه الرماح حين الأشراف على الهزيمه وما شابه ذلك.

والطريف أنهم يتشبثون أحياناً ببعض الأمور التى تثير الدهشه لدى كل إنسان مطلع؛ مثلاً حين قيل لجيش معاويه إنكم أنتم «الفئه الباغيه» التى أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله فى حديثه المعروف بشأن عمار حين خاطبه قبل ثلاثين سنه وقال له:

«يا عَمَارُ تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ» فردوا على ذلك: إن قاتل عمار هو على، لأنّه هو الذى أتى به! ونحن لم نقتله(١).

ثم أشار عليه السلام إلى حيله أخرى من حيلهم فى النفوذ إلى القلوب فقال:

«يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيَتَقِيمُوا بِهِ أَسْوَأَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَغْلَاظَهُمْ(٢)».

فهم نفعيون مشبهون رأس مالهم الكفر والنفاق والضلال وزبائنهم السذج من الأفراد وثمان هذه المعامله فقدان الدين والإيمان، على غرار بعض التجار الذين لا يهتمون للمشتري حين الشراء بغيه استقطاب الآخرين لشراء بضائعهم على أساس أن:

«الإنسان حريصٌ على ما مُنِعَ» فيثيروا الرغبه لدى الطرف المقابل ليقبل على متاعهم الفاسد والتالف فيشتريه بأعلى الأثمان.

ثم قال عليه السلام:

«يَقُولُونَ فَيَشَبَّهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيَمَوِّهُونَ(٣)».

نعم! فهؤلاء دائماً ما يبدون النفاق والضلال بصيغه الحقّ ليقبله منهم الناس

ص: ٤٤٤

١- (١) صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٨٥ وسفينه البحار، مادّه «عمر» وسائر مصادر الفريقين.

٢- (٢) «إعلاق» جمع «علق» على وزن «حزب» الأشياء المحببه أو الشىء النفيس.

٣- (٣) «يموهون» من «تمويه» بمعنى تزيين الشىء للضلال ومزج الحقّ بالباطل.

الذين ينددون الحق بفعل فطرتهم وطبيعتهم فيغوصوا في مستنقع من الضلال.

وقال في صفة أخرى:

«قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضَلُّوا (١) الْمَضِيقَ».

ونحن نجد هذا الأسلوب عند منافقى عصرنا الذين يستقطبون العديد من الناس بسهولة ويلحقونهم بهم، ثم يقطعون العديد من التعهدات والمواثيق التي يبدو من الصعوبة بمكان الخروج منها كما يقوم الاستكبار العالمى الناهب وبغية توريث الأمم والشعوب بمنحها بعض القروض وبشروط غاية في السهولة بادئ الأمر، فإذا ما وقعت في شباكهم وخذعت بألاعيبهم مارسوا معها مختلف الضغوط وبشتى الوسائل ليفرضوا عليها رغباتهم وأغراضهم في حين تكون هذه الشعوب قد غاصت في مأزق يصعب عليها الخروج منه.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذا التحذير قائلاً:

«فَهُمْ لَمَّةٌ (٢) الشَّيْطَانِ، وَحُمَةٌ (٣) النَّيْرَانِ : «أَوْلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (٤)».

تأمل

النفاق والمنافقون طيله التاريخ

لا يسع أحد تحديد الانطلاقة التاريخيه للنفاق والمنافقين. فهناك العديد من الأفراد الفاسدين والمفسدين فى المجتمعات البشرىة الذين ينبرون للمواجهه حين يمتلكون القوه والقدرة اللازمه لها؛ ولكنهم حين يتجرعون الهزيمة، يعمدون إلى إرتداء ثوب النفاق ليتحولوا إلى خلايا سريه ويواصلوا من خلال ذلك العمل لتحقيق أهدافهم المشبوهه، ويبدو أنهم يستسلمون فى الظاهر ويعربون عن إخلاصهم وإلتحاقهم بالجماهير لكنهم يعتمدون سرياً مختلف الخطط والمشاريع لتحقيق

ص: ٤٦٥

١- (١) «أضلعوا» فى الأصل من ماده «ضلع» وبسبب عوج الاضلاع فإن «اضلاع» يعنى يجعلونها معوجه.

٢- (٢). «لمة» تعنى الجماعه من النساء والرجال من ثلاثه إلى العشره وتشير هنا إلى قلبه عددهم وكثره خطرهم.

٣- (٣) «حمه» تعنى السم ويقال «حمه» لكل ما يلسع، مثل حمه وحراره الشمس.

٤- (٤) سورة المجادله، الآيه ١٩.

مآربهم وأهدافهم المُغرَضه.

ولعل من أبرز خصائص المنافقين الإزدواج فى الشخصيه، الإزدواج فى الظاهر والباطن والقول والفعل والمجالس الخاصه والعامه وبالتالى الإزدواج فى كل شىء والذى شرحه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه بعبارات بمنتهى العمق والدقه، فهؤلاء يزعمون أنهم مصلحون بينما فى الواقع هم مفسدون حقيقيون، ويحسبون أنفسهم أذكاء وعقلاء والآخرين حمقى وأغبياء، والحال هم الحمقى والبلهاء.

وهؤلاء شركاء اللصوص وأصحاب القوافل ورفاق الناس وعملاء الأجانب الذين يعتاشون على البلد ويعيشون التبعية للاستعمار.

وإذا ما برزت عاصفه وجدّ الجدّ وحان وقت التضحيه والفداء التمسوا الذرائع الواهيه وصرحوا «إِنَّ بِيُوتَنَا عَوْرَه»^(١) وانسحبوا من الميدان، وهنا بالضبط تتكشف أوجه النفاق ويماط اللثام عنها أثر بروز الأحداث والصعوبات.

وخلافاً لما يعتقد بعض السذج من أبناء العامه من أنّ كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع كلامه أو وقعت عيناه عليه اكتسب هاله من القدسيه واصطلاح عليه بالصحابى وأحرزت عدالته وصدقه، فإنّ هنالك العديد من المنافقين الخطرين بين معاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله والذين أشارت إليهم سورة المنافقين وكما أشارت بصوره أوضح وأعمق سورة التوبه وسوره الأحزاب وسائر السور القرآنيه، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله موقفه الشديد منهم، ومن يتأمل هذه السور القرآنيه ويتمعن فيها يدرك شدّه موجه النفاق حتى فى آواخر عمر النبى صلى الله عليه وآله إلماً أنّ نفوذ النبى وقدرته والانتصارات الباهره للمؤمنين سلبتهم زمام المبادره.

فقد نشطوا عقب رحيل النبى صلى الله عليه وآله وأعدوا مختلف الخطط المشبوهه وبلغ سعيهم درجه بحيث اعتلوا على عهد بنى أميه منبر رسول الله صلى الله عليه وآله بعنوان خلفاء النبى صلى الله عليه وآله حيث شغله من اعتنق الإسلام آواخر عهد النبى صلى الله عليه وآله وابن أعدى أعداء النبى ألا وهو

ص: ٤٤٤

١- (١). سورة الأحزاب، الآية ١٣.

معاويه «خال المؤمنين» وهذه قصه لا مجال لبحثها.

وكثيراً ما يشاهد اليوم النفاق فى عالمنا المعاصر أكثر من أى وقت مضى، حيث ينشط فيها المنافقون بإعداد مختلف الخطط التآمرية وبوسائل وأدوات وإمكانات هائله والكثير من العملاء فى مختلف بقاع العالم والاستفاده من جميع الوسائل الحديثه والمتطوره والمشاريع الشيطانيه.

كما تمارس البلدان الاستعماريه التى تتوقف حياتها على إمتصاص دماء الآخرين مختلف الجرائم والجنايات تحت غطاء بعض العناوين البراقه من قبيل حقوق الإنسان والحريه والديمقراطيه، سيما فى البلدان التى لا-تتماشى مع سياستهم، حيث تتعالى أصواتهم لممارسه أدنى عنف بحقّ سجين بينما تخرس ألسنتهم حيال ما يجرى فى سائر السجون كسجن «أبو غريب» فى العراق و«غوانتانامو» حيث ترتكب أبشع الجرائم التى قل نظيرها فى التاريخ والتى دوت فضائحها فى مختلف أرجاء العالم.

فهم يسعون فى ظلّ هذه الحريه لسلب حريه العمل والعقيده جميع معارضيههم ويسعون لترسيخ وتأسيس الحكومات العميله لهم، بل لا يتورعون أحياناً من التصريح علناً بأنّ أفضل خيار لنا هى الحكومات التى ترعى مصالحنا.

وبالتالى يتحدّث هؤلاء عن الحكومات الشعبيه، بينما يسعون جاهدين لإسقاط أى حكومه يقف ورائها الشعب لكنها لا تضمن مصالحهم.

ولعل إحدى طرقهم الخبيثه ما يقدمونه أحياناً كمساعدات أو قروض دون مقابل وأخرى مع مقابل وفائده، والهدف غير المعلن بالطبع هو خلق التبعية فى تلك الدول والبلدان، ذلك لأنّها إن أصبحت تابعه كان عليها أن تقبل مكرهه كلّ ما يملى عليها؛ وهذه قصه عميقه الفصول كثيره الشعب يتطلب شرحها العديد من الكتب والمجالات وليس هنالك من سبيل للخلاص من مخالف هؤلاء المنافقين المتغطرسين والمتسلطين والمتلونين سوى وحده الشعوب المظلومه والمقهوره

ص: ٤٦٧

فتقوم بالدرجه الأولى بكشف النقاب عنها وكشف حقيقتها ليعرفها الجميع، ثم تهب وفق خطه مدروسه لمقاومتها، والحقّ بما أنّ المنافقين يقتصرون على تحقيق أهدافهم الماديّة فإنّهم يفتقرون إلى روح الفداء والتضحية وبالتالي فهم محكومون بالهزيمة والفشل.

ص: ٤٦٨

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيَعِضُ (١)

نظرة إلى الخطبه

يمكن تصنيف الأبحاث التي بينها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حمد الله والثناء عليه مع ذكر بعض آثار الذات القدسيه والتي تعدّ من عجائب عالم الوجود، ثم الشهاده للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرساله والإشاره إلى بعض الصفات البارزه من صفاته.

والقسم الثاني: إشاره إلى الهدف من خلق الإنسان ومراقبه الله له وشرحها بعبارات غايه في الروعه والجمال.

والقسم الثالث: الوعظ بالتقوى والاستعداد لحساب الآخره وحضور محكمه العدل الإلهيه.

ص: ٤٤٩

١- (١) سند الخطبه: هذه الخطبه من خطب نهج البلاغه المحدوده التي لا مصدر لها سوى نهج البلاغه.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلَالَ كِبَرِيَّائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَّ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامَ الْهُدَى دَارِسَهُ، وَمَنَاهِجَ الدِّينِ طَامِسَهُ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ؛ وَنَصَحَ لِلخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح والتفسير: البعث النبويه والظروف الصعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبه - كسائر الخطب - بحمد الله والثناء عليه، ولكن بعبارات جديدة وتشبيهات مريبه للنفوس ومهذبه لها.

فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلَالَ كِبَرِيَّائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَّ (١) الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ (٢) النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ».

حقاً لو أمعن الإنسان النظر في عالم الخلق من الذره حتى المنظومات السماويه والمجرات وأنواع النباتات والأزهار والثمار مروراً بالأصناف العجيبه للحيوانات

ص: ٤٧١

- ١- (١). «مقل» جمع «مقله» على وزن «غرفه» الجانِبِ المحيط بالعين الذي يشمل السواد والبياض وقد شبه الإمام عليه السلام العقل هنا بالإنسان الذي له عين باصره تطلع إلى الأشياء العجيبه فتندهش لها.
- ٢- (٢) «هماهم» جمع «همهمه» بمعنى الصوت الخفى الذي يطرق الأذن ولكن لا تدرك معناه.

والطيور والسباع وحيتان البحار ووحوش الصحارى والأنواع المذهله للحشرات والأحياء الدقيقه لتعرف كل يوم على عجائب جديده وغرائب شتى فيها؛ والتي يكشف عنها كل يوم تطور العلم البشرى ويعكس عجائب خلقتها بما يجعل الإنسان يعيش حاله من الدهول إزاء قدره الخالق الحكيم، وهذه هى الحقيقه التى تتضح يوماً بعد آخر فى أنه أسمى من الخيال والقياس والوهم، بل أسمى من كل ما رأينا وقرأنا وكتبنا.

ثم أتجه عليه السلام صوب الاقرار بالشهادتين لبيّن كل واحد منهما بعبارات جديده فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيْمَانٍ وَإِيْقَانٍ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانَ (١)».

فهذه العبارات الأربع (إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان) تشير إلى أربع مراحل من العقائد الدينيه، فالإيمان هو المرحله الأولى حيث يقّر الإنسان بشىء ثم يؤمن به رغم ما يثار حوله من شكوك وشبهات جزئيه؛ ولكن مرحله الإيقان هى المرحله التى يزول فيها تلك الشبهات والشكوك ويضحى فيها الإيمان القلبى شفافاً ومشرقاً.

ومرحله الإخلاص مرحله نفى كل ما سوى الله فلا يرى المؤمن سواه فيعشقه ويناجيه ويطلب منه ولا يلتفت إلى أحد غيره، وأخيراً ترد مرحله الإذعان التى تعنى حسب أرباب اللغه الإقرار المقرون بالخضوع، أى يظهر إيمانه فى جميع أعماله وأقواله وتصرفاته، فتصطبغ حياته بالصبغه الربانيه فيصبح مصداقاً لقوله تعالى: «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» (٢).

ومن الطبيعى أن الإيمان واليقين والإخلاص كلما تجذر فى الإنسان كانت ثمرته النهائيه تلك الأعمال.

ولما فرغ عليه السلام من الشهاده لله بالوحدانيه خاض فى الشهاده بالرساله مع ذكر بعض

ص: ٤٧٢

١- (١) «إذعان» من «ذعن» على وزن «وطن» بمعنى الخضوع والإنقياد والطاعه، ومن هنا كان فى المرحله الرابعه التى ذكرها الإمام عليه السلام فى العبارة، الإيمان واليقين والإخلاص ونتيجته ذلك الطاعه والإنقياد.

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ١٣٨.

الصفات البارزة للنبي صلى الله عليه وآله وأهدافه؛ فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَهُ (١)، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَهُ (٢)، فَصَدَعَ (٣) بِالْحَقِّ؛ وَنَصَحَ لِلخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

والعبارة:

«أَعْلَامُ الْهُدَى» تعنى العلامات التى توضع فى طريق المسافرين حتى لا- يضلوا الطريق (كالإشارات الضوئية التى تنصبها إداره المرور فى الطرق والشوارع ليتعرف الناس على تلك الطرق) وتشير هنا إلى تعاليم أئمة الدين وإرشادات الكتب السماويه.

والعبارة:

«وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَهُ» إشاره إلى قوانين السماء التى اعتراها النسيان على عهد الجاهليته.

نعم فقد نهض رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمر وحمل لواء الدعوه فى ظل هذه الظروف وذلك الوسط الذى خيمت فيه ظلمات الكفر على كل مكان فقام بأربعة أمور: الأول أنه بين الحق فى المعارف الدينيه بصوره جليه، ثم هب لابتغاء الخير للناس ودعاهم بإرشاداته ومواظبه إلى ترك الذنوب والفساد والآثام وإمثال الأوامر والطاعة لله ورسوله، وهداهم فى المرحله الثالثه إلى كل ما فيه سموهم وتكاملهم، وأخيراً أوصاهم بالعدل والقسط والاعتدال فى جميع الأمور (صلوات الله وسلامه عليه)، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إلى أركان الدعوه الإسلاميه إلى جانب رسمه صورته واضحه للاوضاع فى عصر الجاهليته.

ص: ٤٧٣

١- (١). «دارسه» من ماده «دراسه» تعنى تكرار الشىء وبما أن الاستاذ يكرر المطلب حين التعلم لذلك يقال درس كما ترد هذه المفردة بمعنى التآكل والاندفاع وهذا هو المعنى المراد فى الخطبه حيث إن الحوادث المتتاليه والرياح والأمطار تؤدى إلى إندثار المباني فقد استعملت بهذا المعنى.

٢- (٢) «طامسه» من «طمس» على وزن «شمس» بمعنى محووزوال آثار الشىء، كما وردت بمعنى الإزاله.

٣- (٣) «صدع» من ماده «صدع» على وزن «صبر» مطلق الشق أو شق الأجسام القويه كما وردت بمعنى الاتضح حيث يتضح باطن الشىء بشقّه وهذا هو المعنى الذى أريد بها فى الخطبه.

وَأَعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا، عَالِمٌ مَبْلَغٌ نِعْمَةٍ عَلَيْكُمْ، وَأَخْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتَحُوهُ، وَاسْتَمْنَحُوهُ، وَأَطِئُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنَحُوهُ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ، وَإِنَّهُ لِبِكْلٍ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ؛ لَا يَثْلُمُهُ الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْجِبَاءُ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِبُهُ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلَا تَحْجُزُهُ هَبَّةٌ عَنْ سَيْلٍ، وَلَا يَشْغُلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُؤَلِّهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلَا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ. قَرَّبَ فَنَائِي، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَّنَ، وَبَطَّنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدِنَ. لَمْ يَدْرَأِ الْخَلْقَ بِاخْتِيَالٍ، وَلَا اسْتِعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ.

الشرح والتفسير: الموائد الإلهية المطلقة

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاث مسائل رئيسية: الأولى هدف الخليفة، ثم النعم الجمه التي تفاض على جميع العباد، وأخيراً التأكيد على المراقبة الدائمة والحضور الإلهي في كل مكان وعلى كل حال. فقال في الأمر الأول:

«وَأَعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا (١)».

وهذا هو اقتباس من الآية الشريفة: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

ص: ٤٧٥

١- (١) «همل» من ماده «همل» على وزن «حمل» تعنى فى الأصل ترك الجمال دون راع، ثم اطلقت على كل شخص أو عمل دون مشرف.

ومن المفروغ منه أنّ الله عليم وحكيم لا- يفعل العبث قط، رغم أنّ منافع الأفعال وفوائدها لا تعود عليه بشيء؛ لأنّه غنى مطلق، ولكن بالطبع لأفعاله آثار وبركات تعود على عباده.

وبما أنّ الشرط الأوّل لبلوغ الهدف يتمثل في وجود الهادى والمرشد فقد وردت العبارة:

«لَمْ يُزْسِلْكُمْ هَمَلًا» عقب العبارة

«لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا»، لأنّ الإرسال في مثل هذه الحالات بمعنى الترك والهمل تقال في الأصل للقطيع دون راعٍ، وعلى هذا الضوء تتضح مسؤوليه الإنسان إزاء أهداف الخليقه وهدايه الأولياء.

وقال عليه السلام في المسأله الثانيه:

«عَلِمَ مَبْلَغَ نِعْمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَخْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ».

والنعمه والإحسان تشمل جميع النعم الماديّه والمعنويّه بالإضافة إلى مختلف القابليات والاستعدادات الباطنيه، وهذا يعنى أنّ الناس يتمتعون بنعمه فلا يسلكون طريق الجحود ولا يهدرون نعم الله ويجتنبون الكسل والتعاس في الانتفاع بهذه النعم وليعلموا أنّ جميع الأسباب والوسائل متوفره للوصول إلى الهدف المنشود والكمال المطلوب.

ثم انتقل إلى المسأله الثالثه فقال عليه السلام:

«فَاسْتَفْتَحُوهُ (٢)، وَاسْتَنْجِحُوهُ (٣)، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ (٤)، فَمَا قَطَعْتُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ».

إشاره إلى أنّ الفيض جاهز من المبدىء الفياض، وقد جاء الآن دوركم لتمدوا إلى خزائن لطفه يد العوز والحاجه وتفتحوا أبواب رحمته وتسألوه التوفيق والفلاح، وأنا لنعلم بالطبع أنّ النتيجة ستكون قطعيه وحتميه حين تقترن قابليه

ص: ٤٧٦

١- (١) سورة المؤمنون، الآيه ١١٥.

٢- (٢). «استفتحوا» من ماده «فتح» تعنى فى الأصل الفتح، وعليه فالاستفتاح طلب الفتح والعون.

٣- (٣) «استنجحوا» من «نجاح» السهوله والوصول إلى المطلوب.

٤- (٤) «استمنحوا» من ماده «منح» على وزن «منح» تعنى فى الأصل اعطاء لبن الحيوان للحيوان ثم اطلقت على مطلق البذل والاعطاء، وعليه استمنح تعنى التماس العطاء.

القابل بفاعليه الفاعل.

وخلافاً لما يظنه الوثنيون وعبداه الأصنام والمشركون وأتباعهم في عصرنا الراهن من أنه لا ينبغي التوجه مباشرة إلى الله ولا بد من عباده غيره ليفتح لهم الطريق إليه تعالى، فقد صرح الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من مانع ولا رادع في الطريق ولكل العباد طرق بابيه وإن استعانوا أحياناً بوجاهه الشفعاء فهذا تأكيد آخر على الاتصال المباشر بالذات القدسيه وإمثال أوامره.

ثم خاض في توضيح هذا الكلام من خلال الإشاره إلى ثلاث نقاط أخرى ليوضح من خلالها الفارق بين عطاء الله وبذل الآخرين فقال:

«وَأِنَّهُ لِبِكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَّانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ؛ لَأَيُّتِلُمُهُ (١) الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحَبَاءُ (٢)، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ».

حيث إن الله الرحيم حاضر في كل مكان وتمدد إلى ساحه كبرياته أعناق وأيدي جميع المحتاجين، بل هو مع كل شخص أينما كان، ومن جانب آخر فإنه ليس لعطائه من حدود، وهو دائم لا ينضب ولا ينفد ولا يخشى عليه التفتير على الآخرين إن منح البعض الآخر، لأنه وجود لامتناه من جميع الجهات ومن هنا فإن جوده وكرمه لا متناه ونعمته وعطاءه لامتناهين أيضاً، بل كما ورد في دعاء الافتتاح:

«وَلَا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُوداً وَكِرْماً»، إشاره إلى أنه كلما أفاض أكثر كلما ازداد أمل الناس بجوده وكرمه.

ثم خاض في المسأله الثالثه:

«وَلَا يَلْوِيهِ (٣) شَخْصٌ عَنِ شَخْصٍ، وَلَا مَا يُلْهِمُهُ صِيُوتٌ عَنِ صِيُوتٍ، وَلَا مَا تَحْجِزُهُ هَيْبَةٌ عَنِ سَيْلٍ، وَلَا مَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنِ رَحْمَةٍ، وَلَا تَوْلَاهُ (٤)»

ص: ٤٧٧

١- (١). «يثلم» من ماده «ثلم» على وزن «صبر» و «ثلمه» على وزن «ضربه» تعنى فى الأصل كسر جانب الشىء، ثم اطلق على كل ما يسبب كسراً لشخص أو شىء.

٢- (٢) «حباء» من ماده «حبو» على وزن «ختم» تعنى فى الأصل العطاء دون مكافأه وهذا هو المعنى المراد.

٣- (٣). «يلوى» من ماده «لوى» على وزن «حى» بمعنى الاعراض والانحراف والميل.

٤- (٤). «توله» من «وله» على وزن «فرح» بمعنى الذهول من شدّه الهم والغم ولذلك يقال الواله للعاشق المغموم.

رَحْمَهُ عَنِ عِقَابٍ، وَلَا يُجِئُهُ (١) الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ».

فهذه العبارات السبع تشجيع من جانب للعباد في أن يسألوه كل ما يريدون، ويعلموا أنه لو تزامنت مع طلبات طلبات الخليقة كافة فإنه عليم بكل هذه الطلبات خبير بها، الأمر الذي لا يدركه إطلاقاً سوى الله تبارك وتعالى وكل ما سواه قد يشغله سؤال شخص عن الإلتفات إلى سؤال آخر.

ومن جانب آخر تحذير لجميع العباد في مراقبه حضور الله تبارك وتعالى في جميع الأحوال وليدركوا كما أن نعمه وعطاياه لا متناهية وأنه لا يخيب أحداً في سؤاله وطلبه وأن رحمته سبقت ومنعت غضبه وأن نعمه لا تحول دون مؤاخذة الظلمه والطغاه وأنه عالم بكل ما يفعلونه في خلوتهم وعلايتهم، والحق ليس هنالك من معنى للغيب والشهادة والبعيد والقريب على الذات القدسيه ولا تجرى هذه الأمور سوى على مخلوقاته المحدوده التي تشعر بالقرب والبعد والخفاء والعلايه.

ثم شرح وأكد ما ذكره في العبارات السابقه بسبع عبارات أخرى تتعلق بصفات الله تبارك وتعالى فقال:

«قَرَّبَ فَنَأَى، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَّنَ، وَبَطَّنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ (٢) وَلَمْ يَدْنُ. لَمْ يَذْرَأْ (٣) الْخَلْقَ بِأَحْتِيَالٍ، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالِ (٤)».

والواقع أن جميع هذه الصفات السبع تستند إلى حقيقه واحده وهى: أنه وجود لامتناه من جميع الجهات، ولذلك فهو حاضر فى كل مكان وفى نفس الوقت فإن كنه هذه الذات اللامتناهيه خارج عن متناول الأفكار، والظاهر والباطن والقريب

ص: ٤٧٨

١- (١) «يجن» من ماده «جنّ» على وزن «فَنّ» أى يستره ولذا يقال لمن ستر عقله مجنون وكذلك يقال لطائفه الجن بسبب سترهم؛ ويقال كذلك للجنين فى رحم أمه، ويقال «جنّه» للباساتين التى سترت أرضها بالأشجار والنباتات.

٢- (٢). «دان» من ماده «دين» على وزن «غير» تعنى أحياناً القرض وأحياناً الجزاء والحساب وهو المعنى المطلوب.

٣- (٣) «لم يذراً» من «ذراً» على وزن زرع؛ بمعنى الخلق.

٤- (٤) «كلال» له معنى المصدر واسم المصدر ويعنى التعب.

والبعيد لديه على حد سواء، واستناداً إلى علمه اللامتناهي فهو غنى عن الحاجة للتفكير حين الخلق ولهذا السبب فليس للتعب والكلل والملل من سبيل إلى ذاته القدسيه، لأنّ هذه صفات المخلوقات ذات القدره المحدوده، فيشعرون بالتعب حين تنفذ طاقتهم وقدرتهم والحق أنّ الإمام عليه السلام قد اعتمد منتهى الفصاحه والبلاغه فى هذه الخطبه ليصور حقيقه واحده بأوجه مختلفه وبعبارات متنوعه غايه فى الجمال والروعه.

ص: ٤٧٩

إشاره

أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا الزَّمَامُ وَالْقَوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَوَلُّ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَى وَأَوْطَانِ السَّعَى، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ، (يَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)، وَتُظَلِّمُ لَهُ الْأَقْطَارُ، وَتُعْطَلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ. وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَرْهَقُ كُلُّ مَهْجَةٍ، وَتَبْكُمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخَ، وَالضُّمُّ الرُّوَاسِخَ، فَيَصِيرُ صَيْلُهَا سَيْرَابًا رَقْرَقًا، وَمَعْهَدُهَا قَاعًا سَمَلَقًا، فَلَا شَفِيعَ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمَ يَنْفَعُ، وَلَا مَعْدِرَةَ تَدْفَعُ.

الشرح والتفسير: أهوال القيامة

أوصى الإمام عليه السلام الجميع هنا بالورع والتقوى وعدد آثار التقوى المهمه فقال:

«أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا الزَّمَامُ وَالْقَوَامُ».

والتعبير

«بزمَام» إشاره إلى قوه التقوى المانعه والتي تحول دون الإنسان وإرتكاب المعصيه وتصده عن السقوط فى مستنقع الفساد والذنب والانحدار فى فخ الشيطان وهوى النفس، و

«قَوَام» إشاره إلى أسس الحياه الطيبه والمقرونه بالسعاده، وبعباره أخرى: أن للتقوى بعد الحيلوله من جانب والبناء من جانب آخر، فإن امتزج الجانبان كملت سعاده الإنسان ونجاته، وبكلمه موجزه فإن سعاده الإنسان تتكامل مادياً ومعنوياً بوجود التقوى.

واعتبر بعض شراح نهج البلاغه أن

«الزَّمَامُ وَالْقَوَامُ» يتعلقان بالعبادات، والحال أن العبارة من قبيل حذف المتعلق الذى يهب المفهوم شموليه، والآيات القرآنيه

شاهد على ذلك أن التقوى سبب النجاه فى الآخرة ومصدر البركه فى الحياه الماديه الدينويه حيث صرح تعالى من جانب: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (١).

ومن جانب آخر: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢).

ثم قال فى مواصله كلامه كتوضيح وتأكيده:

«فَتَمَسَّكُوا بِوَتَائِقِهَا (٣) ، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا (٤) ، تَوَلُّوا (٥) بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ (٦) الدَّعَةِ (٧) وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاقِلِ (٨) الْحِزْرِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ».

والتعبير «بوتائق» جمع وثيقه بمعنى العروه المحكمه إشاره إلى الأبعاد الظاهريه للتقوى، والتعبير «بالحقائق» جمع حقيقه إشاره إلى جوانبها الواقعيه.

والعبارات الأربع التى ذكرت فى العبارة المذكوره كنتيجه (وجزاء الشرط مقدر) تشير إلى أن التمسك بالتقوى سبب الهدوء والسكينه وكذلك الفتح والحفظ من الأخطار والتمتع بالعزه والكرامه.

نعم! حين تسود التقوى فى المجتمع بصفقتها شعور بالمسؤوليه الربائيه فإنّه قلّ من يتجاوز على حقوق الآخرين ويمارس الظلم والجور ونتيجه ذلك الاستقرار والسكينه، وإن سادت التقوى بصفقتها وظيفه فإنّ المجتمع يأخذ بالرقى والاتساع

ص: ٤٨٢

١- (١) سوره مريم، الآيه ٦٣.

٢- (٢) سوره الأعراف، الآيه ٩٦.

٣- (٣) . «وثائق» جمع «وثيقه» ما يعتمد عليه.

٤- (٤) . «حقائق» جمع حقيقه، معناه معروف، ولكن أخذه بعض شراح نهج البلاغه (ابن أبى الحديد) بمعنى الرايه الذى لم يعثر عليه فى أى قاموس لغوى.

٥- (٥) «تؤل» التى كانت فى الأصل «تؤل» وجزمت لأنها وقعت جزاء لشرط مقدر، فأصبحت تؤل من ماده «أول» على وزن «قول» بمعنى العوده، وعلى هذا الأساس فإنّ العبارة «تؤل بكم» تعنى أنها تعيدكم.

٦- (٦) «أكنان» جمع «كنّ» على وزن «جنّ» بمعنى الستر والحاجز.

٧- (٧) «دعه» بمعنى الاستراحه والهدوء.

٨- (٨) «معاقل» جمع «معقل» على وزن «مسجد» بمعنى الملجأ والحصن ويقال أحياناً للجبال العاليه التى تحمى الناس من الفيضانات وغيرها.

شيئاً فشيئاً، وإن برزت التقوى بصفتها سداً منيعاً أمام العدو فإن المجتمع سيصان من شره ومجموع هذه الأمور هي أساس العزّه والرفعه والسّموم.

ثم قال عليه السلام: إن هذه الآثار الأربعة إنّما تتحقق بصورة كامله في الآخره؛ ليس بمعنى إنعدام هذه الآثار في الحياه الدنيا بل المعنى: أنّ الهدف الأصلي والنهائي هناك:

«يَوْمَ تَشْخَصُ (١) فِيهِ الْأَبْصَارُ» وَتُظَلِّمُ لَهُ الْأَقْطَارُ، وَتُعْطَلُ فِيهِ صُرُومٌ (٢) الْعِشَارِ (٣)».

فهذه الصفات الثلاث تتعلق بالصيحه الأولى وزلزله نهايه العالم، لأنها على درجه من الرعب والهول وإثاره الدهشه بحيث تنسى الإنسان كلّ شيء سوى نفسه، كما رسم هذه الصوره القرآن الكريم فقال: «يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (٤).

ثم تطرق الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه ليشرح جوانب أخرى من بدايه القيامه والتي تهزّ القلوب وتذهل الأفكار فقال:

«وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ، فَتَرْهَقُ (٥) كُلُّ مُهْجَةٍ (٦)، وَتَبْكُمُ (٧) كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ (٨) الشَّوَامِخُ (٩)، وَالصُّمُّ (١٠) الرِّوَا سِخُ (١١)، فَيَصِيرُ

ص: ٤٨٣

١- (١). «تشخص» من ماده «شخوص» بمعنى تركيز العين على نقطه معينه وإمتناعها عن الحركه، وهذه العبارة في الغالب كناية عن الرعب والخوف.

٢- (٢) «صروم» جمع «صرم» على وزن «فعل» وهو القاطع من الناقه وقيل فيما بعد لمجموعه الناس أو غيرهم أيضاً.

٣- (٣) «عشار» جمع «عشراء» على وزن «وكلاء» وهى الناقه مضى لحملها عشره أشهر وهى نفيسه من حيثها وابنها الكامل فى بطنها وهذه المفردة كناية عن الشيء الغالى والنفيس.

٤- (٤) سورة الحج، الآية ٢.

٥- (٥). «ترهق» من «زهوق» على وزن «غروب» بمعنى الهلاك.

٦- (٦) «مهجه» تعنى فى الأصل الدم الموجود فى القلب والذى ترتبط بحياه الإنسان، ثم اطلقت هذه المفردة على القلب.

٧- (٧). «تبكم» من «بكم» على وزن «قلم» بمعنى الخرس وعدم تحرك اللسان و «بكم» على وزن «قفل» جمع «أبكم» تعنى الفرد الأصم والأبكم.

٨- (٨) «شم» جمع «أشم» أى الرفيع.

٩- (٩) «شوامخ» جمع «شامخ» بمعنى العالى. وعلى هذا الأساس «الشّمّالشوامخ» على سبيل التأكيد على علو الجبال.

١٠- (١٠) «صم» جمع «أصم» تأتى بمعنى الأصم وكذلك الضخور الثقيله وهو المراد فى العبارة.

١١- (١١) «رواسخ» جمع «راسخ» بمعنى الثابت والصلد.

صَلَدَهَا (١) سَرَابًا رَقْرَقًا (٢) ، وَمَعْهَدَهَا (٣) قَاعًا (٤) سَمَلَقًا (٥) .

والذى يستفاد من الآيات القرآنيه أنّ تغييرين شديدين وعظيمين يحدثان فى نهايه العالم وعلى أعتاب القيامه والتى عبر عنها بالنفخ فى الصور، ذلك لأنهم فى الماضى كانوا يعمدون إلى النفخ فى بوق الحركه أو بوق الحرب وبعده أصوات مختلفه لتبلغ مسامع الآخرين حين يراد تحريك الجيش أو إعلان الحرب أو إيقاظه من النوم، وعليه فالنفخ فى الصور هذا يعنى بدايه تغيير عظيم.

كما يستفاد من الآيات القرآنيه حدوث زلزه عظيمه تتزامن مع النفخه الأولى وبموجبها تذهل الكائنات الحيه كآفه من شدتها وهذه نفخه الموت، وإلى ذلك أشارت الآيه الشريفه: «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا...» (٦). وكذلك الآيه:

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ...» (٧).

وفى النفخه الثانيه أى إعادته الحياه يحدث تغيير آخر يظهر فيه عالم جديد على إنقراض العالم السابق فينطلق الأموات من القبور للحساب، وقد وردت الإشارة فى سوره الزلزه إلى النفخه الثانيه: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسِيَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُجَدِّدُ أَخْبَارَهَا». كما ورد فى الآيه ٦٨ من سوره الزمر إشاره لذلك: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ». وما ذكره

ص: ٤٨٤

١- (١) «صلد» يقال للصحخر الصلب الأملس الذى لا يثبت عليه شىء، وتأتى أيضاً بمعنى الصعب البخيل أيضاً والمراد هنا هو المعنى الأول.

٢- (٢) «رقرق» بمعنى الدمع الذى يحيط بالعين ويلمع ولا يخرج منها، ثم اطلق على كل قليل وخفيف وكذلك تعنى اللمعان والبريق.

٣- (٣) «معهد» المكان الذى يرجع إليه وتطلق هذه المفرده اليوم على المدارس. و «معهدها» تعنى محل الجبال.

٤- (٤) «قاع» تعنى الأرض المستويه.

٥- (٥) «سملق» الأرض المستويه التى لا يوجد فيها مكان أعلى من الآخر.

٦- (٦) . سوره الحج، الآيتان ١ و ٢.

٧- (٧) سوره الزمر، الآيه ٦٨.

الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه إشاره إلى النفخه الأولى التى تؤدى إلى خراب العالم ونسف الجبال ومحو آثارها وذهول الإنسان وبالتالى موته.

وما ورد فى ذيل هذه الخطبه إشاره للأحداث التى تعقب النفخه الثانيه حيث قال:

«فَلَا شَفِيعَ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمٍ يَنْفَعُ، وَلَا مَعْدِرَةَ تَدْفَعُ». وهذا الكلام اقتباس من الآيه القرآنيه الشريفه: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» (١). والآيه: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْدِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» (٢).

ومن الطبيعى أن عدم قبول المعذره كما يفهم من الآيات المذكوره يختص بأولئك الذين حطموا الجسور الموصله للشفاعه بأعمالهم وأفعالهم؛ وإلا فإن أولئك الذين أبقوا السبل الموصله إليها فسيشملون بتلك الشفاعه، قال تعالى فى القرآن الكريم بهذا الخصوص: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» (٣).

ص: ٤٨٥

١- (١) . سوره غافر، الآيه ١٨.

٢- (٢) سوره الروم، الآيه ٥٧.

٣- (٣) سوره الأنبياء، الآيه ٢٨.

يفيد ترتيب هذه الخطبة أنها جزء من خطبه مفصله وقد اختار المرحوم السيد الرضى هذا القسم حسب منهجه فى الاقتطاف، وقد اقتطع هذا القسم من سائر الأقسام وذكره بصورة مستقلة. على كل حال تتكون هذه الخطبة من ثلاثة أقسام:

تضمن القسم الأول إشارات قصيرة وعميقة المعنى إلى بعثه النبى صلى الله عليه وآله وبالنتيجة فضله العظيم على البشرى برمتها سيما المجتمع العربى.

وحذر فى القسم الثانى من الخداع والاعتزاز بزخارف الدنيا بعد الوصية بالورع والتقوى، ثم أوضح تفاهة الدنيا بعبارات غاية فى الروعة والمعنى وبتشبيهات رائعة.

وكشف فى القسم الثالث عن سبيل النجاه وأكد على ضروره المبادرة إلى استغلال الفرص ما دامت سانحه قبل فوات الأوان وحلول الموت.

ص: ٤٨٧

١- (١) سند الخطبة: روى الآمدى بعضها (فى غرر الحكم فى حرف الالف) كما روى بعض ممّا فى الخطبة ١٩٢ مع جوانب من هذه الخطبة والخطبة ١٩١ وهذا يدل على أنّ الخطبتين خطبه واحده (وأنّ الآمدى أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغه) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٧٤).

بَعَثَهُ حِينَ لَاعَلَّمَ قَائِمًا، وَلَا مَنَارًا سَاطِعًا، وَلَا مَنَهْجًا وَاضِحًا.

أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُوا الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ سُخُوصٍ، وَمَحَلَّةٌ تَنْغِيصُ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيِّدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُ فِيهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُحُجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمْ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، وَمِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَكٍ!

الشرح والتفسير: أهوال الدنيا

قال الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبه حيث أراد كشف النقاب عن العصر الذي انطلقت فيه الدعوه النبويه والمراد به العصر الجاهلي ومن خلال ثلاث عبارات قصيره:

«بَعَثَهُ حِينَ لَاعَلَّمَ قَائِمًا، وَلَا مَنَارًا سَاطِعًا (١)، وَلَا مَنَهْجًا وَاضِحًا».

فالطرق الصحراويّه والجبليّه لم تكن واضحه في الأزمنه السابقه كما هي عليه اليوم، طبعاً الطرق الرئيسيّه كانت معروفه بفعل كثره التردد عليها والعبور والمرور، غير أنّ الطرق الفرعيّه لم تكن كذلك، وبغيه إرشاد المسافرين كي لا يضلوا الطرق كانوا ينصبون في النهار بعض العلامات بصيغه أعمده وما شابه ذلك في أغلب الطريق منذ بدايتها حتى نهايتها والتي يصطلح عليها بـ «العلم» وكانوا يشعلون السراج على سطوحها والتي يصطلح عليها بـ «المنار»، وعليه لولا أعلام النهار

ص: ٤٨٩

١- (١) «سطوع» بمعنى الصعود والاتساع والنور الساطع الذي يضيء ما حوله.

وأسرجه الليل ووضوح الطرق الرئيسيّه لتزايد احتمال ضلال سالكي الطريق.

فقد شبه الإمام عليه السلام حياه الناس في الجاهليّه بالطرق العشوائيه التي لم تنصب عليها أيه علامه وسراج يضيء الدرب، وليس لذلك من نتيجته سوى الضلال المبين للناس والذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (١).

ثم واصل عليه السلام كلامه فخاطب الجميع قائلاً:

«أَوْصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ، (٢) وَمَحَلَّةٌ تَنْغِيصُ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِسٌ».

وتشير هذه العبارات الأربع جميعاً إلى تقلب أحوال الدنيا وعدم استقرارها، مع إقترانها بالألم والمعاناة، والعجيب مع إتضاح دلالات تقلبها وتصرم أحوالها وكثرة خطوبها ومحنها في جميع مواضعها إلا أنّ هنالك طائفة من الناس تراها خالده من الناحية العمليّه وتسعى إليها بكلّ ما أوتيت من قوّه.

وعلى هذا الأساس تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان مثال بلّغ ومثير بشأن هذه الدنيا الغرور بحيث لا يمكن الإتيان بصورة أفضل منه فقال:

«تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مِيدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا (٣) الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ (٤) الْبِحَارِ، فَمِنْهُمْ الْغَرِقُ الْوَبِقُ (٥)، وَمِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ (٦) الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرِكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلِكٍ!».

وتشبيه الدنيا بالبحر وسكنتها بركاب السفينه وإبان العواصف الشديده التي لا تفضي سوى إلى الغرق قد ورد قبيل هذه الخطبه للإمام عليه السلام في مواضع لقمان الحكيم، فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام في ما روى عن لقمان الحكيم أنّه وعظ ابنه

ص: ٤٩٠

١- (١). سورة الجمعة، الآية ٢.

٢- (٢) «شخوص» بمعنى الظهور والطلوع أو الانتقال من محل إلى آخر وهذا هو المعنى المراد بهذه العبارة.

٣- (٣). «تقصفها» من ماده «قصف» على وزن «حذف» بمعنى الكسر.

٤- (٤) «لجج» جمع «لجج» البحر العميق.

٥- (٥) «وبق» من ماده «وبق» على وزن «فقر» بمعنى الهالك صيغه «وبق» على وزن «خشن» له معنى الصفه.

٦- (٦). «تحفزه» من ماده «حفر» على وزن «لفظ» بمعنى الدفع قدماً والطرده.

«يا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهَا عَالَمٌ كَثِيرٌ فَلْتَكُنْ سَفِينَتَكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّهَ وَحَشُوهَا الْإِيمَانَ وَشَرَاعُهَا التَّوَكُّلَ وَقِيَمُهَا الْعَقْلُ وَدَلِيلُهَا الْعِلْمَ وَسُكَّانُهَا (١) الصَّبْرُ» (٢).

وقد أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لهذه الخطبة إلى سبيل النجاة من هذا البحر المرعب.

على كلِّ حال فما بيَّنه الإمام عليه السلام في هذا التشبيه البليغ والرائع هو أنه رسم صورته لأهل الدنيا كيف يتبدل أمنهم إلى خوف وصحتهم إلى مرض وغناهم إلى فقر وتجمعهم إلى فرقه حين يتعرضون لمختلف أنواع المصائب والمحن والخطوب، وكيف تقضى عليهم هذه الدنيا من خلال أحداثها وعلى هذا الأساس يبدو من العجيب كيف يتعلق الناس بها ويطمأنون إليها.

ص: ٤٩١

١- (١) «سكّان» ما يشبه مقود المركبة الذي يقود السفينه إلى اليمين واليسار.

٢- (٢) الكافي، ج ١، ص ١٦.

عِبَادَ اللَّهِ، الْآنَ فَاعْلَمُوا، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةً، وَالْأَبْدَانُ صِيحِيحَةً، وَالْأَعْضَاءُ لِدَنَّهُ، وَالْمُنْقَلَبُ فَمِنْ مَجَالِ عَرِيضٍ، قَبْلَ إِزْهَاقِ الْفُوتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ.

فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

الشرح والتفسير: اغتنام الفرصه

كشف الإمام عليه السلام بوضوح في شرحه لهذا الجانب من الخطبه - كما أشرنا سابقاً - النقاب عن سبيل النجاه من تلك المحن الخطيره التي أشار إليها في القسم السابق، حيث تبدو النجاه من الخطوب الخطيره لهذه الدنيا المزخره والغرور حتمية إذا ما طبقت هذه الوصايا والتعاليم فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، الْآنَ فَاعْلَمُوا، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةً، وَالْأَبْدَانُ صِيحِيحَةً، وَالْأَعْضَاءُ لِدَنَّهُ (١)، وَالْمُنْقَلَبُ (٢) فَمِنْ مَجَالِ عَرِيضٍ، قَبْلَ إِزْهَاقِ (٤) الْفُوتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ».

فقد حذّر الإمام عليه السلام في هذه العبارات العميقه المعنى الجميع، ولاسيما الشباب والكهول من ضروره اغتنام الفرصه والمبادره إلى العمل كونه أفضل وسيله للنجاه قبل فوات الأوان وحلول عهد الشيخوخه والعجز حيث تتباطئ فيه الألسن ويضعف

ص: ٤٩٣

١- (١). «لَدَنَّهُ» من ماده «لدانه» على وزن «شبانه» يعنى اللين قبل حلول الشيخوخه والذبول وقلة الحركة.

٢- (٢) «منقلب» محل الرجوع وهو إشاره هنا إلى ميدان العمل.

٣- (٣) «فسيح» من ماده «فسح» على وزن «مسح» بمعنى الواسع.

٤- (٤) «ارهاق» من «رهق» على وزن «شفق» بمعنى الضغط على شخص، كما وردت بمعنى الإقتراب، وعليه «ارهاق الفوت» يمكن أن تكون إشاره إلى الضغط من حيث الموت أو إقترابه.

فيه البدن ويمرض وتذبل الأعضاء ويضيق الميدان وتسلب الفرصه، نعم لا بد من المبادرة للعمل الصالح قبل حلول هذه العقبات.

كما أكد على عدم الظن ببعده الأجل مهما كان عمر الإنسان، فلا ينبغي الغفله حتى لمن كان في سنى الشباب والفتوه والشعور بالقوه والنشاط والصحه والسلامه، والإبتعاد عن الغرور بحيث لو قيل له: كفاك ذنباً ومعصيه فعد إلى الله وتب إليه، قال مازالت الفرصه سانحه، وسيأتى يوماً وقت التوبه والعمل الصالح فيما بعد، فهل هنالك من يعلم ماذا سيحصل غداً، وهل هناك من يضمن ماذا سيحل بعد ساعه، ومن منّا سيقى حياً ومن منّا سيموت؟ وقد ورد مثل هذا المعنى فى مستهل الخطبه ٢٣٧ حيث قال عليه السلام:

«فَاعْلَمُوا وَانْتَمُوا فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ وَالصُّحُفِ مَنْشُورَةٍ وَالتَّوْبَةِ مَبْسُوطَةٍ».

جدير ذكره أن أغلب نسخ نهج البلاغه ذكرت فى مستهل هذه الخطبه العبارة

«الآنَ فَاَعْلَمُوا» بدلاً من (فاعلموا) وتشهد القرائن، على صحه هذه النسخه، أضف إلى ذلك فإن انسجام المطالب وتناسب المواعظ تفيد ضروره العمل، والخطبه ٢٣٧ شاهد على ذلك.

يُنْبَهُ فِيهِ عَلَى فَضِيلَتِهِ لِقَبُولِ قَوْلِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه من ثلاثه أقسام:

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى طاعته الخالصه ودفاعه المطلق عن النبي واستدل على ذلك بعلم صحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وشهادتهم.

وتطرق في القسم الثاني إلى الأحداث المهمه منذ احتضار النبي ووفاته حتى غسله ودفنه والصلاه عليه والتي تفيد أنه عليه السلام أقرب من غيره للنبي صلى الله عليه وآله.

وخلص في القسم الثالث إلى نتیجه واضحه تتمثل في وجوب طاعته من قبل الجميع بدليل كل سوابقه وفضائله ومناقبه، ثم دعا مخاطبيه لمواكبه في حفظ بيضه الدين وإرث النبي صلى الله عليه وآله وإمثال أوامره في جهاد العدو (معاويه وجند الشام) وأن لا يشعروا بأدنى شك في أنهم على الحق وأن أعداءهم على الباطل.

ص: ٤٩٥

١- (١) سند الخطبه: رواها المرحوم الشيخ المفيد قبل السيد الرضى مع اختلاف طفيف في كتاب المجالس، كما ذكر أغلبها الآمدى في غرر الحكم في حرف الواو. وفي روايه الآمدى إضافات تفيد أنه استقاها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٧٥ و ٧٦).

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُشْتَحْفُظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنِّي لَمْ أُرِدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا.

الشرح والتفسير: طاعتي المطلقة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بالإشارة إلى أمرين مهمين؛ الأول أنه كان دائماً وفي جميع المواطن مطيعاً مطلقاً لله ولرسوله، بينما كان هنالك بعض الأفراد من هذه الأمة وبعض الصحابه ممن ينبرى بين حين وآخر للرد على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ (١) عَلِمَ الْمُشْتَحْفُظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنِّي لَمْ أُرِدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ».

«مستحفظون»: (بفتح الفاء صيغه اسم مفعول) إشاره إلى تلك الطائفة التي استودعها رسول الله أمانه سرّه والتاريخ الإسلامي الصحيح، وهذا يدل على وجود

ص: ٤٩٧

١- (١). ورد في هذه الخطبة الكلمه «ولقد» خمس مرات حيث تؤكد كل واحده منها موضوعاً معيناً، ويرى بعض شراح نهج البلاغه أنّ الواو هنا هي واو القسم، بينما ذهب بعض اساتذه العرييه إلى أنّ الواو استثنافيه واللام جواب القسم، ويعتقدون أنّ القسم محذوف تقديره «وأقسم بالله لقد...». وجاء في كتاب مغنى اللبيب المشهور أنّ اللام في هذه الموارد هي لام القسم؛ لكن قال أبوحيان: إنّ اللام في الآيه (ولقد علمتم...) لام الابتداء للتأكيد، وربما سبقت بقسم محذوف، (مغنى اللبيب، حرف «لام») ويحتمل أن لا يكون قسم في العبارة، بل «لام» و «قد» كلاهما للتأكيد، ولذلك لم يذكر أغلب المترجمين معنى القسم هنا في الترجمة.

ثله من صحبه الذين حفظت سره بدقه بعيده عن أى غرض وسوء نيه، فهم حفظه الأسرار الإسلاميه والحوادث التاريخيه والذين كان يعرفهم الناس بالإخلاص والأمانه.

فى مقابل تلك الزمره على عهد معاويه التى باعت دينها بالدنيا ووضعت الأحاديث والروايات وانبرت للقضاء على فضائل على عليه السلام ونسبت النقص والكذب له عليه السلام لتعمر دنياها بهذه المعاصي.

وهذه العبارة تمثل فى الوقت ذاته إشاره إلى أولئك الذين تنطلق ألسنتهم أحياناً بالردّ والإعتراض على رسول الله صلى الله عليه وآله، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ» (١).

وإشاره إلى بعض الأفراد المعروفين مثل عمر والذى ورد بشأنه فى روايات العامه أنه اعترض يوم الحديبيه - طبق نقل المصنّف عبدالرزاق الصنعاني، العالم المعروف لدى العامه على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال له: ألسنت رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله:

بلى. قال عمر: ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل؟ قال صلى الله عليه وآله: بلى. فقال عمر:

فعلام نعطي الدنيه فى ديننا (ونمضى صلحاً مع العدو أشبه بالاستسلام؟) فردّ عليه النبي صلى الله عليه وآله بأنه رسول الله ويتبع أمر الله وأنه سينصره، فواصل عمر إعتراضه وقال: أو لم تقل إننا سنحج البيت؟ فقال صلى الله عليه وآله: نعم سنحج البيت ولم أقل سنحجه هذا العام (٢).

ويفهم من الروايه أنه لم يكن الخليفه الثانى فقط من يعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله بل كانت معه طائفه ممن تعترض أيضاً.

إلا أننا لا نلمس فى أى من صفحات التاريخ أنّ علياً عليه السلام اعترض على فعل من

ص: ٤٩٨

١- (١) سورة التوبه، الآيه ٥٨.

٢- (٢) انظر: المصنّف عبدالرزاق الصنعاني، ج ٥، ص ٣٣٩. وكذلك نقل هذا الحديث السيوطى فى الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٧٧ ذيل الآيه ٢٦ سورة الفتح، والطبرى فى تاريخه المعروف فى ج ٢، ص ٢٨٠ حوادث سنه ٦ للهجره.

أفعال النبي صلى الله عليه وآله بل كان يتبعه في الأمور كافة ويمثل لأوامره دون نقاش.

ثم واصل عليه السلام كلامه مشيراً إلى تضحياته في سبيل الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ (١) بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ (٢) فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، نَجْدَهُ أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا».

هذه العبارات القصيره إشاره إلى تضحياته عليه السلام في الغزوات الإسلاميه كأحد وخيبر والأحزاب وحين.

وإننا لنعلم حسب تصريح المؤرخين بشأن معركة أحد أنّ خصوم الدعوه لما بثوا شائعه قتل النبي صلى الله عليه وآله في المعركه وقتل العديد من المسلمين انفرج سائر المسلمين عن المعركه ولم يبقَ حول النبي سوى على عليه السلام الذي دافع بكل صبر وثبات (٣).

كما نعلم أنّ أحداً لم ينبر في يوم الأحزاب ل «عمرو بن عبدود» وبيارزه سوى أمير المؤمنين على عليه السلام حين تخلف جميع المسلمين (٤).

وفي معركة خيبر كان رسول الله صلى الله عليه وآله يسلم الرايه كل يوم لمن يزعم القتال لكنهم لم يحققوا شيئاً حتى كان آخر يوم فسلم الرايه لعلی عليه السلام ففتح حصون خيبر الواحده تلو الأخرى (٥).

ولقد فرّ أغلب المسلمين يوم حنين حين تعرضوا لهجوم العدو المباغت لما شعروا بالخوف والرعب وكان على رأس من ثبت وصمد في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله هو على عليه السلام (٦).

ص: ٤٩٩

١- (١). «واسيت» و «آسيت» كلاهما من ماده واحده ولهما معنى واحد؛ كلاهما من «أشي» على وزن «سعى» بمعنى الاشراك في الشيء و «مواساه» بمعنى إشراك الآخرين في المال والإمكانات الدنيويه.

٢- (٢) «تنكص» من ماده «نكص» على وزن «عكس» يعنى العوده إلى الوراء وتطلق على انسحاب الجيش من المعركه و «نجده» بمعنى الشجاعه والصمود مقابل العدو.

٣- (٣) انظر: تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ١٩ (حوادث السنه الثالثه).

٤- (٤) المصدر السابق، ص ٢٣٩ (حوادث السنه الخامسه).

٥- (٥) المصدر السابق، ص ٣٠٠ (حوادث السنه السابعه).

٦- (٦) المصدر السابق، ص ٣٤٧ (حوادث السنه الثامنه).

وبالطبع فإنّ تضحيات علي عليه السلام لا تقتصر على ميادين القتال، بل اقتحم عليه السلام سائر الميادين بكلّ شجاعه سيما تلك التي يتخاذل فيها الأبطال، فقد بات عليه السلام على فراش رسول الله حين همّ الكفار والمشركون بالقضاء على رسول الله صلى الله عليه وآله ففداه بنفسه.

ص: ٥٠٠

إشاره

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَزْتُهَا عَلَى وَجْهِهِ. وَلَقَدْ
 وُلِّيتُ غُضْبِي لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْتِيَةُ. مَلَأَ يَهْبِطُ، وَمَلَأَ يَعْزُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْئَمَهُ
 مِنْهُمْ. يُصَيِّمُونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِ رِيحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟ فَانْفُضُوا عَلَيَّ بَصَائِرِكُمْ، وَلْتَضِيءُ دُقُنْيَاتِكُمْ فِي جِهَادِ
 عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَعْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ!

الشرح والتفسير: أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله

إشاره

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان رابطة الحميمه والقائمه على أساس الإخلاص والطاعة مع النبي صلى الله عليه وآله في حياته
 ذكر علاقته به بعد وفاته والتي تفيد أنه لم يكن لأحد من المسلمين غيره مثل هذه العلاقة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَزْتُهَا عَلَى وَجْهِهِ».

والعبارة:

«إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي» يمكن أن تشير إلى أن أمير المؤمنين على عليه السلام رفع رأس النبي صلى الله عليه وآله وضمه إلى
 صدره في تلك اللحظة والتي كانت سكينه للنبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه وآله وضمه إليه بالإضافة إلى أن هذه الوضعية تسهل من
 التقاط الأنفاس، كما يحتمل أن

يكون رأس النبي كان في حجر الإمام عليه السلام وقد انحنى فمسّ صدره عليه السلام رأس النبي صلى الله عليه وآله، إلّا أنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع قوله

«عَلَى صَدْرِي». وقد اختلف الشراح في المراد من النفس في العبارة

«سَأَلْتُ نَفْسَهُ» حيث دارت أقوالهم حول محورين:

الأول: أنّ المراد من النفس الدم الذي ورد في أغلب عبارات الفقهاء والأدباء والتي أشارت إلى هذا المعنى، ومن ذلك

«النفس السائلة» في الكتب الفقهية كما ورد مثل هذا الاستعمال في الأشعار العربية حيث قيل: ثم سيلان نفسه في كفه، وإمرارها على وجهه، وأراد بنفسه دمه يقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قاء وقت موته دمًا يسير، وأنّ علياً عليه السلام مسح بذلك الدمه وجهه(١).

والتفسير الآخر هو أنّ النفس تلك الروح البشريّة القدسيّة التي وردت الإشارة إليها كراراً في القرآن الكريم «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»(٢). وعليه فمفهوم العبارة أنّ روح النبي الطاهره فاضت على يد علي حين فارقت بدنه الطاهر فمسح بها وجهه(٣).

إلّا أنّ العبارة التي بقيت مبهمه على أغلب الشراح والمترجمين هي قوله عليه السلام:

«أَمْرُزْتُهَا عَلَى وَجْهِ» فقالوا: وهل الروح شيء يمكن مسح الوجه بها؟!

ولحل هذا الإشكال يمكن أن يقال إنّ

«الكفّ» مؤنثه لأنّ الأعضاء الثنائيّة في البدن مؤنثه بينما الأعضاء المفردة مذكرة، قال الشاعر العربي:

«وَكَفٌّ خَضِيبٌ زُيْنَتْ بِبِنَانِي»، وعليه فمعنى العبارة أنّ كَفِّي لامست الروح القدسيّة للنبي صلى الله عليه وآله ثم مسحت وجهي بتلك الكفّ اللبركة، وهكذا يحلّ إشكال تفسير العبارة المذكوره.

ثم خاض عليه السلام في سائر مراسم وفاه النبي صلى الله عليه وآله كالغسل والدفن فقال:

«وَلَقَدْ وُلِّيتُ

ص: ٥٠٢

١- (١) انظر: شرح نهج البلاغه لابن ميشم وابن أبي الحديد؛ وفي ظلال القرآن للشيخ محمد جواد معنیه، (ذيل الخطبه).

٢- (٢) . سورة زمر، الآية ٤٢.

٣- (٣) منهج البراعه، للمحقّق الخوئي ونهج الصباغه للمحقّق التستري (ذيل خطبه).

غُسِّلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَةُ (١). مَلَأَ يَهْطُ، وَمَلَأَ يَغْرُجُ، وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَمَهُ (٢) مِنْهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ (٣) فِي ضَرِيحِهِ».

والعبارة:

«وُلِّيتْ غَسْلَهُ» يمكن أن تكون إشارة إلى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كُلَّفَنِي بِالْقِيَامِ بِهَذَا الْعَمَلِ، وَمَعُونَهُ الْمَلَائِكَةُ بِهَدْفِ إِكْرَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَضَجِيجِ الدَّارِ وَالْأَفْنِيَةِ الْوَارِدِ فِي الْعِبَارَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَرَادَ بِهِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِي، مِنْ قَبِيلِ مَا ذَكَرُوهُ بِشَأْنِ تَسْبِيحِ الْجَمَادَاتِ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ التَّسْبِيحِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الْمَجَازِي لِشِيرِ إِلَى الْحُزْنِ وَالْأَسَى الْعَظِيمِ الَّذِي خِيمَ عَلَى بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهَنَالِكِ احْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ الْمَلَائِكَةُ مَحذُوفَةٌ وَالْعِبَارَةُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ فَمَعْنَى الْعِبَارَةِ

«ضجت...» هو ضجيج الملائكة الذين كانوا في بيته صلى الله عليه وآله، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً.

والاحتمال الرابع هو أَنَّ هَذَا الضَجِيجَ كَانَ مِنْ قَبْلِ النَّاسِ الْحَاضِرِينَ حَوْلَ الْبَيْتِ.

والعبارة هبوط وعروج الملائكة إشارة إلى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَأْتِي جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ تَصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ وَتَعْرُجُ، وَكَانَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْمَعُ بِأُذُنِهِ الشَّرِيفَةِ أَصْوَاتَهُمْ حِينَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ تَوَاصَلَتْ هَذِهِ الصَّلَوَاتُ وَالتَّحِيَّاتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى دَفَنَهُ.

والتعبير بالضرّيح إشارة إلى الحفرة التي أعدت لدفن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ لأنَّ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى اللَّغَوِي لِلضَّرِيحِ، وَإِنْ كَانَ الضَّرِيحُ الْيَوْمَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يُوضَعُ عَلَى الْقَبْرِ.

وقد تواترت روايات الفريقين على أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَلَّى لَوْحَدَهُ غَسْلَ النَّبِيِّ وَدَفَنَهُ فَقَدْ رَوَى الْمَرْحُومُ الْعَلَّامَةُ الْمَجْلِسِيُّ فِي بَحَارِ الْأَنْوَارِ عَنْ كِتَابِ الْوَصِيهِ لِلشَّيْخِ

ص: ٥٠٣

١- (١). «أفنيه» جمع «فناء» على وزن «غناء» ما اتسع أمام الدار وجوانبه.

٢- (٢). «هينمه» تعنى الصوت الخفى.

٣- (٣) «وارينا» من ماده «مواراه» ومن ماده «ورى» على وزن «نَفَى» بمعنى الكتمان والتغطية وتعنى هنا الدفن.

«عيسى الضرير» عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال:

«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ يَا عَلِيُّ! أَضْمَنْتَ دَيْنِي تَقْضِيهِ عَنِّي! قَالَ نَعَمْ. قَالَ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ. ثُمَّ قَالَ يَا عَلِيُّ تَغْسِلْنِي وَلَا يَغْسِلْنِي غَيْرُكَ فَيَعْمَى بَصْرُهُ... قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَيْفَ أَقْوَى عَلَيْكَ وَحَدِي؟ قَالَ يُعِينُكَ جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ» (١).

ثم خاض الإمام عليه السلام في استنتاج من مجموع الأبحاث السابقة ليعتبر قربه من النبي صلى الله عليه وآله في حياته ووفاته دليلاً واضحاً على أولويته بأمر الخلافة، فقال:

«فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟» وأثر ذلك عبء الجميع للجهاد ضد العدو.

لعل هنالك من يتساءل وما علاقة هذه الأمور بقضيه الخلافة؟ وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة؛ ومراد الإمام على عليه السلام لو كانت خلافه النبي - على فرض - أنه غير منصوص عليها فلا بد أن تسند إلى أقرب الأفراد منه وأولاهم به صلى الله عليه وآله، وليس ذلك الشخص الذي عاش التسليم المطلق لأوامر النبي وأعظمهم تضحيه وجهاداً في الغزوات الإسلامية ومن كان يرى هبوط الملائكة وعروجها ولا تفارق سمعه هينمه من أصواتها ومن تولى غسل النبي وتكفينه ودفنه كما عهد إليه أولى من غيره بهذا الأمر؟ فعلمه ومعارفه من جانب وتضحياته الجسم من جانب آخر وقربه من رسول الله من جانب ثالث والوصيه له بغسل النبي ودفنه وتكفينه من الجانب الرابع فكل هذه الامتيازات لو وضعت في كفه ميزان لرجحت على الكفه الأخرى مهما كانت ثم خالص عليه السلام إلى نتيجته فقال:

«فَانْفَعِدُوا عَلَيَّ بِصَيِّئِكُمْ، وَلْتَصِدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عِدْوِكُمْ. فَوَالَّذِي لَمَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلِّي حَيَّادُهُ الْحَقُّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلِّي مَرَّلُهُ (٢) الْبَاطِلُ».

فقد اعتمد الإمام عليه السلام في الواقع منطقاً منظماً بصيغه علّه ومعاليل متسلسله في هذه الخطبه، فقد أثبت بادئ الأمر قربه من النبي وتضحياته في حياته ثم قربه منه

ص: ٥٠٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٩٢.

٢- (٢). «مزلّه» من ماده «زلل» على وزن «ضرر» مكان الزلل الموجب للسقوط في الهلكه.

بعد وفاته، وأثر ذلك خالص إلى أولويته في إحراز مقام الخلافة. ثم تطرق إلى نتيجته كليته فدعى الجميع إلى جهاد العدو(1).

والعبارة:

«جَادَهُ الْحَقُّ وَمَزَلَهُ الْبَاطِلُ» هي عبارة رائعة ودقيقة، ذلك لأنَّ الحقَّ كالجاده المستقيمه والواضحه التي توصل الإنسان إلى مقصده المطلوب، إلَّا أنَّ الباطل ليس بطريق بل مزله وهاويه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بعبارتين فقال:

«أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَعْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ!».

فقد أتمَّ الإمام عليه السلام على الناس الحجَّ بهذه العبارة وأكد ضروره العمل بتعاليمه ووصاياه ثم سأل الله كحسن ختام للخطبه المغفره للجميع ليشمل الله صحبه بلطفه ورحمته إن إرتكبوا بعض الأخطاء.

الحوادث الأليمه إبان وفاه النبي صلى الله عليه وآله وبعدها

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى الفاجعه الأليمه لرحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وضجيج الملائكه التي تكشف عن عظم هذا المصاب الجلل.

وتبدو هذه الحادته أعظم خطوره حين تتزامن مع سائر الرزايا والأحداث والتي تكشف دراستها عن مدى عمق تلك الفاجعه.

وقد خاض جمع من شراح نهج البلاغه هنا في ذكر بعض هذه الأحداث؛ لكننا رأينا من الأفضل أن نترك العنان لقلم «الشهرستاني» أحد علماء القرن السادس صاحب كتاب الملل والنحل والمعروف بتعصبه للعامة لنرى ما ذكره بهذا الخصوص فقد أشار إلى عشره اختلافات مهمه كل واحد منها تعدد مصيبه للعالم، وإن سعى لتبريرها تحت ذريعه اجتهاد الصحابه، ولكن تلك الأعمال كانت على درجه من

ص: ٥٠٥

١- (١) كتب المرحوم العلامة التستري في شرحه نهج البلاغه: ج ٤، ص ٨٨ هذه الخطبه من الخطب التي ألقاها أمير المؤمنين عليه السلام في صفيين حسب نقل نصر بن مزاحم في كتاب صفيين.

الوضوح فى شناعتها بحيث تأبى التبرير بالاجتهاد أو الخطأ.

الاختلاف الأول فى النزاع الذى حدث عند النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى مرضه حيث روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه و آله قال حين اعتل:

«إِيْتُونِي بِدَوَاهِ وَقِرْطَاسٍ أُكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدِي».

قال عمر:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ (وما يقوله خارج عن الوعى) حسبنا كتاب الله».

فاشتد نزاع الصحابه فقال صلى الله عليه و آله:

«قَوْمُوا عَنِّي لَا يَتَّبِعُنِي عِنْدِي التَّنَازُعُ».

قال ابن عباس بعد نقله لهذا الحديث:

«الرَّزِيئَةُ كُلُّ الرَّزِيئَةِ مَا حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ»^(١).

ثم تطرق إلى الاختلاف الثانى فى مرض رسول الله أيضاً حين قال صلى الله عليه و آله:

«جَهَّزُوا جَيْشَ أَسَامَةَ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ». فقال البعض علينا إِمْتِثَالُ أَمْرِ النَّبِيِّ، وكان أسامه خارج المدينه يتأهب للحركه نحو الشام للقضاء على فتنهم، وقال البعض الآخر غلب الوجع على النبى ولا نطبق مفارقه.

والاختلاف الثالث حين وفاه النبى صلى الله عليه و آله حيث قال عمر:

«مَنْ قَالَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ قَتَلْتَهُ بِسَيْفِي هَذَا وَإِنَّمَا رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا رُفِعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ».

وقال أبوبكر: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فانه حتى لا يموت ثم تلى هذه الآية: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ...»^(٢).

فقبل الناس منه وقال عمر: كأتى لم أسمع هذه الآية إلا الآن^(٣).

ص: ٥٠٦

١- (١) صحيح البخارى، كتاب العلم، ح ١١٤ وكتاب المرضى، ح ٥٦٦٩.

٢- (٢) سوره آل عمران، الآية ١٤٤.

٣- (٣) جاء فى تاريخ الطبرى أنه لما حضرت رسول الله صلى الله عليه و آله الوفاه، كان أبوبكر فى موضع «سبخ» فى أحد

أطراف المدينة، وحين توفي صلى الله عليه وآله نهض عمر وقال: يظن بعض المنافقين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، والله إنّّه لم يمّت وإنما رفعه الله إليه، كما غاب موسى عن قومه أربعين ليلة ثم عاد (وسوف يعود رسول الله صلى الله عليه وآله) فلتّما علم أبو بكر ذهب إلى بيت النبي فعلم بوفاه النبي صلى الله عليه وآله ورجع إلى المسجد وكان عمر ما زال يحدث الناس فقاطعه أبو بكر وقال ما ورد سابقاً. (تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٢ حوادث سنة ١١).

والاختلاف الرابع فى موضع دفن النبى حيث أراد المهاجرون دفنه فى مكه، بينما أراد الأنصار دفنه فى المدينه لأنها دار الهجره، ورغبت فئه ثالثه بدفنه فى بيت المقدس حيث الأنبياء ثم اتفقوا جميعاً على دفنه فى المدينه، ويعتقد البعض أن هدف عمر من هذا الكلام هو اشغال الناس حتى يحضر أبوبكر وتتم له الخلافه.

حيث روى عنه صلى الله عليه و آله أنه قال:

«الأنبياءُ يُدفنون حيث يموتون»^(١).

وبرز الاختلاف الخامس فى الخلافه والذى عدّه الشهرستاني من أهم الخلافات حيث قال:

«إذ ما سئل سيفٌ فى الإسلامِ على قاعدته ديتيه مثل ما سئل على الإمامه فى كلِّ زمان».

ثم نقل قصه سقيفه بنى ساعده وماحدث فيها من اختلافات وبالتالى بيعه أبى بكر.

واعتبر الخلاف السادس قضيه فدك وأشار فيه إلى خطبه فاطمه الزهراء عليها السلام حيث طالبت بها كهبه من النبى أو ميراث، فاحتج عليها أبوبكر بالحديث (الموضوع)

«نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ».

ثم أشار إلى الاختلاف السابع بشأن مانعى الزكاه الذى اعتبرهم البعض كفره بينما لم يكفرهم البعض الآخر والاختلاف الثامن نص أبوبكر على خلافه عمر حين وفاته فقال له الناس:

«وَأَلَيْتَ عَلَيْنَا فِظًّا غَلِيظًا»؛ بينما استجاب له سائر الناس.

والاختلاف التاسع فى الشورى التى نصبها عمر لتعيين الخليفه من بعده، والاختلاف العاشر الذى حدث على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام بعد أن بايعته الأمه على الخلافه، فأثار طلحه والزبير وعائشه، فتنه الجمل، ومعاويه، صفين، والخوارج، النهروان^(٢).

ص: ٥٠٧

١- (١) ورد فى المصادر الروائيه لأهل البيت عليهم السلام أن علياً عليه السلام قال: إن أشرف موضع هو الموضع الذى قبض فيه الله نبيّه صلى الله عليه و آله؛ ومن هنا دفن فى بيته. (الكامل البهائى، ج ١، ص ٢٨٥، تأليف عماد الدين الطبرى).

٢- (٢) الملل والنحل للشهرستاني، ص ١٦-١٩، طبعه دار الفكر بيروت، (بتلخيص).

يُنَبِّهُ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ بِالْجُزْئِيَّاتِ، ثُمَّ يَحْتُ عَلَى التَّقْوَى،

وَيُبَيِّنُ فَضْلَ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتألف هذه الخطبه من عدّه أقسام:

تحدّث الإمام عليه السلام في القسم الأوّل بعبارات رائعة عن العلم الإلهي المطلق وشهد للنبي صلى الله عليه وآله بالرساله، ليكمل في الواقع الشهادتين بعبارات جديده.

وأوصى عليه السلام في القسم الثاني بالتقوى وأنها دواء كلّ داء والشفاء من جميع الأمراض والوسيله لإصلاح المفسد كآفه وطهاره الروح وقره العين، وقد تضمنت إشارات إلى التقوى من خلال ذكر بعض النقاط التي قلّما ذكرت في سائر الخطب.

ص: ٥٠٩

١- (١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه: ما ذكره السيد الرضى هنا في الخطبه ١٠٤ (الخطبه ١٠٦ حسب التسلسل في هذا الكتاب) واحد كما يتّضح من التأمل في العبارات (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٨٢)؛ لكنه لم يذكر لذلك مصدراً آخر غير نهج البلاغه، وتفيد سائر الدراسات والتحقيقات عدم وجود مصدر آخر غير نهج البلاغه. وللأسف فقد ذكرت في بعض الكتب (مثل نهج البلاغه نسخه المعجم المفهرس للنشر الإسلامى التابع لجماعه المدرسين) سته مصادر غير نهج البلاغه لهذه الخطبه وليس فيها حتى مصدر صحيح واحد؛ إلّا أنّ مضمون الخطبه ورفعتها لا يمكن أن تصدر من غير الإمام، وهذا دليل على قوّه سندها.

وتطرق فى القسم الثالث إلى أهميّه الإسلام ومزاياه بعبارات مشوقه تستقطب القلوب.

وتحدّث فى القسم الرابع عن النّبى صلى الله عليه و آله وخدماته الجليله فى ذلك العصر المظلم الجاهلى وزعامته للنهضه الإسلاميه.

واختتم الخطبه بالحديث عن القرآن الكريم من خلال ذكره لأربعين صفه من صفاته التى يمكن القول إنّها أشمل إشاده وتمجيد للقرآن، عليه آلاف التحيه والثناء.

ص: ٥١٠

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِي الْعِيَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النَّيْنَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَتَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبُ اللَّهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: احاطه الله العلميه

بما أنّ هذه الخطبه تتحدّث حول الإسلام والقرآن، فقد استهلها الإمام عليه السلام بالحديث عن الإيمان بالمبدأ والمعاد؛ الإيمان الذي يشكل الدافع لجميع الخيرات والوسيله لجميع البركات، حين يريد التحدث عن معرفه الله فإنّه يركز على العلم الإلهي المطلق الذي يعد من أهم صفات الحقّ تعالى فقال:

«يَعْلَمُ عَجِيجَ (١) الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ (٢)، وَمَعَاصِي الْعِيَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النَّيْنَانِ (٣) فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ (٤)، وَتَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ (٥)».

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه على أربع ظواهر مختلفه عن بعضها البعض الآخر في هذا العالم ولا تحضى بالاهتمام، ليشير إلى علم الله تعالى بها:

ص: ٥١١

١- (١). «عجيج» من ماده «عجج» على وزن «حجج» بمعنى الصراخ وتستعمل غالباً للحيوانات.

٢- (٢). «فلوات» جمع «فلاه» بمعنى الأرض الواسعه والقاحله ويقال أحياناً للصحراء.

٣- (٣) «نينان» جمع «نون» تعنى السمكه الكبيره ويقال أيضاً للحوت.

٤- (٤) «غامرات» من ماده «غمر» على وزن «عمد» بمعنى محو شىء. ثم اطلقت على المياه التي تغطى الأرض أو موجوداته، والبحر الغامر هو البحر العميق.

٥- (٥) «عاصفات» جمع «عاصفه» من ماده «عصف» على وزن «حذف» تعنى القشّه و «عاصف» الرياح الشديده التي تفرق القش والأوراق اليابسه أو تفرق الأشياء كالقشّه.

الأولى: وكما نعلم فإنّ الصحارى المترامية الأطراف فى العالم تضم العديد من الحيوانات الوحشية التى لا يطرق سمعنا ضجيجها وعجيجها، لكن الله تعالى عالم بها ويعلم كل حيوان فيها ومتى يضح بصوته وما طبيعه ذلك الضجيج.

والظاهرة الثانية: كثره الذنوب التى تمارس فى الخلوات والبعيده عن أنظار الناس والتى تخفى علينا جميعاً، لكن الله يعلم بكلّ إنسان فى كل مكان وكل زمان والذنب الذى يرتكبه.

والظاهرة الثالثة: أنه يعلم بحركات وسكنات الحيتان فى أعماق البحار والغائبه عن عيون الناس.

وأخيراً يعلم الأمواج فى المحيطات والبحار وحركاتها فى الليل والنهار والتى لا ندرك سوى جزء يسير منها، فهو العالم متى تتحرك واين تتحرك وكيف تتوقف.

ولو أضفنا لكلّ هذه الأمور أنّ علم الله تعالى بهذه الأمور لا يقتصر على اليوم والأمس، بل منذ الأزل الذى شهد وقوع هذه الحوادث ليل نهار (ما عدا الذنوب البشريه المحدده بزمان معين) فالله يعلم كيف تحققت كل واحد من هذه الظواهر وأين وكيف.

وكذلك لو أضفنا أنّ الأمور المذكوره لا تقتصر على الكره الأرضيه، التى تعدّ مركز مختلف الحوادث، بل مليارات الكواكب فى مجراتنا والتى تعتبر مركزاً للعديد من الحوادث الدائمية بالإضافة إلى سائر المجرات الأخرى والتى يتجاوز عددها المليارات.

نعم! كل هذه الأمور حاضره فى علم الله وهنا نوقن بما ذكره القرآن الكريم فى الآيه ٢٧ من سوره لقمان اذ قالت: «وَلَوْ أَنَّما فى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمِيْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبِْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ». فى أنه عين الواقع وهى ليست من قبيل الاستغراب فحسب، بل لا تعدّ بشيء بالنسبه لدائره علم الله المطلق.

ثم واصل كلامه عليه السلام بعد بيان علم الله تعالى بعالم الخلق بالشهادة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرساله واثنى عليه بثلاث صفات مهمه من صفاته فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبٌ (١) اللَّهُ، وَسَفِيرٌ وَحِيهِ، وَرَسُولٌ رَحْمَتِهِ».

نعم! فهو إنسان غايه فى النجابه والسمو انتجبه الله للنبوّه وأنزل عليه وحيه وجعله موضع رحمته.

وقد تجلت هذه الرحمه بعده صور ووجوه، فتاره عن طريق بيان المعارف الدينيه الساميه، وتاره أخرى بواسطه شرح التعاليم وثالثه بطلب الرخصه من الله للأئمه، وبالتالي ستظهر هذه الرحمه بصيغه الشفاعه يوم القيامه؛ نسأل الله أن يشمل بها جميعاً

جاء فى الحديث النبوى الشريف أنه لما نزلت الآيه الشريفه: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (٢) أنه صلى الله عليه وآله قال لجبرئيل عليه السلام لما نزلت هذه الآيه:

«هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَيْدِهِ الرَّحْمَهُ شَيْءٌ؟ قال: نَعَمْ إِنِّي كُنْتُ أَخْشَى عَاقِبَةَ الْأَمْرِ، فَأَمَنْتُ بِكَ لَمَّا أَثْنَى اللَّهُ عَلَيَّ بِقَوْلِهِ: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» (٣)

وَقَدْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ» (٤).

ص: ٥١٣

١- (١) «نجيب» من «نجابه» تعنى المختار المصطفى وكل غال ونفيس.

٢- (٢) . سورة الأنبياء، الآيه ١٠٧.

٣- (٣) سورة التكوير، الآيه ٢٠.

٤- (٤) مجمع البيان، ذيل الآيه ١٠٧ من سورة الأنبياء.

إشاره

أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ. فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءٌ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصِيرَةٌ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءٌ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصِيْلَاحٌ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطَهُورٌ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلَاءٌ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنٌ فَرَعَ جَانِحِكُمْ، وَضِيَاءٌ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِنَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وَأَميراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِإِمْدَاقِ طَلِبَتِكُمْ، وَجَنَّةً لِيَوْمِ فِرْعَانَ، وَمَصَابِيحَ لِطُورِ قُبُورِكُمْ، وَسَيِّكناً لِطُولِ وَخَشَتِكُمْ، وَنَفْساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ. فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِزْبٌ مِنْ مَتَالِفِ مُكْتَنِفِهِ، وَمَخَافَةٌ مُتَوَقِّعَةٍ، وَأَوَارٍ نِيرَانِ مُوقِدِهِ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوبِهَا، وَاخْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَائِكِمِهَا، وَأَسِيَهَلَتْ لَهُ الصَّعَابُ بَعْدَ انْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكِرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَتَحَدَّثَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النُّعْمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَهُ بَعْدَ إِرْدَادِهَا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَّظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَآمَنَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبُّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

الشرح والتفسير: التقوى مصدر الخيرات

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى علم الله المطلق والشهادة بالنبوه في القسم السابق

والذى كان يمثل فى الواقع مقدمه، خاض فى هذا القسم فى ذى المقدمه والذى تمثل فى الدرجه الأولى فى الوصيه بالتقوى وقرنها ببعض صفات الله ليؤجج فى قلوبهم نيران عشق التقوى والورع فقال:

«أَمَّا بَعِيدٌ، فَأَنَا أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَحْيُحُ طَلَبْتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْرَعِكُمْ (١)».

كما قال القرآن الكريم: «وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ» (٢). وقال أيضاً: «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ» (٣).

ثم خاض عليه السلام إثر الوصيه بالتقوى إلى ذكر آثارها بثمان عبارات قصيره وعميقه المعنى فقال:

«فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءٌ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصْرٌ عَمَى أَفْنَدَتِكُمْ، وَشِفَاءٌ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلَاحٌ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورٌ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلَاءٌ عَشَا (٤) أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنٌ فَرَعِ جَأَشِكُمْ (٥)، وَضِيَاءٌ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ».

العباره الأولى إشاره إلى الأمراض الفكرية والروحية فى الغوايه والضلال، والعباره الثانية إشاره إلى إزالة الموانع وحجب المعرفة فى ظلّ التقوى، وتشير العباره الثانية إلى قلّه الطعام ورعايه الاعتدال فى تناول الأغذيه فى ظلّ التقوى؛ ذلك لأننا نعلم وكما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«الْمَعْدَةُ رَأْسُ كُلِّ دَاءٍ وَالْحِمِيَّةُ رَأْسُ كُلِّ دَوَاءٍ» (٦).

والذى أيدته الأطباء المعاصرون قاطبه أنّ قسماً مهماً من الأمراض معلول لكثرة

ص: ٥١٤

١- (١) «مفزع» من ماده «فزع» بمعنى الخوف وتعنى مفرده (مفزع) الملجأ، لأنّ الإنسان يلجأ إليها فى خوفه.

٢- (٢) . سورة يونس، الآية ١٠٧.

٣- (٣) سورة النحل، الآية ٥٣.

٤- (٤) . «عشا» من «عشو» على وزن «نشر» بمعنى ضعف العين أو البحث عن شىء بعين ضعيفه و «عشا» اسم مصدر تعنى ضعف البصر.

٥- (٥) «جأش» بمعنى ما يضطرب فى القلب عند الفزع ومن حيث إنّ القلب (الروح) هو مركز هذه الأمور فيقال أحياناً جأش للقلب أيضاً ويمكن للثان أن يكونا المعنى المراد.

٦- (٦) بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٩١.

الطعام، والصحة وطول العمر في قلبه الطعام، والعبارتان الرابعه والخامسه كلاهما إشاره إلى تطهير الباطن من الرذائل الأخلاقيه كالكبر والحسد والبغض والعداء وما شابه ذلك، غير أن العبارة الرابعه وارده بشأن الصفات القبيحه التي ترسخ في باطن الإنسان بحيث تقوده إلى الفساد، بينما تشير العبارة الخامسه إلى الانحراف السطحي والبسيط والذي يغسل بماء التقوى.

والعبارة السادسة إشاره إلى أن التقوى تجعل رؤيه الإنسان الباطنيه أعظم حده وعينه أشد بصيره، ويبدو أن الفارق بينها وبين العبارة

«وَبَصِيرَةٌ عَمَى أَفْتَدَتْكُمْ» أن الكلام في تلك العبارة عن العمى المطلق بالتقوى وهنا إشاره إلى قلبه نور البصيره الذي يزداد في ظل التقوى.

والعبارة السابعه إشاره إلى الاضطرابات التي يعيشها الإنسان أثر مقارفه الذنب والمعصيه؛ فالخوف من عذاب الله في الدنيا والآخره وتأنيب الضمير الموجود في طبيعه الذنب كلها تزال بالتقوى.

قال القرآن الكريم «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يُؤْمِنُونَ» (١).

والعبارة الأخيره تشير إلى تأثير التقوى في القضاء على ظلمات الجهل وإنهيار العداله والظلم والجور. وعلى هذا الضوء فإن التقوى تجلب للإنسان خير وسعاده الدنيا والآخره.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد ذكره للتقوى وآثارها المهمه في الحياه الماديّه والمعنويّه البشريّه إلى طاعه الله والتي تعدّ من المعطيات الهامه للتقوى ليوضح بعشر عبارات قصيره وعميقه المعنى أهميه الطاعه في حياه الأفراد المؤمنين فقال:

«فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَارًا دُونَ دِتَارِكُمْ، وَدَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفًا بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وَأَمِيرًا فَوْقَ

ص: ٥١٧

أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلًا (١) لِحِينِ وُرُودِكُمْ (٢) ، وَشَفِيعًا لِدَرَكِ (٣) طَلَبَتِكُمْ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَرَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِيُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَيِّكَنَا لِيَطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفْسًا لِيَكْرَبِ مَوَاطِنِكُمْ».

فقد شخص الإمام عليه السلام في العبارات الثلاث الأولى منزله طاعه الله في وجود الإنسان، فشبها باديء الأمر بالشعار الذي يعنى مايلى البدن من الثياب لا الدثار الذى يعنى الثياب الخارجيه التى تقتصر على الرياء والاهتمام بالظاهر، ثم غاص أبعد من ذلك ليسحبها إلى باطن الجسم على أنها اعمق من الشعار، ثم تعمق أكثر ليرى موضعها فى القلب.

وهنا لابد من الالتفات إلى أن العبارة «بين اضلاع» إشاره لطيفه إلى القلب، ذلك لأن القلب داخل الصدر وقد احيط من جميع جوانبه بالاضلاع.

جدير ذكره أن القلب ليس مركز الإدراكات، إلمائه على صله وثيقه بدماع الإنسان وروحه، وكل ظاهره تطراً على الروح إنما تظهر آثارها بادئ الأمر فى القلب.

العبارة:

«أَمِيرًا فَوْقَ أُمُورِكُمْ» إشاره إلى ضروره سياده أوامر الله فى جميع شؤون الحياه الفرديه والاجتماعيه والسياسيه.

والعبارة:

«وَمَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ...» تشير إلى أن المعطيات الإيجابيه والبركات الجمه لطاعه الله على الحياه الماديه والمعنويه للإنسان إنما تغذى روحه، وتوصله إلى أهدافه الساميه وتحميه مما يتعرض له من مشاكل، وتعد مصدر السكينه والطمأنينه فى عالم البرزخ والقبر ويوم القيامه.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتطرق إلى عله لزوم الطاعه فقال:

«فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفِ مُكْتَنَفِهِ، وَمَخَافٌ مُتَوَقَّعِهِ، وَأَوَارٍ (٤) نِيرَانِ مُوقَدِهِ».

ص: ٥١٨

١- (١) . «منهل» بمعنى المكان الذى يصلون منه إلى الماء ومن ماده «نهل» على وزن «محل» بمعنى ابتداء شرب الماء.

٢- (٢) «ورود» تعنى فى الأصل الذهاب قرب الماء، ثم اتسع معناها ليشمل الدخول فى كل شىء.

٣- (٣) «درک» على وزن «سَمَك» بمعنى اللحاق والوصول والتعويض عن شىء.

٤- (٤) «أوار» على وزن «غبار» بمعنى حراره الشمس ولهيبها وتطلق أحياناً على العطش الناتج منه.

فالعبارتان الأولى والثانية في الواقع إشارة إلى معطيات الطاعة في الحياة الدنيا، والعبارة الثالثة ترمز إلى آثارها في الآخرة؛ فهي تحفظه في الدنيا من المخاطر الحاضرة والمستقبلية، وفي الآخرة من العذاب الأليم لنار جهنم.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بهذه الأخطار، المفسد الأخلاقي والباطني والتي تؤدي إلى البعد عن هدى الله، والحال من شأن هذه الأخطار أن تشمل المخاطر الماديّة، ذلك لأنّ الطاعة الإلهية تفيض الأمن الاستقرار على المجتمع البشري وتنزل عليه بركات السماء والأرض وتحد من نسبة الوفيات، كما أشير إلى ذلك في الآيات الشريفة من سورة نوح: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» (١).

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانيه إلى مسألة التقوى والورع ومعطياتها وآثارها، على أنّ الطاعة والتقوى من قبيل اللزوم والملزوم، فالتقوى تؤدي إلى الطاعة، كما أنّ الطاعة عنصر بلوره التقوى في باطن الإنسان؛ حيث أشار عليه السلام إلى ثمانية من آثار التقوى بعبارات مقتضبه عميقه المعنى فقال:

«فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ (٢) عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوبِهَا، وَاخْلَوْلَتْ (٣) لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَأَنْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَالُ بَعْدَ تَرَكَمِهَا، وَأَسَهَلَتْ لَهُ الصُّعَابُ بَعْدَ انْصَابِهَا (٤)، وَهَطَلَتْ (٥) عَلَيْهِ الْكِرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا (٦)،

ص: ٥١٩

١- (١) سورة نوح، الآيات ١٠-١٢.

٢- (٢). «عزبت» من مادة «عزوب» على وزن «غروب» تعني في الأصل الغياب والبعد عن العائلة لايجاد مرتع للبهائم ثم اطلقت على كل غياب وابتعاد. ويقال كذلك للرجال والنساء البعيدين عن أزواجهم، أو يقال «عزب» على وزن «عرب» لمن لم يختر زوجه بعد.

٣- (٣). «احلوت» في الأصل من «حلو» على وزن «حكم»، معروف و«احلوت» التي من باب المزيد فيه أخذت معنى الكثرة؛ وعلى هذا الأساس فإنّ «احلول» يعني الكثير الحلاه، مثل «اعشوشب» بمعنى الكثير العشب.

٤- (٤). «انصاب» مصدر باب الأفعال بمعنى الاتعاب من مادة «نصب» على وزن «نَسَب» بمعنى التعب.

٥- (٥) «هطل» بمعنى نزول المطر المتواصل.

٦- (٦) «قحوط» بمعنى المجاعه.

وَتَحَدَّثْتُ (١) عَلَيْهِ الرَّحْمَهُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النَّعْمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا (٢)، وَوَبَلَّتْ (٣) عَلَيْهِ الْبَرَكَهَ بَعْدَ إِزْدَاذِهَا (٤).

فتضح قيمه التقوى على صعيد الحياه الماديّه والمعنويّه للإنسان من خلال هذه الآثار التي بينها الإمام عليه السلام للتقوى.

نعم! فالشدائد تزول في ظلّ التقوى وتفاض أمطار الرحمه الإلهيّه على التقاه والمجتمعات التقيه، ويغيب الفساد والانحراف. قال القرآن الكريم بهذا الخصوص:

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٥). وقال:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (٦).

ولا- تختصر علاقه التقوى بهذه الأمور على الجانب المعنوي، بل هي كذلك حتى من وجهه نظر التحليلات العقليه والمنطقيه، فإننا نرى المجتمعات التي استطاعت من خلال انطلاقتها من التقوى والثقه بين أبنائها وتعاونهم مع بعضهم من التغلب على العديد من المحن والمخاطر وحدّت من حجم الاختلافات والنزاعات والقضايا الجزائيّه والعقاييه إلى أدنى ما يمكن. والطريف في الأمر أنّ شهر رمضان المبارك الذي يتمتع فيه الصائمون بمزيد من التقوى بمقتضى الآيه الشريفه: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (٧).

ص: ٥٢٠

١- (١). «تحدبت» من ماده «حذب» على وزن «أدب» تعنى فى الأصل الأراضى العالیه بين الأراضى الواطئه، وكذلك يقال «حذب» للبروز فوق الجسم وكذلك يقال للشىء الذى يحيط بآخر وهو المعنى المقصود فى العبارة.

٢- (٢) «نضوب» تعنى فى الأصل ذهاب الماء فى الأرض، ثم اطلقت على القضاء على كل شىء.

٣- (٣) «وبلت» من ماده «وبل» على وزن «جبل» بمعنى المطر الشديد ذى القطرات الكبيره وهنا تعنى سقوط البركات الإلهيّه بكثره.

٤- (٤) «إرذاذ» بمعنى سقوط المطر الخفيف.

٥- (٥). سوره الأعراف، الآيه ٩٦.

٦- (٦) سوره الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.

٧- (٧). سوره البقره، الآيه ١٨٣.

شهد هبوطاً ملحوظاً للجرائم والجنايات، كما أنّ العديد من المشاكل الاجتماعيه التي تفرزها المشاكل الأخلاقية تزول بأقصى ما يمكن من السرعة أبان مزاوله الناس للأسفار المعنويه كالسفر لحج بيت الله الحرام، ذلك لأنّ التقوى ملكه مانعه إزاء كلّ هذه المشاكل، والأفراد الذين يشعرون بثقل حقوق الآخرين التي تثقل رقابهم إنّما يبحثون عمّا ينجيهم من هذا الثقل، وعلى هذا الضوء هنالك تفسير مادي إلى جانب التفسير المعنوي للعلاقة بين التقوى وغياب المشاكل ومضاعفه البركات.

ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم من الخطبه بالعوده إلى مسأله التقوى ليؤكد ثانيه على ما استهل به هذا الجانب من الخطبه فقال:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَّظَكُمْ، بِرِسَالَتِهِ، وَآمَنَ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ».

وهذه الصفات الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام لله تبارك وتعالى تمثل جميعاً دوافع لسلوك سبيل التقوى، لأنها تشمل جميع النعم الماديّه والمعنويّه والمواعظ الإلهيّه وهي المواعظ التي تفاض على جميع أهل الإيمان عن طريق رسالات الأنبياء سيّما النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر أنواع النعم الماديّه والمعنويّه التي تمنح للإنسان والتي يمكن من خلالها بلوغ ذروه العبوديه والورع والتقوى والكمال المعنوي والمادي تثير لدى الإنسان الشعور بالشكر والحمد لواهب هذه النعم وتنتهي به إلى تقوى الله وطاعته وإمتثال أوامره.

وقال في العبارة الأخيره:

«فَعَبَّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ».

«عبّدوا» وإن أخذت من ماده عباده إلّا أنّها تعنى في هذه الموارد الاعداد والتسليم ومن ذلك قولهم «عبّد الطريق».

ومن الواضح أنّ إعداد النفس لعبوديه الله مقدمه لأداء حقّ الطاعه، ولا يتيسر هذا الإعداد إلّا عن طريق الإيمان والمعارف الإلهيّه وتزكيه النفس وتهذيبها والانفتاح على أسرار العبادات.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي اضْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاضْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَضْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ. أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بَعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمَلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهْرَانَ أَغْيَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُجَادِيَهُ بِنُصِيرِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ. وَسَيَّقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حَيَاضِهِ، وَأَتَمَّقَ الْحَيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ. ثُمَّ جَعَلَهُ لَأَنْفِصِيَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلَمَّا فَكَّ لِحَلْفَتِهِ، وَلَأَنْهَدَامَ لِأَسَاسِهِ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ، وَلَا ضَنَّكَ لِطُرُقِهِ، وَلَا وُغُوتهَ لِسُهُولَتِهِ، وَلَا سَوَادَ لَوْضِحِهِ، وَلَا عِوَجَ لِأَنْتِصَابِهِ، وَلَا عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَلَا وَعَتَ لِفَجْبِهِ، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ. فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاحٍ فِي الْحَقِّ أَشَدِّ نَاحِيَّتِهَا، وَتَبَّتْ لَهَا أَسَاسِيَّتُهَا، وَيَنَابِيغُ عَزْرَتِ عِيُونِهَا، وَمَصَابِيحُ شَبَّتِ نِيرَانِهَا؛ وَمَنَارٌ افْتَدَى بِهَا سِيْفَانَهَا، وَأَعْلَامٌ قَصِدَ بِهَا فِجَاجِهَا، وَمَنَاهِلُ رُويَ بِهَا وَرَادَهَا. جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَيْنَامَ طَاعَتِهِ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِيئُ النَّيْرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِذُ الْمَثَارِ. فَشَرُّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَأُدْوُوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

الشرح والتفسير: فضل الإسلام

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه في بيان أهميه الإسلام وعظمه هذا الدين الحنيف، حيث أكمل بهذا القسم ما أورده في القسم السابق بشأن التقوى

والطاعة، ذلك لأنّ الطاعة والتقوى إنّما تتحصل في ظلّ التبعية لهذا الدين. فتحدث بادئ الأمر عن إحدى عشرة صفة من صفات الإسلام العظيم فقال:

«ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي اضْطَفَأَهُ لِنَفْسِهِ، وَاضْطَنَعَهُ (١) عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَأَهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ».

فقد بين في هذه الصفات الخمس الأولى الأركان الأصليّة لهذا الدين المقدّس والذي انفراد الله تعالى بتشريعه بمنتهى الدقّة، وتولى إبلاغه أفضل خلق الله النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله واستندت دعائمه على أساس حبّ الله.

والعبارة:

«اضْطَفَأَهُ لِنَفْسِهِ» إشاره إلى أنّ الطريق الذي يؤدّي إلى القرب الإلهي يقتصر على الدين الإسلامي الحنيف: «وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» (٢).

والعبارة:

«وَاضْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ» تقال في الأمور التي يكون الشخص حاضراً وناظراً حين الإتيان بها وبعبارة أخرى تتم أمام عينيه. وأمّا بشأن الله فهي كناية عن نهايه عنايته ومراقبته له، قال القرآن الكريم بشأن موسى عليه السلام: «وَلِئُتَصَّنَعَ عَلَى عَيْنِي» (٣).

والعبارة:

«أَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ» (بالنظر إلى عود الضمير في محبته إلى الله) إشاره إلى أنّ الإسلام بني على المحبّة وهذه إحدى افتخاراتنا في أنّ ديننا بني على أساس الحبّ، ولذلك جاء في الرواية:

«هَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» (٤).

وعلى هذا الضوء فإنّ أساس هذا الدين محبّة العباد لله من جانب، وحبّ الله للعباد من جانب آخر، ثمّ واصل كلامه بالإشارة إلى ست صفات أخرى فقال:

«أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكِرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُحَادِيهِ (٥) بِبَصْرِهِ،

ص: ٥٢٤

١- (١). «اصطنع» من ماده «اصطناع» على وزن افتعال بمعنى التحضير والتنمية والتكبير لشيء.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

٣- (٣) سورة طه، الآية ٣٩.

- ٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٣٧، ح ٥. والآيه الواردة في النص هي، الآيه ٣١ سورة آل عمران.
- ٥- (٥) . «محادى» من «محاده» بمعنى المخالفه والعداوه ومادته الأصلية «حدّ» التي تعنى نهايه وطرف كلّ شىء وذلك لأنّ العدو يكون فى الطرف الآخر. «محاده» بمعنى المخالفه (جدير ذكره أنّ «محادى» فى الأصل «محادين» اسم فاعل صيغته الجمع وحذفت النون للإضافه).

وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ. وَسَقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حَيَاضِهِ، وَأَتَأَقَّ (١) الْحَيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ (٢)».

والعبارتان:

«أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعَزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمَلَلَ بِرَفْعِهِ...» (بالنظر إلى أن الضمير في العبارات يعود إلى الإسلام) إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (٣).

وجاء في الآية التي سبقتها: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (٤).

وقد انتصر الإسلام على سائر الأديان في جبهتين؛ إحداهما الجبهة الظاهرية من الناحية السياسيّة والعسكريّة، والأخرى الجبهة الباطنيّة من حيث المنطق والدليل والبرهان، فقد أقام القرآن الكريم أقوى الأدلة لإثبات المعارف الدينيّة الحقّة التي تسوق كلّ منصف إلى تقبلها، وكما قال الإمام عليه السلام في عبارته المذكورة فقد سقى كلّ من عطش من معين فيضه وملاً حقول العلم والمعرفة بأدلته وبراهينه.

ثم تطرق عليه السلام إلى سائر الامتيازات المهمّة التي اتّصف بها الإسلام ليركز بادئ ذي بدئ على خلود هذا الدين المقدّس، فأماط اللثام عن حقيقته هذا الخلود بثمان عبارات عميقة المعنى وبرسم صورته غايه في الوضوح والروعة فقال:

«ثُمَّ جَعَلَهُ لِمَا أَنْفَصِيَ أَمَّ لِعُرْوَتِهِ، وَلَمَّا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلَمَّا أَنْهَدَامَ لِأَسَاسِهِ، وَلَمَّا زَوَالَ لِتَدْعَائِمِهِ، وَلَمَّا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلَمَّا انْقِطَاعَ لِمِيدَتِهِ، وَلَمَّا عَفَاءَ (٥) لِشَرَائِعِهِ، وَلَمَّا جَدَّ لِعُرْوَعِهِ».

ص: ٥٢٥

١- (١). «أتأق» من مادة «تأق» بمعنى الامتلاء وإن وردت في باب الأفعال عنت الملىء.

٢- (٢) «مواتح» جمع «ماتح» بمعنى من يسحب الماء من البئر.

٣- (٣) سورة الصف، الآية ٩.

٤- (٤) سورة الصف، الآية ٨.

٥- (٥) «عفاء» بمعنى القدم والاندراس وهي في الأصل من عفويه معنى صرف النظر عن شيء ولأنّ صرف النظر يؤدّي إلى قدم واندراس الشيء استخدمت هذه المفردة في عبارته الفوق.

وهو ذات الأمر الذي قال فيه القرآن بشأن النبي: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (١).

وقد نظمت أصول الإسلام وأركانها من جانب الحكيم بما يبعدها عن التزلزل مهما تقادم الزمان وقد تكهن بمتطلبات كل زمان ومكان في ظل أحكامه الثابتة والمتغيره (بتغير الموضوعات) وهذه الشموليه هي التي جعلته خالداً.

ثم خاض الإمام عليه السلام بعد فراغه من إثبات خلود الإسلام في بيان سائر صفاته من قبيل سهولته ووضوحه واستقامته ووضوح قوانين الدين من خلال ثمان عبارات فقال:

«وَلَا ضَنْكَ لَطَرْقِهِ، وَلَا- وَعُوْتَهُ (٣) لِسِيْهُوْلَتِهِ، وَلَا سَوَادَ لَوْضَحِهِ (٤)، وَلَا عَوَجَ لِانْتِصَابِهِ (٥)، وَلَا عَصَلَ (٦) فِي عُوْدِهِ، وَلَا وَعْثَ لِفَجِّهِ (٧)، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ».

والعبارة الأولى:

«وَلَا ضَنْكَ لَطَرْقِهِ» إشارة إلى ما ورد في الحديث النبوي الشريف

«بُعِثْتُ بِالْحَنَفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ» (٨). الشريعة التي لا تختزن أي صعوبة أمام السالكين إلى الله وقوانينها سهلة مستساغة، ولما كان الإفراط في السهولة قد يؤدي إلى الضعف فقد قال في العبارة اللاحقة:

«وَلَا وَعُوْتَهُ لِسِيْهُوْلَتِهِ» أي أنّ هذه السهولة واليسر والسماحة للشريعة لا تسير نحو الإفراط قط، بل ضمن إطار الاعتدال، وتشير العبارة الثالثة إلى هذه الحقيقة في أنّ وضوح جاده الإسلام دائمى

ص: ٥٢٤

١- (١) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

٢- (٢) . «ضنك» بمعنى الضيق وهي تستخدم دائماً مفردة.

٣- (٣) «وعوته» بمعنى المشقة والعسر.

٤- (٤) «وضح» من ماده «وضوح» بمعنى الظهور والتبيان.

٥- (٥) . «انتصاب» من ماده «نصب» يعنى الوقوف.

٦- (٦) «عصل» بمعنى الاعوجاج.

٧- (٧) «فجج» تعنى فى الأصل الوادى؛ أى الطريق الواسع بين جبلين. ثم اطلقت على الطرق العامه بصوره عامه.

٨- (٨) . ورد هذا الحديث فى العديد من كتب الشيعة والسنة منها فى المحصول للفخر الرازى ج ٥، ص ١٧٥، وشرح نهج

البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٤٤؛ الكافى، ج ٥، ص ٤٩٤.

وليس ممّا يتخلله الظلام أحياناً والفارق بين العبارتين الرابعه والخامسه أنّ كليهما إشاره إلى استقامه الشريعه الإسلاميه وخلوها من الاعوجاج، في حين أنّ العبارة الرابعه أشارت إلى استقامه المسيره، بينما أشارت العبارة الخامسه إلى استقامه أعمده وأسس بناء هذا الصرح العظيم.

وتشير العبارة السادسه:

«وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ» إلى أنّ سطح هذه الجاده محكم وراسخ والسير عليه سهل يسير، وليس من قبيل الطرق المليئه بالتراب والرمل والتي تغوص فيها أرجل السالك وبالتالى يصعب المشى والسير عليها.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالعبارة السابعه

«وَلَا انْطَفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ» هو وجود العلماء في كلّ عصر وزمان حيث تلتطف الله بهؤلاء الأدلاء في كل زمان والذين يضيئون الطريق لجميع السالكين، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بهم الأئمه المعصومين عليهم السلام الذين لا تخلو الأرض منهم. كما يمكن أن تكون إشاره إلى مفهوم عام يشمل الأدله الواضحه وعلامات الحق وآثار العظمه في كلّ عصر ومصر.

والعبارة الأخيره:

«وَلَمَّا مَرَّازَةً لِحَلَاوَتِهِ» إشاره إلى المراره التي تشوب العديد من حلوات الدنيا، وألتي تختتم بها، من قبيل المال والثروه والمقام والانتفاع باللذات التي عاده ماتستبطن القلق والإرباك؛ غير أنّ حلاوه الإسلام ممّا لا تشوبها مراره قط.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خلود الإسلام وسهوله أحكامه أشار إلى قوته وإقتداره ليؤدى حقّ الكلام بسبع عبارات قصيره من خلال هذا الاستنتاج فقال:

«فَهُوَ دَعَائِمٌ أَسَاخٌ (١) فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا (٢)، وَتَبَّتْ لَهَا أَسَاسُهَا (٣)، وَيَنَابِيعُ غَزْرَتْ (٤)»

ص: ٥٢٧

١- (١). «أساخ» من ماده «سوخ» على وزن «صوت» بمعنى الغوص فى شىء ما وإن وردت فى باب الأفعال عنت الغوص والخوض.

٢- (٢) «أسناخ» جمع «سنخ» على وزن «صبر» بمعنى الأصل.

٣- (٣) «أساس» جمع «أساس» بمعنى عمود البناء.

٤- (٤) «غزرت» من ماده «غزاره» بمعنى الكثره.

عُيُونُهَا، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا؛ وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سَفَارُهَا(١) ، وَأَعْلَامٌ قَصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلٌ رُوِيَ بِهَا وُرَادُهَا».

وعلى هذا الأساس فقد شبه الإسلام بقصر عظيم الأسس والدعائم وراسخ القوائم وإلى جانبه الحقول والبساتين والعيون المليئه بالمياه وقد يسر الوصول إليه من خلال ملء طريقه بالمصابيح فى الليالى المظلمه والعلامات الواضحه فى النهار، بحيث لا يعيش سالك هذا الطريق أى ضلال فى ليل أو نهار، كما شقت العيون فى ذلك الطريق لتروى ضما العطاشى المسافرين.

ويمكن أن تكون هذه الأسس والدعائم إشاره إلى ما ورد فى الحديث الشريف:

«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ؛ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْوَلَايَةِ وَلَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ»(٢).

أما العيون التى أُشير إليها فى العبارة الثالثة فيمكن أن تكون إشاره إلى القرآن الكريم والسنة النبويه وائمه العصمه عليهم السلام والمصابيح والمنائر إشاره إلى ما ظهرت منهم عليهم السلام من إعجازات وكرامات، ومناهل الرى إشاره إلى علوم المعصومين عليهم السلام والتى تسقى الجميع.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى ثلاث خصائص من خصائص الإسلام فقال:

«جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ».

فالعبارة الأولى إشاره إلى ما ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»(٣).

كما يمكن أن تكون العبارة الثانية إشاره إلى الآيه الشريفه: «وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ

ص: ٥٢٨

١- (١). «سَفَارٌ» جمع «سافر» بمعنى المسافر.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ١٨، باب دعائم الإسلام، ح ١.

٣- (٣) سوره المائده، الآيه ٣.

الإسلام ديناً فلن يُقبل منه» (١).

والعبارة الثالثة إشاره إلى الجهاد طبق بعض الروايات، فقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه:

«ألا أخبرك بأصل الإسلام وفرعه وذوره سنامه».

قال: بلى! جعلت فداك. فقال عليه السلام:

«أما أصله الصلاة وفرعه الزكاة وذوره سنامه الجهاد» (٢).

ثم أشار عليه السلام في ختام هذا القسم إلى سبع صفات أخرى من صفات الإسلام بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال:

«فهو عند الله وثيق الأركان، رفيع البنيان، منير البرهان، مضي النيران، عزيز السلطان، مشرف المنار، معوذ (٣) المنار».

وتشير العبارة الأولى

«فهو عند الله...» إلى أن الإسلام بنى على أسس محكمة من الأدلة العقلية والمنطقية والمعجزات الواضحة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

كما تشير العبارة:

«رفيع البنيان» إلى سعه وعظمه الخطط الإسلاميه التي تشمل جميع أصول وفروع حياه الناس الماديّه والمعنويّه.

والعبارة الثالثه:

«منير البرهان» يمكن أن تكون إشاره إلى الأدله والبراهين التي تثبت حقايقه الدين الإسلامى الحنيف.

والعبارة الرابعه:

«مضي النيران» بشأن العلوم والمعارف الحقه التي تنبع من الإسلام، كما جاء فى التاريخ: من أن الإسلام خلق حركه فى القرون الوسطى المظلمه ليحقق إنجازات وتطوراً هائلاً فى جميع العلوم البشريّه والتجربيه وقد صدر المسلمون من خلالها نتاجاتهم العلميه إلى جميع أكناف العالم وكان كما صرح بعض علماء الغرب بمنزله الشمعه التي أضاءت ظلمات القرون الوسطى لأوروبا.

ويمكن أن تكون العبارة الخامسه:

«عزيز السلطان» إشاره إلى منعه وإقتدار حاكميه الإسلام الذى لا يقهر، أو منعه أدلته وبراهينه القويه والمتقنه وحصانتها من الإنهيار.

- ١- (١) سورة آل عمران، الآية ٨٥.
- ٢- (٢) منهاج البراعة، ج ١٢، ص ٢٩٤.
- ٣- (٣) «معوز» من مادة «اعوزاز» بمعنى الازمه والقله.

والعبارة السادسة:

«مُشْرِفُ الْمَنَارِ» واستناداً إلى أنّ «منار» أعمده مرتفعه كانوا يضعون عليها المصابيح المضيئه لكي لا يضلّ المسافرون طريقهم في الصحارى والفلوات، وكلّما كان هذا المنار أرفع وأعلى كان أعظم هدايه وإرشاداً للآخرين - إشاره إلى أنّ هدى القرآن والإسلام على درجه من القوّه بحيث يدعو إليه جميع النائين من مختلف البقاع.

والعبارة السابعه:

«مُعَوِّذُ الْمَنَارِ» بالنظر إلى أنّ «منار» مصدر ميمى وبمعنى الحمل على الحركة والإثارة والطرْد - فهي إشاره إلى أنّ أى قدره وقوّه لا يسعها مواجهه الإسلام الأصيل.

ثم أصدر عليه السلام أثر ذكره لهذه الصفات أربع وصايا تمثّل فى الواقع لوازم تلك الصفات فقال:

«فَشَرِّقُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ».

ومن البديهى أن يكون عظيماً من يتصف بهذه الصفات وعلى العاقل أن يعزه ويكرمه ولا بدّ من اتباع هذا الدين الذى يمتاز بهذه الأدله القويه والواضحه والائتمار بأوامره ويعطيه ما يستحقه من منزله بأن يجعله أسوه لحياته فى جميع شؤونه.

ص: ٥٣٠

إشاره

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاقُ، وَأَظْلَمَتْ بِهِجَتِهَا بَعِيدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَخَسُنَ مِنْهَا مَهَادٌ، وَأَزَفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُيَدَّتِهَا، وَأَقْتَرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلَقَتِهَا، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا، وَتَكْشُفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصْرٍ مِنْ طُولِهَا.

جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرَفَعَهُ لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ.

الشرح والتفسير: ربيع الإسلام

إشاره

بين الإمام عليه السلام في الفصل السابق ببحث رائع عظمه الإسلام وبعض خصائصه وامتيازاته من خلال عبارات عميقة وبلغه. ثم تطرق هنا بشأن من بعث بذلك الدين أي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولاسيما تلك الظروف المعقدة التي انبثقت في ظلها دعوته الشريفه. وسيتطرق في الفصل القادم إلى أهميته القرآن الكريم بصفته أهم معجزه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودستور الشريعة الإسلامية.

وركر في هذا الفصل - كما ورد انفاً - إلى الظروف المعقدة للعصر الجاهلي والفترة التي انطلقت فيها الدعوة الإسلامية من خلال أربع عشره عباره قصيره وعميقه المعنى في كشف ملاسبات ذلك الزمان فقال:

«ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ

مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاعُ (١)، وَأَظْلَمَتْ بِهَجَّتِهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقِ (٢)».

وأضاف:

«وَحَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ (٣)، وَأَزَفَ (٤) مِنْهَا قِيَادٌ (٥)، فِي انْقِطَاعِ مِنْ مُدَّتِهَا، وَأَقْتَرَابِ مِنْ أَشْرَاطِهَا (٦)».

ثم قال:

«وَتَصَرَّمَ (٧) مِنْ أَهْلِهَا، وَأَنْفِصَامِ مِنْ حَلَقَتِهَا، وَأَنْتَشَارِ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءَ (٨) مِنْ أَعْلَامِهَا، وَتَكَشَّفِ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصْرِ مِنْ طُولِهَا».

وهذه العبارات الأربع عشرة تشير جميعاً إلى أنّ العالم آيل إلى الزوال، وأنا لنعيش أواخره. فالنعم والإمكانات والمواهب والاستعدادات في جميع الجوانب تسير نحو الفناء.

ثم قال عليه السلام:

«جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرَفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ».

نعم! فهذا النبي العظيم صلى الله عليه وآله قد خلق ربيعاً مفعماً بالنضاره والحيويه آخر الدنيا وبلغ باتباعه قمة الفخر وذروه الانتصار وأغنى الجميع ببركه وجوده وأشرقت بطلعته تلك الشمس الساطعة في ذلك الوسط المعتم.

ص: ٥٣٢

١- (١) «إطلاع» من ماده «طلوع» بمعنى الظهور والإتيان والاشراف والعلم بشىء.

٢- (٢) «ساق» تعنى فى الأصل ساق الإنسان ولأنّ الإنسان يقف على ساقه فى الأعمال الصعبة والمعقده، لذا أصبحت هذه المفردة كناية عن الشده والمشقه.

٣- (٣) . «مهاد» تعنى فى الأصل الفراش، ثم اطلقت على الأراضى المستويه بصوره عامه.

٤- (٤) «أزف» من ماده «ازوف» على وزن «وقوف» بمعنى التقرب.

٥- (٥) «قياد» من «قيد» تعنى القبض و «قياد» هو الحبل الذى يوضع حول رقبه الحيوانات والعباره «ازف منها قياداً» تعنى كأنهم وضعوا حبلاً حول رقبه الدنيا وسحبوها إليهم.

٦- (٦) «اشراط» جمع «شرط» على وزن «شرف» بمعنى العلامه.

٧- (٧) . «تصرّم» من ماده «صرم» على وزن «سرو» بمعنى القطع و «تصرّم» بمعنى الانتهاء.

٨- (٨) «عفاء» تستعمل بالمعنى المصدرى والاسم المصدرى؛ يعنى الزوال والاضمحلال، واقتبس العفو من هذا المعنى؛ لأنّ الذنوب تضحل على أثر العفو.

بالنظر إلى ما ورد سابقاً فإنَّ القسم الأعظم من هذه الدنيا قد مضى ولم يبق من عمرها سوى القليل، وهذا ما يستفاد بصوره جليه من الآيات القرآنيّه، فقد جاء في الآيه الشريفه الأولى من سوره الأنبياء: «أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

كما جاء في الآيه الأولى من سوره القمر: «أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ».

وفي الآيتين السادسة والسابعة من سوره المعارج: «أَنَّهُمْ يَرْؤُهُ بَعِيداً * وَتَرَاهُ قَرِيباً» وسائر الآيات.

وهنا يرد هذا السؤال: وكم هو عمر الدنيا ليقال ولّى شطرها الأعظم؟ لقد مضى ١٤ قرناً على الدعوه الإسلاميّه ويمكن أن تمضي قرون طويله أخرى، والحال لا نشعر بأثر على زوال الدنيا وبدايه القيامة.

وردت عدّه أقوال لشراح نهج البلاغه بهذا الشأن وكأنّهم بلغوا طريقاً مسدوداً وأخذ كلُّ يبحث عن سبيل للخروج منه، وأعرّب البعض الآخر بعد كثرة الكلام عن عجزه ورأى من الأنسب الصمت والسكوت.

والطريف في الأمر أنّ كلّ شارح ذكر شيئاً بشأن عمر الدنيا؛ فقليل ٥ آلاف سنة وقيل ٧ آلاف سنة وقيل ١٢ ألف سنة، بينما عدّها البعض الآخر أكثر من ذلك، والأعجب من ذلك أنّ البعض أضاف مقداراً من الشهور والأيام إلى ما ذكره من سنوات، ويبدو أنّ أحداً منهم لم يعزز كلامه بدليل معتبر بل مجرد استناد الكلام إلى الحدس والظن؛ أو كإطلاق السهم في الليل كما يقولون. ونرى من الأفضل قبل أن نخوض في تعيين عمر الدنيا بالسنوات والأشهر والأيام؛ أن نتجه صوب الإجابة عن السؤال المذكور لنرى كيف أنّ ما تبقى من عمر الدنيا أقلّ ممّا تصرّم منها.

ذكرت هنا عدّه أجوبه والجواب الآتى يعدّ أفضلها.

فالعلم المعاصر وكذلك الروايات الإسلاميّه ترى للحياه البشريّه تاريخاً طويلاً

على الكره الأرضيّه وبمقارنته بما بقى من عمر الإنسان على وجه الأرض يمكن أن يكون قصيراً.

فقد جاء فى بعض الروايات:

«أو تظنون أنّ الله لم يخلق خلقاً غيركم، إنّ الله خلق ألف ألف آدم قبل آدمكم هذا» (١).

وعليه فليس هنالك من مشكله فى ما ورد فى هذه الخطبه وكذلك الإشارات التى تضمنتها مختلف الآيات القرآنيّه إلى هذه المسأله والتى تشير إلى قصر عمر ما تبقى من الدنيا.

والتفسير الآخر للعبارات المذكوره أنّ المراد من انقطاع الدنيا واقبال الآخره هو نهايه حياه الناس أو الأمم، لأنّ مدّه عمر الإنسان قصيره ولا يكاد يعيش فتره حتى يحلّ أجله.

ولو أمعنا النظر فى العبارات الأربع عشره المذكوره لرأينا أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع تلك العبارات.

تأمل

ربيع النبوه

أشار الإمام عليه السلام فى ختام هذا القسم إلى الافتخار بخلق النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله لاتباعه، ليعتبره بمنزله فصل الربيع لأهل زمانه وشرف ورفعه وعزّه أعوانه وأنصاره.

وإننا لندرک حقيقه هذه العبارات التى وردت فى الخطبه كلّما تأملنا تاريخ العصر الجاهلى ثم تلك النهضه والثوره العظيمة التى احدثتها البعثه النبويه الشريفه، فقد كان أعراب الجاهليه يعتبرون الإنسان فاقداً لأيه منزله اجتماعيّه وتاريخيّه تذكّر، بينما حظى بمكانه قل نظيرها أو انعدم فى التاريخ البشرى فى ظلّ البعثه النبويه،

ص: ٥٣٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٣٣٦. وذكر المرحوم العلامه الطباطبائى فى الجزء الرابع من الميزان فى ذيل الآيه الأولى من سوره النساء بحث جامع.

فلم يكتف أتباع نبي الإسلام صلى الله عليه و آله من العرب والعجم بتشكيل تلك الحكومه الواسعه الأطراف آنذاك فى معظم مناطق العالم، بل بلغوا ذروه العلم والمعرفه والمدنيّه ممّا جعل العلوم الإسلاميه فى خاتمه المطاف تعدّ بؤره وانطلاقه لتلك الثوره العلميه التى شهدتها أوربا فى العصر الحديث، ولو عاد المسلمون اليوم لأمجادهم السابقه وأحيوا تلك القيم الإسلاميه والمثل الدينيه لاحتلوا الصداره ثانيه فى المجالات العلميه والسياسيه والاقتصاديه.

ص: ٥٣٥

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَاتُطْفَأُ مَصِّ ابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَمَّا يُخْبَو تَوْقُدُهُ، وَبَحْرًا لَمَّا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَا جَاءَ لَمَّا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعًا لَمَّا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَانًا لَمَّا يُخَمِّدُ بُرْهَانُهُ، وَتَبْيَانًا لَمَّا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَمَّا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَمَّا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَمَّا تُخَذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَبِنَايِبِ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضِ الْعِدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِي الْأَسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةِ الْحَقِّ وَغَيْطَانُهُ. وَبِحُرِّ لَمَّا يُنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونُ لَمَّا يُنْضِ بِهَا الْمَاتِحُونَ وَمَنَاهِلُ لَمَّا يُغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لَمَّا يُضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلَامُ لَمَّا يَغْمِي عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامُ لَمَّا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ.

جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجِّ لَطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعِيدَهُ دَاءً، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقَلًا مَنِيعًا ذُرُوتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسَلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنْ اتَّكَمَ بِهِ، وَعِزًّا لِمَنْ اتَّكَمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ، وَجُنَّةً لِمَنْ اسْتَتَلَّمَ. وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى.

الشرح والتفسير: خصائص القرآن الكريم

كما قيل سابقاً فقد استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة البليغة بالحديث عن أهميته

التقوى، ثم شرح سبيل التقوى الذى يتمثل فى تبعيه هذا الدين الحنيف، وخاض فى المرحله التاليه فى أهميه الدعوه النبويه وحامل الرساله الإسلاميه، وتعرض فى القسم الأخير من الخطبه إلى خصائص وإمميزات القرآن معجزه النبي الخالده ودستور الشريعه الإسلاميه السمحاء، والذى يجدر ذكره أن الإمام عليه السلام أشار ب ٤٢ عباره قصيره وعميقه المعنى إلى ٤٢ إمتيازاً مهمّاً من امتيازات القرآن وشرح خصائصه بأسهاب بحيث لا يمكن تصور ما هو أفضل منه.

فتطرق فى البدايه إلى عشر فضائل وامتيازات فقال:

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يَخْبُو (١) تَوَقُّدُهُ، وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجًا (٢) لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشِعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَانًا لَا يَحْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتَيْمَانًا لَا تَهْدِمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَا تَهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ».

والعبارتان الأولى والثانيه فى الواقع اقتباس من الآيات القرآنيه التى شبهت القرآن بالنور ومن ذلك الآيه ١٥ من سوره المائده: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»، فالقرآن الكريم أضاء بنوره طرق الحياه المظلمه وكشف السبيل القويم من بين سبل الضلاله والحيره، وأرشد قوافل المجتمعات الإنسانيه فى صحارى وفلوات هذا العالم إلى هدفها المنشود ألا وهو سعادته الدارين الدنيا والآخره.

وتشير العباره الثالثه:

«وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ» إلى الأسرار الخفيه ودقائق العلوم المودعه فى القرآن الكريم والتى تسمو على الأفكار ولا يبلغها سوى خاصه أولياء الله، وقد أشارت بعض الروايات الإسلاميه إلى بطون القرآن المتعدده.

والتعبير بالمنهاج الوارد فى العباره الرابعه بشأن القرآن الذى يعنى الطريق الواضح والمستقيم الذى لا يضل فيه السالكون إشاره إلى الأفراد الذين انتفعوا بهذا الطريق الواضح والصراط الإلهى المستقيم ولا يعتر بهم الضلال قط.

ص: ٥٣٨

١- (١). «يخبو» من مادّه «خبو» على وزن «سرو» بمعنى الانطفاء.

٢- (٢) «منهاج» تعنى الطريق الواسع الواضح و «نهج» تعنى السير فى مثل هذا الطريق.

كما تضمنت العبارة الخامسة: إشاره أخرى إلى نور القرآن حيث إنَّ ضياءه خالد لا يزول أبداً كما وصف القرآن نفسه فقال: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (١).

وأشارت العبارة السادسة إلى نقطه مهمه أخرى وهى أنَّ القرآن فرقان؛ أى حين يمتزج الحق بالباطل أحياناً، فما كان مطابقاً للقرآن فهو حق وما خالفه فهو باطل، وعليه فهو يفرق الحق عن الباطل، وقد ورد التعبير عن القرآن بالفرقان فى الآيه الأولى من سورة الفرقان إذ قالت: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» والأهم من كل ذلك أنَّ هذه الصفة للقرآن لا تؤول إلى الخمود والانطفاء والاختفاء أبداً.

وفى العبارة السابعة شبه القرآن بالبناء الراسخ الأركان والأسس بحيث لا يهدم أبداً، وهذه إشاره إلى خلود التعاليم القرآنيه (٢).

ويطالعنا تشبيه آخر فى العبارة الثامنة؛ حيث شبه القرآن بالدواء الشافى الذى ليس بعده سقم، ذلك لأننا نعلم

«لَيْسَ مِنْ دَوَاءِ إِلَّا وَيُهَيِّجُ دَاءً» (٣) فإنَّ هنالك آثاراً مختلفه سلبيه للدواء أحياناً، غير أنَّ القرآن لا ينطوى سوى على المنافع والآثار الإيجابيه.

وقد ورد التعبير بالشفاء عن القرآن فى ذات القرآن فى الآيه ٥٧ من سورة يونس: «قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ».

وفى الآيه ٨٢ من سورة الاسراء: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

حتى أنه ليستفاد من أغلب روايات المعصومين أنَّ القرآن الكريم شفاء

ص: ٥٣٩

١- (١) سورة فصلت، الآيه ٤٢.

٢- (٢) جاء فى نسخه نهج البلاغه «لصبحى الصالح» «تبيان» بدل «بنيان»؛ ولكن ذكر مجموعه من الشراح كلمه «بنيان» وهى المتناسبه مع «لا تهدم أركانه».

٣- (٣) . الكافى، ج ٨، ص ٢٧٣، ح ٤٠٩.

للأمراض البدنيّة بالإضافة إلى الأمراض العقائديّة والأخلاقيّة، ومن تلك الروايات ما أكّدت على فائده سورة الحمد في علاج الأمراض البدنيّة.

وقد جاء تفسير سورة الحمد في العديد من الروايات، وكذلك في سائر التفاسير، ومنها تفسير كنز الدقائق، كما ذكر المرحوم الكليني في الجزء الثاني من كتابه أصول الكافي في باب فضل القرآن العديد من هذه الروايات الواردة بهذا الخصوص.

كما ورد الكلام في العبارتين التاسعة والعاشره من عبارات الخطبه في أنصار القرآن وأعوانه الذين كتبت لهم الغلبه على الأعداء دائماً فلا يعيشون الفشل والهزيمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى احدى عشره فضيله أخرى بعبارات قصيره ومتتابعه، حيث شبه القرآن بالبحر والعين الصافيه والبناء المتقن والمعدن الثمين والمنهج الواضح فقال:

«فَهُوَ مَعِيدُ الْإِيمَانِ وَبُجُوحَتُهُ (١) ، وَبِنَابِيعِ الْعِلْمِ وَبُحُورِهِ، وَرِيَاضُ (٢) الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ (٣) ، وَأَثَافِي (٤) الْأَسْلَامِ وَبُئْيَانُهُ، وَأُودِيَهُ الْحَقِّ وَغِيْطَانُهُ (٥). وَبَحْرٌ لَمَّا يَنْزِفُهُ (٦) الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لَأَيْضَةٍ بِهَا (٧) الْمَاتِحُونَ (٨) ، وَمَنَاهِلٌ لَا يُغِيْضُهَا (٩) الْوَارِدُونَ، وَمَمَازِلٌ لَا يَصِلُ نَهْجَهَا الْمَسَافِرُونَ، وَأَعْلَامٌ لَا يَعْصِي عَنْهَا

ص: ٥٤٠

١- (١) . «بجوحه» بمعنى مركز ووسط كل شيء .

٢- (٢) . «رياض» جمع «روضه» بمعنى البستان.

٣- (٣) «عذران» جمع «عذير» بمعنى البركه والنهر وهى فى الأصل حفرة تتجمع فيها المياه من السيول.

٤- (٤) «أثافي» جمع «أثفيه» على وزن «أضحيه» من ماده «أثف» على وزن «أنف» بمعنى الثبات والاستقرار ويقال «أثفيه» للصحور الثابته التى يوضع عليها الإناء.

٥- (٥) . «غيطان» جمع «غيط» على وزن «زيد» بمعنى الشده والأرض الوسيعة.

٦- (٦) «ينزف» من ماده «نزف» على وزن «نظم» بمعنى اخراج الماء من شيء (و كذلك بمعنى أخذ الدم) ويقال «مستنزفون» لمن يخرجوا الماء من الحفره أو البئر بحيث ينفد.

٧- (٧) «ينضب» فى الأصل من ماده «نضوب» بمعنى غوص الماء فى الأرض وعبارته «لا ينضبها» أنّ الماء لا ينفذ تلك العيون.

٨- (٨) «ماتحون» جمع «ماتحه» من ماده «متح» على وزن «مدح» بمعنى سحب الماء من البئر أو العين.

٩- (٩) . «يعيض» من مادّه «غيض» على وزن «غيب» تعنى فى الأصل الغوص أو السحب (اللازم والمتعدى) وتعنى فى هذه العبارة التقليل.

العبارة:

«مَعْدَنِ الْإِيمَانِ» إشارته إلى أَنَّ أدله المعارف الإسلاميه من التوحيد واثبات وجود الله حتى مسأله المعاد وإعجاز القرآن والولاية؛ إنَّما ذكرت جميعاً وبصوره واسعه فى القرآن الكريم وهى الأدله التى تشكل مصادر الأدله الأخرى، ذلك لأنَّ المعدن يطلق على المصدر والمنبع والمركز الأصلى للأشياء الثمينه.

كما ذكر هذا المطلب بتعبير آخر فى العبارة الثانيه، اعتبر فيها القرآن عيناً فياضه وبحراً من العلم، بل عيون متدفقه وبحار يستطيع أهل الإيمان انتهال مختلف العلوم منها، وإننا لنعلم اليوم أَنَّ مصدر علم الكلام والفقه والأخلاق وتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام والعلوم الأخرى هو القرآن الكريم.

وأشار فى العبارة الثالثه إلى مسأله مهمه أخرى ليصف فيها القرآن على أَنه حدائق ورياض العدل وغدرانه ومنابعه، فقد خاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين قائلاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ» (٢)؛ أى أَنه لا يرى القيام بالعدل كافياً ويرى ضروره القيام بالقسط حيث القوام صيغه مبالغه وتأكيد، حتى أَنه ليصرح بأنَّ العداوه والبغضاء والقرب والصدقه لا ينبغى أن تحول دون إجراء العداله: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» (٣).

كما أوصى فى ذيل الآيه الأولى: بعدم التوانى فى إجراء العداله حتى تحت طائله إسناد الأب والأم والأقرباء.

جدير ذكره أَنَّ الإمام عليه السلام شبه العداله بالروضه والغدير الذى يسقى الروضه، وبالطبع فإنَّ المجتمع الذى تطبق فيه العداله بمثابه جمال الحديقه والروضه والحركه والحيويه الناشئه من السقى الكافى، فى حين أَنَّ المجتمع الذى يسوده الظلم

ص: ٥٤١

١- (١) «آكام» جمع «أكمه» على وزن «طلبه» بمعنى المرتفع الذى صنع من الصخر أو الرمل.

٢- (٢) . سورة النساء، الآيه ١٣٥.

٣- (٣) سورة المائده، الآيه ٨.

والتمييز الطبقي أشبه بالصحراء القاحله والمحرقه الخاليه من الماء والزرع.

والكلام فى العبارة الرابعه عن أساس وبنیان الإسلام الذى ورد فى القرآن الكريم، لأنّ «أثافى» و «بنیان» تعنى الأساس والجذور، وحسب روايه الإمام الباقر عليه السلام:

«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةِ أَشْيَاءٍ؛ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَالْوَلَايَةِ» (١) ونعلم أنّ أصول هذه الفرائض وردت بصوره موسعه فى القرآن الكريم.

وجرى الكلام فى العبارة الخامسه عن الحقّ (الحقّ بمعناه الجامع الواسع الذى يشمل جميع الحقوق الإلهيّه والإنسانيّه والاجتماعيّه) حيث قال الإمام عليه السلام:
«وَأُوْدِيَهُ الْحَقُّ وَغِيْطَانُهُ».

وجرى الكلام فى العبارات السادسه والسابعه والثامنه عن عدم نفاذ المعارف والعلوم القرآنيّه التى لا تتناقض مهما اغترف منها، وتمد العلماء والباحثين والسالكين بالجديد من الحقائق حتى يوم القيامه، والدليل على ذلك واضح، فالقرآن كلام الله وكلام الله كذاته لا متناهٍ، على غرار ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ» (٢).

ويحمل هذا الكلام رساله واضحه لجميع مفسرى القرآن وهى أن لا يتصوروا أنّ ما قالوه بشأن القرآن هو آخر الكلام وليس هنالك ما هو جديد غيره.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام بشأن من سأله عن القرآن الكريم، قائلاً: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غصاصة؟ فقال عليه السلام:

«لَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْهُ لَزْمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ، فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٣).

والعبارات التاسعه والعاشره والحاديه عشره إشاره إلى وضوح منهج القرآن

ص: ٥٤٢

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ١٨، باب دعائم الإسلام.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٥٩٩.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢١٣، ح ١٨.

وضمائه الهدى لسالكى هذا الطريق، فلا يضل من سلك ولا تخفى علاماته على من سار عليه كما لا تغيب عنهم منازل الآمنه.

ثم أشار عليه السلام فى مواصلته لذكر هذه الصفات الرفيعه للقرآن إلى خمس صفات أخرى فقال:

«جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا (١) لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجًّا (٢) لَطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ».

والعبارة الأولى:

«جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ» إشاره إلى أنّ كلّ عالم أكثر تعطشاً للعلم، ذلك لأنيّه ذاق طعم العلم والمعرفه، وبما أنّ علوم القرآن الكريم ومعارفه غايه فى السعه وليست محدوده فإنّ العلماء يستطيعون رى عطشهم العلمى بالقرآن.

جاء فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى نهج البلاغه:

«مَنْهُوَمَانِ لَا يَشْبَعَانِ؛ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا» (٣).

والعبارة الثانيه:

«وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ» إشاره إلى أنّ عالم الطبيعه يستأنف حياته فى فصل الربيع، فتظهر النباتات والأزهار والثمار، وللقرآن مثل هذا الأثر فى القلوب الواعيه، فأزهار الفضيله وثمار الإيمان اللذيذه والأخلاق والمعرفه وبالتالى القرب الإلهى إنّما يتيسر فى ظلّ القرآن الكريم.

واعتبر القرآن فى العبارة الثالثه جاده واسعه وواضحه لسالكى الحقّ، لأنّ الصلحاء هم أولئك الذين يحثون الخطى فى السير والسلوك إلى الله وأنّ أفضل جاده وطريق يُمكنهم من بلوغ المقصد هى جاده القرآن الكريم.

وأشار فى العبارة الرابعه إلى نقطه جديده وهى أنّ الأدويه قد يكون لها أحياناً تأثير فى التسكين فقط، كما تكون أحياناً أخرى علاجاً مؤقتاً وثالثه علاجاً تاماً،

ص: ٥٤٣

١- (١). «رى» (بكسر الراء وفتحه) بمعنى الارتواء.

٢- (٢) «محاجّ» جمع «محجّه» بمعنى الطريق الواسع والواضح.

٣- (٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٤٥٧.

لكنها تستبطن عوارض سلبية وأمراضاً عرضية، أما القرآن فهو الدواء المنزه عن هذه الأمور فهو العلاج التام الخالي من العوارض السلبية، كما أشار في العبارة الخامسة إلى أمر جديد وهو أن أنوار عالم المادة تمتزج أحياناً بالظلمة (كالنور بين الطلوعين وبين الغروبين) وإن لم تخالطه ظلمة فإن له خسوفاً وكسوفاً أو غروباً وافولاً. أما نور القرآن فلا غروب ولا أفول فيه ولا خسوف ولا كسوف، لأنه ينبعث من نور علم الحق وليس هناك من سبيل إلى الظلمة: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» (١).

ثم أشار عليه السلام إلى أربعة امتيازات أخرى من امتيازات القرآن فقال:

«وَحَبِلاً وَثِيقاً عَزُوتُهُ، وَمَعْقِلاً (٢) مَنِيعاً ذُرْوَتُهُ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسَلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ».

فالإمام عليه السلام بيانه لهذه الصفات الأربع إنما شبه في الواقع سعادة الإنسان بالقلعة الحصينة الواقعة على سفح الجبل، وعلى سالكي هذا الطريق - على غرار متسلقى الجبال - أن يتمسكوا بحبال قويه مربوطه اعلى الجبل ويتمسكوا بعدة عروات وثيقه ليتمكنوا من الوصول إلى تلك القلعة وتلك القلعة في موضع لا يبلغها العدو وكل من دخلها كانت له قدره لا تقهر وعاش فيها سليماً معافى.

ومن هنا يفرز العدو الأصلي للإنسان هوى النفس والشيطان وعدم الاستقرار، ومن يستظل بالقرآن سيبلغ ذروه السلامه والسعاده والكرامه والأمن.

ثم أشار عليه السلام إلى خمس صفات منسجمات اخر من صفات القرآن فقال:

«وَهْدَى لِمَنْ اتَّخَذَهُ، وَعُذْرًا لِمَنْ اتَّخَلَّهُ (٣)، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجًا (٤) لِمَنْ حَاجَّ بِهِ».

المراد من الهدى في العبارة الأولى واضح، والمراد من العذر في العبارة الثانية

ص: ٥٤٤

١- (١) سورة النور، الآية ٣٥.

٢- (٢) «معقل» بمعنى الملجأ والموضع من ماده «عقل» بمعنى المنع، لأن الملاجىء تقى الإنسان من الحوادث.

٣- (٣) . «انتحل» تعنى قبول مذهب ودين من ماده «نحل» على وزن «خرقه» تعنى الإيمان.

٤- (٤) «فلج» بمعنى الظفر والفوز.

يمكن أن يكون إتمام الحجّه، حيث أتمّ القرآن الحجّه على جميع الأفراد بشأن الإيمان والإتيان بالواجبات الإلهيّة، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ القرآن سيكون معذوراً أمام الله تعالى في القيامة، بمعنى كلّ من كان عمله وفق تعاليم القرآن سيكون معذوراً عند الله، ويبدو المعنى الثاني أصوب من الأوّل.

والعبارة:

«بُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ» إشارة إلى أنّ الإنسان لا يستطيع الاستدلال بالقرآن في عقائده وأعماله فحسب، بل البراهين القرآنيّة أفضل برهان في دحر حجّه المخالفين سواء في المبدأ والمعاد أو في الإرشادات الدنيويّة.

والعبارة:

«شَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ» تأكيد أكثر على هذا المعنى إذ إنّ كلّ من جعل القرآن شاهده على خصمه كان أعظم شاهد له ونتيجة ذلك ما ورد في العبارة الخامسة من أنّ الاستدلال والاستشهاد بالقرآن سبب التغلب والانتصار على الخصم.

ثم قال الإمام عليه السلام في آخر سبع صفات اختتم بها هذه الخطبه:

«وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيئَةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ (١)، وَجُنَّةً لِمَنْ اسْتَلَامَ (٢)، وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى».

فقد شبه المؤمن بالقرآن في العبارة الأولى والثانية بالشخص الذي ركب مركباً يحلق به إلى سماء السعادة.

واعبر القرآن في العبارة الثالثة وسام شرف لجميع الأفراد الذين جعلوه دلاله حياتهم، فأيات القرآن أفضل شعار وعلاماته ودلالاته أفضل العلامات والدلالات.

وعده في العبارة الرابعة كدرع يقى الإنسان مكاره الحوادث في مواجهته للأعداء، العدو والظاهري المخالف للإسلام والعدو الباطني، أي هوى النفس والعدو

ص: ٥٤٥

١- (١). «توسّم» من «وسم» على وزن «وصل» بمعنى نصب العلامه وتعنى أحياناً الجمال.

٢- (٢) «استلام» من ماده «لثم» على وزن «لعن» بمعنى التجميع والالتيام وتناسب شيئين و «استلام» تعنى لبس الآلات الحربيه والدروع، أى كما أنّهم قد ناسبوا بين أجسامهم ولبس هذه الأشياء.

الخفى أى الشيطان.

وأشار فى العبارات الخامسة والسادسة والسابعة إلى العلوم الحاصله من القرآن، ويمكن أن تكون العبارة

«وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى» إشاره إلى استدلالات القرآن المنطقيه والعبارة

«حَدِيثًا لِمَنْ رَوَى» إشاره إلى الأحاديث النقليه والأحاديث التى بلغتنا من جانب الوحي.

وأشار عليه السلام فى العبارة الأخيره إلى تطبيقه العملى فى مسأله القضاء واصدار الأحكام، بناءً على أنّ القضاء فى العبارة بمعنى الأحكام فى الخصومات، وإن كان القضاء يشمل الأحكام كافه، فهو إشاره إلى جميع الأحكام الفقيهيه والعقائديه.

تأملان

1. عظمه القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام

ورد البحث بشأن عظمه القرآن فى عدّه خطب من نهج البلاغه، ولكن لم يرد أى بحث بهذه السعه والشموليّه، وما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه (إثنا وأربعين امتيازاً للقرآن) من مطالب يمكن أن تجعل المراقب غير الواعى يظنها من قبيل الادعاء الذى يفتقر إلى الدليل، إلّا أنّ الدقه فى الآيات القرآنيه تفيد وجود العديد من الشواهد والأدله الكافيه على هذا الأمر.

فمثلاً حين عد الإمام عليه السلام القرآن معدن الإيمان ومصدر العلم فذلك لأنّ القرآن ذكر عدّه أدله بشأن أهم المسائل العقائديه أى المبدأ والمعاد بحيث فتح أبواب الإيمان بالله والمعاد بوجه كلّ إنسان منصف.

وبشأن مسأله معرفه الله، فهو يأخذ بيد الإنسان فى أعالي السماء وأعماق الأرض ليريه الحركه المنظمه لتعاقب الليل والنهار وحركه الرياح (1)، وخلق أنواع

ص: ٥٤٦

١- (١). «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيحِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (سوره البقره، الآيه ١٦٤).

الحيوانات والنباتات والثمار، (١) وتحليق الطيور فى السماء (٢)، وحركة الغيوم وامتلاء الأرض العطشى بالمياه أثر نزول الأمطار (٣) والتي تعكس كل واحد منها نظام عالم الخليقه ليقن أن وراء ذلك مبدأ علم وقدره صاغه بهذا الشكل. وبشأن مسأله المعاد فقد أخذ بيد الإنسان الطالب للحقيقه إلى بدايه الخليقه (٤) وليريه مشاهد المعاد فى عالم النباتات (٥) وقدره الله على إحياء العظام الباليه للموتى (٦).

وأما بشأن العداله فقد أولاها أهميه بحيث اعتبرها من وظائف المؤمنين القطعيه (٧) وتطبيقها حتى بشأن العدو (٨) وعدّ الانحراف عنها كبيره من الكبائر.

وإن عدّ أمير المؤمنين عليه السلام القرآن كعين فياضه لرى قلوب العلماء وربيع قلوب الفقهاء فدلّل ذلك فى ذات القرآن، ذلك لأنه وإن كتبت آلاف التفاسير للقرآن فما زال العلماء يكتشفون كل يوم ما هو جديد فيه.

ص: ٥٤٧

١- (١). «وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (سوره الرعد، الآيه ٤).

٢- (٢) «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مَسْجِرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». (سوره النحل، الآيه ٧٩).

٣- (٣). «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ فَتَرَى الْوَدَّاعِ خُرُوجَ مِنْ خِلَالِهِ»، «فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (سوره الروم، الآيتان ٤٨ و ٥٠).

٤- (٤). «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (سوره الأعراف، الآيه ٢٩).

٥- (٥) «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاهِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا». (سوره الكهف، الآيه ٤٥).

٦- (٦) «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا- وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». (سوره يس، الآيتان ٧٨ و ٧٩).

٧- (٧) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ». (سوره النساء، الآيه ١٣٥).

٨- (٨) «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى الْآلِ- تَعْدِلُوا اعْبُدُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». (سوره المائده، الآيه ٨).

وإن قال الإمام عليه السلام: إن القرآن سبب عزه المسلمين واقتدارهم فدليل ذلك وقد ورد في عدّه آيات قرآنيه في أنّه يدعو إلى وحده الكلمه وعدم التفرقه ويرى الإخوه هي رابطه المؤمنين ونتيجه ذلك عزّه المؤمنين في ظلّ عزّه الله (١).

كما أنّ جذور جميع المواضيع التي ذكرها الإمام عليه السلام بصفتها ٤٢ إمتيازاً للقرآن في هذا الجانب من الخطبه موجوده في القرآن الكريم، ولو جمعت لأصبحت كتاباً ضخماً، ولو عمل بهذه الأوامر والتعاليم لحصلت منها كلّ هذه الآثار.

٢. العلماء الأجانب والقرآن

إنّ عظمه القرآن لم تقتصر على الإشاده به بهذه الصفات العظيمه من قبل المسلمين وكبار العلماء الأعلام، بل أذعن لهذه العظمه حتى أولئك الأبعد الذين غاصوا في تأمل آيات هذا الكتاب السماوى فذكروا بعض العبارات الجديره بالتأمل والاهتمام.

كتب «آلبرماله» المورّخ والعالم الفرنسى المعروف فى كتابه «التاريخ العام» حول القرآن:

«إنّ القرآن ممتاز بمعنى الكلمه، البديل عن سائر الكتب القيمه والذى يضم جميع العلوم (الإنسانيه) وهو الكتاب الذى يحتوى على التعاليم الدينيه والقوانين المدنيه المعاصره، ونسخه مرشده للقاضى وكمال تام للزعيم الروحانى» (٢).

وكتب «ويل ديورانت» العالم والفيلسوف المعروف المعاصر فى كتابه تاريخ الحضاره:

«إنّ القرآن يخلق عقائد سهله وبعيده عن الغموض فى القلوب المتواضعه، منزّهه

ص: ٥٤٨

١- (١) «وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَمَّا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً». (سوره آل عمران، الآيه ١٠٣). «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ». (المنافقون، الآيه ٨).

٢- (٢) ثقافه المستشرقين المسلمين، تأليف حسين عبداللهى خروش، ج ١، ص ١٥.

من طقوس العادات الهجينه ومن سنن الوثنيه والكهنه، وبيركته بلغ المسلمون ذلك الرقى الأخلاقى والثقافى ورسخ بينهم النظم الاجتماعيه وأسس الوحده.

وأضاف: إنه حرّر عقولهم من العديد من الأوهام والخرافات والظلم والعنف وأكسبهم عزّه وكرامه، وقد غرس فى المجتمع الإسلامى حاله من الاعتدال والتقوى ليس لها مثيل فى أى من مناطق العالم التى قطنها الإنسان الأبيض...»(١).

وكتب «رولف لين تون» صاحب «سير الحضاره»:

«لقد مهدت المدرسه القرآنيه سبيل الرقى والتطور لكل فرد مهما كان انتماءه، بحيث أمكن حتى لابن العبد أن يبلغ المقامات الرفيعه والعالیه فى المجتمع الإسلامى»(٢).

وقال البروفسور «درابرز اروب»:

«القرآن سلسله من الوصايا والتعاليم الأخلاقيه والذى يتكون من مفاهيم يقبلها الجميع. وهذه الوصايا والتعاليم بليغه وكامله وهى ضروريه ولازمه لتنظيم شؤون الناس»(٣).

وقال «جان ديون بورت» مؤلف كتاب «الاعتذار إلى القرآن ومحمد من التقصير»:

«إنّ القرآن منزّه عن كلّ عيب ونقص بحيث لا- يتطلب أدنى إصلاح، ولا- يشعر الإنسان بأى ملل إذا ما تصفحه من أوله إلى آخره»(٤).

وقال الشاعر الألماني المعروف والعالم «جيته»:

«لسنين طويله، أبعدهنا القساوسه عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمه النبى محمّد، ولكن كلما خطونا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حُجُب

ص: ٥٤٩

١- (١) عصر الإيمان، القسم الثانى، الحضاره الإسلاميه، ص ٥٢.

٢- (٢) ثقافه المستشرقين المسلمين، ج ١، ص ١٥.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ١٤.

٤- (٤) من مقدمه منظمات المدنيّه للإمبراطوريه الإسلاميه، ص ١١١.

الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، ويصبح محور أفكار البشريه»(١).

ص: ٥٥٠

١- (١) التفسير الأمثل، ج ١، ذيل تفسير الآيه ٢٣ و ٢٤ من سوره البقره.

كان يُوصى به أصحابه (١)

نظرة إلى الخطبه

أوصى الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بأربعة أمور مهمه من التكالييف الإسلاميه والتي تشكل جانباً من الخطبه.

فقد تطرق في القسم الأول إلى الصلاه وأهميتها وأشار إلى الإكثار منها والمحافظة على كفييتها ليعتبرها وسيله النجاه في الآخره وسبب التطهر من المعاصى فى الدنيا وغسل الروح والقلب من الرذائل الأخلاقيه، ثم ذكر باهتمام النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والمؤمنين بالصلاه.

وخاض فى القسم الثانى فى مسأله الزكاه التى تعدّ من أهم أركان الإيمان بعد الصلاه وعدّها من كفّارات الذنوب وحجاباً من نار جهنم، وأنّ أدائها مفخره عظيمه، وعرض بالذم لمن يغفل عنها.

ص: ٥٥١

١- (١) سند الخطبه: روى المرحوم الكلينى قبل السيد الرضى قسماً رئيسياً من هذا الكلام فى الكافى، كتاب الجهاد (الكافى، ج ٥، ص ٣٦). ولم يرد أكثر من هذه فى مصادر نهج البلاغه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٨٥).

وانتقل في القسم الثالث إلى موضوع غايه في الأهميه والذي يتمثل بأداء الأمانه ليعتبر المؤتمن سعيداً وخائناً الأمانه مهزوماً وآيساً من رحمه الله وخاض في تفسير مختصر للآيه الشريفه: «أَنَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...» (١).

وتحدّث في القسم الرابع عن موضوع مهم يضمن إجراء جميع التكاليف والأحكام الإلهيه وهو مراقبه الله واحاطته العلميه بجميع أعمال الإنسان، وكذلك أعضاء الإنسان وجوارحه وضميره هي الأخرى مراقبه ومحيطه بأعماله.

وتفيد العبارة

«كَانَ يُوصَى بِهِ أَصْحَابُهُ» أَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَكْرُرُ هَذَا الْكَلَامَ كُلَّمَا سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِيَحْذِرَ صَاحِبَهُ مِنْ خَطَرِهِ هَذِهِ الْأَصُولِ الْأَرْبَعَةَ الْمَهْمَةَ، وَيَجْدُرُ بِالسَّالِكِينَ لَخَطِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَوَاصِلُوا وَيَنْفِذُوا هَذِهِ الْوَصَايَا وَيَتَوَاصَلُوا بَعْضُهُمُ الْبَعْضَ بِهَذِهِ الْمَبَادِئِ الْأَرْبَعَةَ الْمُنْجِيَةَ.

ص: ٥٥٢

١- (١) سورة الأحزاب، الآيه ٧٢.

إشارة

تَعَاهِدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْبِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا (كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا). أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ). وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّى الْوَرَقِ، وَتُطْلَقُهَا إِطْلَاقَ الرَّبِّقِ، وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَمِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ. يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ). وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصَبًا بِالصَّلَاةِ بَعْدَ النَّبِيِّ لَهٗ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ.

الشرح والتفسير: الأهمية القصوى للصلاة

إشارة

أشار الإمام عليه السلام كما ذكرنا في مبحث «نظره إلى الخطبه» إلى أربعة أمور مهمه وأكد على أنها من الأركان، تتعلق ثلاث منها بفروع الدين (الصلاة والزكاة وحفظ وأداء الأمانه) والرابع من آثار أصول الدين وهو الإيمان بحضور الله في كل مكان وعلمه بمضمرة القلوب وأعمال الجوارح، وأشار في القسم الأول المتعلق بالصلاة إلى آثار الصلاة المعنويّة والتربويّة والعاقبه السيئه لتاركى الصلاة والمستخفين بها

وقد عرّف من خلال ذلك بالمصلّي الحقيقي فقال بادئ الأمر:

«تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْتَرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا «كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا» (١)».

فقد تضمنت العبارة القصيره أربعة أوامر بشأن الصلاه هي: تعاهدها، والمحافظة عليها، والإكثار منها، والتقرب بها إلى الله.

والمراد من التعاهد المراقبه والإصلاح، ويطلق هذا التعبير على الشخص الذى يتفقد أملا-كه ومزارعه ويجد ويجتهد فى إصلاحها، وعليه فالعبارة المذكوره إشاره إلى مواصلة المذاكره بشأن واجبات الصلاه ومستحباتها ومكروهااتها، بحيث يكون كلّ يوم أفضل من سابقه فى الصلاه.

والمراد من المحافظه ما أشير إليه فى الآيه ٢٣٨ من سوره البقره: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى» والمتمثل بحفظها من الموانع والرياء والسمعه وامثال ذلك.

كما ذهب البعض إلى أنّ المراد حفظ أوقات كلّ صلاه وأدائها فى وقت الفضيله.

ويشير التعبير «استكثروا» لما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ فَمَنْ شَاءَ اسْتَقَلَّ وَمَنْ شَاءَ اسْتَكْتَر» (٢).

كما ورد فى الروايه:

«إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الصَّلَاةُ وَالْبِرُّ وَالْجِهَادُ» (٣).

وقال فى العبارة الرابعه التى تمثّل فى الواقع نتيجة للعبارات الثلاث السابقه:

«وَتَقَرَّبُوا بِهَا».

جاء فى الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام أنّه قال:

«الصَّلَاةُ

ص: ٥٥٤

١- (١) سوره النساء، الآيه ١٠٣.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٣٠٨، ح ٩.

٣- (٣) وسائل الشيعه، ج ٣، باب ١٠، أبواب اعداد الفرائض، ح ٧.

ثم تطرق عليه السلام إلى الدليل على الوصايا الأربع بشأن الصلاه، فأشار إلى سبعة واستشهد ببعض الآيات القرآنيه والأحاديث النبويه فقال في البدايه: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا» (٢).

وقد ذكر المفسرون تفسيرين لهذه الآيه فقالوا: إنَّ المراد من «موقوت» الوجوب حيث يستعمل هذا التعبير بدل الوجوب؛ والثاني إنَّه إشاره إلى أوقات الصلاه التي ينبغي مراقبتها بدقه من قبل المؤمنين فيأتون بكلَّ صلاه في وقتها.

ثم خاض في الدليل الثاني فقال عليه السلام:

«أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: «مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ» (٣) * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ» (٤).

طبعاً أشير في مواصله الآيه الشريفه المذكوره إلى سائر الذنوب التي أدت إلى دخولهم النار من قبيل: عدم إطعام المسكين ومسايره أهل الباطل والتكذيب بيوم القيامه: «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ» (٥)؛ إلماً أنَّ المهم هو أنَّ القرآن أشار إلى تقديم ترك الصلاه على كلِّ تلك الأمور، وهذه دلالة واضحه على أهميته الصلاه ودورها في سعادة الإنسان.

وهذه الآيات هي أدله واضحه على عقاب الكفار على ترك فروع الدين كتركهم لأصول الدين.

وقال الإمام عليه السلام في بيان الدليلين الثالث والرابع لإثبات أهميه الصلاه:

«وَأَنَّهَا

ص: ٥٥٥

١- (١) الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥، ح ٦.

٢- (٢) سوره النساء، الآيه ١٠٣.

٣- (٣) «سقر» في الأصل من «سقر» على وزن «فقر» بمعنى التغيير والتذوب وتغير اللون والأذى من أشعه الشمس ولأنَّها من آثار جهنم اطلق عليها «سقر». ويستفاد من بعض الروايات أنَّ «سقر» يطلق على قسم خاص من جهنم هو مكان المتكبرين.

٤- (٤) سوره المدثر، الآيتان ٤٢ و ٤٣.

٥- (٥) . سوره المدثر، الآيات ٤٤-٤٦.

لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتًّا (١) الْوَرَقِ، وَتُطْلَقُهَا إِطْلَاقَ الرَّبِقِ (٢)».

نعم؛ فكما أنّ الصلاة تحول دون الذنوب في المستقبل بمضمون الآية الشريفة:

«إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (٣)، فَإِنَّهَا تَوْثِرُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الذُّنُوبِ السَّابِقَةِ عَنْ طَرِيقِ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ وَالَّتِي تَعَدُّ الصَّلَاةَ مَصْدَرَهُ فَتَقْضِي عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي هِيَ كَالْقَيْدِ عَلَى رِقْبَةِ الْإِنْسَانِ وَتَصْدَهُ عَنِ الرَّقِيِّ وَالْكَمَالِ؛ وَتَحْرِرُهُ مِنْ تِلْكَ الْقَيْودِ.

روى عن سلمان الفارسي قال: كنت مع رسول الله إذ جلسنا عند شجره فهزها رسول الله فتساقطت أوراقها، ثم قال صلى الله عليه و آله:

«أَلَا تَسْأَلُونَنِي عَمَّا صَنَعْتُ؟» قالوا:

فأخبرنا يا رسول الله قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتَّتْ وَرَقٌ هَذِهِ» (٤).

ثم استشهد الإمام عليه السلام في استدلاله الخامس بكلام رسول الله بشأن أهميته الصلاة فقال:

«وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَنْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ (٥)؟» (٦).

ويتضح من خلال ما ورد في متن الخطبه من كلمه «الحمة» (عين المياه الحاره التي يستفاد منها في علاج المرضى) أنّ الصلاة ليست كعين الماء العاديه، بل عين خاصه لها آثار عجيبه في القضاء على الأدناس، ولكن لابدّ من الإلتفات إلى أنّ هذا

ص: ٥٥٦

١- (١) «حَتًّا» تعني في الأصل فصل الورقه عن الشجره، واطلقت فيما بعد على فصل الأشياء عن بعضها.

٢- (٢) «ربق» على وزن «عنب» جمع «ربق» على وزن «فعل» تعني الجبل الذي يتضمن عقد عديده وعندما يريد الشخص أن يضعها في صف يشدّ كلّ واحده بإحدى العقد.

٣- (٣) . سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٤- (٤) وسائل الشيعه، ج ٣، الباب ٣٢ من أبواب أعداد الفرائض، ح ٣.

٥- (٥) «درن» على وزن «لجن» بمعنى الوسخ والقذاره.

٦- (٦) نقل هذا الحديث المرحوم الشيخ الحرّ العاملي في وسائل الشيعه، ج ٣، الباب الثاني من أبواب أعداد الفرائض، ح ٣، مع هذا الفارق أنّه نقل بدل «حمه» «نهر» و «النهر الجارى». وهذا المتن ورد في مسند أحمد، ج ١، ص ٧٢، طباعه دار الصادر بيروت وصحيح مسلم، ج ٢، ص ١٣٢ طبعه دار الفكر أيضاً.

التعبير حسب تحقيقنا وبحثنا إنما جاء فقط في كلام الإمام عليه السلام وفي هذه الخطبه.

ويمكن أن يكون هذا التأثير نابع من كون الصلاه تحيي في الإنسان روح التقوى وبمقتضى الآيه الشريفه: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» فهي تصده عن الفحشاء والمنكرات في المستقبل وتدعوه بالطبع إلى التوبه بالنسبه لما سلف منه.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليستدل في دليله السادس بآيه قرآنيه أخرى تكشف عن عظم منزله المصلين فقال:

«وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَكْدٍ وَلَا مَالٍ. يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ» (١)».

جدير ذكره أن الآيه المذكوره وردت بعد آيه من تلك التي أعقت آيه النور في القرآن وجرى الحديث في الآيه التي سبقتها عن تلك البيوت الرفيعه التي أشرق فيها نور الله وانشغلت بتسييح الله ليل نهار والرجال الذين أشير إليهم في الآيه التي نحن بصدددها هم امناء نور الله الذين لم تستهوهم زخارف الحياه الدنيا أو تصدهم عن ذكر الله والإحسان إلى خلقه ومعونتهم.

وأخيراً أشار عليه السلام في آخر دليل على أهميه الصلاه إلى سيره النبي المقتبس من القرآن الكريم فقال:

«وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصَبًا (٢) بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبَشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» (٣)

، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ (٤) عَلَيْهَا نَفْسَهُ».

وتشير هذه الأدله السبعه التي ذكرها أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن أهميه الصلاه والتي استلهمها من القرآن والسنة وعشرات الأدله الأخرى التي لم يكن عليه السلام في مقام

ص: ٥٥٧

١- (١) سورة النور، الآيه ٣٧.

٢- (٢) . «نصب» على وزن «خجل» بمعنى التعب (بكسر العين) والصفه المشبهه «نصب» على وزن «حسب» التعب.

٣- (٣) . سورة طه، الآيه ١٣٢.

٤- (٤) «يصبر» من «صبر» معروفه وهو غالباً ما يكون فعلاً- لازماً؛ ولكن يمكن أن يكون متعدياً أحياناً؛ أى اجبارهم على الصبر وهو المعنى المراد فى العبارة.

التطرق إليها، تشير إلى مدى أهميته الصلاة وكونها جوهره ثمينه ومدى تأثيرها ودورها في تهذيب الإنسان وسعادته إلى جانب المخاطر التي يستبطنها الإبتعاد عن الصلاة والحرمان من بركاتهما.

تأمل

دور الصلاة في تربيته الإنسان

الإنسان موجود رصيده النسيان؛ فهولا ينسى الآخرين فحسب، بل غالباً ما يعانى من نسيان ذاته، وهذا النسيان الذاتى من أعدى أعداء سعادته الإنسان.

وهناك عنصران مهمان يسهمان فى هذا النسيان الذاتى؛ الأول: المتطلبات الواقعية لحياته اليوميه سيما فى العصر الذى تعقدت فيه الحياه وكثرت مشاكلها، والثانى: الحاجات الكماليه والخياليه والظاهرية والمقرونة بالهوى وحب المال والجاه والشهوه، فهى أشبه بالمسافر الذى تطالعه على جانبى الطريق القصور الفخمه والشواهد الجميله التى تصده فجأه عن مساره الرئيسى وتقذف به إلى الهاويه.

ولعل أهم آثار الصلاة إيقاظ الإنسان من سباته ووضعها حدّاً لنسيانه، ذلك لأنّه إن ذكر الله انقلب الوضع رأساً على عقب، فلسفه الصلاة حسب الآيه الشريفه: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»^(١) هى ذكر الله التى جاءت بعد الآيه الشريفه: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»^(٢) والثى أعقبت هذه الآيه الشريفه: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» تشير إلى أنّ الجذور الأصلية لفلسفه الصلاة إنّما تكمن فى ذكر الله، لأنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه، وحبّ الدنيا هو الذى يصد الإنسان عن ذكر الله، كما ورد فى الآيه ٢٩ من سوره النجم: «فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَم يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا».

ص: ٥٥٨

١- (١). سوره طه، الآيه ١٤.

٢- (٢) سوره العنكبوت، الآيه ٤٥.

وتفيد سائر الآيات القرآنية أن الشيطان إنما يطوف حول قلب الإنسان فإذا ما ذكر الله هرب منه: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» (١).

وهذا هو دليل ما صرحت به الروايات الإسلامية من أن الصلاة عمود الدين وعين ماء صافيه، سيما إن أوتى بهذه الصلاة في جماعه وأقبل فيها المؤمنون زمراً على الله تبارك وتعالى، جاء في الحديث عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله:

«مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَظَنُّوا بِهِ كُلَّ خَيْرٍ وَأَقْبَلُوا شَهَادَتَهُ» (٢).

ولو تأملنا مقدمات الصلاة (الطهارة والوضوء والغسل) التي تدعو الإنسان إلى طهاره الروح والبدن وسائر شرائطها من قبيل حليه لباس المصلى والتوجه إلى المسجد، أقدم مركز للتوحيد، وسائر الأركان ومضامين الآيات والأذكار والتعقيبات، فإنها تعمق فهم الإنسان لمدى أهميته هذه العباده العظيمه والاستثنائية، والذي يشير إلى مدى الدور الذي تلعبه الصلاة في تربيته الإنسان وإيصاله إلى القرب الإلهي والسير والسلوك المعنوي والعرفاني.

ص: ٥٥٩

١- (١) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٨٥، ص ١٦.

إشاره

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوَقَايَةً. فَلَا يُتْبَعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَمَّا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهْفَهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، يَرْجُوبُهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَنِ، مَغْبُوتٌ الْأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ.

الشرح والتفسير: بركات الزكاة

كما أشير في مستهل الخطبه أن الإمام عليه السلام أشار فيها إلى أربعة أمور غايه في الأهميه كان أولها الصلاه وقد مر بحثها بصوره وافيته، والأمر الثاني الزكاة حيث قال عليه السلام:

«ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ».

و «القربان»: هنا يعني ما يوجب التقرب إلى الله تعالى ونعلم أن الصلاه هي رابطة الخالق بالخلق والزكاة رابطة الخلق بسائر عباد الله والتي تعدّ نوعاً من الإرتباط بالله. جدير ذكره أن الصلاه والزكاة ذكرتا مع بعضهما في سبع وثلاثين آيه من الآيات القرآنيه، وهذا يدل على أنهما لازم وملزوم في تحقيق سعادته الفرد والمجتمع.

ثم عدد الإمام عليه السلام بعض الآثار المهمه للزكاة وشرائطها فقال:

«فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوَقَايَةً».

فالشرط الأول لقبول الزكاة حسب ما ذكر الإمام عليه السلام في هذه العبارة أن تؤدى

عن طيب نفس ورغبه وبصفتها إمتثال لأمر الله ونيل رضاه لتتطوى في ظل هذه الحاله على أثرين مهمين؛ أحدهما أنّها كفّاره للذنوب السابقه، والآخر حجاب من نار جهنم.

طبعاً، من يؤدّي الزكاه مكرهاً ولا يسعه طرح حبّ المال من قلبه يكون قد أدّى التكليف، ولكن لا حظ له من بركات المعنويّه والروحيّه والأخلاقيّه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَرْضُ الْقِيَامَةِ نَارٌ مَا خَلَا ظِلُّ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ تُظِلُّهُ» (١).

وقد صرّح القرآن بأنّ إحدى صفات المنافق أنّه إن انفق شيئاً إنّما ينفقه كراهه ولذلك فهو لا يحظى بقبول الله تعالى: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ... وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ» (٢).

ثم خلاص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَلَا يُتَبَعَنَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَا يُكْثَرَنَّ عَلَيْهَا لَهْفُهُ» (٣).

نعم! فالناس صنفان؛ صنف يؤدّي زكاته وسائر صدقاته في سبيل الله بمنتهى الرضا، وليس له هم سوى الفوز برضا الله دون توقع أدنى شكر أو جزاء ممن يأخذ الزكاه والصدقه «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لِاتْرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً» (٤)؛ أمّا الصنف التالى فذلك الذى يكون أداء الزكاه عنده كحاله الاحتضار، وهولا ينفك يعيش حاله من القلق، ليقول على الدوام: كم كان ثمين ذلك المال الذى زكيت وكم جهدت من أجل الحصول عليه، ولو كان عندى اليوم لفعلت به كذا وكذا، فهذا الصنف مصداق لما ذكره الإمام عليه السلام فى العبارة المذكوره، ولا بدّ أن نرى هنا كيف يبين الإمام عليه السلام الآثار السلبيّه لذلك، فقال:

«فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيْبِ النَّفْسِ بِهَا، يَزْجُوبُهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَنِ، مَغْتَبُونَ الْأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ».

ص: ٥٦٢

١- (١) الكافى، ج ٤، ص ٣، ح ٦.

٢- (٢) سورة التوبه، الآيه ٥٤.

٣- (٣) «لهف» بمعنى التأسف والندم والحزن.

٤- (٤) . سورة الدهر، الآيه ٩.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه فى تفسيرهم لهذه العبارة

«يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا»: إلى أنّ المراد أنّ الإنسان المؤمن لا يتوقع حتى بركة المال والحصول على المزيد من النعم فى أدائه للزكاة وسائر القربات، بل هدفه رضا الله، إلّا أنّ هذا التفسير لا يبدو منسجماً مع العبارة

«جاهلٌ بالسُّنَّةِ» و

«ضَالُّ الْعَمَلِ»، ذلك لأنّ الاستفادة من الروايات الإسلاميه أنّ انتظار الفضل الإلهي والعناية ليس ممنوعاً فى هذه الموارد، بل مرغوب فيه.

فقد جاء فى الروايه أنّه يستحب التوجه لله وطلب سعه الرزق حين الحاجه عن طريق التصديق(١) وقد قال القرآن بهذا الخصوص: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِى الصَّدَقَاتِ»(٢).

إلّا أنّ التفسير الثانى الذى يمكن قوله بشأن هذه العبارة والذى ينسجم مع سائر العبارات، الأول أنّ هذه العبارة استمرار للعبارة

«غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا»؛ أى أنّه لا يُعطى الزكاة عن نفس طيبه ولا يأمل بما هو أفضل منها، ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الشخص قد عمل خلاف السنه وانحدر إلى الضلال. والآخر أنّ المراد الشخص الذى لا يعيش الرضا الباطنى حين أداء الزكاة ويطلب من الله ما هو أفضل منها، فهو شخص خاطئ وجاهل بالسنه.

تأمل

الزكاة؛ ركن مهم فى المجتمع الإسلامى

الزكاة من أهم الفرائض بعد الصلاة؛ فالكلام فى الصلاة عن الرابطة بالخالق، وفى الزكاة عن الرابطة بخلق الله. والواقع أنّ صدق الإنسان وجديته فى موضوع الإرتباط بالخالق إنّما يثبت حين تكون رابطة قويه بالخلق، فيحيط بمشاكلهم

ص: ٥٦٣

١- (١). «إِذَا أُمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ» (نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٥٨).

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ٢٧٦.

ويسعى لحلها ويعبر عن مواساته للمحتاجين والمساكين والمحرومين ويسعى بكل ما أوتى من قوه لمساعدتهم، وبالطبع فإن أهم مظاهر ذلك هو أداء الزكاه، ومن هنا وكما أشير سابقاً فقد ذكرت الزكاه إلى جنب الصلاه فى ٣٧ آيه من الآيات القرآنيه.

من جانب آخر فإن التمايز الطبقي يعدّ من أخطر الظواهر الاجتماعيه فى أن تكون هناك طبقه مرفهه مهيمنه على كل شىء وأخرى محرومه تفتقر إلى أبسط المقومات الأساسيه للحياه، الأمر الذى يترك آثاره السلبيه على هذه الطبقة المعدمه، كما تعانى الطبقة المرفهه من بعض الضغوط بفعل ردود الفعل التى تمارسها تلك الطبقة وهذا ما يؤدى بالتالى إلى سلب الأمن عن المجتمع.

قال القرآن الكريم فى الآيه ١٩٥ من سوره البقره: «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» والمراد إذا أردتم النجاه من الهلكه فلا تنسوا الانفاق فى سبيل الله.

وهى الحقيقه التى وردت إشاره لطيفه إليها فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال بعد تصنيفه أبناء المجتمع إلى عالم وجاهل وغنى وفقير:

«وَإِذَا بَحَلَ الْعَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِمُدْنِيَاهُ» أى حين يبخل الأغنياء بالفضل على الفقراء والمحرومين فإن هؤلاء المحرومين يبيعون آخرتهم بدنياهم وبالتالى يثرون ويحطمون جميع القوانين الاجتماعيه.

ومن جانب ثالث هنالك الصفات الرذيله بالفعل وبالقوه فى أغلب الأفراد التى لا يمكن استئصالها إلّا بأداء الزكاه، قال القرآن الكريم: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...» (١).

نعم! هنالك تأثيرات عظيمه لأداء الزكاه فى تهذيب النفس وتهذيب صفاته الإنسانيه.

ص: ٥٦٤

ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا. إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَمِينَةِ، وَالْأَرْضِ بَيْنَ الْمِيدْحُورِ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمُنْصُوبِ فَلَا أَطُولَ وَلَمَّا أُعْرِضَ، وَلَمَّا أُعْلِيَ وَلَمَّا أُعْظِمَ مِنْهَا. وَلَوْامْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرِضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لَأَمْتَنَعَنَ؛ وَلَكِنْ أَشْفَقَنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَعَقَلَنَ مَا جِهَلَ مَنْ هُوَ أضعَفُ مِنْهُنَّ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، (إِنَّهُ كَانَ ظُلُومًا جَهُولًا).

الشرح والتفسير: أداء الأمانة

طرح الإمام عليه السلام في القسم الثالث من الخطبه - بعد بيان أهميته الصلاه والزكاه - مسأله أخرى غايه في الأهميه هي «أداء الأمانة». والأمانة إن لم تؤدى فقدت سائر المشاريع الإسلاميه أثرها ومعطياتها، فقال:

«ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا».

وقد اختلف شراح نهج البلاغه في المراد (بأداء الأمانة) الوارد في هذه العبارة؛ فقد ضيقه البعض ليراه يعنى الولايه والإمامه أو ما شابه ذلك، والحال أن مجيء أداء الأمانة بعد الصلاه والزكاه يفيد أن المراد به مفهوم عام وشامل، ذلك لأن أداء الأمانة أساس ودعامه جميع الأنشطة الاجتماعيه والإيجابيه بحيث لو تسللت الخيانه إلى أداء الأمانة لانعدمت الثقة بين الجميع ولزال التعاون الاجتماعى ولساد سوء الظن بين الناس مما يؤدى إلى إرباك المجتمع، ولذلك جاء في الروايه أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى

كما ورد في الحديث النبوي الشريف:

«الْأَمَانَةُ تَجْلِبُ الْغِنَى وَالْخِيَانَةُ تَجْلِبُ الْفَقْرَ» (٢).

جدير ذكره أنّ للأمانة معنيين؛ معنى خاص يشمل أمانات الناس المالية التي يستودعها بعضهم البعض الآخر وحفظها من أوجب الواجبات، ومعنى عام يشمل جميع المسؤوليات الإلهية، وعلى هذا الأساس فإنّ عمرنا وأولادنا وبلدنا ومراكزنا الاجتماعية والحكومات الإلهية كلّها أمانات أودعت لدينا ولا ينبغي خيانتها.

والمفهوم العام يشمل أمانات الناس الماديّة وكذلك الأمانات الإلهية والمعنويّة وحفظها من أركان الدين كما أشار الإمام عليه السلام إليها بعد الصلاة والزكاة، وتفيد العبارات اللاحقة بعدها إلى أنّ الهدف من ذكر الأمانة هنا هو المفهوم العام، ذلك لأنّ الإمام عليه السلام قال عقب هذه العبارة:

«إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمُبَيَّنَةِ (٣)، وَالْأَرْضِينَ الْمَدْحُورَةَ (٤)، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلَا أَطُولَ وَلَا أَعْرَضَ، وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا».

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْامْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لَأَمْتَنَعَ؛ وَلَكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَ مَا جَهَلَ مَنْ هُوَ أضعفُ مِنْهُنَّ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».

هذا الكلام إشاره لما ورد في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».

ص: ٥٦٦

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ١٠٤.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٤.

٣- (٣). «مبيته» من مادة «بناء» ولأنّ وجود البناء في تركيب السماء والأرض أمر بديهي فلذلك أشارت هذه المفردة إلى مفهوم أهم وهو الارتفاع والعظمه في البناء.

٤- (٤). «مدحوه» من مادة «دحو» على وزن «محو» أي البسط والمراد من «دحو الأرض» هو أنّه في بادئ الأمر - كما تؤكد علوم الأرض - كانت الأرض مغطاه من قبل الأمطار والفيضانات، ثم تجمعت هذه المياه في أخاديد الأرض وظهرت اليابسه من تحت الماء فأصبحت الأرض مهيبته لسكن.

١. نقطه مهمه

هنالك نقطه مهمه في هذه الآيه الشريفه: وهى: ما المراد بهذه الأمانه الإلهيه التى بلغت هذا القدر من الثقل بحيث عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال؟

وقد ذهب أغلب المفسرين إلى أن المراد بها التكليف الشرعيه والأوامر والنواهي والإيمان ومنها ولايه المعصومين عليهم السلام وأن عدم تحملها من قبل السماء والأرض والجبال دليل على عدم استعدادها لقبول هذه المسئوليه، وعليه فعرض هذه التكليف الإلهيه عليها كان بلسان الحال، رغم ما ذهب إليه البعض من أن الله أفاض عليها آنذاك ما يكفيها من العقل والشعور لتخاطب بذلك الخطاب، ولكن على كل حال فقد حملها وقبلها الإنسان بفضل ما أودع من استعداد ربانى شامل.

حقاً أن هذا لوسام شرف عظيم للإنسان لأن يخاطب بأوامر الله ونواهيه ولذلك فهو يحتفل فى اليوم الذى يبلغ فيه التكليف.

وعلى هذا الضوء فسر «الظلم والجهول» بعاقبه العمل، أى أنه لم يكن ظلوماً فى قبول هذه الأمانه بل ظلم نفسه فى أداء حقها ولم يلتفت إلى قدر نفسه ومقامه وكان جاهلاً به.

فهذا أوضح تفسير يمكن ذكره للآيه الشريفه، لكنه لا ينسجم مع ما ورد فى الخطبه التى نحن بصددنا من جهتين، الأولى: إن السماوات والأرض والجبال إنما لم تتحمل هذه الأمانه بسبب ما هى عليه من عقل وفطنه، والثانيه: إن الإنسان كان أضعف منها وقد ظلم نفسه إثر جهله وحمل تلك الأمانه، ومن هنا فإن النهوض بهذه الأمانه والتكليف يعد نقطه ضعف فى الإنسان، وعدم قبولها من قبل السماوات والأرض يعد نقطه قوه لها.

وهذا المعنى وبغض النظر عن عدم انسجامه مع الآيه الشريفه، فهو لا يتفق أيضاً مع سائر الآيات القرآنيه، فالله جعل الإنسان أفضل خلقه فقال: «لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...»

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً» (١) وقد أمر جميع ملائكته بالسجود له وجعله خليفته في أرضه وقال بحقه: «أُنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (٢). فهل يمكن أن يقال بعد كل هذه الافتخارات إنَّ الإنسان أضعف واحط من الجمادات كالأرض والسماء والجبال؟!!

حقاً إنَّ هذه مسأله معقده ولا يبدو من السهل الجمع بين مضمون هذه الخطبه وما جاء في الآيه الشريفه، ولم يتجه شراح نهج البلاغه صوب حل هذه المشكله، والحل الوحيد هو أن نعتبر الآيه قضيه كلييه ونحمل كلام الإمام عليه السلام على قضيه جزئيه فنقول: إنَّ الإمام عليه السلام تطرق إلى فته من الناس، فته بحكم الآيه الشريفه:

«أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» (٣) ممن ليس لهم حظ من عقل ومعرفه ويعيشون في دوامه من الجهل والغرور والغفله واتباع الهوى الذى تسلسل إلى أفكارهم فكان قبول هذه الأمانه سبب بؤسهم وشقائهم بدلاً من أن يكون أساس إعترازهم وفخرهم؛ ولعلنا نلمس شبيه ذلك فى القرآن الكريم بشأن المنافقين ومرضى القلوب: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» (٤).

ومن هنا يجدر بالباحثين التركيز والتعمق فى هذه المسأله.

٢. أفضل علامات الإيمان

إنَّ حفظ الأمانه، سواء بالمعنى الخاص الذى يعنى حفظ ثروات الآخريين المالىه، أو بمعناها العام فى حفظ وصون المسؤوليات الإلهيه والمعنويه والماديه

ص: ٥٦٨

١- (١) . سورة الإسراء، الآيه ٧٠.

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ٣٠.

٣- (٣) . سورة الأعراف، الآيه ١٧٩.

٤- (٤) سورة التوبه، الآيتان ١٢٤ و ١٢٥.

والفردية والاجتماعية، لمن المبادئ الأساسية لجميع الأنبياء عليهم السلام، والدليل على ذلك الحديث النبوي الشريف:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ».

وحفظ هذه الأمانة على درجه من والعظمه بحيث أبت حملة تلك السماوات المرفوعه والجبال الشامخه، وحملها الإنسان أشرف مخلوقات الله بما أفاض الله عليه من استعداد، وقد صانها وحملها الأنبياء والأولياء ومن سار على دربهم ليفوزوا بهذا الشرف، رغم عدم أداء تلك الأمانة من قبل طائفه جاحده من الظلمه والجهال، والنقطه المهمه هي أن المصادر الإسلاميه ذكرت المزيد من الحقوق للمسلمين بالنسبه لبعضهم البعض الآخر؛ إلا أن حفظ الأمانة أهمها جميعاً والتي تعتبر جزءاً من حقوق الإنسان. ومن هنا جاء في الروايه الوارده عن الإمام الصادق عليه السلام أن أحد وصاياه كانت بهذا الخصوص:

«إِعْلَمْ أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وَقَاتِلَهُ لَوْ إِتْمَنَنِي وَاسْتَنْصَحَنِي وَاسْتَشَارَنِي ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ لَأَدَيْتُ إِلَيْهِ الْأَمَانَةَ» (١).

وتبدو هذه المسأله على درجه من الأهميه بحيث اعتبرت من أفضل الدلالات على شخصيه الإنسان وإيمانه حتى أنها لتفوق الصلاه والصوم والحج.

جاء في الحديث النبوي الشريف:

«لَا تَنْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ صِدْقِهِمْ وَصِدْقِهِمْ وَكَثْرَةِ حَجِّهِ وَالْمَعْرُوفِ وَطَنَطْنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ» (٢).

والدليل الواضح على صدق هذا الحديث الشريف، التجارب التي عشناها طيله حياتنا، فما أكثر الأفراد الذين يعيشون حاله من الجدد والاجتهاد والالتزام بالمسائل العاديه، ولكن ما أن ترد بعض المسائل المهمه سيما الأموال الطائله حتى تزل أقدامهم وتهتز شخصيتهم.

ص: ٥٦٩

١- (١) الكافي، ج ٥، ص ١٣٣، ح ٥.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٤.

إِنَّ اللَّهَ سُيِّحَانُهُ وَتَعَالَى لَمَّا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطْفٌ بِهِ خُبْرًا، وَأَحْيَاطٌ بِهِ عِلْمًا. أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

الشرح والتفسير: عالم الغيب والشهادة

أشار الإمام عليه السلام في الأقسام السابقة من هذه الخطبة إلى ثلاثه مواضع مهمه تعدد من أركان الأوامر الإلهية وهي الصلاة والزكاة وأداء الأمانه، ثم تطرق الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى أمر بمثابة العنصر الإجرائي لهذه الأوامر المهمه والذي يتمثل بإحاطه الله تعالى العلميه بالإنسان في أحواله كافه.

وبعبارة أخرى أنّ الإنسان حين يهتم بطاعه هذه الأوامر يشعر بأنّه حاضر على كّلحال عند الله وأنّ علمه محيط به على غرار العيون التي تبت داخل الطرق والمدن بغيه رعايه الناس للقوانين السائده فقال:

«إِنَّ اللَّهَ سُيِّحَانُهُ وَتَعَالَى لَمَّا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطْفٌ بِهِ خُبْرًا، وَأَحْيَاطٌ بِهِ عِلْمًا.»

والتعبير بالعباد تعبير واسع يشمل جميع الناس بما فيهم المسلم والكافر والصغير والكبير والعالم والجاهل، وتقديم الليل على النهار لأنّ الليل موضع خفي لأغلب العصاه.

والعبارة:

«لَطْفٌ بِهِ خُبْرًا» بالنظر إلى أنّ اللطيف أحد أسماء الله الحسنی ويطلق على من يلم بأظرف الأمور وأدقّها، إشاره إلى عدم غياب أصغر أعمال العباد وأخفاها عن علمه تبارك وتعالى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»^(١).

ص: ٥٧١

وكل هذه الأمور تستند إلى كون علمه سبحانه وتعالى بجميع الأشياء علماً حضورياً فهو حاضر في كل مكان والكون برمته حاضر لديه، فلا يخفى عليه شيء ولا يعزب عن علمه شيء.

وقد تمسك البعض بمثال فقال: لو كان في يدنا شيء ننظر إليه فهل يخفى علينا شيء منه، وبالطبع فإن علم الله لأعمق وأسمى من ذلك بالنسبة لجميع الكائنات.

وقال في مواصلته لكلامه ولإثبات شدّة الرقابه الإلهيّه على الإنسان:

«أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ».

ولمفردة الأعضاء (جمع عضو) معنى عام يشمل الأعضاء التي بها يقوم الإنسان بأعماله، مثل الأيدي والأرجل، وكذلك الأعضاء التي يبدو ظاهرياً لا يقوم بها بعمل كالأضلاع والعظام؛ أما الجوارح (جمع جارحة) واستناداً إلى مادتها اللغويّة جرح التي تعنى الاكتساب فهي تقتصر على الإشارة إلى تلك الأعضاء التي يقوم بواسطتها الإنسان ببعض الأعمال ويحسن بها أو يسيئ بها، وعليه فذكر الجوارح بعد الأعضاء من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

و «ضمائر» جمع «ضمير» بمعنى باطن الإنسان وتشير هنا إلى وجدان الإنسان الذي يمثل القاضي الباطني.

و «خلوات»: جمع «خلوه» تعنى الموضع الذي لا يتواجد فيه عامه الناس، ولما كانت أغلب الذنوب إنّما ترتكب في الخلوات، فقد ركزت عليها العبارة السابقة.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ (خلوات) تعنى ما يرتكب من أعمال في الخلوه وستكون من قبيل حذف المضاف، على كلّ حال فإنّ هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه العبارات الأربع الأخيره أن يقول ليس لعلم الله إحاطه بجميع أعمال الإنسان فحسب، بل أعضاء الإنسان وجوارحه ووجدانه شهوده وجنوده وعيونه، وإنّ كلّ بقعه من مكان حتى الخلوات لتشهد على أعمال الإنسان.

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه إلى سياسه معاويه المؤسسسه على الكذب والخداع والمكر والحيله، وذكر عليه السلام أنه أعرف بهذه الفنون من السياسه إلا أن الورع والتقوى وخشيه الله لا تدعه أبداً يمارس هذا الأسلوب الرخيص، وصرّح فى آخر كلامه بأنه ممن لا تنطلى عليه هذه السياسه فيستغفل ولا يبدى مقاومه.

ص: ٥٧٣

١- (١) سند الخطبه: روى المرحوم الكلينى هذه الخطبه (بعبارات مختصره ومشابيه) فى الجزء الثانى من أصول الكافى ص ٣٣٦ و ٣٣٨ بسندين أحدهما عن الإمام الصادق عليه السلام والآخر عن الأصبغ بن نباته عن أمير المؤمنين على عليه السلام. وبالنظر لما ذكره ابن نباته من أن الإمام ألقى هذه الخطبه على منبر الكوفه فإنها جانب من خطبه طويله اكتفى المرحوم الشريف الرضى منها بهذا المقدار. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٨٥).

وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَذْهَى مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ. وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرِهِ فُجْرَةٌ، وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ. «وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَاللَّهُ مَا أُسْتَعْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَعْمَرُ بِالشَّدِيدَةِ.

الشرح والتفسير: السياسة الأئمة

إنَّ بعض السذج والجهال في عصر أمير المؤمنين يرون حين مقارنة الإمام علي عليه السلام بمعاوية أنَّ هذا الأخير كان أعظم سياسته منه، وهو ذات الكلام الذي سمع في القرون اللاحقة من قبل البعض وما زال يكرره اليوم بعض الجاهلين، وعبارات الإمام عليه السلام تعدّ رداً منطقياً يلجم مثل هؤلاء الأفراد حجراً، حيث قال عليه السلام:

«وَاللَّهُ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَذْهَى (١) مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ».

و «يَغْدِرُ»: من «غدر» بمعنى الخدعه ونقض العهد و

«يَفْجُرُ» من «فجور» بمعنى الإثم والمعصية، والواقع أنَّ هذا الفجور نتیجه لذلك الغدر، لأنَّ الغدر يمهد السبيل للمعصية.

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَى النَّاسِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى نقطه مهمّة وهي أنَّ السياسة على نوعين:

سياسة طائشه ومقرونة بأنواع المعاصي، وبالتالي فهي سياسة شيطانيّة، وسياسة عن

ص: ٥٧٥

١- (١) «أذهى» من ماده «دهى» على وزن «وحى» بمعنى شدّه الفطنه وتأتى أيضاً بمعنى الكارثة والمصيبة، والمراد في العبارة هو المعنى الأول.

تدبير مفعم بالورع والتقوى، وبالتالي فهي سياسه رحمانيه، وفي الواقع تتفاوت السياستين وتبعاً لذلك تتفاوت نتائجهما.

والسياسه بالمعنى الأول لا تعرف من حد خلقى ودينى وإنسانى ووجدانى، وتقضى على كل قانون أو مبدأ أو ضابطه تشكل خطراً عليها، على غرار ما نلاحظه اليوم فى عالم السياسه الذى يحكم الشرق والغرب.

أما الصنف الثانى فتخضع فيه السياسه لأطر معينه حدودها القيم والمثل الدينيه والإنسانيه والوجدان والضمير؛ فهي لا تعتمد الظلم والجور والمعصيه قط سيما تجاه العزل من الأفراد الأبرياء؛ ولا تسمح بالعدو والخيانه والفجور ونقض العهود والمواثيق، وترفض التسلط والتوسع وبالتالي ترى وجود بعض الخطوط الحمراء التى لا يمكن تجاوزها.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه إلى أولئك الأفراد الذين انتهجوا الغدر والفجور ليعتمدوهما كوسيله لسياساتهم فقال:

«وَلِكِنَّ كُلُّ غَدْرِهِ فُجْرَةٌ، وَكُلُّ فُجْرِهِ كُفْرَةٌ. (وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)».

والعباره:

«وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ...» حديث معروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله روته أغلب المصادر، ومنها: الشوكانى فى نيل الأوطار، والبخارى فى صحيحه، وقال الشوكانى:

متفق عليه(١).

ثم قال عليه السلام فى اختتامه لهذا الكلام وحتى لا يتصور أحد أن الإمام عليه السلام بما هو عليه من نقاء القلب تنطوى عليه سياسه الغدر والمكر:

«وَاللَّهُ مَا أَسْتَعْفَلُ بِالْمَكِيدِ، وَلَا أَسْتَعْمَزُ (٢) بِالشَّدِيدِ».

وهذا الكلام فى الواقع رد على أولئك الذين يزعمون أنه لا يمكن مواجهه أولئك الفجرة سوى من قبل أمثالهم وليس أمام الفرد المتدين سوى الوقوع فى مخالبتهم،

ص: ٥٧٦

١- (١) نيل الأوطار، ج ٨، ص ٧٩؛ وصحيح البخارى، ج ٨، ص ٦٢ (كتاب الحيل).

٢- (٢) «استعزم» من ماده «عزم» على وزن «رمز» بمعنى الإضعاف وأيضاً بمعنى الضغط والكلام البدىء والمراد هنا هو المعنى الأول.

فمضمون كلام الإمام عليه السلام هو إنَّ الإنسان قد لا يكون من أهل الخداع والفجور والخيانة ولكن يعرف طريقه أهل الغدر والخيانة حتى لا يقع في شباكهم ويخدع بالأعييهم.

تأمل

السياسة الإنسانيّة والسياسة الشيطانيّة

حقيقه السياسة هي التدبير وإداره الحكومه ورعايه شؤون الناس، وهو أمر متعارف عليه منذ قديم الزمان في المجتمعات البشريّة، وقد حكمت تلك المجتمعات من قبل بعض الساسه طالحين كانوا أم صالحين.

والسياسة على صنفين: سياسة طائشه وأخرى حكيمة، أمّا السياسة الطائشه فهي تلك السياسة التي لا تؤمن بأى مانع أو رادع من أجل تحقيق أهدافها فتبيح كلّ شيء فهي تقتل المتهم والبريء وتهدم البيوت العامره والخالیه، وتتشبث بكلّ حيله وكذب وغش، وإذا ما عقدت اتفاقيه وتعارضت مستقبلاً مع أهدافها نقضتها، وبالتالي فهي لا ترحم الولد والأب والأم، ومن هنا قيل: إنَّ السياسة لا تعرف من معنى للأب والأم.

وقد قرأنا في التاريخ أنّ الخليفه العباسى هارون الرشيد قال لابنه المأمون: «لو نازعتنى الملك لأخذت الذى فيه عيناك»، كما استقبل المأمون جسد أخيه الأمين بفرح وسرور، وما أكثر أمثال هذه الحوادث في تاريخ العرب والعجم والشرق والغرب والتي أشار القرآن الكريم إلى نماذجها بشأن فرعون فقال: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (١).

أمّا السياسة الحكيمه والإنسانيّة فهي السياسة التي تعتمد الأسس المشروعه

ص: ٥٧٧

بغية الوصول إلى الهدف ولا تنتهك قط حدود الأحكام الشرعيّة والمبادئ الإنسانيّة، وتجرى العدل بحقّ العدو والصديق؛ وترعى الأمانه، وتلتزم بالعهود والمواثيق وتنظر بعين الاعتبار إلى الإنسان وكرامته وعزته.

وإنّ أصحاب السياسة الحكيمه والإنسانيّه مهما كانوا قلائل مقارنة بأصحاب السياسة الشيطانيّه، قد يعانون من المشاكل والمعضلات، إلّا أنّهم ظلّوا ناصعيّ الجبين في التاريخ وأضحت سياستهم قدوه للبشريّه برمتها.

والنموذج البارز للصنف الأوّل من السياسة، معاويه ورهطه في الشام، والنموذج الجليّ الواضح للسياسة بصنفها الثاني أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وهو ما أذعن له العدو والصديق سوى تلك الثله المتعصبه.

ابن أبي الحديد واستناداً إلى مبادئ مذهبه قارن بين سياسة أمير المؤمنين عليه السلام في إداره البلاد والسياسة التي انتهجها عمر، فقال: «زعموا أنّ عمر كان أسوس من أمير المؤمنين وإن كان هو أعلم منه».

ثم خاض في الرد على هذه النظرية فقال: «إنّ سياسة عليّ هي سياسة النبيّ صلى الله عليه وآله». وروى عن استاذه أبو جعفر النقيب أنّه قال: «كانت سياسة عليّ عليه السلام هي ذاتها سياسة رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم تطرق إلى شرح كلمات الجاحظ (العالم السنيّ المعتزليّ) في مقارنة سياسة عليّ عليه السلام ومعاويه وإليك خلاصه كلامه:

زعم البعض أنّ معاويه كان أسوس من عليّ عليه السلام وهذا خطأ كبير، ثم واصل كلامه في إبطال هذا الكلام حيث صرّح بأنّ عليّاً عليه السلام لم يعمل في الحروب سوى بما وافق القرآن والسّنّه، بينما كان معاويه يخالف القرآن.

فكان عليه السلام يوصي الجيش بعدم البدء بالقتال وتعقيب الهاريين والإجهاز على المجروحين (والحال لم يكن معاويه يرضى أيّاً من هذه الوصايا).

ولما فرغ ابن أبي الحديد من نقل هذا الكلام أتجه صوب بعض الإشكالات التي

أوردها البعض على سياسته على عليه السلام ومنها:

١. لو كان على عليه السلام حين بويج له بالخلافه فى المدينه أقر معاويه على الشام إلى أن يستقر الأمر له ثم يعزله، وقال فى الجواب: إن أمير المؤمنين كان يعلم أن إقراره أقوى لحال معاويه وأكد فى الامتناع من البيعه، فلا يبقى بعد ذلك من عذر لعزله.

٢. إنه حين ملك شريعه الفرات فى صفيين هماً منعها عن معاويه وأهل الشام، فكان يأخذهم قبضاً بالأيدى بعد أن ملكها معاويه فمنعها عنه وعن أهل العراق؟

وقال فى الجواب: إنه لم يكن يستحل ما استحله معاويه من تعذيب البشر بالعطش؛ فإن الله تعالى ما أمر أحداً بذلك.

٣. إنه عليه السلام أخطأ حين محى اسمه من الخلافه فقوى الشبهه فى نفوس أهل الشام.

وقال فى الجواب: إنه عليه السلام احتذى فى ذلك لما دعى إليه واقترحه الخصم عليه، فعل رسول الله صلى الله عليه وآله فى صلح الحديبيه، حين أصر زعماء الشرك على محو اسمه من النبوه (وحيث لم يرض ذلك أحد) فقد أقدم عليه بنفسه، وأخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك سابقاً.

٣. إنه عليه السلام كان غير مصيب فى ترك الاحتراس، فقد كان يعلم كثره أعدائه؟

وقال فى الجواب: إن هذا إن كان قادحاً فى السياسه والتدبير فليكن قادحاً فى سياسه رسول الله صلى الله عليه وآله الذى لم يكن يرضى بذلك (١).

ولابن أبى الحديد كلمات أكثر من ذلك حيث أفرد أكثر من ٥٠ صفحه فى شرح ذيل هذه الخطبه للبحث المذكور ولا يسعنا ذكرها هنا.

والجدير ذكره ما ذكره فى آخر كل هذه الأبحاث، حيث قال: فقد بان بما أوضحناه فساد قول من قال إن تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحه:

«إنه أصح الناس تدبيراً وأحسنهم سياسه وإنما الهوى والعصبيّه لا حيله فيهما».

ص: ٥٧٩

إلى هنا تمّ وبحمد الله الخطبه ٢٠٠ من خطب أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام فى نهج البلاغه ومن الجزء السابع لهذا الكتاب القيم، نشكر الله تعالى على توفيقه ومنه أن يسر لنا هذا الطريق، ونسأله أن يظللنا بغمام لطفه وكرمه كى نتمّ الأجزاء الآتية من هذا السفر المبارك إن شاء الله تعالى.

وكذلك نحمده أن نال هذا الشرح إعجاب ورضا الطوائف المختلفه من الناس انتخب بعنوان أفضل كتاب لسنة ٢٠٠٢ م ونأمل أن يفتح هذا الشرح فصلاً جديداً بين الشروح المطروحه لنهج البلاغه.

ولا يخفى أننا تلقينا ببالح الأسى والحزن رحيل وفقدان أحد الإخوه العاملين الأعزاء معنا، ألا وهو العالم الفاضل والمتتبع المتبحر المغفور له المرحوم حجّه الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادرى (قدس سرّه).

كان المرحوم رجلاً فاضلاً، جاداً، منظماً، مخلصاً، متّقياً، ومحققاً بارعاً، حيث أقدم على تحقيق أكثر من عشرين كتاباً من كتب العلماء الكبار، وترك من بعده تراثاً قيماً، نسأل الله تعالى أن يعمده برحمته الواسعه إنه قريب مجيب.

«رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»

نهايه الجزء السابع لنفحات الولاية فى شرح نهج البلاغه لأمير المؤمنين عليه السلام

٢٧ / شعبان المعظم / ١٤٢٦ هـ ق، الموافق ٢٠٠٤ م

ص: ٥٨٠

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية: شرح عصری جامع لنهج البلاغه المجلد ۸ / ناصر مکارم شیرازی، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانی.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام علی ابن ابی طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهری: ۱۰ ج.

شابک: ۳۰۰۰۰ ریال: دوره X-۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴؛ ج. ۱-۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴؛ ج. ۲-۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴؛ ج. ۳-۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۹۱۷-۲؛ ج. ۴-۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴؛ ج. ۵-۹۶۴-۸۱۳-۹۶۴-۹۴۱-۵؛ ج. ۶-۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵؛ ج. ۷-۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲؛ ج. ۸-۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹؛ ج. ۹-۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰-۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳.

یادداشت: عربی.

یادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

یادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ق. = ۱۳۹۰).

یادداشت: کتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الی ۱۸۰. ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الی ۲۰۰. ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الی ۲۴۱. ج. ۹. من رساله ۱ الی ۳۱. ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الی ۵۳

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- خطبه ها

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- کلمات قصار

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه ها

موضوع: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. . نهج البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده: حمیرانی، عبدالرحیم

شناسه افزوده: علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٨

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

يَعِظُ بِسُلُوكِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه القصيره إلى ثلاثه أمور مهمه تشكل كلّ واحده منها جزءاً من هذه الخطبه:

١. إنّها تدعو السائرين على طريق الحقّ إلى الثقة بالنفس بحيث وألاً يشعروا بوحشه من هذا الطريق رغم قلّه سالكيه.

٢. أشارت إلى أصل اسلامي مهم وهو أنّ الرضا بأعمال الآخرين يجعل الإنسان شريكاً لهم في تلك الأعمال، وإن لم يكن له من تدخل في تلك الأعمال.

٣. يوصى بانتخاب طريق الحقّ الواضح والشفاف والبيّن من أجل الوصول

ص: ٥

١- (١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه كثير من علماء الإسلام الذين عاشوا قبل وبعد السيد الرضى بشكل مرسل أو مسند، ويمكن ذكر أربعة أشخاص من الذين الذين عاشوا قبل السيد الرضى وهم: أ) نقل أحمد بن محمّد بن خالد البرقي في كتابه «المحاسن» قسماً من هذه الخطبه. ب) أوردها النعماني في كتابه «الغيبه» بسندين. ج) ذكرها الطبري من علماء الإماميه في كتاب «المسترشد». د) أوردها الشيخ المفيد في كتابه «الإرشاد».

إلى الهدف والحذر من سلوك الطرق المظلمه الملتويه التي تنتهى إلى الغى والضلال.

ص: ٦

أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلِّهِ أَهْلُهُ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدِهِ شِبْعَهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرَّضَى وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَهُ تَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعِيَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرَّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» (١) فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخُسْفَةِ حُورَ السِّكِّهِ الْمُحْمَاهِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَارِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التَّيِّهِ!

الشرح والتفسير: سبيل النجاه

يواسى الإمام عليه السلام - فى هذا الموضوع العميق المعنى - السائرين على النهج أن لا يشعروا قلوبهم أدنى تردّد بسبب قلّه سالكيه، فيقول: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلِّهِ أَهْلُهُ».

ثم يشير إلى تبرير ذلك فيقول: «فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدِهِ شِبْعَهَا (٢) قَصِيرٌ، جُوعُهَا طَوِيلٌ». فى إشاره إلى أنّ أهل الطريق القويم إن كانوا قلّه فإنّما يعزى ذلك إلى مغريات الدنيا، فقد شبه الإمام عليه السلام الدنيا فى هذا الكلام العميق المعنى

ص: ٧

١- (١). سورة الشعراء، الآية ١٥٧.

٢- (٢). «شِبْع» على وزن «عِلل» لها معنى مصدرى وتعنى الشبّع بصورة تامه.

بمائه الطعام الغناء التي مُلئت بالأطعمه ذات القيمه القليله أو العديمه القيمه من الناحيه الغذائيه؛ ولكنها زينت بالبهرجه والزخرف، وقد اجتمع حولها طلاب الدنيا متناسين أنّ أطمعتها إنّما تشبعهم لأمد قصير يتبعه جوع طويل.

ولعل هذا «الجوع الطويل» إشاره إلى الحزن والحسره الأبدية التي تطال المتهافتين على الدنيا عند الموت وبعده وفي مشهد القيامة، ومدى الأسى الذي يعتريهم على تقصيرهم في هذه الدنيا.

والواقع أنّ عبارته الإمام عليه السلام هذه العظيمة المعنى هي اقتباس من آيات القرآن الكريم، فقد جاء في الآية ١٠٠ من سوره المائده: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرُهُ الْخَبِيثِ».

بالاضافه إلى الآيات التي تتحدّث عن الأكثرية الجاهله، عديمه الإيمان، غير العاقله، الفاسقه، الجاحده وأمثال ذلك.

ثم ذكر الأمر الثاني؛ الأمر الذي من شأنه حلّ الكثير من المسائل العقائديه والاجتماعيه تكمن في أنّ الذي يميز الجماعات البشريه، الاتجاهات الفكرية ونوازع القلوب، وإن كانوا أفراداً معينين في ظرف معين؛ حيث ينضوى معهم كلّ من تضامن معهم فكراً وارتضاهم قلبياً.

قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرَّضَى وَالسُّخْطُ (١)».

وعليه فليس سبب الاشتراك في النتيجة مجرد الاشتراك في العمل أو إعداد مقدماته والإعانه على الإثم فحسب؛ بل يترتب هذا الاشتراك على الرضى القلبى، ومن هنا وردت صراحه هذه العبارة في الزيارة: «وَلَعَنَّ اللَّهَ أُمَّهُ سَمِعَتْ بِدَلِكِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ» (٢).

وقد مرّ علينا في الخطبه الثانيه عشره التي مضى شرحها في الجزء الأوّل أنّ

ص: ٨

١- (١) «السخط» ضدّ الرضا بمعنى الغضب.

٢- (٢) زيارته الأربعين للإمام الحسين عليه السلام.

عليّاً عليه السلام لما سمع أحد أصحابه بعد معركة الجمل وقد تمنى أن يكون أخوه شهد معهم المعركة فيشترك معهم في تحقيق ذلك النصر. فقال له عليه السلام: «فَقَدْ شَهِدْنَا، وَ لَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَ أَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَ يَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ».

ولعل هذا الكلام يفتح لنا افقاً جديداً في المطالعات الإسلاميه ويحث الجميع على ضروره مراقبه الروابط القلبيه والرضى والسخط الباطنى.

ويحظى هذا المطلب بدرجه من الأهميه بحيث أشارت إليه العديد من روايات المعصومين عليهم السلام؛ فقد ذكر المرحوم الشيخ الحر العاملى فى كتاب «الوسائل» فى أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باباً تحت عنوان: «وَجُوبُ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ عَلَى كَمَلِّ حَالٍ وَ تَخْرِيمُ الرِّضَا بِهِ وَوَجُوبُ الرِّضَا بِالْمَعْرُوفِ» أورد فيه سبعة عشر حديثاً بهذا الخصوص؛ ومنها حديث مفصّل عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَتَلَ بِالْمَشْرِقِ فَرَضِي بِقَتْلِهِ رَجُلًا بِالْمَغْرِبِ لَكَانَ الرَّاظِي عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَرِيكَ الْقَاتِلِ» (١).

وزبيده القول، ليس مجرد العمل أو التعاون فى مقدّماته سبب الاشتراك فى النتائج المترتبة على ذلك العمل فى الشريعة الإسلاميه فحسب؛ بل للرضا القلبى مثل هذا الأثر.

ثم استشهد الإمام عليه السلام بدليل محكم من القرآن المجيد لإثبات هذه الحقيقه فقال:

وَإِنَّمَا عَقَرْنَا قَوْمًا وَاحِدًا بَيْنَمَا عَمَّ الْعَذَابُ جَمِيعَ قَوْمِ ثَمُودَ كَوْنَهُمْ رَضُوا جَمِيعًا بِعَمَلِ ذَلِكَ الْفَرْدِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» عقر القوم الناقه فلما نزل العذاب ندم الجميع «وَإِنَّمَا عَقَرَ (٢) نَاقَهُ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» (٣) فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ

ص: ٩

١- (١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١٠، ح ٤.

٢- (٢). «عقر» من «العقر» على وزن «قفل» تعنى فى الأصل أساس الشئ وإن استعملت فى الحيوان عنت البقر قطع أسفل الرجل وصرعه، كما تعنى نحر الناقه.

٣- (٣). سورة الشعراء، الآية ١٥٧.

خَارَتْ (١) أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفِ خَوَارَ السَّكَّةِ (٢) الْمُحْمَاهِ (٣) فِي الْأَرْضِ الْخَوَارِهِ.

يشير كلام الإمام عليه السلام إلى معجزه صالح عليه السلام، نبى قوم ثمود، فلما طلب منه قومه معجزه، خرجت بقدره الله ناقة من صخره فأمنت طائفه بينما أنكر ذلك أغلب القوم، وأوصاهم نبيهم ألا يتعرضوا لتلك الناقة بسوء فيأخذهم العذاب، فلم يأبهوا بقول النبي وعمدوا إلى الناقة فعقروها، فأتتهم زلزله عظيمه فانشقت الأرض وابتلعت الكفار وبيوتهم.

والمعروف أن قاتل هذه الناقة شقى يدعى «غدار بن سالف»؛ إلّا أن العبارة وردت في الآية القرآنية بصيغته الجمع «فَعَقَرُوهَا»، لأنهم رضوا جميعاً بعمله وقد عبّروا عن هذا الرضى من خلال دعوته وتشجيعه على الإتيان بذلك العمل الشنيع كما ورد ذلك في الآية ٢٩ من سورة القمر: «فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ».

العبارة «خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفِ خَوَارَ السَّكَّةِ الْمُحْمَاهِ» إشاره إلى أن حديد المخرات إذا احميت في النار انغمرت سريعاً في الأرض لاسيما في الأرض الرخوة، نعم، فقد انغمرت منطقتهم وما عليها بهذه السرعة في جوف الأرض إثر ذلك الزلزال العظيم.

ثم حذر الإمام عليه السلام في القسم الثالث من هذه الخطبه، عامه الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ (٤)!».

المراد من «الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ» الطريق الذى عرضه القرآن والسنة والدليل العقلى والذى يهدى الناس إلى ماء الحياه المعنويه وأولئك الذين يضلون الطريق إنما يحرمون من الهدى ويموتون على الكفر والإلحاد.

ص: ١٠

١- (١) «خارت» من «الخوار» على وزن «غبار» صوتت كخوار الثور والناقه وماشابه ذلك وخواره صيغه مبالغتها.

٢- (٢) «السَّكَّة» الحديده والمخرات.

٣- (٣) «محماه» اسم مفعول من ماده «احماء» وضع الشىء على النار وتطلق «محماه» على الشىء الذى يحمى بالنار.

٤- (٤) «تية» الوادى الجاف كما وردت بمعنى الحيزه.

ومِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ مَنْهَجَ وَطَرِيقَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدُ مَصَادِيقِ «الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ» وَالْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِ النَّبِيِّ وَأَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِمَنْهَجِهِ وَطَرِيقِهِ، وَهَذَا مَا صَرَّحَ بِهِ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْخُطْبَةِ ٩٧ إِذْ قَالَ: «وَإِنِّي لَعَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَاجِ مَنْ نَبِيٍّ وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ».

وَمَنْ الْبَدِيهِي أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَسِيرُ عَلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ الْمَعْلُومِ إِنَّمَا يَبْلُغُ إِثْنَاءَ الطَّرِيقِ بَعْضَ الْمَنَازِلِ ذَاتِ الْمِيَاهِ الْوَفِيرَةِ، وَمَنْ يَزَلْ عَنِ الطَّرِيقِ عَادَهُ مَا يَجِدُ نَفْسَهُ فِي الصَّحَارَى الْجُرْدَاءِ الْقَاحِلَةِ فِيهِلِكُهُ الْعَطَشُ.

ص: ١١

رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَهُ عِنْدَ دَفْنِ سَيِّدَةِ النَّسَاءِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ،

كَالْمُنَاجِي بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ (١) و(٢).

نظرة إلى الخطبة

كلام الإمام عليه السلام هذا بليغ إلى درجة؛ الكلام الذي يعكس حرقه قلب الإمام عليه السلام

ص: ١٣

١- (١) سند الخطبة: قال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» أنّ تعبير السيد الرضى عن فاطمة الزهراء عليها السلام ب «سيده نساء العالمين» اقتباس من خبر متواتر روى عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذه العبارة أو عبارة أخرى تفيد نفس المعنى. وقال صاحب «مصادر نهج البلاغة» بعد نقله لهذا الكلام: إنّ هذا الحديث (حديث سيده نساء العالمين) متواتر عند علماء الإمامية؛ بل يعد جزءاً من عقائدهم. ثم روى عدّه روايات عن العامّة بهذا الخصوص. أمّا من روى هذه الخطبة من العلماء الذين عاشوا قبل السيد الرضى، فهم كلّ من المرحوم الكليني في الجزء الأوّل من كتاب «الكافي» (بعبارات أكثر ممّا أوردها السيد الرضى) والشيخ المفيد في كتاب «المجالس» وروتها طائفته أخرى ممن عاش بعد السيد الرضى مع اختلافات تفيد أنّهم استقوها من مصادر أخرى غير «نهج البلاغة»؛ مثل الطبري في «دلائل الإمامة» والشيخ الطوسي في «الأمالي» وسبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» الذين ذكروا دفن الزهراء والأشعار التي أنشدتها على عليه السلام في وداعها. ثم نقل الكلام المذكور مع بعض الإضافات. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٩٣-٩٨).

٢- (٢) الجدير بالذكر أنّ الضمير في «عند قبره» ورد بصيغته المذكر حيث يعود إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: إنّهُ قال هذا الكلام حين دفن فاطمة الزهراء عليها السلام، وهذا يعنى أنّ السيد الرضى يرى أنّ قبر الزهراء عليها السلام عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

حين دفنه الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام، والذي يتضمن بث الشكوى الأليمه والمفجعته ولوعه الفؤاد التي تعكس شكوى الإمام عليه السلام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن مصائب فاطمه الزهراء عليها السلام من جهه ومصابه بسبب فراق الزهراء عليها السلام من جهه أخرى، وجانب من الحقائق التاريخيه المهمه في صدر الإسلام بصوره غير مباشره؛ لكنّه يعكسها بصيغه بليغه وعميقه وسيرد شرح ذلك في ختام تفسير هذا الكلام.

ص: ١٤

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنْ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيْعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ، قَلَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنهَا تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنْ فِي التَّأْسِي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزُّ، فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ فِي مَلْحُودِهِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسِيكَ، «فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!» (١) فَلَقَدْ اسْتَرْجَعَتِ الْوَدِيعَةَ، وَأَخَذَتِ الرَّهِيْنَةَ! أَمَّا حُزْنِي فَسَدَّ رَمْدًا، وَأَمَّا لَيْلِي فَمَسَّ هَدْ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَيَتَّبِعُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَائِفِ أُمَّتِكَ عَلَيَّ هَضْمَهَا، فَأَحْفَهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرَهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطَّلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذُّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامٌ مُوَدَّعٍ، لَا قَالٍ وَلَا سَيْمٍ، فَإِنْ أَنْصَرَفَ فَلَا عَن مَلَالِهِ، وَإِنْ أَقَمَ فَلَا عَن سُوءِ ظَنِّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ.

الشرح والتفسير: لوعه على عليه السلام عند قبر الزهراء عليها السلام

قال الإمام عليه السلام هذا الكلام الأليم والمفجع حين وسد بيده الشريفه البدن الطاهر لسيدة النساء الزهراء البتول عليها السلام فى القبر، وهو الكلام الدال - من جهة - على عظمه الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام ومن جهة أخرى مدى لوعه على عليه السلام على فراقها الأليم.

اختار الإمام عليه السلام أروع وأفضل مخاطب فى بيان هذه العبارات؛ أى رسول الله صلى الله عليه وآله ليشكو له ذلك المصاب، فابتدأ كلامه قائلاً: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنْ

ص: ١٥

ابْتَنَيْتِكَ النَّازِلَةَ فِي جَوَارِكِ، وَالسَّرِيْعَةَ اللَّحَاقِ بِكَ».

ورغم أنّ مضمون كلام الإمام عليه السلام، شكوى أليمه ومفجعه؛ إلّا أنّ أدب الخطاب يقتضى أن يستهله بتحية النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله والسلام عليه.

تفيد العبارة: «النّازِلَةَ فِي جَوَارِكِ» أنّ قبر سيّده النساء عند قبر النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهذا يدعم نظريه من يرى أنّ الزهراء عليها السلام إنّما دفنت في بيتها.

طبعاً يمكننا أن نعتبر الدفن في البقيع على أنّه إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وآله أو أن نعتبر المراد بالجوار هو الجوار الروحي والمعنوي في الجنّة؛ غير أنّ المعنى الأوّل أنسب لظاهر العبارة ويؤيد ذلك العديد من الروايات.

أورد المرحوم الكليني روايه تقول: إنّ أحد الصحابه أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن قبر فاطمه عليها السلام فقال: «دُفِنَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَمَّا زَادَتْ بُنُو امِّيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ صَارَتْ فِي الْمَسْجِدِ» (١).

العبارة: «السَّرِيْعَةَ اللَّحَاقِ بِكَ» إشاره عميقه المعنى لهول مصائب الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام التي ساقتها في ربيع عنفوان شبابها إلى الدار الأبدية فتكون المدّه التي أعقبت التحاقها بالنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله طبق بعض الروايات ٤٥ يوماً وطبق البعض الآخر ٧٥ يوماً وطبق روايه أخرى ٩٥ يوماً، كما قيل حسب بعض الروايات غير المشهوره ٤ أشهر و ٦ أشهر وهذا ما سنتطرق له في مبحث التأمّلات بالإضافه إلى موضع قبرها.

ثم واصل الإمام عليه السلام خطابه للنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: «قُلْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ (٢) صَبْرِي، وَرَقَّ عَنِّي تَجَلُّدِي (٣)، إِلَّا أَنَّ فِي النَّاسِي (٤) لِي بَعْظِيمٌ فُرْقَتِكَ،

ص: ١٦

١- (١) الكافي، ج ١، ص ٤٦١، باب مولد الزهراء عليها السلام، ح ٩.

٢- (٢). «صفيّه» من ماده «صفو» على وزن «عفو» بمعنى الصافي والطاهر وصفى بمعنى المصطفى. وقد ذكر الإمام عليه السلام بنت النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصفته صفيه ليعكس علو شأنها وجلاله قدرها.

٣- (٣) «تجلّد» من ماده «جلد»، على وزن «بلد» و «جلاده» التي تعنى الصبر والاستقامه و «تجلّد» هنا إشاره إلى التحمل والصبر على المصيبه.

٤- (٤) «تأسى» تأتي أحياناً بمعنى الاقتداء وأحياناً أخرى بمعنى الاغتمام والمعنى الثانى هنا أنسب، لأنّ الكلام عن الهم والغم والحزن وليس الاقتداء، وإن ذهب بعض الشراح إلى المعنى الأوّل ويبدو أنّ سبب خطأهم ما تعارف عليه في الاستعمالات المتداوله.

يشير إلى أنّ مصيبه الزهراء عليها السلام وإن كانت أليمه للغاية؛ لكنّ ألم مصيبتك كان أعظم وأعمق وتحملها هون احتمال هذه المصيبة، قطعاً كان مصاب على عليه السلام برحيل النبي أعظم، وإن كانت فاطمه الزهراء زوجة عظيمه المنزلة انعدم مثلها؛ فقد كان النبي بمنزلة أبي على عليه السلام وإضافه إلى ذلك، كان بالنسبة لعلي القائد والمرشد والمعلم والأستاذ وبالتالي كلّ شيء لعلي، ومن هنا ورد في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «يا أبا الرِّيحَانَتَيْنِ... عَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُ رُكْنَاكَ».

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله قال على عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «هَذَا أَحَدُ رُكْنِي الَّذِي قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ».

وقال حين استشهدت الصديقه الطاهره الزهراء عليها السلام: «هَذَا الرُّكْنُ الثَّانِي الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ» (٣).

ثم أضاف الإمام عليه السلام في شرحه لهذا الكلام قائلاً: «فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ (٤) فِي مَلْحُودِهِ (٥) قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، فَ «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»!».

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ «نفس» هنا تعني الدم (لأنّ أحد معاني النفس هو الدم) وقالوا: إنّ قليلاً من الدم خرج من فم النبي عند وفاته وجرى على صدر على عليه السلام؛ ولكن هذا المعنى يبدو مستبعداً، على كلّ حال تفيد القرائن (كما تدل الخطبه ١٩٧) أنّ رأس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين وفاته كان في حجر على عليه السلام ففاضت روحه الطاهره فمرت على صدر على عليه السلام ونحره، رغم ما ذكره بعض

ص: ١٧

١- (١) «فادح» من ماده «فدح»، على وزن «فتح» بمعنى المثقل وتعني هنا المصيبة الجلل.

٢- (٢) «تعزّ» أو «تعزّي» بمعنى الصبر على المصيبة ومادته «عزاء».

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٣، ح ١٤. كما ورد هذا الحديث في مصادر العامه؛ مثل كتاب فضائل الصحابه لأحمد بن حنبل، ج ٢، ص ٦٢٣، ح ١٠٦٧.

٤- (٤) «وسد» من «وساده»؛ والتي تعني هنا وضع الوساده تحت الرأس.

٥- (٥) «ملحوده» من ماده «لحد» على وزن «عهد» بمعنى الشق الذي يجعل في جهه من القبر ويوضع داخله الميت حتى لا يصله التراب حين يمتلىء به القبر.

محدثى العامه من أن عائشه قالت: «كان رأس رسول الله صلى الله عليه وآله فى حجرى لما فاضت روحه»^(١)؛ فليس هنالك من دليل معتبر على هذا الكلام ولعله من قبيل العديد من الروايات التى سعوا من خلالها لنسب فضائل على عليه السلام الواحده تلو الأخرى لغيره.

آنذاك عاد الإمام ثانيه لشرح مصيبه الزهراء عليها السلام فخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً؛ «فَلَقَدْ اسْتَرْجَعَتِ الْوُدَيْعَهُ، وَأَخَذَتِ الرَّهْيَنَةَ! أَمَا حُزْنِي فَسَرَمْتُ^(٢)، وَأَمَا لَيْلِي فَمُسَّهَدٌ^(٣)، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ».

هذه العبارة التى تعكس مدى لوعه على عليه السلام إزاء حادثه شهادته الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام تشير بوضوح إلى مدى قيمه سيده النساء لدى على عليه السلام وعمق الإرتباط العاطفى والمعنوى والروحي بينهما.

التعبير ب «وديعه» إشاره إلى مافعله رسول الله صلى الله عليه وآله على أعتاب وفاته حين أخذ بيد فاطمه ووضعها بيد على عليه السلام وقال: «يا أَبَا الْحَسَنِ هَذِهِ وَدَيْعَةُ اللَّهِ وَوَدَيْعَةُ رَسُولِهِ عِنْدَكَ فَاحْفَظْ اللَّهَ وَاحْفَظْنِي فِيهَا وَإِنَّكَ لَفَاعِلُهُ»^(٤).

ويرى البعض أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال ذلك ليله زفاف الزهراء عليها السلام، وذهب بعض الشراح إلى أن التعبير بالوديعه هنا يشير إلى أن أرواح الناس فى الأبدان شبيهه بالوديعه والأمانه التى تسترد عند الوفاء، إلّا أن هذا التفسير يبدو مستبعداً هنا.

ويمكن أن يكون التعبير ب «الرهينه» حيث إن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أخذ من على عليه السلام عهد الخلفه والوصايه والوفاء وكانت كريمته الزهراء عليها السلام رهينه إزاء ذلك.

وقد استعمل هذا التعبير كون الصديقه أعظم نعمه من الله على على عليه السلام.

ص: ١٨

١- (١). سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١٤١؛ مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٤١.

٢- (٢). «سرمد» دائم وطويل ويطلق السرمدى أحياناً على الشىء الذى له بدايه وليس له نهايه.

٣- (٣) «مُسَّهَدٌ» من ماده «سهده» على وزن «صمد» بمعنى السهر وعدم النوم. جدير ذكره أن «مسهد» وردت صفه للخبر «ليل» وقد قال الإمام عليه السلام أَمَا لَيْلِي فَمُسَّهَدٌ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولَ أَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَهَذَا فِي الْوَاقِعِ يَشْعُرُ بِالتَّأَكِيدِ.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٨٤، ح ٣١.

وتفسير العبارة: «أَمَّا حُزْنِي فَسَيَزُمُّدٌ» واضح، فالإمام عليه السلام لا يكاد يذكر البتول حتى تتجدد أحزانه وآلامه وهو الحزن الذى خيم على جميع تفاصيل حياه الإمام على عليه السلام.

والعبارة: «وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَيِّهَةٌ» كناية عن أنى أعيش أغلب الليالى على ذكر تلك الصديقه الطاهره، وأن ذكرها ليسلب من عينى النعاس، وخير شاهد على ذلك الأشعار التى أنشدها بعد فراق فاطمه الزهراء عليها السلام:

نَفْسِي عَلَى زَفْرَاتِهَا مَحْبُوسَةٌ

آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى جانب من مصائب فاطمه الزهراء عليها السلام المفجعه فقال:

«وَسَتَّبِعُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافِرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأُخْفِهَا(١) السُّؤَالَ، وَاسْتَنْخَبَهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخُلْ مِنْكَ الذِّكْرُ».

الظاهر أن هذه العبارات المقتضبه من أميرالمؤمنين على عليه السلام بغيه رعايه الأدب عند قبر النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله فلا يخوض فيها ولا يشرحها، والتى تشير إلى الأحداث المأساويه التى أعقبت رحيل النّبي؛ من قبيل الهجوم على بيت الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام، وإضرار النار فى البيت، وإسقاط جنينها المحسن وحمل الإمام على عليه السلام إلى المسجد بالقوه من أجل البيعه وهذا ما سنتناوله فى ختام هذا البحث، وهى الأحداث التى لم ترد بصيغه مركزه فى مصادر الإماميه والعجيب أنها ذكرت صراحه فى مصادر العامه.

والمفرد «تضافر» من ماده «ضفر» (على وزن ضعف) تعنى التعاون والتعااضد للقيام بعمل، إشاره إلى أن فئه من الأمه كانت شريكه فى ارتكاب تلك الجرائم، ولما كان الأعم الأغلب قد لاذ بالصمت الذى يعنى تأييد ذلك الفعل نسب إلى جميع

ص: ١٩

الأُمَّه، و «هضم» تعنى فى الأصل الظلم والكسر، والمفردة «عهد» هنا بمعنى الزمان ولها معانٍ أخرى.

كما يحتمل أن يكون المراد من هذا العهد هو العهد الذى أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن خلافه على عليه السلام وحفظ حرمة أهل البيت عليهم السلام ولاسيما ابنته الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام وجعلهم عدل القرآن بمقتضى حديث الثقلين وأمثال ذلك؛ أى لم تمض مدّه طويله على تلك العهود حتى نسيت طائفه من الأُمَّه كلّ شىء وإرتكبت أفظع الجرائم التى تذهل العقول.

ثم اختتم خطبته مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفاطمه الزهراء عليها السلام قائلاً: «وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَيِّلَامَ مُودِّعٍ، لَا قَالَ (١) وَلَا سَيْمٍ (٢)، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أَقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ».

ورد فى روايه «الكافى» فى ذيل هذا الكلام: «واه واهاً وَالصَّبْرُ أَيْمَنُ وَأَجْمَلُ وَلَوْ لَا غَلَبَهُ الْمُسَيِّئُونَ لَجَعَلْتُ الْمَقَامَ وَاللَّبْثَ لِرَاماً مَعْكُوفاً وَلَاغَوْلَتْ إِغْوَالَ الثُّكْلَى عَلَى جَلِيلِ الرَّزِيَةِ فَبِعَيْنِ اللَّهِ تُدْفَنُ ابْنُتُكَ سِتْرًا وَتُهَضَّمُ حَقَّهَا وَتُمْنَعُ إِرْثَهَا وَلَمْ يَتَّبَعِيْدِ الْعَهْدُ وَلَمْ يَخْلُقْ مِنْكَ الذُّكْرَ وَإِلَى اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُشْتَكَى وَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْسَنَ الْعَزَاءِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهَا السَّلَامُ وَالرِّضْوَانُ» (٣).

ويتضح بجلاء من هذه العبارات وما ورد فى «نهج البلاغه» مدى شدّه المصائب التى جرّعها الفسقه أهل البيت عليهم السلام وبضعه النبي صلى الله عليه وآله عقب تلك المدّه الوجيزه بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله التى هزّت عليّاً عليه السلام بصفته جبل الحلم والصبر وجعلته يبكى بكاء الثكلى، والعجيب أن أسناد ذلك الهجوم البربرى على بيت الرساله ورد فى مصادر العامه بصوره مستفيضه.

ص: ٢٠

١- (١). «قال» من ماده «قلّى» على وزن «وعى» بمعنى المبعض ويطلق «قال» على الشخص المبعض لشىء.

٢- (٢) «سئم» من «السآمه» على وزن «فلاحه» بمعنى الكسل والضجر ويطلق «سئم» على من يتصف بهذه الحاله.

٣- (٣) الكافى، ج ١، ص ٤٥٩، باب مولد فاطمه الزهراء عليها السلام.

برغم قصر المدّة التي عاشتها فاطمة الزهراء، الصديقه الطاهره سيده نساء العالمين؛ غير أنّ سيرتها وفضائلها ومناقبها ومصائبها طوبله للغايه، وقد أشار بعض شرّاح نهج البلاغه إلى جانب من ذلك حين تعرضوا لشرح هذه الخطبه، ومن الضروري أن نشير بدورنا إلى بعض الأمور:

١. فاطمه الزهراء عليها السلام على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله

تتمتع الصديقه الطاهره بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزله رفيعه، وتتضح عصمتها من الذنوب من خلال ما ورد فيها من أحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال فيها:

«فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَعْصَبَهَا أَعْصَبَنِي» (١).

ومن الواضح أنّ غضب رسول الله صلى الله عليه وآله مدعاه لأذاه وقد صرح القرآن الكريم بشأن من يؤذيه قائلاً:

«وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٢).

وليت شعري أى دليل أدل على فضيلتها وعصمتها من حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي نص على أنّ رضاها رضى الله وغضبها غضبه سبحانه فقال:

«يَا فَاطِمَةُ إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ» (٣).

ولتمتعها بهذه المنزله العظيمه فهى سيده نساء العالمين فقال لها النبي صلى الله عليه وآله:

«يَا فَاطِمَةُ! أَلَا تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ» (٤).

ص: ٢١

١- (١) فتح الباري فى شرح صحيح البخارى، ج ٧، ص ٨٤ وذكر البخارى هذا الحديث فى قسم دلائل النبوه، ج ٦، ص ٤٩١، وأواخر المغازى، ج ٨، ص ١١٠.

٢- (٢) سوره التوبه، الآيه ٦١.

٣- (٣) مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٤؛ مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٠٣ وذكر الحاكم فى كتاب المستدرک أحاديث جامعه الشرائط التى صرح بصحتها البخارى ومسلم.

٤- (٤) مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٦.

٢. حرمة بيت الزهراء عليها السلام فى القرآن والسنة

قال المحدثون: لما نزلت الآية المباركة: «فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» (١). قرأ رسول الله هذه الآية: «فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» فقام إليه رجلٌ: فَقَالَ: أَيُّ بُيُوتِ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟ قَالَ: بُيُوتُ الْأَنْبِيَاءِ.

فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَهَذَا الْبَيْتُ مِنْهَا، مُشِيرًا إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامَ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: نَعَمْ، مِنْ أَفْضَلِهَا (٢).

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ تسعة أشهر على بيت فاطمه فيسلم عليها وعلى علي عليه السلام (٣) ويقرأ هذه الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» (٤).

البيت الذى كان مركز النور الإلهى وقد أمر الله أن يرفع إنما يتمتع بحرمه عظيمه.

نعم البيت الذى يضم أصحاب الكساء ويثنى الله تبارك وتعالى عليه لابد أن يحظى باحترام قاطبه المسلمين.

وهنا لابد أن نرى كيفية التعامل مع حرمة ذلك البيت عقب وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله؟

وكيف هتكت حرمة ذلك البيت، وقد اعترفوا أنفسهم بذلك صراحة؟

ومن هم أولئك الذين انتهكوا الحرمات، وماذا كان هدفهم؟

٣. انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام

ص: ٢٢

١- (١) . سورة النور، الآية ٣٦.

٢- (٢) الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٠٣؛ تفسير سورة النور، روح المعانى، ج ١٨، ص ١٧٤.

٣- (٣) . الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٠٦.

٤- (٤) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

للأسف رغم كل هذه الوصايا والتأكيدات فإن البعض تجاهل هذه الحرمة وانتهكها، وهذه ليست بالمسألة الهينه التي يمكن التغاضي عنها.

وسنذكر هنا نصوصاً من مصادر العامّة ليتضح من خلالها أنّ انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام وما تبعه من أحداث، قضيه تاريخيه ومسلّمه؛ وليست خرافه! ورغم الضغوط الشديده في عصر الخلفاء إزاء ذكر وتدوين فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام إلّا أنّ «الشمس لا تحجب بالغربال» فلم تحجب هذه الحقيقه التي بقيت حيّه في بطون كتب التاريخ والحديث، وسنراعى الترتيب الزماني في عرض الوثائق منذ القرون الأولى حتى العصر الحاضر.

الف) ابن أبي شيبه، المحدث المعروف لدى العامّة في كتاب «المصنّف»

قال أبو بكر بن أبي شيبه (١٥٩-٢٣٥) مؤلف كتاب «المصنّف» بسند صحيح:

«إِنَّهُ حِينَ بُويعَ لأبي بكرٍ بَعِيدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ يَدْخُلَانِ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، فَيُشَاوِرُونَهَا وَيُرْتَجِعُونَ فِي أَمْرِهِمْ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ خَرَجَ وَدَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ، فَقَالَ: يَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبِيكَ وَمَا مِنْ أَحَدٍ أَحَبُّ إِلَيْنَا بَعْدَ أَبِيكَ مِنْكَ، وَأَيْمُ اللهِ مَا ذَاكَ بِمَانِعِي إِنْ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ عِنْدَكَ أَنْ أَمْرُهُمْ أَنْ يُحْرَقَ عَلَيْهِمُ الْبَيْتُ.

قال: فَلَمَّا خَرَجَ عُمَرُ جَاؤُوهَا، فَقَالَتْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ عَمَرَ قَدْ جَاءَنِي، وَقَدْ حَلَفَ بِاللَّهِ لَنْ عُدُّتُمْ لِيَحْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ الْعَيْتَ، وَأَيْمُ اللهِ لِيَمِضَيْنَّ لِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ» (١).

وقد وردت هذه الحادثة بسند صحيح في كتاب «المصنّف».

ب) البلاذري، المحدث الكبير عند العامّة في كتاب «أنساب الاشراف»

روى أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري (م ٢٧٠) صاحب التاريخ المعروف، هذه الحادثة التاريخيه في كتابه «أنساب الأشراف» قائلاً:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ يُرِيدُ الْبَيْعَةَ فَلَمْ يُبَايِعْ، فَجَاءَ عُمَرُ وَمَعَهُ فَتِيلَةٌ! فَتَلَقَّتْهُ

ص: ٢٣

١- (١) المصنّف لأبن أبي شيبه، ج ٨، ص ٥٧٢، كتاب المغازي.

فاطمه على الباب.

فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: يَا ابْنَ الْخُطَّابِ، أَتَرَآكَ مُحْرِقًا عَلَيَّ يَا بَابِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ أَقْوَى فِيمَا جَاءَ بِهِ أَبُوكَ...» (١).

(ج) ابن قتيبة وكتاب «الإمامه والسياسه»

المؤرخ الشهير عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٢-٢٧٦) من أساطين الأدب، وكتاب التاريخ الإسلامى ومؤلف كتاب (تأويل مختلف الحديث)، (أدب الكاتب) و... (٢) قال فى كتاب «الإمامه والسياسه»:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ (رَضِيَ) تَفَقَّدَ قَوْمًا تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَتِهِ عِنْدَ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عُمَرَ فَجَاءَ فَنَادَاهُمْ وَهُمْ فِي دَارِ عَلِيٍّ، فَأَبَوْا أَنْ يَخْرُجُوا فَدَعَا بِالْحَطَبِ وَقَالَ:

وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَتَخْرُجَنَّ أَوْ لِأَحْرَقَنَّهَا عَلَيَّ مَنْ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا حَفْصِ إِنَّ فِيهَا فَاطِمَةَ. فَقَالَ: وَإِنَّ!» (٣).

وأضاف ابن قتيبة عقب ذكره لهذه الحادثة البشعة والمؤلمة فقال:

«ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَمَشَى مَعَهُ جَمَاعَةٌ حَتَّى أَتَوْا فَاطِمَةَ فَدَقُّوا الْبَابَ فَلَمَّا سَمِعَتْ أَصْوَاتَهُمْ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا يَا أَبَتَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِينَا بَعْدَكَ مِنْ ابْنِ الْخُطَّابِ وَابْنِ أَبِي فُحَّافِهِ فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ صَوْتَهَا وَبُكَاءَها انْصَرَفُوا وَبَقِيَ عُمَرُ وَمَعَهُ قَوْمٌ فَأَخْرَجُوا عَلِيًّا فَمَضَوْا بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا لَهُ: بَايِعْ، فَقَالَ: إِنْ أَنَا لَمْ أَفْعَلْ فَمَهْ؟ فَقَالُوا: إِذَا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ نَضْرِبُ عُنُقَكَ...!» (٤).

طبعاً يصعب جداً هضم هذه الحقبه من التاريخ على بعض الموالين للشيخين، لذلك سعى البعض للتشكيك فى نسب هذا الكتاب لابن قتيبه، فى حين يراه ابن

ص: ٢٤

١- (١) أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨٦، طبع دار المعارف، القاهرة.

٢- (٢) الأعلام للزركلى، ج ٤، ص ١٣٧.

٣- (٣) الإمامه والسياسه لابن قتيبه، ص ١٢، مطبعه المكتبه التجاربه الكبرى، مصر.

٤- (٤) المصدر السابق، ص ١٣.

أبي الحديد الأستاذ البارح في التاريخ، أنه من كتبه وقد روى منه العديد من المطالب، والمؤسف أن هذا الكتاب طالته يد التحريف وحذفت بعض مواضعه عند الطباعه، بينما وردت نفس تلك المطالب في «شرح نهج البلاغه» لابن أبي الحديد المعتزلى.

وعده الزركلى فى كتاب «الأعلام»، من آثار ابن قتيبه وقال: هنالك رأى للعلماء فى هذه النسبه؛ أى أنه ينسب الشك إلى الآخرين وليس لنفسه، كما يراه إياس سر كس من كتب ابن قتيبه(١).

(د) الطبرى وتاريخه

ذكر محمد بن جرير الطبرى (م ٣١٠) فى تاريخه حادثه هتك حرمه بيت الوحي فقال:

«أتى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَنْزِلَ عَلِيٍّ وَفِيهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَرِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَحْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ أَوْ لَتَخْرُجَنَّ إِلَى الْجَنَّةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ الزُّبَيْرُ مُضَلِّتًا بِالسَّيْفِ فَعَثَرَ فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَوَثَبُوا عَلَيْهِ فَأَخَذُوهُ»(٢).

تفيد هذه الحقبه التاريخيه أن أخذ البيعه للخليفه تم فى ظل التهديد والوعيد وأما قيمه مثل هذه البيعه فمتروكه لإنصاف القراء الأعزاء.

(ه) ابن عبد ربه وكتاب «العقد الفريد»

أورد شهاب الدين أحمد المعروف ب (ابن عبد ربه الأندلسى) مؤلف كتاب (العقد الفريد) (م ٤٦٣) بحثا مسهباً فى كتابه بشأن تاريخ السقيفه، فقد قال فى فصل من تخلف عن بيعه أبى بكر:

ص: ٢٥

١- (١) معجم المطبوعات العربيه، ج ١، ص ٢١٢.

٢- (٢) تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٤٤٣، طبعه بيروت.

«فَأَمَّا عَلِيُّ وَالْعَبَّاسُ وَالزُّبَيْرُ فَقَعِدُوا فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ حَتَّى بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَبَوَا فَاطِمَةَ، فَأَقْبَلَ بِقَبْسٍ مِنْ نَارٍ أَنْ يُضْرِمَ عَلَيْهِمُ الدَّارَ، فَلَقِيَتْهُ فَاطِمَةُ فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَجِئْتَ لِتُحْرِقَ دَارَنَا؟! قَالَ: نَعَمْ، أَوْ تَدْخُلُوا فِيهَا دَخَلَتْ فِيهِ الْأُمَّةُ!» (١).

تم إلى هنا الفصل الذي صرح فيه بالعزم على انتهاك الحرمه، ونخوض الآن في الفصل الثاني الذي يفيد التطبيق العملي لتيه السوء المبيته، والحذر من الاعتقاد بأن تيه القوم كانت تقتصر على التهديد والوعيد ليجبروا علياً عليه السلام وصحبه على البيعه وأنهم لم يكونوا يفكرون بتفعيل ذلك التهديد.

وقوع الهجوم

انتهى إلى هنا كلام تلك الطائفة من المؤرخين الذين اقتصروا على الإشارة إلى سوء تيه الخليفه وبطانته، الطائفة التي لم ترد أو لم تستطع عكس الفصول القادمه لتلك الفاجعه بصوره واضحه، في حين أشار البعض الآخر إلى أصل الجريمه؛ أي الهجوم على البيت و... وإليك الآن وثائق الهجوم وانتهاك حرمه بيت رساله والوحى، بيت فاطمه الزهراء عليها السلام: (وسنراعى في هذا الفصل أيضاً الترتيب الزمانى فى نقل المصادر).

(و) أبو عبيد وكتاب «الأموال»

قال أبو عبيد، قاسم بن سلام (م ٢٢٤) فى كتابه (الأموال) الموثق عند العامه:

«قال عبدالرحمن بن عوف: عدت أبا بكر فى مرضه فى بيته، فقال بعد كلام طويل: وددت أنى لم أفعل ثلاثاً كنت فعلتھن، كما وددت أنى سألت النبى عن ثلاث؛ وإحدى الثلاث التى فعلتها ووددت أنى لم أفعلها: «وَدَدْتُ أَنْى لَمْ أَكْشِفْ»

ص: ٢٦

بَيْتِ فَاطِمَةَ وَتَرَكَتُهُ وَإِنْ أَغْلِقَ عَلَيَّ الْحَرْبَ» (١).

قال أبو عبيد لما بلغ هذا الموضوع بدلاً من العبارة: «لم أكشف بيت فاطمه وتركته...»: «كذا وكذا» وقال، لا أود ذكره!

ورغم امتناع أبي عبيد، عن ذكر الحقيقة بسبب تعصبه المذهبي أو لعله أخرى؛ غير أن المحققين لكتاب الأموال قالوا في الحاشية: وردت العبارة المحذوفة في كتاب ميزان الاعتدال، كما ذكر الطبراني تلك العبارة في معجمه وابن عبد ربّه في العقد الفريد، وغيرهم من المؤرخين. (لابد من الدقة!).

(ز) الطبراني و «المعجم الكبير»

أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠) الذي عدّه الذهبي في ميزان الاعتدال ثقه (٢). حيث تحدّث في كتاب (المعجم الكبير) الذي طبع كراراً عن أبي بكر ووفاته:

ود أبو بكر عند وفاته أموراً فقال: وددت أنّي لم أفعل ثلاثاً وفعلت ثلاثاً وسألت رسول الله عن ثلاث: «أما الثلاث اللّائى ودّدت أنّى لم أفعلهنّ، فودّدت أنّى لم أكن أكشف بيت فاطمه وتركته...» (٣).

تفيد هذه العبارات أنّ تهديدات عمر دخلت حيز التنفيذ وفتح باب الدار بالقوه (أو بالنار).

(ح) أيضاً ابن عبد ربّه و «العقد الفريد»

روى ابن عبد ربّه الأندلسى مؤلف كتاب العقد الفريد (م ٤٦٣) فى كتابه عن

ص: ٢٧

١- (١) الأموال، الحاشية ٤، نشر الكليات الأزهرية، كذلك ص ١٤٤، طبعه بيروت، كما روى ذلك ابن عبد ربّه فى العقد الفريد، ج ٤، ص ٩٣ كما سيرد علينا.

٢- (٢) . ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ١٩٥.

٣- (٣) المعجم الكبير للطبراني، ج ١، ص ٦٢، ح ٣٤، تحقيق حمدى عبدالمجيد السلفى.

عبدالرحمن بن عوف:

«دَخِلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي مَرَضِهِ فَقَالَ: وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ ثَلَاثًا إِحْدَاهَا:

وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكْشِفْ بَيْتَ فَاطِمَةَ عَنْ شَيْءٍ وَإِنْ كَانُوا أَغْلَقُوهُ عَلَى الْحَرْبِ» (١).

وسيرد علينا أسماء وعبارات سائر الشخصيات الذين نقلوا هذا القسم من كلام الخليفة.

ط) كلام النِّظَامِ فِي كِتَابِ «الوَافِي بِالْوَفِيَّاتِ»

إبراهيم بن سيار النِّظَامِ المَعْتَزَلِي (١٦٠-٢٣١) الَّذِي لَقِبَ بِالنِّظَامِ لِحَمَالِ كَلَامِهِ فِي النِّظْمِ وَالثَّرِّ، نَقَلَ فِي عَدَّةِ كُتُبِ تَفَاصِيلِ الْوَاقِعِ بَعْدَ الْوُقُوفِ عَلَى بَيْتِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ. فَقَالَ:

«إِنَّ عَمَرَ ضَرَبَ بَطْنَ فَاطِمَةَ يَوْمَ الْبَيْعَةِ حَتَّى أَلْقَتِ الْمُحْسِنَ مِنْ بَطْنِهَا» (٢).

ي) الْمَبْرُودُ فِي كِتَابِ «الْكَامِلِ»

كُتِبَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ: رَوَى الْأَدِيبُ الْمَعْرُوفُ صَاحِبُ الْمَوْالِفَاتِ الْمَشْهُورِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْأَكْبَرِ الْبَغْدَادِي (٢١٠-٢٨٥) فِي كِتَابِ «الْكَامِلِ» عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَصَّه أَمَانِيُّ الْخَلِيفَةِ فَقَالَ:

«وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ كَشَفْتُ عَنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ وَتَرَكْتُهُ وَلَوْ أُغْلِقَ عَلَى الْحَرْبِ» (٣).

ك) الْمَسْعُودِيُّ وَ «مَرْوَجُ الذَّهَبِ»

كُتِبَ الْمَسْعُودِيُّ (م ٣٢٥) فِي «مَرْوَجِ الذَّهَبِ»: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا بَكْرٍ الْوَفَاءَ قَالَ:

ص: ٢٨

١- (١) الْعَقْدُ الْفَرِيدُ، ج ٤، ص ٩٣، طَبَعَ مَكْتَبَةُ الْهَلَالِ.

٢- (٢) الْوَافِي بِالْوَفِيَّاتِ، ج ٦، ص ١٧، رَقْمُ ٢٤٤٤؛ الْمَلَلُ وَالنَّحْلُ لِلشَّهْرِسْتَانِيِّ، ج ١، ص ٥٧، طَبَعَ دَارُ الْمَعْرِفَةِ، بَيْرُوتَ وَالْوُقُوفِ عَلَى تَرْجُمَةِ النِّظَامِ رَاجِعَ كِتَابِ «بَحُوثُ فِي الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ»، ج ٣، ص ٢٤٨-٢٥٥.

٣- (٣) شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ، ج ٢، ص ٤٦ و ٤٧، طَبَعَهُ مِصْرَ.

فعلت ثلاثاً تمنيت أني لم أفعلها:

«فَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَتَشْتُ بَيْتَ فَاطِمَةَ» وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ كَلَاماً كَثِيراً!!!^(١).

ورغم اعتقاد المسعودي بأهل البيت؛ لكنه امتنع هنا عن التعرض لكلام الخليفة ومرّ عليه على نحو الكناية، وبالطبع فإن الله يعلم السبب وعباد الله أيضاً يعلمونه إجمالاً!

ل) الذهبي وكتاب «ميزان الاعتدال»

روى الذهبي في كتاب «ميزان الاعتدال» عن الحافظ محمّد بن أحمد الكوفي أنه قرأ هذا الخبر على أحمد بن محمّد المعروف ب (ابن أبي دارم)، المحدث الكوفي (م ٣٥٧):

«إِنَّ عُمَرَ رَفَسَ فَاطِمَةَ حَتَّى اسْقَطَتْ بِمُحْسِنٍ!»^(٢).

م) عبدالفتاح عبدالمقصود وكتاب «الإمام علي»

فقد ذكر الهجوم على بيت الرسالة في موضعين من كتابه ونكتفي بنقل أحدهما:

قال عمر: «وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَيُخْرِجَنَّ أَوْ لَأَحْرِقَنَّهَا عَلِيٌّ مَنْ فِيهَا...! قَالَتْ لَهُ طَائِفَةٌ خَافَتْ اللَّهَ وَرَعَتْ الرَّسُولَ فِي عَقِبِهِ: يَا أَبَاحْفَصَ، إِنَّ فِيهَا فَاطِمَةَ...!»!

فَصَاحَ لِأَيُّبَالِي: وَإِنْ...! وَأَقْتَرَبَ وَقَرَعَ الْبَابَ، ثُمَّ ضَرَبَهُ وَأَفْتَحَهُ... وَيَدَا لَهُ عَلِيٌّ... وَرَنَّ حِينَئِذِكَ صَوْتُ الزَّهْرَاءِ عِنْدَ مَدْخَلِ الدَّارِ... فَإِنَّ هِيَ الْبَاطِنِينَ اسْتِغَاثَةً...!»^(٣).

ونختتم هذا البحث بروايه أخرى عن مقاتل بن عطية في كتاب الإمامة والخلافه (وإن كان هنالك الكثير الذي يقال!).

ص: ٢٩

١- (١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠١، مطبعة دار الأندلس، بيروت.

٢- (٢) ميزان الاعتدال، ج ١، ص ١٣٩، العدد ٥٥٢.

٣- (٣) عبدالفتاح عبدالمقصود، علي بن أبي طالب، ج ٤، ص ٢٧٦ و ٢٧٧.

حيث ذكر في هذا الكتاب:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعِيدٌ مَا أَخَذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ مِنَ النَّاسِ بِالْإِزْهَابِ وَالسَّيْفِ وَالْقُوَّةِ أَرْسَلَ عُمَرَ وَفُتْنُماً وَجَمَاعَةً إِلَى دَارِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ وَجَمَعَ عُمَرَ الْحَطَبَ عَلَى دَارِ فَاطِمَةَ وَأَخْرَقَ بَابَ الدَّارِ!...» (١).

وردت في ذيل هذه الرواية عبارات يعجز القلم عن بيانها.

النتيجة

بالرغم من كل هذه الوثائق الواضحة وأغلبها من مصادر العامّة مازال هناك البعض الذي يستعمل عبارته «أسطورة الشهادته» ويؤمن بأن هذه الحادثة المريرة مصطنعة! ولولا إصرار هذا البعض على نفى هذه الحقائق لما أسهبننا إلى هذا الحد في البحث.

٤. القبر الطاهر لفاطمه الزهراء عليها السلام

إن إحدى المصائب العظيمة لبضعه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن قبرها الشريف مازال مجهولاً لحدّ الآن؛ ويرى البعض وحسب طائفته من الروايات أنها دفنت في البقيع، والبعض الآخر أنها دفنت في بيتها إلى جانب مسجد النبي، وآخرون أنها دفنت في الروضة (المسافة الواقعة بين قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومنبره الشريف).

وهذا المطلب يحمل كل محقق على التفكير، ترى، ما العاصفة التي اعترت الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليخفى القبر الطاهر لبضعه النبي الوحيد؟ وإن دلت أغلب القرائن على دفنها في بيتها، فالدفن في الروضة لم يكن حيناً آنذاك ومن المستبعد أن يرضى على عليه السلام بهذا العمل، كما لا ينسجم دفنها في البقيع وما ورد في هذه الخطبة، لأن

ص: ٣٠

١- (١) الإمامه والخلافه، ص ١٦٠ و ١٦١، تأليف مقاتل بن عطيه مع مقدمه الدكتور حامد داود، استاذ جامعه عين شمس، الذي طبع بالقاهره (مطبعه بيروت، مؤسسه البلاغ).

العبارة: «النَّازِلَةُ فِي جَوَارِكٍ» تشير إلى أن قبرها عليها السلام كان جوار قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

روى المرحوم العلامة المجلسي عن إبراهيم بن محمد الهمداني أنه قال: كتبت للإمام الهادي (علي بن محمد النقي عليهما السلام) أخبرني عن قبر فاطمه عليها السلام! فكتب إلي:

«هِيَ مَعَ جَدِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ» (١).

قال المرحوم الصدوق: الصحيح عندي أنها دفنت في بيتها وحين زاد بنو امية في المسجد أصبحت جزءً منه (٢).

ورغم أن قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر القبور هي داخل المسجد؛ ولكنه عزل عن المسجد بواسطة الجدران والشبابيك.

روى في كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السلام» عن البنزطي قال: «سألت الرضا عن قبر فاطمه؛ قال:

«دُفِنَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَمَّا زَادَتْ بَنُو أُمَّيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ صَارَتْ فِي الْمَسْجِدِ» (٣).

وعليه فكل من يقف عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الروضة المقدسة ويزور فاطمه الزهراء عليها السلام فإنه ينال إن شاء الله فضيله زيارتها عن قرب، كما يمكن زيارتها في البقيع برجاء المطلوبيه.

٥. زمان شهادته بضعه النبي

لم يقتصر الخلاف على موضع دفن بضعه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فحسب، بل هنالك خلاف حتى في تاريخ وفاتها.

ففي الرواية المعروفة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

ص: ٣١

١- (١) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ١٩٨، ح ١٨.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٧٢.

٣- (٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٧٨، ح ٧٦.

«إِنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَكَثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ يَوْمًا».

وورد في ذيل هذه الروايه:

«كَانَ سَبَبُ فَوْتِهَا أَنَّ قُفُودَ مَوْلَى عُمَرَ لَكَزْهَا بِنَعْلِ السَّيْفِ بِأَمْرِهِ فَأَسْقَطَتْ مُحْسِنًا وَمَرَضَتْ مِنْ ذَلِكَ مَرَضًا شَدِيدًا»^(١).

وبالنظر إلى أن وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت في ٢٨ صفر فإن شهادتها لا بد أن تكون في أحد هذه الأيام الثلاثة؛ الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر من جمادى الأولى (مع الأخذ بنظر الاعتبار احتمال تماميه أو نقصان الأشهر الوسط).

وورد في روايه أخرى أن الصديقه الطاهره فاطمه عليها السلام توفيت يوم الثلاثاء الثالث من جمادى الآخره السنه الحاديه عشره للهجره^(٢) وتنسجم هذه الروايه مع الرأى القائل أن فاطمه الزهراء عليها السلام عاشت بعد أبيها ٩٥ يوماً.

وعدّ المرحوم العلامة المجلسي في «زاد المعاد» هذا القول بشأن زمان وفاه الزهراء عليها السلام، معتبراً وقال: وهذا مقبول الشيخ الطوسي والسيد ابن طاووس وآخرين، ورغم منافاه هذه الروايه مع روايه ال ٧٥ يوماً؛ ولكن حيث تعززها روايه مشهوره ومعتبره، فلا بد من إقامه مراسم العزاء على الصديقه الطاهره في اليوم الثالث من جمادى الثانيه^(٣).

كما ورد في روايه غير مشهوره أنها عاشت بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله ٤٠ يوماً^(٤).

ص: ٣٢

١- (١) دلائل الإمامه، ص ١٣٤، ح ٤٣؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٠، ح ١١. كتب المرحوم العلامة المجلسي في الشرح في الصفحه ٢١٥ بعد الحديث ٤٧: «فِي الْخَبْرِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا عَاشَتْ بَعْدَ أَبِيهَا خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ يَوْمًا».

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٠، ح ١١.

٣- (٣) زاد المعاد، ص ٤٥٦.

٤- (٤) كشف الغمّه، ج ٢، ص ٧٧؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٧، ح ٨.

فِي التَّزْهِيدِ مِنَ الدُّنْيَا وَالتَّزْغِيبِ فِي الآخِرَةِ (١)

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيره والعميقه المعانى إلى بضعه أمور:

١. أنّ الدنيا دار ممر ليس أكثر وأنّ الآخرة هي مقرّ الإنسان الأبدى ولا بدّ من التزوّد من الممر لدار المقرّ.
٢. ينبغي للإنسان أن يحلق بروحه خارج الدنيا قبل أن يزول جسده.
٣. الدنيا دار امتحان ومسرح ابتلاء.
٤. إنّ الناس ينظرون إلى أموال الإنسان التي يخلفها حين يغادر الدنيا بينما تنظر الملائكة إلى أعماله.

ص: ٣٣

١- (١) سند الخطبة: ذكر بعض العلماء قبل وبعد السيّد الرضى، هذه الخطبة في كتبهم؛ فقد رواها قبل السيّد الرضى، المرحوم الصدوق، في «الأمالى» و«عيون أخبار الرضا عليه السلام»، والمرحوم الشيخ المفيد في كتاب «الإرشاد» (الأمالى للصدوق، ص ١٧٢، ح ١٧٤؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٦٧، ح ٥٦؛ الإرشاد، ج ١، ص ٢٩٦) ورواها من بعد السيّد الرضى (بدون الاستناد لنهج البلاغه) المرحوم الطبرسى في «مشكاة الأنوار» وورّام بن أبى فراس في «مجموعه ورّام» (مشكاة الأنوار، ص ٤٦٧؛ مجموعه ورام، ج ٢، ص ١٦٥). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٩٨).

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَّا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسِيرَاتِكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَيْدِيكُمْ، فَفِيهَا اخْتَبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَمَّكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ لِلَّهِ آبَاؤُكُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ قَرْضًا، وَلَا تُخْلِفُوا كَلًّا فَيَكُونَ فَرَضًا عَلَيْكُمْ.

الشرح والتفسير الدنيا ممر

أشار الإمام عليه السلام في بدايه هذه الخطبه إلى مسأله مهمه بشأن حقيقه الدنيا والآخره حيث تعد الغفله عنها مصدر شقاء الإنسان وتعاساته، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَّا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ (١)، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ».

إنَّ أغلب المشاكل تنبع من كون الإنسان يرى الدنيا دار بقاء، ومن هنا ينهمك بجمع المال والثروه عن أى طريق ومهما كلف الأمر، ويخل بها إزاء صرفها فى الأمور الخيره، ولذلك يرتكب العديد من الأفعال السيئه ويسوّف التوبه، وقد وردت هذه الحقيقه بعدّه تعبيرات فى الروايات لتعتبر الدنيا أحياناً:

«الدنيا قنطره» (٢)، وأخرى: «مَتَجِرٌ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ» (٣)، وتاره «الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ

ص: ٣٥

- ١- (١) «مَجَاز» من ماده «جواز» بمعنى العبور وأريد بها هنا الممر والعبور (وإن كان لها معنى مصدرى). ومن هنا يطلق المجاز فى الكلام كون المتكلم يتجاوز المعنى الحقيقى ويظفر بمعنى آخر يناسبه.
- ٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣١٩، ح ٢١.
- ٣- (٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٣١.

الآخِرَه» (١) والتي تفيد جميعاً ذات المعنى.

ثم أشار في هذا السياق إلى أمر آخر فقال: «وَلَا تَهْتَكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ».

يرى أغلب الشراح أنّ هذه العبارة تشير إلى عدم التجاهر بالمعصية، لأنّ المعصية الخفية في الواقع معصية واحده، بينما تعتبر المعصية العلنية مضاعفه كونها انتهاك للستار وتلوّث للبيئه الاجتماعيه؛ إلّا أنّ بعض الشراح اعتبرها إشاره إلى أعمال الخير فإنّها أفضل أن يؤتى بها في الخفاء، والحال العبارة (وَلَا تَهْتَكُوا) لا تناسب مع هذا المعنى.

على كلّ حال فإنّ الله ستار العيوب وغفّار الذنوب؛ فمادام العبد لا يهتك الستار فإنّ الله يستر العيب والذنب.

فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ أَرْبَعُونَ جُنَّةً حَتَّى يَعْمَلَ أَرْبَعِينَ كَبِيرَهُ فَإِذَا عَمَلَ أَرْبَعِينَ كَبِيرَهُ انْكَشَفَتْ عَنْهُ الْجَنَّةُ». ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فِيُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَنْ اسْتُرُوا عَلَى عَبْدِي بِأَجْنِحَتِكُمْ فَتَسْتُرُهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا، قَالَ: فَمَا يَدْعُ شَيْئاً مِنَ الْقَبِيحِ إِلاَّ قَارَفَهُ حَتَّى يَمْتَدِّحَ إِلَى النَّاسِ بِفِعْلِهِ الْقَبِيحِ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ مَا يَدْعُ شَيْئاً إِلاَّ رَكِبَهُ، وَإِنَّا لَنَسْتَحِي مِمَّا يَصْنَعُ، فَيُوحِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ أَنْ ارْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَخَذَ فِي بُغْضِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْهَتُكَ سِتْرُهُ فِي السَّمَاءِ وَسِتْرُهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ قَدْ بَقِيَ مَهْتُوكَ السِّتْرِ، فَيُوحِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ: لَوْ كَانَتْ لِلَّهِ فِيهِ حَاجَةٌ مَا أَمَرَكَ أَنْ تَرْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ» (٢).

ولعل إرتباط هذه العبارة بالعبارات السابقه أنّ من أسوأ الذنوب التي تخرب الدار الآخرة للإنسان يكمن في التجاهر بالمعصية.

ص: ٣٦

١- (١) روى هذا الحديث في عوالي اللئالي، ج ١، ص ٢٦٧، ح ٦٦ عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٢٧٩، ح ٩.

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن الزهد في الدنيا مشيراً إلى نقطه ثالثة فقال:

«وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ».

إخراج القلوب، كناية لطيفة عن ترك التعلقات الدنيوية والتهافت على متاعها وحطامها، والتعبير «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ...» تحذير من تقلب هذا العالم بمعنى أفيقوا فإن هذه الأجساد ستصبح تراباً فاسعوا لإخراج قلوبكم من هذه الدنيا قبل الأوان فحب الدنيا رأس كل خطيئة.

طبعاً لا يعنى هذا أن لا يتمتع المسلمون بحوائج الحياة أو أن تتخلف المجتمعات الإسلامية عن التقدم الاقتصادي ويحتاجون إلى غيرهم، بل المراد التبعيه الشديده التي تضطر الإنسان لخرق القانون ومن هنا عدّ الشراح هذه العبارة إشارة لترك الأموال الحرام.

ثم قال فى رابع نقطه واكمال ما سبق فقال: «فَفِيهَا اخْتَبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِفْتُمْ».

فهاتان العبارتان الموجزتان توضحان كل شى ويشير الالتفات إليهما إلى المسار السعيد لحياه الإنسان، نعم فالدنيا دار امتحان والآخرة دار الخلود، قال تعالى:

«أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» (١)، فالامتحان الإلهى كوسيله لتكامل الإنسان وتهذيبه أمر قطعى لا مفر منه وعبارة أخرى من أهداف خلق الإنسان الذى لا استثناء فيه ولا بد من التعرض لها فى الليل والنهار والسر والعلانيه والكهوله والشباب.

ثم أشار إلى ثلاثه أمور مهمه أخرى وقال: «إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟».

المراد من الناس هنا المتعلقين بالدنيا الذين غالباً ما يسألون عن أموال و ثروات من يموت، والحال انقطعوا نهائياً عن تلك الأموال وعليهم أن يجيبوا عن طرق تحصيل هذه الأموال يوم القيامة والطريف أنه جعل مقابلهم الملائكة الذين يقتصر

ص: ٣٧

تركيزهم على الأمور والمسائل المعنوية.

ثم قال في الأخير: «لله آباؤكم! فقدموا بعضاً يكن لكم قرضاً، ولا تخلفوا كلاً فيكون قرضاً عليكم».

الجملة «لله آباؤكم!» تذكر عادة للتعجب المقرون بالاحترام (١) والمراد من الجملة «فقدموا بعضاً...» أن الإنسان مادام حياً ينفق من أمواله في سبيل الله على الفقراء أو الأمور الخيرية بمقتضى «وما عند الله باق» (٢) و «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» (٣) والتعبير بـ «بعض» حتى لا ينبغي للإنسان أن يحرم ورثته المحتاجين غالباً فذلك بعيد عن الانصاف، وقد ورد الدم في الروايات على من ينفق أمواله في حياته ولا يترك شيئاً للورثة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في أحد الأنصار الذي أنفق جميع أمواله قبل موته ولم يبق شيئاً لأولاده: «لو أعلمتوني أمره ما تركتكم تدفونوه مع المسلمين يترك صبيته صغاراً يتكففون الناس» (٤). طبعاً هذا النهى في من له ورثة محتاجون.

من جانب آخر ورد الدم بشده لمن لا ينفق شيئاً من أمواله في سبيل الله ويبقيه جميعاً للورثة.

قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية «كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم» (٥): «هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بخلاً. ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعه الله أو في معصية الله فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرة وقد كان المال له وإن كان عمل به في معصية الله قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله عز وجل» (٦).

ص: ٣٨

١- (١). ظاهر هذه الجملة بصيغته مبتدأ وخبر، أى أن آباءكم لله ويلزم من ذلك رحمه الله عليهما.

٢- (٢). سورة النحل، الآية ٩٦.

٣- (٣). سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

٤- (٤) الكافي، ج ٥، ص ٦٧، ح ١.

٥- (٥). سورة البقرة، الآية ١٦٧.

٦- (٦) الكافي، ج ٤، ص ٤٢.

الجملة «فَرَضاً عَلَيْكُمْ» إشاره إلى أنه إن خَلَفَ كُلُّ أَمْوَالِهِ لِلوَرَثَةِ فحسابها عليه في القيامة ومنافعها للآخرين.

وهنا لطيفه أدبيه أن الإمام على عليه السلام استفاد في هاتين العبارتين من أربعة أشياء، «قَدِّمُوا» في مقابل «لا تخلفوا» و «بعض» إزاء «كُلِّ» و «قرض» مقابل «فرض» و «لكم» في مقابل «عليكم» وهي دلالة على فصاحه وبلاغه كلام الإمام عليه السلام.

تأمل: الإكثار من هذه العبارة

الأجدر بكلِّ إنسان أن يتلو كلَّ صباح هذه العبارة، فالغفلة والإنهماك طبيعه الدنيا؛ الغفلة التي غالباً ما تؤدي إلى المعصية التي تبعد العبد عن الله.

فالعبارة المذكوره وضحت موضع الدنيا وتضمنت وصايا بشأن الاستعداد والتأهب لذلك السفر المصيري.

طبعاً كلمات الإمام عليه السلام لا تعنى أن يكفَّ الإنسان عن السعى من أجل الحياه الماديه، فذلك مدعاه للفقير والعوز، فالفقير هو الأساس لأنواع المعاصي والتغرب عن الإسلام وهي التبعية التي تقضى على عزه الإسلام وتكسر شوكته؛ بل المراد تغيير النظرة إلى الدنيا؛ التمتع بجميع النعم ولكن شريطه الاستفادة من الأموال في سبيل قضاء الحوائج واستثمارها من أجل نيل السعاده في الدار الآخرة وتسكين أئين المحرومين، والابتعاد عن كثر الأموال والثروه وإنفاق قسمٍ من الأموال حال الحياه وادخارها للمعاد.

كان كثيراً ما يُنادى به أصحابه (١).

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من العنوان الذى اختاره السيد الرضى للخطبة أنّ الإمام عليه السلام خاطب صحبه كراراً وكثيراً ما كرر هذا الكلام، كما يفهم من روايه وردت فى «مصادر نهج البلاغه» أنّه عليه السلام نادى الناس ثلاثاً بعد صلاة العشاء لىسمع الجميع ويطرق سمعهم هذا الكلام، والخطبة فى الواقع موعظه لجميع الناس أنّ الحياه الدنيا قصيره ولابدّ من الاستعداد للمنازل المرعبه بعدها كالقبر والبرزخ والقيامه، تحذير بقطع التعلق العميق بالدنيا وأنّ عمرها قصير ونهايتها وشيكه، تحذير بغيه التزود لذلك السفر الطويل والخطير.

ص: ٤١

١- (١) سند الخطبه: ذكر هذه الخطبه عدد من الضالعين فى العلوم الإسلاميه ممن عاش قبل السيد الرضى وبعده، ومنهم المرحوم الصدوق فى كتابه «الأمالى»، المجلس الخامس والسبعين (أمالى الصدوق، ص ٥٨٨، ح ٨١٠). كما رواها الشيخ المفيد فى «المجالس» مرفوعه للإمام الباقر عليه السلام (أمالى المفيد، ص ١٩٩، ح ٣٢) وبععض الإضافات فى كتاب «الإرشاد» (الإرشاد، ج ١، ص ٢٣٤)، ورواها المرحوم الطبرسى فى «المشكاه» (مشكاه الأنوار، ص ٥٢٤) وبالنظر لبعض الاختلافات مع ما نقله الرضى يتضح أنّها اقتبست من طرق أخرى. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٩٩).

تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقْلُوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بَحَضَرَتْكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَهُ كَوْوَدًا، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةٍ مَهُولَةٍ، لَا يَدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ الْمَيْتَةِ نَحْوَكُمْ دَائِيَةً، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْطَعَاتُ الْأُمُورِ، وَمُعْضَلَاتُ الْمَحْدُورِ. فَقَطَّعُوا عِلَاقَتِ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهَرُوا بِزَادِ التَّقْوَى.

الشرح والتفسير: الابتعاد عن طلب الدنيا

تشبه هذه الخطبة السابقة وتطور في فلكها، فهي تحذير لأهل الدنيا بأن لا ينسوا مكانهم منها وأن يلتفتوا لما ينتظرهم من أيام ويستعدوا لها، فيقول:

«تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقْلُوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا».

فقد شبه الإمام عليه السلام المجتمع البشرى بقافلة ينتظرها مقصد عظيم، وبصفته زعيم القافلة ينادى الجميع بالتأهب للحركة.

و «الرحيل» بمعنى السفر وقد ورد لها معنيان لدى الشراح، الحركة نحو الآخرة والسير والسلوك إلى الله، ولا مانع من مناداه الناس بالتأهب والحركة باتجاه القيامه ودعوه الخواص إلى السير والسلوك إلى الله.

ورد في بعض الروايات الاستعداد للموت بدل التجهز لسفر الآخرة، فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا الْأَسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ؟» قال عليه السلام: «أَدَاءُ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابُ

المحارم والاشتمال على المكارم ثم لايبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه»(١).

وقد وردت عدّه احتمالات بشأن المنادى، فقيل: ملك من الملائكة كما ورد في إحدى الكلمات القصار لنهج البلاغه(٢) كما نظمه البعض بصيغه شعريه:

لَهُ مَلَكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ

أو أنّ المنادى هو الحوادث والبلايا كالعواصف التي تجتاح حياه الناس كلّ يوم، أو إشاره إلى آثار الشيخوخه التي تبلور في ذبول الجسد ومشيب الشعر وانحناء القامه والتي تنادى بالرحيل بلسان الحال، وإن اعتبرنا الرحيل بمعنى السير والسلوك إلى الله وتهذيب النفس، فالمنادى هو الله في القرآن، وأئمه العصمه في الروايات، الذين يهتفون بنداء الموت ومغادره الدنيا.

ومفهوم العرجه على ضوء معنى الإقامه، هو الحدّ من التعلق بالإقامه في الدنيا وعدم عدّها خالده، كحال المتهافتين عليها.

ثم يبيّن أسلوب الاستعداد لسفر الآخره فقال: «وَأَنْقَلِبُوا بِصَالِحٍ مَا بَحَضَرَتْكُمْ (٣) مِنَ الزَّادِ».

«انقلبوا» عباره، لطيفه تشير إلى التحول الباطنى، أى حولوا انتباهكم عن الانغماس فى الدنيا إلى إعداد الزاد والمتاع الأخرى.

«بحضرتكم» إشاره لما يتمتع به الإنسان من قدرات وفرص.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى الدليل على لزوم تحصيل الزاد والمتاع فقال: «فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَهُ كَوْوداً (٤) ، وَمَمَازِلَ مَخُوفَهُ مَهُولَةً (٥) ، لَا بَدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا».

ص: ٤٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٨٢، ح ٧.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٣٢.

٣- (٣) . «حضرت» بمعنى «الحضور» وهى هنا إشاره إلى الفرص التى تنتظر الإنسان. واستعمال هذه المفرده بشأن العظام كونه لا يريد خطابهم، بل يلتفت إلى حضورهم.

٤- (٤) «كؤود» من ماده «كأد» بمعنى الشده والصعوبه وعقبه «كؤود» صعبه العبور.

٥- (٥) «مهوله» من ماده «هول» بمعنى الخوف و «مهول» اسم مفعول؛ يعنى مخيف.

وقد ورد في الخبر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ فِي الْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفًا كُلُّ مَوْقِفٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (١).

وروى ما يشبه هذا المعنى بصورة أسهب عن الإمام عليه السلام (٢) ويحتمل أن هناك أحد الأعمال الواجبه في كل موقف من المواقف كالصلاه والصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو السؤال عن الكبائر والتي يتطلب من أصحابها إجابته في ظل الظروف الصعبة والمخيفه فإنَّ عبورها بسلام كانوا موضع رحمة الله والجَنَّة وإلاَّ عرضوا للبلاء.

وبعبارة أخرى كما قال المرحوم الشيخ المفيد: إنَّ المراد من هذه العقبات، الأعمال الواجبه التي تشبه كلَّ منها بالعقبه، وكما يصعب عبور هذه العقبات تصعب الاجابه عن هذه الأعمال.

قال تعالى في سوره البلد: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْئَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ» (٣).

طبعاً لا فرق بهذا الشأن بين الدنيا والآخرة في ما المراد من هذه العقبات؟ سيما ورد بشأن القيامة: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» (٤).

وعليه لا يبدو وارداً اعتراض المرحوم العلامة المجلسي على الشيخ المفيد في ضروره عدم حمل الألفاظ على معانيها المجازيه دون الأصلية (٥)، فهذا الإشكال

ص: ٤٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٦، ح ٣.

٢- (٢) . المصدر السابق، ص ١١١، ح ٤٢.

٣- (٣) سوره البلد، الآيات ١١-١٦.

٤- (٤) سوره طه، الآيات ١٠٥-١٠٧.

٥- (٥) . للوقوف على كلام المرحوم الشيخ المفيد والعلامة المجلسي راجع كتاب بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٩.

يرد حين لا- تكون هناك قرائن ويكفى في هول القيامة قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرُؤُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (١).

ثم تعمق الإمام عليه السلام في شرح هذا الأمر فوعظ الجميع قائلاً: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ (٢) الْمَيْتَةِ (٣) نَحْوَكُمْ دَانِيَةً (٤) ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا (٥) وَقَدْ نَشِبَتْ (٦) فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ (٧) فِيهَا مُفْطَعَاتُ (٨) الْأُمُورِ، وَمُعْضَلَاتُ (٩) الْمَحْدُورِ».

ويشير هذا الكلام إلى عدم وجود مسافة بين الإنسان والموت مهما كان عمره، ففي كل آن يمكن وقوع حادثه مفاجئه ويصيبه مرض في كل حين أو يباغته عدو في الهجوم، ولعل حياه الإنسان تزول إذا غص بلقمه، أو يلاقى حتفه إذا انسدت شرايين قلبه أو اصيب بسكته دماغيه أو أن يقطع نخاعه أثر ضربه مفاجئه فيعيش طريح الفراش طيله حياته.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبه باستنتاج بيّن وبلغ فقال: «فَقَطُّعُوا عِلَاقَتَ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا (١٠) بِزَادِ التَّقْوَى».

والمراد من علائق الدنيا هو التعلق المفرط بالمال والجاه والزوج والولد، بالشكل الذي يغفل الإنسان عن الله ويسهل عليه مقارفة المعصيه لنيل الدنيا ويزين له مفاتها

ص: ٤٦

١- (١) سورة الحج، الآيتان ١ و ٢.

٢- (٢) . «ملاحظ» جمع «ملحظ» مصدر ميمي، بمعنى النظر أو النظر بطرف العين.

٣- (٣) «ميتيه» من ماده «مى» على وزن «سعى» بمعنى التقدير وتطلق هذه المفردة على الموت كونه مقدرًا على مصير الإنسان.

٤- (٤) «دانيه» بمعنى قريبه من ماده «دتو» على وزن «علو».

٥- (٥) «مخالب» جمع «مخلب» أظافر الحيوانات أو الطيور.

٦- (٦) «نشبت» من ماده «نشب» على وزن «غصب» بمعنى الانغماس.

٧- (٧) «دهمت» من ماده «دهم» بمعنى باغتت.

٨- (٨) «مفطعات» جمع «مفطعه» بمعنى الحادته الشديده أكثر من اللازم.

٩- (٩) «معضلات» جمع «معضله»؛ يعنى الشىء الذى يجعل الإنسان فى غايه الضيق كما يقال المعضله للطريق الضيق.

١٠- (١٠) «استظهِرُوا» من «الاستظهار» بمعنى الاستعانه بالشخص أو الشىء، ومادته الأصلية «ظهر».

وعباره الاستظهار بزاد التقوى إشاره إلى أن آخره الإنسان تتطلب في هذا السفر الخطير والمخيف نقاط ارتكاز تسهل عليه اجتياز الطريق وليس هنالك من مرتكز أفضل من زاد الورع والتقوى.

وحين بلغ المرحوم السيد الرضى هذا الموضوع قال: «وَقَدْ مَضَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ بِخِلَافِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ».

والظاهر أن مراده، الخطبه ٨٥ التي تشترك ببعض العبارات مع الكلام المذكور.

ص: ٤٧

كَلَّمَ بِهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ بَعْدَ بَيْعَتِهِ بِالْخِلَافَةِ وَقَدْ عَتَبَا عَلَيْهِ مِنْ تَزَكٍ مَشُورَتِهِمَا، وَالِاسْتِعَانَةِ فِي الْأُمُورِ بِهِمَا (١)

نظرة إلى الخطبه

كما ورد في عنوان الخطبه فإنّ هذا الكلام ردّ على بعض إشكالات طلحه والزبير اللذين كانا يتوقعان أن يجعل لهما الإمام عليه السلام نصيب كبير من الحكومه واستشارتهما في جميع الأمور، فذكر لهما الإمام عليه السلام بعض الأمور التي تبين بوضوح مسيره حكومته وتضع حدّاً لتوقعاتهما الخاطئه:

الأول: إنّ هؤلاء يعتبرون من هذا الباب، لم كلّ هذا الغضب على شيء يبدو بسيطاً وقد نسيت العديد من المحاسن.

ثم بين في جانب آخر أن ليست هنالك من مشكله مستجده بشأن الحكومه

ص: ٤٩

١- (١) سند الخطبه: المصدر الوحيد الذي ذكر هذه الخطبه قبل السيّد الرضى كما ورد في «مصادر نهج البلاغه»، كتاب «نقض العثمانيه» لأبى جعفر الاسكافى (م ٢٤٠) ويفهم من كلامه أنه لم يشاهد بنفسه هذا الكتاب؛ بل استفاده من كلام ابن أبى الحديد فى «شرح نهج البلاغه»، ج ٧، ص ٣٦-٤١. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٢) كما رواها المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢١ عن «شرح نهج البلاغه» لابن أبى الحديد.

ليستشيرهما بخصوصها؛ بل سيقود الدوله على هدى الكتاب والسنة، وبالطبع لو استجد أمر يدعو إلى المشوره فإنه لن يمتنع عنها قط.

وأجاب في القسم الثالث عن الإشكال الذي يرد عليه على التسويه في العطاء من بيت المال والذي يستند أيضاً إلى السنة النبويه.

وخاض في ختام الخطبه في دعاء عظيم المعنى سائلاً الله الرحمه لكل من رأى حقاً وأعان عليه ووقف بوجه الباطل.

ص: ٥٠

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيرًا، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا. أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُمْ عَلَيَكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعْتُمَا إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهَلْتُمَا، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضْتُ إِلَيْي نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَتَنَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَسْتَجِبْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُمَا؛ فَاسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنِ غَيْرِكُمَا.

الشرح والتفسير: حجج طلحه والزبير

لما تفاقمت الأوضاع ومشاكل المسلمين على عهد عثمان وقام الناس عليه ناقلين على اغداقه المناصب على بطانته وقرابته وتوزيع أموال بيت مال المسلمين عليهم وتجاهله للمحرومين والمحتاجين، هب عدد من الصحابة لنصرتهم وكان في مقدمتهم طلحه والزبير، وهما اللذان أصررا على الإمام بقبول الحكومه، فكانا من السابقين لبيعة الإمام عليه السلام؛ إلا أنهما على غرار أولئك الذين يفكرون بطريقه سياسيه وليست ربانيه ورحمانيه، فهم يتوقعون على الدوام نيل المناصب الحكوميه؛ ويوردون ذلك صراحه تاره وأخرى عن طريق بعض الذرائع لبيّنوا هدفهم من

وهذا ما كان يتوقعه طلحه والزبير من الإمام عليه السلام؛ فكان طلحه يطمح في حكمه البصره، والزبير في حكمه الكوفه، وقال البعض: إنَّ طلحه كان يريد حكمه اليمن، والزبير حكمه العراق، ولما كانت مثل هذه الرشاوى السياسيه تقود عادة إلى تجزئه الدوله بغض النظر عن مخالفتها لروح العدالة، ناهيك عن كون ذلك هو السبب الذي أدى إلى قيام المسلمين على عثمان فإنَّ الإمام لم يستجب لتلك الطموحات.

وحين يئس طلحه والزبير من تحقيق غرضهما أخذوا بالنقد والإشكال على الإمام أوَّلاً، ثم أشعلا نار الجمل؛ النار التي احترقا في أتونها فقال عليه السلام: «لَقَدْ نَقَمْتُمَا (١) يَسِيرًا، وَأَرْجَأْتُمَا (٢) كَثِيرًا».

والمراد من اليسير ترك مشورتها، والمراد من الكثير مصالح المسلمين، فطلحه والزبير استعانا بذرائع واهيه بغيه تحقيق أهدافهما وأدارا ظهريهما لمصالح المسلمين التي تفرزها وحده الصف والوقوف خلف الإمام عليه السلام، وهذا هو أسلوب الباحثين عن العيوب ضيقى الأفق الذين يضحون بمصالح الأمه من أجل تحقيق أطماعهم.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قِسْمٍ اسْتَأْثَرْتُمْ (٣) عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعْتُمَا إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهَلْتُمَا، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!».

الواقع أنَّ الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يغلق جميع أبواب النقد والإشكال التي يمكن أن يلجها طلحه والزبير، فالانتقاد إمَّا يرتبط بحقهما الشخصي أو بسائر المسلمين، ومطالباتهما الشخصي إمَّا تتعلق بضياح حقهما أو التصرف فيه، وما يتعلق بسائر

١- (١). «نقمتما» من ماده «نقم» على وزن «قلم» تعنى فى الأصل الإنكار على الشخص أو الشىء؛ سواء باللسان أو بالعمل عن طريق العقاب ومنه الانتقام ووردت هنا بمعنى الإنكار اللفظى.

٢- (٢) «أرجأتما» من «الإرجاء» بمعنى التأخير ومادتها الأصلية «رجاء» بمعنى الأمل وقد استعملت بهذا المعنى كون الإنسان يؤخر العمل فى أغلب المواقع بغيه تحقيق الهدف.

٣- (٣). «استأثرت» من «الاستئثار» يعنى خص النفس بالشىء الحسن. وفسرت أحياناً بالاستبداد والاحتكار ومادتها الأصلية «أثر» بمعنى العلامه.

المسلمين إما يكون تقصير في إحقاق الحقوق أو الجهل بحق أو الخطأ في التنفيذ.

والإمام عليه السلام يقول لهما: إن كان لديكما إشكال على أي من هذه الأمور قولاً لي صراحه، وحيث لم يستطيعا الإشارة إلى قضيه عجزاً عن الإتيان بإجابه، وهذا ديدن جميع المخطئين الانتهازيين الذين يرسلون الكلام على عواهنه ويشيرون الضجيج دون الإشارة إلى نقطه معينه.

ثم قدم الإمام عليه السلام جواباً واضحاً لإشكاليهما بخصوص ترك المشوره فقال: «وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ» (١)، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُهُ؛ فَاسْتَشِيرْ كَمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا».

أشار الإمام عليه السلام في الواقع بهذه العبارة إلى أمرين؛ الأول: إنه لم يتخذ عضداً في قبول الخلافه الظاهريه وقد تمت الحجّه عليه بقبولها بفعل إصرار المسلمين ولاسيما بعضهم كطلحه والزبير، وعليه فليس هنالك من توقع من الإمام سوى رعايه حقوق الناس.

طبعاً أصحاب الدنيا الذين ينشدون المناصب يدعون هذا وذاك لدعمهم ويعدونهم ببعض المناصب قبل بلوغها إن وصلوا لسده الحكم، لكن لا معنى لمثل هذا التوقع بالنسبه لأولياء الله الذين لا يرغبون في هذه المناصب سوى استجابته لرغبه الناس.

الثاني: إن مسألة المشوره صحيحه؛ ولكن «لكل مقام مقال ولكل حادثه حديث» حقاً ليس هنالك من مجال للمشوره في الأمور الإسلاميه القطعيه وأوامر الله والنبي صلى الله عليه وآله، بينما تبدو المشوره مفتوحه في الأمور التنفيذيه التي تتنوع أساليبها.

ص: ٥٣

١- (١). «إربه» من ماده «أرب» على وزن «عرب» تعنى في الأصل شدّه الحاجه التي يجهد الإنسان من أجل قضائها.

فالإمام عليه السلام يقول: لا تتوقعوا أن أستشير كما في القضايا المهمّة كالعدل وإعاده الأموال المغصوبه على عهد عثمان إلى بيت المال والتسويه في العطاء، وسوف لن اتردد في هذه المشوره إن كان إليها من سبيل.

ص: ٥٤

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسُوهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمِ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَى مَنِّي، بَلْ وَجِدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَسْتَجِبْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَّغَ اللَّهُ مِنْ قَسَمِهِ، وَأَمَضَى فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَاللَّهُ، عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُنْتَبَى. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ.

ثم قال عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ.

الشرح والتفسير: حكم الله

ركّز الإمام عليه السلام هنا على أحد الإشكالات الرئيسيّة لطلحه والزبير وأمثالهما على الإمام في التسويه في العطاء من بيت المال فقال: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسُوهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمِ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَى مَنِّي، بَلْ وَجِدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ».

المفردة «أسوه» وإن استعملت غالباً بمعنى الإقتداء والاتباع ولم تذكر لها المصادر اللغوية معنى آخر غير هذا المعنى (1)؛ إلا أنّ بعض اللغويين صرحوا بأنّ

ص: ٥٥

١- (١). راجع كتاب «العين» و«لسان العرب» و«مجمع البحرين» مائة «أسوه». قال المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» في ذيل الآية ٢١ من سورة الأحزاب: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوهٌ حَسَنَةٌ»: «أى قدوة صالحه يقال: لى فى فلان أسوه. أى لى به إقتداء... اسم وضع موضع المصدر» وطبق هذا البيان «أسوه» بمعنى الإقتداء وله وضع الاسم المصدرى، ويشهد على ذلك تعبير القرآن: «فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوهٌ» ولم يقل: «رسول الله أسوه»، وكأن الإقتداء بشخص يوجد نوعاً من المساواه به فقد وردت أسوه بمعنى المساواه وهذا المراد بها فى هذه العبارة. ومن هنا قال الإمام إنّما اقتديت برسول الله صلى الله عليه وآله وعملت بسيرته.

أحد معانيها، المساواه، ومن هنا يقال لمن افلس: «المال أسوه بين الغرماء».

فإن اعتبرنا معنى «أسوه» حسب المتعارف (الإقتداء) فسيكون مفهوم العبارة أنّ طلحه والزبير وأمثالهما اعترضوا على الإمام عليه السلام: لم تقصد بسيره عمر وعثمان؟ فأولئك كانوا يراعون شأن الشخص واسمه وعنوانه في العطاء ولم يسوّوا في العطاء بين المسلمين قط.

ثم قال: «فَلَمَّ أَحْتَجِّجْ إِلَيْكُمْ يَا فِيمَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَشِيمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ يَا، وَاللَّهِ، عِنْدِي وَلَا لِعَيْرِكُمْ يَا فِي هَذَا عُتْبَى (١)».

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعاء له ولهم موصياً إياهم بالثبات على الحق والصبر عليه فتضرع قائلاً: «أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ».

من الواضح أنّ الحق مرير في أغلب المواقع ويصعب تحمله، وهذا ما يجعل الإنسان أحياناً لا يرى الحق ولو رآه لا يحتمله، لذلك يطلب الإمام عليه السلام من الله شيئين؛ الأول أن يريه والآخرين الحق كما هو، ومن ثم يتلطف عليه بتحمل مرارته.

ورد في إحدى قصار كلمات «نهج البلاغه» أنه عليه السلام قال: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ» (٢). ثم قال عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ».

ص: ٥٦

١- (١) «عتبى» من ماله «عتب» على وزن «خطب» تعنى فى الأصل الانزعاج الباطنى وإذا وردت فى باب الأفعال عنت إزاله هذا الانزعاج وبما أنّ عتاب الطرف المقابل أحد أسباب إطفاء غضبه، فإنّ العتبى ترد بمعنى العتاب وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة. والإمام عليه السلام يقول لطلحه والزبير ليس لكما حق عتابى والإنكار على.

٢- (٢). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧٦.

١. عله التسويه فى العطاء

لو ولى أمير المؤمنين على عليه السلام الخلافة الظاهرية عقب رسول الله صلى الله عليه وآله لما كانت هنالك من مشكله، لأنه كان سيواصل سيره رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إلا أن الطامه الكبرى أن الإمام تولّاها حين اعتاد المسلمون أنواع التمييز على عهد الخليفة الثانى وأعظم منها على عهد عثمان وكان من الصعب عليهم للغاية تغيير ما اعتادوا عليه وكانت جلّ جهود الإمام تتركز على القضاء على تلك السياسات العنصريه، والسبب الرئيسى للحروب كالجمل وصفين إنما يقف وراءها أنصار التمييز العنصرى.

لا شك أن طلحه والزبير كانا من السابقين إلى الإسلام وكان لهما دور مهم فى نصره الدين، كما كانت لهما مواقفهما المعروفه فى الدفاع عن النبى فى أغلب الغزوات الإسلاميه؛ إلا أن الانحراف عن المنهج النبوى الذى شهدته عهد الخليفة الثانى والثالث وما رصدنا من امتيازات خاصه لهذين وأمثالهما من بيت المال جعلهما يعتادان الابتزاز، ومن هنا تعالت أصواتهما منذ البدايه حين وقف الإمام عليه السلام بحزم بوجه تلك الامتيازات، وعلى غرار الدهشه التى أصابت الناس فى العصر الجاهلى حين تبدلت الهتهم المتعدده إلى الإله الواحد القهار فقد اصيب هؤلاء بالذهول لتغير ذلك المنهج فاعتراضا على الإمام، لم يستشهما، ولم يتوقعا هذه المشوره فى تقسيم أموال بيت المال، بل توقعاهما فى توزيع المناصب والمقامات الحساسه، وبالتالى كانا يطمعان بحصه ولم يصدقا أن الإمام بهذا الحزم سيعيد الأمه إلى منهج النبى الأكرم صلى الله عليه وآله .

ولما طاشت احلامهما استعرت نيران الحقد فى قلوبهما واستحوذت عليهما الأفكار الشيطانيه فأججا نيران الحروب التى احترقا بلهيبها.

جدير بالذكر أن أموال بيت المال على نوعين؛ قسم منه كالزكاه الذى له عدّه مصارف ويمكن ترجيح البعض على البعض الآخر (بما يناسب جهودهم)؛ مثلا

«الْمَوْلَفَهُ قُلُوبُهُمْ» و «الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا» أو القضاء وأمثالهم كان كل يتسلم سهماً من الزكاه بما يتناسب وموقعه وجهده، كما كان النبي صلى الله عليه وآله يميز بين المشاه والفرسان في الغنائم؛ إلا أن قسماً مهماً من الدخل كالخراج الذى يؤخذ من الأراضى الخراجية (١) والتي تشكل مبالغ طائلة فلا بد من توزيعها بالسويه على المسلمين.

بالضبط كالشى الموقوف على الأولاد والذين ينبغى أن يأخذوا منه بالتساوى كيفما كانوا وكالدعم الذى يدفع فى عصرنا من بيت المال الذى يتساوى فيه رئيس الجمهوريه والإنسان العادى، وأدنى امتياز لشخص دون شخص مرفوض.

وقد شهد عصر الخليفه الأول، المنهج النبوى ومساواه الجميع؛ إلا أن التمييز بدأ منذ عهد عمر بشهاده التواريخ المعتمبره وبلغ ذروته على عهد عثمان واستمر ذلك ٢٢ سنة حتى أصبح هذا الفعل الشنيع بالتدرج سنه.

ولتترك الكلام هنا لابن أبى الحديد الذى بين خفايا مهمه بالاستناد إلى التواريخ والروايات فكشف النقاب عن أغلب أسرار عصر الخلفاء وحكومته أمير المؤمنين على عليه السلام، فقد أورد شرحاً مسهباً هذه خلاصته:

«ثم بويع - الإمام على عليه السلام - وصعد المنبر فى اليوم الثانى من يوم البيعه، وهو يوم السبت، لإحدى عشره ليله بقيت من ذى الحجه، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمد صلى عليه، ثم ذكر نعمه الله على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا، فزهدهم فيها، وذكر الآخرة فرغبهم إليها، ثم قال:

أما بعد، فإنه قبض رسول الله صلى الله عليه... ثم إنتفت عليه السلام يميناً وشمالاً، فقال: ألا يقولن رجال منكم غداً قد غرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهه، واتخذوا الوصائف الروقه، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون، فيقيمون ذلك،

ص: ٥٨

١- (١). «الأراضى الخراجيه» الأراضى التى تقع بيد المسلمين فى الفتوحات الإسلاميه وتوضع تحت تصرف المزارعين ويؤخذ منهم بالمقابل ضرائب تدعى «الخراج» والذى يبدو كثيراً بالنظر لسعه تلك الأراضى.

ويستنكرون يقولون: حرّمنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرى أن الفضل له على مَن سواه لصحبته، فإنّ الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدق ملتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا- ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا، فإنّ عندنا مالاً نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربى ولا عجمى، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلّا حضر، إذا كان مسلماً حرّاً، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، ثم نزل.

فلما كان من الغد، غدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: إبدأ بالمهاجرين فنأدهم، وأعط كلّ رجل ممن حضر ثلاثه دنانير، ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلّهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامى بالأمس، وقد أعتقته اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك، فأعطى كلّ واحد منهما ثلاثه دنانير، ولم يفصل أحد على أحد، وتخلّف عن هذا القسم يومئذٍ طلحه والزبير، وعبدالله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها.

قال: وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبدالله بن الزبير يقول لأبيه وطلحه ومروان وسعيد: ما خفى علينا أمس كلام علىّ، ما يريد؟ فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زيد بن ثابت: إياك أعنى وأسمعى يا جاره، فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبدالله بن الزبير: إنّ الله يقول فى كتابه: «ولكنّ أكثرهم للحقّ كارهون»(١).

ثم إنّ عبيد الله بن أبي رافع أخبر عليّاً عليه السلام بذلك، فقال: «والله إن بقيت وسلمت

ص: ٥٩

لَهُمْ لِأَقِيمَنَّهُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ، وَالطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، قَاتَلَ اللَّهُ ابْنَ الْعَاصِ! لَقَدْ عَرَفَ مِنْ كَلَامِي وَنَظْرِي إِلَيْهِ أَمْسَ أَنْي أُرِيدُهُ وَأَصْحَابُهُ مِمَّنْ هَلَكَ فِيمَنْ هَلَكَ.

فَقَالَ، فَبَيْنَا النَّاسَ فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ الصُّبْحِ إِذْ طَلَعَ الزُّبَيْرُ وَطَلَحَهُ، فَجَلَسَا نَاحِيَهُ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ طَلَعَ مَرْوَانَ وَسَعِيدَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، فَجَلَسُوا إِلَيْهِمَا، ثُمَّ جَاءَ قَوْمٌ مِنْ قَرِيْشٍ فَاَنْضَمُوا إِلَيْهِمْ، فَتَحَدَّثُوا نَجِيًّا سَاعَةً! ثُمَّ قَامَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مَعِيْطٍ، فَجَاءَ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، إِنَّكَ قَدْ وَتَرْتَنَا جَمِيعًا، أَمَّا أَنَا فَتَقَتُّ أَبِيَّ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا، وَخَذَلْتُ أَخِيَّ يَوْمَ الدَّارِ بِالْأَمْسِ، وَأَمَّا سَعِيدٌ فَتَقَتُّ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْحَرْبِ - وَكَانَ ثَوْرَ قَرِيْشٍ - وَأَمَّا مَرْوَانٌ فَسَخَفْتُ أَبَاهُ عِنْدَ عُثْمَانَ إِذْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَنَحْنُ إِخْوَتُكَ وَنَظَرَاؤُكَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَنَحْنُ نَبَايِعُكَ الْيَوْمَ عَلَيَّ أَنْ تَضَعَ عَنَّا مَا أَصَبْنَا مِنْ الْمَالِ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ، وَأَنْ تَقْتُلَ قَتْلَتَهُ، وَإِنَّا إِنْ خَفْنَاكَ تَرَكْنَاكَ، فَالْتَحَقْنَا بِالشَّامِ.

فَقَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ وَتَرِيَّ إِيَّاكُمْ فَالْحَقُّ وَتَرَكْتُمْ، وَأَمَّا وَضَعِيَّ عَنْكُمْ مَا أَصَبْتُمْ فَلَيْسَ لِي أَنْ أَضَعَ حَقَّ اللَّهِ عَنْكُمْ وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ، أَمَّا قَتْلِيَّ قَتْلَهُ عُثْمَانَ فَلَوْ لَزِمَنِيَّ يَوْمَ لَقَيْتُهُمْ أَمْسَ، وَلَكِنْ لَكُمْ عَلَيَّ إِنْ خِفْتُمُونِيَّ أَنْ أَوْثَمْتُكُمْ وَإِنْ خِفْتُمْكُمْ أَنْ أُسَيِّرَكُمْ.

فَقَامَ الْوَلِيدُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَحَدَّثَهُمْ، فَافْتَرَقُوا عَلَيَّ إِظْهَارَ الْعَدَاوَةِ وَإِشَاعَةَ الْخِلَافِ، فَلَمَّا ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ، قَالَ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ لِأَصْحَابِهِ، قَوْمُوا بِنَا إِلَى هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا عَنْهُمْ وَرَأَيْنَا مِنْهُمْ مَا نَكْرَهُ مِنَ الْخِلَافِ وَالطَّعْنِ عَلَيَّ إِمَامِهِمْ، وَقَدْ دَخَلَ أَهْلُ الْجَفَاءِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الزُّبَيْرِ وَالْأَعْسَرَ الْعَاقِ - يَعْنِي طَلَحَهُ.

فَقَامَ أَبُو الْهَيْثَمِ وَعَمِيَارُ وَأَيُّوبُ وَسَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ وَجَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، فَدَخَلُوا عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، انْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَعَاتِبْ قَوْمَكَ، هَذَا الْحَيُّ مِنْ قَرِيْشٍ، فَإِنَّهُمْ قَدْ نَقَضُوا عَهْدَكَ، وَأَخْلَفُوا وَعْدَكَ، وَقَدْ دَعَوْنَا فِي السَّرِّ إِلَى رَفْضِكَ، وَهَذَاكَ اللَّهُ لِرَشْدِكَ! وَذَاكَ لِأَنَّهُمْ كَرَهُوا الْأَسْوَأَ، وَفَقَدُوا الْأَثْرَ، وَلَمَّا آسَيْتَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَعْجَمِ

أنكروا واستشارك عدوك وعظّموا الطلب بدم عثمان فرقه للجماعه، وتألّفوا لأهل الضلاله، فرأيتك.

فخرج على عليه السلام فدخل المسجد، وصعد المنبر مرتدياً بطاق، مؤتزرًا ببرد قطري، متقلدًا سيفًا، متوكلًا على قوس، فقال:

أما بعد، فإننا نحمد الله ربّنا وإلهنا وولينا، وولى النعم علينا، الذى أصبح نعمة علينا ظاهرة وباطنة، امتناناً منه بغير حولٍ منا ولا قُوّه، ليلبونا أنشكر أو نكفر، فمن شكر زاده ومن كفر عدبه، فأفضل الناس عند الله منزله، وأقربهم من الله وسيله أطوعهم لأمره وأعملهم لطاعته، وأتبعهم لسيئه رسوله، وأحياهم لكتابه، ليس لأحدٍ عندنا فضل إلا بطاعه الله وطاعه الرسول، هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهل ذلك إلا جاهل عاند عن الحق، منكر، قال الله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (١).

ثم صاح بأعلى صوته، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين.

ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار، أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم، بيل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين.

ثم قال: أنا أبو الحسن - كان يقولها إذا غضب - ثم قال: ألا- إن هذه الدنيا التى أصبحتم تمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكُم، ليست بداركم ولا منزلكم الذى خلقتُم له، فلا تغرنكم فقد حذرتموها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعه الله، والذل لحكمه، جل ثناؤه، فأما هذا الفى، فليس لأحدٍ على أحدٍ فيه أثره، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، عهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف

ص: ٦١

شَاءَ فَإِنَّ الْعَامِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالْحَاكِمَ بِحُكْمِ اللَّهِ لَا وَحْشَةَ عَلَيْهِ.

ثم نزل عن المنبر، فصلّى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبدالرحمن بن حسل القرشى إلى طلحه والزبير، وهما فى ناحيه المسجد، فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام، فقال لهما: نَشِدْتُكُمَا اللَّهَ، هَلْ جُئْتُمَانِي طَائِعِينَ لِلْبَيْعَةِ، وَدَعَوْتُمَانِي إِلَيْهَا، وَأَنَا كَارِهِ لَهَا!

قالا: نعم.

فقال عليه السلام: غَيْرَ مُجْبِرِينَ وَلَا مَقْسُورِينَ، فَأَسْلَمْتُمَا لِي بِيَعْتِكُمَا وَأَعْطَيْتُمَانِي عَهْدَكُمَا!

قالا: نعم.

قال: فَمَا دَعَاكُمَا بَعْدَ إِلَى مَا أَرَى.

قالا: أَعْطَيْنَاكَ بِيَعْتَنَا عَلَى أَلَّا تَقْضَى الْأُمُورَ وَلَا تَقْطَعُهَا دُونَنَا، أَنْ تَسْتَشِيرَنَا فِي كُلِّ أَمْرٍ وَلَا تَسْتَبِدُّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا، وَلَنَا مِنَ الْفَضْلِ عَلَى غَيْرِنَا مَا قَدْ عَلِمْتَ، فَأَنْتَ تَقْسِمُ الْقِسْمَ وَتَقْطَعُ الْأَمْرَ، وَتَمْضَى الْحُكْمَ بغيرِ مَشَاوَرَتِنَا وَلَا عِلْمِنَا.

فقال: لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيرًا! وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا! فَاسْتَغْفِرَا اللَّهَ يَغْفِرْ لَكُمَا، أَلَا تُخْبِرَانِي أَدْفَعْتُمَا عَنْ حَقِّ وَجَبَ لَكُمَا فَظَلَمْتُمَا إِيَّاهُ؟

قالا: معاذ الله!

قال: فَهَلْ اسْتَأْثَرْتُ مِنْ هَذَا الْمَالِ لِنَفْسِي بِشَيْءٍ؟

قالا: معاذ الله!

قال: أَفَوَقَّعَ حُكْمَ أَوْ حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَجَهَلْتَهُ أَوْ ضَعَفْتَهُ عَنْهُ؟

قالا: معاذ الله!

قال: فَمَا الَّذِي كَرِهْتُمَا مِنْ أَمْرِي حَتَّى رَأَيْتُمَا خِلَافِي؟

قالا: خِلافَكَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي الْقِسْمِ، أَنْكَ جَعَلْتَ حَقَّنَا فِي الْقِسْمِ كَحَقِّ غَيْرِنَا، وَسَوَّيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَنْ لَا يَمِثُلُنَا فِيمَا أَفَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا بِأَسْيَافِنَا وَرِمَاحِنَا

وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، أخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً.

فقال: فأمرًا ما ذكرتمناه من الاستشاره لَكُمْ فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عليها، فحفت أن أردكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إلي نظرت في كتاب الله وسنه رسوله فأمضيت ما دلاني عليه وأتبعته، ولم أحتج إلى آرائكم فيه، ولا رأي غيركم، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة برهانه، واحتيج إلى المشاوره فيه لشاورتكم فيه، وأمّا القسم والأسوه، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه باديء ببدء! قد وجدت أنا وأنتم رسول الله صلى الله عليه وآله يحكم بحدك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأمّا قولكم: جعلت فينا وما أفاءته سيوفنا ورمحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقد يما سبق الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورمحهم فلم يفض لهم رسول الله صلى الله عليه وآله في القسم، ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه مؤف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكم والله عندي ولا لغيركم إلا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر، ثم قال: رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه.

ثم قال ابن أبي الحديد:

فإن قلت: فإن أبا بكر قسم السواء، كما قسمه أمير المؤمنين عليه السلام ولم ينكروا ذلك، كما أنكروا أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إن أبا بكر قسم محتدياً لقسم رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما ولي عمر الخلافة وفضل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر، وأشربت قلوبهم حب المال... ولما ولي عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فزاد وثوق القوم بذلك، ومن ألف امرأ شق عليه فراقه، وتغيير العاده فيه،

فلما ولي أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر، وقد نسي ذلك ورفض، تخلّص بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشقّ عليهم وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعه، ومفارقة الطاعة ولله أمر هو بالغه»^(١).

٢. مكانه المشوره

لا شك في أنّ المشوره من الأصول الإسلاميه المسلّمه ولدى عقلاء العالم والتي تشرك إلى العقل سائر العقول كما ورد في الخبر «مَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهُمْ فِي عُقُولِهِمْ»^(٢) إلّا أنّ لها بعض الشروط والأركان إن لم تراعى فهي لا تفقد جدواها فحسب؛ بل تعطى أحياناً نتائج معكوسه، ومن ذلك أنّ المشوره لا بدّ أن تكون في الأمور التي تخضع للتردد والنفي والإثبات ولو أراد الناس التشاور في الأمور المسلّمه والأحكام فلربّما أدّى ذلك إلى الريبه في أصل الأحكام الشرعيّه والوظائف العقليه المسلّمه.

مثلاً لو أراد شخص المشوره في الحج أو الحجاب أو عرضها على الرأي العام فلربّما انبرى من يقول: ما الضروره لأن يرصد الناس في هذا العصر هذه الأموال الطائله من أجل الذهاب إلى الحج أو إنّ الحجاب في المجتمع المعاصر قيد مضروب على المرأة!

ولكن إن سلّمنا أنّ الحج أو الحجاب أمر شرعي مقبول لدى جميع المسلمين بل ضروره دينيه، يمكننا الجلوس في شوري كيف يمكن أن يقام الحج وكيف يكون ارتداء الحجاب أفضل؟ ولا بدّ من الإذعان إلى أنّ بعض المشاكل التي أصابت المسلمين بسبب كونهم نسوا المكانه الحقيقيه للمشوره.

ص: ٦٤

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٧، ص ٣٨-٤٣.

٢- (٢) . نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٤١.

وما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه نموذج واضح لهذا المطلب، وما كان ينشده طلحه والزبير انحراف عن هذا الأمر؛ فقد أرادوا المشوره في سنّه النبي في التسويه بأموال الخراج فرفض الإمام عليه السلام ذلك.

٣. طلحه وحلم الخلفه

يستفاد من مختلف المصادر التاريخيه أن طلحه والزبير كانا يتطلعان إلى الخلفه منذ أمد بعيد يعود إلى عهد أبي بكر.

ذكر الطبري المؤرخ المعروف، طبق نقل ابن أبي الحديد في تاريخه أن طلحه كان يهيم بالخلفه حتى على عهد أبي بكر ويروم أن يجعلها فيه بشبهه أنه ابن عمه، وسخط خلفه عمر فقال لأبي بكر: وليت علينا فظاً غليظاً، وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه ويحادثونه سرّاً في معنى الخلفه ويقولون له: لو مات عمر لباعناك بغته، فبلغ ذلك عمر فخطب وهددهم بالقتل.

وذكر ابن أبي الحديد في موضع آخر: إن طلحه والزبير أشادا بعمر الذي ميّز المهاجرين والأنصار على سائر المسلمين (وأعطاهم سهماً أكثر من بيت المال).

وكان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين، الخروج في البلدان لأنه يرى أنهم إن خرجوا التفتّ حولهم الناس وحصلوا على الأموال وفيهم من يضمم الفرقة ويروم خلع الربقه، قال الطبري طبق نقل ابن أبي الحديد: فملته قريش ذلك حتى أنه لم يأذن لهم بالمعارك وقال لهم كفاكم ما أبلتكم في الغزوات مع رسول الله، فلما ولي عثمان أجازهم، فخرجوا إلى البلاد وجمعوا الأموال، فكان ذلك أول وهن على الإسلام وأول فتنه كانت على العامه.

وقال ابن أبي الحديد: وكان عمر نقض هذا الرأي السديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤه له من أمر الشورى، فإن ذلك كان سبب كل فتنه وقعت وتقع إلى أن تنقضى الدنيا(١).

ص: ٦٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١١-١٣.

ويتضح من هذه السابفة التاريخيّه لماذا انزعج طلحه والزبير من خلافه على عليه السلام فى حين بذلا قصارى جهدهما من أجل تأليب الناس على قتل عثمان، على أمل أن يأتى الدور لطلحه، ولما منعهما على عليه السلام المنصب والمقام (لأنه يعلم أنّ ذلك مقدمه لتقسيم البلد الإسلامى) بل قطع امتيازاتهما من بيت المال وساوى بين المسلمين حذو النهج النبوى، تمردا عليه وتواطئا مع عائشه ضدّ أمير المؤمنين عليه السلام، فى اشعال فتيل حرب الجمل، وبعد تلك الهزيمة ومقتلهما أثار أتباعهما معركة صفين لتسلم بنى أميه بالتالى مقاليد العالم الإسلامى، ثم خلفهم بنو مروان الذين أثاروا ذلك الفساد العظيم.

ومن هنا يتضح أنّ مشكله طلحه والزبير لم تكن المشوره بل حتى التسويه فى العطاء كانت قضيه فرعيه؛ كانت مشكلتهما الطمع فى الخلافه، وماسبق لم يكن سوى حجج وذرائع.

ص: ٦٦

وَقَدْ سَمِعَ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْتُبُونَ أَهْلَ الشَّامِ

أَيَّامَ حَرْبِهِمْ بِصَفِينَ (١)

نظرة إلى الخطبه

ورد في كتاب «مصادر نهج البلاغه» أنّ حجر بن عدى وعمرو بن الحمق وهما من أصحاب على عليه السلام المعروفين كانا يستبان أهل الشام (في أيام صفين) فدعاهما الإمام ونهاهما، فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق؟ قال: بلى! قالوا: أليسوا على الباطل؟ قال: بلى! قالوا: فلم تنهانا عن سبهم؟ قال: إنني أكره لكما أن تكونا سبّابين، وواصل كلامه فأراهم السبيل الفصل بالدعاء لهم إلى الهدى ووحده المسلمين واطفاء نار الحرب، ويشير هذا الكلام إلى أنّ الإمام عليه السلام في الوقت الذي كان فيه حازماً إزاء العدو كان ينهى عن العنف الطائش الذي يعكس ضعف الشخصيّه.

ص: ٦٧

١- (١) سند الخطبه: رواه عدد من المحدّثين والمؤرخين قبل السيّد الرضى وبعده؛ مثل أبوحنيفه الدينورى في كتاب «الاجبار الطوال» (ص ١٦٥) ونصر بن مزاحم في كتاب «صفين» (ص ١٠٣) وسبط بن الجوزى في «تذكرة الخواص» (ص ١٤٢) وغيرهم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٣).

إِنِّي أكره لكم أن تكونوا سيّبين، ولكنكم لو وصفتهم أعمالهم، وذكرتهم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقتلتم مكان سبكم إياهم:

اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم من ضلالهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويزعوى عن الغي والعدوان من لهج به.

الشرح والتفسير: الدعاء بدل السب!

ما ورد في هذا الكلام درس أخلاقي واجتماعي عظيم يختزن آثاراً كثيرة وهو النهي عن سب العدو ولعنه الذي من شأنه إثارة غضبه وتعميق الكراهية.

وكما ذكر فإن الإمام قال ذلك لما سمع بعض أصحابه يسب أهل الشام أيام صفين فقال: «إني أكره لكم أن تكونوا سيّبين، ولكنكم لو وصفتهم أعمالهم، وذكرتهم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر».

«سبّ» تطلق على من يكثر السباب، وحقيقه «السبّ» تتضمن الإساءة للطرف المقابل؛ من قبيل مخاطبه المقابل بكلمه أحمق، رذل وأمثال ذلك.

واللعن أحد مصاديق «السبّ» و«القذف» من مراحل «السبّ» الشديده وعليه الحد في أغلب الموارد، قطعاً ليس مراد الإمام في هذا الكلام هذا النوع من السبّ، لأنّ القذف حرام ومن الكبائر وليس من المكروهات.

والإمام عليه السلام ينهى أصحابه في هذه الخطبه عن هذا الفعل وإن كان لهم الحق في

مخاطبه العدو بهذا الخطاب ويأمرهم بدلاً من ذلك بنقد أعمالهم القبيحة وصفاتهم الذميمة وإتمام الحجّه عليهم ولتكون أبلغ في التأثير كما تسلب العدو ذريعه المعامله بالمثل، ولدينا الكثير بخصوص السبّ واللعن نتركه لمبحث التأمّلات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال بيان المصداق الواضح ليعلمهم كيفية التعامل مع العدو في مثل هذه الحالات فقال: «وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَيِّبِكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنْ (١) دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جِهَلِهِ، وَيَزْعُورِي (٢) عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ (٣) بِهِ».

فالإمام عليه السلام أورد بهذه العبارة العميقة ثلاثه أدعيه أو بعبارة أخرى كانت له ثلاث طلبات:

الأولى: إطفاء نار الحرب وحقن دماء الطرفين.

الثاني: إشاعه الصلح والسلام بالإضافة إلى وقف الحرب وأن يتحد المسلمون.

الثالث: يبعد عنهم الضلال الذي أصابهم وحال دون بلوغهم الحق؛ فيتعرّف الجهله على الحقّ ويكفّ أهل الحق عن مناهضته.

وتكشف هذه الأدعيه بجلاء عن مدى سعه صدر الإمام عليه السلام ورأفته ورحمته حتى بأعدائه، ورغم كلّ تلك الجنايات التي إرتكبوها بحقّ الإمام وأصحابه فلا ينطق بأدنى ما يكشف عن غضبه وانتقامه، وينهى حتى صحبه عن سبّ العدو والتعرض له.

ص: ٧٠

١- (١). «احقن» من «الحقن» على وزن «الحمد» تعنى فى الأصل حفظ الشيء وإذا استعملت بشأن الدماء عنت منع إراقه الدماء.
٢- (٢) «يرعوى» من «رعو» على وزن «رعد» بمعنى الامتناع والعودة عن الفعل. جدير ذكره أنّ المفردة «رعو» تستعمل أحياناً بصيغه الرباعى (رعوى على وزن دعوى) وتفيد نفس المعنى السابق وقال بعض أرباب اللغة المفردة: «ارعوى» من المفردات النادرة ولم يشاهد مثلها فى صيغ الأفعال المعتله. للمزيد راجع «لسان العرب» ماده «رعو».
٣- (٣) «لهج» من ماده «لهج» على وزن «هرج» بمعنى التعلق والولع بالشيء والحرص عليه.

صرح أغلب أرباب اللغة بأن «السب» هو الشتم، واعتبر البعض، اللعن من مصاديقه(١).

طبعاً لا ينبغي سب أى مؤمن أو لعنه، والأولى تركه حتى بالنسبة للكفار والمخالفين، ذلك لأنه ينطوى على أمرين سلبين: الأول: إن الطرف المقابل يعمد إلى المعاملة بالمثل فيسبىء إلى المقدّسات، لذلك ورد فى الآية ١٠٨ من سورة الأنعام: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

الآخر: أن هذا السب ربّما يثير المقابل فيصّر على كفره وضلاله ويزداد كفراً وضلالاً.

ولكن لهذه القاعده كما لغيرها من القواعد الكليه استثناءات، ومن هنا ورد بعض السب للمخالفين، فى «نهج البلاغه» أو عبارات سائر المعصومين عليهم السلام كما لعن البعض فى القرآن الكريم.

مضى فى الخطبه ١٩ من نهج البلاغه أن الإمام عليه السلام قال للأشعث بن قيس المنافق الذى كلّم الإمام بكلمات خارجه عن الأدب: «عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ حَائِكُ ابْنِ حَائِكِ مُنَافِقُ بَنِي كَافِرٍ».

كذلك حين أسر مروان فى المعركه وجىء به إلى الإمام عليه السلام شفّع له الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام عند أبيهما فأطلقه الإمام عليه السلام، فقال الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام: يا أمير المؤمنين! يبايعك مروان؟ قال الإمام عليه السلام: ألم يبايعنى بعد قتل عثمان لا حاجه لى بيعته «إِنَّهَا كَفُّ يَهُودِيَّةٍ»(٢).

ولكن سب المؤمن التقى يعدّ من الكبائر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ وَأَكْلُ لَحْمِهِ مَعْصِيَةٌ وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ»(٣).

ص: ٧١

١- (١) راجع «المصباح المنير» و «لسان العرب». وروى هذا المعنى المرحوم المحقق الخوئى فى شرحه لنهج البلاغه.

٢- (٢) للوقوف على المزيد راجع الجزء الثالث من هذا الشرح.

٣- (٣) الكافى، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٢ و ٣.

وورد في حديث آخر أنّ رجلاً قال للنبي الأكرم صلى الله عليه و آله: أوصني! فكان ممّا أوصاه النبي أن قال: «لا تَسُبُّوا النَّاسَ فَتَكْسِبُوا الْعِدَاوَةَ بَيْنَهُمْ» (١).

جدير ذكره أنّ أصحاب معاوية وإن كانوا من المنافقين والظلمه والمفسدين فإنّ الإمام عليه السلام نهى أصحابه عن سبهم أيام صفين، فالسب في تلك الظروف العصيبه ربّما كان يوسع دائره الحرب.

أمّا بشأن اللعن فالذى يستفاد من آيات القرآن أنّ الله لعن البعض وأذن بلعنهم ولعن الشيطان فقال: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» (٢).

وقال في المرتدين: «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (٣).

وقال في الظلمه: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (٤).

وفي الناكثين وقاطعى الرحم والمفسدين فى الأرض: «أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (٥).

وفي الذين يكتمون الحق: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» (٦).

لا شك فى أنّ اللعن فى اللغة بمعنى الطرد والإبعاد الذى يتمّ أحياناً بصيغه عمليه وأخرى لفظيه أو دعاء؛ كأن يقال مثلاً: «لعنه الله عليك».

من المسلم به أنّه لا يمكن لعن أى مؤمن؛ أمّا الكفّار والمنافقون والذين يرتكبون الكبائر كالظلم والجور والفساد فى الأرض وأمثال ذلك إنّما يستحقون اللعن، وعليه فلا يختص اللعن بالكفّار والمنافقين.

ص: ٧٢

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٢ و ٣.

٢- (٢) سوره ص، الآيه ٧٨.

٣- (٣) سوره آل عمران، الآيه ٨٧.

٤- (٤) سوره هود، الآيه ١٨.

٥- (٥) سوره الرعد، الآيه ٢٥.

٦- (٦) سوره البقره، الآيه ١٥٩.

فِي بَعْضِ أَيَّامِ صِفِّينَ وَقَدْ رَأَى الْحَسَنَ ابْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَتَسَرَّعُ إِلَى الْحَرْبِ (١)

نظرة إلى الخطبة

يختص هذا الكلام القصير لأمير المؤمنين علي عليه السلام بحفظ الإمام الحسن والإمام الحسين من الأخطار ليدوم بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تحقق هذا المعنى فيتصل اليوم نسب الملايين بواسطة الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليهما السلام بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن هذه الجذور المباركة لتتعمق في العالم كل يوم.

ص: ٧٣

١- (١) سند الخطبة: نقل الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٧ للهجرة عبارته عن أمير المؤمنين علي عليه السلام تشبه عبارته بعض هذا الكلام؛ لكن ليس في يوم صيفين بل في موضع آخر ويتضح من ذلك أن الإمام عليه السلام بين هذه العبارات في عدّه مواضع. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٣).

أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِنِي، فَإِنِّي أَنَفْسُ بِهِدَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَام) عَلَى الْمَوْتِ لِنَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسِيلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير: حفظ نسل النبي صلى الله عليه وآله

أوصى الإمام عليه السلام صحبه بالإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام يوم صفين بغية الحفاظ على هدف مهم فقال: «أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِنِي (١)، فَإِنِّي أَنَفْسُ بِهِدَيْنِ (٢) (يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَام) عَلَى الْمَوْتِ لِنَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسِيلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

التعبير «أملكوا» من ماده «ملك» تأكيد للحيلولة عن مسارعه الإمام الحسن عليه السلام لميدان القتال، لأنَّ الإنسان إن ملك شيئاً صار تماماً تحت تصرفه وهذا أعظم تأكيد يمكن استعماله بشأن صدِّ الشخص عن أمر، ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى رحمه الله فى ختام هذا الكلام: «هذا من أعلى الكلام وأفصحه».

العباره «لا يَهْدِنِي» تأكيد آخر لهذا المعنى، كأنه عليه السلام يريد القول: لو قتل الحسن والحسين سيفنى وجودى.

وكى لا يتصور أنّ هذه التأكيدات من جانب الإمام عليه السلام تستند لمجرد عاطفه

ص: ٧٥

١- (١). «لا يَهْدِنِي» من ماده «هدّ» على وزن «سدّ» تعنى فى الأصل الإنهدام والإنهيار المقرون بصوت شديد. ثم استعمل فى الأمور المعنويه فاطلق على الحزن الذى يعكر روح الإنسان من قبيل ما ورد فى العباره المذكوره.

٢- (٢) «أنفس» من ماده «نفس» على وزن «قفس» بمعنى الشح وحفظ الشىء وعدم فقدان الأشياء النفيسه التى لا يريد الإنسان فقدانها بسهولة.

الأبوه فقد بين عليه السلام: إنني أنشد هدفاً عظيماً في أن يبقى نسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في العالم عن طريقهما، وهذا بحد ذاته أحد أسباب ديمومه الإسلام.

قال السيد الشريف: وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ» مِنْ أَعْلَى الْكَلَامِ وَأَفْصَحِهِ.

مراد السيد الرضى رحمه الله أن العبارة «أَمْلِكُوا عَنِّي» تأكيد بليغ ولطيف لهذا المعنى أن سارعوا واجتهدوا واحفظوا هذا الفتى، لأن الإنسان يبذل قصارى جهده للمحافظة على أملاكه، وهذه أبلغ عبارة في الحفظ والاستعادة.

تأمل: شبهات وردود

١. لا شك في أن عمر الإمام الحسن المجتبي عليه السلام آنذاك كان أكثر من ثلاثين سنة، حيث ولد في السنة الثالثة للهجرة وحادثه صفين كانت سنة ٣٧ الهجرة، فلم التعبير عنه بالغلام؟

لابد من الالتفات إلى هذه النقطة في الجواب أن هذه المفردة وإن اطلقت على الحد الفاصل بين الطفل والشاب؛ لكنها تطلق كما صرح بعض أرباب اللغة (١) على الكبار أيضاً. أضف إلى ذلك فإن الآباء يستعملون هذه المفردة على الأبناء في مختلف أعمارهم، كما تطلق العرب هذه المفردة على الخدم في مختلف سنن أعمارهم.

على كل حال فإن إطلاق كلمة الغلام من قبل الإمام عليه السلام على ولده الإمام الحسن عليه السلام مطلب ليس بمستبعد.

٢. كان للإمام الحسن وكذلك الإمام الحسين عليهما السلام حسبما ذكر آنفاً أكثر من

ص: ٧٦

١- (١). لسان العرب، مادة «غلم».

ثلاثين سنة (الفارق بينهم كان سنة أو أقل) وقطعاً كان لهما زوج وأولاد، فكيف يخشى الإمام انقطاع نسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

نقول في الجواب: كان المراد لبقيا وليبق أكثر عدد ممكن من نسل النبي، ذلك لأن نسل رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتعرض إلى مخاطر جديده من عدّه جوانب.

٣. كيف ذهب الإمام عليه السلام إلى بقاء نسل النبي من خلال هذين الإمامين وذريتهما في حين تنسب العرب نسلها إلى ولدها وليس عن طريق البنت؟ وكلنا نعلم أنّ الحسن والحسين كانا إبني بنت النبي!

للإجابة عن هذا السؤال لابدّ من القول إنّ هذا التفكير يعود إلى الجاهلية الذين لم يروا أى شأن للنساء ولا يعتبرون أبناء بناتهم أبناءهم فأنشدوا في ذلك:

بُنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنَاتُ بَنَاتِنَا أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ

لذلك حين نزلت آية المباهلة: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ» (١) أجمع المفسّرون على أنّ المفردة «أبناءنا» في هذه الآية الشريفه إشارة إلى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام و «نساءنا» فاطمه عليها السلام، وما أكثر الخطاب «يا ابن رسول الله» لأئمّه أهل البيت عليهم السلام في الروايات.

وقد عدّت الآية الشريفه ٨٥ من سورة الأنعام: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ...»

عيسى» المسيح من ذريّه إبراهيم عليه السلام، في حين ينتسب إليه من جانب امّه (مريم).

ص: ٧٧

قاله لَمَّا اضْطَرَبَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فِي أَمْرِ الْحُكُومَةِ (١)

نظره إلى الخطبه

جاء في كتاب «مصادر نهج البلاغه» في مناسبه هذا الكلام: لما رفع عمرو بن العاص ورهطه المصاحف على أسننه الرماح يوم صفين لخداع جيش على عليه السلام، وبدت أعلام النصر والفتح ولم يبق على تحقيق النصر الكامل سوى بضع خطوات، انقسم أصحاب الإمام عدّه فئات؛ فئه اعتقدت بأن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خدعه؛ بل يريدون حقاً الإحتكام إلى القرآن، وفئه عظيمه أخرى سئمت القتال ولا يرون في أنفسهم القدره على مواصلته، وكان هذا الموضوع ذريعه لاعتزال القتال والخلود إلى الدعه، وفئه ثالثه كانت من المنافقين التي تكنّ البغض والعداء للإمام عليه السلام وكانت تنتظر الفرصه، فلما رأّت المصاحف على الرماح حدّثوا أنفسهم بأن الفرصه قد سنحت للتخلي عن نصره على عليه السلام فارتفعت أصواتهم مطالبين بوقف القتال وفئه

ص: ٧٩

١- (١) سند الخطبه: كان ممن رواها قبل المرحوم السيّد الرضى، نصر بن مزاحم في كتاب «صفين» (وقعه صفين، ص ٤٨٤) وابن قتيبه الدينورى في «الامامه والسياسه» (ص ١٠٤) والمسعودى في «مروج الذهب» (ج ٢، ص ٤٠٠). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٧).

قليله هي التي أصرت على مواصلة القتال وكان في مقدمتهم مالك الأشتر الذي صرخ بهم، الويل لكم أتعزلون القتال وأوشكنا على النصر؟ أيها الجهال!... ولكن الفئه التي اعتزلت القتال شتمته وهددته وصرخت «المصاحف المصاحف والرُّجوع إليها لا نرى غير ذلك» وأجبرت الإمام عليه السلام على قبول التحكيم.

وهنا أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام فقال ما ملخصه: كنتم تتبعونني وكنت أميركم، أما الآن تريدون أن تكونوا أنتم الأمراء وأنا المأمور، إنكم تريدون الحياه مهما كلف الأمر فكيف يسعني صدكم عن ذلك؟!!

ص: ٨٠

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمَنْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحَبُّ، حَتَّى نَهَكْتَكُمْ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللَّهِ، أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ، وَهِيَ لِعِدْوِكُمْ أَنَّهُكَ.

لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصِيبُحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا، فَأَصِيبُحْتُ الْيَوْمَ مَنُهِيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ.

الشرح والتفسير: رفاق السلاح الجهاد

أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام حين أصرَّ عليه أغلب جيشه وخلافًا لرغبته لعدّه أسباب على إيقاف القتال والتسليم للتحكيم، حيث يجيب في الواقع عن هذا السؤال: لماذا استسلمتم لمؤامره عمرو بن العاص في رفع المصاحف على الرماح وقبلتم بالتحكيم، حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمَنْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحَبُّ، حَتَّى نَهَكْتَكُمْ (١) الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللَّهِ، أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ، وَهِيَ لِعِدْوِكُمْ أَنَّهُكَ».

هذا الكلام في الواقع إجابته للصامدين في القتال الذين يرون عاقبته النصر، إلّا أنّهم كانوا للأسف أقلية، فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه الكلمات إلى عذره في قبول مقترح وقف القتال والتحكيم إزاء تلك الأقلية من جانب، ومن جانب آخر إلى يقينه بضروره مواصلة القتال حتى النصر إزاء تلك الأكثرية التي أتعبها القتال وأنّ كثره

ص: ٨١

١- (١) «نهكتكم» من ماده «نهك» على وزن «سفك» تعنى فى الأصل التآكل والقدم وتستعمل فى الموارد التى يتعب فيها الإنسان ويرهق.

القتلى لا تبرر الاستسلام لمطالب العدو اللامشروع.

ثم أوضح ذلك بالقول: «لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَضِ بَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا، فَأَضِ بَحْتُ الْيَوْمَ مَنُهِيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمْ الْبُقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلُكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!».

وهذا أيضاً جواب لفتنتين: الأقلية المطالبة بمواصله القتال حتى النصر والمعترضه على قبول التحكيم وإيقاف القتال الذى أوشك على تحقيق النصر، فقال: ما عساني أفعل وقد سلبت المبادره وتعثرت الإمره وعصيتم وتمردتم، والأكثرية التى استجابت لطلب العدو فخطبها أنها لم تستجب لذلك الطلب حرمة للقرآن، بل بسبب حبّ البقاء والتنصل من التضحية فى سبيل الله (فتأمل).

تأمل: التضحية بالفرصه الكبرى

رقه كلمات أمير المؤمنين عليه السلام إزاء معارضى مواصلة القتال تفيد مدى مرونته، والتي ربّما تثير هذا السؤال: لماذا لم يدع الإمام مالك الأشتر ليواصل المعركة التى أشرفت على تحقيق النصر وإنقاذ المسلمين من شرّ بنى أميه وأتباعهم؟

والجواب عن هذا السؤال يكمن فى تاريخ صفين.

فقد أشرنا فى الأبحاث السابقه إلى أنّ معارضى القتال لم يقتصر على أولئك الذين خدعوا بحيله عمرو بن العاص فى تعليق المصاحف على أسنّه الرماح، بل هناك الفئه الخاويه الإراده التى لم تكن مستعده لمواصله القتال، بالإضافة إلى المنافقين ومبغضى الإمام الذين رأوا الفرصه مؤاتيه للاصطياد فى الماء العكر، فاتحدوا جميعاً وأصروا على الإمام بإيقاف القتال.

قال ابن أبى الحديد: فأرسل إلى الأشتر يأمره بالرجوع وترك الحرب، فأبى عليه فقال: كيف أرجع وقد لاحت إمارات الظفر! فقولوا له: «ليمهلنى ساعه واحده»، ولم

يكن علم صورته الحال كيف قد وقعت، فلما عاد إليه الرسول بذلك، غضبوا ونفروا وشغبوا، وقالوا: أنفذت إلى الأشتر سرّاً وباطناً، تأمره بالتصميم، وتنهيه عن الكفّ، وإن لم تعد الساعة، قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرسل إلى الأشتر فقالوا له:

أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سئل عليه خمسون ألف سيف! فقال: ما الخبر؟ قالوا: إن الجيش بأسره قد أحرق به، وهو قاعد بينهم على الأرض، تحته نطع، وهو مطرق، والبارقه تلمع على رأسه، يقولون: لئن لم تعد الأشتر قتلناك! قال:

ويحكم! فما سبب ذلك؟ قالوا: رفع المصاحف، قال: والله لقد ظننت حين رأيتهما رفعت أنّها ستوقع فرقه وفتنه.

ثم كثر راجعاً على عقبيه، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر، قد جعله أصحابه بين أمرين: إمّا أن يسلموه إلى معاوية، أو يقتلوه، ولا ناصر له منهم إلّا ولداه وابن عمه ونفر قليل لا يبلغون عشره، فلما رآهم الأشتر سبهم وشتمهم، وقال: ويحكم! أبعدهم الظفر والنصر صبّ عليكم الخذلان والفرقه! يا ضعاف الأحلام! يا أشباه النساء! يا سفهاء العقول! فشتموه وسبّوه، وقهروه.

وقالوا: المصاحف المصاحف! والرجوع إليها، لا نرى غير ذلك! فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم، دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحذور الأضعف، فلذلك قال: «كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا...»^(١).

تفيد بعض القرائن والشواهد أنّ رفع المصاحف على الرماح كانت من صنع المنافقين وبعض الأفراد في جيش أمير المؤمنين على عليه السلام وطائفه من أهل الشام بقياده عمرو بن العاص والأشعث بن قيس، الذين لا يبلغون انتصار الإمام عليه السلام^(٢).

أوردنا بحثاً مطولاً بشأن التحكيم والذي يعتبر مكملاً لهذا البحث فمن أراد المزيد فليراجع ذيل الخطبه ٣٥، الجزء الثاني، الصفحه ٣٦٤.

ص: ٨٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٣٠ و ٣١.

٢- (٢) انظر: شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢١٤.

بِالْبَصْرَةِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَى الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ - يَعُوذُهُ، فَلَمَّا رَأَى سَعَةَ دَارِهِ قَالَ: (١)

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام كما ورد أعلاه إشاره لقصه عياده على عليه السلام لأحد أصحابه فى البصره وهو علاء بن زياد الحارثى (رغم ما ذهب إليه أغلب شراح نهج البلاغه من أنه كان الربيع بن زياد وليس العلاء بن زياد) فقال عليه السلام ذلك لما رأى سعه داره فوعظه وسائر الناس ممن على غراره بموعظه بليغه ويتضمن هذا الكلام ثلاثه أقسام:

الأول: أنها موعظه حيّه للعلاء بن زياد.

الثانى: وعظ ونصح عميق لأخيه، أى عاصم بن زياد الذى عاش حياه على العكس تماماً من أخيه وكان يعيش حياه متقشفه.

الثالث: اجابه عن أسئله عاصم بن زياد بشأن معيشه الإمام.

ص: ٨٥

١- (١) سند الخطبه: وردت عدّه مصادر ذكرت هذا الكلام ومنها الجزء الأول من أصول الكافى والجزء الأول من العقد الفريد والجزء الرابع من ربيع الأبرار واختصاص الشيخ المفيد وتلييس إبليس لابن الجوزى وقوت القلوب لأبى طالب المكى (ورد جانب من هذه الخطبه فى بعض هذه الكتب). وقد التفت لهذه الخطبه العديد من العلماء وذكروها فى كتبهم لما تضمنته من جوانب تاريخيه وأخلاقيه وتربويه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٠٨).

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجُ؟ وَبَلَىٰ إِنَّ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ: تَقْرَىٰ فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطَلِّعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ.

الشرح والتفسير: الدار الواسعه

رغم أن هذا الكلام ورد في قضية شخصيه بشأن اثنين من أصحاب الإمام عليه السلام لكنه في الواقع مبدأ كلي وخطه عامه في ضروره الاعتدال في الاستعانه بالوسائل المعاشيه، والأمة الإسلاميه طيله التاريخ مشموله بهذا الخطاب، فالإمام لما شاهد دار العلاء بن زياد الواسعه الفارهه والمؤثته بالتأكيد وبخه بادئ الأمر ثم نصحه مشفقاً فقال: «مَا كُنْتَ (١) تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجُ؟».

اعتاد الناس حين يعودون مريضاً على قول ما من شأنه إراحته والتخفيف عنه، إلما أن معلماً ربانياً كعلي عليه السلام حين يرى صاحبه طريح الفراش الذي ربّما لا يعاود النهوض منه لا بد أن يوقظه ويشدّه إلى مصيره ويريه سبيل السعاده ويجرعه مراره النصيح المصحوب بالعتاب، عله يتماثل للشفاء الحقيقي، ثم أراه اسلوب استغلال تلك الثروه الهائله لنيل سعاده الآخره فقال: «وَبَلَىٰ إِنَّ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ:

ص: ٨٧

١- (١). قال بعض شراح نهج البلاغه، إن الجملة «كنت» زائده هنا، والحال ليس الأمر كذلك، بل مراد الإمام عليه السلام منها بيان الاستمرار، لأن مفهوم العبارة ما الذي استفدته من هذه الدار وكانت لك لحد الآن.

تَقْرَى (١) فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطَلِّعُ (٢) مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ».

فقد أشار عليه السلام إلى حقيقته هي أنّ المال والثروة ليست مذمومة أو تتعارض مع القيم، بل المهم كيفية إنفاقها، فهي مذمومة إن أدت إلى الفخر والتكاثر والاحتكار.

لكنّها تعتبر رصيد الآخرة إن وضع قسم منها تحت تصرف المعوزين والقرايه والأصحاب، ومن هنا ذكر المال بصفه «خير» في القرآن: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ» (٣).

جاء في الخبر أنّ شخصاً ذم الأغنياء عند الإمام الصادق عليه السلام وأساء لهم فقال عليه السلام:

«أَسِيكْتُ فَإِنَّ الْعَنَى إِذَا كَانَ وَصُولًا لِرَحِمِهِ، بَارًا بِإِخْوَانِهِ أضعفَ اللهُ تَعَالَى لَهُ الْأَجْرَ ضِعْفَيْنِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ» (٤).

وعليه فإنّ المال من شأنه أن يكون أفضل وسيله للسعادة إن استغل بصورة صحيحة، كما يمكن أن يكون وسيله للبؤس والشقاء إن اقترن بالبخل والإسراف والإحتكار.

تأمل: الدار الواسعه فى الروايات

يستفاد من عدّه روايات أنّ إحدى علامات سعادته الإنسان، الدار الواسعه «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، الْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ» (٥).

ووردت فى ذلك الباب من «الكافى» سبع روايات بهذا المضمون أو ما يقرب منه

ص: ٨٨

١- (١). «تقرى» من «قراء» على وزن «عباء» خدمه الضيف.

٢- (٢) «تطلع» من «الطلع» بمعنى الظهور والبروز وتعنى الاظهار من باب الإفعال.

٣- (٣) سورة البقره، الآيه ١٨٠.

٤- (٤) تفسير القمى، ج ٢، ص ٢٠٣؛ وسائل الشيعه، ج ٩، ص ٤٧٦، ح ١٢٥٣٣.

٥- (٥) الكافى، ج ٦، ص ٥٢٦، ح ٧ (باب سعه المنزل).

عن المعصومين عليهم السلام، وأورد المرحوم العلامة المجلسي في الجزء ٧٣ من «بحار الأنوار» عدّه روايات بهذا الخصوص منها ما روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه اشترى داراً لأحد أصحابه وأشار عليه بالانتقال إليه كون داره صغيره، فقال: إنّ والده اشترى تلك الدار (وأنا اتبعه) فقال عليه السلام: «إِنَّ أَبَاكَ كَانَ جَاهِلًا فَهَلْ تَكُونُ كَأَبِيكَ» (١).

طبعاً هذه الروايات لا تعنى أن يتجاوز الإنسان حاله الاعتدال ويقبل على الإسراف، بل تشير إلى ضرورة عدم قناعه الإنسان بالدار الضيقه والصغيره ذريعه لترك صلّه الرحم وعدم استقبال الضيوف. يقال: إن قصدنا دار الأرحام فسيأتون إلى دارنا وهى صغيره، ومن هنا يتحفظون عن استقبال الضيف أساس الخير والبركه، وإنّ أحد أسباب شيوع ثقافه الدور الصغيره فى عصرنا بغض النظر عن المشاكل المالىّه يتمثل فى هيمنه الثقافه الغربيه الخاليه من العواطف الإنسانيّه والتي لا- تقيم وزنا لصله الرحم ولا- إقراء الضيف.

ص: ٨٩

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٥٣، ح ٣٠.

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخى عاصم بن زياد. قال:

وَمَا لَهُ؟ قال: لِبِسِ الْعِبَاءَةَ وَتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا. قال: عَلَيَّ بِهِ. فَلَمَّا جَاءَ قال:

يَا عُدَيُّ نَفْسِهِ! لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَيْثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ! أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ!

قال: يا أمير المؤمنين، هذا أَنْتَ فِي خُشُونِهِ مَلْبِسِكِ وَجُشُونِهِ مَا كَلِكِ!

قال: وَيَحْكُ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَيَّ أَيْمَةَ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفِهِ النَّاسِ، كَيْلًا يَتَّبِعَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ!

الشرح والتفسير: ذم الهروب من الدنيا

لما وعظ الإمام عليه السلام العلاء بن زياد، عرض العلاء قضية أخيه الذي اختار طريقاً مغايراً له، «فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخى عاصم بن زياد. قال:

وما له؟ قال: لِبِسِ الْعِبَاءَةَ وَتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا. قال: عَلَيَّ بِهِ». «فَلَمَّا جَاءَ قال: يَا عُدَيُّ نَفْسِهِ! لَقَدْ اسْتَهَامَ (١) بِكَ الْخَيْثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ!».

«عدى» تصغير «عدو» وأراد الإمام عليه السلام بهذه الوسيلة أن يحفز له لخروجه من مسار الاعتدال من جهة ويعتبر عمله عدواناً على نفسه من جهة أخرى، ثم يتعرض لهذه القضية فيبين له أن أعمالك إنما تنطلق من وساوس الشيطان بالاضافة إلى

١- (١) «استهام» من مادة «هيم» على وزن «غيم» الحيره والاضطراب والسير نحو العتب و «استهام بك الخيث» أضلك الشيطان.

هوى النفس والتي تؤدي إلى نوع من الازدواجيه والارباك فى المعيشه.

ثم ذكره عليه السلام بأنك تظلم أهل بيتك فضلاً عن نفسك دون حجه أو دليل، والسبب وراء كل هذا التقرير المكرر رفض الإسلام للرهبنه ونسيان الدنيا بهذا الشكل والاقبال على العباده ولا يرى ذلك سوى انحراف عن جاده الصواب كما سيرد تفصيل ذلك.

ثم قال: «أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ!».

هذا الكلام فى الواقع إشاره إلى دليل لطيف وهو: أنك اعتمدت طريقه ظاناً استنادها لأمر الله، فى حين أحلّ القرآن صراحه الطيبات والثياب الطاهره والأطعمه للجميع «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

الجملة «أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ!» ربّما إشاره إلى أنّ هؤلاء الأفراد الذين يعيشون حياه خاصه ويعتزلون المجتمع الإسلامى، يرون أنّهم مميزون للغايه ويظنون أنّ الاعتزال والإرتياض يميزهم عن الآخرين وكأنّ الله شرع منهاجاً خاصاً، إنّك أهون على الله.

أراد عاصم أن يبرر وضعه: «قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت فى خُشُونِهِ مَلْبَسِكِ وَجُشُوبِهِ (٢) مَا كَلِمَتِكَ!».

فردّ عليه الإمام عليه السلام قائلاً: «وَيُحَكِّكُ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَيْمِهِ الْعَيْدِلِ أَنْ يُتَعَدَّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفِهِ النَّاسِ، كَيْلًا يَتَّبِعُ (٣) بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ!».

وعلى ضوء هذا المنطق فإنّ عامه الناس أحرار فى التمتع بلذات الحياه باعتدال

ص: ٩٢

١- (١) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

٢- (٢) «جشوبه» الخشونه من ماده «جشب» على وزن «جسب» ويقال للخبز دون غيره «جشب».

٣- (٣) «يتبيع» من ماده «بيع» على وزن «بيع» يهيج، ويأتى أحياناً بمعنى الكثره والمعنى الأوّل هو المراد فى العبارة.

وبعيداً عن الإسراف والتبذير، أمّا أئمة الدين فلا بدّ أن يقنعوا بالحياه المتواضعة على غرار ضعفاء المجتمع ليواسوا الطبقات الفقيره والمحرومه كيلا يشعروا بالهم والأسى.

قال ابن أبي الحديد: فما قام على عليه السلام حتى نزع عاصم العباءه، ولبس ملاءه.

وأكد ابن أبي الحديد أنّ موضوع البحث الأصلي لم يكن العلاء بن زياد، بل شخص معروف هو الربيع بن زياد، والربيع بن زياد هو الذى افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر: دلونى على رجل إذا كان فى القوم أميراً فكأنه ليس بأمير، وإذا كان فى القوم ليس بأمير فكأنه الأمير بعينه! وكان خبيراً متواضعاً، وهو صاحب الوقعه مع عمر لما أحضر العمال فتوحش له الربيع، وتكشف وأكل معه الجشب من الطعام، فأقره على عمله، وصرّف الباقيّن، وقد ذكرنا هذه الحكايه فيما تقدم.

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعه من خراسان: أنّ أمير المؤمنين معاويه كتب إلّى يأمرك أن تحرز الصفراء والبيضاء وتقسم الخرثى وما أشبهه على أهل الحرب.

فقال له الربيع: إنّى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين (يعنى لابدّ من تقسيم الغنائم مثل رسول الله وعلى)، ثم نادى فى الناس: أن اغدوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين، ثم دعا الله أن يميته، فما جمع حتى مات يوم الجمعة(١).

تأملات

١. ذم عموم الافراط والتفريط

الأئمة الإسلاميه أئمه معتدله والمسلمون أتباع الإسلام والقرآن بعيدون عن مطلق الافراط والتفريط: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»(٢).

ص: ٩٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٣٦ و ٣٧.

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ١٤٣.

لكن المؤسف أنّ بعض الجهّال أو المغرضين والمعارضين للإسلام يعتمدون الإفراط والتفريط ويسعون أحياناً لمنحه صيغه إسلاميه.

والبعض وعلى ضوء أن الإسلام أباح الطيبات، فقد أقبل على الكماليات، ويستدل أحياناً بحياه سليمان وفخامه ملكه التي تحدث عنها القرآن.

والبعض الآخر سلك سبيل التفريط فأغلق الأبواب بوجهه وآثر العزله والتفوق وحرّم على نفسه الطيبات المحلله، وقد ابتعد الفريقان عن الصراط المستقيم حيث صرح القرآن بأن علماء بنى اسرائيل قالوا لقارون: «وَأَبْتِغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ» (١).

والحق لو إمتثل قارون وأمثاله هذه المواعظ الاربع ولم ينس نصيبه من الدنيا وجعل رصيده المادى وسيله لنيل سعادته الآخرة وهب لمعونه المستضعفين بدل الافساد فى الأرض، لما طاله قط الغضب الربانى.

وفى حديث معروف عن الباقر عليه السلام قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ» (٢).

٢. التصوف ونتائجه

اعتقد بأنّ بعض الأفراد فى اليونان والهند منذ آلاف السنين أنّه بإمكانهم الإتيان بالخوارق أو نيل المراتب المعنويه من خلال الإرتياض والتشدد على النفس فى الملهذات والأطعمه والأشربه والملبس، كونهم يعتقدون أنّ ترك اللذنه سبب قوه النفس وقدرتها.

وحين انتشر الإسلام تسلمت إليه هذه الأفكار من سائر البلدان فخلطه البعض بالزهد وبعض التعاليم الإسلاميه فحملوا الدين أفكاراً منحرفه وشاذه كانت نتيجتها

ص: ٩٤

١- (١) سورة القصص، الآية ٧٧.

٢- (٢) وسائل الشيعه، ج ١٧، ص ٧٦، كتاب التجاره، ابواب مقدّماتها، باب ٢٨، ح ١.

«التصوف» ولعل الاسم يعود إلى أنهم لبسوا في البدايه الثياب الصوفيه الخشنه، رغم ما يزعمه بعض المتصوفه من أن ماده هذه المفرده هي الصفاء «صفاء النفس» والحال ليس هنالك أدنى صله بين هذين اللفظين، فأحدهما أجوف واوى والآخر ناقص واوى، كما وقع فى هذا الخطأ من ذهب إلى أنها مشتقه من مفرده «أصحاب الصفه» فصفه من ماده صفف «يعنى مضاعف» وصوفى من ماده «صوف» وعليه فهذه المفرده لا تعنى سوى لبس الصوف قطعاً.

على كل حال، لهذه الفرقة زعامات يطلق عليهم القطب والشيخ والمرشد وأمثال ذلك ويدعون أن لهم كرامات، وقد انقسموا فئات لكل فئه طريقته وأسلوبها على أثر الاختلافات الداخليه وأهواء الأقطاب، فهذه الفرقة تنظر إلى الأحكام الدينيه التى تصطلح عليها بالشريفه أنها قابله للتوجيه والتغيير، والمحور هو السير الباطنى الذى يسمونه (الطريقه)، ومن هنا فهى ترتكب العديد من الذنوب وتفسح المجال لاتباعها لانتهاك الأحكام الشرعيه، بعبارة أخرى، تؤمن بأن الشريعة قشر والطريقه لب، والحقيقه «لب اللب».

وعلى هذا الأساس فهى تستقطب الفاسدين والمفسدين والمتهتكين من الأفراد وتعد حفلات الرقص وتناول المخدرات، وتصر من الناحيه العقائديه على «وحده الوجود» بمعنى «وحده الوجود» فيدعى أغلب زعمائها بين الفينه والأخرى اتحاد الوجودى بالله، ويصطلحون على هذا الكلام الهجين بالشطحيات، يبدو أن هذه الفرقة ظهرت بالتدريج بين المسلمين منذ القرن الهجرى الثانى فأنكر عليها ذلك بشده أئمه أهل البيت عليهم السلام وحذروا المسلمين منهم وربما شده تقريع الإمام عليه السلام لعمل عاصم بن زياد رؤيته عليه السلام أن ذلك مقدمه لظهور تلك الفئه فى المستقبل.

ورد أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأل: ما تقول فى الصوفيه التى ظهرت فى زماننا، قال:

«إِنَّهُمْ أَعْدَاؤُنَا فَمَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فَهُوَ مِنْهُمْ وَيُحْشَرُ مَعَهُمْ وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَدْعُونَ

حُبْنَا وَيَمِيلُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ وَيُلَقَّبُونَ أَنْفُسَهُمْ بِلِقَبِهِمْ، وَيَأْوِلُونَ أَقْوَالَهُمْ أَلَا- فَمَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فَلَيْسَ مِنَّا وَإِنَّا مِنْهُ بَرَاءٌ وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ كَانَ كَمَنْ جَاهَدَ الْكُفَّارَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»(١).

وروى البنزطي وإسماعيل عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ ذَكَرَ عِنْدَهُ الصُّوفِيَّةَ وَلَمْ يُنْكِرْهُمْ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ فَكَأَنَّمَا جَاهَدَ الْكُفَّارَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ»(٢).

تنطوى جميع الفرق الصوفيه على انحرافات فى القضايا العقائديه والفقهيه والأخلاقية نوجز بعضها:

١. حيث يرون أنهم أهل الطريقة يعتقدون بأن الطريقة الكامنه فى مسار الحقيقه وأحكام الشريعة مقدمه فى الوصول إلى الطريقه والحقيقه، ولا يولون أهميه للمسائل الشرعيه ويتخلون عن أكثرها من خلال بعض الحجج والاعذار الواهيه.
٢. الوقوع غالباً فى مطب التفسير بالرأى للكتاب والسنة فيحملون الكتاب والسنة آراءهم ويجيزون لأتباعهم مقارفة بعض الذنوب.
٣. يؤمنون بلزوم طاعة القطب والمرشد وينسبون لأقطابهم العديد من الكرامات الموضوعه التى تفوق أحياناً معاجز الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ومن هنا ينتهى بعض أتباعهم إلى الشرك فىرى القطب والمرشد كالمعبود فيعبده.
٤. ابتدعوا الكثير فى الدين ولكل فرقه بدعتها من قبيل كيفيه مجالس الأذكار والأوراد وسائر المجالس ومن هنا قلما يحضرون المساجد، فقد أقاموا لهم مراكز عباديه ليكونوا أحراراً فى الإتيان بأعمالهم.
٥. يؤمن أغلبهم بالتعدديه وكل دين سبيل إلى الله ولا يرون كساد متاع الكفر والدين.

ص: ٩٤

١- (١) مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٣٢٣، ح ١٤٢٠٥.

٢- (٢) سفينه البحار، ماده «صوف».

٦. من أهم انحرافاتهم، الإيمان بوحده الوجود بمعنى وحده الموجود، حيث يرون مجموعه موجودات العالم شيئاً واللّه عين ذلك الشيء ومن هنا يرون عباده الأصنام نوعاً من عباده اللّه شريطه عدم تحديد اللّه في ذلك الصنم.

وقد ألفت عدّه كتب من قبل الأعلام والمحققين بشأن انحرافاتهم، وما ورد آنفاً مجرّد إشارة (١).

القضية الأخرى الجديده بالذكر أنّ التصوف باهت في وسط اتباع أهل البيت عليهم السلام وواسع للغاية في وسط أبناء العامّة وينشط العديد من فئات هذه الفرقة وبعقائد مختلفه في البلدان الإسلاميّه.

والعنصر الرئيسي في هذا الفارق، الإيمان بولايه أهل البيت عليهم السلام ولاسيما الإيمان بوجود المهدي عليه السلام.

وهناك جذور تاريخيه واجتماعيه مختلفه للتصوف واعتناقه ومنها:

١. هوّل خلفاء بني العباس قضيه التصوف بهدف صرف الأنظار عن أهل البيت عليهم السلام الذين يرونهم منافسيهم الحقيقيين للتقليل من أهميه زهد أهل البيت عليهم السلام وكراماتهم من خلال أدعياء الصوفيه وحيث إنّ الصوفيه تؤمن بالسير الباطني فهي لا تهدد دنيا المتهاوتين عليها، كما حظيت بدعم السياسات المستبده في عصرنا، كونها تمنع اتباعها من التدخل في السياسه وتعبّد الطريق للاستعمار والاستبداد.

٢. الوصول إلى المقامات العرفانيه الصوفيه - على العكس من بلوغ المقامات العلميه والفقيهيه كما يعتقدون بأنّ من ارتاض أربعين يوماً وداوم على قراءه بعض الأوراد وإن كان امياً ربّما يتحوّل إلى ولي من أولياء اللّه وينال مقامات رفيه، بينما لا تكفي أحياناً أربعين سنه من الجهد لبلوغ المقامات العلميه الرفيعه.

ص: ٩٧

١- (١) انظر كتاب: «تجلى الحق» للمؤلف وكتاب «ما يقول العارف والصوفي» لآيه الله الميرزا جواد الطهراني رحمه الله وكتاب «التعليم والتربيه في الإسلام» للشهيد العلامه مرتضى المطهرى رحمه الله وشرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي رحمه الله «منهاج البراعه» ج ١٣ (ذيل هذه الخطبه) من ص ١٣٢.

٣. بما أنهم ينظرون إلى الشريعة كوسيله بسيطه ويفسحون المجال عملياً لأتباعهم لمخالفه بعض الأحكام الشرعيه فإن أغلب الآثمين والمذنبين والساسه المحترفين الظلمه يتعاطفون معهم بغير حساب، أى أنهم يواصلون ظلمهم وإثمهم، كما يشبعون بصوره كاذبه حسهم الدينى، بعباره أخرى أن تساهلهم فى أمور الدين وتركهم أى حزم يؤدى إلى التحاق الأفراد بهم.

قال أحد الفضلاء: لما القى القبض علىّ فى عهد النظام المباد وحملت إلى رئيس جهاز السافاك فى طهران قال لى: سمعت أنّك رجل متدين وعالم، لكن قطعاً لست أقل منك تديناً فأنا درويش وأهج بذكر على ويعطينى كل ما سألته، مع ذلك لا أطيق تحمل معارضه الشاه ولا أتردد فى قتل مليون شخص دفاعاً عنه.

ثم قال ذلك الفاضل: أدركت أنّ التصوف والدروشه تبيح حتى قتل مليون برىء دفاعاً عن الظالمين.

٣. الانتفاع بالطيبات

يعتقد البعض أنّ الزهد يناقض الانتفاع بالنعم الدنيويه وأنّ الإسلام يعتبر التشدد على النفس والإرتياض وهجران لذائذ الدنيا حسناً، والحال ليس الأمر كذلك، وكما أشرنا سابقاً فقد قال تعالى فى القرآن: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

وقال تعالى فى موضع آخر شارحاً أهداف البعثه النبويه وتعاليمها: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢).

ص: ٩٨

١- (١) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

٢- (٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

وهنالک العديد من الآيات والروایات التي لا یسمح المقام ذکرها، لكن لا بأس بذكر موردين:

أحدهما: ما ورد في هذه الخطبه من ضروره عيش أئمه العدل المعيشه المتواضعه ومواساه الطبقات الاجتماعيه المحرومه بغيه ذكرها والعمل على إزاله حرمانها إلى جانب كونها تضامن مع هذه الطبقات.

والآخر: ضروره القناعه بالقليل وبذل الكثير لإنقاذ المحرومين حين يتعرضون لبعض الأزمات الاجتماعيه ويعانون من الضغوط.

وزيده الكلام الذي يفهم من الروایات أن الانتفاع بنعم الله ضمن الحدود المعقوله والبعيده عن الإسراف والتبذير ليس مذموماً وتركها لا يعد فضيله وإن كان تواضع العيش سيما حين فقر البعض وكذلك بالنسبه لأئمه العدل وزعماء المسلمين يعتبر فضيله.

وَقَدْ سَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ أَحَادِيثِ الْبِدْعِ، وَعَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ

مِنْ اخْتِلَافِ الْخَبْرِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (١)

نظره إلى الخطبه

تشتمل هذه الخطبه التي تتحدّث عن أقسام الحديث والرواه على ثلاثه أقسام:

القسم الأول: خاض فيه الإمام عليه السلام ببيان أقسام الأحاديث التي في أيدي الناس، وقال بينها حق وباطل وناسخ ومنسوخ و... ثم أشار إلى عقاب وضاع الأحاديث وبشرهم بنار جهنم على ضوء الحديث النبوي الشريف.

وذكر في القسم الثاني صفات رواه الحديث فصنفهم أربعة أصناف: المنافقين والخاطئين والجاهلين والحفظة الصادقين.

وخاض في القسم الثالث والأخير في بعض خصائص أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأشار

ص: ١٠١

١- (١) سند الخطبه: ذكر صاحب «مصادر نهج البلاغه» أنّ هذا الكلام ورد بسند تام أو مرسل في أغلب المصادر قبل «نهج البلاغه» ومنها كتاب «الكافي» و «تحف العقول» و «الخصال» للصدوق و «الغيبه» للنعمانى (الكافي، ج ١، ص ٦٢، ح ١؛ تحف العقول، ص ١٩٣؛ الخصال، ص ٢٥٥، ح ١٣١؛ الغيبه للنعمانى، ص ٨١، ح ١٠) وسائر الكتب وبعد السيد الرضى ونهج البلاغه كالتذكرة لسبط ابن الجوزى و «الاحتجاج» للطبرسى و «أربعين الشيخ البهائى» (تذكرة الخواص، ص ١٣٣؛ الاحتجاج، ج ١، ص ٢٩٣؛ أربعين البهائى، ص ٢٨٩). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١١٥).

إلى كيفية فهمها، واختتمها بالإشارة إلى وعيه التام لأحاديث النبي صلى الله عليه وآله، جدير ذكره أنه ورد في «الكافي» بشأن هذه الخطبة:

عن سليم بن قيس الهلالي قال: قلت لأmir المؤمنين عليه السلام: إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تخالفوهم فيها، وتزعمون أن ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين ويفسرون القرآن بأرائهم؟ قال: فأقبل عليّ وقال: قد سألت فافهم الجواب، وذكر الخطبة عن عليه السلام مع شيء من الإضافات (1).

ص: ١٠٢

١- (١) الكافي، ج ١، ص ٦٢.

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَصِدْقًا وَكَذِبًا، وَنَاسِيحًا وَمُنْسُوخًا، وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَحِفْظًا وَوَهْمًا، وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيبًا، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

الشرح والتفسير: نقد الروايات

منعت الخلافة عقب وفاه النبي صلى الله عليه وآله لمدته طويله (أكثر من ١٠٠ سنة) تدوين السننه لأسباب سترد في محلها، مع ذلك كانت الألسن تتناقل أخبار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فكانت تنسب له صلى الله عليه وآله بعض الأخبار المتناقضة، واستغل المنافقون والأعداء الخفيون والظاهرون تلك الظروف الذهبيه فحاكوا بعض الأكاذيب لصالحهم أو لصالح زعمائهم ونسبوا للنبي صلى الله عليه وآله، وإن قام البعض في القرون اللاحقه لتهذيب الأخبار ووضع معايير الصدق والكذب فانتعش تأليف كتب الحديث والرجال، لكن كما قيل فإن منع الكتابه حال دون تدوين الأحاديث.

فقد بين عليه السلام بعبارات قصيره بليغه وعلى وجه الدقه منبع اختلاف الأخبار ليوجزه بسته أمور فقال: «إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَصِدْقًا وَكَذِبًا، وَنَاسِيحًا وَمُنْسُوخًا، وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَحِفْظًا وَوَهْمًا».

فأشار عليه السلام أولاً إلى السبب الأصلي المتمثل بوجود الحق والباطل التي ربّما تشير إلى عقيدته الحق والباطل، فأهل الحق يتابعون أحاديث الحق وأهل الباطل يروّجون للباطل.

والصدق والكذب الذى يمثّل نوعاً آخر للحق والباطل بلباس القول هو عامل آخر.

فالكاذبون وضعوا عمداً بعض الأخبار المختلفه ونسبوا للنبي صلى الله عليه وآله وكانوا يتلقون أحياناً أموالاً باهضة من الحكام مثل معاوية وهو السبب الثانى، والسبب الثالث الناسخ والمنسوخ، فالبعض سمع حكم المنسوخ فقط ورواه والبعض الآخر سمع الناسخ ورواه.

والسبب الرابع العام والخاص مثلاً. سمع البعض أنّ الله أحلّ للناس المعاملات لكنه لم يسمع الحكم الخاص، أى بعض الاستثناءات، والبعض الآخر روى الاستثناء والذى يتناقض ظاهرياً مع الخبر العام.

المحكم والمتشابه هو السبب الخامس: فبعض الأخبار مثل بعض آيات القرآن تتحمل عدّه وجوه فى التفسير ثم ترد لاحقاً بعض الأخبار وتزيل الابهام، وعدم اطلاع الرواه على الحالتين أدى إلى الاختلاف فى الروايه.

السبب السادس: الحفظ والوهم فبعض الرواه روى حديث النبى صلى الله عليه وآله بدقه تامه، بينما رواها البعض الآخر على أساس الظن والوهم الذى لا- يطابق الواقع، هذه هى الأسباب التى تشابكت مع بعضها وعكرت أجواء الروايات الإسلاميه، ثم بدأت هذه الأجواء تظهر فى ظل جهود علماء الحديث والرجال وإن ترسبت بعض الروايات الموضوعه.

ثم خاض عليه السلام فى ذكر دليل واضح على كلامه فقال: «وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَمَّا وَعَدَ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا (١) مَقْعَدَهُ (٢) مِنَ النَّارِ».

ورد فى حديث آخر أنه صلى الله عليه وآله قال: «قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكُذَابُ وَسَتَكُثُرُ بَعْدِي أَلْفَمَنْ

ص: ١٠٤

١- (١) . «فليتبعوا» من «بواء» على وزن «دواء» الرجوع والاطراق ويقال للموضع المستوى والمكان، والمعنى فليتهيا ويسكن.

٢- (٢) «مقعد» المكان والمحل وموضع الجلوس ويطلق أيضاً على الوساده الصغيره.

كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

وقد ورد هذا الحديث في مصادر العامّة، ومنها «مستدرک الحاكم» و «سنن ابن ماجه» مع اختلاف طفيف(٢).

وأكد أغلب الشراح أنّ هذا الحديث يجعلنا نوقن بالكذب على النبي صلى الله عليه وآله لأنّ هذا الحديث إن صدق فمعناه كثره الكذب على النبي صلى الله عليه وآله حتى خطب المسلمين واعدوا الوضاعين بنار جهنم، وإن كان الحديث كاذباً فعلى الأقل أنّ هذا من الكذب الذى نسب للنبي صلى الله عليه وآله.

على كلّ حال، ممّا لا شك فيه أنّ بعض المنافقين والأعداء شهدوا عصر النبي صلى الله عليه وآله وقد أشار إليهم القرآن فى عدّه سور، وقد اشتد خط النفاق عقب رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله؛ حيث كان هؤلاء أحد أسباب وضع الأحاديث، وطائفه أخرى خاضت فى الوضع لجهلها بالناسخ والمنسوخ وعدم تمييزها بين المحكم والمتشابه والعام والخاص وهذا ما عكر صفو الأحاديث، واضطر علماء الحديث والرجال لبذل جهودهم ليعينوا معايير الحديث ويميزوا الصحيح من السقيم، وهذا ما سنشير له فى ختام الخطبه.

ص: ١٠٥

١- (١) الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٤٦.

٢- (٢) مستدرک الحاكم، ج ١، ص ١١١ و ١١٣؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ١٤.

وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَهُ رِجَالٌ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُتَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ، مُتَصَيِّعٌ بِالْإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُتَعَمِّدًا، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُتَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَيِّدُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَّيْفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَيْمَةِ الضَّلَالَةِ، وَالِدُّعَاهُ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالِدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ، فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ.

الشرح والتفسير: وضع المنافقين للحديث

كان ما مضى إشاره إجمالية عميقة المعنى لمختلف العناصر التي تقف وراء اختلاف وتعارض أحاديث النبي صلى الله عليه وآله، وقد خاض الإمام عليه السلام هنا في شرح ذلك الكلام فقسّم الرواه إلى أربعة أصناف وشخص موقف كل صنف بصوره دقيقه.

والمواقع أنّ الإمام عليه السلام اعتمد في هذه الخطبه أحد فنون الفصاحه والبلاغه الذى يتمثل فى اسلوب الإجمال والتفصيل والذى ورد كراراً فى القرآن ليضع مخاطبيه بدقه فى واقع الحدث، حيث خاطب عليه السلام السائل الذى استهل به الخطبه - وإن كان الخطاب للجميع - فقال: «وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَهُ رِجَالٌ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ».

ثم تحدث الإمام عليه السلام عن الطائفة الأولى بصفته العامل الأصلي للاختلاف فقال:

«رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَّصِعٌ (١) بِالإِسْلَامِ، لَا يَتَأْتِمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ (٢)، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُتَعَمِّدًا».

هَبَّ الأَعْدَاءَ لِمَوَاجِهَةِ الإِسْلَامِ عِلَانِيَةً حِينَ لَمْ يَكُنْ يَتَمَتَّعُ بِالقَدْرَةِ الكَافِيَةِ غَيْرَ أَنَّهُمْ هَزَمُوا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَسَيَطَرِهِ الإِسْلَامِ، فَارْتَدَوْا - كَسَائِرِ المَجْتَمَعَاتِ البَشَرِيَّةِ - ثِيَابَ النِّفَاقِ فَالتَحَقُّوا ظَاهِرِيًّا بِصَفُوفِ المُسْلِمِينَ وَانْهَمَكُوا بَاطِنِيًّا بِأَعْمَالِهِمُ التَّخْرِيْبِيَّةِ، وَكَانَتْ إِحْدَى طَرَفِهِمُ التَّخْرِيْبِيَّةَ المَهْمَمَةَ أَنْ يَكْسُوا أَهْدَافَهُمْ ثِيَابَ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِيَحْرَفُوا المُسْلِمِينَ وَيَحْقُقُوا اغْرَاضَهُمْ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ - الَّذِينَ يَثْقُونَ بِالمَقَابِلِ - يَسْمَعُونَ كَلَامَهُمْ كَوْنَهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَعَاشَ المَجْتَمَعُ الإِسْلَامِيَّ مُشْكَلَةً كَبْرَى - وَلِحَسَنِ الحِظِّ فَقَدْ أَفْرَطَ هُوَلاءُ فِي وَضْعِ الرِّوَايَاتِ لِصَالِحِ الحُكَّامِ الظُّلْمَةَ كَمَعَاوِيَةَ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْ أَغْلَبَ النِّاسِ يَقْفُونَ عَلَى دَجْلِهِمْ وَسَتَابِعَ فِي مَبْحَثِ التَّأْمَلَاتِ بَعْضَ النَّمَاذِجِ.

ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَيِّدُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ (٣) عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ».

يَبْدُو أَنَّ أَحَدَ أُسَالِيبِ المُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ اسْبَغُوا قَدْسِيَهُ عَلَى الصَّحَابَةِ وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا مُؤْمِنُونَ صِلِحَاءَ وَمُقَدَّسُونَ لِيَنْفَعُوا مِنْ ذَلِكَ لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهِمْ (وَسَتَعْرَضُ لِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ).

ثم استشهد عليه السلام بالقرآن على صحه كلامه بحيث لا يبقى من مجال للشك في أذهان مخاطبيه فقال: «وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ المُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ».

ص: ١٠٨

١- (١). «مُتَّصِعٌ» مِنْ مَادَةِ «صَنَعَ» عَلَى وَزْنِ «رُمِحَ» مِنْ يَحْسُنُ ظَاهِرُهُ وَيَبْدَى السِّيِّ حَسَنًا.

٢- (٢) «يَتَحَرَّجُ» مِنْ مَادَةِ «حَرَجَ» الخَشِيهِ مِنَ الوُقُوعِ فِي الذَّنْبِ، بَابُ تَفْعَلُ.

٣- (٣). «لَقِفَ» مِنْ مَادَةِ «لَقَفَ» عَلَى وَزْنِ «وَقَفَ» أَخَذَ الشَّيْءَ بِسُرْعَةٍ وَتَنَاوَلَهُ.

وهذا الكلام إشاره إلى آيات كثيره وردت فى سورة (المنافقون)، التوبه، الأحزاب، النساء، البقره، وسائر السور القرآنيه وكشفت النقاب عن وضع المنافقين وفضحت أساليبهم وذكرت حيلهم ومصائدهم.

ثم قال عليه السلام: «ثُمَّ بَقُوا بَعِيدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَيَّ أُمَّهُ الضَّلَالَهُ، وَالِدُعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ (١) وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ». وكانت النتيجة كما خالص إليها الإمام عليه السلام «فأكلوا بهم الدنيا». والمراد من أئمة الضلاله والدعاه إلى النار بالدرجه الأولى، حكام بنى أميه الذين استهتروا بجميع شؤون الإسلام بما فيها أحاديث النبى صلى الله عليه وآله ليتأمروا على الناس، فكانت أفضل وسائلهم تسخير منافقى عصر النبى صلى الله عليه وآله واذنابهم لتحقيق أهدافهم، وهكذا تكدرت أجواء الأحاديث.

والمؤسف أن أغلب الناس لهثوا خلفهم معصوبى العيون حيث قال عليه السلام: «وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالِدُنِّيَا، إِلَّا مَنْ عَصَى اللَّهَ».

العبارة المعروفة «الناس على دين ملوكهم» وإن لم ترد بهذه الصيغه فى الروايات (٢) إلا أنها حقيقه ورد مضمونها فى الروايات وكلمات الأعلام حيث إن الطبقة الفاسده المفسده إذا وردت الميدان بخطه مدروسه ووسائل إعلاميه ودعائيه واسعه أمكنها خداع الرأى العام واستقطاب العديد من الناس ولا تقتصر هذه الحقيقه على التاريخ الماضى وصدر الإسلام بعد النبى صلى الله عليه وآله بل نلمسها اليوم فى أغلب البلدان المتقدمه، حيث استحوذ الطغاه على الشعوب وخدعوها وتلاعبوا بأفكارها من خلال الاستعانه بوسائل الاعلام ومعونه المنافقين، ثم اختتم عليه السلام هذا القسم بقوله «فهذا أحد الأربعة».

ص: ١٠٩

- ١- (١). «زور» تعنى فى الأصل الميل عن الوسط إلى الطرف ولذلك يطلق على الكذب لأنه انحراف عن الحق.
- ٢- (٢). ذكره والد المرحوم الشيخ البهائى فى كتاب «أصول الأخيار إلى أصول الأخبار»، ص ٣٠ بعنوان «المثل السائر» والمرحوم الملا صالح المازندراني فى «شرح أصول الكافى»، ج ١٢، ص ٥٦٠؛ ولكن قال فى كتاب «كشف الغمّه»، ج ٢، ص ٢٣٠ بعد ذكر هذه الجملة: «كما ورد فى الحديث والمثل».

١. المنافقون على عهد النبي صلى الله عليه وآله

يعلم من له إمام بالقرآن أنّ المنافقين ذُموا بشدّه في مختلف السور والآيات ليدل هذا على أنّ المنافقين لم يكونوا عدّه معدوده، وقد انطلقت خطتهم منذ قدم النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة واستقبل من قبل أكبر قبيلتين هما الأوس والخزرج وشكل الدوله الإسلاميه، وهى الفئه التى شعرت بخطوره مصالحها إبان ظهور الإسلام فأعلنت إسلامها فى حين كانت تكن العداء للنبي صلى الله عليه وآله والرساله.

ورغم سعيها الجاد للتخفى، غير أنّها كانت تفتضح فى الظروف العصبيه التى تشهد العواصف السياسيه والاجتماعيه، فتاره من خلال اعتزال القتال وأخرى ببناء مسجد ضرار، وأحياناً من خلال التجسس لصالح المشركين على هامش فتح مكه وأخرى عن طريق تهويل قضيه الإفك والتى كانت تكشف النقاب عن صورتهم الحقيقيه.

وقد اتسع نطاق النقاب عقب فتح مكه؛ فأبو سفيان عدو الإسلام الأوّل وأتباعه اعتنقوا الإسلام لإنقاذ حياتهم، لكنهم كانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليه.

٢. المنافقون بعد النبي صلى الله عليه وآله

فتح الباب على مصراعيه عقب وفاه النبي صلى الله عليه وآله و آله لاتساع أنشطه المنافقين، فلم يكن من يردعهم بعد انقطاع الوحي ووفاه النبي صلى الله عليه وآله ويحذر الناس منهم ويوجه لهم الضربه القاصمه كما يقول ابن أبى الحديد^(١) من جانب آخر فإنّ الفتوحات وكثره الغنائم شغلت أغلب المسلمين وجعلتهم يغفلون عن مؤامرات المنافقين، سيما أنّ أغلب المنافقين شغلوا مناصب حساسه فى البلاد الإسلاميه على عهد الخلفاء، وإحدى مؤامراتهم الخطيره وضع الروايات بما يناسب رغبه الخلفاء والتى بلغت ذروتها على عهد معاويه بغيه توجيه الضربه للإسلام من جهه والتقرب إلى الخلفاء

ص: ١١٠

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤١.

من جهه أخرى.

وقد وردت هذه القضية في أغلب المصادر حتى وصل الأمر بمعاويه أن يتواطأ مع بعض الصحابه، فمن وضع الروايه كذا فله كذا.

فعمد المنافقون أحياناً إلى تحريف الحديث النبوي، وتغيير مضمونه تماماً، كالحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِثْرَى فَاقْتُلُوهُ» (١).

قال الحسن البصرى قال أبو سعيد الخدرى: «فَلَمْ نَفْعَلْ وَلَمْ نَفْلَحْ» ولكن المنافقين الوضاعين حرّفوا الحديث بأنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِثْرَى فَاقْبَلُوهُ فَإِنَّهُ أَمِينٌ مَأْمُونٌ» (٢).

قال ابن أبي الحديد: وكتب معاويه إلى عماله في جميع الآفاق: أَلَّا يَجِيزُوا لِأَحَدٍ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ شَهَادَةً، وَكُتِبَ إِلَيْهِمْ: أَنْ انظُرُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ شِيعَةِ عَثْمَانَ وَمَحْبِيهِ وَأَهْلِ وِلَايَتِهِ، وَالَّذِينَ يَرَوْنَ فِضَائِلَهُ وَمُنَاقِبَهُ، فَادْنُوا مَجَالِسَهُمْ وَقَرِّبُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ، وَابْتَدُوا لِي بِكُلِّ مَا يَرَوِي كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَاسْمُهُ وَاسْمُ أَبِيهِ وَعَشِيرَتُهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، حَتَّى أَكْثَرُوا مِنْ فِضَائِلِ عَثْمَانَ وَمُنَاقِبِهِ، لِمَا كَانَ يَبْعَثُهُ إِلَيْهِمْ مُعَاوِيَةُ مِنَ الصَّلَاتِ وَالْكَسَاءِ وَالْقَطَائِعِ، وَيَفِيضُهُ فِي الْعَرَبِ مِنْهُمْ وَالْمَوَالِي، فَكَثُرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مِصْرٍ، وَتَنَافَسُوا فِي الْمَنَازِلِ وَالدُّنْيَا، فَلَيْسَ يَجِيءُ أَحَدٌ مَرْدُودٌ مِنَ النَّاسِ عَامِلًا مِنْ عَمَالِ مُعَاوِيَةَ، فَيُرَوِي فِي عَثْمَانَ فَضِيلَهُ أَوْ مُنْقِبَهُ إِلَّا كَتَبَ اسْمَهُ وَقَرَّبَهُ وَشَفَّعَهُ، فَلَبِثُوا بِذَلِكَ حِينًا، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عَمَالِهِ: إِنَّ الْحَدِيثَ فِي عَثْمَانَ قَدْ كَثُرَ وَفُشِيَ فِي كُلِّ مِصْرٍ وَفِي كُلِّ وَجْهِ وَنَاحِيَةٍ، فَإِذَا جَاءَ كُمْ كِتَابِي هَذَا فَادْعُوا النَّاسَ إِلَى الرَّوَايَةِ فِي فِضَائِلِ الصَّحَابَةِ وَالْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ وَلَا تَتْرَكُوا خَيْرًا يَرَوِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَبِي تَرَابٍ

ص: ١١١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٧٦.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٧، ص ٢١٢؛ تاريخ بغداد، ج ١، ص ٢٧٥. وأضاف الخطيب البغدادي بعد نقله لهذا الحديث: لم أجده إلا بسند واحد وأغلب رجال هذا السند مجهولون.

إلّا وتأتونى بمناقض له فى الصحابه، فإنّ هذا أحبّ إلّى وأقرّ لعينى، وأدحض لحجّه أبى تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله (١).

إلّا أنّ المحدثين إنّما يطعنون فيما دون الصحابه ولا يتجاسرون فى الطعن على أحد من الصحابه لأنّ عليه لفظ الصحبه (٢).

٣. عداله الصحابه

هناك رأيان مختلفان بشأن صحابه النّبى صلى الله عليه وآله: الرأى القائل: إنّهم أفراد صالحون وصادقون وعدول جميعاً ولهم قدسيه خاصه، وعليه فروايتهم عن النّبى صلى الله عليه وآله مقبوله ولا يرد عليها شىء، وإن بدر منهم خلاف من قبيل التصرفات الخاطئه للخليفه الثالث فى بيت المال وإثاره طلحه والزبير لفتنه الجمل وخروج معاويه على إمام المسلمين على عليه السلام وأمثال ذلك، فلا بدّ أن نبرره فنقول: أقصى ذلك أنّهم كانوا مجتهدين وأخطأوا فى الاجتهاد.

والرأى الآخر: رغم وجود العدول من بين الصحابه والأتقياء، لكن كان بينهم المنافق والطالح الذى تبرأ منه النّبى صلى الله عليه وآله وذمه القرآن كراراً حتى لعن البعض منهم، ولا يملك أصحاب نظريه التنزيه المطلق للصحابه من دليل، وكلماتهم تخالف صريح القرآن والتاريخ الإسلامى.

صحيح أنّ القرآن أشاد فى بعض آياته بالمهاجرين والأنصار (رضى الله عنهم ورضوا عنه) لكننا إن قارنا ذلك بسائر الآيات التى ذمت بعض الصحابه ووصفتهم بأنهم أدها بيد الشيطان (سوره آل عمران، الآيه ١٥٥) وعزّف بعضهم بالفسّاق (سوره حجرات، الآيه ٦) واعترض بعضهم فى تقسيم النّبى صلى الله عليه وآله للغنائم وأنّه لم يعمل بالعداله (سوره التوبه، الآيه ٥٨) وفرار البعض الآخر عن الجهاد (سوره الأحزاب،

ص: ١١٢

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤٤-٤٦.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٤٢.

الآيه ١٢ و ١٣) يتضح لنا أنّ نظريه تنزيه جميع الصحابه لا تعدو كونها خرافه وكان فئه من موالى الخلفاء عزفت على هذا الوتر بغيه قطع الألسن التي ربّما تنطلق بالاعتراض على أعمالهم ولاسيما حكام بنى أميه (معاويه وطائفه من رهطه الذين كانوا ظاهراً من الصحابه) تعصبوا لهذه النظرية أكثر من غيرهم ليبرروا من خلالها عظيم جنائياتهم، ولكن لحسن الحظ فإنّ محققى العامه أدركوا اليوم هذه الحقيقه فألّفوا العديد من الكتب فى تنفيذ نظريه التنزيه(١).

وخطبه الإمام عليه السلام هذه تدل أولاً: على إنّ هذه العقيدة (تنزيه الصحابه) كانت سائده لدى البعض على عهده فتزعم أنّ فلاناً صحابى وكلامه حجّه.

وثانياً: أنّ الإمام عليه السلام رفض تلك النظرية على أنّ من بين الصحابه منافقين تسللوا إلى الإسلام.

ص: ١١٣

١- (١) كان ممن انتقد هذه النظرية من علماء العامه «أحمد حسين يعقوب» فى كتاب نظريه عداله الصحابه و «الشيخ محمود أبوريه» فى كتاب شيخ المضيره، وأبوهريره.

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِبًا، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَزْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ!

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئًا يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

الشرح والتفسير: أحاديث الناسخ والمنسوخ

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى قسمين من أسباب اختلاف الأحاديث وتعارضها فقال:

«وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِبًا، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَزْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

فهذا الخطأ يعود تارة إلى التساهل والتسامح، وأخرى إلى الجهل بمفاهيم الألفاظ والعبارات، وأحياناً كون الإنسان ليس بمعصوم ويجوز عليه الخطأ والسهو والنسيان، ومهما كان السبب فالنتيجة واحدة وهي النقل الخاطيء للآخرين.

مثلاً- ورد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ لِيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ». فلما بلغ الحديث ابن عباس قال: أخطأ عبد الله في نقل الحديث، إنما مرَّ

النبي صلى الله عليه وآله بقبر يهودى فقال «إِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُعَذَّبُ» (١).

ومن هنا اشترط فى علم الدرايه ضبط الراوى فى قبول الحديث حيث ينبغى أن يكون ملماً عالمًا بالمطلب فيرويه صحيحاً.

القضية المهمه أيضاً أن أغلب الأعلام جَوَّزوا النقل بالمعنى، أى أن الراوى ليس ملزماً بروايه ذات ألفاظ، بل له صياغتها فى قالب آخر وبيرويهها، ونعلم أن هذا العمل ليس هيناً وربما يخطئ الراوى فى ذلك.

ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ!».

وعليه فليس للراوى تيه سيئه فى هذه الموارد وإن أخطأ فى فعله ولعله يضل الآخريين دون قصد، وأغلب هذه الأخطاء كون الراوى لم ينقل صدر الروايه وذيها فيتغير مفهومها.

مثلاً قال أحدهم للإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «إِنَّ النَّاسَ يَرَوُونَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ». فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَقَدْ أَسْقَطُوا صَدْرَ الْحَدِيثِ، إِنَّمَا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِرَجُلَيْنِ يَسِبُّ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فَيَقُولُ لَهُ: «قَبِّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ يُشَبِّهُكَ».

فقال صلى الله عليه وآله: «يَا عَزِيدُ اللَّهِ لَا تَقُلْ هَذَا لِأَخِيكَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» (٢)، أى على صورته أخيك هذا الذى أنت تسببه الآن.

ثم قال الإمام عليه السلام فى الطائفة الثالثه من الرواه: «وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمُنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ».

ص: ١١٦

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ٤٧.

٢- (٢) عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١١٠؛ بحار الأنوار، ج ٤، ص ١١.

مسأله النسخ من المسائل الإسلاميه التي حصلت بصيغته محدوده في أصل نزول القرآن، أي أنه نزل حكماً لزمان معين ثم أزيل ليحل محله حكم دائم، مثلاً، أمر المسلمون بادئ الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس في الصلاة واستمر هذا الأمر مدّه في مكه ثم المدينة وقد نسخ هذا الحكم لعله ربّما لأنّ الكعبه تحولت آنذاك إلى معبد للأصنام، ولكن حين رسخ النبي دعائم التوحيد أمر المسلمون في السنه الثانيه للهجره بالتوجه إلى الكعبه، وورد هذا المعنى في الأحاديث النبويه فكان النبي يبيّن حكماً هو في الواقع مؤقت ولكن لم يبيّن زمانه ثم ينسخ ذلك الحكم بحكم دائم، على سبيل المثال قال النبي: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ؛ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَرَّوْهُمَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ إِخْرَاجِ اللَّحْمِ الْأَضْحَى مِنْ مِني بَعْدَ ثَلَاثِ أَلَا فَكُلُوا وَادْخِرُوا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّيِّدِ أَلَا فَانْبُدُوا وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ» (١).

وعليه يسع نقل الأحاديث الصحيحه للنبي لمن له إحاطه تامه بكلّ الأحاديث فيعرف الناسخ والمنسوخ ويضع كلاً في محله، وموضوع العام والخاص كذلك حيث يقال أحياناً، حكم عام يشمل جميع الأفراد، مثلاً، قوله صلى الله عليه وآله: «التَّاسُ مُسَلِّطُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» (٢).

ثم يقول في موضع آخر: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْإِسْلَامِ» (٣).

فمن سمع الحكم العام ولم يعلم الخاص يبلغه الآخرين بما يناقض الحكم الخاص، بينما يعلم بعدم التناقض كلّ من سمعهما معاً، ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ».

ومن هنا فإنّ بعض اختلاف الأحاديث ناشيء من عدم الإحاطه بروايات الناسخ والمنسوخ دون سوء نية من الرواه.

ص: ١١٧

١- (١) المراد من النبيذ الحلال أنّ المسلمين لما دخلوا المدينة أصيب البعض لبروده الماء فأمر النبي أن يلقى في الظرف تمر لتزول بروده الماء ولم يكن بالمقدار الذي يحيله خمراً ومن هنا قال في ذيل الروايه: «وكل مسكر حرام».

٢- (٢) وسائل الشيعه، ج ١٠، باب ٤١ من أبواب الذبح، ح ٧.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٢، ح ٧.

رغم أنّ موارد النسخ في آيات القرآن وروايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله محدوده ومعدوده؛ إلّا أنّ لهذه المسألة أهمّيه خاصه؛ من حيث إرتباطها بالمسائل العقائديه والمسائل المتعلقة بالنبوه والأحكام.

يتساءل البعض: كيف يمكن أن يوحى الله للنبي حكماً ظاهره أبدى ودائمي؛ لكنه ينسخ بعد مدّه ويحلّ محلّه حكم آخر غالباً ما يناقضه، مع أنّ علم الله غير محدود وعلم النبي أيضاً يستند إلى الوحي؟ والنسخ كثير في الأحكام العرفيه والوضعيه وليس ذلك من العجب، لأنّه يدرس الأمور ويضع الأحكام؛ إلّا أنّ ضعفها وعجزها يتضح عند العمل فينسخها، ولو علم العيوب والمثالب منذ البدايه ربّما لم يضعها؛ إلّا أنّ هذا الأمر لا يصدق على الأحكام الشرعيّه، فما معنى النسخ فيها؟ يتضح الجواب عن هذا السؤال من الالتفات إلى نقطه وهي: أنّ النسخ في الأحكام الشرعيّه من حيث تغيير الموضوع؛ بعبارة أخرى أنّ عمر ذلك الحكم كان محدوداً منذ البدايه بزمان معين وإن لم يُشر إلى نفاذه لبعض المصالح.

مثلاً حكم التصدق قبل النجوى الوارده في الآيه ١٢-١٣ من سوره المجادله كان لاختبار أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وتفهم هذه القضية أنّ أغلب مناجاه الأفراد للنبي لم تكن ضروريه ولا بد من تركها حتى لا يكون هنالك اساءه ظن، ومن هنا لما أمر بالتصدق قبل النجوى تركه جميع الأصحاب سوى على عليه السلام الذي تصدق وناجى النبي في أمر مهم ليفخر بأنّه الوحيد الذي عمل بالآيه.

ثم نزلت بعد ذلك آيه نسخت التصدق قبل النجوى وعلم الجميع أنّ أغلب نجواهم لم تكن ضروريه فامتنعوا عنها، ومن هذا القبيل النسخ سواء في القرآن أو الحديث حيث يوضع حكم في ظروف معينه لمدّه معينه ثم ينسخ بعد تغيير الشرائط.

جدير ذكره أن النسخ حسب ما ورد هنا يقتصر على زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين فتح باب الوحي ولم يقع أى نسخ بعد النبي (١).

ص: ١١٩

١- (١) انظر المزيد فى النسخ، نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٣٩ و ٢٥٠ ذيل الخطبه الأولى وتفسير الأمتل، ج ١، ذيل الآيه ١٠٦ من سوره البقره، وأسهب من ذلك فى كتاب أنوار الأصول، ج ١، ص ١٧٧.

وَأَخْرَجَ رَابِعًا، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ يَهْمُ، بِلِ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوحَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلَامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيحْمَلُهُ السَّامِعُ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَضْيَاحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيَجُتَبُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِيءُ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِى مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتَهُ عَنْهُ وَحَفِظْتَهُ، فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ، وَعَلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ.

الشرح والتفسير: حفظه الحديث

تطرق الإمام عليه السلام هنا إلى الصنف الرابع من الرواه السالكين الصراط المستقيم وحمله أحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام الثقا والمبينين لأحكام الدين فقال:

«وَأَخْرَجَ رَابِعًا، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

وعليه تغيب فيهم أولى مناشيء تضاد الأخبار: الكذب على الله ورسوله ووضع الأحاديث، حيث إن مجانبه الكذب جزء من ذاتهم وخوف الله وتعظيم النبي بغض إلى نفوسهم الكذب.

ثم قال: «وَلَمْ يَهْمُ (١)، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ».

وهنا زال عنهم المصدر الآخر لاختلاف الأحاديث والذي يتمثل بتساهل الرواه، ثم بين عليه السلام صفه أخرى لرواه الصدق العارفين فقال: «فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمُنْسُوخَ فَجَنَّبَ (٢) عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحَكَّمَّ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ».

فهذه العبارة العميقة المعنى إشاره إلى الرواه الصادقين المحيطين إحاطه تامه بالأخبار المختلفه؛ ويعرفون الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمحكم والمتشابه، فيجعلون كلًا في موضعه لبيتعدوا عن التناقض والخطأ.

وكلام الإمام عليه السلام بشأن دراسته أساس اختلاف الأحاديث، ليس خاصاً يتعلق بالحديث فحسب، بل يعلمنا درساً أهم وأشمل فلا بد من التوجه إلى الأسس والتعرف على العوامل المؤثره فى السعى لإزالة المعوقات وإلا فإن كل إصلاح يبقى سطحياً وعابراً.

ثم أشار إلى سبب آخر لاختلاف الأحاديث والذي يكمل المباحث السابقه، وهو اختلاف استعداد الأصحاب فى تعلم الأحاديث وتفسيرها وفهم معناها فقال:

«وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلَامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَتِهِ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قَصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ».

ص: ١٢٢

١- (١). «لم يههم» من ماده «وهم» مطلق الخيال والظن وتعنى أحياناً الظن الباطل والخطأ وهذا هو المعنى المراد.
٢- (٢). «جَنَّبَ» من باب تفعيل وماده «جنب تعنى حسب بعض مصادر اللغة، الحفظ والإبعاد بالمعنى اللازم والمتعدى والمعنى الثانى هو المراد.

ليس المراد من الخاص والعام فى هذه العبارة، الخاص والعام الاصطلاحيان فى علم الفقه والأصول، بل المراد الخاص والعام اللغويان؛ أى الحكم الخاص بمورد معين والحكم العام، مثلاً- ورد فى بعض الروايات أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمر المسلمين فى السنة السابعة للهجرة بعد الحديبيه حين أتوا إلى مكة لإتيان مناسك الحج، أن يسرعوا فى الطواف حول البيت الحرام (ليشعر المشركون بالخوف من قوتهم وسرعه حركتهم) (١) والحال لم تكن سنه ثابتة ودائمه، وورد فى الكلمات القصار من «نهج البلاغه» أنه سئل الإمام عليه السلام عن حديث النبي صلى الله عليه وآله حين قال: «غَيَّرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ».

قال عليه السلام: «إنما قال ذلك (الحكم الخاص) والدين قُلِّ، أمّا الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرئ وما اختار» (٢).

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مشكله أخرى بشأن نقل الأحاديث وهى؛ «وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّىٰ إِنْ كَانُوا لَيَجِبُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ» (٣)، فَيَسْأَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ يَسْمَعُوا».

الظاهر أنّ هذه العبارة إشاره إلى الأصحاب الذين لم يكونوا من أهل التحقيق ولا- طرح الأسئلة المختلفه فى أصول الدين والفروع ومن هنا لم يقفوا على ناسخ ومنسوخ وعام وخاص ومحكم ومتشابه ومجمل ومبين، فلا- يسألون عنها ولا- يلمون بالمسائل ولكن إن جاء أحد وسأل وتلقى الجواب المطلوب تفاعلوا معه.

وقد فسّر بعض الشراح، العبارة المذكوره أنّ بعض الصحابه لم يكن يسأل النبي لهيبته أو أنّ كثرة السؤال تحمل على إساءه الأدب فيمتنعون عن السؤال (٤)؛ إلّا أنّ هذا

ص: ١٢٣

١- (١). شرح نهج البلاغه للتستري، ج ٧، ص ٢٨٠.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٧.

٣- (٣) «طارئ» من «طروء» على وزن «غروب» حادث والخروج المفاجئ ومن هنا يقال للشخص الذى يرد حديثاً والزائر بغته.

٤- (٤). كانت هنالك عوامل أخرى تحول دون السؤال كالاتغال بالعبادات ظناً منهم أنّهم مأمورون بها فقط أو الانهماك فى الدنيا التى تغفل الإنسان عن كلّ شىء.

الاحتمال لا يتناسب والعبارة التي وردت في كلام الإمام حيث قال عليه السلام مواصلاً كلامه؛ «وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ».

وإن رأينا استعداد الإمام للإجابة عن كل سؤال وبغض النظر عن الامداد الغيبي والالهام الباطني والتأهب الذاتي فإن ذلك لملازمته الحميمه للنبي وروح السؤال للإحاطه بكل شيء من المسائل الإسلاميه.

ثم قال في ختام الخطبه: «فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيَّ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ، وَعَلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ». وردت عدّه عبارات في ذيل هذه الخطبه في بعض المصادر ومنها «الكافي» حيث قال:

«وَقَدْ كُنْتُ أُدْخِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ دَخَلَهُ وَكُلَّ لَيْلَةٍ دَخَلَهُ فَيُخَلِّينِي فِيهَا أُدْوِرُ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ وَقَدْ عَلِمَ أَصِحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ ذَلِكَ بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِي... فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأْنِيهَا وَأَمْلَاهَا عَلَيَّ فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا وَتَفْسِيرَهَا وَنَاسِخَهَا وَمَنْسُوخَهَا وَمُحْكَمَهَا وَمُتَشَابِهَهَا وَخَاصَّهَا وَعَامَّهَا وَدَعَا اللَّهُ أَنْ يُعْطِينِي فَهَمَّهَا وَحَفِظَهَا... وَمَا تَرَكَ شَيْئًا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ وَلَا أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ كَانَ أَوْ يَكُونُ وَلَا كِتَابٍ مُنَزَّلَ عَلَيَّ أَحَدٍ قَبْلَهُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا عَلَّمَنِيهِ وَحَفِظْتُهُ فَلَمْ أَنْسَ حَرْفًا وَاحِدًا ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيَّ صَدْرِي وَدَعَا اللَّهُ لِي أَنْ يَمْلَأَ قَلْبِي عِلْمًا وَفَهْمًا وَحِكْمًا وَنُورًا» (١).

ص: ١٢٤

١- (١) الكافي، ج ١، ص ٦٤، ح ١.

فى عَجِيبِ صَنَعِهِ الْكُونِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتناول الخطبه عجائب خلق السماء والأرض منذ انطلاقه الخلقه ولحد الآن وتشير إلى عدّه أمور منها:

١. قدره الله العظيمه فى خلق الكون.
٢. بدايه خلق الأرض والسماء وأنها كانت بادئ الأمر كتله ضخمة من ماده مذابه كالبحر المتلاطم.
٣. تشكيل كتله جديده على سطح هذا البحر المذاب ثم تكون الكره الأرضيه وسائر الكرات السماويه.
٤. ظهور التشققات الأرضيه وتكوّن الجبال والقمم التى تمتد لعنان السماء.
٥. تمجيد الله وتسيحه على هذا الخلق العظيم والاعتبار بهذا الخلق العجيب.

ص: ١٢٥

١- (١) سند الخطبه: رواها الزمخشري فى «ربيع الأبرار» ورغم اختلافها مع ما ورد فى «نهج البلاغه» فيتضح أنه استقاها من مصدر آخر. كما ذكرها ابن الأثير فى كتابه اللغوى «النهايه» فى مادتى (يعجز) و (ازر) ويفيد اختلافها مع «نهج البلاغه» أنه رواها من مصدر آخر (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١١٧) لابدّ من الالتفات إلى أنّ ابن الأثير أشار لهذه الخطبه فى ماده (ازر) و (يعجز) لكنه لم يُشر إليها - حسب المصادر - فى ماده (ازر).

وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ، وَيَدِيعِ لَطَائِفِ صِنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مِائِ الْبَحْرِ الزَّائِحِ الْمُتْرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، بَيْسًا جَامِدًا، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَيِّمَاتٍ بَعْدَ ارْتِقَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حُدِّهِ. وَأَرْسَى أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُشْعَجِرُ، وَالْقَمَقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ دَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِحَشِيَّتِهِ.

الشرح والتفسير: بدايه خلق الكون

حمل الإمام عليه السلام مخاطبيه إلى بدايه خلق الكون ليريهم عظمه الخلق وعجائبه فقال: «وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ، وَيَدِيعِ لَطَائِفِ صِنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مِائِ الْبَحْرِ الزَّائِحِ (١) الْمُتْرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ (٢)، بَيْسًا جَامِدًا».

(اقتدار) من ماده قدره وجبروت صيغه مبالغه تفيد السلطه التامه، وعليه فانطلاقه الخلق العظيم للسماء والأرض هي قدره الخالق العظيم من جهه وابداعه اللطيف والظريف من جهه أخرى، فالفرد ربّما يفقد الدقه والظرافه في فعل عظيم أو يتعذر عليه التوسع في هذا الفعل؛ إلّا أنّ القادر المتعال مزج ذلك في خلق الأرض والسماء، فهناك العظمه في فعله والدقه واللفظ.

ص: ١٢٧

١- (١) «زأخر» من «زخور» المملوء و «بحر زأخر» البحر الممتلىء.

٢- (٢) «متقاصف» الجماعه التي يدفع بعضها الآخر من ماده «قصف» على وزن «عصف» بالكسر وفي العبارة إشاره إلى الأمواج المتلاطمه التي يضرب بعضها البعض.

فقد ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبه على غرار الخطبه الأولى والخطبه ٩١ من «نهج البلاغه» أنّ بدايه الخلق كانت من المياه، وقطعاً ليس المراد المياه الطبيعیه اليوم، بل الكتل العظیمه المذابه والمتلاطمه التي صنعها الله بقدرته، وقد تحولت هذه الماده المذابه بمرور الزمان إلى مواد جافه فكونت الأرض والكرات السماويه، ويتفق هذا الطرح مع النظريات العلميه المعاصره بشأن ظهور الكون، جدير ذكره أنّ العبارة (من ماء البحر الزاخر) تفيد أنّ قسماً من هذا البحر الزاخر تحول إلى كرات سماويه وبقى قسم منها وهذا ما ينسجم أيضاً والاكتشافات العلميه التي تقول: ما زالت مواد عظیمه من الكتل الغازيه المحرقه أو المواد المذابه في السماء لم تتحول إلى كرات على غرار كرات المنظومه الشمسيه.

ثم تحدّث عن ظهور السموات السبع فقال: «ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا (١) ، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِقَاقِهَا (٢) ، فَاسْتَمْسَكَ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حُدِّهِ».

والكلام اقتباس ممياً ورد في الآيه ٣٠ من سوره الأنبياء: «أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا».

ومن الواضح أنّ المشاهده في هذه الآيه ليست المشاهده الحسيه وبالعين، بل المشاهده الباطنيه من خلال العلم والمعرفه، ذهبت النظريات العلميه اليوم إلى أنّ السماء والأرض كانتا في البدايه كتله عظيمه من الغازات والمواد المذابه وقد انفصلت منها بعض القطع الواحده تلو الأخرى اثر دورانها حول نفسها أو بفعل عوامل أخرى فقذفت في زاويه من الفضاء وكونت الكرات والمنظومات والمجرات.

ثم تطرق عليه السلام إلى خلق الأرض فقال: «وَأَرْسَى (٣) أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ (٤)»

ص: ١٢٨

١- (١). «اطباق» جمع «طبّق» الطبقات على بعضها.

٢- (٢) «ارتقاق» الاتصال من ماده «رتق» وضد ها «فتق».

٣- (٣). «أرسي» من ماده «رسو» على وزن «مسح» الثابت والراسخ.

٤- (٤) «اخضر» إشارة إلى عمق البحار التي تبدو لكثرة العمق بهذا اللون.

الْمُتَعَنِّجُ (١) ، وَالْقَمَقَامُ (٢) الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ».

ولعل الكلام إشاره إلى الأمطار الغزيرة التي اجتاحت الكره الأرضية في بدايه خلق الأرض بصيغه بحر عظيم وتخللت هذه المياه فجوات الأرض بمرور الزمان فشكلت اليابسه التي تكون ربع الكره الأرضيه، وهدات المياه لتدلل الأرض لكي يعيش عليها الإنسان وسائر الكائنات.

ص: ١٢٩

١- (١) . «متعنجر» الملىء بالماء من ماده «تعجره» على وزن «حنجره» جريان الماء وما شابه.

٢- (٢) «قمقام» البحر العظيم فى الأصل من ماده «قمقمه» على وزن «هممه» بمعنى الجمع ومن هنا يقال قمقام للبحر العظيم والأحداث المهمه التي تجمع فيها المشاكل الكثيره.

وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاتِيهَا، وَالزَّمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسِهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالِهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالِهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلأَرْضِ عِمَادًا، وَأَرْزَهَا فِيهَا أوتَادًا، فَسَيَّكَنْتَ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحَمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسَيَّجَحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعِيدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَعِدَهَا بَعِيدَ رُطُوبِهِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَادًا، وَبَسَّطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا! فَوْقَ بَحْرِ لُجِّي زَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي، تُكْرِكُزُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمَخُّضُهُ الْغَمَامُ الدَّوَارِفُ؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى».

الشرح والتفسير: خلق الجبال

خاض الإمام عليه السلام بعد بيانه لخلق السموات والأرض واستقرار الأرض في موضعها في شرح إحدى الظواهر الأرضية المهمة التي تلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان وسائر الكائنات الحية فقال: «وَجَبَلَ (١) جَلَامِيدَهَا (٢)، وَنُشُوزَ (٣) مُتُونِهَا (٤)»

ص: ١٣١

١- (١) «جبل» من مادة «جبل» على وزن «جبر» الخلق ومنه الجبل المعروف.

٢- (٢) «جلاميد» جمع «جلمود» على وزن «خرطوم» الصخره والجبل.

٣- (٣) «نشوز» جمع «نشر» على وزن «نشر» التل وما ارتفع من الأرض. ولهذه المفردة معنى مصدرى: الامتناع عن الإتيان بالوظيفة كنشوز الزوجه عن الزوج.

٤- (٤) «متون» جمع «متن» المحكم وتأتى بمعنى المستوى والمراد هنا المعنى الأول.

وَأَطْوَادِهَا (١)، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَصَصَتْ رُؤُوسَهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ».

المفروغ منه علمياً أنّ سطح الكره الارضيه لم تَعَلَّهُ المرتفعات قبل أن يبرد، إلّا أنّ الشقوق تخللتها بعد برودتها (كالتفاحه التي تمر عليها مدّه فتتصلب) فكونت هذه الشقوق الجبال والوديان العظيمه، وكانت الجبال تنطلق إلى السماء وتغوص جذورها في المواد المذابه في جوف الأرض فتكون سطح الأرض بصيغته الفعلية.

ثم وضع أكثر فقال: «فَأَنْهَدَ (٢) جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ (٣) قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا (٤)، فَأَشْهَقَ (٥) قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا (٦)».

تفيد هذه العبارة أنّ جبال الارض بغض النظر عن استوائها خارجياً فإنّ لها جذوراً عظيمة في أطناب الأرض وهي الجذور التي تشدها معاً من الداخل، بالضبط كالشجره التي كلما امتد ساقها وأوراقها إلى الأعلى انغمرت جذورها أعمق في الأرض، فالامتداد والاستقرار يرسخ الجذور في الأرض.

ثم ذكر عليه السلام فوائد الجبال وأهمها حفظ استقرار الأرض وسكانها، فقال بعبارات دقيقه وعميقه: «وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرْزَهَا (٧) فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنْتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ (٨) بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ (٩) بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا».

ص: ١٣٢

- ١- (١). «أطواد» جمع «طود» الجبل الشامخ.
- ٢- (٢). «أنهد» من «النهود» بمعنى الظهور والانفصال.
- ٣- (٣) «أساخ» من «السوخ» على وزن «قول» الغوص في الماء.
- ٤- (٤) «انصاب» جمع «نصب» على وزن «كتب» الأجسام الأعلام وللنصب معنى المفرد أحياناً والجمع أخرى حسب ما ذكر المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان»، ج ١٠، ص ١٢٦.
- ٥- (٥) «أشهق» من «الشهوق» الارتفاع و «اشهق» يعني رفع.
- ٦- (٦) «أنشاز» جمع «نشز» على وزن «مرض» من «النشوز» ذكرت سابقاً في هذه الخطبه.
- ٧- (٧). «أرز» من ماده «ررّ» على وزن «حظّ» بمعنى ثبت.
- ٨- (٨) «تميد» من «الميد» على وزن «صيد» الحركة والاضطراب.
- ٩- (٩) «تسيخ» من «سوخ» فسرت في الخطبه.

كيف تهب الجبال الأرض الاستقرار وتحول دون اضطرابها؟ وتوضح الاجابه عن هذا السؤال من خلال قضيه هي أن نواه جوف الأرض مواد مذابه وغازات تسلط ضغطاً على الدوام على القشره الخارجيه وتظهر أحياناً كبراكين، إلّا أنّ الجبال لا تتحمل تلك الضغوط بفعل جذورها المحكمه والمتصله فتحول دون الاضطراب فتصبح مصدراً لاستقرار القشره الأرضيه.

أضف إلى ذلك فإنّ الجبال تعتبر من العوامل المؤثره في استقرار الأرض بفعل الضغوط الخارجيه الناشئه من جاذبيّه الشمس والقمر وما يحصل منها من مد وجزر، من جانب آخر فإنّها ملاذات إزاء العواصف التي تصيب سطح الأرض ومن شأنها تهديد حياه الإنسان، ومن أراد المزيد بهذا الخصوص فليراجع الخطبه ٩١ من الجزء الرابع لهذا الشرح وتفيد العبارة «فسكنتنا على حركتها» استناداً للعبارة «على» أنّ الإمام عليه السلام أشار بوضوح آنذاك إلى حركه الأرض التي كان يقول بسكونها آنذاك جميع علماء الهيئه حيث قال رغم حركه الأرض إلّا أنّها مستقره ولا تعرض سكانها للاضطراب.

وقد أشار المرحوم العلّامة شرف الدين صاحب كتاب (مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام) إلى هذه النقطه الظريفه(١).

ثم قال عليه السلام: «فَسَيَبْحَانُ مَنْ أَمْسَيْتَ كَهَا بَعِيدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعِيدَ رُطُوبِهِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَادًا، وَبَسَّطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا! فَوْقَ بَحْرِ لُجِّي رَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسِيرِي، تُكْرِكِرُهُ (٢) الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمَخُّضُهُ (٣) الْعَمَامُ الدَّوَارِفُ (٤)؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى».

ص: ١٣٣

١- (١) مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١١٧.

٢- (٢). «تكركر» من ماده «كركره» على وزن «حجره» يرى البعض أنّها من ماده والبعض الآخر أنّها ماده مستقله من الرباعى المجرد وتعنى التكرار.

٣- (٣) «تمخض» من ماده «مخض» على وزن «قرض» تعنى فى الأصل حركه اللبن لاستخراج الزبد ثم اطلقت على كلّ حركه شديده.

٤- (٤) «ذوارف» من ماده «ذرف» على وزن «حرف» سيلان الدمع من العين أو مطلق السيل و «ذوارف» جمع «ذارفه» بمعنى الجارى والصابى.

تبدو للوهله الأولى فى هذه العبارة جملتان متناقضتان؛ فقد قال فى الأولى: إِنَّ اللَّهَ بَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى بَحْرٍ عَظِيمٍ لَّجِي رَاكِدٌ لَا يَجْرِي وَقَالَ فِي ذَيْلِهَا: تَكَرَّرَ الرِّيحَ الْعَوَاصِفِ، إِلَّا أَنَّ تَأْمَلَ الْعِبَارَةَ يُوْضِحُ نَفْيَ أَى تَنَاقُضٍ، فَالْعِبَارَةُ الْأُولَى تَتَحَدَّثُ عَن اسْتِقْرَارِ طَبِيعَةِ الْبَحْرِ، وَالثَّانِيهِ عَن تَأْثِيرِ الْعَوَامِلِ الْخَارِجِيهِ، أَى الرِّيحِ الشَّدِيدِهِ عَلَى سَطُوحِ الْبَحَارِ.

وقوله: «وَتَمَخُّضُهُ الْعَمَائِمُ الذَّوَارِفُ» إِمَّا لِأَنَّ هَذِهِ السَّحْبَ مَقْتَرَنَهُ دَائِمًا بِالْعَوَاصِفِ، أَوْ أَنَّ سَيُولَ الْأَمْطَارِ تَسْقُطُ عَلَى سَطُوحِ الْمَحِيطَاتِ تَوْثِرَ عَلَيْهَا وَتَجْعَلُهَا مَتَلَاظِمَهُ.

والعبارة «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى» إِمَّا إِشَارَةً إِلَى سَكُونِ الْبَحَارِ وَحَرَكَتِهَا الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا، أَوْ إِشَارَةً لِمَا ذَكَرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ بِشَأْنِ خَلْقِ الْجِبَالِ وَخَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَالآيَةُ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى» (١) تَصْرَّحَ بِأَنَّ الْخَشْيَةَ وَلِيَدِهِ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ مِمَّنْ يَعْتَبِرُونَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» (٢).

ص: ١٣٤

١- (١) . سورة النازعات، الآية ٢٦. جدير ذكره أن هذه الآية القرآنية وردت فى سياق الخلقه وخلق السماء والأرض.

٢- (٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.

كَانَ يَسْتَنْهَضُ بِهَا أَصْحَابَهُ إِلَى جِهَادِ أَهْلِ الشَّامِ فِي زَمَانِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

هذه الخطبه في الواقع استغاثه بالله ممزوجه بالدعاء لنصره جند الإسلام ومؤاخذة العناصر العاكفه عن نصره الحق واتمام الحجه عليهم أمام الله تعالى، ويشير الكلام إلى مدى امتعاض الإمام عليه السلام عن ضعف أهل الكوفه وعدم مبالاتهم بأمر جهاد طغام أهل الشام؛ الأمر الذي يستفاد من أغلب خطب «نهج البلاغه» ولولا الضعف والنكوص لنحا التاريخ الإسلامي منحى آخر ولكن للاسف...

ص: ١٣٥

١- (١) سند الخطبه: لم يذكر صاحب «مصادر نهج البلاغه» سناً لهذه الخطبه؛ لكن يستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغه» (وأشرنا لذلك في المتن) أنّ هذا الكلام كان ذيل الخطبه ١٩٨ ولم يذكر هذا الكتاب سناً آخر غير «نهج البلاغه».

اللَّهُمَّ أَيُّمًا عَبِيدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ، وَالْمُضِيلَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا التُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَ الْمُغْنَى عَنْ نُصْرِهِ، وَالْأَخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

الشرح والتفسير: جزاء المتخلفين

تفيد القرائن أنّ هذه العبارات العميقة المعنى المليئة بالأسى واللوعة كانت بعضاً من خطبه طويلة اقتطف منها المرحوم السيد الرضى هذا القسم وفصله عنها، ويرى البعض أنّه ذيل الخطبه ١٩٨(١).

والهدف الأصلي لأئمة المؤمنين عليه السلام من هذه الخطبه تعبئه صحبه لجهاد أهل الشام الظلمه؛ لكن بصيغه شكوى إلى الله، شكوى من أولئك الذين يسمعون دعوته العادله ويتمردون عليه في الجهاد، الشكوى التي تبين مدى مظلوميه الإمام عليه السلام ومدى افتقار صحبه للشعور بالمسؤوليه. فقال: «اللَّهُمَّ أَيُّمًا عَبِيدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ، وَالْمُضِيلَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا التُّكُوصَ (٢) عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالْإِبْطَاءَ (٣) عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ

ص: ١٣٧

١- (١) تمام نهج البلاغه، ص ٤٩١.

٢- (٢). «تكووص» مصدر يعنى الانسحاب والتراجع.

٣- (٣) «إبطاء» التأخير من ماده «بطؤ» على وزن «قفل».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام أكّده بهذه العبارات بشأن الدعوه إلى جهاد ظلمه أهل الشام على أربع أو على اعتبار على صفتين:

١. إنّ هذا الكلام كلام على مسار العدل.

٢. لا ظلم فيه قط.

٣. سبب إصلاح الناس.

٤. لا يترتب عليه أى فساد وآثاره الايجابيه ظاهره فى دنيا الناس ودينهم.

والبدايه تحكم بضروره إتباع هذا الكلام الملىء بالحق والعدل والصلح والمصلحه وانحراف من يخالفه عن شرع الله والعقل.

القضيه الأخرى أنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ من يتمرد على دعوته لجهاد أهل الشام الظلمه إنّما ينكص عن نصره الله واشتداد دينه دون أن يجنى الإمام عليه السلام نفعاً خاصاً من ذلك، كما أراد أن يذكر الإمام عليه السلام ضمناً بأنّ مسير أهل الشام مسير الظلم والجور وأساس الفساد فى دين الناس وديانهم.

وواصل عليه السلام كلامه بإشهاد من فى السماء والأرض إلى جانب إشهاد الله فقال:

«وَنَسْتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَ الْمُعْنَى عَن نَصْرِهِ، وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ».

فقد أتمّ الإمام عليه السلام بهذه الشكوى إلى الله المنبعثه من قلب حزين ملتاع، الحجه على المتشاكليين عن الجهاد من جهه وتحذير من جهه أخرى لصحبه الأوفياء ألما يهنوا بسبب ضعف أولئك الأفراد ويعلموا أنّ الله ناصرهم وأولئك الناكسين سيلاقون جزاء أعمالهم، ويشهد التاريخ أنّهم ابتلوا عقب شهادته الإمام عليه السلام وولّى عليهم ظلمه من ولاة بنى أميه فلم يرفعوا فيهم ذمّه ولم يألوا جهداً فى اذقتهم العقاب.

ورد فى كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم أنّه قام رجل من بنى فزاره فقال للإمام:

تريدنا أن نقاتل أهل الشام فنقتل إختوتنا كما قتلناهم فى البصره يوم الجمل فلن

نفعل ذلك، فنهض مالك الأشر وقال: أمسكوه (فهو من أفراد العدو) فنهضوا إليه فهرب إلى موضع لبيع الخيل فجعلوا يطأونه بأرجلهم (١).

العباره «جَمِيعَ مَا أَشْكَنَتْهُ أَرْضُكَ وَسَمَوَاتِكَ» تبدو إشاره إلى الملائكه والإنس والجن، لأنّ العباره «اسكنتها» تناسب ذلك وعليه «ما» اطلقت هنا على العاقل وإشهادهم رغم إشهاد الله قبل ذلك تأكيد لهذا الأمر المهم، كما جعل الله إلى جانب ذاته القدسيه شهداء كثيرين على أعمالنا.

ص: ١٣٩

١- (١) صفين لنصر بن مزاحم، ص ٩٤ و ٩٥.

فى تَمجيدِ اللهِ وَتَعْظيمِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

يستفاد من تعبير المرحوم السيد الرضى أنّ ما ورد فى هذه الخطبه جانب من كلام الإمام عليه السلام اقتطفه السيد الرضى فى قسمين:

القسم الأول: الذى جرى الكلام فيه عن صفات الله الجلاليه والجماليه ولا سيما احاطته العلميه بجميع المخلوقات.

وورد الكلام فى القسم الثانى عن صفات النبى وإمداده الغيبى وإزاله الموانع عن مسيرته وتطورها السريع، وبالتالى فإنّ الخطبه قبسات بشأن التوحيد والنبؤه.

ص: ١٤١

١- (١) سند الخطبه: لم يذكر سند هذه الخطبه فى المصادر المعروفه سوى «نهج البلاغه» وقد روى العلامه المجلسى قسمها الأول عن «نهج البلاغه» فى الجزء الرابع من بحار الأنوار.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصَةِ فِينِ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ
الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ وَلَا اِزْدِيَادٍ، وَلَا عِلْمٍ مُسْتَتَفَادٍ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ، الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلْمُ، وَلَا
يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ، وَلَا يَزْهُقُهُ لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْبُصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ.

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله:

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي الْأَضْيَافِ، فَرْتَقَ بِهِ الْمَعَاتِقَ، وَسَيَّأَرَ بِهِ الْمَعَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَيَّهَلَ بِهِ الْحُزُونََ، حَتَّى سَيَّرَحَ
الضَّلَالَ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

الشرح والتفسير: قبسات من صفات الله ورسوله

أشار الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبة الذي ورد في صفات الله الجمالية والجلالية إلى اثنتي عشرة صفة،
فقال في الصفات الأربع الأولى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ،
وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ (١)».

وكما قيل آنفاً فإنَّ الذات الإلهية لامتناهية، ومن البديهي أن تعجز جميع

ص: ١٤٣

١- (١) «متوهمين» من مادة «وهم» الظن والخيال كما تعنى التفكير وهذا هو المعنى المراد والشاهد على ذلك كلمة الفكر قبل ذلك.

مخلوقاته المتناهية من جميع الجوانب عن درك كنه ذاته، وعليه إنَّما ندرك تلك الذات عن طريق آثاره العجيبه السائده في عالم الوجود؛ ومن هنا فإن قلنا أوضح من كلِّ شيء وأخفى من كلِّ شيء فذلك ناظر لهذين البعدين؛ من حيث آثار علمه وقدرته ظاهراً تماماً، وخفى من حيث كنه ذاته.

ثم خاض في الصفه الخامسه والسادسه فقال: «العالم بلا اكتساب ولا ازدياد، ولا علم مُستفاد، المُقدِّر لجميع الأمور بلا رويّه ولا ضمير».

لا شك في أنّ علم الله كذاته لا متناهٍ، فلا يحتاج إلى اكتساب ولا تعلم من آخر، وهذا يقتصر على ذوى العلم المحدود والذين لهم الازدياد من خلال ثلاثه طرق:

التجربه وأمثالها، تأثير العلوم في بعضها والانتقال من مساله لأخرى، وأخيراً التلمذ والتعلم من الآخرين، أمّا من كان علمه لا متناهٍ فغنى عن كلِّ هذه الأمور، كما هو غنى عن إحاله الفكر في خلق الكائنات وتقدير كلِّ مخلوق من حيث الكميّه والكيفيه والقوانين التي تحكمه، فلا حاجه للرجوع إلى الوجدان بخلاف الإنسان الذي يحاول اختراع شيء ربّما يستغرق أحياناً لسنوات ويطلع ويستعين بمعلوماته وأفكاره لينجح في محاولته.

وقال في الصفه السابعه والثامنه: «الَّذِي لَا تَعْسَاءُ الظُّلْمُ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ».

ثم تطرق إلى الصفه التاسعه والعاشره لايضاح هذا المطلب فقال: «وَلَا يَرْهَقُهُ (١) لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ». ولعل هذه العبارات تشير إلى أنّ ذاته القدسيه جليه دائماً عن طريق الآثار ولا يعتريها الليل والنهار، أو إشاره إلى غناه عن الضياء بخلاف الإنسان في المشاهده والاحاطه بالاشياء.

وقال في الصفه الحاديه عشره والثانيه عشره المكمله والموضحه لما سبق من صفات «لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْبَصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْأَخْبَارِ». فهذه الأمور مرتبطه بالجسم والجسمانيات وذوى العلوم الناقصه والمحدوده، هو ليس من قبيل الأجسام ولا

ص: ١٤٤

١- (١). «يرهقه» من ماده «رهق» على وزن «شفق» غشى الشيء أو القهر والغلبه كما وردت بمعنى تسلط الشيء.

وهنا يرد هذا السؤال: لم يركز الإمام عليه السلام في عدّه خطب على هذه المضامين ويؤكد عليها ويصر على غنى علم الله عن الأمور المذكوره، ما سرّ هذا التأكيد؟

نقول في الجواب: إنّ إحدى أعظم المشاكل في معرفه الله، قضيه مقايسته بالمخلوقات، كونه يتعامل طيله حياته معها فيقيس بها كلّ شيء، المخلوقات المحدوده من جميع الجوانب، العلم والقدرة والزمان والمكان والإدراك والشهود والتقلب والزوال، فإذا دار الكلام عن معرفه الله استعان - عالماً أو جاهلاً - بذلك القياس فيهوى في وادي التشبيه الخطير.

ومن هنا فإنّ هذا المعلم الرباني يحذر كراراً من الانزلاق إلى الهاويه والمقايسه بين الله وأيّ من مخلوقاته التي تبعد عن معرفه الله وتخلق لديه أوهاماً يتعبد بها.

والحديث المروى عن الإمام الباقر عليه السلام: «كُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهَ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلَكُمْ مَزْدُودٌ إِلَيْكُمْ» (١). إشاره رائعه لهذا المطلب.

ولذلك كان الأئمه عليهم السلام دائمي المراقبه لصحبهم وأتباعهم حذراً من السقوط في مستنقع التشبيه أو التعطيل، في حين سقط فيه العديد ممن لم يستر على نهجهم ويتبعهم، ومن نماذج هذا الانحراف الخطير، الإيمان بتجسم الله وتشبيهه بمخلوقاته والاعتقاد بإمكانيه رؤيته ومشاهدته الحسيه في الدنيا أو على الأقل في الآخره والتي يلتزم بها الأعم الأغلب.

وأورد الإمام عليه السلام كلمات قصيره عظيمه المعنى بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

في القسم الآخر من هذه الخطبه الذي ذكره السيد الرضى تحت عنوان «وَمِنْهَا فِي ذِكْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» فيبين عليه السلام سبعاً من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي تشير إلى رفعه مقامه وسعه إصلاحاته في المجتمع الإسلامي فقال: «أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي

الإِصْطِفَاءِ، فَرَتَّقَ (١) بِهِ الْمَفَاتِقَ (٢) وَسَاوَرَ (٣) بِهِ الْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَيَّهَلَ بِهِ الْحُزُونََ (٤)، حَتَّى سَيَّرَحَ (٥) الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ».

المراد من الضياء أحد الاحتمالات: نور الإيمان أو العلم أو القرآن أو الوحي أو جميعها، أى أنّ الله بعث النبي صلى الله عليه و آله بنور الوحي والقرآن والإيمان ليضيء بها الكون العبارة «قَدَّمَهُ فِي الإِصْطِفَاءِ»، ربّما إشاره إلى خاتمية النبي صلى الله عليه و آله (لأنّه لو لم يكن خاتماً سيرد ديناً أسمى من دينه) أو إشاره لأفضليته على جميع الأنبياء والخلق، المراد من «مفاتق» الاختلافات الواسعة التى سادت مجتمع الجزيره وقضى عليها النبي صلى الله عليه و آله، ووحدهم تحت لواء الإسلام.

العبارة «وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ» إشاره إلى قطع أيدي الظلمه والطغاه عن المستضعفين والمحرومين والذي حصل ببركه ظهور الإسلام والذين سلموا جميعاً لقدرة الدين الجديد.

والعبارة «وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ» يمكن أن تكون إشاره إلى حل المشاكل المعنويه والعقائديه والاخلاقيه أو المشاكل الماديه والاجتماعيه أو جميع ذلك فى ظل ظهور الإسلام.

وتشير العبارة «حَتَّى سَيَّرَحَ الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» إلى نهايه جميع المفاسد التى اشير إليها فى العبارات السابقه، أى زوال أنواع الضلال اليمين والشمال ومن جميع الجوانب بالنبي صلى الله عليه و آله ورسالته.

وربّما تشير العبارة «عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» إلى الإفراط والتفريط أو إشاره لكل الطرق التى تؤدى إلى الفساد، قطعاً هذه الاصلاحات ليست مختصه بزمان ظهور

ص: ١٤٦

١- (١). «رتق» من «رتق» على وزن «حتم» الاتصال.

٢- (٢) «مفاتق» المواضع المنشقّه جمع «مفتق» على وزن «مكتب» من ماده «فتق» (ضد رتق).

٣- (٣) «ساور» من «المساوره» الغلبه والسيطره من ماده «سور» على وزن «غور».

٤- (٤) «حزونه» ضدّ سهوله، الخشن والغلظ فى الأرض.

٥- (٥) «سرح» من «التسريح» الترك والطرده ومن هنا يقال للطلاق تسريح ومادته الأصلية «سرح» و «سروح» الاطلاق والتحرير.

النبي صلى الله عليه وآله فلو عملنا اليوم بالتعاليم والوصايا الإسلاميّة لتحققت وحده الأئمّة الإسلاميّة ولقطعت أيدي الطغاه والظلمه ولهانت جميع الازمات والمشاكل الاجتماعيّه، فكلّ ذلك من آثار التعاليم الإسلاميّه.

ص: ١٤٧

يَصِفُ جَوْهَرَ الرَّسُولِ، وَيَصِفُ الْعُلَمَاءَ، وَيَعِظُ بِالتَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة كما أشرنا من ثلاثة مقاطع: أشار عليه السلام في المقطع الأول عقب شهادته لله بالعدل إلى جانب من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي تشير إلى طهاره جوهر ذات النبي من جميع الجهات، وتطرق ضمناً إلى لطف الله بالمطيعين من عباده وإمداده الغيبي لهم.

وتحدث في المقطع الثاني عن العلماء الربانيين وصفاتهم البارزة وكيفيه تعاملهم مع الآخرين.

وأورد في الختام مواضع كثيرة من شأن العمل بها تربيته روح الورع والتقوى لدى الإنسان بعبارات موجزة بليغه.

ص: ١٤٩

١- (١) سند الخطبة: روى الآمدي في «غررالحكم» جانباً من هذه الخطبة مع اختلاف يدل على أنه اقتبسها من مصدر آخر غير «نهج البلاغه».

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدْلٌ، وَحَكَمٌ فَصِيلٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كَلِمًا نَسِيخَ اللَّهِ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُشْهِمَ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ.

أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا.

وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُبَيِّنُ الْأَفْنِدَةَ، فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ.

الشرح والتفسير: النسب الطاهر للنبي صلى الله عليه وآله

استهل الإمام عليه السلام خطبته - كسائر الخطب - بالشهادتين (وإن دلت الواو في «وأشهد» أنه كانت قبلها بعض المطالب) فقال: «وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدْلٌ، وَحَكَمٌ فَصِيلٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ».

التعبير (عَدْلٌ) الذى له معنى مصدرى، للتأكيد، أى أَنَّ ذات الله عين العدل، والعبارة التى أتت به بصيغته الفعل الماضى (عدل) تأكيد آخر و (حكم) له معنى واسع يشمل حكم الله فى جميع الجوانب التكوينية والتشريعية، وأنه فصل وفرقان بين الحق والباطل على الدوام.

والعجيب أن ابن أبى الحديد نسب الضمير فى (أنه) إلى القضاء والقدر ويعتقد بأنه كان قبل هذه العبارة (وفصله السيد الرضى، ووافقه عدد من الشراح، فى حين تشير العبارة «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» إلى أَنَّ الشهادة السابقة شهادة

مرتبطة بالله، بالإضافة إلى أنّ «حكم عدل» من صفات الله لا صفات القضاء والقدر (١).

ويشير وصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في عبارته المذكورة بالعبودية قبل الرسالة إلى أنّ أعظم فخر للإنسان عبودية الله والعباره «سَيِّدُ عِبَادِهِ» تأكيد آخر لهذا المعنى، نعم كلّ ما هنالك في عبودية الله، ثم قال في ذكر صفات النبي صلى الله عليه وآله: «كُلَّمَا نَسَخَ (٢) اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا».

إشارته إلى أنّ نوره صلى الله عليه وآله في صلب آدم كان ينتقل من صلب لآخر ولما كان يظهر عدّه أبناء من نسله كان نوره المبارك في الفرع الأفضل من ذلك النسل وما زال كذلك حتى انتقل من صلب عبد الله لرحم آمنه بنت وهب.

ثم أضاف: «لَمْ يُسْهِمَ فِيهِ عَاهِرٌ (٣)، وَلَا ضَرْبٌ فِيهِ فَاجِرٌ». وهو نفس المضمون الذي ورد في زيارته وارث في الإمام الحسين عليه السلام: «أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُورًا فِي الْأَصْلَابِ الشَّامِخَةِ وَالْأَرْحَامِ الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُنَجِّسْكَ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا وَلَمْ تُلْبَسْكَ مِنْ مَدْلَهَمَاتِ ثِيَابِهَا» (٤).

وهو ذات المعنى الذي ورد في النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لَمْ يَزَلْ يَنْقُلُنِي اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى الْمُطَهَّرَاتِ حَتَّى أَخْرَجَنِي فِي عَالَمِكُمْ هَذَا لَمْ يُدْنَسْنِي بِدَنَسِ الْجَاهِلِيَّةِ» (٥).

والعباره الواردة في هذه الخطبه والزياره والروايه بالإضافة إلى بيان فضل النبي

ص: ١٥٢

١- (١) هنالك عبارات في كتاب «تمام نهج البلاغه» الذي أورد عبارات مكمله لهذه الخطبه تشير بوضوح إلى أنّ الضمير في «إنه» يرجع إلى الله تعالى لا إلى القضاء والقدر (تمام نهج البلاغه، الخطبه ٢٢، ص ٢٩٩).

٢- (٢). «نسخ» من «النسخ» على وزن «مسخ» تعنى في الأصل انتقال الشيء ومن هنا يقال حين ينتقل الظل إثر حركه الشمس: «نسخت الشمس الظل» كما يقال لكتابه شيء على كتابه أخرى استنساخ، لأنها تنقل المطلب. ومنه النسخ في الأحكام لأنّ حكماً يحل محل آخر والنسخ في عبارته إشارة إلى انتقال النطفه من الأب إلى الأب الآخر والذي تنتقل عن طريقه الصفات من الآباء إلى الأبناء.

٣- (٣). «عاهر» الشخص الفاسق والفاجر.

٤- (٤) مصباح المتهجد، ص ٧١٧.

٥- (٥) بحار الأنوار، ج ١٥، ص ١١٧؛ مجمع البيان، ج ٣-٤، ص ٤٩٧.

الأكرم صلى الله عليه وآله تعلمنا جميعاً هذا الدرس وهو أنّ فتره تربيته الإنسان بغية بلوغ المقامات الرفيعة تبدأ من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وأن العامل الوراثي أحد عوامل تبلور شخصيته الإنسان، وإن لم يكن العامل الفريد، وهنالكَ الكثير الذى يقال بهذا الخصوص ستتعرض له فى الأبحاث القادمة على ضوء مناسبة الكلام إن شاء الله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى السائرين على نهج رسول الله صلى الله عليه وآله الذى بين صفاته فى العبارات السابقة ليشير إلى ضروره تربيته بعض الطوائف فى كل عصر فى ظل تعاليم النبى صلى الله عليه وآله وليواصلوا مسيرته، فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا».

إشاره إلى أنّ هذا الطريق لا- يخلو فى أى عصر ومصر من سالكيه ولا- تتوقف خطط الخير والحق والطاعة؛ فهؤلاء من ذوى الإيرادات الصلبة والنيات الطاهره ولذلك شملتهم الطاف الله، العبارة «وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا» ربّما تشير إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام أوصياء النبى صلى الله عليه وآله حماه الحق وأمناء طاعه أوامر الله، كما ورد فى الزيارة الجامعة: «وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفِيكُمْ وَمِنْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ».

وما ورد فى الحديث الذى روته مصادر الفريقين: «عَلَى مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ» (١).

وربّما تشير إلى القرآن وسنّه المعصومين عليهم السلام أو العلماء ولا يبعد جمع هذه التفاسير الثلاثة فى مفهوم العبارة، ثم بشر أولئك السائرين بأنهم ليسوا وحيدىن إزاء زخم مشاكل الطاعة وأن نصره الله منجزه لهم دائماً، فقال: «وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ (٢) عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُنَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ. فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُسْتَفٍ».

نعم، فالله لا يترك عباده المؤمنين فينطق ألسنتهم ويرسخ إرادتهم ويقوى

ص: ١٥٣

١- (١) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٧٦؛ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢٩٧.

٢- (٢). الضمير «يقول» يعود إلى «الله» الذى ذكر سابقاً والمعنى أنّ الله يجعل لسانهم ناطقاً ويجرى عليه الخير.

عزائمهم؛ وقد ورد هذا الأمر كراراً في القرآن: «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» (١).

وقال في موضع آخر: «يُشَبِّهُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (٢).

وهذا ما نلتمسه كل يوم في الصلوات اليومية ونسأل الله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (٣).

ص: ١٥٤

١- (١) سورة طه، الآية ٤٦.

٢- (٢) سورة إبراهيم، الآية ٢٧.

٣- (٣) سورة الفاتحة، الآية ٥.

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيَفَجِّرُونَ عُيُونَهُ. يَتَوَاصِلُونَ بِالْوَلَايَةِ، وَيَتَلَاَقُونَ بِالمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاءَلُونَ بِكَأْسِ رَوْيِهِ وَيَصِيدُونَ بِرِيئِهِ، لَا تَشْوِبُهُمُ الرِّيبَةُ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الغَيْبَةُ. عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصِلُونَ، فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ البُذْرِ يُنْتَقَى، فَيُؤَخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَهَدَّبَهُ التَّمْحِيصُ.

الشرح والتفسير: حفظه علم الله

تطرق الإمام عليه السلام بعد أن فرغ من ذكر جانب من أبرز صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى السائرين على نهجه أى العلماء والعرفاء وخلص المؤمنين فيبين عشراً من صفاتهم، والحق أن من تحلى بهذه الصفات فهو من أولياء الله وخاصة أتباع النبي صلى الله عليه وآله فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ (١) عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيَفَجِّرُونَ عُيُونَهُ».

تشير هذه الصفات الثلاث إلى أن هذه الطائفة من عباد الله تمكنوا بتوفيق الله وإلهاماتهم الباطنية من تحصيل العلوم وحرسوا هذه العلوم وبلغوها طالبيها، فهم الحفظه والحارسون والناشرون لتلك العلوم وعلى غرار رى عيون الماء المتدفقه للأراضى العطشى وإنماء مختلف الأشجار والأزهار والنباتات فهم ينشرون الدين فى قلوب عطشى للمعارف ويغرسون فى نفوسهم الفضائل الإنسانية.

ولعل العبارة «يَصُونُونَ مَصُونَهُ» تعنى ما ذكر آنفاً؛ أى أنهم يتحفظون على

العلوم الربانيه عمّن لا- يستحقها، أو بمعنى أنهم صانوا هذه العلوم بأمانه وجهدوا في إيصالها من جيل لآخر من خلال تأليف الكتب ونشرها.

وواصل كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخرى فقال: «يَتَوَاصَى لُمُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَدَّقُونَ بِكَأْسِ رَوْيِهِ (١) وَيَصُدُّرُونَ بِرِيَّتِهِ (٢)».

فقد أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق إلى الأبعاد العلمية لأولئك العلماء الربانيين وتطرق هنا إلى جوانبهم العلمية؛ وربما كان المراد من «يَتَوَاصَى لُمُونَ بِالْوِلَايَةِ» ولايه الله وأوليائه التي ربطت هذه الفئات مع بعضها؛ أو الولاية بمعنى الحب والمودة التي الفت قلوبهم.

وتشير العبارة «وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ» إلى أنّ هذه المحبّة القلبية تتجلى حين لقائهم بالفعل والقول.

وتشير العبارة الثالثة إلى أنّ جلساتهم مركز تبادل العلوم والمعارف؛ فكلّ منهم يملأ إناء الآخر بعلمه كما ورد في العبارة الرابعة «وَيَصِيءُ دُرُونَ بِرِيَّتِهِ» ثم قال في بيان صفتين أخريين «لَا- تُشَوِّبُهُمُ الرِّيْبَةُ، وَلَا- تُشْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ». ولعل العبارة (ريبه) تشير إلى أنّ مبانيهم العقائديه وإيمانهم على درجة من الرسوخ بحيث لا- يشوبه أدنى شك وارتياب أو أنّ حياتهم نقيه وطاهره بحيث لا يشك أحد في حسن سريرتهم ودقّه أعمالهم كما يمكن أن تشير العبارة «وَلَا تُشْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ» أنّهم لا يتلوثون بالغيبه أو أنّهم على درجة من الطهر بحيث لا يسمح الآخرون لانفسهم باغتيالهم.

طبعاً لا تتنافى هذه التفاسير المتعدده ويمكن جمعها معاً في مفهوم العبارة السابقة.

ثم قال على سبيل التأكيد: «عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ».

ص: ١٥٦

١- (١) «رَوِيَّه» صفة مشبّهه من «رِيٌّ» على وزن «حَيٌّ» زوال العطش.

٢- (٢) «بَرِيَّتِهِ» تركيب من الباء الجارّه و «رِيَّه» اسم المصدر من «رِيٌّ» على وزن «حَيٌّ» الرى من العطش.

لا- ينافى هذا التعبير الاختيار فى الأعمال لأنَّ الإنسان إن انطلق مختاراً إلى الله أته الإمدادات الغيبية والعنايات الإلهية، وبغض النظر عن ذلك فإنَّ الله أودع البشريه منذ البدايه أرضيه الصلاح والسعاده لتطوى بها مسيره التكامل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين من صفات أولئك العلماء الربانيين فقال: «فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ».

نعم! حبهم لأحدهم الآخر لله وإرتباطهم ناشىء من علاقتهم المشتركة بالكمالات، أميا المنافع المادية والصلوات الحيوانيه والاشتراك فى المقامات الدنيويه ليست سبباً قط فى إرتباطهم وحبهم لبعضهم البعض.

ثم بين فى ختام هذه الفقره بتشبيه رائع كيفيه انتخاب هذه الفئه من بين سائر الناس وقال: «فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْيَدْرِ يُتَّقَى (١) ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيسُ، وَهَدَّبَهُ التَّمْحِيسُ (٢)».

أجل! هؤلاء بذور عالم الخليفه المنتقى الذين اختارهم خالق عالم الوجود للتهذيب والكمال ليجعلهم بهيته شجره طيبه أكلها دائم بتوفيق الله ومدده الغيبى.

وزيده الكلام أنَّ هؤلاء الأعلام الذين يتصفون بهذه الصفات ويطوون مراحل التكامل فى ظل عنايه الله ويزدادون كل يوم قرباً من الله لم يبلغوا هذا المقام عبثاً، فقد جدوا واجتهدوا فى إصلاح أنفسهم وجلاء قلوبهم من صداد الأهواء وأخلصوا نياتهم واجتازوا الامتحان الإلهى الشاق فبلغوا ذلك المقام، وتلك عاقبه كل من سلك طريقهم.

ص: ١٥٧

١- (١) . «ينتقى» من «النقاوه» بمعنى الطاهر والخالص، وتعنى الاصطفاء والاختيار حين تأتى فى باب افتعال.
٢- (٢) «التمحيص» التطهير والإخلاص وورد بهذا المعنى أيضاً من ماده «محص» على وزن «فحص»، وإن تضمن التمحيص تأكيداً أكثر ولما كان الامتحان سبب التنقيه والتطهير فقد وردت هذه المفرده بمعنى الامتحان.

إشاره

فَلْيَقْبَلِ امْرَأَةً كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَهُ قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرْ امْرَأَةً فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مَقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمَتَحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ. فَطُوبَى لِإِدَى قَلْبِ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصِيرٍ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَهُ هَادٍ أَمْرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ، وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

الشرح والتفسير: المهتدون

خاطب الإمام عليه السلام هنا الجميع داعياً إليهم إلى سلوك سبيل العلماء الربانيين الذين بين صفاتهم في القسم السابق، والواقع أنه استعرض هنا مراحل السير والسلوك إلى الله فقال: «فَلْيَقْبَلِ امْرَأَةً كَرَامَةً (١) بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَهُ (٢) قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرْ امْرَأَةً فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مَقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمَتَحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ».

فالإمام عليه السلام لفت في الخطوه الأولى إنتباه الجميع إلى قصر عمر الدنيا وفناء الحياه

ص: ١٥٩

١- (١). «الكرامه» تعنى فى الأصل الشرف، الشخصيه، المثل، الاحترام والنعمة وما معناها فى العبارة فىرى البعض أنها مفعول به فقال: مفهوم الجملة أنه ينبغى على كل إنسان أن يقبل الكرامه الإلهيه والنعمة بقبول هذه الصفات البارزه، وعليه فالكرامه بمعنى كرامه الله وإشاره إلى نعمه، الاحتمال الآخر «كرامه» من قبيل المفعول له ومفهوم الجملة كل إنسان يقبل هذا الكلام للكرامه والمحبه.

٢- (٢) «قارعه» من ماده «فرع» بمعنى الضرب وقارعه تطلق على الحوادث المهمه والصعبه؛ كالموت والزلال. فأحد أسماء القيامه «القارعه» لأنها تقترن بحوادث صعبه.

وحلول الموت حتى لا يكونوا كأصحاب الدنيا الذين نسوا الآخرة ورأوا الدنيا خالده.

وهذه هي حاله اليقظه التي تمثل المرحله الأولى في السيرو السلوك إلى الله، وهل من عامل لليقظه أنجع من ذكر الموت وحلول الأجل؟

وواصل كلامه بالإشاره إلى طهاره واصطفاء دليل الطريق فقال: «فَطُوبَى لِدَى قَلْبِ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُزِدِيهِ (١)».

وبالنتيجه فإنه يظفر بطريق السلامه بمعونه من يبصره وبطاعته للمرشد الهادى الذى يأتمر به فيبلغ الطريق قبل أن تغلق بوجهه أبوابه وتتقطع سبله «وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَهُ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ».

وهكذا يوصى الإمام عليه السلام أتباعه أن يسلكوا الطريق فلا يسيروا عليه دون دليل وهاد فيبلغوا الهدف فى ظل هدايه العلماء الربانيين والسائرين السابقين مادامت الفرصه سانحه وأبواب الهدى مشرعه.

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعوه إلى التوبه وجلاء صدأ الذنب عن القلب والذى يعد الشرط الأصلى لسلوك هذا الطريق فقال: «وَأَسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ (٢)، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ».

يفتح بهذ الطريق مسار القرب إلى الله بوجه الإنسان ويشمل بخاصه لطف الله.

تأمل: الحاجه إلى المرشد فى السير والسلوك

تضمنت هذه الخطبه بعض الإشارات إلى نقطه وهى: هنيئاً لمن اقتفى آثار الهادى وواصل طريقه ببصيره من يبصيره بالطريق وأطاع من يهديه إلى الطريق القويم.

ص: ١٦٠

١- (١) «يردى» من ماده «رَدَى» على وزن «رعد» بمعنى الهلكه، أو السقوط المقرون بالهلكه و «يردى» (من باب أفعال) يعنى يهلك.

٢- (٢). «حوبه» تعنى فى الأصل الحاجه التى تسوق الإنسان إلى المعصيه، ثم اطلقت على مطلق المعاصى أو الكبائر.

وتثير هذه الخطبه وماورد في أمثالها من «نهج البلاغه» هذا السؤال: هل طى المقامات المعنويه التي يعبر عنها بالسير والسلوك إلى الله تتطلب استاذاً خاصاً طوى هذا الطريق وخبر مطباته وآفاته فيأخذ بأيدي السائرين الجدد ويوصلهم إلى الهدف؟

بعبارة أخرى: هل تكفى التعليمات الكليه التي وردت فى الكتاب والسنة لسلوك هذا الطريق أم أنّ كلّ سالك لهذا الطريق بحاجة إلى استاذ بما يناسب استعداده وروحيته ليعينه فى تشخيص الجزئيات؟ وكما لا تكفى نصائح الاطباء لجميع المرضى، بل يحتاج كلّ مريض إلى فحص وتشخيص للمرض ليصف له العلاج، فهل بلوغ المقامات المعنويه كذلك؟

طبعاً سياق الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه أنّ لجميع المؤمنين من خلال الإتيان بما ورد فى الكتاب والسنة والالتزام بالأحكام الشرعيه والالتفات إلى لطائف هذين المصدرين العظيمين، الوصول إلى ذروه الإيمان والمسارعه إلى القرب الإلهي.

فإننا لا نجد فى سيره صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحاب الأئمه المعصومين عليهم السلام من انتخاب أستاذ خصوصى، حتى الروايات التي وردت كإجابته لسؤال بعض الأفراد مفيده لعامه المؤمنين.

يستدل أنصار انتخاب الأستاذ الخاص أحياناً بهذه الأمور:

١. تشير قصه الخضر وموسى عليهما السلام إلى أنّ الله اصطفى مرشداً لموسى وكان مكلفاً بطاعه أوامره.

٢. ربّما من هذا القبيل قصه موسى وشعيب عليهما السلام.

٣. يلمس مثل ذلك فى قضيه لقمان وابنه.

٤. آيه السؤال فى القرآن المجيد: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (١) تأمر الجهال بطرح مشاكلهم العلميه والفكريه على العلماء.

٥. مضى فى الخطبه ١٠٥ من «نهج البلاغه» أنّ الإمام عليه السلام قال: «أَيُّهَا النَّاسُ

ص: ١٦١

١- (١). سورة الأنبياء، الآية ٧.

اسْتَضْبِحُوا مِنْ شُعْلِهِ مِصْبَاحٍ وَاِعْظِ مُتَّعِظًا».

٦. قال الإمام السجّاد عليه السلام: «هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ وَذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يَعْضُدُهُ»^(١).

٧. يمكن أن تكون العبارات الواردة في هذه الخطبه شاهد آخر على هذا المطلب؛ لكن أغلب ما ذكر كدليل على هذا المطلب لا يخلو من مناقشه، فالذي يفهم ممّا ورد في آيات القرآن بشأن موسى والخضر لا علاقة له بهذا المطلب.

فقد أمر موسى عليه السلام بأن يتعلم من الخضر بعض العلوم بخصوص العالم البشرى أو عدم الاعتراض على بعض الحوادث التي يستهجن ظاهرها ومن هنا لما رأى موسى عليه السلام بعض الأمور انفصل عن الخضر وواصل طريقه ولا صله لهذا الأمر بطى المقامات المعنويه والسير والسلوك إلى الله على هدى المرشد.

كما لا يلمس أدنى شيء ممّا ذكر في القصة، طبعاً لا يمكن إنكار أنّ الإنسان يسعه التعلم ممن لازم النبي وتعلم منه العديد من المطالب والتجارب.

كما يشاهد في قضيه لقمان وولده سلسله من المواعظ الكليه ذات الطابع العام وقد أوردها القرآن بهذه الصفه.

آيه السؤال أيضاً بخصوص مسأله التقليد والرجوع إلى العلماء والمجتهدين، كما استدلل بذلك في كتب الأصول، بعبارة أخرى إشاره لبيان الأحكام بصوره كليه، لا الأحكام الخاصه والشخصيه.

وقد اقتصرت الإشاره إلى هذا المطلب في روايه «البحار» وبعض خطب «نهج البلاغه».

وزبيده الكلام إن أردنا التسليم بانتخاب الاستاذ المرشد كشرط ضرورى فى طى المقامات المعنويه، فإنّ ذلك لا ينسجم مع ظواهر الكتاب والسنة وسيره أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام؛ ولكن إن أردنا التسليم به كمساعد لطفى هذا الطريق،

ص: ١٦٢

فالأمر يبدو حسناً؛ إلا أنه لا ينبغي الغفلة عن قضيه أساسيّه وهى أنّ هذا الموضوع استغل طيله التاريخ وحتى فى هذا الزمان من قبل الطالحين والمنحرفين، وفى بعض الموارد خلط بأفكار المتصوفه وتعاليمهم الشاذه لكى لا تبعد السالك عن مقام القرب فحسب، بل أبعدته عن الله تماماً.

فإن رأى الإنسان حقاً أنّه بحاجة لمثل هذا الاستاذ، عليه أن يتشدد فى اختياره خشيه أن يسلم نفسه للشيطان ظاناً أنّه الخضر والمرشد إلى الله، وإننا ننصح الجميع لاسيما الشبان الأتقياء الذين يفتشون عن الاستاذ أن يعكفوا بالدرجه الأولى على الكتب الحسنه التى ألفها العلماء الأتقياء الورعون المعروفون ومن ثم اصطفاء الاستاذ الذى ينشدون.

والجدير بالذكر أيضاً ما يراه البعض أنّ الاستاذ ضروره فى بدايه الطريق فإذا ما سار على الدرب فلا حاجة لذلك الاستاذ ولا بدّ من الانفتاح على التعاليم الإسلاميه الوارده فى الكتاب والسنة.

يستفاد من الروايات والتواريخ الإسلاميه أنّه كان للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمه المعصومين عليهم السلام أصحاب خاصين حمله أسرارهم كعلى عليه السلام بالنسبه للنبي صلى الله عليه وآله و «كميل» و «الأصغ بن نباته» و «ميثم» و «رشد» الهجرى» وأمثالهم وكذلك سائر الأئمه؛ ولكن لا علاقه لهذا الموضوع بمسأله الاستاذ والتلميذ فى أمر السير والسلوك بحيث يعين الاستاذ كل يوم درساً جديداً لطفى الطريق ويكون لكل تلميذ دروسه الخاصه، بل كما قيل إنّ أولئك كانوا حمله أسرار المعصومين عليهم السلام وعلومهم التى يعجز عن إدراكها الآخرون.

على كلّ حال لا شك فى أنّ وجود الأستاذ الخبير والعالم بالطريق يستفيد منه الإنسان فى طى الطريق المعنوى، الأستاذ الثقة من جميع الجوانب لمن الأمور الحسنه، إلا أنّ الأمر ليس كما يذهب إليه من عدم إمكانه بلوغ هذه المقامات بالكتاب والسنة وما فيهما من تعاليم، والمهم أن يكون للإنسان عزم وإرادته على طى

هذا الطريق وإلّا فالطريق واضح وسالك إن توكل الإنسان على الله فهو هاديه ومرشده.

وتؤكد في الختام ثانيه أنّ هنالك العديد من الطالحين الذين أضلوا الكثير من الشبان بهذه العناوين الزائفة على أنّه المرشد والدليل فلا بد من الاحتياط والحذر الشديد في التعامل مع هؤلاء الشياطين الذين يتلبسون بلباس الإنس.

ص: ١٦٤

كَانَ يَدْعُو بِهِ كَثِيرًا (١)

نظرة إلى الخطبه

هذه الخطبه فى الواقع مركبه من سلسله من الأدعيه العميقه المعنى والقيمه للغاية كان الإمام عليه السلام يدعو بها فى أغلب الأوقات وتتكون من قسمين:

القسم الأول: الحمد والثناء على الله الذى غذانا بهذه النعم المعنويه والماديه ولم يحجبها عَنَّا.

وسأل الإمام عليه السلام الله ثلاثاً من خلال ثلاثه أقسام قصيره وعميقه تشرع كل منها ب «اللهم»، وغالباً ما تنطوى هذه الأدعيه على جانب معنوى، وإن لم تخل من بعض العبارات الماديه، ومن المناسب التضرع بها عقب الصلاه أو القنوت وفى سائر الأوقات التى يقبل فيها الإنسان على الدعاء لينال بركاته وفضله.

ص: ١٦٥

١- (١) سند الخطبه: ورد فى «مصادر نهج البلاغه» أنّ «السيد ابن باقى» معاصر «المحقق الحلى» ذكرها فى كتاب «الاختيار» كما فى «نهج البلاغه» سوى العبارة الأخيره التى رواها بصيغته أخرى وأضاف لها سائر العبارات التى تشير إلى أنه استقاها من مصدر آخر غير «نهج البلاغه». وسترده إشارات أخرى بمصادر هذا الدعاء فى ذيل الخطبه ٢٢٥.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ بِي مَيْتًا وَلَا سَقِيمًا، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوَقِي بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُوذًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي، وَلَا مُرْتَدًّا عَنِ دِينِي، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي، وَلَا مُلْتَبَسًا عَقْلِي، وَلَا مُعْدَبًا بِعِدَابِ الْأَمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصِيَّبْتُ عَيْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَّقِي إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي.

الشرح والتفسير: اللهم كل شيء لك

هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام ليس خطبه، بل دعاء عميق المعنى جمع فيه جميع خير الدنيا والآخرة.

فقد حمد الله واثني عليه على إنقاذه له من عشره أشياء من شأن كل منها سلب رزق الدنيا والآخرة، فقال في أربعه أقسام منها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ بِي مَيْتًا وَلَا سَقِيمًا، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوَقِي (١) بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُوذًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي (٢)».

العباره «لَمْ يُضَيِّعْ» إشاره إلى أن الإنسان يمكنه النجاح في حياته حين يكون سليماً نشيطاً منذ تباشير الصباح ولا بد من شكر الله على هذه النعمه.

العباره «وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوَقِي بِسُوءٍ» فسرها طائفه من شراح «نهج البلاغه»

ص: ١٦٧

١- (١). «عروق» جمع «عرق» على وزن «حرص» مجارى الدم فى البدن واطلقت على أصل كل شيء وجذره.

٢- (٢) «دابر» تعنى فى الأصل الظهر أو الشخصص التابع ومن هنا يطلق على الأولاد والأجيال التى تعقب الإنسان «دابر».

بأنها إشارة إلى الأمراض التي تشوّه شكل الإنسان كالبرص والجذام، وذلك كناية عن هذا المعنى في عرف العرب، بينما فسّر البعض العروق بمعنى الأعضاء وأنّ العبارة إشارة إلى سلامه أعضاء الإنسان التي تعد من أعظم النعم.

وفسّر البعض الآخر العروق بمعناها الأصلي؛ يعنى إشارة إلى أنّ خلوّ العروق من الآفات، من النعم العظمى التي تستحق الحمد والثناء، ونعلم اليوم أنّ أحد الأمراض الشائعة والخطيرة انغلاق عروق القلب والدماغ الذي يعدّ العامل المهم للسكته القلبية والدماغية.

النعمه الأخرى الكبرى هي بقاء نسل الإنسان ووجود الأولد الصالحين الذين تعود أعمالهم الصالحة على آباءهم وأمهاتهم والتي أشير إليها بالعبارة «وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِيٌّ».

ثم أشار إلى ست نعم أخرى تستحق الحمد والشكر: «وَلَا مُزْتَدًّا عَن دِينِي، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنِّ إِيْمَانِي، وَلَا مُلْتَبِسًا (١) عَقْلِي، وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِن قَبْلِي».

ما أكثر أن يشمل الإنسان بدايه أمره بالنعم الربّانية العظيمة لكنّه قد يفقدها في أثناء مواصلته الطريق: وهناك عدد من العبارات المذكوره إشارة إلى تداوم النعم؛ نعمه الدين والإيمان والعقل، وعليه فالشمول بالنعمه يستحق الحمد والثناء وبقاؤها ودوامها كذلك، فالنعم آيله للزوال لولا لطف الله.

العبارة «وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي» بعد العبارة «وَلَا مُزْتَدًّا عَن دِينِي» من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

العبارة «وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ...» إشارة إلى العذاب الأليم والشاقّ الذي أصاب بعض الناس كالصاعقه، العواصف الشديده والزلازل العظيمة والآفات العصيبه في بدن الإنسان وروحه.

ص: ١٦٨

١- (١). «ملتبس» من ماده «لبس» على وزن «حبس» بمعنى الخطأ و «ملتبساً عقلي» بمعنى إرتباك الفكر والعقل.

العباره «وَلَا مُسَدِّتٌ تَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي» إشاره إلى أن الإنسان يمتلك الإيمان أحياناً لكنّه يخشى أن يلوّث بالمعاصي أو يخشى من زواله.

تضرع الإمام عليه السلام: أحمدك وأشكرك على إفاضه الإيمان المقرون بالسكينه.

ولما كان أحد أهم مقامات العارفين والمقربين، التسليم لأمر الله والاعتراف بالنقص تضرع الإمام عليه السلام مواصلاً دعاءه: «أَصْبَحْتُ عَبْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَقِي إِلَّا مَا وَفَيْتَنِي».

أعظم فخر للإنسان أنه عبد لله كما ورد على لسان الإمام: «إِلَهِي كَفَى بِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا»^(١).

والتعبير «ظَالِمًا لِنَفْسِي» إشاره إلى أن الإنسان لا يسعه قط أداء حق العبوديه حيث تضرع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِلَهِي مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»^(٢) فلا بد أن يكون الآخرون أولى بهذا الاعتراف بالتقصير.

ص: ١٦٩

١- (١) خصال الصدوق، ج ٢، ص ٤٢٠، ح ١٤.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٣.

اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ!
 اللهمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَرِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيْعَةٍ تَزْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي!
 اللهمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعِ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!

الشرح والتفسير: النعم المكمله

حمد الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه، الله وأثنى عليه على ما يغذيه به من نعم كبرى ويتضرع هنا إلى الله ويسأله النعم المكمله لتلك النعم السابقه من خلال ثلاث عبارات استهلها ب «اللهم»: «اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَضَامَ (١) فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ (٢) وَالْأَمْرُ لَكَ!».

فهذه العبارات الأربع التي تعود جميعاً إلى التوحيد الأفعالي تشير إلى أنّ الغنى والهدى والنصر وغلبه الأعداء وجميع المشاكل ميسره في ظلّ لطف الله؛ كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ» (٣).

ص: ١٧١

١- (١) «أضام» من «الضيم» على وزن «غيم» بمعنى الظلم والإذلال.

٢- (٢) «أضطهد» من ماده «ضهد» على وزن «مهد» بمعنى قهر و «الاضطهاد» بمعنى التأكيد قى القهر.

٣- (٣) سورة فاطر، الآية ١٥.

وقال تعالى: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي» (١).

وقال تعالى: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ» (٢).

ثم تضرع في الدعاء الثاني وطلب فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَرِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيْعَةٍ تَزْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نَعْمِكَ عِنْدِي!».

«كريمه» تعنى فى الأصل، الشخص القيم والأشياء النفيسة وهى هنا إشاره إلى أعضاء الإنسان المهمه كالعين والأذن واللسان التى تذكر كنعمه إلهيه ووديعه ربانيه لتكون إشاره إلى لطف الله ورحمته وإلى أن النعم ودائع تسترد فى خاتمه المطاف.

على كل حال فمضمون هذا الدعاء ورد بصيغته أخرى فى أدعية سائر المعصومين عليهم السلام؛ جاء فى دعاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فى أعمال ليله النصف من شعبان: «اللَّهُمَّ أَمْتِعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا» (٣).

حقاً إن الإنسان إذا فقد أواخر عمره نعمه قدره الروح والبدن والبصر والسمع فإنما يتحول إلى ميت متحرك تصبح حلاوه شهد الحياه مراره على لسانه بحيث يتمنى الموت والخلاص من هذه الحاله فى كل لحظه.

من البديهي أنه ليس المراد فى هذه الأدعية أن الله يأخذ من الإنسان فى البدايه أواخر عمره، روحه ثم بصره وسمعته، بل المراد أن أعضاءه تبقى سليمة حتى أواخر عمره.

وتضرع فى الدعاء الثالث: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعِ (٤) بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!».

تعوذ الإمام عليه السلام بالله فى هذا الدعاء من ثلاث معاصى ودواهي عظمى:

١. أن ينسى الإنسان أوامر الله ونواهيه ويمر عليها غير مُبالٍ.

ص: ١٧٢

١- (١) سورة الأعراف، الآية ١٧٨.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٠.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٤١٣، دعاء ليله النصف من شعبان.

٤- (٤) «تتابع» من ماده «تتابع» (مصدر باب تفاعل) بمعنى الحمل بسرعه نحو الشىء.

٢. أن تتسلل وساوس الشيطان إلى قلب الإنسان فتصدده عن الحقّ.

٣. أن تستولى أهواء النفس على الإنسان فتصدده عن هدى الله.

يقيناً، لو استجيبت هذه الأدعية الثلاث التي تبدأ ب (اللهم) لنال الإنسان جميع خير الدنيا وسعاده الآخره فما أحرانا أن نستحضر هذه الأدعية فإذا شعرنا بحاله الدعاء أقبلنا على الله وطلبنا منه ذلك.

أورد الإمام عليه السلام الكلام فى القسم الأوّل والثانى من هذا الدعاء، بصيغه المتكلم؛ لكنّه ذكره فى القسم الأخير بصيغه المتكلم مع الغير ليسأل الله صالحه وصالح جميع المسلمين.

ص: ١٧٣

خَطْبُهَا بِصَفَيْنِ (١)

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة من خطب «نهج البلاغه» المهمّة التي أوردتها الإمام عليه السلام في يوم صفين، فاشتملت على مباحث مهمّة تتمحور في أربعة أقسام:

١. الحقوق المتبادله بين الوالى والرعيه (الحاكم والشعب) تناول فيه القانون الكلى بشأن الحقوق فقال: الحق دائماً ذو حدين؛ فمن كان له حق على آخر فلآخر أيضاً حق عليه، وهذه مسأله مهمّة ستعرض لها إن شاء الله.

٢. شرح فى القسم الثانى حقوق الحاكم على الأئمة وحقوق الأئمة على الحاكم وأكد هنا استحاله صلاح الأئمة دون صلاح الحاكم، والعكس، أى كل من هذين الأمرين يؤثر فى الآخر.

٣. القسم الثالث إجابته الإمام عليه السلام لأحد أصحابه حيث أثنى كثيراً على الإمام

ص: ١٧٥

١- (١) سند الخطبة: ورد فى «مصادر نهج البلاغه» ذيل هذه الخطبة رواها قبل السيد الرضى المرحوم الكلينى فى «روضه الكافى»: ج ٨، ص ٣٥٢ عن الإمام الباقر عليه السلام. وما ورد فى «الكافى» أكثر ممّا ورد فى «نهج البلاغه» وتختلف بعض عباراته عمّا فى «نهج البلاغه» دون تغيير فى المعنى (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٢٩).

وعبر له عن وفائه التام، فتواضع الإمام للغايه فى الردّ عليه وصرّح له: بأننى لا استسيغ أى مدح وثناء فالعظمه لله وحده.

٤. جرى الكلام فى القسم الرابع عن العلاقه الصحيحه بين الحاكم والشعب وأكد على ضروره ابتعاد الحاكم عن التملق، والاستعداد لسماع النقد والمعارضه لينطلق المجتمع نحو الصلاح والسداد.

ص: ١٧٦

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْنَا حَقًّا بِأَوْلِيَانِيهِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْنَا، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعِدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلِكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفْضُلًا مِنْهُ، وَتَوْسَعًا بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ.

الشرح والتفسير: سعه حجم الحقوق

دعا الإمام عليه السلام في مستهل هذه الخطبه جميع صحبه إلى أداء وظائفهم من خلال بيان حقه على الأمة فقال: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْنَا حَقًّا بِأَوْلِيَانِيهِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْنَا».

فقد أشار عليه السلام إلى قضيه مهمه في باب الحكومه الإسلاميه كانت تختلف في الواقع عن جميع الحكومات آنذاك، فالحكومات المستبده كانت ترى كل شيء لها والرعيه كالعبيد ما عليهم إلا الطاعه العمياء وإن كان لها من شيء فهو منه وبالتفضل وليس حقاً من حقوقهم عليه، بينما يصرح الإمام عليه السلام، بأن الحكومه الإسلاميه حقوق متبادله؛ حق الحاكم على الأمة وحق الأمة على الحاكم وكلاهما ثقيل وذو مسؤوليته.

ثم أشار إلى قاعده كلييه وشامله في الثقافه الإسلاميه فقال: «فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ (١) ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ (٢) ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ».

حيث أشار عليه السلام في الواقع إلى أمرين:

الأول: أنّ الجميع عارفون بالحقّ وكل يتحدّث عنه ويتشددّ به لحفظ مصالحه، بينما تراه في غايه التشدد حين العمل لأداء حقوق الآخرين، وكأنّه يرى الحق أحادي الجانب.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في الأمر الثاني إلى هذا الأمر الأساسي وهو ليس هنالك من حق أحادي الجانب في أي مورد؛ فإن كان لأحد حق، كان عليه مثله؛ مثلاً، للأستاذ حق على تلميذه، كونه علمه ورباه، وللتلميذ قطعاً حق على أستاذه، فعليه أن لا يألو جهداً في تعليمه وتربيته، كونه وضع فكره وعمره وشبابه تحت تصرفه، وإن كان للدائن حق على المدين في ضروره أداء الدين في وقته، فإنّ للمدين حقّاً متبادلاً في أن يمهل إن تعذر عليه التسديد في الوقت المطلوب «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرِهِ» (٣).

وإن كان للرجال حقوق على النساء، فللنساء مثل ذلك على أزواجهنّ: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ» (٤).

بل للأبناء عليهما حقوق كثيره، كما أنّ للأبناء حقوقاً على الآباء والأمهات، ومن أراد الوقوف على سعه الحقوق المتبادله للناس على بعضهم فليراجع رساله الحقوق

ص: ١٧٨

١- (١). «تواصف» من ماده «وصف» بمعنى أنّ بعض الأشياء وصف لبعضها الآخر. وتعني في الخطبه أنّ الناس في الكلام كلّ يؤدى بشأن الحق.

٢- (٢) «تناصف» من ماده «نصف» على وزن «هدف» وعلى وزن «حرص» الانصاف ومعنى «تناصف» أنّ كلّ شخص يراعى الانصاف بحق الآخر.

٣- (٣) سوره البقره، الآيه ٢٨٠.

٤- (٤) سوره البقره، الآيه ٢٢٨.

للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام (١)، حتى الحيوان له حق على الإنسان إن كان مملوكه (٢).

ثم أشار عليه السلام إلى حق الله على العباد حتى أنّ هذا الحق ليس أحاديّاً، وإن كانت عبارته حق العباد على الله ليست مناسبة من جوانب؛ إلماً أنّ هذا الحق يبدو بلباس التفضل: «وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ».

فالكلام إشارته إلى أنّ قدره الله تقتضى من جانب أن لا يترك عباده ويلطف بهم من جميع الجهات وتقتضى عدالته من جانب آخر أن لا يصيب الإنسان أدنى ظلم، سواء فى عالم التشريع أم عالم التكوين، وعليه فهنالكَ فارق بين الله وعباده؛ فلعل العباد يفرطون بحقوق الآخرين إثر عجزهم أو الحاجات التى تضطرهم لهجر العدالة، لكن كيف يرضى القادر المطلق والعاقل على الاطلاق بضياع حقوق عباده؟! ومن هنا يمكن استثناء الحق المتبادل بشأن الله واقتصار الحق عليه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفْضُلاً مِنْهُ، وَتَوْسَعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ».

وبعبارة أخرى أنّ الله جعل لعباده حقاً عليه إزاء حقه عليهم، وإن كان هذا الحق تفضّل دون أن يكون لعباده دين عليه، كونهم لا يؤدون جزءاً من شكره مهما أطاعوه وعبدوه إزاء ما غمرهم به من نعم، ومن هنا لم يستثن حتى الله تعالى من هذا الأمر؛ أى كما له تعالى حق على العباد فهم كذلك لهم حق عليه، وإن كان هذا الحق من باب التفضل، لا الاستحقاق.

ص: ١٧٩

١- (١). أورد المرحوم العلامة المجلسى رساله الحقوق للإمام السجاد عليه السلام فى بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٠.

٢- (٢) ورد فى كتاب الحج من «وسائل الشيعة»، باب تحت عنوان «حقوق الدابة الواجبه والمندوبه» وهو مهم للغاية وأشير لهذا المعنى فى الخطبه ١٦٧.

تأمل: الثواب استحقاق أم تفضّل؟

ورد هذا البحث لدى علماء الكلام منذ القدم، هل الثواب الإلهي استحقاق أم تفضّل؟ بمعنى إن أطاع العباد أوامر الله فهل على الله إثابتهم، وإلّا كان ذلك قبيحاً عليه؟ أم ليس للعباد أى شىء على الله إن إمتثلوا أوامره وتركوا نواهيه، وإن أثابهم فمن باب اللطف والرحمة، وإلّا كان عين العدل؟

قال بعض المتكلمين الذين يميلون لمذهب الأشاعره بالتفضّل بينما ذهب مذهب الاعتزال للقول بالاستحقاق.

يرى القائلون بالاستحقاق أنّ إزام العباد بالطاعه يتضمن مشقّات، فإن كان الإلزام هدفاً فهو ظلم وقبيح ولا يصدر من الحكيم، وإن كان له هدف فليس ذلك الهدف سوى الثواب الجميل، وعليه إن لم يعط الله الثواب استلزم القبح المحال على الله، أمّا القائلون بالتفضّل فيقولون: إنّ الله غمرنا بالنعم لو فنيّا أعمارنا فى طاعته لم نؤد شكر جزء من نعمه، وعليه فلا نستحق منه شيئاً ليلزم بإعطائه.

إلّا أنّ المذهبين كأنّهما غفلاً نقطه الالتفات إليها يكشف النقاب عن هذه المسأله ويجلى الحق، وهى أنّ استحقاق الثواب حين يقدم أحد خدمه لآخر فيتوقع عليها الأجر والثواب، بعبارة أخرى، قال المذهبان بالثواب أو ما يشبهه على طاعه أوامر الله؛ فالمذهب الأوّل يقول: إنهم تلقوا أجرهم من قبل بصيغه نعم إلهيه، والثانى يرى أنّهم لا بدّ أن يحصلوا عليه لاحقاً.

والحال نعلم أنّ لجميع الأوامر والنواهى مصالح تعود لنفس المكلفين، فالصوم والصلاه والحج والجهاد سبب صفاء الروح وتكامل النفس والعزّه والرفعه وترك الذنب والغيبه والخمر والقمار ينقذهم من المفسد والانحرافات، وعلى هذا الأساس فإنّ المكلفين إنّما يخدمون أنفسهم فى الطاعه وترك المعصيه، فهل لهم أن يروا لأنفسهم أجراً على الله إزاء خدمتهم لأنفسهم؟!!

يبدو الأمر أشبه بالطبيب الرؤوف بمريضه فينصحه مجاناً ويزوده بالدواء فيلتزم بها المريض ويشفى من مرضه، فلو ذهب هذا المريض إلى الطبيب وطالبه بالأجر على طاعته لأوامره، ألا يتعجب منه الجميع ويضحكون عليه؟

وجميع الأوامر والنواهي كذلك، فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله طيب دوار بطنه وكل ما ذكره لصالح المكلفين، وعليه فلا مجال لبحث قضيه ثواب الناس إزاء الطاعة سواء استحقاقاً أم تفضلاً.

نعم كتب الله على نفسه الثواب ووعد به بلطفه وكرمه وحشاً لعباده على طاعته التي توجب كما لهم والله لا يخلف وعده لاستحاله خلف الوعد على الحكيم القادر والعالم، قال تعالى: «كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ» (١).

وقال أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» (٢).

ص: ١٨١

١- (١) سورة الأنعام، الآية ١٢، وورد هذا التعبير في الآية ٥٤ مع اضافته كلمه «رَبِّكُمْ».

٢- (٢) سورة آل عمران، الآية ٩.

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَ هَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَنَكُّافاً فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسَيِّئُ تَوْجِبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةُ فَرَضَ هَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأَلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِإِسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَبَيَّسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَاءُ، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرِعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْأَدْعَاءُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعَمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِلَّتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقِّ عَطَلٍ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلِ فِعْلٍ! فَهُنَالِكَ تَذَلُّ الْأَبْرَارُ، وَتِعْزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ.

الشرح والتفسير: حق الوالى والرعيه

أشار الإمام عليه السلام فى المقطع السابق إلى حق الله على الناس وتطرق هنا إلى حق الناس على بعضهم وأهمها حق الوالى على الأمة وحق الأمة على الوالى فقال: «ثُمَّ

جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام اعتبر حقّ الناس على بعضهم فرعاً من حقّ الله على الناس وناشئ من حقوقه، وبعبارة أخرى فإنّ حقّ الله وحقّ الناس ليسا في عرض بعضهما، بل في طول بعضهما.

ثم قال: «فَجَعَلَهَا تَنَكُّافًا (١) فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُسْتَوْجِبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ».

بعبارة أخرى لا- حقّ أحادي الجانب من هذه الحقوق، بل هي ثنائية جميعاً كما ورد في القسم السابق، فإن كان لأحد حقّ على الآخر كان هناك حقّ لذلك الآخر عليه، وعليه فهذه الحقوق متساوية ومتلازمة؛ ليس بمعنى إن لم يلتزم أحد بوظيفته كان على الآخر عدم الالتزام بها؛ مثلاً، لو لم يقيم الولد بطاعه والده يتمرد الأب على تربيته وأداء نفقته، أو إن لم تعمل طائفته من الرعيه بوظيفتها يقطع الوالى عنها الخدمات، بعبارة أخرى، أنّ هذه من قبيل اللانزوم والملزوم في مقام الوجوب، لا- في مقام التحقق والعمل؛ أى كلاهما واجب، سواء عمل الطرف المقابل بوظيفته أم لا.

ولمزيد من الإيضاح إليك هذا المثل، إن أدت الرعيه ما عليها من ضرائب وخراج سوف لن يتقاعس الوالى عن وظيفته في توفير الأمان لهم وتعليم وتربيته أولادهم ومعالجه مرضاهم وجراحهم، لأنّ كلاً من هاتين الوظيفتين مستقله وليست مشروطه بالأخرى في مقام العمل، وإن تشابكتا كوجوبين في مقام التشريع.

وقال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانُهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ (٢)، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ».

ص: ١٨٤

١- (١). «تنكافاً» يعنى تتساوى من ماده «كفو» على وزن «كفر» التساوى فى المقام والمنزله والقدر، ثم اطلقت على كلّ شبيهه ومثيل.

٢- (٢). «رعيّه» من ماده «رعى» على وزن «سعى» بمعنى الحفظ والمراقبه والمراعاة. ومنه «الراعى» لأنّه يحفظ الماشيه ويقال للحاكم «راعى» لأنّه يرمى الناس ويطلق على الناس «رعيه» لأنّهم تحت رعايه وحفظ الحكومه.

ثم خاض الإمام عليه السلام في فلسفه هذين الحقيين فقال: «فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأَلْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِذِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ».

فرعايه هذه الحقوق لها في الواقع آثار مادية مهمه ومعنويه فالعباره «فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأَلْفَتِهِمْ» إشاره لآثارها المادية والظاهرية والعباره «عِزًّا لِذِينِهِمْ» لآثارها المعنويه والروحيه، وإلى هذه الحقيقه أشارت العبارتان بعدها إلى صلاح الرعيه والوالى وفسادهما تداخلا مع بعضهما ولكل منها أثره على الآخر، فالوالى الفاسد يسوق الرعيه إلى الفساد والرعيه الصالحه تضطر الوالى لقبول الحق والعدل، وإن صلحا معاً توفرت أفضل الظروف لرقى المجتمع وتطوره.

ثم خاض في الآثار السلبيه لتقاعس الطرفين في أداء الحقوق، بعباره أوضح وأبلغ عدّد هذه الآثار الواحد تلو الآخر فقال: «فَإِذَا أَذَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَدْلَالِهَا (١) السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدُّوْلَةِ، وَبَيَّسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ».

فقد بين الإمام عليه السلام هنا سبعة آثار مهمه لأداء الحقوق المتبادل بين الوالى والرعيه؛ أولها: العزّه والاقتدار، وثانيها: قيام مناهج الدين وضعف البدع، وثالثها: ارتفاع رايه العدل في البلاد الإسلاميه، ورابعها: إحياء السنّه، وخامسها: كنتيجه لما سبق، صلاح الوسط الاجتماعى، وسادسها: الطمع في بقاء الحكومه ودوامها، وسابعها: يأس الأعداء، وقد اتضح هذا الأمر على عهد النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله حيث كان أعظم مؤد لحقوق الأمه وكانت أغلبيتها الساحقه تؤدى حق الطاعه فبدت واضحه تلك الآثار السبعه.

ص: ١٨٥

١- (١). «اذلال» جمع «ذلّ» على وزن «ظلّ» بمعنى جاده محكمه ومستقيمه وبسبب كثره المرور عليه أصبحت قويه، وأصل هذه الكلمه مأخوذه من «ذلت».

وأما في عهد أمير المؤمنين عليه السلام وإن احييت السنن الإسلاميه والعدل والقسط إلى حد معين، غير أن الانحرافات التي حدثت عقب وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله طيله ٣٥ سنة الواحد تلو الآخر والتي أدت في الختام إلى الخروج على حكمه عثمان، وبالتالي قتله، جعلت من المتعذر إعادة المسيره لما كانت عليه خلال المدّه القليله لحكمه الإمام على عليه السلام وبقاء العناصر الخطيره من الحكومات السابقه كمعاويه وبنى أميه وبنى مروان، الحقيقه التي يعترف بها كل من تمعن بهذه الحقيقه من التاريخ الإسلامي دون تعصب وباستطاعه المسلمين اليوم الظفر بعزتهم واقتدارهم بالاستلهاهم من كلمات الإمام عليه السلام وانسجام الولاه والرعايا والحكام والشعوب.

ثم تناول الإمام عليه السلام الآثار السيئه لتقاعس الوالى والرعيه عن حقوق بعضها البعض وقال: «وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالرِّبَا، أَوْ أَجْحَفَ (١) الْوَالِي بَرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَ الْبُحُورِ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ (٢) فِي الدِّينِ، وَتَرَكْتُ مَحَاجَّ (٣) السُّنَنِ، فَعَمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النَّفُوسِ».

فبين الإمام عليه السلام أيضاً سبع مفاصد لعدم الانسجام بين الحاكم والشعب والذي لمسناه كراراً في حكومات الجور؛ اختلاف الكلمه، الظلم والجور، البدعه والخذاع، ترك المنهاج الواضح، العمل بالأهواء والاستبداد، ثم تطرق اثر ذلك إلى النتيجة النهائيه لهذه الأوضاع المؤسفه فقال: «فَلَا يُشِيءُ تَوْحَشُ لِعَظِيمٍ حَتَّى عَطَّلَ، وَلَا لِعَظِيمٍ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعَزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبَعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ».

فهذه الأمور الخمسه نتيجه مباشره وغير مباشره لحكومات الجور، فالناس في ظل هذه البيئه يعتادون على إبطال الحقوق ولا يكثر ثون لرواج الباطل فتصبح هذه

ص: ١٨٤

- ١- (١). «اجحف» من «الإجحاف» هضم حقوق الآخرين ومادته الأصليه «جحف» على وزن «محو» بمعنى إزاله الشىء.
- ٢- (٢). «ادغال» إدخال ما يفسد الشىء. من ماده «دغل» على وزن «دخل» الدخول فى مكان خفيه لاغفال الصيد.
- ٣- (٣) «محاج» جمع «محجه» الجاده الواضحه والسويه من «الحج» بمعنى القصد فالإنسان يقصد دائماً الطريق الواضح.

الأمر قضايا عاديه لمسنا نماذجها طيله التاريخ وفي عصرنا، فمن الطبيعي أن لا يشق طريقه صوت الأخيار والأطهار الذين يتبنون الحق ويناهضون الباطل وينحون من الميدان، وبالعكس تكون المناصب الحساسه بيد الأشرار والملوثين المسيرين لذلك الجوع، الأمر الذى حدث على عهد حكومه الخليفه الثالث؛ فنفى أبوذر وتسلب مروان وواصل أمثال معاويه ذلك الطريق فقتل من على شاكلة عمار حتى بلغ الأمر يزيد وابن زياد فقتلا أظهر نسل النبي صلى الله عليه وآله وصحبه.

ومن البديهى أن يمسك الله لطفه فى هذه الظروف عن الرعيه وواليتها ويؤاخذهم بتبعات أعمالهم.

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا اللَّهُ سَبِّحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَنْبَعِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزَلَتُهُ، وَتَقَدَّمَ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغُرَتْهُ النُّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: ضرورة التعاون في أداء الحقوق

دعا الإمام عليه السلام هنا الجميع بما فيهم الوالى والرعيه لما فرغ من الوصيه بشأن حق الوالى والرعيه بالتعاون مع بعض، ثم أشار إلى ثلاثه أمور اجتماعيه مهمه فقال فى القسم الأول: «فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ».

ثم اتجه صوب الأمور الثلاثه المهمه فقال بادئ الأمر - بغيه عدم اغترار الأفراد وأن لا يظنوا أنهم أتوا بوظيفتهم بهذا الخصوص بأحسن وجه ويتوقفوا بالنتيجه عن الحركه - «فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا اللَّهُ سَبِّحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَنْبَعِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ».

وهذا أصل كلّى أنّ الإنسان إن رضى تماماً عن عمله ولم ير فيه نقصاً وخللاً،

كفَّ عن الحركة وتعثرت مسيرته نحو الكمال، والأمر كذلك فليس للسمو والتكامل وجلب رضى الله من حدود ليقنع بها الإنسان، فلا بد من الاعتراف بالتقصير دائماً وبذل الجهد على الدوام، وعليه فليس هنالك من يستغنى عن وعظ الآخرين، لأنَّ النقص والتقصير يبدو أظهر للآخرين، بينما يحول حبّ الذات دون رؤيته.

ورد في حيث مفضّل عن الزهري، قال: «دخلت مع علي بن الحسين عليهما السلام على عبد الملك بن مروان قال: فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليه السلام فقال: يا أبا محمد لقد بين عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من الله الحسنى وأنت بضعه من رسول الله صلى الله عليه وآله قريب النسب وكيد السبب... وأقبل يثنى عليه ويطريه، قال: فقال علي بن الحسين عليه السلام: كل ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم...؟ كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقف في الصلاة حتى تورم قدماه، ويظماً في الصيام حتى يعصب فوه، فقيل له: يا رسول الله! ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبداً شكوراً..»

والله لو تقطعت أعضائي وسالت مقلتي على صدرى لن أقوم لله جلّ جلاله بشكر عشر العشر من نعمه واحده من جميع نعمه التي لا يحصيها العادون، ولا يبلغ حدّ نعمه منها في جميع حمد الحامدين»(١).

ثم قال في بيان ذانك الأمرين: «وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزَلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغُرَتْهُ النَّفْسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ (٢) الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ».

إشاره إلى ضروره إدراك الجميع لهذه الحقيقه أن ليس أحد من الأقوياء ولا الضعفاء في المجتمع غنى عن الآخر، فالله لم يودع شخصاً كلّ شيء، فقد جعل في

ص: ١٩٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٦، ح ١٠.

٢- (٢) «اقتحمت» من «الإقحام» الإخفاء أو الدخول في عمل دون تروّ وتعنى الاحتقار والازدراء ومادته «قحم» على وزن «فهم».

كلّ رأس فكراً وفي كل بدن قوّه وقدره؛ صغيراً كان أم كبيراً، وعليه فليس لمن كان مقتدرأً من حيث الفكر والإداره والقوه البدنيه أن يرى نفسه غتياً عن عون أضعف أفراد المجتمع، كما لا- ينبغى للأفراد الضعفاء والعاجزين ظاهرياً أن يتصوروا أنّهم ليس لهم دور في إداره شؤون المجتمع.

روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «غريبان: كَلِمَةُ حِكْمَةٍ مِنْ سَفِيهِ فَأَقْبَلُوهَا وَكَلِمَةُ سَفَهٍ مِنْ حَكِيمٍ فَأَغْفِرُوهَا فَإِنَّهُ لَا حَكِيمٍ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ وَلَا سَفِيهِ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ» (١).

والتاريخ يحتفظ في ذاكرته بالعديد من مثل هذه الحوادث منها ماورد في المعتصم:

لما خرج ملك الروم، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه، وبلغه أنّ امرأة هاشميّة صاحت وهي اسيره في أيدي الروم: وامعتصماه، فأجبتها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، ونهض من ساعته وصاح في قصره:

النفير النفير، وبلغه أنّ عموريه عين النصرانيه وأشرف عندهم من القسطنطينيه، فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الأدم وغير ذلك، وفرّق عساكر ثلاث فرق، فخرّبوا البلاد الروم وقتلوا كثيراً وأحرقوا ووصلوا إلى فانوريه، ثم اجتمعوا في عموريه وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت في غايه الحصانه.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في كتابه المسمى بالمسامره فتح عموريه فقال: فتحها المعتصم في رمضان سنه ثلاث وعشرين ومائتين، وسبب فتحها أن رجلاً وقف على المعتصم فقال: يا أمير المؤمنين كنت بعموريه وجاريه من أحسن النساء أسيره قد لطمها عالج على وجهها، فنادت: وامعتصماه، فقال العالج: وما يقدر عليه المعتصم يجيء على أبلق ينصرك! وزاد في ضربها، فقال المعتصم: وفي

ص: ١٩١

أىّ جهه عموريه، فقال له: الرجل هكذا، وأشار إلى جهتها، فردّ المعتصم وجهه إليها، وقال: لبيك أيتها الجارية، لبيك هذا المعتصم بالله أجابك، ثمّ تجهز إليها فى اثنى عشر ألف فرس أبلق وفى هذه التلبيه يقول له فى قصيده أبو تمام حبيب الطائي:

لَبِيْتُ صَوْتًا رَطْبِيًّا قَدْ هَرَقْتَ لَهْكَاسَ الْكُرَى وَرَضَابَ الْحَرْدِ الْعَرَبِ

فلما حاصرها وطال مقامه عليها، جمع المنجمين، فقالوا له: إنا نرى أنّك ما تفتحها إلّا فى زمان نضج العنب والتين، فبعد عليه ذلك واغتمّ لذلك، فخرج ليله متجسّساً فى العسكر يسمع ما يقول الناس، فمرّ بخيمه حدّاد يضرب نعال الخيل، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة بضرب نعال الخيل ويقول: فى رأس المعتصم، فقال له معلمه: اتركنا من هذا، مالك والمعتصم فقال: ما عنده تدبير، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة على قوّته ولا يفتحها، لو أعطانى الأمر ما بتّ غداً إلا فيها، فتعجّب المعتصم ممّا سمع وانصرف إلى خيامه وترك بعض رجاله موكلاً بالغلام، فلمّا أصبح جاءوا به فقال: ما حملك يا هذا على ما بلغنى عنك؟

فقال: الذى بلغك حقّ، ولكن ما وراء خبائك، وقد فتح الله عموريه فقال: قد وليتكم، وخلع عليه وقدمه على الحرب، فجمع الرماه، واختار منهم أهل الإصابه وجاء إلى بدن من أبدان الصور وفى البدن من أوّله إلى آخره خطّ أسود من خشب، عرضه ثلاثه أشبار أو أكثر، فحمى السهام بالنار وقال للمراه: من أخطأ منكم ذلك الخطّ الأسود ضربت عنقه، وإذا بذلك الخطّ خشب ساج، فعند ما حصلت فيه السهام المحميّه قامت النار فيه واحترق، فنزل البدن كما هو، وتحامى الرجال، ودخل البلد بالسيف، وذلك قبل الزمان الذى ذكره المنجمون، وفى ذلك يقول أبو تمام حبيب الطائي فى قصيدته التى امتدح بها المعتصم عند فتح عموريه:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

تأمل: الحكومات الشعبيه

كثّر الكلام فى عالمنا المعاصر عن الحكومات الجماهيريه؛ لكنها غالباً ما تنتهى إلى دكتاتوريات مرثيه وغير مرثيه تقتصر على حفظ مصالح الأقوياء والغاصبين، كونها تفتقر إلى العنصر المعنوى والورع السياسى.

وقلنا غير مرثيه، كون الطغاه يستعينون بالوسائل الاجتماعيه المتطوره وأبواق الدعايه فى غسل أدمغه الجماهير ويصادرون آراءهم بوعودهم المعسوله، والنموذج الواضح فى عصرنا: الديمقراطيه الأمريكيه

أضف إلى ذلك فإنّ آراء هذه الحكومات فى أفضل صوره حكومه النصف زائد واحد ونتيجه ذلك الاصطفاف بين الطبقة الحاكمه والنصف ناقص واحد، وقد رأينا فى عصرنا مراراً الحكومات التى تتسلم الحكم من خلال آراء الشعب وحيث لم يعملوا لصالح الجبابره فقد سعوا بشتى الوسائل لإسقاطهم، فنجحوا فى أغلب الحالات، وكلّ ذلك كونهم يفتقرون فى حكومتهم الماديه للغايه للشرط الأساس المتمثل بالعنصر الروحى، وعدم شعورهم بالمسؤوليه أمام الله.

وما ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه يشير إلى سياده الشعب بأحسن صورها، فقد تطرق بادئ الأمر إلى العنصر المعنوى للحكومه وذكر الجميع أنّكم تغرقون بنعم الله بحيث لا يسعكم شكر عشر أعشارها مهما اجتهدتم فى طاعته

ثم يوصى الحكام أنكم لا تستغنون عن مساعده كل فرد في المجتمع

ص: ١٩٢

مهما بلغت من القوه والعلم والتجربه والفطنه، فلا بدّ لكم من إشراك الجميع والاستعانه بهم.

ثمّ ذكر الجماهير بعدم اعتزال المساهمه فى إداره شؤون المجتمع كيفما كانت أعمارهم ومستوى علومهم، فلا بدّ من تضافر الجهود والتركيز على عنصر التقوى فى تشكيل الحكومه المرضيه لله والمجتمع (1).

ص: ١٩٤

١- (١) تمرّ علينا حين كتابه هذه السطور حادثتان مهمتان هزتا العالم الإسلامى: الأولى: حادثه الإهانه الأليمه للنبي صلى الله عليه وآله بتلك الصور المستهجنه التى عكستها أجهزه الإعلام الغربيه والتى انطلقت من الدانمارك لتعم أكثر البلدان الأوربيه وموجه استنكار المسلمين التى عمّت العالم وقاطعوا بضائع تلك الدول حتى اضطروا للتراجع ودخلوا مرحله الاعتذار. أمّا الحادثه الثانيه فكانت الجريمه التى انتهكت حرمة ضريح العسكرين عليهما السلام حيث استيقظ المسلمون يوم الأربعاء عام ٢٠٠٦ ليروا أيادى الاستعمار والاستكبار والعملاء الرعاع قد أحالوا الضريح إلى ركام من التراب من خلال خطه مدبره مسبقاً، فأجج مشاعر العالم الإسلامى برمته دون الاقتصار على الشيعه، مستنكره تلك الجريمه التى سعت لبث الفرقة بين المسلمين وإثاره الحرب الأهليه، جدير ذكره أنّ كلّ هذه الأمور كانت تهدف إلى مواجهه الحكومات الشيعيه التى تسلمت الأمور فى العراق وفلسطين. «اللهمّ فرّق جمعهم وشئت شملهم وخذهم أخذ عزيز مقتدر».

فَأَجَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، يُكَيِّزُ فِيهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ سَمْعَهُ وَطَاعَتَهُ لَهُ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصِيرَ عِنْدَهُ لِعَظْمِ ذَلِكَ كُلِّ مَاسِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظَّمَتْ نِعْمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَطَفَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمِ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أزدَادَ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظْمًا. وَإِنَّ مِنْ أَسِيخِفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحِبُّ الْأَطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنِ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظْمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ. وَرُبَّمَا اسْتَحَلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعِيدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيهِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَفْرَغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا.

الشرح والتفسير: الشكر على الواجب

لما بلغ الإمام عليه السلام العبارة الأخيره من القسم السابق «فَأَجَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، يُكَيِّزُ فِيهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ سَمْعَهُ وَطَاعَتَهُ لَهُ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:».

لم يذكر شراح نهج البلاغه من كان ذلك الشخص، إلا أن المرحوم الكليني ذكر في «الكافي» كلاماً طويلاً بين أمير المؤمنين عليه السلام وذلك الرجل، ثم قال: ولم يشاهد

أحد ذلك الرجل بعد ذلك الكلام(١).

ومن هنا احتمال المرحوم الكليني أنّ ذلك الرجل هو الخضر عليه السلام الذي كان يرد في بعض المواقع الحساسة على الإمام عليه السلام فيؤدى وظيفته ثم يختفى عن العيون:

على كلّ حال حسب روايه «الكافي» فإن ذلك الرجل قال:

«أنت أميرنا ونحن رعيتك، بك أخرجنا الله عزّ وجلّ من الذلّ وإعزازك أطلق عباده من الغل، فاختر علينا وأمض اختيارك وائتمر فأمض ائتمارك فإنك القائل المصدّق والحاكم الموفّق والملك المخوّل لا نستحلّ في شيء معصيتك ولا نقيس علماً بعلمك، يعظم عندنا في ذلك خطرک ويجلّ عنه في أنفسنا فضلك».

فردّ عليه الإمام عليه السلام فأستأنف مدحه وثناءه وتكررت هذه القضية مراراً ثم اختفى الرجل(٢).

على كلّ حال ما ورد في «نهج البلاغه» أنّ الإمام عليه السلام أجابه: «إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَضْعُرَ عِنْدَهُ لِعِظَمِ ذَلِكَ كُلِّ مَا سِوَاهُ».

يبدو واضحاً تماماً هذا المعنى من خلال الالتفات إلى أنّ ذات الله وجود مطلق من جهه ولا متناهي من حيث العلم والقدرة وكل ما سوى الله، قطره إزاء بحر عظيم متلاطم، كما ورد ذلك في خطبه همام في صفات المتقين: «عَظَّمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ». فمن تطلع لقرص الشمس كان ضوء الشمعه لا شيء بنظره.

ثم أضاف عليه السلام: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَطَفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أزدَادَ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظَمًا». هذا الكلام في الواقع جواب على مديح ذلك الرجل المحبّ للمولى عليه السلام، أى لا تظن أنّ

ص: ١٩٦

١- (١) الكافي، ج ٨، ص ٣٥٥.

٢- (٢) المصدر السابق.

كلامك يسوقني للكبر والغرور، فأولاً: أنا عرفت الله بعظمته وما سواه صغير حقير بنظري. وثانياً: أنا مشمول بنعم جمه وعلّي أن أخضع أكثر من الآخرين لولى نعمتى.

وقال مكماً ومؤكداً هذا الكلام: «وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ (١) حَالَاتِ الْوُلَاهِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْ يَكُونَ جَالٌ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحِبُّ الْإِطْرَاءَ (٢)، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ».

صحيح أنه طبق بعض الاحتمالات كان ذلك المادح هو الخضر عليه السلام ولم ينطق سوى بالحق وما أورده كان فى الإمام، بل أكثر من ذلك، إلّا أنّ الإمام أشار إلى أمر ضرورى وهو أننى لا استحسن حتى الثناء بالحق فلعله يخلق انطباعاً لدى السامع فيظن أنه يحب هذا الكلام ويتصف بالكبر والفخر والعجب الذى يؤثر سلباً على علاقه الإمام بالأئمه.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلَوْ كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكِ لَمَرَّكَتُهُ انْحِطَاطاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ».

«وَرَبَّمَا اسْتَحَلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثَنُّوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَفْرَغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابَدٍ مِنْ إِمْضَائِهَا».

ورد فى النسخه الموجوده فى المتن المذكور «وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ» إشاره إلى تقوى الإمام عليه السلام وخشيته فى أداء حقوق الناس، بينما ورد فى بعض نسخ «نهج البلاغه» ومتن «الكافى» «بقية» ومعنى ذلك، ما زالت لكم على بقيه حقوق لابد أن أجد فى أدائها، فقد أبان الإمام عليه السلام فى هذه العبارة غايه رفعته، حيث بين عدم إكترائه بالمدح والثناء من جانب ومنتهى خضوعه لله من جانب آخر وبالتالي اعترافه بعدم أداء الحقوق بصوره كامله، الأمر الذى قلما نجده فى زعيم طيله التاريخ.

ص: ١٩٧

١- (١). «اسخف» من «السخف» على وزن «قفل» و «سخافه» ضعف العقل والجهل.

٢- (٢) «إطراء» من «الطراوه» الجديد، وتعنى المدح والثناء من باب الإفعال.

١. المدح والثناء

مدح الآخرين والثناء عليهم على نوعين؛ نوع ايجابي وبنّاء وسبب حركه الخدام ويأس الخونه ورقى المجتمع، والآخر مدعاه للخراب والتخلف وتقويه شوكة الظلمه، وللنوع الأول ثلاثه شروط: الأول، مدح من يستحق المدح، الثانى، عدم خروج المدح عن حده، والثالث، ألا يكون هدف المادح التقرب إلى الممدوح وتحقيق الاطماع.

قال النبى صلى الله عليه و آله: «إِذَا مَدِحَ الْفَاجِرُ اهْتَزَّ الْعَرْشُ وَعَظِبَ الرَّبُّ» (١).

وورد فى حديث آخر: «الثناءُ بِأَكْثَرِ مِنَ الإِسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الإِسْتِحْقَاقِ عَيٌّْ أَوْ حَسَدٌ» (٢).

ولا ينبغى الغفله عن هذا الأمر فى ضروره الأخذ بنظر الاعتبار قابليه الممدوح؛ حذراً من أن يدعوه المدح للغرور ويحرفه عن الحق، كما ورد فى قصار كلمات الإمام على عليه السلام: «رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ» (٣).

لا شك فى أن كل هذه الأمور مع أخذها بنظر الاعتبار فإن المدح والثناء دلالة على التقدير ومعرفه الحق ومدعاه لتشجيع الأخيار والصالحين.

وتعقد اليوم العديد من التجمعات لتكريم المهرة من خدمه المجتمع والعلماء الأعلام وأصحاب الكفاءات العاليه وتقدم لهم الجوائز تقديرأ لجهودهم مثلاً للكتاب جراء أفضل كتاب للسنة والعمال والفلاحين النموذجيين ورسائل السلام والصدقه فى العالم وتكريمهم وتقديرهم، والتي تلعب دوراً بناءً إن لم تكتسب صبغه سياسيه وتقدم الروابط على الضوابط وحفظ الشرط الثالث المذكور فى حسن نيه المشرفين.

ص: ١٩٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٢.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٣٤٧.

٣- (٣) المصدر السابق، الكلمه ٤٦٢.

إلا أن النوع الثاني يناقضه تماماً؛ أي إذا مُدِحَ الأشرار وغير المستحقين وأثنى عليهم أكثر من الحد وكانت دوافع ذلك العوامل السياسية والحبّ والبغض الشخصى تشجّع الطالحون ويئسّ الفضلاء والخيرون، فينفرد المتملقون فى الميدان والمجتمع ويتوقع الصادقون المخلصون.

قال على عليه السلام: «إياك وَالْمَلَقُ فَإِنَّ الْمَلَقَ لَيْسَ مِنْ خَلَاتِقِ الْإِيمَانِ»(١).

وقال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «أُحْثُوا فِى وُجُوهِ الْمُدَّاحِينَ التُّرَابِ»(٢).

والنقطة الأخيرة فى هذه الرسالة ونرى من الضرورى ذكرها أن للمدح أحياناً جانباً إيجابياً ويتصف بالشروط المذكوره، لكنه يخلق حاله شاذه لدى الرأى العام ويتهم الممدوح بحب المادح وهذا ما ينبغى أيضاً الابتعاد عنه، وأكثر ما ورد فى هذه الخطبه من هذا القبيل.

٢. أسنه التملق

التملق كما قيل، المدح والثناء الذى يتجاوز الحدود والكلام الجُراف فى فضائل الأفراد للتقرب منهم والاستفاده من منافعهم الماديه، حتى ذكر الصفات الحقيقيه لشخص دون الإشاره إلى نقاط ضعفه يعدّ نوعاً من التملق، وأبعد من ذلك ما يفعله بعض المتملقين ممّن جعل نقاط الضعف كنقاط القوّه والتملق عاده لأرباب القدره والجاه والذى يعتبر من أعظم المخاطر التى تهدد الولاه والحكام والمدراء، لأن أول شرائط الإدارة المعرفه بالحقائق المتعلقة بحيز الإدارة والمتملقون يغطون الحقائق ويخفونها عن انظار المدراء والمسؤولين فيخلق ما لا يحصى من المفاسد.

والعجيب أن الزعماء الضالين غير المؤهلين غالباً ما يشجعون المتملقين ويمتعظون من قول الحق ويشعرون بالهدوء الكاذب من تملق المتملقين.

ص: ١٩٩

١- (١) غرر الحكم، الحكمة ٢٦٩٦.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١١.

وقد عدَّ الإمام عليه السلام التملق من أسوأ الأمراض أو مرض لا علاج له «أدوى الداء الصلف»^(١) واحد معاني الصلف التملق والآخر مدح الذات.

وقال في موضع آخر: «إِنَّمَا يُحِبُّكَ مَنْ لَا يَتَمَلَّقُكَ»^(٢).

وقال: «لَيْسَ الْمَلَقُ مِنْ خُلُقِ الْأَنْبِيَاءِ»^(٣).

ولا ينبغي أن ننسى أن التملق يتم تاره بصورة مباشرة وأخرى غير مباشرة أو عن طريق النثر أو الشعر أو العمل وكل آثاره السيئه متساويه.

ص: ٢٠٠

١- (١) عيون الحكم والمواعظ، ص ١١٧.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ١٧٧.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٤٠٩.

فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يَتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَتَّظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقِّ قِيلَ لِي، وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتِثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكْفُوا عَنْ مَقَالِهِ بِحَقِّ، أَوْ مَشُورِهِ بِعَدْلِ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى.

الشرح والتفسير: لا تملقوا أمامي

جانب مهم من هذه الخطبة - كما أشرنا - في بيان حقوق الوالي والرعيه وقد غير الإمام عليه السلام مسار الخطبه بعد أن أثنى عليه أحد الحاضرين إلى جانب خاص من حقوق الوالي والرعيه وهو ترك المدح والثناء على الولاه والحكام.

ثم خاض هنا آخر الخطبه في آفه أخرى من آفات الحكام والناس في أن إرتباطهم ببعضهم علاقه تملق وكتمان الحقائق المريره لصعوبتها وترك النقد الصائب والبناء فقال: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يَتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ (1)، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ».

ص: ٢٠١

١- (١) «بادره» من «البدور» على وزن «غروب» تعنى فى الأصل المسارعه إلى القيام بعمل و «بادره» الحركات السريعه والخاطئه التى تصدر من الغاضب.

إشاره إلى أنّ العاديين من الأفراد حين يقفون بين يدي الجابره يخفون شخصيتهم الحقيقيه ويتحفظون عن كلّ نقد وشكوى واعتراض حذراً من أن يغضبوا عليهم، ويسعون بالعكس إلى الأمن من شرّهم بالمدح والثناء والتملق، ومن هنا فلا تتضح لهم قط الحوادث الحقيقيه في المجتمع فيغطون في وادي الضلاله والجهل.

يطمئن الإمام عليه السلام كلّ مخاطبيه بضروره بثّ ما لديهم من شكوى ومشكله فهم أحرار في ما يقولون بشأن الحكومه والمجتمع.

نعم فهذه إحدى الفوارق البارزه بين حكام العدل والجور، ورد في «العقد الفريد»: وقام رجل إلى هارون الرشيد، وهو يخطب بمكّه، فقال: «كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»^(١). فأمر به فضرب مائه سوط، فكان يئن الليل كله ويقول:

الموت! الموت! فأخبر هارون أنّه رجل صالح، فأرسل إليه واستحلّه فأحلّه^(٢).

وجاء في نفس هذا الكتاب أيضاً: جلس الوليد بن عبدالملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال:....، إنّ الوقت لا ينتظرک، وإنّ الربّ لا يعذرک، قال: صدقت: ومن قال مثل مقالتك، فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامک، من هاهنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه^(٣).

بينما رأينا مراراً في سيره أمير المؤمنين عليه السلام أنّ عدداً من المنافقين تفوهوا بأسوأ الكلمات بحضرته كالأشعث بن قيس وبعض الخوارج، فلم يتعرّض لهم قط.

ثم قال مواصلاً ذلك الكلام: «وَلَا تَنْظُنُوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقِّ قِيلَ لِي، وَلَا التَّمَّاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتِثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ».

إشاره إلى أنّ الذين لا يطيقون سماع الانتقاد أعجز عن ممارسه الإصلاح، ومن هنا يوغلون كلّ يوم في مزيد من الظلم والفساد، وشجع الإمام عليه السلام في تأكيد هذا

ص: ٢٠٢

١- (١). سورة يوسف، الآية ٣.

٢- (٢) العقد الفريد، ج ١، ص ٥٣، (طبق نقل شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٤٤٧ و ٤٤٨).

٣- (٣) المصدر السابق.

الكلام جميع مخاطبيه بيان الحق صراحه وذكر المشاكل الفرديه والاجتماعيه والتأكيد على العداله الاجتماعيه فقال: «فَلَا تَكْفُوا عَنْ مَقَالِهِ بِحَقِّ، أَوْ مَشُورِهِ بِعَدْلِ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِيَّ، وَلَا آمَنْ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي».

الجملة «فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِيَّ» كانت مبرراً لبعض مخالفى عصمه الأئمه وأكثروا الضجيج بشأنها، بينما العباره «إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي» تفسرها بصراحه، فمفهوم العباره الأولى أتى كإنسان لا آمن الخطأ، ومفهوم العباره الثانيه لى وضع آخر فى ظل رعايه الله، شبيهه ما أورده القرآن بشأن النبى يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا- أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ»(١).

إشاره إلى أن يوسف عليه السلام كإنسان يخشى عليه أن يتلوث بأهواء امرأه العزيز، إلا أن مشاهده برهان الرب الذى يشير إلى مقام وعصمه يوسف ومعرفته الرفيعه بالله، حفظته من ذلك.

أضف إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام فى مقام تربيته وتعليم أصحابه فيرشدهم إلى احتمال الخطأ على أنفسهم مهما كانوا؛ لكنه يضع نفسه فى زمرتهم تواضعاً، على كل حال لا ينبغى التذرع بهذه العباره إزاء كل الأدله على عصمه النبى والإمام.

قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ. قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ»(٢).

والشاهد البليغ الآخر على ما قلنا ما أورده الإمام عليه السلام أواخر الخطبه ٩٧: «وَإِنِّي لَعَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّ وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْقُطْبُ لَقُطًّا».

وعلى هذا الضوء فالإمام عليه السلام يؤيد أنه سائر على الصواب دائماً بلطف الله ولا سبيل للخطأ إليه.

ص: ٢٠٣

١- (١) سورة يوسف، الآية ٢٤.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٣٢٩.

ثم قال فى إكمال وتأيد الكلام المذكور: «فإنَّما أنا وأنتُم عبيدٌ مملوكونَ لربِّ لا ربَّ غيرُهُ؛ يملك مِنَّا ما لا نملك مِن أنفسنا، وأخرَجنا ممَّا كُنَّا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى».

وكما ذكر فإنَّ روايه فى «الكافى» حيث وردت هذه الخطبه أطول ممَّا ورد فى «نهج البلاغه»، والسيد الرضى اقتطف فى الواقع جوانب من الخطبه.

ونقرأ فى روايه «الكافى» قسماً آخر من هذه الخطبه:

«يقال: لم ير الرجل بعد كلامه هذا لأمير المؤمنين، فأجابه وقد عال الذى فى صدره فقال والبكاء يقطع منطقه وغصص الشجا تكسر صوته إعظاماً لخطر مرزئته ووحشه من كون فجيئته.

فحمد الله وأثنى عليه، ثم شكى إليه هول ما أشفى عليه من الخطر العظيم والذل الطويل فى فساد زمانه وانقلاب جدّه وانقطاع ما كان من دولته ثم نصب المسأله إلى الله عزَّ وجلَّ بالامتنان عليه والمدافعه عنه بالتفجع وحسن الثناء، فقال: يا ربَّانى العباد ويا سكن البلاد أين يقع قولنا من فضلك وأين يبلغ وصفنا من فعلك أنى نبلى حقيقه حسن ثنائك أو نحصى جميل بلائك فكيف وبك جرت نعم الله علينا وعلى يدك اتصت أسباب الخير إلينا، ألم نكن لذلّ الدليل ملاذاً وللعصاه الكفار إخواناً فبمن إلّأهل بيتك وبك أخرجنا الله عزَّ وجلَّ من فظاعه تلك الخطرات، أو بمن فرج عنّا غمرات الكربات...»^(١).

ص: ٢٠٤

١- (١) الكافى، ج ٨، ص ٣٥٨، ح ٥٤٥. تتمه هذا البحث فى «الكافى» لطيفه للغاية فيمكن الرجوع إلى ما ذكر. فقد اغضضنا المواصله حتى لانخرج عن اسلوبنا فى الشرح.

فِي التَّظَلُّمِ وَالتَّشْكِيِّ مِنْ قُرَيْشٍ (١)

نظرة إلى الخطبه

كما قيل في سند الخطبه فإن هذه الخطبه والخطبه ١٧٢ والخطبه ٢٦ تشترك مع بعضها في أقسام مختلفه وتبدو أنها رساله كتبها الإمام عليه السلام أواخر حكومته في الردّ على طائفه من أصحابه، فقد أصرت طائفه على الإمام أن يبيّن رأيه في الأحداث التي أعقبت عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعصر الخلفاء.

فكتب الإمام عليه السلام بناءً على إصرارهم هذه الرساله وأمر بقراءتها على الناس حتى لا يتمكن المخالفون من تزييف الحقائق وتحريف التاريخ.

أشار الإمام عليه السلام إلى قضيتين أساسيتين في هذه الخطبه:

ص: ٢٠٥

١- (١) سند الخطبه: ورد جانب من هذه الخطبه في الخطبه ١٧٢ وجانب آخر في الخطبه ٢٦ وكما مضى في سند الخطبه ١٧٢ يبدو أنّ هذه الخطبه جانب من رساله كتبها الإمام أواخر خلافته وبين فيها باختصار الحوادث التي وقعت عقب وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى ذلك الزمان وأمر أن تقرأ على الناس. وأضاف صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغه» أنّ المرحوم الكليني في كتاب «كشف المحجّه» (ص ١٨٠) طبق نقل السيد ابن طاووس في كتاب الرسائل. ويحتمل أيضاً أنّ الإمام بين بعض هذه الخطبه في مختلف المناسبات لأكثر من مره. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٣٢).

الأولى: إنه شكاً قريشاً لله أنهم اتحدوا على هضمه حقّه وأنهم قالوا له صراحه عليك أن تتنازل عن حقك في الخلافه!

الثانيه: إن الإمام عليه السلام شرح علّه عدم قيامه لأخذ حقّه لأنه لم يجد أعواناً على هذا الأمر وقد رأى الخطر محققاً بأرواح أهل

بيته.

ص: ٢٠٦

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِيدُكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَوُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا:

أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُنْمَعَهُ، فَاصْبِرْ مَعْمُومًا، أَوْ مُتَّئِسًا. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِعٌ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَيْتَةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَقِمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشُّفَارِ.

قال الشَّريفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبِهِ مُتَقَدِّمًا، إِلَّا أَنِّي ذَكَرْتُهُ هَاهُنَا لِاخْتِلَافِ الرَّوَايَتَيْنِ.

الشرح والتفسير: تحمل الصعاب

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِيدُكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَوُوا (١) إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي».

بالرغم من أنَّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام أواخر عهد خلافته، لكن هنالك خلاف عند شراح «نهج البلاغه» والمؤرخين بشأن الزمان، فهل المراد فضيه السقيفه والأحداث التي أعقبت وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أم الشورى التي تألفت من

سته

ص: ٢٠٧

١- (١). «اكفؤوا» من «الإكفاء» بمعنى قلب الإناء بحيث يسكب كل ما فيه، ومادته الأصلية «كفاء» على وزن «دفع» بمعنى التولى.

أشخاص أم الزمان الذى نكث فيه العهد طلحه والزبير واشعلا فتنه حرب الجمل؟

ويبدو الاحتمال الأول هو الأقوى من بينها ثم الثانى، بينما يستبعد الاحتمال الثالث فتمرد طلحه والزبير لا يعدّ من اجتماع قريش على الإمام.

العباره «أَسْتَعْدِيكَ» من «الإستعداد» بمعنى الاستعانه أو الشكوى لأحد.

العباره «إِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَجِمِي» ربّما تشير إلى أنّ غاصبى الخلافه استندوا إلى القرابه من النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله فى حين كان الإمام أقرب إليه من غيره.

العباره «أَكْفَوُوا إِنَائِي» يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله هو الذى ملأ هذا الإناء وسلّمه إلى الإمام وعرفهم به أنّه الأولى بالخلافه من الجميع كراراً؛ لكنهم قلبوا إناء ماء الحياه رأساً على عقب.

أمّا قوله إنّهُ أولى بهذا الحق منهم جميعاً فهذا ممّا ثبت بالدليل العقلى والنقلى لكل منصف؛ فليس هنالك من يمتلك شجاعته أو ورعه وتقواه وزهده.

نقل ابن أبى الحديد فى شرح الخطبه ١٧٢ حين ذكر هذه العباره، عبارات شبيهه أخرى تدل جميعاً على أنّ عليّاً عليه السلام كان يرى الخلافه حقه المسلّم وقد غصبه الآخرون، ثم قال: فسّيرت الإماميه والزبيديه هذه العبارات حسب ظاهرها ولم يروا غير على عليه السلام يليق بها، وأضاف قائلاً: رغم أنّ هذا هو الظاهر الذى ذهبوا إليه لكننا نعتبرها كالمتشابه من الآيات فلا نحملها على ظاهرها(١).

هذا الكلام العجيب ناشىء عن نوع من التعصب والذهنيه المريضه ومعنى ذلك أننا لا نقبل سوى ما نرغب فيه، يقول جزءاً من المتشابهات، فى حين يرد المتشابه عندما يكون هنالك إبهام وإجمال فى الكلام، لا مثل هذا الكلام الواضح الصريح.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى منطق مخالفه العجيب: «وَقَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُومًا، أَوْ مَثَّ مَتَأَسِّفًا».

حقاً هذا منطق رهيب أن يعترف الإنسان ببعض الأمور أنّها حق لكن لا بدّ من

ص: ٢٠٨

التنازل عنها استجابته للقوّه والغطرسة فإمّا أن يصبر ويتحمل أو يموت كمدّاً من القهر، وهذا هو الشعار الذى يهتف به الاستكبار العالمى خفيه أو علانيه: «المُلْكُ لِمَنْ غَلَبَ» ولا بدّ هنا من سؤال ابن أبى الحديد: هل هذه العبارة جزء من المتشابه وينبغى تأويلها وعدم حملها على الظاهر؟!

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ (١)، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ (٢) بِهِمْ عَنِ الْمَمِيَّةِ».

تشير هذه العبارة إلى أنّ الناس انسأقت للحكومه آنذاك فهذا طمعاً وذاك خوفاً وثالث حقداً وبغضاً ورثه من المعارك الإسلاميه السابقه، وأخيراً الغفله الجهاله، كان من الطبيعى أن يتعذر على الإمام فى ظل تلك الشرائط أن ينهض ليشكل حكومه العدل الإسلامى وهى الامتداد لحكومه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

ومن هنا قال إثر ذلك: «فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى (٣)، وَجَرَّعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا (٤)، وَصَيَّرْتُ مِنْ كَظْمِ الْعَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلْقَمِ (٥)، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ (٦) الشُّفَارِ (٧)».

إشاره إلى أنه لا ينبغى قط أن يفسىر سكوتى على تلك الاوضاع بالدليل على الرضى، بل إنى أتأوه بشده من الانحرافات التى أعقبت وفاه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى الحكومه الإسلاميه؛ لكن لم يكن أمامى سوى الصبر والسكوت.

وعقب اختتام الخطبه: «قَالَ الشَّرِيفُ رَضِيََ اللهُ عَنْهُ: وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبِهِ مُتَقَدِّمًا، إِلَّا أَنِّي ذَكَرْتُهُ هَاهُنَا لِاخْتِلَافِ الرُّوَايَتَيْنِ».

ص: ٢٠٩

١- (١) . «رافد» من ماده «رغد» على وزن «ربط» بمعنى المعونه والعطاء والمساعده.

٢- (٢) «ضننت» من ماده «ضنّ» على وزن «فنّ» تعنى فى الأصل البخل الشديد؛ لكنها هنا التحفظ الشديد عن الشىء المطلوب.

٣- (٣) . «قذى» هذه المفرده تقابل تماماً الصفاء والإخلاص ويطلق القذى على الأشياء الملوثة التى تقع فى الماء والشوك الذى يدخل فى العين ويؤذيها.

٤- (٤) «شجى» من ماده «شجو» على وزن «هجو» بمعنى الحزن والشده كما يطلق على ما يعترض حنجره الإنسان.

٥- (٥) «علقم» نبتة مرّه للغايه ويطلق عليها أيضاً «حنظل» وتطلق هذ المفرده على كل شىء مر.

٦- (٦) «وخز» بمعنى اللسع والثقب والأذى.

٧- (٧) «شفار» جمع «شفره» على وزن «دفعه» السكين.

فى ذِكْرِ السَّائِرِينَ إِلَى الْبُصْرَةِ لِحَرْبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات القصيره إلى الجرائم المتعدده التى إرتكبتها أصحاب الجمل الذين انطلقوا برفقه عائشه وطلحه والزبير فى طريقهم إلى البصره ليتمردوا على الإمام عليه السلام، ويثّثوا التفرقه فى صفوف أهل البصره الذين كانوا متحدين على بيعه الإمام وطاعته، فقد نهب أصحاب الجمل بيت مال المسلمين ونحووا خزانه وقتلوا طائفه من شيعه الإمام وفئه ممن قاومتهم وإرتكبوا بعض الجنايات التى لا يأتيتها من كان له أدنى حظ من الإيمان.

ص: ٢١١

١- (١) سند الخطبه: قال صاحب «مصادر نهج البلاغه»، مصادر هذا الكلام هى مصادر الكلام السابق، لأنّ كلاً منه فصل من رساله كتبها الإمام عليه السلام وأمر بأن تقرأ على الناس (ليقفوا على ما حدث منذ وفاه النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى عصر خلافته). ثم قال: «لذلك ذكر هذا الكلام متصلاً بالكلام السابق فى بعض نسخ نهج البلاغه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٣٣).

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَالِي وَخُرَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيْ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَيَّ شَيْعَتِي، فَفَتَلُوا طَائِفَهُ مِنْهُمْ غَدْرًا؛ وَطَائِفَهُ عَضُّوا عَلَيَّ أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ.

الشرح والتفسير: جنایات أصحاب الجمل فی البصره

كما ورد في سند الخطبه فإن هذا الكلام في الواقع جانب من رساله طويله كتبها الإمام عليه السلام لتسجيل في التاريخ وعدم نسيان الحوادث المريره التي حدثت بعد النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام القصير إلى الجنایات العظمى للناكثين الذين أثاروا فتنه حرب الجمل قال: «فَقَدِمُوا عَلَيَّ عُمَالِي وَخُرَّانِ مَالِ بَيْتِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ».

ثم أضاف قائلاً: «وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ».

وأشار إلى جريمتهم الكبرى الثالثه وقال: «وَوَثَبُوا عَلَيَّ شَيْعَتِي، فَفَتَلُوا طَائِفَهُ مِنْهُمْ غَدْرًا؛ وَطَائِفَهُ عَضُّوا عَلَيَّ أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ».

ص: ٢١٣

١- (١) «عَضُّوا» من ماده «عَضَّ» على وزن «سَدَّ» تعنى فى الأصل العَض بالأسنان ثم استعملت لمن يتابع عمله بجد والعبارتان «عَضُّوا على أسيافهم» من هذا القبيل.

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيره إلى ثلاث من جرائمهم البشعه: نهب بيت المال، بث الفرقة والنفاق فى صفوف المسلمين وقتل عدد من الأبرياء من المسلمين الصالحين الصادقين.

ورد فى حوادث الجمل(1)، عندما أقبلت عائشه - إلى البصره - على جملها فنادت بصوت مرتفع: أيها الناس، أقلوا الكلام واسكتوا، فأسكت الناس لها، فقالت: إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غير وبدل، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبه.. ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرت بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولا يدخل فيهم من شرك فى دم عثمان.

قال (الراوى): فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل يقول:

وما هى وهذ الأمر، إنما هى امرأه مأوره بلزوم بيتها، وارتفعت الأصوات وكثر اللغظ حتى تضاربوا بالنعال، وتراموا بالحصا.

ثم إن الناس تمايزوا وصاروا فريقين: فريق مع عثمان بن حنيف، وفريق مع عائشه وأصحابها(2).

هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بشأن بث النفاق والفرقة بين المسلمين الذين كانوا متحدين من قبل الفئه الباغيه التى شقت عصا المسلمين وزرعت الفتنة بينهم إلى يوم القيامة.

ص: ٢١٤

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣١٥.

٢- (٢) المصدر السابق.

لَمَّا مَرَّ بِطَلْحَةَ بِنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَّابِ بْنِ أُسَيْدٍ وَهُمَا قَتِيلَانِ يَوْمَ الْجَمَلِ (١)

نظرة إلى الخطبه

هذا الكلام القصير الذى اقتطفه المرحوم السيد الرضى من كلام طويل يبين فى الواقع ثلاث نقاط: إحداها، إعرابه عن أسفه على قتل طلحه الذى ما كان ينبغى أن يسلك هذا الطريق الخاطئ وله تلك السوابق فى الإسلام فيقتل تلك القتل الغريبه تحت السماء.

الأخرى، أنّ أمراء معركة الجمل الذين قتلوا خزّان بيت مال المسلمين فى البصره وشيعه الإمام سينالون جزاءهم.

والثالثه، أنّ أولئك (وأمثالهم) لم يكونوا مؤهلين لما كان يدور فى أذهانهم.

ص: ٢١٥

١- (١) سند الخطبه: رواها أبو الفرج الاصفهاني فى «الأغانى» والمبرّد فى «الكامل» وابن عبد ربّه فى «العقد الفريد» وابن الأثير فى «النهايه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٣٥).

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا! أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَثْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ، وَأَفْلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتَلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَيَّ أَمْرٌ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوْقَ صَوَا دُونَهُ!

الشرح والتفسير: المشهد المروع بعد الجمل

كما قيل، فإنَّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما مرَّ بعد حرب الجمل بجسد طلحه بن عبدالله وعبدالرحمن بن عتاب اللذين صرعا غريبين على التراب.

وطلحه بن عبدالله هو صاحب النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله المعروف الذي بايع الإمام بعد مقتل عثمان ولكن حين لم تتحقق آماله في الوصول إلى حكمه بعض الولايات الإسلاميَّة، رفع لواء المعارضة واتحد مع الزبير وعائشه واشعل فتيل حرب الجمل واكتوى بناها.

ولم يكن عبدالرحمن بن عتاب من الصحابه؛ ولكنه يعتبر من التابعين، وكان أبوه عتاب ممن أسلم في فتح مكة وولاه النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله أمره مكة، وكان لوالده آنذاك اثنتان وعشرون سنة وقال له النَّبِيُّ لو كان هنالك من هو أفضل منك لذلك الأمر لو ليته، واستمر ذلك حتى عهد أبي بكر وتوفى مع أبي بكر في نفس اليوم، لكن للأسف فإنَّ ابنه عبدالرحمن انحرف عن الجاده وأصبح العوبه بيد طلحه والزبير ووسيله لتحقيق أطماعهما حتى قتل في حرب الجمل فكان جسده في العراء قرب جسد طلحه.

قيل: لما قتل عبدالرحمن بن عتاب في الجمل حمل يده المقطوعه عقاباً وألقى بها في اليمامة وتعزف الناس على خبره من خاتمه الذي خط عليه اسمه.

على كل حال، أعرب الإمام عليه السلام في بدايه الخطبه عن اسفه لقتل طلحه فقال:

«لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا!».

التعبير (أبو محمد) دلالة على نوع من الاحترام والأسف على غربته لسوابق طلحه الحسنه في الإسلام، حيث كان ممن صحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن الأشداء في الذب عن بيضه الإسلام؛ ولكن للأسف فإن حب الجاه والمقام والحسد دفعه لشن حرب دمويه ضد خليفه المسلمين الذي نصب من جانب الله والمبايع من قبل الأمه والتي خلفت أكثر من سبعين ألف قتيل.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكُؤَاكِبِ!».

صحيح أن طلحه والزبير وأمثالهما يستحقون ذلك العقاب، لكن الإمام عليه السلام أعرب عن امتعاضه بكل حب ورأفه وعاطفته الخاصه بالنظر لسوابقه في الإسلام ليته لم يقتل في هذا الطريق وتكون هذه العاقبه، فجميع الأنبياء والأوصياء وأولياء الله يرجحون كف الخاطئين وحتى المجرمين الطغاه عن مسيرتهم والالتحاق بصفوف المؤمنين والصالحين.

ثم قال عليه السلام: «أَذْرَكْتُ وَتَرِي (١) مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْافٍ، وَأَفْلَتَنِي (٢) أَعْيَانُ بَنِي جُمَحَ».

هنالك خلاف بين الشراح بشأن المراد من «بني عبد مناف» من هم؛ قال البعض:

إن المراد بهم طلحه والزبير وعبدالرحمن الذين أشير إليهما آنفاً.

وأشكل ابن أبي الحديد على أن طلحه والزبير لم يكونا من بني عبدمناف، وأجيب أنّهما يتصلان بعبد مناف من جانب الأم وإن لم يتصلا به من طرف الأب.

ص: ٢١٨

١- (١) «وَتَرِي» على وزن «سَطَرَ» و «وَتَرِي» على وزن «فَطَرَ» بمعنى الجنايه أو الأذى ويطلق على القصاص ووردت بهذا المعنى في العبارة المذكوره.

٢- (٢) «أَفْلَتَنِي» من «الإفلات» وردت بمعنى الخلاص والهروب وهي هنا الهروب.

واعترض المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغه على هذا الكلام من جهتين: الأولى أن الانتساب إلى القبائل في عرف العرب عن طريق الأب؛ وليس الأم، والأخرى أن أم الزبير وإن انتهى نسبها لعبد مناف كونها بنت عبدالمطلب إلا أن أم طلحة كانت من اليمن. ولم يذكر العلامة التستري بعد هذين الاعتراضين، من الأفراد المرادون ببني عبد مناف.

وربما كان في أهل الجمل غير عبد الرحمن، بنو عبد مناف الذين إرتكبوا بعض الجرائم وقتلوا هناك؛ إلا أن أسماءهم لم ترد في التاريخ لعدم شهرتهم.

فبنو جمح طائفه من قريش كانت في معسكر أهل الجمل؛ ولما رأوا المعركة ليست لصالحهم فروا ولم يقتل منهم سوى اثنان.

واختتم عليه السلام هذا الكلام قائلاً: «لَقَدْ أَتَلَعُوا(١) أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوْقُصُوا(٢) دُونَهُ!».

هذا الكلام إشاره إلى طلحة والزبير وأمثالهما الذين يفتقرون لأهليه الخلافه بوجود الإمام عليه السلام بل ليس لهم أهليتها حتى مع عدم وجود الإمام عليه السلام، فحبّ الجاه والتعلق بالدنيا يحول دون أهليه زعامه الأمة الإسلاميه.

تأملان

١. حبّ دنيا وعواقبه المشؤمه

كان طلحة والزبير من السابقين إلى الإسلام الذين قاتلوا ببساله دفاعاً عن النبي والإسلام، كما كانت لهما مكانتهما المميزه بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى درجه أن عمر لم يتمكن من تجاوزهما في الشورى التي شكّلها لانتخاب الخليفه من بعده؛ لكن حبّ الجاه والمقام والتعلق بالدنيا أخرجهما عن طريق الحق فغيرا مسارهما والتحقا

ص: ٢١٩

١- (١). «أتلعوا» من «الإتلاع» بمعنى مد العنق من ماده «تلع» على وزن «طرب» بمعنى رفع العنق.

٢- (٢) «وقصوا» من «الوقص» على وزن «نقص» بمعنى الكسر.

بصفوف المنافقين.

فمن جانب غارا على بيت مال المسلمين في البصره وقتلا خزان بيت المال واستغلاه لإثارة معركة الجمل.

ومن جانب، آخر أجبنا نيران فتنه الجمل التي راح ضحيتها مئات الآلاف من المسلمين وأسا للحروب الأهلية.

ومن جانب ثالث، أخرجنا زوج النبي صلى الله عليه وآله من بيتها وجعلوها مطية لأهوائهم السياسيه فانتهاكا من خلال ذلك حرمه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن جانب رابع، كلاهما قتل في تلك المعركة ولم يحققا اطماعهما الشخصيه، وبالطبع سيدوقا وبال أمرهما يوم القيامة بما سوّدا به صحيفه أعمالهما.

هذه كلّها نتائج حبّ الجاه وحبّ الدنيا، الأمر الذي عدّه جميع الأنبياء والأولياء مصدر جميع الذنوب فقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١).

وقد بيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقه بوضوح بعبارات موجزه عقب الجمل طبق روايه المرحوم الشيخ المفيد، قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه في قضيه معركة الجمل: «مَرَّ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْجَمَلِ بِطَلْحَةَ قَتِيلًا فَقَالَ: أَجْلَسُوهُ، فَأَجْلَسُوهُ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ لَكَ قَدَمٌ لَوْ نَفَعَكَ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَضَلَّكَ فَأَزَلَّكَ فَعَجَّلَكَ إِلَى النَّارِ»^(٢).

٢. الكفاءه الشرط الاوّل لكل عمل

صرّح الإمام عليه السلام مختتماً خطبته المذكوره بأن طائفه اشراّبت أعناقها لنيل الحكومه الإسلاميه؛ وحيث لم تكن جديره بها فقد كسرت رقبته، إشاره إلى أنّ كلّ عمل ومشروع يتطلب كفاءه معينه ولا يكفي مجرد الرغبه بالشىء بغيه الوصول إليه

ص: ٢٢٠

١- (١) روى المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» حديثاً مشهوراً قى شعب الذنوب ودوافعها عن الإمام زين العابدين عليه السلام جاء في آخره: «فَقَالَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ بَعِيدَ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ: حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ». (الكافي، ج ٢، ص ١٣١، ح ١١، باب ذنب حبّ الدنيا).

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٤٧.

ولا يمكن شغل مواقع العظماء بالمجان إلّا أنّ يعدّ الإنسان الأسباب العظيمة.

صحيح أنّ البعض استند إلى تلك المواقع دون إعداد تلك الأسباب؛ ولكنهم واجهوا الهزيمة والخسران في خاتمه المطاف إثر سوء إدارتهم.

ص: ٢٢١

فِي وَصْفِ السَّالِكِ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ (١)

نظرة إلى الخطبة

كما يتضح من عنوان الخطبة خاض الإمام عليه السلام في هذا الكلام الموجز البليغ، في التعريف بالسالك إلى الله والسائر على الطريق وعدّ سبب موفقيته إلى إحياء العقل وإماتة أهواء النفس وصرح أنّ بارقه من نور ألطاف الحق تفتدح في قلبه في ظلّ هذا العمل؛ الذي يضيء المسير ويوصله إلى مقام النفس المطمئنة ورضى الله.

ص: ٢٢٣

١- (١) سند الخطبة: نقل صاحب «مصادر نهج البلاغه» هذا الكلام عن «غرر الحكم» للآمدي باختلاف كبير يدل على أنّه رآها في مصدر آخر غير «نهج البلاغه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٣٦).

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبُرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ
الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارَ الْإِقَامَةِ، وَتَبَتَّ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينِهِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

الشرح والتفسير: سالك طريق الحق

طرح الإمام عليه السلام في هذا الكلام العميق المعنى، دوره عرفانيه إسلاميه من خلال عبارات موجزه واستعرض شرائط السير والسلوك إلى الله ونتائجه ومقاماته فقال:

«قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ (١)، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ (٢)».

إحياء العقل إشاره إلى الانفتاح على الأدله العقليه لتكامل الإيمان والحسن والقبح العقليين لتكامل الفضائل الأخلاقيه، وهكذا فإن مفرده العقل هنا تشمل العقل النظرى والعقل العملى.

أما النفس فلا تعنى القضاء على الغرائز النفسانيه، بل المراد تهذيبها بحيث لا يسعها القذف بالإنسان فى مصائد الشيطان وتصده عن سبيل الله.

المفرده «جليل» فى العبارة «دَقَّ جَلِيلُهُ» إشاره إلى الأبدان السمينه والتي أصبحت بهذه الصوره إثر كثرة الأكل والافراط فى أكل الأطعمة الدسمه، ويخفف

ص: ٢٢٥

١- (١) «الجليل» بمعنى الكبير أو القيم من «الجلال» بمعنى العظمه وهونها إشاره إلى الجسم الإنسانى القيم.

٢- (٢) «غليظ» تعنى فى الأصل الخشن وتعنى هنا الغلظه الأخلاقيه التي تزول فى ظل الرياضه النفسيه وتتحول إلى لطافه خلقيه.

والمفردة «غليظ» في «لَطَفَ غَلِيظُهُ» إشاره إلى أَنَّ الخلق الخشن والرذائل الأخلاقية تتلطف في ظل الرياضة النفسانية.

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب آثار هذه الحركة العقلانية والرياضة الشرعية ليعدّ ثمارها الطيبة في ثلاث فقال: «وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرٌ الْبَرَقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ».

وهذا هو نور المعرفة والمعنويات التي تتجلى للإنسان إثر الرياضات العقلانية والنفسانية وتضيئ له الطريق كما يقول القرآن المجيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ» (١).

فقد شبّه السائر على الدرب بالسالكين لطريق صحراوي مظلم؛ ولكنهم يشملون بالعيان الربانية، يبرق لهم بريق من السماء فينير لهم الطريق ليبلغ لهم عمق الصحراء. صرّح بعض العارفين المسلمين بثلاث مراحل لأنوار الهداية الربانية التي تحصل إثر الرياضات النفسانية، المرحلة الأولى التي تسمى «اللوائح»؛ وهو نور يشرق في باطنهم؛ ولكنه لا يدوم طويلاً. المرحلة الثانية، التي تسمى «اللوامع» التي لا تزول بسرعه؛ ولكنها تنطفئ بالتالي، والمرحلة الثالثة، «الطوالع» التي تدوم مدّة مديده وتصون السالك إلى الله من الانحراف.

وقال في القسم الثاني من تلك الآثار: «وَتَدَافَعَتْهُ (٢) الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ الْأَقَامَةِ».

على غرار ما ورد في القرآن الكريم: «لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيُتِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٣).

١- (١) سورة الحديد، الآية ٢٨.

٢- (٢). «تدافعت» من «التدافع» بمعنى الدفع والطرود وتعني أحياناً التماس البدني والمعنى الأول هو المراد هنا من مادة «دفع» على وزن «فخر» بمعنى الدفع.

٣- (٣) سورة الأنعام، الآية ١٢٧.

وقال على لسان أهل الجنة: «إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» (١).

ثم قال فى القسم الثالث من تلك الآثار: «وَتَبَّتْ رِجَالُهُ بِطَمَأْنِينِهِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ».

وكأنه ماورد فى القرآن: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي» (٢).

نعم! الإنسان فى مسير القرب إلى الله فى كلِّ زمان يكون عرضه لوساوس شياطين الجنِّ والإنس ويهزه خوف الضلال حتى يبلغ ما يزيل عن سماء روحه غيوم وساوس النفس والشيطان، ويقدم فى كيانه بريق معرفه الله فيعيش السكينة التامة ويستحق الخطاب «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي».

ثم اختتم هذا الكلام بالتأكيد على هذه الحقيقة: «بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبُهُ، وَأَرْضَىٰ رَبَّهُ».

نعم! وهذا ما اشير له فى الآيات المذكورة: «ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً».

تأمل: مقامات السير والسلوك

إنَّ رواج التعبير بالسير والسلوك فى تعبيرات أهل العرفان فى عصرنا والعصر القريب منه مقتبس فى الواقع من القرآن حين قال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» (٣).

وآيات التوبه مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا» (٤). (بالنظر إلى

ص: ٢٢٧

١- (١) سورة فاطر، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

٢- (٢) سورة الفجر، الآيات ٢٧-٣٠.

٣- (٣) سورة الانشقاق، الآية ٦.

٤- (٤) . سورة التحريم، الآية ٨.

أَنَّ التَّوْبَةَ فِي الْأَصْلِ تَعْنِي الْعُودَةَ). وَالآيَةُ الشَّرِيفَةُ «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (١).

الواقع أَنَّ رُوحَ الْإِنْسَانِ كَالْغَوَاصِّ الَّذِي وَطِئَ عَالَمَ الْمَادَّةِ وَاقْتَرَنَ بِالْجِسْمِ الْمَادِّي لِيُغْوِصَ فِي أَعْمَاقِ بَحَارِ هَذَا الْعَالَمِ وَيَحْمِلَ مَعَهُ الْجَوَاهِرَ النَّفِيسَةَ هُنَاكَ وَيُخْرِجُهَا مَعَهُ.

وَيُرْبِطُ الْغَوَاصُّونَ أحياناً جِسْماً ثَقِيلاً بِأَرْجُلِهِمْ لِيَبْلُغَ بِهِمْ أَعْمَاقَ الْبَحَارِ فَانْأَمَّوْا بِحُثْمِهِمْ طَرَحُوا ذَلِكَ الْجِسْمَ الثَّقِيلَ ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ يَعْلَمُ أَيْنَ هَذِهِ الْجَوَاهِرُ النَّفِيسَةُ.

الهدف من هذا السير والسلوك إلى الله الذي يشرع بالتربية وتهذيب النفس والتوبة والإنابة والرياضات الشرعيَّة، هو العبور من النفس الأمَّارة بالسوء إلى النفس اللوامة ومن هناك إلى النفس المطمئنة والوصول إلى رفعة مقام راضيه مرضيه. العبور الذي ينتهي بالتألي بالمكاشفات وإزاله الحجب عن عين الإنسان، حيث قال النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِذَلِكَ الشَّابِّ السَّعِيدِ الَّذِي رَأَاهُ مَوَاقِيتِ الْفَجْرِ فِي صَلَوَاتِ الْجَمَاعَةِ وَبَدَتْ عَلَيْهِ آثَارُ قِيَامِ اللَّيْلِ: «هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ» (٢).

هناك مقامات ومراحل متفاوتة لهذا السير والسلوك يراها العرفاء والسالكون ويعتقد البعض بأنهم اقتبسوها من الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام.

فقد أوجز بعضهم النظام اليومي للسالكين إلى الله في أربعة أمور: المشارطة، المراقبة، المحاسبة والمعاقبة أو المؤاخذة.

وعلى هذا الضوء يشترط السالك على نفسه في الصباح أن لا يتقدم خطوه في غير رضى الله؛ ثم يراقب أعماله طيله النهار ويفرغ ليلاً للحساب فإن بدر منه خلاف عاقب نفسه بحرمانها من اللذائذ وما ترغب فيه.

وورد اثنا عشر منزلاً ومقاماً لهذا النظام في رساله السير والسلوك للفيقيه الكبير

ص: ٢٢٨

١- (١) سورة البقره، الآيه ١٥٦.

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٥٣، ح ٢.

المرحوم العلامة بحر العلوم، ثم يرد الإنسان بعد طيها عالم الإخلاص ومصادقه «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» (١).

وقد ذكرت في هذه الرسالة الآداب الخمسة والعشرون لبلوغ هذا المقام (٢).

المؤسف أن هذه المسألة استغلت كثيراً لاسيما في عصرنا وقد تشبث بها الصوفيون أساس الانحرافات في العقيدة والعمل ليجعلوه شماعه ويتصورون أنهم سالكون إلى الله، بينما هم غالباً مصادق «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِبُونَ صُنْعًا» (٣) ولكن هنالك بعض الأفراد الذين يتحركون على هدى الكتاب والسنة ولا يحدون عن مسير القرآن وقول المعصومين وهؤلاء هم السائرون والسالكون الحقيقيون.

وقد اعتبر أمير المؤمنين على عليه السلام إمام العارفين في كلامه الموجز كما بيناه أن أساس سلوكك طريق الحق هو إحياء العقل وإماتة النفس وإصلاح الأخلاق، وبين الثمرات الثلاث المهمّة لهذا السلوك بصيغته غايه في الروعه والجمال والبلاغه.

ص: ٢٢٩

١- (١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

٢- (٢) راجع خلاصه هذه الرسالة وسائر المناهج التي اعتمدها بعض كبار عارفي عصرنا في كتاب الأخلاق في القرآن، ج ١، ص ١٣٣.

٣- (٣) . سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

قال بَعْدَ تِلَاوَتِهِ: «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» (١)

نظرة إلى الخطبه

يمكن تقسيم هذه الخطبه إلى أربعة أقسام وإن كانت وارده في تفسير قوله تعالى: «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» (٢).

الحديث في القسم الأول عن جهل المتبقيين، بمصيرهم كيف لا- يتعظون بمن يتوسدون التراب وبين في القسم الثاني، كيفيه أحوال الماضين وكيف رقدوا تحت التراب وتوسدوا القبور الباردة المظلمه، لا يخبر بهم أحد، خلت بيوتهم ونسيت حياتهم.

القسم الثالث، كأن الإمام يحدثهم ويردون عليه بلسان الحال بما يهز ويوقظ.

ص: ٢٣١

١- (١) سند الخطبه: أورد هذا الكلام على بن محمد شاعر الليثي في كتاب «عيون الحكم والمواعظ» الذي ألفه سنة ٤٥٣ للهجره وكان متأخراً عن السيد الرضى؛ ولكن الاختلافات والتعبيرات في عدّه عبارات من الخطبه تشير إلى أنّها اقتبست من مصدر آخر غير «نهج البلاغه». كما فسّر ابن الأثير مفرداتها الصعبه في كتابه «النهايه» (واحتماً كان لديه مصدر آخر غير «نهج البلاغه»). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٤٥ بتلخيص طفيف).

٢- (٢) سورة التكاثر، الآيتان ١ و ٢.

وتحدث الإمام عليه السلام فى القسم الرابع عن أواخر أيام العمر كيف يئأس الأطباء عن العلاج ولا ينفع الدواء ويقترّب الإنسان كلّ آن من نهايته ويبتعد عن أهله وقرابته ويتوقف لسانه ويفقد سمعه ويستحوذ الموت على كيانه، والتمعن فى هذه الخطبه يؤثر فى الإنسان ويوقظه مهما كان قاسى القلب.

ص: ٢٣٢

يَا لَهُ مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ! وَزُورًا مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَرًا مَا أَفْطَعَهُ! لَقَدْ اسْتَحْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدْكِرٍ، وَتَنَاوَشَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكِ يَتَكَاثِرُونَ! يَزُتَجْعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوْثًا، وَحَرَكَاتٍ سَيِّئَةً كُنْتَ وَلَانَ يَكُونُوا عِبْرًا، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَحِرًا! وَلَانَ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذَلِّهِ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزِّهِ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَصَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرِهِ جَهْلًا، وَلَوْ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جَهْلًا، تَطُؤُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَزْتَعُونَ فِيمَا لَفْظُوا، وَتَسِي كُنُونَ فِيمَا حَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحٍ عَلَيْكُمْ.

الشرح والتفسير: التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!

كما مضى فإن هذه الخطبة إحدى خطب أمير المؤمنين على عليه السلام الجامعه الشامله والمؤثره.

وقد أشاد ابن أبي الحديد إشاده عجيبيه بهذه الخطبه وعدّها فريده من حيث الفصاحه والبلاغه وقال: ومن تأمل هذا الفصل علم صدق معاويه في على عليه السلام:

«وَاللَّهِ مَا سَنَّ الْفَصَاحَةَ لِقُرَيْشٍ غَيْرُهُ».

ثم قال: وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب في مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له

كما سجد الشعراء في مواضع الشعر.

وأضاف: وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أنّ طبعه مناسب لطباع الأسود، ثمّ يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظه بكلام يدل على أنّ طبعه مشاكل لطباع الرهبان لابسى المسوح الذين لم يأكلوا لحماً ولم يريقوا دماً فيكون كالمسيح في زهده. وأقسم لقد قرأت هذه الخطبه منذ خمسين سنه وإلى الآن أكثر من ألف مره ما قرأتها قط إلّوا حدثت عندي روعه وخوفاً وعظه وأثرت في قلبي وجيباً وفي أعضائي رعدّه وكم قال الواعظون والخطباء في هذا المعنى وكم وقفت على ما قالوه وتكرر وقوفى عليه فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام(1).

واستناداً لما قيل يجدر بنا أن نتوقف عند شرحنا لهذه الخطبه على عمق كلام الإمام عليه السلام فنستفيد منها بما فيه الكفايه ونلمس آثارها في أنفسنا وأرواحنا.

وكما ورد في عنوان الخطبه فإنّ هذا الكلام في الواقع تفسير لأول آيتين من سوره التكاثر «أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ». ونلقى بادئ الأمر نظره إجماليه على تفسير الآيتين:

ذكر المفسّرون المعروفون تفسيرين لهما:

(الف) المراد أنّ تكاثركم أنساكم الله والقيامه حتى خرجتم من الدنيا وحللتم القبور.

(ب) المراد أنّ تكاثركم وتفاخركم أنساكم الله والقيامه حتى زرتم المقابر لإثبات أفضليتكم فعددتهم قبور موتاكم فخراً على من سواكم.

طبعاً الأصح التفسير الثاني، لأنه: أولاً زياره القبور مستبعده جداً بمعنى الدفن في القبور وثانياً، لو كان التفسير الأوّل صحيح فلا بدّ من القول: «تزوروا القبور» أى يكون الفعل بصيغه المضارع لا الماضى، لأنّ المخاطبين أحياء.

ص: ٢٣٤

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١١، ص ١٥٢ فصاعداً (بتلخيص).

يدور كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبه حول المحور الثانى وهذا دليل واضح على ترجيح هذا التفسير.

فقال الإمام عليه السلام: «يَا لَهُ مَرَامًا (١) مَا أَبْعَدُهُ! وَزُورًا (٢) مَا أَغْفَلُهُ! وَخَطَرًا (٣) مَا أَفْطَعُهُ! (٤)».

نعم، فالعظام الباليه تحت التراب والأجساد المتفسخه ليس فيها ما يدعو للفخر، فما أحراهم بالاعتبار بدل هذا الافتخار وهم يرون بأم أعينهم أنهم سيحملون ليوسدوا هذا التراب وينقطعوا عن الأهل والقرابه فيفقدون من هذا السبات العميق والنوم الوييل. ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «لَقَدْ اسْتَخْلَوْا (٥) مِنْهُمْ أَيْ مُدِّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ (٦) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ!».

فسير بعض الشراح العبارة «لَقَدْ اسْتَخْلَوْا»: أنهم سيدكروا من مات منذ مدّه وأصبح تراباً ففى التفسير الأول «استخّلوا» وجدوهم خالين وفى التفسير الثانى بمعنى ذكر الأموات.

ثم وبخهم توبيخاً شديداً وذمهم فقال: «أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكِ يَتَكَاثَرُونَ!».

ترى مامدى جهل الإنسان الذى يريد أن يفخر بتلك العظام النخره ويجعل أمواته فى عداد الأحياء ويعدهم من الأدله على كثرته. ثم قال: «يَزْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوْثَ (٧)، وَحَرَكَاتِ سَكْنَتٍ».

ص: ٢٣٥

١- (١) «المرام» بمعنى الهدف والمطلوب ومن ماده «روم» على وزن «قوم» بمعنى الطلب والقصد.

٢- (٢) «الزور» بمعنى الزائر ويطلق على المفرد والجمع.

٣- (٣) «الخطر» تعنى أحياناً الأمر الخطير وأخرى الأمر المهم والمعنى الثانى هو المراد؛ أى أن هؤلاء كانوا يرون كثره قبور موتاهم مهمه والحال هذا فخر بغيض وموهوم.

٤- (٤) «أفطع» من ماده «فضاعه» بمعنى القبيح والبغيض.

٥- (٥) . «استخّلوا» من ماده «خلوّ» على وزن «غلو» بمعنى الخلو والمضى.

٦- (٦) «تناوشوا» من ماده «تناوش» ومن «نوش» على وزن «خوف» بمعنى تناول الشىء بسهولة أو بقوه والتناوش من مكان بعيد الأخذ عن بعد.

٧- (٧) «خوت» من ماده «خوى» على وزن «هوا» تعنى فى الاصل خلت وتعنى أحياناً تهدمت وهذا هو المراد بها فى العبارة المذكوره.

وأضاف: «وَلَا تَنْ يَكُونُوا عِبْرًا، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَرًا؛ وَلَا تَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ (١) ذَلِّهِ، أَحَجَى (٢) مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزِّهِ!».

فقد أكد الإمام عليه السلام في هذه العبارات على هذه النقطة أنّ نظره هؤلاء للأموات مقلوبه تماماً وقد أخطأوا في مسارهم حتى عاد القبيح لديهم حسناً، فعلى هؤلاء أن ينظروا إلى الأموات بعين الاعتبار؛ ويشاهدوا أوضاع أخيارهم تحت التراب ويتأملوا مصيرهم على ضوء قانون الموت الذي لا استثناء فيه قط.

ورد في الخبر أنّه لما سار على عليه السلام بصحبه إلى صفين بلغ سابات المدائن وأطرافه (الموضع الذي كان يوماً مركز أقوى الحكومات ولكن انتهى فيه كل شيء).

فالتفت أحد أصحابه إلى آثار كسرى فأنشد قائلاً:

جَرَّتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَكَانِ دِيَارِهِمْ فَكَانَتْهُمْ كَانُوا عَلَى مِعَادِ

ولم يكتف الإمام عليه السلام بهذا المقدار فقال هلاً قرأت هذه الآيات: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ (٣)» (٤).

وخاض الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه في بيان هذا الموضوع، لم هذا الفخر على الآخرين بهذه الأجساد الميتة الخاوية بدل الاعتبار «لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرِهِ جَهَالَهُ».

ثم قال: «وَلَوْ اشْتَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ (٥) الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا (٦)، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَالًا، تَطُّوونَ فِي

ص: ٢٣٦

١- (١) «جناب» من ماده «جَنَب» الضلع واستعملت بمعنى الجانب والناحية والطرف وجناب ذلّه في العبارة بهذا المعنى.

٢- (٢) «أحجى» من «حججا» على وزن «رضا» العقل، وأحجى أعقل.

٣- (٣) سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٧.

٥- (٥) «ربوع» جمع «ربع» على وزن «رفع» البيت والمسكن.

٦- (٦) «ضلال» جمع «ضال».

هَامِهِمْ (١) ، وَتَسْتَنْبِتُونَ (٢) فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَزْتَعُونَ (٣) فِيْمَا لَفْظُوا (٤) ، وَتَسِي كُنُونَ فِيْمَا خَرَبُوا؛ وَإِنَّمَا الْإِيَامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ (٥) وَنَوَائِحٍ (٦) عَلَيْكُمْ».

العباره «ضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرِهِ جَهَالَهُ» إشاره إلى غرقهم في بحر الجهل و «ضرب» تعطى معنى الغرق بقريته آخر هذه العباره.

والجمله «تَطْوُونَ فِي هَامِهِمْ» إشاره إلى أن أجسام الناس حين تتعفن وتصبح تراباً فإن ذلك التراب ينتقل إلى سطح الأرض بفعل بعض العوامل كالرياح والأمطار والسيول وتقلب التربه بواسطه الإنسان وهذا الإنسان الغافل يمر عليها ولا يدري ماذا يفعل، وذكر «الهام» (أعلى الرأس) كون أهم شىء في جسم الإنسان جمجمته وإلا فإن الجسد بأكمله أصبح تراباً يطأه الآخرون.

الجمله «تَسِي تَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ» إشاره إلى أن المزارعين يلقون بذورهم على الأرض الممزوجه بتراب أجساد الماضين ومع ذلك هم غافلون.

الجمله «تَزْتَعُونَ فِيْمَا لَفْظُوا» تعنى أحياناً ما ذكر وأخرى أنه تتناثر من أجسادهم قطع والمزارعون يلقون عليها بذورهم وينتفعون بشمارها.

الجمله «تَسِي كُنُونَ فِيْمَا خَرَبُوا» ربما هي إشاره إلى أنهم عاشوا مدّه في تلك البيوت فلما انتهوا ووسدوا التراب حللتم في مساكنهم وذهب بعض الشراح إلى أن

ص: ٢٣٧

١- (١) . «هام» جمع «هامه» أعلى الرأس.

٢- (٢) «تستنبتون» من ماده «نبت» على وزن «ضبط» الإنبات وتعنى الزراعة.

٣- (٣) «ترتعون» من ماده «رتع»، على وزن «قطع» تعنى فى الاصل الرعى وكثره اكل الحيوانات؛ ولكن تستعمل أحياناً بشأن الإنسان بمعنى اللعب والمرح وكثره الاكل والمعنى الثانى هو المراد فى العباره.

٤- (٤) «لَفْظُوا» من ماده «لفظ» لفظوا وطرحوا وغالباً ما تعنى الطرح من الفم وبما أن الكلام يطرح من الفم فلذلك يطلق عليه اللفظ والمعنى الأول هو المراد فى العباره.

٥- (٥) «بواك» جمع «باكيه» تعنى فى الأصل بكاء النساء والعزاء.

٦- (٦) «نوائح» جمع «نائحه» المرأه التى تنوح والاختلاف بينهما أن النواح بكاء وصوت وألفاظ وذكر مطالب بينما البكاء مفهوم عام.

العباره «خربوا» تعنى الخلو من السكنه، وقيل المراد منه أنها خربه لتركها الذكر والعباده على غرار العمران فى الآيه الشريفه «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ» (١) الذى فسر بذكر الله والعباده.

نعم إن هؤلاء لم يؤدوا حق المساكن وخربوها عملياً بالغرور والغفله ونسيان ذكر الله وإن كانت فى الظاهر عامره وورثوها للغفله وارتحلوا.

الجمله «وَإِنَّمَا الْآيَاتُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ» إشاره لطيفه إلى هذه النقطه أنكم تبكون وتتأوهون على الأموات؛ ولكن الدهر يبيكيكم وينوح عليكم على مدى غفلتكم وجهلكم بمصيركم وتنسون أنكم ملتحقون بهم عما قريب.

ص: ٢٣٨

١- (١) . سورة التوبه، الآيه ١٨.

أُولَئِكَ سَلَفُ عَائِيَتِكُمْ، وَفُرَاطُ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكًا وَسُوقًا. سَلَكَوا فِي بُطُونِ الْبُرْزَخِ سَبِيلًا سَلَّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ؛ فَأَضِيبُحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنْمُونَ، وَضَمَامًا لَا يُوجِحِدُونَ؛ لَا يُفْرِغُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزِنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَخْفِلُونَ بِالرَّوَاغِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ. غُيَّبًا لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُودًا لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَتَشْتَتُوا، وَآلَافًا فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سِيقُوا كَأَسَا بَدَلْتَهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَسًا، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَانَتْهُمْ فِي أَرْتَجَالِ الصِّفَةِ صَرَغَى سُبَات. جِيرَانًا لَا يَتِيَانَسُونَ، وَأَحْبَاءً لَا يَتَرَاوِرُونَ. بَلِيَّتٌ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَانْفِطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْأَخْيَاءِ، فَكَلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَحِلَاءٌ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدِينَ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سِرْمَدًا، شَاهِدُوا مِنْ أخطارِ دَارِهِمْ أَفْطَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكَلَّتَا الْغَائِيَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءِهِ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصَفِهِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَائِنُوا.

الشرح والتفسير: العالم العجيب بعد الموت

بعد أن وبَّخ الإمام عليه السلام بشده أولئك الذين يزورون قبور موتاهم ويفخرون

بالأجساد الباليه لأخيارهم، خاض في هذه النقطة أنّ مصيرهم من شأنه أن يكون عبره ودرسا وموعظه قيمه لمن يخلفهم فقال؛ «أولئكم سلف غايتكم (١)، وفراط (٢) مناهلكم (٣)، الذين كانت لهم مقاوم (٤) العز، وحلبات (٥) الفخر، ملوكا وسوقا (٦)».

التعبير «سلف غايتكم» إشاره إلى أنّ هؤلاء بلغوا آخر نقطه في حياتهم التي هي الموت الذي سبقوكم إليه وعلى الخلف أن يعتبر بمصير سلفه.

العباره «فراط مناهلكم» إشاره إلى أنّ الناس كأنهم في قافله ينطلقون إلى الموت فهناك طائفه تتقدم القافله وأخرى تسير خلفها. التعبير «مقاوم العز» إشاره إلى أنّ ذوى القدره ينبغى عليهم أن يطؤوا هذا الطريق كالآخرين.

وشبهه الناس في العباره «وحلبات الفخر» بالذين يشتركون في سلسله من المسابقات العظيمه والواسعه لكسب مزيد من الفخر فقد قال الإمام عليه السلام: كل أولئك سيبلغون في الختام منزلا اسمه القبر.

ثم قال بكلمه واحده: «ملوكا وسوقا» الكل يذهبون الملوك والرعايا.

وقال لمزيد من الايضاح: «سلكوا في بطون البرزخ سبيلا سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم».

ورغم أنّ البرزخ يطلق عادة الذى يتوسط الدنيا والآخره كما ورد فى القرآن

ص: ٢٤٠

١- (١). «الغايه» النهايه وتعنى هنا الموت.

٢- (٢) «فراط» من ماده «فرط» على وزن «شرط» السرعه والعجله و «فراط» جمع «فارط» تطلق غالباً على متقدم القوم إلى الماء ثم اطلق على كل من يتقدم فى أمر.

٣- (٣) «مناهل» جمع «منهل» من ماده «نهل» على وزن «أهل» موضع الشربه الأولى و «منهل» يقال لموضع ما لشرب الشاربه من النهر.

٤- (٤) «مقاوم» جمع «مقام» وقيل جمع «مقامه» وكلاهما بمعنى مجلس.

٥- (٥) «حلبات» جمع «حلبه» على وزن «دفعه» الدفعه من الخيل فى الرهان.

٦- (٦) «سوق» جمع «سوقه» على وزن «كوفه» الرعيه والناس من «سوق» على وزن «فوق»؛ لأنّ الرعاه يسوقونهم إلى الأهداف المطلوبه.

المجيد: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (١) ولكن البرزخ هنا يعنى القبر بقريته العبارات التي أعقبتها كما ورد في الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْبَرْزَخُ الْقَبْرُ» (٢) طبعاً أحياناً القبر بمعناه المادى من قبيل ما ورد في هذه الخطبه وأحياناً أخرى بمعناه غير المادى من قبيل ماورد في الحديث المشهور: «الْقَبْرُ إِمَّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيرانِ» (٣).

ثم قال موضعاً أكثر: «فَأَصْدِبُوهَا فِي فَجْوَاتِ (٤) قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يُنْمُونَ، وَضِمَارًا (٥) لَا يُؤَخِّرُونَ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزِنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفَلُونَ (٦) بِالرَّوَاكِفِ (٧)، وَلَا يَأْذُنُونَ لِلْقَوَاصِفِ (٨). غُيْبًا لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُودًا لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَتَشْتَتُوا، وَآلِفًا (٩) فَافْتَرَقُوا».

ما ورد في هذه العبارات الملهبه إشاره بالظاهر لجسم الأموات، وإن كانت لأرواحهم في العالم الآخر احساس وخوف ورعب وهم وحزن.

نعم ففي لحظه يغمض الإنسان - اليقظ والضاحك أو المهموم المحزون النشط أو الكسل - عينيه عن الدنيا وتنتهى عنده جميع ظواهر الحياه حتى يتحول إلى حجره خاليه من الروح.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى فقال: «وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعِيدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَّتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصِيَمَتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سَقُوا كَأْسًا بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ

ص: ٢٤١

١- (١) . سورة المؤمنون، الآية ١٠٠.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢١٧.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٢١٤؛ صحيح الترمذى، ج ٤، كتاب صفه القيامة، باب ٢٦، ح ٢٤٦٠.

٤- (٤) . «فجوات» جمع «فجوه» الموضوع الواسع ويعنى الفرجه وورد هنا بمعنى شق القبر.

٥- (٥) . «ضمار» الغائب أو المال الذى لا يؤمل رجوعه ومن ماده «ضمير» على وزن «أمر» بمعنى الإخفاء.

٦- (٦) . «يحفلون» من ماده «حفل» تجمع الأفراد وورد بمعنى اللامبالاه بالشىء و «لا يحفلون» هنا تعنى لا يباليون.

٧- (٧) «رواجف» جمع «راجفه» الزلازل ومن ماده «رجف» على وزن «ربط» بمعنى الاضطراب والزلازل الشديده.

٨- (٨) «قواصف» جمع «قاصف» بمعنى الرياح والعاصفه العاتيه ومن ماده «قصف» على وزن «وصف» الكسر.

٩- (٩) «آلاف» جمع «أليف» بمعنى من يتعلق بالشىء ومن ماده «إلفه».

خَرَسًا، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالٍ (١) الصَّفْهِ صَرَغِي (٢) سُبَاتٍ (٣)».

يالها من عبارات بليغة وموقظه وكلمات مؤثره وعميقه! نعم! فقد نسوا حتى كأنهم ابتعدوا عنا قرونًا وانطفأت مساكنهم وكأنهم غادروها منذ سنين مديدة في حين ربّما تجرعوا كأس المنون في لحظه وانتهى كل شيء.

وأضاف في عبارات أخرى عميقه المعنى وموقظه: «جِيرَانُ لَا- يَتِيَانُ سُونَ، وَأَجْبَاءُ لَا- يَتَرَاوِرُونَ. بَلِيَّتٌ يَبْنِيهِمْ عُرَا (٤) التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِحَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَاءٌ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً. أَيُّ الْجَدِيدِينَ ظَعُنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا».

نعم كل شيء لهؤلاء يختلف عن الأحياء؛ بيوت قبورهم الواحد يلاصق الآخر دون أن يخبر أحدهم بالآخر أو يزوره؛ إنهم مجتمعون مع بعضهم في الداخل مع ذلك كأنهم مقاطعون لأحدهم الآخر؛ إن غادروا الدنيا ليلاً فسوف لن يروا طلوع الشمس قط وإن غادروها نهاراً لم يروا ظلمه الليل أبداً وفي هذا أنشد الشاعر:

لَا بَدَّ مِنْ يَوْمٍ بِلَا لَيْلٍهَا وَ لَيْلِهِ تَأْتِي بِلَا يَوْمٍ

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى جانب آخر من أحوال الموتى وأرواحهم عند مشاهدته العذاب الإلهي والثواب العظيم فقال: «شَاهَدُوا مِنْ أخطَارِ دَارِهِمْ أَفْطَحَ (٥) مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَغْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكَلَّمْنَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءِهِ (٦)، فَاتَتْ مَبَالِغَ

ص: ٢٤٢

١- (١). «ارتجال» بيان مطلب بدون مطالعه مسبقه ومن ماده «رجل» على وزن «أجر» المشى على القدمين واطلقت بهذا المعنى على المبدع الذى يرتجل الكلام وكأنه يمشى على رجليه.

٢- (٢) «صرعى» جمع «صريع» الشخص أو الجنازه الملقاه على الأرض ومن جمع «صرع» على وزن «فرع» الالتقاء على الأرض.

٣- (٣) «سبات» من ماده «سبت» القطع والقص ثم وردت بمعنى الاستراحة بعد العمل ومن هنا يقال للنوم سبات.

٤- (٤). «عرى» جمع «عروه» القبضه.

٥- (٥). «أفطع» من ماده «فطع» على وزن «جزع» بمعنى أخوف وأرهب.

٦- (٦). «مباءه» بمعنى المنزل تعنى فى الأصل الموضع الذى تعود إليه الجمال ومن ماده «بواء» على وزن «دواء» الرجوع والاطراق.

الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا(١) بِصِفِهِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا».

الواقع أن ما بينه الإمام عليه السلام هنا ما جاء صراحه في الخطبه ١١٤ من «نهج البلاغه»: «كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عَيَانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عَيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ».

ودليل ذلك واضح، فعالم الآخرة غايه في السعه والكبر وإذا ما قورن بالدنيا كان كالدنيا بالنسبه لعالم الجنين في رحم امه.

ص: ٢٤٣

١- (١) «عيوا» من ماده «عِي» على وزن «حَيّ» العجز.

وَلَيْنَ عَمِيَّتْ آثَارُهُمْ، وَأَنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبْرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتٍ النَّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتْ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبَسْنَا أَهْدَامَ الْبَلَى، وَتَكَاءَ دَنَا ضَيْقِ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الضُّمُوتُ، فَمَا نَمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجًا، وَلَا مِنْ ضَيْقٍ مُتَسِّعًا! فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغَطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَيْتِ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهُوَامِ فَاسْتَكَّتْ، وَاکْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحِهِ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلِيٌّ سَمَجَهَا وَسَهَّلَ طُرُقَ الْإِفْهِ إِلَيْهَا، مُسْتَسِيلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبَ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَفْدَاءَ عْيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَعَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي.

الشرح والتفسير: أحوال الأموات!

شرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه، وضع الأموات ومتوسدى القبور بيان بليغ ومؤثر فقال: «وَلَيْنَ عَمِيَّتْ آثَارُهُمْ، وَأَنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبْرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتٍ النَّطْقِ».

ففي الواقع أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أمرين: أن الاستخبار عنهم ليس

بالطرق العاديه (كالبصر والسمع)، بل بطرق أعمق وأقوى من خلال بصيره القلب وسمع العقل، كما أن تكلمهم ليس بلسان القول، بل بلسان الحال الأعمق آثاراً، فلسان القول قد يشوبه الكذب الذى لا مجال له للسان الحال.

ولنرى الآن ما يقولون بهذا اللسان؟ يشير الإمام عليه السلام إلى طبيعه كلامهم: «فَقَالُوا:

كَلَحَتْ (١) الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ (٢) ، وَخَوَّتِ (٣) الْأَجْسِيَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبَسْنَا أَهْدَامَ (٤) الْبَلَى، وَتَكَأَدْنَا (٥) ضَيْقُ الْمَضْجِعِ، وَتَوَارَتْنَا الْوُحْشَةَ، وَتَهَكَّمْتُ (٦) عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الضُّمُوتُ (٧)».

نعم! يتحدثون أحياناً عن مصير أبدانهم وأخرى عن مواضعهم. الأبدان الذابله بدايه، الوجوه العابسه، ومن ثم تحللها، وبالتالي تفسخها واستحالتها إلى تراب، القبور الضيقه والمظلمه والبارده الساكنه وقد سيطرت عليهم أجواء الرعب فسادهم الصمت التام.

ثم قال: «فَمَا نَمَحَتْ مَحَارِسُنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوُحْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرْجًا، وَلَا مِنْ ضَيْقٍ مُتَّسَعًا!».

نعم! فالوجوه النظرة الجميله والمعروفه والمساکن الواسعه والفاربه التى قلبت رأساً على عقب بحلول الموت، فتبدلت تلك المنازل الجميله الفاربه إلى قبور مقفره مظلمه، وتلك الوجوه الناعمه لم تفقد نضارتها وحيويتها فحسب؛ بل تحولت إلى أشباح موحشه.

ومن هنا قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى كلمه موجزه موقظه: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا إِلَّا وَالْقَبْرُ

ص: ٢٤٤

١- (١) . «كلحت» من «الكلوح» على وزن «طلوع» الوجه العابس والمقطب.

٢- (٢) «نواضر» من «نضره» على وزن «دفعه» الحسنه الباسمه المتفتحه.

٣- (٣) «خوت» من «خواء» بمعنى تهدمت وتلاشت.

٤- (٤) «اهدام» جمع «هدم» على وزن «حرص» الثوب البالى والمرقع.

٥- (٥) . «تكاؤدنا» من «التكاؤد» المشقه ومادته «كأد» على وزن «رعد».

٦- (٦) «تهكمت» من «التهكّم» السقوط فى بئر وما شابه ذلك أو التهدم.

٧- (٧) «الضموت» السكوت وفى العبارة مصدر له معنى وصفى.

ثم سعى الإمام عليه السلام ليكشف لمخاطبيه أوضاعهم في القبور بعبارات حيّه فقال:

«فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كَشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْعَطَاءِ لَمَكَ، وَقَدِ ارْتَسَيْتَ حَتَّى (٢) أَشِيمَا عُهُم بِالْهُوَامِ (٣) فَاسْتَكَّتْ (٤) ، وَاکْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسِيَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعِيدَ ذَلَالَتِهَا (٥) ، وَهَمَّ دَتِ (٦) الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعِيدَ يَقْظَتِهَا، وَعَاتَ (٧) فِي كُلِّ جَارِحِهِ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلِي (٨) سَمَجَهَا (٩) وَسَيَّهَلَ طُرُقَ الْأَفْهِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبَ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ (١٠) قُلُوبٍ، وَأَقْدَاءَ (١١) عُيُونٍ».

صحيح بقبض الروح يتوقف كل شيء؛ لكنه مادام سالماً فإن له القابلية لاستعادته نشاطه لو فرض عوده الروح إليه؛ ولكن يفقد كل شيء بعد تعفنه وتلاشيه، ولذلك صرح الإمام عليه السلام: توقف الحشرات أسمعهم عن العمل والتراب أبصارهم وألستهم عن النظر والنطق.

ثم أكمل كلامه بعباره بصيغه خلاصه فقال: «لَهُمْ فِي كُلِّ فِطَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَعَمْرُهُ (١٢) لَا تَنْجَلِي».

ص: ٢٤٧

- ١- (١) سنن الترمذى، ج ٣، ص ٣٧٩؛ ميزان الحكمه، ماده «قبر»، ح ١٦٢٥١.
- ٢- (٢) . «ارتسخت» من «الارتساخ» المبالغه فى الرسخ ومن «الرسوخ» النفوذ.
- ٣- (٣) . «هوام» جمع «هامه» الحشرات السامه؛ كالحيه وتطلق على كل نوع حشره.
- ٤- (٤) «استكتت» من ماده «سكك» على وزن «حكك» بمعنى صمت.
- ٥- (٥) . «الذلاقه» الحده؛ ثم استعملت بمعنى اللسان وسرعه النطق ويقال: خطيب ذلق للمتكمم الفصيح والبلغ.
- ٦- (٦) «همدت» من «الهمود» على وزن «سجود» تعنى فى الأصل انطفاء النار. ثم استعملت بمعنى السكوت والسكون والتوقف عن العمل.
- ٧- (٧) «عات» من ماده «عيث» على وزن «حيف» أفسد كما ورد بمعنى التبذير والمعنى الأول هو المراد فى العبارة.
- ٨- (٨) . «جديد بلي» هنالك نوع من صناعه البديع فى العبارة من خلال كلمه جديد والتي تقابل البالى بصيغه مضاف ومضاف إليه ومعناه الفساد الجديد.
- ٩- (٩) «سمج» من «السماجه» القبيح والمنفر و «سمج» على وزن «خشن» تطلق على من ينشد شيئاً بطريقه قبيحه.
- ١٠- (١٠) «أشجان» جمع «شجن» على وزن «كفن» الهموم.
- ١١- (١١) «اقداء» جمع «قذى» على وزن «سجى» ما يسقط قى العيون ويؤذيها من أجسام صغيره والتي تظهر كل ساعه على جسد الميت.
- ١٢- (١٢) «عمره» تعنى فى الأصل الماء الجارف الذى يغطى الأشياء ثم اطلق على كل أمر شديد.

إشاره إلى أنّ مصيبتهم الكبرى أنّ هذه الأحوال لا تزول عنهم، بل تشدد عليهم كلّ يوم؛ وتعاستهم أن ليس أمامهم من مستقبل واضح، وكلما تقادم عليهم الزمان كلّما تأكلت أجسامهم أكثر وبلت عظامهم.

ص: ٢٤٨

فَكَمِ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدِي، وَأَنْبِقِ لَوْنِي، كَانَ فِي الدُّنْيَا عَذِيٌّ تَرَفِي، وَرَبِيبٌ شَرَفِي! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعِهِ حُزْنُهُ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبُهُ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنْناً بَعْضَارَهُ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَنَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشِ عَقُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسِيكَهُ وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْخُتُوفُ مِنْ كَثْبِ فَخَالِطِهِ بَثُّ لَا يَعْرِفُهُ، وَنَجِيٌّ هَمٌّ مِمَّا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فِتْرَاتُ عَامِلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصَدِّحَتِهِ، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطِبَاءُ مِنْ تَشْيِكِينَ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكَ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْهُ بِنَارِدٍ إِلَّا تَوَّرَ حَرَارَةً، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَمَازِجٍ لِتَلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمِيدٌ مِنْهَا كُلِّ ذَاتِ دَاءٍ؛ حَتَّى فِتْرَ مُعَلَّلُهُ، وَذَهَلَ مُمْرُضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصَدِّهِ دَائِهِ، وَخَرَسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيٌّ حَبِيرٌ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ، وَ مُمَنَّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَ مَصْبِرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُدَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِيَةِ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرَكِ الْأَحْبَبِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصْبِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فُطْنَتِهِ، وَبَسَّتْ رُطُوبُهُ لِسَانِهِ. فَكَمِ مِنْ مُهَمِّ مِنْ حَيَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَايِهِ مُؤَلِّمٌ بِقَلْبِهِ سَجَعُهُ فَتَضَيَّعَ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَمَا أَنْ يُعْظِمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَمَا أَنْ يَرْحَمَهُ! وَإِنَّ لِلْمَيُوتِ لَعَمَرَاتٍ هِيَ أَفْطَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَعْرِقَ بِصِفِّهِ، أَوْ تَعْتَدَلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

أشار الإمام عليه السلام هذا المتكلم البالغ الفصيح الفريد، في آخر مقطع من هذه الخطبه إلى جوانب أخرى من قضيه الموت ونهايه الحياه وعقباته ليوجزها في أربع مراحل فقال أولاً: «فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزٍ (١) جَسَدٍ، وَأَنِيقٍ (٢) لَوْنٍ، كَانَتْ فِي الدُّنْيَا غَذِيًّا (٣) تَرَفٍّ، وَرَبِيبٍ (٤) شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ (٥) بِالشُّرُورِ فِي سَدِّ اعِهِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ (٦) إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَمَانًا (٧) بَعْضَارِهِ (٨) عَيْشِهِ، وَشَحَاحَهُ (٩) بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ!».

وهذا الكلام إشاره دقيقه لمن اعتادوا الحياه الهائنه المرفهه والعيش الرغيد والنعمة الوافره، الذين يسعون حين نزول المصائب الخروج من ذلك عن طريق أنواع اللعب وقد نسوا كل ما من شأنه إيقاظهم وهدايتهم وهذا بحد ذاته مصيبه عظمى في أن يلود الإنسان بعوامل السكر والجهل والغفله؛ لكن الأحداث المريره لاتساهم، وبالتالي فإن الأرض سوف تبتلعهم.

نعم، «فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ (١٠)؛ إِذْ وَطِئَ»

ص: ٢٥٠

- ١- (١). «العزیز» تعنی فی الأصل القوى والقادر ویلزمه نفی الذل عن الإنسان؛ ولكن لم يتضح لم فسرها بعض الشراح بالجمال.
- ٢- (٢) «أنیق» جمیل والماء الحسن والطیب الطعم.
- ٣- (٣). «غذی» من «الغذاء» بمعنی الطعام و«غذی ترف» والمراد أنه تغذى بالنعمة على أساس «ترف» التي تعنی النعمة.
- ٤- (٤) «ربیب» من ماده «رَبَّ» التریبه والتدبیر، وعلیه «ربیب شرف» من تریب فی أحضان العزه والاحترام.
- ٥- (٥) «یتعلل» من «تعلل» یتناسى ویتشاغل.
- ٦- (٦). «سلوه» المعیشة الطیبه.
- ٧- (٧) «ضن» البخل الشدید.
- ٨- (٨) «غضاره عیش» الحياه المفعمه بالنعمة.
- ٩- (٩) «الشحاحه» البخل وقیل: أعلى درجه البخل. فالبخیل من یبخل عما فی یده، أما الشحیح فیبخل بما فی یده وما فی أیدی الناس.
- ١٠- (١٠). «غفول» من ماده «غفلت» الذی یغفل أو یوجب الغفله.

الدَّهْرُ بِهِ حَسَكُهُ (١) وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ (٢) مِنْ كَثَبٍ (٣) فَخَالَطَهُ بَثٌّ (٤) لَا يَغْرِفُهُ، وَنَجِيٌّ (٥) هَمٌّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فِتْرَاتٌ عِلَلٌ، آتَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ».

إشاره إلى أنّ هؤلاء الجهاد مهما سعوا للتناسي إزاء المصائب والضحك على الدوام على الدنيا فإنّ الدنيا هي الأخرى تضحك عليهم؛ ولكن سرعان ما يباغتهم الموت فتفنى قواهم وطاقتهم الواحده تلو الأخرى، فالعين تعشو وتضعف، والأذن تثقل والعظام تنحف والأعصاب تنهك وتعجز، وتهجم عليهم أنواع الأمراض فيدق العالم في آذانهم أجراس الموت.

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا في الواقع إلى انحلال قوى الإنسان أولاً، وظهور الأمراض إثر ذلك والتي تعدّ الخطوه الأولى نحو الموت.

ثم أتجه صوب الخطوه الثانيه في رجوعه دائماً إلى الأطباء وتناول أنواع الدواء وانعدام تأثيرها فقال: «فَفَزَعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطْبَاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ (٤)، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئِ بَبَارِدٍ إِلَّا ثَوْرٌ (٧) حَرَارَةً، وَلَا حَرَكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيِّجَ بُرُودَهُ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَمَازِجٍ (٨) لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتٍ دَاءً».

ص: ٢٥١

- ١- (١) . «حسكه» من ماده «حسك» على وزن «فدك» نبات ذو أشواك يؤذى الإنسان بشده وورد بمعنى البغض والكره والمعنى الأول هو المراد هنا.
- ٢- (٢) «حتوف» جمع «حتف» الموت.
- ٣- (٣) «كثب» من ماده «كثب» على وزن «كسب» بمعنى الاقتراب.
- ٤- (٤) . «بثّ» الحزن الشديد. ووردت بمعنى السعه والتناثر والانتشار والمراد هنا المعنى الأول.
- ٥- (٥) «النجي» الخفى والمستور ومن «نجوى» الهمس فى الأذن.
- ٦- (٦) . «قارّ» بارد من ماده «قرّ» على وزن «حرّ» البروده.
- ٧- (٧) . «ثور» من ماده «ثوران» الهيجان.
- ٨- (٨) «ممازج» الأشياء التى تمزج مع بعضها.

نعم! فإن حلَّ الأجل زالت اسباب الصحة والسلامة ولم يعد هنالك من أثر للدواء، وعاده ماتكون نتيجته معكوسه فيعيب الأطباء وليس للمريض من سبيل سوى السير إلى الموت.

ما ورد هنا في عبارات الإمام الدقيقه إشاره للتقسيمات التي كانت متداوله في الطب القديم حيث كان الأطباء آنذاك يعتقدون بأربعة أنواع من الأمزجه: المزاج الحار، المزاج البارد، المزاج الرطب، والجاف، وهنالك أربعة أمزجه مركبه من زاويه أخرى: المزاج الحار والرطب (الذي يسمى الدموى) والمزاج الحار والجاف (الصفراوى) والمزاج البارد والرطب (البلغمى) والمزاج البارد والجاف (السوداوى).

طبعاً هذه الأمزجه إن كانت في حد الاعتدال لاتقدح بالصحة، ولأصحابها جميعاً باختلافهم الكثير حياه طيبه؛ ولكن إن غلبت إحدى هذه الأمزجه (الحراره، البروده، الرطوبه والجفاف) فلا مناص من التعامل بالعوامل المخالفه لإعادته إلى اعتدال المزاج؛ فالحراره تسكن بالبروده والبروده تحرك بعوامل الحراره والرطوبه توازن بالجفاف والجفاف يعدل بالرطوبه.

كل هذا التأثير حين لا يختل الأمر وإلا فليس هنالك أدنى تأثير.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى المرحله الثالثه وهى مرحله اليأس من عوده السلامه وانتظار نهايه العمر عن قريب: «حَتَّى فَتَرَ مُعَلَّلًا (١)، وَذَهَلَ مُمَرَّضُهُ (٢)، وَتَعَايَا (٣) أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرَسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ».

وكأن الإمام عليه السلام كان حاضراً عند هؤلاء المرضى وأسرهم فهو يتابع عن كثب حالاتهم فالطبيب يظهر عجزه والممرض يبدى تعبهُ وأسرته لا تدرى ما تقول للناس، إذا قالت: صحته أحسن، فذلك غير صحيح، وإذا قالت: أسوأ، فهذا متعب فلا مناص لها من الصمت وتجب بنظرات العيون المليئه باليأس.

ثم قال عليه السلام: «وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيًّا (٤) خَبِرَ يَكْتُمُونَهُ: فَفَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ،

ص: ٢٥٢

١- (١). «معلل» المعالج واخذت في الأصل من «عله» بمعنى المرض.

٢- (٢) «ممرّض» من ماده «مرض» المعالج.

٣- (٣) «تعايا» من ماده «عَيَّ» العجز.

٤- (٤). «شجى» الغم من ماده «شجو» على وزن «هجو» الهم والغم.

وَمَنْ لَهُمْ إِيَابٌ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى (١) الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ».

وأخيراً بين الإمام عليه السلام رابع وآخر مرحلة حياه هذا المريض. حين يكون على اعتاب الموت والتأهب لسفر الآخرة ومغادره هذا العالم فقال: «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَزَكِ الْأَحْبَبِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَيِّ صِهٍ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِدُ فِطْنَتِهِ، وَبَيَسَتْ رُطُوبُهُ لِسَانَهُ».

ثم قال مواصلاً كلامه: «فَكَمْ مِنْ مُهَمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَمِيَ عَنِ رَدِّهِ، وَدُعَاءِ مُؤَلِّمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَ (٢) عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعْظِمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَزْحَمُهُ!».

نعم! وفي هذه الحاله حيث يعلم بحلول أجله ونهايه عمره يغط في التفكير في الأموال التي أخفاها أو الديون على الآخرين ويريد إبلاغها الورثه أو يريد أن يحدث أهله عن قضايا الدفن وموضع القبر فلا يسعه الكلام.

أشار ابن أبي الحديد هنا إلى قصه فيها عبره حيث أنه شهدها آنذاك وهي أن أحدهم حضرته الوفاه فأراد الوصيه فانعقد لسانه فأشار إلى القلم والدواه ليكتب فاضطربت يده فكتب كلاماً غير مفهوم حتى توفي (٣).

واختتم الإمام عليه السلام خطبته العظيمه الموقظه بهذه العبارة فقال: «وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَعَمْرَاتٍ (٤) هِيَ أَفْطَحُ مِنْ أَنْ تُسْتَعْرِقَ بِصَفِهِ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا».

نقل المرحوم العلامه التستري في شرحه لنهج البلاغه حديثاً عن كتاب «الكافي» عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ فِتْنَةَ مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا مُتَعَبِّدِينَ وَكَانَتْ الْعِبَادَةُ فِي أَوْلَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّهُمْ خَرَجُوا يَسِيرُونَ فِي الْبِلَادِ لِيَعْتَبَرُوا فَمَرُّوا بِقَبْرِ عَلِيٍّ ظَهَرَ الطَّرِيقَ قَدْ سَفَى عَلَيْهِ السَّافِي، لَيْسَ يُبَيِّنُ مِنْهُ إِلَّا

ص: ٢٥٣

١- (١) «أَسَى» الغم والحزن ووردت في بعض النسخ «أسى» (بضم الهمزه) جمع «أسو» بمعنى الأسوه والمعنيان مناسبان في الخطبه.

٢- (٢) «فتصام» من ماده «صم» طرش الاذن و «تصام» تظاهر بالصمم.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٦٧.

٤- (٤) «عمرات» جمع «عمره» مضى معناها في الفقره السابقه.

رَسَمَهُ، فَقَالُوا: لَوْ دَعَوْنَا اللَّهَ السَّاعَةَ فَيَنْشُرَ لَنَا صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ، فَسَأَلْنَاهُ كَيْفَ وَجَدَ طَعْمَ الْمَوْتِ، فَدَعَا اللَّهَ... فَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبْرِ رَجُلٌ أبيضُ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ التُّرَابِ فَرَعَا شَاحِصًا بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا يُوقِفُكُمْ عَلَى قَبْرِي؟ فَقَالُوا: دَعَوْنَاكَ لِنَسْأَلَكَ كَيْفَ وَجَدْتَ طَعْمَ الْمَوْتِ، فَقَالَ: لَهُمْ لَقَدْ سَكَنْتُ فِي قَبْرِي تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَنَةً مَا ذَهَبَ عَنِّي أَلْمُ الْمَوْتِ وَكَرْبُهُ وَلَا خَرَجَ مِرَارَهُ طَعْمَ الْمَوْتِ مِنْ حَلْقِي...»(١).

تأمل: ممز يرده الجميع

قيل وقلنا كراراً إنّ الإنسان إن شكّ في كلّ شيء ليس له أن يشكّ في أنّه سيغادر يوماً هذه الدنيا ويشرب راغباً أو مرغماً كأس المنون. كما أنّ كلّ جنين مهما كان شكله وصورته لا بدّ أن يمر يوماً برحم الأم ويطأ هذه الدنيا، وكل فاكهه لا بدّ يوماً أن تسقط من الشجرة وتقطف. والإنسان شاء أم أبى لا بدّ أن يشهد الموت.

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يرغب البعض بسماع اسم الموت؟ لم يسعون لنسيان هذه الحقيقة التي لا تنساهم؟!

والأهم من كلّ ذلك مقدمات الموت ونتائجه؛ فالحالات العجيبه التي رسمها المولى أمير المؤمنين على عليه السلام في هذه الخطبه بتلك الدقه كصوره حيّه، وصدى الموت الذي اسمعه كل إنسان مستعد لمغادره هذه الدنيا ولاسيما من حوله، حيث يبدو أنّ الهدف الأصلي للإمام هو إيقاظ الغافلين وهزّ الثملين من الغرور والأنانيه والعجب والأهواء، والحق والإنصاف أنّ الإمام عليه السلام أعطى الكلام حقّه بهذا الخصوص وقال كلّ ما ينبغي أن يقال بحيث لا يقرأه غافل أو جاهل إلّا أيقظه وبلغ منه تأثيره.

ص: ٢٥٤

قال الإمام عليه السلام فى حديث آخر: «ما رأيت إيماناً مع يقين أشبه منه بشك على هذا الإنسان، إنه كل يوم يودع إلى القبر ويشيع، وإلى غرور الدنيا يرجع وعن الشهوة والذنوب لا يقلع» (١).

بالمقابل نعرف أفراداً هبوا للقاء الموت وابتسموا للأجل ولم يكن لسكرات الموت عندهم من معنى وكأنهم كمن يتطلع لعزير فكانت هذه حالتهم أواخر عمرهم. والنموذج الواضح لذلك شخص الإمام عليه السلام الذى قال فى كلامه المعروف فى «نهج البلاغه»: «لابن أبى طالب آتس بالموت من الطفل بتدى امه» (٢).

جدير ذكره أنه ورد فى الأحاديث الإسلاميه أن موت المؤمن الصالح يختلف عن موت الآخرين. قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: «صفت لنا الموت» قال: «للمؤمن كطيب طيب يشمه فينعمس لطيبه وينقطع التعب والألم عنه وللكافر كلسع الأفاعى ولمدغ العقارب وأشد» (٣).

لا شك فى أن عدم تعلق المؤمن بزخارف الدنيا، وبالعكس تهافت الملحدين عليها هو الذى يؤدى إلى الاختلاف المذكور وإن كان هنالك تأثير فى هذا الأمر لالطاف الله ومشاهدات المؤمن بالنسبه للنعم التى تنتظره وبالعكس مشاهدات الكافر والعذاب الذى ينتظره.

ص: ٢٥٥

- ١- (١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٣٧، ح ٤٠.
- ٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ٥.
- ٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٧٢، ح ٥٠.

قَالَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١) * رِجَالٌ لَاتُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ

وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ (٢)»، (٣).

نظرة إلى الخطبة

هنالك عدّة أقسام مهمّة في هذه الخطبة:

القسم الأول: يبيّن الإمام عليه السلام أهميّة ذكر الله في كلّ شيء وخاض في آثارها على روح للإنسان ونفسه ليشرحها بعبارات مؤثّرة.

وأشار في القسم الثاني إلى حمله الأذكار في كلّ عصر ومصر ومواعظه في كيفية انقاذ عباد الله من الانحراف ويضيء طرقهم بمصابيح نوره البيّنات.

وجرى الكلام في القسم الثالث عن صفاتهم وتوليهم عن زخارف الدنيا

ص: ٢٥٧

١- (١) «آصال» جمع «أصل» على وزن «رسل» وجمع أصيل من ماله أصل بمعنى العصر أو آخر النهار لأنّه يعتبر أصل الليل.

٢- (٢) سورة النور، الآيتان ٣٦ و ٣٧.

٣- (٣) سند الخطبة: ذكر الآمدى في حرف الألف من «غررالحكم» المقطع الأوّل من هذه الخطبة باختلاف مع ما ورد في «نهج البلاغه»، ولم يرد مصدر آخر لهذا الجانب من الخطبة، ويدل الاختلاف على أنّه أخذها من مصدر آخر غير «نهج البلاغه».

(مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٥١).

واجتناب المعصيه ومناصره العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وشرح فى القسم الرابع أحوالهم فى القيامه عند نشر صحف الأعمال وحشر العباد للحساب والحديث عن حسن عاقبتهم والنتائج الباهره لأعمالهم الصالحه.

وأمر فى القسم الخامس مخاطبيه بحساب أنفسهم وإصدار الحكم على أعمالهم.

ص: ٢٥٨

إِنَّ اللَّهَ شَيْبَحَانُهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرِهِ، وَ تُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوِهِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدِهِ، وَمَا بَرِحَ اللَّهُ عَزَّتْ آلاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَرْمَانَ الْفَتْرَاتِ عِبَادًا نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَضِيَّ بَحُوا بِنُورِ يَقْظِهِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْنِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلِهِ الْأَدْلِيهِ فِي الْفَلَوَاتِ.

مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاهِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدْلُهُ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

الشرح والتفسير: أدله السائرین علی الطريق

لابد بادئ الأمر من معرفه تفسير آيه سوره النور ليتضح الكلام العميق للإمام عليه السلام في شرحه للموضوع.

تحدث القرآن المجيد في الآيه ٣٥ من سوره النور: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» عن نور الله وشرحه بمثال لطيف يتضمن العديد من الأمور التعليميه ثم قال في الآيات التاليه: «فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعُوا فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» (١).

ص: ٢٥٩

من الواضح أنّ هؤلاء الرجال بالدرجة الأولى هم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ومن بعدهم المخلصين السائرين على نهجهم.

ونخوض بعد هذه الإشارة الاجمالية في شرح الخطبه، قال الإمام عليه السلام في مستهل هذه الخطبه: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ (١) جِلَاءً (٢) لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرِ (٣)، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ (٤)، وَتَتَّقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ».

نعم! هنالك آثار عجيبة للذكر إن اقترن بالفكر. فإذا ذكر الإنسان اسم الله بعظمه وعدد صفاته الجماليه والجلاليه من علم وقدره وسمع وبصر ومقام الرحمانيه والرحيميّه ومراقبته بالنسبه لعباده، زالت عن بصيرته حجب الغفله ورأى الحق واضحاً، وتخدم لجاجه الأهواء والشهوات فيسمع بأذن روحه خطاب أولياء الله والدعاه إلى مرضاته ونتيجه ذلك الانقياد التام لأوامر الله.

ذهب بعض الشراح أو احتملوا أنّ المراد من الذكر في العبارة، القرآن المجيد بقريته ما أورده القرآن بشأنه فقال: «وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ» (٥) ولكن الحق أنّ للذكر مفهوم عام، أحد مصاديقه البارزه الآيات الشريفه للقرآن.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَمَا بَرِحَ (٦) اللَّهُ عَزَّتْ آلاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ (٧) بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي

ص: ٢٦٠

١- (١). «ذكر» المراد به هنا ذكر الله وهو على ثلاثه أنواع: القلبى، اللسانى والعملى فيتذكر الله حين تتوفر مقدمات المعصيه فيتركها. وقيل: الذكر يشمل ذكر الله وكذلك القيامه والنبوه والولايه.

٢- (٢) «جلاء» إزاله الصدأ والايضاح والإناره. ويقال للكحل جلاء كونه ينور العين.

٣- (٣) «وقره» من ماده «وقر» تعنى فى الأصل الثقل، ومن هنا يقال لتعظيم الأفراد توقير، وقد استعمل الوقر فى القرآن الكريم بمعنى ثقل السمع وهذا هو المعنى المراد هنا.

٤- (٤) «عشوه» ضعف العين.

٥- (٥). سوره الأنبياء، الآيه ٥٠.

٦- (٦). «ما برح» دائماً وأبداً.

٧- (٧) «برهه» الزمان الطويل أو مدّه من الزمان.

أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عِيَادًا نَاحِيَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلْمِهِمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَضِيَّ بِنُورِ يَقْظِهِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْتِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلِهِ الْأَدْلَى فِي الْفَلَوَاتِ (١)».

ربّما هذا التعبير إشارة لأوصياء الأنبياء المتواجدين طيله الفترات الزمنية ويستلهمون الحقائق الربانية عن طريق الإلهامات القلبية ويوصلونها إلى العباد.

كما يمكن أن تكون إشارة إلى الصالحين والمخلصين والعارفين والبصيرين غير الأنبياء والأوصياء الذين يعيشون بين الناس في كلّ زمان؛ فهؤلاء أيضاً يقفون على الصراط المستقيم بالإلهام الغيبي والتأييد الرباني ويسعون لهدايه الآخرين، ولعلها تشمل الفريقين.

والتعبير بـ «أدله» جمع دليل إشارة إلى ما كان سائداً في الأسفار في الأزمنة الماضية، فلم تكن الطرق مشخصة آنذاك كما هي عليه اليوم، فيمر بها المسافر ويصل المقصد، ومن هنا فإنّ القوافل تحمل معها عارفين بالطريق حتى لا يضلوا الطريق ويطلق عليهم «الأدله». فهؤلاء الأولياء في الحياه الدنيا كأدله الطريق الذين يهدون قافله البشريه من الضلال وينقذونهم من الهلكه.

ثم قال عليه السلام: «مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاهِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ».

نعم! فهؤلاء يراقبون بنى جنسهم على الدوام؛ فيشجعون السائرين على الدرب ويشدون عزائمهم ويحذرون المنحرفين ويذمونهم ويصرخون بهم حتى لا يواصلوا طريق الانحراف فيهلكوا.

ثم قال في استنتاج لما ورد في العبارات السابقه: «وَكَاثُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدْلَى تِلْكَ الشُّبُهَاتِ».

نعم! فهناك الظلمات المعتمه في مسيره الحياه الدنيا والطرق المضله وكلاهما خطر على السالكين، ووجود أولئك الأولياء مصابيح للدجي والأدله على ذلك الطريق الخطير.

ص: ٢٤١

١. ما المراد من أيام الله؟

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه إلى أنّ أولياء الله يذكرون الناس بأيام الله. طبعاً كلّ الأيام هي أيام الله وكل موضع بيته وفي نفس الوقت ليس له يوم ولا- بيت فهو اسمى من الزمان والمكان؛ ولكن كما سميت الكعبه كونها اعظم مركز للعباده «بيت الله»، فإنّ هناك بعض الأيام الخاصه التي تالأأت لما تحمله من حوادث مهمه.

قال البعض: «أيام الله» إشاره إلى غلبه الأنبياء لجيوش الشرك والكفر. وقال البعض الآخر: أيام العباده كأيام الشهر المبارك وأيام الحج، ما ورد في تاريخ بنى إسرائيل وموسى أنّه أمر أن يذكر بنى إسرائيل بأيام الله في إشاره إلى يوم النصر على فرعون والنجاه من البحر وما شابه ذلك، ولكن جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في تفسير «أيام الله»: «يُرِيدُ بِأَيَّامِ اللَّهِ سُنَّتَهُ وَأَفْعَالَهُ فِي عِبَادِهِ مِنْ إِنْعَامٍ وَانْتِقَامٍ»^(١).

وطبق هذه الروايه فإنّ كلّ يوم يلمس فيه العبد نعمه من نعم الله أو ينتصف فيه من الأعداء إنّما يعتبر من أيام الله.

على كلّ حال فإنّ ذكر ايام الله عامل تكامل الإيمان وآثاره حسن الشكر والتوجه إلى الله.

حتى أيام البلاء الربّاني عدّت في الروايه من أيام الله كما ورد عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أَيَّامُ اللَّهِ نِعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ وَمَثَلَاتُهُ سُبْحَانَهُ»^(٢). لا شك في أنّ لمفرده أيام الله في هذه الخطبه مفهوم عام يشمل كلّ ما ذكر سابقاً.

ص: ٢٤٢

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٢٧.

٢- (٢) . المصدر السابق، ج ٦٧، ص ٢٠.

العباره «عبادُ ناجاهُمْ في فِكْرِهِمْ وَكَلَمَهُمْ في ذاتِ عُقُولِهِمْ...» أشار فيها الإمام عليه السلام إلى رجال ألقى الله في قلوبهم نور الهدى عن طريق النجوى الفكرية والإلهامات القلبية وطرح عنهم حجب الجهل والظلمه فسعوا بما يتلقون من هدى لهدايه الخلق وإرشاد ضالى سبيل الإيمان والتقوى.

فهل هؤلاء هم الأوصياء والأئمة المعصومون عليهم السلام الذين يتلقون الحقائق من عالم الغيب عن طريق الإلهام في فترات بعثه الأنبياء، أم يشمل الصالحين من الأفراد الذين بلغوا قمه الورع والتقوى؟

أى أنّ قلوبهم مرتبطه بعالم الغيب كما هو به مضمون «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» (١). ومضمون «وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» (٢).

والله لا يتركهم لوحدهم في الشده كأم موسى عليه السلام: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ...» (٣) حيث ألهمها مسير ولدها، فكيف يمكن أن يحرم من هذا الفيض سائر الصالحين، ومن هنا يعتقد بعض الأعلام بأن كل عمل مهم يصدر من تقى، أو اكتشاف يتوصل إليه عالم، إنّما يتم في ظل هدايه الله التكوينية والإلهاميه.

فروح القدس الذى يعين بعض الأفراد مثل حسان بن ثابت والكميت حين إنشادهم لتلك الأشعار الرفيعه وينطق الشعر على ألسنتهم (٤) فلم لا يمد سائر العشاق.

ص: ٢٦٣

١- (١) سورة الأنفال، الآية ٢٩.

٢- (٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٣- (٣) . سورة القصص، الآية ٧.

٤- (٤) ورد فى الحديث: لما دخل الكميّ شاعر أهل البيت المعروف على الإمام الباقر عليه السلام وأنشد شعره المعروف: «مَنْ لَقِبَ مُتَيْمٍ مُّسَيَّبًا» فلما فرغ قال له الإمام: «لا تَزَالُ مُؤَيَّدًا بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا دُمْتَ تَقُولُ فِيْنَا» (وسائل الشيعة، ج ١٠، باب ١٠٥، أبواب المزار، ح ٤). اقتبس الإمام هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذى قاله لحسان بن ثابت لما أنشده «يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْعَدِيرِ نَبِيُّهُمْ». (بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ١٥٠).

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَاهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَشْجَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا أَطْلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبُرْزَخِ فِي طَوْلِ الْإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ.

الشرح والتفسير: أولياء الله وأهل الذكر

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار ذكر الله في جلاء القلوب وسعه معطياته على روح الإنسان، خاض في شرح أهل الذكر بالحق، وتطرق إلى صفاتهم الواحده تلو الأخرى فقال «وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَاهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا».

إشاره إلى أن ذكر الله يعصم من الغرور بالماديات الزائلة للدنيا التي عبرت عن حبها الأحاديث الإسلامية أنها «رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١) ومصدر جميع المعاصي.

طبعاً هذا لا- يعنى أن هؤلاء كالرهبان الملازمين للدير أو المقاطعين للدنيا الذين يولون أديارهم للحياه الاجتماعيه (بقرينه العبارات القادمه) بل المراد أن هؤلاء لا تأسرهم مغريات الدنيا.

ص: ٢٦٥

أما ما المراد بـ «الذكر» و «الأهل»؟ هنالك تفسيران رئيسيان: أحدهما خاص والآخر عام؛ التفسير الخاص: أن المراد من الذكر، النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو القرآن وأهل الذكر «أهل البيت» والأئمة المعصومون عليهم السلام والصفات التي وردت بعد هذه العبارة في أهل الذكر تنطبق عليهم بصورة تامه.

ومفهومه العام يشمل جميع العلماء الأتقياء والمؤمنين الكمل، والصفات الواردة بعدها تنطبق عليهم.

وليس هنالك مانع من الجمع بين المعنيين؛ فمفهوم الجملة عام وأهل البيت من مصاديقها البارزه وأنصع نماذجها.

ثم بين الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه آثار ذكر الله لدى هؤلاء ضمن خمس صفات فقال: «فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ».

لا- أنهم لم يكن لديهم بيع وتجاره ولم يمارسوا الأنشطة الاقتصادية والاجتماعيه، بل كانوا يخطون خطوات مؤثره في هذا المجال؛ ولكن هذه الأنشطة الاقتصادية تجعلهم يغفلون عن ذكر الله ويتهاككون في الاقبال على الدنيا.

أما ما الفرق بين التجاره والبيع؟ يقال أحيانا النسبه بينهم العموم والخصوص المطلق وذكر البيع بعد التجاره من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأن البيع أحد أنواع الفعاليات الاقتصادية.

كما يحتمل أن تكون التجاره إشاره إلى الفعاليات الاقتصادية المستمره ويشمل البيع الفعاليات المحدوده والزمانيه؛ أى أن أهل الذكر لا يفقدون هذا ولا ذاك وفي نفس الوقت يتجلى فيها ذكر الله بصورة دائمه.

ثم أشار إلى باقى صفاتهم فقال: «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ (١) بِالزَّوْجِرِ عَنِ مَجَارِمِ اللَّهِ فِي أَشْيَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ».

ص: ٢٦٦

١- (١). «يهتفون» من ماده «هتف» على وزن «هتك» الصراخ بشخص.

الجملة «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ» إشاره إلى أن ذكر الله وآثاره المباركه ليست مرتبطه بيوم أو بضعه ايام من عمرهم، بل يشمل أيام حياتهم منذ الشباب حتى الكهوله والشيخوخه.

وتشير العبارات بعدها إلى أنهم لا يتخلون قط كالمتوقعين عن المسؤوليات الاجتماعيه؛ بل نشطون للغايه فى ميدان إرشاد الجاهل وتنبيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالنظر إلى أن العبارة وردت بصيغه الفعل المضارع والفعل المضارع يدل على الاستمرار، فهى إشاره إلى أن أعمالهم الصالحه هذه دائميّه.

جدير ذكره أن الإمام بين هنا أنهم يأمرن بالمعروف ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، كما قال الإمام عليه السلام فى الخطبه ١٧٥: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتُكُم عَلَى طَاعِهِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَأُكُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا!».

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مزيد من الشرح بخصوص أحوال أولياء الله وأهل الذكر فقال: «فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ».

نعم! فهؤلاء يرون هذا العالم بأعينهم الباصره النافذه عالم ما بعد الموت والقيامه والبرزخ ويشاهدون مصير الأخيار والأشرار.

ثم قال فى ايضاح ذلك الكلام: «فَكَأَنَّمَا أَطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبُرْزَخِ فِي طَوْلِ الْإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتَهَا(١)».

ثم بين نتيجة هذه المكاشفه الروحيه: «فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ».

لم يعجز أهل الدنيا العاديون عن إدراك أحوال البرزخ والآخره بينما يشاهدهما

ص: ٢٤٧

١- (١) «عدات» جمع «عده» بمعنى الوعود وقوله عليه السلام: (وحققت القيامة عليهم عداتها) فى الواقع نوع من المجاز، لأن الوعود الإلهيه وعود الثواب والعقاب عالم تحققه هو عالم القيامة، وعليه فلا ينبغى تصور الحاجه إلى الحذف والتقدير.

أولياء الله أهل الذكر بل يرون فيها أنفسهم؟

لأنّ أرواح أهل الدنيا معلقه بالدنيا فألقت حجاباً بينهم وبين العوالم الأخرى؛ أمّا أهل الذكر الأطهار المتحررون من تلك التعلّقات والذين جلوا أرواحهم بدوام التفكير والعبادة، أزيلت عن أعينهم تلك الحجب فانعكست فيها صور حقائق عالم البرزخ والقيامة.

هؤلاء حمله الرسائل الإلهية من ذلك العالم إلى هذا العالم، الرسائل التي تؤدي إلى يقظه الغافلين وإبصار المكفوفين.

ص: ٢٤٨

فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمُخْمُودَةَ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةَ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَائِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَعُوا لِمَحَاسِنِهِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمَرُوا بِهَا فَفَضَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نَهَوْا عَنْهَا فَفَرَطُوا فِيهَا، وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَمُّوا عَنِ الْأَشْيَاءِ تَقْلَالَ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيَجًا، وَتَجَاوَبُوا نَحِيًّا، يَعْبُجُونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتِ أَغْلَامَ هَيْدَى، وَمَصَابِيحَ دُجَى، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ فِي مَقْعَدِ اطَّلَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِي سَعِيهِمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ. يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رُوحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقِهِ إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسَارَى ذَلِّهِ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيْقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ، وَلَا يَخِيْبُ عَلَيْهِ الرَّاعِبُونَ.

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

الشرح والتفسير: مصير السائرين على الصراط

رسم الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه صورته دقيقه لحال أهل الذكر وأولياء الله، كيف يحاسبون أنفسهم ويتلافون ما بدر منهم فقال: «فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ (١) لِعَقْلِكَ فِي

مَقَاوِمِهِمْ (١) الْمَحْمُودَهُ، وَمَجَالِسِهِمْ الْمَشْهُودَهُ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ (٢) أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَعُوا لِمَحَاسِنِهِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمَرُوا بِهَا فَقَصَرُوا عَنْهَا، أَوْ نَهَوْا عَنْهَا فَفَرَطُوا فِيهَا، وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ (٣) ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الْأَسِيَةِ تَقْلَالِ بِهَا، فَشَجُوا نَشِيحًا (٤)، وَتَجَاوَبُوا (٥) نَحِيبًا (٦)، يَعْبُجُونَ (٧) إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامٍ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ».

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر حالات أولياء الله كيف يراقبون أنفسهم ويحاسبون أعمالهم وما يبدون من ردود أفعال إزاء ما يبدر منهم من تقصير ويتأوهون إلى الله خالص إلى نتيجة ذلك فقال: «لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجَى (٨)، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكِرَامَاتِ فِي مَقْعَدِ اطَّلَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعِيهِمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ».

هذا القسم من كلام الإمام في الواقع جواب شرط للجمله السابقه: «فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ...». ذكر الإمام عليه السلام هنا خمس صفات أو نتيجة مهمه لمراقبتهم تفيد الهدى وكشف الدجى. إشاره إلى أنهم ليسوا كالزهاده المعتزلين قط الذين لا يرون إلا أنفسهم، بل هم منقذو الغرقى الذين يسعون لإنقاذ الغرقى فى بحر المعاصى، وأنهم على درجه من العلو والرفعه من حيث المقام والمكانه بحيث تحفهم الملائكه وتقوم

ص: ٢٧٠

١- (١) . «مقاوم» جمع «مقام» المكانه المعنويه أو البدنيه.

٢- (٢) «دواوين» جمع «ديوان» الدفتر وتعنى هنا صحيفه العمل.

٣- (٣) . «أوزار» جمع «وزر» على وزن «حرز» الحمل الثقيل وتعنى هنا حمل المسؤوليات الثقيل.

٤- (٤) «النشيج» الاختناق بالبكاء وترجيع الصوت فى الحنجره إثر البكاء.

٥- (٥) «تجاوبوا» من «التجاوب» أجاب بعضهم بعضاً وتشير هنا إلى جماعه يجلسون فى مكان ويكون معاً.

٦- (٦) «النحيب» شدّه البكاء.

٧- (٧) «يعبجون» من ماده «عج» على وزن «حج» الصياح.

٨- (٨) . «دُجَى» جمع «دُجِيه» على وزن «لقمه» الظلمه وتستعمل هذه المفرده أحياناً بمعنى المفرد.

على خدمتهم كما ورد في القرآن: «الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ» (١).

وقد عمهم الأيمن والسكينه بمضمون «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزْذَبُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ» (٢). وتتنظرهم بمضمون «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ» (٣) مقامات لا توصف من الفضل والرحمة الإلهية.

حقاً حين يقرأ الإنسان هذه الكلمات العميقة المعنى كيف يبلغ أولياء الله في ظل العبودية مقاماً لا يرى سوى الله يستغرق في التفكير في عظم الاستعداد الذي يملكه ولو عرف قدره وفجر استعداده.

ثم خاض في جانب آخر من أحوال أهل الذكر في إرتباطهم بالله وعبادته في الخلوات فقال عليه السلام: «يَتَنَسَّمُونَ (٤) بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقِهِ إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى (٥) قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ».

إشاره إلى أنهم كلما جدوا في الطاعة والعبودية شعروا بالتقصير أزاء عظمه الله، ومن هنا يتجهون إليه على الدوام ويلتمسون السكينه عن طريق العفو، ومن جانب آخر فإنهم لا يعولون قط على أعمالهم، بل يتكلون على فضل الله فيثقل الهم قلوبهم ويكشف ذلك الهم عيونهم الباكية.

ثم قال عليه السلام: «لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدُّ قَارِعَةٍ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ (٦)، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاعِبُونَ».

إشاره إلى أنهم لا يتعلقون بأعمالهم وكل أملهم بكرم الله.

يقرعون كل باب ويأتون بكل عمل يعتقدون بأنه سبب لمرضاه الله واستنزال

ص: ٢٧١

١- (١) سورة فصلت، الآية ٣٠.

٢- (٢) . سورة الفتح، الآية ٤.

٣- (٣) سورة القمر، الآيتان ٥٤ و ٥٥.

٤- (٤) . «يتنسمون» من «النسيم» فالعبارة «يتنسمون» تعني أنهم ينتظرون النسيم و «التنسم» بمعنى التنفس.

٥- (٥) «الأسى» الحزن.

٦- (٦) «المنادح» جمع «مندوحه» الأرض الواسعه ثم اطلقت على كل نظام واسع فيه حريه.

إنهم يعيشون في الواقع بين الخوف والرجاء دائماً وهو أفضل حالات المؤمن، الخوف من التقصير والأمل بفضل الله.

وفي الختام تغير لحن كلام الإمام عليه السلام عن شرح حالات أهل الذكر ليتطرق إلى موعظه عامه فقال: «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ».

إشاره إلى أنه ينبغي عليك أن تحاسب نفسك هنا قبل أن تحاسب في البرزخ والقيامة من جانب الملائكة فإن بدر منك خطأ تلافيته وإن كان لك عمل صالح حمدت الله عليه؛ وليس لك أن تدقق في أعمال الآخرين الصغيره والكبيره فإن لهم حسيباً غيرك.

فهناك في الواقع رسالتان في العبارة الأخيره؛ إحداهما، رساله الحديث المعروف «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا»^(١).

والأخرى، رساله الآيه الشريفه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»^(٢).

تأمل: ذكر الله والذاكرون

كل ما ورد في هذه الخطبه الغراء والعظيمه المضمون كان شرحاً لعباره من آيه في القرآن الكريم وهي أن أولياء الله لا يغفلون قط عن ذكر الله لمتاع الدنيا، فنور الله يسطع في بيوتهم وهم كالنجوم التي تهدي الخلق في ظلمات البر والبحر.

بغض النظر عن أن للذكر ثلاث مراحل: الذكر القلبي، واللساني والذكر بالعمل، فهناك مصاديق متفاوتة لكل مرحله كالنور الذي يشمل نور الشمس ونور الشمعه.

ويكون أحياناً هذا الذكر محدوداً بحيث لا يضيئ أكثر من الوسط، وأخرى على

ص: ٢٧٢

١- (١) وسائل الشيعه، ج ١٦، ص ٩٩، ح ٢١٠٨٢.

٢- (٢) سورة المائده، الآيه ١٠٥.

درجه من العمق والسعه بحيث يضيئ العالم.

وأولى القرآن أهميته فائقه للذكر والذاكرين. فقد خاطب الله تعالى موسى عليه السلام:

«أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»(١).

وقال أيضاً: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»(٢).

وقال بخصوص الخمر: إنه نهى عن الخمر كونه يصد عن ذكر الله: «وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»(٣).

كما يقول إن نفوذ الشيطان يبدأ حين يغفل الإنسان ذكر الله: «وَمَنْ يَغْضُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقِيَضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»(٤).

وأوجز تعالى كل عظمه القرآن في عبارته فقال: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»(٥).

وقال تعالى: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»(٦).

وأخيراً وصف ذكر الله أنه وسيله لاطمئنان القلوب: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»(٧).

ورغم أن للذكر معاني مختلفه في هذه الآيات؛ لكنها تشترك جميعاً في أمر هو أنه يسوق الإنسان إلى الله، يجرى من القلب على اللسان ويتسع من اللسان لجميع أعمال الإنسان. وكان جميع الأعضاء تذكّر الله بصوت بليغ في كل الأعمال.

كما وردت الأهميه الفائقة للذكر والذاكرين في الروايات:

منها ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ حَدٌّ يَنْتَهَى إِلَيْهِ

ص: ٢٧٣

١- (١) سورة طه، الآية ١٤.

٢- (٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٣- (٣) سورة المائدة، الآية ٩١.

٤- (٤) سورة يوسف، الآية ١٠٤.

٥- (٥) سورة الزخرف، الآية ٣٦.

٦- (٦) سورة الأنبياء، الآية ٧.

٧- (٧) سورة الرعد، الآية ٢٨.

إِلَّا الذِّكْرَ فَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهَى إِلَيْهِ» (١).

كما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي جَنَّتِهِ» (٢).

ويستفاد من بعض الروايات أن ذكر الله يدفع أنواع البلاء. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الصَّوَاعِقَ لَا تُصِيبُ ذَاكِرًا» (٣).

بل أبعد من ذلك أنه عليه السلام قال: «مَا مِنْ طَيْرٍ يُصَادُ إِلَّا بَتْرَكِ التَّشْبِيحِ وَمَا مِنْ مَالٍ يُصَابُ إِلَّا بَتْرَكِ الزَّكَاةِ» (٤).

زیده الكلام أن الآيات والروايات في ذكر الله وأهميته وآثاره على الحياه الماديه والمعنويه والدنيا والآخره كثيره، وما ورد سابقاً هو جانب من ذلك.

ونختتم هذا الكلام بروايه عن الإمام الصادق عليه السلام التي بينها في تتمه حديث، عدم محدوديه الذكر فقال: «كَانَ أَبِي كَثِيرَ الذِّكْرِ لَقَدْ كُنْتُ أَمْشِي مَعَهُ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّهَ وَآكُلُ مَعَهُ الطَّعَامَ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّهَ وَلَقَدْ كَانَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَمَا يَشْغُلُهُ ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...» (٥).

ص: ٢٧٤

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٤٩٨، ح ١.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٥٠٠، ح ٥.

٣- (٣) المصدر السابق، ح ٢.

٤- (٤) وسائل الشيعه، ج ٦، ص ١٥، كتاب الزكاه، باب تحريم منع الزكاه، ح ٢٠.

٥- (٥) الكافي، ج ٢، ص ٤٩٩، ح ٥.

قَالَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» (١)» (٢)

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة الواردة في تفسير الآيه الشريفه: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» من عدة أقسام:

القسم الأول: تساءل الإمام ووبّخ صحبه ومخاطبيه من أجل إيقاظهم وبتّ الوعى بين صفوفهم فيالى متى هم نائمون ولم لا يفيقون من هذا السبات؟ لم لا يرحمون أنفسهم وينقذونها ممّا تغط به فى مستنقع الذنوب والمعاصى ويطلبون جروحهم وآلام قلوبهم التى أفرزتها الآثام.

ودعا فى القسم الثانى هذا الإنسان الهارب لمحاكمه نفسه. فيذكرها بنعم الله فلو

ص: ٢٧٥

١- (١) سورة الانفطار، الآيه ٦.

٢- (٢) سند الخطبه: ذكر فى «مصادر نهج البلاغه» مصدرين يستفاد من القرائن أنهم استقوا هذه الخطبه من مصدر غير «نهج البلاغه»: الأول «شرح نهج البلاغه» لابن أبى الحديد الذى ذكر بعضها باختلاف مع ما ورد فى «نهج البلاغه»، والآخر «غررالحكم» الذى أورد جانباً منها باختلاف مع ما ورد فى «نهج البلاغه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٥٥).

تفرغ لمحاكتها لأدان نفسه قطعاً.

وتحدث فى القسم الثالث عن تقلب أوضاع الدنيا والاعتبار بحياه الماضين ومماتهم. وحثّ فى آخر قسم ببضع عبارات موجزه فناء الدنيا وقيام القيامة وحضور محكمه العدل الإلهى وغياب الأعذار هناك.

ثم جعل كل هذه التذكيرات والتحذيرات وسيله لخرق حجاب الغرور الذى أشار إليه فى الآيه المذكوره.

ص: ٢٧٤

أَدْحَضُ مَشْؤُولٍ حُجَّهً، وَأَقْطَعُ مُعْتَرِّ مَعْدِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَهُ بِنَفْسِهِ.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسِيَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنْسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقْظُهُ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ؟ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتَقْطُلُهُ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلِيَّ بِالْأَلَمِ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِحِكَ، وَعَزَّأَكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ! وَكَيْفَ لَا- يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمِهِ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مِدَارِجِ سَيِّئَاتِهِ! فَتَيْدَاؤِ مِنْ دَاءِ الْفِتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمِهِ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِيَقْظِهِ، وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعًا، وَبِدِكْرِهِ آنِسًا.

الشرح والتفسير: الرحمة بالنفس؟

قال الإمام عليه السلام في مستهل الخطبة على ضوء الآية المذكورة «أَدْحَضُ (١) مَشْؤُولٍ حُجَّهً، وَأَقْطَعُ مُعْتَرِّ مَعْدِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ (٢) جَهَالَهُ بِنَفْسِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى هذه النقطة وهي أن الله يصرِّح في هذه الآية:

لقد أفاض الله عليك كل هذا الكرم بالنعم المادية والمعنوية من رأسك إلى أخمص قدمك ومازلت مغروراً وعاصياً ومتمرداً؟! فليس لديك أدنى حجة وليس لديك من

ص: ٢٧٧

١- (١). «أدحض» من «الإدحاض» ا بطل وغلب ومن مادة «دحض» الغلبه.

٢- (٢) «أبرح» من مادة «برح» على وزن «حرف» الشده كما وردت بمعنى الزوال والمعنى الأول هو المراد في العبارة.

عذر وعملك يدل على أنك لم تعرف نفسك.

ومن هنا يتضح خطأ من ذهب إلى أنّ صفه الكريم في الآيه لثقلين المخاطب بأن يقول في الجواب: «غزني كرمك»، بل يريد أن يقول بالعكس رغم كلّ هذا الكرم واللطف مع كلّ هذا العصيان المخجل الذي يفتقر إلى العذر والحجّه، لذلك ورد في الحديث النبوي أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لما تلا الآيه قال: «غزّه جهله»^(١).

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح هذا الكلام ليسلط بهذه العبارات سوط ملامته وتوبيخه على جسد أرواحهم الهامده عليهم فيقولون ويعودوا عن غيرهم فقال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنْسَكَ بِهَلَاكِهِ نَفْسِكَ؟».

إشاره إلى أنّ غريزه حبّ الذات في الإنسان أقوى الغرائز؛ فالإنسان بصورة طبيعیه يحب نفسه أكثر من أي شخص آخر وإذا رأينا شخصاً يطعن صدره وعضده لذهلنا وتساءلنا مع أنفسنا: هل أصيب بالجنون، أو يرغب شخص عاقل بهلاك نفسه؟ فإن لم تكن للإنسان أدنى رغبه بهلاك نفسه فلم يتقبل الغرور والذنب والمعصيه التي تؤدي إلى هلاكه!

ثم قال عليه السلام: «أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ^(٢)، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقْظَةٌ؟ أَمَا تَرَحَّمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرَحَّمُ مِنْ غَيْرِكَ؟».

ثم أوضح هذه الحقيقه بذكر مثال فقال: «فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ^(٣) مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُتَبَلِّئِي بِأَلَمِ يُمِضُ^(٤) جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَرَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَدَكَ^(٥) عَلَى مُصَابِكَ، وَعَزَّكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ!».

إشاره إلى ما نراه من تناقض في فعل الآخرين وازدواج في أحكامهم فهم يبدون

ص: ٢٧٨

١- (١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيه ٦ من سوره الانفطار.

٢- (٢) . «البلول» التحسن من المرض كما وردت بمعنى الغنى والنشاط.

٣- (٣) . «الضاحي» الشخص المعرض لضوء الشمس، من ماده «ضحو» على وزن «محو» التعرض لأشعه الشمس ويقال «ضحى» حين تتسع أشعه الشمس على الأرض.

٤- (٤) . «يُمِضُ» من ماده «مضّ» على وزن «حضّ» يؤلم.

٥- (٥) «الجلد» من ماده «جلد» على وزن «بلد» القوه أو التحمل.

أشد ردود الأفعال إزاء انزعاج الآخرين وسقم المرضى وأحياناً تسيل الدموع من أعينهم فى حين مرضهم أشد ومصيبتهم أعظم ولا يدون أى رد فعل.

أراد الإمام عليه السلام بهذا البيان المنطقى البليغ أن يوقظ هؤلاء الغافلين الجهال والساذجين ويلفت انتباههم إلى ما ينتظرهم من مصير خطير لعلهم يتوبون وينيبون إلى الله.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ (١) نِقْمِهِ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ (٢) بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ (٣)! فَتَدَاوٍ مِنْ دَاءِ الْفِتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى (٤) الْغَفْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِتَقْطِئِهِ».

هنالك أمران ضروريان للخلاص من الخطر: اليقظة والحذر من جهة والإرادة والعزم الراسخ من جهة أخرى وقد أشار الإمام إلى هذين الأمرين بهذه العبارة الموجزة فحذر الجهال بأن يفيقوا من سبات الغفلة ويعقدوا العزم مادامت الفرصه سانحه على خلاص أنفسهم من مخالب المعاصى التى توجب نيران الغضب الربانى.

التعبير بـ «بَيَاتِ نِقْمِهِ» كون ضحايا البلاء النازل ليلاً أكثر؛ من قبيل الزلازل والسيول والعواصف التى تحدث ليلاً ويغط الناس فى النوم ولا يملكون من وسيله للدفاع عن أنفسهم.

قال تعالى فى القرآن المجيد: «أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَعْفًا وَهُمْ يُلْعَبُونَ» (٥).

وقال فى ختام هذه الفقرة: «وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعًا، وَبِدِكْرِهِ أَنْسَاءً».

ص: ٢٧٩

١- (١). «بيات» إن وردت هذه المفردة مصدرًا عنت البقاء والمبيت ليلاً فى مكان وإن كان لها معنى الاسم عنت الليل وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

٢- (٢) «التورط» من ماده «ورط» على وزن «شرط» الإلقاء فى المستنقع و «قد تورطت بمعاصيه» يعنى القيت بنفسى فى غضب الله بسبب المعاصى.

٣- (٣). «سطوات» جمع «سطوه» القهر والغلبه والسلطه على الشىء.

٤- (٤) «الكرى» النوم والنعاس.

٥- (٥) سوره الأعراف، الآيتان ٩٧ و ٩٨.

وَتَمَثَّلُ فِي حَيَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٌّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنْفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ، وَلَمْ يَهَيِّجْكَ عَنْكَ سِتْرُهُ، بَلْ لَمْ تَحُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ فِي نِعْمِهِ يُخَيِّدُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئِهِ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيٍّ يَصِيرُفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظُنَّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ! وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصَّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفَقِينَ فِي الْقُصُورِ، مُتَوَازِينَ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حِرَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِدَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ.

الشرح والتفسير: رحمه الله ومعصيه العبد؟!!

دعا الإمام عليه السلام الناس في هذا الجانب من الخطبه إلى الحكم على أنفسهم وعدد أدله إدانته، ومن ذلك أنه يحث الخطي دائماً في طريق العصيان من جهه ومن جهه أخرى يطره الله بوابل فضله ورحمته فقال: «وَتَمَثَّلُ (١) فِي حَيَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ (٢) بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٌّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ».

حقاً إنه لمن المؤسف والمخجل أن يكون مولى الإنسان كريماً يغذيه بأنواع النعم لكنه يتولى عنه دائماً الأمر الذي لا يقبله أى وجدان.

ص: ٢٨١

١- (١). «تمثل» كما اشير إليه في الخطبه السابقه من «المثول» على وزن «حلول» بمعنى التجسيد.

٢- (٢) «يتغمّد» فى الأصل من «الغمّد» على وزن «هند» بمعنى غطاء السيف و «تغمّد» الوضع فى الغطاء. ثم استعملت بمعنى الشمول وأريد بها فى العبارة أن فضل الله عمكم.

وهذا ما نقرأه في دعاء الافتتاح في شهر رمضان المبارك: «يا رَبِّ، أَنْكَ تَدْعُونِي فَأُولَىٰ عَنكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَاتَّبِعْضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلَا أَقِيلُ مِنْكَ، كَمَا أَنَّ لِي التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعِيكَ ذَلِكَ مِنْ الرَّحْمَةِ لِي وَالْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ».

ثم قال: «فَتَعَالَىٰ مِنْ قُوَىٰ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعَتْ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِيهِ! وَأَنْتَ فِي كَنْفٍ (١) سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَيْعِهِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ!».

إشاره إلى أنه ليس من العجب أن يعتمد الأفراد الأقوياء أسلوب العنف. والعجب أن يسلك الفرد الضعيف والذليل العاجز هذا الطريق؛ إلا أن الله بكلّ تلك القدره العظيمه هو منتهى الحب والرفاهه بينما يبدى هذا الإنسان بكلّ هذا الضعف والعجز كلّ هذه الجراه على المعصيه فى حين لا يمسه عنه فضله ورحمته وهذا عجب حقاً!

ثم قال عليه السلام: «فَلَمْ يَمْنَعِكَ فَضْلُهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ (٢) فِي نِعْمَةٍ يُحَدِّثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ!».

إشاره إلى أن الإنسان لا يخلو من ثلاث حالات: إما مشمول بنعمه لا بد أن يؤدي شكرها، أو ارتكب معصيه سترها الله وعليه أن يمتن لذلك الستر ويستغفر أو دفع عنه بلاءً وينبغى له أن يعرف قيمه هذه النعمه، هذا بينما من يسير فى طريق العصيان لا يكثر لأوامر الله ونواهيه، فما عساه أن فكر بأنّ الله الرحيم والغايه فى الكرم كيف سيجازيهم إن أطاعوه، وهذه هى مسأله «وجوب شكر المنعم» التى يمكنها أن تكون دافعاً لمعرفة الله كما يقول علماء العقائد.

آنذاك نظر الإمام إلى هذه المسأله من زاويه أخرى فخاص فى بيان آخر لإيقاظ

ص: ٢٨٢

١- (١) «كنف» من ماده «كنف» على وزن «حرف» بمعنى محفوظ.

٢- (٢). «مطرف عين» من ماده «طرف» على وزن «حرف» إغماض العين وفتحها و«مطرف» مصدر ميمى بالمعنى المذكور.

مخاطبيه فقال عليه السلام: «وَأَيْمُ اللَّهِ (١) لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفَقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتُ أَوَّلَ حَيَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ».

ذهب بعض شراح «نهج البلاغه» إلى أنّ العبارة السابقة بصيغته صغرى وكبرى من الشكل الأول من القياسات المنطقيه؛ ولكن الظاهر أنّ سياق العبارة ناظر لقياس الأولويه؛ أى أنّ فردين متشاكلين لا يخشيان بعضهما عاده، مع ذلك إن كان أحدهما يحسن دائماً والآخر يسيئ فإنّ وجدان الفرد الثانى يدينه ويتهمه بسوء الخلق. فإن كانت هذه المسأله بين أحد غايه فى العظمه وآخر غايه فى الصغر بحيث ليست هنالك من حاجه وخوف وخشيه فى لطفه ورحمته من جهه ومن جهه أخرى كله حاجه وخشيه من العقاب على المعاصى، قطعاً على ذلك الفرد الصغير فى ظل تلك الظروف أن يلوم نفسه لِمَ الفعل المنجمل إزاء كلّ هذا الكرم.

ص: ٢٨٣

١- (١). «أيم» فى الأصل «أيمن» حسب بعض أرباب اللغه جمع «يمين» بمعنى القسم سقطت نونه ومعنى العبارة أقسم بالله.

وَ حَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفْتِكَ الْعِظَاتِ، وَأَذَنْتَكَ عَلَى سَوَاءٍ، وَلَهِيَ بِمَا تَعُدُّكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَضِيقُ وَأُوقِي مِنْ أَنْ تُكْذِبَكَ، أَوْ تُغْرَكَ. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، صَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ، وَلَيْسَ تَعْرِفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذَكِيرِكَ، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلِّ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَ الشَّحِيحِ بِكَ! وَلِنَعْمَ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَارًا، وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا عَدَا هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ.

الشرح والتفسير: الدنيا أعظم واعظ

لما كان أغلب المتهافتين على الدنيا يحملون الدنيا مسؤوليه معاصيهم لإبراء أنفسهم ويعدون زخارف الدنيا ونعمها المادية سبب ااثمهم فإن الإمام رد عليهم في هذا الجانب من الخطبه فقال: «وَحَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ».

ثم خاض في بيان دليل ذلك الكلام فقال: «وَلَقَدْ كَاشَفْتِكَ الْعِظَاتِ (١)، وَأَذَنْتَكَ (٢) عَلَى سَوَاءٍ».

إشاره إلى أن الدنيا ليست غراره فحسب، بل تقع فيها أحداث موقظه، والإمام

ص: ٢٨٥

١- (١). «عظات» جمع «عظه» بمعنى الموعظه والنصيحه وهى هنا كناية عن حوادث الدنيا المريره التى تؤدى إلى اليقظه.

٢- (٢) «أذنت» من «الإيذان» بمعنى الإعلان المقرون بالتهديد وأحياناً تعنى إعلان الحرب ثم وردت بمعنى الإعلان المطلق واطلاق الأذان كونه يعلن الدخول فى الصلاه.

خاض في العبارات الآتية في شرحها قائلاً: «وَلَهِيَ بِمَا تَعْدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَعْرَكَ. وَلَرَبِّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَيْرِهَا مُكْذَّبٌ».

إشاره إلى أنّ الدنيا عندما تصيبك بأنواع البلاء والمصائب والأحداث الأليمه وتغير القدره، وهى صادقه ولا يصح وصفها بالخداع كما صدق من أخبرك من أولياء الله والصالحين عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وإن لم يكن كلامهم موافقاً لهوى نفسك؛ فلم تقبل لسان حال الدنيا ولا لسان حال أولياء الله واتهمت الجميع بالكذب، وعليه فهذا أنت من غرّ نفسه.

كما يحتمل أن يكون تفسير العبارة الأخيره، أننا ناصح هو الحوادث الأليمه وأخبار الصدق علامات غدر الدنيا التي يراها الإنسان بعينه ويسمعها بأذنه؛ ولكنها حيث لا تتفق وأهوائه فإنه يكذبها جميعاً ويقول هى مجرد حادثه صدفه فزالت ولن تتكرر.

ثم وضح أكثر هذه الحقيقه وجعلها معلومه للجميع فقال: «وَلَيْتَن تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ (١)، وَالرُّبُوعِ (٢) الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذَكِيرِكَ، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلِّ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ (٣) بِكَ!».

ثم قال فى آخر عبارته: «وَلِنَعْمَ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَارًا، وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ الشُّعْبَاءَ بِالدُّنْيَا عَدَاءٌ هُمْ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ».

إشاره إلى أنّ الأفراد المؤمنين واليقظين يسعهم أن يجعلوا من هذه الدنيا المليئه بالشر والمفعمه بالغرور والخداع وسيله لسعادتهم الأبدية وسلماً لبلوغ المقامات

ص: ٢٨٦

١- (١). «خاويه» اسم فاعل من ماده «خوى» بمعنى خالى ويعنى أحياناً المتهدم.

٢- (٢) «ربوع» جمع «ربع» على وزن «رفع» البيت والسكن كما وردت بمعنى المنطقه أو الجماعه من الناس والمعنى الأول هو المراد هنا.

٣- (٣) «شحيح» من ماده «شخ» على وزن «مخ» البخل مع الحرص الذى يصيح عاده لذلك يطلق «شحيح» أحياناً على الفرد الحريص على صديقه وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

الرفيعه، بحيث تكون نظرتهم إلى الدنيا بخلاف نظره المتعلقين بها فهي نظره إلى الممر أو السلم؛ فأولئك الذين يهربون من زخارفها وينتفعون بطبيعتها للقرب من الله، ومن هنا يتضح الفارق بين الدنيا الممدوحه والمذمومه كما سيرد في مبحث التاملات.

تأمل: الدنيا الممدوحه والمذمومه

وصف الإمام عليه السلام الدنيا في العبارات السابقه بالواعظ الحريص والمخبر الصادق والوفى والتي أفصحت عن تقلبها من خلال تقلباتها السريعه وأحداثها وآفاتها المختلفه وحذر الجميع من التعلق بها وإنما عليهم التزود منها.

والأكثر صراحه من ذلك ما ورد في قصار كلماته بشأن الدنيا حيث قال:

«مَسِيْدٌ جَدُّ أَحِبَّاءِ اللَّهِ» «وَمَتَّجِرٌ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ»، «وَمَهْبِطٌ وَحِي اللَّهِ»، «وَمُصَيِّمٌ مَلَائِكَةِ اللَّهِ»، «دَارٌ عَافِيَةٌ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا... وَدَارٌ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا»(١).

هذا في الوقت الذي ذمَّت الدنيا بشدّه في خطب متعدده من «نهج البلاغه» والعديد من الروايات: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»(٢)، «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا وَالسَّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا»(٣).

ثم حذر في عباره أخرى من الدنيا فقال: «تَغَرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ»(٤).

وطلاق الدنيا ثلاثاً من جانب الإمام عليه السلام لمساوئها وقبائحها، معروف اشير له في قصار الكلمات ضمن عبارات موقظه(٥).

ص: ٢٨٧

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٣١.

٢- (٢) . المصدر السابق، الخطبه ٢٢٦.

٣- (٣) المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمه ١١٩.

٤- (٤) المصدر السابق، الكلمه ٤١٥.

٥- (٥) المصدر السابق، الكلمه ٧٧.

وأبعد من ذلك آيات القرآن المجيد التي ذمّت الدنيا بشدّه ومنها ما ورد في سورة الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُفًا مِّنْ فَضِّهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ» (١).

وإن رتبنا هذه الآيات والروايات مع بعضها لورد هذا السؤال: إن كانت الدنيا بكلّ هذا الحسن، فلم كانت سيئته لهذا الحدّ، وإن كانت سيئته فلم هذا الحسن؟

يكمن الجواب في عبارته: أنّ الاختلاف نتيجه لاختلاف الرؤى.

والذين يكتفون بالنظر الظاهري وأصحاب الدنيا من ذوى النظره الضيقه والسطحيه لا يرون سوى زخارف الدنيا وزينتها وملذاتها فيتعلقون بها، والدنيا خطيره للغاية على هذه الفئه، ولما كانت هذه الفئه تشكل الأ-كثريه، كانت هنالك الكثير من الآيات والروايات التي تذم الدنيا ولذلك يهتف القرآن: «فَلَا تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَكُم بِاللَّهِ الْعُرُورُ» (٢) الجدير بالذكر أنّ الدنيا الغرور في هذه الآيه عدت في مصاف الشيطان المكار (لأنّ المراد من الغرور في هذه الآيه هو الشيطان).

أمّا أهل البصائر والمؤمنون الصلحاء والعقلاء الذين ينظرون ببصرهم الحاد إلى باطن الدنيا ويرون بأفقههم البعيد بدايتها ونهايتها وتتجسد لهم عاقبه الأسلاف وتاريخهم ويضعون مصير الفراعنه والعمالقه والأباطره نصب أعينهم يسمعون بأذان أرواحهم رسائل الوعظ الدينوى المشفق ويعتبرون بتلك الدروس؛ فيستبدلون الدنيا بجامعهٍ لكسب المعارف الربانيه ومتاجر للتزود وحمل المتاع ومعبد رائع للعروج إلى ساحه القرب الربوبى.

وزيده الكلام فإنّ الدنيا حسب قول أميرالمؤمنين على عليه السلام فى إحدى الخطب:

«مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصْرَتَهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ» (٣).

ص: ٢٨٨

١- (١) سورة الزخرف، الآيات ٣٣-٣٥.

٢- (٢) . سورة فاطر، الآيه ٥.

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ٨٢.

القسم الرابع

أشاره

إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلِحَقِّ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبَادَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عِدْلِهِ وَقَسِيَطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصِيرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسٌ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّه يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضُهُ، وَعَلَاتِقُ عِيْدُرٍ مُنْقَطِعُهُ!

فَتَحَرَّرَ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عِيْدُرُكَ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لِمَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ لِسَيِّفِكَ؛ وَشِمَّ بَرَقَ النَّجَاهُ؛ وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

الشرح والتفسير: الاستعداد لسفر الآخرة

أشار الإمام عليه السلام في آخر جانب من هذه الخطبة بالالتفات إلى الإشارة في العبارة السابقة إلى عالم الآخرة إلى محكمه العدل الربانيه في عالم الآخرة فذكر بعض الأمور الدقيقة وقال: «إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ (١) ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا (٢) الْقِيَامَةُ، وَلِحَقِّ بِكُلِّ مَنْسَكٍ (٣) أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبَادَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ (٤) فِي عِدْلِهِ

ص: ٢٨٩

- ١- (١) . «راجفه» من ماده «رجف» على وزن «وقف» بمعنى الاضطراب والهزه الشديده ولما كانت الأخبار التي تثير الفتنه مدعاه لاضطراب المجتمع لذلك يقال لها أراجيف. وتشير هذه المفرده في القرآن وهذه الخطبه إلى زلزه الساعه.
- ٢- (٢) «جلائل» جمع «جليله» كل صفة عظيمه وشديده.
- ٣- (٣) . «منسك» بمعنى العباده وتعنى الدين والمعبد وهذا هو المراد بها في العبارة.
- ٤- (٤) «لم يُجْزَ» طبق ماورد في المتن من ماده «جزاء» بمعنى الثواب؛ ولكن وردت في بعض النسخ «لم يَجْرِ» من ماده «جريان»؛ يعنى لا- يجرى أدنى خلاف في عدالته وفي بعض النسخ الأخرى «لم يَجُزْ» من ماده «جور» إشاره إلى عدم جور الله في جزاء الأعمال وفي نسخ «لم يَجُزْ» من ماده «جواز»؛ يعنى لا يجوز أدنى خلاف في مقام عداله الله.

وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَزَقٌ بَصْرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسٌ (١) قَدِمَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ».

وكلام الإمام يؤكد على أمرين: الأول أن كل طائفه تلحق ذلك اليوم بإمامها ومعبودها ومطاعها وما كان في هذه الدنيا سيتجسم هناك قطعاً حتى ورد عن الإمام الرضا أنه قال: «فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَحَبَّ حَجْرًا لَحَشَرَهُ اللَّهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢). ومن قبل صرح القرآن قائلاً: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» (٣).

والآخر: أن حساب الله ذلك اليوم على درجه من الدقه والعدل المطلق بحيث لا يغادر ذره من ذنب أو خطوه من باطل على الأرض فالويل للآثمين والظلمه والمدننين!

طرح هنا بعض شراح «نهج البلاغه» سؤالاً: إن لحق ذلك اليوم كل عابد بمعبوده ومطيع بمن أطاع، فلا بد أن تلحق النصارى بالمسيح، والغلاه بأمر المؤمنين وعبد الملائكه بهم، وفي ذلك سرورهم طبعاً؟

أجاب القرآن المجيد عن هذا السؤال فقال: «وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا».

وقال إثر ذلك: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا» (٤).

نعم! لعلهم يلحقون لولا أن تبرأ أئمتهم منهم؛ وعليه واستناداً لهذه البراءه فسوف

ص: ٢٩٠

١- (١) «همس» بمعنى الصوت الخفى.

٢- (٢). وسائل الشيعه، ج ١٠، ص ٣٩٣، ح ٥ من باب ٦٦ من أبواب المزار وورد هذا المضمون باختلاف طفيف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى كتاب «روضه الواعظين».

٣- (٣) سوره الصافات، الآيات ٢٢ و ٢٣.

٤- (٤) سوره الفرقان، الآيات ١٧-١٩.

لن يلتقوا بهم قط.

ثم حذر أولئك الذين يبرّتون أنفسهم فى هذه الدنيا بالأدله الواهيه والأعذار التافهه أنّ الأمر ليس كذلك فى الآخره فقال: «فَكَمْ حُجَّه يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَهُ (١) ، وَعَلَاتِقِ (٢) عُدْرٍ مُنْقَطِعَهُ!».

إشاره إلى أنه يتضح ويظهر كلّ شىء فى ذلك اليوم وليس هنالك من قيمه للأعذار الواهيه فى ظل تلك الأجواء.

قال القرآن المجيد بشأن المكذبين بآيات الله: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» (٣).

ثم أشار فى ختام الخطبه - بعنوان استنتاج عملى واضح - إلى سبيل الخلاص ضمن خمس عبارات موجزه وعميقه المعنى فقال: «فَتَحَرَّ (٤) مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُدْرُكَ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ».

وقال فى السبيل الثانى: «وَأَخِذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ».

المراد من «مَا يَبْقَى لَكَ» النعم الأبدية يوم القيامة أى الأعمال الصالحه، والمراد من «مَا لَا تَبْقَى لَهُ» نعم الدنيا التى يتركها الإنسان ويمضى.

وقال فى الثالث: «وَتَيْسَّرْ لِسْفَرِكَ».

والذى قال فيه الله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٥).

وقال فى الرابع: «وَشِمِّمْ (٦) بَرْقَ النَّجَاهِ».

ص: ٢٩١

١- (١) . «داحضه» من «الدَّحْضُ» على وزن «محض» بمعنى خاطئه ويقال «حجه داحضه» للدليل الضعيف الذى لا أساس له.

٢- (٢) «علاتق» جمع «علاقه» (بفتح العين) الروابط والتعلق ومعنى العبارة المذكوره أنّ الروابط مقطوعه يوم القيامة، وكذلك جمع «علاقه» (بكسر العين) الحبل والشماعه وأمثال ذلك فىكون معنى العبارة أنّ حبال الأعذار مقطعه يوم القيامة.

٣- (٣) سورة المرسلات، الآيه ٣٦.

٤- (٤) . «تحرّ» من «التحرى» البحث عن الأمر الأفضل.

٥- (٥) سورة البقره، الآيه ١٩٧.

٦- (٦) «شم» من ماده «شَمِم» على وزن «دَمِم» التطلع إلى الشىء.

وقال أخيراً: «وَأَرْحَلُ مَطَايَا (١) التَّشْمِيرِ (٢)».

وخلال صه الكلام فإن الإمام أبان سبيل النجاه من مخالبا أخطار الدنيا والآخرة فى هذا السفر المنتظر وذكر المواعظ بشأن زاد السفر ومتاعه والالتفات إلى علائم الدليل ومن ثم إعداد أعداد التقصير وأسباب الزلل والخطأ، فمثل هذا المسافر لا يضل الهدف ولا- يتوقف حين يبلغ: «بلى يا زهري ليس ما ظننت ولكِنَّه الموتُ وله كُنْتُ اسْتَعِدُّ وَإِنَّمَا الاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ تَجَنُّبُ الحرامِ وَيَبْدُلُ الندى وَالخَيْرِ» (٣).

ص: ٢٩٢

-
- ١- (١) «مطايا» جمع «مطيه» الدابّه.
 - ٢- (٢) «تشمير» من ماده «شمر» على وزن «تمر» تعنى فى الأصل رفع الكم والاستعداد لعمل ثم اطلق على مطلق الاستعداد والسعى.
 - ٣- (٣) وسائل الشيعه، ج ٦، ص ٢٧٩، ح ٥ من الباب ١٤، أبواب الصدقات.

يَتَّبِعُوا مَنَ الظُّلْمِ (١)

نظرة إلى الخطبه

قال بعض الشراح أن الإمام علياً عليه السلام قال هذا الكلام لما اعترض عليه بعض أصحابه قائلين: إن معاوية جمع الناس حوله بما يبذل لهم من بيت المال فلو فعلت لرضى الناس ولتوكلوك، فغضب الإمام وصرح بأننى... هذا الكلام الذى يتألف فى الواقع من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: الذى استهله ببحث كلّى جامع وقارع فى البراءة من الظلم والجور وقال لست مستعداً لأدنى ظلم وجور وإغصاب الله وإسقاطه.

وخاض فى القسم الثانى فى بيان أحد المصاديق الواضحه لذلك المطلب وبين فقر عقيل وما كان يطلب بغير حق من بيت المال وكيف أجابه بالحديده المحماه.

ص: ٢٩٣

١- (١) سند الخطبه: رواها المرحوم الشيخ الصدوق فى كتاب «الأمالى»، كما رواها بعد السيد الرضى، سبط ابن الجوزى فى كتاب «التذكرة» عن ابن عباس عن أمير المؤمنين على عليه السلام، والزمخشري فى «ربيع الأبرار»، وابن شهر آشوب فى «المناقب»، ويستفاد من كلام الصدوق فى «الأمالى» أن ما أورده المرحوم السيد الرضى فى هذه الخطبه بعض ما ورد فى خطبه طويله. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٥٩).

وذكر في القسم الثالث مصداقاً حياً آخر عن براءته من الظلم والجور فتطرق إلى قصه الأشعث بن قيس المنافق والحلوى الملقوفه.

واختتم الكلام بعبارات بليغه وفريده في إعلان براءته من الظلم والجور وهضم حقوق الآخرين.

ص: ٢٩٤

وَاللَّهِ لَئِنْ آبَيْتَ عَلَىٰ حَسَبِكَ السَّعِيدَانَ مُسَيِّدًا، أَوْ أُجِرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَيِّدًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لَشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قُفُولَهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولَهَا؟!!

الشرح والتفسير: إرتكاب الظلم

كما اشير فإن بعض أصحاب الإمام عليه السلام قالوا للإمام: إنك عمد العدالة وتساوى بين الصغير والكبير إلّا أن جماعه نعموا عدالتك بينما يغدق عليهم معاويه الأموال والهدايا حتى التحق به جماعه كثيره فهلا قربتهم بالأموال. فأجابهم الإمام عليه السلام بكلام بعضه هذه الخطبه موضوع البحث (1).

يستفاد من هذا الكلام مدى نومه الإمام عليه السلام من هذا الانحراف الفكرى الذى أصاب جماعه من خاصته، لذلك سعى لإزاله هذه الثقافه الجاهليه الفاشله من أفكارهم التى يتبناها اليوم بعض الساسه المحترفين بايضاحات قاطعه وذكر الشواهد وأمثال ذلك ويستبدلها بثقافه القرآن والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله التى تنشده بسط العدل والقسط تجاه الجميع فقال: «وَاللَّهِ لَئِنْ آبَيْتَ عَلَىٰ حَسَبِكَ (2) السَّعِيدَانَ (3) مُسَيِّدًا (4) ،

ص: ٢٩٥

١- (١) تمام نهج البلاغه، ص ٦٧٩، الطبعة الثانيه.

٢- (٢) . «حسك»؛ يعنى الشوك. كما يطلق على شوك الصحراء أو داخل بدن السمكه.

٣- (٣) «سعدان» نبات رعاه الإبل له شوك تشبه به حلمه الثدى.

٤- (٤) «مسهد» من «السهاد» على وزن «رقاد» بمعنى السهر و «مسهد» من لا ينام الليل.

أَوْ أُجْرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَّ فُتْدًا(١) ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِّنَ الْحُطَامِ(٢)».

أسوأ العذاب بالنسبة للإنسان أن ينام على أشواك السعدان (الأشواك الثلاثية أطرافه على الأرض وطره الحاد إلى الأعلى) ويقيدون يده ورجله في النهار ويجر في السوق والشارع.

وقد أقسم الإمام عليه السلام بالله بكل حزم فقال: تحمل هذا العذاب أهون عليّ من أن ألقى الله وأنا ظالم لبعض العباد وغاصب لشيء من حطام هذه الدنيا الزائلة فذلك العذاب ابدى وعذاب هذه الدنيا عابر مهما كان، فكيف تتوقعون أن أسلك طريق معاويه الذي لا يقيم وزناً لحساب الآخرة. فأترك الشريعة وألجأ إلى الشرك والجاهلية.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَيَّ الْبَلَى قُفُولَهَا(٣) ، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى(٤) حُلُولُهَا؟!».

إشاره إلى أن أى عقل لا يقبل بهذا المنطق فى أن يضحي الإنسان بالسعادة الأبدية من أجل السعادة العاجله وأولئك الذين لهم هذه الممارسات كمعاويه وبطانته على خطأ عظيم.

وهكذا يريق الإمام عليه السلام الماء الطاهر فى يد من اقترح عليه الظلم واعتقد بأن الغايه تبرر الوسيله فقد يئس أولئك الذين يظنون أنهم قادرون على تغيير نهجه العادل الشاق للغايه.

ص: ٢٩٦

١- (١) . «مصفد» من ماده «صفد» على وزن «صيد» المقيد و «صفاد» على وزن «عناد» يقال للحبل والقيد.

٢- (٢) «حطام» من ماده «حطم» على وزن «حتم» بمعنى الكسر ويقال لمتاع الدنيا «حطام».

٣- (٣) . «قفول» مصدر بمعنى الرجوع والعودة ومفهوم العبارة كما ورد سابقاً طبق هذا المعنى، ولكن احتمال البعض أن «قفول» جمع «قفل» ومعنى العبارة كيف أظلم شخصاً تتآكل بسرعه أفعال ووشائج بدنه.

٤- (٤) «الثرى» التراب.

لا ينبغي أن ننسى أنّ عهد خلافة الإمام الظاهريه وبمنتهى الأسف، إنّما ابتدأت حين اعتاد المسلمون بكرم عثمان على طريقه حاتم الطائي من بيت المال والتميز البغيض والذي أدى بالتالي إلى الخروج عليه وسار معاويه على نهجه، غير أنّ الإمام عليه السلام كان يسعى لإعاده الأُمَّه إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ورغم عدم تحقيق هذا المشروع، النتيجة التامة؛ لكنّه انطوى على فائده مهمه حفظت رساله الإسلاميه الأصيله وفضحت المنحرفين.

ص: ٢٩٧

وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرُكْمٍ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صَبِيًّا أَنَّهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبِرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُيُودَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعِظْلَمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّدًا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا، فَأَضِيْعَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبَعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَهُ، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيحَ ذِي دَنْفٍ مِنَ الْإِمِيَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسِرِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلَّتْكَ التَّوَاكُلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَيْتُنِي مِنْ حَدِيدِهِ أَحْمَاهَا إِنْسَانَهَا لِلْعَبِي، وَتَجَرَّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَيْتُنِي مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتُنُّ مِنْ لَظِي؟!!

الشرح والتفسير: قصة الحديد المحماه

كان للإمام عليه السلام في القسم السابق بحث كلّي بشأن اجتناب الظلم والجور التي تشير إلى ذروه السلامه من الظلم والجور، وقد ركز هنا على مصداقين واضحين كشاهدي صدق على ما ذكر. فبين أولاً قصه عقيل والحديده المحماه فشرح نموذجاً من عدله الذي ليس له مثل ربما في تاريخ العالم فقال: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ (١) حَتَّى اسْتَمَاحَنِي (٢) مِنْ بُرُكْمٍ (٣) صَاعاً (٤)».

ص: ٢٩٩

١- (١) «أَمْلَقَ» من «الإملاق» بمعنى الفقر ومادته الأصليه «مَلَقَ» على وزن «شفق» النعومه ويقال الفرد المتملق كونه يتخذ حاله الذله والنعومه واستعملت بحق الفقير لهذه الحاله.

٢- (٢) «استماحنى» من «الاستماحه» الاستعطاء.

٣- (٣) «الْبُرُّ» القمح.

٤- (٤) «صاع» أحد الأوزان وهو أربعة امداد وكل مد أقل من نصف كيلو، سبعمائه وخمسون غراماً تقريباً.

ظاهراً، مراد عقيل «صاع» كحصه يومية منظمه لتؤمن بصوره كامله هذه الماده الغذائيه وإلا لو كان صاعاً ليوم فإنه لا يحل مشكلته وليس له قيمه أن يأتي عقيل من ذلك البعد لأخيه.

كما تجدر الاشاره إلى أن عقيلاً طلب طلباً آخر بأداء دين ثقيل عليه لكن الإمام اقتصر على الإشاره إلى الطلب الأول. ثم قال: «وَرَأَيْتُ صَبِيَّاهُ شُعَثَ (١) الشُّعُورِ، غُبْرَ (٢) الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُودَّتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْمِ (٣)».

وأضاف عليه السلام: «وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّدًا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا، فَأَصْبَغْتُ (٤) إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي».

شرح الإمام عليه السلام هنا جميع العوامل التي يراها اهل الدنيا تقتضى التمييز بالنسبه لأخيه.

فمن جانب لم يطلب كثيراً.

ومن جانب آخر كان أولاده فقراء ومعدمين.

وأخيراً كان يكثر من تكرار طلبه.

ولكن مع كل ذلك كان على الإمام أن يميز بين عقيل والآخريين من المحتاجين ويعطى لأخيه من بيت المال العائد لعامة المسلمين ويضفى عليه ميزه خاصه.

قطعاً هذا العمل لا ينسجم مع العدالة الإسلاميه وسمو روح الإمام عليه السلام، لذلك وبغيه كف عقيل عن التكرار ليقنع بحقه من بيت المال عامله بما يثبت له عملياً عاقبه الظلم فقال: «فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَهُ، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا».

ص: ٣٠٠

١- (١). «شُعَثَ» جمع «أشعث» المجعد الشعر.

٢- (٢) «غُبْرَ» جمع «أغبر» من علاه الغبار.

٣- (٣) «عِظْمِ» نبت يصبغ به ما يراد إسوداده.

٤- (٤). «أَصْغَيْتُ» من «الإصغاء» السمع.

عقيل ظاهراً كان مكفوفاً آنذاك ومدّ يده علّه يحصل على درهم أو دينار ولم يكن يعلم ما الذى ينتظره فلما شعر بالحراره تقترب من يده: «فَضَحَّ ضَجِيحَ ذِي دَنْفٍ (١) مِنْ أَلْمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسِمِهَا (٢)».

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلَّمْتُكَ التَّوَاكِلَ (٣)، يَا عَقِيلُ! أَتَيْتُنْ مِنْ حَدِيدِهِ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا (٤) لِلْعَبِيهِ، وَتَجَرَّنِي إِلَى نَا سَجْرَهَا (٥) جَبَّارُهَا لِعُضْبِهِ! أَتَيْتُنْ (٦) مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتُنُّ مِنْ لَظِي؟! (٧)».

«ثواكل» جمع «ثاكله» الأم التى مات ولدها وإن اطلق على كل ام فى عزاء.

التعبير باللعب إشاره إلى أنّ نار الدنيا مهما كانت محرقة إلّا أنّها ليست أكثر من لعبه إزاء نار الآخره فالنار الحقيقه هناك، لذلك عبر الإمام عليه السلام عن الأولى ب «أذى» والثانيه «لظى».

يستفاد ضمناً من تعبيرات الإمام عليه السلام خلافاً لما يظنه بعض الجهال، فإنّ الإمام عليه السلام لم يضع قط حديده محماه فى يد عقيل، بل قربها من يده وحيث كان أعمى خاف وصرخ.

انتشرت هذه القصه فى جميع الأوساط حتى وصلت إلى معاويه حسب بعض الروايات فأيقظت العديد من الغافلين وأفادت نهايه الكرم العثمانى من بيت المال على القرابه والأفراد المقربين. فإذا كانت هذه معامله الإمام لأخيه إزاء طلب صغير على خلاف العداله فما بال الآخرين، فما عليهم سوى عدم التفكير بأى امتياز.

وتطلق هذه المفرده أحياناً على جهنم كما ورد فى الآيه ١٥ من سوره المعارج:

«كَأَنَّهَا لَظِي».

بعباره اخرى أنّ ذلك لم يكن درساً لعقيل فحسب، بل لعامه الناس فى العالم

ص: ٣٠١

١- (١) «دنف» السقم الشديد.

٢- (٢) «ميسم» اسم آله من ماده «وسم» الحراره الشديده؛ ولكن يبدو أنّها وردت هنا بصيغه المصدر بمعنى الحراره.

٣- (٣) . «ثواكل» جمع «ثاكله» الأم فى عزاء ابنها وتستعمل أحياناً المرأه المعزاه.

٤- (٤) . «إنسانها» هنا بمعنى: صاحبها.

٥- (٥) «سجرتها» من «السجور» تعنى فى الاصل اشعال نار التنور ثم اطلقت على كل اشعال.

٦- (٦) «تتن» من ماده «انن» الأنين والتألم.

٧- (٧) «لظى» شعله النار الخالصه التى تكون شديده الحراره.

الإسلامى فأفاد مساواه الجميع أمام العدالة، وليس لأحد طلب المزيد وإن كان أقرب المقرّبين إلى رئيس الدولة. الطريف ما ورد فى ذيل بعض الروايات أنّ عقيلاً قال للإمام عليه السلام إذا كان الأمر كذلك فسأذهب إلى من يكثر من البذل والعطاء. ومراده (معاويه) فردّ عليه عليه السلام: «راشداً مهدياً» (١).

ولترك الكلام لعقيل يتحدّث عن قصه الحديده المَحماه: ثم تلا الآية: «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ» (٢).

فقال معاويه: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ عَقِمَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَهُ» (٣).

وقد روى المرحوم العلّامة المجلسى فى «بحار الأنوار» قصّه مكمله لما سبق (٤).

على كلّ حال تشير القرائن إلى أنّ هدف الإمام عليه السلام لم يكن مجرد بيان قضيه شخصيه وتحذير عقيل، بل كان الهدف انتشار هذه القضيه فى كلّ مكان وكان كذلك وأن يفكر أصحاب الامتيازات أنّ تكليفهم أصبح واضحاً بعد أن تصرف الإمام مع عقيل بهذه الطريقه فلا يفكرون قط فى تلك الامتيازات، وبعبارة أخرى كان الهدف وضع حد لثقافه عهد عثمان فى بيت المال وإعادته ثقافه العهد النبوى.

تأملان

١. نظره إلى شخصيه عقيل

هو عقيل بن أبى طالب وأخو أمير المؤمنين على عليه السلام لأمه وأبيه وكان بنو أبى طالب أربعة وهو أسن من الإمام بعشرين سنه ويكنى أبا يزيد.

وكان أبو طالب يحبّه كثيراً فلذلك قال له النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «يا أبا يزيد إني أحبّك حُبِّين؛ حُبّاً لِقْرَابَتِكَ مِنِّي وَحُبّاً لِمَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إِيَّاكَ».

ص: ٣٠٢

١- (١) شرح نهج البلاغه للمرحوم مغنيه، ج ٣، ص ٣١٦.

٢- (٢) سوره غافر، الآية ٧١.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه ابن ابى الحديد، ج ١١، ص ٢٥٣.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١١٣ و ١١٤ (روى المرحوم العلّامة المجلسى هذا الحديث عن ابن شهر آشوب).

وورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «إِنَّ وَلَدَهُ لَمَقْتُولٌ فِي مَحَبَّةٍ وَلَدِكَ فَتَدْمَعُ عَلَيْهِ عُيُونُ الْمُؤْمِنِينَ وَتُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ بَكَى حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُ عَلَى صَدْرِهِ».

شهد عقيل كعمه العباس بن عبدالمطلب معركة بدر الكبرى مع المشركين مجبراً فأسر وعاد إلى مكة بفديه وأسلم بعد صلح الحديبية وهاجر ووصل إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (١).

٢. التسوية بين المسلمين في بيت المال

لا شك في أن لبيت المال مصادر مختلفة؛ وأحد تلك المصادر، الزكاة، ونعلم أن المساواة ليست شرطاً في الزكاة، بل تصرف الزكاة على أساس الحاجة كما لا ضروره لأن نتظر محتاجاً آخر بحضور محتاج معين، بل لنا أن نعطي المحتاج الحاضر بما فيه الكفاية.

المصدر الآخر: الخمس الذي كان يؤخذ في صدر الإسلام غالباً من غنائم الحرب، والخمس بيد الحاكم الإسلامي ليصل المحتاجين حسبما ورد في الفقه والروايات ولا يشترط فيه المساواة أيضاً.

الثالث: الغنائم الحربية التي توزع على المقاتلين بالتسوية؛ لكن للمشاه سهم وللفرسان سهمان حيث كانوا آنذاك هم الذين يشتركون في الفرس، طبعاً كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أحياناً يستجيز أصحابه في دفع شيء من الغنائم إلى أفراد معينين لجلبهم إلى الإسلام.

المصدر الرابع والخامس والسادس، المداخل الخيرية وخمس غير الغنائم والأنفال التي لا يشترط في توزيعها المساواة أيضاً، ولا مجال لشرحها هنا.

المصدر السابع الذي كان أهم من الكل آنذاك والذي يشكل عمده بيت المال

ص: ٣٠٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٢٥٠؛ شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٥٢٣.

وهو دخل أراضى الخراج؛ أى مبالغ الاستتجار أو خراج الأراضى للمناطق المفتوحة والتي توضع فى خزانه الدوله الإسلاميه، فتلك الأراضى ملك لعامه المسلمين وليس الجيل القائم آنذاك، بل جميع الأجيال، وبالطبع فإن دخلها يعود إلى الجميع. بالضبط كالمملك المشاع الذى يتساوى فيه الجميع، ومن الطبيعى أن ليس للدوله الإسلاميه أن تميز بين المسلمين فى هذا الدخل. وإن لم يلتزم اغلب الخلفاء بهذا الحكم وبل يتصرفون فى تلك الاموال حسب ما يشاؤون.

وماورد فى قصه عقيل فى هذه الخطبه يتعلق بهذا الأمر الذى يشكل أهم قسم فى بيت المال ولعل عقيلاً أعتقد أن تلك الأموال بيد الحاكم الإسلامى يتصرف بها كما يشاء ولاسيما أنه شاهد ما كان يفعله الخليفه الثالث بتلك الأموال.

ص: ٣٠٤

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفِهِ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونِهِ شَنْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيِّهِ أَوْقَيْنِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلْمَهْ، أَمْ زَكَاهْ، أَمْ صَدَقَهْ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبْلَتُكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتُحَدِّعَنِي؟ أَمْحَتَبِطُ أَنْتَ أَمْ دُوجِنِهْ، أَمْ تَهَجُرُ؟ وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقْسَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتِ أَفْلَاكِهَا، عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَّ اللَّهَ فِي نَمَلِهِ أَسْدِئْبُهَا جُلْبِ شَعِيرِهِ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقِهِ فِي فَمِ جَرَادِهِ تَقْضَةُ مَهَا. مَا لِعَالِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَمَذَهٍ لَا تَبْقَى! نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقَفِجِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

الشرح والتفسير: قصة المنافق الأشعث بن قيس

بين الإمام عليه السلام في القسم السابق كما رأينا القصة التاريخية لأخيه عقيل والحديده المحماه لياس أصحاب الامتيازات الطامعين في بيت المال، القصة التي تتجلى فيها ثقافه العدالة الإسلاميه وتقديم الضابطه على الرابطه، ثم أشار هنا إلى مصداق آخر من هذا القبيل فذكر قضيه المنافق الأشعث بن قيس وقال: «وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ (١) طَرَقَنَا بِمَلْفُوفِهِ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونِهِ شَنْتُهَا (٢)، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيِّهِ أَوْقَيْنِهَا».

ص: ٣٠٥

١- (١). «طارق» من «الطروق» و «طرق» بمعنى الدق ويقال الطارق لمن يذهب ليلاً إلى آخر حيث الباب مغلق عادة ولا بد أن يدقه ليدخل.

٢- (٢) «شنت» من «الشنان» على وزن «غنيان» البغض والكراهيه و «شنت» كرهت.

المعروف أن ذلك الطارق كان الأشعث بن قيس رأس النفاق في الكوفة شبيه عبدالله بن أبي رأس النفاق على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في المدينة.

أمّا قول الإمام عليه السلام: «مَلْفُوفَةٌ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٌ شَنْتُهَا، كَأَنَّهَا عَجِنَتْ بِرَيْقِ حَيْهٍ أَوْقَيْتُهَا» حيث كان هدف الأشعث أن يستعطف قلب الإمام لتحقيق غرض دنيوي. (يقال أحياناً إنه تنازع مع أحد المسلمين باطلاً على مياه وملكك، ورفع الأمر إلى علي عليه السلام، لعل هذا الرجل الأعمى البصيره أراد من خلال ذلك أن يستميل الإمام ويشتري رأيه؛ ولكن الإمام عليه السلام رأى بعينه الملكوتيه باطن تلك الحلوى الذي كان كسم الحيه، لأنها كانت بمثابة رشوه).

المفردة «مَلْفُوفَةٌ» رغم أنها من ماده «لَفَّ» لتشير هنا إلى طرف القماش الذي يلف به؛ ولكن حيث قال الإمام عليه السلام كانت تلك الملفوفه في وعاء وعطف عليها مفرده معجونه فيحتمل أن تكون الملفوفه نوعاً من الحلوى التي كانت معروفه ومرغوبه في الكوفه(١).

احتمل بعض شراح نهج البلاغه أن المفردة «قىء» بمعنى سَم الحيه لاقيتها، لأنها تطرحه من فمها كقيتها وهذا ما يقتضيه المقام والشائع لدينا في الاستعمال بشأن الطعام. «فَقُلْتُ: أَصِلَّهُ، أَمْ زَكَاهُ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ».

طبعاً الزكاه محرمه على جميع بنى هاشم والصدقه التي تشير إلى الإنفاق المستحب وهي ليست حرام حسب المشهور ولعل حرمتها كانت مختصه بأهل البيت عليهم السلام، واحتمل البعض أنها إشاره إلى الكفارات والصدقات الواجبه غير الزكاه، هذا أيضاً حرام على بنى هاشم.

أمّا «صله» فربما تعنى الرشوه التي يعبر عنها في مباحث رشوه القاضى ب «صله

ص: ٣٠٦

١- (١) أشار الشيخ محمد عبده إلى هذا المعنى في شرحه لنهج البلاغه (ج ٢، ص ٢١٨) وقال: كانت الملفوفه نوعاً من الحلواء أهداها إليه الأشعث بن قيس.

القضاء» ومن هنا يقال لها «صله» التي يجعلها الراشى وسيله للوصول إلى هدفه غير المشروع.

وقيل «صله» تعنى «هديه» أو جائزه ومنه فى جائزه الشاعر، يقال «صله شاعر» وعليه فالعباره: «لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ» إشاره إلى نفى الزكاه والصدقه وإثبات كونها هديه.

كما احتمال أن تكون العبارة «لا ذا ولا ذاك» نفى للجميع؛ أى ليست رشوه ولا زكاه ولا صدقه، بل هديه.

ثم وجه الإمام عليه السلام أشد ضربات التوبيخ والتفريع للمناق الأشعث بن قيس، وقال: «فَقُلْتُ: هَبْلَتُكَ الْهَبُولُ!» (١) أَعْنُ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتُخَدَعَنِي؟».

إشاره إلى أنك كأغلب الشياطين تلبس طلبتك المنكره لباس الشرعيه لتحقيق غرضك فتسمى الرشوه هديه وتظن أنك تغرّ بهذا الظاهر من ترى عينه أعماق الوجود. ثم قال: «أَمْخَبْتُ أَنْتَ أُمُّ ذُو جَنِّهِ، أَمْ تَهْجُرُ؟».

إشاره إلى أن عاقلاً لا يتصور أن أحداً يمكنه خداع شخص كعلى عليه السلام بهديه تفوح من باطنها رائحه الرشوه فإن جرب ذلك أحدهم فهو مجنون أو مختبط فى عقله لمرض.

«مختبط» من ماده «خبط» بمعنى فقدان التوازن ويستعمل تاره فى التوازن الظاهرى وأخرى فى التوازن الفكرى، والمعنى الثانى هو المراد هنا والعباره «ذُو جَنِّهِ» إمّا إشاره إلى وساوس الشيطان التى تعدّ من الجنون ويختل إثرها عقل الإنسان، أو إشاره إلى المعروف بين الناس حيث البعض ممن أصابه الجن.

المفردة «تَهْجُرُ» من ماده «هَجَرَ» هذيان القول، وعليه فالفرق واضح بين هذه المفردات الثلاث؛ فالمختبط المختل العقل الذى يفقد توازنه العقلى، وذو جنه، الذى يعانى من نوع من الجنون لعامل باطنى، وتهجر تقال للمجنون ذاتاً ويصاب بالهذيان

ص: ٣٠٧

١- (١) «هبول» صفة مشبهه، المرأه لا يبقى لها ولد فهى كثيره البكاء.

طبعاً حين تكون هذه المفردات مع بعضها تفيد المعنى المذكور بينما إن أتت كلّ مفردة لوحدها أفادت معانٍ أُخرى.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضيه بمنتهى الأهميه بشأن عدالته لعلها لم تسمع من غيره طيله التاريخ ليفهمه مدى الخطأ الذي إرتكبه ولم يعرفه وهى تحذير إلى جميع الزعامات وحكام المجتمعات الإنسانيه فقال: «وَاللّٰهُ لَوْ أَعْطِيَتْ الْأَقَالِيْمَ السَّبْعَةَ (١) بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلِهِ أَسْلُبَهَا جُلْبَ (٢) شَعِيرِهِ مَا فَعَلْتُهُ».

ثم تطرق عليه السلام إلى دليل ذلك فقال: «وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقِهِ فِي فَمٍ جَرَادِهِ تَقْضُمُهَا (٣)».

وأكد عليه السلام ذلك بالقول: «مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذِهِ لَا تَبْقَى!»..

حيث صرّح الإمام عليه السلام فى هذه العبارات الصريحه والبلغه، لو أعطيت أعظم الرشاوى المتصوره فى العالم بما فيها ما على الأرض والقصور والثروات والأموال، لأمارس أدنى ظلم وهو سلب غطاء حبه شعير (لا حبه شعير) من فم نمله والتي تبدو أصغر المخلوقات، لما فعلت.

ما أكثر الأفراد الذين تستميلهم المبالغ البسيطة والمتوسطه فى الرشوه أما إذا كان امتيازاً هاماً يعادل جميع حياته فذلك ما يهزه من الأعماق.

وهل هنالك من يسعه الزعم أنه لن يمارس أدنى خلاف ولو أعطى أعظم امتياز

ص: ٣٠٨

١- (١). الأقاليم السبعه، «أقاليم» جمع «إقليم» جزء من العالم أو البلد وقد قسم قدماء الجغرافيين العالم إلى سبعة أقاليم ولم تكن حدود تلك الأقاليم محدده لعدم وجود الخرائط الجغرافيه الدقيقه عن العالم. على كلّ حال الأقاليم هى: الإقليم الأول، الهند. الثانى، بعض البلدان العربيه والحبشه، الثالث، مصر والشام، الرابع، ايران. الخامس، الروم. السادس، الترك، السابع، الصين. (قاموس دهخدا، ماده إقليم). لعل هنالك تقسيماً آخر للجغرافيين وعلى كلّ حال مراد الإمام عليه السلام لو أعطيت كلّ مناطق الكره الأرضيه.

٢- (٢) «جلب» الغطاء الذى يحيط بحبه القمح أو الشعير كما يطلق «جلب» على ما يغطى به الجرح بعد أن يبرأ.

٣- (٣) «تقضمها» من ماده «قضم» على وزن «هضم» بمعنى العض والمضغ.

ولا يهتز لذلك؟ الإمام يقول أنا ذلك الشخص ويقسم عليه صراحة.

ويمكن توجيه الدليل الذي ذكره الإمام عليه السلام على هذا الأمر، فالامتيازات المادية إنما تحظى بأهميته من الدنيا كبيره وعظيمه لديه أمّا من كان في قمه معرفه الله وكل ما سواه لا- شىء بالنسبه له والدنيا عنده كورقه نبات في فم جراده، فليس هنالك من داعٍ لأن يعصى الله ويرتكب الظلم.

فالإمام على عليه السلام كان ينظر إلى باطن الدنيا ببصيرته؛ حيث كان يرى كل تلك الملذات والنعم المادية آيله إلى الفناء والزوال وليس هنالك ما يستحق التعلق به أو يفكر بالتعلق به.

ومن هنا إن أردنا أن نقطع دابر الرشوه والظلم والجور والتعدى على حقوق الآخرين لابد أن نجتهد من أجل رفع مستوى معرفه الإنسان بالله والدنيا.

يفهم ضمناً من هذه العبارات بالدلاله الالتزاميه أن الظلم والجور والحكم بغير الحق لمن أسوأ المعاصي لاينبغي إرتكابها حتى لو حصل على الدنيا برمتها.

ثم اختتم الإمام عليه السلام بعبارته موجزه وموظفه في الواقع ناظره لكل مضمون الخطبه فقال: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَيِّئَاتِ (1) الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ».

إشاره إلى أن العقل إن كان يقظاً واقترن بلطف الله لما قارف الإنسان الكبيره وقلمًا يرتكب الصغيره.

ونختتم هذا الكلام بنقل روایتين: قال الحافظ أبو نعيم الاصفهاني أحد علماء العامه في كتابه المشهور «حليه الأولياء»: «إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

«يا علي! إن الله قد زينك بزينة لم يُزَيَّنِ العباد بزينة أحبَّ إلى الله منها هي زينته الأبرار عند الله تعالى والزُّهُدُ في الدنيا فجَعَلَكَ لا تَزُزُّ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً وَلَا تَزُزُّ مِنْكَ

ص: ٣٠٩

١- (١) «سبات» من ماده «سبت» على وزن «وقت» التعطيل لأجل الاستراحه؛ ويطلق «سبات» على التوقف عن العمل وهذا هو المراد بها في العبارة وتسميه السبت لدى العرب كون هذه التسميه في الأصل جاءت من اليهود لأنهم يعطلون أعمالهم في يوم السبت.

وورد في روايه أُخرى أنّ امرأه شجاعه من شيعة علي عليه السلام تدعى «دارميّه الحجويّه» أُحضرت عند معاويه فسألها:

هل رأيت عليّاً؟

قالت: أرى الله وأبته.

قال: كيف رأيتيه؟

قالت: «رَأَيْتُهُ لَمْ يَفْتِنَهُ الْمُلْكُ الَّذِي فَتَنَكَ وَلَمْ تَشْغَلْهُ النَّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ» (٢).

تأمل: من هو الأشعث بن قيس؟

ذكرنا في الجزء الأول عند تفسير الخطبه التاسعه عشره أنّ «الأشعث» كان من المنافقين ثمّ أسلم ظاهراً على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ثم إرتد بعد وفاته وأسر فندم عند أبي بكر فعفا عنه، ووقف إلى جانب أعداء أمير المؤمنين علي عليه السلام مثل عمرو بن العاص، لبث الفرقة والنفاق في صفوف أصحاب الإمام ليكون مصدراً لكثير من المفاسد والاضطرابات، وكان صاحب نفوذ في قبيلته فكان يستعين بهم لتحقيق مآربه، حتى قال بعض المحققين: إنّ أغلب مشاكل عصر خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام كانت من هذا المنافق اللدود.

للمزيد يراجع الجزء الأول صفحه ٦٤٤ فصاعداً.

ص: ٣١٠

١- (١) شرح نهج البلاغه للمرحوم الخوئي، ج ١٤، ص ٢٩٧، الطبعة القديمه.

٢- (٢) كتاب بلاغات النساء، ص ١٠٦ طبق نقل شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٥٤١.

يَلْتَجِيْ اِلَى اللّٰهِ اَنْ يُغْنِيَهُ (١)

نظره إلى الخطبه (الدعاء)

الهدف الأصلي للإمام عليه السلام في هذا الدعاء كما يتضح من العنوان، طلب الغنى وعدم الحاجه إلى غيره، فالحاجه إلى الآخرين مدعاه أحياناً لمدح الآخرين، بينما لا يستحقون ذلك المدح، أو ذم المانعين ولعلمهم لا يستحقون ذلك الدم، والأسوأ من ذلك مد اليد إلى شرار الخلق، فالدعاء في الواقع تعليم لجميع الناس ولاسيما الأتباع، وإلّا فالإمام عليه السلام أسمى مقاماً من أن يتجه صوب الأشرار أو يمدحهم.

ص: ٣١١

١- (١) سند الخطبه (الدعاء): روى هذا الدعاء باضافات الراوندى في كتاب «الدعوات» وجاء بعد قوله: «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي وَأَوَّلَ وَدِيَعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نَعْمِكَ» وتشير هذه الإضافة إلى أن الراوندى اقتبس الدعاء من مصدر آخر غير «نهج البلاغه». كما ذكره باختلاف صاحب كتاب «الطراز» (السيد اليماني) وهذا يدل على أنه أخذه من مصدر آخر. وضمّنه الإمام السجاد عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق باختلاف طفيف يدلّ على أنه كان معروفاً عند أهل البيت (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٦٠).

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْدُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ، فَاسْتَرْزِقْ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسِئْتَعَطِفْ شَرَارَ خَلْقِكَ، وَأَبْتَلِي بِحَمْدٍ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتِنَنَّ بِدَمٍّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيًّا لِأَعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

الشرح والتفسير: الغنى عن شرار الخلق!

ذكر الإمام عليه السلام في هذا الدعاء القصير مطالب عميقة ضمن ثمان عبارات فهو دعاء ودرس في الأخلاق، فبين في البدايه أصل الدعاء بعبارتين فقال: «اللَّهُمَّ صُنْ (١) وَجْهِي (٢) بِالْيَسَارِ (٣)، وَلَا تَبْدُلْ جَاهِي (٤) بِالْإِقْتَارِ (٥)».

ليس المراد من «اليسار» الغنى بالمعنى السائد في العرف، بل المراد الغنى عن الآخرين المقترن بالكفاف والعفاف، وإلا فالغنى بالمعنى المذكور يؤدي أحياناً إلى إراقه ماء الوجه، وهنالك تفسيران للعبارة «وَلَا تَبْدُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ» بالنظر إلى أنّ «ولا تبدل» من ماده «بذل» و «بذل» له معنيان: أحدهما العطاء والفقدان، والآخر القدم والضياع: التفسير الأول اللهم لا توفاني على الفقر، والآخر لا تبدل شخصيتي بالفقر.

ص: ٣١٣

١- (١) «صن» من «الصيانه».

٢- (٢) «وجه» تعنى هنا الكرامه وإن كان معناها الأصلي هو الوجه.

٣- (٣) «اليسار» من «اليسر» السهوله والغنى وهو المعنى المراد في العبارة.

٤- (٤) «جاه» القدر والمقام والشرف.

٥- (٥) «اقتار» من «القتور» على وزن «فتور» المشقه في الإنفاق.

ثم خاض في أربع عبارات في آثار الفقر والحاجه إلى الآخرين فقال:

«فَأَسْتَرْزِقُ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعِطِفُ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي».

وقال عليه السلام في الختام: «وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات الموجزه في أربعه آثار سيئه للفقر التي تتم في مرحلتين فقال أولاً: أدنى ما يترتب على ذلك أن أمد يد الحاجه إلى المحتاجين إليك والأسوأ من ذلك أن تقضى الحاجه من قبل السيئين، وحقاً أليمه للغايه هي الحياه في ظلّ تلك الشرائط بالنسبه للأفراد المؤمنين ذوى الشخصيه.

في المرحله الثانيه: أى بعد الطلب فإن أجاب الطرف المقابل اضطر الإنسان إلى مدحه وإن تحفّظ عن الاجابه انطلق لسانى بدمه ولعل لديه حاجاته الكبيره، ولكن حيث «صاحِبُ الْحَاجَةِ لَا يَرَى إِلَّا حَاجَتَهُ»^(١)، فبمجرد أنه لم يستجب لى اتهمته بالبخل، والحال ما أحرانى أن أتجه إلى الله فهو ولى المنع والعطاء وهو القادر على كلّ شىء!

من البديهي أن روح الإمام عليه السلام الساميه لا تقبل هذه الأمور قط وإن أصابته الحاجه، فالإمام يريد بيان الآثار الطبيعيه للفقر والتي تبدو على أغلب الناس ليجدوا ويواجهوا الفقر ولا يمدوا أيديهم إلى الآخرين أبداً.

تأمل: الآثار السيئه للفقر

رغم ما ورد في عدّه روايات فى مدح الفقر، كحديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «الْفَقْرُ

ص: ٣١٤

١- (١). وردت هذه العبارة فى الروايات وتطلق بصيغه مثل معروف بتعبيرات مختلفه، مثل «صاحِبُ الْحَاجَةِ لَا يَرُومُ إِلَّا قَضَاءَهَا» أو «صاحِبُ الْحَاجَةِ أَرَعْنَ لَا يُرِيدُ إِلَّا قَضَاءَهَا» أو «صاحِبُ الْحَاجَةِ أَعْمَى وَلَوْ كَانَ بَصِيرًا». (كشف الخفاء، العجلونى، ج ٢، ص ١٨).

فَخَرَى وَبِهِ أَفْتَحِرُ». ورواه الإمام الصادق عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا فَقُلْ مَرْحَبًا بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلًا فَقُلْ: ذَنْبٌ عَجَّلَتْ عُقُوبَتُهُ»^(١). وسائر الروايات، ولكن من الواضح أنّ الفقر بمعنى العوز ولاسيما الذى يحصل بفعل الكسل والتقصير وضعف الإدارة فانه ليس مدعاه للفخر ولا شعار الصالحين، بل مدعاه للذل والهوان والتلوث بأنواع المعاصي.

المدعاه إلى الفخر، الفقر إلى الله، فالكل محتاج إلى الله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»^(٢) والذى يشبه ما ورد فى حديث أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كَفَى بِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا وَكَفَى بِي فَخْرًا أَنْ تَكُونَ لِي رَبًّا»^(٣).

أو أنّ المراد بالفقر، الحياه البسيطة الخاليه من التكلف والتعقيد إزاء الثراء الذى يؤدى إلى السكر والغرور والتناول.

والعبارة «شعار الصالحين» عن الفقر، والتعبير ب «العقاب المعجل» عن الغنى، شهاده واضحه على هذا المعنى، لأنّ شعار الصالحين قطعاً ما يوجب الصلاح والفلاح؛ كالزهد وبساطه العيش وعقوبه المعصيه ترتبط بالأمر الملوّث بالذنب.

كما يحتمل أن تكون بعض الروايات التى أثنت على الفقر تشير إلى الفقر المفروض الذى يطال الإنسان إثر القيام بالوظيفه، مثلاً، فى بدايه الدعوه النبويه اضطر العديد من المسلمين إلى الهجره من مكه إلى المدينه ولم يتمكنوا من حمل ممتلكاتهم معهم فعانوا هناك من فقر شديد أو المسلمون الذين حاصرهم خصوم الدعوه اقتصادياً فأصبحوا فقراء، الفقر الذى أصابهم بسبب الإيمان بالله وطاعه أوامره وكان النبى صلى الله عليه و آله يواسيهم ويبيّن لهم أنّ الفقر مدعاه للفخر وشعار الصالحين.

ص: ٣١٥

١- (١). الكافى، ج ٢، ص ٢٦٣، ح ١٢ من باب فضل فقراء المسلمين.

٢- (٢). سوره فاطر، الآيه ١٥.

٣- (٣) الخصال، ج ٢، ص ٤٢٠، ح ١٤.

كما عانى خواص أهل البيت عليهم السلام في العصور اللاحقه بمضمون المثل المعروف «الْبَلَاءُ لِلْوَلَاءِ» من هذا الفقر المفروض واستمر ذلك حتى عصرنا الحاضر، وهذا الفقر ليس بعيداً عن العيب فحسب، بل هو فخر، والعيب أن يتخلى الإنسان عن الوظيفة من أجل الدنيا والاستسلام للعدو.

وإلى ذلك أشار الحديث الشريف «مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَعُدَّ لِلْفَقْرِ جَلْبَاباً»^(١).

وعليه فالفقر الحاصل من الكسل والهروب من العمل أو سوء الإدارة ليس مطلوباً للإنسان قط.

ويشير كلام الإمام عليه السلام في هذا الدعاء إلى أنّ سلسله من الرذائل الأخلاقية التي يفرزها الفقر بمعنى العوز والحاجه، فالتواضع للأشرار ومدح وذم من لا يستحق، لمن تلك الرذائل الأخلاقية التي تنشأ من الفقر بمعنى العوز.

الجملة «لا- تَبْدُلْ جَاهِي بِالْأُفْتَارِ» دليل على أنّ الفقر الفردى يزيل ماء وجه الإنسان، والفقر الاجتماعى يزيل ماء وجه المجتمع وهذا ما لا ينسجم أبداً والعزه الناشئه من الإيمان: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢).

قال أميرالمؤمنين على عليه السلام: «يَا بَنِي الْفَقِيرِ حَقِيرٌ لَا يُسْمَعُ كَلَامُهُ وَلَا يُعْرَفُ مَقَامُهُ لَوْ كَانَ الْفَقِيرُ صَادِقًا يُسْمَعُونَ كَاذِبًا وَلَوْ كَانَ زَاهِدًا يُسْمَعُونَ جَاهِلًا».

ثم أضاف عليه السلام: «يَا بَنِي مَنْ ابْتُلِيَ بِالْفَقْرِ ابْتُلِيَ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بِالضَّعْفِ فِي يَقِينِهِ وَالتُّقْصَانِ فِي عَقْلِهِ وَالرَّفَقَةِ فِي دِينِهِ وَقَلَّةِ الْحَيَاءِ فِي وَجْهِهِ، فَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفَقْرِ»^(٣).

وإننا نرى اليوم بأم أعيننا أنّ الفقر مصدر ما لا يحصى من المفساد كالابتلاء بالمخدرات والفحشاء والخيانة والسرقة وخدمه الأجانب وما شابه ذلك، ومن هنا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «غِنَى يَحْجُزُكَ عَنِ الظُّلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَقْرٍ يَحْمِلُكَ

ص: ٣١٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٦.

٢- (٢) سورة المنافقون، الآية ٨.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٤٧، ح ٥٨، من باب فضل الفقر والفقراء.

عَلَى الْإِثْمِ»(١).

ولذلك قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «الْفَقْرُ سِوَادُ الْوَجْهِ فِي الدَّارَيْنِ»(٢).

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا»(٣).

ومن الطبيعي أن تكون تلك العيوب التي اشير إليها أعظم خطوره إن عمّ الفقر المجتمع، وإنما نرى اليوم المجتمعات الإسلاميه الفقيره كيف هوت في مخالاب الأجنب وأعداء الإسلام بما يدعو الإنسان إلى مزيد من الأسى والأسف.

ونختتم هذا البحث بدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام ضمن أحد أدعيته العميقه المعانى إذ تضرع: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَعِيشَةِ مَعِيشَةً أَقْوَى بِهَا عَلَى طَاعَتِكَ وَأَبْلَغُ بِهَا جَمِيعَ حَاجَاتِي وَأَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُتْرَفَنِي فِيهَا فَأَطْغَى أَوْ تَقْتَرَهَا عَلَيَّ فَأَشْقَى»(٤).

ص: ٣١٧

١- (١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧، ح ٧.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٠.

٣- (٣) المصدر السابق.

٤- (٤) المصدر السابق، ج ٨٧، ص ١٢.

فى التَّنْفِيرِ مِنَ الدُّنْيَا (١)

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة فى الواقع من ثلاثة أقسام وكل قسم فى مطلب مكمل لمطلب آخر: خاض الإمام عليه السلام فى القسم الأول فى التعريف بالدنيا أنها دار متقلبه مليئه بالأحداث الأليمه دائمه التغير وأهلها عرضه لسهام البلاء.

وحذر فى القسم الثانى من أن قبلكم كثير ممن عمّر الدنيا وكانوا أكثر منكم إمكانيات وأقوى لكنهم رحلوا جميعاً وحلّوا مساكن من التراب والطين والحجر بدل تلك القصور، هى قبورهم.

ص: ٣١٩

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه المّتقى الهنّدى من فقهاء العامّه فى كتاب «كنز العمال» (ج ١٦، ص ٢٠٠، ح ٤٤٢٢٤) وقال: روى الدينورى وابن عساكر عن عبدالله بن صالح العجلى عن أبيه أنّ على بن أبى طالب عليه السلام خطبنا يوماً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبىّ ثم قال: «عباد الله لا- تَعْرَنُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَخْضُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ...» ورواها بإضافات سبط ابن الجوزى فى «تذكرة الخواصّ» وقال: تعرف هذه الخطبه (لفصاحتها وبلاغتها) ب «الخطبه البالغه». ثم قال: إنّ أبانعيم نقل بعضها فى كتاب الحليه. وأضاف عليها الخطيب الخوارزمى فى كتاب «المناقب». قال صاحب «مصادر نهج البلاغه» بعد الإشاره إلى هذه المطالب: ولا نرى حاجه لذكر رواه الخطبه من علماء الإماميه بعد هذه الروايه الواسعه من كتب العامّه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٦٧).

وقال فى القسم الثالث: إنكم سائرون على طريقهم وملاقون مصيرهم. وسيحل اليوم الذى تنتهى فيه حياتكم وتضم القبور أجسادكم وستبعثون من تلك القبور وتظهر لكم أعمالكم التى أسلفتم وعليكم تبعثها.

ص: ٣٢٠

دَارُ بِالْبَلَاءِ مَخْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نَزَالُهَا.

أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مِذْمُومٌ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَزِمِيهِمْ بِسَهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

الشرح والتفسير: تقلب احوال الدنيا

تناول الإمام عليه السلام كما قيل في هذا الجانب من الخطبه تقلب الدنيا وغدرها فقال:

«دَارُ بِالْبَلَاءِ مَخْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ (١) مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نَزَالُهَا (٢)».

والبلاء الذى يصيب الحياه فى هذه الدنيا كثير ومتنوع من قبيل الأمراض البدنيّه والنفسية والأحداث الاجتماعيه الأليمه والعواصف والزلازل والسيول والغارات والحروب وما يؤدى إلى جرح الإنسان أو موته وفقدان الأعره وأمثال ذلك.

والعبارة: «دَارُ بِالْبَلَاءِ مَخْفُوفَةٌ» إشاره بليغه لكل ما ذكر، غدر الدنيا وربّما يشير إلى أهلها الغدره غالباً فإن أقبلت الدنيا على أحد أحيوه وإن ولّت ولّوا كأنّهم لم يعرفوه. أو إشاره إلى غدر النعم الدنيويه بينما ترى الإنسان سالمًا معافى ويظن أن وضعه سيستمر كذلك وإذا بحادث بسيط يقضى على سلامته، أو تراه جمع أموالاً وثروه طائله فتفاجأ بحدث أفلسه. وتقلّب الدنيا المبين فى العبارة «لَا تَدُومُ»

ص: ٣٢١

١- (١) . «غدر» له عدّه معانٍ متقاربه المكر والخداع وعدم الوفاء.

٢- (٢) «نزال» جمع «نازل» الضيف أو من يدخل مكاناً.

أَحْوَالُهَا» نتيجة لتلك الحوادث المتنوعه والبلايا التي تصيب الإنسان من كل جانب، وعدم أمن سكنتها في العبارة «وَلَا يَسِيلَمُ نَزَّالَهَا» بسبب تلك الحوادث المريره وتقلبات الدنيا.

ثم أكد عليه السلام ذلك بعبارة موقظه فقال: «أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ (١) مُتَّصِرَةٌ (٢)، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، الْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ».

وتاريخ البشريه برمته شاهد حي على هذا الكلام العميق المعنى وأبعد من ذلك آيات القرآن التي تكشف الستار عن قصص الماضين، والصورة ذات العبره التي رسمها القران أواخر سوره القصص عن حياه الثرى المعروف من بنى إسرائيل قارون الذى ظهر يوماً بين بنى إسرائيل بزبنته وخدمه وحشمه ويستعرض قوّته وثراءه أمام الجميع حتى انبرى البعض منهم ممن غرّته زخارف الدنيا ليقولوا: «يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ» ولم يطلع الغد حتى ابتلعتة الأرض بالزلزله والخسف بكل ما يملك فأخذت أصحاب الدنيا الرهبه ليقولوا «لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا».

ولا تبدو هذه الحوادث قليله فى عصرنا، بل اتسعت للغايه وانتشرت لنرى كل يوم تلك المشاهد باعيننا.

ثم شبّه الإمام عليه السلام فى ختام هذا المقطع حوادث الدنيا وسكنتها تشبيهاً رائعاً فقال: «وَأَيْنَمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَعْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ (٣)، تَزْمِيهِمْ بِسَهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا (٤)».

نعم فالناس فى هذا العالم أهداف فاقده للدفاع أمام سهام البلاء المصوبه نحوها من اليمين والشمال والأعلى والأسفل؛ السهام التي قلّما تخطئ وتصيب كبد الهدف فتقضى عليه، وهل من أمن فى الميدان الذى أحاط به الرماه ويستهدفون الإنسان

ص: ٣٢٢

١- (١). «تارات» جمع «تاره» على وزن «غاره» بمعنى الزمان وتأتى عاده بمعنى مرّه.

٢- (٢) «متصّرفه» من «التصرف» التغير.

٣- (٣) «مستهدفه» من ماده «هدف» التي يصبوب نحوها السهم.

٤- (٤) «حمام» من ماده «حم» على وزن «غم» التقدير ومن هنا يراد به الموت الذى قدره الله ويعنى الطير بالكسر.

كلّ حين؟! أليست الحياه مذمومه قبيحه فى هذا الوسط؟ لعل ذلك الميدان مليئاً بالجواهر والألبسه الفاخره والأطعمه المتنوعه، لكن هل يسع هذه الأمور إسعاد الإنسان فى ذلك الوسط؟! كلا. هنالك قصه معروفه من شأنها تجسيد غدر الدنيا.

تأمل: دار محفوظه بالبلاء

هذا العالم موضع المشاكل والمصائب والآلام والمحن. وإنما نعلم إجمالاً بهذا الموضوع، لكننا غالباً نتأمل فى شرحه وتفصيله. والآفات التى تهدد سلامه الإنسان أكثر من أن تحصى. تتألف بنيه الإنسان من أعضاء مختلفه لكل منها عدّه شرائط للقيام بوظيفته، وأدنى تغير فى تلك الشرائط بالنسبه للقلب والكليتين والعروق والأعصاب والعضلات والعظام يخلق أزمه.

يعتقد بعض الأطباء بأنّ كبد الإنسان يدفع ثلاثمائه نوع من السموم ولو اختل قليلاً لما وسعه دفع بعضها وهذه أولى الأزمات، وهكذا العين والأذن والأنف واللسان وأمثالها ولو تجاوزنا الآفات الباطنيه فإنّ الآفات الظاهريه كثيره للغاية ومتنوعه بحيث إنّ موت الإنسان كامن فى عوامل حياته؛ فالمطر مصدر الحياه لو زاد عن حدّه لكون سيولاً عظيماً تأتى على كل شىء، والرياح المهمه للحياه لو ازدادت سرعتها لأصبحت عاصفه تجتث الأشجار وتقذف بسقوف المنازل بعيداً، والشمس الذى تفيض بأشعتها الحياه لو تركزت هذه الأشعه لأصيب الإنسان بضره الشمس وهدده خطر الموت، والأرض التى يسكنها الإنسان ومنها جميع البركات لو طغت وحدثت الزلازل لأحالت مدناً عمرت بالبناء لسنوات إلى ركام من التراب خلال لحظه.

وآفات النباتات وطغيان البحار وهجوم الأمراض المعديه من الأرض والهواء والماء والطعام كلّ منها من شأنه تهديد حياه الإنسان، وإذا صدرت الأوامر لأسراب

الجراد بالهجوم وتقدمت بجيشها الجرار من كل مكان لأبادت أوراق الأشجار والسيقان والمحاصيل دون أن يسع أحد مواجهتها ولو بأقوى الوسائل المتطورة.

هذا ما يتعلق بالحوادث الطبيعيه أما الآفات الاجتماعيه فليست بأقل منها خطراً، فهناك الحروب الدمويه كالبراكين التي تحدث كل يوم فى منطقته من العالم والتي تهدد على الدوام حياه الإنسان، التنافس المحموم للاستيلاء على المناصب السياسيه والقضايا الاقتصاديه تمرغ كل يوم أنف جماعه فى التراب أو تقضى على حياتها الاختلافات الأسريه التي تؤدى إلى الطلاق وتصدع كيان الأسره وعقوق الأبناء وخيانه الشركاء وأصحاب السوء وضربات المنافقين كل منها عامل يهدد حياه الإنسان واستقراره.

وعليه فلا بد أن نقبل بكل كياننا على كلام «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ».

ص: ٣٢٤

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعْمَرَ دِيَارًا، وَأَبْعَدَ آثَارًا؛ أَضَى بَحَثَ أَضِي وَأَتُهُمْ هَامِدَةً، وَرِيَا حُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسِدُهُمْ بِيَالِيَّةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَّةً، وَآثَارُهُمْ عَائِيَّةً. فَانْتَبَهُوا بِالْقُصُورِ الْمَشِيدَةِ، وَالنِّمَارِ الْقِيَامَةِ، وَالصُّحُورِ وَالْإِحْيَارِ الْمُسَيِّدَةِ، وَالْقُبُورِ اللَّاطِيئَةِ الْمُلْحِدَةِ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فَنَاوَاهَا، وَشُدَّ بِالتَّرَابِ بِنَاوَاهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُعْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلِّهِ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ.

وَكَيفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبَلْبَى، وَأَكَلَتْهُمْ الْجِنَادِلُ وَالثَّرَى.

الشرح والتفسير: جيران متباعدون

أخذ الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه يد مخاطبيه ليحملهم إلى أعماق تاريخ الماضين ليريههم مصيرهم بعد ذلك العمر الطويل وتلك القوه والاعتدار ويضع أمسهم مع يومهم فيلهم مخاطبيه وجميع عباد الله من كل مله ونحله أعظم وأعمق درس وعبره فقال: «وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ».

ثم خاض عليه السلام في شرح هذا المعجم فقال: «مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعْمَرَ

دِيَارًا، وَأَبْعَدَ آثَارًا؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً (١)، وَرِيَاخُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً (٢).

وقد قدّم القرآن في مختلف السور نماذج واضحة لهؤلاء الأقوام، ومن ذلك قوم عاد وثمود كنموذج واضح فقال في سوره والفجر «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ» (٣).

فقد ذكر عليه السلام ثلاث خصائص تفيد رجحان الأقوام السابقة عليهم؛ الأولى طول العمر (بحيث قيل إن بعضهم كان يعمر أربعمائيه سنه) (٤) وعمارته المدن حتى قال فيهم القرآن: «وَكَأَنُّوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ» (٥). وكانت لهم أراضٍ عامره وبساتين نصره ونعمه وافره وكانوا بارعين في الزراعة.

وأخرى كانت آثارهم أبقى، إشاره إلى أن مساكنهم وقصورهم وسائر أعمالهم العمرانيه كانت على درجه من الإحكام بحيث بقيت لسنين عديده، لكن كيف كانت عاقبتهم، سكنت الأصوات والضجيج وسيطر عليها الصمت وتعفنت أجسادهم تحت التراب وبليت عظامهم وطويت آثارهم.

والعبارة «وَرِيَاخُهُمْ رَاكِدَةً» بالنظر إلى أن رياح جمع ريح والريح هنا بمعنى الروح والقوه فمفهوم ركودها أنهم قعدوا تماماً عن العمل، وفسره البعض بمعنى سكون ريح الغرور. كما يحتمل أن يكون المراد بها الريح التي تطال رايات الملوك والمقتدرين.

ص: ٣٢٤

١- (١). «هامده» من «الهمود» تعنى فى الأصل انطفاء النار وانخفاض الحرارة ثم اطلقت على انطفاء الصوت وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

٢- (٢) «عافيه» من ماده «عفو» زوال آثار الشئ كأن تهب الريح وتزيل ذرات الرمل وتمحوها عن النظر ومنه العفو الذى يعنى إزالة آثار الذنب.

٣- (٣) سوره الفجر، الآيات ٦-١٣.

٤- (٤). شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئى، ج ١٤، ص ٢٣٠.

٥- (٥). سوره الحجر، الآيه ٨٢.

ثم أشار عليه السلام إلى قضيه مهمه بعد مغادرتهم لتلك القصور الفارهه والحياه المترفه وأين حلوا فقال: «فَاسْتَبَدَّلُوا بِالْقُصُورِ الْمَشِيدَةِ (١)، وَالنَّمَارِقِ (٢) الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالْأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ (٣)، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ (٤) الْمَلْحَدَةَ (٥)».

حقاً يا له من أمر عظيم أن ينتقل الإنسان من ذروه القدره وهو يعيش النعمه واللذّه إلى النقطه المقابله تماماً، فلا بيت ولا شمعه ولا- سراج ولا- فراش ولا- نعمه وبطر. طبعاً هذا الأمر المؤلم بالنسبه لأولئك الذين اعتادوا الحياه المرفهه والمريحه، أما أولئك الذين عاشوا حياه الزهد والبساطه فلا يعانون من هذا الانتقال، لاسيما أنّ القبر بالنسبه لهم روضه من رياض الجنّه.

ثم خاض في بيان وضع قبورهم وسكنتها فقال: «الَّتِي قَدَّ بِنِي عَلَى الْحَرَابِ فَنَاوَاهَا (٦)، وَشَيْدَ بِالتُّرَابِ بِنَاوَاهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرَبٌ، وَسَاكِنُهَا مُعْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلِّهِ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ».

نعم، إن كانت قصورهم بنيت بمواد قيمه باهضه جمعت بجهد جهيد من مختلف المناطق فإنّ قبورهم بنيت بمواد لا قيمه لها فهى حفنه تراب، وسكنه هذه القبور فى حالتين متناقضتين، القرب والبعد، قريبون من حيث المكان وبعيدون من حيث الإرتباط، أو أنّهم منهمكون بأنفسهم إلى درجه عدم الإرتباط بالآخرين، أو لا يؤذنون لهم بالإرتباط، ويبدو أنّ ذلك ليس مهماً لهم، لكنهم فى الواقع متضجرون

ص: ٣٢٧

١- (١). «مشيده» من ماده «شيد» على وزن «صيد» جعل الشىء مرتفعاً و «شيد» على وزن «بيد» الجص وماشابه ذلك الذى يطلى به البناء للزينه وعليه «اصول مشيده» (بتشديد الياء) البناء المرتفع والمحكم و «مشيد» (على وزن شديد) أيضاً البناء المحكم وورد فى القرآن المجيد، فى سوره الحج، الآيه ٤٥: «وَبِنَى مُعَظَّمَهُ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ».

٢- (٢) «نمارق» جمع «نمرقه» على وزن «سنبله» الوساده الصغيره التى يستند عليها.

٣- (٣) «مسند» من «السند» على وزن «قعود» الاستناد و «مسند» فى العبارة الشىء الذى يتكى عليه.

٤- (٤) «لاطئه» ملتصقه بالأرض من «اللطوء» على وزن «فروع» لصيقه بالأرض.

٥- (٥) «ملحده» من ماده «لحد» على وزن «مهد» دفن الميت وهو جعل الشق وسط القبر أو جانبه.

٦- (٦). «فناء» الفضاء المفتوح امام البيت وهكذا كانت بيوت الكبار.

لأنه وإن لم يكن هناك شيء من الأمور الدنيوية، لكنهم وجلون من أعمالهم بحيث لا يكثرثون لغيرهم (طبعاً يحدث كل هذا في الحياة البرزخية).

ثم قال عليه السلام في مواصلة ذلك: «لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ».

العباره «لَا- يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ» لعل العباره لا يستأنسون بالأوطان إشاره إلى أنهم وإن ناموا سنين متماديه فى قبورهم؛ لكن لا رغبه لهم بها ولا- يأنسون بها، كما احتمال أن يكون المراد ترك إرتباطهم بأوطانهم فى عالم الدنيا فهم لا يفكرون فى الرجوع إليه، إلّا أنّ المعنى الأوّل بقريته العباره (ولا يتواصلون...) أصوب.

وأشار عليه السلام فى الختام إلى هذه النقطه، لم لا- يسعهم الإرتباط مع بعضهم: «وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ (١) أَلْبَى، وَأَكَلْتَهُمُ الْجَنَادِلُ (٢) وَالثَّرَى (٣)!»..

إشاره إلى أنهم كانوا متلاصقين فى قبورهم، لكنهم فقدوا كل قدرتهم وتحولوا إلى قبضه تراب، وهل من تراور ولقاء من العظام الباليه والأجساد الخاويه؟

غَرِيبٌ وَأَطْرَافُ الْبَيْوتِ تَحُوطُهَا لَا كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ غَرِيبٌ (٤)

تأمل: عاقبه الإنسان بعد الموت

ما ورد فى الجمل المذكوره قرينه من الجمل التى جاءت بعدها والتى ترتبط بجسم الإنسان بعد الموت، لأنّ الأجساد تتحول إلى التراب وليس فى مقدورها الترابط والتواصل بل تعيش الغربه تماماً.

ص: ٣٢٨

١- (١) «كلكل» بمعنى الصدر.

٢- (٢) «جنادل» جمع «جندله» على وزن «مزرعه» الصخور.

٣- (٣) «ثرى» التراب.

٤- (٤) البيت للإمام الحسين عليه السلام، لما وضع أخاه الحسن عليه السلام فى لحدّه، انظر: مناقب آل أبى طالب عليه السلام، ج ٣، ص ٢٠٥؛ بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٦٠، ح ٢٩.

ولا شك أن الأرواح لها شأن آخر، فإن أرواح المسيئين في عذاب شديد كما أشار القرآن الكريم إلى نماذج منها مثل عاقبه آل فرعون حيث قال:

«النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (١).

وأما أرواح الأخيار في الجنة البرزخية وكما قال القرآن الكريم بشأن الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله: «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (٢).

بل هذا ما يستفاد من بعض الروايات أن أرواح الأخيار في تلاقى وتزاور، بل هم في حلقات الأُنس والمؤانسه.

فقد روى المرحوم الكليني في الجزء الثالث من كتاب «الكافي» في باب أرواح المؤمنين عن حبيبه العرنى قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر، فوقف بوادي السلام كأنه مخاطب لأقوام، فقامت بقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت، ثم قمت، حتى نالني مثل ما نالني أولاً، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت وجمعت ردائي فقلت: يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام، فراحه ساعه! ثم طرحت الرداء ليجلس عليه، فقال لي: «يا حبيبه، إن هو إلا مُحَادِثُهُ مُؤْمِنٍ أَوْ مُؤَانِسْتِهِ». قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وإنتهم كذلك؟ قال: «نعم، وَلَوْ كُشِفَ لَكَ لَرَأَيْتَهُمْ حَلَقًا حَلَقًا مُحِبِّينَ يَتَحَادَّثُونَ». فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: «أرواح، وَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ فِي بُقْعَةٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، إِلَّا قِيلَ لِرُوحِهِ: الْإِحْقَى بِوَادِي السَّلَامِ، وَإِنَّهَا لَتُبْقِعُهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ» (٣).

وعلى هذا الأساس فإن الإمام على عليه السلام صرّح في هذه العبارات إلى عدم انحصار الموت بالحياه الجسمانيه للإنسان ولا بعالم الأرواح فقط، وذلك أن أغلب الناس

ص: ٣٢٩

١- (١) سورة غافر، الآية ٤٦.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٠.

٣- (٣) الكافي، ج ٣، ص ٢٤٣، باب في أرواح المؤمنين، ح ١.

فى هذه الحياه يقتصرون على الجانب المادى والملذات الجسمانيه فقط، بل يحذرهم بأن هذه الأجساد إلى أين يكون مصيرها؟
فعلیکم أن تستيقظوا من سباتکم ولا تنغمسوا فى الملذات الجسمانيه والمعاصى والذنوب فقط.

ص: ٣٣٠

وَكَأَنَّ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنْكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجِعُ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدِعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ، وَبُعِثْتِ الْقُبُورُ: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

الشرح والتفسير: المصير المحتوم

طبق الإمام عليه السلام على مخاطبيه هنا ما أورده بشأن مصير الأسلاف كي لا يظنوا أن الوفاة ومغادره القصور والشروات وإمكانات الحياة واللحاق بالموسدين تحت التراب الذين لم يحملوا معهم شيئاً ولا يتصلوا ببعضهم مقتصر على أولئك الأسلاف فقال: «وَكَأَنَّ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنْكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجِعُ (١)، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدِعُ».

نعم فهذا قانون لا استثناء فيه مع أن لكل عام ما يخصه، إلا أن هذه الأمور لا تخصص (أي أن تلك القاعدة لها استثناء أنها لا تعرف الاستثناء في بعض الموارد).

ثم أشار عليه السلام إلى قضية مهمّة وهي أن مشكله الإنسان لا تنتهي بالموت، والمشكلة حضوره محكمة القيامة ومسؤوليته عن صغار أعماله وكبارها فقال:

«فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ (٢) بِكُمْ الْأُمُورُ، وَبُعِثْتِ (٣) الْقُبُورُ: «هُنَالِكَ تَبْلُو (٤) كُلُّ نَفْسٍ مَا

ص: ٣٣١

١- (١) «مضجع» الفراش والمنام وتعني هنا القبر ومن ماله «ضجع» على وزن «ضرب» النوم على الجانب.

٢- (٢). «تناهت» من «التناهى» الوصول إلى الغاية.

٣- (٣) «بعثت» من «البعثه» على وزن «مرتبه» تعني في الأصل القلب رأساً على عقب والاستخراج ولما كانت القبور تقلب يوم القيامة عند إحياء الأموات ويظهر ما بداخلها فقد استعمل في القيامة.

٤- (٤) «تبلو» من ماله «بلاء» الامتحان وكون الامتحان سبب العلم فاستعملت بهذا المعنى.

أَسْلَفْتُ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

نعم هنالك بعض الأمور المهمّة في ذلك اليوم؛ فالجميع حاضرون بين يدي العدل الإلهي ويرون أعمالهم أمام أعينهم ولا تنفع جميع الأعذار الواهية والكذب لتبرير أسباب المعصية والانحراف وليس لأحد من سبيل للهروب من نتيجة أعماله.

حقاً لو تأمل الإنسان هاتين القضيتين سيرى أنّ الحياة آيلة للزوال وسيترك كل شيء ويلتحق بالنائمين تحت التراب ثم يعقب ذلك الحساب وجزاء الأعمال، الحساب الذي لا مفرّ منه؛ لو فكر في هذين الأمرين لراقب أعماله قطعاً في هذه الدنيا ولما بدر منه كلّ هذا الفساد والعصيان.

ص: ٣٣٢

يَلْجَأُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ لِيَهْدِيَهُ إِلَى الرَّشَادِ (١)

نظرة إلى الخطبة (الدعاء)

يتألف هذا الدعاء العميق المعنى ذو المضامين الرفيعة من قسمين:

القسم الأول في حبّ الله لعباده والمتوكلين عليه والعلم ببواطنهم.

ويستعيد عليه السلام في القسم الثاني بالله ليرشده في الحوادث المضلّة ويهديه لما فيه الخير ويعامله برحمته لا بعدله.

ص: ٣٣٣

١- (١) سند الخطبة (الدعاء): الكتاب الوحيد الذي ورد فيه هذا الدعاء ويشير إلى اقتباسها من مصدر آخر غير «نهج البلاغه» باضافات يتضح منها أنه استقاها من مصدر آخر جمعها في (الصحيحه العلويه الأولى) للعالم الفاضل السماهجي، كما وردت في مصباح الشيخ الطوسي أنّ الإمام السجاد عليه السلام كان يدعو به بعد الركعة الثالثة عشره والرابعة عشره يوم الجمعة (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧٠) السماهجي هو الشيخ عبدالله بن صالح بن علي أحمد البحراني من سماهج قريه في إحدى جزائر نواحي البحرين من علماء القرن الثاني عشر الهجري، كان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر وله مؤلفات منها الصحيحه العلويه الأولى، توفي سنة ١١٣٥ (مصادر نهج البلاغه، ج ١، ص ٨١).

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ الْإِنْسَانِ لِأَوْلِيَائِكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَاسْتِرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ. إِنَّ أَوْحَشَتَهُمُ الْعُزْبَةُ أَنْسِيَهُمْ ذِكْرَكَ، وَإِنْ صُدِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْإِسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْمًا بِأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرُهَا عَنْ قَضَائِكَ.

الشرح والتفسير: انس العباد

تضرع الإمام عليه السلام إلى الله في مستهل هذا الدعاء المهذب للروح والمربى للإنسان قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ (١) الْإِنْسَانَ لِأَوْلِيَائِكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ».

إشاره إلى أن من تحلى بهاتين الصفتين سيشمل بهذه النعمة العظيمة بالأنس بالله وقضائه لمشاكله بأن يكون في عداد أولياء الله أو المتوكلين عليه، وهكذا يعطى الإمام عليه السلام درساً في تهذيب الإنسان ضمن مناجاته لربه. ولما كان حل المشاكل منوط بالعلم بهم قال مواصلاً دعاءه: «تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَاسْتِرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ (٢)».

نعم، الله عالم بأسرارهم وبواطنهم، فهو أقرب إلينا من جبل الوريد: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا

ص: ٣٣٥

١- (١) «أنس» صيغه افعل التفضيل من ماده «أنس» تعنى هنا أشد الأنس وحقيقه الأنس، الهدوء عند الشىء وقال البعض يقال الإنسان: لأنسه بالروح الاجتماعيه.

٢- (٢) «ملهُوفه» المشتاق أو المضطر ومن ماده «لهف» على وزن «كهف» والمعنى الأول أنسب.

الْإِنْسَانَ وَنَعَلَّمَ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١).

ولعل الفارق بين السرائر والضمائر أنّ السرائر تقال للحالات الخلقية والضمائر للنيات التي تساور قلب الإنسان ويتحرك إثرها. كما تستعمل هاتان المفردتان بنفس المعنى. وبصائر البشريّة بالإضافة لآكمالها مفهوم هذا الدعاء تكمن في المراقبه التامه للظاهر والباطن والتيه والعمل، فالله عالم بكلّ هذه الأمور، أسرارهم الخفيه مكشوفه لله ونياتهم ظاهره له.

والعبارة: «قُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ» نتيجة لإيمانهم بالله ومعرفتهم به وتوكلهم عليه.

فكلما ازداد الإيمان والعلم به ازداد شوقه لمبدأ الرحمة والحبّ والكرم.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه هي أنّ أولياء الله والمتوكلين عليه لا- يركعون قط للمصائب ولا يفقدون ثقتهم بالله فقال: «إِنْ أَوْحَشَتْهُمْ الْعُرْبُ أَنْسِيَهُمْ ذِكْرَكَ، وَإِنْ صَبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْإِسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْمًا بِأَنَّ أَرْزَمَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرُهَا عَنْ قَضَائِكَ».

وفى الواقع أنّ كلّ هذه الصفات والحالات ناشئه من الإيمان بالتوحيد الأفعالى ويشير إلى أنّ هذا الغصن من التوحيد إن نما فى روح الإنسان أفضى إلى ثمار جمّه، فلا يشعر بالوحده إزاء المشاكل ولا يشعر بالغربه فى وحدته.

ص: ٣٣٦

اللَّهُمَّ إِنَّ فَهَيْتُ عَيْنِ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيْتُ عَنْ طَلِبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاتِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِيَدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ.

اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.

الشرح والتفسير: الله كهف الوري

عقب بيان مقدمات الدعاء وإعداد القلب والروح للتضرع إلى الله الذي ورد سابقاً، خاض الإمام عليه السلام هنا في أصل الدعاء فذكر أصلاً كلياً أوجز فيه طلباته دون التركيز على كل واحده فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّ فَهَيْتُ (١) عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيْتُ عَنْ طَلِبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، خُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاتِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِيَدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ».

فهذا الدعاء ينطوي على منتهى الأدب أمام الله وتلاحظ فيه ضمناً شموليته لجميع الطلبات ويشير إلى هذه الحقيقه وهي أننا مهما علمنا بمصالحنا ومطالبنا مع ذلك تغيب عنا كثيراً من الأمور أو نخطئ في تشخيصها؛ إلا أن الله أعلم بمفاسدنا ومصالحنا، فنسأله إرشادنا لمصالحنا وما نسأله الله ما فيه خيرنا ومصالحنا ولا يستبعد ذلك قط من لطف الله.

وأود أن أذكر هنا حديثاً رائعاً عن الإمام زين العابدين عليه السلام أن الحسن البصري

ص: ٣٣٧

١- (١). «فَهَيْتُ» من «الفهاهه» على وزن «كرامه» العجز والنسيان.

قال: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ وَ إِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا».

فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ مَعَ سَمْعِهِ رَحْمَةِ اللَّهِ» (١).

ثم ابتهل عليه السلام فى الختام: «اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَذَابِكَ».

وكأنه عليه السلام عدّ العدل والعفو فى هذه العبارة مطيه، والعدل مطيه مقلقه بينما العفو مطيه سمحه فسأل الله أن يحمله على تلك المطيه السهله لنفوز بالقرب هائنين ومرتاحين من العقاب الأليم فى ظل لطفك، وهذا مضمون العبارة التى تورّد كدعاء فى الصلاة وغيرها: «إِلَهْنَا عَامِلْنَا بِفَضْلِكَ وَلَا تُعَامِلْنَا بِعَذَابِكَ يَا كَرِيمٌ».

قال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ نَاسٍ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ».

فقال الأصحاب: «وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟».

فقال صلى الله عليه وآله: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَوْقِ رَأْسِهِ وَطَوَّلَ بِهَا صَوْتَهُ» (٢).

تأمل: أدعية المعصومين عليهم السلام المهذبه

تختزن أدعية النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمه العصمه عليهم السلام جانباً مهماً من التعاليم الدينيه، ولقراءه هذه الأدعية أثر عظيم فى ترسيخ عرى الإيمان وتهذيب النفوس وتربيه الفضائل بالاضافه إلى سوق الإنسان إلى القرب من الله وإبعاده عن الشيطان ووساوسه وتلطيف الروح. ولما كانت تلك الأدعية نابعه من الروح الساميه للمعصوم فهى جميعاً فى مستوى رفيع واحد وإذا تلاها الإنسان عالماً بمضامينها ساقته لذروه المعرفه والكرامه فإذا جمعت هذه الأدعية - وقد تصدى لذلك أخيراً بعض

ص: ٣٣٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٣، ح ١٧.

٢- (٢) المصدر السابق، ج ٧، ص ١١.

المحققين (١)- كانت خزانه نفيسه من المعارف الدينيه والدروس الخلقيه ومرآه السير والسلوك إلى الله. وقد وردت على هامش خطب نهج البلاغه والرسائل.

وقصار الكلمات ما يقارب ثلاثين دعاءً تؤيد بأجمعها ما ذهبنا إليه. فبعض الأدعيه كدعاء الصباح وكميل وعرفه للإمام الحسين عليه السلام وأدعيه الصحيفه السجاديّه وسائر الأدعيه كالندبه وغيره التي وصلت عن المعصوم عليه السلام كلّ واحد منها شاهد آخر على هذه الدعوى، وليت اتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام سبقوا سائر المذاهب الإسلاميه بهذا الخصوص وألزموا الشبان بحفظ مقاطع من هذه الأدعيه (مع فهم معانيها) ليُصانوا من هجوم أمواج المعصيه التي تنامت في عصرنا.

ص: ٣٣٩

١- (١). جمعت وطبعت هذه المجموعه من قبل بعض المحققين في مؤسسه أبحاث الروضه الرضويه في خمسه أجزاء.

يُرِيدُ بِهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ (١)

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام الموجز تعريف بشخصيه أدت وظائفها في عصرها ورحلت طاهره وجهدت في حفظ سنّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وطاعه الله. هنالك خلاف بين الشراح في هذه الشخصيه. فالشراح من أبناء العامه كابن أبي الحديد ومحمد عبده زعموا أنّها إشاره إلى الخليفه الثانى وزعموا أنّ علياً عليه السلام قال هذا الكلام بعد وفاه عمر، فى حين لا ينسجم هذا الكلام مع سائر خطب «نهج البلاغه». فقد شكّا عليه السلام كثيراً فى الخطبه الشقشقيه من خلافه الثانى وبث شدّه شكواه من غضب الخلافه فى الخطب وبعض الرسائل، فكيف يمكن تجاهل كلّ ذلك واعتبار هذا الكلام المبهم والمجمل فى الخليفه الثانى؟

والطريف أنّ الطبرى (٢) الذى يراه فى عمر إنّما رواه عن المغيره بن شعبه وهو من

ص: ٣٤١

١- (١) سند الخطبه: لم ينقل جانب من هذه الخطبه قبل السيد الرضى عن على عليه السلام سوى الطبرى ضمن قصه عن المغيره بن شعبه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧١).

٢- (٢). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٢٨٥، حوادث السنّه ٣٣ من الهجره.

خصوم على عليه السلام.

العجيب ما قاله ابن أبي الحديد أنّه رأى في نسخه من «نهج البلاغه» بخط الرضى أنّه كتب «عمر» تحت كلمه فلان ويدل هذا على أنّ الرضى له مثل هذا الاعتقاد(١)، والحال لا يستبعد أبداً أنّ تلك النسخه إن كانت أصلية تقلبت لسنوات بيد هذا وذاك فكتب بعضهم تلك الكلمه.

والأعجب من ذلك أنّ ابن أبي الحديد روى حديثاً عن ابن عباس (ج ١٢، ص ٢٠) ذكرناه سابقاً أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أراد أن يكتب بصراحه اسم على وصيه في مرضه الذي توفي فيه فمنعته.

فهل ينسجم هذا الكلام مع تفسير ابن أبي الحديد للخطبه التي تبحث؟

ولنفرض أنّ كلام على عليه السلام كان في عمر، فلا- يبعد هذا الاحتمال أنّه لم يكن جدياً وكان تقيه، سيما طبق الروايه المذكوره أنّ المغيره طرح هذا السؤال بعد وفاه عمر، بالنظر إلى أنّ المغيره كان طالحاً ولعله أراد بتّ الشر في صفوف المسلمين.

فأورد الإمام عليه السلام هذا الكلام على أساس المصلحه الإسلاميه، وإلّا فرأيه الصريح ما ورد في الشقشقيه وسائر خطب «نهج البلاغه».

وقوله: فلان، بدل عمر من شأنه تأييد هذا المعنى، فهذا الإبهام علامه على التقيه، يوقن للشرّاح الإماميه أنّ هذا الكلام ليس في الخليفه الثاني ويعتقدون بأنّه إشاره إلى مالك الأشتر والبعض الآخر يرى أنّه في سلمان الفارسي يبدو أنّ الاحتمال الأول أنسب وينسجم مع موقع مالك ودوره من بين أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وإمرته للجيش وفكره الرفيع وعزمه الراسخ.

ص: ٣٤٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٢، ص ٣.

لِلَّهِ بِلَاءٌ فَلَانَ فَلَاقَهُ قَوْمَ الْأَوْدِ، وَدَاوَى الْعَمَدَ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقِي الثُّوبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا. أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَقِينُ الْمُهْتَدِي.

الشرح والتفسير: مالك الأشر

لقد اختلف شراح الفريقين كما قيل في تفسير هذه الخطبة والشخص المعنى بهذا الكلام. فقد ذهب أغلب الشراح من أبناء العامة (سوى صبحي الصالح) إلى أن المراد به الخليفة الأول أو الثاني في حين لا ينسجم هذا المدح البليغ مع ذلك الذم الشديد الذي أورده الإمام عليه السلام في مختلف خطب «نهج البلاغه» ولا سيما الخطبة الشقشقيه، ولكلماته حين دفن الصديقه الطاهره فاطمه الزهراء عليها السلام (الخطبه ٢٠٢) في ذمهما واستهجان أعمالهما.

ومن هنا أجمع الشراح الشيعة على أن الخطبة إشاره إلى أحد خواص أصحابه ولا سيما مالك الأشر، خاصه وردت في بعض العبارات المرويه عنه عليه السلام مثل ذلك المدح البليغ لمالك التي تشير إلى جدارته بهذا الكلام، ومن ذلك ما رواه ابن أبي الحديد في شرحه أنه عليه السلام قال:

«رَحِمَ اللَّهُ مَالِكًا فَلَقَدْ كَانَ لِي كَمَا كُنْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» (١).

ص: ٣٤٣

على كل حال، قال: «لله بلاء فلان فلقد قَوْمٌ (١) الأود (٢)، ودَاوَى العمد (٣)، وأقام السنه، وخلف (٤) الفتنه!».

البلاء هنا الامتحان ويشير هنا إلى ثواب هذا الامتحان ويعنى أنّ الله امتحنه كثيراً وقد دعا الإمام عليه السلام ليوفيه أحسن الثواب على ذلك البلاء.

وردت في كثير من النسخ (بلاد) بدل (بلاء) جمع بلد، أى لله البلد التي ترعرع فيها حتى هذا الشخص وهو كلام شائع الاستعمال لدى العرب فيقال: «لله دُرُّ فلان» و «لله نادى فلان».

فقد بين عليه السلام في العبارة أربعاً من صفاته، الأولى أنه قوم الأود ولهذه العبارة معنى واسع يشمل المسائل العقائديه والأخلاقية والاجتماعية، والكلام في العبارة الثانية عن معالجه المرضى يشير قطعاً إلى الأمراض الأخلاقية والاجتماعية، وإقامه السنه بمعنى العوده إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتولى عن البدع الكثيره التي ظهرت بعده صلى الله عليه وآله والعبارة «خلف الفتنه» إشاره إلى أنه ظهرت بعده العديد من الفتن والاختلافات بين المسلمين ومن توفيقاته أنه لم يتعرض لتلك الفتن.

ثم خاض في صفات مهمه أخرى فقال: «ذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها».

هذه الصفات الأربع تأكيد لما ورد في الصفات الأربع السابقة. وبالطبع فإن من يقوم الأود ويداوى العمد وقيم السنه سيكون: «نقي الثوب، قليل العيب ويغادر الدنيا مليئاً بالخيرات».

ص: ٣٤٤

١- (١). «قوم» من «القيام» الصواب.

٢- (٢) «أود» العوج من «الأود» على وزن «قول» الإنحاء والإعوجاج.

٣- (٣) «عمد» المرض وفي الأصل من مادة الجرح الذي يحصل في ظهر الدابة من الركوب.

٤- (٤) «خلف» تقال هذه العبارة حين يموت الإنسان قبل الحادته من مادة «خلف».

ثم اختتم عليه السلام الكلام بثلاث صفات أخرى فقال: «أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَجِّبَةٍ (١)، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَتِقِنُ الْمُهْتَدِي».

هذا الكلام إشارة إلى الحوادث التي وقعت الواحد بعد الأخرى بعد مالك الأشتر رحمه الله والتي كانت من آثار موقعه صفيين والنهروان والتي يثيرها المنافقون وأعداء الإسلام، فلم يمر يوم دون ظهور فتنه ولا اسبوع وشهر دون قتال.

ص: ٣٤٥

١- (١). «متشعبه» مختلفه ولها شعب.

فى وَصَفِ بَيَعَتِهِ بِالْخِلَافَةِ (١)

نظرة إلى الخطبه

مضمون الخطبه واضح. أكد الإمام على عليه السلام: إنى لم اطلبكم للبيعه وأنتم من انبريتم لها وتلهفتم عليها واندفعتم حتى أسقطتم ردائى وقطعتم نعلى وعمّ الفرح والسرور المجتمع برمته بهذه البيعه.

ترى لِمَ أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه؟ الجواب يكمن فى سائر عبارات الخطبه كون هذه الخطبه جانب من رساله طويله رواها الكلينى فى كتاب الرسائل حيث إن الإمام عليه السلام لما عاد من النهروان كتب كتاباً وأمر بأن يقرأ على الناس، حيث تحرك المنافقون وقصدت فئه، الإمام وقالت: ما تقول فى أبى بكر وعمر وعثمان؟

فأجاب الإمام عليه السلام: رغم هذه الظروف وقتالنا لأهل الشام فإنه سؤال حسن

ص: ٣٤٧

١- (١) سند الخطبه: قال المرحوم العلامة التستري فى شرحه لنهج البلاغه إن الأصل فى هذه الخطبه ما ذكره المرحوم الكلينى فى رسائله ثم نقل هذه الخطبه مع إضافات وقال: ذكرها باختلاف طفيف ابن قتيبه فى «الإمامه والسياسه» وابراهيم الثقفى فى «الغارات» وابن رستم الطبرى فى كتابه «المسترشد» (شرح نهج البلاغه للتستري، ج ٩، ص ٥١٧).

وسأكتب جواباً شافياً وكافياً وليطلع عليه المسلمون.

ثم كتب ذلك الكتاب التاريخي في ما يقارب من عشرين صفحه وأمر بقراءته في صلاه الجمعة. فلما بلغ قضيه مقتل عثمان وبيعته التي تضمنت ذلك الهجوم الفريد شرح ذلك بعبارات موجزه عميقه المعنى في هذه الخطبه، كما شرح ما حدث من وقائع عقب ذلك حتى يسلب المتذرعين الحججه، وهنالك كلمات رائعه للإمام بشأن اندفاع الناس لبيعته ورد بعضه في الخطبه الشفشقيه (الخطبه ٣) والخطبه ١٣٧.

ص: ٣٤٨

وَبَسَّطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُمَهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُمَهَا، ثُمَّ تَدَاكَّكُمْ عَلَيَّ تَدَاكُّ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النُّغْلُ، وَسَقَطَ الرَّدَاءُ، وَوُطِيَءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بَيْنَعَتِهِمْ إِتْيَايَ أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكَعَابُ.

الشرح والتفسير: الإندفاع العجيب لبيعه الإمام عليه السلام

ركز الإمام عليه السلام في كل هذا الكلام على قضية مهمّة هي أنّي لست طالباً قط للحكومة وأنتم الذين أصررتم عليّ، فأشار هنا إلى موضوعين: الأوّل اندفاع الناس المتلهفه لبيعتي، والثاني سرورهم الفائق وفرحهم الكبير بذلك العمل.

فقال في القسم الأوّل: «وَبَسَّطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُمَهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُمَهَا، ثُمَّ تَدَاكَّكُمْ عَلَيَّ تَدَاكُّ الْإِبِلِ الْهِيمِ (٢) عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النُّغْلُ، وَسَقَطَ الرَّدَاءُ، وَوُطِيَءَ الضَّعِيفُ».

حقاً ليس هناك من شبه بين بيعه الناس لعلي عليه السلام ومبايعه الخلفاء السابقين، فبيعتة تشبه بيعه المسلمين للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في فتح مكة فقد سئمت الأمّة حكمه

ص: ٣٤٩

١- (١). «تداككتم» من ماده «دك» تعنى فى الأصل الأرض المنبسطة وحيث لا بدّ أن تدق بإحكام فهى تعنى الدق وإذا وردت فى باب الأفعال عنت الإزدحام الشديد الذى يسبب التدافع.

٢- (٢) «هيم» جمع «هائم» الشخص أو الحيوان الشديد العطش وتطلق على العاشق الذى لا سبيل له للهروب.

عثمان وعانت الأمرين على عهده من غياب العدالة، ومن هنا كانت متعطشه للعدل وحيث رأتها في ينبوع على عليه السلام سارعت إليه بتلك اللهفه والشوق.

ذكر المرحوم مغنيه في شرحه «في ظلال نهج البلاغه» قضيه من شأنها ايضاح سبب هجوم الأُمَّه لمبايعه على عليه السلام فقال: قرأت اليوم وأنا أشرح هذه الخطبه نسخه من صحيفه أخبار اليوم المصريه في ١٩٧٢/١٠/٢١ مقاله بقلم الأستاذ سامى محمود عنوانها «شرح في خلافه المسلمين» يقول فيها: لما ولي عثمان الخلافه أسرف فيها وطغت بنى أميه لتفسد هنا وهناك: «الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ» (١).

فسلطهم على المسلمين حتى غرقت الأُمَّه في الفتنة وقامت على عثمان فقتلته.

أمّا على عليه السلام وولده سبطى رسول الله صلى الله عليه و آله كان لهم أسلوب واضح وصحيح فلم يفكروا لحظه في الدنيا وزخارفها، فهجرتهم كانت منذ البدايه لله ورسوله (٢).

وعليه فلا عجب أن تندفع الأُمَّه لبيعه الإمام على عليه السلام.

وقال في المرحله الثانيه: «وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِنَيْعَتِهِمْ إِيَّائِي أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ (٣) إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ (٤) نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ (٥) إِلَيْهَا الْكَعَابُ (٦)».

عاده ما يلتحق كبار السن للمشاركة في الأحداث العاديه أو غير العاديه، أمّا في الأحداث الفريده النادره التي تشهد حضوراً عظيماً فهناك حضور حتى للعجزه والمعدورين الذين لا يشتركون في أى تجمع. والإمام رسم بما عهد عنه من فصاحه فريده حضور الأُمَّه في ذلك المشهد العظيم وتلك البيعه التاريخيه بأسمى صورته

ص: ٣٥٠

١- (١) سوره الفجر، الآيتان ١١ و ١٢.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للمرحوم مغنيه، ج ٣، ص ٣٣٢.

٣- (٣) «هدج» من ماده «هدج» على وزن «نهج» مشى الضعيف والمضطرب وتستعمل عاده في الكهول العجزه.

٤- (٤) «تحامل» من ماده «تحامل» (مصدر باب تفاعل) القيام بعمل بالمشقه والتكلف.

٥- (٥) «حسرت» من ماده «حسر» على وزن «حصر» تعنى هنا كشف النقاب عن الوجه؛ إلّا أنّ المعنى الأصلي التحفى وأحياناً التعب.

٦- (٦) «كعاب» و «كاعب» الناهده وتشير إلى الفتيات.

وأشار إلى موجه الفرح والسرور العامه التي اجتاحت جميع أفراد الأئمه بحيث خرج لها حتى الضعفاء والعجزه وشهدوا ذلك الحدث العظيم.

تأمل: البيعه الفريده المطلقه

رغم أن نصب الأئمه المعصومين عليهم السلام زعماء الأئمه خاضع لانتخاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن جانب الله كما أن اصطفاء النبي لهذا المقام من جانب الله، لكن للبيعه: أى إعلان الوفاء والطاعه دور مهم فى مسيرتهم، ومن هنا أخذ النبي صلى الله عليه وآله البيعه من الأئمه كراراً (بيعه العقبه الأولى والثانيه والحديبيه وبيعه المهاجرات فى المدينه).

وعلى هذا الأساس سعى الخلفاء لأخذ البيعه من الناس؛ إلا أن البيعه لم تكن كبيعه الإمام عليه السلام. فبيعه الخليفه الأول فى الواقع حصلت فى السقيفه وشهدها عدد محدود جداً وأصبحت الأئمه أمام أمر واقع فبايعت.

والخليفه الثانى نصب من جانب الخليفه الأول فجعل الأئمه أمام فعل حاصل.

وحصلت بيعه الخليفه الثالث فى الشورى المؤلفه من ستة أفراد التى شكلها عمر ولبنتها الأصلية التى صوتت لعثمان ثلاثه أفراد (عبدالرحمن بن عوف، وطلحه، وسعد بن أبى وقاص) ورأت الأئمه أنها أمام أمر واقع.

أما أميرالمؤمنين على عليه السلام - بغض النظر عن كونه منصب من جانب الله بواسطة النبي صلى الله عليه وآله - فقد انتخب من قبل الأكثرية الساحقه ودون مقدمات فبويع بيعه غايه فى النشاط ومفعمه بالفرح والسرور الذى بينه عليه السلام بدقه فى هذه الخطبه، وعليه قد قلنا بضروره انتخاب الأئمه والتعويل على آرائها وأسمينا ذلك بالديمقراطيه الإسلاميه فالحاكم الوحيد الذى حصل على هذه الآراء هو أميرالمؤمنين على عليه السلام دون من سواه.

فى مقاصد أُخرى (١)

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة فى الواقع من أربعة أقسام:

تحدّث الإمام عليه السلام فى القسم الأوّل عن أهمّيه الورع والتقوى وآثارهما.

وتناول فى القسم الثانى بعد الفراغ من الوصيه بإتيان العمل الصالح ضروره ذكر الموت ونهايه الحياه وفقدان الفرص.

وأكدّ ثانيه فى القسم الثالث على بذل الجهد والسعى للتزود للدار الآخرة فأشار إلى خداع الدنيا مخاطباً المسلمين: احذروا أن تفتنكم الدنيا واعتبروا بما آلت إليه حياه أسلافكم وقارنوا بمصيرهم مصيركم.

ص: ٣٥٣

١- (١) سند الخطبه: ذكر بعضها مع بعض التغييرات عدد من العلماء بعد السيد الرضى بما يفيد أنّها أخذت من مصدر آخر غير «نهج البلاغه»: ١. ابن الأثير فى عدّه موارد من كتاب «النهايه» ومنها فى ماده «خلس» و «عبل» و «حدم» و «دجى». ٢. أورد الآمدى جوانب كثيره من هذه الخطبه فى كتاب «غررالحكم» مع اختلافات. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧٥-١٧٦).

كما أورد في القسم الرابع والأخير الذي يبدو منفصلاً عن الخطبه حسب ظاهر كلام السيد الرضى، كلمات موجزه عميقه المعنى في صفات الزهاد وخصائص معيشتهم وشرح حقيقه الزهد.

ص: ٣٥٤

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ، وَعِثَّةٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ. بِهَا يَنْجِيحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ.

الشرح والتفسير: سر السعادة والفلاح

بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبه كسائر أغلب الخطب، أهميه التقوى وآثارها ليوجزها في سبع عبارات قصيره عظيمه المعنى، فقال في الأولى: «فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ(١)».

فبالنظر إلى أنّ التقوى هي خشية الله الباطنيه التي تصد الإنسان عن الفحشاء والمنكر وتسوقه للمعروف والإحسان فإنه يمكن القول: التقوى مفتاح أبواب السعادة؛ فكما توضع النفاثس في الخزائن وتقفل أبوابها ولا يمكن فتحها سوى بمفاتيحها فإن مفتاح التقوى من شأنه فتح خزائن السعادة بوجه الإنسان واستئزال رحمه الله المطلقه.

وقال عليه السلام في العبارة الثانيه: «وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ». وهي إشاره في الواقع لذيل الآيه الشريفه: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»(٢). وقال في الثالثه: «وَعِثَّةٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ(٣)».

وسعه مفهوم هذه العبارة يشمل التحرر من عبوديه الشيطان واهواء النفس

ص: ٣٥٥

١- (١) «سداد» من ماده «سد» على وزن «حد» العمل الصحيح والكلام الصائب.

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ١٩٧.

٣- (٣) «ملكه» تعنى هنا المعاصى التي تؤثر على الإنسان.

والظلمه. وقال عليه السلام فى العبارة الرابعه: «وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ» فهلكه الإنسان فى اتباع هوى النفس، فإذا كبّح الإنسان هوى النفس بالتقوى نجا من الهلكه.

وقال عليه السلام فى الخامسه: «بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ» فالتقوى هى الصراط المستقيم البعيد عن كل إفراط وتفريط وتقصير وعدوان، ومن الطبيعى أن يختزل الصراط المستقيم ليوصل الإنسان بأقل مدّه إلى الهدف.

وقال عليه السلام فى السادسه: «وَيَنْجُو الْهَارِبُ» فالعذاب الإلهى يطال عبده الأهواء، والمتقون بعيدون عن الأهواء، وكما ورد فى الآيتين ٧١-٧٢ من سوره مريم: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا» وقال عليه السلام فى العبارة السابعه والأخيره التى تعتبر عصاره العبارات السابقه «وَتَنَالُ الرِّغَائِبُ (١)»، لم عدّ الله الأتقى أكرم إنسان عنده. «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (٢) ولم كانت التقوى مفتاح الجنّه «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (٣)، ولم لا- ينفك الأنبياء وأئمه أهل البيت عليهم السلام وأولياء الله عن التأكيد على أنّ أهم شىء هو التقوى ولم كانت ضروره فى الوصيه بالتقوى فى كلّ صلاه جمعه وفى كلا الخطبتين؟

ص: ٣٥٦

١- (١). «رغائب» جمع «رغيبه» الطلب المهم من ماده رغبه.

٢- (٢). سوره الحجرات، الآيه ١٣.

٣- (٣). سوره مريم، الآيه ٦٣.

فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُزْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِيَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ. وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْرًا نَاكِسًا، أَوْ مَرَضًا حَابِسًا، أَوْ مَوْتًا خَالِسًا. فَإِنَّ الْمَوْتَ هَيَادِمَ لَدَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرَ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدَ طَيِّبَاتِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقَوْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ. فَمَنْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَيْدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ. وَعَظَمَتْ فِيكُمْ سَيِّطَوْتَهُ وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَيْدَوْتَهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبَوْتُهُ. فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلْمِهِ وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَخَنَادِسُ غَمْرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَيِّكْرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِزْهَاقِهِ، وَدُجُوْ أَطْبَاقِهِ، وَجُشُوبُهُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَعْتُهُ فَأَسْكَتَ نَجِيَّتَكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ، وَعَفَى آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَاثَكُمْ، يَفْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعِ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعِ.

الشرح والتفسير: المعبر الذي لا مفر منه

أوصى الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بضرورة استغلال الفرص المتاحة قبل حلول الأجل وأكد ذلك فقال: «فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُزْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِيَةٌ (١)، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ» (٢).

ص: ٣٥٧

١- (١) «هاديته» من ماده «هدوء» السكوت.

٢- (٢) من عجائب الدهر أنّ المحقق الفاضل صاحب «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغه» المعروف بشرح الخوئي، المرحوم الحاج الميرزا حبيب الله هاشمي الخوئي، مرض وتوفى لما بلغ هذه الخطبه، والعبارة «والعمل يرفع» ويدل هذا التزامن على قبول عمله عند الله ورفع له فواصل المحقق الجليل الشعراني الشرح من الجزء الرابع إلى الرابع عشر ثم اصل تلميذه حسن زاده الأملی شرح الجزء الخامس عشر حتى التاسع عشر وشرح الجزءين الآخرين العشرين والحادي والعشرين بقلم المرحوم الحاج محمد باقر الكمرئي حتى انتهى الشرح.

حيث أشار عليه السلام في هذه العبارات الموجزه إلى أمر مهم: لديكم خمس فرص ما دمتم في الدنيا: أعمالكم الصالحة ترفع إلى الله ويسعكم أن تغسلوا المعاصي بماء التوبه. ودعاؤكم يسمع عند الله وأنتم وادعون فيمكنكم الإتيان بما تشاؤون من العمل الصالح وأخيراً الملائكه مستنفرون ليكتبوا صالح أعمالكم في صحيفه أعمالكم، لكن إن مرت هذه الفرصه وكنتم على أعتاب الموت ستسلبون هذه الفرص وليس لكم من زاد سوى الحزن والحسره.

ثم قال عليه السلام موضعاً كلامه ومكمله: «وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْرًا نَاكِسًا (١) ، أَوْ مَرَضًا حَابِسًا، أَوْ مَوْتًا خَالِسًا (٢)».

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام شجّع جميع مخاطبيه للسبق في هذه الأمور الثلاثه؛ مدّه الكهوله التي تفقد فيها جميع الأعضاء قوتها وقدرتها والتي أسماها القرآن الكريم «أرذل العمر» والأمراض التي تطول أحياناً وتسلب الإنسان نشاطه وحيويته فلا يقدر على الإتيان بالعبادات بصوره تامه ولا خدمه المؤمنين وقضاء حوائجهم، والموت الذي شبّهه عليه السلام بالسارق الذي يسرق كلّ شيء من الإنسان خلسه.

ثم وضع حقيقه الموت من خلال ذكره لستّ من خصائصه، الموت الذي لا- مهرب منه ولا- مفر لأحد من ملاقاته فقال: «فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمٌ لِدَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرٌ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدٌ طَيِّبَاتِكُمْ (٣). زَائِرٌ غَيْرٌ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ (٤) غَيْرٌ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ (٥) غَيْرٌ مَطْلُوبٍ».

ص: ٣٥٨

١- (١). «ناكس» من ماده «نكس» على وزن «حدس» قلب الشيء.

٢- (٢) «خالس» الخاطف من ماده «خلس» على وزن «فلس» خطف الشيء بالحيله والاختلاس بهذا المعنى.

٣- (٣) «طَيِّبَات» جمع «طيه» الجانب والجهه والهدف. من ماده «طى» على وزن «حى» الجمع والترتيب وتستعمل أحياناً بمعنى العبور وطى الطريق.

٤- (٤) «قرن» الكفو في الشجاعه.

٥- (٥) «واتر» الجانى من ماده «وتر» على وزن «سفر» رامى السهم.

فقد حذّر عليه السلام من أنّ الزائر الذى يقدم على الجميع والرامى المصوب نحو الجميع والأشوس الذى يعجز عن مواجهته الجميع. فإن قدم حطم كل شىء فطوى بساط العيش وصادر اللذات والمتع وحمل معه الإنسان، والأهم من كل ذلك أنّه لا يعرف من معنى للزمان والمكان. حقّاً أنّ هذه العبارات البليغه العميقه المعنى موقظه ومحركه توقظ الغافلين وتفيق الثملين.

وكما خاض عليه السلام فى سته خصائص أخرى للموت ليكمل كلامه السابق فقال:

«قَدْ أَعْلَقْتُمْ حَبَائِلَهُ، وَتَكَنَّفْتُمْ (١) غَوَائِلَهُ (٢)، وَأَفْصَدْتُمْ مَعَابِلَهُ (٣). وَعَظَّمْتُمْ فِيكُمْ سَيِّطَوْتَهُ وَتَتَابَعْتُمْ عَلَيْكُمْ عَدَوْتَهُ (٤)، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبَوْتَهُ (٥)».

شبه الإمام عليه السلام الموت فى هذه العبارات الرائعه بصياد رمى شباكه نحو جميع الناس وأخرى برام لا تطيش سهامه أو سيف قاطع بسيفه.

نعم، إن شك الإنسان فى كل شىء فلن يشك فى الموت ونهايه الحياه. يركع له صناديد أبطال العالم ويقع فى شباكه أذكى الأذكياء وكفى به أنّه لم يستثن حتى الأنبياء والأولياء وكما قال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (٦).

وأشار عليه السلام إلى سبعة أمور أخرى بشأن حملات الموت على الإنسان والعجز عن مواجهته فقال: «فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي (٧) ظَلَلَهُ (٨) وَاحْتَدَامُ (٩) عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ (١٠)»

ص: ٣٥٩

١- (١). «تكنّف» من ماده «تكنّف» الإحاطه بالشىء.

٢- (٢) «غوائل» جمع «غائله» الشرّ والداهيه.

٣- (٣) «معابل» جمع «معبل» على وزن «مدخل» النصل الحاد.

٤- (٤) «عدوه» العدوان.

٥- (٥) «نبوه» الخطأ فى الضربه بالسيف والسهم ونحوه.

٦- (٦) سوره آل عمران، الآيه ١٨٥.

٧- (٧). «دواجى» جمع «داجيه» الظلمه من ماده «دجوّ» على وزن «غلوّ».

٨- (٨) «ظلل» جمع «ظله» على وزن «قله» السحابه.

٩- (٩) «الإحتدام» الاشتداد من ماده «حدم» على وزن «حتم».

١٠- (١٠) «حنادس» جمع «حندس» على وزن «قبرص» الظلمه الشديده.

غَمْرَاتِهِ (١)، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمٌ إِزْهَاقِهِ (٢)، وَدُجُؤٌ (٣) أَطْبَاقِهِ (٤)، وَجُشُوبُهُ (٥) مَذَاقِهِ».

حيث يبين عليه السلام بهذه الحملات السبع وبمختلف العبارات وبأدق وصف، اللحظات الرهيبة آخر العمر، لحظات مهوله وموحشه للغاية، لحظات مظلمه وداميه وصف عليه السلام ظلمتها بأربع مفردات مختلفه (دواجي، حنادس، غواشي ودجو) تكشف مدى بلاغه الإمام عليه السلام وتنوع الألفاظ يضاعف فصاحه كلماته وبلاغتها.

ثم حذر عليه السلام مخاطبيه من نزول الموت المفاجئ وضروره اليقظه في أنّ هذا الموت لا يقبل دائماً بعد مقدمات طويله وأمراض، بل ما أكثر أن يحلّ ويفنى كلّ شيء بلحظه فقال: «فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَعْتَهُ فَأَنْشَيْكَتَ نَجِيكُمْ (٦)، وَفَرَّقَ نَدِيكُمْ (٧)، وَعَفَى (٨) آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وَرَثَاتَكُمْ، يَفْتَسِمُونَ تَرَاتِكُمْ».

وموت الفجأه الذي كان وما زال يفاجئ الناس، أعظم عبره من غيره، حيث لا يعرف صغيراً أو كبيراً ويطلال الإنسان كيفما كان، وقد ذكر المرحوم العلّامه التستري في شرحه لنهج البلاغه عدداً من الأنبياء ومنهم موسى وداود وسليمان الذين ماتوا موت الفجأه، نعم، ظاهر القرآن بشأن سليمان يشهد أنّ ملك الموت توفاه واقفاً مستنداً على عصاه «فَلَمَّا قَضَىٰ بِنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ» (٩).

ص: ٣٦٠

١- (١) «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربه» الشدائد و «غمرات الموت» شدائد وصعاب الموت والاحتضار التي تصيب الإنسان فالغمرة تقال للماء الكثير الذي يأخذ الشيء.

٢- (٢) «ارهاق» من ماده «رهب» على وزن «شفق» تغطيه الشيءء بالقهر والغلبه ويطلق على الأعمال الشاقه، جدير ذكره وردت في بعض النسخ بدل «ارهاق»، «ازهاق» من ماده «زهوق» الاضمحلال والهلكه و «ازهاق الروح» فصل الروح عن البدن.

٣- (٣) «الدجو» الظلمه كما ورد أعلاه.

٤- (٤) «اطباق» جمع «طبق» وضع شيء على آخر كأنّ للظلمه طبقات تتراكم على بعضها.

٥- (٥) «الجشوبه» الخشونه؛ سواء في الطعام أو الكلام وما شابه ذلك.

٦- (٦) . «النجي» المناجى والذي يهمس في الأذن من ماده «نجوى».

٧- (٧) «الندى» الجماعه الذين يجتمعون للمشوره أو الأحاديث المتعارفه.

٨- (٨) «عفى» أزال الأثر من ماده «عفى» له عدّه معانٍ بحكم باب التفعيل منها المحو.

٩- (٩) شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ١١، ص ٢٧٥.

حتى شوهده البعض وقد توفى وهو يتحدّث، فذكر المبتدأ ولم يبلغ الخبر.

فقد بيّن عليه السلام فى هذه العبارات آثار الموت فى وسط المتبقين حيث لا ينقطع كلامه الظاهرى فحسب، بل يخمد حتى الهمس؛ فيتفرق عنه الحاضرون فجأه وسرعان ما تزول آثار الإنسان ويفرغ بيته وينطفئ ضياؤه وإن كان هنالك من ضجيج فيبين الورثة الذين عادة ما يتنازعون على الميراث وكأنهم لا يدرون أنهم سيلتحقون بالموتى عن قريب.

ثم قسم عليه السلام الورثة فى ختام هذه فقره إلى ثلاث؛ فنه من خواص الإنسان؛ إلّا أنّ مودتهم تزول آنذاك: «بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ».

والثانية، القرابه المحزونه والملتاغه التى لا يسعها دفع الموت «وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ». والثالثة، العدو الشامت الذى لا يجزعه موت «وَأَخْرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ».

وأشار الإمام عليه السلام فى المقطع الأخير من كلامه إلى موت الفجأه؛ السكته القلبيه أو الدماغيه والحوادث الأليمه المتنوعه التى تفنى الإنسان فى لحظه، الموت الذى لا يابه بمكانه الأشخاص ولا بعمرهم فيطال كما مضى حتى الأنبياء، ويالها من عبره يختزنها هذا الموت الذى يحدث كثيراً ويزداد يوماً بعد آخر، ففى لحظه آنيه ينتهى كلّ شىء ويتفرق الجمع ويغتنم الصديق ويفرح العدو - ويالهم من غافلين أولئك الذين يتجاهلون هذه الحوادث وينهمكون بالذنوب والمعاصى ويقارفون أنواع الآثام بغيه الحصول على المال. نعم إنّ هؤلاء المغفلين ينسون طبيعه ظروف حياتهم.

ورد فى كتاب «الإمامه والسياسه» لابن قتيبه: فلما كانت سنه إحدى وخمسين، مرض الحسن بن على مرضه الذى مات فيه، فكتب عامل المدينه الى معاويه يخبر بشكايه الحسن، فكتب إليه معاويه: إن استطعت ألا تمضى يوم يمرّ بى إلّا يأتينى فيه خبره فافعل، فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفى (الإمام الحسن عليه السلام)، فكتب إليه بذلك، فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك عبدالله بن عباس وكان بالشام يومئذٍ، فدخل على معاويه، فلما جلس قال معاويه:

يا ابن عباس هللك الحسن بن علي، فقال ابن عباس: نعم، هللك «إِنَّا لِلَّهِ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (١). ترجيعاً مكرراً، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أما والله ما سدَّ جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك ولئن أُصِبتنا لقد أُصِبتنا بمن كان خيراً منه، جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله فجبّر الله مصيبتَه، وخلف علينا من بعده أحسن الخلفه، ثم شهق ابن عباس وبكى، وبكى من حضر في المجلس، وبكى معاويه فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم (٢).

وجاء في «تاريخ الطبري»: عندما وصل خبر وفاه علي عليه السلام إلى معاويه فرح فرحاً شديداً، وكذلك لما انتهى الخبر إلى عائشه قتل علي عليه السلام وقالت:

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا التَّوَيُّكَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ

فقال زينب بنت أبي سلمه: ألعليّ تقولين هذا، فقالت: إني أنسى فإذا نسيت فذكروني (٣).

نعم، فمثل هؤلاء الأشخاص الغفله ينسون ما هم عليه من العيش الدوني والانحراف وحب الدنيا والقدره.

ص: ٣٤٢

١- (١) . سورة البقره، الآيه ١٥٦.

٢- (٢) الإمامه والسياسه، ابن قتيبه، ص ١٧٥.

٣- (٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١١٥.

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُبِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّرْوُدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ.

وَلَا تَعَزَّنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا عَزَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا. وَأَصِيبُ بَحْتِ مَسَاكِنُهُمْ أَحْيَادًا، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا. لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلَا يَحْفَلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ. فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ غَرَارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مُنَوِّعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لَا يَدُومُ رِخَاؤُهَا، وَلَا يَنْقِصِي عَنَاؤُهَا، وَلَا يَزُكُّ بِلَاؤُهَا.

الشرح والتفسير: الدنيا الغراره!

متابعه لبحث الإمام عليه السلام في شدائد الموت وفناء الحياه في المقطع السابق خاطب الجميع فأوصاهم بالتزود من الدنيا ما دامت الفرصه قائمه وعدم الاغترار بزخارفها ولذاتها والاعتبار بالماضيين فقال: «فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُبِ (١) وَالِاسْتِعْدَادِ، وَالتَّرْوُدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ».

قال بعض الشراح في الفارق بين الجدد والاجتهاد أن الجدد يشير إلى مرحله العزم على الإتيان بالفعل والاجتهاد مرحلته العمليه، والتأهب إشاره إلى التيه على الاستعداد والاستعداد جانبها العملي (٢).

ص: ٣٤٣

١- (١). «التأهب» الاستعداد للشيء من «الأهبه» وله أحياناً معنى المصدر والاسم الجامد.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي، ج ١٤، ص ٤١٩.

لكن لم يذكر لذلك أى دليل من اللغة أو القرائن المتصلة والمنفصلة ولا يبعد أن يكون الجد حين يقترن بالاجتهاد إشارة إلى أنه ينبعث من الإنسان نفسه ولعل الفارق بين التأهب والاستعداد كذلك، طبعاً لا يستبعد احتمال التأكيد.

ثم قال: «وَلَا تُعْرِثُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا عَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ».

نعم، يمكننا مشاهدته مصير حياتنا بصوره شفافة فى مرآة حياه الآخرين وهذه حقيقته أكدها الإمام عليه السلام فى عدّه خطب من «نهج البلاغه» فتأخذ بأيدينا لتضعنا فى تاريخ الماضين؛ التاريخ التكويني لا التدويني الذى يتجلى فى أطلال قصورهم الخربه والآثار الباقية من معيشتهم المترفه.

ولحسن الحظ فإنّ المتاحف التى تضم الكثير من آثار الماضين يمكنها أن ترشدنا؛ فعرش الملك الفلانى وتاجه هنا والمهند المرصع وجواهر الأمر الكبير هناك وفى زاويه الأجساد المحنطه للفراعنه، مع أنّ طلاب الدنيا شوهوا هذا الموضوع المهم وأحاله إلى صورته أخرى من الاستغراق فى الدنيا؛ فأصبحت المتاحف وسيله تدر الأرباح على أصحابها.

وقال الهيثم بن عدى، عن رجاله: بينا حذيفه بن اليمان وسلمان الفارسى يتذاكران أعاجيب الزمان، وتغير الأيام، وهما فى عرصه أيوان كسرى، وكان أعرابى من غامد يرمى شويهات له نهاراً، فإذا كان الليل صيرهنّ إلى داخل العرصه، وفى العرصه سرير رخام كان كسرى ربّما جلس عليه، فصعدت غنيمات الغامدى على سرير كسرى، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدى على سرير كسرى(1).

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا

ص: ٣٦٤

ثم تناول عليه السلام حال الماضين بوضع عبارات موجزه فقال: «الَّذِينَ اخْتَلَبُوا (١) دِرَّتَهَا (٢) ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا (٣) ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا (٤) جِدَّتَهَا (٥) . وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثًا (٦) ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا . لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ ، وَلَا يَحْفَلُونَ (٧) مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ» .

العبارات: «الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا...» والعبارات... إشاره إلى الأشخاص الذين تمتعوا بجميع ملذات الدنيا. وكان لبناً فى ثدى الدنيا فحلبوه وشربوه إلى آخره واستغلوا كل متع الدنيا ولكنهم كأن لم يلبثوا فيها فكانوا طبق العباره «وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثًا» .

ولهذه العباره القيمه معنيان؛ الأول: انتقلوا من قصورهم إلى القبور، والآخر: إن قصورهم تهدمت عليهم بفعل بعض الحوادث المهوله كالزلزله فأضحت قبورهم .

وبين عليه السلام بالدقه فى العبارات الخمس الأخيره التى تبدأ ب (أصبحت) أنهم اغتربوا عن الدنيا بحيث لم يعودوا يعرفون من يزورهم ويبكيهم من قرابتهم ومعارفهم ولا يسمعون صراخهم .

طبعاً هذا بخصوص أصحاب الدنيا الذين نسوا الله ولم تكن حصيله أعمارهم سوى التهافت على الدنيا، أما المؤمنون الصالحون حسب ما ورد فى الروايه فيعرفون من يقف على قبورهم ويأنسون بهم ويغتمون لانصرافهم .

قال أحد أصحاب الكاظم عليه السلام إسحاق بن عمار: سألته عن المؤمن يعرف من يزوره فى قبره؟ فقال: «نَعَمْ وَلَا يَزَالُ مُسْتَأْنَسًا بِهِ مَا دَامَ عِنْدَ قَبْرِهِ فَإِذَا قَامَ وَأَنْصَرَفَ

ص: ٣٤٥

١- (١) . «احتلبوا» من «حلب» على وزن «طرب» و «حلب» على وزن «حرب» بمعنى استخراج الحليب .

٢- (٢) . «درّه» اللبن أو الحليب الكثير .

٣- (٣) «غزّه» الغفله والسهوله .

٤- (٤) «أخلقوا» من ماده «اخلاق» القدم من ماده «خلق» على وزن «ورق» التآكل .

٥- (٥) «جده» جديد ولهذه المفرده معنى الاسم .

٦- (٦) . «أجداث» جمع «جدث» على وزن «هوس» القبر .

٧- (٧) «لا يحفلون» لا يبالون من ماده «حفل» على وزن «حرب» الاهتمام .

مِنْ قَبْرِهِ دَخَلَهُ مِنْ إِنْصِرَافِهِ عَنْ قَبْرِهِ وَحَشَهُ» (١). ثم استنتج عليه السلام عقب ذلك «فَاخْذَرُوا الدُّنْيَا».

ثم أورد ثمان صفات للدنيا (أو عشره على قول) كأدله دامغه على الحذر من الدنيا فقال: «فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبَسَةٌ نَزُوعٌ» (٢)، لا يَدُومُ رَحَاؤُهَا، وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا، وَلَا يَزُكُّ (٣) بِلَاؤُهَا».

والمفردات «عَمْدَارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ» وإن كانت متقاربه من حيث المعنى لكنها في الواقع تختلف في الدقة؛ غداره من ماله غدر نقض العهد، وغراره من غرور، الخدوع من خدعه الحيله وتعلم أنها متفاوتة وإن كانت غالباً من قبيل اللازم والملزوم، نعم، فالدنيا لا تفي لأحد وزخارفها تغرّ العديد من الناس ومختلف مناظرها ومشاهدها خدعه، العبارة «مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ» تعود لصفه؛ أي لا تكاد تعطى الإنسان شيئاً حتى تسترده، فلا يمضي عهد الشباب حتى تحل الكهولة ولا يذوق السلامه حتى تطاله الأمراض.

وذهب بعض الشراح إلى أنّ هاتين الصفتين منفصلتان وقال: الدنيا تعطى الأشياء التافهه وتمنع الأشياء القيمه، فلا قيمه لعطائها ولا يطاق منعها.

كما هنالك تفسيران للعبارة «مُلْبَسَةٌ نَزُوعٌ»: الأول: إنه وصف مفهومه أنّ الدنيا تكسو الإنسان لباساً جميلاً من القدره والعظمه وتنزعه بعد مدّه قليله من قبل الآخرين، أو المراد أنّها تلبس ثياباً تافهه وتنزع ثياباً قيمه والتفسير الأوّل يبدو أصح في كلتا العبارتين.

وهنالك اختلاف واضح بين المفردات (رَخَاء) و (وعناء) و (بلاء) فالرخاء، الهدوء الذي قلما يحصل في الدنيا، والعناء، المتاعب والمصاعب التي تطال دائماً أهلها،

ص: ٣٦٦

- ١- (١). الكافي، ج ٣، ص ٢٢٨ باب زياره القبور، ح ٤.
- ٢- (٢). «نزوع» من ماده «نزع» على وزن «نذر» الفصل.
- ٣- (٣) «لايركد» من ماده «ركود» السكون وانعدام الحركة.

والبلاء، الحوادث الأليمه سواء الحوادث الطبيعيه كالزلازل والسيول والعواصف أم البلايا التي يصنعها الإنسان كالحروب، وزبده الكلام: الدنيا دار لا تدوم.

ص: ٣٦٧

مِنْهَا فِي صِفَةِ الزُّهَادِ: كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْدُرُونَ، تَقَلَّبُ أَيْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَيَرُونَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

الشرح والتفسير: الزهاد الحقيقيون

قال الإمام عليه السلام في الجانب الآخر من هذه الخطبه الذي يشير تعبير السيد الرضى أنه مستقل عما سبق لأنه يقول (منها في صفة الزهاد). «كأنوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها، فكانوا فيها كمن ليس منها».

هذه هي الصفة الأولى من الصفات الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام للزهاد في هذه العبارة. من الواضح أن لا تناقض قط في العبارة، فالمراد أن جسمهم في الدنيا لكن روحهم وقلوبهم معلق بالآخرة.

وقد جرب ذلك كل شخص في حياته أن قلبه حين ينشغل بقضيه مهمه يكون فكره متعلق بموضوع آخر وإن كان وسط أى جماعه، وتؤدى هذه الصفة إلى اختلاف أعمال الزهاد مع أصحاب الدنيا، فهؤلاء يجدون في التزود من الدنيا وأولئك في التزود لها، ودليل ذلك واضح أن الزهاد لا يرون الدنيا سوى ممر والحياه الواقعيه حسب القرآن هي الدار الآخرة «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»(١).

ص: ٣٦٩

ثم أشار عليه السلام إلى الصفه الثانيه «عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ».

ومن ثم قال عليه السلام: «وَبَادِرُوا(١) فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ». فهؤلاء يرون ببصيرتهم سبل النجاه ويقفون على عناصر السعاده والفلاح، ومن هنا يلهثون وراءها دائماً، ويعرفون من جانب آخر عوامل البؤس والشقاء، لذلك يسعون للهروب منها وعدم التلوث بها.

وقال فى الصفه الرابعه: «تَقَلَّبَ أَيْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي(٢) أَهْلِ الْآخِرَةِ». نعم فهم يعيشون مع الجميع ظاهرياً؛ إلّا أنّ معاشرتهم الحقيقيين أهل الآخره، كونهم يعلمون أنّ معاشرتهم لأصحاب الدنيا تمت قلوبهم، فلا شىء فى مجالسهم سوى الدنيا ولذاتها، فهم فى الواقع أموات بصوره أحياء.

ثم قال فى الصفه الخامسه والأخيره: «وَيَرُونَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ».

يستفاد من الصفات الخمس المذكوره أنّ معنى الزهد وحيقته ليس فى كون الإنسان فقيراً ومعدماً أو يتخلى عن الحياه الاجتماعيه والتفوق فى زاويه للعباده؛ بل حقيقه الزهد أن يرى الأولويه للدار الآخره فى كل شىء وحيثما كان ولا يكون أسير زخارف الدنيا والأهواء والشهوات، وجاء فى خطبه أخرى للإمام عليه السلام.

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قَصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ(٣)».

وقد بحثنا بما فيه الكفايه حقيقه الزهد فى تلك الخطبه.

ص: ٣٧٠

١- (١). «بادروا» من «المبادره» الاسراع فى العمل أحياناً وأخرى السبق (تتعدى الأولى بدون «الى» وتتعدى الثانيه ب «إلى»).
٢- (٢). «ظهرانى» يعنى وسط شخصين أو أشخاص والأصل «ظَهْرَيْنِ» تشبيه «ظَهْر» وكان للإنسان داعم من أمامه وخلفه إن كان وسط جماعه ثم أضيف له الألف والنون للتأكيد ونون التشبيه حذفت عند الاضافه لتصبح «بين ظهرانى» وعليه «بين ظهرانى» أن يكون الإنسان بين أفراد يحمونه. (راجع ماده ظهر فى لسان العرب).

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ٨١.

خَطَبَهَا بِذِي قَارِ (١) وَهُوَ مُتَوَجِّهٌُ إِلَى الْبَصْرَةِ، ذَكَرَهَا الْوَاقِدِيُّ (٢) فِي كِتَابِ «الْجَمَلِ»: (٣)

نظرة إلى الخطبة

يفيد مستهل الخطبة أن ما ورد ذكره من جانب من خطبه مفصله أوردها الإمام عليه السلام في ذي قار ولا يبدو مستبعداً أن تكون هذه الخطبة متممة للخطبة ١٠٤ والتي تبدو امتداداً للخطبة ٣٣ والتي قيلت في ذي قار.

على كل حال أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى أمرين مهمين؛ الأول: إِنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبْلَغَ مَا أَمَرَ بِهِ وَأَتَى بِوُضُؤَيْهِ بِأَكْمَلِ وَجْهِهِ.

والآخر: إِنَّ إِحْدَى الْمَهَامِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَوْحِيدُ الصَّفُوفِ وَتَكْوِينُ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَوْحَدِ وَحَصْدُ الْعِدَاوَاتِ مِنَ الصَّدُورِ.

ص: ٣٧١

١- (١). «ذِي قَارِ» مَنْطِقُهُ قَرَبُ الْبَصْرَةِ وَقَعَتْ فِيهَا الْحَرْبُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ.

٢- (٢) مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْوَاقِدِيُّ مِنْ مَفْسَّرِي وَمُؤَرِّخِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَالْمَتُوفَى سَنَةَ ٢٠٧ هِجْرِيهِ.

٣- (٣) سَنَدُ الْخُطْبَةِ: رَغْمَ أَنَّ الْمَرْحُومَ السَّيِّدَ الرَّضَى نَقَلَ هَذِهِ الْخُطْبَةَ مِنْ كِتَابِ «الْجَمَلِ» لِلوَاقِدِيِّ إِلَّا أَنَّ صَاحِبَ «مَصَادِرِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ» ذَكَرَ أَنَّهُ رَوَاهَا ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الْمَالِكِيُّ فِي «الْعَقْدِ الْفَرِيدِ» وَالْمَرْحُومَ الْمَفِيدُ فِي «الْإِرْشَادِ». وَرَوَاهَا ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ بِصُورِهِ مَفْصَلَةً فِي شَرْحِهِ لِنَهْجِ الْبَلَاغَةِ (مَصَادِرِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، ج ٣، ص ١٧٦).

فَصَدَعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَ أَلْفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعِيدَ الْعِدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَالصَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ.

الشرح والتفسير: النبي صلى الله عليه وآله حصد العداة من الصدور

قال الإمام عليه السلام بعد بيانه لمقدمات في خطبته بذي قار: «فَصَدَعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ».

بالنظر إلى أنّ (صدع) من ماله (صدع) على وزن (صبر) تعني لغه الشق أو الشق في الأجسام المحكمه أو شق الشيء فيظهر باطنه، فإنّ هذه المفردة تعني الظهور والوضوح وقد استعملت هنا كون إبراز حقيقه التوحيد في ذلك الوسط الجاهلي المليء بالشرك بمثابة شق تلك الحجب الضخمه للكفر والانحراف، والواقع انها اقتباس من الآية ٩٤ من سوره الحجر «فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ».

ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة «وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ» أنّ في «بلغ» مفهوم التأكيد والتكرار. وعليه فمفهوم العبارة أنّ النبي أظهر الحق وأكد عليه.

ثم خاض عليه السلام في إحدى أهم وأمثل خدمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال: «فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَأَلْفَ بِهِ الشَّمْلَ (١) بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعِدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ (٢)»

ص: ٣٧٣

١- (١). «الشمل» الجمع وله أحياناً معنى اسم المصدر ويعني الاجتماع.

٢- (٢) «الواغرة» الحاره والساخنه من ماله «وغر» على وزن «فقر» شدّه الحاره وهى تستعمل بمعنى البغض والعداء الشديد.

فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ (١) الْقَادِحِهِ (٢) فِي الْقُلُوبِ».

فقد ذكر الإمام عليه السلام في وحده الكلمه التي بثها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بين صفوف الأُمَّه رغم كل تلك الاختلافات ثلاثه تعابير:

الأول: التعبير بـ «لم» على وزن (غم) بمعنى الجمع أو الجمع المقرون بالإصلاح ويصبح مفهومه أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله ردم تلك الهوه في ظل التعاليم الإسلاميه بحيث لم يعد هنالك من أثر للماضى.

الثانى: التعبير بـ «رتق» الذى يعنى ترقيع القطع الممزقه ولعله تأكيد على العبارة السابقه أو إشاره إلى الموارد التي كانت متصله سابقاً وانفصلت، ثم وصلها.

الثالث: التعبير بـ «تأليف» الذى يعنى الجمع المقترن بالأنس والإنسجام الذى ذكر بخصوص ذوى الأرحام، فكثيراً ما كان الأب والابن أو الأخ يتنازعون على بعض المصالح البسيطة فى الجاهليه، وقد ألف بينهم رسول الله صلى الله عليه وآله على هدى الإيمان ومبادئ الإسلام.

النتيجه: إن الألفاظ الثلاثه يمكن أن تكون تأكيداً لبعضها البعض الآخر ويمكن أن يكون كل تعبير فى نوع من الاختلاف فى المجتمع. كما يحتمل أن تكون العبارة (تأليف الشمل) مرتبط باختلافات الأسره والقرباه، ورتق إشاره لزوال الاختلافات القبليه و (لم) إشاره لرفع الاختلافات عن المجتمع وتوحيد صفوفه.

على كل حال لم يكن يصدق أحد أن يتحول يوماً ذلك المجتمع الصغير فى العصر الجاهلى رغم كل تلك الاختلافات العجيبه والرهيبه إلى مجتمع موحد كبير الذى قصم بوحدته ظهر الأعداء وكان بحق معجزه ربانيه كما قال القران: «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ» (٣).

ص: ٣٧٤

١- (١) «الضغائن» جمع «ضغينه» العداوه الشديده وتعنى فى الأصل التغطية المقرونه بالانحراف.

٢- (٢) «القادحه» المشتعله من ماده «قدح» على وزن «مدح» إشعال النار.

٣- (٣) سوره الأنفال، الآيتان ٦٢ و ٦٣.

كَلَّمَ بِهِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زَمْعَةَ (١)، وَهُوَ مِنْ شِيعَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْهِ فِي خِلَافَتِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ مَالاً، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢).

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في عنوان هذا الكلام فإنَّ عبد الله بن زمعه طلب مالا من الإمام عليه السلام وكان من شيعة فلم يجبه، حيث كان المال من الغنائم الحربية ولا حق فيه سوى للمقاتلين ولم يكن له حق لأنه لم يشترك في القتال.

ص: ٣٧٥

-
- ١- (١). عبد الله بن زمعه بن الأسود من أعدى أعداء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. عبد الله ابن اخت ام سلمه وصهرها وقد قتل الإمام عليه السلام أباه وعمه وأخاه في بدر (راجع دائره المعارف الشيعيه للمرحوم الأعلمي: ج ١٢ ص ٣٠٥ وشرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ١٠؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ج ٥، ص ١٩٢).
- ٢- (٢) سند الخطبه: المصدر الوحيد الذي عثر عليه صاحب كتاب المصادر في هذه الخطبه غير نهج البلاغه، غرر الحكم للآمدى في حرف الألف باختلاف يفيد أنه أخذها من مصدر آخر. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧٨).

إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتُهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاهُ أَيْدِيَهُمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

الشرح والتفسير: غنائم المقاتلين

رغم أن المراد بهذا الكلام شخص معين؛ أي عبد الله بن زمعه الذي اعتنق الإسلام وكان من شيعه على عليه السلام بخلاف أبيه وجدّه اللذين لم يعتنقا الإسلام وكانا من الأعداء، إلّا أنّ مضمون الكلام موضوع يصدق على جميع المسلمين، وهو أنّ أى مال من بيت مال المسلمين لا بدّ أن يصرف فى الموارد التى عينها الشارع ولا ينبغى تقديم الروابط على الضوابط بهذا الشأن.

وتشير قرائن الكلام إلى أنّ عبد الله طلب سهماً من الأموال التى كانت بين يدي الإمام وتعتبر من غنائم الحرب، إلّا أنّ الإمام عليه السلام قال له: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ».

لا بدّ من الالتفات رغم أنّ مفردة (الفيء) إنّ كانت مقابل الغنيمه فلها معنيان مختلفان؛ فالفيء يطلق على الأموال التى تقع فى أيدي جند الإسلام دون قتال وتعلق حسب الموازين الشرعيّه ببيت المال؛ أمّا الغنيمه فهى الأموال التى يجنيها المقاتلون بواسطه القتال، لكن إن استعملت الفيء بمفردها اطلقت أحياناً على الغنيمه، وعليه فقوله عليه السلام: «هُوَ فِيَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ»، لا ينافى مفهوم الفيء.

ثم قال عليه السلام: «فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَزَبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاهُ» (١) أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ».

وقوله عليه السلام ليس لى من سهم فى هذه الأموال ربّما يرتبط بالمعارك المحدوده التى يخوضها بعض قوّاد الإمام وليس الإمام عليه السلام، صحيح أنّ خمس الغنائم الحريه لبيت المال، وصحيح أنّ عبد الله بن زمعه كان من بنى المطلب (المطلب أخو هاشم) وليس بنى هاشم، ويرى البعض أنّ بنى المطلب يستحقون الخمس (٢).

لكن ربّما لم يكن فقيراً ليعطيه شيئاً من الخمس، على كلّ حال يشير هذا الكلام إلى أنّ الإمام عليه السلام كان فى غاية الدقه فى الأموال ولا يسمح بإعطاء حق مسلم لآخر وإن كان من صحبه الأوفياء، بخلاف عهد عثمان الذى يعتقد المؤرخون بأنّ بيت المال لم يكن خاضعاً لحساب وكتاب، وما أجدر أن يكون كلام الإمام عليه السلام جدول عمل لجميع زعماء الأئمة الإسلاميه والالتزام بالحق والعدل فى بيت المال حتى بالنسبه لحاشيتهم ومقربيههم.

كما يستفاد من الكلام أنّ عبد الله بن زمعه لم يكن تام المعرفة بالإمام ليطلب منه ذلك ولم يكن يعلم أنّ الإمام عليه السلام عامل أخاه عقيل كذلك وإلّا لما طلب منه.

ص: ٣٧٨

١- (١). «جناه» الثمار التى تقطف من الشجره وهى مفرد من ماده «جنا» على وزن «جفا».

٢- (٢) انظر: جواهرالكلام، ج ١٦، ص ١٠٦؛ المعتبر المحقق الحلى، ج ٢، ص ٦٣١، كتاب الخمس.

بَعْدَ أَنْ أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَى الْكَلَامِ فَحَصَرَ، وَهُوَ فِي فَضْلِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَوَصَفِ فَسَادِ الزَّمَانِ (١)

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:

الأول: بشأن أهميه التكلم وحرمان البعض من هذه النعمة. ومن ثم أشار إلى تماميه هذه النعمة العظيمة في أهل البيت عليهم السلام.

وشرح في القسم الثاني الوضع على عهده والذي انحدر فيه الناس إلى الفساد إثر توليهم عن تعاليم الإسلام فذل أصحاب الحق وكل أصحاب الصدق وساءت أخلاق الشبان وأثم الكهول وغدا عالمهم منافق والصديق خائن.

ص: ٣٧٩

١- (١) سند الخطبة: لما بلغ ابن أبي الحديد هذه الخطبة في شرحه لنهج البلاغه قال: اعلم أن هذا الكلام بينه أمير المؤمنين عليه السلام في حادثه اقتضت ذلك حيث أمر ابن اخته جعده بن هبيرة المخزومي أن يخطب بالناس، فصعد المنبر لكن (لجلاله الإمام وعظم الجماعه) لم يستطع الكلام ونزل. فصعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر وأورد هذه الخطبة الطويله التي ذكر السيد الرضى هنا بعضها (ويتضح من هذا الكلام أنه أخذها من مصدر آخر). ورواها باختلاف المرحوم الكليني في «روضه الكافي» والآمدى في «غررالحكم» كما رواها الزمخشري في الجزء الأول من كتابه «ربيع الأبرار» (مصادر نهج البلاغه: ج ٣، ص ١٧٩).

ومن هنا حثهم على العوده إلى طريق الحق واليقظه قبل أن يصيبهم العذاب الإلهى.

ص: ٣٨٠

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعُهُ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ،
وَلَا يُمَهِّلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ. وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَشَبُّتٌ عُرْوَقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهْدَلْتُ غُصُونُهُ.

الشرح والتفسير: نحن امرء الكلام

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى أمرين:

الأول: يتلغثم البعض حين الخطابه وينطلق بها البعض الآخر فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعُهُ (١) مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ، وَلَا يُمَهِّلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ».

قطعه اللحم هذه المسماه باللسان من عجائب خلق الله، فبحركات سريعة للغاية ودقيقه ومنظمه يصنع الحروف الثمانيه والعشرين أو الاثني والثلاثين فيصفها خلف بعضها ليئين بمجموعها جميع هواجسه ورغباته الماديه والمعنويه، فيفصح بها عن المحاسن والمساوي والجميل والقيبح، والطريف أن لكل قوم لغتهم فهناك أكثر من ألف لغة في العالم، وقد منحت هذه النعمه للإنسان وحده ليجيد الكلام فهي على درجه من الأهميه بحيث ذكرها الله في طليعه سوره الرحمن التي شرحت نعم الله:

«الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» (٢) طبعاً لا ينبغي أن ننسى أن

ص: ٣٨١

١- (١) «بضعه» (بفتح الباء) و «بضعه» (بكسر الباء) القطعه من كل شيء ويقال أحياناً حين يكون الشخص شديد القرب من آخر: «هو بضعه مني».

٢- (٢) . سوره الرحمن، الآيات ١-٤.

المهم إمره الروح بالنسبه للسان، فإن كانت هذه الإمره جاهزه انطلق اللسان بالفصاحه والبلاغه بسهوله وإن غابت هذه الجاهزيه تلثم اللسان، والامتناع والاتساع الذى نسب فى العبارة لسان المراد منه فى الواقع امتناع واتساع روح الإنسان.

فالحق لقد بين الإمام عليه السلام سبب نجاح أو فشل الإنسان فى الخطابه من خلال هذا الكلام ضمن إشارته لأهميه اللسان والنطق.

ثم قال عليه السلام: «وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ (١) عُرُوقُهُ (٢)، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ (٣) غُصُونُهُ».

فقد شبّه الكلام فى هذه العبارة الرائعه بالشجره الضخمه ذات الأغصان والجذور وأضاف أنّ هذه الشجره المورقه متجذره فى أرض وجودنا واطللتنا أغصانها ومن هنا سمي أهل بيت الوحي «أمراء الكلام».

وكلنا نعلم أنّ ذلك ليس مجرد ادعاء، بل حقيقه يعترف بها العدو والصديق فقد كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أفصح العرب، وكيف لا- يكون كذلك وعلى لسانه جرى كلام الله الذى بلغت فصاحته الاعجاز، وفصاحه أميرالمؤمنين عليه السلام أشهر من نار على علم وخطب «نهج البلاغه» ممّا تتناقله الألسن، حتى كان الأساتذه يوصون تلامذتهم فى الماضى إن أرادوا الفصاحه والبلاغه فى حديثهم بحفظ خطب «نهج البلاغه».

كما كانت خطب سيده النساء العالمين فاطمه الزهراء عليها السلام من أفصح الخطب وأبلغها، وقد فعلت خطب ربيبي هذا البيت الرسالى زينب وزين العابدين عليهما السلام فعلها فى الكوفه والشام لتؤثر على العدو والصديق.

ص: ٣٨٢

١- (١). «تنشبت» من «النشوب» التثبت فى الشىء.

٢- (٢) «عروق» جمع «عرق» على وزن «صدق» أصل الشىء وأساسه.

٣- (٣) «تهدلت» من ماده «هدل» على وزن «جدل» المعلقه بضعف وتطلق على الغصون النازله والمعلقه.

وعليه لا بدّ من الإذعان بأنّ التسميه بأمراء الكلام تليق بأهل هذا البيت.

تأملان

١. عجائب اللسان

اللسان الظاهري أى هذه القطعه اللحميه فى فم الإنسان وتولى الأمور الهامه والمعقده وكذلك اللسان الفكرى الذى يعنى القدره على أداء الكلمات وترتيب العبارات وبيان المطالب، لمن النعم الإلهيّه العظيمه، ومن هنا عدّ الفلاسفه والأعلام، النطق (اللسانى والفكرى) الفصل المميز وعرفوا الإنسان بأنّه حيوان ناطق. وكلما أمعنا فى هذين الأمرين واجهنا المزيد من العجائب.

الطريف أنّ هذا اللسان ملاً تقريباً جميع فضاء الفم تحت الأسنان، وحين تناول الطعام يرسل المواد الغذائيه بسرعه تحت الأسنان وينسحب بمهاره دون أن يصيبه أذى.

يقول الأطباء: هنالك أربعة أنواع من الهضم للطعام: الهضم الأوّل فى الفم حيث يرطب تماماً ويمزج بلعاب الفم فتجرى عليه تغييرات فيزيائيه وكيميائيه شتى، ثم يتجه إلى المعده وبالطبع فاننا ننتفع باللسان صباح مساء دون أن نقف على دوره المهم عند تناول الطعام.

والوظيفه الأهم للسان صنع الكلمات ومقاطع الحروف وصف العبارات وبيان جميع المقاصد الصغيره والكبيره والبسيطه والصعبه والمعقده للغاية التى تعد من عجائب الخليقه.

إلّا أنّ المهم عدم مهاره الجميع فى ذلك، فالمهاره فى الكلام تتوقف على عدّه عوامل أحدها وأهمّها الممارسه والتدريب، والثقه بالنفس وعدم خشيه الآخرين، ورباطه الجاش والايحاء إلى النفس من بين تلك العوامل المهمّه، ومن تلك العوامل أيضاً حضور مجالس أساتذه الكلام والانفتاح على تجاربهم واستخدامهم القضايا الظريفه إزاء مخاطبيهم.

طبعاً المطالعات المسبقه وإمتلاك الرصيد العلمى من العوامل المهمّه وهذا ما

يفسّر براءه البعض فى الخطابه فى التجمعات الكبرى، وإعياء البعض الآخر فى التجمعات الصغرى، كما أنّ حالات الإنسان الروحيه من قبيل الحزن والسرور والعافيه والسقم والهدوء والاضطراب لمن الأمور التى لها غايه التأثير فى هذه القضيه، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى خطبه بعبارة الامتناع والاتساع.

وقد ذكر ابن أبى الحديد نماذج رائعه فى الأشخاص الذى ارتقوا المنبر وتلثموا فى الخطابه وعيوا فى الألفاظ فهبطوا من المنبر، فنقل عن كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ موارد منها:

إنّ عثمان صعد المنبر وتوقف عن الكلام فقال هذا الكلام، ونزل: «أنتم إلى إمامٍ عادلٍ أحوج منكم إلى إمامٍ خطيبٍ» (تركيز عثمان على مسأله العداله رائعه للغاية).

وروى أنّ عدى بن أرطاه رقى المنبر ولم تكذ تقع عينه على الناس حتى توقف فقال: (الحمد لله الذى يطعم هؤلاء ويسقيهم) ثم نزل.

كما صعد روع بن حاتم، المنبر فلما رأى الناس يتطلعون إليه نادى: إخفضوا رؤوسكم وأغمضوا أعينكم فركوب الدابه صعب أول الأمر فإن فتح الله شيئاً سهل.

وقيل: أراد مصعب بن حيان أن يلقي خطبه فى النكاح فقال: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله. فقامت له ام العروس وقالت: عجل الله موتك ألهذا دعوناك! وسائر الموارد من هذا القبيل (١).

٢. امراء الكلام

ما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه (وإنّا لأمراء الكلام) حقيقه لا تنكر يعترف بها العدو قبل الصديق. وما خلفه هذا البيت من تراث خير شاهد على ذلك؛ كأحاديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله التى نشرت تحت عنوان (نهج الفصاحه، ونهج البلاغه) بأجزائه الثلاثه والأدعيه كدعاء كميل والصبح الذى ينتهى سنده للإمام على عليه السلام وخطبتي

ص: ٣٨٤

١- (١) انظر: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٣، ص ١٣ و ١٤.

سيده نساء العالمين فاطمه الزهراء عليها السلام ودعاء عرفه المسند للإمام الحسين عليه السلام وخطب أهل بيته في الكوفة والشام ثم المدينة عقب واقعه كربلاء وأدعيه الصحيحه السجديه كدعاء أبي حمزه الثمالي الذي ينتهي سنده للإمام السجاد عليه السلام وأمثال ذلك.

كما ينبغي الالتفات إلى إذعان الأعداء بهذه الحقيقه. وروى ابن أبي الحديد في الجزء الأول من شرحه لنهج البلاغه أنّ محقن بن أبي محقن دخل على معاويه فسأله من أين جئت؟

قال: «جئتُك مِنْ عِنْدِ أَعْيَى النَّاسِ». فقال له معاويه: «وَيُحَكُّ كَيْفَ يَكُونُ أَعْيَى النَّاسِ فَوَاللَّهِ مَا سَنَّ الْفَصَاحَةَ لِقُرَيْشٍ غَيْرُهُ» (١).

وروى عن عبدالحميد الكاتب: حفظت سبعين خطبه من نهج البلاغه ففاضت ثم فاضت (٢).

وروى المرحوم السيد الرضى في مقدمته الرائعه على نهج البلاغه قائلاً:

قال ابن أبي الحديد كما ذكرنا في الجزء الأول ذيل الخطبه ٢٢١ بعد شرحه لجانب من كلام المولى في عالم البرزخ: «لو اجتمع فصحاء العرب قاطبه في مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى بن الرقاع ومطلعها: «قلم أصاب...»، فلما قيل لهم في ذلك قالوا: نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن» (٣).

ولمزيد من المعلومات بهذا الشأن يراجع كتاب «في رحاب نهج البلاغه» للشهيد المطهرى ومقدمه الجزء الأول من «نفحات الولاية».

ص: ٣٨٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٤.

٢- (٢) السابق طبق نقل المرحوم العلامة المطهرى في رحاب نهج البلاغه، ص ٢٨.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٥٣.

وَأَعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ. أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُضِيَّ طَلْحُونَ عَلَى الْإِذْهَانِ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِنُهُمْ مُمَازِقٌ. لَا يُعْظَمُ صِغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يَعْوَلُ غَنِيِّهِمْ فَقِيرُهُمْ.

الشرح والتفسير: خصائص البيئه الملوئه

تناول الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه، المفاصد التي ظهرت آنذاك إثر سياسات الخلافه السابقه والتي سرت تقريباً إلى جميع المجتمعات، ليرسم صورته واضحه لذلك المجتمع بإحدى عشره عبارته موجزه غايه في الدقه بحيث لم ينس شيئاً (وهذا مفهوم الفصاحه والبلاغه والخطابه المعجزه) فقال: «وَأَعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ (١)، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ».

فقد شخّص عليه السلام بهذه الصفات الثلاث، الجذور الأصلية لفساد المجتمع، سكوت أهل الحق خشية المعارضين أو إزدياد الأزمات، وصمت الصادقين بفعل ضغوط البيئه والهيئه الحاكمه أو مخافه زوال مصالحهم الشخصيه أو التلوث بالكذب والإفتراء عوض الصدق وكذلك أولئك الذين ينشدون الحق ويطلبونه ينحون أو ينسحبون من المجتمع وليس هنالك من يسمع مقالتهم الحقه، وزبده القول ينسى

ص: ٣٨٧

١- (١). «كليل» من ماده «كلّ» على وزن «حلّ» التعب والعجز والضعف والكليل التعبان والعاجز والضعيف.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويهجر إرشاد الجاهل وتنبه العاقل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين هما في الواقع نتيجته للصفات الثلاث السابقة فقال:

«أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِضْيَانِ، مُضْطَلِحُونَ (١) عَلَى الْإِدْهَانِ (٢)».

لا- شك في أن هناك معاصٍ في كل مجتمع ومداهنه ومسايره، إلا أن البؤس والشقاء في حركه عامه نحو الذنب والمعصيه وبصوره مستمره ودائميّه، كما أن المصيبه والتعاسه في اصطفا المداهنيّن واتحادهم على هذا الأمر.

ثم قال عليه السلام في الصفه السادسة والسابعه: «فَتَاهُمْ عَارِمٌ (٣) ، وَشَائِبُهُمْ (٤) آتِمٌ».

من البديهي في الوسط الذي يصمت فيه أصحاب الحق ويغيب فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تتلوث الأوساط الأسريه فينشأ الشبان في هذه الأوساط سيئى الخلق وفاقدى الأدب، كما أنه من الواضح أن هؤلاء الشبان حين يشيخون لا يفارقون الاعتياد على المعصيه ويغفلون عن أن عمرهم اقترب من نهايته وسيحل أجلمهم فيغنون في بحر المعاصى بسبب تلك الغفله.

وقال في الصفه الثامنه والتاسعه: «وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَازِقٌ (٥)».

نعم، فعلماء ذلك الوسط الذين أقبوا على الدنيا إنما يرون النفاق سبيلاً لنيلها، كما ورد في الخطبه ١٩٤: «وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعِيَاءُ».

وردت المفرده «قارئهم» في أغلب نسخ «نهج البلاغه» وهذا ما رجحه أغلب الشراح كونه يناسب العبارة السابقه، فالكلام هناك عن العلماء وهنا عن قراء القرآن والعابدین. بينما وردت في بعض النسخ (قارن) من ماده قرین بمعنى الصديق

ص: ٣٨٨

١- (١) «مضطلحون» اتفاق الأفراد على شيء، من ماده «صلح».

٢- (٢) «إدهان» تعنى في الأصل التدهين. ثم استعملت في الخداع والمساومه على أمر مرفوض.

٣- (٣) «عارم» سيء الخلق من «العرامه» الخشونه وسوء الخلق والسيول الجارفة والموانع التي تقام لصدها في الوديان.

٤- (٤) «شائب» الكهل والعجوز من ماده «شيب» على وزن «غيب» الكهوله.

٥- (٥) «مماذق» المرائى من ماده «مدق» على وزن «حذف» مزج اللبن بالماء.

ويصبح مفهوم العبارة أنّ الأصدقاء آنذاك منافقون؛ ولكن من الواضح أنّ النسخة الأولى أكثر تناسباً مع مجموع كلام الإمام عليه السلام.

وأخيراً قال في الصفتين العاشرة والحادية عشره من صفات أهل ذلك الزمان:

«لَا يُعْظَمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يُعُولُ (١) غَنِيَّهُمْ فَقِيرُهُمْ».

واضح أنّ الشبان واليافعين تربوا بعيداً عن الأدب والخجل والحياء لا يحترمون كبارهم، كما أنّ الكبار الذين غرسوا هذه البذور يتجرعون مراره ثمارها.

ومن الواضح أيضاً أنّه إن غابت الفضائل الإنسانية عن المجتمع وحلّ مكانها الفساد والتكالب على الدنيا فإنّ الأغنياء سوف لن يرحموا الفقراء وينسون حقيقته أنّ الله جعل للفقراء حقاً في أموالهم، ومن هنا يرون أنّ جميع تلك الأموال لهم فينفقونها في ملذاتهم. هذا إن كانت تلك الأموال جمعت من الحلال، وإلّا إن كانت من الحرام ولا- يعلم أصحابها، فهي جميعاً للفقراء والمحتاجين.

وهنا يرد هذان السؤالان؛ الأوّل: لم عمّت كلّ هذه المفاصد المجتمع الإسلامي على عهد حكومه الإمام على عليه السلام؟ ولا تبدو الإجابة صعبة إن عدنا قليلاً إلى الوراء وتأمّلنا عصر الخليفة الثالث وماذا فعل وبطانته بيت المال والمناصب الحساسه الحكوميه التي أغدقها على خاصته وقربته، فالتاريخ يفيد أنّ الفساد بلغ درجه بحيث قام المسلمون على الخليفة وقتلوه بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار وقلّموا كان له ناصر.

السؤال الآخر: أين الجذور الأصلية لتلك المفاصد الإحدى عشره؟ لو تأملنا بدقه لرأينا أنّ أغلبها إن لم نقل جميعها ناشئه من فساد الخلافه، وكون الناس غالباً على دين حكامهم يواصلون تلك المسيره، وأحياناً يترسخ الفساد بحيث يشق الإصلاح على من يخلفهم، كما شق على الإمام عليه السلام.

حقاً لو دعوا الإمام يتسلّم زمام الأمور بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقود المجتمع

ص: ٣٨٩

١- (١) «لا يعول» من ماده «عول» على وزن «قول» كفاله الشخص، ومنه العيال.

الإسلامى بذلك العدل والزهد والدرايه بالمسلمين لكان للإسلام والمسلمين مسار آخر. الطريف أننا لو نظرنا إلى البلدان المعاصره التى تسودها حكومات فاسده لرأينا بوضوح كل هذه المفاسد التى أشار لها الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه.

ص: ٣٩٠

رَوَى ذِغْلَبُ الْيَمَامِيُّ [الِيَمَانِيُّ] عَنْ أَحْمَدَ بْنِ قُتَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ دَعْحِيَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامِ،

وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ اخْتِلَافُ النَّاسِ فَقَالَ (١):

نظرة إلى الخطبة

محور البحث في كلام الإمام عليه السلام عوامل اختلاف الناس مع بعضهم وظاهر هذا الكلام أنّ نقص الناس وكمالهم في العقول والغرائز مرهون بمدى طهاره طبيعتهم التي جبلت عليها طبيعتهم، وإن رأينا ظاهرياً تقارب البعض وانسجامهم أو تباعدهم وتفرقهم فبسبب قرب أرضهم (طبعاً يختزن هذا الكلام أسئلة متتالية سنخوض في طرحها والرد عليها باذن الله في الشرح والتفسير).

ص: ٣٩١

١- (١) سند الخطبة: رواه الزمخشري في الجزء الأول من كتاب «ربيع الأبرار». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٨١).

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِيءَ طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلَقَةً مِنْ سَبِيخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا، وَحَزْنِ تَرْبِهِ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارِبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَيَأَمُّ الرُّوَاءُ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهَمِّ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيْبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيْبَةِ، وَتَائِهَةُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيْقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ.

الشرح والتفسير: أساس الاختلاف

لا- شك في أن الناس مختلفون من الناحية الجسميه وكذلك من الناحية الروحيه والفكريه والأخلاقية كما لا ريب في أن هذا الاختلاف يمكن تغييره عن طريق التربيه والتعليم. وعليه فالاختلاف لا يقود قط إلى سلب الاختيار ومسأله الجبر.

إلا أن الكلام في أصل هذه الاختلافات؟ لم البعض طويل القامه والآخر قصير، البعض جميل الوجه والآخر غير جميل، فئه ذات استعداد عالي وأخرى ضعيفه وعاجزه، وطائفه كريمه وأخرى بخيله.

نسب الإمام عليه السلام هذه الاختلافات إلى مواد خلق منها جسم الإنسان وقال: «إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِيءَ (١) طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلَقَةً (٢) مِنْ سَبِيخِ (٣) أَرْضٍ

ص: ٣٩٣

١- (١). «مبادئ» جمع مبدأ بدياه كل شيء والمراد هنا العناصر التي تكون طينتهم.

٢- (٢) «فلقه» القطعه من الشيء من ماده «فلق» على وزن «حلق» الشق وبما أن الشق يقسم القطع وردت فلقه بمعنى القطعه.

٣- (٣) «سبيخ» الأرض المالحة.

وَعَذِبَهَا (١) ، وَحَزَنَ (٢) تَزْبِيهِ وَسَهْلَهَا (٣) ، فَهَمَّ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ».

وعلى ضوء هذا الكلام فإن هذه الاختلافات ناشئة من تباين مواد الأرض المختلفه، وبالنظر إلى اختلاف بقاع الأرض والمواد التي تتركب منها واختلاف تركيب الناس من تلك المواد، والتأثير لاختلاف تلك المواد على اختلاف روحياتهم وأفكارهم وأخلاقهم كان هناك اختلافات بين الناس. وهنا يرد سؤالان: الأول: إن أبانا آدم عليه السلام خلق من التراب وولد الناس لاحقاً من نطفه آدم وأولاده، وليس من التراب.

والآخر: ألا يقوى هذا الكلام مذهب الجبر الذي يرغب أن كل إنسان مجبر على الأفعال ولا يمكن تغيير ذلك؟ ونترك الإجابة عن السؤال الثاني لمبحث التأمّلات في آخر الخطبه. وهناك سيّلان للإجابة عن السؤال الأول:

الأول: إن الناس وإن ولدوا بعد آدم من نطفته؛ إلّا أنّ النطفه تتركب من مواد مختلفه تعود الجوانب الرئيسيه فيها للأرض وتتغذى في رعرعتها على غذاء الأم لتبلغ مرحله الكمال حتى تلد، وغذاء الأمّ كان يتألف من مواد الأرض، فالنباتات تخرج من الأرض والحيوانات تتناول النباتات وعليه فممو الجنين منذ كونه نطفه حتى تحوله إلى الكمال يستند جميعاً إلى مواد الأرض.

وربّما يتضح الموضوع أكثر بهذا المثال وهو أنّ الأشجار المثمره التي تنمو في أراضٍ مختلفه وكذلك الحيوانات وبدور الأطمعه مختلفه تماماً؛ مثلاً، العنب الذي ينمو في بقله أحلى وألطف من الآخر في بقله أخرى وهكذا سائر الثمار، والناس كذلك، وحيث إنّ رابطه الجسم والروح بالنسبه لبعضها قريبه جداً فإنّ تفاوت هذه

ص: ٣٩٤

١- (١) . «عذب» الحلو.

٢- (٢) «حزن» إن استعملت في الأرض عنت المتموجه و «حزن» تعنى الغم من هذه ماده.

٣- (٣) «سهل» إن استعملت عنت المستويه المنبسطة ومنه أيضاً السهل أى البسيط.

الجواب الآخر: بغض النظر عما قيل، إن ركزنا على خلق جسم آدم من التراب فمن الممكن أيضاً أن تحصل عدّه نطف من المواد المركبه لوجود آدم حين تتكون النطفه، ففي بعض الحالات، ماده الفلانيه ترد أكثر من النطفه وفي بعضها الآخر أقل، ومن هنا يختلف حتى الأولاد الذين يلدون من نفس الأب والأم وفي مناخ واحد وحتى التغذية الواحده للوالدين؛ فهذا أشجع وذاك أكرم وهذا أضعف وذاك أذكى، والقضيّه المهمه أيضاً أنّ المناخ يكوّن جانباً من وجود الإنسان؛ لكن الإمام عليه السلام ذكر هنا أساس الاختلاف ليقترنه على اختلاف مواد الأرض ولم يتطرق إلى المناخ، إمّا لقله تأثيره على مواد الأرض أو أنه يتأثر بها أيضاً، فالماء مالح في الأراضي السبخه والهواء ملوث، بينما الماء حلو والهواء لطيف في الأراضي السهله.

طبعاً لا يخفى التأثير الذي تلعبه أشعه الشمس، ولذلك ترى أغلب الأفراد في المناطق الاستوائيه من ذوى البشره السوداء وبعكسها في المناطق المعتدله، وبالطبع لا يقتصر ذلك التأثير على لون البشره، بل هناك تأثير خاص للموقع الجغرافى بسبب اختلاف أشعه الشمس أو المناخ والأرض.

على كلّ حال، استناداً لما قيل يمكن التسليم لكلام الإمام عليه السلام حسب دلاله ظاهره والذي ينسجم تماماً مع القواعد العلميه المعاصره، ولا حاجه إلى أن نقول المراد من (مبادئ طينهم) أرواح ونفوس الناس وتحمل سائر ألفاظ الإمام عليه السلام على اختلاف الأرواح؛ لا على اختلاف الأجسام التي لها تأثيرها في تفاوت الأخلاق والروحيات كما يفهم من كلمات ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه.

ثم يبين الإمام عليه السلام عدّه نماذج لتأثير الجسم على الأخلاق والفكر والفضائل النفسائيه ليختتم هذا البحث بذكره لسبعه نماذج من العلاقه بين الجسم والروح والتركيب الظاهري بالخلق والطبع الباطنى فقال: «فَتَأْمُ الرُّوَاءِ (1) نَاقِصُ العُقْلِ، وَمَأْدُ

١- (١). «رواء» من ماده «رى» على وزن «حى» تعنى فى الأصل الإرتواء ومن هنا يطلق رواء على الفرد الحسن المنظر كأنه كالنبات الذى ارتوى من الماء وحسن منظره.

الْقَامَهُ قَصَبٌ أَيْ هَيْمَهُ، وَزَاكِيَ الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ (١) بَعِيدُ السَّبْرِ (٢)، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيْبِهِ مُنْكَرُ الْجَلِيْبِهِ، وَتَائِهٌ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيْقُ اللِّسَانِ حَدِيْدُ الْجَنَانِ».

وما ورد بشأن العلاقات السبع بين الجسم والروح والماده الجسمانيه والأخلاق فى كلام الإمام عليه السلام قطعاً بصيغته قاعده كليه لا يطالها الاستثناء، بل وارده فى أغلب الأفراد، ومن هنا لمسنا بأعيننا استثناءاتها.

العباره «قَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ» والنظر إلى أنّ القعر هنا إشاره إلى قصر القامه، حيث ليست هناك من فاصله بين الرأس والأقدام لديهم وكانت مفردة «وَقَرِيبُ الْقَعْرِ» مناسبه لهم، والنظر إلى أنّ السبر يعنى التعمق والاختبار فإنّ العباره «بعيد السبر» إشاره إلى عمق الفكر وسعه الاطلاع.

كما يحتمل أن تكون العباره «بَعِيدُ السَّبْرِ» إشاره إلى أنّ أولئك الأفراد يصعب معرفتهم. وهو المعنى الذى أقره ابن أبى الحديد وابن ميثم وبعض الشراح.

والعباره «وَمَعْرُوفُ الضَّرِيْبِهِ» بالنظر إلى أنّ الضريبه تعنى السجيه والخصله والطبيعه والجليبه ما يقوم به الإنسان من عمل خلاف طبعه وكأنه يجلبه من الخارج، فإنّ المفهوم هو أنّ طائفه من أولئك الناس الطاهرى الطبع يتعاملون خلاف طبعهم بفعل بعض العوامل الخارجيه من قبيل التربيه السيئه والوسط الملوث والدعايه السامه التى تفرز الدواعى الشيطانيه.

والعباره «وَتَائِهٌ الْقَلْبِ» ذات مفهوم جربناه عاده فى حياتنا وحياه الآخرين وهو أنّ الأفراد الذين يعيشون الاضطراب إثر مختلف العوامل يفقدون قدره التفكير المنظم فتضطرب بالطبع أفكارهم بحيث يتضح قلق قلوبهم من خلال اضطراب أفكارهم.

ص: ٣٩٤

١- (١). «قعر» تعنى هنا الباطن ويطلق القعر على آخر نقطه فى الشىء.

٢- (٢) «السبر» الاختبار والامتحان ويقال لمن يصعب الوقوف على أسراره بسهولة «بعيد السبر».

٣- (٣). «التائه» الحيران من ماده «تبه» على وزن «سعى» و «تبه» على وزن «جيم» الحيره والضلال.

والعبارة «وَطَلِيقُ اللَّسَانِ» ذات مفهوم مجرّب هو أنّ الخطباء الماهرين هم الأفراد ذوو القلوب الصلبة الذين لا يهابون شيئاً ويتسمون بالشجاعة ومن هنا كانوا ماهرين في الخطابه.

تأملان

١. صلة الروح بالجسم

صرّح أغلب الأعلام والفلاسفة بأنّ لروح الإنسان صلة بجسمه بحيث تنعكس خصائص كلّ منهما على الآخر، وعليه فليس من العجب أن تكون هنالك علاقة بين شكل الإنسان وقامته وسائر ميزاته البدنيه وبين روحياته وأخلاقه.

وقد ذكر المفكرون منذ قديم الأيام ولحد الآن تلك الصلات في مصنفاتهم حتى انشق علم معرفه الهيئه، لكنهم يعترفون بأنّ تلك الصلات (صلة الأخلاق بالهيئات الجسمانيه المختلفه) ليست كليّه، فهنالك العوامل الأخرى المؤثره في روحيه الإنسان وخلقها بحيث يغلب تأثيرها أحياناً ويربك العلاقة السابقه؛ مثلاً خلق الأب والأم وطبعهما، وتأثير المناخ المحلى والتعامل مع مختلف الأشياء حسب العمل والمهنه وأمثال ذلك، من شأنه التأثير في خلقيات الإنسان فيربك أحياناً كليه صلات علم معرفه الهيئه.

على كلّ حال، فما ورد في كلام الإمام عليه السلام آنفاً إشاره إلى جانب من علاقته الروح بالجسد ذكره على سؤال بعض أصحابه بشأن اختلاف روحيات الناس، وما مر علينا بالطبع مبدأ كلى ولا يخلو من استثناء.

ومن هنا يتضح ما يرى من مطالب في بعض الروايات على خلاف ما ذكر، على أنّه من تلك الاستثناءات كالحديث النبوى القائل «أُطْلِبُ الْخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ» (١).

ص: ٣٩٧

فى حىن ورد فى بعض الرواىات ضمن خطبه للنبى الأكرم صلى الله عله و آله أنه قال: «أئبها الناس إىاكم و خضراء الدمن. قىل: يا رسول الله و ما خضراء الدمن؟ قال: المرأه الحسنة فى مئبئ الشوء» (١).

٢. الاختىار وصله الروح بالجسد

السؤال الآخر الذى ىرد هنا: إننا إن قبلنا العلاقه بىن ملوحه التربه و حلاوتها و طبعه الإنسان و إرتباط الهىئات الجسمانىة بخلقىات البشر، فنتىجه ذلك لىس للأخىار قدره إتىان المساوى، ولا السىئىن إتىان المحاسن وهذا هو مذهب الجبرىة، والمعلوم على هذا الأساس إنكار الثواب والعقاب وعبئبه بعته الأنبىاء، وبالتالى نفى عداله الله تبارك و تعالى.

ولا- تبدو الاجابه على هذا السؤال صعبه، فلىس هناك من ىزعم أن الكىفىات الجسمانىة عله تامه لتلك الخلقىات فى الطبعه البشرىة، وأنها مجرّد أرضىة مساعده. وىمكن اىضاح ذلك بهذا المئال. فالكل ىقول بتأئىر الوسط الأسرى أو البىئه على أعمال الإنسان، إلا أن ذلك لا ىعنى سلب إراده الإنسان، وما ذلك سوى أرضىة، ومن هنا نرى الكثير ممن تربى فى اسره سىئه لكنهم كانوا اناساً صالحىن ومؤمنىن. وبالعكس نرى بعض الأفراد السىئىن ممن تربى فى وسط صالح، بعباره أخرى، فإن الجزء الأخير للعله التامه إراده الإنسان التى تؤدى إلى التأئىر الغائى.

كما تجدر الإشاره إلى أن من عاش وسطاً سىئاً وأجواء خلقىه شاذه و سلك الطرىق السلىم فإن أجره و ثوابه ىفوق نظىره الذى ىعشى وسطاً و بىئه صالحه.

ص: ٣٩٨

قَالَ وَهُوَ يَلِي غُسْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَجْهِيْزَهُ (١)

نظرة إلى الخطبة

أورد الإمام عليه السلام كما قيل، هذا الكلام حين ولى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه، كلمات ملتاغه تثير الحزن وتعكس غايه لوعه الإمام عليه السلام آنذاك، فى حين ترك الآخرون جسد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله واجتمعوا فى سقيفه بنى ساعده ليتآمروا على سلب خلافة النبى صلى الله عليه وآله.

ص: ٣٩٩

١- (١) سند الخطبة: رواه عدد ممن عاش قبل السيد الرضى ومنهم: (أ) محمد بن حبيب (المتوفى سنة ٢٤٥) أى قبل ولاده السيد الرضى ب. ١١٤ سنة فى «الأمالى». (ب) أبو اسحاق إبراهيم الزجاج (المتوفى سنة ٣١١ أى ٤٨ سنة قبل الرضى فى كتابه «الأمالى») عن بريد المبرد. (ج) رواها الشيخ المفيد فى كتابه «الأمالى» بسنده عن ابن عباس. قال صاحب «مصادر نهج البلاغه»: لا شك أن هذا كلام على عليه السلام وإن نسبت لغيره فى زهر الأداب فذلك من الوهم (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٨٢-١٨٣).

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبِيِّ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاوَاتِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً. وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَذْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْنِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً. وَالْكَمِيدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَكَ! وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رُدَّهُ، وَلَا يُسَدِّطَاعُ دَفْعَهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ.

الشرح والتفسير: عظم مصيبه رحيل النبي صلى الله عليه وآله

خاطب عليه السلام الجسد الطاهر للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآله فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبِيِّ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاوَاتِ».

الجملة «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي». المتداوله لدى العرب عند ابداء الحب لأحد، إشاره إلى أني أفديك بأبي وأمي أعز أعزائي، لعل أب القائل وأمه ليسا على قيد الحياه حين قوله ذلك الكلام كما الأمر كذلك في هذه الخطبه، فذلك لا يقدر بمفهوم الكلام، فلهذه العبارة جانب كنائي ويشير إلى أن المخاطب عزيز إلى درجه أن الإنسان يفديه بأعز خاصته.

ورد في بعض الروايات أن هذه العبارة عقوق للوالدين إن كانا على قيد الحياه ومؤمنين (1).

ص: ٤٠١

١- (١) وسائل الشيعه، ج ٢، ص ٦٥٣، ح ١.

إلا أن ظاهر هذه الرواية حين لا يكون المخاطب النبي أو الإمام، لأن هذه العبارة إزاءهم مدعاه للفخر فضلاً عن أنها ليست إهانه وعقوق.

ومن هنا كثيراً ما تشاهد هذه العبارة في أغلب الزيارات، في حين أن أغلب والدى الزائرين أحياء.

المفردات «نبوه»، «إنباء» و «أخبار السماء» ذات مفاهيم مختلفه: فالنبوه إشاره إلى مقامه صلى الله عليه وآله، والإنباء أسلوب النبي العملى فى إبلاغ الرساله والوحى، وأخبار السماء تلك التى لا ترتبط بالمسائل الشرعيه من قبيل الأخبار الغيبية والحوادث المستقبلية والملاحم.

على كل حال العبارات المذكوره أخبار صريحه فى خاتميته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ودليل بين على عدم نزول الوحى بعد النبي صلى الله عليه وآله وقد انقطعت هذه النعمه العظيمه التى عمّت العالم فى ظل وجود النبي برحيله، وهذا سرّ حزن أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم أشار عليه السلام إلى أمرين فقال: «حَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً (١) عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً».

كيف لا- تكون مصيبه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله شامله وهو رحمه للعالمين ووسيله نجاه البشريه من مختلف أنواع الانحرافات، فهو للجميع ويهتم بالجميع، فلا بد أن يبكيه الجميع فى مصابه.

ومن جانب آخر أن المصاب يبدو أجلاً وأعزّ كلما كان الفقيد أعظم قدراً وأثراً، ولما كان النبي صلى الله عليه وآله أكرم إنسان وأعز مخلوق كانت مصيبته تفوق جميع المصائب، وبعبارة أخرى تهون سائر المصائب إزاء مصابه.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين مصابه بالزهراء عليها السلام فخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلْدِي إِلَّا أَنَّ فِي النَّاسِ لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزُّ (٢)».

ص: ٤٠٢

١- (١). «مسلياً» من ماده «سلو» على وزن «غلو» الهدوء بعد الشده.

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٢.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنْ اصْتَبَتْ بِمُصِيبِهِ فِي نَفْسِكَ أَوْ فِي مَالِكَ أَوْ فِي وَلَدِكَ فَادْكُرْ مُصَابِكَ بِرَسُولِ اللَّهِ فَإِنَّ الْخَلَائِقَ لَمُصَابُوا بِمِثْلِهِ قَطُّ» (١).

ثم أشار عليه السلام إلى فضيه أخرى فقال: «وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا (٢) عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْنِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا وَالْكَمْدُ مُحَالِفًا، وَقَلَّا لَكَ!».

وبالنظر إلى أنّ شوون، جمع شأن التي تعنى هنا غدد الدموع فمراد الإمام عليه السلام لولا أنّك نهيتنا عن البكاء والجزع لبكيناك حتى ينضب ماء عيوننا، لكننا تعلمنا منك الصبر والجلد، فقد بكيت ولدك إبراهيم حين توفي لكنك لم تجزع، وهذا ما فعلته بمصاب عمك حمزه ومن هنا علمتنا الصبر.

و «المماطل»: المدين الذي يؤخر أداء الدين، ويقال: داء المماطل للمرض الذي لا علاج له والذي يشبه ذلك المدين.

و «الكمد»: الحزن الباطني، والمحالف: من يعاهد غيره ويفى بالعهد، فكمد محالف بإشاره إلى الحزن الباطني الثابت.

ويشير ضمير المثني في (قلّا لك) إلى ذلك الداء والكمد؛ أي أنّ ألم مصابك وحزنه الدائم لا شيء أيضاً إزاء عظمه مصيبتك.

ثم قال عليه السلام: «وَلِكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رُدُّهُ، وَلَا يُسَدِّ تَطَاعُ دَفْعُهُ!». فالبكاء والجزع لا يجدي نفعاً ولا بدّ من الصبر والرضا برضى الله.

ثم عبر في الختام أيضاً عن حبه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتعلقه به فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ (٣)».

ومفهوم هذه العبارة أنّ روحك الطاهرة عرجت إلى الملكوت الأعلى جوار الربّ. فادع لنا هناك واسأل الله قضاء حوائجنا واستحضرنا على الدوام.

ص: ٤٠٣

١- (١) الكافي، ج ٣، ص ٢٢٠، ح ٢.

٢- (٢) «انفدنا» من «النفاد» انتهاء الشيء و «انفاد» مصدر باب افعال الانتهاء.

٣- (٣) «البال» الخاطر والقلب والحال.

١. البكاء على الأعزّه

يستفاد من هذه الخطبه والروايات، عدم المنع من البكاء على مصاب الأعزّه.

والمنع يقتصر على الجزع والجحود، فقلب الإنسان بؤره العواطف والتي تؤثر عليه سيما حين تشتد. فإذا فقد عزيزاً اضطرب القلب وجرت الدموع ويختنق الإنسان بعبرته وينطلق اللسان لبيان شوقه ولهفته للعزيز الفقيّد، هذه الأمور جميعاً ليست ممنوعه، بل ممدوحه شريطه اقترانها بالصبر، والممنوع أن يجزع الإنسان ويضرب رأسه بالجدار ويخمش وجهه وينطلق لسانه بالباطل.

ففى الخبر: لما بلغ النَّبى صلى الله عليه و آله استشهاد جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثه (فى موقعه مؤتة) بكاهما وقال: «إِنَّهُمَا كَانَا يُحَدِّثَانِي وَكُنْتُ آنَسُ بِهِمَا فَمَاتَا مَعًا»^(١).

كما ورد فى غزوه احد أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله لما رجع إلى المدينه وكان يسمع كل بيت يبكى قتيله سوى بيت عمّه حمزه، غضب وقال: «وَلَكِنْ حَمَزَةٌ لَا بُوَائِي لَهُ».

فلما سمع أهل المدينه ذلك أقسموا أن لا يبكوا أحداً حتى يبكوا على حمزه. وقد استمرت هذه السنّه حتى اليوم (حين حديث الإمام الباقر عليه السلام)^(٢).

كما وردت عن المعصومين عليهم السلام عدّه روايات فى النهى عن الجزع، ومنها أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَّتْ عَلَيْكَ الْمُقَادِيرُ وَأَنْتَ مَا جُورُ وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَّتْ عَلَيْكَ الْمُقَادِيرُ وَأَنْتَ مَعْدُورٌ»^(٣).

لا- ينبغى أن ننسى أنّ الجزع ناهيك عن كونه نوعاً من جحود الله، فهو ينطوى على آثار سيئه تصيب أعصاب الإنسان وتسوقه أحياناً إلى حدّ الجنون.

ص: ٤٠٤

١- (١) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ١٧٧، ح ٥٢٧.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ١٨٣، ح ٥٥٣.

٣- (٣) مستدرک وسائل الشيعه، ج ٢، ص ٤٣١، ح ٤٠.

٢. تجهيز النبي صلى الله عليه وآله

لا- خلاف فى يوم وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث أجمعوا على وفاته يوم الاثنين ومشهور مذهب أهل البيت عليهم السلام أنه دفن بعد ثلاثه أيام.

ورغم ما يستفاد من الروايات باستحباب التعجيل فى دفن الميت؛ إلا أن القضية تختلف حين يكون المتوفى شخص كرسول الله صلى الله عليه وآله ويريد المسلمون أن يصلّوا عليه فوجاً فوجاً ويودعوه.

وكما يستفاد من الأخبار أنهم كانوا يدخلون عليه عشره عشره ويصلّون عليه، ثم دفن هناك فى حجرته، حيث كان لكل رأيه فى دفن النبي صلى الله عليه وآله فمنهم من قال: فى مكه، وآخر المدينة (فى البقيع أو فى صحن المسجد) فقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيًّا إِلَّا فِى أَطْهَرِ الْبِقَاعِ فَيَبْغَى أَنْ يُدْفَنَ فِى الثُّبَعَةِ الَّتِى قُبِضَ فِيهَا».

فَاتَّفَقَتِ الْجَمَاعَةُ عَلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدُفِنَ فِى حُجْرَتِهِ (١). كما قيل فىمن دخل القبر أنه دخل على عليه السلام والفضل ابن العباس وشخصان آخران (٢).

على كل حال، فمما لا شك فيه أن تجهيز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بما فى ذلك غسله وتكفينه والصلاه عليه كان على يد على عليه السلام بينما سارع الآخرون إلى سقيفه بنى ساعده وانهمكوا بالحديث عن الخلافه حتى قيل إن معزى السقيفه لم يوقفوا للصلاه على النبي صلى الله عليه وآله. وللوقوف على المزيد بهذا الشأن يراجع كتاب بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٥٠٤.

ص: ٤٠٥

١- (١). تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٢-٣.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥٢٥.

اقتَصَّ فِيهِ ذِكْرَ مَا كَانَ مِنْهُ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ لِحَاقُهُ بِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

لا حاجة هنا لشرح الخطبه وفق نظره كون كلامه عليه السلام غايه في القصر والايجاز.

ص: ٤٠٧

١- (١) سند الخطبه: رواه ابن الأثير في «النهايه» في ماده «وطأ» «مصادر نهج البلاغه» ج ٣، ص ٢٣٤.

فَجَعَلْتُ أَتْبِعُ مَا خَدَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ.

الشرح والتفسير: ذكر الحبيب

هذا الكلام كما ذكره المرحوم السيد الرضى جانب موجز من خطبه مفصله للإمام عليه السلام فضله الرضى لما رأى فيه من ظرافه فى عباراته من حيث الفصاحة والبلاغة. ويفهم من كتاب «تمام نهج البلاغه» أنّ هذا الكلام كان فى خطبه بين فيها الإمام مكانته من النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وشرح فى كلّ جانب منها صلته الوثيقه بالنبى صلى الله عليه وآله ولطفه به والذى تتضح فيه تماماً مكانه أهل البيت عليهم السلام (١).

وهذا الكلام - كما أشرنا آنفاً - فى هجره النبى صلى الله عليه وآله إلى المدينة بعد ليله المبيت وبقاء الإمام فى مكة لأداء ودائع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الناس وانطلاقته خفيه إلى المدينة بعيداً عن أنظار خصوم الدعوة الإسلاميه.

فالإمام عليه السلام الذى عاش تلك المرحلة العصيه إبان فراق زعيمه وأستاذه العزيز كان يعانى من فراقه الذى شقّ عليه وكلامه هنا يعكس ذلك حيث قال: «فَجَعَلْتُ أَتْبِعُ مَا خَدَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ».

يشير هذا الكلام إلى مدى لوعه الإمام عليه السلام على فراق النبى صلى الله عليه وآله خلال تلك الفتره الوجيزه، فلا ينفك عن ذكره ويفصح عن مدى لوعته كمن فقد أعزّ أعزّته؛ لكن لا حيله، فلا بدّ أن يبقى ويؤدى إلى الناس ودائعهم عند رسول الله صلى الله عليه وآله التى ائتمنوه

ص: ٤٠٩

١- (١) كتاب تمام نهج البلاغه، ص ٢٤٦، خطبه ١٩ (وردت هذه العبارة فى تتمه الخطبه، ص ٢٤٩).

عليها، فانطلق بعيداً عن أعين الأعداء إلى المدينة، ويستفاد من التواريخ الإسلاميّة أنّ جروحاً بليغاً أصابت جسد الإمام إثر إبطاره بالحجارة ليله هجره النبي وقد نام على فراشه؛ لكنّه تناسى كل تلك الجراح وكان لا يفكر سوى بحبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال المرحوم السيد الرضى فى ختام هذا الكلام:

إنّ قوله عليه السلام: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي رَمَى بِهِ إِلَى غَايَتِي الْأَيَّازِ وَالْفَصَاحَةِ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُعْطَى حَبْرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَدءِ خُرُوجِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَكُنْتُ عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ الْعَجِيبَةِ.

فلإمام عليه السلام نكته ظريفه ودقيقه فى العبارة «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» والتي تابعها السيد الرضى وهى أنّ الإمام عليه السلام جعل ذكر النبي صلى الله عليه وآله كالطيف الجميل الساحر الذى يعطر الأجواء، وكان الإمام يعيش ذلك الجو ليله ونهاره، كمن يقول لآخر: إنّ ذكرك هو بيتى وحياتى، ذكرك أزقه مدينتى.

تأمل: قصه الهجره

إنّ قصه هجره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من أروع القصص التاريخيّة فى الإسلام، وذلك عندما أحس رؤوساء قريش بالخطر المغدق بهم إثر دعوته الشريفه، وخصوصاً لو استمرت هذه الدعوه بين أوساط الناس وبهذه الصوره الجديّه، فيؤدى لا شك إلى انكسار شوكتهم وقدرتهم وتحطم أوثانهم بل وتتحول مكه إلى سجن كبير لهم، وعليه اختاروا طريق القضاء عليه وعلى دعوته الرساليه، اختاروا فى التصدى لدعوته أحد الطرق الثلاثه، إمّا يسجنوه، أو ينفوه من مكه أو يقتلوه وهذا ما أشارت إلى الآيه ٣٠ من سوره الأنفال.

ولكن أجمعوا على قتله ليلاً. لأنّهم محصوا هذا الرأى واتفقوا عليه، ولكنهم واجهوا مشكله بنى عبدمناف فى طلب الثأر له وبذلك تقع فتنه عظيمه وصراع كبير

بين قبائل مكة، ولهذا دعوا جميع القبائل ورؤوساء قريش وثبت رأيهم على على أن يضربوه بأسيا فمهم من أيدى جماعه من بطون مختلفه ليضيع دمه فى بطون قريش فلا تطلبه نبو عبدمناف وبالتالي يرضوا بالديه، فحاصروا بيت النبى صلى الله عليه و آله وانتظر الصبح إلى أن ينجلى ظلام الليل، ثم يحملوا عليه حملة رجل واحد.

فخرج النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأمر من الله تعالى من محاصره القوم بصوره إعجازيه ورحل ليلاً إلى المدينه (ولكن عن طريق غير طريق مكة والمدينه حتى لا تستطيع الأعداء اقتفاء أثره) وأمر على بن أبى طالب عليه السلام أن يبيت فى فراشه وذلك لأنهم كانوا يترصدون البيت فعانوا فيها شخصاً مسجى بالبرد الحضرى الأخضر، فلم يشكوا أنه هو فرصدوه ورمه ببعض الأحجار ليطمئنوا على أنه لازال فى فراشه.

ولما أصبحوا دخلوا عليه الدار وسلوا بسيوفهم وحملوا عليه ظناً منهم أنه رسول الله صلى الله عليه و آله وأحاطوا بفراشه وفجأه وجدوا علياً عليه السلام فى فراشه فلما دنوا منه عرفوه فقالوا له: أين صاحبك؟ فقال عليه السلام: لا أدرى أو رقيباً كنت عليه؟

فعندما فشلت خطتهم غضبوا غضباً شديداً لأنهم انتظروه إلى الصباح وألقوا اللائمه على أبى لهب الذى منعهم من الهجوم ليلاً (لأن الهجوم ليلاً كان عندهم مع وجود الأطفال والذرارى عيباً كبيراً).

وتحرك النبى من مكة جهه الشمال إلى المدينه بدلاً عن الجنوب ووصل إلى جبل غار ثور واختفى فيه حتى لا تصل إليه أيدى الأعداء والمشركين، فخرج رجال قريش تبحث عنه فى أطراف مكة ولكنهم فشلوا ورجعوا إلى مكة دون أن يعثروا على رسول الله صلى الله عليه و آله وقد خرج من أيديهم وهاجر إلى المدينه(1).

ص: ٤١١

١- (١) انظر للمزيد من الاطلاع: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد فى شرح ذيل الخطبه، وتفسير الإمام الحسن العسكرى عليه السلام وكتاب «فروغ أبديه» لآيه الله جعفر السبحانى.

فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْعَمَلِ (١)

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغه» أنّ هذه الخطبة - جانب من الخطبة الغراء - تعدّ من عجائب خطب الإمام عليه السلام حيث شيع جنازةً ووسد الميت في اللحد وكان أهله يبكوه فخطب تلك الخطبة (٢).

وتتألف الخطبة في الواقع من قسمين؛ الأوّل: عن المسارعه في العمل واستغلال الفرص، فلعل الموت يفاجئ الإنسان وتفوت الفرصه ويغلق باب التوبه.

والقسم الثاني: وصايا في مجاهده هوى النفس وكيفيه الانتفاع بفرص الحياه، فالخطبه بمجموعها ذات فائده قصوى لسالكي سبيل السعاده.

ص: ٤١٣

١- (١) سند الخطبه: كل ما ورد في كتاب «مصادر نهج البلاغه» بالإضافة إلى «نهج البلاغه» في سند الخطبه أنّ الآمدى روى العبارة الأولى من الخطبه في «غررالحكم» باختلاف ويفيد أنّه كان لديه مصدر آخر ولو كان مصدره الوحيد «نهج البلاغه» لما كان ذلك الاختلاف (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٨٥).

٢- (٢) شرح الخطبه الغراء طبق نقل السيد الرضى ذيل الخطبه ٨٣.

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمُسَيءُ يُزَجَى، قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَضَعَدَ الْمَلَائِكَةُ.

الشرح والتفسير: اغتنام الفرصه

شجّع الإمام عليه السلام بهذه العبارات الموجزه العميقه المعنى جميع مخاطبيه على اغتنام الفرص وحثّ من أنّ هذه الفرص عابره زائله عاجلاً أم أجلاً، ولا بدّ من السعى قبل اليأس والحسره.

فأشار في كيفية اغتنام الفرص إلى خمس امور:

قال في الأول: «فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ».

والعبارة «نَفْسِ الْبَقَاءِ» إشاره لطيفه إلى أنّ البقاء كأنما يشبهه في الدنيا بالكائن الحى الذى يتنفس ولا بدّ من استغلاله قبل أن ينقطع نفسه.

وقال في الثانى: «وَ الصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ (١)».

إشاره إلى إمكانية الإضافه والإصلاح والتعديل ما دامت الصحف مفتوحه.

وفي الثالث: «والتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ».

إشاره إلى أنّ العوده قائمه ويمكن إطفاء نيران الذنوب المستعره بماء التوبه مادامت أبوابها مفتوحه وتحصيلها واسع، فيلجأ الإنسان إلى الله ويفصح عن ندمه

ص: ٤١٥

ويسكب الدموع التي تفرزها التوبه النصوح والخالصه فيطفى بها نيران الذنوب.

ورد فى «الكافى» عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام أنه قال: «إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيَّ الشَّيْطَانَ وَأَجْرِيَّتَهُ مِنِّي مَجْرَى الدَّمِ، مَا جَعَلْتَ لِي شَيْئًا، فَقَالَ: يَا آدَمُ جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَن هَمَّ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بِسَيِّئِهِ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُ عَلَيْهِ سَيِّئَهُ، وَمَنْ هَمَّ مِنْهُمْ بِحَسَنِهِ فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُ لَهُ حَسَنَهُ فَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كَتَبْتُ لَهُ عَشْرًا، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَن عَمِلَ مِنْهُمْ سَيِّئَهُ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لَهُ غَفَرْتُ لَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَهُ التَّوْبَةَ - أَوْ قَالَ بَسَطْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ - حَتَّى تَبْلُغَ النَّفْسُ هَذِهِ، قَالَ: يَا رَبِّ حَسْبِي» (١).

وقال فى الأمر الرابع والخامس: «وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمُسِيءُ يُزَجَى».

إشاره إلى الدعوه والأمل الذى تضمنته الآيه الكريمة، قال تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (٢).

وقال تعالى: «وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ» (٣).

وقال فى العبارة السادسة والسابعة والثامنة: «قَبْلَ أَنْ يَخْمَدَ (٤) الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ (٥)، وَيَنْقَضِيَ الْأَجْلُ».

نعم، فما دام هنالك العمر فالعمل قائم والمهله مبدوله والفرصه سانحه وكل ذلك يفنى حين مغادره الإنسان لهذا العالم.

وقال فى التاسعه والعاشره: «وَيُسَدُّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَضَعَدُ الْمَلَائِكَةُ».

ص: ٤١٤

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ٤٤٠، ح ١.

٢- (٢) سورة الزمر، الآيه ٥٣.

٣- (٣) سورة الزمر، الآيه ٥٤.

٤- (٤) . «يخمد» من «الخمود» على وزن «جحود» تعنى فى الأصل إنطفاء النار. ثم اطلقت على انتهاء كل شىء ومنهائيه الحياه.

٥- (٥) «مهله» جمع «مهله» وتستعمل هذه الكلمه عاده فى أمور الخير.

إشاره

فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَا نِ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ. امْرُؤٌ خَافَ اللَّهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ. امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

الشرح والتفسير: كيفية اغتنام الفرصه

وعظ الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبه بعشر عبارات موجزه وعميقه المعنى، الجميع باغتنام الفرص قبل فوات الأوان.

ثم ذكر في عشر أخرى طرق كيفية الاغتنام لتلك الفرص، فالقسم الأول في الواقع وعظ وتحذير والثاني أسلوب للعمل. قال: «فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ»، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ وَمِنْ فَا نِ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ».

تكرر الفعل الماضى (أخذ) في هذه العبارات الأربع مرتين؛ لكنّه عنى الأمر. فقد أمر عليه السلام في العبارة الأولى بضروره استفاده كلّ إنسان من رصيد وجوده لإدخار الحسنات، حيث وهب الله الإنسان إمكانات وطاقات إن وظفها في المسار الصحيح وفرت له أسباب السعاده.

ورد عنه عليه السلام في «غررالحكم» أنّه قال: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا وَيَأْخُذانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا» (١).

ص: ٤١٧

وقد ورد نفس هذا المعنى فى العبارة الثانية بصيغته أخرى، «وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ».

وأشار فى العبارة الثالثة والرابعة إلى إمكانية التزود من هذه الدار الفانية إلى تلك الدار الباقية ومن هذه الحياه الزائلة إلى تلك الخالده، ثم واصل كلامه قائلاً: «أَمْرُو خَافَ اللَّهُ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ (١) إِلَى عَمَلِهِ».

حيث بين عليه السلام فى هاتين العبارتين ما ذكره فى العبارات السابقة بصيغته أخرى ووعظ الجميع بالانتفاع بهذه المهله التى منحهم الله ضروره خشيته والابتعاد عن التقصير.

ثم قال: «أَمْرُو أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ».

فقد شبه عليه السلام نفس الإنسان بالدابه الجموح إن لم يكن زمامها كما ينبغى أقحمته فى وادى المعصيه وحرفته عن مسار الطاعه عاده ما يستفاد من وسيلتين للسيطره على الدابّه الجامحه؛ إحداهما، اللجام وهو حبل يوضع فى فم الدابه ويوثق ليكون بيد راکب الدابّه، والزمام، الذى يوضع فى أنفها ويمسكه الراكب بحبل، ولما كان فم الدابه وأنفها من المواضع الحساسه فإنه يمكن من خلالها إيقاف الدابّه أو سوقها إلى جهه من خلال تحريكه إلى تلك الجهه.

والعبارة «لجام» و «زمام» إشاره إلى ضروره تهيئه اللجام والزمام الذى يليق بالنفس الجامحه بحيث يمكن بواسطته صدها عن الذنب والمعصيه وسوقها إلى طاعه الله، وما أكثر الأفراد الذين يلجمون أنفسهم بلجام ضعيف وهزيل بحيث يفقدون هذا اللجام حين إثارة الشهوات فيقارفون أنواع المعاصي.

ولكن ما هى الوسيله اللازمه للسيطره على النفس؟ يمكن الظفر بالجواب فى ما ورد من كلمات الإمام على عليه السلام فى «غررالحكم» و «بحار الأنوار». فقد ذكر عليه السلام أنّ

ص: ٤١٨

١- (١) «منظور» الممهّل من ماده «نظر» التى لها معنيان: الأول الالتفات إلى الشىء والثانى الامهال.

القناعة عامل إصلاح النفس فقال: «أَعُوذُ شَيْءٍ عَلَى صِلَاحِ النَّفْسِ الْقَنَاعَةُ» (١).

وفى موضع آخر عدّ التعصب وسيلة لإصلاحها فقال: «إِذَا صَعِبَتْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَاصْعَبْ لَهَا تَذَلُّ لَكَ» (٢).

ص: ٤١٩

١- (١) غرر الحكم، ح ٨٩٨٤.

٢- (٢) المصدر السابق، ح ٤٨٢٠.

فِي شَأْنِ الْحَكَمَيْنِ وَذَمِّ أَهْلِ الشَّامِ (١)

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من قسمين، ذم الإمام عليه السلام في القسم الأول أهل الشام وندعتهم بالجفاه القساة الذين ينبغي أن يؤدّبوا ويربّوا ويخضع القاصر منهم لولاية العالم، إنهم ليسوا من المهاجرين والأنصار (العارفين بتعاليم الإسلام والحريصين على بقائه).

وأشار عليه السلام في القسم الثاني إلى قضيه التحكيم فيبين أنّ أهل الشام اختاروا لهذه

ص: ٤٢١

١- (١) سند الخطبة: قال صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغة»: «ذكرنا مصادر هذه الخطبة في ذيل الخطبة ٢٦ والخطبة فصل من كتاب كتبه الإمام وأمر بقراءته في مختلف المناطق» وإذا عدنا إلى مصادر الخطبة (الخطبة ٢٦) نجد أنه قال هناك: هذه الخطبة جزء من خطب طويله اقتطف السيد الرضى بعضها وذكرها جماعه من قبل السيد بما يختلف مع ما ذكره ومنهم «إبراهيم بن هلال الثقفي» في كتاب «الغارات»، «ابن قتيبه» في كتاب «الإمامه والسياسه»، «الطبرى» في كتاب «المسترشد» و «الكليني» في كتاب الرسائل وقال هناك: «الخطبة ٢٣٦ هي عندنا جزء من الخطبة ٢٣٨ والدافع من رساله أنه سئل عن سبقه من الخلفاء. فكتب لهم هذه الرساله وأوصاهم برص صفوفهم» (الغارات، ج ١، ص ٣١٢؛ الإمامه والسياسه، ص ١٣٥ و ١٧٦؛ المسترشد، ص ٤٢٦) (مصادر نهج البلاغه، ج ١، ص ٣٩٠).

القضية عمرو بن العاص وهو أفضل من يحقق أطماعهم ومآربهم، واخترتم أبو موسى الأشعري أبعدهم عن هدفكم، وكان عليكم أن توجهوا قبضه ابن عباس إلى صدر عمرو بن العاص لا بواسطة الضعفاء كأبي موسى الأشعري.

ص: ٤٢٢

جُفَاهُ طَعَامٌ، وَعَعِيدٌ أَقْرَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتَلَقُّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَتَّبِعِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدْرَبَ، وَيُؤَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ.

لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ.

الشرح والتفسير: أتباع معاوية

خاص الإمام عليه السلام هنا كما ذكرنا في ذم أهل الشام وذكر صفاتهم التي تكشف عن مدى جهلهم وخبثهم فاستهل ذلك بخمس من صفاتهم قائلاً: «جُفَاهُ (١) طَعَامٌ (٢)، وَعَعِيدٌ أَقْرَامٌ (٣)، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ (٤)، وَتَلَقُّطُوا (٥) مِنْ كُلِّ شَوْبٍ (٦)».

ثم أضاف عليه السلام: «مِمَّنْ يَتَّبِعِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدْرَبَ (٧)، وَيُؤَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ».

واختتم عليه السلام قائلاً: «لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا (٨) الدَّارَ وَالْإِيمَانَ».

ص: ٤٢٣

- ١- (١). «جفاه» جمع «جافٍ» غليظ وفظّ جاهل.
- ٢- (٢) «طعام» جمع «طغامه» الأوغاد والأوباش والأشجار وترد أحياناً بمعنى المفرد.
- ٣- (٣) «أقزام» جمع «قزم» على وزن «خشن» الأفراد الأراذل.
- ٤- (٤) «أوب» الناحية.
- ٥- (٥) «تلقطوا» من ماده «تلقط» جمع الشيء من هنا وهناك.
- ٦- (٦) «شوب» خلط الشيء بآخر. ولها معنى اسمي؛ أي الأشياء المخلوطه والمراد في العبارة معناها الاسمي.
- ٧- (٧). «يدرّب» من «التدريب» التمرين والتعويد لتعلم الشيء.
- ٨- (٨). «تبوّأوا» من «التبوّأ» السكن في مكان بقصد البقاء والدوام من ماده «بوّأ» بمعنى تساوى أجزاء المكان.

وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذا الكلام بعض كتاب كتبه الإمام عليه السلام ليطلع المسلمين على جميع الأحداث في عصره وما سبقه ليكون تعليمات تبعث لجميع المناطق والتعريف بأهل الشام وأتباع معاوية الذين تمردوا على إمام المسلمين وأججوا نيران صفين وإيضاح سوء نيتهم وكيفيه اجتماعهم.

تأمل: جهل أهل الشام

ما أورده الإمام عليه السلام بشأن جهل وحمق عسكر معاوية (رغم كثرة الأفراد الداعين في أهل الشام) لمن القضايا التي تؤيدها سيره معاوية ومن ذلك هاتان الواقعتان اللتان نقلهما المسعودي في «مروج الذهب».

الواقعة الأولى: إنّ رجلاً من أهل الكوفة على بعير له قدم إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني بصفين، فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينه يشهدون أنّها ناقته فقضى على الكوفيّ وأمره بتسليم البعير إليه.

فقال الكوفيّ: أصلحك الله إنّ جمل وليس بناقه.

فقال معاوية: هذا حكم قد قضى، ودسّ إلى الكوفيّ بعد تفرّقهم فأحضره وسأله عن ثمن البعير فدفع إليه ضعفه وبرّ وأحسن إليه وقال له: أبلغ عليّاً أنّي اقاتله بمائه ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقه والجمل.

الواقعة الثانية: ولقد بلغ من أمرهم من طاعتهم له (لمعاوية) أنّه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال. (وقبل الناس وصلّوا الجمعة في يوم الأربعاء وهذا كان من جهل أهل الشام)(1).

كما ورد في الحديث أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعمار: (تقتلك الفئة الباغية)، وقد

ص: ٤٢٤

١- (١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢ مطابق لما نقله المرحوم العلامة الأميني في الغدير، ج ١٠، ص ١٩٥.

شهد عمار صفين مع على عليه السلام حتى قتل، فلما اجتمع بعض الصحابه عند قتل عمار، وأن معاويه هو وأصحابه هم الفئه
الباغيه الذين قتلوا عمّار، قال عمرو بن العاص:

إنّ عليّاً هو الذى قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته(1).

والعجيب أنّ البعض قبل هذا الرأى.

ص: ٤٢٥

١- (١) الغدير، ج ١٠، ص ١٩٦.

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِنَفْسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَاهَدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: «إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَقَطَّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشَتَّيْمُوا سَيُوفَكُمْ». فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ، غَيْرَ مُشْتَكِرِهِ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التَّهْمَةُ.

فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ. أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى؟

الشرح والتفسير: أفضل اختيار وأسوأه

خاض الإمام عليه السلام في القسم السابق في التعريف بأهل الشام الذين اجتمعوا حول معاوية ليصفهم بأنهم جهال وأوباش وأشرار، وقال هنا رغم جهلهم وانحطاطهم لكنهم تفوقوا عليكم في الجانب السياسي، فقد اختاروا للتحكيم من يضمن مصالحهم اللامشروعه (عمرو بن العاص) بينما اخترتم (أبو موسى الأشعري) من يتحرك ضد مصالحكم ومصالح المسلمين، فهلموا وتلافوا أخطاءكم: «أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِنَفْسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ».

ثم خاض عليه السلام في التعريف بأبي موسى الأشعري وركز على آخر فتنه دون الإشارة إلى سوابقه السيئه فقال: «وَإِنَّمَا عَاهَدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ:

«إِنَّهَا فِتْنَةٌ»، فَقَطَّعُوا أَوْتَارَكُمْ (١) ، وَشِيمُوا (٢) سُبُوفَكُمْ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ».

الطريف ما أورده المرحوم ابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغه عن سويد بن غفله أنه قال: كنت مع أبى موسى الأشعري على شاطئ الفرات فى خلافه عثمان فروى لى خبراً عن رسول الله صلى الله عليه و آله قال: سمعته يقول: «إِنَّ بَنَى إِسْرَائِيلَ اخْتَلَفُوا فَلَمْ يَزَلْ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ حَتَّى بَعَثُوا حَكَمِينَ ضَالِّينَ ضَلًّا وَأَضَلًّا مَنْ اتَّبَعَهُمَا»، فقلت له:

احذر يا أباموسى أن تكون أحدهما! قال: فخلع قميصه، وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصى هذا (٣).

ويريد بذلك أنه لا يقبل التحكيم ويتبرأ منه، ولكنه قبل وحكم وأضل الناس مع عمرو ابن العاص، وبذلك صدق رسول الله صلى الله عليه و آله فى كلامه هذا وما تنبأ به بإعجاز عن قوله (ضالين ضللاً وأضللاً من أتبعهما).

وعقب كل هذا التحليل الدقيق اقترح على صحبه اقتراحاً نافعاً، وقال: «فَادْفَعُوا فِي صِدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بَعْدَ إِدِّ اللّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ (٤) الْإِسْلَامِ».

ثم اختتم عليه السلام كلامه بهدف خلق الدافع لديهم وإثارة حسهم الدينى والإنسانى فقال: «أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى وَإِلَى صِفَاتِكُمْ (٥) تُرْمَى؟».

ص: ٤٢٨

١- (١) «أوتار» جمع «وتر» على وزن «سفر» السهم الذى يجمع طرفاه كالقوس فإذا سحب تقوس أكثر فإن اطلق قذف إلى الأمام وقطع الأوتار هنا كناية عن عدم الاطلاق.

٢- (٢) «شيموا» من ماده «غيم» على وزن «عيب» سل السيف ووضع فى الغمد.

٣- (٣) ذكر هذه الروايه أولاً- ابن أبى الحديد فى الجزء ١٣، ص ٢١٥ فى شرح الخطبه، ثم ذكرها المرحوم ابن ميثم والعلامة التستري فى شرحهما لهذه الخطبه.

٤- (٤) «قواصى» جمع «قاصيه» الطرف والناحيه و «قواصى الإسلام» إشاره الى أطراف العراق والحجاز ومناطق أخرى تابعه لحكومته أمير المؤمنين على عليه السلام.

٥- (٥) «صفاه» مفرد وتعنى فى الأصل الحجر الصلد وتستعمل كناية عن القوه وفسرت بأرض الحياه التى ينظمها الإنسان.

حقاً لم يكن أبو موسى الأشعري الأبله من يسعه مواجهه الماكر عمرو بن العاص وكان أفضل من يسعه مواجهته رجل قوى وواع كابن عباس، إلا أن مؤامرات معاويه وبعض الخونه من بطانه الإمام عليه السلام حالت دون ذلك.

كتب الكاتب الإسلامى المصرى عبدالكريم الخطيب فى كتابه «على بن أبى طالب»: وكان الإمام قد أعد ابن عباس ليلقى عمرو بن العاص، ولكن أصحاب الإمام اختلفوا عليه، وكان الأشعث بن قيس (المنافق) رأس الجماعه التى نازعت فى اختيار ابن عباس، والأشعث هو الذى مهّد التحكيم، وأكره هو وقومه علياً على قبوله.. ولا- شك أنّ الصله كانت قد توثقت بين معاويه والأشعث.

وهذا الذى سجله الخطيب يتفق تماماً مع ما نقلناه عن كتاب (على وبنوه) لطفه حسين فى شرح الخطبه ١٩، ج ١، ص ١٥٢: من أنّ الأشعث وابن العاص قد دبرا رفع المصاحف واختاروا الحكمين سلفاً(١).

ثم ذكر المرحوم مغنيه جانباً آخر من كلام عبدالكريم الخطيب فى كتابه: «كان ابن العاص صاحب مصلحه فى أى خير يصيبه معاويه من التحكيم، لأنّ الصك بملك مصر فى يده.. وليس لابن عباس شىء أن خلصت الخلافه لعلّى، وهل لأحد مع على مطمع؟ إنّ كلّ الذين يعملون مع على يعملون لله لا له، فليس لهم عنده يد يرجون المثوبه عليها ولا من الله، فماذا يخشى القوم من ابن عباس إذن؟ إنهم لا- يخشون إلا أن يرفع ابن العاص عن كيد مارد لا يفطن إليه إلا رجل أوتى مثل ما أوتى ابن عباس من ألمعيه وذكاء(٢). نهايه معركة صفين عن طريق رفع المصاحف على أسنه الرماح على هامش هزيمه جيش معاويه ومن ثم قضيه التحكيم، لمن أفجع حوادث التاريخ الإسلامى، وكانت معاناه الإمام عليه السلام ومصابه بذلك بما لا يمكن وصفه والذى حصل من قبل جماعه دنيويه بعينه عن الإيمان والتقوى(٣).

ص: ٤٢٩

١- (١) شرح نهج البلاغه للمرحوم مغنيه، ج ٣، ص ٣٦٢.

٢- (٢) . المصدر السابق.

٣- (٣) ورد المزيد بشأن الحكمين فى ذيل الخطب ١٢٥، ١٢٧، ١٧٧.

يَذْكُرُ فِيهَا آلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

الخطبه في الواقع قسم واحد ومحورها فضائل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم الرفيعه في الأُمّه الإسلاميه وإدراكهم الصحيح للدين وبالتالي ضروره إتباعهم وعدم مخالفتهم.

ص: ٤٣١

١- (١) سند الخطبه: جاء في مصادر نهج البلاغه أنّ هذا الكلام جزء من الخطبه ١٤٥ (حسب ترقيمتنا ١٤٧) التي تبدأ بالعباره (فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله) حتى يقول: (فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل) وأوردها السيد الرضى منفصله. ورواها الكليني في «الكافي» باختلاف طفيف في بعض الكلمات كما ذكرت في آخرها بعض العبارات في «محاضرات الأدباء» للراغب الاصفهاني. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧٦ و ١٧٧).

هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنِ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنِ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنِ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ.

وَهُمْ دَعَائِمُ الْأَسْلَامِ، وَوَلَاتِجُ الْأَعْتِصَامِ. بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، وَأَنْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنِ مَقَامِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنِ مَنِّبَتِهِ. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَهُ وَرِعَايَهُ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ. فَإِنَّ رِوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ.

الشرح والتفسير: آل محمد أركان الدين

ذكر عليه السلام في هذه الخطبة الموجزة اثنتي عشره فضيله لأهل البيت عليهم السلام تثبت عظم منزلتهم وتسوق مخاطبيه لآبائهم. وهى الصفات التى تستوعب فضائل الإنسانية وتنطوى على مواصفات القيادة.

قال فى الصفه الأولى والثانية: «هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ»، فقد شبه عليه السلام العلم والجهل هنا بكائنين حيين وأن آل محمد يهبون العلم الحياه ويميتون الجهل وبعبارة أخرى هم روح العلم وعنصر موت الجهل.

وهذا هو الحديث المعروف الذى ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَهْلُ بَيْتِي كَالنُّجُومِ بِأَيْدِيهِمْ أَقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ» (١).

كما ورد فى روايه أخرى عن ابن عباس أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «النُّجُومُ أَمَانٌ

ص: ٤٣٣

١- (١) ورد هذا الحديث فى مصادر الفريقين فقد رواه الذهبى فى ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٨٢؛ ابن حجر فى لسان الميزان، ج ١، ص ١٣٦.

لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْغُرُقِ وَأَهْلِ بَيْتِي أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ الْأَخْتِلَافِ فَإِذَا خَالَفَتْهَا قَبِيلَهُ مِنَ الْعَرَبِ اخْتَلَفُوا فَصَارُوا حِزْبَ إِبْلِيسَ» (١).

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى فقال: «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنِ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنِ بَاطِنِهِمْ، وَصِدْقُهُمْ عَنِ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ».

تشير العبارة «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنِ عِلْمِهِمْ» إلى علاقه وثيقه بين العلم والحلم، فالجاهل ليس حليماً وسرعان ما يغضب إزاء الأحداث المختلفه وما يطرح عليه من سؤال؛ أمّا العالم فحليم إزاء ذلك، وكذلك العلاقه بين الظاهر والباطن حيث إنّ حسن الظاهر فى الغالب والسلوك والتصرف يدلّ على حسن الباطن، وهكذا علاقه الصمت الذى يكشفه المنطق الحكيم وقد دلّت تجربته على أنّ من قلّ كلامه كان أكثر دقّه وصواباً فى الكلام كما ورد فى الحديث الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتًا فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقَى الْحِكْمَةَ» (٢).

ثم قال فى الصفه السادسة والسابعه: «لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ».

ودليل ذلك واضح، فلهم من جانب مقام العصمه ومن جانب آخر الإحاطه التامه بأحكام الله والوحى والسنة، ومن كان كذلك فلا ينطلق خلاف الحق ولا يختلف فيه.

جاء فى الحديث النبوى المعروف: «عَلَيَّْ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَهُ وَعَلَى لِسَانِهِ وَالْحَقُّ يَدُورُ حَيْثُ مَا دَارَ عَلَيَّ».

وقرأ بتعبير آخر فى نفس الحديث قال صلى الله عليه وآله: «عَلَيَّْ مَعَ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ، وَالْحَقُّ وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ» (٣).

ونعلم أنّ أئمة العصمه من ولد على عليه السلام ورثه علمه، ومن هنا فإنهم لا يحدون

ص: ٤٣٤

١- (١) مستدرک الحاکم، ج ٣، ص ١٤٩.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ١، ص ١٥٤.

٣- (٣) روى المرحوم العلامة الأمينى هذين الحديثين بعبارات متفاوتة لكنها قريبه المعنى من مختلف مصادر العامه مثل: مناقب الخوارزمى؛ فرائد السمطين للحموينى؛ وربيع الأبرار للزمخشرى؛ والإمامه والسياسه لابن قتيبه. (الغدیر، ج ٣، ص ١٧٨ وما بعدها).

قط عن الحق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرٌ مَا بَعْدَكُمْ وَفَضْلٌ مَا بَيْنَكُمْ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ» (١).

فكيف يمكنهم الاختلاف في الحق. فالاختلاف علامه الجهل، ومن كان عالماً بكل هذه الأمور يستحيل عليه الاختلاف.

ثم ذكر صفتهم الثامنة والتاسعة فقال: «وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ، وَوَلَايُجُ (٢) الْأَعْتَصَامِ».

وهكذا فالدين كالخيمة وأوتادها آل محمد، وكما تنهار الخيمة إذا زالت الأوتاد، فإن نحينا آل محمد عن الإسلام وقرأناه دونهم، إنهارت فروعه وأصوله.

وواصل عليه السلام كلامه ببيان الصفات الثلاث الأخيرة فقال: «بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ (٣) ، وَأَنْزَاخِ (٤) الْبَاطِلِ عَنْ مَقَامِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنِّيهِ».

تشير هذه العبارة إلى الانحرافات التي حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لاسيما على عهد الخليفة الثالث، فقد أصبح بيت مال المسلمين لعبه بيد فئة من المتكالبين على الدنيا ومن بنى أمية - ومنهم عدو الإسلام الأول، أي أبو سفيان - تسلموا المناصب الحساسة في الحكومه الإسلاميه ففعلوا كل ما استطاعوا فعله وكانت نتيجة ذلك الثوره على الخليفه والتي أطاحت به وبيطانته (٥) بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار دون أن يدافعوا عنه.

ص: ٤٣٥

١- (١) الكافي، ج ١، ص ٤١، ح ٩.

٢- (٢). «ولائج» جمع «وليجه» من «الولوج» الدخول وتطلق على حامل أسرار الشخص أو جامعها ولكن ليس من أهله. ويقال وليجه لكل من يرد قوماً من الخارج ويحمل أسرارهم وهي قريبه المعنى من مفردة البطانه.

٣- (٣) «نصاب» الأصل وموضع الرجوع والمكان المناسب لكل شىء وأساسه وبدايته. ثم اطلق على المقدر في باب الزكاه وأمثال ذلك.

٤- (٤) «انزاح» من ماده «زوح» على وزن «زوج» تعنى فى الأصل الرحيل من المكان. ثم اطلق على كل شىء يزال عن مكانه.

٥- (٥). انظر: تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٤٠ و ٤٤١.

ولكن حين تسلّم الإمام على عليه السلام زمام الأمور عاد الحق إلى نصابه ونحى أتباع الباطل ولم يجرؤ أحد على الدفاع عن الوضع السابق ويصادر حقوق الطبقات المستضعفه والمحرومه ويغدقها على طلاب الدنيا وذوى الأطماع. ولا يقتصر هذا الأمر على أمير المؤمنين عليه السلام بل لو تسلّم أئمّه أهل البيت عليهم السلام مقاليد الأمور لاتبّعوا ذلك النهج بفضل عصمتهم التى يستدل عليها بعده أدله ومنها حديث الثقلين.

ثم اختتم الكلام بذكر صفتهم الأخيره فقال عليه السلام: «عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَهُ (١) وَرَعَايَهُ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَهُ. فَإِنَّ رُؤَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَاةُ (٢) قَلِيلٌ».

قطعاً العلم بالدين له مراتب كالعلم بأى أمر آخر، المرحلة الأولى سماع ونقل الألفاظ والمرحلة الثانية فهم المعنى وإدراك المضمون والمرحلة الثالثة الإيمان واليقين العميق الذى ينفذ فى جميع كيان الإنسان ويسوقه للعمل، وأهل البيت عليهم السلام فى ذروه المرحلة الثالثه ومن هنا أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وأكّده على الأئمّه بالتمسك بالقرآن وأهل البيت من بعده ليأمنوا الضلال والغى.

ص: ٤٣٦

-
- ١- (١). لم ترد هذه المفردة بهذه الصيغه فى المصادر اللغويه وصحيحها «وعاء» ظرف الشىء ويبدو أنّ النسخه الأصلية كانت وعاء التى تلائم السماع فى العبارة اللاحقه.
- ٢- (٢) «رعاه» جمع «راع» المراعى.

قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ؛ وَقَدْ جَاءَهُ بِرِسَالِهِ مِنْ عُثْمَانَ، وَهُوَ مَحْصُورٌ يَسْأَلُهُ فِيهَا الْخُرُوجَ إِلَى مَالِهِ يَبْتِيعُ، لِيَقْلَّ هَتْفَ (١) النَّاسِ بِاسْمِهِ خِلَافَهُ، بَعْدَ أَنْ كَانَ سَأَلَهُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢).

نظرة إلى الخطبة

مضمون هذه الخطبة واضح. فلما حاصر المسلمون عثمان في بيته سنة ٣٥ هـ وطالبوا بعزله من الخلافة، هتفت الجماعة أن الخلافة حق على بن أبي طالب، فرأى عثمان ابعاد على عليه السلام عن المدينة لمصادره ذلك الهتاف، لذلك اقترحه على الإمام عليه السلام هذا في الوقت الذي اقترحه سابقاً على الإمام عليه السلام ففعل.

ثم كتب للإمام عليه السلام بالعودة والدفاع عنه. فلما عاد اقترح عليه التوجه إلى ينبع

ص: ٤٣٧

١- (١). «هتف» المناداه والصراخ والمراد هنا أن الأمة كانت تنادى بخلافه على عليه السلام وقيل: «هتف» تعنى الصوت الذى يسمع ولا يعرف قائله.

٢- (٢) سند الخطبة: ذكر ابن عبد ربه بعض هذا الكلام فى «العقد الفريد» وكتب أن علياً عليه السلام خرج من المدينة وذهب إلى ينبع (ينبع موضع قرب المدينة قرب البحر الأحمر الذى كان آنذاك بعضه لعلى وأوقفه) لكن عثمان كتب كتاباً آخر بعد مدّه قصيره وطلب منه الرجوع إلى المدينة (ويدافع عنه) ثم قال صاحب كتاب نهج البلاغه: ذكر ذلك أيضاً المبرد فى «الكامل» وابن قتيبه فى «الإمامه والسياسه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٨٩).

فقال عليه السلام هذا الكلام: ما يريد عثمان إلّا أن يجعلني جملاً ناضحاً فأقدم إن كانت مصلحته في ذلك أو أخرج.

ص: ٤٣٨

يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا بِالْغَرْبِ: أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدَمَ، ثُمَّ هُوَ
الآن يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ! وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا.

الشرح والتفسير: خطأ آخر من أخطاء عثمان

قضية قيام المسلمين على عثمان، إحدى القصص المأساوية المؤسفة في صدر الإسلام. فكانت تلك الحركة طبيعيه جداً خلافاً لما يظنه المتعصبون، فعثمان سلّم جماعه من بنى أميه وقرابته الذين لم يكونوا من الصالحين، مناصب حساسه فى الدوله الإسلاميه، ومن جانب آخر تصرّف فى بيت المال كما يتصرف فى أمواله الشخصيه، فيهب بطانته ما يشاء، فى حين كان أغلب المسلمين يعيشون الحرمان.

وقد عمّت أصداء هذين الفعلين المشينين كلّ مكان وأديا إلى تلك الانتفاضة العارمه على عثمان، وإن كان علم تلك الانتفاضة طائفه من المصريين وأهل الكوفه؛ إلّا أنّ أهل المدينه تضامنوا معهم وصمت المهاجرون والأنصار ولم يهَبّ للدفاع عنه سوى على عليه السلام، فالإمام عليه السلام وإن كان من أشد الناقمين على أفعال عثمان، لكنه لا يرى فى قتله مصلحه للأمة الإسلاميه.

على كلّ حال، كتب عثمان عدّه كتب متناقضه للإمام عليه السلام طلب منه أولاً- الخروج من المدينه إلى ينبع، ثم طلب منه العوده، ثم كتب له أخيراً بالخروج من المدينه، وسبب ذلك التناقض أنّه ظنّ بادی الأمر بأنّ بقاء الإمام عليه السلام فى المدينه مدعاه

لتشجيع المسلمين على عزله ومبايعه الإمام عليه السلام للخلافه.

ثم خرج الإمام من المدينة، شعر عثمان أنه لا يسع أحد الدفاع عنه سوى على عليه السلام وينقذه من أيدي الناقمين ولذلك طلب منه الرجوع إلى المدينة، وحين بلغه أن المسلمين هتفوا بالبيعه للإمام عليه السلام استولى عليه الخوف، فطلب من الإمام عليه السلام الخروج مرّه أخرى من المدينة، ولما كان حامل الكتاب هذه المرّه ابن عباس، خاطبه الإمام عليه السلام قائل: «يا ابنَ عَبَّاس، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا (١) بِالْغُرَبِ (٢): أَقْبِلْ وَأَذِبرْ!».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ!».

وتشير هذه القضية إلى أن ضغوط المسلمين كانت على درجه من الشده بحيث ارتبك عثمان وكان كل لحظه يتخذ قراراً وقد غفل فوات الأوان وقد انتهى عهد حكمه ولن يقبل المسلمون له عذراً فرأى نفسه مضطراً هنا للتعامل مع على الذى لا تخفى مكانته عند الله ورسوله والمسلمين.

الطريف أن عثمان لم يصدر مثل هذه الأوامر المتناقضه مع أحد آخر، فلم يكن للآخرين مثل ذلك الدور فى الوسط الإسلامى فكان حضورهم وغيابهم سياتى فى التأثير.

ثم أشار عليه السلام فى الختام إلى قضيه مهمه فى أنه بذل أقصى جهده فى الدفاع عن عثمان؛ الأمر الذى لم يفعله غيره ولا يسعه فعله فقال: «وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا».

لعل هذه العبارة إشاره إلى أن الدفاع أكثر من الحد عنم إرتكب تلك الأفعال نوع من دعم الظلم وهو عمل غير جائز، هذا أفضل تعبير يمكن ذكره للعبارة السابقه

ص: ٤٤٠

١- (١). «ناضح» الجمل الذى يحمل الماء من ماده «نضح» على وزن «نظم» رش الماء.

٢- (٢) «غرب» بمعنى الدلو العظيمه.

وإن ذكر ابن أبي الحديد وابن ميثم في شرحهما احتمالين آخرين؛ الأول قوله عليه السلام:

(لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً)، لأن الوقوف بوجه أولئك الذين قاموا عليه ربّما يدعوهم للهجوم على فينالون منّي وهذا ذنب، الآخر: أخشى أن يؤدي دفاعي إلى بثّ الفرقة والخلاف فيصاب البعض بالأذى وهذا ذنب أيضاً، ولكن من الواضح أن أيّاً من هذين الاحتمالين لا يناسب العبارة.

ورد في «العقد الفريد» أنّ ابن عباس قال: أرسل إليّ عثمان فقال لي: اكفني ابن عمك، فقلت: إنّ ابن عمي ليس بالرجل يرى له، ولكنّه يرى لنفسه، فأرسلني إليه بما أحببت، قال: قل له: فليخرج إلى ماله يبيع، فلا أعتّم به ولا يعتّم بي، فأتيته فأخبرته، فقال: ما اتخذني عثمان إلّاناضحاً، ثم أنشد:

فَكَيْفَ بِهِ أَنِّي أَدَاوِي جِرَاحَهُفَيُدْوِي فَلَا مَلَّ الدَّوَاءِ وَلَا الدَّاءِ

إلى أن قال: فخرج على عليه السلام إلى ينع، فكتب إليه عثمان حين اشتدّ عليه الأمر، أمّا بعد، فقد بلغ السيل الزبي، وجاوز الحزام الطيبين، وطمع فيّ من كان يضعف عن نفسه، فأقبل إليّ، وكن لي أم عليّ صديقاً أم عدواً(١).

ويؤيد هذا الكلام ما ذكره السيد الرضي أنّ عثمان تناقض في أوامره حين أربكه قيام المسلمين الكبير عليه.

ص: ٤٤١

١- (١) شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري، ج ٩، ص ٢٥٤ (بتلخيص طفيف).

يُحْتُّ بِهِ أَصْحَابُهُ عَلَيَّ الْجِهَادِ (١)

نظرة إلى الخطبة

هدف الإمام عليه السلام كما يتضح من الخطبة حث أصحابه على الجهاد، لكنه أورد أموراً دقيقة بعبارات موجزة تعكس عمق تدبيره للقضايا المتعلقة بالحكومة والجهاد.

ص: ٤٤٣

١- (١) سند الخطبة: ذكر الآمدى فى «غررالحكم» بعض عبارات الخطبة بكلمات قصيرة (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٩٠).

وَاللّٰهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمَهِّلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَّحْدُودٍ، لِتَنَازَعُوا سَبْقَهُ، فَشُدُّوا عُقْدَ الْمَآزِرِ، وَاطَّوُّوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، وَلَا تَجْتَمِعْ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَأَمْحَى الظُّلْمَ لِتَذَاكِيرِ الْهَمَمِ!

الشرح والتفسير: شَمُّوا واستعدوا للجهاد

صرّح صاحب «تمام نهج البلاغه» الذي ألف لجمع وإكمال الخطب التي جمعها المرحوم الرضى فى «نهج البلاغه» أنّ الإمام عليه السلام خطبها يوم صَفِين (١) ومضمون الخطبه يناسب هذا المعنى.

على كلّ حال فقد وعظ الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات قصيره لسماع رساله الجهاد فقال: «وَاللّٰهُ مُسْتَأْدِيكُمْ (٢) شُكْرَهُ وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمَهِّلُكُمْ (٣) فِي مِضْمَارٍ (٤) مَّحْدُودٍ، لِتَنَازَعُوا سَبْقَهُ (٥)».

ورغم أنّ الشكر ذكر بصوره مطلقه فى هذه العبارة ومنسجمه مع إطلاقاته فى القرآن الكريم مثل: «وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» (٦) ولكن يبدو هدف الإمام عليه السلام بيان

ص: ٤٤٥

١- (١) . تمام نهج البلاغه، ص ٤٤٥.

٢- (٢) . «مستأدى» الطالب من ماده أداء طلب أداء الشىء.

٣- (٣) «ممهّل» معطى المهله.

٤- (٤) «مضمار» الميدان الذى تضم فيه الخيل للسباق كما وردت بمعنى اسم الزمان.

٥- (٥) «سبق» المال الذى يقرر للفائزين بالسباق.

٦- (٦) . سوره البقره، الآيه ١٥٢.

الشكر الحكومى الذى أودعه الله الصالحين فى عصره عليه السلام ويؤكد ذلك العبارة الثانية «وَمُورَّثَكُمْ أَمْرَهُ».

فالأمر هنا بمعنى أمر الحكومه. ويتضح من هنا كيفيه مناسبه الشكر للحث على الجهاد، لأنَّ الجهاد الخالص والباسل تحفظه حكومه الصالحين وحفظ النعمه والانتفاع بها مساوٍ لشكرها.

العبارة «وَمُمَّهَلِكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَّخْدُودٍ...» إشاره لما ورد فى سائر خطب نهج البلاغه أنه عليه السلام قال: «أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَدًا السَّبَاقَ وَالسَّبَقُ الْجَنَّةُ وَالْعَايَةُ النَّارُ» (١).

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب ذى المقدمه والنتيجه فقال: «فَشُدُّوا عُقَدَ (٢) الْمَآزِرِ (٣)، وَاطُؤُوا (٤) فُضُولَ الْخَوَاصِرِ (٥)».

فالعبارتان «فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطُؤُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» كناية عن الاستعداد التام للقيام بالعمل، لأنَّ الشخص الذى يحكم محزمه يقوى عموده الفقرى على الإتيان بالأعمال الشاقه، كما تسهل عليه الحركه والانتقال إن جمع ثوبه ووضعته تحت حزامه والذى كان عريضاً آنذاك، حتى اليوم الذى غاب فيه الثوب الطويل عن الرجال ما زال القول المتداول أن فلاناً شمّر عن ثياب الهمة ليفعل كذا.

كما لم يستبعد بعض شراح نهج البلاغه أن المراد من العبارة «وَاطُؤُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» ترك النهم فى الطعام وترهل البدن، إلّا أن التفسير الأول أنسب.

ص: ٤٤٦

١- (١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٨.

٢- (٢). «عقد» جمع «عقده» ما تربط به الأشياء.

٣- (٣) «مآزر» جمع «مئزر» على وزن منبر الثياب الداخليه.

٤- (٤) «اطؤوا» من ماده «طى» معروف.

٥- (٥) «خواصر» جمع «خاصره» الضلع.

ثم حذّر الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات عميقة المعنى وفصيحة وبلغه وأوضح لهم سبيل الانتصار فقال عليه السلام بادئ الأمر: «وَلَا تَجْتَمِعْ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ (١)».

وقال عليه السلام: «مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ».

وقال عليه السلام: «وَأَمْحَى الظُّلْمَ (٢) لَتَذَاكِيرٍ (٣) الْهَمِّ!».

حيث أشار عليه السلام في هذه العبارة الموجزة والعظيمة المضمون إلى بضعة أمور مهمّة للموفقيه في الحياه والإداره منها:

١. التحلى بالاستعداد على الدوام ومهما كانت الظروف أو حسب تعبير الإمام شدوا المآزر....

٢. مقاطعه الترف والدعه التي لا تؤدي سوى إلى الضعف والكسل.

٣. مواجهه دواعى النسيان التي تجعل الإنسان ضعيفاً وذليلاً ومسلوب المنهج.

٤. الارتقاء بمستوى الهمة ومكافحه كل ما يضعفها ويهبطها.

فإن راعى مدرء المجتمعات الإسلاميه هذه الوصايا الأربع سيتغلبون قطعاً على جميع المشاكل.

تأمل: آفات النهم والترف

ما ورد في الخطبه بهذا الشأن ممّا ذكر مسهب في الروايات. عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لَا تُمَيِّنُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَمُوتُ كَالزُّرُوعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهَا الْمَاءُ» (٤).

كما قال صلى الله عليه وآله: «الْقَلْبُ يَمُجُّ الْحِكْمَةَ عِنْدَ امْتِلَاءِ الْبَطْنِ» (٥).

ص: ٤٤٧

١- (١) «وليمه» الطعام الذى يعدّ فى العرس. ثم اطلقت على كل طعام يعدّ فى الدعوه للضيافه وهى هنا كناية عن الترف.

٢- (٢) «ظلم» جمع «ظلمه» العتمه.

٣- (٣) «تذاكير» جمع «تذكار» على وزن «منقار» التذكير.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٣٣١، ح ٧.

٥- (٥) مجموعه ورام، ج ٢، ص ١١٩.

وقال عليه السلام: «مَنْ قَلَّ أَكَلُهُ صَفَا فِكْرُهُ»^(١).

وأخيراً قال فى الحديث الرابع: «إِيَّاكُمْ وَفُضُولَ الْمَطْعَمِ فَإِنَّهُ يَسِمُ الْقَلْبَ بِالْقَسْوَةِ وَيُنْطِئُ بِالْجَوَارِحِ لِلطَّاعَةِ وَيُصِمُّ الْهِمَمَ عَنِ سِجَاعِ الْمُوعِظِهِ»^(٢).

وجاء فى رساله أمير المؤمنين على عليه السلام إلى عثمان بن حنيف حين قيل له: كيف تقوى على الأعداء وهذا طعامك؟ فقال: «أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُوداً وَالنَّبَاتَاتِ الْعِدِيَّةَ أَقْوَى وَقُوداً»^(٣).

وتعبير الإمام بالوليمه لا تقتصر على الطعام والشراب وهى كناية عن مطلق اللذه والمتعه، أنشد المتنبي بهذا الخصوص:

بِقَدْرِ الْكَدِّ تَكْتَسِبُ الْمَعَالِي

وسيره مختلف الأقسام تؤيد ما ورد فى هذه الروايات والخطبه المذكوره، فالأقوام المثابره والمجتهده بلغت ذروه الاقتدار فى العالم؛ أما تلك الكسله والمتقاعسه كانت متخلفه وفاشله.

وأخيراً حيث اختتمت الخطب بهذه الخطبه فقد قال الرضى: وَصَيَّلَى اللّٰهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ مَصَابِيحِ الدُّجَى وَالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

ونحمد الله الذى وفقنا بعد أربع عشره سنه من عمل دؤوب باختتام شرح خطب نهج البلاغه التى تعتبر أهم أجزاء نهج البلاغه بما يقارب ثلثيه.

ص: ٤٤٨

١- (١) غرر الحكم، ح ٧٤٠٢.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٧، ح ٤٠.

٣- (٣) نهج البلاغه، الرساله ٤٥.

١. شرح وتفسير جميع فصول وفقرات كلّ خطبه خلافاً لما ورد في أغلب الشروح التي تقتصر على الأقسام المطلوبه.
٢. إرتباط عبارات وأقسام الخطبه وصلتها الوثيقه والمنطقيه مع بعضها والتي اغمض عنها في أغلب الشروح، ففسّروا كلّ قسم بصوره مستقله دون الالتفات لارتباطها بما قبلها وبعدها.
٣. التركيز على الروح الحاكمه لجميع الخطبه وجميع الأبحاث في إطارها وغمض النظر عن المطالب الهامشيه غير المرتبطه بالخطبه وإن كان يثير الوسوس.
٤. إرساء التأسيس للأصل في تفسير العبارات؛ أي، استفاده مفهوم مستقل لكل عبارته خلافاً لما يشاهد في بعض الشروح، حيث يعتبرون العبارات المتشابهه تأكيداً وينحون اختلافاتها.
٥. إضافه مواضيع تكمليه مرتبطه بالخطبه بصوره منفصله تحت عنوان (تأملات) بما فيها المسائل التاريخيه والأخلاقيه والاجتماعيه والعقائديه و....
٦. ذكر اسناد الخطبه بالاستفاده من المصادر التي بحثت اسناد نهج البلاغه.
٧. ذكر جوّ وخالصه كلّ خطبه في مستهلّ البحث تحت عنوان (نظره إلى الخطبه).
٨. ذكر معانى المفردات الصعبه في الحاشيه بالاضافه إلى جذورها ومعانيها الأصلية والفرعيه.

٩. تناول الشرح بصورة مبسطة بما يخدم عامه الناس دون الهبوط بمستوى المواضيع.

١٠. الالتفات إلى المطالب المهمّة التي وردت في الشرح من خلال قبولها أو نقدها أو إكمالها.

١١. والغاية الأساسيّة من هذا الشرح، هي أن يكون قابلاً للاستفادة للجميع للخاص والعام والعالم والعامي، وكل يستفيد منه بحسب طاقته وقدرته العلميّة وفهم وإدارته.

ص: ٤٥٠

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه المجلد ۹ / ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام على ابن ابى طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى: ۱۰ ج.

شابك: ۳۰۰۰۰ ريال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۷-۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۴۱-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۴-۳.

يادداشت: عربى.

يادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق. = ۱۳۹۰).

يادداشت: كتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الى ۱۸۰-ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الى ۲۰۰-ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الى ۲۴۱-ج. ۹. من رساله ۱ الى ۳۱-ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الى ۵۳

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق -- خطبه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- كلمات قصار

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- نامه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲/ BP م/ ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٩

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

القسم الثانى من نهج البلاغه

القسم الثانى والمهم من نهج البلاغه يتضمّن رسائل وكتب الإمام أميرالمؤمنين إلى الأولياء، الأعداء، الأمراء، قادة الجيش وبعض أبنائه، والتي تختزن فى مضمونها مسائل فى غاية الأهميه عن بناء الذات، التقوى، إداره البلاد، النصيحة للأعداء وفتح المجال لهم للعودة إلى أحضان الحق، ومسائل مهمه أخرى من هذا القبيل.

ومحتوى هذه الرسائل بدرجة من الحيويه والحركه، كأنّها صدرت من الإمام فى هذا العصر ومن أجل المخاطبين فى زماننا هذا.

وهذه الرسائل، التي بإمكانها أن تكون درساً لمختلف شرائح المجتمع وينتفع بها جميع الأفراد، تعتبر من الكنوز الغاليه للتراث الإسلامى ولسيره أميرالمؤمنين الإمام على عليه السلام، وليت جميع السياسيين فى العالم يلتفتوا إلى أهميتها ويعملوا على استثمارها لإصلاح الوضع العالمى والمجتمع البشرى، وليت أنّ هذه الرسائل قد وصلت إلينا كلّها.

ومما يجدر ذكره أنّ عهد الإمام لمالك الأشتر الوارد فى نهج البلاغه «وهو الدستور العملى الذى أرسله الإمام على عليه السلام لواليه على مصر مالك الأشتر وورد فى

نهج البلاغه برقم (٥٣) من رسائل الإمام» قد ترجم إلى بعض اللغات الأجنبيّه وقد تمّ وضعه في هيئه الأمم المتحده كسند تاريخي، و وقع مورد إعجاب وثناء لنواب وممثلي الدول المختلفه في الأمم المتحده.

وهناك الكثير من أمثال هذه الرساله التاريخيه في نهج البلاغه من بين ٧٩ رساله وكتاب للإمام على عليه السلام، رغم أنّ كلّ واحده منها تهدف لغرض خاص.

ومن الرسائل المهمّه في هذا الصدد وصيه الإمام عليه السلام لابنه الإمام الحسن المجتبي عليه السلام التي تتضمن مسائل عرفانيه، أخلاقيه، وتعاليم لتهديب النفس، وكذلك رساله الإمام عليه السلام المعروفه لعثمان بن حنيف التي يعترض فيها الإمام عليه السلام على واليه لحضوره وليمةً لطبقه الأغنياء والأشراف، ورساله الإمام عليه السلام المعروفه لشريح القاضي، ورساله الإمام عليه السلام إلى «حارث الهمداني»، ورساله الإمام عليه السلام لأهل مصر التي أرسلها مع مالك الأشر، وهناك رسائل متعدده كتبها الإمام عليه السلام لمعاويه بن أبي سفيان وحدّره من العواقب الوخيمه لأعماله الشنيعه، وجميع هذه الرسائل تعتبر من الوثائق التاريخيه التي قلّ نظيرها في تراثنا الإسلامى.

ص:٦

الرساله ١: إلى أهل الكوفه، عند مسيره من المدينه إلى البصره

إشاره

إلى أهل الكوفه، عند مسيره من المدينه إلى البصره (١)

نظرة إلى الرسالة

الحقيقه أن الغرض من كتابه هذه الرسالة يتمثل في ثلاثة أمور:

١. إن الإمام علي عليه السلام أراد في كتابه هذا أن يبين أن طلحه والزبير وعائشه الذين اتخذوا من قتل عثمان ذريعه لإثارة الناس ضده عليه السلام وتحركوا لتهيئه مقدمات حرب الجمل مع عائشه، أنهم شركاء في قتل عثمان، في حين أن الإمام عليه السلام كان قد دافع عنه بالمقدار الممكن.

ص: ٩

١- (١) سند الرسالة: طبقاً لنقل ابن أبي الحديد وما ورد في الروايات أن الإمام علي عليه السلام عندما تحرك من المدينه باتجاه البصره وصل في مسيره إلى منطقته الربذه، وهناك أرسل محمد بن جعفر بن أبي طالب و (امه أسماء بنت عميس) مع محمد بن أبي بكر بهذه الرسالة إلى أهل الكوفه، وقد وردت بعض الإضافات في ذيل هذه الرسالة وفقاً لنقل ابن أبي الحديد حيث يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرسالة. وأورد (ابن قتيبه) في كتاب «الإمامه والسياسه» هذه الرسالة مع بعض الإضافات، ونقلها الشيخ المفيد في كتاب، «الجمل» الذي تم تأليفه قبل السيد الرضى، ولكنه قال: إن الإمام علي عليه السلام أرسل هذه الرسالة بواسطه الإمام الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر إلى أهالي الكوفه. وذكرها المرحوم الشيخ الطوسي أيضاً في الأمالي مع بعض التفاوت، ومن الواضح أن السيد الرضى لم ينقل جميع ما ورد في الرسالة، بل اقتطف منها ما ذكره في كتابه (انظر: مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٩٤).

٢. إنّ جميع الناس قد بايعوا الإمام عليه السلام طواعيه ورغبه وبدون أيّ شكل من أشكال الجبر والإكراه وإنّ المسلمين قد قبلوا بخلافته على الأُمّة الإسلاميّه.

٣. نظراً لما وقع من فتنه طلحه والزبير وعائشه، فإنّهم يتوجّب على أهل الكوفه أن يهبّوا لنصره الإمام وإطفاء نار الفتنة من خلال الالتحاق بجيش الإمام.

ص: ١٠

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَهُ الْأَنْصَارِ وَسَيَامِ الْعَرَبِ. أَمَا بَعِيدٌ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعَيْنَانِهِ. إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ أَشْيَ تَعْتَابُهُ، وَأَقْلُ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حَدَائِهِمَا الْعَنِيفُ.

وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتُهُ غَضَبٌ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَفَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

الشرح والتفسير: حقيقه ما وقع في حادثه قتل عثمان

بدأ الإمام علي عليه السلام في هذه الرساله، وطبقاً لما كان متداولاً في ذلك العصر، بالتعريف بكاتب الرساله والمخاطبين له، حيث قال: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَهُ الْأَنْصَارِ (١) وَسَيَامِ الْعَرَبِ».

ومن البين أن مراده من كلمه الأنصار هنا ليس أنصار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في المدينه الذين يقعون في مقابل المهاجرين، لأنه لم يكن هناك في الكوفه جبهه للأنصار وأخرى للمهاجرين، بل المراد من الأنصار هنا أنصار الإمام علي عليه السلام والتعبير بـ «جبهه» إشاره إلى شرفهم وعلو مكانتهم، لأن الجبهه تعتبر من أشرف

ص: ١١

١- (١). «الجبهه» في الأصل بمعنى أعلى الوجه، وما بين الجبينين، وبما أن هذا المكان يعدّ من الأعضاء الشريفة والبارزه في البدن فتطلق هذه الكلمه على الجماعه القويه الذين يتحركون لجلب الخير أو دفع الشر، وكذلك تطلق على رئيس الجمعيه.

كلمه «سنام» رغم أنّها فى الأصل بمعنى أعلى مكان فى ظهر الجمل، إلّا أنّها تطلق على كلّ شىء متميز وكلّ شخص ذى مكانه عليه فى المجتمع.

ثم إنّ الإمام عليه السلام قال فى رسالته: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّى أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعَيْنِهِ».

هنا يثار هذا السؤال: لماذا اهتمّ الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة قبل كلّ شىء بالبحث عن جذور حادثه مقتل عثمان؟

من المعلوم أنّ الإمام عليه السلام قد كتب هذه الرسالة إلى أهل الكوفة فى زمن إرهابات معركة الجمل، ونعلم أنّ مسأله الطلب بشار عثمان كانت ذريعه استخدمها المخالفون وقوى التمرد «طلحه، الزبير، عائشه، وأنصارهم» وعندما يبين الإمام عليه السلام تفاصيل هذه المسأله بشكل واضح فإنّ ذلك من شأنه أن يدفع بأهل الكوفة للاشتراك مع الإمام من موقع الوضوح فى الرؤيه.

ثم أضاف الإمام عليه السلام: «إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ».

وقد ذكر جميع المؤرخين وعامه المحققين تقريباً أنّ اعتراض الناس على عثمان يعود إلى أمرين: التقسيم غير العادل لبيت المال، والعطايا والمواهب الجزيله لأقربائه وأرحامه، والآخر وضع المقاليد الحساسه للحكومته الإسلاميه بيد أشخاص غير كفؤين من أقربائه وأتباعه.

ثم أضاف الإمام عليه السلام: «فَكُنْتُ رَجُلًا مِّنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ اسْتِعْتَابِهِ (١) ، وَأَقْلَ عِتَابِهِ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنَ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ (٢) ، وَأَرْفَقَ حَدَائِهِمَا الْعَنِيفُ (٣) . وَكَانَ

ص: ١٢

١- (١) . «استعتاب» من ماده «عتبى» بمعنى اللوم والتوبيخ، وبهذا المفهوم نعاتب الطرف الآخر حتى يرضى، ثم استعمل بمعنى طلب الرضا.

٢- (٢) . «وجيف» من ماده «وجف» على وزن «وقف» تعنى الاضطراب والاهتزاز، وبما أنّ الإنسان بمسيره السريع يواجه حاله من الاهتزاز والاضطراب فى حركته، استعملت هذه المفرده بمعنى السرعة أيضاً.

٣- (٣) . «حِدَاء» وكذلك «حُدَاء» على وزن «دعاء» بمعنى اطلاق الصوت فى مسير القافله لتسريع حركه الابل ثم اطلقت على كلّ ما يبعث على التحرك لأداء عمل معين. «عنيف» من ماده «عنف» وتعنى الغلظه والشده فى الاسلوب والعمل.

مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتُهُ (١) غَضِبَ، فَاتِيحٌ (٢) لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ».

ويحتمل أيضاً في تفسير عبارته «أكثر استعبابه» (٣) أنني كنت أطلب من عثمان دائماً أن يهتم بكسب رضا الناس.

ثم أضاف عليه السلام: «وَبَايَعِنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ».

وفي الحقيقة أن الإمام عليه السلام بهذه العبارة الوجيزه والعميقه المعنى أشار إلى ثلاث نقاط ليتيح للناس الحكم على المتمردين بوضوح:

١. إن الإمام عليه السلام كان من المدافعين عن عثمان وكان يريد له الصلاح والسير في الطريق القويم واطفاء نار الفتنة.

٢. إن طلحه والزبير هما اللذان أشعلا نار الفتنة، وبالرغم من أن الانتفاضة ضد عثمان كانت عامه وشامله، ولكن طلحه والزبير كانا ينفخان في هذه النار ويمدونها بالوقود، وكذلك الحال مع عائشه التي أثارت المهاجرين والأنصار في مسجد النبي على عثمان بجمله قصيره عندما رفعت بيدها قميص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ونعله كما ورد في الروايه: «وَلَمَّا بَلَغَ عَائِشَةُ مَا صَنَعَ عُثْمَانُ بِعَمَارٍ فَغَضِبَتْ وَأَخْرَجَتْ شَعْرًا مِنْ شَعْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَنَعْلًا مِنْ نَعَالِهِ وَثُوبًا مِنْ ثِيَابِهِ، وَقَالَتْ: مَا أَسْرَعَ مَا تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَهَذَا ثُوبُهُ وَشَعْرُهُ وَنَعْلُهُ لَمْ يَبَلِّ بَعْدُ» (٤).

ص: ١٣

١- (١). «فلته» تعنى صدور العمل بشكل عفوى وبدون تدبير مسبق، و«فلتات اللسان» الكلام الذى يصدر من الإنسان من موقع الغفله والعفويه بدون تأمل.

٢- (٢). «أتيح» من ماده «تيح» على وزن «شىء» بمعنى الاستعداد لأداء عمل معين، وجمله «فاتيح له قوم» تعنى أن جماعه من الناس استعدوا لقتل عثمان.

٣- (٣). وفي هذه الصوره يكون ضمير «استعبابه» ضمير للفاعل ومفعوله محذوف، يعنى «استعبابه من الناس» فى حين على التفسير الأول يكون الضمير مفعولاً ويتناسب أكثر مع الجمله اللاحقه.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٣١، ص ١٩٤.

٣. إن البيعه التي بايعني فيها المسلمون «وخلافاً للبيعه مع الخليفة الأول والثاني والثالث» بيعه عامّه وشامله ولم يجبر أحد على بيعته.

ومن هذا المنطلق بين الإمام عليه السلام معالم الحقيقه ليعلم الناس أنه على الحق وأن المتمرّدين والمناوئين له في معركة الجمل، على باطل.

تأملان

١. حكاية أبي موسى وتعبئه أهل الكوفه لنصره الإمام عليه السلام

سبق وأن تعرّضنا في الأقسام السالفه وبشكل وافٍ إلى وقائع خلافة عثمان والأخطاء الكبيره التي ارتكبتها في مجال إداره الحكومه الإسلاميه والتي أدت بالتالي إلى ثوره الناس عليه وانتهت بقتله، وكذلك تقدّم الكلام عن نقض طلحه والزبير لبيعتهم للإمام عليّ عليه السلام وتمردهم على خلافته، وكذلك واقعه بيعه الناس العامّه لأمير المؤمنين عليه السلام (١).

أمّا قصه كتابه رساله إلى أهل الكوفه من قبل الإمام عليه السلام فهي ذات تفاصيل متشعبه وقد أشار ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغه بشكل موجز إلى هذه الحكاياه، ويمكن الإشارة إلى خلاصه ما ورد في كلامه:

ص: ١٤

١- (١). إن قصه قتل عثمان ومعركة الجمل وأبعادها وعواملها وتداعياتها تعتبر قصه ذات تفاصيل وفروع كثيره ومطوله، وقد سبق أن استعرضنا في الأجزاء السابقه لهذه المجموعه بعض الأبعاد المهمه لهذه الوقعه التاريخيه، وهنا نذكر قائمه للقراء الأعزاء لمصادر هذه الوقعه في هذا الكتاب يتسنى لهم مراجعتها والإحاطه بكافه أبعاد وخفايا هذه الوقعه: (أ) عوامل ثوره المسلمين ضد عثمان، ج ١، ص ٣٧١ إلى ٣٧٦. (ب) حوادث معركة الجمل، ج ١، ص ٣٨٩ إلى ٣٩١. (ج) قتل عثمان وعدم مشاركه الإمام عليّ عليه السلام ودور طلحه والزبير في تحريك الجمهور، ج ٢، ص ٣٠. (د) تحليل آخر حول قضيه مقتل عثمان، ج ٢، ص ٢٣٢ تا ٢٤١. (ه) دور طلحه والزبير في معركة الجمل، ج ٢، ص ٢٥١. (و) الأعمال التي قام بها عثمان وأدت إلى سحق الناس عليه، ج ٢، ص ٤٨٨. (ز) بحث آخر حول دور طلحه وتحريك الناس على قتل عثمان، ج ٦، ص ٥٢٧.

ينقل ابن أبي الحديد عن محمد بن إسحاق أنّ الإمام عليّ عليه السلام أرسل محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر إلى الكوفة، ولما قدما الكوفة استنفرا الناس، فدخل جماعه منهم على أبي موسى الأشعري - وكان والياً على الكوفة في زمن خلافة عثمان، وبعد مقتل عثمان أبقاه الإمام في منصبه - ليلاً فقالوا له: أشتر علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى عليّ عليه السلام، فقال أبو موسى الأشعري - والذي كان رجلاً خبيثاً في سريرته وقد تجلى خبثه في هذا الموقع -: «أما سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم، وأما سبيل الدنيا فاشخصوا معهما» فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج لنصره الإمام عليه السلام.

وبلغ المحمّدين ذلك فأغظا لأبي موسى الأشعري، فقال أبو موسى: «والله إنّ بيعه عثمان لفي عنق عليّ وعنقكمما، ولو أردنا قتالاً ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قتله عثمان»، فخرجا من عنده فلحقا بعليّ عليه السلام فأخبراه الخبر، فكتب الإمام عليه السلام رساله لأبي موسى الأشعري، ولكنّ أبا موسى هدّد رسول الإمام بالقتل، وكتب الإمام رساله أخرى لأبي موسى وأرسلها مع عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر وعزله من منصبه.

ولكنّ أبا موسى الأشعريّ استمرّ في مخالفته لأوامر الإمام عليه السلام، ثم إنّ الإمام عليّ عليه السلام أرسل مالك الأشتر، فشخص الأشتر نحو الكوفة، فأقبل حتى دخلها والناس في المسجد الأعظم، فجعل لا- يمرّ بقبيله إلّادعاهم وقال: اتبعوني إلى القصر، حتى وصل القصر، فاقتحمه وأبو موسى يومئذٍ يخطب الناس على المنبر ويتبّطهم، وعمّار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول: اعتزل عملنا وتنحّ عن منبرنا، لا أم لك! فصاح به الأشتر: «أُخْرِجْ مِنْ قَصْرِنَا لَا أُمَّ لَكَ أَخْرَجَ اللَّهُ نَفْسَكَ فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُتَنَافِقِينَ قَدِيمًا».

فلما رأى أبو موسى الأشعري ضعف موقعه واهتزاز مكانته قال: أجلسني العشيّه، قال: لقد أجلستك ولا تبيتنّ في القصر.

وفى هذه الواقعة استطاع رُسل الإمام عليه السلام من تعبئه اثني عشر ألف رجل من أهل الكوفة لنصره الإمام عليه السلام وتوجهوا إلى البصرة(١).

٢. عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان

من المعلوم أنّ غالبية أهل السنّه يذهبون إلى تنزيه الصحابه، يعنى أنّ جميع الصحابه بدون استثناء هم أشخاص مؤمنون وعادلون وسيرتهم نقيّه، وقد أفرط البعض فى هذا الأمر وسلك سبيل المبالغه إلى درجه أنّه ذهب إلى أنّ المخالف لأحد الصحابه هو زنديق وكافر، ومن هؤلاء ما ذكره «ابن حجر العسقلانى» فى كتابه «الإصابه» نقلاً عن أبى زرعه الرازى قال: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فاعلم أنّه زنديق وذلك أنّ الرسول حقّ والقرآن حقّ وما جاء به حقّ، وإنّما أدّى إلينا ذلك كلّ الصحابه وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبتلوا الكتاب والسنّه، والجرح بهم أولى، وهم زنادقه»(٢).

عندما يواجه هؤلاء المؤرّخون الحوادث التاريخيه المسلّمه من قبيل واقعه الجمل وأنّ طلحه والزبير وعائشه قد أشعلوا نار الحرب أمام خليفه المسلمين الذى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار وقتل فى تلك الوقعه أكثر من عشره آلاف رجل وعلى روايه قتل سبعة عشر ألف فسوف يصاب بالحيره والتردد فى الجواب لتبرير هذا العمل، وكذلك عندما يرى أنّ معاويه بن أبى سفيان وقف بوجه خليفه المسلمين الإمام علىّ بن أبى طالب عليه السلام وما ترتّب على ذلك من حرب صفّين وتداعياتها المؤلمه ومقتل عشرات الأولوف من المسلمين وحتّى قتل بعض الصحابه، كعمّار بن ياسر على يد أتباع معاويه، فسوف يجد نفسه فى ورطه ومتاهه عجيبيه.

ص: ١٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٤، ص ٨-٢١.

٢- (٢). الإصابه، ج ١، ص ١٧.

هؤلاء لا يستطيعون إنكار الحقائق التاريخيه المسلّمه من جهه، ومن جهه أخرى لا يستطيعون التخلّي عن مقوله تنزيه الصحابه، ولذلك يتمسكون بمنطق غريب.

فتاره يقولون: إننا لا ينبغي لنا أن نتحدّث عن الصحابه لأنّه «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ» (١) بهذه الطريقه يوصدون نوافذ الفهم والإدراك على عقولهم، فهل يستطيع أيّ إنسان عاقل أن يغضّ بصره أمام الحقائق التاريخيه التي تتضمّن بيان الكثير من المسائل التي نحتاجها في عالمنا المعاصر؟

وتاره أخرى يقولون: إنّ الصحابه مجتهدون كلّهم، وإنّ كلّ فرد منهم قد عمل باجتهاده، فالإمام عليّ عليه السلام عمل باجتهاده وطلحه والزبير وعائشه ومعاويه عملوا أيضاً باجتهادهم ولذلك هم معذورون أمام الله تعالى.

هؤلاء غفلوا عن أنّ الاجتهاد يتعلق بالمسائل النظرية التي تقع مورد الشك والتردد، وأمّا المسائل البديهيه والمسلّمه فلا مجال للاجتهاد فيها، فهل يستطيع الشخص أن يقلب باجتهاده الليل إلى نهار أو النهار إلى ليل؟ إنّ مسأله حرب الجمل أو صفين والتي تعتبر ثوره ضدّ الحكومه الإسلاميه المقبوله لدى المسلمين، وسفك دماء المسلمين بدوافع دنيويه ونوازع نفسانيه وحبّ المقام والمنصب، لا مجال للشك والتردد في حرمة، فلا يقال حينئذٍ أنّ مثل هذا الشخص مجتهد في ارتكاب هذا الفعل الشنيع، وإنّ أخطأ في اجتهاده فهو معذور ومغفور!

لماذا لا يتخلّى هؤلاء الإخوه عن التعصّب ويعترفوا بأنّ صحابه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله حالهم حال سائر الناس من وجود الصالح والظالم فيهم؟

لقد تحدّث القرآن الكريم في سوره البقره، التوبه، الأحزاب، المنافقين وفي موارد عديده، عن المنافقين وذمهم، فمن هؤلاء المنافقون؟ إنّ تعريف الصحابه المذكور ينطبق عليهم بشكل كامل، فلماذا يقول الإنسان شعراً يعجز عن الإتيان بالقافيه كما يقول المثل؟

ص: ١٧

أليس من الأفضل القول بوجود جماعه فى زمان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من المنحرفين والفاسقين، وجماعه أخرى من الصالحين، والصالحون بدورهم على قسمين:

فجماعه منهم استقاموا فى خط الصلاح والخير والإيمان حتى بعد رحله النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وجماعه منهم انحرفوا عن جاده الصواب والحق بسبب الأطماع الذاتيه، وقد اصيب العالم الإسلامى من جزاء ذلك بمصائب كبيره، أجل هؤلاء لم ينجحوا فى الامتحان الإلهى بعد النبى الأكرم عليه السلام وسقطوا فى متهات الضلاله وحب الدنيا.

وهكذا قيل: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان(١).

ص: ١٨

١- (١). ورد فى تنزيه الصحابه توضيحات أخرى فى ذيل الخطبه الثالثه، ج ١، ص ٣٧٦ وما بعدها وفى ج ٤، ص ٣٢٠ وذيل الخطبه ٩٧، و ج ٥، ص ٥١٨ وذيل الخطبه ١٣٥، وكذلك ورد فى كتاب «الشيعة تجيب»، بحث مفصل ووافى حول هذا الموضوع.

وَأَعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمَرْجَلِ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَشْرَعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادَرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح والتفسير

يستطرد الإمام في هذا القسم من الخطبة في بيان ماهية المتمردين في البصرة والموقدين لنار الفتنة ويطلب من أهل الكوفة أن يستعدوا لنصرة الإمام ومواجهه هذا العدوان وإطفاء نار الفتنة، ولذلك ومن أجل تحريضهم وإيجاد حافز لهم يقول:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ (١) جَيْشَ الْمَرْجَلِ (٢)، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ (٣)».

والإمام عليه السلام يشير هنا إلى اعتراضه على جلوسهم غير مكترئين بما يدور في عاصمه الإسلام المدينة المنورة التي عاشت الغليان والتقلبات الكبيرة وقد تحرّك المؤمنون في المدينة معي لإطفاء نار الفتنة التي أوقدها المناوئون في البصرة.

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فَأَشْرَعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادَرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

ص: ١٩

١- (١). «جَاشَتْ» من مادة «جيش» على وزن «حيف» بمعنى الغليان والهيجان.

٢- (٢). «مَرْجَلٍ» بمعنى القدر سواء كان مصنوعاً من الفخار أو من النحاس وما إلى ذلك، ولذلك عندما يسيطر الغضب والحدّة على الإنسان يقال: «جاشت مراجله».

٣- (٣). «قُطْبٍ» في الأصل بمعنى الحديدية التي توضع في وسط حجر الطاحونه كمحور لدوران الحجر العلوي حوله، ثم اطلق على كلّ أمر يكون له دور محوري في قضيه معينه.

وكما أسلفنا قبل قليل أنّ المراد من «دار الهجرة» المدينة المنورة التي كانت معروفه بهذا الاسم، وقد عاشت أكبر هجره في تاريخ الإسلام وهي هجره المسلمين والنبي من مكه إلى المدينة، وأمّا ما ذكره بعضهم من احتمال أن يكون المراد الكوفه أو كلّ بلاد الإسلام فهو احتمال بعيد جدًّا.

أمّا تشبيه المدينة بالقدر الموضوع على المرجل وفي حال الغليان فهو بسبب ما عاشته المدينة في تلك الظروف من حوادث عصبية وتداخيات خطيره في أواخر خلافه عثمان وبعد مقتله.

والتعبير بكلمه «قامت الفتنة على القطب» إشاره إلى فتنة طلحه والزبير وعائشه، الذين خططوا لعزل الإمام عليّ عليه السلام عن مركز الخلافه أو تجزئه بلاد الإسلام بحيث تكون المدينة والحجاز بيد الإمام عليّ عليه السلام، ويكون العراق والكوفه والبصره بيد طلحه والزبير وعائشه، والشام من حصه معاويه، وهذه هي الفتنة العظيمه التي حدّرها الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرساله.

إنّ هذه الرساله القصيره الغزيره المعنى أثّرت أثرها في أهل الكوفه فخرج منها أكثر من اثني عشر ألف رجل لنصره الإمام عليه السلام في معركة الجمل وتوجّهوا إلى البصره، وكان لذلك دور مؤثر في انتصار جيش الحقّ على المنافقين والناكثين في معركة الجمل.

واللافت أنّ الطبري ينقل في تاريخه عن أحد الرواه ويدعى أبو الطفيل قال: قال عليّ عليه السلام: «يأتيكم من الكوفه اثنا عشر ألف رجل ورجل، فقعدت على نجفه ذي قار وأحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً»^(١).

تأمل: مصير الناكثين

إنّ كلّ مؤرخ ومحقّق، بل كلّ إنسان عارف بوقائع معركة الجمل، يعلم أنّ الإمام

ص: ٢٠

١- (١). تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٥١٣.

علّي عليه السلام مضافاً إلى كونه منصوباً للخلافه بأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فإن جماهير المسلمين بايعوه للخلافه وقد استلم زمام الأمور ومقاليد الحكومه الإسلاميه برصيد شعبي أقوى من الخلفاء السابقين، ولكن الطامعين بالثروه والمقام انتفضوا عليه وسفكوا في سبيل تحقيق نوازعهم الذاتيه دماء كثيره، ومعلوم أنّ جميع هؤلاء المتمردين على الإمام من العصاه والمدنيين ولا يقبل لهم أيّ عذر في محكمه العدل الإلهي.

ولكن الملفت للنظر أنّ ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغه» يتحدّث في هذا المجال ويقول: «اختلف المتكلّمون في حالها، أي عائشه، وحال من حضر واقعه الجمل، فقالت الإماميه: كفر أصحاب الجمل كلّهم الرؤساء والأتباع، وقال قوم من الحشويه والعامه: اجتهدوا فلا إثم عليهم ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ علّي عليه السلام وأصحابه.

وقال قوم من هؤلاء: بل نقول: «أصحاب الجمل أخطأوا ولكنّه خطأ مغفور، وكخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند من قال بالأشبه، وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعريه» (١).

وقال أصحاب المعتزله «وابن أبي الحديد منهم»: «كلّ أهل الجمل هالكون إلامن ثبتت توبته منهم، قالوا: وعائشه ممّن ثبتت توبتها، وكذلك طلحه والزبير، أمّا عائشه فإنّها اعترفت لعلّي عليه السلام يوم الجمل بالخطأ، وسألت العفو، وقد تواترت الروايه عنها بإظهار الندم، وأنّها كانت تقول: ليته كان لي من رسول الله صلى الله عليه وآله بنون عشره كلّهم مثل عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وثكلتّهم، ولم يكن يوم الجمل! وأنّها كانت تقول:

ليتني متّ قبل يوم الجمل، وأنّها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبلّ خمارها.

وأما الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ، لما ذكره على عليه السلام بما ذكره، وأمّا طلحه فحاله أيضاً حال الزبير...» (٢).

ص: ٢١

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٤، ص ٢٤.

٢- (٢) المصدر السابق، ج ١٧، ص ٢٤.

وهنا يطرح هذا السؤال على ابن أبي الحديد وأمثاله، وهو أنه إذا صدر عمل معيّن من شخص وأدى إلى سفك دماء جماعه المسلمين، فهل يكفي إظهار الندم والتوبه أمام حقّ الناس العظيم أو ينبغي جبران هذا الحقّ؟

ص: ٢٢

إِلَيْهِمْ، بَعْدَ فَتْحِ الْبَصْرَةِ (١)

نظرة إلى الرسالة

تقدّم آنفاً في بحث سند هذه الرسالة أنّها تمثّل مقطعاً صغيراً من رساله مطوّله كتبها الإمام عليّ عليه السلام بعد معركة الجمل، وتتضمّن تقدير أتعا بهم وما بذلوه للإسلام وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله في قبولهم دعوه الإمام واشتراكهم معه في قمع المتمرّدين من أصحاب الجمل والثناء عليهم من موقفهم واستقامتهم في هذا السبيل.

ص: ٢٣

١- (١). سند الرسالة: إنّ ما أورده السيّد الرّضى في هذه المقام يمثّل مقطعاً من رساله مطّوله نسيباً أرسلها الإمام عليه السلام بعد فتح البصره إلى أهالى الكوفه: «مَنْ عَبِدِ اللّهِ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى قُرْظَةَ بْنِ كَعْبٍ (أحد صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المشهورين الذي ارسل إلى الكوفه) وَمَنْ قَبِلَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...». وقد كتب هذه الرسالة كاتب الإمام عليه السلام عبيدالله بن رافع في سنه ٣٦ من الهجره، وقد أوردها الشيخ المفيد في كتابه «النصره» من كتاب «الجمل» للواقدي (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٩٥). وقد جاء في كتاب نهج البلاغه الكامل، ص ٧٨٨، أنّ الإمام عليه السلام أرسل هذه الرسالة بعد فتح البصره مع «زحر بن قيس الجعفي» إلى أهالى الكوفه ومطلع الرسالة: «مَنْ عَبِدِ اللّهِ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ».

وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعَيْتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

الشرح والتفسير: إظهار الإمام عليه السلام رضاه عن أهل الكوفة

يتبين من هذه العبارة أن الإمام يدعو بها لأهل الكوفة ويشكر قيامهم وأتباعهم ويثنى على مواقفهم ويصفهم بعدة أوصاف مهمّة ويقول: «وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعَيْتُمْ فَأَجَبْتُمْ».

وبديهي أن المخاطب في الرسالة هم أهل الكوفة كما ذكر ذلك المرحوم السيد الرضوي في عنوان هذه الخطبة وتؤيد ذلك القرائن الحالية أيضاً، فإن أهل البصرة انضموا في غالبيتهم إلى جيش طلحة والزبير وقد ذمهم الإمام عليه السلام في خطب أخرى في نهج البلاغة (١)، ولكن أهل الكوفة هم الذين استجابوا لدعوه الإمام عليه السلام ونصروه في هذه المعركة الحاسمة وبذلك استحقوا الشكر والثناء.

أضف إلى ذلك أن المستوحى من مجموع الرسائل، كما سيأتي في بحث الملاحظات نقلاً عن بعض مصادر أخرى، أن المخاطبين بهذه الرسالة هم أهل الكوفة.

وعبارته: «عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ» إشارته إلى أن قيامكم هذا لا يعتبر نصرته للإسلام والقرآن فحسب، بل نصرته لأهل البيت عليهم السلام أيضاً، وهذا يستوجب الثواب المضاعف لكم.

ص: ٢٥

ويصف الإمام عليه السلام أهل الكوفة في هذه الرسالة بخمس صفات استحقوا على أثرها دعاء الإمام لهم:

الأولى: العمل بطاعه الله عزّ وجلّ.

الثانية: أداء شكر نعمائه.

والثالثة: الاستماع لأوامره.

والرابعة: إطاعه أمره.

والخامسة: إجابته دعوته، وهذه كلّها في الحقيقة تعبيرات مختلفه عن حقيقه واحده.

تأمل: النصّ الكامل لرسالة الإمام عليه السلام لأهل الكوفة

لقد أورد المرحوم السيّد الرضى، وطبقاً لمنهجه الانتقائي الذي أتبعه في «نهج البلاغه»، مقطعاً صغيراً جداً من رساله الإمام عليه السلام إلى أهل الكوفة، في حين أنّ هذه الرسالة غزيره المحتوى وعميقه المضمون، ومن الجدير أن يستعرضها كلّها في هذه الفقرة، لأنها تتضمّن فنوناً من البلاغه إضافه إلى نكات حساسه ومصيريه للمسلمين.

وقد أورد المرحوم العلّامة المجلسي في «بحار الأنوار» نصّ هذه الرسالة نقلاً عن كتاب «الكافي في ابطال توبه الخاطئه» (للشيخ المفيد) نقلاً عن أبي مخنف: ورد كتاب أمير المؤمنين عليه السلام مع عمر بن سلمه الأرجبي (الأرجبي) إلى أهل الكوفة، فكبر الناس تكبيره سمعها عامه الناس واجتمعوا لها في المسجد، ونودي بالصلاه جامعه فلم يتخلف أحدٌ وقرأ الكتاب وفيه:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قُرْظَةَ بْنِ كَعْبٍ (وإلى الكوفه) وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا لَقِينَا الْقَوْمَ النَّاكِثِينَ لِبَيْعَتِنَا وَالْمُفَارِقِينَ لِحِمَامَتِنَا، الْبَاغِينَ عَلَيْنَا فِي أَمْتِنَا، فَحَجَّجْنَاهُمْ فَحَاكَمْنَاهُمْ إِلَى اللَّهِ فَأَدَّالْنَا عَلَيْهِمْ، فَقَتَلَ طَلْحَهُ وَالزُّبَيْرُ وَقَدْ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمَا بِالْمَعْدِرَةِ وَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِمَا بِالنَّصِيحَةِ وَاسْتَشْهَدْتُ عَلَيْهِمَا صَلْحَاءَ الْأُمَّةِ فَمَا أَطَاعَا الْمُرْشِدِينَ وَلَا أَجَابَا النَّاصِحِينَ.

وَلَاذِ أَهْلِ الْبُعْيِ بِعَائِشَةَ فَقَتَلَ حَوْلَهَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ عَالِمَ جَسِيمٍ وَضَرَبَ اللَّهُ وَجْهَ بَقِيَّتِهِمْ فَأَذْبَرُوا فَمَا كَانَتْ نَاقَهُ الْحَجَرِ بِأَشْأَمَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا عَلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْمِضِيرِ مَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الْحَوْبِ الْكَبِيرِ فِي مَعْصَةِ بَيْتِهَا رَبَّهَا وَنَبِيِّهَا وَاعْتِرَازِهَا فِي تَفْرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وَسَيْفِكَ دِمَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِلا بَيِّنَةٍ وَلَا مَعْدِرَةٍ وَلَا حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ.

فَلَمَّا هَرَمَهُمُ اللَّهُ أَمَرْتُ أَنْ لَا يُتَّبَعَ مُدْبِرٌ وَلَا يُجَازَ (وَلَا يُجَهَّزَ) عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُكْشَفَ عَوْرَةٌ وَلَا يُهْتَكَ سِتْرٌ وَلَا يُدْخَلَ دَارٌ إِلَّا بِإِذْنٍ وَأَمَنْتُ النَّاسَ.

وَقَدْ اسْتَشْهَدَ مِنَّا رِجَالٌ صَالِحُونَ ضَاعَفَ اللَّهُ حَسَنَاتِهِمْ وَرَفَعَ دَرَجَاتِهِمْ وَأَثَابَهُمْ ثَوَابَ الصَّادِقِينَ الصَّابِرِينَ.

وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِضِيرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ جَزَاءِ الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِوَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَأَجَبْتُمْ إِذَا دُعِيتُمْ فَنِعْمَ الْإِخْوَانِ وَالْأَعْوَانِ عَلَى الْحَقِّ أَنْتُمْ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» (١).

ص: ٢٧

لشرح بن الحارث قاضيه (١) وَرَوَى أَنَّ شُرَيْحَ بْنَ الْحَارِثِ قَاضِيَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، اشْتَرَى عَلَيَّ عَهْدَهُ دَارًا بِثَمَانِينَ دِينَارًا، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَاسْتَدْعَى شُرَيْحًا، وَقَالَ لَهُ:

نظره إلى الرسالة

تعتبر هذه الرسالة فريده في حد ذاتها، وتبين موقف الإمام علي عليه السلام من أحد قضاته المعروفين حين اشترى له داراً غاليه الثمن نسبياً، ومضمون الرسالة أن الإمام عليه السلام بعد أن يوبّخ شرح علي شرائه لهذه الدار، يكتب له سنداً ووثيقه لها، ولكن هذا السند ليس كالأسناد المتداوله للدور والعقارات، بل سند زاخر بالعبر والدروس ويتضمن تغير الدنيا وعدم الوثوق بها، ويشير إلى غفله الناس عن هذا الأمر واغترارهم بزخارفها وأنهم بعيدون عن حقيقه الأمر، ولو أن شرح القاضي

ص: ٢٩

١- (١) . سند الرسالة: لقد نقل المرحوم الصدوق في «الأمالي» (قبل نهج البلاغه) قصه هذه الرسالة، ولا تختلف عما ورد في «نهج البلاغه» إلابتفاوت يسير، والأشخاص الذين أوردوا هذه الرسالة بعد السيد الرضى نقلوها مع بعض الاختلاف مما يشير إلى وجود مصادر أخرى لهذه الرسالة قبل «نهج البلاغه» للسيد الرضى ومن ذلك ما أورده سبط ابن الجوزى في «تذكرة الخواص»، وكذلك القاضي القضاى فى «دستور معالم الحكم» والشيخ البهائى فى كتاب «الأربعين» (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٩٩).

اطّلع على هذا السند الأخلاقيّ قبل شرائه الدار كما يقول الإمام عليه السلام فسوف يصرف النظر عن شرائها.

والسؤال الذى يفرض نفسه: لماذا اتّخذ الإمام عليه السلام هذا الموقف المتشدّد من شريح القاضى؟ هل أنّ شريح قد اشترى تلك الدار من مال الحرام ومن الرشاوى؟ نستبعد هذا الاحتمال فى حين أنّ الإمام عليه السلام قد جعله قاضى الكوفه وهو بهذا الحال، أو يقال: إنّ الإمام علىّ عليه السلام فى هذه الرساله يريد أن يقول أنّ الشخص إذا تولّى منصب القضاء بما فيه من ولايه على نفوس وأموال وأعراض الناس، فلا بدّ أن يعيش بعيداً عن زخارف الدنيا والتكالب على مطامعها، ويكون قدوه للناس فى هذا المجال.

ص: ٣٠

بَلَّغْنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً.

فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:

يَا شُرَيْحُ، أَمَّا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَمَّا يُنْظَرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْرِيلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً. فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونَ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ! أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَ كِتَاباً عَلَى هَذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدَرَاهِمٍ فَمَا فَوْقَ.

الشرح والتفسير: من أين لك هذه الدار؟!

بعد أن استدعى الإمام عليه السلام شريح القاضي قال له: «بَلَّغْنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً».

فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: «قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ».

قَالَ (الراوي): فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:.

«يَا شُرَيْحُ، أَمَّا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَمَّا يُنْظَرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْرِيلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً».

وفى الحقيقة أنّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول - فى كلامه هذا - لشريح: إنك وإن دعيت لتثبيت هذه الدار باسمك ومن خلال السند والوثيقه لثلا- يزاحمك عليها شخص آخر، ولكن عندما يأتى إليك ملك الموت فإنه لا يعتنى بهذه الوثائق، بل يأخذك رغماً عنك ويخرجك من هذه الدار، لأنّ هذه الأسناد والمستمسكات إنّما تنفعك فى أمور الدنيا لا فى أمر الآخرة، فلا تنفع الإنسان عندما يحين أجله ويتوجه إلى العالم الآخر.

وعبارة «شاخص» من الشخوص، بمعنى المسافر، ومفهوم الجملة هو: أنك سوف تخرج من الدنيا إلى العالم الآخر كالمسافر.

واحتمل البعض أنّ كلمة «شاخص» تعنى الشىء البين والظاهر للعيان، والإنسان عندما يرحل من هذا الدنيا يُحمل على الأُكف بشكل ظاهر للناس حيث يساق إلى قبره، ويحتمل أيضاً أنّ أحد معانى هذه الكلمة هو الشخوص وتركّز البصر على شىء معيّن، وهذا يشير إلى أنّ الكثير من الناس عندما يحين أجلهم تشخص أبصارهم وتبقى مفتوحة بدون حركة وكأنّه ينظر إلى نقطه معينه، ولكنّ المعنى الأول أنسب من الجميع.

وجمله: «وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً» إشاره إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الإنسان لا يحمل من أمواله ودنياه إلى القبر سوى الكفن.

وطبعاً هذا كله فى حال أنّه قد اشترى الدار من ماله الحلال والطيب والطاهر، ولكن إذا كان قد اشتراها من مال حرام ومشبوّه، فإنّ المصيبة أعظم، ولذلك يشير الإمام على عليه السلام فى كلامه إلى هذه النقطه ويقول: «فَانظُرْ يَا شَرِيحُ لَاتَكُونُ ابْتِغَتْ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكٍ (١) ، أَوْ نَفَدْتَ التَّمَنَّ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَ دَارَ الآخِرَةِ».

ص: ٣٢

١- (١). ورد فى بعض النسخ «مِنْ غَيْرِ مَالِكِهَا» وهو إشاره إلى عمليه الغصب، ولكن مع الالتفات إلى جملة «مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ» يبدو أنّ الكاف فى «غَيْرِ مَالِكِ» للخطاب.

وفى مقام الفرق بين جملة «مِنْ غَيْرِ مَالِكَ» وجملة «مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ» مع أنّهما متّحدان فى المعنى والمضمون ظاهراً، إلّا أنّه يمكن القول أنّ الجملة الأولى إشاره إلى المال الذى لا يعتبر من أموال الشخص ظاهراً، مثلاً يكون شريح قد اشترى هذه الدار ودفع ثمنها من بيت المال، وهذا المال ليس ماله ظاهراً وواقعاً، أمّا جملة: «مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ» فهى إشاره إلى الأموال التى تعتبر من ماله ظاهراً وتحت تصرّفه، ولكنّه قد اكتسبها من طريق الرشوة وغيرها من الطرق المشبوّهة والمحرمه.

وجمله: «قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا» ربّما تشير إلى أنّ المال الحرام يترتب عليه آثار وضعيّه خطيره ويؤدّى إلى شقاء الإنسان وإيقاعه فى المهالك، كما ورد هذا المعنى فى الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «الْحَجْرُ الْعُصْبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا»^(١) أو أنّه إشاره إلى أنّك يا شريح لو اشتريت هذه الدار من المال الحرام فإنّك عمّا قريب سوف تفتضح وتخسر الدنيا مضافاً إلى خسرتك الآخره.

ثم إنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشير إلى نقطه مركزيه فى هذا المقام ويقول:

«أَمَّا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَ كِتَاباً عَلَى هَذِهِ النُّسِيخَةِ، فَلَمْ تَزْعَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدِرْهِمٍ فَمَا فَوْقَ».

وجمله: «بِدِرْهِمٍ فَمَا فَوْقَ» يمكن أن يقصد بها أنّ الثمن درهم أو أكثر منه فى القلّه كما ورد فى تفسير الآيه الشريفه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَهُ فَمَا فَوْقَهَا»^(٢). فهنا يقصد من هذا المثل الموجودات الصغيره ظاهراً كالبعوض وما هو أصغر منها.

ص: ٣٣

١- (١). نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٢٤٠.

٢- (٢). سورة البقره، الآيه ٢٦.

وَالنُّسْخَهُ هَذِهِ:

«هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَى مِنْهُ دَارًا مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَائِنِ، وَخَطَّهُ الْهَالِكِينَ. وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودُ أَرْبَعَةٍ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْأَفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّلَاثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدَى، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي، وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ. اشْتَرَى هَذَا الْمُعْتَرِّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالْأَحْيَالِ، هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقِنَاعَةِ، وَالِدُخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ، فَمَا أَذْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ فَعَلَى مُبْدِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفِرَاعِنَةِ، مِثْلَ كِسْرَى وَقَيْصِرَ، وَتُبَّعَ وَحَمِيرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَى وَشَيْدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصَهُمْ جَمِيعًا إِلَى مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحَسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ «وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ» شَهِدَ عَلَى ذَلِكِ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا».

الشرح والتفسير: وثيقه عديمه النظير

في سياق ما ورد في القسم الأول من هذه الرسالة، وطبقاً لبعض الروايات فإنَّ شريح القاضي طلب من الإمام عليه السلام وثيقه هذه الدار فأوصاه الإمام عليه السلام بأن يكتب

هذه الوثيقة بهذه العبارة: «هَذَا مَا اشْتَرَى عَيْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيْتٍ قَدْ أَرْعَجَ (١) لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَى مِنْهُ دَارًا مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ حَيْبِ الْفَانِينَ، وَخَطَهُ (٢) الْهَالِكِينَ».

والجدير بالذكر أنّ المتداول في تنظيم الأَسناد والمستمسكات لزوم رعايه ستّ جهات:

١. اسم البائع والمشتري.

٢. عنوان الدار أو العقار مورد المعاملة.

٣. الحدود الأربعة لها وموقع الباب الرئيسي.

٤. الثمن والقيمه.

٥. تعيين المسؤول في حاله انكشاف الغش والخلل.

٦. الشهود.

هنا نرى أنّ الإمام عليّ عليه السلام في هذه الوثيقة التي كتبها لشريح يبدأ بذكر صفات المشتري والبائع ثم يشير إلى عنوان محلّ الدار كما ذكر في العبارة أعلاه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى الجبهه الثالثه: يعنى تعيين حدود الدار الأربعة وقال:

«وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي (٣) الْأَفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصْتَبِيَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّلَاثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي (٤)، وَفِيهِ يُشْرَعُ (٥) بَابُ هَذِهِ الدَّارِ».

وبما أنّ الإنسان يعيش في هذه الدنيا محاطاً بأربعة عوامل خطيره: أحدها: ما يصيب الإنسان من آفات وبلايا، ومن السيل والأمراض والحروب التي تفرض على

ص: ٣٦

١- (١). «أزعج» من «إزعاج» يعنى دفعه ورفع له لتحريكه.

٢- (٢). «خطه» فى الأصل بمعنى الأرض التي يختارها الإنسان ويضع لها علامات وحدوداً للدلالة على حيازتها، وهى فى الأصل من ماده «خط»، ثم استخدمت بمعنى المنطقه والناحيه، وجاءت فى الجمله أعلاه بهذا المعنى الأخير.

٣- (٣). «داوعى» جمع «داعيه» بمعنى السبب والعلّه.

٤- (٤). «المغوى» اسم فاعل من «الإغواء» بمعنى المضلّ.

٥- (٥). «يشرع» من ماده «شرع» وتستخدم فى هذه الموارد بمعنى الانفتاح.

الإنسان نفسها، والآخر: المصائب التي يتلى بها الإنسان في داخله، من قبيل فقدان بعض أعضاء البدن أو موت الأعزّه والأقرباء وأمثال ذلك من مصائب الدنيا، ومن جهه ثالثه ورابعه، ما يواجهه الإنسان من إفرزات الأهواء والشهوات التي تضغط على الإنسان من داخله وتقوده إلى مهاوى الرذيله، والشيطان الذى يوسوس للإنسان من خارجه كما يقول الإمام عليه السلام عنه: «الشَّيْطَانِ الْمُغْوَى».

هذه العوامل الأربعة تحيط بالإنسان من كلّ الجهات، ويستطيع الإنسان من خلال تهذيب النفس والسيطره على الأهواء والنوازع النفسانيه وكبح جماح الشهوات وبالتصدى بحزم لوساوس الشيطان أن يخلص نفسه من هذين العاملين الآخرين، ولكن الآفات والمصائب التي تصيب جميع الناس بلا استثناء غير قابله للاجتنا، ولذلك يقول الإمام عليه السلام فى مورد آخر عن الدنيا أنّها: «دَارٌ بِالْبُلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْعَدْرِ مَعْرُوفَةٌ» (١).

والتعبير بـ «دَوَاعِي» فيما يخص الآفات والمصائب، إشاره إلى الأسباب التي تحيط بالإنسان وتنغص معيشته.

والتعبير بـ «الهُوَى الْمُرْدِي» إشاره إلى الأهواء والشهوات التي تقود الإنسان فى خطّ الضلاله والهلكه المادّيه والمعنويّه، لأنّ «ردى» بمعنى الهلكه أو الأهواء والنوازع النفسانيه التي تسوق الإنسان نحو هاويه السقوط، لأنّ اتباع هوى النفس يؤدى إلى أن يهوى الإنسان من مقام الإنسانى السامى ويسقط فى أعماق جهنّم.

وجمله: «وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ» إشاره إلى أنّ طريق نفوذ الشيطان يكمن فى باب هذه الدار الخطيره، رغم أنّ سائر العوامل الأخرى تؤثر بدورها فى زعزعه استقرار الإنسان وسوقه فى خطّ الرذيله والسقوط المعنوى.

وفى سياق هذا الكلام يبيّن الإمام عليه السلام القسم الرابع من هذه الوثيقه ويقرّر أنّ المشتري لهذه الدار من يتّصف بالصفات التاليه: «اشْتَرَى هَذَا الْمُعْتَرِّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا

ص: ٣٧

الْمُرْعَجِ بِالْأَجْلِ، هَذِهِ الدَّارُ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقِنَاعِ، وَالْدُخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ (١)».

أى أنّ ثمن الدار هو أن يخرج الإنسان من عزّ القناعه ويرتدى لباس الذلّ والحرص وحبّ الدنيا.

إنّ عبارات الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرساله وأشكال التجانس والتضادّ الموجود فى هذه الجمل مثيره للإنتباه: «خروج» و «دخول»، «عزّه» و «ذله»، «قناعه» و «حرص».

وفى العبارات أعلاه نشاهد كلمات من الجناس المطلوب مثل: «آفات» و «مصيبات» و «مردى» و «مغوى».

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشرع فى بيان النقطه الخامسه المتعلّقه بسند ملكيه هذه الدار وتعيين المسؤول فى مقابل كشف الخلل والضرر والخساره الناشئه منها ويقول: «فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرَى فِيمَا اشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ فَعَلَى مُبْلِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمَزِيلِ مُلْكِكَ الْفِرَاعِنَةِ، مِثْلَ كَشِيرَى وَقَيْصِرَى، وَتُبَّعٍ وَحَمِيرَى، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَى وَشَيَّدَ، زَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَأَدَاخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بَزْعِمِهِ لِلْوَلَدِ».

إنّ روح كلام الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرساله يقرر أنّه إذا اكتشف الإنسان غشاً وفساداً أو عيباً ونقصاً فى المعامله، فينبغى أن يكون أحدهم مسؤولاً عن هذا الضرر والعيب، وكذلك إذا تبين أنّ المتاع أو البضاعه مغصوبه ومن أملاك الغير، فيجب العمل طبقاً للعقد المكتوب فى المعامله، وهنا يقول الإمام عليه السلام: ينبغى التوجه بالمسؤوليه وجبران هذه النقائص إلى عزرائيل ملك الموت الذى بيده قبض أرواح الملوك وهدم الحكومات، والمزيل لملك الفراعنه والقياصره وأمثالهم من الجبابره الذين قصرُوا همّتهم على جمع الأموال وبناء القصور وتشيد المنازل الفخمه

ص: ٣٨

١- (١). «ضراعه» تعنى الذله (ولها معنى مصدرى وكذلك اسم المصدر)؛ وهذه المفرده تعنى أيضاً التواضع.

والإكثار من استملاك الضياع والعقار، فهؤلاء كلهم محكومون بالفناء والزوال من واقع الحياة.

«مبلبل» من مادة «بلبله» على وزن «مزرعه» ولها معانٍ متعدّده، فأحياناً تأتي بمعنى التشويش والاضطراب، وأحياناً أخرى تأتي بمعنى الفرقة والتشردم، و«ثالثه» بمعنى الفساد، وفي هذه العبارة الأنسب هو المعنى الأخير وهو الفساد والمرض الذي يترتب على سلب النفوس من جراء زوال الملك الوارد في العبارة أعلاه.

وينبغي الالتفات إلى أنّ مفردة «كسرى» الواردة في كلام الإمام عليه السلام هي في الأصل من «خسرو»، ولها مفهوم عامّ يشمل جميع ملوك الفرس كما أنّ مفردة «قيصر» تستعمل لجميع ملوك الروم، أمّا «تبع» فتستعمل لملوك اليمن وحمير (وكذلك لبعض الملوك في اليمن) وكلّها تأتي بمعنى الملك والسلطان رغم تنوع التعبير لكلّ قوم من الأقوام.

وجمله: «مَنْ بَنَى وَشَيْدَ» يحتمل فيه معنيان نظراً لوجود كلمه «تشيد» التي تأتي معنى تقويه البناء وكذلك علوه وارتفاعه، ولا مانع من الجمع بينهما، أى الأشخاص الذين يشيدون الأبنية والعمارات المرتفعه والقويه.

وعبارته: «رُخِرَفَ وَنَجَّدَ» كل واحد منها تشير إلى نوع من أشكال الزينه، «زخرف» إشاره إلى تزيين البناء والعماره، و«نجّد» إشاره إلى تزيين الوسائل والأدوات من قبيل الفرش والأثاث والستائر وأمثال ذلك.

جملة: «اعتقد» التثبيت والتركيز والاهتمام بدقه في حفظ وتنظيم الأسناد والمدارك حيث يسعى طلاب الدنيا بوسواس كبير في حفظ ذخائرهم وأموالهم من خلال هذه الأسناد وحفظها من عدوان الآخرين وإبعادهم عن ممتلكاتهم وهم يظنون أنّها باقية لأبنائهم من بعدهم.

ثم إنّ الإمام عليه السلام في سياق هذه الوثيقه يقول: «إِشْخَاصُهُمْ (١) جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ

ص: ٣٩

١- (١). «إشخاص» بمعنى إحضار، إرسال وسوق، وفي العبارة أعلاه الأنسب هو المعنى الأول.

الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ «وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ» (١).

وكلمه: «إشخاصهم» طبقاً للتفسير أعلاه يقع مبتدأ، و «إلى مَوْقِفِ الْعَرْضِ» بمنزله الخبر (٢) ولكن جمع من مفسرى «نهج البلاغه» ذهبوا إلى أنّ (إشخاص) مبتدأ مؤخر، وجمله: «فَعَلَى مُبْتَلٍ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ...» خبر مقدّم، وعلى ضوء ذلك يكون مفهوم الجمله: إنّ ملائكة الموت التى تنزل أجساد الملوك والساطين وتقبض أرواحهم وتزيل سلطانهم هم المسؤولون عن كشف الخلل والفساد فى الأملاك الدنيويه يوم القيامة وعند موقف العرض والميزان الأعمال.

أجل، إنّ جميع أشكال القدره والهيمنه معرّضه للزوال، وجميع الثروات والأموال ستبقى بعد رحيل الإنسان من هذه الدنيا، «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...» (٣) ويحضرون إلى الحساب وينالون جزاءهم من الثواب والعقاب.

وفى ختام هذه الوثيقه يشير الإمام عليه السلام، كما فى الأسناد والمدارك الدنيويه، إلى الشهود لهذه المعامله المعنويه، ويقول: «شَهِدَ عَلَى ذَلِكِ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَىٰ وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا».

وبما أنّ الشاهد يجب أن يكون عادلاً وثقة فإنّ الإمام عليه السلام يقول فى هذا الصدد:

إنّ العقل يمكنه أن يكون شاهداً على هذا الأمر إذا خرج عن أسر الأهواء النفسانيه وتخلّص من العلائق الماديه والدنيويه التى من شأنها تكبيل العقل وحجبه عن درك الحقيقه.

ص: ٤٠

١- (١) . سورة غافر، الآية ٧٨.

٢- (٢) . من جملة القرائن المؤيده لهذا الرأى وجود قرينتين: أ) ورد فى رساله أعلاه فى كتاب دستور معالم الحكم لابن سلامه، ص ١٣٧ أنّها تنتهى إلى «وتبع وحمير» بدون جمله «إشخاصهم...» فى حين أنّ رساله متواصله. ب) ورد فى كتاب حليه الألياء، ج ٨، ص ١٠٢ جمله «إشخاصهم» بهذه الصوره: (وأشخصهم...) والذى يشير إلى أنّها جمله منفصله عن الجمله السابقه.

٣- (٣) . سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

وعلى هذه الأساس يبيّن الإمام عليّ عليه السلام بأجمل صورته وأبلغ بيان، الأركان الستة لهذه السند المعنويّ.

تأملان

١. الباعث لكتابه السند

هذا السند العجيب الذين كتبه الإمام عليّ عليه السلام لأحد قضاة يستحقّ دراسته والتمعنّ من عدّه جهات:

الأولى: إنّ ثمانين ديناراً لهذه الدار لم يكن بالثمن الباهض للدار، ولكن بما أنّ المشتري لهذه الدار أحد القضاة، ومعلوم أنّ القاضى يقع دائماً في دائره الاتّهام والوساوس النفسانيه، فمن هذه الجبهه لم يرتضِ الإمام عليه السلام لشريح دفع هذا الثمن من المال للدار.

أضف إلى ذلك فنحن نعلم أنّ عصر حكومه وخلافه الإمام عليه السلام جاءت بعد سنوات مريره وخطيره من خلافه عثمان التي اقترنت بمظاهر الإسراف والتبذير بشكل واسع لبيت المال، وتوجّه بعض رموز المجتمع الإسلاميّ للحياه المرفّهه، والتوغّل في التجمّل والثراء، ومن أجل أن يتصدّى الإمام لهذه الظاهره الخطيره ويوقف هذا التيار عند حدّه، كان يكثر في خطبه وكتبه الوارده في «نهج البلاغه» من التحذير من زخارف الدنيا وبريقها الخادع واتّخذ لنفسه أيضاً حياه الزهد والتقشّف، وفي حين أنّه يقف على رأس الحكومه الإسلاميّه لم يكن مستعدّاً أبداً أن يعطى لأخيه عقيل شيئاً - ولو قليلاً - من بيت المال، وعندما أُخبر بأنّ واليه على البصره (عثمان بن حنيف) استجاب لدعوه أحد أثرياء تلك المدينه وجلس على مائده يستطاب فيها أنواع الأطمعه وقد دعى معه طبقه من الأشراف والأغنياء ولم يدع إليها الفقراء، اغتمّ لذلك بشدّه وكتب إليه رساله شديده اللهجه يوبّخه فيها على عمله واستجابته لدعوه الأغنياء.

كل ذلك من أجل أن يغيّر الإمام عليّ عليه السلام تلك الثقافة الخاطئة والمنافية للتعاليم الإسلاميّة، ويعيد المسلمين إلى ثقافته الإسلام الأصيلة التي عاشوها في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومعلوم أنّ شراء القصور الفخمة والبيوت المجلّلة الباهضة الثمن والتي ربّما تكون أعلى بكثير من دار شريح، كان متداولاً بين الطبقة المترفة من المسلمين، ولكن هذه الرسالة كانت بمثابة إنذار للجميع أن يأخذوا حذرهم ويحسبوا حسابهم وخاصة من المنتسبين للحكومة الإسلاميّة ليكونوا على فاق تامّ مع توجّهات الحكومة الإسلاميّة.

ومعلوم أيضاً أنّ هذه الرسالة قد انتشرت في ذلك الوقت بين الناس من يد لأخرى وقد أطلع الكثير على مضمونها وأنّ الإمام عليه السلام كتب رساله بهذه المضمون إلى شريح القاضي، وبالتالي انتبه البعض إلى تطلّعات الإمام عليه السلام وربّما أدّى بالبعض الآخر أن يوفّق مسيرته وسلوكياته مع تعاليم الإمام عليه السلام خوفاً من اعتراض الناس.

هذه الرسالة لا تخصّ ذلك العصر والزمان، بل تمتدّ بمضمونها وفحواها إلى عصرنا هذا والمستقبل، وتصدّق على جميع الأجيال والعصور ولا تختصّ بطائفه معيّنه أو شريحه خاصّه من الناس.

نحن اليوم نرى بعض الأشخاص يبذلون الكثير من الأموال لبناء الدور الفخمة ويتعبون أنفسهم في تشييدها بأعلى الزينه ويشترون لها الكثير من الأثاث وغير الأثاث واللوازم غير الضرورية ويجلبون لها من التحف والزخارف والأموال النفيسه من شتى بقاع العالم وأحياناً ينفقون عمرهم لبناء هذه الدار وربّما ينتهي عمرهم دون أن ينتهي البناء، وغنى عن البيان أنّ مثل هذه النفقات الباهضة لا يمكن للإنسان توفيرها من طريق مشروع، وبالتالي يكون وزرها وإثمها على عاتقه، بينما يستفيد منها الآخرون.

٢. من هو شريح؟

شريح بن الحارث، أبوأميّة من قبيله «بنى كنده» وما ذكره البعض من كونه شريح

بن هانى فهو خطأ، ولكن هناك بحث بين المؤرخين هل أن شريح من الصحابه أم لا؟ فقد ورد فى كتاب «أسد الغابه»: أن شريح أدرك عصر رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنه لم يحض بلقائه، وقال بعضهم: إنه لقي النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأسلم على يده وقال شريح:

يا رسول الله! أنا من اسره كثيره العدد فى اليمن، فقال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: فات بهم.

ولكنه عندما أتى بأسرته إلى المدينه كان النبى قد رحل من هذه الدنيا.

يقول ابن الأثير فى «اسد الغابه»: كان عمر بن الخطاب قد نصبه قاضياً للكوفه وبقى على هذا المنصب إلى زمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، وقد أبقاه الإمام فى منصبه لسابقته فى هذا العمل، ولكن طبقاً للروايه المعتمده الوارده فى كتاب «وسائل الشيعه»: أن الإمام عليه السلام اشترط عليه أن لا يصدر حكماً دون اطلاعه وإعلامه: «لَمَّا وَلَّى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ شُرَيْحًا الْقَضَاءَ اشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُنْفِذَ الْقَضَاءَ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ» (١).

وبقى شريح فى هذه المنصب إلى زمان الحجاج.

وذهب جماعه من المؤرخين أن شريحاً كان ذكياً وبارعاً، ولكن هذا لا يعنى أنه لم يتركب بعض الأخطاء الفاحشه فى أمر القضاء والتي وردت موارد منها فى كتب الحديث (٢).

كتب الدميرى صاحب كتاب «حياه الحيوان»: قيل للشعبيّ (وهو من التابعين) يقال فى المثل «إِنَّ شُرَيْحًا كَانَ أَذْهَى مِنَ الثُّعْلَبِ وَأَخْيَلٌ»، فما هذا؟

فقال: خرج شريح أيام الطاعون إلى النجف، فكان إذا قام يصلى يجيء ثعلب فيقف تجاهه ويحاكيه ويخيل بين يديه ويشغله عن صلاته، فلما طال ذلك عليه نزع قميصه فجعله على قصبه وأخرج كميته وجعل قلنسوته عليها، فأقبل الثعلب فوقف بين يديه على عادته فأتاه شريح من خلفه وأخذه بغته فلذلك يقال: «إِنَّ شُرَيْحًا كَانَ

ص: ٤٣

١- (١). وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ٦٤، ح ١، الباب ٣ من أبواب صفات القاضى.

٢- (٢). الكافى، ج ٧، ص ٣٨٥، ح ٥.

ويرى ابن خلكان أنّ شريحاً كان من التابعين رغم أنّه أدرك عصر الجاهليه وقال ابن خلكان: إنّ شريحاً جلس على كرسى القضاء خمس وستين عاماً وفي طيله هذه المده لم يترك القضاء سوى ثلاث سنوات فى زمن فتنه عبداللّه بن الزبير، وقد استقال من منصبه فى زمان الحجاج ولم يمارس القضاء إلى آخر عمره.

وذكر المؤرخون أنّه كان أمرداً.

أمّياً فيما يخصّ عمره فهناك خلاف، حيث ذهب بعض إلى أنّه بلغ من العمر مائه وعشرين سنه، وذهب آخرون إلى عمره مائه وعشر سنوات، بينما ذكر آخرون أقلّ من هذا وأكثر.

ولا شكّ أنّ شريحاً قد اصيب فى خاتمه عمره بسوء العاقبه، وأحد الشواهد على ذلك القصّه التى يذكرها الطبرى فى تاريخه عن أبى مخنف، يقول: حدّثنى الصقعب ابن زهير عن عبدالرحمن بن شريح قال: سمعته يحدث إسماعيل بن طلحه، قال:

دخلت على هانى بن عروه (فى زمن إماره ابن زياد على الكوفه) فلما رآنى قال: يا لله، يا للمسلمين أهلكت عشيرتى فأين أهل الدين وأين أهل المصر، إياى يخلّون وعدّوهم وابن عدّوهم، والدماء تسيل على لحيته، إذ سمع الرّجّه على باب القصر، وخرجت واتبعنى فقال: يا شريح إننى لأظنّها أصوات مذبح وشيعتى من المسلمين، إن دخل علىّ عشره نفر أنقذونى، قال: فخرجت إليهم ومعى حميد بن بكر الأحمريّ - أرسله معى ابن زياد - وكان من شرطته وممن يقوم على رأسه، وأيم الله لولا مكانه معى لكنت أبلغت أصحابه ما أمرنى به، فلما خرجت إليهم قلت: إنّ الأمير لَمّا بلغه مكانكم ومقاتلكم فى صاحبكم أمرنى بالدخول إليه، فأتيته ونظرت إليه فأمرنى أن ألقاكم وأن اعلمكم أنّه حىّ وأنّ الذى بلغكم من قتله كان باطلاً، فقال عمرو وأصحابه: فأما إذ لم يقتل فالحمد لله، ثم انصرفوا (٢).

١- (١). منهاج البراعه فى شرح نهج البلاغه، ج ١٧، ص ١٥٨؛ سفينه البحار، ماده شرح.

٢- (٢). تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٢٧٤ فى باب حوادث سنه ٦٠هـ.

فلما انصرف الناس أقدم ابن زياد على قتل هانى، وفي الحقيقه أنّ شريحاً كان يعلم أنّ هانى فى خطر، فلماذا أمر أصحابه وأنصار بالعوده والانصراف وقدّم رضا ابن زياد على رضا الله عزّ وجلّ؟! إنّ المواقف غير المسؤوله أو السكوت المشبوه فى مقابل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأسر ذرّيته وأهل بيته والمجىء بهم إلى الكوفه، كلّها شواهد أخرى على خبث طبعه وضعف نفسه واهتزاز إيمانه، فلو أنّ شريحاً لم يأمر قبيله بنى مذحج بالعوده عندما أحاطوا بدار الإماره، فإنّه من الممكن أن تتغيّر أوضاع الكوفه وتنقلب الموازين ضدّ قوى الكفر والانحراف ويكون مصير ثوره الإمام الحسين عليه السلام بشكل آخر(١).

يستفاد من روايه أبى مخنف فى كتابه (مقتل الحسين) أنّ المختار عندما ولى أمر الكوفه عزل شريحاً من منصبه بسبب تقصيره فى أمر نصره الإمام الحسين عليه السلام(٢).

ص: ٤٥

-
- ١- (١) . انظر: الاصابه فى معرفه الصحابه، ج ٢، ص ٧٠، ترجمه حال الحسين بن على عليه السلام.
 - ٢- (٢) . يستفاد من التواريخ أنّ شريحاً عاد بنفسه فى زمان الحجاج، ولكنّه استقال من منصبه بعد ذلك ووافق الحجاج على استقالته. ولمزيد من التوضيح راجع: الاستيعاب، ص ٥٩٠ و شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ص ٢٨ و ٢٩.

إلى بعض أمراء جيشه (١)

نظرة إلى الرسالة

إنّ مضمون هذه الرسالة بين وجليّ، فالإمام على عليه السلام يأمر فيها أحد قادة جيشه الذي كان يواجه فئه من المنحرفين والعصاه أن يأخذهم بالنصيحه والعوده إلى خطّ الطاعه والإيمان، فإن لم يقبلوا فيجب عليه استخدام القوّه في سبيل إسكات هذا التمرد وإطفاء نار الفتنة.

وكما سنشير لاحقاً أنّ المخاطب لهذه الرسالة هو عثمان بن حنف والى البصره والذي كان في ذلك الوقت قائداً لجيش الإمام عليه السلام في تلك المنطقه، ومن هنا عبر السيّد الرضى في عنوان هذه الرسالة أنّها: «إلى بعض أمراء جيشه».

ص: ٤٧

١- (١) . سند الرسالة: هذه الرسالة التي أوردتها الشريف الرضى تمثّل مقطعاً من الرسالة التي أرسلها الإمام عليه السلام لبعض امراء جيشه وقد ذكرها سبط ابن الجوزى في كتاب تذكره الخواص بشكل موسع ومختلف، ومن الواضح تماماً أنّه اقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغه، ولكن ابن الجوزى في أول الباب السادس من كتابه يقول: كل كلام أنقله عن على ابن أبى طالب في هذا الكتاب نقلاً باسنادى المتصل إلى الإمام عليه السلام نفسه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٠١).

فَإِنْ عَيَّادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالقَوْمِ إِلَى الشَّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَيْدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ، وَاسْتَعْنِ بِمَنْ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ الْمُتَكَارَةَ مَغِيْبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهوْضِهِ.

الشرح والتفسير: يجب إقاله الضعفاء

قبل البحث فى تفسير هذه الرسالة لابد من الالتفات إلى شأن صدورها، فقد ذكر المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل:

«لَمَّا تَمَّ أمر البيعه لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وأتفق على طاعته عامه بنى هاشم و وجوه المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأيس طلحه والزبير ممّا كانا يرجوانه بقتل عثمان من بيعه الناس لأحدهما بالإمامه، وتحققت عائشه بنت أبى بكر تمام الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام واجتماع الناس عليه وعدو لهم عن طلحه والزبير و كانت تعلم أن كثيراً من الناس يميل لها لمكانها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأنها من أمّهات المسلمين، و....

ولمّا عرف طلحه والزبير من حالها وحال القوم، عملا على اللحاق بها والتعاقد على شقاق أمير المؤمنين عليه السلام وسارا إلى مكّه خالعين الطاعه ومفارقين الجماعه، فلما وردا إليها فيمن تبعهما من أولادهما وخاصتهما، طافا بالبيت طواف العمره وسعيا بين الصفا والمروه، وبعثا إلى عائشه عبدالله بن الزبير وقالاه: إمضِ إلى خالتك فاهدِ

إليها السلام منّا وقل لها: إنّ طلحه والزبير يقرء انك السلام ويقولان لك: إنّ أمير المؤمنين عثمان قتل مظلوماً، وأنّ علي بن أبي طالب ابتزّ الناس أمرهم وغلبهم عليه بالسفهاء الذين تولّوا قتل عثمان ونحن نخاف انتشار الأمر به، فإن رأيت أن تسيرى معنا، لعل الله يرتق بك فتق هذه الأمّة ويشعب بك صدعهم ويلمّ بك شعثهم ويصلح بك امورهم، فأتاها عبد الله فبلغها ما أرسله به، فأظهرت الامتناع من إجابتها إلى الخروج عن مكة وقالت: يا بني لم آمر بالخروج لكنى رجعت إلى مكة لأعلم الناس ما فعل بعثمان إمامهم....

فقال لها عبد الله: فإذا كان هذا قولك في عليّ يا أمّه، ورأيك في قاتلي عثمان فما الذي يقعدك عن المساعدة على جهاد عليّ وقد حضر ك من المسلمين من فيه غنّي وكفايه فيما تريدين! فقالت: يا بني افكر فيما قلت وتعود إليّ... ولما كان الغد أجابت إلى الخروج....

إن عائشه وطلحه والزبير لما ساروا من مكة إلى البصره أغدّوا السير مع من اتبعهم من بني أميه وعمال عثمان وغيرهم من قريش حتى صاروا إلى البصره فنزلوا حفر أبي موسى، فبلغ عثمان بن حنيف وهو عامل البصره يومئذٍ وخليفه أمير المؤمنين عليه السلام).

فكتب عثمان بن حنيف كتاباً للأمير المؤمنين عليه السلام يعلمه فيه بدخول عائشه وطلحه والزبير البصره ويطلعه على مجريات الأمور فيها، فكانت هذه الرساله - مورد البحث - جواباً على رساله عامله عثمان بن حنيف، يأمره فيها والمخلصين له من أهل البصره بالوقوف بوجه المتمردين وقتالهم(١).

والآن نأتى إلى شرح هذه الرساله، فالإمام يقول فيها: «فَإِنْ عَادُوا - أى المتمردين الذين لم يمتثلوا الأوامر فى جيش طلحه والزبير، فعليكم بتقديم النصحيه لهم - إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَلِكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ (٢) الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى

ص: ٥٠

١- (١). الجمل، ص ١٢٢.

٢- (٢). «توافت» من ماده «وفا» وتعنى المصافحه والاجتماع والتلاقى، والمراد من الجمله أعلاه أنّه إذا اجتمعت الحوادث وتظافت فيما بينها واستمر المخالفون على تمردهم.

الشُّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدُ (١) بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ وَاسْتَعْنِ بِمَنْ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ (٢) عَنْكَ).

والتعبير بـ «ظِلُّ الطَّاعَةِ» تعبير لطيف ويشير إلى أنّ العصيان والتمرد ومخالفه أوامر الحاكم الإسلامي حالها حال الشمس المحرقة، بينما الطاعة والسكينة وامتثال أوامر القادة العدول بمثابة الظل الوارف الذي يعمّ خيره المجتمع الإسلامي.

والفرق بين الشقاق والعصيان، أنّ الشقاق بمعنى الفرقة والانفصال، وأمّا العصيان والتمرد فشيء أعلى وأشدّ من مجرد الافتراق عن جماعة المسلمين.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير في ختام هذه الرسالة إلى الدليل على أمره هذا ويقول:

«فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ (٣) مَغِيبُهُ (٤) خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَعْنَى مِنْ نُهُوضِهِ».

وهذا هو ما ذكر القرآن الكريم عن بعض المنافقين في سورة التوبة وقال: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ» (٥).

فالعناصر الضعيفة التي تخاف من النزول إلى ساحة القتال وتكره مواجهه الأعداء لا تزيد الجيش الإسلامي إلاّ ضعفاً، وبالتالي فإنّ غيابهم وعدم حضورهم أفضل من مشاركتهم في المواجهه الحاسمه.

تأملان

١. جرائم الناكثين في معركة الجمل

يستفاد من تاريخ الطبري وبعض الكتب الأخرى وكذلك في خطبه ١٧٢ التي

ص: ٥١

١- (١). «انهد» صيغه أمر من «النهود» بمعنى الظهور والارتفاع والقيام بأداء عمل معين.

٢- (٢). «تقاعس» من ماده «قعس» على وزن «فحص» وبمعنى التماهل والتواكل وإلقاء المسؤولية على الآخرين والتراجع عن القيام بالوظيفة والتكليف أو الحرب.

٣- (٣). «المتكاره» تعنى الشخص الذى يكره القيام بعمل معين ويعيش حاله السخط وعدم الرضا منه، وهى من ماده «كره».

٤- (٤). «مغيبه»: «مغيب» و «مشهد» مصدر ميمي بمعنى الغيبه والحضور.

٥- (٥). سورة التوبه، الآيه ٤٧.

سبق وأن شرحناها بالتفصيل أنّ عثمان بن حنيف بعد ورود طلحه والزبير وجيشهما إلى البصره جاء إلى هذه المدينة ومعه أمر من الإمام عليّ عليه السلام بمواجهه المتمرّدين وعناصر الشغب في البصره إلى أن يأتي إليها الإمام عليه السلام بنفسه، ولكن أهل البصره انقسموا إلى فئتين: فنه تقول بوجوب نصره الإمام عليّ عليه السلام ضد مناوئيه، فنه أخرى تؤيد المخالفين والمتمرّدين وتقول بوجوب نصره عائشه زوجة النبيّ وأنصارها، وكانت هناك بعض المناوشات بين هاتين الفئتين، والجدير بالذكر أنّ (جاريه بن قدامه) وهو أحد رؤساء قبائل البصره جاء إلى عائشه فقال: يا أمّ المؤمنين، والله فإنّ قتل عثمان بن عفّان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضه للسلاح، إنّه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتي سترك وأبحتي حرمتك، إنّه من رأى قتالك فإنّه يرى قتلك، إن كنت أتيّنا طائعه فارجعي إلى منزلك وإن كنت أتيّنا مستكرهه فاستعيني بالناس.

وعلى أيّ حال، فإنّ طلحه والزبير وأتباعهم كانوا قد لبسوا الدروع تحت لباسهم وجاءوا إلى المسجد عند الفجر لإقامه صلاه الصبح، وجاء عثمان بن حنيف إلى المسجد وهو لا يعلم بمجريات الأمور ليصلّي بالناس أيضاً، فجاءه أنصار طلحه والزبير وسحبوه من ردايه وقدموا الزبير للصلاه، وكانت طائفه من حراس بيت المال يدعون «السبابجه» أخرجوا الزبير من المسجد ووضعوا عثمان مكانه، ولكن أنصار الزبير هجموا عليهم ودفعوا عثمان بن حنيف وأتباعه من موقعهم، واستمرّ هذا التدافع والمناوشات إلى طلوع الشمس، فصاحت جماعه: يا أصحاب محمّد اتّقوا الله فإنّ الشمس قد أوشكت على الطلوع فكيف الصلاه؟ وأخيراً تغلّب الزبير وأنصاره وأقام الزبير صلاه الصبح بالناس، وبعد الصلاه هجم الزبير مع أنصاره المسلّحين على عثمان بن حنيف وأتباعه وقبضوا عليه وضربوه حتى كاد أن يموت واتفوا شعر رأسه ولحيته وأهدابه، وعذبوا جماعه من أنصاره وقتلوه.

وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام في الخطبه ١٧٢ إلى هذه القضيّه وقال: «قَوْلَ اللَّهِ لَوْ لَمْ

يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَزَاءَهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ، كَلَّهِ» (١).

وطبعاً فإنّ هذه المناوشات غير ما حدث من تنازع واختلاف بين طلحه والزبير على مسألة إمامه الصلاه، حيث كان كلّ منهما يريد إمامه الجماعة فتوسّط عائشه بينهما وتقرّر أن يصلّى بالناس عبدالله بن الزبير.

وقد ارتكب أتباع طلحه والزبير وعائشه في هذه المدّة جرائم عجيبة، منها أنّهم قتلوا «السبابجه» الذين كان عددهم سبعين رجلاً وقيل: أربعة نفر، وقطعوا رؤوسهم بأمر من عائشه، وقد استمرّت هذه الأوضاع الداميه إلى أن جاء الإمام عليّ عليه السلام وجيشه وسحقوا المتمرّدين والناكثين في معركة الجمل وقتل طلحه والزبير وأرسل الإمام عليه السلام عائشه مع جماعه من الحرس إلى المدينة، وعاد الهدوء والأمن إلى البصره (٢).

٢. على من يمكن الاعتماد؟

وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرساله إلى نقطه مهمّه جديره بتدبّر واهتمام جميع القاده والعسكريين، وهى أنّه لا ينبغي الاعتماد على العناصر المهزوزه وضعيفه الإراده في حسابات المعركه، ولا ينبغي تحشيدهم لمجرّد تكثير السواد في ميدان القتال، لأنّ ضررهم وخطرهم أكثر من نفعهم، فعدم حضور هؤلاء المزيّفين، في ميدان القتال يوجب السكينه والطمأنينه في قلوب المجاهدين وبالعكس فإنّ حضورهم ومشاركتهم تؤدّى إلى اهتزاز الموقف وتشويش النوايا واضطراب الدوافع.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشبه هذا المعنى كما أسلفنا في معركة تبوك (وكذلك معركة احد) وفي المورد الأول يقول القرآن الكريم: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا

ص: ٥٣

١- (١). نهج البلاغه، الخطبه ١٧٢.

٢- (٢). ولمزيد من التوضيح انظر: تاريخ الطبرى، ج، ٣ فى باب حوادث سنه ٣٦ و شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٥ إلى ٣٢٣.

زَادُواكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ» (١). والفتنه هنا العمل على إيجاد الفرقة والنفاق وتمزيق الصف.

وبالنسبة لغزوه أحد تقول الآيه الشريفه بعدها: «لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبِيلٍ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ» (٢) أى أنّ هؤلاء كان قد سبق أن طلبوا الفتنة وتشويش الأمور فى معركة احد.

وخلاصه الكلام، أنّ الآيات الشريفه أعلاه تبين لجميع المسلمين درساً مهماً وهو أنّه لا ينبغي لهم الاهتمام بزيادة عدد الجيش وكثره الجنود، بل ينبغي الاهتمام بكسب واختيار الأشخاص الذين يتمتعون بروح الإيمان والإخلاص مهما كان عددهم قليلاً، كما يظهر ذلك من الآيات الشريفه التى تتحدث عن قصه بنى اسرائيل وطالوت وجالوت: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» (٣).

ص: ٥٤

١- (١) . سورة التوبه، الآيه ٤٧.

٢- (٢) . سورة التوبه، الآيه ٤٨.

٣- (٣) . سورة البقره، الآيه ٢٤٩.

إلى الأشعث بن قيس عامل أذربيجان (١)

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة تشير في الأساس إلى نقطه واحده، وهي أنّ المقامات والمناصب في الحكومه الإسلاميه ليست وسيله للوصول إلى المال والثروه وما إلى ذلك، بل هي أمانات إلهيه يجب مراعاتها بدقه والالتزام بلوازمها من موقع الوعي والإيمان، ولهذا السبب لا ينبغي استخدام وسائل الإكراه ومنهج الاستبداد في إداره الأمور وكذلك لزوم الاحتياط التام في التعامل مع بيت المال.

ص: ٥٥

١- (١). سند الرسالة: من جمله الأشخاص الذين أوردوا هذه الرسالة: نصر بن مزاحم في كتاب صفين، نقل هذه الرسالة من مطلع كلام الإمام عليه السلام، ومع الأخذ بالحسبان أنّ نصر بن مزاحم كان يعيش قبل السيد الرضى بقرنين من الزمان تقريباً، مضافاً إلى أنّه ذكر هذه الرسالة بشكل كامل، فيتبين من ذلك أنّه نقلها من مصادر أخرى. ونقلها أيضاً «ابن عبد ربّه» مع بعض الإضافات وابن قتيبه في كتابه الإمامه والسياسه باختصار يسير بالنسبه لما أورده نصر بن مزاحم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٠٢).

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطَعْمِهِ وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّتِهِ، وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقِهِ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرًّا وَلَا تَكَّ لَكَ، وَالسَّلَامُ

الشرح والتفسير: المناصب الحكوميه فى الإسلام أمانه إلهيه

كما أشرنا آنفاً أنّ السيد الرضى الذى أورد هذه الرساله نقل مقطوعاً من رساله مفصله وردت فى كتاب وقعه صفين، ويستفاد من هذه الرساله أنّ الأشعث بن قيس وبسبب السوابقه السيئه كان يشعر بالقلق على موقعه بعد استلام الإمام على عليه السلام مقاليد الخلافه فربما عزله الإمام عليه السلام عن إماره آذربايجان وبذلك اتّخذ من معركة الجمل وقتل عثمان ذريعه للتمرد على حاكمه الإمام عليه السلام، ومن أجل ذلك والحيلوله دون وقوع الفتنة، كتب له الإمام عليه السلام هذه الرساله ليتدارك أمره وقد ذكر فى بدايتها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ أَمِيًّا بَعِيدًا، فَلَوْ لَاهِنَاتٌ وَهَنَاتٌ كُنَّ مِنْكَ لَكُنْتَ الْمُقَدَّمُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَبْلَ النَّاسِ وَلَعَلَّ آخِرَ أَمْرِكَ يَحْمَدُ أَوَّلَهُ، وَيَحْمِلُ بَعْضُهُ بَعْضًا، إِنْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ».

ثم إنّ الإمام عليه السلام، فى سياق هذه الرساله، أشار إلى قتل عثمان وبيعه الناس له وتمرد طلحه والزبير ونقضهم البيعه له وأضاف: أنّهما أخرجا عائشه من بيتها إلى البصره وأنى قد سرت إليهم مع ثلّه من المهاجرين والأنصار حتى اصطفّ الجيشان

وتقابل جيش الحقّ مع زمرة المتمرّدين والمخالفين وطلبت منهم الكفّ عن التمردّ والعناد والعوده إلى البيعه والوفاء بالعهود، وقد أتممت عليهم الحجّه ولكنهم لم يقبلوا إلّما بالقتال، وما كان من أمر المعركة ما كان ودارت عليهم الدائره وجرح بعضهم وفرّ الآخرون، وقد أمرت أن لا- يجهز على المجروحين ولا يتمّ تعقيب الهاربين وكل من ألقى سلاحه على الأرض ورجع إلى داره وأغلق بابه عليه فهو آمن(١).

ثم إنّ الإمام عليه السلام في هذه المقطع من الرساله الذي ينقله السيّد الرضّي يقول محذراً بجملتين ذات معنى عميق: «وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمِهِ (٢) وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى لِمَنْ فَوْقَكَ».

التعبير أعلاه يبيّن رؤيه الإسلام للمناصب الحكوميه والمسؤوليات التي تقع على عاتق أصحاب الشأن السياسي، ومن وجهه نظر الإسلام أنّ رئيس الحكومه، الوزراء، الأمراء، والولاة، ليسوا سوى اماناء يتولّون إداره أمور المجتمع الإسلامي ويتحمّلون الأمانه الإلهيه في هذا الشأن، فلا ينبغي استخدام هذه المناصب وسيله لاحتراز التفوق وتغليب المصالح الشخصيه والتوصّل إلى المآرب الذاتيه والفئويه بل ينبغي مراعاة هذه المسؤوليه كالشخص الأمين الذي يجب عليه إعاده الأمانه سالمه إلى أهلها.

وقد ورد هذا المعنى في روايات عديده في تفسير الآيه الشريفه: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» (٣)، فإنّ هذه الأمانه هي الولايه وحكومته الأولياء الصالحين(٤).

وطبعاً أنّ تفسير هذه الآيه لا يعنى أنّ مفهوم الآيه ينحصر في أمر الحكومه

ص: ٥٨

١- (١). نهج البلاغه الكامل، ص ٨٠٣؛ وقعه صفين، ص ٢٠.

٢- (٢). «طعمه» تعنى الشىء المطعوم والمأكول، ولكن تأتي على سبيل الكنايه، مثلاً يقال عن الشخص الفلاني خبيث الطعمه، يعنى أنّ كسبه وعمله غير مشروع، وفي الرساله أعلاه وردت بمعنى ما يعتاش به الإنسان.

٣- (٣). سوره النساء، الآيه ٥٨.

٤- (٤). انظر: تفسير نور الثقلين، ذيل الآيه المذكوره؛ والكافي، ج ١، ص ٢٧٦ باب أنّ الإمام يعرف الإمام الذي يكون من بعده.

والإمامه، بل هي من المصاديق البارزه والمهمه لهذا المفهوم الأخلاقي الواسع.

ثم إن الإمام عليه السلام بعد أن يتقدم للأشعث بهذا الإنذار يبين ثلاث وظائف له بوصفه والياً، فيقول أولاً: «لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ (١) فِي رَعِيَّتِهِ (٢)».

بل يجب عليك العمل وفق الموازين الإلهيه وما ورد في تعاليم الإسلام عن حقوق الله، لا أن تتصرف كما يحلو لك، وتتعامل مع الرعيه كما يتعامل السيد مع عبده.

ثم إن الإمام عليه السلام يقرر الأمر الثاني ويقول: «وَلَا تُخَاطِرُ إِلَّا بِوَثِيْقِهِ». أي أنه لا ينبغي لك في الأعمال المهمه والخطيره أن تسرع وتقدم عليها بدون اطمئنان من النتائج.

ومع الالتفات إلى أن جملة «وَلَا تُخَاطِرُ» من ماده خطر، وأن كلمه خطير تستخدم للأمور المهمه بسبب الأخطار المترتبه عليها، فيكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو اجتناب الإقدام على أي عمل مصيري للناس والمجتمع إلا بعد التأمل والدقه والمشوره، وإذا لزم الأمر يجب الاستئذان من الإمام والقائد الأعلى، لأنه من أجل حفظ الأمانات المهمه لابد من الامتناع من أي عمل خطير، وعلى ضوء ذلك فإن مفرد «وثيقه» تستوعب في مضمونها التفكير والتأمل وكذلك المشوره والاستئذان من الإمام عند اللزوم.

وفي الأمر الثالث الذي أكد عليه الإمام عليه السلام فيما يتصل بحفظ الأموال وبيت المال،

ص: ٥٩

١- (١). «تفتات» في الأصل من ماده «فوت»، التي تأتي أحياناً بمعنى فقد الشيء وأخرى بمعنى السبق، وطبقاً للمعنى الثاني عندما تأتي من باب افتعال تعني الاستبداد والتزمت بالرأى، وكأنه يسبق الآخرين في اختيار مقصوده، ويحتمل أيضاً أن هذه المفرده من ماده «فأت» (بالهمزه)، وتأتي أيضاً بمعنى التفرد والاستبداد.

٢- (٢). «رعيه» صفه مشبهه بمعنى المراعاة، من ماده «رعى» وهي في الأصل تعني رعى الأغنام والذي يقترن عادة بالمراعاة والمحافظة عليها، وهذا التعبير يشير إلى أن الدوله في الحكومه الإسلاميه مكلفه بخدمه الناس والمحافظة عليهم ومراعاة حقوقهم، وقد ورد في الحديث النبوي المعروف: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» وهو إشاره إلى هذا المعنى، أي أن جميع الناس يجب أن يرعى أحدهم الآخر ويتعامل معه من موقع المسؤوليه ومراعاة الحقوق والواجبات، والحديث المذكور ورد في بحار الأنوار وجامع الأخبار وفي كتب أهل السنه صحيح البخاري و مسند أحمد ومصادر أخرى).

قال عليه السلام: «وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ».

وفى نهايه هذه الرساله يثير الإمام على عليه السلام فى نفس واليه الطمأنينه بأنه إذا سار فى الخطّ السليم وحفظ هذه الأمانه الإلهيه ورعى شؤون هذه المسؤوليه فالإمام عليه السلام لا- يتعرض له بأى مكروه وسيكون فى أمان من المؤاخذه، يقول: «وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرًّا وُلَاتِكَ لَكَ وَالسَّلَامُ».

وبديهى أنّ هذا التعبير زاخر بالتواضع ومفعم بالأبوه.

تأملات

١. دستور كامل

اللافت أنّ الإمام عليه السلام فى هذا المقطع القصير من الرساله بين جميع ما ينبغى عمله لمسؤول سياسى فى الحكومه الإسلاميه، ففى البدايه بين حقيقه منصبه وماهيه هذه المقام ليعيش الوالى الوعى الكامل بمقتضيات هذا المقام وأنه ليس سوى أمين لا حاكم متسلط على رقاب الناس.

ثم يلفت الإمام عليه السلام النظر إلى أول شىء يصيب الولاه فى عمليه الحكم وهو مسأله الاستبداد بالرأى وترجيح الرغبات الشخصيه والرؤى الذاتيه على منافع الناس ومصالح الأُمّه، وخاصّه أنّ الإمام عليه السلام استخدم فى هذه العبارة مفرد «الرعيه» التى توحى بمفهوم ضروره مراعاة هذه الطبقة ولزوم النظر فى مصالحهم وتقديم النفع الجمعى فى سلم الأوليات.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يأمر واليه بأن لا- يحسب الأمور الاجتماعيه المهمه كالأُمور الشخصيه، فلا ينبغى أن يتسرع فى اتخاذ التدابير الخطيره بدون النظر إلى أبعادها وآثارها فى المجتمع، وأن لا يتصرف من دون الاطمئنان والنظر إلى عواقبها وتداعياتها.

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام إلى أحد العوامل التى تؤدى إلى فساد وانهيار الحكومات وهى مسأله الأموال والثروات العامه واعتبر هذه الأموال «مال الله» وهذا هو التعبير

الذى ورد فى القرآن الكريم عندما تحدّث عن العبيد الذين تحرّروا من ربقة الرّق والأمر الشرعى بإعطائهم المال الكافى لمزاولة العمل والكسب وأداء ديونهم فقال تعالى: «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ» (١).

ثم إنّ الإمام عليه السلام يأمر واليه بوصفه أميناً وخازناً لمال الله ويأمره بالمحافظة على هذا المال إلى أن يصل بيد الإمام ويتم توزيعه على مستحقّيه.

وفى ختام الرسالة يثير الإمام عليه السلام الاطمئنان فى نفس واليه أنّه لو لم ينحرف عن جادّه الصواب ومسير الحقّ فإنّه سيكون فى أمان من المؤاخذة والعقوبة، ولكنّ الإمام عليه السلام فى ذات الوقت يحذّر من معبته عدم العمل بالنصائح الثلاث المذكوره لهذه الرسالة وأنّه ينبغى للأشعث أن ينتظر العواقب السيئه من جرّاء عدم امتثال الأوامر.

ومما يجدر ذكره أنّ نصر بن مزاحم يذكر فى كتاب «صفين»: «لما كتب عليه السلام إلى الأشعث مع ماضيه الأسود، قال الأشعث لأصحابه: قد أوحشنى وهو آخذنى بمال آذربايجان، وأنا لاحق بمعاويه، فقالوا: الموت خير لك من ذلك، أتدع مصرك وجماعه قومك وتكون ذنباً لأهل الشام، فسار حتّى قدم عليه عليه السلام». فانتبه الأشعث إلى خطئه وجاء أخيراً إلى الإمام عليه السلام وسكن فى الكوفه» (٢).

٢. من هو الأشعث بن قيس؟

تقدّم فى الجزء الأول من هذه الدوره وفى ذيل الخطبه ١٩ أنّ الإمام علىّ عليه السلام كتب رساله شديده اللهجه للأشعث بن قيس، وكتبنا شرحاً وافياً عن حال الأشعث واسمه الحقيقى، معدى كرب وبسبب شعره الجعد سمى بالأشعث بحيث غلب على اسمه الأصليّ وبقي هذا الاسم الثانى متداولاً ومعروفاً بين الناس.

وللأشعث ماضٍ أسود وسوابق سيئه كثيره، فقد ارتكب الكثير من الجرائم فى

ص: ٦١

١- (١). سورة النور، الآيه ٣٣.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه العلّامه التستري، ج ٨، ص ٧.

عصر الجاهلية وتم أسرهم من قبل أعداء قومه واضطرّ قومه إلى دفع مبلغ كبير كفديته لتحريره من الأسر.

أمّا تاريخه المظلم فيشير إلى أنّه كان من المنافقين، وكان في زمان حكمه الإمام عليّ عليه السلام - كما يذكر ذلك بعض المؤرّخين - الأساس والأصل لجميع المفسد والخلل في المجتمع الإسلاميّ، وقد عمل مع عمرو بن العاص في حرب صفّين لإيجاد النفاق والبلبله في صفوف جيش الإمام عليه السلام.

وقد نُصّب الأشعث بن قيس والياً على آذربايجان، وبعد ذلك أبقاه الإمام عليه السلام في منصبه - طبقاً لروايه - مداراه له لئلا يتوجّه إلى الشام ويلتحق بمعاويه.

واللافت أنّ أبابكر زوج اخته ام فروه للأشعث ليأمن خطره، ولدت له هذه المرأه ثلاثه أبناء أحدهم محمّد الذي كان أحد قادة جيش ابن زياد في كربلاء لمواجهه الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وكانت للأشعث بنت تسمى جعده، ونعلم جميعاً أنّها زوجة الإمام الحسن عليه السلام وقد أقدمت على قتل الإمام الحسن المجتبي عليه السلام بالسّم، ومعلوم أنّ الأشعث أيضاً كان من الأشخاص الذين اشتركوا في قتل أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام (١).

ونختم هذا الكلام بحديث عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حول الأشعث حيث قال عليه السلام مخاطباً الناس: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْأَشْعَثَ لَا يَزِينُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعْضِهِ وَإِنَّهُ أَقْلٌ فِي دِينِ اللَّهِ مِنْ عَفْطِهِ عَنز» (٢).

والجدير بالذكر أنّ الأشعث أصبح والياً على آذربايجان في عهد خلافة عمر ابن الخطاب وبقي في هذا المنصب في عهد عثمان وكذلك بقي فيه لمدّه معينه من خلافة الإمام عليّ عليه السلام.

ص: ٦٢

١- (١) انظر: الكافي، ج ٨، ص ١٦٧، ح ١٨٧.

٢- (٢) . بحار الانوار، ج ٢٩، ص ٤٢٠ ولمزيد التوضيح في ترجمه الأشعث راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبه ١٩.

٣. آذربايجان في خارطة البلاد الإسلاميّة سابقاً

يستفاد من كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري و «تاريخ الطبري» و «معجم البلدان» للحموي بشكل إجمالي أنّ منطقه آذربايجان تمّ فتحها في عام ٢٠ للهجره تقريباً ودخلت في دائره البلاد الإسلاميّه، ولكن لم تمض فتره وجيزه حتّى قامت جماعه من الأقبوام المعاديه واستولت على تلك المنطقه، فبعث الخليفه الثاني الأشعث بن قيس واستطاع فتحها مرّه ثانيه وبقى الأشعث والياً على تلك المنطقه.

أمّا حدود آذربايجان في ذلك الوقت فكانت أوسع من آذربايجان الحاليه حيث كانت تضمّ مضافاً إلى مدينه تبريز، خويي سلمان وأروميه وأردبيل ومناطق من كيلان ومازندران أيضاً وكانت تمتد من جهه الغرب إلى الحدود الرسميه الحاليه، يقول الحموي: «تعتبر هذه المنطقه مملكه عظيمه وتتمتع ببركات كثيره وهي منطقه خضراء وفيه المياه وفيها عيون كثيره» ويقول اليعقوبي في تاريخه: «إنّ معاويه كان يستلم في كلّ عام ثلاثين ألف ألف درهم من خراج آذربايجان، وهذا يشير إلى وسع تلك المنطقه ووفره خيراتها»(١).

ص: ٦٣

١- (١). انظر إلى كتاب تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٣ و تاريخ الطبري في حوادث سنه ٢٢ و كذلك معجم البلدان الحموي، ج ١، ص ١٢٨ وفتوح البلدان للبلاذري، ج ٢، ص ٤٠٠.

إلى معاويه (١)

نظرة إلى الرسالة

كان الإمام علي عليه السلام يهدف من خلال هذه الرسالة إلى إتمام الحجّه على معاويه من خلال عدّه أمور:

الأول: إنّ بيعته من قبل المهاجرين والأنصار حال بيعه الناس للخلفاء السابقين (بل أفضل منها من جهات معيّنه) وعلى هذا الأساس لا يحقّ لأيّ شخص مخالفه هذه الحكومه الشرعيه ويجب على الجميع الامتثال والطاعه والعمل على التنسيق معها لإداره الأمور.

الثاني: إنّ الأشخاص الذين يقطنون في المناطق البعيده من منطقته البيعه يجب عليهم حال وصول خبر بيعه المهاجرين والأنصار لشخص معيّن أن يبايعوا بدورهم

ص: ٦٥

١- (١). سند الرسالة: تمثّل هذه الرسالة مقطعاً من رساله مطوّله أرسلها الإمام عليه السلام لمعاويه وبعثها مع «جرير بن عبد الله البجلي» وفي جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضى، نصر بن مزاحم في كتاب صفين، ابن قتيبه في الإمامه والسياسه، وابن عبد ربه في العقد الفريد. مضافاً أنّ الطبري في تاريخه ينقل هذه الرسالة ويذكر قصّه مفصّله عنها في الجزء الثالث من تاريخه في حوادث سنه ٣٦. وابن عساكر في تاريخ مدينه دمشق في شرح حال معاويه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٠٩).

كما بايعوا فى الماضى.

الثالث: إنَّ كلَّ شخص إذا أراد الخروج من دائره هذه البيعه يجب إعادته إلى الطاعه، فإن امتنع وقاوم وتمرد على الحكومه الشرعيه فيجب على المسلمين التصدى له ومقاتلته.

الرابع: إنَّ جعل قتل عثمان ذريعه للتمرد وعدم البيعه أمر غير صحيح وغير معقول، لأنَّ الإمام على عليه السلام لم يتدخل إطلاقاً فى قتل عثمان.

وفى الختام وطبقاً لما ورد فى كتاب نهج البلاغه، يدعو الإمام على عليه السلام معاويه أن يبايع رسوله ووكيله جرير بن عبد الله ويعمل على إطفاء نار الحرب والفتنه بهذا العمل.

ص: ٦٦

إِنَّهُ يَا يَعْنِي الْقَوْمَ الَّذِينَ يَأْيَعُوا أَبِيَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمَهْرَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَيَّمُوهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا، فَإِنِ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْنٌ أَوْ بَدَعَهُ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنِ أَبِي قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى. وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةَ، لَئِن نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عَزْلِهِ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى؛ فَتَجَنَّنَا مَا بَدَأَ لَكَ! وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

تقدّم في بيان سند هذه الرسالة أنّ ما أورده السيّد الرضويّ من هذه الرسالة يمثّل مقطعاً من رساله مطوله أرسلها الإمام عليّ عليه السلام بعد واقعه الجمل إلى معاوية بيد جرير بن عبد الله البجلي وهو من مشاهير الصحابه.

وفي بدايه هذه الرسالة كما أوردها صاحب نهج البلاغه الكامل رقم الكتاب ٢٩ ولم ينقله السيّد الرضويّ، جاء فيه أنّ الإمام بعد الحمد والثناء قال: «إِنَّهُ يَا يَعْنِي الْقَوْمَ الَّذِينَ يَأْيَعُوا أَبِيَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ».

واللافت أنّ الإمام عليه السلام لم يشر في هذا المورد لا إلى مسأله الغدير ولا إلى وصيّته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حقّه والروايات الكثيره الوارده في إمامته وولايته على المسلمين، لأنّ معاويه يستطيع، إنكار كلّ هذه النصوص الجليّه، ولكنّ مسأله خلافه

الخلفاء السابقين لم تكن مسأله قابله للانكار، وفي الحقيقه أنّ استدلال الإمام عليه السلام استدلال جدليّ كما في الاصطلاح، حيث يتخذ المتكلم مسلّمات ومقبولات الطرف المقابل ويستدلّ بها ضده، ومن هذا المنطلق بما أنّ معاويه كان يرى نفسه من ولاه الخلفاء السابقين أبوبكر، عمر، وعثمان، فإنّه لا يستطيع إنكار مشروعيه خلافتهم وكيفيه وصولهم إلى سدّه الحكم والخلافه، وهذا الأمر هو ما وقع أيضاً للإمام عليّ عليه السلام في خلافته بصوره أكمل وأتم، فإنّ عموم المهاجرين والأنصار بايعوا الإمام عليّ حتى طلحه والزبير اللذين نكثا البيعه بعد ذلك كانا من أوائل المبايعين للإمام في أمر الخلافه، وكانت السنّه جاريه في ذلك العصر أنّ المهاجرين والأنصار في المدينه إذا اختاروا شخصاً للخلافه فيجب على الغائبين والبعيدون عن المدينه أن يتبعوا المهاجرين والأنصار في مركز الخلافه، وعلى هذا الأساس لا يمكن لمعاويه أن يعترض على استدلال الإمام عليه السلام في هذا الأمر.

ومن هنا فإنّ الإمام عليّ عليه السلام يقول في هذا السياق: «وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَيَّ رَجُلٍ وَسَيَمُوهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستنتج من ذلك ويقول: «فَإِنِ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطَغَنٍ أَوْ بَدَعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنِ أَبِي قَاتَلُوهُ عَلَيَّ اتَّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى».

وكما أسلفنا أنّ هذا الاستدلال يتسم بالمنهج الجدليّ والاستفاده من مسلّمات الطرف المقابل في دحض حجّته، فلا ينبغي استنباط هذا المفهوم وهو أنّ الإمام عليه السلام ترك مسأله الإمامه المنصوبه وذهب إلى أنّ الإمامه هي من اختيار الناس لا من شؤون البارئ تعالى وليست بوسيله التنصيب الإلهيّ كما تصوّر ذلك بعض شراح نهج البلاغه، بل إنّ الطريق الوحيد للاستدلال في مقابل معاويه لا يمكن بغير هذا المنهج الجدليّ، ونرى كثيراً من قبيل هذا النحو من الاستدلال في القرآن الكريم فيما يخصّ المجادله مع المشركين.

وفي مقطع آخر من هذه الرساله يذكر الإمام عليه السلام مسأله قتل عثمان التي جعلها

معاويه ذريعه للتمرد في مقابل الإمام عليه السلام كما سبقه بذلك طلحه والزبير أيضاً، يقول الإمام عليه السلام: «وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةَ، لَيْسَ نَظَرْتُ بِعَقْدِكَ دُونَ هَيَوَاكَ لَتَجِدُنِي أُبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عَزْلِهِ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى (١)، فَتَجَنَّ (٢) مَا بَدَأَكَ، وَالسَّلَامُ».

إن من القضايا العجيبه في تاريخ صدر الإسلام أن جماعه كانوا في زمن خلافه عثمان قد رفعوا لواء المخالفه الشديده له، وحتى كان لهم دور مباشر أو غير مباشر في قتله، ولكن بعد مقتل عثمان تغير مسارهم فجأه وأخذوا يطالبون بدمه وبالثأر له ويذرفون عليه وعلى مظلوميته دموع التماسيح، ومثل هذا التغيير في المسار لا يعدّ أمراً عجبياً في أمر السياسه، ولكن كيف يمكن تبرير مثل هذه السلوكيات عندما تصدر ممن يدعون الإسلام ويعتبرون أنفسهم من قادة المسلمين؟

إن حادثه قتل عثمان والعوامل التي أدت إلى إثارة الناس ضدّه وكذلك الحوادث التي وقعت في هذه القضيه التاريخيه، وكذلك مسأله إجبار الثوار عثمان على التوبه واعتزال الخلفه وقبول عثمان للتوبه وعدم قبوله الاعتزال عن مقامه وكذلك دفاع أميرالمؤمنين عليه السلام عنه ومنع الثوار من قتله لثلاثه تسع دائره الفتنه وتعم جميع مناطق البلاد الإسلاميه، وأيضاً كيفيه قتل عثمان والحوادث التي وقعت بعد مقتله كلّها تعدّ من المسائل المهمه في تاريخ الإسلام، التي تستدعي الدقه والتمعن لاكتشاف الحقائق الكامنه في طيات التاريخ لهذه الوقعه.

وقد أسلفنا في البحوث السابقه بعض الأمور عن حقيقه ما جرى في هذه الوقعه في الجزء الأول من هذه المجموعه في شرح الخطبه الشقشقيه وكذلك الجزء الثاني ذيل الخطبه الثلاثين، وكذلك ذيل الخطبه ٤٣ أيضاً.

ص: ٦٩

١- (١). «تجنّى» في الأصل من ال «جنايه»، وإذا كانت من باب تفعل فإنّها تعني أنّ شخصاً يريد أن يلقي بالجريمه على الآخر في حين أنّ ذلك الشخص لم يرتكبها وهذا هو معنى التهمه.

٢- (٢). «تجنّ» هذه المفرده فعل أمر من «تجنّى» كما سبق ذكره ومفهوم الجمله أنّك يا معاويه تعلم بأنّ انتساب قتل عثمان إلى مجرّد تهمه فإذا كان الأمر كذلك فقل ما شئت وتحذث بما بدا لك.

تأمل: لماذا استدلّ الإمام عليه السلام بالشورى والبيعة؟

نعلم أنّ المسلمين قد اختلفوا في مسألة الإمامه والخلافه بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على رؤيتين: فطبقاً لعقيدته الشيعيه فإنّ الإمامه والخلافه بالنصّ، أى أنّ تعيين الإمام والخليفه بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يكون بالنصّ الإلهي من خلال بيان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهناك آيات قرآنيه تؤيد هذه الرؤيه وكذلك الأحاديث الشريفه الوارده في هذه المجال من قبيل حديث الغدير، المنزله، حديث الثقلين، مضافاً إلى أنّ الشيعه يقيمون أدلّه عقليه على هذه المسأله ليس هنا مجال لاستعراضها(١).

ولكن أهل السنّه ذهبوا إلى مقوله الشورى حيث يعتقدون بأنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ترك تعيين الخليفه بعده للأمه وقد تمّ تعيين الخليفه بعد النبي صلى الله عليه وآله من خلال شورى المهاجرين والأنصار وبيعه المسلمين وقد اتخذ أبو بكر لهذا المقام في سقيفه بنى ساعده بحضور ثله قليله من المهاجرين والأنصار، وأما عمر بن الخطاب فقد أصبح خليفه بتعيين من أبي بكر وانتخب عثمان بالخلافه بأربعة آراء من أعضاء الشورى السنّه الذين اختارهم عمر لهذا الغرض، وأما الإمام عليّ عليه السلام فقد بويع بعد مقتل عثمان من قبل المهاجرين والأنصار وجمهور المسلمين عامه.

أمّا أنصار مدرسه الشورى فإنّهم عندما يصلون إلى الخطبه الشقشقيه التي تثير علامات استفهام على خلافه الخلفاء الثلاثة الأوائل، فإنّهم يعترضون تاره على سند الروايه وأخرى على دلالتها، ولكن عندما يصلون إلى الرساله السادسه المذكوره أعلاه، يشرحون صدرهم لها ويستقبلون ما ورد فيها ويعتبرونه دليلاً على حقّانيه مذهبهم ورأيهم في مسألة الخلافه في حين أنّ كلّاً من هذه الرساله وتلك الخطبه للإمام عليّ عليه السلام.

والنقطه المهمه هنا هي أنّه لا بدّ من الأخذ بنظر الاعتبار المخاطب للكلام

ص: ٧٠

١- (١). ولمزيد من هذه الأدله القرآنيه والروايه والعقليه راجع نفاحات القرآن، ج ٩.

والنصّ، لأنّ عقائد المخاطب وأفكاره وتوجّهاته مؤثّره كثيراً في كيفية بيان المتكلّم، ففي الخطبه الشقشقيه نرى أنّ المخاطب لها عموم الناس، ولكن المخاطب لهذه الرساله هو معاويه نفسه.

كيف يمكن للإمام عليه السلام أن يستدلّ في هذه الرساله على حقيته في مقابل معاويه بالنصّ، وهذا هو الشيء الذي يخالفه معاويه من الأساس، لا بدّ من الاستفاده من دليل يعجز عن إنكاره، ويجد نفسه مضطراً للتسليم أمامه، وليس ذلك سوى مسأله الشورى، أي الشورى التي انتخب على أساسها الخلفاء السابقون الذين نصبوا معاويه في زمن خلافتهم على الشام.

وهذا هو الشيء الذي يعبر عنه في علم المنطق بفنّ الجدل، وهو بأن يتمسك المستدلّ بمسلّمات الخصم ويستدلّ بها ضده وإن كان لا يعتقد بها أو ليست مسلّمه لديه.

وهذا من قبيل أن نستدلّ بالتوراه والإنجيل الحاليين في مقابل اليهود والنصارى، وأنّه طبقاً لما ورد في الآيه الفلانيه في السفر الفلاني من كتابكم المقدّس فإنّ العقيدته التي تعتقدون بها في هذا الشأن باطله، مثلاً نقول: أنتم أيها المسيحيون تعتقدون بأنّ عيسى عليه السلام صلب ومات ودفن، وبعد عدّه أيام بعث من قبره ورفع إلى السماء، وطبقاً لهذه العقيدته يجب القبول بمسأله رجعه الإنسان إلى هذه الحياه الدنيا رغم أننا لا نعتقد بمقتل المسيح عليه السلام.

وقد ورد في القرآن الكريم مثل هذا النمط من الاستدلال، من قبيل ما ورد في قصه إبراهيم عندما وقف أمام عبده النجوم والقمر والشمس وقال لهم: «هذا ربّي» أو «هذا ربّي هذا أكبر»^(١)، فقد وافقهم ظاهراً على ما يعتقدونه وما هو من المسلّمات لديهم، ولكن عندما أفلت هذه الكواكب استدللّ إبراهيم عليه السلام من افولها وغروبها على أنّها حادثه ومخلوقه، وبذلك أبطل حجّتهم وأجهض مزاعمهم.

ومن العجيب أنّ ابن أبي الحديد بالرغم من أنّه سلك مسلك الاعتدل في الكثير

ص: ٧١

١- (١). سورة الأنعام، الآيتان ٧٧ و ٧٨.

من المسائل، عندما يصل إلى هذه الرسالة يقول: «إعلم أنّ هذا الفصل دالٌّ بصريح العبارة على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامه كما يذكره أصحابي المتكلمون (أهل السنّه...) فأما الإماميّة فتحمل هذا الكتاب منه عليه السلام على التقيّه وتقول: إنّ ما كان يمكنه أن يصرّح لمعاويه في مكتوبه بباطن الحال ويقول له: أنا منصوص علىّ من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعهود على المسلمين أن أكون خليفه فيهم بلا فاصله، فيكون في ذلك طعن على الأئمّه المتقدّمين...»(١).

إنّ خطأ ابن أبي الحديد هو أنّه أوّلاً: لم يلتفت إلى مخاطب هذه الرسالة أبداً، وهو معاويه.

وثانياً: أنّه خلط بين مسأله الجدل ومسأله التقيّه، فالشيعة لا يقولون إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد سلك مسلك التقيّه في مقابل معاويه، بل يقولون: إنّ استدلال بما لا يمكن لمعاويه إنكاره ومخالفته، أي أنّ الإمام استدللّ بالأمر المسلّمه لدى معاويه ضدّه، وقد ورد في نهج البلاغه عبارات أخرى شبيهه أيضاً بما ذكر أعلاه، ويتبيّن جواب الجميع ممّا قلنا آنفاً ولا حاجة للتكرار.

ص: ٧٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٤، ص ٣٦ و ٣٧.

نظره إلى الرساله

تقدم في بيان مدرك هذه الرساله أنها وقعت جواباً على رساله كتبها معاويه للإمام عليه السلام في أواخر معركة صفين وكانت رساله معاويه تتضمن الوقاحه وعدم رعايه الأدب وتشير إلى نقاط مختلفه أهمها عدم الاعتراف ببيعه المسلمين للإمام عليه السلام بذريعه أن أهل الشام لم يحضروا هذه البيعه ولم يوافقوا عليها، وقد أجاب الإمام جواباً حاسماً على كل هذه التقولات والكلمات اللامسؤوله (٢).

ص: ٧٣

-
- ١- (١) . سند الرساله: من جمله الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله قبل السيد الرضى ابن أعثم الكوفى في كتاب الفتوح والمبرد في الكامل ونصر بن مزاحم في كتاب صفين، هؤلاء نقلوا الرساله مورد البحث بتفاوت يسير، وهذه الرساله في الحقيقه رساله جوابيه أرسلها الإمام عليه السلام إلى معاويه جواباً على رسالته المليئه بالعبارات الوقحه والكلمات المنكره في أثناء معركة صفين، بل كتبها في أواخر هذه الحرب (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢١١).
- ٢- (٢) . سيأتى ذكر رساله معاويه في نهايه هذا البحث.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَيْتَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقَتْهَا بِضَمِّ لَمَالِكٍ، وَأَمُضَتْ بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكِتَابٌ أَمْرِي لَيْسَ لَهُ بَصِيرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لَأْغِطًا، وَضَلَّ خَاطِبًا.

وَمِنْهُ: لِأَنَّهَا بَيَّعَهُ وَاحِدَةً لِأَيْتَنِي فِيهَا النَّظْرُ، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ.

الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّى فِيهَا مُدَاهِنٌ.

الشرح والتفسير: موعظه الضالين!

بما أن معاويه قد تمسك في رسالته للإمام عليه السلام ببعض الآيات القرآنية ليعض الإمام عليه السلام بالتقوى والورع!! منها قوله تعالى: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (١). وهذه الآية كما هو معلوم ليس لها أى إرتباط بادعاءات معاويه الباطلة، ولذلك يقول الإمام عليه السلام فى مطلع رسالته له:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَيْتَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ (٢)، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ (٣)، نَمَّقَتْهَا (٤) بِضَمِّ لَمَالِكٍ،

ص: ٧٥

١- (١) . سورة الزمر، الآية ٦٥.

٢- (٢) . «موصلة» تعنى أمور متنافرة وغير مرتبطة تم جمعها فى مورد واحد، وهى من ماده «وصل» أى ربط.

٣- (٣) . «محبرة» وتعنى تزيين الشىء من ماده «حبر» على وزن «ابر» وتعنى بفتح الأول التزين و «حبر» بكسر الأول تعنى الجمال.

٤- (٤) . «نمق» من «التنميق» بمعنى التزيين؛ ولكن الثلاثى لها «نمق» على وزن «نقد» تعنى الكتابه، وعندما تأتى من باب التفعيل

تعنى التزيين.

وَأَمْضَيْتَهَا (١) بِسُوءِ رَأْيِكَ».

والتعبير ب (مُؤَصَّلَةً) إشاره إلى عدم التجانس المشهود في رساله معاويه حيث يتمسك ببعض الآيات القرآنيه التي ليس لها أى علاقته بالمقصود، ومن جهه أخرى يتهم الإمام عليه السلام بشق عصا المسلمين وإيجاد الاختلاف بين الأمه، في حين أنّ كلماته وعباراته تعتبر مصداقاً بارزاً لإثاره الخلاف وإيجاد الفتنة في المجتمع الإسلامى.

وعباره (رِسَالَهُ مُحَبَّرَةٌ) (مع الالتفات إلى أنّ «محبره» تعنى التزيين والتنميق) إشاره إلى أنّ معاويه كان يسعى بأى وسيله ممكنه إلى إظهار أنّ الحقّ بجانبه، فأحياناً يتحدث عن يوم القيامة والعذاب الإلهي، وأخرى عن مصالح المسلمين، وثالثه يتمسك بالآيات القرآنيه للدفاع عن مواقفه المتهرئه.

وجمله: (نَمَقَّتْهَا بِضَمِّ لَمَالِكٍ) إشاره إلى أنّ العبارات الجميله في الظاهر هي ذاتها العبارات والكلمات التي كان يتوصّل بها المنافقون الضالون لإظهار إيمانهم في مقابل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وجمله (أَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ) إمّا أن يكون المقصود بها أنّ إمضاء مثل هذه الرساله لا يصدر إلّا من الإنسان المنحرف والسائر في خطّ الضلاله والجهاله، أو يكون المعنى فيما لو أخذنا الإمضاء بمعنى الإرسال فيكون مفهومها أنّ فكرك المنحرف والباطل أجاز لك كتابه هذه الرساله الوقحه للإمام وقائد المسلمين.

وفي سياق كلام الإمام عليه السلام في رسالته، يبيّن الإمام مضمون رساله معاويه وشخصيته الانتهازية في عبارات قصيره وزاخره بالمعنى ويقول: «وَكِتَابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصِيرَةٌ يَهْدِيهِ، وَلَمَّا قَامَتْ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهُوَى فَأَحْرَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ (٢) لَأَغْطًا (٣)، وَضَلَّ خَابِطًا (٤)».

ص: ٧٦

١- (١). «أَمْضَيْتَ» من «الإمضاء» وتعنى الإرسال والإجراء والتنفيذ لشيء، وبما أنّ إمضاء السند أو الوثيقه يعتبر نوعاً من إنفاذها وإجرائها، فهذه المفرده تطلق على هذا العمل.

٢- (٢). «هجر» من ماده «هجر» على وزن «زجر» وتعنى الهذيان.

٣- (٣). «لاغط» من ماده «لغط» على وزن «وقت» بمعنى إثاره الفوضى واللغو والشغب.

٤- (٤). «خابط» من ماده «خبط» على وزن «وقت» وتعنى المتحير والسائر بدون هدف معين.

والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام في هذه الجمل الثلاث استفاد من التجانس بين الثنائيات بشكل لازم وملزوم، فيقول في الجملة الأولى: (لَيْسَ لَهُ بَصِيرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ) وقال في الجملة الثانية التي تعتبر نتيجة لما سبق: «قَدْ دَعَا الْهَوَى فَاَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ» وفي الجملة الثالثة التي تعتبر نتيجة للجملة الثانية يقول: «فَهَجَرَ لَأْغْطًا، وَضَلَّ خَابِطًا»، أى يتحدث في خبط وهذيان بسبب الضلاله والسير في متاهه الحيره، والحقيقه كذلك، لأنّ نور الهدايه إما أن ينبع من باطن الإنسان أو يحصل عليه الإنسان من خارجه من خلال التمسك بالقاده الإلهيين والمرشدين الصالحين، وفي غير هذه الصوره فإنّ الإنسان يعيش الظلمات الباطنيه والضلاله الخارجيه التي تنشأ بسبب مشوره الأشخاص المنحرفين والانتهازيين، وهكذا ينحدر الإنسان في هوه الضلاله ومنزقات الجهاله، فلا يملك حينئذٍ كلاماً منطقيّاً ولا تسير أعماله وفق التخطيط العقلانى المدروس.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشير في رسالته الجوابيه إلى أحد اشتباهات معاويه الكبيره التي ذكرها في رسالته، فقد كتب معاويه في رسالته أنّ بيعه المسلمين للإمام عليه السلام لم تكن صحيحه، لأنّ أهل الشام لم يقبلوا بها، فيقول الإمام في مقام الجواب: «لِأَنَّهَا بَيْعُهُ وَاحِدَةٌ لَا يَتَنَبَّأُ فِيهَا النَّظَرُ (١)، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ. الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرْوَى (٢) فِيهَا مُدَاهِنٌ (٣)»، يعنى أنّ بيعه الخلفه لا تقع سوى مرّه واحده غير قابله للتعديل ولا للتجديد.

وفي الحقيقه أنّ الإمام عليه السلام استدللّ في هذا المقطع بإحدى المسلّمات في مسأله الخلفه عند معاويه، لأنّه يعتقد بأنّ خلفه الخلفاء السابقين قامت على أساس آراء

ص: ٧٧

١- (١). «النظر» تعنى هنا التأمل والتدبر، يعنى أنّ البيعه بعد انعقادها غير قابله للتأمل والتشويه (هذا في صوره أن تكون «فى» متعديه).

٢- (٢). «مرؤى» الشخص الذى يشك ويتردد فى أمر ويفكر ويتأمل فيه وهى من «الترويه»، وتأتى أحياناً بمعنى شرب الماء وإزاله الظمأ، وأخرى بمعنى المطالعه والتأمل فى شىء.

٣- (٣). «مداهن» تعنى المتملق والمنافق والمتزلف.

المهاجرين والأنصار وأنّ الأشخاص الذين كانوا يعيشون بعيداً عن المدينة يجب عليهم احترام آراء المهاجرين والأنصار في المدينة وإتباعهم والقبول بمن اختاروه لهذه المقام، هكذا كانت سنّة الخلفاء السابقين، والإمام عليه السلام يقول: كيف تقبل برأى المهاجرين والأنصار وأهل الحلّ والعقد بالنسبة لما يتصل بالخلفاء السابقين، ولكنك تشكك في بيعتهم الآن مع أنّها أوسع وأشمل وأكثر امتداداً في الوسط الجماهيري من بيعه الخلفاء السابقين؟ أمّا عدم قبول أهل الشام فهذا يشير إلى أحد أمرين: إمّا أنّك ترى بطلان منهج الخلفاء السابقين، أو حالك حال المنافقين الذين يقبلون أحياناً بشيء وينكرونه أحياناً أخرى حسب المصالح وما تمليه عليهم مطامعهم الشخصية بعيداً عن واقع الإيمان وتعاليم الرساله.

فلو وجب انتخاب جميع المسلمين في مختلف مناطق البلاد الإسلاميّة لقبول حكومه الإمام عليّ عليه السلام وتحقق مشروعيتها فيلزمك أن تعتقد ببطلان حكومه الخلفاء السابقين وبالتالي فإنّ حكومتك تقتبس مشروعيتها منهم فستكون باطله أيضاً.

وأشار الإمام عليه السلام في جملة «لِأَنَّهَا بَيَعَةٌ وَاحِدَةٌ...» إلى حقيقة حاسمه ومسلّمه في التاريخ الإسلامي وهي أنّ البيعه كالبيع اللازم لا خيار فيه للفسخ ولا التكرار، فإذا وقعت البيعه فإنّها تقع مرّه واحده وللأبد.

تأمل: رساله معاويه لأمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام

مع الالتفات إلى أنّ رساله الإمام عليه السلام المذكوره آنفاً ناظره لرساله سابقه أرسلها معاويه للإمام عليه السلام، ومن هنا لزم نقل نصّ رساله معاويه المذكوره في كتب التاريخ رغم أنّها وقحه جدّاً وخاليه من الأدب، ولذلك نعتذر قبل ذلك للقراء الكرام وخاصّه من الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على إيراد مثل هذه الرساله والكلمات اللامسؤوله فيها:

«مَنْ عَبَدَ اللَّهَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:

أَمَّا بَعِيدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» إِنِّي أَحْذَرُكَ اللَّهُ أَنْ تُحْبِطَ عَمَلُكَ وَسَابَقَتْكَ بِشَقِّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَفْرِيقِ جَمَاعَتِهَا فَاتَّقِ اللَّهَ وَادْكُرْ مَوْقِفَ الْقِيَامَةِ وَاقْلَعْ عَمَّا أُسِرَفَتْ فِيهِ مِنَ الْخَوْضِ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «لَوْ تَمَالَأَ أَهْلُ صَنْعَاءَ وَعَدَنٍ عَلَى قَتْلِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَأَكْبَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ» فَكَيْفَ يَكُونُ حِيَالُ مَنْ قَتَلَ أَعْلَامَ الْمُسْلِمِينَ وَسَادَاتِ الْمُهَاجِرِينَ بَلَهُ مَا طَحَنَتْ رَحَى حَرْبِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَذَوَى الْعِيَادَةِ وَالْإِيْمَانِ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَشَابٍّ غَرِيرٍ كُلُّهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى مُؤْمِنٌ وَلَهُ مُخْلِصٌ سُوْلُهُ مُقَرَّرٌ عَارِفٌ فَإِنْ كُنْتَ أَبَا حَسَنِ إِنَّمَا تُحَارِبُ عَلَى الْإِمْرَةِ وَالْخِلَافَةِ فَلَعَمْرِي لَوْ صَيَّحَتْ خِلَافَتُكَ لَكُنْتَ قَرِيباً مِنْ أَنْ تُعِيدَ فِي حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ وَلَكِنَّهَا مَا تَصَحَّحَ لَكَ أَنِّي بَصَّحْتُهَا وَأَهْلُ الشَّامِ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا فَفَقَدُوا اللَّهَ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا كَالثَّمِيدِ فِي قَرَارِهِ الْعُدَيْرِ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ»(١).

هذه الرسالة المسيئة وغير المؤدبة من جهة، والسخيفة من جهة أخرى، تبين سوء طويته معاويه وبطلان رأيه لأنها أولاً: تتمسك بآية حبط الأعمال بسبب الشرك، في حين أنه لا يوجد في الموضوع أدنى كلام عن الشرك، وبالنسبة لشق عصا المسلمين وإيجاد الفرقه بينهم على فرض أن يكون صحيحاً لا يرتبط بمسأله الشرك، وهذا هو ما وصفه الإمام عليه السلام بأنه: «مَوْعِظَةٌ مَوْصَلَةٌ» أي أنه كلام متشئت وغير متجانس في مضامينه وعباراته.

ثانياً: إن الإمام عليه السلام في جوابه على هذه الرسالة والذي لم يذكره السيد الرضى في نهج البلاغه يقول: إنك أمرتني بالتقوى وأنا أرجو أن أكون من أهل التقوى ولكنني

ص: ٧٩

١- (١). مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢١١ ونقل ابن أبي الحديد هذه الرسالة أيضاً مع اختلاف يسير في: ج ١٤، ص ٤٢.

أعوذ بالله أن أكون ممن يأمر الناس بالتقوى وفي ذات الوقت يجزّهم إلى المعصية وطلب الدنيا (وأنت من هؤلاء).

ثالثاً: يقول الإمام عليه السلام في مقام الجواب عن مسأله حبط الأعمال وسابقته في الإسلام: إذا كنت قد خرجت مع الخارجين على عثمان فجدير بك هذا التحذير لى، ولكنى أرى الله تعالى يقول: «فَقَاتِلُوا النَّبِيَّ تَبِغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» (١). فيجب عليك النظر بعقلك دون هواك لتعرف من هم أهل البغى هل نحن أم أنتم؟ وبديهي أن أهل البغى هم أنت وجماعتك، لأن بيعتى وقعت في المدينة من قبل المهاجرين والأنصار وهي ملزمه لكم في الشام، كما أن بيعه عثمان في المدينة كانت ملزمه لكم أيضاً، في حين أنك كنت والياً على الشام من قبل عمر بن الخطاب، وكما أنها - بيعه عمر - كانت ملزمه لأخيك يزيد في حين أنه كان والياً على الشام من قبل أبي بكر.

ثم إن الإمام عليه السلام يجيب عن هذه النقطة التي ذكرها معاويه، وهي من هو المسؤول عن شق عصا المسلمين؟ ويقول: يجب أن احذرك وأنهاك عن هذا العمل، فقد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وآله بجهاد أهل البغى وخاطب أصحابه قائلاً: إن منكم من يجاهد على تأويل القرآن كما جاهد على تنزيله، وأشار إلى في كلامه هذا وكنت أول شخص أطاق رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الأمر.

ثم إن الإمام عليه السلام يستعرض الجواب عما تبقى من الرسالة وهو المقطع الذي ذكره السيد الرضى في «نهج البلاغه» وسبق أن شرحناه.

وعلى ضوء ذلك يتبين صدق الإمام عليه السلام وصراحته في موقفه من معاويه وكذلك، تتبين وقاحه وحمق معاويه من جهه أخرى.

وقد تمسك الطغاه على امتداد التاريخ بهذا المنطق المتلون، وقد أورد القرآن الكريم بيان جلي ذلك في قصه موسى عليه السلام وفرعون وذلك عندما دعا موسى عليه السلام الفراعنه للتوحيد وترك الظلم والجور وقال فرعون: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ

ص: ٨٠

يُظهِرُ فِي الْمَأْرُضِ الْفَسَادَ»^(١)، في حين أنّ المفسد الحقيقيّ في الأرض هو فرعون نفسه الذي كان يقتل حتّى الأطفال الأبرياء ويشقّ بطون الحوامل.

وفي ختام البحث يفرض علينا هذا السؤال نفسه، وهو أنّ معاويه مع علمه بكذبه في محتوى رسالته، وأنّه هو الذي شقّ عصا المسلمين وأثار الغبار حول إجماع المسلمين على البيعه، وهو الذي سلك طريق الانحراف والتمرد والطغيان على الحكومه الإسلاميّه، وإن كان له عمل صالح في الماضي فقد أحبطه بما ارتكبه من حرب طاحنه ضد أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه هو وأصحابه شركاء في قتل عثمان لا الإمام عليّ عليه السلام، إذن فلماذا يتخذ لنفسه شخصيّة محقّه ويكتب للإمام تلك الرساله الزاخره بالأكاذيب والدجل؟

ويتبيّن الجواب عن كلّ هذه الاستفهامات إذا عرفنا هذه الحقيقه، وهي أنّ معاويه لم يكتب في الواقع هذا الكتاب للإمام عليّ عليه السلام بل كتبه لاستغفال أهل الشام وخلط الأوراق، وبذلك يريد أن يقول لهم إنّني إنسان صالح وأرفع لواء الصلح والعداله، ولكن عليّ بن أبي طالب عليه السلام لا يستمع لكلامي ولا يرضخ لواقع العدل والحقّ، وفي الحقيقه أنّ عمله هذا يشبه ما قام به من رفع المصاحف على الرماح في معركة صفّين، ولم يكن معاويه وأصحابه يريدون تحكيم القرآن قطعاً، بل كانوا يريدون أن يخدعوا أهل الشام من جهه، ومن جهه أخرى العمل على إيجاد الفرقه والنفاق في جيش الإمام عليّ عليه السلام.

ص: ٨١

١- (١). سوره غافر، الآيه ٢٦.

الرساله ٨: إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية

إشاره

إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية (١).

نظره إلى الرسالة

إن مضمون هذه الرسالة بيّن وجليّ تماماً، فالإمام عليه السلام يريد من رسوله جرير أن يتمّ الحجّه على معاوية وأخذ البيعه منه، إذا أراد البيعه للإمام عليه السلام، وإن لم يكن مستعدّاً للبيعه، فعليه أن يكون مستعدّاً لقتاله.

ص: ٨٣

١- (١). سند الرسالة: من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضويّ، نصر بن مزاحم في كتاب صفين وابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢١١).

أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَضْلِ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيَّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِّيَةٍ، أَوْ سَلْمٍ مُخْزِيَةٍ، فَإِنْ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنْ اخْتَارَ السَّلْمَ فَخُذْ بِيَعْتَهُ، وَالسَّلَامَ.

الشرح والتفسير: حلّ المشكل بآليات الصلح

جاء في المصادر التاريخيه أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أرسل جرير إلى معاوية لأخذ البيعه منه بهذا الكتاب، وقد أوصل جرير هذا الكتاب لمعاوية، أخذ معاوية يسوّف بالأمر ويتباطأ في الجواب إلى أن ظنّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام به سوءً واتهموه بالتعاطف والتعاون مع معاوية، حتّى قال الإمام عليه السلام عنه: إنّ جريراً لبث عند معاوية طيله هذه المدّة فإمّا أن يكون مذنباً أو مخدوعاً.

ومن هنا كتب الإمام عليه السلام هذه الرسالة لجرير حتّى لا يطيل المسأله ويوصد بذلك باب المماطله على معاوية وطلب منه أن يلزم معاوية بأحد أمرين: فإمّا البيعه أو الحرب، فالإمام يقول في هذه الرسالة:

«أَمَّا بَعْدُ - بعد الحمد والثناء الإلهي - فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَضْلِ (١)، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيَّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِّيَةٍ (٢)، أَوْ سَلْمٍ

ص: ٨٥

١- (١). «الفصل» في الأصل بمعنى الفرقه والانفصال، ويطلع على الحكم القطعي الذي يصدر من القاضي وغير القاضي، لأنّه يفصل بين المتخاصمين ويميّز المسائل المشتبه بها.

٢- (٢). «مجليه» من «الإجلاء» بمعنى إخراج من الوطن وأصله من «جلاء» بمعنى الوضوح والظهور، ولذلك يطلق على الخروج من المدينه وكأنّ الشخص كان مختفياً فيها ومع خروجه يظهر ويبرز إلى العيان، و«الجلاء» بمعنى تلميع الشيء وصلقه، وكذلك نوع من ظهور اللون الحقيقي المستور تحت الصدأ.

مُخْزِيهِ (١)، فَإِنْ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ (٢) إِلَيْهِ، وَإِنْ اخْتَارَ السَّلْمَ فَخُذْ بِيَعْتَهُ، وَالسَّلَامُ».

وعندما وصلت هذه الرسالة لجريير في الشام سلمها بيد معاوية ونهض من مكانه وخطب بالناس وذكرهم بقضيه عثمان وأن جميع المسلمين بايعوا الإمام علي عليه السلام بدون تردد، يعني أننا لو خَلينا ومسأله الخلافه لم نكن نختار غير الإمام علي عليه السلام.

تأمل: من هو جريير بن عبدالله؟

يعتبر جريير بن عبدالله من مشاهير الصحابه، ومن قبيله بجيله من قبائل اليمن، وبجيله اسم امرأه معروفه فى تلك القبيله حيث سميت قبيلتها باسمها، وتاره يسمي الشخص بجلياً لانتمائه إلى هذه القبيله، وقد جاء جريير فى السنه العاشره للهجره إلى رسول الله صلى الله عليه وآله على رأس جماعه من مائه وخمسين رجلاً من قبيله بجيله، وأسلموا على يد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فاستقبله النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بكل احترام، وعندما مدّ يده للبيعه قال: أقبل بيعتك بشرط أن تشهد بالتوحيد وتؤمن بالنبوه وتقيم الصلاه وتؤتى الزكاه وتحب، الخير للمسلمين وتصوم شهر رمضان وتطيع إمام المسلمين.

وسأله النبى الأكرم صلى الله عليه وآله عن آله عن أوضاع منطقته، فقال جريير: لقد ظهر الإسلام فى هذه المنطقه وكسر الناس الأوثان، فقال: وما حال صنم «ذوالخلصه»؟

فقال: هذا صنم كبير بقى لحاله.

ص: ٨٦

- ١- (١). «مخزيه» من ماده «خزى» من باب افعال و «الخزى» تعنى الفضيحه والذله، ولعل أصلها من الفضيحه التى تسبب الذله، وذهب جماعه من أرباب اللغه إلى أن جذره الأصلي سوء حال النتائج من وقوع البلاء والفضيحه والذله.
- ٢- (٢). «فانبذ» من ماده «نبذ» على وزن «نصر» فى الأصل بمعنى القاء الشىء بعيداً لعدم اعتباره أو لكونه غير ذى قيمه، وأحياناً تأتي بمعنى الاعلام وكأنّ المتكلم يطرح الكلمات إلى الطرف المقابل سواء كان هذا امضاء لعهد أو اعلاناً لحرب أو شيئاً آخر، وفى الجمله أعلاه ورد بمعنى إعلان الحرب.

فأمر النبي الأمر بتحطيم هذا الوثن، فتوجه جرير مع مائتي نفر من قبيلته وبعد عدّه أيام رجع إلى النبي وقال: واللّه لقد حطّمته وأحرقتة أمام أعين عابديه.

وقد اشترك جرير مع قبيلته بجيله في معركة القادسيه، وكان سهمه كبيراً ومؤثراً في الفتح، وبعد ذلك نصبه عثمان والياً على منطقه همدان، وبعد قتل عثمان ووصول كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إليه دعا جرير الناس للبيعه للإمام عليّ عليه السلام، وبعد مدّه جاء إلى الكوفه، ولمّا كان يتمتّع بشهره لدى أهل الشام اختاره الإمام عليه السلام لإيصال رسالته إلى معاويه وبعثه إلى الشام، ولكنّه لم يستطع أداء مهمّته بشكل صحيح وعاد إلى الكوفه فظنّ به أهل العراق سوءاً واتّهموه بالتواطؤ مع معاويه، فاستاء جرير من ذلك وعزم على التوجّه إلى جزيره قرقيسا واختار العزله هناك وترك النشاط السياسي والاجتماعي.

ص: ٨٧

إلى معاويه (١)

نظرة إلى الرسالة

بما أنّ هذه الرسالة بمثابة جواب على رساله معاويه الوقحه والمهينه والملينه بالخبث والشيطنه فإنّ رساله الإمام عليه السلام هذه تجيب على شيطنه معاويه وخبثه وناظره إلى الكشف عن زيف مدّعياته وأباطيله.

في أحد مقاطع هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عندما قام بالدعوه ونشر الرسالة الإلهية همّت جماعه من المشركين من قريش بقتل النبيّ، إلّا أنّ الله تعالى أنقذه منهم ومنع عتاه قريش من إجهاض الرسالة،

ص: ٨٩

١- (١). سند الرسالة: يقول مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغه بعد بيان كيفية كتابه هذه الرسالة، هذه القصّه مشهوره في كتاب صفين لنصر بن مزاحم، وأمّا ما ذكره السيد الرضى فيمثّل قسماً ختامياً للرساله، ثمّ أضاف: وقد نقل هذه الرسالة كتاب آخرون أيضاً في كتبهم، ومنهم: ١. ابن عبد ربه في العقد الفريد. ٢. البلاذري في كتاب انساب الأشراف. ٣. الشيخ المفيد في كتاب الفصول المختاره وقد أورد مقطعاً منها. ٤. الخطيب الخوارزمي في كتاب المناقب (والجدير بالذكر أنّ الثلاثة المتقدمين كانوا يعيشون قبل السيد الرضى) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢١٧).

وأن قريش كانت تتصدّر المتمرّدين والمخالفين لهذه الدعوة الجديده.

وفى قسم آخر من الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقه وهى أنّ الرسول الأكرم عليه السلام كان يجعل أهل بيته فى ميدان القتال فى الخطّ الأول للمواجهه، وبذلك يحفظ أصحابه من الخطر من خلال توضّحه وجهاد أهل بيته وأرحامه، والشاهد على ذلك استشهاد حمزه وجعفر وآخرين من بنى هاشم فى ميادين الجهاد ضدّ قوى الكفر والباطل، وهذا الكلام فى الحقيقه جواب على ادّعاء معاويه فى رسالته أنّ غير بنى هاشم كالخليفه الأول والثانى كانوا من أكثر الناس تحرّفاً للدعوه الجديده واستعداداً للتضحيه والفداء فى سبيل الإسلام.

وفى المقطع الثالث من الرساله يظهر الإمام عجبته الشديد كيف أنّ الدهر جعله فى صفّ معاويه الذى لم يقدّم أىّ خدمه للإسلام ولا يملك أىّ سابقه فى الدين؟

وأخيراً وفى القسم الرابع من الرساله يتحدّث الإمام عليه السلام عن عدم قبوله لطلب معاويه فيما يخصّ تحويل قتله عثمان، لأنّه إذا تقرّر محاكمه وإنزال العقوبه بقتله عثمان، فهذا من شأن الحكومه الإسلاميه لا من شأن شخص متمرد على الحكومه.

والجدير بالذكر أنّ لمعاويه فى رسالته وجواب الإمام علىّ عليه السلام عليها حكايه مثيره ولا بأس من استعراضها من أجل الكشف بشكل أفضل عن مضمون رساله الإمام عليه السلام لمعاويه، والحكايه كالتالى:

«كان أبو مسلم الخولانى وهو من أهل اليمن قد أدرك عصر الجاهليه ولكنّه لم يؤمن بنبيّ الإسلام أبداً وكان يعيش فى الغالب فى الشام، وقد جاء إلى معاويه مع جماعه من أهل الشام قبل حركه الإمام علىّ عليه السلام باتجاه صقّين وطلب منه أن يجتنب قتال علىّ بن أبى طالب الذى يتمتّع بمقام شامخ ومنزله كبيره من جهه قرابته للنبيّ وسابقته فى الإسلام وهجرته، وقال له بأنك لا تملك مثل هذا الموقع الاجتماعى والدينى الممتاز.

وفى مقام الجواب عن كلامهم توّسل معاويه بهذه الدرعه، وهى أنّ علىّ بن

أبى طالب قد أجار قتله عثمان فلو أنه دفعهم إليه ليقترض منهم فإنه سيمتنع من قتاله، فطلب أبو مسلم وأتباعه أن يكتب هذا الطلب إلى الإمام علي عليه السلام في رساله ويبعثها إليه، فكتب معاوية رساله بهذه المضمون وسلمها إلى أبى مسلم ليوصلها إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

فجاء أبو مسلم بالرساله إلى الإمام علي عليه السلام وسلمها له بحضور جماعه من أصحابه ثم نهض واقفاً وتوجه للإمام بالقول: إننى لا أحب أن تكون ولايه امور المسلمين بيد غيرك، ولكن عثمان قتل بغير حق، فادفع قتلته إلينا، فإن خالفك أحد فنحن سنكون في اختيارك.

فأجابه الإمام عليه السلام: ائتنى غداً لتستلم جواب الكتاب، فجاء أبو مسلم في اليوم التالي لاستلام جواب الرساله، فرأى المسجد حاشداً بالناس وكلهم ينادى: نحن جميعاً اشتركنا في قتل عثمان.

واللافت أن اجتماع هذا الجمهور الغفير في المسجد كان بدافع أن الناس تصوّروا أن يقوم الإمام عليه السلام بتسليم قتله عثمان إلى معاوية ليزيل أيه ذريعه يمكن لمعاوية التمسك بها، ومن هنا اجتمع أنصار الإمام عليه السلام وأتباعهم في المسجد ليؤكدوا أن قاتل عثمان لا يمثل شخصاً واحداً أو عدّه أشخاص معدودين، ومع أن الإمام عليه السلام لم يكن يقصد أبداً تسليم بعض الأشخاص لمعاوية، فإن مثل هذا العمل ليس بالأمر الممكن عملاً.

وفي هذا الموقع سلم الإمام عليه السلام جواباً مكتوباً لأبى مسلم لينقله إلى الشام ويسلمه إلى معاوية، فقال أبو مسلم في نفسه: «الآن طاب الضراب»^(١) أى حان الأوان للقتال طلباً للتأثر بدم عثمان.

وتبين من ذلك أن أبا مسلم وأتباعه كأنهم لم يكونوا قد أدركوا هذه الحقيقه وهى أولاً: أن قتل عثمان وقع بعد انتفاضه شعبيه عارمه ضده بسبب أعماله وتصرفاته

ص: ٩١

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ٧٣ إلى ٧٥.

السليبه فى إداره الأمور، فلم يكن عمل شخص واحد أو عدد من الأشخاص.

وثانياً: على فرض أنّ الحكومه الإسلاميه أرادت محاكمه قتله عثمان والاقتصاص منهم، فإنّ هذه العمل لا يرتبط بشخص متمرد كمعاويه بل هو من شأن رئيس الحكومه الإسلاميه الذى انتخب من قبل المهاجرين والأنصار وبايعه الناس.

ص: ٩٢

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَا حَ أَضَلِّمْنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا الْفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَأَضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعُورٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الدَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّهْمِيِّ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ، مُؤْمِنِينَ يَبْغِي بِدَلِكِكَ الْمَأْجَرَ، وَكَافِرِينَ يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خَلُوًّا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحَلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمْنٍ.

الشرح والتفسير: بنو هاشم حماه الإسلام الأوائل

كما تقدمت الإشارة إليه فإن هذه الرسالة تمثل جواباً على رسالة معاوية، وبما أن معاوية في بدايه رسالته قد ارتدى قناع الصلاح والإيمان وأخذ يتحدث عن الإسلام وعظمه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأعوانه وأنصاره، وسعى لرفع مكانه الخلفاء الثلاثة زياده عن الحد من جهه، ومن جهه أخرى فإن والد معاوية هو أبو سفيان العدو الأول للإسلام الذي أشعل نار الحروب ضد الإسلام والمسلمين، فالإمام في هذا المقطع من الرسالة يقول:

«فَأَرَادَ قَوْمُنَا - قريش - قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَا حَ (١) أَضَلِّمْنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ (٢) وَفَعَلُوا بِنَا

ص: ٩٣

-
- ١- (١). «اجتياح» تعنى الإهلاك، وهدم وتخريب، وأصلها من «جوح» على وزن «قوم» وتأتى بهذا المعنى المذكور.
- ٢- (٢). «هموم» جمع «هم» بمعنى الأـحزان، وأشكال القلق والاضطراب، التخطيط والتدبير، وهنا وردت بمعنى التأمر من قبل قريش ضد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهو يفضى إلى الغم والحزن الشديد، وأصل هذه المفردة بمعنى القصد، وبما أن القصد فى كثير من الموارد يقترن بالقلق والحزن، فجاء بمعنى القلق والحزن أيضاً.

الْأَفَاعِيلَ (١) ، مَعُونَا الْعَذْبَ (٢) ، وَأَخْلَسُونَا (٣) الْخَوْفَ ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعَرٍ (٤) ، وَأَوْقَدُوا (٥) لَنَا نَارَ الْحَرْبِ .

هذه العبارات إشاره إلى مقطع مهمّ وعظيم من تاريخ الإسلام يبيّن فيها الإمام عليه السلام سلوك الأعداء وخاصة قبيله قريش تجاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهية، فقد واجه النبي والمسلمون في مكة صنوف الأذى من قريش والقذف بالحجاره والاستهزاء والتعذيب بمختلف الأشكال، وأخيراً عندما شعروا بالخوف من تقدّم الإسلام وامتداده في القبائل العربيه حوالى مكة، عزموا على محاصره المسلمين الذين كانوا ثلّه قليله، اجتماعياً واقتصادياً وكتبوا ذلك الكتاب المعروف بأن لايتواصل أى شخص من قريش وسائر العرب مع المسلمين ولا يبيعونهم شيئاً ولا يشتروا منهم ولا يتزوّجوا منهم ولا يزوّجهم، وختموا هذا العهد ووضعوه داخل الكعبه تأكيداً منهم على الالتزام بهذا الميثاق، والتجأ المسلمون إلى شعب أبى طالب (٦) الذى كان وادياً موحشاً ومليناً بالأحجار وعاشوا هناك ثلاث سنوات من الحرمان الشديد تحت طائله الحصار الاقتصادى، فكانت تلك الأيام من أصعب الأيام التى عاشها المسلمون مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى درجه أنّ أصوات بكاء الأطفال والجائعين كانت تسمع من خارج الشعب، وأخيراً عندما أخبرهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

ص: ٩٤

- ١- (١) . «الأفاعيل» جمع «أفعال» وهو جمع «فعل»، وفي هذه الموارد وردت بمعنى الأعمال الكبيره وأشكال التآمر والدسيسه.
- ٢- (٢) . «العذب» بمعنى الرواء الهنيء، وتاره يقصد به البعد الظاهري، والبعد الباطن والمعنوى.
- ٣- (٣) . «أخلسونا» أصلها «جلس» على وزن «حرص» وتعنى القماش الناعم الذى يوضع تحت أقتاب الإبل، وفي الحقيقه يلتصق ببدن الإبل، ثم اطلق على كل شىء يلازم شيئاً آخر، مثلاً، يقال: فلان جلس البيت؛ يعنى أنّه لا يخرج من بيته، والجمله أعلاه «أخْلَسُونَا الْخَوْفَ» تعنى أنّ الأعداء فرضوا علينا حالات الخوف والرعب الدائم.
- ٤- (٤) . «وعر» الأرض الصعبه والملينه بالأحجار وغير المعبده.
- ٥- (٥) . «أوقدوا» أصلها من «الإيقاد» بمعنى اشعال النار وهى من «الوقود» بمعنى إشعال الشىء.
- ٦- (٦) . خلافاً لما يتوهم البعض من أنّ شعب أبى طالب هو محل قبر أبى طالب الذى يقع الآن على مقربه من جسر الحجون، لأنّه تفصله فاصله كبيره مع المسجد الحرام والكعبه، وشعب أبى طالب كان وادياً إلى جانب جبل أبى قبيس، ولذلك ورد فى التواريخ أنّ صوت بكاء أطفال المسلمين من شدّه جوع والآلام الآخري كان يسمع ليلاً فى المسجد الحرام من ذلك الوادى.

بواسطه أبى طالب أن الأرضه قد أكلت وثيقه العهد فى الكعبه سوى كلمه البسمله، فشر الأعداء بالخوف الشديد واعتنق جماعه منهم الإسلام وطلب جماعه منهم أن يحزروا المسلمين من هذا الحصار الآثم، وهكذا كسر طوق الحصار المضروب على المسلمين.

وجمله: «وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ» إشاره إلى حياه المسلمين فى المدينه الذين خاضوا حروباً عديده شنها كفار قريش عليهم. وعلى رأس قوى الكفر والشرك كان أبو سفيان والد معاويه، وكان الإمام على عليه السلام فى جميع هذه الحروب يمثّل أبرز المضحين والمجاهدين الذين دافعوا عن النبى والإسلام فى معركة بدر وأحد والأحزاب وما إلى ذلك، وفى المقابل كانت اسره معاويه لها النصيب الوافر فى إشعال نار هذه الحروب ضد النبى ورسالته السماويه، ومع كل ذلك يتحدّث معاويه عن عظمه الإسلام والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله وعن أعوانه وأنصاره ويشنى عليهم غايه الثناء ويذكر الإمام على عليه السلام بوصفه حاسداً له ولأمثاله على مواقفهم المخزيه.

وفى سياق هذه الرساله يتقدّم الإمام عليه السلام لإبطال مزاعم معاويه الواهيه فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين ويأخذ بيده إلى الماضى من تاريخ الإسلام والحوادث الواقعه فيه ويقول له: عندما تحرك أعداء الإسلام ضد النبى والرساله وحشدوا جميع قواهم لإجهاض الدعوه الجديده، فإنّ الله تعالى أراد الدفاع عن رسالته بواسطتنا «فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الدَّبِّ (1) عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّمِي مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ». (وفى ذلك الوقت كان بنوهاشم على مجموعتين وطائفتين، فطائفه منهم المؤمنون والأخرى الذين لم يلتحقوا بالإيمان والإسلام، وكلا الطائفتين هبوا للدفاع عن الدين الحنيف «مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِجَدَلِكَ الْأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ» أى يدافع عن عشيرته وعن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بخلفيات عشائريه وبدافع الرحم.

وجمله: «وَالرَّمِي مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ» كناية عن حفظ حريم الإسلام والنبى

ص: ٩٥

١- (١). «ذب» بمعنى دفع وأبعد ودافع.

الأ-كرم صلى الله عليه و آله، لأنّ الرماه عاده يقفون خلف المتاريس للدفاع عن الجيش وحفظ أفراده، وعلى حدّ تعبير العلامة المجلسى كلمه «وراء» فى هذا المورد ربّما تشير إلى معنى المقدم والأمام لأنّ الوراأ أحياناً تأتي بهذا المعنى، وربّما تأتي بمعنى الخلف كما أنّ الرماه بحسب اللزوم والموقع الذى يفرضه ميدان المعركة يقبعون أحياناً خلف الجيش وأحياناً أخرى يتقدمون الجيش.

وجمله «وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ» ذهب جماعه من مفسرى نهج البلاغه أنّ هذه العبارة إشاره إلى بعض رموز بنى هاشم مثل العباس، أبوطالب، وحمزه وأمثالهم الذين اشتهروا بالدفاع عن الإسلام والنبي الأ-كرم صلى الله عليه و آله حتى قبل اعتناقهم الإسلام بدافع الوفاء للقيم القبليه وعواطف الرحم والقرباه.

والملفت للنظر أنّ بعض المحققين ذهب إلى أنّه عندما فرضت قريش الحصار الاقتصادي على النبي الأكرم صلى الله عليه و آله والمسلمين فى شعب أبى طالب كان بعض الأفراد من بنى هاشم ممّن لم يعتنق الإسلام لحدّ الآن كالعباس، وعقيل بن أبى طالب وأخيه طالب بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وابنه الحارث وأخيه أبوسفیان بن الحارث بن عبدالمطلب (هو غير أبى سفیان بن حرب) كانوا يعيشون مع المسلمين فى ذلك الشعب فى حين لم يعتنقوا الإسلام بعد(1).

وطبعاً ذهب البعض إلى أنّ أبأ طالب وحمزه كانوا قد اعتنقوا الإسلام قبل ذلك بمدّه إلّا أنّهما أخفيا إسلامهما لأسباب معيئه.

هذا كلّه فى حين أنّ اسره معاويه وأبى سفیان ومن لفّ لفّهم وكانوا يتآمرون على الإسلام والمسلمين جهاراً وخفيه، وكانّ معاويه قد نسى أو تناسى كلّ هذه القضايا التاريخيه المسلّمه فى رسالته وأخذ يتبجح بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ويدعى بأنّ بعض الأشخاص الذين لم يكونوا فى ميدان الجهاد والدفاع أنّهم من زمره المدافعين عن الإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

ص: ٩٤

١- (١). منهاج البراعه فى شرح نهج البلاغه، ج ١٧، ص ٣٦٥.

ولذلك يضيف الإمام عليه السلام: أما سائر أفراد قريش من غير بني هاشم، ممّن أسلم فلم يكونوا في دائره الخطر ولم يواجهوا ما واجهنا نحن من مصاعب لأنهم كانوا يعيشون في إطار التحالفات والمعاهدات «وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خَلَوْا (١) مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمْنٍ».

وعلى هذا الأساس يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمّة وهي أنّ حماة الإسلام الحقيقيين هم بنو هاشم الذين آمنوا بالله ورسوله ودافعوا بأرواحهم ونفوسهم عن الإسلام والنبى، وحتّى من لم يسلم منهم كان يذبّ عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله احتراماً لمقامه ودفاعاً عن شرفه، أمّا سائر مكّونات قريش من القبائل العربيه ومنهم الخلفاء الثلاثة، الذين استعرض معاويه خدماتهم وتضحياتهم للإسلام، فلم يكونوا في صفّ المدافعين عن النبى والإسلام أبداً.

وطبعاً لم يكن معاويه غافلاً أو جاهلاً بتاريخ الإسلام، بل كان يتغافل عن الوقائع التاريخيه لتبرير رؤاه وأفكاره.

ص: ٩٧

١- (١). «خلو» بمعنى خواء الشىء وكونه عارياً.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوْقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَاللَّسِنَةِ، فَقَتَلَ عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَتَلَ حَمْرَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَتَلَ جَعْفَرَ يَوْمَ مُوتِهِ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عَجَلَتْ، وَمَيِّتَهُ أُجَلَّتْ. فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ! إِذْ صَرُتْ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَدْعِيَ مُدْعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

الشرح والتفسير: حماه الإسلام الأوائل

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرساله بالتفصيل ما أجمل بيانه سابقاً وبيّن من هم الأشخاص من بنى هاشم الذين بذلوا نفوسهم دفاعاً عن الإسلام وشربوا كأس الشهاده في سبيل التصدي لقوى الكفر والشرك، في حين أنّ أشخاصاً ممن ذكرهم معاويه بوصفهم قادة الإسلام ومن رواد الدفاع عن الرساله الإلهيه لم يصلوا إلى هذا المقام، يقول:

«وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ (١) وَأَحْجَمَ (٢) النَّاسُ قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوْقَى بِهِمْ

ص: ٩٩

١- (١). «البأس» في الأصل بمعنى الشده والقوه والقدرة، وتأتى بمعنى المشكلات الكبيره والحرب، وجمله «لا بأس به» أى «لا مشكله فيه» وجمله أعلاه «أحمرّ البأس» إشاره إلى شده ضراوه الحرب.

٢- (٢). «أحجم» أصلها من «حجم» على وزن «رجم» بمعنى الامتناع عن عمل معين، وجمله «أحجم الناس» بمعنى أنّهم امتنعوا من الدخول إلى ميدان الحرب.

جملة: «أَحْمَرُ الْيَأْسِ» إشاره إلى اشتعال نار الحرب، وبما أنّ الحرب تشبّه عادة بالنار التي تحمّر في حال اشتدادها واستعارها، فلذلك استخدمت هذه الكناية، وقيل أيضاً أنّ الإحمرار هنا كناية عن كثره سفك الدماء عند اشتداد المعركة والقتال.

إنّ العبارات المذكورة تشير إلى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وخلفاءه للقاده العسكريين في عالمنا المعاصر الذين يحتفظون بأبنائهم وأقربائهم في الخطوط الخلفية عند مواجهه الخطر ويبعثون الغرباء إلى الصفوف الإمامية من المعركة، يقدم النبي أعزّ أرحامه وأقربائه إلى الصفّ الأوّل من جبهات الحرب والقتال ليثبت أنّه على يقين من رسالته وأنّه يسلك في هذا السبيل حالات الانسجام التام بين أهدافه وسيرته ومستعدّ دوماً للتضحية في سبيل الغايات الإلهية التي يصبو إليها ويهدف لتحقيقها في واقع الحياه والمجتمع.

ثم إنّ الإمام عليه السلام في سياق كلامه يذكر ثلاثة أشخاص من أقربائه وأرحامه الذين شاركوا في الحروب وتصدّوا لقوى الكفر والانحراف ونالوا درجة الشهادة، أولهم «عبيد بن الحارث» (وهو ابن عمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي استشهد يوم بدر)، والثاني «حمزة بن عبدالمطلب» عمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي استشهد يوم احد، والثالث «جعفر بن أبي طالب» ابن عمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً الذي نال وسام الشهادة في معركة مؤتة، يقول الإمام عليه السلام: «فَقُتِلَ عُيَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ وَقُتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُؤْتَةَ».

«بدر» اسم بئر تقع بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة، وسمّيت بهذا الاسم لأنّه اسم الحافر لها، وأما قصة استشهاد عبيد بن الحارث على يد «عتبه ابن ربيعة» وأحد المشركين فهي:

عندما تقابل جيش المسلمين في معركة بدر مع جيش الكفر والشرك نزل للبراز

ص: ١٠٠

ثلاثه أشخاص من شجعان المشركين، وفقاً لما كان متداولاً في ذلك الزمان كمقدمه للقتال والحرب، وهم عتبه وأخيه شيبه وابنه وليد، وطلبوا من المسلمين أن يبرز إليهم من يقاتلهم، فتطوع لهذه المهمه بعض الأنصار وتوجهوا إلى الميدان لمقابله هؤلاء المشركين الثلاثه، ولكن المشركين قالوا: نحن نريد أكفاءنا من قريش، فالتفت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى حمزه وعبيده والإمام علي عليه السلام وقال: استعدوا وتوجهوا إلى هؤلاء الأعداء، فبرز عبيده إلى عتبه وحمزه إلى شيبه وعلي إلى الوليد، أما الإمام علي عليه السلام فقد استطاع الإجهاز على الوليد بعد مناوشات قليله، وأما حمزه فقد صرع شيبه، ولكن عبيده الذي كان مسناً تقريباً بقي يقاتل عتبه، وأخيراً سقط عبيده على الأرض وهو بالنزع الأخير وجيء به إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فعندما رأى النبي قال: هل أنا شهيد، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: نعم أنت شهيد في سبيل الله.

أما حمزه بن عبدالمطلب فقد استشهد في معركة احد التي وقعت بعد واقعه بدر في السنه الثالثه للهجره، وقتله شخص يدعى «وحشى» وهو اسم على مسمى، وأما أسباب هذه المعركة فقد ذكر المؤرخون: إن المشركين بعد هزيمتهم في معركة بدر رجعوا إلى مكه وأقسموا فيما بينهم (بقيادة أبي سفيان) أن يبيعوا بعض إبلهم ويجمعوا الأسلحه والعدّه للهجوم مره أخرى على المسلمين وكانت النتيجة أن المشركين استطاعوا من تحشيد ثلاثه آلاف نفر داخل وخارج مكه ومعهم مائتى فرس وثلاثه آلاف بعير وسبعمائته درع واستعدوا للتوجه إلى المدينه لمواجهة جيش الإسلام.

وقصه هذه الحرب فيها تفاصيل كثيره، وإجمالاً نعلم أنه بسبب اشتباه بعض المسلمين وتمردهم على أوامر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه وآله انتهت هذه المعركة بانكسار وهزيمة الجيش الإسلامى وجرح فيها النبي وكسرت ربايعته بحجر رماه به «عتبه ابن أبي وقاص» واستشهد حمزه بطل الإسلام وعم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وجاءت هند زوجته أبي سفيان وأم معاويه ومعها جماعه من النسوة إلى الميدان فى نهايه المعركه

وأخذت تمثل بشهداء المسلمين، فكانت تقطع آذان وأنوف هؤلاء الشهداء وتجعل منها عقداً لها، ثم إنَّها جاءت إلى جسد حمزه وبقرت بطنه وأخرجت كبده ولاكته بأسنانها بقصد أكله ولكنها لم تتمكن من ذلك، فقذفت به خارجاً، ومن هنا كان المسلمون يطلقون على هند «آكلة الأكباد» ويسمّون معاويه «ابن آكلة الأكباد».

أمّا «جعفر بن أبي طالب» فقد استشهد في غزوه مؤتة، وهذه المعركة وقعت في منطقته مؤتة على مقربة من الشام (الحدود الشماليه من جزيره العرب) في السنه الثامنه للهجره وكانت بدايه هذه الحرب أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أرسل رسولاً من قبله يدعى «الحارث بن عميره» إلى حاكم «بُصرى» ودعاه إلى الإسلام، فعندما وصل منطقته مؤتة أمر حاكم بصرى بقتله، وهذا العمل يمثل خرقاً للتقاليد الموجوده والعرف المتداول في ذلك الوقت بالنسبه للرسول والمبعوثين، وهذه السنه جاريه لحدّ الآن في الثقافات البشريه، وهذه المصيبه ثقلت على المسلمين بحيث أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله جهّز جيشاً من ثلاثه آلاف رجل بقياده زيد بن حارثه وأمره بمواجهه أهل الشام.

وقد أمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه إذا استشهد زيد بن حارثه فإنّ جعفر هو الذي يتولى قياده الجيش ويكون صاحب اللواء، وإذا استشهد جعفر بن أبي طالب، فصاحب اللواء عبدالله بن رواحه، وإذا استشهد عبدالله بن رواحه فإنّ على المسلمين أن يختاروا من بينهم رجلاً لقياده الجيش.

وتحرّك الجيش الإسلامي حتّى وصل المحلّ الذي قتل فيه رسول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودعوا اولئك القوم إلى الإسلام، ولكن عندما أطلع الأعداء على مجيء جيش الإسلام قاموا بتحشيد جيش عظيم بلغ عدده مائه ألف رجل، ولكن المسلمين لم يتردّدوا أو يجبنوا أمام هذا العدد الكبير من جيش الأعداء الذي لا يقارن مع قله عدد المسلمين، وبدأت الحرب، وخاض المسلمون معركة صعبه في هذه المنطقه، وكما توقع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد استشهد زيد بن حارثه وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحه واحداً بعد الآخر وقطع الأعداء يدي جعفر، ولذلك

عندما أخبروا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالحدث بعد ذلك قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّضَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ» فسَمِيَ جعفر الطيار.

وأخيراً أخذ المسلمون يتداركون الأمر وأظهروا للأعداء أنّ هذا العدد من الجيش الإسلاميّ وهو ثلاثه آلاف رجل ما هو إلّامقدّمه لجيش الإسلام العظيم الذي سيصل عمّا قريب، وعلى ضوء ذلك رأى الأعداء أنّ الانسحاب أفضل وعاد المسلمون بخسائر محدوده إلى المدينة من دون أيّة هزيمة تفرض عليهم من الأعداء، وفي الحقيقة أنّ هذه الحرب انتهت بدون انتصار العدو على المسلمين.

وممّا تقدّم أعلاه يتبيّن بجلاء صدق كلمات الإمام عليه السلام في رسالته، وكيف أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يقدم أهل بيته وأرحامه من بنى هاشم في المعارك الطاحنه بين قوى الإيمان وقوى الكفر والشرك، بينما كان يعيش الآخرون في الصفوف المتأخّره خلافاً لما ذكره معاوية في رسالته.

ويستمرّ الإمام عليه السلام في رسالته مستخدماً أسلوب الكنايه، والكنايه أبلغ من التصريح في إشاره إلى نفسه المباركه وأنّه أيضاً مشتاق إلى الشهاده في سبيل الإسلام، ولكنّ الله تعالى لم يشأ له ذلك ولم يحن أجله ويقول: «وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عَجَّلَتْ وَمَيَّتَهُ أُجِّلَتْ».

وهذه العبارة تؤكد على الأمر الذي كثيراً ما ذكره الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وأنّه يشتاق إلى الشهاده كشوق الطفل الرضيع إلى لبن امّه كما قال: «وَ اللَّهُ لَا بُدَّ لِي أَبِي طَالِبٍ أَنَسُ بِالْمُوتِ مِنَ الطُّفْلِ بِثَدْيِ امِّهِ»^(١). أو ما ورد في الأحاديث الشريفه بعد انتهاء معركة احد عندما جاء الإمام عليّ عليه السلام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهو مهموم وقال: لقد استشهد جماعه من المسلمين (ومنهم عمي حمزه) ولكنّي حرمت من الشهاده فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «يَا عَلِيُّ أَبَشِّرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ»^(٢).

ص: ١٠٣

١- (١). نهج البلاغه، الخطبه ٥.

٢- (٢). المصدر السابق، الخطبه ١٥٦.

وبعد أن بين الإمام عليه السلام بأدله وشواهد قوّيه دفاعه - هو وأهل بيته - المستميت عن الإسلام والنبي وأفضليّتهم على الآخرين، شرع بإظهار التعجّب ممّا أوقعه فيه الدهر، بمعنى أهل الدهر والناس الذين لم يدركوا هذه الحقائق وأنه هو وأهل بيته مع كلّ هذه الفضائل قد جعلوه في عرض من ليست له مثل تلك الامتيازات والسوابق في تاريخ الإسلام، ولم يكن يملك أدنى امتياز في الشخصيه والإيمان والجهاد: **فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ! إِذْ صَرَّتْ يُقْرَنُ بِي مَرْنُ لَعْمٍ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَايَ بَقِيَّتِي الَّتِي لَأَيُّدِي (١) أَحَدٌ بِمِثْلِهَا.**

وقد تصوّر البعض من هذه العبارة أنها إشاره إلى أنّ الناس كانوا يقارنون بين الإمام عليّ عليه السلام ومعاويه في حين أنّ مقصود الإمام عليه السلام يختلف عن هذا المعنى، فمراده في الحقيقة ناظر إلى رساله معاويه وما ذكره من أنّ الخلفاء الثلاثة السابقين كانت لهم من الفضائل والسوابق في الإسلام حيث أخذ معاويه يتبجح ويتفاخر بفضائل هؤلاء الخلفاء في مقابل الإمام عليه السلام، والّا فإنّ معاويه لم يشر في رسالته إلى سوابقه الإسلام، لأنّه أساساً لم يكن يملك أيّ سابقه حسنه في تاريخ الإسلام وإن كانت له سابقه فهي سابقه سوء في العداة للإسلام والمسلمين هو وقبيلته وآل بيت أبي سفيان.

وعلى أيّ حال فإنّ الإمام عليه السلام أبدى تعجّبه من أهل زمانه ومنهم معاويه كيف أنّهم يقرونه مع الخلفاء السابقين عليه، وهذا الكلام في الحقيقة يتناغم مع ما ورد في الخطبه الشقشقيه حيث يقول: «مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صَرَّتْ أَقْرَنُ إِلَى هَيْدِهِ النَّظَائِرُ». أي أعضاء شورى عمر بن الخطاب الذين جعلهم عمر بعده لاختيار الخليفه وجعل معهم الإمام عليّ عليه السلام كواحد من الشورى.

ولعلّ الأشخاص، الذين تصوّروا أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام هنا ناظر إلى مقارنته

ص: ١٠٤

١- (١). «لا- يدلي» من «الإدلاء» وتعني الاظهار والاعلان، ويقال: «أدلى برأيه» يعني أظهر رأيه، وهي في الأصل من ماده «دلو»، وعندما تأتي من باب الإفعال تكون بمعنى ارسال الدلو إلى البئر لسحب الماء، ثم اطلقت على أي اظهار للرأى.

مع معاويه، كانوا تحت تأثير عبارته أخرى من كلام الإمام عليه السلام وردت في مورد آخر، ولكن إذا تمغنوا في هذه النقطة اللطيفة، وهى أنّ رساله الإمام عليه السلام فى الواقع جواب على رساله معاويه له، وفى تلك الرساله تحدّث معاويه عن أفضلّيه الخلفاء السابقين على الإمام عليه السلام، لزال هذا التوهّم، ومن هذا المنطلق يتبيّن أنّ مقصود الإمام عليه السلام هو ما ذكرناه آنفاً.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يستمرّ فى كلامه بالكنايه البليغه أيضاً ويقول: «إِلَّا أَنْ يَدَّعَى مُدَّعٍ مَا لَأَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ»، أى أن يدعى أحد بعض الفضائل لهؤلاء لا توجد لديهم فى الواقع ولست مطلعاً عليها ولا أتصوّر أنّ الله تعالى أيضاً مطلع عليها لأنها أساساً غير موجوده لديهم.

وهذا يشبه ما ورد فى الآيه الشريفه ١٨ من سوره يونس حيث يقول تعالى: «قُلْ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَيْعَلُّمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، أى أنّ المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، ما لا يضرهم ولا ينفعمهم يقولون:

هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فيردّ عليهم القرآن الكريم بأنّ الله تعالى لا يعلم أنّ له مثل هؤلاء الشفعاء، لا فى السموات ولا فى الأرض.

ثم إنّ الإمام عليه السلام فى خاتمه الرساله وبعد أن بيّن سوابق أهل البيت ومخالفهم، يشكر الله تعالى ويقول: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وجمله: «فِيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ» لا- تعنى أنّ الإمام عليه السلام يعلم بمصائر الناس وبأنّ الدهر يملك تأثيراً فى الحوادث الواقعه كما يعتقد الدهريون، بل مراده من الدهر هنا هو أهل الدهر الذين لم يعرفوا ولم يقدّروا مقام الإمام عليه السلام وما يقتضيه ويفرضه عليهم، حيث جعلوه قريناً لأشخاص لم يقدّموا أى شىء فى سبيل الإسلام ولم يكن لديهم أى امتياز فى تاريخهم، وعلى هذا الأساس كان عتب الإمام عليه السلام ناظر إلى أهل الزمان والدهر وإن كان الكلام متوجّهاً ظاهراً إلى الدهر نفسه.

وبعبارة أخرى أنّ حسن الدهر وقبحه يتمّ تشخيصه من خلال حسن الناس

وسوء أخلاقهم وسلوكهم كما يقول الشاعر:

يَعِيبُ النَّاسُ كُلَّهُمْ زَمَانًا

ومفهوم جملة: «مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي» أنّ مثل هؤلاء الأشخاص لم يتقدّموا بخطوه كما تقدّمت أنا في خطّ الرسالة والإيمان والحقّ، وهذا كناية عن أنّ الآخرين لم يقدّموا أيّ خدمه للإسلام كما قدّمت من توضّحات في سبيل الدفاع عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة.

ص: ١٠٦

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلِهِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ عَيْكَ وَشِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، وَلَا جَبَلًا سَهْلًا، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وَجِدَانُهُ، وَرَوْزٌ لَا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ.

الشرح والتفسير: ما أنت وقتله عثمان!؟

نعلم أن معاوية كان قد طلب في كتابه من الإمام عليه السلام أن يسلم إليه قتله عثمان، وهذا الطلب غير معقول وبعيد عن المنطق، لأنه لو تقرّر أن يقدم شخص إلى المحاكمة والقصاص بسبب قتله لإنسان بريء فإن هذا العمل من شأن إمام المسلمين وخليفتهم الشرعي، ويتم ذلك بموافقه أولياء الدم، لا شخص متمرد ولا يعتبر من أولياء الدم، هذا في صورته ما إذا ثبت أن المقتول كان بريئاً وأن القاتل أو القاتله مذنبون، ولذلك يقول الإمام في مقابل طلب معاوية هذا: «وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلِهِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي (١) دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ»، لأنه لا علاقة لك بهذا الأمر، فلا أنت وليّ الدم ولا الحاكم الإسلامي ليكون طلباً مشروعاً ومعقولاً.

وبديهى أن مسألة طلب الثأر بدم عثمان لم تكن سوى ذريعة لرفع لواء الفرقة والشقاق ضد الإمام عليه السلام والإمتناع من البيعه له، وهذه المسألة من ناحيته تاريخيه إلى

ص: ١٠٧

١- (١). «يسعني» من «الوسع» بمعنى القدره على عمل معين، وإمكانه العمل.

درجه من الوضوح بحيث كان يضرب بها المثل بين الناس عندما يريدون أن يقولوا بأن فلاناً يتمسك بشيء لتبرير سلوكه أو لدعم وجهه نظره في مقابل المخالف، فيقال: «إن فلان جعل من القضييه كقميص عثمان» ومعلوم أن الإمام عليّ عليه السلام لو سلم لمعاويه بعض الأشخاص المتهمين بقتل عثمان فإن معاويه لم يكن يقنع بذلك، بل سيستمر بالمطالبه بآخرين ويتذرع دوماً بمثل هذه الذريعه والحجّه لدعم وتقويه أركان حكومته في الشام، وهذه الحاله تمثّل منتهى الخسّه والانتهازيه في مقابل إمام المسلمين.

أضف إلى ذلك فهناك الكثير من الأدله والشواهد التي تدلّ على أنّ معاويه ليس له الحقّ بأن يطلب من الإمام عليه السلام مثل هذا الطلب، والإمام عليه السلام بدوره لا ينبغي أن يهتمّ بمثل هذه الطلب، وعلاوه على ذلك أنّ مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع لأنّ انتفاضه المسلمين ضدّ عثمان كانت انتفاضه عامه وشامله والشاهد على هذا الكلام القصّه التي يرويها الشارح البحراني في «شرح نهج البلاغه» حيث يقول:

«كما روى أنّ أباهريره وأبالدرداء أتيا معاويه فقالا له: علام تقاتل عليّاً وهو أحقّ بالأمر منك لفضله وسابقته، فقال معاويه: لست اقاتله لأنّي أفضل منه ولكن ليدفع إليّ قتله عثمان، فخرجا من عنده وأتيا عليّاً، فقالا له: إنّ معاويه يزعم أنّ قتله عثمان عندك وفي معسكرك، فادفعهم إليه فإنّ قاتلك بعدها علمنا أنّه ظالم لك، فقال عليّ عليه السلام: إنّي لم أحضر قتل عثمان يوم قتل ولكن هل تعرفان من قتله؟ فقالا: بلغنا أنّ محمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر وعديّ بن حاتم وعمر بن الحمق وفلاناً وفلاناً ممّن دخل عليه.

فقال عليّ عليه السلام: فامضيا إليهم فخذوهم.

فأقبلا إلى هؤلاء النفر وقالوا لهم: أنتم من قتله عثمان وقد أمر أمير المؤمنين بأخذكم. قال: فوعدت الصيحه في المعسكر بهذا الخبر فوثب من عسكر عليّ أكثر

من عشره آلاف رجل فى أيديهم السيوف وهم يقولون: كلنا قتلته، فهت أبوهريره وأبوالدرءاء، ثم رجعا إلى معاوية وهما يقولان: لا يتم هذا الأمر أبداً، فأخبراه بالخبر، فإذا كان القائلون والمتعصبون لهم بهذه الكثرة فكيف يمكنه عليه السلام تسليمهم وتمكين أحد منهم؟» (١).

عندما يكون قتله عثمان بهذا العدد من الكثرة فهل يستطيع الإمام عليه السلام أن يسلمهم جميعاً أو يسلم أحدهم إلى معاوية على فرض أن معاوية ولّى دم عثمان وأنه يريد إقامة الحق والعدالة؟

ولكن بما أن معاوية فى ختام رسالته هدّد الإمام عليه السلام بالقتال والحرب، فقد أجابه الإمام عليه السلام على هذا التهديد بالمثل وكتب فى ختام رسالته عبارته شديده اللهجه زاخره بأنواع الفصاحه والبلاغه وقال: «وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنِّيكَ (٢) شِقَاقِكَ (٣) لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَن قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لَأَيْكَلْفُونَكَ طَلْبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَمَّا بَحْرٍ، لَأَجْبِلِي لَمَّا سَيَهْلِي، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبْتُ يَسْوءَكَ وَجِدَانُهُ، وَزَوْرٌ (٤) لَأَيَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ (٥)، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ».

وهنا يذكّر الإمام عليه السلام بهذه العبارة الحكيمه معاوية بأن قتله عثمان ليس كما تحسب أنهم نفر قليل (على فرض أن يكونوا فى جيشى) بل هم جماعه عظيمه سيأتونك سراعاً فلا تكلف نفسك جهد البحث عنهم، أجل فعماً قليل سيأتونك تباعاً وسيواجهونك فى ميدان القتال وستعرف منهم ضربات السيوف والرماح وسوف تدور الدائره عليك فلا تستطيع أن تتمسك بعد ذلك بهذه الذريعه الواهيه.

والواقع أثبت صحّه هذا الكلام ولولا بعض السّدج والمخدوعين فى جيش

ص: ١٠٩

١- (١). ترجمه شرح نهج البلاغه ابن ميثم، ج ٤، ص ٦٢٨، ومثل هذه الروايه وردت بتفاوت يسير فى كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى، ج ٣، ص ٦١، ونقلنا عن أبى مسلم الخولانى مثله.

٢- (٢). «غىّ» و «غوايه» بمعنى ضلال وإضلال بمعنى الوقوع فى المتاهه.

٣- (٣). «شقاق» بمعنى الفرقه والنفاق وعدم الانسجام، وهى بالأصل الشق وانفصال الجانبين فى الشىء.

٤- (٤). «زور» تاره تأتي بمعناها المصدرى وتعنى اللقاء والملاقاه، وأحياناً تأتي بمعنى الزائر، وفى الجمله وردت بالمعنى الأول.

٥- (٥). «لقيان» و «لقاء» مصدر بمعنى الملاقاه.

الإمام عليّ عليه السلام الذين انطوت عليهم حيله عمرو بن العاص في رفع المصاحف على الرماح؛ لكان الإمام عليه السلام قد انتهى من معاويه وحكومته في الشام وأزاح هذه الفتنه من واقع الأُمّة الإسلاميّه وأراح المسلمين منها.

تأمل: كلام عن قتله عثمان

بالرغم من أننا بحثنا أكثر من مرّه عن واقعه قتل عثمان والعوامل التي أدّت إلى انتفاضه المسلمين ضدّه، نرى من اللازم أيضاً الإشاره إلى نقطه أخرى في هذا المجال بشكل موجز.

إنّ من بين أصحاب الإمام عليّ عليه السلام من شهد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لهم بالجَنّه، وكانوا ممّن يرون أنّ عثمان يستحقّ القتل بسبب البدع التي اختلقها في أيام خلافته.

يقول نصر بن مزاحم في كتابه (صفين): إنّ عمّار بن ياسر وقف في أحد الأيام في معركة صفين بين أصحابه وقال: امضوا معي عباد الله إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم الظالم لنفسه، الحاكم على عباد الله بغير ما في كتاب الله، إنّما قتله الصالحون المنكرون للعدوان، الأمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو درس هذا الدين: لم قتلتموه؟ فقلنا: لإحداثه، فقالوا: إنّ ما أحدث شيئاً، وذلك لأنّه مكّنهم من الدنيا، فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو سقطت عليهم الجبال، والله ما أظنهم يطلبون دمه إنّهم ليعلمون أنّه الظالم، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبّوها واستمرّأوها وعلموا لو أنّ صاحب الحقّ لزمهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون فيها، ولم يكن للقوم سابقه في الإسلام يستحقّون بها الطاعه والولايه، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابره وملوكاً، وتلك مكيدته قد بلغوا بها ما ترون» (1).

ص: ١١٠

وعندما يقرّ مثل هذا الرجل العظيم وهو عمّار بن ياسر الذى هو من أهل الجَنّه بمشاركته بقتل عثمان ويستدلّ لذلك بما اختلقه عثمان من البدع الخطيره فى الإسلام، فمن البديهيّ أنّ الإمام عليه السلام لا- يسمح لنفسه بتسليم مثل هؤلاء الأشخاص من المهاجرين والأنصار والتابعين، إلى معاويه ليقتلهم.

إنّ الباعث على ثوره الناس ضدّ عثمان يمكن بيانه فى خمسهِ أمور:

١. تعطيل الحدود والموازن الإلهيّه فى أيام خلافه عثمان.

٢. تقسيم بيت المال بين بنى اميّه.

٣. تعيين أفراد من بنى اميّه فى المناصب الحساسه فى الحكومه الإسلاميه.

٤. ضرب وجرح أصحاب النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله كعبدالله بن مسعود وعمّار بن ياسر.

٥. تبعيد ونفى الشخصيات الإسلاميه الكبيره كأبى ذرّ، مالك الأشتر، صعصعه ابن صوحان وأخيه، وعمرو بن الحِمق الخُزاعيّ.

إنّ أمواج المخالفه والاعتراض ضدّ عثمان اتّسعت واشتدّت إلى درجه أنّ أفراداً كعبدالرحمن بن عوف الذى كانت له يد الطولى فى نصب عثمان واستلامه الخلافه فى مسأله الشورى السّته الذين نصبهم عمر بن الخطاب لتعيين الخليفه من بعده، اعترض عليه وأصبح من مناوئيه، وينقل المؤرخون أنّ عبدالرحمن - لهذا الأسباب المتقدّمه - قطع علاقته مع الخليفه الثالث ولم يتحدّث معه إلى نهايه عمره، وحتى عندما جاء عثمان لعيادته وهو فى حال مرضه أعرض بوجهه عن الخليفه ولم يتحدّث معه بكلمه (١).

ومن بين هؤلاء المعترضين على عثمان كانت عائشه زوجة النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله تعترض أكثر من الآخريين على أعمال عثمان، وعندما أمر عثمان بضرب عمّار ابن ياسر أخرجت عائشه ثوب النبيّ ونعله وقالت: أيها الناس! هذا ثوب النبيّ ونعله لم

ص: ١١١

١- (١). انساب الأشراف البلاذرى، ج ٥، ص ٥٧؛ تاريخ الطبرى، ج ٥، ص ١١٣؛ العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٥٨ و ٢٦١ و ٢٧٢.

يُحْفًا بعد وقد نسيتم سنَّته.

وقد ذكر المؤرِّخون عبارته مشهوره لعائشه في حقِّ عثمان حيث كانت تقول:

«أَقْتُلُوا نَعْتَلًا قَتَلَ اللَّهُ نَعْتَلًا»^(١) وتقصده به عثمان بن عفَّان.

ومن جملة المعترضين والمخالفين لعثمان، طلحه والزبير اللذان كانا ينتقدان سياسته عثمان وتصرفاته كثيراً، ومن العجيب أنَّ هذين الرجلين خرجا بعد ذلك ومعهما عائشه للطلب بدم عثمان في مواجهته الخليفة الحقَّ يعنى أمير المؤمنين عليَّ عليه السلام الذي بايعاه قبل ذلك وكان من أمر خروجهما ومعركته الجمل ما كان.

على أيه حال فإنَّ الأشخاص الذين حرَّكوا الناس ضدَّ عثمان بأقوالهم وبتحريضهم وبذلك مهَّدوا الأرضية لقتل عثمان؛ أكثر من أن نحصيهم في هذا المقال.

إنَّ العوامل الخمسة المذكورة أعلاه جعلت الكثير من المسلمين في المراكز الإسلاميَّة كالكوِّف والبصره ومصر يتوجَّهون إلى المدينة لأداء وظيفته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجمعون إلى أنصارهم ومؤيِّديهم لبحث الأزمه في مركز الخلافة ويجبروا الخليفة على التوبه والعوده إلى تعاليم الإسلام أو يعتزل سدَّه الحكم ويفوِّض أمر الخلافة إلى غيره، وبذلك حاصرت الجماهير بيت الخليفة وطلبوا منه التوبه يارسالهم رساله إليه.

وقد سعى عثمان الذي لم يكن يعلم بعمق الاعتراض الجماهيري والسخط الشعبيِّ إلى إنهاء الاضطرابات من خلال تعيين بعض الأشخاص من ذوى السعه كالمغيره بن شعبه وعمرو بن العاص في مركز الخلافة والقرار، ولكنَّ الناس لم يقبلوا بهما ورفعوا نداء الاعتراض ضدَّهما.

وبعد اشتداد الأزمه بدأ عثمان يتوسَّط لدى أمير المؤمنين عليه السلام لتخفيف وتهدئه الأوضاع المضطربه، وكان الإمام عليه السلام في كل مره يعمل على تهدئه الأوضاع بتدبيره الحكيمه، ولكن للأسف كان عثمان فاقداً للإرادته القويه وكان خاضعاً بشكل تامَّ

ص: ١١٢

١- (١). النهايه لابن الأثير الجزري، ج ٥، ص ٨٠ و شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٧٧ و ج ٦، ص ٢١٥.

لإرادته عناصر فاسده في جهاز الحكومه كمروان بن الحكم حيث كان يستشيريه في كل مرّه ولا يعمل بنصائح أمير المؤمنين عليه السلام ولا يقيم لسعيه الإصلاحى وزناً.

وأخيراً قام المعترضون والثوار بمحاصره دار الخليفه ومنعوا عنه الماء في هذه المرّه، وفي هذه الأثناء قام أمير المؤمنين عليه السلام وبطلب من الخليفه ومساعدته بنى هاشم بنقل الماء بالقربه إلى دار الخليفه عثمان، حتى أنّ بعض أفراد بنى هاشم في خضمّ هذا الصراع اصيبوا بجراح من قبل الثوار والجمهور الذي يحاصر دار عثمان.

وقد كتب عثمان في أيام الحصار هذه رساله إلى معاويه وطلب منه أن يرسل له المدد والعون ولكن معاويه لم يهتم لرساله عثمان ولم يرتب عليها أثر يذكر وكان يقول: إننى لا اخالف صحابه النبى، ولم يكن هدف المحاصرين بيت الخليفه قتله، بل كانوا يريدون استسلام عثمان وأعوانه ورضوخهم لمطالبهم من خلال منع الماء والطعام عنهم، ولكن سوء تدبير مروان بن الحكم الذي قتل أحد الثوار أدى إلى تفاقم الأزمه وهجومهم على دار الخليفه.

وكانت شدّه الهجوم إلى درجه بحيث إنّ بنى اميه الذين كانوا يحرسون الدار ويدافعون عن الخليفه وأعوانه، فضّموا الهرب من الميدان، حيث قامت ام حبيبه زوجه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله و بنت أبى سفيان «وكانت أيضاً من بنى اميه ياخفائهم في دارها»، ولكن ثلاثه أشخاص من أعوان الخليفه الذين لم يتمكّنوا من الفرار قتلوا على يد المهاجمين، وأخيراً قتل عثمان أيضاً على أيديهم، وفي هذ المجال كان لبعض الأفراد دور كبير في هذه النهايه الداميه ومنهم: محمد بن أبى بكر وكنانه ابن بشر التجيبى وسودان بن حمران المرادى وعمرو بن الحقيق الخزاعى وعمير ابن الصابى (١).

ص: ١١٣

١- (١). تاريخ الطبرى، ج ٥، ص ١١٨ وما بعدها و كامل لابن الأثير، ج ٣، ص ٧٠ وما بعدها. لتحقيق أكثر انظر إلى كتاب فروغ ولايه عن الاستاذ جعفر السبحانى، ص ٣٢٧-٣٣٥ و شرح نهج البلاغه لابن أبى لحديد، ج ٢، ص ١٢٩ تا ١٥٨، ذيل الخطبه ٣٠.

نظرة إلى الرسالة

تألف هذه الرسالة من أربعة أقسام:

القسم الأول ينصح الإمام علي عليه السلام معاوية ويحذره من المصير الأليم يوم القيامة والعواقب الوخيمة المترتبة على تصرفاته المعادية والمغرضه، رغم أنّ الإمام عليه السلام يعتبره أسير الشيطان وأنه لا أمل في هدايته.

والقسم الثاني يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أنّ معاوية كيف يستطيع إدارة أمور الأمة الإسلاميّة وتولّي شؤونها في حين أنّه لا يملك أيّ سابقه محموده في تاريخ الإسلام ولا ينتمى إلى اسره شريفه ومؤمنه؟!

وفي القسم الثالث منها يبيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقه وهي أنّه يدعو معاوية إلى

ص: ١١٥

١- (١). سند الرسالة: نقل هذه الرسالة نصر بن مزاحم في كتاب صفين قبل السيّد الرضى، وبعد السيد الرضى ذكرها ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق في شرح حال معاوية، وما ذكره السيّد الرضى في نهج البلاغه لا يمثل جميع هذه الرسالة، فالرسالة تبدىء بمقدمه وردت في كتاب مصادر نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٢٠). والرسالة المذكوره لها خاتمه وردت في كتاب نهج البلاغه الكامل.

ترك الناس وعدم إقحامهم فى الحرب وأن يأتى هو بنفسه إلى الميدان ليواجه الإمام عليه السلام بمفرده ويحسم بذلك مصير الأمة ويعيد إلى الأذهان ما مضى من تاريخ الإسلام حيث كان المسلمون يقاتلون إخوانهم وآباءهم وبنى عمومتهم على الإسلام والإيمان.

وأخيراً فى القسم الرابع من هذه الرسالة يطرح الإمام عليه السلام ذريعه معاويه فى الطلب بدم عثمان ويقول: إنك تعلم جيداً من هو القاتل لعثمان، فلماذا لا- تتوجه إليه وتترك المسلمين وشأنهم؟ وفى نهايه الرسالة يقول: إننى أرى عمياً قريب صراخك وصراخ جيشك فى ميدان الحرب وسوف تلحق بك الهزيمة بعد الهزيمة وتضطرّ أخيراً إلى اللجوء إلى كتاب الله فى حين أنك لا تؤمن به.

ص: ١١٤

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَدَّتِهَا. دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرْتُكَ فَأَطَعْتَهَا. وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقْفِكَ وَأَقِفْ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجْنٌ، فَاقْعَسْ عَنِ هَذَا الْأَمْرِ، وَخُذْ أَهْبَهُ الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ الْعَوَاهِ مِنْ سَمِّكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمُكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَاخِذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالْدَّمِ.

الشرح والتفسير: نظره إلى الأفق الغائم

رأينا آنفاً أن هذه الرسالة ابتدءت بكلمات لم يذكرها السيد الرضوي في «نهج البلاغه»، فالإمام عليه السلام في بدايه هذا الكتاب بعد الحمد والثناء على الله تعالى أشار إلى سرعه انقضاء الدنيا وزوال الحياه وخاطب معاويه بالقول: يا معاويه أنت تدعى شيئاً لست من أهله، لا- في الماضي ولا- في الحاضر، ولا- تملك الدليل على إثبات مدعاك (جدارتك بالحكوميه والخلافه على المسلمين) وليس لديك شاهد من القرآن الكريم أو من الأحاديث النبويه الشريفه، ثم إن الإمام عليه السلام أخذ يتبه معاويه على عواقب التكالب على الدنيا وزخارفها ويحذره من الوقوف أمام الله تعالى يوم القيامه لعله ينتبه لخطئه ويرعوى عن سلوكه ويتحرك في الصراط المستقيم، يقول الإمام عليه السلام: «وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ (١) مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ

١- (١). «جلايبب» جمع «جلباب» على وزن «مفتاح» (وهذه المفرده ترد بكسر الجيم وفتحها وتعنى العباءه، قطعه القماش التي تغطى جميع البدن، وتطلق على الثوب الواسع والطويل).

تَبَهَّجَتْ (١) بِزِينَتِهَا وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا.

ثم يضيف الإمام عليه السلام: إِنَّ هذه الدنيا هي التي دعتك وخذعتك إلى بريقتها وزخارفها وقد أجبته وأسرت إليها وسلّمت إليها قيادك وعقلك: «دَعَّتْكَ فَأَجَبْتَهَا، قَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا».

والإمام عليه السلام في هذه العبارات يطرح تشبيهات رائعة للدنيا وبريقها ويشبّهها بالملابس البرّاقه والملوّنه التي يلبسها المرء ويزهو بها أمام الآخرين، أو بمثابة الجلباب الذي يغطّي به الإنسان رأسه، وزخارف الدنيا تخدع الإنسان ولذّتها تجذبه إلى خطّ الهاوية والضلاله، فالأشخاص الذين يتحرّكون في خطّ الأهواء والشهوات والذين لا يعرفون حقيقه الدنيا سيقعون في فخاخها سريعاً ومن أجل الاستفاده من زينتها ولذّاتها سيجدون أنفسهم مضطّرين لاتباع أوامرها والامتثال لمطالبها، وبذلك يتعدون عن طريق الحقّ والإيمان ويتحرّكون في متاهات الضلاله ومنزلقات الخطيئه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى عاقبه هذا المسار المنحرف ويقول: «وَإِنَّهُ يُوشِكُ (٢) أَنْ يَقْفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مَجْنٌ (٣)، فَأَقْعَسَ (٤) عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَخُذْ أَهْبَهُ (٥) الْحِسَابَ، وَشَمِّرْ (٦) لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغَوَاةَ (٧) مِنْ سَمْعِكَ».

ص: ١١٨

- ١- (١). «تبَهَّجَتْ» من ماده «بهج» و «بهجه» بمعنى الجمال والطراوه، و «والتبَهَّج» بمعنى الشعور بالفرح بسبب رؤيه الجمال.
- ٢- (٢). «يوشك» من ماده «وشك» على وزن «كبت» تعنى الإسراع فى المشى، وعليه فإنّ كلمه «يوشك» تدلّ على أنّ الأمر الفلانى سرعان ما يتحقق (والصحيح «يوشك» بكسر الشين، وتاره تأتي بفتحها).
- ٣- (٣). «مجنّ» بمعنى الدرع.
- ٤- (٤). «أقعس» صيغه أمر من ماده «قعس» على وزن «نفس» وفى الأصل بمعنى بروز الصدر إلى الأمام وانبعاج الظهر، ثم اطلقت على كل تكاسل واهمال فى عمل معين، وجاءت فى العبارة أعلاه بهذا المعنى، يعنى: يجب عليك يامعاويه أن تتراجع عن الخلافه.
- ٥- (٥). «أهبه» بمعنى تهيئه وسائل العمل.
- ٦- (٦). «شمر» من ال «تشمير» وأصلها من «شمر» على وزن «تمر» بمعنى جمع الأمور وقطف الثمار والاستعداد لقدم قادم، وتعنى فى التهيؤ لأداء عمل معين.
- ٧- (٧). «غواه» جمع «غاوى» المضل.

ويتحدّث الإمام عليه السلام فى هذه العبارات عن جذور الإنحرافات التى وقع فيها معاويه وكذلك يشير إلى طريق الحَلّ والعلاج حيث يقول: إنَّ أفضل طريق لنجاتك من هذه المتاهة هو أن تعزل حكومه الشام وتأخذ الأهبه للحساب الإلهي.

وجمله «شَمَّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ» إمَّا إشاره إلى الحوادث الأليمه والوخيمه التى ستصيب معاويه وأعوانه فى هذه الدنيا، أو إشاره إلى الحوادث والعاقبه الأليمه التى ستلحق بهم فى الآخرة (والاحتمال الثانى أنسب فى المقام) وعلى أية حال بما أنّ هذه الحوادث حتميه الوقوع فإنَّ الإمام عليه السلام ذكرها بصيغه الماضى.

ثم إنَّ الإمام عليه السلام فى سياق كلامه لمعاويه يستعمل لغة التهديد ببعض الأمور المعنويه ويقول: إنَّك إن لم تعمل بما أمرتك به وأرشدتك إليه فذلك لأنك تعيش الغفلة عن العاقبه الوخيمه التى تنتظرك، وأنَّ السبب فى ذلك طغيانك وغرورك بالنعمه «وَاللَّا تَفْعَلُ أَغْلِيكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ (١) قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَاخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، جَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالْدَّمِ».

وقد ذهب بعض المحققين إلى أن «إِلَّا تَفْعَلُ...» إشاره إلى أنَّ الإمام عليه السلام يهدد معاويه فى هذه العبارة بالحرب، ومراده من إعلامه هو الإعلام العمليّ، ولكن مثل هذا المفهوم لا يستوحى من أى من العبارات والجمل المذكوره قبل هذه الجملة وبعدها، بل إنَّ مجموعه هذه الكلمات والعبارات توحى بالنصيحه وتثير فى المخاطب اليقظه والانتباه.

واللافت أنّ معاويه قد هدّد الإمام عليه السلام فى رسالته بالحرب، ولكن الإمام عليه السلام هدّده بسيطره الشيطان عليه ووقوعه فى شباكه وحذّره من هذا المصير السيّء.

ص: ١١٩

١- (١). «مترف» هو الشخص الذى يملك نعماً ومواهب كثيره، وبما أنّ ذلك قد يسبب غالباً الطغيان فالمترفين هم الأشخاص الأثرياء الذين يعيشون حاله الطغيان والتمرد.

وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةَ سَاسَهُ الرَّعِيَّةَ، وَوَلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ. وَأَحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِيًّا فِي غَرِّهِ الْأُمِّيَّةِ، مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ.

الشرح والتفسير: حذارٍ من الغفلة

في هذا المقطع من الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى حقيقة عدم صلاحية معاوية وبنى امية لاستلام أمر الحكومة ومقاليد السلطنة على الأمة الإسلامية حتى الحكومة على جزء من البلاد الإسلامية، لأنه يعلم أن مسألة الطلب بدم عثمان وأمثالها ليست سوى ذريعه بيد معاوية لإيهام الناس واستغفالهم، بينما الغرض الأصلي منها أن يفرض حكومته وسيطرته على أهل الشام بوصفه حاكماً إسلامياً، يقول الإمام عليه السلام:

«وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةَ سَاسَهُ الرَّعِيَّةَ، وَوَلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ (١)».

صحيح أن اسره بنى امية وأسلافهم كانوا حكاماً في ما مضى على قريش، ولكن هذا الأمر يتعلق بزمان الجاهلية وعصر الكفر والشرك، وعبارته «وَلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» تبين أن مقصود الإمام عليه السلام هو عصر ظهور الإسلام، لأننا نعلم أن بنى امية وعلى رأسهم أبي سفيان كانوا عند ظهور الإسلام يقفون في الجبهة المخالفة للرسالة الجديدة وكانوا يدافعون عن الشرك والكفر ويسرون في خط الضلالة.

ص: ١٢١

١- (١). «باسق» بمعنى المرتفع من «البسوق» على وزن «طلوع».

وعبارته «سِيَّاسَةَ الرَّعِيَّةِ» و «وُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» يمكن أن تكون من قبيل العطف والتفسير وأن كلاهما من الجملتين إشارة إلى الحكومه الإسلاميه، ولكن يحتمل أيضاً أن عبارته «سِيَّاسَةَ الرَّعِيَّةِ» تتعلق بمرحلة ما قبل الإسلام، وعبارته «وُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» تتعلق بما بعد ظهور الإسلام في جزيره العرب، لأن بنى اميه قبل الإسلام لم يكونوا سوى ولاة أمر قبيلتهم فقط، فى حين أن كلمه الرعيه توحى بالمعنى الواسع للكلمه، وبعبارة أخرى إن أهل مكة كانوا تحت زعامه عبدالمطلب وبعده تحت زعامه أبى طالب.

والإمام عليه السلام فى عبارته «بِعَيْرِ قَدَمِ سَابِقِي...» يشير إلى هذه الحقيقه، وهى أن الحكومه ومسأله قياده وزعامه الأمة الإسلاميه تستلزم توفر الشروط والضوابط ومنها أن يكون الشخص ذا سابقه فى الإسلام ويكون شريف النسب، فى حين أن معاويه هو ابن أبى سفيان الذى كان يقف فى خطّ المواجهه مع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى آخر لحظه، وقصّه تلوث ام معاويه معروفه ومشهوره فى كتب التاريخ.

ثم إن الإمام عليه السلام يحذّر معاويه فى ثلاث جمل ويقول أولاً: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ».

هذه الجملة يحتمل كونها إشارة إلى أن معاويه، وبسبب العوامل الوراثيه السلبيه الصالحه التى انتقلت إليه من أبيه وأمه، (أبى سفيان وهند آكله الأكباد) وحركته فى خطّ الباطل والشرك ومواجهه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والرساله الإلهيه مع أبيه، قد وفرّ الأراضيه لنفسه للشقاء والانحراف والتوغّل فى خطّ الضلاله، وهذا ما لا يمكن الخلاص منه إلاّ بتهذيب النفس والسعى الجادّ فى تغيير المسار.

ثم إن الإمام عليه السلام يذكر فى الجملة الثانيه «وَأَحْيَا ذُرُوكَ أَنْ تَكُونَ مُمْتَادِيًّا فِي غَرِّهِ (١) الْأُمِّيَّةِ (٢)»، أى أن الغفله الناشئه من الآمال والطموحات الموهومه تفود صاحبها فى

ص: ١٢٢

١- (١). «غَرِّهِ» بمعنى الغفله والجهل وعدم الاطلاع والغرور.

٢- (٢). «الأميّه» بمعنى الأمل، وأصلها «منى» على وزن «رمى» بمعنى التقدير والفرص ويطلق على الآمال تمنى والأمنيّه بسبب أن الإنسان يقدر لنفسه الكثير من الأمور فى عالم الخيال ويتعلق بها قلبه، ومفرده امنيه تأتى غالباً فى موارد الطموحات والآمال البعيده والتى لا تتحقق فى الواقع العملى.

طريق الشيطان والتمرد على الحق.

وهذه الجملة ناظره إلى ما أشارت إليه الروايات الإسلاميه مراراً، وهو أنّ الآمال العريضة والطموحات البعيده من شأنها إبعاد الإنسان عن طريق الحق وعن الإيمان بالله واليوم الآخر بحيث يغفل الإنسان حتى عن واقعه وما يصلحه في هذه الدنيا:

«وَأَمَّا طَوْلُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ» (١).

وفي الجملة الثالثه يقول الإمام عليه السلام: إنّي احذّرك أن تكون ممّن يختلف ظاهره عن باطنه، وتظهر للناس الإسلام والإيمان، ولكنك تبطن الشرك وعقائد الجاهليه (مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيَرَةِ).

وهذه الجملة إشاره إلى نفاق معاويه الذى يطالب بدم عثمان ويدافع عن مقام الخلفه فى الظاهر ولكنه فى الباطن ليس له هدف سوى الحكومه على الشام، ونعلم أنّ حاله النفاق والازدواجيه فى الشخصيه لدى المنافقين هى أشدّ خطراً من الشرك، لأنّ المسلمين يعرفون تكليفهم الشرعى فى مقابل المشركين وأعداء الإسلام فى حين أنّهم لا يعرفون الموقف الصحيح من المنافقين بسبب تسترهم بقناع الإسلام والإيمان الظاهرى وطعنهم الإسلام من ورائه.

ص: ١٢٣

١- (١). الكافى، ج ٢، ص ٣٣٥، ح ٣.

وَقَدْ دَعَوْتُ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِبًا وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعِيفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ وَالْمُعْطَى عَلَى بَصِيرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنِ قَاتِلُ جِدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخَا يَوْمَ بَيْدَرٍ، وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عِيدُوِي، مَا اسْتَبَدَلْتُ دِينًا وَلَا اسْتَعَدْتُ نَبِيًّا. وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ.

الشرح والتفسير: أنا أتحرّك دوماً في خطّ الحقّ والهدايه

يبين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرساله جواباً آخر على ما ذكره معاويه في رسالته، حيث هدّد معاويه الإمام عليه السلام بكلمات وقحه وغير مسؤوله بالحرب واتهم الإمام عليه السلام بأنّه قد غطى على عينه بحجاب الأنانيه وأما قلبه قد أصابه الصدا والرین!! وما يثير العجب أنّ شخصاً من بقايا عصر الجاهليه وابن لأشدّ أعداء الإسلام والمسلمين يتحدّث بهذا الكلام مع من قد ملأ الإيمان قلبه وعاش منذ طفولته إلى نهايه عمره في خدمه الإسلام والدفاع عن المسلمين ويعدّ أشجع العرب على الإطلاق.

وعلى أيه حال، يقول الإمام عليه السلام: «وَقَدْ دَعَوْتُ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِبًا وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعِيفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ، وَالْمُعْطَى عَلَى بَصِيرِهِ».

وهكذا نرى الإمام عليه السلام في هذه العبارة بدون أن يخاطب معاويه بمثل العبارات التي خاطبه بها، يجيب على تهديد معاويه جواباً حاسماً وقاطعاً بأنك إذا كنت

صادقاً في تهديدك بالحرب، فبدلاً من سفك دماء المسلمين من كلا الطرفين ينبغي عليك أن تأتي إلى الميدان بمفردك وتقف أمامي للنزال، ومعلوم أنّ معاوية لا يجد جواباً على مثل هذه الاقتراح، لأنه لم يكن يوم من الأيام رجل الميدان ولا يجد في نفسه الشجاعه الكافيه لمواجهة الإمام عليه السلام في مواقع الخطر.

ويذكر الشيخ مغنيه في كتابه الإمامه والسياسه نقطه ملفته للنظر، وهي أنّ هذه الرساله عندما وصلت معاويه قال عمرو بن العاص لمعاويه: هل تخشى على نفسك من مواجهه عليّ بن أبي طالب، فوالله لأذهب إليه حتى لو قتلت ألف مرّه، وبذلك برز عمرو بن العاص في حرب صفين في مقابل الإمام عليه السلام فما كان من الإمام إلّا أن ضربه بقناته فسقط على الأرض ولم يجد عمرو بن العاص شيئاً ينقذه من الهلكه المحتمومه سوى أن ينزع عنه لباسه ويبدى عورته، لأنه يعلم أنّ الإمام يستحي من ذلك ويعود من حيث أتى، ويسلم بذلك عمرو من الهلكه.

ولهذا السبب قال معاويه بعد ذلك لعمرو بن العاص: أمران قد أنقذاك من الهلكه، الأول عورتك، والثاني حياء عليّ بن أبي طالب.

ثم إنّ الإمام عليه السلام قال تأييداً لكلامه «فَأَنَا أَبُو حَسَنِ قَاتِلُ حَيْدِكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخًا يَوْمَ يَدْرٍ، وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي».

ونعلم أنّ «عتبه بن ربيعه» والد هند أمّ معاويه قتل في غزوه بدر في مقابل «عبيده بن الحارث» ابن عمّ الإمام عليّ عليه السلام، فقد هبّ الإمام لمساعدته عبيده في هذه الواقعة وقتل عتبه، وكان «شيبه بن أبي سفيان» أخو معاويه قد بارز في هذه المعركه حمزه عمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد أعان الإمام عليه السلام حمزه على قتله، وأمّا خال معاويه «الوليد بن عتبه» فقد بارز الإمام عليه السلام في هذه الواقعة وقتله الإمام عليه السلام.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كلمه «شدخ» بمعنى كسر الشيء الأجوف، فتعبير الإمام عليه السلام هذا يبيّن هذه الحقيقه، وهي أنّ جدّ وخال وأخا معاويه قتلوا في معركه بدر وأنّ جماجمهم كانت فارغه من العقل والتفكير السليم.

وبالرغم من أن معاوية استخدم في رسالته كلمات نايبه وشديده إلا أنها كانت حاوية وفاقد للمحتوى، بينما استخدم الإمام علي عليه السلام عبارات أكثر انسجاماً وقوة، وعميقه المعاني، وبينما كان معاوية يدعو إلى الحرب بين طائفتين، كان الإمام علي عليه السلام يدعو إلى القتال منفردين، أي يطلب المبارزه بينه وبين معاوية وجهاً لوجه.

ورأينا أن معاوية يتحدث في رسالته عن مدعيات حاوية دون إسنادها بالمدارك التاريخيه، بينما نرى أن الإمام علي عليه السلام أخذ بيد معاوية إلى الماضي من صدر الإسلام وبين له سوابقه التاريخيه في معركة بدر وأنه هو علي بن أبي طالب الذي قتل جدّه وأخاه وخاله وأئمّه الكفر والشرك من قبيلته، وأن سيفه هو ذلك السيف الذي مرّغ به انوف عتاه المشركين والمردّه من قوى الكفر، وأن قلبه هو ذلك القلب الشجاع الذي كان يقاتل به المشركين في معارك صدر الإسلام.

ثم إن الإمام علي عليه السلام يشير إلى نقطه أخرى وهي ثباته واستقامته في خط الإسلام والإيمان ويقول: لم أبتدع في الدين شيئاً ولا اخترت نبياً غير نبي الإسلام صلى الله عليه وآله فأنا أتحرّك في الطريق القويم والصراط المستقيم: «مَا اشْتَبَدْتُ دِينًا، وَلَا اسْتَحَدْتُ نَبِيًّا».

وَإِنِّي لَعَلَى الْمُنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ».

وهذه إشاره إلى أن أباسفيان وأذنايه وأعوانه دخلوا الإسلام مكرهين يوم فتح مكّه والشواهد التاريخيه الإسلاميه تشير إلى أنهم لم يعتنقوا الإسلام أبداً، ولم يؤمنوا طواعيه، ولذلك بعد استلام بنى اميه أزمه الحكم ومقاليد السلطه في زمان الخليفه الثالث، سحق الكثير منهم أصول الإسلام وسنّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تحت أقدامهم ونهبوا بيت مال المسلمين واستأثروا بفيئهم وحرّموا بذلك الطبقة المستضعفه والمحرومه ممّا يستحقونه من هذه الأموال.

وقد تبين ممّا ذكر آنفاً أن مراد الإمام علي عليه السلام من قوله: «الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ»، يتعلّق بموقفهم بعد قبولهم الإسلام ظاهراً، أي أنهم في البدايه قبلوا بالإسلام مكرهين، ثم عندما استلموا مقاليد السلطه نقضوا سنن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله واحده بعد

الأخرى، والشاهد على هذا الكلام أن الإمام عليه السلام قال: «مَا اسْتَبَدَلْتُ دِينًا، وَلَا اسْتَحَدَثْتُ نَبِيًّا» أَي أَنِّي لَمْ أُغَيِّرْ وَلَمْ ابْتَدِعْ فِي الدِّينِ شَيْئًا، وَعَلَى ضَوْءِ ذَلِكَ فَإِنَّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمْعٌ مِنْ شَرَاحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ فِي جَمَلِهِ «تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ» وَأَنَّهَا تَعُودُ إِلَى عَدَمِ قَبُولِهِمُ لِلإِسْلَامِ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، لَا يَبْدُو تَفْسِيرًا صَحِيحًا نَظْرًا لِمَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ نَفْسِهِ، وَخَاصَّةً أَنَّ مَفْرَدَهُ «تَرَكَ» تَقَالُ فِي مَوْرَدٍ يَكُونُ الإِنْسَانُ قَدْ قَبِلَ شَيْئًا قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ ذَهَبَ إِلَى مَكَانٍ مَعَيَّنٍ وَتَرَكَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

تأملان

١. مقارنة شجاعه الإمام عليه السلام بالأعداء

من النقاط الملفته للنظر ما ذكره أصحاب السير والتواريخ عن مقدار شجاعه معاويه وعمرو بن العاص، فالمؤرخ المعروف «الواقدي» وطبقاً لما نقله ابن أبي الحديد عنه في شرح نهج البلاغه يقول:

«قال معاويه يوماً - بعد استقرار الخلافه له - لعمر بن العاص: يا أبا عبد الله لا أراك إلا ويغلبني الضحك، قال: بماذا؟ قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين فأزريت نفسك فرقاً من شبا سنانه، وكشفت سوءتك له. قال عمرو بن العاص: أنا منك أشد ضحكاً، إنني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك وربما لسانك في فمك، وغصصت بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فقال معاويه: لم يكن هذا كله، وكيف يكون ودوني عكّ والأشعريون!، قال: إنك لتعلم أن الذي وصفت دون ما أصابك، وقد نزل ذلك بك ودونك عكّ والأشعريون، وكيف كانت حالك لو جمعكما مآقط الحرب. فقال: يا أبا عبد الله خض بنا الهزل إلى الجدّ «إِنَّ الْجُبْنَ وَالْفِرَارَ مِنْ عَلِيٍّ لَا عَارَ عَلَيْهِ أَحَدٍ فِيهِمَا» (١).

ص: ١٢٨

١- (١). ومن النقاط التاريخيه الملفته للنظر ما وقع نظير هذه القصة عن بسر بن ارطاه الذي يعتبر من شجعان العرب، فينقل ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب (ج ١، ص ١٦٤) أن بسر كان حاضراً مع معاويه في صفين، فشجعه معاويه على قتال أمير المؤمنين وقال: «كان بسر من الأبطال الطغاه وكان مع معاويه بصيفين، فأمره أن يلقي علياً عليه السلام في القتال، وقال له: إنني سمعتك تتمنى لقاءه، فلو أظفرك الله به وصرعته حصلت على الدنيا والآخرة، ولم يزل يشجعه ويمنيه حتى رأى علياً عليه السلام في الحرب، فقصدته والتقيا فصرعه عليّ عليه السلام، وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو بن العاص في كشف السوأه» (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٣١٦ و ٣١٧).

٢. هل كان معاوية حاضراً في معركة بدر؟

يقول ابن أبي الحديد: سألت النقيب أبا زيد (استاذة) عن معاوية، هل شهد بدرًا مع المشركين؟ قال: نعم، شهدها ثلاثه من أولاد أبي سفيان: حنظله، عمرو ومعاوية، قتل أحدهم وأسر الآخر، وأفلت معاوية هارباً على رجله وقد انتفخ رجلاه وورمت ساقاه، فعالج نفسه شهرين حتى برىء.

قال النقيب أبو زيد: ولا خلاف عند أحد أن علياً عليه السلام قتل حنظله وأسر عمراً أخاه ولقد شهد بدرًا وهرب على رجله من هو أعظم منهما ومن أخيهما، عمرو ابن عبدود فارس يوم الأحزاب، شهدها ونجا هارباً على قدميه وهو شيخ كبير وارتث جريحاً، فوصل إلى مكة وهو وقيد فلم يشهد احداً، فلما برىء شهد الخندق فقتله قاتل الأبطال، والذي فاته يوم بدر استدركه يوم الخندق.

ثم قال لى النقيب «رحمه الله»: أما سمعت نادره الأعمش ومناظرته فقلت: ما أعلم ما تريد؟ فقال: سألت رجل الأعمش وكان قد ناظر صاحباً له: هل معاوية من أهل بدر أم لا؟ فقال له: أصلحك الله، هل شهد معاوية بدرًا، فقال: نعم من ذلك الجانب.

ويشير الإمام عليه السلام أيضاً فى أحد كتبه إلى قصه فرار معاوية ويقول: وأذكر ما لست له ناسياً يوم قتلت أخاك حنظله وجررت برجله إلى القليب، وأسرت أخاك عمراً وجعلت عنقه بين ساقيه رباطاً، وطلبتك، ففررت ولك حصاص فلولا أنى لا أتبع فازراً، لجعلتك ثالثهما(١).

ص: ١٢٩

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ٨٤-٨٥.

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ نَائِرًا بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضَعُجُ مِنَ الْحَزْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَمَّةُ الْجَمَالِ بِالْأَثْقَالِ، وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعًا مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعِ، إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ.

الشرح والتفسير: المستقبل المظلم والأفق المشؤوم للعدو!

وفى آخر قسم من رساله الإمام عليه السلام لمعاويه يتحدث الإمام عليه السلام مرّه أخرى عن قصّه قتل عثمان التي جعلها معاويه ذريعته لتمردّه ومخالفته للإمام عليّ عليه السلام وطلب بالثأر لدم عثمان فيقول الإمام: «وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ نَائِرًا (١) بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا».

وهذا إشاره إلى أنّه إذا أردت من شاركك بدم عثمان فاطلبه من أصدقائك طلحه والزبير، وإذا كنت تطلب الأشخاص الذين تركوه وحيداً ولم يمدّوا له يد العون ويغيثوه، فأنت الذي كتب إليك عثمان يطلب منك ولم تجبه، لم تتقدّم خطوه في هذا السبيل، وعليه فأنت لست صادقاً بدعواك بطلب الثأر لدم عثمان، وإن كنت صادقاً لزمك أن تسلك غير هذا المسلك.

ص: ١٣١

١- (١). «ثائر» بمعنى المطالب بدم المقتول، وهي من ماده «ثار» على وزن «سأل»، وعندما تطلق هذه الكلمه على بعض المعصومين عليهم السلام، «يا ثارالله» يعنى الشخص الذى ينتقم لله لا لفرد معين أو قبيله.

ثم إنَّ الإمام عليه السلام يرسم مستقبل معاويه وأعوانه والحرب ضدهم ويتبأ له بالأفق المظلم ويقول: «فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضَعُ جُحٌّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ (١) ضَجِيحَ الْجَمَالِ (٢) بِالْأَثْقَالِ».

وكما هو معلوم فإنَّ هذه النبوءة قد تحققت على أرض الواقع في معركة صفين عندما ضيق جيش الإمام الخناق على جيش معاويه، ووصل مالك الأشتر على مقربة من سرادق معاويه، ولم يبق إلَّا القليل ليصل إليه ويقتله، وفي ذلك الوقت ارتفع صراخ معاويه وأتباعه طالبين إنهاء القتال برفع المصاحف.

وفي تنبؤ آخر يقول الإمام عليه السلام: «وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعًا مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايَعَةٌ حَائِدَةٌ (٣)».

وهذا التنبؤ وقع أيضاً بشكل كامل عندما رأى جيش الشام أنهم عاجزون عن مجابهة أنصار الإمام علي عليه السلام وعاشوا المحنة والقتل المتتابع في صفوفهم، رفع جماعه منهم مع عمرو بن العاص المصاحف على رؤوس الرماح وقالوا: إننا نسلّم أمرنا إلى كتاب الله ونحتكم إليه في هذا الأمر، في حين أنّ هذه الجماعه من أهل الشام لا يعتقدون بكتاب الله ويكفرون بما أنزل الله، لأنهم لم يبايعوا إمام الحق، وفيهم جماعه أخرى ممّن بايع الإمام عليه السلام ولكنهم نكثوا بيعتهم خلافاً لجميع الأصول والمبادئ الإسلاميه المعروفه والتقاليد العريبه، والتحقوا بمعاويه وأعداء الإمام في هذه الوقعه.

وطبعاً ربّما يشير البعض هذا السؤال، وهو أنّ تعبير الإمام عليه السلام هذا يفتح المجال أمام استغلال الأعداء لكتاب الله عندما يشاهدوا نهايتهم المخزيه على الأبواب،

ص: ١٣٢

١- (١). «عَضَّ» من «العَضَّ» بمعنى الامساک بالأسنان.

٢- (٢). «جمال» جمع «جمل» بمعنى الإبل؛ مثل «جبال» جمع «جبل».

٣- (٣). «حائده» بمعنى المائله عن الطريق المستقيم من ماده «حيد» على وزن «صيد» أى الميل إلى إحدى الجهات، وهذه المفرده تأتي بمعنى نقض البيعه.

ولكنّ هذا الكلام غير صحيح، لأنّ الإمام عليه السلام أشار بشكل مجمل إلى هذه الواقعة بحيث لم تكن هذه الإشارة المجمله مفهومه لدى معاويه وأتباعه، لأنّ هذا الكلام يتحدّث عن الدعوه إلى كتاب الله فقط، رغم أننا اليوم نعرف تفاصيل الواقعة التاريخيه وما حدث في معركة صفّين من استغلال المصاحف لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من فلول جيش الشام، فهذه الإشارة في كلام الإمام تعتبر إشاره معيّره.

تأمل: التنبؤات الواقعه

إنّ تنبؤات الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرساله التي كتبها لمعاويه قد تحققت على أرض الواقع بشكل تام، لأنّ القتال بدأ على أشدّه في صباح يوم الثلاثاء من العاشر من شهر صفر سنه ٣٧ للهجره بعد صلاه الصبح، فتقاتل الجيشان ودارت بينهما رحى الحرب، فكانت الدائره على جيش الشام الذين تزعزعت مواقعهم وأحسوا بالضعف والانهيال أمام جيش الإمام عليه السلام الذي كان يتقدّم بقياده مالك الأشتر في أرض المعركه، ولم يبق من انهيال جيش الشام وقتل معاويه أو أسره إلّا القليل، يقول عمّار بن ربيعه: كان مالك الأشتر واقفاً بين أنصاره وأتباعه ويقول: «فداكم أمي وأبي وجميع عشيرتي، اهجموا عليهم هجمه واحده ويفرح الله لكم وأعزّوا بذلك دينه، فانظروا إليّ حين أهجم عليهم فاهجموا بدوركم معي».

وهكذا كان مالك الأشتر غارقاً في صفوف الأعداء يقاتل ببساله وهو حاسر الرأس وقد وضع مغفره على قربوس السرج، وهو ينادي: اصبروا يامعشر المؤمنين فقد حمى الوطيس... يقول ابن أبي الحديد: لله من أمّ قامت عن الأشتر لو أنّ إنساناً يقسم أنّ الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلّا استأذه عليّ عليه السلام لما خشيت عليه الإثم.

وأخيراً استطاع مالك الأشتر وأنصاره من تدمير صفوف جيش الشام وتحطيم

كُلِّمُوا مَقَامَهُمْ وَقَتَلُوا حَمَلَهُ الْأَلْوِيَةَ، فَوَصَلُوا إِلَى الْخِيَامِ، وَقَدْ اسْتَمَرَ الْقِتَالُ حَتَّى تَلَّكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي سَمَّيْتُ «لَيْلَةَ الْهَرِيرِ» (١).

وفى هذه المعركة كان مالك الأشرق قائداً على يمينه الجيش، وابن عباس على اليسره، والإمام علي عليه السلام بالقلب وقد لاحت بوادى النصر المؤزر على ضد جيش الشام، وبلغ معاوية الخبر فطلب عمرو بن العاص وقال له: يا عمرو إنما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفيصل، فماترى؟ قال: إن رجالك لا يقومون لرجاله، ولست مثله، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافونك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون علينا إن ظفروا بهم، ولكن إلقِ إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، إدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنك بالغ حاجتك في القوم، وإنى لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه.

فعرّف معاوية ذلك وقال له: صدقت.

وهكذا وقع ما كان يخشى منه ممّا أسلفنا بيانه (٢).

ص: ١٣٤

١- (١). «هرير» فى اللغة بمعنى عواء الكلب عند التألم، وهذا إشارة إلى أنين أهل الشام وصراخهم فى تلك الليلة.

٢- (٢). انظر: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢٠٥-٢٥٦.

وَصَى بِهَا جَيْشاً بَعَثَهُ إِلَى الْعَدُوِّ (١)

نظرة إلى الرسالة

نقرأ في شرح سند هذه الرسالة أنها تمثل قسماً من رساله أرسلها الإمام عليه السلام إلى رجلين من قادة جيشه عندما تحرّك الجيش نحو صفين، وتقدّم أنّ الإمام عليه السلام جعل مالك الأشر أميراً على هذين الرجلين.

ويتحدّث الإمام عليه السلام في هذه الرسالة عن جميع الأمور الهامّة التي تتعلّق بأساليب القتال والدفاع في مواجهه العدوّ وكيفيه الاستفادة من الفرص وتجنب الوقوع في كمين الأعداء وكيفيه حمايه أفراد الجيش في الليل عند استراحه المقاتلين، وغير

ص: ١٣٥

١- (١). سند الرسالة: لقد أورد هذه الرسالة نصر بن مزاحم الذي كان يعيش ٢٠٠ سنة قبل السيد الرضى في كتابه صفين، والحسن ابن شعبه الحرّاني في تحف العقول والدينوري في كتاب الاخبار الطوال. وابن ميثم البحراني الذي يعدّ أحد شراح نهج البلاغه أورد هذه الرسالة مع إضافات مهمّة وهذا يشير إلى وجود مصادر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٢٤). وصرّح صاحب المصادر إلى أنّ هذه الرسالة تمثّل قسماً من رساله مطوّله أرسلها الإمام عليه السلام إلى زياد بن النضر الحرّاثي وشريح بن هانئ من قوّاد جيش الإمام عليّ عليه السلام. وقد وردت هذه الرسالة أيضاً في كتاب نهج البلاغه الكامل برقم ١ من رسائل الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام في ص ٩٤٥.

ذلك من المسائل الدقيقة التي تتصل بمسؤوليات القيادة العسكريه، والحقيقه أنّ دقه نظر الإمام عليه السلام هنا إلى درجه من العمق بحيث أنّ هذه التوصيات والتعليمات للإمام عليه السلام يمكن الاستفادة منها في الجيش الإسلامي في كلّ عصر وزمان.

ص: ١٣٦

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْيَكُنْ مَعَكُمْ كُرْكُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ، أَوْ سَفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ، كَيْمًا يَكُونُ لَكُمْ رِذَاءً، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا. وَلْتَكُنْ مَقَاتِلُكُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقِيَاءَ فِي صِيَاصِي الْجِبَالِ، وَمَنَاقِبِ الْهَضَابِ، لِنَلَّا يَأْتِيَكُمْ الْعِيدُ مِنْ مَكَانٍ مَخَافِهِ أَوْ أَمْنٍ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَمَائِعُهُمْ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانزِلُوا جَمِيعًا وَإِذَا اِرْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعًا، وَإِذَا غَشِيَكُمْ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كَفَّةً، وَلَا تَذُقُوا النَّوْمَ إِلَّا غَرَارًا أَوْ مَضْمَضَةً.

الشرح والتفسير: الاستعداد الصحيح للجيش

يبين الإمام عليه السلام في هذه الرسالة والتوصية العسكريه سبعة تعاليم وتوصيات عسكريه مهمه، وكيفيه المواجهه الدقيقه لجيش الأعداء، وضمان النصر على العدو، وهذا يبين دقه نظر الإمام عليه السلام في المسائل التي تتصل بقياده الجيش وترتيب وضعه العسكري في ميادين القتال. يقول الإمام عليه السلام: «فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ فَلْيَكُنْ مَعَكُمْ كُرْكُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ (١)، أَوْ سَفَاحِ (٢) الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ (٣) الْأَنْهَارِ، كَيْمًا يَكُونُ لَكُمْ

ص: ١٣٧

- ١- (١). «أشرف» جمع «شرف» على وزن «هدف» بمعنى المكان المرتفع والتعبير ب«قبل الأشرف» يعني أمام المرتفعات.
- ٢- (٢). «سفاح» في الأصل معنى انهمار الماء وجريانه، ثم اطلق على جانب الجبل، لأن الماء ينهمر منه، وتأتى هذه المفرده كناية عن الزنا.
- ٣- (٣). «أثناء» جمع «ثنى» على وزن «صنف» بمعنى الملتوى والمطاوى، وهذه المفرده «أثناء» تأتى بمعنى وسط الشىء.

ويبين الإمام عليه السلام الغرض من هذه التوصية ويقول بأنّ الجيش إذا كان يتخذ مواقع إلى جانب مرتفعات أو سفوح الجبال أو شواطئ الأنهار، فمن البعيد أن يستطيع العدوّ محاصره الجيش الإسلامى أو يباغته بالهجوم عليه من الخلف، وبذلك يستطيع الجيش المحافظه على استعداده الكامل وعدم حدوث الخلل والاهتزاز فى صفوفه.

ويبين الإمام عليه السلام فى هذا التوصية نقطتين فى مقام الاستدلال، الأولى أنّ مثل هذا الموقف يساهم فى تقويتكم ورضّ صفوفكم، والأخرى أنّه يعيق هجوم العدوّ عليكم، ومفهوم الجملة الثانية واضح لأنّ العدوّ فى مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يهجم على الجيش من الخلف، وأما مفهوم الجملة الأولى فربّما يكون المراد أنّ الجيش إذا اتّخذ موقعاً إلى جانب المرتفع وسفح الجبل، فإنّ حركته باتّجاه العدوّ ستكون أسهل وأيسر، وحركه العدوّ باتّجاه الجيش الإسلامى ستكون أصعب وأعسر، وطبعاً مثل هذا الكلام إنّما يصدق فى موارد الأراضى الجبلية والتي تكثر فيها المرتفعات.

ويحتمل أيضاً فى معنى كلمه «مردّاً» أن يكون المراد منها محل العوده إذا أرادت مجموعه منكم العوده والتقهقر أمام العدوّ لفته معينه لغرض الاستراحه واستعاده القوه فإنّ سفوح الجبال وأمثالها سيكون محلاً مناسباً لهذا الغرض والتهيؤ للهجوم مرّه أخرى على العدوّ.

ولا ينبغى الغفله عن هذه النقطة، وهى أنّ اتّخاذ مثل هذا الموضع العسكرى يتمتّع بميزه ثالثه، وهى أنّ الأفراد الجبناء من الجيش قلّما يستطيعون العثور على مهرب للفرار من الزحف لوجود المانع الطبيعى خلفهم، فلا يجدون بداً من الصمود والمواجهه.

ص: ١٣٨

١- (١). «ردء» بمعنى المعين والنصير.

٢- (٢). «مردّ» تأتي تاره بمعنى المانع وأخرى بمعنى محل العوده، فى الجملة أعلاه كما ذكرنا فى الشرح، تأتي بكلا المعنيين.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى التوصية الثانية، ويقول: «وَلْتَكُنْ مَقَاتِلُكُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ».

فتعدّد الجهات ومحاور القتال من شأنه إضعاف قوّة الجيش وبعثره طاقاته فيكون من اليسير إيجاد ثغره في صفوفه، ولهذا السبب فإنّ أحد فخاخ العدو في الماضي والحاضر لكسر مقاومه المخالفين، السعى لإيجاد جهات متعدّده في الميادين العسكريه أو السياسيه لإضعاف قوّة الخصم وتشيت طاقاته، وربّما لا يكون المراد من جهتين مختلفتين بأن تكون جبهه واحده إلى الشرق أو إلى الغرب مثلاً بل يتمّ التحرك على جهتين بشكل دائره تذهب مجموعه من جهه يمين العدو ومجموعه أخرى من جهه الشمال لمحاصره العدو بشكل تامّ.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى التوصية الثالثه ويقول: «وَأَجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي (١) الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ (٢) الْهَضَابِ، لِنَلَّا بِأَيْتِكُمْ الْعَدُوَّ مِنْ مَكَانٍ مَخَافِهِ أَوْ أَمْنٍ».

يشير الإمام عليه السلام في هذه التوصيه إلى أمرين مهمين لا بدّ من الأخذ بهما بالحسبان، أحدهما قمم الجبال والأخرى أعالي الهضاب والمرتفعات، لأنّ هذه المواقع تتمتع بإشراف كامل على جميع الجهات، فالشخص الناظر من هذا الموقع يستطيع رؤيه جميع النقاط التي يتحرّك فيها الجيش.

والتعبير بـ «مَكَانٍ مَخَافِهِ أَوْ أَمْنٍ» ناظر إلى احتمال هجوم الأعداء بغته، ويكون من المنطقه المتوقعه منها، وعلى ضوء ذلك يجب على المراصد أن ترى جميع هذه النقاط.

ويشير الإمام عليه السلام في التوصيه الرابعه إلى إحدى التقسيمات المهمه للجيش التي

ص: ١٣٩

١- (١). «صياصي» جمع «صيصيه» أو «صيصه» وهو في الأصل بمعنى المشط الذي يستخدمه الحائك لتعديل وتنظيم القماش، أو الظفر الزائد في أقدام بعض الطيور، ثم اطلق على القلاع المحكمه على قمم الجبال وكذلك تطلق على قمم الجبل، وفي العبارة أعلاه وردت بمعنى الأخير.

٢- (٢). «مناكب» جمع «منكب» على وزن «مغرب» بمعنى الأكتاف، بالنظر إلى أنّ الهضاب جمع هَضَبٍ (على وزن عَقَبَةٍ) تأتي بمعنى الجبال المسطحه التي تفتقد القمم، فإنّ «مناكب الهضاب» تعني الأقسام العليا من هذه التلال المرتفعه والتي هي بمثابة الاكتاف للجبل.

تشكل المكونات الأساسية له، يقول: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ».

وقد كان متداولاً في الماضي أنّ الجيش لا يتحرك كلّ مرّة واحده، بل تتحرك مجموعه من الصفوه أمام الجيش بوصفها مقدمه له، ومن بين أفراد هذه المجموعه الشجعان وأكثر القوم خبره بأمور الحرب، وإطلاعاً على مسيره الجيش بوصفهم مخبرين وطلائع الجيش الذين يمثلون في الواقع القوى المعلوماتيه والاستخباراتيه لمركز القيادة، وبمجرد الاطلاع على وضع العدو ومكان تواجده يخبرون القيادة بذلك لاتخاذ الموقف المناسب.

وفي التوصيه الخامسه يحذّر الإمام عليه السلام بشدّه من الفرقه والاختلاف ويقول:

«وَأَيُّكُمْ وَالتَّفَرُّقُ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَأَنْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا أَرْتَحَلْتُمْ فَأَرْتَحِلُوا جَمِيعاً».

وبما أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه التوصيات والتعاليم العسكريه إلى «زياد بن النضر الحارثي» و«شريح بن هانئ» اللذين يمثلان مقدمه الجيش وطلائعه، فمراده من هذا الكلام هو أنّ مقدمه الجيش يجب عليها اجتناب التسرع ولزوم العمل من موقع الانسجام والتجانس لئلا يدبّ فيهم الضعف والفتور.

ويبين الإمام عليه السلام في التوصيه السادسه نمط وكيفيه الاستراحه الليليه للجيش ويقول: «وَإِذَا غَشِيَتْكُمْ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً (١)» أي بصوره دائريه حول الجيش بحيث يكون الجيش في الوسط.

وهذا هو الشيء المتداول في التعاليم العسكريه في العالم المعاصر، سواء في ميدان القتال أو في غيره، بحيث يستدعى بعض أفراد الجيش ليقوم بواجب حمايه الليليه ومهمه الخفر والعمل على مراقبه الأوضاع بالتناوب، سواءً في المعسكرات أو في الأماكن الحساسه والمراكز المهمه داخل المدن، وبمحض الإحساس بالخطر،

ص: ١٤٠

١- (١). «كفه» جمعها «كفاف» بمعنى الشيء المدور، وكفه الميزان يراد بها هذا المعنى أيضاً حيث تكون بشكل دائري.

يجب عليهم إنذار القيادة وإخبارها بتفاصيل الحدث، وهذا هو ما يطلق عليه في هذا العصر بقوى الحراسه.

وفى التوصيه السابعه والأخيره يوجّه الإمام عليه السلام خطابه إلى جميع أفراد الجيش بأن لا يغرقوا أثناء الاستراحه الليله فى نوم عميق كما هو حال النائم فى بيته، ويقول: «وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غَرَارًا أَوْ مَضْمَضَةً» كما يتمضمض الإنسان بالماء جرعه بعد جرعه.

وهذا بالضبط كما ينتظر الشخص مسافراً أو ضيفاً عزيزاً يريد القدوم عليه ليلاً، فنراه لا ينام بشكل عميق، بل تأخذه سنه وينتبه، ثم يعود إلى النوم بشكل خفيف، ثم ينتبه أيضاً، فينبغى على جيش الإسلام أن يكون كذلك فى استراحتة الليليه فى مقابل العدو لئلا يباغته العدو ويغير عليه ويستطيع إنزال أكبر الضرر والخسائر فى صفوف الجيش، وهذا هو معنى تشبيه النوم بالغرار أو المضمضه حيث يدير الشخص الماء فى فمه ولا يرتوى منه تماماً.

وطبعاً إن هذه النقاط السبعه الدقيقه فى بيان الإمام عليه السلام تمثل توصيات لمقدمه الجيش وكيفيه حركته باتجاه المواجهه، وأمّا التوصيات والتعاليم التى تتصل بميدان الحرب والقتال، فقد سبق أن بينها الإمام عليه السلام فى الخطب والرسائل السابقه (انظر الخطبه ١١ فى الجزء ١، ص ٤٨٧، والخطبه ٦٦ فى الجزء ٣، ص ٩١ فصاعداً، والخطبه ١٢٤، الجزء ٥، ص ٢٥٧ فصاعداً).

ص: ١٤١

الرساله ١٢: وَصَى بِهَا مَعْقِلُ بْنُ قَيْسِ الرِّيَاحِيِّ حِينَ أَنْفَذَهُ إِلَى الشَّامِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مُقَدَّمَةً لَهُ

إشاره

وَصَّى بِهَا مَعْقِلُ بْنُ قَيْسِ الرِّيَاحِيِّ حِينَ أَنْفَذَهُ إِلَى الشَّامِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مُقَدَّمَةً لَهُ (١)

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة التي كتبها الإمام عليه السلام لأحد قواد جيشه بتبديء كما في سائر الرسائل الأخرى لقاده الجيش، في التوصية بالتقوى والورع، والتأكيد على التقوى التي تمثل أصلاً وأساساً لسعادة الإنسان ومسيرته المعنوية في الحياة، ثم يبين الإمام بعض التوصيات فيما يتصل بتعبئه القوى وكيفية حركه الجيش باتجاه العدو وبدايه الإلتحام معه في الميدان.

ص: ١٤٣

١- (١). سند الرسالة: جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ الحرب بين الإمام عليه السلام وأهل الشام عندما وصلت إلى المدائن أرسل الإمام عليّ عليه السلام معقل بن قيس الرياحي مع ثلاثة آلاف مقاتل كمقدمه للجيش باتجاه الشام وأوصاه بوصايا عدّه اختار منها الشريف الرضى بعضها، والبعض الآخر ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفين، ولا شك أنّ السيد الرضى نقل هذه الوصية من مصدر آخر غير كتاب صفين لنصر بن مزاحم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٢٦). ثم أضاف: إنّ المرحوم ابن ميثم في شرحه لنهج البلاغه نقل إضافات لما أورده السيد الرضى، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر غير نهج البلاغه للشريف الرضى (شرح نهج البلاغه لابن ميثم، ج ٤، ص ٣٨٠٩). والعجب أنّ كتاب نهج البلاغه الكامل أورد كلمتين إضافيتين فقط على ما ذكره السيد الرضى في نهايه هذه الوصيه (نهج البلاغه الكامل، ص ٧٤٤).

ثم يؤكد الإمام عليه السلام في هذه الرسالة كراراً أن لا يتدّى جيش الإسلام بالقتال وأن لا يقتربوا من العدو بحيث يتصوّرون أنهم يريدون أن يهجموا عليهم ولا يتعد عنهم بحيث يتبادر إلى ذهن العدو أنّ هذا التباعد ناشىء من الضعف والجبن، ويوصى أيضاً بعدم إنهاك الجنود فى المسير، فلا بدّ من أخذ قسط من الراحة فى بدايه الليل وفى أوقات السحر، وكذلك القيلولة فى وسط النهار حيث ترتفع درجات الحرارة و...، وهناك وصايا أخرى فى هذه الرسالة كلّها تشير إلى الروح العاليه للإمام عليه السلام وحبّه للصالح واستتباب الأمن وضروره رعايه الأخلاق الإسلاميه حتى فى مقابل العدو الغاشم.

ص: ١٤٤

أَتَى اللَّهَ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ لَمَكٌ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ. وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ. وَسِرِّ الْبُرْدَيْنِ، وَعَوَّزِ النَّاسِ، وَرَفِّهِ فِي السَّيْرِ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَنًا، وَقَدَرَهُ مَقَامًا لَاطِعْنَا، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَبْطِئُ السَّحْرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَهِ اللَّهِ. فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَخَفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطًا، وَلَا تَدُنْ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوًّا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعِدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَأْنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

الشرح والتفسير: تعليمات ضرورية قبل التوجه إلى الميدان

في بدايه هذه الرساله يوصى الإمام عليه السلام قائد جيشه «معقل بن قيس» بتقوى الله تعالى ويقول: «أَتَى اللَّهَ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ لَمَكٌ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ».

وهذه العبارات في الحقيقة مقتبسه من التعاليم القرآنيه حيث يقول تعالى:

«وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ» (١) و يقول في آيه أخرى: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَى» (٢).

أجل، فأينما تكونوا ومن تكونوا فإنه لا بد أن تكون العاقبه لقاء الله عز وجل والحضور في محكمه العدل الإلهي حيث يحاسب الإنسان على ما قدم وأخر في حياته من أعمال وأقوال وسلوكيات في حركه الحياه.

ص: ١٤٥

١- (١) . سورة البقره، الآية ٢٢٣.

٢- (٢) . سورة النجم، الآية ٤٢.

وعندما يتبدى الإمام عليه السلام رسالته بالتوصيه بتقوى الله والتفكير بالمعاد، فإنه يترتب على ذلك آثار مختلفه، فإنه من جهه يؤدى إلى تطبيق وترجمه التعاليم والتوصيات الوارده فى هذه الرساله بدقه، ومن جهه أخرى، بما أن محتوى هذه الرساله والبرنامج العسكرى للجيش هو الجهاد فى سبيل الله والسير إلى الله، فإن التوصيه بالتقوى من شأنها أن تبعث الروحيه والمعنويه فى أفراد الجيش ويكونوا على استعداد تام لمقاتله العدو والتصدى لقوى الانحراف والضلاله بشكل أقوى.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى عشر نقاط عسكريه فيما يتصل بإرسال القوّات إلى ميدان القتال وكيفيه مقاتله الأعداء ومجابهه قوى الباطل والتي هى فى الحقيقه تعتبر من مقدّمات النزال فيما يخص الاستعداد للحرب، ويقول فى البدايه: «وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ».

هذا هو الدستور الأول فى تعاليم الإسلام العسكريه، ويبيّن روحيه الصلح وطلب السلم للإنسان المسلم الذى لا يحبّ البدء بالقتال، فما لم يبدأ العدو بالحرب والقتال فلا ينبغى للمسلمين أن يسبقوهم بالقتال، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (١).

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الدستور الثانى والثالث والرابع ويقول: «وَسِرِّ الْبُرْدَيْنِ (٢) ، وَغَوْرُ (٣) بِالنَّاسِ ، رَفَّهُ (٤) فِي السَّيْرِ» ، أى أنّ المسير بالجيش ينبغى أن يتزامن مع الأجواء المناسبه فى وقت الصباح والعصر حيث يبرد الهواء نسبياً فى هذين الوقتين، فيما تكون الاستراحه عند وقت الظهيره حيث ترتفع حراره الجو، ومن

ص: ١٤٦

١- (١) . سورة الانفال، الآيه ٦١.

٢- (٢) . «بردين» تشبيه «برد» بمعنى البروده ضد الحر، وهذا إشاره إلى الصبح والعصر حيث يبرد الهواء نسبياً وتنخفض درجه الحراره.

٣- (٣) . «غور» من ماده «غور» على وزن «قول» وردت فى المصادر اللغويه بمعنيين، الأول، النوم فى منتصف النهار والذى يعبر عنه بالقيلوله، والثانى، التوغل إلى باطن الشئ وعمقه، وفى الجمله يراد بها الأول، وأحياناً يقصد بهذه المفرده الحمله والهجوم والإغاره أيضاً.

٤- (٤) . «رفه» من «الترفيه» و «رفوه» بمعنى الراحة والهدوء فى الحياه، والرفاه يرد أيضاً كأحد المصادر لهذه المفرده.

البديهي أنّ السير السريع والاستعجال في لقاء العدو بدون ملاحظه حراره الجو وبرودته ووقت الاستراحه من شأنه أن يثير في أفراد الجيش التعب والضعف وبالتالي عدم مقاومه العدو ومجالدته بالشكل المطلوب.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى الدستور الخامس والسادس من هذه التوصيات ويقول: «وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكْنًا، وَقَدَرَهُ مُقَامًا لَأَغْنَاءَ، فَأَرِحْ فِيهِ يَدَنَكَ، رَوْحَ ظَهْرِكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ (١) السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَهِ اللَّهِ».

وهذا الكلام إشاره إلى ما ذكره القرآن الكريم في أكثر من مورد حيث يؤكد على أنّ الله تعالى جعل الليل مصدرًا للسكون والدعه والراحه: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكْنًا» (٢)، ومثل هذا المضمون ورد في سوره يونس في الآيه ٦٧، وسوره القصص، الآيه ٧٣، وسوره غافر، الآيه ٦١ وغير ذلك من الآيات الشريفه.

وهنا ربّما يفرض هذا السؤال نفسه وهو أنّ القرآن الكريم ذكر حقيقه أنّ الليل مصدر السكون والراحه للإنسان، في حين أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن بدايه الليل واستثنى وقت السحر.

والجواب على هذا السؤال يتبين من خلال الإلتفات إلى هذه الحقيقه وهي أنّ المراد من الليل جميع ساعاته باستثناء السحر وهو الوقت القليل من آخره، ويستفاد من التعاليم الإسلاميه في العبادات فيما يتصل بصلاه الليل أنّ آخر الليل مستثنى من هذا الوقت، وهو وقت التنبه واليقظه والحركه والجديّه والاستغفار والتوبه، فلا- يشمله مفهوم الليل الذي جعله الله سكوناً كما ورد في الآيه الشريفه: «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» (٣).

ص: ١٤٧

١- (١). «ينبطح» من ماده «بطح» على وزن «فتح» بمعنى الامتداد والتوسع، وجمله «يَنْبَطِحُ السَّحَرُ» يعنى امتدادالسحر وظهور علاماته، وهذه المفرده تأتي أحياناً بمعنى الاضطجاع على الأرض.

٢- (٢). سوره الأنعام، الآيه ٩٦.

٣- (٣). سوره آل عمران، الآيه ١٧.

وعندما يؤكد الإمام عليه السلام على أول الليل، فالظاهر أن الكثير من الناس عندما يتدثون بعمل معين وقت العصر، فإنهم يستمرون بالعمل إلى ساعات من الليل، فيقول الإمام عليه السلام: عندما يتدثىء الليل توقّف عن المسير، وقف للصلاه، ثم عليك بأخذ قسط من الراحة.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن جملة «رَوَّحَ ظَهْرَكَ» إشاره إلى لزوم إراحه الخيل والجمال التي يطلق عليها بالظهر لمناسبه الركوب، وذهب البعض الآخر إلى أنه إشاره إلى الجمال المحمّله بما يحتاجه الجيش من المؤن ولوازم السفر، ولكن لا مانع من أن يكون المراد كلا هذين الأمرين.

وينبغي الالتفات إلى أن أحد معانى «الظهر» الحيوانات التي يحمل عليها الإنسان لوازمه وحاجاته أو يستخدمها للركوب أيضاً، وأما ما ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن معنى الظهر يختصّ بالإبل التي تحمل المؤن، أو بالخيل التي يركب عليها الإنسان، فلا وجه له.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الأمر السابع والثامن والتاسع من هذه التوصيات ويقول:

«فَإِذَا لَقِيتَ الْعِدُوَّ فَقفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسِيطاً، وَلَا تَدُنْ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوٌّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ (١) الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعِدْ عَنْهُمْ تَبَاعِدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي».

عندما يقف قائد الجيش فى الوسط والمحور من القوّات العسكريه فإنّ ذلك من شأنه أن يمنح أفراد الجيش قوه وعزماً واستقامه فى مواجهه العدو، ومن جهه أخرى يتيح له إيصال أوامره وتوصياته إلى أفراد الجيش كافه.

وفى الدستور العاشر يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَا نُهُمْ (٢) عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ

ص: ١٤٨

١- (١). «ينشب» من «النشوب» على وزن «سجود» بمعنى المواجهه والتدخل فى عمل الشىء، وأحياناً تأتي بمعنى بدء اشتعال نار الحرب، و«انشاب» من باب إفعال بمعنى غرز المخالب فى بدن الطرف المقابل، وأحياناً تأتي بمعنى إشعال نار الحرب.

٢- (٢). «شأن» مصدر بمعنى الخصومه والعداوه.

دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ (١) إِلَيْهِمْ»، أى أنّ حاله العداة والبغض والكراهية للعدو لا- ينبغي أن تكون الدافع على قتالهم قبل الإعذار ودعوتهم للصالح وإتمام الحجّة عليهم.

تأمل: من هو معقل بن قيس ؟

ذكر بعض المؤرخين أنّ معقل كان رجلاً شجاعاً من أهل الكوفة، وكان قائداً لأحد جيوش الإسلام فى زمن عمر بن الخطاب، وكان من شيعه أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام، وقد اختاره الإمام ليكون قائداً على إحدى الكتائب فى الجيش وفى معركة الجمل كان أحد امراء الجيش أيضاً، وأمياً بالنسبه لإيمانه وإخلاصه فيكفى أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام عندما اجتمع بالجيش قبل معركة صفين فى منطقه النخيله فى منزل (على مقربه من الكوفه) ألقى الإمام عليه السلام خطبه بجيشه فيما يتصل بالجهاد ضد المتمردين من أهل الشام، فقال معقل: «وَاللّٰهِ يَا امِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ إِلَّا ظَنِينٌ وَلَا يَتَرَبَّصُ بِكَ إِلَّا مُنَافِقٌ».

وورد فى بعض الروايات أنّ أحد الخوارج ويدعى «مستورد» برز لمعقل فى إحدى المعارك وكان بيد هذا الخارجى رمح وبيد معقل سيف، فطعن مستورد معقلاً برمحه، لكنّ معقل استطاع ضربه بالسيف على رأسه، وسقط الرجلان على الأرض صريعين، وفاز معقل بالشهادة وذهب مستورد إلى جهنّم وبئس المصير.

ص: ١٤٩

١- (١). «اعذار» بمعنى اتمام الحججه وايجاد طريق الاعتذار على الطرف المقابل.

إلى أميرين من أمراء جيشه (١)

نظرة إلى الرسالة

تبيّن هذا الرسالة في الحقيقه أمرين: الأول: التوصيه التي أمر بها الإمام هذين القائدين في الجيش في أتباع مالك الأشتر والحركه ضمن أوامره وقيادته، والآخر:

تبيّن بعض صفات مالك الأشتر التي جعلته جديراً ولائقاً لقياده الجيش.

ص: ١٥١

١- (١) . سند الرساله: وردت هذه الرساله في تاريخ الطبرى (ج ٣، ص ٥٦٤) وفي كتاب صفين لنصر بن مزاحم ص ١٥٣. وأورد صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ هذين المؤرخين كانا يعيشان قبل السيد الرضى، وجاء في تاريخ الطبرى أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرساله لزياد بن النضر وشريح بن هانىء من قاده مقدّمه جيشه عندما كانا يتوجّهان إلى صفين، وعندما اقتربا من جيش معاويه التقيا بأحد أفراد جيشه ويدعى أبو الأعور السلمى ودعياه لالتحاق بجيش الإمام على عليه السلام والطاعه له، ولكنّه لم يقبل بذلك، فوصل خبر هذا اللقاء إلى الإمام عليه السلام فأرسل الإمام مالك الأشتر وجعله قائداً للجيش ومعه هذه الرساله إليهما.

وَقَدْ أَمَرْتُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ فِي حَيْزِكُمْ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرُ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَاجْعَلَاهُ دِرْعًا وَمِجْنًا، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يَخَافُ وَهُنْهُ وَلَا سَقَطَهُ وَلَا بُطُوهَ عَمَّا الْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ أَحْزَمٌ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطُءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

الشرح والتفسير: مالك الأشتر القائد الفذ

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرسالة التي كتبها إلى زياد بن النضر و شريح بن هانيء أن الوظيفة الأولى والمهمه لهما هي اتباع مالك الأشتر وأنه منصوب من قبل الإمام عليهما وعلى سائر أفراد الجيش، ويقول: «وَقَدْ أَمَرْتُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ فِي حَيْزِكُمْ (١) مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرُ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا».

ثم يضيف عليه السلام: «وَاجْعَلَاهُ دِرْعًا وَمِجْنًا (٢) ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يَخَافُ وَهُنْهُ وَلَا سَقَطَهُ (٣) وَلَا بُطُوهَ عَمَّا الْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ أَحْزَمٌ (٤) ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطُءُ عَنْهُ أَمْثَلُ (٥)».

يستفاد من تعبير الإمام عليه السلام أعلاه أن قائد الجيش ينبغي أن يكون مطلعاً محافظاً بشكل تام على أفراد جيشه كما يكون الدرع حافظاً لصاحبه من ضربات الحديد، وبذلك يتمكن الجيش من التقليل من خسارته للحد الأدنى في القتلى والجرحى.

ص: ١٥٣

- ١- (١) . «حيز» تعني المكان والناحية، وهي من ماده «الحيازه» بمعنى تملك الشيء والاستيلاء عليه وإحراز الأولويه في التصرف به.
- ٢- (٢) . «مجن» بمعنى الدرع، من ماده «جن» على وزن «فن» بمعنى التغطية.
- ٣- (٣) . «سقطه» بمعنى الانحراف والسقوط.
- ٤- (٤) . «احزم» من ماده «حزم» على وزن «نظم» بمعنى تحكيم العمل واتقانه.
- ٥- (٥) . «امثل» بمعنى أفضل.

والنقطة الأخرى في هذه توصيه أن الإمام عليه السلام ذكر فيها أربع خصوصيات يتمتع بها مالك الأشتر، بحيث إن القائد العسكري لو اجتمعت فيه هذه الخصال فإنه يكون جديراً بالقيادة ولائقاً بإمره الجيش:

١. أن لا يشعر بالضعف والوهن في مقابل هجوم العدو والظروف الصعبة التي يفرضها الواقع العسكري عليه، بل يتحلّى بالجرأ والاستقامه كالجبل الراسخ أمام العواصف العاتية.

٢. أن لا يخطيء في الحسابات العسكرية بل يأخذ بنظر الاعتبار جميع المواقع لقواته وقوات العدو ويتحرك وفقاً لما يمليه عليه الواقع الميداني لإحراز النصر على العدو.

٣. إن الدقائق وحتى اللحظات ربما تكون مصيرية في حسم المعركة وإحراز النصر، وينبغي للقائد أن يتحرك بدقه وبسرعه تامه في الوقت المناسب دون أدنى تأخير أو استعجال، فالقائد الفذ يجب أن يعرف هذه اللحظات والدقائق المصيرية ويتحرك وفقاً لهذه الخبره والتجربه الميدانيه.

٤. وقد تأتي لحظات في ميدان القتال يكون فيها التباطؤ والتمهل أفضل من العجله والتسرع، مثلاً عندما يتربص أفراد الجيش في الكمين لإيقاع العدو في المصيده، فلو تسرعوا في إيقاعه فربما يفلت من المصيده ويحس بوجود كمين له، ففي مثل هذه الموارد ينبغي التعامل مع الحدث بأعصاب بارده.

ومعلوم أن القائد الذي يتمتع بهذه السمات الأربع هو قائد فذ ولائق لتسليم قياده الجيش وإحراز النصر، وهذه هي الصفات التي كان مالك الأشتر يتمتع بها مضافاً إلى الصفات الأخرى أيضاً.

تأملان

١. مالك الأشتر المدير والمدبر الشجاع

بالنسبه لمالك الأشتر وسيرته وحالته فستحدث عنه بإذن الله في شرح الكتاب

المرقم ٥٣ من نهج البلاغه وهو الكتاب المعروف بعهد مالك الأشر، وهنا نشير فقط إشاره موجزه إلى بعض صفاته وخصائصه الكريمة.

يتحدث ابن أبي الحديد في نهايه هذه الرساله تحت عنوان «تُبَدُّ مِنَ الْأَقْوَالِ الْحَكِيمَةِ» عن بعض المسائل المتعلقة بالإداره وتدير أمور المجتمع، ونقل في هذا المجال كلمات عن شخصيات متعدده، ثم قال في ختام كلامه: لقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام من أصناف الثناء والمدح ما فرقه هؤلاء في كلماتهم بكلمه واحده في الأشر وهي قوله: «لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقَطُهُ وَلَا بُطُؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ أَحْزَمٌ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطُءُ عَنْهُ أَمْثَلُ».

وفي ذيل هذا الكتاب يقول: وقد روى المحدثون حديثاً يدل على فضيله عظيمه للأشر رحمه الله، وهي شهاده قاطعه من النبي بأنه مؤمن. وذلك عندما كان أبوذر في الربذه وقد حان أجله وكانت زوجته قد احتارت في أمر موته وتجهيزه وغسله ودفنه وهي ترى نفسها وحيده في الصحراء القاحله، فقال أبوذر لها: ما يبكيك، فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت في فلاه من الأرض.. فقال: أبشري ولا تبكي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثه فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً»-وسمعت أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله ليموتن أحدكم بفلاه من الأرض يشهده عصابه من المؤمنين، وليس من أولئك النفر أحد إلاوقد مات في قريه وجماعه وأنا لا أشك في ذلك الرجل، والله ما كذبت ولا كُذبت، فانظري الطرق.

قالت ام ذر: قلت: أتى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق! فقال: اذهبي فتبصري، قالت: فكنت أشتد إلى الكتيب، فأصعد فانظر، ثم أرجع إليه فأمرضه، فيينا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على ركابهم كأنهم الرّخم تخبّ بهم رواحهم، فأسرعوا إليّ حتى وقفوا عليّ وقالوا: يا أمه الله! ما لك؟ فقلت: امرء من المسلمين يموت تكفّنونه؟ قالوا: ومن هو؟ قلت: أبوذر، قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قلت: نعم، فدفّوه بأبائهم وأمّهاتهم، وأسرعوا إليه حتّى دخلوا عليه، فقال لهم:

أبشروا، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لنفر أنا فيهم: ليموتنّ أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابه من المؤمنين، وليس من أولئك النفر أحد إلّا وقد هلك في قريه وجماعه، والله ما كذبت ولا كُذبت، ولو كان عندي ثوب يسعني كفنًا أو لامرأتى لم اكفنّ إلّا في ثوب لى أو لها، وأنى أنشدكم الله إلّا يكفّننى رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً!

قالت: وليس في أولئك النفر أحد إلّا وقد قارف بعض ما قاله، إلّا فتّى من الأنصار قال: أنا اكفّنك ياعمّ في ردائي هذا، وفي ثوبين معي في عييتي من غزل امّى، فقال أبوذرّ: أنت تكفّننى، فمات فكفّنه الأنصارى وغسّله النفر الذين حضروه وقاموا عليه ودفنوه....

ثم ينقل ابن أبى الحديد عن ابن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»، أنّ تلك الجماعة حضروا فجأه بعد وفاه أبى ذرّ وكان من جملتهم «حجر بن عدى» و«مالك الأشتر» وحجر بن عدى هو الذى قتله معاويه وكان من كبار رموز الشيعة ورجالهم (١).

وهذا الحديث الشريف يدلّ دلالة واضحة على عظمه أبى ذرّ وكذلك مالك الأشتر، وسيأتى لاحقاً تفصيل أكثر عن هذه الشخصية الإسلاميه العظيمة والذى يعدّ من أخلص أصحاب الإمام أمير المؤمنين علىّ عليه السلام وقد ذكره الإمام فى أربعة مواضع أخرى من «نهج البلاغه»، منها ما ورد فى الكتاب ٣٤ و ٣٨ والكلمات القصار ٤٤٣ وذيل الكتاب ٥٣ (عهد مالك الأشتر) الذى سوف يأتى تفصيل ذلك لاحقاً إن شاء الله.

٢. شريح بن هانىء الحارثى وزياىء بن النضر

سبق وأن ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة الموجزه والزاخره بالمعانى لرجلين من قاده جيشه عندما أرسلهما إلى ميدان معركة صفّين، بالنسبه للشخص

ص: ١٥٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٠٠ (مع تلخيص).

الأول، يعنى شريح بن هانىء، يقول ابن عبدالبر فى «الاستيعاب»: كان من الأشخاص الذين أدركوا الجاهليه والإسلام وهو من صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومن كبار أصحاب الإمام علىّ صلى الله عليه و آله وأنصاره المقربين الذين رافقوا الإمام فى جميع ميادين الحرب(١).

وذكر الذهبى فى تاريخه: وفى سنه ثمان وسبعين ولى الحجاج عبيدالله بن أبى بكره سجستان فوجه أبا برذعه، فأخذ عليه (على شريح) المضيق، وقتل شريح بن هانىء، وقال القاسم بن مخيمره: ما رأيت حارثياً أفضل من شريح بن هانىء(٢).

أمياً بالنسبه لزياد بن النظر القائد الثانى من قاده جيش الإمام عليه السلام فالمرحوم المحقق النمازى الشاهرودى يقول عنه فى «مستدرک علم رجال الحديث»: كان من أركان أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أمره أمير المؤمنين على مدحج والأشعريين وأوصاه بوصايا، فقال: أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيتك مؤدباً بأدبك، يرى الرشد فى نفاذ أمرك والغى فى تضييع عهدك، فبعث أمير المؤمنين مع شريح ابن هانىء اثنى عشر ألفاً على مقدمته، فلما سارا اختلفا وكتب كل منهما إليه يشكو صاحبه.

ويقول الطبرى فى تاريخه أنه عليه السلام قال للأشتر: اجعل على ميمتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً.. وارسال أمير المؤمنين عليه السلام إياه للاحتجاج مع الخوارج. وأضاف:

ويستفاد من ذلك كله علمه وكمالته وديانته وعدالته(٣).

ص: ١٥٧

١- (١) . الاستيعاب، ج ٢، ص ٧٢.

٢- (٢) . تاريخ الإسلام الذهبى، ج ٥، ص ٤٢٣.

٣- (٣) . مستدركات علم رجال الحديث، ج ٣، ص ٤٥٥.

لِعَسْكَرِهِ قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ بِصَفَيْنِ (١)

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة حالها حال الرسائل السابقة تتضمن سلسله من التعاليم الأخلاقية والمثل الإنسانية فيما يتصل بالحرب مع العدو، والتعاليم المذكوره هنا تبين روح العطف الإنساني والرافه الإسلاميه، وتدلل على أنه لا ينبغي الغفله عن القيم الأخلاقية في جميع الموارد، حتى في ميدان الحرب، والتوصيات المتداوله في العالم المعاصر بعد مرور أربعة عشر قرناً تعدّ بدايه المسير في طريق الأخلاق

ص: ١٥٩

١- (١). سند الرسالة: صرح صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ هذه الرسالة نقلت عن الإمام عليه السلام بالتواتر، فقد تحدّث الإمام عليه السلام عدّه مرات بهذه التوصيات لأصحابه وأنصاره، ومن المؤرخين الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى، الطبرى في تاريخه المعروف في سنة ٣٧ عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه بأنّ الإمام عليّ عليه السلام كان يوصى أنصاره بهذه التوصيات في كل مواجهه وقتال مع الأعداء، وكذلك نقلها نصر بن مزاحم في كتاب صفين بهذا المضمون، وذكرها المرحوم الكليني أيضاً في كتاب فروع الكافي في كتاب الجهاد من الراوى نفسه (عبدالرحمن بن جندب عن أبيه)، وكذلك نقلها المسعودى في مروج الذهب وابن أعثم الكوفى في كتاب الفتوح؛ ثم أضاف مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كل هؤلاء الرواه كانوا يعيشون قبل السيد الرضى فلا نحتاج لذكر اسماء الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة عن الإمام عليه السلام بعد السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢١٧).

والمعنويه، وتتضمن بعض ما ورد في هذه الرساله القيمه من توصيات أخلاقيه، مع أنّ هذه التعاليم المعاصره لم تترجم على أرض الواقع العملي إطلاقاً.

وسنلاحظ أنّ الإمام عليه السلام يؤكد كثيراً على رعايه النساء وأن لا يلحق بهنّ أيّ ضرر أو أذى حتّى لو شتمن أفراد الجيش الإسلامى، ونطقن بكلمات لا مسؤوله عن قاده الإسلام، وفي هذه التوصيات والإرشادات نرى أنّ أول ما يؤكد الإمام عليه السلام عليه هو أن لا يبتدىء أصحابه بالقتال والحرب، وهذه التوصيه نراها فى توصيات الإمام عليه السلام لأصحابه وأتباعه.

ص: ١٦٠

لَمَا تَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى يَبْدُؤَوكُمْ، فَبِأَنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّتِهِ، وَتَزَكَّكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدُؤَوكُمْ حُجَّةً أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَتِ
الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِرًا، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى، وَإِنْ شَتَمَنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبَنَ
أُمَّرَاءَكُمْ، فَإِنَّهِنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ؛ إِنْ كُنَّا لَنُؤَمِّرُ بِالْكَفِّ عَنْهِنَّ وَإِنَّهِنَّ لَمُشْرِكَاتٌ؛ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوْ الْهَرَاوَةِ فَيُعَيِّرُ بِهَا وَعَقْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

الشرح والتفسير: فصل آخر من القيم الأخلاقية في الحرب

ثمَّ خلاف بين شراح «نهج البلاغة» والمؤرخين في المخاطبين لهذه الرسالة هل هم أتباعه في معركة الجمل أم في صفين،
المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار (١) يرى أنَّ هذه الوصية ترتبط بمعركة الجمل رغم أنَّه نقلها في مورد آخر في ما
يُتصل بمعركة صفين، ويرى المسعودي في مروج الذهب أنَّ هذه الرسالة تعود إلى معركة الجمل.

وقد ذهب ابن ميثم في شرح نهج البلاغة لإيجاد حلٍّ لهذه المشكله وقال:

«إنَّه عليه السلام كان يوصي أصحابه في كلِّ موطن يلقون العدوَّ فيه بهذه الوصية».

وذكر نصر بن مزاحم في كتاب صفين والطبري في تاريخه قبل ابن ميثم هذا المعنى أيضاً، وبما أنَّ محتوى هذه الرسالة يمثل
دستوراً عاماً للجيش الإسلامي،

ص: ١٦١

فلا يبعد أن يكون هذا الكلام صحيحاً.

وعلى أية حال فالإمام عليه السلام فى هذه الرسالة يؤكد على خمسة أمور:

الأول: يقول عليه السلام: «لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبِيدُوا وَكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّتِهِ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبِيدُوا وَكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ»، فأنتم من أتباع إمام يتفق على مشروعته وحقانيته البارى تعالى وجميع المؤمنين، فلا يكون بدؤكم بالقتال حجة لهم ضدكم، وترككم لهم حتى يكون البادىء هو العدو يمثل حجة أخرى تدعم موقفكم ومشروعيتكم وحقانيتكم.

وهذه التوصية قد تقدّم بها النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً لجيش الإسلام وكانت نتيجة ذلك كما بينه الإمام عليه السلام فى هذا الكلام أن جيش الإسلام يمتلك حجّتين وبرهانين ضدّ العدو، الأول أنه تابع للنبى الأكرم أو الإمام الذى يتمتع بمشروعيه وحقانيه تقوم على أساس الموازين الصحيحة والمنطقية، والآخى أن العدو عندما يتسدىء الحرب والقتال يقدم عملياً دليلاً آخر ضده، لأنه يكون سبباً فى قتل الأبرياء والسعى فى إشعال نار الفتنة وإيجاد الفساد فى الأرض وبالتالي يكون مصداقاً لمن حارب الله ورسوله، لأنّ كلّ شخص جرّد السلاح على الأبرياء من الناس وسفك الدماء، فهو محارب، وحينئذ سيكون مشمولاً للآية الشريفة: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً...» (١).

ومضافاً إلى ذلك يكون مصداقاً للآية الشريفة: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» (٢).

ثم إنّ الإمام عليه السلام يتحدّث عن ثلاث توصيات مهمّة فى هذه المجال ويقول:

«فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِرًا» (٣)، وَلَا

ص: ١٦٢

١- (١) . سورة المائدة، الآية ٣٣.

٢- (٢) . سورة البقرة، الآية ١٩٤.

٣- (٣) . «معور» فى الأصل من ماده «عار» و «عور» على وزن «غور» بمعنى العيب والنقص، ثم اطلقت على المناطق الضعيفة والنقاط القابلة للنقص، والمعور: الشخص الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه ويتعرّض للضرر فى مقابل هجوم مخالفه، وسميت الآله التناسليه بالعوره لأنّ اظهارها يورث العيب والعار لصاحبها.

تُجْهَرُوا(١) عَلَى جَرِيحٍ».

إنّ هذه التوصيات الثلاثة تتسم بالطابع الأخلاقي بشكل كامل لأنّ الغرض من الحرب هو كسر مقاومه العدو والتصدّي لحركته، لا مجرد الانتقام، فالشخص الذى فرّ من الميدان وترك القتال فلا معنى لقتله، وكذلك الشخص العاجز الذى عجز عن المقاومه فإنّ الاجهاز عليه وقتله يتنافى مع المثل الإنسانيه والقيم الأخلاقيه، كالشخص الذى فقد سلاحه فى المعركه أو عجز عن القتال وحمل السلاح ضدّ الجيش الإسلامى، فلا يمثّل خطراً على أفراد الجيش، ومن هذا القبيل الجريح الذى سقط ولم تبق له قدره على المقاومه والقتال، فالاجهاز على مثل هؤلاء يتقاطع مع المبادئ الإنسانية.

ويشير العلّامة التستري فى شرح نهج البلاغه هذا السؤال هنا، وهو أنّه يستفاد من بعض الروايات كالروايه التى ينقلها الكلينى فى (الجزء الخامس من الكافى) أنّ الإمام على عليه السلام أصدر مثل هذا الأمر فى معركه الجمل وأصدر أمراً بخلافه فى معركه صفين وأذن بقتل الهاربين والمجروحين.

ولكن ورد فى روايه أخرى الجواب عن هذا السؤال، فالإمام الصادق عليه السلام يقول:

«لَيْسَ لِأَهْلِ الْعَدْلِ أَنْ يَتَّبِعُوا مُدْبِرًا وَلَا يَقْتُلُوا أَسِيرًا وَلَا يُجْهَرُوا عَلَى جَرِيحٍ وَهَذَا إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ أَحَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فَتْنَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا، فَإِذَا كَانَ لَهُمْ فَتْنَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا فَإِنَّ أَسِيرَهُمْ يُقْتَلُ وَمُدْبِرُهُمْ يُتَّبَعُ وَجَرِيحُهُمْ يُجْهَرُ عَلَيْهِ»(٢).

وخلاصه الكلام أنّ رعايه هذه المبادئ الإنسانية والقيم الأخلاقيه فى الحرب، ترتبط فى موارد يكون جيش العدو قد منى بالهزيمه وتبعثرت قواه وقدراته القتاليه

ص: ١٦٣

١- (١). «لا- تُجْهَرُوا» من «الاجهاز» بمعنى التسريع وقتل المجروحين وإنهاء حياتهم، وهذا يشبه ما يطلق عليه حالياً برصاصه الرحمه.

٢- (٢). الكافى، ج ٥، ص ٣٣، ح ٢.

ولا- يحتمل فى شأنه العوده إلى الحرب والهجوم مرّه أخرى، ونعلم أنّ العدو فى معركة الجمل كان قد مُنى بالهزيمه بحيث لا يحتمل أن يعود للقتال مرّه أخرى.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه ويتعرض لبيان التوصيه الخامسه حيث يقول: «وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى، وَإِنْ شَتَّنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَّيْنِ أُمَرَاءَكُمْ».

ويبين الإمام عليه السلام بعد ذلك علّه هذه التوصيه ويقول: «فَأِنَّهِنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ».

بما أنّ النساء يفقدن قدره على القتال والمواجهه العسكريه، فذلك من شأنه أن يكرّس الحقد فى قلوبهنّ فينطلقن بالسبّ والشتّم للتنفيس عن هذا الحقد وإبراز العداء للطرف المقابل، وبما أنّ النسوه يتمتّعن بنفس ضعيفه وعقل ضعيف فستكون ترجمه انتقامهنّ من خلال السبّ والشتّم والكلمات البذيئه، ولذلك لا ينبغى على ذوى العقل والحجى أن يردّوا عليهنّ بالمثل ويطلقوا ألسنتهم بالسبّ والشتّم أيضاً، والمفروض أن يسمحوا لهنّ بتفريغ شحنات الغضب والحقد المكبوت من خلال السبّ والشتّم حتّى تهدأ نفوسهنّ وتسكن عواطفهنّ، ومعلوم أنّ مواجهه مثل هذه النسوه بكلام مماثل فى مقابل كلماتهنّ من شأنه أن يثير فى أنفسهنّ العداوه والبغضاء أكثر ويهيج انفعالهنّ ضدّهم وربّما يدفعهنّ إلى الكفر.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى سيره الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسنته فى مقابل نساء المشركين ويقول: «إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهِنَّ وَإِنَّهِنَّ لَمُشْرِكَاتٌ» أى فى زمان النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه ثالثه فى هذ المجال ويقول: «وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْحِيَاهِلِيِّهِ بِالْفَهْرِ (١) أَوْ الْهَرَاوِهِ (٢) فَيَعَيِّرُ بِهَا وَعَقْبُهُ (٣) مِنْ بَعْدِهِ».

ص: ١٦٤

١- (١). «فهر» بمعنى قطعه من الحجر الصافى والأملس بمقدار قبضه اليد، و«فهر» على وزن «شعر» تطلق على الأحجار التى تطحن بها الأدوية.

٢- (٢). «هراوه» بمعنى قطعه من الخشب كالعصا الغليظه.

٣- (٣). «عقب» الولد سواء كان ذكراً أم انثى.

فإذا كان الناس في عصر الجاهلية يقفون هذا الموقف من المرأة، وعندما يؤمر المسلمون بحفظ النفس وعدم الانفعال في مقابل المشركين، ففي عصر ظهور الإسلام وفي مقابل النسوة المسلمات الجاهلات يكون من الضروري ضبط النفس واللسان بطريق أولى.

وعندما يأمر الإمام عليه السلام أفراد جيشه بهذا الأمر الأخلاقي في مقابل النساء، فإنه بنفسه قد سبق الآخرين بالعمل بهذه التوصية وتجسيدها على أرض الواقع، فقد ورد في تاريخ معركة الجمل أنه عندما انتصر الإمام عليّ عليه السلام وجيشه على المتمردين والناكثين، وبينما كان عليه السلام يسير في أزقه البصره، كانت زوجته عبدالله بن خلف (أحد رجال البصره المعروفين) واقفه أمام باب بيتها فالتفتت للإمام وقالت: «يا قاتل الأَحَبِّ لا مَرْحَباً بِكَ أَيُّمَ اللهُ مِنْكَ وَلَمَدَكَ كَمَا أَيُّتَمَّتْ بَنَى عَبْدِاللهِ بْنِ خَلْفٍ» فلم يرد عليه السلام عليها، ولكنّه وقف وأشار إلى ناحيه من دارها، ففهمت إشارته، فسكتت وانصرفت، وكانت قد سترت عندها عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم، فأشار إلى الموضوع الذي كانا فيه، أي لو شئت أخرجتهما! فلما فهمت انصرفت، وكان الإمام عليه السلام حليماً كريماً(١).

تأملان

١. مكانه المرأة في نهج البلاغه

يلاحظ القارئ لكتاب نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام يذمّ النساء في عدّه موارد من الخطب والرسائل والكلمات القصار، وقد فسّر بعض الجهلاء ذلك على أساس الضديّه للنساء وأنّ الإمام عليه السلام يتخذ موقفاً سلبياً منهنّ، في حين أنّ الشواهد والقرائن التي تقترن مع كلمات الإمام عليه السلام تشير إلى أنّ الإمام كان ناظراً لمجموعه خاصه من النسوة، مثلاً وردت بعض هذه العبارات بعد معركة الجمل حيث كانت إحدى

ص: ١٦٥

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٠٥.

زوجات النبيّ قد عملت على إشعال نيران هذه الحرب الضروس، وهذا يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان ناظراً لمثل هذه المرأه التي انحرفت عن مسارها الصحيح وأضحت آله بيد الانتهازيين والعاملين في الشأن السياسي كطلحه والزيبر وهو الأمر الذي أدى إلى سفك دماء آلاف المسلمين، وبعد أن خمدت نيران الحرب قام الإمام عليه السلام بإرسال هذه المرأه بغايه التكريم احتراماً للنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله مع أخيها وجماعه من الحرس إلى المدينه.

وفي رساله مورد البحث أيضاً يتحدّث الإمام عليه السلام عن النسوه اللاتي يفتحن أفواههنّ بالسبّ والشتم وينطلقن من مواقع الانفعال ومواجهه جنود الإسلام بكلمات بذيئه، ويصفهنّ بأنهن ضعاف العقول والنفوس.

فلو أخذنا بنظر الاعتبار القرائن الحاليه والمقاليه في مثل هذه الموارد، فسوف يتبيّن الجواب عن هذه الإشكالات وعلامات الاستفهام.

ولذلك ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام في كتاب أصول الكافي أنّه قال بعد الإشاره إلى وجود العيب والنقص في طائفه من النسوه: «إِلَّا الْمُسْلِمَاتُ مِنْهُنَّ»^(١).

وفي آخر عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ غَيْرِ صَالِحٍ»^(٢).

وجاء في حديث مفصّل عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب الكافي تقسيماً جلياً للنساء، حيث يقرّر الإمام الصادق عليه السلام أنّ فئه من النسوه سبب لسعاده الرجال، وفئه أخرى منهنّ يورثن الندم والخسران يقول: «فَمَنْ يَظْفَرُ بِصَالِحِهِنَّ يَسْعَدُ وَمَنْ يُغَيِّبُ فَلَيْسَ لَهُ ائْتِقَامٌ»^(٣).

ص: ١٦٦

١- (١) . الكافي، ج ٥، ص ٥٠٥، ح ٤.

٢- (٢) . وسائل الشيعه، باب ٨٩ من أبواب مقدمات النكاح، ح ٢.

٣- (٣) . الكافي، ج ٥، ص ٣٢٣، ح ٣ باب أصناف النساء.

وهذه الروايات الثلاث المذكوره أعلاه، وكذلك روايات أخرى فى هذا الباب من كتاب الكافى (باب أصناف النساء) تشكل قرينه واضحه على ما اخترناه من تفسير كلام الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه فيما يتصل بخصال النساء وأخلاقهن.

٢. الخلق الإسلامى فى مقابل العدو

إنّ ما ورد فى الرساله أعلاه وبعض الرسائل السابقه واللاحقه أيضاً بيّن بوضوح منهج الإسلام فى مواجهه العدو والأخلاق التى ينبغى للمجاهد المسلم أن يتحلّى بها فى ميدان المعركه، وهذا المنهج الذى يؤكّد على المعايير السليمه والقيم الأخلاقية فى مقاتله الأعداء يتقاطع مع ما نراه فى المناهج المادّيه ومنهج أعداء الإمام عليه السلام الذين لا يراعون أى قيد وشرط فى ميدان القتال، ولا يلتزمون بأية قيمه أخلاقية فى ساحه مواجهه، فتراهم يستخدمون أسوأ الوسائل ويرتكبون أبشع الأعمال من أجل الوصول لغاياتهم وتحقيق أهدافهم، ويسحقون أعلى المثل الإنسانيه والأخلاقية تحت أقدامهم إذا لم تتحقّق لهم طموحاتهم، وهذا التباين والتفاوت يمكن ملاحظته بوضوح من خلال نمط وأسلوب الإمام على عليه السلام وأسلوب معاويه فى السجال التاريخى بينهما.

وقد ذهب بعض المحللين فى الماضى والحاضر من الذين تأثروا بالمذاهب الماديه والمصلحيه أنّ هذا التفاوت يعدّ دليلاً على أفضليته سياسه معاويه على سياسه الإمام عليه السلام.

وهنا لا بأس بالإشاره إلى كلام للجاحظ فى هذا المجال حيث يقول: ربّما رأيت بعض من يظنّ بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتميز وهو من العامه، ويظنّ أنّه من الخاصّه، يزعم أنّ معاويه كان أبعد غوراً من على عليه السلام وأصحّ فكراً وأجود رؤيه وأبعد غايه وأدقّ مسلكاً، وليس الأمر كذلك وسأرمى إليك بجمله تعرف بها موضع غلطه والمكان الذى دخل عليه الخطأ من قبله، كان على عليه السلام لا يستعمل فى حروبه

إلّا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاويه يستعمل خلاف الكتاب والسنة كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكائد حلالها وحرامها، ويسير في حروبه بسيره ملك الهند إذا لاقى كسرى، وسيره خاقان إذا لاقى رتييل، وعلى يقول في حروبه: «لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم، ولا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً» هذه سيرته في ذى الكلاع وأبي الأعور السلمى وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشيه والحشو والاتباع والسفله، وأصحاب الحروب إن قدروا على البيات يتتوا وإن قدروا على رضخ الجميع بالجنادل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفه عين لم يؤخروه إلى ساعه، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا الحصار، ولم يدعوا أن نصبوا المجانيق والعرادات، والنقب والتسريب والدبابات والكمين، ولم يدعوا دس السموم ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات وتوهيم الأمور ويجاش بعض من بعض وقتلهم بكل آله وحيله، وكيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال، فمن اقتصر من التدبير على ما فى الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكائد، والكذب أكثر من الصدق، والحرام أكثر من الحلال.

فعلّى عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلى ما هو لله رضى، وممنوع اليدين من كل بطش إلّا ما هو لله رضى، ولا يرضى الرضا إلّا فيما يرضاه الله ويحبّه، ولا يرى الرضا إلّا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة، دون ما يقول أصحاب الدهاء والنكراء والمكائد والآراء، فلما أبصرت العوامّ كثره غرائب معاويه ظنّوا بقصر عقولهم وقلة علومهم أنّ ذلك من رجحان عند معاويه ونقصان عند على عليه السلام (1).

والنقطه المهمه هنا والتي لا ينبغى الغفله عنها، هي أنّ الإمام على عليه السلام وجميع

ص: ١٦٨

١- (١). شرح نهج البلاغه العلامة التستري، ج ١٣، ص ٥١٤.

الأولياء الإلهيين كانوا يهدفون في سلوكياتهم في الشأن السياسي والاجتماعي إلى حفظ القيم والمثل الإنسانية، ويرجحونها حتى على النصر في ميدان القتال، لأنّ مثل هذا النصر على العدو مؤقت، بينما القيم والمثل الإنسانية باقية، فلو نظرنا من هذه الزاوية إلى منهج الأنبياء والأولياء فسيتبين الجواب عن الكثير من الأسئلة وعلامات الإستفهام في هذا المجال.

على سبيل المثال يتساءل البعض: لماذا لم يقتل الإمام عليّ عليه السلام عمرو بن العاص وبسر بن أرطاه عندما تمكّن منهما وكان قادراً على أن يخلص المجتمع الإسلامي من وجودهما، لمجرد أنّ هذين الرجلين كشفوا عن عورتها؟

الجواب: إنّ الإمام عليّ عليه السلام يرى أنّ حفظ القيم الأخلاقية في هذه الأمور أولى من قتل العدو، وربّما لا يستطيع الكثير من الناس تحمّل مثل هذا الموقف وحفظ التعاليم الإلهية والإنسانية من موقع الوعي والالتزام.

وفي عالمنا المعاصر نسمع الكثير من لزوم حفظ القيم والمبادئ الإنسانية في ميادين الحرب، ولكن الكثير من الأسلحة التي تعتبر من جملة الأسلحة الممنوعة والمحرمه دولياً، وقد صدر المنع من استخدامها ضدّ المدنيين ومنع التعامل غير الإنساني مع الأسرى، ولكننا نرى مراراً في تاريخنا المعاصر عدم الالتزام بأيّ من هذه القوانين في حالات الحرب من قبيل استخدام أسلحة الدمار الشامل كالقنابل الذرية والأسلحة الكيماوية ضد المدنيين والعزل من الناس وتعذيب الأسرى بمختلف صنوف العذاب، ويمكن القول إنّ مثل هذه الأعمال تصدر من قبل الفئات والجهات التي تدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان أكثر من الفئات التي لا تعترف بها، وهذا بذاته يعتبر عملاً شنيعاً ومنكراً، لأنّ الإنسان عندما يدّعي الدفاع عن القيم وحقوق الإنسان ثمّ يرتكب خلاف ذلك على مستوى العمل والطبق، فهذا يعنى النفاق، وأنّ مثل هؤلاء الأشخاص هم منافقون.

كَانَ يَقُولُ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ مُحَارِبًا (١)

نظرة إلى الرسالة

يتحدث الإمام عليّ عليه السلام في هذا الدعاء عن خلجات روحه تجاه الحرب ويبرز استيائه الشديد منها، ويشكو إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله من كثرة الأعداء وتفزق المسلمين عن حقهم، وأخيراً يسأل الله تعالى إقامة الصلح والعدالة وإنهاء الحروب والقتال.

هذا كله يشير إلى أنّ الإسلام لا يؤيد الحرب إطلاقاً، ويعتبر أنّ الحرب أمر مفروض على البشر، لأنّ الأضرار والخسائر الوخيمة للحرب ربّما تمتدّ لتتأثر الأجيال اللاحقة أيضاً، وخاصّة في الحروب المعاصرة التي تتسع آثارها المدمّرة

ص: ١٧١

١- (١). سند الدعاء: هذا الدعاء ورد في عدّة مصادر معروفة قبل المرحوم السيّد الرضى، ومنها كتاب صفين لنصر بن مزاحم حيث نقله بأربعة أسانيد عن الإمام عليّ عليه السلام وفيه اضافات معتبره أكثر مما أورده السيّد الرضى. وقد ذكر المرحوم الشيخ المفيد أيضاً في كتاب النصرة وقال: إنّ الإمام عليه السلام دعا بهذا الدعاء يوم الجمل. وفي كتاب صفين لعبد العزيز بن يحيى الجلودى أيضاً طبقاً لنقل المرحوم العلّامة المجلسى. (والسيّد ابن طاووس في مهج الدعوات). أنّ الروايات أعلاه تشير أحياناً إلى أنّ هذا الدعاء ورد في معركة الجمل وأحياناً أخرى في معركة صفين ويوم الهير، ويستفاد من بعضها أنّ الإمام عليه السلام كان عندما يريد الورد إلى ميدان القتال في كل مرّة يقرأ هذا الدعاء (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٢٠).

إلى مديات قصوى أكثر بكثير من الماضى.

على سبيل المثال؛ نرى أنّ الحرب العالميه قد انتهت قبل عقود من الزمان ولكن لحدّ الآن يوجد الملايين من المعلولين والمتضرّرين من هذه الحرب فى مختلف بلدان العالم.

ص: ١٧٢

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ، وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ، وَشَخَّصَتِ الْأَبْصَارُ، وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ، وَأُنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ. اللَّهُمَّ قَدْ صَرَخَ مَكْنُونُ السَّنَانِ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَهُ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عِدْوَانَا، وَتَشْتَتِ أَهْوَانِنَا «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ».

الشرح والتفسير: دعاء جامع في ساحة القتال

كما تقدمت الإشارة إليه أن الإمام عليه السلام كان يقرأ هذا الدعاء عندما يواجه العدو في ميدان الحرب، وهذا يدل على أن الإمام عليه السلام يهدف من ذلك لفت نظر أتباعه إلى هذه الحقيقة، وهي أن الغرض من الحرب ليس تحقيق الغلبة والنصر على العدو للتوصيل إلى الثروة والمقام ونيل المطامع الدنيوية، بل هو جهاد في سبيل الله ومن أهم العبادات الدينية، وينبغي أن يتبدى المجاهد في حركته في ميدان القتال باسم الله عز وجل ويطلب منه النصر على العدو، ويخطو في هذا السبيل بتيه خالصه وبقلب مفعم بالعشق الإلهي، ويهجم على العدو من موقع الاستقامة والإيمان والإخلاص.

يقول الإمام عليه السلام في مطلع الدعاء: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ (١) الْقُلُوبُ وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ وَشَخَّصَتِ (٢) الْأَبْصَارُ وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ وَأُنْضِيَتِ (٣) الْأَبْدَانُ».

ص: ١٧٣

١- (١). «أفضت» من «الإفضاء» و«فضاء» بمعنى الوصول إلى الشيء، وكأنه ورد في دائره فضائه وأجوائه.

٢- (٢). «شخصت» من «الشخص» بمعنى تحديق العين بالشيء بحيث أن سواد العين ثابت والجفن لا يتحرك.

٣- (٣). «أنضيت» من «الإنضاء» بمعنى إضعاف بدن الإنسان أو الحيوان وجعله نحيفاً، وتأتي بمعنى الاستنزاف والاستهلاك والإساءة أيضاً.

وهذا إشاره إلى أنّ الهدف النهائي للحرب مع قوى الباطل هو طلب رضا الله تعالى، وأنا في كلّ خطوه نخطوها في هذا الطريق، فهي من أجلك وبأجلك.

أجل، فالمجاهدون المسلمون يهدفون من جميع أعمالهم وبرامجهم نيلاً رضا الله تعالى وامثال أمره، ولذلك يقول القرآن الكريم:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (١).

ثم إن الإمام عليه السلام في سياق هذا الدعاء يشير إلى الباعث لهذه الحرب لدى العدو ليعلم أفراد الجيش الإسلامي بحقيقته الأمر فيكونوا على بينه من مواقعهم وغاياتهم ويقول: «اللَّهُمَّ قَدْ صَرَخَ مَكْنُونُ الشَّنَانِ، وَجَاشَتْ (٢) مَرَاجِلُ (٣) الْأَضْغَانِ (٤)».

وهذا إشاره إلى أنّ عناصر الحقد والبغضاء لدى هؤلاء الأعداء، والتي بقيت مكبوتة منذ زمان الجاهلية وصدر الإسلام بسبب ما حققه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من النصر المؤزر عليهم، قد تجلّت وظهرت في هذا الوقت، لأنهم وإن أظهروا الإسلام وادّعوا الإيمان حسب الظاهر، ولكنهم مازالوا يخفون الحقد والعداوة في قلوبهم وقد وجد هؤلاء المنافقون الأرضية الخصبة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لإبراز حقدهم الدفين وإظهار ضغائنهم ضد الإسلام والمسلمين.

فمن ينكر أن معاوية وهو ابن أبي سفيان العدو الأول للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وابن هند

ص: ١٧٤

١- (١). سورة التوبة، الآيتان ١٢٠ و ١٢١.

٢- (٢). «جاشت» من مادة «جيش» على وزن «عيش» بمعنى الغليان، وهذا المفردة تطلق على الغليان الظاهري للأشياء وكذلك الغليان المعنوي والباطني، مثل غليان الغم والحزن في داخل الصدور.

٣- (٣). «مراجل» جمع «مرجل» على وزن «منبر» بمعنى القدور.

٤- (٤). «أضغان» جمع «ضغن» وهو الحقد.

المعروفه بأكله الأكباد، وأنصاره وأتباعه من المنافقين وأعداء الإسلام كانوا فى عصر ظهور الإسلام يواجهون الرساله الإلهيه من موقع الحقد والعداء الشديد وقد خلفت المعارك فيهم أحقاداً بدرية وحنينيه وغيرها.

وهذه الحقيقه بمثابه الدرس لأصحاب وأنصار الإمام عليه السلام ليعلموا من يقاتلون ولأى غرض يجاهدون.

وفى ختام هذا الدعاء يلتجىء الإمام عليه السلام مره أخرى إلى رحمه الله ولطفه ويعكس ذلك صفاء قلبه ونورانيه باطنه وحبّه لجميع الخلائق حتى الأعداء منهم، ويقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَهُ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشْتَتُّ أَهْوَانِنَا «رَبَّنَا افْتَحْ (١) بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» (٢)».

وهذه العبارات تعتبر غايه ما يعيشه الإمام على عليه السلام من حالات اللطف والمحبه حتى بالنسبه للأعداء والمنحرفين والضالين حيث يعبر عنهم: «قَوْمِنَا» وقوله: «غَيْبَهُ نَبِيِّنَا، وَتَشْتَتُّ أَهْوَانِنَا» بدلاً من قوله «ربنا انصرنا» وكذلك ما ورد من هذه العبارات «غَيْبَهُ نَبِيِّنَا» و «وَكثْرَةَ عَدُوِّنَا» و «وَتَشْتَتُّ أَهْوَانِنَا» كلها تشير إلى أن الغرض الأقصى للإمام على عليه السلام يتلخص إلى جذبهم إلى طريق الحق والصواب وأن يتحد المسلمون صفواً واحداً فى مقابل الأعداء.

ص: ١٧٥

١- (١). «افتح» من ماده «فتح» تأتى أحياناً بمعنى النصر وأخرى بمعنى فتح الباب أو القفل، وثالثه بمعنى التحكيم، وكلها تشترك بنوع من فتح الشىء المغلق.
٢- (٢). سورة الأعراف، الآية ٨٩.

إن هذه الرسالة، والأصح هذا الكلام، لأمر المؤمنين عليه السلام الذي تحدّث فيه لأصحابه في ميدان الحرب يهدف لبيان فنون القتال وأسرار المجابهة والنصر على العدو لأصحابه وأنصاره، وقد رأينا فيما تقدّم من التوصيات العسكريه أنّها تمثّل تعاليم لكيفيه الحركه والتوجه إلى ميدان القتال واتخاذ المواقع الحسيّاسه في مقابل العدو، والإمام في هذه الكلام يبيّن فنون الحرب والقتال لأنصاره وجنوده، وفي المقطع الأخير من هذا الكلام يطرح الإمام عليه السلام في الحقيقه جواباً عن سؤال ربّما يثيره البعض من أصحابه أو يدور في خلدات قلبه، ويجب عنه بأننا عندما نقاتل معاويه وأعوانه وأنصاره فإنّ ذلك لا يعتبر حرباً ضدّ المسلمين، فلو أنّ بنى اميه

١- (١). سند الرسالة: هذا الكلام في الحقيقه يمثّل مقطعاً من كلام الإمام عليه السلام لأصحابه في أحد أيام معركة صفين، ويستفاد من كلام ابن أبي الحديد أنّه استمرار للخطبه ٦٢ (وفقاً للترقيم الوارد في نهج البلاغه لصباحي الصالح الخطبه ٦٤). وعلى أيه حال فمن جمله الأشخاص الذين نقلوا هذه الخطبه قبل السيد الرضى المرحوم الشيخ الكليني في كتاب الكافي، كتاب الجهاد في عدّه عبارات، وذكر نصر بن مزاحم أيضاً في كتاب صفين مقطعاً منه، والعجب أنّ الوارد في كتاب نهج البلاغه الكامل مقطع من هذا الكلام لا كله، (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٣٢).

وعلى رأسهم أبا سفيان أظهروا الإسلام في الماضي فإنهم في الحقيقه يتظاهرون بالإسلام ويتقنعون بالإيمان، ولذلك عندما وجدوا أعواناً وأنصاراً لإظهار الكفر والشرك ونزع رداء الإسلام لم يمتنعوا من الإعلان عن نواياهم والبوح بمكنوناتهم.

ص: ١٧٨

لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطَّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا وَادْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعِينِ الدَّعْسِيِّ، وَالضَّرْبِ الطَّلْحَفِيِّ، وَأَمِيتُوا الْمَأْصُوتَاتِ، فَإِنَّهُ أَطْرُدُ لِلْفِشْلِ. فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسِيمَةَ، مَا أَسِيلَمُوا وَلَكِنْ اسْتَسَلَمُوا، وَأَسْرُوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ.

الشرح والتفسير: تقوية عزائم الجند

يبين الإمام عليه السلام في هذا الكلام الدقيق والزاخر بالمضامين العميقة، ست توصيات عسكرية مهمّة وبعبارات بليغة ومقتضبة.

يقول الإمام عليه السلام في التوصية الأولى والثانية: «لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ (١) بَعْدَهَا كَرَّةٌ (٢)، وَلَا جَوْلَةٌ (٣) بَعْدَهَا حَمْلَةٌ».

والمقصود من الجملة الأولى أنّ المقاتلين أحياناً تفرض عليهم الظروف والتحديات الصعبة التراجع والانسحاب المؤقت فيتوهم العدو وجود ثغره وضعف فيكم فيسارع في ملاحقتكم، وفجأه يعود أفراد الجيش إلى تماسكهم ويحملوا

ص: ١٧٩

١- (١). «فَرَّةٌ» وتعني المَرَّة من الفرار.

٢- (٢). «كَرَّةٌ» بمعنى المَرَّة من العوده الهجوم على العدو، ومن هنا سمي الإمام على عليه السلام بالكِرَار لأنّه كان يكثر من العوده إلى العدو والهجوم عليه.

٣- (٣). «جَوْلَةٌ» بمعنى الدوران في الميدان والتحرك من هذه الجهة إلى تلك. (وهذه المفردة تأتي بمعنى المصدر واسم المصدر أيضاً، وذهب بعض إلى أنّ «جَوْلَةٌ» تعني الفرار لمُدّه قصيره، ولكن مع الالتفات إلى سياق كلام أمير المؤمنين عليه السلام أعلاه فإنّ هذا المعنى مستبعد.

حملة واحده على العدو ويحطّموا قواه ويبعثوا صفوفه، وهذا فى الحقيقه نوع من الانسحاب التكتيكي المتداول فى الحروب المعاصره، وأحياناً يكون الإصرار على المقاومه والثبات فى أرض المعركه يكلف الجيش غالباً ولذلك يقول الإمام عليه السلام:

لأنّ أسفوا على مثل هذا الفرار والتراجع الذى يستتبع الهجوم الصوله على العدو، ويشير الإمام عليه السلام فى الجملة الثانيه إلى حالات الجوله من هذه الجهه قبل ابتداء الهجوم، لأنّ الفارس الشجاع أحياناً يضطرّ لتغيير مواقعه فى ميدان القتال للعثور على موقع مناسب للهجوم على العدو، فيعثر على المنفذ المناسب للحملة أو يتراجع لغرض إنهاك العدو واستنزاف طاقاته وأتاعبه، وعلى ضوء ذلك فلا إشكال فى الفرار الذى يتبعه هجوم، ولا فى الجولات وتغيير المواقع التى تستتبع إيجاد ثغره فى صفوف العدو والنفوذ منها لتحطيم قواه وقدراته الدفاعيه.

وبعبارة أخرى أنّ بعض الأشخاص المغرورين تصوّروا أنّ الفرار يعدّ عيباً ونقصاً كيف ما كان، وكذلك تأخير الهجوم على العدو بجولات متعدده، فى حين أنّ كلّاً من هذه الأمور لا يعدّ عيباً أو نقصاً، بل هو نوع من أساليب المواجهه التى تضمن فى الكثير من الموارد النصر على العدو.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يأمر فى التوصيه الثالثه والرابعه ويقول: «وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطَّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا(١)».

يعدّ السيف أهم سلاح يستخدم فى ميدان القتال فى ذلك العصر، فعندما يواجه الفارس العدو بسيفه فينبغى الاستفاده القصوى من هذا السلاح وأداء حقه فى الضرب والطعن.

وجمله «وَوَطَّئُوا لِلْجُنُوبِ...» إشاره إلى أنّ ضرباتكم للعدو يجب أن تكون من الشده بدرجه تستتبع سقوط العدو على الأرض فى الضربات الأولى وكأنكم بهذا الضرب المتوازي والشديد قد أعددتهم سلفاً مصارع أفراد العدو وأماكن سقوطهم

ص: ١٨٠

١- (١). «مصارع» جمع «مصرع» بمعنى محل سقوط الشخص.

على الأرض صرعى.

واحتمل البعض أنّ هذا الكلام إشارة إلى مواطن أفراد الجيش الإسلامى، يعنى أنكم فى الوقت الذى ترومون تحقيق النصر على العدو ينبغى أن تكونوا مستعدين للشهاده فى سبيل الله وتوطئوا لأنفسكم مكاناً لمصرعكم وسقوطكم على الأرض شهداء فى سبيل الله.

ولكن مع الالتفات إلى ما ورد فى الجملة السابقه والجملة اللاحقه فإنّ هذا المعنى بعيد، لأنّ كلتا الجملتين تدعوان الجند إلى بانزال ضربات قاصمه بالعدو.

وفى التوصيه الخامسه والسادسه، التى تقع أيضاً فى سياق الحديث عن الضربات القاصمه على العدو يقول الإمام عليه السلام: «وَأذْمُرُوا (١) أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ (٢) الدَّعْسِ (٣) ، وَالضَّرْبِ الطَّلْحَفِيِّ (٤)».

الواقع أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارة يدعو المقاتلين للاستفاده من جميع الأدوات المتداوله فى ذلك الزمان فتطعنوا بالرماح جسد العدو بحيث ينهار تماماً ويسقط على الأرض مضرّجاً بدمه وتضربوا بسيوفكم على هامات القوم بحيث يلفظوا أنفاسهم معها، ومن أجل تحقيق هذا الغرض لابدّ من تهيج أحاسيسكم وتفوير مشاعركم من خلال الاستعانه بالله تعالى لأنّ النصر الحاسم إنّما يكون من نصيب الجماعه التى تقاتل بشدّه وتنزل ضربات سيوفها ورماحها على العدو بأشدّ قوه.

وفى التوصيه السابعه والأخيره يقول: «وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرُدُ لِلْفِشْلِ».

ص: ١٨١

١- (١) . «اذْمُرُوا» فعل أمر من ماده «ذمر» على وزن «أمر» بمعنى الثوير وتهيج النفس على فعل معين.

٢- (٢) . «الطَّعْنُ» بمعنى ادخال الرمح فى بدن العدو، وهذه المفرده تأتى كناية أيضاً ويراد بها إبراز عيوب الشخص والتنقيص من شخصيته.

٣- (٣) . «دعسى» من ماده «دعس» على وزن «درس» بمعنى إملاء، وتأتى أحياناً بمعنى التأثير، وهذا المفرده عندما تأتى بمعنى إدخال الرمح فى بدن العدو وكأنّ الرمح قد ملأ جوف العدو وأثر فى بدنه.

٤- (٤) . «طلحف» بمعنى الشديد.

الأشخاص الذين يمارسون الصراخ والصياح في ميدان القتال ربّما يتبادر إلى ذهن العدو أنّ ذلك ناشىء من خوفهم ووحشتهم، وبالتالي يؤدّى ذلك إلى رفع معنويات العدو من جهة، ومن جهة أخرى ربّما يفضى الصياح إلى استنزاف القوى الجسميه والفكريه لهؤلاء الرجال ويقلّل من قدرتهم على مقاومه العدو، ولهذا السبب يأمر الإمام عليه السلام بعدم صرف الطاقات فى الصياح والصراخ، والاتلفات بشكل كامل إلى مواجهه العدو فى ميدان العمل والممارسه.

وطبعاً هذا العمل لا يتنافى مع رفع الأصوات بالتكبير عند تحقّق النصر، وحتى التكبير ينبغى أن يكون محدوداً ومحسوباً ولا ينبغى الإفراط فيه لأنّ ذلك مخالف لهذا التوصيه.

ولهذا السبب ورد فى كتب التاريخ عن واقعه بدر أنّ المشركين عندما شاهدوا جيش الإسلام بعددهم القليل فى مقابل جيش الكفر والشرك، تصوّروا أنّ مجموعه من المسلمين تكمن لهم خلف التلال حتى تسنح لهم الفرصه المناسبه ويهجموا على قوى الشرك، ولذلك أرسلوا عمر بن وهب للتحقّق فى هذا الأمر والبحث عن الكمين فى نواحي المنطقه، فتوجّه عمر بن وهب لاستطلاع الموقف ورأى أنّ مواقع جيش الإسلام مستحكمه وحصينه فرجع إلى موقعه وقال لقاده جيش الشرك: إنّ المسلمين ليس لديهم أى كمين أو مدد غير الثلثه الحاضره فى الميدان، ولكننى أظنّ أنّ إبلى يشرب المحمّله ستحمل الموت لكم، ثم أضاف: «أَمَّا تَرَوْنَهُمْ حُرْسٌ لِمَا يَتَكَلَّمُونَ يَتَلَمَّظُونَ تَلَمَّظَ الْأَفَاعِي مِمَّا لَهُمْ مَلَجًا إِلَّا سَيُؤْفِقُهُمْ وَمَا أَرَاهُمْ يُوَلُّونَ حَتَّى يُقْتَلُوا وَلَا يُقْتَلُونَ حَتَّى يُقْتَلُوا بَعْدَ دِهِمْ فَارْتُتُوا رَأْيَكُمْ» (١).

ثم بيّن الإمام عليه السلام فى ختام هذا الكلام نقطه أخرى وهى فى الواقع تعتبر جواباً عن سؤال مقدرّ أو مذكوراً فى كلمات أصحابه عندما تصوّروا أنّ معاويه وأتباعه هم

ص: ١٨٢

من المسلمين، فكيف نقاتل المسلمين؟ فيقول الإمام عليه السلام: «فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسِيمَةَ (١)، مَا أَشَدَّ لَمَمُوا وَلَكِنْ اسْتَسَلَّمُوا، وَأَسْرُوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ».

وعندما يختم الإمام عليه السلام بصفات الله تعالى ويؤكد على انشقاق الحب تحت التراب وخلق الإنسان، ذلك يعود إلى أن هذه المظاهر في عالم الخلق تعتبر من أعجب الأفعال الإلهية، فالحبوب عندما توضع تحت التراب وهي مغلفة بقشره قويه وصلبه وتصل إليها رطوبه التراب، فيكفي ذلك لأن تبعث فيها الروح والحركة في داخلها حيث تبدأ النطفة بالنمو وتظهر بعد ذلك السيقان الناعمة للنبات، هذه الساق اللطيفة عندما واجهت الضيق في داخل إطار الحب كسرت هذا الإطار والقشرة وأخرجت رأسها من التراب وانفصلت عن أمها وأصلها وأتخذت سبيلها للنمو والارتفاع إلى أن تصير بعد ذلك شجرة باسقه، وهكذا الحال في نطفه الإنسان في رحم الأم، حيث يعيش الجنين خلقاً آخر ويتكامل تدريجياً ويتخذ لنفسه شكلاً جديداً من خلال سلسلة من التحولات المعقدة والدقيقة والسريعة في ذات الوقت ويتبدل الجنين إلى إنسان كامل، وعندما يجد الجنين أن رحم الأم لا يكفي في استمرار حياته ورشده ونموه فإنه يعزم على الخروج من الرحم ويغادر رحم أمه بهيجان ويخطو الخطوة الأولى نحو الولادة والمجيء إلى الدنيا.

إن التمعن في ظاهره نمو النباتات وولادة البشر من شأنها أن تعرف الإنسان أكثر على عظمه الله وقدرته اللامتناهية، ومن هنا نرى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام يقسمون أحياناً بهذه الصفات الإلهية، ولا ينبغي الغفلة عن أن هذه العبارات وردت في زمن لم يتولد علم النبات وعلم الإجهت.

ص: ١٨٣

١- (١). «نسمه» بمعنى الإنسان وأحياناً تأتي بمعنى الروح، وأخرى تطلق على كل موجود ذي روح، وأصلها من النسيم وهو الريح الخفيف والناعمة.

١. شواهد حيّه على عقائد بني اميّه الواقعيه

في آخر كلمه من كلام الإمام عليه السلام مورد البحث يصرّح الإمام عليه السلام بأن مخالفه (معاويه وأتباعه)، لم يقبلوا بالإسلام طرفه عين، بل خضعوا له من موقع الإجبار والإكراه، ولذلك عندما وجدوا أنصاراً وأعواناً أظهرهم كفرهم الباطني.

وربّما يكون قبول هذا الكلام صعباً بالنسبه لبعض المسلمين من أهل السنّه، ولكن إلقاء نظره إلى كتب الصحاح وسائر المصادر لأهل السنّه يدلّ على هذه الحقيقه الحاسمه، ونحن هنا نستعرض بعض الروايات المذكوره في مصادرهم المعروفه عن عقائد معاويه وأعماله دون أن نضيف إليها شيئاً، ونترك الحكم عليها بعهدہ القراء الأعزاء:

١. ورد في صحيح مسلم أنّ عبدالرحمن بن عبد ربّ الكعبه يقول: «دخلت المسجد (المسجد الحرام) فإذا عبداللّٰه بن عمرو بن العاص جالس في ظلّ الكعبه والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه، فقال: كُنّا مع رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خبائه... فقلت له: هذا ابن عمك معاويه يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا واللّٰه يقول: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...» وقال: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...» (١) قال فسكت ساعه ثم قال: إطعه في طاعه اللّٰه، واعصه في معصيه اللّٰه (٢).

٢. ورد في تاريخ الطبري أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله وآله وآله (أباسفيان) مقبلاً على حمار ومعاويه يقود به ويزيد (أخو معاويه) يسوقه به، قال صلى الله عليه و آله: «لَعَنَ اللَّهُ الْقَائِدَ وَالرَّاكِبَ وَالسَّائِقَ» (٣). (وفي روايه أخرى أنّ الذي كان قابضاً على زمام الدابه هو عتبه أخو

ص: ١٨٤

١- (١). سورة النساء، الآيه ٢٩.

٢- (٢). صحيح مسلم، ج ٦، ص ١٨.

٣- (٣). تاريخ الطبري، ج ٨، ص ١٨٥، مطبعه مؤسسه الأعلمي، بيروت.

معاويه ومعاويه كان يسير خلفهم).

٣. وكذلك ورد في تاريخ الطبرى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله أشار يوماً إلى مكان وقال:

يطلع من هذا الفج، رجل من امتى يحشر على غير ملتى، فطلع معاويه (١).

٤. نقل ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه عن كتاب أخبار الملوكة: إنّ معاويه سمع مؤذناً يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله» فقالت ثلاثاً، فقال المؤذن: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال معاويه: لله أبوك يا ابن عبد الله! ولقد كنت على الهمة، ما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين (٢).

٥. ويروى أحمد بن حنبل فى مسنده عن عبد الله بن بريده أنه قال: «دخلت أنا وأبى على معاويه فأجلسنا على الفرش ثم أتينا بالطعام فأكلنا ثم أتينا بالشراب، فشرب معاويه ثم ناول أبى (ثم قال: ما شربته منذ حرّمه رسول الله صلى الله عليه و آله» (٣).

٦. يقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه: «قد طعن كثير من أصحابنا فى دين معاويه ولم يقتصروا على تفسيره وقالوا عنه: إنه كان ملجداً لا يعتقد النبوة ونقلوا عنه فى ثلاث كلامه وسقطات ألفاظه ما يدل على ذلك» (٤).

٧. ولم تقتصر إشكاليه إيمان معاويه وأعماله على هذا الحد، فطبقاً لما ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد أنّ الحسن البصرى قال: «علم معاويه والله إن لم يبایعه عمرو لن يتم له أمر، فقال له: ياعمر، اتبعنى، قال: لماذا؟ للآخرة؟ فوالله ما معك آخرة، أم للدينا فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها، قال: فأنت شريكى فيها. قال:

فاكتب لى مصر وكورها، فكتب له مصر وكورها، وكتب فى آخر الكتاب: وعلى عمرو السمع والطاعة. قال عمرو: إنّ السمع والطاعة لا ينقصان من شرطه شيئاً، قال معاويه: لا ينظر الناس إلى هذا، قال عمرو: حتى يكتب، قال فكتب، والله ما يجد بدأ

ص: ١٨٥

١- (١). تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ١٨٦، مطبعة مؤسسه الأعلمى، بيروت.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٠، ص ١٠١.

٣- (٣). مسند أحمد، ج ٥، ص ٣٤٧.

٤- (٤). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٥، ص ١٢٩.

من كتابتها.

ودخل عتبه بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلم عمراً في مصر، وعمرو يقول له: إنما اباعك بها لديني، فقال عتبه: ائتمن الرجل بدينه فإنه صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١).

٨. وينقل ابن الأثير أيضاً في كامل التواريخ عن الحسن البصري أنه قال:

أربع خصال كنّ في معاوية، لو لم تكن فيه إلاّ واحدة لكانت موبقه: انتزأه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الإمرة من غير مشوره وفيهم بقايا الصحابه وذوو الفضيله، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعائه زياداً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»! وقتله حجراً(٢). ٩. وطبقاً لما أورده البيهقي في كتاب المحاسن والمساوي أنّ رجلاً من أهل الشام سأل ابن عباس وقال: من الناكثون، قال: الذين بايعوا علياً بالمدينه ثم نكثوا، فقاتلهم بالبصره وهم أصحاب الجمل، والقاسطون معاوية وأصحابه والمارقون أهل النهروان ومن معهم، فقال الشامي: يا ابن عباس ملأت صدري نوراً وحكمه وفرجت عني فرج الله عنك، أشهد أنّ علياً رضي الله عنه مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنه(٣).

١٠. ونختم هذا المقطع من البحث بكلام عجيب أورده المسعودي في مروج الذهب ونقله الزبير بن بكار في الموفقيات وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغه (والملاحظ من بين هؤلاء الثلاثة نرى أنّ الزبير بن بكار لا يوافق الشيعة في عقائدهم فحسب بل من المخالفين لهم) أنّ مطرف بن المغيرة بن شعبه يقول: دخلت مع أبي علي معاوية وكان أبي يأتيه، فيتحدّث معه ثم ينصرف إليّ ويذكر معاوية

ص: ١٨٦

١- (١). العقد الفريد، ج ٥، ص ٨٧.

٢- (٢). كامل التواريخ، ج ٣، ص ٤٨٧.

٣- (٣). المحاسن والمساوي، ص ٤٣ طبعه بيروت (مطابق نقل شرح إحقاق الحق، ج ١٥، ص ٦٢).

وعقله ويعجب مِمَّا يراه منه، إذ جاء ذات ليله وأمسك عن العشاء ورأيته مغتَمّاً فانتظرتُه ساعه وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتَمّاً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: ماذا؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وطففت خيراً، إنك قد كبرت ولو نظرت إلى إختك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات، أي ذكر أرجو بقاءه، ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: قال أبو بكر، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشه ليصاح به كل يوم خمس مرات: (أشهد أن مُحمّداً رسولُ اللهِ) فأى عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك «لَا وَاللَّهِ إِلَّا دَفْنَا دَفْنَا» (١)، (أي لا بدّ من العمل لدفن هذا الاسم أو لدفن بني هاشم إلى الأبد).

ومرّه أخرى نعيد القول أنّ جميع هذه الموارد المذكوره أعلاه ليست من مصادرنا، بل هي عين عبارات علماء أهل السنه في شأن معاويه ولم نصف أيّ شيء عليها.

٢. فضائل الامام عليّ عليه السلام على لسان أعدائه

بالرغم من أنّ عمرو بن العاص كان مؤيداً لمعاويه بشكل كامل ولولا حيلته الشيطانيه لم ينتصر معاويه في حربه مع الإمام عليه السلام قطعاً، ولكنّه مع ذلك كان أصرح منه في الكلام، وفي بعض المواقع يذكر بشكل صريح أفضليه الإمام عليّ عليه السلام على معاويه ويتحدّث عن شجاعه جيش الإمام عليه السلام في أكثر من مورد.

ص: ١٨٧

١- (١). الموفقيات، ص ٥٧٦، طبعه وزاره الاوقاف بغداد، سنة ١٣٩٢؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٢٩، طبعه بيروت، سنة ١٩٨٢؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٥، ص ١٢٩.

ينقل نصر بن مزاحم فى كتابه صفين أشعاراً عجيبه لعمر بن العاص يحقر فيها معاويه بشده ويتحدث فيها عن جيش الإمام علي عليه السلام يقول:

فَإِنْ وَرَدَتْ فَأَوْلُهَا وَرُودًا فَإِنْ سَدَّتْ فَلَيْسَ بِذِي صُدُودٍ

أى أن فرسان جيش معاويه عندما يردون ميدان المعركه فسوف نجدهم فى المقدمه، فإذا تصدوا لجيش العدو فلا أحد يستطيع مواجهتهم والوقوف أمامهم.

ثم يضيف:

وَمَا هِيَ مِنْ أَبِي حَسَنِ بُنْكَرٍ وَلَا هُوَ مِنْ مَسَائِكَ بِالْبَعِيدِ

أى أن فضائل علي ليست بالشىء المجهول وغير المعروف ونقاط ضعفك ليست بالبعيده عن الأنظار.

ثم يشير عمرو بن العاص إلى طلب معاويه من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيما يتصل بحكومه الشام ويقول:

وَقُلْتَ لَهُ مُقَالَهٖ مُشْتَكِينٍ

فلما بلغ معاويه قول عمرو دعاه فقال: يا عمرو، إننى قد أعلم ما أردت بهذا، قال:

ما أردت؟ قال: أردت تقييح رأبى، وإعظام علي، وقد فضحك، قال: أما تقييح رأبى فقد كان، وأما إعظامى علياً فإنك بإعظامه أشد معرفه منى، ولكنك تطويه وأنا أنشره، أما فضيحتى فامرؤ لقي أبا الحسن (١).

ص: ١٨٨

١- (١). وقعه صفين، ص ٤٧٢.

إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه (١)

نظره إلى الرسالة

روى نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، إن الإمام على عليه السلام قال يوماً: سأتوجه غداً إلى الميدان وأقاتل هؤلاء القوم، فانتشر هذا الكلام فى صفوف جيش معاوية واستولى عليهم الخوف والذعر.

فكتب معاوية إلى على عليه السلام مع رجل من السكاسك، يقال له: عبدالله بن عقبه وكان من ناقله أهل العراق:

«أما بعد فإننى ما أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا لم يحبها بعضنا على بعض، وإن كنا قد غلبنا على قولنا فقد بقى لنا منها ما نندم على

ص: ١٨٩

١- (١). سند الرسالة: يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه: ذكر هذه الرسالة جماعه من المؤرخين قبل السيد الرضى فى كتبهم، منهم: نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، البيهقى فى المحاسن والمساوىء، ابن قتيبه فى الإمامه والسياسه، المسعودى فى مروج الذهب وابن اعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، وطبقاً لما ذكره نصر بن مزاحم أن الإمام على عليه السلام كتب هذه الرسالة قبل ليله الهرير بيومين أو ثلاثه أيام (وليله الهرير هى الليله الأخيره من معركة صفين حيث استمر القتال وخلافاً للمعتاد حتى الليل واستمرت الحرب بين الطرفين إلى الصباح من يوم غد وظهرت علائم الهزيمة على جيش معاوية) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٣٤).

ما مضى ونصلح به ما بقى، وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنى لك طاعه ولا بيعه فأبيت ذلك عليّ، فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإننى لا أرجو البقاء إلّما ترجو، ولا أخاف من الموت إلّما تخاف وقد والله فارقت الأجناد وذهبت الرجال، ونحن بنوعبدمناف فضل الأفضل لا يستدل به عزيز، ولا يسترق به الحرّ، والسلام».

فلما انتهى كتاب معاويه إلى عليّ عليه السلام قرأه ثم قال: العجب من معاويه ولكتابه، ثم دعا عبيد بن أبى رافع كاتبه وقال له: اكتب إلى معاويه...^(١).

وطبعاً فإنّ السيد الرضى كما هو دأبه وعادته لم يذكر مطلع هذه الرسالة، ولكنّه أورد القسم المهم منها^(٢).

ص: ١٩٠

١- (١). مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٣٨.

٢- (٢). انظر إلى كتاب نهج البلاغه الكامل، ص ٨٥٢.

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسٍ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَزْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبُ إِلَّا حَشَاشَاتِ أَنْفُسِ بَقِيَّتِ، أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ. وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَزْبِ وَالرَّجَالِ فَلَسْتُ بِأَمْضَى عَلَى الشُّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَخْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبِيدٍ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَّيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلَا حَزْبُ كَعَبِيدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيحِ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَلَبَسَ الْخَلْفُ خَلْفًا يَتَّبِعُ سَلْفًا هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

الشرح والتفسير: المدين في هيئه الدائن

سبق أن ذكرنا أن هذه الرسالة تعدّ جواباً لرسالة كتبها معاوية للإمام عليه السلام وتحدّث فيها عن بعض مطالبه، وحسب القاعده فإنّ معاوية بقراءه مثل هذه الرسائل على المنابر أو على الجند إنّما يبغى تبرئه نفسه من الإثم الذي ارتكبه بحقّ المسلمين، وكذلك حسب القاعده أنّ هذه الرسالة إن وصلت لأصحاب الإمام عليه السلام أيضاً ربّما يتأثر بها بعض السدّج من الناس، ومن هنا لم يجد الإمام عليه السلام بدّاً من كتابه رساله جوابيه للردّ على ما جاء فيها بشكل حاسم.

ولذلك نرى أنّ الإمام عليه السلام أشار في هذه الرسالة إلى أربعة أمور محوريه في

في البدايه يقول الإمام عليه السلام: «وَأَمَّا طَلْبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسٍ»، وكما هو معلوم أنّ معاويه طلب الشام دون أن يبايع أو يلتزم بطاعه أوامر الإمام عليه السلام.

ومنع الإمام عليه السلام بدوره يقوم على أساس الحكم الإلهي الذي يقرر منع الظالمين والمفسدين من تولّي أمور البلاد الإسلاميّه، وأنّه لا ينبغي أن تكون أيّ منطقه أو إماره في الحكومه الإسلاميّه بيد المنحرفين وقوى الفسق والجور، وهذا الحكم الشرعي لازال باقٍ على قوّته، فليست هذه المسأله من المسائل السياسيّه التي تتغير وفقاً لتغير الظروف وتبدّل المصالح.

وهذا الكلام في الواقع يعدّ جواباً للأشخاص الذين يقولون: ألم يكن الأفضل أن يدع الإمام الشام بيد معاويه بشكل مؤقت ثم يعزله عن هذا المقام بعد استقرار حكومته واستتباب الأمن فيها؟

إنّ هؤلاء لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقه، وهي أنّ الإمام عليه السلام إذا أذعن لطلب معاويه وأوكل حكومه الشام إليه، (وطبقاً لبعض الروايات أنّ معاويه طلب حكومه مصر أيضاً) وفسح المجال لمعاويه لتقويه أركان سلطته وسيطرته على منطقه الشام فإنّ إزاحته بعد ذلك ستكون مستحيله، والحال نرى أنّ الإمام عليه السلام في حرب صفين كان قد اقترب من النصر الحاسم على جيش معاويه وشارف على دفع هذه الفتنة والشر من البلاد الإسلاميّه لولا سلوك بعض الجهلاء والانتهازيين ممّن كانوا في جيش الإمام عليه السلام ظاهراً.

ثم يتحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من هذه الرساله جواباً عن كلام معاويه الآخر ويقول: «وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ (١) إِلَّا حُشَاشَاتِ (٢) أَنْفُسٍ بَقِيَتْ،

١- (١). طبقاً لبعض الروايات أنّ عدداً القتلى في حرب صفين من جيش معاويه ٤٥ ألفاً، ومن جيش الإمام عليه السلام ٢٥ ألفاً.

٢- (٢). «حشاشات» جمع «حشاشه» بمعنى النفس الأخير.

أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ».

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الجواب الثالث لمعاويه الذى قال فى رسالته: أنا وأنت فى هذه الحرب سيان (وأنا كلينا نتبع هدفاً واحداً ونطلب أمراً واحداً، يقول الإمام فى مقام الجواب: «وَأَمَّا اسْتِثْوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرَّجَالِ فَلَسْتُ بِأَمْضَى (1) عَلَى الشُّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ».

وهذا الكلام إشاره إلى وجود أمرين مختلفين بين أصحابي وأصحابك، فأصحابي يسرون مع إمام عادل وعالم بتكليفه الشرعى وأنهم يسرون على بصيره من حركتهم ودينهم، فى حين أنك لا تملك هدفاً واضحاً سوى التوصل إلى المال والمقام.

والآخر أن أصحابك حريصون على الدنيا وأنك استطعت جرهم إلى الميدان بالوعود المادية والمغريات الدنيوية عسى أن يصيبوا من الغنائم فى هذه المعركة، فى حين أن قاده جيشى لم يتحرّكوا طمعاً بالجائزه ولم يفكروا فى هذا الأمر أيضاً.

وبتعبير آخر، أنك لا تملك اليقين على استحقاقك للخلافه والرئاسه على الناس، فى حين أننى على يقين من ذلك، وأن أتباعك يقاتلون طلباً للدنيا، فى حين أن أتباعى لا يهدفون من قتالك سوى نيل رضا الله تعالى وإقامه الحكومه الإلهيه العادله على الأرض، ولهذين السببين نحن أكثر عزمًا وأمضى سعيًا منكم فى هذا المسير المعنوى، فى حين أنك وأتباعك لا تملكون هذه الروحيه والمعنويه، ونتيجه ذلك أننا لسنا سواء فى هذا الأمر وأنّ النصر النهائى سيكون من نصيبنا قطعاً، وهكذا تحققت نبوءه الإمام عليه السلام ووصل جيش الإمام إلى مشارف النصر النهائى، ولكن للأسف فإنّ جماعه من الجهله ومن بينهم ثلّه من المنافقين أجهضوا هذا النصر ولم يتحقّق ما كان الإمام يصبو إليه.

ص: ١٩٣

١- (١). «امضى» بمعنى شده التأثير والنفوذ فى الإقدام والعمل وهى من «المضى» بمعنى العبور والمرور.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض للجواب عن الإدعاء الرابع لمعاويه ويقول: «وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ»، فهنا يتعرف الإمام بهذه الحقيقة، وهي أننا جميعاً أبناء عبدمناف وهذا صحيح لا ريب فيه.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض للفوارق بينه وبين معاويه ويذكر منها خمسة أمور.

ففي البدايه يشير إلى الشرف في النسب، ويقول: «وَلَكِنْ لَيْسَ أُمِّيهِ كَهَاشِمٍ، وَلَا حَزْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ».

وهذا إشاره إلى أن جدك الأعلى هو اميه وجدك الأدنى هو حرب، وأباك أبو سفيان، وكلهم معروفون بين العرب بالشر والدناء والخسه، في حين أن جدى الأعلى هاشم وجدى الأدنى عبدالمطلب وأبى أبو طالب، وكلهم من سادات العرب ومن كرمائهم وأشرفهم، فكيف يمكن مقايسه هؤلاء بأولئك، والحال أنهم ليسوا سواء.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى التفاوت الثانى والثالث، ويقول: «وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ (١)، وَلَا الصَّرِيحُ (٢) كَاللَّصِيقِ (٣)».

وهو إشاره إلى أنى كنت من أوائل المهاجرين من مكة إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنك وأبا سفيان كنتم تعيشان فى ظلمات الشرك والكفر فى مكة إلى أن فتحها جيش الإسلام وحكم النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بإطلاق سراحك وسائر الأسرى من قومك عندما قال: «إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ».

ومن جهه أخرى، فإن نسبنا معروف وصریح، ولكن نسبك غامض وفيه الكثير من الكلام، فبعض لا يرى أنك ابن أبى سفيان بل الابن غير المشروع لمسافر بن أبى عمرو وهو من عبيد أبى سفيان، وطبعاً هذا الكلام لا يتنافى مع ما ذكره الإمام عليه السلام من أبى معاويه يعنى أبا سفيان لأن تلك الجملة قالها الإمام عليه السلام وهو يتماشى مع

ص: ١٩٤

١- (١). «طليق» بمعنى الأسير المتحرر من «الطلاق» بمعنى التحرر والإنفلات.

٢- (٢). «صریح» تطلق على الشخص الذى يملك نسباً خالصاً وواضحاً.

٣- (٣). «لصيق» يقع على الضد من صريح، ويعنى الشخص غير واضح النسب والذى ينسب لشخص أو قبيله ويلتصق به.

الأمر بحسب الظاهر، وهذه الجملة إشاره إلى أنه لو تمّ البحث والتدقيق في نسبك، فهناك كلام كثير في ذلك.

ومع هذا فإنّ ابن أبي الحديد لا يرى هذا التفسير منسجماً مع الجملة الأخيره وذهب لتفسير آخر لهذا العبارة وقال: المراد من الصريح هو الشخص الذي اعتقد بالإسلام اعتقاداً راسخاً، واللصيق هو الشخص الذي اعتنق الإسلام خوفاً من السيف أو بدافع حبّ الدنيا(١).

وهذا التفسير وإن كان خلاف ظاهر العبارة، ولكن على فرض أن يكون صحيحاً فذلك يعني أيضاً وجود تفاوت جلي بين الإمام عليه السلام ومعاويه في هذا المجال.

ثمّ يتعرّض الإمام عليه السلام لذكر الفرق والاختلاف في الصفات والأفعال الدينيه والإنسانيه بين الطرفين ويقول: «وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ(٢)».

وهذا إشاره إلى أنّ الاختلاف بيننا لا ينحصر بانتسابنا إلى بني هاشم وانتسابك إلى بني اميه، فإنّ صفاتنا وأفعالنا أيضاً لا تقبل القياس والمقارنه، فنحن نسير دوماً في خطّ الحقّ والخير والإيمان، بينما بنو اميه يسرون في خطّ الباطل والشرّ، ونحن آمنّا بالإسلام والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله من موقع الإخلاص، ولكنكم أظهرتم الإيمان والإسلام من موقع النفاق (والحوادث التاريخيه تثبت ذلك).

ويقول الإمام عليه السلام في نهايه هذه الفقره: «وَلَيْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتَّبِعُ سَلْفًا هَوَى (٣) فِي نَارِ جَهَنَّمَ».

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لا يندم معاويه على انحراف أسلافه وجدّه وأبيه فقط، بل يؤكد في كلامه على أنّ هذا الابن يسير في طريق آبائه الضالّين الذين ينتهى مصيرهم إلى النار.

ص: ١٩٥

١- (١) انظر: شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١١٨.

٢- (٢) . «مدغل» بمعنى المفسد والمثير للفتنه من ماده «دغل» بمعنى الفتنة والفساد.

٣- (٣) . «هوى» من «الهوى» بضم الهاء وتشديد الياء، وهى فى الأصل السقوط من مرتفع، وبما أنّ نتيجه الهلكه والموت، فلذلك تطلق هذه المفرده على الهلكه أيضاً.

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النَّبِيِّهِ الَّتِي أَدَّلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا بِهَا الدَّلِيلَ.

وَلَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَيْدِهِ الْأُمَّهُ طَوْعًا وَكَرْهًا، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَى حِينٍ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوْلُونَ بِفَضْلِهِمْ. فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيبًا، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: النبوه افتخار كبير.

ويشير الإمام عليه السلام في هذا القسم من كتابه إلى ما ذكره معاوية في رسالته حيث قال: «لِبَعْضِنَا فَضْلٌ عَلَى بَعْضٍ»، وأنه لا فضل لأحدنا على الآخر، وعلى فرض وجود فضيله فهي جزئيه لا- تعزّ الدليل ولا تذللّ العزيز، فيجيبه الإمام عليه السلام جواباً حاسماً ويقول: «وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النَّبِيِّهِ الَّتِي أَدَّلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا (١) بِهَا الدَّلِيلَ».

وهذا إشاره إلى أنّ الإسلام عندما انتشر في الجزيرة العربية كان أمثال أبي سفيان وأبي جهل الذين حكموا الناس سنين متماديه من موقع الظلم والجور، أضحوا أذلاء، بينما أعزّ الإسلام أمثال سلمان والمقداد وعمّار وياسر وبلال الذين

ص: ١٩٧

١- (١). «نعشنا» من ماده «نعش» بمعنى رفع الشيء، ويقال للتأبوت نعش الميت لأنه مرتفع عن الأرض أو أنه مرفوع على الأيدي، والمراد من الجملة أعلاه أنّ الأشخاص الذين يعيشون الذله والمهانه أضحوا بالإسلام وفي ظل الإيمان أعزاء.

كانوا غالباً يعيشون أجواء الأسر والذلة والعبودية، فرفعهم الإسلام إلى أوج العزّه، وبذلك كيف تقول أنّ نبوّه نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله لم تؤثر أثراً في هذا المجال.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام أخذ بيد معاويه وأرجعه إلى عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وكيف كان اعتناقهم للإسلام هو وأهل بيته، وقال: «وَلَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَامًا رَغْبَةً وَإِمَامًا رَهْبَةً».

وهو إشارة إلى فتح مكة كما يتحدّث القرآن الكريم عن ذلك ويقول: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً» (١)، في ذلك اليوم دخل الكثير من الناس الإسلام بدافع الإخلاص والإيمان وطهروا قلوبهم من لوث عباده الأصنام، ولكنّ المشركين المتعصّبين والانتهازيين الذين كانوا يحاربون الإسلام والدعوه الإلهيّة سنين متماديه اضطروا إعتناق الدين الجديد ظاهراً وأذعنوا مكرهين لهذه الحقيقة، فأبوسفيان وهو العدوّ الأول للإسلام وأبو معاويه كان من الأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام ظاهراً، وكذلك أظهر أهل بيته وأقربائه الإسلام من موقع الإكراه ولم تؤمن قلوبهم.

ومنذ ذلك اليوم تغيّرت خارطه وأخذ أعداء الإسلام يفكرون في إيجاد ثغره في صفوف المسلمين، والنفوذ من خلالها إلى مواقع القرار والحكم، وليجلسوا في مجلس النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وعبارته «رغبه» المذكوره أعلاه إشارة إلى هذا المعنى، وهذه الرغبه لا- تتنافى مع وجود «الرهبه» يعنى أنّ قبولهم للإسلام اقترن فيه الخوف مع الأمل والرغبه في الوصول إلى المقام وسدّه الحكم في المستقبل.

فهل يمكن مقارنه مثل هذا الإسلام بإسلام أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام الذي أسلم منذ بدايه بعثه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وتصدّى للدفاع عن رساله والرسول في تلك الظروف الصعبه وصاحب النبيّ صلى الله عليه وآله في أيام الوحده والغربه؟

ص: ١٩٨

وعلى هذا الأساس يقول الإمام على عليه السلام بعد ذلك: «عَلَى حِينٍ فَهَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوْلُونَ بِفَضْلِهِمْ».

وهذا الكلام يشير إلى تقسيم المسلمين إلى عدّة طوائف كما ورد ذلك في القرآن الكريم: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» (١)، فهناك طائفة من السابقين في اعتناق الإسلام، والإمام عليه السلام من بين هؤلاء يعتبر من أسبق السابقين، وطائفة أخرى اعتنقوا الإسلام وهاجروا من مكة إلى المدينة، والطائفة الثالثة من أهالي المدينة الذين نصرروا الدين والنبي واعتنقوا الإسلام وساروا في خطّ الرسالة، والطائفة الرابعة هم الجيل اللاحق الذين التحقوا بالمسلمين الأوائل عن رغبة وطواعية، وهنا أين نجد مكان معاوية في هذا الطوائف الأربع؟ نقول في مقام الجواب: لا مكان له إطلاقاً، والعجيب أنّ معاوية مع هذا الحال يقيس نفسه مع الإمام عليه السلام وبنى هاشم ويرى نفسه في الإسلام في عرض الإمام على عليه السلام! ولكن تاريخ الإسلام مليء بأمثال هذه العجائب والغرائب.

وفي الختام يحذّر الإمام عليه السلام معاوية ويقول: «فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيبًا، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، وَالسَّلَامُ».

وهذا إشاره إلى أنّك بهذا الكلام تخدع نفسك، وأنك بهذا القياس وبهذه المقارنه غير السليمه تفتح الباب للشيطان ليتسلط على نفسك، وبالتالي تعيش الغفله عن حقيقه موقعك، وتريد أن تنصّب نفسك بمكان رسول الله صلى الله عليه وآله وبذلك تخسر دنياك وآخرتك.

تأمل: أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله

يستفاد من الآية الشريفه ١٠٠ من سوره براءه أنّ أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله على عدّه طوائف:

الطائفة الأولى: السابقون، وهم الذين سبقوا للإيمان واعتناق الإسلام والذين

ص: ١٩٩

آمنوا بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله أيام وحدته وغربته فى بدايه الدعوه، وبايعوه على ذلك، ومن بين الأوائل من هؤلاء السابقين من النسوه خديجه الكبرى عليها السلام، ومن بين الرجال على بن أبى طالب عليه السلام، ثم التحق بهم جماعه آخرون، وهذا العنوان يعدّ افتخاراً كبيراً للإنسان لأنه قدّم نفسه على طبق الإخلاص للإسلام والنبى صلى الله عليه وآله فى الظروف الصعبة التى عاشها المسلمون الأوائل.

الطائفة الثانية: المهاجرون، وطبعاً فى السابقين من هم من المهاجرين أيضاً، وهؤلاء هم المسلمون الذين آمنوا بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى مكة وعندما ضاق عليهم الخناق ومارس المشركون فى حقهم أنواع التعذيب والتضييق حتى بات الخطر يهدّد النبى صلى الله عليه وآله، هاجروا مع النبى إلى المدينة، وهذا يعنى أنّهم تركوا جميع ما لديهم من أموال ودور ولوازم المعيشه والحياه وهاجروا مع أهلهم إلى المدينة التى ليس لهم فيها بيت ولا وسائل المعيشه وبقوا هناك لسنين عديده وهم يواجهون المشكلات والتحديات إلى أن فتح الله عليهم وسارت الأمور على ما يرام.

وطبعاً هناك جماعه أخرى من المسلمين هاجروا إلى الحبشه قبل هجره المسلمين من مكة إلى المدينة هرباً من بطش قريش والمشركين، وبعد استقرار الإسلام فى المدينة عادوا من الحبشه والتحقوا بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمين فى المدينة المنوره.

الطائفة الثالثة: الأنصار، وهم أهل المدينة الذين أسلموا واستقبلوا المهاجرين برحابه صدر وأسكنوهم فى بيوتهم رغم الحياه الصعبة التى كانوا يعيشونها غالباً فى المدينة وتواصلوا مع المهاجرين من موقع المواساه واقتسموا معهم كل ما لديهم من شؤون الحياه.

وطبعاً يوجد فى الأنصار سابقون وغير سابقين، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقه ويقول: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ (١)»، يعنى أنّ الأنصار الذين آمنوا بالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى البدايه أو آمنوا به قبل ذلك فى مكة وفى منطقه

ص: ٢٠٠

١- (١). الجدير بالذكر أنّ القراءه المشهوره أن تقرأ كلمه الأنصار بالكسر لأنها عطف على المهاجرين لا بالضمه على أساس أنّها عطف على السابقين.

تسمى «العقبه» على مقربة من مكة، وبإيعوه صلى الله عليه وآله قبل الهجره، وهؤلاء الطوائف من المهاجرين والأنصار والسابقين يطلق عليهم عنوان: الصحابه.

الطائفة الرابعة: الأشخاص الذين لم يروا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفي الحقيقة يمثلون الجيل اللاحق من المهاجرين والأنصار، وهذا الجيل يطلق عليه في المصطلح «التابعين» وهم الذين أتبعوا الأنصار والمهاجرين في الإيمان والإسلام، وذكرهم القرآن الكريم بقوله: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ» (١). وبقوله: «وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ» (٢). وبقوله أيضاً: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» (٣)، وأفراد هذه الطائفة - كما ذكرنا آنفاً - لم يدركوا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولم يروه، ولكنهم أدركوا الصحابه.

الطائفة الخامسة: تابعو التابعين؛ وهم الأشخاص الذين لم يدركوا الصحابه ولم يشاهدوا أحداً منهم، ولكنهم في الحقيقة تلامذه التابعين.

وهناك كلام كثير في أن أفراد هذه الطوائف الخمس هل هم صالحون وعدول جميعاً، أو أن البعض منهم كان في بدايه الأمر من الصالحين والأخيار ولكنه لم يستقم في هذا المسار بعد ذلك وخاصه بعد رحله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟ وقد بحثنا هذا الموضوع في تنزيه الصحابه.

ومن المعلوم وجود أشخاص من هؤلاء المسلمين الأوائل كانوا في وقت قد بلغوا ذروه الفضيله والإيمان والالتزام بالمبادئ الإسلاميه، ولكنهم بعد ذلك اتبعوا هوى النفس وساروا في خط الضلاله وحب الدنيا وسقطوا في وحل الانحراف وشرك الشيطان (٤).

ص: ٢٠١

١- (١). سورة التوبه، الآيه ١٠٠.

٢- (٢). سورة الجمعه، الآيه ٣.

٣- (٣). سورة الحشر، الآيه ١٠.

٤- (٤). أوردنا بحثاً كافياً في موضوع تنزيه الصحابه في التفسير الأمثل، ذيل الآيه ١٠٠ من سورة التوبه تحت عنوان: هل أن جميع الصحابه صالحون؟ وكذلك في ذيل الخطبه الشقشقيه الخطبه الثالثه من نفحات الولايه، ج ١، تحت عنوان «هل أن جميع الصحابه سلكوا طريق رسول الله عليه السلام؟» وكذلك في هذا الجزء من شرح نهج البلاغه، وللمزيد من الاطلاع يمكنكم مراجعه كتاب «الشيعه تجيب» في بحث تنزيه الصحابه.

إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ (١)

نظرة إلى الرسالة

يقول المرحوم ابن ميثم في مقدمه شرحه لهذه الرسالة أنّ ابن عباس بعد أن عيّنه أمير المؤمنين عليه السلام على البصره، أخذ يتعامل مع بنى تميم بأسلوب العنف والغلظه، لأنّه كان يتذكر عداوتهم للإمام عليه السلام وجيش الإمام عليه السلام فى يوم الجمل، فقد كانوا من أتباع طلحه والزبير وعائشه فى ذلك اليوم، وقد هجم عليهم ابن عباس وأبعدهم عن البصره، وكان يطلق عليهم أنّهم أتباع الجمل وأنصار عسكركر (عسكركر اسم جمل عائشه) وحزب الشيطان، ولكن هذا التعامل السيء من ابن عباس ثقل على جماعه من الشيعة من بنى تميم، ومنهم جاريه بن قدامه الذى كتب إلى الإمام عليه السلام رساله

ص: ٢٠٣

١- (١). سند الرسالة: ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه حول هذه الرسالة: إنّ ابن الميثم نقل هذه الرسالة فى شرح نهج البلاغه ولكن سياق كلامه يدلّ بوضوح على أنّه نقل هذه الرسالة من مصدر غير نهج البلاغه، وكذلك نقل بعض مقاطع هذه الرسالة أبو هلال العسكركر فى كتاب الصناعتين والباقلانى فى إعجاز القرآن والسيد أمير يحيى العلوى فى كتاب الطراز، ومع الالتفات إلى التفاوت الموجود بين هذه المنقولات يتبين وجود مصادر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٤١).

يشكو فيها ابن عباس، وهذا هو الذى دعا الإمام عليه السلام أن يكتب لابن عباس هذه الرسالة مورد البحث.

وقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة إلى عدّه أمور:

الأول: أنّ بنى تميم قبيله معروفه بالرجال الشجعان الذين كانوا من الشجاعه والجرأه بحيث لم يسبقهم إليها أحد لا فى زمان الجاهليه ولا فى صدر الإسلام.

والآخر: يقول الإمام عليه السلام أنهم يتصلون معنا بالرحم والقرايه، وصله الرحم توجب علينا الإحسان إليهم والتعامل معهم من موقع الإكرام والاحترام.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى هذه النقطه، وهى أنّ ما يصدر منك على لسانك ويدك من خير وشرّ وما يترتب عليها من نتائج حسنه وسيئته، فإنه سيمتد إلى أيضاً لأننا شريكان فى ذلك، وعلى ضوء ذلك لابدّ من التعامل بالآليات الأخلاق الكريمه مع بنى تميم.

ص: ٢٠٤

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْبَصِيرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرَسُ الْفِتَنِ، فَحَادِثُ أَهْلِهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْتِلَالُ عُقْدَةِ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِيُنِي تَمِيمًا، وَغَلْظَتُكَ عَلَيَّهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرٌ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسَدِّبُوا بِعَوْغَمٍ فِي حَيَاهِلَيْهِ وَلَا إِسْلَامٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَاءً رَحِمًا مَأْسَةً، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صَلَاتِهَا وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا، فَارْبِعُ أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللَّهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة بماء المداراه

عندما جاء طلحه والزبير ومعهم عائشه إلى البصره مع جماعه من الفاسدين والانتهازيين، ورفعوا هناك لواء التمرد والمخالفه ضد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، استقبلهم أهل البصره وانضموا إليهم وشكلوا معهم جيشاً كبيراً لمحاربه أمير المؤمنين عليه السلام وأشعلوا نار الفتنة، ولكنهم اندحروا وهُزموا على يد جيش الإمام عليّ عليه السلام في واقعه الجمل، ولعلمهم كانوا يتوقعون من الإمام بعد تحقيق النصر أن يأمر بقتل جماعه منهم، ولكن الإمام تعامل معهم بمنطق الحبّ والمودّه كما سبق أن تعامل النبي الأكرم عليه السلام مع قريش في فتح مكه، وهذا الأمر هو الذي أدى إلى عوده الاستقرار والهدوء لمدينه البصره، وفي بدايه هذه الرساله التي كتبها الإمام لواليه على البصره ابن عباس يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقه. «وَأَعْلَمَ أَنَّ الْبَصِيرَةَ مَهْبِطُ

إِبْلِيسَ، وَمَغْرَسُ (١) الْفِتْنِ، فَحَادِثٌ (٢) أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاخْلَلُ عُنْدَهُ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ».

أما قوله: «أَنَّ الْبَصِيرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرَسُ الْفِتْنِ» فهو إشارة إلى وجود أقوام من مختلف الأنحاء تعيش في البصرة وتوجد بينهم مشاكل، وكذلك يواجهون مشاكل من القادمين إلى هذه المنطقة، ولعلّه لهذا السبب اختار طلحه والزبير وعائشه البصرة لإشعال نار الفتنة ضدّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وخاصّه أنّ البصرة تعدّ أهم ميناء للعراق، والموانىء عادة تكون مستقرّ أقوام ومجاميع مختلفه ممّن يأتون إلى هذه المدينة من مناطق مختلفه، وهذا بدوره يؤدّي إلى وجود بعض الخلل والاشكاليات في أجواء هذه المناطق من الناحية الثقافية والاجتماعية، إلّا أن يخضع أهالي هذه المناطق إلى التعليم الأخلاقي والثقافي المستمرّ، وقد ذهب البعض إلى أنّ إبليس عندما هبط إلى الأرض كانت البصرة أوّل محلّ حظّ فيه قدمه، ولكن لا يوجد لدينا دليل لإثبات صحّه هذا المطلب.

المهم أنّ الإمام عليه السلام أمر ابن عباس أن يتخذ أفضل الطرق لإعادته الهدوء والاستقرار انطلاقاً من مضمون الآيه الشريفه: «اذْفَعْ بِمَا لَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (٣). وهذا يعني أنّ ابن عباس ينبغي له أن يستخدم اسلوب الإحسان معهم في مقابل موفقهم السيء يوم الجمل، لكي يغسل درن الأحقاد والكراهيه ويجعلهم يعيشون الندم والخجل على ما بدر منهم، وربّما كانت مخالفتهم له بسبب خوفهم من العقوبه والانتقام، فعندما يتعامل معهم ابن عباس بالرفاه والرحمه، فهذا من شأنه أن يعيد إليهم روح الهدوء والطمأنينه ويزيل حالات الخوف والقلق.

ص: ٢٠٦

١- (١). «مغرس» في الأصل بمعنى محلّ غرس الأشجار. ثم اطلق على محل ظهور كلّ شيء.

٢- (٢). «حادث» صيغه أمر من «المحادثه» بمعنى المراقبه والتحقيق وإزاله الصدأ، يعني غسل القلوب وتطهيرها من درن الأحقاد ورسوبات النزاعات السابقه.

٣- (٣). سوره فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

ويقرّر الإمام عليه السلام هذا المعنى فى كلماته القصار، فى إشاره إلى أصل كلّى حيث يقول: «عَاتِبَ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ» (١).

ثم يدخل الإمام عليه السلام بعد ذكر هذه المقدّمه إلى أصل المطلب ويقول: «وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ (٢) لِيُنِي تَمِيمٍ، وَغَلِظْتُكَ عَلَيْهِمْ».

ثم يذكر الإمام عليه السلام بعض الصفات والخصال لقبيله بنى تميم تدلّ لياقتهم للعفو والصفح والاحترام.

يقول الإمام فى بيان الصفه الأولى منهم: «وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخِرٌ».

والتعبير بالنجم إشاره إلى أنّهم يتمتّعون دوماً بوجود شخصيات كبيره وجديره بالاحترام بحيث إنّه لو مات أحد فسيحلّ نجم آخر محلّه، ولهذا تتوفّر فى القبائل العربيه دوماً رجال مدراء ومفكرون.

وفى الخصله الثانيه يشير الإمام عليه السلام إلى شجاعتهم ويقول: «وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسَبِّقُوا بِوَعْمٍ (٣) فِي جَاهِلِيَّهِ وَلَا إِسْلَامٍ».

ومع الالتفات إلى أنّ كلمه «وَعْمٌ» تعنى فى اللغه الحرب، وكذلك تعنى الحقد والحسد، فهذا الاحتمال الأخير وارد فى تفسير الجمله المذكوره وأنّهم جماعه تستبطن الحقد، ولو تصدّى لهم من يثير أمامهم الأذى والضرر فإنّهم يواجهونه بالمثل ويشيرون الفتنة حينئذٍ، ولكن بالنظر إلى ما تقدّم من كلام الإمام عليه السلام فى مدحهم فإنّ هذه التفسير بعيد عن سياقات الكلام.

وفى الخصله الثالثه والأخيره لهم يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنَّ لَهُمْ بَنِي رَحِمًا مَاسَهُ (٤)، وَقَرَابِيَهُ خِرَاصَهُ، نَحْنُ مَيَّاجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا، وَمَازُورُونَ (٥) عَلَى قَطِيعَتِهَا».

ص: ٢٠٧

١- (١). نهج البلاغه، الكلمات القصار، ١٥٨.

٢- (٢). «تنمر» بمعنى الغضب الشديد وسوء المعامله، من ماده «نمر» على وزن «كبد» وهو الحيوان المعروف.

٣- (٣). «وعم» وهذه المفرده تأتى بمعنى الحرب وكذلك بمعنى الحقد.

٤- (٤). «ماسه» بمعنى القريبه والحميمه من ماده «مس» وهو إتصال الأبدان.

٥- (٥). «مازورون» بمعنى المذنبون من ماده «وزر» وهو الذنب.

وقد ذهب شراح نهج البلاغه إلى أنّ العامل للقرابه النسيبه والرحم بين بنى تميم وبنى هاشم أنّهما يشتركان فى الجد الأعلى وهو (إلياس بن مضر)، وطبقاً لهذا الكلام فإنّ هاشم يصل إلى إلياس بثلاثه عشر واسطه، وكذلك بنى تميم أيضاً يصلون إليه بوسائط كثيره، ولكن بما أنّ الرحم فى الإسلام تحظى بأهميه بالغه، فالإمام عليه السلام يؤكّد على أنّ هذا المقدار من الوسائط الكثيره بيننا وبينهم لا يمنع من اعتبارهم من الأرحام والأقرباء، أضف إلى ذلك أنّ البعض ذهب إلى وجود رابطه سببيه بين هاشم وتميم من طريق الزواج العائلى، وذهب بعض أيضاً إلى أنّ أحد زوجات الإمام على عليه السلام واسمها ليلى بنت مسعود الحنظليه من بنى تميم؛ ولكن مع الالتفات أنّ الارتباط السببى لا يسمّى رحماً بل يقتصر الرحم على الرابطه النسيبه، فإنّ هذين التفسيرين يبتعدان عن الحقيقه.

ويرى ابن أبى الحديد وبعض آخر من المؤرّخين فضائل الأخرى لبنى تميم حيث يستفاد من مجموعها أنّ هذه القبيله تحظى بامتيازات كبيره فى الواقع الاجتماعى العربى.

ويستفاد من سياق كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ مسأله صله الرحم تحظى بأهميه كبيره فى الإسلام بحيث إنّ هذا الحكم الإسلامى يمتدّ من الأرحام ويتناول حتّى

من كان يرتبط بفاصله بعيده من الآباء والأجداد، يقول الإمام عليه السلام: إنك لو لم تحفظ هذه القرابه والرحم فستكون أمام الله مسؤولاً ومحكوماً وإن وصلتها فستكون مصدر الخير والبركه.

وفى ختام هذه الرساله يأمر الإمام عليه السلام ابن عباس بمداراه المخالفين بشكل عامّ وبنى تميم بشكل خاصّ ويقول: «فَارْبَعٌ (١) أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللَّهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَبِيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلَا يَفِيلَنَّ (٢) رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلَامُ».

ص: ٢٠٨

١- (١). «أربع» من «الربوع» بمعنى المداراه وضبط النفس.

٢- (٢). «يفيل» من ماده «فيل» على وزن «ميل» بمعنى الخطأ أو الضعف.

ويراد من الخير والشرّ: النفع والضرر، وهى الأعمال التى يمكن أن يترتب عليها الظلم أو الضرر، فالشرّ هنا ليس بمعنى الظلم والجور لأنّ ابن عباس لم يكن الوالى الظالم الذى يتعامل مع الناس بالظلم وسحق الحقوق.

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام فى هذه التوصيه بمداراه المخالفين ورعايتهم يشير إلى هذه الحقيقه وهى أنّك وكيل عنيّ، وأنّ كلّ عمل يصدر منك فسوف يكتب عليّ فكأنه صدر منيّ، وعلى هذا الأساس ينبغى الاحتياط والتدبر فى الأمر، وهذا الكلام من قبيل أن يقال لعلماء الدين: انتبهوا إلى أعمالكم وتصرفاتكم لأنّ كلّ عمل يصدر منكم سيكون منسوباً للدين والإسلام أيضاً.

وفى الجملة الأخيره يحذّر الإمام عليه السلام ابن عباس أيضاً ويقول أنّك لو لم تسلك سبيل المداراه والمراعاة فربّما يتغيّر نظر إمامك عنك، وهذا دليل آخر على ضروره العمل بتوصيات الإمام عليه السلام.

فى العبارة الوارده أعلاه يخاطب الإمام عليه السلام ابن عباس بكلمه «أبو العباس» واستخدام الكنيه متداول عند العرب وأنّهم إذا أرادوا أن ينادوا شخصاً باحترام فإنّهم لا يذكرون اسمه الأصليّ بل ينادونه بكنيته أو بلقبه، فهنا راعى الإمام عليه السلام هذا الجانب فى احترام ابن عباس وخاطبه بكنيته.

تأمل: خصائص أهل البصره

ورد فى الخطب المتعدّده من نهج البلاغه ومنها الخطبه ١٣ و ١٤، توبيخ وذمّ شديد لأهل البصره، وكما رأينا فى رساله أعلاه أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام يتحدّث عن البصره بأنّها معقل الشيطان ومحلّ نزول إبليس ومكان إثارة الفتن، ولكن بقرينه ما ورد فى بعض الروايات التى تمدح أهل البصره كثيراً أعمّ من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، فكلام الإمام عليه السلام هنا ناظر لمقطع خاصّ من الزمان، وهو الزمان

الذى وقعت فيه معركة الجمل وسارع أهل البصره لحمايه الناكثين والمتمردين بقياده طلحه والزبير، وأسفر ذلك عن مقتل الكثير من المسلمين.

وعلى ضوء ذلك فإنّ هذا الذمّ المذكور لا يدلّ على كلّ من دخل تلك المدينة أو كان من أهالى البصره، فإنّه يملك تلك الصفات الذميمة على امتداد التاريخ وأنه ليس من أهل الفلاح والسعادة، وخاصّه عندما نرى وجود الكثير من العلماء والعرفاء والقراء والموالين لأهل البيت عليهم السلام فى هذه المدينة.

وللتوضيح أكثر راجع الجزء الأول، ذيل الخطبه ١٣.

ص: ٢١٠

يستفاد من تاريخ اليعقوبى و تاريخ البلاذرى أنّ المخاطب بهذه الرسالة هو عمر بن أبى سلمه (مسلمه) الأرحبى الذى قيل إنّه كان والياً على فارس والبحرين (٢)، وأنّه كان يستخدم اسلوب العنف والشدّه مع بعض الفئات التى تحت ولايته من طائفه المجوس، وهؤلاء كتبوا رساله يشكون فيها هذا الوالى، فاستاء الإمام عليه السلام من ذلك وكتب هذه الرسالة مورد البحث ودعا لرعايه الاعتدال وترك اسلوب الشدّه معهم.

واللافت أنّ توصيه الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة تخصّ غير المسلمين وهم الذين يطلق عليهم «أهل الذمّه» الذين يعيشون داخل البلاد الإسلاميه بصوره سلميه، فينبغى أن يتعامل معهم الوالى والمسلمون من موقع الرأفه والمحبه الإسلاميه

١- (١). سند الرسالة: نقلت هذه الرسالة فى الكتب والمصادر التاريخيه قبل السيد الرضى، ومن جمله هذه المصادر ما أورده البلاذرى (المتوفى ٢٧٩) فى كتاب انساب الأشراف البلاذرى، وابن واضح (المعروف باليعقوبى المتوفى ٢٨٤) فى تاريخه مع تفاوت وإضافات يسيره لما ورد فى نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٤٢).

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن ميثم، ذيل الرسالة المذكوره.

ويحفظوا لهم نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، فالإمام عليه السلام لا يقبل أى شكل من أشكال العنف والشدة فى التعامل معهم.
ولكن بما أنّ الاقتراب منهم والتواصل معهم أكثر من اللازم ربّما يثير مشاكل أخرى فى الجو الثقافى والاجتماعى فإنّ الإمام عليه السلام أمر هذا الوالى بضروره التعايش بالاعتدال فى هذا الشأن.

ص: ٢١٢

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلَ بَلَدِكَ شَكُّوا مِنْكَ غِلْظَهُ وَقَسْوَهُ، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدَنُّوا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقَصِّصُوا وَيُجَفَّوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسَ لَهُمْ جَلْبَاباً مِنَ اللَّيْنِ تَشْوِبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشَّدَةِ، وَدَاوِلَ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَأَمْرَجَ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ.

إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: شمول الرأفة الإسلاميه لجميع الناس

رأينا فيما تقدم أنفاً أنّ المخاطب بهذه الرساله والى الإمام عليه السلام على فارس والبحرين وأنه كان يستخدم اسلوب الشده والقسوه مع جماعه من المجوس الذين كانوا يعيشون فى تلك المنطقه، وبما أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بعداله الإمام عليه السلام وأخلاقه الحسنه، فلذلك كتبوا إليه هذه الرساله يشكون من سوء معامله الوالى، وفى هذه الرساله العميقه المضمون والتى تعتبر دستوراً لجميع الولاه والأمراء، يقول الإمام عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ (١) أَهْلَ بَلَدِكَ شَكُّوا مِنْكَ غِلْظَهُ وَقَسْوَهُ، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدَنُّوا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقَصِّصُوا وَيُجَفَّوْا لِعَهْدِهِمْ».

وقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات إلى أربع نقاط تتصل بأعمال الوالى السيئه

ص: ٢١٣

١- (١). «دهاقين» جمع «دهقان» وأصل هذه الكلمه فارسىه «دهكان» أو «دهبان» بمعنى كبير القرىه الرئيس، الزعيم، وأحياناً تطلق على كل فلاح، ولكن الأنسب فى عبارته أعلاه المعنى الأول، لأنّ الرؤساء وكبار القرىه هم الذين يكتبون الشكاوى.

وسوء معاملته للرعيه، فى البدايه أشار الإمام عليه السلام إلى العنف، والأخرى إلى المساوه وعدم الشفقه، والثالثه تحقير هؤلاء الرعيه، والرابعه سوء معاملته لهم، وبالرغم من أن هذه المفاهيم تماثل وتقترب فى المضمون، لكن هناك فروق دقيقه بينها، ولذلك أشار الإمام عليه السلام إلى جميع هذه الأمور وأعلن بعد ذلك عن رأيه المبارك فى القضيه، وهو أنه من جهه ينبغى الالتفات إلى أن هؤلاء مشركون، لأنّ المجوس يعتقدون بالثنويه والمصدرين للخلق، وهما يزدان وأهريمن مصدر الخير والشر، ورغم أن الزرادشتين فى هذا العصر يدعون أنّهم موحدون وغير مشركين، ولكن المنابع الدينيه لهم تقرّر خلاف ذلك، وعلى أيّه حال فالإمام عليه السلام مع ملاحظه التفاوت الاعتقادى بينهم وبين المسلمين، ينهى عن الاقتراب منهم أكثر من الحدّ اللازم، وفى ذات الوقت يذكر الوالى بهذه النقطه، وهى أن هؤلاء من أهل الذمه يعنى أنّهم يعيشون مع المسلمين من موقع الصلح والسلم ويتعهدون باحترام الإسلام وأحكامه الإلهيه، والحكومه الإسلاميه بدورها تتعهد بالدفاع عنهم وعن أعراضهم وأموالهم وتتعامل معهم بلغه العطف والإحسان، وعلى هذا الأساس فإنّ استخدام القسوه وسوء التعامل معهم يعتبر منافياً للشرع والخلق الإسلامى.

ثم بيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقه ويقول: «فَالْبَسْ لَهُمْ جَلِيَابًا (١) مِّنَ اللَّيْنِ تَشْوِبُهُ بِطَرَفٍ مِّنَ الشَّدَةِ، وَدَاوِلٌ (٢) لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْرُجٌ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ الْإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

وبديهيّ أنّ مثل هذا الأسلوب فى التعامل مع غير المسلمين الذين يعيشون فى

ص: ٢١٤

- ١- (١). «جلباب» بكسر وفتح الجيم، ذكروا لهذه الكلمه معانٍ مختلفه فتاره تأتي بمعنى العباءه والملحفه، وأخرى المقنعه وغطاء الرأس، والثالثه الثوب الطويل والواسع، وفى الرساله مورد البحث قصد بها الكنايه، والمراد الغطاء واللباس المعنوى الذى يرتديه المدير والقائد لجماعه من الناس حيث يوصيه الإمام عليه السلام بلزوم التحلى بحاله تقترن فيها الشده باللين.
- ٢- (٢). «داول» صيغه أمر من «المداوله» بمعنى تحويل الأمر من شخص لآخر بإدارته وإداره الأمر واستبدال شىء بشىء أو شخص بديل شخص آخر، والمراد من هذه المفرده من العبارة أعلاه أن تتعامل معهم أحياناً بالموده والمحبه وأخرى بشىء من القسوه والشده.

ظَلَّ الحُكُومَةُ الإِسْلَامِيَّةُ بِصِلِحٍ وَسَلَامٍ يَعتَبِرُ مِنْ أَفْضَلِ أَسَالِيبِ المَعَامَلَةِ، وَمِنْ جِهَةٍ يَثِيرُ فِي نَفُوسِهِمُ الطَّمَأْنِينَةَ وَالْأَمْنَ وَيُزِيحُ مِنْ أَدْهَانِهِمْ أَى تَفْكِيرِ فِي التَّمَرُّدِ وَالطَّغْيَانِ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ هَذَا الأسلوبَ فِي التَّعَامُلِ مِنْ قِبَلِ الحَاكِمِ الإِسْلَامِيِّ لَا يَمْكَنُ حَمْلَهُ عَلَى الضَّعْفِ وَالعِجْزِ فِي مَوَاجِهَةِ المَشَاكِلِ وَالتَّحَدِّيَاتِ وَالتِّي رُبَّمَا تَكُونُ مَصْدَرًا لِإِثَارَةِ القَلَاقِلِ وَتَفْعِيلِ رُوحِ المَشَاكِسَةِ، وَمِنْ هَذَا المُنْطَلِقِ يَرِسمُ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الأسلوبَ الأمثلَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الأَقْلِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ فِي المَجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ.

وَمِنْ المَعْلُومِ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ لَا يَنْحَصِرُ بِأَشْخَاصٍ مَعْيَنِينَ وَلَا يَخْتَصُّ بِزَمَانٍ وَمَكَانٍ، بَلْ هُوَ مِنْهَجٌ مَدْرُوسٌ وَيَمْكَنُ تَرْجُمَتُهُ عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ الاجْتِمَاعِيِّ فِي كُلِّ مَوْرَدٍ وَمَجْتَمَعٍ إِسْلَامِيٍّ، بَلْ يَمْكَنُ القَوْلُ إِنَّ الحُكُومَةَ يَجِبُ أَنْ تَتَّعَامَلَ مَعَ المَسْلَمِينَ أَيْضًا بِمِثْلِ هَذِهِ المَعَامَلَةِ، فَلَوْ أَظْهَرَتْ فِي مَقَابِلِ الرِّعِيَةِ الكَثِيرِ مِنَ اللِّيُونَةِ وَالتَّسَاهُلِ أَكْثَرَ مِنَ الحَدِّ، فَرُبَّمَا يَحْمِلُ ذَلِكَ عَلَى ضَعْفِ هَذِهِ الحُكُومَةِ، وَبِالتَّيَالِي يَتَجَرَّأُ جَمَاعَةٌ عَلَى القَانُونِ وَلَا يَلْتَمِزُوا بِالمَقْرَّرَاتِ الرِّسْمِيَّةِ، وَلَوْ كَانَتْ تَنْفِيذُ القَوَانِينِ وَإِجْرَاؤُهَا بِأَسْلُوبِ الشَّدَّةِ وَالعُنْفِ، فَإِنَّ ذَلِكَ رُبَّمَا يَثِيرُ فِي النَّاسِ الِاعْتِرَاضَ وَالنَّفْرَةَ مِنَ الحُكُومَةِ، وَتَنْقَطِعُ بِالتَّالِي طَبِيعَةُ التَّوَاصُلِ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ الحُكُومَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَعَلَى أَيِّهَ حَالٍ فَإِنَّ الإِعْتِدَالَ بَيْنَ الرِّأْفَةِ وَالقَسْوَةِ يَعتَبِرُ أَحَدَ الأَصُولِ الثَّابِتَةِ لِلِإِدَارَةِ النَّاجِحَةِ وَقِيَادَةِ المَجْتَمَعِ.

بَلْ نَرَى مِثْلَ هَذَا الأَصْلِ حَتَّى بِالنَّسْبَةِ لِلذَّاتِ المَقْدَّسَةِ وَالسِّيَاسَةِ الإِلَهِيَّةِ مَعَ العِبَادِ، حَيْثُ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ النَّاسَ يَعيشُونَ بَيْنَ الخُوفِ وَالرَّجَاءِ، يَقُولُ القُرْآنُ الكَرِيمُ:

«تَبَّئِي عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغُفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ» (١).

وَنَقْرَأُ فِي دَعَاءِ الِافْتِتَاحِ المَعْرُوفِ: «وَأَيَقِنْتُ أَنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ العُفُوفِ وَالرَّحْمَةِ وَأَشَدُّ المَعْيَاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النِّكَالِ وَالتَّقَمَةِ».

وَأَثَارَ بَعْضِ شَرَّاحِ نَهْجِ البَلَاغَةِ هُنَا هَذَا السُّؤَالِ، وَهُوَ كَيْفَ أَنَّ الإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامَ أَصْدَرَ

ص: ٢١٥

١- (١). سورَةُ الحِجْرِ، الآيَاتَانِ ٤٩ وَ ٥٠.

مثل هذا الأمر بالنسبة لغير المسلمين وأنه لا ينبغي تقييدهم أكثر من اللازم في حين أن القرآن الكريم يقول بصراحه: «لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ» (١).

والجواب عن هذا الإشكال واضح، وهو أن الإمام على عليه السلام لا ينهى عن الإحسان إليهم، بل يأمر برعايه الاعتدال فيهم والتعامل معهم، فلا يقتربوا من الحاكم أكثر من الحد ويتجرأوا على المخالفه، ولا يبعدهم عنه إلى حد يتسبب في امتعاضهم وطغيانهم.

تأمل: الإسلام وأهل الذمه

يمكننا تلخيص علاقه الإسلام والمسلمين بغير المسلمين في أربع صور:

١. أهل الذمه: وهم أصحاب الكتب السماويه الذين يعيشون داخل البلاد الإسلاميه على شكل أقليات دينيه، وهؤلاء إذا لم يتظاهروا بالأمر المخالفه للقوانين الإسلاميه، وتعاملوا مع المسلمين من موقع الاحترام، فيجب على المسلمين أيضاً أن يعاملوهم باحترام كذلك، الحكومه الإسلاميه أيضاً مكلفه بحفظ نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، والذمه تعنى العهد والميثاق، وهو في الحقيقه عهد منهم أن يعيشوا مع المسلمين بصلح وسلام، وأحد شروط الذمه دفع ضرائب وجيزه تدعى بـ «الجزيه» وفي مقابل هذه الضريبه القليله فإن الحكومه الإسلاميه تقدم لهم خدمات هامه وجليله كما تقدم في رساله أعلاه، ورأينا أن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام يكتب إلى أحد ولاته رساله يعترض بها عليه من سوء معاملته لأهل الذمه ويدعوه لتحسين سلوكه ومعاملته لهم.

وقد وردت أحكام أهل الذمه في الكتب الفقيهيه ذيل كتاب الجهاد بشكل مفصل.

٢. الكفار الحربيون: وهؤلاء كما يتبادر من اسمهم، الأشخاص الذين يعيشون

ص: ٢١٤

حاله الحرب ضدّ المسلمين، ولهذا السبب ليس فقط لا- يجب احترامهم، بل إنّ المسلمين مأمورون بجهادهم والتصدي لهم ومقاتلتهم.

وقد وردت أحكام الكفار الحربيين أيضاً في الفقه الإسلامي في كتاب الجهاد بشكل مفصّل أيضاً.

٣. الكفار المعاهدون: وهم الذين لا- يعيشون داخل البلاد الإسلاميّة، ولكنّهم تربطهم علاقات تجاريه وسياسيه وغير ذلك مع المسلمين، حيث يحترم كلّ طرف حقوق الطرف الآخر، والمصداق البارز لهؤلاء ما نراه في الحال الحاضر من وجود علاقات سياسيه بين المسلمين وبين جميع البلدان الأخرى في العالم، حيث يتبادلون السفراء والخبراء وأمثال ذلك، وهؤلاء ينبغي التعامل معهم من موقع الاحترام أيضاً، سواء سافروا إلى داخل البلاد الإسلاميّة أو كانوا في الخارج.

وقد وردت أحكام هذه الطائفة أيضاً في كتاب الجهاد وفي كتب التفسير، وخاصّه في تفسير سورة براء.

٤. الكفار المهادنون: وهم الأشخاص الذين يعيشون خارج البلاد الإسلاميّة ولا تربطهم مع المسلمين رابطه سياسيه خاصه أو معاهده معينه، ولكن في ذات الوقت لا- يواجهون المسلمين بالحرب والقتال، وقد أمر الإسلام بالنسبه لهؤلاء أن يتعامل معهم المسلمون بالإحسان وحسن الخلق، ومن ذلك ما ورد في الآية ٨ من سورة الممتحنه حيث أكد القرآن الكريم على أنّ الله لا ينهى عن الإحسان لمثل هؤلاء الكفار الذين لا يقاتلونكم ولا يخرجوكم من دياركم.

إلى زياد بن أبيه وهو خليفته عامله عبد الله بن عباس على البصره، وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكerman وغيرها (١):

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من هذه الرسالة الواردة في تاريخ اليعقوبى، وخاصة مع الالتفات إلى ما ورد في مطلعها، أنّ «زياد» كان قد قصد خيانه بيت المال والامتناع من دفع جميع الخراج، فاطلع الإمام عليه السلام على هذه القضية من خلال بعض جواسيسه وعيونه وكتب له هذه الرسالة الشديده وأمره بدفع الخراج لبيت المال بشكل كامل وإرساله إلى الإمام عليه السلام وقد هدده الإمام عليه السلام بأنّه إذا امتنع عن هذا العمل فإنّه سيواجه عقوبه شديده.

وهذه الرسالة وأمثالها تبين أنّ الإمام عليه السلام قد جعل عمال ومراقبين على جميع

ص: ٢١٩

١- (١). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة قبل السيد الرضى، البلاذرى فى كتاب انساب الأشراف، واليعقوبى فى تاريخه (مع تفاوت يسير) وقد أشار كتاب مصادر نهج البلاغه إلى الكتاب الأول ثم أضاف أنّ هذه الرسالة نقلها البيهقى فى المحاسن والمساوىء (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٣٣).

الولاه والمسؤولين فى الحكومه حيث ينقلون له باستمرار ما يجرى فى الولايات من مسائل مهمه، فلو أنّ أحد المسؤولين تجاوز حدود صلاحيته فإنّ الإمام سيتولّى تنبيهه.

ص: ٢٢٠

وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا، لَئِن بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَيْلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامِ.

الشرح والتفسير: إنذار شديد للمتخلفين

يستفاد من تاريخ يعقوبى أنّ الإمام عليه السلام فى بدايه هذه الرساله كتب إلى واليه زياد يقول: «إِنَّ رَسُولِي أَخْبَرَنِي بِعَجَبٍ، زَعِمَ أَنَّكَ قُلْتَ لَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ: إِنَّ الْأَكْرَادَ هَاجَتْ بِحُكِّكَ فَكَسَيْرَتْ عَلَيْكَ كَسِيرًا مِنَ الْخَرَاجِ وَقُلْتَ لَهُ: لَا تُعْلِمَ بِمَذَلِكُكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ».

ويستفاد جيداً من هذا المقطع من الرساله أنّ زياداً تواطأ مع بعض الأكراد على تقليل الخراج، وكان يريد - من خلال الادعاء بأنّ الأكراد قد امتنعوا من دفع الخراج بشكل كامل - أن يختلس بعض الخراج لحسابه الخاص ولا يرسله إلى بيت المال، فعلم الإمام عليه السلام بهذه المؤامره وكتب له هذه الرساله الشديده وقال: «وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا، لَئِن بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ ضَيْلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامِ».

إنّ تعبير الإمام عليه السلام فى مطلع هذا القسم حيث يقسم بالله قسماً صادقاً، لا يعنى أنّه ربّما يصدر قسم غير صادق من الإمام عليه السلام بل هو نوع من التأكيد على جدّيه الإمام عليه السلام فى هذا الأمر.

والملاحظه الأخرى أنّ الإمام عليه السلام لم يصرّح له فى هذه الرساله بأنّك ارتكبت

الخيانه، بل ذكر كلاماً مشروطاً بهذا المضمون، وهو أنه إذا بلغنى أنك ارتكبت مثل هذه الخيانه...، لأنه إذا أراد كشف الحجاب فى مثل هذه الموارد عن عمل الشخص المتخلف، فإن ذلك يدعوه للجرأه أكثر، فبلاغه الكلام تستدعى أن يكشف قليلاً عن الستار ويذكر الموضوع بشكل مشروط لئلا يتجرأ أكثر، ويعزم على الفرار بالأموال من تلك المنطقه.

وهنا نقطه جديره بالالتفات فى كلام الإمام عليه السلام حيث يقول: إننى سأعاقبك عقوبه شديده بحيث يترتب عليها ثلاث بلايا: الأولى: أنك ستعيش فى حياتك قليل الوفه من المال، والآخر ستكون سىء السمعه فلا يأتى منك أحد على عمله وماله.

الثالث: أن تكون ثقيل الظهر، وربما يكون مقصوده عليه السلام من ذلك ثقل المسؤليه فى الدنيا، أى أنه يحمل على ظهره مسؤليه الخيانه وما يترتب عليها من عقوبه، أو أن يعيش بصعوبه بالغه بسبب الفقر فلا يستطيع إداره أموره الشخصيه والمعاشيه، واحتمل بعض الشراح أيضاً أن المراد من ثقل الظهر هنا المسؤليه الآخريه، كما ورد هذا المضمون فى قوله تعالى: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (١).

والظاهر أن هذا الاحتمال بعيد عن المقصود، لأن الإمام عليه السلام يقول: إننى سأعاقبك بما يترتب عليه هذه العواقب الثلاث، ونعلم أن المسؤليه يوم القيامه بسبب الخيانه حتميه ولا تحتاج لتشديد الإمام عليه السلام ولا ترتبط بإنزال العقوبه بحقه.

وجمله «ضئيل الأمر» مع الالتفات إلى أن كلمه «ضئيل» تأتى بمعنى الحقير والضعيف والمهين، فإن مفهومها هو أنك إذا ارتكبت الخيانه وعرف الناس منك ذلك، فسوف تعيش بعد ذلك بين الناس حقيراً ومهيناً وذليلاً.

وأساساً فإن الخيانه، لاسيما الخيانه فى الأموال وخاصه فى بيت المال، منشأ الفضيحه فى الدنيا والآخره، وهذه الحقيقه لا تنحصر بزياد بن أبيه فى صوره خيانتة

ص: ٢٢٢

لبيت المال وما يترتب على ذلك من العواقب الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام له في رسالته، بل هي المصير الذي ينتظر جميع الخائنين وخاصه خونه بيت المال، فإنّ ظهورهم ستكون مثقله بوزر الذنب والمسؤوليه والعقوبه، وأنّ انتفاعهم في هذا الحياه سيكون ضئيلاً وستكون شخصيتهم حقيره ويعيشون الذلّه والمهانه بين الناس.

تأمل: لماذا اختار الإمام عليه السلام زياداً لهذا المنصب

بالنسبه لسيره «زياد بن أبيه» وتاريخ حياته، تطرح عدّه أسئله وعلامات استفهام، الأولى: لماذا يقال عنه: زياد بن أبيه، والذي يحكى عن عدم مشروعيه ولادته ونسبه، والآخر: لماذا اختاره الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لهذا المنصب في أيام خلافته، أو على الأقلّ اختاره عبدالله بن عباس لمثل هذا المقام مع معرفته بشخصيته معرفه دقيقه، بحيث انتهى به الأمر إلى ما انتهى إليه، وكان له ولأسرته دور تخريبيّ في تاريخ الإسلام؟

والجواب عن هذه الأسئلة سيأتي إن شاء في ذيل الرساله ٤٤ حيث يتناسب هذا الموضوع معه أكثر.

ص: ٢٢٣

يستفاد من صدر هذه الرساله الوارده في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري، أنّ بعض الأشخاص كتب إلى الإمام عليه السلام أنّ زياداً ارتكب أعمالاً مخالفيه، ومن ذلك أنّه كان يجلس على موائد تكثر فيها أنواع الأطمعه وأنّه كان يتعامل مع الآخرين من موقع التكبر والغرور، والإمام عليه السلام في هذه الرساله حذّره من الإسراف والتكبر وطلب الدنيا وأكد له أن يهتم في حياته بالآخره.

ص: ٢٢٥

١- (١). سند الرساله: نقل هذه الرساله البلاذري في كتاب انساب الأشراف، وفي الحقيقه أنّ ما ذكره السيد الرضى في نهج البلاغه يعتبر قسمًا من رساله مطوّلّه أرسلها الإمام عليه السلام لزياد بن أبيه، وقد أورد كتاب مصادر نهج البلاغه هذا المصدر فقط للرساله (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٣٣). ونقلها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغه ذيل الرساله ٤٤ عن البلاذري في أنساب الأشراف مع اختلافات عدّه، وبما أنّ هذا التفاوت كبير نسبياً فمن البعيد حمّله على اختلاف النسخ، ولعلّ ابن أبي الحديد كان يملك مصدراً آخر لهذه الرساله حيث نقلها بكلّ تفاصيلها وشرحها.

فَدَعَ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِدًا، وَادَّكَرَ فِي الْيَوْمِ غَدًا، وَأَمْسَكَ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدَّمَ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ. أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمِئِنُّ - وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ؛ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْمَأْرَمَلَةَ - أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَعْجِزٌ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: الإمام عليه السلام يحذر «زياد» مَرَه أُخْرَى

تقدم آنفاً أنّ لهذه الرسالة مقدمه يمكن من خلالها فهم ما أورده المرحوم السيد الرضی لشرحها وتفسيرها، فقد ورد في مقدمه هذه الرسالة، أنه كان بين سعد وزياد ملاحاه ومنازعه، وعاد سعد فشكاه إلى عليّ عليه السلام وعابه، فكتب عليّ عليه السلام إليه، أما بعد فإنّ سعداً ذكر أنّك شتمته ظلماً وهددته وجبهته تجبراً وتكبراً، فما دعاك إلى التكبر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الكِبْرُ رِدَاءُ اللَّهِ فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَهُ قَصِيْمَةٌ»، وقد أخبرني أنّك تكثر من الألوان المختلفه في الطعام في اليوم الواحد، وتدهن كل يوم، فما عليك لو صمت لله أياماً، وتصدقت ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك مراراً قفاراً، فإنّ ذلك شعار الصالحين! أفتطمع وأنت متمرغ في النعيم، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرمله واليتيم، أن يحسب لك أجر المتصدقين! وأخبرني أنّك تتكلم بكلام الأبرار، وتعمل عمل الخاطئين، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحببت، فتب إلى ربك يصلح لك عملك، واقتصد في أمرك

وقَدِّمَ إِلَى رَبِّكَ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ، وَاذْهِنُ غَبًّا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ:

«ادَّهِنُوا غَبًّا وَلَا تَدَّهِنُوا رَفَهًا» (١).

ثمَّ يَأْمُرُهُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّصَدَّقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحْرُومِينَ وَيَقُولُ لَهُ أَيْضًا: إِنَّ كَلَامَكَ كَلَامَ الْمُحْسِنِينَ وَلَكِنْ عَمَلُكَ عَمَلُ الْمَذْنِبِينَ وَالْعَاصِينَ، فَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ حَقِيقَةً فَإِنَّكَ قَدْ ظَلَمْتَ نَفْسَكَ وَأَحْبَطْتَ عَمَلَكَ (٢).

ومع الالتفات إلى ما تقدّم أعلاه، نصل إلى شرح الرسالة طبقاً لما ذكره السيّد الرضويّ، فالإمام عليه السلام يأمر زياد بن أبيه بأربعه أمور في عبارته موجزة وزاخرة بالمعنى، فيقول في البدايه: «فَدَعَ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِدًا».

وهو إشارة إلى ما كان زياد يهتم به من جلب ألوان الأَطْعَمَةِ عَلَى مَائِدَتِهِ وَيَتَّخِذُ سَبِيلَ الْمُتَرْفِينِ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَعْتَبَرُ مَذْمُومًا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا سِيَّمَا لِلْحُكَّامِ وَالْوَلَائِيَّةِ الْمُنْصُوبِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

وطبعاً فَإِنَّ الْإِسْرَافَ لَا يَنْحَصِرُ بِالْإِكْتِثَارِ فِي الْأَطْعَمَةِ وَأَمْثَالِهَا، بَلِ الْإِسْرَافُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَذْمُومٌ فِي الْإِسْلَامِ حَتَّى فِي الْعِبَادَاتِ، حَيْثُ تَوْجِبُ أحياناً التَّعَبَ وَالْمَلَلَ وَزَوَالَ الرَّغْبَةَ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وَإِنَّ الْقَصْدَ أَمْرٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّ السَّرْفَ أَمْرٌ يُبْغِضُهُ اللَّهُ حَتَّى طَرَحَكَ النَّوَاهُ فَإِنَّهَا تَصْلُحُ لِلشَّيْءِ وَحَتَّى صَبَّكَ فَضَلَ شَرَابِكَ» (٣).

ثمَّ يَذْكَرُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّوَصِيَةَ الثَّانِيَةَ وَيَقُولُ: «وَأَذْكَرُ فِي الْيَوْمِ غَدًا».

وهذا هو ما ورد في القرآن الكريم مراراً كقوله تعالى: «وَمَا تَقَدَّمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ

ص: ٢٢٨

١- (١). نقل المرحوم الحرّ العاملي صاحب كتاب وسائل الشيعة في الجزء الأول، الباب ١٠٢ في آداب الحمام روايات كثيرة حول كيفية الاستفادة من أنواع الدهون لتسييط الشعر وتنعيم الوجه والبدن بما كان متداولاً في ذلك الزمان ومستحباتها ومكروهاتها، ويستفاد من تعبير الإمام عليه السلام في التعبير أعلاه أَنَّ الْإِكْتِثَارَ مِنْ اسْتِخْدَامِ هَذِهِ الدَّهُونِ كَانَ مَسْلُوكَ الْأَشْرَافِ وَالْأَثْرِيَاءِ وَالْمُتَرْفِينِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ.

٢- (٢). ذكر هذا المضمون البلاذري في انساب الأشراف، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغه (ج ١٦، ص ١٩٦).

٣- (٣). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٤٦.

ومورد آخر يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (٢).

ومعلوم أنّ الإنسان إذا اعتقد بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة وأنّ احتياجه إلى الأموال والثروات في ذلك الوقت أشدّ بكثير من حاجته في الدنيا، من الواضح أنّه سيرتك حالات الإسراف والتبذير والتجمل، وبنعطف على أعمال الخير ولا ينفق من هذه الأموال أكثر من الحدّ اللازم في هذه الدنيا ويقوم بإرسالها أمامه إلى ذلك اليوم.

ثم يوصى الإمام عليه السلام بالأمر الثالث والرابع ويقول: «وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ».

والواقع أنّ ما أشار إليه الإمام عليه السلام في جملة: «وَأَذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَدًا» بشكل إجمالي، قد فضّله في الجمتين الأخيرتين، وفسّر جملة ذكر الغد في هذه العبارة بأمساك المال إلّا بمقدار الضرورة والحاجة ولزوم إرسال الفضل إلى آخرتك، وهو اليوم الذي تحتاج فيه إلى هذا المال بشدّه، وخاصّه أنّ الثروة ستعرض للفناء في حياته، وإن لم يصبها شيء من النقصان والفناء، فإنّ الإنسان سيرتكها عند الموت ولا يمكنه أن ينتفع بها بأدنى شيء ولا يستطيع أن يحملها معه إلى القبر، وحتى أنّ بعض الأقوام الماضيه الذين كانوا يدّخرون الكثير من الأموال النفيسه للسلطين والملوك ويدفنونها معهم، فإنّهم في الواقع يدّخرون كنوزاً من هذه الثروات للأجيال اللاحقه دون أن تعود بالنفع على أصحابها الموتى.

ومثل هذا المضمون ورد بتعبيرات شيقه وعميقه المعنى في وصيّيه الإمام عليّ عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام (الكتاب ٣١ من نهج البلاغه) حيث يقول: «فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَيَّ ظَهْرَكَ

١- (١). سورة البقره، الآيه ١١٠.

٢- (٢). سورة الحشر، الآيه ١٨.

فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونُ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبِالْأَعْلَى عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقِهِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُؤَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاعْتَنِمُهُ وَحَمَلُهُ إِيَّاهُ».

إنَّ ما ورد من الصفات الأربع أعلاه هو في الواقع إشاره إلى ما ذكره بعض المطلعين عن إسراف زياد بن أبيه وخيانتة لبيت المال.

ثمَّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى من نقاط ضعف زياد، وهي التكبر والغرور في مقابل المحرومين والمستضعفين من الناس ويقول: «أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ!».

وبديهي أنَّ الشخص الذي يتوقع أن ينال ثواب المؤمنين، يجب عليه أن يعمل عملهم ولا- يعيش التناقض والازدواجية في السلوك والميول الباطنية، وهذا بالضبط كالمزارع الذي يطمع بالحصول على محاصيل وفيه من أرضه الزراعيه في حين أنه لم يبذر فيها ولم يسقها الماء.

وهنا يضع الإمام عليه السلام اصبعه على نقطه حساسه جدًّا، وهذا هو ما ورد في كلامه عليه السلام في كتاب غررالحكم حيث قال: «إِخْذِرِ الْكِبْرَ فَإِنَّهُ رَأْسُ الطُّغْيَانِ وَمَعْصِيَةُ الرَّحْمَنِ» (١).

وفي كلام آخر للإمام عليه السلام يقول: «أَقْبِحُ الْخُلُقِ التَّكْبُرُ» (٢).

وقد ورد في روايه أخرى عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالا: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ» (٣).

ثمَّ يعود الإمام عليه السلام ليتحدَّث مرَّه أخرى عن مسأله الإنفاق في سبيل الله ويقول:

«وَتَطْمَعُ - وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ (٤) فِي النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ (٥) - أَنْ يُوجِبَ لَكَ

ص: ٢٣٠

١- (١). غرر الحكم، ح ٢٦٠٩.

٢- (٢). المصدر السابق، ح ٢٨٩٨.

٣- (٣). الكافي، ج ٢، ص ٣١٠.

٤- (٤). «المتمرِّغ» هو الشخص الذي اضطجع على التراب وألصق بدنه به، من «التمرِّغ». بمعنى التقلُّب في التراب.

٥- (٥). «أرملته» المرأه التي توفي زوجها، و «أرمل» الرجل الذي توفيت زوجته، وتأتي أحياناً بمعنى فقدان الزاد والمتاع، وفي الأصل بمعنى «رمل» وكأنَّ مثل هؤلاء الأشخاص ولشده عجزهم وفقيرهم وحاجتهم التصقوا بالأرض وبالرمل، وتطلق مفرده «أرامل» على المساكين أيضاً.

وهذه الحالة لا تختصّ بزياد بن أبيه فقط، فالكثير من الأشخاص عندما يدعون الله تعالى فإنهم يسألونه ثواباً جزيلاً، ولكنهم في مجال العمل الذي ينتج مثل ذلك الثواب نراهم مقلّين ولا شيء لديهم في مقابل هذا الطلب الكبير، وفي الحقيقة أنّ مثل هذا الطلب والدعاء هو نوع من التّفاق والازدواجية بين الرغبات والأعمال، وينبغي قلع هذه الحالة من وجود الإنسان للتوصّل إلى السكينة والانسجام الروحيّ التام، فعندما تكون رغبات الإنسان متجانسه ومتناغمه مع سلوكياته وأعماله، يستطيع أن يكون الدعاء حينئذٍ مقبولاً حتى لو طلب من الله أكثر من ذلك.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يختم هذه الرسالة ببيان قاعده كليّه تستوعب جميع التوصيات السابقه وتزيد عليها، ويقول: «وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ».

تأملان

١. العلاقة بين الأعمال والجزاء

يستفاد من التعاليم القرآنيه ومفاهيم الوحي أنّ الأصل في يوم القيامة والحساب هو العلاقة الموجوده بين الأعمال وما يترتب عليها من الثواب والعقاب أو مشاهدته الأعمال ونتائجها: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (١) في حين أنّ الكثير من الناس يعتقدون بأنّ الأصل في ذلك اليوم هو العفو الإلهي والشفاعه، ولهذا السبب لا يهتمون بالأعمال كما ينبغي، وهذا النمط من التفكير يقودهم أحياناً إلى ترك الواجبات وارتكاب المحرّمات والتساهل في

ص: ٢٣١

الالتزام الواعى بمقتضيات رسالته والمسؤولية، فالشفاعة حقّ وأنّ العفو الإلهي حقيقه لا ريب فيها، ولكنّ هذه الأمور لا تمثّل أصلاً وأساساً للنجاه يوم القيامة، فذلك اليوم يسمّى يوم الدين، أى يوم الجزاء واستلام نتائج الأعمال.

والإمام عليه السلام فى رسالته مورد البحث يؤكّد على هذه المسأله أيضاً ويقول: إنّ الإنسان يرى جزاء الأعمال التى قدّمها لهذا اليوم فى الماضى، ويرد على أمور كان قد أدّخرها له فى الدنيا.

فلو أنّنا جعلنا هذا المعنى أساساً وأصلاً فى حركة الحياه والفكر الدينى، فمن البديهيّ أنّ أعمالنا ستكون أنقى وأطهر بكثير.

٢. زياد ابن أبيه الانتهازي

لقد تحدّث المؤرّخون كثيراً عن زياد وابنه عبيدالله وعقائدهما المنحرفه وأعمالهما السيئه، وسيأتى بعض التفصيل عن سيرتهما فى ذيل الكتاب ٤٤ إن شاء الله، ولكن من المناسب هنا أن نشير إشارة مقتضبه إلى ما أورده ابن أبى الحديد فى هذا المورد، يقول:

«قلت: قبح الله زياداً، فإنّه كافأ إنعام علىّ عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لا حاجة إلى شرحه من أعماله القبيحه بشيعته ومحبيّه والإسراف فى لعنه، وتهجين أفعاله، والمبالغه فى ذلك بما قد كان معاويه يرضى باليسير منه، ولم يكن يفعل ذلك لطلب رضى معاويه، كلاً، بل يفعله بطبعه، ويعاديه بباطنه وظاهره، وأبى الله إلّا أن يرجع إلى امّته ويصحح نسبه، وكلّ إناء ينضح بما فيه، ثمّ جاء ابنه بعده فختم تلك الأعمال السيئه بما ختم، وإلى الله ترجع الأمور» (١).

ص: ٢٣٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٣٩، ذيل الكتاب ٢١.

إلى عبد الله بن عباس رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ يَقُولُ:

«مَا انْتَفَعْتُ بِكَلَامٍ بَعْدَ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَأَنْتَفَاعِي بِهَذَا الْكَلَامِ!» (١)

نظرة إلى الرسالة

الغرض الأصلي من كتابه هذه الرسالة هو أنّ الإمام عليه السلام يلفت نظر مخاطبه ابن عباس، وبعبارة أخرى جميع السائرين في طريق الحق، إلى هذه النقطة المهمّة وهي أنّ الإنسان لا ينبغي أن يفرح بما حصل عليه من مواهب مادّيّه وخيرات دنيويّه عاجله، ولا- ينبغي أن يحزن على ما فقده منها، بل ينبغي أن يكون فرحه وسروره في نيل المواهب المعنويّه والأخرويّه، ويكون أسفه وحزنه على ما فقده من هذه

ص: ٢٣٣

١- (١). سند الرسالة: يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه: إنّ هذه الرسالة وردت في روايات متواتره، وقد نقلها كثيرون قبل السيد الرضى وبعده في كتبهم، ومن الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضى، نصر بن مزاحم في كتابه صفين، والمرحوم الكليني في روضه الكافي والبلاذرى في انساب الأشراف واليعقوبى في تاريخه وبعده المرحوم السيد الرضى جماعه أخرى أيضاً، ويستفاد من مجموع ذلك أنّ هذه الرسالة مشهوره ومعتبره جداً (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٣٤).

إنّ روح هذه الرسالة هي انعكاس لما ورد في القرآن الكريم في سورة الحديد:

«لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»^(١)، وعلى ضوء ذلك فإذا تحرّك الإنسان في واقع الحياة على مستوى تجسيد هذه التوصية الغالية والعمل بها، فإنّ ذلك سيمنحه القدرة والثبات والاستقامه، بحيث لا يتزلزل ولا يصيبه الاهتزاز أمام العواصف العاتية والتحديات الصعبة التي يفرضها الواقع.

ص: ٢٣٤

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسِيرُهُ دَرَكٌ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سَيْرُورُكَ بِمَا نَلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَيْفُكَ عَلَى مَيَا فَاتِكَ مِنْهَا، وَمَا نَلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

الشرح والتفسير: السرور والحزن الموهومان

في هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام في مطلعها إلى نقطتين مهمتين ومصيريتين في حياة الإنسان ويقول: «أَمَّا بَعْدُ - أي بعد الحمد والثناء -، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسِيرُهُ دَرَكٌ (١) مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ».

إن مواهب الدنيا على نحوين، فبعضها يحصل عليها الإنسان بسعيه وعمله ويفقدها بتكاسله وتماهله، والنحو الآخر، يحصل عليه الإنسان بدون سعي وبذل جهد، وأحياناً يفقد الإنسان مثل هذه المكاسب الدنيوية حتى لو سعى وبذل الجهد في سبيل تحصيلها والاحتفاظ بها.

والقسم الأول يدخل في دائره اختيار الإنسان: والآيه الشريفه: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» (٢) ناظره إلى هذا المعنى، ولكن القسم الآخر يدخل في دائره القضاء والقدر الحتميين، وهو خارج عن دائره اختيار الإنسان.

ص: ٢٣٥

- ١- (١). «درك» وردت هذه الكلمه في أكثر نسخ نهج البلاغه «دَرَكَ» على وزن «سَيَدَ» ولكن وردت في بعض النسخ «دَرَكَ» على وزن «عَدَلَ» وكليهما يقصد بهما معنى واحد وهو تحصيل الشيء ونيل المراد.
- ٢- (٢). سورة النجم، الآيه ٣٩.

والواقع أنّ الإمام عليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أنّ الكثير من الأمور التي توجب السرور والفرح للإنسان هي من القسم الثاني، وعلى أيّ حال، فالإنسان يحصل عليها وفقاً لما قدّر له في دائره القضاء والقدر الإلهيين، وعلى هذا الأساس فالفرح والحرص عليها لا مبرّر له، كالشخص الذي يفرح بطلوع الشمس، وفي النقطة المقابله هناك أمور لا يحصل عليها الإنسان مهما بذل من جهد وسعى في سبيل ذلك، فلو أنّ الشخص عاش الحزن والغمّ بسبب ذلك فإنّ حزنه سيكون موهوماً ولا مبرّر له، كالشخص الذي يحزن لغروب الشمس واختفائها في الأفق.

والمواهب الماديّه أعمّ من الأموال، والثروات، والمقامات والمناصب، والنجاحات والإخفاقات، فقدان بعض الإمكانيات والحصول عليها؛ هي من هذا القبيل غالباً، فلا يكون نيلها والحصول عليها اختيارياً ولا فقدانها وزوالها، ومن هنا لا ينبغي أن يكون الحصول عليها سبباً للفرح والسرور ولا فقدانها سبباً للتأسّف والحزن.

عندما ننظر إلى الحياه الدنيا بهذا المنظار ونرى النجاحات والإخفاقات من هذه الزاويه، فسوف لا تكون تلك النجاحات موجباً للفرح والسرور، ولا تكون الإخفاقات والفشل مصدرراً للحزن والهمّ.

ثمّ يستمرّ الإمام عليه السلام في بيان هذه الحقيقة ويقول: «فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نَلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا».

والدليل على ذلك واضح، فالمواهب الماديّه، الاختياريه منها أم غير الاختياريه، تسير بسرعه نحو الزوال والفناء، ولا يمكن الاعتماد عليها في زمان وجودها، فهي معرّضه دوماً للآفات والنقصان وكذلك الحرمان منها معرّض للانتهاء وسرعه الزوال، فما يبقى للإنسان في واقع الحياه هو المواهب الأخرويه والمعنويه، فلذلك ينبغي أن يتأسّف على فقدانها ويحرص على نيلها واكتسابها.

ويقول الإمام عليه السلام في ختام هذا الكلام وكنيته جليّه لما تقدّم: «وَمَا نَلْتَ مِنْ

دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا، وَلَيْكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ».

وفى الختام ينبغى الالتفات إلى هذه الحقيقة وهي أنّ مواهب الدنيا على قسمين، وأما مواهب الآخرة فنوع واحد لا أكثر، فأما مواهب الدنيا فتارة يحصل عليها الإنسان بالسعى وبذل الجهد، وأحياناً بدون سعى وعمل، وعلى حدّ تعبير البعض:

«بما أنّ الإنسان عندما يحصل على نعم ومواهب أو يفقد هذه النعم فلا يعلم أنّها من أيّ القسمين هي، هل هي من القسم الأول أم الثاني، ولهذا السبب يقول الإمام عليه السلام:

«وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَمَّا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا»، فربّما تكون هذه النعم والمواهب من الأمور غير الاختيارية التي لا يحرم منها الإنسان أبداً، وكذلك «وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا» فلا خوف على حرمانك منها فربّما تكون من النوع الذي سيبقى معك إلى الأبد، ولكن ليكن همّك واهتمامك لما تقدّمه لآخرتك من سعى وعمل صالح، ففي ذلك اليوم لا تحصل على شيء إلاّ من خلال ما تقدّمه لنفسك، فإنّ ليس للإنسان إلاّ ما سعى، وكما يقول الإمام عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغة: «لَا تُكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ»^(١).

تأملان

١. الجواب عن سؤال

ورد في كلام الإمام عليه السلام في رسالته مورد البحث أنّ فرح الإنسان ينبغى أن يكون منصباً على ما يحصل عليه في الآخرة، في حين أننا نعلم أنّ الآخرة ستقع في المستقبل لا في الدنيا، ولكن ينبغى الالتفات إلى أنّه، أولاً: إنّ الكثير من الأمور المعنوية يحصل عليها الإنسان في الحياه الدنيا وتمثّل نوعاً من الأمور الأخروية، من قبل النجاح والتوفيق في مسيرته المعنوية في السلوك إلى الله.

ص: ٢٣٧

ثانياً: إنّ هذه العبارة ناظره إلى الأسباب والعوامل التي تؤدّي إلى الحصول على المواهب الأخرويه، فالشخص الذي قدّم أعمالاً صالحه وتحلّى بصفات محموده فى هذه الدنيا يمكن القول أنّه قد حصل على المواهب الأخرويه، كأنّه وفّر أسبابها فى هذه الدنيا، وبعبارة أخرى قد حصل على أسباب تلك المواهب الأخرويه، وتحصيل الأسباب هو نوع من نيل المسببات.

٢. الإنسان فاعل مختار

لقد ثبت فى بحث الجبر والاختيار، وطبقاً للأدلة العقلية والآيات الكثيره الوارده فى القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام، أنّ الإنسان فاعل مختار فى أعماله، ومن المحال أن يكون الإنسان مجبوراً على المعصيه والإثم، وأنّ الله تعالى عادل فى حكمه وسيجزيه الجزاء العادل على ما قدّم من أعمال وسلوكيات، ولا يمكن أن يجبر الإنسان على الأعمال الصالحه، ثمّ يشبهه عليها بوصفه مستحقاً للثواب، ولكن لا شكّ فى وجود بعض الأمور فى حياه الإنسان خارجه عن اختياره، والله تعالى لا يعاقبه ولا يشبهه عليها بسبب ذلك، من قبيل الخصوصيات البدنيه فى الإنسان ومنشأ ولادته ومن هو أبوه وأمه وفى أىّ زمان ومكان يولد، وأمثال ذلك، فهذه الأمور ربّما تؤثر فى صياغه عمل الإنسان وشخصيته، ولكنّ هذا التأثير لا يكون حتماً وغير قابل للاجتناّب، وبعبارة أخرى أنّ هذه الأمور ربّما توفرّ للإنسان الأرضيه المناسبه للأعمال الصالحه والطالحه ولكن الإنسان هو الذى سيفرض إرادته فى النهايه ويقوم بعمل معيّن أو يختار سلوك خاصّ بإرادته واختياره.

وبديهى أنّ الأشخاص الذين تتوفّر فيهم الأرضيه المناسبه للأعمال الصالحه سيكون ثوابهم أقلّ من الأشخاص الذين لم تتوفّر لهم مثل هذه الأرضيه، والعكس صحيح، فالأشخاص الذين تتوفّر فيهم الأرضيه المساعده لارتكاب الذنب إلّا أنّهم يجتنّبون التورّط بالإثم ويعصمون أنفسهم من الذنب، فإنّهم يستحقّون الثواب أكثر

من الأشخاص الذين لم تتوفر فيهم هذه الأرضية، ولتوضيح هذا المعنى يمكننا الاستعانة بمثالين في هذا المجال، فالكثير من الناس يتوجهون إلى المساجد، ولكن جار المسجد ليس على حدّ سواء من الثواب مع الشخص الذي يبتعد عن المسجد مسافة بعيدة.

المسلمون يصومون رمضان، ولكن ثواب الشخص الذي يملك مزاجاً قوياً وبنية مساعده ليس على حدّ سواء مع الشخص الذي يملك بنية ضعيفه، وقد وردت تفاصيل هذا الموضوع في الكتب الدينيه المختصه.

ص: ٢٣٩

قاله قبل موته على سبيل الوصيه لما ضرب ابن ملجم لعنه الله (١)

الوصيه في نظره عامه

هذه الوصيه تتضمن مع كونها موجزه، على أربعة أقسام:

القسم الأول: يوصى الإمام عليه السلام بالتمسك بركنى الإسلام الأساسيين، وهما التوحيد والنبوه ويقول: لا تسمحوا للشرك أن ينفذ في ثنانيا حياتكم، ولا تغفلوا العمل بسنه نبيكم.

القسم الثانى: يتحدث الإمام عليه السلام عن مسيرته فى هذه الحياه ويقسمها إلى ثلاث مراحل، كل مرحله منها تمثل عبره ودرسا للمخاطب، ويقول: فى الماضى كنت

ص: ٢٤١

١- (١) . سند هذا الكلام: ذكر هذه الوصيه المرحوم الكلينى فى كتاب الكافى مع بعض التفاوت وقال: عندما ضرب الإمام عليه السلام بالسيف فى محرابه، تجمع بعض المصلين حول فراشه فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين عليه السلام أوصنا، فقال: اتونى بوساده لأتكىء عليها ثم تحدث بكلام معروف ومذكور فى المصادر وقد أورد السيد الرضى قسماً منه. وأورد قسماً من هذه الوصيه المسعودى فى مروج الذهب وكذلك فى كتاب إثبات الوصيه وابن عساكر فى تاريخه، الحوادث التى تتعلق باستشهاد الإمام على عليه السلام.

أعيش بينكم سالماً، واليوم أنام في فراش المرض، وغداً أفارقكم، فهذه الأيام الثلاثة عبره لكم.

القسم الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى كيفية التعامل مع قاتله وأنه ينبغي أن يقترن ذلك بكامل المحبة والعطف، فلو أنّ الإمام عليه السلام بقي حيّاً فسيكون العفو لقاتله قربه له، وإذا نال الشهادة فإنّ أولياء الدم يمكنهم الاقتصاص من القاتل ومع ذلك يوصى الإمام عليه السلام بالعفو عنه.

وفي القسم الرابع: يبيّن الإمام عليه السلام كيفية مواجهته للموت ويقول: إنني لم أكره الموت أبداً بل كنت متعطّشاً له وفرحاً باستقباله.

ص: ٢٤٢

وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا؛ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ.

أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعُمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمًّا! أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ. إِنْ أَبَقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفَنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا: «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» وَاللَّهُ مَا فَجَّأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٍ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالِعٍ أَنْكَرْتُهُ؛ وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَّ، وَطَالِبٍ وَجَدَّ؛ «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ».

الشرح والتفسير: وصايا مهمه

كما أشرنا في ما سبق أنّ ما ذكره المرحوم السيد الرضى هنا يمثل مقطعاً من كلام مفصل تحدّث به الإمام عليه السلام في آخر ساعه من عمره الشريف، حيث تمثّل هذه الوصيه رأسمال معنويّ وفكريّ ثمين لجميع أفراد الأُمّة الإسلاميّه، ففي القسم الأول من هذه الوصيه يقول عليه السلام: «وَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا؛ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعُمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمًّا!».

ومع الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد في هذه الوصيه اجتناب الشرك مطلقاً، فإنّ ذلك يشير إلى نفى جميع مظاهر وحالات الشرك، سواء الشرك في الذات والصفات والأفعال، أو الشرك في العباده وغيرها، فلو أنّ الإنسان عاش التوحيد الخالص من جميع أشكال الشرك، فإنّ ذلك من شأنه إضاءه وتنوير جميع أركان روحه

وشخصيته، بحيث يكون وجوده ملكوتياً وروحانياً بكل ما فى الكلمه من معنى.

وفى الوصيه الثانيه يؤكد الإمام عليه السلام على ضروره عدم تضييع سنّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ولزوم العمل بجميع ما ورد فيها، خلافاً للأشخاص الذين يتعاملون مع سنّه النبى من موقع الانتقاص، فأخذون ببعض ويتركون بعضاً، فهم فى الواقع يخذعون أنفسهم، مثلاً- لا- يلتزمون بحكم الجهاد الواجب والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إلا أنهم يقيمون صلاه والليل ويلتزمون بالنوافل، ولا يتورعون عن ارتكاب المحرمات والمنكرات، ومع ذلك يقيمون العزاء على سيد الشهداء.

واللافت أن الإمام عليه السلام يشبه هذين الأصلين الأساسيين أحياناً بعمود الخيمه، وأخرى بأنهما سراجان يضيئان طريق الحق أمام الإنسان، فالخيمه الصغيره تحتاج عاده إلى عمود واحد، ولكن الخيمه الكبيره ربّما تحتاج إلى أكثر من عمود وعلى كل عمود ينصب سراج للإناره، وكما يقول البعض أن النور يخرج من تلك الأعمده، وعلى أيه حال فإنّ خيمه الدين لا يمكن إقامتها بدون هذين الأصلين والعمودين، ولا يمكن إناره أجواء الحياه المعنويه للإنسان بدون هذين السراجين.

أمّا عبارته: «خَلَاكُمْ ذَمٌّ» وكما ذكرنا فى الخطبه ١٤٩ من الجزء الخامس أن العرب كان يضربون المثل بهذه الجمله ومفهومها، أنه لا- ذم ولا لوم عليكم لأنكم أدبتم تكليفكم وأنجزتم وظيفتكم، يعنى أنكم عملتم بما أوصيتكم به، فلا إشكال يرد عليكم، وأمّا القائل الأول لهذه العبارة ولهذا المثل من هو؟ فقد ذكرنا تفصيل الكلام فى الجزء المذكور.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرّض فى القسم الثانى من هذه الخطبه وفى عبارات موجزه وعميقه المعنى، لبيان سيره حياته وأنها تعدّ درساً وعبره لكم ويقول: «أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ».

يعنى أنا الذى فتحت خيبر وخضت معركة بدر والأحزاب وكنت فى ذلك الوقت رجلاً قوياً أذبّ عن الإسلام والمسلمين، وأدافع عنكم، ولكنّ مرور الزمان قد أثر

فَيَّ وَغَيْرِنِي، وَالْيَوْمَ أَرْقُدُ فِي فِرَاشِ الْمَوْتِ بِرَأْسِ دَامٍ مِنْ ضَرْبِهِ ابْنِ مَلْجَمٍ، وَهَذَا الرَّأْسُ الْمَصَابُ يُعْتَبَرُ دَرْسًا لَكُمْ عَلَى عَدَمِ وِفَاءِ الدُّنْيَا، وَغَدًا عِنْدَمَا تَرُونَ مَكَانِي خَالِيًا بَيْنَكُمْ سَتَشْعُرُونَ بِحَقِيقَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَلْمَسُونَ عَدَمَ اعْتِبَارِهَا، فَإِنَّهَا أَعْرَضَتْ بِكُلِّ سَهْوَةٍ عَنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الشَّجَاعِ وَالْبَطْلِ الْمَقْدَامِ وَسَلَّمْتَهُ إِلَى أَجَلِهِ.

التَّارِيخُ الْبَشَرِيُّ نَرَى فِيهِ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الْوَقَائِعِ، وَأَنَّ شَخْصِيَّاتٍ كَبِيرَةً أَوْ مَجَامِعَ قَوِيَّةً تَغَيَّرَتْ بِمَرُورِ الزَّمَانِ وَبِمَدَّةِ قَلِيلَةٍ كَلِيًّا، وَلَمْ يَبْقَ لَدَيْهِمْ مِنْ إِمْكَانَاتٍ وَقَدْرَاتٍ إِلَّا الْقَلِيلَ الَّذِي لَا يَفِي بِشَيْءٍ، وَيَتَحَدَّثُ لَنَا التَّارِيخُ أَنَّ نَادِرًا شَاهِدًا كَانَ فِي ذُرُوهِ الْعِظَمَةِ عِنْدَمَا قَصَدَ الْهَجُومَ عَلَى بَعْضِ الْبُلْدَانِ، فَنَامَ فِي فِرَاشِهِ فَجَاءَهُ الطَّبَّاخُ الَّذِي كَانَ مُسْتَاءً مِنْ نَادِرٍ بِشَدِّهِ وَمَعَهُ سَكِينٌ فَقَطَعَ بِهِ رَأْسَهُ وَذَبَحَهُ عَلَى فِرَاشِهِ وَانْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ.

وَالْأَوْضَحُ مِنَ الْجَمِيعِ تَارِيخُ الْأَقْوَامِ السَّالِفَةِ الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كِرَارًا كَالْفِرَاعِنَةِ وَنَمْرُودَ وَقَوْمَ عَادَ وَثَمُودَ، حَيْثُ عَاشُوا الْعِظَمَةَ وَالْقُدْرَةَ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ وَقُوعِهِمْ مَوْرِدَ الْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ، وَفِي لِحَظَاتٍ أَصْبَحُوا أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ وَدَفَنْتَهُمْ أَمْوَاجُ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَسَحَقْتَهُمُ الصَّيْحَةُ السَّمَاوِيَّةُ أَوْ تَحَطَّمَتْ عُرُوشُهُمْ وَقُصُورُهُمْ بِالزَّلْزَلَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ لَا تَنْحَصِرُ بِالْأَشْرَارِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، بَلْ إِنَّ الْأَخْيَارَ وَالْأَبْرَارَ مَشْمُولُونَ لِهَذِهِ السَّنَةِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى السَّوَاءِ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَا تَمَثِّلُ لِلْجَمِيعِ سِوَى وَهَمًّا زَائِلًا وَهَبَاءً مَنثورًا.

ثُمَّ يَتَحَدَّثُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقِسْمِ الثَّلَاثِ عَنْ نَظَرَتِهِ لِقَاتِلِهِ وَيُوصِي أبنَاءَهُ وَأَصْحَابَهُ وَصِيَّةً مَفْعَمَةً بِالْمَحَبَّةِ وَالشَّهَامَةِ وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبِيقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفَنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْيَفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسِينَةٌ، فَاعْفُوا «أَلَا- تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» (١)».

ص: ٢٤٥

وما ذكره الإمام عليه السلام في الجملة الأخيره مقتبس من الآيه الشريفه من سوره النور، الوارده فى ذيل الآيات «الإفك» عندما اتهمت جماعه من المنافقين زوجه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وتصدى القرآن الكريم لتبرئه ساحتها من التهمه الشنيعه، فكان أن أقسم بعض أثرياء الصحابه أنهم لا يمدون يد العون بعد الحادثه إلى الأشخاص الذين ساهموا فى نشر هذه الشائعه الموهنه، فنزلت الآيه الشريفه وأمرتهم بما ذكر آنفاً:

«أَلَا تَجِبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»، يعنى أنكم كما تتوقعون من الله العفو والصفح فإن الآخرين أيضاً يتوقعون منكم العفو والصفح فى مقابل العمل السىء الذى ارتكبهوه فى حق زوجه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومعلوم أن القصاص فى الإسلام يعدّ أصلاً فى الأحكام والتعاليم السماويه على حدّ تعبير القرآن الكريم وأنه بمثابة الحياه للمجتمع: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١)، ولكن فى ذات الوقت ترك القصاص والعفو عن الجانى الذى يستحقّ العفو، يعتبر فضيله كبيره ومرتبه عاليه من السموّ الأخلاقى والإنسانى.

وأخيراً يتحدّث الإمام عليه السلام، فى القسم الرابع والأخير من وصيته، عن موقفه من الموت والشهاده، وهذا هو الموقف الذى انعكس فى موارد عديده من نهج البلاغه أيضاً وهو أننى ليس فقط لا أخشى من الموت بل أننى أعيش العشق للشهاده فى سبيل الله ويقول: «وَاللَّهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالَعٌ أَنْكَرْتُهُ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدٍّ، وَطَالِبٍ وَحَيْدٍ؛ «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّابْرَارِ»».

والعباره الأخيره مقتبسه من الآيه الشريفه ١٩٨ من سوره آل عمران، حيث يتحدّث القرآن الكريم فى مطلع الآيه عن ثواب المتّقين ويختمها بالجملة المذكوره آنفاً.

وما جاء فى المقطع الأخير من هذه الوصيه هو ما تحدّث عنه أميرالمؤمنين

ص: ٢٤٦

علّى عليه السلام مَرَاتٍ عديده كما فى نهج البلاغه وغيره، وهذا ليس شأن الإمام عليه السلام فحسب بل المؤمنين العاديين أيضاً لا يخافون الموت، وخاصّه إذا كان الموت مقترن بالشهاده، والأشخاص الذين يخافون من الموت إمّا أنّهم لا يؤمنون بالحياه بعد الموت ويتصوّرون أنّ الموت يعنى الفناء وزوال كلّ شىء ولذلك يخافون منه، أو يؤمنون بالحياه بعد الموت لكنّ صحيفه أعمالهم إلى درجه من الظلمه والتلوّث بحيث يعلمون أنّ مصيرهم بعد الموت هو بدايه العذاب والألم، وأمّا الأشخاص الذين يؤمنون بالآخره ويملكون صحيفه أعمال بيضاء ونقيه، فلا- ميّرر لخوفهم من الموت، بل على حدّ تعبير الإمام عليه السلام فى الخطبه ٥ من نهج البلاغه تكون علاقتهم بالموت أشبه بعلاقه الطفل الرضيع بشدى امّه، أو أكثر: «وَاللّٰهُ لَأَبْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنَسٌ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِشَدَىٰ أُمِّهِ».

وطبقاً لما ورد فى الروايه المشهوره أنّ عبدالرحمن بن ملجم المرادى عندما ضرب الإمام عليه السلام فى محراب العباده على امّ رأسه، قال الإمام عليه السلام: «فُزْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ».

ومع الالتفات إلى أنّ كلمه «قارب»، كما ورد فى لسان العرب وبعض الكتب اللغويه تعنى الشخص الذى يبحث عن الماء ليلاً أو الشخص الذى تفصله عن عين الماء مسير ليله واحده، فيستفاد من جملة «كَفَارِبٍ وَرَدَّ وَطَالِبٍ وَجَدَّ» الإشاره إلى أننى بالنسبه للموت والشهاده كالضمان الذى يريد الوصول إلى منهل الماء أسرع، وقد نلت بغيتى ووجدت ضالّتى التى كنت أنتظرها سنين متماديه.

وما أشدّ التفاوت بين هذا الكلام وكلام المستكبرين الذين يعيشون بعيداً عن الله عزّ وجلّ والآخره عندما يحين أجلهم ويقعون فى شباك الموت، فنراهم يرتجفون خوفاً ويصرخون هلعاً ويتمنّون العوده إلى الدنيا وهم فى حاله الذلّه والمهانه.

يقول السيد الرضى فى ختام هذه الرساله: «قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ:»

أقول: وَقَدْ مَضَى بَعْضُ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطْبِ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ هَاهُنَا زِيَادَةٌ أَوْجِبَتْ تَكْرِيرَهُ».

١. القصاص أو العفو؟

رأينا آنفاً أنّ تشريع حكم القصاص فى الإسلام من أجل حفظ المجتمع البشرى من شرّ الأشرار، وكما ورد فى القرآن الكريم: «وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ» (١) والأشخاص الذين يعيشون فى زماننا هذا ويخالفون حكم القصاص فهم فى الواقع يترحمون على الذئاب العاوية، ويسمحون للأبرياء أن يقعوا فى مصائد هذه الذئاب والوحوش الكاسره ولا يهتمون بذلك، فهناك أفراد من الأشرار فى المجتمع إذا شعروا بالأمن من القصاص فلا أحد يستطيع منعهم من ارتكاب أيه جريمه فى حقّ الأبرياء، وأحد عوامل زياده نسبه القتل فى بعض المجتمعات البشريه يعود إلى إلغاء حكم القصاص فى تلك المجتمعات.

ولكنّ الإسلام، ومن أجل التصدى للعنف والعداوان بالمقدار الممكن، يمنح الأشخاص الذين ارتكبوا جريمه القتل بدافع من الانفعال العفوى أو الغرور فرصه أخرى، حيث ضمّ إلى جانب حكم القصاص حكم العفو، وخير أولياء الدم بين القصاص والعفو، ولكن أولياء الله يختارون دائماً الخيار الثانى، ولهذا السبب فقد أوصى الإمام عليه السلام أبناءه وأصحابه فى وصيته مورد البحث العفو عن القاتل، ونعلم أنّ القاتل هو ابن ملجم.

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو أنّ أولاد الإمام عليه السلام بعد توصيه الإمام عليه السلام بالعفو عن القاتل لماذا رجحوا خيار القصاص؟

الجواب عن هذا السؤال يتبين من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهى أنّ مشاعر الناس وعواطفهم الجياشه فى مقابل هذه الجريمه كانت إلى درجه من الشده بحيث أنّ العفو عن ابن ملجم سيتسبب فى إثارة الاضطراب فى ذلك المجتمع، وعشاق الإمام عليه السلام لا يملكون القدره على تحمّل مثل هذا العفو، أضف إلى ذلك أنّهم

ص: ٢٤٨

لو سجنوا ابن ملجم فإن الجماهير ستهجم حينئذٍ على السجن، وإذا أطلقوا سراحه فسيقطعونه إرباً إرباً، إذن فالأفضل إجراء حكم القصاص عليه ليعود الهدوء إلى المجتمع.

٢. معنى «لا تُصِعُوا سُنَّتَهُ»

إن أساس الإسلام يتمثل في ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الوصية مورد البحث، حيث أكد على التوحيد وحفظ سنّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فالالتزام الواعي بمتطلبات التوحيد في جميع أبعاده وخاصة التوحيد في العبودية والأفعال، من شأنه أن يكون مصدراً لجميع الخيرات والبركات، فاللجوء إلى ساحه كبريائه ورحمته الواسعه من شأنه أن يفعل شفاعه الشفعاء أيضاً، فالله تعالى هو الذي بيده مصائر العباد وأرزاقهم وموتهم وحياتهم، يعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

وأما حفظ سنّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كذلك لا يكون بالكلام فقط، بل لابد من تجسيدها على أرض الواقع والممارسه، ولكن للأسف الشديد فإن جماعه من المسلمين اكتفوا باسم الإسلام وغفلوا عن سنّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تماماً.

وجماعه أخرى فرضوا آراءهم وما توحى إليهم أهواؤهم على السنّه الشريفه من خلال القراءات الجديده وأنماط التفسير بالرأى، ووضعوا أنفسهم وأفكارهم مكان السنّه النبويه، حتى أن الإمام عليه السلام في وصيته أخرى له وهو على فراش الشهاده يقول:

«وَاللَّهِ فِي الْقُرْآنِ، لَأَيِّبُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ عَيْرُكُمْ»^(١)، فأنتم قد تربيتهم في ظل القرآن الكريم والتعاليم السماويه، فلا ينبغي الغفله عنها ويعمل بها غيركم، ويتحلّى الآخرون بالأمان والصدق وتلقون أنتم بالخيانة والكذب، وغيركم متحدون فيما بينهم على أمر الدنيا، وأنتم مختلفون ومتفرقون في أمر دينكم.

ومن هنا فنحن نخشى أن يأتي ذلك اليوم الذي «لا يبقى من الإسلام إلا إسمه ولا يبقى من القرآن إلا رسمه»^(٢).

ص: ٢٤٩

١- (١). نهج البلاغه، الكتاب ٤٧.

٢- (٢). كمال الدين وتمام النعمه: ٦٦، كفايه الأثر: ١٥.

بِمَا يُعْمَلُ فِي أَمْوَالِهِ، كَتَبَهَا بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ صَفِين (١):

نظرة إلى الرسالة

يتبين من هذه الرسالة أن القسم الأكبر منها، - كما يفهم من سياقها، - وقف لا- وصيه، والوصيه تشكّل قسماً صغيراً منها، وخلاصه ما ورد فيها أن متولّى الوقف هم أبناء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الإمام الحسن المجتبي عليه السلام وبعده الإمام الحسين الشهيد عليه السلام، وبيان صارف الموقوفه وكيفيه تقسيمها وإداره بساتين النخيل ويستفاد من مجموع هذه الوصيه أن الإمام عليه السلام كان يملك بساتين نخل عديده في مناطق مختلفه، وامتلكها إما من خلال نصيبه من الغنائم الحربيه أو بسعيه وجهده، وقد أوقفها جميعاً في موارد الوقف العام ليتسنى للجميع الاستفادة منها.

ص: ٢٥١

١- (١). سند الوصيه: طبقاً لما ورد في مصادر نهج البلاغه أنّ الشيخ الكليني نقل هذه الوصيه في كتاب فروع الكافي، ج ٧، ص ٤٩ عن عبدالرحمن بن الحجاج (ولكن ما ورد في الكافي يختلف كثيراً عمّا أورده السيد الرضى في نهج البلاغه) ونقلها الشيخ الطوسى بعد الشريف الرضى في كتاب التهذيب. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٥٤). ويستفاد من كتاب نهج البلاغه أنّ هذه الوصيه أكثر بكثير ممّا أورده السيد الرضى، وفي الحقيقه أنّ ما ورد في نهج البلاغه يعتبر مقطعاً صغيراً من هذه الوصيه، ولكن هذا المقطع عميق في المعنى ودقيق في العبارات والمضمون. (ولمزيد من الاطلاع انظر كتاب نهج البلاغه، ص ٩٨٨).

ويشير الأخير منها إلى الجوارى وكيفيه فتح الباب أمام تحريرهنّ وعتقهنّ.

ويستفاد أيضاً من كلام السيد الرضّى في ذيل هذه الرساله أنّه كان شديد الاهتمام بهذه الرساله حيث تتضمّن فصاحه عاليه وبلاغه رائعه.

ص: ٢٥٢

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، لِيُولَجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ. مِنْهَا: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِبَدَلِكَ الْحَسَنِ ابْنَ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنِ حَدٌّ وَحَسَيْنٌ حَتَّى، قَامَ بِالأَمْرِ بِعِيْدِهِ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ. وَإِنَّ لِبَنِي فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَيَّ ابْنِي فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَقُرْبِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لَوْصَلْتِهِ. وَيَشْتَرِطُ عَلَيَّ الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ الْمَالَ عَلَيَّ أَصُولَهُ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أَمَرَ بِهِ وَهَيْدَى لَهُ، وَأَلَّا يَبِيحَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقُرَى وَدِيْنِهِ حَتَّى تُشَكِلَ أَرْضُهَا غَرَّاساً. وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي - اللاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ - لَهَا وَلَدٌ، أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتَمَسَّكَ عَلَيَّ وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيْقَةٌ، فَذُفْرَجَ عَنْهَا الرُّقُ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ.

الشرح والتفسير: توصيات مدرسه لإداره الموقوفات

سبق وأن أشرنا آنفاً إلى أن هذه الوصية تتخذ شكل الوقف في الأصل، ولذلك ورد فيها أركان الوقف، الموقوف عليهم، المتولّى و... واحداً بعد الآخر.

بدايه يتحدث الإمام عليه السلام عن الوقف والغرض من الوقف، ويقول: «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، لِيُولَجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ».

ويستفاد جيداً من هذه العبارة أنّ أحد شروط الوقف قصد القربة حيث ذكر هذا الشرط في سند الوقف، وبعد ذلك مباشرة ذكر اسم الواقف.

أمّا الوصف بكلمه أمير المؤمنين بعد أن ذكر الإمام عليه السلام اسمه المبارك، فهذا يشير إلى أنّ كتابه هذا السند من الوقف كان في أيام حكومته وخلافته رغم أنّ الإمام عليّ عليه السلام كان يعرف بأمر المؤمنين من قبل المطلعين وأولوالألباب بعد رحله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن في قسم آخر من هذه الوصية «سند الوقف» أربع نقاط، والسيد الرضوي فصلها بعبارة، «منها»: بيان الشخص المتولّي وحقّ التولية ومصارف الوقف والأشخاص الذين يتولّون الوقف بعد وفاه أو استشهاد المتولّي الأول وهو القائم مقامه ويقول: «منها: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنِ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ».

وجمله: «يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ» يمكن أن يكون إشاره إلى حقّ التولية وربما تكون إشاره إلى استفادة الموقوف عليهم منها، ولكنّ الاحتمال الأول أقرب إلى سياق العبارة مع الالتفات إلى أنّ الأفعال في الجمل المذكوره للمستقبل.

وجمله: «وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ» أنّ هذه الموقوفه تتمتع بوجه الوقف الخاص والوقف العام أيضاً، فبعضها يتعلّق بأبناء الإمام عليه السلام والقسم الآخر يتعلّق بجميع المحتاجين والمسلمين.

وجمله: «وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ» إذا كان ضمير «مصدره» يعود إلى الموقوفه فإنّ مفهومها أنّ الإمام الحسين عليه السلام يعمل في منتج ومحصل هذه الموقوفه عمل الإمام الحسن عليه السلام، وإذا كان الضمير يعود إلى الإمام الحسن عليه السلام فإنّ مفهومه أنّ الإمام الحسين عليه السلام يتبع سيره الإمام الحسن عليه السلام فيها، ورغم أنّ نتيجة كلا هذين الاحتمالين واحده، إلّا أنّهما مختلفان في المفهوم من السياق، وعلى أيّ حال فالاحتمال الأول

ثم بيّن الإمام عليه السلام شرحاً أوفى للموقوف عليهم ويقول: «وَإِنَّ لَابْنِي فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيِّ مِثْلَ الَّذِي لِبْنِي عَلِيٍّ».

ولهذه العبارة تفسيران: الأول، كما أشرنا إليه آنفاً أنّ انتفاع الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام من حقّ التولية لا يمنع انتفاعهما من محصول تلك الموقوفه على أنّهما من الموقوف عليهم، فالحسن والحسين عليهما السلام هما المتولين للوقف وكذلك من زمره الموقوف عليهم.

التفسير الثاني: أنّه لا يوجد أيّ امتياز وخصوصية للاستفادة من الموقوفه من أبناء الإمام عليّ عليه السلام، سواء كانوا من أبناء فاطمه عليها السلام أم من نسل الزوجات الأخريات لأئمة المؤمنين عليه السلام.

فالإمام عليه السلام في هذه الجملة لم يقل: «أبنائي من نسل فاطمه» بل قال: ابني فاطمه عليها السلام وهذا يشير إلى غايه الاحترام للمقام الشامخ للزهاء عليها السلام.

وبعد ذلك بيّن الإمام عليه السلام هذه النقطة، وهي أنّه لماذا جعل توليه الموقوفه بيد أبناء فاطمه لا سائر أبنائه الآخرين: «وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِحَدِّكَ إِلَيَّ ابْنِي فَاطِمَةَ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ، وَقُرْبَةً إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لَوْصَلْتِهِ».

والحقيقة أنّ الإمام عليه السلام بيّن في هذه العبارة أربعة أدلّه مرتبطه ببعضها على هذا الاختيار: ابتغاء وجه الله، التقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، إكراماً واحتراماً له ولحرمته، والتشرف بقربته.

وعلى حدّ قول ابن أبي الحديد أنّه عندما يتم تسليم الأمور إلى أقرب المقرّبين من الأشخاص الذين يتمتعون باللياقه والجداره الكامله، فإنّ قبول ذلك من قبل

١- (١). إنّ الروايه المذكوره في كتاب الكافي بدل هذه الروايه تشير إلى أنّ التفسير الثاني أنسب، لأنّ المذكور في الكافي: «وَإِنَّ حَدَّثَ بِحَسَنِ حَدَّثٌ وَحُسَيْنٌ حَسِيٌّ... وَإِنَّ حُسَيْنًا يَفْعَلُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُ بِهِ حَسَنًا» ومفهومه أنّ الإمام الحسين عليه السلام يسلك في إجراء هذه الوصيه بالنسبه للوقف، ذات البرنامج والمنهج الذي يسلكه الإمام الحسن عليه السلام. (الكافي، ج ٧، ص ٥٠).

سائر الناس سيكون أقرب وأيسر، لأنّ الأقربون أكثر من أى شخص آخر على معرفه بسنّه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ودينه وسنّته وأنهم أجدر من الآخرين لحفظ هذه الرساله والقيام بمتطلباتها والدفاع عنها.

يقول ابن أبي الحديد فى شرح هذا الكلام: «ثم قال: إنّما فعلت ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله، فتقرّبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، بأن جعلت لسبطيه هذه الرئاسة، وفى هذا رمز كناية إلى من صرف الأمر عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، مع وجود من يصلح للأمر، أى كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرئاسة بعده لأهل قرابه رسول الله صلى الله عليه وآله وتكريماً لحرمة، وطاعه له، وتعظيماً لقدره صلى الله عليه وآله أن تكون ورثته سوقه يليهم الأجانب، ومن ليس من شجرته وأصله، ألا ترى أنّ هيبه الرساله والنبوّه فى صدور الناس أعظم إذا كان السلطان والحاكم فى الخلق من بيت النبوّه، وليس يوجد مثل هذه الهيبة والجلال فى نفوس الناس للنبوّه إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدعوه عليه السلام»(١).

وهنا ربّما يثير البعض هذا السؤال، وهو: لماذا لم يعين الإمام عليه السلام المتولين للوقف بعد الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام؟

الجواب: إنّ الإمام عليه السلام بيّن ذلك فى الروايات التى تذكر جميع هذه الوصيّه بشكل مفصل، ولكن السيد الرضى الذى انتهج منهج الانتقاء فى نقل كلمات الإمام عليه السلام حذف هذا القسم من الوصيّه، والخلصه أنّ الإمام على عليه السلام جعل توليه الوقف بعد الإمام الحسن والإمام الحسين صلى الله عليه وآله بيد سائر أبنائه، ولو لم يوجد بينهم شخص مناسب لهذا الأمر، فإنّه ينبغى أن يتولّى هذه الموقوفه رجال آخريّن من آل أبي طالب، وإنّ فقد من بينهم الشخص المناسب لتولّى هذا الأمر فتنقل التوليه إلى شخص آخر من بنى هاشم(٢).

ص: ٢٥٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٤٩.

٢- (٢). وللمزيد من الاطلاع راجع فروع الكافى، ج ٧، ص ٥٠.

وفى المقطع الأخير من هذا السند والوصية بالوقف يتحدث الإمام عليه السلام عن كيفية حفظ هذه الموقوفات ورعايه أمورها، ويأمر بأمرين فى هذا المجال، فيقول أولاً:

«وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ الْمَالَ عَلَى أَصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أَمَرَ بِهِ وَهُدَى لَهُ».

ويعتبر ما ذكره الإمام عليه السلام هنا قاعده كليته فى جميع الموقوفات، فينبغى أن يبقى أصل المال سالمًا ويتم الانتفاع فقط من محصوله وثمرته فى الوقف، وهذا التعبير أحياناً يقال عند إجراء صيغته عقد الوقف، فيقال: «أَنْ لَا يُبَاعَ وَلَا يُوهَبَ»، ويقول كذلك فى تعريف الوقف: «الْوَقْفُ حَبْسُ الْعَيْنِ وَتَسْيِيلُ الثَّمَرِ»، ولكن الإمام عليه السلام بين هنا هذا المطلب للتأكيد ولئلا يفكر الأشخاص من الموقوف عليهم بيع أصل النخيل وينتفعوا من أثمارها.

التوصيه الثانيه يقول الإمام: «وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَدِيَّهِ حَتَّى تُشَكَلَ أَرْضُهَا غِرَاسًا».

كلمه: «وَدِيَّهِ» تعنى الفسائل الصغيره التى تنمو إلى جانب النخله وتمد جذورها تدريجياً وتشتد وتنمو حتى يتم فصلها واقتطاعها من الأصل وغرسها فى مكان مناسب آخر، ولذلك ورد التعبير عنها بـ «أَوْلَادِ نَخِيلِ»، وهذا العمل له فائدتان، الأولى: أن يتم إشغال الفضاءات الفارغه من بساتين النخيل بهذه الأغراس كما يقول الإمام عليه السلام: «تُشَكَلَ أَرْضُهَا غِرَاسًا».

ومفهوم هذه العبارة، كما بين ذلك المرحوم السيد الرضى فى ختام هذه الوصيه، أنه يستفاد من هذه الأغراس الجديده للنخيل بحيث يتم اشغال جميع أراضى بساتين النخيل بحيث يشكل تشخيصها على الناظر وهل أنها هى النخيل السابقه، أم نخيل جديد؟

وعلى أيه حال فإن تأكيد الإمام عليه السلام لإعمار هذه الموقوفات واتساع رقعه الأراضى الزراعيه جدير بالالتفات.

والفائده الأخرى، ما يقال من أنّ فسيل النخيل لو لم تقطع وتفصل من أصلها في الوقت المناسب ويتم بيعها، فإنّها ربّما تسبب ضرراً للنخلة نفسها، ومن هذا المنطلق ينبغي حفظ هذه الأغراس إلى زمن معيّن ثمّ يتمّ اقتطاعها طبقاً لتوصيه الإمام عليه السلام ومفاد سند الوقف وغرسها في الأرض الزراعيه ويتمّ الاستفادة منها في ذلك البستان الموقوف.

وهذه التوصيه لا تختصّ بموقوفات الإمام عليه السلام فقط، بل تشمل جميع الموقوفات من هذا القبيل، رغم أنّ المتولين النفعيين وللأسف يتصرّفون خلاف ذلك ويعرضون بساتين النخيل للأضرار والآفات، لأنّ بساتين النخيل لو لم تمتلىء من النخيل فإنّ الحراره والبروده في الفصول المختلفه من شأنها أن تعرّض النخيل للضرر أسرع، ولكن عندما تمتلىء بساتين النخيل من أشجار النخيل فإنّها قلّما تصاب بالآفات وأشكال الضرر الأخرى.

وهذا الكلام لا يعنى غضّ النظر عن إيجاد فواصل لازمه بين أشجار النخيل فرّبما يتسبب عدم رعايه الفاصله أيضاً إلى إضعاف النخيل والإضرار بهذه البساتين.

وضمناً ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة، وهى أنّ أغراس النخيل يمكن أن تعدّ جزءاً من المنافع، فلا تشملها حرمة بيع الوقف، ولكن مع ذلك فالإمام عليه السلام يقول: إنّ بستان النخيل مادام يحتاج إلى هذه الأغراس فلا ينبغي بيعها إلى خارج البستان.

وفى ختام هذه الوصيه، وبعد بيان المسائل المتعلقه بالموقوفات، تعرّض الإمام عليه السلام للمسائل المتعلقه بزوجاته من الجوارى، ويتحدّث عن بيان وضعهنّ ومصيرهنّ، بحيث يتمّ تحريرهنّ بعد وفاته، يقول: «وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي - اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ (١) - لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسِكُ عَلَيَّ وَلِدَهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ

ص: ٢٥٨

١- (١). عبارته «أطوف عليهن» تعبير كناية جميل للمواقع الجنسيه، لأنّه يفهم من كلمه الطواف نوع من الإلتواء والدوران وعندما تأتي هذه الكلمه مع على يقصد بها الدوران حول الشىء وخاصه أنّ هذا التعبير طبقاً لما ذكره لسان العرب يستخدم عادة فى الحركات الليله، وإذا كان القصد منها الحركه فى النهار لابدّ من المجىء بقريته.

وَلَدَهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقَّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ».

وفى ذلك الزمان كان للإمام عليه السلام عدّة جوارى بحكم الزوجات، وكان له منهنّ أبناء أيضاً، ولعلّ غرض الإمام عليه السلام من زياده الأبناء وكثره النسل أن يزداد آل عليّ وبنو هاشم، وبذلك يتمّ الوقوف أمام تهديد الأعداء لهذا النسل المبارك ولا تتسبّب مؤامرات الأعداء فى انقراض هذه الذريّة الطاهره.

وعلى أيّ حال فالإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصيه بيّن حكم الجوارى اللاتى لهنّ ولد منه أو حاملات منه، وطبقاً للقاعده الفقهيّه المعروفه التى يتفق عليها جميع الفقهاء أنّ مثل هذه الجوارى والإماء يتمّ عتقهنّ من سهم الأولاد، أو بتعبير آخر إنهنّ جزء من نصيب الأبناء من الإرث فيتمّ عتقهنّ مباشرة بعد موت المالك، لأنّه لا يحقّ لأحد أن يملك أباه أو أمّه.

وأما بالنسبه للإماء اللاتى ليس لهنّ ولد، فلم يذكر لهنّ حكم فى هذه الوصيه، ولكن ورد حكمها أيضاً فى روايات أخرى ذكرت هذه الوصيه بشكل مفصّل كما وردت فى كتاب الكافى، وأنّ الإمام عليه السلام أمر بعتقهنّ جميعاً، ولكنّ السيد الرضى وبسبب منهجه فى التلخيص والانتقاء اكتفى بهذا المقطع من الوصيه.

وهذا يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يهتمّ بتحرير والعبيد والجوارى، وأنّه كان طيله تاريخ حياته المباركه، وطبقاً لما ورد فى بعض الروايات اشترى وأعتق من كدّ يده ألف عبد «أنّه عليه السلام أعتق ألف نسمة من كدّ يده»^(١).

وهذه المسأله، أى اهتمام الإسلام فى تحرير العبيد تدريجياً، تعتبر مسأله كثيره الأبعاد والتفاصيل، وتشير إلى أنّ الإسلام يرى أنّ الأصل فى الإنسان الحريه حتّى فى المجتمع الذى يعيش ثقافه العبوديه والرّق، ولكن من اللازم إيجاد برنامج

ص: ٢٥٩

١- (١). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣٢، ح ٣.

مدروس وطويل الأمد للوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية الإنسانية، لأنّ الإعلام الفوري عن عتق جميع العبيد والإماء من شأنه إيجاد الخلل وخلق جوّ من الأزمه في مفاصل المجتمع، وربّما يتسبّب أيضاً في الإضرار وإهلاك الكثير من العبيد(1).

وجمله: «فَإِنْ مَاتَ وَلَمُدَّهَا» إشاره إلى هذه الحقيقه، وهى أن لا يتصوّر أحد أنّ الجاربه الحامل أو ذات الولد التى مات ولدها بعد موت المولى، فإنّ تلك الجاربه تعود إلى حالتها السابقه من الرّق والعبوديه، فالإمام عليه السلام يقول: (فإن مات ولدها وهى حيّه فهى عتيقه قد أفرج عنها وحزّرها العتق) يعنى أنّه لا يمكنها العوده إلى الحاله السابقه.

وفى ختام هذه الوصيه يقول المرحوم السيّد الرضى: «قال الشّريف: قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ: «وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ نَخْلِهَا وَدَيْه»، الْوَدْيَةُ: الْفَسِيلَةُ، وَجَمَعُهَا وَدَى.»

وقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: حَتَّى تُشَكِّلَ أَرْضُهَا غِرَاساً» هُوَ مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّ الْأَرْضَ يَكْثُرُ فِيهَا غِرَاسُ النَّخْلِ حَتَّى يَرَاهَا النَّاطِرُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الصِّفَةِ الَّتِي عَرَفَهَا بِهَا فَيُشَكِّلُ عَلَيْهِ أَمْرُهَا وَيَحْسَبُهَا غَيْرُهَا». وتعبير الإمام عليه السلام بكلمه «ودّيه» تعنى غرس النخله وجمعها «ودى» (على وزن على).

وأما العبارة الأخرى للإمام عليه السلام وهى قوله: «حَتَّى تُشَكِّلَ أَرْضُهَا غِرَاساً» فهى من أفصح الكلام، ومفهومها أنّ الأغراض والنخيل ينبغى أن تكون بدرجه من الكثره بحيث تغطّى أجواء بستان النخيل، فكلّ شخص قد شاهد هذا البستان فى السابق يصعب عليه تشخيص هذه النخيل والبستان ويتصوّر أنّه يشاهد بستاناً آخر ويسير فى حقل آخر.

ص: ٢٤٠

١- (١). وللمزيد من الاطلاع انظر: تفسير الأمثل، ذيل آيات ١-٣ من سوره محمّد.

١. الجواب عن سؤالين

قد تثار بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام على هذه الوصية ويقال:

١. يستفاد من التعبير بالوصية أنّ الإمام عليه السلام كان يملك أموالاً طائلة بحيث أنّه وقفها في حياته، ولكن مع الالتفات إلى زهد الإمام عليه السلام المعروف، فمن أين حصل على مثل هذه الأموال؟

وكما أشرنا قبل قليل أنّ الإمام عليه السلام كان يملك ثلاثة مصادر مائيّة، أحدها: حصّته من الغنائم التي تعود لجميع جنود الإسلام وأحياناً تشكّل مبلغاً كبيراً، الآخر: خراج الأراضى الخراجية الذي يتعلّق بعامة المسلمين ولا يختصّ بالمحاربين، ومقدار هذا الخراج بعد الفتوحات الإسلاميّة ازداد بشكل كبير، وللإمام عليه السلام حصّته من هذا المورد الماليّ.

الثالث: أنّ الإمام عليه السلام كان يعمل سنين متماديه بزراعه الأشجار وغرس النخيل وقد أوجد بساتين عديده بذلك، ثمّ جعله وقفاً خاصّاً وعامّاً، فبعض هذه البساتين والحقول أوقفها على أبنائه وذريته من آل أبي طالب وبنى هاشم، وبعضها الآخر أنفقه في سبيل الله، وما تبقى من مال للإمام عليه السلام بوصفه ميراثاً له يعدّ مبلغاً ضئيلاً.

وقد ورد في الروايات أيضاً أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كان يملك أموالاً وبساتين جعلها الخلفاء من جملة أموال بيت المال بذريعه أنّ الأنبياء لا يورثون.

يقول ابن عبدربه في الاستيعاب: «قُتِلَ عَلِيٌّ وَلَا مَالٌ اخْتَجَبَهُ وَلَا دُنْيَا أَصَابَهَا» (١).

وينقل ابن أبي الحديد أيضاً عن بعض المخالفين الذين اعترضوا على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا: «إنّ أبا بكر رحل من الدنيا دون أن يترك ديناراً ولا درهماً، ولكن الإمام عليّ عندما غادر الدنيا ترك الكثير من بساتين النخل، ثمّ يجيب ابن أبي الحديد عن قولهم هذا ويقول: قد علم كلّ أحد أنّ عليّاً عليه السلام قد أستخرج عيوناً

ص: ٢٤١

بكدّ يده فى المدينه وينبع وأحىى بها مواتاً كثره، ثم أخرجها عن ملكه وتصدّق بها على المسلمين، ولم يمت وشىء منها فى ملكه، ألا ترى إلى ما تتضمّن كتب السير والأخبار من منازعه زيد بن علىّ وعبدالله بن الحسن فى صدقات علىّ عليه السلام ولم يورث علىّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيراً إلّا عبّيده وإماءه وسبعمائه درهم من عطائه، تركها ليشتري بها خادماً لأهله قيمتها ثمانيه وعشرون ديناراً»(١).

٢. السؤال الآخر: كيف يقول الإمام علىّ عليه السلام: إنى جعلت الحسن متولياً على الوقف فإذا مات وكان الحسين عليه السلام لا يزال على قيد الحياه فيقوم مقامه، فهل أنّ الإمام علىّ عليه السلام لم يكن يعلم عن طريق الغيب أنّ شهادة الإمام الحسين عليه السلام تقع بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام بعدة سنوات؟

والجواب عن هذا السؤال وأسئله كثره أخرى من هذا القبيل يمكن اختصاره بجملة واحده، وهى أنّ الأئمّه فى أعمالهم العاديه كانوا يعتمدون على علمهم الشخصى الذى يكتسبونه من الوسائل الطبيعيه لا من علم الغيب، كما كان النبى الأكرم صلى الله عليه وآله يعيش حياته الطبيعيه كذلك، وكان أصحابه يعتمدون على العلم الحاصل من القنوات العاديه، ولم يكن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أو الإمام يستخدم علم الغيب سوى فى بعض الموارد الاستثنائيه.

٢. أهميه الوقف فى الإسلام

إنّ اهتمام الإمام أمير المؤمنين علىّ عليه السلام بأمر الوقف، وسبقه الآخرين فى هذا العمل الخيرى، يشير بوضوح إلى أهميه البالغه للوقف فى الإسلام.

ورغم أنّ الإسلام لم يبتدع مسأله الوقف، حيث كانت موقوفات كثره قبل الإسلام فى المذاهب والأديان الأخرى، ولكنّ الإسلام أولى أهميه لهذه المسأله وأكد عليها بوصفها صدقات جاريه.

ص: ٢٤٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٤٦.

ونقرأ في حديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ برجل يغرس غرساً في حائط له فوقف عليه فقال: «ألا أدلك على غرسٍ أثبت أصلاً وأسرع إيناعاً وأطيب وأنقى؟ قال: بلى فدأك أبي وأمى يارسول الله، فقال صلى الله عليه وآله: إذا أصيبت وأمسيت فقل: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّ لَكَ بِذَلِكَ إِنْ قُلْتَهُ بِكُلِّ تَسْبِيحِهِ عَشْرَ شَجَرَاتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَاكِهَةِ وَهُنَّ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ».

قال الراوى: فقال الرجل: أشهدك يارسول الله أنّ حائطي هذا صدقه مقبوضه على فقراء المسلمين من أهل الصّيفه، فأنزل الله تبارك وتعالى: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى» (١). وعلى ضوء ذلك فإنّ الوقف يعتبر سنّه إسلاميّه حسنه لمجمل الأعمال والأحكام الدينيه.

وجاء في بعض الروايات عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّ بعض الصحابه الصحابه كانوا يملكون أموالاً، تركوها وقفاً لهم بعد موتهم.

ونقل الشيخ الطوسي في الأمالي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «خَيْرٌ مَا يُخَلِّفُهُ الرَّجُلُ بَعْدَهُ ثَلَاثَةٌ: وَلَدٌ بَارٌّ يَسْتَغْفِرُ لَهُ وَسُنَّةٌ خَيْرٌ يُقْتَدَى بِهَا فِيهَا وَصَدَقَةٌ تَجْرَى مِنْ بَعْدِهِ» (٢).

والأحاديث الشريفه في هذا المجال كثيره، وينبغي الالتفات إلى أنّ أحد الطرق للحيلولة دون تراكم الثروات وتكديس الأموال، الاهتمام بإشاعه ثقافه الوقف، لأنّ الوقف من شأنه إخراج الأموال من قبضه أفراد معدودين ووضع منافعها وخيراتها تحت اختيار المحرومين والمحتاجين من الناس.

ص: ٢٤٣

١- (١). بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١٨٢، ح ٤، والآيات ٥-٧ من سوره الليل.

٢- (٢). وسائل الشيعه، ج ١٣، كتاب الوقوف والصدقات، باب ١، ح ١٠.

كَانَ يَكْتُبُهَا لِمَنْ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى الصَّدَقَاتِ

قَالَ الشَّرِيفُ: وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هُنَا جُمَلًا لِيُعْلَمَ بِهَا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُقِيمُ عِمَادَ الْحَقِّ، وَيَشْرَعُ أُمَّثْلَةَ الْعَدْلِ، فِي صَغِيرِ الْأُمُورِ وَكَبِيرِهَا وَدَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا (١)

نظرة إلى الرسالة

هذه الوصية التي كان الإمام عليه السلام يقدمها عادة للعاملين على جمع الزكوات وتشتمل على نكات دقيقة ونقاط مدروسة تشير إلى رعايه الأدب الإسلامي ورعايه العدالة القصوى في شأن جميع أفراد المجتمع الإسلامي، بل تمتد لتشمل حتى الحيوانات أيضاً.

في المقطع الأول من هذه الوصية، يأمر الإمام عليه السلام العاملين على الزكاه أن

ص: ٢٦٥

١- (١). سند الوصية: نقل هذه الرسالة بسند معتبره المرحوم الكليني في كتابه الكافي في باب «آدب المصيّد» من كتاب الزكاه، وكذلك شيخ الطائفة الشيخ الطوسي في باب «الزيادات في الزكاه» بنفس سند الكليني، ونقلها صاحب كتاب الغارات (إبراهيم الثقفي) بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام. يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه: إن هذه الوصية كانت معروفة بين العلماء قبل السيد الرضى ومن جملة الأشخاص الذين أشاروا إليها الشيخ المفيد في المقنعه. ثم أضاف: من الأشخاص الذين نقلوها بعد السيد الرضى ابن إدريس في السرائر عن المقنعه، والزمخشري في ربيع الأبرار مع تفاوت يسير (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٥٧).

يتحرّكوا في عملهم بتبّيه خالصه ومن موقع الالتزام بالتقوى، ولا يستخدموا أسلوب التهديد والإرهاب في جبايه الحقوق الشرعيه، ولا يأخذوا من أيّ شخص أكثر من الحقّ الإلهيّ المفروض عليه.

وفي القسم الثاني من الوصيّه يشير الإمام عليه السلام إلى نقاط دقيقه فيما يتّصل بتعاملهم مع الأشخاص الذين وجب عليهم دفع الزكاه من أموالهم، وأن يكون تعاملهم معهم في غايه اللطف والمحبه ورعايه الأدب الإسلامى.

وفي القسم الثالث يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفيه فرض حقّ الله من أموال الناس عن طريق القرعه حتى لا يقع أيّ إجحاف لأحد من الناس في شأن.

وفي القسم الرابع يذكر الإمام عليه السلام توصيات متعدّده بشأن حكم المعامله مع الحيوانات التي أخذت من المالكين بوصفها زكاه، وهذه التوصيات كما سنرى، أعلى وأسمى ممّا تدّعيه منظمات حقوق الحيوان في حمايه الحيوانات.

ويضيف المرحوم الكليني بعد نقل هذه الرساله عن الإمام الصادق عليه السلام عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّ الإمام الصادق عليه السلام بكى، ويقول الراوى بريد بن معاويه: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: بعث أمير المؤمنين عليه السلام صلوات الله عليه صدقه من الكوفه إلى باديتها، فقال له: «انْطَلِقْ عَلَيَّ تَقْوَى اللَّهِ وَحَدَهُ لَأَشْرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِمًا وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهًا، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ...»، ثم بكى أبو عبد الله عليه السلام وقال: «يا بريدُ والله ما بقيتُ لله حرمه إلا انتهيكتُ، ولا عمِلَ بكتابِ الله، ولا بسينّه نبيّه في هذا العالم، ولا اقيم في هذا الخلقِ حدّ مُنذُ قبضَ أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، ولا عمِلَ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا».

واللافت للنظر أنّ كاتب المصادر بعد أن ذكر هذا المقطع من كلام الإمام الصادق عليه السلام يقول: اقسام بالله تعالى أنّى بكيت أكثر من مرّه عندما قرأتها في نهج البلاغه قبل أن أطلع على ما رواه صاحب الكافي من بكاء الإمام الصادق عليه السلام عند روايتها، والحمد لله رب العالمين (1).

ص: ٢٦٦

١- (١). مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٥٨.

أَنْطَلِقَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَحَدَهُ لَشَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرْوَعَنَّ مُسْلِمًا وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهًا، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَأَنْزِلْ بِمِائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَيْمَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ؛ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخْدِجَ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللَّهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ، لِأَخَذِ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتَوَدُّوهُ إِلَى وَجْهِهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعَسِّمَهُ أَوْ تُزْهِقَهُ فَيُخَذَ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ.

الشرح والتفسير: الثقة بالجمهور في جمع الضرائب الإسلاميّة

يقدم الإمام علي عليه السلام في هذه الرسالة دستورا كليا وشاملا في البدايه وفي عبارات موجزه للعاملين على جمع الزكوات، ثم يتطرق إلى الجزئيات والتفاصيل، وهذا بذاته أحد أساليب الفصاحة والبلاغه، يقول: «أَنْطَلِقَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَحَدَهُ لَأَشْرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرْوَعَنَّ (١) مُسْلِمًا وَلَا تَجْتَازَنَّ (٢) عَلَيْهِ كَارِهًا، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ».

ص: ٢٤٧

١- (١). «لا تروعن» من ماده «روع» على وزن «قول» بمعنى الخوف والرعب، وذهب بعض العلماء إلى أنّ «روع» ربماتعنى شدّه الخوف.

٢- (٢). «تجتازن» من «الإجتياز» وتعنى العبور.

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا العبارات، مضافاً إلى الأمر بتقوى الله، عن ثلاثة أمور مهمّة، الأول: إنّ العاملين على الزكاه لا ينبغي لهم ترويع الناس واستخدام أساليب العنف والغلظة، لأنّ المأمورين على أخذ الضرائب في الماضي كانوا عندما يدخلون إلى منطقته معيّنه فإنّ أهالي تلك المنطقه يصيبهم الخوف والوحشه لئلاّ يطلب منهم المأمورون مبالغ باهظه يعجزون عن دفعها ولا يطبقونها، ولكن عندما يستخدم المأمور اسلوب الرفق ويتعامل معهم بحسن الخلق، فليس فقط لا يخافون منه بل يستقبلونه بكلّ رحابه صدر.

وفي التوصيه الثانيه يقول الإمام عليه السلام ليس فقط عدم ترويعهم، بل أن تتصرّف بشكل يفرحون بقدمك، فأنت مأمور من قبل أمير رحيم ورؤوف، جواد وكريم، ومن هذا الموقع يفتحون لك صدورهم وقلوبهم ويكرمون قدمك إليهم.

وفي الجمله الثالثه يتحدّث الإمام عليه السلام، قبل أن يأمره بأخذ حقّ الله منهم بشكل كامل، يقول: لا تأخذ منهم أكثر من حقّ الله من أموالهم، وهذا تأكيد على الالتزام بالتقوى واجتناب أخذ أموال الناس بدون مبرّر شرعيّ.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد أن بيّن هذا الدستور الكلّي يتطرّق إلى التفاصيل، ويتحدّث عن كيفيه تعامل العاملين على الزكاه مع الناس في جبايه الحقوق الإلهيه وكيفيه التعامل معهم في هذا المجال ويقول: «فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ (١) فَانزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَيْبَاتَهُمْ».

وهذه إشاره إلى أنّه ينبغي لك أن لا تفرض نفسك على الناس وتكلّفهم بما ليس من واجبهم، فربّما لا يكونوا في سعّه من الحال بحيث يتقبلون استضافتك، في حين أنّ طبيعتهم استقبال الضيف حتى لو لم يكن لديهم ما يقدمونه، أو ربّما لا يريدون أن تطلع على وضعهم المالي عن قرب، أو أنّك لو دخلت على أحدهم ضيفاً فربّما

ص: ٢٤٨

١- (١). «حيّ» تأتي أحياناً بمعنى ذى الروح، وأخرى بمعنى القبيله، لأنّ مجموع القبيله بمثابة الإنسان الحي الواحد، وتستعمل أيضاً في اللغه المتداوله بمعنى المنطقه السكنيه من المدينه.

يفضى ذلك إلى امتعاض الآخرين ويتصوّرون أنّ مبعوث الإمام عليه السلام تربطه مع صاحب الدار رابطة خاصّه ولذلك ترك القدوم عليهم والدخول إلى بيوتهم، وعلى ضوء ذلك يأمر الإمام عليه السلام عامله أن ينزل إلى جانب عيون الماء أو الآبار ويختار منها ما يقع في طريقهم ومورد عبورهم، والواقع أنّ هذا المكان يمثل مركزاً لالتقاء جميع أفراد الحيّ، والظاهر أنّ المأمور على جمع الصدقات لا- يتوجّه إلى هذه المناطق منفرداً، بل يصطحب معه بعض الأفراد الذين يعينونه على أمره ويحملون معه الخيمه ولوازمها، والعلف وما إلى ذلك، فينصبونها إلى جانب غدير الماء أو العين ويطعمون في ذلك المكان.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ؛ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخَدِّجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ».

ومعلوم أنّ التوجّه إلى القوم بسكينه ووقار وإلقاء السلام والتحيّه عليهم يثير في قلوبهم الطمأنينه ويتسبّب في شرح صدورهم وزوال كلّ أشكال الخوف والرهبه من قلوبهم.

والغرض من هذه التوصيات تطهير الذهنه في العرف العامّ من الرسوبات التي اخترنتها الذاكره عن العشارين وجباه الضرائب في عصر الملوك وأمراء الظلم والجور، حيث يأمرهم بآزلامهم بأخذ الضرائب والعشور والخراج من الناس بأساليب خشنه، فكان الناس يتصوّرون أنّ وجود هؤلاء الجباه والعشارين بمثابة البلاء السماوى عليهم.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «لَا تُخَدِّجْ» من «الخداج» (على وزن علاج) تعنى في الأصل الجمل الذي يولد ناقص الخلقه أو قبل موعده، ثمّ اطلقت هذه الكلمه على كلّ أمر ناقص، ويستفاد من هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام يروم التأكيد على هذه الحقيقه، وهى أن لا- يقصّر مبعوثه في التحيه والسلام وحسن الخلق في التعامل مع المواطنين ولا- يتعامل مع الناس كما يتعامل الكثير من المأمورين والمسؤولين

الحكوميين مع الجمهور من موقع الفوقيه والتعالى وحتى أنهم لا- يردون عليهم جواب سلامهم، وبعبارة أخرى أن تعامل المأمورين مع الناس يجب أن ينطلق من موقع الوُدِيه والصدقه وعلى مستوى واحد بينهما.

ثم ينطلق الإمام عليه السلام لبيان الجزئيات المتعلقة بكيفية المطالبه بالزكاه بطريقه شيقه فيقول في البدايه: «ثُمَّ تَقُولُ: عِبَادَ اللَّهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ، لِأَخْذِ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتَوَدُّوهُ إِلَيَّ وَلِيِّهِ».

واللافت أن الإمام عليه السلام يؤكد في هذه العبارة على ثلاثة أمور: أحدها: أن الناس هم عباد الله، الثاني: إن العاملين على جمع الزكوات هم مبعوثون من قبل ولي الله وخليفه الله، الثالث: أن ما يطلبونه من الناس هو حق الله الموجود في أموالهم.

إن مثل هذه العبارات من شأنها تحريك عواطف الإنسان وتجعلهم مستعدين لدفع الزكاه، بل يتحرك المستمع تحت تأثير هذه العبارات لدفع ما عليه من الزكاه والضريبه من موقع العشق والشوق، ويفكر في نفسه أن مبعوث ولي الله قد جاء إليّ ودعاني بوصفي عبد الله ولم يطلب مني شيئاً سوى حق الله في مالي.

وجمله: «فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ» مع العبارات اللاحقه تعتبر بحد ذاتها أحد الأساليب الراقية في أخذ الضرائب، وأحياناً نرى في بعض المناطق في العالم المعاصر الإشارة إلى هذا الأسلوب المتحضر، ويتلخص في الثقة بالناس والاعتماد على صدقهم، يعنى أن الجمهور يتعامل مع المسؤولين بصدق وأمانه ولذلك يسأل المأمور أفراد الشعب عن وجود زكاه في أموالهم دون المطالبه بها مع إنكارهم، والتجربه أثبتت أن مثل هذا الاعتماد والثقة المتبادله لها أثر مهم في توطيد العلاقة بين الجمهور والمسؤولين، وعلى العكس من ذلك إذا افترض المسؤول الحكومى أن الناس يتعاملون معه بآليات الكذب والتزوير وبالتالي يتعامل معهم كالدائن في مطالبته من المدين، فإن ذلك من شأنه تقويض الثقة والعلاقة بين الطرفين ويتسبب في دفع الناس لإخفاء أموالهم والتمويه على المسؤولين في محاسباتهم لكي يتهربوا

من دفع مستحقّاتهم الماليه للحكومه، وبعبارة معاصره: ينبغي أن يفتحوا لهم دفترين:

دفتر لمحاسبه الأموال بمقدارها الحقيقي، ودفتر لمحاسبه المبالغ التي يدفعونها للمأمورين والعاملين على الزكاه.

ومما يجدر ذكره أنّ الأعوام الأخيره فى بلدنا (إيران) وفى عصرنا الحالى شهدت هذه التجربه الحضاريه لأخذ الضرائب من قبل العاملين، وكانت النتيجة تضاعف حجم الدخل السنوى لبيت المال من الضرائب.

وفى الأسلوب التقليدى الذى يتبع فى مسأله الخمس يتم مراعاة هذا المطلب بشكل دقيق، وهو أنّ المؤمنين يتوجهون لعلماء الدين بدوافع إلهيه ونوايا صادقه ويقدمون لهم ورقه حساب أموالهم ليعينوا لهم مقدار الخمس الواجب دفعه منها بدون أى إكراه وإجبار.

وطبعاً فإنّ ما قيل آنفاً، يعتبر أصلاً عامّاً بالنسبه لجميع من وجب عليه دفع الزكاه فى أموالهم، ولكن ربّما توجد بعض الاستثناءات فى الموارد أيضاً، فبعض الإنتهازيين وأصحاب النفوذ والقوه ربّما يواجهون الحكومه الإسلاميه من موقع الرفض ويمتنعون عن دفع زكاتهم، وفى مثل هذه الموارد يجب على الحكومه التصدى لهم وأخذ حقّ الله منهم بالقوه لئلا يتجرأ الآخرون على الاقتداء بهم ويرفعوا لواء المعارضه، ولكن كما قلنا آنفاً فهذه تعدّ استثناءً من القاعده.

ويستمرّ الإمام عليه السلام فى كلامه عن كيفية أخذ الزكاه: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَأ، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ (١) لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تُعْسِفَهُ (٢) أَوْ تُرْهَقَهُ (٣)».

ص: ٢٧١

١- (١). «أنعم» من «الإنعام» تأتي أحياناً بمعنى اعطاء النعمه، وأخرى بمعنى قول كلمه نعم، وفى الجمله موردالبحث جاءت بالمعنى الأخير، بقرينه الجمله ما قبلها: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ لَأ».

٢- (٢). «تعسف» من ماده «عسف» على وزن «كسب» وفى الأصل بمعنى سلوك طريق المتاهه، ثم اطلق على الظلم والجور، لأنّه مصداق سلوك طريق المتاهه.

٣- (٣). «ترهق» من «الإرهاق» وأصلها من ماده «رهق» على وزن «شفق» وهى فى الأصل بمعنى التغطيه أو تغطيه الشىء بالقوه والغلبه، وتأتى فى كثير من الموارد بمعنى التعسير والأخذ بشده، وفى الجمله مورد البحث جاءت بهذا المعنى.

والأمر الجميل هنا أنّ الإمام عليه السلام يتحدّث بغايه اللطف والمحبه عن الشخص الذى يعترف بوجود زكاه فى أمواله ويبين كيفية التعامل معه فى أربع جمل قصيره تتضمّن توصيات للعامل على جبايه المال، الأولى: يقول: إنّه لا ينبغي لك أن تخيفه، مثلاً- تقول له: إذا لم تدفع زكاتك بشكل كامل فسوف تتعرض للعقوبه، والأخرى: أن لا تأخذ منهم شيئاً بأسلوب التهديد، والثالثه: أن لا تتشدد فى أمر جبايه الزكاه، والرابعه: أن لا تثير له مشاكل ولا ترهقه فى المطالبه والحساب، يعنى يجب عليك أن تتعامل معه كالشريك الودود الذى يتعامل مع شريكه بأليه الصفح وفضّ الطرق، فعندما يعترف الطرف المقابل بوجود حقّ الله فى أمواله فإنّ هذا الاعتراف منه يستحقّ كلّ احترام ويعتبر بحدّ ذاته قيمه أخلاقيه وإنسانيه ينبغى الردّ عليها والتعامل معها بالمثل.

تأمل: آداب جمع الزكاه وحقوق بيت المال

إنّ ما ورد أعلاه يمثّل جانباً من تعاليم الإسلام فى ما يتّصل بجمع الزكاه وأموال بيت المال وكيفية التعامل مع أصحاب الأموال.

ونقرأ فى الآيات شريفه أنّ القرآن الكريم الذى أسس لهذا مفهوم، يأمر النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله بأن يأخذ من المتمولين صدقه وزكاه تطهّروهم وتزكّوهم من لوث حبّ الدنيا والتكالب على الأموال والثروات، ثمّ يأمره بعد دفع الزكاه أن يصلّى عليهم ويدعو لهم لتكون صلاته ودعائه لهم سكناً لنفوسهم: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِيْلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ» (١).

ص: ٢٧٢

وفى هذا المجال وردت فى المصادر الحديثيه روايات عديده تبين جزئيات وتفصيل أخرى لآداب أخذ الزكاه، منها ما أورده العلامه المجلسى فى (الجزء ٩٣ من بحار الأنوار فى الباب ٩ تحت عنوان أدب المصدق) وفيها أحاديث كثيره فى عشر صفحات ٨٠ إلى ٩٠).

ومن ذلك أنه ينقل: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَهَى أَنْ يُخْلَفَ النَّاسُ عَلَى صَدَقَاتِهِمْ وَقَالَ: هُمْ فِيهَا مَأْمُونُونَ يَعْنِي أَنَّهُ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَالٌ تَجِبُ فِيهِ زَكَاةٌ وَلَمْ يُوَجِدْ ظَاهِرًا عِنْدَهُ لَمْ يُسْتَحْلَفْ» (١).

وفى حديث آخر يرويه عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث أمر أحد أصحابه والمسؤول عن جمع الزكاه بتوصيات متعدده منها أنه قال: «أَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِبَسِطِ الْوَجْهِ وَلَيْنِ الْجَانِبِ وَأَمْرُهُ أَنْ يَلْزَمَ التَّوَاضُعَ وَيَجْتَنِبَ التَّكْبِيرَ» (٢).

وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً أنه قال: «وَإِذَا كَانَ الْجَدْبُ أُخْرُوا حَتَّى يُخْصِبُوا» (٣).

ونقل المرحوم الشيخ الحرّ العاملى أيضاً فى كتابه وسائل الشيعه الجزء ٦ فى كتاب الزكاه الباب ١٤ أحاديث متعدده فى هذا المجال، ويستفاد من مجموع هذه الأحاديث أنّ الإسلام ينهى عن استخدام أى شكل من أشكال القوه والإكراه فى عمليه جمع الضرائب والزكاه، ويوجب على العاملين استخدام اسلوب الرفق والمداراه لمن تجب عليهم الزكاه فى أموالهم، وبعبارة أخرى أنّ دفع الزكاه فى الإسلام يدخل فى إطار المسأله الإنسانيه والأخلاقية، حيث يتسابق فى دفعها وأدائها المؤمنون لينتفعوا من بركاتهما الماديّه والمعنويه، لا أنّ الزكاه تمثّل ديناً يتمّ أخذه من المدين بأى نحو من الأنحاء.

ص: ٢٧٣

١- (١). بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٨٥.

٢- (٢). المصدر السابق.

٣- (٣). المصدر السابق.

وطبعاً يتسبب هذا النمط من التعامل الودود والإنساني ببعض الأضرار، وقد أساء الإستفاده منه بعض الأشخاص الانتهازيين الذين لا يروق لهم دفع الحقوق الماليه، ولكن التجربة أثبتت أنّ البركات الماديّه والمعنويه في هذا الأسلوب الإنساني في التعامل أكثر من ضرره ولاسيّما أنّنا نعلم أنّ دفع الزكاه وأمثالها يعتبر في الإسلام نوعاً من العباده حيث يعتبر الإسلام قصد القربه وهذا القصد إنّما يتحقّق في واقع الإنسان إذا اندفع الإنسان في هذه العباده من موقع الاختيار والرغبه وأسداها طواعيه.

ينقل المرحوم الكليني في الجزء الثالث من الكافي في باب «أدب المصيّد» ثمان روايات في هذا المجال تعكس في مضامينها الرحمه والرأفه الإسلاميه، ومن ذلك أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عندما نصّب رجلاً من قبيله بنى ثقيف والياً على منطقته في ضواحي الكوفه، أمره بمحضر من الناس أن لا يقصّر في جمع الخراج ولا يترك منه ولو درهماً واحداً، ثمّ قال له: إذا أردت التوجّه إلى تلك المنطقه أن تقدم عليّ. يقول ذلك الرجل: عندما ذهبت إليه قال لي: إنّ ما قلته لك فيما يخصّ الخراج إنّما هو لحفظ الظاهر: «إيّاك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصيرانياً في درهم خراج أو تبيع دابّه عمّل في درهم، فإنّما أمرنا أن نأخذ منهم العفو» (١).

ص: ٢٧٤

١- (١). الكافي، ج ٣، ص ٥٤٠، ح ٨.

فَخُذْ مَا أُعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنيفٍ بِهِ. وَلَا تُنْفِرَنَّ بِهِمَهُ وَلَا تُفْرِعَنَّهَا، وَلَا تُسْوَأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا، وَاصْدَعْ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصْدَعْ الْبَاقِيَ صِدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءً لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ. فَإِنْ اسْتَيْقَلَكَ فَأَقْلُهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ. وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْدًا وَلَا هَرَمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ، وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِيَدَيْهِ، رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وِلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَا تُؤْكَلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيفًا وَأَمِينًا حَفِيفًا، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعَبٍ.

الشرح والتفسير: غاية الاحترام لمطالب الدافعين للزكاة

ثم يضيف الإمام عليه السلام إذا كانت الزكاة، على الذهب والفضة أى الدرهم والدينار أو قيمه زكاة الغلات منها، فخذ منها ما أعطاك ولا تناقشه فى زياده أو نقيصه فى المقدار، لأنه قد وثق بك، فينبغى عليك أيضاً أن تثق به،: «فخذ ما أعطاك من ذهبٍ أو فضةٍ».

وإن كان يملك ماشيه وبقراً وإبلاً فلا تدخل عليها إلا بعد أن تستأذنه فى ماله،

لأن أكثر هذه الأنعام ملك له سوى ما تعلقت به الزكاه وهو قليل: «فإن كان له ماشية (١) أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه فإن أكثرها له».

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فإذا أتيتها فلا تدخل عليهما دخول مُسَلِّطٍ عليه ولا عنيف (٢) به، ولما تُنْفَرَنَّ بهيمه ولا تُفْرَعَنَّها (٣) ، ولا تسوأن صاحبها فيها».

والمقصود من هذه العبارة ضروره احترام ملكيه المالكين لهذه الأنعام، فلا تدخل على مكان الشياه أو الإبل بشكل عنيف بحيث تنفر هذه البهائم وتفزع منك، بل يجب عليك مداراتها ورعايتها فلا تتحرك بشكل يبعث على خوفها وفزعها، لأن هذه الحيوانات وكذلك أصحابها يمكن أن يستاءوا من هذا الأسلوب، وهذا كلام يعبر عن غايه الأدب والخلق الذي ورد في توصيه الإمام عليه السلام لعباده، بحيث إنه لا يهمل حتى حقوق الحيوانات عند جمع الزكاه، فكيف الأمر فيما يتصل بحقوق الإنسان واحترام مشاعره وعواطفه؟!

ثم إن الإمام ومن أجل أن يقع التقسيم عادلاً في اختيار الأغنام أو الإبل للزكاه ولا يثير اعتراض أصحاب الأموال، يوصى عامله بأن يستخدم القرعه في انتخاب مورد الزكاه حتى لا يكون هناك إجحاف على المالك ولا على بيت المال وعندما يقترح على الشياه أو الإبل يختار صاحب المال في هذا المال ويقول: «واصدع (٤) المال صدعين ثم خيظه، فإذا اختار فلا تعرض لِمَا اختاره. ثم اصدع الباقي صدعين، ثم خيظه، فإذا اختار فلا تعرض لِمَا اختاره. فلا تزال كذلك حتى يبقى ما

ص: ٢٧٦

- ١- (١). «ماشية» في الأصل الطريق الذي يسار عليه، من ماده «مشى»، ثم اطلقت على الدواب والأنعام من الإبل والبقر والغنم، ولكن تطلق غالباً على الأغنام وجمعها مواشى، وفي العبارة مورد البحث المقصود منها البقر والغنم بقريته ذكر الإبل بعدها.
- ٢- (٢). «عنيف» بمعنى الخشن والصعب، من ماده «عنف» على وزن «قفل».
- ٣- (٣). «لا تفزعن» من ماده «فزع» بمعنى خاف وارتعد، وعندما تأتي من باب إفعال تكون متعدية وتعنى التخويف والترهيب.
- ٤- (٤). «اصدع» من ماده «صدع» على وزن «صبر» وتعنى الشق والفصل بين شيئين، وهذه المفردة «صدع» تأتي اسم مصدر وتعنى القسم المنفصل عن الشيء.

فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ».

ثم يضيف الإمام عليه السلام: فإذا طلب صاحب المال أن تقيله حتى يجرى اقتراع جديد، فاقبل طلبه وأعد القرعه بعد أن تخلط الأنعام وتجرى عليها مره أخرى التقسيم والاقتراع حتى تأخذ منها حق الله: «فَإِنْ اسْتَقَالَكَ (1) فَأَقِلَّهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْبِغْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوْلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ».

وهنا ينبغي الالتفات إلى نقطتين هامتين: الأولى: أن مفهوم العبارة أعلاه لا يعنى أنك في حال التقسيم تعمل على فصل الأغنام أو الإبل وتجعل الجيّد منها في جانب والمتوسّطه في جانب آخر ثم تختير المالك بانتخاب أحدهما لأنّ الأغنام أو الإبل من جهة متداخله ومخلوطه في الظروف العادية، ومن الطبيعي أنه عند تقسيمها سيكون قسم منها إلى جانب والقسم الآخر في جانب آخر، ومن جهة أخرى أنّ هذا العمل نوع من الاقتراع، وتدخل في مفهوم القرعه هذه الحقيقة، وهي أنّ التقسيم ينبغي أن يكون عادلاً، فلا بدّ من إختيار إحدى الجهتين من خلال القرعه.

والنقطة الأخرى، أننا نعلم أنّ عمر الإبل دخيل في مقدار زكاتها، وليست كزكاه الأغنام، وعلى هذا الأساس يجب مراعاة عمرها في عملية التقسيم، أو نقول أنّ هذا التقسيم ناظر إلى الأغنام والبقر.

ضمناً يستفاد من مجموع هذا الكلام أنّ دفع الزكاه يمكن أن يتمّ حسابه على أساس القيمة (بقريته التعبير بالذهب والفضة في مطلع هذا الكلام)، لأنّ هذا الكلام لا يتحدّث فقط عن زكاه الدرهم والدينار بل ناظر إلى مطلق الزكاه، ويمكن أن تؤخذ الزكاه من عين المال الذي تعلّقت به الزكاه.

ولابدّ من الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ الوارد في الروايات الإسلاميّة

ص: ٢٧٧

١- (١). «استقال» من «الإستقاله» بمعنى طلب فسخ العقد أو ما اتفق عليه، وأصلها من القيلولة وهو النوم القليل في وسط النهار للاستراحة، وبما أنّ الإنسان عندما يندم على عقد معين فإذا فسّخه وألغاه فربّما يؤدي ذلك إلى امتعاضه وتأثره فاستخدمت كلمه «إقاله» والمطالبه بهذا العمل يدعى «استقاله».

وكلمات الفقهاء أنّ الحيوانات الممتازة كالغنم والإبل الغالية والأنعام الحامل والذكر منها الخاصّ بعملية التلقيح مستثناه من ذلك، يعنى أنّ العاملين على جمع الزكاه لا ينبغي أن يستثنوا هذه الأنعام من الزكاه لكسب رضا أصحاب هذه الحيوانات، بل يفوضون أمرها لهم ليدفعونها عن طيب خاطر(١).

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يوصى عامله على الزكاه أن لا يأخذ من الحيوانات من تشكو عيباً ويختار الناقص والزهيد منها ويقول: «وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْدًا وَلَا هَرْمَةً وَلَا مَكْشُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً» (٢)، «وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ» (٣).

ومع الالتفات إلى أنّ كلمه «عَوْدٌ» و «هَرْمٌ» مترادفتان في المعنى ويقصد بهما الحيوان المسنّن، ولكن «عود» تعنى الحيوان الذى تقدّم فى السن، و «هرم» بمعنى المتقدّم فى السنّ إلى درجه كبيره بحيث لا يصلح لشيء.

أمّا «مهلوسه» فتارة تأتي بمعنى الحيوان المريض والمسلول وأخرى بمعنى كلّ حيوان مريض، والأنسب المعنى الثانى، أمّا «ذات عوار» فتعنى الحيوان الذى يشكون عيباً ونقصاً، بأن يكون فاقداً للعين أو الأذن وما إلى ذلك.

والجدير بالذكر أنّ الفقهاء ذهبوا إلى أنّ المقصود من هذا الحكم أنّه لو كان النصاب سالمًا بأجمعه، فلا يمكن أخذ حيوان غير سليم من مكان آخر للزكاه بدل السليمه، ولكن إذا كان جميع النصاب مريضاً أو معيباً فلا مانع من أخذ الزكاه منها، ولا يشترط أن يأخذ للزكاه حيواناً سالمًا، وكذلك إذا كان بعض النصاب معيباً

ص: ٢٧٨

١- (١). انظر: جواهر الكلام، ج ١٥، ص ١٦٠.

٢- (٢). «مهلوسه» من «الهلاس» على وزن «غبار» و «هلس» على وزن «درس» بمعنى مرض السل، وعلى ضوء ذلك فإنّ «مهلوس» هو الحيوان المبتلى بهذا المرض، ولكن تارة يراد بهذه المفردة كل نوع من المرض، ويذهب بعض أرباب اللغه إلى أنّ «هلاس» تعنى الأمراض التى تسبب الضعف والنحافه فى البدن، وبما أنّ مرض السل الذى يصيب الإنسان يجعله نحيفاً وضعيفاً فاطلقت هذه الكلمه على هذا المرض.

٣- (٣). «عوار» من ماده «عار» و «عور» على وزن «غور» بمعنى العيب والنقص، وبما أنّ اظهار العضو التناسلى يعد عيباً للشخص فاطلقت كلمه «عوره» على هذا العضو، وتطلق هذه المفردة أيضاً على الدار غير المصبوغه واللباس المعيوب.

والبعض الآخر سالماً فتؤخذ الزكاه من السالم والمعيب، وهذا يدل على رعايه العداله الإسلاميه فى المسائل المتعلقه بأمور الزكاه(١).

ومن المناسب أن نذكر هنا أن الإسلام من جهه ينهى عن أخذ الحيوانات المعيبه والمسئنه والمريضه للزكاه، لأن ذلك يتنافى مع كون الزكاه أمراً عبادياً وبمقتضى قوله تعالى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ»(٢)، ينبغى على الإنسان المسلم أن يخرج لذكاته الشىء الطيب والسليم، ومن جهه أخرى يأمر الإسلام بوضع الأموال النخبه والممتلكات الثمينه بيد أصحابها ولا يؤخذ منها شىء للزكاه، لأن الكثير من الناس ربما يمتعضون ويستأوون من هذا العمل ويكونون مصداقاً لقوله تعالى: «إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ»(٣)، وعلى هذا الأساس يراعى الحكم الإسلامى عمليه التعادل والتوازن فى مسأله دفع الزكاه بشكل كامل.

ص: ٢٧٩

١- (١) . انظر: جواهر الكلام، ج ١٥، ص ١٣٥.

٢- (٢) . سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٣- (٣) . سورة محمد، الآية ٣٧.

وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصِلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَا تُوَكَّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وَأَمِينًا حَفِيفًا، غَيْرَ مُغْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ. ثُمَّ اخْتِذُوا إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نَصِيئُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقِهِتَيْنِ فَصَلِّهَا، وَلَا يَمْضِرَ لَبْنَهَا فَيُضِرَّ ذَلِكَ بَوْلِدَهَا؛ وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوبًا؛ وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّقْ عَلَى اللَّائِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقَبِ الظَّالِعِ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدْرِ، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمَهِّلْهَا عِنْدَ النَّطَافِ وَالْأَعْشَابِ، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بُيُوتًا مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَ مَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: الرأفة الإسلامية بالحيوانات

سبق أن رأينا أن الإمام علي عليه السلام ذكر بعض التوصيات اللازمه في كيفية أخذ الزكاه من الأشخاص الذين تعلقت الزكاه في أموالهم، وفي هذا المقطع من الرساله يتحدث الإمام عليه السلام عن كيفية حفظ هذه الأموال وشكل التعامل مع الحيوانات التي اخذت بعنوان الزكاه.

بدايه يطرح الإمام عليه السلام صفات الأشخاص المأمورين بنقل الزكاه إلى بيت المال، ويستعرض عدده خصال لهم، ففي الخصله الأولى والثانيه يقول الإمام عليه السلام «وَلَا تَأْمَنَنَّ

عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَتَّقُ بَدِينِهِ، رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصَّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ».

وعلى ضوء ذلك فإنَّ أهمَّ شرط في مثل هذا المورد رعايه الأمانه وأن يكون العامل موثوقاً بدينه، والشرط الثاني أن يعيش الرفق والمداراه بهذه الأنعام، فإذا توفّر في المتصدّي لبيت المال والخزانه هذان الشرطان، فلا مجال لظهور مشكله في الأمور الماليه، ولا يتوقّع خيانه، ولا حدوث حيف وإفراط وتفريط في مال المسلمين.

يواصل الإمام عليه السلام استعراضه لصفات المسؤولين والمأمورين لنقل هذه الأمور فيطرح ثمانية أوصاف لهم، ويقول: وَلَا تُوكَلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وَأَمِينًا حَفِيزًا، غَيْرَ مُعْنِفٍ (١). وَلَا مُجْحِفٍ (٢)، وَلَا مُلْغِبٍ (٣) وَلَا مُتْعِبٍ (٤).

وبديهى أنّ هذه الصفات الثمانية منسجمه فيما بينها ومقتربه المعنى، فالراعى الناصح والمشفق لا يشدّ على الحيوانات فى المسير ولا يتعبها، لأنّه من جهه ستصيب هذه الأنعام مشقّه، ومن جهه أخرى فإنّ هذا الأسلوب مخالف للعداله الإسلاميه وربّما يؤدّى إلى التقليل من وزنها أو مرضها وبالتالي سيلحق الضرر بالمستهلكين أيضاً.

والجدير بالذكر أنّ هذه التوصيات من قبل الإمام عليه السلام قد صدرت فى وقت لم يكن هناك أىّ كلام عن حقوق الحيوان بين العلماء والمفكرين فى العالم، ولا كلام عن حقوق الإنسان أيضاً، ولكنّ الإسلام بوصفه ديناً زاخراً بالقيم الأخلاقيه والمثل المتعالیه فإنّه قرّر لزوم رعايه حرمه الحيوانات وحقوقها فى أحكامه وتعاليمه وأكد على لزوم الرأفه بها (وسياتى توضيح أكثر فى هذا المجال فى بحث التنبيهات).

ص: ٢٨٢

١- (١). «مُعْنِفٌ» من ماده «عنف» على وزن «فعل» وتعنى أخذ الشىء بشده وعنف.

٢- (٢). «مُجْحِفٌ» من «الإجحاف» وأصله من «جحف» على وزن «حرف» بمعنى الإصرار على إضرار الطرف المقابل.

٣- (٣). «مُلْغِبٌ» من «اللغوب» وتعنى التعب والإرهاق، وعندما تأتى من باب إفعال تكون متعديه وتعنى إتعاب الآخر.

٤- (٤). «مُتْعِبٌ» من ماده «تعب» ومعناها واضح، ولكن إذا جاءت من باب إفعال فإنّها تكون متعديه وبمعنى إتعاب الآخر، وهى قريبه المعنى من «ملغب»؛ ولكن ذهب بعض إلى أنّ «لغوب» تعنى التعب النفسى والارهاق الروحى فى حين أنّ التعب يقصد به ما يشمل التعب البدنى أيضاً.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض لبيان توصيه أخرى ويقول: «ثُمَّ أَحْدُرُ (١) إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصِيْرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ».

وتنطلق هذه التوصيه من دليلين: الأول: أنه ربّما يوجد بعض المحتاجين والمحرومين الذين ينتظرون المساعدة من بيت المال، فلو أبطأ إيصال حقّهم إليهم فسيواجهون العسر والضيق ولا يمكنهم حلّ مشاكلهم، والآخر: أنّ تأخير إيصال هذه الأموال سيعرّضها للآفات، ومن أجل وقايتها من تلك الآفات لابدّ من الإسراع في حملها إلى بيت المال وإيصالها إلى وليّ أمر المسلمين.

وذهب بعض الشراح لنهج البلاغه إلى أنّ الاستفادة من هذه العبارة عدّه أحكام فقهيه، الأول، جواز نقل الزكاه من مدينه إلى أخرى، والآخر: أنه لا يحقّ للمأمورين والعاملين على جمع الزكوات تقسيمها برأيهم، والثالث: أنّ الزكاه يجب إيصالها إلى وليّ أمر المسلمين ويتمّ تقسيمها تحت نظره وإشرافه.

وبديهي أنّ هذا الحكم يتعلّق بالمناطق القريبه من مركز الحكومه والخلافه، وأمّا المناطق البعيده التي لا يمكن نقل مال الزكاه إلى المركز إلّا بصوره نقود، فلها حكم آخر، يعني أنّ وكلاء الإمام عليه السلام يستطيعون جمع تلك الأموال وتقسيمها في مراكزهم ومحلّ ولايتهم.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام كيفيه نقل حيوانات الزكاه ويأمر عامله على الزكاه بعشره أوامر دقيقه ويقول:

«فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِرْ (٢) إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقِهِ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا (٣) ، وَلَا

ص: ٢٨٣

١- (١). «أَحْدُرُ» من ماده «حدر» على وزن «حرف» بمعنى التحرك بسرعه، وكذلك تعنى جرّ الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهنا المراد بها المعنى الأول يعنى جمع زكاه الحيوانات والإتيان بها بسرعه إلينا لنوصلها إلى المستحقين.

٢- (٢). «أَوْعِرْ» من ماده «وعز» على وزن «وعظ» بمعنى الاقتراح والتوصيه لآخر بعمل معين.

٣- (٣). «فصيل» بمعنى ولد الإبل الذى فطم عن الرضاع، ومن ماده «فصل» وهو فصل الطفل عن امّه فى الارتضاع، ولكن مع الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام أمر بعد هذه الجملة أن لا يحلب جميع ما فى الضرع من اللبن لينتفع به الفصيل، فيستفاد من ذلك أنّ المقصود من الفصيل هنا ولد الناقه الذى على وشك أن يفصل ويفطم ولكنّه لحدّ الآن لم يفطم (وعلى حدّ تعبير الأدباء هو مجاز بعلاقه الأول والمشارفه).

يَمْصُرُ (١) لَبَنَهَا فَيُضَرُّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَلَا يَجْهَدُنَّهَا رُكُوبًا، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرْفَهُ عَلَى اللَّاغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ (٢) بِالنَّقَبِ (٣) وَالظَّالِعِ (٤)».

ما ذكر أعلاه من كلام الإمام عليه السلام يتضمن سته أقسام من توصيات الإمام عليه السلام فيما يتصل برعايه حال حيوانات الزكاه، وهي توصيات إنسانيه وأخلاقية وتدل على أنّ الإسلام يرى لزوم مراعاة حال الحيوانات أيضاً، فهذه الحيوانات لا تملك لساناً لبيان حالها، ولا قدره على الدفاع عن نفسها.

ثم بين الإمام عليه السلام عدّه توصيات أخرى في هذا المجال ويقول: «وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدْرِ (٥)، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْمَارِضِ إِلَى حَيَوَادِّ (٦) الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعِيَاتِ وَلْيُمَهِّلْهَا عِنْدَ النَّطَافِ (٧) وَالْأَعْشَابِ (٨)، حَيْثَى تَأْتِينَا بِإِذْنِ اللَّهِ بِدَنًا (٩) مُنْقِيَاتٍ (١٠)، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ».

في هذه التوصيات الأربع الأخيره يتحدث الإمام عليه السلام عن مأكّل ومشرب هذه الحيوانات، والغرض من ذلك أن لا تشعر هذه الحيوانات بالعطش والجوع في مسيرها إلى مركز الخلافة وبيت المال، فينبغي أن تشرب في مسيرها من الماء

ص: ٢٨٤

- ١- (١). «لا يمصر» من ماده «مصر» على وزن «نصر» بمعنى حلب جميع ما فى الضرع من اللبن.
- ٢- (٢). «يسْتَأْنِ» من ماده «أنى» على وزن «امر» وتعنى الإمهال، وعندما تأتى من باب الاستفعال فتعنى الانتظار والمداراه.
- ٣- (٣). «نقب» هو الجمل الذى يصعب عليه المشى لتهرؤ باطن خفه.
- ٤- (٤). «ظالع» من ماده «ظلع» على وزن «زرع» وتعنى الناقه العرجاء.
- ٥- (٥). «غدر» جمع «غدير» تعنى بركه الماء.
- ٦- (٦). «جواد» جمع «جاده» تعنى الطريق الواسع.
- ٧- (٧). «نطاف» جمع «نطفه» بمعنى الماء الزلال.
- ٨- (٨). «الأعشاب» جمع «عشب» على وزن «قفل» بمعنى النباتات الخضراء.
- ٩- (٩). «بُدن» جمع «بادن» بمعنى الحيوان البدين.
- ١٠- (١٠). «مُنْقِيَاتٍ» جمع «مُنْقِيه» بمعنى الحيوان الكثير الدسم.

بالمقدار الكافي ويسار بها فى الطرق التى تكثر فيها الأعشاب والنباتات لتأكل منها.

وهذه التوصيات مضافاً إلى الطابع الأخلاقى والإنسانى لها، تعود بالنفع إلى بيت المال والمحتاجين والمستحقين لهذه الحقوق المالىة، ولذلك يقول الإمام عليه السلام فى نهايه هذا الكلام: «حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بُدْنًا مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتَعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ»، أى تأتى هذه الحيوانات سالمه ونشطه وغير مجهده من تعب الطريق.

وفى ختام هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى الغرض النهائى من هذه التوصيات، ويقول: «لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»، بين المحرومين والمستضعفين دون تدخل المنافع الشخصيه فى هذه العمليه.

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

تأملان

١. التأكيد على إيصال أموال الزكاه إلى المحرومين

يؤكد الإمام عليه السلام فى هذه الرساله النورانيه ثلاث مرات على هذا الأمر، وهو أنّ أموال الزكاه بعد جمعها يجب تقسيمها بين المحرومين والمستضعفين، ففى مورد يقول الإمام عليه السلام: «مَالُ الْمُسْلِمِينَ»، وفى مورد آخر يقول: «فَيَقْسِمُهُ بَيْنَهُمْ»، وفى مورد ثالث يقول: «نُصِيحِيَّزُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ»، فى ختام هذه الرساله يقول: «نَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ». وهذا التكرار، وإن كان على حدّ قول ابن أبى الحديد: مخالف إبتداءً لمقتضيات البلاغه والفصاحه، ولكن نظراً إلى أنّ الناس كانوا يعيشون فى ذلك الوقت ذكريات زمان عثمان الذى كان يوزع بيت المال على فئه معينه من الأشخاص ويحرم منه المحتاجين والمعوزين، وأدى ذلك إلى إشتعال نار الفتنة والثوره عليه، فالإمام عليه السلام فى هذا المورد يكرس حاله الطمأنينه والثقه فى قلوب الناس بتكرار هذه العبارة ثلاث مرات فى هذه الرساله وأنّ غرضنا من ذلك و تقسيم مال المسلمين بينهم وإيصال حقوق المستحقين إليهم.

إنَّ المجتمعات البشريه كانت منذ قديم الأيَّام تتعامل مع الحيوانات التى تنتفع منها من موقع الاحترام ومراعاة بعض الأصول والآداب فى ذلك، وفى بعض الموارد ربَّما تصل هذه العلاقه والتعامل إلى حدِّ الإفراط وتتخذ شكلاً من أشكال العباده كما يلاحظ ذلك فى هذا الزمان بين جماعه من الهندوس، حتَّى تشكَّلت فى هذا العصر جمعيات الدفاع عن حقوق الحيوانات وقَرَّروا لذلك قوانين ومقرَّرات لضمان عدم تجاوز هذه الحقوق ضدَّ الحيوانات، والأشخاص الذين لا يراعون هذه المقرَّرات يتمُّ الاعتراض عليهم، وبالرغم من أنَّ هذا الموضوع حاله حال سائر المواضيع التى تتعلق بحقوق الإنسان أو الدفاع عن المعتقلين أو الأطفال وأمثال ذلك، اتَّخذت فى الكثير من الموارد صبغه سياسيه وتبدَّلت إلى عصا غليظه لتخويف المعارضين السياسيين، وأحياناً نراهم يغضبون حقوق الآلاف الأبرياء من الناس وينفقون مليارات من الدولارات على صناعه وتطوير أسلحه الدمار الشامل، ولا- يرتفع أى صوت بالاعتراض عليهم، ولكنَّهم عندما يتعرَّض حيوان للأذى مثلاً- فإنَّهم يرفعون عقيرتهم بالصراخ والعيول.

ولكنَّ الإسلام راعى فى هذه المسائل حدَّ الاعتدال منذ البدايه وأكَّد على توصيات دقيقه بالنسبه للحيوانات، بحيث أنَّ كلَّ إنسان منصف يرى فى هذه التوصيات والمقرَّرات جماليه وتعامل أخلاقى فى غايه اللطف.

وقد ورد فى كتبنا الروائيه، أحاديث كثيره فى هذا الباب، منها ما ورد فى الأبواب المتعلقه بالحجَّ فيما يتصل بكيفيه الاستفادة من الحيوانات للركوب فى مسير الحجَّ تحت عنوان «أَبوابُ احكامِ الدَّوابِّ فى السَّفَرِ وَغَيرِهِ».

وقد أورد المرحوم الشيخ الحر العاملى فى كتاب وسائل الشيعه فى الجزء الثامن تحت هذا العنوان روايات كثيره فى أكثر من خمسين باباً، وفيما يلي نستعرض بعض هذه الروايات التى أوردتها فى الباب الأول:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا خِصَالٌ: يَبْدَأُ بِعَلْفِهَا إِذَا نَزَلَ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ وَلَا يَضْرِبُ وَجْهَهَا فَإِنَّهَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى ظَهْرِهَا إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُحْمَلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يُكَلِّفُهَا مِنَ الْمَشْيِ إِلَّا مَا تُطِيقُ» (١).

وهذا إشارته إلى أنّ بعض الأشخاص الذين يركبون هذه الدوابّ عندما يتقابلون فيما بينهم أو يمرّون على أحد المشاه يتوقفون للسلام والتحيه والحديث مع بعضهم، فينبغي للراكب أن ينزل عن ظهر الدابة إلى أن ينتهي من كلامه مع صاحبه ثم يركب دابته ويكمل مسيرته، لأنّ مثل هذا التكليف إتعاب للدابة في حال توقّف الراكب بدون مبرّر، ولكن مثل هذا التوقف وعدم نزول الفارس إذا كان في ميدان القتال، له ما يبرّره لوجود الخطر في نزول الفارس من مركبه.

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال بما يشبه هذا المضمون: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةٌ حُقُوقٌ» (٢) وفي روايه أخرى ذكر سبعة حقوق.

إنّ العبارات الدقيقه الوارده في هذه الروايه تعكس هذا الحقيقه الحاسمه، وهى أنّ الإسلام لم يغفل عن أدقّ التفاصيل وجزئيات المسائل في هذا الموضوع، وأنّه قدّم أفضل التوصيات والتعاليم الإنسانيه في هذا المجال، والكثير من الأشخاص عندما يواجهون بعض القصور من دوابهم فإنهم يسارعون في ضربها بالسوط، ولكن الإسلام أكّد على لزوم التعامل مع الدواب بأسلوب حسن وعدم إلحاق الضرر والأذى بها، فنقرأ في حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه توجّه أربعين مرّه من المدينه إلى مكه لزياره بيت الله الحرام وكان يركب الناقه، وفي طيله هذه المدّه لم يضرب ناقته ولا سوطاً واحداً (٣).

وفي حديث معروف ومذكور في مصادر الشيعه وأهل السنّه: «إِنَّ امْرَأَةً عُدْبَتْ

ص: ٢٨٧

١- (١). وسائل الشيعه، ج ٨، أبواب أحكام الدواب، باب ٩، ص ٣٥٠، ح ١.

٢- (٢). الكافي، ج ٦، ص ٥٣٧، ح ١.

٣- (٣). المصدر السابق، باب ١٠، ص ٣٥٣، ح ٩.

فِي هِرِّهِ قَدْ رَبَطْتَهَا حَتَّى مَاتَتْ عَطْشًا» (١).

بل يستفاد من بعض الروايات أنه لا ينبغي سبّ الحيوانات وشمها (٢) وهذا يدلّ على أنّ الحيوانات تملك شعوراً وفهماً بحيث تتألم من السبّ والشمّ، مضافاً إلى أنّ هذا الكلام البذيء من شأنه تلويث لسان الإنسان وفمه وربّما يصير تدريجياً عادة له ويتعامل مع الناس أيضاً بمثل هذا التعامل السيء.

ص: ٢٨٨

١- (١) . كنز العمال، ح ٤٣٦٩٥؛ وسائل الشيعة، باب ٥٣ من أحكام الدواب. ص ٣٩٧.

٢- (٢) . تهذيب الأحكام، ج ٤، ص ١٦٤، ح ٤.

إلى بَعْضِ عُمَّالِهِ وَقَدْ بَعَثَهُ عَلَى الصَّدَقَةِ (١)

نظرة إلى الرسالة

يحدّر الإمام عليه السلام في هذه الرسالة «مخنف بن سليم» من النفاق والإزدواجية في الشخصية، وينهاه عن سوء التعامل مع الناس وعدم الاهتمام والعناية بهم، وفي مقطع آخر من الرسالة يؤكد الإمام عليه السلام على أنك عامل لجمع الزكاه ولك سهم منها سندفعه إليك، ولكن الباقي يتعلق بالمحتاجين والمستحقين من هذه الأمة، فينبغي إيصاله لهم.

وفي ختام الرسالة يحدّر الإمام عليه السلام من أي شكل من الأشكال الخيانه في الأمانه وأنّ خيانه الأمة وإمام الأمة تعدّ من أشنع الخيانات.

ص: ٢٨٩

١- (١) . سند الرسالة: طبقاً لما أورده القاضي النعمان المصري (المتوفى ٣٦٣) في كتاب دعائم الإسلام، أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة إلى «مخنف بن سليم الأزدي» أحد قادة جيشه، وما ذكره القاضي النعمان في كتابه المذكور يعتبر متناً مختصراً بالنسبة لما أورده السيد الرضى في نهج البلاغه، والحاج النورى في كتابه مستدرک الوسائل في كتاب الزكاه الباب ١٢ الحديث ٣، والظاهر أنّ مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغه لم ينقل عن مصدر آخر قبل السيد الرضى غير هذين المصدين.

أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَأَشْهَدَ غَيْرُهُ، وَلَمَّا وَكَيْلَ دُونَهُ. وَأَمْرُهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيَخْدِ الْإِلَهَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسْرَى، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفَعَلَهُ وَمَقَالَتَهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ وَأَمْرُهُ أَلَّا يَجْبِهَهُمْ وَلَا يَعْضَهُمْ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفْضُلًا بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

الشرح والتفسير: التعامل الحسن مع دافعي الضرائب الإسلاميه

يأمر الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الرسالة بثلاثه أوامر لعامله على جمع الزكاه، وتبدأ كل واحد من هذه التوصيات بجمله «أمره».

بدايه يأمره الإمام عليه السلام بلزوم تقوى الله تعالى في الظاهر والباطن، العلانيه والسرّ ويقول: «أمره بتقوى الله في سرائر أمره وخفيايت عمله، حيث لأشهد غيرهُ، ولأ وكيل دونه».

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام في هذه الجمله يشير إلى أحد أهم مصاديق التقوى، يعنى التقوى في الأمور الخفيه، أعم من التيه الباطنيه والأعمال الظاهريه التي لا يراها سوى الله تعالى، وهذا الأمر يعدّ من أهم الأمور التي لا يمكن تحقيقها وتحصيلها إلّامن خلال الإيمان بالله والاعتقاد بحضوره في كل مكان وزمان، إنّ المشكلات التي تعيشها المجتمعات البشريه، والأزمات التي تصيب الناس، تتعلق غالباً بهذه المسأله، فتؤخذ القرارات بمعزل عن أهل الخبره وتنجز الأعمال بعيداً

عن أنظار الناس ويتمّ التضحية بالمنفعة العامه لصالح المنافع الشخصية غير المشروعه.

وعبارته: «حَيْثُ لَشَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلَمَّا وَكَيْلَ دُونَهُ» ناظره قطعاً للأشخاص العاديين غير الحاضرين في خلوه الإنسان، ولكنّ الملائكة المأمورين بكتابه أعمال الإنسان يعيشون معه في كلّ مكان وزمان ويراقبون أعماله وسلوكياته في جميع الأوقات، والأعلى من الجميع الذات المقدّسه الحاضره في جميع أرجاء عالم الوجود ولا يخفى عليها شيء من صغائر الأمور وكبائرها.

ثمّ يأمره الإمام عليه السلام بالأمر الثاني ويقول: «وَأَمْرُهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيَخَالَفَ إِلَيْ غَيْرِهِ فِيمَا أَسْرًا».

وهذا يعنى أنّ الإنسان يجب أن يكون موحداً في شخصيته حيث يتطابق ظاهره مع باطنه، لأنّ اختلاف الظاهر والباطن، والخلوه والجلوه، تعتبر مصداقاً بارزاً للنفاق، والمسلم ينبغي أن يكون بريئاً ونقيّاً من النفاق.

ثمّ يذكر الإمام عليه السلام كلاماً هو بمثابة الدليل على تلك التوصيه ويقول: «وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفَعَلَهُ وَمَقَالَتَهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ».

ومفهوم هذا الكلام أنّ الأشخاص الذين يختلف ظاهرهم عن سريرتهم، ولا- تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، هؤلاء خونه وغير مخلصين في طاعه الله، وهذه هي الحقيقه، فهل توجد خيانه أفضح من أن يقوم الإنسان بمزاولة أعمال حسنه بقصد الرياء أمام الناس، ولكنّه عندما يخلو برّبّه يسلك سلوكاً آخر، أو يقول بلسانه كلاماً مهذباً ويعد الآخرين بوعود جميله ويتحدّث عن الطهر والتقوى للناس ولكنّه على مستوى العمل والممارسه يتحرّك في خطّ الهوى والانحراف ويتسبّب بالتالى بعدم ثقه الناس بالدين وإضعاف الإيمان في قلوبهم؟! إنّ مثل هذه الأعمال السيئه مرفوضه ومذمومه من أى شخص، ولكنّها إذا صدرت من المسؤولين والمتولّين لأموال الناس فستكون أقيح وأشنع.

ويشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية في مسأله الإخلاص والأمانه إلى أمرين:

أحدهما: التجانس والإنسجام في السرّ والعلن، والآخر: الإنسجام في القول والفعل، والحقيقه أنّ الإخلاص يقوم على أساس هذين الركنين وأنّ المرئيين من الناس يفقدون الإلتزام بأحد هذين الركنين أو بكليهما.

وطبعاً فإنّ رعايه هذا الأصل بالنسبه للمسؤولين على بيت المال أهمّ وأشدّ من الآخرين حيث يجب أن يتحلّى المسؤولون بهاتين الصفتين، وهما الحفظ والأمانه.

ونقرأ في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ خَالَفَتْ سَرِيرَتَهُ عَلَانِيَتُهُ فَهُوَ مُنَافِقٌ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَحَيْثُ كَانَ وَفِي أَيِّ أَرْضٍ كَانَ وَعَلَى أَيِّ زُبَيْهِ كَانَ»^(١).

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن لقمان الحكيم أنه قال:

«لِلْمُنَافِقِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: يُخَالِفُ لِسَانُهُ قَلْبَهُ وَقَلْبُهُ فِعْلَهُ وَعَلَانِيَتُهُ سَرِيرَتَهُ»^(٢).

ثمّ يطرح الإمام عليه السلام في توصيته الثالثه ثلاثه أوامر لعامله ويقول: «وَأَمْرُهُ أَلَّا يَجْبَهُهُمْ وَلَا يَعْضَهُهُمْ، وَلَا يَزْغَبَ عَنْهُمْ تَفْضُلًا بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ».

وهذه ملاحظات نفسيه مهمه جداً في مسأله جمع الضرائب وحقوق بيت المال وترتبط بشكل خاصّ بجميع أمور الإداره والحكومه، فالتعامل الجيّد مع الناس من شأنه تعميق أواصر المودّه والثقه المتبادله بين الحكّام والمحكومين، وبالتالي تشجّع الناس على أداء الحقوق الماليه والوظائف الشرعيه عليهم وتجعل من المكلفين أن يتقدّموا طواعيه لدفع ما عليهم من تكاليف في مقابل الحكومه أو المدرءاء، من دون حاجه لجهاز مخابرات ومأمورين غلاظ شداد ومحاكم تفتيش وما إلى ذلك، بعد أن يتحرّك الناس في خطّ الإستقامه والمسؤوليه والرساله من موقع الوعي الكامل

ص: ٢٩٣

١- (١). بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٢٠٧.

٢- (٢). المصدر السابق، ص ٢٠٦، ح ٧.

بالوظيفة الشرعية، والتجارب الحديثه فى العصر الحاضر تؤيد صدق هذا الكلام وصحة هذا البيان.

صحيح أن البعض ربما يسىء الاستفادة من هذه المسألة ولا يؤدي ما عليه من حقوق لبيت المال، ولكن الخساره المترتبة على مثل هذا السلوك الحسن أقل بكثير مما لو كان التعامل معهم بالنيات الشده والعنف.

ص: ٢٩٤

وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلِ مَسْكِنِهِ، وَضِعْفَاءَ ذَوِي فَاقِهِ، وَإِنَّا مُوقِفُوكَ حَقِّكَ، فَوْقَهُمْ حُقُوقَهُمْ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبُؤْسَى لِمَنْ - خَصِيْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ - الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمِدْفُوعُونَ وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ! وَمَنْ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ وَلَمْ يُنْزِهِ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحْيَلَ بِنَفْسِهِ الدَّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَدْلُ وَأَخْزَى! وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الْأُمَّةِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: اعمل بحيث لا يشكوك المحرومون يوم القيامة

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى نقطه مهمه في هذا الشأن بإمكانها أن تكون بمثابة الدليل على الكلام السابق، وهي أن عامل جباية الزكاه لا ينبغي له الغفله عن هذه الحقيقه، وهي أنه بوصفه عاملاً على جمع الزكوات له حق معين وسهم خاص من هذا المال، وأن الطوائف الأخرى من المستحقين للزكاه هم شركاء معه في هذا المال، فإن لم يراع حقهم في هذا المال فإن مصيره يوم القيامة سيكون وخيماً، يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلِ مَسْكِنِهِ، وَضِعْفَاءَ ذَوِي فَاقِهِ، وَإِنَّا مُوقِفُوكَ حَقِّكَ، فَوْقَهُمْ حُقُوقَهُمْ».

و هذا الكلام إشاره إلى عدم معامله أموال الزكاه كالمعاملات الخصوصيه أو الشخصيه، فطبقاً لصريح القرآن الكريم، أن هذه الأموال مشتركه بين ثمان طوائف من الناس.

ويبين الإمام عليه السلام الآثار السيئة والمضرّة للتخلف عن هذه التوصيات ويقول:

«وَالَا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وهو إشارة إلى أنّ الإنسان عندما يقف في محكمه العدل الإلهي فربما يواجه بعض الشاكين والمخالفين، ويستطيع أحياناً كسب رضاهم بشكل من الأشكال وأحياناً أخرى يواجه آثافاً مؤلفه من الشاكين والساخطين عليه بحيث لا يستطيع كسب رضا الجميع، والأشخاص الذين يخونون بيت المال ويسرقون من الزكاه هم من هذه الفئة من الناس.

ويستمرّ الإمام في بيان توصياته في هذا الشأن ويقول: «وَبُؤْسِي (١) لِمَنْ - خَصِمَهُ عِنْدَ اللَّهِ - الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ (٢)، وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ».

ومفرده «الْفُقَرَاءُ»، «الْمَسَاكِينُ»، «السَّائِلُونَ» و «الْمَدْفُوعُونَ» كلّها تشير إلى جماعه المحتاجين والمحرومين مع هذا الفارق، وهو أنّ الكثير من المفسرين للقرآن يعتقدون بأنّ المسكين هو أسوأ حالاً من الفقير، وكأنّه من شدّه فقره بلغ حدّاً أن جلس على الأرض، (لأنّ المسكين من السكون) فيجب على المسؤولين أن يهتمّوا بشكل خاصّ برعايه هذه الشريحه من الناس، لأنّهم ربّما لا يظهرون حاجتهم ويمدّون أيديهم إلى الناس وحتى إلى بيت المال حياءً وخجلاً في حين أنّ السائلين أزاوا ستار الخجل والحياء واضطروا لسؤال الناس ومدّوا أيديهم لطلب المعونه والمساعده، و (المدفوعون) هم الأشخاص الذين يعيشون الغنى وعدم الحاجه بالقوه لا بالفعل، يعنى يملكون أموالاً كافيه، ولكنّ الغاصبين قد أخذوا منهم أموالهم وحرموهم من حقّهم وجعلوا منهم فقراء ومحتاجين.

وأما «الغارمُونَ» فتعنى المدنيين الذين عجزوا عن تسديد ديونهم إلى أصحابها،

ص: ٢٩٦

١- (١). «بؤسى» يعنى شدّه المحنه وسوء الحاله وتكون ناتجه أحياناً من الفقر وأحياناً بسبب عوامل أخرى، وهذه الكلمه من قبيل «بأساء» و «وبؤس» على وزن «قفل».

٢- (٢). «مدفوعون» يعنى الأشخاص الذين منعوا عن حقّهم.

أو الذين أعلنوا إفلاسهم، من الكسبه والتجّار، بدون تقصير منهم.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه، إلى أنّ «مَدْفُوعُونَ» تعادل كلمه «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الوارده في مصارف الزكاه باعتبار أنّ هؤلاء مدفوعون لأعمال معينه بمنطلقات دينيه إلهيه، و «السائلون» تقع في مقابل «في الرقاب» الوارده في الآيه الشريفه باعتبار طلبهم التحرّر من الرّق والعبوديه، وعلى ضوء ذلك مصارف الزكاه الثمانيه الوارده في الآيه الشريفه ذكرت سته منها في هذه الرساله، وأحد مصارف الزكاه هو «العاملون عليها»، أى العاملين على جمع الزكاه، فالإمام أشار إلى ذلك سابقاً، وبقى المورد الثامن من المستحقين للزكاه وهو المؤلفه قلوبهم حيث لم يرد فيه كلام الإمام عليه السلام بسبب أنّ هذا المورد لم يكن محلّ ابتلاء في ذلك الوقت، مضافاً إلى أنّ العلامه المجلسي ذكر بأنّ الإمام عليه السلام في هذا الكلام لم يكن بصدد ذكر جميع الموارد الثمانيه لمصارف الزكاه حتّى يتكلّف البعض تأويل كلمات الإمام عليه السلام بما يتفق مع ما ورد في الآيه الشريفه.

ويطرح الإمام عليه السلام في سياق كلامه استدلالاً متيناً في ما يؤول إليه خونه بيت المال ومصيرهم السيء في الدنيا والآخره ويقول: «وَمَنْ اشْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ، وَرَتَعَ (١) فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يَنْزِرْهُ نَفْسُهُ وَدِينُهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ (٢) بِنَفْسِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ أَدْلُ وَأَخْزَى».

أمّا الدلّه والفضيحه في الدنيا فتعود إلى أنّ الخيانات المتكرّره لا تكاد تخفى على الآخرين فعاجلاً أم آجلاً سيفتضح الخائن وينظر إليه الناس بنظر الإزدراء والاحتقار ويلبس ثوب المذلّه والمهانه في واقع الحياه والمجتمع، وأمّا في الآخره وعندما تقدّم للناس صحائف أعمالهم فذلك «يوم البروز» حيث تبرز الأعمال

ص: ٢٩٧

١- (١). «رَتَعَ» من ماده «رتع» على وزن «فتح» بمعنى تناول الطعام والشراب الكثير وخاصه في فصل الربيع وفي القرى والأرياف، ولكن المعنى الواسع للكلمه يطلق على كل أكل وشرب حتى ما أكلت الحيوانات في الصحراء، ومن هنا اطلقت كلمه مرتع على المناطق التي يكثر فيها علف المواشى.

٢- (٢). «أَحَلَّ» من «الحلول» بمعنى الدخول، وعندما تأتي من باب إفعال فتعنى إدخال.

الخفيه وتنشر الملفات وتذاع الأسرار على أهل المحشر، وهنا ستكون الفضيحة العظمى والخزى الأنكى.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يكتفِ هنا بالتعبير بالخيانة فى الأمانه فقط، بل إنه اعتبر أنّ الاستخفاف و «اشْتِهَانُ بِالْأَمَانَةِ» يعدّ منقصه كبيره وعبياً أخلاقياً، وهذا يعكس الأهميه الفائقه للأمانه.

يشير الإمام عليه السلام فى ختام هذه الرساله إلى نقطه أخرى، وهى أنّ الخيانه تارة تكون بالنسبه لشخص معين، وأحياناً أخرى ترتكب فى حقّ الأُمّة، ومعلوم أنّ الخيانه فى حقّ الأُمّة أقبح وأخطر من الأولى، يقول: «وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ (١) الْغِشِّ (٢) غِشُّ الْأَيْمَةِ، وَالسَّلَامُ».

والعلّه فى ذلك واضح، لأنّ الإنسان إذا ارتكب خيانه فى حقّ شخص أو عدّه أشخاص فربّما يندم يوماً ويتحرّك على مستوى البحث عن هؤلاء الأشخاص والاعتذار منهم وكسب رضاهم، ولكن إذا كانت الخيانه متوجّهه إلى الأُمّة فإنّ جبرانها سيكون عسيراً جداً وقد يكون محالاً، أضف إلى ذلك أنّ خيانه الأُمّة تفضى إلى الخيانه لإمام الأُمّة، وكسب رضا الإمام لا يعدّ أمر يسيراً.

وقد استفاد الإمام عليه السلام فى هذه العبارة من مفردتين، احدهما: الخيانه، والآخرى:

الغشّ، وذلك من جهه أنّ الكثير من الخونه يستخدمون اسلوب الغشّ لإخفاء خيانتهم، وفى الحقيقه أنّهم يرتكبون مخالفتين، إحداهما الغشّ والآخرى الخيانه، ومن هذه الجهه أشار الإمام عليه السلام إلى كلا الأمرين، والسبب فى أنّ الإمام عليه السلام ذكر الغشّ فيما يتصل بالأئمّه، هو أنّ الخونه يخشون من الإمام وقاده الأئمّه، ولهذا السبب يخفون أعمالهم الشائنه وخيانتهم بطريقه الغشّ والخداع.

ص: ٢٩٨

- ١- (١). «أفّظع» من «الفّظاعه» بمعنى القبيح جداً.
- ٢- (٢). «الغشّ» تأتي أحياناً بكسر العين وآخرى بفتحها، فعندما تأتي بكسر العين تكون اسم مصدر وتعنى الخداع والحيله والخيانه، وإذا جاءت بفتح العين فتكون مصدراً وتعنى عمل الخيانه والمكر.

١. الأصناف الثمانية لمستحقّي الزكاه

ورد في القرآن الكريم في الآيه ٦٠ من سورة التوبه بيان للموارد الثمانية لمصرف الزكاه، تقول الآيه الشريفه: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، ويمكن اختزال هذه المصارف والموارد الثمانية في ثلاثه أصول كلييه:

الأول: المحتاجون ويشمل الفقراء المساكين والعبيد الذين يعيشون التعب والإرهاق من شدّه العمل، والغارمين ومن واجه الضيق والإفلاس في تجارته وعمله بدون تقصير منه، وكذلك من بقى في طريق السفر بدون مؤنه أو مال، وهذه الطوائف الخمسه تعتبر من المحتاجين، فبعضهم يحتاج لمعاشه اليومى من الطعام والملبس والسكن، وبعضهم يحتاج للمال لتسديد دينه، وثالث يحتاج للمال بسبب عجزه عن مواصله سفره لعدم المال وفقدان المتاع (وإن كان في وطنه غنياً وغير محتاج)، وبعضهم يحتاج لإنقاذ نفسه من قيود الرقّ والعبوديه.

الطائفه الثانيه: الأشخاص الذين يعملون في شأن الضرائب وجمع الزكوات وحفظها وإيصالها إلى بيت المال فيجب أن يدفع لهم اجره المثل لعملهم.

الطائفه الثالثه: المنافع العامه للمسلمين، نفقات الجهاد في سبيل الله، بناء المساجد، تأسيس المدارس، نشر وتبليغ الرساله الإلهيه، ولتأليف قلوب غير المسلمين وجذبهم نحو الإسلام، فهذه المصارف تتمّ تغطيتها من مال الزكاه، وهذه الطوائف الثلاث وردت في القرآن الكريم على شكل ثمانية موارد، وفي الحقيقه أنّ هذا الحصر في استحقاقات الزكاه يستوعب جميع حاجات المجتمع الإسلامى، ولو تمّ دفع الزكاه (وكذلك الخمس) بشكل دقيق ومدروس، فإنّ قسماً مهماً من المشاكل الماليه سيتّم حلّها وسدّ أشكال الخلل الاقتصادى بهذه الطريقه، كما ورد هذا المعنى

فى الروايات الشريفه، يقول الإمام الصادق عليه السلام «لَوْ أَنَّ النَّاسَ أَدَّوْا زَكَاهَ أَمْوَالِهِمْ مَا بَقِيَ مُسْلِمٌ فَقِيْرًا مُّحْتَاجًا... وَإِنَّ النَّاسَ مَا افْتَقَرُوا وَلَا اِحْتاجُوا وَلَا جاعُوا وَلَا عَرُوا إِلَّا بِذُنُوبِ الْأَغْيَاءِ»(١).

٢. الأمانه، أصل القيم الأخلاقيه فى الإسلام

تعتبر الأمانه وإلى جانبها الصدق، أصلان مهمّان فى التعاليم الدينيه والمفاهيم القرآنيه، ولا ينعكس هذان الأصلان الأخلاقيّان بشكل كبير فى القرآن الكريم والروايات الإسلاميه فحسب، بل يعدّان من جملة تعاليم ومبادئ جميع الأنبياء عليهم السلام، فنقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْعَبْرِ وَالْفَاجِرِ»(٢).

وهذان الأصلان إلى درجه من الأهميه بحيث أنّهما يعدّان من علانم الإيمان والتقوى الرئيسيه، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَمَّا تَنْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ صِيْلَمَاتِهِمْ وَصَوْمِهِمْ وَكَثْرَةِ الْحَجِّ وَالْمَعْرُوفِ وَطَنْطِنْتِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَلَكِنْ أَنْظُرُوا إِلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»(٣).

وفى حديث مماثل يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَا تَغْتَبُّوا بِصِيْلَمَاتِهِمْ وَلَا بِصِيْلَمَاتِهِمْ فَإِنَّ الرَّجُلَ رَبَّمَا لَهَجَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ حَتَّى لَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ وَلَكِنْ اخْتَبَرُوهُمْ عِنْدَ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»(٤).

وقد وردت مثل هذه المضامين المثيره فى روايات أخرى كذلك.

والعلّه فى كلّ هذه التأكيدات لا تحتاج إلى كثير بيان، لأنّ أهمّ رأسمال المجتمع الإسلامى هو الاعتماد المتقابل والثقه المتبادله بين أفرادها، فلو انعدم هذا الاعتماد

ص: ٣٠٠

١- (١). وسائل الشيعه، ج ٦، ص ٤، باب ١، ح ٦، من أبواب الزكاه.

٢- (٢). الكافى، ج ٢، ص ١٠٤، ح ١.

٣- (٣). الأمالى، الشيخ الصدوق، ص ٣٠٠، ح ٦.

٤- (٤). الكافى، ج ٢، ص ١٠٤، ح ٢.

وزالت الثقة بين الأفراد، فإنّ ذلك من شأنه إضعاف حاله التعاون وتوهين عنصر التكاتف بين الناس، والعامل الأساس في تقوية الاعتماد والتكاتف بين الناس يتمثل في مبدأ الأمانة والصدق في التعامل والتواصل في فضاء المجتمع، لأنّ الخيانة والكذب يؤدّيان إلى انهدام صرح الاعتماد والثقة المتبادلته فيتحوّل المجتمع البشريّ في النهاية إلى صحراء مقفره من المعنويات وتسود حينئذٍ شريعته الغاب فلا يجد الإنسان مفراً من الجفاف المعنويّ، وتعمّق حالات الكراهيه المتولّده من حالات الصراع.

ومن أشنع أشكال الخيانة، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك في هذه الرسالة، خيانة الأُمّة وخيانة بيت المال والحكومه الإسلاميّه، والتي تترتب عليها آثار مدمّره وعواقب وخيمه أشدّ بكثير من الخيانات الفرديه.

ص: ٣٠١

إلى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَ قَلَدَهُ مِصْرَ (١)

نظرة إلى الرسالة

ورد في كتاب الغارات أنّ عليّاً عليه السلام لما أجاب محمّداً بن أبي بكر رحمه الله بهذا الكتاب كان محمّد ينظر فيه ويتعلّمه ويقضى به، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويعجبه، فقال الوليد بن عقبه وهو عند معاوية لمّا رأى إعجاب معاوية به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال له معاوية: مه، يا ابن أبي معيط أنّه لا رأى لك، فقال له الوليد: إنّ لا رأى لك، أتريد أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبي تراب عندك؟! تتعلّم منها وتقضى بقضائه؟! فعلام تقاتله؟! فقال معاوية: ويحك أأمرني أن أحرق علماً مثل هذا؟! والله ما سمعت بعلم أجمع منه ولا أحكم ولا أوضح، فقال الوليد: إن كنت

ص: ٣٠٣

١- (١). سند الرسالة: ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ هذا العهد نقله قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتابه الغارات وابن شعبه الحرانى صاحب كتاب تحف العقول فى كتابه هذا، ونقله بعد السيد الرضى الشيخ الطوسى فى الإمالى والطبرى فى بشاره المصطفى وآخرون. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٦٥). ويستفاد من كتاب الغارات وكتاب نهج البلاغه الكامل أنّ هذا العهد المطول أكثر بكثير ممّا أورده السيد الرضى، حيث اقتصر السيد الرضى على نقل مقطع خاص منه.

تعجب من علمه وقضائه فعلام تقائله؟ فقال معاويه: لولا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه، ثم سكت هنيهة ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنا لا نقول: إن هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكن نقول: إن هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد بن أبي بكر.

فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني اميه حتى ولي عمر بن عبدالعزيز فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويضيف صاحب الغارات: فلما بلغ - يعني استشهاد محمد بن أبي بكر - علي ابن أبي طالب عليه السلام وأن ذلك الكتاب صار إلى معاويه اشتد ذلك عليه (يعني لماذا مثل هذا الكتاب الرائع الزاخر باللؤلؤ والمرجان يقع بيد من ليسوا أهلاً لذلك)(1).

وكيف كان، فإن هذه الرسالة طبقاً لما ذكره المرحوم السيد الرضى، تتضمن عدّه مقاطع: الأول: أن الإمام عليه السلام يأمر بلزوم رعايه التواضع وإقامه العدل في معامله الناس والتواصل معهم من موقع الرأفه والمحبه، وفي ذات الوقت الإهتمام بإبراز القوه والقدرة في مقابل قوى الجور والثروه.

وفي المقطع الثاني: يتحدّث الإمام عليه السلام بشكل كلى وشامل عن إحدى صفات المتّقين في تعاملهم مع الدنيا والنعم الماديه في عبارات بليغه وزاخره بالمعاني العميقه، ويبيّن كيف أنّ هؤلاء المتّقين يستخدمون هذه النعم الإلهيه في الدنيا دون أن يتورطوا في مهاوى الخطيئه ويقعوا في شباك حبّ الدنيا.

ويشير الإمام عليه السلام في المقطع الثالث، إلى نهايه الحياه وحلول الأجل ويتحدّث بكلمات بليغه بحيث أنّ التدقيق في مضامينها والتمعن في معانيها من شأنه إيقاظ كلّ إنسان من سبات الغفله.

ويلفت الإمام عليه السلام في المقطع الرابع نظر محمد بن أبي بكر إلى أهميه وخطوره

ص: ٣٠٤

١- (١). الغارات، ص ٢٥١؛ وهذا الكلام نقله ابن أبي الحديد بشكل مختصر في شرحه لنهج البلاغه (ج ٦، ص ٧٩) وصاحب كتاب نهج البلاغه الكامل، در ص ٩٠٣، بعد ذكره لهذا العهد بشكل كامل.

هذه المهمة التي كلفها به (أى حكومه مصر)، ويشير عليه ببعض التوصيات اللازمه فى هذ المجال.

وفى المقطع الخامس والأخير، يعود الإمام لبيان تحليل كلى وشامل فى الحديث عن الفرق بين قاده الهدى والحق وقاده الضلال والباطل ويشير إلى خطر المنافقين فى المجتمع الإسلامى.

وبعد الالتفات إلى أن وثيقه العهد هذه مطولة بدرجة كبيره لم يتمكن السيد الرضى من ذكرها كلها فى كتابه، ولذلك اختار بعض الفقرات والمقاطع منها، وقد وردت هذه الرساله كلها فى كتاب الغارات ونهج البلاغه الكامل وغيرهما.

ص: ٣٠٥

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلَمَّا يَيَّأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَيْدِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعَشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرِ، وَالظَّاهِرِ وَالْمُسْتُورِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَغْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

الشرح والتفسير: حسن الخلق مع جميع الأفراد

كما تقدّمت الإشارة إليه آنفاً فإن القسم الأول من هذا الرسالة ناظر إلى سلسلة من التوصيات الأخلاقية التي أمر الإمام عليه السلام واليه محمّد بن أبي بكر بالالتزام بها في تواصله وتعامله مع الناس، والواقع أنّ المسلمين جميعاً يجب أن يكونوا كذلك في توثيق وشائج المودّة والعلاقة بينهم، وهذه التوصيات تتمثّل في أربعة أمور:

الأول: لزوم رعايه المودّة والمحبة لجميع الأفراد في المجتمع، يقول الإمام عليه السلام:

«فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ».

وهذا التعبير مقتبس من القرآن الكريم في رسم كيفية تعامل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مع المؤمنين حيث تقول الآية الشريفة: «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(١)، وهذا تعبير كناية مستوحى من سلوك الطير مع فراخه، فعندما تأتي الفراخ إلى أمّها فإنّ هذه الأم ستفتح جناحها لهم وتجمع هؤلاء الفراخ تحت جناحها إظهاراً

ص: ٣٠٧

للمحبه لها وحمايه لهذه الفراخ من الأذى.

والأمر الثاني يقول الإمام عليه السلام: «وَأَلِنْ (١) لَهُمْ جَانِبَكَ».

وهذا التعبير أيضاً من القرآن الكريم حيث يقول: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» (٢).

وفى الأمر الثالث يقول الإمام عليه السلام: «وَأَبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ».

فلا ينبغي التعامل مع أى فرد من أفراد المجتمع بوجه عبوس وظاهر متجهم، والحديث معهم بمنطق الاستعلاء والغرور، فإن هذا من شأنه إبعاد الناس عنك وتشبثهم عن مركز القيادة، كما ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث يأمر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ويقول: «وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (٣).

والأمر الرابع ناظر إلى إقامه العدل فى جميع مناحى الحياه حتى فى جزئيات الأمور، يقول الإمام عليه السلام: «وَأَسِ (٤) بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ (٥) وَالنَّظَرِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظْمَاءُ فِي حَيْفِكَ (٦) لَهُمْ (٧) وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ (٨)».

وهذا إشاره إلى أنه لو حضر عندك رجل ثرى وذو نفوذ مع رجل ضعيف ومعدم لتقضى بينهم، أو لغرض آخر، فينبغي عليك مراعاة العدالة بينهما إلى حد أنك إذا نظرت لحظات معدوده لأحدهما فيجب أن تنظر إلى الآخر بهذا المقدار أيضاً ولا

ص: ٣٠٨

١- (١). «ألن» من «اللين» على وزن «حين» بمعنى السهوله.

٢- (٢). سوره آل عمران، الآيه ١٥٩.

٣- (٣). سوره آل عمران، الآيه ١٥٩.

٤- (٤). «أس» من «المواساه» وتعنى التساوى بين الأطراف من جميع الجهات.

٥- (٥). «لحظه» النظره الخاطفه من زوايه العين، خلافاً لـ «نظره» التى تعنى النظر بجميع العين، والعباره أعلامه تشير إلى أنّ الحاكم ليس فقط يساوى بين الرعيه بالنظر المباشر وبجميع العين، بل حتى باللحظات وبطرف العين.

٦- (٦). «حيف» الانحراف عن الحق والظلم والجور، سواء فى مقام القضاء أو الحكم أو فى الأمور الأخرى.

٧- (٧). الضمير فى «لهم» يعود إلى «العظماء» والجملة تعنى أنّ الأقوياء لا ينبغي أن يطمعوا فى حكمك لصالحهم على حساب حقوق الآخرين وظلم الرعيه، وأما عوده الضمير إلى «الرعيه» فبعيد جداً لأنّ «اللام» ينبغي أن تكون بمعنى على، مضافاً إلى أنّ كلمه «الرعيه» و «ضعفاء» لم تردا فى العبارات السابقه لتسويغ عوده الضمير عليهما، ولو كان المقصود ما ورد فى بدايه الرساله فستكون الفاصله بعيده.

٨- (٨). ضمير «عليهم» يعود إلى «ضعفاء» و «على» جاءت هنا بمعنى اللام، يعنى أنّ الضعفاء لا ييأسون من مراعاة العدالة فى حقوقهم، وجاء فى بعض النسخ حرف الباء بدلاً من «على» وهو أنسب ظاهراً.

تهتمّ وتصغى للغنى أكثر من اهتمامك وإصغائك للفقير والضعيف، فلو أنك راعيت مقتضيات العدالة في هذه الجزئيات الصغيره فسوف تستطيع بطريق أولى رعايه العدالة في الأمور الأهمّ ولا- يتوقّع منك الظلم والجور والانحياز لفئه خاصه على حساب فئه أخرى.

وهذا هو الحكم الشرعى فى باب القضاء الإسلامى وفى مورد رعايه القاضى للعداله بين المتخاصمين حيث يجب عليه مراعاه المساواه والعداله بين المتخاصمين فيما لو حضرا عنده، فلو أرادا الجلوس فعليهما أن يجلسا معاً، وإذا عزمّا على الوقوف، عليهما الوقوف سوياً، فلو أنّ القاضى سلّم على أحدهما فيجب عليه أن يسلم على الآخر، وإذا نظر إلى أحدهما لحظات فعليه أن ينظر للآخر بذلك المقدار، وإصرار الإسلام على رعايه مثل هذه التوصيات والمقرّرات إنّما هو لمنع أى شكل من أشكال الظلم والجور، ولا- نتصوّر أنّ مثل هذا القانون فى رعايه أصل العدالة موجود فى أى من القوانين القضائيه فى عالمنا المعاصر وبمثل هذه الدقه.

وقد ورد فى حديث نقله الكلينى فى الكافى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَنْ ابْتَلَى بِالْقَضَاءِ فَلْيُؤَاسِ بَيْنَهُمْ فِي الْإِشَارَةِ وَفِي النَّظَرِ وَفِي الْمَجْلِسِ» (١).

ومثل هذا المعنى ورد أيضاً فى رساله ٤٦ من نهج البلاغه والتي كتبها الإمام عليه السلام لأحد عمّاله.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه وتوصياته ويذكر علّه هذا الحكم ويقول: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعَشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمُسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبُ فَاتَّعَبْتُمْ أَظْلَمَ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمٌ».

ص: ٣٠٩

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظَى بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبْلَغِ؛ وَالْمَتَجَرِّ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَدَّهُ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ عَدَاً فِي آخِرَتِهِمْ. لِاتْرُدُّ لَهُمْ دَعْوَةَ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَدَّهِ.

الشرح والتفسير: الدنيا والآخرة لمن يعيش البساطه والزهد

في هذا المقطع من الرسالة تحدّث الإمام عليه السلام عن موضوع شامل في بيان صفات المتقين وامتيازاتهم وخصالهم ليكون ذلك درساً لمحمّد بن أبي بكر ولسائر أهالي مصر، يقول الإمام عليه السلام بدايه:

«وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا (١) أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ».

ثم إنّ الإمام عليه السلام تعرّض لشرح وتوضيح هذا العبارة فقال: «سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ

١- (١). الضمير في «لَمْ يُشَارِكُوا» يعود إلى المتقين، ومفهوم الجملة أنّ المتقين في الآخرة لا يشاركون في عذاب أهل الدنيا والمجرمين، ولكن ورد في بعض النسخ وكذلك النسخة المصححة لنهج البلاغه «لَمْ يُشَارِكُهُمْ» وهي أكثر تناسباً مع المضمون، وتعني أنّ أهل الدنيا لا يشاركون في الآخرة المتقين في نعيمهم في حين أنّ أهل الدنيا يشتركون مع المتقين في دنياهم بشكل معقول.

مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلٍ مَا أَكَلْتُمْ، فَحَظُّوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ (١)، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَّارَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ»، (أى بعيداً عن التكلّف والتكالب على زخارف الدنيا فى تنميق المساكن وتزيين القصور). وأكلوها بأفضل ما اكلت (الطعام الحلال والبسيط والبعيد عن التلوّث والإسراف).

ومفهوم هذا الكلام لا- يعنى أنّ المتّقين الزاهدين يهتمون بالجلوس على الموائد الملوّنه والسكن فى القصور المجلله وارتداء الملابس الأنيقه، بل المراد من ذلك أنّ هؤلاء فى حياتهم البسيطة يتنعمون منها كما يتنعم أهل الدنيا، لأنهم من جهة يسعون لتوفير ما يحتاجون إليه من المأكل والملبس والمسكن، وبالتالي فإنهم يتنعمون بها أيضاً، لأنّ الإنسان المحتاج عندما يحصل على مقصوده ويحقق مراده فإنه يشعر باللذّه والراحه، كالإنسان الجائع عندما يأكل طعاماً بسيطاً، ومن جهة أخرى أنهم يعلمون أنّ ما يملكونه قد حصلوا عليه من طريق حلال وأنّ الله رزقهم هذه النعم بطريق مشروع، فلا- تترتب عليه العقوبه الأخرويه، وبالتالي ينتفعون من هذه النعم والمواهب بروح هادئه وقلب مطمئن ومشاعر منفتحه.

والكثير من الأشخاص الذين يعيشون فى بيوت صغيره ويملكون وسائل بسيطه من الأثاث ويأكلون ويلبسون ما توفّر لهم من الطعام الزهيد الثمن واللباس المناسب، يعيشون فى ذات الوقت معنويات عاليه ولا يجدون فى أنفسهم امتعاضاً أو شكايه من حالهم، وبذلك يحسّون بالطمأنينه والهدوء النفسى فى واقع الحياه ويشعرون بالسعاده وطيب خاطر، فى حين أنّ غالبيه الأثرياء الذين يسكنون القصور المجلله ويملكون أفضل وسائل العيش ويجلسون على موائد ملوّنه وتجلب لهم أنواع الأطمعه؛ يعيشون الاضطراب والقلق فى حياتهم، وأحياناً تصيبهم الكآبه المزمنه والأمراض النفسيه، والتجارب فى هذا الموضوع تؤكّد صحه ما ذكره الإمام علىّ عليه السلام فى العبارة أعلاه.

ص: ٣١٢

١- (١). «مُتْرَفٌ» تعنى، كما تقدّم فى شرح الرساله ١٠، الأثرياء المغرورين الذين يعيشون حاله الطغيان.

أضف إلى ذلك أن المتقين وبسبب حياتهم البسيطة والبعيدة عن الترف والتجمل، عندما يحين أجلهم ويتركون الدنيا فإنهم لا يشعرون بالحسرة في قلوبهم عليها، ولكن المستهترين المتكبرين والمترفين الذين عاشوا حياة الترف والتكالب على ملذات الدنيا وزخارفها عندما يحين أجلهم فسوف يعيشون أشد الحسرات على ما ستركونه من نعيم ولذة، وبخاصة إذا كانوا يعتقدون باليوم الآخر ويعلمون أنهم س يحملون وزر هذه الثروات والخطايا على أعناقهم يوم القيامة.

غِنَى النَّفْسِ يُغْنِيهَا إِذَا كُنْتَ قَانِعًا

ويستمر الإمام عليه السلام في كلامه عن خصال المتقين ويقول: «ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبْلَغِ (١) ، وَالْمَتَجَرِّ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَدَّهُ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ (٢) عَدَاً فِي آخِرَتِهِمْ، لَأَتُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَدَّهِ».

جملة: «لَأَتُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ» إشاره إلى ما ورد في الآية الشريفه: «لَهُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ» (٣).

وجمله: «وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَدَّهِ» إشاره إلى قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ» (٤).

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن عبارته: «لَمَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ وَلَمَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَدَّهِ» ناظره لحال المتقين في هذا الدنيا، فإنهم وبسبب إيمانهم وحسن يقينهم وصلاح عملهم مستجابو الدعوه، فلا ينقص لهم شيء من لذات الدنيا، ولكن هذا التفسير بعيد عن الصواب، لأن الجملة بعد هذه العبارة تتحدث عن الآخرة، وأما

ص: ٣١٣

١- (١) . «المبْلَغ» تعنى فى الجملة الزاد والمتاع الذى يوصل الإنسان إلى مقصده وهو من «البلوغ» بمعنى الوصول.

٢- (٢) . «جيران الله» كناية عن علو المقام، لأن الله تعالى ليس له دار خاصه ليكون له جيران، فالعبارة تشير إلى القرب المعنوى من الله تعالى.

٣- (٣) . سورة يس، الآية ٥٧.

٤- (٤) . سورة فصلت، الآية ٣١.

حال المتقين في الدنيا فقد ورد في العبارات والجمل السابقه، وكما أسلفنا فإنّ هاتين الجملتين إشاره إلى ما ورد في الآيات القرآنيه بهذا المضمون.

ص: ٣١٤

فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرِ عَظِيمٍ، خَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَّا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا أَوْ شَرٌّ لَّا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرِدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَذْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ؛ وَالْدُّنْيَا تُطَوَّى مِنْ خَلْفِكُمْ. فَاخْذَرُوا نَارًا فَعَرَّهَا بَعِيدًا، وَحَرَّهَا شَدِيدًا، وَعَدَابَهَا جَدِيدًا. دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تُفْرَجُ فِيهَا كُرْبَةٌ وَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفًا لِلَّهِ.

الشرح والتفسير: تحذيرات متواليه

يتحدث الإمام عليه السلام في المقطع من هذه الرسالة مره أخرى عن موضوع كلى وعام يشمل مخاطبه محمّد بن أبى بكر وكذلك جميع الناس، وجاء فى مطلع هذه الرسالة التى ينقلها السيد الرضى، أنّ الإمام عليه السلام يأمر محمّد بن أبى بكر أن يقرأها على جميع الناس، يقول: «فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرِ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَّا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا، أَوْ شَرٌّ لَّا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا».

وقد قلنا مراراً أنّ الإنسان حتى لو شكّ فى أى أمر من الأمور فإنّه لا يشكّ فى

الموت ونهايه الحياه، حيث يشمل جميع أفراد البشر بدون استثناء، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الموت يمثّل بدايه الحركه باتجاه الآخره، فينبغى للإنسان أن يأخذ العده ويتهيأ لهذا السفر الطويل ويعمل على توفير ما يحتاجه لضمان سلامه مسيرته الأبدية.

ومن هذا المنطلق يعتبر الإمام على عليه السلام الموت مرحله مصيريه ومنعطف خطير فى حياه الإنسان حيث يقوده إلى إحدى جهتين، فإمّا الحياه الطيبه الزاخره بالسعاده والحبور والسلامه وهى الجنّه الخالده التى جعلها الله تعالى للصالحين من عباده، أو جهه العذاب الأليم والمصير السيئ الذى لا يمكن الخلاص منه والنجاه من آلامه أبداً، وكما أنّ الإنسان لا يعلم من أى الطائفتين سيكون مصيره فذلك ينبغى له التزام الحذر والاحتياط فى هذا السفر الخطير.

وبالنسبه للفرق بين «أمر عظيم» و «خطب جليل» ففى حين أنّ هاتين العبارتين متقاربتان فى المعنى فإنّ شرّاح نهج البلاغه على حدّ علمنا وإطلاعنا لم يتحدّثوا فى هذا المجال، ولكن ربّما تكون عباره «أمر عظيم» إشاره إلى الانتقال من هذه الدنيا والسفر إلى العالم الآخر بدون إمكانيه العوده، أمّا بالنسبه «خطب جليل» إشاره إلى حساب الأعمال وما يترتب عليها من جزاء ومثوبه، ويحتمل أيضاً أنّ «أمر عظيم» إشاره إلى جملة «خَيْرٌ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً» و «خطب جليل» الذى يوحى فى مفهومه بالمصيبه الكبيره، هو إشاره إلى جملة «شَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً».

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العباره قسّم الناس إلى طائفتين فقط، فطائفه ينعمون بالسعاده الأبدية ويعيشون حالات الخير والبركه التى لا- يمتزج معها شرّ أبداً، وطائفه على العكس من ذلك، وهم الغارقون بالشرور المصائب، ولا- يتاح لهم الحصول على خير أبداً، فى حين أننا نعلم بوجود طائفه ثالثه أيضاً وفقاً لما ذكره القرآن الكريم حيث يقول: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»(١).

ص: ٣١٤

وقد أجب شراح نهج البلاغه عن هذا السؤال بإجابات مختلفه، وأحياناً تكون مقترنه بالكثير من التعسف والتكلف، ولكن أوضح جواب هو أنّ الإمام عليه السلام فى هذا الكلام ناظر إلى أفراد متميزين يسيرون فى خطّ الطاعه أو العصيان، وليس ناظراً إلى جميع الأفراد، وبعبارة أخرى أنّ مثل هذا الحصر هو حصر إضافي ناظر إلى المؤمنين الكاملين فى الإيمان الذين بلغوا الذروه فى مراتب الإيمان والإخلاص، وكذلك رموز الكفر والظلم، لا أنّه حصر حقيقي يشمل جميع الأفراد.

وقد ورد فى القرآن الكريم عبارات من هذا القبيل أيضاً، مثلاً نقرأ فى سورة هود: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا... * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا» (١).

وجاء فى حديث عن الإمام الجواد عليه السلام عن آباءه الكرام عليهم السلام: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت فقال: «هُوَ أَحَدُ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ يَرِدُ عَلَيْهِ إِمَّا بِشَارَةٍ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ وَإِمَّا بِشَارَةٍ بَعْدَابِ الْأَبَدِ وَإِمَّا تَخْزِينَ وَتَهْوِيلٌ وَأَمْرُهُ مُبْهَمٌ، لَأَتَدْرِي مِنْ أَيِّ الْفِرْقِ هُوَ فَأَمَّا وَثِينَا الْمَطِيعُ لِأَمْرِنَا فَهُوَ الْمُبَشِّرُ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ» (٢).

وفى آخر هذه الروايه ورد أيضاً أنّ بعض أفراد الطائفة الثالثه سيمكثون مدّه معينه فى النار ثمّ تشملهم شفاعة أهل البيت عليهم السلام، وطائفة منهم سينالون الشفاعة بعد مدّه طويله.

ومن هنا يتبين ما ذهب إليه ابن أبى الحديد فى تفسير هذه العبارة بما يؤيد مذهبه، حيث قال: «قوله: فإنه يأتى بأمر عظيم... نص صريح فى مذهب أصحابنا فى الوعيد، وأما من دخل النار من جميع المكلفين فليس بخارج، لأنه لو خرج منها لكان الموت قد جاء بشرّ معه خير، وقد نفى نفيّاً عاماً أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير البتّه» (٣)، وهذا الكلام غير سديد ولا يتوافق مع سائر كلمات الإمام عليه السلام

ص: ٣١٧

١- (١). سورة هود، الآيات ١٠٥-١٠٨.

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٥٤.

٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٦٦.

والآيات القرآنية الشريفة، والمراد هنا بيان حال طائفتين من المؤمنين الخالصين والكافرين كذلك، أما الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الآية الشريفة من سورة التوبة: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا»، فإنهم قطعاً لم يكونوا مورد نظر الإمام عليه السلام في هذه العبارة.

ثم إن الإمام عليه السلام بين شرط دخول الجنة وسبب دخول النار في جملتين قصيرتين: «فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا، وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا».

وهذا يشير إلى أن الأصل في تعيين مصير الإنسان هو العمل والسعي، لا الآمال والتمنيات، فالأعمال هي التي تقود الإنسان إلى الجنة أو إلى النار، فحتى شفاعته الشفعاء تقع في الهامش ولا تشكل أساساً في النجاه.

والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام يقول هنا أن العاملين للجنة هم أقرب الناس إليها، والعاملين للنار، أي السائرين في خط المعصية والضلالة، هم أقرب الناس إلى النار، ولم يقل إن العاملين للأعمال الصالحة والأعمال السيئة، وهذا كناية لطيفة عن أن العمل الصالح كأنه هو الجنة، والمعصية والذنوب والعمل الطالح كأنه هو النار.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمة، وهي أن الموت لا يترك أحداً ينجو منه ويتخلص من الوقوع في مصيدته، وبما أن الأمر، كذلك فينبغي التزام الجدي والاهتمام بهذا الأمر، يقول: وَأَنْتُمْ طُرْدَاءُ (١) الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَحَدَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ الرِّمُّ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ (٢)، وَالْدُّنْيَا تَطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ».

ص: ٣١٨

١- (١). «طرداء» جمع «طريد» وقيل إنها جمع «طريده» من «الطرد» بمعنى الإبعاد، وتأتي للشخص المحكوم بالنفي والتباعد عن المنطقه، أو الصيد الذي يتبعه الصياد ولا يزال يبعده عن مكانه الأصلي.

٢- (٢). «نواصي» جمع «ناصيه» بمعنى الشعر في مقدم الجبين (ولا تعني الجبين نفسه) وذكر بعض أرباب اللغة وهم قله أن «ناصيه» تعني القسم المقدم من الرأس أو الشعر، وبعضهم ذهب إلى أن الأصل فيها مقدم الرأس والشعر في مقدم الرأس يطلق عليه ناصيه بمناسبة نموه على هذا القسم المقدم، ولكن موارد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أن المعنى الأول أنسب، لأنّ الوارد في القرآن في الكثير من الأدعية استعمال كلمة الناصيه بهذا المعنى وخاصة مع كلمة أخذ، ومعلوم أن ما يمكن أخذه والامساك به هو الشعر في مقدم الرأس بحيث يضطر صاحبه للتسليم والاذعان لا الجبين نفسه الذي لا يمكن الامساك والأخذ به، وضمناً فقد وردت عبارته الأخذ بالناصيه في كثير من الموارد كناية عن التسلط على الطرف المقابل.

وأحد معاني عبارته «طَرْدَاءُ الْمَوْتِ» هو أَنَّ الناسَ بمثابة الصيد الذي يتبعه الصياد، ومفهومها أَنَّ الصياد بدرجة من خبرته والقدرة بحيث يصيد البشر سواءً هربوا منه أو لم يهربوا، فلا أحد يستطيع الخلاص من شراكه ومصائده، كما ورد هذا المعنى في القرآن الكريم: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» (١).

وجمله «هُوَ الْأَرْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ» إشارته إلى أَنَّ عوامل الموت تصحب الإنسان دوماً كالظل الذي يتحرك مع الإنسان أينما ولى، لأنَّ للموت عوامل كثيرة في عمق وجود الإنسان، أحدها السكته القلبية أو انقطاع أحد الأوردة الدقيقة في المخ، أو دخول مقدار من الغذاء إلى جهاز التنفس، وكل من هذه العوامل يمكن أن يؤدي بالإنسان إلى الموت، وفي خارج الإنسان هناك عوامل كثيرة للموت أيضاً منها الحوادث الأليمة كالزلازل والصواعق، السيول، الحشرات المضرّة، الحيوانات المفترسة، وما إلى ذلك من الأمور التي تهدد حياة الإنسان بالخطر فلا يستطيع أن يهرب إلى مكان لا يوجد فيه شيء من هذا العوامل الخارجية والداخلية للموت.

وعبارته «الزّم» ربّما تكون بسبب أَنَّ الظل لا يصاحب الإنسان في ظلمات الليل، ولكن عوامل الموت متوقّرة ليل نهار.

وجمله: «الْمَوْتُ مَعْفُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ» كناية عن أنّكم لا تملكون أيّة مقاومه في مقابل سلطه الموت القاهره كما هو حال الشخص الذي اخذ من شعر مقدّم رأسه بحيث يسلبه ذلك أي نوع من الحركة.

ويقرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة فيما يتصل بمصير المجرمين في يوم القيامة ويقول: «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ» (٢).

ص: ٣١٩

١- (١) . سورة النساء، الآية ٧٨.

٢- (٢) . سورة الرحمن، الآية ٤١.

وجمله: «الدُّنْيَا تُطَوَّى مِنْ خَلْفِكُمْ» إشارة لطيفه إلى هذه الحقيقة، وهي أن الإنسان يتجاوز كلَّ مرحلة من مراحل الحياة وكأنها كالفراش الذى يطوى خلف الإنسان، بحيث يمكن إعادته لحالته السابقة، فالشيوخ لا يعودون إلى مرحلة الشباب، والشباب لا يعودون لمرحلة الطفولة، وعلى ضوء ذلك فإن كل لحظة تمثل للإنسان موتاً وحياءً جديده، الموت الذى لا يمكن معه العوده إلى الحالة السابقة.

وبعد أن بين الإمام عليه السلام ما سيواجهه الإنسان فى نهاية الحياة وبعد الموت من حوادث مهوله ومشاكل جسيمة، تحدّث عن عذاب النار والعاقبة الوخيمة لأهل الضلالة فى ذلك اليوم، وقال: «فَاخْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ».

وبالنسبة لعمق وادى جَنِّهم يكفى أن ننقل هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما كان مع أصحابه فى المسجد، فجاء سمعوا صوتاً مدوياً، استولى عليهم الخوف، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَتَعْرِفُونَ مَا هَذِهِ الْهَدَّةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «حَجَرٌ أُلْقِيَ مِنْ أَعْلَى جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، الْآنَ وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا»^(١).

وبالنسبة لشده حراره جهنم يكفى أن ننقل ما ورد فى حديث شريف يقول عليه السلام:

«إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَقَدْ أُطْفِئَتْ سَبْعِينَ مَرَّةً بِالْمَاءِ ثُمَّ التَّهَبَّتْ وَلَوْ لَأَذَلِكُ مَا اسْتِطَاعَ آدَمِيُّ أَنْ يُطِيقَهَا»^(٢).

وعن أنواع العذاب وشده يوم القيامة يتحدّث القرآن الكريم ويقول: «كَلِّمًا نَضَّجَتْ جُلُودُهُمْ يَدْلُنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ»^(٣).

ثم يضيف الإمام عليه السلام فى بيان عذاب النار: «دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ».

ص: ٣٢٠

١- (١). منهاج البراعة، ج ١٩، ص ٨٩ ومثله فى المعنى ورد فى عوالى اللثالى، ج ١، ص ٢٨٠.

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٨٨، ح ٢١.

٣- (٣). سورة النساء، الآية ٥٦.

ونقرأ هذا المضمون في القرآن الكريم: «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ... قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»(١).

وفي مورد آخر يقول القرآن الكريم: «وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ»(٢).

وكذلك في آية أخرى يتحدث القرآن الكريم عن امنيات أصحاب النار: «وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ»(٣).

ويستفاد من رساله الإمام عليه السلام هذه، والتي ذكرها بتمامها صاحب نهج البلاغه الكامل أنّ الإمام عليه السلام بعد أن ذكر الظروف الصعبة والعذاب الأليم لأهل النار، تعرّض لذكر بعض النعم الإلهية والرحمة الواسعة لأهل الجنة ولم يذكرها السيد الرضى في نهج البلاغه تبعاً لنهجه في التلخيص والانتقاء.

وفي هذا السياق يتحدث الإمام عليه السلام بعد أن يذكر العذاب الأليم لأهل النار، عن المواهب والنعم الإلهية والنعيم الخالد في الجنة، وبذلك يقرّر الأصل الإسلامى المهمّ في التعاليم الإلهية، وهى أن يعيش الإنسان بين حالات الخوف والرجاء، ويقول:

«وَإِنِ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَيْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدَّهُمْ خَوْفًا لِلَّهِ».

فهنا يشير الإمام عليه السلام إلى مسأله مهمّه فى التعاليم الدينيه، وهى مسأله الخوف والرجاء وضروره أن يعيش الإنسان حاله التعادل والتوازن فى ذلك، وكما سنرى فى بحث التذليل أنّ هذا المفهوم من شأنه أن يخلق فى الإنسان حاله من التوازن

ص: ٣٢١

١- (١) . سورة غافر، الآية ٤٩ و ٥٠.

٢- (٢) . سورة الزخرف، الآية ٧٧.

٣- (٣) . سورة فاطر، الآية ٣٧.

فلا يأس من رحمه الله عندما يسمع كلام الإمام في وصف جهنم وما فيها من العذاب الأليم، ولا يعيش حاله الأمن من العذاب عندما يسمع كلام الإمام عليه السلام في وصف النعم والمواهب الإلهية لأهل الجنة.

تأمل: التعادل بين الخوف والرجاء

يعتبر الرجاء عاملاً أساسياً لتفعيل حركة الإنسان في خطّ الصلاح والسعادة ويعدّ بمثابة المحرّك الذي يدفع الإنسان بهذا الاتجاه، ويمثّل الخوف عاملاً كابحاً لعناصر الطغيان والانحراف في مسيره الإنسان ونوازعه النفسية، فكما أنّ وسائل النقل من العجلات والسيارات إذا كانت فاقده للمحرّك فسوف تمتنع عليها الحركة، وإذا كانت فاقده للكوابح فسوف يقودها ذلك إلى مهاوى خطيره وعدم قدره على تجنّب المطيئات والعواقب، فكلا- هذين الأمرين يعدّان أصلاً رئيسيان في حركة الإنسان في خطّ الصلاح والفلاح، ولا بدّ أن يتوفّر فيهما عنصرى التعادل والتوازن بحيث يتحرّك الإنسان في خطّ الطاعة والإيمان من جهة ويتجنّب المعاصى والذنوب من جهة أخرى.

إنّ أهميه هذين العاملين في وجود الإنسان وفي حياته تتجلّى بوضوح عندما نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يتحدث فيه عن وصايا لقمان عليه السلام ويذكر منها أموراً عجيبة ونصائح قيمه، يقول الحارث بن المغيرة، عن أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان في وصيه لقمان؟ قال: كان فيها الأعاجيب، وكان وأعجب ما كان فيها أن قال لابنه: «خَفِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خِيفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ لَعَادَبَكَ، وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَوْ جِئْتَهُ بِجُذُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ»، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: كان أبي (يعنى الإمام الباقر عليه السلام) يقول: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا [وَ] فِي قَلْبِهِ نُورَانِ:

نُورٌ خِيفَةٍ وَنُورٌ رَجَاءٍ، لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا» (١).

ص: ٣٢٢

١- (١). الكافي، ج ٢، ص ٦٧، باب الخوف والرجاء، ح ١.

يقول ابن أبي الحديد بعد شرحه لكلام الإمام عليه السلام المذكور آنفاً: إِنَّ عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَأَنَّ هَذَا الْمَقَامَ السَّامِيَ هُوَ مَقَامٌ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الصَّالِحُونَ وَالْأَبْرَارُ، وَيُنْقَلُ حَدِيثاً عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَقُولُ: «لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ كِتَاباً أَنَّهُ مُعَذِّبٌ رَجُلًا - وَاحِدًا لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَهُ أَوْ أَنَّهُ رَاحِمٌ رَجُلًا - وَاحِدًا لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَهُ»^(١).

وهذه الكلمات تشير بوضوح إلى أنّ عدم التواصل وعدم التعادل بين حالات الخوف والرجاء في واقع الإنسان يتسبب في تكريس حالات الغرور في الإنسان والاعتزاز بسعه رحمه الله أو يقوده إلى اليأس من رحمه الله، وهذا بدوره يعدّ مانعاً يعيق الإنسان عن الحركة في خطّ الطاعة والعبودية.

ص: ٣٢٣

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٦٧.

وَاعْلَمَ - يَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَيَّ نَفْسِيكَ، وَأَنْ تُنَافِجَ عَنِّي دِينِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا تُشِيخِطِ اللَّهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ. صَلَّى الصَّلَاةَ لَوْفَتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَفَتَهَا لِفِرَاعٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنِّي وَفَتَهَا لِاشْتِغَالٍ. وَاعْلَمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبِعَ لِصَلَاتِكَ.

الشرح والتفسير: المهمة الثقيلة

يتحدث الإمام عليه السلام، في هذا المقطع من الرسالة مخاطباً محمد بن أبي بكر، عن أربع توصيات مهمّة، في البدايه يستعرض الإمام عليه السلام مقدمه ويقول: «وَاعْلَمَ - يَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ».

«أجناد» جمع «جند» وفي الأصل تعني الجيش، ولكن أحياناً تطلق على المناطق في البلد الإسلامي، أو على أهالي تلك المناطق، وعلى أيه حال فإن هذه العبارة تشير بوضوح إلى أنّ الإمام عليه السلام كان ينظر إلى أهل مصر بعين الاحترام ويرى أنّهم من أكبر شعوب الأمة الإسلامية، لأنّ مصر أرض كبرى وتاريخية وتملك حضاره قديمه ويعيش فيها اناس واعون وأذكياء وكادحين.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام أول وأهمّ توصيه له، ويقول: «فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ (١) أَنْ تُخَالِفَ عَلَيَّ

نَفْسِكَ»، أى أن المفروض بك أن تجاهد نفسك وتخالف هواك.

وجهاد النفس فرض على الجميع، ولكنه أكثر وأشدّ لزوماً على الولاة والقادة ومن بيدهم القرار، لأنّ هؤلاء يعيشون دوماً الوسواس النفسانيه والشيطانيه، فلو أنّهم غلبوا فى هذا المجال وسيطرت عليهم الأهواء والشهوات فإنّ ذلك من شأنه إشاعه الظلم والفساد فى المناطق التى تحت إمرتهم وولايتهم.

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام التوصيه الثانيه ويقول: «وَأَنْ تُنَافِحَ (١) عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ».

وبديهي أنّ الإنسان المؤمن ينبغى أن يتحرّك بعد الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس، فى طريق الجهاد الأصغر والتصديّ لقوى الكفر وأعداء الأُمّه لحفظ الدين وصيانته المقدّسات والمنافحه عن التعاليم السماويه، وفى هذا الأمر يؤكّد الإمام عليه السلام على أنّه لو لم تكن لدى الإنسان سوى ساعه من عمره أو من تواجدته فى سدّه الحكم، فينبغى أن لا يكفّ عن الدفاع عن الدّين، ولا يبخل فى بذل الغالى والنفيس فى هذا السبيل.

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام التوصيه الثالثه ويقول: «وَلَا تُسَخِّطِ اللَّهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ».

فأحياناً يجد الإنسان نفسه بين طريقين، فطريق يتوجه به إلى الله تعالى وكسب رضاه، وطريق آخر يقوده لتحقيق رضا الناس، وفى هذا الطريق يطلب منه الناس أموراً أكثر من حقّهم، وهنا يتميّز المؤمنون الخلّص من غير المؤمنين، فالمؤمنون يتحرّكون دوماً فى خطّ الطاعه وطلب رضا الله تعالى، لأنّهم يعلمون أنّ نيل رضا الله ورعايته من شأنه أن يمنحهم القوّه والحيويه ويمنع عنهم أى ضرر ولا يستطيع أى شخص أن يلحق بهم الإساءه، فى حين أنّ السعى لكسب رضا بعض المتزلفين

ص: ٣٢٤

١- (١). «تنافح» من «المنافحه» بمعنى الدفاع عن الشىء، وأصله من «نفح» على وزن «فتح» التى تأتى دائماً بمعنى النسيم الملائم والرائحه العطره، وأحياناً أخرى بمعنى دفع الشىء، وجاءت «منافحه» بهذا المعنى.

والمتملّقين، والإعراض عن رضا الله تعالى، سيجعلهم مكشوفين أمام البلايا وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

إنّ ما ذكره الإمام عليه السلام في توصيته الثالثه لمحَمَّد بن أبي بكر، ورد أيضاً في روايه أخرى بوصفه أحد علامات الإيمان الخالص، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «مِنْ صِحِّهِ يَقِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يُؤْذِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ» (١).

والتجربه أثبتت أنّ من يسلك هذا الطريق ويرجّح رضا المخلوق على حساب رضا الخالق سيُحرم رضا الخالق ورضا المخلوق أيضاً، وأمّا من يتحرّك في طريق نيل رضا الله تعالى، فربّما يتسبّب أحياناً في غضب البعض وسخطهم عليه، ولكنّه في النهايه سيحصل على رضا الله ورضا المخلوق أيضاً.

والأهمّ من ذلك ما ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ طَلَبَ رِضَا مَخْلُوقٍ بِسَخَطِ الْخَالِقِ سَلَّطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ» (٢).

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للتوصيه الرابعه لمحَمَّد بن أبي بكر في مسأله الصلاه والتي تعتبر أهمّ ركن من أركان الإسلام، يقول: «صَلِّ الصَّلَاةَ لَوْ قَتَلَهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاسْتِغَالٍ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبِعَ لِصَلَاتِكَ».

وذكر الكثير من شراح نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام في هذه التوصيه بالصلاه، ناظر إلى عدم التعجيل بالصلاه قبل وقتها، مثلاً يصلى صلاه الظهر قبل الزوال ويصلى صلاه الصبح قبل طلوع الفجر، بسبب ما يجده من فراغ في الوقت، ولكن مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ من النادر أن نرى أو نسمع شخصاً يصلى صلاه الظهر قبل وقتها أو يصلى صلاه الصبح قبل الفجر، لأنّ هذا المعنى مرفوض وغير مقبول من قبل جميع الأفراد، فلا معنى لأن يصلى المكلف الصلاه قبل وقتها وهو يعلم ببطلانها، ولذلك

ص: ٣٢٧

١- (١). الكافي، ج ٢، ص ٥٧، ح ٢.

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٦، ح ١٣٢.

يوجد هناك احتمال آخر في تفسير هذه العبارة، وهو أنّ كلام الإمام عليه السلام ناظر إلى أوّل الوقت وآخر الوقت، فيقول: إنك لا تكن كالشخص الذى يصلّى أوّل الوقت بسبب الفراغ، وإن كان مشغولاً فى عمل معين يؤجّل صلاته لوقت آخر، بل عليك بأن تقيم الصلاة لوقتها على كلّ حال وتترك عملك من أجل الصلاة.

وهذا فى الواقع إشاره إلى ما هو متداول من الشعار المعروف، وهو أنّ الإنسان لا ينبغى أن يقول لصلاته أننى مشغول بعمل، بل يقول لعمله إننى مشغول بالصلاه.

وبديهيّ أنّ الإلتزام بالصلاه فى أوّل وقتها من شأنه أن يمنح الروح طراوه ونورانيه وأنّ نجاحه فى أعماله الأخرى يعود إلى إتيانه بالصلاه فى وقتها حيث تضىف هذه الصلاه بركاتهما على حياه المرء وفكره وروحه.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه يقول: «إِنَّ الصَّلَاةَ إِذَا ارْتَفَعَتْ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ بَيْضَاءٌ مُشْرِقَةٌ تَقُولُ حَفِظْتَنِي حَفِظَكَ اللَّهُ وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا بَغَيْرِ حُدُودِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَكَ اللَّهُ» (١).

وجمله: «وَأَعْلَمُ...»، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً يحتمل فيها معنيان، أحدهما: أنّ جميع أعمال الإنسان فى الدنيا تبع لصلاته، فإن أدى الصلاه بشرائطها، فإنّ بركه هذه الصلاه ستمتد لتشمل سائر أعماله وحياته، والآخر: أنّ آثار هذه الصلاه ستجلى فى الآخرة، كما ورد فى الروايات: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةَ فَإِنْ قَبِلَتْ قَبِلَ مَا سِوَاهَا» (٢).

ص: ٣٢٨

١- (١). الكافي، ج ٣، ص ٢٦٨، باب من حافظ على صلاته، ح ٤.

٢- (٢). المصدر السابق.

وَمِنْهُ: فَإِنَّهُ لَأَسْوَأُ، إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى وَوَلِيُّ النَّبِيِّ، وَعَدُوُّ النَّبِيِّ.

لَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِنِّي لَأَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللَّهُ بِشْرِكِهِ. لَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مَنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ.

الشرح والتفسير: الخوف على الأمة من فئه معينه

وفي آخر مقطع من هذه الرسالة، طبقاً لما أورده السيد الرضوي وما يستفاد من كلمة «منه»، أن ما ورد من كلام الإمام عليه السلام نهج البلاغه في لا- يمثل جميع كلامه وتام رسالته، بل يمثل مقطعاً منها، والإمام يلفت النظر في هذا المقطع إلى هذه الحقيقة الحاسمة والرئيسية ويقول: «وَمِنْهُ: فَإِنَّهُ لَأَسْوَأُ، إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى» (1). وَوَلِيُّ النَّبِيِّ، وَعَدُوُّ النَّبِيِّ».

ومن المعلوم أن التعبير بـ «إِمَامُ الْهُدَى» في هذه العبارة إشارة إلى نفسه الشريفه، وكلمة بـ «إِمَامُ الرَّدَى» إشارة إلى معاوية الذي رفع لواء المخالفه والتمرد خلافاً لأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وإرادته جميع المسلمين، وخاض غمار حروب داميه أدت إلى سفك دماء المسلمين.

ومفرده «إمام» يراد بها في الغالب إمام الحق، ولكن أحياناً تستعمل في قاده الضلاله والباطل، كما ورد في القرآن الكريم: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَىٰ

١- (١). «الردى» من ماده «ردى» على وزن «رأى» بمعنى الهلكه أو السقوط من مرتفع، المقترن مع الهلكه.

والشاهد على أنّ المراد من كلمه «إِمَامُ الرَّدَى» معاويه، فمضافاً إلى القرائن الحاليه، هناك شواهد مذكوره فى موارد أخرى من هذه الرساله لم ينقلها السيد الرضى، وطبقاً لما ورد فى هذ الرساله المذكوره فى كتاب نهج البلاغه الكامل، يقول الإمام عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَدَعْوَهُ الْكَذَّابِ ابْنِ هِنْدٍ».

ثم إنّ الإمام عليه السلام يستند فى كلامه هذا إلى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله يقول:

«وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنِّي لَأَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَمَّا مُشْرِكًا؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيْمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ (٢) اللَّهُ بِشْرِكِهِ. وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقٍ الْجَنَانِ (٣)، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ».

وهذه هى الحقيقه، فالمؤمنون الحقيقيون يمثلون درعاً واقية للإسلام والأمة الإسلاميه، والمشركون يمثلون خطّ الباطل والضلاله، الذين عرفهم الناس بالانحراف وابتعدوا عنهم، فلو أنّ هؤلاء المشركين أرادوا التآمر على الإسلام، فالمؤمنون سيتصدون لهم بإذن الله ويقمعونهم، ولكن المشكله الكبيره التى يبتلى بها المجتمع الإسلامى وكل مجتمع بشرى تتمثل فى الأعداء الذين يرتدون لباس الصداقه والمحبه ويتظاهرون بتقديم الخدمه للآخرين، هؤلاء هم الانتهازيون والمنافقون الذين أظهروا للناس وجهاً جميلاً وأخفوا الوجه القبيح فى باطنهم وتسترّوا بقناع الخير والصلاح، وبذلك تسنى لهم النفوذ فى صفوف المسلمين والأطّلاع على أسرارهم، وأتاح لهم ذلك أن يسدّدوا ضربتهم متى وجدوا الفرصه سانحه بالتمسك بالآيات الإلهيه وسنّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى الظاهر والكلام، ولكنهم

ص: ٣٣٠

١- (١). سورة القصص، الآية ٤١.

٢- (٢). «يقمع» من ماده «قمع» على وزن «منع» بمعنى التغلب على الطرف المقابل وإذلاله وكتبته.

٣- (٣). «جنان» بفتح الجيم تعنى القلب، و«جنان» جمع «جنه» بمعنى البستان والزاهر والحديقه الغناء، وكلّها تعود فى الأصل لكلمه «جن» على وزن «فن» بمعنى المغطى والمختفى، وبما أنّ القلب يختفى فى باطن الصدر، وأرض بستان تختفى تحت الأشجار الباسقه فاطلقت هذه الكلمه على هذه الموارد.

على مستوى العمل يتحرّكون خلاف هذه التعاليم السماويه.

والمصداق البارز لهذا الكلام فى ذلك الزمان هو معاويه وأعوانه الذين رفعوا لواء المطالبه بدم عثمان الذى يعدّ خليفه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وفى حال الاضطراب رفعوا المصاحف فوق الرماح، هؤلاء كانوا يقيمون الصلاه ويتحدّثون فى خطب صلاه الجمعه بكلام معسول وموافق نصوص الكتاب والسنة، ولكنهم فى ذات الوقت يعملون على إضعاف عقيدة الناس بإمام الهدى المنصوب من قبل الله تعالى، ومن قبل المسلمين، ولا يتركون أى وسيلة إلا واستخدموها فى تحقيق مآربهم وأغراضهم الذاتيه من قتل الأبرياء ونهب أموال المسلمين والإغاره على المناطق الحدوديه للعراق، وباستخدامهم لهذا الاسلوب استطاعوا أخيراً أن يصلوا إلى سده الحكم ويجلسوا مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ويتحدّثوا بخلاف ما أنزل الله تعالى من تعاليم وأحكام.

تأملان

1. خطر المنافقين

يتحدّث الإمام عليه السلام فى هذه الرساله عن وجود خطر مهمّ يهدّد محمّد بن أبى بكر وأهالى مصر، بل جميع شعوب وأقوام المجتمع الإسلامى، أى خطر المنافقين، ويقسم الناس إلى ثلاث طوائف: المؤمنين، المشركين والمنافقين، ثم يقول: إنّ المؤمنين لا يشكّلون أى خطر للمجتمع الإسلامى لأنّ إيمانهم يمنعهم من أى عمل يثير الخلل ويورث الضرر بالإسلام والمسلمين، أمّا المشركون المعاندون الذين يتحرّكون فى خطّ التآمر والحرب ضدّ المجتمع الإسلامى، فخطر هؤلاء ليس بالمقدار المهم، ويمكن التصدّى لهم لأنهم معروفون، والمؤمنون يأخذون حذرهم من حركات هؤلاء ويتصدّون لتآمرهم ويدفعون الخطر بذلك عن الأمت، ولكنّ المشكله العسيره تتمثّل فى المنافقين الذين يعيشون فى الوسط الدينى ويخالفون

المؤمنين ويتظاهرون بالتدين إلباأنهم يخفون سيوفهم تحت ثيابهم كما فى المثل، فىتحذثون بحدىث فىجذب قلوب المؤمنىن وأفكارهم وعواطفهم فىظنون أن هؤلاء المنافقىن منهم وعلى ملتهم، ولكنهم فى اللحظات الحساسه وعندما تسنح الفرصه فىقومون بإلقاء سمومهم وتسدىد ضربه للإسلام والمسلمىن.

وعلى رغم أنهم فىكتمون نفاقهم وىتحركون فى خط التخرىب والتآمر بشكل خفى، فإن معرفتهم وتشخىصهم لىست بالأمر العسىر، فالقرآن الكرىم ذكر علامات عدىده لمعرفة أهل النفاق فى سورة البقره وسوره المنافقون وبإمكان المؤمنىن التعرف علىهم واجتناب خطرهم ودسائسهم.

وقد تقدمت بحوث مفصّله عن جذور النفاق وطرقه عمل المنافقىن على امتداد التاريخ، والأخطار التى تشكلها هذه الفئه على الأُمَّه الإسلامىه، فى الخطبه ١٩٤ (الجزء السابع من ص ٦٠٦ إلى ٦١٩) وكذلك فى ذىل الخطبه ٢١٠.

٢. رساله غرىبه من المعتضد العباسى

من غرائب العصر العباسى أن المعتضد العباسى أرسل رساله إلى جمىع الأفضىيه والنواحى، وقد ذكرها المؤرّخ المعروف الطبرى فى تاريخه فى حوادث سنه ٢٨٤ وأشار إليها ابن الأثير فى تاريخه الكامىل (مع بعض الاختلاف فى التعبير) وبدورنا ننقلها من شرح نهج البلاغه لابن أبى الحدىد الذى استعرضها بشكل مختصر.

فىقول ابن أبى الحدىد فى الجزء ١٥ من شرح نهج البلاغه فى ذىل هذه الرساله أن الإمام علىه السلام كتب هذه الرساله لمحمّد بن أبى بكر، وفىقول الطبرى: وفى (سنه ٢٨٤) عزم المعتضد على لعن معاوىه بن أبى سفىان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب فىقرأ على الناس، فخوّفه عبىد الله بن سلىمان (وزىره) اضطراب العامه، وأنه لا يأمن أن تكون فتنه، فلم يلىتفت إليه، فكان أوّل شىء بدأ به المعتضد من ذلك الأمر بالتقدم إلى العامه بلزوم أعمالهم، وترك الاجتماع والعصىبه، والشهادات عند السلطان إلّاأن

يسألوا، ومنع القصاص عن القعود على الطرقات، وأنشئ هذا الكتاب وعملت به نسخ قرئت في الجانبين من مدينه السلام في الأربعاء والمحال والأسواق، يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى من هذه السنه، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه، ومنع القصاص من القعود في الجانبين، ومنع أهل الحلق من القعود في المسجدين، ونودي في المسجد الجامع بنهى الناس عن الاجتماع وغيره، وبمنع القصاص وأهل الحلق والقعود، ونودي:

إن الذمه قد برئت ممن اجتمع من الناس في مناظره أو جدال، وتقدم إلى الشراب الذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترحموا على معاويه، ولا يذكره، وكانت عادتهم جاريه بالترحم عليه.

وتحدثت الناس أن الكتاب الذى قد أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاويه يقرأ بعد صلاه الجمعة على المنبر، فلما صلى الناس بادروا إلى المقصوره ليسمعوا قراءه الكتاب، فلم يقرأ.

قيل: إن عبيدالله بن سليمان صرفه عن قراءته، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضى، وأمره أن يعمل الحيله في إبطال ما عزم المعتضد عليه، فمضى يوسف فكلم المعتضد في ذلك، وقال له: إنى أخاف أن تضطرب العامه، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركه، فقال المعتضد: إن تحركت العامه أو نطقت، وضعت السيف فيهم، فقال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بالطالبيين الذين يخرجون في كل ناحيه، ويميل إليهم خلق كبير، لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله، وما فى هذا الكتاب من إطرائهم - أو كما قال - وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل، وكانوا هم أبسط ألسنه، وأثبت حججه منهم اليوم، فأمسك المعتضد فلم يرد إليه جواباً، ولم يأمر بعد ذلك فى الكتاب بشيء، وكان من جمله الكتاب بعد أن قدّم حمد الله والثناء عليه والصلاه على رسول الله صلى الله عليه وآله:

أما بعد، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعه العامه من شبهه قد دخلتهم

فى أديانهم، وفساد قد لحقهم فى معتقدهم، وعصبيه قد غلبت عليها أهواؤهم، ونطقت بها ألسنتهم، على غير معرفه ولا رويّه، قد قلدوا فيها قاده الضلاله بلا بينه ولا بصيره، وخالفوا السنن المتبعه، إلى الأهواء المبتدعه، قال الله تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَآ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (١)، خروجاً على الجماعه، ومسارعه إلى الفتنه، وإيثاراً للفرقه، وتشتيتاً للكلمه، وإظهاراً لموالاه من قطع الله عنه الموالاه، وبتر منه العصمه، وأخرجه من الملّه، وأوجبت عليه اللعنه، وتعظيماً لم صغر الله حقه، وأوهن أمره، وأضعف ركنه، من بنى اميّه، الشجره الملعونه، ومخالفه لمن استنقذهم الله من الهلكه، وأسغ عليهم النعمه من أهل بيت البركه والرحمه «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (٢).

فأعظم أمير المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك، ورأى ترك إنكاره حرجاً عليه فى الدين، وفساداً لمن قلده الله أمره من المسلمين، وإهمالاً- لما أوجه الله عليه من تقويم المخالفين، وتبصير الجاهلين، وإقامه الحجه على الشاكين، وبسط اليد على المعاندين، وأمير المؤمنين يخبركم معاشر المسلمين، أنّ الله جلّ ثناؤه لما ابتعث محمداً صلى الله عليه وآله بدينه، وأمره أن يصدع بأمره، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلى ربّه، وأنذرهم وبشّرهم، ونصح لهم وأرشدهم، فكان من استجاب له، وصدّق قوله، واتّبع أمره نفر يسير من بنى أبيه، من بين مؤمن بما أتى به من ربّه، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازاً له، وإشفاقاً عليه، فمؤمنهم مجاهد ببصيرته، وكافرهم مجاهد بنصرته وحميّه، يدفعون من نابذه، ويقهرون من عازّه وعانده، ويتوثقون له ممّن كانفه وعاضده، ويبايعون من سمح بنصرته، ويتجسّدون أخبار أعدائه، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين، حتّى بلغ المدى، وحن وقت الاهتداء، فدخلوا فى دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيره، وأحسن

ص: ٣٣٤

١- (١). سورة القصص، الآية ٥٠.

٢- (٢). سورة البقره، الآية ١٠٥.

هدى ورغبه، فجعلهم الله أهل بيت الرحمه، وأهل بيت الدين، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، معدن الحكمة، وورثه النبوه، وموضع الخلافه، أوجب لهم الفضيله، وألزم العباد لهم الطاعه، وكان ممن عانده وكذبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم، يتلقونه بالضرر والتشريب، ويقصدونه بالأذى والتخويف، وينابذونه بالعداوه، وينصبون له المحاربه، ويصدون من قصده، وينالون بالتعذيب من أتبعه، وكان أشدهم في ذلك عداوه، وأعظمهم له مخالفه، أولهم في كل حرب ومناصبه، ورأسهم في كل إجلاب وفتنه، ولا يرفع على الإسلام رايه إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها أباسفيان بن حرب صاحب أحد والخندق وغيرهما، وأشياعه من بنى اميه الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطن عدّه، لسابق علم الله فيهم، وماضى حكمه في أمرهم، وكفرهم ونفاقهم، فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً، ويدافع مكابداً، ويجلب منابداً، حتى قهر السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتعوذ بالإسلام غير منطو عليه، وأسر الكفر غير مقلع عنه، فقبله وقبل ولده على علم منه بحاله وحالهم، ثم أنزل الله تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم، وهو قوله تعالى: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» (١)، ولا خلاف بين أحد في أنه تبارك وتعالى أراد بها بنى اميه.

ومما ورد من ذلك في السنّه، ورواه ثقات الأئمّه، قول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاويه يقوده ويزيد يسوقه، فقال صلى الله عليه وآله: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاكِبَ وَالْقَائِدَ وَالسَّائِقَ».

ومنه ما روته الرواه عنه من قوله يوم بيعه عثمان: «تَلَقُّوْهُمَا يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ تَلَقُّفَ الْكُرْهِ فَوَ اللَّهُ مَا مِنْ جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ» وهذا كفر صُراح يلحقه اللعنه من الله كما لحقت الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

ص: ٣٣٥

ومنه ما يُروى من وقوفه على ثيابه من بعد ذهاب بصره وقوله لقائده، هاهنا رمينا محمداً وقتلنا أصحابه.

ومنها الكلمه التي قالها للعباس قبل الفتح وقد عرضت عليه الجنود: «أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فقال العباس: ويحك، إنّه ليس بملك، إنّها النبوه.

ومنها قوله يوم الفتح (فتح مكه) وقد رأى بلاً على ظهر الكعبه يؤذّن ويقول:

«أشهد أنّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»؛ فقال أبو سفيان: لقد أسعد الله عبته بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد.

ومنه الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله فوجم لها: قالوا: ما رئي بعدها ضاحكاً، رأى نفرًا من بنى امية ينزون على منبره نزوه القرده.

ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وآله الحكم بن أبي العاص لمحاكاته إياه في مشيته، وألحقه الله بدعوه رسول الله صلى الله عليه وآله باقيه حين التفت إليه فرآه يتخلج يحكيه، فقال: «كُنْ كَمَا أَنْتَ»، فبقى على ذلك سائر عمره.

وهذا إلى ما كان من مروان ابنه في افتتاحه أوّل فتنه كانت في الإسلام، واحتقابه كلّ دم حرام سُفِكَ فيما قبلها أو اريق بعدها.

ومنها ما أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»^(١)، قالوا:

ملك بنى امية.

ومنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يَطْلُعُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يُحَشِّرُ عَلَى غَيْرِ مِلَّتِي»، فطلع معاوية.

ومنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَيَّ مِثْرِي فَأَقْتُلُوهُ» وذكر في هذا الكتاب روايات قاصمه على معاوية الواردة في الكتب التاريخيه المشهوره.

ومنها افتراؤه بالمحاربه لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً،

ص: ٣٣٦

وأحسنهم فيه أثراً وذكرًا، عليّ بن أبي طالب، ينازعه حقّه بباطله، ويجاهد أنصاره بضلاله أعوانه، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه من إطفاء نور الله، ووجود دينه «وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (١)، ويستهوى أهل الجهالة، ويموّه لأهل الغباوه بمكره وبغيه اللذين قدّم رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر عنهما، فقال لعمار بن ياسر: «تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَكَ إِلَى النَّارِ»، مؤثراً للعاجله، وكافراً بالآجله، خارجاً من ريقه الإسلام، مستحلاً للدم الحرام، حتّى سفك في فتنته، وعلى سبيل غوايته وضلالته ما لا يحصى عدده من أخيار المسلمين، الذّابّين عن دين الله، والناصرين لحقّه، مجاهداً في عداوه الله، مجتهداً في أن يعصى الله فلا- يُطاع، وتُبطل أحكامه فلا تقام، ويخالف دينه، فلا يدّ أن تلعو كلمه الضلال وترتفع دعوه الباطل، وكلمه الله هي العليا، ودينه المنصور، وحكمه النافذ، وأمره الغالب وكيد من عاداه وحادّه المغلوب الداحض، حتّى احتمل أوزار تلك الحروب وما تبعها، وتطوّق تلك الدماء وما سفك بعدها، وسنّ سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها، وأباح المحارم لمن ارتكبها، ومنع الحقوق أهلها، وغرّته الآمال، واستدرجه الإمهال.

وكان ممّياً أوجب الله عليه به اللعنه قتله من قتل صبراً، من خيار الصحابه والتابعين، وأهل الفضل والدين، مثل عمرو بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدى الكندي، وفيمن قتل من أمثالهم، على أن تكون له العزّه والملك والغلبه، ثم ادّعاؤه زياد بن سميه أخاً، ونسبته إياه والله تعالى يقول: «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...» (٢)، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَلْعُونٌ مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ ائْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ»، وقال صلى الله عليه وآله: «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ»، فخالف حكم الله تعالى ورسوله جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش و الحجر لغير العاهر، فأحلّ بهذه الدعوه

ص: ٣٣٧

١- (١) . سورة التوبه، الآيه ٣٢.

٢- (٢) . سورة الأحزاب، الآيه ٥.

ومن ذلك إشارته لخلافه الله على عباده ابنه يزيد السكير والخمير صاحب الديكة واليهود والقرده، وأخذ البيعه له من خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعد والإخافه، والتهديد والرهبه، وهو يعلم سفهه، ويطلع على رهقه وخبثه، ويعاين سكراته وفعلاته، وفجوره وكفره، فلما تمكّن - قاتله الله - فيما تمكّن منه، طلب بثارات المشركين وطوائهم عند المسلمين، فأوقع بأهل المدينة في وقعه الحرّه، الوقعه التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، فشفى عند نفسه غليله، وظنّ أنه قد انتقم من أولياء الله، وبلغ الثأر لأعداء الله، فقال مجاهراً بكفره ومظهراً لشركه:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِنَدْرِ شَهْدُ وَاجَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ (١)

ثمّ أغلظ ما انتهك، وأعظم ما اجترم، سفكه دم الحسين بن عليّ عليه السلام، مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومكانته ومنزلته من الدين والفضل والشهادة له ولأخيه بسياده شباب أهل الجنّه، اجترأ على الله، وكفر بدينه، وعداوه لرسوله، ومجاهره لعترته، واستهانته لحرمته، كأنما يقتل منه ومن أهل بيته قوماً من كفره الترك والديلم، ولا يخاف من الله نقمه، ولا يراقب منه سطوه، فبتر الله عمره، وأخبث أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعدّ له من عذابه وعقوبته ما استحقه من الله بمعصيته....

ثمّ أضاف: أيها الناس، إنّما أمر ليطاع، ومثل ليمتثل، وحكم ليفعل، قال الله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَاْفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا» (٢) وقال: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ

ص: ٣٣٨

١- (١). هذا الشعر ل«عبدالله بن زبعر» الذي كان من ألد أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وأنشد هذا الشعر مع أشعار أخرى يوم احد بعد استشهاد طائفه من المسلمين من قبيله الخزرج، وقد أنشده يزيد في حادثه كربلاء ومقصوده أنّ بنى اميه ليتهم كانوا أحياء ليسمعوا بكاء وعويل أهل البيت وذراري الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه. وقد نقل الطبري في تاريخه أبياتاً أخرى ليزيد في رساله المعتضد العباسي رغم أنّ ابن أبي الحديد حذف منه بعض الأبيات منها: فَأَهْلُوا وَاسْتَيْهَلُوا فَرَحَاتُكُمْ قَالُوا يَا يَزِيدُ لَا تَشَلَّلِعِبْتُ هَاشِمٌ بِالْمُلْكِ فَلَاخَبْرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلَ

٢- (٢). سورة الأحزاب، الآية ٦٤.

وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ»^(١)، فالعنوا أيها الناس من لعنه الله ورسوله، وفارقوا من لا تتالون القربه من الله إلا بمفارقتة اللهم العن أباسفيان بن حرب بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ومزوان بن الحكم وولده وولد ولده! اللهم العن أئمة الكفر وقادة الضلال وأعداء الدين مجاهدي الرسول ومُعطي الأحكام ومبدلي الكتاب ومُنتهكي الدم الحرام».

إلى قوله: ولا قوه الا بالله العلي العظيم»^(٢).

ما ورد أعلاه يمثل جانباً من الكتاب المطول الذي كتبه «المعتضد العباسي»، وجاء هذا الكتاب في المصادر الإسلامية والتاريخية المعروفة.

وبديهى أن نقل رساله المعتضد بالله العباسي لا تعنى تأييد جميع أعماله فى أيام خلافته.

ونرى من اللازم الإشارة إلى هذه النقطة، وهى أن مخالفه وزير المعتضد «عبيدالله بن سليمان» لنشر هذه الرساله كان بسبب انحرافه عن علي وآله عليه السلام فإن المؤرخين ذكروا عنه فى ترجمه حياته: «كان مُنحرفاً عن علي عليه السلام» فكان خوفه من ثوره الناس ليس سوى ذريعه.

ص: ٣٣٩

١- (١). سورة البقره، الآيه ١٥٩.

٢- (٢). تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ١٨٢-١٨٩ و شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٧٣-١٨٠.

إلى معاوية جواباً (١) قال الشريف: وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الْكُتُبِ

نظرة إلى الرسالة

رأينا أن هذه الرسالة، كما ورد في مطلعها في نهج البلاغه، تمثل جواباً على أحد كتب معاوية إلى الإمام عليّ عليه السلام، وفيه يتحدث معاوية بشكل غير مؤدب مع الإمام عليه السلام ولم يترك أي حرمه إلا وانتهاكها، وفي القسم الأول من رسالته يتحدث عن عظمه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهية، ويجعل ذلك مقدّمه لبيان فضائل أصحاب النبي وأنصاره، ثم يتطرق إلى فضائل الخليفة الأول والثاني والثالث ويتحدث عن مقام الأول والثاني وعن مظلوميته الثالث ويتهم الإمام عليه السلام بالمساهمة في قتل عثمان،

ص: ٣٤١

١- (١). سند الرسالة: يقول مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغه (المرحوم السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب): إن هذه الرسالة من الرسائل الشهيرة للإمام علي عليه السلام والنص بليغ إلى درجة أنه يغنينا عن البحث في سندها (وبديهي أن مثل هذا النص لا يصدر من غير الإمام) مضافاً إلى أن ابن اعثم الكوفي الذي كان يعيش قبل السيد الرضى ذكر هذه الرسالة في كتابه الفتوح مع بعض الإضافات. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٧٨)، وفي مكان آخر يقول بالنسبة لهذه الرسالة: وقد نقلها بعض الكتاب قبل السيد الرضى مع بعض التفاوت من مصادر أخرى غير نهج البلاغه، منهم القلقشندی في كتاب صبح الأعشى والنويرى في نهايه الارب (المصدر السابق، ص ٢٧٥).

وكذلك يتَّهمه بالحسد لأبى بكر وكراهيته لخلافه عمر، وفي جميع هذه الرساله يستخدم معاويه تعبيرات ناييه وكلمات موهنه، وفي ختامها يتَّهم الإمام عليه السلام بوقاحه بأنه معاند ولجوج ويقول: ادفع لنا قتله عثمان واعمل على تشكيل شورى لانتخاب خليفه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فحن لا- نقبل بيعتك ولا نطيعك، وسيكون جوابك هو السيف ونحن ماضون على ذلك إلى النهايه.

ويتبين من عبارات هذه الرساله أنّ معاويه كان يهدف إلى أمرين: الأول: أن يثير غضب الإمام عليه السلام وإحساساته ليجبيه بكلام مماثل ويتخذ ذلك ذريعه أخرى إلى جانب قميص عثمان لقتال الإمام، وكذلك إغراقه في بيان فضائل الخلفاء الثلاثة واتهام الإمام عليه السلام بالحسد لهم ليجبيه الإمام عليه السلام على الضدّ من ذلك، وبالتالي يكون بيده حجّه ضدّ الإمام عليه السلام إلى جانب قميص عثمان.

وهذا الكلام ليس استنباطاً ممّا ورد في رساله معاويه، بل هو أمر ورد بصراحه في التاريخ الإسلامى على لسان عمرو بن العاص، يقول ابن أبى الحديد: إنّ عمرو ابن العاص قد أشار إلى معاويه أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأول ليستفزّ فيه الإمام على عليه السلام ويستخفّاه ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلّقان به في تقبيح حاله وتهجين مذهبه، وقال له عمرو بن العاص: إنّ عليّاً رجل نزق تياه، فاستطمع منه الكلام بمثل الثناء على أبى بكر وعمر، فكتب معاويه الرساله التى ذكرنا شيئاً منها آنفاً.

أمّا مضمون رساله الإمام عليه السلام بنظره عامه:

إنّ هذه الرساله تشتمل على عدّه محطّات، فالإمام فى المحطّه الأولى يتعرّض لفضح ادّعاءات معاويه الواهيه، ويقول فى جوابه: إنّ الله تعالى بعث محمداً لرسالته ونشر دينه وأيّده بأنصاره، والإمام فى هذه المقطع يبرز تعجّبه الشديد ويقول: وما أنت وهذه الأمور، فقصّيتك مثل قصّه الشخص الذى يحمل الثمر إلى هجر، وهذا المثل معروف لدى العرب، كما يدعو التلميذ استاذة إلى مسابقه علميه مثلاً، فيقول له

الإمام عليه السلام إنّه يحسن بك أن تكفّ عن هذه الأقاويل ولا تحدّث بها أهلنا وقبيلتنا، فنحن أعلم منك بذلك.

وفى المحطّه الثانيه، ويقصد التذكير بنعم الله تعالى، لا من أجل اطلاع معاويه الذى يعلم بهذه الأمور، يتعرّض الإمام عليه السلام لبيان فضائل بنى هاشم وذكر حمزه سيّد الشهداء وجعفر الطيار، وفى الختام يقول: لو لم ينه الله تعالى عن مدح النفس، لذكرت لك فضائل كثيره تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذان السامعين.

وفى المحطّه الثالثه من هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه أساسيه فى ادّعاءات معاويه، ويتعرّض للمقارنه بين بنى هاشم وبنى اميّه، ويقول: نحن تربطنا رابطه رحم مع النبيّ ونحن أهل بيته، وقد اعتنقنا رسالته ودينه قبل جميع الناس ونحن على معرفه بها أكثر من الآخرين، وبالتالي نحن أحقّ بالخلافه، فالمهاجرون يوم السقيفه استندوا إلى قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله ليدعموا موقفهم ضدّ الأنصار الذين كانوا يطمحون إلى الخلافه، فلو كان هذا الأمر دليلاً على الأولويه فنحن أحقّ منهم.

وفى المحطّه الرابعه من هذه الرساله يتعرّض الإمام عليه السلام لنقد بعض عبارات معاويه غير المؤدّبه فى رسالته ويقول: لقد ذكرت فى رسالتك أنّى كنت اقاد كالجمل المغشوش للبيعه، ولكنك بهذا الكلام قد فضحت نفسك، لأنّ المسلم لا يجد فى نفسه غضاظه أن يقع مظلوماً مادام يجد نفسه مستقيماً فى حركته فى خطّ الرساله والإيمان والمسؤوليه، وأنك تحدّثت عن عثمان وكيف كان سلوكى معه، فمن هو الأ-كثر عداوه لعثمان؟ هل هو الشخص الذى انطلق للدفاع عنه ولمدّ يد العون له ونصيحته بتلييه حاجات الناس لإطفاء نار الفتنة وتهدئه الأمور (إشاره إلى توصيات الإمام عليه السلام لعثمان) أو الشخص الذى طلب منه عثمان المعونه وامتنع منها وقع ينتظر موته (إشاره إلى حال معاويه وموقفه من قتل عثمان).

وفى المحطّه الخامسه والأخيره من هذه الرساله يقول الإمام عليه السلام فى مقام

الجواب عن تهديد معاويه بالهجوم والحرب: لقد أثرت في نفسى الضحك، فأنت تهدد أبناء عبدالمطلب بالموت والحرب، فمتى رأيت أبناء عبدالمطلب يهربون من القتال أو يخافون من السيف؟

ص: ٣٤٤

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذَكُّرٌ فِيهِ أَضِيْطَفَاءُ اللَّهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدُهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ حَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَبًا؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ الثَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ، أَوْ دَاعِي مَسِيدِهِ إِلَى النَّضَالِ. وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمْرًا إِنْ تَمَّ اعْتَرَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلُقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلُقَاءِ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوْلِيْنَ، وَتَرْتِيبِ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا! أَلَا تَرُبُّعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذُرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخْرَكَ الْقَدْرُ! فَمَا عَلَيْكَ غَلْبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الطَّافِرِ!

الشرح والتفسير: كيف يجلس المحكوم للحكم والقضاء؟

كما تقدّمت الإشارة إليه، فإنّ هذه الرسالة التي يقول عنها الشريف الرضى من أبلغ وأجمل الرسائل، يتحدّث فيها أمير المؤمنين عليه السلام عن مسائل مهمّة بعبارات بليغة وحاسمه لمعاويه.

في البدايه يشير الإمام عليه السلام إلى حديث معاويه عن عظمه النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله ورسالته السماويه ويقول: «أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذَكُّرٌ فِيهِ أَضِيْطَفَاءُ اللَّهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدُهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ حَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَبًا؛ إِذْ

طَفَقَتْ (١) تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ (٢) اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكَانَتْ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ (٣) إِلَى النَّضَالِ (٤)».

والإمام عليه السلام هنا لغرض بيان فساد وقبح كلام معاويه فيما يتصل بوصف الإسلام وعظمه النبي الكريم صلى الله عليه وآله، وللإمام على عليه السلام الذي يعتبر أول مسلم وأنه نفس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والنقطه المحوريه للإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يذكر مثلين كل واحد منهما أبلغ وأقوى من الآخر، في البدايه يذكر المثل العربي المعروف: «فَلَانُ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ» وهذا المثل يعود إلى تاجر كان قادماً من منطقه هجر (وهي إحدى مناطق البحرين) وفيها تكثر زراعه النخيل ويأتي إلى البصره يشتري له بضاعه وينقلها إلى هجر، وكلما بحث عن شيء يشتريه لم يجد أزهده سعراً من التمر، فاشترى برأسماله كله تمراً من البصره وجاء به إلى هجر وادّخره في مخزنه انتظاراً لغلاء سعر التمر، ولكن لسوء حظّه كان سعر التمر يهبط يوماً بعد آخر حتى فسد جميع التمر في مخزنه، وتلف بذلك رأس ماله، فضرب به المثل ويقال لكل من يحمل شيئاً أو يتحدث بأمر من الأمور عند من هو أعلم منه وأخبر به، وحال معاويه أيضاً يشبه ذلك التاجر الأحمق حيث أراد أن يبين للإمام على عليه السلام عظمه الإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فصدق عليه هذا المثل المعروف.

والمثال الثاني يشبه الإمام عليه السلام معاويه بالرامي الناشيء الذي تعلم الرمايه عند استاذه ثم وقف أمام استاذه وأخذ يدعوه للبراز والمسابقه في الرمايه ليخبر استاذه ويمتحنه في تسديد الرميّه، وهذا هو ما يثير الضحك والسخرية.

ص: ٣٤٤

- ١- (١) . «طفقت» من ماده «طفق» على وزن «طبق» بمعنى الابتداء بعمل معين والشروع به.
- ٢- (٢) . «بلاء» يعنى الامتحان والاختبار، وبما أنّ البلاء يأتي أحياناً بواسطة النعمه، وأخرى بواسطة المصيبه، هذه المفرده تأتي بمعنى النعمه والمصيبه كليهما، وفي الجمله مورد البحث جاءت بمعنى النعمه.
- ٣- (٣) . «مسدد» من ماده «سداد» على وزن «نهاد» يعنى المحكم والثابت القوى، ومن هنا اطلقت هذه الكلمه على السدّ لأنه يمثّل جداراً ثابتاً وقوياً، ومسدد تعنى الشخص الذى يعلم الآخر الثبات والاستقامه.
- ٤- (٤) . «نضال» يعنى المجابهه بالرمى بين شخصين، ثم اطلقت على كل أشكال المبارزه والمجابهه والنزاع.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث من موقع التواضع بهذا التشبيه حيث شبّه معاويه بالتلميذ رغم سوء أدب معاويه وجرأته على الإمام عليه السلام.

وعلى أيّ حال، فمن يريد الاطلاع على سيره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحقيقه الإسلام ورسالته الإلهية، فينبغي أن يستوحى ذلك من كلمات الإمام عليه السلام وسلوكياته، وما أقبح أن يطلب معرفه الإسلام من الطلقاء والبعيدون عن أجواء الرساله والإيمان كمعاويه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لقسم آخر من رساله معاويه وحديثه عن صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويشير إلى الخليفه الأول والثاني والثالث، ويقول: «وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؛ فَدَكَرْتَ أَمْرًا إِنَّ تَمَّ اعْتَرَلَكَ كُفُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ (١). وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ!».

وكما تقدّمت الإشارة إليه أنّ هدف معاويه من ذكر اسم الخليفه الأول والثاني والثالث وفضائلهم أن يثير حفيظه الإمام عليه السلام بحيث يجيبه بجواب من موقع الغضب فيتّخذ ذريعه ويتمسك بها ضدّ الإمام عليه السلام، ولكنّ الإمام عليه السلام أجابه بكلام متين ومدروس جدّاً، بحيث أخرج كلاً من دائره القرار وأبعده عن هذا الشأن، والحقيقه أنّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول له: أنت ابن أبي سفيان جرثومه الكفر ومحور الشرك والوثنيه، والعدوّ الأوّل للإسلام والأصل لإشعال نيران الحروب والفتنه ضد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمين، وأنت قد رُبيّت في حضن هند آكله الأكباد وأنّ اسرتك غريبه عن الإسلام والرساله، والآن تريد أن تتحدّث عن صحابه النبي وتعيّن الفاضل والمفضول، وتجعل نفسك واحداً ممّن يرتبط بهذا الشأن!

ويضيف الإمام عليه السلام في إدامه كلامه بشكل أبين وأقوى ويقول: «وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوْلَى، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ!».

ص: ٣٤٧

١- (١). «ثَلْمٌ» في الأصل بمعنى الكسر والشق، ومعنى الاسم المصدرى لهذه المفرده هو الشق والعيب، ثم اطلقت على كل شكل من الاضرار والخساره، وفي الجمله أعلاه وردت بمعنى الضرر والخساره.

وكأنك قد نسيت أنك يوم فتح مكة وانتصار المسلمين واستيلائهم على آخر معقل للكفر والشرك، كنت تحت رحمة سيوف المجاهدين ولم يكن لديك طريق للفرار، ولذلك أسلمت أنت وأبوك أبوسفیان من موقع التسليم والرضوخ، وقد من رسول الله صلى الله عليه وآله عليكم وجعلكم من الطلقاء، والآن نصيب نفسك على كرسى التحكيم بين صحابه النبي وجعلت من نفسك عارفاً بدرجاتهم ومكانتهم بين المهاجرين الأولين، والحقيقة أن من المخجل جداً أن يقوم شخص يملك هو وأسرته مثل هذه السابغة السيئة، بالتدخل بمثل هذه الأمور ويجعل نفسه حكماً في هذا الشؤون.

والواقع ينبغي توجيه حربه النقد إلى الأشخاص الذين جعلوا من معاوية يحتل هذه المكانة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ونسوا سوابقه وجعلوه والياً على مقاطعه كبيره من البلاد الإسلاميه، أجل، فمعاوية نُصّب والياً على الشام في زمان الخليفه الثاني ويتوجه اللوم أيضاً إلى المسلمين الذين نسوا سوابق اسره بنى أميه بهذه السرعة والفاصله الزمنيه القليله، ورضخوا لحكومتهم ولم ينتفضوا ضدهم، كل ذلك مع وجود روايات كثيره عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مذكوره في المصادر الإسلاميه المختلفه في ذم بنى اميه وبالتحديد معاويه، وبيان الخطر الذي يهدد الإسلام والأمة الإسلاميه من حكومتهم.

ثم إن الإمام عليه السلام يستمر في كلامه ويقول من موقع التأكيد: «هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ (١) قِدْحٌ (٢) لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا».

وجمله: «حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا» مثل معروف بين العرب يعود أصله إلى أن طائفه من بنى الحنان أرادوا أن يلعبوا القمار فيما بينهم، وهتأوا لذلك النصال، وكان نصيب جدّهم منها نصل غير صالح للرمى، فرمى بنصله من بين تلك النصال، وكان المقسم للنصال رجل أعمى، وعندما أصابت الرميّه سهم من هذه السهام انتبه من الصوت أن

ص: ٣٤٨

١- (١). «حَنَّ» من «الحنين» بمعنى اطلاق الصوت بالتأوه من موقع الحزن.

٢- (٢). «قِدْحٌ» بمعنى السهم قبل أن يكتمل صنع رأسه المدب.

تلك النصال زائفه أيضاً، فقال: «حَنَّ قَدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا» أى أن هذا النصل ليس من جنس النصال الأصليه، من خلال صوته، وانكشف بذلك زيف هذه النصال، ثم ضرب به المثل لكل شخص أدخل نفسه فى جماعه لم يكن جديراً بهم، وجعل نفسه فى عرض فئه ليس من مستواهم، والإمام عليه السلام استخدم هذا المثل المعروف فى مورد معاويه، وأنتك تخلط نفسك مع جماعه لست منهم، فأنت من الكفار الطلقاء الذين أطلق سراحهم النبى يوم فتح مكه، فما أنت والمجاهدين والمهاجرين الأولين؟ (١).

واللافت للنظر أن الإمام عليه السلام فى عبارته المذكوره أعلاه يقول بصراحه: أنت بهذه السوابق السيئه تعتبر من زمره المحكومين ومن الرعيه، فكيف تجلس على كرسى الحكام وتدعى التحكيم فيما بينهم؟

ثم يضيف الإمام عليه السلام للتأكيد ويقول: «أَلَا تَزْبَعُ (٢) أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ (٣) وَتَعْرِفُ قُصُورَ دَرْعِكَ (٤) وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخْرَكَ الْقَدْرُ فَمَا عَلَيْكَ غَلْبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ!».

وفى الجمل الثلاث يحذر الإمام عليه السلام معاويه فى البدايه أن يعرف قدره ولا يمدّ رجله أكثر من لحافه كما يقول المثل.

وفى الجمله الثانيه يأمره الإمام عليه السلام بمعرفه نفسه: وعليك أن تعرف أنك لست من أهل هذا الميدان وأنك أعجز من أن تطلب زمام الحكومه والولايه على منطقه من البلاد الإسلاميه أو تروم التمييز بين مراتب المهاجرين والأنصار وتقضى فى هذا الشأن، إذن الأفضل أن تجلس فى سلك المرتبه التى تليق بشأنك وإمكاناتك ولا تتجاوز عن حدودك (أى تجلس فى صفالنعال ومكان الأحذيه لا فى صدرالمجلس).

ص: ٣٤٩

١- (١). اقتبس من بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٦٥.

٢- (٢). «تَزْبَعُ» من ماده «ربع» على وزن «رفع» بمعنى التوقف والانتظار، وجمله «أَلَا تَزْبَعُ» يعنى لماذا لا تتوقف وتترك الأمر.

٣- (٣). «ظَلْعُ» بمعنى مشى الأعرج، وجمله «إِرْبَعُ عَلَى ظَلْعِكَ» مثل سائد بين العرب يقال للشخص الذى لا يستطيع عمل معين ويتجه عبثاً لتحقيقه، فيقال له اسكن ولا تتلف وقتك.

٤- (٤). «دَرْعُ» بمعنى فتح اليد والفاصله بين اليدين، و«قُصُورِ دَرْعِ» كناية عن الضعف والعجز.

وفى الجملة الثالثه يقول: صحيح أنّ المهاجرين والأنصار استطاعوا تحقيق النصر والغلبه فى مواجهاتهم الحاسمه لقوى الكفر والشرك والوثنيه، وأنّ أعداء الإسلام والمشركين انهزموا من الميدان، ولكن ذلك يتعلّق بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والصحابه، وما أنت وهؤلاء حتّى تتحدّث عن انتصار المسلمين وهزيمة الكفّار بوصفها أحد افتخاراتك!

وجمله: «فَمَا عَلَيْكَ...» التى تبتدىء بفاء التفرّيع، إشاره إلى هذه الحقيقه، وهى أنّك امرؤ تعيش التخلّف والتأخّر فى مراتب الإسلام حيث أسلمت ظاهراً أنت وأبوك أبوسفيان فى آخر لحظات الدعوه الإسلاميه وانتصار الرساله على قوى الشرك، فمن هذا المنطلق فأنت تقع كلياً خارج هذا البحث ولا يمكن أن تجلس للتحكيم بين المهاجرين الأولين وتعيين مراتبهم ودرجاتهم.

وفى الجملة الرابعه والأخيره يضيف الإمام عليه السلام: «وَإِنَّكَ لَدَهَابٌ فِي التِّيهِ، رَوَّاعٌ عَنِ الْقُصْدِ».

«التيه» فى الأصل بمعنى الحيره، ثمّ اطلق على الصحراء التى لا- يوجد فيها طريق للخروج منها، بحيث يبقى الإنسان حائراً فيها لا يهتدى سبيلاً، كما هو الحال فى صحراء سيناء فى سنوات «تبه» بنى اسرائيل حيث بقوا فى هذا التيه أربعين سنه.

والإمام عليه السلام فى هذه الجملة الأخيره يرى أنّ مسار معاويه فى هذه القضيه على خطأ من جهتين: الأولى: أنّه قد أوصل نفسه إلى وادٍ لا- يمكن الخروج والنجاه منه وأنّ طريقه ومقصده غير معلوم، والأخرى: أنّه على فرض وضوح الطريق والمقصد، فإنّ معاويه لم يختر لنفسه الطريق القويم، بل انحرف عن هذا المسير وتوغّل فى دروب الضلاله والانحراف والتيه.

«رَوَّاعٌ» صيغه مبالغه من ماده روع (على وزن ذوق) وتعنى الحركات الانحرافيه التى تقود صاحبها تاره إلى هذه الجهه وأخرى إلى تلك، فيقال: إنّ الثعلب يتحرّك بمثل هذه الحركه حتى لا يقع فى المصيد، والإمام يقول لمخاطبه هنا: أنت تتحرّك دوماً من هذه الجهه إلى تلك الجهه من موقع المكر والحيله ولا تتحرّك أبداً فى

المسار الصحيح والطريق المعتدل، فأحياناً تدافع عن صحابه النبي، وأخرى تقف أمامهم وترفع لواء التمرد ضدهم وتدعو الناس للحرب وسفك الدماء.

ص: ٣٥١

أَلَمْ تَرَى غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُخِذْتُ - أَنْ قَوْمًا اسْتَشْهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلِكُلِّ فَضْلٍ، حَتَّى إِذَا اسْتَشْهَدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَحَصَّه رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ! أَوْ لَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قَطَعَتْ أَيْدِيَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - لِكُلِّ فَضْلٍ - حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحِينَ!» وَلَوْ لَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَرْكِيهِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَدَكَرَ ذَاكَرٌ فَضَائِلَ جَمَّةٍ تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ. فَدَعَّ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبَّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا.

الشرح والتفسير: الامتيازات النادرة

تبيّن في المقطع السابق أنّ الإمام عليه السلام خيّب معاويه في بلوغ هدفه من الرسالة، لأنّ معاويه أراد من خلال استعراض سيره الخلفاء الثلاثة أن يثير الإمام عليه السلام ليتحدّث بكلام ضدّهم ويجعل من هذا الكلام حجّة وذريعه كقميص عثمان، ولكنّ الإمام عليه السلام ذكر له بأنّك أجنبيّ وغريب عن الدخول في مثل هذه المسائل فلا يحقّ لك أن تنصب نفسك حكماً بين المهاجرين والأنصار.

ثمّ إنّ الإمام في هذا المقطع من هذه الرسالة يستعرض فضائل أهل البيت عليهم السلام بأفضل تعبيرات وأبلغ الكلمات فيبطل ادّعاءات معاويه بشكل غير مباشر، يقول الإمام عليه السلام: «أَلَمْ تَرَى - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُخِذْتُ - أَنْ قَوْمًا اسْتَشْهَدُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلِكُلِّ فَضْلٍ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدًا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ».

وقد ورد في الروايات الإسلامية أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان كلما كبر تكبيره في صلاته على جثمان حمزه كبرت جماعه من الملائكة معه، وعلى ضوء ذلك جاءت أربعة عشر طائفة من الملائكة بصورة متتالية وصلوا خلف رسول الله صلى الله عليه وآله على جنازه حمزه (١).

على أيه حال فإنّ غرض الإمام عليه السلام من هذا الكلام أنّنا لو شرعنا بذكر الفضائل وبدأنا من الشهادة، فإنّ هذه الفضيلة تعدّ من أبرز امتيازات قبيلتنا، لأنّ حمزه سيّد الشهداء منّا، فصحيح أنّ جميع الشهداء يملكون مقاماً شامخاً عند الله وعند المؤمنين، ولكن مقام هذا الشهيد من بنى هاشم أعلى وأسمى من الجميع.

وطبعاً فإنّ هذا اللقب لحمزه وهو سيّد الشهداء كان بالنسبة لشهداء عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وإلّا فإنّ مقام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في شهادته وشهادة الإمام الحسين عليه السلام وشهداء كربلاء أعلى من ذلك، اللافت أنّ ابن أبي الحديد يتحدّث بمثل هذه الكلام عن شهادة أمير المؤمنين عليه السلام (٢).

ثمّ إنّ الإمام يستمرّ في بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام وبنى هاشم ويذكر فضيلة أخرى لشهداء بنى هاشم وهي شهادة جعفر الطيار ويقول لمعاوية: «أَوْلَمَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قَطَعَتْ أَيْدِيَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَلِكُلِّ فَضْلٍ - حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَّاحِينَ».

وقد جاء في شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري نقلاً عن المغازي للواقدي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دخل على أسماء - زوجة جعفر بن أبي طالب بعد استشهاده - فعناه

ص: ٣٥٤

١- (١). ورد هذا الحديث (سبعين تكبيره) بشكل إجمالي في الكافي (ج ٣، ص ١٨٦، باب من زاد على خمس تكبيرات، ح ٣)، ولكن ما ورد أعلاه من أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله صلى أربعة عشر صلاة بأربعة عشر من الملائكة ورد في شرح نهج البلاغه لابن ميثم.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٩٣.

إياها - إلى أن قال - يا أسماء ألا ابشركي؟ قالت: بلى، بأبي أنت وأمي، قال صلى الله عليه وآله: فإن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة، قالت: بأبي أنت وأمي يارسول الله، فأعلم الناس ذلك، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيدي يمسح بيده على رأسي حتى رقي على المنبر، وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يعرف عليه، فتكلم وقال: «إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، ألا إن جعفرًا قد استشهد وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة» (١).

وبعد أن يستعرض الإمام علي عليه السلام هذين الموردين المتميزين من فضائل بني هاشم، يتحدث بيان كلي، ويقول: «ولو لآما نهى الله عنه من تزكيه المرء نفسه، لذكر ذاك فضائل جمه، تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجها» (٢) آذان السامعين».

وهذا إشاره إلى أن فضائلنا أهل البيت عليهم السلام قد ملأت الخافقين وليست فضيله واحده أو عدد قليل من الفضائل، بل هي من الشهره والشياع إلى درجه أنه لا يعرفها المؤمنون فحسب، بل حتى المنافقين والغرباء عن الإسلام على معرفه بها وقد سمعها الكثير من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وإن كنت (معاويه) لا تعرفها، ولكن نظراً لحمل البعض بذكر هذه الفضائل، على مدح الذات وتزكيه النفس، فأنا أكتفي بهذا المقدار وأغض النظر عن سائر الفضائل الكثيره، وأترك الحكم إلى المؤمنين وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله الخاصين حيث يتواجد الكثير منهم لحد الآن بين المسلمين.

ثم إن الإمام عليه السلام في نهايه هذا المقطع من الرساله يهيب بمعاويه ويقول: «فدع عنك من مالت به الرميئه» (٣) فإننا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا».

ص: ٣٥٥

١- (١). شرح نهج البلاغه للتستري، ج ٣، ص ١١١؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ٧١.

٢- (٢). «تمجج» من ماده «مج» على وزن «حج» بمعنى قذف شيء من السوائل من الفم، ثم استخدمت هذه المفرده فى سماع الكلام غير الملائم، والجمله أعلاه تعنى أن الآذان لا تمتنع ولا تأبى استماع هذه الفضائل بل تقبلها.

٣- (٣). «رميئه» بمعنى الصيد الذى يناله الإنسان بالرمى، وجمعه «رمايا»، وجمله «من مالت به الرميئه» إشاره إلى الشخص الذى يطلب صيداً ويجعله ذلك الصيد ينحرف عن مساره الأصلي وربما يتيه فى الصحراء، فيقول الإمام عليه السلام بهذا الكلام لمعاويه إن أشخاصاً مثل عمرو بن العاص يطلبون صيداً من المقام والمال والجاه، ولذلك انحرفوا عن جاده الحق ولا ينبغى أن تسلم زمام أمورك بيد هؤلاء الظالمين.

ويعترف شراح نهج البلاغه أنّ هذه الجملة بليغه جداً وعميقه المحتوى وتمثّل جواباً حاسماً وردّاً قاطعاً لكلام معاويه المتهاوى والهزيل.

لأنّه مع الالتفات إلى أنّ كلمه «صَيَّنَائِع» جمع صنيعه وتعنى الشىء المختار والمصطفى، ومن حاز بتربيته واهتمام بالغ، يقول الإمام عليه السلام: لا- شك، أنّ شمس النبوه طلعت من دورنا، فإنّ الله تعالى قد اختار نبى الإسلام صلى الله عليه وآله من اسرتنا واصطفاه للرساله واصطنعه وربّاه وتحمّل هذه المسؤوليه الثقيله فى ظلّ الوحي، وعندما بلغ ذروه الكمال والعلم والهدايه، بعث لهدايه الناس وتعليمهم، ونحن بدورنا ممّن اصطفاهم الله لسلك هذا الطريق، وعلى ضوء ذلك فنحن ممّن اصطفاهم الله وربّاهم واصطنعهم لتربيته الناس وتعليمهم وإصلاح نفوسهم، ولذلك لا- مجال لمقارنتنا بالآخرين، وأنت حينما تذكر بعض الأشخاص الذين ساروا فى خطّ الهدايه والإيمان فإنهم قد اهتموا بهدايتنا وبنورنا.

وفى معنى جملة «صَيَّنَائِع لَنَا» سلك البعض مسلك الإفراط فى ذلك وذهب إلى أنّ الناس مخلوقون ومصنوعون من قبل أئمه الهدى عليهم السلام أو أنّهم عبيد لهم، فى حين أنّ هذا الكلام لا يتناغم ولا يتجانس مع آيات القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يتحدّث عن موسى عليه السلام ويقول: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» (١)، وفى مورد أخرى يقول:

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» (٢).

وللأسف فإنّ التفسير المذكور آنفاً قد أضحى ذريعه بين المخالفين للتشيع على أتباع أهل البيت عليهم السلام واللافت أننا نقرأ فى حديث معتبر ورد فى كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام أنّ أبا الصلت دخل على الإمام الرضا عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله ما هذا الذى ينقل الناس عنكم؟ فقال له الإمام الرضا عليه السلام: ماذا يقولون؟ فقال: «إِنَّكُمْ

ص: ٣٥٦

١- (١) . سورة طه، الآية ٤١.

٢- (٢) . سورة طه، الآية ٣٩.

تَدْعُونَ أَنَّ النَّاسَ لَكُمْ عَبِيدٌ» فَتَعَجَّبَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ شَاهِدٌ بِأَنِّي لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ قَطُّ وَلَا سَجِعتُ أَحَدًا مِنْ آبَائِي عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَالَ قَطُّ وَأَنْتَ الْعَالِمُ بِمَا لَنَا مِنَ الْمَظَالِمِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَإِنَّ هَذِهِ مِنْهَا» (١).

تأملان: فضائل حمزه سيد الشهداء

بالنسبة لشخصية حمزه عليه السلام وخدماته الجليلة للإسلام والمسلمين وشهادته الأليمة، فقد أورد المؤرخون في المصادر الإسلامية بحوثاً كثيرة في هذا المجال ونشير هنا إلى جملة منها:

١. جاء في تفسير فرات الكوفي: «يُدْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى عَلِيٍّ لَوَاءِ الْحَمْدِ وَإِلَى حَمْزَةَ لَوَاءِ التَّكْبِيرِ وَإِلَى جَعْفَرَ لَوَاءِ التَّسْبِيحِ» (٢).
٢. جاء في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «يَأْتِي بِالرُّمَحِ الَّذِي كَانَ يُقَاتِلُ حَمْزَةَ أَعْدَاءَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا فَيَنَاوِلُهُ إِيَّاهُ وَيَقُولُ: يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ذِدِ الْجَحِيمِ عَنْ أَوْلِيَائِكَ بِرُمَحِكَ» (٣).
٣. وأورد ابن حجر العسقلاني في كتابه الاصابة في تمييز الصحابة: «حمزه بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف القرشي الهاشمي، أبوعمار، عم النبي صلى الله عليه وآله وأخوه في الرضاعة، أرضعتها ثويبه مولاه أبي لهب كما ثبت، وقريب من أمه أيضاً لأنَّ أم حمزه هاله بنت أهيب بن عبدمناف بن زهره، بنت عم آمنه بنت وهب بن عبدمناف أم النبي صلى الله عليه وآله.

ص: ٣٥٧

١- (١). عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٨٤.

٢- (٢). سفينة البحار، مادة حمزه.

٣- (٣). المصدر السابق.

ولد قبل النبي صلى الله عليه وآله بستين، وقيل: أربع، وأسلم السنة الثانية من البعثة، ولازم نصر رسول الله صلى الله عليه وآله وهاجر معه... ولقبه النبي صلى الله عليه وآله أسد الله، وسماه سيّد الشهداء، وقف على حمزه حين استشهد وقد مُثِّل به، فجعل ينظر إليه منظرًا كان أوجع قلبه فقال:

«رَحِمَكَ اللَّهُ أَيَّ عَمٍّ لَكُنْتُ وَصَوْلًا لِلرَّحِمِ فَعَوْلًا لِلْخَيْرَاتِ» (١).

٤. وجاء في كتاب اسد الغابه في معرفه الصحابه لابن الأثير: «ولما عاد النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينه سمع النوح على قتلى الأنصار، (والحال كانت دار حمزه قفره لأنه كان من المهاجرين) فقال صلى الله عليه وآله: «لَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِي لَهُ». فسمع الأنصار، فأمرُوا نساءهم أن يندبن حمزه قبل قتلاهم، ففعلن ذلك، قال الواقدي (المؤرخ المشهور): فلم يزلن يبداً بالندب لحمزه حتى الآن» (٢).

٥. وجاء في كتاب مكارم الأخلاق أن فاطمه الزهراء عليها السلام صنعت من تراب قبر حمزه مسبحه وكانت تذكر الله بها (٣).

والروايات في فضائل سيّد الشهداء حمزه عليه السلام وتضحياته ودفاعه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإسلام في أيام الغربه والمحنه، وشجاعته في ميدان القتال كثيره، ونختم هذا المختصر بحديث آخر نقله المرحوم الكليني في الكافي عن سدير قال:

كُنَّا عِنْد أَبِي جَعْفَرٍ (الباقر عليه السلام) فَذَكَرْنَا مَا أَحْدَثَ النَّاسَ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَاسْتَذَلَّ لَهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ فَأَيْنَ كَانَ عَزَّ بَنِي هَاشِمٍ وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَدَدِ؟ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (الباقر) عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَمَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ إِنَّمَا كَانَ جَعْفَرٌ وَحَمْزَةُ فَمَضَىا وَبَقِيَ مَعَهُ رَجُلَانِ ضَعِيفَانِ ذَلِيلَانِ حَيْدِنَا عَهْدٍ بِالإِسْلَامِ، عَبَّاسٌ وَعَقِيلٌ، وَكَانَا مِنَ الطُّلُقَاءِ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ حَمْزَةَ وَجَعْفَرَ كَانَا بِحَضْرَتِهِمَا مَا وَصَلْنَا إِلَى مَا وَصَلْنَا إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَا شَاهِدَيْهِمَا لَأْتَلَفَا نَفْسَيْهِمَا» (٤).

ص: ٣٥٨

١- (١). الإصابه، ج ١، ص ٣٥٤.

٢- (٢). اسد الغابه، ج ٢، ص ٤٨.

٣- (٣). مكارم الأخلاق، ص ٢٨٠؛ بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٣٣٣، ح ١٦.

٤- (٤). الكافي، ج ٨، ص ١٨٩، ح ٢١٦ (مع تلخيص يسير).

وقد أشار الإمام عليه السلام في رسالته مورد البحث إلى مقام جعفر بن أبي طالب عليه السلام بين شهداء الإسلام بكلمات دقيقة وعميقه المعنى، وقد ورد في الروايات الإسلاميه أيضاً عبارات مهمه في هذا الصدد، منها:

١. ما ورد في كتاب الكافي عن يوسف بن أبي سعيد قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: «إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَجَمَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْخَلَائِقَ كَانَ نُوحٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَوَّلَ مَنْ يُدْعَى بِهِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. قَالَ: فَيَخْرُجُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَتَخَطَّى النَّاسَ حَتَّى يَجِيءَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ عَلَى كَثِيبِ الْمَشِيكِ وَمَعَهُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...» (١)، فَيَقُولُ نُوحٌ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَأَلَنِي: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَقُلْتُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَيَقُولُ: يَا جَعْفَرُ يَا حَمْرَةَ اذْهَبَا وَأَشْهَدَا لَهُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (الصادق) عليه السلام: فَجَعَفَرُ وَحَمْرَةُ الشَّاهِدَانِ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِمَا بَلَغُوا»، فَقُلْتُ:

جعلت فداك فعلى أين هو؟ فقال عليه السلام: «هُوَ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً مِنْ ذَلِكَ» (٢).

٢. وينقل ابن أبي الحديد عن أبي الفرج الإصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين أن لجعفر فضائل كثيره، وقد وردت أحاديث كثيره في هذا المجال، منها: أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح خيبر قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشه، فالترمه رسوله الله صلى الله عليه وآله وجعل يقبل بين عينيه ويقول: «ما أدرى بأيهما أشد فرحاً بقُدومِ جَعْفَرٍ أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرٍ؟» (٣).

ص: ٣٥٩

١- (١). سورة الملك، الآية ٢٧.

٢- (٢). الكافي، ج ٨، ص ٢٦٧، ح ٣٩٢.

٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ٧٢. ونقل هذا الحديث ابن عساكر في تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٧.

٣. ويروى ابن عساكر فى تاريخ دمشق أنّ الإمام على عليه السلام كان أول رجل اعتنق الإسلام وبعده زيد بن حارثه ثم جعفر بن أبى طالب (١).

٤. وفى كتاب الإصابه فى تمييز الصحابه ورد أنّ جعفر كان يهتم كثيراً بالفقراء والمحتاجين ويقدم يد المعونه لهم ويتحدث معهم، بحيث أنّ رسول الله سمّاه «أبوالمساكين» وقال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «أشبهت خلقى وخلقى» ثم أضاف ابن عساكر: إنّ هذا الحديث رواه البخارى ومسلم فى كتابيهما (٢).

٥. وينقل ابن عساكر فى تاريخ دمشق أيضاً عن أنس بن مالك عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «نحن بنو عبدالمطلب سادة أهل الجنه: رسول الله وحزبه سيّد الشهداء وجعفر ذو الجناحين وعليّ وفاطمه والحسن والحسين» (٣).

وهناك روايات كثيره فى فضائل جعفر بن أبى طالب عليه السلام، نختم هذا البحث بروايه عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: إني شكرت لجعفر بن أبى طالب أربع خصال، فدعاه النبى صلى الله عليه وآله فأخبره، فقال له: لولا أنّ الله تبارك وتعالى أخبرك ما أخبرتك، ما شربت خمرًا قط، لأنى علمت أنى إن شربتها زال عقلى، وما كذبت قط لأن الكذب يُقصّ المرؤه، وما زنيّت قط لأنى خفت أنى إذا عملت عمل بي، وما عيّدت صمناً قط لأنى علمت أنه لا يضرو ولا ينفع، قال:

فصّر النبى صلى الله عليه وآله يده على عاتقه وقال: حقّ على الله عزّ وجلّ أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكه فى الجنه» (٤).

مضافاً إلى كلّ ذلك من افتخارات جعفر وامتيازاته فإنّه كان رئيس المهاجرين إلى الحبشه، وعليه فإن جعفر كان قد هاجر الهجرتين (الهجره إلى الحبشه والهجره إلى المدينه) وصلى إلى القبلتين (بيت المقدس فى بدايه الإسلام والكعبه بعد مجيئه

ص: ٣٦٠

١- (١). مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٦.

٢- (٢). الإصابه، ج ١، ص ٢٣٧، ترجمه حياه جعفر بن أبى طالب.

٣- (٣). مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٨.

٤- (٤). من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٩٧، ونقل هذا الحديث ابن عساكر فى مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٧ أيضاً.

إلى المدينة) وباع البيعتين مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (البيعه في بدايه الإسلام والبيعه في فتح مكه) كما ورد ذلك في الأحاديث الشريفه(١).

ص: ٣٦١

١- (١) . سفينه البحار، ماده جعفر.

لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمَ عِزِّنَا وَلَا عَادِيَّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فَعَلَ الْأَكْفَاءُ، وَلَسِيْتُمْ! هُنَاكَ وَأَنْتَى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسِيدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَخْلَافِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صَبِيهُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ! فَإِنِّي لَأَمَّا قَدْ سَمِعْتُ، وَجَاهِلِيَّتِنَا لَأَتُدْفَعُ، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَدَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِإِقْرَابِهِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِإِلِطَاعِهِ. وَلَمَّا اخْتَجَّ الْمُتَهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بغيرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ.

الشرح والتفسير: نقاط مهمه أخرى في فضائل أهل البيت عليهم السلام

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى نقاط مهمه أخرى، ففي البدايه يحذر معاويه أن من تصوّر أن مجرد الارتباط النسبي والسببي بين بنى هاشم وبنى اميه دليل على التساوى في المرتبه والمكانه، بل هو نوع من التفضّل والإيثار من بنى هاشم يقول: «لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمَ عِزِّنَا وَلَا عَادِيَّ

طَوْلِنَا (١) عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلُ الْأَكْفَاءِ (٢)، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ!».

إنما يتحدث الإمام عليه السلام بهذا الكلام من جهة أنّ لهجه معاويه في رسالته يستوحى منها أنّ بنى اميه في عرض واحد مع بنى هاشم، في حين أنّ بنى هاشم يمثلون مركز النبوه ومحور الولايه، وأنّ بنى اميه هم أئمه الكفر وقاده الشرّ، ولكن عندما اعتنقوا الإسلام ظاهراً، فإنّ الإسلام فرض على المسلمين أن يتعاملوا فيما بينهم معامله الأكفاء والأنداد، ومن هذا المنطلق تزوّج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أم حبيبه بنت أبي سفيان، وزوّج النبي ابنته لعثمان بن عفان.

وينطلق الإمام عليه السلام في كلامه لبيان الدليل الواضح والبرهان القاطع على التفاوت الفرق بين بنى هاشم وبنى اميه ويقول: «وَأَنْتَى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمُكَذَّبُ (مثل أبي جهل)، وَمِنَّا أَسِيدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسِيدُ الْأَخْلَافِ (٣) (أبوسفيان)، وَمِنَّا سَيِّدًا شِيَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ (الحسين والحسين) وَمِنْكُمْ صَبِيَّةُ النَّارِ (مروان أو عقبه بن أبي معيط)، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (فاطمه الزهراء)، وَمِنْكُمْ حَمَالَةُ الْحَطَبِ (ام جميل زوجة أبي لهب وأخت أبي سفيان)، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ!».

وعلى هذا الأساس يبيّن الإمام عليه السلام مكانه بنى هاشم الساميه وفضائح بنى اميه وأتباعهم بالشواهد والقرائن التاريخيه، بحيث لا يدع لأياحد مجالاً لإنكار هذه الحقائق، وهذا هو معنى الفصاحه والبلاغه فى الكلام.

أمّا مقصود الإمام عليه السلام من «المُكَذَّبُ»، فهناك خلاف بين شراح نهج البلاغه

ص: ٣٦٤

١- (١). «طَوْلٌ» بمعنى الإمكانيات والقدرة الماليه، ورد بمعنى الفضل والعطاء أيضاً، وفى الأصل «طول» فى مقابل «عرض»، لأنّ القدره الماليه أو الجسميه نوع من الطول وقدره الإنسان و «ذِي الطَّوْلِ» بمعنى العطاء والجود، وعلى هذا الأساس أنّ عبارته «عَادِيّ طَوْلِنَا» فى الجملة أعلاه بمعنى العطايا الدائمه.

٢- (٢). «الْأَكْفَاءُ» جمع «كفؤ» على وزن «قفل» بمعنى الترادف والتساوى فى الشخصيه.

٣- (٣). «الْأَخْلَافِ» جمع «حلف» على وزن «جلف» بمعنى العهد والميثاق و «حلف» على وزن «حرف» تعنى القسم واليمين، وبما أنّ العهد يتم توكيده بالقسم فسميت هذه العمليه بالحلف.

فذكروا تاره أشخاصاً مجهولين بوصفهم مكذّبين بحيث يتعجب القارىء من ذلك، فى حين أنّ المُكذّب البارز فى تاريخ الإسلام هو أبو جهل، سواء قلنا إنّ من بنى اميه أم لا، لأنّ الإمام عليه السلام فى هذا الكلام يستعرض فضائح بنى اميه ومن حالفهم من العرب، وكان شريكاً معهم فى المواقف السليبه تجاه الدعوه والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

وأما بالنسبه ل «أسد الله» فلا يوجد أىّ خلاف بين شراح نهج البلاغه أنّ المقصود منه حمزه سيد الشهداء عليه السلام والذى لقبه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا اللقب، أما «أسد الأخلاف» فقد ذكروا احتمالات عديده، فى حين أنّ أوضح مصداق له هو (أبو سفيان) الذى قاد قوى الكفر وجيوش الشرك ضدّ الإسلام فى حروب كثيره وتحالف مع المشركين من العرب ضدّ الإسلام وكان آخرها معركة الأحزاب.

وهكذا بالنسبه للمراد من «صبيّه النار» فقد طرح شراح نهج البلاغه آراء مختلفه، ولكنّ الأنسب من الجميع أنّ المقصود منهم أبناء عقبه بن أبى معيط، وهو الذى تلقى ضربات كثيره فى معركة بدر وسقط على الأرض فلما وقعت عينه على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قال بصوت ضعيف: «مَنْ لِلصَّبِيهِ يَا مُحَمَّدٌ؟» فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«النار»(١).

وهو إشاره أنّكم تقتلون المسلمين ولا تفكرون بأبنائهم وصبيّتهم، لكنّك الآن تفكر بأبنائك وصبيّتك وأطفالك وهم الصبيّه الذين سيتحرّكون فى مسير الشرك والكفر تبعاً لأبيهم، ويقفون فى صفّ أعداء الإسلام ضدّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ودعوته السماويه، والتاريخ الإسلامى يحدثنا أيضاً أنّ أبناء عقبه بن أبى معيط كانوا مصدر الشرّ والفتنه فى الأمه ومنهم الوليد بن عقبه.

والمقصود من «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ» فشراح نهج البلاغه وسائر علماء الإسلام يتفقون بالإجماع على أنّها فاطمه الزهراء عليها السلام، لأنّه كما ورد فى صحيح مسلم أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عندما حانت وفاته قال لفاطمه عليها السلام يواسيها ويطيب خاطرها: «يَا

ص: ٣٦٥

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٩٧.

فَاطِمَةُ أَمَّا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟» (١).

ومثل هذا الحديث ورد أيضاً في صحيح البخارى الجزء ٧، ص ١٤٢ وجاء فى مسند أحمد و مستدرك الحاكم عبارته «سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ» بدل العبارة السابقة (٢).

أما «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» فقد وردت الإشارة إليها فى القرآن الكريم ويتفق شراح نهج البلاغه ومفسرو القرآن أن المراد بها أم جميل زوجة أبى لهب، وأخت أبى سفيان وعمه معاوية.

ومن مجموع ما تقدم آنفاً يتبين بوضوح المكانه المرموقه لأهل بيت النبى صلى الله عليه وآله وبنى هاشم، وكذلك مكانه بنى أميه وأتباعهم، ومن خلال كلام الإمام عليه السلام تستفاد مسائل كثيره أخرى أيضاً ويتضح من خلال الملاحظات التى ذكرها الإمام عليه السلام فى كلامه هذا الجواب الحاسم لمعاوية وادعاءاته الواهيه.

ثم إن الإمام عليه السلام من أجل التأكيد على ما سبق يضيف: «فَإِسْمُ لِمَا مَنَا قَدْ سَمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَأَتَدَفَعُ»، الأعمال التى سبق أن قمنا بها فى الجاهليه والإسلام لا تخفى على أحد.

وهذا إشاره إلى أن الإسلام قد بدأ بنا وأنا كنا أول المسلمين والمدافعين الحقيقيين عن الإسلام، وفى زمان الجاهليه أيضاً كنا معروفين بحسن السمع والأعمال الصالحه والأمانه بين جميع العرب قاطبه، ونقرأ فى روايه عن أحوال جعفر أن الله تعالى قد مدحه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ليربع فضائل متميزه له فى زمان الجاهليه، خلافاً لبنى أميه والقبائل المتحالفه معهم الذين كانوا معروفين بالمكر والشيطنه والفساد وسفك الدماء.

وينقل المرحوم الشيخ مغنيه فى شرحه لنهج البلاغه نقلاً عن كتاب عبقرية محمد للكتاب المصرى المعروف «العقاد» أن بنى هاشم كانوا دوماً معروفين

ص: ٣٦٦

١- (١). صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٤٣ و ١٤٤.

٢- (٢). مسند أحمد، ج ٣ ص ٨٠؛ مستدرك الحاكم، ج ٣، ص ١٨٦.

بالفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية والعقيدة السليمة، بعكس بنى اميه المعروفين بالمكر وسوء الخلق، ونحن نرى هذا الاختلاف والتفاوت بين بنى هاشم وبنى اميه فى كافه الصفات الأخلاقية والمثل الإنسانية(١).

واللافت أنّ ابن أبى الحديد يذكر بحثاً مطوّلاً- من مائه صفحته تقريباً فى بيان هذه الفروقات، وفى الفصل الأول يتحدّث عن فضائل بنى هاشم بالمقارنه مع بنى اميه، أبناء عبدشمس، وفى الفصل الثانى يتحدّث عن الأمور التى يفتخر بها بنوأميه، وفى الفصل الثالث يجيب عن هذه الافتخارات المزعومه(٢).

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد أن طرح هذه الأدله التاريخيه القويه يتوجّه نحو القرآن الكريم ويستعرض آيتين شريفتين لإثبات حقانيه بنى هاشم ويقول: «وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَدَّ عَنَا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» (٣) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» (٤).

والإمام عليه السلام فى تفسير وتطبيق هذه الآيه يضيف: «فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَىٰ بِالْقُرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَىٰ بِالطَّاعَةِ».

وفى الواقع أنّ الإمام عليه السلام فى ذكره هاتين الآيتين أوصد جميع الطرق على معاويه، فإن كان المعيار فى خلافه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله القرابه له، فنحن أولى من الجميع بذلك لأننا أقرب للنبى صلى الله عليه و آله من سائر المسلمين، وإن كان المعيار هو المعرفه بتعاليم الرساله والطاعه للأحكام والأوامر الشرعيه وأوامر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فنحن أعرف من الجميع بذلك وأطوع له ولدينه من الآخرين، فى حين أنّ بنى اميه والأشخاص الآخرين الذين تربّعوا على كرسى خلافه النبى صلى الله عليه و آله لا يملكون مثل

ص: ٣٦٧

١- (١). فى ظلال نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٧١.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٩٨-٢٩٥.

٣- (٣). سوره الأنفال، الآيه ٧٥.

٤- (٤). سوره آل عمران، الآيه ٦٨.

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو: هل أنّ القرابه لوحدها تصلح أن تكون دليلاً على الأحقيته والصلاحية لخلافه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

الجواب: إنّ الإمام عليه السلام في هذا الكلام ناظر إلى الاستدلال الذي طرحه أتباع الخليفة الأول في سقيفه بنى ساعده، حيث استدّلوا بقرابته للنبي لإثبات أولويته للخلافه، فالإمام يقول: إذا كان هذا هو المعيار المقبول فنحن أقرب من الجميع لرسول الله عليه السلام، وبديهي أنّ المعيار الأصلي هو ما ذكره الإمام عليه السلام في العبارة الثانيه وهو الطاعه والسير في خطّ الامتثال للأوامر الإلهيه والتعاليم الرساليه، الطاعه المتولّده من العلم والإيمان، فالشخص الذي يكون أعرف من الجميع بدين النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويملك إيماناً أقوى من الآخرين، فإنّه جدير بالخلافه وتولّى هذا المقام، ولهذا نحن نرى أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أجدر وأليق من الجميع لإحراز هذا المنصب، وأعلى من ذلك أنّ الله تعالى بسبب هذه الامتيازات الفرديه واللياقات العاليه قد نصبه لهذا المقام واختاره إماماً للمسلمين.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لتوضيح أكثر عن هذه المسأله المذكوره آنفاً ويقول «وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (لما احتجّ الأنصار على المهاجرين لإثبات أحقيتهم لتولّى الخلافه يوم السقيفه برسول الله صلى الله عليه وآله) فَلَجُوا(1) عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بغيره فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ».

وفي الحقيقه أنّ الإمام عليه السلام يجيب عن ادّعاءات معاويه فيما يتصل بالخليفه الأول والثاني ويقول: ليس فقط أنّ بنى اميه لا يليقون بخلافه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لأنهم

ص: ٣٦٨

١- (١). «فَلَجُوا» من ماده «فَلَج» على وزن «فتح» بمعنى الانتصار والنجاح، و «فَلَج» على وزن «حرج» اسم مصدر بمعنى النصر، ومفرده «فلج» على وزن «خرج» تعنى الشق والفاصله بين شيئين وأحياناً يتسبب في الشلل والقعود عن الحركة والمشى بشكل غير سليم.

ليسوا من المهاجرين وليسوا من الأنصار، بل من الطلقاء، أى المشركين الذين أطلقهم النبىُّ الأكرم صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة، فإنَّ الخلفاء الأوائل أيضاً واستناداً إلى كلامهم، غير جديرين لتولّى هذا المنصب، لوجود من هو أجدر منهم، فإن كان معيار اللياقة والجدارة، (وفقاً لاستدلالاتهم) القرابه للنبىِّ فإنَّ الإمام على عليه السلام هو أقرب منهم للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله، فهو ابن عم النبىِّ وصهره، وإذا كان الآخرون يمثلون أغصان شجره النبوه فالإمام على عليه السلام هو ثمره هذه الشجره وكذلك الأئمه من أهل البيت عليهم السلام.

ومرّه أخرى نكرّر أنّ هذا الاستدلال فى الواقع هو بمسلّمات الخصم، والذي يعبر عنه فى المنطق بالاستدلال الجدليّ، يعنى أنّ المتكلم يستند إلى مسلّمات الخصم ويخلع سلاحه منه.

تأملان

١. قصه السقيه المثيره!

يشير الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرساله إلى قضيه سقيه بنى ساعده المثيره التى تمّ تشكيلها لتعيين الخليفه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ونحن ذكرناها مع استعراض المقاطع التاريخيه الحساسه استناداً للمصادر المعتبره فى ذيل الخطبه ٦٧ تحت عنوان «مسأله الخلافه وقصه سقيه بنى ساعده» بشكل مفصّل وكشفنا اللثام عن هذه المؤامره العجيبه، وهنا نضيف عدّه نقاط:

الأولى: أنّ الطبرى فى تاريخه وابن الأثير فى الكامل صرّحا بأنّ جماعه الأنصار اجتمعوا فى سقيه بنى ساعده، فقالت جماعه منهم فى مقابل اقتراح عمر بالنسبه لبيعه أبى بكر: «لما تُبَايَعُ إِلَّا عَلِيًّا» (فى حين أنّ الإمام على عليه السلام وبنو هاشم ومنهم الزبير وكذلك جماعه أخرى من المهاجرين لم يكونوا حاضرين فى السقيه، ويقول الطبرى بعد ذكر هذا الكلام: بعد ذلك توجه عمر لدار على وكان فيه طلحه والزبير

وجماعه من المهاجرين وقال: «وَاللَّهِ لَنُحْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ أَوْ لَنُخْرِجَنَّ إِلَى التَّبِيعَةِ» (١).

ومن الأشخاص الذين اشتركوا مع عمر في هذا الهجوم على دار أمير المؤمنين عليه السلام أسيد بن خضير وسلمه بن أسلم (٢).

وجماعه اخرى من الأنصار سارعوا ببيعه أبي بكر عندما توَّصَّـلوا إلى بعض المقامات، منهم بشير بن سعد الذى كان من المشاورين للخليفة، والآخر أسيد بن خضير الذى تزعم الحرس فى المدينة، والثالث سلمه بن أسلم الذى حصل على مقام المعاون لأسيد (٣).

٢. فضائل بنى هاشم فى عصر الجاهليته والإسلام

تقدّم أن ابن أبى الحديد فى ذيل هذه الرسالة ذكر بحثاً مفصّلاً (من مائه صفحه تقريباً) فى بيان فضائل بنى هاشم بالمقارنه مع نقاط الضعف والقصور لبنى عبدشمس (عبدشمس هو والد اميّه).

منها: إنّ بنى هاشم قدّموا للإسلام شهداء عظام كالإمام علىّ وحمزه وجعفر عليهم السلام، فى حين أنّ فى بنى أميه أفراداً كالحكم بن العاص المعروف، بأنّه كان يسير خلف النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله ويقلد مشيته، فالتفت النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله ورآه ولعنه، وبعد ذلك لم يتمكّن من المشى بشكل سليم ومعتدل.

والآخر أنّ أحد المعاهدات الرائعه فى عصر الجاهليه (حلف الفضول) وهى المعاهده التى عقدت من أجل الدفاع عن المظلومين وحمايه المستضعفين، وفى هذا المعاهده اشترك بنو هاشم وقبائل أخرى من العرب، ولكن لم يشترك أى فرد من عبدشمس فيها.

ص: ٣٧٠

١- (١). تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٤٤٣ (حوادث سنه ١١).

٢- (٢). سفينه البحار، ماده أسد.

٣- (٣). انظر: كتاب الإمامه والسياسه، ص ٩ وما بعدها.

والثالث، أنّ بني اميه قد ارتكبوا في زمان الجاهليه أعمالاً شائنه لم يرتكبها أحد من العرب، منها أنّ اميه زوّج إحدى زوجاته لابنه أبي عمرو، في حين أنّ اسره بني هاشم لم تتلوّث بمثل هذه الأعمال السيئه.

وأيضاً كان لعبدالمطلب - وهو من رموز وأكابر بني هاشم - فضائل فريده، فقد حفر بئر زمزم وأدام منهج إسماعيل وهاجر، وأولى أهميته فائقه لدم الإنسان حيث جعل لديته مائه من الإبل، فلما جاء الإسلام أمضى هذا الحكم، وعندما هجم جيش أبرهه على مكه، فوّت عامه قريش من مكه، ولكنّ عبدالمطلب الذي كان في ذلك الوقت شاباً، قال: «وَاللّٰهُ لَأَخْرُجَ مِنْ حَرَمِ اللّٰهِ»، وهناك فضائل كثيره أخرى.

وللمزيد من الأطلاع، راجع شرح نهج البلاغه ابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٩٨ إلى ٢٩٥. وقد أشار ابن أبي الحديد في هذه الصفحات إلى بعض ما يزعم من مفاخر بني اميه ويجيب عنها.

ص: ٣٧١

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسِدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتٌ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتْ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونُ الْعُذْرُ إِلَيْكَ.
وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنْكَ عَارُهَا

وَقُلْتُ: إِنِّي كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمُخْشَوْشُ حَتَّى أَبَايَعُ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا مِمَّا لَمْ يَكُنْ شَاكِيًا فِي دِينِهِ، وَلَمَّا مُرْتَابًا بِيَقِينِهِ! وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَضِيْدُهَا، وَلَكِنِّي أَطَلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

الشرح والتفسير: هذه الأمور لا تخصك!

يتعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى مقطع من كلام معاوية الخاوي والمهزوز، حيث ذكر في رسالته للإمام عليه السلام: «أنتك حسدت أبا بكر وامتنعت من بيعته وكذلك حسدت عمر وحسدت عثمان أكثر من الجميع وفضحت أعماله على الملأ وكنت شاكياً في دينه وعقله وفهمه للأمور...».

والإمام عليه السلام يردّ عليه هذه الإدعاءات الواهية ويقول: «وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسِدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتٌ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتْ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونُ الْعُذْرُ إِلَيْكَ وَتِلْكَ شَكَاةٌ (١) ظَاهِرَةٌ (٢) عَنْكَ عَارُهَا».

ص: ٣٧٣

١- (١). «شكاه» و«شكوه» و«شكاه» و«شكاه» و«شكاه» في الأصل تعني المرض، ثم اطلقت على كل عيب ونقص، والشكايه تعني اظهار الألم والتظلم.

٢- (٢). «ظاهر» عندما تتعدى بحرف عن تعني الزوال والانتهاء، وجمله «ظاهر عنك عارها» تعني أن ذلك العار والعيب لا يصيبك ولا ينتسب إليك.

من هذا المنطلق يسحب الإمام عليه السلام البساط من تحت معاويه ويخرجه عن هذا الميدان، ويحسب ذلك نوعاً من الفضول والتدخل في أمور الآخرين، ويقول: إنني إذا كانت لدي مشكلة مع الخلفاء فيجب عليهم أو أبنائهم أن يدعوا مثل هذا الإدعاء، وأما أنت، فمن الطلقاء وقد قبلت بالإسلام مضطراً في آخر مرحله، في فتح مكة، فلا حق لك في التدخل في مثل هذه المواضيع.

ويستند الإمام عليه السلام في كلامه هذا إلى عجز بيت لشاعر عربي هو (أبو ذؤيب الهذلي) الذي كان أدرك عصر الجاهلية والإسلام، وعندما هاجر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى المدينة جاء إليه وأسلم على يده وصار من المسلمين الصالحين، وصدر البيت هو:

وَعَيَّرَهَا الْوَأَشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا

فيقول إن سعايه الواشين بحبه لها لا يعد عيباً، ولو كان هناك عيب وعار فهو بعيد عنك.

وهذا الشعر أضحى مثلاً يضرب به لمن يحسب أمراً سيئاً في حين أنه لا يرتبط به.

وجمله: «زَعَمْتَ» تعني أولاً: أن هذه النسبه التي تدعى أنني حسدت الخلفاء نسبه كاذبه وفريه واضحه، ولا سيما أنك زعمت في كلامك أنني شريك في قتل عثمان، والحال أنني كنت أذب عنه وأنهى الناس عن قتله، وثانياً: على فرض أن هذه النسبه صحيحه فهي لا تتعلق بك.

ويستمر الإمام عليه السلام في كلامه ويجب عن قسم آخر مما كتبه معاويه في رسالته:

«وَقُلْت: إِنِّي كُنْتُ أَقْبَادُ كَمَا يُقْبَادُ الْجَمَلُ الْمُخْشَوْشُ (١) حَيْثِي أُرْيَاعُ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تَذُمَّ فَمِيدَحْتِ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَأَفْتَضَحْتِ!».

وهو إشاره إلى أنك أولاً: تعترف بأنني وقعت مظلوماً وأن الآخرين ظلموا حقي

ص: ٣٧٤

١- (١). «المخشوش» في الأصل يقال للجمل الذي ثقب أنفه وادخل فيه جبل أو خشبه متصله بجبل، فعندما يسحب ذلك الجبل يميل هذا الحيوان معه حيثما مال، لأنه لا يستطيع مقاومه الألم الناشئ من جرّ هذا الجبل.

فى هذا المجال، فهذا يمثّل مدحاً لى وذمّاً للظالمين، وثانياً: أنّك أثبتت أنّ خلافهم لم تكن ياجماع الصحابه، فى حين أنّك تدافع عن مثل هذه الخلافه وقلت: أنّ الخليفه الأول أقرب إلى الله من الجميع وأعلى مكاناً، فكيف يمكن ذلك فى حين أنّه ارتكب ظلماً بحقّ أول مسلم وأقرب الناس للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأعلمهم بدينه وأشدّهم دفاعاً عن رسالته؟ وهذا التناقض فى كلامك دليل على خواء ادّعائك وضحاله فكرك.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام فى شرح هذا الكلام: «وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضِهِ (١) فِى أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكِّاً فِى دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً يَبْقِينَهُ!».

أجل، فالمصلحون والسائرون فى طريق الحقّ على إمتداد التاريخ وقعوا بسبب دفاعهم عن الحقّ وعدم استسلامهم وإذعانهم للظالمين، مورد الظلم والجور، وهذا يعدّ افتخاراً لهم.

وهذا يعنى أنّ هذا مثل هذه المظلوميه لو كانت عيباً فيجب أن تقول إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عندما جرح فى معركة أحد وكسرت رباعيته على يد أنصار أبيك وشقّت بطن حمزه من قبل أمك وأخرجت كبده ومضغته فى فمها، أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وحمزه عليه السلام يستحقّان الذمّ والتفريع وأنّ أباك ومشركى مكه وأمك هند جديرون بالمدح والتقدير!

ولكن هل يقبل أىّ عاقل مثل هذا الكلام؟ ولو تطلّعنا إلى ماضى التاريخ فإنّ الأنبياء الكبار إبراهيم ويحيى وزكريا والمسيح عليهم السلام وغيرهم وقعوا مورد الظلم والجور فى طريق الاستقامه والدفاع عن الحق والرساله الإلهيه.

وفى ختام هذا المقطع من الرساله يقول الإمام عليه السلام: «وَهَيْدِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَضْدَهَا، وَلَكِنِّي أَطَلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ (٢) مِنْ ذِكْرِهَا».

ص: ٣٧٥

١- (١). «غضاضه» بمعنى النقصان والعيب، وهى من ماده «غض» وتعنى التنقيص والتقصير.

٢- (٢). «سنح» من «السnoch» على وزن «فتوح» بمعنى التذكر والفهم.

وهو إشاره إلى أنّ المخاطب الحقيقي لكلامى هذا، الخلفاء الذين أجبرونى على بيعتهم، ولكن بما أنّك قد طرحت هذه المسأله فرأيت من اللازم أن اجيب عنها بالمقدار اللازم.

ص: ٣٧٤

ثُمَّ ذَكَرَتْ مَيَّا كَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُمَانَ، فَلَمَّكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَيْدِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أُعِيدَى لَهُ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ! أَمِنْ بَدَلٍ لَهُ نُضِيرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ اسْتَقْعَدَهُ، أَمْ مِنْ اسْتَنْصِرَهُ فَتَرَاحَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمُنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدْرُهُ عَلَيْهِ. كَلَّا وَاللَّهِ لَ «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوَّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا». وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَدِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَخْدَانًا؛ فَإِنْ كَانَ الدَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهَدَايَتِي لَهُ؛ فَرَبِّ مَلُومٍ لَأَذْنُبُ لَهُ.

وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنُّهُ الْمُتَنَصِّحُ

وَمَا أَرَدْتُ «إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

الشرح والتفسير: المقصر الأصلي في قتل عثمان

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته من موقع الإجابة عن أحد أوصاف معاوية ويقول: «ثُمَّ ذَكَرَتْ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُمَانَ، فَلَمَّكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَيْدِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أُعِيدَى (١) لَهُ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ (٢)!» أَمِنْ بَدَلٍ لَهُ نُضِيرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ (٣)

ص: ٣٧٧

١- (١). «أعدى» بمعنى أشد عداوه، وهى فى الأصل من ماله عداوه.

٢- (٢). «مقاتل» جمع «مقتل» بمعنى محل القتل أو الموضع الخاص من بدن الإنسان الذى إذا أصيب فإنه يؤدى إلى موت الإنسان وقتله.

٣- (٣). «فاسْتَقْعَدَهُ» يستفاد من مجموع القرائن الموجوده فى هذه العبارة أن ضمير الفاعل يعود إلى عثمان وضمير الفاعل يعود إلى الإمام عليه السلام يعنى أن عثمان لم يقبل بدعم الإمام عليه السلام ودفاعه عنه، وكان قد طلب من الإمام عليه السلام أن يسكت ويجلس فى مكانه ويترك الدفاع عنه، ولكن البعض عكسوا هذا المعنى وقالوا: إن الإمام عليه السلام طلب من عثمان أن يجلس ويترك السلوكيات الخاطئه ويستجيب لمطالب الناس، ولكن هذا المعنى بعيد، فعندما ندقق فى فاء التفریع فى «فاسْتَقْعَدَهُ» نرى أن المعنى الأول أقرب وأوضح.

وَاسْتَكْفَهُ، أَمْ مِنْ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمُنُونَ (١) إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدْرُهُ عَلَيْهِ».

إنَّ تاريخ الإسلام يشهد بأنَّ هذه التهمة التي نسبها معاوية للإمام عليّ عليه السلام بأنّه شارك في دم عثمان أو لم يدافع عنه بالمقدار اللازم، هي تهمة واهية وكذب وافتراء محض، افتراها معاوية لخداع الناس والتعمية على أفكارهم، ومن هذه الجهة استخدم قميص عثمان الدامي لإثاره أحاسيس الجهلة والغوغاء ضدَّ الإمام عليّ عليه السلام، والحال أنَّ الإمام عليّ عليه السلام نصح عثمان مراراً ودعا لإصلاح أخطائه وتعديل سلوكياته وعدم تقسيم بيت المال بين بنى أميه ومَنْ لَفَّ لفهم وعدم تقليدhem المراكز الحساسه في الحكومه الإسلاميه، وأن يصغى لنداءات المحرومين، ولكن للأسف لم يقبل عثمان بكلّ هذه النصائح، بل أنَّ الإمام عليّ عليه السلام عندما هجمت الجماهير الغاضبه على بيت عثمان أرسل أبناءه للدفاع عنه.

في حين أنَّ معاوية لم يتقدّم خطوه للدفاع عن عثمان مع أنَّ عثمان كان قد كتب إليه رساله يطلب منه إرسال قوّه خاصه من الشام إلى المدينه للدفاع عنه.

واللافت أنَّ معاوية عندما تربّع على كرسىّ الخلافه، ذكروا أنّه لم يكن أحد أحبّ إلى معاوية أن يلقاه من أبى الطفيل الكنانى: وهو عامر بن واثله، كان فارس أهل صفين، وشاعرهم، وكان من أخصّ الناس بعليّ كرم الله وجهه، فقدم أبو الطفيل الشام يزور ابن أخ له من رجال معاوية، فأخبر معاوية بقدمه، فأرسل إليه، فأتاه وهو شيخ كبير، فلما دخل عليه، قال له معاوية: أنت أبو الطفيل عامر بن واثله؟ قال نعم، قال معاوية: أكنت ممّن قتل عثمان أمير المؤمنين، قال: لا، ولم أكن ممّن شهده

ص: ٣٧٨

١- (١). «بث» فى الأصل بمعنى نشر وفرق و «منون» بمعنى الموت، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة «بثّ المنون» يعنى وفرّ أسباب الموت.

فلم ينصره، قال: ولم؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية: أما والله! إن نصرته كانت عليهم حقاً واجباً، وفرضاً لازماً، فإذا ضيعتموه فقد فعل الله بكم ما أنتم أهله، وأصاركم إلى ما رأيتم.

فقال أبو الطفيل: فما منعك يا أمير المؤمنين (يعنى معاوية) إذ تربصت به ريب المنون أن تنصره ومعك أهل الشام؟ قال معاوية: أو ماترى طلبى بدمه، فضحك أبو الطفيل وقال: بلى ولكنى وإياك كما قال عبيد بن الأبرص:

لا أَلْفَيْتَكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبِيؤِي فِي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي (١)

ثم يتحدث الإمام عليه السلام للتأكيد ولتوضيح ما تقدم من كلامه السابق من عدم استجابته معاوية لدعوه عثمان لنصرته، والآن يلقي باللائمة على الآخرين في عدم الدفاع عنه ويقول: «كَلَّا وَاللَّهِ لَ «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ (٢) مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا» (٣).

ونعلم أن هذه الآية نزلت في شأن طائفتين من المنافقين، إحداهما اجتنبت الجهاد والقتال في معركة الأحزاب ودعوا الآخرين لاجتناب الدخول في الحرب، والأخرى الذين قالوا لإخوانهم من المسلمين هلم إلينا ولا تقحموا أنفسكم في هذا الخطر، هؤلاء لم يكونوا من أهل الجهاد والقتال الأعداء ولا يشتركون في مواجهه قوى الكفر والشرك إلانادراً ومن موقع الإكراه وعدم الرغبة.

ويحتمل أيضاً أن هذه الآية الشريفة لا تشير إلى وجود طائفتين من المنافقين، بل تتحدث عن حاله طائفه معينه تعيش حالتين، أى تشير إلى تلك الطائفه من المنافقين الذين عندما يكونون في صف المجاهدين في ميدان القتال يمتنعون من الحرب والجهاد، وعندما يتخلفون عن الميدان يدعون الآخرين للتخلف معهم وعدم

ص: ٣٧٩

١- (١). الإمامه والسياسه، ج ١، ص ٢١٤.

٢- (٢). «المعوقين» من ماده «عَوَّق» على وزن «فوق» بمعنى المنع والانصراف عن عمل معين، و «عائق» تعنى «المانع» و «معوق» بمعنى ما يمنع من الشىء.

٣- (٣). سوره الأحزاب، الآيه ١٨.

على أنه حال فإن استشهاد الإمام عليه السلام بهذه الآية الشريفه إشاره إلى أنك (معاويه) إذ تستخدم أساليب الدجل والتمويه أمام الناس فيما يتصل بحادثه قتل عثمان، فإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، وأنه يعلم أن عثمان طلب منك النصره ولكنك لم تتقدم خطوه في هذا السبيل (بل كنت مسروراً لمقتله) لعل الخلافه تصل إليك.

ومعلوم أن معاويه السياسى المحترف كان يعلم أن المهاجرين والأنصار إذا التزموا الصمت مقابل ثوره الناس ضد عثمان ولم يتحركوا على مستوى الدفاع عنه، فإن تدخل في هذا الشأن وجاء مع جيشه للدفاع عن عثمان، فسيكون وجهاً لوجه مع المهاجرين والأنصار، وهذا المعنى يكلفه غالباً في المستقبل، ولهذا السبب لم يهتم بدعوه عثمان لنصرته، رغم أنه بحسب الظاهر كان واليه وامتكافاً معه.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، وهو أن الآية الشريفه المذكوه أعلاه (لايه ١٨ من سوره الأحزاب) التي تتحدث عن موقف المنافقين في مقابل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ربّما تحسب مدحاً ضمياً لعثمان، لأن الإمام عليه السلام في هذا الكلام شبّهه بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

ولكن العبارات اللاحقه تشير إلى أن هذا التشبيه ناظر فقط لتشبيه معاويه بالمنافقين، وبيان آخر أن التشبيه هنا من طرف واحد، لأن الإمام عليه السلام في سياق كلامه يقول: «وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَدِرَ مِنْ أُنَى كُنْتُ أَنْتُمْ (١) عَلَيْهِ أَحْدَانًا (٢)؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهَدَايَتِي لَهُ، فَرَبِّ مَلُومٌ لَأَذُنُّبَ لَهُ. وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنُّ (٣) الْمُتَنَصِّحُ (٤)»، والأحداث تعنى البدع التي ارتكبتها عثمان في تقسيم بيت المال ووضع مقاليد

ص: ٣٨٠

١- (١). «انقم» من ماده «نقم» على وزن «قلم» في الأصل بمعنى إنكار الشيء. ثم استخدمت بمعنى الإنتقام والانتقاد، وفي هذا المورد جاءت بالمعنى الثاني.

٢- (٢). «أحداث» جمع «حدث» على وزن «عبث» وتعنى كل شيء جديد، وتأتى بمعنى البدعه، وجاءت هنا بهذا المعنى الأخير.

٣- (٣). «الظن» بمعنى التهمه من «الظن»، بمعنى إساءه الظن.

٤- (٤). «المتنصح» تعنى الشخص الخير والذي ينصح الآخرين بكثره.

الأمر في الحكومه الإسلاميه بيد الانتهازيين وغير الجديرين، فيقول الإمام عليه السلام أنه لا لوم عليّ من إرشادي وهدايتي له ولو لامني أحد فأني أفتخر به.

ويقول الإمام عليه السلام في ختام كلامه: «وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْأَصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (١).

ولا شكّ في أنّ الإمام عليه السلام كان من الأشخاص المعدودين الذين رفضوا قتل عثمان ونهوا الناس عن ذلك، وقد أرسل ولديه (الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام) للدفاع عنه (٢).

وجاء في تاريخ ابن عساکر: عن داود بن حصين عن عكرمه عن ابن عيّاس قالوا: بعث عثمان بن عفّان المسور بن مخرمه إلى معاويه يعلمه أنه محصور ويأمره أن يبعث إليه جيشاً سريعاً يمنع عنه، فلما قدم على معاويه وأبلغه ذلك ركب معاويه نجائبه ومعه معاويه بن خديج ومسلم بن عقبه، فسار من دمشق إلى عثمان عشراً فدخل المدينة نصف الليل فدقّ باب عثمان فدخل فأكبّ عليه فقيل رأسه فقال عثمان: فأين الجيش؟ فقال معاويه: لا والله ما جئتكم إلّا في ثلاثه رهط، فقال عثمان: لا وصل الله رحمك ولا أعزّ نصرك ولا جزاك عني خيراً، فوالله ما اقتل إلّا فيك ولا ينقم عليّ إلّا من أجلك.

فقال معاويه: بأبي أنت وأمي لو بعثت إليك جيشاً فسمعوا به، عاجلوك فقتلوك قبل أن يبلغ الجيش إليك، ولكن معي نجائب لا تسائر ولم يشعر بي أحد فاخرج معي، فوالله ما هي إلّا ثلاث حتّى ترى معالم الشام، فإنّها أكثر دار الإسلام رجلاً وأحسنه فيك رأياً، فقال عثمان: بشس ما أشرت، وأبي أن يجيبه إلى ذلك.

فخرج معاويه إلى الشام وقدم المسور يريد المدينة فلقى معاويه بندي المروه راجعاً إلى الشام، فقدم المسور على عثمان وهو ذام لمعاويه غير عاذر له، فلما كان

ص: ٣٨١

١- (١). سورة هود، الآية ٨٨.

٢- (٢). الإمامه والسياسه، ج ١، ص ٥٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٩، ص ٤١٨.

فى حصره الآخبر بعث المسور أيضاً إلى معاويه فأغذ السير حتى قدم عليه فقال: إن عثمان بعثنى إليك لتبعث إلى الرجال والخيول وتنصره بالحق وتمنع عنه الظلم، فقال معاويه: إن عثمان أحسن فأحسن الله به، ثم غير فغير الله به، فشددت عليه، وقال:

يامسور تركتم عثمان حتى إذا كانت نفسه فى حنجرته قلت: إذهب فادفع عنه الموت، ليس ذلك بيدي، ثم أنزلنى فى مشربه على رأسه فما دخل على حتى قتل عثمان»(١).

وجاء فى تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ٣٥ الهجرية أن الثوار حاصروا دار عثمان محاصره شديده وقطعوا عنه كل مدد حتى الماء، «وَقَدْ كَانَ يَدْخُلُ بِالشَّيْءِ مِمَّا يُرِيدُ»(٢) أى كان على عليه السلام يأتيه بما يريد من الأمور.

ويذكر الطبرى أيضاً فى هذا الكتاب: أن الناس عندما منعوا الماء والغذاء عن عثمان سخط على عليه السلام بشده وقال لهم: يأيها الناس إن الذى تعملون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل الماده، فإن الروم وفارس عندما تؤسر تطعم وتسقى، وما تعرض لكم هذا الرجل بما تستحلون حصره وقتله؟(٣).

ويضيف الطبرى بعد نقله لهذا الكلام: عندما عزم المسلمون على مهاجمه عثمان منعهم من ذلك الحسن بن على... ومن كان معه من أبناء الصحابه(٤).

ولكن بما أن الإمام عليه السلام كان قد انتقد عثمان مراراً عديده قبل هذه الحادته بسبب سوء أعماله، ونصحه مراراً أن يكف عن تلك التصرفات الشائنه ويحضر أمام الناس ويستمع ويستجيب لمطالبهم الحقّه، فهذه الأمور أضحت فيما بعد ذريعه بيد معاويه وأمثاله بأن الإمام عليه السلام كان يثير الناس ضد عثمان، فيقول الإمام: إذا كان الإرشاد والنصيحه ذنباً (والحال أن مثل هذا الإرشاد يعدّ مصداقاً بارزاً للأمر بالمعروف

ص: ٣٨٢

١- (١) . تاريخ مدينه دمشق، ج ٣٩، ص ٣٣٧.

٢- (٢) . تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤١٦ إلى ٤١٨.

٣- (٣) . المصدر السابق.

٤- (٤) . المصدر السابق.

والنهي عن المنكر) فَإِنِّي أَعْتَرَفُ بِهَذَا الذَّنْبِ، ولكن لا أحد من المؤمنين يعتبر ذلك ذنباً، بل هو فريضة من فرائض الإسلام.

والجدير بالذكر أنّ جملة «رُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ» هو مثل عربي معروف ويقال إنّ أوّل من نطق بهذه الكلمة «أَكْثَمُ بْنُ صَيْفَى».

وجمله: «وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّ الْمُتَنَصِّحُ» تعنى أنّ الشخص أحياناً يصبر كثيراً على تقديم النصيحة إلى أن يكون متّهماً، وهذه العبارة عجز بيت شعر وصدوره: «وَكَمْ سُقْتُ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحِهِ» وقيل إنّ هذا الشعر قاله شاعر يدعى الرياشي (١).

ص: ٢٨٣

١- (١). شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٩، ص ٦١١.

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلَا ضِيحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارِ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ
وَبِالسَّيْفِ مُخَوِّفِينَ

فَلَبَّثُ قَلِيلًا يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلُ

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَشْتَبِعُهُ، وَأَنَا مُرَقَّلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ،
شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سِدَاطِعِ قَتِيَامُهُمْ، مُتَسَرِّبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ؛ أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَدَّحِبْتَهُمْ ذُرِّيَّةً بِدَرِيَّةٍ، وَسَيُؤَفُّ
هَاشِمِيَّةً، فَدَعَرْتُ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَحْيِكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

الشرح والتفسير: تهددني بالحرب!

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته، وهو المقطع الأخير، إلى إحدى عبارات معاوية في رسالته له عليه السلام
حيث يهدده فيها بالحرب، ويقول الإمام عليه السلام:

«وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلَا ضِيحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارِ(١) مَتَى أَلْفَيْتَ(٢) بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ
نَاكِلِينَ(٣)، وَبِالسَّيْفِ مُخَوِّفِينَ، فَ لَبَّثُ قَلِيلًا

ص: ٣٨٥

١- (١). «استعمار» من ماده «عبر» على وزن «ابر» بمعنى البكاء وذرف الدموع.

٢- (٢). «الفيت» من «الإلقاء» بمعنى العثور على الشيء فجأه.

٣- (٣). «ناكلين» جمع «ناكل» وهو الإنسان الضعيف والجبان الذي يتراجع عن العمل المقرّر، من «النكول» ويعنى الخوف
والتراجع.

وجمله: «لَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ» تعتبر مثلاً للشخص الذى يتحدث بكلام متين وبعبارات قوية إلا أنه فجأه يقول كلاماً واهياً وسخيفاً، لأنَّ تهديد الإمام على عليه السلام وبنى هاشم وعبدالمطلب بالحرب ممَّا يضحك الثكلى، فهؤلاء رجال الميدان وأبناء السيف وأصحاب إقدام وصوله فى ميدان القتال، وأنت من جملة المهزومين فى معركة بدر والأحزاب وفتح مكة، ويشهد تاريخ الإسلام أنك من الأشخاص الضعفاء والجنباء، ألا- يكون تهديدك لى بالحرب مضحكاً؟ والجدير بالذكر أنَّ جملة: «لَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ» تؤكد على هذه النقطة، وهى أنَّ الشخص إذا كان يضحك لبعض الأمور العاديه فهذا ليس بالأمر المهم والمثير، ولكن الشخص الذى يعيش البكاء ويذرف الدموع، لو ضحك فى هذه الأثناء من كلمه أو عباره، فيتبين أنَّ هذه الكلمه مضحكه جداً.

وجمله: «لَبَّثُ قَلِيلاً يَلْحَقُ الْهَيْجَاءَ حَمَلٌ» عجز بيت صدره «ما أَحْسَنَ الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ».

ويعتبر هذا البيت مثلاً معروفاً لدى العرب، وأصله أنَّ رجلاً من قبيله «قشير» ويدعى «حمل بن بدر» كانت له إبل نهبت فى إحدى الحروب فى عصر الجاهليه، وكان هذا الرجل شجاعاً، فجاء ليلاً إلى هؤلاء الأعداء وأغار عليهم واستعاد إبله وقال هذا الشعر، ويعنى أنك اصبر قليلاً فسيأتى حمل إلى الميدان، وهو لا يبالي بالموت، لأنَّ الموت جميل دفاعاً عن الشرف.

ثمَّ إنَّ الإمام عليه السلام يواصل كلامه ويهدد معاويه بعبارات حاسمه وكلمات فى غايه الفصاحه والبلاغه ويقول: «فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعُدُ، وَأَنَا مُرَقَّلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ».

وهو إشاره إلى أننى سأقدم عليك فى طائفه من المقاتلين الذين أدوا امتحانهم

فى الغزوات الإسلاميه، وهم ثلاثه طوائف: المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان، ولكنَّ الأشخاص الذين يتبعونك ويأتون معك للميدان هم المهزومون فى غزوات الإسلام وأبناءؤهم ممن يعيشون لحدِّ الآن رواسب الجاهليه ويسيرون فى خطِّ الوثنيه والضلاله وحبِّ الدنيا.

وجمله: «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ» مقتبسه من الآيه الشريفه: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ فِي ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»(١).

ثم إنَّ الإمام عليه السلام يصف أنصاره وأصحابه بأوصاف دقيقه وكلمات بليغه ويقول:
أولاً: «شَدِيدِ زِحَامُهُمْ».

ثم يقول عليه السلام: «سَاطِعِ قَتَامُهُمْ»(٢)، أى أنَّ غبارهم أثناء الحركه يغطى الأجواء ويمنع رؤيه الأفق.

وفى الوصف الثالث يقول: «مُتَسَرِّبِلِينَ»(٣) سَرَابِيلَ الْمَوْتِ أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ».

وفى الوصف الرابع يقول: «وَقَدْ صَيَّرْتَهُمْ ذُرِّيَّةَ بَدْرِيَّةٍ وَسُيُوفَ هَاشِمِيَّةٍ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا»(٤) فى أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

فى هذه الأوصاف الأربعة ذكر الإمام عليه السلام ما ينبغى ذكره فى المقام، فهو من جهه ذكر إيمانهم بالله وعشقهم للشهاده ولقاء ربهم، حيث تعدَّ هذه الحاله من أهم

ص: ٣٨٧

١- (١) . سورة التوبه، الآيه ١٠٠.

٢- (٢) . «قتام» بمعنى الغبار.

٣- (٣) . «مُتَسَرِّبِلِينَ» فى الأصل من «سربال» وهو الثوب، ومتسربل يقال للشخص الذى يرتدى ثوباً، وهنا يشبه الإمام عليه السلام الشهاده بالثوب الذى يرتديه المحاربون من جيشه على أبدانهم، وهو ثوب الافتخار والزينه.

٤- (٤) . «نصال» جمع «نصل» على وزن «نسل» ويعنى رأس السهم أو ذؤابه السيف.

المحفّزات للجهاد فى سبيل الله تعالى، والآخر سابقتهم المنيره فى الإسلام من قبيل مساهمتهم فى معركة بدر والتصدي لأعداء الإسلام بسيف هاشميه، أضف إلى ذلك ما التحق بهم من أعداد غيره من المؤمنين، والحقيقه أنّ تعبيرات الإمام عليه السلام فى هذه الرساله تعدّ من أفصح وأبلغ العبارات وأشدّها قوّه وحسماً.

وجمله: «مُرِّقَاتٌ» تدل على سرعه الزحف و «جَحْفَلٌ» تطلق على الجيش العظيم الذى يشارك فيه الكثير من الفرسان، وكلمه «سَاطِعٌ قَتَامُهُمْ» تشير إلى أنغبارهم قد ملأ الخافقين، وكلّ ذلك إشاره إلى أنّ هذا الجيش سيأتىك مسرعاً إلى الميدان ولا يوجد أى تردّد فى نياتهم ولا شكّ فى غاياتهم، بل يتحرّكون باتّجاه ميادين الجهاد بعزم راسخ وعشق للشهاده فى سبيل الله تعالى.

وكلمه: «ذُرِّيَّةٌ يَدْرِيَّةٌ» تعنى أنّ هؤلاء أبناء البدرين، وهم الذين اشتركوا فى معركة بدر وكأنّ هؤلاء قد تربّوا فى ذلك الميدان، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ جيش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يضمّ الكثير من مجاهدى معركة بدر، فهذه العبارة مطابقه للواقع تماماً، وذهب بعض أنّ مفاد هذا العبارة أنّ جيش الإمام عليه السلام يضمّ جماعه من أبناء المحاربين فى معركة بدر، فى حين أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع سياقات كلام الإمام عليه السلام.

والمراد من «أخيكَ»؛ هو أخ معاويه: حنظله بن أبى سفيان، ومقصوده من «خالِكَ»؛ الوليد بن عتبه خال معاويه، والمقصود من «جِدِّكَ»؛ جدّ معاويه لأُمّه وهو عتبه بن ربيعه، ومراده من «أهلكَ»؛ اسره معاويه وهم جماعه من أبناء عمومته الذين اشتركوا مع قوى الكفر والشرك فى معركة بدر ضدّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله والإسلام.

وجمله: «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» مقطع من آيه ٨٣ من سوره هود، وتشير إلى العذاب الأليم الذى ينتظر قوم لوط، وهم القوم الذين كانوا أشدّ من جميع الأقوام المشركه عذاباً، لأنّ الله تعالى قلب مدنهم وقراهم عاليها سافلها ثمّ أمطر عليهم حجاره من سجيل، تقول الآيه الشريفه: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ * مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (١).

والجدير بالذكر أنّ نصر بن مزاحم ينقل في كتابه صفين أنّ سعيد بن قيس الصحابي المعروف قام يوماً بين أصحابه وخطب فيهم وقال: «إنّ أصحاب محمّد المصطفين الأخيار معنا، وفي حيزنا، فوالله الذي هو بالعباد بصير أن لو كان قائدنا حبشياً مجدّعاً - إلّا أنّ معنا من البدرين سبعين رجلاً لكان ينبغي لنا أن تحسن بصائرنا وتطيب أنفسنا، فكيف وإنّما رئيسنا ابن عم نبيّنا، بدرى صدق، صلى صغيراً وجاهد مع نبيّكم كبيراً، ومعاويه طليق من وثاق الاسار، وابن طليق، إلماّته أغوى جفاه فأوردهم النار، وأورثهم العار، والله مُجَلِّ بهم الذلّ والصغار..» (٢).

تأمل: مدين في لباس دائن!

هناك مثل معروف منذ القديم يقول: «إذا أردت أن لا تقع مديناً فكن دائناً» ومعاويه من الأشخاص الذين استخدموا هذا المثل بكثرة، وتعتبر رسالته للإمام عليه السلام هذه «وتقدّم آنفاً رساله الإمام عليه السلام له جواباً عليها» مصداقاً بارزاً لهذا المثل، لأنّ معاويه في حين ارتكابه للكثير من السلوكيات الخاطئه، ومع سوء سابقته في الإسلام، أخذ يتبجح بالحقّانيه ويكتب للإمام عليه السلام رساله فيها الكثير من المطالبه بالحقّ.

ولو استطلعنا قائمه سوابقه الاجتماعيه والأخلاقيه وتصرفاته السيئه في مسيرته في خط الضلاله، لرأينا:

١. من حيث الأسره، فإنّ معاويه يتمتّع بوضع غريب، فوالده أبوسفیان العدوّ الأول للإسلام، وهو العامل الأساس لإشعال نار الحروب ضدّ المسلمين، وأمه هند

ص: ٣٨٩

١- (١). سوره هود، الآيتان ٨٢ و ٨٣.

٢- (٢). صفين، ص ٢٣٦.

المعروفه بأكله الأكباد، المرأه التي جاءت إلى ميدان القتال في معركة أحد وشقت بطن حمزه بن عبدالمطلب عليه السلام وأخرجت كبده ولاكته.

٢. من حيث الإيمان بالإسلام فإنّ معاويه أسلم في آخر مرحله من الدعوه، يعنى في سنه فتح مكه، وتحت عوامل الإكراه، حيث أعلن هو وأبوه الإسلام ظاهراً.

٣. امتنع من البيعه لإمام المسلمين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي بايعه المهاجرون والأنصار وجمهور عظيم من المسلمين.

٤. رفع لواء المخالفه ضدّ الحكومه الإسلاميه بذريعه الطلب بدم عثمان وجمع حوله مجاميع كثيره من المنافقين والمطرودين في زمان النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

٥. جعل من بيت مال المسلمين وسيله لتحقيق مآربه ومطامعه، فبنى قصرًا عظيمًا كقصر القياصره والملوك، ووزع أموال بيت المال على وضاع الأحاديث ورؤساء القبائل والأشخاص المتملّقين والمتزلفين.

٦. لم يمتنع من سفك دماء الأبرياء، فكان أن قتل محمّد بن أبي بكر الرجل الصالح ومالك الأشتر القائد الإسلاميّ الفذّ، وعمّار بن ياسر الصحابي المعروف والمقرّب للنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وكان يأمر جيشه بالإغاره على حدود العراق والقرى والقصبات العراقيه ويقتل الكثير من الأبرياء.

٧. بالرغم من تقصيره في الدفاع عن عثمان، ومع طلب عثمان النصره منه، إلّا أنّه نصب نفسه ومطالباً بدمه وأخذ يطالب بالتأثر له.

وهكذا نرى أنّ معاويه على الرغم من هذه الأعمال، يتحدّث في رسالته للإمام عليه السلام بوصفه دائناً لا مديناً، فمن جهه ينبرى للدفاع عن أصحاب النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله والمهاجرين والأنصار ويتحدّث عن أنّ ظهور النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وبعثته هبه إلهيه عظيمه للناس، وأنّ الإمام عليه السلام كان مقصّيراً في نصره الصحابه، ومن جهه أخرى يتّهم الإمام عليه السلام بالمشاركه في دم عثمان، ومن جهه ثالثة يقول إنّ بيعه الإمام عليه السلام للخليفه الأول من موقع الإكراه تعدّ منقصه ومذمّه.

ولكنّ الإمام عليه السلام فى جوابه على هذه الأقاويل أجاب عنها بعبارات حاسمه وبلغه جدّاً وأجهض سعى معاويه فى التشويش على الذهنيه العامه، وألفت نظره إلى ما كان عليه هو وأسرته فى زمان النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله ومشاركته هو وأقرباؤه من بنى اميه ضدّ الإسلام والنبىّ فى معركة بدر، ومقتل الكثير من أرحامه بيد جنود الإسلام، وقال له بصراحه: إنّ ثناءك على النبىّ صلى الله عليه وآله وبيان أهميه بعثته لشخص مثل على بن أبى طالب إنّما هو من قبيل «حمل التمر إلى هجر»، ثمّ بين الإمام عليه السلام تقصير معاويه فى نصره عثمان، ورسم بعبارات جليّه وبلغه حدود ومعالم اسره بنى هاشم وبنى اميه فى الجاهليه والإسلام، وجدارته لمقام الخلافه بعد النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله بالأدله والبراهين الجليّه والقاطععه، ويقول بالنسبه لبيعه لأبى بكر، أنك أردت الذمّ ولكنك مدحت من حيث لا تشعر، وأخيراً أجابه عن تهديده بالحرب وقال له: إنّ تهديدك مضحك ولا معنى له بالنسبه لشخص هو وليد الحرب وقد تربى وترعرع فى ميادين القتال والجهاد.

ومن مجموع ما تقدّم من شرح هذه الرساله، وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً، أنّ هذه الرساله للإمام عليه السلام، كما يؤكّد شرح نهج البلاغه أيضاً، تعتبر من أروع الرسائل والكتب التى تبين أهداف الإمام عليه السلام وترسم آفاق رؤاه ومواقفه بأفضل وجه.

كما أوردنا في بيان سند هذه الرسالة في الهامش، أنّ هذه الرسالة ترتبط بالفتنه التي أثارها معاوية في البصره، والقصه بشكل مختصر كالتالي: إنّ بعض أتباع معاوية بعد استيلاء عمرو بن العاص على مصر ومقتل محمّد بن أبي بكر قالوا له:

إبعث رجلاً إلى البصره لإخراجها من ولاية عليّ بن أبي طالب، فقبل معاوية بهذا الاقتراح ووافق على ذلك. ونقل صاحب كتاب الغارات هذه الواقعة بهذا الشكل:

ص: ٣٩٢

١- (١). سند الرسالة: تتعلق هذه الرسالة بالفتنه التي أشعل فتيلها معاوية في البصره بواسطة شخص يدعى ابن الحضرمي، وغايته من ذلك التسلط على البصره حيث أمر معاوية باستغلال الأحقاد المترسبه لدى أهل البصره من المهزومين في معركة الجمل وكذلك استغلال قضيه مقتل عثمان بن عفان لتثوير الناس في البصره واخراجها من دائره حكمه أمير المؤمنين عليه السلام، ولكن لم يحالفهم التوفيق، حيث قتل ابن الحضرمي في هذه الوقعه، وقد ذكر الوقعه «إبراهيم الثقفي» في كتابه المعروف الغارات، وبعد أن هدأت هذه الفتنه أرسل الإمام عليه السلام هذه الرسالة إلى أهالي البصره بواسطة بعض أصحابه، وينبغي الالتفات إلى أنّ كتاب «الغارات» تمّ تأليفه قبل السيد الرضى، ومن هنا فإنّه اقتبس هذه الرسالة من مصدر آخر غير نهج البلاغه. (وصاحب هذا الكتاب إبراهيم بن هلال الثقفي المتوفى في سنة ٢٨٣) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٧٩).

«بعد مقتل محمّد بن بكر واستيلاء عمرو بن العاص على مصر، سيّر معاوية عبد الله بن الحضرمي إلى البصره وقاله له: إنّ جلّ أهلها يرون رأينا في عثمان، وقد قتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حانقون، يودّون أن يأتيهم من يجمعهم وينهض بهم في الطلب بشأهم ودم إمامهم، فانزل في مضر وتودّد الأزدي، فإنّهم كلّهم معك، ودع ربيعه فلن يتحرّف عنك أحد سواهم، لأنّهم كلّهم ترايبه فاحذرهم، فسار ابن الحضرمي حتّى قدم البصره، وكان ابن عباس قد خرج إلى الكوفه (ليعزّي أمير المؤمنين عليه السلام باستشهاد محمّد بن أبي بكر) واستخلف زياد بن أبيه على البصره، فلما وصل ابن الحضرمي إلى البصره نزل في بني تميم.

فرجع ذلك ابن عباس إلى أمير المؤمنين عليه السلام فشاع في الناس بالكوفه ما كان من ذلك،.. ثمّ إنّه عليه السلام دعا أعين بن ضبيعه المجاشعي وقال له: يا أعين ما بلغك أنّ قومك وثبوا على عاملي مع ابن الحضرمي بالبصره يدعون إلى فراقى وشقاقى ويساعدون الضلال الفاسقين علىّ؟.

فقال أعين: لا تستأ يا أمير المؤمنين ولا يكن ما تكره، ابغثنى إليهم فأنا لك زعيم، فنجح أعين تقريباً في مهمّته ولكنّه لما أوى إلى رحله تبعه عشره نفر يظنّ أنّهم خوارج، فضربوه بأسيافهم فقتلوه، ولتّى وصل خبر استشهاده إلى أمير المؤمنين عليه السلام، دعا عليه السلام جاريه بن قدامه (صاحب الكلمه النافذه) وكتب معه كتاباً فقال له: يا ابن قدامه إقرأه على أصحابك، وما جاء في نهج البلاغه سوى قسم من رساله الإمام عليه السلام إلى الناس.

انهزم المخالفون والتجأ ابن الحضرمي إلى دار، فأحرقها ابن قدامه عليه وعلى أنصاره، فهلكوا جميعاً وخمدت نار الفتنة (1).

ص: ٣٩٣

وَقَدْ كَانَ مِنْ انْتِشَارِ حَيْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ. فَإِنْ خَطَبْتُ بِكُمْ الْأُمُورَ الْمُرْدِيَّةَ، وَسَيِّفَهُ الْأَسْرَاءِ الْجَائِرَةَ، إِلَى مُنَايَذَتِي وَخَلْمَا فِي، فَهِيَ أَنَا ذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ رِكَابِي. وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقَعَهُ لَأَيْكُونَ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلْعَقَهُ لَاعِقِي؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَمًا إِلَى بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثًا إِلَى وَفِيٍّ.

الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة في البصرة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذه الرسالة القصيره والزاخره بالمضمون العميق والدقيق، من موقع العمل على إطفاء نار الفتنة التي أثارها معاويه في البصره، وذلك استناداً إلى أصلين: الأول: التهديد الجدي والأكيد لمن يتحرك على مستوى نقض البيعه والعهد، ويذكرهم أنهم إذا لم يتركوا تأمرهم ويتخلوا عن الفتنة فإنه سيأتي إليهم بجيش كبير وسيقمعهم كما قمعهم في معركة الجمل، ثم يتحدث عن أصل الرحمه والرفاهه بالنسبه للأشخاص الذين التزموا بالوفاء للإمام عليه السلام أو أظهروا الندم على أفعالهم السابقه، ويبشّرهم بأن أموالهم ونفوسهم وأعراضهم ستكون في أمن وأمان من التعرض للخطر.

وبدايه يقول الإمام عليه السلام: «وَقَدْ كَانَ مِنْ أَنْتِشَارِ حَيْلِكُمْ (١) وَشِقَاقِكُمْ (٢) مَا لَمْ تَعْبُؤْا (٣) عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ».

والحقيقه أنّ الإمام عليه السلام بهذا الكلام يعمل على إبطال حيله معاويه وإجهاض تأمره هو وأتباعه، فقد كان معاويه عازماً على إثارة أهالي البصره ضدّ الإمام عليه السلام بتذكيرهم بمعركة الجمل، ولكنّ الإمام عليه السلام بتذكيرهم بنتائج هذه المعركة عمّل على إطفاء نار الفتنة والفساد، وقال لهم: أتكم كنتم أهل الشقاق وقد تحرّرتكم في خطّ التمرد والثوره ضدّ الخلافه الإسلاميه، ولكن بعد أن حلّت بكم الهزيمه لم أصدر الأمر بقتلكم، ولم أسمح بتعقب الهارين منكم، وأصدرت العفو العام عنكم وصفححت عن المجرمين منكم، وقبّلت الأشخاص الذين جاءوا إلّي نادمين وطويت صفحه الماضي، وتناسيت ما ارتكبه من أعمال، وعلى هذا الأساس فينبغي أن تكونوا ممّن يلتزم بالقيم الأخلاقيه، ولا يردّ الجميل بالإساءه ولا يقيم العلاقه مع أعدائه.

وجاء في بعض الروايات أنّ الإمام عليّ عليه السلام بعد انتصاره في معركة الجمل أمر منادياً ينادى بصوت عالٍ: «لَا تُتَّبِعُوا مُوَلِّيًّا وَلَا تُجْهِزُوا عَلَيَّ جَرِيحٍ» (٤).

ثم أمر منادياً ينادى: «مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ» (٥)، وهذا الأمر يشبه ما أصدره رسول الله صلى الله عليه وآله من العفو العام عند فتح مكه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام ولغرض إطفاء نار الفتنة هذه، تحدّث عن شدّه والحسم في مقابل الأشخاص المعاندين والانتهازيين وقال: فَإِنْ خَطَّتْ (٦) بِكُمْ الْأُمُورُ الْمُزْدِيَّةُ،

ص: ٣٩٥

١- (١). «حَبِيل» أصله بمعنى العهد والذمه، ثم اطلق على كل شيء مفقود، وجمله «أَنْتِشَارُ حَيْلِكُمْ» كناية عن التفرق وتشتت الجماعه.

٢- (٢). «شِقَاق» في الأصل تعني العداوه والكراهيه، وهنا جاءت بمعنى نقض العهد وترك البيعه.

٣- (٣). «تعبوا» من «الغباه» بمعنى الجهل والغفله، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة «لَمْ تَعْبُؤْا عَنْهُ» تعني أنّكم لستم غافلين عنه.

٤- (٤). الكافي، ج ٥، ص ٣٢.

٥- (٥). المصدر السابق، ص ١٢، ح ٢.

٦- (٦). «خطت» من «الخطو» على وزن «حتم» بمعنى تقديم القدم في المشى، و«خطوه» بمعنى تقديم القدم مرّه واحده بحيث توجد فاصله بين القدم في حال المشى، وهذه المفرده تعدى بالباء ويكون مفهوم الجمله مورد البحث أنّ الأفكار المهلكه والآراء السخيفه والمفسده تقودكم إلى المخالفه والتمرد.

وَسَفَهُ الْآرَاءِ الْجَائِزَةِ، إِلَى مُنَابَذَتِي (١) وَخِلَافِي، فَهَذَا أَنَا ذَا (٢) قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي (٣)، وَرَحَلْتُ (٤) رِكَابِي.

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «وَلَيْتَ الْجَائِثُومَنِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأَوْقَعَنَّ بِكُمْ وَقَعَهُ (٥) لَأَيُّكُونَ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعَقَهُ لَاعِقِي».

وهذا يعني أنني في معركة الجمل لم أكن مستعداً لها من حيث العدة والعدد وكانت إمكاناتي قليلة في تلك الواقعة، ولكنني اليوم أملك جيشاً منسجماً وكثير العدة والعدد، ويملك أفراد الجيش كل وسيلة قتاليه وآله حربيه، وعلى ضوء ذلك فلو وقعت حرب فلا تقبل المقارنه مع تلك المعركة السابقه، وسوف لا يكون محل لما بدر مني من محبته ورأفه بكم في حرب الجمل، لأنكم تناسيتم تلك الرؤفه وتجرأتم على إمامكم، وكأن تلك المودّه وذلك الإحسان زاد من جرأتكم ووقاحتكم.

وجمله: «لَعَقَهُ لَاعِقِي» مع الالتفات إلى أنّ كلمه «لعهقه» (على وزن قهوه) بمعنى اللحن، و«لعهقه» (على وزن بقعه)، المقدار من الشيء الذي يحمل بالملعهقه، فهذا كناية على أنّ هذا المقدار قليل جداً، وفي المثل المتعارف كالقطره في البحر.

ولكن لئلا يستغلّ العدو هذا الكلام ويسيء فهمه ويتصوّر أنّ الإمام عليه السلام يهدّد جميع أهالي البصره ويقول إنني سوف أحرق الأخضر واليابس وأعاقب المحسن

ص: ٣٩٦

١- (١). «مُنَابَذَةٌ» بمعنى المخالفه والمجابهه، وهي في الاصل من «النبذ» بمعنى الإلقاء بعيداً وكأنّ الشخص في مخالفته للآخر يدفع به إلى المجابهه بعيداً عن الصلح والمواءمه.

٢- (٢). «ها أنا ذا» عباره مركبه من ثلاث كلمات: «ها» للتنبيه، و«أنا» ضمير المتكلم الواحد و«ذا» اسم إشاره ومفهوم الجمله أنّكم على علم بي وتعرفوني.

٣- (٣). «جِيَادٌ» جمع «جواد» وهي الخيل الممتازه.

٤- (٤). «رَحَلْتُ» من ماده «رحل» على وزن «نخل» بمعنى وضع القتب على الإبل، و«ركاب» تعني الإبل.

٥- (٥). «وَقَعَهُ» بمعنى الهجمه في الحرب.

والمسيء يضيف الإمام عليه السلام: «مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِدِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِدِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَمًا إِلَى بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثًا إِلَى وَفِيٍّ».

وجاء في بعض الروايات أنّ زياد بن أبيه - الذي كان أحد المعاونين والمستشارين لابن عباس والى البصره، وعندما سافر ابن عباس إلى الكوفه لرؤيه الإمام عليه السلام وتقديم التعازي بمناسبة استشهاد محمّد بن أبي بكر، واستلم زمام أمور البصره - خطب خطبه حماسيّه وهدّد فيها أهالي البصره بأنني لا اميز بين المذنب والبريء وسوف أخذ الأب بذنب ابنه، والجار بذنب جاره، وسأنزل العقاب الشديد بكم جميعاً إلّا أن تسلكوا في الطريق الصحيح(1).

ويحتمل أنّ هذا الكلام وصل إلى مسامع الإمام عليه السلام، فأراد الإمام عليه السلام بكلامه المذكور أنّ يبيّن سعه دائره العدل الإسلامي وإصلاح ما صدر من زياد بن أبيه من الكلام المتقدّم.

ص: ٣٩٧

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٤.

لم ينقل المرحوم السيد الرضى مطلع هذه الرسالة، وقد ابتدأت الرسالة وفقاً لما ذكره ابن أبى الحديد بعبارته: «أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكراً فيه مشاعبتى».

وهذا التعبير يبين بوضوح أنّ الرسالة لم تكن سوى رساله جوابيه للإمام أمير المؤمنين عليه السلام على رساله معاويه له، والتي يتهم فيها الإمام عليه السلام بخلق الفتنه، والظلم والجور، والإمام عليه السلام يجيبه جواباً قاطعاً أنى أعمل بوظيفه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدي للظالمين والملحددين والمنافقين على أساس تعاليم القرآن الكريم وأوامر الله تعالى.

١- (١). سند الرسالة: جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ ابن أبى الحديد فى شرحه وابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغه ذكرا هذه الرسالة مع إضافات قيمه لا توجد فى نهج البلاغه، وهذه الحقيقه تشير إلى وجود مصادر أخرى لهذه الرسالة كانت بين أيديهما، مضافاً إلى وجود بعض التفاوت بين نقل ابن أبى الحديد وابن ميثم مما يشير إلى أنّ لكل منهما مصدر مستقل اقتبس منه هذه الرسالة، وقد أورد العلوى فى كتابه الطراز بعض مقاطع هذه الرسالة بتعابير متفاوتة عن تعبيرات السيد الرضى، وهذا بدوره يدلّ على وجود مصدر آخر لهذه الرسالة. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٧٠).

وبعد أن يبزىء الإمام عليه السلام ساحته من هذه التهم الموهنه يبدأ بتقديم النصح لمعاويه، وهو ما نقله السيد الرضى فى هذه الرساله.

يقول الإمام عليه السلام لمعاويه: ينبغى عليك أن تتعرف على طريق الحق الذى وضحت معالمه وتبينت سبله، فلا عذر لك فى جهلك به، ولا- ينبغى لك أن تنحرف عن مسير الحق وتتحرك فى متاهات الحياه وتسلك دروب الضلاله فيسلب الله تعالى نعمه منك وينزل عليك عقابه وعذابه، فحذار من المسير فى خطّ الأهواء النفسانيه التى تقودك إلى وادى المهالك وتقحمك فى مهاوى الكفر وترك الإيمان.

ص: ٤٠٠

فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفِهِ مَا لَاتُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَامًا وَاضِحَةً، وَسُبُلًا نَبِيْرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مُطَلَّبَةً، يَرُدُّهَا الْأَكْبَاسُ، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، وَخَبَطَ فِي التِّيْهِ، وَغَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحْلَلَ بِهِ نِقْمَتَهُ. فَنَفْسِيْكَ نَفْسِيْكَ، فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ سَبِيْلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أُجْرِيَتْ إِلَيْ غَايَةِ خُسْرِيْهِ، وَمَحَلِّهِ كُفْرِيْهِ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرًّا، وَأَقْحَمَتْكَ غَيًّا، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكِ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكِ.

الشرح والتفسير: ينبغي أن تفكر بعاقبه أمرك!

من المناسب أن نورد هنا رساله معاويه للإمام لغرض توضيح أهداف الإمام عليه السلام من رسالته الجوابيه لمعاويه، وأن جواب الرساله ناظر إلى النص الوارد في الرساله الأولى، ولكن للأسف لم تنقل هذه الرساله، بحدود اطلاقنا، في أي كتاب ومصدر، رغم أن رساله الإمام عليه السلام تبتدىء بمقطع لم ينقله المرحوم السيد الرضی، ومع الالتفات إلى هذا المقطع من الرساله يتبين بشكل إجمالي مضمون رساله معاويه أيضاً، لأن الإمام عليه السلام في مطلع هذه الرساله وطبقاً لما ورد في كتاب «نهج البلاغه الكامل» يقول: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذَكُّرُ مُشَاعَبَتِي، وَتَشْتَقِيْحُ مُوَازَرَتِي، وَتَزَعْمُنِي

مُتَجَبِّرًا، وَعَنْ حَقِّ اللَّهِ مُقْصِرًا. فَسُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ تَسْتَجِزُ الْغَيْبَةَ، وَتَسْتَحْسِنُ الْعُضْيَةَ. فَإِنِّي لَمْ أَشَاغِبْ إِلَّا فِي أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ. وَلَمْ أَتَجَبَّرْ إِلَّا عَلَى بَاغِ مَارِقٍ، أَوْ مُلْحِدِ كَافِرٍ، وَلَمْ أَخْذُ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقَوْلِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ» (١) وَأَمَّا التَّقْصِيرُ فِي حَقِّ اللَّهِ - تَعَالَى - فَمَعَاذَ اللَّهِ وَإِنَّمَا الْمُقْصِرُ فِي حَقِّ اللَّهِ - حَيْلٌ ثَنَائُوهُ - مَنْ عَطَلَ الْحُقُوقَ الْمُؤَكَّدَةَ، وَرَكَنَ إِلَى الْأَهْوَاءِ الْمُتَبَدِّعَةَ، وَأَخْلَمَدَ إِلَى الضَّلَالَةِ الْمُحْيِرَةِ. وَمِنَ الْعَجَبِ أَنْ تَصِفَ، يَا مُعَاوِيَةَ، الْإِحْسَانَ، وَتُخَالِفَ الْبِرْهَانَ، وَتَنْكُثَ الْوَثَائِقَ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - طَلِبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ، مَعَ نَبْذِ الْإِسْلَامِ، وَتَضْيِيعِ الْأَحْكَامِ، وَطَمْسِ الْأَعْلَامِ، وَالْجَزْيِ فِي الْهَوَى، وَالْتِهَؤُسِ فِي الرَّدَى».

أما ما أورد السيد الرضوي في نهج البلاغه فهو:

إِنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ أَخَذَ يَنْصَحُ مُعَاوِيَةَ وَيَعْظُمُ بِطَرَقٍ مُخْتَلِفَةٍ وَيَتِمُّ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ، بِدَايِهِ يَقُولُ فِي ثَلَاثِ جُمَلٍ قَصِيرَةٍ وَعَمِيقَةٍ الْمَعْنَى: «فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَأَنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفِهِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ».

الجملة الأولى: «فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ» رَبِّمَا تَشِيرُ إِلَى مَقَامِ مُعَاوِيَةَ فِي وِلَايَةِ الشَّامِ، أَوْ إِلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي يَدِهِ، أَوْ جَمِيعِ نَعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَالْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَا يَحْذَرُهُ مِنَ التَّمَسُّكِ بِمَا لَيْسَ لَكَ مِنَ الْمَقَامِ وَيَجِبُ عَلَيْكَ إِعَادَتُهُ إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَنْ تَسْتَعِينَهُ نَعْمَ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي طَرِيقِ طَاعَتِهِ وَالسَّعَى لِنَيْلِ رِضَاهِ وَإِمْتِثَالِ أَمْرِهِ.

والجملة الثانية: «وَأَنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ حَقٌّ عَلَى عِبَادِهِ فِي مَقَابِلِ كُلِّ هَذِهِ النِّعَمِ وَالْمَوَاهِبِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَهَذَا الْحَقُّ الْإِلَهِيُّ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَسِيرَ الْعَبْدُ فِي خَطِّ الطَّاعَةِ وَالْعِبُودِيَةِ وَالْإِمْتِنَاعِ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، فَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يُوَدِّ هَذَا الْحَقَّ فَسَوْفَ يُوَاجِهُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فِي الْآخِرَةِ.

والجملة الثالثة: «وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفِهِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ» ذَهَبَ جَمْعٌ مِنْ شَرَّاحِ

ص: ٤٠٢

نهج البلاغه إلى أنها إشاره لمعرفة الإمام عليه السلام الواجب الإطاعة، فقد ورد في الحديث المشهور: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ فَقَدْ مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً» (١).

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة أنها إشاره إلى جميع المعارف الإلهية والدينية التي لا يعذر الإنسان في جهله بها، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصى معاويه بأن يتعرف على أصول دينه وفروعه والتكاليف الشرعية التي يتوجب عليه القيام بها أمام الله تعالى والناس.

ويتحرك الإمام عليه السلام بعد ذلك من موقع الاستدلال على ما تقدم من كلامه (فإنك غير معذور في حاله الجهل) ويضيف: «فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَامًا وَاضِحَةً، وَسُبُلًا تَبَيَّرَةً، وَمَحَجَّةً (٢) نَهَجَةً (٣)، وَعَايَةً مُطَلَّبَةً، يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ (٤)، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ (٥)».

والإمام عليه السلام في هذا الكلام يتم الحجج على معاويه بأنك يوم القيامة لا يمكنك أبداً أن تدعى أن الطريق كان مظلماً وأن معالمه غير واضحة، ولذلك لم أعرف الحق والحقيقة، فيقول الإمام عليه السلام: إن أعلام هذا الطريق واضحة وآياته بينه من خلال ما ورد في الآيات القرآنية من جهه، والأحاديث النبوية المعتبره من جهه أخرى، والبراهين العقلية الساطعه من جهه ثالثة، وكلها تمثل علامات هذا الطريق المتوفرة في كل مكان منه، أضف إلى ذلك أن الجاده غير مظلمه «سُبُلًا تَبَيَّرَةً» فالطريق واضح ورحب ليس فيه مآزق ومنزقات: «مَحَجَّةً نَهَجَةً» والغايه النهائيه لهذا المسير نيل

ص: ٤٠٣

١- (١). ورد هذا الحديث الشريف بهذه العبارة في كتب الشيعة، مثل: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٩٢، ح ٢٣، باب ٣٣ من أبواب كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي كتب أهل السنه ورد بتعبير مشابهه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من قبيل: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامٌ فَمَيِّتُهُ مَيِّتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ». (المعجم الكبير، ج ١٠، ص ٢٨٩). وفي حديث آخر عن معاويه بن أبي سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ إِمَامٍ مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً» (مسند أحمد، ج ٤، ص ٩٦).

٢- (٢). «مَحَجَّةً» بمعنى الجاده الواسعه والطريق المستقيم والواضح.

٣- (٣). «نَهَجَةً» تاره تأتي بمعنى اسم المصدر وتعني المنهج، وأخرى بمعناها الوصفى وتعني الواضح والبين.

٤- (٤). «أَكْيَاسٌ» جمع «كيس» بمعنى الذكي والمنتبه والحكيم.

٥- (٥). «الْأَنْكَاسُ» جمع «نكس» على وزن «حرص» ويعنى الإنسان الضعيف والذليل والجاهل، من ماده «نكس» على وزن «عكس» وتعنى المنقلب وجعل على الشيء سافله.

السعادة الأبدية، وهذا المعنى لا يخفى على كل إنسان.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام ذكر في كلامه كلمه: «سُبُل» جمع سبيل، وكذلك «مَحَجَّه» وتعنى الطريق الواسع والجاده الواضحه، لأنّ الإنسان عاده يتحرّك من الطرق الفرعيه ليوصل نفسه إلى الجاده الأصليه، ثم يتوجّه إلى مقصده وغايته، وإذا وردت «سُبُل» بصيغه الجمع و «مَحَجَّه» بصوره مفرد فهي ناظره إلى هذا المعنى وهو أنّ الطرق الفرعيه التى يشرع الإنسان فيها حرّكته، متعدّده، ولكنّ الجاده الأصليه واحده عاده.

أمّا عبارته «عَايَهُ مُطَلَّبَهُ» فتاره تقرأ بتشديد الطاء وأخرى بتشديد اللام، وجاء فى بعض النسخ «مطلوبه» وهى كلّها تعنى المطلوبه، فالإمام يقول: إنّ طاعه الله تعالى تمثّل هدفاً مطلوباً للإنسان، والمقصود منها نيل القرب من الله تعالى والوصول إلى السعاده الأبدية والنجاه فى الآخره وتحصيل رضا الله تعالى وشمول لطفه ورحمته فى الدنيا، فالعقلاء وأولو الألباب يتحرّكون فى واقع الحياه لتحقيق هذا الهدف، لأنّهم غير مستعدّين للتضحيه بالسعاده الأبدية ورضا الله تعالى لحساب تحصيل الأموال والمقامات والشهوات الدنيويه، كما ورد هذا المعنى فى الحديث الشريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «الْكَيْسُ مَنْ أَحْيَا فَضَائِلَهُ وَأَمَاتَ رَذَائِلَهُ»^(١)، ونقرأ فى حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إِنَّمَا الْكَيْسُ كَيْسُ الْآخِرَةِ»^(٢).

وفى مقابل ذلك فإنّ الأراذل من الناس لا يتحرّكون باتجاه هذا الهدف، وإنّما يقنعون بتحصيل الملذّات الدنيويه الرخيصه ويطلبون الزخارف الماديه المهزوزه والعناوين الاعتباريه، ويبيعون أغلى ما لديهم من متاع بأزهد الأثمان، وهذا بذاته دليل على سفاهتهم وحماقتهم.

ص: ٤٠٤

١- (١). غرر الحكم، ص ٣٢٢، ح ٧٤٦٤.

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٢.

ويستمرّ الإمام عليه السلام في كلامه محدّراً معاويه من معبّه الانحراف عن الصراط المستقيم والإعراض عن طاعه الله تعالى، لأنه: «مَنْ نَكَبَ (١) عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، خَبَطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ».

فالإمام عليه السلام في هذه الجمل الأربع، يشير في البدايه إلى نتيجته الانحراف عن مسير الطاعه، وهو البعد عن الحق والتوغل في دروب المتاهه والحيره، وبالتالي يعيش الإنسان الحرمان من النعم الإلهيه ويستحق حينئذ العقوبه والعذاب.

والجملتان الأوليان في الواقع بمثابة المقدّمه، والجملتين الثالثه والرابعه بمثابة النتيجة وذى المقدمه، وكأنّ كلام الإمام عليه السلام هذا إشاره إلى الآيه الشريفه: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبِراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (٢).

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايِهِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّهُ كُفْرٍ».

وهذا التعبير في الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ» (٣)، وتعبير الإمام عليه السلام إشاره إلى أنّ هذا الطريق الذى سلكته لا يقودك إلّا إلى الشقاء والخسران والكفر، فينبغى عليك الانتباه من نوم الغفله والعوده إلى أحضان الحقّ وتعاليم الرساله الإلهيه.

وجمله: «فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ»، ذهب الكثير من شراح نهج البلاغه بأنّ الله تعالى قد بيّن لك سبيل النجاه، فى حين أنّ هذا المعنى قد ورد فى العبارات السابقه ولا حاجة للتكرار، فالمقصود من هذه العبارة شىء آخر، وهو أنّ الإمام عليه السلام يريد القول بأنّ الله تعالى قد بيّن لك خطأ هذا المسير الذى تسير عليه وبيّن لك عواقبه السيئه، والعبارات اللاحقه أيضاً تؤيّد هذا المعنى.

ص: ٤٠٥

١- (١). «نكب» من «النكب» على وزن «نقب» وتعنى الانحراف فى المسير، و «ناكب» هو الشخص الذى انحرف عن الطريق وأعرض عنه، ومن هذه الجهه يقال لمن أعرضت الدنيا عنه أنّه منكوب وأصابته نكبه.

٢- (٢). سورة الأنفال، الآيه ٥٣.

٣- (٣). سورة المائده، الآيه ١٠٥.

وفى المقطع الأخير من الرسالة، طبقاً لما ذكره السيد الرضى بين الإمام عليه السلام فى أربع جمل أخرى العواقب التى تنتظر معاويه والمترتبه على أعماله السيئه، ويقول:

«فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ (١) شَرًّا، وَأَقْحَمَّتْكَ (٢) غِيًّا (٣)، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ (٤) عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ».

وكلّ جملة من هذه الجمل الأربع تبين أحد أبعاد العاقبة السيئه لأعمال معاويه وكلّ من سار على هذا الخطّ، فى البدايه التورّط فى عناصر الشرّ، وأى شرّ أشنع من أن تتلوّث يد الإنسان بدم الأبرياء من الناس والتلاعب ببيت المال وإعطاء مال المسلمين إلى غير المستحقين، وما أشدّ ضلاله الإنسان الذى يتجاوز حدوده ولا يعرف قدره ويدعى منصب الخلافة وإمامه الأئمة ويجلس مجلس النبى الأكرم صلى الله عليه وآله مع أنه لا يملك اللياقه الكافيه والجداره لإحراز هذا المقام، وأى مهلكه أخطر من حركة الإنسان فى الطريق الذى يؤدى به إلى جهنّم، وأى مشكله أشدّ من أن الإنسان يرتكب الذنوب والآثام بحيث يوصد طريق العوده خلفه ويهدم جسور التوبه والإنابه إلى الله ولا يتمكن بعد ذلك من إصلاح الخلل.

ص: ٤٠٦

- ١- (١). «أَوْلَجَتْكَ» من «الإيلاج» و «لوج» بمعنى دخول شىء ووروده، وعلى ضوء فإنّ «أَوْلَجَتْكَ شَرًّا» من باب إفعال وتأخذ مفعولين ومفهومها أنّ نفسك جرّتك إلى الشر وادخلتك فيه.
- ٢- (٢). «أَقْحَمَّتْكَ» من «الإقحام» بمعنى قذف الشىء فى داخل شىء آخر، وهذا الفعل أيضاً يأخذ مفعولين ومعنى الجملة أنّ نفسك قد قذفت بك فى طريق الضلاله ومناهه الفتنة.
- ٣- (٣). «غِيًّا» بمعنى الضلاله والانحراف.
- ٤- (٤). «أَوْعَرَتْ» من «الإيعار» و «وعر» على وزن «وقت» فى الأصل بمعنى الصعوبه والعسر والجرح، وجملة «أَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ» تعنى أنّها صعّبت عليك العثور على طرق النجاه، ولهذا يقال للأرض المليئه بالأحجار والمطبات أنّها أرض وعره و «وعير».

لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كَتَبَهَا إِلَيْهِ «بِحَاضِرَيْنِ» (١)

عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ صَفِينٍ (٢)

نظرة إلى الرسالة

تعتبر هذه الوصية بعد عهد مالك الأشتر من أطول الرسائل والكتب للإمام (٣)

ص: ٤٠٧

١- (١). تقرأ هذه المفردة تارة بصوره تثنيه (بفتح الراء) وأخرى بصوره جمع (بكسر الراء). وفي الصوره الأولى تشير إلى مكان معين بين حلب وقسرين من أراضي الشام، وفي الصوره الثانيه يمكن أن تكون إشاره إلى ذلك المكان باعتبار حضور أقوام مختلفه فيه.

٢- (٢). سند الرساله: تعتبر هذه الرساله كما يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه، من أشهر رسائل ووصايا الإمام ٣- (٣) أمير المؤمنين عليه السلام والتي ذكرها جماعه من أبرز علماء الإسلام في كتبهم قبل ولاده السيد الرضى، منهم المرحوم الشيخ الكليني في كتاب الرسائل والمرحوم الحسن بن عبدالله العسكري (من أساتيد الشيخ الصدوق) في كتاب الزواجر والمواعظ، وصاحب كتاب عقد الفريد في موضعين من كتابه في باب مواعظ الآباء للأبناء، والحسن بن علي بن شعبه في كتاب تحف العقول، ضمن بيانه لكلمات الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، والشيخ الصدوق بدوره نقل أيضاً مقاطع من هذه الوصيه في موردين من كتاب من لا يحضره الفقيه، ونقلها بعد السيد الرضى جماعه كثيرون في كتبهم منهم: المرحوم السيد ابن طاووس في آخر كتاب كشف المحججه، ضمن بيان أن هذه الوصيه وردت بأسناد متعدده، ومجموعه الأسناد التي أوردها هؤلاء العلماء في كتبهم لهذه الرساله تصل إلى سته طرق وأسناد (ويتبين من مجموع هذه الطرق والأسناد لهؤلاء العلماء أن انتساب هذه الرساله إلى الإمام علي عليه السلام لا يبقى مجالاً للشك والتردد، أضف إلى ذلك أن محتوى هذه الرساله والوصيه إلى درجه من القوه والتمانه بحيث لا يمكن صدورهما من غير المعصوم). (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٠٧-٣١١).

علّي عليه السلام فى نهج البلاغه، وهى عبارته عن دوره كامله من دروس الأخلاق وتهذيب النفس وتزكيتها وبيان معالم السير والسلوك إلى الله، وفى الحقيقه أنّها تتألف من ثلاثين قسماً ومقطعاً.

والإمام عليه السلام فى المقطع الأول يخاطب نفسه وأبناءه بوصفه كاتب هذه الوصيه ويعرّف نفسه للمخاطب بعبارات عميقه المضمون ومنسجمه مع روح هذه الوصيه.

وفى المقطع الثانى يعرّف هذه الوصيه بأنّها وصيه والده متحرّق ومحبّ لأبنه الذى يملك له محبّه شديده.

وفى المقطع الثالث إلى المقطع العاشر يوصى ولده بالتقوى ومطالعه سيره الأسلاف وتاريخ القدماء والتوصيه بالاحتياط فى جميع الأمور والتفقه فى الدين والصبر والاستقامه فى مقابل المشكلات والتحديات والتوكّل على الله وتفويض الأمور إليه، والتوجه إلى هذه الحقيقه وهى أنّ قلب الشابّ مستعدّ لاستلهاام جميع التعاليم والتوصيات، والتأكيد على أنّ أباك قد اختتم تجارب العمر ووضعها تحت اختيارك بدون أن تتعب نفسك فى ذلك، ثمّ التوصيه بالتمعّن أكثر فى كتاب الله ومعرفة الحلال والحرام الإلهيين، وأخيراً الاقتداء بسنّه الصالحين وضروره اجتناب الشبهات.

والمقطع الحادى عشر إلى المقطع العشرين يتحدّث الإمام عليه السلام عن كثره مجهولات الإنسان فى مقابل معلوماته، ويحدّره من أى انحراف عن الحقّ ويؤكد عليه لزوم اتّباع نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وأنّ أىّ إنسان لا يصل إلى نتيجة صحيحه بدون التأسى به، ثمّ يؤكد له على مسأله التوحيد وشرح بعض الصفات الإلهيه، وأخيراً يرسم له معالم القصور فى الدنيا وعدم ثباتها بذكر مثال جميل فى هذا الشأن.

ثم يبين لولده العزيز هذه الحقيقه، وهى أنه لا بد أن تجعل نفسك ميزاناً للحكم على الآخرين، فما كنت تحبّه لنفسك ينبغى أن تحبّه للآخرين وما تكره لها تكره لهم، ثم يتحدّث عن الآفات الأخلاقية المهمه من قبيل الأنانيه والعجب ويؤكد له أن خدمه الخلق تمثّل زاداً ومتاعاً للآخره، ويحذّره من الطريق الملىء بالمطبات والمآزق فى سبيل النجاه لنيل السعاده الأخرويه ويتحدّث أيضاً عن أهميه الدعاء وأنه مفتاح جميع الخيرات والبركات، وأن الهدف والغايه من خلق الإنسان نيل الحياه الأبدية والسعاده الدائمه فى الآخره، إلّا أن يعيش الإنسان أيام معدوده فى هذه الدنيا ويجعلها هدفاً نهائياً له فى حركه الحياه.

وفى المقطع الحادى والعشرين إلى الثلاثين يذكر الإمام مسأله الموت وكيفيه الانتباه من الغفله ويحذّره من السير فى خطّ أهل الدنيا، ويتحدّث كذلك عن سرعه انقضاء العمر وطرق تهذيب النفس ولزوم التوقى من الآمال البعيده والطموحات الزائفه، وضمناً يبيّن له سلسله من المسائل الأخلاقية المهمه، ثم يتحدّث عن كيفيه معاشره المؤمنين ويتحدّث عن نقاط مهمه فى هذا المجال، ثم يتقدّم له بنصائح مهمه فى مجال اجتناب الحرص والطمع فى تحصيل الرزق، وبعد ذلك يتحدّث الإمام عن بعض المسائل المهمه المتعلقه بحفظ حرمة النساء والتعامل الصحيح معهنّ، ثم يتحدّث عن المسائل المتعلقه بإداره الحياه والمعيشه وتقسيم العمل بين الأفراد، وأخيراً ينهى الإمام عليه السلام هذه الوصيه بتفويض أمره إلى الله عزّ وجلّ ويسأله خير الدنيا والآخره.

وبالالتفات إلى ما تقدّم آنفاً، فإنّ القراء الأعزاء لهذه الوصيه سيطلعون على مضامين عاليه وتوصيات ساميه فيما يتصل بتربيه النفوس وتهذيب القلوب.

والنقطه الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها فى هذا المورد، هو أن أغلب نسخ نهج البلاغه تقرّر أنّ المخاطب لهذه الوصيه هو الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وهذا ما ورد فى غالبه طرق السند فى هذه الوصيه (كما يقول العلامة التستري فى شرح

هذه الوصية المهمّة، وطرق السند بلغت خمس طرق)، ولكن هنا طريق واحد لروايه هذه الوصيه يقرّر فيها أنّ المخاطب لها هو محمّد بن الحنفية، وبعض شراح نهج البلاغه يؤكّدون على المعنى الثانى، وأنّ المخاطب للوصيه ليس هو الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ويستدلّون لذلك بأنّ بعض عبارات هذه الوصيه لا يتناسب مع كون المخاطب هو الإمام المعصوم، فى حين أننا نعلم أنّ مثل هذه العبارات فى مقام الموعظه والنصيحه من الوالد لابنه هو اسلوب متداول وشائع، والمهمّ أنّ المخاطب لهذه الوصيه وإن كان شخصاً واحداً، إلّا أنّ المقصود هو جميع الشيعة والمسلمين فى العالم، بل جميع أبناء آدم، وكأنّ الإمام عليه السلام يتحدّث مع جميع أبناء البشر بوصفه أباً لهم وأنّ المخاطب له، وإن كان الإمام الحسن عليه السلام مباشره، إلّا أنّ المخاطب الحقيقى جميع أفراد البشر.

وأما ما ذكره البعض من أنّ الإمام المعصوم عليه السلام مع توفّر مقام العصمه والإمامه لا يحتاج إلى نصيحه وموعظه، فهو اشتباه كبير لأنّ مقام الإمامه والعصمه الشامخ لا يتنافى إطلاقاً مع التأكيد على المسائل الأخلاقية المهمّة، ولهذا نرى أنّ الإمام علىّ عليه السلام وهو فى فراش الوفاه يعظ أبناءه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام ويقدم لهما توصيات وتعاليم لم يكونا غافلين عنها.

وكذلك ما ذكره البعض من أنّ الإمام الحسن عليه السلام فى زمان صدور هذه الوصيه كان قد بلغ من العمر أكثر من ثلاثين سنه وهو لا يتناسب مع ما ورد فى هذه الوصيه من عبارته: «وأما قلب الشاب يتقبّل جميع التعاليم والإرشادات» وهذا خطأ أيضاً لأنّ الإنسان فى سنّ الثلاثين عاماً لا يزال شاباً، أضف إلى ذلك أنّ المخاطب لهذه الوصيه جميع أفراد البشر بوصفهم أبناء الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

وقد ورد فى كتاب الإمامه والسياسه فى قصّه السقيفه أنّ أباعبيده الجراح عندما أراد إبعاد الإمام علىّ عليه السلام عن تولّى لخلافه قال: «يَابْنَ عَمِّ إِنَّكَ حَيْدِثُ السَّنِّ وَهُؤُلَاءِ مَشِيخُهُ قَوْمِكَ»^(١)، ونعلم أنّ الإمام عليه السلام كان عمره فى ذلك الوقت أكثر من ثلاثين عاماً.

ص: ٤١٠

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ، الْمُدَبِّرِ الْعُمَرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنِ الْمَوْتَى، وَالظَّاعِنِ عَنْهَا عَدَاً؛ إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمَّلِ مَا لَأَيُّدِرُكَ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَنْشِقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَخَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَخْزَانِ، وَنُصْبِ الْأَفَاتِ، وَصَرِيحِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأُمُوتِ.

الشرح والتفسير: هذه الوصيه ممن وإلى من؟

هذا المقطع من الوصيه يبيّن في الحقيقه عنوان الوصيه والمرسل لها، لأنّ المتداول في كتابه الرسائل أن يكتب في مستهلّ الرساله عنوان الشخص المرسل والمرسل إليه، ويقال من فلان إلى فلان؛ فالإمام عليه السلام بدلاً من ذكر اسمه واسم ولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام اكتفى بذكر صفات المرسل والمرسل إليه، ممّا يوفر الأرضيه المساعده لتقبّل هذه المواعظ والنصائح.

بدايه يطرح الإمام عليه السلام ستّ صفات لنفسه، ثم يذكر أربعة عشر صفه لولده لغرض تهيئه الأجواء بهذه الصفات، وأن يكون المخاطب على استعداد تامّ لطرح الموضوع.

في البدايه يقول: «مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ (١)، الْمُدَبِّرِ الْعُمَرِ، الْمُسْتَسْلِمِ

ص: ٤١١

١- (١). «زمان» في الأصل يراد به الوقت المعروف الذي يشمل الأوقات القصيره والطويله، ولكن بما أنّ الزمان في هذه الدنيا يقترن بالحوادث المختلفه المرّه والحلوه، فهذه المفرده تشير أحياناً إلى هذا المعنى، و «المُقَرَّرُ لِلزَّمَانِ» إشاره إلى الشخص الذي يعيش الإذعان والقبول بهذه الحقيقه وهى أنّ الدنيا دار حوادث ومتغيّرات، ولكنّه عملاً لا ينسجم مع هذه الحوادث.

لِلدُّنْيَا (١)، السَّاكِنِ مَسَاكِنِ الْمَوْتَى، وَالظَّاعِنِ (٢) عَنْهَا غَدًا.

فالإمام عليه السلام عندما ينطلق بذكر هذه الصفات لنفسه يهدف منها تحقيق عدّه أمور:

الأول: أن يفهم ولده بأننى عندما أكتب هذه الوصيه لك فإننى أحمل معى تجارب كثيره حصلت عليها بمرور الزمان، والآخر: أن القائل لهذه النصائح تحدّث بلغه التواضع ولم يتكلّم من موقع الفوقيه والاستعلاء، وهذا من شأنه أن يؤثّر إيجاباً فى نفس المخاطب، الثالث: أن يعلم ولده بأنّه عمّا قريب سيكون أباً ولا بدّ أن يشعر بمسؤوليه الوالد ويدرك هذه الحقيقه، ودرك هذه الحقيقه يجعله مستعدّاً لقبول هذه المواعظ.

والتعبير ب «فان» (وهى فى الأصل «فانى») ولكن حذف الياء لمزيد التجانس مع الجمل اللاحقه) إشاره إلى أننى قضيت الشطر الأكبر من عمرى، وأنا الآن فى مرحله الرحيل من هذه الدنيا، لأنّ الإمام عليه السلام تحدّث بهذا الكلام فى وقت كان قد بلغ من العمر حسب الظاهر ستين سنه.

وجمله: «الْمُقَرَّرُ لِلزَّمَانِ» إشاره إلى الحوادث والأزمات الصعبه والحوادث المرّه والحلوه التى يواجهها الإنسان فى حركه الحياه والواقع.

وجمله: «الْمُدْبِرِ الْعُمْرِ» تأكيد على أننى أسير فى منزلق نهايه العمر، وجمله:

«الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا» إشاره إلى غلبه الحوادث والوقائع على إرادته الإنسان.

وجمله «السَّاكِنِ مَسَاكِنِ الْمَوْتَى» إشاره إلى أنّ المساكن التى نساكنها هى فى الغالب من بناء وتشيد السابقين، فأولئك بنوا هذا الدور ونحن سكنا فيها وأحياناً بنى ويسكنها اللاحقون.

وأخيراً جملة: «وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا» إشاره إلى قرب لحظه الرحيل من هذه الدنيا، يعنى أننى عندما أكتب لك هذه الوصيه أعلم بجميع هذه الخصوصيات والمفارقات.

ص: ٤١٢

١- (١). ورد فى الكثير من النصوص والشروح لنهج البلاغه بعد هذه الصفه صفه أخرى وهى «الذائم للدينيا» وحينئذ تبلغ صفات الدنيا فى هذا المقطع إلى سبع صفات.

٢- (٢). «الظَّاعِنِ» بمعنى المنتقل، من «الظعن» على وزن «ظعن» وتعنى الانتقال من مكان إلى آخر.

ثم إن الإمام عليه السلام يصف مخاطبه بدون ذكر اسمه في أربعة عشر صفه ويقول:

«إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤْمَلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ (١) الْأَسْقَامِ، وَرَهِينِهِ (٢) الْأَيَّامِ، وَرَمِيهِ (٣) الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْعُزُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَخَلِيفِ (٤) الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَخْزَانِ، وَنُصْبِ الْأَقَاتِ، وَصَرِيحِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفِهِ الْأَمْوَاتِ».

وأول وصف يصف الإمام عليه السلام ولده، وبيان آخر يصف جميع أفراد البشر هو أنك في هذا العالم تتحرك لتحصيل ما لا يمكن تحصيله، لأن الإنسان يريد أن يعيش حياه خاليه من جميع المشاكل وحالات القصور والألم، في حين أن طبيعه الدنيا مقترنه بالمشاكل والآلام والمصائب «المؤمل ما لا يدرك».

وجمله: «السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ» تعنى أن جميع أفراد البشر يسيرون في طريق ينتهى إلى الموت والهلكه، كما يقول القرآن الكريم: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (٥) ولا يوجد أى استثناء من هذه القاعده.

وجمله «غَرَضِ الْأَسْقَامِ» هى فى الحقيقه توضيح لما سبق، لأن الإنسان شاء أم أبى يواجه فى هذا الحياه حالات المرض وأنواع الأسقام فى طفولته وفى شبابه وفى شيخوخته بشكل من الأشكال.

والتعبير ب «وَرَهِينِهِ الْأَيَّامِ» مع الأخذ بالحسبان أن «رهينه» تعنى الأسر والاختطاف، فهى إشاره إلى أن الإنسان يعيش دوماً فى أسر الأزمات وأن مر الزمان يأخذ بيده إلى المجهول ويتركه شاء أم أبى فى نهايه العمر ويسلمه إلى القبر.

ص: ٤١٣

١- (١) . «الغرض» بمعنى الهدف الذى يوضع ليرميه المتسابقون والرماه.

٢- (٢) . «رهينه» من الرهن وهو الثبات ودوام الشىء، والرهينه جمعها رهائن وهى ما يرهن ويحتسب فيه الشىء فى مقابل ثمن.

٣- (٣) . «رميه» عباره أخرى عن «غرض» و «هدف» (صفه مشبهه بمعنى المفعول).

٤- (٤) . «خليف» بمعنى المتفق والذى يجتمع معه بميثاق، من ماده «حلف» على وزن «حرف» وهو القسم واليمين.

٥- (٥) . سوره آل عمران، الآيه ١٨٥.

وعبارته: «وَرَمِيَهُ الْمَصَائِبُ» مع الأخذ بالحسبان أن كلمة «رميته» تعنى الشيء الذى يوضع غرضاً وهدفاً لرمى السهام، فهذه العبارة تشير إلى المصائب والبلايا التى تصيب الإنسان فى ماله ونفسه وأقربائه وأعزته حيث تهجم عليه من كل جهه وتجعله غرضاً لها، فلا نكاد نرى أحداً لم يواجه طيله عمره المصائب المختلفه، كما قال الإمام عليه السلام فى مورد آخر: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»^(١).

ومن عجائب الدنيا أن الإنسان غالباً لا يرى سهام المصائب وهى تتجه نحوه ولا يرى مصدرها وكيف ابتلى بها، ولكنه فجأه يفتح عينه ليرى حلول المصيبة به، وكما قال الشاعر:

وَلَوْ أَنَّى أُرْمَى بِبِنَلٍ، رَأَيْتُهَا وَلَكِنِّى أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامٍ^(٢)

وجمله: «وَعَبْدُ الدُّنْيَا وَتَاجِرُ الْغُرُورِ» إشاره إلى أن الإنسان حاله حال العبد يعيش فى أسر الأهواء والشهوات ويرفل فى قيود الآمال والمطامع الدنيويه، وهذه الأمور تأخذ به من كل جانب، أما كونه تاجر الغرور، من جهه أنه يتصور أن أمواله ورأس ماله الذى أتعب نفسه فى جمعه فى هذه الدنيا حقيقه موضوعيه إلمائه ليس سوى سراب بقيعه وتشكيله من الخداع الغرور، فسوف يفقد هذه الأموال والثروات وقد يقبع الآخرون فى انتظارها.

وعبارته: «غَرِيمَ الْمَنَايَا» تشبيه للإنسان بالشخص المدين الذى يطلبه الموت، فالموت يسلب منه روحه ويضع جسمه فى لحد القبر، وكلمه: «أَسِيرِ الْمَوْتِ» تبين هذا المضمون بشكل آخر، فأحياناً يقول: غريم الموت، وأخرى يقول: أسير الموت.

وعبارته «خَلِيفِ الْهُمُومِ» و«قَرِينِ الْأَحْزَانِ» إشاره إلى أن الإنسان يعيش طيله حياته مع أنواع الهموم والأحزان، هم المعيشه والرزق، هم المرض، هم فقدان الفرص، هم خيانه بعض الأقرين والرفقاء، هم مؤامرات الأعداء، فهل يمكن العثور

ص: ٤١٤

١- (١). نهج البلاغه، الخطبه ٢٢٦.

٢- (٢). القائل هو لييد بن ربيعه الجعفرى، وهو من المعمرين، انظر: كمال الدين و تمام النعمه، ص ٥٦٥، بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٢٤٥.

على شخص لم يقع طيله عمره أسيراً لمثل هذه الهموم والغموم؟

ومن المناسب هنا الإشارة إلى قصه الإسكندر المعروفه، فعندما حان أجله وكانت أمه لا زالت على قيد الحياه، ويعلم أنها سوف تحزن عليه بشده، ففكر بأمر لتخفيف حزنها وألمها، فقال لها: يا أماه إبكى عليّ وأقيمي المأتم ولكن لا تبكى لوحدك، بل ادعى معك جماعة يشاركونك في هذا الأمر وليبكوا عليّ لا على مصائبهم ومشاكلهم.

فعملت هذه الأم بوصيته بعد موته وتوجّهت للجيران والأقرباء والأصدقاء وكلّما سألت أحداً منهم: هل أنك خالٍ من الغم والحزن؟ فإنه يذكر لها بعض همومه وأحزانه، فيقول أحدهم: ماتت زوجتي، والآخر يقول: مات ولدي، والثالث يقول:

إنّي خسرت في تجارتي، الرابع يقول: إنني أعيش الأسقام والآلام، ففهمت الأم أنه لا يوجد شخص لا يعيش الحزن ولا تواجه الهموم، وحسب المثل المعروف: «الْبَيْتُ إِذَا عَمَّتْ طَابَتْ» فخفّت عليها حينئذٍ مصيبه فقد ولدها.

وعبارته: «نُصِبَ الْآفَاتِ وَصَيْرِيعِ الشَّهَوَاتِ» مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمه «نُصِبَ» تعنى الأغراض التي ينصبها الرماه لتسديد الرميّه باتجاهها، وكلمه «صَيْرِيعِ» تعنى الشخص المغلوب على أمره والذي سقط على الأرض، فالعباره تشير إلى الآفات والبلايا المختلفه التي تصيب الإنسان من كلّ جهه وتجعله هدفاً لها، والشهوات التي تصرعه في حياته ولا يستطيع التصدّي لها ومقاومتها.

وجمله: «خَلِيفَهُ الْأَمْوَاتِ» إشاره إلى أنّك أيها الإنسان لا تغفل عن أنّك خليفه الأموات وسوف تلتحق بهم في المستقبل القريب وسيحلّ آخرون محلّك، وهكذا تستمرّ هذه المعادله في حياه البشريه.

واللايفت أنّ الإمام عليه السلام قد وصف نفسه بستّ صفات، ولكنّه وصف ولده بأربعة عشر صفه ممّا يواجهه كلّ إنسان في حياته الدنيا من مشاكل وصعوبات، يعنى في مقابل كلّ صفه وصف فيها نفسه، فقد وصف ولده بصفتين، وفي مقابل كلّ مشكله واجهها في حياته، فإنّ مخاطبه سيواجه مشكلتين.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالْأَهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَيَّرْتَنِي رَأْيِي، وَصَيَّرْتَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَيَّرْتَنِي لِي مَخْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدِّ لَيْكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصَدَقَ لَيْشُوبُهُ كَذِبٌ. وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصِيَابَتِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَضْهِمًا بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ أَوْ فَنَيْتُ.

الشرح والتفسير: عله كتابه هذه الوصيه

في هذه الفقرة من الوصيه يتحدث الإمام عليه السلام فيها بادئاً من نفسه ويذكر الباعث له لكتابه مثل هذه الوصيه الأخلاقيه والإنسانيه، ويقول ما خلاصته: إنني نظرت إلى نفسي فرأيت كوكب عمري متجهاً نحو الأفول، وينبغي أن أهتم بنفسي وأستعد لسفر آخرتي، ولكن بما أنك تمثل جزءاً من وجودي بل جميع وجودي، فرأيت من الضروري أن أقدم لك هذه التحذيرات والنصائح، ويقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ

ص: ٤١٧

١- (١). «جُمُوح» بمعنى التمرد والطغيان، و«جُمُوح» على وزن «قبول» وفي الأصل تعني الحيوان المتمرد والمنفلت، ثم اطلقت على كل إنسان منفلت ومتمرد بل تطلق أيضاً على الحوادث والقضايا التي تخرج عن اختيار الإنسان.

الْآخِرَةَ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي (١) عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالْإِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي (٢)».

وفى هذا السياق يستنتج الإمام عليه السلام هذه النتيجة، أنّ هذا الاهتمام دعانى للتفكير فى نفسى والانصراف عن سلوك طريق الأهواء النفسية وبين لى حقيقه مصيرى وأوصلنى هذا الأمر إلى مرحله لا يشوبها اللعب والهزل، بل كلّها صدق وحقّ: «غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هُمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي (٣) رَأْيِي وَصَيَّرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى (٤) بِي إِلَى جِدِّ لِيَكُونَ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٌ لَّا يَشُوبُهُ كَذِبٌ».

وهذا إشاره إلى أنّ الإعراض عن الدنيا يوجب للإنسان اليقظه ويبعث فيه الانتباه لأنّه يرى نفسه فى مرحله الانتقال من هذه الدنيا، وهذا الأمر يقوده لاجتناب السقوط فى فخ الأهواء النفسانية، وأن يفكر بشكل جادّ بمصيره وعاقبته، ويجتنب أشكال اللهو واللعب ويحمل نفسه على الصدق وطلب الحقيقه بعيداً عن كلّ أشكال التعصّب والتساهل، ويهتمّ بمستقبله وحياته بعد الموت فيما يجمع له من زادٍ لسفر الآخرة.

وبهذه المقدمه يهدف الإمام عليه السلام ظاهراً لتحقيق أمرين: الأوّل: أن يؤمن مخاطبه بشكل تامّ أنّ ما قاله آنفاً ليس بالهزل، بل هو جادّ تماماً فى هذا الكلام، ويمثّل نتيجة مطالعات عميقه وتأمّلات فى وضعه الحالى والمستقبلى، والآخر أنّه يحذّر ولده من أنّه سيواجه مثل هذه الأمور فى المستقبل، ولا يبقى فى مرحله الشباب

ص: ٤١٨

١- (١). «يَزَعُ» من ماده «وزع» على وزن «وضع» بمعنى المنع والاعاقه عن شىء.

٢- (٢). «ما ورائى» إشاره إلى أهل الدنيا، المقامات، الثروات وأمّثال ذلك، وغرض الإمام عليه السلام من ذلك بيان هذه الحقيقه وهى أنّ الالتفات إلى قرب الانتقال من هذه الدنيا منعى من الميل للأمر الدنيويه وجعلنى ملتفتاً لمصيرى ومستقبلى، والعجيب أنّ بعض شراح نهج البلاغه ذكروا فى معنى «ما ورائى» أنّها تعنى الآخرة، فى حين أنّ مفهوم هذه العبارة يكون بهذه الصوره: إنّ الالتفات إلى نهايه عمرى شغلنى عن الاهتمام بأمر الآخرة، وهذا التفسير مجانب للصواب.

٣- (٣). «صدف» من ماده «صدف» على وزن «حذف» بمعنى الإعراض عن شىء.

٤- (٤). «أَفْضَى» من «الإفضاء» و«فضاء» وتعنى الوصول إلى شىء وكأنّه دخل إلى فضاءه وجوّه.

دائماً (رغم أنّ الشباب ليس عنصراً يثير الاطمئنان والاعتماد في الحياه) وسوف لا تمضى مدّه إلّا وتقترب قافله عمرك وحياتك للوصول إلى المنزل الأخير، لئلا يعيش ولده حالات الغرور بالشباب وتقوده عناصر الحيويه نحو الطغيان وينسى مستقبله ويغفل عن عاقبه أمره.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يلفت النظر إلى هذه النقطه، وأنه لماذا فُكر بتقديم النصح الكثير لولده في حين أنّ الإمام عليه السلام يعيش حاله الاهتمام بنفسه، ويقول: «وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً^(١) بِهِ إِنَّ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ أَوْ فَنَيْتُ».

وعندما يعتبر الإمام عليه السلام بأنك بعض من وجودي فالمعنى واضح، لأنّ الإبن يولد من الأب والأم، وتشكّل أجزاء بدنه من بدن والديه، ولكن عندما يقول: ووجدتك جميع وجودي، يمكن أن يكون إشاره إلى أنّك الإمام بعدى وخليفتي في هذا المقام، وعلى هذا الأساس فإنّ جميع وجودي يتجلّى فيك، وتكون مرآه يتجلّى فيها كلّ وجودي.

ويحتمل أيضاً أنّ هذه الجملة إشاره إلى مجموعه الصفات الجسمانيه والروحانيه التي تنتقل من الآباء للأبناء بحكم قانون الوراثة، وأنّ الأبناء سيتحلّون بالصفات الجسمانيه والروحانيه للآباء.

وهنا مثل عربي معروف يمثّل بيت شعر يقول فيه الشاعر:

إِنَّمَا أَوْلَادُنَا يَبِينُنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ^(٢)

وجاء في شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري أنّ رجلاً أعرابياً مات ابنه فكفنه ودفنه، ثمّ قال:

ص: ٤١٩

١- (١). «مستظهاً» من «الإستظهار» بمعنى طلب المعونه والنصره من شخص أو شيء.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٦١.

دَفَنْتُ بِنَفْسِي بَعْضَ نَفْسِي فَأَصْحَبْتُ وَلِلنَّفْسِ مِنْهَا دَافِقٌ وَدَفِينٌ (١)

وجمله: «حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً...» وهى توضيح وبمثابه الدليل على كيفية أن يكون ابنه العزيز بعض وجوده أو كل وجوده فيقول: ومن هنا أجد أنّ كل مصيبه وكل ألم يصيبك فكأنما يصيبني حتى لو أنّ الموت جاءك فكأنه جاءني، لأننى أرى كل شىء فى نفسى فيك، فأنت جميع كيانى ووجودى، وعلى أية حال فهذا الاهتمام من الإمام علىّ بأمر ولده يشكّل الباعث الأصلي لكتابه هذه الوصيه المطوّله التى تعتبر تشكيله من أفضل المواعظ والإرشادات فى مجال التوحيد والمعاد، آداب الحياه، آداب تهذيب النفس، ورسم الطريق القويم والسلوك الصحيح فى الحياه مع المجتمع، وبما أنّ الإمام عليه السلام يمثّل أباً لجميع أفراد الأُمّة كما هو مقتضى الحديث النبويّ المعروف: «أَنَا وَعَلِيٌّ أَبَوَا هَذِهِ الْأُمَّةِ» (٢) فإنّ المخاطب بهذه الوصيه فى الحقيقه جميع أفراد الأُمّة.

وجمله: «إِنَّ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ أَوْ فَنَيْتُ» إشاره خلود مضمون هذه الرساله ودوامها، والواقع هو كذلك، فبالرغم من مضى أكثر من ألف عام عليها، فإنّها لا زالت طريه ويانعته وزاخره بالحيويه والحركه، وهى المصداق البارز لقول تعالى: «كَشَجَرِهِ طَيِّبِهِ أَضْيَلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» (٣).

ص: ٤٢٠

١- (١) . شرح نهج البلاغه التنستري، ج ٨، ص ٣٣٠.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٩٥.

٣- (٣) . سوره ابراهيم، الآيتان ٢٤ و ٢٥.

إشاره

فَإِنِّي أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ - أَيْ بُنَى - وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ. وَأَيْ سَبَبِ أَوْثُقٍ مِنْ سَبَبِ بَيْنِكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنَّ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ.

الشرح والتفسير: أوثق وسيله للنجاه

يستهل الإمام عليه السلام هذا المقطع من رساله بنصائح ببناءه ومفعمه بالإيمان، ويقدم في أربع جمل قصيره أربع توصيات لولده، وتمثل هذه التوصيات عصاره جميع الفضائل ويقول: «فإني أوصيكَ بتقوى الله - أَيْ بُنَى - ولزوم أمره، وعماره قلبك بذكره، والإعتصام بحبله».

إنّ التوصيه بالتقوى هي التوصيه التي جعلها جميع الأنبياء والأوصياء في سلم أولويات برامجهم في حركه الحياه بعد الإيمان بالله، التقوى التي تمثل الزاد والمتاع في طريق الآخرة، ومعيار الفضيله والامتياز لشخص على سائر الناس، ومفتاح الجنه، والتقوى تعني الخشيّه الباطنيه والقلبيه من الله تعالى واجتناب كلّ أشكال الذنوب وارتكاب الآثام، والشعور والإحساس بالمسؤوليه أمام الله، ومن شأنها أنّ تخلق في نفس الإنسان مانعاً وسداً يحول بينه وبين الذنوب، والمرتبّه الأدنى منها هي العداله، والمرتبّه القصوى هي العصمه.

وفي التوصيه الثانيه يشير الإمام عليه السلام إلى الالتزام الواعي بالأوامر الإلهيه، وهذا هو الأمر الذي أكد عليه القرآن الكريم مراراً بعنوان «أطيعوا الله» والذي يعتبر من ثمار شجره التقوى.

وعبارته: «عَمَّارَهُ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ» إشارته إلى أهميته ذكر الله، لأن الغفلة عن ذكر الله تعنى خراب القلب وخواء الروح وجفاء العواطف ويصير الإنسان بالتالى ميداناً وملاذاً لجيش الشيطان، يقول القرآن الكريم: «أَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَطْمِئِنَّ الْقُلُوبُ» (١) وهذا الإحياء للقلوب لا يتسنى بالذكر اللفظى فقط، رغم أن الذكر اللفظى مهم جداً، بل الذكر العملى كما ورد ذلك فى الروايات الشريفه يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ثَلَاثٌ مِنْ أَشَدِّ مَا عَمِلَ الْعِبَادُ: إِنْصَافُ الْمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ، وَمُوَاَسَاةُ الْمَرْءِ مِنْ أَخِيهِ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ» ثم ذكر المقصود من ذلك وقال: «وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ يَهُمُّ بِهَا فَيُحَوَّلُ ذِكْرُ اللَّهِ بَيْنَهُ وَيَبِينُ تِلْكَ الْمَعْصِيَةَ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» (٢).

وعبارته: «الِإِعْتِصَامُ بِحَبْلِهِ» إشارته إلى التمسك بتعاليم القرآن الكريم والذى يتضمّن مناهج لتحقيق السعادة فى واقع الحياه، ويشير القرآن إلى ذلك أيضاً بقوله:

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا» (٣).

ونعلم أن المفسرين ذكروا لكلمه حبل الله فى هذه الآيه الشريفه معانٍ كثيره، فذهب بعض المفسرين إلى أن المراد منها القرآن الكريم، وذهب آخرون إلى أنها تعنى الإسلام، ويعتقد بعض أن المقصود منها أهل بيت النبوه، ولكن لا يوجد اختلاف وتباين بين هذه التفاسير، لأن «حبل الله» تعنى الارتباط الوثيق بالله تعالى وتشمل جميع هذه المعانى المذكوره.

ولهذا يقول الإمام عليه السلام فى مواصلاً كلامه: «وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْتَقُّ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ».

والتعبير بالحبل إشارته إلى أن الإنسان بدون التريبه الإلهيه يهبط إلى الحضيض

ص: ٤٢٢

١- (١) . سورة الرعد، الآيه ٢٨.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٥١، ح ٦ والآيه ٢٠١ من سورة الأعراف.

٣- (٣) . سورة آل عمران، الآيه ١٠٣.

ويسقط فى بئر الطبعه، ولذلك لابد له من جبل متين يتمسك به ويرقى بواسطته ليخرج من هذه البئر، وهذا الجبل هو القرآن والإسلام والعتره.

وبالنسبه للتقوى وأهميتها وآثارها فى حياه الإنسان وردت بحوث فى ذيل الخطبه ١٥٧، الجزء ٦ ص ١٧٢ فصاعداً، والخطبه ١٦١، ص ٢٧٤ فما بعد.

ص: ٤٢٣

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّزْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعِ الدُّنْيَا، وَخِذِّدْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْمَأْيَامِ، وَأَعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِيَيْنِ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوْلِيَيْنِ، وَسِرِّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ، فَانظُرْ فِيَمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيِّنْ حُلُومًا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحْبَبِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرُوبِ، وَكَانَتْكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ.

الشرح والتفسير: أحي قلبك بالموعظة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية ليستعرض اثنتي عشرة موعظة مهمّة تتسبب في تكامل روح الإنسان وأخلاقه، وتجعله يعيش الحياه المعنويه والمثل الإنسانيه.

بدايه يقول: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّزْهُ (1) بِالْفَنَاءِ».

ويبتدىء الإمام عليه السلام في هذه التوصيات الستّ بإحياء القلب، والقلب في هذا الموارد الروح والعقل والإدراك، فما لم يعيش القلب هذه الحياه المعنويه فلن يستطيع

ص: ٤٢٥

١- (١). «قَرِّزَ» من «التقريب» وتأتى بمعنيين، الأول، التثبيت ووضع الشيء في محله، والآخر بمعنى دفع شخص للإقرار والإعتراف بشيء معين، وفي الجملة مورد البحث جاءت بالمعنى الثاني، يعنى اجعل قلبك يقرّ ويعترف بفناء الدينا.

الإنسان أن يتقدّم خطوه واحده باتجاه التكامل والسّموّ والتعالى، ويتوقف عن المسير عند هذا الحدّ، فما يوجب الحياه للقلب وينفخ فيه الروح، هو المواعظ والنصائح التي وردت فى القرآن الكريم والأحاديث النبويه الشريفه وروايات الأئمّه المعصومين عليهم السلام وما يستوحيه الإنسان من حوادث الدهر وتاريخ الأقبوام البشريه.

وحقيقه الموعظه تتمثل فى التوصيه بالخيرات والمكرمات والتوقى من السيئات والقبايح، فإذا انطلقت هذه المواعظ من القلب مقترنه بالأدله والشواهد، وبتيه إسداء الخير للآخرين والشفقه عليهم، فإنّها تسكن فى القلب وتؤثّر فى إحياء الروح والعواطف.

وجمله: «أَمَّتُهُ بِالزَّهَادَةِ» المراد القلب الذى يعيش أسير الأهواء والشهوات، فمثل هذا القلب يجب أن يموت بآليه الزهد ويكسب له حياه جديده بالموعظه، وهذا التعبير بليغ وجدّاب جدّاً حيث يأمر الإمام عليه السلام أولاً بإحياء القلب ثم يأمر بإماتته، فالأمر الأوّل ناظر للأبعاد الإيجابيه فى العقل والروح، والأمر الثانى ناظر للأبعاد السلبيه وأن يكون العقل أسيراً فى براثن الشهوات، وفى الواقع أنّ الإمام عليه السلام يشبّه قلب الإنسان وروحه بالبستان الذى يحتوى على أشجار مثمره وأغصان زاهره وأزهار مختلفه الألوان، وفى ذات الوقت هناك أعشاب وأشواك ضارّه كثيره بين هذه الأشجار، فإحياء هذا البستان يعتمد على تنميه تلك الأشجار والأزهار وقلع هذه الأشواك والأعشاب الضارّه.

وبعد أن يحيى القلب بالموعظه وتتمّ إزاله العوائق والموانع بالزهد، تصل النوبه لتقويه القلب، فيقول الإمام عليه السلام: «وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ»، اليقين الذى يحصل عليه الإنسان من خلال النظر فى آفاق الخلق وأسرار الطبيعه، أو من خلال العباده والعبوديه لله تعالى، وبعد تقويه القلب باليقين يشتغل المؤمن بتنويره، وهو قول الإمام عليه السلام:

«وَنَوِّرُهُ بِالْحِكْمَةِ» فالحكمه والمعرفه والعلم من شأنها أن تنير طريق السالك إلى الله وتمنحه المعرفه بالمطّيات والعوائق التى تواجه المؤمن فى طريق المعنويه.

وبما أنّ نفس الإنسان ربّما تتمرّد عليه وتسلّك سبيل الطغيان والعصيان، فالإمام عليه السلام يرشدنا لكيفيه كبح جماح هذه النفس، ويقول في الجملة الخامسة والسادسة: «وَدَلَّ اللَّهُ بِحِذْرِ الْمَوْتِ وَقَرَّرَهُ بِالْفَنَاءِ»، لأنّ الموت والإقرار بالفناء يعملان على تذليل هذا الجموح ويتعامل الإنسان مع الواقع والحياه من موقع الإذعان والتسليم، وقد رأينا الكثير من الناس عندما يفقدون عزيزاً لهم في حادثه فجائيه ويرون مشاركة الناس من الأقرباء والمعارف في التشييع ويحضرون في مجالس العزاء والمأتم، فإنّ آثار التذلل والتسليم باديه على وجوه الجميع، وربّما يكون لهذه الحاله تأثير مؤقت، ولكن على أيّه حال تشير إلى أنّ ذكر الموت والإقرار بالفناء إذا استمر لمده طويله فذلك من شأنه كبح جماح النفس المتمرّده والسيطره على نوازعها وشهواتها.

وبعد أن طرح الإمام عليه السلام هذه التوصيات في الجمل والعبارات السابقه، يوصى ولده بأن يتمعّن ويتدبّر في حوادث الدهر والزمان، ويرى المتغيّرات والتقلّبات التي تطرأ بالليل والنهار: «وَبَصَّرَهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَدَّرَهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ (١) تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ».

أحياناً تسدل الغفله ستائرهما على قلب الإنسان فيغرق في دوامه الأهواء والشهوات بحيث لا يدرك الحقائق المتعلّقه بالحياه والسعاده، ولا يتحرّك في طريق العقل والسلامه، فمن أجل إزاحه هذه الستائر والحجب وإضاءه زوايا القلب وتنوير العقل، فلا شيء أفضل من التدبّر في الحوادث المرّه والبلايا المؤلمه للدنيا وكثره التقلّبات الفجائيه في الحياه وبالأخصّ ما يراه الإنسان في حياه أصحاب القدره والسلطه في العالم، كلّ ذلك من شأنه أن يفتح نوافذ القلب ويعيد إليه بصيرته.

ص: ٤٢٧

١- (١). «فحش» يقال لكل عمل خرج عن حدّ الاعتدال واتجه نحو القبح، ولذلك تطلق هذه الكلمه على جميع المنكرات والقبائح الفاضحه، فيقال «فحش» و «فحشاء»، رغم أنّ هذه المفرده تستخدم في عرفنا المعاصر في مورد الانحرافات الجنسيه (وأحياناً تأتي كلمه فحش بمعناها المصدرى وأخرى يراد منها اسم المصدر).

وعبارته: «فَجَائِعِ الدُّنْيَا» إشارته إلى فجائع الناس في الدنيا، والتي تستتبع متغيرات وتقلبات كثيرة، أو إشارته إلى الحوادث المرّة والأليمه التي يفرضها الواقع الصعب على الإنسان في حركة الحياه.

وعبارته: «صَوَّلَهُ الدَّهْرُ» مع الالتفات إلى أنّ «صَوَّلَهُ» بمعنى الهجوم الكاسح والحمله الحاسمه، سواء كانت هذه الحمله من قبل حيوان مفترس أو إنسان قوئى وغاشم، فالعباره تشير إلى الآفات والبلايا والأمراض وأشكال الإخفاق التي يواجهها الإنسان في واقع الحياه والتي تهجم عليه كالحيوان المفترس في حين أنه لا- يملك وسيله للدفاع عن نفسه وغير قادر على التصدّى لها ومقاومتها.

وجمله: «فُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»، مع الالتفات إلى أنّ «فحش» تعنى كلّ عمل قبيح وغير مقبول، فهي تشير إلى أنّ مرور الزمان وتقلّب الليل والنهار من شأنه أن يثير تقلّبات مزعجه وتغيّرات مؤسفه في حياه الفرد والمجتمع البشريّ وتجعل من حياه الإنسان مظلمه ومشوّشه، فلو تمعّن الإنسان في هذه الأمور وتدبّر في هذه الحوادث والتقلّبات، فذلك من شأنه أن يمنحه مزيداً من البصيره بحقائق هذا العالم، ويدفعه للحركه في الطريق الصحيح.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لشرح هذه الحقيقه ويقول: «وَاعْرَضُ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِيْنَ، وَذَكَرَهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِيْنَ، وَسِرِّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ، فَانظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا (١) وَنَزَلُوا».

وهذا المضمون هو ما ورد في القرآن الكريم في أكثر من آيه، حيث قال تعالى:

«قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ» (٢).

ويقول أيضاً: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

ص: ٤٢٨

١- (١) . «حَلُّوا» من ماده «حلّ» تأتي أحياناً بمعنى فتح العقده وحل المشكله، وأخرى الدخول إلى مكان معين، وفي الجمله أعلاه جاءت بالمعنى الثاني.

٢- (٢) . سوره الروم، الآيه ٤٢.

يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (١).

المهم، أنّ المرء يشاهد في زوايا هذا العالم وفي الكثير من المناطق والمدن والأرياف، آثار القدماء من سكنه هذه المعموره، الآثار القديمه والأطلال الباليه التي عفى عليها الزمن، ولكنها في ذات كونها صامده تنطق بألف لسان وتحدث معنا من موقع الاعتبار وتبين لنا حقيقه هذه الحياه الدنيا، والكثير من الناس عندما يشاهدون هذه الآثار والأطلال يفتخرون بها على اعتبار أنّها آثار تاريخيه تدلّ على وجود تمدّن وحضاره لدى أسلافنا وأجدادنا، في حين أنّ المرء ينبغي أن يستوحى منها دروس العبره ويسترشد بتقلّبات الزمان بما ينفعه في حياته ويكشف له الطريق.

ويتحدّث الإمام عليه السلام بعد ذلك ويبيّن توضيحاً أكثر لهذه الحقيقه: «فإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحْبَبِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرَبَاءِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ».

أجل، فلو شككنا في كل شيء فإننا لا نشكّ في هذه الحقيقه الحاسمه، وهي أنّنا بدون استثناء سائرون على خطى القدماء وسنلاقي نفس المصير، في ذلك اليوم الذي نودّع فيه الزوجه والأبناء الأصدقاء والمقامات وجميع وسائل الحياه ونتركها لغيرنا ونرحل.

تأملان

١. الحياه وإعمار القلب

يشير الإمام عليه السلام في مستهلّ هذه الفقره من الوصيه إلى إحياء القلب بواسطه الموعظه، وفي الفقره السابقه أشار إلى عمران القلب، ومعلوم أنّ المقصود من القلب في هذه العبارات وأمثالها ليس ذلك العضو الخاص من البدن والذي يقع في الصدر، ووظيفته ضخّ الدم إلى جميع أعضاء البدن؛ بل المراد منه روح الإنسان وعقله كما ورد ذلك أيضاً في المصادر اللغويه.

ص: ٤٢٩

والروح الإنسانيه هي التي يجب إعمارها وإصلاح الخلل فيها من خلال سلوك سبيل التقوى والإصغاء إلى المواعظ، لأننا نعلم أنّ الإنسان يملك ثلاث نفوس، وأحياناً أربع نفوس، النفس النباتيه والتي تظهر آثارها في نموّ الجسم والتغذيه وتوليد النسل، النفس الحيوانيه، التي تتولى، مضافاً لما سبق، الإحساس والحركه، فالأظافر وشعر الإنسان تملك روحاً نباتيه فقط، ولهذا السبب لا- يشعر بها الإنسان عندما تقطع في عمليه تقليم الأظافر وقصّ الشعر، ولكن اللحم والعضلات - مضافاً إلى أنّها تملك روحاً نباتيه، فلها روح حيوانيه أيضاً، فأدنى ضرر أو أذى يلحق بالإنسان تحسّ به هذه العضلات وتتألم، أمّا النفس الإنسانيه، فإنّ أثرها البارز هو الإدراك والشعور والخلاقيّه والتفسير والتحليل للمسائل المختلفه، وهي حقيقه يملكها الإنسان مضافاً للنفس النباتيه والحيوانيه، وطبعاً هناك بعض الأشخاص الذين يملكون نفساً رابعه أيضاً وهي التي يطلق عليها بالنفس القدسيه، وهذه تدرك الحقائق المجرّده التي يعجز عن إدراكها الأفراد العاديون (أحياناً تطلق روح القدس على جبرئيل، وأحياناً أخرى على ملك أعظم منه) وقد ورد التعبير عنها في بعض الروايات (روح الإيمان) ولعلّ ذلك إشاره إلى هذه المرتبه العاليه للنفس الإنسانيه.

وجاء في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِذَا زَنَى الرَّجُلُ فَارَقَهُ رُوحُ الْإِيمَانِ»^(١)، إلّا أن يتوب ويتحرّك على مستوى جبران الخلل.

وجاء في بعض الروايات أنّ روح القدس أعلى مرتبه من روح الإيمان وقد جاءت الأرواح الخمسه فيها^(٢).

الروح الإنسانيه أحياناً تكون بدرجة من القوّه والنفوذ بحيث تنير كافّه زوايا الإنسان وأبعاد شخصيته، وأحياناً أخرى تكون إلى درجه من الضعف بحيث يقال عنها أنّها ميّته.

ص: ٤٣٠

١- (١). الكافي، ج ٢، ص ٢٨٠، باب الكبائر، ح ١١.

٢- (٢). انظر: الكافي، ج ٢، ص ٢٨٢، باب الكبائر، ح ١٦.

يقول الإمام الحسن المجتبي عليه السلام: «التَّفَكُّرُ حَيَاةٌ قَلْبِ الْبَصِيرِ»^(١). وفي حديث آخر عنه عليه السلام يقول: «عَلَيْكُمْ بِالْفِكْرِ فَإِنَّهُ حَيَاةٌ قَلْبِ الْبَصِيرِ وَمَفَاتِيحُ أَبْوَابِ الْحِكْمَةِ»^(٢).

وفي مقابل ذلك ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَرْبَعٌ يُمْتَنُّ الْقَلْبُ: الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ وَكَثْرَةُ مُنَاقَشَةِ النِّسَاءِ - يَعْنِي مُحَادَثَتَهُنَّ - وَمُمَارَاةُ الْأَحْمَقِ... وَمُجَالَسَةُ الْمَوْتَى، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْمَوْتَى؟ قَالَ كُلُّ غَنِيٍّ مُتْرَفٍ»^(٣).

وكذلك ورد في الروايات عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «لِقَاءُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِمَارَةُ الْقُلُوبِ وَمُسْتَفَادُ الْحِكْمَةِ»^(٤). وفي روايه أخرى يقول عليه السلام: «عِمَارَةُ الْقُلُوبِ فِي مُعَاشَرَةِ ذَوِي الْعُقُولِ»^(٥).

ومن المعلوم، كما ورد في الروايات أعلاه، أن قلب الإنسان أحياناً يكون بشكل خربه أو يكون سقيماً، وأحياناً أخرى يفقد جميع ملامح إنسانيته وقد يكون أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، والإمام عليه السلام في وصيته مورد البحث يوصي الإنسان بإحياء قلبه وعمرانه والعمل على تعميره وتقويه معنويته، وذكر الله عامل أساس لإحياء القلب والموعظه بدورها وسيله وأداه لهذا الإحياء المعنوي.

٢. الوعظ الكثيرون

عندما يدور الحديث عن الوعظ فسوف يتبادر إلى الذهن من هذه الكلمه الإنسان المجرب والحكيم والمتقى والسالك سبيل الخير والإيمان، الذي استفاده من آيات القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام وتجارب الآخرين ومطالعاته في زياده الوعي بحقائق العالم وكيفيه السير في طريق معنويات والقيم، في حين أن

ص: ٤٣١

١- (١). ميزان الحكمة، ح ١٧٠٣٠.

٢- (٢). المصدر السابق، ح ١٧٠٣١.

٣- (٣). الخصال، ص ٢٢٨.

٤- (٤). غرر الحكم، ص ٤٣٠، ح ٩٧٩٥.

٥- (٥). المصدر السابق، ص ٤٢٩، ح ٩٧٧٤.

الروايات الشريفه تذكر وعظاً آخرين إلى جانب ذلك، ومنهم الحوادث المُرّه والمصائب الأليمه التي تصيب الإنسان في الدنيا، وهو ما يشير إليه الإمام عليه السلام في قوله: «أَخِي قَلْبِكَ بِالْمَوْعِظَةِ».

والواعظ الآخر للإنسان يتمثل في تاريخ القدماء وسيره الأتوام الماضيه وأطلال القصور والقبور المندرسه والديار المتروكه، والتي تتحدث مع الإنسان بألف لسان وهي صامته، والإمام عليه السلام بهذه العبارات يشير إلى هذا الواعظ أيضاً.

الواعظ الآخر الذي يتحدث عنه الإمام عليه السلام في نهج البلاغه في (الخطبه ١٨٨) أجساد الموتى ويقول: «فَكَفَى وَعِظًا بِمَوْتِي عَايِنْتُمُوهُمْ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ»^(١).

وقد نستوحى من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وعظاً آخرين يعبر عنهم بالواعظ الباطني، يعني الوجدان اليقظ والضمير الحي في واقع الإنسان وقلبه، يقول: «وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظًا»^(٢)، وهذا الواعظ النفساني هو ما ورد في القرآن الكريم في سوره الشمس، قال تعالى: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»^(٣).

الواعظ الآخر هو ما بينه الإمام موسى الكاظم عليه السلام لهارون الرشيد عندما طلب هذا الأخير من الإمام عليه السلام موعظه، فقال له الإمام عليه السلام كلاماً وجيزاً وعميق الغور: «مَا مِنْ شَيْءٍ تَرَاهُ عَيْنَيْكَ إِلَّا فِيهِ مَوْعِظَةٌ»^(٤).

يعني أن النجوم المتلألئه في السماء، والشمس والمضيئه، والقمر المنير، والظهر المحدودب للمسنيين، الشعر الأبيض للشيخ، أوراق الشجر اليابسه في فصل الخريف، والقبور المندرسه للموتى، والقصور المتهاويه للملوك، كلها تتضمن دروساً

ص: ٤٣٢

١- (١) . نهج البلاغه، الخطبه ١٨٨.

٢- (٢) . نهج البلاغه، الكلمات القصار ٨٩.

٣- (٣) . سوره الشمس، الآيتان ٧ و ٨.

٤- (٤) . بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٤.

وعبراً، وتنطق بالمواعظ فى سكوتها المطبق.

فلو أنّ هارون نظر إلى الحوادث المثيرة والتقلّبات المذهله فى تاريخ بنى أميه وبنى العباس، فسوف يستوحى منها أفضل الدروس وأعظم العبر.

ومن هذا المنطلق يكون كلام الإمام عليه السلام فى هذه الوصية: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ» يتضمّن مفهوماً واسعاً بحيث يستوعب جميع عناصر الوعظ وكافّه الوعّاظ.

يقول أبوالفرج الاصفهاني فى كتاب الأغاني: كانت الخرقاء بنت النعمان إذا خرجت إلى بيعتها (محلّ العباده) يفرش لها الطريق بالحرير والديباج المغشّى بالخزّ والوشى، ثمّ تقبل فى جواربها حتّى تصل إلى بيعتها، وترجع إلى منزلها، فلما هلك النعمان نكبها الزمان، فأنزلها من الرفعه إلى الدلّة، فلمّا وفد سعد القادسيه أميراً عليها وانهزم الفرس وقتل رستم، أتته فى حفده من قومها وجواربها عليهنّ المسوح والمقطّعات السود تطلب صِلته، فقال لهنّ: أيتكنّ الخرقاء؟ قال: ها أنا ذى إنّ الدنيا دار زوال ولا تدوم على حال، كتّما ملوك هذا المصر يُجبي لنا خراجه ويطيعنا أهله مدى المدّه والزمان، كذلك الدهر ليس يأتى قوماً بمسرّه إلّا ويعقبهم بحسره ثمّ قالت:

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا

وكذلك ينقل عن محمد بن عبدالرحمن الهاشمى قال: دخلت على امي يوم أضحىّ وعندها امرأه فى أثواب دنسه، فقالت: أتعرف هذه؟ قلت: لا، قالت: هى عتابه ام جعفر البرمكى، فسلمت عليها وقلت لها: حديثنى بيعض أمركم، فقالت:

أذكر لك جملة فيها عبره لمن اعتبر، لقد هجم علىّ مثل هذا اليوم وعلى رأسى أربعمائه وصيفه وأنا أزعم أنّ ابنى جعفر عاقّ فىّ، وقد أتيتكم اليوم أسألکم جلدى شاتين، شعار ودثار(1).

ص: ٤٣٣

١- (٢). المصدر السابق، ص ٣٣٣ ونقل هذه القصة أيضاً المرحوم المحدّث القمى فى تتمه المنتهى، ص ٢٤٨.

أَيْنَ كِسْرَى الْمُلُوكِ أُنُو

سِرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَهُ مَا يَم

ص: ٤٣٤

إشاره

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَمَّا تَبِعَ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَمَّا تَعْرِفُ، الْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ. وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْزِهِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ. وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنِ مَنْ فَعَلَهُ بِجَهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذَكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. وَخُصِّ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ.

الشرح والتفسير: الاستقامه سبب تحقيق النصر والنجاح

يتحرّك الإمام عليه السلام في مستهلّ هذا المقطع من الوصيه ليستنتج ممّا تقدّم في المقطع السابق من التوصيه بمطالعه أحوال القدماء والسير في آفاق التاريخ، خمس نتائج ومواعظ مهمه، ويقول: «فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْزِهِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ».

جمله «أَصْلِحْ مَثْوَاكَ» مع الالتفات إلى أنّ «مَثْوَى» تعنى المكان والمنزل والأخير، أى آخرتك، فهى تشير إلى أنّك يجب عليك أن تتحرّك في هذه الدنيا من موقع النظر إلى الآخرة والاهتمام بإعمارها.

ونقرأ في دعاء يوم الثلاثاء من أذنيه أيام الاسبوع للإمام على بن الحسين عليهما السلام:

«وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي فَإِنَّهَا دَارُ مَقَرِّي».

وجمله: «لَمَا تَبِعَ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ» إشاره إلى أن المتاع الثمين الذي يوصل الإنسان إلى دار السعادة الأبدية لا ينبغي أن تبيعه مقابل ملذات رخيصه وسريعه الزوال في الدنيا، وهذا هو ما ذمّ عليه القرآن الكريم جماعه من اليهود وشجب أعمالهم حيث قال: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَّرُونَ» (١).

وجمله: «دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَاتَعْرِفُ» إشاره إلى أن الإنسان قد يتحدث عن أمور لا يحيط بها علماً، وقد نهى القرآن الكريم عن هذا العمل مراراً، منه قوله تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (٢) وفي مورد اتباع وساوس الشيطان يقول: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (٣).

وعبارته: «وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ» إشاره إلى أن لا ينبغي لك أن تتدخل فيما لا يخصك ولا يعينك، وبالتعبير المتداول (لا تكن فضولياً في شؤون الآخرين) فما أكثر الأشخاص الذين واجهوا بسبب تدخلهم في شؤون الآخرين وفيما لا يعينهم، مشاكل كثيره وتورطوا في صراعات وخسروا الكثير مما بهمهم، وهذا هو ما أكد عليه القرآن الكريم: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» (٤).

وآخر جملة: «وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ...» إشاره لضروره رعايه الاحتياط في الشبهات، وهذا المعنى يعتبر أصلاً عقلائياً مسلماً، فعندما يجد الإنسان نفسه في مفترق طريقتين، طريق يتميز بوضوح، خالي من العثرات والمطبات، وطريق مظلم ومجهول، فالعقل يقول: لا ينبغي أن تسلك في مثل هذا الطريق، لأنك سوف تبلى بعواقب سيئه، وحتى لو وصلت لمقصدك من هذا الطريق، فإن مصيرك محفوف بالخوف والاضطراب، فينبغي للإنسان أن يسير بخطوات مطمئنه في الطريق الواضح

ص: ٤٣٦

١- (١) . سورة البقره، الآيه ٨٦.

٢- (٢) . سورة الاسراء، الآيه ٣٦.

٣- (٣) . سورة البقره، الآيه ١٦٩.

٤- (٤) . سورة المائده، الآيه ١٠٥.

وبحاله من الطمأنينه ليصل إلى مقصده وينال بغيته.

وهذا الأصل العقلاني ورد في روايات كثيرة، منها ما وردت الإشارة إليه في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «دَعِ مَا يُرِييُكَ إِلَى مَا لَا يُرِييُكَ»^(١) وحديث طويل عن عمر بن حفص قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام: عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعه...
أصحابنا بينهما منازعه...

إلى أن قال عليه السلام: «إِنَّمَا الْأُمُورُ ثَلَاثَةٌ: أَمْرٌ بَيْنَ رُشْدِهِ فَيَتَّبِعُ، وَأَمْرٌ بَيْنَ عَيْهِ فَيُجْتَنَّبُ، وَأَمْرٌ مُشْكِلٌ يُرَدُّ عَلَيْهِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: حَلَالٌ بَيْنَ وَحَرَامٌ بَيْنَ وَشُبُهَاتٌ بَيْنَ ذَلِكَ، فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ نَجَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ أَخَذَ الشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ»^(٢).

وبديهى أن كل هذه التوصيات والأوامر لا تتنافى مع مسأله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الجاهل، بل ترتبط بالموارد التي لا يملك الإنسان مسؤوليه تجاهها، ولذلك يقول الإمام عليه السلام بعد هذه التوصيات: «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنُّ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنُ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ».

الجملة الأولى: «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنُّ مِنْ أَهْلِهِ» إشاره إلى أن الإنسان عندما يأمر الآخرين بالمعروف ولا يكون من أهله فسوف يعيش تائب الضمير ويشعر بالخجل أمام وجدانه، أضف إلى ذلك أنه يخجل من الناس عندما يقولون إنه يأمر بالمعروف في حين أنه يرتكب المنكر، ومجموع هذه الأمور يقود الإنسان من خلال الأمر بالمعروف إلى مرتبه أخلاقية بحيث يجد نفسه تدريجياً يسير في خط العاملين بالمعروف الذين يعيشون أجواء الفضيله.

وجمله: «وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ...» إشاره إلى مراتب النهي عن المنكر، وقد ذكر الإمام عليه السلام هنا مرتبتين لهذه المهمه، جاء في مورد آخر من كلمات الإمام عليه السلام القصار الإشاره إلى ثلاث مراحل ومراتب لها: الأولى: الإنكار بالقلب، والامتعاض الباطني

ص: ٤٣٧

١- (١). بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٩، ح ٧.

٢- (٢). الكافي، ج ١، ص ٦٨، ح ١٠.

من المنكر، وذلك عندما يجد المؤمن نفسه في مناخ غير مناسب ويعيش القهر والظلم من قبل الظالمين وقوى الشرّ، فيجد يديه مقيدته وفمه مكتوم.

المرحلة الثانية: الإنكار باللسان.

والمرحلة الثالثة: التصدّي العمليّ لمواجهه المنكرات والعمل على تطهير الإنسان والمجتمع منها، والكثير من الفقهاء يرون أنّ هذه المرحلة من وظائف الحكومه الإسلاميه والحاكم الشرعيّ، بينما المرحلة الأولى والثانية تقع على عهده عامّه المكلفين.

وجمله: «وَيَايُنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ» ممكن أن تكون إشاره إلى المورد لا يؤثّر فيه النهي عن المنكر، ففي مثل هذا المورد يجب على الإنسان أن يترك مجالس المنكر ويتعد عن المرتكبين للمعاصي والمنكرات.

ويحتمل أيضاً أنّ المراد النهي القلبيّ الذي يترك آثاره على ملامح الوجه، وهو أحد المراحل الثلاث للنهي عن المنكر، وقد ورد في حديث عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «أَمَرْنَا رَسُولُ اللَّهِ أَنْ نَلْقَى أَهْلَ الْمَعَاصِي بِوُجُوهِ مُكْفَهَرَةٍ»^(١)، ليعلموا من ملامح الغضب المرتسمه على وجوهنا أنّنا ننكر أعمالهم ولا نوافقهم في سلوكياتهم.

ثمّ يستمرّ الإمام عليه السلام في بيان هذه التوصيات والمواعظ ويقول: «وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. وَخُضْ (٢) الْغَمْرَاتِ (٣) لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ».

ونعلم أنّ للجهاد مراحل ومراتب متعدّده، سواءً كان المقصود الجهاد المسلّح ضدّ الأعداء، أو بمعنى السعي وبذل الجهد في مسير الحقّ والعدالة، وبعض هذه المراحل لا تليق بالمجاهدين الحقيقيين، اللائق هم أن يحققوا في واقعهم وذواتهم آخر

ص: ٤٣٨

١- (١). الكافي، ج ٥، ص ٥٨، ح ١٠.

٢- (٢). «خض» صيغه أمر من «الخوض» على وزن «حوض» في الأصل بمعنى الدخول التدريجي في الماء، ثم استخدم كناية عن الورود أو الشروع في كل عمل.

٣- (٣). «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربه» وأصلها من «غمر» وتعني زوال أثر الشيء، ثم استخدمت في الماء الكثير الذي يغطي جميع جهات الشيء، يقال: «غمرة» و «غامر» ثم اطلقت على كل ابتلاء شديد وجهل يغمر الإنسان ويحيط به من كل جانب و «غمرات الموت» بمعنى الشدائد التي يواجهها المحتضر في حالات الموت.

مرحله وأعلى مرتبه من هذا السلوك المعنوي، ويبدلوا كل جهدهم وطاقتهم في سبيل الثبات والاستقامه في خط الإيمان والعبوديه، وجمله: «جَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» إشاره إلى هذا المعنى.

أمّا جملة: «وَلَمَّا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَمَائِمٍ» فهي إشاره إلى أنه أحياناً يلتف بعض الأراذل حول الإنسان المجاهد ويلومونه على مسلكه ويعيقون حركته في طريق الحق، والإيمان، فالإمام عليه السلام يقول: لا ينبغي أن يكون هذا الذمّ والتوبيخ مانعاً لك من الاستقامه في هذا الطريق، فعندما يتبين لك طريق الحق فسر فيه بعزم راسخ وتوكل على الله، ولا تهتم لأقويل المبطلين، ولا تلتفت للوم اللائمين.

وبما أنّ طريق الحق يزخر بالمشكلات الكثيره والمآزق الخطيره، وأنّ السالكين في طريق الحق لا يصلون إلى مقصدهم بدون مواجهه هذه الأزمات والمآزق، فالإمام عليه السلام يشبه هذه المشاكل والمآزق بأمواج البحر العاتيه «وَحُضِّ الْغَمْرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ» ويأمر بخوض هذه الغمرات وعدم التراجع عن هذه الأمواج للوصول إلى المطلوب ونيل الجواهر الحقيقيه.

وهذا الكلام للإمام علي عليه السلام مقتبس من الآيات القرآنيه الشريفه، فنقرأ في الآية ٧٨ من سوره الحج: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» وفي الآية ٥٤ من سوره المائده:

«يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

وذهب الكثير من المفسرين أنّ «حقّ الجهاد» تعنى إخلاص التيه، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا المفهوم لا ينحصر بإخلاص التيه، بل مراده أنّ أصعب مراحل الجهاد وهو جهاد النفس يتطلب إخلاص التيه.

وفي ختام هذه الفقره يطرح الإمام عليه السلام نصيحتين مهمتين أيضاً لولده، فيقول: «وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ (١) عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ».

ص: ٤٣٩

١- (١). «تصبر» من ماده «صبر» بمعنى الاستقامه وضبط النفس، والفرق بين التصبر والصبر أنّ الشخص الصبور هو واقعاً من أهل الصبر والاستقامه، وأمّا التصبر فيقال في مورد الشخص الذي لم يصبح من أهل الصبر فعلاً بل يريد أن يملك هذه الحاله النفسيه والفضيله الأخلاقيه.

ومع الالتفات إلى أنّ «تفقه» من مادة «فقه» يعنى الفهم والإدراك، فمقصود الإمام عليه السلام من هذه الجملة «وَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ» أنه لابدّ من الوعى الكامل لحقائق الدين ومعرفة أصوله وفروعه من موقع العمق والتمعن ولا تقنع بالفهم السطحي لقضايا الدين، بل عليك التعمق في هذه الأمور.

وجمله: «عَوِّدْ نَفْسَكَ...» إشارة إلى أنّ الصبر والاستقامه في مقابل المشكلات والتحديات لا تتوفر للإنسان إلّا من خلال التمرّن وتعويد النفس على الثبات في مواجهه الشدائد، فينبغى عليك أن تمرّن نفسك على الثبات والصبر حتّى بضحيّ لديك عادة وملكه راسخه.

وعبارته: «نِعْمَ الخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الحَقِّ» إشارة إلى أنّ كلّ عمل جيّد ومطلوب يواجهه عادة موانع ومشاكل مختلفه، فلو لم يتميّك الإنسان بآليه الصبر والاستقامه على الحقّ، فلا يستطيع أن يصل إلى نتيجة مرضيه من أى عمل إيجابى، فقطف الورد لا يتيسّر بدون تحمّل ألم الشوك، والحصول على العسل من خليه النحل يقترن غالباً بلسعات الزنايير، فلو لم يستقم الإنسان في خطّ الحقّ والإيمان مقابل المشاكل والتحديات الصعبة التي يفرضها الواقع، فسوف لا يصل إلى أى هدف مقدّس في حركة الحياه.

ومن المناسب هنا أن نستعرض بعض أشعار أبى الأسود الدؤلى في هذا الصدد، يقول:

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضَّرِّ حَتَّى أَلْفُتُهُ

تأملان

1. رعايه الاحتياط عند الإحساس بالخطر

يعدّ الاحتياط في موارد الشك، أحد الأصول المسلّمه في مذهبنا، وأحياناً يكون الاحتياط واجباً في بعض الموارد، وأخرى مستحباً.

وأصل الاحتياط يمتدّ بجذوره إلى حكم العقل، ويقرّر العلماء في علم الأصول هذا الاحتياط بأنّه دفع الضرر والمحتمل، وهنا بحث في وجوبه بشكل مطلق أو بتوفّر بعض القيود والشروط، فالعقل يحكم بضروره اجتناب الأضرار المحتمله والابتعاد عنها، والملفت أنّ نفس هذه المسأله وردت في علم الكلام (العقائد) بوصفها ركيزه أساسيه للتحقيق في المسائل الدينيه والمسائل العقائديه كالمبدأ والمعاد، وعلى هذا الأساس يتمّ البحث عن مسأله وجود الله ومعرفة الله وأنّ ترك التحقيق في هذه المسائل ربّما تترتب عليه أضرار عظيمه، ولهذا السبب يحكم العقل بضروره أن يتحرّك الإنسان من موقع البحث والتحقيق فيها.

ولاء يكتفى الإمام عليه السلام بمجرد تقديم النصحيه بالاحتياط في هذه الفقره «وَأْمَسِيكَ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَمَالَتَهُ..»، بل يتحرّك على مستوى الاستدلال وبيان هذه النصيحه لولده بآليات الإقناع والبرهان ويقول: إنّ المسير في طريق يخشى فيه من الوقوع في مهاوى الضلاله، وربّما يقود الإنسان نحو الحوادث المهوله والمخوفه؛ فينبغى اجتناب سلوكك هذا الطريق، لأنّ التوقّي والكفّ في مثل هذه الموارد أفضل من الوقوع في دوامه الحوادث الصعبة وركوب الأهوال الخطيره.

وأساساً فإن الاحتياط، مع رعايه الاعتدال فيه وعدم الإفراط، يعتبر في جميع الموارد المعنويه والماديه، عمل منطقي ومعقول.

٢. الطريق لنيل الفضائل الأخلاقيه

جمله: «وَعَوِّذُ نَفْسِكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ» إشاره إلى أصل أخلاقي مهم، وهو أن الأشخاص الذين لم يتلقوا تربيته أخلاقيه مناسبه في بدايه أمرهم سيكون من

ص: ٤٤٠

الصعب عليهم تقْييل الأَصول والقيم الأخلاقية، وينبغي لهم أن يمارسوا فرض هذه القيم على النفس بآلية التكرار والتمرن على ذلك، وهذا الفعل المتكرر، من شأنه أن يتسبب في صيروره ذلك الأمر الأخلاقي عادة مستديمه، والاستمرار على هذه العاده يجعل منها ملكه نفسانيه راسخه في واقع الإنسان، يعنى أن هذا الخلق سينفذ تدريجياً إلى أعماق روح الإنسان بحيث تشهد تحوّلاً في السلوك الأخلاقي.

وقد ورد في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب غررالحكم: «الخَيْرُ عَادَةٌ» وأيضاً «العَادَةُ طَبْعٌ ثَانٍ»، وهذه الكلمات إشاره إلى هذا المعنى مورد البحث.

أمّا الفرق بين التصبر والصبر، فهو أنّ الشخص الصابر هو واقعاً من أهل الصبر والاستقامه، أى يعيش هذه الملكه الراسخه، وأمّا التصبر فيقال للشخص الذى لا يجد فى نفسه ملكه الصبر وليس من الصابرين، بل يدفع نفسه بهذا الاتجاه.

وأساساً فالكثير من الفضائل الأخلاقية لا- يحصل عليها الإنسان إلا برياضه النفس والتعود والتمرن، وبما أنّ الصبر والاستقامه ومواجهه التحديات الصعبه يعتبر رأس مال جميع النجاحات فى الحياه، وطبقاً لما ورد فى بعض الروايات أنّ الصبر بالنسبه للإيمان كالرأس من الجسد، فلا بدّ للإنسان من السعى الجادّ لتحقيق هذه الملكه والفضيله الساميه، وكما يقول الشاعر:

صَبْرًا لِمَا تُحَدِّثُ الأَيَّامُ مِنْ حَدِثٍ

ومما ينسب لإمير المؤمنين عليه السلام:

أَلَا فَاصْبِرْ عَلَى الحَدِثِ الجَلِيلِ

ص: ٤٤٢

وَأَلْجَيْ نَفْسِيكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِيكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِيهَا إِلَى كَهْفِ حَرِيْزٍ، وَمَانِعِ عَزِيْزٍ. وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِزْمَانَ، أَكْثَرَ الْإِسْتِخَارَةِ، وَنَفْهَمَ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَأَخَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ.

الشرح والتفسير: لا تساهل في هذه الوصية

وينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية (القسم السادس) لبيان خمس توصيات مهمّة لولده وثمره فؤاده.

بدايه يطرح مسأله التوكّل على الله ويقول: «وَأَلْجَيْ (١) نَفْسِيكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِيكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِيهَا إِلَى كَهْفِ (٢) حَرِيْزٍ (٣)، وَمَانِعِ عَزِيْزٍ».

إنّ التوكّل وليد الإيمان بالتوحيد الأفعالي، فعندما يعتقد الإنسان أنّ جميع الأمور في العالم بيد الله تعالى، ويؤمن بأنّ الله مسبّب الأسباب، فمن الطبيعي أن يلتجئ إليه في جميع مشاكله وحاجاته، وتسكن إليه نفسه ويرى فيه ملاذاً آمناً لما يواجهه في واقع الحياه من أزمات وتحديات.

والتوكّل لا يعنى التكاسل وأن يترك الإنسان السعى والعمل ويجلس بأمل لطف

ص: ٤٤٣

١- (١). «ألجىء» من «الإلجاء» وأصلها من «الجوء» بمعنى الاحتماء بالشىء، و «الجاء» تعنى دفعه لطلب اللجوء والحمايه من الطرف الآخر.

٢- (٢). «كهف» بمعنى الغار الواسع و ثم اطلقت على كل شىء ملاذ وملجأ يلجأ إلى الإنسان.

٣- (٣). «حريز» بمعنى المحافظ وهو من ماده «حرز» على وزن «فكر» ويعنى حفظ الشىء.

اللّه ورزقه، بل بمعنى أن يستخدم الإنسان جميع طاقاته وقدراته في سبيل الوصول إلى أغراضه، ويتحرّك على مستوى إزاحه الموانع وحلّ المشكلات، ولكن بما أنّ بعض هذه المشاكل والأزمات ربّما يكون حلّها خارج طاقه الإنسان وفوق قدرته وإمكاناته، فإنّه يلتجئ إلى لطف الله تعالى ورحمته الواسعه ويلوذ بقدرته المطلقة ليتسنى له السيطرة على تلك المشاكل.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى مسأله الإخلاص ويقول: «وَأَخْلَصَ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ يَدَ الْعَطَاءِ وَالْحِزْمَانَ».

الإخلاص بدوره يعدّ من ثمرات الإيمان بالتوحيد الأفعالي أيضاً، لأنّ الإنسان عندما يعلم يقيناً بأنّه: «لا مُؤَثَّرَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ» فيكون حينئذٍ الرزق والحرمان بيد الله تعالى، وعندما يؤمن بهذا الأمر من موقع الاطمئنان القلبي فسوف لا يطلب شيئاً من غيره، ويتوجّه إليه بإخلاص وصفاء نيّه ويسأله حاجاته، ومن هنا فقد ورد في الروايات الشريفه أنّ المرائين مشركون، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ رِيَاءٍ شِرْكٌ إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِلنَّاسِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى النَّاسِ وَمَنْ عَمِلَ لِلَّهِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ» (١).

وتشير هذه الجملة ضمناً إلى هذه الحقيقه، وهى أنّ الإنسان لا ينبغي له أن يطلب حاجاته إلّا من البارى تعالى، وإن توجّه لغير الله في بعض الحاجات طبقاً لما يفرضه عالم الطبيعه من أسباب وعلل ماديّه وطبيعيّه، فيجب أن يعلم أيضاً بأنّ المؤثر الحقيقى هو الله تعالى، وأنّ إرادته غالبه على كلّ شىء، وأنّ مشيئته مهيمنه على مشيئته عباده، فجمله «فَإِنَّ يَدَ الْعَطَاءِ وَالْحِزْمَانَ»، تقرّر هذه الحقيقه الغيبيه.

وفى التوصيه الثالثه يقول الإمام عليه السلام: «وَأَكْثِرِ الْإِسْتِخَارَةَ»، أى اطلب من الله الخير والصلاح فى الحياه.

وللاستخاره معنيان: أحدهما الاستخاره المتداوله بين الناس فى هذه الأيام، فكلّ مشكله يواجهها الإنسان ولا يستطيع حلّها بقوّه عقله أو بواسطه التشاور مع

ص: ٤٤٤

أهله ورفاقه، فإنه يتوجه إلى الله تعالى ويستشير في هذا الأمر، فالاستخاره هنا نوع من المشوره مع الله تعالى، والمعنى الآخر للاستخاره أن يطلب الإنسان من الله تعالى الخير والصلاح في كل عمل يقدم عليه، يعنى أن يجعل الله تعالى حاكماً على مصيره، فيتحرّك في حياته من أجل الكسب والتجاره والزراعه وما إلى ذلك ولكن لسان حاله يقول: (أَسَدٌ يَخِيْرُ اللّٰهَ بِرَحْمَتِهِ)، يعنى أطلب من الله الخير والبركه والرحمه، وهذا النوع من الاستخاره ورد التأكيد عليه كثيراً فى الروايات الشريفه، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا اسْتَخَارَ اللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدٌ مُّؤْمِنٌ إِلَّا خَارَ لَهُ» (١).

ثم يوصى الإمام عليه السلام ولده بأن يتعمق فى فهم هذه الوصايا والنصائح، ولا يمرّ عليها مرور الكرام أو يتعامل معها بسطحيه وتساهل، ويقول: «وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً» (٢).

ثم يقدم الدليل لتأييد هذه الحقيقه، ويقسم العلوم والمعارف إلى ثلاثه أقسام يقول: «فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَع، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَأَخَيْرٍ فِي عِلْمٍ لَّا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَّا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ».

فالعلوم النافعه هى العلوم التى تعين الإنسان فى مسيرته المعنويه والقرب إلى الله، سواء كانت فى مجال العقائد أو العبادات أو الأخلاق وما شاكل ذلك، وبذلك تحقق له حياه كريمه فى هذه الدنيا وتنقذه من الفقر الذى يعدّ عاملاً رئيسياً للكفر والضلاله والانحراف.

والعلوم غير النافعه هى العلوم التى لا يجد الإنسان فيها خير الدنيا ولا خير

ص: ٤٤٥

١- (١). بحار الأنوار، ج ٨٨، ص ٢٢٤، ح ٤.

٢- (٢). «صفح» فى الأصل بمعنى الجانب والطرف المواجه للشيء، ومعناه المصدرى الإعراض وصرف النظر عن الشيء، وبما أنّ صرف الإعراض عن الشيء تاره بدفاع العفو الصفح وأخرى بسبب الغضب والاستياء، فهذه المفرده تستعمل بكلا المعنيين، وضمناً ينبغى الالتفات إلى أنّ فاعل تذهبن هو الوصيه، ومعنى الجملة أنّ وصيتي لا ينبغى أن تنسى بسبب الاهمال والإعراض عنها، أى لا- تتعامل معها من موقع اللامبالاه والتساهل، وجاء فى بعض النسخ كلمه «عنها»، بدلاً من عنك، وفى هذه الصوره سيكون فاعل تذهبن المخاطب، أى الإمام الحسن عليه السلام.

الآخره، وأحياناً يستخدمها الإنسان لقضاء الوقت أو اللهو والتفاخر، كما ورد في الحديث المعروف عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْمَسْجِدَ فَإِذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَطَفُوا بِرُجُلٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: عَلَّامَةٌ. فَقَالَ: وَمَا الْعَلَّامَةُ؟ فَقَالُوا لَهُ: أَعَلِمَ النَّاسَ بِأَنْسَابِ الْعَرَبِ وَوَقَائِعِهَا، وَأَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ:

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ذَاكَ عِلْمٌ لَا يَضُرُّ مَنْ جَهَلَهُ وَلَا يَنْفَعُ مَنْ عَلِمَهُ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنَّمَا الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ»^(١).

وبديهي أن العلوم والمعارف التي يحتاج إليها الإنسان في إعمار الدنيا وقضاء حاجاته الدنيوية، وتساهم في نجاته من الفقر والمرض ومشكلاته الأخرى، تعتبر من العلوم المفيدة أيضاً، لأنها في الواقع بمثابة مقدّمة لتلك الطوائف الثلاث من العلوم النافعة.

والقسم الثالث من العلوم، العلوم المضرة، من قبيل علم السحر والشعوذة والعلوم التي ترتبط بإنتاج الوسائل المحرّمة مثل الخمر والمخدرات، وفي عالمنا المعاصر نرى أن هذه العلوم أكثر بكثير من الماضي، منها العلوم التي تساهم في صناعه أسلحه الدمار الشامل كالقنابل الذرية والأسلحه الكيماوية وأمثال ذلك، فتعلم مثل هذه العلوم وتعليمها حرام في الإسلام، لأنها تكون مقدّمة للحرام.

تأمل: العلوم النافعة وغير النافعة

لا شك أن العلم نور وضياء في حياة الإنسان، ولكن هذا لا يعني أن جميع العلوم مفيدة ومطلوبه.

وكما رأينا في وصيه الإمام عليه السلام مورد البحث أن الإمام قد قسم العلوم إلى ثلاثة أقسام:

ص: ٤٤٦

١- (١). الكافي، ج ١، ص ٣٢، ح ١.

الأول: العلوم التي تنفع الإنسان في حياته، وأحياناً تكون ذات بعد معنويّ من قبيل العلوم والمعارف الدينيه والأحكام الشرعيه والأخلاق الإنسانيه، وأحياناً ذات بعد ماديّ مثل جميع العلوم التي يحتاج إليها الإنسان في حياته الدنيويه ومعاشه، من قبيل علم الطبّ، الزراعة، العلوم الدفاعيه، الصناعات الخفيفه والثقيله، وما إلى ذلك، وأنه لولا توفر هذه العلوم والمعارف وما يترتب على فقدانها من خلل في حياه الإنسان الماديّه، فإنّ ذلك من شأنه أن يفرز مشاكل معنويه كثيره، وعلى ضوء ذلك فإنّ مثل هذه العلوم تعتبر في الإسلام واجباً كفاثياً، يعنى يجب على كلّ جماعه أن يتوجّهوا لطلب بعض هذه العلوم لتأمين جميع حاجات المجتمع الإسلامي الماديّه، ولو لم يتوفّر في فرع من فروع هذه العلوم من يتصدّى له بالمقدار الكافي، فسيكون الوجوب عينياً على الأفراد.

وفي هذا السياق لا ينبغي للمسلمين في كلّ عصر وزمان، بخاصّه في عصرنا هذا، أن يتخلّفوا عن الآخرين في هذه العلوم، بل يجب أن يكونوا رواداً للعلم والمعرفه كما كانوا كذلك في القرون الأولى للإسلام.

الثاني: العلوم المضرّه، وهي العلوم التي يترتب عليها تخريب النظام الاجتماعيّ وهدم سلامه المجتمع وإعاقه حركه المجتمع نحو التطوّر والتقدّم والإزدهار، كالعلوم التي تنتج أسلحه الدمار الشامل وتستخدم لصناعه المخدّرات والخمور وأمثالها.

الثالث: العلوم الزائفه وغير المفيده، أي أنّها غير مضرّه وغير نافعه، وقد ذكرنا نماذج منها في شرح كلام الإمام عليه السلام.

أَيُّ بَنِي، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتَ سِنًا، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهَنَا، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأُورِدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجْلِي
دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أَنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِضْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقُنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهُوَى وَفِتَنِ
الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ.

وَأِنَّمَا قَلْبُ الْحَدِيثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبْلَهُ. فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُو قَلْبُكَ، وَيَشْتَغَلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبَلَ
بِحِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُعْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِّتَ مَوْوَنَهُ الطَّلَبِ، وَعُوفِيَتْ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ،
فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

الشرح والتفسير: الباعث لكتابه هذه الوصيه

في هذا المقطع من الوصيه وهو (المقطع السابع) ينطلق الإمام عليه السلام مره أخرى لبيان هدفه من كتابه هذه الوصيه المطوله
والزاخره بالمواعظ النافعه، ويتألف الهدف الذي يرسمه الإمام عليه السلام من قسمين، قسم يتمثل في وجود الإمام عليه السلام
وإحساساته، وقسم آخر يتجسد في وجود الإمام الحسن عليه السلام، وخلاصه ما يريد الإمام عليه السلام قوله:

إِنِّي بَلَغْتَ سِنًا مُتَقَدِّمَةً وَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ حَانَ أَجْلِي، وَلِهَذَا السَّبَبُ أَقْدَمْتُ عَلَى كِتَابَةِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ لَكَ، وَمِنْ جِهَةِ أُخْرَى فَأَنْتَ
شَابٌ تَمْلِكُ الْإِسْتِعْدَادَ لِقَبُولِ الْحَقِّ وَالْإِصْغَاءَ إِلَى الْمَوَاعِظِ، وَأَخْشَى أَنْ يَتَقَدَّمَ بِكَ الْعُمُرُ وَتَفْقَدَ مِثْلَ هَذَا الْإِسْتِعْدَادِ،

ولها تين الجهتين بادرت لكتابه هذه الوصيه.

بدايه يقول الإمام عليه السلام: «أبى بئى إنى لَمَا رَأَيْتُنِى قَدْ بَلَغْتُ سِنًا، وَرَأَيْتُنِى أَرْدَادُ وَهْنَا، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ».

ومعلوم أن عمر الإمام عليه السلام فى ذلك الوقت كان قد بلغ ستين سنه أو أكثر قليلاً من ذلك، وكان عمر الحسن عليه السلام أكثر من ثلاثين عاماً ويملك فى ذلك الوقت مشاعر الشباب وإحساسات الفتوه، وهذا يعتبر درساً لجميع الآباء تجاه أبنائهم، فعندما يتقدم بهم العمر وقبل أن يحلّ أجلهم، أو يتجاوز الأبناء مرحله الشباب ويفقدوا الاستعداد لتقبل النصيحة وتغيير المواقف والسلوكيات، فاللازم على الآباء أن يتقدموا لهم بمثل هذه التوصيات.

ثم إن الإمام عليه السلام يتقدم بتوضيح أكثر ويقول: «وَأُورِدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْصِي (١) إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ (٢)».

وهنا نرى الإمام عليه السلام يتحدث، لا من موقع كونه إماماً معصوماً ولا أن مخاطبه بوصفه ابنه المعصوم، بل بوصفه أباً مسناً ومحبباً لولده الذى يخشى عليه أن يقع فى دوامه الأهواء وفتن الدنيا ووساوس النفس، ويشير إلى أمرين، أحدهما يعود لنفسه، والآخر لولده، ويقول: إننى من جهه قد بلغ بى العمر سنّ الشيخوخه، وأخشى أن يحين أجلى وأفقد الحديث معك، ومن جهه أخرى أن التقدم فى السنّ ربّما يضعف الذهن والفكر كما يضعف أعضاء البدن الأخرى، ومن جهه ثالثه، أخشى عليك الآفات المختلفه والوقوع فى شباك الشيطان والأهواء النفسانيه ومغريات الدنيا،

ص: ٤٥٠

١- (١). «أفصى» من «الإفضاء» وأصلها «فضاء» بمعنى الوصول للشىء وكأنه دخل فى جوه وفضائه، ثم اطلقت على مفهوم إلقاء مطلب معين وتعليمه لآخر وكأن المتكلم ألقى هذا المفهوم فى فضاء فكر المخاطب.

٢- (٢). «نفور» فى الأصل بمعنى الحيوان الهارب الذى نفر من شىء مخوف، ثم اطلقت على كل إنسان يهرب من شىء.

وحينئذٍ ستزول الفرصه للموعظه وتقديم النصح.

وعلى أساس هذه الجهات بادرت لكتابه هذه الوصيه لأصل إلى الغايه المطلوبه قبل فوات الأوان.

والعجيب أن ابن أبي الحديد في شرح عبارات هذه الوصيه، وعندما يبلغ حديث الإمام عليه السلام عن نفسه يقول: «إن هذه العبارات تشير إلى خلاف ما يعتقد الشيعه الذين يقولون أن الإمام معصوم في مثل هذه الأمور ولا يواجه نقصاً في فكره ولا قصوراً في رأيه»^(١).

في حين أن جميع القرائن، كما أسلفنا ذلك، تشير إلى أن الإمام عليه السلام عندما يتحدّث بمثل هذا الكلام فإنه لا ينطلق من موقع الإمامه والعصمه، بل من موقع الأب المسنّ والخير والمجرب الذي يتقدّم بالنصح لولده الشاب الذي لم يجرب الأمور بعد.

ولو أن ابن أبي الحديد التفت إلى كلام آخر للإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغه أيضاً حيث يقول: «فَأَسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَتَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ»^(٢)، فسوف يتبين له الجواب عن هذا التوهم.

وأيضاً يقول الإمام عليه السلام في كلام آخر في الخطبه ١٨٩: «أَيُّهَا النَّاسُ سِئَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ»، أجل، لو أن ابن أبي الحديد أخذ بنظر الحسبان هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام لما تحدّث بمثل ذلك الكلام.

ثم إن الإمام عليه السلام يبيّن الدليل والعلّه ل طرح هذه الوصايا لولده الشاب، ويقول:

«وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدِيثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ».

وهذا الأمر قد ثبت بالتجربه مرّات عديده، بل هناك روايه صارت كالمثل تقول:

«الْعِلْمُ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ»^(٣) أي الخطّ والرسم الثابت والعميق الذي لا

ص: ٤٥١

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٦٦.

٢- (٢). نهج البلاغه، الخطبه ٩٣.

٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٦٧.

يزول أو يتغير بسهولة. ثم تضيف الرواية: وَالتَّعَلُّمُ فِي الْكِبَرِ كَالْخَطِّ عَلَى الْمَاءِ،^(١) في سرعه زواله وتغييره.

ثم إن الإمام يقدم دليلين آخرين ويقول: فَبَادِرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَسَوَّ قَلْبُكَ، وَيَسْتَعْلِلَ لُبُّكَ.

والحقيقه أن الإمام يبين ثلاثة أدلّه لاختياره لهذا الموقع والسّن لتقديم النصيح والموعظه، منها، استعداد قلب الشاب لتقبل الموعظه، وقساوه القلب بسبب عدم التلوّث بالذنوب وعدم اشتغال الذهن بمشاكل الحياه، وكلّ واحده من هذه الجهات الثلاث كافٍ لوحده لاختيار هذا الوقت المحدّد، فكيف إذا اجتمعت هذه الجهات مع بعضها!

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «لَسَدَيْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ»^(٢) وَتَجْرِبَتُهُ، فَتُكُونَ قَدْ كُفَيْتَ مَوْئِنَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيَتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ.

ويشير الإمام عليه السلام في هذه الفقره من الكلام إلى أهميه الاستفادة من تجارب الآخرين، لأنّ الحياه ليست سوى تجارب، والإنسان العاقل بدلاً من أن يجزّب كلّ شيء بنفسه ويترتّب على ذلك أضرار ومشاكل كثيره، فإنّه يستفيد من تجارب الآخرين ويتعلّم منهم ما يعينه في مسيرته بدون أن يدفع ثمن هذه التجارب، وبعبارة أخرى، إنّ الأجيال اللاحقه من حيث انتفاعها بتجارب القدماء، تعيش أفضل حالاً منهم من حيث السعاده والخبره في مواجهه التحدّيات والظروف، فما اكتسبه القدماء بتعب وجهد كبير فإنّ الجيل اللاحق ينتفع منه بدون تعب، وكما يقول الإمام: «كُفَيْتَ مَوْئِنَةَ الطَّلَبِ وَعُوفِيَتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ».

ولذلك يقول الإمام عليه السلام في ختام هذه الفقره من الوصيه: «فَاتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا

ص: ٤٥٢

١- (١). شرح نهج البلاغه، ابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٦٧.

٢- (٢). «بغيه» بمعنى الطلب، من ماده «بغى» على وزن «نقى»، ويقول الراغب في مفرداته إنّ هذه الكلمه تعنى أحياناً مفهوماً ايجابياً وهو طلب الخيرات، وأخرى مفهوماً سلبياً وهو تجاوز حدّ العداله والميل لجهه الظلم والباطل.

نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ»، فحصلت عليه بدون أن تتعب نفسك في تحصيله، بل ربّما كان قد خفى عنك بعض الأمور ولكن بمرور الزمان استبانت لك، وهو إشارة إلى أنّ تجارب القدماء أحياناً تقع بأيدي الجيل اللاحق بشكل كامل فينتفعون بصورة تامة، وأحياناً يكون القدماء قد سلكوا بعض الطريق وعلى الخلف أن يكمل المسيره، وقد يحصل على نتائج وثمار لم يحصل عليها القدماء.

وكما أشرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام في هذه الوصيه لا يتحدّث من موقع الإمامه ومقام العصمه، بل بوصفه رجلاً مجرباً وخبيراً بالأمور الدنيا وتعقيداتها وينقل هذه التجارب من موقع الحرقه والشفقه على ولده الذى يجده فى مواجهه التحديات الصعبه وأعاصير الحوادث والمتغيرات لينتفع من هذه التجارب، بل أحياناً يكون الأب قد سار بعض الطريق وحصل على بعض النتائج وعلى الابن إكمال هذه المسيره والحصول على نتائج أفضل.

تأمل: معطيات التريه فى سنّ الشباب

إنّ تاريخ الأنبياء يشير إلى أنّ الشباب هم الشريحه الاجتماعيه الأولى الذين آمنوا بالرساله الإلهيه وتحزّروا من موقع الدفاع عنها والالتزام الواعى بتعاليمها، ويحدّثنا القرآن الكريم فى موارد عدّه عن قصّه نوح عليه السلام وإيمان الشباب به وإعراض المسنّين الأثرياء عنه وعن رسالته السماويه، وكذلك يدلّنا تاريخ الإسلام على أنّ المؤمنين بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كانوا فى الغالب من فئه الشباب.

والروايات الإسلاميه تؤيّد هذه الحقيقه، فالإمام الصادق عليه السلام يقول لأحد أصحابه والذى توجّه إلى البصره للدفاع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام: «عَلَيْكَ بِالْأَحْدَاثِ فَإِنَّهُمْ أَسْرَعُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ» (١).

ص: ٤٥٣

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ اخْتَلَطَ الْقُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» (١).

وأيضاً ورد فى حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال: «بَادِرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْحَدِيثِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَكُمْ إِلَيْهِمُ الْمُرْجَةُ» (٢)، والمرجئه هم الذين لا يعتقدون بإمامه على بن أبى طالب عليه السلام وأنه خليفه رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة.

ويستفاد من الفقرة الأخيره من وصيه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بوضوح تام.

والدليل على ذلك واضح، لأن قلب الشبان من جهة نقيّ وخالٍ من أدران التلوث بالعقائد الباطله وحالات العناد والتعصب، ولهذا السبب فهو كالأرض الصالحة للزراعة، الخاليه من الأشواك والأعشاب الضارّه، فعندما يبذر فيها أى نوع من البذور، فإنه ينمو بسرعة.

ومن جهة أخرى فإنّ الشاب قليل التعلّق بالأمر الدنيويّه والماديّه، وقليل الانشغال بالأوهام والعناوين الزائفة التى من شأنها حجب القلب والعقل عن تقبل الحقّ.

ومن جهة ثالثة فإنّ تعاليم الأنبياء وأحكام الدين الإلهي تتقاطع فى موارد كثيره مع مطامع الشيوخ غيرالمشروع، فهؤلاء غير مستعدّين للتنازل عن مطامعهم وطموحاتهم بسهولة، فى حين أنّ الشباب لا يعيشون هذه المشكله ولا يواجهون هذا العائق.

يقول أحد الشعراء:

قَدْ يَنْفَعُ الْأَدَبُ الْأَحْدَاثَ فِي مُهَلِّ

القسم الثامن

إشارة

أَيُّ بُنَى، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرُ مِنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسَيَّرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَرْتُ مَعَ أَوْلِيهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ كَدْرِهِ، وَنَفَعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لِمَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلُهُ، وَتَوَخَّيْتُ لِمَكَ جَمِيلَهُ، وَصَيَّرْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمَرِ وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ، ذُو نَبِيٍّ سَلِيمِهِ، وَنَفْسٍ صَافِيهِ.

الشرح والتفسير: تجارب الآخرين وإطاله عمر اللاحقين

يشير الإمام عليه السلام فى مطلع هذه الفقرة من الوصية إلى نقطه فى غاية الأهمية، وهى ضروره مطالعه ودراسه تاريخ القدماء وسيره الأقسام السالفه فيما يصل إلينا من أخبارهم وأعمالهم ومن خلال ما تتركه لنا آثارهم (ولأطلال والقبور المندرسه والثروات الباقية...) ويقول: «أَيُّ بُنَى، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرُ مِنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسَيَّرْتُ

فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِرْتُ مَعَ أَوْلِيهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ».

وهو إشارة إلى أن الحياة ليست سوى تجربه، فلو أن المرء انتفع من تجارب الآخرين وتدبر في أعمالهم والنتائج المترتبة عليها، ونظر بعين العبرة إلى آثارهم وما بقي منهم في مطاوى التاريخ، فإنه سيعيش طيله عمره وكأنه عاش مع جميع

ص: ٤٥٤

١- (١). الكافي، ج ٢، ص ٦٠٣، ح ٤.

٢- (٢). المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٧، ح ٥.

الأقوام والمجتمعات البشرية على امتداد التاريخ، منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ولحد الآن.

ثم يضيف الإمام عليه السلام، لقد تدبّرت في جميع أخبارهم وآثارهم، واخترت منها الصفوه، وعرفت النافع من الضارّ، والحسن من السيّء: «فَعَرَفْتُ صِفَوْ ذَلِكُ مِنْ كَدْرِهِ، وَنَفَعُهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ (١) وَتَوَخَّيْتُ (٢) لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ».

إشاره إلى أنّ مطالعه آثار القدماء والسير في ثنايا تاريخهم وآثارهم لا يكفي في التعلّم والاعتبار، بل ينبغي أن يكون الإنسان كالصّرّاف الذي يستخلص من كلّ أمر الجيّد منه ويميّز بين الغثّ والسمين، والحسن والردىء ويلقى بالسيّء والردىء جانباً، وينتفع من الحسن والجيّد، فيقول الإمام عليه السلام: وقد اخترت لك الجميل من أعمالهم وصرفت عنك الردىء وألقيت به بعيداً.

وفى ختام هذه الفقره من الوصيه يبيّن الإمام عليه السلام الباعث له على هذه الوصيه مرّه أخرى بقوله: «وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَغْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدْبَعِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمْرِ وَمُقْتَبِلُ (٣) الدَّهْرِ، ذُو نَيْهِ سَلِيمِهِ، وَنَفْسٍ صَافِيهِ».

وهذا إشاره إلى أنّني عندما أتعبت نفسي في جمع تجارب القدماء وما تحدّث به التاريخ عن الأمم السابقة، فقد استخلصت لك منها هذه المواعظ، والباعث لذلك أمران: الأول: أنّني والدك الشفيق والمحبّ لك والطالب لسعادتك، والآخر: أنّك

ص: ٤٥٦

١- (١). «نخيل» من «النخل» في الأصل تعني الغرابال الذي يستخدم في تطهير الدقيق من الشوائب والنخاله، ثم اطلقت كلمه «نخيل» على كل شىء تمت تصفيته وتنقيته، والمراد من العبارة أعلاه أنّني اخترت لك الشىء النقى والمصفى من تاريخ وسيره القدماء وتركت الأمور المظلمه والكدره جانباً، وينبغي الالتفات إلى أنّ «نخيل» بهذا المعنى لها جهه وصفيه، وهى غير «نخيل» جمع «نخل» وهى شجره التمر.

٢- (٢). «توخيت» من «الوخى» على وزن «نفي» بمعنى قصد الشىء والتوجه إليه، و «توخى» فى هذا المورد جاءت بمعنى الانتخاب والاصطفاء.

٣- (٣). «مقتبل» بمعنى مطلع وبدايه كل شىء، وهى من «الإقتبال» وتعنى الشروع بالأمر والابتداء عمل معين.

شابت وتعيش في بدايه العمر وتملك قلباً نقياً وروحاً طاهره، فهذان الأمران يبيران ما أتعبت نفسى من أجلك وييسران كل عسير من أجل سعادتك وراحتك.

والواقع أنّ الإمام عليه السلام بهذا الكلام يعلم جميع الآباء والمحبين لأبنائهم أنّهم إذا كانوا يطلبون السعاده لأبنائهم فعليهم أن يتعاملوا معهم بآليه التربيه مادامت قلوب الأبناء صافيه ونقيه وغير مكدره بمشاكل الحياه، ولاسيما أنّ تاريخ القدماء زاهر بالدروس والعبر وتقدّم للإنسان نماذج حسيه للمسير في خطّ القيم الأخلاقيه والمثل الإنسانيه.

تأملان

١. تشكيله منسجمه من أسرار التاريخ

منذ اليوم الذى اخترع فيه الإنسان الخطّ واستطاع تدوين آثاره وتجاربه من خلال الكتابه، ابتدأ التاريخ البشرى، وانتقلت تجارب الأقسام السابقه إلى الأقسام اللاحقه بوصفها ميراثاً ثميناً مختزناً في مطاوى التاريخ وثنايا القرون، فقد دون التاريخ عوامل النجاحات والإخفاقات التى أصابت الأقسام والمجتمعات البشرى، وبين أسباب اهتزاز السلطات والحكومات وعوامل انهيار الحضارات والحوادث الحلوه والمره التى يزخر بها تاريخ البشرى بحيث أنّ الأشخاص المطلعين وأهل الخبره يستطيعون رؤيه مسيره حياتهم الفرديه والإجتماعيه فى مرآه التاريخ دون أن يحتاجوا لخوض غمار تجارب جديده وتكرار ما واجهته الأقسام السابقه اعتماداً على ما يستوحونه ويستفيدونه من تجارب الآخرين.

ومن هذا المنطلق يستعرض القرآن الكريم فى آيات كثيره تاريخ الأقسام السالفه من موقع كونها عبره للأحياء، ويتحدّث عن هذه الحقيقه بصراحه: «لَقَدْ كَانَ فِي قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ» (١).

ص: ٤٥٧

ويتحدّث القرآن أيضاً في بعض أخباره التاريخيه من موقع كونها تمثّل دروساً وتختزن في مطاويها عبراً يستوحى منها الناس ما ينفعهم في حياتهم ومعيشتهم، ويختار منها «أَحْسَنُ الْقَصَصِ» ويقول: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ» (١).

وأحياناً يحثّ القرآن الكريم مخاطبه على السير في الأرض ومطالعه آثار الأُقوام الماضيه وما انعكس على حياتهم وسلوكياتهم في التاريخ ويقول: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ» (٢).

وفي هذه الوصيه يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمه فيما يتّصل بالتاريخ البشري، وهي أنّ مطالعه تاريخ القدماء من موقع الدقه والعمق، من شأنه أن يمنح الإنسان عمراً خالداً وكأنّ الإنسان الذي يدرس حوادث التاريخ يعيش مع الأُقوام البشريه منذ أن خلق الله آدم وإلى هذا اليوم، ويستوحى من تجاربهم وحالتهم ما يعينه في مسيرته وحياته، ويمثّل له زاداً ومتاعاً لمواجهة الصعوبات والتحدّيات التي يفرضها الواقع عليهم، والحقيقه أنّ مثل هذا التراث الثمين الذي حصل عليه الإنسان المعاصر بنفقات زهيده جداً، يعدّ متاعاً مهماً وزاداً ضرورياً يمنحه الحركه والقدرة على مواصله المسيره.

ومن الطبيعيّ أن نجد بعض نقاط القصور والثغرات المهمه في التاريخ، وذلك بسبب هيمنه قوى الاستكبار والسلطه لتشويه وتحريف حقائق التاريخ بما يصبّ في صالحها، بحيث استطاعوا تلويث مرآه التاريخ في موارد كثيره و عملوا على إخضاع المؤرّخين بآليات الطمع والتهديد لصياغه التاريخ حسب رؤيتهم لا على أساس ما يعكسه الواقع التاريخي، وكنموذج بارز لهذا التحريف والتشويش ما قام به بنو اميه من تحوير وتزييف لحقائق التاريخ.

ص: ٤٥٨

١- (١) . سورة يوسف، الآية ٣.

٢- (٢) . سورة الروم، الآية ٤٢.

ولكنّ المحقّقين من أهل الخبره والأطلاع استطاعوا من خلال توخّي الدقه في ملاحظه البرهان والشواهد المتناثره في زوايا التاريخ ومطاوى الحوادث التاريخيه، أن يميّزوا بين الصحيح والسقيم، الحقّ والباطل، وبما أنّ الكاذب ضعيف الحافظه وبيتلى غالباً بالتناقض في كلامه، استطاع هؤلاء المؤرّخون المخلصون من تمييز الماء الزلال من الكدر وتشخيص الحقيقه من الوهم والزيف.

ونتمنّى على أصحاب السلطه وقوى الهيمنه والاستكبار في عالمنا المعاصر إلقاء نظره إلى التاريخ، وعلى الأقلّ مطالعه مسيره الملوك والسلاطين السابقين وما كان مصيرهم ليشاهدوا عن كذب مصيرهم في المستقبل في مرآه التاريخ ويتجنّبوا التعامل مع الشعوب بالظلم والجور والسحق الحقوق.

٢. كيف توصل الإمام عليه السلام لتاريخ الأقاليم الماضيه؟

يستفاد من كلمات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرساله أنّ الإمام عليه السلام قد توصل لفهم تاريخ القدماء من خلال أربع طرق: الأول: من خلال النظر في أعمالهم، ويمكن أن يكون ذلك إشاره إلى الأعمال والسلوكيات التي انتقلت شفويّاً من جيل إلى جيل، ومن الآباء إلى الأبناء حتّى وصلت إليه.

الثاني: من خلال التفكّر والتدبّر في أخبارهم المنعكسه والمدوّنه على صفحات التاريخ بشكل مكتوب.

الثالث: من خلال السير في آثارهم والنظر إلى بقايا مدنهم وأطلال قصورهم، أي القصور الخاويه على عروشها والخرائب والأطلال المتبقّيه من مدنهم، القبور المندرسه وما إلى ذلك، حيث تتحدّث هذه الآثار والأطلال وهي صامته عن الحقائق التي تتعلّق بتلك الأقاليم الماضيه، وتبيّن ما كانوا عليه من حياه وثقافه وسلوك وفكر، وقد نقل إلينا العرفاء المطلعون والشعراء المتعمّقون أموراً كثيره عن تلكم الأقاليم من خلال تدبّرهم وتأملهم في هذه الآثار المتبقّيه.

الطريق الرابع الذى استفاده منه الإمام عليه السلام لمعرفة حالات القدماء وتاريخهم يتمثل فى العلم عن طريق الوحي النازل على النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وقد نقله النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أعز تلاميذه والوصى على رسالته وهو الإمام على عليه السلام.

وبما أن المصادر الأخرى غير هذا المصدر الأخير، يقترن عادة بالأخطاء والتحريف واختلاط الأخبار الصحيحه والزائفه، فالإمام عليه السلام يقول: «فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدْرِهِ... فَاسْتَخَلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ...».

ص: ٤٦٠

وَأَنْ أُبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لِأَجَاوِزِ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبَسَ عَلَيْكَ مِمَّا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي التَّبَسَّ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَيَّ أَمْرٍ لَمَّا آمَنْتَ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيكَ لِقُضْدِكَ فَعَهَدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ.

الشرح والتفسير

رغم أن هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام (القسم التاسع) معطوف على الجملة السابقة أي: (أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ) وينبغي أن يمثل قسماً شاخصاً، ولكن بما أن الإمام عليه السلام استعرض في هذا المقطع المسائل المتعلقة بالقرآن الكريم والتعاليم الإلهية فإنه جعل ذلك قسماً مستقلاً على حده وقال: «وَأَنْ أُبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ (1) الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لِأَجَاوِزِ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ».

ومما لا شك فيه أن أعلى ما ورد من تعاليم الإسلام من العقائد والأحكام والقيم

ص: ٤٤١

١- (١). «شرائع» جمع «شريعة» وفي الأصل بمعنى الشاطيء والمحل الذي يرد منه الإنسان إلى النهر ليشرب، لأنّ سطح الأنهار عادة يقع أسفل من سطح الأرض، ولذلك يتم تعديل الشاطيء بشكل انسيابي وتدرجي أو على شكل مدرجات ليستطيع الناس من الوصول إلى الماء بسهولة. ثم اطلقت هذه المفردة على الأحكام السماوية والشرعية والتعاليم الإلهية للناس، أعم من العقائد والأحكام والأخلاق، وارتباطها بالمعنى الأصلي واضح، لأنّ الإيمان والتقوى والعدل والصلح حالها حال ماء الحياة للإنسان وتحقيق السعادة الأبدية والطريق الوصول إليها من خلال الشرعية الإلهية.

الأخلاقية، وردت في القرآن الكريم، وأنَّ سنَّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام بمثابة الشرح على فروع ومساائل تلك الأصول المبيّنة في كتاب الله، ومن هنا فالإمام يتدبّر في تربيته ولده من القرآن الكريم، ويوحى لجميع المسلمين أن ينتهجوا بتعليم وتربيته أبناءهم هذا النهج من القرآن الكريم، حتّى لا يقعوا فريسه وساوس الشياطين من الجن والإنس.

والمقصود من «تأويله» هو تفسير القرآن، لأنَّ القرآن الكريم يتضمّن بعض المواضيع المذكورة على سبيل الإجمال، فتحتاج لتوضيح وتفسير النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام والعلماء والمطلعون على عمق مداليل النصّ القرآنيّ من خلال القرائن الحاليه والمقالیه، والمراد من «شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ» العقائد الإسلاميه بقريته ذكر الأحكام بعده، رغم أنّ الشرائع والشريعة تطلق على الأصول والفروع، وعبارته «حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ» توضيح للأحكام، لأنّ العمده في الأحكام ما يتصلّ بمسأله الحلال والحرام، رغم وجود أحكام أخرى من قبيل المستحبات والمكروهات والأحكام الوضعيه أيضاً.

وجمله: «لَمَّا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ» إشاره إلى أنني أرى جميع حقائق الدين بعيدة عن أيّ خطأ واشتباه في القرآن الكريم، وبذلك لا اسلمك لسلوك طرق مشكوكه في العقائد والأحكام، لأنني أعلم أنّ الكثير من المسلمين في صدر الإسلام وبسبب نفوذ الأفكار الزائفة، انجذبوا نحو المذاهب الباطله في الأصول والفروع، وقد انعكس ذلك على تفسيرهم للآيات القرآنيه وأخذوا يفسّرون القرآن برأيهم وبالاستناد لتلك الذهنيه المشوّشه، وقد اتّجهوا في معرفتهم لأحكام الإسلام نحو القياس والاستحسان والاجتهادات الظنيه التي تفتقد للأساس المحكم والدعامه القويه، وفي المسائل الفرعيه وقعوا في أخطاء واشتباهاات كثيره وغرقوا في دوامه البدع. والعبارات اللاحقه في كلام الإمام عليه السلام شاهد على هذه الحقيقه.

ثُمَّ إِنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامَ يَشِيرُ إِلَى نَقْطِهِ أُخْرَى وَيَقُولُ: «ثُمَّ أَشْفَقْتُ (١) أَنْ يَلْتَبَسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي التَّبَسَّ عَلَيْهِمْ، فَكَأَنَّ إِحْكَامَ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُمْ مِنْ تَنْبِيهِكُمْ لَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكُمْ إِلَيَّ أَمْرٌ لَمَّا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ».

وخلاصه كلام الإمام عليه السلام هو أنني في هذه الوصية بينت بالدليل والبرهان زيف العقائد الباطلة والآراء الموهومة رغم أن طرح مثل هذه العقائد الباطلة وشبهات المنحرفين ليس محبباً، ولكن الضرورة تستوجب أن أطرح مثل هذه المقولات وأجيب عنها، لأن هذا العمل أفضل من أن أقوم بإخفائها والتستر عليها، وربما تبلى أنت بها في يوم من الأيام ولا يمكنك الإجابة عنها.

إن هذا الهاجس يعيشه جميع المعلمين والمربين من أهل العلم والأطلاع، فإنهم لو لم يطرحوا شبهات الضالين فيخشى على الطرف المقابل مَن يرومون تربيته وتعليمه أن يقع يوماً في شباك هذه الشبهات، ومن هذا المنطلق يسعون لعرض تلك الشبهات، وعلى الأقل المهم منها بشكل كلي والإجابة عنه بشكل حاسم.

وهذه العبارة يمكن أن تكون استمراراً لكلام الإمام عليه السلام حيث يعود إلى القرآن الكريم وبيان أهميته، فيقول: إنني استوحى من آيات القرآن الكريم الأدلة والبراهين على بطلان هذه العقائد الفاسدة وأقدمها لك لئلا تتورط يوماً بشبهات الفاسدين والمفسدين.

ويحتمل أن تكون هذه العبارة جملة مستقلة، يعنى مضافاً إلى أنني أرى لزوم تعليمك كتاب الله وتفسيره ومعرفة حلاله وحرامه وأحكامه، أرى أيضاً لزوم

ص: ٤٤٣

١- (١). «شفقه» تأتي في مثل هذه الموارد مرادفه للخوف، في حين أن معناها الأصلي على حد قول بعض الأدباء التوجه للشيء المقترن بالخوف، أو بعبارة أخرى الخوف مقترن بالحب والاحترام والأمل، لأن هذه الكلمة في الأصل من مادة «شفق» وهو ضوء الصبح الباكر الممتزج بالظلام، غايه الأمر أن هذه المفردة إذا جاءت مع «من» المتعدية فإن وجه الخوف ستكون غالبه في العبارة مورد البحث، وعندما تأتي متعدية بحرف «في» و «على»، فإن المودّة والشفقه ستكون الغالبة، كأن يقول الإنسان لصديقه: «أنا مُشْفِقٌ عَلَيْكَ».

الاستعانة بالبرهان والعقل لنقد الآراء الباطلة والعقائد الفاسده لئلا تسقط في مصائد هؤلاء المنحرفين، وعبارته: «ثُمَّ أَشْفَقْتُ» مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمه «ثم» إشاره لمطلب جديد، فإنّها تتناسب أكثر مع التفسير الثانى.

وعلى حدّ قول الشيخ مغنيه فى شرحه لنهج البلاغه، أنّ تعبيرات الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصيه يؤكّد مرّه أخرى على هذه الحقيقه، وهى أنّ الإمام عليه السلام لم يطرح هذه التوصيات من موقع كونه إماماً، وأنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بوصفه خليفه وإماماً بعده، بل بوصفه أباً شقيقاً فى مقابل ولده المحتاج للتعليم والتربيه، لأنّه كما سبقت الإشاره إليه، أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان قد بلغ من العمر فى ذلك الوقت أكثر من ثلاثين سنه، فهل يحتمل أن يكون الإمام على عليه السلام قد غفل عن تعليم ولده القرآن إلى ذلك الوقت، ولم يطلعه على الآراء الباطله والمذاهب الفاسده؟ إنّ الإمام الحسن عليه السلام قد عاش أولاً فى أحضان والده، ثمّ بقى إلى جانبه كلّ هذه الأعوام الطويله، مضافاً إلى استماعه لخطب والده الفصيحه والبلغه وما خصّه من علم ومعرفه وتعاليم إلهيه أيضاً.

وفى آخر جمله من هذا المقطع من الوصيه يبرز الإمام عليه السلام أمله فى أن تؤثّر هذه الوصايا أثرها بشكل كامل فى ولده ويقول: «وَرَجَوْتُ أَنْ يُوفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ (١)، أَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ (٢)، فَعَهْدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ».

ويستفاد من عبارته الإمام عليه السلام: «فَعَهْدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ»، أنّ ما تقدّم من الأقسام التسعه لهذه الوصيه تمثّل فى الحقيقه مقدّمه لأصل الوصيه، والغايه منها أن يستعدّ الابن بشكل كامل لتقبّل الوصايا الأصلية التى سيذكرها الإمام عليه السلام لاحقاً، فبدون التمهيّد لها لا يمكن تحصيل النتائج المطلوبه المترتبه عليها.

ص: ٤٦٤

١- (١). مفرد «رشد» فى الأصل بمعنى السير نحو المقصد، وجمله «راشداً مهدياً» دعاء يقال عند توديع المسافر، يعنى إن شاء الله ستصل إلى مقصودك وتهتدى إلى مرادك.

٢- (٢). «قصد» تأتى أحياناً بمعنى التيه، وأخرى بمعنى سلوك الطريق المستقيم والمعتدل بعيداً عن الافراط والتفريط، و«قصدُ السبيل» تعنى الجاده التى يسلكها الإنسان للوصول إلى مقصده.

وَاعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا آخَذُ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ
الْمَأُولُونَ مِنْ آبَائِكَ، الصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَنْظُرُوا لِنَفْسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاطِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ
رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَيَّ الْأَخْذُ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنَّ أَبْتَ نَفْسِكَ أَنْ تَقْبِلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا
فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ وَتَعْلَمُ، لِابْتِزَاطِ الشُّبُهَاتِ، وَعَلَقِ الْخُصُومَاتِ.

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالْإِسْتِغْنَاءِ بِاللَّهِ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبُهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى
ضَلَالَةٍ. فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَيَّرَ مَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هُمُكَ فِي ذَلِكَ هَمًّا وَاحِدًا، فَانْظُرْ فِيهَا فَسَرَتْ لَكَ، وَإِنْ
لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغَ نَظْرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخِطُّ الْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظُّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ
مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ ذَلِكَ أَمْثَلُ.

الشرح والتفسير: الحذر من سلوك الطرق المشكوكه

يقدم الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية نصائح مهمه لولده، وأولها وأهمها التوصيه بتقوى الله والقناعه بامتثال
الفرائض والأحكام البيئه والواضحه واجتناب المسير في الطرق المشكوكه والسبل المشبوهه، يقول: «وَاعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا
أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ

بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوْلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ».

ولا شك أن تقوى الله تعتبر على رأس الأولويات في وصايا جميع أولياء الله والزيد والمتاع لمسيره الإنسان إلى الآخرة وجواز دخول الجنة والمعيار لجميع امتيازات الإنسان وفضائله الأخرى، وعلى ضوء ذلك وردت التوصية بالتقوى في جميع خطب صلاه الجمع والتأكيد عليها، والتقوى هي حاله الخشيه القلبيه من الله تعالى وتقبل المسؤوليات الرساليه، ومن شأنها منع الإنسان من التلوث بالذنوب والخطايا.

وجمله: «وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ» لا تعنى أن يقنع الإنسان بالإتيان بالواجبات ويترك المستحبات والسنن، وهي ما سيأتى لاحقاً من اجتناب الأمور المسكوت عنها في الشريعة والتي لا يعيش الإنسان المسؤوليه تجاهها، أو لا يتيسر تحقيقها وإنجازها بسهولة، أو يستحيل على الإنسان نيلها، من قبيل المعرفه بحقيقه الذات المقدسه.

وجمله: «وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ» إشاره إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام وعبدالمطلب وحمزه وأبي طالب وجعفر عليهم السلام.

ثم إن الإمام عليه السلام يتعرض لذكر الدليل على هذه الحقيقه، ويقول: «فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَنْظُرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاطِرٌ، وَفَكَرُّوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّاهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا».

وهذا الكلام أيضاً ناظر إلى أن الإنسان ينبغي أن يتحرك على مستوى التحقيق في المسائل المتعلقة بالدين والتي لا يعذر في الجهل بها، بل يجب على الجميع الإطلاع عليها، وهناك بعض الأمور الخارجه عن قدره الإنسان وقابليته الذهنيه والعقلية، كمعرفه الذات المقدسه، فلا يوجد أي نبي مرسل قد توصل إلى هذه الحقيقه، أو بعض الأمور التي وضعها الله تعالى عن عاتق المكلفين بلطفه وكرمه تخفيفاً منه لعباده، ولكن ربما يكون الإنسان مكلفاً بها في حاله الإصرار عليها من

قبيل ما ورد في قصه بني اسرائيل فيما يتصل بذبح بقره خاصه، فلو لم يصرّ بنو اسرائيل على معرفه الجزئيات والتفاصيل، كان يكفيهم ذبح أيه بقره، ولكن إصرارهم أكثر من اللازم أدى إلى تكليفهم بذبح بقره خاصه وبأوصاف معينه وكان ذلك سبباً في تورطهم في العسر والحرَج.

وكذلك ما ورد في مسأله الحجّ في الحديث الشريف: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ» فقام عكاشه بن محصن، ويروي سراقه بن مالك، فقال:

أفي كلّ عام يارسول الله، فأعرض (رسول الله) عنه، حتّى عاد مرّتين وثلاثاً، فقال رسول الله: «وَيَحْكُ مَا يُؤْمِنُكَ أَنْ أَقُولَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ كَفَرْتُمْ، فَاتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤْلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ» (١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبه له: «إِنَّ اللَّهَ حَيَّدَ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تَنْفُضُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ يَشْكُ عَنْهَا نَسِياناً فَلَا تَكَلَّفُوهَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَكُمْ فَاقْبَلُوهَا» (٢).

ثم قال الإمام عليه السلام في هذه فقره من الوصيه: «فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا، فَلْيَكُنْ طَلِبَكَ ذَلِكَ بِتَفْهُمٍ وَتَعْلَمَ، لَمَّا بَتَوَرَّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعَلَيْتِ الْخُصُومَاتِ. وَإِيداً قَبِيلَ نَظْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْهَيْكَلِ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَزَكِّي كُلِّ شَيْءٍ أَوْلَجْتِكَ (٣) فِي شُبُهَةٍ، أَوْ أَسْلَمْتِكَ إِلَى ضَلَالَةٍ».

وعصاره كلام الإمام عليه السلام في هذه فقره هي أنّ أمامك طريقين للوصول إلى

ص: ٤٤٧

١- (١). بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣١.

٢- (٢). وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٢٩، ابواب صفات قاضي، باب ١٢، ح ٤١.

٣- (٣). «أَوْلَجْتِكَ» من «الإيلاج» وأصلها «ولوج» بمعنى الدخول في مكان محدود، وعندما تأتي من باب إفعال تكون متعدية، وعليه فإنّ «أَوْلَجَ» يعني ادخال شخص أو شيء آخر.

الحق، أحدهما: الطريق الذى سلكه السلف الصالح من أهل بيتك ويماكنك الاستفادة من تجاربهم الكثيره، فهؤلاء سلكوا طريقاً سهلاً وبعيداً عن الخطر نسبياً.

الطريق الثانى: الاجتهاد الشخصى فى المسائل والقضايا التى تواجهها فى ميدان الحياه، أى أن تدخل بنفسك الميدان، وتعمل على تشخيص الحق من الباطل، وتسلك هذا الطريق بأربعة شروط:

الأول: أن تتمعّن فى كلّ أمرٍ وتتدبّر عاقبته بدقه، والثانى: الابتعاد عن التورّط بالشبهات أو التمسّك بحالات التعصّب أو الخصومه، والثالث: أن تستعين بالله تعالى وتطلب منه أن يمدّ لك يد العون فى هذا المسير، والرابع: أن تجتنب كلّ أمر مشكوك ربّما يقودك إلى التورّط فى الشبهات أو يجرّك إلى مهاوى الضلاله والانحراف.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام فى إدامه كلامه هذه النقطه، وهى أنّ كلامى النافع والمثمر والمؤثر ليس كافياً، بل ينبغى توفرّ الاستعداد والقابليه على التقبّل فى وجودك، فإنّ ذلك يعدّ من شروط التأثير فى الكلام، وبعباره أخرى، كما أنّ فاعليه الفاعل تعدّ شرطاً فى التأثير، فإنّ قابليه القابل كذلك، ومن هذه الجبهه يهّئ الإمام عليه السلام قلب ولده وروحه بتقبّل هذه الوصايا ويقول:

«فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعْ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعْ، وَكَانَ هُمُكَ فِي ذَلِكَ هَمًّا وَاحِدًا، فَانظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ».

وبديهى أنّ الأشخاص الذين يعيشون قلوباً مظلمه ومشحونه بحالات التعصّب والأهواء والشهوات، ويعيشون حاله التشبّت فى الفكر والذهن، فإنّهم تاره يفكّرون بحفظ مقامهم وأخرى بفكر جمع الأموال، وثالثه ياشباع الرغبات الرخيصه وإرضاء النوازع النفسانيه، فمثل هؤلاء لا يقدرّون على الانتفاع من هذه المواعظ وإصلاح الخلل فى وجودهم وتعديل مسارهم حتّى لو كان الواعظ لهم الإمام المعصوم، ومن هذه الجبهه فإنّ الآيات القرآنيه التى لا شكّ فى تأثيرها القاطع والحاسم، إنّما تؤثّر على جماعه تتوفّر فيهم حاله القبول، ولا تؤثّر فى الأشخاص الذين يعيشون

حالات العناد والخصومه، بل ربّما يكون لها أثر عكسى، ونقرأ فى الآيه ١٢٤ و ١٢٥ من سوره التوبه: «وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ».

وكما يقول الشاعر:

بَقْدَرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي

ويستمرّ الإمام عليه السلام فى بيان توصياته لولده ويقول: «وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لِمَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغَ نَظْرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخِطُّ الْعَشْوَاءَ (١)، وَتَتَوَرَّطُ (٢) الظُّلْمَاءَ وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أُمَّثَلُ (٣)».

فالإمام عليه السلام هنا يحثّ ولده أن يشحذ همّته وإرادته لنيل النتيجة المطلوبه من هذه الوصيه ويتعد مهما أمكن عن تشويش خاطر والذهن، ويتحرّك بعزم جادّ وخطوات راسخه نحو الميدان، ويسلمّ قلبه إلى كلام الإمام عليه السلام ليتسنى له الوصول إلى برّ الأمان ومرفأ السعاده الأبدية من خلال تجسيد هذه الوصايا والمواعظ على أرض الواقع النفسى والسلوكى، وفى غير هذه الصوره فإنّ الإنسان يتعب نفسه بدون أن يحقّق المقصود وينال بغيته.

ص: ٤٦٩

١- (٢). «عشواء» فى الأصل بمعنى الجمل الأعشى وضعيف البصر، ولهذا يضل الطريق ويتمايل نحو اليمين واليسار، ثم اطلقت على كل إنسان يسير بهذه الكيفيه.

٢- (٣). «تتورط» من «التورط» على وزن «توكل» وتعنى السقوط فى مكان يصعب الخلاص منه أو يستحيل الخروج منه.

٣- (٤). «أمثل» من «المثول» على وزن «طلوع» بمعنى الأفضل والأحسن و «أمائل» و «مئل» على وزن «كتب».

إشاره

فَتَفَهَّمُ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَأَعْلَمُ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِي هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُتَبَلِّغِي هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقَرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النُّعْمَاءِ، وَالْإِنْتِئَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوْلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عَلَّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ، يَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصِيرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعِيدَ ذَلِكَ! فَاعْتَصِمِ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَعْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

الشرح والتفسير: كل شيء من الله

يأمر الإمام عليه السلام بدأية في هذا المقطع من وصيته لولده أن يتمعن فيما يقوله له ويتفهّم ما يرد في هذه الوصية، ويقول: «فَتَفَهَّمُ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي».

وهذه الجملة في الحقيقة تشير إلى أهميته الموضوع الذي سيذكره الإمام عليه السلام لاحقاً حيث يتطلّب من المخاطب تحزّي الدقه والتدبّر الجاد.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ كلّ ما في هذا العالم من حياه وموت، صحه وسقم، حوادث حلوه ومره، نعم وبلايا و... كلّها من عند الله تبارك وتعالى الذي يدبّر الأمور بحكمته البالغه ومشيتته القاهره، فلو لم يتعقل الإنسان الحكمة من بعض الأمور والظواهر في هذا العالم، فينبغي حملها على قلّه اطلاعه

وضآله معلوماته، ويدعن لإرادته الحق ومشيئته، ويستسلم أمام قدرته وإرادته:

«وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُنْفِي هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُتَبَلِي هُوَ الْمُعَافِي».

هذا الكلام إشاره للتوحيد الأفعالي وأن هذا العالم ليس له سوى مبدأ واحد ومؤثر فارد: «لا مؤثر في الوجود إلا الله» لا أن العالم يملك مبدأين مبدأ للخير وآخر للشر، أو اليزدان والأهريمن كما يتصور الثنويون، وأساساً فإن الشر لا وجود له في عالم الخلقه وكل ما هو موجود فهو خير، أما الشر فأمر نسبي، على سبيل المثال: لسع العقرب يعدّ وسيله دفاعيه له في مقابل أعدائه، مضافاً إلى أن سمّ الحشرات يحتوى على دواء لشفاء بعض الأمراض، فمن هذه الجبهه يكون هذا السمّ خيراً، ولو ابتلى أحد بلدغ العقرب أو بلدغ حشره فإنّ هذا الشرّ ناشىء من جهله وعدم اطلاعه على الخطر.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى عدم استقرار الدنيا واختلاط الجيد والردىء والخير والشرّ فيها، ويقول: «وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمَاءِ، وَالْإِبْتِلَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ».

أجل، هذه طبيعه الدنيا التى خلقت بهذا الشكل وفقاً للحكمه الإلهيه، لأنّ الإنسان إذا غرق دوماً فى النعمه والحبور فسوف يعيش الغفله عن المصير، وإذا ابتلى دوماً بالمشاكل والآلام فإنّ اليأس سيهيمن على وجوده ويستولى على فكره وبيتعد بذلك عن الله تعالى، ومن هنا فإنّ الله قد خلط بين هذين الأمرين ليعيش الإنسان حالات اليقظه والانتباه ويتحرّك فى مسيره الحياه المعنويه بالاستمداد من اللطف الإلهي.

وبما أنّ بعض الأفراد الجهّال يطلقون أحياناً كلمات الاعتراض بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم على الحكمه من حوادث العالم، يحذّر الإمام عليه السلام ولده ويقول: «فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَاتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقَتْ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ

عَلَّمَتْ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ، يَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصْرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ».

وهذا يعنى أنّ الشخص الذى بإمكانه الاعتراض على ما يشكل عليه هو الذى يعلم بجميع الأمور ومطلع على كافه التفاصيل، ويعرف فلسفه جميع الحوادث والغرض منها، ثم يرى أنّ أحد الأمور لا تتوافق مع الحكمة والغرض من الخلقه فيحق له أن يفتح فمه بالاعتراض ويضع علامات الاستفهام، فى حين أنّ الإنسان ليس كذلك، فمعلوماته بالنسبه لمجهولاته كالقطره بالنسبه للبحر، فهو فى بدايه عمره جاء إلى الدنيا ولا يعلم شيئاً، ثم تدريجياً يطّلع على بعض الأمور ويعلم ببعض المسائل، وما أكثر الأمور التى لا يعلم الحكمة والغرض منها فى بدايه الأمر ثم بعد ذلك تبين له الحكمة من هذا الشىء والغرض من هذه الظاهره، فهل يحق للإنسان مع هذا العلم المحدود وهذا الكم القليل من المعلومات التى يمتلكها، أن يعترض على بعض الأمور التى لا يعلم الغرض منها؟

وفى ختام هذا المقطع من الوصيه يأمر الإمام عليه السلام ولده بالتمسك بالألطف الإلهيه والالتفات إلى الذات المقدسه، فإنّه مفتاح للنجاه من كلّ هلكه، يقول: «فَاعْتَصِمِ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلِيَكُنْ لَهُ تَعْبُدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ».

هذه التوصيات الأربع القصيره والزاهره بالمضمون، تضمن قطعاً سعادته كلّ إنسان، فالاعتصام بالألطف الإلهيه والتوجه إليه بالدعاء وطلب الحاجات والخشيه من عقابه، كلّ ذلك يقود الإنسان نحو مرفأ السلامه وساحل النجاه.

وقوله: «الَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ» مقتبس من الآيات القرآنيه الشريفه:

«الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى» (١)، فبدايه يشير إلى أمر الخلقه، ثم مسأله الرزق، ثم التسويه فى عمليه الخلق، وتنظيم أجهزه الإنسان وأعضائه وقواه البدنيه والروحيه، فى حين أننا نعلم أنّ البدايه هو الخلق ثم التسويه

ص: ٤٧٣

ثمّ الرزق، ولكن مع الالتفات إلى أنّ العطف في الواو لا يعنى دائماً الترتيب، فلا نواجه مشكله في تفسير هذه العبارة.

ويحتمل أيضاً أنّ نظر الإمام عليه السلام في هذه العبارة مراحل تكامل الجنين ونموّ الطفل بعد ولادته، لأنّ النطفه عندما تستقرّ في رحم الأم فإنّها تتغذّى على الرزق الإلهي المتوفّر في رحم الأم بشكل متناسب، ثمّ يطوى الجنين مراحل تكامله واحده بعد الأخرى إلى أن تحين ولادته، ويتبدّل غذاؤه من الدم في الرحم إلى اللبن في ثدى الأم، وهكذا تنطوى مراحل التسويه والتكامل لمده طويله، وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ الرزق الإلهي للإنسان يبدأ قبل طي مراحل التكامل والنموّ.

تأمل: المقارنه بين علم الإنسان وجهله

لا- شكّ أنّ الإنسان عندما يأتي إلى هذه الدنيا لا- يعلم شيئاً من أمر الحياه، رغم أنّه يملك استعداداً عجيبيّاً لتقبيل المعارف واستلهام المعلومات، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقه أيضاً: «وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً» (١).

ثمّ إنّ الإنسان يبدأ في التعلّم من خلال ثلاث طرق:

١. طريق التجربه التي تتخذ أشكال اللعب اللهو في مرحله الطفوله.

٢. طريق التعليم والتربيّه من قبل الوالدين والمعلم.

٣. طريق تفتّيح العلوم الفطريه (فطره التوحيد، الحسن والقبح العقليين، الأمور الوجدانيه وأمثال ذلك) حيث تتجلّى يد القدره الإلهيّه في واقع الإنسان ووجدانه، وكلّما يتقدّم أكثر في مسيره الحياه فإنّه يدرك سعه مجهولاته أكثر فأكثر، على سبيل المثال أنّ علماء النجوم عندما كانوا ينظرون إلى الكواكب والنجوم في السماء الفسيحه وبالوسائل الابتدائيّه، كانوا يرون مقداراً محدوداً من هذه النجوم

ص: ٤٧٤

والكواكب، وكانت تفاصيلها غامضة ومجهوله، وعندما تطوّرت أجهزه الرصد شاهدوا المجزّات العظيمه فى الفضاء الفسيح وكلّ واحده منها تتألف من ملايين أو مليارات النجوم والكواكب، ومع اكتشاف مجرّه منها فإنّ عالماً من المجهولات يتجلى لهؤلاء العلماء ويتحدّاهم، فلو استطعنا يوماً أن ننظر إلى بعض هذه النجوم بدقّه كامله بواسطة التلسكوب، فإنّ عالماً من المجهولات يتجلى لنا بالنسبه لهذه الكوكب، وعلى ضوء ذلك فكلّما يتقدّم العلم وتتطوّر الأجهزه التقنيه فإنّ افق معلوماتنا يتضاءل أمام جبل مجهولاتنا إلى أن يصل بنا الأمر إلى حدّ يقول عنه أحد الفلاسفه: «بلغت من العلم إلى مرتبه بحيث إنّنى علمت بأننى لا أعلم».

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم وتدبرنا الآيات التى تشير إلى علم الله تعالى المحيط بعالم الوجود، تقول الآيه: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرِهِ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعُهُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ» (١).

وفى هذا السياق يقول القرآن الكريم فى مورد آخر: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً» (٢).

يقول العالم الفيزيائى المعروف أنشتاين: إذا اجتمعت جميع علوم البشر منذ اليوم الأول ولحدّ الآن فى مكتبه شامله ووضعناها فى مقابل مجهولات البشر فإنّ مقدار هذه المكتبه تكون بالنسبه لتلك المجهولات بمثابة صفحه واحده من كتاب ضخّم.

ومن هنا ندرك جيّداً من خلال النتيجة التى ذكرها الإمام عليه السلام فى العبارة أعلاه، أننا لو واجهنا بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام بالمسائل المتعلّقه بالمبدأ والمعاد وأسرار الحياه ولم نعثر على جواب، فىنبغى حمل ذلك على جهلنا وقصور معلوماتنا ولا نطلق ألسنتنا بالإنكار والاعتراض، وهذه هى الحقيقه المؤيده من قبل العقل والمنطق.

ص: ٤٧٥

١- (١). سوره لقمان، الآيه ٢٧.

٢- (٢). سوره الأسراء، الآيه ٨٥.

وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَارْضَ بِهِ رَإِدًا، وَإِلَى النَّجَاهِ قَائِدًا، فَإِنِّي لَمْ أَلُكْ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

الشرح والتفسير: اجعل من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مرشداً لك

يتحرّك الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصيته لابنه العزيز مشيراً إلى نقطتين مهمتين، الأولى: أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله خير دليل وأفضل قائد يقود الإنسان في طريق الصلاح والنجاح، والآخر: أن والده أمير المؤمنين عليه السلام لم يأل جهداً في هدايته وإرشاده، ومن هذا المنطلق ينبغي عليه الإصرار في هذا المسير اتباعاً لهدى هذين القائدين.

يقول عليه السلام: «وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَارْضَ بِهِ رَإِدًا» (1)، وَإِلَى النَّجَاهِ قَائِدًا.

وهذا التعبير يشير إلى أن الوحي السماوي الذي نزل على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يمثل عصاره جميع تعاليم الوحي النازل على الأنبياء السابقين، ففي تلك الأعصار كان الوحي السماوي ينزل على الأنبياء السابقين وفقاً لقابليات أقوامهم ومتناغماً مع

ص: ٤٧٧

١- (١). «رائد» من ماده «رود» على وزن «عود»، وكما ورد في المتن أن الأصل فيها بمعنى السعى وبذل الجهد للعثور على الماء والكلاء، ثم اطلقت على كل سعى للعثور على شيء، والحديث الشريف «الرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ»، ناظر إلى هذا المعنى، وبما أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان في صدد تحقيق السعادة لأنصاره وأتباعه فيقال عنه أنه «رائد».

ثقافته وعقلية ذلك العصر، ولكن في عصر خاتم الأنبياء فقد نزل آخر خطاب إلهي للبشرية كافة على قلبه المبارك.

إنَّ المقارنه بين القرآن الكريم والتوراه والإنجيل الحاليين (رغم امتداد يد التحريف إليهما) شاهد ناطق على هذا التفاوت العظيم، فبالنسبه لمعرفة الله وأدله التوحيد والصفات الإلهيه فإنَّ القرآن الكريم طرح قضايا هامه على هذا الصعيد لا توجد في أي من الكتب السماويه الأخرى، بل حتّى لا- يوجد فيها عشر معشارها، وبالنسبه للمسائل المتعلقة بالمعاد، وعلى حدّ قول بعض المحققين يوجد ألفى آيه في القرآن تتحدّث عن المعاد وتفاصيله وحالاته، فالقرآن الكريم تحدّث في هذا المجال بحيث لا يمكن تصوّر كلام آخر في هذا الشأن، وفي البحوث الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والمسائل التي تتصل بالحكومته وتاريخ القدماء، فالقرآن الكريم زاخر بهذه البحوث، ومن هنا يستوحى الإمام عليه السلام دليله في كلامه المذكور أعلاه ويقول: لا يوجد أحد كالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بين للناس تعاليم الوحي السماوي والمعارف الإلهيه بهذه الصورة الياضعه، ولهذا ينبغى عليك أن تتمسك بهذا القائد والمرشد بوصفه أفضل مرشد لطريق الخير والصلاح في واقع الحياه.

وينبغى الالتفات إلى أنّ مفرد «رائد» في الأصل تعنى الشخص الذى يذهب للبحث عن المرتع والماء للماشيه والدواب، وعندما يكتشف وجود ماء وكلاء يعود ليخبر قومه، ثمّ توسّعوا في استخدام هذه الكلمه وأطلقوها على الأشخاص الذين يمسون بمقاليد الأمور في حياه الناس.

«القائد» في الأصل بمعنى الشخص الذى يمسون زمام الناقه ويقودها في المسير، ثمّ اطلق على كل من يقود طائفه من البشر.

ويواصل الإمام عليه السلام تقسيم نصيخته لولده ويقول: «فَأَيُّ لَمْ أَلُكْ (1) نَصِيحَه. وَإِنَّكَ

ص: ٤٧٨

١- (١). «آل» صيغه المتكلم الواحد، من ماده «ألو» على وزن «دلو» وهى في الأصل بمعنى التقصير، وجمله «لم ألك نصيحه» تعنى لم اقصر في اسداء النصح إليك، واللافت أنّ هذا الفعل لازم لا يأخذ مفعول، رغم أنّ البعض تصور أنّه يأخذ مفعولين، المفعول الأول هو ضمير الخطاب «ألك» والمفعول الثانى «نصيحه»، في حين أنّ النصيحه تمييز وضمير الخطاب متعلق بمحذوف وهو في الأصل «لم آل لك».

لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنْ اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ».

إنَّ هدف الإمام عليه السلام من هذا الكلام حثُّ ولده لتقبُّل هذه النصائح والالتزام الواعي بها من خلال تقديم دليلين: أحدهما: أنَّ الإمام، وبسبب شفقتة ومحَبَّته الشديده له، لم ولن يدع رأياً نافعاً ونظراً مفيداً لولده إلَّا وذكَّره، والآخر: أنَّ ولده شابٌّ لا يمكن أن يحيط بالأمر كإحاطة والده الإمام عليٍّ عليه السلام، ومن هنا قيل: إنَّ ما يراه الشاب في المرآة، يراه الشيخ في الآجر الخام.

ص: ٤٧٩

وَاعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أفعالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلُ قَبْلِ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوْلِيَةٍ، وَآخِرُ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَائِيَةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحْاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصِيرَةٍ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَتَّبِعِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ حَظَرِهِ، وَقَلِّهِ مَقْدَرَتِهِ، وَكَثْرَهُ عَجْزِهِ، وَعَظِيمَ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُيْخِطِهِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنِ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنِ قَبِيحٍ.

الشرح والتفسير: الإيمان بالواحد الأحد

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصية عن أحد أدلّة التوحيد الذي يمثّل الركن الأساس والعمود الفقري لجميع منظومه الدين، يقول: «وَاعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أفعالَهُ وَصِفَاتِهِ».

ويستعرض الإمام عليه السلام في قراءه سريعه، الدليل على نفى الشريك وإثبات التوحيد بثلاثة أمور:

الأول: إذا كان لله شريك فلا بدّ أن يكون حكيماً، والإله الحكيم يجب أن يعرّف نفسه لعباده ويكشف لهم عن تعاليمه وأحكامه بواسطة الأنبياء الذين يرسلهم

للناس، فى حين أنّ جميع الأنبياء دعوا الناس لإله واحد، والآيات القرآنية والنصوص السماوية شاهد على هذا المطلب.

ومن جهة أخرى فلو كان هناك إله آخر فيلزم من ذلك أن تظهر آثار ملكه وسلطانه وقدرته على هذا العالم، فى حين أننا مهما دققنا النظر فى ظواهر هذا العالم فسنجد الوحده والانسجام التام مهيمناً على جميع أركانه، وهذه الوحده والتجانس من نواه الذره إلى المجزآت العظيمه، كلها تسير وفق قانون واحد وتتحرك وفق نظام متجانس ومنسجم، وهذا دليل على وحده الخالق جلّ وعلا.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير فى سياق حديثه إلى سبع صفات من صفات البارى تعالى، بدايه يقول: «وَلَكِنَّهُ إِلهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ».

وهذه الصفه للذات المقدسه تقع نتيجة الاستدلال الذى تقدّم به الإمام عليه السلام آنفاً من أنه لو كان هناك معبود آخر غير الله تعالى لأرسل رسوله للناس وتجلّت آثار ملكه وسلطانه فى جميع أرجاء الكون والطبيعه، ولرأيت أفعاله وصفاته منعكسه على مرآه الخلقه والطبيعه، وبما أنّ الأمر ليس كذلك فنستنتج أنه إله واحد.

أضف إلى ذلك أنّ الله تعالى فى القرآن الكريم وصف نفسه مرّات عدّه بالواحد الأحد، كما ورد نموذج من ذلك فى سوره التوحيد، وبما أنّ الله صادق ولا يعقل فى كلامه الكذب والغشّ والزيف، والتى هى حالات ناشئه من الحاجه والعجز وأتباع الأهواء، فلذلك يمكننا الاستناد لإثبات هذه الصفه وسائر الصفات على الأدله السمعيه، أى الآيات والروايات القطعيه.

الصفه الثانيه يقول الإمام عليه السلام: «لَا يُضَادُّهُ فِى مُلْكِهِ أَحَدٌ».

وهذا هو التوحيد فى الحاكميه، الذى هو فرع من التوحيد الأفعالى، فالمالك واحد والحاكم واحد أيضاً، والدليل على ذلك واضح، لأنه عندما نعتقد بأنّ الله هو الخالق، فمن الطبيعى أن يكون هو المالك والحاكم لا غير، وبخاصّه أنّ خالقيه الله مستمره وفيضه دائم، يعنى أننا نُخلق لحظه بعد أخرى مثل ضوء القنديل أو السراج،

فلو انقطع ارتباطه بمع منبع الطاقة، فسوف ينطفئ، أجل إن الله تعالى خالق في كل يوم وكل لحظة، إذن فهو الحاكم والمالك دوماً وأبداً.

ثم تحرّك الإمام عليه السلام لبيان الصفه الثالثه والرابعه ويقول: «وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ».

والدليل على ذلك واضح، لأننا نعلم أن الله واجب الوجود، وأن واجب الوجود حقيقه ينبع وجودها من ذاتها إذا صحّ التعبير، وعلى هذا الأساس فإنّ هذا الوجود أزليّ، ويجب أن يكون أبدياً أيضاً، والموجودات حادثه لا تستقى وجودها من ذاتها، بل من موجود آخر، وسائر الموجودات فانيه لأنّ وجودها لا ينبع من ذاتها بل يصل إليها الوجود من خارج ذاتها.

وتأسيساً على ذلك يمكن استنباط الصفه الخامسه والسادسه ممّا تقدّم آنفاً، يقول الإمام عليه السلام: «أَوَّلُ قَبْلِ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوْلِيَّهِ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نَهَائِهِ».

وهاتان الصفتان من لوازم أزليه وأبديه الذات المقدسه، وناشئه من كون الله تعالى واجب الوجود.

وفي الصفه السابعه والأخيره يقول الإمام عليه السلام: «عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ».

والدليل على ذلك بين، فربوبيه الذات المقدسه أزليه وأبديه ولا-بدايه لها ولا نهايه، وأنّها تحيط بعالم الوجود بجميع أبعاده وآفاقه الممتده، وعلى ضوء ذلك فإنّ هذه الربوبيه الواسعه لا يمكن مشاهدتها بالعين، ولا تصوورها بالذهن، لأنّ ربوبيته غير محدود، واللامحدود لا يمكن الإحاط به بفكر الإنسان المحدود.

وبعد أن يبين الإمام عليه السلام عظمه الله تعالى وتوحيده وأزليته وأبديته وإحاطه ربوبيته على جميع الكائنات في عالم الوجود، يواصل كلامه في وصيته لولده ويتبّه لصغره وضعفه وحاجاته الكثيره في مقابل قدره الله المطلقه، ويقول: «فَإِذَا عَرَفْتَ

ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يُتَّبَعِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ (١) ، وَقَلَهُ مَقْدَرَتِهِ وَكَثْرَهُ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ».

إنَّ الصفات الأربع التي يصف بها الإمام عليه السلام ولده قابله للتطبيق على جميع أفراد البشر، فكل إنسان في مقابل الله تعالى صغير وحقير وضعيف وكثير الحاجات إلى ربه، ولكن بشرط أن يعرف الإنسان ذلك في نفسه ولا يغفل عن هذه الحقيقة، وإلا فإنه سيخرج عن طريق العبودية ويسلك سبيل الطغيان والغرور، أجل فإن معرفه عظمه الله تعالى من جهه، ومعرفه صغر النفس وحقارتها في مقابل الذات المقدسه من جهه أخرى سبب وعامل أساس في السير في خط العبودية والطاعة، ونسيان هذه الحقيقة يعتبر منشأ الطغيان والظلم والعدوان.

يقول القرآن الكريم: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (٢).

ثم إن الإمام عليه السلام يبين معالم الطريق لولده وقلده كبده وكيفيه الإتيان بالأعمال الصالحة ويقول: «فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرَكَ إِلَّا بِحَسَنِ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ».

ويلخص الإمام عليه السلام في هذا الكلام العمل الصالح في ثلاثه أمور: الطاعة لله، والخشية من عقوبته، والشفقة من غضبه وسخطه.

وبديهى أن الخشية والإشفاق في مقابل عقوبه الله وسخطه يبعثان على الطاعة، ومن هنا فالإمام في البدايه يشير إلى طاعة الله تعالى، ثم يؤكد على الدوافع والبواعث النفسيه لتحقيق تلك الطاعة، وأما الفرق بين الخشية والإشفاق فكما أشرنا

ص: ٤٨٤

١- (١). «خطر» في هذا المورد يعنى القدر والمنزله.

٢- (٢). سورة الحشر، الآية ١٩.

أنّ الخشيّة تعني الخوف، ولكنّ الإشفاق أو الشفقة هي الخوف المقترون بالأمل والرجاء، وعلى ضوء ذلك، فالخوف من العقاب الإلهي ليس كالخوف من الحوادث المخوفه التي يفقد الإنسان فيها الأمل، بل هو خوف مقترون بالأمل بلطف الله وعطفه وكرمه.

والمفهوم من جمله: «فَبِأَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ...» أنّك لا تحسب أنّ إطاعتك لله تعالى ستضيف شيئاً لجلاله وعظمته، أو أنّ الله تعالى يحتاج إلى هذه الطاعة، على العكس، فأنت المحتاج له، لأنّه قد أمرك بما يحقّق لك سعادتك ونهاك عن القبائح والرذائل التي تقودك في دروب الشقاء والمسكنه والذلّه.

وهذه العبارة دليل بيّن على الحسن والقبح العقليين، وللأسف فإنّ جماعه من المسلمين، الذين ابتعدوا عن مدرسه أهل البيت عليهم السلام والتمسك بالكتاب والعترة، تحرّكوا في هذه المسأله من موقع الإنكار والمخالفة، وأنكروا هذه المسأله البديهيّه والعقليه بسبب بعض البواعث والدوافع السقيمه.

تأملان

١. العلاقة بين الأيديولوجيه والرؤيه الكونيه

في هذا المقطع من الرساله، وبعد أن بيّن الإمام عليه السلام سلسله من الحقائق فيما يتّصل بالذات المقدّسه والصفات الألوهيه، وبيّن عجز وضعف الإنسان وقصوره عن الإحاطه بالعلوم والمعارف الأنفسيه والآفاقيه، يستنتج الإمام عليه السلام أنّه ينبغي على الإنسان أن يتحرّك في خطّ العباده والعبوديه بما يليق بمقام الألوهيه وبعظمه الذات المقدّسه وصغر الإنسان.

وهذا يعني أنّ تكاليف الإنسان مرتبطه بشكل وثيق مع الحقائق الموضوعيه، أي أنّ القوانين تنطلق دائماً من قلب الحقائق، وأنّ ما ينبغي وما لا- ينبغي وليد الوجود والعدم، وبعباره أخرى، أنّنا نستنبط من هذه المعرفه والحقائق الموجوده فيما يتّصل بغنى الله وفقر الإنسان، لزوم عباده والامتثال لأوامره وتطبيق أحكامه، وهذا هو البحث المهم الذي يطرح عادة في موضوع الارتباط بين الأيديولوجيه والرؤيه

الكونيه وحيث يطرح هذا التساؤل: هل هناك ثمّة ارتباط بينهما؟

إنّ الرّؤية الكونيه هي عبارته عن معرفته بالحقائق، والآيدولوجيه في هذا المورد تعني الأحكام والقوانين الناتجه باعتقادنا من قلب هذا العالم والحقائق الموجوده في الطبيعه.

ومن هنا يتبين الجواب عن شبهه من يقول: إنّ الأحكام الشرعيه أمور اعتباريه ولا ترتبط بالحقائق أو الأمور التكوينيّه، فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصيه يشطب بخطّ البطلان على هذه الشبهه، لأنّ الفصل بين هذين الأمرين يلغى أيّ اعتبار للأحكام الشرعيه، فالحكم إنّما يكون له قيمه إذا كان مرتبطاً بالحقائق الموضوعيه، وهذه هي فلسفه الأحكام التي تمنحها اعتباراً وقيمه، وهذه العلاقه الوطيدّه بين الحكم الشرعيّ والحقيقه الموضوعيه هي التي تعمل على تجسيد الحكم وترسيخه.

والأحكام التعديديه أيضاً غير مستثناه من هذا القانون، فجميع هذه الأحكام تتوافق مع المصالح والمفاسد الواقعيه، رغم أنّنا أحياناً لا نعرف الحكمه منها، لأنّه في غير هذه الصوره نواجه الترجيح بلا مرجح، وعلماء الشيعه جميعاً يتفقون على هذا لرأى.

والآيات القرآنيه والروايات الشريفه أيضاً تصرّح بوجود مثل هذه العلاقه بين الأحكام الشرعيه والواقع الموضوعي.

مثلاً، نقرأ في القرآن الكريم في سورة المائده: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» (١)، وهكذا نرى أنّ الله تعالى في هذه الآيات الكريمه بعد يبيّن موارد الضرر الواقعي للأرجاس، كالخمر والقمار، ويذكر

ص: ٤٨٦

المسلمين أنّ هذه الأمور من عمل الشيطان، ويبين الحكم الواقعي لها وينهى المؤمنين عن ارتكاب شرب الخمر والميسر، ثمّ يستعرض مرّه أخرى الحقائق الموضوعية التي تساهم في تحقيق السعادة للإنسان وأنّ عمل الشيطان في تحقيقه هو إثارة العداوة والبغضاء والابتعاد عن ذكر الله وترك الصلاة.

وبالنسبة للصوم ورد أيضاً: «صُومُوا تَصِحُّوا»^(١) وفي مورد آخر يبيّن القرآن الغاية من الصوم ويقول: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»^(٢).

وفي الحقيقة أنّ جميع الروايات الشريفة الواردة في باب علل الشرائع، تعدّ دليلاً واضحاً على هذا المدعى.

٢. بدايه الخلقه ودوام الفيض

رأينا في كلمات الإمام عليه السلام الناطقه في هذا المقطع من رساله أنّ الذات المقدسه تعتبر مبدأ كلّ شيء بدون بدايه لها، ونهايه كلّ شيء بدون نهايه لها، ويصطلح على هذا المفهوم الأزليه والأبديه، وهنا يفرض هذا السؤال نفسه: هل أنّ للمخلوقات حدوداً زمانياً؟ يعني أنّ الله في زمان كان موجوداً ولم تكن المخلوقات موجوده (وطبعاً التعبير بالزمان هنا من باب التسامح، لأنّ الزمان بنفسه إمّا مخلوق أو نتيجة حركه المخلوقات) كما ورد في بعض العبارات: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ»^(٣) فإذا كان الأمر كذلك فإنّ مسأله دوام الفيض يواجه مشكله هنا، لأنّ مفهوم هذا الكلام أنّ الله تعالى كان فياضاً منذ البدء إلّا أنّه كان متوقفاً عن الفيض، في حين أنّ الفيض ملازم للذات المقدسه وعدم الفيض يعدّ نقصاً.

والجواب على هذا السؤال: إنّ العالم له حدوث ذاتي، يعني إذا قلنا بوجود

ص: ٤٨٧

١- (١). بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٦٧، ح ٤٦.

٢- (٢). سورة البقره، الآيه ١٨٣.

٣- (٣). بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٢٣٨.

المخلوقات دائماً وأبداً، فذلك المخلوق بدوره يستند في وجوده إلى الذات المقدّسه ومرتبطة بالقدره الإلهيّه، لا أنّه واجب الوجود، كما أنّ نور الشمس مرتبط بشكل وثيق بالشمس، فإذا كانت الشمس موجوده دائماً وتشعّ بنورها في كلّ آن، فمع ذلك تعتبر الشمس أصلاً ونورها فرعاً.

وبعبارة أخرى أنّ كلمه «مع» في جملة «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ» تبين هذه الحقيقه وهي أنّ الله تعالى كان منذ الأزل ولم يكن معه شيء بنفس المستوى وبذات الكينونه (لا بواسطته).

ص: ٤٨٨

يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرُوا بِبَنَاتِهِمْ مِنْزِلًا جَدِيدًا، فَأَقَامُوا مَنْزِلًا خَصِيصًا وَجَنَابًا مَرِيعًا، فَاخْتَمَلُوا وَعَثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْمًا، وَلَا يَرُونَ نَفَقَةً فِيهِ مَعْرَمًا. وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَذْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ. وَمَثَلُ مَنْ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيدٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْطَحَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير: السالكون طريق الآخرة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية لبيان مكانه الدنيا والآخرة في منظار المتألهين من خلال مثالين جميلين، ويقول: «يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا».

إنَّ للأمثله دور مهم جدًّا في فهم وإدراك المسائل المعقَّده والمفاهيم الغامضه سواء العقليه منها أو الحسيه، فيستطيع المخاطب من خلال المثال فهم هذه المسائل

من موقع العمق والوضوح فى الرؤيه، وبذلك يتم تشويقه وحثه لأداء الأعمال المفيده والخيره والابتعاد عن الرذائل والقبايح.

والقرآن الكريم يستخدم كثيراً الأمثله الجميله والعميقه المغزى، حيث تشكّل الأمثله قسماً مهماً من الآيات القرآنيه، ونرى فى كلمات أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغه أمثله كثيره وذات معانٍ عميقه أوردتها الإمام عليه السلام فى خطبه ووصاياه بغايه الفصاحه والبلاغه.

بعد أن يذكر الإمام عليه السلام هذه المقدمه يستعرض مثالين للدنيا والآخره فيقول أولاً:

«إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ (١) الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرُوا (٢) نَبَأَ بِهِمْ مَنَزِلٌ جَدِيدٌ (٣)، فَأَمُّوا (٤) مَنَزِلًا خَصِيبًا (٥) وَجَنَابًا (٦) مَرِيحًا (٧)، فَاخْتَمَلُوا وَغَثَاءَ (٨) الطَّرِيقِ، وَفَرَّاقَ الصَّدِيقِ، وَخُسُونَةَ السَّفَرِ، وَجُسُوبَةَ (٩) المَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنَزِلَ قَرَارِهِمْ».

فأهل الآخره يعلمون أنهم فى سفر وأن ما يواجهونه من أتعاب وآلام وجسوبه العيش ومعاناه الطريق إنما هى حالات مؤقتة وبمئابه الثمن الذى يدفعونه لتحصيل السعاده الدائمه والوصول إلى منزل القرار والاستقرار والراحه الأبدية فتكون هذه الأمور والصعوبات بالنسبه لهم هينه ويسيره، ولذلك يقول الإمام عليه السلام بعد ذلك:

ص: ٤٩٠

١- (١). «خَبَرَ» فعل ماضى من «الخَبْر» على وزن «قفل» بمعنى الاطلاع على الحدث، وأحياناً تأتي بمعنى الاختبار للاطلاع على الخبر.

٢- (٢). «سَفَرُوا» جمع مسافر.

٣- (٣). «جَدِيدٌ» بمعنى الجاف وبدون ماء وعلف، وهو من ماده «جَدَب» على وزن «جلب».

٤- (٤). «أَمُّوا» من ماده «أَم» على وزن «غم» بمعنى القصد.

٥- (٥). «خَصِيبٌ» بمعنى كثير النعمه والماء والنبات، من ماده «خصب» على وزن «جسم» وهو زياده النعمه وكثرتها.

٦- (٦). «جَنَابٌ» بمعنى الناحيه.

٧- (٧). «مَرِيحٌ» بمعنى كثير النعمه والخير، من ماده «مرع» على وزن «رأى» وهو الكثره والوفره، و «أَرْضٌ مَرِيحَةٌ» الأرض الكثيره المحصولات الزراعيه.

٨- (٨). «وَعَثَاءٌ» من ماده «وعث» على وزن «درس» بمعنى الرمال الناعمه التى تدخل فيها الأقدام وتمنع الشخص من إدامه المسير، أو يعسر عليها المشى، ثم اطلقت على جميع المشكلات التى تعيق الإنسان فى حركه الحياه، و «وَعَثَاءُ الطَّرِيقِ» إشاره إلى مشكلات السفر.

٩- (٩). «جُسُوبَةٌ» بمعنى الخشونه والغلظه.

«فَلَيْسَ يَجِدُونَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْماً وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَهُ فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَذْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ».

أجل، فهذا هو نمط تفكير المؤمنين الصالحين وأولياء الله الذين يسرون في مسلك الطاعة والمعنوية، لأن هؤلاء لا ينجذبون أبداً لزخارف الدنيا ولا ينجذبون ببريقها، بل إن الدنيا تمثل لهم مجموعته من الأتعاب والآلام والهموم والغموم وحالات التوتر التي تفرضها حالات الصراع والنزاع، في حين أن الإيمان بالمعاد والجنة والنعم الخالد والاعتقاد بالوعد الإلهي يوحى لهم بأنهم سيواجهون غداً مستقبلاً مشرقاً ويرفلون بالنعم المادي والمعنوي بعيداً عن كل أشكال الهم والغم والألم، والأهم من ذلك أنهم يصلون إلى مقام القرب الإلهي وهذا هو الذي يجعلهم يتقبلون الصعاب والآلام في هذا المسير بكل رحابه صدر ويتحملون كل مشقة في هذا الطريق لأنهم متوجهون إلى كعبه الحبيب، فجميع ما يجدونه من وخز الأشواك في الطريق يكون بالنسبة لهم كفراس الحرير وتبدل المراره إلى عذوبه.

ثم يستعرض الإمام عليه السلام المثال الثاني فيما يخص أهل الدنيا والمتشبهين بزخارفها وملذاتها ويقول: «وَمَثَلٌ مَنِ اغْتَرَبَ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيْبٍ، فَتَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيْبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ (١) عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ».

أجل، فهم يعلمون أن مصيرهم في النهاية النار والعذاب الأليم، فتكون الدنيا بالنسبة لهم بجميع مشاكلها وآلامها عذبه ومريحه جداً، ولهذا السبب يخافون من الموت ويخشون حلول الأجل، خوفاً من المستقبل المظلم، كما أخبر القرآن الكريم عن طائفه من بنى اسرائيل ممن يعيشون حب الدنيا: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَخِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ

ص: ٤٩١

١- (١). «أَفْظَعَ» بمعنى غير مقبول، من «الفضاعه» وهي الشناعه والغلظه.

أَنْ يُعَمَّرَ»(١).

وكذلك ورد في حديث معروف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ وَالْمَوْتُ جِسْرٌ هُوَ لَاءِ إِلَى جَنَانِهِمْ وَجِسْرٌ هُوَ لَاءِ إِلَى جَحِيمِهِمْ»(٢).

وفي هذا الصدد رواه عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام عندما سأله أحدهم: «مَا بَالُنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ وَلَا نُحِبُّهُ؟». فأجاب: «إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَانْتُمْ تَكْرَهُونَ النُّقْلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ»(٣).

ص: ٤٩٢

١- (١) . سورة البقره، الآيه ٩٦.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٥٤.

٣- (٣) . معانى الأخبار، ص ٣٩٠.

إشاره

يَا بَنِيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحِبِّ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمَ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قُلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

الشرح والتفسير: نظره واحده لمصلحه الفرد والجماعه

يشير الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من وصيته لأحد أهم الأصول الأخلاقية والمثل الإنسانية ويقول: «يَا بَنِيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ».

والميزان عاده ذو كفتين، والوزن الصحيح يتم عندما تكون الكفتان متساويتين في الخط الأفقي، وهذا الكلام إشارة إلى أنه ينبغي عليك أن تحب للآخرين ما تحبه لنفسك، وما تكره لنفسك فينبغي أن تكره للآخرين لتساوى كفتا الميزان في عرض واحد.

ثم يوضح الإمام عليه السلام هذا الأصل الأخلاقي المهم في سبع جمل ويبين أبعاده وزواياه المختلفه:

يقول الإمام عليه السلام في الجملة الأولى والثانية: «فَأَحِبِّ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا».

وفي الجملة الثالثة: «وَلَا تَظْلِمَ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ».

وفى الجملة الرابعة: «وَأَحْسِنُ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحَسِّنَ إِلَيْكَ».

ويقول فى الجملة الخامسة: «وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ».

ثم يضيف الإمام عليه السلام فى الجملة السادسة: «وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ».

وأخيراً وفى الجملة السابعة يقول: «وَلَا تَقُلْ مَا لَاتَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَاتُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ».

وهو إشارة إلى أنك كما لا تحب أن يستغيبك الناس أو يتهمونك بأمر معين أو يخاطبونك بكلمات نايه ويذكرونك بألقاب قبيحه، أو يتحدثون عنك بكلمات تسوؤك وتثير غضبك، فينبغى عليك أن لا تتحدث عن الآخرين بالليات الغيبه والتهمه والسب والشتم وما إلى ذلك، أو تتلفظ بكلمات لا مسؤوله تؤذى الآخرين وتسيء إليهم.

والحقيقه أن هذا الأصل الأخلاقى المهم بالتفاصيل والأغصان السبعه التى ذكرها الإمام عليه السلام لو طبّق فى أى مجتمع وعمل به الناس فى تواصلهم وتعاملهم فيما بينهم، لساد الصلح والأمن فى أجواء ذلك المجتمع وزالت كل أشكال النزاع والصراع، ووصلت الملفات القضائيه فى المحاكم إلى الحد الأدنى، وبلغت المحبه والتعاون والتكاتف الحد الأقصى فى واقع الحياه والمجتمع، لأن جميع المشاكل الاجتماعيه تنشأ من أن البعض يريد كل شىء لنفسه ولا يفكر إلفى نفعه وراحته وسعادته، ويتوقع من الآخرين أن يتعاملوا معه بالقيم والعدل ولكنّه لا يجد فى نفسه أى التزام بهذه القيم، ويريد أن يكون حراً تجاه الآخرين، أو لا يقيم وزناً لحيثيه الآخرين وراحتهم وسعادتهم، أو يهتم براحه الآخرين ولكن لا بمقدار ما يهتم لنفسه، فيريد لنفسه الحد الأقصى من النفع والسعاده والراحه، وللآخرين الحد الأدنى.

وما ذكره الإمام عليه السلام فى بيان هذا الأصل الأخلاقى لم يرد بهذه السعه والشمول فى كلام أى شخصيه علميه أخرى، رغم أن جذور هذا الأصل كما يقول الشيخ

مغنيه فى شرحه لنهج البلاغه ذيل هذا الكلام للإمام عليه السلام، موجود بشكل إجمالى فى تراث القدماء.

يقول مغنيه: «ولا- نعرف أول من نطق بهذه الذهبية... وأيضاً كان فهى لجميع الناس، لأنّ الحبّ معناه الأخوه والإنسانيه والتكامل والتضامن والقوه والنجاح، وبالحبّ تستقيم الحياه، ولا معنى لحياه بلا حبّ، وأيضاً لا معنى للكراهيه إلّا الحرب والشقاق والفشل والتخلف»(١).

وقد ورد فى تعاليم الإسلام هذا المضمون أيضاً وطرحه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بصياغه جميله ورائعه، فقد ورد فى الحديث الشريف أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله كان راكباً دابته وهو يريد بعض غزواته، فجاء إليه أعرابى فأخذ يغمز راحلته فقال: «يا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي عَمَلًا أُدْخِلُ بِهِ الْجَنَّةَ».

فقال صلى الله عليه وآله: «مَا أَحْبَبْتُ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَيْهِمْ وَمَا كَرِهْتُ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ خَلَّ سَبِيلَ الرَّاحِلَةِ»(٢).

وجاء فى حديث آخر فى سيره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه جاء شابّ إلى النبى صلى الله عليه وآله فقال له: أتأذن لى بالزنا، فنهره الأصحاب وأغلظوا عليه، فأدناه النبى صلى الله عليه وآله منه وقال له:

«أَتُحِبُّ أَنْ يُزْنِيَ بِأُمَّكَ أَوْ أُخْتِكَ أَوْ بِنْتِكَ أَوْ خَالَتِكَ أَوْ عَمَّتِكَ؟» قال الشابّ: لا يارسول الله، فقال له: «كُلُّ النَّاسِ كَذَلِكَ»، ثمّ وضع يده المباركه على صدره: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» وبعد ذلك لم يره أحد وهو جالس إلى امرأه أجنبيّه(٣).

وينبغى الالتفات إلى هذه النقطة أيضاً، وهى أنّ الإمام عليه السلام فى العبارة السابعه من الكلام المذكور يقول على سبيل المقدمه: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ». وهذا

ص: ٤٩٥

١- (١). فى ظلال نهج البلاغه، ج ٣، ص ٥٠٢.

٢- (٢). الكافى، ج ٢، ص ١٤٦، باب الانصاف والعدل، ح ١٠.

٣- (٣). مجمع الزوائد للهيثمى، ج ١، ص ١٢٩. وهذا الحديث ذكره المرحوم المحدّث القمى فى كتابه منتهى الآمال فى فصل الفضائل الأخلاقية للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

إشاره إلى أنّ معلوماتك وإن كانت محدوده وقليله فاقنع بها ولا تتدخل في أمور لا تعلم بها، فإنّ ذلك سيقودك إلى متهات الخطأ والانحراف.

ص: ٤٩٦

إشاره

وَاعْلَمَ أَنَّ الْأَعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَمَدِحِكَ، وَلَا تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدَيْتَ لِقَضِيْدِكَ فَكُنْ أَحْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

الشرح والتفسير: لا تكن خازناً لغيرك

فى هذا المقطع من الوصيه النورانيه يشير الإمام عليه السلام إلى أربع فضائل أخرى ويوصى بها ولده وقلده كبده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام.

بدايه يقول: «وَاعْلَمَ أَنَّ الْأَعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ».

وهذا يعنى أن الإنسان المعجب بنفسه لا يدرك الحقائق الموضوعيه عن نفسه وعن الآخرين، فهذه الصفه الذميه تسدل حجاباً على عقله، وليست فقط تغطى عيوبه بل يرى عيوبه ورذائله نقاط قوه وعناصر كمال لنفسه، وأحياناً يعيش عمره فى هذا الوهم ويغادر الدنيا دون أن يتحرك لإصلاح الخلل والعيب.

وعلى حدّ تعبير الشيخ مغنيه فى شرحه لنهج البلاغه، أنّ العجب كالخمر من حيث إنّهما يسكران الإنسان، والسكران حال المجانين وينبغى الابتعاد عنه والفرار منه.

وقد ورد فى القرآن الكريم والروايات الإسلاميه فى ذمّ العجب والغرور نصوص كثيره، منها ما ورد الآيه ٨ من سوره فاطر: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِيرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»، فهذا الشخص بسبب العجب يرى سوء عمله حسناً وكأنه يرى الحقيقه

والواقع، ولكنَّ الله تعالى يقول عنه أنه ضالٌّ وغير جدير بالهدايه ويوصى النبيُّ الأكرم صلى الله عليه وآله أن لا يتحسّر ويأسف على مثل هؤلاء.

وقد وردت في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام تعبيرات وكلمات عجيبة عن العجب والغرور، في مورد يقول: «العُجْبُ آفَةٌ الشَّرْفِ» (١) وفي مورد آخر يقول: «آفَةُ اللَّبِّ العُجْبُ» (٢).

وفي مورد آخر يقول: «العُجْبُ يُفْسِدُ العَقْلَ» (٣).

وفي مورد آخر يقول: «ثَمَرَةُ العُجْبِ البَغْضَاءُ» (٤).

وأخيراً يقول: «العُجْبُ رَأْسُ الحِمَاقَةِ» (٥).

ثمَّ إنَّ الإمام عليه السلام يواصل كلامه ويستعرض الوصية الثانية ويقول: «فَاسَعِ فِي كَدْحِكَ».

وهذا هو الأمر الذي ورد التأكيد عليه كثيراً في الروايات الإسلاميَّة إلى درجة أننا نقرأ في الحديث النبويِّ المعروف: «مَلْعُونٌ مَنْ أَلْقَى كَلَّهُ عَلَى النَّاسِ» (٦).

لو أنَّ جميع المسلمين وبخاصَّة الشبَّان عملوا بهذه التوصية فلا أحد سيكون محتاجاً للآخرين سوى العجزة والمعوقين، وبديهي أنَّ المجتمع الإسلامي سيتحرَّك في خطِّ الرقيِّ والتقدُّم ويحرز حالة من الإزدهار الاقتصادي والحضاري بدرجات عالية، بل إنَّ البلدان الإسلاميَّة سوف لا تكون أداه طيعه للبلدان الأجنبيَّة، لأنَّ ذلك لا ينتج لهم سوى الذلَّة والمهانة والتبعية.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى معنى آخر لهذه العبارة وقالوا: إنَّ المقصود

ص: ٤٩٨

١- (١). غرر الحكم، ص ٣٠٩، ح ٧١٠٣.

٢- (٢). المصدر السابق، ص ٦٥، ح ٨٤٨.

٣- (٣). المصدر السابق، ح ٨٤٦.

٤- (٤). المصدر السابق، ص ٣٠٩، ح ٧١٠٦.

٥- (٥). المصدر السابق، ح ٧٠٩٦.

٦- (٦). الكافي، ج ٥، ص ٧٢، ح ٧.

منها السعى والكدح فى طريق الإنفاق، فكلمه «كدح» تعنى أن الإنسان يكدح ويتعب نفسه فى البذل، وفى هذه الصورة تكون هذه العبارة مقدّمه لما يأتى بعدها، ولكن يبدو أن التفسير الأول أصح.

ثم بيّن الإمام عليه السلام التوصيه الثالثه، ويقول: «وَلَا تَكُنْ حَازِنًا لِعَيْرِكَ».

ويشير بذلك إلى أن الأشخاص الذين يتعبون أنفسهم فى جمع الأموال والثروات ولا ينفقونها فى سبيل الله، هم من المساكين الذين يتعبون أنفسهم فى جمع وحفظ الأموال وينتفع بها الورثه، وفى القيامه يحاسبون عليها بينما يلتذّ بها وينتفع بها الآخرون، أى الورثه الذين لا يعيشون أحياناً أى مودّه واهتمام بالمورث وصاحب المال، ولا ينفقون منها فى سبيل الله لحساب صاحبها، بل أحياناً يوبخونه ويذمّونه بأنه لم يترك لهم ثروه كافيه، وحتى لو كان الورثه من الأشخاص الصالحين واستثمروا هذه الأموال فى طريق الطاعه والصلاح، فمع ذلك ستكون حسره على صاحب المال لأنه أتعب نفسه من أجلها بينما ربح ثوابها الآخرون، وهذا هو ما وردت الإشارة إليه فى الروايات الإسلاميه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآيه الشريفه: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ» (١). قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَدْعُ مَالَهُ لَأَيُّفِّقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ بُخْلًا ثُمَّ يَمُوتُ فَيَدْعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنْ عَمِلَ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ رَأَهُ فِي مِيزَانٍ غَيْرِهِ فَرَأَهُ حَسِيرَةً وَقَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ قَوَاهُ بِذَلِكَ الْمَالِ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٢).

ثم يتعرض الإمام عليه السلام لبيان التوصيه الرابعه ويقول: «وَإِذَا أَنْتَ هُدَيْتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَحْشَعُ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

وهذا يعنى أن جميع النعم والمواهب الإلهيه تستحقّ من العبد الشكر، وأى نعمه

ص: ٤٩٩

١- (١). سورة البقره، الآيه ١٦٧.

٢- (٢). الكافي، ج ٤، ص ٤٢، ح ٢.

أعظم على الإنسان من الهدايه لطريق الخير والصلاح مع أنّ مجاميع كثيره من الناس ساروا في خطّ الضلاله والمناهه، وشكر كلّ نعمه يجب أن يتناسب مع تلك النعمه، وشكر نعمه الهدايه يستلزم الخضوع للحقّ تعالى وإطاعه أوامره ونواهيّه.

ص: ٥٠٠

إشاره

وَاعْلَمَ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَأَغْنَى بِكَ فِيهِ عَنِ حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خَفِّهِ الظَّهْرِ، فَلَمَّا تَحْمَلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونُ ثَقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجِدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُؤَا فَيْكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَأَعْتَمْتُمُ وَحَمَلَهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثَرَ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ، وَاعْتَمْتُمْ مَنْ اسْتَفْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

الشرح والتفسير: الآخرون يحملون متاعك إلى الآخرة!

في هذه الفقرة من الوصية يتحدّث الإمام عليه السلام عن طول سفر الآخرة وحاجه الإنسان الشديده للزاد والمتاع لهذا السفر من الطاعات وأعمال الخير وخاصه الإنفاق في سبيل الله.

بدايه يقول: «وَاعْلَمَ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ».

إنّ طريق الدنيا مهما كانت طويله وشاقه فإنّها بالنسبه لطريق الآخرة سهله وميسوره، وطريق الآخرة ملىء بالمنعطفات والمطبات وتحتاج لمجاهده النفس وتربيتها على الفضائل الأخلاقيه، وأحياناً يستغرق سلوكك هذا الطريق سنوات طوال.

وبعد هذا التحذير يتبّه الإمام عليه السلام إلى لزوم تهيئه الزاد والمتاع لهذا السفر الملىء

بالمخاطر ويقول: «وَأَنَّهُ لَأَغْنَىٰ بِكَ فِيهِ عَن حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ (١) ، وَقَدَّرَ بِلَاغِكَ (٢) مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفِّهِ الظُّهْرِ».

إنَّ الأصل والأساس في هذا الزاد والمتاع هو ما ورد في القرآن الكريم يقول:

«وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ» (٣).

وعبارته: «حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ» مع الالتفات إلى أنَّ كلمه «الارتياذ» تعنى الطلب، فالمراد من العبارة حسن الطلب، أو بكلمه أخرى التدبير وإبتغاء المنهج الصحيح فى سلوك الطريق (أى فى تهيئه الزاد والمتاع لسفر الآخره).

وعبارته: «خِفِّهِ الظُّهْرِ» إشاره إلى ما ذكره القرآن الكريم، حيث يقول: «وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ» (٤)، فالإمام عليه السلام يوصى ولده أن لا يكون مثل هؤلاء الأشخاص الذين يحملون أوزارهم وأوزار الآخرين على ظهورهم، فالمؤمن يسعى لتخفيف حملة ما أمكنه ذلك.

وسبق أن ذكرنا فى شرح الخطبه الحاديه والعشرين أنَّ الإمام عليه السلام تحدّث عن هذا المضمون بعبارة وجيزه جداً وعميقه المغزى وقال: «تَخَفُّوا تَلْحَقُوا»، فى الماضى وعندما كانت القوافل تسير فى طرق صعبه وتصل إلى منعطفات خطيره فإنَّ المثقلين يعجزون عن مواصلة الطريق، وبما أنَّ القافله لا- تستطيع التوقّف بسببهم، فإنَّها تستمرّ فى مسيرتها، ويبقى هؤلاء وحدهم فى الصحراء ويكون مصيرهم نهباً لقطاع الطرق وطعاماً لذئاب البرارى.

وبعد هذه المقدّمه الوجيزه والعميقه المعنى يطرح الإمام عليه السلام مسأله الإنفاق فى

ص: ٥٠٢

١- (١) . «ارتياذ» من ماده «رود» على وزن «قوم» فى الأصل تعنى الذهاب والمجىء مع المداراه والملاءمه فى طلب الشىء، وبالنسبه لمشتقاتها تاره تغلب جهه الطلب وأخرى جهه الرفق والمداراه، ومفرده «إراد» مشتقه من هذا الأصل أيضاً.

٢- (٢) . «بلاغ» بمعنى الشىء الذى يوصل الإنسان إلى مقصده.

٣- (٣) . سوره البقره، الآيه ١٩٧.

٤- (٤) . سوره العنكبوت، الآيه ١٣.

سبيل الله وأنه أهما زاد ومتاع ليوم القيامة ويقول: «فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَيَّ ظَهْرَكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ».

ويشير بذلك إلى أنك لا تدخر لنفسك أكثر مما تحتاجه في حياتك ومعاشك بحيث تستطيع الإجابة يوم القيامة عنه، لأن ما تجمعه من هذه الدنيا سيكون ثقيلاً عليك في الآخرة، فالحمل الذي لا تنتفع به في هذا المسار سوف لا يجديك سوى التعب والعناء.

ثم يدعو الإمام عليه السلام للإنفاق في سبيل الله بعبارات رائعة وجذابة فيقول: «وَإِذَا وَحِدَتْ مِنْ أَهْلِ الْفَاقِهِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُؤَافِيكَ بِهِ عَدَاً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَأَعْتِنْمُهُ وَحَمْلُهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثَرُ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ».

ثم يضيف: «فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ»⁽¹⁾.

وفي ختام هذا المقطع من الوصية يستخدم الإمام عليه السلام عبارات أخرى لترغيب المخاطب إلى الإنفاق في سبيل الله ويقول: «وَأَعْتِنِم مَنِ اسْتَفْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ».

وحصيله الكلام أن الإنسان العاقل ينبغي أن يستثمر وجود نمطين من الناس:

الشخص الذي يتبرع بحمل زاد الإنسان على كتفه مجاناً ويوصله بفرح وسرور إلى المنزل المقصود، والآخر الشخص الذي يستقرض من الإنسان بعض أمواله في حال عدم حاجته إليه ويسدده له في وقت هو بأمرس الحاجة إليه، أجل، هكذا حال الأشخاص الذين يتحرّكون في الإنفاق في سبيل الله، وهذا التعبير عن هؤلاء يعتبر أبلغ وأجمل تعبير يجسد في طياته القيم الأخلاقية الرفيعة.

ص: ٥٠٣

١- (١). بالنسبة للضمير «تَطْلُبُهُ» وجمله «فَلَا تَجِدُهُ» هناك خلاف بين شراح نهج البلاغة في عوده هذا الضمير، فالاحتمال الأول أنه يعود إلى الشخص الفقير والمحتاج فكأنه يحمل على أكتافه الصدقات والمثوبات ويسلمها يوم القيامة لصاحبها، والاحتمال الآخر أنه يعود على المال نفسه، يعني سيحين الوقت الذي تطلب مالاً لانفاقه في سبيل الله وليس لديك مال، ولكن التفسير الأول أرجح كما ذكرنا في المتن، وجمله «وَأَعْتِنِم» شاهد على ذلك.

والتعبير الثاني مقتبس من القرآن الكريم ويقول: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً» (١)، وطبعاً فالآية الشريفة تضيف نقطه أخرى على مسأله القرض، وهى أن الله تعالى هو الذى يستقرض من عباده، ثم يسدد لهم أضعافاً مضاعفه.

والتعبير الأول يحتمل أن يكون من الآيات الشريفة فى سورة البلد، تقول الآيات: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ...» (٢).

والجدير بالالتفات أن المرحوم الصدوق ينقل فى كتابه علل الشرائع روايه رائعه مناسبه للكلام الوارد فى الوصيه مورد البحث، يقول سفيان بن عيينه قال: رأى الزهرى (من التابعين المعروفين) على بن الحسين عليه السلام ليله بارده مطيره وعلى ظهره دقيق وهو يمشى، فقال له: يا ابن رسول الله ما هذا؟ قال: «أريد سيفراً أعدُّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز»، فقال الزهرى: فهذا غلامى يحمله عنك، فأبى، قال: أنا أحمله عنك فإنى أرفعك عن حمله، فقال على بن الحسين: «لكننى لأرْفَعُ نَفْسِي عَمَّا يُنْجِنِي فِي سَفَرِي وَيُحْسِنُ وُرُودِي عَلَيَّ مَا أَرِدُ عَلَيْهِ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ اللَّهِ لَمَّا مَضَيْتَ لِحَاجَتِكَ وَتَرَكْتَنِي». فانصرف عنه، فلما كان بعد أيام قال له: يا ابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذى ذكرته أثراً، قال: «بلى يا زهرى ليس ما ظننت ولكنَّهُ المَوْتُ وَلَهُ كُنْتُ أَسْتَعِدُّ إِنَّمَا الْأَسْتَعْدَادُ لِلْمَوْتِ تَجَنَّبُ الْحَرَامَ وَبَدَّلَ النَّدَى وَالْخَيْرَ» (٣).

ص: ٥٠٤

١- (١) . سورة البقره، الآيه ٢٤٥.

٢- (٢) . سورة البلد، الآيات ١١-١٤.

٣- (٣) . بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٦٥، ح ٢٧.

إشاره

وَاعْلَمَ أَنَّ أَمَامَيْكَ عَقَبَهُ كَثُودًا، الْمُخْفُ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقَلِ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبَطَكَ بِهَا لِمَحَالَةٍ إِمَّا عَلَى جَنِّهِ أَوْ عَلَى نَارٍ، فَارْتَدَّ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِئَ الْمَنْزَلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، «فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ»، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

الشرح والتفسير: ضع عن كنفك هم يومك!

يعود الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصيه النورانيه ليتحدّث مرّه أخرى في مسأله سفر القيامه الطويل والملىء بالمخاطر والعقبات، ويبيّن معالم هذا المسير بدقه متناهيه، ويتحدّث عن وسيله النجاه فيه.

بدايه يقول: «وَاعْلَمَ أَنَّ أَمَامَيْكَ عَقَبَهُ كَثُودًا (١) ، الْمُخْفُ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقَلِ (٢) ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ».

والمراد من العقبه الكؤود والمنعطف الخطير في هذا المسار إمّا الموت وسكراته، أو عالم البرزخ، أو جسر الصراط (ويحتمل أن يكون جميع ذلك).

وبديهيّ أنّه لا حراز السلامه في عمليه العبور من هذه المآزق والمنعطفات الخطيره ينبغى التخفيف من الأثقال، والإسراع في المسير، لأنّه في مثل هذه

ص: ٥٥

١- (١). «كؤود» بمعنى الطريق الشاق وصعب العبور، من ماده «كند» على وزن «عهد» بمعنى شدّه وصعوبه والعسر.

٢- (٢). «مخفّ» يعنى الشخص الذى يحمل حملاً حفيفاً، من «خفّ» على وزن «صف» بمعنى الخفيف.

٣- (٣). «مثقل» يعنى الشخص الذى يحمل حملاً ثقيلًا، من ماده «ثقل».

المنعطفات الخطيره يكثر قطاع الطرق أو الحيوانات المفترسه التي يواجهها الإنسان فى هذا الطريق وتعيقه عن إكمال المسير.

وهذا التعبير أيضاً مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكَّ رَقَبَهُ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ...» (١).

وذهب بعض المفسرين فى شرح هذه الآيات أن العقبه تعنى هوى النفس، وذهب آخرون إلى المآزق والمنعطفات الخطيره يوم القيامه، وكلام الإمام عليه السلام هنا يتناسب مع الثانى.

ويواصل الإمام عليه السلام حديثه عن هذا المسير المعنوى ويقول: «وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَهَ إِمَّا عَلَى جَنِّهِ أَوْ عَلَى نَارٍ».

ثم يضيف: «فَارْتَدَّ (٢) لِنَفْسِكَ قَبِيلَ نَزُولِكَ، وَوَطْئَ الْمُنْزِلَ قَبِيلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ (٣) وَلَمَّا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ (٤)».

والجدير بالذكر أن جملة: «لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ» قالها لأول مره رسول الله صلى الله عليه و آله فقد ورد فى الحديث الشريف عنه صلى الله عليه و آله: «لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ أَكْثَرُوْا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ وَمُنْغَصِ الشَّهَوَاتِ» (٥).

وجمله: «وَلَمَّا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ»، تعكس حقيقه جليله أشارت إليها الآيات القرآنيه والروايات الشريفه بشكل واسع، القرآن الكريم يقول: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا...» (٦).

ص: ٥٠٦

١- (١) . سورة البلد، الآيات ١١-١٤.

٢- (٢) . «ارْتَدَّ» يعنى انتخب واختر لك، من «الإرتياد» كما ذكرنا فى تفسيرها سابقاً.

٣- (٣) . «مُسْتَعْتَبٌ» مصدر ميمى، يعنى الاعتذار وطلب رضا، من ماده «عتب» على وزن «عطف» وله معانٍ متعدده وأحدها الرضا والبهجه، والشخص الذى يعتذر للشخص المقابل يطلب فى الحقيقه رضاه وشفوه، ولذلك تستعمل هذه المفرده بمعنى الاعتذار.

٤- (٤) . «مُنْصَرَفٌ» مصدر ميمى بمعنى العوده.

٥- (٥) . مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ١٠٤، ح ١٦.

٦- (٦) . سورة المؤمنون، الآيه ٩٩ و ١٠٠. وأشار إليها فى الآيات ٢٨ من سورة الانعام و ٣٧ من سورة فاطر أيضاً.

ونقرأ في الخطبه ١٨٨ من نهج البلاغه في حديث الإمام عليه السلام عن الموتى ويقول:

«لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالَ وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ اِرْتِدَادًا».

أجل، إنّ هذا المنزل في يوم القيامة وما بعد الموت غير قابل للعودة، كما أنّ الوليد المعوق لا يستطيع أبداً العوده إلى رحم امّه لينمو من جديد بشكل صحيح ولا يمكن للثمره التي انفصلت عن الشجره أن تعود إلى غصنها، فالأشخاص الذين يغادرون هذا العالم إلى عالم البرزخ لا يستطيعون أبداً العوده إلى الدنيا، وأهل البرزخ بدورهم عندما ينتقلون إلى القيامة لا يستطيعون العوده إلى عالم البرزخ، وهذا تحذير لنا جميعاً بأن نعلم أننا ربّما سنواجه لحظه وينتهى كلّ شيء وتوصد أمامنا أبواب التوبه ولا نستطيع تحصيل الزاد والمتاع، فنغادر الدنيا بقلوب مليئه بالحسرات.

ص: ٥٠٧

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَدَانَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكْفَلْ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئِكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعَكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنُّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضْحُ يَحُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسِينَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتِكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الْإِسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْنَيْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعْنَتْهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصَحْحَةِ الْأَبْدَانِ، وَسِعَةِ الْأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَدَانَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَتَمَّتْ اسْتِيفَتُكَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتِطْمَطَرَتْ شَأْيِبَ رَحْمَتِهِ، فَلَمَّا يُفَنِّطُكَ إِنْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النَّيِّهِ، وَرُبَّمَا أُخْرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْأَمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيْتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرَبِّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيْتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتَكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ.

فى هذا المقطع من الوصيه النورانيه يشير الإمام عليه السلام إلى عدّه مواضع مهمّه ويقول: ينبغي عليك أن تهتمّ بمسأله الدعاء، فالدعاء يمثّل قضيه مصيريه فى حياتك: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكْفَلُ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيكَ، وَتَسْتَزِحِمَهُ لِيُرْحَمَكَ».

وفى هذه العبارات يشير الإمام عليه السلام إلى نقاط عدّه لتشويق المخاطب للدعاء، فيقول أوّلاً: يجب أن تطلب حاجاتك ممّن يملك جميع الأمور وبيده مقاليد السماوات والأرض ويستطيع أن ينعم عليك بالرزق والعطايا، وبكلمه واحده أن تدعو من يملك جميع الكائنات، وعلى ضوء ذلك تكون فى طلبك ودعائك قريباً من الإجابة.

وفى الجمله الثانيه يقول: إنّ الله تعالى أذن لك بالدعاء، أى فى الحقيقه أنه دعاك لتأتى إلى ساحه قدسه وتسأله من فضله وكرمه وتدعوه وتناجيه، وهذا يمثّل غايه اللطف والرحمه بحيث أنه تعالى دعا المحتاجين إليه وقال: تعالوا إليّ واطلبوا منى، وهذا المعنى أشارت إليه الآيات القرآنيه فى قوله تعالى: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» (١).

وفى الجمله الثالثه يقول: إنّ الله تعالى قد ضمن لك استجابته الدعاء، وهذا أيضاً إشاره لقوله تعالى: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (٢) وغيرها من الآيات الشريفه.

وفى الجمله الرابعه يتوسّع الإمام عليه السلام فى هذا الموضوع وأنّ الله تعالى قد تجاوز مسأله الإذن فى الدعاء، بل أمرك أن تسأله وتدعوه وتطلب من لطفه ورحمته ويعطيك وينعم عليك ويرحمك، وهذا ما ورد فى الآيات الشريفه، نظير: «وَأَسْأَلُوا

ص: ٥١٠

١- (١) . سورة الفرقان، الآية ٧٧.

٢- (٢) . سورة غافر، الآية ٦٠.

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (١).

وفى الجملة الخامسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئِكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ».

وهذا إشاره إلى أنّ الدين الإسلامى يقوم على أساس أن البشر يستطيعون إقامة علاقه مباشره مع الله تعالى بدون توسط أحدٍ من العباد، كما هو الحال فى الصلاه التى نصلّيها كلّ يوم، فإننا من بدايتها إلى انتهائها وبخاصّه فى سوره الفاتحه نتحدّث مع الله تعالى بشكل مباشر بدون أية واسطه بيننا، وهذا يعدّ افتخاراً كبيراً للإسلام والمسلمين حيث فتح الإسلام طريق الارتباط المباشر مع الله للجميع، والآيات القرآنيه شاهده على هذا المعنى، لا سيّما الآيات الشريفه التى تبتدىء بكلمه «رَبَّنَا».

على العكس من ذلك بعض المذاهب الباطله التى تشترط وجود واسطه من المرشد وشيخ الطريقه بين العبد وربّه وأحياناً لا يجيدون إقامة ارتباط مباشر مع الله تعالى.

وهنا يثار هذا السؤال، وهو أنّ مسأله الشفاعة فى الإسلام، أى شفاعه النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام وصالح المؤمنين، وردت بكثره فى الآيات القرآنيه والروايات الشريفه حيث تدلّ على شفاعه الشفعاء فى الدنيا والآخره، ألا تتنافى مثل هذه الشفاعة مع الارتباط المباشر مع الله تعالى؟

والجواب على هذا السؤال يتّضح بالالتفات إلى نقطتين:

الأولى: إنّ هذا المعنى لا ينفى وجود الارتباط المباشر، بل إنّ الارتباط المباشر بالله تعالى محفوظ فى محلّه، والمسلمون يرتبطون بالله فى كلّ يوم وليله بشكل مباشر فى صلاتهم ودعائهم، والشفاعة بدورها لها مكانه خاصّه وثابته، وبعبارة أخرى أنّ كلا الطريقين يوصلان الإنسان برحمه الله ولطفه ولا تقاطع بينهما حيث

ص: ٥١١

الثانية: وردت في الآيات القرآنية الإشارة إلى هذه النقطة في أكثر من مورد وهي أنّ الشفاعة بدورها إنّما تتحقّق بإذن الله، وعلى ضوء ذلك فالشخص الذى يتوسّل بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام ويطلب منهم الشفاعة، يجب عليه إلى جانب ذلك أن يطلب من الله الإذن لهم بالشفاعة، فإذن الشفاعة يعتبر مكمل للارتباط المباشر بالله تعالى.

وبيان آخر، إنّنى أطلب قضاء حوائجى من الله تعالى مباشرة، ولكن أحياناً تكون الحاجه معقده ومهمه، أو إنّنى ملوّث بالذنوب بدرجه أشعر معها أنّنى لا أستطيع نيل بغيتى وتحقيق مرادى لوحدى ومن خلال الدعاء فقط، هنا أتوسّل بالأولياء الإلهيين الذين لهم مكانه واعتبار عند الله تعالى أن يشفعوا لى عند الله تعالى بإذن الله، على سبيل المثال، نرى أنّ إخوه يوسف بعد ما ارتكبوا تلكم الجرائم فى أخيهم شعروا بأنّ ذنبهم عظيم إلى درجه أنّهم لا يستطيعون طلب العفو بشكل مباشر من أخيهم يوسف عليه السلام أو من الله تعالى، وبذلك توسّلوا بأبيهم وقالوا: «يا أباَنَا اسْتَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» (١).

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد أن يطرح مسأله الدعاء يتعرّض لمسأله التوبه ويتحدّث عنها بكلمات بليغه وزاخره بالمضامين العاليه ويبين أنّ اللطف الإلهيّ يشمل المذنبين التائبين، ويؤكد هذا المعنى فى ثمان جمل:

١. «وَلَمْ يَمْنَعَكَ إِذْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ»، حيث فتح أمامك أبواب التوبه مع إساءتك.

٢. «وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنَّقْمَةِ»، فأخّر العقوبه لعلّك تتوب من ذنبك.

٣. «وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ»، كما هو حال الأشخاص الذين يعيشون حبّ الانتقام من التائبين ويواجهونهم باللوم والتوبيخ والتفريع.

٤. «وَلَمْ يَفْضَحْ حَكَ حَيْثُ الْفَضَّةُ يَحُهُ بِكَ أَوْلَى»، وليس كما يتعامل بعض أصحاب النفوس الضعيفه الذين يتحرّكون على مستوى فضح الطرف المقابل بأدنى زلّه.

٥. «وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ»، بخلاف ما يتعامل به أصحاب الشخصيات الهزيلة مع الآخرين.

٦. «وَلَمْ يُنَاقِشْكَ (١) بِالْجَرِيمَةِ»، بل يصفح عنك ومن دون استعتاب ومؤاخذه.

٧. «وَلَمْ يُؤَيِّدِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ (٢) عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتِكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتِكَ عَشْرًا»، ومهما كان ذنبك عظيماً ووزرك ثقيلاً فإنّ الله تعالى فتح باب العوده والتوبه والإنابه إليك، وجعل هذه العوده حسنه لك، والأهم من ذلك أنه جعل سيئتك واحده، وضاعف حسنتك إلى عشر حسنات.

٨. «وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الْإِسْتِعْتَابِ (٣)»، أى أنّ الله تعالى فتح باب العوده إليه دائماً.

هذه العبارات فى الحقيقه مقتبسه من الآيات القرآنيه الكريمه التى تتحدّث عن التوبه وآثارها والألطف الإلهيه بالنسبه للتائبين والمنيبين.

والقرآن الكريم يقول: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٤).

وفى مورد آخر يتحدّث عن قبول التوبه ويقول: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» (٥).

وفى مورد آخر يتحدّث عن عدم تعجيل العقوبه للمذنبين ويقول: «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ

ص: ٥١٣

١- (١). «لَمْ يُنَاقِشْكَ» من «المناقشه» بمعنى الدقه والتشدد فى الحساب، ومن هنا اطلقت هذه المفرده على المناظره الدقيقه والمباحثات الكلاميه الشائكه.

٢- (٢). «نُزُوعٌ» بمعنى الانفصال عن شىء، ومن هنا اطلقت كلمه «نزع» على حاله الإنسان فى سكرات الموت لأنّها لحظات انفصال الروح عن الجسد.

٣- (٣). «الاستعتاب» مرّ تفسيرها فى القسم الثامن عشر من هذه الوصيه.

٤- (٤). سوره النور، الآيه ٣١.

٥- (٥). سوره الشورى، الآيه ٢٥.

ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ» (١).

وفيما يخصّ عدم اليأس من رحمه الله يتحدّث القرآن الكريم بعبارات زاخره باللطف ومفعمه بالمحبّه، يقول للنبيّ صلى الله عليه وآله: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (٢).

وبالنسبة لتبديل السيئات بالحسنات يقول تعالى: «إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ» (٣).

وما يخصّ كتابه السيئات بمقدارها وكتابه الحسنات بعشر أمثالها يقول تعالى:

«مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (٤).

ومن المعلوم أنّ التوبه تعتبر أوّل خطوه في طريق السلوك إلى الله تعالى ومن هنا يعتبر السالكون إلى الله التوبه أوّل منزل من منازل هذا الطريق، وعندما نرى أنّ الإمام عليه السلام يذكر التوبه بعد الدعاء، فذلك لأنّ التوبه أيضاً نوع من الدعاء، أى الدعاء لطلب العفو والرحمه من الله تعالى، وما لم يتقدّم الإنسان بهذه الخطوه، لن يغسل عن روحه وقلبه غبار الذنوب، وما لم يزح حجاب المعصيه عن عين قلبه، فإنّ سلوك هذا الطريق يكون عسيراً أو غير ممكن.

ونقرأ في الأدعيه وروايات المعصومين عليهم السلام أيضاً إشارات كثيره وتعبيرات لطيفه عن هذا الموضوع، وذلك ما ورد في مناجاه التائبين (وهى أوّل مناجاه من المناجيات الخمسه عشر للإمام زين العابدين عليه السلام) فنقرأ: «إِلَهِي أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَىٰ عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ فَقُلْتَ: «تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً» فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ الْبَابِ بَعْدَ فَتْحِهِ».

ص: ٥١٤

١- (١) . سورة الكهف، الآية ٥٨.

٢- (٢) . سورة الزمر، الآية ٥٣.

٣- (٣) . سورة الفرقان، الآية ٧٠.

٤- (٤) . سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

أجل، فالإمام عليه السلام بوصفه مرشداً مطلعاً مجرباً يأخذ بيد ولده الشاب ويسير به في هذا الطريق من منزل لآخر إلى حيث الوصول إلى منزل القرب الإلهي.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه لولده ويوصيه بالدعاء والمناجاة لله وطلب الحاجه إليه، ويقول: «فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ (١) إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْتَشْتَهُ (٢) ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَّوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعْنَيْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ».

ففي هذه فقره من كلام الإمام عليه السلام يعلم الإمام ولده كيفية المناجاة والابتهاج مع إلى الله تعالى ويقول: اطلب حاجتك منه تعالى وافتح له قلبك وأبرز له هواجسك ومكنوناتك، وتحدث معه عن معاناتك وهمومك، واطلب منه المعونه في جميع أمورك، فهذه الأمور الخمسه تشكل محاور مناجاة العباد مع ربهم وقد أشار إليها الإمام عليه السلام بعبارات بليغه وموجزه.

ثم إن الإمام عليه السلام بين لولده كيفية الطلب من الله تعالى وعدد له مواهبه ونعمه المهمه التي ينبغي للإنسان أن يطلبها من الله تعالى دائماً ويقول: «وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ».

فهنا نرى الإمام عليه السلام بعد أن يؤكد على أن الله تعالى يملك مواهب ونعماً في خزائن رحمته ولا يستطيع أي مخلوق إعطاء هذه النعم للإنسان، يشير الإمام عليه السلام إلى ثلاث من هذه النعم:

١. العمر الطويل، الذي يتيح للإنسان أن يتحرك على مستوى بناء ذاته وتركيبه نفسه وزيادة حسناته.

٢. الصّحة والسلامه، وبدون هذه الصّحة والسلامه فلا يترتب على زيادة العمر

ص: ٥١٥

١- (١). «أفضيت» من «الإفضاء» و «فضاء» وتأتى بمعنى الوصول إلى شيء وكأثماً دخل في فضائه وجوه.

٢- (٢). «أبتشته» من ماده «بث» بمعنى فرق ونشر، وهنا جاءت بمعنى نشرت له عن سرّك وأظهرت عن مكنوناتك.

سوى مزيد من الألم والمعاناه وأحياناً يؤدي إلى الابتعاد عن الله والإعراض عن رحمته.

٣. الرزق الوفير، لأنّ الإنسان بدون إمكانيات ماليه غير قادر على أداء الكثير من الحسنات والخيرات، من قبيل صله الرحم، كفاله الأيتام، إعانه المحتاجين، بناء المدارس، المستشفيات، نشر علوم الإسلام ومعارف أهل البيت عليهم السلام، ضيافه المؤمنين وما إلى ذلك.

وطبعاً هذا في صورته أن يكون المقصود من الأرزاق في هذه العبارة الأرزاق الماديه، ولكن إذا توسّعنا في مفهوم الرزق بحيث يشمل العلوم والمعارف، النفوذ الإجتماعي، القوى الجسميه والنفسيه وما شاكل ذلك، فسوف يكون المطلوب أوضح وأبين.

ومما لا شك فيه أنّ طول العمر وصحة البدن وسعه الرزق تتصل بشكل وثيق بسعي الإنسان وجهده بأن يراعى المسائل الصحيه ويجتنب عوامل الضرر وموجبات المرض، ويتحرك في واقع الحياه بطلب الرزق، ولكن بشكل عام فإنّ هذه الأمور مرتبه بمشيئته الله تعالى، والعوامل التي يفرضها ويقررها الباري في عالم الغيب وهي خافيه علينا، وعلى حدّ تعبير الإمام عليه السلام: إنّها من خزائن رحمه الله تعالى الذي لا يقدر على إعطائك غيره.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا الموضوع أيضاً في حديثه عن دعاء النبي إبراهيم عليه السلام وقوله: «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي يَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ» (١).

ومن المعلوم أنّ المواهب الإلهيه لا تنحصر بزيادة العمر وصحة البدن وسعه الرزق، ولكن لا شك أنّ الأركان الأصليه لهذه النعم والمواهب الإلهيه تتمحور حول هذه الأمور الثلاثه، لأنّ الأصل والعمده في أعمال الخير ينبثق من هذه الأمور.

ص: ٥١٦

وفى بيان مفاتيح هذه الخزائن الإلهية يقول الإمام عليه السلام: «ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَدْنَى لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ».

ويتبين من هذا الكلام أنّ الدعاء والابتهاال إلى الله تعالى له تأثير كبير فى نيل المطلوب والانتفاع بالنعم المتوفّره فى هذه الخزائن اللامتناهيه ويتبين أيضاً دور الدعاء فى فتح أبواب هذه الخزائن الغيبية.

وطبعاً فالدعاء يستلزم توفّر شروطه، منها أن يبذل الإنسان جهده بما لديه من إمكانيات فى هذا السبيل، ثم يتوسّل بالدعاء لما ليس له قدره عليه وما هو خارج عن إمكانياته.

ثم يخرج الإمام عليه السلام بهذه النتيجة: «فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمَطَرْتَ شَأْيِبَ (١) رَحْمَتِهِ».

ومعلوم أنّ خزائن الله تمثّل مجموعه النعم الماديه والمعنويه للمخلوقات، وأنّ مفتاح أبواب هذه الخزائن هو الدعاء، وبكلمه أخرى أنّ الإمام عليه السلام شبه نعم الله تعالى بمطر الرحمه حيث يستطيع الإنسان أن يستمطر هذه الرحمه الإلهية من سماء القدره الإلهية المطلقه واللفظ الإلهي العميم على أرض وجوده ويروى ظمأ قلبه وعطش روحه.

وجاء فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الدُّعَاءُ مَفَاتِيحُ النَّجَاحِ وَمَقَالِيدُ الْفَلَاحِ وَخَيْرُ الدُّعَاءِ مَا صَدَرَ عَنِ صَدْرِ نَقِيٍّ وَقَلْبٍ تَقِيٍّ» (٢).

وهنا يشار سؤال مهمّ ومعروف، والإمام عليه السلام يجيب عنه بلا- فصل، وهو: لماذا لا- تستجاب الكثير من أديتنا، أو تتأخر الإجابة مدّه طويله، فلو كان الدعاء يفتح أبواب رحمه الله، فلماذا لا يفتح هذا المفتاح الباب أو يستغرق فتحها مدّه من الزمان؟ فى حين أنّ الآيات الشريفه التى تعتبر الدعاء مفتاح الإجابة المطلقه وشامله

ص: ٥١٧

١- (١). «شأيب» جمع «شؤبوب» على وزن «بهلول» بمعنى هطول المطر بغزاره وأحياناً تأتي بمعنى كل شدّه.

٢- (٢). الكافي، ج ٢، ص ٢٦٨، ح ٢.

لجميع الحالات، ففي مورد يقول القرآن الكريم: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (١)، وفي مورد آخر يقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» (٢).

ويجب الإمام عليه السلام عن هذا السؤال بالإشارة إلى أربع نقاط:

الأولى: أحياناً تكون نية الداعي ملوثة ولا يصدر الدعاء عن قلب نقي وظاهر من الذنوب، يقول: «فَلَا يُفْنِطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ».

وهذا الحديث الشريف الذي قرأناه آنفاً مذكور في كتاب الكافي وأن الدعاء إنما يستجاب إذا صدر من قلب نقي وظاهر، وعلى هذا الأساس إذا لم تستجب بعض الأدعية ويستجاب البعض الآخر، فذلك ناشىء من تلوث النية، والروايات التي تقرّر أن أحد شرائط استجابته الدعاء التوبة من الذنوب، تشير إلى هذا المعنى أيضاً.

وأشار الإمام عليه السلام إلى المانع الثاني في قوله: «وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْأَمَلِ».

وبيان آخر أن الله تعالى قد يؤخر استجابته دعاء عبده ليقبى العبد فتره أطول أمام باب بيته، وبالتالي يحصل على مواهب أكثر وأوفر وذلك بسبب محبة الله لهذا العبد.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى المانع الثالث من استجابته الدعاء ويقول: «وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيَتْ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً».

وهو إشارته إلى أنك ربّما تطلب شيئاً قليلاً وتافهاً من الله تعالى ولكن الله بمقتضى عظمته وسعه رحمته لا يستجيب لك ولا يعطيك ما تطلب، بل يعطيك خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، كالشخص الذي يتوجه لشخص كريم فيطلب منه داراً وضيعه مثلاً ولكن ذلك الكريم لا يقبل ويمتنع عن إعطائه ما يريد، لأنه سيعطيه فيما بعد داراً أوسع وأفضل ممّا طلب.

ص: ٥١٨

١- (١). سورة غافر، الآية ٦٠.

٢- (٢). سورة البقرة، الآية ١٨٦.

ثُمَّ يَبَيِّنُ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّبَبَ الرَّابِعَ لِعَدَمِ اسْتِجَابَةِ الدَّعَاءِ، وَالَّذِي يَعتَبِرُ أَهَمَّ سَبَبٍ فِي ذَلِكَ، يَقُولُ: «أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيْتَهُ».

فالكثير من الناس وبسبب عدم اطلاعهم على عواقب الأمور يطلبون مسائل وحاجات من الله تعالى بإصرار وإلحاح، في حين أن هذا الطلب فيه هلاكه وفساده، وبما أن الله تعالى عالم بعواقب الأمور، فإنه لا يستجيب مثل هذا الدعاء، ولكنه لا يخيب أمل عبده، فيعطيه ما فيه فلاحه ونفعه.

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة أيضاً ويقول: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» (١).

ونقرأ في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ عِبَاداً لَا يَصِلُحُ لَهُمْ أَمْرٌ دِينِهِمْ إِلَّا بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ وَالصَّحَّةِ فِي الْبَدَنِ فَأَبْلُوهُمْ بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ وَصِحَّةِ الْبَدَنِ فَيَصِلُحُ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ دِينِهِمْ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لِعِبَاداً لَا يَصِلُحُ لَهُمْ أَمْرٌ دِينِهِمْ إِلَّا بِالْفَاقَةِ وَالْمَسْكِينَةِ وَالسُّقْمِ فِي أَيْدِيهِمْ فَأَبْلُوهُمْ بِالْفَاقَةِ وَالْمَسْكِينَةِ وَالسُّقْمِ فَيَصِلُحُ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ دِينِهِمْ» (٢).

وهناك نماذج جليته على امتداد التاريخ وحتى في زمان صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام تحكى عن وجود بعض الأفراد من ذوى الذهنية الضيقة يطلبون من الله تعالى وإصرار ويتوسلون إليه بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو الأئمة المعصومين عليهم السلام أن يوسع في رزقهم، وبعد الإصرار والطلب من النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام أن يدعو لهم بسعه الرزق تفضى بهم سعه الرزق إلى حالة من الطغيان والتمرد، بل ينطق بعض هؤلاء بكلمات يستشتم منها الإرتداد عن الدين والإيمان كما فى القصة المعروفة عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى الذى كان يصر على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن يدعو له بالمال الوفير،

ص: ٥١٩

١- (١). سورة البقرة، الآية ٢١٦.

٢- (٢). أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٠، ح ٤.

وكان النبي يعلم بحاله ومستقبله وكان يقول له: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ»، أليس من الأفضل أن تتأسى بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتقتنع بحياه بسيطه؟ ولكن ثعلبه بقى مصرّاً على طلبه، وأخيراً دعا له النبي وحصل على ثروه كبيره من ميراث خلفه له أحد أرحامه، فاشترى بهذا المال ماشيه، وازدادت وكثرت تدريجياً حتى أصبح من العسير الاحتفاظ بها فى المدينه، فاضطرّ ثعلبه إلى الخروج إلى خارج المدينه وعلق بحياته الماديه حتى ترك صلاه الجماعه والجمعه خلف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خلافاً لعاداته السابقه حيث كان يشترك فى جميع صلوات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وبعد مدّه أرسل إليه النبي من يقبض منه زكاه أمواله، فامتنع ثعلبه من دفع الزكاه واعترض على أصل تشريع هذا الحكم الإلهي وقال: هل هذا إلّا الجزية التى تؤخذ من أهل الكتاب، نحن أسلمنا لئلا ندفع الجزية، وعندما وصل خبره إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ» (١).

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى مسأله الدعاء ويصل إلى نتيجه مهمّه ويقول:

«فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتَكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ».

تأمل: شروط استجابته الدعاء

قد يتصوّر البعض أنّ عبارات من قبيل: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (٢) مطلقه وغير مقيدة بأى قيد وشرط وأنّ الإنسان عندما يدعو بأى دعاء فعليه أن يتوقّع الإجابة

ص: ٥٢٠

١- (١) انظر: تفسير مجمع البيان والقرطبي والطبري و تفسير الأمل و كتب أخرى فى ذيل الآيه الشريفه ٧٥ إلى ٧٨ من سوره التوبه.

٢- (٢) . سوره غافر، الآيه ٦٠.

وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَسْتَجِيبُ لَهُ هَذَا الدُّعَاءَ بِلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ، فِي حِينَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، فَقَدْ وَرَدَ فِي رَوَايَاتٍ عَدَّةٍ عَنِ الْأَئِمَّةِ الْمُعْصَمِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شُرُوطَ عَدَّةٍ لِاسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ، مِنْهَا التَّوْبَةُ وَصَفَاءُ الْقَلْبِ، يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«إِيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ شَيْئًا مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَبْدَأَ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ وَالْمِدْحَةِ لَهُ وَالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ ثُمَّ الْإِعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ وَالتَّوْبَةِ ثُمَّ الْمَسْأَلَةِ» (١).

والشرط الآخر أن يعيش الداعي حياه الطهر والنقاء، خاصه من الأطمعه المحرّمه والكسب الحرام كما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ فَلْيَطِيبْ مَطْعَمَهُ وَمَكْسَبَهُ» (٢).

في حين أنّ الكثير من الناس في حال الدعاء لا يعيشون حاله التوبه ولا يجتنبون الأطمعه المحرّمه أو الملوّثه، ثم يتوقعون أن يستجيب الله تعالى لهم دعاءهم.

وكذلك من شروط الدعاء السعى وبذل الجهد في طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأشخاص الذين يشاهدون مظاهر المنكر والذنب ولا يثير ذلك فيهم أي ردّه فعل، فلا يحقّ لهم أن يتوقعوا استجابته دعائهم، كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «وَلَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَيْنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَسْلِطَنَّ اللَّهُ شِرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» (٣).

وجاء في الحديث الشريف أنّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام وشكا إليه عدم استجابته دعائه، وقال: لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فذكر الإمام عليه السلام في هذا الحديث الشريف ثمانية شروط لاستجابته الدعاء، وقد ورد بعضها في الأحاديث المذكوره

ص: ٥٢١

١- (١) . مستدرک الوسائل، ج ٥، ص ٢١٦، ح ١١ وكتب عديده أخرى.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٧٢.

٣- (٣) . أصول الكافي، ج ٥، ص ٥٦، ح ٣.

أعلاه (١).

ولمزيد من التوضيح راجع كتاب «المفاتيح الجديدة» ص ٢١ إلى ٢٥ والتفسير الأمثل في ذيل الآيه الشريفه: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي...» (٢).

ص: ٥٢٢

١- (١) . سفينه البحار، ج ١ بحث الدعاء.

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ١٨٦.

وَاعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعِهِ وَدَارِ بُلْعِهِ، وَطَرِيقِ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَائِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالِ سَيِّئِهِ، فَذَكَرْتَ تَحَدُّثُ نَفْسِكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيُحْوَلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

الشرح والتفسير: الغاية من الخلق

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصية عن عدّه أمور مهمّه حول الغاية من خلق الإنسان وحقيقه الدنيا والحياه وموقف الإنسان في مقابل الموت، حيث تمثل كل هذه التوصيات تحذيراً لولده وجميع الأشخاص الذين يقرأون هذه الوصيه.

بدايه يقول: «وَاعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا وَلِلْفَنَاءِ لِلْبَقَاءِ وَلِلْمَوْتِ لِلْحَيَاةِ».

في منظار الإسلام والأديان الإلهيه أنّ الهدف من خلق الإنسان ليس هو الحياه في هذه الدنيا، بل إنّ هذه الحياه تعتبر ممراً وقنطرةً يعبر منها الإنسان إلى الآخرة، وسوقاً للتجاره لكسب الزاد والمتاع، ونهايه هذه الحياه الدنيويه ستنتهي إلى الموت والفناء، ولا يبقى حتى الأنبياء الإلهيون.

وبالنسبه للغرض من خلق الإنسان وردت تعبيرات مختلفه في الآيات والروايات الشريفه، والقرآن الكريم يقول في سوره الذاريات: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»(١).

وعلى هذا الأساس فإنّ الهدف من خلق الإنسان كما تبين الآيه الشريفه هو العبوديّة والعباده لله تعالى.

ويقول فى الآيه الثانيه من سوره الملك: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَنَّى كُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

ومن المعلوم أنّ الاختبار الإلهي يهدف إلى تحسين عمل الإنسان فى واقع الحياه والعبوديه لتهديب النفوس، ونتيجته كلّ ذلك نيل السعاده الأبدية فى الآخرة، ومن هذا المنطلق تعود جميع الأهداف إلى هدف واحد.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى النقطة الثانيه، يعنى حقيقه الدنيا ومكانتها فى الرؤيه الكونيه ويقول: «وَأَنَّكَ فِي قُلْعِهِ (٢) وَدَارِ بُلْعِهِ (٣)، وَطَرِيقِ إِلَى الْآخِرَةِ».

وهنا يبيّن الإمام عليه السلام الهدف من خلق الإنسان وكذلك ماهيه الحياه الدنيويه، فالهدف من خلق الإنسان ضمان الحياه السعيده فى الآخرة لا مجرد الحياه فى هذه الدنيا، ومن هنا فإنّ نهايه الحياه الدنيا هى الفناء لا البقاء، وعلى حدّ تعبير القرآن:

«وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ»(٤)، وهذا المعنى انعكس فى الكثير من الآيات القرآنيه.

أمّا تعبير الإمام عليه السلام عن الدنيا بأنّها «قُلْعُهُ» (وهى المحلّ والمنزل الذى ينبغى مغادرته)، وعبارته «بُلْعُهُ» (المحلّ الذى ينبغى التزوّد منه وتحصيل الزاد والمتاع) فهذه الحقيقه انعكست أيضاً فى الآيات القرآنيه من قبيل قوله تعالى: «إِنَّكَ مَيِّتٌ

ص: ٥٢٤

١- (١) . سوره الذاريات، الآيه ٥٦.

٢- (٢) . «قُلْعُهُ» لها معانٍ كثيره: وتطلق على الإنسان الضعيف والشخص العاجز عن حفظ نفسه على سرج الجواد، ولا يقدر على حفظ أمواله فلا- تبقى بيده، كذلك تطلق كلمه «قُلْعُهُ» على المكان الذى ينبغى مغادرته، وفى عبارته أعلاه جاءت بالمعنى الأخير، وأصلها من ماده «قلع» و «يقلع».

٣- (٣) . «بُلْعُهُ» بمعنى الزاد المتاع الذى يوصل الإنسان إلى مقصده، وهو من «البلوغ» و «بلاغ»، لأنّ الزاد يبلغ الإنسان إلى مقصده.

٤- (٤) . سوره العنكبوت، الآيه ٦٤.

وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» (١).

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (٢).

«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» (٣).

فكل هذه الآيات ناظرة إلى هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى:

«وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٤) يشير أيضاً إلى دار «دار بلغة».

وعندما ننظر إلى الدنيا والآخرة من هذه الزوايا وبهذا المنظار الذى بينه الإمام عليه السلام فى هذه العبارة، فإن رؤيتنا للحياه ستبدل، فلا يبقى أثر للحرص والطمع، وسوف تزول الآمال الطويله والطموحات الموهومه، وينتهى التكالب على حطام الدنيا والنزاع مع أهلها لجمع الأموال والثروات ولا يبقى معنى للبخل واكتناز الأموال، بل كل شىء يكون لله وفى سبيل الله ومن أجل نيل رضا الله تعالى ولتحقيق السعاده الأبدية فى الآخرة.

ويشير الإمام عليه السلام فى النقطه الثالثه إلى هذه الحقيقه، وهى أن الموت من ورائك وسوف تقع فى شباكه حتماً، فلا مفر منه لكل حى: «وَأَنَّكَ طَرِيدٌ» (٥) الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَائِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ».

والتعبير ب «طريد» يعنى الشخص الهارب ممن يتعقبه، أو الصيد الذى يتعقبه الصياد، وهذا تعبير بليغ جداً، وكأن الإنسان فى بدايه عمره يفتر من الموت الذى يريد اصطياده، فتارةً يصطاده فى مرحله الطفوله، وأخرى فى مرحله الشباب، وثالثه فى مرحله الشيخوخه، فلا أحد يستطيع النجاه والهرب من هذا الصياد كما يقول القرآن الكريم: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ» (٦).

ص: ٥٢٥

١- (١) . سورة الزمر، الآية ٣٠.

٢- (٢) . سورة العنكبوت، الآية ٥٧.

٣- (٣) . سورة الرحمن، الآية ٢٦.

٤- (٤) . سورة البقره، الآية ١٩٧.

٥- (٥) . «طريد» بمعنى «مطروء» أو الصيد الذى يتبعه الصياد وهو من ماده «طرد» بمعنى دفعه إلى الهرب.

٦- (٦) . سورة النساء، الآية ٧٨.

وفى آيه أخرى يقول: «قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَزْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ» (١).

أجل، فالإنسان مهما شكَّ فى أى شىء فإنه لا يستطيع الشكَّ فى هذه الحقيقه الحاسمه، وهى أنه سيأتى اليوم الذى لابد أن يرحل من هذا العالم، وهذا اليوم غير معلوم، لا فى تاريخه ولا فى الساعه أو الدقيقه، فربما يكون بعيداً وربما يكون قريباً جداً، اليوم أو غد، والملفت أنه لا يوجد أى استثناء لهذا القانون، فأصحاب القدره والثروه والأطباء الحاذقون وحتى الأنبياء والأولياء يخضعون لهذا القانون، والقرآن الكريم يخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» (٢).

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى نقطه مهمه هى آخر تحذير فى هذا المقطع من الوصيه ويقول: «فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيُحَوَّلَ بَيْنَكَ بَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ».

وفى هذا التحذير والإنذار يلفت الإمام عليه السلام نظر ولده إلى هذه الحقيقه، وهى أن زمان الموت مبهم وغير معلوم فى كل الأحوال، فأحياناً يرتكب الإنسان معصيه وينوى التوبه وتطهير صحيفه أعماله من لوث هذه المعصيه بعد ذلك، ولكن الموت يفاجئه بغته ويسلب منه هذه الفرصه، وكلنا رأينا أو سمعنا فى حياتنا بعض الأشخاص الذين أرادوا القيام بأعمال حسنه أو سيئه ولكن الموت باغتهم فى تلك اللحظه فلم يستطيعوا إنجاز ما عزموا عليه، ولم ينالوا بغيتهم.

وفى هذه الأيام التى نكتب فيها شرحاً لهذه الوصيه سمعنا خبراً من أجهزه الإعلام أن مهرجاناً اقيم فى بلدنا لأحد العلماء المعروفين، وقد اشترك فى ذلك المهرجان جماعه من الشخصيات والمدعوين وجلس ذلك العالم وهو ينتظر بفارغ الصبر استلام الجائزه، وفجأه فى ذلك المكان حان أجله وأصيب بسكته قلبية، وانتهى كل شىء (٣).

ص: ٥٢٦

١- (١). سوره الأحزاب، الآيه ١٦.

٢- (٢). سوره الزمر، الآيه ٣٠.

٣- (٣). كان المرحوم الدكتور باقر آيه الله زاده الشيرازى استاذاً قديراً فى مجال الترميم والعمران، وله إعتقادات دينيه قويه وعميقه، وقد ابتداءً بهذه الآيه الشريفه «إِنَّا لَأَنْضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا» (الكهف، الآيه ٣٠) فى محاضراته فى ذلك المهرجان.

ونقرأ فى روايه المفصّل المعروفه أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول للمفصّل: إذا كنت تسأل لماذا جعل الله تعالى مدّه حياه الإنسان مستوره وخفيّه وربّما حان أجله فى ساعه يمارس فيها الإثم ويقترب المعصيه؟ فالجواب: الغرض من ذلك أنّ الإنسان مع أنّه لا يعرف زمان موته، إلّا أنّه يتحرّك فى خطّ المعصيه وارتكاب الإثم، ولو كان يعلم زمان موته وحدود أجله، وكان يأمل بطول البقاء، فإنّه سيتجرّأ على المعاصى أكثر، ومن هنا فإنّ توقّع الموت فى كلّ لحظه وعلى أيّه حال أفضل من اطمئنانه بالبقاء، وعندما نرى أنّ هذا الانتظار لا- ينفع مع بعض الناس فإنّه مؤثّر قطعاً فى البعض الآخر، حيث يتعدون عن الذنوب والمعاصى ويتحرّكون فى خطّ الطاعه والمسؤوليه والأعمال الصالحه، وينفقون أموالهم على الفقراء والمساكين ويهتمون ببناء آخرتهم وإعمارها(1).

ص: ٥٢٧

١- (١) انظر: بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٤، (مع التلخيص والنقل بالمعنى).

يَا بُنَيَّ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرٍ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بِغَيْدِ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدَتْ لَهُ أَرْزَكَ، وَلَا يَأْتِيكَ بَعْتُهُ فَيَبْهَرَكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالِبَهُمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ تَبَّأَكَ اللَّهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسَبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيْزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمْ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحٌ عَاهِهِ بَوَادٍ وَعُغْثٌ، لَيْسَ لَهَا رَاعٌ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسَيِّمٌ يُسَيِّمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نَعْمَتِهَا وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

الشرح والتفسير: الدنيا الخداعه وأهلها

في هذا المقطع من الوصية يحذر الإمام عليه السلام ولده من الركون إلى الدنيا ويؤكد عليه أن يذكر الموت ويستعد له ولا يغتر بأفعال وسلوكيات أهل الدنيا.

بدايه يقول: «يَا بُنَيَّ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرٍ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بِغَيْدِ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ حِذْرَكَ (١)، وَشَدَدَتْ لَهُ أَرْزَكَ (٢)، وَلَا يَأْتِيكَ

ص: ٥٢٩

١- (١). «حذر» بمعنى التوقّي من الخطر والانتباه في مقابل المستجدات.

٢- (٢). «أزر» في الأصل من «إزار» وهو اللباس، وبخاصه اللباس الذي يرتديه الإنسان على وسطه، وبهذه المناسبة توحى هذه الكلمه بالتأييد والقدرة وامتلاك القوه.

وهذه هي الحقيقة الواضحة التي يعيش غالبية الناس الغفلة عنها، فالجميع يعلم أنّ عمر الإنسان ليس له تاريخ محدد حسب الظاهر، وأنه ربّما يواجه الموت في كلّ لحظة وفي كلّ زمان، بسبب الحوادث الخارجيه أو الحوادث الباطنيه (الأمراض المفاجئه) على مستوى الفرد والجماعه، والكثير من الناس يدركون هذه الحقيقه ويرون ظاهره الموت، إلّا أنّهم غافلون عنها، وأحياناً يغرقون في تفكير عميق عندما يشتركون في مجالس العزاء لأحد المفقودين من أعزائهم وأرحامهم، وربّما قرّروا في تلك اللحظه التهيؤ لسفر الآخره والاهتمام لتحصيل الزاد لهذا السفر المصيرى، ولكنّهم ما أن يخرجوا من ذلك المجلس حتّى يوضع هذا القرار في زاويه النسيان.

ويؤكّد الإمام عليه السلام في كلامه هذا على أنّك لا ينبغي أن تنسى هذه الحقيقه الملموسه، وعليك بالاستعداد لاستقبال الموت، واحذر من أن يباغتك فجأه وأنت غير مستعدّ له.

ومرّ علينا قول الإمام عليه السلام في الخطبه ١١٤ في نهج البلاغه: «فَبَادِرُوا الْعَمَلَ وَخَافُوا بُعْتَهُ الْأَجَلَ».

وفي الديوان المنسوب للإمام أمير المؤمنين على عليه السلام نقراً أشعاراً عميقه المعنى في هذا المجال منها:

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلَ

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه في تحذير ولده من الاغترار بالدنيا والاندفاع بأعمال أهلها فإنّهم كالحوانات المفترسه يتكالبون على ملذّاتها وزخارفها، ويقول: «وَأَيَّاكَ أَنْ تَعْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادٍ (٢) أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالِبِهِمْ (٣) عَلَيْهَا».

ص: ٥٣٠

١- (١). «يبهر» من «البهر» على وزن «بحر» بمعنى حاله تجعل الإنسان مبهوراً أمام الشىء.

٢- (٢). «إخلاق» من «الخُلْد» و «خلود» بمعنى السكون المستمر في مكان واحد، و «الإخلاق إلى الأرض» بمعنى الالتصاق بها، و «الإخلاق إلى الدنيا» يعنى التمسك بأمور الدنيا والتشبث بها.

٣- (٣). «تكالب» يعنى الهجوم لتحصيل شىء، وهى فى الأصل من ماده «كلب».

ثم يذكر دليلين لهذا الكلام ويقول: «فَقَدْ تَبَّأَكَ اللَّهُ عَنْهَا وَنَعَتْ (١) هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا».

وهنا آيات عدّه في القرآن الكريم تتحدّث عن وهميّة الدنيا وعدم ثباتها، منها:

«وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا» (٢).

وهذا المثال ناظر للأشخاص الذين يطوون مراحل العمر المختلفه (الطفولة والشباب والشيخوخه)، ولكنّ الكثير منهم لا يصلون لمراحل متقدّمه، بل يحين أجلهم ويغادرون الدنيا في المراحل الأولى أو المتوسطة لأسباب وعوامل مختلفه.

وأما قوله: «وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا»، فالمقصود أنّ الدنيا تحدّثت معك بلسان الحال، وهذا ما ورد في كلام آخر للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «أَيُّهَا الدَّائِمُ لِلدُّنْيَا الْمُعْتَرِّ بِغُرُورِهَا الْمُخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا...»

مَتَى غَرَّنَكَ! أَمْصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبَلِي، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى! (٣).

وكما قال الشاعر:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ لِمَنْ عَلِيهَا

أجل، فبريق الدنيا يثير في الإنسان النشاط والحركة، ولكن عندما يتعمّق الإنسان في حالاتها، يرى كثرة المتغيّرات فيها، وعدم وفائها وعدم ثباتها على حال، ويقوده التفكير والتدبّر في أمرها للبكاء والحزن.

ص: ٥٣١

١- (١). «نعت» من ماده «نعي» على وزن «سعي» وتعني الإخبار بموت شخص.

٢- (٢). سورة الكهف، الآية ٤٥.

٣- (٣). نهج البلاغه، الكلمات القصار، ١٣١.

ويستطرد الإمام عليه السلام فى كلامه فى بيان الدنيا وحالاتها، فيقسّم أهل الدنيا إلى أربع طوائف ويقول: «فإنّما أهلها كلابٌ عاويةٌ (١)، وسبّاعٌ ضاريةٌ (٢)، يهْرُ (٣) بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغيرَهَا، نَعَمٌ (٤) مُعَقَّلَةٌ (٥)، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ (٦)».

والحقيقه أنّ هذا التقسيم رائع ودقيق جدّاً:

إنّ الإمام عليه السلام يشبّه طائفه من الناس من أهل الدنيا بالكلاب التى اجتمعت حول جيفه وكلّ واحد منها يريد الاستحواذ عليها، فينبح على سائر الكلاب ويريد إبعادها عن هذه الجيفه، والمصداق البارز لهذه الطائفه الأثرياء والمترفين الذين يعيشون الغفله عن الله تعالى ويسعون دوماً لجمع الثروات واكتناز الأموال وإقصاء الآخرين عن طريقهم، فأحياناً يصرخون بوجههم، وأخرى يلتجئون إلى المحاكم ويسعون من خلال المحامين المنحازين أن يستحوذوا على أموال الآخرين بصيغ قانونيه، ونرى مثل هذه الحاله من التنافس بين الحكومات والدول من خلال الحرب الباردة وأجهزه الإعلام الكاذب حيث يسعون لاحتكار أسواق بلدان العالم الثالث والهيمنه والسيطره على ثروات الشعوب الأخرى.

وطائفه من أهل الدنيا يتمثلون فى عصرنا بالحكومات الاستكباريه وأصحاب القدره والنفوذ، (أو الأثرياء الذين يدعمون مثل هذه الحكومات) فنراهم يعيشون دوماً حالات التنافس غير المشروع ويسعون لنهب مصادر الثروه من الآخر، وفى كثير من الأحيان يشعلون الحروب المدمره من أجل التوصل إلى مقصودهم، ويسفكون دماء الآف الأبرياء ويدمرون المدن والقرى، أجل، هؤلاء الذئاب العاويه

ص: ٥٣٢

١- (١). «عاوية» بمعنى الكلاب التى تعوى.

٢- (٢). «ضارية» بمعنى المتوحشه، وهى من ماده «ضرو» على وزن «ضرب» وتعنى حاله التوحش فى النفس.

٣- (٣). «يهْرُ» من «الهير» وتعنى العواء والنباح.

٤- (٤). «نعم» الدواب وغالباً تطلق هذه الكلمه على الإبل (وتأتى هذه المفرده أحياناً بمعنى المفرد أو أخرى بمعنى الجمع، وفى هذه الجمله تشمل الإبل والبقر والغنم).

٥- (٥). «مُعَقَّلَةٌ» وهى المشدوده بالعقال، والعقال جبل خاصّ تربط به رجل البعير حول ركبته.

٦- (٦). «مُهْمَلَةٌ» يعنى المتروكه، وهنا تعنى الحيوان المتروك لحاله.

يتصارعون فيما بينهم على جيفه الدنيا، ويسحق الأقوياء منهم حقوق الضعفاء، ويتحرك الكبار فى إزاحه الصغار من طريقهم.

أما الطائفة الثالثه، فهم جماعه لا يملكون شيئاً من النفوذ والقدره، ولكن نراهم لا يمتنعون من أيه ذلك من أجل تحقيق متاع الدنيا، فيتعاملون مع أصحاب النفوذ والمستكبرين من موقع العبوديه والخنوع والخضوع.

الطائفة الرابعه تعيش كالحيوانات المتمرده والمتوحشه التى تعيش فى البرارى والقفار، وعلى حدّ تعبير الإمام عليه السلام فى كلامه: «قَدْ أَصَلَّتْ عُقُولُهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا سُرُوحٌ (١) عَاهَهُ (٢) بَوَادٍ وَعُثٌ (٣)».

ثم يضيف: «لَيْسَ لَهَا رَاعٌ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسَيِّمٌ (٤) يُسَيِّمُهَا، سَيَلَكْتُ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذْتُ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى فَتَاهُوا (٥) فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرَّقُوا فِي نِعْمَتِهَا، اتَّخَذُوا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا».

هؤلاء هم الفئه التى تعيش فى كلّ زمان بخاصّه فى عالمنا المعاصر، حيث تتخذ من العالم ميداناً لجولاتها وتتحرك فى كلّ مكان على مستوى الإفساد والتخريب، ويعيشون حاله الشغف اللامحدود بالمال والثروه والجاه والمقام، قد أعموا عيونهم عن رؤيه الحقائق، وأصمّوا آذانهم عن سماعهم كلمه الحقّ وغرقوا فى النعم الماديه من الذهب والثروات والمجوهرات والدرهم والدينار، وهؤلاء عبده الدرهم والدينار الذين يشعلون نار الحرب من أجل تحقيق مطامعهم الدنيويه، وأحياناً يصنعون أسلحه الدمار الشامل وبيعونها بأثمان باهظه لهذا وذاك ويوقدون نار الفتنة بينهم، فهؤلاء أضحوا العوبه بيد الدنيا والدنيا العوبه بيدهم، ومن هذه الجبهه نسوا الله

ص: ٥٣٣

١- (١). «سُرُوح» جمع «سرح» على وزن «شرح» وهو الحيوان الذى ترك فى الصحراء لياكل ويرعى.

٢- (٢). «عاهه» بمعنى الآفه والعيب.

٣- (٣). «وُعُثٌ» يعنى الطريق التى يسير فيها الشخص بصعوبه.

٤- (٤). «مُسَيِّمٌ» وهو الشخص الذى يسوق الحيوانات للرعى، وهى من «السؤم» على وزن «صوم» ويعنى الرعى.

٥- (٥). «تاهوا» من «التيه» وهو الحيره والتيه.

والمعاد واليوم الآخر تماماً.

والإمام عليه السلام فى هذه الكلمات يحذّر ولده وولده كبدته من هذه الطوائف الأربعة ويدعوه بالابتعاد عنهم، ليس لكونه ابن الإمام فقط، فالمخاطب للإمام عليه السلام يمتدّ ليشمل جميع أفراد البشر.

و «عقول» فى جملة «قَدْ أَصَلَّتْ عُقُولُهُمَا» جمع عقل وهو الفهم والدراية، ولكنّ البعض ذهب إلى أنّها جمع عقال (وهو الحبل الذى يعقل به الجمل) وحينئذٍ يكون مفهوم العبارة: هؤلاء قد أضلّوا الضوابط التى تضبط أمورهم فى الحياه، وبذلك يعيشون الحيره والتهيه فى صحراء الحياه، ولكن مع الالتفات إلى الجملة الثانية «وَرَكِبْتُ مَجْهُولَهَا» فإنّ المعنى الأوّل أنسب، مضافاً إلى أنّ «عقول» جمع عقل لا جمع عقال، لأنّ جمع عقال «عقل» على وزن قفل و «عُقل» على وزن كُتب.

وعلى أيّ حال فالتقسيم الذى ذكره الإمام عليه السلام لأصناف أهل الدنيا وطوائفهم المختلفه يعتبر تقسيماً دقيقاً ورائعاً بحيث يستطيع المرء تشخيص هذه الفئات بسهولة ويتحرّك بحذر ويقظه بعيداً عنهم، وهذه الطوائف والفئات:

١. فئه الفوضويين وأصحاب وسائل الإعلام المضلّله.

٢. فئه الوحوش الذين يتكالبون على ثروات الدنيا ويرومون السيطرة عليها.

٣. فئه العبيد الذين يتحرّكون فى خطّ الذلّه والمهانته من أجل التوصل إلى المال والمقام.

٤. فئه الأراذل وأتباع الشهوات الذين تركوا عقولهم وساروا فى متاهات الحياه، وهؤلاء يعبدون الذهب والفضه والدرهم والدينار، وغايتهم من الحياه إشباع الغرائز وطلب الملذّات الرخيصه.

ج ج

ص: ٥٣٤

رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامَ، كَانَ قَدْ وَرَدَتِ الْأَطْعَانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ! وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَقِيفًا، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَإِدْعَاءً.

الشرح والتفسير: السائرون بمركب الليل والنهار

فى هذا المقطع من الوصيه يحذّر الإمام عليه السلام مرّه أخرى ولده العزيز من هجوم الموت ونهايه العمر، ويقول: رُوَيْدًا (١) يُسْفِرُ (٢) الظَّلَامَ.

والمقصود من الظلام فى هذه العبارة الجهل بحال الدنيا وتقلباتها حيث يتصوّر بعض الجهّال ثباتها وديمومه حالاتها، ولكن لا تمضى فتره حتّى يواجهون الموت بهيئته الموحشه.

ثمّ يشبّه الإمام عليه السلام، أهل هذا العالم بالمسافرين الذين يتحرّكون باتجاه المنزل المقصود ويقول: «كَأَنَّ قَدْ وَرَدَتِ الْأَطْعَانُ (٣)».

ص: ٥٣٥

١- (١). «رُوَيْدًا» من ماده «رود» على وزن «عود» فى الأصل تعنى الغدو والرواح والسعى لأداء عمل معيّن بلطافه وليونه، وهذه المفردة تأتى بمعنى المصدر وتقترب من التصغير، يعنى أملهنى وفتره وجيزه، والسبب فى نصب رويداً أنّها مفعول مطلق لفعل محذوف، وكأَنَّها فى الأصل يقال: «أَمِهْلُ إِمِهَالًا قَلِيلاً».

٢- (٢). «يُسْفِرُ» من ماده «سفر» على وزن «فقر» وتعنى كشف الغطاء وإزاحه اللثام، ولذلك يقال للمرأة غير المحجّبه سافره، وتستعمل هذه الكلمه فى طلوع الصبح وكأنّ الصبح يكشف عن لثامه ويزيح نقابه ويشرق، وهنا ظلام فاعل، وفى الحقيقه أنّه شبّه الصبح بموجود نورانيّ قد حجب بظلمات الجهل ولكن يوشك أن يزاح النقاب عنه.

٣- (٣). «أَطْعَانُ» تأتى أحياناً جمع «ظعينه» بمعنى الهودج الذى يوضع على الجمل أثناء السفر للركوب، وورود الأطعان يعنى أنّ المسافرين أوشكوا على الوصول.

ثم يضيف: «يُوشِكُ (١) مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ»، فمن يسير بسرعه في هذا السفر يوشك أن يصل إلى الموت.

والمراد من «مَنْ أَسْرَعَ» جميع أفراد البشر لا طائفه خاصه، لأنّ جميع الناس يتحرّكون بسرعه باتجاه المنزل النهائي، وهو نهايه الحياه.

ويطرح الإمام عليه السلام تشبيهاً جميلاً عن الناس في هذا العالم ويقول: «وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ (٢) اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَقِافاً، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا (٣)».

وهو إشاره إلى أنّ الحركه باتجاه نهايه العمر هي حركه إجباريه وحتميه لا اختياريه، فالجميع يركبون مطيه الزمان ويتحرّكون بيد التقدير الإلهي، وسرعان ما يصلون - شأؤوا أم أبوا - إلى نقطه النهايه، وإن كان الكثير منهم يعيشون الغفله عن هذا المصير.

وهناك تعابير أخرى وردت في سائر كلمات الإمام عليه السلام في هذا المجال، منها قوله: «أَهْلُ الدُّنْيَا كَرُكِبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ» (٤).

ويقول في مورد آخر: «نَفْسُ الْمَرْءِ خُطَاةٌ إِلَى أَجَلِهِ» (٥).

وفي حديث آخر يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا» (٦).

وينقل ابن أبي الحديد في هذا المورد قصه جميله عن أستاذه ويقول: واستقرأني أبو الفرج محمّد بن عبّاد (رحمه الله) وأنا يومئذ حدث، هذه الوصيه فقرأتها عليه من

ص: ٥٣٦

١- (١). «يُوشِكُ» من ماده «وَشَكَ» على وزن «فقر» وتعنى السير السريع، وعلى ضوء ذلك فإنّ مفهوم هذه العبارة أنّا للقوق سرعان ما يتحقق (والصحيح في يوشك أن تقرأ بكسر الشين وأحياناً تقرأ بفتحها).

٢- (٢). «مَطِيئَهُ» من ماده «مطو» على وزن «عطف» تعنى الحركه الجديه لغرض النجاه في المسير.

٣- (٣). «وادع» هو الشخص الذى يجلس بهدوء وسكون، وهذه الكلمه من «الوداعه» أى السكون والهدوء.

٤- (٤). نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٦٤.

٥- (٥). المصدر السابق، ٧٤.

٦- (٦). غرر الحكم، ح ٢٧٨٩.

حفظي، فلما وصلت إلى هذا الموضع صاح صيحةً شديده وسقط، وكان جباراً قاسى القلب (أى لا يتأثر بسرعته بالمواعظ) (١).

تأمل: السالكون إلى العالم الآخر!

فى هذه العبارات يشبّه الإمام عليه السلام الناس بالمسافرين الذين يركبون مراكب سريعة، وهذه المراكب تقودهم إلى المنزل المقصود والنهائى، ولا شك أنّ جماعه من هؤلاء المسافرين يتوقفون فى محطات وسط الطريق، وجماعه أخرى يستمرون فى مسيرتهم إلى آخر عمرهم الطبيعى، والعجيب أن لا أحد يعلم فى أى محطة يتوقف وينزل.

وهناك أمران مسلّمان فى هذا السفر، أحدهما: أنّ هذا السفر غير اختياريّ وأنّه يملك نهايه مقرّره سلفاً، فجماعه يطوون هذا السفر فى حال الغفله والسكر والنوم، وجماعه آخرون يتحرّكون من موقع اليقظه والانتباه، وهناك جماعه ثالثه يتحرّكون بحاله من اليقظه تاره والغفله تاره أخرى، وبعد نزولهم فى محطات الطريق سيجدون نعماً وفيره وبركات كثيره فى كلّ محطة، فيتزوّدون منها لمواصله المسيره، فأماً من يطوى طريقه فى حال الغفله والنوم، أو لا يدرك جيّداً مواقعه فى هذا الطريق، وكما ورد فى الحديث الشريف: «الناس نيامٌ إذا ماتوا انتبهوا» (٢)، فإنّهم يصلون إلى المنزل النهائى بأيدي خاليه وجعبه خاويه.

والأمر الآخر: إنّ الأنبياء والرسل الإلهيين مكلفون بتحذير هؤلاء المسافرين وإثاره انتباههم فى هذا الطريق ويهتفون بالغافلين والنائمين أن يستيقظوا من غفلتهم وينتبهوا من غفوتهم ويتزوّدوا من المنازل والمحطات فى أثناء الطريق بما يحتاجونه

ص: ٥٣٧

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٩١.

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٤، ص ٤٣.

لمواصله المسير، لأنهم عندما يصلون إلى المقصد فلا يمكنهم حينئذٍ توفير ما يحتاجون من وسائل ومتاع، والأهم من ذلك أنّ طريق العوده من هذا المسير موصده وممتنع.

فجماعه يؤمنون بهذه التوصيات والنصائح ويستقبلون كلام الأنبياء والأولياء بكلّ عواطفهم وقلوبهم، وجماعه أخرى يتعاملون مع هذه التعاليم السماويه من موقع الانكار، أو يستمعون إليها من غير تطبيق، وعندما يصلون إلى المقصد سيجدون الحقيقه الحاسمه أمامهم، فترتفع أصواتهم بالحسره ويقولون: «يا لَيْتِنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(١)، ولكن، ولات حين مناص.

ص: ٥٣٨

١- (١) . سورة الأنعام، الآية ٢٧.

وَاعْلَمَ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجْلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ. فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ. وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رَبُّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَأَكْرَمُ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ دَيْئِهِ وَإِنْ سَأَفْتَكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عَوْضًا. وَلَا تَكُنْ عَبِيدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا. وَمَا خَيْرٌ خَيْرٍ لِأَيْنَالٍ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسِّرُ لِأَيْنَالٍ إِلَّا بِعُسْرٍ؟! وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ. وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ دُوْنِ نِعْمَةٍ فافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسِيمِكَ، وَآخِذٌ سَهْمِكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَنْهُ.

الشرح والتفسير: لا تذلل نفسك أبداً

في هذا المقطع من الوصية يشير الإمام عليه السلام إلى ست نقاط مهمه تمثل كل واحد منها نصيحه للسائرين في طريق الحق والمعنويه، ولكن قبل ذلك يذكر الإمام عليه السلام مقدمه ويقول: «وَاعْلَمَ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجْلَكَ»، أنت لا تستطيع أن تتجاوز ما تقرّر من عمرك، فأنت تسير في نفس الطريق الذي سار فيه القدماء، فأولئك ماتوا وذهبوا لحال سبيلهم وأنت سوف تلحق بهم.

ثم يستنتج الإمام عليه السلام هذه التوصيه: «فَخَفِّضْ (١) فِي الطَّلَبِ وَأَجْمِلْ (٢) فِي

ص: ٥٣٩

١- (١). «خَفِّضْ» من ماده «خَفَضَ» يعنى جرّ الشيء إلى الأسفل في مقابل رفعه إلى الأعلى، وهنا جاءت بمعنى الطلب القليل وترك الطمع في الكثير.

٢- (٢). «أَجْمِلْ» من «الإجمال» وهو الاعتدال في العمل وعدم الإفراط.

جملة: «لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكُ» تبين حقيقته واضحه وهى أنّ كل إنسان فى هذا العالم لن يستطيع أنّ يحقق جميع آماله وطموحاته فى أرض الواقع والحياه، ومن هذا المنطلق لا معنى للحرص فى طلب الرزق والإصرار فى تحصيل المكتسبات الدنيويه.

وجمله «وَلَنْ تَعُدُّوْا أَجَلَكَ» إشاره إلى أنّ عمر الإنسان محدود على أيه حال ولا أحد يستطيع أن يغادر هذا العالم قبل وقته المقرر وقبل حلول أجله، فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يحرص الإنسان على اكتساب الأموال ويستنزف طاقاته أكثر من اللازم فى اقتناء الماديات.

ولفظتا: «خَفِضْ» و «أَجْمِلْ» كلاهما تشيران إلى هذه الحقيقه، وهى لزوم ترك الحرص لاكتساب الرزق، فالمفروض أن يسلك الإنسان طريق الاعتدال والتأنى فى الطلب، وهذا التعبير لا يعنى أبداً ترك السعى وبذل الجهد لاكتساب الرزق الحلال.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه فى بيان هذه الحقائق من موقع الاستدلال عليها يقول:

«فَإِنَّهُ رَبٌّ طَلَبٌ قَدْ جَزَّ إِلَى حَرْبٍ (١)؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ».

ومثل هذا المضمون ورد فى حديث شريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَجْمِلُوا فى طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلَّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» (٢).

وعبارته: «رَبٌّ طَلَبٌ قَدْ جَزَّ إِلَى حَرْبٍ» تعتبر على حدّ قول بعض الكتّاب، من أمثال العرب، والمقصود أنّ السعى الكثير ربّما يؤدى إلى عكس الغرض، وفى ذلك يقول الشاعر:

أُقْسَمُ بِاللَّهِ لَمَصُّ النَّوَى وَشَرْبُ مَاءِ الْقَلْبِ الْمَالِحِ

ص: ٥٤٠

١- (١). «حَرْبٍ» وهى الغاره، وهنا جاءت بمعنى الفعل المبني للمجهول يعنى من ابتلى بالغاره عليه.

٢- (٢). كتاب السنه، عمرو بن ابى عاصم، ص ١٨٢.

أَحْسَنُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِّهِ

ويقول الآخر:

لَا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ

وقوله: «فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ... وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ...» في الواقع بمثابة الدليل على ما ورد في العبارات السابقة في لزوم رعايه الاعتدال في طلب الرزق وتشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن السعي الحثيث لا يعني دوماً زيادة الرزق، ولا أن رعايه الاعتدال والتأنق قلّه الرزق، بل إن اللطف الإلهي يقرّر أن من توكل على الله وترك الحرص والطمع وسعى في طلب الرزق بشكل معتدل، فإنه سيعيش حياه أفضل مقترنه بالسكينه والاستقرار أكثر، ومثل هؤلاء يفتحون المجال للآخرين ليتحرّكوا في طلب الرزق ولا يتعاملون مع الناس من موقع الإقصاء والتهميش أو يضيّقون الخناق عليهم في هذا السبيل.

ويتحدّث الإمام عليه السلام في التوصيه الثانيه ويقول: «وَأَكْرَمُ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ دَيْتِهِ (١) وَإِنْ سَأَقْتَكَ إِلَى الرَّغَائِبِ (٢)، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ (٣) بِمَا تَبْدُلُ مِنْ نَفْسِكَ عَوْضًا».

وهذا إشاره إلى أن بعض الرغبات والذنوب النفسانيه تتطلّب أحياناً تنازل الإنسان عن كرامته وشخصيته، فالجدير بالإنسان الذي يعيش الكرامه والحريه أن لا يخضع لمثل هذه الرغبات، ولا يرد نفسه في هذا المسير، فلا ينبغي للإنسان أن

ص: ٥٤١

١- (٣). «دَيْتِهِ» الشئء الحقيق والوضيع، من ماده «الدناءه» بمعنى الوضاعه.

٢- (٤). «رغائب» جمع «رغيبه» وتعنى الشئء المطلوب والمرغوب.

٣- (٥). «تعتاض» من «الإعتياض» وتعنى أخذ العوض عن شئء وفي الأصل من «عوض».

يهين نفسه ويحقق رغباته عن الشخصيه أو يتنازل عن طموحاته المعنويه لحساب الميول الماديه والدينيه.

وكما قال الشاعر:

مَا اغْتَاضَ بَاذِلٌ وَجْهَهُ بِسُؤَالِهِ

وهذا يعنى أنّ الإنسان إنّما يريد المال لحفظ حيثته وسمعتة، ولكن لا ينبغي أن ينفق من حيثته وماء وجهه لكسب المال، ولا يجدر بالإنسان أن يلهث وراء الأمور الماديّة على حساب اهتزاز شخصيته وسمعتة.

ويواصل الإمام عليه السلام توصياته لولده ويقول في التوصيه الثالثه، ويقول: «وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا».

وهذه العبارة من أهم وأروع وصايا الإمام عليه السلام التي ينبغي أن تكتب بماء الذهب وتجعل نصب العين دائماً، أجل إنّ الله تعالى خلق الإنسان حرّاً ولا ينبغي أن يستبدل هذه الحريه بأيّ أثمان ماديّه، بل أحياناً ينبغي أن يعيش الإنسان بإمكانات محدوده ويقنع بالمعاناه والمشقه حفظاً لماء الوجه ولا يذلّ نفسه ويخضع لمشيئه الآخرين ويتعامل معهم من موقع الخنوع.

وهذا الكلام صادق بالنسبه للأفراد والشعوب كذلك، فما أكثر الشعوب والأقوام الضعيفه والمتخلفه المستعدّه لبذل حريتها وكرامتها من أجل عوض زهيد، والمستكبرون وقوى الاستعمار يعرفون نقطه الضعف هذه في الشعوب المتخلفه ويعملون على تكريس واقعها المتخلف للإستيلاء على ثرواتها واستعبادها، بل إنّهم يتحرّكون على مستوى فرض ثقافتهم الخاطئه على هذه الشعوب مقابل بعض المساعدات الاقتصاديه الزهيده، وأحياناً يسلبون منهم دينهم وإيمانهم.

ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون قوه الشخصيه، والشعوب الحرّه يربحون الموت على حياه العبوديه والذلّه.

ص: ٥٤٢

وهذه التوصيه فى الحقيقه من نتائج ولوازم التوصيه السابقه التى يقول فيها الإمام عليه السلام: «وَأَكْرَمَ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ دِينِهِ...».

وأحد المصاديق البارزه لهذا الموضوع هو ما تجلّى فى نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه فى كربلاء حيث قال الإمام الحسين عليه السلام فى هذه الوقعه التاريخيه الهامه «أَلَا وَإِنَّ الدَّعَى بَنَ الدَّعَى قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَيْنِ بَيْنَ السِّلْمِ وَالذُّلِّ وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذُّلُّ»^(١).

ويطرح الإمام الصادق عليه السلام هذا المضمون بكامل أبعاده وجهاته ويبين أنّ الشخصيه الحرّه ينبغى أن تتوفر فيها خمس خصال قال: «خَمْسُ خِصَالٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَثِيرٌ مُسْتَمْتَعٍ: أَوَّلُهَا الْوَفَاءُ وَالثَّانِيهِ التَّوْبَةُ وَالثَّالِثَةُ الْحَيَاءُ وَالرَّابِعَةُ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْخَامِسَةُ وَهِيَ تَجَمُّعُ هَذِهِ الْخِصَالِ الْخُرَيْبِيَّة»^(٢).

وفى التوصيه الرابعه يقول الإمام عليه السلام: «وَمَا خَيْرٌ خَيْرٍ لَأَيُّنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٌ لَأَيُّنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ».

وهذا يعنى أنّ البعض ومن أجل التوصل إلى غايتهم ومقصودهم يستخدمون كلّ وسيله تتيح لهم ذلك وتيسّر لهم تحقيق مطلبهم، فى حين أنّ تعاليم الإسلام تقرّر أنّ التوصل إلى الغايات والأهداف لا بدّ أن يكون من طريق مشروع وصحيح، وبيان آخر، (الغايه لا- تبرّر الوسيله) وكذلك لا ينبغى لغرض تحصيل السعاده والراحه التوجّه إلى المقدمات والوسائل التى تضيق الخناق على الإنسان وتجعله يعيش الضغوط النفسيه والماليه.

وقد فسّرنا العبارة أعلاه بشكل جمله خبريه، ولكن البعض فسّرها بصيغه الجمله الاستفهاميه، وطبقاً لهذا التفسير سيكون معنى العبارة: ماذا ينفع ذلك الخير الذى لا يحصل عليه الإنسان إلّا بطريق الشرّ؟ وماذا تنفع الراحه التى تتأتى بطريق المعاناه

ص: ٥٤٣

١- (١). اللهوف، ص ٩٧؛ بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٨.

٢- (٢). الخصال، ج ١، ص ٢٨٤، ح ٣٣.

والعسر؟ ومن الواضح أنّ نتيجة كلا التفسيرين واحد رغم تفاوت البيان وصياغه البلاغه.

ويشبه هذا المعنى ما ورد فى كلمات الإمام عليه السلام القصار، حيث يقول: «مَا خَيْرٌ بِخَيْرِ بَعْدَهُ النَّارُ وَمَا شَرٌّ بِشَرِّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ» (١).

ويستطرد الإمام عليه السلام فى بيان وصيته ويخاطب ولده فى خامس توصيه من هذه التوصيات: «وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ (٢) بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ (٣) الْهَلَكَةِ».

وهنا يشبّه الإمام عليه السلام موارد الطمع بمنزله المطايا والدوابّ الجامحه والمتمرده التى إذا ركبها الإنسان فسوف يفقد زمامه واختياره وربّما تقوده إلى وادى الهلكه، والتعبير «مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ» فيه إشارة لطيفه إلى هذه الحقيقه، وهى أنّ الإنسان يتوجّه لمنبع الماء لإرواء عطشه، ولكنّ المنبع الذى تقوده إليه مطايا الطمع ليس فقط لا يروى عطشه منها، بل لا يوجد ماء أساساً وتوجد بدله موارد الهلكه.

وقد جرّبنا فى حياتنا مرات عديده هذا، والتاريخ بدوره يشهد على صحه هذا الكلام وهو أنّ الأشخاص الذين يعيشون حالات الطمع يواجهون الفشل والإخفاق فى حياتهم، لأنّ الطمع يعمى عين الإنسان عن رؤيه الحقيقه ويصمّ أذنه عن سماع النصحيه، ولا يسمح بتشخيص الطريق القويم من المتاهه، ومحلّ النجاه من الهاويه، بل يمكن القول إنّ أغلب الأشخاص الذين يشتغلون فى الشأن التجارى وأمثال ذلك، والذين يواجهون الإخفاق والإفلاس فى نهايه المطاف فالسبب فى ذلك يعود إلى حاله الطمع والجشع فيهم.

ويشبه هذا المعنى ما ورد الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام المذكور فى كتاب بحار الأنوار حيث يقول: «الطَّمَعُ خَمْرُ الشَّيْطَانِ يَسْتَقِي بِإِدِّهِ لِحَوَاصِّهِ فَمَنْ»

ص: ٥٤٤

١- (١) . نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٣٨٧.

٢- (٢) . «تُوجِفُ» من «الإيجاف» وتعنى السير بسرعه، وهى فى الأصل من «وَجِفَ» على وزن «حذف» وتعنى الحركه السريعه، وبما أنّ هذه الكلمه وردت فى عبارته أعلاه متعديه بالباء فتعنى الحث على سرعه المسير.

٣- (٣) . «مَنَاهِلُ» جمع «مَنْهَلُ» وهو منبع الماء.

سَكَرَ مِنْهُ لَأَيُّضَحُوْا إِلَّآ فِي أَلِيمٍ عَذَابٍ لِلّٰهِ أَوْ مُجَاوِرِهِ سَاقِيهِ»(١).

وفى حديث آخر يقول رسول الله صلى الله عليه و آله: «الطَّمَعُ يُذْهِبُ الْحِكْمَةَ مِنْ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ»(٢).

ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَا هَدَمَ الدِّينَ مِثْلُ البِدْعِ، وَلَا أَفْسَدَ الرَّجُلَ مِثْلُ الطَّمَعِ»(٣).

ثم ينطلق الإمام لبيّن التوصيه السادسة والأخيره فى هذا المقطع من الوصيه ويقول: «وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللّٰهِ ذُو نِعْمَةٍ فَاَفْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكُ قَسَمِكَ، وَآخِذُ سَهْمِكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُ».

ويستند الإمام عليه السلام فى هذا التوصيه إلى مسأله أخلاقيه مهمه وهى أنّ الإنسان مهما أمكن لا ينبغي أن يقيّد نفسه رهن إحسان الآخرين ومنتهم، بل يجب عليه الاعتماد على ما يملكه من إمكانيات وطاقات لينال حصّته من النعم والمقدرات الإلهيه، فإذا نال نصيباً أقلّ من هذا الطريق، فإنه أفضل من النصيب الأوفر إذا كان من خلال الاستعانه بالآخرين وقبول منتهم، وفى الحقيقه النصيب الأقلّ مع حفظ كرامه الإنسان وشخصيته ومقامه يعتبر فى الحصيله أكثر من تلك الحصّه الأخرى، لأنّ الإنسان فى هذه الحاله يحفظ شخصيته وكرامته ولا يبذل منها شيئاً لا يمكن إرجاعه بعد ذلك.

وعلى رغم أنّ عباره الإمام عليه السلام فى هذه فقره مطلقه وتشمل عدم الخضوع لمنه أى شخص حتى لو كان من المحبين والمشفقين عليه، كالأب والابن والأخ الذين يتقبلون أى طلب ويستجيبون لأتجاهه برحابه صدر، ولكن من الواضح أنّ

ص: ٥٤٥

١- (١) . بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٦٩، ح ٦.

٢- (٢) . كنز العمال، ج ٣، ص ٤٩٥، ح ٧٥٧٦.

٣- (٣) . بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٩٢، ح ٩٨.

الإمام عليه السلام فى هذا الكلام يرى أنّ شخصيه الإنسان تتعرض بالسؤال والطلب من الآخرين إلى الخلل والاهتزاز، وعاده ما يقترب السؤال مع الذلة أو المنه.

والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أنه:

«قَالَ يَوْمًا رَجُلٌ عِنْدَهُ: اللَّهُمَّ اغْنِنَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ. فَقَالَ: أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَقُلْ هَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: اللَّهُمَّ اغْنِنَا عَنْ شِرَارِ خَلْقِكَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَسْتَعِينُ عَنْ أَحِيهِ» (١).

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لولده الإمام الحسن:

«يَا بُنَيَّ إِذَا نَزَلَ بِعِكَ كَلْبُ الزَّمَانِ وَقَحِطَ الدَّهْرُ فَعَلَيْكَ بِدَوَى الْأُصُولِ الثَّابِتَةِ وَالْفُرُوعِ النَّابِتَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّحْمَةِ وَالْإِيثارِ وَالشَّفَقَةِ، فَإِنَّهُمْ أَقْصَى لِلْحَاجَاتِ وَأَمْضَى لِلدَّفْعِ الْمَلَمَاتِ» (٢).

وبيان آخر أنّ الإنسان كثيراً ما يكون قادراً على أداء عمل معين ولكن بسبب الكسل وطلب الراحة فإنه يطلب المعونه من الآخرين ويضع كفه عليهم، وهذا العمل مذموم وقبيح، ولكن فى بعض الموارد لا يتيسر العمل ونيل المقصود إلّا بالتعاون والتكاتف، ففى مثل هذه الموارد لا إشكال فى طلب المساعدة من الآخرين، لأنّ حياه الإنسان مقترنه دوماً بعنصر التعاون فى حركه المجتمع.

وجمله: «وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَنْهُ» فى الحقيقه إشاره إلى التوحيد الأفعالى للذات المقدسه وأنه على فرض أن يطلب الإنسان المعونه والمساعدة من الآخرين (فيما لا ينبغى طلب المعونه فيه) ثم يمدون له يد العون، فلو دققنا النظر فى هذا المورد أيضاً لرأينا أنه حتّى هذا المورد من قبل الله تعالى، لأنّ الإنسان لا يملك شيئاً فى واقعه حتى يعطيه لغيره، فما يملك فهو من الله تعالى وما حصل عليه فإنه قد اكتسبه بإذن الله وبما أودع الله فيه من قوه وقدره.

يقول المرحوم مغنيه فى شرح نهج البلاغه ذيل هذه التوصيه لأمير المؤمنين عليه السلام

ص: ٥٤٦

١- (١). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٧٢، ح ٥.

٢- (٢). المصدر السابق، ج ٩٣، ص ١٥٩، ح ٣٨.

نقلًا عن الشيخ محمد عبده العالم المصرى المعروف، فى جمل قصيره وعميقه المضمون، يقول: لا يوجد كلام يقع مؤثرًا فى قلب الإنسان أفضل من هذا الكلام، الكلام الذى يتسبب بقوّه التأثير وإصابه الحقّ بحيث ينقل القارئ المؤمن من هذه الدنيا وأهلها ويجعل جميع همّه متوجّهًا إلى الله تعالى.

وكما يقول الشاعر:

وَيَحِكُّ يَا نَفْسُ دَعِى

ص: ٥٤٧

إشاره

وَتَلَايِكَ مَا فَرَطَ مِنْ صِيَمَتِكَ أَيْسِرُ مِنْ إِدْرَاكَكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشِدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْزَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِنَفْسِهِ، وَرُبَّ سِيَاحٍ فِيْمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنِ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنِ أَهْلَ الشَّرِّ تَبَيَّنْ عَنْهُمْ، بِنَسِ الطَّعَامِ الْحَرَامِ! وَظَلَمِ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ! إِذَا كَانَ الرَّفِيقُ حُرُوقًا كَانَ الْخُرُوقُ رِفْقًا. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصِيحٌ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَعَشُّ الْمُسِيءِ تَنْصِيحٌ. وَإِيَّاكَ وَالْإِتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَصَائِعُ النَّوَكَى وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرٌ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ. يَبَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كَهْلٌ طَالِبٌ يُصَيِّبُ، وَلَمَّا كَلَّ غَائِبٌ يُثُوبُ. وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ.

التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ! لَأَخِيرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صِيَدِيٍّ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرِ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرِ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَعَ بِكَ مَطِيئَةَ اللَّجَاجِ.

الشرح والتفسير: سبع وعشرون موعظه ثمينه

يستعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصيته النورانية مجموعته منسجمه ومتجانسه من النصائح المتنوعه لولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام والتي تتضمن كل

واحد منها نقطه مهمه فى حياه الإنسان وسلوكه الأخلاقى، وتشكل بمجموعها منهاجاً مفصلاً لتحقيق الحياه السعيده لكل فرد.

بدايه يقول الإمام عليه السلام: «وَتَلَايِكَ (١) مَا فَرَطَ (٢) مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِذْرَاكَ مَا فَاتَ مِنْ مُنْطِقِكَ».

وهذا يعنى أنّ الإنسان إذا امتنع عن التحدّث بشيء ثم علم بعد ذلك أنّ صمته كان خطأً فإنّه يستطيع فوراً تلافى هذا النقص وتدارك هذا الخلل، فى حين أنّه إذا كان قد تحدّث بكلام ثم فهم بعد أنّ هذا الكلام خطأً، فإنّ تدارك هذا الخطأ غير ممكن، كالماء الذى اريق على الأرض، فإنّ جمعه غير ممكن حينئذٍ.

ويستعرض الإمام عليه السلام فى إدامه كلامه الطريق الصحيح للوصول إلى هذا المقصود بذكر المثال، ويقول: «وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ».

«الويعاء» الظرف الذى يوضع فيه الشيء، والمراد به هنا القلب وروح الإنسان، «الوكاء» الحبل الذى تشدّ به فوهه القربه، وهو إشاره إلى لسان الإنسان وفمه، فلو أنّ الإنسان ملك لسانه ومنطقه، فإنّه لا تصدر منه كلمات نابيه ولا مسؤوله قد توجب له الندم بعد صدورها منه.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام للتوصيه الثانيه ويقول: «وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلْبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ».

وهو إشاره إلى أنّ الكثير من الناس وبسبب حالات الإسراف والتبذير فى الأموال، يفقدون ما لديهم من ثروه، ويضحون محتاجين للآخرين، ويفقدون عزّتهم ومكانتهم، ولو أنّ الإنسان سلك طريق الاعتدال والاقتصاد فى حياته فإنّه لا يحتاج إلى الآخرين، ومن هذا المنطلق فإنّه التوصيه المذكوره لا تدعو للبخل أبداً، بل تعنى الدعوه للاعتدال وترك الإسراف والتبذير.

ص: ٥٥٠

١- (١). «تلافي» من ماده «لفى» على وزن «نفى» وتعنى الجبر والتعويض و «الفاه» بمعنى وجده وعثر عليه.

٢- (٢). «فرط» من «الفرط» على وزن «شرط» يعنى التقصير فى أداء العمل، و «إفراط» التطرف وتجاوز الحد.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام للتوصيه الثالثه التي ترتبط بما قبلها ويقول: «وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ». أى «اليأس» مما فى أيدي الناس أفضل من الطلب إليهم.

والمراد من «اليأس» فى هذه العبارة هو حاله من قطع الأمل بالآخرين من موقع الاختيار بحيث إن الإنسان يوصد على نفسه باب الطلب من الناس، وهذا العمل وإن كان صعباً وشاقاً، ولكنه يمنح الإنسان العزّه والشرف والكرامه، ولهذا يقول الإمام عليه السلام، إن مثل هذه المراه أفضل من حلاوه الطلب والسؤال إلى الناس.

وعبارته «الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» بوصفها قيمه وفضيله أخلاقيه وردت فى روايات عدّه عن الأئمه المعصومين عليهم السلام منها ما ورد فى روايه عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وَحَيْرُ الْمَالِ الثَّقَةُ بِاللَّهِ وَالْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» (١).

وهذا الكلام لا- يعنى أن الإنسان يعرض عن التعاون والتكاتف مع الناس فى أمور الحياه، وأن الحياه الاجتماعيه لا تقوم إلا على أساس التعاون، بل المراد أن لا ينظر المرء إلى أموال الناس بعين الطمع ولا يجعل الناس كلاً، بل يسعى لكسب معاشه بنفسه.

وكما يقول الشاعر:

وَإِنْ كَانَ طَعْمُ الْيَأْسِ مُرّاً فَإِنَّهُ لَدُّ وَأَحْلَى مِنْ سُؤْلِ الْأَرَادِلِ

ثم بيّن الإمام عليه السلام فى التوصيه الرابعه ويقول: «وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ».

العفّه فى اللغه وموارد استعمالها عند علماء الأخلاق لا تعنى ضبط النفس من حيث الغريزه الجنسيه، بل ضبط النفس عن كلّ ذنب، وجاءت فى الجمله أعلاه بهذا المعنى، لأنّ البعض لا يمتنع من اقتراف أى ذنب ومعصيه فى جمع الثروه والمال من هذه الجبهه أو تلك، أما المؤمنون الذين يعيشون الطهر والنقاء القلبي ربّما يجمعون

ص: ٥٥١

ثروه أقل، من خلال الطرق المشروعه والبعيده عن كل أنواع الإثم والعدوان، والإمام يقول: إن هذا الأخير أفضل وأرجح من السابق.

ويستطرد الإمام عليه السلام في بيان التوصيه الخامسه ويقول: «وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ»، لأنّ الإنسان أكثر اهتماماً وتشدداً لحفظ أسرارهِ من الآخرين، لأنّ إفشاء هذه الأسرار يوجب له الضرر والخساره، وقد يتسبب في هتك حرمة وفضح شخصيته، في حين أنّ الآخرين ربّما لا يتضررون من إفشاء سرّه، ومن هذا المنطلق إذا أراد الإنسان حفظ أسرارهِ، فيجب أن يضعها في مكنون صدرهِ ويحكم إغلاق بابهِ، كما ورد ذلك في كلمات الإمام عليه السلام القصار: «صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ».

وفي التوصيه السادسه يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّ سَاعٍ (١) فِيمَا يَضُرُّهُ».

وهذا إشاره إلى أنّ سعى الإنسان يجب أن يكون مدروساً ومحسوباً، وبيان آخر، أنّ السعى يجب أن يقترن بالتدبير، حتى لا ينعكس الأمر عليه ويقطع أصله بسيفه، وهذا يعدّ من أسوء أنواع المصائب.

وفي التوصيه السابعه يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ (٢)».

أجل، فأحد فوائد الصمت، عدم التورّط في شباك الكلام الركيك والموهن، وقد ثبت بالتجربه أنّ الأشخاص الثرثارين يتحدّثون بكلمات كثيره ليس لها معنى ولا مفهوم، لأنّ الكلام المحسوب والمدروس يحتاج إلى فكر ومطالعه، في حين أنّ الثرثارين ليس لديهم مجال للتفكير، والإمام في غرر الحكم يبيّن العواقب السيئه الكثيره لظاهره الثرثره وما يترتب عليها ويقول: «مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ زَلَّ (٣)»، وهذا الأمر يؤدّي إلى سقوط شخصيته من أعين الناس ويتسبّب في ذلته وفضيحتهِ، بخلاف الأشخاص الذين يتحدّثون بكلام قليل ومدروس، فإنّ ذلك من شأنه أن يمنحهم

ص: ٥٥٢

١- (١). «ساع» «ساعي» الجاد في العمل، من ماده «سعى».

٢- (٢). «اهجر» من «الهجر» على وزن «فجر» وفي الأصل بمعنى الابتعاد والانفصال. ثم استخدمت في معنى هذيان المريض، لأنّ الكلام في تلك الحال غير مطلوب ومبعد.

٣- (٣). غرر الحكم، ٤١١٩.

مكانه مرموقه وسمعه حسنه فى أنظار الناس وكما يقول الشاعر:

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ لِلْفَتَى

وفى الوصيه الثامنه يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ»، أى أبصر حقائق الحياه وسلك الطريق القويم فى حياته.

إنَّ أهمِّيَّه التفكير فى أمور الدنيا والآخره ليست شيئاً خافياً على أحد، فجميع الأفراد الذين حقّقوا نجاحاً فى حياتهم سلكوا هذا الطريق.

يقول القرآن الكريم فى هذا المجال: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (١).

وفى التوصيه التاسعه يقول الإمام عليه السلام: «فَارِنِ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنِ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنِ عَنْهُمْ».

وهذا إشاره إلى أنّ تأثير المجالسه والمعاشره لا يقبل الإنكار، فمجالسه الأشرار تقود الإنسان إلى وادى الهلكه والشقاء، بينما مجالسه الأخيار تقوده نحو فضاء السعاده والنجاه، وفى الآيات القرآنيه إشارات جليّه على هذا المعنى، يقول تعالى:

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً» (٢).

وجاء فى الحديث الشريف المشهور عن النبى الأكرم عليه السلام يقول: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ» (٣).

وهذا هو المعيار الأفضل لمعرفة شخصيه الإنسان المعقّده والغامضه من خلال

ص: ٥٥٣

١- (١). سورة البقره، الآيتان ٢١٩ و ٢٢٠.

٢- (٢). سورة الفرقان، الآيات ٢٧-٢٩.

٣- (٣). أصول الكافى، ج ٢، ص ٣٧٥، ح ٣.

النظر إلى قرينه وصديقه، كما ورد ذلك في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَمَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ وَلَمْ تَعْرِفُوا دِينَهُ فَانظُرُوا إِلَى خُلَطَائِهِ فَإِنَّ كَثُورًا أَهَلَ دِينَ اللَّهِ فَهُوَ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ فَلَا حَظَّ لَهُ مِنْ دِينِ اللَّهِ» (١).

ويقول عليه السلام في التوصية العاشرة: «بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ».

ويتحدث القرآن الكريم عن الأشخاص الذين يأكلون أموال اليتامى بأنهم يأكلون النار في بطونهم: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» (٢). وهكذا بالنسبة للأطعمه المحرّمه فإنها تشبه أموال اليتامى من هذه الجهة، وقد ورد في الروايات أنّ من جملة موانع استجابة الدعاء، تناول الأَطعمه الحرام، وقد أشرنا قبل ذلك إلى حديث نبويّ في هذا المجال.

ويواصل الإمام عليه السلام بيان توصيات ولده ويقول في التوصية الحادية عشر: «وِظْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ»، لأنه غير قادر على الدفاع عن نفسه، وينقل الكليني في كتاب الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ قال: «لَمَّا حَضَرَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ الوُفَاةَ ضَمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ أَوْصِيكَ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ حَضَرَتْهُ الوُفَاةُ وَبِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ، قَالَ: يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَظُلْمَ مَنْ لَا يَجِدُ عَلَيْكَ نَاصِرًا إِلَّا اللَّهَ» (٣).

وبديهى أنّ الظلم قبيح تجاه كلّ إنسان، ولكن إذا ظلم رجل شخصاً ثرياً وسرق مقداراً من ماله، فرغم أنّ هذا العمل يعدّ مخالفه أخلاقية، إلّا أنه لا يتسبّب في إلحاق أذى وضرر كبير لصاحب المال، بخلاف ما لو سرق من فقير ماله.

وفي التوصية الثانية عشر يقول الإمام عليه السلام: «إِذَا كَانَ الرَّفِيقُ خُرْقًا (٤) كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا. رَبُّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً».

إنّ أصل مناهج الحياه يقوم على أساس المداراه والليونه والانعطاف، فأحياناً

ص: ٥٥٤

١- (١). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٩٧، ح ٣١.

٢- (٢). سورة النساء، الآية ١٠.

٣- (٣). كافي، ج ٢، ص ٣٣١، ح ٥.

٤- (٤). «خُرْق» وتعني العنف والشده (ضد الرفق والمداراه).

يوجد بعض الأشخاص من سيئى الاستفادة من هذا السلوك الإنسانى، فتزداد حالات العنف فيهم، فمع مثل هؤلاء الأشخاص يكون استخدام العنف الطريق الوحيد لإصلاحهم، والجمله اللاحقه فى الحقيقه بمثابة عله لهذه الجمله، فهناك موارد يكون الدواء فيها مزيداً فى العله والمرض، ويكون تحمّل الألم دواءً وعلاجاً لهذا المريض كما قال الشاعر:

ألا فاصبرِ على الحَدثِ الجليلِ وداوِ جِواكِ بالصَّبْرِ الجميلِ

وَلَا تَيْأَسْ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ

وهذا يعنى أنّ الجراح التى يتوقّف علاجها على الكيّ بالنار، فمن المعلوم أنّ استخدام الرقى والأدويه مرّه أخرى تكون عبثاً، وربّما تتسبّب فى زياده المرض، وبالعكس ذلك تاره يكون المرض عارضاً على الإنسان بحيث يتسبّب فى شفاء المريض من أمراض أهمّ وأخطر.

وفى الوصيه الثالثه عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ (١) الْمُسْتَنْصَحُ (٢)».

وهذا إشاره إلى أنّه لا- ينبغى إساءه الظنّ بكلام الأشخاص ممّن ليسوا من أهل النصح، وأحياناً تصدر منهم كلمات حكيمة ونصيحه نافعه، على العكس من ذلك تاره يصدر من أهل النصح والصلاح خيانه فى نصيحتهم بسبب الخطأ أو الحسد أو عوامل أخرى، وعلى ضوء ذلك لا ينبغى أن نقبل كلامهم بدون تدبّر، بل ينبغى فى كلا الحالتين العوده إلى حكم العقل والعمل على تمييز الكلام النافع من غير النافع لهؤلاء الناصحين من خلال الشواهد والقرائن.

ينقل العلامة المجلسى فى بحار الأنوار روايه مشهوره وجميله فى هذا المجال،

ص: ٥٥٥

١- (١). «غشّ» من ماده «غش» (بكسر الغين) بمعنى الخيانه.

٢- (٢). «المستنصح» (إذا جاء بصيغه اسم مفعول) تعنى الشخص الذى تُطلب النصيحه منه.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: لَمَّا دَعَا نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَوْمِهِ أَتَاهُ إِبْلِيسُ لَعْنَهُ اللَّهُ فَقَالَ: يَا نُوحُ إِنَّ لَكَ عِنْدِي يَدًا أُرِيدُ أَنْ أَكْفِيكَ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ يَبْغِضُ إِلَيَّ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِنْدِي يَدٌ فَمَا هِيَ؟ قَالَ: بَلِي، دَعَوْتُ عَلَى قَوْمِكَ فَأَغْرَقْتَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ أَغْوِيَهُ، فَأَنَا مُسْتَرِيحٌ حَتَّى يَظْهَرَ قَرْنٌ آخِرٌ وَأَغْوِيَهُمْ، فَقَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

مالذي تريد أن تكافئني به؟ (وفي بعض الروايات أن الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى نوح أن كلمه واسأله فأنتى سأنطقه بمحجّه عليه، إلّا أنّ نوح عليه السلام لم يقبل أن يكلمه) (١) قال إبليس: «أذكُرُنِي فِي ثَلَاثِ مَوَاطِنَ فَإِنِّي أَقْرَبُ مَا أَكُونُ إِلَى الْعَبْدِ إِذَا كَانَ فِي إِحْدَاهُنَّ: إِذَا ذُكِرْتَنِي إِذَا غَضِبْتَ، وَإِذَا ذُكِرْتَنِي إِذَا حَكَمْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، إِذَا ذُكِرْتَنِي إِذَا كُنْتُ مَعَ امْرَأَةٍ خَالِيًا لَيْسَ مَعَكُمْ أَحَدٌ» (٢).

وهذا الحديث في الحقيقة يبين أحد المصدايق الواضحة لكلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي التوجيه الرابع عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَأَيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكِ» (٣).

المقصود من كلمة «المنى» الآمال الطويلة والعريضة التي هي إلى الخيالات والأوهام أقرب، والأشخاص الذين يعيشون هذه الحالة من الاعتماد على الآمال البعيدة والطموحات الخيالية فإنهم يستنزفون قواهم الفعّالة ويهدرون طاقاتهم الحيوية، ثم لا يصلون إلى شيء، ومن جهة أخرى الاعتماد على هذه الآمال يستنزف عصاره فكر الإنسان وعمره لحساب الوهم ويصرفه عن التفكير في المعاد والحياة الآخرة.

وهذا ما ورد في الحديث المشهور عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكذلك عن الإمام

ص: ٥٥٦

١- (١). بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٨، ح ١٠.

٢- (٢). المصدر السابق، ص ٣١٨، ح ٢٠.

٣- (٣). «نوكى» جمع «أنوك» على وزن «ابتر» وهو الشخص الجاهل والأحمق.

أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغه، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ اتَّبَاعَ الْهَوَىٰ وَطُولَ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتَّبَاعَ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ» (١).

وفي التوجيه الخامس عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ».

إشاره إلى أن الإنسان عندما يجمع التجارب التي اكتسبها من واقع الحياه ومن الآخرين، ومع الالتفات إلى القاعده المعروفه: «حُكْمُ الْأَمْثَالِ فِيمَا يَجُوزُ وَفِيمَا لَا يَجُوزُ وَاحِدٌ»، والحديث المعروف: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ» (٢) فإن ذلك من شأنه أن يمنح الإنسان قدره على مواجهه الحوادث والمستجدات بأساليب صحيحه، ويتعاطى معها من خلال ما اكتسبه من تجارب قديمه، وبالتالي يستطيع تفادي الكثير من الأخطاء والتخلص من الكثير من الأزمات.

إن الكثير من القواعد العقليه الكليه مستوحاه من هذه التجارب الجزئيه، (وفقاً لقاعده الاستقراء المنطقيه) وطبعاً فهذه التجارب تاره تتعلق بالإنسان نفسه، وأخرى يستقيها الإنسان من تجارب الآخرين، وهذا كما يسمي «نورٌ على نورٍ»، ومن هذه الجبهه يهتم المدرء والقاده بمطالعه تاريخ القدماء ليستوحوا منه الدروس والعبر.

وخلاصه الكلام أن الإنسان إذا تحرك في حياته على مستوى حفظ تجاربه والاستفاده من تجارب الآخرين، فإنه يستطيع استخدامها في الموارد المشابهه دون أن يكرر أخطاءه الماضيه، وكذلك يستخلص قانوناً كلياً من الموارد الجزئيه لنفسه وللآخرين في جميع شؤون الحياه.

ورد في رساله الإمام عليه السلام المرقمه ٧٨ من نهج البلاغه تعبيراً أشد في هذا المجال، يقول عليه السلام: «فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حَرَّمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ».

والتوجيه السادس عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَحَيْرٌ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ».

ص: ٥٥٧

١- (١). نهج البلاغه، الخطبه ٤٢ وفي بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٥، ح ٣٧ أيضاً مع اختلاف يسير عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٤٥.

وهذا إشارته إلى أنّ التجارب تارته تمنح الإنسان نفعاً مادياً، وأخرى نفعاً معنوياً، وأنّ أفضل التجارب هو ما نفع الإنسان على المستوى المعنوي والأخلاقي.

وفى كلمات الإمام عليه السلام القصار: «لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ» (١).

وفى التوجيه السابع عشر يقول عليه السلام: «بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً».

والفرصة يعنى توفير المقدمات للتوصيل إلى المقصود، وأحياناً يكون للإنسان مقصد مهمّ ولكن لم تتوفر مقدماته، وفجأه وفى لحظه تتهيأ وتتوفر هذه المقدمات، فحينئذٍ ينبغي عليه المسارعة فى الاستفاده من هذه اللحظة قبل فوات الأوان، وإيصال نفسه إلى المقصد، فإذا غفل عن ذلك وأفلت الفرصة من يديه، فربما لا تتوفر أبداً فى المستقبل تلك الظروف لتحقيق الغايه والوصول إلى الهدف، والفرص مثل الرياح الموافقه التى تهبّ باتجاه المقصد، فلو لم ينتفع الملاح فى السفينه الشراعيه من هذه الفرصه، فربما يبقى ساعات وأياماً على سطح البحر دون أن يتحرّك فى المسير الصحيح، ويتحوّل ضياع تلك الفرصه إلى غصّه.

وجاء فى الحديث المشهور عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِى أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفْحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا» (٢).

وورد فى حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يُغْلَقُ عَنْهُ» (٣).

وقد وردت بهذا المضمون روايات كثيرة عن المعصومين عليهم السلام وفى عبارات الأعاظم، ونختم هذا الفصل بحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «أَشَدُّ الْغُصَصِ فَوْتُ الْفُرْصِ» (٤).

ص: ٥٥٨

١- (١). نهج البلاغه، الكلمات القصار، ١٩٦.

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٢٢١.

٣- (٣). كنز العمال، ح ٤٣١٣٤.

٤- (٤). غرر الحكم، ١٠٨١٨.

وفى التوصيه الثامنه عشر يقول الإمام عليه السلام: «لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يُوْوبُ».

وهاتان الجملتان بمثابة العله للتوصيه بالمبادره واستغلال الفرص قبل فوات الأوان، لأنّ الإنسان إنّما يصل إلى مقصوده فيما لو سعى لتوفير الأرضيه اللازمه والظروف المناسبه للنجاح، وفى غير هذه الصوره فإنّ سعيه سيكون عقيماً، وكلمه «غائب» يمكن أن تشير إلى الفرص الضائعه التى لا تعود أبداً، وفى ذات الوقت يمكن أن تكون توصيه مستقلّه وإشاره إلى أنّ الإنسان لا ينبغى أن يتوقّع أن يصل إلى نتيجة من سعيه وعمله دائماً، وبيان آخر أن لا- يصاب باليأس والقنوط ممّا يواجهه من إخفاقات فى حركه الحياه.

وفى الوصيه التاسعه عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ».

والمقصود من الزاد هنا هو زاد التقوى والمتاع لسفر الآخره، فلو أنّ الإنسان أضاع هذا الزاد فإنّه سيفسد معاده وتضيع آخرته.

وفى التوصيه العشرين يقول: «وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ».

وذلك إشاره إلى أنّ الإنسان عندما يقدم على أى عمل، يجب أن يتدبّر فى عاقبته، ولا يتحرّك فى طريق ويقوم بعمل دون تفكير ومحاسبه، فلو كانت عاقبته حسنه فإنّه يقدم عليه وإلّا فلا.

وجاء فى غرر الحكم عن الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام هذه العبارة مع إضافه، يقول: «وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ حُلُوهٌ أَوْ مُرَّةٌ» (١).

وفى التوصيه الحاديه والعشرين يقول الإمام عليه السلام: «سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ».

والمقصود أنّه لا- ينبغى أن يعيش الإنسان الحرص بدون مبرّر، وهذا لا يعنى أنّ الإنسان يترك السعى لطلب المعاش وتحسين ظروف الحياه، بل الغرض من ذلك أن

ص: ٥٥٩

يجتنب الجهد العقيم والسعى غير المثمر، وجميع الروايات التي تشير إلى تقدير الرزق، ناظره إلى هذا المعنى.

وفي التوصيه الثانيه والعشرين يضيف الإمام عليه السلام: «التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ (١)».

فالتاجر لا ينتفع ويربح من تجارته دائماً، وكما يقال إنّ التجاره نوع من الحظّ، ومن هنا فالإنسان ينبغي أن يتحلّى بالشجاعه ويتوكّل على الله ولا يخشى من الأضرار المحتمله ولا يفقد أمله من مواجهه الضرر والخساره، فالتاجر يجب أن يسعى ويبذل جهده في هذا السبيل مع التدبّر في معطيات هذا المسير ومخاطره، ولكن إذا واجه ضرراً وخساره، فلا ينبغي له أن يتألم ويحزن.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة إشارة إلى الأبعاد المعنويه للتجاره، لأنّ التاجر تتلوّث أمواله أحياناً بالحرام وتواجه سعادته الخطر من ذلك، وعلى ضوء ذلك يجب عليه الانتباه من الوقوع في هذه الأخطار وخاصّه في عصرنا الحاضر الذي ازدادت فيه الأموال الحرام والتجاره غير المشروعه وأحياناً تسدل الأرباح الوفيره حجاباً على عقل الإنسان وتقود التاجر إلى التورّط في مهاوى الذنوب والانحراف.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يستعرض التوصيه الثالثه والعشرين ويقول: «وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ».

إشاره إلى أنّ الإنسان لا ينبغي أن ينظر إلى كميّه الأعمال والأفعال، بل المهمّ الكيفيه والنوعيه، فكم من الأعمال القليله وبكيفيه أفضل وإخلاص أوفر تعطى ثماراً أكثر، يقول القرآن الكريم: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٢).

وهنا احتمال آخر في تفسير هذه الجملة، وهي أنّ الإنسان لا ينبغي أن يهتمّ في حياته الماديّه بزياده رأس ماله وثروته، وربّما يكون الرأسمال القليل حلالاً

ص: ٥٦٠

١- (١). «مخاطر» الذي يلقي نفسه في الخطر.

٢- (٢). سوره الملك، الآيه ٢.

وطاهراً، وفي التالي ينمو ويزداد بشكل أكبر، يقول القرآن الكريم: «وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيُزْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاهٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» (١).

ثم إن الإمام عليه السلام يطرح التوصيه الرابعه والعشرين ويقول: «لَمَّا خَيْرٌ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ (٢) ، وَلَمَّا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ (٣)»، لأنَّ الصديق المهين إذا كان يعيش الحقاره والدناءه فإنَّ عمله هذا سيكون مقترناً غالباً بالَمْنِ، مضافاً إلى أنَّ شخصيه الإنسان ستواجه الاهتزاز في أنظار الناس، لأنَّه يتخذ من الشخص الدنيء معيناً ورفيقاً، والصديق المتهم وإن أدى حقَّ الصداقه والزماله، فإنه يتسبب في توجه التهمه إلى صديقه ويسىء إلى سمعته، وهنا ينبغي على العاقل أن يغضَّ نظره عن معونته وعطائه.

وفي التوصيه الخامسه العشرين يقول الإمام عليه السلام: «سَاهِلٍ (٤) الدَّهْرُ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ».

وهو إشاره إلى أنه من الممكن أن لا تعود مثل هذه الفرصه في المستقبل، ويحتمل أيضاً في تفسير هذه الجمله أن الدهر إذا تعامل معك من موقع المداراه فعليك أن تداريه أيضاً وكما قال الشاعر:

إِذَا الدَّهْرُ أَعْطَاكَ العِنَانَ فَيَسِرْ بِهِرْوَئِدًا وَلَا تَعْنَفْ فَيُصْبِحُ شَامِسًا

وفي التوصيه السادسه والعشرين يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرِ مِنْهُ».

فأحياناً تتوفر نعم كثيره لدى الإنسان، ولكن حاله الطمع وطلب المزيد تدفعه من أجل اكتساب المزيد من النعم والثروات، أن يخاطر بحياته وبإمكاناته، وهذا العمل يتقاطع مع العقلانيه، من قبيل أن الإنسان يضع ماله بيد أشخاص لا يعرفون

ص: ٥٦١

١- (١) . سورة الروم، الآيه ٣٩.

٢- (٢) . «مهين» وهو الحقير والضعيف، وأصلها «مهانه».

٣- (٣) . «ظنين» وهو الشخص المتهم، والأصل من «ظن» وتأتى بصيغه اسم المفعول.

٤- (٤) . «ساهل» فعل أمر من «مساھله» بمعنى المداراه.

شيئاً من أمر التجاره والمضاربه، طمعاً في ما وعدوه من أرباح وفيه، فتكون النتيجة أنه ليس فقط لا يربح شيئاً، بل يفقد أصل رأس ماله أيضاً.

وأخيراً وفي التوصيه السابعه والعشرين (في هذا المقطع من الوصيه) يقول الإمام عليه السلام: «وإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَعَ (١) بِكَ مَطِيئَهُ اللَّجَاجِ».

اللجاج هو أن الإنسان يصرّ على كلامه الباطل أو سلوكه المنحرف الذي ثبت له بطلانه، خوفاً من اهتزاز شخصيته أمام الآخرين، في حين أن الإنسان في مثل هذه الموارد لو تعامل مع الحقيقه من موضع التواضع والإذعان لها، فإنه سيكسب المزيد من السمعه في أنظار الناس.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ فَإِنَّ أَوْلَهَا جَهْلٌ وَآخِرَهَا نَدَامَةٌ» (٢).

وفي حديث آخر يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «لَا مَرْكَبَ أَجْمَعَ مِنَ اللَّجَاجِ» (٣).

والحقيقه أنه لو قرأ الإنسان هذه الوصايا السبع والعشرين فقط في هذه الوصيه والتي وردت بعبارات موجزه وعميقه المحتوى، وتحرك على مستوى تطبيقها وتجسيدها في واقع الممارسه والعمل، فسوف يعيش السعاده المنشوده، ولو أن المجتمع جسّد هذه المواعظ والنصائح فلا شك أن مثل هذا المجتمع سيعيش الحيويه والنشاط والسعاده والإزدهار.

ص: ٥٦٢

١- (١). «تجمع» فعل مضارع من «الجموح» بمعنى التمرد والنفور والعصيان.

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٦٩، ح ٦.

٣- (٣). غررالحكم، ح ١٠٦٤٣.

أَحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صِرْمِهِ عَلَى الصَّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبُذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللَّيْنِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُدْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَأَنَّكَ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعَ الْعَيْظَ فَهَانِي لَمْ أَرْ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَعْبَةً. وَلَنْ لِمَنْ غَالَطَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبِقْ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بِقِيَّتِهِ يَرْجِعْ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا. وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ.

الشرح والتفسير: الإحسان في مقابل الإساءة!

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية لبيان وظيفه الإنسان في مقابل إخوانه وأصدقائه وكيفيه التواصل معهم من موقع حسن الخلق، وذلك بتقديم عدّه توصيات، يقول بدايةً:

«أَحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صِرْمِهِ (١) عَلَى الصَّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ (٢) عَلَى

ص: ٥٦٣

١- (١). «صِرْمٌ» بمعنى القطع والفصل، وهنا جاء بمعنى قطع العلاقة مع الآخر وهي في مقابل الصلّة وتوثيق العلاقة مع الآخر.

٢- (٢). «صُدُودٌ» مصدر بمعنى المنع.

اللِّطْفِ (١) وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ (٢) عَلَى الْيَذَلِّ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللَّيْنِ، وَعِنْدَ جُزْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ».

في هذه التوصية يحذّر الإمام عليه السلام ولده من الردّ بالمثل فيما يواجهه من نفور ولا مبالاه من أصدقائه، وضمناً يوصيه بسبّ جمل بليغه تتضمّن بلاغه الجناس، بأنّ الردّ بالمثل من شأنه أن يهدّد أساس المودّة والصدّاقه بين الأصدقاء، فيفقد المرء صديقه بسبب ذلك، ولكن كلّما تعامل مع الإساءة بالإحسان ومع اللامبالاه بالمودّة، فسوف يدرك صديقه خطأه ويخجل من نفسه ويتحرّك على مستوى جبر الخلل وتقويه وترسيخ دعائم المحبّه والمودّة أكثر فأكثر.

والعبارات التي يستخدمها الإمام عليه السلام في هذه الفقرات تمثّل في الحقيقة شرحاً لما ورد في القرآن الكريم في قوله: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (٣).

ورغم أنّ هذه الآيه نزلت في مورد الأعداء، ولكن ممّا لا شك فيه أنّها صادقه على الأصدقاء أيضاً، فسيره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمّه الهدى عليهم السلام وعلماء الدين الكبار تشير إلى هذه الحقيقة أيضاً إلّا في موارد استثنائية، وأنهم كانوا لا يواجهون العدوان والإساءة من الأصدقاء والأعداء بالمثل، إلّا في موارد خاصّه ونادره.

وبما أنّ بعض السدّج وذوى الفكر الضيق ربّما يسيئون هذا السلوك الإنساني معهم، فالإمام عليه السلام استثنى هذه الفئه من هذه القاعده وقال: «وإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ».

والفرق بين جملة «وإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ...» وجملة «أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ...» أنّ الجملة الثانيه

ص: ٥٦٤

١- (١). «اللِّطْف» على وزن «شرف» وفي بعض النسخ على وزن «قفل» وتعنى إظهار المحبّه والإحسان إلى الطرف المقابل.

٢- (٢). «جمود» وتعنى في هذه العبارة البخل، في مقابل البذل والعتاء.

٣- (٣). سورة فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

تشير إلى الأشخاص الذين يعيشون الحقد والعناد، وأنّ الاحسان إليهم في مقابل إساءتهم قد تتسبب في زياده جرأتهم وعدوانهم، فيكون الإحسان إليهم كالأحسان إلى الذئب، ولكنّ الجملة الأولى ناظره إلى الأشخاص الذين لا يعيشون مثل هذه الحالة، ولكن ربّما يقودهم الإحسان إليهم في مقابل إساءتهم أن يتصوّروا خطأ أنّهم أختيار وأنّ عملهم جيّد وليس فيه إشكال.

والتعبير ب «أحمِل» في بدايه هذه التوصيه إشاره إلى أنّ عمليه الإحسان في مقابل الإساءه وإن كانت صعبه على الإنسان، ولكن ينبغي عليه أن يتحمّل ذلك ويحمل هذه القضيّه على نفسه.

ويقول الإمام عليه السلام في التوصيه الثانيه: «لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ».

فهذا العمل يعدّ من جمله النفاق، حيث يطرح الإنسان المودّه مع صديقه ومع عدوّ صديقه أيضاً، فهذا هو اسلوب الأشخاص الذين لا يعيشون واقع الصداقه وحقيقه المودّه، وغرضهم من ذلك الانتفاع والمصلحه الشخصيه من كلا الطرفين، فلا يمتنعون في هذا السبيل من الوقوع في مثل هذا التناقض والسلوك والعواطف.

وطبعاً هذا في مورد تكون عداوه العدو ناشئه من ظلمه وعدوانه، لا أنّ الصديق مقصّر وقد ارتكب إساءه في حقّه بحيث أدّى ذلك إلى معاداته.

وكذلك يصدق هذا الكلام في مورد لا يكون الغرض من إقامه علاقه مع عدوّ الصديق إصلاح ذات البين، فإن كان المقصود من المودّه معه إصلاح ذات البين فإنّه ليس فقط عمل غير ذميم بل عمل إنسانى ممدوح.

ومما يجدر ذكره أنّ توصيه الإمام عليه السلام في هذا الباب لا تتناول الأشخاص فقط، بل تشمل الفئات والشعوب والدول أيضاً، رغم أنّ الكثير من الدول في العالم المعاصر يطرحون المودّه والصداقه مع كلا طرفي النزاع دون أن يقصدوا من ذلك المصالحه بينهما، بل هدفهم من ذلك استغلال هاتين الدولتين المتخاصمتين لضمان

مصالحهم الشخصية، فيقيمون روابطه سياسيه واقتصاديته مع الأصدقاء ومع الأعداء على حد سواء، واللافت للنظر أنهم لا يخفون ذلك، بل يصرّحون بإقامه مثل هذه العلاقة العميقه معنا، وكذلك مع أعدائنا في ذات الوقت.

ففي روايه أن رجلاً قدم على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إني أحبك وأحبّ فلاناً، وسمي بعض أعدائه فقال عليه السلام: «أما الآن فانت أعور، فيما أن تعمى وإما أن تبصر»(١).

وفي بعض الروايات أنه ذكر معاويه.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قاله له رجل: إن فلاناً يواليكم إلا أنه يضعف عن البراءه من عدوكم، فقال الإمام عليه السلام: «هيهات، كذب من ادعى محبتنا ولم يتبرأ من عدونا»(٢).

ويقول القرآن الكريم مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم»(٣).

ثم يقول الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصيه: «والمحض»(٤) أخاك النصيحة، حسنه كانت أو قبيحه».

وهو إشاره إلى أن بعض الأصدقاء يمتنعون أحياناً من بذل النصيحة خوفاً من إزعاجنا وامتعضنا فيخفون الحقائق عنا، فهؤلاء في الواقع ليسوا مخلصين في نصحتهم ومودتهم، لأنه لو نصحوا شخصاً وحذروه من مغبه عمل معين واستاء مؤقتاً من ذلك، ولكنه سلم من خطر أو ضرر بسبب هذه النصيحة، فإن ذلك أفضل بكثير

ص: ٥٦٦

١- (١) . بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٨، ح ١٧.

٢- (٢) . المصدر السابق، ح ١٨.

٣- (٣) . سوره المجادله، الآيه ٢٢.

٤- (٤) . «المحض» من «المحض» على وزن «وعظ» بمعنى إخلاص الشيء وتنقيته، وتستعمل في مورد النصيحة وتعني طلب الخير للطرف المقابل الخالي من أي شائبه ومرض شخصي.

من اختيار السكوت وتركه يواجه المشاكل والأخطار بسبب ذلك السلوك الخاطيء.

وللأسف فإن الكثير من الأشخاص، وبسبب هذه الملاحظات، يصرفون النظر عن تقديم النصيح في الموقع المناسب، فيبتلون بسخط الله تعالى والخيانه لخلق الله.

ولذا يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديث شريف: «أَحَبُّ إِخْوَانِي إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي» (١).

يعنى أن الإنسان العاقل ليس فقط لا يتألم من بيان عيوبه من قبل الآخرين، بل ينبغي أن يحثهم على بيانها وذكرها، ليستطيع إصلاح العيب والخلل.

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه: «اتَّبِعْ مَنْ يُبَكِّيكَ وَهُوَ لَكَ نَاصِحٌ وَلَا تَتَّبِعْ مَنْ يُضْحِكُكَ وَهُوَ لَكَ غَاشٌّ» (٢).

ويقول الإمام عليه السلام في التوصيه الرابعه: «وَتَجَرَّعَ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرْ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَعْبَةً» (٣).

فهنا نرى أن الإمام عليه السلام يشبه الغضب بالدواء المر الذي يتجرعه الإنسان على مضض ولهذا يتناوله جرعه بعد جرعه، ولكن عاقبه الشفاء من المرض، ونهايته حلوه ومريحه، وهكذا حال كظم الغيظ وتجرع الغضب، لأنه ينفذ الإنسان من الوقوع في هوه الندم والخجل والأضرار الكثيره المترتبه على حاله السخط والحده في صوره عدم ضبط الإنسان لنفسه.

وفي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «قَالَ لِي أَبِي: يَا بَنِيَّ مَا مِنْ شَيْءٍ أَقْرَ لِعَيْنِ أَبِيكَ مِنْ جُرْعَةٍ عَيْظٍ عَاقِبَتُهَا صَبْرٌ وَمَا مِنْ شَيْءٍ يَسُرُّنِي أَنْ لِي بِذَلِكَ نَفْسِي حُمْرٌ»

ص: ٥٦٧

١- (١). أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٣٩، ح ٥.

٢- (٢). المصدر السابق، ص ٦٣٨، ح ٢.

٣- (٣). «معنبه» العاقبه، وأصلها من «غَبَّ» وأحياناً تأتي هذه المفرده في مورد الأعمال والتي تعنى عدم التوالى أو الانقطاع بين فتره وأخرى، كما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم عليه السلام أنه قال لبعض أصحابه: «زُرْ غَيْبًا تَزِدُّ حُبًّا». (مستدرک الوسائل، ج ١٠، ص ٣٧٤، ح ١٢٢١٠).

النَّعَم»(١).

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمَضِّيهُ أَمْضَاهُ مَلَمَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضَاءً»(٢).

ويضيف الإمام عليه السلام فى التوصية الخامسة ويقول: «وَلِنْ (٣) لِمَنْ غَالَطَكَ (٤) فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ».

الكثير من الأشخاص يسلكون سبيل العنف فى حال الغضب والسخط، وتزداد وتيره الحدّه وتتفاقم حاله الغضب حتى تصل أحياناً إلى مواقع الخطر، ولكن إذا أمسك الإنسان زمام نفسه وكظم غيظه وضبط حدّه الغضب بإرادته، وبدلاً من استخدام آليه العنف فإنه يستخدم آليه المداراه والانعطاف، فليس فقط تزول حاله الصراع والنزاع مع الطرف الآخر، بل تحلّ المودّه والمحبه محلّها، كما ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث تؤكد الآيه الشريفه على لزوم الإحسان فى مقابل الإساءه لتحويل الطرف المقابل من عدوّ إلى صديق وتقول: «ادْفَعِ بِأَلْتِي هِي أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عِدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»(٥).

ثم يتحدّث الإمام عليه السلام فى التوصية السادسة عن التفضّل على العدو، ويقول:

(وَحُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَخْلَى الظَّفَرَيْنِ)، أى الظفر عن طريق العنف والقوه، والظفر عن طريق المحبه والمودّه.

وهذه الجملة فى الحقيقه تأكيد على ما تقدّم من توصيات، ولكنها تتمتع ذات جمال أخذ فى صياغتها، يقول: ربّما تنتصر على عدوّك بآليات العنف والقوه، ولكن

ص: ٥٦٨

١- (١). الكافى، ج ٢، ص ١١٠، ح ١٠.

٢- (٢). المصدر السابق، ح ٦.

٣- (٣). «لِنْ» فعل أمر، من «اللين» على وزن «صين» وتعنى المرونه وعدم القساوه.

٤- (٤). «غالظ» من «الغلظه» وهى الخشونه (وتقع على الضد من اللينه والانعطاف).

٥- (٥). سوره فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

يمكنك أن تحقّق هذا النصر من خلال إبراز المحبّه والمودّه، ومعلوم أنّ الطريق الثاني أحلى وأحسن عاقبه، لأنّك في المستقبل ستعيش فارغ الذهن عن خوف الانتقام من العدوّ في حين أنّك إذا انتصرت عليه باستعمال القوّه، فسوف تتوقّع في كلّ وقت ظهور نزاع جديد باستخدام القوّه من قبل العدوّ، وبعبارة أخرى، أنّ العدوّ سيبقى في الطريق الأول عدوّاً، في حين أنّه في الطريق الثاني سيتبدّل إلى صديق.

ينقل أبوالفرج الاصفهاني في كتاب مقاتل الطالبين قصّه جميله في هذا المجال عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: إنّ رجلاً من ولد عمر بن الخطّاب كان بالمدينه يؤذّي أبا الحسن موسى عليه السلام ويسبّه إذا رآه، ويشتم عليّاً عليه السلام، فقال له بعض جلسائه يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم الإمام موسى الكاظم عليه السلام عن ذلك أشدّ النهي وزجرهم أشدّ الزجر، فسأل عن العمري، فذكر له أنّه يزرع بناحيه من نواحي المدينه، فركب إليه فوجده في مزرعه له، فدخل المزرعه بحماره، فصاح به العمري:

لا توطئ زرعنا، فتوطّأه أبو الحسن موسى عليه السلام بالحمار حتّى وصل إليه، فنزل وجلس عنده وباسطه وضاحكه وقال له: «كَمْ غَرِمْتَ فِي زَرْعِكَ هَذَا؟» (أى صرفت على زرعك).

فقال العمري: مائه دينار، فقال الإمام عليه السلام: «وَكَمْ تَرْجُو أَنْ تُصِيبَ؟» (أى تريح من الزرع).

قال العمري: لست أعلم الغيب، فقال الإمام عليه السلام له: «إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ كَمْ تَرْجُو أَنْ يَجِيئَكَ فِيهِ»، قال العمري: أرجو أن يجيئني فيه مائتا دينار.

فأخرج الإمام الكاظم عليه السلام صرّه فيها ثلاثمائة دينار وقال: «هَذَا زَرْعُكَ عَلَى حَالِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُكَ فِيهِ مَا تَرْجُو».

فقام العمري فقبّل رأسه وسأله أن يصفح عن فرطه (أى ما فرط في حقّ الإمام عليه السلام) فتبسّم إليه أبو الحسن عليه السلام وانصرف.

قال الراوي: وراح الإمام الكاظم عليه السلام إلى المسجد فوجد العمريّ جالساً، فلمّا

نظر إليه قال: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»، فوثب أصحاب العمري إليه، فقالوا له:

ما قصّتك، قد كنت تقول غير هذا؟

قال العمري: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن الإمام الكاظم عليه السلام، فخاصموه وقاطعهم، فلما رجع أبو الحسن عليه السلام إلى داره، قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري: أيما كان خيراً، ما أردتم أو ما أردت، إنني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت شره (١).

ويقول الإمام في التوصية السابعة: «وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَهُ أَحْيِكَ فَاسْتَبِقْ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّتَهُ يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْمَ مَا».

وهذا يعني أنّ الإنسان ينبغي أن يسير في مسألة الصداقة في خط الاعتدال، ولا يفشى أسراره كلها لصديقه، حتى لا يتورط فيما لو انقلبت هذه الصداقة يوماً ما إلى عداوة ويواجه الضرر والخسارة، وهكذا بالنسبة للحاله الأخرى، فالإنسان لا ينبغي أن يقطع صلته تماماً مع صديقه ويهدم كلّ الجسور خلفه، لأنه ربّما يندم ويريد إعادة العلاقة مع الطرف الآخر، ولكنه لا يجد طريقاً لمدّ جسور الثقة معه.

وهذا المضمون ورد بشكل أشمل في كلام آخر لأبي المير المؤمنين عليه السلام (طبقاً لما ورد في بحار الأنوار) قال: «أَحْبَبُ حَبِيْبِكَ هَوْنًا مَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيْضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغَضُ بَغِيْضَكَ هَوْنًا مَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيْبَكَ يَوْمًا مَا» (٢).

وينقل ابن أبي الحديد عن بعض العلماء هذا المعنى بيان آخر قال: «إِذَا هَوَيْتَ فَلَا تَكُنْ غَالِيًا وَإِذَا تَرَكْتَ فَلَا تَكُنْ قَالِيًا» (٣).

وفي التوصية الثامنة والأخيرة من هذا المقطع من الوصية يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ».

ص: ٥٧٠

١- (١). مقاتل الطالبين، ص ٣٣٢. وأورد هذه القصة المرحوم العلامة المجلسي بشكل أوسع في بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٠٢، ح ٧ (مع اختلاف يسير).

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٧٧، ح ١٤.

٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١٠.

وهو إشاره إلى أنّ شخصاً لو كان يظن أنّك من أهل الخير والبذل والعطاء وطلب منك شيئاً أو استعان بك على أمر، فعليك أن تصدّق ظنّه وتثبت له أنّك عند حسن ظنّه.

ومثل هذا السلوك يمتاز بمزيتين؛ فمن جهة يكرّس حسن ظنّ الناس بالشخص، ومن جهة أخرى يقوده حسن الظنّ في طريق الخير والصلاح.

وقد يصادف كثيراً أن يأتي بعض الأشخاص لدى المرء ويقولون: إننا نواجه مشكله ونعتقد أنّ حلّها بيدك، فهنا يجب على الإنسان أن يسعى لحلّ مشكله هؤلاء ويؤكّد لهم صدق ظنّهم ولا يتبدّل حسن الظنّ إلى سوء الظنّ.

ص: ٥٧١

إشارة

وَلَمَّا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلَا يَكُنْ أَهْلَكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَزَعَبَنَّ فِيمَنْ زَهَدَ عَنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِدْقَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ. وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضْرَبَتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوَّهُ.

الشرح والتفسير: لا تضيع حق الصديق

في هذا المقطع من الوصية التي يترجمها الإمام عليه السلام كما في القسم السابق، ست نصائح مهمّة في عبارات موجزة لولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام يقول أولاً: «وَلَمَّا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ».

وهذا يعني أنّ جميع الإخوة والأصدقاء يتوقعون من أصدقائهم احترام حقوقهم، ولو شاهدوا خلاف ذلك فإنّ من شأنه تعريض أركان الأخوة والصدقة إلى الاهتزاز، ولكن للأسف فإنّ بعض الأشخاص يفكرون بخلاف هذه الطريقة ويحسبون أنّهم إذا لم يراعوا حقّ الأخ والصديق والرفيق، فذلك ليس بالأمر المهمّ ويتوقعون من الطرف الآخر القبول والإغماض، في حين أنّ هذا خطأ كبير، لأنّ مثل هذه السلوكيات الجافّة وهذه اللامبالاه للحقوق إذا لم تؤثر عاجلاً في إضعاف وشائج المودة، فإنّها بالتدريج تعرّض دعائم الأخوة والصدقة إلى الضعف والاهتزاز.

وهذا الكلام من قبيل ما لو أنّ شخصاً مديناً لعدد كبير من الناس وكان يسعى

لإرضاء الآخرين وكسب ودّهم، ويغفل عن مطالبات أصدقائه ويعتقد أنّ هذه اللامبالاه بحقوقهم لا يترتب عليها شيء.

وفى التوصيه الثانيه يضيف الإمام عليه السلام ويقول: «وَلَا يَكُنْ أَهْلَكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ».

أى لا ينبغي أن تتعامل مع أهلك بآليات الإساءه بحيث يقفون منك موقفاً سلبياً ويتمنون موتك وزوال النعمه عنك.

وهناك احتمال آخر فى تفسير هذه الجملة أيضاً، وهو أنه لا- ينبغي أن تبذل كل اهتمامك لأصدقائك وتغفل عن أهلك وأسرتك وتتركهم يعيشون فى حاله من الشقاء والمعاناه.

الكثير من الأشخاص يصرفون جلّ أوقاتهم مع الأصدقاء والزملاء ويعيشون معهم غالباً فى أجواء المحبّه ويبدلون لهم كلّ مساعده، ولكنهم يحرمون اسرتهم من هذه المودّه والصفاء أو القيام بمسؤوليات الأسره.

ونقرأ فى حديث عن الإمام أبى الحسن علىّ بن موسى الرضا عليهما السلام قال: «يَبْغَى لِلرَّجُلِ أَنْ يُوسِّعَ عَلَى عِيَالِهِ كَيْلًا يَتَمَنَّوْا مَوْتَهُ»، فجدير بالإنسان عندما يحصل على نعمه أن يرفه على عياله ولا يضيق عليهم، حتّى لا يقفوا منه موقفاً سلبياً.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى ذيل هذه الروايه يقول: «الأسير (العائله) عيال الرّجل وينبغى للرّجل إذا زيد فى النعمه أن يزيد أسراءه فى السّعهِ عليهم، ثمّ قال: إنّ فلاناً أنعم الله عليه النعمه، فمَنَعَهَا أسراءه وجعلها عند فلان، فذهب الله بها» (١).

وفى التوصيه الثالثه يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهَدَ (٢) عَنْكَ».

لأنّ مثل هذه العلاقه تقود الإنسان إلى مهاوى الذلّه والمهانه، وصحيح أنّه طبقاً للتوصيات السابقه فأنّه يجب على الإنسان أن يحتفظ بالعلاقه مع الشخص الذى

ص: ٥٧٤

١- (١). الكافى، ج ٤، ص ١١، ح ٣.

٢- (٢). مفرده «زهد» سواء كان متعديه ب «فى» أو ب «عن» تعنى فى كلا الأمرين عدم الاهتمام والاعتناء، والزاهد إنّما يقال له زاهد لأنه لا يعتنى بزخارف الدنيا ولا يهتم بمتطلباتها.

قطع علاقته به؛ ولكن هذا المعنى إنما يصح فيما لو وقف الطرف المقابل موقفاً إيجابياً منه، ولكن إذا تعامل معه من موقع التحقير واللامبالاه، فلا ينبغي على الإنسان أن يذلل نفسه ويتوجه إليه ويتوسل به، بل ينبغي أن يغيض النظر عنه، فالإنسان كما يقول المثل يجب أن يضحى لمن يهتم به.

وفي التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَكُونَنَّ أَحْوَكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ».

وهذا إشارته إلى أن الطرف المقابل مهما سعى لقطع العلاقة معك، فينبغي عليك أن تصرّ على توثيقها وتقويتها، وكلما رأيت منه إساءة، فيجب أن تقابلها بالإحسان.

وطبعاً هذا في مورد الأشخاص الذين تؤثر فيهم المحبة والإحسان، وعلى هذا الأساس لا تتنافى مع الجمل السابقة.

وفي التوصية الخامسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَشْعَى فِي مَضْرَّتِهِ وَنَفْعِكَ».

وهذا يعني أن الإنسان لا ينبغي أن يستاء كثيراً في مقابل حالات الظلم التي يواجهها، ولا يدع لليأس أن يتخذ طريقاً له في حياته، بل عليه أن يعتقد بأن هذا الظالم الذي قصّر في حقه وظلمه، إنما يظلم نفسه وينفع المظلوم في نهايه المطاف حيث يحمل وزر المظلوم على ظهره يوم القيامة، والحقيقة أن ضرر الظلم يصيب مرتكبه ويخفف عن كاهل المظلوم وزره.

وهذا الكلام يشبه ما ورد في الروايات في باب الغيبة وأن أحد العلماء سمع رجلاً يفتابه ويتحدث عنه بسوء، فأهدى إليه هديه، فتعجب ذلك الرجل فقال له هذا العالم: سمعت أن حسناتك قد انتقلت إلى صحيفه أعمالى، وقد تقبلت سيئاتى، وأنا بدورى أشكرك على هذه الخدمه وهذا الإحسان إلى.

وهذا الكلام لا- يعنى أن الإنسان ينبغي أن يلتزم الصمت في مقابل الظالمين ولا يتصدى لهم بالاعتراض، لأننا نعلم أن شعار الإسلام هو: «لَا تَظْلِمُونَ وَلَا

تُظَلَّمُونَ» (١)، ونعلم أنّ الإمام عليّ عليه السلام ذكر في وصيته لأبنائه وهو في فراش الشهاده قال: «كُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا» (٢) بل المقصود أنّ الإنسان عندما يقع مظلوماً ولا يملك القدره على ردّ الظلم والتصدي للظالم، لا ينبغي له اليأس والتشاؤم وإطلاق كلمات اللعن والتأوه، والشاهد على هذا الكلام ما ورد في الحديث المشهور عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عندما سرق أحدهم عقد عائشه وأخذت عائشه بلعن السارق، فقال لها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «لَا تَمَسِّحِي عَنْهُ بِدُعَائِكَ» (٣)، أي لا تدرئي عنه العذاب بهذا اللعن، فعليك بضبط نفسك ولسانك عنه واعلمي أنّه قد ظلم نفسه وإنّ الله تعالى سيثيبك على صبرك وتحملك.

وهنا توجد نقطه دقيقه ينبغي الالتفات إليها، وهي أنّ الظالم كالسارق مثلاً، عندما يورد الضرر والخساره الماليه على المظلوم من جهه ويجعله يعيش الحزن والألم الروحي من جهه أخرى، فإنّ الله تعالى يشبهه على كلا الأمرين، ولكن لو دعا المظلوم على من ظلمه وأخذ يلعنه باستمرار ليشفى غيض قلبه ويهدئ من غيظه، فمن الطبيعي أن يخفف ذلك من عذاب الظالم.

فيتبين ممّا تقدّم أنّ ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج البلاغه كابن أبي الحديد من اتّخاذ السكوت في مقابل ظلم الظالمين كقاعده كليته، خطأ كبير، بل ينبغي القول أنّ هذا المورد يعدّ استثناءً وناظر إلى موارد خاصّه، وأمّا الأصل الكليّ في الإسلام فهو أن لا يقع الإنسان مظلوماً ولا ظالماً.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام في التوصيه السادسه من هذا المقطع من الوصيه:

«وَأَلَيْسَ جَزَاءً مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوَّهُ».

وهذه النصيحه مقتبسه من القرآن الكريم حيث قال: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

ص: ٥٧٦

١- (١) . سورة البقره، الآيه ٢٧٩.

٢- (٢) . نهج البلاغه، الرساله ٤٧.

٣- (٣) . شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١١.

وذهب بعض الشراح إلى أنّ هذه الجملة لا- تعتبر كلاماً مستقلاً، وقالوا: إنّها استمرار للتوصيه السابقه، وأنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ الظالم إنّما يضرّ نفسه وينفعك، ومن هذا منطلق فالشخص الذي أوصل إليك النفع لا ينبغي أن تسوءه (من خلال الدعاء عليه وإظهار التظلم بشكل متكرّر).

ص: ٥٧٧

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرُّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ الخُضُوعَ عِنْدَ الحَاجِهِ، وَالجَفَاءَ عِنْدَ العِنْيِ، إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعًا عَلَى مَا نَفَلَتْ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهُ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ العِطَةُ إِلَّا إِذَا بَالَعَتْ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ العَاقِلَ يَتَعَطَّ بِالْمَادَابِ، البَهَائِمُ لَا تَتَعَطُّ إِلَّا بِالصَّرْبِ. اطْرُحْ عَنكَ وَارِدَاتِ الهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ اليَقِينِ. مَنْ تَرَكَ القَضِيَّةَ حِيَارًا، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبًا، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ. الهَوَى شَرِيكَ العَمَى وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٌ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالعَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّى الحَقَّ ضَاقَ مِذْهَبُهُ، وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ. وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ، بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكْ فَهُوَ عِدُوكَ. قَدْ يَكُونُ اليَأْسُ إِذْرَاكًا، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ البَصِيرُ قَضِيَّةً، وَأَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ. أُخِرَ الشَّرُّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ الجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَمَةَ العَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ حَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ.

لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلِّ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذُكَّرَ مِنَ الكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكًا، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَن غَيْرِكَ.

فى المقطع السابع والعشرين من هذه الوصيه الرائعه يشير الإمام عليه السلام إلى ثمان وعشرين موضوعاً مهمّاً من موقع النصيحه، وبذلك يزيد من ثراء وعمق هذه الوصيه.

الأولى: يتحدّث الإمام عليه السلام أولاً عن مسأله الرزق حيث يتحرّك الكثير من الناس طلباً له بحاله من الحرص والولع ويقول: «وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ».

وهذه الجملة، بقرينه ما ورد فى جملة مشابهه لها وأكثر تفصيلاً فى كلمات الإمام عليه السلام القصار^(١)، ناظره إلى أنّ الإنسان لا ينبغى أن يعيش الحرص والوله بالرزق، ولا ينبغى أيضاً أن يتكاسل فى طلبه.

ومراد الإمام عليه السلام من الرزق الذى يجب على الإنسان أن يطلبه، هو الكسب والعمل اليومى فى طلب المعاش، مثل، الزراعة، الصناعه، التجاره وأمثال ذلك، ومراده من الرزق الذى يطلب الإنسان ويأتيه وإن أعرض عنه الإنسان أو لم يطلبه، الهدايا أو التجاره والأرباح التى يصيبها الإنسان من غير احتساب، وعلى ضوء ذلك إذا ضاق عليه القسم الأول من الرزق فلا ينبغى أن يئس من لطف الله بل يتوقّع مع استمراره فى الحركه والسعى والكسب، أن يرزقه الله من حيث لا يحتسب.

وعندما يرى الإنسان فى عالم الخلقه موارد كثيره من الرزق من النوع الثانى، فإنّ هذا الأمل سيقوى ويتعمّق فى قلبه، ففى يوم كان الجنين فى عالم الرحم يأتيه رزقه من خلال المشيمه والحبل السرى المتّصل برحم الأم، وبعد ولادته يأتيه رزقه من صدر امه لإدامه حياته وما يحتاجه بعد ولادته من الغذاء، يقول القرآن الكريم: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»^(٢).

ص: ٥٨٠

١- (١). نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٣٧٩.

٢- (٢). سورة هود، الآية ٦.

وعندما يسير الإنسان فى خطِّ التقوى والورع ويجتنب الأموال والأرباح المحرّمة، فإنَّ الله تعالى يبشّره بسعه الرزق ويقول: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (١).

ومن جهه أخرى نشاهد فى عالم الخلقه وجود أرزاق كثيره وضروريه لحياه الإنسان وبشكل وافر، بمقتضى رحمانيه الله تعالى لجميع أفراد البشر أعمّ من المؤمن والكافر، فنور الشمس وبركات الأرض، والأمطار، والأوكسجين فى الفضاء ممّا لا يستطيع الإنسان فى الحياه بدونها، فكلّها من الأرزاق والنعم الإلهيه التى أنعم الله بها على الإنسان ممّا لم يطلبه ويتحرّك فى سبيل كسبه.

ويقول القرآن الكريم أيضاً: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» (٢).

ويقول أيضاً: «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» (٣).

وبالرغم من أنّ هذه الآيه الشريفه، ومن خلال القرائن الموجوده فيها، ناظره فقط إلى قطرات المطر، ولكن الآيه السابقه لها تملك مفهوماً أوسع وأشمل بحيث تشمل نور الشمس الذى يعدّ العله الرئيسيه لكلّ حركه فى الكره الأرضيه كحركه الرياح والهواء الذى يعتبر مصدر حياه جميع الأحياء أيضاً.

وفى تاريخ القدماء نقرأ أحياناً بعض القصص التى تكشف عن الحوادث التى تعتبر مصداقاً حياً فى الرزق الذى يطلب الإنسان دون أن يطلبه أو يتوقّعه، فمن ذلك ما ذكره ابن أبى الحديد فى شرحه لهذه الجمله عن عماد الدوله (من سلاطين آل بويه): والقصه هى: دخل عماد الدوله أبو الحسن بن بويه مدينه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت وأجلاه عنها، وهو فقير لا مال له، فساخت إحدى قوائم فرسه فى الأرض، فنزل عنها وابتدرها غلمانها وخلّصوها، فظهر لهم فى ذلك الموضع نقب

ص: ٥٨١

١- (١) . سورة الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.

٢- (٢) . سورة الذاريات، الآيه ٢٢.

٣- (٣) . سورة الجاثيه، الآيه ٥.

وسيع، فأمرهم بحفره، فوجدوا فيه أموالاً عظيمة وذخائر لابن ياقوت، ثم استلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز التي كان ابن ياقوت يسكنها، فرأى حيه في السقف، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم ودخلت في خشب الكنيس، فأمر من يقلع الخشب وتستخرج وتقتل، فلما قلعوا الخشب وجدوا فيها أكثر من خمسين ألف دينار ذخيره لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله، فقبل: هاهنا خياط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهو رجل منسوب إلى الدين والخير، إلمائه أصم لا يسمع شيئاً أصلاً، فأمر بإحضاره فأحضر وعنده رعب وهلع، فلما أدخله إليه كلمه فقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعه من ثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه وقال: والله يا مولانا ما له عندي إلا أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء فيّ، فتعجب عماد الدوله وأمر بإحضار الصناديق فوجدها كلها ذهباً وحليه وجواهر، وديعه لابن ياقوت (١).

الثانية: والنصحية الثانية للإمام عليه السلام يقول: «مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى».

وهذا إشاره إلى أنّ الأشخاص من ضعفاء النفوس عندما يحتاجون إلى هذا وذاك، فإنهم يعرضون حاجتهم بالكثير من حالات الذلّ بحيث تتعرض شخصيتهم للاهتزاز، ولكن عندما يعيشون القدره وعدم الحاجه، فإنهم يتعاملون مع المحتاجين من موقع الانزدراء واللامبالاه، وكلاهما تين الصفتين من الرذائل الأخلاقية، فينبغي للإنسان عند الحاجه أن يحفظ مناعه الطبع والعزّه في نفسه، وعند القدره وعدم الحاجه لا يبخل في اللطف وإظهار المحبّه والتواضع للمحتاجين.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه (٢) إلى أنّ هذا الكلام ناظر إلى مورد في الآيه

ص: ٥٨٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١٤.

٢- (٢). المصدر السابق، ص ١١٥.

الشريفه: «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْمِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (١).

وعلى هذا الأساس فإنّ العبارات أعلاه ناظره إلى العلاقة بين الخلق والخالق في حين أنّ الأمر ليس كذلك، والظاهر أنّ هذه الجمل والعبارات ناظره إلى العلاقة بين المخلوقين أنفسهم، لأنّ الخضوع أمام الخالق محمود على أيّ حال.

ولا يخفى أنّ المراد من الخضوع في هذا المورد ليس هو التواضع المعقول، بل التواضع المقترن بالذلّة والحقاره، والمراد من الجفاء، إظهار الكراهيه وعدم الاحترام، وأمثال ذلك.

ونقرأ في الحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعِ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلِبًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ وَأَحْسَنُ مِنْهُ تِيَةُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ اتِّكَالًا عَلَى اللَّهِ» (٢).

ويقول أحد الشعراء في هذا المجال:

خُلُقَانٍ لَا أَرْضَاهُمَا لِفَتَى

الثالته: «إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ» (٣).

وهذا إشاره إلى أنّ الثروات الدنيويه تذهب وتروح، وأحياناً قد يترك الإنسان آلافاً مؤلفه منها للورثه، ويبقى حسابها ووزرها عليه في الآخره، ويتمتع بها الآخرون في الدنيا، فهذه الأموال لا تعتبر مالاً حقيقياً للإنسان، والمقدار الذي يعتبر

ص: ٥٨٣

١- (١). سوره يونس، الآيتان ٢٢ و ٢٣.

٢- (٢). نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٤٠٦.

٣- (٣). «مشوى» كما أشرنا سابقاً أنّها تعنى المكان والمنزل، وهنا جاءت بمعنى منزل الآخره.

ملكه فى الحقيقه هو ما استخدمه لإصلاح آخرته وأرسله أمامه إلى حياته بعد الموت.

ونقرأ فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام قوله: «لِكُلِّ امْرِئٍ فى مَالِهِ شَرِيكَانِ:

الْوَارِثُ وَالْحَوَادِثُ»(١).

ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مِائِي مِائِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَالُ الْوَارِثِ»(٢).

يعنى أن المال الحقيقى للإنسان يكون على قسمين: قسم يستفيد منه بمصارفه ومعيشته فى الدنيا، وقسم آخر يجعله ذخيره لآخرته ويوم معاده، وسائر أمواله موهومه ربّما تسلب منه فى بعض الحوادث، ولو بقى منها شىء فهو نصيب الورثه.

الرابعه: يشير الإمام عليه السلام هنا إلى نقطه أخرى، وجدير بالإنسان أن يتذكّرهما كلّ يوم وهى قوله: «وَإِنْ كُنْتَ جَازِعًا عَلَى مَا تَفَلَّتَ (٣) مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ».

الكثير من الأشخاص عندما يفقدون المال والمقام الذى كانوا يملكونه تراهم يرتفع عويلهم وصراخهم ويتحسّرون على ذلك أياماً طويلاً، وربّما شهوراً وأعواماً مديده، ولكنهم بالنسبه للأموال والمقامات التى لم يحصلوا عليها أبداً لا يعيشون تجاهها هذه الحاله، فى حين أننا إذا دققنا النظر فإنّ كلا الحالين سواء، فالتقدير الإلهى قضى بأنّ هذا المال أو المقام يكون من نصيبى لمدّه سنه أو عدّه سنوات ثم يزول إلى غيرى، بحسب الأسباب الظاهريه أو الغيبيه، فما الفرق بين البقاء والحدوث؟ فإذا لم نجزع على غير المقدّر حدوثه فلماذا لا نعيش هذه الحاله فى حال فقدانه؟ وطبعاً أحياناً يتصوّر الإنسان أنّ هذا المال أو المقام لا بدّ أن يبقى عنده

ص: ٥٨٤

١- (١) . نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٣٣٥.

٢- (٢) . بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٣٨، ح ٦.

٣- (٣) . «تَفَلَّتَ» من «الفلت» على وزن «فقر» وفى الأصل بمعنى الخلاص، وتأتى أيضاً بمعنى الأمور التى تصدر من الإنسان بشكل عفوى وبدون تأمل.

أكثر من المدّة المقدّره، ولكن بحسب عالم الأسباب والمسبّبات فإنّ هذا تصوّر مجرد خيال باطل، والتأسّف عليه مثل تأسّف الشخص الذي رأى في منامه أنّه يملك مالاً ومقاماً وعندما يستيقظ فإنّه يجزع على ما ذهب من يده في منامه.

الخامسه: يشير الإمام عليه السلام في هذه التوصيه إلى نقطه مهمه أخرى ويقول:

«اشْتَدَلَ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهُ».

وهذا يعنى وجود سلسله من القوانين الكليه الحاكمه على عالم الوجود وعلى المجتمعات البشريه، ولها في كلّ زمانٍ مصاديق في أرض الواقع، ولكن كلّ هذه المصاديق والموارد مشموله لتلك القوانين الكليه، وعليه فالإنسان بإمكانه - من خلال مطالعه حالات القدماء والمجتمعات الماضيه بل وحتى مراجعه ما واجهه من حوادث ومتغيّرات في سنوات عمره الماضيه - أن يتعرّف على المسائل التي تواجهه في الحاضر والمستقبل من خلال المقارنه، لئلا يتورّط بعناصر الخطأ والضرر والخسران.

وهذا الكلام يشبه ما ورد عن الإمام عليه السلام في خطبه أخرى حيث قال: «عَبَادَ اللَّهِ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَيِّنَاتِ كَجَزْيِهِ بِالْمَاضِينَ»^(١)، وهذا الكلام متداول في تعبيراتنا اليوميّه حينما نقول: التاريخ يعيد نفسه.

وفي ذيل الخطبه يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفيه تكرار التاريخ، وقد تحدّثنا في شرحها تحت ستّه عناوين: الزوال السريع للنعم، عدم ثبات الحوادث في العالم، عدم وفاء الدنيا وأهلها، الغرور والإخفاقات الناشئه عنه، تغيّر الحالات والروحيات لدى الأفراد بحيث إنّ أقرب المقرّبين ربّما يتحوّل إلى أخطر الأعداء، وأخيراً أنّ الذي يبقى ويعدّ ذكرى جميله للإنسان في هذا العالم، أشكال الإحسان والمحبه والإخلاص، وما يؤدّي إلى اللعن ويسبّب السمعه السيئه للإنسان هو الظلم والجور وسلب الحقوق.

ص: ٥٨٥

أجل، هذه الأمور كلها تتكرر حالياً كما وقعت في السابق، ومن هنا فإنّ العقلاء من الناس هم الذين يطالعون ماضيهم وتاريخ القدماء من بعمق وتمعن ويستلهموا منها الدروس والعبر.

السادس: يقول: «وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَاتَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَعَتْ فِي إِيْلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، وَالْبَهَائِمَ لَاتَنْفَعُ إِلَّا بِالضَّرْبِ».

وهو إشارة إلى أنّ الناس على نحوين: فبعض يتعظ بأدنى تفكير وتنبه ويلتفت إلى خطئه ويسعى لإصلاحه، هؤلاء هم الأشخاص الواقعيون، ولكنّ البعض الآخر لا يتعظ بسهولة إلا إذا وصلت السكين إلى العظم فما لم يشعروا بالتوبيخ والتحقير والذمّ أو يواجهوا الضرر والخساره نتيجة أعمالهم، فإنّهم لا يراعون عن غيهم، فهؤلاء حالهم حال الأنعام والبهائم التي لا تتعلم إلا بالضرب، ولا تسكن وترتك الجموح إلا بالسوط.

السابع: يشير الإمام عليه السلام إلى توصيه مهمّة أخرى ويقول: «أَطْرَحَ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بَعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ».

إشارة إلى أنّ الحياه عباره عن مجموعه من الحوادث المرّه والحلوه، وكلّ وقت تهجم على الإنسان الغموم والأحزان، تاره على شكل هموم اجتماعيه وأخرى سياسيه وثالثه ماديه أو عائليه، فالإنسان إذا رضح وخنق أمام هجوم هذه الهموم فسوف يعيش الإخفاق والفشل في حياته، ولكنّه يستطيع التغلب على هذه الهموم والتحديات بالاستعانه بقوتين:

الأولى: قوّه الصبر والاستقامه، وأن يعلم أنّه سواء صبر أو لم يصبر، فإنّ مثل هذه الحوادث خارجه عن اختياره، فإذا كانت هذه الهموم ناشئه من جهله وتساهله في الأمور، فعليه تغيير المسار وإصلاح الخلل، فلو التزم بآليه الصبر فإنّه يكون عند الله مأجوراً وسليماً أيضاً، وإن ترك الصبر فإنّ حوادث الدهر تستمرّ في مسيرتها ويفقد الأجر والثواب.

والأخرى، أن يجهز الإنسان نفسه بقوّه اليقين، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم يقول: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» (١)، ومعلوم أنّ التقديرات الإلهيّة تنطلق من موقع الحكمة والتدبير الإلهي، سواء علمنا بهذه الحقيقة أم لم نعلم، وبالتالي نستطيع بهاتين القوتين التصديّ لواردات الهموم وتسكين خلجات النفس وترطيب أجواء الحياه.

ينقل المرحوم مغنيه في شرحه لنهج البلاغه قصه مفيده ويقول: ومن جمله ما قرأت أنّ رجلاً أحس بضعف وانحراف في صحّته، ولمّا عرض نفسه على الطبيب قال له أنّه مريض بسرطان الدم، وأنّه يموت بعد مده قصيره، فلم ينزعج وتحدي المرض، وقال في نفسه: لا- فرق بين أن أموت فجأه أو بإنذار سابق، ومضى في عمله كأن لم يكن شيء، استمرّ فيه حتى الآن، ولو أنّه استسلم للوساوس لخارت قواه وأمسى طريح الفراش ينتظر الموت في كلّ لحظه، ومعنى هذا أنّه يموت في اليوم مرّات، ولمّا قيل له: كيف تعمل وأنت على هذه الحال؟ قال: اجرب الحكمة القائلة: خير الدواء العمل (٢).

ويقول لقمان الحكيم أيضاً في مواعظه الجميله لولده: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (٣).

الثامنه: يقول: «مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارًا».

وهذا يعنى أنّ إحراز السلامه في الدين والدنيا يمرّ من خلال الاعتدال، وأنّ كلّ إسراف وتفريط يقود الإنسان إلى دروب الضلاله والشقاء والإخفاق، وأنّ الصراط المستقيم الذي ندعو الله تعالى كلّ يوم في صلاتنا أن يهدينا إليه، هو صراط الاعتدال والاستقامه.

ص: ٥٨٧

١- (١). سورة التوبه، الآيه ٥١.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه للشيخ مغنيه، ج ٣، ص ٥٢٦.

٣- (٣). سورة لقمان، الآيه ١٧.

التاسعه: «وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ (١)». أى حاله حال أقرباء الإنسان وأرحامه.

وهذا إشاره إلى أنّ رابطة الصداقه تاره تكون قويه إلى درجه أنّها تحلّ محلّ رابطة القرابه والنسب، بل تاره تكون أقوى من ذلك، وهناك مثل معروف يقول أنّه سئل شخص: أيهما أفضل الصديق أم الأخ؟ فقال: الأخ الصديق أفضل، وهناك مثل معروف أيضاً لدى العرب حيث يقال: «الصَّدِيقُ نَسِيبُ الرُّوحِ وَالْأَخُ نَسِيبُ البُذَنِ» (٢).

وقد نستوحى من هذا الكلام هذه النتيجة، وهى أنّ ذات الحقوق المقرره للأرحام والأقرباء ينبغى أخذها بنظر الاعتبار من الأصدقاء الجيدين أيضاً.

العاشره: يقول: «وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ».

وهو إشاره إلى الأشخاص الذين يظهرون المحبّه والعشق والعلاقه فى حضور المرء، ولكن ربّما لا- يكون ذلك علامه حقيقيه على صدقهم وصدقتهم، فالصديق الواقعى إنّما يتبين فى غياب صديقه ويراعى حقوقه فى غيبته كما فى حال حضوره ويتحدّث عنه فى غيبته كما يتحدّث أمامه.

الحاديه عشر: يشير الإمام عليه السلام فى هذه التوصيه إلى نقطه مهمه أخرى ويقول:

«وَالهَوَى شَرِيكُ العَمَى»، فكما أنّ الأعمى لا- يرى ما حوله من الأجسام حتّى لو كانت قريبه منه ومجاوره له، فإنّ أتباع الدنيا والسالكين فى خطّ الأهواء محرومون من الحقائق الجائيه، لأنّ حجاب الهوى يعتبر أشدّ الحجب ظلاماً ولا توجد آفه للمعرفه أضّر وأسوء من هذه الآفه.

يقول القرآن الكريم: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهُ أَفَلَا تَدْرُونَ» (٣).

ص: ٥٨٨

١- (١) . «مناسب» من ماده «نسب» وجاءت هنا بمعنى الأقرباء.

٢- (٢) . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١١٧.

٣- (٣) . سوره الجاثيه، الآيه ٢٣.

وَيَصْرَحُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رِسَالِهِ لَهُ لِأَحَدِ أَصْحَابِهِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَيَقُولُ: «فَارْفُضِ الدُّنْيَا فَإِنَّ حُبَّ الدُّنْيَا يُعْمِي وَيُصِمُّ وَيُبَيِّنُكُمْ وَيُذِلُّ الرَّقَابَ» (١).

الثانية عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ».

وهو إشارة إلى أنّ العلاقات الجسديه لا تدلّ دائماً على العلاقه القلبيه والتجانس الفكرى بين الأقرباء، فأحياناً يكون البعيد أقرب إلى الإنسان من قريبه، فالمهمّ وجود ارتباط قلبيّ وعلاقه روحيه بين الطرفين، فلو لم يجد الإنسان مثل هذه العلاقه لدى أرحامه وأقربائه فيامكانه البحث عنها في غيرهم.

ونقرأ في القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ» (٢).

الثالثة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ».

الأمر الذي يخرج الإنسان من عتمه الغربه، المحبّه، والأشخاص الذين لا يعيشون المحبّه من قبل الآخرين يواجهون الوحشه والوحده، ولهذه الغربه عوامل مختلفه، فأحياناً يقود الكبر والغرور والأنانيه صاحبها إلى زاويه الوحده وتبعد الناس عنه، وأخرى عناصر الحسد والحده، وتاره حالات عدم الوفاء وعوامل أخرى.

ومن هذا المنطلق، ولأجل التخلص من وحشه الغربه، ليس لنا طريق سوى تطهير نفوسنا من الرذائل الأخلاقيه والتحلّى بالفضائل التي توفر لنا أصدقاءً مخلصين وإخوه صالحين.

الرابعه عشر: في هذه التوصيه يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه في غايه الأهميه ويقول: «مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ»، لأنّ طريق الحقّ واسع ومعبد ونوراني، أمّا

ص: ٥٨٩

١- (١). أصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٦، ح ٢٣.

٢- (٢). سورة التغابن، الآية ١٤.

طريق الباطل فملىء بالعثرات والمطبات والمنعطفات الخطيره والمآزق الضيقه، والسائرون فى طريق الحق يتحرّكون بسرعه نحو مقصدهم وهدفهم، لأنّ عالم الوجود يتحرّك فى طريق الحق، ومن كان منسجماً مع عالم الوجود فإنّه يتحرّك فى هذا المسير أيضاً، ولكن السالكون طريق الباطل كمن يسبح عكس التيار، ومن يخالف مسار الطبيعه وقوانين الوجود، يوقع نفسه فى مآزق عمليه ولا يصل إلى نتيجه.

أضف إلى ذلك فإنّ مسير الحق كالجاده الواضحه التى نصبت عليها علامات المرور التى ترشد السالكين فيه لمعرفة وضع المسير، ولكن طريق الباطل يفتقر لكلّ هذه الأمور، ولذلك يقود السالك فيه إلى مهاوى الضلاله ومتاهات الحيره.

الخامسه عشر: يشير الإمام عليه السلام فى هذه فقره إلى موضوع معروف ومهمّ ويقول: «وَمَنْ افْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ».

وبهذا المضمون وردت عباره أخرى للإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى كتاب غرر الحكم، قال: «رَجِمَ اللَّهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَهُ وَ لَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ» (١).

والتجربه تشير إلى أنّ الأشخاص الذين تجاوزوا حدودهم ولم يعرفوا قدرهم، أثاروا الناس ضدّهم، بحيث أنّ الناس ليس فقط لم يعترفوا لهم بمقامهم الزائف الذى يدّعون، بل سلبوا منهم موقعهم الذى يستحقّون، والسبب واضح، لأنّ الناس يرون فى هؤلاء المدّعين الطوبائيين والذين يعيشون حالات الترجسيه والغرور أنّهم أشخاص انتهازيون وخونه، وأحياناً حمقى وسفهاء، ولهذا لا يحسبون لهم أية قيمه، ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون الصدق والنزاهه والقانعين بحقّهم، يعتبرهم الناس شخصيات محترمه ويمنحونهم المكانه اللائقه ويراعون حقّهم فى واقع الحياه الاجتماعيه.

السادسه عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذَتْ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

ص: ٥٩٠

وهو إشاره إلى أن التمسك بالوسائل الماديّة واللجوء إلى المخلوقين والطلب منهم، طريق لا يعتمد عليه، وربما لا يوصل إلى نتيجة مطلوبه، فهذه الأسباب لا يوثق بها في تحصل المراد، والأصل الثابت والأساس القائم والخالد هو البارى تعالى الذى لا يمكن لأيشىء مخالفه مشيئته وقدرته المطلقة، وعلى ضوء ذلك فالشخص الذى يلتجىء إلى الذات المقدسه فإنه يلتجىء إلى حرز حريز وملاذ أمين غير قابل للزوال والاهتزاز، وهذا هو التوحيد الأفعالى الذى يقرّر: «لا مُؤَثَّرٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ». والقرآن الكريم يقول: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» (١).

وذهب بعض إلى أن المراد من الوسيله الإيمان والقرآن الكريم، ولكن من الواضح أن الجملة لها مفهوم واسع تشمل جميع الوسائل التى تقرب الإنسان إلى الله تعالى.

ومعلوم أن هذا الكلام لا يعنى أن نترك عالم الأسباب والمسببات، ولا يعنى أيضاً ترك التوسل بالمعصومين، لأننا إذا توسلنا بالمعصومين وبالأسباب الطبيعیه وكان نظرنا إلى ما ورائها من القدره الإلهيه، وكان نظرنا إلى مسبب الأسباب، فمثل هذا التوسل وطلب الشفاعه من هؤلاء الأولياء يمثل تقرباً إلى الله تعالى وهو من المصاديق البارزه للعلاقه الوثيقه مع الذات المقدسه.

السابعه عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ لَمْ يُبَالِكْ فَهُوَ عَدُوٌّ كَ».

وطبعاً فالمراد الشخص الذى يرتبط مع الإنسان بنحو من الارتباط، وربما ادعى المحبه والمودّه، ولكن عندما تحين لحظه الدفاع عن الحقّ والعرض والسمع، فإنه يواجه هذا الموقف من موقع اللامبالاه وبحاله من البروده، وهذا يشير إلى أنه غير صادق فى إظهار المحبه والصداقه، بل يضمّر نوعاً من العداوه فى داخله ونفسه.

ص: ٥٩١

وعلى ضوء ذلك، فلا داعى لحمل هذه الجملة على أنها ناظره للعلاقة بين الناس والحكام، والقول بأن بعض الناس - فيما يتصل بالشأن السياسى والاجتماعى وما إلى ذلك - لا- يتحرّكون على مستوى الانسجام مع برنامج الحكومه ويتعاملون مع الخطط والمناهج التى تقرّها الدوله من موقع اللامبالاه وعدم الاهتمام، فهؤلاء فى الحقيقه مخالفون لهذا النظام وأعداء لذلك المنهج(1)، وبخاصّه إذا رأينا أنّ أجواء هذه الوصيه لا- يرتبط بمقوله العلاقة بين الحاكم والمحكومين، بل بين أفراد المجتمع أنفسهم.

الثامنه عشر: يقول الإمام عليه السلام فى هذه التوصيه المثمره: «قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِذْرَاكًا، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا».

وهذا يعنى أنّ الإنسان أحياناً يسعى للتوصّل إلى هدفه وغايته، ويطمع أن ينال بغيته، فى حين أنّ الله تعالى يعلم أنّ ذلك مضرّ له وفيه خسارته، وبذلك يحرمه من تحقيق غايته، وفى هذا المورد، وإن لم يصل هذا الشخص ظاهراً إلى غايته وهدفه، إلّا أنّه فى الحقيقه حصل على الهدف الحقيقى وهو السلامه والمنفعه الحقيقيه الكامنه فى وجدانه، وعلى ذلك لا ينبغى أن يعيش الإنسان حالات اليأس وفقدان الأمل فى عدم الوصول إلى النتيجة ويحسب أنّ ذلك خساره وإخفاقاً، بل تعدّد هذه الظاهره فى كثير من الموارد نجاحاً وتوفيقاً.

التاسعه عشر: يقول الإمام عليه السلام: «لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ».

هناك احتمالات عدّه فى تفسير هذه العبارة: الاحتمال الأول: إنّهُ إذا كنت تعتقد بأنّ البعض ذو شخصيه كامله حسب الظاهر ولا نقص ولا- عيب فيه، فلا- تغتبر بهذه الحاله الظاهريه، لأنّه ربّما كانت هناك عيوب خفيّه لم تظهر لك، وعليه ينبغى الاحتياط على كلّ حال، وهذا ما ذهب إليه جماعه من شراح نهج البلاغه.

ص: ٥٩٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد و شرح نهج البلاغه الشيخ مغنيه.

الاحتمال الثاني: إنّ الإنسان إذا رأى في نفسه أنه سليم من كلّ عيب ونقص ظاهراً، فلا يَغْتَرّ بذلك، لأنّ الكثير من العيوب لا تظهر للإنسان إلّا بالتأمّل والتفكّر والدقّه، كما ذكروا في حالات بعض العظماء أنّه بعد ثلاثين سنه مثلاً انتبه فجأه ومن خلال حادثه معينه، إلى وجود بعض العيوب في نفسه.

الاحتمال الثالث: إذا كانت لديك عيوب ونقاط ضعف وترى أنّك أدنى وأقلّ مرتبه من الآخرين بسبب ذلك، فلا تقلق، بل عليك بإصلاح نفسك وسدّ هذه الثغرات في شخصيتك، لأنّ الآخرين يملكون عيوباً أيضاً ويسعون لإخفائها عن الآخرين.

ويدهي أنّ هذه التفاسير لا تتقاطع فيما بينها، وربّما تجتمع كلّها في مفهوم هذه الجملة، وإن كان التفسير الأول أنسب حسب الظاهر.

العشرون: يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ».

يعنى إذا فقدت فرصه فلا تحزن، لأنّ الفرصه أحياناً تأتي بشكل مفاجيء بحيث أنّ الإنسان لا يوفّق للاستفاده منها، رغم أنّه لا بدّ من السعى الجادّ لاستغلال الفرص، ولو أنّ الناس استطاعوا استغلال جميع الفرص بدون أن تزول فرصه، فإنّ حياه البشر ستتغيّر وتختلف كثيراً عمّا عليه الآن.

وهذا الكلام النوراني يمنحنا درساً كبيراً، لأننا كثيراً ما رأينا بعض الأشخاص الذين يعيشون التحسّر طيله عمرهم على فقدان فرصه، ويقولون: إذا كنت قد عملت ذلك العمل في اليوم الفلاني فسأكون كذا وكذا، أو ليت أنّي كنت مستيقظاً في تلك الساعه ولم أفقد تلك الفرصه، هؤلاء وبدلاً من التفكير بالمستقبل يتحسّرون دائماً على الماضي.

الحاديّه العشرون: في هذا التوصيه يطرح الإمام عليه السلام موضوعاً مهمّاً آخر ويقول: «وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَضِيَّةً، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ».

وهذا يشير إلى لزوم التدبّر في أعمال أهل الخبره والمطلعين من الناس، فلا تتصوّر أنّهم يتحرّكون في مسيرهم بدون ارتكاب خطأ، وكذلك عليك بالدقّه في

أعمال الجهله والسطحيين من الناس ولا تظنّ أنّهم جميعاً على خطأ في مسيرهم، فربّما لا يصل الخير إلى مقصوده بسبب بعض العوامل، في حين يحصل الجاهل على غايته.

ونقرأ في روايه عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام عن آبائه عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «كَلِمَتَانِ غَرِيبَتَانِ فَاحْتَمِلُوهُمَا، كَلِمَةٌ حِكْمَةٌ مِنْ سَفِيهِ فَأَقْبَلُوهَا وَكَلِمَةٌ سَفِيهٌ مِنْ حَكِيمٍ فَأَغْفِرُوهَا» (١).

وجاء في الأمالي، في ذيل هذا الحديث: «فإنّه لأحكيّم إلاّ ذو عثره ولا سفيه إلاّ ذو تجربته» (٢).

الثانيه والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «أخِرُ الشَّرِّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ».

وهذا يعنى أنّ الخير يحتاج إلى مقدّمات، وأنّ الإنسان يجب أن يتعجّل هذه المقدّمات، في حين أنّ الشّرّ في كلّ زمان وفي جميع الظروف لا يحتاج إلى مقدّمات بل هو ممكن الصدور من أيّ شخص.

وربّما يراد من هذه العبارة أنّك لا تتعجّل في العقوبه والتوبيخ والمؤاخذه لو كنت على حقّ، لأنّ ذلك متيسّر في كلّ زمان، وستشعر بالندم بعد ذلك، في حين أنّ طريق العوده موصل.

ويحتمل أيضاً في تفسير العبارة مورد البحث أنّ هذه الجملة كناية عن ترك كلّ أشكال الشّرّ والإساءه بدون حقّ، من قبيل أن يقول أحد الأشخاص مثلاً: لقد تألمت بشدّه إلى درجه أنّي قرّرت الانتحار، فنحن نقول له: إنّ الانتحار لا يفوتك، وأنّه ممكن في كلّ زمان، فتعال لنعثر على طريق لإصلاح مشكلاتك والبحث عن الحلول الناجعه لها، ومعلوم أنّ مفهوم هذا الكلام لا يعنى أنّ عليك الانتحار بعد ذلك، بل هو كناية عن تركه.

ص: ٥٩٤

١- (١). من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤٠٦، ح ٥٨٧٩.

٢- (٢). الأمالي للشيخ الصدوق، ص ٥٨٩، ح ١٠.

الثالثه والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ».

هذه العبارة إشاره إلى أنه كما ينتفع الإنسان من الارتباط مع العقلاء فإنه ينتفع كذلك من القطيعه مع الجهال (وطبقاً لهذا المعنى فإنّ الجاهل والعاقل بمنزله المفعول لقطيعه وصله).

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة أنّ الجاهل إذا قطع علاقته معك فلا تحزن لذلك لأنه بمنزله أن يقوم عاقل بايجاد رابطه معك، وبالتالي فأنت تتخلص من شرّه وضرره بقطع علاقته معك (وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الجاهل والعاقل في هذه العبارة لهما موقع الفاعل).

الرابعه والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ».

والجمله الأولى إشاره إلى أنّ أى نعمه من نعم الدنيا لا- يمكن أن يعتمد عليها، فأشكال النجاحات، والانتصارات، والثروات، والجمال والحسن، المحبوبيه والمكانه الاجتماعيه، وسائر المواهب الماديه الأخرى معروضه للزوال في كلّ لحظه، والأشخاص الذين يعتمدون على هذه الأمور فسوف يواجهون فجأه خيانه الدنيا لهم، وستؤخذ منهم هذه النعم والمواهب واحده بعد الأخرى، وهذا من قبيل أنّ الإنسان يبنى في مسير السيل داراً فخمه، يحتمل في كلّ لحظه أن يأتي سيل عظيم ويجرف معه تلك الدار وينقضها، وعلى ضوء ذلك فالمراد من الزمان هنا الدنيا والمواهب الماديه والنعم الدنيويه.

والمراد من الجمله الثانيه أنّ الإنسان يرى أهميه الدنيا في عينه ويتحرّك لتحصيل النعم الماديه فيها بأى طريق كان وبأيه وسيله، وبديهي أنّ مثل هذا الشخص سيعيش الذلّه والمهانة ويسقط في أنظار الناس.

ويحتمل أيضاً في تفسير الجملتين أعلاه أنّ المقصود من الزمان، أهل الزمان، يعنى أنّ الإنسان لا ينبغي له أن يثق بجميع أهل زمانه، لأنه ربّما يطعن من الخلف ويواجه الغدر والخيانه، والمراد من تعظيم الزمان هو تعظيم أهل الزمان وبخاصّه

أصحاب القدره والثروه وصنّاع القرار والمستكبرين، فالاعتماد على هؤلاء وتعظيمهم يتسبب في إضعاف شخصيه الإنسانه وسقوطه، ولذلك نرى أنّ الكثير من الأكابر والعلماء السابقين كانوا يحرمون الاقتراب من الحكّام الجائرين والطواغيت، ويحدّرون الشخصيات المحترمه من إقامة علاقه وطيده مع السلاطين، وما نرى في ترجمه حال الأكابر القدماء من شكواهم من فساد الزمان، فمقصودهم فساد أهل زمانهم (١).

ونقرأ في الأشعار المنسوبه لعبدالمطلب:

يَعِيبُ النَّاسُ كُلَّهُمْ زَمَانًا

الخامسه والعشرون: يقول الإمام عليه السلام في هذه العبارة من وصيته الرائعه: «لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابًا».

وهو إشاره إلى أنّه لا- ينبغي للإنسان أن يتوقّع الوصول إلى مقصده وتحقيق هدفه دائماً بحيث لو أنّه لم يحقق النتيجة المرجوّه يصاب باليأس، أو أنّ الأشخاص الذين يرتكبون بعض الأخطاء التي تعيقهم عن تحقيق هدفهم، يقعون ضحيه الذمّ والتقريع والتوبيخ، فالبشر غير معصوم ويحتمل في حقّه الخطأ والاشتباه (سوى المعصومين عليهم السلام).

والغرض من هذا الكلام تسليه خاطر وتقويه الإراده من بعض الإخفاقات التي يواجهها الإنسان في حركه الحياه والاحتفاظ بالأصدقاء والمدراء وعدم نبذهم بسبب بعض الأخطاء والهفوات.

ويحتمل أيضاً أنّ المقصود من هذه العبارة أنّ كلّ رام لا يوفّق لإصابه الهدف، بل

ص: ٥٩٦

١- (١). ذكرنا مفهوم فساد الزمان أكثر في نفحات الولاية في الجزء الثاني ذيل الخطبه ٣٢.

الرامي الماهر والمجرب هو الذى ينجح فى إصابه الهدف.

ولا يبعد أن يكون المقصود من هذه العبارة كلا المعنيين المذكورين.

السادس والعشرون: فى هذه التوصيه المباركه يتعرّض الإمام عليه السلام لمسأله تغيير الأوضاع وتبدل الظروف فى زمانه ويقول: «إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ».

وهذا يعنى أنّ أوضاع المجتمع تدور حول محور وضع الحكّام وأصحاب السلطه والقدره، فليس فقط أنّ «النّاسُ على دين مُلوكِهِم» يمثّل حقيقه واقعيه، بل إنّ أغلب حركات وسكنات الناس تدور حول محور نوع الحكومات ونمط إداره النظام السياسى، فلو كان الحكّام من أهل الخبره والتقوى والعداله، فإنّ الناس يتحرّكون فى خطّ التقوى والعداله، وإن كانوا من الظلمه والقساه وأهل الجور، فإنّ ذلك سينعكس على جميع روحيات المجتمع ونفسيات أفراده، ولهذا السبب كان الأنبياء الإلهيون يسعون قبل كلّ شيء لإقامه الحكومه العادله ليتيسّر لهم إصلاح الناس فى ظلّ مثل هذه الحكومه، أمّا الأشخاص الذين يعتقدون بفصل الدين عن السياسه، فهم بعيدون جدّاً عن الحقيقه والصواب، لأنّ ترويج الدين ونشر التعاليم السماويه لا يمكن بدون إصلاح الحكومه، ومن هنا فإنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله تحرّك على مستوى تشكيل الحكومه الإسلاميه فى أوّل فرصه سنحت له ليستطيع التأثير فى الأُمّه وتبليغ الرساله بشكل صحيح من خلال آليات القدره ويعمل على استبدال الثقافه الجاهليه بثقافه سليمه وإنسانيه، وبخاصّه ما نراه فى عالما المعاصر من تأثير وسائل الإعلام فى أفكار الناس وكذلك البرامج المتعلّقه بالتعليم والتربيه من المراحل الابتدائيه إلى المستويات العاليه كلّها بيد الحكومات أو العناصر المرتبطه بالحكومه، فهل يمكن بدون الأخذ بزمام هذه الأمور من إصلاح المجتمع وتطهيره من عناصر الفساد والرذيله؟

ويتبيّن ممّا تقدّم أنّ المراد من الزمان، تغيير أفراد المجتمع، والمراد من تغيير السلطان تغيير حالات السلطان.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَيَّحَا صَيَّحَتْ أُمَّتِي وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَتْ أُمَّتِي، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ هُمَا؟ قَالَ الْفُقَهَاءُ وَالْأُمَرَاءُ» (١).

وجاء في بعض المصادر التاريخية أن انوشيروان استدعى يوماً عمّاله على القرى والقصبات وبيده درّه ثمينه يقبّنها، فقال: أئى شىء أضرب ارتفاع السواد وادّعى إلى محقّقه؟ أيكم قال ما فى نفسى جعلت هذه الدرّه فى فيه.

فقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال، (غلبه رياح الجنوب وعدم هبوبها من الشمال)، فقال لوزيره (بوذرجمهر): قل أنت فأئى أظنّ عقلك يعادل عقل الرعيّه كلّها أو يزيد عليها، فقال:

تغيّر رأى السلطان فى رعيّته، وإضمّار الحيف لهم والجور عليهم.

فقال: لله أبوك بهذا العقل أهل آبائى أجدادى لما أهلوك له، فدفع إليه الدرّه وجعلها فى فيه (٢).

السابع والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «سَلَّ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ».

وقد أثبتت التجربة صحّه كلام الإمام عليه السلام هذا، فالناس قد جرّبوا ذلك مراراً لأنّ الستار والحجاب يزول غالباً فى السفر وتبرز بواطن الأشخاص ومكنوناتهم، فلو كان رفيق السفر شخصاً وقحاً وغير متورّع أو كان بخيلاً وسىء الخلق مع الآخرين، فإنّ ذلك من شأنه أن يسلب الراحة والهناء من أصدقائه فى السفر، وهكذا بالنسبة إلى الجار السيء فإنّه يسلب الراحة من الإنسان حتّى وهو فى داره.

ونقرأ فى حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «كَانَ إِذَا سَافَرَ يَقُولُ: مَنْ كَانَ يُسَىءُ إِلَى جَارِهِ فَلَا يَصْحَبْنَا لِأَنَّ الْجَارَ رَفِيقٌ مُلَازِمٌ» (٣).

ص: ٥٩٨

١- (١) . بحار الأنوار، ج ٢، ص ٤٩، ح ١٠.

٢- (٢) . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٢١.

٣- (٣) . بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٦٦، ح ٣.

يقول المرحوم التستري في شرحه لنهج البلاغه نقلاً عن كتاب تاريخ بغداد: كان لمحمد بن ميمون أبي حمزه السكري (١) من مشاهير عصره) جار أراد أن يبيع داره، فقبل له: بكم، قال: بألفين (دينار) عن الدار، وألفين (دينار) عن جوار أبي حمزه، فبلغ ذلك أبا حمزه فوجه إليه أربعة آلاف (دينار)، فقال: خذ هذه ولا تبع دارك (٢).

الثامن والعشرون: يقول الإمام عليه السلام في هذه الفقرة الأخيرة من وصيته الزاخره بالقيم والنصائح المفيدة: «إِيَّاكَ أَنْ تَذْكَرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكًا، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ».

لأنّ مثل هذا الكلام يزيل هيبة الإنسان من جهه، ومن جهه أخرى يقترب غالباً بالغيبه أو السخرية من الآخرين من ذوى الوجاهه فى المجتمع، ومن هنا سيكون مثل هذا الكلام باعثاً للإضرار بالإنسان فى الدنيا وفى الآخرة، سواء كان هذا الكلام من عنده أو نقلاً عن شخص آخر، فلا فرق فى الغيبه أو السخرية أن تكون من إبداع الشخص نفسه أو حكاية عن غيره.

وطبعاً فإنّ هذا لا يعنى أنّ الإنسان يجب أن يترك كلّ أشكال المزاح المشروع والفكاهه اللطيفه، أو أن يجلس فى المجالس بوجه عبوس ومكفهر، لأننا نعلم أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمه أهل البيت عليهم السلام والعلماء الكبار كانوا يمزحون فيما بينهم ويتحدّثون باللطائف والفكاهه أحياناً، بل وردت التوصيه بالمزاح فى السفر أكثر للتخفيف من ضغط المشاكل والصعوبات التى يواجهها الإنسان فى سفره، يقول العلّامة السيد بحر العلوم فى أشعاره الفقهيّه:

وَ أَكْثَرَ الْمِزَاحِ فِي السَّفَرِ إِذْ لَمْ يُسْحِطِ الرَّبُّ وَ لَمْ يَجْلِبْ أَدَى

وهذا الكلام مقتبس من الحديث النبوي الشريف، قال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَأَمَّا

ص: ٥٩٩

١- (١) . كان هذا الشخص فى زمانه من شيوخ خراسان وكان عالماً وخبيراً وكريماً وذا فكااهه فى كلامه ولهذا لقب «السكرى». (اعلام الزركلى).

٢- (٢) . شرح نهج البلاغه العلّامة التستري، ج ٨ ص ٤٥٥ ووردت هذه الروايه أيضاً فى كتاب تهذيب الكمال، ج ٢٦، ص ٥٤٨ عم تاريخ بغداد.

الَّتِي فِي السَّفَرِ فَبَدَلُ الزَّادِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَالْمِزَاحُ فِي غَيْرِ الْمَعَاصِي» (١).

وخلصه الكلام أنّ هذه الأمور تعتبر حسنه وجميله إذا كانت في حدّ الاعتدال، وإن تجاوزت الحدّ أو أدت إلى إهانته الآخرين وظهور المتكلم بمظهر المهرج في أنظار الناس أو قاده هذا الكلام إلى ارتكاب الذنوب ممّا يسخط الله تعالى؛ فمثل هذا الكلام والمزاح يكون منهيّاً عنه في الشرع والعرف.

والإنصاف أنّ من بين هذه النصائح الثمانية والعشرين التي ذكرها الإمام عليه السلام في عبارات قصيره وعميقه المعنى وتمثّل كلّ واحده منها درساً مهماً في حركة الحياه الماديه والمعنويه للإنسان؛ تعتبر من أروع ما ورد في النصائح والمواعظ وجدير أن تكتب بماء الذهب وتعلّق أمام أنظار الجميع، سلام الله وصلواته على روحك الطاهره وكلماتك الزاهره يا أميرالمؤمنين عليه السلام.

ص: ٦٠٠

١- (١). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٦٦، ح ٣.

إشاره

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَكَفَمَنْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَأْيُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ، لَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ. وَلَا تَعُدْ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لغيرِهَا.

وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ وَالتَّبْرِيئَةَ إِلَى الرَّيْبِ.

الشرح والتفسير: السلوك العادل والحكيم مع المرأة

وفي القسم الثامن والعشرين من هذه الوصية التاريخيه يتحدث الإمام عليه السلام بالقضايا التاريخيه المتعلقه بالنساء ويوصي ولده بثمان وصايا.

بدايه يقول: «وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ (١) وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ».

وبيّن الإمام عليه السلام في مطاوي هذه النصائح والتوصيات الثمان العله وراء هذه التوصيات والتي بإمكانها الإجابة عن جميع الأسئلة وعلامات الاستفهام التي تثار حول هذه التوصيات، فالإمام يقول: لأن المرأة ريحانه وليست بقهرمانه (مديره ومسيطره).

ومن المعلوم أنّ مثل هذا الكائن اللطيف لا يستطيع أن يكون طرفاً للمشوره في

ص: ٦٠١

١- (١). «أفن» بمعنى النقصان وقلة الفكر والعقل.

المسائل المهمه، ومعلوم أيضاً أنّ كلّ حكم عام له استثناءات، وما من عام إلّا وقد خصّ، وفي هذا المورد ثمة نساء يملكن من العزم والإرادة والرأى الثاقب بحيث يوازن الرجال من أهل الخبره، أضف إلى ذلك أنّ القضايا العاطفيه والأحاسيس النفسانيه تتغلّب على النساء، وهذا هو الأمر الذى يؤثّر عليهن فى مقام المشاوره.

ثمّ يتعرّض الإمام عليه السلام للتوصيه الثانيه ويقول: «وَكَفُّ عَالِيَهُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ».

ومثل هذه التوصيه وردت فى الآيه ٣١ من سوره النور: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ».

وهذا يشير إلى حقيقه مخالفه لتصور الكثير من الناس، فجميع أشكال الفتنه وحالات الإرباك فى الأخلاق والمجتمع، لا تنطلق من نظر الرجال إلى النساء، بل إنّ الكثير منها ناتج عن نظر النساء إلى الرجال ووسوستهنّ وترغيبهنّ، والإمام عليه السلام قدّم هذه التوصيه وأمر بلزوم حجبهنّ لمنع مثل هذه الفتنه.

وبديهى أنّ هذا الأمر السلبي لا يشمل جميع النسوه بل ناظر إلى النسوه الضعيفات الإيمان أو المتحللات خلقياً.

وفى التوصيه الثالثه يقول: «وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَأَيُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ»، فلا ينبغى إدخال الأشخاص غير الموثوقين فى خلقهم والتزامهم الدينى عليهنّ، فذلك أشدّ وأشنع من خروجهنّ إلى الملأ العام.

وفى التوصيه الرابعه التى تعتبر تتمه للتوصيه السابقه يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فَافْعَلْ».

وهو إشاره إلى هذه الحقيقه، وهى أنّ من الضرورى أن يطلبن حاجتهنّ منك فقط لا- من غيرك، وحتى لو أردن شيئاً من الآخرين فذلك يكون عن طريقك وبواسطتك، أى أنّ أى ارتباط بين النساء والآخرين ربّما يتبدّل فى كثير الموارد إلى علاقه فاسده، ولا بدّ من قطع مثل هذا الارتباط، فعليك بتحكيم وتوثيق علاقتك بأهلك

ونسائك في جميع الموارد، ومن هذا المنطلق تتم الاستجابة من جهة إلى جميع ما يطلبن، ومن جهة أخرى يتم قطع الروابط غير السليمة مع الآخرين.

ويستعرض الإمام عليه السلام التوصية الخامسة بقوله: «وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسِيهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ (١)».

وهذا يعني أنّ النساء وبسبب ما يملكن من الحالات العاطفية واللطائف الروحية لا يستطعن تولى الأمور الصعبة وإداره القضايا المعقّده، وعلى ضوء ذلك لابدّ من تحديد دائره عملهنّ في المسائل الخاصه بهنّ لا المسائل المتعلقه بالآخرين وبخاصه ما يتصل بالمناصب الحساسه والثقيله في المجتمع الإسلامى.

أمّا العله التي ذكرها الإمام عليه السلام لمثل هذه التوصيات فهي علّه حسّاسه ودقيقه جداً تنسجم وتتناغم مع البناء الروحي والجسمى للمرأة، رغم أنّ بعض المتأثرين بالغرب غير مستعدّين لقبول هذه الحقيقه، ولكنهم على مستوى العمل يسعون لتجسيد هذه التوصيات في واقعهم العائلى، حتّى في الغرب ومع طرح شعار المساواه بين الرجال والنساء لعقود من الزمان فإنهم على مستوى العمل والممارسه يسلكون سبيلاً آخر، بحيث قلّما تستطيع إمراه استلام مقاليد الأمور في المناصب الحساسه، ونسبه النسوه اللاتى يحرزن مثل هذه المناصب الحساسه إلى النسوه اللاتى لا يستطعن ذلك، ربّما لا تصل حتّى إلى ٥٪.

وخلاصه الكلام أنّ رعايه العداله بين النساء والرجال ورفع أشكال التمييز والإجحاف رغم أنّه يعتبر حقيقه ملموسه، ولكن لا يمكن تنظيم قوانين المجتمع بحيث تتقاطع مع التكوين النفسى والجسمى للمرأة، وإطلاق الشعارات التي تدعو لمثل هذه المساواه، هي مجرد شعارات برّاقه ومضللّه ويقصد بها الرياء والتظاهر ولا تتصل بالحقائق الموضوعيه على أرض الواقع النفسى للمرأة.

ص: ٦٠٣

١- (١). «قهرمان» كلمه فارسىه في الأصل وانتقلت إلى اللغه الغريبيه وتعنى المدير والمدبّر والشخص الذى يتولى أمور النفقه، وأحياناً تأتي بمعنى البطل والشجاع أيضاً.

وفى التوصيه السادسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تَعْدُ (١) بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا».

وهذا يعنى أنّها كلما تتعامل مع الآخرين من موقع الاحترام والإكرام ربّما تتولّد علاقته عاطفيه بينهما، هذه الرابطه يمكن أن تكون منشأ للفساد فى المستقبل.

وفى التوصيه السابعه التى ترتبط بما سبقها من توصيه، يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِعَٰبِرِهَا»، لأنّ مثل هذه الشفاعات ربّما تكون أيضاً منشأ للعلاقه العاطفيه، فيكون ضررها وفسادها أكثر من نفسها.

والخلاصه أنّه لا بدّ من حفظ احترام المرأه ولكن بحدودها، ولا تتجاوز إلى غيرها، سواءً على مستوى قبول شفاعتها أو بدون ذلك، لأنّ لهذه الأمور آثاراً سلبيه على المستوى النفسى وتبعث على تشجيعهن لإيجاد العلاقه مع الآخرين.

ويذهب بعض شراح نهج البلاغه فى تفسير جمله: «وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا» أنّ المقصود أن لا يحترمها الرجل أكثر من اللازم، بل يقتصر تكريمهنّ بمقدار معين، ولكن هذا التفسير لا يتناسب مع سياق هذه الجملة وكلماتها، والظاهر أنّ المراد منها هو ما تقدّم آنفاً.

وفى التوصيه الثامنه (والأخيره فى هذا المقطع من هذه الوصيه) يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَيَّاكَ وَالتَّغَايِرَ (٢) فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالتَّبْرِيئَةَ إِلَى الرَّيْبِ (٣)».

مما لا شكّ فيه أنّ كلّ إنسان وبخاصّه النساء، لا يرتكبون مخالفه حفظاً للسمع، والاهتمام بالوجهه لدى الناس، ولكن إذا عاش الأقرباء والأزواج حالات الغيره اللامبرره وأسأواوا الظنّ بهنّ إلى درجه الاتهام فإنّ ذلك من شأنه خرق حجاب العفّه وخلق حاله من اللامبالاه بالقيم والعرف لديهنّ، فتقول هذه المرأه: الآن وقد فضحني

ص: ٦٠٤

١- (١). «لا تعد» أى لا تتجاوز الحد، من ماده «عدو» على وزن «سرو» وهو تجاوز الحد.

٢- (٢). «التغاير» من «الغيره» بمعنى الشده فى العمل لحفظ النواميس أو رأس المال المهم للآخرين.

٣- (٣). «ريب» (مع الالتفات إلى فتح الياء) جمع «ريبه» على وزن «غيبه» بمعنى الشك وسوء الظن.

وأتهمني زوجي بدون مبرر فما الداعي لأن أحفظ نفسي واهتمّ بسمعتي وعفتي، فلأفعل ما أشاء فليكن ما يكون، وهذا الكلام لا يختصّ بالنساء فقط، بل يمتدّ ليشمل الأبناء، الشركاء، الخدم والأصدقاء أيضاً، فكلّ سوء الظنّ غير المبرر يبعث على تشجيع الطرف الآخر للتلوّث والسقوط في مهاوى الفساد والرذيله، وسبق أن ذكرنا أنّ كلّ شيء جيّد وحسن إذا كان بصورة الاعتدال حتّى حالات الغيره والتعصب لحفظ القيم.

تأمل: مكانه المرأة في المجتمع

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أمرين:

١. ثمّه شعارات كثيره في عالمنا المعاصر بالنسبه لمقوله المساواه بين الرجل والمرأه، حيث تنعقد مؤتمرات دوليه ومعاهدات ولوائح تزداد يوماً بعد آخر، والتأكيد على عدم وجود أيّ تفاوت بين الجنسين، ومن هذا المنطلق بإمكان كلّ من الرجل والمرأه تحيّل المسؤوليات الإجتماعيه، سواءً ما يتصل بالقضاء أو قياده الجيش أو إداره الحرب، أو الرحلات الفضائيه، أو الرحلات العلميه للتحقيق والبحث في أعماق البحار، والخلاصه أن يتولّى الرجل والمرأه جميع أشكال الإيداره على جميع الصعد والمستويات.

والعجيب هنا، أنّهم عندما تصل النوبه لمرحله التطبيق والعمل فإنّ الفوارق تبرز بشكل جليّ، فالرجال يستلمون الإيداره على المستويات العليا والمتوسطه إلّا في موارد نادره ومحدوده جدّاً، فلا يسمحون للنساء بتولّى هذه المناصب الحساسه والورود إلى هذه الميادين، ولا يختلف الحال أيضاً في البلدان الاوربيه والأمريكيه، فعندما يسألون أنّ هذه الظاهره تتضمن تناقضاً في القول والعمل، ولماذا يختلف مستوى التطبيق عن تلكم الادعاءات الرئانه والشعارات البراقه؟ فلا جواب لديهم.

وهذا التناقض وليد التفاوت بين الحقائق الموجوده على الأرض والشعارات التي تطلق في عالمنا المعاصر وفي المحافل والمؤتمرات، فمن أجل كسب آراء النساء في الانتخابات السياسيه وإسكات اعتراضهنّ يرفعون شعار المساواه ويصرّون عليه بحجّه الدفاع عن حقوق المرأه، ولكنّهم في مرحله العمل يجدون أنفسهم مرغمين لقبول هذه الحقيقه، وهى أنّ بنيه النساء من حيث المستوى الجسمى والنفسى يختلف عن الرجال، فكلّ واحد من الجنسين خلق لمسؤوليه معيّنه وكلّ واحد منهما إنسان يملك حقوقاً فرديه واجتماعيه، ولكن أن نقول أنّهما يملكان قابليات وملكات متساويه وقادرون على تولّى جميع المسؤوليات، فهو خطأ كبير.

يقول الفيزيائى والجراح الفرنسى المعروف (الكسيس كارل) الذى ألف كتاباً معروفه وله شهره عالميه، يقول فى كتابه «الانسان ذلك المجهول»: إنّ الرجل والمرأه بحكم قانون الخلقه، يختلفان فى التشكيله البنيويه، وهذا الاختلاف والتفاوت يسرى إلى الوظائف والحقوق... ولعدم الالتفات إلى هذه النقطه الأصلية والمهمه فإنّ أنصار حقوق المرأه يتصوّرون أنّ كلا-الجنسين بإمكانهما امتلاك مستوى واحد من حيث التعليم والتربيه و المشاغل والمسؤوليات المختلفه، فالمرأه فى الحقيقه تختلف عن الرجل من جهات عدّه، فكلّ خليه من خلايا البدن، وكذلك الأجهزة وخاصّه الشبكه العصبية، تحمل علائم جنس صاحبها، ثمّ يضيف: إنّ القوانين الفسيولوجيه أيضاً، حالها حال القوانين الفلكيه وعالم الطبيعه، ثابتة وغير قابله للتغيير، ولا يمكن إيجاد التغيير فيها برغبه البشر، فنحن مجبورون على قبولها كما هى عليه (لا كما نريد).

ثمّ يختم كلامه بهذه العبارة: ينبغى على النساء أن يتحرّكن باتجاه مواهبهنّ الطبيعيه ويسرن فى طريقهنّ الخاصّ بهنّ بعيداً عن حالات التقليد الأعمى للرجال، ووظيفه المرأه فى سبيل تكامل البشريه أكثر بكثير من الرجال، ولا ينبغى التسامح

والتساهل في هذا الأمر(١).

والملفت أنه في سنة ١٩٩٥ اجتمع عشرات الآلاف من أعضاء مؤسسات الحقوق الرسميه وغير الرسميه في بكين عاصمه الصين لتدوين وثيقه على أساس المعاهدات الدوليه لمحو جميع أشكال التمييز ضدّ النساء، وإمضاء هذه المعاهده التي تمّ تنظيمها مسبقاً، ولكن بعض مواد هذه اللائحه كانت من البطلان والزيف لدرجه أنّ الكثير من المنظّمات والمجامع في العالم اعترضت عليها، وبعض المشتركين في ذلك المؤتمر تركوا الجلسه، ومنهم السيده شارون هير النائبه في برلمان كندا ورئيسه الهيئه الكنديه المشاركه في ذلك المؤتمر، حيث قامت من مكانها وتوجّهت بالخطاب إلى الصحفيين وقالت: «إنّ التساوى المقصود في وثيقه بكين لا- يأتى بالتساوى الحقيقي للنساء، وأنا أعود لبلدى بأول طائره وأسعى لحفظ الفوارق بين الرجل والمرأه (وبتبعها المسؤوليات المختلفه)، فهذا التفاوت موجود في أصل الخلقه، وهذه الفوارق هي التي ستحفظنا»(٢).

وتفصيل هذه المسأله خارج عن عهده هذا البحث المختصر، ويكفي القول إجمالاً بأنّ هذه الشعارات البرّاقه ليس أنها لاتحلّ مشكله لنساء العالم، فحسب بل تترتب عليها آثار مخزبه أيضاً(٣).

وعلى ضوء ذلك ينبغي القبول بالحقائق المتعلّقه بكلا- الجنسين بعيداً عن الشعارات الخاويه وتخطيط المناهج والبرامج على أساسها ووضع كلّ واحد من الجنسين في موقعه الاجتماعى اللائق به بدون أن نقبل بأيّ ظلم وتحقير للنساء.

٢. ما ورد في كلمات الإمام عليّ عليه السلام في هذه الوصيه وفي بعض خطبه والكلمات القصار كان مورد بحث ونقاش من جهه بعض الكتّاب والمفكرين، فهل

ص: ٦٠٧

١- (١). الإنسان ذلك المجهول، ص ١٠٠ وما بعدها.

٢- (٢). نقلاً عن تقرير وصفى لمؤتمر بكين، من كتاب الشورى الثقافيه الاجتماعيه للنساء (شوراي فرهنگي اجتماعي زنان)، ص ١٠.

٣- (٣). وللمزيد من الاطلاع انظر: دائره المعارف للفقّه المقارن، ج ١، ص ٨٤-٨٩.

أن مفهوم هذه العبارات في رسائل الإمام عليه السلام وخطبه يعكس موقفاً سلبياً من المرأة؟

وعندما نبحث في جذور هذه الخطب والرسائل ونقارن بينها وبين الحوادث التاريخية في ذلك الوقت، فسوف يتبين أن كل هذه التعبيرات غير ناظرة لجميع النسوة، بل إشاره لفئة خاصه من النسوة ممن كانت مصدر مفاسد اجتماعيه وعائليه، وبخاصه مع الالتفات إلى أن بعض كلمات الإمام علي عليه السلام في هذا الشأن صدرت بعد واقعه الجمل، ونعلم أن حرب الجمل، وهي الحرب التي راح ضحيتها وفقاً لروايه، سبعة عشر ألف مسلم، قد أشعل فتيلها إمرأه أو أنها اشتركت وساهمت في إشعالها.

وعلى ضوء ذلك، فنظر الإمام عليه السلام في هذه المقولات يتجه لمثل هؤلاء النسوة، وبكلمه أخرى أن خطاب الإمام عليه السلام في هذه الموارد ليس موجبه كلياً بل موجبه جزئيه.

والشاهد على هذا الكلام رؤيه القرآن في ما يخص النساء، وعلى سبيل المثال نشير إلى قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (١).

فلو كانت النسوة جميعهن ناقصات العقول، فكيف تتحقق هذه السكينه والموده والرحمه بين الزوجين؟

وفي آيه أخرى يقول تعالى: «هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُنَّ» (٢).

فلو كانت النساء يملكن صفات سلبيه فقط فكيف، يعبر القرآن على أنهن زينه لأزواجهن والعامل في حفظ هؤلاء الأزواج؟

وفي آيه أخرى نقرأ: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً

ص: ٦٠٨

١- (١) . سورة الروم، الآية ٢١.

٢- (٢) . سورة البقره، الآية ١٨٧.

طَيِّبَهُ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (١).

وفى الآيه ٣٥ من سوره الأحزاب يستعرض القرآن الكريم عشر فئات من المؤمنين الصالحين والنساء الصالحات ويعددهم فى نهايه المطاف بأجر عظيم: «إِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا».

وثمه بحوث كثيره فى هذا المجال لا يسع المقام استعراضها لأنها خارجه عن موضوعنا، ولكننا لحسن الختام نعود لكلام الإمام على عليه السلام فى هذا المقطع من الوصيه حيث قال: «إِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ». ونعلم أن الورد والرياحين تملك فى حد ذاتها مزايا كثيره، فهى عنصر لخلق السكينه والراحه النفسيه، وكذلك تعتبر زينه، ولها فوائد كثيره أخرى، ولكن فى ذات الوقت فهى كائن لطيف ورقيق بحيث إذا تركت بدون رعايه كافيه فسوف يصيبها الذبول والجفاف، فالحقيقه أن هذه الجملة إشاره إلى أن المشاعر والعواطف للنساء هى الغالبه، فى حين أن العقل للرجال غالب على العواطف والأحاسيس، وبديهي أن هذين الجنسين بهذه الخصوصيات إذا اجتمعا وعملا سوياً فإن ذلك من شأنه تقويه نظام الأسره وتعميق وشائج العلاقه بين أفراد المجتمع.

ص: ٦٠٩

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ وَأَكْرَمَ عَشِيرَتِكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَضْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيُدْكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ.

الشرح والتفسير: تقسيم المسؤوليات

فى هذا المقطع من الوصيه يؤكد الإمام على توصيتين مهمتين فى مجال الإدارة والتعاون، وفى الحقيقه أن هذه التوصيه لا تتعلق بولده البار، بل بجميع أفراد البشر بوصفه والدًا شفيقًا لجميع الناس.

بدايه يقول الإمام عليه السلام: «وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا(١) فى خِدْمَتِكَ».

إن تقسيم العمل يعدّ من أهم أصول ومبادئ الإدارة الناجحه، لأنه بدون ذلك فإنّ العمال والموظفين يتواكلون غالباً ويتوقعون من الآخرين أن يقوموا بالمسؤوليات الملقاه على عاتقهم، وعندما يتأخر العمل ويتباطأ الإنتاج فإنّ كلّ فرد منهم يستطيع تبرير عمله فى مقابل مؤاخذه ربّ العمل بأنه كان يظن أنّ هذا العمل من مسؤوليه آخرين، وإذا سئل الآخرون عن ذلك فإنّهم يجيبون بنفس الجواب، ولكن عندما يتمّ تقسيم العمل والمسؤوليات، فإنّ كلّ شخص يعلم أنه مسؤول عن

ص: ٦١١

١- (١). «يتواكلوا» من «التواكل» و «وكاله» و «تواكل» هو أن يعتمد الشخص فى أموره وأعماله على شخص آخر ويلقى بالمسؤوليه عليه.

عمله الخاصّ ويبذل جهده للقيام به بأفضل وجه، وهذه التوصيه تدلّ على أنّ الإمام عليه السلام ملتفت تماماً لمبادئ الإدارة،
رؤيوى بها ولده.

وفى عصر النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله كانت هذه المسأله على رأس الأولويات، سواء فى الحرب أو فى غيرها، فيتّم انتخاب
رجل لقياده ميمنه الجيش وآخر لقياده الميسره وثالث يكون مقرّه فى قلب الجيش، وهو الذى يعين المسؤوليات ويصدر الأوامر،
وهكذا بالنسبه لجمع الزكاه، فتمّه عمال مأمورون بهذه المهمّه، وكذلك لكسب المعلومات عن وضع العدو حيث يتمّ إختيار
أفراد خاصّين لهذا الغرض، وهكذا فى سائر أمور إداره البلد الإسلامى فى جميع أبعاده السياسيه والاجتماعيه والثقافيه وما إلى
ذلك، حيث يتمّ إختيار أفراد واعين وملتزمين يقومون بهذه المهام.

وفى التوصيه الثانيه يقول الإمام عليه السلام: «وَأَكْرَمُ عَشِيرَتِكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ
الَّتِي بِهَا تَصُولُ(١)».

ونرى أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارة يشبّه الأقرباء والأرحام بثلاثه أشياء كلّ واحدٍ منها ناظر إلى زاويه خاصّه، فتمّه تشبيهه
بالجناح وتشبيهه بالأصل وثالث باليد.

والتشبيه الأول يشير إلى التقدّم والإزدهار والرقىّ فى ظلّ التكاتف والتعاون بين أفراد العشيره، والتشبيه الثانى يشير إلى عدم
الشعور بالوحده فى مقابل التحدّيات المفروضه، والتشبيه الثالث يشير إلى مواجهه الأعداء والتصدّى لهم بمساعده أفراد العشيره
والأقرباء.

وفى الحقيقه أنّه كما أنّ المجتمع الكبير فى ظلّ التكاتف والتعاون بين أفراديه يصل إلى مراتب متقدّمه من التطور والرقى
والإزدهار، فكذلك المجتمع الصغير المتكوّن من العشيره والأقرباء الموجودين فى قلب المجتمع الكبير، فإنّه بالتعاون والتكاتف
بين أفراديه، يعيش المجتمع التآخى والنجاح والتغلّب على الصعاب، وحتى القبائل فى الجاهليه أيضاً أدركت هذه الحقيقه،
ولذلك كانت العلاقه القبليه

ص: ٦١٢

١- (١). «تصوّل» من «الصوّل» على وزن «دوله» بمعنى الهجوم والحمله فى الميدان.

واعتماد الفرد على قبيلته يساهم بشكل أساس في التغلب على المشاكل والأزمات التي تواجه العرب في عصر الجاهلية، وطبعاً مع فارق أن العرب في عصر الجاهلية كانوا يدافعون عن القبيلة، والقبيلة تدافع عن أفرادها بدون النظر إلى مسأله الحق والباطل، والعدل والظلم، أى بدون قيد أو شرط، ولكن في الإسلام أضحى هذا الدفاع المتقابل بين الفرد وقبيلته محدوداً بحدود الحق والعدالة، فالدفاع عن الباطل مرفوضاً حتى في مقابل الأخ والأم والأخت وأمثالهم.

وفي القسم الرابع من الخطبه ٣٢ وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب ثمه بحث متعمق في هذا المجال.

ويورد ابن أبي الحديد بعض النماذج من دفاع القبيله عن أفرادها المظلومين ويبين أن هذه الحمايه كانت مؤثره كثيراً، ومن ذلك أن الفرزدق كان لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعداً، فدخل على سليمان بن عبد الملك يوماً، فأنشده فخرأ به وبآبائه، وقال من جملته:

تالله ما حملت من ناقيه رجلاً مثلي إذا ربح لفتني على الكورى

فقال سليمان: هذا المدح لى أم لك؟ قال: لى ولك يا أمير المؤمنين. فغضب سليمان وقال: قم فأكمل ولا تنشد بعده إلا قائماً، فقال الفرزدق: لا والله أو يسقط على الأرض أكثرى شعراً، فقال سليمان: ويلي على الأحقق ابن الفاعله، لا يكتنى، وارتفع صوته، فسمع ضوضاء بالباب، فقال سليمان: ما هذا؟ قيل: بنو تميم على الباب، قالوا: لا ينشد الفرزدق قائماً وأيدينا فى مقابض سيوفنا، قال: فلينشد قاعداً (١).

ص: ٦١٣

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٢٨.

اسْتَوْدِعَ اللَّهُ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَأَسْأَلُهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: ضع كل وديعه عند الله

وأخيراً يتحدّث الإمام عليه السلام في آخر هذه الوصيه وأقصرها مخاطباً ولده ويذكر توصيتين تجمعان كل شى في ثناياهما.

يقول الإمام عليه السلام بدايه: «استودع (١) الله دينك ودنياك».

ثم يضيف: «وأسأله خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ».

وبديهي أنه لا- أحد أفضل وأحسن من الله تعالى لحفظ دين الإنسان ودنياه، ولا أحد أحسن منه في تأمين أفضل المقدرات والعطايا لدنيا الإنسان وآخرته، فالذات المقدسه مصدر جميع الخيرات ومنبع كافه البركات، وكل ما يملكه المخلوقون فهو صادر منه، كما نقرأ في القرآن الكريم: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٢).

ولا شك أن الإنسان يواجه في دنياه ودينه الكثير من الآفات والمزالق والمآزق،

ص: ٦١٥

١- (١). وردت هذه الكلمه في موارد كثيره من نهج البلاغه بصيغه المتكلم بدلاً من صيغه الأمر «استودع» و «اسأل» وتعني أنني أضع دينك ودنياك وديعه عند الله وأسأله تعالى أفضل ما قسم وقدّر لك في الدنيا والآخرة، وطبعاً فإن مفهوم كلا العبارتين واحد في الحقيقة، رغم أن النسخه الأخيره أنسب حسب الظاهر وخاصه مع الالتفات إلى كلمه «لك».

٢- (٢). سوره آل عمران، الآيه ٢٦.

وطبعاً فإن الآفات التي تمس الدين أكثر، وهذه الآفات إلى درجه من الكثره والتنوع بحيث أن التغلب عليها لا يتيسر للإنسان إلا بالاستعانه بالذات المقدسه واللجوء إلى صاحب القدره المطلقه

قال الشاعر:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ

نكتب هذه الكلمات الأخيره من الجزء التاسع ونحن على أعتاب إطلاله عيد الغدير الأعز من سنه ١٤٢٨ هـ ق، وختاماً نترنم بهذا الدعاء الرائع ونقول:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِوَلَايَةِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَيْمَةِ الْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَام».

نهايه الجزء التاسع

ص: ٦١٦

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ١٠

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

تشكل هذه الرساله (طبقاً لما أورده السيد الرضى فى نهج البلاغه) من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: يتضمّن نصيحه لمعاويه، النصيحه المقترنه بالتوبيخ والتحذير من إضلال الناس وإعادتهم إلى عصر الجاهليه، وأنه ينبغى عليه أن يتدبّر فى عاقبه هذا الأمر.

وفى القسم الثانى، يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين يحيطون بمعاويه وهم

ص: ٥

١- (١). سند الرساله: لم ينقل فى مصادر نهج البلاغه سند خاص لهذه الرساله سوى ما ذكره ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه فى مقدمه هذه الرساله وصرّح فى ختامها أنّ ما ذكر السيد الرضى فى نهج البلاغه يمثّل مقطعاً من رساله الإمام على عليه السلام والتي ذكرها أبو الحسن على بن محمّد المدائنى بكاملها، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر غير نهج البلاغه لدى ابن أبى الحديد حيث نقل عنه عبارات اخرى لهذه الرساله (على بن محمّد المدائنى من مؤرخى فى القرن الثالث الهجرى وتوفى فى سنه ٢٢٥، وقد ورد فى بعض العبارات أنّ الطبرى والبلاذرى نقلوا عنه فى كتبهم التاريخيه، وقيل إنّ اسم الكتاب فتوحات الإسلام، طبقاً لنقل ريحانه الأدب ونقلاً عن دائره المعارف دهخدا (بالفارسيه)، ماده مدائنى).

السائرون فى خط الضلاله والانحراف ويعيشون التفاخر القومى والقبلى ويتبعون معاويه على هذا الأساس، ولكن ثمه جماعه من أهل البصيره عندما اطلعوا على مسلك معاويه المشبوه والفساد تركوا التعاون معه وأداروا ظهورهم إليه وأنابوا الله تعالى، وفى ختام هذا المقطع من الرساله، يدعو الإمام على عليه السلام معاويه إلى الالتزام بتقوى الله والورع وعدم اتباع الشيطان ويذكره بأن الدنيا فانيه وغير ثابتة على كل حال وأن الآخرة قريبه.

وفى القسم الثالث، يدعو معاويه إلى الالتزام بتقوى الله والورع وعدم اتباع الشيطان ثم يلفت نظره إلى إقتراب أجله وأنه عما قريب سوف يواجه صحيفه أعماله فى محكمه العدل الإلهيه.

ص: ٦

وَأَزْدَيْتَ جَيْلًا مِّنَ النَّاسِ كَثِيرًا؛ خَدَعْتَهُمْ بِعَيْكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَازُوا عَنْ وُجْهِتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ إِلَّا مَن فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصِيدِ. فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مَعْاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ، وَجَازِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ

الشرح والتفسير: لا تهلك نفسك ولا الناس

إشارة

ما أورده السيد الرضى من هذا الكتاب يمثل مقطعاً من رساله كان الإمام على عليه السلام قد أرسلها لمعاويه، ويتحدث الإمام عليه السلام فى مطلعها، طبقاً لنقل المؤرخ المعروف المدائنى، من موقع النصيحة والتحذير من الغرور بالدنيا الخداعه والمتقلبه وأن يلتزم بالتقوى ويعلم أن الله تعالى للظالمين بالمرصاد، فالدنيا سريعاً ما تنقلب عليه وتعرض عنه وسيواجه حينئذ الحسره والندامه، فينبغى عليه فى هذا السن المتقدمه من العمر أن يفكر فى نهايه حياته واقتراب أجله وأن لا يعمل شيئاً يكون وبالاً عليه يوم القيامه.

ثم إن الإمام عليه السلام تعرض لهذا الموضوع، وهو أنك ستتحمل، مضافاً لمسؤوليه ضلالك وانحرافك، مسؤوليه إضلال جمهور من الناس، وكما ذكر السيد الرضى فإن

الإمام عليه السلام يقول في مستهل حديثه:

«وَأَرَدَيْتَ (١) جَيْلاً (٢) مِنَ النَّاسِ كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِعَيْتِكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَعَسَّاهُمْ الظُّلْمَاتُ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ».

وهذه إشارته إلى أن معاوية يتحمل مسؤوليته انحراف جمهور غفير من المسلمين الذين خدعهم بمكره وغيته وسوف يقف يوم القيامة ليجيب عن ذلك.

وعبارته

«مَوْجِ بَحْرِكَ» تعبير لطيف عن الحوادث والأزمات التي تشبّهه عادة بأمواج البحر، وهي الحوادث الصعبة التي يصعب مواجهتها والتصدي لها، لأنّ الأمواج العاتية كالجبال في البحر تقذف بالبشر من هنا إلى هناك كالريشه في مهبّ الريح، وأحياناً تقتلعهم في مطاويها ودوماتها ويعيش الإنسان في تلك اللحظات الحرجة الظلمة والشدة بحيث تسود الدنيا في عينيه.

والتعبير بـ

«الظُّلْمَاتُ» و «الشُّبُهَاتُ» إشارته إلى أعمال معاوية من قبيل طرح مسأله قتل عثمان والدفاع عنه، ورفع قميصه الدامي وإثاره الناس ضد الإمام عليه السلام والخليفة بالحق لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك (والعياذ بالله) الأمر بلعن الإمام على عليه السلام على المنابر وسبّه وشتمه في المحافل، فهل هناك ظلمه أشدّ من هذا، أو شبّهه أوحش من هذه؟

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نتيجة هذه الأساليب الماكره والشبهات المضلله ويقول:

«فَجَاوَزُوا (٣) عَنْ وَجْهِتِهِمْ، وَنَكَصُوا (٤) عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا (٥) عَلَى أَحْسَابِهِمْ (٦)»، أى أنّ هذه الأمور أدت إلى عوده بعض الناس عن الحق إلى

ص: ٨

١- (١). «أرديت» من ماده «إرداء» بمعنى إهلاك.

٢- (٢). «جيل» الجماعة والصفة والنسل.

٣- (٣). «جاوزوا» من ماده «جواز» وتعنى العبور والعدول.

٤- (٤). «نكصوا» من ماده «نكوص»، بمعنى العوده والرجوع.

٥- (٥). «عولوا» من ماده «تعويل» وهى الاعتماد والاتكال.

٦- (٦). «أحساب» جمع «حسب» على وزن «نسب» تأتى أحياناً بمعنى الفضائل التى تنسب للآباء والأجداد ويفتخر بها الإنسان، وأحياناً أخرى تعنى الصفات البارزه والملكات المشهوده للإنسان نفسه كالشجاعه والسخاء والعلم والمعرفه.

زمان الجاهليته وأعرضوا عن الإسلام والرسالة الإلهية وأخذوا يتفاخرون بالحسب والنسب كما كان العرب يتفاخرون في الجاهليته.

ونعلم أنّ معاوية كان من بقايا العصر الجاهلي، وأبوه أبوسفيان العدو الأوّل للإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأنّ غالبية الحروب والفتن ضد الإسلام كانت بقيادة أبي سفيان، وقد أعلن أبوسفيان الإسلام ظاهراً وأخذ ينتظر اليوم الذي تملك فيه بنو امية مقاليد الأمور وسيطروا على أجهزه الحكومه الإسلاميه ويجلسون مجلس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحينئذ يتحركون على مستوى إعادة الناس إلى قيم وثقافة الجاهليته، ويذكر التاريخ أنّ هؤلاء قد نجحوا في مسعاهم غايه النجاح، ولولا حادثه عاشوراء ومقتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء ويقظه المسلمين في ظلّ هذه الحوادث الداميه بحيث لم تستمر حكومتهم أكثر من ثمانين عاماً، فإنّه لا يعلم أحد ما سيجرى على الإسلام والمسلمين.

ثمّ يستثنى الإمام عليه السلام طائفه من أهل الشرف والدين والإيمان، هؤلاء من الذين انخدعوا بأساليب معاوية وكلامه البراق، ولكنهم عندما رأوا عن كذب أعماله وعرفوا حقيقه أمره أعرضوا عنه والتحقوا بالإمام على عليه السلام وأصحابه يقول الإمام عليه السلام:

«إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعِيدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ (١) ، إِذْ حَمَلْتُهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَيَّدْتَ بِهِمْ عَنِ الْقُصْدِ».

مفرده

«إِلَّا» استثناء من

«جيل» التي قالها الإمام عليه السلام في مطلع الرسالة وإشار إلى المخدوعين والمغرورين الذين تأثروا بشبهات معاوية من قبيل شبهه قتل عثمان والمطالبه بدمه وشبهات أخرى والتحقوا به، ولكنهم عندما رأوا أعماله وسلوكياته عن كذب وشاهدوا فساد أعوانه وأنهم عموماً من بقايا عصر الجاهليته أو من أبنائهم،

ص: ٩

١- (١). «مُوَازَرَه» من ماده «وزر» تعنى الحمل الثقيل، وإنما سمي الوزير وزيراً لأنه يحمل مسؤوليته ثقيله على عهده، وموازره تأتي أيضاً بمعنى المعاونه والمساعده، لأنّ الإنسان عندما يعين الشخص الآخر فإنّما يحمل قسماً من عمله ومسؤوليته على عهده.

فالتفتوا بسرعه إلى خطئهم وغفلتهم وابتعدوا عنه، هذه الفئه رغم أنهم قلّه في مقابل الكثير ممّن أتبعه، ولكن مقامهم الكريم يستوجب أن يذكرهم الإمام عليه السلام بوصفهم أهل البصائر والسائرون في طريق الحقّ والمنيبون إلى الله تعالى.

ويذكر المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغه ذيل الخطبه ١٥٥ أسماء جماعه من أهل البصائر الذين التحقوا بالإمام على عليه السلام في معركة صفين ومنهم: ابن عم عمرو بن العاص وابن اخته شرحبيل، وعبدالله بن عمرو العنسي، وكذلك جماعه من قراء القرآن(١).

ثم إن الإمام عليه السلام في المقطع الثالث من هذه الرساله يوصي معاويه بتقوى الله ويقول:

«فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ (٢) الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ (٣)، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ».

ورغم أن معاويه بعد شهادته الإمام على عليه السلام بقى على قيد الحياه عشرين سنه، ولكن مع الالتفات إلى أن عمره ستون في ذلك الزمان الذى كتبه الإمام عليه السلام هذه الرساله فإنه قد مضى عليه الشطر الأكبر من حياته وكل شخص فى مثل هذا العمر لابد أن يفكر فى نهايه عمره وعاقبته.

وجمله

«وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ»، تشير إلى أن معاويه قد سلّم زمام أموره بيد الشيطان، فالإمام عليه السلام يوصيه بأن يمسك زمامه ولا يترك الشيطان يقوده فى دروب الضلاله والانحراف، لأنّ نهايه عمره قريبه وأهم شىء فى حياه الإنسان هو حسن العاقبه حيث يمكنه حلّ مشكلاته بهذه الطريقه.

والعجب أن مثل هؤلاء الجتّارين عندما يحين أجلهم، كما هو حال فرعون عندما غمرته أمواج النيل، يتبهبون من غفلتهم وفى حين أنه قد ولى وقت جبران

ص: ١٠

١- (١). انظر: شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ١٠، ص ٢٦٩.

٢- (٢). «جَاذِبِ» صيغه أمر، يعنى مأخوذ من ماده «جذب» بمعنى جر الشىء إلى نفسه.

٣- (٣). «قِيَادًا» بمعنى زمام، وأصلها من «قياده» وهى الزعامه وتولى أمور الآخرين.

الأخطاء وتغير المسار فلا ينفع الندم والحسره، وربّما لو عادوا لساروا في نفس الخط وكما يقول القرآن الكريم: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (١).

يقول ابن كثير في كتاب «البدايه والنهايه»: عندما اشتد المرض بمعاويه ويأس من شفائه ورأى نفسه مشرفاً على الموت أخذ ينشد هذه الآيات:

لَعَمْرِي لَقَدْ عَمَّرْتُ فِي الدَّهْرِ بُرْهَةً

وَدَانْتُ لِي الدُّنْيَا بِوَقْعِ البَوَاتِرِ

وَأُعْطِيتُ حُمْرَ المَالِ وَالْحُكْمَ وَالنُّهْيَ

وَلِي سُلِّمَتْ كُلُّ المُلُوكِ الجَبَابِرِ

فَأَضْحَى الَّذِي قَدْ كَانَ مِمَّا يَسْرُنِي

كَحُكْمِ مَضَى فِي المُرْمَنَاتِ العَوَابِرِ

فَيَا لَيْتَنِي لَمْ أُعْنِ فِي المُلْكِ سَاعَةً

وَلَمْ أَسْعَ فِي لَدَاتِ عَيْشِ نَوَاصِرِ

وَكُنْتُ كَذِي طِمْرَيْنِ عَاشَ بِبُلْغِهِ

فَلَمْ يَكُ حَتَّى زَارَ ضَيْقَ المَقَابِرِ

ولاء يبعد أنّ لقب «ذي طمرين» إشاره إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يتأسف معاويه على أنّه لم يختر طريقه ولم يسلك في طريق الحقّ، لأنّ هذه الكلمه قد وردت في كلام الإمام على عليه السلام نفسه في الرساله ٤٥ من نهج البلاغه حيث يقول:

«أَلَا- وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اِكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرِيهِ...». ولكن التأسف والتحسر في مثل هذه المواقع كاذب، فلو زالت الأزمه وحلت المشكله لعادوا إلى حالهم السابق وتحركوا في نفس الخط.

تأمل

رسائل متواليه

يستفاد من شرح ابن أبي الحديد لهذه الرسالة وجود مراسلات بين أمير المؤمنين علي عليه السلام ومعاوية في هذا المقطع الزمني وبلغت بمجموعها خمس رسائل من قبيل الإمام عليه السلام وأربع رسائل من قبيل معاوية، وفي كلّ رسالة كان معاوية يزداد وقاحه وجرأه على الإمام عليه السلام، والعجيب أنّه يتحدّث عن نفسه وكأنّه من أولياء الله المقربين

ص: ١١

١- (١). سورة الأنعام، الآية ٢٨.

وقد نسي ماضيه وحاضره وأخذ يتحدث في رسائله بكلمات ناييه وعبارات وقحه.

والملفت أن ابن أبي الحديد بعد نقله لهذه الرسائل يتحدث بما خلاصته:

«وأعجب وأغرب ما جاء به الدهر، وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّه، أن يفضى أمر على عليه السلام إلى أن يصير معاويه نداً له ونصيراً مماثلاً يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساوى فيما يواجه أحدهما صاحبه، ولا يقول له على عليه السلام كلمه إلّاقال مثلها، وأخشن مساً منها، فليت محمّداً صلى الله عليه وآله كان قد شاهد ذلك عياناً لا خبراً أنّ الدعوه التي قام بها وقاسى أعظم المشاق في تحملها، وكابد الأهوال في الذب عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها وشيّد أركانها وملاً الأفاق بها، خلصت صفواً وشفواً لأعدائه الذين كذبوه لما دعا إليها، وأخرجوه عن أوطانه لما حض عليها وأدموا وجهه وقتلوا عمّه وأهله، فكأنه كان يسعى لهم، ويدأب لراحتهم كما قال أبو سفيان في أيام عثمان وقد مرّ بقبر حمزه وضربه برجله وقال: يا أبا عماره، إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا اليوم يتلاعبون به، ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاويه عليّاً كما يتفاخر الأكفاء والنضراء...».

إِذَا عَيَّرَ الطَّائِيَ بِالْبُخْلِ مَادِرٌ

وَقَرَعَ قَسًا بِالْفَهَاهِ بِاِقْلٍ

وَقَالَ السُّهَى لِلشَّمْسِ أَنْتَ خَفِيهٌ

وَقَالَ الدُّجَى يَا صُبْحَ لَوْ نُكَّ حَائِلٌ

وَفَاخَرَتِ الأَرْضُ السَّمَاءَ سَفَاهَهُ

وَكَاتَرَتِ الشُّهْبُ الحِصَى وَالجِنَادِلُ

فِيَا مَوْتَ زُرْ إِنَّ الحَيَاءَ ذَمِيمَهُ

وَيَا نَفْسُ جِدِي إِنَّ دَهْرَكَ هَازِلٌ (١)

ص: ١٢

إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكّه (١)

نظرة عامه للرساله

تشكل هذه الرساله من قسمين:

القسم الأول: يمثل تحذيراً من الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس واليه على مكّه

ص: ١٣

١- (١). سند الرساله: ورد في مصادر نهج البلاغه أنّ ابن أبي الحديد وابن ميثم في شرحهما لنهج البلاغه ذكرا في شأن صدور هذه الرساله: أنّ معاويه أرسل جماعه من أهل الشام بشكل خفي إلى مكّه في موسم الحج لدعوه الناس للانضمام إليه واطاعته والتمرد على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أو تقويه هذه الشبهه في الأذهان أنّ الإمام على عليه السلام هو قاتل عثمان أو على الأقل لم يمد له العون والنصره في الموقع المناسب، وفي كلا الحالتين فإنّ على بن أبي طالب لا يصلح لمقام الإمامه والخلافه، وكذلك يتحدّثون عن كرم معاويه وسخائه وما إلى ذلك، وعندما وصل هذا الخبر إلى الإمام على عليه السلام كتب هذه الرساله إلى واليه على مكّه قثم بن عباس وحذره من هذه المؤامره. ثمّ إنّ صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه يستنتج ممّا تقدم أنّ ابن أبي الحديد وابن ميثم كانا يملكان مصدراً آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣١٩)، ولكن لا يبعد أنّهما أخذوا هذا الكلام من كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي المتوفى سنة ٣١٤، حيث أورد هذا الكلام فيما يتصل بهذه الرساله (الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٠-٢٢٢). واللافت وجود سند آخر لهذه الرساله في كتاب «الغارات» وهو كتاب الذي تمّ تأليفه في القرن الثالث وقبل ولاده السيّد الرضى بسنوات، وهو يختلف عمّا أورده السيّد الرضى، ولكنّ أساس كلا الرسالتين واحد (الغارات، ج ٢، ص ٥٠٩).

وينبهه إلى أنّ جماعه من أزلام معاويه ممن باعوا دينهم بدينهم أرسلهم معاويه في موسم الحج ليشيروا الفتنة وليعملوا على تغيير الواقع لصالح معاويه على حساب إضعاف المؤيدين للإمام عليه السلام، وقد تحدّث الإمام في هذه الرساله عن أزلام معاويه بكلمات دقيقه وبلغه حيث نجد نظائر هؤلاء في كلّ عصر وزمان وخاصّه في عصرنا الحاضر.

وفي القسم الثاني يوصيه أن يأخذ جانب الحيطة والحذر في مقابل هذه المؤامره الخطيره ولا يعمل شيئاً يحتاج بعده إلى الاعتذار وطلب الصفح.

ص: ١٤

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي - بِالْمَغْرِبِ - كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وَجَّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أَنَسُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمِّيِّ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ، الْكَمِّهِ الْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَهًا بِالْدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجَلِ الْمَأْبُرِ الْمُتَّقِينَ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عِيَامُهُ، وَلَا يُجْزَى جِزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فِعَالُهُ. فَأَقِمِ عَلَيَّ مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ، وَالنَّاصِحِ اللَّيْبِ، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النِّعْمَاءِ بَطْرًا، وَلَا عِنْدَ الْبُؤْسَاءِ فَشَلًّا، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: راقب أوضاع مكة بدقه

إشاره

كما أشرنا آنفاً أنّ هذه الرسالة أرسلها الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس عندما وصل الخبر إلى الإمام عليه السلام من مكة من قبل بعض عيونه وجواسيسه، أنّ معاوية بعث جماعه من أهل الشام لإشاعه الأكاذيب وتسميم الأجواء ضد أمير المؤمنين عليه السلام في أيام الحج، ويستفاد من كلام ابن الأعمش الكوفي في الفتوح أنّ معاوية أرسل جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف رجل ومعهم العدة الكاملة بشكل خفي إلى مكة ليقوموا بانتفاضه عندما تسنح الفرصه المناسبه ويواجهوا أنصار الإمام على عليه السلام ويربكوا أوضاع الحج.

وكيف كان فالإمام في مستهل هذه الرسالة يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي (١)»

ص: ١٥

١- (١). «عين» أصلها في اللغة العضو المبصر في الوجه، ولكن بما أنّ عناصر الاستخبارات في الحكومه بمشابه العين لرئيس الحكومه فاطلقت هذه الكلمه عليهم.

بِالْمَغْرِبِ (١) - كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ (٢) أَنَسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ.

ثم يذكر صفاتهم في ثلاث جمل مختصره وأعمالهم في أربع، ويقول:

«الْعُمَى (٣) الْقُلُوبِ، الصُّمُّ (٤) الْأَسْمَاعِ، الْكُمَهْ (٥) الْأَبْصَارِ».

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من الآية الشريفة في قول تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» (٦).

وكما ورد في تفسير الآية الشريفة أيضاً أنّ طرق معرفه الإنسان ثلاثه: العقل، الذى يفكر ويتدبر به، العين التى يرى بها الحوادث المختلفه، والتجارب المتنوعه، والأذن، التى يسمع بها العلوم النقلية، والأشخاص الذين يفقدون هذه الأعضاء الثلاثه فإنّ جميع طرق المعرفه ستكون موصده أمامهم.

أجل، فمعاويه اختار هؤلاء البعيدين عن الله والأزلام الذين اختاروا الضلاله على الهدى، والدنيا على الآخرة، ومهمتهم أن يثبوا الإشاعات المغرضه والأكاذيب الملقفه ويرتكبوا ما يحلوا لهم من ذنوب وآثام للوقيعه باتباع أميرالمؤمنين عليه السلام وإثاره الفتنة فى صفوف حجاج بيت الله الحرام.

ثم تحدّث الإمام عليه السلام عن أعمالهم وقال:

«الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ (٧) الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ،

ص: ١٦

١- (١) . «المغرب»: فى هذه العبارة تعنى الشام لأنها تقع شمال غرب العراق.

٢- (٢) . «الْمَوْسِم» من ماده «وَسَيْمَ» على وزن «رسم» فى الأصل تعنى جعل علامه، ثم اطلقت على محل الاجتماع أو زمان الاجتماع، لأنّ ذلك المحل أو الوقت علامه على ذلك التجمع، وتطلق هذه الكلمه ولا سيما فى الفقه على أيام الحج.

٣- (٣) . «العمى»، جمع «أعمى».

٤- (٤) . «الصم»، جمع «أصم».

٥- (٥) . «الكمه»، جمع «أكمه».

٦- (٦) . سوره الأعراف، الآية ١٧٩.

٧- (٧) . «يَلْتَمِسُونَ» من ماده «لَبَسَ» على وزن «حَبَسَ» وهو التشويش وخلط الأمور، و «لَبَسَ» على وزن «خُمَسَ» تعنى اللباس والملبس.

وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ (١) الدُّنْيَا دَرَّهَا (٢) بِالَّذِينَ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجْلِ الْآبِرَارِ الْمُتَّقِينَ».

وبديهي أنّ الأشخاص الذين يعيشون العمى فى القلب، والصمم فى الأسماع لا ينتبهون إلى هذه الأمور ومن أجل التمويه على الناس يخلطون الحقّ بالباطل، ومن أجل كسب رضا المخلوق ونيل الجوائز والعطايا لا يطيعون أمر الله ولا يمثلون لتعاليمه، ومن أجل تحصيل متاع الدنيا يبيعون رأسمالهم الدينى، هؤلاء الذين بلغ العمش فى بصيرتهم إلى درجة أنّهم لا يرون سوى دنياهم الفاتية والملذات الرخيصة ويغفلون عن الآخرة وما فيها من المواهب المعنويّة والماديّة العظيمة والأبدية، ولهذا السبب لا يعيرون أهمّيه للآخرة ويبيعونها بأبخس الأثمان من أمور الدنيا.

وبديهي أنّ معاويه لا يختار أبداً الأشخاص الذين يملكون بعض الإيمان ولهم سابقه فى الإسلام لهذه لأعمال الشنيعة، بل يبحث عن الأشخاص الذين لا يملكون ذره من الإيمان أو العقل أو الوجدان، فهم عبيد وغلما ن وضعوا أرواحهم فوق أكفهم سمعاً وطاعة لأوامر السلطان، وهذا هو منهج جميع حكام الجور وقوى الاستكبار والهيمنة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ كلّ إنسان يعمل الخير أو يقترب المنكر فسوف يثاب ويعاقب حسب عمله، يقول:

«وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ».

وهذا المفهوم مقتبس من الآيات الشريفه قال تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (٣).

وهو إشارة إلى أنّ هؤلاء عندما يتحركون فى خط خلق الفتنه وإيجاد المفسده

ص: ١٧

١- (١). «يَحْتَلِبُونَ» من ماده «حَلَبَ» على وزن «حَمَدَ» بمعنى اخراج اللبن من الضرع.

٢- (٢). «دَرَّ» بمعنى اللبن أو اللبن الكثير، وبمعناها المصدرى تعنى هطول المطر أو السوائل الأخرى.

٣- (٣). سورة الزلزله، الآيتان ٧ و ٨.

والاختلاف بين المسلمين لا ينالون في نهايه المطاف سوى الشر والفساد وسوف تصل إليهم هذه النار وتحرقهم.

ثم يخاطب الإمام عليه السلام قثم بن العباس ويقول:

«فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ (١)، وَالنَّاصِحِ اللَّيْبِ (٢)، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ».

وبهذه الطريقه يثير فيه الإمام عليه السلام العزيمه والروحيه وتقويه الإراده لأداء المهتمه الملقيه على عاتقه في مقابل مؤامرات معاويه وأتباعه من أهل الشام ويؤكد له ضمناً أنه مشرف وناظر لأعماله.

وبهذا البيان الموجز والعميق في محتواه يبين الإمام عليه السلام شروط القائد الموفق والوالى الناجح، كسعه آفاق التفكير، الاستقامه والصمود في مقابل الحوادث والتحديات، وحبّ الخير للناس، والإطاعه لإمامه ومقتداه وإمتثال أوامره، ومعلوم أنّ هذه الشروط إذا توفرت في كلّ مدير أو قائد فسوف يكون موفقاً في عمله وإدارته وباستطاعته مواجهه مؤامرات الأعداء وإحباطها.

ثم إنّ الإمام عليه السلام في ختام هذه الرساله يذكر تحذيراً آخر لعامله ويقول:

«وَأَيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطْرًا (٣)، وَلَا عِنْدَ الْبُؤْسَاءِ فَشِلًّا (٤)، وَالسَّلَامُ».

ثمّه مثل معروف متداول بين الناس يقولون: «إنّ الاعتذار لا يعيد ماء الوجه للإنسان» فصحيح أنّ الإنسان ينبغي أن يعتذر للطرف المقابل من خطئه وما صدر منه من خطيئه وزله، ولكن يجب الالتفات إلى أنّ هذا الاعتذار لا يعيد مكانه الإنسان إلى سابق عهدها، فالأفضل أن يعيش الإنسان الانتباه والحذر لئلا يضطر

ص: ١٨

١- (١). «الصَّلِيبُ» من ماده «صلب» على وزن «صبح» الشده والصلابه في كلّ شيء، وإنّما يقال للصليب «صليب» لأنّه يستخدم في صنعه أخشاب صلبه لتعليق المصلوب.

٢- (٢). «اللَّيْبُ» هو صاحب العقل والفهم، وأصلها من «لُب» وتعنى الدماغ والمخ.

٣- (٣). «بَطْرٌ» هو الشخص الغارق في النعمه، وأصلها من «بَطْرٌ» على وزن «نظر».

٤- (٤). «فَشِيلٌ» وهو الشخص الكسول والضعيف وأصلها من «فشل» على وزن «نظر» يعنى الضعف والاستكانه أو الضعف المقترن بالخوف.

للإعتذار، وكذلك يجب أن يكون مسلطاً على نفسه ويملك شخصيته قويه بحيث لا يتأثر باقبال أو إدبار النعم الدنيويّه، ولا يكون كالأشخاص من الضعفاء النفوس بحيث يفرحون بشده لأدنى نجاح إلى درجه أنهم يخرجون عن طورهم وفي المقابل يتأثرون ويغتمون من أدنى اخفاق وفشل إلى درجه أنهم يفقدون مشاعرهم ولا يسيطرون على أنفسهم.

وعندما ننظر إلى هذه الرساله المختصره للإمام عليه السلام من موقع الدقه والعمق فسوف نرى أنها تتضمن كل شيء، وهذه آيه جليه من آيات الفصاحه والبلاغه لكلام الإمام عليه السلام وتشير إلى سعه إطلاعه ومعرفته بجميع الأمور السياسيّه والاجتماعيّه والأخلاقيه.

تأمل

من هو قثم بن العباس؟

«قثم» في الأصل «قائم» بمعنى الشخص الكريم الجواد «ثم سقطت ألفه» وهذا الاسم يعتبر بالنسبه لقثم ابن العباس اسماً على المسمى، لأنه كان من الأجاويد والكرماء المشهورين، وهو ابن عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام وابن أخ عبدالمطلب وأمه ام الفضل لبابه بنت الحارث أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وذكروا أنّ أمه كانت بعد خديجه أول امرأه اعتنقت الإسلام، وجاء في كتب الرجال والتواريخ أنّ القثم كان رجلاً قوياً وذو فضائل، وفي زمان خلافه الإمام على عليه السلام كان والياً على المدينه لمدّه معينه ثم صار والياً على مكّه من قبل الإمام عليه السلام وظل في هذا المنصب إلى زمان استشهاد أميرالمؤمنين عليه السلام، وفي سنه ٣٨ للهجره اختير أميراً للحجاج من قبل الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام ويقال إنّ أميرالمؤمنين عندما ضربه ابن ملجم في محراب مسجد الكوفه، كان قثم حاضراً في المسجد وهو الذي قبض على ابن ملجم وهو يحاول الفرار.

وفى أيام معاويه بسبب صداقته مع سعيد بن عثمان والى خراسان توجه قثم إلى خراسان وحضر فى حرب ضد الكفار فى سمرقند ونال درجة الشهاده هناك(١).

ص: ٢٠

١- (١) . مكاتيب الأئمه، الاستيعاب، اسد الغابه، ولغه نامه دهخدا (بالفارسيه).

إلى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ لَمَّا بَلَغَهُ تَوَجُّدُهُ مِنْ عَزَلِهِ بِالْأَشْتَرِ

عَنْ مِصْرَ، ثُمَّ تُوْفِي الْأَشْتَرُ فِي تَوَجُّهِهِ إِلَى هُنَاكَ

قَبْلَ وُضُوعِهِ إِلَيْهَا(١)

نظرة عامة للرساله

نعلم أنّ معاويه بعد قصه التحكيم كان يروم إثارة القلاقل في المناطق الخاضعه لسيطره حكومه الإمام على عليه السلام، فكان يهجم على المناطق الحدودية من جهه، ومن جهه أخرى كان قد أعطى عهداً لعمر بن العاص بسبب خدماته الجليله له أنه إذا نجح في تولى الخلافه واستلام زمام الحكومه الإسلاميه فإنه سيعطيه مصر، ومن أجل تحقيق هذه الغايه بذل هذان الرجلان جهوداً كبيره في هذا السبيل.

وكان الإمام على عليه السلام قد شعر بأنَّ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ واليه على مصر وإن كان رجلاً أميناً، إلّا أنّ مصر تحتاج إلى رجل أقوى وأشدّ منه وأكثر تجربه ليقف في

ص: ٢١

١- (١). سند الرساله: نقل هذه الرساله قبل السيد الرضى أبو الحسن المدائني، والظاهر أنه نقلها من كتاب فتوحات الإسلام، وإبراهيم بن الثقفي في كتاب «الغارات»، والطبري في تاريخه في حوادث سنه ٣٨، والبلاذري في شرح حال الإمام على عليه السلام في كتابه «أنساب الأشراف» (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٢٢).

مواجهه مؤامرات معاويه، ولذلك اختار مالك الأشتر لهذا الأمر وكتب له عهده المعروف ب «عهد مالك الأشتر».

وعندما اطلع معاويه على هذا الخبر وأنّ مالك الأشتر توجه إلى مصر أصابه القلق من ذلك ودبر له مكيدة لقتله قبل وصوله إلى مصر، فأمر أحد جواسيسه الذى كان على إرتباط وثيق بآل عمرو بن العاص، أن يقتل مالكاً بالسم بأيه صورته، فجاء هذا الرجل إلى مالك وأظهر له الموده وعزّف نفسه أنّه من شيعة الإمام على عليه السلام ومن أتباع أهل البيت عليهم السلام وتحدّث له عن فضائل الإمام وبني هاشم إلى أن صدّقه مالك ووثق به واعتقد أنّه واقعاً من أتباع أهل البيت عليهم السلام وفى ذلك الوقت أهدى هذا الرجل طعاماً مسموماً لمالك «والمعروف أنّه كان عسلاً مسموماً» وعندما تناول مالك من هذا العسل شعر بالتسمم، وقبل وصوله إلى مصر توفى فى منطقته يقال لها «قلم».

وعندما وصل خبر تنصيب مالك الأشتر والياً على مصر إلى محمّد بن أبى بكر، بدا منه تأثراً من ذلك، فكتب له الإمام عليه السلام الرسالة أعلاه ليرفع قلقه ويزيل استياءه وأبقاه فى منصبه(١).

وعلى ضوء ذلك فإنّ الغرض من هذه الرسالة رفع ما خالج محمّد بن أبى بكر من تأثر واستياء من جراء تنصيب مالك الأشتر مكانه، وقد أكد له الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة أنّه راضٍ تماماً عن أفعاله وأنّ استبداله بمالك الأشتر لا يعنى أنّه قد قصّر فى مهمته بل لغرض كان محمّد بن أبى بكر يعلم به أيضاً، وكذلك تهدف هذه الرسالة لتقويه إرادته محمّد بن أبى بكر وتحكيم موقفه فى مقابل العدو لحفظ حكمه مصر، ويوصيه الإمام عليه السلام بالتوكل على الله والاستقامة فى طريق التصدى للأعداء.

ص: ٢٢

١- (١). اقتبس من: مصادر نهج البلاغه وكتب أخرى.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَّغْنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِثْنَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ، وَلَا أَزْدِياداً لَكَ فِي الْجِدِّ وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْؤَنَهُ وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَلَايَهُ.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلِيَّتُهُ أَمْرٌ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا، وَعَلَى عِدْوَانًا شَدِيدًا نَاقِمًا، فَرَحِمَهُ اللَّهُ! فَلَقَدِ اسْتِكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلَا قَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ! فَأَضِجِرْ لِعِدْوِكَ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَدَعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ اسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِينِكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: تطيب خاطر محمد بن أبي بكر

لقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الرسالة المختصره إلى عدّه نقاط مهمه فقال أولاً:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَّغْنِي مَوْجِدَتُكَ (١) مِنْ تَسْرِيحِ (٢) الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ (٣)، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِثْنَاءً (٤) لَكَ فِي الْجَهْدِ، وَ لَا أَزْدِياداً لَكَ فِي الْجِدِّ».

وبهذا الكلام سعى الإمام عليه السلام لتطيب خاطر محمد بن أبي بكر وأكد له أنه راضٍ

ص: ٢٣

١- (١). «مَوْجِدَهُ» بمعنى الغضب والاستياء.

٢- (٢). «تَسْرِيحِ» ارسال الشخص لطلب شيء وأداء عمل معين، وتستعمل لكلّ تحرير وإزاله القيود، ومن هنا يطلق على الطلاق بأنه تسريح لأنّ الزوج يطلق ويسرح زوجته من قيود الزوجية.

٣- (٣). «عَمَلِ» في هذا المورد تعنى الولايه والاماره، ولذلك يقال للوالى أنه «عامل»، في رساله السابقه قرأنا أنّها رساله من الإمام على عليه السلام إلى «قثم بن العباس» عامله على مكّه.

٤- (٤). «اسْتِثْنَاءً» ضد الاسراع، أى تأخر فى سيره، بطيء من ماده «بطء» على وزن «كفر».

عن عمله وأن هذا التغيير والاستبدال لا يعنى أبداً أن محمّد بن أبى بكر مقصّر فى عمله، أو أن الإمام عليه السلام مستاء منه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مخاطباً لمحمّد بن أبى بكر لتهدئه نفسه أكثر ورفع أى التباس فى ذهنه وقال:

«وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْوَنَهُ وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَوَلَايَهُ».

وفى الحقيقه أن الإمام عليه السلام بذكره لهاتين النقطتين، وهما أنه راضٍ من جهه عن أعمال محمّد بن أبى بكر، ومن جهه أخرى أنه لو عزله عن موقع معين فإنه سيختار له موقعاً أفضل، وبذلك رفع أى التباس وقلق من واليه على مصر.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنه سيعطيه مكاناً أفضل وأيسر مؤنه، وهى ولاية حكومه خراسان أو بلاد فارس أو اليمن، لأن جميع مناطق البلاد الإسلاميه فى ذلك الوقت ما عدا الشام، كانت تحت حكومه الإمام على عليه السلام (١).

ثم ذكر الإمام عليه السلام السبب فى اختياره لمالك الأشر والياً على مصر، ليرفع من جهه الشبهه عن ذهن محمّد بن أبى بكر، ومن جهه أخرى يلفت نظره إلى بعض نقاط الضعف والقصور فى شخصيته ليتمكن من إصلاحها واستبدالها بنقاط قوه، يقول:

«إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلِيَّتُهُ أَمْرٌ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا، وَعَلَى عَدُوْنَا شَدِيدًا نَاقِمًا (٢)، فَزَحِمَهُ اللَّهُ! فَلَقَدْ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلَا قَى حِمَامَهُ (٣)، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَاهُ (٤) اللَّهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ!».

ص: ٢٤

١- (١). انظر: شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٤٤.

٢- (٢). «نَاقِمٌ» المنكر والمعترض، وإذا كان اعتراضه على مستوى العمل والممارسه فتعنى الانتقام من ماله «نَقَمٌ» على وزن «قلم».

٣- (٣). «حِمَامٌ» من ماله «حَمَمٌ» على وزن «غَمٌ» بمعنى الشىء المقدر، وبما أن الموت يعدّ تقديراً إلهياً على الإنسان فلذلك يطلق عليه الحمام.

٤- (٤). «أُولَى» من ماله «ولايه» وتعنى الشخص الذى يكلف بعمل معين أو يوضع فى اختياره شىء، وهنا جاءت بالمعنى الثانى، يعنى أن الله تعالى يضع رضاه وجنته التى تعتبر نتيجة رضا الله تعالى فى اختيار مالك الأشر.

والحقيقه أنّ مالك الأشتر رحمه الله كان كذلك، بلائه المشهود في صفين ودفاعه الحاسم عن الإمام عليه السلام في مواقع مختلفه ووفاءه المطلق واستقامته في جميع الحوادث الصعبة التي وقعت في ذلك العصر، كلّها شاهد حي على صحه كلام الإمام عليه السلام في حق الأشتر، فقد كان الأشتر هو القائد الفذ الذي جعل جيش معاويه في صفين يصل إلى حدّ الهزيمة الكامله، ولكن مؤامره رفع المصاحف على الرماح أجهضت سعيه وأعاقت تحقيق النصر على معاويه.

يقول ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه عند وصوله لجمله

«فَرِحَ اللَّهُ»:

«ولست أشك بأنّ الأشتر بهذه الدعوه يغفر الله له ويكفر ذنوبه ويدخله الجنّه، ولا فرق بينها وبين دعوه رسول الله صلى الله عليه وآله،

وَيَأْطُوبِي لِمَنْ حَصَلَ لَهُ مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضُ هَذَا» (١).

وقد تحدّث الإمام عليه السلام في رسائل عدّه في نهج البلاغه عن مالك الأشتر بوصفه شخصيّة ممتازه وعالي الهمة، وهذا الثناء يشير إلى أنّ للأشتر مكانه ساميه عند الإمام عليه السلام الذي كان يكنّ له الحبّ والاحترام، وقد تحدّثنا في شرح الرساله ١٣ عن بعض فضائل مالك الأشتر وامتيازاته النادره، وسنشير في ذيل هذه الرساله والرسائل أخرى أيضاً إلى أمور أخرى عن هذه الشخصيّة الإسلاميّه الفذه.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه ثالثه: ولكن الآن حيث استشهد مالك ولا أعرف أفضل منك لتولى هذا المنصب فعليك بالبقاء فيه والاستعداد لمواجهة العدو بشجاعه وبصيره:

«فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَامْضِ عَلَيَّ بِصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ (٣) لِحَرْبٍ مِّنْ حَارِبِكَ».

وجمله »

فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ» إشاره إلى هذه النقطه، وهى أنّ الإمام عليه السلام أكد عليها في خطبه الدعوه للجهاد حيث قال:

«وَقُلْتُ لَكُمْ اعْزَوْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْزَوْكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غَزَى

ص: ٢٥

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٤.

٢- (٢). «أَصْحِرْ» فعل أمر من ماده «اصحار» وتعنى الخروج والظهور فى الصحراء.

٣- (٣). «شَمِّر» من ماده «تشمير»، وأصل شَمَّر على زون «تمر» وتعنى الجمع وحسب المنتوج والاستعداد لعمل معين.

قَوْمٌ قَطَّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذُلُّوا».

وجمله

«وَأَمُضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ» أمر بضروره التزام الحذر التام والانتباه الكامل فى مقابل مؤامرات العدو وأن يتحرك بدقه متناهيه لإبطال مساعيه وإجهاض مؤامرتة.

وجمله »

وَسَمَّوْا لِحَرْبٍ مَنْ حَارَبَكَ» إشاره من جهه إلى أنك لا تبدأ بالحرب، ومن جهه أخرى إذا بدأك العدو بالحرب فاستعد لدحره ودفع خطره وكن على أهبة الاستعداد بشكل دائم.

وهذه التوصيات الثلاث للإمام عليه السلام لا تخص محمد بن أبى بكر فقط بل تشمل جميع المسلمين فى كل زمان ومكان، فإذا عملوا بها فذلك سيقودهم إلى النصر المحتم.

وفى ختام الرساله يدعوه الإمام عليه السلام للتوجه إلى الله تعالى والتوسل به فيده مفتاح جميع المشكلات ولا يمكن تحقيق أى هدف إلا بمعونته، ويقول الإمام عليه السلام:

«وَأَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثَرِ الْأَسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَمَمَّكَ، وَيُعِينِكَ عَلَى مَا يُنَزَّلُ (١) بِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

ومعلوم أن مثل هذا الإيمان والاعتقاد وهذا التوجه للذات المقدسه لا يورث الإنسان الأثر المعنوى الكبير فحسب، بل يمنحه القوه الروحيه والاستقامه فى العمل والنشاط فى المشاعر والانفتاح، وهذه هى الأمور التى تتسبب فى إنتصار جيش المسلمين على قوى الكفر والضلاله فى عصر النبى الإسلام عليه السلام فى حين أن المسلمين كانوا أقل عدداً وعدّه من أعدائهم.

ص: ٢٦

١- (١). «يُنَزَّلُ» بصيغه فعل المضارع من باب «إفعال» وفاعلها الله تعالى، ولكن فى هذا المورد لا يتناسب هذا المعنى، ولذلك وردت هذه الجملة فى الكثير من نسخ نهج البلاغه بصيغه «نزل» وبصيغه الفعل الماضى بدون الإسناد الى الله، ولكن بعض الكتاب ذكرها بصيغه الفعل المضارع من الثلاثى المجرد، أى «ينزل» بفتح الياء لا من باب الإفعال بضم الياء.

من هو محمد بن أبي بكر؟

محمد بن أبي بكر، كما يتبين من اسمه، هو ابن الخليفة الأول، ومع إنتمائه لمثل هذا الأب، كان يعيش العشق الشديد للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومستعد لكل أشكال التضحية في سبيله، وبدوره فالإمام علي عليه السلام أيضاً كان يعتمد على محمد بن أبي بكر اعتماداً كاملاً، ومن هذه الجبهه اختاره علي مصر، ولكنه استشهد على يد عمال معاوية وقد تأثر الإمام عليه السلام كثيراً بمقتله.

وسبق أن ذكرنا سيرته وترجمه حياته في ذيل الخطبه ٦٨ من الجزء الثالث من هذا الكتاب (١).

ج ج

ص: ٢٧

١- (١). انظر: نفحات الولاية، ج ٣، ص ٧٦.

الرساله ٣٥: إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، بَعْدَ مَقْتَلِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ

إشاره

إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، بَعْدَ مَقْتَلِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ (١)

نظرة عامة للرساله

أشار الإمام عليه السلام في هذه الرساله الموجزه إلى ثلاث نقاط:

الأولى: أنه أبلغ ابن عباس بشهاده محمد بن أبي بكر في مصر على يد ألام معاويه وتحديث عن محمد بوصفه ابن له ورجلاً صالحاً وشجاعاً ومدافعاً عن الحقّ.

والثانيه: أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أنه كان يتوقع مثل هذا الأمر، وبذلك طلب من أهل العراق أن يهبوا لمساعدته محمد سرّاً وعلانيه بكل سرعه ولكن مع الأسف فإنّ العناصر الانتهازيه وأصحاب الادعاءات الجوفاء لم يصغوا إلى هذه الدعوه وبالتالي وقعت هذه المصيبه في أرض مصر واستشهد محمد على أثرها.

والثالثه: يدعو الإمام عليه السلام الله تعالى من قلب متحرق يحكى عن الحزن الشديد

ص: ٢٩

١- (١). سند الرساله: من جمله الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله قبل السيد الرضى، الطبرى فى تاريخه بتفاوت يسير فى حوادث سنه ٣٨، وكذلك إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتابه «الغارات» (نقلاً عن مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٢٦).

الذى جرح قلب الإمام عليه السلام، والإمام هنا يسأل الله تعالى أن يخلصه من هؤلاء الناس من ضعفاء الإيمان والمعرضين عن الحقّ ويقسم أنه لولا عشقه للشهادة لما أحبّ أن يبقى يوماً واحداً مع هؤلاء الناس.

ص: ٣٠

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتَتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا، وَعَامِلًا كَادِحًا، وَسَيِّفًا قَاطِعًا، وَرُكْنًا دَافِعًا. وَقَدْ كُنْتُ حَشْتُ النَّاسِ عَلَى لِحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوُقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا، وَعَوْدًا وَيَدًا، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهًا، وَمِنْهُمْ الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ خَاذِلًا. أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا؛ فَوَاللَّهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ؛ وَتَوَطُّبِي نَفْسِي عَلَى الْمَيِّتِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا.

الشرح والتفسير: شكوى من الأتباع الضعفاء

كما هو الملاحظ في عنوان هذه الرسالة، أن الإمام عليه السلام يخاطب فيها عبد الله بن العباس، وكان في ذلك الزمان والياً من قبل الإمام عليه السلام على البصرة، وفي مطلع هذه الرسالة يخبره الإمام عليه السلام عن سقوط مصر بيد جيش معاوية واستشهاد محمد بن أبي بكر ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتَتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ (١)».

ص: ٣١

١- (١). «نَحْتَسِبُ» من مادة «احتساب» و«حسبه» بمعنى استلام الأجر، وعليه فإن «إحتساب» تأتي بمعنى طلب الأجر، رغم أن «إحتساب» في الأصل تعني كل عمل يعمله الإنسان بتيه التقرب إلى الله تعالى ويجعله في حسابه في الآخرة، ومعناه بالملازمة طلب الأجر من الله تعالى (لمزيد من الاطلاع راجع كتاب مقاييس اللغة ولسان العرب).

ثم يضيف:

«وَلَدًا (١) نَاصِحًا، وَعَامِلًا كَادِحًا (٢)، وَسَيْفًا قَاطِعًا، وَرُكْنًا دَافِعًا».

وهذه الصفات الأربع لشخصيه محمد بن أبي بكر متجليه بشكل واضح في سيرته وشخصيته وتعكس هذه العبارات عن جملة من فضائله، في البدايه يشير إلى كونه من أهل الخير وبمنزله الابن له، فمحمد لم يكن فقط الابن الروحاني للإمام على عليه السلام، بل مع الالتفات أن أمه أسماء تزوجت بعد وفاه أبي بكر من الإمام على عليه السلام وكان محمد قد تربى في حجر الإمام عليه السلام فإنه يعدّ بمثابة الابن للإمام عليه السلام (٣).

ثم يشير الإمام إلى صفه العامل الكادح لمحمد في منصب الوالي على مصر وأنه كان ماضى الهمه وشديد العزيمه ومدبراً خبيراً، ثم يتعرض الإمام عليه السلام لمواقف محمد في مقابل الأعداء ويقول عنه أنه كان سيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، وبعد ذلك يشير الإمام عليه السلام إلى لجوء محمد باتخاذ تدابير دفاعيه في مقابل هجوم الأعداء والحوادث المؤسفه ويشبهه بالعمد القوي والأساس الصلب والركن الدافع الذي يمنع البناء من الإنهيار ويدفع عنه البلايا والأخطار.

ومن أجل أن لا يتوهم أحد أن الإمام عليه السلام قصر في الدفاع عن محمد بن أبي بكر وحفظه يقول:

«وَقَدْ كُنْتُ حَثَّتُ (٤) النَّاسَ عَلَى لِحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوُقُوعِ (٥)، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا، وَعَوْدًا وَيَدًا (٦)، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهًا، وَمِنْهُمْ

ص: ٣٢

١- (١). «وَلَدًا» ذكر البعض أن ولداً منصوب بوصفه عطف بيان، والبعض الآخر ذهب إلى أنه بدل من ضمير المفعول في «نحتسبه»، ولكن لا يمكن أن يكون مفعولاً ثانياً لنحتسب، لأن معنى الجملة سيتبدل.

٢- (٢). «كَادِحٌ»، وهو الشخص الذي يبذل الكثير من الجهد والسعي، وأصلها من «كدح» على وزن «مدح» بمعنى السعي الحثيث والعمل الجاد.

٣- (٣). وأم محمد أسماء بنت عميس الخثعميه وهي اخت ميمونه زوج النبي صلى الله عليه وآله، وأخت لبابه ام الفضل وعبدالله زوج العباس بن عبدالمطلب، وكانت من المهاجرات الى أرض الحبشه، وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب فولدت له هناك محمد بن جعفر، عبدالله، عوناً، ثم هاجرت المدينه، فلما قتل جعفر تزوجها أبوبكر، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا، ثم مات أبوبكر فتزوجها الإمام على عليه السلام وولدت له يحيى بن على ولا خلاف في ذلك. (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٤٢).

٤- (٤). «حَثَّتُ» بمعنى التشويق والإثارة.

٥- (٥). «الْوُقُوعِ»، الحادثه، وأحياناً تأتي بمعنى وقوع الحرب والقتال، وهنا قصد منها المعنى الثاني.

٦- (٦). «عَوْدًا» و«يَدًا» تعني كما ورد في بعض كتب اللغه أولاً وآخراً، وفي بعضها بمعنى تكرار الشيء، وهنا يحتمل فيها كلا المعنيين.

الْمُعْتَلَّ (١) كَاذِبًا، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ خَاذِلًا (٢)».

وينقل الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٣٨ أنّ الإمام عليه السلام في هذه الأثناء دعا أهل الكوفة إلى التجمع: فقام على الناس وقد أمر فنودي الصلاة الجامعة، فاجتمع الناس فحمد الله وأثناء عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وآله، ثم قال:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ هَذَا صِرِيحُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَأَخْوَانِكُمْ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ قَدْ سَارَ إِلَيْهِمْ ابْنُ النَّبِغَةِ عَدُوُّ اللَّهِ وَوَلِيُّ مَنْ عَادَ اللَّهَ، فَلَا يَكُونَنَّ أَهْلُ الضَّلَالِ إِلَى بَاطِلِهِمْ وَالرُّكُونِ إِلَى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ أَشَدُّ اجْتِمَاعًا مِنْكُمْ عَلَى حَقِّكُمْ هَذَا، فَإِنَّهُمْ قَدْ بَدَأُواكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ فِي الْغَزْوِ فَعَجَّلُوا إِلَيْهِمُ الْمَوَاسِيَةَ وَالنَّصَرَ عِبَادُ اللَّهِ إِنَّ مِصْرَ أَعْظَمَ مِنَ الشَّامِ وَأَكْثَرَ خَيْرًا وَخَيْرَ أَهْلًا- فَلَا تُغْلَبُوا عَلَى مِصْرَ فَإِنَّ بَقَاءَ مِصْرَ فِي أَيْدِيكُمْ عَزٌّ لَكُمْ وَكِبْتُ لِعَدُوِّكُمْ اخْرُجُوا إِلَى الْجُرْعَةِ بَيْنَ الْحِيرَةِ وَالْكُوفَةِ، فَوَافُونِي بِهَا هُنَاكَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

ثم يضيف الطبري: فلما كان من الغد خرج يمشى فنزلها بكره، فأقام بها حتى التصق النهار يوم ذلك فلم يوافيه منهم رجل واحد، فرجع، فلما كان من العشي بعث إلى أشرف الناس فدخلوا عليه القصر وهو حزين كئيب فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ وَقَدْ قَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ وَابْتَلَانِي بِكُمْ أَيُّهَا الْفُرْقَةُ مِمَّنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لَا أَبَا لِعَيْرِكُمْ مَاذَا تَنْتَظِرُوا بِصَبْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ».

(والقسم المهم من هذه الخطبة أوردناه في ١٨٠ من الجزء السادس من هذا الكتاب).

وينقل الطبري في قسم آخر من كلامه هذا الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قاله بعد استشهاد محمد بن أبي بكر حيث أخذ يوبخ أتباعه بشده ويقول:

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى غِيَاثِ إِخْوَانِكُمْ مُنْذُ بَضْعِ وَخَمْسِينَ لَيْلَةً فَتَجَرَّجْتُمْ جَرَجْرَةَ الْجَمَلِ

ص: ٣٣

١- (١) . «الْمُعْتَلَّ» تعنى المريض، وأحياناً تعنى الشخص الذى يعتذر لفعله ويأتى بمبررات لتسويغ فعله.

٢- (٢) . «خَاذِلٌ» وهو الشخص الذى يمتنع من مدّ يد العون إلى الآخر وبالتالي يؤدى إلى ذلّه ومهانته الطرف المقابل.

الأشدقِ وَتَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ تَثَاقُلٌ مَنْ لَيْسَ لَهُ تُبَىٰ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ وَلَا اِكْتِسَابِ الْأَجْرِ...» (١).

وهذه الطوائف الثلاث الذين يتحدث عنهم الإمام عليه السلام لا ينحصر تواجدهم في ذلك العصر، توجد مثل هذه الشخصيات الهزيلة والنفوس المريضة في كل عصر وزمان وينخرطون في أحد هذه الطوائف الثلاث، فالأشخاص الذين يواجهون المصاعب ويحضرون إلى الميدان كارهين لا- يوفقون للقيام بأى عمل إيجابى، والفئة الثانية هم الذين ينسلون من ميدان المواجهات بتبريرات وأعدار مختلفة لابعاد أنفسهم عن مواجهه العدو، والفئة الأخيرة هم الذين يخالفون الحضور فى الميدان بصراحه ويحرضون الناس على القعود معهم، فالويل للمجتمع الذى تكون فيه الغالبية من الناس من هذه الطوائف الثلاث، فمهما اوتى القاده لهذا المجتمع من قدره وعزم وحنكه فى إداره الأمور فإِنَّهم وبسبب عدم توفر الأنصار والأتباع الذين يعيشون روح التضحية والشجاعه والمسؤولية، فإنهم لا يحققون أى نتيجة لمجتمعهم ولا ينجحون فى تجسيد طموحاتهم وتطلعاتهم على أرض الواقع المجتمعى.

إنَّ التدبّر فى الآيات القرآنية يرشدنا إلى أنّ هذه الطوائف الثلاث كانت موجوده أيضاً فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله، رغم أنّ جماعه المؤمنين المخلصين كانت هى الغالبه.

يقول القرآن الكريم بالنسبه للطائفة الأولى فى ذلك العصر: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعِيدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» (٢).

وفيما يخص الطائفة الثانية يستعرض القرآن الكريم قضايا معركة الأحزاب ويقول: «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» (٣).

أما بالنسبه للطائفة الثالثة فيقول: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ

ص: ٣٤

١- (١). تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٨١-٨٣.

٢- (٢). سوره الأنفال، الآية ٦.

٣- (٣). سوره الأحزاب، الآية ١٣.

وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَاتَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ»(١).

ثم إن الإمام عليه السلام ينطلق بالدعاء ويتوجه إلى الله تعالى من أعماق قلبه ويسأله أن يخلصه من هذا الواقع الأليم:

«أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا».

ولغرض التأكيد على هذه الحقيقة يضيف الإمام عليه السلام:

«قَالَ اللَّهُ لَوْلَا - طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عِدْوِي فِي الشَّهَادَةِ؛ وَتَوَطُّبِي (٢) نَفْسِي عَلَى الْمَنِيِّ، لَمَأْخَبْتُ أَلَا أَلْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا أَلْتَقَى بِهِمْ أَبَدًا».

إن نذاله هؤلاء الأتباع وخستهم وصلت إلى درجة أن الإمام عليه السلام بما يملك من صبر واستقامه بحيث بقي خمس وعشرين عاماً في زاوية البيت وفي الحلق شجي وفي العين قذى كما يقول الإمام عليه السلام نفسه وقد تحمل ذلك، ولكن في هذه المدّة القصيره من خلافته واجه الإمام عليه السلام ضغوطات وصعوبات بحيث إنه تمنى أن لا يبقى مع هؤلاء الناس ولا يوماً واحداً، وما يدعوه للبقاء معهم هو شوق الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومثل هذا الكلام ذكره الإمام عليه السلام في الخطبه ١١٩ حيث قال:

«وَاللَّهِ لَوْلَا - رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعِدْوِ - وَلَوْ قَمَدُ حُمِّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ...».

تأمل

روعه البلاغه في هذه الرساله

تعتبر هذه الرساله من أفصح وأبلغ رسائل وكتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والتي كتبها بعبارات موجزه وكلمات بليغه بحيث أدى حقّ المطلب تماماً.

وقد تأثر ابن أبي الحديد كثيراً بفصاحه وبلاغه هذه الرساله فقال في شرحه لهذه

ص: ٣٥

١- (١). سورة التوبه، الآيه ٨١.

٢- (٢). «تَوَطُّبِينَ» تعني تهيئه الشيء، وأصلها من «وطن» على وزن «بطن» وتعني اختيار الوطن، وبما أن كل إنسان عندما يختار محلاً للسكن فإنما يهييء نفسه للحياه في ذلك المكان، فالتوطين يعني التهيؤ.

الرساله: «انظر إلى الفصاحه كيف تعطى هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبه يتلوا بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه، سلسله سهله تتدفق من غير تعسف ولا تكلف، حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال:

«يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَدًا». وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبه جاءت القرائن والفواصل تاره مرفوعه، وتاره مجروره، وتاره منصوبه، فإن أرادوا قشِيرَهَا بإعراب واحد ظهر منها في التكلف أثرٌ بين، وعلامه واضحه، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبدالقاهر، قال: انظر إلى سوره النساء وبعدها سوره المائده، الأولى منصوبه الفواصل، والثانيه ليس فيها منصوب، ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم يمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما.

ثم إن فواصل كل واحد منهما تنساق سياقه بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعه التكلفيه، ثم انظر إلى الصفات الموصوفات في هذا الفصل، كيف قال:

«وَلَدًا نَاصِحًا»،

«وَعَامِلًا كَادِحًا»، «وَسَيِّفًا قَاطِعًا»، «وَرُكْنًا دَافِعًا»، لو قال: «ولدًا كادحًا» و «عاملاً ناصحًا»، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في الموقع واقعاً، فسبحان الله من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسه والخصائص الشريفه! أن يكون غلاماً من أبناء عرب مكه، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمه ودقائق العلوم الإلهيه من إفلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقيه والآداب النفسانيه، لأن قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يرب بين الشجعان، لأن أهل مكه كانوا ذوى تجاره، ولم يكونوا ذوى حرب، وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض، قيل لخلف الأحمر(1): أيما أشجع عنبسه وبسطام أم علي بن أبي طالب؟ فقال: إنما يذكر عنبسه وبسطام مع البشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة، فقيل له: فعلى كل حال، قال: والله لو صاح في وجوهها لماتا قبل أن يحمل عليهما، وخرج أفصح سحبان

ص: ٣٦

١- (١). خلف الأحمر من علماء القرن الثاني للهجره وهو صاحب اليد الطولى فى الشعر والأدب والتاريخ.

وقُسّ، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جُزهم وإن لم يكن لهم نَبَاهه، وخرج أزهـد الناس فى الدنيا، وأعفهم، مع أن قريشاً ذوو حرص ومحبة للدنيا، ولا غرو فيمن كان محمّـد صلى الله عليه وآله مربيّه ومخرجه، والعناية الإلهية تمده، وترفّده أن يكون منه ما كان»(١).

ص: ٣٧

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٤٥ و ١٤٦ (مع التلخيص).

إلى أخيه عقيل بن أبي طالب، في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل (١).

نظرة عامه للرساله

ورد في المصادر التاريخيه في قصه هذه الرساله أن معاويه بعد واقعه التحكيم سمع أن الإمام على عليه السلام عازم مره أخرى على مواجهته وقتاله، فخاف خوفاً شديداً وأخذ يعمل في إضعاف معنويات أهل الكوفه والعراقيين من خلال برنامج إعلامي مدروس ومن ذلك أنه أرسل الضحاک بن قيس مع ثلاثه آلاف نفر إلى العراق وقال له: «سرّ حتى تمر بناحيه الكوفه وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعه عليّ فأغر عليه، وإن وجدته له مصلحه (أى معهم السلاح) أو خيلاً فأغر عليها، وإذا أصبحت في بلده فأمسي في أخرى، ولا تقيمن لخييل وبلغك أنّها

ص: ٣٩

١- (١). سند الرساله: جاء في مصادر نهج البلاغه أنّ هذه الرساله نقلها قبل السيد الرضى، إبراهيم بن الثقفى في كتابه «الغارات»، وأبو الفرج الاصفهاني في كتاب «الأغانى» وابن قتيبه الدينورى في كتاب «الإمامه والسياسه». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٣٢). وتقدّم شرح أكثر عن سند هذه الرساله فيما يتصل بالخطبه ٢٩ للإمام على عليه السلام في الجزء الثانى من هذا الكتاب (نفحات الولاية، ج ٢، ص ١٣٥).

سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها».

فأقبل الضحاك ونهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب...

فوصلت أخبار حمله الضحاك إلى عقيل وهو في مكة، فقلق من ذلك وكتب كتاباً لأخيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين بلغه خذلان أهل الكوفة وتقاعدهم عنه:

«لعبدالله على أمير المؤمنين من عقيل بن أبي طالب، سلام عليك فياني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الله حارسك من كل سوء، وعاصمك من كل مكروه، وعلى كل حال إنني فقد خرجت إلى مكة معتمراً فلقيت عبدالله بن سعد بن أبي سرح، في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطلقاء، - عرفت المنكر في وجوههم - فقلت إلى أين يا أبناء الشائين، أبعأويه تلحقون؟ عداوه والله لنا منكم قديماً ظاهره غير مستنكره، تريدون بها اطفاء نور الله، وتبديل أمره فأسمعني القوم وأسمعهم.

ثم قدمت مكة فسمعت أهلها يتحدثون: أن الضحاك بن قيس أغار على الحيرة، فاحتمل من أموالها ما شاء ثم إنكفاً راجعاً سالمًا، فأف لحياء في دهر جرأت عليك الضحاك، وما الضحاك! إلفقع بقرقر وقد وطئت، وقد توهمت - حيث بلغني ذلك - أن شيعتك وأنصارك خذلوك، فاكتب إلي - يابن امي - برأيك، فإن كنت الموت تريد تحملت إليك بولد أخيك، وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت ومنتنا معك إذا مت، فوالله ما أحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً، وأقسم بالأعز الأجل إن عيشاً أعيشه بعدك في هذه الدنيا لغير هنيء ولا مرىء، ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته» (١).

فكتب إليه الإمام عليه السلام هذه الرسالة جواباً له واطمئنه على أن جيش الضحاك قد هرب مولياً ومُنَى بهزيمة منكره وقتل منهم من قتل، فسّر عقيل لذلك.

والملفت للنظر أن مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغه بعد أن يورد هذه الرسالة (رساله عقيل للإمام عليه السلام) يقول: مع الأخذ بالحسبان أنها وقعت في أواخر عمر الإمام على عليه السلام وأن عقيل قد كتب هذه الرسالة له وبث فيها من شجونه وعواطفه مما

ص: ٤٠

١- (١). مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٢٩ و ٣٣٠.

يحكى عن محبته شديده وطاعه مطلقه لأوامر أخيه الإمام على عليه السلام، فما يقال من أنّ عقيل ترك أخيه أمير المؤمنين عليه السلام والتجأ إلى معاويه، ادّعاء محض وأكذوبه فاضحه.

وتشير هذه الرساله إلى عدّه أمور:

١. هجوم جماعه من أتباع معاويه على أطراف الكوفه ومواجهتهم لجيش الإمام على عليه السلام الذى أدى إلى إندحارهم وفرارهم.

٢. شكوى الإمام عليه السلام من قريش وأنهم هم الذين وقفوا فى مواجهه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والرساله الإلهيه واتحدوا ضد الرساله الإلهيه وأنهم اتفقوا على معاداه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٣. رأى الإمام عليه السلام بالنسبه للأشخاص الذين نكثوا بيعته والتحقوا بعدوّه وأنه يجب التصدى لهم وجهادهم إلى أن يعودوا إلى الحقّ.

٤. التذكير بهذه الحقيقه، وهى أنّ إقبال وإدبار الأفراد لا يؤثر على روحياته ومعنوياته، فهو صامد كالجبل الشامخ فى مقابل الأعداء ولا يابه لكثره التحديات والمؤامرات ولا يضعف لما يواجهه من مصائب ومصاعب.

ص: ٤١

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا، وَنَكَصَ نَادِمًا، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِللَّيْلِ فَافْتَتَلُوا شَيْئًا كَلًا وَلَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا بَعِيدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمَخَنَقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَأْيًا بِلَأْيٍ مَيَّا نَجَّيَا. فَدَعَّ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرَكَاهُمْ فِي الضَّلَالِ وَتَجَوَّاهُمْ فِي الشَّقَاقِ وَجَمَّاهُمْ فِي التَّيِّهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَأَجْمَاهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَيَلَبُونِي سَيْلَطَانَ ابْنِ أُمِّي.

الشرح والتفسير: قصة الضحاک بن قیس

كما رأينا آنفاً أنّ هذه الرسالة عبارة عن جواب من الإمام عليه السلام لأخيه عقيل بن أبي طالب فيما يتصل بحمله الضحاک بن قیس على أطراف الكوفة وهزيمتهم وفرارهم، ومن هنا فإنّ الضمير في «إليه» يعود إلى الضحاک، رغم أنّ بعض شراح نهج البلاغة يعتقدون أنّ هذه القصة تتعلق بحمله «بسر بن ارباط» على اليمن، والأعجب من ذلك أنّ بعضهم ذهب إلى أنّ الضمير يعود إلى معاوية في حين أنّ كلا هذين المعنيين بعيدان عن الصواب.

وعلى أية حال، فالإمام عليه السلام في مطلع هذه الرسالة، الذي حذفه السيّد الرضی اختصاراً (وطبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغة ومصادر نهج البلاغة) بعد أن حمد الله أثنى عليه ودعا بالخير لعقيل أعلن له أنّ رسالته وصلت إليه بواسطة

عبدالله بن عبيد الأزدى وفهم منها الإمام عليه السلام قلق عقيل من حملة الضحاك على أطراف الكوفه.

ومن أجل رفع هذا القلق كتب الإمام عليه السلام هذه الرسالة لأخيه عقيل يشرح له حادثه حملة جيش معاويه بقياده الضحاك ويقول له:

«فَسَرَّحْتُ (١) إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا (٢) مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا، وَنَكَصَ (٣) نَادِمًا، فَلَحِقُوهُ بِنِعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ».

«كثيفاً» يعنى المزدحم والجمع الغفير، وطبقاً لبعض الروايات فإنّ عدد جيش الإمام عليه السلام فى هذه الحمله أربعة آلاف نفر من الرجال المستعدين لانزال العقاب بالأعداء والذين ينقضون كالصقر، ولهذا السبب قرر أزالام معاويه وثلول الضحاك الفرار على القرار وندموا على هجومهم وعدوانهم على أطراف الكوفه، ولكن جيش الإمام عليه السلام ظلّ يتعقبهم إلى أن أوشكت الشمس على المغيب، حيث يبيّن الإمام عليه السلام فى العبارات اللاحقه أخطار هذه المواجهه.

وعباره

«مِنَ الْمُسْلِمِينَ» إشعار إلى أنّ الجيش المعادى وقائدهم الأصلي فى الشام ليسوا من المسلمين.

وجمله

«شَمَّرَ هَارِبًا» يقصد بها السخريه من الضحاك، لأنّ شَمَّرَ تأتي عاده بمعنى الشخص الذى يرفع كميّه استعداداً للقيام بعمل مهم لا للفرار والنكوص وهو ما اختاره الضحاك فى هذه المواجهه الحاسمه.

وجمله »

طَفَلَتِ الشَّمْسُ» مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «طفول» بمعنى الاقتراب، فالجمله إشاره إلى أنّ الجيشين التقيا عندما أوشكت الشمس على الأفول فى الأفق، والتعبير بـ «

الْإِيَابِ» كناية عن أنّ الشمس تطلع فى الصباح الباكر وكأنّها تخرج من

ص: ٤٤

١- (١). «سَرَّحَ» من ماده «تسريح»، وكما تقدّم فى شرح الرساله ٣٤ أنّها تعنى ارسال شخص لعمل معين، وتستعمل أيضاً بمعنى مطلق الارسال والتحرير.

٢- (٢). «كثيف»، يعنى الغليظ والكثير الملتف، وأصلها من «كثافه».

٣- (٣). «نَكَصَ»، من ماده «نكص» على وزن «مكث»، والنكوص يعنى التراجع والعوده.

مقرها وفي وقت العصر تعود إلى مكانها الأول، وهذا تعبير لطيف عن ظاهره غروب الشمس.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه عن هذه الواقعة ويقول:

«فَاقْتُلُوا شَيْئًا كَلَا وَلَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا (١) بَعْدَ مَا أَخَذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ (٢)، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَأَيًّا بَلَّأِي مَا نَجَا».

والجدير بالذكر أننا أشرنا إلى هذه الواقعة ذيل الخطبه ٣٩، وهذه الرساله متناغمه مع مضامين تلك الخطبه.

وعباره

«كَلَا- وَلَا» تعنى أن هذا العمل تم انجازه بسرعه وانسجام تام كما فى لفظه «لا ولا»، وفى بعض عبارات العرب يقال: «لا وذا»، وكليهما إشاره إلى المدّه القصيره من الزمان، كما يقال فى المثل: «كلمح البصر».

وعباره

«بَعِيدَ مَيَا أَخَذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ»، والمخنق تعنى ما يشير إلى الرقبه والحنجره التى تتعرض للخنق بضغط يسير، وهو إشاره أن جيش الإمام عليه السلام أوصلوا الضحاك وجيشه إلى حدّ الموت بحيث لم يبق منهم سوى رمق ضئيل، وهذه العبارة متداوله فى اللغه العربيه وفى اللغات الأخرى فعندما يواجه الشخص على رقبته ضغوطاً شديده يقال إنّه بلغ به الخناق، أو ضيق عليه الخناق.

واللافت أن إبراهيم الثقفى ينقل فى كتابه «الغارات» واقعه معينه تتضمن تفسيراً وشرحاً لعباره الإمام عليه السلام فى قوله:

«وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ»، ويقول: عندما هرب الضحاك من «حجر بن عدى» قائد جيش الإمام على عليه السلام شعر بالعطش الشديد، لأنه أضل إبله التى تحمل الماء، وعرضت عليه سنه من النوم فى ذلك الوقت، وبذلك انحراف عن الطريق، وعندما انتبه من نومه لم يجد من جيشه سوى عدّه نفر ولم

ص: ٤٥

١- (١). «جريض» هو شخص المختنق من شدّه الحزن أو الهيجان.

٢- (٢). «المُخَنَّق» هو محل الخنق، من ماده «خنق» على وزن «حرب» وهو الضغط على المخنق أو ضغط رقبه الشخص.

يكن معهم شىء من الماء، فأرسل بعضهم لطلب الماء ولكنهم لم يعثروا على شىء، وفجأه ظهر رجل وقال له الضحاك: يا عبدالله أنتى عطشان فاسقنى، فقال: والله لا أسقيك حتى تدفع لى ثمنه، فقال الضحاك: وما ثمنه؟ فقال: ثمن الماء دينك، ثم واصل حكاية القصة إلى وصلوا لجماعه كان معهم الماء وشربوا منه(١).

وعباره

«لَا يَأْتِي بَلَاءٌ»، ومع الالتفات أن لأى تعنى الشده، فمفهوم هذه العبارة أن الضحاك ومن بقى معه من فلول جيشه واجهوا الشده بعد الشده إلى أن نجوا بجلودهم من الهلكه.

ثم يشير الإمام عليه السلام فى مقطع آخر من رسالته لعقيل أن عبدالله بن سعد، أخ عثمان بن عفان من الرضاعه، كان يسير مع أربعين رجلاً من شباب قريش باتجاه غير معلوم، فسأله عقيل: إلى أين تذهبون يا أبناء أعداء النبى، هل تريدون للحاق بمعاويه؟ هنا يقول الإمام عليه السلام: وأما حديثك عن مخالفه قريش لى فإن قريش بجميع مساعيها فى طريق الضلال والشرك والعداء لا زالوا يتحركون فى متاهات الضلاله والشقاق:

«فَدَعَّ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرَكَاصُهُمْ(٢) فِي الضَّلَالِ وَتَجَوَّاهُمْ(٣) فِي الشَّقَاقِ(٤) وَجَمَّاحُهُمْ(٥) فِي التَّيِّهِ، فَإِنَّهُمْ قَدَّ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَأَجْمَاهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي».

ثم يضيف:

«فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدَّ قَطَعُوا رَجِمِي، وَسَلَّبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي».

جملة:

«فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي!»، مع الالتفات إلى أن الجوازي جمع جازيه، وتعنى الجزاء والمكافأه على العمل، فمفهوم الجملة أن جزاء أعمال قريش

ص: ٤٦

١- (١). الغارات، ج ٢، ص ٤٣٩.

٢- (٢). «تَرَكَاصٌ» هو الرخص الشديد، من ماده «رخص» على وزن «ضرب»، والتركاخص صيغه مبالغه للرخص.

٣- (٣). تجوال، بمعنى كثره الجولان والتراخص فى الميدان.

٤- (٤). الشقاق، بمعنى العداوه والمخالفه والانفصال.

٥- (٥). «الجماح» بمعنى التمرد، و «جموح» على وزن «قبول» وأصله بمعنى الحيوان المتمرد والمنفلت، ثم استعملت فى الإنسان المتمرد والحوادث التى ليست باختيار الإنسان وإرادته إطلاقاً.

سيصيبهم عمًا قريب وسواجهون عاقبه أعمالهم السيئه هذه، وهذه الحقيقه بمثابه الدعاء عليهم لأنهم لم يراعوا حق رحمة وقرابته منهم ولم يسمحوا للإمام عليه السلام بتسلم مقاليد الخلافه التي قررها الله تعالى له عليه السلام وأكد عليها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والضامنه لسعاده المسلمين فى الدنيا والآخره.

أجل، هؤلاء كانوا فى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من ألد أعدائه وأعداء الرساله السماويه وكانوا يشعلون نيران الحروب ضد الإسلام وكانت قريش المحور لهذه الفتن والحروب وتترعم هذه الحروب وكانت آخر من أسلم أو استسلم للنبي الأكرم عليه السلام فى حين أن إسلام الكثير منهم يعدّ إسلاماً صورياً لا حقيقياً.

وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله سلكوا ذات الطريق والمنهج مع خليفته ووصيه الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، بل إنهم كانوا أشدّ وأنكى على الإمام عليه السلام لما كانوا يعيشونه من حالات الحقد والانتقام ضده.

ونقرأ فى الحديث الشريف للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال يوماً مخاطباً لعلى بن أبى طالب عليه السلام وهو يبكى ويذرف الدموع:

«ضَعَائِنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ لَا يُبَدُونَهَا لَكَ إِلَّا مِنْ بَعْدِي» (١).

وقد أوردنا فى ذيل الخطبه ١٧٢ من الجزء الثالث من هذا الكتاب فى بيان شكوى الإمام عليه السلام إلى الله تعالى من قريش، بحثاً مفصلاً عن عداوه قريش للإمام على عليه السلام.

وعباره

«ابنِ أُمِّي»، عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إماماً من جهة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام كليهما من أبناء فاطمه المخزوميه بنت عمرو بن عمران ام عبدالله والدة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأم أبى طالب (والد أميرالمؤمنين) أو من جهة أنّ فاطمه بنت أسد ام أميرالمؤمنين عليه السلام وكان فى ذاك زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تحت تكفل أبى طالب وقامت بتربيته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و آله كأمه، ولذلك قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عنها: «فَاطِمَةُ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي».

ص: ٤٧

١- (١). مجمع الزوائد، الهيثمى، ج ٩، ص ١١٨؛ كنز العمال، ج ١٣، ص ١٧٦، ح ٣٦٥٢٣.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ؛ لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَخَشَةً، وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعًا مُتَخَشِّعًا، وَلَا مُقِرًّا لِلضَّيْمِ وَاهِنًا، وَلَا سَيْلِسَ الزَّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَعَقِّدِ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أُخُوَيْبِيُّ سَلِيمٍ:

فَإِنْ تَسَأَلْنِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي

صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَأَبِي

فَيْشَمَّتْ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

الشرح والتفسير: لا أكف عن مقارعة الخائنين

إنَّ كلامَ الإمامِ عليه السلامُ في هذا المقطع من الرسالة ناظر إلى ما ذكره عقيل في نهايه كتابه إليه وقد سبق ذكره حيث يقول: «فاكتب لي يابن امي برأيك، إن كنت الموت تريد فحملت إليك بنى أخيك وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت ومنتنا معك إذا مت...»، أى أنك إذا أردت قتال هؤلاء الناكثين للبيعه فأمرنا لثقاتهم معك فى هذا السبيل، فكتب له الإمام عليه السلام من قوله:

«وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ (١) حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ».

وكلمه

«محلين» إما أنها تشير إلى الأشخاص الذين نقضوا بيعتهم للإمام ورفعوا

ص: ٤٩

١- (١). «المحلين» جاء فى صحاح اللغة أن «المحل» يقال للشخص الذى ينفذ عهده وينكث بيعته ويخرج من إطاره.

لواء التمرد والفتنة فى البصره ووقعه الجمل والأشخاص الذين التحقوا بهم بعد ذلك، أو إشاره إلى قوى الضلاله فى الشام الذين أحلّوا سفك الدماء فى معركة صفين والذين استمروا فى نفس المسار الشيطانى، أو إشاره إلى الطائفتين.

ثم يتحرك الإمام عليه السلام ليبيّن عزمه الراسخ وإرادته الجازمه لأخيه عقيل فى قتال هؤلاء المتمردين ويؤكد له أنّ كثره المخالفين له والخارجين عليه لا تؤثر شيئاً فى عزمه وإرادته ويقول:

«لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلَا تَفَرُّهُمْ عَنِّي وَخَشَةً».

وهذا الشعار، الذى ينطلق من موقع العمق الفكرى والشعور الوجدانى والمقتبس من الآيات الشريفه: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ...» (١)، أو «فَلَمَّا تَخَشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْنِي...» (٢)، وأمثالها، تشير إلى أنّ أولياء الله والعظماء من رجال الحق وبالاعتماد على الذات المقدسه، لا يشعرون بشيء من الوحشه من كثره مخالفيههم ولا يعيشون حالات الغرور من جموع الموافقين، فلو أنّ جميع المسلمين اتّخذوا كلام الإمام عليه السلام هذا شعاراً لهم فى حياتهم وسلوكياتهم، فمن بالبديهى أنّهم لا يصابون بالاهتزاز والخور فى مقابل الغزو السياسى والعسكرى والثقافى للغرب وسيحققون النجاحات فى جميع هذه الجبهات.

ثم يخاطب الإمام عليه السلام أخيه فى كلام زاخر بالحيويه والعمق ويقول:

«وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعًا مُتَخَشِّعًا، وَلَا مُقِرًّا لِلضُّيْمِ (٣) وَاهِنًا، وَلَا سَلِسَ (٤) الزَّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِيءَ (٥) الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَعَقِّدِ».

فى هذه العبارات الأربع يبيّن الإمام عليه السلام المراحل المختلفه للتسليم والإذعان فى

ص: ٥٠

١- (١) . سورة الزمر، الآية ٣٦.

٢- (٢) . سورة المائدة، الآية ٤٤.

٣- (٣) . «ضَيْمٌ» بمعنى الظلم والجور ويأتى مصدره على هذا الوزن أيضاً، ويعنى ايقاع الظلم على الآخر وقهره والتغلب عليه.

٤- (٤) . «سَلِسٌ» المطيع والمنقاد، وأحياناً تأتى بمعنى السهل واليسير.

٥- (٥) . «وَطِيءٌ» صفة مشبهه بمعنى اللين والملائم.

مقابل العدو، أحدها أسوأ من الأخرى، الأولى أن يتخذ أسلوب التضرع والخشوع والتوسل في مقابل العدو، والأخرى أن يخشى قدره العدو ويشعر بالضعف والخور ويستسلم له، والثالثة، أنه مضافاً إلى الاستسلام يفقد زمام أموره من يده ويسلم قياده لعدوه ليرى رأيه فيه

«وَلَا سَلِسَ الزَّمَامَ لِلْقَائِدِ»، وأخيراً يحنى ظهره ليركبه العدو ويسوقه إلى حيث يريد

«وَلَا وَطِئَ الظَّهْرَ لِلرَّاكِبِ».

ما أروع هذه العبارات الدقيقة والحيّة التي تحكى عن غايه الفصاحة والبلاغه في كلام الإمام عليه السلام وأنّ الإمام ينفى عنه نفسه أى شكل من أشكال الاستسلام والخضوع في مقابل العدو.

وكلمه

«متقعد» وردت في بعض النسخ «مقتعد»، وتعنى الشخص الذى اختار مكاناً للجلوس والقعود، وهو إشاره إلى راكب الدابه الذى يركب دابته ولا يستفيد منها فى المسير فقط، بل فى جميع حاجاته، فتاره يقف ويتحدّث إلى شخص آخر، وأخرى يشتري حاجات من السوق وهو راكب، وأحياناً يعطى شيئاً لآخر وأمثال ذلك، والخلاصه أنّه جالس على مركبه ويقوم بأعماله ووظائفه دون أن يهتم لهذه الدابه وثقله.

وفى ختام هذه الرساله، ومن أجل التأكيد أكثر على عزمه الراسخ وإرادته الصلبه فى مقابل العدو، يستشهد الإمام عليه السلام بشعر شاعر من طائفه بنى تميم ويقول: إنّ حالى

كَمَا قَالَ أَحْوَبِنِي سَلِيمٍ :

فَإِنْ تَسَأَلْنِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي

صَبُورٌ عَلَى رَيْبٍ (١) الزَّمَانِ صَلِيبٌ (٢)

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَأَبَهُ (٣) فَيَشْمَتَ (٤) عَادٍ (٥) أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

ص: ٥١

١- (١). «رَيْبٍ» تأتي أحياناً بمعنى الشك وأخرى بمعنى الحوادث المشكله والتحديات الصعبه.

٢- (٢). «صَلِيبٌ» تعنى المحكم والشديد، وأصلها من «صلب».

٣- (٣). «كَأَبَهُ»، تعنى الحزن والغم والانكسار الناشئ منه.

٤- (٤). «يَشْمَتَ» من ماده «شماه» وهى فرح العدو.

٥- (٥). «عَادٍ» يعنى العدو، من ماده «عداوه».

وهنا خلاف في الشاعر الذي ينسب إليه هذا الشعر، فابن أبي الحديد ينسبه في شرحه لنهج البلاغه إلى عباس بن مرداس السلمى، ولكنه يقول إننى لم يجده في ديوانه.

يقول المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغه: «قال بن أبي الحديد: الشعر نسب إلى العباس بن مرداس السلمى، ولم أجده في ديوانه»^(١).

قلت: بل الظاهر أنّ هذين البيتين لصخر بن عمرو السلمى، قال في الأغاني كان صخر طعن في جنبه في حرب، فمرض قريباً من حول وقد نتأت في موضع الطعنه قطعه مثل الكبد، فأحمسوا له شعره، ثم قطعوها لعله يبرأ، فسمع أن أخته تقول:

كيف كان صبره؟ فقال: بهاتين البيتين»^(٢).

ص: ٥٢

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٢.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٧، ص ٥٠٢.

هذه الرساله، كما ورد في تمام نهج البلاغه في بحث سندها، تبتدىء بكلام لم يذكره السيّد الرضى للاختصار، ولكن من أجل استيعاب محتوى الرساله وفهم مضامينها لابدّ من استعراض المقطع الأوّل منها، وقبل ذلك ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ هذه الرساله لم تكن رساله ابتدائية من الإمام عليه السلام لمعاويه بل هي جواب عن رساله أرسلها معاويه للإمام عليه السلام، ورغم أنّ نص رساله مفقود ولم يتعرض له أحد من شراح نهج البلاغه ولكن يتبين من جواب الإمام عليه السلام إجمالاً أنّ معاويه أشار في رسالته إلى ثلاثة أمور:

الأوّل: إنّهُ استند في إثبات حقايقته أنّه منصوب من قبل عمر بن الخطاب لهذا المقام.

والآخر: أنّه اقترح على الإمام عليه السلام أن يضع بيده وتحت اختياره الشام ومصر وأن

ص: ٥٣

١- (١). سند الرساله: لهذه الرساله مطلع حذفه السيّد الرضى طبقاً لمنهجه في الانتقاء، وقد اقتصر على ذكر ذيل هذه الرساله، وقد نقل المرحوم ابن ميثم وابن أبي الحديد صدر هذه الرساله كما سنشير إلى ذلك لاحقاً، وهذا يشير إلى أنّهما عثرا على مدرّك ومصدر غير نهج البلاغه ذكر فيه صدر الرساله (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٣٢).

يوافق الإمام عليه السلام على أن تكون الخلافة من بعد الإمام له.

الثالث: أنه اتهم الإمام عليه السلام بالمشاركة في قتل عثمان وادعى المطالبة بثأره والانتقام من قاتله.

فكتب إليه الإمام عليه السلام جواباً على ذلك يقول:

«أما بعد، فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة، لم يصب إليها أحد إلا شغلته بزيتها عما هو أنفع له منها وبالأخره أمرنا، وعليها حثنا فدع، يا معاوية، ما يفنى اعمل لما يبقى، واحذر الموت الذي إليه مصيرك، والحساب الذي إليه عاقبتك.

واعلم أن الله - تعالى - إذا أردأ بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره، ووقفه لطاعته، إذا أردأ بعبد سوءاً أغراه بالدنيا، وأنساه الآخرة، وبسط له أمله، وعاقه عما فيه ضلالة وقد وصي لني كتابك فوجدتكم ترمي غير عرضك، وتنشد غير ضالتك، وتخبط في عمائيه وتبته في ضلاله وتعتصم بغير حجه، وتلوذ بأضعف شبيهه فأما سؤالك إلى المتاركة والإقرار لك على الشام، فلو كنت فاعلاً ذلك اليوم لفعلته أمس، وأما قولك: إن عمر ولأكها، فقد عزل من كان ولأه صاحبها، وعزل عثمان من كان عمر ولأه ولم ينصب للناس إماماً إلا ما من صالح الأئمة ما قد كان ظهر لمن كان قبله، أو خفي عنهم عيبه، والأمر يحدث بعیده الأمر، ولكل وال رأى واجتهاد...»(١).

وما ذكره السيد الرضى في نهج البلاغه يمثل المقطع التالي من هذه الرسالة.

وعلى أية حال بالإمكان تقسيم ما ورد من الرسالة في نهج البلاغه إلى قسمين:

الأول: توبيخ معاوية بسبب اتباعه لهوى النفس وتجاهله الحقائق الموضوعية وإنكاره العهود الإلهية.

والثاني: الجواب عن ادعاءات معاوية في المطالبة بدم عثمان ومطالبته الإمام عليه السلام بتسليم قاتله.

ص: ٥٤

١- (١). تمام نهج لبلاغه، ص ٨٣٨؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٣.

فَسِيَّحَانَ اللَّهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُتَبَدَّعَةِ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَعَبِّهِ مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَأَطْرَاحِ الْوَثَائِقِ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلْبُهُ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّتُهُ.

فَأَمَّا إِكْتَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: ما أنت والطلب بدم عثمان ؟

إشارة

كما أشرنا آنفاً أنّ المؤرخين وكتاب السير وللأسف لم يذكروا، بحدود علمنا، نص رساله معاويه للإمام عليه السلام، رغم أنّ بعض مقاطع تلك الرساله يمكن استيحاؤها من جواب الإمام عليه السلام له، وفي هذا المقطع من رساله الإمام عليه السلام نرى أنّ الإمام يوبخ معاويه بشدّه بسبب اتباعه للأهواء المطامع الموهومه التي تقوده إلى متاهات الحيره، ويتبين أنّ معاويه كان قد كتب للإمام عليه السلام كلمات وقحه وتجراً على الإمام بعبارات لا مسؤوله، ومن هنا يقول له الإمام عليه السلام:

«فَسِيَّحَانَ اللَّهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُتَبَدَّعَةِ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَعَبِّهِ مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَأَطْرَاحِ الْوَثَائِقِ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلْبُهُ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّتُهُ».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارة الوجيزه والعميقه المعنى يلخص علل وعوامل انحراف معاويه عن جاده الحق بأربعة أمور، الأول: اتباع الأهواء والنوازع النفسائيه، والآخر: اتباع عوامل الحيره وسبل المتاهه، والثالث: غض النظر عن

ص: ٥٥

١- (١). «أَطْرَاحٍ» من ماده «طرح» يعنى إلقاءه بعيداً.

الحقائق الموضوعية، والرابع: نقض العهود والمواثيق الإلهية.

وبديهي أنّ كلّ واحد من هذه العوامل من شأنه أن يقود الإنسان إلى مهاوى الضلاله والتردى فى وادى السقوط الأخلاقى، فكيف إذا اجتمعت كلها فى شخص واحد؟!

إنّ الحقائق التى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه الرساله، والتى ضيّعها معاويه تعدّ من الخصائص المنحصره بشخص الإمام على عليه السلام فى العصر الأوّل للإسلام والذى كان مع النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله منذ بدايه الدعوه إلى آخر أيام النّبى المباركه، وفى المقابل نسيان معاويه لسوابقه فى عصر الجاهليّه وما ارتكبه أبوه وأمه من أعمال شنيعه بحيث لا يسع أى عاقل أن يقارنه بالإمام على عليه السلام مع تلك الخصوصيات الفذه والخصال الممتازه التى اجتمعت فيه، ومع كلّ ذلك يريد معاويه أن يخلف الإمام على عليه السلام فى مسند الحكومه والخلافه ويطمح أن تكون له السيطره فى حياه الإمام على قسم عظيم من البلاد الإسلاميه.

«وثائق»: أى العهود والمواثيق، وهى إشاره إلى المواثيق التى اخذت من الإنسان المؤمن بأن يسير فى خط الطاعه والتسليم لأحكام الله تعالى، وجمله

«الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلْبَةٌ»، بما أن طلبه تعنى المطلوب، فهى إشاره إلى أنّ الله تعالى يطالب عبّيده بالوفاء بجميع هذه العهود والمواثيق.

فمن جهه فإنّ كلّ إنسان مؤمن، وبمقتضى قوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»^(١)، يحمل الأمانه الإلهيه فى حياهه، ومن جهه أخرى وبمقتضى قوله تعالى: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ»^(٢)، مطالب بإطاعه أوامر الله ورسوله، ومن جهه ثالثه وبمقتضى قوله تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ لَكُمْ يَا

ص: ٥٦

١- (١) . سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

٢- (٢) . سورة آل عمران، الآية ٣٢.

بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (١)، مطلوب منه ترك عباده الشيطان وأتباع وساوسه، فكل هذه الأمور متضمنه في ثنايا المواثيق الإلهية وقد أتم الله حجته على عباده بمقتضى هذه الآيات الشريفة.

ويتابع الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من هذه الرسالة كلامه في توبيخ معاوية ويقول:

«فَأَمَّا إِكْتَارُكَ الْحِجَابِ (٢) عَلَى عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَيْرَتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصِيرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصِيرُ لَهُ، وَالسَّلَامُ».

فالإمام عليه السلام يتعجب من هذا الادعاء الواهي لمعاوية وكأنه يرى نفسه ولي دم عثمان، فيقول له الإمام عليه السلام بتعبير شيق وبلغ، بأنك أنت الذى منعت نصرك لعثمان وخذلته، لأننا نعلم، والتاريخ أيضاً شاهد على هذا المعنى، بأن عثمان طلب النصره والمعونه من معاوية وأن يرسل له معاوية جيشاً ليذب عنه وينصره، ولكن معاوية أمر الجيش بالاقتراب من المدينة وعدم دخولها وكأنه يريد أن يقتل عثمان ويهيبء الأرضيه اللازمه لتولى الخلافه ثم يقول للناس إننى أرسلت جيشاً لنصرته ولكن الجيش تأخر عن الوصول للمدينه.

يقول البلاذرى المؤرخ المعروف: «لَمَّا أُرْسِلَ عُثْمَانُ إِلَى مَعَاوِيَةَ يَسْتَمِدُّهُ، بَعَثَ يَزِيدُ بْنُ أَسَدِ الْقَسْرِيِّ، جَدَّ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدِ أَمِيرَ الْعِرَاقِ وَخَالَ لَهُ: إِذَا أَتَيْتَ ذَا حُشْبٍ فَأَقِمْ بِهَا، وَلَا تَتَجَاوَزَهَا، وَلَا تَقُلْ: الشَّاهِدُ يَرَى مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ، فَإِنِّي أَنَا الشَّاهِدُ وَأَنْتَ الْغَائِبُ».

قال الراوى: أقام بذي حُشب حتى قتل عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد إلى الشام بالجيش الذى أرسل معه».

ويضيف البلاذرى هنا: «وإنما صنع ذلك معاوية ليقول عثمان فيدعو إلى نفسه» (٣).

ص: ٥٧

١- (١) . سورة يس، الآية ٦٠.

٢- (٢) . «الحِجَابُ» يعنى المجادله للتغلب على الطرف المقابل.

٣- (٣) . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٥٤.

والملفت أنّ الشيخ مغنيه في شرحه لنهج البلاغه بعد أن ذكر هذه القصة قال:

«تشهد جميع المواقف من سيره معاويه أنّ هذه الحادته، وفيما سبق نقلناها عن المؤرخين والباحثين القدمى والجدد، أنّ معاويه خذل عثمان في حياته وطلب منه أن يجعله وليّ دمه، وأنّه بعد أن تمّ له الأمر تجاهل عثمان ودم عثمان، وأنّه كان يستقبل قتله ويجهزهم بالأموال (انظر كتاب معاويه، العقاد، ص ١٥٠ الطبعه الثالثه سنه ١٩٦٦)»^(١). يعنى أنّ جميع الشواهد التاريخيه في سيره معاويه تشهد أنّ هذه الروايه عين الحقيقه والواقع، ولكن عندما هدأت الأوضاع ورأى معاويه أنّ الطلب بدم عثمان ذريعه جيده لدعوه الناس إليه، رفع قميص عثمان وأخذ بالبكاء والنحيب وإثاره أحاسيس الناس، والأعجب من ذلك أنّه عندما استشهد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وجلس معاويه على مسند الخلافه، ليس فقط لم يترك فقط قتله عثمان، بل استقبلهم برحابه صدر وأجزل لهم العطاء.

تأمل

رساله معاويه إلى ابن عباس وجوابه

ومن النقاط الملفته للنظر أنّ ابن أبى الحديد أورد في ذيل هذه الرساله مورد البحث رساله معاويه إلى ابن عباس في أيام صلحه مع الإمام الحسن المجتبى عليه السلام حيث دعاه إلى بيعته، ومن جمله ما ذكر له في هذه الرساله: «ولعمري لو قتلتك بعثمان رجوت أن يكون ذلك لله رضاً، وأن يكون رأياً صواباً، فإنّك من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك منّي ولا بيدك أمان».

ولكن ابن عباس لم يشعر بالخوف من تهديد معاويه وأجابه جواباً حاسماً

ص: ٥٨

١- (١). في ظلال نهج البلاغه، ج ٣، ص ٥٤٩.

ومطولاً- يقول فيه: «وأما قولك إني من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني، فأقسم بالله لأنت المتربص بقتله، والمحب لهلاكه، والحابس الناس عنه على بصيره في أمره، ولقد آتاك كتابه وصريخه يستغيث بك ويستصرخ، فما حفلت به، حتى بعثت إليه معذراً بأجره، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يُقتل، فقتل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تنعى عثمان وتلزمنا دمه، وتقول: قتل مظلوماً، فإن يك قتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين، ثم لم تزل مصوباً مصعداً، وجاثماً ورايضاً؛ تستغوي الجهال، وتنازعنا حقاً بالسفهاء حتى أدركت ما طلبت... «وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (١) (وهذه الجملة الآيه مقتبس من الآيه ١١١ من سورة الأنبياء).

ويستفاد من رساله معاويه إلى ابن عباس، وكذلك رسالته للإمام عليه السلام، أنه كان ينسب بكل وقاحه، ما كان سهيماً فيه للوصول إلى أهدافه ومطامعه، لأي شخص يريد لكي يثير إحساسات العامه من الناس ضده ويجعله يستسلم لمطالبه ويدعن لخلافته، في حين أن جميع الشواهد التاريخيه تشير إلى أن معاويه كان في باطنه يرغب في قتل عثمان ولم يتقدم خطوه لنصرته، مع أن عثمان طلب منه بصراحه النصره والمساعده، وعلى حدّ تعبير محمّد بن مسلمه الأنصاري الذي كتبه في جواب معاويه، أنت في حياه عثمان لم تقدم على نصرته بل نصرته بعد موته:

«وَلَنْ كُنْتَ نَصْرَتِ عُثْمَانَ مَيِّتًا لَقَدْ خَدَلْتُهُ حَيًّا» (٢).

وذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ٤٢١، والجزء الثاني، ص ٤٨٠، والجزء الثالث، ص ٢٢٦، تفاصيل جديره بالنظر فيما يخص رساله الإمام عليه السلام لمعاويه لبيعته والإشاره إلى علل وعوامل مقتل عثمان.

ص: ٥٩

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥٤.

٢- (٢) . صفين، ص ٧٦.

إلى أهلِ مصرَ لما ولى عليهم الأشرَ (١)

نظرة عامه للرساله

نعلم بأن الإمام عليه السلام كتب رساله وسلمها لمالك الأشر وفيها يذكر المناهج العمليه والأساليب الإداريه فى المجالات المختلفه فى قضايا الحكومه والإيداره، وهذه الرساله المعروفه ب «عهد مالك الأشر» وردت فى نهج البلاغه، الكتاب ٥٣، وسيأتى بيانها وشرحها، وقد كتب رسائل أخرى أيضاً إلى أهل مصر عندما أرسل إليهم مالك الأشر والياً على مصر، وإحدى هذه الرسائل هى ما سنبحثه الآن، والأخرى المرقمه ٦٢ فى نهج البلاغه، ويتبين من جميعها ما كان لمالك الأشر من مقام وشخصيه قويه وإيمان عميق وأنه إنسان قوى وشجاع ومدبر ومدبر ومخلص.

ص: ٦١

١- (١) . سند الرساله: نقل هذه الرساله جماعه من المؤرخين والعلماء عاشوا قبل السيد الرضى، فى كتبهم، منهم: الطبرى فى تاريخه المعروف فى حوادث سنه ٣٨ للهجره، والشيخ المفيد فى كتابيه الاختصاص والأمالى، وابن الهلال الثقفى فى موردين من كتاب «الغارات»، وفى المورد الأول نقلها عن صعصع بن سوحان وفى المورد الثانى عن المدائنى عن أحد غلمان مالك الأشر، قال: عندما توفى مالك الأشر (فى طريقه إلى مصر بسبب السم) رأوا رساله مشدوده إلى رجليه وهذه الرساله من الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إلى أهالى مصر (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٣٦).

والرساله مورد البحث تتشكل من قسمين:

القسم الأول: يتضمّن مدح وتمجيد أهالي مصر، الذين هبّوا للدفاع عن الإسلام في وقت ساد فيه الظلم والفساد المجتمعات البشرية وانطفأت جذوه الحقّ والعدالة في الأمّة وشاعت المنكرات والقبائح في فضاء البلاد الإسلاميّة.

وفي القسم الثاني: يستعرض شخصيّة مالك الأشر بوصفه رجلاً يتمتع بامتيازات ومواهب ممتازة بحيث تجعله جديراً بالولاية والإماره، ويذكره في هذه الرسالة بعبارات راقية قلّما ذكر الإمام عليه السلام أحداً بهذه الصفات، وبعد ذلك طلب الإمام من أهالي مصر أن يتواصلوا معه من موقع الطاعة لأوامره والتقدير لشخصيّته.

ص: ٦٢

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجُورُ سِرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المصربون الذين غضبوا لله

يستهل الإمام عليه السلام رسالته لأهالي مصر، كما تمت الإشارة إليه، بوصف بليغ لهؤلاء المؤمنين، ويقول:

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجُورُ سِرَادِقَهُ (١) عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ (٢)، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ».

وفيما يتصل بوقت صدور هذه العبارات الواردة في رسالته يتفق جميع شراح نهج البلاغه أنها تشير إلى عصر كان عبدالله بن أبي سرح المجرم المعروف والياً على مصر من قبل عثمان بن عفان، فقد سلك هذا الوالي ومعه أزلامه وأعوانه طريق الظلم والجور على أهالي مصر بعيداً عن التعاليم الرساليه والأحكام الإسلاميه، فلم يعترف عملاً بالأمر المعروف والنهي عن المنكر ولا اتخذ خطوات عمليه في هذا المجال.

ص: ٦٣

١- (١). «سِرَادِق» أصلها فارسيه بمعنى الخيم التي تتخذ لتشكيل المجالس المختلفه وأحياناً تنصب في باحه الدار، وأخرى بشكل مستقل.

٢- (٢). «الظَّاعِن» هو المنتقل من محل لآخر، من ماده «ذعن» على وزن «طعن» وهو الانتقال.

ولا ننسى أنّ عبد بن أبي سرح كان من جمله كُتّاب الوحي في بدايه الأمر ولكن بسبب خيانتة فقد سخط عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ونزلت آيه من القرآن في ذمّه، فكان أن ارتد عن الإسلام والتحق بالمشركين وأخذ يتآمر ضد الإسلام، وعندما فتح المسلمون مكّه كان هذا الرجل أحد الأفراد المعدودين الذي أمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بقتلهم، ولكن بما أنّ عبد الله أخو عثمان من الرضاعة فقد أخفاه عثمان في داره، ثمّ جاء به إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وطلب منه الأمان له، فأعرض النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بوجهه عنه وكرر عثمان طلبه هذا ثلاث مرات، وأخيراً وافق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه و آله على طلبه، وعندما غادر عثمان ومعه عبد الله من عند النبي قال النبي صلى الله عليه وآله لمن حوله من أصحابه:

«لَقَدْ صَمَتْتُ لِيُقُومَ إِلَيْهِ بَعْضُكُمْ فَيَضْرِبَ عُتُقُ»، فقام رجل من الأنصار وقال:

«فَهَلَّا أَوْمَأَتِ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، فقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ النَّبِيَّ لَا يَقْتُلُ بِالْإِشَارَةِ»(١).

وعلى أيّه حال فإنّ أهل مصر ثاروا ضد هذا الرجل الخائن، ولكنّه صمد لهم وتمسك بمنصبه بقوّه، ومن هنا تحرك جماعه من ألفى رجل من مصر باتجاه المدينه يطالبون عثمان بعزله، ولكنّ عثمان، ليس فقط لم يعزل هذا الوالى بل كتب إليه كتاباً وأرسله مع غلامه يتحدّث فيه عن لزوم معاقبه رؤوس المعترضين ويوصيه باعدامهم أمام الملأ ويعاقب البعض الآخر بشدّه ليكونوا عبره للآخرين، فاكشف الثوار المصريون هذه الرساله وارتفعت أصوات اعتراضهم ضد عثمان وقالوا: يجب علينا العوده إلى المدينه لعزل عثمان من سدّه الخلافه.

وفي ذلك الوقت كانت جماعات كثيره قد أقبلت من الكوفه والبصره وكانوا يحملون معهم اعتراضات وشكاوى مماثله، أضف إلى ذلك أنّ الكثير من المهاجرين والأنصار كان يرون أنّ عثمان، وبسبب أعماله السليبه، غير جديره بخلافه المسلمين وينبغي عزله، ولكنّ عثمان ثبت في موقعه وأصرّ على البقاء في الخلافه وفي هذا المقام، وتسبب ذلك بسياده الغضب وسخط الثائرين عليه وأخيراً

ص: ٦٤

١- (١) . انظر: سيره ابن هشام، والاستيعاب، ابن عبد البر.

استطاعوا قتله على يد أبي حرب الغافقي المصري، وذهب بعض المؤرخين إلى أن قاتله أشخاص آخرون(1)، هذا في حين أن الإمام على عليه السلام أرسل ولديه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلى دار عثمان لمنع دخول الناس إليها، لأن الإمام على عليه السلام لم يكن موافقاً على قتل عثمان، رغم أنه كان يعتقد بلزوم عزل عثمان.

وأما ما يرتبط بالرسالة مورد البحث وما ورد فيها من تقدير وتبجيل من الإمام على عليه السلام لأهالي مصر فبعض المؤرخين استنبط من هذه الرسالة أن الإمام عليه السلام كان موافقاً على قتل عثمان.

يقول ابن أبي الحديد في هذا المورد: «هذا الفصل يشكل على تأويله، لأن أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان، وإذا شهد أمير المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عصى في الأرض، فهذه شهادته قاطعه على عثمان بالعصيان، وإتيان المنكر، ويمكن أن يقال إن كان متعسفاً: إن الله تعالى عصى في الأرض لا من عثمان، بل من أولاده وأمرائه وأهله، وذهب بينهم بحق الله، وضربت الجور سرادقه بولايتهم وأمرهم على البر والفاجر، والمقيم والضامن، فشاع المنكر، وفقد المعروف».

ثم يضيف ابن أبي الحديد: «ويبقى أن يقال: هب أن الأمر كما تأولت، فهؤلاء الذين غضبوا لله إلى ماذا آل أمرهم؟ أليس الأمر آل إلى أنهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمان؟ فلا تعدوا حالهم أمرين: إما أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصياً مستحقاً للقتل، أو يكونوا اسخطوا الله تعالى بقتله، فعثمان إذاً على حق، وهم الفسّاق العصاة، فكيف يجوز أن يبجلهم أو يخاطبهم خطاب الصالحين؟ ويمكن أن يجاب على ذلك بأنهم غضبوا لله، وجاءوا من مصر، وأنكروا على عثمان تأميره الأمراء الفسّاق، وحصروه في داره طلباً أن يدفع إليهم مروان ليحبسوه، أو يؤدّبوه على ما كتبه في أمرهم، فلما حصر طمع فيه مبغضوه وأعداؤه

ص: ٦٥

١- (١). لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع راجع هذا الكتاب (نفحات الولاية الجزء الثاني استناد لما ورد في تاريخ الطبري).

من أهل المدينة وغيرها، وصار معظم الناس إلباً عليه، وقُلَّ عدد المصريين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصره، ومطالبته بخلع نفسه، وتسليم مروان وغيره من بنى أميّه إليهم، وعزل عمّاله والاستبدال بهم، ولم يكونوا حينئذٍ يطلبون نفسه، ولكن قوماً منهم ومن غيرهم تسوروا داره، فرماهم بعض عبيده بالسهم، فجرح بعضهم، فقادت الضروره إلى النزول، والاحاطه به، وتسرع إليه واحد منهم وقتله، ثم إنَّ ذلك القاتل قُتِلَ بالوقت، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم وشرحناه، فلا يلزم من فسق ذلك القاتل وعصيانه أن يفسق الباقون، لأنهم ما أنكروا إلا المنكر، وأما القتل فلم يقع منهم، ولا راموه ولا أرادوه، فجاز أن يقال: إنهم غضبوا لله، وأن يثنى عليهم ويمدحهم»(١).

وقد وافق بعض شراح نهج البلاغه على هذا الكلام والتقرير، ويظهر من كلماتهم أنّ هذا الكلام خالٍ من التكلف، لأنَّ القرائن التاريخيه من جهه تشير إلى أنّ الإمام على عليه السلام لم يؤيد أحداً على قتل عثمان بل كان مانعاً عن قتله، رغم أنّه كان يعترض بشدّه على أعمال عثمان وتسليطه أفراد من بنى أميّه الفاسدين على أموال وأرواح المسلمين، ومن جهه أخرى أنّ رساله مورد البحث تشير إلى أنّ قيام أهالي مصر يستحق الثناء والتبجيل، ويمكن الجمع بين هذين الأمرين بما ذكر آنفاً وأنّ كلام الإمام عليه السلام في هذه الرساله لا يدلّ اطلاقاً على مدح قتله عثمان(٢).

وضمناً فقد بين الإمام في هذه الرساله خصوصيات المجتمع الفاسد في عبارات موجزه وذلك بقوله: إنّ مثل هذا المجتمع هو الذى تظهر فيه المعاصى والمنكرات وتتكسر فيه حالات الجور والظلم لتستوعب جميع الأخيار والأشرار، فلا أمان لأحد لا فى المدن ولا فى البرارى وأنّ الرذائل ستشتد وتقوى على حساب الفضائل.

ص: ٦٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ١٥٦.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه، لابن ميثم وفى ظلال نهج البلاغه.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفَجَارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَدْحَجٍ، فَاسْمِعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ، لَا كَلِيلَ الظُّبَيْهِ، وَلَا نَابِي الضَّرِيْبِهِ؛ فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفَرُوا فَانْفَرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِمُوا، فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُخَجِّمُ، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آتَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَيَّ عَدُوِّكُمْ.

الشرح والتفسير: نصبت عليكم والياً مقتدراً وبصيراً بالأمر

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته لأهالي مصر من موقع التمجيد والتعريف بمالك الأشر، وبعد أن يصفه بست صفات ممتازة جداً، يأمر أهالي مصر بالطاعة له ويدعوهم لامثال أمره وكأن هذا الأمر بالطاعة مقترن بالدليل على ذلك.

بدايه يقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ». المعجىء بكلمه «عبد» نكره يراد به التعظيم والإشاره إلى أن مالك الأشر في مقام العبوديه لله تعالى جدير بهذا المقام، والإمام عليه السلام يصفه بأهم وأعلى صفة للإنسان وهى مقام العبوديه لله، وهذا هو ما نقوله فى صلاتنا اليوميه لمقام النبوه والرساله، حيث نقول فى التشهد:

«أشهد أن محمداً عبده ورسوله»، وهذه هى الحقيقه التى يفتخر بها

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ويقول:

«كَفَى بِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا» (١).

يتابع الإمام عليه السلام وصفه لمالك الأشر ويذكر الصفه الثانيه والثالثه بقوله:

«لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنُكَلُّ (٢) عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ (٣)».

وهذان الوصفان في الحقيقه من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان لتحقيق النصر على العدو، والاستعداد الدائم في زمان الخوف من هجوم العدو وعدم الخشيه من حيله ومكره، ولا كثره عدده وعدته، وهو ما يلزم القائد الفذ والزعيم المقدم، والتاريخ يشهد أنّ القاده والأمرء الذين هزموا بالمعارك لم يكونوا يتمتعون باحدى هاتين السمتين، فإما أنّهم غفلوا عن مكر العدو، أو قادهم الخوف من العدو إلى الهزيمة والذله.

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للصفه الرابعه ويقول:

«أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بَنِ الْحَارِثِ أَخُو مَدْحِجٍ (٤)».

عبارة »

حَرِيقِ النَّارِ تعتبر في الحقيقه أبلغ تعبير لبيان الهجمات الشرسه لمالك الأشر على الأعداء في ميادين القتال، لأنه ليس كمثل النار في الإفناء والإهلاك، فالماء يغرق، والحجر يكسر، ولكن النار تحرق وتحوّل الشيء إلى رماد.

وينقل المحقق التستري في شرحه نهج البلاغه عن كتاب (صفين لنصر بن مزاحم) خرج رجل من أهل الشام - في معركة صفين - قلماً رؤى أطول وأعظم منه وشجاعاً مقداماً فدعا إلى المبارزه طبقاً للعادة المتداوله في الحروب في ذلك الزمان، فلم يخرج إليه إنسان من جيش أمير المؤمنين عليه السلام لمبارزته أو الخروج له - وخرج إليه مالك الأشر فقتله، فقال رجل منهم: اقسام بالله لأقتلن قاتلك، فحمل

ص: ٦٨

١- (١). بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٩٤، ح ١٠.

٢- (٢). «لَا يَنُكَلُّ» في الأصل من ماده «نكول» ويعنى التراجع عن خوف، وأحياناً تطلق على كلّ تراجع من أداء عمل معين.

٣- (٣). «الرَّوْعِ» الخوف والوحشه، وأحياناً تأتي بمعنى التخويف والترهيب.

٤- (٤). «مَدْحِجٍ» قبيله في اليمن، ويعتبر مالك الأشر من رؤوساء تلك القبيله ثمّ جاء إلى المدينه ومنها إلى الكوفه وأضحى من جملة شيعه أمير المؤمنين عليه السلام الخاصين وأتباعه المخلصين.

على مالك الأشر فضربه، فإذا هو بين يدي فرسه وحمل أصحابه فاستنقذوه جريحاً، فقال أبو رقيقه السهمي:

«كان هذه ناراً فصادفت إعصاراً»، أي أنه لم يقاوم أمام الإعصار(١).

ثم يخرج الإمام عليه السلام بنتيجته من هذه الأوصاف المذكورة لمالك الأشر ويقول:

«فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ».

وبديهي أن العبد المخلص لله تعالى والمنتبه لمخططات العدو والذي لا يجفل ولا ينكل عن الأعداء بل يهجم عليهم كالنار أو الصاعقه، هو الشخص الذي ينبغي إطاعه أمره والاصغاء لتوجيهاته، والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام يقول:

«فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ»، وهو إشاره إلى أنه لا أحد من البشر معصوم سوى الأنبياء والأوصياء ومن هنا فإن إطاعه أوامره يجب أن يكون محدوداً في إطار مطابقه الحق، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصى بهذه التوصيه حتى لأقرب المقربين منه، ولذلك يقول ابن أبي الحديد في شرحه لهذه العبارة: «وهذا يشير إلى قدره الإيمانيه والصلابه الروحيه للإمام بحيث إنه لا يرى التساهل والتسامح حتى بالنسبه لأحب الأفراد إليه، ولذلك يقيد إطاعه أمره بهذا القيد، لأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»(٢).

ثم يتعرض الإمام عليه السلام للصفه الخامسه للمال الأشر ويقول:

«فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، لَا كَلِيلُ (٣) الظُّبَيْهِ (٤)، وَلَا نَابِي (٥) الضَّرِيئِهِ»(٦).

جمله:

«سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ» تعدد أفضل تعبير عن رجل شجاع كمالك الأشر

ص: ٦٩

١- (١). شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٧، ص ٦٠٤.

٢- (٢). كنز العمال، ج ٥، ص ٧٩٢، ح ١٤٤٠١.

٣- (٣). «كَلِيلٌ» هو الضعيف والعاجز، من ماده «كَلَّ» على وزن «حَلَّ».

٤- (٤). «الظُّبَيْهِ» حافه السيف والرمح والخنجر.

٥- (٥). «نَابِي» هو السيف الكليل الذي لا يعمل، والكلمه في الأصل من «نوبه» على وزن «ضربه» وهو المكان المرتفع، وبما أن السيف الكليل لا يدخل في الموضوع ويقف في أعلاه فليل عنه «نابي».

٦- (٦). «الضَّرِيئِهِ» بمعنى المضروب والمحل الذي وجهت له ضربه.

من حيث قوّه شكيمته ورسوخ عقيدته وشده بطشه بالأعداء.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ سيف الله لقب خالد بن وليد، ولكنهم اختلفوا في من لقبه بهذا اللقب، فذهب بعض إلى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو الذي منحه هذا اللقب، ولكنّ ابن أبي الحديد يصرّح بأنّ الصحيح أنّ هذا اللقب لخالد قد لقبه به أبو بكر بسبب حروبه مع أهل الردّه ومسيلمه الكذاب وانتصاره عليهم، ولكننا نعلم أنّ خالد بن وليد كان قد اترف أعمالاً سيئه وتصرفات سلبه كثيره ولا يقبل المقارنه مع مالك الأشتر وهو الرجل الشجاع والصادق والمخلص، والجدير بالذكر أنّ ابن الأثير يقول: «عندما قتل خالد مالك بن نويره (بدون مبرر شرعى) وتزوج من زوجته، غضب عمر عليه وقال لخالد، قتلت مسلماً ثمّ نزوت على امرأته، اقسم والله لأرجمّك بأحجارك، وأصرّ على أبى بكر أن يقتص من خالد بسبب قتله مالك بن نويره، ولكن أبا بكر قال فى جوابه: لقد فعل خالد وأخطأ ولكنى لا أشيم سيفاً سلّه الله على المشركين» (1) وهذا هو السبب الذى دعى البعض إلى أن يلقبوه بسيف الله، ولكن يا لهذا السيف!!).

ثمّ يستطرد الإمام عليه السلام بذكر نتيجه لهذا الاستدلال ويقول:

«فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِمُوا».

ثمّ يصف الإمام عليه السلام الأشتر بالصفه السادسه والأخيره ويقول:

«فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُحْجِمُ (٢)، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي؛ وَقَدْ آثَرْتُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشَدَّه شَكِيمَتَهُ (٣) عَلَى عَدُوِّكُمْ».

وبديهى أنّ مالك الأشتر لم يكن يصدر أوامر وتوصيات من الإمام عليه السلام فى

ص: ٧٠

١- (١). انظر: الكامل، لأبن الأثير، ج ٢، ص ٣٥٨؛ اسد الغابه، ج ٤، ص ٢٧٧ فى ترجمه حياه مالك بن نويره.

٢- (٢). «يُحْجِمُ» من ماده «احجام» و «حجم» على وزن «رجم» فى الأصل بمعنى تكميم فم الحيوان، ثمّ اطلقت على كل منع وإعاقه لعمل معين.

٣- (٣). «شَكِيمَتَهُ» هى اللجام الذى يوضع فى فم الدابه ويمنعها من أن تتحرك بما يخالف إرادته صاحبها، وفى الجمله أعلاه إشاره إلى أنّ مالك الأشتر يكبح جماح عدوكم ويمنعه من التحرك.

الأُمور الجزئيه وفي التفاصيل مع تلك الفاصله الكبيره بين مصر والعراق والكوفه، هذا يعنى أن الإمام عليه السلام قد علمه مبادئ عامه وأصولاً كليّه (كما ورد في عهده المعروف للمالك الأشتر في رساله ٥٣ كما سيأتى لاحقاً) وفوض معرفه الفروع والتفاصيل لمالك من خلال ردها إلى تلك الأصول الكليّه، وهذا هو الاجتهاد بمعناه الصحيح وهو: ردّ الفروع إلى الأصول.

إنّ هذه الصفات الست إذا توفرت في أى شخص فإنّه سيبلغ مرتبه الإنسان الكامل الجامع لجميع الكمالات الماديه والمعنويّه والظاهريّه والباطنيّه.

وبذلك يقول الإمام عليه السلام في آخر جمله من هذه الرساله: بالرغم من أننى أود أن يكون مالك الأشتر معى، ولكننى

«وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَيَّ عَدُوِّكُمْ».

في هذه العبارة يصرّح الإمام عليه السلام بأنّه بالرغم من أنّ مالك الأشتر يعدّ ضرورياً ولازماً في جيشه وتحت قيادته، ولكن لأهميّه مصر من حيث سعتها وتاريخها وأهلها الواعين والملتزمين بالقيم والرساله فإننى آثرتكم على نفسى وتنازلت لكم عن قائد مقدم هو مالك الأشتر، وهذا من جهه يبيّن مكانه الأشتر الساميه، ومن جهه أخرى، يبيّن أهميّه مصر وأهلها.

إلى عمرو بن العاص (١)

نظرة عامه للرساله

هذه الرساله مليئه بالتوبيخ الشديد من قبل الإمام عليه السلام لعمرو بن العاص حيث يوبخه الإمام عليه السلام لخضوعه واتباعه الأعمى لمعاويه ويصف معاويه أيضاً بالصفات اللائقه به.

والقسم الآخر من هذه الرساله يتضمن تهديداً من الإمام عليه السلام لعمرو ومعاويه ويقول: لو أنى انتصرت عليكما فسأعاقبكما بما تستحقان وإن لم أنتصر فإن العقاب الإلهي ينتظركما.

ص: ٧٣

١- (١). سند الرساله: من جمله الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله في كتبهم قبل السيد الرضى، نصر بن مزاحم في كتاب صفين مع تفاوت يسير، وطبعاً هذا الكلام ذكره ابن أبى الحديد، ولكن بعض المحققين الذين قرأوا كتاب نصر بن مزاحم قالوا: لا وجود لهذه الرساله بهذه الصوره في نسخه كتاب نصر بن مزاحم الذى بين أيدينا (راجع شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٧، ص ٥١٤، والغدير، ج ٢، ص ١٣٠، ويضيف العلامة الأمينى فى الغدير أنّ ما بين أيدينا من كتاب نصر بن مزاحم يمثل مقطعاً خاصاً منه، وأصل الكتاب أكثر بكثير ممّا بين أيدينا وقد حذف الكثير منه عند طبعه)، ومن جمله الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله بعد السيد الرضى فى كتابهم ابن الجوزى الحنفى فى كتاب «تذكرة الخواص» والطبرسى فى «الاحتجاج». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٣٧).

والجدير بالذكر، طبقاً لما ورد في كتاب تمام نهج البلاغه، أنّ لهذه الرساله مطلع وخاتمه في عبارات قليله لم يذكرهما السيد الرضى، فبدأيتها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْأَبْتَرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، شَانِيءٍ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى»، وخاتم الرساله:

«وَاللَّهِ حَسْبُكُمْ وَكَفَى بِانْتِقَامِهِ إِنْتِقَامًا وَبِعِقَابِهِ عِقَابًا سَلَامٌ لِأَهْلِهِ» (١).

ص: ٧٤

١- (١). تمام نهج البلاغه، الرساله ٤٦، ص ٨٢٦.

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا أَمْرِيءَ ظَاهِرٍ عَيْهٖ، مَهْتُوكِ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسِفُّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثْرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتَّبَاعِ الْكَلْبِ لِلضَّرْعَامِ يُلُودُ بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيَسَتِهِ فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ! وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكَتَ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزُكُمْ إِيَّامًا قَدِّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقِيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: لقد بعث دينك بدنيا غيرك!

يتحرّك الإمام عليه السلام في مستهل رسالته من موقع التوبيخ واللوم لعمر بن العاص ويقول له:

«فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا أَمْرِيءَ ظَاهِرٍ عَيْهٖ، مَهْتُوكِ سِتْرُهُ (١)، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسِفُّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطِهِ (٢)».

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن جملة:

«يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ»، إشارة إلى ما أمر به معاوية من سب الإمام على عليه السلام وبنى هاشم في المجالس، حيث كان هؤلاء الأعاظم وطيله سنوات متماديه يسبون في مجلس معاوية ومجالس أخرى،

ص: ٧٥

- ١- (١). «مَهْتُوكِ سِتْرُهُ» هو الشخص الذي شقّه حجب الحياء لشده استهانتته ودنائه، وأصلها من «هتك» يعني الشق والتمزيق.
- ٢- (٢). «يَشِينُ» من مادة «شين» على وزن «عين» بمعنى يقبح.
- ٣- (٣). «الْحَلِيمُ» تعنى فى مثل هذه الموارد العاقل، من مادة «حلم» على وزن «ربع» وتعنى العقل.
- ٤- (٤). «بِخِلْطِهِ» من مادة «خلطه» بمعنى المعاشرة والاختلاط.

ولكنّ معنى العبارة المذكورة لا- ينحصر بهذا المعنى، بل إنّ عمرو بن العاص كان، مضافاً إلى ذلك، يهزأ من الشخصيات المرموقة من أنصار الإمام على عليه السلام وشيعته ويتحدّث معهم لدى حضورهم في مجلس معاوية بكلمات ركيكة وعبارات نابيه قاصداً بذلك إهانتهم والسخرية منهم، وفي المقابل كان الكثير منهم يردونه بجواب قاطع وحاسم من دون الاعتناء بالأخطار المحدقة بهم بسبب جرأتهم في حضور معاوية، وعلى كلّ حال فإنّ معاوية كان رجلاً سيء الكلام وهاتكاً للحرمة.

ومن ذلك أنّ «جاريه بن قدامه» كما ينقل العقد الفريد، دخل يوماً إلى مجلس معاوية فقال له معاوية: «ما كان أهونك على أهلك إذ سمّوك جاريه! قال: ما كان أهونك على أهلك إذ سمّوك مُعاوية! وهي الأنتى من الكلاب، قال: لا أم لك! قال:

أمي ولعدنتي للسيوف التي لقيناك بها في أيدينا، قال: إنك لتهددني، قال: إنك لم تفتحننا قسراً، ولم تملكنا عنوةً، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً، وأعطيناك سيمعاً وطاعة، فإن وقيت لنا وفينا لك، وإن فزعت إلى غير ذلك، فإننا تركنا وراءنا رجالاً شداداً، وألسنة حداداً، قال معاوية: لا كثر الله في الناس أمثالك، قال جاريه: قل معروفاً وراعنا، فإن شرّ الدعاء المحتطب»(١).

وجمله:

«وَيْسَ فُهُ الْحَلِيمِ بِخَلَطِهِ»، إشارة إلى أنه يقال في مجلسه كلام تافه وركيك إلى درجة أنّ الإنسان العاقل يعدّ سفيهاً في ذلك المجلس، وهذه هي نتيجة المشاركة في مجلس يحضره معاوية ورفاقه.

هذه الأوصاف الأربع التي وصف بها الإمام عليه السلام معاوية، بإمكانها تجسيد شخصيته معاوية بكل وضوح وتبين من يدعى خلفه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن يجلس على منبره، والأعجب من ذلك حال الأشخاص الذين قرأوا سيرته وتاريخه ومع ذلك يعتبرونه من الصحابة الأجلاء لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا- يبيحون أيه إهانته تلحق به! هذه نتيجة التعصب الأعمى الذي يجر الإنسان إلى كثير من البلايا والآفات.

ص: ٧٦

١- (١). أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٦٢ (مع التخليص).

ويتابع الإمام عليه السلام خطابه لعمر بن العاص:

«فَاتَّبَعْتَ أَثْرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتَّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضَّرْغَامِ (١) يُلَوِّذُ بِمَخَالِبِهِ (٢)، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيْسَتِهِ (٣) فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ!».

وعاده في مثل هذه الموارد يتم التشبيه بالثعلب الذي يتحرك تبعاً للأسد المفترس لينتفع من فضلات مائدته وبقايا فريسته، ولكن الإمام عليه السلام استخدم التشبيه بالكلاب بدل الثعلب، لإظهار شدّة دنائه ووقاحه عمرو بن العاص، ونعلم أنّ عمرو بن العاص هو الشخص الذي لم يكن قادراً على تولى الحكم والإماره بنفسه، ولكن من خلال مكره ودهائه في تقديم الخدمه لمعاويه بحيث أنّه أعطاه أخيراً ولايه مصر، فكان أن خسّر الدنيا، لأنّه لم يبق له سمعه فيها، وخسر الآخره بما لا حاجه لبيانه.

وجاء في كتاب تاريخ اليعقوبى أنّ عمرو بن العاص عندما دنت منه الوفاه نظر إلى أمواله الكثيره (وقد صعب عليه أن يفارقها جميعاً ويذهب خال اليعقوبى) فقال لابنه: «ودّ أبوك أنّه كان مات في غزاه ذات السلاسل، إنّي قد دخلت في أمور ما أدري ما حجّتي عند الله فيها»، ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته وقال: «ياليتّه كان بعراً ياليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنه، أصلحت لمعاويه ديناه وأفسدت ديني، آثرت دنياي وتركت آخرتي، عمى عليّ رشدي حتى حضرني أجلى، كآتني بمعاويه قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي» (٤).

ويواصل الإمام عليه السلام توبيخه لعمر بن العاص ويقول:

«وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكَتَ مَا طَلَبْتَ».

إشاره إلى أنّك كنت تملك الدنيا والآخره لأنك تملك الاستعداد الكافي للفوز بهما، ولكنك للأسف قد سرت في طريق الباطل وتوغلت في الرذيله في حين أنّ

ص: ٧٧

١- (١). «الضَّرْغَامِ»، يعنى الأسد.

٢- (٢). «مَخَالِبِ» من ماده «مخلب» على وزن «منبر» أظافر الحيوان المفترس.

٣- (٣). «فَرِيْسَتِهِ»، الصيد، من ماده «فرس» على وزن «فقط» بمعنى القتل.

٤- (٤). تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٢٢، وللمزيد من الاطلاع انظر شرح الخطبه ٨٤ من هذا الكتاب، ج ٣.

الكثير من الناس يمكنهم وبواسطه ذكائهم وقابلياتهم أن يعيشوا السعاده فى الدنيا ويتنعمون بها بطريق حلال دون أن يضر ذلك بآخرتهم ولكنهم قد يخطئون المسار ويتكبرون عن الطريق.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال وهو: لو أنّ عمرو بن العاص كان قد أذعن للحق، فهل سيعطيه الإمام عليه السلام ما أراد، مثلاً يعطيه إماره مصر، فى حين أنّ سيره الإمام على عليه السلام تأبى ذلك؟

وفى مقام الجواب عن هذا السؤال يمكن القول: إنّ عمرو بن العاص إذا كان واقعاً يطلب الحقّ ويسير فى الصراط المستقيم ويعيش تقوى الله تعالى، فإنّه بما لديه من ذكاء ومواهب يكون جديراً بهذا المقام فلا يبعد أنّ الإمام عليه السلام سيكلفه بتولى هذا المنصب، أضف إلى ذلك أنّ المراد بجمله: «ما طلبت» ليس فقط حكمومه مصر، بل أن يملك الإنسان المقام اللائق حتى لو كان مقاماً أدنى من حكمومه مصر.

وفى ختام هذه الرساله ينطلق الإمام عليه السلام من موقع التهديد لمعاويه وعمرو ويقول:

«فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ».

وقد أورد بعض شراح نهج البلاغه فى هذا المورد بحثاً يتلخص فى أنّ الإمام عليه السلام إذا كان قد انتصر على معاويه وعمرو بن العاص فهل سيقتلها، أو أنه سيعفو عنهما، أو سيعاقبهما بعقوبه أخرى؟ ورغم أنّ الكلام عن مسأله لم تقع إطلاقاً لا يعدّ ذا فائده، ولكن من المعلوم أنّ الإمام عليه السلام إذا كان يعفو عنهما فإنه لا يعفو عن حقّ الناس، وما إرتكباه من جرائم وجنایات فى سبيل تحقيق مطامعهما فى الرئاسه والدنيا، والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى ذيل هذه الرساله وروایات أخرى قال:

«فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا».

١. عمرو بن العاص في الجاهلية والإسلام

يقول العالم المصرى المعروف «محمّد عبده» في شرحه لنهج البلاغه في مستهل هذه الرساله: «من مآسى الزمن ومهازله في الوقت نفسه أنّ عمرو بن العاص هو الذى أرسلته قريش إلى نجاشى الحبشه يطالب بتسليم جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين، وردّهم إلى مكّه لترى فيهم قريش رأيها، وأنّ عمرو بن العاص نفسه هو الذى قاتل على بن أبى طالب فى صفين، فبنفس الروح التى قاتل بها ابن أبى طالب الأوّل، قاتل بها ابن أبى طالب الثانى، وهكذا كانت محنه الإسلام فى أنّ الذين قاتلوه لدى ظهوره عادوا يقاتلونه بعد انتصاره، فتلبس بلباس الإسلام نفسه.

ثم يضيف هذا العالم المصرى: وقد كان لعمرو بن العاص ما أراد من أن يكون له مصر طعمه خالصه، وذلك صورته من صور حكم ابن العاص بمصر.

ثم ينقل عن المقريزى وهو من أشهر مؤرخى القرن التاسع قوله: خلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً دنانير، والبهار جلد ثور، وبلغه إردبان بالحصرى، هذا ما انتهى إليه أمر الإسلام: سبعون بهاراً دنانير منهوبه من أقوات الشعب وأرزاقه يخلفها وال واحد»(١).

٢. بعض أعمال معاوية

نقل ابن أبى الحديد فى شرحه لهذه العبارة من كلام الإمام عليه السلام:

«ظَاهِرٌ غَيْثٌ»، يقول: «فأما قوله عليه السلام فى معاوية: «ظاهر غيث»، لا ريب فى ظهور ضلاله وبغيه، وكلّ باغٍ هاوٍ، أمّا

«مَهْتُوكٌ سِتْرُهُ» فإنّه كان كثير الهزل والخلاعه، صاحب جلساء وسمار، ومعاوية لم يتوقّر ولم يلزم قانون الرئاسه إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين عليه السلام،

ص: ٧٩

واحتاج إلى الناموس والسكينه، وإلّا فقد كان في أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكلّ قبيح، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلّا أنه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنيه الذهب والفضه، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاه بها وعليها جلال الديباج والوشى، وكان حينئذٍ شاباً وفيه نزع الصبي، وأثر الشيبه وسكر السلطان والإمره ونقل الناس عنه في كتب السير أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام، وأمّا بعد وفاه أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه، فقيل: إنه شرب الخمر في ستر، وقيل: أنه لم يشربه، ولا خلاف في أنه سمع الغناء وطرب له وأعطى ووصل عليه أيضاً^(١).

ص: ٨٠

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٦١.

إلى بَعْضِ عَمَّالِهِ (١)

نظرة عامه للرساله

من هو المخاطب في هذه الرساله؟ لم يتحمل بعض الشراح عناء الفحص عنه ويبنوا ذلك بصورة إجماليه، ولكن يستفاد من البلاذري في «أنساب الأشراف» وابن الدمشقي في «جواهر المطالب»، أنّ المخاطب بهذه الرساله هو عبداللّه بن العباس الذي كان والياً على البصره.

توضيح ذلك، طبقاً لما نقله هذان المؤرخان، كتب أبو الأسود رساله بهذا المضمون إلى أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تعالى قد جعلك والياً أميناً لنا عارفاً بوظيفتك، وقد اخترناك ورأيناك أميناً تريد خير الأُمّه وتؤدى حقها للبيت المال ومعرضاً عن الدنيا، وأنك لم تنفق من أموال هذه الأُمّه شيئاً لنفسك ولم تقبل رشوه، ولكن ابن عمك تصرف في أموال بيت المال بدون علمك، ولم أر من السليم أن أكتمك هذا الأمر ولهذا كتبت لك هذا الكتاب.

ص: ٨١

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله العقده الفريد (ابن عبد ربه المتوفى، ٣٢٨ هـ) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٥٥) والعجيب أنّ الشارح المعروف ابن ميثم لم يذكر هذه الرساله في شرحه لنهج البلاغه.

وفى مقام الإمام عليه السلام الجواب عن هذه الرسالة إلى أبى الأسود الدؤلى يشكره فيها على موقفه هذا، ثم كتب الرسالة مورد البحث إلى ابن عباس(١)، ويتحدث فيها معه بلغة التوبيخ واللوم ولكن ليس على محمل على القطع واليقين، بل ورد كلامه عليه السلام فى هذه الرسالة بأنه إذا كان ما وصلنى صحيحاً وقد عصيت أمرى ولم يؤدِّ حقَّ الأمانه... وكذلك أمره بأن يرسل له فوراً حساب بيت المال، وفى ختام الرسالة يحذّره من الحساب الإلهى الذى هو أدق وأعظم من حساب الناس.

ولكن تردد بعض شراح نهج البلاغه فى كون هذه الرسالة إلى ابن عباس، واعتبر مقامه بشهادة التاريخ مقاماً شامخاً أن يكون قد ارتكب مثل هذه الأعمال.

والجدير بالذكر أنّ البلاذرى بعد ذكره لرساله أبى الأسود ورساله الإمام عليه السلام لابن عباس قال: إنّ ابن عباس كتب كتاباً للإمام على وصرح فيها أنّ الخبر المذكور غير صحيح (ومن أخبرك بهذا الخبر إمّا أنّه أخطأ فى ذلك أو لديه غرض معين).

أمّا نص رساله ابن عباس للإمام عليه السلام:

«أما بعد فإنّ الذى بلغك عنى باطلٌ وأنا لما تحت يدي أحوطٌ وأضبطُ فلا تُصدِّقْ على الإطناءِ رَحِمَكَ اللهُ والسَّلام».

وسياتى المزيد من التوضيح فى هذا الموضوع فى رساله الآتية.

ص: ٨٢

١- (١). أنساب الأشراف البلاذرى، ص ١٦٩؛ جواهرالمطالب ابن الدمشقى، ج ٢، ص ٧٩.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنَّ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسِيخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: سخط الله وعصيان الإمام

يقول الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة القصيره والمثيره:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنَّ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسِيخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ (١) أَمَانَتَكَ».

في هذه العبارة الموجزه نرى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث مع مخاطبه ابن عباس (أو شخص آخر) بعبارات من موقع الاحتياط، فلم يقل إنّك قد ارتكبت إثماً في هذه الأعمال بل يحذّره بأنّه إذا ما وصلني من الخبر صحيحاً فأنت مسؤول أمام الله تعالى وأمام إمامك، وقد افتضحت أمام الناس والأُمّه.

ما أبلغ وأدقّه هذا التعبير بأنّ الإنسان وبسبب ارتكابه لبعض الأمور تسقط شخصيته ومكانته أمام الله والإمام والناس أجمعين.

وجمله

«وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ» ربّما تشير إلى الأمانه في المقام والمنصب أى مقام

ص: ٨٣

١- (١) «أَخْزَيْتَ» من ماده «خزى» على وزن «حزب» فى الأصل تعنى الإنكسار الروحى والخجل، الذى تصيب الإنسان إمّا من ناحيه ذاتيه وبشكل حياء مفرد، أو من ناحيه أخرى يفرض على الإنسان من خارجه وهذه المفرده تاره تأتى بمعنى السقوط فى البلاء، وأخرى الفضحيه والخجل الناشئ منه.

الولاية، وفيها إشاره إلى أن عملك يتضمّن فضيحتك في أمر الولاية، أو إشاره إلى الأمانة والاعتبار والحيشه في نظر الناس، أى أنك فضحت نفسك أمام الخلق فلا اعتبار لك بينهم.

ثم بيّن الإمام عليه السلام توضيحاً أكثر في هذا المجال وهو في الحقيقه تفصيل بعد الإجمال، وتبين بعد الابهام، يقول:

«بَلَّغْنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ».

وجمله

«جَرَّدْتَ الْأَرْضَ» أى جعلته عاريه وجرءاء ربّما تكون إشاره إلى أنك أخذت المحصولات الزراعيه للأراضى الخارجيه لنفسك، وكذلك يمكن أن تكون إشاره إلى تخريبه للأراضى الزراعيه بسبب سوء تدبيره، واحتمل بعضهم أن الأرض هنا بمعنى أرض بيت المال، يعنى أنك أخذت الأموال الموجوده فى بيت المال وجعلته خالياً، ولكن الاحتمال الأول والثانى أقوى حسب الظاهر.

والجدير بالالتفات إلى أن كلمه «جَرَّدْتَ» من ماده «جريد» ويعنى تعريه الشىء، ومن هنا قيل للجراد «جراد» لأنه يعرى الأرض ويأكل الأشجار ويجعل الأرض والأشجار عاريه.

وفى ختام هذه الرساله يقول عليه السلام:

«فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ وَالسَّلَامُ».

وبديهى أن حساب الناس أحياناً يخالطه الاشتباه والغفله، وأحياناً يستطيع المرء إخفاء بعض النواقص عنهم، فى حين أن الحساب الإلهى لا يمسه الخطأ والاشتباه، ولا يستطيع أى شخص إخفاء أعماله فى حكمه العدل الإلهيه، كما يقول القرآن الكريم: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» (١).

والمراد من الحساب الذى أشار إليه الإمام عليه السلام حساب ما يتجمع فى بيت المال

ص: ٨٤

أعم من محصولات الأراضى الخراجیه والزكاه والغنائم وأمثال ذلك، إذ أنّ الوالى مكلف أن يكتب للإمام عليه السلام مجموع المكتسبات وكذلك النفقات، ليتبين هل هناك حيف واختلاس فى بيت المال أم لا؟

ص: ٨٥

إلى بَعْضِ عَمَّالِهِ (١)

نظرة عامة للرساله

هذه الرساله كما سيأتى بيانه بشكل تفصيلى فى نهايه هذا البحث، كتبها الإمام عليه السلام لعبد بن عباس كما هو معروف، وفيها يوبّخه الإمام على عدم رعايه الموازين الصحيحه فى بيت المال، وكذلك يهيب به كالأب المتحرق الذى يرى ابنه يسير فى طريق الخطأ والزيف، ويدعوه إلى إصلاح المسير والعوده إلى الطريق القويم، ومن هنا يوجّه الإمام عليه السلام لابن عباس كلمات لاذعه ويخاطبه بلغه التأنيب والتوبيخ.

وفى القسم الأول من هذه الرساله يذكره الإمام عليه السلام بإحسانه له أنه كان يعتبره من

ص: ٨٧

١- (١). سند الرساله: أورد ابن قتيبه (المتوفى سنه ٢٧٦) مقاطع من هذه الرساله فى كتاب عيون الأخبار، والبلاذرى (المتوفى ٢٧٩) فى كتاب أنساب الأشراف، وابن عبد ربه (المتوفى ٣٢٨) فى العقد الفريد، وهؤلاء جميعاً عاشوا قبل السيد الرضى، ومن الأشخاص الذين جاءوا بعد السيد الرضى وذكروا هذه الرساله فى كتبهم، أحمد بن محمد بن الميدانى فى مجمع الأمثال، وسبط بن الجوزى فى تذكره الخواص. يقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه: اتفق الرواه على أنّ هذه الرساله من الإمام على عليه السلام وقد وردت فى أكثر الكتب التاريخيه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٤٤).

خواصه وقد أوكل إليه أحد المناصب المهمّة في حكومته، أى منصب والى البصره.

وفى القسم الثانى يشير الإمام عليه السلام إلى إساءه هذا الوالى ويوبّخه على عدم رعايه موازين العدل فى أمر بيت المال ويأمره بتقوى الله تعالى وإعاده أموال المسلمين إلى بيت المال.

وفى القسم الثالث، يقسم الإمام عليه السلام لو أنّ ولديه الحسن والحسين عليهما السلام مع شدّه قريهما إليه، قد إرتكب مثل هذا العمل فإنّ سيقف منهما موقفاً حازماً ولا يتسامح معهما فى هذا الأمر.

وفى القسم والرابع والأخير من هذه الرساله يحذّره الإمام عليه السلام ويبيّن له فناء الحياه الدنيا وعدم ثباتها وأنّه سيرحل منها عمّا قريب، وسيحضر فى محضر محكمه العدل الإلهى وعليه أن يجيب على ما إرتكبه من أعمال سيئه وأنّه سيندم حين ذاك على الكثير من أعماله حيث لا ينفع الندم.

أمّا بالنسبه للمخاطب فى هذه الرساله وهل أنّه عبد الله بن عباس حقيقه، وهو من أصحاب الإمام على عليه السلام المعروفين، أم أنّه أخوه عبيدالله أم شخص آخر؟ هناك خلاف كثير بين المؤرخين وشراح نهج البلاغه وعلماء الرجال، وسنشير إلى هذه المسأله فى ختام هذه الرساله وسنبيّن ما هو الأقرب فى نظرنا.

أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبَطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمَوَاسَاتِي وَمُؤَازَرَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرَبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَتَكْتَ وَشَغَرْتَ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجَنِّ فَصَارَفْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَدَلْتَهُ مَعَ الْخَادِلِينَ، وَخُتِنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَمَّا الْأَمِيَانَةَ أَدَيْتَ. وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللَّهُ تَرِيدُ بِجَهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَتَوَى غَيْرَهُمْ عَنْ فِينَهُمْ، فَلَمَّا أَمَكَّنْتَكَ الشَّدَّةَ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوُجْهَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمُصُونَةَ لِأَزَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ اخْتِطَافَ الذُّبِّ الْأَمَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيْرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيْبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَيَأَّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ لِأَيَّا لِعَيْرِكَ خَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثِكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمَّكَ، فَسَبِّحَانَ اللَّهَ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ نِفَاشَ الْحِسَابِ!

الشرح والتفسير: ألا تؤمن بالمعاد؟!

في بدايه هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى تعاطفه وحبّه لهذا الوالى ويذكره بخدماته ومؤازرته له في مواقع الشده ليثير فيه الشعور بالندم ممّا اقترفه من خطئه يقول عليه السلام:

«أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي (١)»

ص: ٨٩

١- (١). «شِعَار» يطلق على الملابس الداخليه التي تلتصق بشعر بدن الإنسان، ومن هذه الجبهه تطلق هذه الكلمه على صاحب السرّ ومحرم الأسرار، في مقابل «دثار» وتعنى اللباس الخارجى، ومفرده «شعار» لها معنى آخر وهو العلامه، وكذلك تطلق على الكلمات والعبارات التي تشير إلى أهداف القوم والجماعه، وقد وردت في رساله أعلاه بالمعنى الأول.

وِبَطَانَتِي (١) ، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمَوَاسَاتِي وَمُؤَاوَزَتِي (٢) وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ».

يشير الإمام عليه السلام في هذه العبارات المقتضبه إلى ثلاث نقاط فيما يتصل بهذا الوالى:

١. إن هذا الوالى كان سهيماً ومؤازراً للإمام عليه السلام فى إداره وتدير أمر الحكومه والأمة وكان يملك أحد أهم المناصب الحساسه فى الدوله.

٢. أنه كان محرم أسرار الإمام عليه السلام ومن بطانته والموثوقين فى الأمور.

٣. كان هذا الوالى من أكثر الولاه قرباً واعتماداً لدى الإمام عليه السلام من بين جميع أقربائه وأرحامه، ومن هذه الجبهه لم يكن يتوقع فى مقابل كل هذا الاعتماد والمحبه أن يقوم بعمل سلبى تجاه حكومه الإمام.

ثم يستعرض الإمام عليه السلام مخالفات واليه وعامله وابتدىء الكلام بالقول:

«فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ (٣) ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرَبَ ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَتَكَتْ (٤) وَشَعَرَتْ (٥) ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمَجْنِّ (٦) فَفَارَقْتَهُ مَعَ

ص: ٩٠

١- (١) . «بطانته» وتعنى أيضاً الملابس الداخليه، فى مقابل «ظهاره» وتعنى اللباس الخارجيه، وكذلك تطلق كلمه بطانه على أصحاب السر من الأصدقاء الموثوقين، ومراد الإمام عليه السلام من هذه المفرده المعنى الأخير.

٢- (٢) «مؤاوزه» تعنى المعاونه من ماده «وزر» بمعنى الثقل، لأن الشخص الذى يساعد الآخر بأنه يحمل ثقله على ظهره، ومن هذه الجبهه اطلقت كلمه وزير على معاون الملك أو الزعيم.

٣- (٣) . «كَلَبَ» فعل ماضى من ماده «كلب» على وزن «قلب» وفى الأصل تعنى الحصان بالمهميز. (المهميز شىء له نصل مدبب يوضع إلى قطب الحصان فيستفاد منه الراكب لحث الفرس على السرعة) وكَلَبَ تعنى هنا الشده والصعوبه.

٤- (٤) . «فَنَكَتْ» فعل ماضى من ماده «فَنَكَتْ» على وزن «قلب» وتعنى العدوان والتمرد واللجاجه.

٥- (٥) «شَعَرَتْ» فعل ماضى من ماده «شَغَرَ» على وزن «صبر» وتعنى عدم الملجأ ما يدافع به.

٦- (٦) «الْمَجْنِّ» تعنى الدرع من ماده «جَنَ» على وزن «فن» وتعنى التغطيه، لأن الدرع يغطى الإنسان من ضربات العدو.

الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتُهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتُهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ (١)، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ».

وجمله

«قَلْبَتَ ابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجْنُّ» تعنى فى معناها الحرفى: قلبت الدرع لابن عمك على باطنه، وهى كناية عن إعراضه عن الإمام عليه السلام، لأنَّ المجاهدين فى ميدان الحرب عندما يواجهون الطرف الآخر وجهاً لوجه يلبسون الدروع أمامهم ويكون ظهر الدرع فى الواجهه، ولكن فى حالة الهرب يكون باطن الدرع فى مواجهتهم، ومن هذه الوجهه استخدمت هذه الحاله كناية عن الشخص الذى يعرض عن شخص آخر أو عن شىء.

وفى الجمل الخمس الأولى يرسم الإمام عليه السلام حاله الزمان: صعوبه الظروف فى المحيط الاجتماعى، جرأه العدو فى الحرب، عدم اهتمام الناس بأمر الأمانه، عدوان الأئمة على الأحكام الإلهية.

ثم يستعرض الإمام عليه السلام مخالقات ابن عمه معه من أبعاد مختلفه وذلك فى عدده جمل: الإعراض عن الإمام، التماهى مع المناوئين، خذلانه للإمام وعدم نصره الحق، الانسياق مع الخاذلين وخيانتته لبيت المال مع الخائنين، وعلى ضوء ذلك فإن جميع هذه الصفات التى أطلقها الإمام عليه السلام عليه بهذه الجمل البليغه والزاهره بالمعنى جسد الإمام حالات هذا الوالى الذى خذل الإمام فى ساعات المحنه، ونرى الإمام عليه السلام بين الجملتين الآخرتين بفاء التفريع: مفارق الإمام مع المفارقين والخيانة فى الأمانه.

ثم إن الإمام عليه السلام يتحرك لرصد أعمال هذا الوالى ويتحدث معه بلغه الوجدان لإثاره أحاسيسه الدينيه بهذه العبارات:

«وَكَاأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللَّهُ تَرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَيْدَةَ الْأُمَّةِ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَتَوَى غَرَّتَهُمْ (٢) عَنْ فَيْئِهِمْ».

ص: ٩١

١- (١). «آسَيْتَ» من ماده «مُواساه» وتعنى المعاونه والمساعده.

٢- (٢) «غَرَّه» وتعنى الخدعه والإغفال.

بدايه يشكك الإمام عليه السلام، في هذه الجمل الثلاثه، في إخلاص تيه هذا الوالى في أمر الجهاد، ثم يشكك الإمام في كون أعماله تستند إلى الدليل والبينه الشرعيه، وأخيراً يشبه الإمام عليه السلام عمله بمن يريد إغفال الناس وخداع الأمه لسلب حقوقهم من بيت المال.

ولعل هذا الوالى (سواء كان ابن عباس أو غيره) عند قراءته لهذه العبارات والجمل يستيقظ ضميره ويتحرك على مستوى إعادته أموال بيت المال.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه لهذا الوالى ويقول:

«فَلَمَّا أَمَكَّنْتِكَ الشَّدَّةَ فِي خِيَانِهِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ (١)، وَعَيَّاجَلْتَ الْوُثْبَةَ (٢)، وَاخْتَطَفْتَ مَيَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الْهَيْمِ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيَّتَامِهِمْ اخْتِطَافَ (٣) الذُّبِّ الْأَزْلَ (٤) دَامِيَةَ (٥) الْمِعْزَى (٦) الْكَسِيرَةَ (٧)، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ (٨) الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأْتِمٍ (٩) مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ لَأَبَا لِعَغِيرِكَ حَدَرْتَ (١٠) إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثِكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمَّكَ».

هذه العبارات البليغه في خطاب الإمام عليه السلام ناطقه بالمعنى وتشبيه الإمام لحاله

ص: ٩٢

- ١- (١). «كُرَّة» تعنى الهجوم.
- ٢- (٢) «الْوُثْبَةُ» من ماده «وُثْب» على وزن «وصف» تعنى الانتصار، ثم استعملت بمعنى القفز للامساك بشىء.
- ٣- (٣). «اخْتِطَافَ» تعنى أخذ الشىء بسرعة.
- ٤- (٤) «الْأَزْلَ» من ماده «زَلَلَ» تعنى الإنسان أو حيوان الذى يملك أفخذاً ضعيفه، وبما أن مثل هذا الشخص باستطاعته الركض بسرعة فأطلقت هذه الكلمه بمعنى السريع وفى العُدُو.
- ٥- (٥) «دَامِيَةَ» تعنى المجروحه والتى يخرج منها الدم، من ماده «دَم».
- ٦- (٦) «الْمِعْزَى» فصيله من الغنم واليشاه.
- ٧- (٧) «الْكَسِيرَةَ» التى تكسر عظمها، وعندما تستعمل فى الأغنام وأمثالها تأتى بمعنى المكسوره اليد أو الرجل.
- ٨- (٨). «رَحِيبَ» بمعنى الواسع من ماده «رُحِب» على وزن «قفل» وتعنى السعه، ورحيب الصدر يقال للشخص البارد المزاج والذى يملك سعه الصدر وعدم المبالاه فى مواجهه المثيرات.
- ٩- (٩) «مُتَأْتِمٍ» الشخص الذى يشعر بالذنب.
- ١٠- (١٠) «حَدَرْتَ» من ماده «حَدَرَ» على وزن «قدر» بمعنى الهبوط والتزول إلى الأسف، وبما أن النزول عادته يتم بسرعة، فاطلقت هذه الكلمه على السرعة أيضاً.

هذا الشخص صريح وشديد ولا يمكن تصور بيان المقصود بأبلغ من هذه العبارات الدقيقة والكلمات المتماسكه.

عبارة تعبير به

«أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ» و

«عَاجَلْتَ الْوُثْبَةَ» و

«اِخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ» وتشبيهه بالذئب الذى يجرح ويدمى المعزى الكسيره، وكذلك قوله:

«تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ» وكأنه يحسب أن بيت المال كميراث ورثه من والديه، كلها جمل معبره عن شناعه وقباحه هذا العمل الذى يقام به هذا الوالى.

جملة

«لَا أَبَا لِعَيْرِكَ...» تعدد نوعاً من الاحترام لذلك الوالى، لأنه عندما تحقير شخص: «لا أبا لك» ومن هذا المنطلق فالإمام عليه السلام فى الوقت الذى يخاطب فيه هذا الوالى بتلك العبارات اللادعه والتوبيخات القارعه، فإنه لا يزال يحترمه بالمقدار اللازم.

وبعبارة تعبير به

«تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ» تعبير جميل يقال فى هذه الموارد بالنسبه للشخص الذى يقع على أموال ويتصرف بها دون وازع فيقال له: كأن هذا المال إراثاً ورثته من أبيك وأمك.

وفى ختام هذا المقطع من الرساله يظهر الإمام عليه السلام تعجبه الشديد من هذا السلوك المنحرف لعامله ويقول:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ! أَمَا تُوْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ (١) الْحِسَابِ!».

وهذه إشاره إلى أن الشخص الذى يؤمن بالقيامة والمعاد ويعتقد حقاً ما ورد فى قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (٢).

لا- ينبغى أن يتصرف فى أموال بيت المال مثل هذا التصرف الذميم، فمثل هذا العمل يتقاطع مع الإيمان والاعتقاد بالمعاد الحساب، أو أن يكون إيمانه ضعيفاً إلى درجه وكأنه قد نسى يوم القيامة وما سيوجهه من حساب على أعماله.

ص: ٩٣

أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ - عِنْدَنَا مِنْ أَوْلَى الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسَيِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا وَتَشْرَبُ حَرَامًا، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ! فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْزُقْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنِي اللَّهُ مِنْكَ لَأُعِيدَنَّ إِلَيَّ اللَّهُ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ! وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفِرًا مَنِي بِإِرَادِهِ، حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتَيْهِمَا، وَأُقْسِمَ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسِّرُنِي أَنْ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالًا لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحَّ رُوَيْدًا، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ».

الشرح والتفسير: لا أنسأح في بيت المال حتى مع أولادى

في هذا المقطع من الرسالة يواصل الإمام عليه السلام توبيخه وإعتراضه الشديد لعامله ويقول:

«أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ - عِنْدَنَا مِنْ أَوْلَى الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسَيِّغُ (1) شَرَابًا وَطَعَامًا.

ص: ٩٥

١- (١). «تَسَيِّغُ» من ماده «سَوَّغَ» على وزن «قوم» بمعنى الهنيء وتطلق عادة على الأَطْعَمَةِ والأَشْرَبِ، ولكنها تستعمل كناية في أمور أخرى أيضاً.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا، وَتَشْرَبُ حَرَامًا، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ (١) اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ!.

والتعبير بـ «كان» ناظر إلى الماضي إلى أنك كنت عندنا في السابق من العقلاء وأهل الحزم والحنكة، ولكنك بهذا العمل الذي صدر منك، فقدت ذلك الموقع ولم تعد كما كنت في السابق.

جملة

«كَيْفَ تُسَبِّحُ..» إشاره إلى أن جميع حياتك ومعيشتك ستختلط بالحرام وسيكون ما أكلك ومشربك من مال المقتصد من بيت المال، فلا يجوز لك تناول شيء من هذا المأكل والمشرب، وهكذا في الجوارى التي تشتريها بهذا المال الحرام أو الزوجات التي تدفع لهنّ المهر من هذا المال الحرام كل ذلك يتسبب في أن تكون حياتك العائليه ومعيشتك ملوثة بالحرام.

جملة

«مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ...» إشاره إلى أنه إذا كانت هذه الأموال متعلقه بأشخاص أثرياء فإنّ قبح هذا العمل وغضب هذه الأموال كان أقلّ شناعه، وأما إذا كان الغضب من متعلقاً بأموال اليتامى والمحرومين والمجاهدين في سبيل الله فسيكون أقبح وأشنع بمراتب عديده.

ثم إن الإمام عليه السلام بعد هذا التوبيخ المطول يستنتج من ذلك:

«فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْزُقْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ».

ثم يتحرك الإمام عليه السلام في خطابه لهذا الوالى بلغه التهديد الشديد، ويقول:

«فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْكَ لَأُعَذِرَنَّ (٢) إِلَى اللَّهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ!».

وهذه إشاره إلى أنني لا أسل سيفي إلّا في سبيل الله وفي مقابل أعدائه من قوى

ص: ٩٤

١- (١). «أفاء» من ماده «فأء» بمعنى العوده، وكأنّ الأموال التي بيد الكفار ذات طابع غصبى، فعندما تغنمها المسلمون منهم فإنّها تعود إلى أصحابها الأصليين.

٢- (٢). «أعذرن» من ماده «إعذار» بمعنى إظهار الشخص لعذره.

الظلم والكفر والانحراف، وأيما شخص ضربته بسيفي هذا فإن مصيره الحتمي سيكون إلى النار وبئس المصير.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، ولماذا يستحق الشخص المختلس لشيء من بيت المال للإعدام، في حين أنّ الوارد في الحدود الإسلاميّه أنّ مثل هذا السارق لا يستحقّ إلّا إجراء حدّ السرقة عليه، مضافاً إلى أنّ إجراء حدّ السرقة على هذا المورد بعيد أيضاً، لأنّ من شروط حدّ السرقة أن تقع السرقة من حرز، يعني أن يكون السارق قد سرق المال من حرز أو حزانه مقفوله، ويقوم السارق بكسر هذا القفل ويسرق ما فيه وحينئذٍ يترتب عليه حدّ السرقة، ونعلم أنّ الوالي مسلط على بيت المال وليس المال فيه مقفل وفي حرز.

وفي مقام الجواب عنه هذا السؤال يمكن القول، أولاً: أنّ مثل هذه السرقة مقترنه مع إنكار الحرمه، وبعبارة أخرى أنّ هذا المختلس كان يرى حليه مثل العمل وهذا بدوره نوع من إنكار الضرورى من الدين.

وثانياً: إنّ الإمام عليه السلام قال:

«وَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَمَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتُ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ (١)، وَلَمَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادِهِ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ (٢) الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتَيْهِمَا».

وبديهى أنّ مراد الإمام عليه السلام لا- يعني أبداً أن يقوم الإمام الحسن والحسين عليهما السلام بغصب أموال بيت المال، بل المراد بيان المبالغه في هذا المطلب وأنه لا أحد مصون عن العقاب في حال تخلفه عن الحق والعداله.

وبيان آخر أنّه يستفاد من القضية الشرطيّه التي تبدىء بكلمه «لو» وأمثالها لا يعنى احتمال وقوع الشرط، لأنّ مثل هذه التعبيرات ربّما تقال لتأكيد المطلب حتى في الأمور المستحيله، كما ورد في الآيه الشريفه: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

ص: ٩٧

١- (١). «هَوَادَةٌ» بمعنى اللبونه والصلح والعلاقه بالشخص، وهنا جاءت بمعنى الأوّل.

٢- (٢) «أُزِيحُ» من ماده «إِزَاحَهُ» تعنى الإزاله.

العابدين» (١) وهذا التعبير يدل على تأكيد النفي لمقوله الجهلاء من أهل الكتاب الذين ينسبون الولد لله تعالى.

ويبين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كتابه من موقع التأكيد على أنّ المسائل العاطفيّة لا- ينبغي أبداً أن تتدخل في الأحكام الإلهيّة ولا- ينبغي أن يكون التعامل وفقاً للروابط على حساب الضوابط، كما ورد في القرآن الكريم في مسأله إجراء الحد الشرعي: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» (٢)، وفي مورد إجراء الحقوق يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» (٣).

ثم يدخل الإمام عليه السلام من طريق آخر لا يقاط هذا الوالى العاصى من غفلته ويتحدّث معه بلهجه الواثق وبلغه مؤثره ويقول:

«وَأَقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنْ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتُرْكُهُ مِيراثاً لِمَنْ بَعْدِي».

وهذه إشاره إلى أنّ الأموال الكثيره حتى لو كانت حلالاً وقد اكتسبها الإنسان بطرق مشروعته لا توصل الإنسان إلى مرفأ السعاده والراحه، فكيف بها إذا كان قد استولى عليها بطريق حرام، لأنّه لا سبيل له فى إنفاقها سوى أن يتركها ميراثاً لمن بعده، فيكون وزره ووباله عليه ولذته ونعيمه للآخرين، فهل من العقل أن يقدم الإنسان على مثل هذا العمل؟! فكيف الحال لو كان قد جمع هذا المال من طرق حرام وغير مشروعته فيما يترتب على ذلك من مصائب ووبال على صاحبه.

وفى هذا السياق ورد فى كتاب الكافى عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنه كان يدعو بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ ارْزُقْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ وَمِنْ أَحِبِّ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ الْعُصَفَاءَ وَالْكَفَافَ وَارْزُقْ مَنْ أَبْغَضَ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ الْمِائِلَ وَالْوَالِدَ» (٤).

ص: ٩٨

١- (١) . سورة الزخرف، الآية ٨١.

٢- (٢) . سورة النور، الآية ٢.

٣- (٣) سورة النساء، الآية ١٣٥.

٤- (٤) الكافى، ج ٢، ص ١٤٠، ح ٣. وردت روايات أخرى فى هذا الباب وفى هذا الموضوع.

وفى ختام هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى نهايه الحياه والحوادث التى سيواجهها الإنسان بعد مماته لغرض إيقاظ وجدان هذا الوالى وتحريك عناصر الخير فى نفسه وبيين له الخطر الكامن فى هذا الطريق الذى سلكه، يقول:

«فَضَحَّ (١) رُوَيْدًا، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى (٢) ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ التُّرَى (٣) ، وَعُرِضْتَ عَلَيَّكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمَ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) (٤)».

وهنا نرى أنّ الإمام عليه السلام أمير المؤمنين هو ذلك المعلم اليقظ والقائد الفذ يسعى لتنبية مخاطبه بهذه العبارات الشديده، ويلفت نظره إلى ما سيواجهه فى ساعات الموت ومن ثمه الدفن تحت التراب والحضور فى ساحه المحشر للحساب فى محكمه العدل الإلهى وما سيعيشه من حالات الندم الشديد وتمنيه العوده للعالم ولكن بعد فوات الأوان كما تشير إلى ذلك الآيه الشريفه: «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» (٥).

تأمل

من هو ابن عباس؟

ص: ٩٩

١- (١) . «ضَحَّ» صيغه أمر من ماده «تَضَحِيه» وفى الأصل تعنى رعى الأغنام عند طلوع الشمس، وجمله «فَضَحَّ رُوَيْدًا» تطلق على مورد يكون المقصود منه أنّ الأغنام تتحرك ببطء فى المرتع إلى أن تشبع تماماً، ثم استخدمت هذه الجملة فى الموارد التى يقصد منها الحفظ والهدوء.

٢- (٢) . «مَدَى» تعنى نهايه العمل والوصول إلى سنين المتقدمه.

٣- (٣) «التُّرَى» تعنى التراب.

٤- (٤) مفرد «لَا مَنَاصَ» تعنى للنفى، وفى الأصل «لَا» النافيه، وأضيفت لها تاء التأنيث للتأكيد، «مَنَاصٍ» من ماده «نوص» وتعنى الملجأ والملاذ، يقال: إنّ العرب عندما يواجهون حادثه صعبه وموحشه وحاصه فى الحروب يكررون هذه الكلمه ويقولون: مناص، مناص، يعنى أين الملجأ، أين الملجأ؟ وبما أنّ هذه المفهوم يقترن مع الهرب والفرار، فإنّه يستخدم أحياناً محلّ الفرار والمهرب، ومن هذه الجبهه فإنّ جملة «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» تعنى: لا يوجد طريق للفرار والنجاه.

٥- (٥) سورة ص، الآيه ٣.

لا- شك أنّ ابن عباس معروفاً في الأئمة الإسلاميّة ولدى المذاهب المختلفة من الشيعة وأهل السنّة، معروفاً في العلم والمعرفة والفضل حتى أنّه لُقّب ألقاب مثل «حبر الأئمة» و«ترجمان القرآن» وقد أورد المؤرخون في سيرته أنّه كان قد حضر عند رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في ريعان شبابه وقد سمع من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الكثير من الأحاديث الهامة والمذكورة في الكتب المعتمدة، وكان ابن عباس مشهوراً بتفسير القرآن ومن أصحاب الرأي والنظر وكان التلميذ المخلص للإمام علي عليه السلام والمحب له.

ومن هذه الجهة عندما يصل العلماء وشراح نهج البلاغة إلى هذه الرسالة يترددون في كون المخاطب لها هو ابن عباس، فهذه الرسالة تتضمّن أشدّ أنواع التوبيخ والذم من الإمام علي عليه السلام لمخاطبه وأنّه يتهمه بالخيانة في بيت المال والاستيلاء على مبالغ كبيرة من هذا المال ونقله من البصرة إلى الحجاز.

وبخاصّة إذا أخذنا بنظر الحسبان الجواب الحاد والجرىء الذي كتبه ابن عباس في جوابه عن هذه الرسالة وقد ورد في كتب التاريخ، فإنّ المسألة ستتعدد أكثر.

ومن هذه الجهة انقسم المؤرخون الذين أوردوا هذه الرسالة في كتبهم إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى تقول: إنّ ابن عباس وإن كان يتمتع بمقام جليل ويعتبر من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المرموقين وقد أدرك النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في شبابه وصباه، إلّا أنّ ذلك لا يعنى أنّه معصوم من الخطأ وأنّه من البعيد صدور مثل هذا الزيف في حقّه، وطبقاً للمثل المشهور: «الجواد قد يكبو» فإنّ غير المعصوم ربّما يزل مثل هذه الزلّة مهما كان يملك من مقام ووجاهة.

وطائفة أخرى يعتقدون أنّ المخاطب لهذه الرسالة هو أخو ابن عباس، أي عبيدالله بن عباس أو شخص آخر، ويستشهدون لذلك بعدّه شواهد وقرائن تاريخيّة تؤكّد أنّ ابن عباس لم يقم بهذا العمل أبداً.

وهناك طائفة ثالثة لم تستطع أن تتخذ لها موقفاً في هذه المسألة مثل ابن أبي الحديد، الذي مرّ عليها مرور الكرام وتركها في إبهامها ولم يكشف اللثام عن

غموضها، حيث قال: «قد أشكل عليّ أمر هذا الكتاب، فإنّ أنا كذّبت النقل وقلتُ:

هذا الكلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام، خالفت الرواه، فإنّهم قد أطبقوا على روايه هذا الكلام عنه، وقد ذكر في أكثر كتب السيره: إنّ صرفته إلى عبدالله بن عباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته إطاعه أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته، وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرّفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام يشعر بأنّ الرجل المخاطب من أهله وبنى عمّه، فأنا في هذا الموضع من المتوقفين»^(١).

ولكن الطائفة الأولى لم تقبل بهذا الكلام وذهبوا إلى أنّ المخاطب لهذه الرسالة للإمام عليه السلام هو ابن عباس مع حفظ جلاله قدره ومقامه.

ومن جملة هؤلاء «ابن ميثم» يقول في شرحه لنهج البلاغه: «وإعلم أنّ هذين القولين لا مستند لهما، أمّا الأوّل: فهو مجرّد استبعاد أن يفعل ابن عباس ما نسب إليه، ومعلوم أنّ ابن عباس لم يكن معصوماً وعلى عليه السلام لم يكن يراقب في الحقّ أحداً ولو كان أعزّ أولاده كما تمثّل بالحسن والحسين عليهما السلام في ذلك، فكيف بابن عمّه، بل يجب أن تكون الغلظه في الأقرباء في هذا الأمر أشدّ.

ثمّ إنّ غلظته عليه وعتابه له لا يوجب مفارقتة إيّاه، لأنّه عليه السلام كان إذا فعل أحد من أصحابه ما يستحق به المؤاخذه أخذه به سواء كان عزيزاً أو ذليلاً قريباً منه أو بعيداً، فإذا استوفى حقّ الله منه أو تاب إليه ممّا فعل عاد في حقّه إلى ما كان عليه كما قال: «القوى عندي ذليل حتى آخذ الحقّ منه والذليل عندي عزيز حتى آخذ الحقّ له»، فلا يلزم إذن غلظته على ابن عباس ومقابلته إيّاه بما يكره مفارقه له وشقاقه على ما بينهما من المحبّه الوكيده والقرايه.

وأما الثاني: فإنّ عبيدالله كان عاملاً له عليه السلام في اليمن ولم ينقل عنه مثل ذلك»^(٢).

أمّا من ذهب إلى القول الثاني فإنّه يرى أنّ عظمه مقام ابن عباس لا ينسجم أبداً

ص: ١٠١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٧٢.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه، لابن ميثم، ج ٥، ص ٩٠.

مع مضمون هذه الرساله لأنه «حبر الأُمّه» وبحر عميق من العلم والفضل وكان من أتباع وأنصار الإمام على عليه السلام ومتفانياً في خدمته والدفاع عنه في أيام المحنه التي لم يكن للإمام عليه السلام من أنصار إلا بعدد أصابع اليد، وحتى في معركة صفين عندما طرحت مسأله التحكيم نرى أنّ الإمام عليه السلام اختاره لأمر التحكيم في مقابل رجل داهيه وشيطان وهو عمرو بن العاص (رغم أنّ جماعه من الجهله والسفهاء اعترضوا على هذا الاقتراح ورشحوا إلى ذلك المنصب رجل سفيه مثلهم وهو أبو موسى الأشعري وأصرّوا على الإمام عليه السلام في قبوله) أجل فإنّ دلاله قدر ابن عباس ومقام الشامخ لا تتناسب ولا تنسجم مع إرتكابه لمثل هذه الأعمال.

ولكن هؤلاء لم يبينوا على وجه التحديد من هو المخاطب لهذه الرساله، أضف إلى ذلك فهناك قرائن وشواهد أخرى تنفي أن يكون المخاطب لهذه الرساله هو ابن عباس، ومن ذلك أنّهم ذكروا:

١. جاء في الأمالي للسيد المرتضى أنّ عمرو بن عبيد جاء إلى سليمان العباسي فسأله سليمان: هل سمعت بشعر الإمام على عليه السلام قال في ابن عباس: إنّه يفتنا في كلّ أمر ولكنّه يأخذ أموالنا في ليله واحده؟

فأجابه عمرو: لا يمكن أن يقول الإمام على عليه السلام مثل هذا الكلام عن ابن عباس وأنّ ابن عباس لم يترك الإمام على عليه السلام أبداً وكان حاضراً معه وإلى جواره إلى ساعه استشهاده، بل كان حاضراً أيضاً في واقعه صلح الإمام الحسن عليه السلام.

٢. وأضاف عمرو بن عبيد: كيف يعقل أن تجتمع كلّ تلك الأموال الكثيره في بيت مال البصره مع أنّ الإمام على عليه السلام كان بحاجه ماسه إلى المال وكان يوزع ما يتجمع في بيت المال على المحتاجين والفقراء في كلّ اسبوع حتى يفرغ كلّه ويأمر بكنس بيت المال كلّ يوم سبت، فمع هذه الحاله كيف يمكن لابن عباس أن يجمع كلّ هذه الأموال في بيت مال البصره؟ فمع الأخذ بنظر الاعتبار حاجه الناس إلى المال فإنّ ابن عباس كان قد نقل هذا المال إلى الكوفه.

٣. يروى الطبري في تاريخه في حوادث سنة أربعين عن أبي عبيده أن ابن عباس كان والياً على البصرة إلى زمان استشهاد الإمام علي عليه السلام ثم جاء إلى الكوفة واشترك في مراسم صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ثم عاد إلى الكوفة وجمع متعلقاته وأخذ معه قليلاً مبلغاً زهيداً من بيت المال وقال: أخذته هذا المبلغ من بيت المال بوصفه حقاً لي وكراتب أخذه من بيت المال (ثم توجه إلى الحجاز).

٤. يروى المرحوم المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغه أن ابن عباس كان في البصرة عند استشهاد الإمام علي عليه السلام جاء إلى الكوفة من فورهِ عندما سمع الخبر والتحق بالإمام الحسن عليه السلام، ولما قام الإمام الحسن بالقاء خطبه في صبيحه اليوم الذي استشهد فيه أبوه، قام ابن عباس بأخذ البيعه من أهل الكوفة للإمام الحسن عليه السلام واستجاب الناس له (١).

٥. على فرض أن هذه القصة تتعلق بابن عباس، ولكن ورد في بعض الروايات أولاً، أن الأموال المختلصة كانت قليلة، وثانياً: أن الإمام عليه السلام عندما أرسل له هذه الرسالة قام ابن عباس بإعادة المال فوراً وإعتذر من الإمام علي ما صدر منه وقبل الإمام إعتذاره، كما يظهر يروى المرحوم التستري عن اليعقوبي أن ابن عباس تصرف بمقدار من بيت المال، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام برده فردّه، ثم ينقل مثل هذا المعنى عن سبط ابن الحوزي الذي يقوله في نهايته: ثم ندم واعتذر إلى علي عليه السلام وقبل الإمام عليه السلام عذره (٢).

النتيجة: مع وجود اختلاف في الروايات في شأن هذه القصة وأحياناً تكون الروايات متناقضة، فكيف يمكن التصديق بأن رجلاً مهماً وشخصيته مرموقة كابن عباس وهو حبر الأمة والعالم والفقير والمعروف يرتكب مثل هذا العمل بهذه

ص: ١٠٣

١- (١) انظر: شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٨، ص ٨٩.

٢- (٢). المصدر السابق، ص ٩٢، نقلاً عن تذكره الخواص، ص ١٥٠..

الضخامة التي ينسبها إليه المخالفون.

ألا يحتمل أنّ عمّال بنى امّيه وأزلام معاويه الذين وضعوا الأحاديث الكثيره فى مقابل حفنه من المال لتأييد حكومه بنى امّيه أو لدم مخالففيهم، حتى أنّهم نسبوا إلى النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله أحاديث موضوعه على لسان ابن عباس وبخاصّه ما ورد فى الروايات أنّ معاويه كان يلعن بعد الصلاه كلّ من: الإمام على والحسن والحسين عليهم السلام وابن عباس ومالك الأشتر وقيس بن عباد (رحمهم الله تعالى)(١).

يقول مؤلف كتاب معجم رجال الحديث بعد نقله لهذه الأقوال: ومن مجموع ما قيل عن ابن عباس يستفاد أنّه كان رجلاً جليل القدر ومدافعاً عن أميرالمؤمنين والإمام الحسن والحسين عليهم السلام كما ذكر العلّامة الحلّي وابن داود فى كتبهما الرجاليّه، وينقل المحدّث القمى عن الشهيد الثانى بعد ذكر بعض الأحاديث الوارده فى ذم ابن عباس قوله: إنّ جميع هذه الأحاديث ضعيفه.

وذكر المرحوم صاحب المعالم فى كتابه «تحقيق طاووسى» - بعد ذكره لمحبه وإخلاص ابن عباس لأميرالمؤمنين عليه السلام ونصرته له ودفاعه عنه، الذى لا يقبل الشك أو التردد فيه: ليس من المستبعد أن يقوم بعض الأشخاص بحسد ابن عباس وينسبوا له هذه الأقاويل الباطله.

ومن هنا فإنّ أغلب علماء الرجال من الشيعة وأهل السنّه يذهبون إلى صحه واعتبار الأحاديث التى يرويهها ابن عباس ولا يعتنون بمثل هذه الشبهات عنه، وعلى ضوء ذلك لابدّ من القول إنّ المخاطب لهذه الرساله شخص آخر غير ابن عباس، رغم أننا لا نكاد نعرفه بشكل دقيق، أمّا التعبير الوارد فى هذه الرساله عن المخاطب ابن عمّه فحاله حال ما يقال فى الكلام للمخاطب بأنّه أخ وأمّثال ذلك فهو كناية عن شدّه العلاقه والرفقه، ومن هذه الجبهه لم يورد السيّد الرضى اسم ابن عباس، مع أنّ فى الكثير من الموارد الأخرى يذكر المخاطبين لكتب الإمام عليه السلام، واكتفى فى هذا

ص: ١٠٤

١- (١) انظر: معجم رجال الحديث، ج ١٠، ص ٢٣٨، به نقل عن الطبرى.

المورد بعبارة: إلى بعض عمّاله.

ونختم الكلام هنا بحديث ينقله المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار في تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام وجاء في هذه الرواية عن رجل من أهل الطائف قال: أتينا ابن عباس رحمه الله عليهما نعوده في مرضه الذي مات فيه، قال: فأغمرى عليه في البيت، فأخرج إلى صحن الدار، قال، فأفاق فقال: إن خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني سأهجر هجرتين، وإني سأخرج من هجرتي، فهجرت هجره مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهجره مع علي عليه السلام، وإني سأعمى فعميت، وإني سأغرق فأصابني حكه فطحني أهلي في البحر فغفلوا عني فغرقت، ثم استخرجوني بعد، وأمرني أن أبرأ من خمسه: من الناكثين وهم أصحاب الجمل، ومن القاسطين وهم أصحاب الشام، ومن الخوارج هم أهل النهروان، ومن القدرية وهم الذين ضاهوا النصارى في دينهم، فقالوا: لا قدر، ومن المرجئه الذين ضاهوا اليهود في دينهم فقالوا: الله أعلم، قال: ثم قال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْيَيْ عَلَى مَا حَيَّ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمُوتُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ» قال: ثم مات (١).

والجدير بالذكر أن قبر ابن عباس موجود في الطائف وإلى جانبه مسجد فخم اطلق عليه اسمه.

ص: ١٠٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ١٥٢، ح ٢٠.

إلى عمر بن أبي سلمه المخزومي وكان عامله على البحرين فعزله واستعمل نعمان بن عجلان الزرقى مكانه (١).

نظرة عامة للرساله

يخطاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الرساله عامله على البحرين عمر بن أبي سلمه (ابن ام سلمه زوجة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله)، وفيها يثنى الإمام عليه السلام على خدماته وحسن سيرته ويدعوه للمشاركة في قاتل المناوئين في صفين، وقد عين الإمام بدله النعمان بن عجلان وهو من زعماء قبيله بنى عجلان.

ومن أجل أن لا يتكدر خاطر ابن أبي سلمه أو يستاء من هذا التبديل، فقد كتب له الإمام عليه السلام في هذه الرساله عبارات الشكر والمديح وخاطبه بلغه مفعمه بالمحبه من قبيل:

«وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعُدُوِّ، وَإِقَامِهِ عَمُودِ الدِّينِ».

ص: ١٠٧

١- (١) سند الرساله: جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه: من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله قبل السيد الرضى: ابن واضح اليعقوبى (المتوفى ٢٨٤) في تاريخه المعروف، والبلاذرى (المتوفى ٢٧٩) في كتابه أنساب الأشراف است. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٤٤).

ونستوحى من كلمات الإمام عليه السلام فى هذه الرساله النمط الأفضل فى كلفئه التعامل مع هذه المسائل وعزل بعض المسؤولين ونصب آخرفن مكانهم.

ص: ١٠٨

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِيَّ عَلَى الْبُحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَمَّا ذَمُّ لَكَ، وَلَا تَثْرِبِ عَلَيْكَ؛ فَلَقَدْ أَحْسِنْتَ الْوَلَايَةَ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمِهِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: أحسنت! لقد أدت الأمانة

إشارة

ينطلق الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة بقوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ، الزُّرَقِيَّ عَلَى الْبُحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ».

ولكن بما أن عمر بن أبي سلمه رجلاً طيباً ومخلصاً ومديراً ومدبراً وربما يتأثر سلباً بهذا التغيير في المنصب يخاطبه الإمام عليه السلام في ثمان جمل قصيره وعميقه المعنى ويؤكد له أن مثل هذا التبديل في الوظيفة لا يعنى إطلاقاً صدور خطأ من جانبه وبذلك يرفع ما قد يخالجه من قلق في هذا الشأن.

يقول الإمام عليه السلام:

«بَلَا ذَمٌّ لَكَ، وَلَا تَثْرِبِ (١) عَلَيْكَ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوَلَايَةَ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ (٢)، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ (٣)».

ص: ١٠٩

١- (١). «تَثْرِبِ» من ماده «ثَرَبَ» على وزن «سرو» في الأصل تعنى الجلد الذى يغطى المعده والأعضاء، وعندما تأتى هذه المفردة من باب تفعيل (تثريب) تعنى إزاحه هذه الجلده، ثم استخدمت بمعنى اللوم والتوبيخ والتقريع، وكأنَّ الإنسان بهذا العمل يكشف غطاء الذنب عن وجه الطرف المقابل.

٢- (٢) «ظَنِينٍ» تعنى المتهم، من ماده «ظنه» أى التهمه، والفرق بينها وبين المتهم فى العبارة المذكوره ربّما يكون بأنَّ سوء الظن بالمتهم أكثر وأشد من الظنين، وتستخدم فى موارد توجد فيها قرائن على إتهام الشخص.

٣- (٣) «مَأْثُومٍ» تعنى الشخص الذى ذكرت له ذنوب، ولكن «آثم» تعنى الشخص المذنب وكليهما من ماده «إثم» على وزن «اسم» ويعنى الذنب.

ونرى أنّ الإمام عليه السلام في هذه التعبيرات يؤكد له بشكل كامل أنّ هذا التغيير في المسؤولية ليس بسبب تقصيره في أدائه لوظيفته بل لأنّه يريد إلقاء مسؤوليته أهم على عاتقه.

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام لمضمون هذه المسؤولية الجديدة ويقول:

«فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمِهِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ (١) بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعِدُوِّ، وَإِقَامِهِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

إنّ سيره عمر بن أبي سلمه وسوابقه الجليله ووفائه للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع حالات بيان ذلك في شرح حاله، وكلّها شاهد على هذا المعنى.

وجمله

«أَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ...» لا تعنى الاستشهاد في سبيل الله مع الإمام عليه السلام، بل بمعنى حضوره مع الإمام في ميادين القتال والجهاد.

وجمله

«مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ...»، تبين أنّ عمر بن أبي سلمه رجلاً شجاعاً ومدبراً وحازماً ووفياً للإمام عليه السلام، وعبارته:

«جِهَادِ الْعِدُوِّ، وَإِقَامِهِ عَمُودِ الدِّينِ» تشير إلى أنّ عمر بن أبي سلمه يتمتع بمقام كبير ومكانه جليله إلى درجة أنّ الإمام عليه السلام يستعين به لإقامه عمود الدين والتصدي لقوى الظلم والانحراف.

تأمل

التعرّف على عمر بن أبي سلمة المخزومي والنعمان بن عجلان؟

كما ورد في نص الرسالة أنّ عمر بن أبي سلمه كان والياً على البحرين من قبل أمير المؤمنين عليه السلام قبل النعمان بن عجلان الذي جعله الإمام والياً على البحرين بعده، ومن اللازم التعرف على هذين الرجلين بشيء من الاختصار.

ص: ١١٠

١- (١). «استظّهر» من مادّه «استظّهار» ويعنى طلب المعونه من الشخص الآخر والإطمئنان لمساعدته.

أمّا عمر بن أبي سلمه فأُمّه أمّ سلمه زوجة النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله المعروفه، وقد ولدت من زوجها السابق هذا الابن، وأبوه أبو سلمه، وقد ولد هذا الابن فى السنه الثانيه من الهجره إلى الحبشه، لأنّ أباه كان من المهاجرين إلى الحبشه وقد توفى بعد عمر طويل نسيباً فى عام ٨٣ هـ للهجره فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان، وقد روى بعض الأحاديث عن النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله (١).

وقد كان عمر بن أبي سلمه مع الإمام على عليه السلام فى معركة جمل وكانت أمّه تحثه على نصره الإمام على، وقد كتبت للإمام رساله ودفعتها إلى ابنها يوصلها إلى الإمام عليه السلام: وجاء فى مضمونها لو أنّ الجهاد كتب على النساء لجت لأقاتل معك الأعداء، ولكننى أرسلت ابنى هذا بدلاً منى.

ثمّ إنّ أمير المؤمنين على عليه السلام عيّنه والياً على البحرين وبلاد فارس فى أيام خلافته، ويكفيه فخراً أنّه قد تربى فى أحضان النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله وسار فى خط الولايه وفى نصره الإمام على عليه السلام (٢).

وجاء فى بعض الروايات أنّ عمر بن أبي سلمه كان من الأشخاص الذين نقلوا الحديث الشريف عن النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله فيما يتصل بإمامه الاثنى عشر (٣).

أمّا النعمان بن عجلان فكان من صحابه النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله ومن كبار الأنصار وكان شاعراً وخطيباً بارعاً، ومن جملة ما أنشده فى يوم السقيفه بعد أن أثنى على مواقف الأنصار فى مواطن مختلفه ونصرتهم للإسلام والنَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه و آله ذكر فى قصيدته بيتين من الشعر فى الدفاع عن الإمام على ونصرته:

وَكَانَ هَوَانًا فِي عَلِيٍّ وَإِنَّهُ

لَأَهْلٌ لَهَا مِنْ حَيْثُ تَدْرِي وَلَا تَدْرِي

وَصَبِي النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ

وَقَاتِلُ فُرْسَانَ الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ

ص: ١١١

١- (١) الإستيعاب، ح ١٨٨٢، فى شرح حال عمر بن أبي سلمه.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٧٣.

٣- (٣) عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٨، ح ٨.

وبسبب هذه السوابق الجليلة عيّنه الإمام على عليه السلام على حكمه البحرين بعد عمر بن أبي سلمه ووضع بيده بيت المال، ولكن للأسف أنّ الأموال الكثيره تدفع بالإنسان نحو مترلقات الخطيئه والمفسده، قام هذا الوالى باعطاء مبلغ كبير من بيت المال لكل فرد من أفراد قومه وقبيلته يأتية إلى البحرين فلما وصل خبر ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام، كتب له كتاباً تويخياً وطلب منه أن يرفع إليه حساب بيت المال، ولكن بما أنّ النعمان لم يتمكن من حساب الأموال بشكل صحيح ودقيق، فقد أخذ ما تبقى من بيت المال وهرب إلى الشام والتحق بمعاويه(١).

ص: ١١٢

١- (١) انظر: مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٤٥ و ٣٤٦.

إلى مصقله بن هبيرة الشيباني وهو عامله

على أردشير خزه (١)

نظرة عامة للرساله

هذه الرساله تشبه ما ورد في الكتاب ٤١، وخلاصتها أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كتب إلى والٍ آخر يدعى مصقله بن هبيرة الشيباني رساله توبيخيه وشديده اللهجه، لأنّ الخبر وصل إلى الإمام عن أنّ مصقله يتلاعب في بيت المال ويهب منه إلى أفراد قبيلته بدون حساب وكتاب، فالإمام عليه السلام يلومه بشده على هذا العمل، وينصحه أن لا يبيع آخرته بدنياه، ولا دينه بالدينار، ولكن الإمام لا يتهمه بشكل قطعي في هذه الرساله، بل يقول: إذا كان ما بلغني عنك صحيحاً فأنت قد ارتكبت خطأ كبيراً واسخطت إلهك.

ص: ١١٣

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله قبل السيد الرضى، البلاذرى في كتابه أنساب الأشراف، وكذلك وردت في تاريخ اليعقوبى (ابن واضح) مع تفاوت يسير، وجاء في الخطبه ٤٤ الجزء الأول من هذا الكتاب موارد أخرى من سيره مصقله وحياته.

بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٍ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسَى خَطْتَ إِلَهِيكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامِيكَ: أَنْتَ تَقْسِمُ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَاذَتْهُ رِمَايَاهُمْ وَخِيُولُهُمْ، وَأَرِيقتَ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنْ اعْتَمَاكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَانًا، فَلَا تَسْتَيْتِهِنَّ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصَلِّحْ دُنْيَاكَ بِمَحَقِّ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمِهِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصُدُّونَ عَنْهُ.

الشرح والتفسير: جميع المسلمين سوايه في بيت المال

إشاره

يستفاد من عنوان هذه الرساله وكذلك ما ورد في الخطبه ٤٤ من هذا الكتاب، أنّ مصقله بن هبيرة الشيباني كان أحد عمال الإمام عليه السلام وكان والياً على قسم مهم بلاد فارس يسمى «اردشير خره» ويشمل عدّه مدن وقرى، وكما يقول ابن أبي الحديد كان مصقله من أحفاد نزار بن معد بن عدنان(١).

وكانت لمصقله بن هبيرة قصه فيما يتصل بأسرى بنى ناجيه وقد وردت تفاصيلها في الخطبه ٤٤ إذ أنّ بنى ناجيه كانوا من النصارى الذين أسلموا بعد الفتح وبقيت جماعه منهم على نصرانيتهم أو أنّهم ارتدوا على الإسلام، وبعد هزيمه أصحاب الجمل في البصره بايع الناس في تلك المنطقه لأمير المؤمنين عليه السلام سوى بنى

ص: ١١٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ١٢٧.

ناجيه الذين جهّزوا جيشاً لمقاتله الإمام، فأرسل لهم أمير المؤمنين، معقل بن قيس وهزمهم وأسر جماعه منهم، وعندما حملوا الأسرى إلى الكوفة وصلوا في طريقهم إلى منطقته «اردشير خره» وكان فيها مصقله والياً عليها من قبل الإمام على عليه السلام، فاشتراهم مصقله من معقل وكان عددهم خمسمائة نفر ودفع في مقابل ذلك غرامه تساوى خمسمائة ألف درهم وأطلق سراحهم ثم دفع هذا المبلغ من أموال بيت المال على أساس أنه قرض يقترضه من بيت المال ويسدده بعد ذلك ولكن مصقله أخذ يسوف في تسديد الدين، ثم إنه جاء بعد مدّه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة ودفع له مبلغاً من المال وهو يتوقع أن يعفو الإمام عن الباقي ولكن الإمام لم يقبل بذلك، لأنه ربّما تكون موافقته وتنازله عن الحقّ المذكور بدعه بحيث يتداع إلى الأذهان ما كان يفعله عثمان بصرفه في بيت المال، وبما أنّ مصقله كان يخشى من عداله الإمام ومطالبته ببقية المال رجح الهرب إلى الشام والالتحاق بمعاويه.

ومهما يكن من أمر فإنّ الرسالة مورد البحث تشير أيضاً أنّ مصقله كان من أتباع مدرسه عثمان بن عفان وكان يوزع أموال بيت المال على أقربائه وأرحامه قبل حادثه أسرى بنى ناجيه، وعندما وصل خبره إلى الإمام عليه السلام كتب له الإمام الرسالة مورد البحث.

وتشير هذه الرسالة إلى ثلاثه نقاط في غايه الأهميه الأولى أنه يقول:

«بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُهُ فَقَدْ أَسَخَطْتُ إِلَيْهِكَ، وَعَصَيْتُ إِمَامَكَ».

وهذه العبارة التي ذكرها الإمام عليه السلام بشكل مقتضب تشير إلى أنّ الإمام كان قد سمع خبراً عن مصقله لم يجزم بصحته وأنه اتخذ جانب الاحتياط لثلاثتهم شخصاً بريئاً.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يبيّن بشكل واضح ومفصل الخبر المذكور ويقول:

«أَنْتَ تَقْسِمُ فِيَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ، وَخُيُولُهُمْ وَأَرِيَقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنْ اعْتَمَاكَ (١)»

ص: ١١٦

١- (١). «أعتم» من ماده «إعتيام» ومن ماده «عيم» على وزن «عيب» في الأصل تعنى العطش والرغبة بتناول اللبن، وبما أنّ الإنسان عندما يشعر بميل شديد نحو شيء فإنه يسعى إلى اختيار أفضل أنواعه، وكلمه «عيمه» (بكسر الميم) تعنى كل شيء جيد ومختار من الشيء، وعليه فإنّ جملة «اعتماك» تعنى أنّهم اختاروك.

مِنْ أَعْرَابٍ قَوْمِكَ».

ومعلوم أنّ مصقله إذا كان قد ارتكب مثل هذا العمل فإنه يكون قد اقترف عملاً شنيعاً، لأنه أنفق المال الذي يعتبر حصيله دماء المجاهدين والشهداء من أجل تقوية مكانته الاجتماعيه في قومه.

ويتابع الإمام عليه السلام خطاب لمصقله في القسم الثاني من هذه الرساله ويقول:

«فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ (١)، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَانًا».

وهكذا نرى أنّ الإمام عليه السلام في هذه العبارات يتخذ مرّه أخرى جانب الاحتياط في الحكم على المتهم فربما وقع بعض الخطأ والاشتباه في نقل المخبرين وبالتالي ستعرض سمعه رجل مؤمن إلى الاهتزاز والهتك، ويقول الإمام: إنه إذا كان هذا الخبر صحيحاً فستسقط من عيني ويخف ميزانك عندي.

ونلاحظ أنّ الإمام عليه السلام في هذا المورد لا يهدده بعقوبه قاسيه ولكنه يخاطبه بآليه التوبيخ المعنوي التي تعدّ أقسى وأشد من العقوبه الظاهريه.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه لمصقله ويتحدّث معه بلغه النصيحه الصريحه والعميقه المغزى ويقول:

«فَلَا تَسْتَهِنَنَّ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَعْقٍ (٢) دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا».

ويديهي أنّ أى إنسان عاقل ومؤمن لا ينبغي أن يرجح حقّ أقربائه على حقّ الله تعالى، ويهتم لمصالحهم على حساب طاعه الله، فلا ينبغي لأى إنسان عاقل أن يستبدل رأس مال دينه الذي يقوده إلى الجنه ويعتبر سبب نجاته فى الآخرة، بمتاع

ص: ١١٧

١- (١). «النَّسَمَةُ» فى الأصل بمعنى التنفس ويقال لهبوب الريح الملائمه «نسيم» وأحياناً تطلق على نفس الإنسان أو روحه.

٢- (٢). «مَعْقٍ» تعنى المحو والهلاك.

الدنيا والزائل والرخيص، وعبارته: »

«الْأَخْسَرِينَ» إشارته إلى أنّ الإنسان يبيع أثمان ما لديه من بضاعه ومتاع بأزهد وأرخص ثمن.

وبما أنّ مصقله ربّما كان يظن أنّ عطاءه لأقربائه من بيت المال يدخل تحت عنوان صله الرحم وأنّه بعمله هذا يتحرك في خط الفضيله والإحسان، نرى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن ذلك بعبارته:

«الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا»، ولعلّه إشارته إلى مورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (١).

ثمّ يشير الإمام عليه السلام في ختام هذه الرساله إلى نقطه مهمه من تعاليم الإسلام وأحكامه فيما يتصل بحقوق المسلمين في بيت المال ويقول:

«أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمِهِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ».

وجمله »

يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ» نظر إلى أنّ كلمه «ورود» و «صدور» ترتبط في الأصل بورود العطشى إلى شريعة المال ثمّ حملهم الماء ثمّ عودتهم إلى مكانهم، فالإمام عليه السلام يشير هنا إلى هذه النقطه، وهى أنّ بيت المال كالنهر كبير الذى أجراه الله تعالى للمسلمين وهم فيه سواء، وكل شخص يرد هذا النهر من هذا الطريق يروى ظمأه وينتفع منه ثمّ يخرج منه.

وعبارته »

عِنْدِي» لا تعنى أنّه ينبغي حمل جميع أموال بيت المال إلى الإمام عليه السلام أنّ الواجب على المسلمين أن يتوجهوا من المناطق القريبه والبعيده إلى مركز الحكومه وإلى الإمام لدفع ما عليهم من حقوق الشرعيه ثمّ العوده إلى مناطقهم، المراد أنّ هذا العمل يجب أن يكون طبق البرنامج الذى احده لك وتحت إشراف، لا- أن يقوم عمّالى ووكلائى بتقسيم بيت المال وفق ما يروونه وبوحى ميولهم ورغباتهم.

ص: ١١٨

وعلى أيّ حال فهذه الجملة تشير إلى أنّ بيت المال يجب أن يقسّم بين المسلمين بصورة متساوية كما كان الحال في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولا يكون مثلما كان في عهد الخليفة الثاني الذي كان يرجح العرب على العجم، الأشراف والصحابه على الآخرين، أو مثل عصر عثمان الذي كان يقسّم بيت المال بين أقربائه وأرحامه من بني أمّيه بتميز سافر بين المسلمين والإشكال الذي وقع فيه مصقله هو أنّه كان متأثراً بثقافة عصر عثمان حيث كان يرى امتيازاً خاصاً على سائر المسلمين.

وممّا يجدر ذكره أنّ أموال بيت المال في هذا المورد لا تختص بالزكاه وأمّالها التي ترتبط بالأصناف الثمانية من المستحقين كما ورد في الفقه، بل يقصد بها أموال الخراج على الأراضي المفتوحة في ذلك اليوم، حيث كان الولاة يضعون الضرائب والخراج على جميع الأراضي المذكوره بنسبه عادله وكان جميع المسلمين في ذلك سواء، لأنّ هذه الأراضي قد فتحت عنوه بأيد المجاهدين ولا فرق في هذا الأمر بين الغنى والفقير والعرب والعجم، خلافاً لأموال الزكاه التي تختص بالفقراء والمساكين وباقي الطوائف المستحقين لها، وبما أنّ غالبية الأموال التي تجتمع في بيت المال من أموال الخراج، ولذلك يطلق عليها عبارته أموال بيت المال.

ومعلوم أنّ المناطق والأراضي في البلاد الإسلاميّه تختلف في ميزان الخراج والضرائب المترتبة عليها، ففي بعض لمناطق حيث تكون الأراضي زراعيّه وبساتين كثيره المحصول، فالخراج عليها يكون كثيراً، وفي بعض المناطق أقلّ من ذلك حيث يصرف خراج مثل هذه المناطق على أهلها ولا يستحق نقلها مركز الخلافه.

ومن هذه الجبهه يقول الإمام عليه السلام: على فرض أنّك وزعت خراج تلك المنطقه على جميع الناس، فمع ذلك كان عملك هذا مجاناً للصواب، لأنّ هذا الخراج يتعلق بجميع المسلمين، سواء من كان في منطقتك أم في منطقتنا، فجميع المسلمين ينبغي أن ينتفعوا ويستفيدوا من هذا المال بصورة عادله ومتساويه.

جواب مصقله للإمام عليه السلام

ورد في بعض الروايات أنّ مصقله بعد أن استلم رساله الإمام عليه السلام إليه كتب له رساله جوابيه يبريء فيها نفسه، يقول في رسالته للإمام:

«أمّيا بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين فليسأل إن كان حقاً فليعمل على عزلي بعد نكالي، فكلّ مملوك لي حرّ، وعلى أيام ربيعہ ومضر، إن كنت رزئت من عملي ديناراً، ولا درهماً، ولا غيرها، منذ وُلّيته إلى أن ورد عليّ كتاب أمير المؤمنين، ولتعلمنّ أنّ العزل أهون عليّ من التهمه، فلما قرأ - الإمام عليه السلام - كتابه قال: ما أظنّ أباالفضل إلّاصداقاً» (١)، (يعني أنّ المخبرين قد أخطأوا في إخبارهم).

ولكن يستفاد من بعض الروايات أنّ معاويه بعد استشهاد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام اختار مصقله أن يكون والياً على طبرستان (مازندران في هذا العصر) ولكن مصقله قتل قبل أن يصل إلى تلك المنطقه ولم يعد من سفره هذا أبداً، بحيث صار ذلك مضرب مثل بين الناس، فعندما لا يريد المرء القيام بعمل معين يقول: انتظر حتى يعود مصقله من طبرستان (٢).

وقد كتابنا بحوث مفصله عن مصقله ذيل الخطبه ٤٤.

ص: ١٢٠

١- (١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٠١.

٢- (٢) فتوح البلدان البلاذري، ج ٢، ص ٤١١.

إلى زياد ابن أبيه وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْهِ

يُرِيدُ خَدِيعَتَهُ بِاسْتِحْوَاقِهِ (١)

نظرة عامه للرساله

إنَّ قَصَّه هذه الرساله تبدأ من وصول خبر إلى الإمام على عليه السلام أنَّ معاويه أرسل إلى زياد بن أبيه رساله يدعى فيها أنَّه أخوه الحقيقي، وعلى هذا الأساس ألحق معاويه زياد بن أبيه الولد غير المشروع بأبي سفيان، وأراد بهذه الطريقه أن يخدع زياد ويتمكن من جذبته إليه لتحقيق أهدافه وغاياته.

الإمام على عليه السلام في هذه الرساله يحذّر زياد بن أبيه الذي كان في ذلك الزمان والياً على بلاد فارس من قبل الإمام، بأنَّ هذه الخطه هي خطه شيطانيه مدروسه من قبل معاويه فلا ينبغي أن تقع في حباله وتنخدع برسالته، فكل ابن يرتبط بعلاقه

ص: ١٢١

١- (١) سند الرساله: أورد هذه الرساله قبل السيّد الرضى، المدثني (في كتاب فتوح الإسلام)، والجدير بالذكر أنَّ الروايه التي ينقلها المدثني تختلف الروايه التي نقلها السيّد الرضى نهج البلاغه، ويشير إلى أنَّ السيّد الرضى لم يأخذ هذه الروايه بل من مصدر آخر، ونقلها بعد السيّد الرضى، ابن الأثير في كتابه الكامل في حوادث سنه ٤٤، وفي أسد الغابه، وابن عبد البر في الاستيعاب في شرح حال زياد. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٥٢).

البنوه بأبيه وأمه في البيت الذي ولد فيه، وحتى النسبه غير المشروعه التي تقوم على أساس ادعاء شخص مثل أبى سفيان بأن زياد من نطفته لا تثبت حقيقه، وعندما وصلت الرساله إلى زياد قبل كلام الإمام وهدأت نفسه، رغم أن زياد بعد استشهاد الإمام التحق بمعاويه بسبب هذه الخديعه مع إضافه بعض التهديد لزياد.

ولكن المستفاد من كتب التاريخ أن ام زياد كانت جاريه لطبيب معروف عند العرب يدعى «حارث بن كلده» والتي تزوجت من عبد يدعى «عبيد» وحسب الظاهر كان زياد نتيجة ذلك الزواج، ولذلك يقال له: زياد بن عبيد، ولكن بما أن والده كان عبداً وغلاماً غير معروف فرجح بعضهم أن يقال عن زياد «زياد بن أبيه» والظاهر أن زياد نفسه لم يكن يأبى هذا الاسم، ولكنه بعد إلحقه معاويه بأبى سفيان ادعى أنه أخوه كان يقال له: زياد بن أبى سفيان، والحقيقه أن كل الإنسان يستولى عليه العجب والحيره من هذه الوقاحه بأن شخصاً يدعى لنفسه خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله ومع ذلك يصرح بأنه أخ لابن الزنا، والأمر الآخر المثير للعجب أن المحيط الاجتماعى فى ذلك الوقت إلى درجه من التلوث والتشوه بحيث قبل زياد بن أبيه هذا الادعاء.

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ، فَاحْذَرُهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ: يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلْبِغَ غَرَّتَهُ. وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَهُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزَعَهُ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ: لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ، وَالنَّوْطِ الْمُدْبَذِ.

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابِ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ.

قال الرضى، قوله عليه السلام: «الواغل» هو الذى يهجم على الشرب ليشرب معهم، وليس منهم، فلا يزال مدفعا محاجزا. و«النوط المدبذ»: هو ما يئاط برحل الزايب من قعب أو قدح أو ما أشبه ذلك، فهو أبداً يتقلقل إذا حث ظهره واستعجل سيره.

الشرح والتفسير: إحذر من أغوائهم!

إشارة

طبقاً لما ورد فى كتاب تمام نهج البلاغه، أن الإمام عليه السلام فى مستهل هذه الرساله يخاطب زياد بن أبيه ويشوقه على الصبر والاستقامه فى مقابل الوسوس الشيطانيه التى تنبعث هنا وهناك، ثم يقول:

«وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ (١) لُبَّكَ (٢)،

ص: ١٢٣

١- (١). «يَسْتَزِلُّ» من ماده «زَلَل» على وزن «قمر» بمعنى الخطأ، و«يَسْتَزِلُّ» يعنى أنه يريد أن يوقع الآخر فى الخطأ.

٢- (٢) «لُبُّ» فى الأصل بمعنى المخ فى كل شىء، ويقال للعقل «لُبُّ».

وَيَسْتَفِئِلُ (١) غَرْبَكَ (٢) ، فَاحْذَرُهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ».

ويستفاد من هذه العبارات وعبارات أخرى وردت في الرسائل السابقه، أنّ جواسيس الإمام عليه السلام كانوا ينتشرون في جميع البلاد الإسلاميّه، حتى أنّهم كانوا يصلون إليه الرسائل الخاصّه التي تصل إلى ولاته من قبل الأعداء، ليستطيع الإمام التصدي للخطر في الوقت المناسب، ونرى أنّ الإمام عليه السلام في مطلع هذه الرساله يحذّر زياد بن أبيه من شيطنه معاويه وأن يتخذ جانب الحيطه والحذر من مكره ودسائسه.

ثمّ يضيف في توضيح ذلك:

«يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ (٣) غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلْبَ (٤) غَرَّتَهُ (٥)».

وهذا الكلام للإمام عليه السلام مقتبس من الآيه الشريفه ١٧ من سوره الأعراف حيث تتحدّث عن قول الشيطان: «ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ».

والمقصود أنّ الشيطان يستخدم كلّ وسيله لخداع الناس وإغوائهم، فأحياناً يستخدم آليه التطميع أو أخرى التهديد وثالثه الشهوات والأهواء والنوازع النفسانيّه، ورابعه عن طريق الآمال والتمنيات والمناصب والمقامات الموهومه والعناوين البراقه، والغايه من كلّ ذلك تنحصر بأمر واحد، ألا وهو إغواء الإنسان وسوقه في متهات الضلاله والهلكه.

وقد استخدم شيطان الشام هذا الأسلوب أيضاً وسعى إلى خداع الناس كلّ بحسب طريقته الخاصّه لجذبهم إليه والاستفاده منه في مسار تحقيق مطالبه وشهواته.

وينقل عن أحد العرفاء أنّه قال: ما من صباح إلّا قعد لى الشيطان على أربعه

ص: ١٢٤

١- (١) «يَسْتَفِئِلُ» من ماده «فَلَل» على وزن «قمر» بمعنى كسر الشىء أو التقليل من حدّه السكين.

٢- (٢) «غَرْبَ» بمعنى النشاط، وكذلك التصميم.

٣- (٣) «لِيَقْتَحِمَ» من ماده «اقتحام» بمعنى إدخال الشىء بالقوه فى شىء آخر.

٤- (٤) «يَسْتَلْبَ» من ماده «استلابه» بمعنى النهب والغاره والسرقة، وأصلها من «سلب».

٥- (٥) «غَرَّتَهُ» بمعنى الغفله والتساهل.

مراصد من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، أما بين يدي فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» (١) وأما خلفي فيخوفني الضيقه على مخلفي فأقرأ: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» (٢)، وأما عن قبل يميني فيأتيني من جهه الثناء، فأقرأ: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (٣)، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» (٤)، (٥).

ووقد ورد في الروايات فيما يتصل بهذه الجهات الأربع للشيطان ما خلاصته: «ما روى عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ثُمَّ لَأَيُّنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ»

،معناه، اهْوَنُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ الْآخِرَةِ ، «وَمِنْ خَلْفِهِمْ»

،أَمْرُهُمْ بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ، وَالبُخْلَ بِهَا عَنِ الْحُقُوقِ لَتَبْقَى لَوْرَثِيهِمْ ، «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ»

أَفْسُدُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ بِتَرْيِينِ الضَّلَالَةِ، وَتَحْسِينِ الشُّبْهِهِ، «وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ»

بِتَحْيِيْبِ اللذاتِ إِلَيْهِمْ، وَتَغْلِيْبِ الشَّهَوَاتِ عَلَى قُلُوبِهِمْ...» (٦).

أجل، فإن وساوس شياطين الجن والانس تهجم على الإنسان من كل باب لإغواءه وإضلاله.

وهنا ربما يطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تذكر النصوص جهه الفوق والتحت في مسأله إتيان الشيطان؟ ذهب بعضهم إلى أن ذلك بسبب أن جهه العلو هي جهه الرحم، لأن الرحمه الإلهية تنزل دائماً من هذه الجهه على الإنسان، وأما جهه التحت سبب الخوف والوحشه، فلو أن شخصاً خرج من باطن الأرض ودعا الإنسان إلى عمل معين وذلك من شأنه إخافه هذا الإنسان والاستيحاش منه.

ص: ١٢٥

١- (١) . سورة طه، الآية ٨٢.

٢- (٢) . سورة هود، الآية ٦.

٣- (٣) . سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

٤- (٤) سورة سبأ، الآية ٥٤.

٥- (٥) بهج الصباغه، ج ١٤، ص ٣٧٢.

٦- (٦) مجمع البيان، ذيل الآية ١٧ من سورة الأعراف.

ويحتمل أنّ الشياطين يأتون إلى الناس بشكل طبيعي، ونعلم أنّه لا أحد يأتي إلى شخص آخر من جهة الفوق والتحت، بل يأتيه من إحدى جوانبه الأربعة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام تعرض في سياق كلامه لادعاء معاوية في الحاق زياد بن أبيه به (بوصفه أخاه) واستدل على بطلان هذا الادعاء بدليل منطقي وقال:

«وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَهُ (١) مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزَعَهُ (٢) مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ: لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ».

وقول الإمام عليه السلام «فلته» من قبل أبي سفيان إشاره إلى ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه نقلاً عن كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر قال: إنّ عمر بعث زياد في إصلاح فساد واقع في اليمن، ولما رجع من جهته خطب عند عمر خطبه لم يُسمع مثلها، وأبوسفيان حاضر، وعلى عليه السلام وعمرو بن العاص، فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام، لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفيان: إنّ لقرشي، وإني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه، فقال علي عليه السلام: ومن هو؟ قال: أنا. فقال: مهلاً يا أباسفيان (أى اسكت)! وجاء في روايه أخرى أنّه عليه السلام قال: اسكت يا أباسفيان فإذا سمعك عمر فإنه سيسارع في عقابك.

وجاء في روايه ثالثة أنّ عمرو بن العاص قال له: إذا كنت تعلم أنّ زياد ابنك، فهلا تستلحقه، قال: أخاف هذا العير الجالس أن يخرق عليّ إهابي (٣).

ومن المعلوم أنّ أباسفيان لا يستطيع إثبات أنّ نطفه زياد من عنده بسبب إرتكابه لعمل منكر مع ام زياد، بل اعتمد على الظن والتخمين، ولكنّه تحدّث بلسان بكل صلافة ووقاحة عن ذلك في حضور الإمام علي عليه السلام وآخرين، ولهذا السبب

ص: ١٢٤

١- (١). «فلته» من ماده «فلت» على وزن «ثبت» في الأصل بمعنى فقدان الشيء، ولذلك تطلق هذه الكلمه على الكلام الذي يصدر من الإنسان بدون دقه ويفلت من فمه وتقال: «فلته»، وكذلك تطلق على الحوادث الفجائيه وبدون تأمل.

٢- (٢) «نزعته» من ماده «نزع» على وزن «نظم» بمعنى الدخول في عمل بقصد الإفساد وإيجاد النزاع بين الناس، و «نزعَات شيطان» تقال للوساوس الشيطانيه التي توقع النزاع بين الأفراد.

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٨٠.

يذكر الإمام على في رسالته مورد البحث زياد بن أبيه بأن مثل هذه الادعاءات الشيطانية لا تعتبر معياراً لإثبات النسب في الإسلام، ومن هذه الجهة لا يمكنك أن ترث أبا سفيان أبداً، لأن ابن الزنا لا يرث من أبيه وأمه شيئاً (وأنت بدورك لم تدع ميراثاً لنفسك منه) وعلى ضوء ذلك لا ينبغي أن تسلم نفسك لوساوس معاوية الشيطانية.

وفي ختام رسالته يقول الإمام عليه السلام:

«وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ (١)، وَالنَّوْطِ الْمُدْبَذِ».

وبعبارة أخرى إن معاوية إذا أراد أن يدعى إختك له من هذا الطريق ووافقته على ذلك، فسوف لن تكون ابناً لأبي سفيان ولا أخاً لمعاوية بل تكون وسمه عار لك أيضاً بأنك ابن زنا، حتى أنك لا تنال ميراثاً من تلك العائلة الغريبة عنك ولا تحسب ابن مشروعاً لها، رغم أن إخوه معاوية الذي إرتكب الكثير من أعمالاً قبيحة والشيعه لا تعدّ افتخاراً لك.

والجدير بالذكر أن هذه الرسالة وطبقاً لما أورده المرحوم السيد الرضى في ذيلها كانت مؤثره في قلب زياد إلى درجة أنه قال:

«فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابِ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكُفْبِهِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ».

ثم إن معاوية أبقى زياد بن أبيه في موقعه والياً على بعض بلاد فارس، ثم نقله والياً على العراق ووضع تحت تصرفه منطقه مهمه من العراق، وكانت هذه الوصمه باقيه في زياد ابن أبيه بسبب حبه لجاه والمقام بحيث إن هذا الهاجس قاده آخر المطاف إلى وادى الشر والشيطنه.

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة من كلام زياد بن أبيه أن مقصود زياد هو أن أبا سفيان شهد بهذا الأمر قطعاً بأننى من نطفته، وهذا المعنى بقى في نفسه إلى زمان الحاق معاوية لزياد به.

ص: ١٢٧

١- (١). «مدفع» من ماده «دفع»، تعنى الشخص الذى يمنع من عمل معين.

يتحدّث السيّد الرضى فى هذا المورد عن تفسير بعض اللغات الغامضة:

«قال الرضى، قوله عليه السلام: «الواغِل» هُوَ الَّذِى يَهْجُمُ عَلَى الشُّرْبِ لِيَشْرِبَ مَعَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَا يَزَالُ مُدْفِعاً مُحَاجِزاً. وَ «النَّوْطُ الْمُدْبَذِبُ»: هُوَ مَا يُنَاطُ بِرِجْلِ الرَّاِكِبِ مِنْ قُوعٍ أَوْ قَدَحٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ أَبَدًا يَتَقَلَّبُ إِذَا حَثَّ ظَهْرَهُ وَاسْتَعْجَلَ سَيْرُهُ».

تأمل

قصة نسب زياد المعقده

فى هذا المورد كلام كثير، إلى درجه أنّ بعض شراح نهج البلاغه كتب فى هذا الموضوع عشرات الصفحات، ونشير فى هذا المورد إلى عدّه مسائل:

١. هل أنّ زياد ابن زنا؟

ما يستفاد من رساله أعلاه هو أنّ الإمام عليه السلام نفى ادعاء أبى سفيان وكذلك معاويه بأنّ زياد الابن غير المشروع لأبى سفيان، وقال إنّ هذا ادعاء شيطانى، وفى ظاهر الشرع بأنّ كلّ ولد يلحق بأبيه وأمه اللذين تربطهما رابطة الزواج ويولد الولد فى ذلك البيت.

مضافاً إلى أننا نعلم أنّ الإمام عليه السلام نصب زياد والياً من قبله على فارس، وهذا المنصب يستلزم بمفهومه إجازته لإمامه الجمعه والجماعه، فكيف يمكن أن يختار الإمام عليه السلام شخصاً لهذا المقام وهو ابن زنا، فى حين أننا نعلم أنّ مشروط إمامه الجمعه والجماعه طهاره المولد.

ومن جهه أخرى، فقد ورد فى التواريخ فيما يتصل بواقعه كربلاء وعاشوراء أنّ الإمام سيّد الشهداء عليه السلام قال:

«أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ تَرَكَنِي بَيْنَ السَّلَةِ وَالذَّلَّةِ ... هَيْهَاتَ مِنِّي الذَّلَّةُ» (١).

ص: ١٢٨

أما ما هو المقصود بكلمه «الدعى» فى نظر اللغه، بذهب بعض إلى أنّ المراد هو ابن الزنا، ولكن عندما نراجع كتب اللغه نجد أنّ لهذه الكلمه مفهوماً عاماً وتعنى من يدعى البنوه، وكذلك تطلق على الشخص المتهم بنسبه، وجاء فى لسان العرب:

الدعى يعنى من يدعى له البنوه، وكذلك الابن الذى ينسب لغير أبيه.

يقول القرآن الكريم: «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» (١) وعلى هذا الأساس فرّبما أراد الإمام عليه السلام أنّ القول بأنّ زياد قد ولد فى اسره حقيقه لا شأن لها كما يولد العبيد، وقد نسب إلى غير أبيه لغرض كسب المكانه والموقع فى المجتمع.

ويحتمل أيضاً أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بيّن الحكم الظاهرى للمسأله، وهو «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ» ولكن الإمام الحسين عليه السلام ذكر حقيقه الأمر وأنّ زياد ابن غير مشروع.

وأما لابن زياد المسأله أوضح وأجلى فى أنّه ابن غير مشروع وأنّ امّه مرجانه المشهوره بالفجور، ومن هذه الجبهه وطبقاً لما ورد فى تواريخ كربلاء، خاطبت الحوراء زينب عليها السلام ابن زياد عندما رام توييخها وذمّها بقولها له: «يا ابن مرجانه».

ويحتمل أيضاً فى المقام من «الدعى بن الدعى» يزيد وأبيه معاويه وأنّه إشاره إلى نسبهما المتلوث.

٢. والد زياد ووالدته

المعروف أنّ والد زياد كان عبداً يدعى عبيد وقد تزوج من جاريه «حارث بن كلده» من أطباء العرب المعروفين واسمها سميّه، وقد ولد زياد فى بيتها، رغم أنّ أبا سفيان ومن بعده معاويه سعيّا إلى تبني زياد واعتباره ابناً لأبى سفيان، وأما ما يقال من أنّ سميّه كانت من ذوات الأعلام (أى النسوه المعروفات بالفحشاء والزنا) فهو

ص: ١٢٩

١- (١). سوره الأحزاب، الآيه ٤.

بعيد، لأنّ جاريه طيب معروف كحارث بن كلده لا يمكن أن تكون من ذوات الأعلام كما هو المعروف.

ولكن ورد في كتب التاريخ أنّ أباسفيان توجه في سفر إلى الطائف وطلب من شخص يدعى أبو مريم، وهو من الأشخاص السيء الصيت امرأه فاحشه ليمارس معها الجنس، فقدم له أبو مريم سميه امّ زياد، وقالت له: دع زوج عبيد يعود من الصحراء وينام في البيت وسوف أتى إليك، ثمّ إنّها جاءت إلى أبي سفيان ومارست الجنس معه، ولعلّ أباسفيان عندما قال أنّه زياد ابني كان ناظر إلى هذه الواقعة.

٣. قصّه استلحاق معاويه لزياد

إنّ قصّه الحاق معاويه لزياد بآل أبي سفيان واتخاذه أخاً له تعدّ من عجائب تاريخ الإسلام، يقول الشيخ المصري المعروف محمّد عبده في شرحه لنهج البلاغه:

إنّ قصّه زياد بن أبيه قصّه غريبه تدعو الإنسان إلى التأمل، لأنّ معاويه نسبه إلى لأبي سفيان ليكون أخاه مدعيّاً أنّ أباسفيان عاشر امّه سميه وهي زوجته رجل آخر، فأنجبت زياداً منها.

ثمّ يضيف: وأغرب ما في القصّه أنّ ادعاء هذه الأخوه (غير المشروعه) وقعت في مجلس علني ورسمي وبتحقيق الادعاء على رؤوس الأشهاد فلم يخجل منه زياد، موازناً بين مغانم هذه الإخوه وبين إزدراء الناس له، ففضل إخوه الخليفه على سلامه العرض، وهكذا في سبيل السلطه لم يكن الرجل ذوالنخوه يخجل من أن يثلم عرضه إذا كان في هذه منفعه (ولو بشكل غير مشروع على سلامه وصحه نسبه، أجل، فمثل هذه الأمور مهدت الطريق السلطه والمقام هذا الرجل المتكبر، فلم يخجل من تعرض شرفه ونسبه إلى الاهتزاز في مقابل المنافع التي يجنبها من ذلك)^(١).

ونضيف نحن، أنّ الأعجب من ذلك أنّ المحيط الإسلامي الذي أوجده النبي

ص: ١٣٠

١- (١) شرح نهج البلاغه عبده، ذيل الرساله ٤٤، ص ٤٥٨.

الأكرم صلى الله عليه وآله ولم يمض عليه أكثر من نصف قرن تعرض للتلوث والتشويه بسبب تصرفات بنى أميّه إلى درجه أنّ الخليفه يتجرأ بتثيت مثل هذا المنكر في الملاء العام، فالويل للمسلمين إذا سقطوا في أسر مثل هذه الحكومات الجاهله والملوثه.

وعلى أيه حال فالقصه كما يلي: روى المدائني في كتاب فتوح الإسلام: إنّ معاويه لما أراد استلحاق زياد وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياد معه وأجلسه بين يديه على المرقاه التي تحت مرقاته، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد، فمن كان عنده شهاده فليقم بها، فقام ناس فشهدوا أنّه ابن أبي سفيان، وأنهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته، وقام أبو مريم السلولي، وكان خماراً في الجاهليّه، فقال: أشهد يا أمير المؤمنين أنّ أباسفيان قدم علينا بالطائف، فأتاني فاشترت له لحماً وخمراً وطعاماً فلما أكل قال: يا أبا مريم، أصب لي بغيّاً، فخرجت فأتيت بسميّه، قلت لها: إنّ أبا سفيان ممن عرفت شرفه وجوده، وقد أمرني أن أصيب له بغيّاً، فهل لك؟ فقالت: نعم، يجيىء الآن عبيد بغمه وكان راعياً فإذا تعشى، ووضع رأسه أتيته، فرجعت إلى أبي سفيان فأعلمته، فلم نلبث أن جاءت تجرّ ذيلها فدخلت معه، فلم تزل عنده حتى أصبحت، فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبكك، قال خير صاحبه ولولا ذفر في أبطيها، فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم لا تشتم امهات الرجال فتشتم امك، فلما انقضى كلام معاويه ومناشدته، قام زياد، وأنصت الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنّ معاويه والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولست أدري حقّ هذا من باطله وهو والشهود أعلم بما قالوا، إنّما عبيد أب مبرور ووالٍ مشكور، ثم نزل (الظاهر أنّ المراده من الوالي هو المعاويه) (1).

ص: ١٣١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٨٧.

كما تمت الإشارة إليه آنفاً فقد كان زياد في الأصل يدعى زياد بن عبيد، وكان أبوه عبداً وراعياً وكانت أمه جاريه أبي حارث بن كلده الطيب العربي المعروف، وأحياناً يقال له: زياد بن أبيه، وأخرى زياد بن أمه، لأن أباه عبد وليس له مكانه اجتماعيه في الناس، وبعد أن ألحقه معاويه بنفسه صار يقال له زياد بن أبي سفيان وكان منذ صباه ذكياً وخطيباً مفوهاً وبلغاً، ولد في الطائفه في عام فتح مكه، وقيل إنه ولد في عام الهجره وقال آخرون أنه ولد يوم بدر، ولكنه لم يشاهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وكان مع أمير المؤمنين عليه السلام في جميع حروبه، وبقي مع الإمام الحسن عليه السلام إلى زمان صلحه مع معاويه، وبعد ذلك خدعه معاويه وطلب منه المجيء إليه وتوفي زياد في الكوفه في شهر رمضان عام ٥٣ في سن ٥٦ (وذهب بعضهم إلى أن عمره أكثر من ذلك أو أقل).

أمياً سيره حياته فتشكّل من مرحلتين متفاوتتين تماماً، المرحله الأولى كان يتحرك في خط الحق، وكان رجلاً موثقاً ومدبراً مدبراً، ولهذا السبب عينه الإمام على عليه السلام والياً له على فارس، وقد أدار المنطقه بشكل جيد وكا يجمع الخراج بأفضل صوره ويرسله إلى أمير المؤمنين عليه السلام فبلغ ذلك إلى معاويه واشتد عليه هذا الأمر، فكتب له رساله وذكر له في مضمونها: أمياً بعد فيأته غزتك قلاع تأوى إليها ليلاً، كما تأوى الطير إلى وكرها، وأيما الله لولا انتظار بك والله أعلم به لكان لك منى ما قاله العبد الصالح: «فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بَجُنُودٍ لَّا قَبِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ» (١) وكتب في أسفل الكتاب شعر من جملته:

تَنسَى أَبَاكَ وَقَدْ شَالَتْ نُعُومَتُهُ

إِذَا يَخْطُبُ النَّاسَ وَالْوَالِي لَهُمْ عُمُرُ

فلما ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال: العجب من ابن آكله الأكباد

ص: ١٣٢

ورأس النفاق، يهددني ويبنى وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وزوج سيده نساء العالمين وأبى السبطين، وصاحب الولاية والمنزلة والإخاء في مئة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان، أما والله لو تخط هؤلاء أجمعين إليّ لوجدني أحمر مخشن ضرباً بالسيف.

ثم كتب زياد رساله إلى أمير المؤمنين على عليه السلام وبعث بكتاب معاويه معها: فكتب إليه الإمام على عليه السلام يقول: «أما بعد، فإني قد وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً، فإنه قد كانت من أبى سفيان فلتة في أيام عمر من أمانى التيه وكذب النفس، لم تستوجب بها ميراثاً ولم يستحق بها نسباً، وأن معاويه كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه من خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثم احذره ثم احذره والسلام».

أمياً المرحلة الثانية من حياته اختلفت تماماً عن المرحلة السابقة، وبتعبير معاصر أنه انقلب ١٨٠ درجة على ما كان سابقاً، وهذه المرحلة تبتدىء منذ أن خدعه معاويه بواسطة المغيرة بن شعبه، وقد استغل معاويه نقطه الضعف في زياد هو حبه للجاه والمقام، فدعاه إليه بعد قضيه صلح الإمام الحسن عليه السلام وادّعا إخوته (أنه ابن غير مشروع لأبى سفيان) وولاه حكومه فارس، ثم وسع دائره نفوذه وألحق بولايته الولاية على الكوفه والعراق، فما كان من زياد من أجل تثبيت حكومته والتصدي للثورات الشعبيه ضد معاويه وأزلامه، إلما أن بدأ بقمع الأصوات المناوئه لحكومته بنى امية، وبخاصه الشيعة الموالين لأهل البيت عليهم السلام فكان يستخدم فيهم القتل والقمع والشده بأقصى صورها، وقد ارتكب معهم جرائم لا تعد ولا تحصى بحيث إنه شوّه تاريخ الإسلام بأفعاله، ومن ذلك أنه قبض على «حجر بن عدى» كان رجلاً شجاعاً ومؤمناً ومن شيعة الإمام على عليه السلام المخلصين ومشهوراً بالصلاح والنقاء ومن صحابه النبي المعروفين، ومعه جماعه من أصحابه وأرسلهم إلى الشام، وقد أمر معاويه بقتل هذا الرجل الصالح في منطقه «مرج عذراء» وذلك أضاف صفحه سوداء أخرى إلى صفحات حياته السوداء، وقد وصل به الأمر رجه أن الحسن البصرى الذى لم تكن له علاقه جيداً مع الإمام على عليه السلام قال فى حقه: إن معاويه قد ارتكب ثلاثه أمور، كل

واحد منها تكفى لهلاكه، الأول، أنه سلط السفهاء والجهلاء على المسلمين ووضع بيدهم مقاليد الحكم والسلطه، والثانى الحاقه لزياد بنفسه خلافاً لقول النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «الولد للفراس وللعاهر الحجر» والثالث: قتله لحجر بن عدى، فالويل له من حجر وأصحاب حجر(١).

ونحن نقول أيضاً: نعوذ بالله من سوء العاقبه وتورط الإنسان فى فخاخ الشياطين من الجن والإنس أن يفارق الحياه فى حال الكفر والضلاله والجريمه.

ص: ١٣٤

١- (١) ما ورد أعلاه مقتبس من كتاب الاستيعاب، وشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، وتنقيح المقال، للعلامة المامقانى وشرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، فراجع.

إلى عثمان بن حنيف الأنصاري - وكان عاملاً على البصره وقد بلغه أنه دعى إلى وليمة قوم من أهلها،

فمضى إليها - قوله (١)

نظرة عامه للرساله

تعتبر هذه الرساله من الرسائل المهمه جداً في نهج البلاغه والتي تتضمن دروساً ومعطيات كثيره للسالكين في طريق الحق والإيمان وبخاصه أولياء الأمور والمسؤولين في البلدان الإسلاميه وتتضمن جهات عدّه:

ص: ١٣٥

١- (١) سند الرساله: صرح صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه بأنّ الصدوق ذكر قسماً من هذه الرساله في كتاب الأمالي قبل السيد الرضى، والجدير بالذكر أنّ السيد الرضى في شرحه لهذه الرساله يقول في عدّه موارد وفي روايه أخرى ورد كذا وكذا، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر عنده نقل منه هذه العبارة المتفاوته، بل إنّه في أحد الموارد يقول: إنّ جماعه نقلوا هذه العبارة بكذا وكذا، والتعبير بالجماعه جدير بالتأمل، مضافاً إلى ذلك فإنّ مقاطع من هذه الرساله وردت في كتب متعدده بعد السيد الرضى كخراج للقطب الراوندى، وروضه الواعظين للفتال النيسابورى، والمناقب لابن شهر آشوب، وبيع الأبرار للزمخشري مع اختلاف يسير، هذا الاختلاف يشير إلى مصادر أخرى لديهم (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٧٣). وقد أورد هذه الرساله «البرى» (المتوفى قرن ٧) في كتاب الجوهره في نسب الإمام على، ص ٨١، مع بعض الإضافات.

١. بدايه يخاطب الإمام عليه السلام واليه على البصره عثمان بن حنيف ويخبره بخبر مشاركته فى ضيافه أحد أشراف البصره، وفى تلك الضيافه التى لم يشترك فيها سوى الأثرياء والمتولين، جلبت إلى المائده شتى أصناف الطعام والمأكولات المتنوعه، والإمام هنا يوبّخه على مشاركته فى مثل هذه المائده.

٢. وفى القسم الثانى من الرساله يذكر الإمام عليه السلام أنّ كلّ إنسان ينبغى أن يقتدى فى حياته بإمامه وقائده، ثمّ يبيّن له سيره حياته وسلوكه بوصفه إماماً للمسلمين وكيف أنّه اكتفى من الدنيا بردائين قديمين وبقرصين من الخبر ولم يدخّر لنفسه ثروه ومالاً من زخارف الدنيا، ولكنّه يؤكّد له بأننى لا أتوقع أن تعيش كما أنا أعيش فى واقع الحياه، ولكن أتوقع منك البساطه والزهد فى الحياه وأن لا تنسى حالات التقوى والنزاهه.

٣. وفى قسم آخر من هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى قصّه فذك ويقول: الشىء الوحيد الذى كان فى أيدينا من مال الدنيا هو «فذك» وقد استولى عليها الحساد وأعداء أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله، ورغم أننى لا احتاج لفذك ولغير فذك، فنهايه حياتنا جميعاً الموت، وسيكون بيتنا هو القبر الضيق والمظلم.

٤. وفى مقطع آخر من هذه الرساله يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمه وهى أنّ بساطتى فى المعيشه ليست بسبب أننى لا أتمكن من التوصل إلى الدنيا وتحصيل المواهب والنعم الماديه فيها، بل بسبب ما أتولاه من وظيفه خطيره ومسؤوليه كبيره فى عهدتى، والتى تتمثل فى منصب الإمامه وزعامه المسلمين، وهذا المقام يستوجب أن اشارك الناس الضعفاء فى صعوبات الحياه ومشاكلها، فلا أبيت شعباناً فى حين يوجد من ينام جائعاً فى أطراف البلد الإسلامى.

٥. وفى مقطع أخرى يجيب الإمام عليه السلام عن هذا السؤال، وهو أنّه ربّما يقول البعض: إذا كان على بن أبى طالب يأكل من هذا الطعام البسيط فهذا من شأنه أن يكون الإمام ضعيفاً فى قوّته البدنيه بحيث لا يستطيع مقارعه الشجعان فى ميادين

القتال، ولكن حالي كالشجره البريه التي تواجه صعوبه ومشقه في الماء والغذاء ولكنها قويه وصلبه أمام التحديات.

٦. وفي آخر مقطع من هذه الرساله (والتي حذف السيد الرضى بعضاً من مقاطعها وفقراتها) يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بلغه المعرض عنها ويعلن بصوت عالٍ أنه برىء من زخارفها وجواذبها، وبعد أن يثنى الإمام على الأشخاص الذين يتحركون من موقع المسؤوليه والالتزام بالتكاليف والقيم الإنسانيه أمام الله تعالى ويحيوا الليل بالعباده، يخاطب مره أخرى عثمان بن حنيف ويوصيه بتقوى الله ويدعوه إلى سلوك مسلك الزهد والبساطه في الحياه يضمن له النجاه في الآخره من النار.

ص: ١٣٧

إشارة

أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادِيهِ فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ! وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوفٌ، وَعَعِيَّتُهُمْ مَدْعُوفٌ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظَةُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجُوهِهِ فَانْظُرْ مِنْهُ.

الشرح والتفسير: دعوته الوالي إلى مادبه فاخره!

إشارة

في المقطع الأول من هذه الرسالة يخاطب الإمام عليه السلام عثمان بن حنيف الأنصاري، الذي يعدّ من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأجلاء وقد اختاره أمير المؤمنين ليكون والياً على البصرة ويتحدّث معه بلغة التوبيخ ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادِيهِ فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ (١) الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ!».

«فتيه» جمع «فتى» في الأصل تعنى الشاب اليافع، وأحياناً تطلق على المسن الذي يملك النشاط والبهجة في حياته، وفي هذه العبارة تعنى رجل من الأشراف.

«مادبه» من ماده «أدب» وتعنى الدعوه الرسميه المعتمره التي تراعى فيها الآداب.

و «جفان» جمع «جفنه» (على وزن وزنه) وتعنى الآنيه الكبيره المخصصه

ص: ١٣٩

١- (١). جمله «تستطاب لك» بمعنى أنه يطلق لك جلب الأنواع الجيده واللذيذه من الأطعمه، وهى من ماده «طيب» بمعنى الطاهر واللذيذ والجيد.

للطعام، وهذا التعبير يشير إلى أنّ المجلس المذكور كان مجلساً ضخماً وقد دعيت إليه جماعه من الأشراف وجيىء إلى المائده بأنواع الأطمعه اللذيذه.

ثم يضيف الإمام عليه السلام:

«وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَيَّ طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ (١) مَجْفُوعٌ (٢)، وَغَيْبُهُمْ مَدْعُوعٌ».

هنا نرى أنّ الإمام عليه السلام يؤكد أنّ العيب الكبير فى هذه المأذبه أنّها منحصره بالأغنياء فقط، فلو أنّ تلك الأطمعه المتنوعه واللذيذه كانت تشمل الجياع والمحرومين ليأكلوا منها فليست فى ذلك مشكله كبيره، ومن هذه الجبهه فإنّ هذه المائده كانت مليئه بشتى أنواع الأطمعه اللذيذه والمأكولات المتنوعه، ومن جبهه أخرى أنّ الأثرياء فقط هم المدعون لهذه المائده دون المحرومين، ولو أضفنا إلى ذلك دعوه عثمان بن حنيف إلى هذه المائده فسيضعاف الإشكال.

ونستوحى من سياق هذه الرساله أنّ الإمام عليه السلام يطرح إشكالاً رابعاً فى دعوه واليه إليها ويتمثل فى وجود أموال مشتبّه فى هذه المأذبه، لأنّ الإمام عليه السلام يضيف إلى ذلك قوله:

«فَانظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ (٣) مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ (٤)، وَمَا أُيَقِنْتَ بِطَيْبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ».

والنقطه الملفته للنظر، أنّ الإمام عليه السلام كان يهتم بمراقبه عمّاله وولاته بشكل دقيق وينظر إلى حركاتهم وسلوكياتهم، لئلا ينحرف الوالى أدنى انحراف وأن لا- توجد فيه أيّه نقطه ضعف حتى المشاركه فى ضيافه غير مناسبه له، بحيث إنّ الإمام عليه السلام يرسل له رساله مطوله وزاخره بالنصائح المختلفه ويحذّره من مغبه مثل هذه السلوكيات الخاطئه، وربّما لانجد فى العالم أجمع مثل هذا التوجيه الدقيق والضبط فى إداره الأمور.

ص: ١٤٠

١- (١). «عائل» بمعنى من له عيال محتاجين إليه.

٢- (٢) «مجفوع» بمعنى المحروم والشخص الذى لم يعطى حقّه.

٣- (٣). «تقضمه» من ماده «قضم» على وزن «فهم» بمعنى مفض الطعام فى الفم، وأحياناً تأتي بمعنى الأكل، و «مقضم» يطلق على الطعام فى الفم.

٤- (٤) «الفظه» من ماده «لفظ» بمعنى اخراج الطعام من الفم، ويقال للألفاظ لأنها تخرج من الفم.

ومن بين كتب الإمام عليه السلام ورسائله إلى عمّاله ربّما نجد الكثير من مثل هذه الرسائل، وكلّها تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان في غاية التدبير ومنتهى الدقّه في أمر إداره الحكومه.

والملاحظه الأخرى، أنّ الإمام عليه السلام يرى في هذه الرسالة أنّ الولاة والمسؤولين في الحكومه الإسلاميه ينبغي أن يقفوا إلى جانب الناس وجمهور المستضعفين والمحرومين وأن لا- يعتنوا أبداً بالطبقه المترفه الذين تزداد توقعاتهم وتقل معونتهم، والتجارب تؤكد على أنّ المحرومين المستضعفين هم أوّل المدافعين عن الدين والبلاد الإسلاميه في مواقع الخطر والظروف الصعبه.

تأمل

من هو عثمان بن حنيف؟

جاء في كتاب «الأعلام للزركلي»: «عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسى، أبو عمرو! من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله شهد احداً، وما بعدها، وبسبب ورعه ونزاهته وولاه الخليفه الثاني على السواد مسؤولاً- على الأراضى الخراجيه في العراق، ثم ولاه على البصره، ولما نشبت فتنه الجمل (بين عائشه وعلى) دعاه أنصار عائشه إلى الخروج معهم على على، فامتنع، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، واستأذنوا به على عائشه فأمرتهم بإطلاقه، فلحق بعلى وحضر معه الواقعه ومعرکه الجمل، ثم سكن الكوفه وتوفى في خلافه معاويه»^(١)، وقال البعض الآخر: توفى في زمن خلافه معاويه في المدينه.

واللافت أنّ ابن عبدالبر ذكر في كتابه «الاستيعاب» أنّه عندما فتح المسلمون العراق، تشاور الخليفه الثاني مع أصحابه فيمن يرسله إلى العراق ليكون والياً عليه، فاتفق الجميع على اختيار عثمان بن حنيف وقالوا: إنّه يستطيع إداره ما هو أكبر من

ص: ١٤١

١- (١). الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ٢٠٥.

ذلك، لأنه يملك من البصيره والعقل والمعرفه والتجربه الكثير(١).

وجاء فى كتاب «مستدركات علم رجال الحديث» أنّ عثمان بن حنيف وأخاه سهل بن حنيف كانا من جمله اثنى عشر نفر الذين اعترضوا على أبى بكر وانتقدوا أعماله، ثم يضيف: إنّ عثمان وأخاه سهل كانا من شرطه الخميس فى عهد الإمام على عليه السلام وهم الذين ضمن الإمام على لهم الجنة(٢).

وجاء فى اسد الغابه: أنّ عثمان بن حنيف قال: إنّ رجلاً ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه وآله، فقال: ادع الله أن يعافينى، فقال صلى الله عليه وآله: إن شئت دعوه وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: ادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِعَيْتِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتَقْضِيَ لِي اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ»(٣).

ونختم هذا المقطع بكلام للإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام (طبقاً لما ورد فى رجال المامقانى): «وعده مولانا الإمام الرضا عليه السلام من الباقين على منهج نبيهم صلى الله عليه وآله من غير تغيير ولا تبديل»(٤).

ص: ١٤٢

- ١- (١) الاستيعاب، ج ٣، ص ٨٩.
- ٢- (٢) مستدركات علم رجال الحديث، ج ٥، ص ٢١٣.
- ٣- (٣) اسد الغابه، ج ٣، شرح حال عثمان بن حنيف، رقم ٣٥٧١. وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى مسند أحمد، ج ٤، ص ١٣٨؛ ومستدرك الحاكم، ج ١، ص ٥١٩. ويقول الحاكم بعد نقل هذا الحديث: إنّ هذا الحديث صحيح السند رغم أنّ البخارى ومسلم لم ينقلاه، (ليت المخالفين الجاهلين يتمسكون لا أقل بمبانيهم الروائيه ليعلموا مدى وقوعهم فى الاشتباه).
- ٤- (٤) رجال المامقانى، شرح حال عثمان بن حنيف.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا، يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِيهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَاتَقْصِدُونَ عَلَيَّ ذَلِكُكُمْ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفْفٍ وَسِدَادٍ. فَوَاللَّهِ مَا كَنْزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ بِسَبْرًا، وَلَمَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي تَوْبِي طَمْرًا، وَلَا حَزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَبْرًا، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبْرَهُ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصِهِ مَقْرَهُ.

الشرح والتفسير: لم أَدخِر من الدنيا شيئاً لنفسي

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه لعثمان بن حنيف وأمثاله في هذا المقطع من الرسالة ويشير إلى عدّه نقاط مهمّة لإيقاظ عناصر الخير والإيمان في وجدان عامله، يقول بدايه:

«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا، يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّ الإنسان في مسيره حياته المعقده وسلوكه المادي والمعنوي لا يستطيع أن يتحرك لوحده ومن دون إرشاد وإقتداء بقوده صالحه، فالإنسان إمّا أن يكون في ذاته يملك جميع الملاكات واللباقات اللازمه ليكون إماماً للناس أو أن يقتدى بمن تتوفر فيه هذه الملكات والقابليات اللائقه، وإلّا فإنّه سيسير في متاهات الضلاله والحيره.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِيهِ (١)، وَمِنْ طُعْمِهِ

ص: ١٤٣

١- (١). «طمر» تعني الثوب الخلق والقديم، وفي الأصل من ماده «طمر» على وزن «امر» ويعني تغطيه الشيء، وأمّا استخدام الإمام عليه السلام لهذه الكلمه بصيغه التثنيه فمن أجل أنّ أحدهما يشير إلى الثوب والآخر إلى اللباس الداخلي.

المشهور أنّ هذين الثوبين كانا من الكرباس والقرصين من خبز الشعير، وهما يشكلان طعام الإمام عليه السلام اليومي، وقرص واحد لوجه الظهر والآخر للعشاء، وهذا في الحقيقة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقتدى به الإمام على عليه السلام، كما في ورد في الحديث الشريف:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَا اتَّخَذَ فَمِيصِينَ وَلَا إِزَارَيْنِ وَلَا زَوْجِينَ مِنَ النَّعَالِ» (٢).

خلافاً لأهل الدنيا والمترفين من الناس، الذين يملكون أحياناً عشرات الأنواع من الألبسة والأحذية، بل إنّ بعضهم لا يلبسون لباساً فاخراً لأكثر من مرّة أو بعض المرات ثم يتركوه جانباً، وأحياناً نراهم ينقلون من صناديق والحقائب المليئة بالملابس من مكان لآخر عند انتقالهم من منازلهم، وأما موائدهم الملوّنة فحدّث عنها ولا حرج.

وبما أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم أنّ من النادر أن يستطيع أى إنسان أن يعيش مثل هذه الحياه الصعبة ويرضى بشطف العيش وخاصّه فيما لو كان من كبار المسؤولين وأصحاب المناصب الذين يملكون الإمكانيات الكثيره فإنّه يتعرض لهذه النقطة بالذات ويقول:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ لَاتَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعْيُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعَفْفٍ وَسَدَادٍ».

وهذه إشاره إلى أنّه لا يتوجب عليكم أن تعيشوا مثل هذه الحياه الصعبة وحالات الزهد الشديد، ولكن لا ينبغي أن تغفلوا عن أربع نقاط، وبذلك تعينونى فى أمر الحكومه وإداره هذه البلاد الإسلاميه الواسعه.

ص: ١٤٤

١- (١) «قرص» فى الأصل بمعنى الشىء المدور، ولذلك يطلق على الشمس والقمر والخبز المدور فيقال قرص الخبز أو قرص الشمس، والتثنيه فى عباره الإمام عليه السلام إشاره إلى طعام يوم واحد، لأنّ كثير من الناس فى ذلك الزمان يتناولون الطعام فى اليوم والليله مرّتين.

٢- (٢) فى ظلال نهج البلاغه، ج ٤، ص ١٦.

الأولى: التوصية بالورع، وتعنى فى الحقيقه حاله التقوى فى حدودها العالیه، ثم التوصیه ب «الاجتهاد» يعنى بذل الجهد والسعى فى طريق حفظ العدل وحمایه المحرومين، والثالثه: «العفه» بمعنى حفظ النفس فى مقابل الشهوات والنوازع المختلفه، والرابعه: «السداد» يعنى انتخاب الطريق الصحیح والمستقیم فى اجتناب فى الطرق المختلفه التى تقود الإنسان إلى المتاهه والضلاله.

ومعلوم أنّ المسؤولين فى البلاد الإسلامیه لو التزموا بهذه الأمور الأربعة وتحركوا فى سلوكهم الفردى والاجتماعى بمستويات الطبقة الوسطى من الناس لا أكثر، فإنّ كلّ شىء سيكون فى محله وستنحل الكثير من العقد المستعصیه فى أمر الحكومه ويعيش عامّه الناس حالات الرضا عن هؤلاء المسؤولين.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطه ثالثه لتكون عبره لجميع الولاه والعمّال فى حكومته، ويقول:

«فَوَاللّٰهِ مَا كَنْزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا (١) ، وَلَمَّا دَخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا (٢) ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِإِبَالِي تَوْبِي طَمْرًا، وَلَا حَزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَبْرًا، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقَوْتِ أَتَانٍ دَبْرِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّى لست كبعض أهل الدنيا الذين يدّخرون من زخارف الدنيا ومتاعها ويتظاهرون بالزهد والتقوى فإنّ ظاهرى وباطنى واحد، فأنا لا أملك من المال والثروه لظاهرًا ولا باطنًا، ولست من المرائين والمتظاهرين بالزهد وترك الدنيا.

والملفت أنّ الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرساله يحدد الإمكانيات الماديه للدنيا فى أربعه أشياء: أحدها، الذهب والفضه حيث يجمع الناس الدينار والدرهم ويدّخرونها ويفرحون لكميه ما يدّخرون، والآخر، الأموال المتنوعه التى تعدّ رأس المال لهم من قبيل الخيول والإبل ووسائل المعيشه والدور والفرش والأثاث وما إلى ذلك، الثالث: الملابس الفاخره والمتنوعه، والرابع: الأراضى الزراعيه والبيوت

ص: ١٤٥

١- (١) . «تبر» قطعات الذهب والفضه قبل أن تصنع منها الزينه أو تكون مسكوكه.

٢- (٢) «وفر» يقول أرباب اللغه أنّها تعنى المال الكثير من ماده «وفور» بمعنى الزيادة والكثره، وأحيانًا تطلق على كلّ شىء الكثير.

والقصور، يقول الإمام عليه السلام: إنني لم أتوجه في حياتي إلى أي من هذه الأمور الأربعة (في حين أن بإمكانى ذلك).

والعبارة الأخيرة في هذه الرسالة تعكس غاية التواضع والزهد لدى الإمام عليه السلام، بأن يلفت نظر مخاطبه أو مخاطبيه لهذه المسألة المهمّة، وهي أن لا يتلوثوا بالحياه المترفة لطبقه الأشراف بل يعيشون حاله المواساه للمحرومين والمعوزين وينخرطون في معيشتهم وحياتهم مع هذه الطبقة المحرومه من المجتمع.

«أَتَانِ دَبْرَهُ»، تطلق على الدواب التي جرح ظهرها من كثرة الأحمال والعمل الشاق، ولهذا السبب لا تأكل كما ينبغي وتفتقد شهيتها للطعام (والجدير بالذكر أن بعض نسخ نهج البلاغه لم ترد فيها هذه الجملة والجملة التي بعدها ولم يذكرها الشراح في شروحهم لنهج البلاغه).

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يتحدّث الإمام عليه السلام عن عدم اهتمامه بالدنيا وأنها في نظره ليست ذات قيمة إطلاقاً ويقول بمضمون عميق:

«وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصِهِ (١) مَقْرِهِ (٢)».

وتوضيح ذلك أن لشجره البلوط أنواع وأقسام، إحداها أنها تثمر ثمره مُرّه ومضافاً إلى مرورتها فإنّها قاسيه وصلبه، وبسبب قساوتها يستخدمها الدباغون في دباغه الجلود.

وبديهى أن تناول مثل هذه الثمره المرّه والقاسيه غير مستساغ أبداً ومن يضعها في فمه يضطر للفظها فوراً، وهذا التشبيه يعدّ من أقوى وأبلغ تشبيهات نهج البلاغه عن حال الدنيا، حيث إنّ الإمام عليه السلام جسد باطن وحقيقه الدنيا في قالب هذا المثال، وتأتى لاحقاً مثل هذه العبارات في نهج البلاغه.

ص: ١٤٦

١- (١) «عفصه» تاره تطلق على شجره البلوط، وأخرى عل ثمرتها، وهذه المادة يترشح منها سائل أبيض ومضافاً إلى مرارته فإنّه قابض.

٢- (٢) «مقر» تاره تأتي بمعنى المر، وأخرى بمعنى الحامض، وفي هذا المورد جاءت بمعنى الأوّل، وهي تأكيد على مفهوم «عفصه».

إشاره

بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكِّ مِنْ كُلِّ مَا أَطْلَنَّهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَحَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنَعَمَ الْحَكَمُ اللَّهُ. وَمَا أَضْنَعُ بِفَدَكِّكَ وَغَيْرِ فَدَكِّكَ. وَالنَّفْسُ مَطَانُنُهَا فِي عَدِّ جَدَّتْ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيْبُ أَحْبَابُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُشْحَتِهَا، وَأَوْسِيَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الْحَجْرُ وَالْمَدْرُ، وَسَدَّ فَرْجَهَا التُّرَابُ الْمُتْرَاكِمُ؛ وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَهُ يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبَتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ. وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَيِّفِي هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمِيحِ، وَنَسَائِحِ هَذَا الْقَرْصِ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطْعَمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَاطَمَعَ لَهُ فِي الْقَرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشُّبُعِ - أَوْ أَبِيْتِ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بَطُونٌ غَرَثِي، وَأَكْبَادُ حَرِّي، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بِيْطْنِهِ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنُ إِلَى الْقَدِّ

أَفْتَعُ مِنْ نَفْسِي بَأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبِهِ الْعَيْشِ!.

الشرح والتفسير: كيف أكون أمير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر؟

إشاره

ومع الالتفات إلى ما تقدم بيانه من قول الإمام آنفاً:

«وَلَا حُرْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا» يستعرض الإمام في هذا المقطع مسأله «فدك» المؤلمه بوصفها استثناء لما ذكره قبل

قليل، وكذلك لغرض التأكيد على عدم اعتنائه للدنيا من جهه، ومن جهه أخرى إشاره إلى أشكال الظلم والجور التي تعرض لها الإمام من قبل مناوئيه:

«بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُّ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَدَّحَتْ (١) عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَيَّخَتْ (٢) عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكْمُ اللَّهُ».

ونعلم أنّ «فدك» تقع على مقربة من قلاع خيبر، حيث جاء أهالي المنطقه بعد فتح خيبر وصالحوا النبي الأكرم صلى الله عليه و آله على نصف قريه فدك بدون أن قتال، فأعطى النبي الأكرم صلى الله عليه و آله بساتين فدك في حياته إلى ابنته فاطمه الزهراء عليها السلام، وبما أنّ محصول فدك ربّما يساعد أميرالمؤمنين عليه السلام في أمر الخلافه، قام المنافسون بعد رحله النبي الأكرم صلى الله عليه و آله بأخذها بسرعه من يد فاطمه الزهراء عليها السلام وطرودوا عمّالها على تلك البساتين ولم يعيدوها لها أبداً، وهو ما سيأتي شرحه في ختام هذه الرساله إن شاء الله.

والمراد من جمله جمله

«كَانَتْ فِي أَيْدِينَا...» هي مدّه أربع سنوات منذ فتح خيبر إلى رحله النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

وجمله

«فَشَدَّحَتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ...» إشاره إلى الغاصبين لمقام الحكومه والخلافه حيث دخلوا بفدك وتمسكوا بها خوفاً من وقوعها بيد بني هاشم، ممّا يعرّض حكومتهم للاهتزاز والضعف.

وجمله

«وَسَيَّخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ...» إشاره إلى بني هاشم فعندما رأوا مناوئيهم مصرين على غضب فدك لم يستمروا بمطالبتهم لفدك وتركوها لهم، وبذلك أظهروا عدم اهتمام واعتنائهم بهذا الأمر.

وجمله

«نِعْمَ الْحَكْمُ اللَّهُ»، جمله عميقه المعنى وإشاره إلى الحوادث المؤلمه التي وقعت بعد تداعيات فدك، فهنا يفوض الإمام عليه السلام أمر الحكم في هذه المسأله إلى الله

ص: ١٤٨

١- (١). «شحت» من ماده «شح» على وزن «نه» بمعنى البخل المصاحب للحرص.

٢- (٢) «سخت» الجود والسخاء.

يوم القيامة، واللافت أنه لم ينقل عن الإمام عليه السلام أنه استعاد فدك في أيام حكومته وخلافته حيث كان بإمكانه ذلك.

ومن أجل أن لا يتصور أحد أن الإمام عليه السلام يرغب في تملك فدك في نفسه، يتابع الإمام القول:

«وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ. وَالنَّفْسُ مَطَانُنُهَا (١) فِي غَدِّ جَدَّتْ (٢) تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيْبُ أَحْبَابُهَا».

ثم يواصل الإمام عليه السلام في هذا الحديث بتوضيح أكثر ويتحدث عن القبر ونهايه حياه الإنسان ويقول:

«وَحُفْرَةُ لَوْ زِيدَ فِي فَسْحَتِهَا وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لِأَضْعَاطِهَا (٣) الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ (٤)، وَسَدُّ فُرْجِهَا التُّرَابُ الْمُتْرَاكِمُ».

وهذه إشاره إلى أن القبر عادة يكون حفرة صغيره لا تتسع لأكثر من جسد الإنسان، بل أحياناً يتم إدخال الميت إلى هذه الحفرة بصعوبه بالغه، وعلى فرض أن الحافر للقبر عمل على توسيع حفرة القبر بنفسه أو بطلب من الورثه، فمع ذلك لا ينفع الميت شيئاً، لأنه لا بد من ملء ثغرات الحفرة بالحجر والطين وتغطيه جميع نوافذه وثغراته بشكل كامل، فالإنسان الذى يعيش مثل هذا المصير كيف يرتبط قلبه بمال الدنيا وبساتينها وزينتها وقصورها؟

وما ورد فى الروايات أن المرء إذا شعر بالحزن والغم فعليه بزياره أهل القبور للتخفيف عن غمه وحزنه، فربما يكون ناظراً إلى هذه الحقيقه، وهى أن الغم عادة ما يكون بسبب المال والمقام والدينوى، وعندما يصل الإنسان إلى آخر منزل فى حياته ويرى مصيره فى نهايه هذه الحياه وأنه سيودع يوماً جميع ما يملكه من أموال ومقام وجاه، ويكتفى بعدّه قطع من الكفن يأخذها معه إلى القبر فذلك من شأنه أن

ص: ١٤٩

١- (١). «مطآن» جمع «مظنه» بمعنى المكان الذى يضم أو يطمئن الإنسان بوجود الشىء يطلبه فيه.

٢- (٢) «جدت» بمعنى القبر.

٣- (٣). «اضغط» من ماده «اضغات» بمعنى العصر من ماده «ضغت» على وزن «وقت» بمعنى استخدام القوه فى الشىء والضغط عليه.

٤- (٤) «المدر» يقال للطين الصلب الملتصق ببعضه مثل قطعه الآجر.

يزيح من قلبه هذا الغم والغصه.

وينقل المرحوم المحقق التستري قصه في هذا المجال عن المرحوم السيد نعمه الله الجزائري، وربما كان لهذه القصة جانب التمثيل يقول: «أن رجلين تنازعا في دار فانطق الله لونه من جدار تلك الدار، فقالت: إني كنت ملكاً من ملوك الأرض ملكت الدنيا ألف سنة، فلما صرت تراباً أخذني خزاف بعد ألف سنة فصيرني خزفه فبقيت ألف سنة، ثم أخذني فصيرني لونه، وأنا في هذا الجدار منذ كذا وكذا، فلم تنازعا في هذه الدار؟»^(١).

ثم إن الإمام عليه السلام يبين درساً نافعا لكل سالك إلى الله تعالى ويتحرك في طريق الصلاح والنجاه يوم المعاد ويقول:

«وَأِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرَوْضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِي آمَنَهُ يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثَبَّتْ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ (٢)».

الرياضه في حقيقتها تطويع النفس وتدجينها وأحياناً تستخدم هذه الكلمه في مورد الحيوانات الجموحه، وأخرى في مورد النفس المعانده وغير السلسله القياده، واليوم تستعمل هذه الكلمه بمعنى الرياضه البدنيه، واللافت أن الإمام عليه السلام مع مقامه السامى والعظيم في أمر تصفيه النفس وتنقيه الروح والسلوك في مدارج الكمال المعنوى والسير إلى الله تعالى والوصول إلى مقام لا يرى فيه سوى الله تعالى ومع ذلك يقول:

«هِيَ نَفْسِي أَرَوْضُهَا...»، ويشير في ذلك إلى نقطتين: الأولى: أن الإنسان مهما سعى لرياضه نفسه والحركه في عمليته بناء الذات، فإنه لا ينبغي أن يطمئن إلى هذه الحيه الرقطاء النائمه وعليه أن يعيش الحذر الدائم من خطرها ويقظتها.

والأخرى: أن الإمام عليه السلام عندما يتحدث بمثل هذا الكلام مع كونه قد حاز تلك المقامات والمراتب الجليله في الكمال المعنوى، فينبغي على الآخرين أن يحسبوا حسابهم ولا يغفلوا من أخطار النفس الشريره والأماره.

ص: ١٥٠

١- (١) شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٥، ص ٣٤٠.

٢- (٢) «المزلق» بمعنى زحلق من ماده «زلق» على وزن «شفق» بمعنى التزحلق.

ومن اللازم الإشاره إلى هذه النقطة أيضاً، وهى أن الإمام عليه السلام يؤكد أن الغايه من رياضه النفس بآليه التقوى هى تحصيل الأمن يوم القيامه ويوم الخوف الأ-كبر والنجاه من المنزلقات التى تقود الإنسان إلى وادى جهنم، وهذا يعنى أن تحصيل حاله الأمن هذه لا تتيسر إلا من خلال رياضه النفس وتطويعها على أمور الخير والطاعه والعبوديه، وقد ورد فى الروايات الإسلاميه أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، أى أنه أشد وأعظم من جهاد الأعداء فى ساحات القتال والحرب.

وهذا الكلام فى الحقيقه مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ»^(١).

وعبارته «مزلق» يمكن أن تكون إشاره إلى جسر الصراط، لأنّ المستفاد من الآيات والروايات الشريفه أن الصراط عبارته عن جسر ممتد على نار جهنم أن عبوره بسلام صعب جداً حيث ينزلق منه المنحرفون وأهل الضلاله ويسقطون فى جهنم.

يقول القرآن الكريم: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا»^(٢).

وبما أن رياضه النفس على نحوين: فتاره، يروض الإنسان نفسه لعدم وجود أدوات تحصيل الحياه الدنيويه وافتقاده لوسائل المعيشه المرفهه، وأحياناً أخرى يروض الإنسان نفسه بدفاع من الإيمان والإرادته والعزم على تهذيب النفس فى عين قدرته على نيل جميع المواهب الماديه والدنيويه، ولذلك يتابع الإمام عليه السلام قوله فى هذا الشأن لئلا يتصور أحد أن الإمام يروض نفسه على الشاكله الأولى يقول:

«وَلَوْ شِئْتَ لَاهْتَدَيْتَ الطَّرِيقَ إِلَىٰ مُصَفَىٰ هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ»^(٣)، وَنَسَائِجِ^(٤) هَذَا

ص: ١٥١

١- (١) سورة الأنعام، الآية ٨٢.

٢- (٢) سورة مريم، الآيتان ٧١ و ٧٢.

٣- (٣). «القمح» بمعنى الحنطه.

٤- (٤) «نسائج» جمع النسيج بمعنى المنسوج.

الْقُرْصِ (١). وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَيَوَايَ، وَيُقَوِّدَنِي جَشَعِي (٢) إِلَى تَخْيِيرِ الْمَأْطَعِمِهِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَمَاطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّيْعِ -».

وكما أشرنا آنفاً، فالإمام عليه السلام في هذا المقطع يشير إلى الوظيفة الثقيلة للولاه والمسؤولين في البلاد الإسلاميه وأنهم لا ينبغي أن يطمعوا في الأطمعه اللذيذه والملابس الفاخره ويتحركوا على مستوى التكالب على حطام الدنيا في حين أنهم يحتملون أو يعلمون بوجود أشخاص جياع وعرات في شتى أصقاع البلاد الإسلاميه.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الأبعاد العاطفيه، وهذا في الحقيقه يمثل بُعداً ثالثاً لهذه الموضوع، ويقول:

«أَوْ أُبَيْتَ مِبْطَانًا (٣) وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرَثِي (٤)، وَأَكْبَادٌ حَرَى (٥)، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بِبْطَنِهِ (٦)

وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ (٧) إِلَى الْقِدِّ! (٨)»

جمله

«وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ!» فسرها غاليه شراح نهج البلاغه كما أوردناها آنفاً، وقالوا: إنَّ الناس في سنوات القحط والمجاعة يصل بهم لأمر من الجوع أحياناً أن يأكلوا الجلود غير المدبوغه للحيوانات، وهذه الجملة إشاره إلى هذا المعنى، وذهب بعضهم إلى أن المراد من

«تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ!» إشاره إلى المثل

ص: ١٥٢

١- (١). «القرص» بمعنى الحرير.

٢- (٢) «جشع» بمعنى الحرص والطمع، وتأتي أحياناً بمعنى الحرص الشديد.

٣- (٣). «مبطان» هو الشخص الذي إمتلأت بطنه من الطعام، من ماده «بطن» وهذه المفرده صيغه مبالغه.

٤- (٤) «غرثي» تعنى الجوعان (وصيغه المفرد المؤنثه وجاء صفة للبطون).

٥- (٥) «حرى» بمعنى العطشان من ماده «حراره».

٦- (٦) «بطنه» كثره الأكل (من ماده «بطن»).

٧- (٧) «تحن» من ماده «حنين» بمعنى التمايل والاستعطاف لإلفات النظر.

٨- (٨) «قيد» تعنى الجلد أو ما يشبه القربه التى التوضع فيها السوائل، وتطلق أحياناً على قطع اللحم الجاف التى توضع فى القربه، ويقال عنها «قيد»، وهذا الشعر لحاتم الطائي صاحب الكرم المعروف لدى العرب (شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٢٨٨).

المعروف حيث يقال: إنَّ الشخص الفلاني التصق جلد بطنه بظهره من الجوع، («القد» يعنى الجلد، و «تحن» الميل والانحناء)، وذهب آخرون إلى أنّ كلمه «القد» يعنى القطع من اللحم التى يضعها العرب سابقاً أمام الشمس لتجف ويدخرونها إلى أيام القحط والحاجه، ويبدوا أنّ التفسير الأول أنسب.

وعلى أيه حال، فربّما تكون جميع هذه المعانى والتفاسير واقعيه أو تكون للمبالغه.

يقول الشاعر:

نَظَرْتُ إِلَى الدُّنْيَا بَعَيْنِ مَرِيضَةٍ

وَفِكْرُهُ مَغْرُورٍ وَتَدْبِيرٌ جَاهِلٍ

فَقُلْتُ هِيَ الدُّنْيَا الَّتِي لَيْسَ مِثْلُهَا

وَنَافَسَتْ مِنْهَا فِي غُرُورٍ بَاطِلٍ

وَضَيَعْتُ أَحْقَابًا أَمَامِي طَوِيلَهُ

بَلَدَاتِ أَيَّامٍ قِصَارِ قَلَائِلِ (١)

ثم يتابع الإمام عليه السلام كلامه عن ترويضه لنفسه وزهده ويبيّن ذلك بتوضيح أكثر ويقول:

«أَفْقَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَأَ لَهُمْ فِي جُشُوبِهِ (٢) الْعَيْشِ!».

هنا يذكر الإمام عليه السلام للمعيشه البسيطة ثلاث حكم ويشير إليها بشكل إجمالى:

الأولى: أنّ المؤمن ينبغى أن يضع يوم القيامة والحساب والكتاب والحشر نصب عينه وبالتالي يعيش الزهد فى هذه الحياه.

والأخرى: أنّ مسؤوليته قياده الأئمه واستلام مقاليد الأمور وخاصه فى حالات العسر والشده التى يعيشها الناس من الناحيه الماديه، توجب على الإمام عليه السلام أن يختار التقشف فى الحياه لمواساه الناس وذلك لغرض تقويه الجانب المعنوى والروحى لهؤلاء المحرومين الذين يقولون: إذا كان لباسنا مثلاً من كرباس يشبه لباس مولانا وإمامنا، وإذا كان طعامنا بسيط جداً ويتكون من ماء وخبز الشعير فإنّ هذا الطعام يشبه طعام مولانا وإمامنا، فذلك يتسبب فى تسكين خاطرهم ويدفعهم إلى الاطمئنان بأنّ قائدهم وإمامهم يعيش همومهم ويفكر فى حلّ مشكلاتهم.

ص: ١٥٣

الثالثة: مع غض النظر عن المسائل المتعلقة بيوم القيامة والمسؤولية الإلهية الملقاه على الأئمة والزعماء فى الأئمة الإسلاميه فإنّ المسائل العاطفيه والقيم الأخلاقيه لا تبيح للإنسان أن يجلس على مائده زاخره بألوان الطعام والشراب فى حين أنّ جيرانه يعيشون الجوع والحرمان وأحياناً يبيتون وليس عندهم خبز للعشاء.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، لماذا لا نرى مثل هذا المنهج للإمام أمير المؤمنين عليه السلام لدى بعض الأئمة الآخرين فى العصور اللاحقه، وما هو السر فى هذا الاختلاف؟ وسيأتى بعد قليل جواب هذا السؤال إن شاء الله تعالى.

تأمل

قصه فدى المعزنه

«فدى» اسم لقرية تقع شرق خيبر تقريباً وتفصلها عن خيبر أقل من ثمانيه فراسخ، ومع المدينة أكثر من عشرين فرسخاً، وكانت فدى فى زمن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله عامره وتتضمّن عيوناً زاخره بالمياه وبساتين النخل ومزارع وقلعه، وتعدّ فدى أحد المنازل التى ينزل فيها المسافرون القادمون من الشام إلى المدينة، وهذا الأمر أدى إلى ازدهارها من الناحيه الاقتصاديه.

يقول الطبرى فى تاريخه: خرج على بن أبى طالب عليه السلام فى مائه رجل إلى فدى إلى حى من بنى سعد بن بكر، وذلك أنّه بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر فسارهم إلى الليل وكمن النهار وأصاب عيناً، فأقرّ لهم أنّه يبعث إليهم خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا ثمر خيبر.

فلما سمع بهم أهل فدى قد صنعوا ما صنعوا - شعروا بتقصيرهم فى هذه الواقعة وخافوا من عاقبه أمرهم - بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يسألونه أن يسيرهم بحقن دمائهم لهم ويبدلوا الأموال، ففعل وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك مُحَيِّصه بن سعود

أخو بني حارثه، فلمّا نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف، وقالوا نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فضالّهم رسول الله صلى الله عليه وآله على النصف وأنا إذا شئنا أن نخرجكم اخرجناكم فضالّحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خيبر فيئاً للمسلمين وكانت فدك خالصه لرسول الله صلى الله عليه وآله لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب(١).

وجاء في شواهد التنزيل للحسكاني عن ابن عباس أنه قال: عندما نزلت الآية «وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ»(٢) أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فدكاً لفاطمه عليها السلام(٣).

وينقل الشوكاني في تفسيره ما يقارب هذا المعنى(٤).

وبعد هذه الحادثة صارت فدك بيد عمّال الزهراء عليها السلام، ومن هذا المنطلق ومن جهة أنّ فدكاً هبّه من النبي لفاطمه، كانت فاطمه عليها السلام قد استلمت فدكاً، ومن هنا يقول الإمام عليه السلام:

«بَلَىٰ كَأَنَّهُ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ»، وهو شاهد على ما أسلفنا، كما أنّ جملة «إِنَّ أَبَا بَكْرٍ انْتَرَعَ مِنْ فَاطِمَةَ فَدَكًا» المذكوره في «تاريخ المدينة المنوره»(٥) شاهد آخر على هذا المدعى.

والعجيب أنّ الخليفة الأوّل بعد رحله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله استولى على فدك بدون أيّه مقدمات وأخرجها من يد فاطمه عليها السلام، وقد اعترض عليه أمير المؤمنين وفاطمه الزهراء عليهما السلام بشدّه على هذا العمل، ولكن أبابكر أجاب: مَنْ يشهد لكما أنّ فدك لفاطمه؟

فأجاب الإمام على عليه السلام: يا أبا بكر تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟ قال: لا، قال عليه السلام: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، ثمّ ادّعت أنا فيه، من

ص: ١٥٥

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ١٥٤.

٢- (٢) أوردت هذه الآية في سورة الأسراء الآية ٢٦، وهي مدنيه كما صرح بذلك علماء أهل السنّه، رغم أنّ الآية «فَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ» (سورة الروم، الآية ٣٨) مكيه كما ذهب إليه البعض، وذهب الآخرون بدون الالتفات إلى التفاوت بين الآيتين إلى مكيه الآية الثانيه ليتخذوها ذريعه في نفى حادثه فدك.

٣- (٣) شواهد التنزيل، ص ١٦٨.

٤- (٤) تفسير فتح القدير، ج ٣، ص ٢٢٤.

٥- (٥) . تاريخ المدينة المنوره، ج ١، ص ١٩٩.

تسأل البيئته، قال: إياك كنت أسأل البيئته، قال: فما بال فاطمه سألتها البيئته على ما في يدها وقد ملكته في حياه رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، ولم تسأل المسلمين البيئته على ما ادعوها شهوداً كما سألتني في ما ادعيت عليهم، فسكت أبو بكر (١).

وكان عمر بن الخطاب حاضراً في المجلس ورأى سكوت أبي بكر وأن سكوته ربما ينتهي بضررهما، فقال:

«يَا عَلِيُّ دَعْنَا مِنْ كَلَامِكَ، فَإِنَّا لَنَقْوَى عَلَى حُجَّتِكَ، فَإِنِ أَتَيْتَ بِشُهُودٍ غُدُولٍ، وَإِلَّا فَهُوَ فَنَاءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، لَأَحَقَّ لَكَ وَلَا لِفَاطِمَةَ فِيهِ» (٢).

وهذه الحادثة التاريخية فيها الكثير من التعقيدات والتفاصيل وجميع الشواهد تشير إلى أن الخليفة في ذلك الوقت كان قد عزم على الاستيلاء على هذا المنبع الاقتصادي وغضبها من أهل البيت عليهم السلام لثلا يكون سبباً لتقويه موقفهم واقتدارهم، وقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ بَنُ أَبِي قُحَافَةَ قَالَ لَهُ عُمَرُ إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا يُرِيدُونَ غَيْرَهَا، فَاْمَنَعَ عَن عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْخُمْسَ، وَالْفَيْءَ، وَفَدَكَ، فَإِنَّ شَيْعَتَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ تَرَكُوا عَلِيًّا وَأَقْبَلُوا إِلَيْكَ» (٣).

وعلى أيه حال فإن مركز الخلافة في ذلك الوقت أخذ فدكاً من فاطمه الزهراء عليها السلام لمجرد عدم الدليل على مالكيه الزهراء لفدك، ولو كان هناك دليل فينحصر في ميراثها من النبي صلى الله عليه وآله في حين أن النبي قال:

«نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ وَمَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ» وهكذا تم انتزاع فدك من فاطمه عليها السلام.

في حين أن هذا الحديث وبهذه الصورة موضوع بلا شك والصحيح هو ما ورد في أحاديث أهل السنه وأهل البيت عليهم السلام:

«أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطَّةٍ» (٤) وهو كناية عن أن الأموال التي تركها الأنبياء لذويهم لا تعتبر ذات قيمة بالنسبة لميراثهم العلمي.

ص: ١٥٦

١- (١) بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٢٩.

٢- (٢) الاحتجاج، للطبرسي، ج ١، ص ٩٢.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٩٤.

٤- (٤) سنن الدارمي، ج ١، ص ٩٨؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٨١ ح ٢٢٣؛ الكافي، ج ١، ص ٣٢، ح ٢.

ومهما يكن من أمر فإنّ المخالفين ومن أجل الحيلولة دون حصول أهل البيت عليهم السلام على الإمكانات المائيه، صادروا فدكاً، تاره بذريعه حديث موضوع، وأخرى أنّ فاطمه عليها السلام لا تملك البيئه الكافيه لإثبات ملكيتها على فدك، هذا فى حين أنّهم لم يمنعوا نساء النبى صلى الله عليه وآله من نصيبهنّ من الميراث ممّا تركه النبى، وقد ورد فى حديث معروف فى صحيح البخارى وغيره: «إنّ فاطمه ابنه رسول الله صلى الله عليه وآله سألت أبا بكر بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله أن تقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال أبا بكر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا نورث ما تركناه صدقه، فغضبت فاطمه بنت رسول الله صلى الله عليه وآله عليه و آله فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت» (١)، رغم أنّهم كانوا قد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله قوله:

«فَاطْمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي» (٢).

وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِعْضَبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ» (٣).

وأما مصير فدك فى زمان حكمه الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام فكما ورد فى نص هذه الرساله مورد البحث أنّ الإمام على عليه السلام فى أيام خلافته قد أغمض عينه عن فدك ولم يتحرك بصدد استعادتها من غاصبها، وبديهي أنّ هذا العمل لم يكن عن رضا قلبى بل بسبب زهد الإمام عليه السلام فى الدنيا وإعراضه عمّا كان الأعداء يصرون عليه من امتلاكهم لفدك، وجمله

«نِعْمَ الْحَكْمُ لِلَّهِ» الوارده فى نصر الرساله تدل بوضوح على هذا المعنى.

وقد جاء فى التواريخ أنّ عثمان بن عفان فى زمن خلافته أعطى فدكاً لمروان بن الحكم، وذهب بعضهم إلى أنّها بقيت بيد أبناء مروان إلى زمان عمر بن عبدالعزيز الأموى الذى كان ينهج منهجاً ملائماً نسبياً مع أهل بيت النبوه عليهم السلام، وقد أمر واليه

ص: ١٥٧

١- (١). صحيح البخارى، ج ٣، ص ٣٥ باب غزوه خيبر.

٢- (٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٠؛ بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٣٣٦.

٣- (٣) مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٣؛ المعجم الكبير، للطبرانى، ج ٢٢، ص ٤٠١.

على المدينة «عمر بن حزم» أن يعيد فدكاً لأبناء فاطمه عليها السلام فكتب إليه والى المدينة فى جوابه، إن أبناء فاطمه كثر وقد تزوجوا مع طوائف كثيره فأياً منهم اعطى فدكاً؟ فغضب عمر بن عبدالعزيز وكتب إليه كتاباً شديداً بهذه المضمون: عندما أمرتك بأمر، مثلاً أن تذبح شاه، فتقول فى جوابى، هل هذه الشاه قرناء أم غير قرناء، وإن أمرتك أن تذبح بقره فستسأل منى ما لونها؟ (أى أنك تتذرع بحجج بنى اسرائيل) وعندما يصل إليك كتابى هذا فادفع فدكاً لأولاد فاطمه من على (١).

ولكن لم تمض مدّه حتى جاء يزيد بن عبد الملك الأموى للخلافه وغضب فدكاً مرّه أخرى، وعندما انقرض بنو اميّه استولى بنو العباس على سدّه الحكم، أمر الخليفه العباسى أبو العباس السفاح، إعادته فدك إلى عبد الله بن الحسن بن على بوصفه وكيلاً عن بنى فاطمه، ولكنّ أباجعفر المنصور الذى جاء بعده أخذ فدكاً من بنى الحسن، وقام المهدي العباسى باعادتها إليهم، ولكن موسى الهادى الخليفه العباسى قام بغصبها مرّه أخرى، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى زمن هارون الرشيد (٢).

يقول الحائرى القزوينى صاحب كتاب «فدك»: إنّ المأمون العباسى واستناداً لروايه أبى سعيد الخدرى بأنّ النّبى قد وهب فدكاً لفاطمه عليها السلام، أمر بإعادته فدك لأبناء فاطمه ولكن المتوكل العباسى الذى جاء بعده وبسبب ما يحمله من حقد شديد على أهل البيت عليهم السلام عاد وأخذ فدكاً منهم (٣).

وعلى ضوء ذلك تبدلت مسأله فدك إلى قضيه سياسيه وكل من جاء على سدّه الحكم كان يتخذ موقفاً منها وفق خلفياته السياسيه (٤).

ص: ١٥٨

-
- ١- (١) فتوح البلدان البلاذرى، ص ٣٨.
 - ٢- (٢) زهرا برترين بانوى جهان (الزهراء سيده نساء العالمين).
 - ٣- (٣) فدك، ص ٦٠.
 - ٤- (٤) ولمزيد من الإطلاع انظر حول فدك: صحيح البخارى؛ مستدرک الحاكم، تاريخ الطبرى، سنن ابن ماجه وكتاب فدك، تأليف باقر المقدسى؛ وكتاب فدك فى التاريخ تأليف آيه الله الشهيد السيّد باقر الصدر؛ وكتاب بحار الأنوار، ج ٢٩.

فَمَا خُلِقْتُ لِشِغْلِنِي أَكُلَ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلْفُهَا؛ أَوْ الْمُرْسَلَةَ شُغْلُهَا تَقْمُمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يَرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرِكَ سُدَى أَوْ أَهْمَلْ عَابِثًا، أَوْ أُجْرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أُعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ! وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَصَدِّ قَعِيدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنِ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمَنَازِلِهِ الشُّجْعَانِ». أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضِلُّبَ عُودًا، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا، وَالنَّابِتَاتِ الْعِدِّيَّةَ أَقْوَى وَقُودًا وَأَبْطَأَ حُمُودًا.

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوِّءِ مِنَ الضَّوِّءِ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ. وَاللَّهُ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَيْتُ عَنِّي، وَلَوْ أَمَكْنَتِ الْفَرَسُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعَتْ إِلَيَّ. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أَطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

الشرح والتفسير: لست كالبهيمة المربوطة!

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى أربع نقاط مهمّة، الأولى: أنّه يشير إلى هدفه من الزهد الشديد والتقصّف الشامل ويقول:

«فَمَا خُلِقْتُ لِشِغْلِنِي أَكُلَ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ (١)، هَمُّهَا عَلْفُهَا، أَوْ الْمُرْسَلَةَ شُغْلُهَا تَقْمُمُهَا (٢)، تَكْتَرِشُ (٣)»

ص: ١٥٩

١- (١). «المربوطة» تعني في هذا المورد الحيوان الذي يربط لغرض زيادة سمته ولحمه.

٢- (٢) «تقّم» بمعنى أخذ جميع ما يحتاج للسفر من طعام ومتاع، وفي الأصل من ماضيه «قَمَّ» على وزن «غَمَّ» وتعني تنظيف الدار وتعديلها، وكذلك تطلق على قطف الرياحين والنباتات بشكل كامل بواسطة شفاه الحيوان.

٣- (٣) «تكترش» من ماضيه «كَرَشَ» على وزن «كَرَجَ» وتعني معده الحيوانات، وعليه فإنّ «إكتراش» تعني امتلاء المعده.

مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلَهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا».

والحقّ أنّ بعض الناس في هذا العالم يعيشون كما تعيش الدواب والحيوانات، فجماعه تعيش الترف والثراء ولا- تشعر بحياه الفضيله فأقصى همهم في الحياه هو الطعام الكثير واللذيد، وبعضهم من الطبقة الفقيره ولكنهم يتحركون في طلب الدنيا ويبحثون عن الملذات الرخيصه فهم كالحيوانات المرسله في المرتع تبحث عن العلف، ومن المعلوم أنّ كلا- هاتين الطائفتين مذمومتين رغم أنّ أحدهما أشنع من الأخرى، والعجب أنّ كلا هاتين الطائفتين من الحيوانات لا تعلم بمصيرها وأنها سوف ترسل غداً إلى المذبح ويستفاد من لحومها أو يستفاد من ظهورها للحمل والركوب، أو تصطاد من قبل الحيوانات المفترسه.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى النقطه الثانيه:

«أَوْ أُتْرِكَ سُدىً (١) أَوْ أُهْمَلَ عَابِثًا، أَوْ أُجْرَ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أُعْتَسِفَ (٢) طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ (٣)».

في هذا المقطع من الرساله يتحدّث الإمام عليه السلام عمّا يتصل بالغرض من خلق الإنسان وينفى عنه خمس امور: الأول: أن يكون حال الإنسان حال سائر الحيوانات السائبه أو المعلوفه التي همها علفها.

والآخر: أن لا يكون هناك أى غرض من خلقه ويترك لحاله.

والثالث: أن يكون الغرض من خلقه اللعب واللهو.

والرابع: أن يكون سبباً لإضلال الآخرين وإغوائهم.

والخامس: أن يتحرك الإنسان نفسه في وداى الحيره والضلاله، وعندما تنتفى جميع هذه الأمور الخمسه، نستنتج أنّ الإنسان خلق لغايه ساميه وهدف مهم وليس

ص: ١٦٠

١- (١) . «سدى» بمعنى الباطل وعدم الفائده.

٢- (٢) «اعتسف» من ماده «اعتساف» بمعنى أداء العمل بدون فكر وهدايه وإرادته، وتعنى الانحراف عن الجاده أيضاً.

٣- (٣) «المتاهه» اسم مكان من ماده «تبه» بمعنى الحيره والضلاله.

ذلك سوى القرب من الله تعالى وتحصل الكمال الإنساني والفضائل النفسانيه، ومن المعلوم أن خلق هذا العالم وكل ما فيه من النعم والمواهب الإلهيه لو لم تكن له غايه سوى ذلك فإنّ هذا الخلق سيكون عبثياً ومخالفاً للحكمه، ولكن الله حكيم ولا تنسجم هذه الأغراض الباطله والأمور التافهه مع حكمته سبحانه.

إنّ كلام الإمام عليه السلام هذا مقتبس في الحقيقه من آيات القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى» (١).

ويدهي أن الله تعالى الذي خلق الخلق على مراحل عدّه وبكل هذه العجائب التي سخرها للإنسان في مظاهر الطبيعه كانت له غايه ساميه وهدف كبير.

ويقول تعالى في مورد آخر: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ» (٢).

ثمّ يبين الإمام عليه السلام النقطه الثالثه فيما يتصل بكلامه السابق وكأنّه في مقابل الجواب عن إشكال مقدّر، حيث يقول:

«وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ».

هذا المعنى الحاكم على الذهنيه العامه والذي يقرر وجود رباطه بين القوه الجسمانيه والأغذيه الدسمه واللذيذه، يبعث على تصور أن الإنسان إذا اكتفى في طعامه بخبز الشعير وأمثاله فإنه سيكون ضعيفاً ولا يقوى على شيء ولا يستطيع الصمود طويلاً في ميادين القتال والحرب.

هنا يتحرك الإمام عليه السلام من موقع الجواب عن هذا الإشكال ويضرب لذلك مثالين جميلين ويقول:

«أَلَا وَإِنَّ الشَّجْرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْلَبُ عُودًا، وَالرَّوَاتِعَ (٤) الْخَضِرَةَ أَرْقُ»

ص: ١٤١

١- (١) سورة القيامه، الآيات ٣٦-٣٩.

٢- (٢) سورة المؤمنون، الآيه ١١٥.

٣- (٣) «منازله» بمعنى المقاتله والحرب، من ماده «نزول» فالشخص المقاتل ينزل إلى الميدان في مقابل خصمه ويقاتله.

٤- (٤). «الرواتع» جمع «راتع» وهنا جاءت معنى الشجره المزدهره، من ماده «رتع» على وزن «نفع» بمعنى الأكل من المرتع.

جُلُوداً، وَالنَّائِبَاتِ الْعِذِيَّةِ (١) أَقْوَى وَقُوداً (٢) وَأَبْطَأَ خُمُوداً (٣)».

فالأشجار «التي تقوم على ساق» والنباتات «من قبيل الحشائش والأزهار» لو كانت في الصحارى والبرارى الجافه فإنها ستزداد قوه وصموداً، فى حين أنّ الأشجار والنباتات التى تنمو على شواطىء الأنهار وتستقى من الماء بشكل دائم فإنما ستكون ضعيفه ولا تقوى على الصمود، ومن هذه الجبهه فالأشخاص الذين يعيشون الترف والنعم الوفيره فإنهم سيعيشون حالات الضعف وعدم القدره على الصمود بوجه التحديات الصعبه، أمّا الأشخاص الذين يكبرون فى خضم المشكلات والأزمات فإنهم يملكون من القوه والاستقامه الشىء الكثير.

ومن هذه الجبهه نرى أنّ الجيوش المعاصره تفرض تمارين شاقه على أفرادها وجنودها لرفع مقدرتهم القتاليه ومستوى صمودهم فى الأجواء الصعبه، وإحدى الحكم من صيام شهر رمضان المبارك أنّ روح الإنسان وجسمه يزدادن قوه وقدره على تحمل مشاكل الحياه وصعوباتها.

وطبعاً هذا لا يعنى أنّ الإنسان لا يتناول الطعام والغذاء بشكل كافٍ ويعيش معيشه المتراضين الذين يكتفون من طعامهم بحبه واحده، بل المراد أنّ الإنسان لا ينبغى أن يعيش معيشه الترف ويهتم باللذيق المتنوع من الأطمعه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام وتأييداً لكلامه السابق:

«وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضُّوْءِ مِنَ الضُّوْءِ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضْدِ».

فقد كان النبى الأكرم صلى الله عليه وآله يعيش عيش الزهد والبساطه، ولكنه مع ذلك كان فى غايه الشجاعه ولم يكن من هو أقرب إلى العدو من النبى فى ساحات الوغى، وفى معركة أحد التى فرّ فيها الآخرون صمد النبى صلى الله عليه وآله، وأنا بدورى كنت تلميذاً لهذه المدرسه الإلهيه وتابعاً لهذا النبى العظيم صلى الله عليه وآله وذراعه اليمنى.

ص: ١٦٢

١- (١) «العذيه» تطلق على الأرض البعيده عن الماء، ولا يرويه إلماء المطر.

٢- (٢) «وقود» بمعنى الحطب.

٣- (٣) «خمود» أى انطفاء النار ثم اطلقت على كل شىء يهدأ ويسكن من نشاطه وفعالته.

كما ورد هذا المعنى فى الكلمات القصار فى نهج البلاغه حيث يقول عليه السلام:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَاسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ» (١).

والشاهد الناطق على هذا الكلام ما ورد فى آيه المباهله حيث جعلت من الإمام على عليه السلام نفس النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وكذلك الأحاديث الشريفه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه وآله طبقاً لما نقله «الكنجى الشافعى»: «أن أحد الصحابه سأل من النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: فأَيُّهم (من الأصحاب) أحب إليك؟ فقال: على بن أبى طالب، فقال: لِمَ؟ فقال:

«لِأَنَّهُ خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ»، وينقل فى هذا الكتاب عن المعجم عن الطبرانى أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى وَخَلَقَنِي وَعَلِيًّا مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ» (٢).

أمّا قصه إبلاغ سوره براءه عندما أرسل النبى أبابكر لإبلاغها للمشركين فى مكه فى موسم الحج، ثم استدعى النبى أبابكر وأخذها منه وأعطاه للإمام على عليه السلام، فإنها معروفه فى كتب التاريخ، فعندما عاد أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بأبى أنت وأمى: هل نزل فى شىء؟ (فما سبب أخذك سوره براءه منى) فقال النبى صلى الله عليه وآله: لا:

«وَلَكِنْ لَا يُبَلِّغُ عَنِّي غَيْرِي أَوْ رَجُلٌ مِنِّي» (٣).

وقد ورد هذا الحديث الشريف فى مسند أحمد بن حنبل بصوره أبلغ وأوضح فقد قال النبى صلى الله عليه وآله لأبى بكر: إن جبرائيل جاءنى وقال:

«لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ» (٤).

عباره

«كَالضَّوِّءِ مِنَ الضَّوِّءِ...») إشاره إلى أن نور إيمانى وقوتى وقدرتى كلها مستمده ومقتبسه من نور إيمان النبى وقوته وقدرته، والتعبير ب

«وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعَضْدِ» إشاره إلى أن العضد كلما كان قوياً ومحكماً فإن الذراع أيضاً ستكون قويه بدورها.

ص: ١٦٣

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٩ من الكلمات الغريبه للإمام عليه السلام.

٢- (٢) كفايه الطالب، ص ٣١٥ وما بعده طبقاً لنقل شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٧، ص ٤٦٨ و ٤٦٩.

٣- (٣) تذكره الخواص، ص ٣٧.

٤- (٤) مسند أحمد، ج ١، ص ١٥١.

ثم يتابع الإمام عليه السلام كلامه من موقع التأكيد على شجاعته:

«وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَيَّ قِتَالِي لَمَّا وُلِّيتُ عَنْهَا».

ولم يسمع بمثل هذا الكلام من أى شخص قبل ذلك، ومعلوم أنّ الإمام على عليه السلام لا يتحدث بذلك من موقع المبالغة بل إنّ ما يقوله هو عين الواقع، وقد أثبت هذه الحقيقة فى ميادين الجهاد والقتال ضد قوى الشرك والباطل، فمن معركة بدر إلى احد والخندق والغزوات الأخرى كان على بن أبى طالب عليه السلام هو الشخص الذى لم يدر ظهره للأعداء ولم يتردد أو يرتعب من كثرة الأعداء وتظافرهم عليه، إلى درجة أنه لُقّب بكونه

«كزار غير فزار». وقد ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله هذا التعبير فى قصه فتح خيبر بعد أن توجه الآخرون لفتح قلاع خيبر ولم يفلحوا فى ذلك، فقال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَزَارٍ غَيْرِ فَزَارٍ لَأَيْرَجُعَ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ يَدَيْهِ»^(١).

ثم إنّ الإمام عليه السلام وفى النقطه الرابعه والأخيره من هذا المقطع من الرساله يقول:

«وَلَوْ أَمْكَنْتِ الْفُرْصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعَتْ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ»^(٢)،
حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ^(٣) مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ^(٤)».

وجمله

«أُطَهِّرَ الْأَرْضَ» إشاره جليه إلى هذه الحقيقه، وهى أنّ وجود أمثال معاويه على سطح الأرض من شأنه تلويثها، وما لم يتم إزاله هذا التلوث عن الأرض والحياه فإنها لا تتطهر.

والتعبير ب

«الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ» إشاره إلى أنّ أفكار معاويه مقلوبه، فهو يرى

ص: ١٦٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٢٥٩؛ تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٥٦.

٢- (٢). «المركوس» أى المنقلب، من ماده «ركس» على وزن «عكس» أى انقلاب الشئ ظهر على عقب، أو وضع الشئ برأسه على الأرض.

٣- (٣) «المدره» قطعه الطين الجاف.

٤- (٤) «الحصيد» بمعنى النبات المحصود من ماده الحصاد.

الحق في نظره باطل والباطل في نظره حق.

وعبارهُ

«الْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ» إشارة إلى أنّ معاويه ليس فقط أفكاره مقلوبه بل إنّ سلوكياته وظاهره البشرى يعيش الانتكاسه فى سلوكياته وأعماله.

وأما عبارهُ

«حَتَّى تَخْرُجَ الْمَيْدَرَةُ» فهى إشارة إلى أنّ الزراع عندما يحصدون زرعهم، فغالباً ما يختلط المحصول من الحبوب الجيده مع بعض الأتربه والأحجار صغيره، حيث يقوم الزراع بإخراج هذه الشوائب من بين الحبوب ليتففع بها الإنسان، وأنا بدورى ينبغى أن اطهر المسلمين وفضاء المجتمع الإسلامى من هذه الشخصيات التافهه والزائده لتخليص الإسلام والمسلمين منهم.

وربّما يطرح البعض هذا السؤال: هل أنّ هذا الكلام للإمام عليه السلام ينسجم ويتناسب مع اقتدائه بالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله الذى بعث رحمه للعالمين؟

وفى مقام الجواب نقول: نعم، فإنّ رحمه تكون لازمه فى مواقعها والشده أو الغضب فى موقعه، فمن الخطأ استخدام رحمه إذا كان المورد يستدعى الشده والحزم، ومن الخطأ أيضاً التعامل بآليات العنف والشده إذا كان الموقع يستدعى رحمه والشفقه، وسيره النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً شاهده على هذا المعنى، ففى معركة أحد كان النبي صلى الله عليه و آله يدعو لهؤلاء المخالفين ويقول:

«اللَّهُمَّ إِهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، ولكنّه فى قصّه نقض يهود بنى قريضة لعهودهم ومواثيقهم استخدم أسلوب الشده والعنف.

وفى الحقيقة أنّ الإمام على عليه السلام قد تعلم هذه الحقيقة الواضحه من القرآن الكريم حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ»^(١)، ويقول فى مكان آخر: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ»^(٢).

ص: ١٦٥

١- (١) . سورة التوبه، الآيه ٧٣.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآيه ١٥٩. ويقول الفخر الرازى فى تفسيره لسوره الحمد، ج ١، ص ٢٣٥: «لقد اشتهر أنّ النبي صلى الله عليه و آله لما كسرت رباعيته قال: «اللَّهُمَّ إِهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

إشارة

وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ:

إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا فَحَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ، قَدْ انْسَلَمْتُ مِنْ مَخَالِبِكَ، وَأَفَلْتُ مِنْ حَبَائِلِكَ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مِدَا حِضِّكَ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَزْتَهُمْ بِمِدَاعِ بِكَ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِزَخَارِفِكَ، فَهِيَ هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّجُودِ! وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ شَخْصًا مَزِينًا، وَقَالِبًا حَسِيًّا، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِ غَرَزْتَهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأَمَمَ أَلْقَيْتَهُمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكِ أَسَلِمْتَهُمْ إِلَى التَّلْفِ، وَأَوْرَدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبُلَاءِ، إِذْ لَمَّا وَرَدَ وَلَمَّا صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكَ زَلَقًا، وَمَنْ رَكَبَ لُجَجَكَ غَرِقًا، وَمَنْ أَزُورَ عَنْ حَبَائِلِكَ وَفَّقًا، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مَنَاخُهُ، وَالذُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمِ حَانَ انْسِلَاخُهُ.

اغزبي عني! فَوَ اللَّهُ لَأَذِلُّ لَكَ فَتَسْتَدِلِّيَنِي، وَلَا أَسْلَسُ لَكَ فَتَقُودِيَنِي.

الشرح والتفسير: أيتها الدنيا ابتعدى عني!

إشارة

القسم الأخير من هذه الرسالة (حيث قسمناها إلى ثلاثة أقسام) هو ما يستهله السيد الرضى رحمه الله بالقول:

«وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ».

فالإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة، ومن أجل أن لا يسقط مخاطبه عثمان بن حنيف وجميع مخاطبيه على إمتداد التاريخ البشرى، فى مصائد النوازع النفسانية والمقامات الدنيوية أو يتورط فى أتباع الملذات الرخيصة، يقول له الإمام عليه السلام

بتعبير

ص: ١٤٧

فى غاية الروعه والبلاغه والجمال الأدبى:

«إِلَيْكَ عَنِّي (١) يَا دُنْيَا فَحَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ (٢) قَدْ أُنْسَلَّتْ (٣) مِنْ مَخَالِبِكَ (٤) ، وَأَفَلْتُ (٥) مِنْ حَبَائِلِكَ (٦) ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكَ (٧)».

ونرى أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارات القصيره يشبّه الدنيا بأربعة أشياء، الأول: أنّ الدنيا تشبه الناقه التى ربّما تكون جذابه وحلوبه، ولكنّ صاحبها عندما يريد تركها لترعى فى المرتع فإنّه يضع لجامها على ظهرها أو رقبتها، فترى هذه الناقه نفسها أنّها صارت حرّه من صاحبها فتبتعد عنه وتنشغل بالرعى فى المرتع.

وفى التشبيه الثانى، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالسبع الذى يروم صيد الفريسه بمخالبه القويه والخطيره ويمزقها، ويقول الإمام عليه السلام: وأنا قد أفلتت نفسى من مخالبا هذا الحيوان المفترس فلا يصل إلّى بعد ذلك.

وفى التشبيه الثالث، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالصيد الذى نشر حباله وشراكه لصيد الحيوانات أو الطيور، فيقول الإمام: لقد عرفت جيداً هذه المصائد والشراك وتخلصت منها فلا أقع فيها أبداً.

وفى التشبيه الرابع، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالمنزلق الخطير والوادي السحيق الذى يحتوى على مزلق كثيره، منها: الشهوات، المال والمقام، الزوجه والأبناء، والعناوين البراقه والماديات المغريه، فيقول الإمام عليه السلام: لقد ابتعدت عن هذه المزالق جميعاً، ومن هذه الجبهه فإننى لا أسقط فى حبالها ولا فى مخالباها ولا فى منزلقاتها.

ثمّ يتابع الإمام عليه السلام خطابه للدنيا ويقول:

«أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ عَزَّرْتَهُمْ

ص: ١٦٨

- ١- (١). «إليك عنّي» جملة تشكّل كلّ واحد منهما ظاهراً من جار ومجرور، فى حين أنّ «إليك» اسم فعل بمعنى «أبعد».
- ٢- (٢) «غارب» بمعنى المحل الذى يقع على ظهر ورقبه الناقه، ويأتى بمعنى الرقبه وآخر نقطه من الظهر.
- ٣- (٣) «انسلت» من ماده «سلّ» على وزن «حلّ» بمعنى سحب واخرجه بهدوء.
- ٤- (٤) «مخالب» جمع «مخلب» على وزن «منبر» تطلق على أظافر الطيور والوحوش.
- ٥- (٥) «أفلتت» من ماده «فلت» على وزن «برف» بمعنى الخلاص والتحرر.
- ٦- (٦) «حبال» جمع «حباله» بمعنى المصيده والشراك.
- ٧- (٧) «مداحض» جمع «مدحض» على وزن «مركز» بمعنى منزلق.

بِمَدَاعِيكَ (١)! أَيْنَ الْأُمَّمِ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِزَخَارِفِكَ! فَهَذَا هُمْ رَهَائِنُ (٢) الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ (٣) اللَّحُودِ (٤)!». .

وهذا الكلام مقتبس من العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأقوام السابقه، الذين كانوا يملكون القدره والجاه والثروه والإمكانات الماديه الوفيره، ولكنهم جميعاً تورطوا فى العذاب الإلهي بسبب عصيانهم وتمردهم على الحق والرساله، وباتوا مدفونين تحت التراب بحيث لا يسمع لهم أذننى صوت ولا يملكون أذننى حركه، ونقرأ فى الآيه ٩٦ من سوره مريم: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا».

ونقرأ فى الآيه ١٢٨ من سوره طه: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى».

بَاتُوا عَلَى قُلِّ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ

عَلِبَ الرِّجَالِ فَمَا أَغْتَنَّهُمُ الْقُلُّ

وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ عَن مَّعَاقِلِهِمْ

فَاوَدَعُوا حُفْرًا يَا بئسَ مَا نَزَلُوا

نَادَاهُمْ ضَارِخٌ مِّن بَعْدِ مَا قُبُرُوا

أَيْنَ الْأَسْرَةُ وَالتَّيْجَانُ وَالحُلُّ

أَيْنَ الوجوه التي كانت مُنعمَةً

مِن دُونهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالكُلُّ

فَأفصحَ القبرُ عنهم حينَ ساءَ لهم

تلكَ الوجوهَ عليها الدودُ يقتتلُ

قد طالَ ما أكلوا دهرًا وما شربوا

وأصبحوا بعدَ طولِ الأكلِ قد اكلوا

وطالما عمروا دورًا لتحصنهم

ففارقوا الدَّورَ والأهلينَ وانتقلوا

وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ

فَخَلَّفُوهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ وَارْتَحَلُوا

أَضْحَتْ مَنَازِلُهُمْ قَفْرًا مَعْطَلَةً

وَسَاكِنُوهَا إِلَى الْأَجْدَاثِ قَدْ رَحَلُوا (٥)

ص: ١٦٩

١- (١). «مداعب» جمع «مدعبه» على وزن «مكتبه» بمعنى المزاح والمداعبه.

٢- (٢) «رهائن» جمع «رهينه».

٣- (٣) «مضامين» جمع «مضمون» فى الأصل تعنى الجنين فى باطن امه، ثم اطلقت على كل شىء فى مطاوى شىء آخر.

٤- (٤) «اللحود» جمع «لحد» على وزن «مهد» ويعنى الشق الذى يقع فى أسفل القبر ويوضع الميت فيه.

٥- (٥). الأنوار البهيه، ص ٢٤٤.

وينقل المرحوم العلامة التستري قصه تتضمن دروساً وعبره عن الأمل للشيخ الصدوق وخلاصتها: «انطلق ذو القرنين يسير في البلاد حتى مرّ بشيخ يقبّل جماجم الموتى، فوقف عليه بجنوده، فقال له: أخبرني أيها الشيخ لأى شيء تقبّل هذه الجماجم، قال: لأعرف الشريف من الوضيع، والغنى من الفقير فما عرفت، وإني لأقبلها منذ عشرين سنة، فانطلق ذو القرنين وتركه، وقال: ما عنيت بهذا أحداً غيري» (١).

ثم يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بعبارات حكيمة ومثيرة ويقول:

«وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ شَخْصًا مَزِيئًا، وَقَالَ بًا حَسِيًّا، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادٍ غَرَزْتَهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتَهُمْ فِي الْمَهَاوِي (٢)، وَمُلُوكٍ أَسَلَمْتَهُمْ إِلَى التَّلْفِ، وَأَوْرَدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَأ وَرِدَ (٣) وَلَا صَدَرَ (٤)».

وبديهي أنّ الدنيا، بمعنى المواهب المادية والظواهر الطبيعيه لا تملك قلباً ولا فكراً ولا إرادة واختياراً، بل مجرد وسائل وآليات يستخدمها الإنسان لنيل السعاده فى حركة الحياه، أو يغرق فى مستنقع الشقاء والعناء فيما لو سار فى خط الرذيله وقصر اهتمامه ونظره بها، أضف إلى ذلك أنّ الدنيا بهذا المعنى ليست شيئاً يمكن إجراء الحدّ الإلهي عليها، ولكن الغايه التي يتوخاها الإمام عليه السلام من هذا الكلام هى الكنايه اللطيفه والتشبيهه الظريف لإيقاظ عقول المغرورين بها وتنبيه الغافلين عن الحقائق الغيبية ليتحركوا على مستوى تصحيح مسيرتهم والعوده إلى عقولهم وفطرتهم والاعتبار من تاريخ الأمم السابقه وإصلاح مستقبلهم بالاقْتباس من دروس التاريخ.

وهذا الكلام فى الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم الذى يذكر هذا المعنى بشكل آخر، فالآيات القرآنيه تخاطب جميع أفراد البشر وتدعوهم لدراسه تاريخ الأقسام

ص: ١٧٠

١- (١) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٦، ص ٣٩٠؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٧٥.

٢- (٢). «المهاوى» جمع «مهى» و «مهواه» يعنى الوادى ويطلق على كل مكان خطر يتعرض فيه الإنسان للهلكه.

٣- (٣) «ورد» تعنى فى الأصل الوصول إلى حافه النهر، ثم اطلقت على كل وصول أو دخول.

٤- (٤) «صدر» ضد «ورد» يعنى الخروج من الشاطئ ثم اطلقت على كل أنواع من الخروج.

السالفه الذين تورطوا في دوامه البلياء والعذاب بسبب غفلتهم وغرورهم وكان مصيرهم الهلاك وقد دفنوا هم وثرواتهم تحت الأنقاض، فنقرأ في الآيات القرآنيّة قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» (١).

ويقول تعالى في مورد آخر: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» (٢).

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه بطرح تشبيهات أخرى لحال الأشخاص الذين خدعوا بالدنيا والأشخاص الذين تخلصوا من شراكها وأفلتوا من حبالها، ويقول:

«هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكَ (٣) زَلَقَ (٤)، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكَ (٥) غَرِقَ، وَمَنْ ازْوَرَ (٦) عَنْ حَبَائِلِكَ وَفُقَّ، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لَأَيُّبِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مَنَاحُهُ (٧)، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمِ حَانَ انْسِلَاحُهُ».

في هذا المقطع الكلام النوراني للإمام عليه السلام يشبه المواهب المادية في الدنيا بثلاثة أمور، بدايه يتحدث عن المزلق التي تواجه الإنسان في كلّ زمان واحتمال سقوطه في هذه المزلق، وهي المقامات الدنيويّة والثروات المادية والشهوات النفسانيّة، فلو أنّ الإنسان غفل قليلاً عن هذه الأمور فإنّه سيتلوّث بالحرام ويقع أسيراً في شراك الأهواء والنوازع النفسانيّة.

والآخر، أنّ الإمام عليه السلام يشبه الدنيا بالبحر المواج الذي يصعب جداً عبوره بسلام، والكثير من الأحايين تكون أمواج الأهواء والشهوات إلى درجة من الشدّة والتلاطم بحيث إنّها تبتلع الإنسان وتغرقه في دوامتها.

ص: ١٧١

١- (١) سورة يوسف، الآية ١١١.

٢- (٢) سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٩.

٣- (٣). «دحض» بمعنى منزلق.

٤- (٤) «زلق» من مادة «زلق» على وزن «دلق» بمعنى الترحلق.

٥- (٥) «لجج» جمع «لجه» على وزن «حجّه» بمعنى القسم العظيم المتلاطم من البحر.

٦- (٦) «ازور» من مادة «ازورار» بمعنى الجنوح والانحراف من شيء، وهو من مادة «الزياره».

٧- (٧). «مناخ» في الأصل بمعنى المحل الذي يبرك فيه الإبل، ثمّ اطلقت على كلّ محل للإستقرار.

والتشبيه الثالث يشبه الإمام عليه السلام زخارف الدنيا وبريقها الخداع بالمصائد والفخاخ، بحيث إنَّ الإنسان إذا استطاع اجتناب هذا البريق الخداع فإنه سيوفق لنيل السعادة ومرتبته القرب الإلهي، وخلاصه منها بذاته يشكل له أكبر افتخار وانتصار في حركه الحياه مهما واجه في ذلك من صعوبات وتحديات.

ثم يشبه الإمام عليه السلام الدنيا باليوم الذي يوشك على الانتهاء وأنَّ الشمس توشك على الغروب لسرعه انتهائها وزوالها، كما يقول الشاعر:

حُكْمُ المَيِّهِ فِي البَرِيَّةِ جَارِي

ما هذه الدُّنيا بِدارِ قَرارِ

بينا يَرى الإنسانُ فِيها مُخبراً

حَتَّى يُرى خَبراً مِنَ الأَخبارِ

طُبَعَتْ عَلَي كَدْرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُها

صَفْواً مِنَ الأَقْدارِ والأَكْدارِ

وَمُكَلِّفُ الأَيامِ صِدَّ طِباعِها

مَتَطَلَّبٌ فِي المائِ جَدْوَه نارِ

وَإِذا رَجوتَ المُسْتَحِيلَ فَإِنما

تَبني الرِّجاءَ عَلَي شَفيرِ هاوِ

فَالعِيشُ نَوْمٌ وَالْمَيِّئُهُ يَقْطُهُ

وَالمرءُ بَيْنَها خيالِ سارِ

فَاقضوا ما رَبَّكُم عِجالاً إِنما

أَعْمارُكُم سَفْراً مِنَ الأَسفارِ

ونقرأ في حديث رواه المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«اصْبِرُوا عَلَي طاعِهِ اللهُ وَتَصَبَّرُوا عَن مَعْصِيَةِ يِهِ اللهُ فَإِنما الدُّنيا ساعَهُ فَمَما مَضَى فَلَيْسَ تَجِدُ لَهُ سُروراً وَلا حُزناً وَما لَم يَأْتِ فَلَيْسَ نَعْرِفُهُ

فَاصْبِرْ عَلَى تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا فَكَأَنَّكَ قَدْ اغْتَبَطْتَ» (١).

وفى ختام هذا المقطع من الرسالة يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا ويقول:

«اعْزُبِي (٢) عَنِّي! فَوَاللَّهِ لَا أُذِلُّ لَكَ فَتَشْتَدِّ لِي نِي، وَلَا أُسَلِّسُ (٣) لَكَ فَتَقْوِدِي نِي».

ولحدّ الآن لم يرد فى الكتب والمدونات والخطب أنّ شخصاً خاطب الدنيا بمثل

ص: ١٧٢

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ٤٥٩، ح ٢١.

٢- (٢). «اعزبى» أى ابتعدى عني من ماده «عزوب» على وزن «غروب» بمعنى الابتعاد عن الشيء، ويطلق على من لم يتزوج أعزب لأنه بعيد عن الحياه العائليه.

٣- (٣) «أسلس» من ماده «سلاسه» بمعنى المطيع وتأتى أحياناً بمعنى السهل والميسور.

هذا الخطاب واستدعاها إلى محاكمتها بهذه القوّة والحزم وبالتالي أثبت إدانتها وزيفها وتخلص من شراكها ومصاندها.

أجل، فالشخص الوحيد الذى بإمكانه أن يحاكم الدنيا بهذه الطريقة ويخاطبها بهذا الخطاب الشديد القاطع هو الذى استطاع إنقاذ نفسه من برائتها، وضرب على صدرها بيد الإعراض والطرده مع انفتاح جميع الطرق أمامه لتحصيل المآرب الدنيويّة، ولكنّه لم يستسلم لها ولجواذبها بأية صوره.

وهذا لكلام يتضمّن جواباً حاسماً على من يقول إنّ الدنيا قد أجبرتنا على التصرف على سلوكك طريق الشر والرزيله، فالإمام عليه السلام يقول: مادام الإنسان ملتزماً بمقتضيات الإيمان والقيم ولم يستسلم للدنيا من موقع الإذعان والخضوع فإنّها لا تستطيع إذلاله وإجباره على ارتكاب الخطيئه، فصحيح أنّ الدنيا بكلّ ما فيها من الجواذب والزخارف تستهوى الإنسان وتدعوه لمواقعتها، ولكنّها لا تجبر أحداً أبداً على اتباعها والتسليم لمطالبها، كما يتحدّث القرآن الكريم عن الشيطان ويقول:

«وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَوَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ» (١).

تأمل

طلاق الدنيا

ما بيّنه الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من رساله فى صدد محاكمته للدنيا وأنها لو كانت شخصاً مريئاً وقالباً حسيّاً لأجرى حدود الله تعالى عليها بسبب خداعها وإغوائها للكثير من الناس، يدعوننا لتذكر حديث شريف آخر للإمام على عليه السلام يشير فيها إلى أنّه فى عالم المكاشفه رأى الدنيا وقال: «إني كنت بقدك فى بعض حيطانها، وقد صارت لفاطمه عليها السلام قال: فإذا أنا بامرأه قد قحمت علىّ بجمالها فشبهتها ببنيه

ص: ١٧٣

١- (١) سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

بنت عامر الجحى وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: يا ابن أبى طالب هل لك أن تتزوج بى فأغنيك عن هذه المسحاه، وأدلك على خزائن الأرض، فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقلت لها: من أنت حتى أخطبك من أهلك؟ فقالت: أنا الدنيا، قال فقلت لها، فارجى وأطلبى زوجاً غيرى وأقبلت على مسحاتى وأنشأت:

«لَقَدْ خَابَ مَنْ غَرَّتُهُ دُنْيَا دَيْتِيهِ

وَمَا هِيَ إِنْ غَرَّتْ قُرُونًا بِنَائِلٍ

أَتَتْنَا عَلَى زِيِّ الْعَزِيزِ بَيْتِنَهُ

وَزَيْتِنُهَا فِي مِثْلِ تِلْكَ الشَّمَائِلِ

فَقُلْتُ لَهَا غُرِّي سِوَايَ فَإِنِّي

عَرُوفٌ عَنِ الدُّنْيَا وَلَسْتُ بِجَاهِلٍ

وَمَا أَنَا وَالدُّنْيَا فَإِنَّ مُحَمَّدًا

أَحَلَّ صَرِيحًا بَيْنَ تِلْكَ الْجَنَادِلِ

وَهَبَهَا أَتَتْنِي بِالْكُنُوزِ وَدَرَّهَا

وَأَمْوَالِ قَارُونَ وَمُلْكِ الْقَبَائِلِ

أَلَيْسَ جَمِيعًا لِلْفَنَاءِ مَصِيرُهَا

وَيَطْلُبُ مِنْ خُزَانِهَا بِالطَّوَائِلِ

فَغُرِّي سِوَايَ إِنِّي غَيْرُ رَاغِبٍ

بِمَا فِيكَ مِنْ مُلْكٍ وَعِزٍّ وَنَائِلٍ

فَقَدْ فَنَعَتْ نَفْسِي بِمَا قَدْ رُزِقْتُهُ

فَشَأْنُكَ يَا دُنْيَا وَأَهْلَ الْغَوَائِلِ

فَأِنِّي أَخَافُ اللَّهَ يَوْمَ لِقَائِهِ

وَأَخْشَى عَذَابًا دَائِمًا غَيْرَ زَائِلٍ (١)

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٦٣.

وَإِيمُ اللَّهِ - يَمِينًا أَسْتَيْتَنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَهُ تَهَشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا وَتَقْنَعُ بِالْمَلْحِ مَادُومًا، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا. أَتَمَلُّ السَّائِمَةَ مِنْ رَغِيهَا فَتَبْرُكُ؟ وَتَشْبَعُ الرَّيْبُضَهُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرِيضُ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ! قَرَّتْ إِذَا عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوَلِ بِالْبُهَيْمَةِ الْهَامِلِ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرَعِيَّةِ!

الشرح والتفسير: هل الغرض الأكل والنوم فقط؟

يوصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته المباركة، كلامه فيما تقدّم عن عدم اهتمامه بالدنيا وزخارفها ويقول:

«وَإِيمُ اللَّهِ (١) - يَمِينًا أَسْتَيْتَنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَهُ (٢) تَهَشُّ (٣) مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا، وَتَقْنَعُ بِالْمَلْحِ مَادُومًا (٤)، وَلَأَدَعَنَّ

ص: ١٧٥

١- (١). «أيم الله» بمعنى «أقسم بالله»، وقيل إنَّها في الأصل من «أيمن» جمع يمين بمعنى القسم، وألفه ألف وصل، وتقرأ أحياناً بالفتح وأخرى الكسر، ثم حذفت النون منها وصارت «أيم الله»، وأحياناً تحذف الياء أيضاً ويقال: «أُمُّ الله» وعلى أيّ حال نظراً لأنّ هذه العبارة جمع، فإنَّها تدلّ على القسم المؤكّد.

٢- (٢) «رياضه» في الأصل بمعنى ترويض وتطويع النفس أو البدن وتربيته، ومن هذه الجهة يقال للرياضات الجسمانيّة والنفسيّة بأشكالها المختلفة «رياضه» ويقال للبوستان روضه من جهة أنّ الإنسان يهتم بتنظيمها وترتيبها وفق برنامج مدروس لتكون مزدهره وخضراء.

٣- (٣) «تهش» من مادة «هشاشه» على وزن «حواله» بمعنى الفرح التبسم.

٤- (٤). «مادوماً» من مادة «إدام» بمعنى المرق (الشيء الذي يأكل مع الخبز) وعليه فإنّ «مادوم» الشيء الذي يؤكل على شكل مغمس بالمرق.

مُقَلَّتِي (١) كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ (٢) مَعِينُهَا (٣)، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا».

فى المرحلة الأولى يقسم الإمام عليه السلام لبيّن جدّيه هذا الأمر وللتأكيد على أهميته وفى المرحلة الثانية، يقول إن شاء مراعاة للأدب مع الله تعالى كما أمر القرآن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الأمر، تقول الآية الشريفه: «وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَىءٍ إِنْى فاعِلٌ ذَلِكْ غَدًا * إَلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ» (٤).

وفى المرحلة الثالثة: يتحدّث الإمام عليه السلام عن عزمه الراسخ على ترويض نفسه رياضه شديده وقاسيه، وهذا يحكى عن قوه إرادته الإمام وسلطته العجيبه على نفسه، فما أشق الرياضه التى يفرضها الإنسان على نفسه بحيث تتحمل الجوع الشديد، وبالتالى تفرح فرحاً شديداً إذا قدّم لها يوماً قرصاً من الخبز وقليلاً من الملح.

وفى المرحلة الرابعه: يخبرنا الإمام عليه السلام عمّا يعيشه من عشق لله تعالى وخوف عميق من الذات المقدسه بحيث إنه يتواصل فى البكاء إلى أن لا تنضب عينه من الدموع

«وَلَأَدَعَنَّ مُقَلَّتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا»، ومعلوم أنّ مثل هذه الحاله لا تتوفر عند أى شخص إلالاً النوادر، والإمام عليه السلام نفسه يشير إلى هذه الحقيقه فى مقطع آخر من هذه الرساله، بأنكم لا تستطيعون أن تفرضوا على أنفسكم مثل هذه الرياضات الشاقه ولكن أعينونى بالورع والتقوى والصلاح فى حركه الحياه.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا كلّ هذا البكاء الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى كلامه؟ قطعاً إنّ هذا البكاء هو بكاء الشوق من جهه، وبكاء الخوف من جهه أخرى، الشوق إلى العالم الأعلى والملكوت والقرب من الله تعالى والعشق لصفات الكمال والجمال الإلهى، والخوف من حرمان هذه نعم والمواهب الإلهيه.

ص: ١٧٦

١- (١) «مقله» يطلق على كره العين بأجمعها، وأحياناً يراد منها سواد العين فقط.

٢- (٢) «نضب» من ماده «نضوب» فى الأصل بمعنى ذهاب الماء فى الأرض وجفاف البئر أو الغدير، وهذه المفرده تستعمل أحياناً فى مورد العين أيضاً عندما يجف دمعها.

٣- (٣) «معين» من ماده «معن» على وزن «طعن» بمعنى جريات الماء و «ماء معين» يراد منها الماء الجارى، ثم استخدمت فى جريان الدموع من العيون.

٤- (٤) سورة الكهف، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

إن رجال الله يعيشون دوماً بين حالات الخوف والرجاء، وبالتالي يدفعهم ذلك إلى البكاء شوقاً وخوفاً، فكيف بالإمام على عليه السلام وهو إمام العارفين ومقتدى السالكين في طريق الحق والمعنويّ؟

ثم إن الإمام عليه السلام يستعرض في العبارات التالية جملة من التشبيهات الأخرى ويقول:

«أَتَمْتَلِي السَّائِمَةَ (١) مِنْ رَغِيهَا (٢) فَتَبْرُك (٣)؟ وَتَشْبَعُ الرَّيْضَةَ (٤) مِنْ عُشْبِهَا (٥) فَتَزْبِضُ؟ وَيَأْكُلُ عَلَيَّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَع (٦)! قَرَّتْ إِذَا عَيْنُهُ إِذَا أَفْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوَلِهِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ (٧)، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ (٨)!».

وبالرغم من أن الإمام عليه السلام في هذه العبارات يتحدث عنه نفسه، ولكن كلامه في الواقع درس لأبناء الدنيا الذين لا هم لهم في الحياة سوى التمتع بالملذات الرخيصة، فهم يشبهون الأغنام والدواب التي لا تهتم إلا للأكل والعلف والنوم والراحة، فما أقيح بالإنسان أن يهبط من أوج عظمه الإنسانيه ويذرج نفسه مع الحيوانات وينزل بمستواه إلى مصاف الدواب السائمه في المراتع، وكما يقول الشاعر:

أَتَعْمَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ بَصِيرٌ

وَتَجْهَلُ مَا فِيهَا وَأَنْتَ حَبِيرٌ

وَتُصْبِحُ تَبْنِيهَا كَأَنَّكَ خَالِدٌ

وَأَنْتَ عَدَاً عَمَّا بَنَيْتَ تَسِيرٌ

وَتَرْفَعُ فِي الدُّنْيَا بِنَاءً مُفَاخِرٌ

وَمَثَوَاكَ بَيْتٌ فِي القُبُورِ صَغِيرٌ

وَدُونَكَ فَاصِنَعُ كُلَّمَا أَنْتَ صَانِعٌ

فَإِنَّ بُيُوتَ المَيِّتِينَ قُبُورٌ (٩)

تأمل

الرياضة المشروعه وغير المشروعه

إن مسألة رياضة النفس ومنذ القديم تقسم إلى قسمين: رياضة البدن، ورياضة النفس، أما رياضة البدن فتتمثل في أنواع الألعاب الرياضيه التي تمتد في التاريخ البشري ولها سابقه تاريخيه طويله، وحتى المسابقات العالميه الحاليه مقتبسه من عصر اليونان القديم ومناطق اخرى من العالم، وأما رياضة النفس والتي تتحقق عن طريق ترك المشتهيات النفسانيه وتؤدي إلى تقويه روح الإنسان وإرادته وتمتد كذلك في التاريخ، فهي المعروفة عن المراتاضين الهنود، وحقيقه هذه الرياضيه هي أن الإنسان بتركه

وإعراضه عن رغباته النفسانيه وعدم استسلامه لجواذب الشهوه بإمكانه أن يحصل على قوه عظيمه بحيث أحياناً يستطيع انجاز أعمال خارقه للعادة.

وطبعاً الرياضيات النفسانيه بدورها تنشعب في هدفها والغرض منها إلى: أهداف ماديه، وأخرى معنويه، أما الأهداف الماديه فتمثّل بالقدره على الإتيان بأعمال خارقه للعادة والتوصل من خلالها إلى بعض المنافع الدنيويه وتحصيل الجاه والمقام، وأما الهدف المعنوى فهو القرب من الله تعالى وتطهير الروح من الرذائل الأخلاقيه وتحكيم إرادته الإنسان على شهواته وضبط رغباته وترك ما تدعوه إليه نفسه من الرذائل والمنكرات.

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام في هذه الرساله ناظر إلى القسم الثاني من الرياضيه المعنويه في قوله:

«إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَهُ يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ»، وقوله:

«الْأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهْتَشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ».

وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه في ذيل الخطبه ٢٢٠ (الخطبه ٢١٤ في شرح ابن أبي الحديد) بحثاً مفصلاً في موضوع رياضه النفس وأقسامها وتحديث في تأثير الجوع في صفاء النفس ونقاؤها، ثم نقل كلمات الفلاسفه والحكماء في المكاشفات التي تحصل للإنسان من رياضه النفس، وضمن كلامه

ص: ١٧٧

- ١- (١). «السائم» الحيوان الذي يترك ليرعى في الصحراء، من ماده «سوم» على وزن «قوم».
- ٢- (٢) «رعيها» تعنى العلف الذي يأكله الحيوان أثنا الرعى، من ماده «رعى» على وزن «وحى».
- ٣- (٣) «تبرك» من ماده «بُروك» بمعنى الاستقرار والهدوء على الأرض.
- ٤- (٤) «الريضة» قطع الغنم وأمثال ذلك عندما يعود مع الراعى إلى محل استقراره أى الحضيره. من ماده «ربض» و «ربوض» على وزن «قبض» و «قبوض» أى جمع الحيوان ليده ورجله للجلوس على الأرض.
- ٥- (٥) «عشب» النباتات الرطبه فى مقابل الحشيش وهو النباتات الجافه.
- ٦- (٦). «يهجع» من ماده «هجع» على وزن «ركوع» بمعنى النوم الخفيف.
- ٧- (٧) «الهامله» الحيوان المتروك من ماده «همل» على وزن «حمل» بمعنى ترك الحيوان بدون راعى.
- ٨- (٨) «المرعيه» اسم مفعول من ماده «رعى» على وزن «سعى» وهو الحيوان الذى يساق للمرعى.
- ٩- (٩). مجانى الأدب، ج ٢، ص ٣٧.

بالاستشهاد بأبيات من أشعار الشعراء في هذه المجال.

ونقرأ في الأحاديث الشريفه عن أمير المؤمنين على عليه السلام الإشاره إلى هذه المسأله ومن ذلك ما ورد في «غرر الحكم» عن الإمام على عليه السلام:

«مَنْ اسْتَدَامَ رِيَاضَهُ نَفْسِهِ انْتَفَعَ» (١).

وفي حديث آخر في هذا الكتاب قوله:

«الشَّرِيعَةُ رِيَاضَةُ النَّفْسِ» (٢).

وجاء في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خبر عن وصايا الخضر النبي لموسى عليهما السلام أنه قال:

«رِضْ نَفْسِكَ عَلَى الصَّبْرِ تَخْلُصَ مِنَ الْإِثْمِ» (٣).

ونقرأ في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله

: «جَوْعُوا بُطُونَكُمْ وَأَظْمِئُوا أَكْبَادَكُمْ وَأَعْرُوا أَجْسَادَكُمْ وَطَهَّرُوا قُلُوبَكُمْ عَسَاكُمْ أَنْ تُجَاوِزُوا الْمَلَأَ الْأَعْلَى» (٤).

ولكن أحياناً يسلك بعض الناس في رياضه النفس طريق الإفراط والانحراف، فيقومون برياضات شاقه جداً وأحياناً خطيره وغير مشروعه، وقد ذكر الغزالي في «إحياء العلوم» نماذج منها ويوجد الكثير منها مذكور في الكتب الصوفيه.

ومن ذلك أن «الشبلي» كان له سرداب ينزل إليه ومعه مجموعه من العصي وكلما غفل قلبه عن الذكر يضرب نفسه بهذه العصي حتى تتكسر، وأحياناً عندما تنكسر جميع العصي يربط يديه ورجليه بالجدار ويلقها بالمسامير (٥).

وذكروا في حالات «الشيخ أبو سعيد» الصوفى المعروف، أنه لما كان شاباً كان ينهض من فراشه بهدوء بعد ما ينام أهل بيته ويتوجه إلى المسجد، وكانت هناك بئر في زاويه المسجد، فيشد عصاً بحبل من وسطها ويشد قدمه بالطرف الآخر من الحبل، ثم يضع العصا على حافه البئر وينزل إلى البئر ويبقى إلى الصباح معلقاً من

ص: ١٧٩

١- (١) غرر الحكم، ح ٤٨٠٩.

٢- (٢) المصدر السابق، ح ٤٧٩١.

٣- (٣) كنز العمال، ح ٤٤١٧٦.

٤- (٤) ميزان الحكمه، ح ٧٥٤١.

٥- (٥) تذكره الأولياء، ج ١، ص ٢٣٥.

وحكى عن حالات «أبى بكر الشبللى»: كان فى بدايه أمره مشغولاً بالرياضه فى سنوات مديده وكان يضع الملح فى عينه لثلا ينام(٢)، وهناك الكثير من هذا القبيل من الأعمال لدى المتصوفه.

ومثل هذه الرياضات الخطيره تعتبر من النقاط السلبيه والسلوكيات غير المشروعه فى نظر الإسلام ويجب الاجتناب عنها تماماً، ويشاهد فى حالات المرتاضين الهنود وبعض الصوفيه مثل هذه الرياضات غير المشروعه التى لا تتفق مع تعاليم الإسلام، ولكن أفضل رياضه تتمثل فى اجتناب أى شكل من الأشكال المعاصى والذنوب ومن ثم ترك بعض المشتتهات النفسانيه من المباحات، وقد ورد هذا المعنى فى سيره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأتمه الهدى عليهم السلام وأصحابهم، فكانوا أحياناً يلبسون الخشن من الثياب ويقنعون بالأطعمه البسيطه جداً، وينهضون للصلاه والعباده فى ساعات الليل، ومثل هذه الرياضيات تزيد من نورانيتهم وتعمق من معنويتهم.

وقد ورد فى الخطبه ٢٠٩ فى نهج البلاغه (الجزء الثامن من هذا الكتاب) قصه إفراط وتفريط أخوين هما (علاء بن زياد وعاصم بن زياد) حيث كان أحدهما يعيش حياه مرفهه وناعمه والآخر قد ترك العمل والكسب تماماً وانشغل بالعباده فى زاويه البيت، وقد نهاهما الإمام عليه السلام عن كلا هذين المسلكين، ولمزيد من التوضيح انظر الجزء الثامن، من هذا الكتاب ذيل الخطبه ٢٠٩.

وخلاصه الكلام أنّ مسأله الرياضه الشرعيه وردت فى نهج البلاغه وكذلك وردت فى الكثير من الروايات الشريفه عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، ولا شك فى ترتب الآثار الإيجابيه من هذه الرياضه المشروعه على روح الإنسان فيما يتصل بزياده نورانيته معنويته، ولكن ذلك لا يعنى أنّ مثل هذه الرياضيات محبذه

ص: ١٨٠

١- (١) «تاريخ تصوف» للدكتور الغنى، ص ٣٦١، بالفارسيه.

٢- (٢). تذكره الأولياء، ج ٢، ص ١٦٤.

للجميع، ومن هذه الجبهه ورد فى العديء من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفه الاذن فى تناول الطيبات والانتفاع من النعم الحلال وشكر الله تعالى على ما وهبه للإنسان من هذه النعم والملذات: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» (١).

ص: ١٨١

١- (١) سورة المؤمنون، الآية ٥١.

إشارة

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمُضَهَا، حَيْثُ إِذَا غَلَبَ الْكُرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَشْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفَ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَصَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمَّهَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَفْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ.

الشرح والتفسير: أيها الوالي! احذر المشاركة في مثل هذه الضيافة!

إشارة

في المقطع السابع والأخير من هذه الرسالة يتحدث الإمام عليه السلام في توصيف بليغ عن حياة الإنسان الكامل، وبتعبير آخر: أفراد حزب الله، ويذكر لهم ثلاثة أعمال وأربع صفات، يقول:

«طُوبَى (١) لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا، وَعَرَكَتْ (٢) بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا (٣) وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمُضَهَا (٤)، حَيْثُ إِذَا غَلَبَ الْكُرَى (٥) عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا

ص: ١٨٣

١- (١). «طوبى» مؤنث «أطيب» ولها معنى واسع وتشمل أظهر وأفضل الخيرات والطيبات، وفي مثل هذه الموارد تشبه الدعاء للآخرين.

٢- (٢) «عركت» من مادة «عرك» على وزن «أرك» في الأصل تعنى التمرغ ثم اطلقت على كل ما يؤثر على كل شىء وينتهى لفناؤه وزواله.

٣- (٣). «بؤس» يعنى كل أشكال الانزعاج والمساءه وهى فى مقابل النعمه والراحه.

٤- (٤) «غمض» من مادة «غموض» بمعنى غض النظر عن الشىء وعدم رؤيته، ثم اطلقت على حاله النوم، لأن الإنسان يغمض عينه فيه، وفى الجملة أعلاه قصد بها هذا المعنى.

٥- (٥) «كرى» يعنى النوم.

وَتَوَسَّدَتْ (١) كَفَّهَا».

وهذه إشاره إلى أنّ الأشخاص المحبوبين عند الله تعالى هم الذين يتحركون في سلوكهم اليومي من موقع أداء الفرائض الدينيه والتكاليف الفرديه والاجتماعيه، وفي ساعات الليل يخلون مع ربهم ويطلقون باب رحمته ويتهلون إليه بالدعاء والمناجاة، وعندما يغلبهم النوم يقنعون باستراحه مختصره، لا على الفرش الوفيره والغاليه والوسادات الناعمه بل يضطجعون على الأرض ويضعون يدهم تحت رؤوسهم كوساده.

وهذه إشاره إلى أنّ العابد ليس هو الشخص الذى يقضى ليله ونهاره بالعباده وهو قابع فى زاويه البيت، بل العابد هو الشخص الذى يؤدى فرائضه الفرديه والاجتماعيه فى النهار، ويتجه فى الليل إلى الله تعالى ويقوم بفروض الصلاه والعباده، وقد ورد فى حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام وأنه قال:

«مَنْ عَمِلَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ» (٢).

وبهذا المضمون وبشكل أشمل ورد فى الحديث الشريفه عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«يَا عَلِيُّ ثَلَاثٌ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ فَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْيَدِ النَّاسِ وَمَنْ وَرَعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ وَمَنْ قَبَعَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أَعْنَى النَّاسِ» (٣).

وجمله

«افْتَرَشْتُ أَرْضَهَا وَتَوَسَّدْتُ كَفَّهَا» إشاره إلى غايه القناعه لدى هؤلاء بحيث إنهم لا يطمعون فى فرش مريحه ونوم هنىء، أضف إلى ذلك أنّ مثل هذه الفرش ربما تعيق الإنسان عن النهوض فى أوقات السحر للعباده والابتهاال لله تعالى.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى وصف حالات هؤلاء الأخيار ويقول: إنّ هؤلاء

ص: ١٨٤

١- (١) «توسّد» من ماده «وساده» بمعنى المتكأ والمخده.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٨٤، ح ٧.

٣- (٣) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٥٨، ح ٥٧٦٢.

الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع يعيشون خوف المعاد:

«فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرٍ (١) عَيُّوْنُهُمْ خَوْفٌ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ (٢) عَيْنٌ مَضَّاجِعِهِمْ (٣) جُنُوبُهُمْ، وَهَمَّهَتْ (٤) بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شَفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ (٥) بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ».

فمثل هذا الخوف من الحساب والقيامه أسهر عيونهم ومنع أبدانهم من الإخلاد إلى النوم وجعل شفاههم تتمم بذكر ربهم وأنهم لكثرة استغفارهم تقشعت وتساقطت ذنوبهم:

«وَهَمَّهَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شَفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ»، وهذه العبارات في الحقيقة مقتبسة من القرآن الكريم كما ورد في صفات المؤمنين الحقيقيين قوله تعالى: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (٤).

وفي مورد آخر يقول تعالى: «كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَعْفِفُونَ» (٧).

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه مستفيداً من الآيه الشريفه من القرآن الكريم في وصف هؤلاء المتقين بصفه «حزب الله»: «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٨).

وأخيراً يختم الإمام عليه السلام رسالته المنيره والمثمره بهذه الجمل يخاطب بها عثمان بن حنيف وجميع السائرين في خط الفضيله والطالبيين للسعاده ويقول:

«فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حَنِيفٍ، وَتَلْتَكْفِفْ (٩) أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ».

ص: ١٨٥

١- (١). «أسهر» من ماده «سهر» على وزن «سفر» بمعنى اليقظه.

٢- (٢). «تجافت» من ماده «تجافى» بمعنى التنحي والابتعاد ومادته الأصلية «جفاء» بمعنى أبعاد الشيء.

٣- (٣) «مضاجع» جمع «مضجع» بمعنى محل النوم.

٤- (٤) «همهت» من ماده «هممه» بمعنى الكلام بصوره همس.

٥- (٥) «تقشعت» من ماده «تقشع» على وزن «توقع» ويعنى التلف والتفرق من ماده «قشع» على وزن «مشق» بمعنى الرفع والدفع.

٦- (٦) سورة السجده، الآيه ١٦.

٧- (٧) سورة الذاريات، الآيتان ١٧ و ١٨.

٨- (٨) سورة المجادله، الآيه ٢٢.

٩- (٩) «ولتكفف» من ماده «كف» بمعنى المنع، ولكن في الكثير من نسخ نهج البلاغه وشروحها وردت «ولتكفك» من ماده «كفايه» يعنى أن أقراص الخبز كافيه لك فلا تقصد الموائد الفاخره والأطعمه الملونه.

لأنّ التلوّث بمثل هذه الضيافات الثقيله والموائد المجلله، التى لا طريق للجائعين إليها، والتى يدعى إليها الأشراف والأثرياء فقط وهم غالباً من الملوّثين بالأموال الحرام، ويعدك عن ذكر الله والمعاد والالتفات إلى المحرومين وتزويد من ثقل ذنوبك وتسبب لك المشاكل يوم القيامة.

وجاء فى تاريخ «مروج الذهب»: ذكر الفضل بن الربيع (وزير المهدي): دخل شريك (بن عبد الله) القاضى على المهدي (العباسى) يوماً، فقال له: لا بدّ أن تجيبنى إلى خصله من ثلاث خصال، قال: وما هى يا أمير المؤمنين؟ قال: إمّا أن تلى القضاء، أو تحدّث ولدى وتعلّمهم، أو تأكل عندى أكله، ففكر ثمّ قال: الأكله أخفهنّ على نفسى، فاحتبسه وقدم إلى الطباخ أن يطبخ له ألواناً من المخ المعقود بالسكر والطبرزد والعسل، فلما فرغ من غذائه قال له القيم على المطبخ، يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكله أبداً، قال الفضل بن الربيع: فحدّثهم شريك بعد ذلك، وعلم أولادهم، وولى القضاء لهم، وقد كتب بارزاقه إلى الجهبند فضايقه فى النقص، فقال له الجهبند: إنك لم تبع بزاً، قال له شريك: بلى والله لقد بع أكبر من البز، لقد بع دىنى (١).

أجل، ربّما تكون للقمه من طعام حرام هذه الآثار السلبيه العجيبه فى الإنسان، فلو أنّ شريك تعامل مع هذه المسأله بآليات العقل واكتفى بتعليم أبناء الخليفه ربّما استطاع تعليمهم معارف الإسلام وحقيقه الرساله الإلهيه ليدفع ظلمهم وجورهم فى المستقبل.

تأملان

١. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهيه

بعد المطالعه الدقيقه لهذه الرساله ربّما يثار هذا السؤال: هل أنّ الإسلام يحرم

ص: ١٨٦

١- (١) مروج الذهب، ج ٣، ٣١٠.

التلذذ بالأطعمه والمأكولات اللذيذه والحضور فى هذه الموائد الفخمه، أو أنّ هذا العمل حلال فى نفسه؟ وهل هناك تقاطع بين الزهد الإسلامى والاستفاده من النعم الإلهيه الدنيويه؟ الكلام فى هذا المجال متشعب ومفصل، ولكن يمكن تقديم عصاره لمثل هذا الموضوع فنقول:

وردت روايات كثيره فى تشويق المسلم للزهد فى الدنيا منها:

«الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الحَلَالِ وَلَا- إِزَالَةِ المَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْ تَقُومَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ»(١).

وجاء فى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام يقول:

«الزَّهَادَةُ قِصْرُ الأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ»(٢).

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءٌ لَأَيْحَاسِبُ اللَّهُ عَلَيْهَا المُؤْمِنَ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ وَتَوْبٌ يَلْبَسُهُ وَرَوْحَةٌ صَالِحَةٌ تُعَاوَنُهُ وَتُحْصِنُ فَرْجَهُ»(٣).

ويتبين من هذه الروايه الشريفه أنّ الانتفاع من هذه المواهب لا يتنافى مع الزهد أبداً، وكذلك ما ورد من الآيات الروايات فى هذا الباب ممّا يستدعى استعراضها وبيانها لتأليف كتاب مستقل عنها.

ولكن فى مقابل هذه النصوص هناك روايات أخرى تدعو الإنسان إلى ترك لذات الدنيا وتمدح ترك التلذذ والتنعّم بالمواهب الإلهيه الكثيره، منها:

ما ورد فى حديث معروف عن الإمام على عليه السلام قاله ليله استشهاده بعد أن تناول فطوره المكوّن من خبز وملح وترك ما سواهما، قال مخاطباً إبتته:

«يَا بُتَيْتِي مَا مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ وَمَلْبَسُهُ إِلَّا طَالَ وَقُوفُهُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٤).

ص: ١٨٧

١- (١) ورد هذا الكلام عن النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله فى سنن الترمذى، ص ٢٤٤٣. وكذلك ورد هذا الحديث فى

وسائل الشيعه ج ١١، ص ٣١٥، ح ١٣ باب استحباب الزهد فى الدنيا وحد الزهد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً.

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ٨١.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢٩٩.

٤- (٤) المصدر السابق، ج ٤٢، ص ٢٧٦.

وجاء في حديث آخر في كتاب «كنز العمال» عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، فَدَعِ الْحَلَالَ لِيُطَوَّلَ الْحِسَابُ وَدَعِ الْحَرَامَ لِيُطَوَّلَ الْعَذَابُ»^(١).

ويبدو أن الجمع بين هذه الآيات والروايات ممكن بإحدى هذه الطرق التاليه:

١. إن الاستفادة من المواهب الإلهية حكم لعامة الناس، والتوجه نحو الزهد والترغيب فيه هو حكم للخواص.

٢. إن روايات الزهد تهدف إلى التخفيف من استغلال الآيات والروايات من الطائفة الأولى، وتمنع الإنسان من الإفراط في تناول الأطعمة والإكثار من الملذات الحلال، لئلا يغرق الإنسان في هذه الملذات فتعيقه بالتالي عن سلوك طريق الهداية والمعنوية.

٣. إن أولياء الدين يمثلون الأسوه والقدوة للناس في سيرتهم وحياتهم، فينبغي أن يعيشوا معيشه ضعفاء الأمة ولمواساه المحرومين والتخفيف عن صعوبه معيشتهم.

٤. إن سلوك طريق الزهد يمنح جميع الأفراد حتى غير الأولياء مزيداً من الهدوء الروحي والصفاء النفسى، لأن الغرق في النعمه والرفاهيه تثقل الروح وبخاصه فيما لو كان الآخرون يعيشون في شغف العيش، فهذه الحاله متنافيه مع القيم ومذمومه من جهه عاطفيه.

٥. نظراً لما يترتب على الحلال من حساب يوم القيامه، فقد رجحت جماعه من المؤمنين الحياه البسيظه على المعيشه المرفهه لئلا يطول وقوفهم يوم القيامه للحساب.

وبالنسبه لحقيقه الزهد والجمع بين هذه التعاليم الإسلاميه من جهه، والانتفاع من المواهب الإلهيه الوارده في الآيات والروايات الشريفه المذكوره آنفاً من جهه أخرى راجع ما ورد في ذيل الخطبه ٨١ في الجزء الثالث من هذا الكتاب وكذلك يمكنك مراجعه كتاب دائره المعارف للفقه المقارن، الجزء الثاني (بحث الزهد والتنمية الاقتصاديّه).

ص: ١٨٨

٦. مضافاً إلى ما تقدّم فإنّ التحرك في خط الزهد والإعراض عن الدنيا وملذاتها يعتبر أحد العوامل الرئيسيّة في تربيته الروح وتزكيه النفس كما ورد شرحه في بحث رياضه النفس من هذه الرسالة.

٢. من هم حزب الله؟

ما ذكر الإمام عليه السلام في نهايه هذه الرسالة عن حزب الله، مقتبس من آيات القرآن الكريم:

وقد وردت هذه العبارة في آيتين من القرآن الكريم، الأولى في آيه ٥٦ من سورة المائدة، يقول تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا (١) فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ».

ونرى في هذه الآية الشريفه أنّ قبول الولاية الإلهية والأولياء الإلهيين تعدّ من صفات حزب الله.

وجاء في الآية ٢٢ من سورة المجادلة: «الَّذِينَ آمَنُوا يَتَجَدَّدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

في الآيه الأولى ورد وصف أفراد حزب الله، كما أشرنا إلى أنّها بوصف قبولهم لولاية الله ورسوله والأولياء الإلهيين، وفي الآيه الثانيه ورد وصفهم بأنهم «يبغضون في الله»، أو يعادون أعداء الحقّ، ويستفاد من مجموع هاتين الآيتين أنّ مسأله «الحبّ في الله» و«البغض في الله» على أساس أنّهما من أركان من يتصف بكونه من حزب الله، وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الرسالة بأنّ حزب الله هم القائمون في

ص: ١٨٩

١- (١) المؤمنون هنا، بقرينه الآيه السابقه إشاره إلى أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام وهي آيه الولاية واعطاء الإمام خاتمه في حال الركوع، وعلى فهذه الآيه نازله في شأنه عليه السلام.

الأسحار والعايدون والزاهدون في الحقيقه متقبس من القرآن وكون هذه الصفات من قبيل اللازم والملزوم.

ص: ١٩٠

تمثل هذه الرساله فى الواقع دستوراً عملياً لأحد عمال الإمام على عليه السلام وولاته فى حكومته، وتتضمن جمل قصيره وزاخره بالمعاني العميقه حيث يدعو الإمام مخاطبه بأداء وظيفته والقيام بمسؤوليته، وتتكون هذه الرساله من ثلاثه مقاطع:

فى المقطع الأول يشيد الإمام عليه السلام بشخصيه هذا الوالى ويشيد بمكانته المرموقه ليثير فى نفسه الاستعداد لقبول هذه المسؤوليه المهمه.

ص: ١٩١

١- (١). سند الرساله: أجمل الكثير من شراح فى من هو المخاطب فى هذه الرساله، ولكن صاحب كتاب (مصادر نهج البلاغه) يرى أن المخاطب لها هو مالك الأشتر، وكذلك ذكره صاحب كتاب (تمام نهج البلاغه) ويضيف صاحب المصادر: عندما عاد الإمام على عليه السلام من صفين أرسل مالك الأشتر إلى منطقته حكومته وإدارته «منطقه الجزيره» (وفقاً لما ورد فى معجم البلدان أن الجزيره منطقته فى العراق تقع بين نهري دجله والفرات) وعندما انتهت قضيه التحكيم وتغيرت أوضاع مصر أرسل الإمام على عليه السلام مالك الأشتر إلى مصر بدلاً من محمد بن أبى بكر وأرسل معه هذه الرساله وقال: إن هذه المهمه لا يقوم بها إلا أنت، وأعطاه رساله العهد التى ستأتى فى الرقم ٥٣. ومن الأشخاص الذين نقلوا هذه الرساله قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب الغارات، وكذلك البلاذرى فى أنساب الأشراف، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنه ٣٨، ومن الأشخاص الذين ذكروا هذه الرساله بعد السيد الرضى، ابن الأثير فى كتابه «الكامل». (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٧٦).

وفى المقطع الثانى يوصيه الإمام عليه السلام بالتواضع فى مقابل الرعيه والتعامل معهم بأسلوب اللطف والملائمه وسعه الصدر.

وفى المقطع الثالث يشير الإمام عليه السلام لزوم رعايه العداله والمساواه بين الناس حتى فى الإشاره والنظره والتحيه لئلا يطمع أصحاب الشروه والقوه فى عمليه التمييز، ويأس الضعفاء من إجراء العداله.

وذكروا أنّ من جمله الأشخاص المخاطبين لهذه الرساله هو مالك الأشر رحمة الله وقد أوردها الشيخ المفيد فى الأمالى، صفحه ٧٩، والمؤرخ المعروف الطبرى فى تاريخه الجزء الرابع، صفحه ٧١ فى حوادث سنه ٣٨.

ص: ١٩٢

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الشَّعْرِ الْمَخُوفِ. فَاسْتَعِنِ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ،
وَاخْلُطِ الشَّدَّةَ بِضِفَّةِ غُثِّ مِنَ اللَّيْنِ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَرِّمْ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ،
وَابْسِطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَيْكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرِ وَاللِّسَانِ وَالتَّجِيَّةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلَا
يَتَأَسَّ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: عامل الناس بالرفق!

أشرنا آنفاً في ذكر سند هذه الرسالة أنّ المخاطب لها حسب الظاهر مالك الأشتر، والعبارات الواردة فيها والثناء والتجليل في هذه
الرسالة يتناسب مع شخصيته مرموقه مثل مالك الأشتر، رغم أنّ الكثير من شراح نهج البلاغه لم يذكروا المخاطب فيها واكتفوا
بالإجمال.

يستعرض الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الرسالة لهذا الوالي عدّه صفات حسنه ويثني عليه ثناءً جميلاً ممّا يعمق فيه
الاعتماد على النفس ويكرس فيه القدره والإرادته على حلّ المشكلات ومواجهه التحديات يقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ (١) بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ (٢) بِهِ نَخْوَةَ (٣) الْأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ

ص: ١٩٣

١- (١). «استظهر» من ماده «استظهار» بمعنى طلب المعونه والمساعدة.

٢- (٢) «أقمع» من ماده «قمع» على وزن «قرض» بمعنى انصراف الشخص من إنجاز هدفه، وبمعنى القهر والضغط على الشخص
للاستسلام، و «مقمعه» تعنى العمود الحديدى الذى يضرب به الشخص أو الحيوان المتمرد على رأسه لمنع من التمرد.

٣- (٣) «نخوه» التكبر والغرور.

وهذه التعبيرات تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام اختار لتولى الأمور جماعه من الشجعان وأصحاب المعرفة والدرايه والتدبير ليساعدوه فى هذه الأمور الثلاثة، أى إقامة أركان الدين، وقمع المتمردين والفاستدين، وحفظ الثغور والمواقع الخطيره على حدود البلاد الإسلاميه، وكان مخاطب هذه الرساله، أى مالك الأشتر، أحد هؤلاء الولاه والأمراء الموثوقين لدى الإمام.

وكانّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول: إذا أوكلتك لهذا الأمر وفوّضت إليك مسؤوليه تدبير مصر وإقامه الأحكام الدينيه فيها ولمنع تعدييات قوى الظلام والانحراف وحفظ الثغور فى مقابل التهديد الخطير الذى يتمثل بجيش الشام وأتباع معاويه فإنّ ذلك بسبب لياقتك وجدارتك فى هذه الأمور، والحقيقه أنّ مالك الأشتر كان كذلك كما بينه الإمام عليه السلام فى هذه الجمل الموجهه والعميقه المعزى.

إنّ الحوادث التى وقعت لمالك الأشتر وذكرها المؤرخون فى كتبهم شاهد حى على هذه الحقيقه.

ومن ذلك عندما أراد الإمام على عليه السلام قتال المتمردين فى واقعه الجمل، أرسل عمّار بن ياسر إلى الكوفه لتحشيد الناس للالتحاق والانضمام إلى جيش الإمام على عليه السلام يقول الراوى: «والله إنى لفى المسجد يومئذٍ وعمّار يخاطب أبا موسى ويقول له ذلك القول (ويعبىء الناس للمشاركة فى جيش الإمام ولكن أبا موسى الأشعري كان واقفاً على المنبر ويثبط الناس) إذ خرج علينا غلمان لأبى موسى وقالوا: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر وضربنا وأخرجنا، فنزل أبو موسى

ص: ١٩٤

١- (١) «لهاه» بمعنى اللسان الصغير، ثم اطلقت على المخنق والحجره كما ورد فى الجمله أعلاه.

٢- (٢) «الثغر» يعنى حدود البلد وفى الأصل بمعنى كلّ شقّ.

فدخل القصر، فصاح به الأشتر اخرج من قصرنا لا ام لك أخرج الله نفسك، فوالله أنك لمن المنافقين قديماً، قال: أجلنى هذه العشيّه. قال: هي لك ولا- تبتنّ في القصر الليله، ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر، وقال: إني قد أخرجته فكف الناس عنه»(١).

وكذلك ورد في كتب التاريخ: عندما وصل الإمام على عليه السلام في مسيره إلى صفين، إلى أرض الرقه، فكان لابدّ لهم من عبور النهر، ولكن الناس لم ينصبوا الجسر للإمام عليه السلام وجيشه، (وكأنهم كانوا يرتبطون بعلاقه خاصه بمعاوليه) فعزم الإمام أن يعبر النهر من جسر منبج (٢) (هو بعيد عن هذا المكان) فقال الأشتر لأهالي تلك المنطقه: اقسم بالله إذا لم يعبر أمير المؤمنين هذا الجسر ولم تحضروا له جسراً ليمر عليه فأعاقبكم بسيفى هذا وأقتل رجالكم وأخرب دياركم وآخذ أموالكم، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا الأشتر فهو يفي بقسمه قوموا واحضروا الجسر، فلما أحضروا الجسر وهيثوه عبر جيش الإمام أجمعه عليه، وكان الأشتر آخر نفر عبر عليه.

على أيه حال فالإمام عليه السلام بعد هذه العبارات الهادفه والدقيقه يطرح على مالك الأشتر دساتير وتوصيات مهمه في مجال التعامل مع الناس، بدايه يقول:

«فَاسْتَعِنُ بِاللَّهِ عَلَيَّ مَا أَهَمَّكَ».

وهذه إشاره إلى أنّ الأصل والأساس في كسب النجاح والتوفيق في إداره البلاد وتدير أمورّه هو الإستعانه بالذات المقدسه وطلب المعونه والتسديد منه.

وفي التوصيه الثانيه يقول:

«وَإِخْلِطِ الشَّدَّةَ بِضِعْثٍ (٣) مِنَ اللَّيْنِ».

وهو إشاره إلى أنّ أمر الحكومه وتدير الولايه وإجراء البرامج الاجتماعيه لا

ص: ١٩٥

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٥٠١، حوادث سنه ٣٦.

٢- (٢) . «منبج» على وزن «مجلس» اسم مدينه من مدن الشام.

٣- (٣) «ضغث» على وزن «حرص» تعنى قبضه من الأعواد الرفيعه مثل سيقان الحنطه والشعير أو محمل التمر في النخله، ويأتى بمعنى حزمه من حطب أو نبات الجاف أيضاً، وأحياناً تطلق على المنامات المضطربه، وهنا وردت بمعنى مجموعه من عوامل اللين.

تتحقق من خلال الاعتماد على آليات الشدّة والعنف فقط، بل ينبغي على الوالى أن يخلط بين بالشدّة، لأنّ اسلوب الشدّة والقهر يتسبب فى نفور الناس وعداوتهم وربّما لا يصل إلى نتيجته، ولو استخدم الوالى آليات اللطف والملائمة والليونة دوماً فإنّ الكثير من الأفراد لا يأخذون عمله على محمل الجد وربّما يؤدّى ذلك إلى تكاسلهم وتواكلهم وبالتالي فشل المشروع، وهذا هو ما ورد فى منهج الأنبياء الإلهيين من كون كلّ نبي (مبشراً ونذيراً) والقرآن الكريم يؤكّد من جهه أنّ الله تعالى فى موضوع العفو الرحمة أرحم الرحمين وفى موضوع الجزاء والنقمة أشدّ المعاقبين.

والتوصيه الثالثه تبيّن ما هو الأصل بين الرفق والشدّة وما هى مواردهما، يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَرْفُقْ مَا كَانَ الرَّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمِ بِالشَّدَةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَةُ».

وعلى هذا الأساس فالأصل فى المناسبات بين الوالى والرعيه، بل يأتى هذا الأصل فى جميع أشكال الإداره، هو الرفق والمداراه، ولكن إذا كان البعض يستغلون هذا اللين والرفق وسيئون الاستفاده من مداراه المدير والوالى لهم، فهنا لابدّ من استخدام الشدّه.

وقد ورد فى الحديث الشريف المعتبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ الرَّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» (١).

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ

فَالدِّينُ أَوْلُهَا وَالْعَقْلُ تَانِيهَا

وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا

وَالجُودُ خَامِسُهَا وَالْعُرْفُ سَادِسُهَا

وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا

وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللِّينُ عَاشِرُهَا (٢)

يُخَاطِبُنِي السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ

وَأَكْرَهُهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيباً

ص: ١٩٦

يَزِيدُ سَفَاهَةً وَأَزِيدُ حِلْمًا

كَعُودٍ زَادَهُ الْإِحْرَاقُ طَيْبًا (١)

وحالياً نشاهد أنّ أفضل الطرق لمواجهة المفاسد الاجتماعيه والتصدي لأشكال الجنوح والانحراف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استخدام آليات المحبّه والخطاب المنطقي المقترن بالأدب والمداراه، فإنّ غالبيه الناس يتحركون بالاتجاه الصحيح بهذا الأسلوب، ولكن هناك قله من الناس لا ينفع معها سوى الشده ولا ينتهون عن سلوكياتهم الخاطئه إلا بالآليات القهر والقوه.

في التوصيه الرابعه والخامسه والسادسه يقول الإمام عليه السلام:

«وَإِخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ».

وهذه التوصيات في الحقيقه مقتبسه من الآيات القرآنيه الشريفه، فالقرآن يخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: «وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (٢).

ويقول في آيه أخرى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» (٣).

وفي التوصيه السابعه والأخيره يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَسِ (٤) بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَيْثِي لَمَّا يَطْمَعُ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ (٥)، وَلَمَّا يَتَأَسَّ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَيْدِكَ، وَالسَّلَامُ».

وهذه التوصيه تشمل المدراء والولاه في المجتمع الإسلامى، وكذلك تشمل القضاة أيضاً حيث ورد في كتاب القضاء أنّ هذه الأمور من وظائف القضاة، ولعل ذلك ينحصر بتعاليم الإسلام، بأن ينظر القاضى أو الوالى بنظره واحده للجميع، فلو قام احتراماً لواحد من المتخاصمين أو المراجعين يجب عليه القيام للجميع، وإذا سلّم على بعضهم ينبغى أن يسلم على الجميع بصوره واحده، بل لا ينبغى له أن ينظر

ص: ١٩٧

١- (١). مجانى الأدب، ج ٢، ص ١٠١.

٢- (٢) سورة الحجر، الآيه ٨٨.

٣- (٣) سورة آل عمران، الآيه ١٥٩.

٤- (٤). «أس» من ماده «مواساه» تعنى وقوع الأشياء فى صف واحد والتساوى فى المرتبه.

٥- (٥). «حيف» الانحراف عن الحق والعداله.

إلى بعضهم بجميع بصره وينظر إلى الآخر بطرف عينه، فمثل هذه التوصية تعنى أن يحسب الآخرين حسابهم ويعلموا أن هذا المكان هو مكان يراعى فيه موازين العدل والانصاف ولا ينبغي أن يتوقع أحدهم التمييز فى الأمور المهمّة.

ص: ١٩٨

لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعْنَهُ اللَّهُ (١)

نظرة عامة للرساله

هذه الوصية في الواقع تعتبر أحد الوصايا الشاملة والمهمّة للإمام على عليه السلام عندما كان في سرير الشهادة، ومخاطب هذه الوصية ولداه الحسن والحسين عليهما السلام، بل جميع الشيعة وأتباع آل البيت عليهم السلام وتتضمن عدّة فصول مهمّة:

الفصل الأول، يوصي الإمام عليه السلام إبنه بتقوى الله وعدم اهتمام بزخارف الدنيا، والدفاع المظلومين وحمايه حقوقهم في مقابل الظالمين.

وفي الفصل الثاني، يصرّح الإمام عليه السلام بأنّ مخاطبه هو جميع أبنائه وأهله وكل من تصل إليه هذه الوصية إلى يوم القيامة، ومرّه أخرى يؤكّد الإمام في وصيته على التقوى ونظم الأمور والإصلاح بين الناس.

ص: ١٩٩

١- (١) سند الرسالة: نقل هذه الوصية جماعه كثيره قبل السيد الرضى، ومنهم أبو مخنف (لوط بن يحيى طبقاً لنقل مقاتل الطالبين) وأبو حاتم السجستاني في كتاب المعمرون، والطبرى في تاريخه المعروف في حوادث سنة ٤٠، والكليني في كتاب الكافي، والمسعودى في مروج الذهب، والشيخ الصدوق في من لا يحضره الفقيه، وجماعه آخرون. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٧٩-٣٨١).

وفى الفصل الثالث، يشير الإمام عليه السلام إلى عدّة مسائل مهمّة، منها الدعوه لكفاله الأيتام وحفظ حقوق الجيران، والعمل بالقرآن والاهتمام بإقامه الصلاة والحج والجهاد بالنفس والمال واللسان وتوثيق العلاقة بين الأفراد واجتناب الكراهيه والفرقه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفى الفصل الأخير يخاطب عليه السلام أبناء عبدالمطلب مؤكّداً لهم أنّهم بعد استشهاده ينبغي أن يمتنعوا من سفك دماء المسلمين بذريعه مقتله والانتقام له، ويحمل المسؤوليه فقط على قاتله الذى يجب القصاص فى حقّه، ثم يوصيهم باجتناى المثلّه بعد القصاص من القاتل ولزوم دفنه.

ص: ٢٠٠

إشاره

أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغْتُمْهَا، وَلَا تَأْسِفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولَا بِالْحَقِّ وَأَعْمَلَا لِلْآخِرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا.

الشرح والتفسير: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً!

هذه هي الوصية الثانية للإمام علي عليه السلام في فراش الوفاة (وقد سبق ذكر وصية أخرى للإمام في الكتاب رقم ٢٣).

وكما أشرنا آنفاً، أنّ الإمام عليه السلام تحدّث بهذا الكلام في فراش الوفاة وكتب هذه الوصية، ونعلم أنّ الإنسان في مثل هذه الحالة يهتم ببيان الأمور المهمّة لديه بعبارات موجزة، ولم تكن وصية الإمام هذه تتعرض لكيفية تقسيم أمواله وثوراته، لأنّه لم يترك مالاً- وثورته لورثته، وإن كان يملك مبلغاً من المال فقد جعله وفقاً للمسلمين، وتتركز هذه الوصية حول القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية والتكاليف المديتية في واقع الحياه الفرديّة والاجتماعيّة، وبالرغم من أنّ المخاطب في هذا المقطع من الوصية، الحسن والحسين عليهما السلام، ولكن بقرينه المقطع الثاني من الوصية فإنّ الآخرين أيضاً مخاطبون بهذا الخطاب المهم.

وعلى أيّ حال فإنّ الإمام عليه السلام في المقطع الأوّل لهذه الوصية يوصي ولديه بسبعه أمور مهمّة:

الأوّل يقول عليه السلام:

«أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ».

أجل، كما قلنا مراراً أنّ التقوى تعنى الاحساس بالمسؤولية الباطنية فى مقابل الأوامر الإلهية، فهى تمثل عصاره تعاليم جميع الأنبياء والأولياء وبدونها لا- يستطيع أى شخص الخلاص من الوسوس الشيطانية والأهواء النفسانية، فمفتاح الجنة هو التقوى، والمركب الذى يركبه السائل فى مراتب السلوك المعنوى والقرب الإلهى هو الورع.

ثم إنّ الإمام عليه السلام فى الوصية الثانية والثالثة يقول:

«وَأَلَّا تَبْغِيَا (١) الدُّنْيَا وَإِنْ بَعَثُكُمَا، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُورِي (٢) عَنْكُمَا».

ومعلوم أنّ الدنيا ذات أبعاد وأقسام مختلفه: قسم منها ضرورى لحياه الإنسان وبقائه، والقسم الآخر يتمثل فى وسائل الترفيه بالشكل المعقول، ولكن القسم الذى يتضمّن أكثر من ذلك والإنسان يتجه نحوه بدافع الأهواء والتفاخر وأمثال ذلك، وبديهي أنّ الإمام عليه السلام لا ينهى عن القسم الأوّل والثانى، بل هو ناظر إلى القسم الثالث، كما ورد هذه المعنى فى القرآن الكريم: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٣) وقطعاً إذا تحرك الإنسان بهذا الاتجاه من طلب الدنيا فإنّ ذلك يبعده عن الله والآخرة ويدفعه للتلوّث بأنواع الذنوب والمعاصى.

وعندما يقول الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَأْسِفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُورِي عَنْكُمَا»، فالعلّة فى ذلك جليه لأنّ التأسف على شىء فقدّه الإنسان فى الماضى لا يعيده إليه، هذا أوّلاً، وثانياً، إنّ هذه الحاله السلبية فى النفس من شأنها إعاقة الفعاليات الإيجابية وعدم تركيز الاهتمام لحفظ ما يملكه الإنسان حالياً.

وهذا الكلام فى الحقيقه مقتبس من القرآن الكريم ويقول: «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» (٤).

ص: ٢٠٢

١- (١) . «تبغيا» و «بغت» كلاهما من ماده «بغاء» على وزن «سَاء» بمعنى طلب الشىء.

٢- (٢) «زوى» من ماده «زى» على وزن «حى» وتعنى الإبعاد والنهى، وفى الجملة أعلاه «زوى» بمعنى اخذ.

٣- (٣) . سورة الحديد، الآية ٢٠.

٤- (٤) سورة الحديد، الآية ٢٣.

ونقرأ فى حديث عميق المعنى، أنّ رجلاً كان يصلّى مع النبى صلى الله عليه و آله، فلمّا انصرف قال النبى صلى الله عليه و آله:

«هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، قال عبدالله بن عمرو، فأتيته فقلت:

يا عمّاه الضيافه، قال: نعم، فإذا له خيمه وشاه ونخل، فلمّا أمسى خرج من خيمته فاحتلب العنز واجتنى لى رطباً ثمّ وضعه، فأكلت معه فبات نائماً وبت قائماً، وأصبح مفطراً وأصبحت صائماً، ففعل ذلك ثلاث ليال، فقلت له: رسول الله صلى الله عليه و آله قال فيك: إنك من أهل الجنة، فأخبرنى ما عملك؟ قال: فأتيت رسول الله صلى الله عليه و آله، فأخبرك حتى يخبرك بعملى، فأتيت رسول الله صلى الله عليه و آله، فقال: إنك فمره أن يخبرك، فقلت: إن رسول الله يأمرك أن تخبرنى، قال: أما الآن فنعم، قال: لو كانت الدنيا لى فأخذت منى لم أحزن عليها، ولو اعطيتها لم أفرح بها، ولا- أبيت وفى قلبى غل على أحد، قال عبدالله: لكننى والله أقوم الليل وأصوم النهار، ولو وهبت لى شاه فرحت بها، ولو ذهبت لحزنت عليها، والله لقد فضلك الله علينا فضلاً بيناً(١).

أجل، هكذا هى طبيعه الدنيا، فيوم لك ويوم عليك، فلا إقبالها يوحى بالاطمئنان لها ولا إدارها يثير التأسف عليها.

ونقرأ فى حديث آخر عن ابن عباس أنه قال: لم أنتفع بعد كلام رسول الله صلى الله عليه و آله بانتفاعى بكتاب كتبه على بن أبى طالب عليه السلام فإنه كتب إلى:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَرْءَ يَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكُهُ وَيَسِيرُهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُفَوِّتَهُ فَلْيَكُنْ سَيْرُورُكَ بِمَا نَلْتَمَسُ مِنْ آخِرَتِكَ وَلْيَكُنْ أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا وَمَا نَلْتَمَسُ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكُنْ بِهِ فَرِحاً وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ حُزْناً وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالسَّلَامُ»(٢).

وفى التوصيه الرابعه والخامسه يقول عليه السلام:

«وَقُولَا بِالْحَقِّ، وَاعْمَلَا لِلْآجِرِ».

أمّا نصره الحق والالتزام الواعى بقول الحق وفقد ورد فى آيات متعدده من القرآن الكريم ومن ذلك ما ورد فى سوره «العصر» الأمر بالتواصى بين المؤمنين

ص: ٢٠٣

١- (١) تفسير در المنثور، ذيل الآيه ١٠ من سوره الحشر.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ٣، باب الحزن، ح ٣٧٨٩. وللإطلاع أكثر انظر الرساله ٢٢ من هذا الكتاب.

بالحق: «وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ».

والجدير بالذكر أن الحق له معنى واسع جداً ويشمل كل حقيقته عقائديه وأخلاقية وحكميه والتعاليم والأحكام الإلهية وحقوق الناس فيما بينهم، والحق المتقابل بين الحاكم والرعية، أو بين السلطة والشعب، وحق الإنسان على نفسه وما إلى ذلك.

وأما للعمل والأجر والثواب الإلهي فهذا يعني إخلاص الله وأن لا ينظر الإنسان إلى ما في أيدي الناس بعين الطمع، وأن يحصر فكره ونظره بالثواب الإلهي ويؤدى كل عمل بنية خالصة لله تعالى.

ثم يشير الإمام عليه السلام في التوصية السادسة والسابعة إلى مسأله في غاية الأهميه، ويقول:

«وَكُونَا لِلظَّالِمِ حَضَمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا».

وهذه التوصية في الحقيقة تأكيد على لزوم نصره الحق والدفاع عنه كما ورد في العبارات السابقة، وما حق أعظم من أن يعين الإنسان المظلوم في مقابل الظالم، ليصل المظلوم إلى حقه ويجتنب الظالم ظلمه، واللافت للنظر أن الظالم والمظلوم في هاتين الجملتين مطلقان فلا يختصان بالمسلمين، ومن هذه الجهة فإن كل مظلوم في العالم يجب على المسلمين الدفاع عنه ونصرته، ويجب عليهم التصدي لكل ظالم وجائر في هذا العالم، ولو أن منظمات حقوق الإنسان اهتمت بتطبيق هذين الأمرين فقط، فإن الدنيا ستتحول إلى جنه، ولكننا نرى أن هؤلاء الذين يدعون الدفاع عن حقوق الإنسان يقفون مع الظالم عندما تتعرض منافعهم غير المشروعه للخطر، ويقفون ضد المظلوم، رغم أنهم يرفعون لواء حمايه المظلومين والتصدي للظالمين في الظاهر.

ونقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ أَصْبَحَ لِيَهُمْ بِظُلْمٍ أَحَدٍ غَفَرَ اللَّهُ مَا اجْتَرَمَ» (١).

وفي الحقيقة أن أكثر الذنوب تعدد نوعاً من أنواع الظلم والشخص الذي يجتنب

ص: ٢٠٤

الظلم بجميع أشكاله هو الذى يتخلص من الذنوب كآفه.

ونقرأ فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«وَمَنْ أَخَذَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ مُصَاحِبًا» (١).

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى «غررالحكم» يقول:

«أَحْسَنُ الْعَدْلِ نُصْرَةُ الْمَظْلُومِ» (٢).

وكذلك نقرأ عن الإمام زين العابدين عليه السلام فى دعاء ٣٨ من الصحيفة السجادية (بوصفه قدوه لعامة الناس):

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظَلَمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْهُ».

ص: ٢٠٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٥٩.

٢- (٢) غررالحكم، ص ٤٤٦، ح ١٠٢١٠.

أَوْصِيَكُمْ، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي (١)، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصِيْلَمَاحِ ذَاتِ (٢) بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «صَلَّاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ».

الشرح والتفسير: أفضل الأعمال صلاح ذات البين!

في هذا المقطع من الوصية يوسع الإمام عليه السلام دائره مخاطبيه لتمتد إلى أبعد من ولديه الحسن والحسين عليهما السلام، وهم أهله وجميع أرحامه ومن تصل إلى أيديهم هذه الوصية إلى يوم القيامة ليقعوا جميعاً في دائره هذا الخطاب الإيماني، فيقول:

«أَوْصِيَكُمْ، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصِيْلَمَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: (صَلَّاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ)».

وهكذا نرى أنّ الإمام عليه السلام يؤكد في هذا المقطع من الوصية على أمور ثلاثة:

الأول: التأكيد مره على الالتزام والواعى بمقتضيات التقوى والورع، فطريق النجاه لا

ص: ٢٠٧

١- (١). جاء في روايه وفقاً لما ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه: عندما عاين الطبيب المعروف في الكوفه الإمام عليه السلام قال: أنا آيس من بقاءك وحياتك، فأمر الإمام عليه السلام بأن يأتوا له بدواه وقلم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٧٩).

٢- (٢). «ذات» في الأصل بمعنى الخلقه والبنيه وأساس الشيء، وإن جاء في اصطلاح الفلاسفه بمعنى عين الشيء وحققيقته، ومن هذه الجبهه فإنّ إصلاح ذات البين أو صلاح ذات البين إشارة إلى إزالة الكدورات والأحقاد من الأصل والأساس.

يتيسر للإنسان إلماماً خلال التقوى، التي تعتبر زاد الإنسان ومتاعه في سفره إلى الآخرة وكذلك تعتبر معيار شخصيته الإنسان وكرامته أمام الله تعالى بمقتضى قوله:

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...» (١).

والأمر الثانى: يوصى الإمام عليه السلام ولديه بنظم أمورهم فى حركة الحياه الفرديه والاجتماعيه، وهذا يشمل النظم فى الأبعاد الأمتيه والاجتماعيه والاقتصاديه والسياسيه وفى العباده، وكذلك ما يرتبط بالأسره والتعليم والتربيه للأبناء ونعلم أن بقاء عالم الوجود مرتبط بشكل وثيق بما فيه من نظام محكم فى ظل التدبير الإلهى، فلولا وجود النظم فى الأفلاك والمجرات السماويه لما بقى عالم الكون والطبيعه ولسارع إلى الانحلال والاندثار، ولو أن بدن الإنسان وما فيه من أجهزه وأعضاء تتحرك فى إطار من النظم الدقيق لسارعت الأمراض إليه وإرتبك عمل هذه الأجهزه المختلفه ولمات الإنسان فى وقت قصير، وكل مجتمع يفتقد النظم اللازم فإنه يتعرض للفناء والانقراض، وكل إنسان يسلك فى خط العشوائيه والعبثيه بعيداً عن النظام فى حركة الحياه فلا يصل إلى نتيجته مهما كان يملك من قابليات وإمكانات كثيره.

وعلى سبيل المثال يوجد فى دم الإنسان أكثر من عشرين نوعاً من العناصر المعدنيه وشبه المعدنيه ترتبط فيما بينها برابطه خاصه ولكل واحد منها مهمه خاصه يؤديها فى البدن، فلو أن هذه التركيبات والعناصر تغيرت قليلاً من الناحيه الكميّه والكيفيه فستظهر علائم الأمراض على الإنسان، ولهذا السبب فإن جميع الأطباء ومن أجل تشخيص جذور المرض الأصليه يعملون على تحليل دم المريض فى المختبر ليروا فى أى قسم يوجد الخلل والنقص.

وفى المسائل الفلكيه نرى أحياناً أن المنجمين وعلماء الفلك يتنبؤن بشكل دقيق بالخشوف وأنه سيقع فى الساعه الفلانيه والدقيقه الفلانيه فى المكان الفلانى من الكره الأرضيه وذلك قبل عدّه أشهر من وقوع الخسوف أو الكسوف، ويجتمع فى

ص: ٢٠٨

تلك المنطقه جماعات كثيره فى لحظه وقوع الكسوف لرصد الشمس فى ذلك الوقت، فلولا وجود نظم دقيق حاكم على عالم الوجود لما أمكن لعلماء الفلك أن يتنبأوا بمثل هذه الأمور، بل إنهم يتنبئون بالظواهر الكويته قبل آلاف السنين من وقوعها.

والآن لو أن الإنسان أراد فى علاقاته الاجتماعيه أن يسلك طريقاً اللانظم واللامبالاه فسيكون قطعه غير متجانسه مع عالم الوجود، ومثل هذا الشىء الاستثنائى وغير المنسجم من مظاهر الطبيعه محكوم بالفناء والزوال.

أما صلاح ذات البين والحديث الذى نقله الإمام عليه السلام عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بأن إصلاح ذات البين أفضل من الصلاه والصوم، فالعله فى ذلك جليه، لأنه لولا- مسأله إصلاح ذات البين والعمل على رفع الكدورات وإزاله العداوات وتبديل حالات الكراهيه إلى حالات المحبه والموده بين أفراد المجتمع الواحد، لسادت حالات التشتت والفرقه والتزلزل بينهم، وهذا بدوره يقود المجتمع كما يقول القرآن إلى الفشل والتناحر.

ولهذا السبب كان إصلاح ذات البين من أفضل العبادات بل ورد فى الروايات الشريفه أن المصلح بمنزله المجاهد فى سبيل الله:

«جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَجْرَ الْمُصْلِحِ بَيْنَ النَّاسِ كَأَجْرِ الْمُجَاهِدِ عِنْدَ النَّاسِ»^(١).

ولا- شك ولا- ريب فى أن الجهاد يوجب عزه الإسلام، والشخص الذى يتحرك فى واقعه الاجتماعى من أجل إيجاد حالات التفاهم والتواصل بين الناس ويسوق المجتمع الإسلامى نحو التوحد والاتحاد فإن عمله هذا يتسبب فى عزه الإسلام والمسلمين.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«صَدَقَهُ يُحِبُّهَا اللَّهُ إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَارُبُ بَيْنِهِمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»^(٢).

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديثاً معروفاً، عندما قال مخاطباً المفضل (وهو أحد أصحاب الإمام):

«إِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ شِيعَتِنَا مُنَازَعَةً فَافْتَدِهَا مِنْ مَالِي»

ص: ٢٠٩

١- (١). تفسير الثعلبى، ج ٩، ص ٨٠.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ١.

أى أصلح بينهما وارفح النزاع ولو كان بدفع مبلغ من المال لهما، ولذلك نقر أ فى الروايه عن أبى حنيفه سابق الحاج قال: مرّ بنا المفضّل وأنا وختنى (١) نتشاجر فى ميراث، فوقف علينا ساعه ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائه درهم، فدفعها إلينا من عنده حتّى إذا استوفى كلّ واحد منّا من صاحبه، قال: أمّا إنّها ليست من مالى، ولكن أبو عبد الله عليه السلام أمرنى إذا تنازع رجلان من أصحابنا فى شىء أن أصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبى عبد الله عليه السلام (٢).

ونختم هذا البحث بحديث آخر من جملة الأحاديث الكثيره الوارده فى هذا المجال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ» (٣).

وبعد أن ينقل العلّامة المجلسى الحديث النبوى الشريف الوارد فى كلام الإمام عليه السلام مورد البحث، ينقل عن أمالى الشيخ الطوسى بعد ذكره لهذه الروايه:

«المراد صلاه التطوّع والصوم» (٤) وكأنّ توضيح الشيخ الطوسى فى هذا الكلام يعتمد على روايه معتبره عن النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ» (٥).

ص: ٢١٠

١- (١) . الختن، زوج بنت الرجل وزوج اخته.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٢٠٩، ح ٣ و ٤.

٣- (٣) كنز العمّال، ح ٥٤٨٠؛ مجموعه ورام، ج ١، ص ٣٩.

٤- (٤) . بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٤٤.

٥- (٥) المصدر السابق، ص ٤٣.

إشارة

اللَّهِ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ، فَلَا تُعْبُوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضَعُوا بِحَضْرَتِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّتُهُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورِّثُهُمْ وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَمَّا تَخَلَّوْهُ مِمَّا بَقِيْتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرِكَ لَمْ تَنَاطِرُوا، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالسَّبِيَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاضِعِ وَالتَّبَادُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَوْلَى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

الشرح والتفسير: وصايا هامه على فراش الشهاده!

إشارة

يقدم الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية عشر توصيات مهمه فيما يتصل بالمسائل الاجتماعيه والعباديه والأخلاقية، وفي سته موارد منها يستهلها الإمام عليه السلام بكلمه «اللَّهُ اللَّهُ» وذلك للدلاله على غايه الاهتمام والتأكيد، وبدايه يشرع الإمام من الأيتام ويقول:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ، فَلَا تُعْبُوا (١) أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضَعُوا بِحَضْرَتِكُمْ».

وفيما يتصل بالاهتمام في أمر اليتامى فقد ورد في القرآن الكريم والروايات

ص: ٢١١

١- (١) «تعبوا» من ماده «عَبَّ» على وزن «حد» بمعنى العاقبه، وهذه المفرده تأتي أحياناً في مورد الأعمال والأمر التي يؤتى بها بشكل غير متوالى، من قبيل ما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لبعض أصحابه: «زُرْ غَيْبًا تَزِدُّ حُبًّا» (مستدرک الوسائل، ج ١٠، ص ٣٧٤، ح ١٢٢١٠).

الشريفه تأكيدات كثيره بهذا المضمون، ممّا يعكس الروح الإنسانيّه وحالات التكافل الاجتماعي وحمايه الضعفاء في التعاليم والأحكام الإسلاميّه.

فنقرأ في الآيه ٩ من سوره النساء قوله تعالى: «وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».

ويقول في الآيه بعدها: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا».

وورد في حديث معروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمَرٌّ عَلَى يَدِهِ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

أجل، فإنّ روح اليتامى عطشى للمحبّه، فتأثير المحبّه والمداراه لهؤلاء الأطفال اليتامى لا يفوقه أى إكرام واحترام لهم.

وفى حديث مشهور آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَى اهْتَرَّ لِئِكَانِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» (٢).

وجاء فى ذيل هذا الحديث أنّ الله تعالى يخاطب ملائكته ويقول:

«إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَى اهْتَرَّ لِئِكَانِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتِي! مَنْ أَبَكَى هَذَا الْيَتِيمَ الْمَلْدَى غُيِبَ أَبُوهُ فِي التُّرَابِ؟ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ، أَنْتَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

يَا مَلَائِكَتِي! فَإِنِّي اشْهَدُكُمْ أَنَّ لِمَنْ أَسْكَنَهُ وَأَرْضَاهُ أَنْ أَرْضِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وجاء فى كتاب الكافى، جىء إلى أمير المؤمنين عليه السلام عسل وتين من همدان وحلوان (٣) فأمر العرفاء أن يأتوا باليتامى، فأمكنهم من رؤوس الأزقاق يلعقونها وهو يقسمها قدها قدها، فقبل له: يا أمير المؤمنين ما لهم يلعقونها، فقال الإمام عليه السلام:

«إِنَّ الْإِمَامَ أَبُو الْيَتَامَى وَإِنَّمَا أَلْعَقْتُهُمْ هَذَا بِرِعَايَةِ الْأَبَاءِ» (٤).

ص: ٢١٢

١- (١) مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٦.

٢- (٢) المصدر السابق.

٣- (٣) . من بلاد كردستان قريه من بغداد.

٤- (٤) الكافى، ج ١، ص ٤٠٦، ح ٥.

والملفت أنّ أبا الطفيل (الصحابي المعروف ومن الأتباع المخلصين للإمام على عليه السلام) يقول: «رأيت عليّاً عليه السلام يدعو اليتامى فيطعمهم العسل، حتى قال بعض أصحابه: لوددت أني كنت يتيماً» (١).

ثم إنّ الإمام عليه السلام في وصيته الثانية يؤكّد على ضروره الاهتمام بحقّ الجيران ويقول:

«اللّهُ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّتُهُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورُّهُمْ (٢)».

وجمله

«فإنّها وصيته نبيّكم»، إمّا من باب حذف المضاف، وهي في الأصل:

«فإنّها محلّ وصيه نبيّكم»، أو من باب التأكيد بأنهم عين وصيته، من قبيل أن يقال:

زيد عدل، أو نقول مثلاً: الشخص الفلاني عين العدالة.

والتعبير بـ «ظنّ» في جملة در جملة

«حتّى ظننّا أنّه سيورّوهم»، بأن يكونوا شركاء في الميراث إمّا على مستوى التأكيد ومن خلال ما سمعوه من تكرار توصيه النبيّ بالجيران، أو يراد بها المعنى الحقيقي، وأنهم حسبوا واقعاً أنّ مقام الجيران إلى درجه يمكن أن يلحقوا بالأرحام والأقرباء ويكونون شركاء في الميراث.

وعلى أيّ حال فالجار في الإسلام يتمتع باحترام خاصّ خلافاً لما نراه في عالم اليوم والحياه الماديه في المجتمعات المعاصره، فربّما عاش رجلان عشرين سنه جيراناً ولكن أحدهما لا يعرف الآخر بتاتاً.

إنّ فلسفه احترام الجار في الإسلام جليه وواضحه، لأنّ الإسلام دين اجتماعي بامتياز، فتعاليمه ناظره إلى تجمع الأسره، تجمع الأقرباء والأرحام، تجمع الجيران، تجمع أهالي المدينه، تجمع المواطنين في البلد الواحد، فكل واحد من أفراد هذه التجمعات له مكانه خاصّه في الإسلام، فلو أنّ الجيران كانوا يهتمون واقعاً ببعضهم

ص: ٢١٣

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢٩.

٢- (٢) «سيورّوهم» «ورث» (صيغه الثلاثي المجرد) تعني أخذ الميراث، ولكن «ورث» من باب التفعيل تعني اعطاء الميراث أو ترك الميراث.

البعض ويتشاركون الأفراح والأحزان فيما بينهم فإنّ الحياه ستكون حلوه وهنيئه وسيمنح هذا التواصل والتكاتف أفراد الجيران القوّه والروحيه بحيث تمكنهم من التغلب بسهولة على المشاكل والتحديات الصعبه التي يفرضها الواقع، فاليوم يواجه هذا الجار مشكله معينه فينهض سائر الجيران لمساندته وتقديم المعونه إليه لحل هذه المشكله، وغداً تكون نوبه الجار الآخر ويتداعى له الجيران بالمعونه وهكذا.

ونقرأ في حديث عميق المغزى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ مَا تَدْرُونَ مِنْ حَقِّ الْجَارِ إِلَّا قَلِيلاً أَلَا لَأَيُّومٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ لَأْيَأَمْنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ فَإِذَا اسْتَيْقَرَّ ضَعْفُهُ أَنْ يُقَرِّضَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَأَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ عَزَّاهُ لَا يَنْتَبِطِلُ عَلَيْهِ فِي الْبِنَاءِ يَحْجُبُ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَإِذَا اشْتَرَى فَكَهَّهَ فَلْيَهْدِ لَهُ فَإِنْ لَمْ يَهْدِ لَهُ فَلْيُدْخِلْهَا سِرّاً وَلَا يُعْطَى صَبِيئَانَهُ مِنْهَا شَيْئاً يُغَايِطُونَ صَبِيئَانَهُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ حُصُوقِ حَقِّ الْإِسْلَامِ وَحَقِّ الْجَوَارِ وَحَقِّ الْقُرَابَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ مِنَ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجَوَارِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ الْكَافِرِ لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ» (١).

ونقرأ في الآيه ٣٦ من سوره النساء أنّ القرآن الكريم بعد التأكيد على الإحسان الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين، يؤكد على الإحسان للجيران القربين والبعيد، يقول: «وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ».

واللافت ما ورد في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام أنّ حدّ الجار يتمثل في أربعين منزلاً من الجهات الأربع (٢).

ومما يجدر ذكره أنّ هذا الحديث الشريف لا يعنى أن نحسب أربعين داراً من كلّ جهه في خط مستقيم بحيث يكون المجموع ١٦٠ منزلاً، وأن لا تحسب المنازل الواقعه بين هذه الخطوط المستقيمه حتى لو كانت على مقربه من دار الشخص، بل

ص: ٢١٤

١- (١) مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٤٢٤، ح ١٤.

٢- (٢) انظر: وسائل الشيعه، ج ٨، ص ٤٩١، آداب العشره، باب ٩٠.

المراد أنّ دائره الجيران تمتد لشعاع أربعين منزلاً- من كلّ جهه، ونعلم أنّ مساحه الدائره تساوى ضرب نصف القطر فى عدد ٣/١٤، ويتبين فى حساب بسيط أنّ المجموع يبلغ قرابه خمسه آلاف بيتاً، فجميع هذه البيوت والدور، وفق ما ورد فى الحديث الشريف، تعتبر من الجيران، أى أنّها مدينه مكونه من عشرين ألف نفر.

ونختم هذا الكلام بذكر قصه تاريخيه، ينقل ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه أنّ رجلاً يدعى أبو الجهم باع داره وكان فى جواره سعيد بن العاص بمائه ألف درهم، فلما أحضرها المشتري قال (أبو الجهم) له: هذا ثمن الدار، فأعطني ثمن الجوار، فقال المشتري: أى جوار قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحد جواراً قط، قال: ردّ علىّ دارى، وخذ مالك، لا أدع جوار رجل إن قعدت سألت عنيّ وإن رآنى رحّب بى، وإن غبت عنه حفظنى، وإن شهدت عنده قرّبنى، وإن سألته قضى حاجتى، وإن لم أسأله بدأنى، وإن نابتنى نائبه فرج عنيّ، فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه مائه ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك (١).

ونقرأ فى التوصيه الثالثه أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على العمل بالقرآن والالتزام بتعاليمه وأحكامه ويقول:

«وَاللّٰهُ فِي الْقُرْآنِ، لَآيَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ».

وهذا الكلام إشاره إلى أنّكم لا- ينبغي أن تقنعوا بتلاوه القرآن وتجويده وتغفلوا عن مضامينه وتعاليمه، فى حين أنّ الأجنب يتحركون فى حياتهم من موقع العمل بمضامين القرآن وتعاليم الإسلام، مثلاً، عندما يعرضون بضاعتهم فى السوق يراعون الصدق والأمانه فى معاملاتهم ولكنكم لستم كذلك، أو أنّهم يلتزمون بعهودهم ومواثيقهم وأنتم تنقضون العهود ولا تلتزمون بالمواثيق فيما بينكم، وأولئك يسعون بجديّه لتحصيل وكسب العلوم المختلفه وإيجاد حاله النظم والانضباط فى علاقاتهم ولكنكم لا تهتمون لذلك فتبقون فى ركب التخلف والتبعيه، كما نشاهد هذا الحال - وللأسف - فى بعض المجتمعات البشريه والإسلاميه وأنهم يعملون على وضع

ص: ٢١٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٧، ص ٩.

شاره وعلامه الشركات الأجنبية على منتجاتهم ومصنوعاتهم ويبيعونها في السوق، وهذا يعني أن الناس تعتمد وتثق بالبضاعة الأجنبية ولكنهم لا يعتمدون على منتجاتهم، والأجانب يسعون دائماً في خط التطور العلمي ويبدلون الجهود الكبيرة في سبيل التقدم والإزدهار، في حين أن الكثير من الشعوب الإسلامية يعيشون الغفلة وحالة الاسترخاء والتكاسل وكأنهم نيام، وهذا الأمر مؤلم جداً ومؤسف.

وقد ورد في الحديث الشريف أن زياد بن ليبيد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأمرأ ثم أضاف شيئاً وقال:

«ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذِهَابِ الْعِلْمِ»، فقلنا:

وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا وأبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال:

«تَكَلَّفَكَ امَّاكَ يَا زِيَادُ! إِنَّ كُنْتُ لِأَرَاكَ أَفْضَلَ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوْلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهَا» (١). يعني اخشوا يوماً تكونوا مثلهم.

وقد وردت تعبيرات في غايه الأهميه فيما يتصل بأهميه القرآن الكريم في النصوص القرآنيه والروايات الإسلاميه، فنقرأ في خطب نهج البلاغه كلاماً مطولاً وعميقاً في هذا الشأن وقد سبق أن ذكرناه في البحوث السابقه، ولكننا نكتفي هنا بذكر مقطع من الخطبه ١٨٢ التي أوردناها في الجزء السابع من هذا الكتاب، وأن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يتأسف ويتأوه على فراق إخوته وأحبته ويذكرهم بهذه العبارات:

«أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوهُ الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ أَحْيَاؤَ السُّنَّةِ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوُثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ» (٢).

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه في هذه الوصيه ويتحدّث في التوصيه الرابعه عن الصلاه ويبيّن أهميتها ويقول:

«وَاللَّهِ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ».

وقد ورد هذا التعبير بعمود الدين بشكل واسع في روايات المعصومين عليهم السلام ومن

ص: ٢١٦

١- (١). بهج الصباغه، ج ١١، ص ٨٠.

٢- (٢). نهج البلاغه، الخطبه ١٨٢.

ذلك ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّ عَمُودَ الدِّينِ الصَّلَاةُ وَهِيَ أَوْلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ صَحَّتْ نُظِرَ فِي عَمَلِهِ وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ لَمْ يُنْظَرُ فِي بَقِيَّةِ عَمَلِهِ» (١).

ويبين الإمام الباقر عليه السلام هذا المعنى بشكل واسع ويقول:

«الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّينِ مِثْلُهَا كَمِثْلِ عَمُودِ الفُسَيْطَاطِ إِذَا ثَبَتَ العَمُودُ ثَبَتَتِ الأَوْتَادُ والأَطْنَابُ وَإِذَا مَالَ العَمُودُ وَانْكَسَرَ لَمْ يَثْبُتْ وَتَدُّ وَلا طُنْبُ» (٢).

والدليل على ذلك أن الصلاة تربط الإنسان بالبارى تعالى وتقوى فيه العلاقة بينه وبين ربه وتحبب فيه روح التقوى والإيمان، ومن هنا فإنها تردع الإنسان من اقتراف الفحشاء والمنكرات وتمنحه القدرة والقوة على الإتيان بسائر الطاعات والعبادات الأخرى، ومن هذه الجهة تبقى خيمه الدين منصوبه في حياه الإنسان المعنويّه، وأما ترك الصلاة فإنه يقود الإنسان إلى نسيان الله، والغفله عنه ومن يغفل عن الله تعالى فإنه يتلوث بكل عمل قبيح.

ثم يبين الإمام عليه السلام في التوصيه الخامسة أهميه الحج إلى بيت الله، ويقول:

«وَاللَّهِ اللهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَأَتَخَلُّوهُ مَا بَقِيْتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرِكَ لَمْ تُنَاطَرُوا».

وذكر بعض شراح نهج البلاغه أن جملة

«لَمْ تُنَاطَرُوا» إشاره إلى ابتعادكم عن نظر اللطف الإلهي بسبب عدم اهتمامكم ببيته، أو ابتعادكم عن نظره تعظيم الناس لكم، بسبب تفرّق المسلمين وضعفهم فيما لو تركوا البيت الحرام، ولكن الظاهر أن المراد من التناظر في هذه العبارة هو الإمهال، وذلك إشاره إلى أن المهله الإلهيه ستنتفضى وسيحل عليكم العذاب (٣).

ص: ٢١٧

١- (١) التهذيب، ج ٢، ص ٢٣٧، ح ٥.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٢١٨، ح ٣٦.

٣- (٣) ذكر المرحوم العلامه المجلسي في بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٥١، وجماعه من شراح نهج البلاغه معنى الجملة كما ذكرناه في المتن، وبهذا المعنى ورد في مجمع البحرين، ولكن جماعه من الأكابر كالفيض الكاشاني في الوافي، والمحقق السبزواري في ذخيره المعاد، والسيد أحمد العاملی في مناهج الأخيار في شرح الاستبصار فسروا جملة: «لم تناظروا» بمعنى «لم تمهلوا».

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا مَا قَامَتِ الكَعْبَةُ»^(١).

والروايات الشريفه التي تتحدّث عن أهميّه الحج وزياره بيت الحرام إلى درجه من الكثره والاستفاضه أنّها خارجة عن إطار هذا المختصر، فنكتفي هنا بذكر جملة واحده من هذه الروايات كخاتمه لهذا البحث:

يقول أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: قلت لأبي عبدالله: إنّ رجلاً استشارني في الحج وكان ضعيف الحال (من الجهه الماليه أو البدنيه) فأشرت إليه أن لا تحج، فقال عليه السلام:

«مَا أَخْلَقَكَ ^(٢) أَنْ تَمْرُضَ سَنَّهُ»، قَالَ: فَمَرَضْتُ سَنَّهُ ^(٣).

حكى عن رجل السياسه في بريطانيا ويدعى (غلاستون) أنّه قال: مادام المسلمون يقرأون القرآن ويطوفون بالكعبه ويذكروا اسم محمّد كلّ صباح ومساء على المآذن، فإنّ النصرانيه في خطر محقق، فعليكم أن تحرقوا القرآن وتهدموا الكعبه وتمحو اسم محمّد من الآذان.

وفي التوصيه السادسه يقول الإمام عليه السلام:

«وَاللّٰهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ».

والمراد من الجهاد بالأنفس، الحضور في ميادين القتال والتصدي لأعداء الإسلام والمسلمين للحفاظ على الإسلام والبلدان الإسلاميه في مقابل تحديات الأعداء وعدوانهم، وأمّا الجهاد بالأموال فيتمثّل بالمساعدات الماديه والماليه لتعبئه الجيوش الإسلاميه في الأزمنه القديمه ومدّها بالمؤن والعتاد اللازم، وفي هذا العصر يشمل الجهاد بالأموال جميع أشكال المساعدات فيما يتصل بالأمور الثقافيه والاجتماعيه

ص: ٢١٨

١- (١). الكافي، ج ٤، ص ٢٧١.

٢- (٢) ورد في بعض نسخ الوسائل «ما أخلفك».

٣- (٣) الكافي، ج ٤، ص ٢٧١، ح ١.

والاقتصاديّ لتقويه دعائم الإسلام في واقع المجتمعات الإسلاميّة، وأمّا الجهاد باللسان فيتمثّل بالدفاع المنطقي والخطاب العقلاني والتبليغ المستمر لنشر تعاليم الإسلام وأحكامه، واليوم يستفاد في هذا السبيل من جميع وسائل الارتباط الجمعي في العالم والأجهزه الحديثه في هذا الشأن.

ويعتبر الجهاد قانوناً عاماً في عالم الطبيعه، لأنّ جميع الموجودات الحيّه، سواءً من النباتات أو الحيوانات والأحياء الأخرى تتحرك في مواجهتها للموانع والمعيقات بأليه الجهاد لتستمر في حياتها وتزيح المعيقات من أمامها.

وفي طبيعه الخلقه في هذا العالم، فإنّ كلّ موجود يستبطن في ذاته آفه ونقصاً، ولو لم يناضل ويكافح من أجل التغلب على تلك الآفه فإنّه سرعان من يصيبه العطب ولا يمكنه الاستمرار في حركه التكامل وإدامه الحياه.

إنّ جذور الأشجار، ولغرض الحصول على الماء والغذاء، تتجه دائماً إلى أعماق الأرض، وعند وصولها إلى مانع كالحجر فإنّها تحاول النفوذ فيه وتحطيمه أو الالتفاف عليه والاستمرار في حركتها، وأحياناً نرى أنّ الجذور الرقيقه للنباتات تنفذ إلى الموانع الصلبه وحتى الفولاذيه وتثقبها.

ولا- نبتعد كثيراً فإنّ أبداننا تعيش حاله الجهاد في الليل والنهار، لأنّ الميكروبات تنفذ إلى البدن من أربع طرق: الماء، الهواء، والغذاء، والجلد (في حال وجود جرح أو خدش)، فلولا وجود القوى الدفاعيه للبدن المتمثله في خلايا الدم البيضاء وتصديها لهذه الميكروبات فربّما يصاب الإنسان في يوم واحد بأنواع الأمراض والأسقام، ولكنّ هذا الجهاد الصامت والعميق هو الذي يحفظ لنا سلامتنا وصحتنا.

والمجتمعات التي لا تتحرك في خط الجهاد والتصدي للأعداء فإنّها ستواجه في مدّه قصيره الهلاك والفناء، أو تنحدر نحو الضعف والذله والمهانه.

ونقرأ في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ذُلًّا وَفَقْرًا فِي مَعِيشَتِهِ وَمَحَقًّا فِي دِينِهِ» ثم قال:

«إِنَّ اللَّهَ أَعَزُّ أُمَّتِي بِسَنَابِكِ خَيْلِهَا وَمَرَائِرِ

ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«وَاللَّهِ مَا صَلَحَتْ دُنْيَا وَلَا دِينٌ إِلَّا بِهِ (بالجهاد)»(٢).

وبالنسبة لأهميته الجهاد فقد تحدّثنا في البحوث السابقة عن هذا الموضوع، ومن ذلك ما ورد في ذيل الخطبه ٢٧ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ثم يواصل الإمام عليه السلام توصياته لبنينه وشيعته ويأمرهم بأربعة أمور مهمّة، ويقول في البيان الأوّل والثاني:

«وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ».

ثم يطرح البيان الثالث والرابع ويقول:

«وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابِيرَ وَالتَّقَاطُعَ».

«تواصل» من ماده «وصل»، ويشمل كلّ أشكال الإرتباط المعنوي والمادى والعقلانى والعاطفى، أمّا «تبادل» فهو من ماده «بذل» وهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ إحدى طرق تمّتين العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، البذل والمعونات الماديه للمحتاجين والإنفاق على الآخرين بما يحقق لأفراد المجتمع التكاتف وتوثيق العلاقة فيما بينهم.

«تدابير» من ماده «دبر» (على وزن عبد) يعنى الإعراض عن الآخر إظهاراً للكراهيه والعداوه، لأنّ المعرض عن الآخر يعطيه ظهره، و«تقاطع» يراد به كلّ أشكال قطع العلاقة مع الآخرين، وهاتان المفردتان تقعان على الضد من المفردتين الأوليتين وهما من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ التدابير يعنى الانفصال الكامل، والتقاطع يشمل كلّ نوع من قطع الرابطة.

إنّ مسأله توثيق علائق المودّه والمحبه بين الأفراد تاره تكون باللسان وأخرى عن طريق اللقاءات والزيارات المتبادله، وهى مسأله فى غاية الأهميه فى التعاليم الإسلاميه، كما أنّ الكراهيه والتنافر وقطع العلاقات مذموم فى نظر الإسلام، وقد

١- (١) تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٢٣، ح ٨.

٢- (٢) الكافى، ج ٥، ص ٨، ح ١١.

وردت أحاديث كثيرة في ذم الهجران والتنافر في المنابع الروائية المعتبرة، وأحياناً يشعر القارئ لها بقشعريره لشده مضامينها.

وقد أورد المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» حديثاً شريفاً عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَيُّمَا مُسْلِمِينَ تَهَاجَرَا فَمَكَثْنَا ثَلَاثًا لَا يَصِدُّ طَلْحَانِ إِلَّا كَانَا خَارِجِينَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا وَلَايَةٌ فَأَيُّهُمَا سَبَقَ إِلَيَّ كَلَامِ أَخِيهِ كَانَ السَّابِقَ إِلَيَّ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْحِسَابِ» (١).

ونقرأ في هذا الكتاب أيضاً روايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَا يَزَالُ إِبْلِيسُ فَرِحًا مَا اهْتَجَرَ الْمُسْلِمَانِ فَإِذَا التَّقْيَا اضْطَكَّتْ رُكْبَتَاهُ وَتَخَلَّعَتْ أَوْصَالُهُ وَنَادَى يَا وَيْلَهُ مَا لَقِيَ مِنَ الثُّبُورِ» (٢).

بل يمتد الأمر إلى أبعد من ذلك، فالشخص الذي يرى نفسه مظلوماً وأن الطرف الآخر ظالم له يجب عليه أيضاً السعى لتطوير الرابطة معه والسعى للتصالح وإزالة غبار وافرازات الظلم، كما نقرأ هذا في حديث آخر في كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لَا يَفْتَرِقُ رَجُلَانِ عَلَى الْهَجْرَانِ إِلَّا اسْتَوْجَبَ أَحَدُهُمَا الْبُرَاءَةَ وَاللَّعْنََةَ وَرُبَّمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ كِلَاهُمَا فَقَالَ لَهُ مُعْتَبٌ جَعَلَنِي اللَّهُ فِتْدَاكَ هَذَا الظَّالِمُ فَمَا بَالُ الْمَظْلُومِ قَالَ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو أَخَاهُ إِلَى صِلَتِهِ» (٣).

وهذه إشاره إلى لزوم التحرك على مستوى حل المشكله بصوره سلميه ومنطقيه فيما بينهما.

ثم إن الإمام عليه السلام يشير إلى التوصيه التاسعه والعاشره في كلامه يقول:

«لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُؤَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

ص: ٢٢١

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٤٥، ح ٥.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٣٤٦، ح ٧.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٣٤٤، ح ١.

هنا ربّما يطرح هذا السؤال نفسه: هل هناك رابطه معنويّه وغيبّيّه بين حكمومه الأشرار وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم توجد رابطه ظاهرّيّه وملموسه بينهما؟

الظاهر أنّه من الممكن إثبات العلاقة بينهما بصوره منطقيّته، لأنّ أحد المصاديق المهمّه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتمثّل في التصدي لقوى السلطه والحكومه فيما لو إرتكبوا مخالفات شرعيه ودستوريه، فيجب على عامّه الناس تذكيرهم بواجباتهم ومطالبتهم للحكّام العمل وفق مقتضيات العدل والشرع، فلو أنّ الناس تركوا هذين الأمرين ووجد الحكّام أنفسهم أحراراً في ما يتصرفون وفيما يسلكون دون أي اعتراض من أحد عليهم، فذلك من شأنه أن يزيدهم جرأه وجساره على التوغّل في خط الانحراف والظلم، وبالتالي يتسلط الأشرار على المجتمع الإسلامي.

ولكن لماذا لا يستجاب الدعاء لرفع شرّ حكّام الجور والشرّ؟ فذلك لما ورد في الروايات الإسلاميّه أنّ المصيبة والبلاء إذا كان بسوء اختيار الإنسان نفسه وتقصيره، فالدعاء لرفعه لا يكون مستجاباً ويقال له: هذه نتيجة أعمالك، لماذا تصرفت مثل هذا التصرف وارتكبت العمل الفلاني الذي تسبب لك بهذه العاقبه السيئه؟

والملفت للنظر ما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام أنّ الأختيار أيضاً في مثل هذه الظروف إذا دعوا لا يستجاب لهم:

«فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» (١).

تأمل

أهميه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وردت بحوث كثيره وموسعه في النصوص القرآنيّه والروايات الشريفه بالنسبه لأهميه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونكتفي هنا بذكر روايتين في هذا الشأن:

جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ

ص: ٢٢٢

الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْهَا جُجُ الصُّلَحَاءِ فَرِيضَةُ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وَتَأْمَنُ الْمِيْذَاهِبُ وَتَحِلُّ الْمَكَاسِبُ وَتُرَدُّ الْمَظَالِمُ وَتُعْمَرُ الْأَرْضُ وَيُنْتَصَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيُسْتَقِيمُ الْأَمْرُ»(١).

وجاء في ذيل هذا الحديث أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى شعيب النّبي عليه السلام أنّي معذب من قومك مائة ألف نفر، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال شعيب عليه السلام: ياربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي وَلَمْ يَعْصِبُوا لِعَظْبِي»(٢).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللَّهُ وَمَنْ خَدَلَهُمَا خَدَلَهُ اللَّهُ»(٣).

والتعبير بـ «خلقان» في الواقع نوع من التشبيه، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد منه الخلق (بضم الخاء) ويعنى الخصلة في ذات الإنسان، ولكنّ هذا الاحتمال بعيد ظاهراً بقريته ما ورد في ذيل الحديث.

وعلى أيّ حال فإنّ مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور التي أكّدت عليها التعاليم السماوية وعمل بهذه الوظيفة الأنبياء والأولياء الإلهيين وقد أمروا جميع الناس بأداء هذه الوظيفة الشرعية.

وفي ختام هذا المقطع من هذه الوصية، لأبدّ من الاعتراف بصراحته أنّ هذه التوصيات العشر المذكورة أعلاه لو تجسدت في حياة المسلمين على مستوى التطبيق والممارسة فإنّها تضمن لهم العزّة والقدرة والرفعة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة ولا يتوقع من شخصيته نموذجيه كأمير المؤمنين عليه السلام في وصيته وهو على فراش الشهادة غير هذه التوصيات التي تتضمن سعادته الدنيا والآخرة للمسلمين.

ص: ٢٢٣

١- (١) الكافي، ج ٥، ص ٥٥، ح ١.

٢- (٢) المصدر السابق.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٥٩، ح ١١.

ثُمَّ قَالَ:

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَأُفَيِّنَكُم تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا، تَقُولُونَ: «قَتَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَاتَقْتُلُنَّ بِي إِذَا قَاتَلِي. انظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَهُ بِضَرْبِهِ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمَثَلَةَ وَلَوْ بِالْكَلبِ الْعَقُورِ».

الشرح والتفسير: نوصيه الإمام عليه السلام المؤكده حول قاتله!

في هذا المقطع الأخير من هذه الوصية يتوجه الإمام عليه السلام بكلامه نحو أقربائه وأرحامه من أبناء عبدالمطلب ويوصيهم بثلاثه أمور مهمه فيما يتصل بقاتله، وهذا يعكس عظمه الإمام عليه السلام وسعه صدره تجاه أعدائه ومناوئيه.

بدايه يقول:

«ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَأُفَيِّنَكُم (١) تَخُوضُونَ (٢) دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا، تَقُولُونَ: «قَتَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَاتَقْتُلُنَّ بِي إِذَا قَاتَلِي».

ومثل هذه المسأله تحدث كثيراً على إمتداد التاريخ، عندما يقتل زعيم كبير أو ملك من الملوك فإن جماعه من أتباعه يسلكون سبيل التعصب والانتقام ويقومون بمجزره كبيره، وجماعه أخرى تغتنم الفرصه لتسويه حسابتهم الشخصيه من

ص: ٢٢٥

١- (١). «ألفينكم» من ماده «لفو» على وزن «لهو» فى الأصل بمعنى فصل الشىء عن غيره، مثل فصل اللحم عن العظم، والفاء هنا بمعنى العثور على الشىء فجأه.

٢- (٢) «تخوضون» من ماده «خوض» فى الأصل بمعنى الغمس فى الماء، ثم اطلقت على الدخول العميق والتوغل فى كل شىء حتى فى البحوث العلميه.

مخالفيهم فيكثروا فيهم القتل وسفك الدماء بهذه الذريعة، كما ورد في التاريخ الإسلامي عندما قام أتباع الخليفة الثاني بعد مقتله على يد أبي لؤلؤة بالانتقام له من ذويه وأقربائه وقتلوا عدداً منهم، وكذلك عندما قتل مصعب بن الزبير أخا عبيدالله بن زياد، فنذر عبيدالله أن يقتل مائه نفر من قريش، فقتل منهم ثمانين نفر، ثم أخبروه بأن مصعب قد قتل ثم بعث برأسه إلى عبدالمملك، فهدأت نفسه حينذاك (١)، ولكن الإمام عليه السلام برؤيته الحكيمه وأفقه الواسع وقف أمام هذا العمل، ولذلك لم تحدث بعد استشهاده تسويه حسابات شخصيته باسمه ولم يتعرض المجتمع في ذلك الوقت لمثل هذه الحوادث الداميه والفوضى المدمره.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه مع أقربائه ويصدر الأمر الثاني لهم ويقول:

«انظروا إذا أنا متُّ من صرْبتي هذه، فأضربوه صرْبته بصرْبته».

والملفت للنظر أن الإمام عليه السلام يوصى بإقامه العدل بالنسبه لقاتله حتى في كيفية القصاص، لئلا يتحرك شيعته بدافع التأثر الشديد على مقتله ويعاملون قاتله بالقتل الفجيع والمثله ولا يكتفوا بالقصاص العادل.

وقد سبق وأن قرأنا في الكتاب رقم ٢٣ أن الإمام عليه السلام يقول:

«إِنْ أَبَقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي وَإِنْ أَفَنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي وَإِنْ أَعَفْتُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبِي وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ فَاعْفُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ».

ونستوحى من هذه العبارات أن الإمام عليه السلام كان راغباً في العفو عن قاتله ولكن الظروف والمستجدات في ذلك المحيط الاجتماعي لا تسمح قطعاً بالعفو عن القاتل، ولذلك يوصى الإمام عليه السلام هنا بالحد الأدنى من القصاص.

والجدير بالذكر ما ورد في «تاريخ الطبري» وكذلك في «الكامل» لابن الأثير، أن قاتل الإمام على عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم قال قبل استشهاد الإمام عليه السلام: شحذته - سيفي هذا - أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال الإمام عليه السلام له:

ص: ٢٢٤

١- (١). انظر: شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ١١، ص ٨٧.

«أَنْتَ أَشَقَى خَلَقِ اللَّهِ وَقَدْ قَتَلْتَ نَفْسَكَ بِسَيْفِكَ» (١).

ثم يوصى الإمام عليه السلام بوصيته الثالثة والأخيرة ويقول:

«وَلَا تَمَثَّلُوا (٢) بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثَلَّهَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ» (٣).

إن المثلّه بوصفها حاله إنتقاميه وغير إنسانيه كانت متداوله في عصر الجاهليته، ولذلك قام العرب المشركون في معركة احد بقتل حمزه سيّد الشهداء وعمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث لم يكتف العدو بقتله بل شق صدره بوحشيّه وقساوه فظيعة وأخرج كبده أو قلبه وقطع اذنه وأنفه، وعندما شاهد رسول الله صلى الله عليه وآله شهادة عمّه حمزه بن عبدالمطلب، تألم لذلك كثيراً وقال:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا أَرَى» ثم قال:

«لَيْنَ ظَفَرْتُ لِأُمْتَلِنَ وَلَا مِثْلَنَ وَلَا مِثْلَنَ» وعلى روايه أخرى أنه قال:

«لَأُمْتَلِنَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ» فنزلت الآيه: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» (٤)، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أصبرُ أصبرُ» (٥) (يعنى ولا أنتقم).

ونعلم جيداً أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد فتح مكّه كان يملك القدره الكامله على الانتقام من أعدائه والمجرمين بأشد أنواع الانتقام ولكنّه آثر العفو والصفح عنهم، أضف إلى ذلك ما ورد في حديث عن أحد الصحابه أنه قال:

«مَا حَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حُطْبَةً أَبَدًا إِلَّا أَمَرْنَا فِيهَا بِالصَّدَقَةِ وَنَهَانَا عَنِ الْمَثَلَةِ» (٦).

ص: ٢٢٧

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ١١١؛ الكامل، لابن الأثير، ج ٣، ص ٣٩٠.

٢- (٢). «تمثلوا» من ماده «مثل» على وزن «أصل» بمعنى قطع وفصل أعضاء البدن فى العقوبه.

٣- (٣) «عقور» بمعنى المتوحش والهارى، وهى صيغه مبالغه من ماده «عقر» على وزن «عقد» بمعنى إصابته بجرح، وهذه المفرده تستخدم غالباً فى الكلاب، ولكن أحياناً تطلق على حيوانات أخرى.

٤- (٤). سورة النحل، الآيه ١٢٦.

٥- (٥) التفسير الأمثل، ذيل الآيه ١٢٦ من سورة النحل، نقلاً عن تفسير العياشى والدر المنثور والميزان.

٦- (٦) بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ٢١٦، ح ٤.

بدايه لابد من الإشاره فى شأن صدور هذه الرساله كما ذكر ذلك صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه وأن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى أحد أيام معركة صفين حيث اشتد فيه القتال، وضع عمامه رسول الله صلى الله عليه وآله على رأسه وقال: أيها الناس من أراد أن يتعامل مع الله فى هذا اليوم فليستعد، فقام معه عشره آلاف نفر أو أكثر فاستعدوا للقتال مع الإمام، ثم إن الإمام عليه السلام قرأ أبياتاً من الشعر الحماسى وهجم على جيش الشام، وكذلك حمل من معه حمله رجل واحد وشقوا صفوف جيش الشام، فعندما رأى معاويه هذا الحال ركب جواده واستعد للفرار، ولكن عمرو بن العاص أوصاه بأن يرفع المصاحف على الرماح ويدعو جيش الإمام عليه السلام بالخضوع لحكم القرآن،

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، وكذلك نقلها نصر بن مزاحم فى كتابه عن ابن ديزيل وكلاهما كان يعيشان قبل السيد الرضى، وكذلك ذكر أحمد بن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح وكان أيضاً قبل السيد الرضى وأوردها بشكل أكثر تفصيلاً مما أورده السيد الرضى، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرساله. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٣ و ٣٨٤).

وهذا الأمر أدى إلى وقوع الاختلاف في صفوف جيش العراق، وفي ذلك الوقت كتب معاوية كتاباً للإمام علي عليه السلام وخلاصته: لقد طالت بنا الحرب وكل واحد منا يرى الحق بجانبه، وقد قتل جماعه كثيره من الناس وإني أخاف أن يكون المستقبل أسوء من ذلك وسنكون غداً مسؤولين أمام الله عن هذا الأمر، فإننا أدعوك لما فيه صلاح الأمة وحفظ دمائها ودفع الفتنة والعداوة، وذلك أن نختار رجلين ممن نرضاهما لأمر التحكيم أحدهما من أنصاري والآخر من أنصارك ليحكموا طبقاً لحكم الله فاتق الله وارض بحكم القرآن والسلام.

فكتب إليه الإمام عليه السلام في مقام الجواب هذه الرساله، التي تشتمل على نصائح لمعاوية وتحذيره من عاقبه أعماله التي ستقوده للندم والخسران، وهذه هي عاقبه كل من سار في خط الشيطان وأذعن لدعوته وسلم زمام أموره بيده.

وفي القسم الآخر من هذه الرساله، يعلن الإمام عليه السلام قبوله بمسأله حكميه القرآن، لا من أجل دعوه معاويه، بل بسبب عظمه القرآن وحرمة.

ص: ٢٣٠

وَإِنَّ الْبُغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُؤَيِّدِيَانِ خَلْلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعْيبُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرُ يَوْمًا يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمَّكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَادِبْهُ. وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجْبِنَا، وَلَكِنَّا أَجْبِنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: نصيحة جامعه لمعاويه

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرسالة الموجزه والعميقه المعنى إلى عدّه نقاط مهمّه ذكر بها معاويه بأنّه إذا استمع لنصيحه الإمام عليه السلام من كلّ قلبه وتحرك على مستوى العمل لتطبيقها فإنّه لم يكن ليحدث كلّ هذا الفساد في العالم الإسلامى وسوف لا يتسنى لشجره بنى اميه المشؤومه فى النمو والرشد فى البلاد الإسلاميه المقدسه.

بدايه يتحدّث الإمام عليه السلام فى نصيحته بشكل عام ويقول:

«وَإِنَّ الْبُغْيَ وَالزُّورَ (١) يُوتِغَانِ (٢) الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُؤَيِّدِيَانِ خَلْلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعْيبُهُ».

أجل، لا شىء أشنع وأسوء من الظلم والكلام الباطل، لأنّه يخدع الإنسان ويوقعه

ص: ٢٣١

١- (١). «الزور» على وزن «كور» فى الأصل من ماده «زور» على وزن «غور» وتعنى القسم العلوى من الصدر، ثم اطلقت على كل شىء ينحرف عن الحد الوسط، وبما أنّ الكلام الباطل منحرف عن الحق يقال له «زور»، وشهاده الزور تعنى شهاده الكذب والباطل.

٢- (٢) «يوتغان» من ماده «وتغ» على وزن «وجب» بمعنى هالك وفساد، وعندما تأتى من باب الأفعال تعنى إهلاك وإفساد.

فى ودأى الهلكه والمتاهه بحيث لا طريق له للعوده للإيمان والصلاآ وبالتالى سيخسر دينه ودنياه، وسيفتضح لدى عامه الناس ويعرفونه بالفساد والإفساد.

وفى النقطه الثانيه يقول الإمام عليه السلام:

«وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ».

يعتقد الكثير من شراح نهج البلاغه أنّ هذه الجملة إشاره إلى مطالبه معاويه بدم عثمان، لأنّ الأشخاص الذين رجحوا السكوت وتركوا نصره عثمان فهم شركاء فى قتله، ولكنهم ومن أجل التشويش على العوام وتحميقهم والتوصل إلى مآربهم الدينيه رفعوا لواء الثأر لدم عثمان وطلبوا من الإمام عليه السلام أن يسلمهم قتله عثمان ليقتصوا منهم، ولكن الإمام عليه السلام يقول: إنك بهذا العمل لن تصل إلى مقصودك وأنت وأعوانك شركاء فى قتل عثمان ولا يمكنكم المطالبه بدمه والقصاص من قتلته.

ويحتمل أيضاً فى معنى هذه العبارة أنّ المراد من جملة

«مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ»، هو حكومه الشام التى يطالب بها معاويه من الإمام عليه السلام، فالإمام عليه السلام يقول: إننى لا أسمح لك أبداً بتولى حكومه الشام، والشاهد على هذا الاحتمال ما ورد سابقاً فى الرساله رقم ١٧.

وهناك احتمال آخر أيضاً طرحه بعض الشراح فى هذا المورد، وهو أنّ الإمام عليه السلام يقول: أنت لن تصل إلى مرادك من الدنيا وأنّ حكومتك مع ما فيها من الحوادث والمشكلات ستمر بسرعه وتقودك إلى الهلكه، والشاهد على هذا المعنى ما أورد بعض المؤرخين فى نقلهم لهذه الرساله من جملة قبل هذه الجملة حيث يقول الإمام عليه السلام فيها:

«فَاخَذَرِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَأَفْرَحَ فِي شَيْءٍ وَصَلَّتْ إِلَيْهِ مِنْهَا وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ...» (١).

ثمّ يشير الإمام عليه السلام فى النقطه الثالثه من رسالته محدّراً معاويه لينتبه من غفلته ويقول:

«وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا بَغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا (٢) عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ».

ص: ٢٣٢

١- (١) انظر: بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٥٣٧.

٢- (٢) «تألوا» من ماده «ألوه» على وزن «عطيه» بمعنى القسم واليمين، وعندما تأتي من باب تفعل (كما فى مورد البحث) تعنى صدور القسم من الطرفين، وفى بعض نسخ نهج البلاغه ورد كلمه «تألوا» بدلاً من هذه المفرده، وهنا تعنى التفسير بالرأى، يعنى أنّ جماعه ولغرض التوصل إلى غاياتهم يأولون آيات القرآن وفقاً لميولهم وأهوائهم النفسانيه.

ويرى أغلب شرّاح نهج البلاغه أنّ هذه الجملة إشارة إلى طلحه والزبير وأنصارهما الذين أشعلوا نار حرب الجمل للتوصل إلى مقام الخلافه وسده الحكم، فهؤلاء تعاهدوا فيما بينهم بأنهم لا يتركوا هذا الأمر حتى يحصلوا على حكمه البصره وإن استطاعوا أكثر من ذلك فإنهم يوسعون سلطانهم على المناطق الأخرى، ولكنهم بأجمعهم أخفقوا فى تحقيق مبتغاهم وقد قتل زعمائهم وانهزم الباقون، أمّا عائشه التى كانت من قادة هذه الفتنة والحرب، فقد عفى عنها الإمام عليه السلام وعادت إلى المدينه فى حاله الخجل والندم، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة «

فَأَكْذَبَهُمْ»، تعنى أنّ الله تعالى فضحهم وأكذب احدوئتهم وأبرز خديعتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى النقطه الرابعه يحدّر معاويه ويذكره بقيام الساعه وأنّه سيرى عاقبه أمره وأعماله فى ذلك اليوم، يقول:

«فَأَخَذَ يَوْمًا يَغْتَبِطُ (١) فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ (٢) عَاقِبَهُ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ (٣) الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ (٤) فَلَمْ يُجَازِبْهُ».

أجل، فى ذلك اليوم يفرح الصالحون ويغتبطن المؤمنون، ولكنهم فى الوقت نفسه يتأسفون على ما فاتهم من أيام وساعات لم يعملوا فيها عملاً صالحاً ولم يزدادوا من الصالحات والخيرات، أمّا الأشرار فإنهم سيعيشون الندم الشديد بسبب إرتكابهم للسيئات ولما يروونه أمام أعينهم من عذاب أليم على ما إجترحوه فى الدنيا.

ويطلق القرآن الكريم على يوم القيامه بأنّه «يوم الحسره» ويقول: «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ

ص: ٢٣٣

١- (١) . «يغتبطن» من ماده «غبطه» وتعنى الفرح والسرور، وأحياناً تأتي بمعنى الحسد، (ولكن ليس الحسد بمعنى السلبي يعنى تمنى سلب النعمه من الآخر، بل بمعنى الحصول على النعمه التى حصل عليها الآخرون).

٢- (٢) «أحمد» من ماده «حمد» بمعنى من يليق للمدح والثناء.

٣- (٣) «أمكن» من ماده «إمكان» وهنا جاءت بمعنى التسهل وتوفير وسائل العمل، وبالتالي السيطرة على الشىء أو الشخص.

٤- (٤) «قياد» تعنى اللجام، من ماده «قياده» أى الرئاسه والزعامه.

الْحَسْرَةَ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»(١).

ويقول في الآية ٥٤ من سورة يونس: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَتُصِىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

وقد ورد في بعض نسخ نهج البلاغه كلمه «يغتبط» بصوره مبنى للمجهول وتعنى أن الصالحين سيقعون مورد غبطه الآخرين، وهذا التعبير أنسب مع مفهوم الغبطه.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه بعد النصائح المثيره ويبيّن الهدف الأصلي من هذه الرساله ويقول:

«وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَىٰ حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ».

ومعلوم أن معاويه لم يكن من أهل القرآن، والشواهد التاريخيه تدلّ على أنه لم يكن يؤمن بالقرآن إيماناً سليماً، بل كان يتخذ القرآن وسيله للخلاص من الهزيمه القطعيه والتوصل إلى أهدافه وغاياته المشؤومه.

جاء في كتاب «صفين»: عندما رفع أهل الشام المصاحف على الراح، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي أَحَقُّ مَنْ أَجَابَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ وَلَكِنَّ مُعَاوِيَةَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَإِبْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَحَبِيبَ بْنَ مُسَيْلِمَةَ وَإِبْنَ أَبِي سَيْرِجٍ لَيْسُوا بِأَصْحَابِ دِينٍ وَلَا قُرْآنٍ إِنِّي أَعْرَفُ بِهِمْ مِنْكُمْ صَحِبْتَهُمْ أَطْفَالاً وَصَحِبْتَهُمْ رِجَالاً فَكَانُوا شَرَّ أَطْفَالٍ وَشَرَّ رِجَالٍ»(٢).

ويتبيّن من هذه العبارة أن الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بمثل هذا التحكيم الكاذب للقرآن الكريم، ولكن جماعه من أنصاره وأتباعه الجهله فرضوا على الإمام عليه السلام هذه القضيه، وعندما شاهدوا العاقبه السيئه لهذا التحكيم ندموا على ذلك، والعجيب أنهم اعترضوا على الإمام لقبوله أمر التحكيم!

ص: ٢٣٤

١- (١) سورة مريم، الآية ٣٩.

٢- (٢) . صفين، ص ٤٨٩.

إلى معاوية أيضاً (١)

نظرة عامة للرساله

كما ورد في بحث سند هذه الرساله فالمخاطب لها - كما يعتقد الكثير من المؤرخين والشارحين - هو عمرو بن العاص، وقد صرح بهذا المعنى الدينوري في كتابه «الأخبار الطوال»، ونصر بن مزاحم في كتاب «صفين»، أضف إلى ذلك أنّ قسماً من هذه الرساله قد حذفها السيد الرضى عند انتقائه لبعض المواضيع منها ولكنه يذكر بأنّ الإمام عليه السلام في ذلك المقطع المحذوف حدّر عمرو بن العاص بصراحه من اتّباعه لمعاوية.

وعلى أيّ حال، فالمخاطب لهذه الرساله أياً كان، يتحدّث الإمام عليه السلام معه بكلامه البليغ ومواعظه المثيره أن لا ينخدع بالدنيا، فالدنيا لا ترضى أصحابها أبداً فيما يطمعون للوصول إليه ويزداد حرصهم للتوصل إلى مبتغاهم، وضمناً يوصيه الإمام بالاعتبار من تاريخ الأقسام السابقه.

ص: ٢٣٥

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح، والدينوري (المتوفى ٢٨٢) في أخبار الطوال، ونصر بن مزاحم في كتاب صفين وكلّهم عاش قبل السيد الرضى، وقال جماعه من المؤرخين وشرّاح نهج البلاغه بأنّ المخاطب لهذه الرساله هو عمرو بن العاص (ولمزيد من التوضيح انظر: مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٤).

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصًا عَلَيْهَا، وَلَهَجًا بِهَا، وَلَنْ يَسْتَعْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أُبْرِمَ! وَلَوْ اِعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: الحرص على الدنيا لا يوصلك إلى شيء!

فى هذه الرساله وبعد أن يحمد الإمام عليه السلام البارى تعالى ويثنى عليه يلفت نظر المخاطب «سواءً كان معاويه أو عمرو بن العاص» إلى أمور مهمه.

بدايه يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا».

لأنّ عمل الدنيا وسلوكها إلى درجه من التعقيد والتنوع والمثير للتشويش بحيث إنّ الإنسان إذا اتّجه نحوها فإنّها ستشغله فى جميع عمره ووقته حتى يغفل عن الاهتمام بسلامته وراحته والقيام بوظائفه تجاه زوجته وأبناءه وأصدقائه وأرحامه، وأكثر من ذلك تشغله عن أداء الفرائض الإلهيه والتكاليف الشرعيه، حتى يصل الأمر بأصحابها فيما لو كانوا من أهل الصلاه أن يؤدّوا صلاتهم فى آخر وقتها ويفكرون فى أثناء الصلاه فى أمورهم الدنيويّه، ويستعجلون باتمامها بعيداً عن حالات التوجه القلبى إلى الله تعالى فى صلاتهم، وأحياناً يخرجون من بيوتهم فى الصباح الباكر فى طلب الدنيا وأبناؤهم يغطون فى نوم عميق، وعندما يعودون فى الليل يرون أطفالهم نيام كذلك، وهذه طبيعه أصحاب الدنيا وحياتهم.

ص: ٢٣٧

وفى المقطع الثانى يتعرض الإمام عليه السلام لمسأله خطيره وهى حاله الحرص لدى أصحاب الدنيا ويقول:

«وَلَمْ يُصَبِّ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهْجاً (١) بِهَا، وَلَنْ يَسْتَعْنَى صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا».

وقد ورد فى بعض الروايات تشبيه الدنيا بماء البحر المالح، الذى كلما شرب منه العطشان إزداد عطشاً، وهذا ما ورد فى حديث عن الإمام الكاظم عليه السلام يقول:

«مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ أَزْدَادَ عَطْشاً حَتَّى يَقْتُلَهُ» (٢).

ويتحدث القرآن الكريم عن هذه الحاله ضمن قصه بليغه تتلخص فى أخوين متخاصمين جاء إلى النبى داود عليه السلام فقال أحدهما «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ» (٣).

فحكّم داود عليه السلام بينهما وقال: «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعْجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ...» (٤).

هذه القصة تشير إلى أن أصحاب الدنيا يعيشون الحرص والولع إلى درجه إلى أنهم لا يرضون للآخرين أن يملكوا أدنى شىء حتى لو كانوا إخوانهم. وكما يقول الشاعر:

زيادهُ المرء فى دُنْيَاهُ نُقْصَانُ

وَرِبْحُهُ غَيْرَ مُحْضٍ الْخَيْرِ خُسْرَانُ

وَكُلُّ وَجْدَانٍ خَطٌّ لِأَنْبَاتِ لَهُ

فَإِنَّ مَعْنَاهُ فِى التَّحْقِيقِ فُقْدَانُ

يَاعَامِراً لِخِرَابِ الدَّهْرِ مُجْتَهِداً

بِاللَّهِ هَلْ لِخِرَابِ العُمَرِ عِمْرَانُ

يَاخَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ

فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالجِسْمِ إِنْسَانُ

وُذُو القِنَاعِ رَاضٍ فِى مَعِيشَتِهِ

وَصَاحِبَ الحَرِصِ إِنْ أَثْرَى فِغْضِبَانُ

هما رضيعا لبانِ حكمه وثقى

وساكننا وطنِ مالٍ وطغيانُ

ص: ٢٣٨

١- (١) «لهج» بمعنى العلاقه الشديده والافتتان في مقابل شىء.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ١٣٦، ح ٢٤.

٣- (٣) سوره ص، الآيه ٢٣.

٤- (٤) سوره ص، الآيه ٢٤.

وجاء في الحديث القدسي المعروف:

«لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَاِدْيَانٍ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى إِلَيْهِمَا ثَالِثًا وَلَا يَمَلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ» (١).

وقال الشاعر:

وَيَحْكُ يَا نَفْسُ دَعَى

مَا عَشْتِ ذُلَّ الطَّمَعِ

وَأَرْضِي بِمَا جَرَى بِهِ

حُكْمَ الْقَضَاءِ وَاقْتَنَعِي

إِيَّاكَ وَالْمِيلَ إِلَى

شَيْطَانِكَ الْمُبْتَدِعِ

وَاقْتَصِدِي وَاقْتَصِرِي

كِي تَرْتَوِي وَتَشْبَعِي

أَيْنَ السَّلَاطِينِ الْأُولَى

مِنْ حَمِيرٍ وَتَبَعِ

شَادُوا الْحُصُونَ فَوَ

قَ كُلِّ شَاهِقٍ مُرْتَفِعِ

لَمْ يَبْقَ مِنْ دِيَارِهِمْ

غَيْرَ رُسُومٍ خُشَعِ

كَفَا بَذَاكَ وَاعْظَا

وَزَا جِرًا لِمَنْ يَعِي

حَسْبُكَ يَا نَفْسُ اقْبَلِي

وحاله الحرص في الحقيقه نوع من الجنون، لأنّ الكثير ممّن يعيشون هذه الحاله يملكون كلّ ما يمنحهم الرفاهيه والراحه في الحياه بحيث إنّهم يستطيعون بما يملكونه من العيش إلى آخر حياتهم بشكل جيد ومريح، ولكنّ جنود الحرص لا- يدعهم يعيشون في راحه وتدعوهم باستمرار إلى بذل مزيد من الجهد والتعب لتحصيل المزيد والمزيد بحيث إنّهم لو اعطوا جميع ما في الدنيا لتمنّوا أن يكون لهم ما في السموات أيضاً.

ولذلك نقرأ في دعاء بعض الأئمه المعصومين عليهم السلام:

«أَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ» (٣). وفي الحقيقه فالحرص يعتبر المنبع

ص: ٢٣٩

١- (١). روضه الواعظين، ج ٢، ص ٤٢٩.

٢- (٢). روضات الجنات، ج ٧، ص ٨٩ و ٩٠.

٣- (٣). الكافي، ج ٢، ص ٥٨٦، ح ٢٤.

الأصل لجميع المشكلات والمصاعب وما يترتب عليها من نتائج أليمه وعواقب سيئه.

ونختم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِرَاصِ مِثْلَهُ» (١).

وفى المقطع الأخير يقول الإمام عليه السلام:

«وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقٌ مَا جَمَعَ، وَنَقْضٌ مَا أُبْرِمَ!» (٢).

أجل، فإنه لا- تمضى مدّه حتى يجد الإنسان نفسه وهو يودع ما تعب فى تحصيله من الأموال النفيسه والمملوكات والأشياء الجميله ويتركها جميعاً ويكتفى بحصّته من هذه الثروات وهى الكفن حيث يذهب معه إلى قبره.

ويتحدّث القرآن الكريم عن قصور الفراعنه وما تركوه من بساتين ومزارع وعيون وقرى مزدهره، ويقول: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ» (٣).

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه فى هذه الرساله ويشير إلى النقطه الرابعه:

«وَلَوْ اِغْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ».

إنّ الاعتبار من مصير السابقين يعدّ من المسائل المهمّه التى ورد التأكيد عليها فى القرآن الكريم وأحاديث نبى الإسلام صلى الله عليه وآله وأئمّه الدين عليهم السلام.

يقول القرآن الكريم: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (٤).

وأساساً فإنّ قسماً مهمّاً من الآيات القرآنيه التى تتحدّث عن تاريخ الأقوام السابقه ناظر إلى هذه المسأله، لأنّه لا درس ولا عبره أبلغ من دورس التاريخ

ص: ٢٤٠

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ٣١٩، ح ١٢.

٢- (٢) «أبرم» من ماده «إبرام» بمعنى لف الحبل وتقويته، ثمّ إمتد هذا المعنى ليشمل كلّ عمل محكم ومتقن، وضده النقض، ويعنى فتح العقده وإضعاف قوّه الشىء.

٣- (٣) سوره الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

٤- (٤) سوره الحج، الآيه ٤٦.

والحوادث الواقعة فى طيات التاريخ البشرى، ولكن الكثير من الناس، كما يقول القرآن الكريم يمرّون على هذه الآيات والآثار دون التدبر فيها وكسب العبره منها، فيمرّون على آثار القدماء وأطلال الأقالم الغابره لغرض التزهه والترويح عن النفس فقط، واليوم نرى أنّ صناعه السياحه تتسع وتزدهر وفى الغالب ينظر السّياح إلى الآثار التاريخيه بوصفها آثار فنيه وتعكس حضاره أولئك القوم ومقدراتهم الفنيه وإمكاناتهم العمرانيه ويفتخرون بذلك دون أن يطالعوا مستقبلهم وما سيكون مصيرهم من خلال هذه الآثار والأطلال.

ص: ٢٤١

إلى أمرائه على الجيش (١)

نظرة عامة للرساله

تشكل هذه الرساله أساساً من ثلاثه مقاطع:

المقطع الأول: يتحدّث الإمام عليه السلام عن حقّ الله تعالى على أولياء الأمور ومن بيدهم مقاليد الولاية والسلطه، فلا ينبغي أن تكون هذه القدره والسلطه عاملاً لغفلتهم عن حاجات الناس وإبعادهم عنهم، بل ينبغي استثمار هذه القدره للانفتاح على الناس والاقتراب منهم والسعى في قضاء حوائجهم.

وفي المقطع الثاني: يخاطب الإمام عليه السلام قاده جيشه ويقول: إننى أحسبكم بطانتي وإخواني ولا- أكتممك سرّاً، (سوى الأسرار العسكريه والحربيه) وأستشيركم في المسائل التي ليس فيها حكم إلهي مسلّم وأؤدي حقكم كاملاً، وفي مقابل ذلك يجب

ص: ٢٤٣

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله قبل السيّد الرضى نصر بن مزاحم في كتاب صفين (مع تفاوت يسير)، وبعد السيّد الرضى ذكرها الشيخ الطوسى في الأمالى مع اختلاف يسير أيضاً. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٧) ومن الأشخاص الذين ذكروا هذه الرساله قبل السيّد الرضى أبو جعفر الإسكافى (المتوفى ٢٢٠) في كتاب المعيار والموازنه، ص ١٠٣.

عليكم أن تتحركوا في خط الطاعة لأوامري التي تصبّ في خدمة الأئمة الإسلاميه ولا تتوانوا عن خدمه المسلمين ولا تمتنعوا عن
أى تضحيه وإيثار.

وفي المقطع الثالث: يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين سلكوا طريق المخالفه والعناد وتمردوا على طاعه إمامهم،
ويهددهم بالعقوبه القاسيه.

ص: ٢٤٤

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَاحِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رِعْيَتِهِ فَضْلُ نَالِهِ، وَلَا طَوْلُ خُصِّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ، وَعَظْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ.

الشرح والتفسير: لا يبعدنكم المقام عن الناس!

يتحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الرسالة إلى زعماء جيشه بوصفهم «أصحاب المسالِح» أي المحافظين للثغور ويقول:

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَاحِ».

«المسالِح» جمع «مسلحه» وتعنى الحد والثغر، والحدود عادة هي المناطق التي تقع في أطراف البلاد، وربما تتعرض لهجوم من قبل العدو، ولهذا السبب فإنّ الحكومات تضع قسماً مهماً من قواتها المسلحة في هذه المناطق لتأمين من هجوم الأعداء المباغت على هذا البلد، وهذا التعبير يشير إلى أنّ الاهتمام بالثغور وتحصين الحدود يعتبر من أهم وظائف القوات المسلحة والجيش في الإسلام.

ثمّ يشرع الإمام عليه السلام من نفسه ويبيّن حقوق الوالى بشكل عام، وفي المقطع الآخر يشير إلى موارد خاصّه بالتحديد كشرح وبيان لهذا المجمل ويذكرها واحداً بعد الآخر.

وعلى أيّ حال فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: قوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُعَيِّرَهُ عَلَى رِعْيَتِهِ فَضْلَ نَالِهِ، وَلَا طَوْلٌ (١) خُصَّ بِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّ الوالى أو القائد يجب أن يكون إلى درجه من قوّه الشخصيّة وبناء الذات لا يغيّره المنصب ولا يضيع نفسه فى حال وصوله إلى القدره ويحمله على العجب والغرور والأنانيه، وبالتالي يعيش حالات الاستبداد والتفرعن كما هو الحال فى غالبية زعماء الدنيا وقادتها الماديين، فإنّهم قبل وصولهم إلى مسند القدره والسلطه يتحدّثون للناس بكلمات لطيفه ويعيشون حاله البساطه والشعبيه، ولكنّهم عندما يصلون إلى مسند السلطه ينسون كلّ شىء وتبدأ حالات الاستبداد تتضخم لديهم، ولكنّ أولياء الله والأشخاص الذين يسيرون فى خطهم مصونون من هذا الخطر.

فى المقطع الثانى يضيف الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعْمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ».

وتشير هذه العبارة إلى أنّ الإنسان الجالس فى مسند الرئاسة والقدره ليس فقط لا ينبغى له الاستبداد والابتعاد عن الناس بل بعكس ذلك يجب عليه كلّما إزدادت نعمه الله عليه أن يقترب من الناس أكثر فأكثر، ويتواصل معهم من مواقع المحبّه والشفقه وهم الذين يصفهم الإمام عليه السلام بأنّهم «إخوانه» لأنّ شكر هذه النعمه لا يتيسر إلّا من هذا الطريق.

وعلى هذا الأساس فالإمام عليه السلام يقرّ لمخاطبيه فى البدايه بحقّهم فى مطالبه الإمام بأداء حقوقهم، ثمّ يبيّن الإمام فى المقطع اللاحق من هذه الرساله حقّه عليهم.

وقد ورد فى كتاب «غررالحكم» عن أميرالمؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَأَعْتِنُمُوهَا وَلَا تَمَلُّوهَا فَتَتَحَوَّلَ نِعْمًا» (٢).

ص: ٢٤٤

١- (١) «طَوْل» على وزن «قول» بمعنى النعمه ومن مادّه «طول» على وزن «نور» ويبيّن إمتداد الشىء، وبما أنّ النعم الإلهيه تعتبر إمتداداً وجودياً لواهب النعم، فأطلقت هذه المفرده عليها. وهذه الكلمه تطلق أحياناً على المقدره المائيه أو على كلّ مقدره، و «أولو الطول» تعنى الأثرياء من الناس.

٢- (٢) غرر الحكم، ص ٤٤٨، ح ١٠٣٠١.

أَلَمْ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَسْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ، وَلَمْ أُطَوِّ دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ، وَلَمْ أُؤَخَّرْ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سِوَاءَ فِيمَاذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النَّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ؛ وَأَلَّا تَنْكُضُوا عَنْ دَعْوِهِ، وَلَمْ تُفَرِّطُوا فِي صِيْلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْعَمْرَاتِ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَشِ تَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنْ اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُحَصَةً، فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ.

وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: حقوق الإمام وحقوق القادة

في هذا المقطع من الرسالة يفصل الإمام عليه السلام ما أجمله وبينه بشكل عام ومغلق في المقطع السابق.

بدايه يشير إلى حقوق الرعية عليه ويؤكد على خمسة حقوق، وأول هذه الحقوق يقول عليه السلام:

«أَلَمْ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَسْتَجِزَ (١) دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ».

ومعلوم أن إخفاء الأسرار عن الأصحاب والأعوان يعدّ نوع من عدم الثقة والاعتماد عليهم، وفي الكثير من الموارد يتسبب في إساءة الظن أو خلق رؤى

ص: ٢٤٧

١- (١) «احتجز» من ماده «حجز» على وزن «عجز» ومعناه في الأصل المنع وإيجاد الفاصله، ثم اطلقت على عمليته الإخفاء والتستر الذي يمنع من مشاهدته الشيء أو الإطلاع عليه.

وتفاسير مختلفه لحدائه معينه، ولكن إذا كان الإمام عليه السلام أو القائد يتواصل مع أعوانه بشكل مستمر على مستوى إخبارهم بالحوادث الواقعه، فإن ذلك من شأنه توطيد عناصر الثقه وتقويه التعاطف فيما بينهم، فيتراجع سوء الظن والتشويش الذهني إلى الحد الأدنى، وطبعاً هناك موارد لا بد للإمام والوالي من كتمان السر، وذلك في القضايا العسكريه وأمثالها، لأن العدو إذا علم بتفاصيل الخطط العسكريه للطرف المقابل فسيتدبر أموره ويستعد بشكل كامل للمقاومه وسيكون بإمكانه أن يحبط الخطه قبل الموعد المقرر، ومن هذه الجبهه نرى أن القاده العسكريين على إمتداد التاريخ يخفون برنامجهم القتالي إلى آخر لحظه ليتمكنوا من توجيه الضربات القاصمه إلى العدو بالاستفاده من عنصر المباغتة.

وفى تاريخ حروب النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله وغزواته نرى هذا الأصل بوضوح، وعلى حدّ قول المؤرخ المعروف الطبرى: وكان رسول الله صلى الله عليه و آله، قلّ ما يخرج فى غزوه إلّا كنى وأخبر أنّه يريد غير الذى يسعى له... (١). يعنى ما كان يخبر أصحابه وأنصار بمقصده وغايته النهائيه.

وأحياناً كان رسول الله صلى الله عليه و آله إذا أراد سفرأ إلى الحرب روى بغيره، كما روى أنّه لما نوى غزوه بدر كتب للسريه كتاباً فى المدينه، وأمرهم أن يخرجوا من المدينه إلى صوب مكّه يومين أو ثلاثه ثم ينظروا فى الكتاب ويعملوا بما فيه... (٢)، ومعلوم أنّ النّبي لو كان يبيّن له فى بدايه الأمر مراده ومقصوده فإنّ هذا الخبر بدوره سينتشر ويشيع فى كافّه أرجاء المدينه ويسارع الجواسيس فى إيصال هذا الخبر إلى العدو فيستعدون للقاء المسلمين وربّما تنقلب موازين المعركه ويتغير مصير الحرب.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام فى الحقّ الثانى للناس على الوالى ويقول:

«وَلَا أَطْوَى (٣)»

ص: ٢٤٨

١- (١). تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٣٦٦ وقائع سنه التاسعه للهجره.

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن ميثم، ج ٥، ص ١٢٩.

٣- (٣). «أطوى» من ماده «طى» فى الأصل تعنى إخفاء الشىء، والمعنى الآخر لكلمه «طى» لفّ الشىء ومن هذه الجبهه اطلقت على السير فى الطريق «طى طريق» ولا يبعد أنّ كلا المعنيين يعودان لجذر واحد.

دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ».

وهذا هو أصل المشوره الوارد في القرآن الكريم والروايات الإسلاميه بشكل واسع وهو ما يؤكد عليه الخبراء وأصحاب الشأن السياسى فى عالمنا المعاصر وإن كانوا يمارسون شيئاً آخر على مستوى العمل، فالمشوره مع الأصحاب والأنصار والأتباع يمنحهم قوه فى الشخصيه واحساساً فى المسؤوليه وتحكماً للروابط العاطفيه، أضف إلى ذلك أن المشوره تسبب (فى غير المعصومين) إلى التقليل من الأخطاء إلى الحد الأدنى.

أما فى مسأله القضاء وعند صدور الحكم، فيجب على القاضى أن يصدر حكمه بحزم وقوه، وفى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِذَا كَانَ الْحَيَاكِمُ يَقُولُ لِمَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَلِمَنْ عَنْ يَسَارِهِ مَا تَرَى مَا تَقُولُ فَعَلَى ذَلِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَلَّا يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَتَجْلِسُهُمْ مَكَانَهُ» (١).

مضافاً إلى ذلك إذا كان القاضى يفتشى ما فى ذهنه من الحكم الشرعى فربما تتحرك عناصر مختلفه لتغيير رأيه أو توهينه وممارسه بعض الضغوطات عليه لإجباره على تغيير الحكم.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الحق الثالث والرابع ويقول:

«وَلَا أُؤَخِّرْ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقْفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ».

والفرق بين هذين الحقيين يتبين من خلال مثال بسيط، فلو تقرر أن يؤذن لشخص بالسكن فى دار لمدّه شهر واحد ومعين، فلا ينبغى تأخير إسكانه عن هذا الشهر، والآخر، أنه لا ينبغى تقليص المدّه قبل انتهاء الشهر، ونتيجة كلا الأمرين أن تؤدّى الحقوق كامله دون زياده أو نقيصه.

وفى الحق الخامس والأخير يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً».

ص: ٢٤٩

وطبعاً فمراد الإمام عليه السلام أنّ الوالى أو القائد يتعامل مع جميع الأفراد بشكلٍ مساوٍ دون الأخذ بنظر الاعتبار مواقعهم الاجتماعيه وامتيازاتهم الماديه، وعلى ضوء ذلك فإنّ هذا الكلام لا يعنى أنّه فى حال اختلاف الظروف والمقامات فإنّ الأفراد يقفون على حدّ سواء أمام القائد، من قبيل أن يكون شخص أحد قواد الجيش، والآخر رجل عادى، وثالث والياً على منطقته، وآخر حارساً لبنايه المحافظه، وآخر يتولى حراسه بنايه حكوميه، أو يكون أحدهم طبيياً والآخر مضمداً، أو يشتغل أحدهم بالأعمال الثقيله ولأيام متواليه ويتولى الآخر أعمالاً سهله وفى مدّه قصيره، فمن البديهى أنّ حقوقهم المائيه لا تكون سواسيه، ولكن إذا كان رجلاً يعملان عملاً واحداً فيجب أن تكون اجرتهم واحده، رغم أنّ أحدهم من عائله عريقه ومعروفه، والآخر رجلاً عادياً من عائله غير معروفه.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام هذه الحقوق الخمسه للناس على القائد أو الإمام، تعرض لبيان حقوقه للناس وأشار إلى أربعه حقوق.

الأول يقول:

«فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِي عَلَيْكُمْ النُّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمْ الطَّاعَةُ».

فعندما اؤدى هذه التكاليف الحقوقيه التى علىّ تجاهكم فإنّ نعمه الله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»^(١)، ستكون كامله عليكم، ولى حقّ الطاعه عليكم، ويجب عليكم إطاعه أوامرى التى تضمن لكم سعادته الدنيا والآخره، وتحفظ مصالحكم الفرديه والاجتماعيه.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الحقّ الثانى ويقول:

«وَأَلَّا تَنْكُصُوا»^(٢) عَنْ دَعْوِهِ».

إنّ هذا الأمر الثانى بالنسبه للأمر الأول من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأنّ المخاطب فى هذه الرساله هم قادة الجيش، الذين ينبغى عليهم إطاعه أوامر الإمام وخاصّه فيما يتعلق بالدعوه إلى الجهاد.

ص: ٢٥٠

١- (١) . سورة المائده، الآيه ٣.

٢- (٢) «تنكصوا» من ماده «نكص» على وزن «مكث» تعنى العوده من الشىء أو المكان، وبما أنّ التمرد وعدم الطاعه نوع من العوده عن طريق الطاعه، استخدمت هذه الكلمه بهذا المعنى.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الحق الثالث ويقول:

«وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ».

الكثير من الأشخاص الذين يتحركون بحسب الظاهر في مسير الطاعة وتلبية دعوه الإمام والقائد، فإنهم بسبب التكاسل والتواكل لا يحققون النتيجة المطلوبة، بل الإمام عليه السلام يعتبر هذا الأمر كحق مستقل من حقوق الوالى على الرعيه ليعلم الجميع أن إطاعه الأمر شيء، واعتباره أمراً جدياً شيء آخر.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن هذه الجملة إشاره إلى مسأله الجهاد حيث أكد الإمام عليه السلام على أن وظيفه قاده الجيش الاستفادة من كل فرصة لدفع الأعداء وترك حاله التكاسل والتقصير فى هذا الشأن.

وأخيراً يبين الإمام عليه السلام الحق الرابع والأخير ويقول:

«وَأَنْ تَخُوضُوا الْعَمْرَاتِ (١) إِلَى الْحَقِّ».

وهذه إشاره إلى أن التضحية فى مقام الدفاع عن البلد الإسلامى تعتبر وظيفه لازمه وتكليف واجب، أى التضحية الى درجة بذل النفس فى سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ويعتبر هذا الأمر أحد الحقوق للوالى أو الإمام على قاده الجيش والمسؤولين الأمنيين فرداً فرداً.

تاريخ الإسلام زاخر بمظاهر الإيثار والتضحية وخوض الغمرات للوصول إلى الحق، وكمثال على ذلك:

ما ورد فى «تاريخ الطبرى» فى حوادث سنة ٣٧: أن عمّار بن ياسر خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلته، اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبّه سيفى فى صدرى ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أَرْضَى

ص: ٢٥١

١- (١). «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربه» فى الأصل من غمر وبمعنى إزاله أثر الشيء، ثم استخدمت فى الماء الكثير الذى يغطى جميع الوجه الشيء وظاهره، ويقال: غمره وغامر، وفى العبارة أعلاه جاءت بمعنى أمواج الشدائد والمشكلات.

لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أنّ عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته(١).

وجاء في «سيره ابن هشام» أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم أن يمنعوا غيرهم - واتجهوا نحو «بدر» - فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش (وكان يروم من ذلك اختبار مدى استعداد أنصاره وأصحابه للقتال)... ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «إِنَّا لَنَرُدُّخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»(٢). ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا - إنا معكما مقاتلون، فوالدى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله خيراً ودعا له به، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أشيروا عليّ أيها الناس، وإتّما يريد الأنصار، وذلك أنّهم عدد الناس، وأنّهم حين بايعوه بالعقبه قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك ممّا يمنع أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلّا ممن دهمه بالمدينه من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، قال له سعد بن معاذ: والله كأنّك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، قال: فقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ عينك، فسر بنا على بركة الله، فسّر رسول الله بقول سعد ونشّطه ذلك... (٣).

ص: ٢٥٢

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٢٦.

٢- (٢) . سورة المائدة، الآية ٢٤.

٣- (٣) سيره ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦٦ و ٢٦٧؛ الكامل، لابن الأثير، ج ٢، ص ١٢٠.

ثم إن الإمام عليه السلام في المقطع الثالث من كلامه يخاطب المتخلفين بلغه التهديد ليقرن البشاره مع الإنذار ويقول:

«فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ (١) مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَمَّا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً».

وفي الواقع أن الإمام عليه السلام في هذا المورد يقرر عقوبتين للمتخلفين، عقوبه معنويّه وعقوبه ظاهريه، أمّا العقوبه المعنويّه فسقوط قدرهم ومقامهم عند الإمام عليه السلام إلى درجه الحضيض، وأمّا العقوبه الظاهريّه فهي التعزير البدني الذي يقرره الإمام بحقهم، ومعلوم أن البشاره والإنذار لو لم يقرننا في أمر الإمداره والمسؤوليّه وخاصّه في إداره الحرب والدفاع، فإنّها ستفقد مصداقيتها وفائدتها في ضبط الأمور.

وفي الختام يشير الإمام عليه السلام إشاره مختصره ودقيقه فيما يتصل بما ذكر آنفاً ويقول:

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ».

وَالسَّلَامُ».

وجمله

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ» إشاره إلى الحقوق الخمسه التي بينها الإمام عليه السلام في مستهل كلامه أنه يعطيهم الحق بأن يطالبوا هذه الحقوق من قادتهم وأمرائهم، وجمله

«أَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ..»، إشاره إلى الحقوق الأربعة التي طالب بها الإمام عليه السلام منهم، وهي الحقوق التي تصب في صالحهم ومن أجل إصلاح أمورهم.

ونرى أن الإمام عليه السلام في هذا المورد يستخدم كلمه «أمراء» بصيغته الجمع، ويشير بذلك إلى نفسه والقاده أو الأئمه الذين سيأتون بعده بالحق، ويستلمون زمان الأمور بالحق، لا أن المراد قاده الجيش، لأنهم هم المخاطبين بهذا الكلام.

ص: ٢٥٣

١- (١) «أعوج» من ماده «عوج» على وزن «حرج» وتعني انحراف الشيء وميلانه و«عوج» بكسر العين، اسم مصدر وتشمل كل أشكال الانحراف والاعوجاج، وتطلق أحياناً بمعنى الانحرافات المعنويّه والعمليّه وجاءت في عباره أعلاه بهذا المعنى.

إلى عمّالِهِ عَلَى الخِراجِ (١)

نظرة عامّة للرساله

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرساله إلى عدّه نقاط مهمّه: ففي المقطع الأول يتحدّث الإمام عن الثواب المترتب على أتعاب وجهود الجامعين للخِراج وما يتحملوه في هذا السبيل من مشقّه، ويتحدّث الإمام عليه السلام عن ذلك بوصفه ذخيره يوم المعاد.

وفي المقطع الثاني من هذه الرساله يوصى الإمام عليه السلام بشكل أكيد برعايه العدل والمحَبّه للناس عند أخذ الخِراج منهم وينهى عن أى شكل من الأشكال الإجحاف والتعدى والإضرار بهم، حتى بالنسبه لغير المسلمين الذين لا يعينون العدو على المسلمين يوصى الإمام أيضاً بهذه الوصيه فى حقّهم.

ص: ٢٥٥

١- (١). سند الرساله: ذكر هذه الرساله قبل السيّد الرضى نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، بشكل رسالتين وقد وردتا فى مكانين مختلفتين من هذا الكتاب مع تفاوت يسير عمّا أورده السيّد الرضى. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٨٩)، وكذلك ذكرها أبو جعفر الإسكافى الذى كان يعيش قبل السيّد الرضى فى كتابه المعيار والموازنه، ص ١٢٢، ولكنه ذكر مقاطع من هذه الرساله تشبه الرساله مورد البحث، ولكن يحتمل كونها رساله أخرى، وفى كتاب تمام نهج البلاغه، ص ٧٧٦ توجد رساله شبيهه لرساله أبى جعفر الإسكافى.

وفى المقطع الأخير يدعوهم إلى تقديم فروض الشكر على النعم الإلهية ولزوم نصره الدين الإلهى بجميع ما لديهم من قوه
وقدره.

ص: ٢٥٦

إشاره

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:

أَمَّا بَعِيدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمُيْتَعِدْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَاعُذَرَ فِي تَرْكِ طَلْبِهِ.

الشرح والتفسير: حذار من ظلم الناس!

إشاره

المراد بأصحاب الخراج هم المأمورون على جمع خراج الأراضي المفتوحة عنوه، وتوضيح ذلك: عندما ينتصر المسلمون على الأعداء فإن أراضيهم ستكون من الناحية العملية ملكاً للمسلمين، ولكن المسلمين في الغالب يدعون هذه الأراضي بأيدي أصحابها الأصليين، وفي مقابل ذلك عليهم أن يدفعوا مبلغاً من المال أو مقداراً معيناً من محاصيل تلك الأراضي بوصفها ضريبه أو اجره تؤخذ منهم ولا يكون هذا المبلغ ثقيلاً وكثيراً عادة، وهذه المسأله بدأت منذ عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بفتح خيبر، ثم استمرت في الفتوحات الإسلاميه الأخرى، ويشكل الخراج الجزء الأهم من بيت المال في ذلك الوقت، وهو مبلغ له شأن ويتعلق بجميع المسلمين، وطبعاً هناك عمال ومسؤولون آخرون يتولون جمع الزكاه من المسلمين لتصرف على حاجات جيش الإسلام والقضاء والفقراء والمحتاجين.

والإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرساله يؤكد على عدّه أمور:

الأول: يحذر الإمام عليه السلام أصحاب الخراج بأن لا يغفلوا عن العالم الآخر وما

سيسيرون إليه بعد الموت، فالغفله عن هذا الأمر ستفقد الإنسان الاستعداد له، يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا».

ونقرأ في الروايات الشريفه أنّ أعقل الناس هو الشخص الذي يفكر بما بعد الموت:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَكْبَسَكُمْ أَكْثَرَكُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ»^(١)، وهذا يعني أنّ الإنسان ما لم يفكر في سفر الآخرة فإنه لا يهيىء لنفسه وسائل هذا السفر الخطير وسيخرج من الدنيا خالي اليدين.

وفي الأمر الثاني يخاطب الإمام عمّاله على الخراج ويقول:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ بِهِ يَسِيرٌ وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ».

هل أنّ مقصود الإمام عليه السلام من هذه العبارة سعى هؤلاء في جمع الخراج فقط، أم يشمل جميع التكاليف الواجبه على الإنسان؟ يحتمل كلا الأمرين، ومع الالتفات إلى أنّ الجملة السابقه عامّه وتشمل جميع الأعمال فإنّ الاحتمال الثاني أنسب حسب الظاهر، وهذا في الواقع إشاره إلى مضمون الآيات الشريفه: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»^(٢)، و«يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ»^(٣).

أجل، فإنّ الله تعالى جواد وكريم وفي مقابل أعمالنا الصغيره يعطينا الثواب العظيم.

وفي الأمر الثالث يشير الإمام عليه السلام إلى موضوع يتعلق بترك الظلم، ويقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبُغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّ للظلم والجور عقوبه شديده قطعاً، وفي تركه ثواب جزيل أيضاً، وعلى هذا الأساس ينبغي على الإنسان ترك مثل هذه السلوكيات الظالمه

ص: ٢٥٨

١- (١) . بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٨.

٢- (٢) سورة الحج، الآية ٧٨.

٣- (٣) سورة البقره، الآية ١٨٥.

ليس فقط بسبب خوفه من عقوبتها، بل من أجل تحصيل الثواب على تركها أيضاً.

ونقرأ فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى نهج البلاغه ما يشبه هذا المعنى والمضمون بتعبير أوسع وأبلغ حيث يقول:

«لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللَّهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَى شُكْرًا لِنِعْمِهِ»(١).

تأمل

ماذا يعنى الخراج؟

كلمه «خراج» و «خرج» مأخوذه فى الأصل من «خروج»، وتعنى ما يتحصل من مال شخص أو من أرضه الزراعيه، وذهب بعضهم إلى أنّ كلمه «الخراج» تعنى مال الإجاره للأراضى، يقول الراغب فى كتاب «المفردات»: الخراج يطلق غالباً على الضرائب التى توضع على الأراضى الزراعيه والبساتين، وعلى أية حال فإنّ هذه الكلمه فى اصطلاح الفقهاء تعنى الضرائب الموضوعه على الأراضى الخراجيه، أى الأراضى التى اخذت من الكفار بالحرب والقتال، وأحياناً تطلق على ما يتحصل من الأراضى المزروعه التى تعتبر قسماً من الأنفال، والقسم الأوّل يتعلق بجميع المسلمين، والقسم الثانى يختص بالحاكم الإسلامى.

وجاء فى بعض كتب أهل السنّه أنّ الخراج فى اصطلاح الفقهاء له معنيان عام وخاص، فالخراج - بالمعنى العام - هو الأموال التى تتولى الدوله أمر جبايتها وصرّفها فى مصاريفها، وأمّا الخراج - بالمعنى الخاص - فهو الوظيفه أو (الضريبه) التى يفرضها الإمام على الأرض الخراجيه الناميه(٢)، وأحياناً تطلق هذه الكلمه على الجزيه من غير المسلمين أيضاً.

وبالنسبه لمصرف الخراج فقد ذهب فقهاء الشيعه إلى أنّ الخراج يجب صرفه

ص: ٢٥٩

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٩٠.

٢- (٢) . الموسوعه الفقيهه الكويتيه، ج ١٩، ص ٥٢.

لمصالح المسلمين العامه، من قبيل بناء الجسور وحفظ الأمن والطرق ومساعده الفقراء والمساكين ومركبات الجنود والمقاتلين والقضاء وقاده الجيش وسائر ما تحتاج الحكومه فى إدارتها والعمل بمسؤولياتها(١).

وطبعاً يحدث كثيراً أنّ قسماً مهماً من الخراج يقسم بين المسلمين الحاضرين بشكل مساوى فى الحكومات العادله (مثل حكومه أميرالمؤمنين الإمام على عليه السلام) وبصوره غير مساويه (مثل حكومه الخلفاء).

أما دليل التساوى فى القسمة، فهو أنّ الأراضى الخراجيه التى يجمع منها الخراج، ملك لعامة المسلمين وجميعهم يشتركون فى ملكيتها بشكل متساوٍ، والمراد من التساوى، عدم الفرق بين الأفراد بحسب مكانتهم الاجتماعيه، بأنّ فلاناً شيخ قبيله والآخر شخصيه معروفه، وثالث عامل بسيط وما إلى ذلك، بل يتمّ التقسيم حسب المسؤوليات الملقاه على عاتق الأشخاص، من قبيل القضاء وقياده الجيش وولايه المدن والمناطق وأمثال ذلك، فهذا ممّا يدعو للتفاوت قطعاً فى أمر القسمة.

ص: ٢٦٠

١- (١) انظر: جواهر الكلام، ج ٢٢، ص ٢٠٠.

فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الْأَيْمَةِ وَلَا تُحْشِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ، وَلَا تُحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلَا تَبِعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِشْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يِعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهَمٍ وَلَا تَمَسَنَّ مِيزَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصِلاً وَلَا مُعَاهِدًا، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِتْلًا حَاقًا يُعِيدِي بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَبَغَى لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ. وَلَا تَدْخُرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرٍ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُبْحَاثُهُ قَمَدِ اضْطِنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الشرح والتفسير: رعايه إنصاف في أخذ الخراج

يبين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة بعض جزئيات المسائل والأوامر والنواهي الخاصه بالعاملين على جمع الخراج بعد أن ذكر سلسله من الكليات في كلامه السابق.

بدايه يقول الإمام عليه السلام:

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الْأَيْمَةِ».

والمراد من

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» كما ورد الروايات الشريفه، أن يرضا

الإنسان للآخرين ما يرضاه لنفسه ويحبّ لهم ما يحبّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، وبعبارة أخرى كما أنه يحبّ أن يأخذ حقّه منهم فيجب عليه أن يعطيهم حقوقهم عليه أيضاً.

ونقرأ في روايه جاء رجل أعرابي التّبي صلى الله عليه وآله وهو يريد بعض غزواته، فأخذ بغرز راحلته فقال:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي عَمَلًا أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ»، فقال:

«مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأَتِيَهُ إِلَيْهِمْ وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ»، قال ذلك وأضاف:

«حَلَّ سَبِيلَ الرَّاحِلِ» (أى أنّك حصلت على جميع ما تريد في هاتين الجملتين) (١).

ويشير الإمام عليه السلام في كلامه هذا إلى ثلاثه مناصب لعمّال الخراج ويترتب عليها ثلاث مسؤوليات مهمّة تقع على عاتقهم:

الأول: أنّهم

«حُزْرَانُ الرَّعِيَّةِ» يعنى الحافظون على أموال المسلمين لانفاقها في مصاريفها، والآخر: أنّهم

«وَوَكَلَاءُ الْأُمَّةِ» وهذا يعنى أنّ مسؤوليتهم أخذ حقوق الناس من الأشخاص الذين وجب الحقّ عليهم فى ذمتهم بشكل كامل،

والثالث: أنّهم

«سِفْرَاءُ الْأُمَّةِ» إذ ينبغى لهم أن يتخلّقوا بأخلاق أئمّتهم ويسلكوا مع الناس مسلك أئمّتهم فى التواصل الإنسانى والتعامل

الأخلاقى مع الناس، ومن هذا المنطلق فأخذ المال وكذلك حفظها والالتزام بالأخلاق الحسنه مع الناس تعتبر من مسؤوليات

العاملين على الخراج.

ثمّ ينهى الإمام عليه السلام هؤلاء العاملين عن سته أمور، الأمر الأول، يقول عليه السلام:

«وَلَا تُحْشِمُوا (٢) أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ».

وهذا يعنى أنّ الواجب عليكم أن تتعاملوا مع الناس بحيث لا يخجلون من

ص: ٢٤٢

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ١٤٦، ح ١٠.

٢- (٢) «تحشموا» من ماده «احشام» وفى الأصل «حشم» على وزن «كرم» بمعنى إخجال الطرف الآخر، وعندما تأتى من باب الإفعال، تشير إلى هذا المعنى أيضاً، وأحياناً تأتى بمعنى الاغضاب أيضاً، وفى الجملة أعلاه المعنى الأول أنسب، و«حشمت» على وزن «حكمت» تعنى الحياء والخجل، وأحياناً بمعنى اللياقه أيضاً.

عرض حاجتهم عليكم، مثلاً- إذا كانت بعض الشياه محبيه لديهم، أو أنّ بعض المحاصيل الزراعيه مورد اهتمامهم، فعليكم أن تسلكوا معهم بحيث يمكنهم إظهار مقاصدهم أمامكم وعليكم بأخذ الخراج والزكاه من مورد آخر.

أمّا النهى الثانى فيقول عليه السلام:

«وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلَبَتِهِ».

وهذه إشاره إلى أنّهم لو كانت لديهم مطالب مشروعه فى كيفية تقسيم الأموال وتقسيم الخراج، فينبغى مراعاتها والاستجابه لهم.

وفى النهى الثالث، يمنعهم الإمام عليه السلام من أخذ وسائل الحياه الضروريه (وهى مستثنيات الدين) ويقول:

«وَلَا تَبِعَنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا وَلَا عَبْدًا».

ويعتبر هذا الحكم من الأحكام الإنسانيه والأخلاقيه فى التعاليم الإسلاميه، وذلك أنّ الإسلام لا يسمح حتى للمدينين أن يتخلوا عن ضروريات الحياه والمعيشه لهم لأداء الدين، بل لو كان له مال آخر لزم تسديد الدين من ذلك المال، وإن لم يكن لديه مال آخر وجب إمهاله إلى زمان السعه والقدره على أداء الدين.

ويقول الإمام عليه السلام فى النهى الرابع:

«وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهِمٍ».

وبعباره أخرى أنّ أى نوع من أنواع العنف والإكراه ممنوع فى مجال أخذ حقّ بيت المال، والتجربه تشير إلى أنّ أساليب العنف فى أداء الديون تأتى بنتيجه عكسيه، وبعكس ذلك فأسلوب المحبّه واللين يزيد من أموال بيت المال.

والتعبير بـ «درهم» يمكن أن يكون إشاره إلى الأموال الصغيره، يعنى فى المال الصغير وفى جزئيات الأمور لا ينبغى التعامل مع الناس بمنطق الخشونه والقوه، وذهب بعض الشراح إلى احتمال أن يكون المراد من «درهم» فى هذه الجملة، جنس المال، يعنى لا يحقّ لكم أن تضيقوا على الناس من أجل أخذ الأموال منهم.

ويقول الإمام عليه السلام فى النهى الخامس:

«وَلَا تَمَسَّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلِّيًا وَلَا

مُعَاهِدٍ (١)، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِتْمَاحًا يُعَدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ».

وهذه الجملة إشاره إلى المنافقين والانتهازيين الذين يملكون السلاح والمركب ويجعلونها في خدمة أعداء الإسلام، ففي مثل هذه الموارد يحق لهؤلاء العاملين أخذ هذه الوسائل منهم دون دفع ثمنها وقيمتها إليهم، لأنّ دفع ثمنها يمنحهم أيضاً القوّة والقدرة لتنفيذ مخططاتهم وبرامجهم المعادية، وفي الحقيقة إنّ مثل هذا العمل هو نوع من المصادر المشروعة للأموال، الذي أذن فيه الإمام عليه السلام بالنسبة لبعض الأشخاص المستثنون عن القاعدة، ولكن أموال سائر المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمّة محفوظة ويجب احترام مالكيّتهم لها.

صحيح أنّ هذا الموضوع لا يرتبط بمسألة الخراج، ولكن في الواقع وظيفه أخرى ربّما يواجهها العاملون بالخراج وبالتالي ينبغي عليهم العمل بها.

وثمة بحث في الفقه الإسلامي في باب المكاسب المحرمة حول حرمة إعانه الظالمين، وكذلك يوجد بحث في عدم جواز بيع الأسلحة لأعداء الإسلام، حيث ورد النهي عن هذا الأمر واستدل عليه بالأدلة العامّة والخاصّة، ومفهوم هذه الآيات والروايات أنّه لو رأينا سلاحاً أو مركباً بيد أحد الأشخاص ونعلم أنّه سيعطيه في المستقبل القريب لأعداء الإسلام ويستخدمونه ضد المسلمين، فيجب منعه من ذلك، وهذا هو الأمر الذي أصدره الإمام عليه السلام في هذه التوصية، وبعبارة أخرى أنّ هذا العمل نوع من النهي عن المنكر بشكله العملي.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام في النهي السادس:

«وَلَا تَدْخِرُوا (٢) أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا

ص: ٢٤٤

١- (١). «معاهد» تستعمل في معنيين، أحدهما أهل الذمّة والأقليات الدينيّة في داخل البلدان الإسلاميّة الذين يعيشون بسلام مع المسلمين، والآخر: الكفّار الذين يعيشون خارج البلدان الإسلاميّة وتربطهم مع المسلمين رابطة العهد والميثاق، وفيما نحن فيه فالمراد المعنى الأوّل.

٢- (٢). «تدخروا» من مادة «ذخيره» وعندما تأتي من باب إفتعال تتبدل الدال إلى ذال، والتاء في باب افتعال تتبدل أيضاً إلى دال، وعليه فإنّ «لا تدخروا» تعني لا تدخروا ولا تبقوا في أنفسكم نصيحة.

الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرِهِ وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَهُ، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً» (١).

وفى هذه العبارة الواردة بصورة النهى يصدر الإمام عليه السلام أربعة أوامر: النصيحة لبعضهم البعض، وحسن الخلق والسلوك مع جند الإسلام، والسعى فى طريق مدد العون للرعية، والعمل على مستوى تقوية دعائم الدين الإسلامى، ومع الالتفات إلى أنّ المخاطب فى هذه الجملة هم عمّال الخراج، يتبين أنّ الواجب عليهم فى مسير أداء مسؤوليتهم، الاهتمام بالتكاليف الأخرى الواجبه عليهم أيضاً.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه أنّ الجملة:

«وَلَمَّا تَدَخَّرُوا أَنْفُسِيَّكُمْ نَصِيحَةً» أنّ الأنفس هنا تعنى ذات الشخص، وذهب آخرون إلى أنّها تعنى نفوس الآخرين، والظاهر أنّ المعنى الثانى أنسب.

ومعلوم أنّ عمّال الخراج لو عملوا بهذه الوظائف الأربع، أى أنّهم تحركوا فى علاقاتهم فيما بينهم من موقع التواصى والتناصح وكذلك تعاملوا مع الرعية وجنود الإسلام بأليه اللطف وحسن الخلق، وعزموا فى تيّاتهم على تقوية الدين الإسلامى وتوطيد الرسالة الإلهية، فإنّ المجتمع الإسلامى سيشهد ازدهاراً كبيراً وتطوراً مهماً.

وفى ختام هذه الرسالة يبين الإمام عليه السلام آخر توصيه لعمّاله على الخراج ويقول:

«وَأَبْلُوا (٢) فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ (٣) عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَعْتُمْ قُوَّتَنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ».

وهذه إشاره إلى أنّ الاعتماد على الله ضرورى لتحقيق النجاح وكسب الموفقية

ص: ٢٤٥

١- (١) وردت فى بعض الروايات هذه الجملة وما بعدها فى رساله الإمام عليه السلام إلى قاده جيشه. (من كتاب صفين لنصر بن مزاحم، ص ١٢٥)، والتعبير بالجند يتناسب مع هذا النقل.

٢- (٢). «أبْلُوا» (من باب إفعال) بمعنى السعى وبذل الجهد لأداء الشىء، وأحياناً تأتي بمعنى الامتحان والاختبار أو التحلل والانحلال، وفى هذا المورد جاء بالمعنى الأول.

٣- (٣) «اصطنع» من ماده «اصطناع» بمعنى طلب الشىء، وأحياناً تأتي بمعنى صناعه الشىء وتربيته، وهنا جاءت بالمعنى الأول.

فى تجسید هذه التوصیات على أرض الواقع ولزوم الاستعانه بالله تعالى فى سلوك خط الإیمان والعمل الصالح والالتزام الواعى بهذه القيم الأخلاقیة والمثل الإنسانیة.

وعباره

«فَإِنَّ اللَّهَ» (والفاء للتفريع) إشاره إلى أن إتيان هذه الأمور وترجمتها على مستوى التطبيق يمثّل نوعاً من شكر الله تعالى على نعمه، ونحن مدينون فى هذا الحال لألطف البارى تعالى الذى وفقنا لإنجاز هذه التكاليف والوظائف.

ص: ٢٦٦

إلى أمراء البلاد في معنى الصلاه (١)

نظرة عامة للرساله

كما هو بين من عنوان الرساله، فإن المخاطب لها امراء البلاد، لأنهم من جهة يتولون الأمور الدينيه للناس، وكذلك أمورهم الدينويّه، مضافاً إلى إمامه الجمعه والجماعه أيضاً، ومحتوى هذه الرساله يبين في الحقيقه أمرين: أحدهما، أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق ومتى يأتي المسلم بكل واحده منها، والآخر أنّ إمام الجماعه يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار أضعف المأمومين ويصلّي طبقاً لهذا المعيار.

ص: ٢٤٧

١- (١). سند الرساله: جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ هذه الرساله ذكرها أبو منصور الثعالبي من المعاصرين للسيد الرضى في الباب الثالث من كتاب «الإعجاز والإيجاز» مع تفاوت ملفت، وقد ذكر صاحب المصادر هذا التفاوت، وفي المجموع يستنتج أنّ الثعالبي (قطعاً) لم يأخذ هذه الرساله من نهج البلاغه للسيد الرضى. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٣٩٠).

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ العَنَزِ، وَصَلُّوا بِهِم العَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيضاءَ حَيْثُ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُّ فِيهَا فَزَسِيخَانِ، وَصَلُّوا بِهِم المَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الحَاجُّ إِلَى مَنَى، وَصَلُّوا بِهِم العِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِم العُدَاةَ وَالرَّجُلَ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِم صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ وَلَا تَكُونُوا فَتَانِينَ.

الشرح والتفسير: آداب الصلاة وأوقاتها!

إشارة

تقدّم آنفاً أنّ الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة يخاطب امراء البلاد، وهؤلاء الامراء هم أئمة الجمعة والجماعة أيضاً، ويبيّن لهم أوقات الصلوات اليوميّة.

بدايه يشرع الإمام عليه السلام من صلاة الظهر ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ (١) الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ (٢) العَنَزِ (٣)».

كلمه «حتى» إشارة إلى نهايه وقت فضيله الظهر، كما هو ظاهر التعبير بهذه الكلمه، ومفهومها أنّ الإمام عليه السلام بيّن فى هذه العبارة نهايه وقت فضيله الظهر فقط،

ص: ٢٦٩

١- (١) «تفيء» من ماده «فء» يعنى العوده والرجوع.

٢- (٢) «مرْبِض» من ماده «ربض» على وزن «نبض» بمعنى جلوس الحيوان على صدره على الأرض، وبما أنّ الحيوانات تجلس بهذه الصوره فى الحضيره غالباً فإنّ المرْبِض يأتى بمعنى الحضيره محل استراحه الأغنام والماعز.

٣- (٣) «عنز» الأنتى من الماعز، والماعز يطلق على كلّ أشكال هذا الحيوان، وأحياناً يأتى بمعنى الحيوان الذى يملك الشعر من الأنعام لا الصوف، وقصير الذنب.

وقد ورد في بعض الروايات أنه بمقدار ذراع، ومقدار الذراع لا يختلف كثيراً عن مريض العنز عندما تتمدد الشاه على الأرض، فيقترب مقدار المريض من مقدار الذراع، ولو كانت كلمه «حتى» تعني «حين» (١) ويقصد بها تعيين المدّة والزمان، فالظاهر أنّ المعنى يكون بدايه وقت الفضيله، ومفهومها أنّ وقت صلاه الظهر من أوّل الزوال إلى أن يكون ظلّ الشاخص (أى الظل الذى يظهر من لحظه زوال الشمس عند الظهر) بمقدار ذراع، فيمكن تأخير صلاه الظهر إلى ذلك الوقت، إمّا لغرض إتيان صلاه النافله أو لغرض اجتماع الناس لصلاه الجماعه.

وطبعاً فإنّ ابتداء وقت صلاه الظهر لا يكون قبل هذه الأمور وهو ما ذكره القرآن الكريم بصراحه وقال: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتُدْلُوكِ الشَّمْسُ» (٢).

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام آخر وقت فضيله صلاه العصر ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيَضَاءُ حَيْثُ فِي عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَوْسَخَانَ».

وهناك خلاف كبير في وقت صلاه العصر بين فقهاء أهل السنّه والوارد في كتبهم الفقهيّه، ولكن المعروف بين علماء الشيعة أنّ وقت صلاه الظهر من ابتداء زوال الشمس من دائره نصف النهار، (وطبعاً بعد مضي مقدار من الوقت اللازم للإتيان بناقله الظهر)، وانتهاء وقتها إلى زمان يكون ظلّ الشاخص (الظلّ الذى يظهر بعد زوال) بمقدار الشاخص نفسه، ثمّ يبدأ وقت فضيله صلاه العصر ويمتد إلى زمان يكون فيه ظلّ الشاخص ضعفى الشاخص (وطبعاً طول وقصر الشاخص في هذه المسأله لا يتفاوت).

وما ذكره الإمام عليه السلام في الجملة أعلاه يشير إلى نهايه وقت فضيله صلاه العصر، ولا يختلف هذا المقدار مع ما هو معروف بين فقهاءنا.

ص: ٢٧٠

١- (١). ورد في بعض نسخ نهج البلاغه بدل كلمه «حتى» حين. مثل كتاب اختيار مصباح السالكين، ص ٥٣٩ وكتاب حدائق

الحقائق، ج ٢، ص ٥١٧.

٢- (٢) سورة الاسراء، الآية ٧٨.

فى المرحله الثالثه أشار الإمام عليه السلام إلى وقت صلاه المغرب وقال:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مَنَى».

وبما أنّ وقت إفطار الصائم وحركه الحجاج من عرفات معلوم فى نظر عامّه الناس حيث تبدأ الحركه مع غروب الشمس، فالإمام عليه السلام يجعل هذا الأمر مقياساً للوقت.

وتأخير صلاه المغرب والإفطار إلى زمان زوال الحمرة المشرقيه من وسط السماء يمثّل فى الواقع نوعاً من الاحتياط، والوقت هو غروب الشمس (وذلك طبعاً فى نظرنا ونظر جماعه من فقهاء أهل البيت عليهم السلام).

وهنا يكتفى الإمام عليه السلام فى الواقع بما هو معروف ومشهور بين عامّه المسلمين فى الوقت الذى يفطر فيه الصائم ويتحرك الحجاج من عرفات.

وفى المرحله الرابعه يشير الإمام عليه السلام إلى وقت صلاه العشاء ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلْثِ اللَّيْلِ».

ولابدّ من معرفه المراد من الشفق، وهل هو الحمرة المغربيه (أى الشعاع الأحمر الذى يظهر من جهه المغرب بعد اختفاء قرص الشمس)، أو البياض الشفاف الذى يظهر بعد اختفاء ذلك الشعاع الأحمر ويبقى لمدّه من الوقت؟ كلا الاحتمالين واردان فى تفسير كلام الإمام عليه السلام، لأنّ الشفق يطلق على كلا هذين الأمرين، ولكن المشهور بين علماء الشيعة هو المعنى الأوّل، وفى هذا العصر فأهل السنّه يجعلون المعنى الثانى ملاكاً للعمل غالباً، رغم أنّ الفقهاء الأربعة مختلفون فيما بينهم فى هذه المسأله.

وفى المرحله الأخيره والخامسه يشير الإمام عليه السلام إلى بدايه وقت صلاه الصبح ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِدَاءَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ».

ومعلوم أنّ المستفاد من آيات القرآن الكريم والمشهور بين الفقهاء هو أنّ ابتداء صلاه الصبح من زمان طلوع الصبح الصادق، أى البياض الواسع الذى يظهر إلى جانب الأفق، ويتفق العلماء فى هذه المسأله، ولكن بما أنّ النهوض من داخل المدن والتوجه إلى خارجها أو الصعود على سطوح المنازل والنظر إلى الخارج لمعرفة

طلوع الفجر الصادق لا يعدّ أمراً ميسوراً، فقد بين الإمام عليه السلام معياراً أيسر من ذلك، وهو أن تخف حدّ الظلام قليلاً ويخالط الجو بعض إشراقات الفجر بحيث يرى الشخص صاحبه الواقف إلى جانبه ويعرفه، أضف إلى ذلك فإنّ حضور الناس لصلاه الجماعة يتطلب مقداراً أكثر من الوقت، ولذلك يتطابق هذا المعنى مع ما ذكره الإمام عليه السلام.

وفى الختام يصدر الإمام عليه السلام لهم هذا الأمر فى كيفية صلاه الجماعة ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةً أضعفهم وَلَا تَكُونُوا فَتَانِينَ».

إنّ أهميّة هذا الموضوع إلى درجه أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام يروى حديثاً عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: آخر ما فارقت عليه حبيب قلبى صلى الله عليه وآله أن قال:

«يا عَلِيُّ إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةً أضعفِ مَنْ خَلْفَكَ»^(١).

وعندما أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وآله (لنشر الإسلام) إلى اليمن، سألته: كيف اصلى بالناس فقال:

«صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أضعفهم وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»^(٢).

وقد ورد هذا المعنى فى عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر حيث أوصاه الإمام بهذه الوصية.

«فتان» من ماده «فته» وفى الأصل تعنى وضع الذهب فى النار ليخلص من الشوائب، وبهذه المناسبة استخدمت هذه الكلمة فى معانٍ مختلف، منها الابتلاء والامتحان، الخداع، البلاء والعذاب، والأذى والألم، والكلمه فى عباره الإمام عليه السلام تتناسب مع المعنى الأخير، ولا يبعد أن يكون المراد هو الخداع أيضاً، ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام لا يعنى أن تصلّى صلاتك بشكل سريع بحيث تضرب بركان الصلاه وواجباتها، أو لا يتمكن الضعفاء بسبب هذه السرعة أن يلتحقوا بك فى ركوعهم وسجودهم وقيامهم وقعودهم، وهذا ما أشارت إليه الروايات الشريفه،

ص: ٢٧٢

١- (١) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٨٣، ح ٨٧٠.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٦٠٧.

منها ما ورد في عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر حيث أمره بهذه التوصية:

«فَلَا تَكُونَنَّ مُنْفَرًّا وَلَا مُضَيِّعًا». أجل، لابد من رعايه الاعتدال والتوازن في جميع الأمور.

وينبغي الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أن التوصية بالرغم من كونها وارده في خصوص الصلاة، ولكن يمكن سرايه هذا المفهوم إلى سائر العبادات بل إلى جميع البرامج الاجتماعية، فيجب أن تكون البرامج الإسلامية في الأبعاد العبادية، والاجتماعية، والسياسية، والأخلاقية، من حيث التطبيق بحيث لا تثقل على كاهل الناس ولا تتسبب في خروجهم عن الدين، ولا أن تؤدي السرعة والعجلة فيها إلى تفرغها من محتواها ومضمونها.

وكذلك من الجدير بخطباء أئمة الجمعة المحترمين، وكذلك المسؤولين عن مجالس الدعاء والابتهاج ومجالس العزاء مراعاة هذا الأصل، فلا يسرعوا في خطبهم وأدعيتهم ومراسيم العزاء بحيث تسلب روحها ومضمونها، ولا يؤتى بها بشكل متأخر ومطول بحيث تؤدي إلى تعب الحاضرين ومللهم.

تأمل

أداء الصلوات الخمس في ثلاثة أوقات

نعلم أن الصلوات اليومية في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وكذلك في عصر الأئمة المعصومين عليهم السلام كان تقام بشكل منفصل وفي الأوقات الخمسة وفي وقت الفضيله، واليوم لو صلينا الصلوات اليومية في خمسة أوقات لكان أفضل، ولكن مع ذلك فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله جمع بين صلاتي الظهر والعصر، وكذلك بين المغرب والعشاء في أسفاره بدون أن يكون هناك عذر خاص (من قبيل الحر الشديد والبرد الشديد والمطر)، مضافاً إلى ذلك فقد اتفق مراراً في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه صلى الله عليه وآله جمع بين الصلاتين بدون أي عذر وقال: احبّ الرخصة على امتي حتى أنهم إذا رغبوا في الجمع بين الصلاتين أمكنهم ذلك.

ولكن مع الأسف فإن جمع غفير من علماء أهل السنّه أصرّوا على الفصل بين الصلوات الخمس والإتيان بها بشكل منفصل، وهذه المسأله أدت إلى حدوث مشاكل كثيره وخاصّه فى وقت العصر، لأنّ حياه الناس قد تغيّرت فى العصر الحاضر، فالكثير من العمّال الذين يعملون فى المعامل والمصانع، وكذلك الموظفين الذين يشتغلون فى الإدارات الرسميه والشركات وبخاصّه طلاب الجامعات وحضورهم فى قاعات الدرس صار بشكل لا يستطيع المسلم الإتيان بالصلوات اليوميّه فى الأوقات الخمسه بسهوله، وهذا الأمر تسبب فى ترك الكثير منهم للصلاه.

ونعلم قطعاً أنّ الإسلام دين الرحمه وبمقتضى النبوى المعروف:

«بُعِثْتُ بِالشَّرِيعَةِ السَّمَحَةِ السَّهْلَةِ» فإنّه قد فتح طريقاً للحل أمام هؤلاء الأشخاص حتى لا يتورطوا فى ترك الصلاه من جهه، ولا يبتلوا بالصعوبه والمشقه البالغه.

والعجيب أنّ فى مصادر أهل السنّه المعروفه: ك «صحيح مسلم، صحيح البخارى، سنن الترمذى، موطأ مالك، مسند أحمد، سنن النسائى، مصنّف عبدالرزاق» وكتب أخرى وهى كلّها من المصادر والمنايع المعروفه والمشهور لديهم، هناك ثلاثون روايه فى باب الجمع بين صلاه الظهر والعصر أو صلاه المغرب والعشاء بدون السفر والمطر وخوف الضرر، ولكنّ هؤلاء الإخوه قد تغافلوا عنها جميعاً وشدّدوا أمر الصلاه على الناس وبخاصّه الشباب منهم.

وهذه الروايات وارده من طريق خمسه رواه معروفين:

١. ابن عباس.

٢. جابر بن عبدالله الأنصارى.

٣. أبو أيوب الأنصارى.

٤. عبدالله بن عمر.

٥. أبو هريره.

وسنشير فيما يلى إلى جمله منها:

ص: ٢٧٤

١. نقل سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال:

«صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعاً بِالْمَدِينَةِ فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا سَفَرٍ» يقول أبو زبير: سألت سعيد بن جبير، لِمَ فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال سعيد: سألت (يعنى هذا السؤال) ابن عباس كما سألتني فقال:

«أَرَادَ أَنْ لَا يُحْرِجَ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِهِ» (١).

٢. يقول جابر بن زيد: قال ابن عباس:

«صَلَّى النَّبِيُّ سَبْعاً جَمِيعاً وَثَمَانِيَةً جَمِيعاً» (٢)، وهي إشارة إلى أَنَّ النَّبِيَّ الأَكْرَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جَمَعَ فِي صَلَاتِهِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ.

٣. جاء في «مصنّف» عبد الرزاق أَنَّ عبد الله بن عمر قال:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ مُقِيمًا غَيْرَ مُسَافِرٍ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ فَقَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: لِمَ تَرَى النَّبِيَّ فَعَلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّ لَا يُحْرِجَ أُمَّتَهُ إِنْ جَمَعَ رَجُلٌ» (٣).

٤. ويروى عبد الله بن مسعود:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ الأُولَى وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فَقِيلَ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ: صَنَعْتُهُ لِأَنَّ لَا تُكُونُ أُمَّتِي فِي حَرْجٍ» (٤).

٥. وروى أبو هريره أيضاً:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ» (٥).

وكما قلنا آنفاً أَنَّ الروايات الواردة في هذا الباب أكثر من هذا المقدار، وخلاصه ما ورد فيها أَنَّ النَّبِيَّ الأَكْرَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد جمع في بعض المواضع بين صلاة الظهر والعصر أو بين صلاة المغرب والعشاء في حين لم تكن هناك مشكله خاصه كالمطر أو السفر أو الخوف من العدو، ولم يكن الهدف من ذلك سوى التوسعه على الأُمَّه ورفع العسر والحرج، فهل يصح مع هذا الحال أن يستشكل البعض في مسأله الجمع ويقول بأنَّ

ص: ٢٧٥

١- (١) صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٥١، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر، ح ٤٥ و ٥٠.

٢- (٢) . صحيح البخارى، ج ١، ص ١٤٠، باب وقت المغرب.

٣- (٣) . مصنّف عبد الرزاق، ج ٢، ص ٥٥٦.

٤- (٤) . المعجم الكبير الطبرانى، ج ١٠، ص ٢١٩، ح ١٠٥٢٥.

الجمع متعلق بموارد الاضطرار؟ لماذا نغض النظر عن رؤيه الحقائق الشرعيه ونرجح أفهامنا ومسبقاتنا الفكرية على قول رسول الله صلى الله عليه وآله الصريح فى هذا الأمر وبالتالى نثقل هذه العباده على كاهل الأمة؟ وعندما يأذن الله ورسوله بالرخصه فى شىء فلماذا لا يأذن المتعصبون فى هذه الأمة؟ لماذا لا يريدون من الشباب المسلمين أن يؤدوا صلواتهم اليوميه وهى أهم وظيفه الإسلاميه فى كل الأحوال فى جميع الأماكن فى داخل البلاد الإسلاميه وخارجها فى الجامعات والإدارات والمعامل والأسواق؟

نحن نعتقد أن الإسلام يمتد لكل زمان ومكان إلى نهايه الدنيا، ومعلوم أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله كان يرى بنظره الواسع حال جميع المسلمين فى العالم وفى جميع الأعصار والحقب الزمنيه، وأنهم إذا كانوا مقيدين بالصلوات فى خمس أوقات فإن ذلك من شأنه أن يشق على أمته ويدعو جماعه منهم لترك الصلاه، ولذلك صدر الإمر الإلهى إليه أن يخفف عن أمته ويوسع دائره الرخصه فى هذا الشأن.

والجدير بالذكر أن الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» (١) يقول بصراحه:

واعلم أنه يتفرع على هذين القولين بحث يكون المذكور فى الآيه ثلاثه أوقات:

وقت الزوال، ووقت أول المغرب، ووقت الفجر، وهذا يقتضى أن يكون الزوال وقتاً للظهر والعصر، فيكون هذا الوقت مشتركاً بين هاتين الصلاتين، وأن يكون أول المغرب وقتاً للمغرب والعشاء، فيكون هذا الوقت مشتركاً أيضاً بين هاتين الصلاتين، فهذا يقتضى جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقاً.

وقد بين أنه دلّ الدليل على أن الجمع فى الحضر من غير عذر لا يجوز، توجب أن يكون الجمع جائزاً بعذر السفر وعذر المطر وغيره (٢)، وهذا ما يقال من الاجتهاد

ص: ٢٧٦

١- (١) . سورة الاسراء، الآيه ٧٨.

٢- (٢) . التفسير الكبير، للفخر الرازى، ج ٢١، ص ٢٧.

فى مقابل النص.

وكما قلنا فى بدايه هذا البحث أنّ رعايه وقت الفضيله والإتيان بكل صلاه فى هذه الأوقات الخمسه مسنون وأولى، رغم أنّ الجمع بين الصلاتين يعتبر رخصه، ومن هذه الجئه فالإمام عليه السلام بيّن أوقات الصلاه الخمس بشكل منفصل.

ص: ٢٧٧

كَتَبَهُ لِلأَشْتَرِ النَّخَعِي لَمَّا وَلَّاهُ عَلَي مِصْرَ وَأَعْمَالِهَا
حِينَ اضْطَرَبَ أَمْرُ أَمِيرِهَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ
أَطْوَلُ عَهْدٍ كَتَبَهُ وَأَجْمَعُهُ لِلْمَحَاسِنِ (١)

نظرة عامة للرساله

(المهمه جداً لمالك الأشتر)

خمسون نكته مهمه في عهد واحد

من أجل إدراك أهميته هذا العهد الشريف، وقبل أن نتوغل في دراسه محتوياته ومضامينه، ينبغي الالتفات إلى عدّه أمور: (٢)

ص: ٢٧٩

١- (١) سند الرساله العهديه: هذه الرساله المعروفه بعهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر من أشهر كتب ورسائل أمير المؤمنين عليه السلام والغنيه عن التعريف ولا تحتاج لذكر السند، وهذه الرساله وردت في كتب كثيره قبل السيد الرضى وكذلك بعده، وفي الحقيقه أنّ شهره هذه الرساله أسمى وأعلى من أن تحتاج إلى شرح مداركها.

٢- (٢) ولكن صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه يصرّح أنّ جماعه من الأكابر قبل السيد الرضى، مثل الحسن بن على بن شعبه (المتوفى ٣٣٢) ذكرها في كتاب تحف العقول، وذكرها القاضى النعمان المصرى (المتوفى ٣٦٧) في كتاب دعائم الإسلام، وذكرها بعد السيد الرضى، الرجالى المعروف النجاشى في كتابه «الفهرست» في شرح حال الأصغ بن نباته، وكذلك الشيخ الطوسى في كتابه الفهرست، والنويرى في نهايه العرب مع اختلاف يسير، وابن عساكر (المتوفى ٥٧١) في تاريخ مدينه دمشق حيث ذكر مقاطع منها. والجدير بالذكر أنّ العلماء والكتّاب كتبوا شروحاً كثيره جداً على هذه الرساله، منهم: ١. آداب الملوك نظام العلماء، ٢. أساس السياسه للواعظ المعروف الشيخ محمد الكجورى الملقب بسطان المتكلمين. ٣. التحفه السليمانيه للسيد ماجد البحرانى (المتوفى بعد ١٠٩٧). ٤. الراعى والرعيه للكاتب الأستاذ توفيق الفكيكى. ٥. السياسه العلويه تأليف عبدالواحد آل مظفر. ٦. شرح عهد أمير المؤمنين لمحمد باقر بن صالح القزوينى. ٧. شرح عهد أمير المؤمنين للعلامة المجلسى (المتوفى ١١١١). ٨. شرح عهد أمير المؤمنين للميرزا حسن بن السيد على القزوينى (المتوفى ١٣٥٨). ٩. شرح عهد أمير المؤمنين للميرزا محمد بن سليمان التنكابنى. ١٠. شرح عهد أمير المؤمنين الشيخ هادى بن محمد حسين القائينى. ١١. شرح الفاضل. ١٢. فرمان المبارك لجواد. ١٣. نصايح الملوك للمولى أبى الحسن العاملى. ١٤. مقتبس السياسه وسياج الرئاسه. ١٥. القانون الأكبر فى شرح عهد الإمام للأشتر للسيد مهدى السويج. ١٦. مع الإمام على فى عهده لمالك الأشتر للعلامة الشيخ محمد باقر الناصرى (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٢٦) وهناك شروح كثيره أخرى كتبت فى عصرنا الحاضر، وقد سمعنا فى الأخبار أنّ هذه

الرساله ترجمت إلى لغات مختلفه ووضعت في مبنى الأمم المتحده بعنوان سند تاريخي ووزعت على نواب دول العالم في الأمم المتحده.

إن هذه الرسالة المطولة والعميقة المضامين تعدّ من أهم ما ورد من كتب ورسائل في نهج البلاغه وناظره لجميع أبعاد وجهات الإدارة والتدبير لأمر الحكومه وتحتوى على أصول ثابتة وقواعد متماسكه لا يطرأ عليها القدم ولا تبلى أبداً وترسم فى مضامينها كافه تفاصيل الحياه السياسيه والإداريه فى الحكومه الإسلاميه.

١. ميا يجدر ذكره أنّ ابن أبى الحديد فى ذيل الخطبه القصيره رقم ٦٨ (وقد ورد شرح هذه الخطبه سابقاً وفى شرح بن أبى الحديد الخطبه تحت رقم ٦٧) ينقل عن إبراهيم الثقفى صاحب كتاب «الغارات» رساله مفصله وطويله نسبياً أنّ الإمام على عليه السلام قد كتب إلى محمّد بن أبى بكر برنامجاً أخلاقياً لتهديب النفوس وتطهير القلوب وتقويه عنصر التقوى فى الإنسان، وفى ذيل هذه الرساله ينقل هذا المؤرخ (صاحب كتاب الغارات) كان محمّد بن أبى بكر ينظر فيه ويتأدّب بأدابه - كان يحمل معه هذه الرساله فى مصر ويطالعها بين الحين والآخر ويتمسك بأدبها ويلتزم بما ورد فيها من التعاليم - فلما ظهر عليه عمرو بن العاص، أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاويه، فكان معاويه ينظر فى هذا الكتاب ويتعجب منه.

ثمّ قال: إنّ الوليد بن عقبه (أخا عثمان من أمه وهو الذى نزلت فى حقه آيه «إن

جاءكم فاسق..» حيث أطلق عليه القرآن وصف الفاسق) وكان حاضراً عند معاوية وقد رأى اعجابه به، فقال لمعاوية: مر بهذه الأحاديث أن تحرق. فقال معاوية: مه، لا رأى لك! فقال الوليد: أفمن رأى أن يعلم الناس إن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها! فقال معاوية: ويحك أأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من عمله وقضائه فعلاّم تقاتله؟ فقال: لولا- أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثم سكت حينه، ثم نظر إلى جلسائه وقال: إنا لا نقول: إن هذه من كتب على بن أبي طالب، ولكن نقول:

هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد، فنحن نظر فيها، ونأخذ منها.

قال: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية حتى ولى عمر بن عبدالعزيز، فهو الذى أظهر أنّها من أحاديث على بن أبي طالب عليه السلام.

والجدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد بعد أن نقل هذا الكلام عن صاحب «الغارات» يقول: «الأليق أن يكون الذى كان معاوية ينظر فيه ويعجب منه، ويفتى به ويقضى بقضاياه وأحكامه هو عهد الإمام على عليه السلام إلى الأشر، فإنه نسيج وحده، ومنه تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة (والحال أن كتاب الإمام عليه السلام لمحمد بن أبي بكر يتضمّن مجموعه من المسائل الأخلاقية) وهذا العهد صار إلى معاوية لما سمّ الأشر ومات قبل وصوله إلى مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق مثله (يعنى الكتاب العهدي) أن يقتنى في خزائن الملوك»^(١).

وعلى ضوء ذلك فإنّ ابن أبي الحديد يعتقد بأنّ هذه الرسالة التاريخية الفريدة، التى كان معاوية يستفيد منها ولم يظهر ذلك لأحد وبعده انكشف الستار عنها بواسطة عمر بن عبدالعزيز، هى ما نحن بصددده من عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشر.

ونحن بدورنا نؤيد نظر ابن أبي الحديد بصوره كامله، لأنّ القرائن والشواهد المختلفه تشهد على هذا المعنى.

ص: ٢٨١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٧٢ و ٧٣.

٢. يقول الكاتب المسيحي المعروف «جورج جرداق» في كتابه «الإمام على صوت العدالة الإنسانيّة»: «إلّا أنّه من الصعب على المرء أن يجد الإنسان اختلافاً بين هذا العهد العلويّ والثيقه الدوليّ لحقوق الإنسان، فليس من أساس بوثيقه حقوق الإنسان إلّا وتجد له مثيلاً في دستور ابن أبي طالب، وهذا إلى إطار من الحنان الإنساني العميق يحيط به الإمام دستوره في المجتمع، ولا يحيط الأمم المتحدّه وثيقته بمثله»^(١).

وينبغي الالتفات إلى أنّ لائحته حقوق الإنسان العالميّه قد تمّ تدوينها بعد ألف وثلاثمائه عام من تدوين عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشر، أضف إلى ذلك أنّ اللائحه العالميّه قام بتدوينها جماعه من المفسّرين من شتى بلدان العالم ومع ذلك فإنّها تحتوى على بعض النقائص ونقاط الضعف والقصور، وأهمّها أنّها فارغه من المسائل المعنويّه والقيم الإنسانيّه الساميه.

٣. ومن أجل الإحاطه بأهميّه هذه الرساله والعهد مورد البحث ينبغي الإشارة إلى مكان مسؤوليّه مالك الأشر، أي أرض مصر.

يتفق المؤرخون تقريباً أنّ منطلق الحضارات البشريّه تمتد بجذورها إلى منطقته الشرق، ومنها أرض مصر التي وجدت فيها الحضاره قبل غيرها من البلدان بآلاف السنين، فقد وطد المصريون دعائم التمدن البشري إلى درجه أنّ «ويل دورانت» يسمي هذه المنطقه بأنّها مهد الحضاره البشريّه، ومن هذه الجبهه نرى أنّ الأنبياء الإلهيين الذين أرسوا دعائم التمدن المادي والمعنوي في الأمم البشريّه جميعهم قد بعثوا من هذه المنطقه، ثمّ إمتدت دعوتهم إلى نقاط أخرى من العالم.

ويقول المؤرخ المذكور في الجزء الأوّل من تاريخه المعروف ب «قصّه الحضاره» بعد أن خصص عشرات الصفحات حول الحضاره المصريّه القديمه: إنّ الآثار المهمه الباقيه منذ ذلك الوقت ولمدّه آلاف السنين وبرغم المتغيرات في هذه العصور

ص: ٢٨٢

١- (١) مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٢٥.

والحقب الزمانيه لا زالت باقيه، وهذه علامه أخرى عن عظمه هذه الحضاره القديمه.

لقد كانت مصر تمثل إحدى المراكز العلميه والحضاريه المهمه في العالم، وخاصه مدينه الاسكندريه التي تعد - وفقاً للمدارك والاسناد التاريخيه - أحد أهم هذه المراكز العلميه، ولم يقتبس أهالي مصر علوم اليونان فحسب، بل أضافوا إليها علوماً كثيره أخرى، ففي الحقيقه أنّ مصر لم تكن بمثابة محافظه أو منطقه من الحكومه الإسلاميه، بل دوله كبيره وواسعه يقطن فيها شعب متمدن.

وقد دخلت مصر في عام ١٩ للهجره في زمان الخليفه الثاني تحت لواء الإسلام بواسطه الجيش الإسلامى الذى أرسله الخليفه الثاني لفتحها، ومنذ ذلك الزمان والمصريون يعيشون فى ظلّ الإسلام وقد تقبلوا، كالايرانيين، هذا الدين الجديد الذى يملك ثقافه قويه وتظهر على تعاليمه معالم الحقيائيه، ولكن للأسف فإنّ بعض الحكام الظلمه أمسكوا بمقاليد السلطه فى مصر من قبل الخلفاء ومنهم: عبدالله بن أبى سرح(١) الذى تولى ولايه مصر فى زمان عثمان وتسبب ظلمه وجوره على أهالى مصر فى انتفاضتهم على الوضع السائد، وكما نعلم أنّ هذه الانتفاضه إمتدت إلى المدينه، وقد زادت أخطاء الخليفه الثالث فى الطين بله، وعملت على تعميق الخلل والشعور بالاستياء لدى عامه الناس، ومن ذلك ما أصدره عثمان من عزل عبدالله وكتب فيها كتاباً وسلّمه إلى الثوار ليعودوا إلى مصر، ولكنّه أرسل رساله أخرى إلى عبدالله بن أبى سرح يأمره فيها بقتل هؤلاء الثوار فى حال عودتهم إلى مصر، وقد وقعت هذه الرساله بيدهم فى وسط الطريق، فعادوا من فورهم ووقعت حادثه قتل عثمان.

أمّا الإمام على عليه السلام فإنّه من أجل جبران الأخطاء المذكوره، أرسل فى بدايه الأمر محمّد بن أبى بكر لحكومته مصر، ولما ثبت عملياً أنّه لا يستطيع تحمل هذه

ص: ٢٨٣

١- (١). كتبنا فى شرح حال عبد الله أبى سرح - الأخ الرضاعى لعثمان - فى الإسلام، فى ذيل الرساله ٣٨ من الجزء التاسع من هذا الكتاب.

المسؤولية الثقيله، أمر الإمام عليه السلام شخصاً آخر يملك قدره والحكته والحزم فى الأمور، وهو مالك الأشر، لهذه المهمه وأرسل معه هذه الرساله والعهد مورد البحث لترتيب وإداره أوضاع هذا البلد الكبير وأرسله إلى مصر، ولكن للأسف فإن جريمه معاويه منعت من تحقق هذا البرنامج الإنسانى العظيم على أرض الواقع وأن يتنفس أهالى مصر السعداء مِمَّا لاقوه من الولاه السابقين.

مهما يكن من أمر فهذا الكتاب الذى كتبه الإمام عليه السلام لمالك الأشر يتشكل فى نظره إجماليه من عدّه أقسام ومقاطع، وربّما أمكن تقسيمه من زاويه معينه إلى خمسين قسمًا.

١. القسم الأوّل، يلخص الإمام عليه السلام الهدف الأساس من إرساله مالك الأشر إلى مصر فى أربعة أمور: الاهتمام الكامل بجمع الخراج، والتصدى لأعداء مصر، وإصلاح أهلها، وإعمار هذا البلد.

٢. التأكيد على لزوم رعايه التقوى قبل كلّ شىء، وبيان أهميتها ودورها فى حياه الإنسان.

٣. مجاهده النفس وتهذيبها.

٤. الفات نظر مالك الأشر إلى منطق عمله ومحل مسؤوليته.

٥. النصيحة له بالتحرك فى خط العمل الصالح واجتناب البخل.

٦. السعى وبذل لجهد لكسب رضا الرعيه وعامه الناس.

٧. النهى عن التمرد على الأوامر الإلهيه.

٨. بيان طريقه مواجهه حالات الكبر والغرور الناشئه من تولى المقام والمنصب.

٩. رعايه العدل والإنصاف فى كلّ الأحوال، واجتناب كلّ شكل من أشكال الظلم والجور التى تسبب فى تغيير النعم والمواهب الإلهيه وتبديلها.

١٠. ينبغى أن يكون أحبّ الأشياء إليه جلب رضا عامه الناس لا الخواص منهم.

١١. الحذر من وساوس الانتهازيين والناممين والسعى فى إسدال الستار على عيوب الناس.
١٢. لزوم المشوره فى الأعمال والنشاطات فيما يتصل بتدبير الأمور، والحذر من مشوره الأشخاص البخلاء والجبناء وأهل الدنيا.
١٣. عزل المتولين السابقين والمسؤولين الظالمين وتوثيق الرابطة مع أصحاب الورع والصدق والإيمان.
١٤. تشويق المحسنين والصالحين وتوبيخ المسيئين وعقابهم.
١٥. كسب حسن ظنّ الناس من خلال الإحسان إليهم، والتخفيف من ثقل الضرائب عليهم.
١٦. احترام الآداب والتقاليد الحسنه للقدماء.
١٧. استمرار مجالسه العلماء وأهل الخبره والتشاور معهم.
١٨. تقسيم الرعيه إلى طوائف متعدده وخدمه كلّ طبقه منهم وفق حاجاتهم ومواقعهم الذاتيه والاجتماعيه.
١٩. التأكيد بشدّه على رعايه الطبقة المحرومه والمعدمه.
٢٠. بيان خصائص القاده العسكريين والمسؤولين فى الجيش الإسلامى.
٢١. الاهتمام الخاص بسوابق الأشخاص والعوائل الصالحه وذات السمعه الحسنه.
٢٢. خصوصيات القاده الكبار.
٢٣. التأكيد على أصل العداله، الذى يتواصل مع روحيه القاده والزعماء وهو قره عين لهم.
٢٤. الثناء على الأعمال الحسنه للصالحين والمحسنين لتقويه عناصر الخير فى المجتمع الإسلامى ولتشويق الجميع على عمل الخير والإحسان.
٢٥. قياس قيمه عمل كلّ شخص بدون الالتفات إلى مكانته الاجتماعيه.

٢٦. الرجوع إلى الكتاب والسنة في حل المشكلات واستنباط الأحكام.

٢٧. ذكر شروط القضاء والصفات اللازمه التي يجب توفرها فيهم.

٢٨. الإشراف على الأحكام القضائيه التي يصدرها القضاء في حق المحكومين وتأمين نفقاتهم ومعيشتهم في الحياه بشكل كامل لمنع التورط في عمليته الرشوه.

٢٩. بيان المعيار في انتخاب الولاة والقاده في البلاد ودفع حقوقهم المائيه بشكل كاف ووضع العيون (الجواسيس) لضبط أعمالهم.

٣٠. وضع خطه لعمليه الخراج والضرائب والاهتمام بعمران المنطقه وإحيائها قبل الاهتمام بجمع الخراج.

٣١. بيان الخصوصيات المتعلقة بالمدرء والمسؤولين عن الاسناد والوثائق وموظفيهم وتقسيم العمل بينهم بشكل دقيق.

٣٢. الاهتمام التام بوضع التجار وأصحاب الصناعات والأشخاص الذين يتحركون في خدمه الناس على مستوى نقل أو إنتاج ما يحتاجونه، والإشراف الدقيق على المعاملات والأسعار والتصدي لظاهرة الاحتكار.

٣٣. التأكيد أكثر على الاهتمام بالطبقه المحرومه والضعيفه ولزوم التواصل معهم والاطلاع على وضعهم.

٣٤. لزوم الاهتمام بوضع الأيتام والعجزه.

٣٥. تعيين وقت خاص للقاء العامه من الناس والإذن لهم بمقابله المسؤولين بشكل مباشر.

٣٦. تعيين وقت خاص آخر للموظفين والمسؤولين من أجل حلّ مشكلاتهم الخاصه.

٣٧. تنظيم برنامج دقيق للأعمال اليوميه المختلفه.

٣٨. الاهتمام بإقامه الفرائض الدينيه وخاصه صلاه الجماعه وكيفيه إقامتها وتعيين وقت خاص للارتباط مع البارى تعالى.

٣٩. عدم الابتعاد عن الناس والاحتجاب عنهم مدّه طويله.

٤٠. كيفيه التعامل مع الأصحاب الخاصين والمطلعين على أسرار الدوله.

٤١. الرعايه الدقيقه لحقوق جميع الأفراد، سواءً كانوا من منطقته قريبه أو بعيده.

٤٢. تقديم عذر موجّه وتبرير معقول في مقابل ما يعيشه الناس من شحه في الموارد وظهور المشكلات ممّا يوّدَى إلى سوء الظن بالولاه.

٤٣. قبول دعوه الأعداء للصلح وفي ذات الوقت رعايه حاله الحذر في مقابلهم مع إحترام العهود والمواثيق التي تعقد معهم.

٤٤. الاجتناب بشدّه عن سفك دماء البرياء.

٤٥. اجتناب كلّ أشكال العجب والأنانيه والغرور.

٤٦. الحذر من إظهار المن على الرعيه.

٤٧. اجتناب التسرع والعجله في الأعمال.

٤٨. اجتناب الرشوه وأخذ حقّ الخاص في المشتركات.

٤٩. الاهتمام بمطالعه سيره النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله والأنبياء الإلهيين في جميع الأمور المتعلقة بالحكومه.

٥٠. وأخيراً الدعاء لنفسه ولمالك الأشر وطلب الرحمه والتوفيق له من الله تعالى.

ويمكن من زاويه معنيه وضع جميع هذه الأمور في عشره محاور:

١. بيان أهمّيّه المسؤوليّه الملقاه على عاتق مالك الأشر.

٢. التنبيهات الأخلاقيّه العامّه في مجال الحكومه وتدير الأمور.

٣. تقسيم الرعيه وشرائح المجتمع المختلفه إلى عدّه فئات وطوائف، من القوى العسكريه إلى عمّال جبايه الضرائب والموظفين لدى الحكومه والقضاة والتجار وأصحاب الصنائع وتعيين الوظائف والخصوصيات المتعلقة بكل فئه منهم.

٤. الاهتمام الكبير فيما يتصل بالطبقات المحرومه.

٥. لزوم تعيين وقت لمواجهه ولقاء عامه الناس، أى الانفتاح على العامه وفتح الباب لهم ولارباب الحاجات.

٦. اختيار مشاورين أقوياء ومن أهل الخبره.

٧. التصدى لكل أشكال الرشوه والامتيازات الذاتيه.

٨. الاهتمام بأمر الصلح مع العدو وفى ذات الوقت أخذ جانب الحذر منه واجتناب كل أشكال سفك الدماء بدون دليل.

٩. الاهتمام بأمر إقامة الفرائض الدينيه لعموم الناس.

١٠. الدعاء لتحقيق النجاح والتوفيق فى أداء المسؤوليات واستمداد من الله تعالى فى هذا الشأن.

ص: ٢٨٨

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لَيْسَ بِنَبِيِّهِ، وَبِأَمْرِهِ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جَبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عِدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا، أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَسِيءُ عَدُوٌّ أَحَدٍ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْفِي إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكْفَلَ بِنَصِيرٍ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازٍ مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةً بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: التوصية الأولى: التقوى وجهاد النفس

إشارة

ينطلق الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الرسالة بذكر اسم الله الرحمن الرحيم والاستمداد منه، ويقول:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لَيْسَ بِنَبِيِّهِ، وَبِأَمْرِهِ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ. جَبَايَةَ (١) خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عِدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا».

يبتدئ الإمام عليه السلام في مستهل هذه الرسالة بالاعتراف بالعبودية لله تعالى، ثم كونه أمير المؤمنين، ليتبين أن قيادته المؤمنين ودعامتهم إنما تتجسد في أرض الواقع في

ص: ٢٨٩

١- (١). «جبايه» مثل جمع الزكاة وأموال بيت المال وأمثلة ذلك، وفي الأصل من مادة «جباوه» على وزن «عداوه» وتعني الجمع أو التجميع.

ظَلَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى لَا فِي ظِلِّ الْحَالَاتِ وَالِدَوَافِعِ الذَّاتِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ، ثُمَّ يَبَيِّنُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَهْدَافَ الْأَرْبَعَةَ لِهَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ وَالْمِهْمَةِ الَّتِي نَدَبَ إِلَيْهَا مَالِكُ الْأَشْتَرِ:

الهدف الأول: يشير الإمام عليه السلام إلى الأمور المائيه والاقتصاديّه وهو ما ورد التعبير عنه بالخراج، فصحيح أنّ الخراج يعنى الضرائب الموضوعه على الأراضى المفتوحه عنوه بيد المسلمين، ولكنّها فى هذا المورد تمتد لدائرته واسعه وتشمل جميع الأمور المائيه المتعلقة بالحكومته الإسلاميه، أعم من الخراج والزكاه والجزيه والخمس وأمثال ذلك.

الهدف الثانى: يتحدّث الإمام عن مسأله القوه العسكريه والدفاعيه وقوى الأمن فى البلد الإسلامى ويؤكد على حفظ استعدادهم لدفع هجمات الأعداء، لأنّه ما لم يتم ترتيب أمور هؤلاء فإنّ الأمن لا يتحقق فى فضاء المجتمع ولا يعيش الناس راحه البال فى معيشتهم وأعمالهم.

الهدف الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى إصلاح الأمور الاجتماعيه والثقافيه، ومنها إيجاد الباعث على أعمال الخير وإزاله منابع الفساد الأخلاقى وتثبيت الأمن فى مجال الكسب والعمل وتأمين حقوق الأفراد ونظم ما يتصل بالأمور القضائيه، رغم أنّ البعض تصور أنّ الجمله:

«اسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا» تختص بإصلاح الأمور الماديه للناس، ولكن من البعيد يكون نظر الإمام عليه السلام مقتصرأ على هذا المورد، بل ناظر إلى إصلاح جميع الأمور الماديه والمعنويه.

وبعض العبارات الوارده فى كلام الإمام عليه السلام فى هذه الرساله تشير إلى أنّ الإمام ناظر فى هذا المورد بشكل عام وواسع بحيث يشمل جميع المسائل الأخلاقيه والاجتماعيه من قبيل قوله:

«ثُمَّ أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَغَنَى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ».

الهدف الرابع: يتحدّث الإمام عليه السلام عن إعمار البلاد ويشمل ذلك إصلاح جميع ما يتعلق بأمور الزراعه والصناعه والتجاره، رغم أنّ الوارد فى هذه الرساله يختص بمسأله الصناعه والتجاره والكسب والعمل، ولم يرد كلام عن الزراعه، ولكن مع

الأخذ بنظر الحسبان أنّ مصر بلد زارعى وأنّ أهالى مصر يولون اهتماماً كبيراً بمسأله الزراعة، فكأنّ الإمام عليه السلام لم يجد حاجه لذكرها واقتصر على الإشاره إلى المشاكل الصناعيه والتجارويه، ولكن عندما يتحدّث عن أخذ الخراج يأمر مالك الأشر بأن يقوم، فى ذات الوقت الذى يأخذ الخراج، بمراقبه عمليّه الأعمار واستصلاح الأراضى واجتناب التشدد مع الزراع بما يتسبب فى قلّه المحاصيل الزراعيه.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يواصل استعراضه لهذه الأصول الأخلاقيّه الأربعة مخاطباً مالك الأشر، والتى تشكل فى الحقيقه الأركان الأصليّه المعنويّه للحكومّه.

بدايه يقول:

«أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ».

إنّ خطب الإمام عليه السلام ورسائله وكلماته القصار فى نهج البلاغه زاخره بأمر التوصيه بالتقوى، التى تمثل رأس مال سعادته الإنسان فى الدنيا والآخرة، فالتقوى تعنى الاحساس بالمسؤوليه الباطنيه واجتناب كلّ أشكال الإثم والذنب والتعدى والإجحاف، وبعبارة أخرى أنّ التقوى تمثّل حاله معنويّه كابحه، تتولى حفظ مسيره الإنسان فى طريق الحقّ وتضمن عدم انحرافه عن الصراط المستقيم، ومعلوم أنّ مسؤوليه الإنسان كلّما إزدادت وثقلت فإنّها تستدعى حاله أعمق وأقوى من التقوى.

وفى التوصيه الثانيه يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَيْتَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ:

مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَشْعُدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْفَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا».

«الفرائض» و «السنن» تعنى عاده الواجبات والمستحبات، وقيل: إنّ «الفرائض» هى الواجبات الوارده فى كتاب الله، و «السنن» هى الأحكام والواجبات الوارده فى السنّه الشريفه وكلام النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وفى هذه الصوره تكون جمله:

«مِمَّا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ..» شامله للأمر بإطاعه النّبى فى بيان الأحكام الإلهيّه أيضاً، فيحتمل فى معنى هاتين المفردتين أنّ «الفرائض» إشاره إلى الواجبات المهمّه، و «السنن» إشاره إلى الواجبات التى تأتى بالدرجه الثانيه بعدها.

ص: ٢٩١

«وَلَا يَشْقَىٰ إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا..» أنّ طريق سعادته الدنيا والآخرة منحصر في هذا المسلك وأنّ الطرق الأخرى تقود الإنسان في خط الضلاله والمتاهه، وطبعاً فهذا لا يعنى نفى الإدراكات العقليه والحق الهدياه الباطنيه بها، لأنّ من جمله الأمور التي ورد التأكيد عليها في كتاب الله أتباع العقل، وهو ما ورد في عشرات الآيات الكريمة.

وفي التوصيه الثالثه يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكْفَلَّ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ».

التعبير بنصره الله تعالى بالقلب واليد واللسان، كما ذكر بعض الشراح، إشاره إلى ما يتصل بالقلب من الاعتقادات، واليد إشاره إلى جهاد الأعداء، واللسان إشاره إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن البعض يعتقد أنّ القلب لا- يشير فقط إلى العقائد، بل إلى حالات النفور الباطني من القبائح والذائل والعشق لأعمال الخير أيضاً، وكذلك بالنسبه لليد فليست إشاره لجهاد الأعداء فقط، بل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مورد الحاجه لمقدمات عمليه والتي تدخل عاده في وظائف الحكومه الإسلاميه، وأمّا اللسان فيشمل جميع أشكال التعليم والتربيه الصحيحه مضافاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

. عبارته

«قَدْ تَكْفَلَّ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ..» إشاره إلى ما ورد في الآيات القرآنيه الشريفه الناظره إلى هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد في الآيه ٧ من سوره محمّد: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ».

وفي التوصيه الرابعه يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا (١) عِنْدَ الْجَمَحَاتِ (٢)، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةً بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ».

والحقيقه أنّ هذه التوصيات والذساتير الأخلاقيه الأربع تمثل برنامجاً كاملاً

ص: ٢٩٢

١- (١) «يزع» من ماده «وزع» على وزن «وضع» بمعنى المنع النفس وحفظها من الجنوح والجموح، وأحياناً تأتي بمعنى جمع الأفراد حول بعضهم، لأنّ ذلك يمنعهم من التفرق والانتشار.

٢- (٢) «الجمحات» جمع «جمحه» على وزن «صدقه» بمعنى الحوادث أو عوامل التمرد والعناد.

لضمان سعادته جميع الناس، فلو أنّ روح التقوى وحاله الورع تعمقت وتجدرت في النفس، وتحرك الإنسان بعدها في خط إطاعه الأوامر الإلهية وأتباع التعاليم الواردة في الكتاب والسنة وتصدى لمواجهه المفسدات الاجتماعية والقبايح الأخلاقية ومؤامرات الأعداء بالقلب واليد واللسان وكسر صنم الأهواء النفسانية، فمثل هذا الإنسان هو الإنسان الكامل وهو المخاطب بقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» (١).

وجمله

«فَيَا أَيُّهَا النَّفْسُ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ..» اقتباس من قوله تعالى: «وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» (٢). (سواءً كانت هذه الجملة وارده على لسان يوسف عليه السلام أم على لسان زوجه عزيز مصر، وعلى أية حال فإن القرآن قد أمضى هذه المقولة).

ورغم أنّ الكثير من المتقين يخشون من وساوس الشيطان، ولكن هوى النفس والوساوس الشهوانية والنوازع النفسانية أخطر من ذلك بكثير، ولعل هذا هو السبب في أنّ الإمام عليه السلام يلفت نظر مالك الأشر إلى هذه المسألة أكثر.

وصحيح أنّ المؤمنين المخلصين والأولياء الإلهيين قد تجاوزوا مرحلة النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ومنها إلى النفس المطمئنة، ولكن هذا لا يعنى أنّ نفوسهم الأمارة قد ماتت ولا حاجه إلى الحذر من أخطارها ودسائسها.

تأمل

أخطار النفس الأمارة

من المعلوم أنّ كبار العلماء والمفسرين، وبالاستلهام من آيات القرآن الكريم، قالوا بوجود مراحل ثلاث للنفس الإنسانية في حركتها المعنوية في خط التكامل:

النفس الأمارة، النفس اللوامة، النفس المطمئنة.

ص: ٢٩٣

١- (١) سورة الفجر، الآية ٢٧.

٢- (٢) . سورة يوسف، الآية ٥٣.

أمّا النفس الأماره فأشاره إلى الأهواء والشهوات المتمرده التي تأمر الإنسان دوماً بسلوك طريق الرذيله وإرتكاب المنكرات، والنفس اللوامه إشاره إلى حاله الندم الحاصل بسبب إرتكاب الإثم والمعصيه، وتنمو وتشتد هذه النفس من خلال تقويه روح التقوى فى الإنسان، أمّا النفس المطمئنه فهى المرحله العالیه من تكامل الروح الإنسانيه بحيث تصل إلى مرتبه تخضع لها جميع الأهواء والنوازع النفسانيه بشكل كامل من خلال آليات الضبط العقلى والإيمانى.

ويرسم الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام فى المناجاء الثانيه من المناجاء الخمسه عشر المعروفه، النفس الأماره بكل وضوح ويشكو إلى الله تعالى منها بهذه الكلمات (بوصفه قدوه لعموم الناس) ويقول:

«إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً وَبِمَعَاصِيكَ مُوَلَّعَةً وَبِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً تَسْلُكُ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ كَثِيرَةَ الْعِلَلِ طَوِيلَةَ الْأَمَلِ إِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجَزَّعَ وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعُ مَيْلَهُ إِلَى اللَّعْبِ وَاللَّهْوِ مَمْلُوءَةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ تُسْرِعُ بِي إِلَى الْحَوْبَةِ وَتُسَوِّفُنِي بِالتَّوْبَةِ».

أجل فهذه معالم وخصائص النفس الأماره على نحو الدقه، ويستفاد من الروايات الشريفه أنّ النفس الأماره تزيّن للإنسان الذنوب وتقبّح له الخيرات والطاعات، وعندما يرتكب الإنسان تلك القبائح والذنوب وتتجلى أمامه عواقب تلك الذنوب، تنكشف عن عينه ستائر الغفله، وأحياناً يوصد من خلفه باب العوده والإنابه فلا سبيل له للتوبه من الرذائل والمنكرات.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام (كما ورد فى غرر الحكم) فى كلام موجز أنّ:

«النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ الْمَسْؤُولَةُ تَتَمَلَّقُ تَمَلُّقَ الْمُنَافِقِ وَتَتَصَيَّبُ بِشَيْمَةِ الصِّدِّيقِ الْمُوَافِقِ حَيْثُ إِذَا خَدَعَتْ وَتَمَكَّنَتْ تَسَيَّلَتْ تَسَيُّلَ الْعِيدِ وَتَحَكَّمَتْ تَحَكُّمَ الْعُتُوِّ فَأُورِدَتْ مَوَارِدَ السُّوءِ»^(١).

ص: ٢٩٤

ومن هنا أوصى الأولياء وعلماء الأخلاق أن يراقب الإنسان هذه النفس مراقبه دقيقه لئلا يتورط في شراكها وينخدع بخداعها، ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلام آخر (طبقاً لما ورد في غرر الحكم):

«إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ لِأَمَارَةٍ بِالشُّؤْمِ فَمَنْ أَهْمَلَهَا جَمَحَتْ بِهِ إِلَى الْمَآْئِمِ» (١).

فالنفس الأماره تعتبر في الحقيقه أهم وسائل الشيطان وأدواته في إغواء الإنسان، فلو أنّ الإنسان تخلص من شراكها ومصائدھا فإنّه يتخلص كذلك من شرّ الشيطان وتسويلاته.

أهميته بلاد مصر

تعتبر مصر أحد أقدم مراكز الحضاره البشريه وأقدم مهد للتمدن في التاريخ البشري، وهناك آثار تاريخيه مهمه في بلاد مصر احتار العلماء في كيفية تشييدها وبنائها حتى مع الأخذ بنظر الاعتبار الوسائل والأجهزه الحديثيه، وكأنّ مقوله أنّ هذه الأرض كانت من قديم الأيام من أكثر البلدان تطوراً وإزدهاراً في العالم حقيقه لا غبار عليها.

والمدارك والأسناد التاريخيه تشير إلى أنّ مصر كانت ذات حضاره مزدهره منذ عشره قرون قبل ميلاد المسيح، فكانت تحتوى على مدارس كبيره ومكتبات ومراكز للتحقيق العلمى، وقد إقترنت الحضاره المصريه باليونانيه من قديم الأزمان وكانت العلوم والمعارف متبادله بينهما.

ومن النعم الإلهيه الكبيره على هذا البلد التاريخى، نهر النيل العظيم الذى يسقى أراضي مصر الواسعه، ولولا هذا النهر العظيم فإنّ قسماً عظيماً من أراضي هذا البلد ستتعرض للجفاف والتصحر، وتغدوا صحراء قاحله لا زرع فيها.

وفى السنه العشرين من الهجره وفى زمن الخليفه الثانى استولى المسلمون على

ص: ٢٩٥

هذا البلد، ومن عجائب التاريخ أن عمر بن الخطاب منع من دخول جيش الإسلام إلى مصر، ولكن عمرو بن العاص جهز جيشاً وتحرك بنفسه إلى مصر فوصل الخبر إلى عمر بن الخطاب، وقد كان يخشى أن جيش الإسلام إذا دخل مصر فسوف يتحد الرومان والمصريون ويهزموا الجيش الإسلامي، ولذلك كتب كتاباً إلى عمرو بن العاص وأرسله بيد عقبه بن عامر، وعندما وصل عقبه بن عامر إلى عمرو بن العاص وهو على مقربة من مصر، لم يسمح عمرو بن العاص لعقبه باللقاء به ولم يستلم الكتاب منه إلى أن دخل إحدى المدن الساحلية في مصر، ثم التفت إلى عقبه وقال:

هات الكتاب، فدفعت إليه الكتاب، وكان عمر بن الخطاب قد كتب فيه أنك إذا لم تدخل مصر فعليك بالعودة فوراً، فقال عمرو بن العاص لجنوده: هل أن هذا المكان هو مصر أو خارج مصر فقالوا: لقد دخلنا مصر، فقال: إن الخليفة قد أمر أننا إذا لم ندخل مصر فعلينا بالعودة، ولكننا الآن في مصر ويجب علينا المضي والتقدم، ولكن عمرو بن العاص واجه مشكله في فتح مصر وخاف من الهزيمه، فكتب إلى عمر بن الخطاب وطلب منه إرسال التعزيزات والمعونات، فجهز الخليفة الثاني جيشاً من اثني عشر ألف نفر وأمر عليهم عدد من رجال الإسلام الشجعان وأرسله لنصرته، وأخيراً فتحت مصر واعتنق المصريون الإسلام بشوق بالغ، وأنتجت مصر الكثير من علماء الإسلام في فنون العلم المختلفة وفتحت المدارس الإسلاميّة فيها واحده بعد الأخرى وازدهر العلم في هذا البلد.

ومن امتيازات مصر أن محبي أهل البيت عليهم السلام وعشاق المذهب العلوي كثيرون فيها، وحتى أن أهل السنّه في مصر يعشقون أهل البيت عليهم السلام ويزورون «رأس الحسين» و «المرقد المنسوب للحوراء زينب» فيها حيث أضحى مزاراً عاماً لسكنه تلك الديار.

ولولا تدخل السياسه، لأمكن القول إن مصر بإمكانها أن تكون وسيله جيده لإيجاد الوحده والاتحاد بين المذاهب الإسلاميّه، والشاهد على هذا المدعى الفتوى

المعروفه التي أصدرها «الشيخ شلتوت» عن أتباع فقه الإماميّه وأنّ هذا الفقه يقع في عرض مذاهب أهل السنّه الأربعة ويجوز العمل به.

وعلى أيّه حال فبسبب أهميّه هذا البلد الإسلامي، اختار الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أقوى شخصيّه من أنصاره وأصحابه وأعرفهم وأشجعهم، وهو مالك الأشر، لإداره أمور هذا البلد وكتب إليه العهد المعروف وهو مورد البحث الذي يشمل أدقّ التعاليم والتوصيات في مسأله إداره الحكومه والولايه وسلّمه إليه.

ص: ٢٩٧

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدِ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُولٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلِ وَجُورٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاهِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الدَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَأَمْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ. وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلْمَ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلْمَ، وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمِيدِ وَالْخَطَا، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصِيْفِحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصِيْفِحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وُلَاكَ! وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ.

الشرح والتفسير: احترام حقوق جميع المواطنين!

يتابع الإمام عليه السلام توصياته العميقة والشاملة التي ورد بعضها في القسم الأول من العهد، ويخاطب الإمام عليه السلام مالك الأشر مشيراً إلى عدّه نقاط خاصّه، بدايه يقول:

«ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدِ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُولٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلِ وَجُورٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاهِ

قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ».

ثم يضيف عليه السلام:

«وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ».

فى هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام يشير الإمام من باب المقدمه إلى وضع مصر (وقطعاً لا ينحصر بمصر) وأنه قد كانت قبلك حكومات عادله وجائره، الحكومه العادله من قبيل حكومه مصر فى عصر النبى يوسف عليه السلام، وأما حكومه الجور فتمثّل فى الكثير من الفراعنه منهم فرعون المعاصر للنبى موسى بن عمران عليه السلام.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى هذا الموضوع المهم، وهو أنّ معيار تقييم الحكومات من حيث العدل والجور يرتبط بأفكار عامه الناس وتصوّره عن حكومتهم، وهذا هو المتداول فى هذا العصر من أنّ رأى الشعب هو الميزان، رغم أنّ الغالب فى مقام العمل لا يؤخذ به تماماً، ولكن فى ذلك العصر وعندما تحدّث الإمام عليه السلام بهذا الكلام، قلّما كان شخص يعتقد بهذه العقيدة وكان الناس يتصورون أنّ الحكومه لا- يمكن أن تتحقق وتدوم إلاّ باليات الاستبداد، والاستبداد بدوره مقترن بالظلم والجور.

وقد جاء فى كلمات العلماء:

«أَلْسِنَةُ الْخَلْقِ أَقْلَامُ الْحَقِّ» أو

«أَلْسِنَةُ الرَّعِيَةِ أَقْلَامُ الْحَقِّ إِلَى الْمُلُوكِ» وهما بمعنى واحد، وهو أنّ كلام جمهور الناس يعتبر قلم الحقّ تعالى الذى يكتب توصياته ورسائله إلى الملوك والقاده، أو أنّ الله تعالى بهذه الوسيله يخاطبهم ويكاتبهم، وعلى أيّ حال فالغايه من ذلك أنّ الحكم الصادر من عامه الناس ومن الوعى الجمعى للأُمَّه هو المعيار الجيد لمعرفة قيمه الحكومات وصلاحياتها ومصداقيتها.

وطبعاً أحياناً تقوم الحكومات من خلال التبليغ الكاذب والتظاهر والرياء بتحريف وتشويش أفكار الناس، أو تقوم بعملية غسل الأدمغه، ففى مثل هذه الموارد يكون الرأى العام مريض ويفقد أثره المطلوب فى القضاوه.

ومهما يكن من أمر فمن الجدير بقاده المسلمين الحاليين أن يكتبوا بعباره:

«وَإِنَّمَا يُشِدُّ قَلْبًا عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُعْجِرُ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنٍ عِيدِهِ»، بماء الذهب ويضعونها نصب أعينهم ويقرأونها كل يوم ويحفظونها في قلوبهم، ومن أجل تحقيق هذا المضمون يجب عليهم إبعاد المتملقين والانتهازيين من حولهم ولا يكتفون بشهاده أنصارهم وأصحابهم فقط، بل يعرفون صلاحيتهم ومصداقيتهم من خلال الإتصال المباشر مع الناس عامه.

وجاء في كتب التاريخ أن بعض القاده القدماء كان راغباً في إقامة العدله في حكمه فأحياناً كان يلبس ملابس أخرى ويخرج متكرراً ويطوف في المناطق المختلفه في المدينه وخاصه في المناطق المحرومه، ويدرس الأمور والأوضاع عن كثب بدون استخدام الوسطاء.

ثم يصدر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من عهده ست توصيات مهمه لمالك الأشر ويقول:

«فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ».

ويقول القرآن الكريم: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا» (١).

وفي آيه أخرى يقول: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» (٢).

وفي تفسير آخر أن العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ويعمل على ترسيخ العقائد السليمه في واقع الإنسان وقلبه.

ونقرأ في سورة العصر: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» (٣).

وفي التوجيه الثاني والثالثه يقول الإمام عليه السلام

«فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشَحِّحْ (٤) نَفْسَكَ عَمَّا لَا

ص: ٣٠١

١- (١) سورة الكهف، الآية ١١٠.

٢- (٢) سورة فاطر، الآية ١٠.

٣- (٣) سورة العصر، الآيتان ٣ و ٤.

٤- (٤). «شَحِّحْ» في الأصل بمعنى البخل المقترن بالحرص، بحيث يصير عادة للإنسان، وهاتان الصفتان من الرذائل الأخلاقية المهمه، وذكر بعض مفسرى القرآن أن «شَحِّحْ» أشد من البخل، والاستفاده من هذه المفرده من كلام الإمام عليه السلام إشاره إلى الالتزام بشده على اجتنابك للحرام وحفظ نفسك من هذه الرذيله كما يمنع البخل أمواله وثروته من بدلها للناس.

يَجَلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشَّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ».

إنَّ ضبط الأهواء النفسانيَّة وكبح جماحها، والذي يُؤكِّد عليه الإمام عليه السلام، هو أن يستطيع الإنسان عند فوران الشهوة وثوره الغريزة أن يضبطها ويجعلها تحت إرادته، وبالعكس ذلك إذا سيطر هوى النفس على فكر الإنسان وعقله وقواه وملكاته الأخرى فإنَّه سيقود صاحبه إلى وادي الهلكة والخسران.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وخصائدهم» (١).

وجاء في حديث آخر في «غرر الحكم» عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«أملكوا أنفسكم بدوام جهادها» (٢).

فالشح بالنفس في مقابل المحرمات لا يعنى سوى أن يتصرف الإنسان كالبخيل الذى لا يجد فى نفسه رغبة فى إنفاق الدرهم والدينار من أمواله على الآخرين، فمثل هذا الإنسان يقف فى مقابل المحرمات كالبخيل فلا يعطى من نفسه شيئاً يؤدى به إلى خسرانه دينه وإيمانه ويبعده عن طريق الإنصاف والصلاح، سواءً فى الأمور التى يجد فى نفسه ميلاً إليها أم فى الأمور التى لا يشتهيها.

ثمَّ يشير الإمام عليه السلام فى التوصية الرابعة إلى مسأله مهمه جداً تعكس عظمه القوانين الإسلاميه ويطرح أمراً لم يكن له وجود فى ذلك العصر فى المجتمعات البشريه، ويقول:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ».

ومعلوم أنَّ «أشعر» من ماده «شعار» وشعار فى الأصل يطلق على الملابس التحتانيَّة للإنسان التى تلتصق مباشرة ببدنه، واختيار الإمام عليه السلام لهذا التعبير يشير إلى أنَّ قلبك يجب أن يلتصق بالرحمة والمحبة واللفظ بالنسبة للرعية.

ص: ٣٠٢

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٣٥، ح ١.

٢- (٢) غرر الحكم، ح ٤٨٩٨.

ولعلَّ الفرق بين الرحمة والمحبة واللطف، أنَّ الرحمة تمثِّل المرتبة الأولى من الصداقه وحسن الخلق، والمحبة في مرتبه أعلى منها، واللطف يمثِّل آخر مرتبه من التعاطف مع الآخرين، وربما يكون التفاوت في هذه المراتب بالنسبه لمواقع أفراد المجتمع والرعيه، فبعضهم يستحق الرحمة، والبعض الآخر فمن هو أنفع للناس فإنه جدير بالمحبة، والأشخاص الذين يخدمون الناس ويسعون في إيصال الخير أكثر فإنهم جديرون باللطف.

وقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا لِرَجُلٍ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ وَحُسْنُ الْوَلَايَةِ عَلَيَّ مَنْ يَلِي حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ كَالْوَالِدِ الرَّحِيمِ»^(١).

ويتحدَّث الإمام عليه السلام في التوصيه السادسة من موقع التأكيد على ما مرَّ في التوصيه الرابعه ويقول:

«وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا»^(٢) تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ:

إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ».

ولا شك ولا ريب في أنَّ أركان الحكومه الصحيحه والمقتدره والعادله هي التي تمتد سيطرتها على قلوب الناس وعواطفهم لا على أساس القوّه والسيف، فالولاه الذين يحكمون على قلوب الناس ويملكون عواطفهم فإنَّ المجتمع يعيش الأمن والأمان، أمّا من كان يحكم باليات القوّه والقهر فإنهم يعيشون هاجس الخطر دائماً.

ومن أجل تشويق مالِك الأشر على أمر الحكومه على القلوب والعواطف يأمر الإمام عليه السلام بالتعامل مع الرعيه بلغه الرحمة والمحبة واللطف، ثمَّ يبيِّن الإمام عليه السلام النقطه المقابله لذلك، وهي الحكومه التي تقوم على أساس البطش والقوّه ويكون الحاكم فيها كالحيوان المفترس يأكل حقوق الرعيه ويحسبها غنيمه له، ثمَّ يختار الإمام

ص: ٣٠٣

١- (١) الكافي، ج ١، ص ٤٠٧، ح ٨.

٢- (٢). «ضارياً» تعني المتوحش، من ماده «ضرو» على وزن «ضرب» وفي الأصل بمعنى الهجوم الشديد على شخص أو شيء، ومن هذه الجبهه اطلقت هذه الكلمه على هجوم الأغنام على الزرع أيضاً.

أفضل دليل على هذه التوصيات، وهو أنّ الرعيّة في الحكومه الإسلاميه ليس خارجه عن اثنين: فالغالبية مسلمون، ونعلم أنّ الإسلام يقرر أنّ المسلم أخو المسلم، أو أقلّيه من غير المسلمين الذين يعيشون مع المسلمين حياه سلميه، وهم بشر ويتصفون بالإنسانيّه، والإنسان يجب أن يتعامل مع الإنسان الآخر بأليه المحبّه والموادّه.

وهذا الكلام في الحقيقه يشطب بخط البطلان على التبليغات المسمومه للأعداء الذين يقولون: إنّ المسلمين لا يعترفون بحق الحياه لغير المسلمين ويعتقدون أنّ جميع الأفراد من غير المسلمين يجب أن يقتلوا أو يسلموا كرهاً، أجل فإنّ كلام الإمام عليه السلام المذكور أعلاه يقرر أنّ جميع أفراد البشر وأتباع الأديان والمذاهب الأخرى بإمكانهم أن يعيشوا مع المسلمين حياه سلميه وطيبه ويتمتعون في داخل البلاد الإسلاميه في ظلّ قوانين الإسلام بكافه حقوقهم وتكون نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وحيثياتهم محفوظه، خلافاً لما نراه في عالمنا المعاصر، فحتى الاختلاف في لون الجلد في بعض الدول التي تدعى التقدم والحضاره كأمريكا يكون سبباً للتمييز العنصري، وخلافاً لما يتبحون به في إعلاناتهم السياسيّه فإنّ البيض هناك يكرهون السود غالباً، والمراكز الاجتماعيه للبيض منفصله عن مراكز السود وهم غير مستعدين للتعاون في الكثير من المسائل الاجتماعيه.

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام حقيقه تعتبر من أهمّ تعاليم وتوصيات الإداره الناجحه ويقول:

«يَفْرُطُ (١) مِنْهُمْ الزَّلُّ (٢)، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلْلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا، فَأَعْطِيَهُمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصِفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ».

وبديهى أنّ كلّ إنسان غير معصوم من الخطأ والزلل (سوى المعصومين عليهم السلام) وأنّ

ص: ٣٠٤

١- (١). «يفرط» من ماده «فرط» على وزن «شرط» بمعنى العجله والتسرع في أداء العمل. وهذه المفرده تستخدم في مورد أن يتحرك الشخص للتسابق في عمل معين.

٢- (٢) «زلل» و «زله» على وزن «غله» بمعنى الخطأ والزيغ.

الكبير والصغير، والعالم والجاهل كل واحد منهم يتلى بما يتناسب مع حاله بالأخطاء، ولا أحد بإمكانه أن يدعى أنه برىء من الخطأ والزيغ، بل ورد في حالات بعض الأنبياء الإلهيين أنهم كانوا يرتكبوا أحياناً ترك الأولى، ورغم أنه ليس بذنب ومعصية، ولكنه غير لائق بمقامهم.

وهكذا أحياناً يفقد الإنسان حالته العاديه بسبب بعض الآلام والمتاعب الجسميه والروحيه، وفقدان الأعزّه، الفشل في العمل وأمثال ذلك، ففي مثل هذه الحاله يسلك عاده في دروب الزيغ والخطأ.

وبما أن الإمام عليه السلام يريد لمالك الأشر الولايه والحكومه على جمهور كبير من الناس، يعنى أهالى مصر، فإنه يأمره بالعمو عن الزلل والخطأ (في الموارد الميسوره والممكنه)، ومن أجل إثاره الباعث في نفسه على هذا العمل وتقويته في نفسه يذكره الإمام بأخطائه وزلاته في مقابل البارى تعالى، ويقول: ألا ترغب في أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ويتجاوز عن أخطائك وسيئاتك؟ إذن فعليك بالعمو والصفح عن خطايا الرعيه ولا- تشدد عليهم، وطبعاً هذا في الموارد التي لا- يكون فيها العفو والصفح موجباً للاخلال في النظم وتضييع حقوق المظلومين.

ونقرأ في تاريخ صدر الإسلام عندما شاعت قضيه الإفك بين المسلمين بواسطه المنافقين وأتهم جماعه منهم زوجه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالانحراف عن جاده الشرف والعفّه، فإن جماعه من المؤمنين، سلكوا، عمداً أو سهواً، في مسير إشاعه هذه التهمه، فنزلت الآيات القرآنيه ونهت بشده عن هذا السلوك الشائن، بحيث إن بعض المسلمين عزموا على قطع رابطتهم مع هؤلاء الأشخاص من مثيرى الفتنة ومروجى الإشاعه، ويحرمونهم من معوناتهم الماديه، فنزلت الآيه الشريفه: «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفُوا وَلْيُغْفُوا فَمَا أَلَّ- تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١).

ص: ٣٠٥

والفرق بين العفو الصفح، أنّ العفو يعنى صرف النظر عن العقاب على الخطأ والزلل، وأمّا الصفح فى مثل هذه الموارد فهو إزاله العقوبه على الخطأ من ذهنه ووضعها فى زاويه النسيان.

وجمله:

«يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ..» لا تعنى أنه يجب على الوالى أن يأخذ بيد المخطئين ويهديهم سواء السبيل كما ذكر ذلك بعض الشراح، بل بمعنى أنّ الأعمال الخاطئه تجرى على أيديهم.

ثم يتحرك الإمام على مستوى التوضيح والتأكيد أكثر ويقول:

«فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَّلَّاكَ! وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ».

فالإمام عليه السلام فى هذه العبارة يؤكد على هذه الحقيقه، وهى أنّ كلّ شخص يحكم على جماعه فهو بدوره يقع تحت حكمه شخص آخر، فإذا كنت حاكماً على مصر، فعليك بالانتباه بأننى حاكم عليك ومراقب لأعمالك، فإذا كنت حاكماً عليك فينبغى أن أنتبه إلى أنّ الله تعالى حاكم علينا، ومعلوم أنّ الالتفات إلى هذا الأمر يؤدى بالإنسان أن يتعامل مع الناس بآليات العفو والصفح والمحبه ما أمكنه ذلك لكى يتوقع بالتالى عفو الحاكم عنه وأعلى من ذلك يتوقع العفو الإلهى عنه.

ص: ٣٠٦

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدَّ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلَا تَتَدَمَّنْ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبِهِ، وَلَا تُشْرِعَنَّ إِلَى بَادِرِهِ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنُذُوحَهُ، وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ فَاطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ. وَإِذَا أَخِيدَتْ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَوْ مَخِيلَةٍ، فَانْظُرْ إِلَى عَظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكْفُفُ عَنْكَ مِنْ غَرَبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ! إِيَّاكَ وَمَسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبْرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهَيِّنُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

الشرح والتفسير: لا تكن مغروراً أبداً!

يواصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كتابه لمالك الأشتر ويوصيه بسبع توصيات مهمّة أخرى.

بدايه يقول::

«وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدَّ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ».

المراد من الحرب مع الله، كما ذكر الكثير من شراح نهج البلاغه، هو الظلم والجور على عباد الله وتضييع حقوقهم ولا يشمل كل معصيه وإثم، وصحيح أنّ جميع الذنوب قبيحه وذميمة، ولكن التعبير بالحرب مع الله يعني أكبر من ذلك.

والشاهد لهذا المعنى ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عن

«لَقَدْ أَسِيرَى رَبِّي بِي فَأَوْحَى إِلَيَّ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ مَا أَوْحَى وَشَافَهَنِي إِلَى أَنْ قَالَ (١) لِي يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَذَلَّ لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَرَّصَدَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَنْ حَارَبَنِي حَارَبْتَهُ» (٢).

ويستدل الإمام عليه السلام لعدم الحرب مع الله بأمرين: أحدهما، الحاجه إلى عفوهِ ورحمته، والآخر، اجتناب عقوبته وعذابه.

وفي التوصيه الثانيه والثالثه يقول عليه السلام:

«وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ (٣) بِعُقُوبِهِ».

وهذا الكلام إشاره إلى أنك يجب أن تلتزم جانب العفو ما أمكنك ذلك وقلل من موارد العقوبه، لأن أثر العقوبه إذا كان نافعاً لمدّه قصيره فإن أثر العفو يمتد لمدّه طويله.

وطبعاً فإن هذا الحكم يصدق على غالبية الناس، ولكن لدى بعض الناس - وهم أقلية تكون نتيجة العفو والصفح عكسيه ويتحمل الجناه ذلك على محمل الضعف والخوف من قبل الوالي، فلا بدّ من استخدام الشده والقوه مع هؤلاء.

وفي التوصيه الرابعه يقول عليه السلام:

«وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَيَّ بِأَدْرِهِ (٤) وَجَدْتَ مِنْهَا مَنُودِحَةً (٥)».

ومعلوم أنّ الإنسان عندما يملكه الغضب فإنه يفقد إعتداله الفكري، وقد جرّبنا مراراً بأنّ كلّ قرار نتخذه في ذلك الوقت سيثبت خطأه بعد ذلك، وحتى أعقل الناس

ص: ٣٠٨

١- (١). هذا التعبير يساوق ما ورد في القرآن الكريم: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» (سوره الشورى، الآية ٥١).

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٣٥٣، ح ١٠.

٣- (٣). «تبجحن» من ماده «بجح» على وزن «وجب» بمعنى الفرخ والافتخار.

٤- (٤). «بادره» الأفعال والحركات المتسرعه التي تصدر من الإنسان في حالات الغضب والحده، من ماده «بدور» على وزن «صدور» وتعنى السرعه في العمل.

٥- (٥) «مندوحه» بمعنى الوسع وطريق الحل من ماده «ندح» على وزن «مدح» وهذه المفرده ربّما تأتي اسم مفعول وتعنى المكان الذي تمت توسعته، أو المكان الواسع.

ربما يتحول في صورة الغضب والحدّه إلى أجهل الناس، والمعروف بين العامّة من الناس أنهم يقولون: عندما أغضب فإنّ الدم يغطى على عيني ويحول بيني وبين رؤيه الأشياء فأرتكب العمل الفلاني، وهذا في الحقيقة إشاره إلى هذه الحالة.

ولذلك ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«الغَضْبُ يُرْدِي صَاحِبَهُ وَيُبْدِي مَعَابِيَهُ» (١).

وجاء في حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً:

«بُسِّ الْقَرِينُ الْغَضْبُ يُبْدِي الْمَعَابِبَ وَيُذْنِي الشَّرَّ وَيُبَاعِدُ الْخَيْرَ» (٢).

وهذه الحقيقة تتضح أكثر عندما يأتي بعض الأشخاص من طرف واحد ويتحدّثون للوالى بكلام معين، فلو عزم على أمر في هذا الحال فسوف يندم، فيجب التريث قليلاً وسماع حجّه الطرف المقابل، فربما يختلف الحال بعد هذا التحقيق.

ومن هذا المنطلق ينبغي العمل وفقاً للمثل المعروف: «عند الغضب لا عقوبه ولا أمر ولا تصميم».

في التوصيه الخامسة ينهاه الإمام عليه السلام بشدّه عن حاله الغرور والفخر ويقول:

«وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ فَأَطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِذْغَالٌ (٣) فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ (٤) لِلدِّينِ وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ (٥)».

ولا شك أنّ أحد الآفات الخطيره لمسأله الحكومه والولايه، الغرور والكبر والاستبداد، وكما قال الإمام عليه السلام أنّ ذلك ترتب عليه ثلاثه أمور خطيره، الأوّل: أن

ص: ٣٠٩

١- (١) غرر الحكم، ح ٦٨٩٢.

٢- (٢) المصدر السابق، ح ٦٨٩٣.

٣- (٣). «إذغال» من ماده «دغل» على وزن «عقل» بمعنى الدخول في مكان بشكل خفي، وبما أنّ الفاسدين و المفسدين يدخلون بهذه الصوره عاده، فإنّ هذه الكلمه تستبطن غالباً معنى الفساد، و «دغل» على وزن «قمر» بمعنى الفساد، وأحياناً تأتي بمعنى الشخص المفسد، وفي العبارة أعلاه جاءت بمعنى الفساد.

٤- (٤) «منهكه» من ماده «نهك» على وزن «مدح» بمعنى المتعب والمضعف، وتطلق كلمه منهكه على الضعف والعجز أو على أسباب الضعف والعجز.

٥- (٥) «غير» بمعنى الحوادث المغيره للحال جمع «غيره» على وزن «غيبه».

يفسد فكر الإنسان وتنقلب لديه الحقائق ويتخذ قرارات عجوله وغير عادله ومجانبه للصواب، والآخر، أنّ الإنسان يتورط بأنواع المعاصي والذنوب والظلم ممّا يوهن إيمانه ودينه، والثالث، أنّ هذه الحالة تتسبب في إيجاد متغيرات كثيره فيما يتصل بعلاقه الحكومه مع الناس والكثير من الانتفاضات والثورات على إمتداد التاريخ البشرى تنبع من هذه القضيه.

وبخلاف ذلك إذا كان الوالى متواضعاً وأخرج من ذهنه ربح الغرور والتكبر، فسوف يعتدل فكره ويتصرف بحكمه وكذلك لا يلوث نفسه بالذنوب ولا- يضعف إيمانه، ومن جهه أخرى يحفظ علاقته الحميمه مع الناس، وهذه العلاقه هى الأصل والأساس للحكومه الصالحه حيث تمنح الحكومه القدره والهيمنه.

ويقول الإمام عليه السلام فى كلماته القصار فى «غررالحكم» عبارته مثيره فى مصير المغرورين وعاقبتهم الوخيمه:

«طُوبَى لِمَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ قَاتِلَاتُ الْغُرُورِ»^(١).

وفى مورد آخر يقول:

«سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ أَبْعَدُ إِفَاقَهُ مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ»^(٢).

أجل، فإنّ سكر الشراب ربّما يزول بعد يوم أو ليله، ولكن سكر الغرور ربّما يستمر إلى خمسين عاماً.

ويشير الإمام عليه السلام فى آخر الخطبه التاليه من نهج البلاغه إلى جماعه من المنافقين والانتهازيين الذين توردوا عليه ويقول:

«زَرَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ وَحَصَدُوا الثُّبُورَ».

وبما أنّ عمل الأطباء الواعين لا يقتصر على تشخيص وعلاج الألم والمرض، بل يمتد إلى إراءه طرق العلاج أيضاً، ويعدّ ذلك من الأركان الأصليه لبرنامجهم الطبى، والإمام عليه السلام وهو الطبيب الإلهى، فى هذه الرساله بعد أن يذكر آفات الغرور، يشير إلى طريق علاجها ويقول:

«وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَهُ»^(٣) أَوْ

ص: ٣١٠

١- (١) غرر الحكم، ح ٧١٧٥.

٢- (٢) المصدر السابق، ح ٥٧٥٠.

٣- (٣) . «أبّهه» بمعنى العظمه، وأحياناً تأتي بمعنى الكبر والغرور، وفى الجمله أعلاه وردت بهذا المعنى.

مَخِيلَةً (١) ، فَانظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِكَ اللَّهُ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ (٢) إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ (٣) وَيَكْفُفُ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ (٤) وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ (٥) عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ».

فالإمام عليه السلام في هذه العبارات البليغة والعميقة المعنى، يقرر أنّ النظر إلى عظمة ملك الله تعالى وقدرته الواسعة من شأنه أن يخلف ثلاثة آثار إيجابية للمعترين بقدرتهم:

الأول: أنه ينزلهم عن مركب الغرور.

والآخر: يخفف من شدّة عملهم.

والثالث: يعيد إليهم عقلهم الذي أسدل عليه الغرور ستار الغفلة.

أجل، فإنّ أقوى الأفراد يجد نفسه في مقابل الحوادث والمظاهر الطبيعيه التي تحدث بأمر الله كالريشه في مهب الريح، وقد سمعنا كثيراً أنّ السلاطين المستبدين قد أخذهم الأجل بين عشيه وضحاها بسكته قلبيه مختصره، ونعلم أنّ هذه العارضه تنشأ من إنسداد بعض الشعيرات في القلب ويترتب عليه جلطه دمويه، أو يموت بسبب السرطان، وهو ليس سوى طغيان خليه من خلايا البدن الضعيفه أو بواسطه المكروب أو فيروس الذي لا يرى بالعين المجرده، وأحياناً تحدث زلله وتهدم جميع قصورهم، أو يهب اعصار ليحطم جميع ما لديهم، أو يأتي سيل عظيم ويأخذ معه كلّ ما لديهم، وهكذا، هذه كلّها إشارات صغيره على قدره الله المطلقه، فلو أنّ الإنسان تفكر في هذه الأمور، فإنّه سيكون متواضعاً وبعيداً عن حالات الغرور في

ص: ٣١١

١- (١) . «مخيله» بمعنى العُجب والأنانيه.

٢- (٢) . «يطامن» من ماده «طمأنه» ويعنى إمتصاص الغيظ وتهدئت النفس وانزال الشىء إلى الأسفل.

٣- (٣) «طماح» بمعنى التمرد.

٤- (٤) «غرب» بمعنى الشدّه والحدّه.

٥- (٥) «عزب» بمعنى الغائب.

أى مقام ومنصب كان.

إنَّ التاريخ لا يذكر حكمه وسلطه أعلى من سلطه النبي سليمان عليه السلام، فالقرآن يتحدث عن سليمان عندما حان أجله فلم يمهل الموت حتى يجلس على الأرض بل أخذ روحه وهو واقف متكئ على عصاه وودع جميع ما لديه من إمكانات عظيمه فى لحظه واحده ولم يعلم بموته أحد من الناس إلّا بعد أن أكلت الأرضه عصاه فاختل تعادله وسقط على الأرض.

ثمَّ إنَّ الإمام عليه السلام، وفى التوصيه السابعه، يتحدّث من موقع التأكيد على الأمور المذكوره آنفاً لغرض إزاحه حاله الغرور والتكبر عن الولاه والأمرء من خلال التهديد بالعقوبه الإلهيه ويقول:

«إِيَّاكَ وَمُسَامَاهَ (١) اللَّهُ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشْبَهُ بِهِ فِي جَبْرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهَيِّنُ كُلَّ مُخْتَالٍ (٢)».

وفى الحقيقه فإنَّ الأشخاص الذين ملكهم الغرور والتكبر يدعون عملاً- أنهم فى سياق واحد مع الله تعالى، فى حين أنهم لا يمثّلون سوى ذرات تافهه فى مقابل بحر العظمه الإلهيه، والعقوبه المترتبه على مثل هذا الغرور والشموخ العبثى هو أنّ الله تعالى سيدلهم ويهينهم، وإذا التفت المتكبرون والمغرورون إلى نهايه عملهم فسوف ينزلون من مركب الغرور والكبر.

وقد وردت أحاديث شريفه فى هذا المجال عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر الأئمّه المعصومين عليهم السلام.

فنقرأ فى حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال عندما سئل عن:

«أَذْنَى الْإِلْحَادِ». فقال عليه السلام:

«إِنَّ الْكِبْرَ أَذْنَاهُ» (٣).

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«الْكِبْرُ رِذَاءُ اللَّهِ فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ أَكْبَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ» (٤).

ص: ٣١٢

١- (١). «مساماه» بمعنى طلب العلو والمقابله فى المثل.

٢- (٢) «مختال» يعنى المتكبر والمغرور من ماده «خَيْلَاء» على وزن «جهلاء» وتعنى التخيلاط التى تدعو الإنسان لكى يتصور نفسه كبيراً وعظيماً.

٣- (٣) الكافى، ج ٢، ص ٣٠٩، ح ١.

٤- (٤) المصدر السابق، ح ٥.

ومعلوم أنّ جميع هذه الأمور بسبب الآثار والتداعيات السلبيّة الفرديّة والاجتماعيّة التي تستولى على الشخص المغرور والمتكبر، وقد ورد روايات متعدده أنّ الكبر يتسبب في تجاهل الإنسان للحق ويواجه أهل الحقّ من موقع التوبيخ والذم ويسحق حقوق الناس (١).

ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«الْكِبْرُ أَنْ تَتْرُكَ الْحَقَّ وَتَتَجَاوَزَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَتَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ وَلَا تَرَى أَنَّ أَحَدًا عَرِضُهُ كَعَرِضِكَ وَلَا دَمُهُ كَدَمِكَ» (٢).

ص: ٣١٣

١- (١) انظر: الكافي، ج ٢، باب الكبر.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٩٠، ح ٣.

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَذْخَصَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمِهِ اللَّهُ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامِهِ عَلَى ظُلْمِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَّهِدِينَ وَهُيُوسٌ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

الشرح والتفسير: إحذر من لعنة المظلومين!

في هذا المقطع من رساله الإمام عليه السلام لمالك الأشرى يوصيه الإمام عليه السلام بعبارات بليغه ومحكمه بإقامه العدالة ورفع كل أشكال التمييز:

«أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَى (١) مِنْ رَعِيَّتِكَ».

ومعلوم أن المراد من الانصاف بالنسبة لله تعالى، إطاعه وأوامره ونواهيه، والإنصاف بالنسبة للناس ترك كل أشكال التمييز والميل لبعض الأفراد دون البعض، كما هو الحال في سيره غاليه المسؤولين والقاده في الماضي والحاضر، فعندما يصلون إلى مسند القدره والسلطه يمنحون أقاربهم وأصدقاءهم امتيازات خاصه دون سائر الناس، وهذا التمييز يتسبب في أنواع من الخلل والإرباك في الحكومات.

وينبغي الالتفات إلى أن «الانصاف» من ماده «نصف» الذي يطلق على نصف كل شيء، وبما أن العدالة تؤدي إلى قيام الإنسان بتقسيم حقوقه الاجتماعيه بينه وبين

الآخرين بالعدالة، فمن هذه الجهة يطلق عليه «انصاف» وبعبارة أخرى أنّ الانصاف هو أن يحبّ الإنسان للآخرين ما يحبّ لنفسه وأقربائه وأصدقائه، ويكره للآخرين ما يكره لنفسه والأشخاص المتعلقين به.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«سَيِّدُ الْأَعْمَالِ ثَلَاثَةٌ: إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى لَا تَرْضَى بِشَيْءٍ إِلَّا رَضِيتَ لَهُمْ مِثْلَهُ» (١).

وأما الانصاف بالنسبة لله تعالى فهو أن يقسم الإنسان المواهب الإلهية بشكل عادل، فنصفها ينفقها في سبيل الله ويبقى النصف الآخر لنفسه، وهكذا يقسم وقته وفكره وإمكاناته الأخرى بهذا المنوال حتى يراعى على الأقل الانصاف وإن لم يصل إلى حدّ الإيثار.

ومن الطبيعي أنّ هذا العمل ليس بالهين واليسير، لأنّ الإنسان يميل دوماً نحو ترجيح كفه نفسه وأقربائه على كفه الآخرين، ومن هنا ورد في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه:

«أَلَا اخْبُرُكَ بِأَشَدِّ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ»، قلت:

بلى. قال:

«إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ وَمَوَاسَاتِكَ أَخَاكَ وَذِكْرُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ...» (٢).

والفرق بين الانصاف والمواساة، هو أنّ الانصاف يكون في مورد الحقوق، والمواساة تقع في جميع مواهب الحياه ونعم الله تعالى على الإنسان.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه ويذكر دليلاً على قوله، وهذا الدليل مركب، في الحقيقة، من صغرى وكبرى ونتيجته ويقول:

«فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصِيْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصِمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ (٣) حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ (٤) أَوْ يَتُوبَ».

ص: ٣١٦

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ١٤٤، ح ٣.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ١٤٥، ح ٨.

٣- (٣) . «ادحض» من ماده «دحض» على وزن «محض» وتعنى بطلان الشيء، وعندما تأتي من باب إفعال تعنى إظهار البطلان، وإبطال الحجّة في مورد بمعنى عدم قبول العذر.

٤- (٤) «ينزع» من ماده «نزع» على وزن «نظم» يعنى قلع وفصل الشيء وتركه، وينبغى الالتفات إلى أنّ التناسب في الجملة أعلاه يقتضى أن تكون «أو» بمعنى الواو، وجاء في بعض نسخ نهج البلاغه واو بدل «أو».

ومن الواضح أنّ ترك الانصاف وممارسه أى شكل من أشكال التمييز يعتبر من الظلم الفاحش والجلى، ونعلم أنّ الله تعالى عادل وحكيم وعدوّ للظالمين ونصير للمظلومين، والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على هذا المعنى، وهو أنّ الله تعالى إذا خاصم أى شخص فإنّه لا يقبل منه أى عذر وحجّه، والتعبير

«أَدْخَصَ حُجَّتَهُ» إشاره إلى هذا المعنى، وربّما يملك الشخص المذنب بعض الأعذار غير الموجهه فى ذنوب أخرى ويشمله لطف الله تعالى وتكون أعذاره مقبولة بغفاريه البارى تعالى، ولكن بالنسبه للظلم والجور لا يقبل منه أى عذر وذريعه، والطريق الوحيد للنجاه من خصومه الله تعالى وعقوبته أن يرفع الإنسان يده من الظلم ويتوب من أعماله هذه ويعيد حقوق الناس إليهم ويجبر ما فات من أعماله.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى سياق كلامه هذا يبيّن العقوبه الشديد للظالمين وأنّها لا تشبهها أىه عقوبه أخرى:

«وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامِهِ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ (١) ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ».

وهذا الكلام يعدّ تحذيراً شديداً للظالمين ليعلموا أنّ عقوبتهم لا تنحصر بيوم القيامه، بل سيواجهون جزاء أعمالهم فى هذا العالم أيضاً، وليس فقط فى مدّه طويله بل فى مدّه قصيره، أجل فإنّ ما يسرع فى تغيير النعم الإلهيه وينزل العقوبه والعذاب الإلهى هو الإقامه والاستمرار على الظلم والإصرار على العدوان وسحق الحقوق.

ونقرأ فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلِمُ بِمَظْلَمَةٍ إِلَّا أَخَذَهُ اللَّهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ...» (٢).

وجاء فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى غرر الحكم:

«مَنْ عَمِلَ بِالْجَوْرِ عَجَّلَ اللَّهُ هُلُكَهُ» (٣).

ص: ٣١٧

١- (١) «المضطهدين» جمع «مضطهد» بمعنى المظلوم، من ماده «ضهد» على وزن «مهد» وتعنى الظلم.

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٣٣٢، ح ١٢.

٣- (٣) غرر الحكم، ح ٨٠٤٧.

وكذلك ورد في روايه عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى نَبِيٍِّّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ فِي مَمْلَكَةِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَّارِينَ أَنْ ائْتِ هَذَا الْجَبَّارَ فَقُلْ لَهُ: إِنِّي لَمْ أَسْتَعْمَلْكَ عَلَى سَفْكِ الدَّمَاءِ وَاتِّخَاذِ الْأَمْوَالِ وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلْتُكَ لِتُكْفَ عَنِّي أَصْوَاتَ الْمَظْلُومِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَدْعُ ظُلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا» (١).

يقول ابن عباس، الذي اقتبس الكثير من علومه من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام: «علمت من القرآن الكريم أن الظلم والجور يخرب البيوت، ثم أشار إلى هذه الآية: «فَتِلْكَ تُبَيِّتُهُمْ حَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا...» (٢) (٣).

وجاء في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَسْرَعُ الْخَيْرِ ثَوَاباً الثُّبْرُ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَأَسْرَعُ الشَّرِّ عُقُوبَةُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ» (٤).

ص: ٣١٨

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤.

٢- (٢) . سورة النمل، الآية ٥٢.

٣- (٣) التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٢ من سورة الكهف.

٤- (٤) سنن ابن ماجه، ج ٢، باب البغي، ح ٤٢١٢، ص ١٤٠٨.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعْمَمُهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سِيْخَطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سِيْخَطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَوْوَنَهُ فِي الرَّخَاءِ، وَأَقْلَّ مَعُونَهُ لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنصَافِ، وَأَسْأَلَ بِاللِّحَافِ، وَأَقْلَّ شُكْرًا عِنْدَ الإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنعِ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَاتِ الدَّهْرِ مِنَ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْإِعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ، وَمَيْلَكَ مَعَهُمْ.

الشرح والتفسير: كن مع جمهور الناس!

يلفت الإمام عليه السلام النظر في هذا المقطع من الرسالة إلى نقطه مهمه ومؤثره في حياه الإنسان وبخاصه المجتمعات البشريه المعاصره وكيفيه عمل الحكومات، ويقول:

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا (١) فِي الْحَقِّ، وَأَعْمَمُهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ».

وبديهى أن القوانين والمقررات التى تملك هذه الخصوصيات الثلاث تكون أشمل من حيث الحقوق، وكذلك أشمل من حيث رعايه العدل، وأفضل فى كسب رضا عامه الناس، فإنها ستقع مورد رضا الله تعالى والخلق، وعندما يكون الله تعالى

ص: ٣١٩

١- (١). «أوسط» من ماده «وسط» بمعنى فى هذا المورد الأفضل من الأشياء، لأن الشىء الذى يقع فى الحد الوسط الاعتدال هو الأفضل والأكمل، يقول القرآن الكريم فى سوره القلم الآيه ٢٨: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ»، أى أعقلهم، وجاء فى لسان العرب: «أوسط الشىء أفضل الشىء وخياره».

راضياً عن حكمه معينه وخلق الله راضون كذلك، فإن ذلك يضمن بقائها ودوامها.

وهذا الكلام يعنى أنّ المهم هو تحقيق رضا الغالبية الساحقة من الناس لا الأقلية من أصحاب الثروه من الانتهازيين الذين يعيشون فى بلاط الحاكم أو السلطان.

ويقول الإمام عليه السلام فى سياق كلامه:

«فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ (١) بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ».

ما ورد من الجمل القصيره أعلاه يمثّل فى الواقع البنيه التحتائيه للحكومات الثابته والمستقره، فأفراد المجتمع ينقسمون عادة إلى قسمين: فئه هى الأقلية من الأثرياء الذين يتمسكون بأطراف القاده والزعماء ويبرزون لهم مظاهر الإخلاص والتضحيه بدافع التملق ويهتمون دائماً بمنافعهم الذاتيه ومصالحهم الشخصيه، وفى مقابل هناك الغالبية من الناس الذين تقع على أيديهم تحريك عجله الحياه فى المجتمع، هؤلاء يعملون ويتعبون أنفسهم أكثر من الآخريين ويحبون بلدهم ويتفانون فى خدمته أكثر من الطائفه الأولى، فلو أنّ الطائفه الأولى لم تكن راضيه عن الوالى والحاكم وكانت الطائفه الثانيه راضيه ومسروره، فلا تحدث مشكله أو إرباك فى فضاء المجتمع، لأنّ مشاكل المجتمع تحلّ عادة بيد جمهور الناس ولا تؤثر صرخات الأقلية فى تغيير مسار المجتمع، ولكن إذا رجّح الوالى رضا الطائفه الأولى وهم الأقلية على حساب غضب عامه الناس وسخطهم، فحينذاك تتعرض أركان الحكومه للاهتزاز والضعف.

وفيما لو استمر سخط العامه فسوف ينتهى بهم الأمر إلى الثوره والانتفاضه ضد الحكومه.

إنّ سيره نبى الإسلام صلى الله عليه وآله والإمام على عليه السلام تعدّ أفضل نموذجاً حياً لهذه المسأله، فقد تحركا دوماً فى خط مواساه المحرومين ومساعدته ودعم الطبقة المتوسطه من

ص: ٣٢٠

١- (١). «يُجْحِفُ» من «اجحاف» ومن ماده «جحف» على وزن «جهل» فى الأصل بمعنى نزل جلد الشىء، ثم استخدمت هذه الكلمه بمعنى الايقاع فى المشقّه وتخريب الشىء واعطابه.

أفراد المجتمع ولم يهتما بمخالفه الخواص الذين يرون منافعهم فى خطر.

وهذا هو الأمر الذى يطلق عليه فى هذا العصر بالديمقراطيه الشعبيه، أو الديمقراطيه الدينيه، ولكن ربّما يكتفى السياسيون أحياناً بالألفاظ والظاهر لا- بالحقيقه والواقع، فالديمقراطيه فى الحقيقه تعتبر مفهوماً قديماً ولكنهم أظهروه للناس بقوالب جديده من الألفاظ والكلمات.

ونرى فى هذه الأيام نوعاً من الأساليب الشيطانيه المشبوهه من قبل هذه الطائفه من الخواص الذين يتحركون، وبواسطه استخدام وسائل الاتصالات الجمعيه، لخداع الرأى العام وكما يقال: يقومون بغسل الأدمغه بحيث يتصور الناس أنّ مطالب الخواص هى ما يريدّه عامّه الناس، ولكن مع قليل من الدقه يمكن كشف هذا الزيف والخداع فى مقولاتهم.

وأحياناً يستخدمون اسلوباً آخر، وهو أن يفتحوا الباب على مصراعيه للملذات والأهواء والغرائز البدنيه ويعملون على إلهاء الناس بهذه الأمور لكى لا يعرف الناس حقيقه ما يجرى فى المجتمع والحكومّه، فلو أنّ الأشخاص العارفين بهذه الأمور والمخلصين للشعب يتحركون على مستوى تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم لثلا يسقطوا فى هذه المصيده، فسوف تنفتح عيون الناس على الحقيقه ويتحركون على مستوى الثوره ضد النظام الحاكم ويلقوا بهؤلاء الانتهازيين فى مزبله التاريخ.

وبما أنّ هذه المسأله تتمتع بأهميه كبيره فى الإسلام، فالإمام عليه السلام عليه السلام فى سياق كلامه يتعرض لشرح أكثر لهذا الموضوع ويبحث فى تفاصيل هذه المسأله ويذكر صفات تلك الطائفه من الخواص، وكذلك يذكر خصوصيات الطائفه الأخرى من عامّه الناس والعاملين فى المجتمع، وبدايه يتحدّث الإمام عن الصفات الذميه للخواص المغرورين ويذكر لهم سبع صفات:

يقول عليه السلام فى الصفه الأولى والثانيه:

«وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرِّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِيِّ مَوْؤَنَهُ فِي الرِّخَاءِ، وَأَقْلَبَ مَعُونَهُ لَهُ فِي الْبَلَاءِ».

فهؤلاء يتوقعون الكثير من الوالى ومطالباتهم لا تعدّ ولا تحصى ولا تمتلىء جيوبهم بسهولة، وعند بروز المشكلات والأزمات يسحبون أنفسهم ويتراجعون إلى الوراء ويقولون بأنّ حفظ البلد والتضحية فى سبيله تقع على عهدہ العامه من الناس، ويتصورون أنّهم طبقه ممتازه من الصفوه والنخبه الذين يتكفلون مهمه الإشراف وإبداء الرأى فقط.

وفى الصفه الثالثه يقول عليه السلام:

«وَأَكْرَهَ لِلْإِنصَافِ».

لأنهم يعتقدون بأنهم شريحه ممتازه ونخبه مفضله لا ينبغى أن يجعلوا فى عرض الآخرين فى أى برنامج ومشروع.

ويقول الإمام عليه السلام فى بيان الصفه الرابعه:

«وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ (١)».

لأنهم يرون أنفسهم دائمين ومتفضلين، أضف إلى ذلك أنّهم من المقربين للولاه والحكّام ويامكانهم أن يطرحوا مطالبهم مرات ومرات، بخلاف الجمهور من عامه الناس الذين يطرحون مطالبهم باصرار أقل بكثير، وأساساً لا مجال لهم عادة للوصول إلى الحكّام والمسؤولين.

وفى الصفه الخامسه والسادسه يقول عليه السلام:

«وَأَقَلَّ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ».

لأنهم لا يرون العطاء والبذل خدمه من قبل الحاكم تستحق الشكر بل إنّه أداء للدين، وفى مقابل الدين لا يستحق المدين شكراً ولا- ثناءً، فهم يتصورون غالباً أنّهم لولا نصرتهم للنظام وإشرافهم على أمر الحكومه، فإنّ هذه الحكومه لا يمكنها أن تستمر فى حياتها وتمارس دورها فى السيادة والهيمنه، ومن هذا المنطلق يرون لأنفسهم حقّ الحياه على الحكومه، فمهما اعطوا من المال والحقوق فهو قليل بحقهم.

ص: ٣٢٢

١- (١) «الحاف» من ماده «لحف» على وزن «حرف» فى الأصل تعنى تغطيه الشىء ووضع الستار عليه، ثم استخدمت للاصرار على شىء، وكأنّه يصبر عليه إلى درجه أنّه يغطى جميع وجود الطرف الآخر.

ومن هذا المنطلق أيضاً لو لم تتم الاستجابة لمطالبهم قلماً يقبلون العذر في هذا المنع، ويرون أن جميع الأعذار في هذا المجال غير مقبولة وغير مبرره وأحياناً يكون العذر أقيح من الذنب.

وفي الصفه السابعه والأخيره يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَاتٍ (١) الدَّهْرَ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ».

لأنهم عاشوا حياه الرفاهيه والنعمه وقلما واجهوا المشكلات والتحديات، فلم يشتد لهم عود الصبر والاستقامه، على عكس الجماهير الكادحه في المجتمع الذين تربوا في أجواء المشكلات والأزمات وبنوا ذواتهم في بوتقه المحن والابتلاءات فصاروا كال فولاد في القوه والمتانه.

والحقيقه أنه لا- يوجد وصف أفضل وأبلغ وأكثر شفافية لهؤلاء القله من الخواص المغرورين بامتيازاتهم والذين يعاملون الناس من موقع الاستعلاء والفوقيه، ونعلم جيداً أن جميع هذه الخصائص والصفات ناشئه من تصوراتهم الموهومه عن امتيازاتهم الذاتيه وحاجه الحكومه لهم وأفضليتهم على سائر طبقات المجتمع، وهذه الأوهام والخيالات الطوباويه، قادتهم إلى هذه المنزلقات والمتاهات.

أمياً خصائص الجماهير الكادحه في المجتمع الإسلامى، وحسب تعبير الإمام عليه السلام عامه الناس، فتتلخص في ثلاثه أمور: يقول عليه السلام:

«وَأَيْمًا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ (٢) الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغُوكَ (٣) لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

ما أبلغ هذه العبارات وما أعمق مدلولها، فلولا دفاع العامه من الناس فإن أصول الدين وفروعه ستطوى في عالم النسيان ويصيب الخلل والإرباك مفاصل المجتمع

ص: ٣٢٣

١- (١). «ملمات» من ماده «لم» على وزن «غم» تعنى تجميع الشىء، ثم استخدمت للحوادث الشديده والمؤلمه، وكان مثل هذه الحوادث تجميع فكر الإنسان وتلفت نظره إليها.

٢- (٢). «جماع» فى الأصل مصدر وفى مثل هذه الموارد تأتى بمعنى الوصف يعنى الجامع والمجمع.

٣- (٣) «صغو» تعنى الميل إلى الشىء. «صغو» بفتح الصاد وكسرها تأتى بمعنى واحد كما ذهب إليه جماعه من المحققين.

الإسلامي، فلا توجد قوّه للدفاع أمام هجوم الأعداء، ومن هذا المنطلق فإنّ الحكومه يجب أن لا تهتم بادعاءات الأقلية المترفه وتحصر اهتمامها ورعايتها بالطبقه التي يتوقف عليها بقاء الدين والدنيا وهي الأساس والأصل في حركة المجتمع نحو الإزدهار والتطور.

ويستفاد من مجموع عبارات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رساله أنّ الجماهير الكادحه من الناس تتمتع بعشر خصائص، وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثه منها في المقطع مورد البحث وسبعه منها ذكرها الإمام عليه السلام عند بيان الصفات الذميمة للخواص المغرورين، وهي كالتالي:

١. أنّهم خفيّفو المؤنه في حالات الاستقرار الاجتماعي.

٢. أنّهم يشمرون عن سواعدهم ويمدون يد العون في الحكومه في وقت الأزمات والمشكلات.

٣. أنّهم يفرحون من سلوك الوالى في خط الانصاف ورعايه الحقوق للجميع.

٤. عندما يطلبون شيئاً ممّا يحتاجونه في واقع الحياه لا يصرون كثيراً على مطالبهم.

٥. إنّهم يواجهون الهدايه والنعمة بالشكر والثناء.

٦. يقبلون العذر فيما لو وجدت موانع أمام تحقيق مطالبهم.

٧. يتمتعون بالصبر والاستقامه في مقابل المشكلات والتحديات.

وعباره

«وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ» إشاره إلى أنّ هذه الشريحه من الجماهير الكادحه هي الركن الأساس للمجتمع الإسلامي، وهذا ما ورد في روايات أخرى بوصفهم «السواد الأعظم»، وبعبارة أخرى لو أخذنا بنظر الاعتبار انفكاك أفراد المجتمع فإنّه لا يبقى هناك مفهوم للمجتمع والأمة، ولكن إذا توفرت عناصر التلاحم بين الأفراد، كما هو حال البناء الذي تشتد أواصره بقليل من الجص أو الاسمنت، فإنّ مفهوم المجتمع سيتحقق في الواقع الخارجى، وهذا الأمر لا يتسنى إلّا من خلال هذه

ص: ٣٢٤

«فَلْيُكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ، وَمَيْلَكَ مَعَهُمْ» مقتبسه في الواقع من القرآن الكريم، وذلك في خطابه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (١).

وليس النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقط مأموراً بالاعتماد على هذه الطبقة الفاعلة والتواصل معهم، بل إن جميع الأنبياء السابقين كانوا كذلك، فالقرآن الكريم يتحدث عن النبي نوح عليه السلام، عندما تجمع حوله بعض الشبان المؤمنين واعترض عليه جماعه من الأثرياء وأصحاب المواقع الاجتماعية أنك إذا أردت أن ندخل في دينك فيجب أن تطرد هؤلاء الفتيه من حولك، فأمره الله تعالى أن يقول لهم: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (٢).

تأمل

أنواع الحكومات

قسّم بعض العلماء الحكومات والنظم السياسيّه على إمتداد التاريخ البشري إلى أربعة أقسام:

١. الحكومة المستبدّه: وهى الحكومة التى تحكم فيها شخص واحد على المجتمع ويديره بوحى من أفكاره الخاصّه دون الخضوع لقانون، يفرض إرادته على جميع الأفراد (مثل حكومه رؤوساء القبائل فى العصور القديمه).

٢. الحكومة الملكيه: وفيها يكون الحاكم شخص واحد، ولكنها تملك قانوناً

ص: ٣٢٥

١- (١) سورة الكهف، الآيه ٢٨.

٢- (٢) سورة هود، الآيتان ٢٩ و ٣٠.

ونظماً لتيسير الأمور وتدير الحكومه.

٣. حكومه الأشراف (الأريستوقراطيه) وهى الحكومه التى يتولى أمرها طبقه الأشراف والنبلاء فى المجتمع.

٤. الحكومه الديمقراطيه: فيها يكون الشعب هو الحاكم الحقيقى لنفسه، ومن هنا يختار الشعب نوابه وحكامه من خلال صناديق الاقتراع، ويتولى هؤلاء الوكلاء والنواب ترتيب المسائل القانونيه والقضائيه والإجرائيه، وأحياناً تكون الانتخابات بواسطه، وأخرى دون واسطه.

وطبعاً فالحكومه الإلهيه، أى حكومه الأنبياء والأئمه المعصومين عليهم السلام، تتمتع بمكانه خاصه، وذلك أنهم منصوبون من قبل الله تعالى لهذه الحكومه ويهدفون لما فيه خير المجتمع وصلاح الناس، ومعلوم أن هؤلاء الأولياء، ومن أجل تيسير عملهم وكسب تأييد الجمهور، يستخدمون فى الكثير من المواقع عنصر البيعه، ومع بيعه الناس للحاكم الإلهى تزداد مشروعيه هذه الحكومه، وهذا الأمر تحقق بشكل كبير فى حكومه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام.

ص: ٣٢٤

إشارة

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعُورَةَ مَا اسْتِطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ. أَطْلِقِ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَأَقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتْرٍ، وَتَغَابَ عَنِ كُلِّ مَا لَا يَصِحُّ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

الشرح والتفسير: عليك بستر العيوب!

إشارة

فى هذا المقطع من الرسالة يتحدث الإمام عليه السلام عن أهميَّة الستر على الناس من قبل الوالى والتأكيد بأنَّ وظيفه الوالى لا تنحصر بمكافحه العيوب الظاهره، بل ينبغى اجتناب التجسس على الناس والتوغل فى أمورهم الشخصيه لمعرفة عيوبهم الباطنيه وكذلك الابتعاد عن الأشخاص الذين يتحركون على مستوى كشف عيوب الناس وفضحهم، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَأَهُمْ (١) عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ».

وعاده تجتمع حول الوالى أو الحاكم جماعه من هؤلاء الانتهازيين، الذين يبحثون عن عيوب الناس ونقاط الضعف والقصور فيهم من أجل التقرب إلى الوالى والقائد، فيهتكوا أستار الآخرين مما يبعث على تشويش ذهن الوالى بالنسبه لهم

ص: ٣٢٧

١- (١). «اشنأهم» من ماده «شأ» على وزن «شمع» وتعنى الحقد والعداوه.

ويعيش سوء الظن بالنسبه لكل فرد من الأفراد، فالإمام عليه السلام يقول: يجب أن تبعد هذه الجماعه عن نفسك لأنهم يتسبون فى إرباك الحكومه، فمن جهه يخلقون جو الفرقة والاختلاف بين الناس، ومن جهه أخرى يقومون بتوهين العلاقه بين الوالى والرعيه، ومن جهه ثالثه يغرسون سوء الظن فى فضاء المجتمع الإسلامى.

أجل، ينبغى على الوالى أن يسلك معهم بهذه الطريقه حتى لا يتصور أحد أنه، ومن خلال النميمه وافشاء عيوب الناس، يتقرب إلى الوالى ويكون من بطانته.

ولتأكيد هذا المعنى يبين الإمام عليه السلام دليلاً فى هذا الشأن ويقول:

«فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، وَالْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا».

ويضيف عليه السلام:

«فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ».

وقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئًا فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمٌ الصَّدْرِ»^(١).

إن ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من كلامه يبين هذه الحقيقه، وهى أن غالبية الناس لهم نقاط ضعف تخفى على الآخرين، فلو أن نقاط الضعف هذه ظهرت للملأ فإن هذا من شأنه إشاعه حاله سوء الظن بين الناس، والوالى بدوره سيعيش سوء الظن بالنسبه للرعيه، وهذه الحاله من سوء الظن، والتى أشار إليها النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً فى حديثه، من شأنها تقطيع أوصال المجتمع وتخريب الوحده بين أفراده وإضعاف عنصر الثقه فيما بينهم، فلا يعيش مثل هذا المجتمع التكاتف والتواصل بين الأفراد، وبينهم وبين الوالى، وهذا هو ما ورد فى القرآن الكريم من النهى بصراحه عن التجسس والبحث عن عيوب الناس الخفيه تقول الآيه: «وَلَا تَجَسَّسُوا»^(٢).

إن الواجب على الوالى أن يتصدى لمن يمزق ستار الحياء ويتجاهر بالفسق والفجوز ولا يأبى من إظهار عيوبه للناس، ويتعامل معه بآليات الاصلاح السلمى

ص: ٣٢٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٣٠.

٢- (٢) سورة الحجرات، الآيه ١٢.

ومن خلال الموعظه والنصيحه، ولو لم يوفق من هذا الطريق فإنه يستخدم القوه والشده ويقيم الحدود الإلهيه فيما يتعلق بهذا الشخص، فذلك بمثابة العمليه الجراحيه الضروريه لإدماه حياه المجتمع.

ثم إن الإمام عليه السلام وفي سياق كلامه يتحدث عن هذا الموضوع من جهه أخرى ويقول:

«فَاسْتَرِ الْعُورَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتِرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ».

وهو إشاره إلى أن الإنسان ينبغي عليه ستر عيوب الناس ليستر الله عيوبه، وهذا بمثابة الثواب الإلهي في الدنيا، وهناك ثواب أعظم ينتظره في الآخرة.

وقد ورد في حديث شريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ فِي فَاحِشِهِ رَأَاهُ عَلَيْهِ سِتْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (١).

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله:

«كَانَ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامٌ لَهُمْ عُيُوبٌ فَسَكَّتُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ فَأَسْكَتَ اللَّهُ عَنْ عُيُوبِهِمُ النَّاسَ فَمَاتُوا وَلَا عُيُوبَ لَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ» (٢).

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه وخطابه لمالك الأشر و يأمره بأربعه أمور أخرى، بدايه يقول:

«أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حَقْدٍ» (٣).

ومن المعلوم أن هناك عوامل مختلفه ربما تثير العداوه بين الناس والوالى، فيجب على والى الأخذ بمقتضيات الحذر والانتباه إلى جذور هذه المسأله ونزع فتيل هذا الحقد والعداوه من صدورهم وذلك من خلال سلوكه الحسن معهم والتواصل معهم بشكل يمتص هذه العقد والأحقاد من نفوسهم.

ويحتمل أيضاً فى معنى هذه الجملة أن والى عليه أن يترك حالات الحقد على الناس، ولو أن أحداً ارتكب مخالفه فلا يضمها فى قلبه بحيث تتحول إلى عقده، بل عليه أن يتناساها، وقديماً قيل: لا تنسى الخير الذى جاءك من الناس وعليك جبرانه فى الوقت المناسب ولا تتذكر إساءتهم لك وتعيش حالات الانتقام تجاههم،

ص: ٣٢٩

١- (١) كنز العمال، ح ٦٣٩٢.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢١٣، ح ٤.

٣- (٣) «حقد» العداوه المخبوءه فى قلب الشخص وينتظر الفرصه لإظهارها وإبرازها.

ولكن المعنى الأول أنسب للعبارة.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصيه الثانيه:

«وَأَقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتْرٍ (١)».

لأننا نعلم أن العداوات لا تحدث بدون سبب، إما أن تكون بسبب سوء المعامله أو تضييع الحقوق أو التكبر والفخر على الآخرين وأمثال ذلك، فعندما يتم قلع هذه العوامل والأسباب فإن العداوات فى جو المجتمع تتبدل إلى محبه وموده.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصيه الثالثه:

«وَتَغَابَ (٢) عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ (٣) لَكَ».

وهذه إشاره إلى أنه لا ينبغى لك الاصرار على التدخل فى تفاصيل حياه الناس وأعمالهم، وعليك بالتغافل مهما أمكنك ذلك، فإن التدخل فى جزئيات حياه الأفراد يعيقك عن الاهتمام بالمسائل الكليه والهامه ويعمق الخلافات والعداوات فى فضاء المجتمع.

وفى التوصيه الرابعه والخامسه يقول الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ (٤) فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ (٥)، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ».

ونعلم أن المنام هو الشخص الذى ينقل الأخبار الصحيحه والسقيمه بين الأفراد ليوقع بينهم الشقاق ويزرع بذور العداوه فى صدورهم، وقديماً قالوا:

وَقَدْ قَطَعَ الْوَأَشُونَ مَا كَانَ بَيْنَنَا

وَنَحْنُ إِلَى أَنْ نُوصِلَ الْحَبْلَ أَحْوَجُ

رَأَوْا عَوْرَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا بِأَلْبِهِم

فَلَمْ يَنْهَهُمْ حِلْمٌ وَلَمْ يَتَحَرَّجُوا

وَكَانُوا أَنَاسًا كُنْتُ آمِنٌ غَيْبِهِم

فَرَأَوْهُ عَلَى مَا لَا نُحِبُّ وَأَدْلَجُوا

١- (١) «وتر» على وزن «فكر» و «وتر» على وزن «سطر» كليهما بمعنى الوحيد والمنفرد، وبما أنّ الإنسان عندما يقتل فإنّ أقرباءه يجدونه وحيداً، ومن الطبيعي أن يضمروا الحقد في قلوبهم، فاستخدمت هذه المفردة بمعنى اضممار الحقد والعداوة، وهو المراد في الجملة أعلاه.

٢- (٢) «تَغَاب» فعل أمر من ماده «تغابى» بمعنى تغافل من ماده «غباوه» بمعنى الجهل وعدم العلم، وكأنّ الشخص الذى يتغافل فكأنّه جاهل بذلك الشئ.

٣- (٣) «يضح» من ماده «وضوح» بمعنى وضوح الشئ.

٤- (٤) . «ساع» من ماده «سعى» فى الأصل بمعنى كلّ حركة ونشاط لإنجاز عمل معين، ولكن فى هذه الموارد يطلق على الشخص الذى يسعى فى النميمه وذكر عيوب الآخرين.

٥- (٥) «غاشّ» بمعنى الخائن والمسىء من ماده «غشّ» بمعنى الخيانه والإساءه.

ويعكس ذلك فقد أذن الإسلام في عمليته إصلاح ذات البين بالكذب لقلع فتيل العداوة وإزاحه غبار الكدوره عن القلوب،
ويعباره أخرى: على المسلم أن يصب الماء على نيران الخلاف والفرقة لا أن يضيف إليها حطباً ويزيدها اشتعالاً.

ونقرأ في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال:

«أَلَا أُتْبِئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْمَشَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ الْبَاغُونَ لِلْبِرِّ آءِ الْمَعَايِبِ» (١).

تأمل

موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس

ربّما يثار هذا السؤال بعدما رأينا ما يقوله الإمام عليه السلام في هذا القسم من الرساله فيما يتصل بالتستر على الناس وطرده
النمامين الذين يتحركون لفضح الناس أمام الوالى، والسؤال هو: إذن لماذا وضع النبي الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام
أمير المؤمنين عليه السلام نفسه العيون والجواسيس في شتى نقاط البلاد الإسلاميه، والذين كانوا يوصلون إليه أخبار الأمراء
والولاه الخفيه والجليه، فهل يعتبر هذا العمل مخالفاً لمسأله التستر؟

أضف إلى ذلك أنه ورد في التعاليم الإسلاميه فيما إذا استشارك شخص حول أحد الأفراد، فلو كنت تعرف منه بعض العيوب
الخفيه فعليك أن تذكر ذلك لمن يستشيرك فيه وأن هذه المسأله من الأمور المستثناه من الغيبه.

ولا يخفى الجواب عن مثل هذا السؤال، لأنّ كلام الإمام عليه السلام فيما يتصل بالتستر وعدم الكشف عن عيوب الناس، يخص
العيوب الشخصيه والخصوصيه التى لا- تؤثر في مصير الأُمَّه أو يكون لها تأثير خفيف جداً، ولكن عندما تتعرض مصالح الأُمَّه
والنظام الإسلامى للخطر ويدور الحديث حول وجود مؤامره تستهدف مصالح النظام والأُمَّه، فهنا يكون لهذه المسأله حكم آخر،
وبديهى أنّ الواجب فى هذه

ص: ٣٣١

الحاله هو التحقيق والتجسس وإيصال الخبر إلى الوالى لثلا- يتسبب فى إيجاد الإرباك والخلل فى المجتمع الإسلامى وربّما تسفك بسببه الدماء وتنهب به الأموال وتنتهك به الحرمات، ففى هذا المورد لا- مكان للتستر عن العيوب ونقاط القصور والتقصير.

وهكذا إذا أراد المسلم أن يقدم على عمل معين، سواء يتعلق بأمر الزواج، أو المشاركة فى تجاره، أو اختيار شخص لوظيفه وأمثال ذلك، وسأل شخص خبير ومطلع واستشاره فى ذلك، فهنا يعتبر التستر على ذلك الشخص نوعاً من الخيانه، فلا يحق للمستشار أن يكتف عيوب الطرف الآخر الذى استشاره صاحبه فى هذه الأمور.

وعلى ضوء ذلك يتبين الحد الفاصل بين لزوم التستر على عيوب الناس وحرمة فضحهم وكشف أسرارهم، وبين عمل الاستخبارات فى الأمور الاجتماعيه والسياسيه وفى مقام المشوره.

ص: ٣٣٢

إشارة

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ عَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ.

الشرح والتفسير: إحذر هؤلاء المستشارين!

إشارة

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته وعهده عن مسألة المشاورين للوالى وصفاتهم وخصائصهم، والملفت للنظر أنّ الإمام لا- يتحدّث عن لزوم المشورة لأنّه يعتبر أمراً مسلماً ومطلوباً بأن يكون للوالى مستشارون أكفاء في شؤون الإيداره السياسيه والعسكريه، ليستطيع من خلال الاستفاده من أفكارهم وآرائهم أن يختار الطريق الأفضل لتدبير الأمور ويتعد بذلك عن الإستبداد بالرأى والاعتماد فقط على أفكاره الفرديه، وبالتالي يمكنه مراعاة مصالح الرعيه مع المشوره بالمقدار الممكن.

يقول الإمام عليه السلام محدّراً مالك الأشتر من مشاوره ثلاث فئات ويبين له الآثار والتداعيات السيئه لهذه المشوره، وذلك بعبارات بليغه وموجزه ويقول:

«وَلَمَّا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ (١) بِالْجَوْرِ».

وفي الحقيقه فإنّ الإمام عليه السلام يوصى بالتحلى بثلاث قيم وملكات مهمه ومؤثره

ص: ٣٣٣

على مستوى التدبير والإدارة: السخاء، الشجاعه والقناعه، وبديهي أن استشاره الشخص البخيل سيقف حائلاً أمام السخاء والكرم، ومشاوره الجبان من شأنها اضعاف عزمه وجرأه الرجل الشجاع، وأما استشاره الحريص فإنها تضعف القناعه وتثير فى الإنسان الطمع، وبالتالي تقوده هذه الصفات والحالات السلبيه إلى ظلم الرعيه.

ومن جهه أخرى فإنّ البخلاء يعيقون كلّ عمل من شأنه الترفيه والترويح عن الرعيه، وأما فى الأمور الدفاعيه العسكريه فالجبناء يضعون العصى فى عجلات المواجهه مع الأعداء ويضخمون خطرهم ويحبذون للوالى حاله الخنوع، وأما فى الأمور الاقتصاديه فالحريص يقف حائلاً أمام الإزدهار الاقتصادى، وعلى هذا الأساس فالمشاورون للوالى يجب أن يتم انتخابهم بما ينتفع بهم فى شؤون إداره البلاد ومدد يد العون للوالى وتقويه عزمته وإرادته ويحذرونه من الأمور التى تؤدى إلى إرباك المجتمع وتعريض مصالح الناس للخطر.

وفى ختام هذا البحث يؤكّد الإمام عليه السلام على البحث فى جذور هذه الصفات الذميه ويقرر أنّها تمتد إلى أصل واحد ويقول:

«فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزٌ (١) شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ».

فى هذه العبارة يدرس الإمام عليه السلام هذه المسأله من زاويه سيكولوجيه عميقه ويقول: إنّ البخلاء لا يبخلون بشيء من مالهم إلّابسبب سوء ظنّهم بالله بأنّه سيمنعهم من فضله ومواهبه ويتصوّرون أنّهم إذا أنفقوا اليوم من أموالهم فإنّهم سيكونون غداً فقراء ومحتاجين، أمّا الجبناء فإنّهم يسيئون الظنّ بالله فى وعده للمؤمنين بالنصر على أعدائهم ويتصوّرون أنّهم إذا لم يتراجعوا فى المعركه فربّما

ص: ٣٣٤

١- (١) «غرائز» جميع غريزه بمعنى الطبيعه والقريحه والدوافع المتمركزه فى باطن الإنسان أو الحيوانات الأخرى، وهى من ماده «غرز» على وزن «قرض» بمعنى ثقب الشيء أو إحداث ثقب فيه وكأنّ باطنه يثقب وتوضع الغريزه فى ذلك المكان.

بقوا لوحدهم وهلكوا فى مواجهه العدو، أما الأشخاص الذين يعيشون الحرص على المال والثروه، فإنهم لا يملكون حاله التوكل على الله، وفى الحقيقه أنهم يسيئون الظن بقدره الله تعالى.

والآيات القرآنيه بدورها شاهده على هذه الحقيقه، فى مورد يقول القرآن:

«الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا» (١).

وفى آيه أخرى يقول: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢).

وفى مورد ثالث يقول: «وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٣).

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من رساله، يماثل ما ورد فى كلام النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى وصيته للإمام على عليه السلام. فنقرأ فى كتاب «علل الشرائع» حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله يخاطب الإمام على عليه السلام ويقول::

«يَا عَلِيُّ لَا تُشَاوِرْ جَبَانًا فَإِنَّهُ يُضَيِّقُ عَلَيْكَ الْمَخْرَجَ وَلَا تُشَاوِرِ الْبَخِيلَ فَإِنَّهُ يَقْصِرُ بِكَ عَنْ غَايَتِكَ وَلَا تُشَاوِرْ حَرِيصًا فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ شَرَّهَا وَاعْلَمْ يَا عَلِيُّ أَنَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِيزَةٌ وَاحِدَةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ» (٤).

تأمل

أهميه المشوره فى حياه الإنسان

إن مسأله المشوره والاستشاره تعدّ من أهم المسائل الاجتماعيه، والدليل على ذلك واضح، لأن المشكلات الاجتماعيه وحتى الشخصيه تكون فى الغالب معقده

ص: ٣٣٥

١- (١) سوره البقره، الآيه ٢٤٨.

٢- (٢) سوره آل عمران، الآيه ١٣٩.

٣- (٣) سوره التغابن، الآيه ١٦.

٤- (٤) علل الشرايع، ج ٢، ص ٥٥٩، ح ١. وينبغى الالتفات إلى أنه عندما يقول الإمام عليه السلام «غرائز شتى» وفى كلام النبى صلى الله عليه وآله «غريزه واحده» وذلك بسبب النظره من زوايا مختلفه إلى هذه المواضيع الثلاثه وهى بحسب الظاهر منفصله عن بعضها ولكنها فى الواقع تعود إلى أصل واحد.

ومشوشه، هذا من جهه، ومن جهه أخرى فكل واحد من الأفراد يملك رأياً وفكراً ربّما يختلف عن الآخرين ويرى المسأله من زاويه واحده، فلو اجتمعت الآراء والعقول لحلّ مشكله معينه فرّبما نحصل على حلول ناجعه للمشاكل الفرديّه والاجتماعيّه.

ومن هذه الجهه نقرأ فى حديث شريف فى «غرر الحكم» عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«حَقُّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُضِيفَ إِلَى رَأْيِهِ رَأَى الْعُقَلَاءِ وَيَضُمَّ إِلَى عِلْمِهِ عُلُومَ الْحُكَمَاءِ»^(١).

وبديهى كلما إزداد الأمر أهميّه وخطوره فإنّ أهميّه المشوره ستزداد أيضاً، والتجربه تدل على أنّ الأشخاص الذين يتحركون فى أعمالهم المهمّه بآليه المشوره والتباحث مع العقلاء وأهل الخبره فى هذا الشأن فإنّهم قلّمَا سيواجهون الخلل والفسل، وبعكسهم المستبدون برأيهم الذين يشعرون بالاستغناء عن أفكار الآخرين نرى أنّهم فى الغالب يتورطون فى أخطاء وأخطار تعود عليهم بالضرر الفاحش، ولذلك نقرأ فى كلمات الإمام عليه السلام النورانيه:

«مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ وَمَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا»^(٢).

وجاء فى حديث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه قال:

«مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إِلَّا هُدُوا إِلَى رُشْدِهِمْ»^(٣).

وروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه نقل من التوراه هذه الحكمه:

«مَنْ لَمْ يَسْتَشِرْ يَنْدَم»^(٤).

ولا فرق أن يستشير الإنسان من هو أعلم وأعقل منه أو يستشير من هو أدنى منه فى المرتبه كما ورد عن على بن الجهم قال: كنّا عند أبى الحسن الرضا عليه السلام

ص: ٣٣٦

١- (١) غرر الحكم، ح ٤٩٦.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٦١.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٠٥، ح ٤.

٤- (٤) المصدر السابق، ج ٧٤، ص ٤٣، ح ١٣.

فذكرنا أباه قال:

«كَانَ عَقْلُهُ لَا يُوَازِنُ بِهِ الْعُقُولَ، وَرَبَّمَا شَاوَرَ الْأَسْوَدَ مِنْ سُدَانِهِ، فَقِيلَ لَهُ: تُشَاوِرُ مِثْلَ هَذَا؟ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَبُّمَا فَتَحَّ عَلَيَّ لِسَانِهِ» (١).

والملفت للنظر أنَّ الغرض من المشوره، مضافاً إلى ما تقدّم بيانه من التأكيد البالغ على الاستشاره، أنَّ المستشار يفكر فى المسأله بنزاهه وبفكر خالص فى ذلك الموضوع فى حين أنَّ صاحب المشكله الذى يفكر بمنافعه، فإنَّ فكره مشوب بالأهواء والمنافع الذاتيه:

«إِنَّمَا حُضَّ عَلَى الْمَشَاوَرَةِ لِأَنَّ رَأْيَ الْمُسْتَشِيرِ صَرَفٌ وَرَأْيَ الْمُسْتَشِيرِ مَشُوبٌ بِالْهَوَى» (٢).

كما ورد فى كلام الإمام على عليه السلام فى هذا العهد: لا يصح استشاره أياً كان، فالمستشار يجب أن يكون فرداً عاقلاً ومؤمناً لا يريد إلا الخير لصاحبه، ولذلك نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْمَشُورَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحُدُودِهَا، فَمَنْ عَرَفَهَا بِحُدُودِهَا وَإِلَّا كَانَتْ مَضَرَّتْهَا عَلَى الْمُسْتَشِيرِ أَكْثَرَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا لَهُ:

أَوَّلُهَا: أَنْ يَكُونَ الَّذِي يُشَاوَرُهُ عَاقِلاً.

وَالثَّانِيهِ: أَنْ يَكُونَ حُرّاً مُتَدِيناً.

الثَّالِثُهُ: أَنْ يَكُونَ صَدِيقاً مُوَاخِيّاً.

الرَّابِعُهُ: أَنْ تُطْلَعَهُ عَلَى سِرِّكَ فَيَكُونَ عِلْمُهُ بِهِ كَعِلْمِكَ بِنَفْسِكَ، ثُمَّ يَسْتَرِ ذَلِكَ وَيَكْتُمُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ عَاقِلاً انْتَفَعْتَ بِمَشُورَتِهِ، وَإِذَا كَانَ حُرّاً مُتَدِيناً جَهَدَ بِنَفْسِهِ فِي النَّصِيحَةِ لَكَ، وَإِذَا كَانَ صَدِيقاً مُوَاخِيّاً كَتَمَ سِرِّكَ».

وقال فى ختام كلامه عليه السلام:

«إِذَا أُطْلِعَتْ عَلَيْهِ، وَإِذَا أُطْلِعَتْ عَلَى سِرِّكَ كَانَ عِلْمُهُ بِهِ كَعِلْمِكَ، وَتَمَّتْ الْمَشُورَةُ وَكَمُلَتْ النَّصِيحَةُ» (٣).

وفى عالمنا المعاصر أضحت المشوره والشورى أوسع بكثير من السابق،

ص: ٣٣٧

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠١، ح ٢٥.

٢- (٢) غرر الحكم، ح ١٠٠٤٩.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٢، ح ٣٠.

فأحياناً يظنّ الإنسان أنّ اتساع أمر المشوره من شأنه إصلاح أحوال الدنيا في حين أنّ مجالس الشورى هذه - وللأسف - ترتبط بصبغه سياسيه وتتحرك في خط المنافع الفرديه أو الفئويه، وفي الحقيقه أنّها تفقد الخلوص والقداسه، والشاهد على ذلك أنّ الكثير من الأشخاص أو الفئات يسعون من خلال بذل نفقات باهظه ليكونوا نواباً ينتخبهم الناس لمثل هذه المجالس، وهذا يبيّن بوضوح أنّ هدفهم ليس تأمين مصالح الأُمّه، بل بما يعود عليهم أنفسهم بالنفع عاجلاً أم آجلاً.

والكلام عن المشوره كثير ومفصّل، والغايه هنا مجرد إشاره مختصره في هذا الباب وفي صفات المستشار الذي يتولى مسؤوليته ثقيله في هذا الأمر، ونختم هذا البحث بحديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«مَنْ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ فَلَمْ يَمَحْضُهُ النَّصِيحَةَ سَلَبَهُ اللَّهُ لُجْبَهُ» (١).

ص: ٣٣٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٠٤، ح ٣٦.

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْإِثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلْمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَصَائِدِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَأَثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوَنِ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَمَّا آثَمًا عَلَى إِثْمِهِ أَوْلِيَّكَ أَحْفَ عَلَيْكَ مَوْوَنَهُ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَهُ، وَأَخْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُّ لِعَغِيْرِكَ إِفْئًا، فَاتَّخِذْ أَوْلِيَّكَ حَاصَةً لِيَخْلُوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلُهُمْ بِمَرِّ الْحَقِّ لَكَ وَأَقْلَهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعًا ذَلِيْكَ مِنْ هَيَوَاكِ حَيْثُ وَقَعَ. وَالصَّقُّ بِأَهْلِي الْوَرَعِ وَالصَّدْقِ؛ ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى أَلَا يُطْرُوْكَ وَلَمَّا يَبْجِحُوْكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

الشرح والتفسير: الوزير الجيد والوزير السيء!

بعد أن بين الإمام عليه السلام صفات المستشارين في المقطع السابق، فإنه يتحدث في هذا المقطع عن خصائص الوزراء والمعاونين في الحكومه، ففي البدايه يعرّف الإمام عليه السلام الأشخاص الذين يملكون صفات سلبيه، ثم يتحدث عن الواجدين للصفات الحسنه والإيجابيه، ثم يطرح توصياته اللازمه فيما يتصل بكيفيه التعامل معهم، يقول عليه السلام:

«إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْإِثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً(١)».

ص: ٣٣٩

١- (١) «بطانه» في الأصل بمعنى الملابس الداخليه (ضد «ظهاره» وهي الملابس الخارجيه) ثم استخدمت هذه المفرده بمعنى الشخص الموثوق لدرجه حفظ الأسرار، محرم السرّ.

فى هذه العبارة يشير الإمام عليه السلام إلى مسأله حسن السابقه وسوء السابقه، ولزوم التحقيق فى سوابق الأشخاص الذين يروم اختيارهم لمنصب مهمه ومسؤوليات ثقيله، وهذا هو المتعارف عليه فى عالمنا المعاصر فيما يتصل بملف وسوابق المسؤولين.

ثم يذكر الإمام عليه السلام الدليل على ذلك بشفافيه ويقول:

«فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثْمَةِ (١) ، وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ».

وهذه إشاره إلى أن الشخص الذى عاش مع الظالمين وساند الجائرين والأشرار فإن هذه الصفه الذميه ستتحوّل فى نفسه ملكه وسجيه، فحتى لو أظهروا التوبه والإنابه فإنهم لا يصلحون للثوق بهم وبخاصه مع وجود الأفراد اللائقين فى المجتمع الإسلامى الذين لا يملكون مثل هذه السوابق السيئه، ولذلك يقول الإمام عليه السلام فى سياق كلامه:

«وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ (٢) وَأَوْزَارِهِمْ (٣) وَأَثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوَنُ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ».

ويستفاد من هذه العبارة أن الأشخاص الذين يملكون نقطه سوداء واحده فى ملف أعمالهم السابقه، فلا ينبغى اختيارهم للأعمال المهمه كالوزارات وأمثالها، بل ينبغى أن يكون تاريخهم وسابقتهم الحسنه واضحه للجميع.

وفى ختام هذا الكلام يستنتج الإمام عليه السلام هذه النتيجة:

«أُولَئِكَ أَحَفُّ عَلَيْكَ مَوُودَهُ وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَهُ، وَأَخْنَى (٤) عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُّ لِعَيْرِكَ إِفْلَاءً (٥) فَاتَّخِذْ أَوْلِيكَ

ص: ٣٤٠

١- (١) . «الأثمه» جمع «آثم» بمعنى المذنب.

٢- (٢) . «آصار» جمع «اصر» على وزن «مصر» فى الأصل بمعنى الحفظ والحبس، ثم اطلقت على الأعمال الثقيله التى تمنع الإنسان من النشاط والفعاليه وكذلك تطلق على الذنوب التى تثقل كاهل الإنسان، وفى الجمله أعلاه قصد بها هذا المعنى.

٣- (٣) «أوزار» جمع «وزر» على وزن «مصر» فى الأصل بمعنى الحمل الثقيل، وتطلق على الذنوب الكبيره التى تثقل مسؤوليتها كاهل الإنسان، وذهب البعض إلى أن الوزر ذنوب أكبر وأثقل من الاصر.

٤- (٤) . «أخنى» فى الأصل بمعنى عطف وإفلات نظر أو الشىء، والعطف هنا بمعنى المحبّه.

٥- (٥) «الف» بمعنى الفه وأنس.

خَاصَّةً لِيَخْلُوا تَكَّ وَحَفَلَاتِك (١)».

فى هذه العبارات الموجزه والعميقه فى معناها يطرح الإمام عليه السلام أربع نقاط القوه للذين ليس لهم سابقه سيئه فى تاريخهم وحياتهم، ويقول:

١. أن هؤلاء الأفراد لا يثقلون على كاهل الوالى فى النفقات، لأنهم فى السابق لم تكن لهم منافع غير مشروعه مع حكام الجور والظلم ليتوقعوا أكثر من حقهم.

٢. أن مساهمتهم فى تحمل المسئوليه أفضل وأكبر لأن نياتهم خالصه فى هذا السبيل وما يقدمونه من معونه فى أمور تحمل المسئوليه يقصدون بها الخير للناس والقربه إلى الله.

٣. أن حبههم للوالى أكثر من غيره، لأنهم يتفقون معه فى الفكر والدوافع والنيات مما يتسبب فى فوران محبتهم وشده تعاطفهم مع الوالى.

٤. أن هؤلاء لا يرتبطون برابطه مشبوهه مع الأجانب والغرباء، فلا يتواصلون إلا معك ولا يرون سواك.

ومن الجلى أن أنصار الظلمه السابقين ليسوا فقط غير صالحين للتعاون معهم، بل بما أن الناس يعرفون سوابقهم السيئه مما يؤدى إلى ضعف اعتمادهم على الوالى وعدم التعاون معه بشكل جيد.

وينقل ابن أبى الحديد هذه القصة بعد أن يروى هذا الخبر الوارد فى الروايات:

«يُنَادى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ مَنْ بَرَى لَهُمْ - أَى لِلظَّالِمِينَ - قَلَمًا» أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول فى الحجاج؟ قال: ما عسيت أن أقول فيه، هل هو إلا خطيئه من خطاياك، وشرر من نارك؟ فلعنك الله ولعن الحجاج معك، وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: ما تقول فى هذا؟ قال: ما أقول فيه، هذا رجل يشتمكم، فإما أن تشتموه كما يشتمكم، وإما أن تغفوا عنه، فغضب

ص: ٣٤١

١- (١) «حفلات» جمع «حفل» على وزن «حرب» فى الأصل يعنى المحل الذى يتجمع فيه الماء، ثم اطلق على المحل والمجلس الذى يجتمع فيه كثير من الناس، ويقال للمجلس محفل أيضاً.

الوليد وقال لعمر: ما أظنك إلا خارجياً، فقال عمر: وما أظنك إلا مجنوناً، فقام وخرج مغضباً، ولحقه خالد بن الريان صاحب شرطه الوليد، فقال له: ما دعاك إلى ما كلمت به أمير المؤمنين، لقد ضربت يدي إلى قائم سيفي أنتظر متى يأمرني بضرب عنقك، قال: أو كنت فاعلاً لو أمرك؟ قال: نعم، فلما استخلف عمر جاء خالد بن الريان فوقف على رأسه متقلداً سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضع سيفك، فإنك مطيعنا في كل أمر نأمرك به - وكان بين يديه كاتب كان للوليد، فقال له: ضع أنت قلمك، فإنك كنت تضر به وتنفع، اللهم إني قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فوالله ما زالا وضيعين مهينين حتى ماتا(١).

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام مسأله حسن السابقيه فى الوزراء والمسؤولين تطرق إلى ذكر الصفات والخصوصيات لدى الجيدين منهم، بدايه يقول:

«ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقُولُهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ».

وفى الخصوصيه الثانيه يقول:

«وَأَقْلَهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَقْعَا ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ».

وهذه إشاره إلى أنك لو سلكت سبيل الخطأ أحياناً فإنهم سوف لا يساعدونك فى ذلك، لتكون منتبهاً وتتجنب التورط فى الخطأ والضلاله وتعود إلى خط الصواب، وبعباره أخرى أنهم يملكون شخصيه مستقله وتفكيراً مستقلاً، فهم يعينونك فى الحق ولا يعينونك فى الباطل.

وفى الخصوصيه الثالثه والرابعه يقول الإمام عليه السلام:

«وَالصَّقُّ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ».

«الورع» يعنى التقوى فى حدّها الأعلى، و«الصدق» هو الإخلاص فى المشوره وإيصال الأخبار الحسنه والسيئه للوالى.

وعباره »

بِمُرِّ الْحَقِّ» الوارده فى العبارة أعلاه، تبين أن بيان الحق أحياناً يكون

ص: ٣٤٢

مستساغاً وحلواً ولكن في الكثير من الأوقات يكون مرّاً وصعباً، ولكنّه بمثابة الدواء الشافي الذي ربّما يكون مرّاً لشاربه بصورة مؤقتة، إلّا أنّه يبعد عن الإنسان المرض الخطير، وهذه إحدى الاختبارات للخواص والمعانين للوالى، وذلك بأن يملكون الجرأ والشجاعه لقول الحقيقه للحاكم ولو كانت مرّه ولكنّها مفيده، فلا يخشون سخط الحاكم لأجل قول الحقيقه.

وفيما لو سلك الحاكم طريق الخطيئه والزيغ فإنّ ذلك يشكل امتحاناً آخر لبطانته، بأن يتحلوا بالشجاعه اللازمه ولا يعينونه أو يتماهوا معه في هذا الطريق بل يعيدونه إلى صوابه وينبهونه من غفلته ولا يتبعونه أتباع الأعمى ويرجعون رضاه على رضا الله والخلق.

وفي ختام هذا المقطع من التوصيات يقول الإمام عليه السلام فيما يتصل بالوزراء والمعانين:

«ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْأِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزُّهْوَ (١)، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ (٢)».

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «رضهم» من ماده «رياضه» فإنّه في هذا المورد تعنى التميرين والتربيه، وجمله «يطروك» من ماده «اطراء» بمعنى المدح والثناء الكثير، و«بجحوك» ما ماده «بجح» (على وزن فرح) وتعنى الفرح، وغرض الإمام عليه السلام أنّه لا ينشرح صدرك وينفتح وجهك في مقابل مدح المداحين، فلا ينبغي أن تظهر السرور لذلك، سواء فيما يتصل بأعمالك الحسنه أو ترك الأعمال السيئه، لأنّ تكرار هذا العمل من قبل الحاشيه سيؤدّى تدريجاً إلى التأثير في قلب الوالى، وزرع الغرور والعجب في نفسه، ومعلوم أنّ الغرور بذاته منبع الكثير من الانحرافات الخطيره.

وجاء في الحديث الشريف عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«لَا تُطْرُونِي

ص: ٣٤٣

١- (١) «الزهو» بمعنى التكبر والعجب.

٢- (٢) «العزه» في هذا المورد تعنى الغرور، وجاء في بعض النسخ «غره» واستعمالها في هذا المعنى أوضح.

كَمَا أَطْرَثَ النَّصَارَى عِيسَى بِنَ مَرْيَمَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُهُ» (١).

ونقرأ في روايه معروفه:

«اِحْتُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ» (٢).

وجاء في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في كتاب «غرر الحكم»:

«إِيَّاكَ أَنْ تَتَّبِعَنِي عَلَى أَحَدٍ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَإِنْ فَعَلَهُ يَصِدُقْ عَنْ وَصْفِهِ وَيُكَذِّبُكَ» (٣).

ومعلوم أنّ هذا العمل ليس باليسير بأنّ تتحدّث البطانه والحاشيه مع الحاكم بدون خوف وخشيه منه وبدون توقع للصله والثواب، فيمحضوه النصيحه ويخبروه بالحقائق دون أن يخافوا بطشه ولا يتوقعون ماله ورضاه، وهذا هو شأن الموحدين الحقيقيين.

وكما قال الخطيب المعروف: إنّ النصيحه للملوك هي من شأن من لا يخاف ولا يطمع.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام يعدّ توصيه أكيدته لجميع المسؤولين في مراكز القدره والسلطه بأن يعلموا مشاوريهم وبطانتهم على قول الحقّ وأن يكونوا مستعدين لقبول الحقائق المرّه (٤).

ص: ٣٤٤

١- (١) الموطأ، ج ١، ص ١٢ وكتب أخرى.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١١.

٣- (٣) غرر الحكم، ص ٤٦٦، ح ١٠٧٣٥.

٤- (٤) تحدّثنا عن المدح والثناء في غير محلّه وحالات التملق والتلف بشكل مفصّل في الجزء الثامن ذيل الخطبه ٢١٦.

وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلِهِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءِ عَلَى الْإِسَاءِ! وَالزُّمُّ كُلُّهُ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمُمُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا. وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسَنَ ظُنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسَنَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظُنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ. وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلَا تُخَدِّثَنَّ سُنَّةَ تَضَرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تَلَمَّكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَبَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَفَضْتَ مِنْهَا. وَأَكْثَرُ مِيدَارَسَةِ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةِ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِلَادِكَ، وَإِقَامِهِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

الشرح والتفسير: إحيى السنن الحسنه

يوصى الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة العهديه لمالك الأشتر بعده وصايا أخرى.

بدايه يؤكد الإمام عليه السلام على الإحسان للمحسنين وإنزال العقوبه بالمسيئين ويقول:

«وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلِهِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيداً لِأَهْلِ

الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ، وَتَدْرِيْبًا (١) لِأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ وَأَلْزَمَ كُلَّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ.

ما يبيّنه الإمام عليه السلام في هذه التوصية يعتبر أحد الأصول المهمّة للإدارة الجيدة، من إداره الله تعالى والأنبياء للبشريه إلى إداره ربّ الأسره لعائلته وأبنائه.

القرآن الكريم يأمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالبشاره والإنذار ويعتبره «مبشراً» و «نذيراً»، وكذلك وعد الله تعالى الصالحين بالثواب الجزيل والنعيم الدائم في الجنّه، ووعد المسيئين بالنار والعذاب الأليم.

وهذا الأصل موجود في جميع الأقوام البشريه مع تنوعهم واختلافهم في العقائد والثقافات والأنظمه الحكوميه، ويندرج تحت عنوان الترغيب والترهيب، والدليل على ذلك بين، لأن استمرار عمليته الإحسان وإسداء المعروف للآخرين يتطلب تحفيز الباعث النفسى، ومنع المخالفات أيضاً يستدعى وجود المحفز والباعث، فربما تؤثر الدوافع المعنويّه والعقائد الدينيه في هذا المجال، ولكن هذا الدوافع لا تتوفر في جميع الأفراد، أضف إلى ذلك فإن وجود مسأله الثواب والعقاب من قبل الوالى والحاكم من شأنه تجميد البواعث السلبيه وترشيد الدوافع الخيره.

وجمله »

وَأَلْزَمَ كُلَّ...» إشاره لطيفه لهذه النقطه، وهى أنّ المرء عندما يتقبل شيئاً لنفسه فلا مسوغ لأن يقوم الحاكم بمنعه، فالمحسن اختار الثواب لنفسه، والمسيء اختار العقاب لنفسه، ومن هذا المنطلق ينبغى اعطاء كلّ ذى حقّ حقه.

والأهم من ذلك أنّ الإحسان للمحسنين يؤثر على عمل المسيئين ويرغبهم في ترك الإساءه، وعقوبه المسيئين تدعو بدورها المحسنين للاستمرار في إحسانهم كما ذكر الإمام عليه السلام في كلام آخر له في نهج البلاغه:

«أزجر المُسيء بِثَوَابِ المُحْسِنِ» (٢).

وهذه إشاره إلى أنّ المسيء عندما يرى نفسه محروماً من الثواب المادى

ص: ٣٤٤

١- (١). «تدريب» بمعنى الاعتياد على شيء أو عمل معين، وفي هذا المورد تعنى التشويق فى مقابل «تزهيد».

٢- (٢). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٧٧.

والمعنوى للمحسنين ينتبه إلى خطئه ويثوب إلى رشده وربما يتوب من عمله ويرتدع عن سلوكه.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه في بيان التوصيه الثانيه ويبيّن أفضل وسيله لجلب حسن الظن تجاه الوالى وكسب محبّه الرعايا له ويقول:

«وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرِعَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمُنُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ».

والتعبير ب »

مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ» مع الالتفات إلى أنّ «قَبِيل» تأتي أحياناً بمعنى «عند» وأحياناً أخرى بمعنى «القدره»، يمكن أن يكون معنى الجملة: الشىء الذى ليس عندهم (وليس فى عهدتهم) أو الشىء الذى لا يقدرّون عليه ولا يطيقونه(1).

وهذه الحقيقه قد أثبتتها التجارب الكثيره، فالوالى إذا كان يفكر بأمر الرعيه، وتحرك المسؤولون للتخفيف عن الضرائب التى تثقل كاهلهم ولم يحملوهم ما ليس فى طاقتهم من الوظائف والتكاليف، فإنّ ذلك من شأنه تقويه رابطه العاطفيه وتوثيق العلاقه بينهم وبين الحكومه، هذه العلاقه الحميمه يمكنها أن تلعب دوراً فاعلاً فى حلّ الأزمات والمشاكل المعقده.

وهنا نقطه مهمه أيضاً، وهى أنّ الإمام عليه السلام يتحدّث عن عوامل حسن الظن للوالى برعيته لا حسن ظن الرعيه بالوالى، فى حين أنّ المناسب حسب الظاهر أن يكون التعبير الأوّل فى مثل هذه الموارد أنسب، ولكن مراد الإمام عليه السلام التأكيد على أنّ الولاه وزعماء الأمه يسدون الخير والمعروف للرعيه إلى درجه أنّهم يطمنون إلى تأييدهم ووفائهم لهم.

وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليه السلام فى سياق كلامه:

«فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرِعَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً (٢) طَوِيلًا».

ص: ٣٤٧

- ١- (١). رغم أنّ البعض يعتقد بأنّ «قَبِيل» إذا اضيفت للضمير فإنّها تعنى القرب، وإذا استعملت منفصله تعنى القدره والقوه.
- ٢- (٢). «نَصَب» بمعنى التعب والمشقه، من ماده «نَصَب» على وزن «نصر» وتعنى إثبات الشىء، مثلاً عندما يضعون الرمح فى الأرض ويثبتونه يقال نصب الرمح، وبما أنّ التعب يؤدى إلى توقف الإنسان عن العمل فأطلقت هذه الكلمه عليه، ويطلق على أعداء أهل البيت عليهم السلام نواصب لأنّه رفعوا لواء العداوه لهم.

ويديهي أنّ الوالى عندما يسيء الظن برعيته فإنّه يحتمل دوماً أن يثور الناس ضده أو يتعاملون معه بآليات التآمر والخيانة، وهذا التذكير والموقف السلبي من الرعيه يجعله يعيش دائماً حالات التوجس والخوف وعدم الاطمئنان، ولكن عندما يطمئن الوالى لوفاء الرعيه له وتأبيدهم لحكومته فإنّه سيتحرك على مستوى تدبير ونظم الأمور وإعمار البلاد ودفع شرّ الأعداء براحه بال وثقه بالنفس.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام شرحه لهذه التوصيه بعبارات بليغه أخرى يقول:

«وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسَّنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسَّنَ بَلَاؤُكَ (١) عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ».

وهذه إشاره إلى أنّ الإحسان للرعيه يسبب حسن الظن بهم، فكلما زاد إحسانك لهم زاد حسن الظن بهم، وكما أنّ الإساءه لهم تتسبب فى سوء الظن، فكلما ازدادت الإساءه ازداد سوء الظن أيضاً.

وجاء فى كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبه: «كان ابن عباس يقول: ما رأيت رجلاً- أوليته معروفًا إلاّ أضاء بينى وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءً إلاّ أظلم ما بينى وبينه» (٢).

ونستوحى ممّا تقدم هذه النتيجة، وهى أنّ الأشخاص الذين وقعوا مورد العقوبه والمؤاخذة، مهما كان الدليل والمسوغ، فإنّ على الوالى والحاكم أن يلتزم جانب الحذر منهم ويتجنب حسن الظن بهم.

ص: ٣٤٨

١- (١). «بلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسطة النعم وأخرى بواسطة المصائب، من هذه الجبهه تطلق كلمه بلاء بمعنى النعمه وبمعنى المصيبه أحياناً أخرى، وفى الجمله أعلاه اريد بها كلا المعنيين أى بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء (وهذه المفرده من ماده «بلى يَبْلُو»).

٢- (٢). عيون الأخبار، لابن قتيبه، ج ١، ص ٦٤، حسب نقل شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٨، ص ٥١٩.

يذكر الإمام عليه السلام في سياق كلامه نقطه مهمه أخرى، ويحذر مالك الأشتر من نقض السنن والتقاليد الصالحه، ويقول:

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورٌ (١) هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ».

وتأتى كلمه «سنه» على معنيين: فأحياناً يراد منها العادات والتقاليد الموروثة من الأسلاف والقدماء، وهذه بدروها على قسمين: حسنه وسيئه، كما ورد هذا المعنى فى الحديث الشريف المعروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أَجْرِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُضَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُضَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» (٢).

والمعنى الثانى للسنة: كلام النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وفعله وتقريره، وكلام الإمام عليه السلام فى هذه العبارة ناظر إلى المعنى الأول بقريته جملة:

«وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ...» مثلاً: أن يقوم شخص أو جماعه فى كل اسبوع معين من السنه بوصفه اسبوع الإحسان إلى اليتامى أو اسبوع تنظيف المساجد، أو غرس أنواع الأشجار دون أن ينسبوا هذا الأمر للشرع المقدس وتبقى هذه السنة الصالحة ويعمل بها جملة من الناس وتفرز معطيات حسنه على المستوى العام، فالإمام عليه السلام يأمر مالك الأشتر بأن لا ينقض مثل هذه السنن الخيره بل يترك الناس يعملون بها وينتفعون من بركاتها.

وطبعاً إذا كانت السنن فاسده ومفسده من قبيل ما كانت متداولاً فى زمان الجاهلية من ظاهره الثأر والانتقام ووآد البنات وأمثال ذلك، فينبغى التصدى لمثل هذه السنن الخرافيه والباطنه وغير الإنسانيه.

ويشير تاريخ الإسلام إلى أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قد أمضى السنن الصالحه للقدماء

ص: ٣٤٩

١- (١). «صُدُورٌ» تعنى المتقدمين ومن كان يجلس فى الصدر، وكذلك مسلمى صدر الإسلام.

٢- (٢). كثر العمال، ح ٩١٠، ووقد ورد مثل هذا الحديث فى المصادر الشيعيه عن الأئمة المعصومين عليهم السلام بطرق مختلفه وبتعبيرات متفاوتة. انظر: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٥٧ و ٢٥٨.

ولم ينقضها أبداً، من قبيل السنن التي تركها عبدالمطلب في قومه، ولكنه حارب السنن الخرافية والسيئه ودعا إلى تركها ونبذها.

ثم بيّن الإمام عليه السلام هذا الموضوع بصورة أخرى ويقول:

«وَلَا تُحَدِّثَنَّ سُنَّةَ تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا».

وفي الحقيقة يريد الإمام عليه السلام القول: إنّ السنن الصالحة للقدمات لا ينبغي لك نقضها لا بصورة مباشرة ولا من خلال إيجاد العوائق أمامها ليركها الناس، بل عليك بحفظ هذه السنن والتقاليد لينتفع الناس منها في حال ممارستها والمداومه عليها.

وحول أهميته السنن الحسنه وفرقها مع البدع وكذلك مع السنن السيئه وإفرازاتها في المجتمعات البشريه، سنتحدث عن ذلك في خاتمه هذا البحث.

وفي آخر توصيه الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرساله العهديه، يأمر الإمام عليه السلام مالك الأشر بأن يكون إلى جانب العلماء والحكماء ويقول:

«وَأَكْثَرُ مَدَارِسَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَهُ (١) الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيْتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِلَادِكَ، وَإِقَامِهِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ».

وفي الحقيقة فإنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصاياه لمالك الأشر يؤكد له السعي في الاستزاده من العلم والمعرفه فيما يتصل بالأحكام والموضوعات وذلك من خلال الارتباط بالعلماء وأهل الخبره ومجالستهم حتى يتعرف أكثر على الأحكام الإلهيه وكيفيه إداره الأمور في حكومته وينتفع من تجاربهم في تشخيص الموضوعات المهمه، وعندما تزداد معرفه الوالي بالنسبه لهذين القسمين، فإنّ ذلك من شأنه إصلاح أمر البلاد وبقاء السنن الحسنه للماضيين في واقع الحياه الاجتماعيه.

وينقل الشيخ الكليني في الجزء الأول من اصول الكافي في باب تحت عنوان

ص: ٣٥٠

١- (١). «مُنَاقَشَهُ» من ماده «نقش» في الأصل تعنى اخراج الشوك من البدن بواسطه المنقاش، ثم اطلقت على كلبحث دقيق وحساب كامل، وعليه فإنّ مناقشه الحكماء تعنى البحث الدقيق مع العلماء.

«بَابُ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَصُحْبَتِهِمْ» عَدَّهُ رَوَايَاتٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ، مِنْهَا:

عن الإمام صادق عليه السلام في حديث أنه قال:

«لَمَجْلِسُ أَجْلِسُهُ إِلَى مَنْ أَتَقُّ بِهِ أَوْتَقُّ فِي نَفْسِي مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ» (١).

وفي حديث آخر عن لقمان ينصح فيه ابنه ويقول:

«يَا بَنِيَّ اخْتَرِ الْمَجَالِسَ عَلَى عَيْتِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ جَلًّا وَعَزًّا فَاجْلِسْ مَعَهُمْ فَإِنْ تَكُنْ عَالِمًا نَفَعَكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنْ جَاهِلًا عَلِمَ وَاكٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُظَلِّهُمُ بِرَحْمَتِهِ فَيَعْمُكَ مَعَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَلَا تَجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنْ تَكُنْ عَالِمًا لَمْ يَنْفَعَكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا يَزِيدُوكَ جَهْلًا، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُظَلِّهُمُ بِعُقُوبِهِ فَيَعْمُكَ مَعَهُمْ» (٢).

وفي الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي يتحدث الإمام زين العابدين عليه السلام عن عوامل سلب التوفيق ويقول:

«أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ فَخَذَلْتَنِي».

ومن جملة بركات مجالسه العلماء ومحادثتهم أنّ الإنسان لا ينسى علومه ومعارفه، ولو لم يعرف شيئاً فإنّه سيتعلمه كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في كلام آخر له، قال:

«مَنْ أَكْثَرَ مَدَارِسَةَ الْعِلْمِ لَمْ يَنْسَ مَا عِلِمَ وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (٣).

تأمل

سبب ظهور السنن

كلمه «سنّه» في الأصل من ماده «سنّ» (على وزن فن) وتعنى إجراء الماء على الوجه، ثم اطلقت على كلّ أمر فيه جريان وسريان، وتشمل جميع العادات والآداب الحسنه والسيئه من قبل شخص أو فئه في المجتمع، ولهذا السبب قسمت إلى سنّه حسنه وسيئه، مثلاً: اقرار برنامج مستمر في كلّ عام من أجل إكرام اليتامى، أو المصالحة بين المتخاصمين والمتشاحنين، هذا يعتبر سنّه حسنه، وأمّا ما جرت عليه

ص: ٣٥١

١- (١). الكافي، ج ١، ص ٣٩، ح ٥.

٢- (٢). المصدر السابق، ح ١.

٣- (٣). غرر الحكم، ص ٤٩، ح ٢٧٣.

عاده العرب فى الجاهليّه من وأد البنات فى التراب أو ما عليه بعض الشبان فى عصرنا الحاضر من اللعب بالمواد المتفجرة فى يوم الأربعاء من آخر كل سنة يعتبر سنّه سيئه.

وقد ورد فى الروايات الإسلاميه بحوث كثيره عن الأشخاص الذين يضعون سنّه حسنه أو سنّه سيئه، وقد تقدّمت بعض النماذج والأمثله عن هذه المسأله فى البحوث السابقه، وقد ورد التأكيد فى هذه الروايات على أنّ من يضع سنّه حسنه فله أجر وثواب بقدر الأشخاص الذين يعملون بها دون أن ينقص من ثوابه شىء، وأما الأشخاص الذين يضعون سنّه سيئه فإنهم يحملون وزراً بعدد الأشخاص الذين يعملون بها وتكتب فى صحيفه أعمالهم دون أن يقل من عقوبه المرتكبين لهذه الأعمال السيئه، وهذا فى الواقع من قبيل التسبب والتعاون على الخير والشر، لأننا نعلم أنّ الإنسان تاره يقوم بعمل بشكل مباشر وأخرى بالتسبب بإيجاد سنّه حسنه أو سيئه ممّا يدعو الآخرين للإقتداء به.

ومعلوم أنّ مسأله السنن والتقاليد الاجتماعيه لا ترتبط بالبدع كما تصور بعض الوهابيين المتعصبين، لأنّ البدعه هى ما ينسب إلى الشارع المقدّس والقرآن الكريم وسنّه نبى وليست منها، ولكن السنن والتقاليد المتداوله هى نوع من البدع العرفيه والاجتماعيه دون إسنادها إلى الشرع المقدّس، فلو أنّها كانت تصب فى مسير أهداف الشريعه المقدّسه، مثل إكرام اليتامى ومساعدته المحرومين فهى سنّه حسنه ومحبّده وإذا كانت على خلاف ذلك مثل وأد البنات فى الجاهليّه فهى سنّه سيئه وغير محبّده.

ومن هنا يتبين ما عليه الوهابيون المتعصبون من موقفهم المخالف لبعض المظاهر العرفيه والدينيه من قبيل الاحتفال بميلاد النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله أو إقامه مراسم العزاء على الأموات، وهو ناشىء من سوء فهمهم وخلطهم السنّه بالبدعه، فى حين أنّ الروايات التى تتحدّث عن السنّه الحسنه والسيئه وارده فى كتبهم ومدوناتهم(1).

ص: ٣٥٢

١- (١). سنن البيهقى، ج ٤، ص ١٧٦؛ مسند أحمد، ج ٤، ص ٣٦٢.

إشاره

وَاعْلَمَ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصِيحُ لُحُّ بَعْضِهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْأَنْصَافِ وَالرَّفِيقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزِيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الدِّمَةِ وَمُسْلِمِيهِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حُدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّه نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا.

الشرح والتفسير: الطبقات الاجتماعية المختلفة

إشاره

في هذا المقطع من عهد الإمام عليه السلام المعروف يتطرق الإمام لأحد أهم البحوث الاجتماعية والسياسية ويقسم الناس في المجتمع إلى سبع طبقات أو سبع شرائح وفئات، وقبل أن نستعرض هذه الأقسام والفئات نشير إلى هذه النقطة التي أشار إليها بعض شراح نهج البلاغة، وهي أنّ الإنسان خلق اجتماعياً «مدني بالطبع» لأنه من جهة يعيش حاجات متنوعة وكثيره لا يستطيع كلّ فرد لوحده أن يؤمن هذه الحاجات، مضافاً إلى أنّ كلّ فرد لا يقنع بحياه تسير على وتيره واحده، بل إنّ المجتمع البشري يسير دائماً نحو التحوّل والتكامل، وهذا التكامل يستدعي تنوع الحاجات وزيادتها، ومن أجل حلّ المشكلات وإشباع هذه الحاجات المتنوعه لا يوجد طريق عقلائي سوى أن تقوم كلّ جماعه بإشباع بعض هذه الحاجات، ويتمّ التبادل مع الآخرين في واقع الحياه الاجتماعيه لينتفع الجميع من عملهم وأتعبهم،

فجماعه منهم يتولون مسؤوليّه النظم والأمن، وجماعه أخرى يهتمون بالزراعه والرعى لتأمين المواد الغذائيّه، وفئه منهم يختصون بأمر التعليم وتربيّه الأبناء والجيل الناشئ، وفئه يتجهون نحو الصناعات المختلفه، آخرون يتكفلون مسأله الطب وعلاج المرضى، وجماعه يأخذون على عاتقهم أمر القضاء وفصل الخصومات و... الخ.

وقد وصل الحال في هذا العصر إلى حدّ أنّ تأمين حاجات البشر في مورد واحد يستدعى وجود مئات أو آلاف الفروع التخصصيه، وكل جماعه يعملون في فرع خاص منها.

وعلى هذا الأساس قسّم الإمام عليه السلام المجتمع إلى سبع طبقات، وهى فى الواقع سبعة أعمده لخيمه الحياه الاجتماعيه، رغم وجود طبقات أخرى أيضاً يمكن فرضها فى واقع المجتمع، ولكن العمده والأساس هى سبع طبقات أو سبع شرائح اجتماعيه.

يقول الإمام عليه السلام: «يا مالك» اعلم أنّ الناس فى المجتمع أو البلد يتشكلون من فئات متعدده وأنّ كلّ فئه منهم لا تستغنى فى صلاحها إلّابالأخرى، وكل واحد منها تحتاج إلى أخرى.

فجماعه يمثّلون جنود الله (وهم الذين يتكفلون حفظ الأمن والنظام فى المجتمع ويتولون الدفاع عنه فى مقابل الأعداء).

وفئه أخرى هم الكتّاب من العامه والخاصه (ومسؤوليّتهم حفظ الحسابات المائيه للحكومه وتنظيم الميزانيّه وتثبيت الأسناد والوثائق وتعليم وتربيّه الناس).

وفئه ثالثه هم القضاة الذين يتولون إقامة العدل والفصل بين الخصومات وإحقاق الحقوق.

وفئه أخرى هم العاملون بالانصاف والرفق، وهم الموظفون فى الدوائر الحكوميه.

وفئه تتولى أخذ الجزيه والخراج من غير المسلمين الذين يعيشون فى ظلّ الحكومه الإسلاميه، (ويدفعون الضرائب فى مقابل حفظ أنفسهم وأموالهم من قبل الحكومه الإسلاميه).

والمسلمون الذين يعملون في الأراضي الخراجية ويدفعون خراجها إلى الدولة.

وجماعه أخرى من التجار وأهل الصنائع، وجماعه من الطبقة السفلى من المحرومين والمساكين (والعجزه والمسنيين الذين لا يقدرّون على الكسب والعمل:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصِلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنصَافِ وَالرَّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزِيَّةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الدِّمَّةِ وَمُسْلِمِي النَّاسِ وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينِ».

ثم يشير الإمام عليه السلام إشارة إجمالية لحقوق ووظائف كل منها، ثم يفصل الكلام عن خصوصيات وصفات ووظائف وحقوق كل واحد من هذه الفئات والطبقات.

ويقول عليه السلام في إشارة إجمالية:

«وَكُلُّ قَدْ سَمَى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حُدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّهَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا».

ومعلوم أنّ المراد من جنود الله هم أفراد الجيش الذين يتولون حفظ الثغور وحدود البلد الإسلامي في مقابل هجوم الأعداء.

أمّا الفئة الثانية التي عبر عنها الإمام عليه السلام بكتّاب العامّة والخاصّة، فالكتّاب الخاصّة هم الذين يكتبون الكتب الرسميّة للوالي والمسؤولين ويحفظون أسرار الحكومه ويوقعون على العقود المهمّة كعقود الصلح وأمّثالها، وأمّا الكتّاب العامّة فهم جميع الموظفين الذين يتولون أمر حساب النفقات والواردات لخزينه الدولة ويتولون أمور القروض وتسديدها ويجمعون مطالب الناس، وربّما يشمل هذا المعنى في عصرنا مراكز التعليم والتربية للشبان والفتيات.

أمّا قضاة العدل فيشمل جميع الموظفين في جهاز القضاء الإسلامي وعلى رأسه القضاة.

وأمّا عمّال الانصاف والرفق، فهو إشارة للأمراء والولاة على المحافظات لإداره المدن والمناطق المختلفه في البلد الإسلامي، وإضافه كلمه «الإنصاف والرفق»

إشاره إلى أنه يجب انتخابهم من بين الأشخاص الذين يتمتعون بهاتين الصفتين:

الانصاف من خلال إيصال الحقوق إلى أصحابها، وكذلك يتعاملون مع الناس بآليات الرفق والمداراه والمحبّه.

وأما أهل الجزية والخراج فهي إشاره إلى فئتين من المواطنين في البلد الإسلامي، فأهل الجزية إشاره إلى غير المسلمين من أهل الكتاب الذين يعيشون في كنف الحكومه الإسلاميه ويدفعون ضرائب سنويه، وهي في الغالب مبلغ زهيد، للحكومه، وفي مقابل ذلك تتولى الحكومه الإسلاميه الدفاع عن حقوقهم وحفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

والقسم الثاني هم الزراع الذين يتولون زراعه الأراضي المتعلقه بالمجتمع الإسلامي، (وتدعى الأراضي الخراجيه) ويقومون بأمر الزراعه والبستنه في مقابل دفع مبلغ من المال في كلّ عام بعنوان الخراج، وهو في الواقع ثمن اجره تلك الأراضي.

أما التجار وأهل الصناعات الذين يذكّهم الإمام عليه السلام بوصفهم شريحه مهمّه من شرائح المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت وكذلك في هذا العصر، الإمام يوصى بعده وصايا في هذه الرساله العهديه فيما يتعلق بهم.

وآخر فئه من الفئات السبع هي الطبقة السفلى ويتشكّلون من العجزه والمسنين والمعاقين وأهل الحاجات الخاصه الذين يؤكّد الإمام عليه السلام كثيراً في هذه الرساله على ضروره الاهتمام بأمرهم أكثر من أي فئه أخرى من هذه الفئات السبع التي ذكرها الإمام عليه السلام في كلامه.

تأمل

الشرائح الاجتماعيه

يعبر عنها أحياناً الطبقات الاجتماعيه، كلمه «طبقه» في اللغه تأتي لمعانٍ كثيره

ص: ٣٥٦

مقاربه، من قبيل: جماعه، مرتبه، نسل، صنف، وطبقات الأرض أو طبقات البنايه، وفي هذا المقطع من الرساله جاءت بمعنى الشريحه الاجتماعيه، ولكن هذه المفرده تستخدم فى عصرنا الحاضر للإشاره إلى الفئات التى تعلق كل واحد منها على الأخرى فى الامتيازات والمقامات، ومن هنا فإن الحياه الطبقيه تشير إلى الحياه التى يعيش فيها جماعه من الأثرياء وجماعه من الفقراء فى المجتمع، ومن هذه الجبهه يتبادر إلى الذهن مفهوم سلبي عن هذه الكلمه، وطبعاً فإن هذا المفهوم السلبي ليس هو المعنى اللغوى فى الأصل، وكلام الإمام عليه السلام بدوره لا يشير إلى هذا المعنى السلبي للطبقيه.

وهذه الكلمه من ماده «طبّق» وتعنى المساواه بين شيئين، ولذلك تستخدم كلمه المطابقه والتطابق بهذا المعنى.

وربما يتصور البعض وجود مجاميع وفئات أخرى فى المجتمع البشرى لا ينصون تحت أى عنوان من هذه العناوين السبعه، ومن ذلك: طبقه العمّال، الاستخبارات، عمّال الحسبه، وهم الأشخاص الذين يتولون الإشراف على الأمور الأخلاقيه فى المجتمع والمسؤولين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأمثال ذلك.

ولكن مع التدقيق فى المسأله يمكننا إدخال كل هذه الفئات تحت مجموعه من هذه المجاميع السبع المذكوره، مثلاً عمّال الحسبه يدخلون تحت مظلّه جماعه القضاة، والعمّال يندرجون فى فئه «أهل الصناعات»، والكسبه يدخلون تحت عنوان التجّار، وأفراد الاستخبارات تحت عنوان «عمّال الإنصاف والرّفق».

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوَلَاءِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَأَقْوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقَوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُضِلُّهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ. ثُمَّ لَأَقْوَامَ لَهُدَّيْنِ الصَّنَفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّلَاثِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْعُمَالِ وَالْكَتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاوِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمُونَ عَلَيْهِ مِنْ حَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا. وَلَا قَوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتَّجَارِ وَدَوَى الصَّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفِّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رَفْقٌ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينِ الَّذِينَ يَحْتَقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَبْعَةٍ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُضِلُّهُ، وَلَيْسَ يُخْرِجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقَلَ.

الشرح والتفسير: الأواصر بين الطبقات الاجتماعية

أشار الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من هذه الرسالة إشاره إجماليه شامله إلى سبع فئات أساسيه فى المجتمع الإسلامى، ثم شرع فى هذا المقطع والمقاطع التاليه بشرح الوظائف والمسؤوليات الملقاه على عاتق على كل واحده من هذه الفئات، وبما أن قوات الأمن والجيش تعد أهم ركن من أركان المجتمع فقد بدأ الإمام عليه السلام

بهذه الشريحه.

يقول عليه السلام:

«فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعِزُّ (١) الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ».

فى هذه الجملة الوجيزه يبين الإمام عليه السلام خمسة نتائج ايجابية ومعطيات مهمه لوجود أفراد الأمن والجيش المخلصين.

الأولى: أنهم حصون الرعيه، وهذا يعنى أن البلاد ومن أجل حفظها من خطر الأعداء تحتاج إلى حصن حصين وملجأ آمن، وهذا الحصن والملجأ يتمثل بأفراد الجيش الإسلامى المقتدر، لأن كل أشكال الضعف والفتور فى القوات العسكريه يؤدى إلى طمع الأعداء ويورث أنواع المشكلات للمجتمع الإسلامى، وفى الماضى وبما أن الأسلحة كانت بسيطه جداً وابتدائيه فإن وجود الحصون والقلاع القويه من شأنه أن يمنع الكثير من الأخطار والأضرار، رغم أن وجود هذه الحصون فى هذه الأيام ومع تطور الأسلحة من طائرات حربيه وصواريخ ومدافع بعيدة المدى لم يعد مؤثراً كثيراً فى ميزان القوى.

الثانية: يعتبر الإمام عليه السلام أن الجيش زينه القياده والحكوم، لأن الحاكم أو القائد يحضى باحترام عامه الناس ويملك القدره والنفوذ فى أمر الولاية، وهذه القدره تتمثل فى الدرجة الأولى بوجود جيش قوى ومطيع لأوامر القياده.

الثالثة: أن الجيش سبب عزه الدين وقدرته، وهذه إشاره واضحه إلى هذه الحقيقه، وهى أن الأمور المعنويه للناس لا تيسر من دون وجود جيش قوى وفاعل، وقسم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإحقاق الحقوق وإجراء الحدود وبسط العدل وإقامه القسط، يحتاج إلى القدره الكافيه لتجسيدها وترجمتها

ص: ٣٦٠

١- (١). «عزّ» و «عزیز» من ماده «عزت» تعنى فى اللغه كلّ شىء يصعب الوصول إليه، ومن هذه الجهه يقال للأرض التى يصعب عبورها أو إيجاد الشق فيها أرض «عزاز»، وكذلك يطلق على كلّ شىء يصعب الوصول إليه بسبب قلته فيقال عزير، وكذلك يطلق على الأشخاص الأقوياء الذين يصعب التغلب عليهم أو يستحيل الغلبه عليهم، ولذلك تأتى «عزه» بمعنى القدره والندرته، وأيضاً بمعنى الثمين، وفى العبارة أعلاه جاءت بمعنى القدره.

على الأرض والواقع الاجتماعى، وهذا مرتبط بوجود جيش قوى.

الرابعة: يتحدّث فيها الإمام عليه السلام عن حالة الأمن الذى يتحقق بواسطة الجيش القوى، ويشير إلى أنّ الجيش القوى ليس فقط يتولى اخراج العدو من أراضى المسلمين: بل «تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»^(١)، أى يخيف أعداء الداخل أيضاً، أو بمعنى أنّ الجنود فى هذا المورد أعم من قوى الأمن والجيش، أو يراد بذلك أنّ الحكومه الإسلاميه وفى موارد استثنائيه لا تتمكن فيها قوات الأمن والشرطه من تحقيق الأمن فى ربوع المجتمع الإسلامى، فإنّها تعتمد على الجيش فى هذا الأمر لتحقيق الأمن فى فضاء المجتمع.

الخامسه: يقول الإمام عليه السلام: إنهم قوام الرعيه، وربّما تكون هذه الجمله بمشابه النتيجة لما سبق بيانه فى الجمل الأربع السابقيه، ويحتمل أيضاً أن تكون جملته مستقله، والمراد منها أنّ الجيش فى الكثير من المواقع يهب لمساعدته الناس فى الزلازل والسيول والحوادث الطبيعيه الصعبه، بحيث تضطر الدوله للإستعانه بقوات الجيش لمساعدته الناس.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الإرتباط الوثيق بين هذه الفئه من المجتمع مع الفئات الأخرى، ويتحدّث عن الرابطه بين الجيش وعمال الخراج:

«ثُمَّ لَأَقْوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُضِيلُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ».

ويستفاد من تاريخ الإسلام أنّ الجيش الإسلامى لم يكن فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل شريحه منفصله ومستقله عن المجتمع، بل إنّ كلّ أفراد المجتمع من الشبان والشيوخ، الكبار والصغار الذين يستطيعون حمل السلاح يهبون للدفاع عن الإسلام والمسلمين فى مقابل الأعداء ويتجهون مع النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى ميادين الحرب والقتال، وفى الغالب يهيئون سلاحهم ودوابهم بأنفسهم، ومعلوم أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله

ص: ٣٤١

١- (١). سورة الأنفال، الآية ٦٠.

وقبل حركة الجيش نحو ميدان القتال يأمر بتجهيز الزاد والمتاع لأفراد الجيش من طريق الزكاه والتبرعات التي يقدمها المسلمون فى سبيل الله.

ولكن فى العصور اللاحقه وبعد أن اتسعت الدوله الإسلاميه وإمتدت إلى مساحات وبلدان كبيره ولضطرت الحكومه لتجهيز جيش مدرّب ومهنى لمقابله الأعداء، واضطر المسلمون لتنظيم جيشهم وتوفير المعسكرات اللازمه له (١).

وأساساً فإنّ مدينه الكوفه عرفت بأنّها «كوفه الجند» وكانت بمثابة معسكر كبير للجيش الإسلامى.

طبعاً كان الأفراد العاديون يلتحقون بالجيش فى المواقع الحساسه ويؤدّون دورهم تحت عنوان الجهاد فى سبيل الله والذى هو وظيفه جميع الأفراد القادرين على الجهاد.

على أيه حال فإنّ هذه الفئه التى وضعت نفسها فى خدمه الإسلام وحفظ ثغور المسلمين والدفاع عن حياضهم ينبغى أن يعيش أفرادها الطمأنينه وفراغ البال من معيشتهم وممّا يحتاجونه فى حياتهم الماديه، ولذلك وضع الإسلام ضرائب خاصه تدعى بالخراج وكذلك وضع سهماً من الزكاه بعنوان: فى سبيل الله، لهؤلاء الجند.

والجمل الثالث المذكوه أعلاه ربّما تكون إشاره إلى حاجات الجند المختلفه، فجمله

«الَّذِينَ يَقْوُونَ بِهِ عَلَىٰ جِهَادٍ عَدُوَّهُمْ» إشاره للحاجات التى تتصل بالحرب والقتال من قبيل السلاح والمركب.

وجمله:

«وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصَلِّحُهُمْ» إشاره لتأمين ضروريات الحياه.

وجمله:

«وَيَكُونُ مِنْ وَّرَائِهِ حَاجَتِهِمْ» إشاره إلى الأمور الترفيهيه، وذهب بعض الشراح إلى أنّ المراد من هذه الجملة أنّ أفراد الجيش لابدّ أن يكون لهم مرتب مستمر وحقوق ماليه من شأنها رفع جميع حاجاتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن إرتباط هاتين الفئتين مع الفئه الثالثه والرابعه والخامسه، أى

ص: ٣٤٢

القضاء والموظفين والمحاسبين، ويقول:

«ثُمَّ لِقَوَامِ لِهَذَيْنِ الصَّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّلَاثِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْعَمَالِ وَالْكَتَابِ، لِمَا يُحْكَمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ (١)، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا».

وفى الواقع أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارة النورانيه أدغم ثلاث فئات من الفئات الاجتماعيه فى صنف واحد، وبعنوان الصنف الثالث فى مقابل الصنفين السابقين، أى الجيش وعمال الخراج، وذكر لكل واحد من هذه الأصناف أثر اجتماعى مهم.

فبالنسبه للقضاء يقول عليه السلام: إنهم يعملون على إحكام العقود، لأنه لولا إشرافهم ومراقبتهم لهذه العقود والمواثيق فإن الكثير من الناس يجدون الفرضه فى عدم الالتزام بعهودهم، ولكن وجود المحاكم العادله يعمل على ضبطهم والتزامهم بالعقود، لأنهم سيكونون ملاحقين من قبل المحاكم ويعاقبون على مخالفتهم.

ويتحدث الإمام عليه السلام عن العمال أى الموظفين والولاه والمسؤولين الذين يتولون الإشراف على جمع المنافع، فصحيح أنّ المأمورين على جمع الضرائب والخراج يتحركون على مستوى جمعها وإرسالها لبيت المال، ولكن المشرف على أعمالهم وسلوكياتهم هم العمال، يعنى الولاه ورؤساء مجالس المحافظات والنواحى التابعه لهم.

ويبين الإمام عليه السلام فائده وجود الكتاب، وذلك فى ضبط الأمور العامه والخاصه والنفقات وحساب بيت المال والميزانيه فى الحكومه الإسلاميه، وعندما تتضامن وتتكاتف هذه الفئات الثلاثه فسيتم إصلاح أمر الخراج والضرائب، ومع إصلاحها سيتم إصلاح وضع الجنود وقوات الحرس والأمن.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ هذه الفئات الثلاثه صنف واحد وتتلخص فى القضاء والعمال، وما ورد فى الجمل الثلاثه يعود إلى القضاء، فى حين أنّهم ثلاث

ص: ٣٤٣

١- (١). «معاقِد» جمع «معقِد» على وزن «مسجد» فى الأصل بمعنى محل العقده فى الخيط أو الحبل، ثم اطلقت على كل معامله وعقد اعتبارى لمناسبه وجود عقده تربط بين الطرفين، والجذر الأصلى لها «عقد» بمعنى ربط الطرفين.

فئات اجتماعيه قطعاً، وسبق أن أشار إليها الإمام عليه السلام في كلامه، وفي هذا المورد أيضاً، ذكر الإمام عليه السلام وظيفه وبرنامج كل واحد منها، بالرغم من وجود الارتباط القريب والوثيق بينها، ومن هنا ذكرت هذه الفئات بوصفها صنف ثالث.

وربما يطرح هذا السؤال نفسه، وهو أنّ الإمام عليه السلام سبق وأن أشار إلى صنفين، وطرح مسأله جمع الخراج بوصفها الصنف الثاني فكيف يكون العمّال هنا واحده من الفئات الثلاثة التي يتشكل منها الصنف الثالث؟

والجواب على هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام كان يتحدّث في بدايه كلامه عن الجيش والمزارعين الذين يزرعون الأراضي الخراجيه ويدفعون الخراج إلى الحكومه، ولكنّه في هذا المورد يتحدّث عن عمّال الدوله، أي الولاة والمحافظين الذين يقع على عاتق أمر الإشراف على جمع الخراج ويتصدى موظفيهم لجمعه.

والجدير بالذكر أنّ العمّال جمع «عامل» وردت في كلمات الإمام عليه السلام كرات عديده ويراد بها منصب المحافظ والقائم مقام وغير ناظر إلى ما ورد في القرآن الكريم في مورد الزكاه من قوله: «

عَامِلِينَ عَلَيْهَا» أي المأمورون على جمع الزكاه.

والتعبير بـ «

خَوَاصُّ الْأُمُورِ وَعَوَامُّهَا» إشاره إلى أنّ عمل الكتاب تاره يتحدد في إثبات وضبط المسائل السريّه، وأخرى يرتبط بإثبات النفقات والموارد الماليه الاعتياديّه، فهؤلاء يتولون وظيفه حفظ الاسناد والوثائق وترتيبها، وكذلك حساب النفقات والواردات.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام إرتباط فئه أخرى مع الأصناف السابقه ويقول:

«وَلَمَّا قَوَّامٌ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتِّجَارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ (١)، وَيُقِيمُونَ مِنْ أَسْيَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرْفُقِ (٢) بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقٌ غَيْرِهِمْ».

ص: ٣٦٤

١- (١). «مرافق» جمع «مرفق» على وزن «مسجد» وكذلك جمع «مرفق» على وزن «محور» ويعنى الأمور التي ينتفع بها الإنسان.
٢- (٢). «الترفق» يعنى الاستفادة والانتفاع من الشىء، وجمله (ما لا يبلغه رفق غيرهم) إشاره إلى أنّ الله تعالى قد خلق للإنسان قابليات وملكات مواقع اجتماعيه مختلفه، فكثير من الأعمال التي يستطيع البعض القيام بها لا يستطيع البعض الآخر، وهذه هي طبيعه الحياه الاجتماعيه، بحيث إنّ كل شخص يشتغل بعمل ينسجم مع استعداده وطاقاته، والآخرين ينتفعون من عمله وينتفع بدوره من أعمالهم وطاقاتهم.

ومعلوم أنّ جملة: »

فِيمَا يَجْتَمِعُونَ...» و »

يُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ» إشاره إلى التّخيار والكسبه الذين يقع على عاقتهم تجميع وتوفير ما يحتاجه الناس من المناطق القريبه والبعيده وعرضها في الأسواق ووضعها تحت اختيار المستهلكين، ولكن جملة »

وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرْفُقِ بِأَيْدِيهِمْ...» إشاره إلى أهل الصنائع الذين يوفرون بتعبهم وعملهم الوسائل التي تحتاجها الناس في معيشتهم، وذلك بصناعتها بأيديهم (طبقاً لظروف ذلك الزمان) ويضعونها في اختيار من يحتاجها من الناس.

وربّما يتصور البعض أنّ التّخيار ليس لهم دور مهم في حياه الناس، فلا يقومون بعمل إنتاجي ولا صناعي، ولا يعملون بالزراعه والرعى، فكيف جعلهم الإمام عليه السلام من أركان المجتمع البشري، ولكن إذا كان التاجر ملتزماً بالقيم الإيمانيه والأخلاقيه فإنّه يلعب دوراً مهماً في نسيج المجتمع، لأنّه من جهه يقوم بتوفير الأجناس والبضائع من مناطق مختلفه من العالم لا تتوفر في مناطق أخرى، فلو أنّ الناس أرادوا الانتفاع من جميع النعم والبركات الإلهيه على الأرض، فينبغي أن تتولى جماعه نقل هذه البضائع التي يحتاجها الناس من نقطه إلى أخرى، وهذه الجماعه هم التّجار، ومن جهه أخرى ففي الموارد التي يتولى فيها أهالي المدينه الواحده إنتاج ما يحتاجونه من البضائع واللوازم المعيشيه فإنّ المنتجين في الغالب لا يستطيعون عرض ما ينتجونه في السوق ويبيعونه إلى المشترين، بل يضطرون لبيع منتوجاتهم جملة واحده لشخص يملك رأس مال كافٍ، ويتولى ذلك الشخص بيعها إلى الكسبه في السوق، والكسبه بدورهم يبيعونها إلى المشترين.

ومن جهه ثالثه فإنّ الكثير من المحاصيل الزراعيه والمنتوجات الصناعيه التي ربّما لا يتسنى لها التصريف والبيع في محل إنتاجها وينبغي جمعها وعرضها على السوق، فهنا يجب أن تتولى جماعه هذا العمل على أساس أنّه من الصادرات

والواردات، وهذه الجماعه هم التجار وبخاصه المحاصيل التي تحتاج في حفظها وإدخالها إلى مخازن مجهزه خارجه عن عهده المنتج وأرباب الصناعات، فالتجار لهم دور مهم في هذه الأمور الثلاثه، وهذا يعنى أن وجود هاتين الواسطتين «التجار والكسبه» ضرورى لغرض تداول أموال المحاصيل والمنتجات بشكل صحيح، ولكن إذا تعددت الوسائط وأرادت كل جماعه أن تستغل التجار بدون أن توفر عملاً إيجابياً وتريد زياده ثمن البضاعه أو المنتجات الزراعيه والصناعيه، أو يقوم بعض التجار والكسبه باحتكار البضائع أو تداولها من يد إلى أخرى وتشكيل سوق سوداء بأثمان زائفه ووهميّه، فذلك يعدّ انحرافاً في التداول الاقتصادي للمال ولا يرتبط بمسأله التجاره.

ولهذا السبب نرى أن جميع الحكومات جعلت إحدى الوزارات باسم وزاره التجاره من أجل الإشراف على أمر التجاره، بل تساهم في مدّ يد العون للتجار واعطائهم رؤوس أموال لازمه للقيام بعمليّته الصادرات والواردات، وهذا العمل يمثّل في الواقع حلقة مكمله لعمل أصحاب الصناعه والزراعه والرعى.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام عن الطبقة الدنيا في المجتمع ويقول:

«ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ (١) وَمَعُونَتُهُمْ».

ومن المعلوم أنّ في كلّ مجتمع بشري هناك أفراد لا يستطيعون العمل والكسب وهم مستهلكون فقط، وذلك بسبب الشيخوخه، المرض المزمن، الإعاقة في الأعضاء، وبسبب الحوادث المختلفه، المتخلفون ذهنياً وعقلياً وأمثالهم من ذوى الحاجات الخاصه، فالكثير من أفراد هذه الفئة كانوا في السابق وفي أيام الشباب يعيشون سلامه الجسم والروح ومن المنتجين والفاعلين في المجتمع، ولكن بسبب مرور الزمان والحوادث المختلفه صاروا بهذه الحاله، فلا العقل ولا الوجدان يقبل أن يهمل هؤلاء ولا تتمّ حمايتهم على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، ولهذا السبب

ص: ٣٦٦

١- (١). «رِفْدٌ» يعنى العطاء والعفو.

نجد في كفافه أقطار الدنيا أنهم يفتحون حساباً خاصاً لهؤلاء المقعدين ويخصصون قسماً من ميزانيته الدوله لانفاقه عليهم ويفتحون لهم مراكز لاحتضانهم وحمايتهم، وقد وردت التوصيات الأكيده في الإسلام فيما يتصل بالتواصل مع هذه الفئة المحرومه، وقد فرضت الشريعه الإسلاميه سهماً خاصاً لهم من الخمس والزكاه.

أضف إلى ذلك لو اهتمت هذه الشريحه فإن ذلك من شأنه إفراز مشكلات مهمه لباقي الشرائح والفئات الأخرى في المجتمع، فمن جهه ربّما يسعى أفراد هذه الفئة المحرومه ومن أجل تأمين معيشتهم، لإرتكاب جرائم مختلفه وسلوك طريق الانحراف والجنوح، أو ترى الفئات الأخرى حال هؤلاء فيؤثر ذلك على معنوياتهم ويفكرون في أنهم إذا حلّ بهم يوماً ما حلّ بهؤلاء فماذا يكون مصيرهم؟ ولكن عندما يرون أنّ الحكومه والمجتمع سيعتنى بهم ويهب لحمايتهم في حال إعاقتهم وعجزهم عن العمل والكسب، فإنهم سيعيشون الأمل في مستقبلهم.

وعبارهُ »

أهل الحَاجَةِ وَالْمَسِيكِيْنَهُ...» إشاره إلى طائفتين: أهل الحَاجَةِ هم الأشخاص الذين يعملون للكسب وتوفير المعيشه ولكنّ عائلهم المالى لا يسدّ نفقاتهم، وأهل المسكنه إشاره إلى العجزه والمقعدين الذين ليس لهم وارد مالى ولا يتمكنون من العمل مطلقاً.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام وضعيه الترابط بين هذه الطبقات الاجتماعيه، أشار إلى نقطه مهمه وقال:

«وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ».

وهذه إشاره إلى أنّ جميع هذه الطبقات والفئات ومن أجل التوصل لتحقيق مرادهم، فإنهم يستمدون المعونه من مصدرين: الأول: مصدر الخلق والرزق، وهو الله الذى خلق كلّ هذه المواهب والنعم والإمكانات فى هذا العالم، وكل واحد من هذه الفئات بإمكانها الانتفاع من هذه المواهب من خلال السعى وبذل الجهد، هذا بحسب عالم التكوين، أمّا بحسب عالم التشريع، فالحكومه الإسلاميه موظفه بمدد يد العون لجميع هذه الفئات لإيصالها إلى مقاصدها، لأنّ الحكومه تملك القدره المائيه

ص: ٣٦٧

من جهه، وتملك من جهه أخرى أخرى القدره التنفيذيه، وبإمكانها من خلال هاتين القدرتين مساعده جميع الطبقات الاجتماعيه.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى كيفية أداء الوظيفه الشرعيه للوالى بصوره صحيحه، ويقول:

«وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِى مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِهْتِمَامِ وَالِاشْتِعَانِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ (١) نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا حَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ».

وفى الواقع ذكر الإمام عليه السلام ثلاثه شروط لنجاح الوالى فى أداء وظيفته فى مقابل هذه الفئات الاجتماعيه وقال: الشرط الأول: السعى وبذل الجهد فى هذا السبيل، الشرط الثانى: الاستمداد من لطف الله وكرمه، والشرط الثالث: الاستعداد لتحمل الصعاب والمشكلات فى هذا الطريق، ومعلوم أنّ الوالى إذا توكل على الله تعالى وسعى جاهداً ومخلصاً، ولم يتردد فى طريق أداء الوظيفه من مواجهه المشكلات والتحديات، فإنّه سينجح فى عمله وسيكتب له التوفيق فى إدارته.

ص: ٣٦٨

١- (١). «توطين» يعنى دفع الشخص باتجاه معين و «توطين النفس» يعنى جعل النفس تعمل العمل الفلانى، فى الأصل من ماده وطن، وكأنّ الإنسان يجعل هذا العمل وطناً له ويتوقف فيه، وتأتى هذه المفرده أحياناً بمعنى الاعتياد على شىء أيضاً.

قَوْلٌ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْبًا، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُدْرِ، وَيَزْأَفُ بِالضُّعْفَاءِ، وَيَشْوِي عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَمَّا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلَمَّا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعِيفُ. ثُمَّ الصِّيقُ بِسَدْوَى الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسِيَابِ، وَأَهْلِي الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِي النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاخَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدَ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَقَّمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّبَتْهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بِيْذْلِ النَّصِيحَةِ لِمَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلَمَّا تَدَعَّ تَفَقَّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالَاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ.

الشرح والتفسير: شروط قادة الجيش

في هذا المقطع من الرسالة العهديه يتحدث الإمام عليه السلام بالتفصيل عن شروط قادة الجيش، وهذا من قبيل ذكر التفصيل بعد الاجمال، وفي المجموع يذكر الإمام عليه السلام أربعة عشر صفة لقاده الجيش، ويقول:

«قَوْلٌ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْبًا (١)، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا».

ص: ٣٦٩

١- (١). «جيب» في الأصل بمعنى الشق في الثوب من جهة الصدر، وبما أن هذا القسم من الثوب يكون على الصدر، والصدر بدوره مجاور للقلب، فستخدم هذه المفردة على الصدر وأحياناً أخرى على القلب.

وهذه الصفات الثلاث اللازم توفرها في قادة الجيش، تؤدي: أولاً: أن يعيش القائد العسكري هاجس الحقّ ويفكر في نصره الدين واعلاء كلمه التوحيد ونصره النبي الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام عليه السلام، وثانياً: أن يسعى في هذا الطريق من موقع الإخلاص والتفاني، ثالثاً: يعمل على تدبير أمور الجيش بآليات المداراه والعقلانيه والخبره الكافيه.

مفرده «حلم» في هذا المورد يمكن أن تشير إلى العقل(1) ويحتمل أن تأتي بمعنى الصبر وضبط النفس، ولكن الجمل اللاحقه تقوى المعنى الثاني.

وبعد أن يذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات الثلاث يشير إلى صفتين آخرين، وهما في الواقع من باب التفصيل للصفه الأخيره، يقول:

«مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ».

وبديهي أن مراده عليه السلام ليس التساهل وقبول العذر في مقابل المسائل المهمه والمصيريه بل المراد التسامح في مقابل الأخطاء الجزئيه التي ربّما يمكن صدورها من جميع الأفراد، فالقائد العسكري يجب أن يتعامل مع هذه الأخطاء بدم بارد وبآليات التسامح وقبول العذر.

وفي سياق هذا الكلام يتعرض الإمام عليه السلام للصفه الرابعه ويقول:

«وَيَزَافُ بِالضُّعْفَاءِ، وَيَنْبُو (٢) عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ (٣) الْعُنْفُ، وَلَا يَتَعَدُّ بِهِ الضَّعْفُ».

وهذه الصفات الأخلاقيه من شأن الأشخاص الذين يتمتعون بشخصيه قويه وشجاعه، فمثل هؤلاء يتعاملون مع الضعفاء من موقع المحبه والشفقه، ويتحركون لحمايتهم ومدّ يد العون إليهم، أمّا في مقابل أصحاب القدره والثروه فإنهم يقفون موقفاً صلباً ولا يباطؤون برؤوسهم لهم، ويحلّون المشاكل التي تواجههم بآليات

ص: ٣٧٠

١- (١) . يقول القرآن الكريم في الكافرين: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ». (سوره الطور، الآيه ٣٢).

٢- (٢) . «يَنْبُو» من ماده «نَبُو» على وزن «نذر» في الأصل بمعنى عدم تأثير السيف والسهم وأمثال ذلك، ثم اطلقت على عدم التوافق وعدم التسليم، وفي العبارة أعلاه قصد بها هذا المعنى.

٣- (٣) . «لَا يُثِيرُهُ» من ماده «إثاره» بمعنى تحريك الشيء أو دفعه باتجاه معين.

العقل والتدبير والحزم، ولا يبدون حالات الضعف والتراجع أمام أى شخص وأى عمل.

وبعد أن بين الإمام عليه السلام هذه الصفات التسع، يشير إلى ثمان صفات أخرى لابد أن يتمتع بها القائد اللائق أو الوالى المحنك، ويقول:

«تُعَمُّ الصِّقُّ بِمَدْوَى الْمُرُوءَاتِ وَالْأَخْسِيَابِ، وَأَهْلِيلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحِيهِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنِهِ، تُعَمُّ أَهْلِيلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاخَةِ».

«مُرُوءَاتٍ» جمع «مروه» من ماده «مرء» وتأتى عادة بمعنى أصحاب الشخصية المتميزه.

»

أَخْسِيَابٍ» جمع «حَسَب» إشاره إلى أصاله النسب والأبعاد الإيجابيه فى الوراثة، كأن نقول إنَّ الشخص الفلانى من طائفه بنى هاشم ومن السادات المحترمين.

»

أَهْلِيلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحِيهِ» إشاره إلى الأسر والعوائل النظيفه والمرموقه فى المجتمع.

و

السَّوَابِقِ الْحَسَنِهِ» ناظره إلى الأسر التى تملك سمعه حسنه، ليس فقط فى هذه الأيام بل فى الماضى بسبب أعمالهم الصالحه بحيث إنهم تركوا سمعه حسنه فى الذهنيه العامه.

»

النَّجْدَةِ» فى الأصل تعنى الارتفاع وفى هذا المورد تعنى الرفيع فى المقام والكبير فى الروح والعالى فى مكانته الاجتماعيه.

»

السَّجَاعَةِ» وتعنى من يملك الجرأه فى مواجهه الصعوبات.

»

السَّخَاءِ» يعنى الكرم والجود.

و

السَّمَاحِيَّةُ تعني سعة الصدر والتحلّي بالحلم.

وعلى هذا الأساس فإنّ لكلّ وحده من هذه الكلمات الثمان معنًى مختلفاً وتشير إلى إحدى الفضائل والصفات المتميِّزة للإنسان، رغم أنّ بعض شراح نهج البلاغة

ص: ٣٧١

ذهبوا إلى أن بعض هذه الكلمات مترادفه، مثل: «النجده» و «السخاوه»، وكذلك:

«السخاء و «السماحه»، وهكذا في «أحساب» و «أهل البيوتات الصالحه».

وعبارته »

ألصق» إشاره إلى الروابط القريبه والعلاقات الوثيقه، وهذا يعنى لزوم إيجاد رابطه عميقه مع هذه الجهات التى تملك هذه الخصائص المتميزه لغرض اختيار قاده الجيش منها.

ولا شك أن الأشخاص الذين يملكون مثل هذه الصفات المتميزه يكونون جديرين بالاعتماد عليهم ويتحركون بفاعليه أكثر فى مسأله كسب النصر والظفر.

أمّا الحسب والوراثه وحسن السابقه والأعمال التى تشير إلى الحلم والشجاعه والسخاء والفتوه فإنّها تصلح أن تكون دليلاً على شخصيه صاحبها الساميه، وفى الحقيقه فإنّ الإمام عليه السلام فى هذا المورد يتحدّث بمنطق علم النفس والتحليل النفسى ليمكن مالك الأشر من اختيار أفضل الرجال لقياده الجيش.

ومن هذه الجبهه يواصل الإمام عليه السلام كلامه ويقول:

«فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ (١) مِنَ الْكُرَمِ، وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ».

كلمه »

عُرف» إشاره إلى جميع أنواع المحاسن والفضائل، وهذه المفرده من ماده «عرفان» و «معرفة» وتأتى بمعنى المعروف أيضاً، وبما أنّ الفضائل معروفه لدى عقل الإنسان وروحه، فقد وردت التعبير عنها بالمعروف أو العرف، خلافاً للقبائح والردائل التى لا تتناسب وفطره الإنسان النقيه، فهى أمور منكره وغير معروفه، فيقول الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إنّ الأشخاص الواجدون لهذه الصفات الثمان يمثلون مركزاً مجسداً للفضائل والصفات الإنسانيه المتميزه.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات المهمه والمتميزه، يتحرك على مستوى بيان أربع توصيات لقاده الجيش فيما يتصل بسلوكهم ونشاطهم بدايه يقول:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا».

ص: ٣٧٢

١- (١). «جماع» كما قلنا سابقاً إنّها فى الأصل مصدر، وفى هذه الموارد جاءت بمعنى الوصف أى الجامع والمجمع.

وعلى ضوء ذلك فقائد الجيش ينبغي أن يتعامل مع القاده فى المراتب الأدنى، بل مع جميع أفراد الجيش، كالوالد الحنون والأم العطف، ويتواصل معهم من موقع المحبة والسؤال والاستفسار عن حاجاتهم وتعميق العلاقة العاطفية معهم فيما يتسبب فى بقاء وفائهم وإخلاصهم وطاعتهم لقائد الجيش وثباتهم فى ميدان القتال.

ويضيف الإمام عليه السلام فى التوصية الثانية:

«وَلَا يَتَّفَاقَمَنَّ (١) فِى نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ».

وهذه إشاره إلى أن خدماتك مهما تكن كبيره وكثيره فينبغى أن تعدّها صغيره وتفكر فى الإتيان بالأفضل منها.

وفى التوصية الثالثة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ (٢) بِهِ وَإِنْ قَلَّ».

ثم يقيم الإمام عليه السلام دليلاً لهذه المقوله (وهى الاهتمام بالأمر الكليّ والجزيّ لقاده الجيش والجنود) ويقول:

«فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَىٰ بَدْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ».

وفى التوصية الرابعة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَدْعُ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَىٰ جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ».

وهذه النقطه جديره بالانتباه والتدقيق، وهى أن القاده بل جميع مدرء المجتمع الإسلامى لا ينبغى أن يغفلوا عن الأمور الصغيره والكبيره، أو يهتموا فقط بالأمر الكبيره والمصيريه ويعتنوا بالحاجات المهمه للمجتمع، بل يضعون كلّ واحده فى مكانها، لأنّه أحياناً تكون الغفله عن الأمور الفرعيه مضرّه بقدر الغفله عن الأمور الكليّه.

والنقطه الملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام فى جميع المسائل السابقه وبدلاً من اهتمامه

ص: ٣٧٣

١- (١). «لَا يَتَّفَاقَمَنَّ» من ماده «تفاقم» بمعنى الكبير والخطير، من ماده «فقم» على وزن «فهم».

٢- (٢). «تَعَاهَدْتَهُمْ» من ماده «تعاهد» ومن ماده «عهد» وأحياناً تأتي بمعنى إيجاد العقد والمعاهده، وأخرى بمعنى القوامه على الشىء وبالاهتمام به، وما جاء فى بعض الروايات أنّ المسلم عندما يدخل إلى المسجد يتعاهد النعالين، إشاره إلى هذا المعنى والتحقق فى نعليه لئلا يكونا ملوثتان، وجاء فى حديث شريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «تَعَاهَدُوا نِعَالَكُمْ عِنْدَ أَبْوَابِ مَسَاجِدِكُمْ» (بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ٣٦٧). وجاءت فى عبارته أعلاه بهذا المعنى أى الاهتمام بأمر الجيش.

بمسائل التعليم والعسكري والأمر المتعلقه بالأسلحه وأمثال ذلك يهتم بالأمر المعنوي والأبعاد الروحيه لقاده الجيش، لأن العنصر الأساس في تحقيق النصر هو هذه الأمور رغم أن الأمور الأخرى لها مكانها المناسب.

في عالمنا المعاصر قلما يُبحث، في مسأله اختيار القاده العسكريين ومدراء المجتمع، عن الخصائص العائليه والصفات المعنويّه وحالات الكرم والتقوى والطهاره من الرذائل في شخصيّه الأفراد، ومن هذه الجبهه حدثت الكثير من الخيانات الكبيره من قبل هؤلاء المدراء والمسؤولين الكبار.

ص: ٣٧٤

إشاره

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَسَّاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلُ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ، بِمَا يَسِعُ عَنْهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هُمُومٌ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعِدُوِّ؛ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قَرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاهِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامِهِ صُدُورِهِمْ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وُلَاهِ الْأُمُورِ، وَقَلَّةِ اسْتِثْقَالِ دَوْلِهِمْ، وَتَزَكِّيِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أُبْلِيَ دَوُو الْبِلَاءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ مَا أُبْلِيَ، وَلَا تَضْمَنْ بِلَاءَ امْرِيٍّ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بِلَائِهِ، وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفُ امْرِيٍّ إِلَى أَنْ تُغْظِمَ مِنْ بِلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا، وَلَا ضَعْفُ امْرِيٍّ إِلَى أَنْ تَسْتَضَعِرَ مِنْ بِلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا.

الشرح والتفسير: أفضل قادة الجيش

في هذا المقطع من الرسالة يتابع الإمام عليه السلام توصياته في اختيار قادة الجيش، ويتجه نحو الاهتمام بأمر الجند وأفراد الجيش ويوصي مالك الأشر باختيار القادة والضباط من الذين يهتمون بأمر الجيش بشكل أفضل، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ آثَرُ (١)»

ص: ٣٧٥

١- (١). «آثر» صيغته أفعل التفضيل، وتعني الأفضل، من مادة «إيثار» وتعني أفضيله الآخر وترجيحه على النفس.

رُءُوسِ جُنُودِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسِيَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ (١)، بِمَا يَسِدُّهُمْ وَيَسِعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ (٢) أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ.

وفى عالمنا المعاصر نرى أنّ العلاقة بين قادة الجيش والجنود تتميز بالجفاف وانعدام الاحساس العاطفى، وتكون العلاقة عسكريه أكثر منها عاطفيه، فمثل هذه العلاقة تدور فى الغالب حول محور العقوبه والسجن والتهديد، فى حين أنّ الإمام عليه السلام أكد قبل أربعة عشر قرناً على أن تكون العلاقة عاطفيه، وينبغى على قادة الجيش أن يأخذوا بنظر الاعتبار مشاكل الجنود وحتى مشاكل عائلاتهم أيضاً ويوفروا لهم معيشه مقبوله وبالمقدار الممكن، كيما يتحرك الجنود فى ميدان القتال بالتركيز على مسأله الجهاد وقتال الأعداء لا غير، وبديهي أنّ مثل هذا الجيش سيكون أقرب لتحقيق النصر والغالبه.

عندما ينظر الجيش بعين إلى ميدان المعركه وبالعين الأخرى إلى الأهل والأولاد ويعيشون القلق تجاههم فإنّ إرادتهم على قتال العدو ستضعف وترتبك.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام راعى فى حياته الشخصيه الحد الأعلى من الزهد وقد أمر الولاة والقاده أيضاً بهذه التوصيه، وقد سبق الحديث عن ذلك فى شرح رساله الإمام عليه السلام لعثمان بن حنيف، ولكن بالنسبه للمجموعات الخاضعه لكفالتة أوصى بتوفير المعيشه الكافيه والمعقوله.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام فى مقام بيان العله لهذه التوصيه يقول:

«فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ».

ص: ٣٧٦

١- (١). «جِدَّة» بمعنى القدره المائيه، وهذه المفرده مصدر من ماده «وجود».

٢- (٢). «خُلُوف» جمع «خُلُوف» بمعنى من يبقيه المسافر فى بيته ووطنه ويتركهم ويسافر، وعاده تطلق على النساء والأطفال والصغار والعاجزين.

ومع الالتفات إلى أن الضمير في

«عَلَيْهِمْ» و

«قُلُوبُهُمْ» يعود إلى أفراد الجيش ظاهراً، فإنّ معنى هذا الكلام: عندما تتواصل مع أفراد الجيش بالمحبّة من خلال محبتك قاده الجيش فإنّ أفراد الجيش سيمنحوك حبّهم ووفائهم من صميم القلب (١).

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام هذا الكلام ويشير إلى نقطه مهمّة هي السبب في دوام الحكومه والدوله، ويقول:

«وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ».

وهذه إشاره إلى أنّ إقامه العدل والقسط تتسبب في تقوية العلاقات العاطفيّة بين الناس من جهة، والقاده والولاه من جهة أخرى، ولذلك يعتبر إقامه العدل أفضل وسيله لحفظ الحكومه ودوامها.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى عوامل ظهور المودّه والمحبّه من قبل الناس تجاه الوالى ويقول:

«وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ».

وسلامه الصدور إشاره إلى حسن الظن ونفى كلّ أشكال الحقد والعداوه، وبديهي أنّ الرعيّه إذا كانت تملك حسن الظنّ بأعمال الولاه والمسؤولين ولم يشعروا نحوهم بأى حقد وعداء، فإنّ مظاهر المحبّه والوفاء تجاه الحكومه ستظهر جليّاً.

وربّما تكون هذه العبارة إشاره إلى الكثير من الناس وبحكم الاجبار والخوف يتحركون على مستوى المدح والثناء للوالى والمسؤولين فى حين أنّهم لا يعيشون سلامه الظهر وحسن الظن بهم، فالموده الواقعيه لا تظهر إلّا إذا كانت القلوب تعيش الموده والمحبّه تجاه المسؤولين.

ويضيف الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ، وَقَلْبِهِ»

ص: ٣٧٧

١- (١). انظر إلى أنّ هذا الكلام ينطلق من العلاقة العاطفيّة بين قاده الجيش والجنود ولا ينطلق من علاقه مالك الأشر بأفراد الجيش، ولذلك جاء مرجع الضمائر أعلاه بشيء من عدم الاتساق والتناسب، ولكن إذا التفتنا إلى هذه الحقيقه وهى أنّ المرحوم السيّد الرضى قد حذف العبارات والجمل التي تقع فى مطاوى هذا الكلام وهى الجمل التي وردت فى كتاب «تحف العقول» وكذلك كتاب «تمام نهج البلاغه» فحينئذ يتبيّن أنّ الإمام عليه السلام كان قد أوصى مالك الأشر بالاهتمام بأموال قاده الجيش وقال: «ثُمَّ وَاتَرِ إِعْلَامَهُمْ ذَاتَ نَفْسِكَ فِي إِيْتَارِهِمْ وَالتَّكْرِمَةِ لَهُمْ، وَاللَّارْصَادِ بِالتَّوَسُّعِ وَحَقِّقْ ذَلِكَ بِحُسْنِ الْفِعَالِ وَالْأَثَرِ وَالْعَطْفِ فَإِنَّ

عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ». وبذلك يتبين أنّ ضمائر الجمع تعود إلى قاده الجيش وعلاقه مالك الأستر بهم. «فتدبر».

اسْتَيْقَالَ (١) دَوْلِهِمْ، وَتَوَكَّ اسْتَيْطَاءِ (٢) انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ».

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام ولأجل بقاء واستمرار الحكومات لا يعتمد على عنصر الاقتدار الظاهري وتسلط الجيش وقوى الأمن والاستخبارات على الناس، بل يعتمد تماماً على قلوب الناس والبعد العاطفي لهم ويهتم بكيفية كسب محبتهم وجذبهم، في حين أنّ الكثير من الحكومات في الماضي وحتى في الحال الحاضر يعتقدون أنّ بقاءهم على رأس السلطه منوط بالقدره الظاهريه على الناس، ونرى غالباً أنّ الناس الذين يعيشون عدم الرضا عن الحكومه بمجرد أن تتوفر لهم الفرصه فإنهم يثورون ضد الحكومه ويزيحونها ويلقونها في مزبله التاريخ.

وجاء في شرح نهج البلاغه للعلامة التستري أنّ الزهري قال: دخلت يوماً على عمر بن عبدالعزيز، فبينما أنا عنده إذا أتاه كتاب من عامله أنّ المدينه قد احتاجت إلى مرّمه، فقلت له: إنّ بعض عمّال علي بن أبي طالب كتاب بمثل هذا، فكتب عليه السلام إليه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَحَصَّنْهَا بِالْعَدْلِ وَتَقَّ طُرُقَهَا مِنَ الْجَوْرِ» فكتب (عمر بن عبدالعزيز) ذلك إلى عامله (٣).

ثم يتحدّث الإمام عليه السلام عن مسأله التشويق المادى ويقول:

«فَأَفْسَحْ فِي آمَالِهِمْ (٤)».

للآمال مفهوم واسع يشمل جميع الحاجات الضروريه والترفيهيه، وبديهي أنّ قادة الجيش والجنود إذا لم يعيشوا راحه البال والفكر من جهه تأمين معيشتهم فإنّ أداءهم العسكري في ميدان القتال سيشهد الضعف والفتور.

ص: ٣٧٨

١- (١). «اسْتَيْقَالَ» من ماده «ثَقَلَ».

٢- (٢). «اسْتَيْطَاءِ» بمعنى المشى الخفيف من ماده «بُطِءَ» على وزن «قطب».

٣- (٣) شرح نهج البلاغه، للعلامة التستري، ج ٨، ص ٥٣٨. وردت هذه القصه في تاريخ يعقوبى، ج ٢، ص ٣٠٦.

٤- (٤). يتصور أحياناً أنّ ضمير في «آمالِهِمْ» وضمائر الجمع التي تأتي بعد ذلك ينبغي أن تعود إلى الرعيه، لوجود ضمائر مشابهه قبل ذلك تعود جميعها عليهم، ولكن القرائن الموجوده في عبارته (كلمه شجاع وناكل) تشير إلى أنّ الجمل تعود إلى المسائل المتعلقة بقاده الجيش. مضافاً إلى ذلك أنّ المرحوم السيد الرضى عندما انتقى هذه الجمل والعبارات، حذف الجمل في الوسط، في حين أنّ هذه الجمله تبين عوده هذه التوصيات إلى قاده الجيش، وجاء في كتاب «تحف العقول» بعد ذكر جملته «انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ»: «ثُمَّ لَا تَكَلَّنْ جُنُودَكَ إِلَى مَعْنَمٍ وَرَزَعْتَهُ بَيْنَهُمْ». (تحف العقول، ص ٨٩).

ويتحدّث الإمام عليه السلام فى سياق كلامه هذا عن التشويق النفسى والمعنوى ويقول:

«وَوَاصِلٌ فِي حُسْنِ التَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذُووُ البَلَاءِ (١) مِنْهُمْ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أفعالِهِمْ تَهْزُؤٌ (٢) الشُّجَاعَ وَتَحَرُّصٌ (٣) النَّاكِلِ (٤) إِنْ شَاءَ اللهُ».

ومعلوم أنّ مسأله تشويق أفراد الجيش اللاتقيين والفعالين سيقع مؤثراً فى تطوير وتفعيل النشاطات الاجتماعيه، وخاصه أنه يحضى فى عالمنا المعاصر بالأهميه القصوى، فاختيار الاستاذ النموذجى، والعامل النموذجى، والمزارع النموذجى، والقاده المثاليين وإعطائهم لوحات التقدير والجوائز الكبيره وذكر أسمائهم فى أجهزه الإعلام العام يدخل كله فى هذا الباب.

والجدير بالذكر أنّ مثل هذا التشويق، كما ذكر الإمام عليه السلام فى كلامه أعلاه، له أثر من جهتين: فمن جهه يحثّ الأفراد اللاتقيين على العمل والفعاليه، ومن جهه أخرى يؤثر على الأفراد الكسالى الذين يرون أنفسهم فى هذا الحال منكسرين فيفكرون فى تغيير سلوكهم وتنشيط أدائهم.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يتابع فى كلامه هذا، أى فى مسأله التشويق، ليتعرض لتوضيح أكثر فى هذا المجال ويقول:

«ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضْمَنْ (٥) بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَاءِهِ».

فى هذه العبارات الثلاث والى تتضمن كلاً واحده منها إشاره نقطه خاصه فى ذات الوقت مكمله للأخرى، يؤكّد الإمام عليه السلام لمالك الأشر أن يكون منتبهاً ومراقباً

ص: ٣٧٩

١- (١). «بلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسطه النعم وأخرى بواسطه المصائب، من هذه الجهه تطلق كلمه بلاء بمعنى النعمه وبمعنى المصيبه أحياناً أخرى، وفى الجمله أعلاه اريد بها كلا المعنيين أى بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء (وهذه المفرده من ماده «بلى يبلو»).

٢- (٢). «تهزؤ» من ماده «هزؤ» على وزن «حظؤ» بمعنى التحريك الشديد والتثوير.

٣- (٣). «تحرصؤ» من ماده «تحريض» بمعنى الترغيب لعمل معين أو لشيء وإيجاد الدافع له.

٤- (٤). «النّاكِل» يعنى الشخص الجبان أو المتكاسل والمتراجع عن العمل، من ماده «نكول» بمعنى الخوف والتراجع.

٥- (٥). «لا تضمّن» من ماده «تضمّن» على وزن «تعهد» بمعنى أخذ الشيء وتحمل مسؤوليته، وفى الجمله أعلاه إشاره إلى أنّك لا ينبغى أن تجعل نقاط قوّه شخص إلى آخر وتضمه إليه.

لأعمال وسلوكيات من هم تحت إمرته ويقدر لهم أتعابهم، فإذا قام أحدهم بعمل مهم فينبغي أن ينسب له ذلك العمل، ومضافاً إلى لزوم معرفه الشخص الجيد والذي يقدم خدمه جليله للجيش، أن يتعرف بدقه على مقدار خدمته أيضاً.

ثم يبين الإمام عليه السلام توصيتين اخريين فى سياق إكمال هذه التوصيات ويقول:

«وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظَمَ مِنْ بَلَاءِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا وَلَا ضَعْفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَضَعِرَ مِنْ بَلَاءِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا».

وبعبارة أخرى أن تنظر إلى العمل نفسه ثم إلى العامل، بخلاف ما هو متداول لدى غالبية الناس أنهم ينظرون إلى العامل أولاً ثم إلى عمله، وهذا الأمر يتسبب فى وقوع الخطأ فى تقييم أعمال الأشخاص.

والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من كتابه لمالك الأشرى يبين فى البدايه الصفات البارزه فى قادة الجيش، ثم يبين التوصيات اللازمه بالنسبه لأفراد الجيش، وبعد ذلك يتحدث عن عامه الرعيه، وفى الختام يتحدث مره أخرى عن المسائل المتعلقة بتشويق وحث قادة الجيش ويبين توصياته المؤكده لهم.

ومن هنا يبدو أن الإمام عليه السلام فى ثنايا البحوث المتعلقة لقاده الجيش وجنوده وبشكل جمله معترضه، يتوجه فى كلامه مخاطباً جميع أفراد المجتمع الإسلامى.

إشارة

وَأَرْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضِلُّعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهْ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» فَالرُّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرُّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرَّقَةِ.

الشرح والتفسير: طرق حل المشكلات

إشارة

فى هذا المقطع من الرسالة بين الإمام عليه السلام وظيفه مالك الأشر فيما يتصل بأحكام الشرع، وكما يقال فى الشبهات الحكيمه وطريق الكشف عن الأحكام الإلهية فى المسائل المتعلقة بالجيش والحرب والصلح وسائر المسائل التى تتصل بشأن الحكومة وإداره البلاد حيث يدعوه الإمام عليه السلام للاجتهاد فى الأحكام الإلهية من خلال استفاده من المنابع الأصلية، لأنه يرى فيه القابلية لمثل هذا الاستنباط الشرعى يقول عليه السلام:

«وَأَرْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضِلُّعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهْ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ».

ثم يستند الإمام عليه السلام إلى الآية الشريفة ويقول:

«فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» (١)».

ص: ٣٨١

ثم يضيف عليه السلام:

«فَالرَّذُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّذُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرَّقَةِ».

وجمله »

ما يُضْمَلُكُمْ» مع الالتفات إلى أنّ «ضَمْعٌ»؛ (على وزن منع) في الأصل تعنى الحمل الثقيل الذى يجعل حامله يميل من هذه الجهة إلى الأخرى، وهذه إشاره إلى أنّ كلّ حكم مشكل ومعقد يواجهه الإنسان لابدّ له لحمله من مراجعه الكتاب والسنة.

وكلمه

«خُطُوبٌ» جمع «خطب» (على وزن ختم) ويعنى الأمر المهم، تطلق على أى نوع من الأعمال، وهذه إشاره إلى أنّ الإنسان المؤمن يجب عليه، سواءً فى الأمور الهامه أم فى الأمور العاديه، الرجوع إلى نصوص الكتاب أو السنة أو العمومات والإطلاقات، فيما لو واجه مشكله فى حكم من الأحكام الشرعيه ويستوحى من النصوص الشريفه الحلول لتلك المشاكل.

وعبارهُ

«أولى الأمر» تعنى أصجاب الاختيار وذوى الشأن، وهذه إشاره إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام ومصداقها البارز فى ذلك الوقت الإمام على عليه السلام نفسه.

وعبارهُ

«مُحْكَمٌ كِتَابِهِ» إشاره إلى محكمات الآيات القرآنيه التى لا شك ولا شبهه فى مفهومها وتفسيرها.

وعبارهُ

«السنة الجامعه غير المفترقه» إشاره إلى الأحاديث النبويه وسيره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المقبوله والمشهوره بين المسلمين ولا يتسبب الأخذ بها الخلاف والفرقه بأى شكل من أشكال.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا لم يتحدّث الإمام عليه السلام عن دليل العقل والإجماع اللذين يعتبران من الأدلّة القطعيّه فى عمليته الاستنباط الفقهيّ فى دائره الأدلّة الأربعة المعروفه؟

والجواب عن هذا السؤال يّين، لأنّ الكتاب والسنة أبدا بصراحه حجّيه دليل العقل وحجّيه الإجماع أيضاً، سواءً قلنا بأنّ الإجماع يعدّ دليلاً مستقلاً أو أنّه يعود إلى السنة وكلام المعصوم.

من هم اولوا الأمر؟

بالنسبة لتفسير «أولوا الأمر» هناك خلاف بين المفسرين، فالمفسرون من أهل السنه يرون أنّ أولى الأمر هم القاده والولاه والحكام فى كل عصر، والعجيب أنّهم لم يقولوا بوجود استثناء من هذه القاعده، وبالتالي يجب على المسلمين اتباع كل شكل من أشكال الحكومه حتى لو كانت حكومه المغول والتر، ولكن بعض المفسرين المتأخرين منهم، الذين يتمتعون بأفق أوسع وذهن أرحب كصاحب تفسير «المنار» و «فى ظلال القرآن»، يعتقدون بأنّ المراد من أولى الأمر هم نواب الشعب والعلماء وأصحاب المناصب الذين لهم دور مهم فى حياه الناس، ولكنهم يشترطون بأن لا يسير هؤلاء بخلاف مقررات الإسلام وأحكامه.

هذا والحال أنّ البعض الآخر يحصر اولوا الأمر بالعلماء والزعماء المعنويين فقط، وذهب آخرون إلى أنّ أولى الأمر هم الخلفاء الأربعة عشر ولازمه عدم وجود اولوا الأمر فى الأزمنه الأخرى.

وذهب بعضهم إلى أنّ الصحابه من أولى الأمر أيضاً، حيث يرد عليه نفس الإشكال والايراد.

ولكنّ المفسرين الشيعة متفقون بأنّ أولى الأمر هم أئمه المعصومين عليهم السلام فقط وهم قاده الخلائق إلى الله فى جميع الأمور الماديه والمعنويه، والدليل على ذلك واضح، وهو أنّ إطاعه أولى الأمر الوارد فى الآيه الشريفه مطلقه، وبديهي أنّ الطاعه المطلقه للشخص الذى يتورط فى الذنب أو الخطأ لا معنى لها، وخاصه أنّ أولى الأمر معطوفه مباشره على رسول الله صلى الله عليه وآله، وجمله «اطيعوا» التى جاءت قبل ذلك تشمل الإطاعه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأولى الأمر على حدّ السواء.

والجدير بالذكر أنّ بعض المفسرين من أهل السنه تحركوا فى هذا المورد من موقع الانصاف واعترفوا بهذه الحقيقه، يقول الفخر الرازى فى تفسيره فى ذيل هذه

الآية: «إِنَّ قَوْلَهُ «وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» يَدُلُّ عِنْدَنَا عَلَى أَنَّ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ حُجَّةٌ وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولَى الْأَمْرِ عَلَى سَبِيلِ الْجُزْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَمَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْجُزْمِ وَالْقَطْعِ لَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا مِنَ الْخَطَا، وَإِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا عَنِ الْخَطَا كَانَ بِتَقْدِيرِ إِقْدَامِهِ عَلَى الْخَطَا يَكُونُ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ اجْتِمَاعَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيَ فِي الْفِعْلِ الْوَاحِدِ بِالْإِعْتِبَارِ الْوَاحِدِ، وَأَنَّهُ مُحَالٌ، فَثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولَى الْأَمْرِ عَلَى سَبِيلِ الْجُزْمِ، وَثَبَتَ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْجُزْمِ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا عَنِ الْخَطَا فَثَبَتَ قَطْعًا أَنَّ أُولَى الْأَمْرِ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، وَبِمَا أَنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ لَمْ يَعْتَقِدْ بَعْضَهُ أَتَمَّهُ أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَقُولُ: «ذَلِكَ الْمَعْصُومُ إِمَّا مَجْمُوعُ الْأُمَّةِ أَوْ بَعْضُ الْأُمَّةِ، لَا جَائِزُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْأُمَّةِ لِأَنَّا بَيْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ طَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَطْعًا (وَهُمُ الْأُمَّةُ)» (١). النَّتِيْجَةُ أَنَّ أُولَى الْأَمْرِ يَقْصُدُ بِهِ الْإِجْمَاعُ!

ولكن الفخر الرازي غفل عن هذه النقطة، وهي أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَقُولُ إِنَّ الْمَسَائِلَ الْمَشْكَلَةَ وَالْمَعْقَدَةَ الَّتِي تَوَاجَهَكُمْ فِي الْحَيَاةِ، عَلَيْكُمْ حَلُّهَا بِوَسْطِهِ إِطَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْمَسَائِلَ مُورَدَ الْإِتْفَاقِ مَحْدُودَةٌ وَمَعْدُودَةٌ وَلَا يُمْكِنُ حَلُّ جَمِيعِ الْمَشْكَلَاتِ عَنْ طَرِيقِ تَحْصِيلِ إِتْفَاقِ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ أَوْ عِلْمَائِهَا، أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمُسْتَفَادَ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَجِبُ أَنْ يَدْعُوا لِحُكُومِهِ أُولَى الْأَمْرِ، وَحُكُومَهُ مَجْمُوعُ الْأُمَّةِ وَإِتْفَاقُهُمْ غَيْرُ مُمْكِنٍ حَتَّى لَوْ اسْتَعْمَدْنَا آلِيَةَ الْإِنْتِخَابَاتِ لِاخْتِيَارِ نَوَّابِ الْأُمَّةِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَقَلَّمَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّفِقَ النَّاسُ عَلَى اخْتِيَارِ هَؤُلَاءِ النُّوَّابِ، وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ فَإِنَّ إِطَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ بِمَعْنَى حُكَّامِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَجَانِبٌ لِلصَّوَابِ.

يبقى سؤال مهم، وهو أَنَّ أُولَى الْأَمْرِ بِمَعْنَى الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ لَمْ يَكُنْ مُوجُودًا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَكَيْفَ أَمَرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِطَاعَتِهِمْ؟

ص: ٣٨٤

١- (١). تفسير الفخر الرازي، ج ١٠، ص ١٤٤، مطبوعه مصر، سنة ١٣٥٧.

والجواب عن هذا السؤال بيّن، لأنّ المخاطبين لهذه الآية ليسوا فقط الأشخاص الذين كانوا في زمن النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله وفي عصر نزول هذه الآية، بل الآية ناظره لجميع الأزمنة والعصور، ولذلك فجميع القاده والحكّام مشمولون لمدلول الآية، وحتى الفخر الرازي الذي يرى أنّ أولى الأمر تعنى إجماع المسلمين، يرى أيضاً أنّ المعيار هو تحقيق الإجماع في كلّ عصر وزمان.

وينبغي القول أنّ المنابع الإسلاميّة، من الشيعة وأهل السنّة، ذكرت روايات عديدة في أنّ المراد من أولى الأمر على بن أبي طالب عليه السلام (بوصفه المصداق الكامل)(1).

ص: ٣٨٥

١- (١) . لمزيد من الاطلاع على هذه الأحاديث انظر: إحقاق الحقّ، ج ٣، ص ٤٢٥ والتفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٩ من سورة النساء.

إشاره

ثُمَّ اخْتَرْنَا لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَاتَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَمَّا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلَمَّا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصِرُ مَنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلَمَّا يَكْتَفِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَفْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقْلَهُمْ تَبَرُّمًا بِمَرَاجِعِهِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ، وَأَصْبَرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّصَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزِدُّهُ إِطْرَاءٌ. وَلَمَّا يَسْتَمِيلُهُ إِعْرَاءٌ وَأَوْلِيَّتِكَ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَكْثَرَ تَعَاهِدَ قَضَائِهِ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبِذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ. وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمَنْزَلِ لِمَدِيَّتِكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ حَاصَّتِكَ، لِئَامَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالِ الرَّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتَطْلُبُ بِهِ الدُّنْيَا.

الشرح والتفسير: يجب أن يتصف القضاة بهذه الصفات الاثني عشر!

يتحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته لمالك الأشر عن موضوع مهم في شأن القضاة، ويجعله بحثاً مستقلاً عن البحوث السابقة، للإشارة إلى مسأله الاستقلال القضائي المتداوله في عالما المعاصر والذى يحضى بأهميته كبيره حيث تكون السلطه القضائيه قوه مستقله فى عرض السلطه التنفيذيه (الحكوميه) والسلطه التشريعيه (البرلمان)، مضافاً إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام ذكر خصائص القضاة بعد ذكر خصائص قاده الجيش مما يوحى إلى أن الجيش الإسلامى يحفظ الأمة فى مقابل

الأجانب، والسلطة القضائيّة تحفظ الأّمه في مقابل المخاصمات والنزاعات الداخليّة، وبعبارة أخرى أنّ أحدهما يؤدّي دور حفظ الأّمه من الخارج، والآخر حفظ الأّمه من الداخل.

بدايه يقول عليه السلام:

«تُمَّ اخْتَرُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعَيْتَكَ فِي نَفْسِكَ».

وهذا التعبير يوحي أنّ الحاكم في مورد اختيار القضاة يجب أن يختار الأفضل والأجدر منهم، لأنّ مسألة القضاء أمر حساس وخطير جدّاً وأنّ الأفضل والأجدر من الجميع هو الذي يستطيع تولى هذا المنصب.

وجمله

«اخْتَرُ» تشير إلى أنّ القضاة لا ينتخبون بآراء الناس، كما هو المتداول في بعض البلدان المعاصره، بل يختارهم القائد والإمام بشكل مباشر أو بواسطة الأفراد الموثوقين، لأنّ مسألة صلاحية القضاة ليست شيئاً يمكن الرجوع فيه إلى آراء الناس للحكم في ذلك.

ثمّ يعدد الإمام عليه السلام اثني عشر صفة لابدّ من توفرها في القاضي، وهذا في الواقع من قبيل التفصيل بعد الاجمال، ويشير إلى من هو الأفضل والأجدر لحيازه هذا المنصب المهم:

١. يقول عليه السلام:

«مِمَّنْ لَاتُضَيَّقُ بِهِ الْأُمُورُ».

وهذه إشاره إلى أنّ معرفه القاضي فيما يتصل بالمسائل المختلفه والقوانين الإسلاميه ومعرفه الموضوعات إلى درجه من التعقيد في كلّ مسألة بحيث ينبغي للقاضي معرفه طريق الحلّ فيها ولا يواجه مشكله في هذا الأمر، وبعبارة أخرى أن يكون عارفاً بأحكام الشرع من جهه، وله معرفه في تشخيص الموضوعات أيضاً من جهه أخرى، ليستطيع ردّ الفروع على الأصول واستنباط الفروع من الأصول، وهذه الصفة لا توجد إلّا في المجتهدين المبرزين.

٢. ويقول عليه السلام في بيان الصفة الثانيه:

«وَلَا تُمَحِّكُهُ (١) الْخُصُومُ».

ص: ٣٨٨

١- (١). «تُمَحِّكُهُ» من ماده «مَحَكَ» على وزن «مَكَر» بمعنى اللجاجه والعناد والتعدي.

يعنى أن يملك من سعه الصدر بحيث لو تنازع المتخاصمين فى مجلسه وارتفعت أصواتهم فلا يثيره ذلك ولا يخرج به عن حد الاعتدال، بل يصدر الحكم الإلهى العادل فى حقهما مهما كانا شرسين وعدمى الإدب.

٣. ويقول الإمام عليه السلام فى بيان الصفه الثالثه للقضاه الموثوقين واللائقين:

«وَلَا يَتَمَادَى (١) فِي الزَّلَّةِ».

ومعلوم أن الشخص اللجوج والمعاند عندما يرتكب خطأ ويلتفت إلى هذا الخطأ لا يجد فى نفسه استعداداً للاعتراف بهذا الخطأ وتغيير مساره والعوده إلى الصراط المستقيم، وهذا بدوره يتسبب فى أن يصدر أحكاماً جائره وغير واقعیه، وهو من الظلم المتعمد وغير القابل للمغفره.

ويتحدث القرآن الكريم عن جماعه من الكفار: «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (٢).

وكثيراً من يؤثر العناد والتعصب فى فكر الإنسان إلى درجه أنه يرى الباطل حقاً والحق باطلاً، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام:

«اللَّجَاجُ يُفْسِدُ الرَّأْيَ» (٣) ويقول فى مورد آخر:

«اللَّجَاجُ أَكْثَرُ الْأَشْيَاءِ مَضَرَّةً فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ» (٤).

٤. ويقول عليه السلام فى بيان الصفه الرابعه:

«وَلَا يَخْصُرُ (٥) مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ».

وهذه الصفه فى الحقيقه وجه آخر لعدم العناد واللجاج، وبعباره أخرى هى نتيجه لها، فالإنسان إذا لم يتحرك فى خط اللجاج والعناد وتبين له الحق فى المسأله فإنه

ص: ٣٨٩

١- (١). «يَتَمَادَى» من ماده «تمادى» ومن ماده «مدى» على وزن «دوا» ويعنى الاستمرار والدوام والإصرار على عمل شىء.

٢- (٢). سوره المؤمنون، الآيه ٧٥.

٣- (٣). غرر الحكم، ص ٦٥، ح ٨٥٣.

٤- (٤). المصدر السابق، ص ٤٦٣، ح ١٠٦٤٠.

٥- (٥). «لايخصر» من ماده «حصر» على وزن «نصر» ويعنى الوقوع فى مضيقه، وكثيراً ما تطلق على التوقف والعجز عن الاستمرار فى الكلام، وفى العبارة وردت بكلا المعنيين.

سيعود إليه بكل سهوله ويصلح جميع تداعيات الخطأ الذي اقترفه، وبعبارة أخرى هو الشخص الذي يملك الشجاعه للاعتراف بخطئه وإصلاح هذا الخطأ والاشتباه، ومثل هذه الشجاعه تعتبر من أهم أغصان الفضيله الإنسانيه.

٥. قوله عليه السلام:

«وَلَا تُشْرِفْ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ».

وبدیهى أن القاضى إذا كان يعيش حالات الطمع، حتى فى أدنى مستوياته فبالإمكان إغوائه بسهوله عن طريق تقديم الرشوه وبالتالي منعه من إصدار الحكم بما يتفق مع الحق فى الحكم.

ونقرأ فى حديث شريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام:

«رَأْسُ الْوَرَعِ تَزَكُّ الطَّمَعِ» (١).

ونقرأ أيضاً فى الكلمات القصار لأميرالمؤمنين عليه السلام:

«أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ» (٢).

وبيان آخر، مع الالتفات إلى أن الإشراف يعنى النظر إلى الشىء من جهه العلو فهذا الكلام من الإمام عليه السلام يشير إلى أن الإنسان الطامع من شأنه أن يسقط من ذروه الفضيله إلى هوه الرذيله.

٦. قوله عليه السلام:

«وَلَا يَكْتَفِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاءَ».

وهذه إشاره إلى أن القاضى ينبغى، فى مجال فهم المسائل، أن يملك من سعه الصدر بحيث يحيط بجميع جوانب المسأله، سواءً فى الشبهات الحكميه أم فى الشبهات الموضوعيه، ويحقق فى شروط المتخصصين الذين حضرا عنده فى القضاء والحكم بينهما، ثم بعد ذلك يصدر حكمه من موقع الوضوح فى الرؤيه.

٧. يقول عليه السلام:

«وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ».

ونعلم، كما ورد فى الحديث النبوى المعروف، أن الأمور على ثلاثه أنحاء: فمنها ما يكون الحق فيها جلياً، والآخر ما يكون الباطل فيها جلياً، ولكن القسم الثالث هو

- ١- (١) . غرر الحكم، ص ٢٧٢، ح ٥٩٥٤.
- ٢- (٢) . نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢١٩.

الشبهات، يعنى الأمور التى لا يتسنى للإنسان الاحاطه بها بسهولة، ففى مثل هذه الموارد يجب أخذ جانب الاحتياط، والشخص الذى يتحرك فى وادى الشبهات فسوق يقوده ذلك إلى دورب المحرمات والغرق فى المتاهات، والشخص الذى يجتنب الشبهات فإنه يترك المحرمات الواقعيه بشكل أفضل ويجتنبها.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«حَلَالٌ بَيْنَ وَحَرَامٍ بَيْنَ وَشُبُهَاتٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ نَجَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ أَخَذَ بِالشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ» (١).

وهذا الكلام لا يعنى أن القاضى يمتنع من إصدار الحكم لأن وظيفته الشرعيه فصل الخصومه وانهاء النزاع، بل المراد أن يتوقف ويحتاط ويدرس جميع جوانب المسأله ويزيل ظلمه الشبهات بنور العلم والمعرفه، وأحياناً يقوم بمصالحه طرفى النزاع فيما تدعوه مواقف الاحتياط.

٨. يقول عليه السلام:

«وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ».

إن أهم عمل القاضى التحقيق فى أدله الطرفين، فأخذ بالأدله القويه والمقبوله، ويمتنع عن قبول الأدله الضعيفه والمهزوزه.

ويحتمل أيضاً أن مراده من هذه الجمله أن القاضى يجب أن يتحرك أكثر من أى شخص آخر فى البحث عن الدليل، بمعنى أنه أحياناً لا يوجد أى دليل حسب الظاهر فى المسأله مورد الخصومه ليبيّن الحق فى المسأله، ولكن القاضى يستطيع ومن خلال البحث والتدقيق فى زوايا القضيّه، أن يعثر على أدله قويه لكشف الحق من الباطل، كما هو الحال فى الكثير من قضاء أميرالمؤمنين عليه السلام، إذ أن الإمام عليه السلام ومن خلال استخدام أساليب نفسيه يستطيع إمّا فى أخذ الاعتراف والإقرار من المجرم، وإمّا أن يتوفر له العلم من مجمل القرائن والشواهد المتوفره، مثلاً فى قضه اختلاف امرأتين على طفل واحد، وإصرار كل واحد منهما على أن هذا الطفل هو ابنها،

ص: ٣٩١

فحسب القاعده يجب على القاضى فى هذا المورد اللجوء إلى القرعه للفصل بينهما، ولكن الإمام عليه السلام تحرك على مستوى البحث عن الأدله، فأمر بأن يأتوا له بالسيف وقال: سوف أشق هذا الولد إلى نصفين، فكل واحده منكما تأخذ نصفاً من هذا الطفل، فصاحت الأم الحقيقه بأنى تنازلت عن حقى فادفعوا هذا الطفل إلى المرأه الأخرى، فعرف الإمام عليه السلام بهذه الطريقه المدعى الحقيقى من الكاذب، وهناك الكثير من هذه الأمثله فى قضايا أمير المؤمنين عليه السلام وقضائه (١).

٩. وقوله عليه السلام:

«وَأَقْلَهُمْ تَبْرُماً (٢) بِمُرَاجَعِهِ الْخَصْمِ».

فى الكثير من الحالات يكون لكل واحد من الطرفين المتخاصمين أدله وشواهد عديده ويطحها بالتالى على القاضى مما يسبب له إزعاجاً وإرهاقاً، وإذا كان القاضى ضيق الصدر وسريع الانفعال فسيقوم بطردهما، وما أكثر الأدله الواقعيه التى تبقى طى الكتمان بهذا العمل، ولكن إذا كان يملك سعه الصدر ولا ينفعل بسهولة فإنه يستطيع إعادته الحق إلى أهله.

يجب على القاضى أن يمنح طرفى النزاع مقداراً كافياً من الوقت ليبيّن له ما أمكنهما من الشواهد والأدله لإثبات الدعوى.

١٠. وقوله عليه السلام:

«وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشِيفِ الْأُمُورِ».

وبديهى أنّ القاضى لو كان عجولاً ومتسرعاً فسوف لا تتضح لديه حقيقه الأمر وبخاصّه فى الدعاوى المعقده، ولكن إذا كان يتحلّى بالصبر والتريث ولا يصدر حكمه النهائى بسرعه، فإنه يستطيع بشكل أفضل أن يكشف الستار عن وجه الحق فى المسأله، وهذا الكلام لا- يعنى أنّ الملفات القضائيه، كما هو الحال فى زماننا، يتم تأخيرها إلى أيام وشهور عديده بحجّه التحقيق فى الملف، وأحياناً يتأخر الحكم

ص: ٣٩٢

١- (١). وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ٢١٢، ح ١١؛ بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٢٥٢، ح ٢٦، ولاطلاع أكثر انظر: وسائل الشيعه، ج ١٨، كتاب القضاء الباب ٢١.

٢- (٢). «تَبْرُماً» من ماده «برم» فى الأصل بمعنى حياكه الحبل وأمثاله، ثم اطلقت على كلّ شىء يشير التعب والملل، وفى العبارة إعلان وردت بمعنى الانزعاج الشديد والتعب.

فى قضيه معينه لسنوات عديده، وخاصه إذا قام المحامون بوضع العصى لإعاقه عجله الحكم، فأحياناً وبذريعه بسيطه يتم تأخير إصدار الحكم فى القضيه فى الحكم.

١١. قوله عليه السلام:

«وَأَصْرَمَهُمْ (١) عِنْدَ اتِّصَاحِ الْحُكْمِ».

وهذه إشاره إلى أنّ الاحتياط الذى يمارسه القاضى والصبر فى مقابل بيان حجج الطرفين والتحقيق فى الأدله لا يعنى أنه سيتردد فى مقام إنشاء الحكم وبيتلى بالوساوس ويوكل إنشاء الحكم إلى غدٍ وبعد غد، بل ينبغى أن يكون كالسيف الصارم فى الحزم وفصل الخصومه بإنشاء الحكم القاطع ولا يفكر بتداعياته وآثاره فيما بعد، لأنّ إنشاء الحكم عاده يقع بنفع أحد الطرفين ويؤدى بالتالى إلى امتعاض الطرف الآخر وعدم رضاه وسيلجأ للمحامين والأصدقاء وأحياناً للقبيله والطائفه لفرض رأيه على القاضى، وهذه المسأله من اللوازم الطبيعيه للقضاء، ومن يفكر فى هذه الأمور ويتحرك على مستوى الاحتياط فى إصدار الحكم لا ينبغى أن يجلس على كرسى القضاء.

١٢. وفى آخر صفه من الصفات القاضى اللاتق يقول الإمام عليه السلام:

«مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ (٢) إِطْرَاءُ (٣) وَلَا يَسْتَمِيلُهُ (٤) إِغْرَاءُ (٥)».

وغير خفى عن البيان أنّ الأشخاص المغرورين والمعجبين بأنفسهم عندما يسمعون عبارات المدح والثناء والتمجيد من قبل البعض تجاههم، فربما ينحرفون عن مسير الحقّ ويؤثر حبّ الذات فى ميلهم إلى جهه المداحين، وبسبب هذه العلاقه النفسيه يحكم هذا القاضى بما يصبّ فى نفع هذا الشخص ظلماً وعدواناً، وهنا يؤكّد

ص: ٣٩٣

١- (١). «أَصْرَمَ» من ماده «صرم» على وزن «سرد» بمعنى قطع الشىء، وتأتى أحياناً للقطع المعنوى والقاطعيه والحزم فى إداره الأمور.

٢- (٢). «يَزْدَهِيهِ» من ماده «إزدهاء» ويعنى العجب والغرور والأنانيه.

٣- (٣). «إِطْرَاءُ» بمعنى المدح والثناء الكثير والتبجيل.

٤- (٤). «يَسْتَمِيلُهُ» من ماده «استماله» بمعنى جذب الشخص أو الشىء نحوه.

٥- (٥). «إِغْرَاءُ» فى الأصل بمعنى الصاق شىء بشىء آخر، ثم استخدمت بمعنى التشويق والتحريك لإنجاز لعمل معين، وفى الجمله أعلاه وردت بمعنى التشويق الكثير.

الإمام عليه السلام أنّ مثل هؤلاء الأشخاص ليسوا جديرين بمنصب القضاء بين المسلمين حتى لو توفرت فيهم الصفات الأخرى.

ثم إنّ الإمام عليه السلام بعد أن ذكر هذه الصفات الإثني عشر، التي كلّ واحد منها أهم من الأخرى، يتوجه نحو القضاء الذين يستطيعون، عند مواجهه أعقد المسائل وأصعب الملفات، من تشخيص الحقّ من الباطل بكل شجاعه وفطنه ويحكمون وفق ما توفر لديهم من أدلّه وشواهد ويعيد الحقّ إلى صاحبه حتى لو كان من أضعف الأفراد في المجتمع، وكان مخالفه من أقوى الأفراد، وطبعاً كما قال الإمام عليه السلام في نهايه حديثه عن هذه الصفات:

«وَأَوْلَيْكَ قَلِيلٌ».

ولكن المهم للوالى أن يدرس جميع جوانب المسأله بصبر وأناة وللعثور على هذا القليل ممّن تتوفر فيهم هذه الشروط من بين المرشحين لهذا المنصب ووضعه على كرسى القضاء بين المسلمين.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام خصوصيات وصفات القاضى اللائق، تحدّث عن وظائف الوالى فى مقابل هؤلاء القضاة ويأمره بثلاثه أوامر مهمه جداً.

بدايه يقول عليه السلام:

«ثُمَّ أَكْثَرُ تَعَاهُدٍ (١) قَضَائِهِ»، وهذه إشاره أنه مهما كان هؤلاء القضاة واجدين لهذه الصفات ومورد الاعتماد، فمع ذلك وبما أنّ مسأله القضاء مهمه جداً وربّما يبتلى القاضى بالخطأ والزيف أو الانحراف، فمن الضرورى أن ترسل بعض المفتشين ليحققوا فى الأحكام القضائيه الصادره عنهم، أو تتولى هذه المسأله بنفسه وتحقق عن كذب فى بعض الأحكام القضائيه لهم، ومثل هذا العمل يمنح القاضى قوه فى التزامه الواعى بقيم العدالة.

طبعاً فإنّ هذا الكلام لا- يعنى وجود مسأله الاستئناف والتميز فى نظام القضاء الإسلامى بل بمعنى أنّ الوالى لو عثر على خطأ مسلّم فى الحكم وجب عليه ابطاله وتجري إعاده التحقيق مرّه أخرى.

ص: ٣٩٤

١- (١). «تَعَاهُدٌ» بمعنى التحقيق والدراسه وقد ورد ذكر هذه المفرده فيما سبقها من الصفحات.

وفى التوصيه الثانيه يقول عليه السلام:

«وَأَفْسَحْ لَهُ فِي الْبُذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ».

وهذه إشاره إلى أن أحد عوامل الفساد فى السلطه القضائيه، قلّه الحقوق المائيه للقضاء والموظفين فى الجهاز القضائى، فينبغى أن يضع الوالى لهم مخصصات ورواتب شهريه كبيره ليتنسى لهم العيش بشكل معقول وشريف ولا يفكروا بعد ذلك بقبول الرشوه.

يقال إن فى بعض البلدان فى هذا العصر يصدرن صكاً أيضاً ويسلموه للقضاء ليكتبوا فيه أى رقم يريدونه لتمرير المسأله لصالحهم.

وهذا الكلام، سواء كان صحيحاً أو مبالغ فيه أو كان كاذباً يعكس لنا هذه الحقيقه، وهى أن القاضى يجب أن يكون له نصيب من بيت المال يتناسب مع حياته ومعيشته.

والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام بالنسبه لمسأله تأمين الحقوق المائيه لضمان معيشه محترمه، سواء بالنسبه للقضاء أم بالنسبه لقاده الجيش كما تقدم سابقاً، يبرز الإمام عليه السلام حساسيه شديده تجاه هذه المسأله، فصحيح أن جميع الموظفين والمسؤولين وحتى أفراد الجهاز القضائى وأفراد الجيش الإسلامى يجب أن تتوفر لهم معيشه كافيه، ولكن تأكيد الإمام عليه السلام على هاتين الفئتين بالخصوص يشير إلى لزوم الاهتمام أكثر بأعمال هاتين الفئتين من أجل حفظ الحدود والثغور وكذلك من أجل حفظ حقوق الناس.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام للتوصيه الثالثه ويقول:

«وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِئَامَنَ بِدَلِكِ اغْتِيَالِ (١) الرَّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ».

وهذه النقطه مهمه، وهى أن القاضى يجب أن يعيش الحريه الكامله فى إنشاء الحكم العادل ولا- ينبغى أن يخضع تحت آيه ضغوط اجتماعيه وفئويه، وهذا لا يتسنى إلا إذا كان القاضى أقرب الناس إلى الوالى والقائد، لأنه لو كان هناك أفراد

ص: ٣٩٥

١- (١). «اغْتِيَال» فى الأصل بمعنى إغفال الشخص الإضرار به، وأحياناً تطلق على القتل غدرًا، وفى العبارة أعلاه وردت بالمعنى الأول.

أقرب منه إلى الوالى، فسوف لا- يشعر القاضى بالأمن من حكمه وقضائه، فربما يتوجه الخصم إلى حاشيه السلطان ويسعى فى تشويه سمعه القاضى لديه فيضطر القاضى إلى إصدار حكمه وفقاً لما يريده الخصم، وبعبارة أخرى يجب أن يكون القضاء مصونين من كل جهه ليحفظوا لهم استقلالهم القضائى.

وبعد هذه التوصيات الثلاث يقول الإمام عليه السلام مؤكداً:

«فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا».

وكلمه

«ذَلِكَ» ربّما تشير إلى التوصيه الأخيره أو إلى التوصيات الثلاث بل حتى إلى الصفات الاثنى عشر للقاضى، بمعنى ينبغي أن تنظر بدقه فى اختيار القضاء وكذلك فى التحقيق فى أعمالهم ورفع حاجاتهم وضمان حريتهم فى ممارسه دورهم القضائى.

وفى نهايه هذا المقطع من الكلام يتجه الإمام عليه السلام لذكر الدليل على كل هذه التأكيدات التى سبق ذكرها، ويقول:

«فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطَلَّبُ بِهِ الدُّنْيَا».

ومعلوم أنّ هذا الكلام يشير إلى زمان الخليفه الثالث عثمان حيث أمسك بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين من بنى اميه وبنى مروان زمام السلطه والقدرة ونهبوا أموال بيت المال ولم تكن مسأله حفظ الإسلام والرساله الإلهيه مطروحه فى قاموسهم.

أمّا أنّ الفساد الإدارى والمالى فى زمن عثمان قد امتد بشكل واسع فى تفاصيل وأبعاد الحكومه فلا يشك أحد من المؤرخين فى ذلك، غايه الأمر أنّ بعض علماء أهل السنّه ومن أجل حفظ مكانه عثمان قالوا: كان رجلاً ضعيفاً لم يتمكن من السيطرة على هذه الجماعه الشريره وبالتالى فلت زمام الأمور من يديه وتولى رجال بنى اميه الحكم، ومن هنا فهو معذور!! وأمّا الكلام فى معقوليه مثل هذا العذر، فهى مسأله أخرى.

وقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه الشقشقيه إلى هذه المسأله حيث قال:

«وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَعُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ».

ص: ٣٩٤

ملاحظه: قمنا بتقسيم عهد مالك الأشتر رحمه الله التاريخى إلى ثلاثين مقطعاً، تحدّثنا عن ١٥ مقطعاً منها فى الجزء العاشر، وسيأتى الكلام عن ١٥ مقطع آخر فى الجزء الحادى عشر، وذلك لحفظ التعادل فى صفحات الكتاب.

ولا يسعنى فى هنا إلّا أن نذكر صديقنا العزيز المرحوم حجّه الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ محمّد جعفر الإمامى الذى واكبنا إلى آخر لحظه ثمّ وافاه الأجل ولبى دعوه الحقّ وانتقل إلى رحمه الله الواسعه، وكذلك الصديق الوفى المرحوم حجّه الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادرى حيث انتقل إلى رحمه قبل فتره وجيزه، وكان المرحومين من المخلصين والملتزمين والمؤمنين وباحثين ومحققين جادين فى عملهما وعالمين عاملين، فبقيت ذكرياتهم فى خواطرننا ولا ننساهم إن شاء الله، ونسأل الله الغفور الرحيم أن يجعلهما فى غريق رحمته الواسعه.

اللهم! لك الحمد ولك الشكر على هذه النعمه العظيمه أن وفقتنا لإكمال هذا المشروع المبارك وإدامه شرح نهج البلاغه حتى أتممنا الجزء العاشر منه ببركه مولى الموحدين - عليه آلاف التحية والثناء - وقريباً سنقدم للقراء الأعرّاء الجزء الحادى عشر منه، والذى به ينتهى قسم الكتب والرسائل فى نهج البلاغه، وفى القريب العاجل سنقدم للطبع الأجزاء الخاصّه بشرح وتفسير الكلمات القصار للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبذلك يكتمل هذا الشرح الجامع فى أربعة عشر جزءاً (بحول الله وقوّته وبمنّه وكرمه).

نهايه الجزء العاشر

ربيع الأول ١٤٣١ هـ - ٢٠٠٩ م

ص: ٣٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية

WWW

للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩